

مِثْلُ الْمَاءِ الْيَمِينِ

فِي تَوَالِيهِ الْأَعْيَانِ

تصنيف

تَحْقِيقُ الْبَيْتِ الْأَيْدِي وَالنَّفْسِ وَالْمُسْتَوْدِعِ بِرَبِّهِ قَوْلُ الْوَعْدِ بِرَبِّهِ وَاللَّهِ
وَالْعَرُوفِ بِسَبِيحِ الْبَيْتِ الْيَمِينِ

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الأول

حَقَّقَهُ هَذَا الْبَيْتُ وَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ

مُحَمَّدُ بْنُ كَامِلٍ دِينِي الْكَلَامُ فِي الْبَيْتِ مُحَمَّدُ بْنُ كَامِلٍ دِينِي

الرسالة العالمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

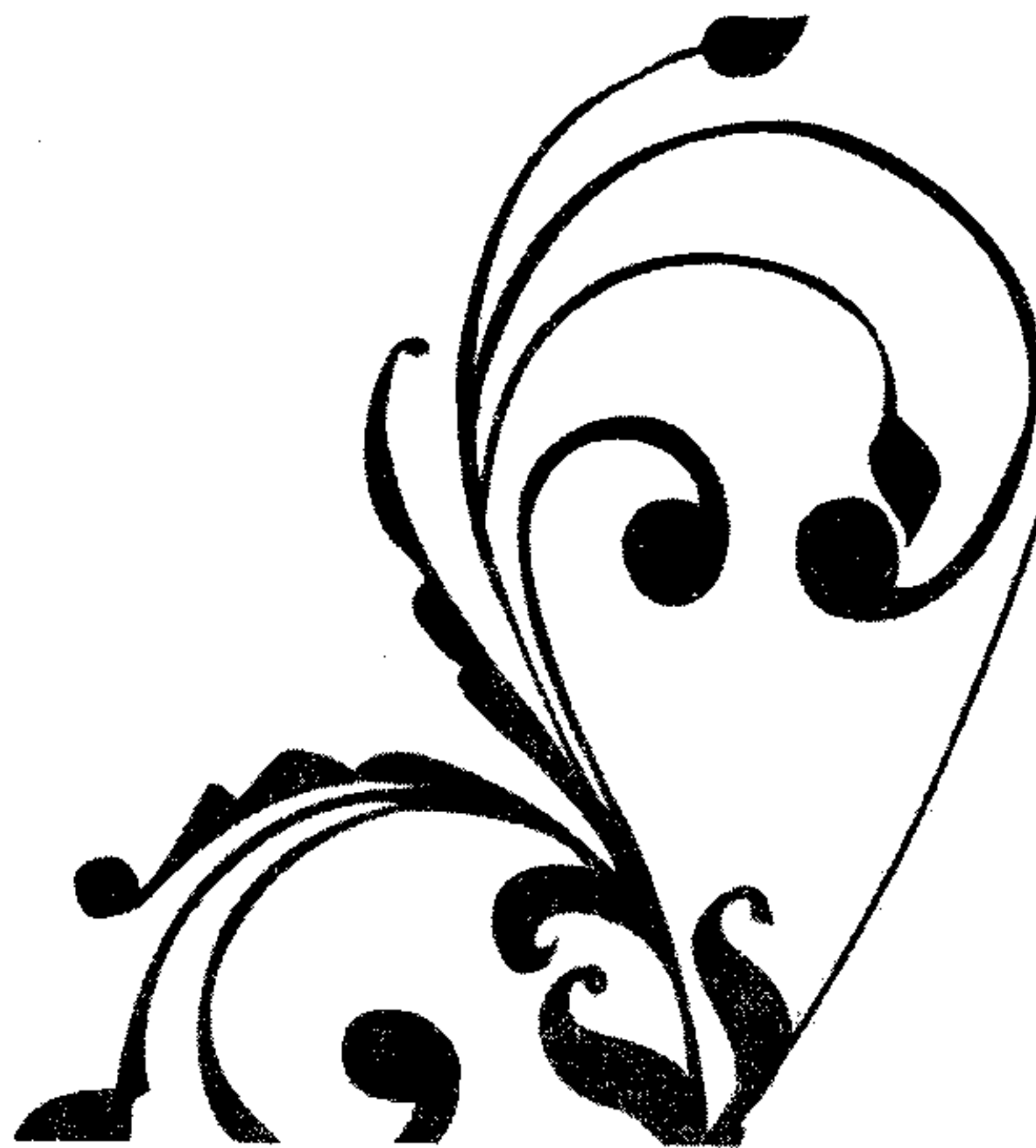
مِثْلُ الْيَمَانِ
فِي تَوَارِخِ الْأَعْيَانِ

①

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ



دار الرسالة العالمية

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بجميع طرق
الطبع والتطوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي من

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Risalah Al-'Alamiyah Co.
Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء حولي وصلاحى

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلَى اللَّهِ عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الحمد لله الواحد القديم المنان، الماجد العظيم الديان، الدائم لا إلى حدٍّ وأوان، القائم وكلُّ من عليها فان، الواجب الوجود وما سواه جائز الإمكان، كتب بأقلام الأحكام في ألواح الأرواح آيات التوحيد والإيمان، وأوقد قناديل القلوب بمصابيح التوفيق والامتنان، واختصَّ من شاء من خلقه بتكميل العقول وتصفية الأذهان، وبعث الرسل بالدلائل الواضحة والبرهان، لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد النبيين المبعوثين في كل عصر وأوان، ووعد وأوعد ولا بدَّ من وفاء الضمان، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، أحمده إذ أنعم وصال، عدد الأوراق والأغصان، وأصلي على رسوله محمد المبعوث إلى الإنس والجان، الذي ضربت أطناب سُرادات نصره في بيدااء الدنيا، فانشقَّ من هيبتة الإيوان، فصلَّى الله عليه صلاةً مقرونةً بالرضا والرضوان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، ما حدَّق إنسانُ إنسان، وسلم تسليماً كثيراً يدوم بدوام الأزمان.

فصل

وبعد فإن الفطر السليمة، والفكر المستقيمة، تستشرف إلى معرفة البدايات، وتشرئبُ إلى إدراك المنشآت، ومَن تدبَّر مجاري الأقدار، ومبادي^(١) الليل والنهار، صار كأنه عاصر تلك العصور، وباشر تلك الأمور، وإليه وقعت الإشارة الإلهية، والأمانة الربانية، إلى مَنْ رَبَّأ نِيَّةً^(٢) بقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

(١) في (ط): «مساري».

(٢) رسمت في (ل): «رَبَّ نِيَّةً»، وفي (ب) غير مقروءة، والذي في المطبوع: ربانية، والعبارة غامضة، وقد نقل كلام السبط السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» ص ٤٨ وكتب بدلها: «إلى سيد الأولين والآخرين».

وقال سبحانه في كتابه المجيد: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]. في آيات كثيرة وإشارات^(١) غزيرة. فالله تعالى مَنْ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بما قَصَّ عليه من أخبار الأمم في سالف الدهور والأعوام.

فصل

ومقاصد الناس في ذلك تختلف، على ما قد أُلِفَ، منهم مَنْ يُوَثِّرُ مطالعة سير القدماء والحكماء، ومنهم من يميل إلى سماع أنباء الأنبياء والخلفاء والملوك والوزراء والأدباء والشعراء، ومنهم من يختار النظر في سير الفضلاء والزهاد والعباد والصلحاء، ومنهم مَنْ مَقْصُودُهُ الوقوفُ على سيرة حازم ليستفيد منها حُسن التدبير، أو على آثار مُفَرِّطٍ^(٢) ليحذّر من مثلها كلُّ التحذير، وهذا حرف المسألة في معرفة السير، لمن فهم المعنى وخبر الخبر.

ولما كان الغالب على التواريخ جمع الغث والسمين، والواهي والمتين، والتكرار الخالي عن الفوائد والفرائد التي يعجز عن جمعها ألفُ رائد، استخرت الله تعالى في تحرير هذا الكتاب، المشتمل على ما أشرتُ إليه من فصول الخطاب، وفنون العلوم والآداب، والسيرة والأنساب، ولو مددت فيه أطنابَ الإطناب، وأسباب الإسهاب، لانقطع سير السرى وكلُّ الرُّكاب، وخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولم يُظَلِّ فيمَلَّ.

وشرطه: أن أبتدئ بما ذكرت في تراجم الأبواب، من أن [في] خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب. ثم أتبع ذلك من سيرة نبينا ﷺ بالحوادث في كل عام، ومن توفي من الأعيان والأعلام، وبداية التاريخ بالسنين، من مولد سيد المرسلين، وقلدت مَنْ سَلَفَ مِنَ السَّلَفِ في الجرح والتعديل، لأنه لا يتوقف على الدليل، وسميته: «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان»، ليكون اسماً يوافق مسماه، ولفظاً يطابق معناه.

وقبل الشروع فيه لابد من ذكر فصول، تكون لتقرير قواعده كالأصول:

(١) في (ب): «آيات».

(٢) في (ب): «مقصر».

- الفصل الأول: في معرفة التاريخ، وهل فرقت العرب بينه وبين التورينخ.
الفصل الثاني: في عيون التواريخ والآثار وأسانيد الأخبار.
الفصل الثالث: في انقضاء مدة العالم وما تقدم من السنين وتقادم.
الفصل الرابع: فيما ينبغي للمؤلف استعماله من الكلام المتسق النظام.
الفصل الخامس: في تراجم الأبواب^(١).



(١) اقتصر مختصر الكتاب قطب الدين اليونيني على الفصل الأول والثالث، وحذف بقية الفصول.

الفصل الأول في معرفة التاريخ

قرأت على شيخنا العلامة أبي اليمُن زيد بن الحسن بن زيد الكندي اللغوي رحمه الله تعالى بدمشق في شهر سنة أربع وستمئة كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي» تأليف شيخه أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المعروف بابن الجواليقي، وقرأت عليه الكتاب جميعه، وقرأه على مصنفه، قال: يقال: إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربيٍّ محض، وإنَّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرَّخ من سنة الهجرة، كُتب في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فصار تأريخاً إلى اليوم^(١).

وقال أبو نصر الجوهري في «الصحاح»: التأريخ تعريف الوقت، والتورِخ^(٢) مثله، وأرَّختُ الكتاب بيوم كذا، وورَّخته بمعنى، قال: والإِراخُ بقر الوحش^(٣). رواه بالكسر. قلت: وقد فرَّق الأصمعي بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون: ورَّختُ الكتاب تورِخاً، وقيس تقول: أرخته تأريخاً^(٤). وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب «الخراج» له: إنَّ تاريخَ كُلِّ شيءٍ آخره، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة^(٥).

(١) «المعرب»: ص ١٣٧. وقد اقتبس هذا الفصل الدواداري في «كنز الدرر»: ٩٢/١-٩٣.

(٢) في (ب) و(ل): والتعريف، والمثبت من مطبوعة الدكتور إحسان عباس وأشرنا إليها بـ(ط).

(٣) «الصحاح»: (أرخ).

(٤) انظر «الإعلان بالتوبيخ» ص ١٧، و«أدب الكتاب» للصولي ص ١٧٨.

(٥) هذا النص مما خرم من كتاب «الخراج». وقد نقله عن قدامة ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ١٠/١

(مصورة دار البشير).

وقال ابن عباس: قد ذكر الله التاريخ في كتابه فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. حدثنا عبد الوهاب المقرئ بإسناده عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان على حال واحد؟ فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في دينهم وصومهم وفطرمهم، وعدة نساءهم، والشروط التي تنتهي إلى أجل معلوم^(١). وقال قتادة في تفسير الآية: جعلها الله تعالى مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وحجهم ومناسكهم وعدة نساءهم وغير ذلك، والله أعلم بما يصلح خلقه^(٢).

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: ذكّر الهلال عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تصوموا حتى تروه، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً ثم صوموا»، أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

واختلفوا في مبدأ التاريخ على أقوال:

أحدها: حدثنا جدّي، حدثنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي بإسناده إلى عبد العزيز بن عمران قال، قال عامر الشعبي: لما كثر بنو آدم عليه السلام في الأرض وانتشروا أرخوا من هبوط آدم، فكان التاريخ إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم إلى زمان يوسف عليه السلام، ثم إلى خروج موسى عليه السلام من مصر ببني إسرائيل، ثم إلى زمان داود عليه السلام، ثم إلى زمان سليمان عليه السلام، ثم إلى زمان عيسى^(٤). وقد رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس.

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٠/١، وانظر «كنز الدرر»: ٩٣/١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره»: ١٨٥/٢.

(٣) أحمد في «مسنده» (٤٤٨٨)، والبخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠)، ولفظه عندهم بغير هذا السياق.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٥/١، وانظر «عمدة القاري» ٦٦/١٧، و«الإعلان بالتويخ» ص ١٣٦.

والثاني: أن التاريخ كان من آدم إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم أرّخ بنو إسماعيل من بناء البيت، ثم إلى معدّ بن عدنان، ثم إلى كعب بن لؤي، ثم من كعب إلى عام الفيل؛ قاله الواقدي.

والقول الثالث: أن حمير تؤرخ بالتبابعة، وغسان بالسُد، وأهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس؛ ثم أرّخت العرب بالأيام المشهورة، كحرب البسوس وداحس والغبراء، ويوم ذي قار، والفجارين^(١) ونحوه، وبين حرب البسوس ومبعث نبينا ﷺ ستون سنة. حكاه محمد بن سعد عن ابن الكلبي.

والرابع^(٢): أن الفرس أرّخت بأربع طبقات من ملوكها، فالأول: بكيومرت وقيل: طهمورث بالطاء، ويقال له: «كل شاه» ومعناه ملك الطين، ويعتقدون أنه آدم، والثاني: بيزدجرد، والثالث: أردشير بن بابك، والرابع: بأنو شروان العادل. حكاه هشام بن الكلبي عن أبيه.

قال: وأما الروم فأرّخت بقتل دارا بن دارا إلى ظهور الفرس عليهم. وأما القبط فأرّخت ببختنصر إلى قلابرة صاحبة مصر، وأما اليهود فأرّخت بخراب بيت المقدس.

وأما النصارى فبرفع المسيح عليه السلام.

وقال أبو معشر^(٣): التواريخ أكثرها مدخول، والفساد يعتريها من أجل أنه يأتي

(١) في (ب) و(ط): «الفجار»

(٢) انظر «الإعلان بالتوبيخ»: ص ١٣٧.

(٣) هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، المنجم المشهور، كان إمام وقته، وكان من أصحاب الحديث، ثم تحول إلى علوم الحساب والهندسة، ثم عدل إلى علم أحكام النجوم، وكان عمره (٤٧) سنة، وتوفي وقد جاوز المئة، وكان فاضلاً حسن الإصابة، ضربه المستعين أسواطاً لأنه أصاب في شيء، فكان يقول: أصبت فعوقبت (ت ٢٧٢هـ)، من تصانيفه: «الزيج» و«مواليد الرجال والنساء». انظر ترجمته في «الفهرست» ص ٣٣٥، و«وفيات الأعيان» ١/٣٥٨.

على سني أمة من الأمم زمان من الأزمنة، وتطول أيامه، فإذا نقلوه من كتاب إلى كتاب أو من لسان إلى لسان يقع فيه الغلط، إما بالزيادة فيه أو النقصان منه، كالغلط الذي وقع بين آدم ونوح والأنبياء في السنين، فإن اليهود قد اختلفوا في ذلك اختلافاً متفاوتاً، وكذا ما وقع في تواريخ الفرس مع اتصال ملكهم إلى أن زال، في تخليط كثير.

والدليل على صحة ما ذكر أبو معشر قوله ﷺ: «لا تجاوزوا عدنان، كذب النسابون»^(١). وسنذكر الحديث في سيرته ﷺ^(٢).

قلت: وهذا الذي أشرنا إليه يتعلق بالجاهلية، فأما في الإسلام فقد اختلفت الروايات، فروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر^(٣) رحمه الله تعالى في «تاريخ دمشق» عن أنس بن مالك أنه قال: كان التاريخ من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكذا قال الزهري: قدم رسول الله ﷺ المدينة في ربيع الأول، فأرخوا.

قال الحافظ: المحفوظ أن الأمر بالتاريخ من زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وليس لهم تاريخ، فكانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من مقدمه، فأقاموا على ذلك إلى أن توفي رسول الله ﷺ وانقطع التاريخ، ومضت أيام أبي بكر رضي الله عنه على هذا وأربع سنين من خلافة عمر، ثم وضع التاريخ^(٥).

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٥٦/١، وابن عساكر في «تاريخه» ٣٩٥/١ عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معدن بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون، قال الله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾».

وأخرجه ابن سعد ٥٦/١، والطبري في «تفسيره» ١٨٧/١٣ عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ ثم يقول: كذب النسابون. قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢/١٩٤: والأصح عن ابن مسعود.

(٢) لم يرد الحديث في سيرته، ولعل المختصر قطب الدين اليونيني قد اختصره، أو سها عنه المؤلف.

(٣) «تاريخ دمشق» ١٦، ١٥/١.

(٤) «تاريخ دمشق»: ١٦/١.

(٥) انظر «عمدة القاري» ٦٦/١٧، و«الإعلان بالتويخ» ص ١٣٤.

واختلفوا^(١) في سببه: فروى ابن السمرقندي^(٢) أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: إنه يأتينا منك كتبٌ ليس لها تاريخ، فأرّخ لتستقيم الأحوال، فأرّخ^(٣).
وقال أبو اليقظان^(٤): رفع إلى عمر صكُّ محله في شعبان فقال: أيما شعبان؛ هذا الذي نحن فيه أم الماضي أم الذي يأتي^(٥)؟
وقال الهيثم بن عدي^(٦): أول من أرّخ يعلى بن أمية، كتب إلى عمر من اليمن كتاباً مؤرخاً، فاستحسنه، وشرع في التاريخ^(٧).
وقال ابن عباس^(٨): لما عزم عمر على التاريخ جمع الصحابة واستشارهم، فقال سعد بن أبي وقاص: أرّخ لوفاة رسول الله ﷺ، وقال طلحة: أرّخ لمبعثه، وقال عليّ ابن أبي طالب: أرّخ لهجرته، فإنها فرقت بين الحق والباطل، وقال آخرون: لمولده، وقال قوم: لنبوته. كان هذا في سنة سبع عشرة من الهجرة، وقيل: في سنة ست عشرة، فاتفقوا على هذا.

ثم اختلفوا في الشهور: فقال عبدالرحمن بن عوف: أرّخ لرجب، فإنه أول الأشهر الحرم، وقال طلحة: من رمضان لأنه شهر الأمة، وقال عليّ: من المحرم لأنه أول السنة، وهو من الأشهر الحرم، وقيل: إنما أشار بالمحرم عثمان، والأول أصح.

-
- (١) من هنا بدأ السقط في (ب) إلى قبيل فصل في الفرات ص ١٢٠ من هذا الجزء
(٢) هو إسماعيل بن أحمد بن عمر، أبو القاسم، شيخ ابن عساكر وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٣٦هـ).
(٣) انظر «عمدة القاري» ١٧ / ٦٦، و«الإعلان بالتويخ» ص ١٣١.
(٤) هو عامر بن حفص، ويلقب بسحيم، وكان عالماً بالأنساب والمآثر والمثالب، ثقة فيما يرويه (ت ١٧٠هـ) له تصانيف منها: «أخبار تميم» و«النسب الكبير» انظر ترجمته في «الفهرست» ص ١٠٦.
(٥) انظر «عمدة القاري» ١٧ / ٦٦.
(٦) أبو عبد الرحمن الثعلبي المؤرخ، عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمآثر والأنساب، توفي في «فم الصلح» قرب واسط سنة (٢٠٧هـ) من كتبه: «المعمرين» و«كتاب المثالب» انظر ترجمته في «الفهرست» ص ١١٢، و«سير أعلام النبلاء» ١٠ / ١٠٣.
(٧) انظر «عمدة القاري» ١٧ / ٦٦، و«الإعلان بالتويخ» ص ١٣٢.
(٨) الخبر بنحوه في «الإعلان بالتويخ» ص ١٣٤. وانظر «تاريخ دمشق»: ١ / ١٧-١٨.

قال ابن سيرين وابن المسيب: ثبت التاريخ بمشورة علي؛ وقال الأصمعي: إنما أرخوا من ربيع الأول شهر الهجرة، وهو وهم، والأول أصح: من المحرم.

وقال سفيان الثوري: بالتاريخ يتبين كذب الرواة من صدقهم؛ وقال حفص بن غياث: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، احسبوا سنه وسنن من كتب عنه؛ وقال حماد بن زيد: لم يُستَعَنَ على الكذابين بمثل التاريخ.



فصل

في انقضاء مدة العالم وابتدائه^(١)

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

أحدها: أن عُمر الدنيا من هبوط آدم إلى الهجرة سبعة آلاف سنة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي جمعة من جُمع الآخرة، قد مضى منها ستة آلاف سنة وبقي ألف سنة^(٢).

والثاني: أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة^(٣) وسبع مئة سنة. قاله كعب الأحبار ووهب ابن منبه.

والثالث: أربعة آلاف سنة وست مئة سنة واثنان وأربعون سنة وهو نص التوراة^(٤).

والرابع: خمسة آلاف سنة وخمس مئة واثنان وثلاثون سنة، وهذا قول النصارى^(٥).

والخامس: أربعة آلاف سنة ومئة واثنان وثمانون سنة. وهذا قول اليونان.

والسادس: حكاه أبو جعفر الطبري عن المجوس فقال: وأما المجوس فيزعمون أن قدر مدة الزمان من لدن «كيومرت» إلى وقت هجرة نبينا ﷺ ثلاثة آلاف سنة ومئة وتسع وثلاثون سنة، ولا يذكرون شيئاً فوق كيومرت، وهو آدم عندهم^(٦).

قلت: وقد اختار الطبري القول الأول، وهو سبعة آلاف سنة، واحتج بأخبار منها ما رواه في «تاريخه» فقال^(٧):

حدثنا محمد بن بشار بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلكم من

(١) هذا الفصل الثالث من فصول المقدمة، وقد قفز إليه قطب الدين اليونيني متجاوزاً الفصل الثاني، انظر ص ٧ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١٠/١.

(٣) في (ط): «ألف سنة»، والمثبت من (ل)، وأخرج خبرهما الطبري في «تاريخه» ١٠/١.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ١٧/١، و«الكامل» ١٤/١.

(٥) الذي في «تاريخ الطبري» ١٨/١، و«الكامل» ١٤/١: إن من خلق آدم إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسعمائة واثنين وتسعين سنة وشهوراً.

(٦) «تاريخ الطبري» ١٨/١.

(٧) «تاريخ الطبري» ١١/١.

أجل مَنْ كان قبلكم، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس» انفراداً بإخراجه البخاري^(١).
وقال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى،
قلت: وهذا حديث متفق على صحته^(٢).
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٦-١٨٧] ونحو ذلك.
وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عمر الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة»^(٣).
وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(٤).



(١) البخاري (٣٤٥٩).

(٢) البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وأخرجه - أيضاً - البخاري

(٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١٥١) عن أنس موقوفاً.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

في حَدَثِ العالم^(١) وإثبات الصانع بالدلائل القواطع^(٢)

اختلف العلماء في مبلغ العالم على أقوال:

أحدها: أنهم ثمانون ألف عالم - قاله مقاتل - أربعون ألفاً في البر، وأربعون ألفاً في البحر، وحكاه عن عبيد بن عمير.

والثاني: أربعون ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء، قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنه ألف عالم، ست مئة في البحر وأربع مئة في البر، قاله سعيد بن المسيب.

والرابع: ثمانية عشر ألف عالم، قاله الحسن.

والخامس: أنه لا يقدر أحدٌ أن يحصيهم سوى الله تعالى، وهو الأصح، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فأما إثبات الصانع، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله - وقد تقدم إسنادنا إليه^(٣) - حدثنا أبو معاوية بإسناده عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ لبني تميم: «يا بني تميم اقبلوا البشري» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه وقال: «يا أهل اليمن اقبلوا البشري إذ لم يقبلها بنو تميم» فقالوا: يارسول الله قد بشرتنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان، فقال: «كان الله ولم يكن شيء - أو قبل كل شيء - وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في اللوح المحفوظ - أو في الذكر - كلَّ شيء». انفراد بإخراجه البخاري^(٤).

(١) في هامش الأصل: قال أبو العباس أحمد البوني رحمته الله: من قال بجدث العالم فقد قال بقدمه من حيث لا يشعر. وهذا القول فيه انغلاق.

(٢) هذا الفصل اقتبس أكثره من «مرآة الزمان» الدواداري في «كتر الدرر» ١٤/١ وما بعدها.

(٣) هذا أحد الأدلة على أن الذي بين أيدينا هو مختصر قطب الدين اليونيني، فقد ساق الحديث من «مسند أحمد»، وحذف إسناد سبط ابن الجوزي إليه، انظر ص ١٠ من هذا الجزء.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٩٨٧٦)، والبخاري (٣١٩١).

فصل

إذا ثبت هذا فنقول: مذهب جملة المسلمين أن الله تعالى كان ولم يكن معه شيء، وأنه أحدث العالم على غير مثال، ومذهب الأوائل: أن العالم قديم، وأن الفلك لم يزل دائراً بشمسه وقمره.

وقال قومٌ من الفلاسفة بقدم العناصر والهيولى الذي هو أصل العالم؛ وقال أصحاب الرصد بأن الأفلاك والنجوم تدبر أمر العالم. ونحن نرى أثر العجز عليها ظاهراً: أما النجوم فبالخسوف والكسوف والانتقال، وأما الأفلاك فبالدوران، وهذا آية القهر، [فالصانع قاهر]^(١)، وصانع العالم واحد.

وقالت المجوس: هما اثنان النور والظلمة، فالنور يقال له: يزدان، والظلمة: أهرمن. وهذا شيء اخترعوه من غير أصل، وبطلان قولهم ظاهر، إذ لو كانا اثنين لجاز أن يكون أحدهما مريداً لحركته والآخر مريداً لسكونه، فحصولاً معاً متضادين ولا يجوز؛ وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وروينا عن شقيق البلخي^(٢) رحمه الله أنه قال: قرأت أربعة وعشرين كتاباً في التوحيد فوجدت معانيها كلها في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

فصل^(٣)

ولا يجوز أن يكون له ولد لوجوه:

أحدها: أنه لو كان له ولد لاستأثر الأشياء كلها لولده فتعطل مصالح عباده.

والثاني: أن الولد نتيجة الشهوة، والله تعالى منزّه عن ذلك.

والثالث: لأن الولد بعض الوالد، والله منزّه عن البعضية.



(١) ما بين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ١٥.

(٢) هو شقيق بن إبراهيم، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٩٤هـ).

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦.

فصل (١)

ولا يجوز عليه نوم لوجوه:

أحدها: لئلا يرجع الداعي عن بابه خائباً.

والثاني: لأنَّ النوم غفلة والباري منزّه عنها.

والثالث: لأن الله يمسك السماء بغير عمد ولا علاقة، فلو نام لوقعت على الأرض؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي^(٢) بإسناده عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله تعالى؟ فأرسل إليه ملكاً فأرّقه ثلاثاً وأعطاه قارورتين، في كلِّ يدٍ قارورة، وأمره أن يتحفّظ بهما، قال: وجعل ينام وتكاد يدها تلتقيان فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومةً فاصطكت يدها فانكسرت القارورتان؛ قال: فضرب الله مثلاً أنه لو نام لم تستمسك السماوات والأرض»^(٣).

والرابع: لأن النوم آفة، ويزيل العقل والقوة ويقهرهما، والله تعالى لا يجوز عليه ذلك.

(١) انظر «كنز الدرر» ١/١٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، الثعلبي النيسابوري المفسر، من تصانيفه: «التفسير الكبير» و«عرائس المجالس» (ت ٤٢٧هـ). انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ١/٧٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٨/٣، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٦٦٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ١/٢٦٨، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٢، ٢٣) من طريق أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان عن عكرمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/٨٣ وقال: وفيه أمية بن شبل، ذكره الذهبي في «الميزان» ولم يذكر أن أحداً ضعفه، وإنما ذكر له هذا الحديث وضعفه به.

وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣٠٨/١: وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم. وقال الخطيب: هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً لا مرفوعاً، وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله.

وأخرجه الخطيب ١/٢٦٨ من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الحكم، عن عكرمة، موقوفاً عليه. وقال ابن الجوزي في «العلل» ١/٤١: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وغلط من رفعه والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه، فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء.

والخامس: لأن النوم استراحة، والله تعالى لا يأخذه تعبٌ فيستريح؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] السُّنَّةُ: النوم الخفيف وهي النعاس؛ وقال الزجاج^(٢): هي ريح تجيء من قبل الرأس لينة فتغشي العين، والوسنان بين النائم واليقظان.

فإن قيل: فالملائكة لا تنام فقد شاركت الباري في هذه الحالة؟! فالجواب: أن الملائكة لا تنام ويجوز عليها النوم، والباري سبحانه وتعالى لا يجوز عليه ذلك.

فصل (٣)

والباري سبحانه ليس بجسم، وقالت الكرامية: هو جسم إلا أنه لا يشبه الأجسام. واحتجوا بما ورد من آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] وبأخبار الصفات ونحوها، ونحن نقول: الجسم محدود بالطول والعرض ونحوه، والباري ليس بمحدودٍ بالطول والعرض، وأمَّا الآيات والأخبار فمؤولة بما يليق به سبحانه.



(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣٥١٧)، والعقيلي في «الضعفاء» ٣٠٨/٢، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٣)، (٨٨١١)، وابن عدي في «الكامل» ١٥٣٣/٤، وأبو نعيم في «الحلية» ٩٠/٧، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٥٣، ١٥٥٤).

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤١٥/١٠ وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

وقال الرازي في «العلل» ٢١٩/٢: الصحيح عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ، ليس فيه جابر.

وأخرجه العقيلي ٣٠١/٢ عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٢) هو إبراهيم بن السري، أبو إسحاق البغدادي، نحوي زمانه، من تصانيفه: «معاني القرآن» و«فعلت وأفعلت» (ت ٣١٠هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ٣٦٠/١٤.

(٣) انظر «كتر الدرر» ١٦/١.

فصل (١)

وهو موصوف بما وصف به نفسه من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ونحوه في كتابه القديم وعلى لسان رسوله الكريم، وقد بسطنا القول في هذه الفصول في كتابنا المسمى بـ «النَّضِيدُ فِي مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ».

فصل (٢)

واختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:

أحدها: أن أول المخلوقات القلم، وقال أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اجر - أو اكتب - فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣). وهذا اختيار ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وعامة العلماء.

وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم وقال له: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة، جرى على اللوح المحفوظ بذلك؛ وفي رواية عن ابن عباس: فسبح الله ومجده ألف عام قبل أن يكتب المقدرات. قال: وهو في زمردة خضراء، طوله ألف عام، وهو مشقوقٌ بالنور، ولما نظر الله إليه انشقَّ نصفين^(٤) من هيبة الله تعالى.

وأما النون، فقد اختلفوا فيه فقال قوم: هو الدَّوَاةُ، وهو اختيار الحسن وقتادة والضحاك، ورواية الثمالي عن ابن عباس.

وعامةُ المفسِّرين على أنَّ النون الحوت الذي يحمل الأرض، وسنذكره في بابه.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/١٨.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/٢٤.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٧).

(٤) في (ل) و(ط): «بنصفين» والمثبت من «كنز الدرر».

فصل

وقد أكثر العلماء في وصف القلم، وروي عن ابن المقفع^(١) أنه قال: الأَقْلَامُ مطايا الفطن^(٢) ورسل الكرام وبيان البنان. وقوام الأمور بشيئين بالقلم والسيف، والقلم فوق السيف^(٣). وأنشد^(٤): [من البسيط]

إن يخدم القلمُ السيفَ الذي خَضَعَتْ له الرِّقَابُ ودانت دونه الأُممُ
فالموتُ والموتُ لا شيءٌ يخالفه ما زال يتبعُ ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلامِ مُذْبِرِيَتِ أن السِّيوفِ لها مذ أزهفتُ خدامِ
وقال أبو إسحاق الثعلبي: أنشدنا أبو القاسم السدوسي، أنشدنا أبو السميع الهاشمي، أنشدنا ابن صغنون لأبي تمام الطائي^(٥): [من الكامل]

ولضربةً من كاتبٍ ببنانه أمضى وأبلغُ من دقيقِ حسامِ
قومٌ إذا عزموا عداوةَ حاسدٍ سفكوا الدما بأسيئةِ الأقلامِ
قلت وقد ناقض أبو تمام قوله: [من البسيط]

السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتُبِ^(٦)

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول البُحْثَرِيِّ^(٧): [من البسيط]

(١) هو عبدالله بن المقفع، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٤٥هـ).

(٢) وردت هذه العبارة عن عدد من الأعيان منهم عمرو بن مسعدة والعتابي والبحثري، انظر «أدب الكتاب» ٦٧ و٦٨، و«صبح الأعشى» ٤٤٧/٢، وعبارة ابن المقفع في أدب الكتاب: القلم بريد القلب يخبر بالخير وينظر بلا نظر.

(٣) انظر «أدب الكتاب» ص ٧٥.

(٤) في (ل) زيادة بعدها: لأبي الفتح البستي رحمته، ولم أقف على من نسب الأبيات الآتية له، وإنما نسبت إلى علي بن العباس النوبختي أو ابن الرومي، انظر زهر الآداب ٤٣١، وديوان المعاني ٧٧، والعمدة ١٠٢/٢، وديوان ابن الرومي ٢٢٩٤/٦.

(٥) هو حبيب بن أوس، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٣هـ)، والأبيات في «المحاسن والمساوي» ص ١٢، و«معجم الأدباء» ١٤١/١٧، ولم نقف عليهما في ديوانه.

(٦) البيت في ديوانه ٤٠/١، وتمامه: «في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعب».

(٧) هو الوليد بن عبيد، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٤هـ)، ولم نقف على البيتين في ديوانه، وأوردهما =

قومٌ إذا أخذوا الأقلامَ من غضب ثم استمدوا بها ماء المنياتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن كثروا ما لا يُنالُ بحدِّ المشرفياتِ
و القول الثاني: إن أول ما خلق الله الماء. رواه الضحاك عن ابن عباس^(١)، واحتج
بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] قال: خلق الله جوهراً فصيره ماء.
والقول الثالث: النور والظلمة، قاله محمد بن إسحاق، قال: ثم مَيَّزَ^(٢) بينهما
فجعل الظلمة ليلاً والنهار مضيئاً.
والرابع: العرش والكرسي، قاله وهب بن منبه.
والخامس: اللوح، قاله مقاتل.
والسادس: نقطة، فنظر إليها فمالت فصيرها ألفاً فبدأ به المخلوقات.
والقول الأول أظهر.

فصل^(٣)

أول المخلوقات القلم .

أول جبل وضع في الأرض أبو قبيس، وقيل: قاف وسنذكره في الجبال.

أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام.

أول بيت وضع للعبادة الكعبة.

أول الأنبياء آدم عليه السلام.

أول قتيل في الأرض هايل.

أول من خَطَّ بالقلم وخاط الثياب إدريس، وكان الناس يلبسون الجلود.

أول من اختتن، وأضاف الضيف، واستحدَّ وجزَّ شاربته، وقصَّ أظفاره وفرَّق رأسه،

= الصفدي في «الوافي بالوفيات» ١١٦/٧ عن المستظهر بالله لنفسه، والوطواط في «غرر الخصاص» ص ١٥٠.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٣٥/١.

(٢) في (ل): «خير» والمثبت من (ط).

(٣) انظر «الأوائل» للطبراني (١، ٩، ١٠، ١٣، ٤١)، و«الأوائل» للعسكري ١/١٤٠، ٢/١٩٩، ٢٠١، =

ورأى الشيب، ونصب أنصاب الحرم، ويكسى حلة يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.

أول من تكلم بالعربية، وركب الخيل إسماعيل.

أول من عمل القراطيس يوسف.

أول من سرد الدرود وكانت صفائح، وقال: «أما بعد» داود.

أول من دخل الحمام وصنعت له النوبة وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» وعمل له

الصابون سليمان عليه السلام.

أول من سمي بيحيى: يحيى بن زكريا.

فصل (١)

أول من تجبر في الأرض وخيز له الرقاق نمرود.

أول من خضب بالسواد وقطع الأيدي والأرجل من خلاف وصلب فرعون.

أول من طبخ الآجر هامان.

فصل (٢)

أول من سب السوائب وبخر البحائر، وحمى الحام، ووصل الوصيلة في الجاهلية

عمرو بن لحي.

أول من قطع في السرقة وقضى بالقسامة ودخل الكعبة حافياً الوليد بن المغيرة.

أول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين، وصبغ بالزعفران عامر بن جشم.

أول من قضى في الخنثى من حيث يبول عامر بن الظرب.

أول من سبى السبايا سبأ بن يعرب بن قحطان فسمي به، واسمه عامر.

أول من حذا النعال جذيمة بن مالك.

= و«لطائف المعارف» ص ٦-٧، و«المدهش» ص ٥٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ١٥، ٢٠، ٦٦، ٨٦.

(١) انظر «الأوائل» للعسكري ١١٩/٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٢١، ٦٣، ٩١.

(٢) انظر «المعارف» ص ٦٢٦، و«الأوائل» للعسكري ١/٢٢، ٥٧، ٦٤، ٧٥، ٧٧، ٩٨، و«لطائف المعارف»

ص ١١، و«المدهش» ص ٥٢.

أول من سنَّ الديةَ مئةً من الإبل عبدالمطلب.

أول عربية كست الكعبةَ الديباجَ نُثَيْلَةَ بنتِ جَنَابٍ^(١) أم العباس بن عبدالمطلب.

فصل^(٢)

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

أول ما نزل عليه من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

أول ما علمه جبريل الوضوء.

أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن الصبيان عليّ ومن النساء خديجة ومن

الموالي زيد بن حارثة.

أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩].

أول من أسلم من الأنصار جابر بن عبد الله بن رثاب^(٣).

أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن عمرو.

أول من بايع ليلة العقبة أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور.

أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير، ومن النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

أول من استقبل القبلة قبل أن يفرض استقبالها البراء بن معرور.

أول من جمّع بالمدينة مصعب بن عمير، وقيل: أسعد بن زرارة، وهي أول جمعة

جمعت في الإسلام.

أول من بنى لله مسجداً عمار بن ياسر.

(١) في (ط): «نثيلة بنت حباب»، وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص ١٥، و«توضيح المشتبه» ٣٠/٩.

(٢) انظر: «المعارف» ص ٤٣٣، و«لطائف المعارف» ص ١٢، ١٥، ١٨، و«الأوائل» للعسكري ١/١١٠،

١٥٨، ٢٦٥، ٣٠١، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٠/٢، ٥٠، ٦٠، ١١١، ١١٢، ١١٤،

١٢٧، و«الأوائل» للطبراني (٦٢)، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٢٥، ٢٩، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٦٣،

٦٤، ٧٦، ٨٦، ٩٤، ١٠١.

(٣) في (ط) و(ل): «ريان» والمثبت من «الإصابة» ٢١٢/١، و«توضيح المشتبه» ١٠٨/٤، و«تاج العروس»

(رأب).

- أول شهيدة في الإسلام سمية أم عمار.
 أول من أذن بلال.
 أول من أوصى في الإسلام بثلاث ماله البراء بن معرور .
 أول من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن أبي وقاص .
 أول من عدا به فرسه في سبيل الله المقداد بن الأسود.
 أول من سنَّ الصلاة عند القتل خبيب بن عديّ.
 أول من دُفِنَ بالبقيع عثمان بن مظعون.
 أول من سُمِّي في الإسلام بمحمد محمد بن حاطب.
 أول مولود وُلِد في الإسلام بالمدينة من أولاد المهاجرين عبدالله بن الزبير، ومن الأنصار النعمان بن بشير، وبالبحرة عبدالرحمن^(١) بن أبي بكر.
 أول ظهارٍ كان في الإسلام ظهار أوس بن الصامت .
 أول لعانٍ كان في الإسلام لعان هلال بن أمية.
 أول خلعٍ كان في الإسلام خلع ثابت بن قيس بن شماس .
 أول مرجوم في الإسلام^(٢) ماعز .
 أول رايةٍ عقدت في الإسلام راية عبد الله بن جحش، وهو أول من تسمَّى بأمير المؤمنين^(٣) .
 أول امرأة ضرب على قبرها فسطاط زينب بنت جحش .
 أول من حُمِلت في المدينة على نعش فاطمة عليها السلام .
 أول من جمع القرآن أبو بكر رضي الله عنه .

(١) في (ط) و(ل): «عبد الله»، والمثبت من «المعارف» ص ٢٨٩، و«سير أعلام النبلاء» ٤/٣١٩-٣٢٠.
 (٢) من هنا فقدت أوراق من (ل) إلى فصل في ذكر الأقاليم.. الإقليم السابع وسنعمد مطبوعة الدكتور إحسان عباس .

(٣) في «المدحش» ص ٥٣: هو أول من دعا: يا أمير المؤمنين. وفي «الأوائل» للطبراني (٦٢) عن سعد بن أبي وقاص: أمر رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش بن رثاب على سرية، وكان أول أمير في الإسلام.

أول مَنْ مَصَّرَ الْأَمْصَارَ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وفرض الأغطية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
أول من قصَّ في المسجد تميم الداري بإذن عمر.

أول من زاد في الأذان يوم الجمعة وجلس في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أول من مات من الصحابة بالكوفة ودفن بظاهرها خباب بن الأرت.

أول من عمل المقصورة في الجامع معاوية بن أبي سفيان .

أول رأسٍ حمل في الإسلام رأس عمر بن الجون.

أول من قدَّم الخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان بن الحكم.

أول من وُورث في الإسلام ابن نضلة^(١)، مات بالحبيشة فورثه ابنه النعمان.

أول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم.

أول من ركب ومشى بين يديه الناس الأشعث بن قيس.

أول من عمل المحامل^(٢) الحجاج بن يوسف.

أول من سمي في الإسلام عبدالملك، عبدالملك بن مروان.

أول من نَقَطَ المصاحف يحيى بن يعمر.

أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي.

أول قاضي بالمدينة عبدالله بن نوفل بن الحارث، وبالكوفة أبو قرة الكندي،

وبالبصرة كعب بن سور، وبالعراق سلمان بن ربيعة، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه.

فصل (٣)

واختلفوا في أي شيء خلق الله بعد القلم، فقال قوم: اللوح المحفوظ؛ وروى

مجاهد عن ابن عباس قال: اللوح من درة بيضاء، وطوله مثل ما بين السماء والأرض،

وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافته من الدر والياقوت، وقلمه نور، وهو متصل

(١) هو عدي بن نضلة. انظر «الإصابة» ٤٧١/٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص ٦٣.

(٢) في (ط): «المحافل»، والمثبت من «الأوائل» للعسكري ٦٠/٢، و«تاج العروس» (حمل).

(٣) انظر «كنز الدرر» ٢٥/١.

بالعرش، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ الآية^(١) [البروج: ٢٢]. وقد ذكر الثعلبي معناه.

وروي أيضاً عن أنس أن اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل^(٢). وقال مقاتل: هو عن يمين العرش.

وقال قوم: خلق بعد القلم الكرسي ثم العرش، وسنذكره.



(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ١٣٥/٥، والطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٥)، والحاكم ٤٧٤/٢، ٥١٩ من طريق أبي حمزة الشمالي، وبكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لوددت أن عندي رجلاً من أهل القدر فوجأت رأسه، قالوا: ولم ذلك؟ قال: لأن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاث مئة نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

قال الحاكم أولاً: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: اسم أبي حمزة ثابت وهو واه بمره. وقال ثانياً: هذا حديث صحيح الإسناد فإن أبا حمزة الشمالي لم ينقم عليه إلا الغلو في مذهبه فقط.

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٩١/٧ وقال: رواه الطبراني من طريقين ورجال هذه ثقات.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٨٧/٢٤.

فصل

في حدّ الزمان والأيام وما نقل في ذلك عن العلماء والأعلام

الزمان: اسمٌ لقليلِ الوقتِ وكثيره، وطويله وقصيره، ويُجمع على أزمان وأزمنة وأزمن. وقد ذكره الجوهري^(١). ويقال: الزّمن أيضاً، وهو عبارة عن حركات الفلك، ويدخل فيه ساعات الليل والنهار، والساعات مقدّرات بقطع الشمس والقمر درجات الفلك^(٢).

فأما اليوم فقال الجوهري: أصله أيّوأم، وجمعه أيام^(٣). ومعياره من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، فإن قيل: إنما يعرف اليوم بطلوع الشمس وغروبها ولم تكن الشمس يومئذ، فالجواب أن الباري سبحانه لا يحتاج إلى طلوع الشمس في مخلوقاته لأنه ليس عنده ليل ولا نهار، بذلك وردت الأخبار والآثار.

فالحاصل أنّ الله خلق السماوات والأرض قبل خلقه الأيام والليالي والشمس والقمر، وقد رواه مجاهد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فقال الله سبحانه وتعالى للسماوات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك فأجابتا^(٤).

واختلف العلماء في الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض والمخلوقات: هل هي مثل أيام الدنيا المعروفة أو مثل أيام الآخرة^(٥)، كلُّ يوم^(٦) ألف سنة، على قولين: أحدهما: أنها مثل أيام الدنيا، قاله مجاهد والحسن البصري، لأنها هي المعهودة؛ والثاني: أنها مثل أيام الآخرة، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء^(٧)، قال

(١) «الصحاح» (زمن).

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢٢/١.

(٣) «الصحاح» (يوم).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٩٨/٢٤.

(٥) في (ط): «الأخرى» والمثبت من «كنز الدرر» ٢٦/١.

(٦) في كنز الدرر ٢٦/١: كل يوم مقداره.

(٧) انظر «البدء والتاريخ» ٥٢/٢.

الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥].

فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة واحدة وهو أهون عليه؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أن الثبوت أبلغ في القدرة، والتعجيل لا تقتضيه الحكمة، قاله ابن عباس. والثاني: أن الله تعالى أراد أن يظهر في كل وقت أمراً تستعظمه الملائكة، قاله مجاهد. والثالث: أن الذي يتوهمه المتوهم من إبطاء الخلق في ستة آلاف سنة يتوهمه في ستة أيام عند قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. وقال سعيد بن جبير: إن الله تعالى كان قادراً أن يخلق المخلوقات في لمحة واحدة، وإنما خلقها في ستة أيام تعليماً لخلق الرفق والتثبت في الأمور. وحكاها عن ابن عباس، وهو معنى القول الأول.

واختلفوا في أسماء الأيام: فقال الزجاج والفرّاء وأبو عبيد، وقد رواه الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنبأنا بذلك جماعة عن أبي القاسم السمرقندي قالوا: كانت العرب العاربة تقول ليوم السبت: شيار، وليوم الأحد: أول، وليوم الاثنين: أهون، وللثلاثاء: جبار، وللأربعاء: دبار، وللخميس: مؤنس، وليوم الجمعة: العروبة؛ وأول من نقل العروبة إلى يوم الجمعة كعب بن لؤي^(١).

وقد ذكر الجوهري هذه الأيام وقال: كانت العرب تسميها في أساميهم القديمة، أنشدني أبو سعيد السيرافي قال: أنشدني ابن دريد لبعض شعراء الجاهلية قال: [من الوافر]

أؤمّل أن أعيشَ وإنَّ يومي بأوّل أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار أم فيومي بمؤنس أو عروبة أو شيار^(٢)

والثاني: أنهم كانوا يسمون يوم السبت: أبا جاد، ويوم الأحد: هوّز، ويوم الاثنين: حظي، والثلاثاء: كلمن، والأربعاء: سعفص، والخميس: قرشت، والجمعة: العروبة. حكاها الضحاك عن زيد بن أرقم^(٣).

(١) «الأوائل» للعسكري ٤٧/١.

(٢) «الصحاح»: (هون).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٢/١، وانظر «المنتظم» ١٢٣/١.

والثالث: ذكره أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: خلق الله يوماً واحداً فسماه يومَ الأحد، وخلق يوماً وسماه: يوم الاثنين، وذكر باقي الأيام على هذا^(١).

قلت: والتوفيق بين هذه الأقوال ممكنٌ، لأنه يحتمل أنها كانت قديمة ثم تغيرت ونقلت بطول الزمان كما فعلوا بالشهور، لما نذكر.

فأما السبت فجمعه: سبوت وأسبت، وقال الجوهري: سمي يوم السبت لانقطاع الأيام عنده، قال: والسبت: الراحة، والسبت: الدهر، والسبت: ضرب من سير الإبل وهو العنق، والسبت: قيام اليهود بأمر سبتها، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] والمُسْبِتُ الذي لا يتحرك، والسببُ النوم، وأصله الراحة^(٢).

وقد ذكر هذه الأسماء أبو عبيد فقال: أحد وآحاد واثنان وأثنانين، وثلاثاء وثلاثاوات، وأربعاء وأربعاوات، وخميس وأخمسة، وجمعة وجمعات.

واختلفوا في أي يوم بدأ الله الخلق على أقوال:

أحدها: أنه بدأ بها يوم السبت وكان الفراغ منها يوم الجمعة، قال الإمام أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبتَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر إلى الليل [في آخر] ساعة من ساعات الجمعة ما بين العصر إلى الليل». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

وقد رواه [عكرمة] عن ابن عباس قال: جاءت اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن المخلوقات، فذكر الحديث - إلا أن الطبري ذكر أنه بدأ بالخلق في يوم الأحد لما نذكر - فلما قال: وخلق آدم يوم الجمعة في آخر ساعة، قالت: ثم ماذا؟ فقال: ثم استوى على العرش، فقالوا: لو أتممت: ثم استراح يوم السبت، فغضب رسول الله ﷺ غضباً

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٢/١، وانظر «المنتظم» ١٢٣/١.

(٢) «الصحاح»: (سبت).

(٣) أحمد في «مسنده» (٨٣٤١)، ومسلم (٢٧٨٩).

شديداً، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الآيات^(١) [ق: ٣٨-٣٩].

وقد ذكره أبو إسحاق الثعلبي في آخر سورة «ق»، وقال فيه: فقالت اليهود: صدقت إن تمت، قال: وما ذلك؟ قالوا: ثم استراح يوم السبت واستلقى على العرش. فنزلت الآيات.

والثاني: أنه بدأ بالمخلوقات يوم الأحد. قاله كعب الأحبار ومجاهد والضحاك، وحكاه أبو جعفر الطبري عن اليهود^(٢)، ورواه عن ابن عباس. وحكاه الثعلبي أيضاً أنه قال: خلق يوماً واحداً وسماه: يوم الأحد، وذكره، وكذا هو في التوراة. ولهذا قالوا: استراح يوم السبت، وبه قالت النصارى، لأن عيسى عليه السلام رفع فيه إلى السماء.

[والثالث: يوم الاثنين، قاله محمد بن إسحاق. والقول الأول أصح لوجهين، أحدهما: لأجل الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأن النبي ﷺ نصر عليه، وقد قال أبو هريرة: أخذ رسول الله بيدي، والثاني: لأن فيه مخالفة لليهود لأنهم أبطلوا الخلق يوم السبت وقالوا استراح، ومخالفة النصارى أيضاً]^(٣).

فصل^(٤)

واختلفوا في خلق السماوات والأرض، أيهما أسبق؟ على قولين: أحدهما الأرض قاله ابن عباس، والثاني: السماوات، قاله مجاهد. وسنحقق القول فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل^(٥)

واختلفوا في خلق الليل والنهار أيضاً على قولين: أحدهما: النهار خلق أولاً، قاله

(١) «تاريخ الطبري» ٤٥/١، والحاكم ٥٤٣/٢، وكنز الدرر ٢٨/١، وما بين معكوفات منها.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤٤/١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ٢٩/١.

(٤) انظر «كنز الدرر» ٢٩/١.

(٥) انظر «كنز الدرر» ٢٩/١.

عكرمة ومجاهد، لأنه ضياء والنور مقدم على الظلام، والثاني: الليل، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا أَلَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] فدلّ على أن الليل مقدم عليه، ولأن الظلمة أصل والضوء عارض، وهو من إشراق نور الشمس فلا يكون أصلاً، وقد نصّ عليه ابن عباس فقال: رأيتم حين كانت السموات والأرض رتقاً، ما كان بينهما إلا ظلمة^(١).

فصل

وأما السنة، فقال يعقوب بن السكيت: هي واحدة السنين، وأصلها: سنّهة وتصغيرها: سنّهة وسنّية، وجمعها: سنون، بكسر السين، وبعضهم يضمها.

فصل^(٢)

وأما الشهر، فذكر أبو منصور بن الجواليقي في «المعرب» أن أصله سهر بالسين المهملة، فعرب، وقال الفراء: إنما سمي شهراً لشهرته وظهوره^(٣)، ويسمى الهلال شهراً لشهرته؛ وقال الفراء: أول شهور العرب العاربة: ناجر، وأول شهور المستعربة: المحرم.

وقال الجوهري: لما نقلت العرب أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها.

قلت: لم يفسّر الجوهري معنى هذا الكلام ويحتاج إلى بيان؛ قلت: أما قوله لما نقلت العرب: يريد المستعربة، ذلك لأن العرب قسمان، عاربة وهم الخلّص الذين لم يخالطوا الحاضرة، ومستعربة وهم الذين خالطوا الحاضرة؛ قال أبو العلاء: العاربة مثل طسم وجديس، ومن كان معاصراً لهم، وأما المستعربة فهم المتأخرون وهم الذين نقلوا أسماء الشهور، فقالوا: المحرم وصفر إلى ذي الحجة.

فأما العرب الأوائل، فقرأت على شيخنا أبي اليّمن زيد بن الحسن الكندي رحمه

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٦١/١.

(٢) انظر «كتر الدرر» ٨٤/١ وما بعدها.

(٣) «المعرب» ص ٢٥٥. وفيه: «وقال ثعلب» بدل: «الفراء».

الله قال: قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي، عن الخطيب أبي زكريا التبريزي، عن أبي العلاء المعري قال: كانت العرب العاربة تسمي هذه الشهور بغير هذه الأسماء فتقول للمحرم: مؤتمِر، ولصفر: ناجِر، ولربيع الأول: خوَّان، ولربيع الآخر: وبَّصان، ولجمادى الأولى: رُبِّي، ولجمادى الآخر: حَنين، ولرجب: الأصم، ولشعبان: عازل، ولرمضان: ناتق، ولشوّال: وِعْل، ولذي القعدة: وِرْنة، ولذي الحجة: بُرك.

تفسيرها: أما مؤتمِر، فاشتقاقه من المؤامرة في ترك الحرب احتراماً له، وأما ناجِر، فالنجر الأصل، جعلوه أصل الحرب؛ وأما خوَّان: فمن تخوينهم الحرب أي نقضهم، وأما وبَّصان: فمن الوَبْص وهو بريق السلاح، وكانت الغارات تشتد فيه، وأما رُبِّي: فمن قولهم شاة رُبِّي على وزن فُعلى أي كثيرة النَّتاج، وكانوا يجمعون فيه الأموال، وأما حنين: فلأن أسفارهم تطول فيحُنُّون فيه إلى المنازل والأهل، وأما الأصم: فلأنهم ما كانوا يُغيرون فيه ولا يسمعون قعقة السلاح فسُمِّي أصمَّ به، ومنهم من يقول: رجب مضر وسنذكره.

وأما قولهم ناتق؛ فمن قولهم: نتقت الشاة إذا كثر ولدها، وأما وِعْل: فالوعل الملجأ، كانوا يلجأون فيه إلى المنازل، وأما وِرْنة؛ فالأرْن - بإسكان الراء - النشاط، كانوا ينشطون فيه للحج^(١)، وأما بُرك؛ فلأنَّ الإبل كانت تبرك فيه في الموسم حتى ينقضي، وقيل: هو من البركة.

وأما شهور المستعربة؛ فسمي المحرم لتحريم القتال فيه، كان الرجل يلقي قاتلَ أبيه أو ابنه أو أخيه فلا يعرض له، وكذا في الأشهر الحرم [كلها]، قال الجوهري^(٢): إلا حيَّان من العرب خثعم وطِيء فإنهم كانوا يستحلون القتال فيه وفي الأشهر الحرم.

وأما صفر: فلأنَّ المنازل كانت تصفّر منهم، أي: تخلو، والصفّر الخالي، وقال الجوهري عن ابن دريد: والصفّران شهران من السنة أحدهما المحرم^(٣). وقيل: لأنهم

(١) أورده الفيروزآبادي في «القاموس» في مادة (ورن)، وذكر معنى ما ذكره المصنف المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ٢٧٩/١.

(٢) «الصحاح»: (حرم).

(٣) «الصحاح»: (صفر).

كانوا ينزلون بلاداً يقال لها: صفر، والأول أصح.

وأما شهرا ربيع: فلأنهم كانوا يرتبعون فيهما، وقال الجوهري: والربيع عند العرب ربيعان: ربيع الشهور وربيع الأزمنة، فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، وأما ربيع الأزمنة فربيعان: الأول منهما: ربيع الكلاء، وهو الفصل الذي تأتي فيه الكمأة والنّور ينضر، والربيع الثاني، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار^(١).

وأما جُماديان: فلأن الماء كان يجمد فيهما، وهو فعّالي من الجَمْد.

وأما رجب: فمن الترجيب، وهو التعظيم، يقال: رَجَبْتَهُ أَي: عَظَّمْتَهُ، وقال الفراء: ومنه قولهم: نخلة مُرَجَّبَةٌ، إذا كثر حملها أقاموا لها دعائم لئلا تنكسر أغصانها، وفيه لغتان: رجب ورحم، لأن الرحمة تنصب فيه صبأً، ويقال له: رجب مضر أيضاً لأنّ مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فنسب إليها، وجمعه: أرجاب؛ وقيل إنما سمي: الأصم، لأنه لا يشهد بالقبائح على هذه الأمة.

وأما شعبان: فلأن الشَّعب هو الاجتماع، كانوا يتشعبون فيه بعد الفرقة، وقيل: إنما سمي شعبان، لأنه يتشعب فيه خير كثير لرمضان [أي يتجمع].

وأما رمضان: فاشتقاقه من الرَّمَض، وهو وقع حرّ الشمس على الرمل، ومنه: الرَّمْضاء، ورمضت الفِصال: إذا وجدت حرّ الشمس.

وأما شوال: فمن الشَّوْل، وهو الارتفاع، لأن النوق تشوّل فيه، أي: ترفع أذنانها للقاح، وقيل: لأنّ ألبان الإبل كانت تشوّل فيه، أي: تقل [وجمعه شوالات وشوائل] وهو أول أشهر الحج.

وأما ذو القعدة: فلأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال تعظيماً له [وجمعه ذوات القعدة].

وأما ذو الحجة: فلأنهم يتأهبون فيه للحج ويقصدون مكة من [سائر] الآفاق، [وجمعه ذوات الحجة]^(٢).

(١) «الصحاح»: (ربيع).

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من «كتر الدرر» ٨٦/١.

فصل

والعرب تسمي كل ثلاث ليالٍ من الشهر باسم.

فصل^(١)

والعرب تؤرخ بالليالي دون الأيام، لأن سنّهم قمرية، فالعمل فيها على القمر لأنه يرى في الليل عالياً، فيقال في أول ليلة من الشهر: استهل الهلال، ولا يقال ذلك في النهار، بخلاف سائر الأمم، فإن سنّهم على سير الشمس وهي نهارية؛ ثم العرب تعد السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وسدس يوم^(٢)، لأن شهراً يكون تاماً وشهراً يكون ناقصاً غالباً.

فصل في شهور الروم^(٣)

الروم تعد السنة ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وشهورهم مختلفة العدد، وأولها:

نيسان، وهو ثلاثون يوماً.

وأيار أحد وثلاثون يوماً. ولثمانية عشرة منه ترجع الشمس هابطة من الشمال.

وحزيران ثلاثون يوماً.

وتموز أحد وثلاثون يوماً، وكذا آب، فإذا انسلخ آب قلّ الحر.

وأيلول ثلاثون يوماً، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب، ولثمانية عشرة منه يستوي

الليل والنهار.

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوماً، وفيه يكون المهرجان، ومعناه: أنه كان في

الفرس ملك ظالم جبار اسمه «مهر» فمات في نصف هذا الشهر، و«جان» هو الروح،

أي: «مهر» ذهب روحه. وبين المهرجان والنيروز مئة وستون يوماً، والفرس تسمي هذا

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨٧.

(٢) في «الفتاوى الكبرى» ٢٥/ ١٣٨: وبعض يوم خمس أو سدس. وانظر «التعريفات» ص ١٦١.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨٧-٨٨.

اليوم أول الشتاء.

وتشرين الآخر ثلاثون يوماً.

وكانون الأول أحد وثلاثون يوماً، ولسبع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات^(١)، ويكون الليل أربع عشرة ساعة، وذلك منتهى طوله؛ وفي الليلة الخامسة والعشرين منه ولد المسيح عليه السلام.

وكانون الآخر أحد وثلاثون يوماً، وفي أول ليلة منه توقد نار عظيمةً بأنطاكية، والنصارى تعظم تلك النار^(٢) وتقول بأن النصرانية ظهرت من أنطاكية في تلك الليلة بعدما دثرت، وتسميها مدينة الله.

وشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم في ثلاث سنين متواليات، والسنة الرابعة تسمى: كبيسة، فتكون تسعة وعشرين يوماً يقسم ذلك في أربع سنين، ولسبع ليال منه تسقط الجمرة الأولى، وهي الجبهة، ولأربع عشرة منه تسقط الثانية وهي الزبرة، ولإحدى وعشرين منه تسقط الثالثة وهي الصرفة، فينصرف البرد، وفيه يتكامل الجمار؛ واليوم الخامس والعشرون منه أول أيام العجوز^(٣).

وآذار ثلاثون يوماً^(٤)، وفي الرابع عشر منه فصل الربيع ونزول الشمس الحمل، ويعتدل الليل والنهار، وفي ذلك اليوم النيروز. وقال ابن الجواليقي: ويقال: النيروز، وقد تكلمت به العرب^(٥)، والله أعلم.

فصل في عدد الفرس

السنة عندهم ثلاث مئة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً، وأول شهورهم: فروردين ماه، وأول يوم منه النيروز، والثاني^(٦): أردببهشت ماه، والثالث: خرداد

(١) في «كنز الدرر» زيادة: تسع ساعات ونصفاً وربعاً وهو منتهى قصره.

(٢) في «كنز الدرر» زيادة: والنصارى تعظم تلك الليلة وتلك النار.

(٣) في «عجائب المخلوقات» ص ١١٧: في السادس والعشرين.

(٤) في «عجائب المخلوقات» ١١٧: آذار أحد وثلاثون يوماً.

(٥) «المعرب» ص ٣٨٨.

(٦) أي من شهور الفرس.

ماه، والرابع: تير ماه، والخامس: مُرداد ماه، والسادس: شهرير ماه^(١)، والسابع: مَهْرُ ماه، وفي الثامن عشر منه يكون المهرجان. والثامن: آبان ماه، والتاسع: آذرماه، العاشر: دي ماه، والحادي عشر: بَهْمَن ماه، والثاني عشر: إسْفَنْدَار مد ماه، وهذه أسامي ملوكهم.

فصل في عدد القبط

السنة عندهم ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً مثل شهر الفرس، إلا أنهم يجعلون بعدها خمسة أيام يسمونها: اللواحق، وتدعى «العمياء» أيضاً، فأول يوم من السنة عندهم هو التاسع والعشرون من آب عندنا، وأول شهرهم: توت، وهو أيلول بالسريانية. والثاني: باب، وهو تشرين الأول. والثالث: هتور، وهو تشرين الثاني. والرابع: كيهك، وهو كانون الأول. والخامس: طوبه، وهو كانون الآخر. والسادس: أمشير، وهو شباط. والسابع: برمها، وهو آذار. والثامن: برمودة، وهو نيسان. والتاسع: بشنس، وهو أيار. والعاشر: بوونه، وهو حزيران. والحادي عشر: أبيب، وهو تموز. والثاني عشر: مسري، وهو آب، وفيه يتكامل النيل.



(١) كذا هو في «عجائب المخلوقات» ص ١٢٢، وفي «الآثار الباقية» ص ٤٢، و«المعجم الفارسي» (شهر): «شهريور».

فصل

في خلق الأرضين ومدة التصوير والتكوين^(١)

قال علماء اللغة: إنما سميت الأرض أرضاً، لأنَّ الأقدام تدقُّها وترضُّها. وقال الجوهري: الأرض مؤنثة، وهي اسم جنس، وجمعها أرَضون، وقد تجمع على أَرُوض، وأما قول ابن عباس: أزلزلت الأرض أم بي أرض؟ فإنما أراد الرُّغْدَةَ والنَّفْضَةَ^(٢).

وروى أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السموات، ثم خلق النون وهو الحوت الذي يحمل الأرض، فبسط الأرض على ظهره، فتحرك النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]^(٣).

واختلفوا في اسم هذا الحوت؛ فقال الكلبي ومقاتل: بهموت^(٤). وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا، وروي عن علي رضي الله عنه أنه بلهوت؛ قال الراجز:

مالي أراكم كلُّكم سُكوتا والله ربِّي خلق البلهوتا^(٥)
وقال الثعلبي أيضاً: قالت الرواة: لما خلق الله تعالى الأرض وفتقها بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب، باسطين قابضتين على الأرضين السبع حتى ضبطها، فلم يكن لقدمه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً وجعل قرارَ قدمي الملك على سنامه فلم تستقرَّ، فأحدر الله ياقوته حمراء من الفردوس غلظها مسيرة خمس مئة عام، فوضعها على سنام الثور فاستقرَّت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور هي أربعون ألف قرن خارجةً من أقطار الأرض، ومنخراه في البحر، فهو يتنفس

(١) انظر «كنز الدرر» ٨١/١.

(٢) «الصحاح» (أرض).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٥١/١.

(٤) ضبطه الألويسي في «روح المعاني» ٢٣/٢٩: بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء.

(٥) أورده القرطبي في «تفسيره» ٢٢٤/١٨، وفيه: «البهموتا».

كلَّ يوم نفساً، فإذا تنفس مدَّ البحر، وإذا ردَّ نفسه جزر، فلم يكن لقوائمه موضع قرار، فخلق الله صخرة خضراء كغلظ السموات والأرض، فاستقرت قوائم الثور عليها، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية [لقمان: ١٦] فلم يكن للصخرة مُسْتَقَرٌّ، فخلق الله نوناً - وهو الحوت العظيم -، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال، والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة تقلُّ الدنيا كلها بما عليها، قال لها الجبار سبحانه: كوني، فكانت^(١).

وقد روى أبو بكر الخطيب بمعناه عن ابن عباس، فقال بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه: وكانت الأرض تمورُ موراً تتكفأ، كما تتكفأ السفينة، فبعث الله تعالى جبريل، فلم يقدر أن يسكنها، فقال: يا إلهي، قد علمت أنك لم تقدر ذلك على يدي، ولو بعثت بعوضة لسكنتها، قال: فأرسل الله عز وجل ملكاً من تحت العرش، فدخل تحت الأرض وذكره.

وفيه: وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض قد اشتبكت بأقطار السموات إلى العرش، ومنخرا الثور في ثقبين من تلك الصخرة، فهو يتنفس كل يوم نفسين، فإذا تنفس مدَّ البحر وإذا ردَّ نفسه جزرت البحار.

وفيه: واسم الحوت بلهوت، فأنتهى إبليس إلى الحوت فقال: ما خلق الله خلقاً أعظم منك، فلم تحمِلْ هذه الأثقال؟ فهم أن يلقي ما عليه، فبعث الله تعالى بقَّةً فدخلت في عينه فشغلته عن ذلك، ثم أنبت الله جبل قاف من تلك الياقوتة الخضراء فأحاط بالدنيا، ثم أنبت منه الجبال وشبك بعضها ببعض بعروقه كالشجر في الأوتاد، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أوحى إلى قاف فحرك ذلك العرق، وهو حديث طويل اختصرته. وقد أخرجه الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في كتابه المعروف بـ«كتاب الزلازل».

وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار: أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها فوسوس إليه: أتدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها؟ ولو نفضتهم لاسترحت، فهم لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله إليه دابة

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٥-٦.

فدخلت في منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت منها إلى الله تعالى، فأذن لها فخرجت؛ قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت إليه كما كانت، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة^(١).

وروى الحافظ أبو القاسم أيضاً في «كتاب الزلازل» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «أُسِّتِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ عَلَى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٢).

قلت: ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ إنما هو موقوف على أنس^(٣).

وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن التوراة، وقال في السفر الأول منها: خلق الله السمواتِ وآدمَ وحواء. وذكر ألفاظاً شنيعةً منها: أن الله تعالى يخلق بشراً على صورته وما أشبه هذا^(٤)، والله تعالى منزّه عن الصورة لأنه ليس بجسم، وإن صحَّ في الأخبار حديثُ الصور^(٥) فَيُحْمَلُ على الصفة، وهو اللائق بالله سبحانه وتعالى.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن النبي ﷺ: «لما خلق الله الأرضَ جَعَلَتْ تَمِيلُ، فخلقَ الجبالَ وألقاها عليها فاستقرَّت، فتعجبت الملائكةُ من خلقِ الجبالِ، فقالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ، قالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ، قالت: يا رب، فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من النارِ؟ قال: نعم، الريحُ، قالت: يا رب،

(١) «عرائس المجالس» ص ٦.

(٢) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٢٠) وعزاه لتمام في «فوائده» وفيه موسى بن محمد بن عطاء، وهو متهم بالكذب. انظر «الميزان» ٢١٩/٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧٣٨/٢٤، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٨٣/٥ من حديث كعب الأحبار قوله. قال الألويسي في تفسيره ٢٤/٢٩: وللقصاص في هذا الفصل روايات لا يعول عليها، ولا ينبغي الإصغاء إليها.

(٤) «المعارف» ص ٩-١١.

(٥) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث ٨٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٨)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠٦/٨ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة وفيه ضعف. وانظر الكلام عليه في «فتح الباري» ١٨٣/٥.

فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق صدقة بيمينه، ثم يخفيها عن شماله». وقد أخرجه الترمذي^(١) في «جامعه» وذكره، وهذا الحديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.



(١) أحمد في «مسنده» (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف.

فصل

في ذكر البيت الحرام المخصوص بالإجلال والإعظام

ذكر الجوهري، وقال: الكعبة البيت الحرام، سمي بذلك لتربُّعه^(١). وقال الخليل ابن أحمد: إنما سميت الكعبة كعبةً لارتفاعها وعلوّها واستدارتها. وقال مجاهد: سميت كعبةً للتربيع^(٢). والعرب تسمي كلَّ بيت مربع كعبة؛ وقال مقاتل: لانفرادها عن البناء، وقال الفراء: سميت كعبةً لبنائها مربعةً على موضع رفيع، وسمي: البيت الحرام لأن الله تعالى حرّمه وعظّم حرّمته.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الكعبة خَشْفَةً على رأس الماء عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل خلق الأرض بألفي عام^(٣)».

قال أبو عمرو بن العلاء: الخَشْفَةُ: الأكمة الحمراء. وقال الجوهري: الخَشْفَةُ: الحسُّ والحركة^(٤). ومعناه على هذا أنها كانت تضطرب وتتحرك على الماء.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: وضعت الكعبة على أربعة أركان - قبل أن يخلق الله الدنيا - على وجه الماء، ثم دحا الأرض من تحتها^(٥).

وروى العوفي عنه أنه قال: أرسل الله تعالى الريح فمسحت الماء حتى حوّث على خشفة، وهي التي تحت الكعبة، ثم إن الله مدَّ الأرض من تلك الخشفة، حتى بلغت حيث أراد الله في الطول والعرض^(٦).

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: وجد حجر في أسفل المقام من أيام جرهم

(١) «الصحاح»: (كعب).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧٦/٧.

(٣) لم نقف عليه في «مسند» أحمد ولا في غيره من مصادر التخريج، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١٢٩/١ من قول أبي هريرة دون إسناد ولا عزو. والخشفة: حجارة تنبت من الأرض نباتاً.

(٤) «الصحاح»: (خشف).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٤٨/١.

(٦) أخرجه الحاكم ٥١٢/٢ من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١٢٨/١.

مكتوب فيه: «إني أنا الله ذو بَكَّةَ، حرَّمتها يومَ خلقتُ السموات والأرضَ، ويومَ وضعتُ هذينَ الجبلينَ، وحففتها بسبعةِ أملاكٍ حنفاءَ، مَنْ أُمَّ هذا البيتَ زائراً عارفاً بحقِّي، مُقراً بالوحدانيةِ، حرَّمتُ جسدهُ على النارِ»^(١).

وقال أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنِّي أنظرُ إلى أسودَ أفحجَ ينقضُها حجراً حجراً» يعني: الكعبة. انفرد بإخراجه البخاري^(٢). والأفحج: المتباعد ما بين الفخذين.

وسنذكر ما يتعلق بالبيت الحرام في قصة الخليل عليه الصلاة والسلام.



(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٩٢١٩) من حديث الزهري، قال: بلغني أنهم وجدوا. وأخرجه ابن أبي شيبة (نشرة العمروي ٢٨٦/٤) من حديث مجاهد. وأخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٤٨/١ من حديث عطاء بن أبي رباح.

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٠١٠)، والبخاري (١٥٩٥).

فصل

في مساحة الأرض، ومقدار طولها والعرض

قد أشار جماعة من المهندسين العلماء إلى مثل ذلك :

المأمون في «كتاب الجغرافيا» وهو كتاب ألفه بطليموس، وابن خردادبه في كتاب «المسالك والممالك»، وابن حوقل، وأبو معشر، وقد أشار أبو الحسين ابن المنادي إلى طرفٍ من ذلك.

واختلفوا في مساحة الطول والعرض على أقوال :

أحدها : أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية آلاف للروم، وثلاثة آلاف لفارس، وألف للعرب، حكاه جدّي رحمه الله في مصنّفاته كالمنتخب وغيره عن قتادة^(١).

والثاني : أنها مسيرة خمس مئة سنة منها ثلاث مئة عمران، ومئتان خراب، لا ساكن بها. قاله ابن مضرّب^(٢).

والقول الثالث : أن طولها أربع مئة سنة وعرضها مئتان. قاله مجاهد.

والرابع : أن طولها وعرضها مسيرة ثلاث مئة سنة، العمران مئة سنة، والخراب مئة سنة، والبحار مئة سنة. قاله حسّان بن عطية^(٣).

والخامس : أنها ستة وثلاثون ألف فرسخ في مثلها، فالهند والسند اثنا عشر ألف فرسخ، وهم ولد حام بن نوح، والصين ثمانية آلاف فرسخ، وللروم عشرة آلاف، وللعرب أربعة آلاف، وفيما بين ذلك ألفان. قاله السدي عن أشياخه.

والسادس : أن مقدار الدنيا ألف فرسخ، ثلث هواء، وثلث بحار، وثلث للناس والدواب. قاله مغيث بن سميّ^(٤).

(١) انظر «المنتظم» ١/١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٣/١٧٣.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٩٣٦).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٩٤٧) وفيه : الأرض ثلاثة أنواع : ثلث... وجاء في «كنز الدرر» ١/٩٦ :

وقال في «جغرافيا»: الهند والصين والمشرق خمسون ألف فرسخ، ومن حدود الهند إلى العراق أربع مئة فرسخ، وعمل رومية الروم ثلاثة آلاف فرسخ. وقد ذكره الفزاري.

وقال مقاتل: ما العمارة في الخراب إلا مثل الفسطاط في الصحراء^(١).

وقال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلاف أن الأرض على هيئة الكرة، وهي موضوعة في جوف الفلك كالمحة في البيضة، والنسيم محيط بها كالبياض من المحة، وهو جاذب لها من جميع جوانبها، والأرض جاذبة لما في الأبدان من الثقل، بمنزلة المغناطيس الذي يجذب الحديد، والفلك محيط بالنسيم كإحاطة القشر بالبياض، وهي مقسومة بنصفين، وبينهما خط الاستواء، وهو من المشرق إلى المغرب، وهو طول الأرض، وأما عرضها: فمن القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش، إلى القطب الجنوبي، وذلك ثلاث مئة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، وهو أربعة آلاف خطوة بخطوة البعير، وهو ثلاثة أميال، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات، كل شعيرة ست شعرات من شعر البرذون، وهذا الذراع قدره المأمون بمحضر من المهندسين والحساب، وهو بين الطويل والقصير، دون ذراع البحار والذراع الهاشمي، فعلى هذا التقدير يكون ما بين القطبين تسعة آلاف فرسخ.

وقد أشار إلى هذا ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك»^(٢). وأشار في «جغرافيا» إلى هذا.

وقال ابن حوقل: «كتاب جغرافيا» ذكر فيه بطليموس طول الأرض وعرضها، وجبالها وبحارها وأنهارها، ومدنها، وجميع ما فيها، فنقله المأمون إلى العربية.

قال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أن الدنيا مثل نسر، فالشام رأسه، والروم صدره، والمشرق والمغرب جناحاه، واليمن ذنبه، ولا يزال الناس بخير ما لم يفرغ

= «ثلاثون» وفي «الدر المنثور» ٤/٤٣: ثلاثة أثلاث: ثلث...

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٤/٧٠ من حديث وهب بن منبه.

(٢) «انظر المسالك والممالك» ص ٤.

الرأس، فإذا فرغ الرأس هلك الناس.

وقال ابن حوقل: ما بين يأجوج ومأجوج إلى ناحية البحر المحيط في الشمال براري وقفار، ليس فيها عمارة ولا نبات لشدة البرد بها، وسببه انحراف الشمس عن القطب الشمالي، وكذا ما بين المحيط والسودان براري لا شيء فيها لشدة الحرّ، وسببه ميل الشمس إلى ناحية الجنوب^(١).



(١) «صورة الأرض» ص ٢٢.

فصل

في ذكر الأقاليم الدالة على حكمة الحكيم

قال الجوهري: الإقليم واحدُ الأقاليم السبعة^(١). ولم يبين، قلت: والأصح في حدِّ الإقليم: أنه بلدان وأماكن تقطعها الشمس في طلوعها وغروبها وارتفاع درجتها. وذكر في «جغرافيا» وقال: الدنيا سبعة أقاليم، كلُّ إقليم تسع مئة فرسخ في مثلها، والبحر الأعظم محيط بها، وجبل قاف وراء البحر، وأطراف السماء عليه كأطراف الخيمة على وجه الأرض، وأن خضرة السماء تلونه، ولبعد المسافة تبين أنها زرقاء. ثم رتب الأقاليم فقال: أولها إقليم الهند، ثم الحجاز، ثم إقليم مصر والشام والمغرب، ثم إقليم بابل، ثم إقليم الروم، ثم إقليم الترك، ثم إقليم الصين^(٢). قلت: وما يُكتفى بهذا، ولا بدَّ من البسط في حدِّ الأقاليم، وقد ذكر أبو معشر وابن حوقل وأبو الحسين بن المنادي طرفاً من ذلك، فنأتي على أقوالهم فنقول:

الإقليم الأول^(٣): إقليم الهند: ويتدئ من المشرق من أقصى بلاد الصين، فيمرُّ على بلاد الهند، ثم على ساحل السُّند^(٤) إلى ناحية الجنوب، فيمر على عُمان، ثم على اليمن وظفار وحضرموت وعدن وصنعاء وتبالة وجرش، وما إلى تلك البلاد حتى يقطع البحر إلى جزيرة العرب، فيأتي عليها، ثم يقطع بحر القلزم ويمر على بلاد الحبشة، ويقطع نيل مصر ويمر على مدينة الحبشة، وتسمى جَرْمَى^(٥)، وعلى مدينة النوبة وتسمى دُمُقْلَة، ثم يمر في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر، إلى أن ينتهي إلى بحر الغرب الكبير.

وهذا الإقليم صحيح الهواء يورث صحة الأجسام والحكمة. قال أبو معشر: وله من البروج الجدي، ومن النجوم زحل.

(١) «الصحاح»: (قلم).

(٢) انظر «المدھش» ص ٦٤.

(٣) انظر الأقاليم السبعة في «معجم البلدان» ٢٨/١-٣٢، و«كنز الدرر» ٩٧/١-١٠١.

(٤) جاء في «كنز الدرر» ٩٨/١: «ساحل بحر السند».

(٥) في «معجم البلدان» ١٢٩/٢: «جَرْمَة».

قلت: ولما ذكرت في هذا الإقليم جزيرة العرب، ذكرت حدودها، وقد اختلفوا فيها:

فقال الجوهري: وأما جزيرة العرب هي ما بين حفر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن طولاً، وفي العرض ما بين رمل يبرين إلى منقطع السماوة^(١).

وقال الأصمعي: هي ما بين نجران والعذيب، يعني نجران اليمن، قال: وإنما سميت جزيرة العرب لإحاطة البحر بها من كل مكان، فجعل حدّها من المغرب بحر القلزم، ومن المشرق الفرات لأنها تمر على أرض الكوفة، وتصب في البحر.

قلت: وجزيرة العرب هي أرض العرب وهي عشرين، وقد حدّها أصحابنا فقالوا: هي ما بين العذيب إلى أقصى حجر باليمن، ومهرة إلى حد الشام.

الإقليم الثاني: وهو إقليم الحجاز، يتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين، ثم يمر على بلاد الهند، ثم على السند وفيه مدينة الكافور، ويقال لها: الفنصورة، ثم على الدبيل، ثم على البحر الأخضر، ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة، وفيه اليمامة والبحرين وهجر والمدينة ومكة والطائف وجدة، ثم يقطع بحر القلزم ويمر بصعيد مصر، فيقطع النيل ويمر على أسوان وإخميم، ثم يمتد في أرض المغرب على وسط بلاد أفريقية، ثم يمر على بلاد البربر، وينتهي إلى البحر المحيط.

وقال الجوهري: الحجاز بلاد، وسميت بذلك لأنها حجزت بين نجد والغور^(٢).

وروي عن الأصمعي أنه قال: إنما سمي الحجاز لأنه احتجز بالحرار الخمس: حرّة بني سليم، وحرّة واقم، ولم يذكر الباقيات^(٣).

وقال الجوهري: النجد ما ارتفع من الأرض، وقال: نجد من بلاد العرب، وهو خلاف الغور، والغور هو تهامة، وكل ما ارتفع من تهامة إلى أرض العراق فهو نجد^(٤).

(١) «الصحاح»: (جزر).

(٢) «الصحاح»: (حجز).

(٣) وباقي الحرّات الخمس: حرة شوران، وحرّة ليلي، وحرّة النار. «معجم البلدان» ٢/٢١٩.

(٤) «الصحاح»: (نجد).

وقال أبو معشر: ولإقليم الحجاز من البروج العقرب، ومن النجوم الزهرة.
 الإقليم الثالث: وهو إقليم الشام ومصر، يتدئ من المشرق فيمرّ على بلاد الصين،
 ثم على بلاد الهند، ثم على شمالي بلاد السند، ثم على بلاد كابل وسجستان، ثم على
 سواحل بحر البصرة، وفيه مدينة إصطخر ونسا ونيسابور وشيراز وسيراف، ثم يمر على
 كور الأهواز والبصرة وبغداد والكوفة والأنبار وهيت، ثم يمر على بلاد الشام: حمص
 ودمشق وصور وعكا وطبرية وعسقلان وغزة والقدس والرملة، ثم يقطع أسفل مصر
 ويمر على تّيس ودمياط والفسطاط والفيوم والإسكندرية، ثم يمر على بلاد المغرب
 ويدخل سبّته حتى ينتهي إلى البحر الكبير.

قال أبو معشر: وله من البروج الجوزاء ومن النجوم عطارد، وهواؤه غليظ يورث
 الصفار، ومرض من يسكنه من أهل المغرب الاستسقاء والبطن، والغالب على الشام
 الدم. وقال الجوهري: الشام بلاد تذكّر وتؤنث^(١).

وحده من العريش إلى الفرات، واختلفوا لِمَ سُمّي الشام شاماً، قال ابن المقفع:
 سمي الشام بسام بن نوح، وسام اسمه بالسريانية «شام»، وبالعبرانية «شيم». وقال
 الكلبي: سمي الشام لشامات في جباله حمر وسود وبيض.

قلت: والأصح إنما سمي الشام لأنه عن يسار الكعبة، وقول ابن المقفع إنما سمي
 الشام بسام، فاتفق الرواة على أنه ما نزل قط.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» أخباراً في فضائله فيها مقال:

منها ما رواه عن ابن حوالة عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالشّام فإنّها صفة الله من
 بلاده يسكنها خير عباده، فمن أبى، فليلحق بالشّام، فإنّ الله قد تكفّل لي بالشّام
 وأهله»^(٢). وذكر الحديث من حرف كثير، وروي فيه زيادات ونقص.

وقد ذكره جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» وقال: هذا حديث لا

(١) «الصّحاح»: (شام).

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٤/١، وأخرجه - أيضاً - أحمد في «مسنده» (٢٠٣٥٦) وهو حديث صحيح. وفيه: «فليلحق

يصحّ، في إسناده محمد بن كثير خرّقا حديثه ولم نرضه، كذا قال أحمد بن حنبل^(١).
وفي «الصحيحين» حديث أخرجاه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارِكْ لنا في شامنا، اللهم بارِكْ لنا في يمننا»، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ قال في الثالثة: «هُنَالِكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ». وهو حديث طويل أخرجه الحميدي في الفتن^(٢).

الإقليم الرابع: وهو إقليم العراق، ويقال له: إقليم بابل، يبتدئ من المشرق فيمرُّ على بلاد الثبت، ثم على خراسان وفرغانة وسمرقند وبلخ وبخارى وهراة ومرو وشرخس وطبرستان وطوس وجرجان وقومس وقزوين والرّي وأصبهان وقمّ وقاشان وهمذان ونهاوند والدينور وحلوان وشهرزور وسرّ من رأى والموصل وحرّان والرّقة وقرقيسيا، ثم يمرّ على حلب وقنسرين وأنطاكية والمصيصة وأذنة وعمورية وطرسوس، ثم يمرّ في البحر على جزيرة قبرس، ثم يمر ببلاد المغرب على طنجة وما والاها، ثم ينتهي إلى البحر الكبير.

قالوا: وله من البروج القوس، ومن النجوم المشتري.

وقال الخليل بن أحمد: إنما سميت بابل؛ لأن الألسن تلبلت بها، ومدينتها بناها يرّد بن مهلائيل، واختلفوا في حدّ أرض بابل على أقوال: أحدها: أنها الكوفة وسوادها، قاله ابن مسعود، والثاني: من نصيبين إلى رأس العين، قاله قتادة، والثالث: أنها أرض الحلة، والأول أصحّ.

الإقليم الخامس: وهو إقليم الروم، ويبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ومأجوج ثم يمر على شمال حرّان، وفيه من المدن: خوارزم^(٣) والشاش وأذربيجان وإزمينية، ثم يمر على بلاد الروم بأسرها، ويقطع البحر إلى رومية الكبرى وجزيرة الأندلس، ثم

(١) «العلل المتناهية» ٣١١/١.

(٢) البخاري (١٠٣٧)، ولم نقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٩٠٥) من حديث ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة هاهنا، ألا إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان». وقد جعل الحميدي هذا الحديث من المتفق عليه عن ابن عمر كما في «الجمع بين الصحيحين» (١٢٧٠).

(٣) أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلطة ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون بها. «معجم البلدان» ٣٩٥/٢.

ينتهي إلى بحر المغرب.

قالوا: وله من البروج الدلو، ومن النجوم القمر، وقيل زحل؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

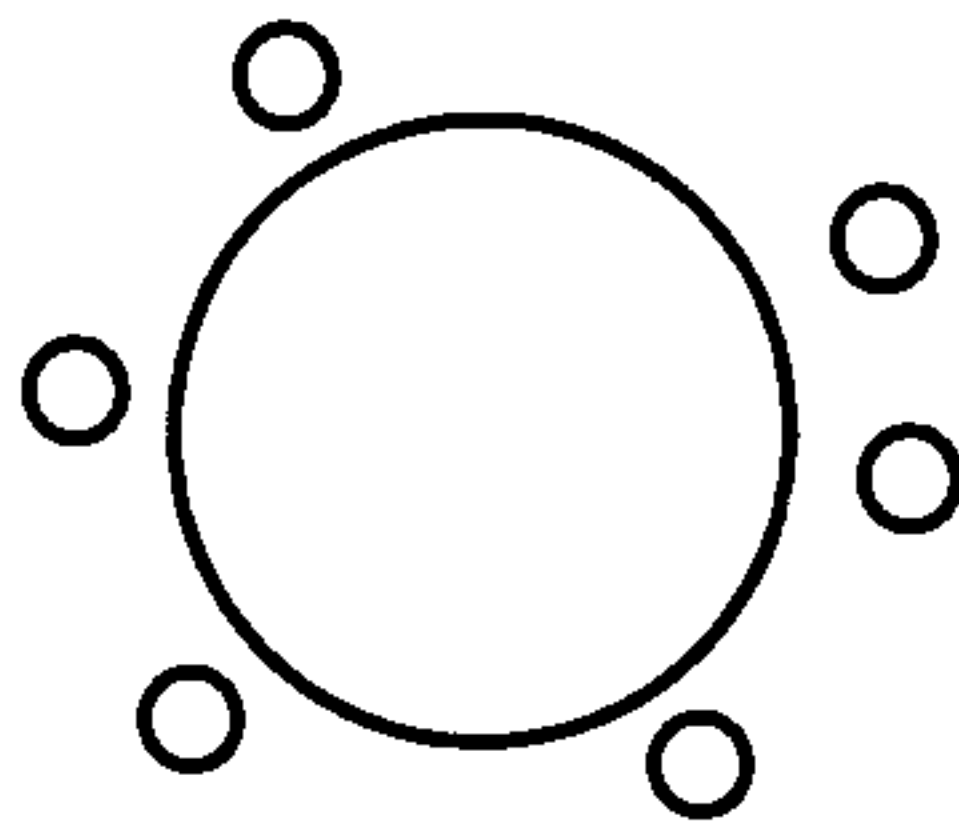
الإقليم السادس: وهو إقليم الترك، يبتدئ من المشرق ويمرُّ على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخزر، ثم على القسطنطينية، ثم ينتهي إلى بلاد المغرب. وله من البروج السرطان، ومن النجوم المريخ، وقيل: القمر، والله أعلم.

الإقليم السابع: إقليم الصين، يبتدئ من المشرق على شمال بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الترك، ثم على سواحل بحر جرجان، ثم يقطع بحر الروم ويمرُّ على بلاد الصقالبة والقفجاق، ثم بلاد البلغار وباشقرد وما والاها. وله من البروج الأسد، ومن النجوم الشمس.

وقال^(١) أبو معشر: أعمار هذه الأقاليم وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة وسياسة أربع:

إقليم بابل^(٢)، ويقال له: مملكة إيران شهر، وكانت الفرس تقدمه على الأقاليم، ويسمى ملكه: شاهنشاه وإيران شاه، ومنزله من العالم منزلة القلب من الجسد، والواسطة من العقد، والقمر من الكواكب.

وقال بطليموس: إن الهند رسمت الأقاليم كأنها حلقة مستديرة تكتنفها ستُّ دوائر، فالدائرة الوسطى إقليم بابل والأقاليم حوله، وصورته:



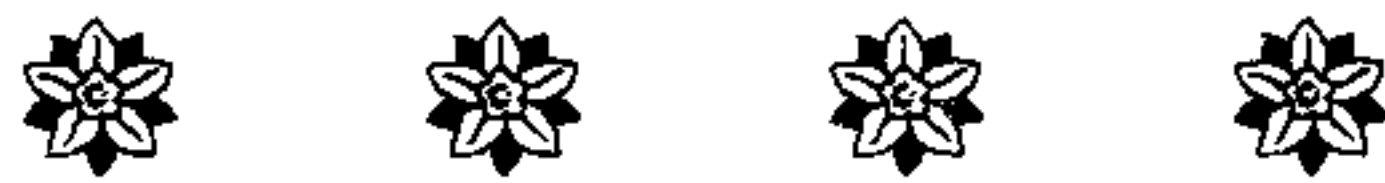
(١) هنا تعود نسخة (ل) بعد فقدان أوراق منها.

(٢) في «كنز الدرر» ١/ ١٠١: «أربعة أقاليم وهم: بابل، والهند، والحجاز، ومصر، قال: فأما بابل».

قلت: وهذه الدائرة أخذها الخطيبُ من «جغرافيا» وزاد عليها، فقال: ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة، وأن الهند رسمتها فجعلت إقليمَ بابل وسطها على الصفة المحدقة بالدوائر قال: فالإقليم الأول: إقليم الهند، والثاني: إقليم الحجاز، والثالث: إقليم مصر، ولم يذكر الشام، والرابع: إقليم بابل، وقال: وهو أعمرها وأوسطها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا، قال: وحدُّ هذا الإقليم مما يلي أرضَ الحجاز وأرضَ نجدِ الثعلبية من طريقِ مكة، وحدّه مما يلي الشام وراء مدينة نصيبين من ديار ربيعة بثلاثة عشر فرسخاً، وحدّه مما يلي أرضَ خراسان وراء نهر بلخ، وحدّه مما يلي الهند خلف الدَّيْل بستة فراسخ. قال: وبغداد وسط هذا الإقليم؛ قال: والإقليم الخامس: بلاد الروم والشام، فجعل الشام من بلاد الروم. قال: والإقليم السادس: بلاد الترك، والسابع: بلاد الصين. وقال الخطيب أيضاً: وبغداد وسط هذا الإقليم وموضعها صفوة الأرض، ولذلك اعتدلت ألوانُ أهله وامتدت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين، وكلّما^(١) اعتدلوا في الخلقة لطفوا في الفطنة.

ثم إقليم الروم ثم إقليم الهند و إقليم الصين، ومنهم من يفضّل إقليم الصين على الكلّ ويقول: هو أعدل الأقاليم وأصحها^(٢).

قال أبو معشر: ويأجوج ومأجوج في ناحية الشمال، لهم جبال منيعة يصعد الصاعدُ إلى رأس الجبل في عشرة أيام، وتُحمل غلالهم على المعز.



(١) في «تاريخ بغداد» ١/٢٣: «كما».

(٢) «تاريخ بغداد» ١/٢٢-٢٣.

فصل

في ذكر البلدان وما فيها من السكان

ذكر علماء الهيئة أن المسكون من الأرض، على تفاوت أخطاره وبعد أقطاره، مقسوم بين سبع أمم، وهم: أهل الصين، والهند، والسُّند، والروم، والفرس، والترك، والعرب.

وروي أن بطليموس أحصى مدنَ الدنيا في زمانه، فكانت أربعة آلاف مدينة ومئتي مدينة^(١).

وذكر خالد بن عبد الله المَرَوَزي: أن مدنَ الدنيا ثمانية آلاف مدينة، ففي الصين ألف مدينة، وفي الهند ألف مدينة، وفي السُّند ألف مدينة، وفي الزنج والنُّوبة ألف مدينة، وباقي المدن مُفرقة في الأقاليم.

وقال الحسن البصري: الأمصار المعتبرة في الإسلام سبعة: مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والجزيرة، والشام، ومصر، وسواد البصرة، والأهواز، وفارس^(٢). ونحن نذكر المشهور من المدن:

فصل في الفنصورة، بالفاء

وهي من مدائن الصين، وإلى كافورها^(٣) المنتهى، ويمتد رُسداقها إلى البحر شهرين.

وقال الأصمعي: إنما سميت الصين بصين بن نعير، نزلها وكثر نسله بها، فسميت به. قال: وحدها من البحر إلى التُّبَّت، وجزائر الواق واق^(٤) فيها.

وقال بطليموس: من دخل بلاد الصين لم يهنْ عليه الخروج منها، لاعتدال هوائها ورقة مائها وكثرة خيرها والذهب والفضة، ولا يزال الإنسان فيها مسروراً طَرِباً.

(١) انظر «المسالك والممالك» ص ٥.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١٠٣/١: «داخل في الجملة».

(٣) الكافور: نوع من الطيب. انظر «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٤٠٤.

(٤) كذا هي في (ل)، وفي «معجم البلدان» ٣٨١/٥: الوقواق.

وقال في «جغرافيا»: وفي بلاد الصين أنهار كبار مثل دجلة والفرات، تجري من بلاد التُّرك والتُّبَّت والصُّغْد، وفيها جبال النشادر، يرتفع منها في الصيف نيران تُرى من مئة فرسخ في الليل، وفي النهار دخان لغلبة شعاع الشمس^(١)، وأكثر سلوك الناس إلى الفنصورة والصين من ناحية خراسان في الشتاء لغلبة حرّ النشادر في الصيف، قال: ومن خراسان إلى أول أعمال الصين نحو أربعين يوماً، وقيل: أربعة أشهر، وهناك جبال الصُّغْد.

فصل

ومنها مدينة تُبَّت. قال الأصمعي: أصلها ثَبَّت بالثاء المنقوطة بثلاث، وكانت التبابعة، وهم ملوك حمير واليمن، لما طافوا الدنيا وصلوا التُّبَّت ورتبوا على تلك الحدود رجالاً مخافة العدو، فثبتوا هناك، فقال الناس: ثبت، ثم طال العهد، فجعلوا موضع الثاء تاء، والذي فعل ذلك تُبَّع الأول، وسنذكره في التبابعة. وكان ملوك التُّبَّت في قديم الزمان يسمّون التبابعة، لأنَّ تُبَّعاً وصل إلى هناك، فلما طال الزمان وحال العهد وانقضوا سموا ملكهم: خاقان^(٢).

والمسك التُّبَّتِي يُنسب إلى هذه البلاد، وسنذكره في الطيب.

وقال بَطْلَيْمُوس: من خاصية بلاد التُّبَّت والصين: أن الإنسان لا يعرف فيها الهَم والغم، ولو مات جميع مَنْ للإنسان لم يحزن عليه، ولا يكاد يُرى فيها شيخ ولا عجوز، إلا الشباب والكهول.

فصل في مدائن الهند والشرق

قال في «جغرافيا»: ومن مدائن الهند: شامل، ومورين^(٣)، وقالون، وقهنديار^(٤) وقشمير، وأقربها إلى بلاد الإسلام غَزَنَة، وكان تحت يد ملكها ألف فيل، والهند مِلُّ

(١) انظر «عجائب المخلوقات» ص ٢٠٢.

(٢) انظر «مروج الذهب» ١/٣٥١-٣٥٣.

(٣) في «المسالك والممالك»: هورين.

(٤) في «معجم البلدان» ٤/٤٠٢: قُنْدَاهَار.

كثيرة، وسنذكرهم في بابهم.

وبلاد الهند من جنس بلاد الصين في صحة الهواء ورقة الماء وعدم الهم والغم.
وقال الأصمعي: ألدُّ مدائن الشرق خُراسان نيسابور، وهَرَاة، وبلخ، وهي من بناء الإسكندر، وقال: ومعنى خُراسان: مطلع الشمس بالفارسية. وقيل: إن هَرَاة بناها الضحَّاك، ومدينة خُراسان مَرُو بناها لهُرَّاسب.

حدثنا زيد بن الحسن بإسناده عن عبد المحسن بن محمد بن علي، قال: أنشدنا منصور بن النعمان الصَّيمَري، أنشدنا محمد بن أحمد الكاتب، قال: أنشدنا ابن دريد لنفسه، وكان قد اشتاق إلى خراسان فلما دخلها لم تعجبه فقال: [من الوافر]

تمنينا خراساناً زماناً فلم نعط المني والصبر عنها
فلما أن حللناها سراعاً وجدناها بحذف النصف منها
وقال النضر بن شميل: أول مدن خُراسان: الرِّيُّ، وهي آخر الجبال منها، وإليها ينسب الرازي. قال: ومدينة مَرُو دارُ خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة، والنسبة إليها مَرَوَزي. ومن وراء النهر كابل: مدينة عظيمة، وفيها الإهليلج الكابلي، وفرغانة مدينة الصُّغد، وهم رماة الحدق، وإذا مات لهم كبير قطعوا آذانهم احتراماً له^(١).

وقال أبو منصور ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن العجم دَرَابِجَرْد.
قال الأصمعي: إن الدَّرَاوَرْدِي الفقيه منسوبٌ إليها، والباء فيها مكسورة^(٢). ومن مدائن المشرق أذريجان وأزمينية.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن خُراسان سِجِسْتَان^(٣). وقال أيضاً: وهَرَاة كُورَة من كُور العجم وقد تكلمت بها العرب^(٤).

(١) في (ل): لهم، والمثبت من المطبوع.

(٢) «المعرب» ص ٢٠١، والدراوردي هو: عبدالعزيز بن محمد، أبو محمد (ت ١٨٧هـ). وذكر السمعاني أن الباء فيه مفتوحة أو ساكنة. «الأنساب» ٢٩٢/٥.

(٣) «المعرب» ص ٢٤٦.

(٤) «المعرب» ص ٣٩٥.

ومن مدائن الشرق عُمان، وقد ذكرها النبي ﷺ، قال أحمد بإسناده عن الحسن بن هادية، قال: لقيتُ ابن عمر فقال لي: ممن أنت؟ فقلت: من أهل عُمان، فقال: من أهل عمان؟ قلت: نعم، قال: أفلا أُحدِّثك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، قال: سمعته يقول: «إني لأعلم أرضاً يقال لها: عُمان يَنْضَحُ بجانبها البحرُ، الحَجَّةُ منها أفضلُ من حَجَّتَيْنِ من غيرها». أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

وذكرها الجوهري فقال: وعُمانُ - بالتخفيف - بلد، وأما الذي بالشَّام فهو عَمَّانُ - بالفتح والتشديد - بلد^(٢).

وسنذكر المدائن التي بناها الإسكندر والفرس بخراسان وغيرها.

فصل في مدائن العراق

قال الجوهري: العراق بلاد، يُدْكَرُ ويؤنَّثُ، قال: ويقال هو فارسي مُعَرَّبٌ. والعراقان البصرة والكوفة^(٣).

وقال الأصمعي: إنما سُمِّيَ عراقاً لأنه سَفُلٌ عن أرض العرب. قال: وقال أبو عمرو بن العلاء: سُمِّيَ عراقاً لتواشج عروق الشجر والنخل فيه^(٤).

وقال الخطيبُ بإسناده عن ابن عائشة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحماس، يقول: اختر لي المنازل، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين: بلغنا أن الأشياء اجتمعت، فقال السخاء: أريد اليمن، فقال حسن الخلق: وأنا معك، وقال الجفاء: أريد الحجاز، فقال الفقر: وأنا معك، وقال البأس: أريد الشام، فقال السيف: وأنا معك، وقال العلم: أريد العراق، فقال العقل: وأنا معك^(٥)، وقال الغنى: أريد مصر، فقال الذل: وأنا معك. فاختر لنفسك. فلما ورد الكتاب على عمر قال: فالعراق إذا^(٦).

(١) أحمد في «مسنده» (٤٨٥٣).

(٢) «الصحاح»: (عمن).

(٣) «الصحاح»: (عرق).

(٤) انظر «المعرب» ص ٢٧٩.

(٥) من قوله: وقال العلم... إلى هنا ليست في (ل)، والمثبت من المطبوع وتاريخ بغداد ٢٥/١.

(٦) «تاريخ بغداد» ٢٥/١.

ومنها: حُلوان، قال ابن الجواليقي: حلوان مدينة من مدن العجم. وقال ابن الكلبي: إنما سميت بذلك؛ لأنَّ بعضَ ملوكِ الأعاجم أقطعها حلوان بن الحاف بن قضاة^(١).

وروي عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله ﷺ «اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وفي شامنا ويمنا، وفي حجازنا» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فلما كان في اليوم الثاني، قال مثل ذلك، فقام إليه الرجل وقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فقام إليه الرجل في اليوم الثالث فقال مثل ذلك، فأمسك عنه، فولَّى وهو يبكي، فدعاه النبي ﷺ، فقال: «أمن أهل العراق أنت؟» قال: نعم، قال: «إن أبي إبراهيم همَّ أن يدعو عليهم فأوحى الله تعالى إليه: لا تفعل، فإني جعلتُ خزائن علمي فيهم، وأسكنتُ الرحمةَ قلوبهم»^(٢).

فصل ومن مدن العراق مدينة بابل

بناها نُمرود بن كنعان، ومكانها معروف، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ١٠٢]. وقال الجوهرى: بابلُ اسم موضع بالعراق ينسب إليه السحر والخمر، ولا ينصرف لتأنيته^(٣).

وقد أكثرت فيها الشعراء. وحكى لي جماعةٌ من مشايخنا: عن البلخي الواعظ أنه كان يعظُ بالنظامية، وبدت منه حركات أوجبت إخراجَهُ من بغداد، فجاءَ إليه بعضُ غلمان الديوان، وهو على المنبر فقال له: قد رُسِمَ بأن تخرجَ من البلد، فأنشد^(٤): [من الطويل]

أبابلُ لا واديكِ بالجودِ مُفَعَمٌ لديّ ولا ناديكِ بالرُفدِ أهلُ
لئن ضِقتِ عني فالبلادُ فسيحةٌ وحسبك عاراً أنني عنكِ راحلُ

(١) «المعرب» ص ١٦٩-١٧٠. وفيه: «حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة». وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص ٤٥٠.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٤-٢٥، وابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٦٢.

(٣) «الصحاح»: (ببل).

(٤) الأبيات لمحمد بن أحمد الأبيوردي في «ديوانه» ١/ ٣٧٧، وفيه:

أبابل لا واديك بالرُفدِ منعم لدينا ولاناديك بالوفدِ أهل

وإن كنتِ بالسَّحْرِ الحِرامِ مُدَلَّةً فعندي مِنَ السَّحْرِ الحِلالِ دلائلُ
قوافٍ تُعيرُ الأعينَ النُّجُلَ حُسْنَهَا فأَيُّ مَكانٍ خَيَّمَتْ فهو بابلُ
وكان بابلَ عجائبَ نذَكرها في عجائبِ الدُنيا.

فصل

ومنها الأنبار، وهي مدينة قديمة ذكرها الجوهري، وقال: وأنبار اسم بلدٍ^(١).
وسنذكرها فيما بعد.

فصل

ومن مدائن اليمن صنعاء، قال الجوهري: وصنعاء - ممدود - قصبَةُ اليمن، والنسبة
إليها صنعانيٌّ على غير قياس، كما قالوا في النسبة إلى حرَّان: حَرْنانيٌّ^(٢).
قال: وحَضْرَمَوْتُ: اسم بلد وقبيلة أيضاً، وهما اسمان جُعِلا اسماً واحداً،
والنسبة إليه: حَضْرَمِيٌّ، وتصغيره حُضَيْرُمَوْتُ، والجمعُ الحَضَارِمَةُ^(٣).
قال: وظفارٍ مثل قَطامٍ مدينةٌ باليمن، وجَزْعٌ ظفاريٌّ منسوب إليها، وكذا عودٌ
ظفاريٌّ، للذي يُتَبَخَّرُ به، وفي المثل: من دخلَ ظفارِ حَمَرٍ^(٤). أي: تكلم بلغة حمير.
وسنذكره في الأمثال إن شاء الله تعالى، ونذكر أيضاً عَدَنَ، ونذكر أيضاً مكة في قصة
الخليل عليه السلام.

فصل

فأما مدينة النبي ﷺ، فقال الجوهري: وَيَثْرِبُ مدينة النبي ﷺ^(٥).
وقال عكرمة: وقد سماها النبي ﷺ يَثْرِبَ، ففي حديث الهجرة عن رسول الله ﷺ
أنه قال: «رَأَيْتُ فِي مَنامي أَنِّي أَهاجِرُ إلى أرضٍ بها نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إلى أَنَّها اليَمامَةُ

(١) «الصحاح»: (نبر).

(٢) في (ل): حراني، والمثبت من «الصحاح»: (صنع).

(٣) «الصحاح»: (حضر).

(٤) «الصحاح»: (ظفر)، وانظر «مجمع الأمثال» ٣٠٦/٢.

(٥) «الصحاح»: (ثرب).

أو هَجَرَ، فإذا هي المدينةُ يثربُ». متفق عليه^(١). وسنذكره في الهجرة.

وسماها: طَابَةَ وَطَيْبَةَ، من الطَّيْبِ، فأخرج مسلم عن جابر بن سَمْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ طَابَةَ»^(٢).

وسنذكر قصَّتها، ومن بناها في باب التَّبَاعَةِ من ملوك اليمن، وفضلها في سيرة النبي ﷺ.

وقال هشام بن الكلبي: لما أهلك الله قومَ عاد تفرقت القبائل، فنزل قوم بمكة، وقوم بالطائف، وسار يثربُ بن مَهْذِيل بن إرم بن عَيْل وقومه فنزلوا موضع المدينة^(٣)، فاستخرجوا العيون، وغرسوا النخيل، وأقاموا زماناً، فأفسدوا، فأهلكهم الله ويبست النخيل، وغارت العيون، حتى مرَّ بها تُبَع، فبناها لما نذكر.

فصل في مدائن الجزيرة

قال الجوهري: والمَوْصِلُ بلدٌ^(٤). واختلفوا في تسميتها بذلك على قولين، أحدهما: لأنها وصلت ما بين دجلة والفرات، والثاني: لأنه كان في موضعها راهبٌ طليعةٌ للفرس، يوصل إليهم أخبار الروم.

ومن شرقيه المدينة العظمى، ويقال لها: نِينَوَى، نذكرها في قصة يونس عليه السلام.

ومنها: نَصِيبِينَ وهي قديمة، وذكرها الجوهري فقال: وَنَصِيبِينَ بِلْدٍ^(٥).

ومَيَّافَارِقِينَ أعجمي مُعَرَّبٌ، وقد نطقت به العرب^(٦).

(١) البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، و«وهلي» الرواية بفتح الهاء، وكذلك ضبطها الإمام النووي وهو بمعنى الوهم، وأهل اللغة يسكنون الهاء، وبذلك جزم ابن الأثير في «النهاية» انظر «فتح الباري» ٤٢٢/١٢.

(٢) مسلم (١٣٨٥).

(٣) جاء في «معجم البلدان» ٤٣٠/٥: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وانظر «نهاية الأرب» ص ٣١٦-٣١٧.

(٤) «الصحاح»: (وصل).

(٥) «الصحاح»: (نصب).

(٦) انظر «المعرب» ص ٣٧٠.

وآمد من قديم المدن، ولم تتكلم بها العرب، وقيل: تكلمت بها.
ومنها حَرَّان، قال الجوهرى: وَحَرَّانُ اسْمُ بَلَدٍ^(١). وذكرها ابن الجوالقي فقال:
وَحَرَّانُ اسْمُ الْبَلَدَةِ مُعَرَّبَةٌ، وهي مسماة بـ: هاران بن آزر أخي إبراهيم^(٢).
وقال ابن الكلبي: لما خرج نوح من السفينة بناها، وقيل: إنما بناها هاران خال
يعقوب عليه السلام، فأبدلت العربُ الهاءَ حاءً، وكان بها معبداً لليونان.

فصل في مدائن الشام والسواحل

فمنها: حَلَب، وقد ذكرها الجوهرى فقال: وَحَلَبُ مَدِينَةٌ بِالشَّامِ^(٣).

وقال أبو الحسين ابن المنادي: الشامات خمس كُور:

الأولى: قِيسَرِيْن، ومدينتها العظمى حَلَب، وقِيسَرِيْن أَقْدَمُ مِنْهَا، وبينهما أربعة
فراسخ، وفيها آثار الخليل عليه السلام ومقامه، وقد نزلها أكابر الملوك، كبنى حمدان
وغيرهم، قال: ومن رُسْدَاقِهَا مَنبِجٌ وهي مدينة قديمة^(٤). وذكرها الجوهرى فقال:
وَمَنبِجٌ اسْمُ مَوْضِعٍ^(٥).

وفي ساحل حلب مدن منها: أَنْطَاكِيَّة، ذكرها ابن الجوالقي في «المعرب»، وقد
تكلمت بها العرب قديماً، وكانوا إذا أعجبهم شيء نسبوه إليها^(٦). واختلفوا في بانيها
فقال قوم: بناها أَنْطُخُسُ أَوَّلُ مَلُوكِ الْيُونَانِ، وصيرها دارَ ملكه، وحشد إليها الحكماء
وأصحاب الرِّضدِ وأخذ الطوالع بها، ومسافة سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مئة
وستة وثلاثون برجاً، وعدد شُرُفَاتِهِ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وهذا السور في السهل
والجبل، وقال أبو معشر: بنيت بعد الإسكندر الثاني بمئة سنة، والنصارى تسميها دارَ
الله؛ لأن النصرانية ظهرت منها بعدما دثرت.

(١) «الصحاح»: (حرن).

(٢) في (ل): «بهاران ابن أخي ازرع»، والمثبت من «المعرب» ص ١٧١.

(٣) «الصحاح»: (حلب).

(٤) انظر «بغية الطلب» ٧٢/١.

(٥) «الصحاح»: (نبج).

(٦) «المعرب» ص ٧٣.

وقال ابن المنادي: والشَّامُ الثانية: حِمصُ وأعمالها، وكانت مركز ملوك الروم، وكان زيتونها وقنواتها متصلة بتدمر وبعلبك، ومن سواحلها طرابُلُسُ وما والاها، وقد نزلها خَلْقٌ من الصحابة.

قال: والشَّامُ الثالثة: وهي الغوطة، ومدينتها: دمشق، واختلفوا في الذي بناها على أقوال:

القول الأول: نوح عليه السلام، لما خرج من السفينة، أقام بثمانين^(١) مدةً، ثم جاء إلى الشام، فأشرف من جبال الغوطة على الغوطة فأعجبته، فشرع في بنائها واتخذها داراً، وهي أولُ مدينةٍ خُطت بعد الطوفان. قاله النضر بن شميل.

والقول الثاني: بيوراسب، وبنى بعدها صُورَ بالساحل. قاله مجاهد.

والقول الثالث: عاد بن عوص، وأنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِرمَ ذاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]. قاله كعب الأخبار.

والرابع: ذو القرنين الإسكندر الأول، لما عاد من المشرق صعد على عقبة دُمر، ومعه غلام اسمه: دمشق، فرأى المياه ضائعةً، فقال له: يا دمشق، ابن هاهنا مدينة، ورسما لها فبناها. حكاه أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخ دمشق» وقال: كان الغلام يقال له: دمشقيش بزيادة شين، قال: وكان وادي دمشق كله شجر الأرز، قال أبو القاسم: والأرزة التي وقعت في سنة ثلاث مئة وثلاث عشرة من ذلك الأرز، وبنى مكان الجامع معبداً يعبد الله فيه^(٢).

والقول الخامس: غلام للخليل عليه السلام، يقال له: العازر، وهبه له نمرود لما خرج من النار سالماً. حكاه وهب بن منبه^(٣).

والقول السادس: سليمان عليه السلام.

وبَرِيدٌ وجَيْرُونُ اللذان ينسب إليهما باب البريد وباب جَيْرُون، هما شيطانان في قول

(١) ثمانين: بليدة عند جبل الجودي، فوق الموصل. «معجم البلدان» ٨٤/٢.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ٦/١-٧.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٥/١.

أبي الحسن المدائني، كانا على عهد سليمان، وفي قول كعب الأحبار: هما أخوان، وأبوهما سعد بن لقمان بن عاد لما نذكر بعد هذا. وقيل: كان موضع جَيرون وباب البريد مدينة صغيرة، وهما من بعض أبوابها.

وإنما سُمي: الباب الصَّغير، لأنه كان أصغرَ أبوابها لما بنيت.

وباب كَيْسان: منسوب إلى كَيْسان مولى معاوية.

وباب توما: ينسب إلى عظيم من الروم يقال له: توما.

وباب الفَراديس: منسوب إلى محلة كانت في ظاهره يقال لها: الفَراديس.

وباب الفَرَج: فتحه نور الدين محمود ابن زَنْكي رحمه الله؛ تفاؤلاً باسمه وما فتح

عليه من الفتوح ببلاد الفرنج.

وباب الجابية: منسوب إلى قرية الجابية، وكانت مدينة عظيمة في الجاهلية^(١).

وفي السور أبوابٌ صغار تفتح عند الحاجة إليها^(٢).

وذكر أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خُرْداذبه: أنَّ أصحاب الرِّس كانوا باليمن،

فأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن

نوح بولده من الرِّس، فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرِّس، وانتشر ولد عاد في

بلاد اليمن، ثم خرجوا إلى الشام، فنزل جَيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام

ابن نوح دمشق، وبنى مدينتها وسماها: جَيرون، وهي إرم ذات العماد، فبعث الله هود بن

عبدالله بن رياح بن خالد بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح نبياً إلى قوم عاد

بالأحقاف، فكذبوه فأهلكهم الله. وسنذكر قصتهم في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الأوائل: إنها بنيت على الكواكب السبعة، وكان لها سبعة أبواب، على

كُلِّ باب صورة^(٣)، فالباب الشرقي للشمس، وباب توما للزُّهرة، وباب السَّلامة

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/١١٢: وباب السلامة: سمته العرب، لأنه لم يكن من جهته قتال في وقت

فتوحها في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساكر» ١/٣٦٥-٣٦٦.

(٣) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/١١٣: «الكوكب المختص به».

للقمر، وباب الفراديس لعطارد، وباب الجابية للمريخ، والباب الصغير للمشتري،
وباب كيسان لزحل.

وقال الجوهري: ويقال: إن صورة زحل باقية عليه إلى الآن^(١).

ودمشق قَصَبَةُ الشَّام، قال: ودمشق من صفات النُّوق^(٢).

واختلفوا في لفظة جَلَّق، فقال الجوهري: جَلَّقُ موضع بقرب دمشق^(٣). وقد جاء
في الشعر الفصيح، قال حسان^(٤) [من الكامل]:

لِلْهِ دَرُّ عَصَابَةٍ نَادِمَتْهَا يَوْمًا بِجَلَّقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

قال: وقيل إنه صورة امرأة، كان الماء يجري من فيها في قرية من قرى دمشق^(٥).

وقال الهيثم: بنيت دمشق في خمس مئة سنة، وأصل مياهها من عين في مرج
الزبداني عند قرية يقال لها: بَرْدَى، ثم يجتمع من عين الفيحة وينقسم سبعة أنهار، وفي
بَرْدَى يقول بعض القدماء^(٦) [من البسيط]:

وَمَا ذَكَرْتَكُمْ إِلَّا وَضَعْتُ يَدِي عَلَى حَرَارَةِ قَلْبٍ قَلَّ مَا بَرَدَا
وَمَا تَذَكَّرْتَكُمْ وَالدمعُ يَشْرُقُ بِي إِلَّا تَحَدَّرَ مِنْ عَيْنِي مَا بَرَدَى

فصل في فضل دمشق

روى وهب بن منبه أنه قال: بلغني عن ابن عباس أنه قال: أقدم حائط على وجه
الأرض حائط قبلة دمشق، وفيه قبر هود عليه السلام. وفي رواية عن كعب أنه قال: أول
حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حرَّان ودمشق وبابل^(٧).

(١) لم نقف على كلام الجوهري في «الصحاح».

(٢) «الصحاح»: (دمشق).

(٣) «الصحاح»: (جلق).

(٤) في «ديوانه» ص ٣٦٤.

(٥) انظر «معجم البلدان» ١٥٤ / ٢.

(٦) وهو إبراهيم بن أبي بكر بن عبدالعزيز، أبو إسحاق الجزري الكتبي المعروف بـ «فاشوشة» وكان من
المعمرين (٦٠٢-٧٠٠هـ) والبيتان له. انظر «عقد الجمان» ١٥٠ / ٤، و«شذرات الذهب» ٤٥٦ / ٥.

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤ / ١.

وذكر مجاهد عن ابن عباس في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال: هي دمشق^(١)، وكذا في قوله تعالى: ﴿إِرمَ ذاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] إنها دمشق.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً أنه قال: قد وكل الله بكل بلد ملكاً يحرسه، إلا دمشق فإنه يتولاها بنفسه. والموقوف أصح^(٢).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه، قال: حدثنا أصحابُ محمد ﷺ أنه قال: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمُ الشَّامُ، فَإِذَا تَخَيَّرْتُمُ الْمَنَازِلَ فِيهَا، فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، فَإِنَّهَا مَعْقِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَلَا حِمِّ، وَفُسْطَاطُهُمْ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الْغَوِطَةُ»^(٣)، إلا أن جدي رحمه الله ضعّف هذا الحديث وذكره في «الأحاديث الواهية» وقال: قال يحيى بن معين: في إسناده أبو بكر بن أبي مريم ليس بشيء^(٤).

قلت: وقد أخرج مسلم عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنزَلُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفِّهِ عَلَىٰ أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنِ»^(٥). وهو حديث طويل. والمهرودة: المصبوغة.

وروى وهب بن منبه قال: كان الخضر عليه السلام يطرقها، فأتاها مرة فوجدها بحيرة، فغاب عنها خمس مئة سنة، ثم أتاها فإذا هي عامرة، فغاب عنها خمس مئة سنة أخرى وأتاها، فإذا هي مقصبة، ثم عاد إليها فوجدها عامرة، فعل ذلك مراراً، وهذا يدل على أنها قديمة.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخه»: أنه كان بدمشق رجلاً صالحاً، وكان يقصده الخضر عليه السلام، وذلك في زمان معاوية بن أبي سفيان، فبلغ معاوية، فجاء إلى الرجل وقال له: اجمع بيني وبين الخضر عندك، قال: نعم، فجاء الخضر على

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٩١/١، من حديث عكرمة عن ابن عباس.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أحمد في «مسنده» (١٧٤٧٠).

(٤) «العلل المتناهية» ٣٠٧/١.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧). والمهرودتان: ثوبان مصبوغان بورس ثم بزعفران. انظر: شرح النووي ٦٧/١٨.

عادته، فأخبره بما قال معاوية، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: فأخبر معاوية بما قال، فقال له معاوية: قل له: قد قعدنا مع من هو خير منك، وحدثناه وخاطبناه، وهو محمد ﷺ، ولكن أسأله عن ابتداء بناء دمشق، كيف كان، فقال: نعم، وذكر بمعناه^(١).

وذكر الحافظ أيضاً عن أبي الحسين الرازي والد تمام، ذكر في «تاريخه»: أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس لما حاصر دمشق وهدم سورها، وقع منه حجر عليه منقوش باليوناني، فترجم بالعربية وكان: ويك إرم^(٢) الجبابة، من رامك بسوء قصمه الله، ويملك من خمسة أعين، ينقض سورك على يديه بعد أربعة آلاف سنة، فنظر فإذا هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ففعل بها ما فعل^(٣).

وقد ورد في فضائل دمشق أخبار، للمحدثين فيها نظر، فلذلك عدنا عنها. وقد ذكرها أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» وليس فيها ما يثبت إلا النادر.

وذكر الحافظ أبو القاسم أيضاً في أخبار دمشق: أن أبا الفتح المسلم بن هبة الله، ألف^(٤) رسالة في تفضيل دمشق على الدنيا، وكان فاضلاً، وهو القائل: [من الطويل]

وما ذقت طعم الماء إلا وجدته
وما سرّ صدري مذ تناءت بي النوى
وما أحضر اللذات إلا تكلفاً
وأني سرور يقتضيه التكلّف

وروي عن كعب الأخبار: أنه رأى رجلاً من أهل الشام، فقال: من أين أنت؟ فقال: من دمشق، فقال: أنت من الذين يُعرفون في الجنة بالثياب الخضر^(٥).

وحكى جماعة عن مشايخ دمشق: أن بالغوطة مئة ألف ونيفاً وثلاثين ألف بستان،

(١) «تاريخ دمشق» ١/٥-٦.

(٢) في (ل): «أم» والمثبت من «تاريخ دمشق».

(٣) «تاريخ دمشق» ١/٧، والخمسة أعين، هي أول حرف من اسم هذا الرجل واسم آبائه، و«بن عبدالمطلب» مستدرک من «تاريخ دمشق».

(٤) في النسخ: «صنف ألف»، والمثبت من تاريخ دمشق ٦٧/٢٠٥.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/١٢٣-١٢٤.

وسنذكر أنهارها فيما بعد.

وقد أكثر الشعراء في وصف دمشق، فمنهم أحمد بن منير الطرابلسي.

أنبأنا أبو البركات الدمشقي عن جماعة من أشياخه، قالوا: أنبأنا ابن منير، قال:

[من البسيط]

مَهْوَى الهوى ومغاني الخُرْدِ العَيْنِ حَيِّ الدِّيَارِ عَلَى عُلْيَاءِ جَيْرُونَ
أَعِنَّةَ العيسِ فِي فَيْحِ الميادينِ مُرَادَ لَهْوِي إِذْ كَفِّي مُصْرَفَةٌ
رَايَا فَجَوُّ حَوَاشِي جسرِ جسرَيْنِ فَالنَّيْرَبَيْنِ فَمَقْرَى فالرياضِ فَجَمُ
أَعلى فَسَطْرَا فَجَرْمَانَا فقلْبَيْنِ فَالقَصْرِ فالْمَرْجِ فالْمَيْدَانِ فالشَّرْفِ الـ
رَمْلُ المصلَى وَلَا أَثْلَاتُ يَبْرَيْنِ تَلِكِ المَنَازِلِ لَا وادي الأراكِ وَلَا
وَبَرْدِ أنفاسِ آصَالِ التَّشَارِينِ وَاهَاً لطيبِ غُدِيَّاتِ الرَّبِيعِ بها
نَتَّهَا الحَنَاجِرِ عَن شَدِّ الدَّسَاتِينِ^(١) وَطَابَ تَغْرِيدُ قَيْنَاتِ الغُصُونِ وَأَغْدُ

وقد وازنها أبو عبدالله محمد بن محمد، الملقب بالعماد الكاتب الأصبهاني، ولي

منه إجازة، قال^(٢): [من البسيط]

أَهْدَى النَّسِيمُ لَنَا رِيًّا الرِّيَّاحِينَ هَبَّتْ لَنَا نَفْحَةٌ فِي جِلْقِ سَحْرًا
بَاحَتْ بِسِرٍّ مِنَ الفِرْدَوْسِ مَكْنُونِ وَمِنْهَا: [من البسيط]

عَدًّا وَحَضْرًا وَيُحْصَى رَمْلُ يَبْرَيْنِ دَمَشْقُ عِنْدِي لَا تُحْصَى فضاءُهَا
فِي الحُسْنِ مِنْ مِصرَ حَتَّى مُنْتَهَى الصَّيْنِ وَمَا أرى بِلدَةً أُخْرَى تُمَائِلُهَا
بِسَاعَةٍ فِي ذُرَاهَا غَيْرُ مَغْبُونِ وَإِنَّ مِنْ بَاعِ كُلِّ العُمُرِ مُقْتَنَعًا
وَلَيْسَ يَقْنَعُ غَيْرُ الدُّونِ بِالدُّونِ لَمَّا عَلَتْ هِمَّتِي صَيْرُتُهَا وَطَنِي
كَأَنَّهنَّ قِصُورٌ لِلسَّلَاطِينِ تَرى جِوَاسِقَهَا^(٣) فِي الجِوِّ شَاهِقَةً

(١) هذا البيت زيادة من (ل)، والدساتين: هي الرباطات التي توضع الأصابع عليها في آلة العود. مفاتيح

العلوم ٤٥/١.

(٢) الأبيات في «الخريدة» «قسم شعراء دمشق» ص ٣٠-٣٤.

(٣) الجواسق: القصور.

ثَمَارُ تَمُوزَ فِي أَيَّامِ كَانُونِ
كَالْخُلْدِ وَالْمَنْ فِيهَا غَيْرُ مَمْنُونِ
فَحُسْنُ نَيْسَانَ مَوْصُولٌ بِتِشْرِينِ
مَرْفُوعَةٌ شُفِعَتْ مَنَا بِتَأْمِينِ
أَضْحَتْ تُعَوِّذُهُ مِنْهَا بِيَّاسِينِ
وَكَلُّ مُعْرَبٍ لَفْظٍ غَيْرِ مَلْحُونِ
تَسْتَنْ فِي الْجَرِي أَمْثَالَ الثَّعَابِينِ
صَفُوفَ خَيْلِ صَفُونِ^(١) فِي الْمِيَادِينِ
وَلَانَ مِنْ بَعْدِ تَشْدِيدٍ وَتَخْشِينِ
وَنَلِثْنَا الْعَرْفَ فِي أَمْنٍ مِنَ الْهُونِ

حَيًّا تَهْزُلُهُ أَعْطَافُهَا تَيْهَا
وَلِلْسَحَائِبِ خَمَّارًا يُغَادِيهَا
فَإِنْ تَكُنُّهَا وَإِلَّا فَهِيَ تَحْكِيهَا
يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ فِي بَطْحَاءِ وَادِيهَا

بِحَيْثُ تَجْتَمِعُ الدُّنْيَا وَتَفْتَرِقُ
عَلَى حَدَائِقِهَا الْأَسْمَاعُ وَالْحَدَقُ

وقال القاضي أحمد بن كامل: لما قدمها البحري مع المتوكل، وشاهد أنهارها وأشجارها وأطيافها وقصورها وولدانها وحوورها، قال: ارتفعت دمشق عن الوصف فهي كما قيل:

دَارُ النَّعِيمِ وَمِنْ أَدْنَى مَحَاسِنِهَا
نَعِيمُهَا غَيْرُ مَمْنُونٍ لِسَاكِنِهَا
أَزْهَارُهَا أَبَدًا فِي الرَّوْضِ مَوْنِقَةٌ
وَلِلْحَمَائِمِ فِي الْأَسْحَارِ أَدْعِيَةٌ
خَافَتْ عَلَى الرَّوْضِ مِنْ عَيْنِ مُطَوِّقَةٍ
مِنْ كُلِّ مُطْرِبٍ صَوْتٍ غَيْرِ مُضْطْرِبِ
وَلِلْبَسَاتِينِ أَنْهَارٌ جَدَاوِلُهَا
وَقَدْ تَرَاءَتْ بِهَا الْأَشْجَارُ تَحْسِبُهَا
يَا صَاحِبِي أَفِيْقًا فَالزَّمَانُ صَحَا
دَارُ الْمَقَامَةِ قَدْ أَضْحَتْ مَحَلَّكَمَا
وَقَالَ ابْنُ مَنِيرٍ أَيْضًا^(٢): [مِنَ الْبَسِيطِ]

سَقَى دَمِشْقَ وَمَغْنَى لِلْهُوَى فِيهَا
لَا زَالَ لِلدَّوْحِ عَطَّارًا يُرَاوِحُهَا
دَارٌ هِيَ الْجَنَّةُ الْمَحْبُورُ سَاكِنُهَا
تَبَارَكَ اللَّهُ كَمْ مِنْ مَنْظَرٍ بَهَجٍ
مِنْ أَيْبَاتٍ.

وقال محمد بن القيسراني: [من البسيط]:

أَرْضٌ تَحُلُّ الْأَمَانِي مِنْ مَحَاسِنِهَا
إِذَا شَدَا الطَّيْرُ فِي أَغْصَانِهَا وَقَفَتْ
وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا أَشْعَارًا كَثِيرَةً.

(١) في (ل): «صفوف» والمثبت من «الخريدة»، وصفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة.

(٢) الأبيات في «ديوانه» ص ٢٠٦.

في كلِّ ناحيةٍ من وجهها قمر^(١)

ثم قال^(٢): [من البسيط]

العيشُ في ليلٍ دارياً إذا برداً
والرَّاحُ نَمزُجُها بالماء من بَرَدِي
أمَّا دمشقُ فقد أبدتُ محاسنَها
وقد وَفَى لك مُطريها بما وَعَدَا
من أبيات.

وللعماد الكاتب في مدحها قصائد عديدة ذكرها في «الخريدة»^(٣).

وقال ابن الكلبي: دمشق كورة من كُورِ الشام، ومن أعمالها:

البُلُقَاء، منسوبة إلى بالق.

وعَمَّان - بالتشديد - سميت بذلك لأن عَمَّان بن لوط عمرها وأقام بها.

وزُغَر ومآب باسم ابنتي لوطٍ عليه السلام، وقيل: مآب بن لوط والرية بنت لوط

عليه السلام.

وقيل: وسميت صَيْدا بصَيْدون بن كنعان بن نوح عليه السلام.

وأريحا: بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وسميت: الكُسوة، لأنَّ رسل ملك الروم باتوا بها، فسرت ثيابهم، فأصبحوا

عُرَاءً، وقيل: لأن غسان قتلتهم واقتسمت ثيابهم وكسوتهم.

والجابية: الحوض.

قال: وصور وعكَّة من أعمال دمشق، وقال الجوهري: عكَّة - بالهاء - قال: وهي

اسم بلد بالثُّغور^(٤). ويقال: عكَّا بالمدِّ، بدليل أنك إذا نسبت إليها قلت: رجل

عكَّاوي، وصور من صار إذا مال، وهي مائلة في البحر.

(١) هذا عجز بيت لبشار بن برد وصدرة: «كأنما أفرغت في جوف لؤلؤة» وعزاه إليه أسامة بن منقذ في «البديع

في البديع»، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٢) البيتان في ديوانه ٧٠٩/٢-٧١٠.

(٣) «الخريدة» شعراء دمشق ص ١٩-٣٤.

(٤) «الصحاح»: (عكك).

ومنها: الرَبُّوَّة، كان عيسى عليه السلام وأمه يَأُوِيَان إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ومنها: قَاسِيُون، وسنذكره في الجبال.

وبظاهر دمشق أماكن مباركة، منها: مقبرة باب الفَرَادِيس، كان كعب الأَحْبَار يقول: يبعث الله منها سبعين ألف شهيد، يشفعون في سبعين ألف إنسان^(١).

وقال كعب: بِطَرَسُوس عشرة من قبور الأنبياء، وبالمَصِيصَة خمسة، وبأنطاكِيَة قبر حبيب النجار، وبِحَمَص ثلاثون نبياً، وبدمشق خمس مئة، وبالسواحل ألف نبي، وببيت المقدس ألف نبي، وبالعرِيش عشرة.

وروى مكحول عن ابن عباس قال: من أراد أن ينظرَ إلى قبور الأنبياء فعليه بالشام^(٢).

قلت: وقد ذكر أبو القاسم ابن عساكر آثاراً في أماكن بظاهر دمشق، منها:

قرية بَرَزَة، فروى بإسناده إلى ابن عباس: قال: ولد إبراهيم في غوطة دمشق، بقرية يقال لها: بَرَزَة، في جبل يقال له: قَاسِيُون^(٣). ثم ذكر بعده: أن إبراهيم قدم إلى الشام، وجاهدَ ملك النبط، وجاءَ فصلِّي في المقام^(٤).

قلت: لا خلاف بين علماء السير أن إبراهيم ولد بالعراق، ما اختلف فيه اثنان^(٥).

ثم روى بعد هذا: أن جبل بَرَزَة هو الذي رأى منه إبراهيم الكواكب، وقال: هذا ربي وهذا تناقض، ثم قال: والشَّقُّ الذي في المسجد هو الذي اختبأ فيه إبراهيم من نُمرود^(٦)، ثم روى بعد هذا حديثاً عن النبي ﷺ، أنه قال: «وبالغوطة جبلٌ يقال له:

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٦٦/١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٦٦/١.

(٣) «تاريخ دمشق» ٣٣١/١.

(٤) «تاريخ دمشق» ٣٣٢/١.

(٥) وسيذكر المصنف الاختلاف فيه عند مولده ﷺ، وقد نص ابن عساكر في «تاريخه» ٣١٣/٢ على ما اعتمده المصنف أنه ولد بالعراق.

(٦) «تاريخ دمشق» ٣٣٢/١.

قاسيون، فيه قتل ابن آدم أخاه»^(١). وهذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا قتل قابيل أخاه بالشام، بل في الهند، وسنذكره فيما بعد. وذكر أيضاً أن الدم الذي على قاسيون دم هابيل، وأن الملائكة نزلت عزت آدم في الكهف الذي بقاسيون، وحكاه عن كعب الأحبار وغيره^(٢).

قلت: ما ورد عن كعب الأحبار في هذا الباب، فقد توقّف الناس في رواية كعب، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضربه بالدرة ويقول: دعنا من يهوديتك، ومع هذا أجاز روايته بعضهم إذا لم يرو عن النبي ﷺ؛ لأنه أسلم على يد عمر، فالرواية عن رسول الله ﷺ في هذا الباب فيها وهنٌ عظيم إذا لم توافق السنن والأصول.

فروى أبو القاسم في فضل دمشق والغوطة حديثاً عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل جمجمة جبريل على قدر الغوطة»^(٣). وهذا مما لا توافقه عليه قضايا العقول، لأنه قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الملائكة من نور»^(٤). والنور روحاني فكيف يكون جسماً، وفي رواية: «من نور العرش»^(٥) ولما سأله رسول الله ﷺ أن يظهر له في صورته، ظهر فسدّ أحد جناحيه ما بين المشرق والمغرب^(٦)، وسنذكره في ليلة المعراج.

عدنا إلى قول ابن المنادي:

والشام الرابعة: الأردن ومدينة طبرية على ساحل البحيرة، ويقال: إنها من بناء سليمان عليه السلام، وإن قبره على شاطئ البحيرة.

(١) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٢٣.

(٢) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٤، دون قصة تعزية الملائكة لآدم.

(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٣٩٢، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١/ ٣٥٨، والخطيب في «موضح أوهام الجمع» ١/ ٤٧١ من حديث ابن

عباس رضي الله عنه وفيه إدريس بن سنان قال ابن عدي: أرجو أنه من الضعفاء الذين يكتب حديثهم. وأخرجه ابن

المبارك في «الزهد» ص ٧٤ من حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ مرسلًا، ورؤيته لجبريل في الصحيحين

البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال: والشام الخامسة: الرَّمْلَة، ومدينتها فلسطين والبيت المقدس وعسقلان وغزّة والبلاد الساحلية.

قلت: وقد أشار الجوهري إلى ما ذكر ابن المنادي، فإنه قال: الشام خمسة أجناد: دمشق، وحمص، وقنشرين، والأردن، وفلسطين، يقال: لكلّ مدينة جند^(١).

وقال ابن الجواليقي: وشيّر اسم موضع لا أحسبه عربياً صحيحاً^(٢). وقال في «الصحاح»: وشيّر بلد^(٣).

وقد ذكر امرؤ القيس حماة في شعره، فدلّ على أنها قديمة، والشعر الذي ذكر حماة فيه^(٤): [من البسيط]

تَقَطَّعُ أسبابُ اللَّبانةِ والهوى عَشِيَّةَ جاوزنا حماةَ وشيّرًا
وقال أبو عبيد: ومن الناس من يبتدئ بالرملة فيجعلها للشام الأعلى وبعدها فلسطين، ثم دمشق، ثم حمص، ثم حلب.

فصل في مدائن الروم

منها قيسارية: وهي من المدن القديمة، وقد مرّ بها امرؤ القيس لما دخل الروم. ويقال: إن قبره على جبل قريب منها يقال له: عسيب. وسنذكره في ترجمته^(٥).

عمورية: وكان ملكها يركب في مئة ألف فارس، وكان حولها ألف عمود ومئتا عمود، على كل عمود راهبٌ لا ينزل منه إلا بالموت، وكانت مركز قيصر، ومنها كان يستعدُّ للغارات على بلاد المسلمين: الشام والجزيرة وغيرهما، ففتحها المعتصم، لما نذكر.

ومنها القسطنطينية: وهي المدينة العظمى، بناها قسطنطين الملك، وهو أول من

(١) «الصحاح»: (جند).

(٢) «المعرب» ص ٢٥٤.

(٣) «الصحاح»: (شزر).

(٤) البيت في «ديوانه» ص ٦٢.

(٥) سيذكره المصنف في الجبال والهضاب، عند وصفه لجبل عسيب، ولم يذكره في ترجمة امرئ القيس.

أظهر دين النصرانية، لما نذكر، قالوا: ولها سبعة أسوار، وسُمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعاً، وفيه مئة باب، وسمك فصيلها^(١) الصغير عشرة أذرع، وهي على خليج يصبُّ في البحر الرومي، وهي متصلة ببلاد رومية والأندلس، لما نذكر في باب البحار.

وقد جاء في ذكرها^(٢)، قال مسلم بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سمعتُم بمدينة جانب منها في البر، وجانب منها في البحر»؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من ولد إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، لم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، ثم يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط الجانب الآخر، فيقولون الثالثة كذلك، فيفرج لهم، فيدخلونها فيغنمون ما فيها، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ: أن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون». وهذا حديث طويل وفيه أمارات الساعة، وانفرد بإخراجه مسلم^(٣). وقال ثور بن يزيد: هي القسطنطينية.

قال أحمد بإسناده إلى أبي قبيل قال: كنا عند عمرو بن العاص وسئل: أيُّ المدينتين تُفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل» يعني القسطنطينية^(٤).

قال: ومنها مدينة رومية: ذكر ابن خردادب في كتاب «المسالك والممالك»: أن طولها من الباب الغربي إلى الباب الشرقي ثمانية وعشرون ميلاً، ولها سوران من حجارة بينهما مقدار ستين ذراعاً فضاء، سمك السور الأول اثنان وسبعون ذراعاً، وسمك الثاني اثنان وأربعون ذراعاً، وبين السورين نهرٌ مُغَطَّى ببلاطٍ من نحاس، طول كل بلاطة سبعة وأربعون ذراعاً.

(١) الفصيل: حائط قصير دون سور المدينة والحصن «الصحاح»: (فصل).

(٢) بعدها في «كنز الدرر» ١/١٢١: «حديث».

(٣) مسلم (٢٩٢٠).

(٤) أحمد في «مسنده» (٦٦٤٥).

قال: والنهر الذي يدخل فيها من البحر، تدخل فيه المراكب بقلوعها^(١)، فتقف على حوانيتِ التجار تباع وتشتري.

وفي داخلها كنيسة بُنيت على اسم بطرس وبولص الحواريين، وهما فيها في جرنٍ من الرخام مدفونين، وطولُ هذه الكنيسة ثلاثة آلاف ذراع، وعرضها ثلاث مئة ذراع، وقيل: ألف ذراع، وهي مبنية على قناطرٍ من صُفْرٍ ونحاس، وكذا أركانها وسقوفها وحيطانها، وهي من العجائب.

قالوا: وفيها كنيسة مثل البيت المقدس على عرضه وطوله، مُرَّصَةٌ باليواقيت والجواهر والزُّمرد، وطول مَذْبِحِهَا عشرون ذراعاً من الزمرد الأخضر، وعرضه ستة أذرع، يحملها اثنا عشر تمثالاً من الذهب الإبريز، طول كلِّ تمثالٍ ذراعان ونصف، ولكل تمثالٍ عينان من الياقوت الأحمر تضيء الكنيسة منهما، ولها ثمانية وعشرون باباً، وطولُ الكنيسة ميلٌ، وأبوابها من الذهب.

قالوا: ولرومية ألف بابٍ من النحاس الأصفر، سوى العود والصنوبر والخشب والآبنوس المنقوش، الذي لا يُدْرَى ما قيمته، قالوا: وبها ألف ومئتا كنيسة، وأربعون ألف حمام^(٢).

وفيها طَلَّسَمَاتٌ للحيات، والعقارب لا تدخل إليها، وطلَّسَمٌ يمنع الغريب من الدخول إليها، وملكها يقال له: «الباب»، وهو الحاكم على دين النصرانية^(٣)، بمنزلة الخليفة في المسلمين، وفي وسطها سوق يباع فيه الطير مقدار فرسخ، وقد ذكرنا أن مملكتها مسيرة ثلاثة آلاف فرسخ، وبها عجائب نذكرها في فصل العجائب.

فصل في مدائن مصر وما والاها

أما الفسُطاط فسندكره عند فتوح مصر وكذا القاهرة عند بنائها.

وذكر ابن حوقل في «كتاب الأقاليم» فقال: وأما مصر فلها حدٌّ يأخذ من بحر الروم

(١) القلْع: الشراع.

(٢) «المسالك والممالك» ص ١١٣-١١٥.

(٣) بعدها في «كنز الدرر» ١/١٢٣: «كلها برها وبحرها، ومنزلته».

من الإسكندرية، إلى بَرْقَة في البرية، ثم إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلاد النُّوبَة، ثم يعطف على حدّ أسوان إلى أرض البجاة وينتهي إلى بحر القُلْزُم إلى طور سَيْناء، ثم يعطف على تيه بني إسرائيل ماراً في الجِفار إلى بحر الروم خلف العريش إلى رَفَح، ثم يعود على ساحل البحر الروميّ إلى الإسكندرية^(١).

ومن مدائنها القديمة: مدينة فرعون، واسمها مَنفُ، وقيل: عين شمس، وكان قد بالغ في بنائها وجعل لها سبعين باباً، وبني حيطانها بالصُّفر والنحاس، وزخرفها بالذهب والفضة، وأجرى الأنهار تحت قصورها، وأجرى الماء تحت سريره ونصبه على الماء، وافتخر وقال: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] وبالغ فيما فعل^(٢). وسنذكره في قصته مع موسى عليه السلام.

ومنها: الإسكندرية، واختلفوا في بانيها على أقوال:

أحدها: شدّاد بن عاد. قاله وهب.

والثاني: الإسكندر الأول ذو القرنين، وهو المقدوني. قال الهيثم بن عدي: ومقدونية هي أرض مصر، وإنما سميت مصر بمصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان مصر بن حام لما انفصل عن بابل نزلها، فنسبت إليه، وقسمها بين أولاده الأربعة، وهم قفط وأشمون وأقرن وصا، وكان قفط هو الأكبر، وسمى كل مكان باسم ولد.

وقال الهيثم: مرّ بها ذو القرنين فأعجبه مكانها وصحة هوائها، فأمر بعمارها، فلما شرع وجد أثر البنيان، ومرمرأ ورخاماً وعموداً عليه بالقلم المسند من أقلام حمير، فحلّه فإذا هو: أنا الملك شدّاد بن عاد، شددت بساعدي البلاد، وقطعت الأطواد، وبنيت إرم ذات العماد، التي لم يكن مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا مثل إرم، وأنقل إليها كل ذي قدم، من جميع الأمم، لا خوف ولا هرم، ولا غم ولا سقم، فرماني الدهر بسهمه، فأصاب مقتلي، وأخرجني من داري ووطني، فمن رأني فلا يغترّ بالدنيا بعدي.

(١) «صورة الأرض» ص ١٢٦.

(٢) انظر «المسالك والممالك» ص ١٦١.

فلما قرأ الإسكندر ما على اللوح، قوي عزمه على بنائها، فجمع الحكماء والمهندسين وأرباب الرصد، وهياً الأخشاب والحجارة، وقال للمنجمين: خذوا طالع الوقت، وهياً على الأخشاب أجراساً عند الأساس، وقال للمنجمين: إذا أخذتم الطالع، فحرّكوا الأجراس لتضعوا الأساس، وذلك برأي مني، واتفق أن الإسكندر نام في تلك الساعة والمنجمون يرصدون، فغفلوا فجاء غراب فقعد على الجرس الأكبر وحركه، فتحرّكت الأجراس دفعةً واحدةً، فوضع الصناع الأساس، وصاحوا صيحةً انتبه لها الإسكندر، فلما رأى الغراب قاعداً على الجرس فهم القصة، فقال: أردنا أمراً وأراد الله غيره، وأمر بإتمام البناء، فلما تمّ السور خرجت في الليل من البحر دوابٌ على صورة الشياطين فأخربته فأعاد البناء مراراً وهي تهدم السور، فجمع الحكماء والمهندسين حتى تُحَقِّقَ صورهم وإذا بهم شياطين، فعملوا طَلَّسَمَاتٍ من نحاس على صورهم، وجعلوها على أعمدة من نحاس، فلما خرجت الجن ورأت صورها على الأعمدة ولّت منهزمة ولم تعد. وبنى عليها سبعة أسوارٍ بين كلِّ سورين خندقٌ، فتم بناؤها في مئة سنة.

والثالث: أن الذي بناها الملكة دلوكه لتجعلها مرقباً من ناحية الروم، لأن الروم إنما ملكت مصرَ منها. قاله النوبختي.

والرابع: أن الذي بنى الأهرام بناها، وإنما أُضيفت إلى الإسكندر لأنه سكنها. قال النوبختي: مكث أهلها سبعين سنةً لا يمشون بالنهار إلا وعلى وجوههم خرقٌ سودٌّ على عيونهم لشدة بياض حيطانها وصقالها.

ذكر منارتها: ذكر صاحب «المسالك والممالك»: أن المنارة على سرطان من زجاج في البحر صنعه الإسكندر^(١). قلت: وليس كما ذكر، وإنما هي على جبل في البحر قد أكل الماء معظمه وقد شاهده في سنة أربعين وست مئة وصعدتُ على رأسها، والمنارة على خطر.

وقيل: إن الإسكندر لما مات كسروا آنيةً طعامه وشرابه وجمعوا جواهره وذخائره

(١) «المسالك والممالك» ص ١٦٠.

وجعلوا الجميع في سرطان من زجاج ودفنوه في أساس المنارة، وهذا أصح. وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أنه كان على رأس المنارة مرآة إذا نظر الناظر فيها قبل طلوع الشمس رأى مَنْ يَكُونُ بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر^(١). قلت: وهذا إنما نقله من كتاب «المسالك والممالك»^(٢) وليس كما ذكر صاحب المسالك، فإن مسافة ما بين القسطنطينية والإسكندرية نيفاً وأربعين يوماً إذا طابت الرياح، على ما حكاه لي مشايخ الإسكندرية، وإن ما بين الإسكندرية وقبرس إذا طاب الهواء مسيرة ثلاثة أيام، فكأن الناظر قبل طلوع الشمس ينظر فيها إلى المراكب وقد أقلعت من قبرس فيخبر أهل البلد فيستعدُّون للحرب، فتحَيَّلَ ملوك الفرنج حتى قلعوا المرآة من المنارة.

واختلفوا في أي زمانٍ قُلِعَتْ المرآة على قولين: أحدهما في زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان الإسكندر صنع هذه المرآة حفظاً للبلد من العدو، فكان في عزم ملوك الروم، قصد مصر فلم يتأتَّ لهم ذلك، وكان لهم ملكٌ داهية فأظهر الغضب على خادم له وكان خصيصاً به وكان الخادم باقعة^(٣) ذا مكرٍ وخديعة، فأعطاه أموالاً عظيمة وجواهر، وأسرَّ إليه ما يصنع، فخرج إلى بلاد الإسلام ودفن تلك الأموال والجواهر في أماكن متفرقة، وجاء إلى الوليد فأسلم على يده، وقال: أنا خادم الملك الفلاني، وقد رغبت في الإسلام، وقد وقع لي كتابٌ فيه أسماء المطالب التي بالشام ومصر فساعدني بالمال والرجال لترى ما أصنع، وكان الوليد شريهاً فأمدَّه بما طلب، فصار يحفر تلك الأماكن التي أودع فيها الأموال والجواهر ويحملها إلى الوليد، فسرَّ به واستولى عليه وملك قلبه وأخذ منه من الأموال أضعاف ما كان يحمل إليه، وكان يبعث بها إلى ملك الروم أولاً فأولاً سرّاً، فقال الخادم للوليد: إن تحت منارة الإسكندرية دفائن الإسكندر وذخائره وذخائر شداد بن عاد وملوك مصر لا يعلمها إلا الله، فابعث معي رجلاً لنهدم المنارة، وكان طولها ألف ذراع، والمرآة على رأسها،

(١) «المنتظم» ١/١٦٤.

(٢) «المسالك والممالك» ص ١١٥.

(٣) الباقعة: الرجل الداهية، والذكي العارف لا يفوته شيء ولا يدهى.

فبعث معه الرجال فهدم جانباً منها فثار المسلمون وأرادوا قتل الخادم وقالوا: تهدم هذه المنارة بقول علج؟! فأمهل الخادم إلى الليل وقد أعدّ مركباً للهرب، وصعد إلى المرأة نصف الليل وحده فقلعها ورمى بها في البحر، وركب المركب الذي أعدّه وتمت الحيلة، ذكره المسعودي^(١).

والثاني: أن الواقعة كانت في زمان الحاكم، بعث بعض ملوك الروم راهباً فأظهر الإسلام وأقام يتعبد في المنارة حتى وجد فرصة فقلعها في الليل ورمى بها في البحر وهرب، ذكره أبو سعيد ابن يونس^(٢) في «تاريخ مصر».

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: كان بالإسكندرية ست مئة ألف يهودي ونصراني خَوْلاً لأهلها^(٣). قلت: وهذا يحتمل أنه كان في قديم الزمان، أما اليوم فلا يبلغ أهلها هذا العدد المذكور.

وحكى ابن عساكر في «تاريخه» في حرف الهمزة في من اسمه أسامة بن زيد بن عدي أبو عيسى الكاتب التنوخي قال: كان بالإسكندرية صنم يقال له: شراويل، على حَشْفَةٍ من حَشْفِ البحر وهي في الجزيرة، وكان مستقبلاً بإصبعه القسطنطينية، لا يُدرى أكان مما عمله سليمان أو الإسكندر، فكانت الحيتان تجتمع عنده وتدور حوله فتصاد، فكتب أسامة إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يخبره بخبر الصنم ويقول: الفلوس عندنا قليلة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقلع الصنم ويضربه فلوساً، فأرسل إليه الوليد رجالاً أمناء، فأنزلوا الصنم من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فذهبت الحيتان فلم تعد إلى ذلك المكان، وضربه فلوساً^(٤).

فصل في بلاد المغرب

وأشهرها: طَلَيْطَلَة مدينة الأندلس العظمى، وهي قسبة الأندلس، ودار مملكة

(١) «مروج الذهب» ٢/٤٣٤.

(٢) هو عبدالرحمن بن أحمد بن يونس، الصديقي (ت ٣٤٧هـ).

(٣) «المنتظم» ١/١٣٥.

(٤) «تاريخ ابن عساكر» ٢/٦٩٩-٧٠، والحشفة: صخرة تكون في البحر.

الفَرَنْج، وملكها يقال له: الفنش، كما يقال: كسرى وقيصر، ويشقها نهر عظيم يسمى باجه يخرج من بلاد الجلالقة، وهم أمّة عظيمة يحاربون أهل الأندلس، وفي أرض طليطلة قنطرة عظيمة على البحر يقال لها: قنطرة السيف^(١)، من البنيان الموصوف، يقال: إن الإسكندر بناها، وقيل: سليمان عليه السلام.

وكانت طليطلة قد افتتحت في أيام الوليد بن عبد الملك، ثم عصى أهلها، فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ويسمى: الداخل، افتتحها في سنة ست وثلاثين ومائة، فهدم بعضها، وجعل دار ملكه قرطبة، وبني بها جامعاً ضاهى به جامع دمشق. وكانت قرطبة في العلم واجتماع العلماء بها مثل دمشق وبغداد، وبين قرطبة وطليطلة عشر مراحل، وبين قرطبة والبحر ثلاثة أيام.

وقال هشام بن الكلبي: في جزيرة الأندلس نحو من أربعين مدينة، منها: إفراغة وطرطوشة ولشبونة ولاردة وغيرها^(٢).



(١) في (ل): «السليف»، والمثبت من «معجم البلدان» ٤٠٦/٤.

(٢) في النسخ: الإفرنجية وطرسوسة ولذبونية وغيرها، والمثبت من (ط).

فصل

في ذكر الجبال والهضاب والقلاع والرمال^(١)

ذكر أبو الحسين ابن المنادي، وقدامة الكاتب، وأبو معشر: أن عدد الجبال المشهورة مئة وثمانية وأربعون جبلاً.

قال قدامة: ففي الإقليم الأول: تسعة عشر جبلاً، وفي الإقليم الثاني: سبعة وعشرون جبلاً، وفي الثالث: أحد وثلاثون جبلاً، وفي الرابع: أربعة وعشرون جبلاً، وفي الخامس: تسعة وعشرون جبلاً، وفي السادس: ستة وثلاثون جبلاً، وفي السابع: اثنان وثلاثون جبلاً. ولم يذكر قدامة أسامي جبال كل إقليم، وقد ذكرت المشاهير التي في الأقاليم، وبينتها على الحروف، ميلاً إلى الاصطلاح المعروف.

أجأ: جبل طييء، ذكره الجوهري في أول «الصحاح» فقال: أجأ - على وزن فَعَلَ بالتحريك - أحد جبلي طييء والآخر سلمى، وينسب إليها الأجيون، مثال: الأجيون^(٢). ووقع في عامة النسخ: أجأ، مصروف، ووقع في نسخة بخط الجوهري غير مصروف.

أُحد: وهو الذي كانت الوقعة عنده، من جبال المدينة، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحد جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه». انفرد بإخراجه البخاري^(٣)، وقد رواه أبو هريرة أيضاً^(٤)، وقال الزُّهري: وإنما أراد أهل المدينة، وهم الأنصار، أي: أهل أُحد.

إِضْم: جبل بالحجاز. ذكره الجوهري^(٥). وقد ذكرته الشعراء في أشعارها.

تِعار - بكسر التاء - من جبال الحجاز مشهور، والعرب تقول: ما أفعلُ كذا ما قام

تِعار.

(١) انظر «كنز الدرر» ١/١٢٩.

(٢) «الصحاح»: (أجأ).

(٣) أحمد (١٢٤٢١)، والبخاري (٤٠٨٣)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٩٣).

(٤) أخرجه أحمد (٨٤٥٠).

(٥) «الصحاح»: (أضم).

ثَبِير: وهو بمِنى، ويقال له: جبل الكَبْش، قال ابن عباس: فُديَ إسماعيل عنده، وفيه المَنَحَر، وكانت العرب تعظمه في الجاهلية، قال الجوهري: كانوا إذا انقضى الموسم، وقفوا عنده وقالوا: أَشْرِقْ ثَبِيرٌ كَيْمًا نَغِيرٌ^(١).

الثنين: من جبال أنطاكية، ويقال له الأقرع، لأنه لا ينبت إلا في أماكن، وعليه حَيَّات كِبَار.

جبل الثلج: شامخ يُرى من مسيرة ثلاثة أيام في السَّهْل، وهو من جبال الشام في أرض بانياس غربي دمشق، وعليه الثلج لا يذهب دائماً، وكان مسكوناً وعليه آثار عمارة، وكان في المدينة رجل كبير قد قرأ الكتب، فقال لأهله: متى أصبح هذا المكان وعليه نداوةٌ فارحلوا، ومات، فأصبحوا ذات يوم وعلى ظهور دوابهم الندى، فارتحلوا، فنزل عليه الثلج في اليوم الثاني، فطمَّه واستمر.

جبل ثُور: من جبال مكة، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ، وقد ذكره الجوهري فقال: وثور جبل بمكة، وفيه الغار المذكور في القرآن، ويقال له: ثور أَطْحَل، قال: وقال بعضهم: اسم الجبل أَطْحَل، نسب إليه ثور بن عبدمناة لأنه نزل^(٢). وسنذكره في سيرة النبي ﷺ.

ثَهْلان: من جبال الحجاز، وهو مشتق من الثَّهْل، وهو الانبساط على وجه الأرض، لأنه يمتد.

جُمْدان: - بجيم - بين قُدَيْد والجُحْفَة.

الجُودِيُّ: وهو الذي رَسَتْ عليه سفينة نوح عليه السلام، وذكره الجوهري فقال: والجودي جبل بأرض الجزيرة، استوت عليه السفينة^(٣).

وقال: وموضعه ببلاد ماسورين، وتحتة ضيعة يقال لها: ثمانين، نزل بها نوح ومن كان معه في السفينة، وهي أول ضيعة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان، وسنذكرها

(١) «الصحاح»: (ثبر).

(٢) «الصحاح»: (ثور).

(٣) إلى هنا انتهى كلام الجوهري في «الصحاح»: (جود).

في قصة نوح عليه السلام، وهي من أعمال الموصل، وبين هذا الجبل ودجلة ثمانى فراسخ، وأثار السفينة عليه باقية، إلى هَلُمَّ جَرًّا على ما قيل.

حُبْشِي: قال الجوهري: وحُبْشِي - بالضم - جبل بمكة أسفل منها، يقال: منه سَمِّيَ أحابيش قريش، لأنهم اجتمعوا عنده، وتحالفوا في حِلْفِ الْفُضُول^(١). لما نذكر.

الْحَجُّون: وهو الجبل المشرف على مسجد البيعة عند العقبة، قال الجوهري: وهو مقبرة أهل مكة^(٢).

حِرَاء - بالمد - قال الجوهري: يذكَرُ وَيؤنثُ^(٣). وكان ﷺ يتعبد في غار حراء ويخلو فيه^(٤).

وقال مسلم: وهو الجبل الذي تحرَّك لما صعد رسول الله ﷺ وأصحابه عليه^(٥).

وقال البخاري: إنما كان ذلك على جبل أحد^(٦)، لما نذكر.

خِرَازِي: من جبال الحجاز، وكانت عنده وقعة مشهورة بين نزار واليمن.

حَضَن: هو بأعلى نجد قال الجوهري: وفي المثل: «أنجدَ من رأى حَضَنًا»، قال ومعناه: من عاين هذا الجبل فقد دخل في ناحية نجد^(٧). أي: ارتفع، ومن عظم هذا الجبل ضرب به المثل، فقالوا: «لو ركن حَضَن لا يحتضن».

خَيْم: من جبال الحجاز، قال: جرير: [من الرجز]

أقبلن من نَجْرانَ أو جَنْبِي خَيْم^(٨)

(١) «الصحاح»: (حبش).

(٢) «الصحاح»: (حجن).

(٣) «الصحاح»: (حري).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) مسلم (٢٤١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد».

(٦) البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

(٧) «الصحاح»: (حضن).

(٨) أورد هذا البيت المبرد في «الكامل» ٦٤٧/٢ وروايته: «أقبلن من نَهْلان أو وادي خَيْم» ورواية الديوان =

جبل دُنْبَاوَنْد: وهو بالمشرق ببلاد طبرستان، يُرى من مئة فرسخ، لارتفاعه وذهابه في الجو، ويرتفع من أعاليه دخان، والثلوجُ تترادف عليه، ويخرج من أسفله نهر عظيم أصفر كبريتي ذهبي اللون، ومسافة صعود هذا الجبل ثلاثة أيام ولياليها، ورأسه مُدَوَّر مقدار ألف ذراع، يُرى من أسفله مثل القبة المخروطة، وفي أعلاه رمل أحمر تغوص فيه الأقدام، ولا يصل إليه شيء من الوحوش والطيور، لشدة الرياح به والبرد، وفي أعاليه ثلاثون نَقْباً يخرج منها الدخان العظيم، يُسمع لخروجه دويٌّ شديد مثل الرعد، وذلك صوت تلهَّب النار في باطنه، وفي رأسه الكبريت الأحمر الذي يُعمل منه الكيمياء على ما قالوا، وبين هذا الجبل وَطَبْرِسْتَان عشرون فرسخاً، ويقال: إن الضحَّاك محبوسٌ فيه لما نذكر في سيرة الضحَّاك^(١).

دَمَان وَوَرِقَان^(٢): جبلان مشهوران بالحجاز، وهما شامخان أسودان، وفيهما أنواع الثمر والسَّمَّاق والرُّمَّان والقرظ، وهما لمُزِينة، وهم قوم صدق.

رَأْس الْجُمُجْمَةِ: وهو جبل عظيم، أوله باليمن من ناحية الشَّحْرِ والأحقاف، ويمتد في البحر إلى الهند، ومنه تطلق المراكب من بحر فارس، ويمتد إلى المشرق، ولا يُدرى أين غايته في البحر.

رَخْرَحَان: قال الجوهري: هو قريب من عكاظ^(٣).

رَضْوَى: من جبال تِهَامَةَ، بينه وبين المدينة سبع مراحل، وهو من الينبوع على يوم، قال الجوهري: وهو من جبال المدينة، والنسبة إليه رَضْوِي^(٤).

وهذا الجبل تزعم الكَيْسَانِيَّةُ أن فيه محمد بن الحنفية، وأنه دخل في شعب من شعابه ومعه أصحابه، وهم فيه أحياء يُرزقون. وسنذكره في ترجمة محمد بن الحنفية.

وقال قدامة بن جعفر الكاتب: وبحذاء رَضْوَى جبل يقال له: عَزْوَر، يضاهي

= ٥١٢/١: «أقبلن من جنبي فتاخ وإضم».

(١) ستأتي قصته في الصفحة ٣٣٧.

(٢) في (ل): ودورقان، والمثبت من (ط) ومعجم البلدان.

(٣) في (ل): وحرجان، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (رحح). وجاء بعد هذا الكلام في «كنز الدرر» ١/

١٣٣: «ومنه يوم حرب كان لبني عامر على بني تميم، وهو من أيام العرب المشهورة».

(٤) «الصحاح»: (رضي).

رَضَوَى فِي ارْتِفَاعِهِ وَمِيَاهِهِ وَشَجَرِهِ وَمِرَاعِيهِ، وَيَسْكُنُ فِي الْجَبَلَيْنِ نَهْدٌ وَجُهَيْنَةٌ، فِي الْوَبْرِ دُونَ الْمَدْرِ.

سَاتِي دَمَا: واختلفوا فيه: فقال قدامة: هو من جبال تَهَامَةَ، وقيل: من اليمن، وقيل: من الشام. وقال الجوهري: وساتي دَمَا اسم جبل سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَيُسْفَكُ عَلَيْهِ دَمٌ، كَأَنَّهُمَا اسْمَانِ جُعِلَا وَاحِدًا^(١).

جبل السُّتَارِ - بالسُّين المهملة المكسورة -: فِي الْحِجَازِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ فِي شِعْرِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَقَالَ: هُمَا جَبَلَانِ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ^(٢): [مِنَ الطَّوِيلِ] عِلَا قَطْنًا بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السُّتَارِ وَيَذُبُّلِ قَلْتِ: فَصَارُوا ثَلَاثَةً، قَطْنًا وَالسُّتَارَ وَيَذُبُّلِ. سَلْعٌ: جَبَلٌ بِالْمَدِينَةِ.

شَابَّةٌ - بِالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ -: جَبَلٌ بِبَنَجْدِ، ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ.

شَعْبَانٌ: جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ الْيَمَنِ، وَيُقَالُ لَهُ: شَعْبٌ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَيُقَالُ لَهُ: ذُو شَعْبَيْنِ؛ نَزَلَهُ حَسَانُ بْنُ عَمْرٍو الْحِمَيْرِيُّ وَوَلَدَهُ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْكَوْفَةِ يُقَالُ لَهُمْ: شَعْبِيُّونَ، مِنْهُمْ عَامِرُ بْنُ شَرَا حَيْلِ الشَّعْبِيِّ، وَعَدَادُهُ فِي هَمْدَانَ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالشَّامِ يُقَالُ لَهُمْ: الشَّعْبَانِيُّونَ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ يُقَالُ: هُمْ آلُ ذِي شَعْبَيْنِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ يُقَالُ لَهُمْ: الْأَشْعُوبُ^(٣) وَهُمْ جَمِيعًا بَنُو حَسَانَ بْنِ عَمْرٍو، وَهَذَا لَفْظُ الْجَوْهَرِيِّ. وَالشَّيْنُ مَفْتُوحَةٌ فِي الْجَمِيعِ، وَكَذَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَقِدَامَةُ وَغَيْرُهُمْ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنَادِهِ إِلَى أَشْيَاحٍ مِنْ شَعْبَانَ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ: إِنْ مَطَرًا أَصَابَ الْيَمَنَ فَاسْتَرْقَ مَوْضِعًا فَأَبْدَى عَنْ أَزْجٍ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَكَسَرَ الْغُلُقَ، وَدُخِلَ فَإِذَا بِهِ عَظِيمٌ فِيهِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَيْهِ رَجُلٌ مَسْجِيٌّ، فَشَبْرَنَاهُ فَإِذَا طَوْلُهُ اثْنَا عَشَرَ

(١) «الصَّحَاحُ»: (دَمِي).

(٢) الْبَيْتُ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الشَّهِيرَةِ، وَهُوَ فِي دِيْوَانِهِ ص ٢٦.

(٣) «الصَّحَاحُ»: (شَعْب).

شبراً، وعليه جباب من وشي منسوجة بالذهب، وإلى جنبه مَحَجْنٌ من ذهب، وعلى رأسه تاج من ذهب فيه ياقوتة حمراء وهو أبيض الرأس واللحية له ضفيران. وإلى جانبه لوح من ذهب مكتوب فيه بالحميرية «باسمك اللهم، ربِّ حمير، أنا حسان بن عمرو القَيْل، إذ لا قَيْلَ إلا الله، عشت بأملٍ ومت بأجل هلك فيه اثنا عشر ألف قَيْل فكنت آخرهم، فأتيت جبل ذي شعبين ليجيرني من الموت فأخفرني». قال: وإلى جانبه سيف عليه مكتوب بالحميرية: «أنا قُبار بي يُدْرِك الثار»^(١).

شامة: جبل قريب من مكة وكذا طَفِيل، وقد أشار إليهما بلال، قال:

وهل يبدون لي شامةً وطَفِيل^(٢)

شَمَام: من جبال الحجاز.

شَعْران: - بفتح الشين - ذكره الجوهري، وقال: سمي بذلك لكثرة شجره^(٣). وهو من جبال الموصل.

ضَبْجَان: قال الجوهري: هو جبل بناحية مكة^(٤). وهو الذي كان يرعى عنده عمر بن الخطاب غنم أبيه.

الظهران^(٥): وهو أقرب إلى مكة، وقد نزله رسول الله ﷺ عام الحديبية والفتح.

عاقِل: من جبال الحجاز بين بني جشم وجديلة، وقيل: بين جشم وبني حنظلة. ولهم عنده وقائع، وذكروه في أشعارهم.

جبل العَرَج - بإسكان الراء -: من جبال الحجاز بين مكة والمدينة، قال الجوهري: هو منزل، وإليه ينسب العرجي الشاعر، واسمه عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٦).

(١) «طبقات ابن سعد» ٢٤٦/٦.

(٢) صدره: وهل أردن يوماً مياه مجنّة، وهو ضمن حديث عائشة رضي الله عنها في حمى المدينة، أخرجه البخاري (١٨٨٩).

(٣) «الصحاح»: (شعر).

(٤) «الصحاح»: (ضجن).

(٥) جاء في «كنز الدرر» ١٣٦/١: «بفتح الظاء: جبل بين مكة والمدينة، وهو إلى مكة أقرب» والذي بقرب مكة، ونزله النبي ﷺ هو واد يقال له: مر الظهران. انظر «معجم البلدان» ٦٣/٤، ١٠٤/٥.

(٦) «الصحاح»: (عرج).

وقال قدامة الكاتب: وهذا الجبل يتصل بالشام، فبعضه يتصل ببلبان وبعضه بجبل الثلج من أرض دمشق ويمتدُّ إلى الروم.

وقال النَّضْر بن شُمَيْل: يأتي إلى الشام من ناحية أَيْلَة ثم إلى الطُّور ثم إلى بيت المقدس ثم إلى طبرية، ويمر بالبقياع وبعَلْبَك، ويمتدُّ غربيّ حمص وحلب حتى يتصل باللُّكَّام، ثم يمتدُّ إلى مَلْطِيَّة وإلى بحر الخزر وفيه القلاع والحصون الكثيرة والمدن.

عَسِيب: من جبال الحجاز، قال الجوهرى: هو جبل بني هذيل^(١). قلت: وقد رأيت ببلد الروم عند قيسارية جبلاً يقال له: عسيب، وعليه قبر يقال: إنه قبر امرئ القيس، وهو أقرب إلى الصحة لأنَّ امرأ القيس مات بالروم، لما نذكر في سيرته.

فأما عُشَيْب - بضم العين والشين معجمة - فجبل بالحجاز لقريش.

عَيْر: جبل بالحجاز، والعين مفتوحة. وفي «الصحيحين» من حديث عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: حرّم رسول الله ﷺ ما بين عَيْرٍ إلى ثور^(٢). وهذا يدلُّ على أن بالمدينة جبلاً اسمه ثور، وأرباب السير لا يعرفون ذلك، وإنما ثور جبل بمكة وفيه الغار، ولعله اشتبه على الكاتب أو على الراوي فجعل مكان أحد جبل ثور، وقد أشار بعضهم إلى هذا فقال: قال أبو عبيد: يرى أصل الحديث أنه حرم ما بين عَيْرٍ إلى أحد^(٣). قال: وقال غيره: كأنه جعل المدينة مضافةً إلى مكة في التحريم. قلت: هذا القول ضعيفٌ لأنَّ حدود مكة لا تدخل في حدود المدينة، لما نذكر، فكأنَّ القول الأول أصحُّ^(٤).

عَيْنَيْن^(٥): من جبال المدينة، بات به رسول الله ﷺ ليلة وقعت أُحُد لما نذكر، وسنذكر جبل عرفات.

عُرْب - بغين معجمة - بين المدينة والشام في بلاد كلب، قال الجوهرى: وعنده عينٌ

(١) «الصحيح»: (عسب)، ولم يذكر فيه: «بني هذيل».

(٢) البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).

(٣) «غريب الحديث» ٣١٥/١.

(٤) قلت: وقد تكلم الأستاذ فؤاد عبد الباقي في تعليقه على صحيح مسلم على هذا الحديث؛ فانظر كلامه.

(٥) ويقال له: «عينان» انظر «معجم البلدان» ١٧٣/٤، ١٨٠.

تسمى غُرْبَة (١).

غَرْوان: جبل بالطائف وعليه ديار بني سعد، وليس بالحجاز مكان يبرد فيه الماء ويجمد سواه.

جبل الفتح: وهو من أعظم جبال الدنيا، وفيه أمم كثيرة وممالك، وفيه اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها لسان وملك، وفيه شعاب وأودية، ومدينة باب الأبواب على أحد شعابه، بناها كسرى أنوشروان وجعلها حدًّا فاصلاً بينه وبين الخزر، وجعل حدًّا السور ومبدأه من البحر إلى أعالي الجبل وذلك نحواً من أربعين فرسخاً حتى ينتهي إلى طبرستان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا الجبل باباً من الحديد وعنده حَفْظَة، وأسكن هناك أمماً مختلفة ليحفظوا الحدَّ من العدو، مثل: الخزر والترک واللان وغيرهم، ومسافة هذا الجبل على البحر مدة شهرين، وفيه قلعة باب الأبواب، وبينها وبين بغداد أربع مئة فرسخ، وهذه القلعة على وادٍ عظيم من هذا الجبل لا سبيل لأحد على العبور إلا من تحتها، وهي على جبل مدور يخرج من وسطها عين ماء، وفي جبلها قرود يقفُ القرد على رأس الملك فإن كان الطعامُ مسموماً غمز القردُ الملك فامتنع منه، والذي بناها أنوشروان، وقيل: إسفنديار من ولد لهراسف من الفرس الأول، ورثب فيها رجالاً.

ويقال: إنَّ هذه القلعة فتحت في أيام عبد الملك بن مروان، ورثب فيها رجالاً مسلمين من العرب، وهم إلى هلم جرا يتوارثونها، وينقل إليهم المواد من تَفْلِس ونواحيها، وبينها وبين تَفْلِس عشرة أيام، وأهل تَفْلِس يساعدونهم خوفاً من العدو على بلادهم. ووراء هذا السور قومٌ من العرب يتكلمون بالقحطانية، وبينهم وبين هذه القلعة ثلاثة أيام، ثم يلي هذا السور من ناحية المشرق أممٌ كثيرة خزر وترک ولان، ولهم ملوك، منهم ملك السريز ويدعى «قيلان شاه» نصراني، وإنما سمي ملك السريز لأنَّ يَزْدَجِرْد لما أحسَّ بزوال دولتهم في آخر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث سريراً من الذهب وأموالاً عظيمة إلى تلك الناحية، وهلك يَزْدَجِرْد في أيام عثمان رضي الله عنه قبل أن

(١) «الصحاح»: (غرب).

يصل إلى تلك الناحية، فأخذ السيرير رجل من نسل بهرام جور وملك تلك الناحية، وفيها اثنا عشر ألف قرية؛ ثم يلي هذه المملكة ممكلة اللان، ويقال لملكهم: «كرجناح» وله مدينة يقال لها: «ماعص» وعسكره ثلاثون ألفاً، ومما يلي هذه الممالك جبالٌ فيها قروود على صور بني آدم.

قاف: ذكر أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قَفَّ، وَالْقُرَّانَ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] عن ابن عباس: أنه جبل من زمردة خضراءٍ محيطٌ بالدنيا، وخضرة السماء منه، وعليه كتف الدنيا، وما وجد الناسُ من الزمرد فهو مما يتساقط منه.

وقال وهب بن منبه: لما مرَّ عليه ذو القرنين رأى حوله جبلاً صغاراً فناداه يا قاف ما هذه الجبال التي حولك؟ فقال: عروقي، ليس في الدنيا مدينة إلا وفيها عرق منها، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل أرضاً أمرني فحركت ذلك العرق فتزلزلت تلك الأرض، فقال له الإسكندر: فهل وراءك شيء؟ قال: نعم أرض طولها خمس مئة عام في خمس مئة عام، فيها جبال من ثلج تحطم بعضها بعضاً، ولولا ذلك الثلج لاحتقرت من حرِّ جهنم^(١).

وقد ذكره الجوهري فقال: قاف جبل محيط بالدنيا^(٢).

قُدْس - بإسكان الدال - : جبل عظيم بأرض نجد، وقد ذكرته العرب.

قاسيون: جبل شمالي دمشق فيه أثار كثيرة: مغارة الدم، ومغارة الجوع، ومسجد الكهف، وقبور الزهاد والعلماء، والنفس ترتاح إلى المقام به، ومن سَكَنَهُ لا يطيبُ له سكنى غيره غالباً.

وجاءت فيه آثار: منها ما حدثني به الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي رحمه الله قال: بلغني عن كعب الأخبار أنه قال: أوحى الله إلى قاسيون هَبْ ظِلِّكَ وبركتك لجبال بيت المقدس، ففعل، فأوحى الله إليه لن تذهب الأيام والليالي حتى أردَّ عليك خيرك

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٦. قال ابن كثير في تفسيره رداً على هذه الأخبار وأمثالها: وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم

(٢) «الصحاح»: (قوف)، وفيه: «بالأرض».

وظلك وبركتك، ويبنى لي في كنفك بيتٌ أُعبدُ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة قال:
فقاسيون من الله بمنزلة العبد الخاضع المتواضع المستكين.

وذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» هذا الأثر عن القاسم بن عبد الرحمن ولم ينسبه، وذكر البيت وقال: هو جامع دمشق^(١) وأن رجلاً سأل النبي ﷺ عن دمشق فقال: «بها جبل يقال له: قاسيون فيه قتل ابن آدم أخاه، وفي أسفله غارٌ من الغرب فيه وُلد إبراهيم عليه السلام». وذكر حديثاً فيه أماكن^(٢).

قلت: العجب من رواية مثل هذا الحديث الذي ألفاظه تنطق بوضعه على رسول الله ﷺ، فإن أحداً من العلماء لم يذهب إلى أن قاييل قتل هاييل بالشام، ولا أن الخليل عليه السلام ولد بالشام، وإنما ولد ببابل، لما نذكر في بابه.

وإنما المنقول في هذا عن كعب الأحبار، فإن نوماً البكالي روى أن كعباً قدم الشام ومعاوية بن أبي سفيان أمير بها من قبل عثمان رضي الله عنه، وكان معاوية لما بلغه قدوم كعب إلى القدس في سنة ثلاثين قال: يا ليت لنا من يخبرنا بفضائل دمشق، وبلغ كعباً، فلما نزل من عقبة شحورا نظر إلى قاسيون فقال: لا إله إلا الله، هذا مكان قتل فيه ابن آدم أخاه، كذا وجدته في التوراة، وهذا الكهف الذي عزت فيه الملائكة آدم، وهذا الغار الذي ولد فيه إبراهيم، وأشار إلى برزة، وهذا مكان كذا وكذا، وبلغ معاوية فبعث إليه بمالٍ كثير.

ومعلوم أن عمر بن الخطاب كان يعلو كعباً بالدرة دائماً ويقول: دعنا من يهوديتك. وإنما تزار هذه الأماكن بحسن الظن، فإن الأعمال بالنيات، وقد طرقها خلق كثير من السادات.

قطن: كانت عنده وقعة لعبس وذبيان بالحجاز، وقد ذكروه في أشعارهم.

جبل القمر: الذي يخرج منه نيل مصر، يبتدىء من الظلمات ويقطع البحر الحبشي ولا يعلم أين انتهاه، وليس في الدنيا بعد قاف جبل أكبر منه، وسنذكر النيل فيما بعد إن شاء الله.

(١) «تاريخ ابن عساكر» ١/٣٠٠.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ١/٣٣٣.

جبل لُبْنان: وهو بالشام، من أعظم الجبال وأبركها، وأصله من الحجاز يأتي من العَرَج ويتصل بالجبال التي على ساحل البحر الشرقي على الطُّور وأَيْلة، ويتصل بجبال بيت المقدس، ثم يمتدُّ على البقاع وبلد حمص وحلب والثغور، ويمتدُّ إلى الروم واللُّكَّام، وفيه العيون الباردة، والأشجار المثمرة، والمباحات الكثيرة، والحشائش التي تدخل في الدُّرياق.

ويقال: إن فيه حشيشة الكيمياء، وفيه الصالحون والأبدال، وفيه جبل يقال له: جبل الدير مطلٌّ على ساحل بيروت، يقال: إنَّه الجبل الذي قال فيه كنعان بن نوح: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] وبسفحه قرية يقال لها: الكرك، فيها قبر يقال: إنه قبر نوح عليه السلام، وفي سفحه أيضاً قبر شيبان الراعي، وقصته مع ذي النون المصري معروفة، وسنذكرها.

وحكى ابن الكلبي عن كعب الأحبار قال: قدم الخليل عليه السلام الشام فاشتاق إلى بيت المقدس فقال: يا رب أرني الأرض المقدسة، ف قيل له: اصعد على لبنان وانظر إلى أيِّ مكان انتهى بصرك فهو مقدس.

وروي عن شقيق البلخي أنه قال: ما اتخذ الله ولياً حتى يسحب ذيله على لبنان.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: بنى إبراهيم الكعبة من خمسة أجبل: أبي قبيس، وطور سينا، وطور زَيْتَا - وهو جبل بيت المقدس - والجودي، ولُبْنان^(١).

وقد روي عن جماعة من المشايخ أنهم شاهدوا الأبدال فيه، وسنذكر حكاية ذي النون المصري مع شيبان الراعي في ترجمة ذي النون المصري. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر حكاية جرت فيه لبعض السياحين نذكرها في السنة الثامنة عشرة وثلاث مئة.

لَعَلَّع: من جبال الحجاز، ذكره الجوهري وقال: كانت عنده وقعة مشهورة، وأنشد: [من الطويل]

لَقَدْ ذاقَ مِنَّا عَامِرٌ يَوْمَ لَعَلَّعٍ حَسَاماً إِذَا مَا هُزَّ بِالْكَفِّ صَمَّماً^(٢)

(١) أخرجه الطبري ١/ ١٢٤ من حديث عطاء.

(٢) «الصحاح»: (لعلع)، والبيت لحميد بن ثور في ديوانه ص ٣١.

اللُّكَّام: وقد ذكره ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» فقال: جبل اللُّكَّام هو الفاصل بين الثغرين، يعني: الشام والجزيرة، لأنَّ كلَّ ما كان وراء الفرات من الشام، ومن مَلَطِيَّة إلى مرعش جزيرة؛ قال: واللُّكَّام داخل في بلاد الروم، ويقال: إنه ينتهي إلى نحو من مئتي فرسخ ويمر على مرَّعش وعين زَرْبَة والهارُونِيَّة وإلى ها هنا يسمى اللُّكَّام، إلى أن يجاوز اللاذقية، فيسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص، ويتصل بلبنان ويمر على فلسطين حتى ينتهي إلى بحر القلزم ويتصل بالمقظم جبل مصر، قال: وأوله بالمشرق في بلد الصين خارجاً من البحر المحيط، فيقطع بلاد التُّبَّت وفرغانة، ثم يمرُّ بسمرقند على شمال الصُّغْد ويقطع نهر جِيحون إلى الخَزَر، ويكون عن يمين القاصد من خراسان إلى العراق، ومنه تتشعب جبال جُرجان وطَبْرِستان والدَّيلم، ويتصل بجبال أذربيجان والرِّي ثم يعود إلى هَمْدان وحُلوان وشَهْرزور، ويقطع دجلة بنواحي تكريت إلى حَدِيثَة الموصل، ثم إلى الجُودي، ثم إلى آمد، ومنه تتشعب جبال أرمينية، ثم يمرُّ إلى جبل الفتح^(١) وباب الأبواب إلى بحر الخَزَر إلى بلاد يأجوج ومأجوج، ثم يتشعب منه جبل يأخذ إلى الفرات ويتصل بسُمَيْساط إلى مرَّعش الذي ابتدأنا ذكره منها. قال: وإذا وصل إلى المقظم قطع النيل ثم مضى إلى بَرْقَة وأقصى المغرب ثم البحر المحيط^(٢).

فالحاصل: أن ابن حوقل قال: إنه يخرج من البحر المحيط بالصين وينتهي إلى البحر المحيط بالغرب، وهذا تخليط ظاهر لأنه جعله أولاً الفاصل بين الشام والجزيرة فينبغي أن ينقطع عند الفرات بأرض مَلَطِيَّة، ثم خلطه بجبال طَبْرِستان والشرق ولبنان ومصر، وأين جبال مصر من جبال الشام وما وجه الاتصال بها وإنما كلُّ جبل على حدة له حدُّ.

وذكره غير ابن حوقل وقال: اللُّكَّام جبلٌ مبارك، فيه الأبدال والمباحات والعيون، وحدُّه: من مرَّعش إلى مَلَطِيَّة عرضاً، ويمتدُّ في بلاد الروم طويلاً إلى حيث يعلم الله عز وجل، وأما الجبل الذي يقطع دجلة بنواحي تكريت فهو جبل حُمَريْن^(٣) مشهور بالعراق.

(١) في «صورة الأرض» ص ١٥٦: «بق».

(٢) «صورة الأرض» ص ١٥٤-١٥٧.

(٣) وهو الجبل الذي يقال له: «بارمًا» بين تكريت والموصل. انظر «معجم البلدان» ١/ ٣٢٠.

المُحَصَّب: هو من جبال مكة يشرف على ذي طوى؛ قال الجوهري: هو موضع الجمار بمنى^(١). ويقال له: قوس قزح، لأنه أول ما رؤي عليه قوس قزح، والعامية تقول: قوس قَدَح - بالدال - وهو خطأ، وذكره الجوهري فقال: قوس قُزَح التي في السماء غير مصروفة، قال: وقُزَح أيضاً جبل بالمزدلفة^(٢).

مُخَاشِن: جبل بالحجاز.

المُقَطَّم - بالميم -: جبل بأرض مصر، والقرافة تحته، وهو مطلقاً عليها ويمتد إلى الثوبة.

جبل نَعْمَان: ونَعْمَان وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، ذكره الجوهري قال: يقال له: نَعْمَان الأراك^(٣). وقال ابن قتيبة: ونَعْمَان جبل بالقرب من عرفة ويتصل بوادي القرى ونواحيه، قال: وفي الحديث: «خُلِقَ آدَمُ مِنْ دَحْنَا، وَمَسَحَ ظَهْرُهُ بِنَعْمَانِ السَّحَابِ»^(٤) ونسبه إلى السحاب لأنه يشرف على جبلي نعمان ويعلوهما^(٥).

وَأَسِم: وهو جبل سَرَنْدِيب الذي أهبط عليه آدم عليه السلام، ويقال له: برد، وعليه أثر قدم آدم، وشبيه البرق لا يذهب شتاء ولا صيفاً^(٦)، ويرى في البحر من مسيرة ثلاثة أيام؛ ومسح موضع قدم آدم فكان سبعة أذرع، وقيل: سبعون ذراعاً، وحوله الياقوت المختلف الألوان، وفي واديه جميع الطيب من الورقة التي نزلت مع آدم، وفيه الطواويس ودابة الزباد، وسنذكره في سيرة آدم.

يَذْبُل: جبل بين اليمامة والبصرة، كذا ذكره الجوهري^(٧).

(١) «الصحاح»: (حصب).

(٢) «الصحاح»: (قزح).

(٣) «الصحاح»: (نعم).

(٤) هما حديثان أما الأول: - وهو قوله: «خلق آدم من دحنا» - فأخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٥-٢٦، وابن عساکر في «تاريخه» ٢/ ٦١٧ من حديث سعيد بن جبیر، ودحنا: بالقصر والمد. أما الثاني: فأخرجه الفاكهي في: «أخبار مكة» (٢٩١١) من حديث سعيد بن جبیر أيضاً.

(٥) «غريب الحديث» ٢/ ٢٨٥.

(٦) في «معجم البلدان» ٣/ ٢١٦ في مادة: (سرنديب): «ويقال له: الرّهون، ويرى على هذا الجبل في كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ولا غيم».

(٧) «الصحاح»: (ذبل).

يَلْمَلَم: هو ميقات أهل اليمن في الإحرام.

أبو قُبَيْس: جبل مشهور بمكة، ذكره في «الصحاح»^(١)، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هو أول جبل وضع في الأرض^(٢). وكان يقال له في الجاهلية: الأمين، لأن ركن البيت كان مستودعاً فيه أيام الطوفان^(٣).

وهو أحد الأخشيين المطلين على مكة، هذا مشرفٌ على الصفا والآخر يقال له: الأحمر والأعرف^(٤). وفي الحديث: «لا تزول مكة حتى يزول أخشباها»^(٥)، والأخشب الجبل العظيم.

قلت^(٦): وفي الأقاليم جبال شوامخ وعرة في ناحية الشمال، النهار عند أهلها ساعة ونصف، لأن الشمس منحرفة عندهم. وفي المغرب جبال وعرة يسكنها البربر ويعصون فلا يقدر أحد عليهم. وفي الأندلس جبال فيها حجارة تتقد في الليل ويظهر منها الدخان في النهار. وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: وفي اليمن جبلان عظيمان بينهما في السهل مسيرة ثلاثة أيام، ورأساهما متقاربان بحيث يناول الرجلُ الرجلَ من رأس الجبل ما يريد لضيق ما بينهما^(٧).



(١) «الصحاح»: (قبس).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٥١٢/٢.

(٣) انظر «أخبار مكة» ٤٧/٤.

(٤) كان يعرف بهذا الاسم بالجاهلية. انظر «معجم البلدان» ١١٧/١.

(٥) أخرجه الأزرق في «أخبار مكة» من حديث ابن عباس موقوفاً بلفظ: «وجد في حجر في الحجر كتاب من

خلقة الحجر: أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا

تزول حتى تزول أخشباها، مبارك لأهلها في اللحم والماء».

(٦) انظر «كنز الدرر» ١٥٣/١.

(٧) «المنتظم» ١٣٩-١٤٠/١.

فصل

في الهضاب والقلاع والرمال^(١)

حكى سيويه عن الخليل بن أحمد أنه قال: الهَضْبَةُ اسم لما دون الجبل، وقال في «الصحاح»: هي الجبل المنبسط على وجه الأرض^(٢). وكذا التَّلْعَةُ، وذلك لا يحصى.

وأما العِقَاب^(٣) فكثيرة، منها: عَقَبَةُ سرنديب، والهند، والصين، وعقبة ساوة وهمذان وحُلوان، وفي خراسان عقاب كثيرة، وفي الرِّيِّ والجبال، وفي الحجاز عقبة هَرَشَى، ذكرها الجوهري فقال: وهَرَشَى ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر، ولها طريقان، فكلٌّ من سلكها كان مصيباً^(٤).

وفي الشام عقبة فَيْقٍ وابريق^(٥). وفي الحجاز أيضاً من ناحية مصر عقبة أَيْلَةَ. وفي اليمن عقاب كثيرة، وفي لبنان أيضاً.

وأما الرمال فكثيرة، ومنها الأحقاف، وهي ديار عاد وبها الرمل الكثير، قال الجوهري: الحِقْفُ: المعوَجُّ من الرمل^(٦).

ومنها رمل عالِج، موضع بالبادية، وقد ذكره ابن عباس في مسألة العول فقال: والذي أحصى عدد رملِ عالِج^(٧).

ومنها رمل زَرُود بين مكة والعراق.

ومنها الرمال التي بين مصر والشام وتنتهي إلى تيه بني إسرائيل، وتتصل بالطُّور

(١) انظر «كنز الدرر» ١/١٥٣.

(٢) «الصحاح»: (هضب).

(٣) العقبة: مرقى صعب من الجبال، أو الجبل الطويل يعرض للطريق، فيأخذ فيه، وهو طويل صعب شديد «تاج العروس»: (عقب).

(٤) «الصحاح»: (هرش).

(٥) لم نقف على موضعها، وفي «معجم ما استعجم» ١/٩٦: إبريق على وزن افعليل، موضع ذكره المطرُز. ورسمت في (ل): «إبريق».

(٦) «الصحاح»: (حقف).

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٣٦)، والبيهقي ٦/٢٥٣.

والبحر والحجاز، وقد ذكرها ابن حوقل فقال: والرمل المعروف بالهَبِير هو الذي طوله من وراء جبلي طَبْيء إلى أن يتصل بالجفار من أرض مصر، وعرضه من الشقوق إلى الأَجْفُر، ويقطع النيل إلى المغرب، ويمتد في أرض سِجْلُمَاسَة إلى البحر المحيط، وله عرق يضرب إلى البحرين وعمان، ويقطع البحر الشرقي إلى جَيْحُون وِخْوَارِزْم وسَمَرْقَنْد، ويتصل بالعين فيه ألوان من الرمل مختلفة: أصفر وأحمر وأبيض وأسود. وقال قدامة: وفي وسط البحر الشرقي يعني الحبشي كثيب رملٍ أحمر بعيد المسافة وفيه أمة سود الألوان عظام الأجسام.

وأما القلاع فأبلغ من أن تحصي، فمن قلاع^(١) المشرق قلعة سليمان عليه السلام باصطخر، وقلعة بفارس بناها زياد بن أبيه، وقُفْتُ، وانظروا وديول^(٢) وكردكوه.

وفي خراسان حصون كثيرة، وكذا في ما وراء النهر، ومن أحصن قلاع خراسان قلعة نيزك، وهي قلعة عظيمة فتحها يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرَة في سنة أربع وثمانين، وقد مدحها الشعراء. وليس في الشرق أحصن من قلعة باب الأبواب، وقد ذكرناها في جبل الفتح، وفي بلاد أرمينية قلاع كثيرة.

ومن قلاع الجزيرة قلعة ماردين، ذكر جدي في «المنتظم» عن أبي الحسين المنادي أنه قال: أسست قلعة ماردين على مصابرة العدو أربعين سنة، فلو نزل عليها ملك بجيشه لما افتتحها عنوة، قال: وفيها من العيون العذبة عشرة أعين^(٣).

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن المعتضد افتتحها عنوة في مدة يسيرة لما نذكر في أيامه^(٤)، والعاقل أبو بكر بن أيوب^(٥) أقام عليها تسعة أشهر ولم يبق إلا أن يفتحها، فجاءه خبر وفاة ابن أخيه العزيز عثمان فرحل عنها^(٦).

(١) «صورة الأرض» ص ٤٢.

(٢) رسمت في (ل): «وانظر وزددبوك»، ولم نقف عليهما، والمثبت من «كنز الدرر» ١/١٥٦.

(٣) «المنتظم» ١/١٥١، وفيه: «عشرات كثيرة» بدل: «عشرة أعين».

(٤) في سنة (٢٨١هـ).

(٥) هو محمد بن أيوب، اشتهر بكنيته، وستأتي ترجمته في سنة وفاته (٦١٥هـ).

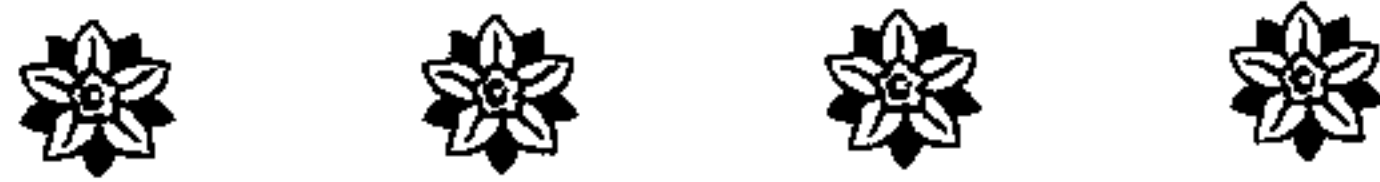
(٦) سيأتي الخبر في سنة (٥٩٤هـ).

وأما قوله: إن فيها عشرة أعين، فإن في القلعة عيناً واحدة وهي يسيرة فإني شاهدتها.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وجبل ماردين من قرار الأرض إلى ذروته مسيرة فرسخين أو نحو فرسخين، وعليه قلعة لحمدان بن الحسن بن عبد الله بن حمدان تعرف بالبازي الأشهب لا يستطيع فتحها عنوة، وفي الجبل جوهر الزجاج وحيات عظام^(١). وفي الجملة فهي أحصن قلاع الجزيرة وأمنعها وأعلاها وأرفعها.

وبالشام قلاع كثيرة: منها قلعة حلب، وتسمى: الشهباء، فإن ملك الروم نزل عليها، وفتح البلد، ولم يقدر على فتحها وقتل عليها ابن أخته لما نذكر في زمان سيف الدولة^(٢)، وكان سيف الدولة يفتخر بها ويقول: معقلي حلب وشاعري المتنبّي. وبقلعة حلب آثار الخليل عليه السلام، ويقال: إنه أوى إليها عند دخوله إلى الشام.

ومن قلاع الشام قلعة حمص وحماة وتدمر وبعلبك وصرخد وعجلون والكرك والشوبك، وكان بالساحل قلاع أُخربت كالقدس وكوكب والطور وتبين وهونين وبانياس وغير ذلك، لما نذكر إن شاء الله تعالى.



(١) «صورة الأرض» ص ١٩٤.

(٢) سيأتي الخبر في سنة (٣٥١هـ).

فصل

في ذكر المعادن التي هي كالخزائن

قال الجوهري: سمي المعدن معدناً - بكسر الدال - لأنَّ الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركز كلِّ شيء معدنه^(١). وقال الخليل بن أحمد: ومنه قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: مواضع إقامة^(٢). وقال الهيثم بن عدي: المعادن كثيرة غير أن المشهور منها سبع مئة منها: معادن الذهب والفضة، والنحاس والصفير، والزئبق والرصاص، والنفط والقار والزفت، والمرداسنج^(٣) والزرنيخ، والجصُّ والثورة والملح ونحوه، قال: ولا ينعقد الملح إلا في السبخ، ولا الجصُّ إلا في الرمل، يعني في الغالب.

وهذه المعادن مفرقة في الأقاليم، والغالب على معادن الذهب والفضة أن يكونا بالمغرب وبجزائر الفرنج، والغالب على الياقوت والجوهر واللالئ بالمشرق، والنحاس والصفير والزفت والقار بالجزيرة.

فصل في حكم المعدن

قال محمد رحمه الله: معدن ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص أو صفر ووجد في أرض خراج أو عشر، ففيه الخمس^(٤). ولا بد من تفسير هذا فنقول:

المال الموجود في الأرض له ثلاثة أسامي: الكنز والمعدن والركاز، فالكنز: اسم لما دفنه بنو آدم، والمعدن اسم لما خلقه الله تعالى في الأرض يوم خلقها، والركاز اسم لهما جميعاً.

فإن وجد معدناً فلا يخلو إما أن يجده في دار الإسلام أو في دار الحرب، فإن وجد في دار الإسلام في أرض غير مملوكة فهو للواجد كائناً من كان، غير الحربي فإنه يُستردُّ منه إلا إذا كان الإمام قد قاطعه عليه، فإن كان الموجود مما يذاب بالإذابة وينطبع

(١) «الصحاح»: (عدن).

(٢) «كتاب العين» ٤٢/٢.

(٣) مردارسنج أو مرداسنج: فارسي معرب معناه: الحجر الميت. «تاج العروس»: (مردارسنج).

(٤) «الجامع الصغير» ص ١٠٦، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمه الله عليه.

بالحيلة كالذهب والفضة والنحاس ونحوه ففيه الخمس، قليلاً كان أو كثيراً، لقوله عليه السلام: «وفي الرُّكازِ الخُمُسُ» متفقٌ عليه^(١). وأراد به المعدن.

وإن كان مما لا يذوب بالإذابة كالفضوص والجواهر واليواقيت، فلا خُمُسَ فيه عندنا لأنه حجر، ولا خمس في حجر، بالحديث^(٢).

وإن وجد المعدن في أرض مملوكة فهو لمالك الأرض لأنه جزء من أجزائها وقد ملكها بأجزائها. واختلفت الروايات في وجوب الخمس فيه: فروي عن أبي حنيفة أنه لا يُخَمَّسُ، سواء وجد في أرضٍ أو دار، وهي رواية كتاب الزكاة من «الأصل». وذكر في «الجامع الصغير» عنه: أنه إن وجد في الدار لا يُخَمَّسُ وإن وجد في الأرض يخمَّسُ، وعند أبي يوسف ومحمد يخمَّسُ في الأحوال كلها^(٣). وهو قول باقي الفقهاء لقوله عليه السلام: «وفي الرُّكازِ الخُمُسُ» من غير فصل.

وجه رواية كتاب الزكاة: أن المعدن من تراب الأرض وجزء من أجزائها فلا يخمَّسُ، والحديث محمولٌ على ما إذا وجد في أرض غير مملوكة. ووجه الفرق بين الدار والأرض على رواية «الجامع»: أن الدار ملكها بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا لا يجب فيها عشر ولا خراج، والأرض لم تملك بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا يجب فيها العشر، فجاز أن يجب فيها الخمس، وعلى رواية كتاب الزكاة: لا فرق بين الأرض والدار عنده.



(١) البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١٦٨١/٥، والبيهقي ١٤٦/٤ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا زكاة في حجر».

(٣) «الجامع الصغير» ص ١٠٦-١٠٧.

فصل

في ذكر البحار وما فيها من عجائب الآثار

قال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوّام بن حَوْشَب، حدثنا شيخُ كان مرابطاً بساحل البحر قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: حدثني عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس من ليلةٍ إلا والبحرُ يُشرفُ على الأرضِ، يَسْتَأْذِنُ رَبَّهُ ثلاثاً هل يَنْفُضِحُ على الأرضِ فيكفُّه الله تعالى»^(١). قلت: وقد ذكر جدي رحمه الله هذا الحديث في «الواهية»، وقال: العوّام بن حَوْشَب ضعيف، والشيخ الذي في الحديث مجهول^(٢).

قلت: أما العوّام بن حَوْشَب فهو شيخ شيخ أحمد بن حنبل وقد أخرج عنه في «المسند» أحاديث، وأما الشيخ المجهول فلا يقدر في الحديث، فقد أخرج الحميدي في آخر «الجمع بين الصحيحين» عن رجلٍ مجهول وغيره، وإنما الحديث الذي ضعّفه رواه أبو هريرة وغيره: «إنَّ الله تعالى كلّم البحرَ الشاميّ فقال: يا بحرُ، ألم أخلقك، وأكثرُ ماءك» وهو حديث طويل، قال جدي في «الواهية»: في طريقه عبد الرحمن العمري اتفقوا على تركه. وذكر غيره وقال: إنما هو من كلام كعب الأخبار^(٣).

فإن قيل: فلم سمي بحراً؟ قلنا: لعمقه وسعته، وقال الجوهري: البحر خلاف البر، قال: وكلُّ نهرٍ عظيمٍ بحرٌ، ويسمى الفرسُ الواسعُ الجري بحراً بالحديث^(٤).

واختلفوا في عدد البحار على أقوال:

أحدها: أنها سبعة أبحر، منها ستة ظاهرة وواحد محيط بالدنيا مظلم ومنه تستمد، قاله ابن عباس.

(١) أحمد في «مسنده» (٣٠٣)، وينفضح: يفتح ويسيل.

(٢) «العلل المتناهية» (٣٧).

(٣) «العلل المتناهية» (٣٣).

(٤) وهو ما أخرجه البخاري (٢٦٢٧)، ومسلم (٢٣٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان فزع بالمدينة، فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرساً من أبي طلحة - يقال له: المندوب، فركب فلما رجع قال: «ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً». وانظر «الصحاح»: (بحر).

والثاني: أنها خمسة أبحر، قاله مقاتل.

والثالث: أربعة، قاله مجاهد.

والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] لأن السموات سبع، والأرضين سبع، والنجوم السيارة سبع، والأيام سبع، وخلق الإنسان من سبع لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢] ورزق من سبع لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ الآية [عبس: ٢٤]، ومن قال بالأربع والخمس فهي داخله في السبع.

وذكر في «جغرافيا»: أنها مختلفة المقادير، فمنها ما هو على صورة الطيلسان، ومنها ما هو على هيئة الشابورة^(١)، ومنها ما هو على صورة التدوير، والغالب عليها الاستدارة.

وقال ابن حوقل في «كتاب الأقاليم»: وأشهرها بحر فارس والروم، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط، وأفسحهما طولاً وعرضاً بحر فارس، يعني الشرقي. قال: والمحيط يقال له: «قنطش» والبحار تستمد منه، وهي بالنسبة إليه كالخلجان، ولا يتأتى فيه الركوب، ولا يعيش فيه حيوان إما لشدة برد مائه أو لحرارته، ولا تجري فيه المراكب لما فيه من حجارة المغناطيس، ومن القلزم إلى الصين على خط مستقيم، يعني على وجه الأرض، نحو من مئتي مرحلة، وأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم إلى الصين في البحر طالت عليه المسافة لكثرة المعاطف في البحار والتواء الطرق^(٢).

فصل في البحر الشرقي

قال علماء الهندسة: إنه يأخذ من البحر المحيط الكبير المظلم بالمغرب وينتهي إلى أقصى الهند والصين، وذلك ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وقد يختلف عرضه باختلاف الأماكن في الضيق والسعة.

(١) في تكملة المعاجم العربية لدوزي ٦/ ٢٣٤ أنها فيما يظهر مرادف الخليج الذي ينتهي بزاوية منحرفة، أو أراد تشبيهها بالسمك الجريدي، فإن شكل الفم يشبه فم السمكة.

(٢) «صورة الأرض» ص ٢٠-٢١.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: طول هذا البحر من القُلْزُم إلى الواق واق أربعة آلاف وخمسة مئة فرسخ، وفيه خلجان عظيمة، منها خليجٌ يتصل بأرض الحبشة ويمتد إلى بلاد الزنج إلى مكان يقال له: بربرا، طوله خمس مئة ميل وعرضه مئة ميل، وليس هذا «بربرا» الموضع المعروف بالمغرب من أرض إفريقية، وإنما هو مكان آخر في أقصى الحبشة يسمى بهذا الاسم.

وقال أبو معشر: وليس في البحار أعظم من موجه، يرتفع مثل الجبال ثم ينخفض حتى يصير أودية عميقة.

وذكر أحمد بن محمد بن إسحاق في كتاب «البلدان» وقال: ليس في العالم أكبر من هذا البحر، يعني غير البحر المحيط، قال: فإنه يأخذ من المغرب وينتهي إلى الصين، فيمرُّ على النوبة والحبشة ثم على القُلْزُم ثم إلى وادي القرى وجُدَّة وزبيد وعدن والشحر وحضرموت وعمان والدَّيْل وفارس إلى المشرق^(١). وجميع بلاد الهند والهند عليه، صيفهم شتاؤنا وشتاؤنا صيفهم، فكانون وكانون وشباط مثل حَزيران وتَمُوز وآب عندنا، وعللوا ذلك بقرب الشمس من الأقاليم وبعدها. قال: وذكر مَنْ له خبرة به أن عمق الماء فيه في مواضع مئة باع وأكثر.

وقال أبو معشر: قد قسم أرباب الهيئة هذا البحر الشرقي في سبعة أقسام:

فالأول: بحر القلزم، ويمرُّ على النوبة والحبشة واليمن إلى عُمان، وطول هذا الخليج ألف وأربع مئة ميل، وعليه القُصير وعَيْذاب، وبين مدينة القُلْزُم والفُسطاط ثلاثة أيام.

والقسم الثاني: بحر فارس، وأوله من الأُبلة والبصرة والبحرين عند الخشبات، وهي علامات منصوبة من خشب في البحر يستدل بها أهل المراكب، وطول هذا الخليج أربع مئة فرسخ حتى يتصل ببحر الهند عند جبل يقال له: رأس الجُمُجمة، وأول هذا الجبل من اليمن من ناحية الشحر الأحقاف وآخره في الهند، وقد ذكرناه في الجبال، ولا يدرى أين غايته في البحر، وعلى هذا الخليج الذي يسمى بحر فارس من

(١) «مختصر كتاب البلدان» ص ١١.

البلاد: البحرين وعمان وسيراف وكرمان، ومن عمان إلى سيراف ستون ومئة فرسخ، ومن سيراف إلى البصرة أربعون ومائة فرسخ، وفيه من الأمم والجزائر ما لا يحصى، وفيه مغاص اللؤلؤ في جزيرة كيش، ولا يكون ذلك في جميع السنة بل في أول يوم من نيسان إلى آخر أيلول لا غير.

وقد اختلفوا في اللؤلؤ على قولين^(١):

أحدهما: أنه من حيوان يقال له: البلبل وفيه لحم، ويخاف على ما فيه من الدر من الغاصة كما تخاف المرأة على جنينها.

القول الثاني: أنه يتولد من الأمطار إذا وقع المطر في نيسان ارتفع الصدف إلى وجه الماء فتفتح أفواهها فيقع فيها القطر، فمن الصدف ما يضم على ما وقع فيه فيغوص ويقيم طول السنة يحفظ نفسه من استنشاق الهواء حتى يأتي نيسان وقد انعقد اللؤلؤ في باطنه، ومن الصدف ما يشق إلى النسيم فيصعد على وجه الماء فيفتح فاه ويستنشق الهواء فيفسد ما فيه.

والأول أصح، لأن الغواصين يستخرجون هذا الحيوان من البحر ويأكلون لحمه ويأخذون اللؤلؤ من جوفه، ويحتمل أن اللؤلؤ يتولد من هذا الحيوان والمطر جميعاً. والقسم الثالث من هذا البحر يقال له: بلاذري، وليس في البحر الحبشي أعظم مجرى للماء منه.

والرابع: كندرلاوي، وفيه العنبر، والخامس: كلاه بار. والسادس: كرديج، وهو بحر الصين، والسابع: مملكة المهراج.

وقال في «المسالك»: ووراء بحر الصين مفاوز ورمال تجري فيها السفن.

وقال النوبختي: إن بين الهند والصين على هذا البحر ثلاثين ملكاً، أصغر ملك منهم يملك مثل ملك العرب.

وفي هذا البحر الشرقي عجائب، منها: أن فيه سمكاً طول كل سمكة خمس مئة ذراع وأقل وأكثر، بذراع أهل البحر، ويقال له: العُمري، وهو ذراع طويل، ترفع

(١) انظر «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» ص ٢٧-٢٨.

السمة جناحها فيكون كالقلع العظيم، وتخرج رأسها من الماء ثم تنفخ فيذهب الماء في الهواء أكثر من السهم، وأهل المراكب يخافونها فيضربون الدبادب لتنفّر، وتبلع السمك الصغار فيسمع لها دويٌّ، ولهذه السمة آفة وهي سمة صغيرة مقدار الذراع يقال لها: الكشنك، فإذا أراد الله هلاك الكبيرة جاءت الصغيرة فالتصقت بأصل أذنّها وعصّتها، فتغوص الكبيرة في الماء من شدّة العضة إلى قرار البحر، وتضرب نفسها بالأرض حتى تموت، وتطفو على رأس الماء كالجبل العظيم^(١).

ونظير هذه السمة الصغيرة الدويبة التي تقتل التماسيح، لما نذكره^(٢).

ومنها: أنّ في هذا البحر سمكاً يبلع المراكب، وفيه سمك طيار وسمك على صور الجمال وجوههم كأنها البوم، وسمك على صور البقر يعمل من جلودها الدرق، وفيه سمك في بطن كل سمة مثلها وفي بطن الأخرى مثلها إلى عدة طبقات. وفيه سلاحف، استدارة ظهر السلحفاة عشرون ذراعاً وأكثر، وفي بطنها ألف بيضة، وفيه المعادن بأسرها.

قال ابن المنادي: وعليه مدينة في الهند يقال لها: مل، تنبت الفلفل، وعلى كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تُكثّه من المطر، فإذا مضى زمان المطر ارتفعت الورقة وإذا عاد عادت.

فصل في البحر الرومي^(٣)

ذكر ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» قال: وأما بحر الروم فإنه يأخذ من البحر المحيط من المغرب في الخليج الذي بين المغرب والأندلس حتى ينتهي إلى الشغور الشامية، ومقداره في المسافة نحو من أربعة أشهر، وهو أحسن استقامة واستواء من بحر فارس، وذلك لأنك إذا أخذت من فم هذا الخليج أدتك ريح واحدة إلى أكثر هذا البحر. قال: وبين القلزم الذي هو لسان بحر فارس وبين بحر الروم على سمت الفرما أربع مراحل^(٤). قال: ويزعم بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿يَنْهَمَا بَرِّحٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾

(١) انظر الخبر في «نزهة المشتاق» ١/ ٦٥، وفيه: «اللشنك»، ومروج الذهب ١/ ٢٣١-٢٤٣.

(٢) سيذكره المصنف قريباً في عجائب نهر النيل.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦٧.

(٤) في «صورة الأرض»: «ثلاث مراحل».

[الرحمن : ٢٠] أنه هذا الموضع. والله أعلم^(١).

وقال أبو معشر: بحر الرومي يأخذ من خليج يخرج من البحر المحيط، ويسمى ذلك البحر: قنطش، وأضيق مكان في الخليج من ساحل طَنْجَة ويعرف بالزُّقاق عند سَبْتَة. قال: وبداية البحر الرومي من مكان يقال له: أصنام النحاس، ليس وراءه شيء، وعرض الزُّقاق ستة أميال، وقيل: إنَّ هذا البحر مثل البركة، ولهذا إن ما بين الأندلس وبين القُسطنطينية مئة ميل، وهذا البحر يمتدُّ إلى أقصى المغرب وبلاد الفِرَنْج وعليه طرابُلُس الغرب، ثم يمتدُّ إلى الإسكندريَّة، ودمياط، والفرما، وغزَّة، وعسقلان، ويافا، وقيساريَّة، وحيفا، وعكَّة، وصور، وصيدا، ويروت، وجبيل، وأطرابُلُس الشام، وأنطُرطوس، وأذنة، والمصيصة، وجبلة، واللأذقيَّة، وبلد أنطاكيَّة، ثم يمرُّ على بلد الأرمن والروم إلى خليج القُسطنطينية. وقيل: طوله ستة آلاف ميل وعرضه من الست مئة إلى مئة بحسب اختلاف الأماكن في الضيق والسعة، وفيه جزائر نذكرها.

وقيل: إنَّ ذا القرنين هو الذي فتح هذا الزُّقاق عند سَبْتَة لأنَّ مكان البحر كان وادياً عظيماً فيه أمم كثيرة، ومدن وحصون، ومزارع وقرى، وآثارها باقية فيه، وكان أهلها عصاةً على الإسكندر، فأقام يندرهم أربعين سنة فلم يطيعوه فأرسل عليهم الماء من الزُّقاق فغرقوا.

ويتشعب منه خليج طوله خمس مئة ميل، ويتصل بمدينة رومية، ويسمى: أروس.

وقد زعم قوم أن البحر الرومي متصل بالبحر الشرقي، واحتجوا بأنه وصل في الزمان القديم قوم إلى جزيرة الأندلس في مراكب، فأغاروا عليها ووجدوا في مراكبهم النَّارَجِيل^(٢)، وهو شجر لا يكون إلا في البحر الشرقي يشبه شجر المُقل، وليفُّه يعمل به مراكب البحر الشرقي، لأنَّ مراكب البحر الرومي مسمَّرة بالمسامير، والبحر الشرقي كثير جبال المغناطيس فيشدون المراكب بليف النَّارَجِيل.

قلت: وهذا القول بعيد لما بين البحر الشرقي والغربي من المسافات والبحار

والجبال وغير ذلك.

(١) «صورة الأرض» ص ٢١.

(٢) النَّارَجِيل: هو جوز الهند.

فصل في خليج القُسطنطينية

قد توهم قوم أنّ خليج القُسطنطينية إنما يأخذ من البحر الرومي ويصبُّ في بحر باب الأبواب، والأمر بالعكس، لأنَّ علماء الهيئة ذكروا أنّ في ناحية الشمال بحراً يقال له: نيّطس^(١)، طوله ألف ميل وعرضه ثلاث مئة ميل، وهو أحد البحور السبعة، ومصبه من ناحية الشمال من بحر آخر أكبر منه، وعلى سواحلّه خلق عظيم من ولد يافث بن نوح، يمتدُّ إلى خليج القُسطنطينية، وطول خليج القُسطنطينية ثلاث مئة ميل وعرضه عشرة أميال، والقُسطنطينية على جانبه من ناحية الشمال، وهو خليج عسر كثير الأمواج سريع العطب.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: البحر المعروف بنيّطس من وراء القُسطنطينية يجيء من بحر الخزر، وعرض قُوّهته ستة أميال، يمرُّ على القُسطنطينية ثم يصبُّ في بحر الروم، ويمرُّ ببلاد الأندلس فإذا انتهى إليها صار بين جبلين، ويضيق حتى يصير عرضه مقدار السهم.

فصل في بحر باب الأبواب

قال علماء الهيئة: هذا البحر مستدير الشكل، إلا أنه إلى الطول أقرب. وطوله ثمان مئة ميل وعرضه ست مئة ميل، وعليه الخزر والدَيْلم وجُرْجان وطَبْرِستان والتُّرك وأمم كثيرة، وفيه التّنين، واختلفوا فيه على قولين: أحدهما أنه دابة تكون في البحر فتعظم فتؤذي دوابَّ البحر، فيبعث الله عليها ريحاً فتخرجها إلى وجه الماء، فتعلق بها السحب فتلقها إلى الأرض. والثاني: أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى ظاهر البحر ثم ترتفع إلى الجو وتلحق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وثار معها الغبار، فيتوهم الناس أنها حيات سود خرجت من البحر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) جاء في «معجم البلدان» ١/ ٥٠٠: «بَنْطُس» بضم الطاء والسين المهملة. وضبطه القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/ ٣٥: بنون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة في الآخر، وهو المعروف ببحر القرم.

فصل في مبادي البحار^(١)

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنها من الاستقصات^(٢) الأربع، خلقها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض كما في جميع المياه.

والثاني: أنها بقية طوفان قوم نوح عليه السلام. قاله ابن عباس والمفسرون.

والثالث: أنها من عرق الأرض لما ينالها من حرارة الشمس.

والرابع: أنها من مياه الأرض، فالملح ينحدر إلى الأماكن المنخفضة فينعد غليظاً كدراً وتختلط به الأجزاء النارية. فأما المياه العذبة فترتفع في أيام الشتاء إلى الجو فيحدث منها المطر بإذن الله تعالى، فلا تزال العين قائمة أبداً، وهذا قول علماء الهيئة.

وأما ابن عباس فقد روى عنه عكرمة أنه قال: البحر المظلم من ورائه بحر آخر يقال له: الباكي، وماؤه عذب، وإنما سمي الباكي، لأنه يبكي من خشية الله تعالى، وليس بعده شيء.

وقال علماء الهيئة: هذه البحار بأسرها داخلية في الفلك، لأنه محيط بالأرض كلها.

فصل

ثم هذه البحار ينتقل بعضها على ممر السنين والدهور، فيصير موضع البحر برّاً وعلى العكس، وعلّة ذلك جريان الماء، فإنّ لموضع جريانه شباباً وهرماً، وحياة وموتاً، ونشأة، كما يكون في الحيوان والنبات، وقد رأينا ذلك عياناً في الأنهار العظام كالنيل والفرات ودجلة والنّجف بالكوفة، فإنه كان بحراً تأتي فيه السفن من الهند، فاستحال الماء عنه إلى موضع آخر، وكذا ببغداد في دجلة العوراء فإنها استحالت فراسخ فأخربت قرى كثيرة، وهي اليوم قد استحالت أيضاً، والله أعلم.

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٧٠.

(٢) لعلها الاسطقسات: وهو لفظ يوناني يعني: «الأصل» والاستقسات: الماء والأرض والهواء والنار وهي أصول المركبات. «التعريفات» ص ٣٩.

فصل

في ذكر الجزائر وما فيها من الغرائب والجواهر^(١)

فصل في جزائر البحر الشرقي: وهي أبلغ من أن تحصى، فنذكر الجزائر المشهورة فنقول:

ذكر العلماء بأخبار الأوائل أن جزائر الوقواق ستة آلاف، فيها جزيرة يستوي فيها الليل والنهار.

وجزيرة يقال لها: جزيرة الراهب يخصى بها الخدم، وملكها امرأة تجلس على سرير من الذهب، وعلى رأسها تاج من ذهب مرصع بالجواهر، وهي عريانة، وعلى رأسها أربعة آلاف وصيفة كلهن عراة، وقد شاهدتهن التجار الذين يسلكون تلك البلاد.

ومنها: جزيرة قنبلو^(٢)، يركب الناس منها إلى صحار، وصحار قسبة عمان، قال الجوهري: وصحار - بالضم - قسبة عمان مما يلي الجبل، وتؤام قسبتها مما يلي الساحل^(٣).

ومنها: جزيرة سرنديب، وهي ثمانون فرسخاً في ثمانين، إذا مات لهم أحد أحرقوه بالنار، وإن كان ملكاً تهافت خواصه وأهله حتى يحرقوا نفوسهم معه، وفيها الياقوت والبلور وسائر أنواع الطيب.

ومنها: جزيرة أهلها سود عراة حفاة، مأواهم رؤوس الشجر، لا يفهم كلامهم، يهربون من الناس.

ومنها: جزيرة فيها أشجار يسيل منها الكافور مثل الصمغ، تُظل الشجرة منها مئة فارس.

ومنها: جزيرة لهم أليات كليّات^(٤) الغنم، وهم سود يأكلون الرجال دون النساء،

(١) انظر «كتر الدرر» ١/ ١٧٢.

(٢) ويقال: قنبلة، وهي جزيرة للزنج في البحر الشرقي «صبح الأعشى» ٣/ ٢٤٤.

(٣) «الصحاح»: (صحرا).

(٤) الألية: جمعها أليات وألایا، ولا تقل إلية ولا لية «القاموس المحيط»: (ألي).

وجزيرة يأكلون النساء دون الرجال.

ومنها: جزيرة الرّامي^(١)، وبها البقم^(٢) وعرقه ينفع من سمّ ساعة.

ومنها: جزيرة فيها الرصاص القلعي، وجزيرة فيها قرود مثل الجواميس، وسنانير لها أجنحة، وفي هذه الجزائر الكركدن، وهو دابة دون الفيل وفوق الجاموس، يأكل الحشيش، وله قرن واحد طوله ذراع وغلظه قبضتان، وفيه صورة من أول القرن إلى آخره، فإذا انشقَّ القرنُ ظهرت الصورة بيضاء في سواد كالشبح: صورة إنسان أو دابة أو طاووس أو طائر أو سمكة ونحو ذلك^(٣). يتخذ أهل الصين من ذلك القرن مناطق تبلغ المنطقة أربع مئة دينار، وملوك جزائر الكركدن مخرمو الآذان.

وقال في «جغرافيا»: وحصى هذه الجزائر الياقوت والمرجان وأصناف الجواهر، وبين الجزيرة والجزيرة ميل وأقل وأكثر، يعني: جزائر الوقواق، وعندهم النارجيل، لا يفقد من النخل غير الثمر، وقيل: هو المقل، قالوا: والنارجيل فيه خاصية، وذلك لأن بيوت أموال ملكة جزائر الوقواق الودع، فإذا قلّ قطعوا من سعف النارجيل بخوصه فيطرحونه على وجه الماء فيخرج منه حيوان فيتراكب فيتولد منه الودع، فيطرحونه على ساحل البحر ويلقون عليه الرمل فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان، ويبقى الودع وحده فيملؤون منه بيوت الأموال.

وقال النوبختي: وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب، وبين هذه الجزائر خليج فيه حيات تبلع المراكب، قال: وبعد سرنديب مما يلي المشرق ألف جزيرة في ألف فرسخ فيها ممالك ومعادن، ثم يليها جزائر فنصورة، وهي مملكة المهرج، ولا تضبط جنوده لسعة مملكته، وفي مملكته خمسون ألف فيل يقاتل عليها، ومعنى المهرج: ملك الملوك، وعنده الكافور الفنصوري، وقيل: هو عيون في الجزيرة.

(١) وهي التي تسمى: «سِيلان». انظر «معجم البلدان» ٢٩٨/٣، و«الروض المعطار» ص ٢٦٤.
(٢) هو خشب شجر عظام، تنبت بأرض الهند والزنج، وورقه مثل ورق اللوز الأخضر، وساقه وأفنانه حمر. «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٣١، وفيه أنه إذا شرب من أصله مسحوقاً قدر ما، قتل صاحبه. وما في «الروض المعطار» ص ٢٦٤ موافق لما عند المصنف.

(٣) انظر «الحيوان» للجاحظ ١٢٩/٧.

ومنها: جزيرة يسمع منها صوت الطبول والملاهي والرقص دائماً والتصفيق،
 واسم هذه الجزيرة: برطاييل، يقال: إِنَّ الدَّجَالَ فيها. وفي مملكة المهرج جزيرة
 دورها أربع مئة فرسخ، عمائر متصلة، وفيها البُزاة والصقور والشواهين.
 قال: وفيها جزيرة فيها عين يقال لمائها: ماء العقل، من شرب منه ازداد عقله
 وفهمه.

وفيها: جزيرة يقال لها: سُقْطَرَى، لا يوجد الصَّبِرُ الأُسْقَطَرِي إلا فيها.
 وذكر في «المسالك»: أنه ليس وراء الصين مسلك إلا رمال تجري فيها السفن،
 وبعدها مدينة قوم موسى الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون.
 وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدي قال: هم قوم بينك وبينهم نهر من شهد،
 وحكى أيضاً عن ابن جريج قال: لما قتل بنو إسرائيل أنبياءهم وكفروا كانوا اثني عشر
 سِبْطاً، تبرأ منهم سِبْطٌ مما صنعوا واعتذروا إلى الله تعالى وسألوه أن يفرق بينهم، ففتح
 لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك
 حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا^(١).

وحكى أيضاً عن الربيع والضحاك وعطاء فيما رواه عنهم الكلبي قال: هم قوم
 خلف الصين على نهر يجري الرمل فيه يسمى نهر: أوداف، وليس لأحدٍ منهم مال دون
 صاحبه، يُمَطَّرُونَ بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منا أحد ولا منهم
 إلينا، وهم على الحق.

قال الكلبي: وذكر أن جبريل عليه السلام مرَّ بالنبِيِّ ﷺ عليهم ليلة الإسراء فسلمَّ
 عليهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد ﷺ
 النبيّ الأمي، فأمنوا به وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا وقال: من أدرك منكم
 أحمد فليقره مني السلام، ثم أمرهم بالصلاة والزكاة، وكانوا يسبتون فأمرهم بترك
 السبت وإقامة الجمعة، والله أعلم.

(١) أخرجهما الطبري في تفسيره ١٣/١٧٣ - ١٧٤، وقال ابن كثير: خبر عجيب. ورد الألويسي هذين الخبرين
 وما بعدهما.

فصل

وفي بحر باب الأبواب جزائر كثيرة فيها بُزاة بيض وهي أفخر البُزاة، وهذه الجزيرة قريبة من جُرجان، والبُزاة الشهب هناك كثيرة لكثرة الثلج بها. وأول من لعب بالبُزاة والشواهين والصقور من العرب، الحارث بن معاوية الكندي، ومن ملوك الروم قُسطنطين الذي بنى القسطنطينية، ومن الفرس يَزْدَجَرْد.

فصل في جزائر البحر الرومي

قال النُوبختي: فيه جزائر كثيرة أعظمها جزيرة الأندلس، ولا يعلم مساحتها إلا الله تعالى، وهي مجاورة لأمم كثيرة من الفرنج والجلالقة وغيرهم.

وقد ذكرها الحكيم ابن زهر المغربي وقال: فيها معادن الذهب والفضة والزئبق والنحاس والصفير وجميع ما يوجد في المعادن، وفيها الكافور والمسك والعنبر ومعادن الياقوت والجوهر، وفي أرضها غابة تنبت الذهب، وفيها جميع ما يوجد في بلاد الهند والصين من الطيب ونحوه.

وذكرها ابن حوقل في «كتاب الأقاليم» وقال: وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر وعرضها نيف وعشرون مرحلة، وفيها المياه الجارية والأشجار المثمرة، وتنتهي إلى الجلالقة، ومدينتهم يقال لها: سَمُورَة، وتنتهي إلى البحر المحيط، وذكر ما فيها وما حولها من الأمم، قال: ومن أعظم مدائنها قرطبة وكانت مقرّ الخلائف من بني مروان، وبها جامع مثل جامع دمشق، وبمثل بغداد ودمشق ومصر في اجتماع العلماء بها^(١). وقد ذكرناه.

ومنها: جزيرة صِقْلِيَّة وكانت لبني عبّاد، وبها الحصون والقلاع، وآثار الإسلام باقية فيها إلى هلمّ جرّاء، وهي الآن بيد الأنبرور^(٢)، وحاشيتة كلهم مسلمون. وبين صِقْلِيَّة والإسكندرية إذا طابت الرياح ثمانية عشر يوماً.

(١) «صورة الأرض» ص ١٠٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) هو ملك الفرنج، دخل صقلية سنة ٦٢٠ هـ، انظر «التاريخ المنصوري» ص ٩٩.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وأما جزيرة صِقْلِيَّة فطولها سبعة أيام وعرضها أربعة أيام، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون، ومدينتها تسمى: بَلْرَم، وكان بها المسجد الأكبر وكان بيعة للروم، وفيها هيكل عظيم يزعم أرباب المنطق أن أرسطاطاليس حكيم اليونان معلق في خشبة في هذا الهيكل الذي اتخذه المسلمون مسجداً، وكانت النصراني تعظمه وتستسقي به لما رأوا عليه اليونان من تعظيمه^(١).

ومنها جزيرة قُبْرَس ودورها عشرة أيام في مثلها، وفيها المعادن المنبوعة واللآذِن والزَّاج وغيره، وبينها وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، وقيل: بينها وبين اللآذقية يوم وليلة، وثلاثة أيام بينها وبين الإسكندرية، وقد ذكرناه.

وفي جزائر البحر الرومي البُزاة والشواهين والصقور والعُقبان.

وحكى النُوبختي قال: أهدى ملك الروم إلى كسرى عُقَاباً وقال: إنه يصيد أكثر من البازي، فاستشار كسرى وزراءه في قبوله فقالوا: لا حاجة لك به فإنَّ خيرَه لا يقوم بشرِّه، فخالفهم وأرسله على غزالٍ فأخذه فأعجب به وسفَّه آراء وزراءه، ثم جَوَّعه أياماً ليصيد به فوثب على ابن صغير لكسرى فقتله، فقال كسرى: وَتَرْنَا قَيْصَرَ، لأنه كان قد غزا بلاده فقتل وسبى، وكنتم كسرى أمر العقاب وأهدى لقيصر نمراً وقال: إنه يصيد السبع، فأقام عنده فوثب يوماً على ولد لقيصر فقتله، فقال قيسر: قد صدنا كسرى قبل أن يصيدنا.

وفي البحر الرومي جزائر كثيرة كإفريقيَّة وأقريطش والنوكبردية والجنوية والبيازية وغيرهم، وكلهم أجناسٌ في جزائر.

فصل

في ذكر المسك والعنبر، وهل هو حشيش أو مما يُدسّر؟

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «المِسْكُ أَطْيَبُ الطَّيْبِ». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

(١) «صورة الأرض» ص ١١٣.

(٢) أحمد في «مسنده» (١١٢٦٩)، ومسلم (٢٢٥٢).

وثبت أن النبي ﷺ كان يُحِبُّ الطَّيْبَ (١).

وذكر العلماء بأخبار الهند والصين أن المسك من غزلان الصين، وأن التَّبْتِي أَذْكَى، لطيب مراعي غزلان التَّبْتِ، وعلامة غزلان التَّبْتِ الأنياب، فإن لكل واحد نابين كُنَابِيَّ الفيل خارجة من الفكين نحو شبر، فتنصبُّ لها الأشراك وتُرمى بالسهام، فإذا صرعوها قطعوا عنها نوافجها والدمُّ في سررها خام لم ينضج، فيكون له رائحة زَهْكَة (٢)، فيبقى زماناً حتى تذهب عنه تلك الرائحة بالهواء.

وأما المسك الخالص فيأتي الغزال وقد استحکم في سرّته المسكُ ودفعت الطبيعة موادَّ إلى سرّته وقد قلق من ذلك، فيحتكُّ بالصخر مع شدة حرارة الشمس فتنفجر وتسيل على الصخور كما ينفجر الدُّمْلُ إذا نضج ما فيه، فيفرغ ما في نافجته - والنافجة بالفارسية هي السرة (٣) - فيخرج الصيادون وقد أعدوا له الأوعية، وتسمى: النوافج، فيأخذونه من الصخور، وهو أفضل المسك وأطيبه ولا يكون له زَهْكَة.

وأما العنبر، فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه عين في البحر الشرقي، قاله مجاهد.

والثاني: أنه خثي دابة من دواب البحر، قاله الهيثم بن عدي.

والثالث: أنه حشيش ينبت في جزائر البحر عند الواقواق فتبلعه دواب البحر ثم تلقيه.

والرابع: أن البحر يهيج فيقذف بالعنبر من قعره كأمثال الجبال، فيبلعه الحيوان المعروف بالأوال، فإذا حصل في جوفه قتله، فيموت ويطفو على الماء، فيجذبونه بالكلايب فيأخذونه، فما لقي في ظهر الحوت منه كان جيّداً، وما لقي في بطنه كان سهكاً فيبقى فيه أثره، قاله مقاتل.

واختلف الفقهاء في وجوب الخمس في العنبر:

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٠٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) زهك وسهك: الريح الكريمة ممن عرق. «القاموس المحيط»: (زهك وسهك).

(٣) انظر «المعجم الذهبي»: (نافه).

قال علي وابن مسعود وابن عباس: لا خمس فيه. وبه أخذ أبو حنيفة ومحمد.
وقال عمر: فيه الخمس، وبه أخذ أبو يوسف ومالك والشافعي وأحمد، لما روي
أن عمر سئل عنه فقال: فيه الخمس وفي كل ما يستخرج من البحر.
ولنا إجماع من سمينا من الصحابة، فإنهم قالوا: لا خمس فيه لأنه شيء دسره
البحر، وما روي عن عمر فقد خالفه فيه من سمينا من الصحابة، ولو سلم كان محمولاً
على ما وجد في خزائن البحر وبه نقول.

وقيل: إن أجود العنبر ما وقع ببحر فارس قريباً من رأس الجُمجمة عند بلاد الشُّحر
باليمن لخاصية في تلك البقعة، فإن هناك قوماً من قُضاة يجعلون الشين المعجمة
كافاً^(١)، ولهم نُجُبٌ معدة على ساحل البحر لهذا، فإذا قذف البحر العنبر أخذوه.
وأما الكافور، فقد ذكرناه.

وأما العود، فقال الجوهري: عود قماري منسوب إلى موضع ببلاد الهند^(٢). قال
جدي رحمه الله في كتاب له يسمى «تقويم اللسان»: قماري منسوب إلى قمار، مدينة
باليمن.

فأما النَّدُّ، فقال الجوهري: والنَّدُّ من الطيب ليس بعربي^(٣). والله أعلم.

فصل في الجزر والمد، وهل لهما أمد أو حد^(٤)

فأما المدُّ فمُضِيُّ الماءِ بجريته، والجزرُ رجوعه عن ذلك، وقال علماء الهيئة:
البحار ثلاثة أصناف:

منها: ما يكون فيه المدُّ والجزر ويظهر فيه ظهوراً بيّناً، كالبحر الحَبشي عند
البصرة، وهذا مشاهد محسوس.

والثاني: يظهر فيه في وقت دون وقت كما في البحر الأعظم، فإنه يمدُّ ستة أشهر

(١) النص في مروج الذهب ٣٣٣/١، وكنز الدرر ١٨٣/١ أوضح مما هنا فانظره.

(٢) «الصحاح»: (قمر).

(٣) «الصحاح»: (ندد).

(٤) انظر مروج الذهب ٢٤٤/١، وكنز الدرر ١٨٠/١.

فيقلُّ الماءُ في موضعٍ ويكثرُ في موضعٍ.

والصنف الثالث: لا يظهر فيه المدُّ أصلاً، كغير الحَبَشِيِّ.

واختلفوا في علَّة المدِّ والجزر: أما علماء الهيئة فقد اختلفوا فيه: قال بعضهم: علته القمر، لأنه مجانس لعله الماء وهو يسخُّنه فينبسط، ومثِّلوه بِقَدْرِ فيها ماءً مقدار نصفها، فإذا غلى على النار ارتفع الغليان حتى يفور ويصعد، فإذا برد الماء نقص، لأنَّ من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ومن شرط البرودة أن تضغطها، فإذا امتلأ القمر حميت أرض البحر فانبسط الماء وارتفع، وإذا نقص نقص الماء.

وقال بعضهم: علته الأبخرة المتولدة في باطن الأرض، فإنها لا تزال تتولد حتى تكثُر وتكثف فيرد^(١) ماء البحر بكثافتها، فإذا انقطعت الموادُّ بقلّة الكثافة عاد ماء البحر إلى قعره.

والمختار عندي: أنَّ المدَّ والجزر من آيات الله تعالى، وأنَّه من آثار قدرته في العالم، لأنَّ كلَّ ما لا يوجد له قياس في الوجود فهو فعل إلهي يستدلُّ به على عظمة الباري سبحانه وقدرته، وليس للمدِّ والجزر قياس في العالم.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده قال: سئل ابن عباس عن المدِّ والجزر فقال: قد وُكِّلَ الله بقاموس البحر ملكاً، فإذا وضع رجله فيه فاض البحر، وإذا رفعها غاض^(٢). وقد ذكره الجوهري فقال: وقاموس البحر وسطه ومعظمه^(٣).

وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال: الملك الموكل بالبحار يضع عقبه في بحر الصين فيكون منه المدُّ، ثم يرفع عقبه فيكون منه الجزر.

وقال مجاهد: وهذا ظاهر محسوس، فإن الإنسان لو وضع قدمه في إناء فيه ماء فإن الماء يرتفع إلى رأس الإناء، فإذا رفعها رجع الماء إلى حدِّه.

(١) في (ط): فبرد، والمثبت من (ل) وكتر الدرر ١/١٨٠، وفي مروج الذهب ١/٢٤٩ (وعنه ينقل): حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ...

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٣٢٣٨).

(٣) «الصحاح»: (قمس).

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يكون الجزر والمدّ في جميع البحار، قلنا : قد ذهب قومٌ إلى هذا، وإنما لم يظهر في غير بحر البصرة لوجهين : أحدهما : لبعدها المسافة واتساع البحار، ومن لجج من المسافرين في البحار يذكر أنه شاهده، والثاني : فلأن مكان المدّ والجزر في البصرة تحت خط الاستواء واعتدال الليل والنهار وعليه الكواكب الثابتة، وهذا المعنى لا يوجد في غيره.

وأما قول من علل بزيادة القمر ونقصانه، فغير صحيح، لأنه لو كان كذلك لتعلق بزمان مخصوص، فإن القمر يزيد في أول الشهر وينقص في آخره، والمدّ والجزر يكون في كل يوم وليلة فافترقا.

وأما من قال بأنه من الأبخرة في قلتها وكثرتها فباطلٌ، لأنه يحتاج إلى زمان طويل يجتمع فيه، وهذا يوجد في كل يوم وليلة.



فصل في ذكر العيون والأنهار وما ورد فيها من فنون الأخبار والآثار

ذكر الجوهري أن العين على وجوه: أحدها: عين الماء، وعين الرُّكبة، والعين: حاسة الرؤية، والعين: عين الشمس، والعين: الدينار، والعين: المال النَّاضِ، والعين: الدَّيْدَبَانُ^(١) والجاسوس، وعين الشيء: خياره، وعين الشيء: نفسه، والعين: ما عن يمين قبة العراق، والعين: مطرُ أيامٍ لا يُقلع، وأسود العين: جبل، وأنشد الجوهري^(٢): [من الطويل]

إذا زال عنكم أسود العينِ كنتم كراماً وأنتم ما أقام ألائم
ورأس عين: بلدة، وفي الميزان عين إذا لم يكن مستويًا، والعين: من حروف المعجم^(٣).

ذكر الجوهري هذه الوجوه وهي ستة عشر، وقد خرَّجت وجوهاً آخر حكاها الخليل بن أحمد وغيره تزيد على خمسين وجهاً، وذكرتها في التفسير. وجمع العين أعين وعيون، قال الجوهري: وأعيان.

وأما النهر فيسمى نهراً لا تأساعه. واختلفوا في بدو الأنهار: فروى عطاء عن ابن عباس: أن جميع المياه من تحت صخرة بيت المقدس ومن هناك تفرق في الدنيا. وقد ذكر جدي رحمه الله حديثاً مرفوعاً في هذا المعنى في «فضائل القدس» فقال: حدثنا أبو المعمر الأنصاري بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنهار والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس»^(٤).

قلت: والموقوف في هذا على ابن عباس أصح.

وروى مجاهد عن ابن عباس أن جميع الأنهار من البحر الذي خلف المحيط،

(١) الديدبان: هو الربيثة، وهو الطليعة قدام العسكر «تاج العروس» (دب).

(٢) نسبة الجوهري إلى الفرزدق، ولم نجده في ديوانه المطبوع.

(٣) «الصحاح»: (عين).

(٤) «فضائل القدس» ص ١٤١، و«الموضوعات» ٣٠٩/٢، وقال: هذا حديث لا أصل له.

وماؤه عذب، ويسمى: الباكي. وقد ذكرناه.

وروى العوفي عن ابن عباس: أن العيون في الأرض كالعروق في البدن. وذكر مقاتل: أن العيون تتولد من الأبخرة وتجمع في الأماكن المنخفضة، فإذا انتشرت في أعماق الأرض طلبت التنفس، فتشق الأرض فتفجر العيون. قال: والأرض على الماء مثل الشباك، فإذا أراد الله أن يفجر بعض العيون في أماكن مخصوصة نظراً لعباده تنفست الأرض فانفجرت.

ومذهب الأوائل أن الماء من الاستقصات الأربع.

فبتدئ بالأنهار الكبار، كالنيل، والفرات ودجلة، وجيحون وسيحون، ونحوها، ومطارحها، ومقدار جريانها على الأرض:

وقد ذكر النيل والفرات في الصحيح، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك بن صعصعة، حدّثه عن رسول الله ﷺ حديث المعراج، وفيه أنه ﷺ قال: «ثم رفعت إلى سدرة المُنْتَهَى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت يا جبريل، ما هذا؟ فقال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقد ذكر سيحان وجيحان في الصحيح، أيضاً، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

فصل في ذكر النيل

أصل النيل: الفيض، قال الجوهري: والنيل فيض مصر^(٣).

واتفقوا على أن مبدأه من جبل القمر، فذكره في «جغرافيا» وصوّره أنه ينبع من اثنتي عشرة عيناً، وأن العيون تصبُّ في بحيرة مثل البطائح^(٤) خلف خط الاستواء يجتمع فيها

(١) أحمد في «مسنده» (١٧٨٣٣)، والبخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أحمد في «مسنده» (٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩).

(٣) «الصحاح»: (نيل).

(٤) البطائح: جمع أبطح، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. «القاموس المحيط»: (بطح).

الماء ويجري على رمال هناك وبين جبال، ثم يخرق أرض السودان ثم يصب في بحر الزنج، وفي هذا البحر قبلو وهي عامرة، وفيها قوم مسلمون لغتهم زنجية غلبوا على أهل الجزيرة عند انقراض ملك بني أمية وابتداء الدولة العباسية، ومن ذلك البحر الذي فيه قبلو يصب في بحر عُمان. ومن جبل القمر إلى هذه الجزيرة مسيرة خمس مئة فرسخ ويقوى جريان مصبه في هذا البحر أيام زيادة النيل، فيجري جرياناً عظيماً ويتكدر موضع العيون، حتى قيل: إن الماء يؤثر لونه في لون البحر ويكون ماؤه أحلى من العسل.

وقال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أن النيل نهر العسل من الجنة، وأنه يجري على بلاد الحبشة في قفار ومفاوز ومهامه^(١) ليس فيها مسلك.

وذكر أحمد بن بختيار وقال: العين التي هي أصل النيل هي أول العيون من جبل القمر، ثم ينبعث منها عشرة أنهار، نيل مصر أحدها، قال: والنيل يقطع الإقليم الأول ثم يجاوزه إلى الثاني، ومن ابتدائه من جبل القمر إلى انتهائه إلى البحر الرومي ثلاثة آلاف فرسخ يجري في عامر وغامر، فإذا تعدى الفسطاط انقسم قسمين: قسم يمر إلى دمياط وقسم يمر إلى رشيد، فيصبان في بحر الروم، وقيل: إنه لا يعلم مسافة جريانه إلا الله عز وجل.

ويبتدئ بالزيادة في نصف حزيران وينتهي في أيلول، واختلفوا في سبب زيادته ونقصانه: فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، وقال آخرون: سببه زيادة عيونه ونقصانها، وقال آخرون: الظاهر أن سبب زيادته كثرة المطر والسيول، تمطر بلاد الحبشة والنوبة فيزيد، وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعده المسافة، وقد رد قوم هذا وقالوا بأن عيونه التي تحت جبل القمر تتكدر في أيام زيادته، فدل على أنه فعل الله تعالى من غير زيادة بالمطر.

وجميع المياه تجري إلى القبلة إلا هو؛ لأنه خارج عن خط الاستواء، فيجري إلى ناحية الشمال، وكذا العاصي بالشام يجري إلى غير القبلة، قالوا: وفي الهند أنهار

(١) المهمة: المفازة البعيدة والبلد المقفر. «القاموس المحيط»: (مهه).

كثيرة تجري إلى غير القبلة، لما نذكر.

ومتى بلغ ستة عشر ذراعاً استحق السلطانُ الخراجَ، وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً قالوا: يحدث بمصر وباء عظيم، وإذا بلغ عشرين ذراعاً مات ملك مصر، والله أعلم. وبمصر تُرَع كثيرة منها ترعة سُنباط، وترعة ذنب التمساح، وتُرَع في الصعيد، وخليج سردوس، وخليج ابن منجا، وخليج القاهرة، وخليج الفيوم، حفرة يوسف عليه السلام زمان القحط، وإنما سمي الفيوم لأنَّ أصله ألف يوم، كانت كل قرية منه تقوم بأهل مصر يوماً، وذكر الجوهري الفيوم فقال: والفيوم من أرض مصر، قُتل بها مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية^(١). قلت: والصحيح أن مروان قتل ببُوصير - لما نذكر^(٢). وفيه خليج الإسكندرية وغيره.

وفي النيل عجائب، منها التمساح، قالوا: ولا يوجد إلا فيه وله أسامي، في مصر التمساح، وفي بلاد النوبة الوَرَل، ووراء النوبة الشوشمار. وقال الجوهري: والتمساح دابة من دواب الماء معروف^(٣).

وقال الجاحظ في كتاب «عجائب البلدان»: إن مهران السند من نيل مصر، قال: لأن التمساح فيه.

قلت: وقد وهم الجاحظ، لأنَّ مهران السند يخرج من جبال المُؤلتان، وهي في المشرق داخلة تحت خط الاستواء والاعتدال، والنيل يخرج من جبل القمر من ناحية الجنوب وهو خارج عن خط الاستواء، وبين مهران وبين الحبشة والنوبة البحر الشرقي، فكيف يكون منه؟! فإن وجد التمساح في مهران فقد وجد فيه كما يوجد في النيل.

قالوا: والتمساح لا دُبر له وما يأكله يتكوّن في بطنه دوداً، فإذا آذاه ذلك خرج إلى البرية وفتح فاه فينقضُّ عليه طائر الماء كالطيطوي ونحوها من أنواع الطيور ممن اعتاد

(١) «الصحاح»: (فوم).

(٢) سيذكر الخبر المصنف في سنة (١٣٢هـ).

(٣) «الصحاح»: (مسح).

ذلك، فيأكل ما بين أسنانه وما يظهر من الدود، فإذا أكل أطبق عليه التمساح في بعض الأوقات فمه فيبلعه، فضربت العرب المثل به فقالت: مكافأة التمساح.

وآفة التمساح دُويبة تكون في سواحل النيل وجزائره تكمن له في الرمل، فإذا فتح فاه وثبت فدخلت فمه ونزلت إلى جوفه فيضرب الأرض بنفسه ويغوص في الماء فتخرق الدويبة بطنه فيموت، وربما قتل نفسه قبل أن تخرج منه فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة نحو من ذراع على صورة ابن عرس ولها قوائم شتى ومخالب، فهي آفة التمساح، كالسمكة الصغيرة التي تقتل^(١) الكبيرة في البحر الشرقي، وقد ذكرناها.

وذكر ابن حوقل: أن في نيل مصر أماكن لا يضر التمساح فيها، كعدوة بوسير والفسطاط، قال: وفي نيل مصر السَّقَنْقُور يصلح للجماع، ويكون عند أسوان وفي حدودها.

وفي النيل السمك الرَعَاد إذا وقعت السمكة في شبكة الصياد لا تزال ترتعد يداها ورجلاه حتى يلقيها أو تموت، وهي نحو الذراع^(٢).

وقال جالينوس: إذا وضع منها على رأس من به الصداع زال، وقيل: إنما الخاصية أن توضع على الرأس وهي في حالة الحياة^(٣).

وفيه سمك على صورة الفرس، والمكان الذي تكون فيه لا يقربه التمساح، وتخرج من الماء ليلاً فترعى الزرع فتفسده، فيطرحون لها التُّرْمُس فتأكله ثم تشرب الماء فيرم جوفها فتموت، وهي على صورة الفرس إلا أنه ليس لها حافر ولا ذنب.

وفيه شيخ البحر، سمكة على صورة آدمي وله لحية طويلة، والغالب أنه يكون بنواحي دمياط، وهو مشؤوم فإذا رُئي في مكان دل على القحط والموت والفتن، ويقال: إن دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها.

وفيه المقياس يعرف به زيادة النيل ونقصانه، وأول من بناه يوسف عليه السلام

(١) هنا ينتهي السقط في (ب)، وانظر مروج الذهب ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) «صورة الأرض» ص ١٣٩ - ١٤١.

(٣) انظر «عجائب المخلوقات» ص ١٨٧.

بمَنف، وبنت دلوكة الملكة مقياساً بإخميم، وفي أيامها عملت الطَّلَّسَمَات بمصر.
فأما المقياس التي بنيت بمصر في الإسلام فأولُ من بنى مقياساً عبد العزيز بن مروان بن الحكم لما ولي مصر، بناه بَحْلوان فوق الفسطاط، وهذا المقياس الظاهر بناه المأمون، وقيل: إنما بناه أسامة بن زيد التَّنُوخي ودثر، فجدده المأمون، وأسامة بناه في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان، وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بَقُوص وهو قائم اليوم، والآخر بالجيزة وقد انهدم.

فصل في الفرات

وأصلها من الفَرْت وهو الشق، قال الجوهري: والفرات اسم نهر بالكوفة، والفراتان: الفرات ودُجَيْل. والفرات: الماء العذب. يقال: ماء عذبٌ فرات^(١).
واختلفوا في مخرجها على قولين: أحدهما: أنها من جبل ببلد الروم يقال له: افزدهخش، بينه وبين قاليقلا مسيرة يوم، والثاني: أنها تخرج من أطراف أرمينية ثم تجري إلى بلاد الروم.

ويجتمع إليها أعين كثيرة ويصبُّ إليها خليج من بحيرة المازريون، وليس ببلاد الروم بحيرة أكبر منها، دَوْرها أكثر من شهر، ثم يمرُّ الفراتُ بأَرْضِ مَلْطِيَّة على مسيرة ميلين منها، ثم يمرُّ على صُمَيْصَات^(٢) وقلعة الروم والبيرة وجسر مَنبج وباليس وقلعة جَعبر والرَّقة والرَّحْبَة^(٣) وقرقيسيا وعانة والحديثة وهيت والأنبار.

ومن تحت الأنبار يأخذ منها نهر عيسى، ونهر الملك، فيصبان في دجلة، ثم يمر الفرات بالطفوف، ثم بالحلة، ثم بالكوفة، وينتهي إلى البطائح، ويصب في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض أربع مئة فرسخ، وقد كانت تمر ببلاد الحيرة، ونهرها بين إلى هلمَّ جرًّا، ويعرف بالعتيق، وعنده كانت وقعة القادسية، وكان

(١) «الصحاح»: (فرت).

(٢) في «معجم البلدان»: «سُمَيْسَاط».

(٣) وهي رحبة مالك بن طوق. «معجم البلدان» ٣/٣٤.

البحر المعروف بالنَّجَف في ذلك الوقت جارياً، وكان مرسى السفن من الهند والصين إلى ذلك المكان، تحمل فيه الأمتعة إلى ملوك الحيرة لما كانت عامرة، ولما استحال الماء وانقطع عن مصبه في النجف صار ذلك البحرُ برّاً، وصار بين الحيرة والبحر مسافة.

والنَّجَف - بالتحريك - المكان الذي لا يعلوه الماء، ويقال: إن اسم هذا المكان نج وكان أهل الحيرة يستقون منه الماء، فأصبحت امرأة لتستسقي فرأته يابساً فقالت: نج جف، ثم خففوه.

وقد روي في فضل الفرات حديث: حدثنا جدي رحمه الله قال حدثنا إسماعيل بن السمرقندي بإسناده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من يومٍ إلا وينزلُ مَثاقيلُ من بركاتِ الجنةِ في الفُراتِ». قال جدي^(١) في «الأحاديث الواهية»: هذا الحديث لا يصحّ؛ في إسناده الربيع بن بدر، تركوا حديثه^(٢).

قلت: وقد ذكر الزهري ما يدلُّ على صحته، لأنّه قال: ومصدّقُ هذا الحديث أنّ الفراتَ مدّتُ في بعض السنين فجاءت برمانٍ كلُّ رمانةٍ مثلُ البعير، فكانوا يرون أنه من الجنة.

وقال البخاري بإسناده عن أبي هريرة: قال، قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أنْ يحسِرَ الفراتُ عن كنزٍ من ذهبٍ، فمَنْ حَضَرَهُ، فلا يأخذ منه شيئاً»، وفي رواية: «عن جبل من ذهبٍ». أخرجاه في الصحيحين^(٣).

ولمسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقومُ السَّاعةُ حتّى يحسِرَ الفُراتُ عن جبلٍ من ذهبٍ، يقتتلُ النَّاسُ عليه، فيقتلُ من كلِّ مئةٍ تسعةٌ وتسعون، ويقولُ كلُّ رَجُلٍ منهم: لعلِّي أنْ أكونَ أنا الذي أنجو»^(٤).

وروي أن دانيال حفرها مع دجلة، وسنذكره.

(١) في (ب): «قال حدثني جدي».

(٢) «العلل المتناهية» (٣٨).

(٣) البخاري (٧١١٩)، ومسلم (٢٨٩٤) (٣٠).

(٤) مسلم (٢٨٩٤).

فصل في دجلة

قال الجوهري: دجلةُ نهر بغداد^(١). وذكر أبو بكر الخطيب أن دانيال حفرها مع الفرات فقال: حدثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد مولى بني هاشم بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه قال: أوحى الله إلى دانيال أن احفر لي سبيلين بالعراق، فقال: يارب بأيّ مكاتل وبأيّ مساحي وبأيّ رجالٍ؟ فأوحى الله إليه أن أعدّ سكة حديد وعرضها واجعلها في خشبة وألقها خلف ظهرك فإني باعثُ إليك ملائكة يعينونك على حفرهما، ففعل، فكان إذا انتهى إلى أرضٍ أرملةٍ أو يتيمٍ حاد عنها حتى حفر دجلة والفرات.

وقال الخطيب بإسناده عن ابن عباس قال: أوحى الله تعالى إلى دانيال أن فجر لعبادي نهريْن عظيمين، واجعل مفيضهما إلى البحر، فقد أمرتُ الأرضَ أن تطيعك، فأخذ قناةً فجعل يخذُ في الأرض، والماء يتبعه - وفي رواية: فأخذ قصبَةً - وكان إذا وصل إلى أرضٍ شيخٍ كبيرٍ أو يتيمٍ ناشده الله فيحيد عن أرضه، فعواقيل دجلة والفرات من ذلك^(٢).

قال الجوهري: العاقول من النهر والوادي: ما اعوجَّ منه^(٣).

وقال أرباب العلم بهذا الشأن: مبدأ دجلة من بلاد آمد وديار بكر وميافارقين وأرمينية، تجتمع العيون ثم تمر ببلاد حصن كيفا والجزيرة والموصل، وتستمد من الزابن الأعلى والأسفل، وهما من عيون بلاد أرمينية، ثم تمر ببلاد تكريت وبغداد وواسط، وتنقسم عدة أودية، ثم تصب في البطائح وتختلط بالفرات، ثم تصب في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إن الذي

(١) «الصحاح»: (دجل).

(٢) «تاريخ بغداد» ٥٦/١، وهذان خبران منكران، في إسنادهما الهيثم بن عدي وأبو صالح والكلبي وعثمان بن عطاء.

(٣) «الصحاح»: (عقل)، وفيه: «المعوج منه».

حفرهما أفريدون الملك، وليس بصحيح، والله أعلم.

فصل في سِيحُون

وهو نهر الهند، ويقال: هو مِهْرَان السند، وقال الجوهري: وسِيحُون نهر بالهند، وسِيحَان نهر بالشام، وساحِين نهر بالبصرة، وانساح أي: اتسع^(١). ومخرج سيحون من جبال ماسَبَدَان وينتهي إلى بلاد المُولتان، وتفسيره: مرج الذهب، ثم ينتهي إلى الفنصورة، ثم يصبُّ في البحر الشرقي، ومقدار جريانه على وجه الأرض ست مئة فرسخ، والتماسيح في خلجانه على ما ذكر الجاحظ، ولا توجد في غيره وغير النيل، وقد ذكرناه.

فصل في جِيحُون

وهو نهر بلخ، ومنبعه من عيونِ بلاد التُّبْت، ويمر ببلخ والتُّرْمِذ وأسْفَرَايِين وخُوَارِزْم، ويمضي حتى يصبُّ في بحر جُرْجان، ثم يمر على بلاد التُّرْك. قالوا: ومقدار جريانه على الأرض مقدار ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إنه يصب في مِهْرَان، وليس كذلك، بينهما مسافة بعيدة، وقد سماه النبي ﷺ: «جِيحُون» في الحديث الذي روينا.

فصل

وفي العالم أنهار كثيرة، ذكر أحمد بن بختيار أن بالصين جزيرة الفضة يخرج منها ثلاثة أنهار، مثل: جِيحُون والنيل والفرات.

قلت: وقد وهم، لو جعل مكان النيل دجلة كان.

ومنها: نهر إِتِل يأتي من المشرق فيصب في بحر الخَزْر، ويقال: إنه يتشعب منه نيف وسبعون نهراً، وهو أكبر من جِيحُون.

ومنها: نهر الهِنْدَمَنْد، ومخرجه من جبال خراسان ويصب في البحر الشرقي.

(١) «الصحاح»: (سيح).

وذكر في «جغرافيا»: أن العيون الكبار التي تنبع في الأرض مئتا عين وثلاثون عيناً دون الصغار، وعدد الأنهار الكبار الجارية في الأقاليم السبعة على الدوام مائتان وتسعون نهراً.

وقال ابن المنادي: في الإقليم الأول من الأنهار والعيون ثلاثة وعشرون عيناً ونهراً، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون، وفي الإقليم الثالث أربعة وعشرون، وفي الإقليم الرابع ستون، منها دجلة والفرات، وفي الإقليم الخامس عشرون، وفي الإقليم السادس ستة وعشرون، وفي الإقليم السابع الباقي.

وجميع ما ذكرنا من العيون والأنهار داخل في الأقاليم السبعة إلا العيون التي في جبل القمر فإنها خارجة عن ذلك، لأنها ليست في خط الاستواء. وقيل: إنها في أطراف إقليم الهند وهو الأول.

وذكر صاحب «المسالك»: أن ببلاد المشرق تلاً حوله ألف عين تجري إلى المشرق وتسمى بركون، أي: الماء المقلوب، وصيده ذراريح سود^(١).

قلت: وقد روى أبو بكر الخطيب في «تاريخه» حديثاً يأتي على سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، فقال بإسناده عن ابن عباس: قال، قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلَ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ: سَيْحُونٌ وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجَيْحُونٌ وَهُوَ نَهْرُ بَلْخِ، وَدِجَلَةٌ وَالْفَرَاتُ: وَهُمَا نَهْرَانِ بِالْعِرَاقِ، وَالنَّيْلُ نَهْرٌ بِمِصْرَ، أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَاحِي جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالَ، وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] فَإِذَا حَانَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَرْسَلَ اللهُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ هَذِهِ الْأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ وَالرُّكْنَ وَالْمَقَامَ وَتَابُوتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ، يَرْفَعُ الْكُلَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] فَإِذَا

(١) «المسالك والممالك» ص ٢٨، وجاء فيه: «بركوب».

رُفِعَتْ هذه الأشياءُ مِنَ الأَرْضِ فَقَدْ خَيْرُ الدِّينِ والدُّنْيَا»^(١). إلا أن هذا الحديث غريب، والأصحُّ أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما.

فصل في سَيْحان وجَيْحان

قال التُّوبختي: هما في بلد الروم، فأما سَيْحان: فيخرج من عيون بينها وبين مَلْطِيَّة ثلاثة أيام، ويمتد إلى ناحية الغرب، وعليه أذنة^(٢)، فيصب في البحر الرومي. وأما جَيْحان: فيخرج من عيون بينها وبين مَرْعَش ثلاثة أيام وعليه المَصِيصَة، ويصب في البحر الرومي.

والنهر الأسود: الذي غرق فيه ملك الألمان قريباً من بلد الروم.

فصل في البحيرات

وهي كثيرة: منها بحيرة سَاوَه وسنذكرها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى. وبحيرة أرمينية، وبحيرة الروم، وقد ذكرناها، وأما الشام فبحيرة قدس بحمص، وبحيرة فامية وبحيرة دمشق.

وبحيرة طبرية ودَوْرها ثلاثة وثلاثون ميلاً ومصبُّ الماء إليها من حولة بانياس، ويخرج منها النهر المعروف بالأردن، ويمرُّ من الغُور إلى بحيرة زَغْر من أرض الكرك. وقال الجوهري: والأردنُ اسم نهرٍ وكورة بأعلى الشام، قال: والأردن أيضاً - بالضم والتشديد - النعاس^(٣).

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أن بحيرة طبرية تصبُّ في نهر أنطاكية. والظاهر أنه قلَّد من لا يعرف، وأين بحيرة طبرية وأنطاكية؟! بحيرة طبرية في الشام الأسفل، وأنطاكية في الشام الأعلى، وإنما يصبُّ نهر أنطاكية في بحيرة فامية.

(١) «تاريخ بغداد» ٥٧/١-٥٨، قال ابن عدي في الكامل ٢٣١٦/٦ بعد إخراجه مع حديث آخر: وهذان الحديثان جميعاً غير محفوظين بل هما منكرا المتن.

(٢) اسم بلدة.

(٣) «الصحاح»: (ردن).

ومنها بحيرة تَيْس عند دِمياط، وكانت قرى ومزارع لم يكن بمصر مثلها، فغلب عليها ماء البحر.

فصل في أنهار الشام

أما دمشق فأصل مياهها بردى وعين الفيحة، يجتمع بردى عند عين الفيحة ثم ينحدر إلى قرية يقال لها: الهامة، فينفصل منه نهر يزيد، ويمتد في قاسيون وينتهي إلى دومة، وقد كان يمتد في الزمان القديم إلى الماطرون، وذنبه والقناطر في لحف الجبل باقية إلى الآن وكذا الآثار، وهو منسوب إلى يزيد الرومي، فأما يزيد بن معاوية فإنه وسَّعه وعمَّقه فنسب إليه.

وأما ثورا فيأخذ من فوق الربوة ويمتد إلى قريب القصير، ويقال: إنَّ عليه ثلاث مئة وستين ماصية.

وباناس وهو نهر الجامع، والقنوات ونهر المزة وقناتها، ويتفرع من هذه أنهار عدة. وأما العاصي: فأصله من جبل لبنان، ومن قرية يقال لها: اللبوة، ثم ينزل الماء إلى بحيرة قدس، ويخرج العاصي منها فيمر بأرض حمص وحماة وشيزر وفامية، ثم يصب في البحر الرومي قريباً من أنطاكية، وقيل: إنما سمي العاصي، لأنه يجري على غير القبلة، ومسافة جريانه ثلاثة أيام.

ومنها قويق: نهر حلب، يخرج من قرية يقال لها: سينات^(١)، على سبعة أميال من حلب، ثم يمر على حلب وقنسرين، وينتهي إلى المرج الأحمر، وماؤه موصوف بالرقّة والخفة، وقيل: إن أوله وخم فإذا امتدَّ طاب.

فصل في أنهار الجزيرة

منها: البليخ بين حرّان والرقّة، ويقال: إن الخليل عليه السلام نزل بذلك المكان وقال له: أبلخ، فتفجّر، وعنده مقام إبراهيم، وكانت عليه منازل الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

(١) في «معجم البلدان» ٤/٤١٧: «سبتات»، وقال: سألت عنها بحلب، فقالوا: لا نعرف هذا الاسم إنما مخرجه من شاذر، قرية على ستة أميال من دابق، وفي الروض المعطار ٤٨٦، وبغية الطلب ١/٣٤٧: سنياب.

ومنها: الجلاب نهر حرّان، وماؤه خفيف، ويقال: إن أوله وَخِمٌّ ثم يصحُّ، وأوله من عين ببلد الرّها.

ومنها: الهرّماس وهو نهر نصيبين، ويقال: إنه يسقي ثلاثين ألف بستان، ومبدأه من جبل نصيبين.

ومنها: الخابور، وهما خابوران: خابور رأس العين، ويمتد منها إلى الفرات فيصب فيها تحت قرقيسيا، وعليه المجدل وقرى كثيرة غيرها، وأما الخابور الثاني: ففي ديار بكر عند قردي وبازبدي، وهي ديار بني حمدان الذين ملكوا الموصل والجزيرة، ومخرجه من بلاد أرمينية ويصب في دجلة، وماؤه عذب، قال الشاعر [من الطويل]

بقردي وبازبدي مصيفٌ ومرّبعٌ وعذب يُحاكي السلسبيلَ برودُ
وبغدادُ ما بغدادُ أمّا ثرابها فجمٌّ وأمّا حرّها فشديدُ

فصل في أنهار العراق

حكى الخطيب عن الأوائل أن ملوك الأردوان وهم النبط، كانوا في السواد قبل فارس، وهم الذين استنبطوا المياه وحفروا الأنهار العظام بالعراق وصرّفوا دجلة والفرات بالسكور وقسموا المياه، ويقال لهم: ملوك الطوائف^(١). وإنما سموا نبطاً، لأنهم أنبطوا المياه، أي: استخرجوها، وذكرهم الجوهري فقال: النبط والنبيط قوم ينزلون بالبطائح بين العراقيين^(٢).

وقال ابن قتيبة: ملكوا العراق ألف سنة.

وقال ابن المنادي: كان ملكهم من عانات وكور دجلة والبصرة، وكانوا يصرّفون الفرات ودجلة كيف ما شاؤوا، وما فضل يصرّفونه إلى البحر الشرقي فلهذا سُموا نبطاً. وحكى الخطيب عن الهيثم بن عدي، عن عبد الله بن عياش المنتوف قال: كان حدُّ

(١) «تاريخ بغداد» ١/٥٦-٥٧.

(٢) «الصحاح»: (نبط).

مُلْكِ النَّبْطِ الْأَنْبَارِ إِلَى عَانَاتِ كَسْكَرٍ إِلَى مَا وَالَاهَا مِنْ كُورِ دَجَلَةَ إِلَى جَوْحَى^(١) وَالسَّوَادِ، وَكَانَ فِي أَيْدِي النَّبْطِ سُرَّةَ الدُّنْيَا، وَكَانَتِ الْفِرَاتُ وَدَجَلَةُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِمَا حَتَّى يَأْتِيَانِ بِلَادَهُمْ فَيَفْجِرُونَهُمَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَيَسُوقُونَهُمَا إِلَى الْبَحْرِ، وَحَفَرُوا الصَّرَاةَ الْعَظْمَى وَنَهْرَ سُورَا.

وقيل: إنما حفر الصَّرَاةَ ملوك فارس، ثم وليت الفرس فحفروا الأنهار، مثل نهر المَلِكِ، وَالْخَالِصِ، وَدِيَالِي، وَفَمِ الصَّلْحِ، وَالنَّيْلِ.

وقيل: إنما حفر نهر المَلِكِ أَقْفُورِشَةَ آخِرَ مَلُوكِ النَّبْطِ، وَمَلَكَ مِثِّي سَنَةَ^(٢).

وقيل: إنما حفره سليمان عليه السلام.

وقيل: إنما حفر فَمِ الصَّلْحِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ، وَفَمِ الصَّلْحِ أَقْطَعَهُ الْمَأْمُونُ

الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ.

وأما النيل الذي بأرض العراق، فيقال: إن الحجاج حفره، وهو قريب من واسط.

واختلفوا في الذي حفر نهر عيسى الذي يأخذ من الفرات ويصب ببغداد، وعليه الْمُحَوَّلُ وَغَيْرَهَا، عَلَى أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالثَّانِي: أَقْفُورِشَةَ آخِرَ مَلُوكِ النَّبْطِ، وَالثَّلَاثُ: مَلُوكِ الْفَرَسِ، وَقِيلَ: عَيْسَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَلَيْسَ كَمَا قِيلَ، وَإِنَّمَا بَنَى عَلَيْهِ قَصْرًا فَأَضْيَفَ إِلَيْهِ.

فَأَمَّا الصَّرَاةُ فَقَدِيمَةٌ أَيْضًا، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالصَّرَاةُ - بِالْفَتْحِ - نَهْرٌ بِالْعِرَاقِ وَهِيَ

الْعَظْمَى وَالصَّغْرَى، وَصَرِيَّ الْمَاءِ إِذَا طَالَ مَكْثُهُ وَتَغْيِيرُ^(٣).

وأما دُجَيْلٌ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: أَمَرَ سُلَيْمَانُ الشَّيَاطِينَ فَحَفَرْتَهُ

وَأَلْقَتْ تَرَابَهُ بَيْنَ قَصْرِ شِيرِينَ وَخَانِقِينَ، وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ مَلُوكِ الْفَرَسِ حَفَرَهُ.



(١) في (ب): «خوصا».

(٢) «تاريخ بغداد» ٥٧/١.

(٣) «الصحاح»: (صري).

فصل في ذكر ما في الدنيا

من العجائب وما أودع فيها من الغرائب^(١)

فصل في عجائب المشرق

ذكر العلماء بأخبار العالم أن بالهند عجائب:

منها: هيكل عظيم من أعظم الهياكل، يقال له: بلاذري، مستدير الشكل، له سبعة أبواب وفيه قبة شاهقة في الهواء على سبعة أعمدة، وفي رأسها جوهرة بمقدار رأس الفحل، تضيء منها جميع أقطار ذلك الهيكل، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فهلكوا، وكلُّ مَنْ دنا منها خرَّ ميتاً. وفي القبة صنم من ذهب وزنه مئة ألف مثقال تزعم الهند أنه نزل من السماء، يقصدونه من الآفاق، وكلُّ مَنْ تعرَّض لهذا الهيكل مات. وأساسه من حجارة المغناطيس، وبني على سير الكواكب السبعة بالحركات السماوية. وفيه بئر عليها طوق من الحديد الصيني، مكتوب عليه بالقلم المسند: «هذه البئر فيها علوم السماوات والأرض وما مضى وما يأتي، وفيها خزائن لا يصل إليها من العالم إلا من وازت قدرته قدرتنا واتصل علمه بعلمنا وساوت حكمته حكمتنا»، وكل من نظر في البئر وقع على أم رأسه ميتاً، وكلُّ من نظر إلى هذا الهيكل خاف وارتعد وضعف قلبه في أول وهلة، وعلى هذا الهيكل أوقاف كثيرة منها مدينة برسداقها، وحول هذا الهيكل ألف مقصورة فيها جوارى لمن يقدم زائراً لهذا الهيكل يتمتع بهن.

ومنها: غدير عظيم في مملكة المهراج، عليه قصر شاهق في الهواء، ويتصل بخليج إلى البحر من خلجان الزابج، والغدير مملوء لبناً من ذهب، وكلُّ ملك يلي أمر المهراج يضرب كل يوم لبناً ويلقيه فيه، وهذا الخليج يمد ويجزر كل يوم، فإذا جزر ظهر اللبن يقابله شعاع الشمس يلمع الغدير لمعاناً تبرق منه الأبصار، فإذا مات الملك وقام بعده آخر جمع ما في الغدير من اللبن وفرقه في أهل المملكة، في الخواص أولاً ثم في العوام، فإن فضل شيء فرقه في المساكين، ثم يكتب عدد اللبن ووزنه في اللوح، وأن

(١) انظر «كنز الدرر» ١/٢٠٩.

فلاناً عاش في الملك كذا وكذا سنة، وخلف في غدير الذهب كذا وكذا لبنة. وكانوا يتوارثون ذلك ويفتخرون بمن تطول أيامه ويكثر لبنة.

ومنها: أطم^(١) بساحل الهند بين مملكة شروان والمهراج، يخرج منها نפט أبيض وليس في العالم نפט أبيض سواه، وعندها نار لا تخمد ليلاً ولا نهاراً، وليس في أطام الأرض أعظم منها، وتضيء في الليل منها نار تُرى في البحر الشرقي من مئة فرسخ، وتقذف بجمر كالجبال وقطع من الصخور في الهواء، ثم تنعكس سفلاً فتَهوي في قعرها وهي سود وحمرة لما نالها من الحرارة. وقال الجوهرى: والأطم^(٢) مثل الأجم - جمع أجمّة.

ومنها: بطة من نحاس على عمود من نحاس بين الهند والصين في أرض يقال لها: كثار. حكى جدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إذا كان يوم عاشوراء مدّت عنقها إلى نهر تحتها فتشرب منه ثم تعود إلى مكانها وتفتح منقارها فيفيض منه من الماء ما يكفي ساكني تلك البلاد وزروعهم ومواشيهم إلى مثل عاشوراء مثل ذلك اليوم في السنة القابلة^(٣).

ومنها: قنطرة بين السوس وجندي سابور، ذكرها في «المسالك» وقال: هي على وادي منه أنهار جندي سابور والسوس، وطول القنطرة أربع مئة ذراع بناها سابور، وأساسها في الأرض ثلاثون ذراعاً، وارتفاعها في الهواء مئة ذراع، وبين صخورها الرصاص مصبوب، وفيها نيف وعشرون طاقاً، كل طاق عشرة أذرع، يخرج من تحت القنطرة نيف وثلاثون نهراً تسقي رستاق السوس وجندي سابور ولا ينقص الماء^(٤).

ومنها: ما ذكره ابن حوقل في «صفة الدنيا» فإنه قال: الخزر اسم إقليم، وقصبته تسمى: إتل، وإتل أيضاً اسم النهر الذي يجري إليها من الروس وبلغار ويصب في بحر الخزر، وقد ذكرناه، واسم ملكهم أيضاً إتل، وقصره مبني بالجص والآجر، ولا يسمح

(١) الأطمه مثل الأجمة: الحصن. «تاج العروس» (أطم).

(٢) في (ب) و(ل): والأطمه، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (أطم).

(٣) «المنتظم» ١/١٦٤-١٦٥، و«التبصرة» ٢/١٨٩.

(٤) «المسالك والممالك» ص ٤٣.

لأحد من رعيته في البناء بهما، وهو يهودي وعسكره اثنا عشر ألفاً كلهم يهود، وحاشيته أربعة آلاف، وفي بلاده مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة الأوثان، وللملك سبعة من الحكام من هذه الأصناف التي ذكرنا يقضون بين الناس ولا يصل أحد إلى الملك إلا في النادر.

وذكر ابن حوقل حكايةً طويلة اختصرتها، حاصلها: أن رجلاً وُلِدَ له ولد، وكان له غلامٌ يتجر بماله، فمات الرجل وتنازع الولد والغلام في المال، فالولد يقول: هو مال أبي، والغلام يقول: بل المال لي والرجلُ أبي، وأقاما يتحاكمان عند الحكام سنةً، وأقام كل واحدٍ منهما البيعة، ومن عادتهم إذا امتدت الحكومة سنةً ولم تنفصل حالٌ تولَّى الملك الأمر بنفسه، فأحضرهما الملك وأعيدت عليه الدعاوى، فلم يجد ما يقتضي الترجيح بين البيعتين فأفكر ساعةً وقال للابن: أتعرف قبر أبيك؟ فقال: كنت غائباً لما مات، ولما قدمتُ قالوا: هذا قبر أبيك، فقال للغلام المدعي البتوة: أتعرف قبر أبيك؟ قال نعم: أنا توليتُ دفنه، فقال عليّ برمةً منه - رمة بكسر الراء: عظم بال - فأحضرت، فقال: افصدوا الغلام على هذه الرمة ففصدوه فكان الدم يحيد عنها يميناً وشمالاً لا يعلق بها منه شيء، ثم قال: افصدوا الابن عليها، ففصدوه فعلق الدم بالرمة وشربته جميعه، فسلم المال إلى الابن وأدب الغلام ونكّل به^(١).

فصل في عجائب العراق

حكى جدي رحمه الله عن حميد الدهقان، دهقان^(٢) الفلوجة السفلى، قال: كان ببابل سبع مدائن، في كل مدينة أعجوبة ليست في الأخرى.

فكان في المدينة الأولى هيئة مثال الأرض كلها وفيها صورة أنهارها، فإذا التوى بعض أهل المملكة خرق أنهارها فغرق أهلها فلا يستطيعون سدّها حتى يطيعونه وينقادون إليه.

(١) «صورة الأرض» ص ٣٣٠-٣٣٢.

(٢) الدهقان: - بالكسر والضم - رئيس الإقليم، ومقدم قرية وصاحبها في خراسان والعراق. «تاج العروس» (دهقن).

وكان في المدينة الثانية حوضٌ من رخام، فإذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه يأتي منهم من أراد بما يحب من الأشربة فيصبونه في الحوض فيختلط الجميع، ثم يقوم السقاة فيصبونه في الأواني، فمن صبَّ في إنائه شراب كان شرابه الذي أتى به.

وكان في المدينة الثالثة طبل إذا غاب أحدٌ من أهلها غيبةً منقطعة وأرادوا أن يعلموا أحيي هو أو ميت ضربوا الطبل، فإن صَوَّتَ فهو حيٌّ، وإن لم يصوَّت فهو ميت.

وكان في المدينة الرابعة مرآة من حديد إذا غاب رجل وأراد أهله أن يعلموا الحالة التي هو عليها نظروا في المرآة فأبصروه على ما هو عليه.

وكان في المدينة الخامسة إوزة من نحاس على بابها، فإذا دخل المدينة غريبٌ صَوَّتَتْ صوتاً يسمعه أهل البلد فيعلمون أن قد دخلها غريب.

وكان في المدينة السادسة قاضيان جالسان على الماء، فإذا تقدم إليهما خصمان يمشي المحقُّ على الماء ويغوص المبطل.

المدينة السابعة كان فيها شجرة عظيمة، فإن جلس تحتها ألف رجلٍ أظلتهم، وإن زادوا واحداً جلسوا كلهم في الشمس^(١).

ومن عجائب العراق إيوان كسرى، وسنذكره في سير الأكَاسرة.

فصل في عجائب المَوصل

في أرض الموصل جبل قريب منها من ناحية المشرق عليه ديرٌ يقال له: دير الخنافس، للنصارى فيه عيد في ليلة من السنة، حكى لي جماعة من أهل الموصل قالوا: تصعد إليه جميع الخنافس التي في الدنيا، ويبعث فيه ألوفٌ من الناس يمشون عليها طول الليل^(٢)، وكذا الدواب، فإذا طلع الصباح لم يوجد للخنافس أثر، وبأرض الغرب مثله.

(١) «المنتظم» ١/١٦٧.

(٢) في (ب): «الليل كله».

فصل في عجائب اليمن

ذكر النوبختي قال: ما بين الشَّحْر وحَضْرَموت رجلٌ من نحاسٍ على عمود من نحاسٍ مادًّا يده إلى وراء كأنه يشير إلى أنه ليس وراءه مسلك. وهي أرض رجراجة لا تستقيم عليها الأقدام، يقال: إن ذا القرنين وصل إليها فخرج عليهم نملٌ كالْبَخَاتِيّ فكانت النملةُ تصرع الفارسَ، فرجع، وقد حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص^(١).

ومنها: وادي بَرَهوت بحضرموت، وفيه جُبٌّ فيه أرواحُ الفجَّار، وفي هذا الوادي أظمةٌ تقذفُ بالجمر، كالتي في الهند.

وحكى جدي رحمه الله تعالى في مجالس وعظه، وقد سمعته، وذكرها في بعض مصنفاته وقال: قدم بغدادَ رجلٌ من خراسان حاجًّا وكان معه مالٌ، فأودع بعضه عند بعض الزهاد ومضى إلى الحج، فلما عاد وجد الزاهد قد مات، فسأل أهله هل أوصى بمالٍ؟ قالوا: لا، فاهتمَّ فسأل بعض العلماء عن الطريق إلى كشف الحال، فقال له: ما ثمَّ إلا أن ترجعَ إلى مكة وتقفَ على زمزم وتنادي باسمه يافلان، فإن أجابك، وإلا فاذهب إلى بَرَهوت، فيه بئر فيها أرواحُ الفجَّار، وفي زمزم أرواح المؤمنين. فرجع الرجل إلى مكة ووقف على زمزم ونادى يا فلان، فلم يجبه، فخرج إلى اليمن ووقف على وادي بَرَهوت وناداه، وإذا هو جُبٌّ عميق مظلم يطلع منه الدخان واللهب، فأجابه وقال: لبيك. فقال: وأين مالي؟ قال: تحت الدرجة الفلانية، اذهب إلى أولادي وعرفُّهُم فهم يعطونك إياه، فقال: ألسْتَ الزاهدَ العابدَ، فما الذي أوقعك ها هنا؟ فقال: كانت أعمالي لغير الله تعالى. وعاد الرجل إلى بغداد، وعرفَّ أهله، فحفروا المكان وأعطوه إياه.

فصل في عجائب الشام ومصر والمغرب

حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: من عجائب الدنيا حمَّام طبرية

(١) حكاه ابن الجوزي في «التبصرة» ١٨٩/٢، وانظر «المنتظم» ١/١٦٤.

ومنارة الإسكندرية.

وقال آخر: نهر الذهب وجبُّ الكلب وقلعة حلب، فأما جب الكلب فيقال: إنه في الروم، وماؤه يبرئ من الكلب، وأما نهر الذهب فيقال: هو نهر بُزاعة فإنه يسقي البساتين والأراضي وما يفضل منه يصير في البرية ملحاً.

ومنها: بمصر بئر البلسم التي تسقي شجر دهن البلسان.

ومنها: الهَرَمَان، وسُمُّكُ كلِّ واحدٍ منهما خمس مئة ذراع في ارتفاع مثلها، وكلما ارتفع البناء، دقَّ رأسها حتى يصير مثل مفرش حصير، وهما من المرمر، وعليهما جميع الأقلام اليونانية والعبرانية والسُّريانية والمسندية والحميرية والرومية والفارسية.

وحكى بعض علماء مصر قال: إنهم حلوا بعض الأقلام فوجدوه: «إني بنيتها بملكي، فمن ادَّعى قوةً فليهدمها، فإن الهدم أيسرُ من البناء».

وحكى جدي عن ابن المنادي في «المنتظم» أنه قال: فحسبوا خراج الدنيا مراراً فلم يفِ بهدمها^(١).

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن صلاح الدين رحمه الله أمر أن تؤخذ منها حجارةٌ يبثون بها قنطرة، فهدموا منها شيئاً كثيراً فبنوا جسراً قريباً منها يُمشى عليه في زمان زيادة النيل إلى الإسكندرية، وهو جسرٌ عظيم تولَّى عمارته قراقوش الخادم.

وإنما في هدمها كلفةٌ لكونِ الحجارة ذكراً في أنثى، وقد شاهدتُ الهرمين مراراً، وأحدهما مسدودٌ والآخرُ فيه بابٌ تدخلُ الناسُ فيه، وحكى لي مَنْ دخله أنه وجد فيه قبراً وأن فيه مهالك، وربما خرج منه الإنسان في سرايب إلى الفيوم، والظاهر أنها قبور الملوك الأوائِلِ وعليها أساميهم وأسرارُ الفلكِ والسحرِ وغير ذلك.

واختلفوا في مَنْ بنى الأهرام، قال بعضهم: يوسف الصديق، وقال آخرون: بناها نمرود، وقيل: دلوكة الملكة، وقال قوم: إنما بناها القبط قبل الطوفان، وكانوا يرون أنه كائن، فبنوها ونقلوا ذخائرهم إليها، وجاء الطوفان فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، وقيل: إنه لا يُعرفُ من بناها، وهو الظاهر.

(١) «المنتظم» ١/١٦٦.

وحكى بعض شيوخ مصر: أن بعض من يعرف لسان اليونان حل بعض الأقلام التي عليها ونقلها إلى العربية فإذا هي: «بناء هذان الهرمان، والنسر الواقع في السرطان» قال: ومن ذلك الوقت إلى زمان نبينا محمد ﷺ ستة وثلاثون ألف سنة، وقيل: اثنان وسبعون ألفاً.

وقيل: إن القلم الذي عليهما تاريخه قبل بناء مصر بأربعة آلاف سنة، ولا يعرفه أحد.

وحكي لي أنه قيس عرض الهرم الشرقي فكان خمس مئة ذراع، وسطحه تسعة أذرع، وطوله في الهواء ستة وخمسون ذراعاً، وهو مئة وثمانون صفاً، كل حجر عرضه ثلاثة أذرع، وعرض الهرم الغربي أربع مئة وستون ذراعاً، وبالقرب منهما صخرة عظيمة قد صوروا منها رأس آدمي سموه: أبا الهول، وحولها أهرام صغار.

ويقال: إن ملك اليونان واسمه: سوريد بن سهلوف رأى في منامه كأن الأرض انقلبت والكواكب تتساقط، ولها أصوات منكرة، فهاله ذلك، فجمع حكماءه وأخبرهم، فقال واحد: لا بد من هولين عظيمين يحزن منهما العالم، أحدهما ناري والثاني مائي، فأمر ببناء الأهرام ونقل إليها علومهم وكنوزهم، وجعل عمقها في الأرض كارتفاعها في الهواء، فإن كانت الآفة مائةً صعدوا إلى أعلاها، وإن كانت ناريةً نزلوا إلى أسفلها إلى السرايب. وصور فيها الكواكب والبحورات والروحانيات والأقلام وصور العقاقير وغيرها.

وكان كلما مات حكيم جعلوا كتبه عند رأسه، وكانوا يقولون بالرجعة.

وجعلوا باب الهرم الشرقي من ناحية الجنوب في الأرض بأزج معقود طوله مئة وخمسون ذراعاً، وباب الغربي من الشمال كذلك.

وقيل: ابتداء بنائها والنسر الطائر في الحمل.

ولما تم بناؤها ذبحوا لها الذبائح وكسوها الديباج، وكتبوا على ظهرها: «نحن بنيناها في ست سنين فاهدموها في ستين سنة». ووجدوا فيها دنانير وزن كل دينار أوقية^(١).

(١) في (ب): «دنانير وزن أوقية».

وقيل : إن روحانيّ الهرم الشرقي في صورة امرأة عريانة لها ذوائب، فإذا أرادت أن تستهوي أحداً ضحكت ودعته إلى نفسها، فيدنو منها فيهم على وجهه فيهلك، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم وقت القائلة.

قالوا: وروحانيّ الهرم الغربيّ غلام أمرد عريان أصفر اللون، وقد رؤي وقت المغرب وهو يدور حول الهرم. وهناك هرم مُلَوّن وروحانيّه شيخٌ نوبي عليه بُرْطُل^(١) وبيده مبخرة، وقد رؤي ليلاً حول الهرم.

ولما ملك ابن طولون^(٢) مصرَ حفر على أبواب الأهرام فلم تعرف، فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوب عليها سطور باليوناني، فأحضر من يعرف ذلك القلم، وإذا هي أبيات شعر فترجمت فكان فيها :

أنا بانيّ الأهرام في مصرَ كلها
تركتُ بها آثارَ علمي وحكمتي
وفيها كنوزٌ جمّةٌ وعجائبُ
وفيها علومي كلّها غيرَ أنني
سَتَفْتَحُ أقفالي وتبدو عجائبي
ثمانٍ وتسعٍ واثنتانٍ وأربعُ
ومن بعد هذا جزء تسعين برهة
تدبّرُ مقالي في صخورٍ قطعتها
ومالكها قدماً بها والمقدّمُ
على الدهرِ لا تبلى ولا تتلّمُ
وللدهرِ لينٌ مرةً وتهجّمُ
أرى قبلَ هذا أن أموتَ فتعلمُ
وفي ليلةٍ في آخرِ الدهرِ تنجم
وتسعون من بعد المئين تسلّم
وتلقى البرابي تستحرّ وتهدم
بسيّفي وأفنى قبلها ثم تُعدم
فجمع ابن طولون الحكماء وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدرُوا على تحقيق ذلك
فيئس وزال الطمع.

ومنها: المطالب، وهي كثيرة بمصر، إلا أن الغالب عليها أن لها طِلْسَمَاتٍ تمنع من الوصول إليها.

وحكى الهيثم بن عدي وغيره، أن رجلاً جاء إلى عبد العزيز بن مروان وهو على

(١) البرطُل: القلنسوة. «القاموس المحيط»: (برطل).

(٢) كان تملك أحمد بن طولون مصر سنة (٢٥٤) هـ كما سيذكر ذلك المصنف.

مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم، فقال له: أيها الأمير إني قد وجدتُ كتاباً قديماً يشير إلى بعض الأماكن، أن فيه كنزاً فيه أموالٌ وجواهر لا تحصى، فخرج معه إلى ظاهر مصر على أميال، وجاء به إلى تلٍّ عظيم فقال: تحت هذا التلِّ، فقال: ومن أين لك هذا؟ فقال: إذا كشفنا هذه التلِّ ظهر لنا بلاطٌ مختلفُ الألوان، ثم نحفر فيظهر لنا بابٌ من الصُّفْرِ فيه المطلب، فأزالوا بعضَ التلِّ فظهر البلاط والباب، فأزالوا عنه التراب وإذا عليه أقفالٌ عجيبةٌ، فعالجوها حتى فتحوها، فإذا بدرجٍ يأخذ إلى بهوٍ عظيم فيه قناطر ومجالس عليها أبواب الذهب مرصعة بالجواهر، وفيها من الأموال والياقوت والجوهر ما لا يحصى، وإذا بالدرج من نحاس مشبك، وفي أول درجةٍ عمودٌ من ذهب، وفي أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان خراج الدنيا، وجناحاه من زمرد، فضرب بعضهم رأس الديك فلمع شيء كالبرق الخاطف، وهو ما في عيني الديك من الياقوت فبانَت الدرج بأسرها والبهو، فبادر واحدٌ فوضع قدمه على أول درجة، فلما استقرت قدماه عليها ظهر سيفان عظيمان عاديان من عن يمين الدرجة وشمالها، فالتقيا على الرجل فقدَّاه نصفين، فأهوى جسمه على الدرج، فلما استقرَّ على بعضها اهتزَّ العمود وصَفَرَ الديك صفرةً عظيمةً أسمعت من كان بعيداً، وحَرَكَ جناحيه، وظهرت أصواتٌ مزعجةٌ قد عملت على الكواكب بالحركات ينزعج لها السامع، وتقدم آخر فالتقت عليه السيفان فقدَّته نصفين، ثم آخر وآخر حتى قتلت ألف رجل، فقال عبدالعزيز: حسبنا، هذا أمرٌ لا يُدْرِك ولا يوصلُ إليه، ثم أمر بردَّ الترابِ على الموتى فكانت الحفيرةُ قبورهم.

ومنها: جبل الطير بصعيد مصر، فيه شقٌّ، فإذا كان يومٌ مُعَيَّن من السنة جمع عنده زرازير الدنيا، فيأتي كلُّ زرزور فيدخل منقاره في الشقِّ ثم يخرجهُ ويطير، ويأتي آخر فيفعل كذلك، طولَ النهار يأتي زرزور ويذهب زرزور إلى وقت الغروب، فيأتي آخر الزرازير فيدخل منقاره في الشقِّ فينضمُّ عليه ويبقى معلقاً طول العام إلى ذلك اليوم، فيفتح الشقِّ ويسقط ذلك الزرزور ويأتي غيره.

ومنها: عمود السواري بالإسكندرية، وليس في الدنيا مثله، وقد شاهدته، ويقال: إن أخاه بأسوان.

ومن عجائب المغرب: نار في جزيرة صقلية تشتعل فيها حجارة ولا تمكن أحداً من الوقود منها، قالوا: وليس بصقلية نملة.

ومنها حجارة بالقيروان تقذفها النيران بالليل، وفي النهار دخان، وهي في جبل يقال له: البركان.

ومنها: بيتان بالأندلس يعرفان بالملوك، فلما فتحت الأندلس في زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان وجدوا هذين البيتين، ففتحوا أحدهما فإذا فيه أربعة وعشرون تاجاً، على كل تاج اسم صاحبه مكتوبٌ عليه ومبلغُ سنِّه، وما ملك من السنين، ووجدوا فيه مائدة سليمان عليه السلام وهي من الذهب، وقيل من الياقوت، وعليه أطواق الجواهر الثمين، فحملت إلى الوليد، ووجدوا على باب البيت الآخر أربعة وعشرين قفلاً، كان كلُّما ملكٌ واحدٌ منهم تلك البلاد زاد قفلاً، ولا يعلمون ما في البيت، فقال لهم بعض الرهبان: إنَّ آخر ملوك الأندلس يُفْتَحُ على يديه، قالوا: لا بد من فتحه، فنهاه الحكماء فخالفهم وفتحوه، فإذا رجال من العرب قد صوَّروا على خيولهم، وعليهم العمائم والأسلحة، فدخلت العربُ جزيرة الأندلس في السنة التي فتح فيها الباب.

ومنها: ما حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص في «كتاب التبصرة» قال: ومن العجائب سوداني من نحاس على قضيب من نحاس على الباب الشرقي برومية، فإذا كان أوانُ الزيتون صفراً ذلك السوداني فلا تبقى سودانية تطير إلا جاءت بثلاث زيتونات: زيتونة في منقارها وزيتونتان في رجليها، فألقته على ذلك السوداني، فيحمله أهل رومية فيعصرون منه ما يكفيهم لسُرْجِهِمْ وإدامهم إلى العام المقبل^(١).



(١) «التبصرة» ٢/١٨٨-١٨٩.

فصل في الطبائع

قال علماء الأوائل: العالم وما فيه أربعة أجزاء:

فالربع الأول: المشرق، وجميع ما فيه حارّ رطب، وله الهواء والدم، وله ريح الجنوب، وزمانه ربيع، ويختص من الكواكب بالقمر والزهرة، وله من البروج الحمل والثور والجوزاء.

والربع الثاني: المغرب، وجميع ما فيه رطب، وله الماء والبلغم، وله من الريح الدبور، وله الشتاء، ومن الكواكب عطارد والمشتري، ومن البروج الجدي والدلو والحوث.

والربع الثالث: اليمن، وجميع ما فيه حارّ يابس، وريحه الصبا، وله الميرة الصفراء والصيف، ومن الكواكب الشمس، ومن البروج الأسد والسرطان والسنبلة.

والربع الرابع: شمالي^(١) له ريح الشمال، وله الخريف، ومن الكواكب زحل والمريخ، ومن البروج الميزان والعقرب والقوس.

قلت: وهذا تقسيم بعض الأوائل، والأصح أن الشمس تختص بالمشرق، وكذا المريخ يختص بالترك، وأن العقرب يختص بأرض الحجاز.

قالوا: والطبائع أربع: فالأولى: طبيعة النار، وهي حارة يابسة، والثانية: طبيعة الهواء، وهي حارة رطبة، والثالثة: طبيعة الماء، وهي باردة رطبة، والرابعة: طبيعة الأرض، وهي باردة يابسة، فاثنتان منها يذهبان الصعداء وهما النار والهواء، واثنتان يرسبان سفلاً وهما الأرض والماء.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٢٢٩/١: «وجميع ما فيه يابس، وله التراب وله المرة السوداء».

فصل

في ذكر سكانها وما ورد في قطانها^(١)

روى مجاهد عن ابن عباس قال: كان في الأرض أمم قبل آدم أيضاً^(٢).

وقال الجوهري: الحنُّ حيٌّ من الجن، قال: ويقال الحنُّ خلق بين الإنس والجن^(٣).

وروى مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أول من سكن الأرض أمة يقال لهم: الحنّ والبن، ثم سكنها الجنّ، فأقاموا يعبدون الله تعالى زماناً، فطال عليهم الأمد فأفسدوا، فأرسل الله إليهم نبياً منهم يقال له: يوسف، فلم يطيعوه وقتلوه، فأرسل الله الملائكة فأجلتهم إلى البحار، وكان مدة إقامتهم في الأرض ألف عام^(٤).
قلت: وقد ضعّف العلماء روايات مقاتل، فإن الله تعالى لم يبعث نبياً قبل آدم، وإنما قيل: بأن يوسف كان ملكاً لهم فعصوه.

حدثنا عبد القادر الرهاوي بإسناده عن وهب بن منبه عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بِالْمَغْرِبِ أَرْضاً بِيضَاءَ تَسِيرُ الشَّمْسُ فِيهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً، بِهَا أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ» قالوا: يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يدرون هل خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لَا» قالوا: فمن بني آدم هم؟ قال: «ما يدرون خُلِقَ آدَمُ أَمْ لَا»^(٥).

قلت: والأصحُّ أنه موقوف على ابن بريدة عن أبيه.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٣٠.

(٢) في «كنز الدرر»: «كان في الأرض أمم قبل الحن والبن فانقرضوا، وقبل آدم أيضاً».

(٣) «الصحاح»: (حن).

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٥٨، عن ابن عباس، ولم يذكر فيه: الحن والبن، وانظر «المنتظم» ١/ ١٦٩.

(٥) وأخرجه - أيضاً - أبو الشيخ في «العظمة» (٩٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

في ذكر من ملكها، وقطع سبلها وسلوكها

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزار بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران نمروذ وبختنصر، وسيملكها خامس من أهل بيتي»^(١). وقيل: إنه موقوف على ابن عباس، والمراد به العمران من الأرض، فإن الخراب مفاوز ومهالك وقفار وبحار.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: ملك الأرض من الجن والإنس ثمانية: ثلاثة من الجن وخمسة من الإنس، فمن الجن ظهْمُورُثُ وكيَوْمَرُثُ وأوشنج، ومن الإنس جمشاد من ولد قابيل، كان يقطع الدنيا في يوم كما تقطعها الشمس، ونمرود وبيوراسب، وهو الضحاك، والإسكندر وسليمان.

قلت: وقد وهم ابن المنادي فإن كيَوْمَرُثُ وظهْمُورُثُ وأوشنج من ولد آدم، حتى إن طائفة تزعم أن كيَوْمَرُثُ هو آدم. ولم يوافق ابن المنادي أحدٌ على أن هؤلاء الثلاثة من الجن.

وأما ما ذكره عن جمشاد ففي غاية البعد، والعقول السليمة تأباه، ولا خلاف بين علماء السير أن الله طرد ولد قابيل إلى جبال الهند ولعنهم، ولم يكن في نسل قابيل ملكٌ ولا رئيس، وأنهم هلكوا في زمان الطوفان، لما نذكر، والاعتماد في هذا الباب على ما روينا عن ابن عباس.



(١) أخرجه الحاكم ٥٨٩/٢ موقوفاً على معاوية. ولم أقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنه. وانظر المنتظم ١/١

فصل

في ذكر من تحتها من السكان، وهل هو ريح أو جماد أو حيوان^(١)

روى السُّدي عن أشياخه: أن لكل أرض سكاناً، فسكان الأرض الثانية: الريح العقيم، وهي التي أهلكت قوم عاد، وسكان الثالثة: حجارة جهنم التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وفي الرابعة: كبريت جهنم، وفي الخامسة: حيات جهنم، وفي السادسة: عقاربها، كالبغال الدُّهم وأذناها مثل الرماح، وسكان السابعة: إبليس وجنوده.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: في كل أرض آدم كآدمكم^(٢).

وهذا القول بعيد^(٣) لم يرد به خبر ولا أثر، وإنما هو آدم واحد، وهو أبو البشر، وقد أخذ على أبي العلاء المعري قوله^(٤): [الطويل]

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ ولكنّه عند القياس أوادِمُ
ومذهب الأوائل أن الأرض على صفةٍ واحدة كالْمُحَّةِ في البيضة، وإنما تختلف
أجناسها، وليس تحتها سوى الماء.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/٢٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/٤٩٣، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال البيهقي (كما في فتح الباري ٩/٤٧٦): إسناده صحيح، إلا أنه شاذ بمرّة.

(٣) في (ب): «ضعيف».

(٤) البيت في «لزوم ما لا يلزم» ٣/١٣٨٨.

فصل

في ذكر النار، التي أعدها الله للفقار^(١)

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبَةً، فقال رسول الله ﷺ: ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حَجْرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفاً وَالْآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

الْوَجْبَةُ: السقطة مع هَدَّةٍ. وهذا الحديث يدلُّ على أَنَّ النَّارَ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ سَلَامٍ، وَقَالَ: كَذَا هُوَ فِي التَّوْرَةِ، فَإِنْ قِيلَ: فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي السَّمَاءِ^(٣)، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: وَرَأَيْتَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَمْ يَقُلْ: رَأَيْتُ النَّارَ فِي السَّمَاءِ.

وَأَبْنَاؤُنَا جَدِي بِإِسْنَادِهِ عَنِ قَتَادَةَ - وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: عَنِ شُعْبَةَ - قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ عَلَى حَائِطِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الشَّرْقِيِّ يَبْكِي وَيَقُولُ: مَنْ هَذَا هُنَا أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى جَهَنَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، قَالَ: وَلِذَلِكَ سُمِّيَ وَادِي جَهَنَّمَ^(٤).

وَيَحْتَمَلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَاهُ إِيَّاهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا جَلَّى لَهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي إِظْهَارِ الْقُدْرَةِ، وَلِأَنَّ النَّارَ حَبَسَ، وَالْحَبْسُ يَكُونُ فِي جِهَةِ السُّفْلِ، بِخِلَافِ الْجَنَّةِ لِأَنَّهَا بَسْتَانٌ، وَالْبَسْتَانُ يَكُونُ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ.

رَوَى مُجَاهِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤] قَالَ: هِيَ دَرَكَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَأُولَاهَا جَهَنَّمَ، ثُمَّ لَظِي، ثُمَّ الْحُطْمَةُ، ثُمَّ السَّعِيرُ، ثُمَّ سَقَرٌ، ثُمَّ الْجَحِيمُ، ثُمَّ الْهَاطِيَةُ^(٥).

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٦٥.

(٢) أحمد في «مسنده» (٨٨٣٩)، ومسلم (٢٨٤٤).

(٣) الحديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٢٨٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وانظر تفصيل الكلام على مكان جهنم في كتاب «التخويف من النار» لابن رجب، باب في ذكر مكان جهنم ص ٦٢-٦٨، وانظر المنتظم ١/ ١٨١.

(٤) «فضائل بيت المقدس» ص ١٢٠-١٢١.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ٣٥ من حديث ابن جريج.

قلت: قرأت على شيخنا أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى: قال قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي قال: اشتقاق جهنم من قول العرب: رَكِيَّةٌ جِهَنَّمٌ - بكسر الجيم - إذا كانت بعيدة القعر^(١). وكذا قال في «الصحاح»: جهنم اسم من أسماء النار التي يعذب الله تعالى بها عباده.

وأما لظى، فقال الجوهرى: هي اسم من أسماء النار، وأصلها من التلهب.

وأما الحُطْمَة، فمن الحَطْم، وهو الكسر، لأنها تحطّم ما يُلقَى فيها.

وأما السعير، فمن التسعّر، وهو التوقد.

وأما سقر، فمن البعد، ومُضْمَقِرٌّ^(٢): شديد الحر.

وأما الجحيم، فقال الجوهرى: كلُّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُمْ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصفّات: ٩٧]، والجاحم: المكان الشديد الحرّ.

قال الجوهرى: وأما الهاوية، فإنما يقال: هاوية بغير ألف ولام، قال الله تعالى: ﴿فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] أي: مستقرّة في النار، قال: والنار تجمع الكل^(٣). وقد جاءت في ذكر النار أحاديث:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه ما يُوقدُ بنو آدمَ جزءٌ واحدٌ من سبعينَ جزءاً من حرِّ جهنّم» قالوا: يا رسول الله، والله إنّها لكافية، فقال: «إنّها فضّلتُ عليها بتسعةٍ وستينَ جزءاً كلّهنّ مثلُ حرّها». أخرجاه في الصحيحين أيضاً بهذا الإسناد^(٤).

(١) «المعرب» ص ١٥٥.

(٢) في (ل): ومصقر، وجاء في (ب) مكانها بياض، والمثبت من الصحاح (سقر).

(٣) «الصحاح»: (جهنم، لظى، حطم، جحم، هوي).

(٤) أخرجاه أحمد في «مسنده» (٨١٢٦)، ومسلم (٢٨٤٣) من طريق عبد الرزاق، عن معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

وأخرج البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وأحمد (٧٣٢٧) من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، ولفظ أحمد: «إن ناركم هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

[وفي الصحيحين أيضاً] عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يارب، أكل بعضي بعضاً فنفسني، فأذن لها أن تتنفس نفسين: نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر فمِنْ حر جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فمِنْ زمهريرها^(١)». في أخبار كثيرة.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو اليمان بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط، فقال: منذ خلق الله النار لم يضحك»، أخرجه أحمد في «المسند»^(٢).

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال عند ذكر النار: «أهل النار كلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مَنَاعٍ^(٣)».

الجَعْظَرِيُّ: الفُظُّ الغليظ، ذكره الجوهري، وقال: قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا كان قصيراً غليظاً: جَعْظَرَةٌ، بكسر الجيم^(٤). والجَوَّازُ: الجَمُوع المَنُوع، وقال الجوهري: الجِظُّ: الرجل الضخم، قال: وفي الحديث: «أهل النار كلُّ جِظُّ مُسْتَكْبِرٍ» قال: وكذا الجِظُّ^(٥).

فصل

ومذهب أهل الحق أن النار مخلوقة، وقالت المعتزلة والجهمية: لم تُخلق بعد، لأنها دارٌ تعذيبٍ وجزاء، وليس هذا وقته. ولنا قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] والمُعَدُّ ما يكونُ موجوداً، وما ذكره فنقول: جهنم حبسُ العصاة، فوجودها أبلغ في الزجر من عدمها، وعلى هذا الخلاف الجنة، لما نذكر.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧). وما بين معقوفين زيادة من «كتر الدرر» ١/٢٦٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٠).

(٤) «الصحاح»: (جعظر).

(٥) «الصحاح»: (جفظ) و(جعظ).

فصل

في خلق الجن والشياطين وأصلهم إبليس اللعين

قال علماء اللغة: أصل الجن من الاستتار، ومنه: الجنين، لأنه مستتر في بطن أمه. وقال الجوهري: إنما سموا بذلك لأنهم لا يُرون^(١). قال الجوهري^(٢) أيضاً: الشيطان كلُّ عاتٍ متجبر من الجنِّ والإنس والدواب، ومَنْ بَعْدَ غَوْرُهُ فِي الشَّرِّ. واختلفوا في اشتقاقه على قولين، أحدهما: مِنْ شَطَنَ، أَي: بَعْدَ عَنِ الْخَيْرِ. والقول الثاني: أنه من شاط يشيط إذا احترق، ومنه شاطت القدر.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»^(٣).

وقد فسّره ابن عباس فقال: المارِجُ هو لسانُ النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت^(٤).

وقال الجوهري: المارِجُ نارٌ لا دخانَ لها خُلِقَ مِنْهَا الشَّيْطَانُ^(٥).

واختلفت الرواية عن ابن عباس: هل الجانُّ إبليس أم غيره؟ فروى عنه عكرمة أنه قال: إبليس أصل الجانِّ والشياطين، وهو أبو الكلِّ. وروى مجاهد عنه أنه قال: الجانُّ اسمه سُومان، وهو أبو الجنِّ كلِّهم كما أن آدم أبو البشر.

وروى سعيد بن جبیر عنه أنه قال: هذا الفن خمسة أنواع: جانٌّ، وجنٌّ، وشيطان، وعفريت، ومارد، وأضعفها الجانُّ وهو مسيخ الجنِّ، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس، وأقواها المارد^(٦).

(١) «الصحاح»: (جنن).

(٢) في (ل): وأما الشيطان فقال الجوهري. وانظر «الصحاح»: (شطن).

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢٦/٢٧.

(٥) «الصحاح»: (مرج).

(٦) جاء بعدها في (ب): «وأضعفها الجن».

وقال الحسن البصريّ: الشياطين أولاد إبليس، لا يموتون إلا معه، والجنّ يموتون قبله.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: خلق الله الجنّ قبل آدم بألفي سنة. وقد روي مرفوعاً والموقوف أصح.

وحكى السدي عن أشياخه قالوا: في الجنّ: المؤمن والكافر والقدرية والمعتزلة والجهمية والشيعة وجميع الفرق.

وحكى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: هم على أصناف، على صور الحيات والعقارب والأسد والذئب والثعالب ونحوها.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الأسودين ولو كنتم في الصلاة: الحية والعقرب». ورواه أبو داود، وفيه: أمر رسول الله ﷺ بقتلهما^(١).

قلت: وعامة العلماء على جواز قتل الحية والعقرب في الصلاة، وكرهه إبراهيم النخعي لأنه عمل كثير، وقد روي أن النبي ﷺ أمر بأن يؤذّنوا قبل قتلهم، فقال عبدالله ابن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن جرير بن عبدالله قال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه إذا ظهروا في مكان أن يؤذّنوا بالانصراف قبل قتلهم^(٢). يقال: خلّ الطريق ومرّ بإذن الله، يعني إذا تصور الجنّ في صورة الحيات والعقارب.

وقال ابن أبي ليلي: الحية البيضاء التي تمشي مستوية هي الجنّ، فتلك التي تُنذر قبل قتلها، أما غيرها فلا تنذر بل تقتل.

قال أبو جعفر الطحاوي: والمختار عند أصحابنا: قتل الجميع بغير إنذار، لحديث أبي هريرة الذي روينا، فإنه مطلق في حقّ الكلّ، قال: لأنه بلغنا أن النبي ﷺ عهد ليلة

(١) الترمذي (٣٩٠)، وأبو داود (٩٢١)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٧١٧٨).

(٢) حديث إيدان حيات البيوت قبل قتلهن ليس هو من حديث جرير بن عبدالله، ولم نقف عليه في «مسند أحمد»، والحديث مروى عن أبي سعيد الخدري عند مسلم (٢٢٣٦) مطولاً وفيه قصة، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذّنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان». وأخرجه أيضاً أحمد في «مسنده» (١١٣٦٩).

الجنّ وأكد عليهم العهودَ والمواثيقَ أنهم لا يدخلون بيوتَ أمته ولا يظهرون، فإنّ ظهروا قُتلوا، فإذا ظهروا فقد نقضوا العهدَ فيجب قتلهم. ولكن الأولى هو الإنذار عملاً بالروايات كلها، فإن لم يرجع قتله.

وروى عروة أن عائشة رضي الله عنها قتلت حيةً فأتيت في منامها فقيل لها: أقتلت مسلماً؟ فقالت: لو كان مسلماً لما دخل بيوتَ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: هل كان يدخلُ عليك إلاّ وعليك ثيابك؟ فأصبحتُ فزعة، فتصدقت باثني عشر ألفاً^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس: أن الكلابَ من ضعفاء الجن، وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكلب الأسود شيطان»، انفرد بإخراجه مسلم^(٢)، وفيه: الكلب الأسود البهيم.

وبهذا الحديث يحتجّ أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه: أن الكلبَ الأسود البهيم يقطعُ الصلاة، وهو قول أهل الظاهر.

وروي عن أحمد أنه قال: الذي لا أشك فيه أن الكلب البهيم يقطعُ الصلاة، ويروي عن معاذ وطاووس ومجاهد، قال أحمد: وفي نفسي من المرأة والحمار شيء. وعند أهل الظاهر يقطع الصلاة مرورُ الكل.

قلت: ومذهب أصحابنا ومالك والشافعي وعامة الفقهاء أنه لا يقطع الصلاة مرورُ شيء من ذلك، لقوله عليه السلام: «لا يقطعُ الصلاة مرورُ شيء»^(٣)، وحديث أبي ذرّ لا حجة فيه وقد بيّنا هذا في «شرح البداية».

وقال الحسن البصري: الجن ثلاثة أصناف: صنف في البرّ، وصنف في البحر، وصنف في الهواء.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هم أربعون جيلاً، كلُّ جيلٍ ست مئة ألف، وهم مأمورون ومنهيون.

(١) أورده ابن عبد البر في «الاستذكار» ٥٢٦/٨، وأبو الشيخ في العظمة (١٠٦٦).

(٢) أحمد «مسنده» (٢١٣٢٣)، ومسلم (٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٧١٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واختلفوا هل بعث فيهم نبيٌّ أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه بعث إليهم نبي اسمه يوسف، لقوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] فعلى هذا هم يُحشرون ويحاسبون.

والقول الثاني: أنه لم يبعث فيهم نبيٌّ وإنما كان فيهم النذر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قاله مجاهد. وقال الضحاك والكلبي: كانت الرسل قبل محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس والجن جميعاً.



فصل

في ذكر إبليس وجنوده، وأولاده وحشوده^(١)

اختلفوا في اشتقاقه، قال علماء التفسير: اشتقاقه من الإبلاس وهو الإياس، وإبليس قد يئس من رحمة الله، قال الجوهرى: يقال أبلس فلان إذا سكت غمًا. واختلفوا في اسمه، فقال الجوهرى: كان اسمه عزازيل^(٢). وهو قول ابن عباس، وروي عن ابن عباس أن اسمه: الحارث.

واختلفوا في كنيته على قولين: أحدهما: أبو مرة، والثاني: أبو الغمر.

واختلفوا هل كان من الملائكة أو من الجنّ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من الملائكة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه كان من الشياطين، قاله الحسن البصرى، قال: ولم يكن من الملائكة

قط، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

الثالث: أنه لا من الملائكة ولا من الجن، بل هو خلق مفرد خلقه الله تعالى من

النار كما خلق آدم من الطين، قاله مقاتل^(٣).

وقد رجّح علماء التفسير قول ابن عباس أنه كان من الملائكة، واحتجّوا بقوله

تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤، الكهف: ٥٠]

وهذا استثناء متصل، فدلّ على أنه منهم.

وأما قول الحسن: إنه كان من الجن، وما احتجّ به من الآية فقد فسّره ابن عباس

وقال: أشرف الملائكة وأكرمهم يقال لهم: الجنّ، لأنهم استتروا عن أعين الملائكة

لشرفهم، وكان إبليس منهم، قال: وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض،

وكان يسمّى: طاووس الملائكة، وليس في سماء الدنيا مكان إلا وقد سجد عليه، ولما

عصت الجن في الأرض بعثه الله في طائفة من الملائكة فطردوهم إلى الجزائر وأطراف

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٤٤.

(٢) «الصحاح»: (بلس).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٩٦. وانظر «تلييس إبليس» ص ٢٧.

الجبال فاغترَّ في نفسه، وقال: مَنْ مِثْلِي. ولم يسجد لآدم، فمسخه الله تعالى شيطاناً. قلت: وظاهر الآيات يقتضي التعارض فينبغي التوقف، وقد قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وإذا كان مخلوقاً في الأصل من النار، فكيف يُخْلَقُ من النور، لأن الملائكة خُلِقُوا من النور لما نذكر.

وذكر أبو جعفر الطبري^(١): أن إبليس بُعِثَ حاكماً في الأرض، ففضى بين الجن ألف سنة، ثم عرج إلى السماء فأقام يتعبّد حتى خُلِقَ آدم.

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين يعملون في الأرض بالفساد، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء.

وقال قتادة: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] خرج عن طاعته، والفسقُ الخروج، من قولهم: فسقت الرُّطبة إذا خرجت من قشرها.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البناني قال: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له: ويحك ما هذه المعاليق؟ فقال: الشهوات التي أُصِيبُ بها بني آدم، قال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فتثقل عن الصلاة وتُغَلَبُ على الذكر، فقال يحيى: فله عليّ أن لا أملاً بطني من طعام أبداً. فقال إبليس: والله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً^(٢).

وبه، قال ابن عباس: قال: كان إبليس يأتي يحيى بن زكريا طمعاً أن يفتنه، وعرف ذلك يحيى منه، وكان يأتيه في صور شتى، فقال له: أحبُّ أن تأتيني في صورتك التي أنت عليها، فأتاه عليها فإذا هو مشوّه الخلق كرية المنظر، جسدهُ جسدُ خنزير، ووجهه وجهُ قرد، وعيناه مشقوقتان طولاً، وأسنانه كلها عظمٌ واحد، وليس له لحية، ويداه في منكبیه، وله يدان أخريان في جانيه، وأصابعه حلقة^(٣) واحدة، وعليه لباس المجوس واليهود والنصارى، وفي وسطه منطقة من جلود السباع فيها كيزان معلقة، وعليه جلاجل، وفي يده^(٤) جرسٌ عظيم، وعلى رأسه بيضة من حديد معوجة كالخُطَاف،

(١) في تاريخه ٨٨/١، وانظر ٧٩/١-٨٨، والمنتظم ١٧٦/١-١٧٩، وكتر الدرر ٢٤٤/١ فما بعدها.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٢٨/٢-٣٢٩، وانظر تليس إبليس ٢٧.

(٣) في (ل) و(ب): يدان أخراواتان . . . خلقه، والمثبت من (ط).

(٤) في (ب): «وسطه».

فقال يحيى: ويحك ما الذي شوّه خلقك؟ فقال: كنت طاووس الملائكة فعصيتُ الله فمسخني في أحسن صورة، وهي ما ترى، قال: فما هذه الكيزان؟ فقال: شهوات بني آدم، قال: فما هذا الجرس؟ قال: صوت المعازف والنوح، قال: فما هذه الخطاطيف؟ قال: أخطف^(١) بها عقولهم، قال: فأين تسكن؟ قال: في صدورهم وأجري في عروقهم^(٢)، قال: فما الذي يعصمهم منك؟ قال: بغض الدنيا وحب الآخرة^(٣).

وقال جدي رحمه الله بإسناده إلى عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجلٌ أقبح الناسِ وجهاً وثياباً وأنتهم ريحاً، حافياً يتخطى رقاب الناس، فجلس بين يدي النبي ﷺ فقال: مَنْ خلقك؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق السماء والأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا إبليسُ جاء يُشكككم في دينكم»^(٤)، قال جدي: هذا حديث لا أصل له، وفي إسناده عبدالله بن جعفر، ضعيفٌ يتهم في الأحاديث.

وروي عن أبي الحسين ابن المنادي قال: يجيء الشيطان الذي يقال له: القرَقَفَنَّة^(٥) في صورة طائر، وفي رواية: يجيء الشيطان في صورة طائر يقال له: القرَقَفَنَّة، فيخفق بجناحيه على عين الرجل الذي يقرّ أهله على الفاحشة فلا يُنكرها بعد ذلك.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «يضع إبليسُ عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم عنده منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين أهله، فيؤذنيه منه ويلتزمه ويقول: نعم، أنت أنت» انفرد بإخراجه مسلم^(٦).

وذكر عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن ابن مسعود: إن الشيطان إذا طاف بأهل

(١) في (ب): وأختطف.

(٢) في (ب): «عقولهم».

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٥/١٦٨.

(٤) «العلل المتناهية» (١).

(٥) في (ل) و(ب): «القرقية»، والمثبت من «النهاية في غريب الحديث» ٢/٤٦٥ ومصادر اللغة.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٧٧)، ومسلم (٢٨١٣)(٦٧).

مجلسٍ ذكرٍ ليفتنهم فلم يقدرُ على التفرقة بينهم، فأغرى بين مجلسٍ آخر فاقتلوا، فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم حتى تفرقوا^(١).

وذكر عبدالله أيضاً عن قتادة قال: إن لإبليس شيطاناً يقال له: قبقب، يجمه أربعين سنة، فإذا دخل الغلام في هذه الطرق قال له: دونك وإياه، وإنما أجمتك لمثل هذا، أجلب عليه وافتنه^(٢).

وقال أحمد بإسناده عن أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو يُنادي يا ثُبوراه، وينادون: يا ثُبورهم، حتى يقفوا على النار فيقول: يا ثُبوره، ويقولون: يا ثُبورهم، فيقال لهم: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤] أخرجه أحمد في «المسند»^(٣)، والثُبور: الهلاك والخسران.

وقال أحمد بإسناده عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن في التحريش بينهم» انفراد بإخراجه مسلم^(٤). ولمسلم، عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذن المؤذن هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء» من المدينة ثلاثون ميلاً^(٥).

فصل في ذكر أولاده

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَنْتَخَذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: بلغنا أن لإبليس أولاداً كثيرين، واعتماده على خمسة منهم: ثبر والأعور ومِسْوَط وداسم وزَلَنْبُور.

وقال مقاتل: لإبليس ألف ولد، ينكح نفسه ويلد ويبيض كل يوم ما أراد^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ١٩٦.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» ص ١٧٦-١٧٧، و«تلييس إبليس» ص ٢٧ من طريق عبدالله بن أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥٣٦).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٦٦)، ومسلم (٢٨١٢).

(٥) صحيح مسلم (٣٨٨).

(٦) قال ابن الجوزي في المنتظم ١/١٧٩: وهذا من أبعد الأقوال.

وقال كعب الأحبار: ومن أولاده المذهب وخنزب وهفاف ومرة والولهان والمتقاضي.

فأما ثبر: فصاحب المصائب، يأمر بلطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية.

وأما الأعور: فصاحب الزنا يُزينه إلى الذكور والإناث.

وأما مسوط: فصاحب الكذب والنميمة.

وأما داسم: فيري الرجل عيوب أهله فيبغضهم إليه.

وأما زلنبور: فيركز رايته في الأسواق ويأمرهم بالتطيف والخيانة.

وأما المذهب: فموكل بالعلماء يردهم إلى البدع.

وخنزب: موكل بالمصلين يلقي عليهم النوم والسبات، وقد روي في خنزب حديث

فقال أحمد بإسناده إلى أبي العلاء بن الشخير، أن عثمان بن أبي العاصي الثقفي قال:

يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، قال: «ذاك الشيطان يُقالُ

له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتقل على يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت ذلك

فأذهب الله عني. انفرد بإخراجه مسلم^(١).

وهفاف: صاحب الخمرة.

ومرة: صاحب اللواط.

والولهان: يوسوس في الوضوء، وقد ورد فيه حديث، قال الترمذي بإسناده عن

أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للوضوء شيطاناً يُقال له: الولهان، فهو

وسواس الماء» إلا أن هذا الحديث فيه مقال، قال الترمذي: هذا الحديث ليس

بالقوي، لا نعلم أحداً أسنده غير خارجة بن مصعب، وخارجة ليس بالقوي عند

أصحابنا^(٢).

وذكره جدي رحمه الله في «الواهية»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٨٩٧)، ومسلم (٢٢٠٣).

(٢) الترمذي (٥٧)، وفيه: «فاتقوا وسواس الماء».

(٣) «العلل المتناهية» (٥٦٧).

وأما المتقاضي: فإن الإنسان إذا عمل عملاً في السرّ تقاضاه حتى يتحدث به في العلانية.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أول دينار وجد في الأرض أخذه إبليس وقبّله ووضع على عينيه، وقال: أنت قرّة عيني وثمرّة فؤادي، لا أبالي بآدم، إذا أحبّك هو عبدي حقاً. وقد رواه عكرمة عن ابن عباس وقال فيه: فوضع الدينار في يده اليمنى والدرهم في اليسرى وقال: سميتكما نجيحاً ومُنْجِحاً.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالعزيز بن رفيع قال: بلغني أنه إذا عُرجَ بروح المؤمن إلى السماء تقول الملائكة: سبحان الله من نجّى هذا العبد من الشيطان؟ أو: يا ويحه كيف نجا^(١)؟.

حدثنا أبو اليمن الكندي بإسناده عن الحسن قال: جاء إبليس إلى حكيم فقال له: ويحك لِمَ تُضِلُّ الناس؟ فقال له: إلى ها هنا انتهت حكمتك؟ وهل أقدرُ على إضلال من خلقه الله سعيداً؟ قال فبينما هو يحدثه إذ مرّت امرأة بيدها جرّة عسل، فوقعت فانكسرت، فجلس الناس يلعبون العسل ويلعنون إبليس، فقال إبليس للحكيم: انظر إلى جهلهم يأكلون العسل ويلعنونني، فإن نسبوه إلى فعلي كفروا حيث جعلوا الحكم لي، وإن كان فعل الله فما ذنبي؟

وبه: قال الحسن: كان عابداً في بني إسرائيل جليل القدر في زمان عيسى عليه السلام، وكان مجتهداً في العبادة، فاجتهد إبليس أن يفتنه فلم يقدر عليه، فجاءه في ليلة كثيرة المطر والثلج، فوقف تحت صومعته وناداه يا راهب، فقال: من أنت؟ فقال: عيسى بن مريم، افتح لي، ما ترى هذا البرد؟! فقال: لا حاجة لي بلقائك، إنك أمرتنا أن نعبد الله وحده ونبالغ في العبادة وإن موعدنا يوم القيامة، فاذهب فلا تشغلني عن العبادة، ولم يفتح له.

وسنذكر من أخبار إبليس طرفاً في قصة آدم عليه السلام، إن شاء الله تعالى.



فصل

في خلق السماوات والآثار العلويات^(١)

أظهر الله سبحانه في السماء دلائل على ربوبيته ووسائل إلى قدرته :
منها : أنه جعلها سقفاً مرفوعاً لتكون ظلاً .

ومنها : أنها بغير عمد تحتها ولا علاقة فوقها .

ومنها : سعتها والنفع بزيادة التصرف فيها وكونها زينة للناظرين .

ومنها : استواؤها ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [٢] ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴿ [الملك ٣-٤] بالنظر والاستدلال، وقيل : بالنزهة والاعتبار .

ومنها : لونها الذي لم يتغير على مرور الزمان وتقلب الحداثان، ثم هو أحسن الألوان، وأقوى للبصر، وأحد للنظر، والأطبباء إنما يأمرون بإدمان النظر إلى الخضرة ليقوى البصر. وقيل : هي بيضاء ولكن من بعدها ترى خضراء .

ومنها : إمساكها بيد القدرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] .

ومنها : أنها ظلُّ لبني آدم لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور : ٥] .

ومنها : أن الخلق يضعون الأساسَ أولاً ثم السقفَ بعد ذلك، والله تعالى أفعاله خلاف أفعال العباد .

ومنها : أن بناء أهل الدنيا تحته أوسع من فوق، وبناء الله على ضده .

ومنها : أن بناء الخلق ينهدم على طول الأيام، وبناء الله تعالى لا ينهدم ولا يتغير ولا يسقط منه شيء .

إذا عرفنا هذا قلنا : قال الجوهرى : كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ومنه قيل :

لسقف البيت سماء، ويقال للسحاب : سماء، قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

مُبْرَكًا ﴾ [ق : ٩] ويسمى المطرُ : سماء، قال الشاعر :

(١) انظر «كنز الدرر» ١/٣٠ .

إذا نزل السماء بأرض قوم رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا
هذا كلام الجوهرى^(١).

وقال الفراء والزجاج: لفظ السماوات واحد ومعناه الجمع، بدليل قوله تعالى:
﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢) [البقرة: ٢٩].

وقال أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في «كتاب الأنواء» في السماوات: قال الله
تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال في موضع آخر: ﴿السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾
[المزمل: ١٨] قلت: وما ذكره من معنى السموات والارتفاع والمطر وغيره فإنما هو مجاز، أما
الحقيقة، فيراد به السماء المعروفة.

وقد ورد في السماء أخبار وأثار:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا
تروُن، وأسمع ما لا تسمعون: أظت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع
أصابع إلا وعليه ملكٌ ساجدٌ»^(٣).

قال الجوهرى: الأيط: صوت الرّحل والإبل من ثقل أحمالها^(٤).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله خلق المخلوقات خلق الماء
فثار منه دخان، فارتفع فخلق منه السماء وجعلها سماءً واحدةً، ثم فتقها فجعلها سبعاً
﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] أي ما قدر أن يكون فيها من الملائكة
والنجوم وغير ذلك.

وروى عنه عكرمة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا
وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] قال: الفروج: الشقوق وكذا الفطور، قال عبيدالله بن
عبدالله بن عتبة بن مسعود^(٥):

(١) «الصحاح»: (سما)، والبيت لمعاوية بن مالك، وانظر «المفضليات» ص ٣٥٩.

(٢) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١/١٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٥١٦).

(٤) «الصحاح»: (أطط).

(٥) البيت في «الأغاني» ٩/١٥١.

شَقَّتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَزَتْ فِيهِ هَوَاكِ فَلَئِمَ فَأَلْتَامَ الْفَطْوْرُ
وقال الربيع بن أنس: السماء الأولى من موج مكفوف، والثانية من صخرة،
والثالثة من حديد، والرابعة من صُفْرٍ أو نحاس، والخامسة من ذهب، والسادسة من
فضة، والسابعة من الياقوت الأحمر^(١).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: الأولى من زمردة خضراء، والثانية من فضة،
والثالثة من ذهب، والرابعة من لؤلؤ، والخامسة من الياقوت، والسادسة من المرجان،
والسابعة من النور. قال: وأما سماء الدنيا فهي الرقيع، وقال أبو حنيفة الدينوري:
الرقيع اسم علم للسماء، وفي الحديث: «من سبعة أرقعة»^(٢).

وقال مقاتل: والثانية ركماء، والثالثة جوفاء، والرابعة طرفة، والخامسة أدماء،
والسادسة عرويين، والسابعة عروباً.

فصل في أبوابها

روي عن ابن عباس أنه قال: لها أبواب كثيرة منها باب المطر، ومن قوله تعالى:
﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]، وباب الرزق ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ
رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢]، وباب النزول ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [فصلت: ٣٠] وباب الوحي
﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]، وباب صعود الأعمال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وحكى جدِّي في «كتاب التبصرة» وقال: قال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلاف
بين العلماء أن السماء على الأرض مثل القبة، وأن العالم مثل الكرة، وأنها تدور بما
فيه من الكواكب على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال، والآخر
في ناحية الجنوب مطلع سهيل، وأن كرة الأرض مثبتة وسط كرة السماء كالنقطة من

(١) انظر «المنتظم» ١/١٨٣، و«التبصرة» ٢/١٧٣.

(٢) هو قطعة من حديث حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/٢٤٠
من حديث علقمة بن وقاص الليثي، وأصل القصة عند البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٨٦٨)، وانظر
«مسند» أحمد (١١١٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري. وسيذكر المصنف الخبر في السنة الخامسة للهجرة.

الدائرة، إلى ها هنا ذكر جدي^(١).

ورأيت في كتاب ابن المنادي تمام هذا الفصل قال: والأرض على نمط واحد من جميع الجهات، والأفلاك تدور على محورين وقطبين ثابتين، ومن كان مسكنه وسط الأرض عند استواء ساعات الليل والنهار رأى المحورين والقطبين، ومن كان في بلاد الشمال يرى القطب الشمالي، ومن كان في بلاد الجنوب يرى القطب الجنوبي^(٢).

وقال جالينوس: العالم شبه البيضة، والسماء موضع القشر، والهواء موضع البياض، والأرض موضع المصح.

فصل

واختلفوا هل الأفلاك هي السماوات أم هي غيرها؟ على قولين: أما مذهب الأوائل فإنها هي بعينها، وأما مذهب المشرعين^(٣) فهي غيرها، وقد رواه العوفي عن ابن عباس واحتج بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال في آية أخرى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وسمي الفلك فلماً لاستدارته، ومنه: فلانة المغزل، بفتح الفاء لاستدارتها، وأما الفلك - بالضم - فالسفينة، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]. وقال قوم بأن الفلك هو القطب، وليس بشيء، لأن القطب لا يزول ولا يتغير كما لا يزول قطب الرحي.

فصل

ومذهب جملة المسلمين أن السماوات سبع، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [الطلاق: ١٢].

ومذهب الأوائل والمنجمين أنها تسعة أفلاك، فأولها أقربها إلى الأرض وهو

(١) «التبصرة» ١٧٣/٢.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٣٣/١: «قال الجوهري: والمحور العود الذي تدور عليه البكرة، وربما كان من حديد، وسنذكر القطب والجدي في موضعه» وانظر «الصحاح»: (حور).

(٣) في (ل): «المشرعين».

أصغرهما وهو فلك القمر، ثم الذي يليه فلك عطارد، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الشمس، ثم فلك المريخ، ثم فلك المشتري، ثم فلك زحل وهو السابع، والثامن فلك البروج وفيه سائر الكواكب الثابتة، والتاسع الفلك الأعظم الحاكم على جميع الأفلاك وله أسام منها: الأثير، لأنه يؤثر في غيره وغيره لا يؤثر فيه، ومنها: القسري، لأنه يدير الأفلاك دورة قسرية في كل يوم وليلة دورة واحدة، ومنها: فلك الاستواء، ومنها: المستقيم، ومنها: الأطلس، ويزعمون أنه ليس وراءه شيء ولا فيه كوكب ولا غيره، ويدير الأفلاك على القطبين الثابتين الذين ذكرناهما، قالوا: وبينه وبين الأرض خمسون ألف سنة، ويسمى المحيط أيضاً، لأنه يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.

قال بَطْلَيْمُوسُ: وهو أخفُّ الأفلاكِ وأضوؤها، لأنه منها في جوهره كذلك، ولهذا ارتفع على الكل، قال: والذي من دونه يقال له: فلك البروج، وفلك الأفلاك، لأنه يدور بأفلاك الكواكب، ثم دونه أفلاك الكواكب السبعة.

ومنهم من يقول: هي أفلاك كثيرة^(١)، وهذه الأفلاك من طبيعة أخرى بخلاف الطبائع الأربع التي بدون فلك القمر من النار والهواء والتراب والماء، لأنها لو كانت من هذه لزمها ما يلزم هذه من الكون والفساد والاستحالة والزيادة والنقصان، فالفلك وما فيه طبيعة خامسة ولم يخبروا عن ماهيتها بأكثر من هذا.

وقال بَطْلَيْمُوسُ أيضاً: صورة الفلك وهيئات بروجه على مثال البطيخة المخططة، أعلاها وأسفلها كالنقطتين، وكلُّ بيتٍ بين خطين بمنزلة البرج، واتساقُ بروجه على مثال اتساقِ بيوتها وخطوطها.

وقال أفلاطن: الأفلاك كهيئة الأكر، بعضها فوق بعض، والفلك التاسع محيط بجميع الطبائع والمخلوقات، وليس فيه كوكب، وهو يدير الكل من المشرق إلى المغرب كل يوم وليلة دورة واحدة، والأفلاك الثمانية تدور من المغرب إلى المشرق. وشبهوا ذلك بسفينة تجري مع الماء وفيها رجلٌ يمشي مُضْعِداً. ولهم في هذا بحث طويل.

(١) جاء بعدها في «كتر الدرر» ٣٤/١: «ومنهم من قال: إن الفلك حي مميز بجميع ما فيه، ذو صورة وكذلك جميع ما فيه بهذه المنزلة».

واستدلوا أيضاً على ذلك بأن الشمس والقمر يدوران في اليوم واللييلة دورة واحدة، قال: والبروجُ نصفُ سُدسِ الفلك، وفلكُ البروج وما فيه من الكواكب يدور على القطبين اللذين ذكرنا غير قطبي الفلك الأعظم، وعرضُ الأرض من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي الذي هو مطلع سهيل في موضع خط الاستواء ثلاث مئة وستون درجة فيكون الجملة تسعة آلاف فرسخ.

قلت: وينبغي أن يكون هذا على وجه التقريب والظن والتخمين لا على وجه القطع واليقين.

ونقل عن فيثاغورس أنه قال: العالم الأرضي متصلٌ بالعالم السماوي، والفلك يتحرك حركةً مستديرة دائمة، فتتحرك الكواكب بتحريكه، وحركة الكواكب على هذا العالم تفعل فيه الاستحالة ويحدث فيه الكون والفساد، وفساد كل شيء بكون شيء آخر، وأن حركات الكواكب الدائمة توجب الكون الطبيعي الدائم، وليس في الحركات حركةً تامة غير المستديرة، لأن المتحرك بها لا يسكن لأنه لا نهاية لحركتها، بخلاف الحركات المختلفة لأنها غير تامة^(١)، ولهم في هذا اصطلاح عجيب. ويقال: إن هذا كله كلام أفلاطن لأنه أقام يرصد الأفلاك سبعين سنة، وسنذكره في باب الحكمة إن شاء الله تعالى.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٣٦/١: «ولها نهايات، فإذا انتهت سكتت وضربوا لها مثلاً فقالوا: وحركة النار إلى فوق وحركة الماء والتراب إلى أسفل».

فصل في البروج ومطالعها

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال عز من قائل: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]. وقال الجوهري: والبرج واحد بروج السماء، وبرج الحصن ركنه، قال: وربما سمي الحصن به، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] هذا كلام الجوهري^(١).

وقال الحسن البصري: البروجُ القصورُ، وفي السماء قصورٌ مثل قصور الأرض. وقال أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: يعني منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو^(٢) والحوث.

فالحمل والعقرب: بيتا المريخ، والثور والميزان: بيتا الزهرة، والجوزاء^(٣) والسنبلة: بيتا عطارد، والسرطان: بيت القمر، والأسد: بيت الشمس، والقوس والحوث: بيتا المشتري، والجدي والدلو: بيتا زحل.

قال: فهذه البروجُ مقسومةٌ على الطبائع الأربعة، فيكون نصيبُ كلِّ واحدٍ منها ثلاثة بروج، وتسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوث مثلثة مائية.

قال: واختلف أهل التفسير في معنى البروج، فروي عن عطية العوفي في تفسير الآية قال: هي قصورٌ فيها الحرس^(٤)، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾

(١) «الصحاح»: (برج).

(٢) في (ب): «والدالي».

(٣) في (ب): «الجوزة».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٧١٦/٨.

وقال مجاهد وقتادة: هي النجوم^(١). وقال عطاء: هي السُّرُج، وهي أبواب السماء التي تسمى المجرة. هذا كلام الثعلبي.

قلت: وقد نصَّ ابنُ عباس في رواية الوالبي عنه أنها البروج المعروفة التي أشرنا إليها.

وقال أبو حنيفة الدينوري: الناس مُجمِعُونَ على أنها اثنا عشر برجاً لا يختلفون في ذلك، وأن الله تعالى قسمها ترايع وتثاليث، وهي مقسومة على الكواكب السبعة كما ذكرنا، قال الدينوري: وتسميها كلُّ أمةٍ بلسانها ويتفقون في المعنى، وكلهم يتدبَّر بالحمل على الترتيب المذكور.

وقال أبو محمد عبد الجبار المعروف بالخرقي في «كتاب التبصرة»^(٢) له: فالْحَمَلُ ثلاثة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب، وصورته صورة كبش مُقَدَّمُهُ إلى جهة المغرب ومؤخره إلى جهة المشرق، وهو ملتفتٌ إلى خلفه حتى صار خَطْمُهُ^(٣) على ظهره، ومن كواكبه الشَّرَطَيْنِ من منازل القمر.

والبرج الثاني: الثور ثلاثة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً، وهو على صورة النصفِ المُقَدَّمِ من الثور، قد نكَّسَ رأسَهُ لِلنَّطْحِ، وقد قُطِعَ بنصفين، على سرتِه، مُقَدَّمُهُ إلى المشرق ومؤخرُهُ إلى المغرب، من كواكبه الثريا والدبران وهما من منازل القمر.

والبرج الثالث: التوأمان، ويعرف بالجوزاء: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة سبعة كواكب، وصورته صورة صبيين قائمين واحدهما قد وضع يده على منكب الآخر، ورأسهما وسائر كواكبهما في الشمال والمشرق على طرف المجرة، وأرجلهما إلى المغرب.

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» ٧٠/٣ عن قتادة.

(٢) وهم المصنف في نسبة الكتاب إلى عبد الجبار بن عبد الجبار، أبي محمد المتوفى (٥٥٣) هـ، وإنما هو لأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن أبي بشر المروزي الخرقى - بفتح الحاء والراء - المتوفى سنة (٥٣٣) هـ واسم الكتاب: «التبصرة في الهيئة» وقد ذكر الزركلي له نسختين خطيتين ٣١٧/٥، وانظر كشف الظنون ١/٣٣٨.

(٣) الخطم في الدابة: مقدم أنفها وفمها.

والبرج الرابع: السرطان سبعة كواكب، والخارج عن الصورة أربعة كواكب، مقدّمه إلى ناحية المشرق، ومؤخره إلى المغرب والجنوب على أثر التوأمين فإنهما مائلان إلى الجنوب في نفس المجرة.

والبرج الخامس: الأسد سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثمانية كواكب، وصورته تامة ومن كواكبه قلب الأسد كوكب نير.

والبرج السادس: السنبلة، ويعرف بالعدراء: ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب، وصورتها صورة جارية ذات جناحين قد أرسلت ذيلها، ورأسها على الصرفة: وهي كوكب نير، ومن كواكبها السماك الأعزل كوكب نير على كتفها الأيسر.

والبرج السابع: الميزان ثمانية كواكب وصورته كاسمه، والخارج عن الصورة تسعة كواكب.

والبرج الثامن: العقرب أحد وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورتها تامة، ومن كواكبها قلب العقرب، كوكب نير.

والبرج التاسع: القوس ويسمى الرامي، أحد وثلاثون كوكباً خلف كواكب العقرب، وصورته صورة حيوان تركب من إنسان وفرس كأنه جسد دابة إلى العنق، ثم يبرز من مغرز العنق نصف رجل قد وضع السهم في قوسه وأغرّق في النزاع.

والبرج العاشر: الجدي ثمانية وعشرون كوكباً، وهو على النصف على صورة النصف المقدم من جدي، والثاني من مؤخر سمكة إلى ذنبها.

والبرج الحادي عشر: الدلو، يعرف بساكب الماء: اثنان وأربعون كوكباً، الخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم مادّ اليدين بأحدهما كوزاً قد قلبه وانصبّ الماء إلى مقام رجله وجرى الماء من تحتها إلى الجنوب، ويسمى الدالي^(١) أيضاً.

والبرج الثاني عشر: الحوت أربعة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أربعة

(١) في (ب): «الدالي».

كواكب، وصورته صورة سمكتين قد وُصِلَ ذنبُ إحداهما بذنبِ الأخرى بخيط يسمى خيط الكَتَّانِ.

قال الخَرَقِي: فجملةُ هذه الكواكب ثلاث مئة، وفي قول عنه: أنها ثلاث مئة وأربعون كوكباً.

قلت: وقد ذكر الجوهري هذه البروج وأخَلََّ بالبعض، فقال: الحَمَلُ: أول البروج^(١). والثَّور: برج في السماء^(٢). والجوزاء: نجم يقال إنها تعترض في جوز السماء، أي: وسطها، وجوز كلِّ شيء وسطه^(٣). قال: والسَّرطان برج في السماء^(٤). ولم يذكر الأسد، قال: والسُّنْبُلَة برج في السماء^(٥). ولم يذكر الميزان. قال: والعقرب: برج في السماء^(٦). وكذا القوس^(٧) والجدي والدلو^(٨) والحوت^(٩)، قال: والجدي نجم إلى جانب القطب تعرف به القبلة^(١٠). ولم يتعرض الجوهري لعدد الكواكب وصورها.

فصل

في ما لكلِّ برج من البلدان

قال علماء الهيئة: للحَمَل بابل وفارس وأذْرَبِيْجان، وللثَّور: هَمْدَان والأكراد، وللجوزاء: جُرْجان وكيلان^(١١) ومُوقان، وللسرطان: الصين وشرقي خراسان،

(١) «الصحاح»: (حمل).

(٢) «الصحاح»: (ثور).

(٣) «الصحاح»: (جوز).

(٤) «الصحاح»: (سرط).

(٥) «الصحاح»: (سبل).

(٦) «الصحاح»: (عقرب).

(٧) «الصحاح»: (قوس).

(٨) «الصحاح»: (دلو).

(٩) «الصحاح»: (حوت).

(١٠) «الصحاح»: (جدي).

(١١) كيلان ويقال لها: كيل بلد وراء طبرستان، ثم عربت فصارت جيل. «اللباب» ١/ ٣٢٤. و«معجم البلدان»

وللأسد: التُّرك والصُّغد وما والاها، وللسُّنبلة الشام والجزيرة ودجلة والفرات، وللميزان: الروم إلى إفريقية وصعيد مصر والحبشة، وللعقرب: الحجاز واليمن وتهامة، وللقوس: بغداد إلى أصبهان، وللجدي: نهر مُكران وعمان والبحرين والهند، وللدُّلو: الكوفة وبعض الحجاز، وللحوت: طبرستان وله شركة في الروم والجزيرة والشَّام ومصر والإسكندرية، وقد ذكرنا طرفاً من هذا في الأقاليم.

فصل

في قسمة الزمان

وهو أربعة أقسام:

الأول: الربيع، وهو عند بعض الناس الخريف، وإنما سمته العرب: ربيعاً، لأن الربيع يكون فيه، وسماه بعضهم: خريفاً، لأنَّ الثمار تُخترَفُ فيه، ودخوله عند حلول الشمس رأس الميزان.

ثم الشتاء: ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدي.

ثم الصيف: ودخوله عند حلول الشمس رأس الحمل، وهو عند الناس الربيع.

ثم القيظ: وهو عند الناس الصيف، ودخوله عند حلول الشمس رأس السرطان.

فصل في الرياح

وأولها: ريح الشَّمال، قال الجوهري: والشَّمال الريح التي تهب من ناحية القطب^(١).

وثانيها: الصَّبا، قال: ومهبها المستوي من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ونبيحتُها^(٢) الدُّبور، قال: وتزعم العربُ أنَّ الدُّبور تزعج السحاب وتُشخصُه في الهواء، ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصَّبا فردَّت^(٣) بعضه فوق بعض حتى يصيرَ كثيفاً واحداً، والجنوب تُلحِقُ روادفَه به وتمده، والشَّمال تمزِّقُ السحاب.

(١) «الصحاح»: (شمل).

(٢) أي: مُقابلتها.

(٣) في (ب) و(ل): فودعت، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (صبو).

والثالثة: الجنوب، قال: وهي التي تقابل الشمال^(١). قال: والدَّبُور الريح التي تقابل الصِّبا^(٢).

فصل

فيما بين كلِّ سماء وسماء، وما ورد في ذلك من الأنباء

قد ذكرنا مذهب الأوائل في صور الأفلاك وما يتعلق بها، وأما على مذهب المتشرعين فهي السماوات عندهم، وقد ورد في الجهة أخبار [عن العباس وأبي ذر وأبي هريرة رضوان الله عنهم فأما حديث] العباس^(٣): فقال أحمد بن حنبل: بإسناده عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ بالبطحاء، فمرت سحابة فقال: «أتدرون ما هذه؟» قلنا: السحاب، قال: «والمُزَن»، قلنا: والمُزَن، قال: «والعنان» قلنا: والعنان، قال وسكتنا، فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمس مئة سنة، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمس مئة سنة، وكثف كل سماء خمس مئة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السموات والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض^(٤)، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم^(٥)».

وأما حديث أبي ذر: فأنبأنا جدي، قال: أنبأنا زاهر بن طاهر النيسابوري بإسناده عن أبي نضرة، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين الأرض إلى السماء مسيرة خمس مئة عام، وغلظ كل سماء خمس مئة عام، والأرضون مثل ذلك؛ وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك، ولو حفرتم لصاحبكم ثم دليتموه لوجدتم الله ثمة^(٦)».

(١) «الصحاح»: (جنب).

(٢) «الصحاح»: (دبر).

(٣) ما بين معكوفين من كثر الدرر ٤٣/١.

(٤) بعدها في «المسند»: «ثم فوق العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض».

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٠) وإسناده ضعيف جداً.

(٦) «العلل المتناهية» (٧) وهو منكر، وسيأتي الكلام عليه عند المصنف.

وأما حديثُ أبي هريرة: فقال أحمد بن حنبل: حدثنا سُريج بن يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال: «أتَدْرُونَ ما هذه؟» قلنا: الله ورسوله أعلم^(١)، قال: «الرَّقِيعُ موجٌ مكفوفٌ وسَقْفٌ مَحْفُوظٌ، أَتَدْرُونَ كم بينها وبينكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. ثم ذكر السماوات والأرض وعدَّ ما بين كلِّ واحدة خمس مئة عام، بمعنى حديث أبي ذرٍّ، وقال في آخره: «ولو حَفَرْتُمْ لَصَاحِبِكُمْ وَدَلَّيْتُمُوهُ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قرَأَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]»^(٢).

قلت: ليس في هذه الأخبار حديثٌ سالمٌ من الطعن، أما الحديثُ الأول وهو حديث العباس، فإن في طريقه يحيى بن العلاء كذاب، كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وفيه لفظ الفوقية، وقد فسَّرها أبو سليمان الخطابي فقال: معنى الفوقية القهر والغلبة.

وأما حديث أبي ذر فقال جدي في «الواهية» أيضاً: هذا حديث منكر، وكان الأعمش يروي عن الضعفاء ويدلُّس.

قال: وأما حديث أبي هريرة فلا يصحُّ عن رسول ﷺ، والحسنُ لم يسمع من أبي هريرة، وقيل للحسن: من أين تروي هذه الأحاديث؟ فقال: من كتاب عندنا سمعناه من رجل، وكان الحسن يروي عن الضعفاء. وقال أحمد بن حنبل: قد رواه أبو جعفر الرازي عن قتادة، وأبو جعفر الرازي مضطرب.

قال: ومقتضى حديث العباس أن الأرض تكون كذلك في الكثافة والبعث، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيكون مسافة الجميع أربعة عشر ألف سنة سوى ما في السماوات من الحجب والكرسي والعرش.

قال الخطابي: وهذا على مقدار سير بني آدم، أما الملك فإنه يخرقُ الجميع في

(١) بعدها في «المسند»: «قال: العَنَان، وروايا الأرض، يسوقه الله إلى من لا يشكره من عباده ولا يدعونه، أتَدْرُونَ ما هذه فوقكم؟» قلنا الله ورسوله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٨٢٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨).

ساعة^(١) وفي لحظة واحدة، وكذا الشيطان في الأرض.

وروى مجاهد عن ابن عباس، أنه سئل فقيل له: كم بين كل سماء وسماء؟ فقال:
الله أعلم.

وروى أبو رافة عن عليّ عليه السلام: أنه سئل كم بين السماء والأرض؟ فقال:
دعوة مستجابة، قيل له: كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم^(٢).



(١) لفظ «ساعة» ليس في (ب).

(٢) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» ٣٢/٣٩٣ ضمن خبر طويل فيه سؤال ابن الكواء لسيدنا علي عليه السلام.

فصل

في ذكر الشمس والقمر
والنجوم السيارة والثابتة والرجوم^(١)

فصل في الشمس

قال الجوهري: الشمس معروفة^(٢).

ذكر خلق الشمس: روي عن كعب الأحبار قال: في التوراة، لما أراد الله أن يخلق الشمس والقمر قال للسماء: أخرجي شمسك وقمرك.

وعن عليّ رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: خُلِقَتِ الشمس والقمر من نور العرش^(٣).

وقد روي فيما يتعلق بالشمس أخبار وآثار، فأما الأخبار فلا يثبت منها إلا حديث واحد:

قال البخاري بإسناده عن أبي ذرّ قال: كنتُ مع النبي ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس فقال: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربّها فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها». أخرجاه في الصحيحين^(٤).

وأخرج البيهقي عن ابن عمر بمعناه، وفيه: نظر النبي ﷺ إلى الشمس قد غابت فقال: «في عين الله الحامية، لولا ما يزعها من أمر الله لأهلك ما على وجه الأرض^(٥)». ومعنى يزعها: يكفها ويردعها.

ومعنى الحديث: أنّ النبي ﷺ أخبر عن مغيبها في النار الحامية، لا أنه دعا

(١) انظر «كنز الدرر» ٤٤/١.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر»: «ويقال لها: ذكاء، لأنها تذكو كما تذكو النار، ولذلك يسمى النهار: ابن ذكاء، قال: وهي ممدودة غير مصروفة لا تدخلها الألف ولا اللام» وانظر «الصحاح»: (ذكي).

(٣) لم نقف عليه عن علي، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٠٦٢) من حديث أنس مرفوعاً.

(٤) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٥) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب البيهقي، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩٣٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

عليها^(١).

وأما الأخبار الواهية: فمنها ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده إلى أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «قد وُكِّلَ اللهُ بالشمسِ سبعة أملاكٍ يقذفونها بالثلج، ولولا ذلك ما أتت على شيءٍ إلا أحرقتة»^(٢).

ومنها: ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمسُ والقمرُ ثوران عَقيران من النار»^(٣) وفي رواية: «يؤتى بهما يوم القيامة فيكوران في النار». والعقير: المجروح.

ومنها ما ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» فقال: حدثني محمد بن أبي منصور بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال عكرمة: كنت جالسا عنده إذ جاءه رجلٌ فقال: يا ابنَ عباس سمعتُ كعبَ الأخبارِ يقول: إنَّ الشمسَ والقمرَ يكوران يومَ القيامةِ ويُلقيانِ في النار، وكان ابن عباس متكئا فاحتفز - أي: جلس واجتمع - وقال: كذب كعبٌ - ثلاثاً - بل هي يهوديته يريدُ إدخالها في الإسلام، الله أجلُّ وأكرمُ من أن يعذبَ أحداً على طاعته، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: طائعين^(٤)، فكيف يعذبُ من أثنى عليه؟

ثم قال: ألا أحدثكم بما سمعتُ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لما أبرم خلقه غيرَ آدمَ خلقَ شمسَيْنِ من نورِ عرشِهِ، فأما ما كان في سابقِ علمه أن يدعها شمساً فإنه خلقها مثلَ الدنيا ما بينَ مشارِقِها ومغاربِها، وأما ما كان في سابقِ علمِهِ أن يطمسها ويحولها قمراً فإنه دونَ الشمسِ في العِظَمِ وإنما يُرى صغيراً لشدة ارتفاع السماءِ وبعدها من الأرضِ، فلو تركَ اللهُ الشمسَ كما كان خلقها لم يُعرفِ الليلُ من النهار، ولا النهارُ من الليل، وكان لا يدري الأجيرُ إلى متى يعملُ ومتى يأخذُ أجرته، ولا يدري الصائمُ إلى متى يصومُ، ولا تدري المرأةُ كيف تعتدُّ، ولا يدري المسلمون متى وقتُ

(١) المنتظم ١/١٨٦.

(٢) «العلل المتناهية» (٢٩).

(٣) «العلل المتناهية» (٣٠)، و«الموضوعات» (٢٩١)، و«المنتظم» ١/١٨٧.

(٤) في (ب): مطيعين.

الحج، ولا متى تجلُّ دُيونهم؛ فنظرَ الله تعالى لعباده، فأرسلَ جبريلَ فأمرَ جناحه على وجه القمرِ فطمسَ عنه الضوءَ وبقيَ فيه النورُ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الآية [الإسراء: ١٢] فالسوادُ الذي ترونه في القمرِ شبهُ الخطوطِ فهو أثرُ المحوِّ.

قال: ثم خلقَ اللهُ للشمسِ عَجَلَةً من نورِ العرشِ لها ثلاث مئة وستون عُروَةً، ووكلَ بالشمسِ وعَجَلَتِها ثلاث مئة وستين ملكاً، قد تعلقَ كلُّ واحدٍ منهم بعُروَةٍ، وخلقَ للقمرِ أيضاً كذلك، وخلقَ لهما مشارقَ ومغاربَ ثمانين ومئة عينٍ في المغربِ طينةً سوداءً فذلك قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] [وثمانين ومئة عينٍ في المشرقِ مثل ذلك [تفور كغليان القدرِ، فكل يومٍ وليلةٍ لهما مطلعٌ جديدٌ ومغربٌ جديدٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ثم جمع فقال: ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قال: وخلقَ اللهُ مجرىً دونَ السماءِ، يعني: بحراً، مقدارَ ثلاثةِ فراسخٍ، وهو موجٌ مكفوفٌ قائمٌ في الهواءِ كأنه جبلٌ ممدودٌ، فتجري فيه الشمسُ والقمرُ والخُنسُ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو بدتِ الشمسُ من ذلك البحرِ لأحرقتْ كلَّ شيءٍ في الأرضِ حتى الصُّخورُ والحجارةُ، ولو بدا القمرُ من ذلك البحرِ لافتتنَ أهلُ الأرضِ به حتى يعبدوه من دونِ الله.

قال ابن عباس: وكان عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه حاضراً فقال له: يا رسولَ الله ذكرتَ الخُنسَ فما هنَّ؟ فقال: «خمسة كواكبٍ، البرجيسُ وزُحلٌ وعطاردٌ وبهرامُ والزهرةُ، جارياتُ طالعاتُ كالشمسِ والقمرِ، فأما سائرُ الكواكبِ فمعلقاتُ في السماءِ كالقناديلِ في المساجدِ»^(١).

قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خلقَ اللهُ مدينتين: إحداهما بالمشرقِ، والأخرى بالمغربِ، جابرسا وجابلقا، لكل واحدةٍ منهما عشرةُ آلافِ بابٍ، وعلى كلِّ بابٍ عشرةُ آلافِ فارسٍ ووراءهم أممٌ يقال لهم: منسك وتاريس وتاويل، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج. وذكر ابن جرير حديثاً طويلاً مقدارَ كراسة، وفيه: طلوعُ الشمسِ من مغربها

(١) «تاريخ الطبري» ٦٢/١، و«العظمة» لأبي الشيخ (٦٢٧) وما بين حاصرتين منهما.

وبابُ التوبة، فقال له عمر بن الخطاب: وما باب التوبة؟ ففسّره، وقال: «من المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين سنة للراكب المجدّد» وذكر الصور، فقال له حذيفة بن اليمان: يا رسول الله، وما الصور؟ ففسّره، وفي آخر الحديث: فبلغ كعباً فأتى إلى ابن عباس يعتذر ويقول: إنما حدّثتُ من كتابِ دارسٍ تداولته الأيدي، وأنت حدثت عن رسول الله ﷺ، وذكر كلاماً طويلاً^(١).

قلت: أما حديث أبي أمامة فقال جدي في «الواهية»: في إسناده مسلمة بن علي، قال: قال ابن معين والنسائي: ليس بشيء، وتركاه^(٢).

وأما حديث أنس ففي إسناده درست بن زياد عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان، قال ابن حبان وابن معين: لا يحلّ الاحتجاجُ بحديثِ درست^(٣).

وأما الحديث الذي رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس فالعجب من ابن جرير مع معرفته بالأحاديث كيف أورد مثل هذا عن رسول الله ﷺ؟ ولم يشغله نزوع حديثه وروايته وقصده تبسط كتابه عن ذكر مثل هذه الألفاظ التي تنفر منها العقول السليمة وتتشعرّ منها الجلود، ومن وقف على الحديث من «تاريخه» فهم ما قلت.

ثم هذا الحديث الذي رواه يعرف بحديث حذيفة بن اليمان، وقد ذكره جدي في «الموضوعات» فقال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده إلى عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وحذيفة وابن عباس: أنهم كانوا جلوساً ذات يوم، فجاء رجلٌ فقال: إني سمعت العَجَبَ، فقال له حذيفة: وما ذلك؟ قال: سمعت رجلاً يقولون: يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في جهنم، فقال عليّ وابن عباس وحذيفة: كذبوا، الله تعالى أجلّ وأكرم أن يعذب على طاعته، فقال حذيفة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ سئل عن ذلك فقال: «إنَّ الله لما أبرم خلقه فلم يبقَ من خلقه غيرُ آدم، خلَقَ شمسين من نور عرشه، فأما التي كان في سابقِ علمه أن يطمسها ويحوّلها قمراً فإنّه خلقها دون الشمس في الضوء». قال جدي وذكر حديثاً طويلاً نحواً من جزء،

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٦٥ - ٧٥.

(٢) «العلل المتناهية» ١/ ٤٦.

(٣) «العلل المتناهية» ١/ ٤٧.

وفيه: «أنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فِي صَبِيحَتِهَا»^(١) ومعها القمر ثم يعادان». ثم قال: وهذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ وفي إسناده ضعفاء ومجهولون. وعمر بن صبح كان يضع الأحاديث وذكر غيره^(٢).

قلت: والمنقول مثل هذه الألفاظ عن ابن عباس فلو وقفوه عليه كان أولى، وإنما رفعوه إلى رسول الله ﷺ، وحوشي منصبه الكريم عن مثله، وواضعه ما قصد به إلا شينَ الشريعة، وإلا فمن أين في الدنيا مدينة يقال لها: جابرسا، لها عشرة آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، وفي كل باب عشرة آلاف حارس، وما أشبه ذلك.



وأما الآثار: فروى مجاهد عن ابن عباس قال: للشمس ثلاث مئة وستون مشرقاً ومغرباً، وكذا القمر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]^(٣) فأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فإنما أراد مشرق كل واحد منهما ومغربه.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: لا تطلع الشمس كل يوم إلا وهي كارهة تقول: يا إلهي لا تطلعني على عباد يعصونك، حتى إنها لتقف عند الطلوع فيدفعها ثلاث مئة وستون ملكاً حتى تطلع^(٤).

وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: تطلع الشمس كل سنة في ثلاث مئة وستين كوة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلى ذلك اليوم من العام القابل^(٥).

قلت: وفي الشمس دلائل ومنافع، فمن الدلائل:

أنها واحدة، ونورها يضيء على جميع العالم، كذلك البارئ سبحانه وتعالى واحد

(١) جاء بعدها في «الموضوعات»: «تكون بقدر ثلاث ليال، ولا يعرف طولها سوى المتعبدین فيستغيث بعضهم إلى بعض، وإن الشمس تطلع من مغربها».

(٢) «الموضوعات» (٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/٢٨٣ من طريق عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/٢٨٣ من طريق عكرمة أيضاً.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/٢٨٣-٢٨٤.

وهو يُدبر العالم.

والثاني: أن ذات الشمس منّا بعيدة وضوءها قريب، كذلك الله سبحانه وتعالى بعيد من الخلق بالذات قريب بالإجابة.

والثالث: أن ضوءها غير ممنوع عن أحد، كذلك رزق الله تعالى لا يمتنع عن أحد.

والرابع: أن كسوفها دليل على وجود القيامة، وغروبها يدل على ظلمتها.

والخامس: أن السحاب يغطيها، وكذا المعاصي غطاء المعرفة.

فأمّا منافعها فكثيرة:

أحدها: أنها سراج العالم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

والثانية: أنها طبّاخ لأطعمتهم من غير كلفة ومنضج لثمارهم.

والثالثة: تسير من المشرق إلى المغرب لمصالحهم.

والرابعة: أنها لا تقف في مكان واحد لئلا تضرّ بالخلق.

والخامسة: أنها تكون في الشتاء في أسفل البروج وفي الصيف في أعلاها لمنافع

العالم.

والسادسة: أنها لا تجتمع مع القمر في سلطانه لئلا يبطل كل واحد منهما ضوء

الآخر.

فإن قيل: فهي في الفلك الرابع فلم لم تحجبها السماوات ويحجبها الغيم؟ قلنا:

السماوات جواهر لطيفة شفاقة، والغيم كثيف لأنه يتصاعد من الأرض. وقد حدّ

أفلاطون الشمس فقال: هي فلك محشو ناراً يخرج منه اللهب.

فصل في القمر

قال علماء اللغة كالزجاج والفراء والأصمعي وغيرهم: إنما سمي القمر: قمراً

لبياضه، والأقمر الأبيض، وليلة قمرأ أي: مضيئة، قال ابن قتيبة^(١): يقال له في الليلة

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ٥٠/١: «والهلال أول ليلة، والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك إلى آخر

الشهر، وتصغيره قمر، وجمعه أقمار».

الرابعة عشرة: بدر، لتمامه، ومنه البَدْرَة، وكل شيء تمّ فهو بدرٌ مجازاً، وفي القمر حقيقة^(١).

وقال الجوهري: إنما سمي بدرًا لمبادرته الشمس بالطلوع، كأنه يُعْجِلُهَا المغيب^(٢).

وقال الفراء: هو في أول ليلة هلال ثم قمير ثم قمر ثم بدر.

حديث ضرب المثل به: قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فهل تُمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣). وهو حديث طويل. وقد رواه جماعة من الصحابة بألفاظٍ مختلفة^(٤).

فإن قيل: فهلا ضرب المثل بالشمس وهي أضوأ وأتم نوراً فإن نور القمر منها، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن نور الشمس يغلبُ على الأبصار فلا تتمكّن من النظر، فيفوت المقصود، بخلاف القمر فإنّ العيون تتمكّن من النظر إليه.

والثاني: لأنّ من انكسر لأجل الحقّ سبحانه فعليه جبره، ولما طمس جبريل ضوء القمر بجناحيه انكسر قلبه لأنه كان يضاهي ضوء الشمس، فجبره الله تعالى بشيئين: أحدهما: أنه جعل العيون تنظر إليه في الدنيا في أوّل كلّ شهر، والثاني: أنه أمر نبيّه ﷺ بأن يضرب به المثل في أعظم الأشياء وأعلاها.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قلنا: إننا لا ندّعي أنّ الأبصار تدركه بمعنى تحيط به، وإنما المدرك

(١) «أدب الكاتب» ص ٨٨-٨٩.

(٢) «الصحاح»: (بدر).

(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) منها ما أخرجه البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وانظر للتوسع كتاب

«الرؤية» للدارقطني.

نفس النظر، لأنّ الباري سبحانه يستحيل عليه الحدود.
وفي القمر فوائد منها: أنّه سراج للخلق بالليل ومعجزة نبينا ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ﴾ [القمر: ١] وقدّرهُ منازل يُعْرَفُ بها المواقيت، ومحا من نوره تسعة وتسعين جزءاً لقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] ولولا ذلك لانبسط الناس في معاشهم ليلاً ونهاراً فأذى الحريص كدّه.

وقد ذكر الطبري معنى هذا عن علي رضي الله عنه فقال: حدثنا ابن حميد بإسناده عن أبي الطفيل قال: قال ابن الكوّاء لعلي: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوّه^(١).

وفيه عيوب: منها أن النوم فيه منكشفاً يورث البرص، ومنها: أنه يبلي الكتان، إلى غير ذلك.

وقيل: إنّ نوره من الشمس، وهو الظاهر.

فصل في منازل القمر

قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وقد ذكر ابن قتيبة وغيره منازل القمر فقالوا: هي ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى أن يستسرّ، وتسميها العرب نجوم الأخذ، لأن القمر يأخذ كل ليلة منها في منزل، وأسمائها: الشّرطان، والبطين، والثريّا، والدبران، والهقعة، والهنة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والسماك، والعواء، والغفر، والزباني، والإكيل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد السعود، وسعد الذابح، وسعد الأخبية، وسعد بلع، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، والرشاء، وهو الحوت^(٢).

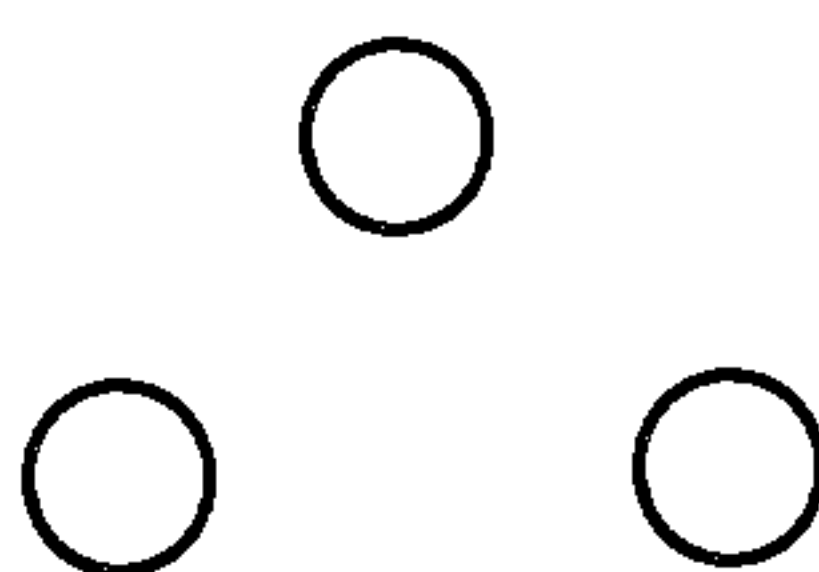
تفسير هذه المنازل

أولها: الشّرطين، كذا ذكر ابن قتيبة بضم الشين، والشّرط العلامة، لأنها علامة

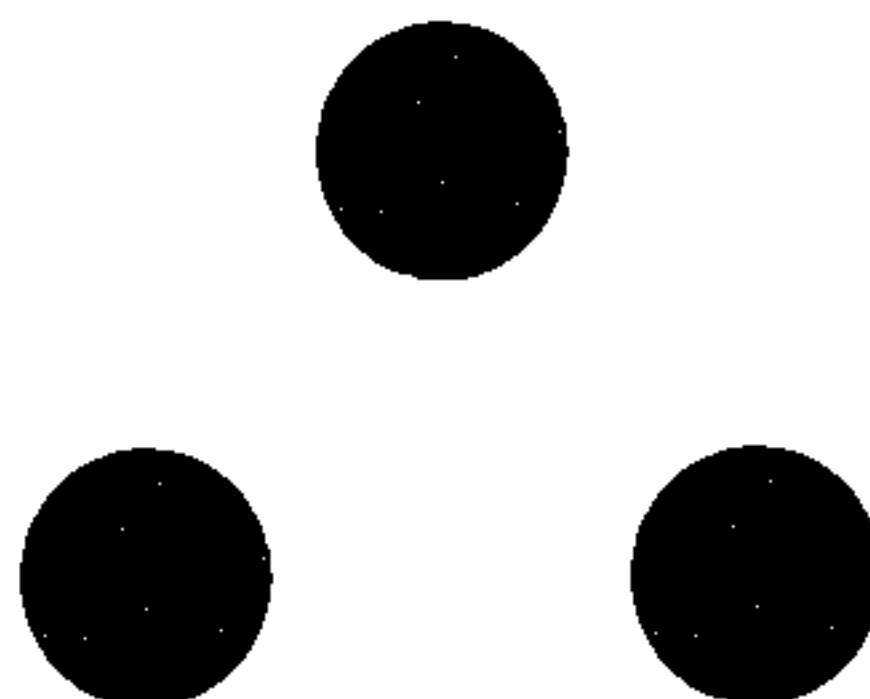
(١) الطبري ١/ ٧٥.

(٢) «أدب الكاتب» ص ٨٦-٨٧.

ابتداء الأمطار. وقال أبو معشر: الشَّرَطَيْنِ كوكبان مفترقان، أحدهما في ناحية الجنوب والآخر في ناحية الشمال، وهما قرنا الحَمَلِ، ويسمى أضوأهما النَّاطِحِ، وفي رأي العين إذا توسَّط السَّماء كان بينهما مقدار عشرة أذرع، وقريب من السَّمَاك كوكب صغير يقدِّمهما أحياناً وهذه صورته:



وأما البَطِينِ، فقال الجوهري: هو ثلاث كواكب صغار طمسُ مستوية التلث، وهي بطن الحَمَلِ، وإنما صغر لأنَّ الحَمَلِ نجومٌ كثيرة على صورة الحَمَلِ، فالبَطِينِ بطنه، والثُّرَيَّا أليته، والشَّرَطَيْنِ قرناه. وصورة البَطِينِ:



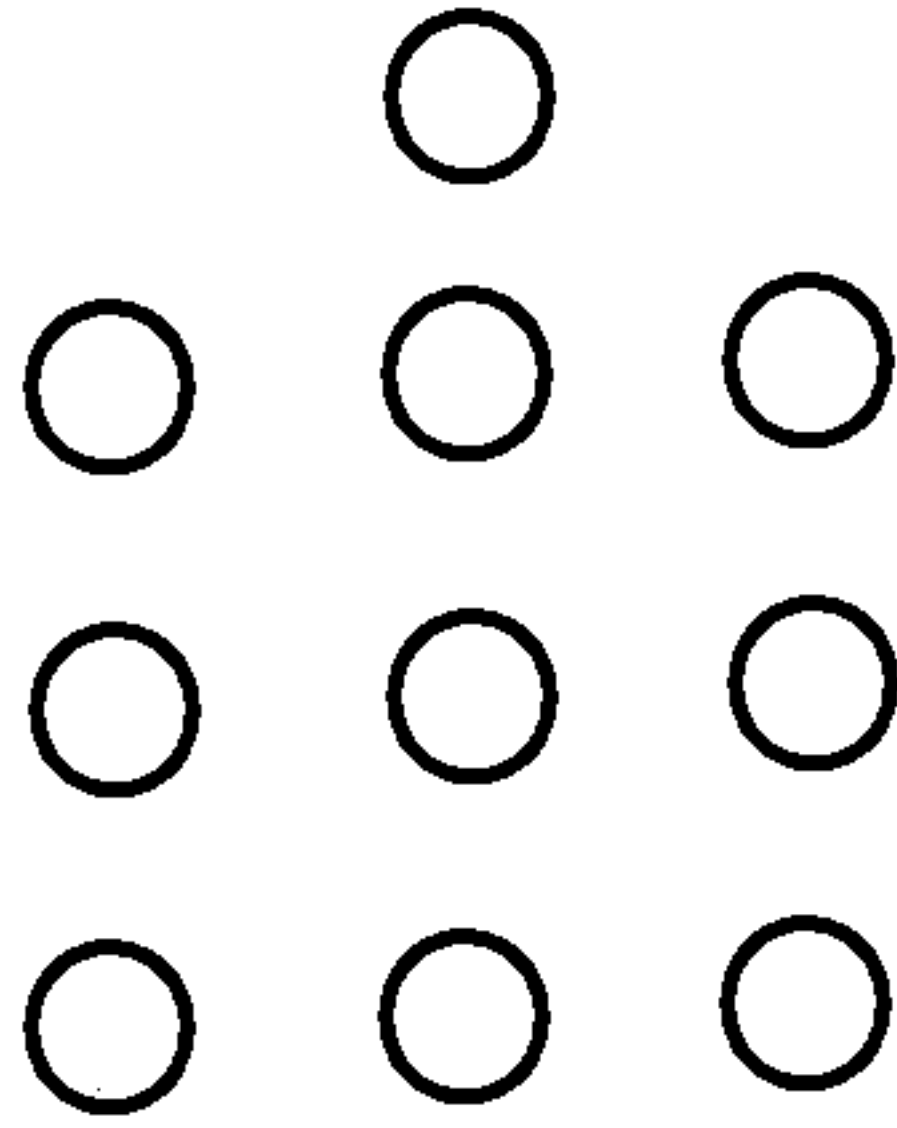
وأما الثُّرَيَّا: فسبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفي، يمتحن به الناس أبصارهم. وقال أبو معشر: إنما سميت الثُّرَيَّا من الثروة، وهي كثيرة الندى والبَلَلِ، ولها أسامي منها النجم وإن كان في العدد نجومًا.

وذكر أبو إسحاق الثعلبي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] أنه الثُّرَيَّا في أحد الأقوال، وحكاه عن ابن عباس. والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجمًا، وإن كان نجومًا في العدد، وسمّاها رسول الله ﷺ نجمًا:

أنبأنا جدي، أنبأنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب قال: قال

رسول الله ﷺ: «إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ ارْتَفَعَتِ الْعَاهَةُ يَعْنِي الثُّرَيَّا^(١)» وأراد عن الثمار.
ومنها: العنقود والقدم، وقال امرؤ القيس^(٢):

إذا ما الثُّرَيَّا في السماءِ تعرّضت يراها صغير^(٣) العين سبعة أنجم
على كبدِ الجرباءِ وهي كأنها جبيرةٌ دُرٌّ ركبت فوق معصم
وصورة الثُّريا:



قال ابن قتيبة: والكفّ الخَضِيبُ كف الثُّرَيَّا المبسوطة، ولها كفّ أخرى يقال لها:
الجذماء، وهي أسفل من الشَّرَطِين^(٤).

وقال الجوهري: والعَيُّوقُ نجم أحمرٌ مضيء من طرف المجرة الأيمن يتلو الثُّرَيَّا لا
يتقدّمها، وأصله فيُعُول^(٥).

وقال ابن قتيبة: العَيُّوقُ نجم كبير مضيء وقاد وعلى أثره ثلاثة كواكب يقال لها:
الأغلام، وهي توابع العَيُّوق، وأسفل العَيُّوق نجم يقال له: رِجْلُ العَيُّوق، وليس
العَيُّوق من منازل القمر. وإنما ذكرناه هاهنا لقربه من الثُّرَيَّا.

وأما الدَّبْران: فألية الحمل، وقيل: إنما سمّي به لأنه استدبر الثُّرَيَّا.

(١) لم نقف عليه في أي من كتب ابن الجوزي التي بين أيدينا، ولم نجد من أخرج هذا الحديث عن سمرة بن جندب، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٨٤٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

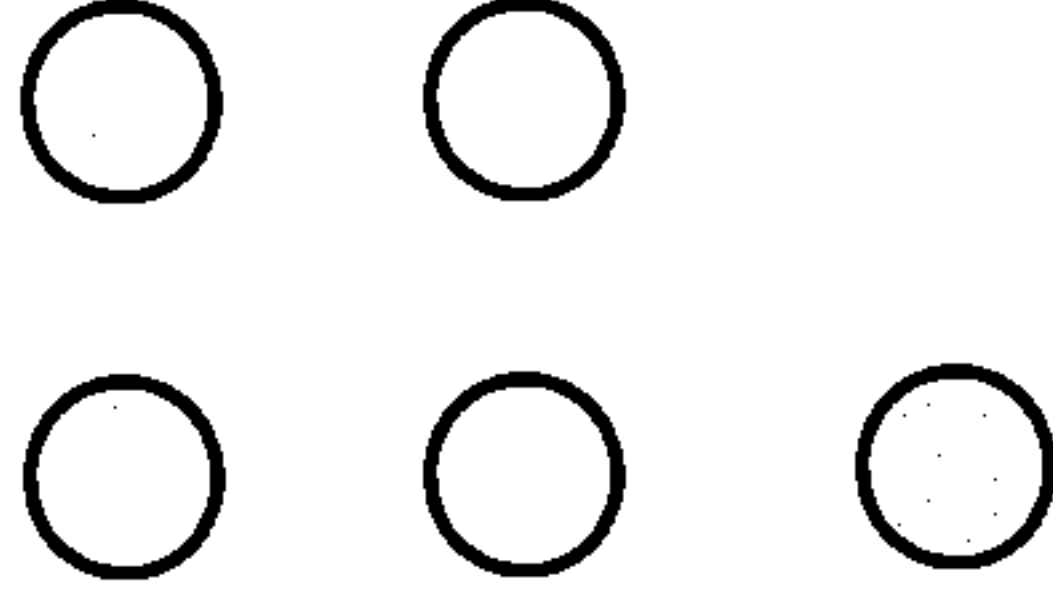
(٢) البيتان في «الأزمنة والأمكنة» ٣٠٦/٢، و«نهاية الأرب» ٦٧/١، منسوبين إلى المبرد. وورد في ديوان امرئ القيس الشطر الأول من البيتين فقط ص ١٤، وهو من معلقته المشهورة، وتمامه: تعرض أثناء الوشاح المفصل.

(٣) في المصادر السابقة: «الحديد».

(٤) «أدب الكاتب» ص ٩٢.

(٥) «الصحاح»: (عوق).

وقال ابن قتيبة: هي خمسة كواكب في الثور يقال: إنها سنامه. وكذا الجوهري^(١).
قال ابن قتيبة: وصورته:



وقال غيره: هو كوكب أحمر وصورته: ○

ويسمى الدبران: الفنيق، وهو الجمل العظيم، وقدامه كواكب صغار تسمى القلاص، وهي النوق الصغار، فإذا اجتمعت صارت في الصورة كأنها رأس بقرة، وهي تعقب الثريا.

وأما الهقعة: فقال الجوهري: هي ثلاثة أنجم نيرة بعضها قريب من بعض، وهي رأس الجوزاء^(٢)، كأنها ثلاثة أصابع مجتمعة، وصورته:



وقيل: هي الدائرة التي تكون في جنب الدابة عند رجل الفارس. وسئل ابن عباس عن من طلق امرأته عدد نجوم السماء فقال: يكفيه هقعة الجوزاء. وهي نور عظيم.

وأما الهنعة: فقال الجوهري: هي منكب الجوزاء الأيسر، وهي خمسة أنجم مصطفة^(٣). وقيل: هي كوكبان كبيران بينهما ثلاثة صغار، والظاهر أنها خمسة وصورتها:

(١) «الصحاح»: (دبر).

(٢) «الصحاح»: (هقع).

(٣) «الصحاح»: (هنع).



وإنما سميت: الهنعة لأن كل واحدٍ منها ينعطف على صاحبه، يُقال: هَنَعْتُ الشيءَ، أي: عطفته.

وأما الذراع: فقال الجوهري: هو ذراع الأسد، وهما كوكبان نيران^(١). وقال غيره: كوكبان بينهما كواكب صغار يقال لها: الأظفار، كأنها مخالب الأسد، بينهما في رأي العين قيد شوطٍ، وهما ذراعان إحداهما مبسوطة والأخرى مقبوضة ليست على سمت الذراع الأخرى كأنها منقبضة عنها، والمبسوطة أرفع في الشمال، يقال للنير منها: الشعري الغميصاء لأنها لما عجزت عن عبور المجرة واللحاق بصاحبها وهي الشعري العبور بكت حتى غمصت، وقيل: إنما بكت لأنها لم تلحق بسهيل.

وأما النثرة: فقال الجوهري: هما كوكبان بينهما قدر شبر، وفيهما لطحٌ بياض كأنه قطعة من سحاب، وهي أنف الأسد^(٢). وقيل: هي ثلاث كواكب، وصورته:



وهي بين فم الأسد ومنخريه، ويقال له: مخططة الأسد.

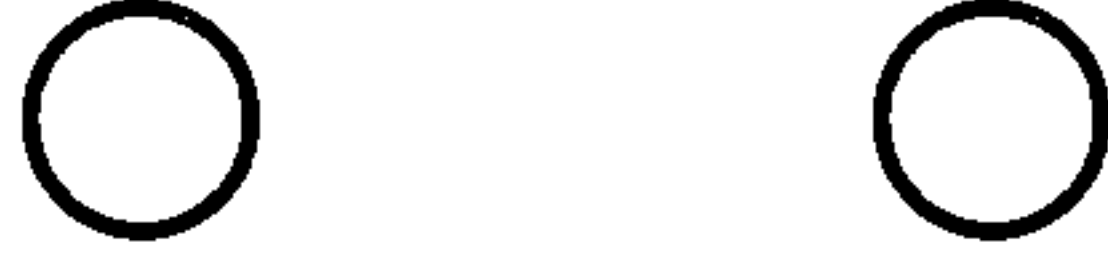
وأما الطرف: فقال الجوهري: هما كوكبان يقدمان الجبهة وهما عينا الأسد^(٣).

وقيل: بينهما قدر قامة، صورتها:

(١) «الصحاح»: (ذرع).

(٢) «الصحاح»: (نثر).

(٣) «الصحاح»: (طرف).



وأما الجَبْهَة: قال الجوهري: هي جبهة الأسد، وهي أربعة أنجم^(١). وقال غيره: أحدها نجم براق، وهو اليماني، بين كل كوكبين في رأي العين قدر شوط، ويقال لها: نوء الأسد، وهي تعقب الطَّرف، وصورتها:



وأما الزُّبْرَة: فقال الجوهري: هما كوكبان نيَّران، هما كاهلا الأسد^(٢). وقال غيره: هما موضع الشعر من أكتافه، وبينهما في رأي العين مقدار شوط، وصورتها:



وأما الصَّرْفَة: فقال الجوهري: هي نجم واحد نيَّر تلقاء الزُّبْرَة^(٣). وقال غيره: هي قلب الأسد، وإنما سمي صرفة لانصراف البرد بها وإقبال الحرِّ، وقيل: وبطلوعها ينصرف الحرُّ، وصورته:



وأما العَوَّاء: فقال الجوهري: هي خمسة أنجم، يقال: إنها ورك الأسد^(٤).

(١) «الصحاح»: (جبه).

(٢) «الصحاح»: (زبر).

(٣) «الصحاح»: (صرف).

(٤) «الصحاح»: (عوى).

وصورته:



وأما السِّمَّاءُ: فقال الجوهري: هما سِماكان نيران: سماك الأعزل، وهو من منازل القمر، وسماك الرِّامح، وليس من منازل القمر، وهما كوكبان، ويقال إنهما رِجْلا الأسد^(١).

وقال أبو معشر: الرامح أحد ساقِي الأسد، والآخر الساق الآخر، ومع الرامح كوكب قدامه هو رمحه، والأعزل معتزل عن الكواكب ليس يقاربه كوكب، وسمي: الأعزل، لأنه لا رمح له، وسمي سِماكاً، لأنه سَمَك في السماء أي: ارتفع.

وصورة الأعزل:



وصورة الرامح:



قال: وخلف الرامح نجم يقال له: الفَكَّةُ، وهو كواكب مستديرة، ويسمى قصعة المساكين.

وقال ابن قتيبة: إنما الفَكَّةُ قَدَّام الرِّامح.

قال الجوهري: وعرش السِّمَّاءُ أربعة كواكب صغار أسفل من العَوَّاء، يقال لها:

(١) «الصَّحاح»: (سَمَك).

عجز الأسد^(١).

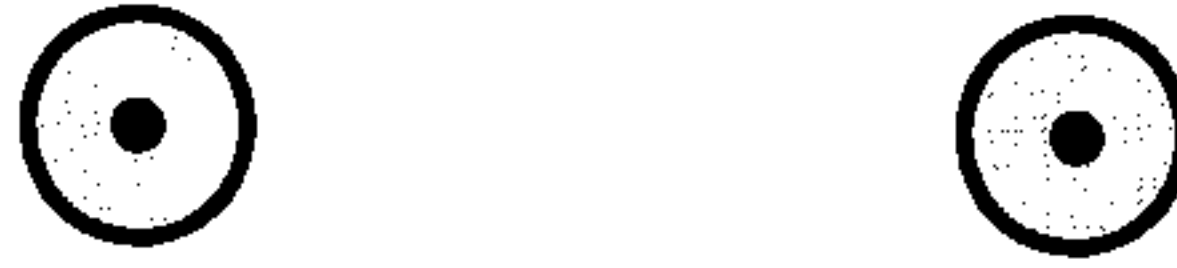
وقال ابن قتيبة: السَّمَاكُ الأَعزَلُ حَدُّ مَا بَيْنَ الكَوَاكِبِ الِيمَانِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ.

وَأَمَّا الغَفْرُ: فقال الجوهري: هو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهي من الميزان^(٢). وقال غيره: هي مأخوذة من الغفرة، وهي الشعرة التي في طرف ذنب الأسد، وصورته:



وَأَمَّا الزَّبَّانِي: فقال الجوهري: وزبانيا العقرب قرناها^(٣) وقال النوبختي: هما

كوكبان نيران



وَأَمَّا الإكْلِيلُ: فأربعة أنجم مصطفة، وهذه صورته:



كذا قال الجوهري^(٤)، وقال غيره: هو ثلاثة، وهو رأس العقرب كأنه الإكليل على

الرأس.

وَأَمَّا القلب: فقلب العقرب، وهو كوكب نير، وإلى جانبه كوكبان، وصورته:



(١) «الصحاح»: (عرش).

(٢) «الصحاح»: (غفر).

(٣) «الصحاح»: (زبن).

(٤) «الصحاح»: (كلل).

وأما الشُّولة: فقال الجوهري أيضاً: هي كوكبان نيران متقاربان يقال لهما: حُمة العقرب^(١):



وقال التُّوبِختي: هما ذنب العقرب مأخوذ من الشُّول، وهو الارتفاع، كأنها شائلة أي: مرتفعة.

وأما النَّعائم: فقال الجوهري: هي ثمانية أنجم كأنها سرير معوجّ، أربعة صادرة وأربعة واردة^(٢).

وقال أبو معشر: هي خارجة عن المجرة كأنها شربت ثم صدرت.

وقال التُّوبِختي: هي شبيهة بالخشب التي تكون معلقة على رأس البئر يُعَلَّقُ فيها البكرة والحبال، وتسمّى النَّعائم.

وأما البلّدة: فقال الجوهري: هي ستّة أنجم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم من السنة^(٣).

وقال التُّوبِختي: البلّدة الفرجة بين الحاجبين، وصورتها:



وأما سعد الذابح: فقال الجوهري: هما كوكبان نيران بينهما مقدار ذراع، وفي نحر كل واحد منهما نجم صغير قريب منه، كأنه يذبحه فسمي ذابحاً لذلك^(٤). وصورته:

(١) «الصحاح»: (شول).

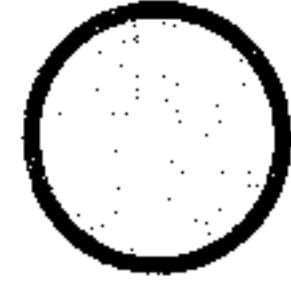
(٢) «الصحاح»: (نعم).

(٣) «الصحاح»: (بلد).

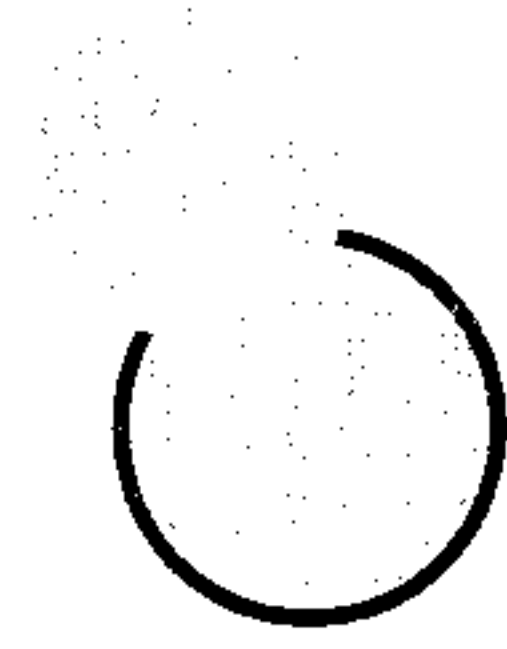
(٤) «الصحاح»: (ذبح).



وأما سعد السُّعود: فكوكب واحد نيرٌ مفرد يتنزل بالسَّعادة، وصورته:

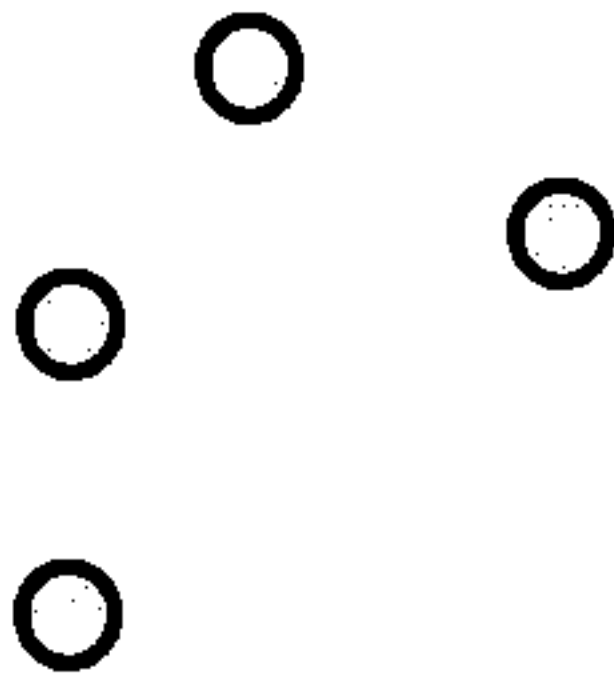


وأما سعد بُلَع: فكوكب واحد كأنه فم مفتوح يريد أن يبلع شيئاً، وصورته:



وأما سعد الأَخْبِيَّة: فثلاثة أنجم كأنها أثافي، ونجم رابع تحت واحد منهم

وصورته:



وقيل: هما كوكبان. ومنهم من قال: أوّل السُّعود، سعد السُّعود، ثم سعد الذَّابِح، ثم سعد الأَخْبِيَّة، ثم سعد بُلَع.

وقال الجوهري: وسعود النجوم عشرة، أربعة منها في برج الجدي^(١) ينزلها القمر وذكر الأربعة، قال: وأما الستة التي ليست من منازل القمر فسعد ناشرة، وسعد الملك وسعد البهائم وسعد الهمام وسعد البارح وسعد مَطْر. قال: وكل سعد من هذه الستة كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين مقدار ذراع، وهي متناسقة^(٢).

(١) جاء بعدها في «الصحاح»: «والدلو».

(٢) «الصحاح»: (سعد).

وأما فرغ الدلو المقدم والمؤخر: فكل واحد منهما كوكبان، بين كل كوكب مقدار خمسة أذرع في رأي العين، كأنهما يفرغان من الدلاء. وقال الجوهري: والفرغ مخرج الماء من الدلو بين العراقي، قال: ومنه يسمّى الفرغان^(١).

وأما الرشاء: فقال الجوهري: هي كواكب كثيرة صغار على صورة السمكة يقال لها: بطن الحوت، وفي سرّتها كوكب نير، ينزله القمر^(٢).

فهذه منازل القمر يقطعها في كل شهر، ويكون القمر في كل ليلة حذاء واحد منها أو قريباً منه ثمّ ينتقل في الليلة الثانية إلى ما بعده، ويكون منها فيما بين طلوع الشمس إلى غروبها أربعة عشر، وفيما بين غروبها وطلوعها أربعة عشر^(٣)، وفي وقت الفجر منزلان منها، وكلها تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، وتكون وقت طلوعها إلى يسرة المصلي، ووقت غروبها على يمينه، بحسب اختلاف الأقاليم. والشمس أيضاً تنزل هذه المنازل.

فصل

والعرب تسمّي هذه المنازل الأنواء: وقال ابن قتيبة: إنما سمّي النوء نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع^(٤). أي: نهض.

وقال الجوهري: والنوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقبه من المشرق يقابله من ساعته في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة، ما خلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً. قال: وقال أبو عبيد: لم يسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف إليها الأمطار والرياح والبرد والحرّ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مطرنا بنوء كذا^(٥).

(١) «الصحاح»: (فرغ).

(٢) «الصحاح»: (رشو).

(٣) في (ب): «أربعة وعشرون».

(٤) «أدب الكاتب» ص ٨٧.

(٥) «الصحاح»: (نوأ)، و«غريب الحديث» ٣٢١/١. ولم يذكر القول عن سيدنا عمر بن الخطاب، إنما ذكرناه حكاية عن قول العرب.

فصل في مطالعها

قال النُّوبختي: طلوع الشَّرَطِين^(١) لتسع عشرة خلت من نيسان، وتنزل الشمس يومئذ الإكليل، وطلوع البَطِين لليلة إن بقيت منه. وطلوع الثُّرَيَّا لثلاث عشرة من أيار وتستسرُّ بعد ما سقط عند المغرب خمسين ليلة، ثم تظهر بالغداة من المشرق، فإذا توسَّطت السَّماء مع غروب الشمس اشتدَّ البرد وترتفع العاهات عن الثمار، وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «إِذَا طَلَعَ النُّجْمُ ارْتَفَعَتِ الْعَاهَةُ»^(٢).

وطلوع الدَّبْرَان لست وعشرين من أيار. وطلوع الهَقَّة لثمان خلون من حَزِيرَان^(٣). وطلوع الهَنْعَة لإحدى وعشرين منه^(٤). وطلوع الذُّرَاع لأربع خلون من تَمُوز. وطلوع النَّثْرَة لسبع عشرة ليلة خلت منه مع طلوع الشُّعْرَى العبور. وطلوع الطَّرْف لأوّل ليلة من آب. وطلوع الجَبْهَة لأربع عشرة ليلة خلت منه. وطلوع الزُّبْرَة لتسع وعشرين منه^(٥). وطلوع الصَّرْفَة لثمان خلون من أيلول^(٦). وطلوع الغُفْر لتسع عشرة ليلة خلت منه^(٧). وطلوع الزَّبَّانِي لليلتين إن بقيتا منه^(٨). وطلوع الإكليل لاثنتي عشرة من تشرين الأول^(٩). وطلوع القلب لخمس وعشرين منه^(١٠). وطلوع الشُّوْلَة لثمان^(١١) من تشرين الثاني. وطلوع النعائم لإحدى وعشرين منه^(١٢). وطلوع البلدة لثلاث خلون من كانون

(١) في (ب) و(ل): «البطين» والمثبت من (ط)، وانظر الأنواء ص ١٨.

(٢) تقدم تخريجه عند الكلام على الثريا ص ١٨٠.

(٣) في «الأنواء» ص ٤١: لتسع ليال.

(٤) في «الأنواء» ص ٤٢: لاثنتين وعشرين ليلة.

(٥) في «الأنواء» ص ٥٩: لأربع ليال ييقين من آب.

(٦) في «الأنواء» ص ٥٩: لتسع ليال تخلو من أيلول.

(٧) في «الأنواء» ص ٦٧: لثماني عشرة ليلة تخلو من تشرين الأول.

(٨) في «الأنواء» ص ٦٨: آخر ليلة من تشرين الأول.

(٩) في «الأنواء» ص ٦٩: لثلاث عشرة ليلة تخلو من تشرين الآخر.

(١٠) في «الأنواء» ص ٧٠: لست وعشرين ليلة تخلو من تشرين الآخر.

(١١) في (ب): «لثماني عشرة»، وفي «الأنواء» ص ٧٢: لتسع ليال تخلو من كانون الأول.

(١٢) في «الأنواء» ص ٧٤: لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من كانون الأول.

الأول^(١). وطلوع الذراع لست عشرة ليلة خلت منه^(٢). وطلوع سعد السعود لتسع وعشرين منه^(٣). وطلوع سعد الذابح لإحدى عشرة ليلة^(٤) خلت من كانون الثاني، وقيل: لأربع وعشرين خلت منه، وطلوع سعد الأخبية لست خلون من شباط^(٥). وطلوع سعد بلع لثمان عشرة خلون منه^(٦). وطلوع الفرغ المقدم لليلتين خلتا من آذار^(٧). وطلوع المؤخر لأربع عشرة ليلة خلت منه^(٨). وطلوع الرشاء لأربع من نيسان^(٩).

فصل

في انقسام هذه المنازل على فصول السنة

قال ابن قتيبة: لفصل الربيع: الشرطين^(١٠)، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنة، والذراع.

ولفصل الصيف: الثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والسماك، والعواء.

ولفصل الخريف: الغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة.

ولفصل الشتاء: سعد السعود، وسعد الذابح، وسعد الأخبية، وسعد بلع، والفرغان المقدم والمؤخر، والرشاء^(١١). فلكل فصل سبع منازل، والله أعلم.

(١) في «الأنواء» ص ٧٦: لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.

(٢) في «الأنواء» ص ٤٩: وسقوطها لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.

(٣) في «الأنواء» ص ٧٩: لاثني عشرة ليلة تمضي من شباط.

(٤) في «الأنواء» ص ٧٦: لسبع عشرة ليلة.

(٥) في «الأنواء» ص ٨٠: لخمسة وعشرين ليلة تخلو من شباط.

(٦) في «الأنواء» ص ٧٨: لليلة تبقى من كانون الآخر.

(٧) في «الأنواء» ص ٨٢: لتسع ليال تخلو من آذار.

(٨) في «الأنواء» ص ٨٣: لاثنتين وعشرين ليلة تمضي من آذار.

(٩) ويسمى الحوت كما في «الأنواء» ص ٨٤-٨٥.

(١٠) كذا في النسخ والمطبوع، وصوابها: الشرطان.

(١١) «الأنواء» ص ١٠٠-١٠٢، وانظر «أدب الكاتب» ص ٨٦-٨٧.

فصل في أسجاع العرب

المتعلقة بهذه المنازل، وما نقل فيها عن الأوائل^(١)

قرأت على شيخنا أبي اليمُن الكِندي رحمه الله، قال: قرأت على أبي منصور بن الجواليقي قال: بلغني عن أبي بكر محمد بن المنادي أنه قال: العرب تقول: إذا طلع الشرطين، استوى الزُّمين. وأمَّا قول من يقول «الشرطان» فقال أبو حنيفة الدينوري: استوى الزمان، وخضرت الأعطان^(٢)، وعمرت الأوطان، وتهادت الجيران، وبات الفقير بكل مكان.

وإذا طلع البطين اقتضي الدين.

وإذا طلعت الثريا عشياً، بع لراعيك كسيًا، فإن طلعت غديًا ابتغ له سقيًا.

وإذا طلع الدبران، توقدت الحرّتان، ويبست الغدران.

وإذا طلعت الهقعة، رجع الناس عن النجعة. وإذا طلعت الهنعة، انعطفوا إلى المنعة.

وإذا طلع الذراع، حسرت الشمس القناع، واشتعل في الأفق^(٣) الشعاع، وترقرق السراب بكل قاع.

وإذا طلعت النثرة، جُني النخل بكثرة، ولم يترك في ذات درّ قطرة.

وإذا طلع الطّرف، سهل أمر الضيف وخف.

وإذا طلعت الجبهة، توجه المسافر في كلّ وجهة.

وإذا طلعت الصرفة احتال كلّ ذي حرفة.

وإذا طلعت العواء، ضرب الخباء، وطاب الهواء.

وإذا طلع السمك، كثر على الماء اللكّاك، يعني الزّحام.

(١) أورد ابن قتيبة في «الأنواء» هذه الأسجاع مفارقة كل في موضعه، وانظر «المخصص» ٩/ ١٥-١٧، و«الأزمة والأمكنة» ٢/ ٢٤٩-٢٥٤.

(٢) في (ب): «خضرت الأغصان».

(٣) في (ب): «الأرض».

وإذا طلع الغفر، عاد السفر.
 وإذا طلعت الزباني، أخذ كلُّ ذي عيال شانا.
 إذا طلع الإكليل بطلت التعاليل.
 إذا طلع القلب، لان كلُّ صعب.
 إذا طلعت الشولة، أعجلت الشيخ البولة.
 إذا طلعت النعائم، خلص البرد إلى كل قائم.
 إذا طلعت البلدة، أكلت القشدة - وهي ما يخرج من الزبد والسمن في أسفل القدر -
 وفي رواية ابن فارس: أكلت الجعدة، وهي نبت معروف.
 إذا طلع سعد السعود اخضرَّ العود، ولانت الجلود، وكره في الشمس القعود.
 إذا طلع الذابح، حمى أهله النَّابح.
 إذا طلع الأخبية، حنَّ الناس إلى لبس الأقبية.
 إذا طلع بُلَع، اقتحم الرَّبُّع^(١) - أي قوي على المشي - وصار في الأرض لُمع - أي
 بدَّر الكلاء.

إذا طلع المقدم، فاخدم وإلا تدم.
 إذا طلع المؤخر، فأسرع ولا تتأخر.
 إذا طلعت السمكة، أمكنت الحركة، وتعلقت^(٢) الحسكة، أي: حسك السعدان.



(١) الرَّبُّع: الناقة المعتادة بأن تنتج في الربيع. «القاموس المحيط»: (ربيع).

(٢) جاء بعدها في «الأنواء» ص ٨٥: «بالثوب».

فصل في النجوم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: علم النجوم نافع عجز عنه الناس، ووددت أني علمته. أشار إلى معرفة نفس النجوم، لا إلى الأحكام. واتفقوا على أن نور القمر من نور الشمس.

واختلفوا في نور الكواكب، هل هو من نور الشمس أم من نور آخر، على قولين: قال الخرقى والنوبختي وأبو معشر وغيرهم: الكواكب المعروفة ألف واثنان^(١) وعشرون كوكباً:

منها الجدي، وهو أدلها على القبلة. قال الجوهري: والجدي نجم إلى جنب القطب تُعرف به القبلة^(٢). قال: والقطب كوكب بين الجدي والفرقدين يدور عليه الفلك^(٣).

وقال النوبختي: الجدي إلى جانب القطب الشمالي حوله أنجم دائرة كفراشة الرّحى، في أحد طرفيها الفرقدان، وفي الطرف الآخر نجم مضيء يقابلها، وبين ذلك أنجم صغار، ثلاثة من فوق وثلاثة من أسفل، تدور حول الجدي والقطب دوران فراشة الرّحى حول سفودها، وحولها بنات نعش تدور والجدي والقطب لا يبرحان من مكانهما، وإنما يُستدل بالجدي على القطب.

وقال أبو معشر: الجدي قطب هذه الفراشة، وقيل: القطب قطبها، ويستدل عليه بالجدي إذا لم يكن قمر، فإذا قوي ضوء القمر خفي مكانه فلا يراه إلا الحديدُ النظر. والسّها إلى جانبه، وهو نجم خفي يمتحن به الناس أبصارهم.

(١) في (ب): «ومتان»، وانظر «عجائب المخلوقات» ص ٦٠.

(٢) «الصحاح»: (جدي).

(٣) «الصحاح»: (قطب).

وقال ابن قتيبة في «أدب الكاتب»: الجدّي الذي تعرف به القبلة هو جدّي بنات نَعَش الصغرى، وبناتُ نَعَش الصغرى بقرب الكبرى على مثال تأليفها، أربعة منها نَعَش وثلاث بنات، فمن الأربعة الفرقدان وهما المتقدمان، ومن البنات الجدّي وهو آخرها. قال: والسُّها الذي يمتحن الناس به أبصارهم كوكب خفيٌّ في بنات نَعَش. وفي المثل: أريها السُّها وتُريني القمر^(١).

وكيفية معرفة القبلة بالجدّي: أنك إذا جعلته وراء ظهرك في أرض الشام كنت مستقبل القبلة، وفي أرض العراق تجعله مقابل ظهر أذنك اليمنى على علوّها فتكون مستقبلاً باب البيت إلى المقام، ومتى استدبرت الفرقدين أو بنات نَعَش كنت مستقبلاً جهة الكعبة.

وأما الفرقدان فنجمان مضيئان قريبان من القطب وهما ندمانا جذيمة^(٢).

وقال الجوهري: وبنات نَعَش الكبرى سبعة كواكب، أربعة منها نَعَش وثلاث بنات، وكذا بنات نَعَش الصغرى^(٣).

وقال أبو حنيفة الدينوري: والقطب الشمالي والجنوبي لا يبلغهما شمس ولا قمر، والقطب الجنوبي عند مطلع سهيل، لا يظهر إلا في جزيرة العرب.

ومنها سهيل، وهو إلى جانب القطب الجنوبي ومطلعه من مهبّ الجنوب، ثم يسير نحو المغرب فيصير في قبلة المصلي وهناك يغيب.

وقال ابن قتيبة: سهيل كوكب أحمر منفرد عن الكواكب، ولقربه من الأرض تراه أبداً كأنه يضطرب، وهو من الكواكب اليمانية^(٤)، ومطلعه عن يسار القبلة^(٥)، ويرى في جميع أرض العرب والعراق والشام، ولا يرى في بلاد أرمينية، وبين طلوعه

(١) «أدب الكاتب» ص ٩١-٩٢، وانظر «جمهرة الأمثال» ١/١٤٢، و«مجمع الأمثال» ١/٢٩١.

(٢) هو جذيمة بن الأبرش، وسيذكر المصنف قصته مع الفرقدين في فصل ذكر ملوك الحيرة.

(٣) «الصحاح»: (نعش).

(٤) في (ل): «الثمانية».

(٥) في «أدب الكاتب»: «عن يسار مستقبل قبلة العراق».

بالحجاز ورؤيته بالعراق بضع عشرة ليلة^(١). وذكره الجوهري فقال: وسهيل نجم^(٢).
والعرب تقول: إذا طلع سهيل لا تأمن السَّيل^(٣).

وقال أبو معشر: من هذه الكواكب التي هي ألف واثنان^(٤) وعشرون كوكباً: ثلاث مئة واثنان عشر كوكباً^(٥) في اثنتي عشرة صورة في طريق الشمس، وهي البروج الاثنا عشر. ومنها ثلاث مئة وستون كوكباً في إحدى وعشرين صورة، وهي مائة عن طريق الشمس إلى ناحية الشمال، منها الدبُّ الأكبر والأصغر والتنين وغيرهم. ومنها ثلاث مئة وستة عشر كوكباً في خمس عشرة صورة مائة عن طريق الشمس إلى ناحية الجنوب، والاعتماد على الكواكب التي في طريق الشمس لأنها منتقة^(٦) البروج، وما عدا الكواكب التي سمينا لم يُسمها عامة أرباب الهيئة.

وذكرها أبو محمد عبد الجبار المعروف بالخرقي في كتابه المسمى بـ «التبصرة في الكواكب الثابتة»^(٧) فقال: فأما الكواكب التي في الصور الشمالية:

فمنها الدبُّ الأصغر: وهو على صورة دبٍّ واقف مادُّ ذنبه، وكواكبه سبعة، وتسميها العرب: بنات نعش الصغرى، فأربعة هي النعش على شكل مربع، والثلاث على طرف ذنبه، والخارج عن الصورة كوكب واحد، فالذي على طرف ذنبه يسمونه: الجدي، وهو الذي يُتوخى به القبلة، إذ هو أقرب الكواكب المرصودة إلى القطب الشمالي.

قال: ومنها الدبُّ الأكبر: وكواكبه سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة منها ثمانية كواكب. من جملتها سبعة تسميها العرب بنات نعش الكبرى، أربعة على يديه وثلاثة على ذنبه، والذي على طرف ذنبه يسمونه: القائد، ثم العناق، ثم

(١) «أدب الكاتب» ص ٩٢-٩٣.

(٢) «الصحاح»: (سهل).

(٣) انظر «الأنواء» ص ١٥٤-١٥٥.

(٤) في (ب): «مئتان».

(٥) جاء بعدها في (ب): «في اثنتي عشر كوكباً».

(٦) كذا في المخطوطتين، وفي كنز الدرر ١/ ٥٤: متقنة.

(٧) تقدم الكلام على الكتاب ومؤلفه.

الجون^(١)، وبقرب العنّاق كوكب صغير يسمونه: السُّها.

ومنها التّنين: وهو أحد وثلاثون كوكباً وصورته حيّة كبيرة كثيرة العطفات، وابتدائها من أربعة كواكب على شكل مربع منحرف على رأسه، تسميه العرب: العوائد.

قال الجوهري: والتّنين موضع في السماء، والتّنين ضرب من الحيات^(٢).

قال: ومنها الفكّة: ويقال له: الإكليل الشّمالي، ويعرف بقصعة المساكين لاستدارتها، وكواكبها ثمانية، وذكرها الجوهري فقال: والفكّة كواكب مستديرة خلف السّمك الرامح^(٣).

ومنها الجاثي على ركبتيه: وصورته تسعة وعشرون^(٤) كوكباً.

ومنها السلياق: ويقال له: اللوزا والصبح الرومي والسلحفاة، وكواكبه عشرة من جملتها كوكب نير يسمونه: النّسر الواقع، سمي بذلك لأن جناحيه مقبوضان.

قال الجوهري: وفي النجوم النّسر الطائر والنّسر الواقع^(٥).

ومنها الدّجاجة: سبعة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وأكثر كواكبها في المجرة قريبة من النسر الواقع.

ومنها ذات الكرسي: ثلاثة عشر كوكباً، وصورتها صورة امرأة جالسة على كرسي عليه مسند وقد دلّت رجليها، وهي في نفس المجرة، ومن كواكبها الكف الخضيب على وسط المسند، يعرف بسنام الناقة.

ومنها برشاوس: ويسمى حامل رأس الغول، ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم على رجله اليسرى رافع رجله اليمنى،

(١) هكذا جاءت في الأصول الخطية، وصوابه: الحور، كما في «القاموس المحيط»: (حور).

(٢) «الصحاح»: (تنن).

(٣) «الصحاح»: (فكك).

(٤) في (ب): «تسع وثلاثون».

(٥) «الصحاح»: (نسر).

ويده اليمنى فوق رأسه، ويده اليسرى رأس مشوّه الخلق مقطوع، يسمّى: رأس الغول.
ومنها ممسك العنان: أربعة عشر كوكباً، وصورته صورة رجل قائم بإحدى يديه
سوط، ويده الأخرى قابضة على عنان خلف العيوق.

ومنها الحوّاء: وهي أربعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب،
وصورته صورة رجل قائم قد قبض بيديه جميعاً على حية.

ومنها حيّة الحوّاء: ثمانية عشر كوكباً قد قبضها الحوّاء وقد رفعت رأسها وذنبها
حتى عليا رأسه.

ومنها السّهم: خمسة كواكب بين منقار الدجاجة والنسر الواقع.

ومنها العقاب: تسعة كواكب، والخارج عن الصورة ستة، ومن كواكبه النسر الطائر
لأن جناحيه مبسوطان.

ومنها الدّلفين: عشرة كواكب مجتمعة خلف النسر الطائر، وصورته صورة حيوان
بحري يشبه الزّق المنفوخ، ولم يذكره الجوهري في النجوم، وإنما قال: الدلفين -
بالضم - دابة في البحر تنجي الغريق^(١).

ومنها قطعة الفرس: أربعة كواكب، ويقال لها: مقدّم الفرس، خلف كواكب
الدّلفين.

ومنها الفرس الأكبر: وهو ذو الجناح، عشرون كوكباً، صورة فرس له رأس ويدان
وليس له رجلان ولا كفل.

ومنها أندروميذا: ويقال لها: المرأة المسلسلة، اثنان وعشرون كوكباً، وصورتها:
امرأة قائمة ممدودة اليدين، في يديها سلسلة كأنها معلّقة بها، ويقال: السلسلة في
رجليها.

ومنها المثلث: أربعة كواكب بين كواكب السمكة وبين النير الذي على رأس الغول.
قال الخرقى: فجملة هذه الصور الشمالية ثلاث مئة وستون كوكباً. فأما الصور

(١) «الصحاح»: (دلف).

الجنوبية فثلاث مئة وستة عشر كوكباً:

منها قيطس: اثنان وعشرون كوكباً، وصورته صورة حيوان بحريّ، ذو رجلين وذنّب كذنّب الحوت.

ومنها الجبّار: ثمانية وثلاثون كوكباً، وصورته صورة رجل على كرسيّ بيده عصا، وفي وسطه منطقة وسيف، ومن كواكبه يد الجوزاء، وهو كوكب أحمر نير.

ومنها النّهر: أربعة وثلاثون كوكباً، وشكله شكل جدول كثير العطفات.

ومنها الأرنب: اثنا عشر كوكباً مجتمعاً تحت رجل الجبّار مشبّهة بأرنب، ووجهه إلى المغرب ومؤخره إلى المشرق.

ومنها الكلب الأكبر: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً خلف كواكب الجوزاء أمام السفينة، ومن كواكبه الشعري العبور، كوكب نير، ويسمّى الثاني المرزّم.

قال الجوهري: والشعري الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحرّ، وهما الشعريان العبور التي في الجوزاء، والشعري الغميضاء التي في الذراع، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل^(١).

وقال الجوهري: والمرزّمان مرزّما الشعريين، وهما نجمان أحدهما في الشعري، والآخر في الذراع^(٢).

ومنها الكلب الأصغر: وهما كوكبان يسمّى أحدهما الشعري الشامية والغميضاء، كوكبان نيران.

ومنها السفينة: خمسة وأربعون كوكباً مجتمعاً في ناحية الجنوب تطلع في أثر الكلب الأكبر، من جملتها سهيل النجم الأحمر.

ومنها الشجاع: خمسة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وصورته صورة حيّة طويلة كثيرة العطفات، ورأسه على حلقة وجه الفرس من أربعة كواكب،

(١) «الصحاح»: (شعر).

(٢) «الصحاح»: (رزم).

يبتدى من زباني السرطان، وهو بين الشعري الشامية وقلب الأسد.
ومنها الكأس: سبعة كواكب على شكل مستدير عند ظهر الشجاع، ويسمى الباطية.
ومنها الغراب: سبعة كواكب، ويسمى: عرش السماك الأعزل، ويسمى أيضاً: الخباء.
ومنها قنطورس: سبعة وثلاثون كوكباً، وصورته صورة حيوان مركب من إنسان
وفرس، مقدّمه مقدّم الإنسان من رأسه إلى ظهره، ومؤخره مؤخر فرس من منشأ ظهره
إلى ذنبه، قد أخذ بيديه رجلي سبع، وتسميه العرب شماريخ.
ومنها السبع: تسعة عشر كوكباً مجتمعة خلف كواكب قنطورس على جنوب
العقرب.

ومنها الإكليل الجنوبي: ثلاثة عشر كوكباً^(١) وشكلها شكل صنوبري، وتسميها
العرب: قبة.

ومنها الحوت الجنوبي: أحد عشر كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب،
وصورته صورة سمكة عظيمة كواكبها على جنوب كواكب الدلو، ورأسها إلى المشرق،
وذنبها إلى المغرب.

ومنها المجرّة^(٢): على جنوب خرزات العقرب.

قال الخرقى: فهذه جملة الكواكب الشمالية والجنوبية.

قلت: وهذا الذي ذكره يختص بالكواكب التي هي غير مشهورة، وأمّا الكواكب
السبعة وما كان في معناها فنذكرها.

فصل في أجرامها

واختلفوا فيها: ذكر النوبختي وأبو معشر أن جرم الشمس بمقدار الدنيا مئة وستة
وستين^(٣) مرة ونصفاً. وجرم القمر بمقدار الدنيا تسعاً وثلاثين مرة، وكذا الزهرة

(١) من قوله: مجتمعة . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) في (ل): المجرّة، والمثبت من (ط).

(٣) في (ب): «مئة سنة وستين».

وعطارد والمريخ، وجرم المشتري بمقدار الدنيا اثنتين وثمانين^(١) مرة. قال الجوهري: ويسمى المشتري الأهور^(٢). وزحل أعظم من الدنيا بتسع وتسعين مرة.

وروي عن النوبختي أنه قال: جرم الشمس خمس عشرة درجة أمامها، وكذا خلفها، وجرم القمر اثنتا عشرة درجة أمامه، وكذا خلفه، وجرم المشتري تسع درجات أمامه، وكذا خلفه، وكذا جرم زحل، وجرم المريخ ثمان درجات أمامه وكذا خلفه، وجرم الزهرة سبع درجات أمامها وكذا خلفها، وكذا عطارد.

وذكر هارون بن المأمون في تاريخه المسمى بـ «منهاج الطالبين»: أن أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا مرّات كثيرة، قال: إلا القمر، فإنه أصغر من الأرض.

قلت: أما «قوله أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا» فنعم، وما ذكر في القمر فلم يوافق عليه أحد.

قال أبو معشر: فأما الكواكب العظام الثابتة كالشعري العبور، والسماك، والنسر الواقع، والطائر، وقلب الأسد، ونحوها، وهي خمسة عشر كوكباً، فكل كوكب منها بمقدار الأرض أربعاً وتسعين مرة ونصفاً.

وقال ابن قتيبة: النسر الواقع ثلاثة أنجم [كأنها أثافي، وبإزائه النسر الطائر وهو ثلاثة أنجم] مصطفة



[وإنما قيل للأول]: الواقع كأنهم جعلوا اثنين منها جناحيه قد ضمّهما إليه كأنه طائر وقع، وكذا الطائر ثلاثة أنجم مصطفة يجعلون اثنين منها جناحيه كأنه طائر قد بسطهما^(٣).

قال أبو معشر: ويقطع كل واحد منهما الفلك في ستة وثلاثين ألف سنة.

(١) في (ب): «تسعة وثلاثين».

(٢) «الصحاح»: (حور).

(٣) «أدب الكاتب» ص ٩٢، وما بين معقوفين زيادة منه.

فصل

في قطع النجوم السبعة الأفلاك

ذكر أبو حنيفة الدينوري: أن القمر يقطع الفلك في تسعة وعشرين يوماً وأقل من ثلث يوم. وقال النوبختي: في تسعة وعشرين يوماً. وعطارد يقطعه في أقل من ثمانية وعشرين يوماً، والزُّهرة تقطعه في مئتين وأربعة وعشرين يوماً وأشرف من ثلثي يوم، والشمس تقطعه في ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وأشرف من ربع يوم، والمريخ يقطعه في ست مئة وثلاثين يوماً، والمُشتري يقطعه في إحدى عشرة سنة وثلاث مئة وسبعة وعشرين يوماً، وزُحل يقطعه في تسع وعشرين سنة فارسيَّة ومئة وستة وسبعين يوماً.

فصل

في مقامات الكواكب في البروج

قالوا: مقام القمر في كل برج ليلتان وثلث ليلة، ومقام عطارد في كل برج خمسة عشر يوماً، ومقام الزُّهرة في كل برج خمسة وعشرون يوماً، ومقام الشمس في كل برج شهر، ومقام المريخ خمسة وأربعون يوماً، ومقام المُشتري سنة، ومقام زُحل في كل برج ثلاثون شهراً.

فصل

في شرف الكواكب

شرف القمر الثور، شرف عطارد السُّنبلة، شرف الزُّهرة الحوت، شرف الشمس الحمل، شرف المريخ الجدي، شرف المُشتري السرطان، شرف زُحل الميزان.

فصل

في المجرة

واختلفوا فيها، قال بعضهم: هي شرح السَّماء، كأنها مجمع النجوم، كشرح القبة. وقيل: هي باب السماء، وتسميها العرب: أمَّ النجوم، لأنه ليس في السماء بقعة أكثر عدداً من الكواكب فيها.

وقد روى أبو بكر الخطيب حديثاً في المجرة فقال: أخبرني علي بن محمد بن الحسن المالكي بإسناده عن معاذ بن جبل قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «إِنَّهُمْ سَأَلُواكَ عَنِ الْمَجْرَةِ فَقُلْ: إِنَّهَا مِنْ عَرَقِ الْأَفْعَى الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ»^(١).
قال جدِّي في «الموضوعات»: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وفي إسناده الشاذكوني، اسمه سليمان بن داود، كان يضع الحديث ويكذب^(٢).

فصل

فيما لكل كوكب من الأيام السبعة

قالوا: يوم الأحد للشمس، والإثنين للقمر، والثلاثاء للمريخ، والأربعاء لعطارد، والخميس للمشتري، والجمعة للزهرة، والسبت لزحل.

فصل

في اقتران الكواكب

معنى القِران أن يجتمع الكوكبان في برج واحد، فيؤثران بأمر الله تعالى.
قالوا: إذا قارن زحل المشتري عمت^(٣) الحروب في الأقاليم ويموت ملك، وكذا إذا قارن المريخ زحل، وكذا إذا قارنت الشمس زحل.
وإذا قارنت الزهرة زحل دلّ على غلاء الأسعار والقحط.
وإذا قارن زحل عطارد دلّ على صلاح حال الكتاب.
وإذا قارن زحل القمر دلّ على ظهور الجور.
وإذا قارن المشتري المريخ لقي العالم شدائد عظيمة.



فصل

(١) «تاريخ بغداد» ٤٤/٩.

(٢) «الموضوعات» (٢٩٦).

(٣) في (ب): «عملت».

في طبائع الكواكب

قال أبو معشر وغيره: القمر أنثى بارد رطبٌ بلغميٌّ، وفيه حرارة عرضية، لأن ضوءه من ضوء الشمس، وسلطانه على الطّحال والرئة، وهو سعد. عطارد يتذكّر ويتأنّث، وهو مرّة سعد ومرّة نحس، ويستوي في طبيعته الحرّ والبرد. وسلطانه النطق والكتابة.

الزّهرة: أنثى ممزوجة، وهي سعد، باردة رطبة لها البلغم، وسلطانها على الفرج والمفاصل، ولها الشهوة ونظم الأكاليل وتأليف الألحان والغناء، واللعب واللهو والضحك.

الشمس: ذكر حارّة يابسة لها المرّة الصفراء، وهي سعد بالنظر، نحسّ بالمقابلة، جوهرها الذهب، وسلطانها على الفؤاد، ولها الشرف والعلو، والفرح والسرور والملك.

المريخ: مؤنّث ناريّ حارٌّ يابس نحس، له المرّة الصفراء، وجوهره النحاس، ومذاقته مرّة، وسلطانه على الرأس والمعدة، وله الداء القاتل والقتل، وفساد النساء في الحبل.

المشتري: ذكر معتدل روحاني هوائي سعد، وله الدم، وجوهره الرصاص، ومذاقته طيبة، ولونه أبيض، وسلطانه على الريح الساكنة في القلب، وله العطاء والعبادة والعلو والرياسة.

زحل: ذكر بارد يابس مظلم، له المرّة السوداء، وجوهره الحديد، ومذاقته مرّة، ولونه أسود، وسلطانه على المذاكير، وله الجسارة والتؤدة والوحدة والقهر والجبرية.

قلت: وزعم قوم أن هذه البروج والأفلاك والكواكب السيّارة تفعل في العالم التأثير، وأنها هي المدبّرة للعالم، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] ونحو ذلك.

ونحن نقول: قد ورد أن إدريس عليه السلام لما صعد السّماء أخبر بالبروج والنجوم وغيرها، فما جاء عنه في هذا الباب فمقبول، وما نهى عنه الشرع فلا يلتفت إليه، بل قد

قامت البراهين والأدلة على أن الباري سبحانه وتعالى اخترعها وأنشأها وابتدعها.
 وأمّا قولهم: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فقد قال ابن عباس: هم الملائكة، بعضهم
 مُوَكَّلٌ بالأرزاق، وبعضهم بالرياح لما نذكر في خلق الملائكة، ولو كانت مدبِّراتٍ
 فيأذن الباري سبحانه وتعالى، لأنه القادر العليم القاهر الحكيم.



فصل

في ذكر البيت المعمور

وما ورد فيه من النص والحديث المشهور^(١)

قال الله تعالى ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤].

روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: [اسمه] الضراح.

وقد ضبطه الجوهري فقال: والضراح - بضم الضاد المعجمة والحاء المهملة - بيت في السماء^(٢)، وهو البيت المعمور، عن ابن عباس^(٣).

واختلفوا في أي سماء هو على أقوال:

أحدها: في السماء الدنيا، وهو قول ابن عباس ومجاهد والربيع، واحتجوا

بحديث عائشة.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي الزبير عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم مكة فأرادت عائشة أن تدخل البيت - يعني ليلاً - فقال لها بنو شيبه: إن أحداً لا يدخله ليلاً ولكن نخليه لك نهاراً، فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنه ليس لأحد أن يدخله ليلاً إنه بحيال البيت المعمور الذي في السماء، لو وقع حجرٌ منه لوقع على ظهر الكعبة، وإنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه إلى يوم القيامة، ولكن انطلقني أنت وصواحبك فصلين في الحجر» ففعلت، فأصبحت وهي تقول: قد دخلت البيت على رغم من رغم^(٤).

وروى عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعناه، وقال: «حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ

(١) انظر كنز الدرر ١/ ٦٠.

(٢) «الصحاح»: (ضرح).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٨٨٧٤) من طريق كُريب، عن ابن عباس، وانظر «عمدة القاري» ١٧/ ٢٨.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٤ من طريق هارون بن محمد بن هارون، عن إبراهيم بن الحسين بن ديزيل، عن موسى بن إسماعيل، عن سفيان بن نشيط، عن أبي محمد، عن الزبير، به. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ١١٧-١١٨، وعزاه لابن مردويه.

كحُرمة الكعبة في الأرض، فهو معمورٌ بكثرة الغاشية والأهل والعبادة، يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه، وخادمه يُقال له: رزين^(١).

وروي عن ابن عباس أنه كان من الجنة، فلما أهبط آدم إلى الأرض حمل إليه ليستأنس به ثم رفع في أيام الطوفان.

القول الثاني: أنه في السماء السادسة عند شجرة طوبى. وروي عن علي عليه السلام^(٢).

والثالث: أنه في السماء السابعة، قاله مجاهد والضحاك^(٣). وقد روى البخاري في حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ فِيهِ»^(٤).

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، لأنه يحتمل أن الله تعالى رفعه ليلة المعراج إلى السماء السادسة عند سدرة المنتهى ثم إلى السماء السابعة تعظيماً للنبي ﷺ حتى يراه في أماكن، ثم أعاده إلى السماء الدنيا.

وذكر الثعلبي عن الحسن البصري أنه قال: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾^(٤) أنه الكعبة الحرام يعمره الله كل سنة بالناس، وهو أول بيت عُمر للعبادة. والقول الأول أظهر لما روينا عن عائشة رضي الله عنها، ولأن الكعبة تعمر بالناس في السنة مرة، والبيت المعمور يعمر كل يوم بالملائكة.



(١) أخرجه الأزرق في تاريخ مكة ٤٩/١ من طريق كريب، عن ابن عباس.

(٢) انظر «عمدة القاري» ٤٤/٤.

(٣) انظر «عمدة القاري» ٤٤/٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

فصل

في سدره المنتهى

التي يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها^(١)

قال الجوهري: السدر شجر التَّبَق، الواحدة: سِدْرَة^(٢).

واختلفوا لم سميت بهذا الاسم على أقوال:

أحدها: لأنه ينتهي إليها أعمال بني آدم التي تعرج بها الكتبة إلى السماء ثم تُقبض منها، وإليها ينتهي ما يقبض من فوقها فينقبض منها، قاله كعب الأحمار، وذكر أنه في التوراة.

كذلك فإنَّ العوفي روى عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن سدره المنتهى، فقال: هي سدره في أصل العرش، إليها ينتهي عمل الخلائق فترفع منها، تعرج به الملائكة إليها فتقف عندها، ثم ينزل إليها أمر الله تعالى^(٣). وبه قال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة.

والثاني: أنه ينتهي إليها علم كل عالم، قاله مقاتل.

والثالث: أن كل شيء من أوامر الله تعالى يصل إليها فينتهي عندها، ولا يعدوها شيء، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: لأنَّ الملائكة المقرَّبين تنتهي إليها، فلا يتجاسرون أن يتجاوزوها من مخافة الله تعالى، قاله الضحاك.

والخامس: لأنه ينتهي إليها ما يعرج من أرواح المؤمنين، حكاه سفيان الثوري.

واختلفوا في أيِّ سماء هي على أقوال:

أحدها: في السماء السادسة، قاله ابن مسعود^(٤).

(١) انظر «كنز الدرر» ٦٢/١.

(٢) «الصحاح»: (سدر).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/١٥٠، والطبري في تفسيره ٢٧/٥٢.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٣).

والثاني: في السماء السابعة، وقد ذكرها النبي ﷺ في المتفق عليه من حديث المعراج أنها فيها^(١).

والثالث: أنها بعد السماء السابعة، قاله أبو هريرة، قال: وقال لي النبي ﷺ: «رَأَيْتُهَا بَعْدَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٍ: نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَنَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَنَهْرٌ مِنَ الْكَافُورِ، وَالْوَرَقَةُ مِنْهَا تُغَطِّي أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ^(٢)».

وقال البخاري بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَوَيْلٌ لِمَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] متفق عليه^(٣)، ورواه أبو سعيد^(٤) وأبو هريرة^(٥).

وقال ابن عباس: ليس في الجنة قصر ولا بيت إلا وفيه غصن من أغصانها.

وسئل علي رضي الله عنه عنها فقال: هي كالشمس في الدنيا.

وسمّاها عبد الله بن سلام: شجرة طوبى، قال: وكذا هي في التوراة. وفي القرآن ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، قالت سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير الراكب في ظلّ الفَنّ مئة عام، ويستظلّ بالفنّ منها مئة ألف راكب، فيها فراش من ذهب كأنّ ثمرها القلال». وسنذكرها في المعراج إن شاء الله تعالى.

حدّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي رحمه الله تعالى بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: سأل رجل رسول الله ﷺ عن شجرة طوبى فقال: «غَرَسَهَا اللَّهُ

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه الطبري ٥٤/٢٧، وليس فيه: رأيتها بعد السماء السابعة.

(٣) صحيح البخاري (٣٢٥١) دون قوله: «واقروا إن شئتم...». وهو من أفراد البخاري، ولم يخرج مسلم كما في الجمع بين الصحيحين (٢٠٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

تعالى بيده، ونَفَخَ فيها من رُوحِهِ، تُنْبِتُ حُلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحُلَلَهُمْ، وَأَنَّ أَغْصَانَهَا لَتُرى من وراءِ سُورِ الْجَنَّةِ»^(١).

وقال مقاتل: لو أن ورقة منها وقعت في الأرض لأضاءت لأهلها، وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد.

فصل

في ذكر الكرسي والعرش ومقدار ما بينهما وبين الفرش^(٢)

قال الجوهري: الكرسيُّ واحد الكراسي المعروفة^(٣).

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه الكرسي، وقد فسّر ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] بهذا، قال: ومعنى وَسِعَ أي ملأهما وأحاط بهما.

والثاني: أن الكرسيَّ علم الله، ومنه قيل للصّحيفة فيها العلم: كراسية، ويقال للعلماء: الكراسيُّ، قاله الضّحّاك وروي عن ابن عبّاس أيضاً.

والثالث: قدرة الله وسلطانه وملكه، والعرب تسمي المُلْك القديم: كرسياً، قاله مقاتل.

والرابع: سرّه، قال الشاعر:

مالي بأمرك من سرّ أكاتمه ولا بكرسيِّ علم الله مخلوقُ
قاله الحسن.

والخامس: أهله، قاله أبو جعفر الطبري، قال: ومعناه وسع عباده أهل السماء والأرض.

والسادس: أن الكرسيَّ هو العرش، قاله الحسن^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، والطبري (٢٠٣٩٥) بنحوه، وإسناده ضعيف.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/٦٣.

(٣) «الصحاح»: «كرس».

(٤) انظر الأقوال السابقة في تفسير الطبري ٥/٣٩٧-٤٠٣.

والسابع: أنه مُلكٌ عظيمٌ أضافه إلى نفسه تخصيصاً لينبّه به على عظمته وقدرته، قاله مقاتل بن حيان، قال: ومعناه أن خلقاً من خلقي يملأ السماوات والأرض فكيف تُقدر قدرتي وتُنال عظمتي.

قلت: والأصح أنه الكرسيُّ بعينه، وباقي الأقوال مجازٌ وعدولٌ عن الحقيقة، لأنَّ الأخبار والآثار دالةٌ عليه.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي ذرٍّ، قال قلت: يا رسول الله، أيُّما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسيِّ» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، ما السماواتُ السَّبْعُ في الكرسيِّ إلا كحلقةٍ ملقاةٍ في أرضٍ فلاةٍ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة»^(١).

وروي عن علي^(٢) عليه السلام أنه قال: الكرسيُّ من لؤلؤة بيضاء، وهو فوق السماء السابعة بمسيرة خمس مئة عام، وطول كلِّ قائمة منه مثل السماوات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسيُّ أربعة أملاك، أقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

وأما ما ذكروه من معنى العلم والقدرة ونحو ذلك، فالعرب لا تعرف الكرسيَّ بمعنى العلم والقدرة والمُلك والأهل، وما استشهدوا به فشاذاً لا يعرَّج عليه.

وأما العرش، فقال الجوهري: العرش سرير الملك^(٣). وقال الزجاج: سرير الملك يسمّى عرشاً، وأنشد قول أمية بن أبي الصلت^(٤):

مَجَّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرًا
بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ سِوَى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
أَي: عَرِشًا.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

(٢) في النسخ: «جبريل» والمثبت من «كنز الدرر» ٦٤/١، وانظر تفسير القرطبي ٢٧٦/٣.

(٣) «الصحاح»: (عرش).

(٤) البيتان في ديوانه ص ٣٩٩-٤٠٠.

وقال الحسن البصري: العرش هو الكرسي بعينه^(١).

وليس كما ذكر، لأن الله تعالى فرّق بينهما فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٣] وذكر العرش في عدة مواضع.

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: العرش بعد الكرسي، والعرش من ياقوتة حمراء، وتحتة بحر تنزل منه أرزاق الحيوانات، يوحى الله إليه فيقطر ما شاء، ثم يقسم بين الخلائق، وبين حملة العرش وحملة الكرسي سبعون حجاباً من نور، غلظ كل حجاب مسيرة خمس مئة سنة، ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نور [حملة] العرش.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: للعرش ثلاث مئة وستون ألف برج، في كل برج ثلاث مئة ألف صف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، يسبح كل واحد منهم بلسان لا يعرفه الآخر.

فإن قيل: فما الحكمة من خلق العرش، والله أعظم من كل عظيم؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه موضع خدمة الملائكة، فهم حاقون به إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] فهو كباب الملك.

والثاني: لأن الله جعله قبلة الداعين، وملجأ المكروبين، ومفزع الخائفين، وحرم القاصدين، وجناب اللائذين.

والثالث: لأنه سقف الجنان، وتأوي إليه أرواح الشهداء في قناديل من ذهب معلقة فيه، على ما ورد به الحديث الصحيح^(٢).

والرابع: لأن الله جعله معدن الستر والल्पف، فروى عطاء عن ابن عباس قال:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٠/٣.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً، قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يارب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

حدثني كعب الأحبار قال: قرأت في بعض الكتب: أن ما في الدنيا مؤمن إلا وله تمثال على هيئته تحت العرش، فإذا ركع المؤمن وسجد في الصلاة فعل ذلك التمثال مثل فعله، فتنظر إليه الملائكة فيستغفرون له، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فإذا ارتكب المؤمن خطيئة أرخى الله عز وجل على ذلك التمثال سترًا لئلا يتطلع عليه الملائكة، فذلك معنى قولهم في الدعاء^(١): يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح^(٢).

فصل في حملته

أبانا جدي بإسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة». ذكر جدي هذا الحديث في كتاب «تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي»^(٣) في الوعظ.

وروى مقاتل عن عليّ وابن عباس: أن حملة العرش أعظم الملائكة خلقة، وهم اليوم أربعة: أحدهم وجهه وجه رجل يسأل الله الرزق لبني آدم، والثاني وجهه وجه نسر يسأل الله الرزق للطيور، والثالث: وجهه وجه ثور يسأل الله الرزق للبهائم، والرابع وجهه وجه أسد يسأل الله الرزق للوحوش. فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وقيل: ثمانية أصناف.

وذكر جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة» هذا وقال: من أعظم الملائكة خلقة حملة العرش، أحدهم على صورة البشر قد وكل^(٤) بالدعاء للنسل الآدمي، وذكر الباقي على هذا.

(١) في (ب): «الدنيا».

(٢) وقوله: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح» هو قطعة من حديث أخرجه الحاكم ١/٥٤٤-٥٤٥ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن رواه كلهم مديون ثقات.

(٣) «التبصرة» ٢/١٧٤-١٧٥، وهو عند أبي داود (٤٧٢٧).

(٤) في (ب): البشر فيسأل الله أو قد وكل، وفي (ل): البشر يسأل الله وقد وكل، وعلى لفظ الجلالة إشارة أنها نسخة، والمثبت من التبصرة ٢/١٧٤.

فإن قيل: فما الحكمة فيه؟ فالجواب أنه قد جاء الحديث أنه إذا نوقش الجبابة والعصاة الحساب^(١) يشتد غضبُ الله عليهم فزيد في الحَمَلَة لهذا المعنى. وقال بعضهم: هذا ضربٌ مثل لينزجر العصاة عن المعاصي.

وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لما خلق الله العرش خلق له ملائكةً عظام الخلق: أحدهم من النور، والثاني من النار، والثالث من الماء، والرابع من الرحمة، وأعطاهم قوة جميع الخلائق، وأمرهم بحمل العرش فحملوه فلم يطيقوا حمله، فقال لهم الله تعالى: قولوا سبحان الله، فقالوها، فرفعوا بعضه حتى بلغ إلى ركبهم وضعفوا، فقال الله عز وجل: قولوا الحمد لله، فقالوها، فرفعوه إلى أوساطهم ووقفوا، فقال لهم: وقولوا لا إله إلا الله، فقالوها، فحملوه إلى أكتافهم ووقفوا، فقال لهم: قولوا الله أكبر، فقالوها، فرفعوه على رؤوسهم، فرؤوسهم ناشبة فيه وأقدامهم على الأرض السفلى. قلت: وقد جاءت في العرش والكرسي أخبار وآثار:

فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن وكيع بن عُدَس عن عمه أبي رزین العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال: «كان في عَمَاء ما تحته هَوَاءٌ، [وما فوقه هَوَاءٌ] ثم خَلَقَ عَرْشَهُ على الماء»^(٢).

وقال الجوهرى: عُدَسٌ - بفتح الدال - اسم رجل، مثال قُثَمٍ^(٣). قال: والعَمَاء - بالمد - سحب رقيق شبه الدخان يركب رؤوس الحيطان^(٤). وذكرُ الفوقِ والتحت والهواء عائدٌ إلى السحاب لا إلى الله تعالى، لأنه لا يعلوه شيء ولا يحلُّ في شيء.

وحكى أبو جعفر الطبري في «تاريخه» عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله تعالى العرش فاستوى عليه^(٥). وروى أيضاً عن ابن عباس أنه قال: أول ما خلق الله تعالى الماء قبل العرش، ثم وضع العرش عليه^(٦). والله أعلم وأحكم بالغيب.

(١) من قوله: فما الحكمة فيه... إلى هنا ليس في (ب).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦١٨٨)، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٣) «الصحاح»: (عدس).

(٤) «الصحاح»: (عمي)، وفيه: «رؤوس الجبال».

(٥) «تاريخ الطبري» ٣٩/١.

(٦) «تاريخ الطبري» ٣٩/١.

فصل

في ذكر الملائكة المقربين والرُّوحانيين والكروبيين^(١)

قال الجوهرى: المَلَكُ من الملائكة واحد [وجمع]^(٢). والمقربون من التقريب وهو الدنو^(٣). وكذا الكروبيون من كرب الشيء، أي: دنا^(٤)، والرُّوحانيون من الرُّوح^(٥).

فصل

في خلق الملائكة

قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ». انفرد بإخراجه مسلم^(٦).

فصل

في جبريل عليه السلام

قال علماء التأويل: جَبْر اسم، وإيل من أسماء الله عز وجل، فجَبْر بمنزلة عبد، وإيل هو الله تعالى، ومعناه: عبدالله. وثبت أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي لما نذكر في سيرته.

وقال ابن عباس: جبريل صاحب الوحي والعذاب، إذا أراد الله أن يهلك قوماً سلطه عليهم، كما فعل بقوم لوط لما نذكر.

وقال ابن الكلبي: سأل النبي ﷺ جبريل أن يأتيه في صورته التي خلقه الله عليها فقال له: لا تستطيع أن تثبت، فقال: بلى، فظهر له في ست مئة ألف جناح سدّ الأفق

(١) انظر «كنز الدرر» ٦٨/١.

(٢) «الصحاح»: (ملك).

(٣) «الصحاح»: (قرب).

(٤) «الصحاح»: (كرب).

(٥) «الصحاح»: (روح).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤)، ومسلم (٢٩٩٦).

جناح منها، فشهد رسول الله ﷺ أمراً عظيماً، فصُعق، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

وقال أحمد بإسناده عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كلُّ جناح منها قد سدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدرِّ والياقوت ما الله به عليم. أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

ولفظ الصحيحين عن ابن مسعود: رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح لا غير^(٢). والتهاويل: الألوان المختلفة.

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَصَفَكَ بِالْقُوَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالْأَمَانَةِ، فَأَخْبَرَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا قَوَّتِي فَإِنِّي رَفَعْتُ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ مِنْ تُخُومِ الْأَرْضِ عَلَى جَنَاحِي إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ كِلَابِهِمْ ثُمَّ قَلَبْتُهَا عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا طَاعَةُ الْمَخْلُوقَاتِ لِي فَإِنِّي أَمَرْتُ رِضْوَانَ خَازِنِ الْجَنَّةِ مَتَى شِئْتُ بِفَتْحِهَا، وَكَذَا مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، وَأَمَّا أَمَانَتِي فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِئَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ لَمْ يَأْتِمِنْ عَلَيْهَا غَيْرِي»^(٣). وسنذكر جبريل في ليلة المعراج وغيرها.

فصل

في ميكائيل عليه السلام

وفيه أيضاً لغات، قال ابن الأنباري: لم يختلفوا أن «ميكائيل» مثل «جبريل»، و«إيل» هو الله تعالى.

وقال ابن عباس: ميكائيل هو صاحب الرزق والرحمة.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البناني، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «مَا لِي لَا أَرَىٰ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا؟ فَقَالَ: مَا ضَحِكُ مِنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»^(٤).

(١) أحمد في «مسنده» (٣٧٤٨).

(٢) البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٣) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ١٤ / ٦٤٠.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

وقال ابن عباس: أول ما امتنع من الملائكة من الضحك ميكائيل لما خلقت النار.

فصل في إسرافيل

قال الجوهرى: إسرافيلُ اسم أعجميُّ، كأنه مضاف إلى إيل^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن زاوية من زوايا العرش على كاهله، ورأسه قد مرق في السماء السابعة^(٢).

قال: ولما أمر الله الملائكة بالسجود، أول من سجد لآدم إسرافيل، فأثابه الله بأن كتب القرآن في جبهته^(٣).

وقد روي موقوفاً على عمر بن عبد العزيز^(٤) لما نذكر في قصة آدم.

قال: ومنذ خلقت النار لم تجفَّ له دمة، ومن يُخلق من الملائكة إنما يخلق من دموع إسرافيل، وهو صاحب اللوح المحفوظ والصور.

وقال ابن عباس: ينفخ النفخة الأولى فيموت الخلائق، وتسير الجبال وتكور الشمس والقمر، ثم ينفخ الثانية لقيام الخلق من القبور.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم عيشاً وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر، فينفخ فيه؟ فقال المسلمون: فكيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٥).

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث القرن، والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. قال ابن قتيبة: الصور هو القرن في لغة أهل اليمن. وقال

(١) «الصحاح»: (سرف).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٩٠)، وأبو نعيم في الحلية ٦ / ٦٥ - ٦٦ من طريق شهر بن حوشب، عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، وانظر المنتظم ١ / ١٩٠.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٤٥) من حديث ضمرة.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٢ / ٦٢٥، وسيذكره المصنف في سجود الملائكة لآدم.

(٥) سنن الترمذي (٢٤٣١) و(٣٢٤٣)، وهو عند أحمد في «مسنده» (١١٠٣٩)، وكلمة «عيشاً» لم ترد في كتب السنة.

مجاهد: هو شبه البوق. وقال الجوهري: قال الكلبي: لا أدري ما الصُّور. وقرأ الحسن: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾^(١) [طه: ١٠٢].

وقد أخرج الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» لفظ الصور في حديث طويل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفيه: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيَتَاءً»^(٢). والليُّ: صفحة العنق.

فصل

في عزرائيل

وهذه الإضافة مثل جبرائيل ونحوه.

وروي عن ابن عباس عن كعب الأخبار قال: وجدت فيما أنزل الله تعالى من الكتب أن ملك الموت جالسٌ في السماء الدنيا، وبين يديه لوح فيه أسامي مَنْ يموت إلى يوم القيامة، فإذا وقع بصره على اسم إنسان مات.

وقال مجاهد: له أعوان من الملائكة، فيبعث ملائكة الرحمة إلى المؤمنين وملائكة العذاب إلى الفاجرين. وقيل: في ملك الموت خاصية، إذا رآه إنسان مات.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هؤلاء الأربعة هم رؤساء الملائكة وهم المُقسِّمات أمراً، بأمر الله تعالى، وهم مثل ملوك الدنيا، وأقربهم إلى الله جبريل. وقد ذكرنا حملة العرش.

فصل

في الروح

روى عبد خير عن علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبا: ٣٨] قال: هو ملك عظيم له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل

(١) «الصحيح»: (صور)، وانظر «المحتسب» ٥٩/٢.

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

تسيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة^(١).

وذكر أبو إسحاق الثعلبي عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال: الروح ملك عظيم، أعظم من السماوات والأرض والجبال والملائكة، وهو في السماء الرابعة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسيحة، يُخلق من كل تسيحة ملك، يجيء يوم القيامة صفاً وحده والملائكة بأسرهم يجيئون صفاً^(٢).

وقال ابن عباس: وهو الذي ينزل ليلة القدر، زعيم الملائكة ويده لواء طوله ألف عام، فيغرزها على ظهر الكعبة، ولو أذن الله له أن يلتقم السماوات والأرض لفعل^(٣).

فصل

في أصناف الملائكة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن خالد بن معدان قال: إن لله ملائكة أربعة يسبحون تحت العرش، فيسبح لتسيحهم أهل السماوات، يقول الأول: سبحان ذي الملك والملكوت، ويقول الثاني: سبحان ذي العزة والجبروت، ويقول الثالث: سبحان الحي الذي لا يموت، ويقول الرابع: سبحان الذي يُميت الخلائق ولا يموت^(٤).

وقال وهب: عبادة أهل السماء الدنيا القيام، والثانية الركوع، والثالثة السجود، والرابعة القراءة، والخامسة التسيح، والسادسة الذكر، والسابعة الجلوس في التحيات.

وقال سهل بن عبدالله: عبادة أهل السماء الدنيا على الخوف، والثانية على الرجاء، والثالثة على الحياء، والرابعة على الإنابة، والخامسة على الاجتهاد،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٥/١٥٦، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤١٠)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/٦١ وقال: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/٤٦-٤٧، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٤/٤٦٥ وقال: هذا قول غريب جداً.

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٩/٣٣.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/١٩٤-١٩٥.

والسادسة على المراقبة، والسابعة على المشاهدة.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَلَّلَيْتِ ذِكْرًا﴾ [الصفات: ٣]: إنهم الملائكة.

وحكى جدي في «التبصرة» عن عبدالله بن سلام قال: لما خلق الله الملائكة رفعت رؤوسها إلى السماء، وقالت: يا رب، مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه^(١).

ومنهم من يشهد معنا صلاتنا، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَابُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ - أَوْ فِيهِمْ - فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ وَتَرَكَنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ». [متفق عليه^(٢)].

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تَفْضُلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ وَخَدَهُ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ». قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] متفق عليه^(٣).

ومنهم صفوف في السماء كصفوف بني آدم في الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّتِ صَفًّا﴾ [الصفات: ١] قاله ابن عباس.

وقال الحسن: تصفأ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله تعالى بما يريد. ومنهم كتبة على بني آدم، يكتبون أعمال النهار والليل، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتبُ

(١) «التبصرة» ١٧٥/٢، و«المنتظم» ١٩٢/١.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٣٠٩)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩)(٢٤٦)، وما بين معقوفين زيادة استدرکناها من الصحيحين لضرورة السياق.

الحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجْلِ، وَكَاتَبُ السَّيِّئَاتِ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَاتَبُ الحَسَنَاتِ أَمِيرٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ مُوَكَّلٌ بِهِ، فَإِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ حَسَنَةً كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ لِصَاحِبِ الشَّمَالِ: دَعُهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ، فَيُمْسِكُ عَنْهُ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

وَقَالَ الثُّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَقْعَدُ مَلَائِكَةٍ مِنْكَ عَلَى ثَنِيَّتَيْكَ، وَقَلْمُهُمَا لِسَانُكَ، وَمِدَادُهُمَا رِيْقُكَ، وَأَنْتَ تَجْرِي فِيمَا لَا يَعْينُكَ، لَا تَسْتَحْيِي لِأَنَّ اللَّهَ وَلَا مِنَ الْمَلَكِينَ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَقْعَدُهُمَا عَلَى الْكَتْفَيْنِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: تَحْتَ الشَّعْرِ الَّذِي عَلَى الْحَنْكِ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَلِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى إِحْصَاءِ اللَّفْظِ.

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا يَكْتَبَانِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكْتَبَانِ إِلَّا مَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: يَكْتَبَانِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَنْبِئَهُ فِي مَرَضِهِ، وَلِهَذَا كَانَ طَاوُسُ الْيَمَانِيِّ يَكْرَهُ الْأَنْبِيَاءَ فِي مَرَضِهِ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الثُّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ حَافِظِينَ يَرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ مَا حَفِظَا فَيُرَى فِي أَوَّلِ الصَّحِيفَةِ خَيْرًا وَفِي آخِرِهَا خَيْرًا إِلَّا قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَ طَرْفِي الصَّحِيفَةِ»^(٣).

وَقَالَ الثُّعْلَبِيُّ أَيْضًا بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَنْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِهِ: يَا رَبِّ، مَاتَ فُلَانٌ، وَهُوَ أَعْلَمُ، أَفْتَأْذُنُ لَنَا أَنْ نَضْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلَائِكَتِي يَسْبُحُونَنِي وَيُحَمِّدُونَنِي، فَيَقُولَانِ: أَفَنُقِيمُ فِي الْأَرْضِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ أَرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلِيقَتِي يَسْبُحُونَنِي، فَيَقُولَانِ: فَمَاذَا نَصْنَعُ؟ وَأَيْنَ نَكُونُ؟ فَيَقُولُ: قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَكَبِّرَانِي وَهَلِّلَانِي، وَاكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٧٧٨٧)، (٧٩٧١).

(٢) أَخْرَجَهُ الثُّعْلَبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٥٤٨/٥ مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٩٨١)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمُنْتَهَايَةِ» (٢٨) مِنْ حَدِيثِ أَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ.

إلى يوم القيامة»^(١).

وكان سهل بن عبدالله التُّسْتَرِي يقول: يَا مَلَكَايَ قَدْ طَالَتْ صَحْبَتُكَمَا لِي فَاشْفَعَا لِي.

ومنهم موكل بالشمس، وقد ذكرناه.

ومنهم موكل بالقطر والرياح والنبات. حدثنا أبو القاسم علي بن مسلم الموصلي

بإسناده عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَطْرَةٍ تَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا

وَمَعَهَا مَلَكٌ، وَمَا مِنْ رِيحٍ تَهْبُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ، وَمَا مِنْ حَبَّةٍ تَنْبُتُ إِلَّا وَمَعَهَا مَلَكٌ».

ومنهم موكل بالسحاب، قال الله تعالى: ﴿فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۖ﴾ [الصفات: ٢] قال

ابن عباس: هي الملائكة تزجر السحاب، وقال علي رضي الله عنه: الرَّعْدُ صَوْتُ مَلَكٍ وَالْبَرْقُ

مَضَعُهُ - أَي ضَرْبُهُ - ، يَضْرِبُ السَّحَابَ بِالْمَخَارِقِ^(٢).

ومنهم موكل بصخرة بيت المقدس، قال كعب الأحبار: قد وكل الله بها ملكين.

[ومنهم ملكان] يقول أحدهما في صبيحة كل يوم: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ

الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٣).

وقال ابن عباس: يقول أحدهما: ليت الخلائق لم يخلقوا، ويقول الآخر: وليتهم

إذ خلقوا لم يبعثوا.

ومنهم موكل بالمدينة يمنعونها من الدجال، قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة

قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا

الدَّجَالُ». أخرجاه في الصحيحين^(٤).

ومنهم موكل بتصوير النطف، قال أحمد بن حنبل: بإسناده، عن حذيفة بن أسيد

قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ

لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَاذَا؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ: اكْتُبْ، فَيَكْتُبُ،

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٩٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٥٢/١.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وما بين

معقوفتين مستدرك من «المنتظم» ١٩٤/١.

(٤) البخاري (١٨٨٠)، ومسلم (١٣٧٩).

وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَمُصِيبَتُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحِيفَةُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ مِنْهَا»^(١). وقد أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ بمعناه^(٢).

ومنهم سيّاحون في الأرض يتبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا حلقةً فيها قومٌ يذكرون الله جلسوا إليهم، قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيَّ حَاجَتِكُمْ، فَيَحْفُوْنَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - مَاذَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يُسَبِّحُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُتَمَجِّدُونَكَ، قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَلَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْنَا لَكُنَّا أَشَدَّ عِبَادَةً وَأَشَدَّ تَمَجِيداً وَتَسْبِيحاً وَتَكْبِيراً، قَالَ فَيَقُولُ: فَمَا سَأَلُونِي - أَوْ يَسْأَلُونِي -؟ فَيَقُولُونَ: الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: [لَوْ رَأَوَهَا لَكُنَّا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَلَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ رَغْبَةً. قَالَ فَيَقُولُ: فِمِّمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوَهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَكُنَّا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاراً وَهَرَباً، فَيَقُولُ: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ فَيَقُولُ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هُمُ الْجُلَسَاءُ الَّذِينَ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». أخرجاه في الصحيحين^(٣).

ولمسلم: «هُمُ السُّعْدَاءُ»^(٤). ولمسلم^(٥) أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ سَيَّارَةٌ فَضُلاًَّ يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ» وفيه: «فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا إِلَى اللَّهِ فَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وذكره. ومنهم^(٦) ملائكة يبلغون رسول الله ﷺ السَّلام، قرأت على أبي المظفر يوسف بن عبدالمعطي الإسكندري ويعرف بابن المَخِيلِي بالإسكندرية، في سنة إحدى وأربعين

(١) أحمد في «مسنده» (١٦١٤٢)، أخرجه أيضاً مسلم (٢٦٤٤).

(٢) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) مطولاً.

(٣) البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.

(٤) لم نقف على هذا اللفظ عند مسلم، وأخرج هذا اللفظ أبو نعيم في «الحلية» ١١٧/٨.

(٥) صحيح مسلم (٢٦٨٩).

(٦) من هنا بدأ خرم في (ب)، وسنعمد مافي (ل) والمطبوع.

وست مئة، قال: حدثنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي بإسناده عن عاصم بن عمر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونَنِي السَّلَامَ مِنْ أُمَّتِي»^(١).

ومنهم من يشهد الحروب معنا، كما جرى يوم بدر^(٢).

ومنهم من يستغفر لبني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنهم حفظة لبني آدم ﴿لَهُمْ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية [الرعد: ١١].

ومنهم مبشرون عند الموت بالسلامة: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال ابن مسعود: إذا احتضر المؤمن جاءه ملك الموت فقال: ربك يقرئك السلام.

ومنهم مسائلون في القبور كمنكر ونكير.

ومنهم خُزَّانُ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، بدليل قول الملك ليلة المعراج لجبريل: من معك؟ فقال: معي محمد ﷺ^(٣).

ومنهم خُزَّانُ الْجَنَانِ وَالنِّيرَانِ، كمالك ورضوان.

ومنهم من يغرس شجر الجنة، روي عن الحسن أنه قال: إن في الجنة قيعاناً تغرسها الملائكة حتى إن أحدهم ليفتر من الغرس، فيقول له صاحبه: مالك فترت؟ فيقول: فتر صاحبي من العمل. فكان الحسن يقول: أمدوهم بالبذر فهذه أيام الزرع^(٤).

ومنهم من يصوغ حُلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ، روي عن كعب الأحبار أنه قال: إن في الجنة ملكاً يصوغ حلي أهل الجنة منذ خلق إلى يوم القيامة، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولو أن قلباً أخرج منها إلى الدنيا لردَّ شعاع الشمس^(٥). وفي رواية: إن لله ملائكة.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢) عن رفاع بن رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. وانظر «سيرة ابن هشام» ١/٦٣٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٤) انظر «التبصرة» ٢/١٧٦، و«المنتظم» ١/١٩٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ١٣/١١٥-١١٦، وانظر «المنتظم» ١/١٩٤.

ومنهم من نصفه نار ونصفه ثلج، وهو في حديث المعراج^(١).

ومنهم خدم أهل الجنة ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ومنهم خائفون ومحبتون، وعارفون وروحانيون وكروبيون ومشاهدون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]

ومنهم من يقذف الشياطين بالشهب، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٨-٩] قال ابن عباس: يسترق الشياطين السَّمع من زوايا السَّماء فتقذفهم الملائكة من كل جانب. والدُّحور: الطرد والإبعاد ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] أي: مسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فيلقي الشيطان الكلمة إلى من هو دونه ويحترق هو. والحكمة في سرعة الرمي أن الشياطين كانوا يلقون أخبار السَّماءات إلى الكهنة، فمنعوا عند مبعث نبيِّنا ﷺ، لما نذكر.

فصل

في تفضيل الملائكة على البشر

اختلف أهل القبلة في ذلك: فروي عن الحسن البصري أنه قال: جملة الملائكة أفضل من بني آدم، وهو قول المعتزلة^(٢). وقال ابن عباس: جملة بني آدم أفضل من جملة الملائكة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، وعن الشافعي ومالك كالمذهبين.

وعندنا في المسألة تفصيل نذكره: وجه قول المعتزلة: قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فقد فضّل الملائكة على عيسى لأنه نفى بطريق التأكيد، والشيء إنما يؤكد بما هو أفضل منه وأقوى، ولأن الملائكة خلقوا من النور، وبنو آدم خلقوا من التراب، والنور أفضل، والملائكة لا

(١) وهو حديث موضوع أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٣/١١-١٢، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣٥٣)، وأورده السيوطي بتمامه في «اللالئ» ١/٦٢-٧٤. قال ابن الجوزي: المتهم به ميسرة بن عبد ربه. وانظر «المنتظم» ١/١٩٥، و«التبصرة» ٢/١٧٧.

(٢) هم أتباع واصل بن عطاء لقبوا بذلك عندما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري، فقال الحسن: اعتزلنا واصل فلقبوا بذلك، وسيذكر المصنف في ترجمة واصل سنة (١٣١) طرفاً من أخبارهم.

يعصون الله ما أمرهم ، وبنو آدم يعصون.

وجه قول ابن عباس : قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وما كان سجود تحية بل لفضل المسجود له على الساجد.

وأبانا جدي قال : أبانا محمد بن ناصر بإسناده عن عطاء بن يسار ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : «قالت الملائكة : أي رب ، أعطيت بني آدم الدنيا فأعطينا الآخرة ، فقال الله تعالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له : كُن فكان»^(١).

ولأنهم يستغفرون لمن في الأرض ، والمخدوم أفضل من الخادم. والجواب : أمّا الآية التي احتجت بها المعتزلة ، فقد قال ابن عباس : إن قوماً عبدوا عيسى والملائكة فنزلت الآية ، ومعناها : لن يستكف المسيح والملائكة من العبادة فكيف يُعبدان؟

وأما سجود الملائكة لآدم فإنما أريد منهم الطاعة ، لما نذكر في قصة آدم.

وأما الحديث الذي احتج به ابن عباس ، فقال جدي في «الواهية» : هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، في إسناده عبد المجيد ابن أبي رواد ، قال ابن حبان : كان يقلب الأخبار ويروي المناكير عن المشاهير ، فاستحق الترك. وقال الدارقطني : الموقوف أصح^(٢).

ولو سلم كان معناه : أن الخواص من بني آدم أفضل من خواص الملائكة ، فإنه المختار عندنا ، وقد نص عليه أبو حنيفة فقال : خواص بني آدم كالمرسلين والنبين أفضل [من جملة الملائكة ، لأن لرسول الله فضلاً على الملائكة ، لأن الله عصمهم بأعلى مراتب العصمة عن كل وصمة لكونهم حجج الله على عباده ، ومن عوتب منهم على زلة فإنما كانت فيما هو مستوي الطرفين في الإمكان والثبوت ، قال : وخواص الملائكة كجبريل و ميكائيل ونحوهما أفضل من عوام بني آدم لما ذكرت المعتزلة. والمؤمنون من بني آدم أفضل] من عوام الملائكة غير جبريل ونحوه من الرسل ، لما ذكر ابن عباس . وقد ابتلي بنو آدم بالإيمان بالغيب ، وفيهم أيضاً نوازع الشهوة وهي معدومة في الملائكة ، فكان ما ذكره أبو حنيفة رحمه الله عدل.

(١) «العلل المتناهية» (٣٢).

(٢) «العلل المتناهية» ٤٨/١.

فصل في ذكر الجنة

وما لله سبحانه على عباده من خلقها من المنّة^(١)

لا خلاف بين العلماء أنّها في السماء لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٤-١٥] ولأنّها دار نعيم، فتكون من جهة العلوّ، بخلاف النار فإنّها سجن، والسجن يكون في السفلى.

وقالت المعتزلة والجهميّة: إنّ الجنة لم تخلق بعد، كما قالوا في النار، واحتجوا في الجنة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] والجعل هو الخلق، وإنما يخلقها يوم القيامة.

ولنا قوله تعالى ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والمعدّ ما يكون موجوداً.

وما احتجوا به فليس المراد من الآية الخلق في المستقبل بل في الماضي، أي: جعلها، لئلا يقع التناقض بين الاثني^(٢).

وإذا ثبت أنها موجودة فأهلها يتنعمون فيها على الأبد كما في أهل النار، فإنهم يُعذبون فيها على الأبد.

وقال جهم بن صفوان: يبيدان ويفنيان لئلا يصير أهلها شركاء لله تعالى.

ولنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] في آيات كثيرة. وما ذكره فلا نسلم أنه يؤدّي إلى المشاركة، لأنّ الله تعالى واجب الوجود واجب البقاء مستحيل العدم، والعبد جائز الوجود جائز البقاء، فعدمت المشاركة.

وقد جاءت في فضائل الجنة أخبار وآثار منها:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَانُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعُ ثِنْتَانٍ مِنْ ذَهَبٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانٍ مِنْ فِضَّةٍ حَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» أخرجاه في الصحيحين^(٣).

(١) انظر «كنز الدرر» ١/٧٣.

(٢) هم أصحاب جهم بن صفوان المتوفى سنة (١٢٨) هـ وسنذكر المصنف طرفاً من أخباره فيها.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧٣١)، والبخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، واللفظ لأحمد.

وفيها حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مَيْلًا، وَفِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ»^(١).

وفيها من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢).

فإن قيل: فأعلى ما في الجنة النظر، وقد خطر على قلوبنا أننا نراه، فكيف قال: ولا خطر على قلب بشر؟ فالجواب: أننا في وقت النظر يحصل لنا من اللذة والاستغراق ما لم يخطر على قلب بشر.

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْبُجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، أُنَيْتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، وَأَمَشَاتُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأُلُوءَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مَخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٣).

وفيها من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّوْلُؤِ، وَتُرَابُهَا الْمِسْكُ»^(٤). والجنابد: القباب.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْعَائِرِ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَتَفَاضِلَ مَا بَيْنَهُمْ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤)، ومسلم (٢٨٣٤)، والألوة: العود يتبخر به.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وهو قطعة من حديث معراجة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، وروايتها: «الغابر» وفي رواية للبخاري (٦٥٥٦):

«الكوكب الغارب».

قلت: وقد رويت هذه اللفظة «العائر» وليست بشيء، والمشهور من حديث أبي سعيد الذي أخرجه الحميدي «الغارب في الأفق الشرقي أو الغربي»^(١) وفي رواية «الكوكب الدرّي». فأما العائر: فهو السهم لا يدرى من رمى به.

تمام الحديث: قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وفيها من حديث سهل بن سعد^(٢)، وأبي سعيد^(٣)، وأبي هريرة^(٤)، وأنس^(٥) كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها» وقد ذكرنا الحديث^(٦).

وأخرج أحمد في «المسند» عن عتبة بن عبد السلمي: «أنها تشبه شجرة الجوز بالشام، قال: تثبت على ساق واحد وينفرش أعلاها»^(٧).

وقال مسلم بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب فيها ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادوا حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم فيقولون لهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً». انفراد بإخراجه مسلم^(٨).

وقال الترمذي بإسناده عن حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب، أنه لقي أبا هريرة، فقال له أبو هريرة: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، فقال سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام دار الدنيا، فيزورون ربهم،

(١) «الجمع بين الصحيحين» (٩٢١) و(١٧٥٥).

(٢) البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).

(٣) البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٤) البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٥) البخاري (٣٢٥١)، وهو من أفراد البخاري كما في «الجمع بين الصحيحين» (٢٠٤٨).

(٦) تقدم الحديث في فصل سدرة المنتهى.

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٦٤٢) مرفوعاً.

(٨) صحيح مسلم (٢٨٣٣).

ويُبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فيوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم - وما فيهم دني - على كُثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسي أفضل منهم مجلساً» قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا؟ قال: «نعم، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قلنا: لا، قال: «كذلك لا تمارون في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة، حتى يقول للرجل: يا فلان، أتذكر يوم قلت كذا وكذا؟ فيذكره بعض غدراته في دار الدنيا، فيقول: يا رب، ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى، بسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه. فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثله - أو مثل ريحه - شيئاً قط، ويقول ربنا: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم، فنأتي سوقاً قد حفت به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلب بشر، فيحمل إلينا ما اشتهينا ليس يباع فيه ولا يشتري، وفي ذلك السوق أهل الجنة يلقي بعضهم بعضاً، فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه. وما فيهم دون فيروعه ما عليه من اللباس، فما ينقضي حديثه حتى يتخيل عليه ما هو أحسن منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها. ثم ننصرف إلى منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً لقد جئتم وإن عليكم من الجمال أفضل مما فارقتُمونا عليه، فيقولون: إننا جالسنا اليوم ربنا الجبار، وبحقنا أن نقرب بمثل ما انقلبنا»^(١).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي المديلة أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ فقال: «لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحضباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبؤس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»^(٢).

وحدثنا جدي رحمه الله قال: حدثنا هبة الله بن أحمد الحريري بإسناده عن أبي سعيد

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٠٤٣).

الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِنَّ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ أَوْسَطُهَا وَأَعْلَاهَا سَمَاءٌ، وَعَلَيْهَا يُوضَعُ الْعَرْشُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» فقال له رجل: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، هل فيها خيل؟ قال: «نعم»، والذي نفسي بيده، إِنَّ فِيهَا لَخَيْلاً مِنْ ياقوتة حمراء، تَرَفُّ بِهِمْ بَيْنَ خِلَالِ وَرَقِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا» فقال له رجل: فهل فيها من إبل؟ قال: «نعم» والذي نفسي بيده، إِنَّ فِيهَا لِإِبِلًا مِنْ ياقوتة حمراء، رَحَالُهَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، عَلَيْهَا نِمَارِقُ الدِّيَابِجِ، تَرَفُّ بِهِمْ بَيْنَ خِلَالِ وَرَقِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا» فقال له رجل: هل فيها صوت؟ قال: «نعم»، إِنَّ اللَّهَ لِيُوجِي إِلَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ: أَنْ أَسْمِعِي عِبَادِي هَوْلَاءِ الَّذِينَ شَغَلَهُمْ ذِكْرِي فِي الدُّنْيَا عَنْ عَزْفِ الْمَزَاهِيرِ وَالْمَزَامِيرِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ»^(١).

وحدثنا جدي قال: حدثنا ابن ناصر بإسناده عن ابن مسعود قال: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ جَبَلٍ مِسْكٍ. وفي رواية: وتجري في عين أخدود.
وقال ابن عباس: خمر الجنة أشدَّ بياضاً من اللبن.

وعن ابن عباس أنه قال: الجنان سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وهي قصبة الجنة وهي مشرفة على الجنان، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم.

قال: ونخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرْبُهَا ذهبٌ أحمر، وَسَعْفُهَا كسوة أهل الجنة^(٢).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبدالرزاق بإسناده عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ: فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرِّيَّانُ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ» أخرجاه في الصحيحين^(٣).

وحدثنا عبدالوهاب بن علي الصوفي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى طُولِ آدَمَ سِتِينَ ذِرَاعاً، وَعَلَى حُسْنِ يُوسُفَ، وَعَلَى

(١) أخرج ابن سمعون في أماليه (٢) من حديث أبي سعيد، وأبو نعيم في صفة الجنة (٥٤٦) من حديث أبي هريرة، وأورده ابن الجوزي في الياقوتة ٧٩/١ من حديث سهل بن سعد.

(٢) أخرج هناد في «الزهد» (٩٩)، والحاكم ٤٧٥/٢. والكرب: أصول السعف الغلاظ العراض.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٨١٨)، والبخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (١١٥٢).

ميلاد عيسى ثلاثاً وثلاثين سنةً، وعلى لسان محمد ﷺ^(١).

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَشْتَاقُ الْإِخْوَانَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَسِيرُ سَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرٍ هَذَا وَسَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرٍ هَذَا، حَتَّى يَجْتَمِعَانِ، فَيَبْكِي هَذَا وَيَبْكِي هَذَا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمْتَنِي غُفْرًا لَنَا؟ فَيَقُولُ صَاحِبُهُ: نَعَمْ، يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزَلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفِي سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزَلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»^(٣).

فإن قيل فهل في الجنة توالد؟ فالجواب: أن فيه قولين:

أحدهما: أنه لا يكون فيها توالد لأن الولادة محل الأقدار، والجنة طاهرة.

والثاني: أنه يكون فيها توالد وقد دل عليه الحديث، قال أحمد: حدثنا علي بن عبدالله بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «إِذَا اشْتَهَى الْمُؤْمِنُ الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»^(٤).

اقتصرنا على هذه الجملة مما يتعلق بالجنة من الأحاديث والآثار، ولو استقصينا في جمعها لخرج الكتاب عن مقصوده من الاختصار.



(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٢٩٣/٤ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٢) أورده ابن القيم في «حادي الأرواح» ٣٣٤ عن ابن أبي الدنيا بإسناده عن أنس، وأخرجه البزار في كشف الأستار (٣٥٥٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦١٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٢٣).

(٤) أحمد في «مسنده» (١١٠٦٣).

ذكر قصة آدم عليه السلام^(١)

اختلفوا لِمَ سمي آدم على قولين :

أحدهما : أنه خُلِقَ من أديم الأرض وهو وجهها ، قاله ابن مسعود^(٢) ، وزيد بن ثابت ، ورواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس^(٣) .

والثاني : أنه مشتقُّ من الأذمة ، وهي سمرة اللون ، رواه مجاهد ، عن ابن عباس .

وذكر أبو إسحاق الثعلبي : أن التراب بلسان العبرية يقال له : آدام .

وقال الجوهرى : آدم أبو البشر^(٤) . وآدم اسم عربي ، وليس بعجمي .

قرأت على شيخنا أبي اليُمن الكندي رحمه الله قال : قرأت على شيخنا أبي منصور

ابن الجواليقي في كتاب «المعرب» قال : أسماء الأنبياء كلها أعجمية ، إلا أربعة وهي : آدم ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد ﷺ^(٥) .

والمشهور من كنيته أنه : أبو البشر ، وروى الوالي ، عن ابن عباس أنه قال : كنيته

أبو محمد ، وقال قتادة : ولا يكنى في الجنة إلا آدم ، يقال له : يا أبا محمد ، إظهاراً لشرف نبينا ﷺ^(٦) .

ولا ينصرف آدم . وقال سهل بن عبدالله التستري : أَلْفُهُ من الآفة ، وداله من الداء ،

وميمه من الموت .

وقيل : إنَّ الله تعالى ذكره في القرآن في سبعة وعشرين موضعاً .

(١) انظر : «تاريخ الطبري» ١/ ٨٩-١٦٤ ، و«البدء والتاريخ» ٢/ ٧٤ ، و«عرائس المجالس» ص ٢٦-٥٠ و«تاريخ دمشق» ٢/ ٦١٣-٦٥٦ ، و«المنتظم» ١/ ١٩٨-٢٢٨ ، و«الكامل» ١/ ٢٧-٥٣ ، و«البداية والنهاية» ١/ ٦٨-٩٩ .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٦ ، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ١٩٨-١٩٩ .

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٠-٩١ ، وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٨ .

(٤) «الصحاح» : (آدم) .

(٥) «المعرب» ص ٦١ .

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٤/ ١٣٦٨ ، وهو حديث باطل فيما ذكر ابن عدي وانظر «البداية والنهاية»

فصل في إعلام الله تعالى الملائكة بخلقه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] واختلفوا في الملائكة الذين قال لهم هذا على قولين: أحدهما: أنهم جميع الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنهم الملائكة الذين كانوا مع إبليس في الأرض خاصة، قاله مجاهد. والأول أصح.

واختلف العلماء في المقصود بإعلام الملائكة بخلقه على أقوال:

أحدها: أن الله أراد أن يبلو طاعة الملائكة، وهو أعلم بهم، قاله الحسن البصري. والثاني: أنه أراد إظهار ما في باطن إبليس من الكبر والحسد، وكان ذلك قد خفي عن الملائكة، لما يرون من تعبده واجتهاده وتواضعه، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أن الملائكة ظنّت أنه لا يخلق خلقاً أكرم منهم، فأخبرهم بوجود غيرهم ليوظنوا نفوسهم على العزل، قاله مجاهد. والرابع: أنه أراد تعظيم آدم بالخلافة قبل وجوده ليعظّموه إذا وجد، قاله الربيع بن أنس.

والخامس: أنه لما خلق النار جزعت الملائكة وقالوا: يا ربنا، لمن هذه؟ قال: لمن عصاني، قالوا: أويأتي علينا زمان نعصيك فيه؟ فأخبرهم أنه يخلق لها من يعصيه، فاطمأنوا، قاله زيد بن أسلم^(١).

والسادس: لأنه أراد إظهار عجزهم عن ما يعلم، لأنهم قاسوا على من كان قبل آدم، قاله مقاتل.

والسابع: أنه أعلمهم بما يكون في المستقبل، ليعلموا علمه بالحوادث، قاله الوالبي.

والثامن: أن الملائكة لما طردت المفسدين من الأرض، أقاموا يعبدون الله، وذلك قبل خلق آدم، فأخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة غيرهم، قاله مقاتل بن حيان.

(١) في «زاد المسير» ٥٩/١، و«التبصرة» ١٢/١: ابن زيد.

والتاسع: أنه أعلمهم أنه يسكن آدم الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في الجنة، قاله السدي^(١).

والعاشر: أنه خبرٌ أخبرهم به، وليس بمشورة. وهو أجود.

وقيل: إن فيه إشارة إلى إخراج هذا الخليفة من الجنة بذنبه قبل أن يسكنها، فدلّ على أن الكلّ بقضائه وقدره، قاله أهل المعاني.

وروى مجاهد عن ابن عباس بمعناه، فإنه قال: أخرج الله آدم من الجنة بذنبه قبل أن يسكنه إياها، ولو لم يرد إخراجها لما نوّه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فصل في الخليفة

قال علماء اللغة: الخليفة هو القائم مقام غيره، فهو خَلَفَ عَمَّنْ تقدمه.

وقال الجوهري: ويقال: خَلَفَ فلان فلاناً إذا كان خليفته، يقال: خلفه في قومه خلافة، ومنه قوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] قال: والخليفة السلطان الأعظم^(٢).

وقيل: إن الله تعالى ذكر خمسة نفر بالخلافة: آدم في هذه الآية، وداود ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦]، وهارون ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وصلاح هذه الأمة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وصلاح الأمم ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله في إقامة شرعه، روي عن ابن مسعود وابن عباس^(٣).

والثاني: أنه خلف عمَّنْ تقدمه في الأرض قبله، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً^(٤). والأول أظهر، لأن آدم كان بهذه المثابة.

(١) إلى هنا مستمد من «التبصرة» ١٢/١.

(٢) «الصحاح»: (خلف).

(٣) انظر «تفسير» الطبري ٢٠٠/١، و«زاد المسير» ٦٠/١، و«التبصرة» ١٣/١.

(٤) انظر «تفسير» الطبري ١٩٩/١، و«زاد المسير» ٦٠/١، و«التبصرة» ١٣/١.

قال أبو إسحاق الثعلبي: سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة والزبير وسلمان الفارسي وكعب الأحبار، فقال: أخليفة أنا أو ملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري، وقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بينهم بكتاب الله^(١). وفي رواية: إن جبت من أرض المسلمين درهماً ووضعته في غير حقه فأنت ملك ولست بخليفة، فبكى عمر، فقال كعب: ما كنت أحسب أن في المجلس من يعرف الخليفة من الملك غيري، ولكن الله تعالى ألهم سلمان حكماً وعلماً^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] الآية. فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه استفهام إنكار، وتقديره: كيف تفعل هذا وهو لا يليق بالحكمة؟ وروى يحيى بن أبي كثير عن أبيه قال: الذين قالوا هذا كانوا عشرة آلاف ملك، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم.

فإن قيل: فهلاً أحرق إبليس لما خالف؟ قلنا: لما سبق في الأزل من امتحان بني آدم وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] وقال قتادة: غضب الله عليهم فطافوا بالعرش سبع سنين يقولون: لبيك اللهم لبيك، اعتذاراً إليك، فتاب الله عليهم، فذلك بدء التلبية.

والثاني: أنه استفهام إيجاب، تقديره: ستجعل، كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا^(٣)

أي أنتم، قال: أبو عبيدة.

والثالث: أنه استفهام استعلام.

ثم في مرادهم بذلك أقوال:

أحدها: أنهم استفهموا وجه الحكمة، فكأنهم قالوا: كيف يعصونك وقد

(١) أورد الخبر السيوطي في «الدر المنثور» ٣٠٦/٥، وعزاه للثعلبي.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣٠٦/٣.

(٣) البيت في ديوانه ٨٩/١. وتماه: «وأندى العالمين بطون راح»، وانظر «مجاز القرآن» ١/٣٥-٣٦.

استخلفتهم، وإنما ينبغي أن يسبّحوا كما نسبّح نحن.

والثاني: أنهم قالوه تعجباً من استخلاف من يُفسد.

والثالث: أنهم استفهموا عن حال أنفسهم، وتقديره: أتجعل فيها من يفسد ونحن

نسبّح أم لا، ذكره ابن الأنباري والحسين بن الفضل^(١). ونظيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] ومعناه: كمن ليس بقانت.

فإن قيل: فكيف قطعوا على بني آدم بالفساد وما رأوهم، وذكر الغائب غيباً، وهل

علموا الغيب حتى قالوا ذلك؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: ما روي عن ابن عباس أنه قال: لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

قالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟ قال: ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل

بعضهم بعضاً، فقالوا عند ذلك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾.

والثاني: أنهم قاسوا على من تقدّمهم من الجنّ الذين أفسدوا في الأرض، فقاسوا

بالشاهد على الغائب.

والثالث: كان لهم علم التجربة وعلم الفراسة والظنّ فتحقق ظنّهم.

والرابع: أنه لما أخبرهم بوجود هذا الخليفة وأنه مخلوق من الطبائع الأربع

المختلفة، والهوى والغضب إنما يثوران من الحرارة، والهوى يفسد والغضب يسفك،

فحكّموا بذلك.

والمراد بالفساد العمل بالمعاصي. وسفك الدم صبّه وإراقته، والتسييح: التنزيه لله

من كل سوء، والتقديس: التطهير، والمعنى: ننزهك ونعظّمك^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: إني أعلم أنه سيكون من ذريته أنبياء وعلماء صالحون، قاله ابن عباس.

والثاني: أعلم أنه سيكون من ذريته من يُذنب فيتوب فأغفر له، قاله مقاتل.

(١) انظر «التبصرة» ١/١٣.

(٢) انظر «التبصرة» ١/١٣-١٤.

والثالث: إنني أعلم بوجوه المصالح في استخلافهم، فلا تعترضوا عليّ في حكمي وتديري، قاله الحسين بن الفضل.

والرابع: إنني أعلم أنهم يسفكون الدماء ولكن من جور رئيسكم.

فصل في خلق آدم

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُوهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(١). ولهذا اختلفت ألوان بنيه.

وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: خلق الله الصالحين من عذبتها، والكافرين من ملحها. وروي عنه أنه قال: الرُّومُ والعرب من الأبيض، والترك من الأحمر، والحبش من الأسود.

وقال أهل المعاني: الكافر من الأسود، والمنافق من الأحمر، والمؤمن من الأبيض. وقيل: الظالم من الأسود، والمقتصد من الأحمر، والسابق من الأبيض.

وقال أحمد: بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةُ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ». انفرد بإخراجه مسلم^(٢). هذا قدر ما أخرج في الصحيحين.

وقد روي فيه زيادات من طريق أبي لُبَابَةَ بن عبد المنذر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ - وَذَكَرَهُ - وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهُ الْعَبْدُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، مَا لَمْ يَسْأَلْ إِثْمًا أَوْ قَطِيعَةً رَجِمَ، وَمَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَا سَمَاءٍ إِلَّا وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَنْ تَقُومَ فِيهِ السَّاعَةُ، وَفِيهِ تُوفِّي آدَمُ^(٣)».

ولمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «وَخُلِقَ آدَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ آخِرَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٥٨٢)، والترمذي (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٠٩)، ومسلم (٨٥٤)(١٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٤٨).

الخلق، ما بين العصر إلى الليل»^(١).

وقال ابن سعد بإسناده عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّاسُ وَلدُ آدَمَ، وَآدَمُ مِنَ التُّرَابِ»^(٢).

واختلفوا فيمن جاء بالطين الذي خلق منه آدم على قولين:

أحدهما: إبليس، قاله ابن مسعود^(٣) وابن عباس^(٤)، قال: ولهذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ومعناه: أنا جئت به، فكيف أسجد له؟

والثاني: ملك الموت، فروى السُّدي، عن أشياخه قال: لما أراد الله أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها يخلق منه آدم، فجاء إليها فناشدته الله وقالت: أعودُ بالله منك أن تنقصني وتشينني وتكون سبباً لإدخال جزءٍ مني إلى النار، فرق لها جبريل واستحى ورجع إلى الله وقال: إنها قالت كذا وكذا، واستعادت بك فأعدتها، فبعث إليها إسرافيل، فاستعادت منه فأعادها، فبعث إليها ميكائيل ففعلت كذلك، فبعث إليها ملك الموت فقالت له كذلك، واستعادت بالله منه، فقال: وأنا أعود بالله أن أرجع ولا أنفذ أوامر ربي، فأخذ من وجهها تربة بيضاء وحمراء وسوداء، ولم يأخذ من مكان واحد بل من عذبتها وملحها، فكل شيء أخذه من عذبتها صار إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكل شيء أخذه من ملحها صار إلى النار، وإن كان ابن مؤمن، فلما جاء ملك الموت بالطين إلى بين يدي رب العالمين، وأخبره بما قالت، وبما قال لها، قال الله تعالى: وعزتي لأسلطنك عليها إذ أطعتني وخالفتها^(٥).

ولا يختلفون أنه خلق يوم الجمعة، في آخر ساعة من ساعات النهار، سادس نيسان، وقد ذكرناه.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩).

(٢) «الطبقات» ٢٥/١.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/١٩٨-١٩٩.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/٩٠-٩١، وانظر «المنتظم» ١/١٩٨.

(٥) أخرجه مختصراً الطبري في «تاريخه» ١/٩٠-٩١، وفي «التفسير» ١/٢٠٣، وهو متلقى عن الإسرائيليات.

وانظر عرائس المجالس ٢٧-٢٨ و«المنتظم» ١/١٩٨.

واختلفوا كم أقام مصوراً على أقوال: أحدها: أربعين سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربعين ليلة، قاله الضحاك. والثالث: لم يقدر بشيء، قاله مقاتل. والأول أظهر، لوجهين:

أحدهما: لأنها تمام الخلق ومنتهى الأشد، ولهذا لم يبعث الله نبياً إلا بعد أربعين سنة، قاله السدي.

والثاني: لتدور عليه الأفلاك بالنجوم السبعة المدبرات أمراً، فتستحكم أجزاءه ويكمل خلقه.

وقال بعضهم: أمطر عليه الحزن أربعين سنة، والسرور يوماً واحداً. وقد نصّ ابن عباس على أربعين سنة فقال: خمّر الله طينة آدم قبل التصوير أربعين سنة^(١).

واختلفوا أين صورّه؟ قال ابن عباس: في السماء على باب الجنة، المدة التي ذكرها.

وقال السدي: ألقاه بين مكة والطائف، فكان إبليس إذا مرّ به فزع وضربه برجله فيظهر له صوت وصلصلة فيزداد فزعه.

وقال مقاتل: كان يدخل في فيه ويخرج من دبره ويقول: لأمرٍ ما خلقت، ولئن فضّلت عليّ لأهلكنك.

قال مسلم بن الحجاج بإسناده عن أبي بن كعب وأنس، عن النبي ﷺ قال: «لما صور آدم تركه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به وينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك^(٢)».

وقد روي أنه وكّل به ملك الموت أربعين سنة، ثم أربعين سنة، ثم أربعين سنة حتى استحکم في مئة وعشرين سنة، فلذلك يقول الأطباء: العمر الطبيعي مئة وعشرون سنة.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: في موضع: ﴿مَنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وفي موضع

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٩٢/١.

(٢) صحيح مسلم (٢٦١١) من حديث أنس، ولم نقف على حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم ولا في غيره من المصادر.

آخر: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ومن ﴿حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. و﴿مِنْ تُّرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكيف الجمع بين هذه الآيات؟

فالجواب: إن الألفاظ وإن اختلفت فالمعاني قد اتفقت، لأنه كان أولاً تراباً ثم صار حمماً، ثم جفّ فصار صلصالاً، والصلصلة: الصوت، كان يُنقر فيطنُّ ويُسْمَع له صوت، اللّازب: اللازق، والحمأ المسنون: المتغيّر المتتن، والسلالة: القليل مما ينسل، وآدم استلّ من الأرض.

فإن قيل: فلم خصّ التراب بخلقه؟ فالجواب: ليكمل به الاستقصات الأربع، فيجتمع فيه الطباع المختلفة. ولم يكن قبله خلق من التراب بل من النار والماء والريح. وذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن سعيد بن جبيرة قال: خلق الله آدم من دحنا ومسح ظهره بنعمان السحاب^(١).

وأخرج ابن سعد بمعناه عن ابن جبيرة، فذكر أرضاً يقال لها: دحنا، لا غير^(٢).

وقد ذكرنا جبلي نعمان في باب الجبال.

وقال الحافظ أبو القاسم أيضاً: وفي حديث الحسن البصري أنه خلق جوجؤه من نقا ضريّة^(٣).

ومعناه: خلق صدره من رمل ضريّة، وهي منزل بطريق مكة من ناحية البصرة واليمامة.

وكذا روى ابن سعد عن الحسن^(٤).

والجوجؤ: الصدر. وقال الجوهري: ضريّة قرية لبني كلاب على طريق البصرة، وهي إلى مكة أقرب^(٥).

وذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله

(١) تاريخ دمشق ٧/٢٨١.

(٢) «الطبقات» ١/٢٥-٢٦.

(٣) «تاريخ دمشق» ٧/٢٧٩.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/٢٦.

(٥) «الصحاح» (ضري).

ﷺ «أكرموا عمّتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس من الشجر شيء يلقح غيرها، وأطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فالتمر، وليس من الشجر أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران»

قلت: وقد ذكر جدي هذا الحديث في «الموضوعات» وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ^(١).

وقال مسلم بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢) أي من التراب. وحدثنا جدي رحمه الله بإسناده، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «نفخ في آدم الروح، فطارث فصارت في رأسه فعطس، فقال: الحمد لله، فقال الله عز وجل: يرحمك الله»^(٣).

وأخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: فلما جرى الروح في خياشيمه عطس، فلقنه الله حمده، فحمد ربه^(٤).

وقد رواه ابن عباس، وفيه: يرحمك ربك أبا محمد. قال مقاتل: وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٥).

وقال سهل بن عبد الله: لما قال له يرحمك الله، علم أنه سيدنّب، لأن الرحمة إنما تكون بعد الذنب والزلة.

وقال السدي: لما وصلت الروح إلى عينيه نظر إلى الجنة وما فيها، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه، فذلك قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]^(٦).

(١) «تاريخ دمشق» ٧/ ٢٨٢، «الموضوعات» (٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٩٦)

(٣) «التبصرة» ١/ ١٤، وأخرجه أيضاً ابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٥)، والضياء في «المختارة» (١٦٦٧)

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٣١.

(٥) لا أصل له بهذا اللفظ انظر «المصنوع» (٢٣٣) وقد ورد من حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٦٠٩) ولفظه

قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وقال: هذا حديث حسن

صحيح غريب

(٦) انظر «المنتظم» ١/ ٢٠١.

وقال ابن سعد بإسناده عن سلمان الفارسي، أن ابن مسعود قال: خَمَّرَ اللهُ طِينَةَ آدَمَ أربعين ليلةً وأربعين يوماً ثم ضرب بيده فيه فخرج كلُّ طَيْبٍ في يمينه، وخرج كلُّ خَبِيثٍ في يده الأخرى، ثم خلط بينهما، قال: فمن ثمَّ يُخرج الحيَّ من الميت والميت من الحيِّ^(١).

وروى ابن سعد بإسناده عن عبد الصمد بن مغفل، أنه سمع وهب بن منبه يقول: خلق الله ابنَ آدمَ كما شاء مما شاء، فتبارك الله أحسن الخالقين، خلق من التراب والماء، فمنه لحمه ودمه وشعره وعظامه وجسده كله، فهذا بدءُ الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم^(٢).

وقال ابن عباس: أتته النفخة من قبل رأسه، فجعلت لا تجري في شيء إلا صار لحماً ودماً^(٣).

وقال ابن سعد بإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ»^(٤).

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فقد رُدَّ العلم إلى الله تعالى.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن اليهود أرادوا امتحان النبي ﷺ بذلك، فكان سكوته عن الجواب من أمارات معجزاته، لأنهم قالوا: إن أجاب فليس بنبي.

والثاني: أنه لا يسعنا أن نقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم سرَّ الروح مع قوله عليه السلام: «فَأَوْرَثَنِي عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»^(٥) وكان معناه: أنني لا أخبر من ليس بأهل عن هذا السرِّ كاليهود، أمّا من هو أهل فنعم.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) «الطبقات الكبرى» ٢٧/١.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٢٧/١.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/٩٥.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٢٧/١ من حديث عبد الله بن الحارث.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ولكن عند أحمد (٣٤٨٤) من حديث طويل: «... فعلمت ما في السماوات وما في الأرض...» وإسناده ضعيف.

ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ، طَوْلُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ، وَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ جُلُوسٌ ، وَاسْمِعْ مَا يُحْيُونَكَ ، فَإِنَّهَا تَحْيَا ذُرِّيَّتَكَ ، فَجَاءَ فَسَلِّمْ ، فَقَالُوا : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فزادوه : وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطَوْلِهِ ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَ ذَلِكَ » أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقد تكلموا على قوله : «خلق آدم على صورته» ، قال قوم : الهاء عائدة إلى آدم ، ومعناه : على صورته التي خلقه عليها ، ومنهم من حمل الصورة على الصفة ، وصفات الله ثابتة من السمع والبصر ونحوه.

فإن قيل : فقد ورد في حديث «على صورة الرحمن»^(٢) فالجواب : أنه لا تصح هذه الرواية.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : إن عرض آدم كان سبعة أذرع ، وإن نفسه كان يؤذي أهل السماء ، وكان رأسه يخط السماء فأورثه ذلك الصلح ، وإن الله حطه إلى ستين ذراعاً^(٣).

قلت : هذا قول ضعيف لما ذكرنا من بعد المسافة بين السماء والأرض.

فصل في تعليمه الأسماء

قال الله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ﴾ [البقرة : ٣١] اختلفوا في الذي علمه على أقوال :

أحدها : أنها أسماء الملائكة ، قاله الربيع بن أنس^(٤).

والثاني : أسماء ذريته ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٥).

والثالث : أنه علمه جميع الأسماء ، فقال : هذا فرس ، وهذه دابة ، هذه قصعة ، هذه قسبة ، هذا نعل ، هذا كذا ، حتى أتى على آخرها ، قاله ابن عباس^(٦) ، وهو الأصح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١٧١) ، والبخاري (٣٣٢٦) ، ومسلم (٢٨٤١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (٤١) والطبراني في «الكبير» (١٣٥٨٠) من حديث ابن عمر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في المنتظم ٢٠٢/١ عن مجاهد قوله ، وقال عقبه : ليس هذا شيء.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٩٩/١.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٩٩/١.

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٩٧/١.

لوجهين: أحدهما لأن لفظه «كل» للعموم. والثاني: ليظهر فضل آدم على الملائكة، وفي تعليم البعض نقص.

وقد نصّ ابن عباس على هذا فقال: علّمه أسماء الخلق والقرى والمدن والجبال وأسماء الطيور والأشجار وما كان ويكون وكلّ نسمة الله خالقها إلى يوم القيامة. وقال الطبري في «تاريخه»: علّمه كل شيء حتى الفسوة والضّرطة^(١).

قلت: أما كان في مخلوقات الله ما يعبر عنه بعبارة تليق بالله إلا هذه العبارة؟! وقال السّدي: لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالت الملائكة فيما بينهم: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أفضل ولا أكرم عليه منا، وإن كان خيراً منا فنحن أعلم منه لأننا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره. فلما أعجبوا بعلمهم وعبادتهم فضّل عليهم آدم بالعلم فعلمه الأسماء كلها. وهذا قول الحسن وقتادة وعامة العلماء.

وقال أبو القاسم الورّاق: علّمه ألف حرفٍ ثم قال له: قل لأولادك إن لم يصبروا فليطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا يطلبوها بالدين، فإنّ الدين خالص، وويل لمن طلب الدنيا بالدين^(٢).

فإن قيل: فلم قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ولم يقل: «عرضها»؟ فالجواب: أنه أراد الشخوص المسّميات لأنّ الأعراض لا تعرض، فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] وفيه أقوال:

أحدها: أن معناه إن كنتم صادقين أي أخلق خلقاً أعلم منكم وأفضل، قاله الحسن. والثاني: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون ويسفكون، رواه السّدي عن أشياخه. والثالث: أن المراد إبليس لأنه قال: إن فضّلت عليه لأهلكه، فتقديره: إن كنت صادقاً أنك تفعل ذلك، فأنبئني بأسماء هؤلاء، قاله مجاهد^(٣).

وقال الزّجاج: معناه: كيف تدعون علم ما لم تشهدوه من الحكم على الغيب بالفساد، وأنتم لا تعلمون ما تعاینونه وترونه؟ فحينئذ أقرت الملائكة بالعجز فقالوا:

(١) «تاريخ الطبري» ٩٧/١.

(٢) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ٥٧/٥ من حديث عطية بن قيس عن النبي ﷺ.

(٣) انظر «التبصرة» ١٥/١.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: نزهتك، والتسبيح التنزيه لله سبحانه وتعالى من كل سوء ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] فقد نزهتك عن الاعتراض عليك.

فصل في سجود الملائكة لآدم

ثم أمرهم الله بالسجود لآدم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] قال ابن عباس: لما اعترفوا بالعجز أمر الله تعالى آدم بأن يخبرهم بالأسماء، فلما أخبرهم قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما كان فيها وما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من الطاعة والخضوع لآدم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] في أنفسكم له من العداوة.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد به إبليس، فإنه كان إذا مرَّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف يقول لمن معه من الملائكة: أرايتم إن فضل عليكم هذا ماذا تصنعون؟ فيقولون: نطيع أمر ربنا، فيقول في نفسه: إلا أنا، والله لئن سلطت عليه لأهلكته، وإن سلط عليّ لأعصيته.

واختلفوا في سجودهم لآدم على أقوال:

أحدها: أنه سجود تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة كقوله في قصة يوسف عليه السلام ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وكان ذلك تحية للناس وتعظيم بعضهم بعضاً، ولم يكن وضع الوجه على الأرض، إنما كان انحناء وإيماءً ووضع اليد على الصدر. وأصل السجود الانحناء والميل، يقال: سجدت النخلة إذا مالت.

فلما جاء الإسلام أبطل ما كانوا يصنعونه وعوَّضهم بالسَّلام، ولما رجع معاذٌ من اليمن، سجد لرسول الله ﷺ، فتغيَّر وجهه وقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: رأيت اليهود يسجدون لأحبارهم، والنصارى لرهبانهم وقسيسيهم، ففعلتُ مثلهم، وأنت أولى، فقال: «مه يا معاذ، كذبوا، إنما السُّجود لله تعالى»^(١). قاله ابن عباس.

(١) أخرجه الحاكم ١٧٢/٤ وفيه: «أنهم كذبوا على أنبيائهم كما حرفوا كتابهم، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظيم حقه عليها..» وأخرجه قريباً منه ابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٧١) وعندهم أنه رأى ذلك في الشام.

والثاني: أنه كان سجوداً على الحقيقة لآدم، قاله مجاهد.

والثالث: أنه جعل آدم قِبلةً لهم وسجودهم لله تعالى، كما جعلت الكعبة قِبلةً لصلاة المؤمنين، والصلاة لله رب العالمين.

وقال ابن مسعود: سجدت الملائكة لآدم، وسجد هو لله تعالى.

وقال أبي بن كعب: معنى سجودهم أنهم أقرُّوا لآدم أنه خير وأكرم على الله منهم.

وحدثنا يحيى بن الأواني، بإسناده عن ضمرة بن ربيعة، عن قادم بن مسور قال: قال عمر بن عبد العزيز: لما أمر الله الملائكة بالسُّجود لآدم أوَّل من سجد له إسرافيل، فأثابه الله بأن كتب القرآن في جبهته^(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] أي: امتنع وتعظَّم، و«كان»

بمعنى صار في علم الله أنه من الذين وجبت عليهم الشقاوة.

وقال السُّدي: لما امتنع إبليس من السجود قال له الله: ما منعك أن تسجد له؟ قال: أنا خير منه. قال: بماذا؟ قال: ﴿خَلَقَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] أَلَسْتُ الَّذِي استخلفتني في الأرض، وجعلتني حاكماً عليها وعلى الملائكة، وألبستني الرِّيش، ووشَّحتني بالنور، وتوجتني بالكرامة، وجعلتني خازن السماوات، وعبدتك ثمانين ألف سنة، وكنت من المقرَّبين؟ فقال الله تعالى: ﴿فَأَخْرِجْ مِّنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٢٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ قال: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ [الحجر: ٣٤-٣٥-٣٦].

وقال ابن عباس: قال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥] منهم من أجراه على ظاهره، ومنهم من قال: يد القدرة. وقال أبو إسحاق الثعلبي: بإسناده عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قرأ ابنُ آدمَ السَّجْدَةَ وسَجَدَ اعتزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلهِ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَيَّتُ فلي النَّارُ»^(٢).

(١) وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/٢٠٣، وسلف ص ٢١٦ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه مسلم (٨١).

وذكر محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتاب «الملل والنحل» وقال: أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس. قال: وتشعب من هذه الشبهة شبهات، منها أنه قال: قد علمت أنه إلهي وإله الخلق، وقد علم ما يصدر مني قبل خلقي، فلمَ خلقتني وما الحكمة في خلقي؟ وكونه كلّفني ما لا منفعة فيه له، فإنه لا تنفعه طاعتي ولا يضره معصيتي، ثم إنه سلّطني على آدم فأخرجته من الجنة بقضائه وإرادته فطرّدني ولعنني، وسألته الإنظار فأنظرني، ثم كان عاقبة أمري ما أنا فيه، ولو سجدت لآدم كان ماذا؟ وإنما له إرادة أراد أن يظهرها، قال: فقال الله تعالى للملائكة: قولوا له لو كنت صادقاً أني إلهك لما اعترضت عليّ ولا خالفتني، لأنني إله العالم، لا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون^(١).

فصل في خلق حوّاء

قال ابن سعد بإسناده عن عكرمة مولى ابن عباس أنه قال: سُمّيت حواء لأنها أمّ كل شيء حي^(٢).

وروى عطاء عن ابن عباس قال: لما أسكن الله آدم الجنة أقام مدةً فاستوحش، فشكا إلى الله الوحدة، فنام فرأى في منامه امرأة حسناء، ثم انتبه فوجدها جالسةً عنده فقال: من أنت؟ فقالت: حواء، خلقتني الله تعالى لتسكن إليّ وأسكن إليك^(٣).

قال: وخلقت من ضلع آدم، ويقال لها: القصيرى. قال الجوهرى: القصيرى الضلع التي تلي الشاكلة، وتسمّى الواهنة في أسفل الأضلاع^(٤).

وقال مجاهد: إنما سُمّيت المرأة امرأة لأنها خلقت من المرء وهو آدم.

وقال مقاتل بن سليمان: نام آدم نومة في الجنة فخلقت حواء من قصيراه من شقه الأيمن من غير أن يتألم، ولو تألم لم يعطف رجل على امرأة أبداً.

(١) «الملل والنحل» ١٦/١-١٨ بشيء من التصرف

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/٣٩-٤٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٠٣.

(٤) «الصباح»: (قصر).

وقال ابن عباس: لَأَمَّ اللهُ مَوْضِعَ الضِّلَعِ لِحِمَاءً. ولما رآها آدم قال: أثابثا، وتفسيره بالسُّريانية: امرأة^(١).

وأخرجه ابن سعد عن مجاهد قال: ولَمَّا خَلَقْتَ حَوَاءَ قَالَتْ لَهَا الْمَلَائِكَةُ: أَتُحِبُّهَا؟ قال: نعم، قالوا لها: أَتُحِبُّبِنَهُ؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه منها، فلو صدقت امرأة في حبِّ زوجها لصدقت حواء^(٢).

وفي التوراة: فقال آدم: هذه عظام من عظامي ولحم من لحمي ودم من دمي.

قال كعب: ومن أجل ذلك يترك الرجل أمه وأباه ويتبع امرأته

وقال الربيع بن أنس: إنما خلقت حواء من طينة آدم. واحتج بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] ولأن الرجل لم يخلق من المرأة، فكذا المرأة لم تخلق من الرجل. والأول أصح، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] والمراد به آدم، وخلقت حواء من ضلعه، ولقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وذكر مقاتل بن سليمان، في «كتاب المبتدأ» له وقال: لما أراد الله أن يزوج حواء من آدم قال: يا آدم لا بد من مهر، قال: يارب وما مهرها؟ قال: أن تصلي علي ولدك محمد ﷺ عشر مرات، فصلى عشراً^(٣)، قال مقاتل: فذلك قوله ﷺ: «من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً^(٤)»

فصل في مقام آدم في الجنة

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] قال الفراء: أهل نجد يقولون لامرأة الرجل: زوجة، ويجمعونها: زوجات، وهي لغة بني تميم. قال: وأهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج^(٥).

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٠٤-١٠٥.

(٢) لم نقف عليه في «الطبقات»

(٣) انظر «عرائس المجالس»: ٣١.

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) انظر «زاد المسير» ١/٦٥.

وقال الجوهري: زوج المرأة بعلمها، وزوج الرجل امرأته. قال الله تعالى: ﴿أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ﴾^(١).

والرَّغْد: الرزق الواسع. ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] أي: كيف ومتى وأين شئتما. واختلفوا في الشجرة على أقوال:

أحدها: أنها شجرة البُرِّ، وهي الحنطة، قاله ابن عباس^(٢).

والثاني: شجرة الكافور، قاله علي رضي الله عنه.

والثالث: الكرمة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد^(٣)، وحكاه ابن سعد، عن جعدة بن هبيرة قال: ولذلك جعلت فتنةً لولده^(٤).

والرَّابِع: التين، قاله عطاء والحسن ابن جريح^(٥).

والخامس: النَّخْلَة، قاله أبو مالك^(٦).

والسَّادِس: حَيُّ الْعِلْمِ^(٧) - وقيل: إنما هي بكسر العين وفتح اللام - وهي الحنطة بلغة قيس. وهو الأصح، لأن الحنطة ملائمة لجميع بني آدم. وقد نصَّ على أنها الحنطة عامة العلماء.

وقال وهب: هي شجرة الخلد. وهو وهم لأنَّ الله سمَّها بذلك، وإنما الكلام في جنسها^(٨).

فإن قيل: فلمَ خصَّ الشجرة المشار إليها بالنهي؟ فالجواب: لأنَّ لها ثُفْلًا، والجنَّة

(١) «الصحاح»: (زوج).

(٢) انظر «تفسير الطبري» ٢٣٢/١.

(٣) انظر «تفسير» ابن أبي حاتم ١٢٦/١، و«تفسير» الطبري ٢٣٢/١.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٣٤/١.

(٥) انظر «تفسير» ابن أبي حاتم ١٢٧/١، و«زاد المسير» ٦٦/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٢٧/١، وانظر «زاد المسير» ٦٦/١.

(٧) كذا هي في (ل)، وفي «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ١١٤: حي العالم: سمي بهذا الاسم لأنه لا يطرح ورقه في وقت من الأوقات، وهو نبات له قضبان طولها نحو من ذراع وأكثر في غلظ الإبهام، فيها شيء من رطوبة تدبق باليد وهي غضة.

(٨) انظر «زاد المسير» ٦٦/١.

لا تحتمل الثفل.

وقال مجاهد: لما أكل منها لعبت معدته فقال له جبريل: أما تستحيي، أين تضع هذا على السرر أو على الفرش أو على شواطئ أنهار الجنة من رياض المسك والعنبر والكافور والزعفران؟ ولكن انزل إلى دار يصلح أن يكون فيها هذا. قال: وهذا معنى قول علي عليه السلام: الدنيا كنيف يملأ.

وقال النضر بن شميل: إنما أكل آدم من الشجرة لأنه مُنع عنها، والآدمي حريص على ما مُنع منه.

وقد ذكرها في التوراة فقال: ونصب الله تعالى شجرة الخير والشر، أو شجرة الحياة، وسط الجنة، وقال: يا آدم كُلْ ما شئت إلا منها، فإنك تموت يوم تأكل منها. وقال الحسن: لم يكن له بدُّ أن يأكل منها لأنه خلق للمقام في الأرض.

فصل في احتيال إبليس على دخول الجنة

قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] قال ابن عباس: أي: حملهما على الزلّة. وقرأ الأعمش: فأزالهما^(١)، أي: نحّاهما عن الطّاعة والجنة، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم.

واختلفوا في كيفية دخوله إلى الجنة:

قال الحسن البصري: وقف على باب الجنة وناداهما لأنه كان ممنوعاً من دخولها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨].

وقال ابن عباس: إنما احتال بطريق الحيّة وكانت من أحسن الدوابّ، ولها جناحان كجناحي الطّاووس، ولون جلدها لون السُّندس والإستبرق، وكانت من خُرّان الجنة تدخل إليها وتخرج، وكانت صديقاً لإبليس، فخرجت ذات يوم فتعرّض لها وخدعها وقال لها: قد اشتقت إلى الجنة، فقالت: أنت مطرود عن الجنة، فكيف

(١) وهي قراءة حمزة بألف بعد زاي ولام مخففة. انظر «الحجة» لأبي علي الفارسي ١٤/٢، و«إنحاف فضلاء البشر» ص ١٧٦.

أَدْخِلْكَ إِلَيْهَا؟ قَالَ: وَمَا يَضُرُّكَ فَإِنِّي مَطْرُودٌ عَنْهَا حَيْثُ لَمْ أُسْجِدْ لِآدَمَ، فَأَدْخِلْنِي لِأَسْجُدَ لَهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْضَى عَنِّي. فَفَتَحَتْ فَاهَا فَوَثَبَتْ فَقَعَدَتْ عَلَى نَابٍ مِنْ أَنْيَابِهَا. وَمَرَّتْ بِهِ عَلَى الْخَزَنَةِ فَأَنْسَاهُمْ الْعِلْمَ السَّابِقَ وَالْقَدْرَ الْمَحْتَمُونَ أَنْ يَفْتَقِدُوا نَابَ الْحَيَّةِ، فَدَخَلَتْ بِهِ. وَكَانَ آدَمُ لَمَّا رَأَى نَعِيمَ الْجَنَّةِ قَالَ: لَوْ أَنَّ لَنَا خُلْدًا، فَأَتَاهُ مِنْ قَبْلِ الْخُلْدِ، فَجَاءَ فَوْقَ بَيْنِ يَدَيْ آدَمَ وَحَوَاءَ، وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُ إِبْلِيسُ، فَنَاحَ عَلَيْهِمَا نِيَاحَةً أَحْزَنْتَهُمَا وَبَكَى، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَاحَ، فَقَالَا لَهُ: مَا الَّذِي بَكَ وَمَا يَبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَبْكِي عَلَيْكُمَا، تَمُوتَانِ وَتَفَارِقَانِ هَذَا النَّعِيمَ. فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي نَفُوسِهِمَا وَاعْتَمَا، وَمَضَى عَنْهُمَا، ثُمَّ جَاءَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا آدَمُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي نَهَانِي عَنْهَا، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أَي: حَلَفَ لَهُمَا ﴿إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فَاغْتَرَا^(١).

قال ابن عباس: ما ظنَّ آدمُ أنَّ أحداً يحلفُ بالله ويكذب. فبادرت حواءُ إلى الأكل من الشجرة، ثم ناولت آدمَ فأكل منها.

وقال مقاتل بن سليمان: قال لهما إبليس: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا حسداً لكما، لأنه علم أنكما متى أكلتما منها علمتما الغيب، وزاحمتماه في ملكه وغيبه.

وقال مجاهد: حلف لهما سبعين يمينا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقال مقاتل: فأخذت حواءُ من الشجرة خمس حبَّات، فأكلت اثنتين وأخفت ثلاثاً، قال: فلذلك صار النساء يسرقن. وفي رواية عنه: أنها أخذت سبع حبَّات، فدفعت إلى آدم حبَّتين، وقالت: إنما أخذت واحدة، فلذلك صار للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقال مقاتل أيضاً: تقدَّمت إلى الشجرة فأكلت منها ثم قالت: يا آدم، قد أكلت فلم تضرني، فتقدَّم فأكل منها.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١١٠-١١١، و«عرائس المجالس» ص ٣١.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي في «تفسيره» عن سعيد بن المسيّب: أنه كان يحلف بالله لا يستثني أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل، ولكن حوَّاء سقته الخمر حتى سكر، ثم قادتته إلى الشجرة فأكل منها^(١).

قلت: والعجب من حكاية الثعلبي مثل هذا عن سعيد بن المسيّب، وهو إمام وقته في العلم والزهد والورع والتحرُّز في أقواله عن مثل هذا. ثم قد اتفق العلماء على أن خمر الجنة لا يسكر ولا يذهب بالعقول، قال الله تعالى ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وقال الله تعالى ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ [الطور: ٢٣] وهو السكر، والمراد من الخمر إنما هو حصول اللذة المطربة، وذلك حاصل في الجنة بدون سكر، فإنه مباح لأهل الجنة مع بقاء عقولهم، وبهذا فارق خمر الدنيا.

وإنما اللائق بحال آدم أنه إنما أكل متأولاً للكراهة دون التحريم، وذلك قبل النبوة، لأنه نهي عن شجرة فأكل من جنسها ظناً منه أن المراد غير تلك التي نهي عنها لا التي أكل منها. على أن الله تعالى قد عذره بكونه أكل ناسياً فقال: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

فإن قيل: فإن كان آدم تعمّد، فمعصيته كبيرة، والكبائر لا تجوز على الأنبياء، وإن كان نسي فالنسيان معفو عنه، فكيف وقعت المؤاخذة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الأنبياء قد أمروا بتجويد التحفظ، ومثل آدم لا يسامح.

والثاني: أنه خالف، ومخالف الأمر يعاقب وإن كان ناسياً، فإن من طلق امرأته ناسياً أو ساهياً أو هازلاً وقع طلاقه، فالنسيان معفو عنه في رفع الإثم دون المؤاخذة، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «عُفِيَ لَأُمَّتِي عَنِ الْخَطَا وَالنَّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(٢).

والجواب الثالث: أن بعض العلماء قال: إنه أكل متأولاً للكراهية دون التحريم. وقال قتادة: لما أكلا منها بدت لهما سواتهما، وولّى آدم هارباً يستتر بورق الجنة،

(١) «عرائس المجالس» ص ٣٣، وانظر «تاريخ الطبري» ١/١١١-١١٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢١٩) من حديث ابن عباس.

فناداه الله: يا آدم أفراراً مني؟ قال: لا يا رب، بل حياء منك. فقال: يا آدم اخرج من جواربي، فإن من عصاني لا يجاورني في داري. فقال: يا رب، هل بعد هذا العتاب رضى؟ قال: نعم، فقال: الحمد لله^(١).

وقال الربيع بن أنس: امتنع من الخروج من الجنة، فجاءه جبريل ف جذب بناصيته للإخراج، فقال: بالأمس تسجد لي واليوم تسحب بناصيتي؟ ارفق بي، فقال: لا أرفق بمن عصى الله.

وذكر في التوراة: قال الله تعالى: يا آدم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، قال: إن المرأة أطعمتني، وقالت المرأة: إن الحيّة أطعمتني، يعني أن إبليس كان يخاطبها على لسان الحيّة وهو قاعد على أنيابها. فقال الله للحيّة: من أجل فعلك هذا أنت ملعونة، وعلى بطنك تمشين، وتأكلين التراب، وسأغري بينك وبين ولد المرأة فيطأ رأسك وتلدغين عقبه، وقال لآدم: اخرج من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي أخذت منها. وقال الله لحواء: أنت غررت الرجل، وعزّتي لأعاقبتك بالحيض والنفاس والولادة ونقصان الشهادة، لا تحملين إلا كرهاً، ولا تضعين إلا كرهاً، ثم مسح الحيّة إلى هذه الصورة.

وقال وهب: كان لباس آدم في الجنة الظفر يزداد كل يوم جدّة وحسناً، فلما أخرجه من الجنة ألبسه الجلود والصوف. وكان آدم أمرد، فعوقب بإنبات اللحية.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى آدم موسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: أتلومني على أمر كان قد كُتب عليّ قبل أن أفعله، أو: قبل أن أُخلق؟ قال: فحج آدم موسى مرتين. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

فإن قيل: فلم لم تعاقب حواء قبل آدم عند الأكل؟ فالجواب من وجوه:

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٠٩، وانظر «تاريخ دمشق» ٥٦/٣١٨.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٣٨٧)، والبخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢).

أحدها: أنها لو عوقبت في حالة الأكل قبل أن يأكل آدم لتوقّف عن الأكل، فأخطأ علم الله فيه وإرادته وسره الخفي، فلما وافقها ظهر علم الله فيه.

والثاني: لأن حواء كانت ضعيفة فلم تقدر على العقوبة ولم تحتملها، بخلاف آدم بها كان قوياً.

والثالث: أنها عوقبت في ضمن عقوبة آدم بما يليق بها من الحيض والنّفاس والولادة وترك الصلاة ونقصان الميراث والعدّة، وبأنها لا تكون حاكماً بين الناس، ولا تسافر إلا بوليّ، ولا تنعقد بها الجمعة والجماعات، وكونها عورة إلى غير ذلك.

فإن قيل: فأدم وحواء اشتركا في المعصية فلمَ لم تذكر معه في التوبة؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنّ العرب إذا كان فعل الاثنين واحداً جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤] ونحو ذلك.

والثاني: فلأن النساء يدخلن في خطاب الرجال على وصف التبعيّة، لأنهن تبع، فلهذا لم تذكر معه في التوبة، بل قال: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وإن كانت هي السبب.

وقد قالت المعتزلة وجههم بن صفوان: إنّ الجنّة التي أسكنها آدم إنما كانت بستاناً من بساتين الدنيا في جزيرة سرنديب، ولهذا يسمّى آدم السّرنديبي، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فمن دخلها يستحيل عليه الخروج منها، ولأنها دار راحة فلا يكون فيها ابتلاء ومحن.

ولنا: أنّ الله عزّ وجلّ وصف الجنّة التي أخرج منها آدم بأوصاف لا تكون لبساتين الدنيا، على ما ذكرنا فيما تقدّم، وأمّا الآية، فأدم ما دخلها للثواب، ومن دخلها للثواب لا يخرج منها أبداً. ألا ترى أنّ رضوان وبقية الخزان يدخلونها ويخرجون منها؟ وقولهم: دار راحة، قلنا: ودار تكليف لإجماعنا على أنهم مكلفون بها بمعرفة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] الهبوط: هو الحُدور من

علو إلى سفلى، وهذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس والحية، لأنه ذكرهم بالواو، وهو للجمع، قاله ابن عباس^(١).

فإن قيل: فقد كرر الهبوط في آخر القصة بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] فما فائدة هذا التكرار؟ فالجواب: إنهم أهبطوا إهباطين، أحدهما: من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض، حكاه أبو صالح عن ابن عباس.

وقال مقاتل: إنما كرره لتعظيم الذنب، كما يقال للإنسان إذا أذنب ذنباً عظيماً: اخرج، اخرج. فكان تأكيداً في الإخراج.

والمستقر: موضع القرار، والمتاع: البلغة، وإلى حين: أي إلى حين انقضاء أجالكم ومنتهى أعماركم.

وقال الثعلبي فيما حكاه عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: أورثنا تلك الأكلة حزناً طويلاً^(٢).

وعن ابن عباس قال: لما أهبط آدم إلى الأرض قال: يا رب، إني كنت جارك في دارك، ليس لي رقيب ولا رب سواك، أكل منها حيث شئت رغداً، فأهبطتني إلى دار العناء والشقاء والنصب والتعب، فقال الله: يا آدم، ليشؤم معصيتك، وذكر كلاماً طويلاً^(٣).

ولما أهبط آدم إلى الأرض كان على رأسه إكليل من الجنة فيبس وتناثر في الأرض، فكل طيب في الدنيا فمن ذلك الإكليل^(٤).

فصل في المكان الذي أهبطوا إليه

قال علماء السير: أهبط آدم بالهند على جبل يقال له: واسم، وقيل: نُؤذ، وقيل:

(١) انظر «تفسير» الطبري ١/ ٢٤٠.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٣٣.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٣٥-٣٦، والطبري في «تاريخه» ١/ ١٢٤.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٥.

الراهنون، وقيل: انحلوس، عند وادي سرنديب. واسم الوادي بهيل بين الدهنج والمندل، وهما بلدان بأرض الهند^(١). قال مقاتل: وهذا الجبل أقرب جبال الأرض إلى السماء.

وأهبطت حوَّاء بجُدَّة من أرض مكة، والحية بنصيبين الجزيرة، وقيل: بأصبهان، وإبليس بميسان، وقيل: بالأبلة^(٢).

قال الجوهري: وميسان اسم كورة بسواد العراق^(٣). قال: والأبلة - بالضم - مدينة إلى جانب البصرة^(٤). وقد ذكرها ابن الجواليقي قال: وهي بلدة قديمة^(٥). وقال أبو عبيد: هي آخر أعمال البصرة.

وقال ابن زيد: أهبط إبليس بالبصرة، وكذا قال الحسن البصري. وقال الحسن: ولهذا هي معدن المعتزلة والقدرية واليهود.

فإن قيل: فقد عصوا جملة واحدة في مكان واحد، فما الحكمة في كونهم أهبطوا متفرقين؟ فالجواب: أنهم لما عصوا في ذلك المكان الشريف بدد الله شملهم في أقطار الأرض، وهو أبلغ في العقوبة من اجتماعهم في مكان واحد، ولهذا أبقى آدم مدة حتى اجتمع بحوَّاء بجمع، فلذلك سُميت جمعاً على قول البعض، ثم ازدلفت إليه بالمزدلفة، فسُميت بذلك، ثم التقيا بعرفات فتعارفا، ورجعا إلى الهند، لما نذكر.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: أن آدم كان يسكن بيت أبيات، قرية بسفح قاسيون كانت، وإليه ينسب مسجدها، وأن حوَّاء كانت تسكن بيت لَهَا^(٦).

قلت: ولم يوافق على هذا القول أحد لإجماعهم على أن آدم كان بالهند ويتردد إلى مكة ولم يدخل الشام، والله أعلم.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٢٢.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٢٢، و«التبصرة» ١/١٦.

(٣) «الصحاح»: (ميس).

(٤) «الصحاح»: (أبل).

(٥) «المعرب»: ص ٦٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٦٩/١٠١.

فصل في مقدار لبثه في الجنة

اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: ثلاث ساعات من أيام الآخرة، ربع يوم، فيكون مئتين وخمسين سنة من أعوام الدنيا، قاله الربيع بن أنس.

والثاني: ساعتين، قاله مجاهد، وهو موافق للحديث أنه خُلِقَ في آخر نهار الجمعة^(١).

والثالث: ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر من سني الدنيا، رواه مجاهد عن ابن عباس.

الرابع: ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر من سني الدنيا، ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه»^(٢).

والخامس: أنه أقام نصف يوم من أيام الآخرة خمس مئة عام، رواه أبو الضحى عن ابن عباس.

وقد روى قتادة: أنه دخل الجنة ضحوةً وأُخْرِجَ منها ما بين الظهر والعصر، وهو موافق لما روى أبو الضحى عن ابن عباس.

وقال ابن سعد: بإسناده عن ابن عباس قال: أُخْرِجَ آدم من الجنة بين الصَّلَاتَيْنِ: صلاة الظهر وصلاة العصر، فَأُنزِلَ إلى الأرض، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة خمس مئة سنة من يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدُّون، وهو اثنتا عشرة ساعة^(٣).

وقال ابن سعد بإسناده عن خالد الحذاء قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، آدم خلق للسماء أم للأرض؟ فقال: للأرض، قلت: أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟ فقال: للأرض خلق، فلم يكن له بدٌّ من أن يأكل منها^(٤).

(١) تقدم تحريجه في: «فصل خلق آدم».

(٢) «تاريخ الطبري» ١/١١٩.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/٣٤-٣٥.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/٣٤.

فصل في ذكر ما أُهبطَ معه من الجنة

ذكر الوالبي عن ابن عباس قال: أُهبطَ معه الورق الذي خَصَفَهُ من الجنة فتحات فنبت منه أنواع الطيب والثمار، ففي ذلك الوادي: العود والسنبل والقرنفل والطاووس والمسك. وقد ذكرناه في أول الكتاب.

وقال مقاتل في «المبتدأ» له: نزل مع آدم صرة فيها حنطة وثلاثون قضيباً من الجنة، عشرة لها قشور وعشرة لها نوى، وعشرة لا قشور لها ولا نوى، فأما التي لها القشور: فالجوز واللوز والفسق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط^(١) والجوز الهندي والرمان والموز. وأما التي لها نوى: فالخوخ والمشمش والإجاص والرطب والغبيراء والنبق والزعرور والعناب والمقل والشاه لوك^(٢). وأما التي لا قشور لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والعنب والكمثرى والثوت والتين والأترج والخروب والخيار والبطيخ^(٣).

وكان أبو موسى يقول: زود الله آدم من ثمار الجنة، فشاركم هذه منها^(٤).

وروى عطاء عن ابن عباس قال: كان آدم حين أُخرج من الجنة لا يمر بشيء إلا عبث به، فقال الله للملائكة: دعوه فليتزود منها ما شاء، فأخذ من أوراقها ما أراد وقدر عليه، فعبثت أرض الهند وجبالها وشجرها بريح الجنة^(٥).

وقال قتادة: نزل معه الحجر الأسود، وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، والركن والمقام، وهما ياقوتتان من ياقوت الجنة. ونزل معه عصا موسى، وكان من آس الجنة، طولها عشرة أذرع، ومرُّ ولبان^(٦).

(١) الشاه بلوط: هو البلوط الجبلي الكبير. «المعجم الذهبي» ص ٣٦٣، وانظر «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٢٥٦.
 (٢) الشاه لوك: هو الإجاص الأبيض. انظر «المعتمد في الأدوية» ص ٢٥٦.
 (٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٢٨، والعناب: شجرت يقارب الزيتون في الارتفاع، لكنه شائك. «تذكرة ابن داود» ١/٢٤١.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٢٧، وانظر «المنتظم» ١/٢٠٩.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٢٦ عن مجاهد عن ابن عباس، وانظر «المنتظم» ١/٢٠٩.

(٦) في (ل): «ومرواله؟». وما أثبتناه من «تاريخ الطبري» ١/١٢٧، و«المنتظم» ١/٢٠٩.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: لما أُهبط آدم من الجنة حَزِنَ عليه كلُّ شيءٍ في الجنة إلا الذهبَ والفضةَ، فأوحى الله إليهما: جاوركما عبدٌ من عبادي فحزن عليه كلُّ شيءٍ إلا أنتما، فقالا: إلهنا، ما كنا لنحزنَ على من عصاك. فقال الله تعالى: وعزّتي لأعزّنكما في الدنيا فلا يُنال شيءٌ إلا بكما^(١).

وقال الجوهري: الدّينار أصله دِنَارٌ^(٢) بالتشديد. قال: وأمّا الدرهم ففارسيٌّ معرّبٌ^(٣).

فصل في ما تجدد بعد نزوله من الحوادث

حكى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أُهبط آدم إلى الدنيا لم يكن فيها شيءٌ سوى حوتٍ ونسِرٍ، فكان النسِر يطير نهاراً، ثم يأوي في الليل إلى جانب البحر يستأنس بالحوت، فرأى النسِرُ آدمَ فاستغربه، فقال للحوت: قد نزل إلى الأرض حيوان يمشي على قدميه ويبطش بيديه، فقال الحوت: إن كنت صادقاً فما لي في البحر منه مهرب، ولا لك في البرّ منه مذهب^(٤).

وحكى الطبري وقال: جاع آدم فاستطعم ربّه، فأتاه جبريل بسبع حباتٍ حنطة، فوضعها في يده، فقال: ما أصنع بها؟ فقال: ضعها في الأرض، فوضعها، فأنبثها الله من ساعته، ثم أمره فحصدتها وفركها بيده، ثم ذرّأها وأتاه بحجرين فطحن، وأتاه جبريل بنار، وخبزهُ مَلَّةً، فأدم أول من خبز المَلَّةَ^(٥).

وروى سفيان بن عيينة بإسناده عن ابن عباس قال: لما نزل آدم إلى الأرض جاع فقال: يا ربّ أطعمني فأوحى الله إليه دون أن تعمل عملاً يعرق منه جبينك فلا، فخبزَ خُبْزَ المَلَّة.

(١) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ٢١٠/١ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: هذا حديث إسناده حسن، ومثته غريب.

(٢) «الصحاح»: (دئر).

(٣) «الصحاح»: (درهم).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٢٧٨/٤، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢١١/١.

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٢٨-١٢٩، و«المنتظم» ٢١٢/١، والملة: الرماد الحار.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: لما رأى الله عري آدم وحوّاء أمره أن يذبح كبشاً من الضأن من الأزواج الثمانية فذبحه، ثم أخذ صوفه فغزلته حوّاء ونسجه آدم، فعمل منه جبة لنفسه، ودرعاً وخماراً لحوّاء^(١)، وهو أول من حاك في الأرض وخاط.

ثم أنزل الله عليه الكلبتين والمطرقة، وكانتا لا يقلهما أحد من الناس، فكان يكسر الأشجار بالمطرقة. وعمل الثور الذي ورثه نوح وفار الماء منه^(٢).

وقال مجاهد: أتاه جبريل بالجلم فجزّ الشاة وغزلت حواء صوفها، وحاكه آدم عباءتين فلبساهما، ثم جاءه جبريل بثورين فصمدهما، ثم زرع عليهما، ثم حصده ودرس، ثم ذرّى ثم صفّى، ثم طحن وعجن، ثم خبز وأكل^(٣).

وقال سعيد بن جبير: جاءه جبريل بثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، ويقول لحوّاء: أنت عملت بي هذا. قال سعيد: فليس أحد من ولد آدم يعمل على ثور إلا ويقول: «حو»^(٤). قال: فحينئذ قال آدم: هذا ما وعدني ربي من قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

وقال قتادة: جاءه جبريل بنار فأخذها بيده فأحرقته يده فقال: يا جبريل احترقت يدي، ولم تحترق يدك، فقال: لأن يدك خاطئة. قال: وجبريل جاءه بالمقدحة وغيرها. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أهبط آدم من جبل سرنديب، وفقد كلام أهل السماء وتسبيحهم، ونظر إلى سعة الأرض، استوحش فقال: يا ربّ، املا هذه الأرض من يسبحك ويقدّسك، فأوحى الله إليه قد استجبت دعائك، وسأفعل ذلك^(٥).



(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٤.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٧-١٢٨، والكلبتان: ما يأخذ به الحداد الحديد الحمى.

(٣) انظر «المنتظم» ١/ ٢١٢، وتاريخ الطبري ١/ ١٢٩-١٣٠.

(٤) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ٧/ ٤١١-٤١٢.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣١ عن وهب.

ومن الحوادث بكاؤه: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحرابي، بإسناده عن الحسن البصري قال: لما أهبط آدم من الجنة بكى ثلاث مئة عام لا يرفع إلى السماء رأسه حياءً من الله تعالى، ولا وضع يده على حواء ولا ألفتها ولا سكن إليها، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، قال فجاءه جبريل فقال: يا آدم ما هذا الجهد الذي بك؟ وما هذه البلية التي أجحفت بك؟ وما هذا البكاء؟ فقال: يا إلهي، كيف لا أجهد وأبكي وقد حوّلتني من دار البقاء إلى دار الفناء، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، ومن دار الراحة إلى دار التعب والعناء؟

وفي رواية ابن أبي الدنيا^(١) عن الحسن أيضاً قال: سجد آدم على جبل سرنديب ثلاث مئة عام يبكي حتى جرت الأنهار من دموعه، فأنبت الله منها أنواع الطيب بأرض سرنديب، واجتمعت الغدران من دمعه، فجاء نسر عظيم فشرّب من غدِير وجلس إليه، فأنيس به ولم يعلم أنها دموعه، فقال له النسر: من أين هذا الماء؟ ما أطيبه، ما ذقت ألدّ منه. فازداد آدم بكاء وقال: أيها النسر أتسخر بي؟! قال: ولم؟ قال: هذا دمع من عصي ربّه، فمن أين له الطيب؟ فقال له النسر: وأي ماء ألدّ من دمع عاصٍ ذكر ذنبه، فوجل قلبه، فاستغفر ربه.

وحكى الثعلبي عن شهر بن حوشب: أنه أقام مئة سنة لم يقرب حواء.

قرأت على شيخنا الإمام الموفق عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله تعالى بظاهر دمشق بقاسيون في سنة أربع وست مئة، قلت له: أخبركم أبو الفضل مسعود بن عبيد الله ابن النادر^(٢) فأقرّ به، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين بإسناده عن عمر بن ذر عن مجاهد قال: لما أكل آدم من الشجرة تساقط عنه جميع ما كان عليه من زينة الجنة، فقال لحواء: استعدّي للخروج من جوار الرحمن، فهذا أوّل شؤم المعصية، فقالت: يا آدم، ما ظننت أنّ أحداً يحلف بالله كاذباً. ثم هرب آدم في الجنة فتعلقت به شجرة، فظنّ أنّه قد عوجل بالعقوبة، فجعل يقول: العفو العفو، فقال الله للملائكة: أخرجوا آدم وحواء من جوارِي، فنزع جبريلُ التّاجَ عن رأسه والإكليلَ عن جبينه، فلما هبط من دار

(١) في الرقة والبكاء (٣٢٥).

(٢) هو مسعود بن علي بن عبيد الله، سترجم له المصنف في سنة (٥٨٦هـ)، والخبر في التوايين ٤٨.

القدس إلى دار المسغبة، بكى على خطيئته مئة سنة، قد رمى برأسه على ركبته حتى نبت العشب من دموعه والأشجار، وامتلات نُقْرُ الجَلاهم وأقْعَبَتْها، ثم تاب عليه. والنُّقْرُ: الحفرة. والجَلاهم: جمع جُلْهُمة وهي جانب الوادي، وقوله: وأقْعَبَتْها، كذا وقعت هذه الرواية، والصواب: وقعبانها.

وقد أخرج الخطيب حديثاً في بكاء آدم فقال بإسناده عن ابن بريدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ: «لو وُزن دُموعُ آدمَ بجميعِ دموعِ ولده لرجحَ دُموعُه على الجميع»^(١). قال جدي رحمه الله في «الأحاديث الواهية»: في إسناده أحمد بن بشير، قال ابن معين: وهو متروك^(٢).

وحكى الوليد بن مسلم عن الأوزاعي قال: بكى آدم على الجنة سبعين عاماً، وعلى خطيئته سبعين عاماً، وعلى ابنه هاويل حين قتل أربعين عاماً، وأقام بمكة مئة عام^(٣). وذكر مقاتل بن سليمان في كتاب «المبتدأ» له قال: جاءه جبريل بعد أن بكى مئة سنة فقال له: يا آدم هذا بكاؤك^(٤) لفراق الجنان، فأين بكاؤك لفراق الرحمن؟ فبكى مئتي سنة أخرى، فجرى من إحدى عينيه مثل الفرات، ومن الأخرى مثل دجلة.



ومن الحوادث قصد السباع والهوام إيّاه: روى وهب بن منبه قال: لما نزل آدم إلى الأرض كان فيها سباع وهوام، فأتاهم إبليس فقال: قد نزل إليكم حيوان يقصد هلاككم فأهلكوه، فقصدوه من كلِّ جانب، فخاف وقال: يا إلهي اكفنيهم، فأوحى الله إليه: اختر منهم واحداً يذبُّ عنك، فدعا الكلب ومسح على رأسه، فحمل عليهم فطردهم، فمن ثمَّ يَألف الكلب بني آدم ويحفظ عهدهم.



(١) «تاريخ بغداد» ٤/٤٧.

(٢) «العلل المتناهية» (٤٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٦/٧٧.

(٤) إلى هنا انتهى الحرم في (ب).

فصل ومن الحوادث توبته

قال الله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] قال ابن عباس: معنى «تلقى»: تلقن وحفظ وفهم.

واختلفوا في الكلمات على أقوال:

أحدها: أنها قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: إن آدم قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: فلم أخرجتني منها؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: يارب أرأيت إن تبتّ ورجعتُ أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم؛ فتاب عليه، قاله الحسن^(١).

والثالث: أن آدم قال: يا رب أرأيت ما أتيتُ به، أشيء ابتدعته أم شيء قدرته عليّ ولم أبتدعه من تلقاء نفسي؟ قال: بل بتقديري عليك، فقال: يا رب، فكما قدرته عليّ فاغفر لي، فتاب عليه. قاله عبيد بن عمير^(٢).

والرابع: أنه قال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فُتّب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم، فغفر له. قاله محمد بن كعب القرظي^(٣).

والخامس: أنه نظر إلى ساق العرش فرأى عليه مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال: يا رب، بحق محمد اغفر لي فغفر له، قاله الربيع بن أنس^(٤).

والسادس: أنه رأى على ساق العرش مكتوباً: محمد رسول الله، علي بن أبي طالب، الحسن والحسين، فاطمة. حكاها زيد بن أسلم عن أبيه، وفيه: فقال: يا رب،

(١) وأخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤٣/١، وفي «تاريخه» عن ابن عباس، وانظر «زاد المسير» ٦٩/١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤٤/١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٠٢)، والحاكم ٦١٥/٢، وابن عساكر ٤٣٧/٧ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً. قال الذهبي في «تلخيص المستدرک»: موضوع.

بحرمة هذه الأشباح اغفر لي.

والسابع: أنه رأى على ساق العرش مكتوباً، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق. حكاه الثعلبي بإسناده إلى عليّ كرم الله وجهه.

والثامن: سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين، قاله وهب.

وروى ابن أبي الدنيا^(١) بإسناده عن وهب بن منبه قال: أقام آدم على حاله زماناً، فأطلع الله عليه فرآه حزيناً كئيباً، فأوحى إليه: ما الذي بك؟ فقال: إلهي عظمت مصيبي، وأحاطت بي خطيئتي، وأخرجت من ملكوت السماء، فأصبحت في دار الهوان بعد الكرامة، والشقاء بعد السعادة، والنصب بعد الخفض والدعة، والظعن بعد القرار والطمأنينة، ودار الذل بعد العز. فقال الله: ألم أصطنعك لنفسي وأحلكت دار كرامتي وأسجد لك ملائكتي، ونفخت فيك من روعي، فعصيت أمري، وضيّعت عهدي، وخالفت وصيّي، ولم تشكر نعمتي، وعزّيتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاتاً مثلك يسبّحون الليل والنهار لا يفترون ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. وإني قد رحمتُ ضعفك وتضرّعتك، وأقلّتك عثرتك، وقبلتُ توبتك، فغفرتُ زلتك. فألهمه الله أن قال: سبحانك إني كنت من الظالمين. قال وهب: فذلك قوله: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وذكر جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة» عن وهب بن منبه: أنه سجد على جبل الهند مئة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب، فأنبت الله من دموعه الدارصيني والقرنفل. وذكر بمعنى ما تقدّم، ثم قال: فجاءه جبريل فقال: ارفع رأسك فقد غفر لك، فرفع رأسه وأتى الكعبة فطاف أسبوعاً فما أتمه حتى خاض في دموعه^(٢).

ولما تاب عليه أمره بالمسير إلى مكة فأتى إلى البيت فطاف به، وصلى عند المقام ركعتين. ومعنى عند المقام، أي: موضع المقام.

فإن قيل: فلم يكن هناك بيت، فالجواب: إنّ أهل السير قد اختلفوا في بناءه:

فروى عكرمة عن ابن عباس: أنّ الملائكة لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

(١) الرقة والبكاء (٣٢٠).

(٢) «التبصرة» ١٦-١٧.

خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴿البقرة: ٣٠﴾ أرسل الله عليهم ناراً فأحرقت منهم عشرة آلاف، وبقي رؤسائهم، فقالوا: يا ربنا، كيف نصنع حتى ترضى عنا؟ فقال: ابنوا لي في الأرض بيتاً، وطوفوا حوله كما تطوفون حول عرشي، ففعلوا فرضي عنهم. قال جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام: فمن ثم أصل الطواف.

وروى سعيد بن المسيب عن ابن عباس: أن آدم بناه وكان موضعه ربوة حمراء، فأوحى الله إلى آدم: طُفْ بها، فطاف بها، قال: وكان آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش فأوحى الله إليه: ابن هذه الربوة الحمراء بيتاً، فمنها وضعت الدنيا، وطف بها كما رأيت الملائكة تطوف بعرشي، فبناه.

وقد رواه أبو صالح أيضاً عن ابن عباس، وروى مجاهد عنه: أن الله تعالى بناه من غير بناء أحد.

والظاهر أن آدم بناه، وكان ربوة حمراء، وكان قد نزل معه من الجنة ياقوته، فوضعها فيه، وكان جبريل يأتيه بالحجارة من حراء، وطور سينا، وطور زيتا، والجودي وغير ذلك، وهو يبنى. وسنذكره عند بناء الخليل عليه السلام البيت.

وقال عطاء: لما جاء آدم من الهند ماشياً صار ما بين قدميه مفاوز، وموضع القدمين عمائر. ثم رجع إلى الهند، واتخذ مغارة فكان يأوي إليها، وكان قد اجتمع بحواء في عرفات فتعارفا فأخذها معه إلى الهند.

ومن الحوادث: مسح ظهر آدم وإخراج الذرية منه

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بأرض نَعْمَان - يعني أرض عرفة - فأخرج من ضلبيه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»^(١) ومعنى «قبلاً» أي: عياناً.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤٥٥).

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَمَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبَعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةً، وَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبَعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ» فقال رجل: ففيمَ العملُ يا رسول الله؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، [حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة] فَيُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ، فَيُدْخِلُهُ النَّارَ»^(١).

وقال أحمد بإسناده عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهَا الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى إِلَى النَّارِ وَلَا أَبَالِي»^(٢).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بن كعب بمعناه. وفيه: وَأَشْهَدَ عَلَيْهِمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَآدَمَ^(٣).

ورواه الحسن البصري عن أنس، وفيه: فَأَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، ثُمَّ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةً أُخْرَى فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي، فَقِيلَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ لَا أَبَالِي بِمَنْ؟ فَقَالَ: لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ هَؤُلَاءِ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ هَؤُلَاءِ.

وروى السُّدِّيُّ عَنْ أَشْيَاخِهِ قَالُوا: أَخْرَجَ اللَّهُ مِنْ ظَهْرِهِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ مِثْلَ اللَّوْلُؤِ، وَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَأَخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُسْرَى ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ وَقَالَ لَهُمْ: ادْخُلُوا النَّارَ وَلَا أَبَالِي. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] الآية، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: اعْلَمُوا أَنِّي إِلَهُكُمْ لَا إِلَهَ لَكُمْ غَيْرِي، فَلَا تَشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَأَنِّي مَرْسَلٌ إِلَيْكُمْ رَسُولًا يَذْكُرُونَكُمْ بِعَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأَنِّي مُنْزَلٌ عَلَيْكُمْ كُتُبًا، فَنَطَقُوا وَقَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبَّنَا وَإِلَهُنَا لَا رَبَّ لَنَا غَيْرَكَ، وَلَا إِلَهَ سِوَاكَ، فَأَقْرَأُوا كُلَّهُمْ طَائِعِينَ غَيْرَ مَكْرَهِينَ، فَأَخَذَ مَوَاثِقَهُمْ، وَكُتِبَ آجَالُهُمْ وَأَرْزَاقُهُمْ وَنَوَائِبُهُمْ وَأَفْرَاحُهُمْ وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ، فَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُولَدَ كُلُّ مَنْ أَخَذَ مِيثَاقَهُ، لَا

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣١١)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٤٨٨).

(٣) هو من زوائد عبد الله بن أحمد على المسند، موقوف عليه، «مسند أحمد» (٢١٢٣٢).

يزاد فيهم ولا ينقص^(١).

وقال مقاتل: أقرت طائفة منهم على وجه التقيّة، قال: ورغب الله فيهم العلم فخطبوه وخطبهم.

وقال السّدي: نظر إليهم آدم فرآهم متفاوتين، منهم الغني والفقير، والحسن الصورة والقيح، فقال: يا ربّ، هلّا سوّيت بينهم؟ فقال: إني أحببت أن أشكر.

وقال مقاتل في «المبتدأ»: رأى آدم نور بعضهم كنور الشمس، وهم المرسلون، وبعضهم كنور القمر، وهم النبيّون، وبعضهم كالنجوم، وهم الصّديقون، وبعضهم كالشمع، وهم الأولياء، وبعضهم كالسرج وهم العلماء، وبعضهم مرضى وأصحاء، فقال: يا ربّ، لم لم تسوّ بينهم؟ فقال: لو تركتهم على حالة واحدة لم تعرف المراتب، فقال: يا ربّ^(٢)، هلّا خلقتهم صحاحاً؟ فقال: لو خلقتهم صحاحاً لما عرفوا قدر الصحة، ولو خلقتهم كلهم مؤمنين لما عرفوا قدر الإيمان، فقال: يا ربّ، وأيُّ أرض تتسع لهؤلاء أو لهذه الذريّة العظيمة؟ فقال: إني أقسمهم أربعة أقسام، قسم في الأصلاب، وقسم في الأرحام، وقسم على وجه الأرض، وقسم في بطنها، فقال: يا ربّ، كيف يهنيهم عيش بعدما يعاين بعضهم دفن بعض؟ فقال: أرغب فيهم الغفلة حتى لو دفن الواحد عشرة من أهل بيته وأقاربه لا يتأثّر إلا في تلك الساعة.

وقال مقاتل أيضاً في «المبتدأ»: وخلق الله النّساء، فجعل الجميلات في أسفل تلّ، والدّميمات في أعلاه، ثم قال للرجال: خذوهن، فظنّ الأقوياء أنّ اللاتي في أعلى التلّ هن الجميلات، فبادروا إليهنّ، فأخذوا الدّميمات، ووقع في قسم الضعفاء الجميلات. قال: ولهذا إنّ كل من كان أضعف كانت امرأته في الغالب أحسن.

وقال مقاتل: جعل الله الذرّ قسمين: قسم عن يمين العرش، وقال: هؤلاء للجنّة، وقسم عن شماله، وقال: هؤلاء للنار.

قال الحسن البصري: كان عقل آدم في تلك الحال مثل عقل جميع أولاده^(٣).

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٣٦.

(٢) من قوله: يارب لم لم تسو بينهم... إلى هنا ليس في (ب).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٣٥)، وابن عساكر في «تاريخه» ٧/٤٤٤.

واختلفوا في أي مكان أخذ عليهم الميثاق على أقوال:

أحدها: بأرض نَعْمَان: وادٍ إلى جانب عرفة، قاله ابن عباس^(١)، قال: ولذلك سميت عرفة، إمّا لأنهم عرفوا ربّهم هناك، وإمّا لأنهم عرف بعضهم بعضاً.

والثاني: بين مكة والطائف، قاله الكلبي.

والثالث: بالدّهْناء - موضع بالهند - وفيه أُهبط آدم، وهو رواية ابن عباس.

والرابع: بدَحْناء^(٢).

وحكى الطبري عن السّديّ: أنّ الله أخرج ذرّيّة آدم في السماء قبل أن يهبط إلى الأرض، وبعد أن أخرجه من الجنّة^(٣).

والأوّل أصحّ، لأنّ حديث ابن عباس قد نصّ عليه^(٤).

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

قال الفراء: هو سؤال تقرير. فإن قيل: فلو قالوا: نعم، هل يكون إقراراً؟ فالجواب: لو قالوا: «نعم» لكفروا، لأنه يكون جحداً، وذلك لأنّ «نعم» جوابُ التصديق، وبلى جواب التحقيق، فإذا قالوا: «نعم» صار معناه: لست ربنا، ألا ترى أنه لو قال رجل لآخر: أليس لي عندك ودیعة؟ فقال: بلى، يثبت حقه، ولو قال: نعم، لم يثبت، لأنه يكون جحداً، مثل قول: لا.

واختلفوا في قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

فقال السّديّ: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم.

وقال مقاتل: هو خبر عن إقرار بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض.

ومعنى ﴿تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي: عن

الميثاق والإقرار.

(١) ليست في (ب)، والخبر أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٥-١٣٦ عن ابن عباس.

(٣) «تاريخ الطبري» ١/ ١٣٦.

(٤) وهو قوله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان» وقد تقدم تخريجه في فصل الجبال: جبلي نعمان.

وما أحسنَ ما قال ذو النون المصري، حين قيل له: أين أنت عن يوم أَلَسْتُ؟ فقال: كأنه الآن في أذني، وما أراد به سماع الصوت، وإنما أراد به تحقيق الإيمان والإقرار. وسئل بعضهم عن أحوال الذرِّيَّة في يوم الميثاق، وأنهم كلهم اعترفوا، فكيف خرج بعضهم إلى الجحد؟ فقال: كلهم قالوا بلى، ولكن عمَّ بعضهم البلاء للقضاء السابق. وفي هذا الوقت الذي أخرج الله ذرِّيَّة آدم رأى نورَ داود.

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس، قال: لما نزلت آية الدِّين قال النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ جَحَدَ آدَمُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا مَسَحَ ظَهَرَ آدَمَ وَأَخْرَجَ مَا هُوَ ذَارِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ، فَرَأَى رَجُلًا يَزْهَرُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: ابْنُكَ دَاوُدُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، زِدْ فِي عُمُرِهِ، فَقَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَزِيدَهُ مِنْ عُمُرِكَ، وَكَانَ عُمُرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ فزاده أربعين سنة، فكتبَ اللهُ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ، فَلَمَّا احْتَضَرَ جَاءَهُ مَلِكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ لِي مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً، فَقَالَ: قَدْ وَهَبْتُهَا لِدَاوُدَ، فَقَالَ: مَا وَهَبْتُ فَأَبْرَزَ اللهُ الْكِتَابَ وَالشَّهَادَةَ». وفي رواية: «أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ»^(١). قال رسول الله ﷺ: «جَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتَهُ»^(٢) قال ابن عباس: فمن ثمَّ اتُّخِذَتْ الصُّكَّاكُ^(٣) والشهادات.

وقد أخرجه محمد بن سعد في «الطبقات»، وذكر إسناده كما ذكرنا، وزاد فيه: «فَأَكْمَلَ اللهُ لآدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلِدَاوُدَ مِئَةَ سَنَةٍ»^(٤).

قال جدي رحمه الله في «المنتظم»: الحديث محمولٌ على أن آدم نسي لطول المدَّة، لا أنه كان ذاكرًا لذلك ثم جحد، لأنه يكون كذبًا، والأنبياء منزَّهون عن الكذب^(٥).

قلت: إلا أن النبي ﷺ نصَّ على أنه جحد، والجحد يحتمل أن يكون معه نسيان ويحتمل أن لا يكون، فإن كان معه نسيان، فهو معذور، وإن لم يكن، فيحتمل أن الله

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٧٠). ويزهر: يضيء وجهه حسنًا.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢٨/١ من حديث أبي هريرة.

(٣) الصك: الكتاب، وهو معرب.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٢٨-٢٩/١، وانظر «المنتظم» ٢١٦/١.

(٥) لم نقف عليه في «المنتظم»، وانظر «التبصرة» ١٧/١.

ألهمه أن يكمل له ألف سنة ويتم لداود مئة ولا ينقص من ملكه شيء.

فإن قيل: فلم رأى نور داود ولم ير نور محمد ﷺ، وكان نوره أبهى من نور داود؟ قلنا: لما قضي في السابق أن داود يوافق في العصيان^(١)، لُفِّتَ بينهما مجانسة الذنب في ذلك المكان، أمّا محمد ﷺ فإنه قد شاهد نوره على ساق العرش، فسأل الله به وتوسل إليه، فرحمه وتاب عليه.

ومن الحوادث ما ذكره مقاتل في «المبتدأ» قال: لما نزل آدم إلى الأرض اسودَّ جلده من حرارة الشمس، ويبس من البرد، فأوحى الله إليه: هذا بشؤم معصيتك، فصُمَّ ثلاثة أيام من كل شهر، وهي أيام البيض، فصامها فابيض لونه.

وقال مقاتل أيضاً: لما جنَّ عليه الليل استوحش، فلما طلع الفجر ألهمه الله أن صلَّ ركعتين صلاة الصبح شكراً لله تعالى. فأدم أول من صلاها.

قال: وصلى إبراهيم الظهر أربعاً لما فدي ولده بالكبش، وكان وقت الظهر، وصلى يونس العصر لما خرج من بطن الحوت. ولما ادَّعت النصارى التليث صلى عيسى المغرب ثلاثاً: ركعتين عن نفسه، وركعة عمَّن آمن به. وصلى موسى العشاء أربعة ليلة الطور لما كلمه الله تعالى.

قلت: والأصحُّ أن الصلوات الخمس إنما صلاها رسول الله ﷺ، ورتبها على هذا الوجه، وروايات مقاتل فيها مقال معروف.

فصل في نبوة آدم عليه السلام

قال ابن سعد عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياءِ أوَّلُ؟ قال: «آدمُ» قلتُ: أوَّلياً كان؟ قال: «نعم، نبيُّ مُكَلَّم»^(٢).

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة، أملاها عليه جبريل، وكتبها آدم بخطه بالسريانية، وكانت لغته في الجنة العربية، فلما عصى وأهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية^(٣). قال: وفرض عليه في اليوم واللييلة خمسين ركعة،

(١) ينظر ما سيورده المصنف من محتته عليه السلام في ١٦١/٢ وما بعدها.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٣٢/١، ٥٤، وهو عند أحمد في «مسنده» (٢١٥٤٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤٠٧/٧.

وحرّم عليه الميتة والدّم ولحم الخنزير والبغي والظلم والغدر والكذب والزنا.
 وذكر أبو جعفر الطبري وقال: أول ما أنزل عليه حروف المعجم في إحدى
 وعشرين ورقة، وهو أوّل كتاب كان في الدنيا^(١).
 وذكر أبو إسحاق الثعلبي في أول سورة الرحمن عن ابن عباس قال: كان آدم يتكلم
 بسبع مئة ألف لغة، أفضلها العربيّة، قالوا: ولو قال: بسبع مئة لغة احتمال، أمّا بسبع
 مئة ألف، فهذا ممّا لا توافقه عليه العقول السليمة.

فصل

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] وقد جاع
 وعري، فالجواب: أنه ما جاع وعري في الجنّة، وإنما كان ذلك في الدنيا. والظّم هو
 العطش ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] أي: تبرز للشمس، والجنّة ما فيها شمس فيؤذيه
 حرّها.

فإن قيل: فهما اثنان، فهلاً قال: أن لا تجوعا، قلنا: غلب المذكر على المؤنث،
 لأنّ نعت آدم كان أكثر، وكذا قوله: ﴿فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] كان من حقّه أن يقول:
 فتشقيا.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] قلنا: معناه أخطأ
 وضلّ ولم ينل مراده، لأنه خالف، والعصيان خلاف الطّاعة ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ
 وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢] أي: هداه للتّوبة، وفقه لها.

فإن قيل: فهل يجوز إخراج الضّيف من دار المضيف؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: نعم، إذا ترك الأدب وطمع فيما لا يجوز له.

والثاني: لأنه كان في صلبه الأنبياء والعلماء والأولياء، والجنّة ليست بدار توالد.

والثالث: لولا نزوله ما تصاعدت صعداً الأنفاس، ولا نزلت رسائل، هل من

سائل؟

(١) «تاريخ الطبري» ١/١٥١.

فإن قيل: فلم نهاه عن شجرة بعينها؟ قلنا: لأنه كان لها ثقلٌ، فإذا أكل منها احتاج إلى البول والغائط، وليست الجنة موضعه، وقد ذكرناه^(١).

فإن قيل: بماذا عاقب الله آدم وحواء؟ قلنا: عاقب آدم بأشياء منها:

العتاب ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

والثانية: بإبداء السوء ﴿فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [طه: ١٢١].

والثالثة: بإخراجهما من جواره ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

والرابعة: بإظهار العداوة له ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

والخامسة: بإلزامه اسم العصيان ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

والسادسة: بتسليط الشيطان على أولاده ﴿وَأَجَلِبَ عَلَيْهِم بِخِيكٍ وَرَجَلِكِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

والسابعة: بالهموم والأحزان، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]

أي: في همٍّ ونصب.

والثامنة: بما لقي من المشقات.

والتاسعة: بطول بكائه.

والعاشرة: بحزنه على هاويل ولده.

وكذا حواء عاقبها بخصال، أولها: الحيض، فإنها لما تناولت من الشجرة قيل لها:

تدمين في كل شهر، وبالنفس وبالطلق والولادة، وترك الصلاة، ونقصان العقل

والميراث والشهادة، والعدّة، والمنع عن الخروج والبروز، وكونها عورة، ونقصان

الذية^(٢). وقد ذكرنا بعض هذا^(٣).

ذكر أولاد آدم عليه السلام

روى العوفي عن ابن عباس قال: لما طال مقام آدم في الأرض غشي حواء، فولدت

(١) راجع فصل في مقام آدم في الجنة.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ٣٣-٣٥.

(٣) من قوله: وكذا حواء... إلى هنا ليس في (ب).

له أربعين ولداً، في عشرين بطناً، في كل بطن توأمين، ذكر وأنثى^(١).

واختلفوا في أول أولاده: فروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما حملت حواء في الدنيا جاءها إبليس فقال: أنا أخرجتكما من الجنة ولئن لم تطيعيني لأشوهن ولدك، فأجعل له قرنين يشقان بطنك، وأخرجه من فيك ميتاً. فلم تلتفت إليه، فخرج الولد ميتاً. ثم حملت بآخر فجاءها فقال لها مثل ذلك، فلم تطعه، فخرج الثاني والثالث ميتاً. فقالت له: ما تريد؟ قال: سمّه عبد الحارث، وكان إبليس يدعى الحارث، فسّمته عبد الحارث^(٢).

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: ليأنس بها ويأوي إليها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: جامعها، كنى عن الجماع بالغشيان ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ أي: لم تكثر له ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت، قامت وقعدت ﴿فَلَمَّا أَثَقَلَتْ﴾ أي: كبر الولد في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني آدم وحواء ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أي: خلقاً سوياً مثلنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وإنما سألا الله هذا لأن إبليس جاءهما فقال: يا حواء، وما يدريك ما في بطنك، لعله أن يكون بهيمة أو مشوه الخلق، فأخبرت آدم فحزن. ثم أتاها إبليس فقال: إن كان آدمياً أتسمياه عبد الحارث؟ ولم تكن تعرفه، فقالت: نعم.

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما حملت حواء جاءها إبليس في صورة شيخ فقال لها: قد حملت، قالت: ومن أين علمت؟ قال: بلى، وما يدريك لعل في بطنك كلب أو خنزير أو حيوان، وما يدريك من أين يخرج: من فيك، أو من أنفك، أو من عينك، أو من دبرك، أو يشق بطنك فيقتلك، فأخبرت آدم فقال لها: لا يغرنك فإنه اللعين. فلم يزل يخدعها حتى سمته عبد الحارث^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٥ عن ابن إسحاق، وانظر «المنتظم» ١/ ٢١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٨-١٤٩، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١٩. ولقد نص ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ٩٦ على أنه من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٩-١٥٠، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١٩.

وفي رواية: فكانت تلد عبد الله وعبد الرحمن فيموتون، فسَمَّته عبد الحارث. فعاش^(١).

وقد أخرج أحمد بن حنبل في «المسند» معنى هذا فقال: حدَّثنا عبد الصمد بإسناده عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت حَوَاءٌ لا يَعِيشُ لها وَلَدٌ فَطَافَ بها إبليسُ فقال: سَمِّيهِ عبدَ الحارثِ فإنه يَعِيشُ، فَسَمَّتهُ فعاشَ، وَكَانَ ذلكَ وَحِيًّا مِنَ الشَّيْطَانِ وَمِنْ أَمْرِهِ»^(٢).

وذكر الربيع بن أنس عن ابن عباس قال: أوَّلُ وَلِدٍ وَلَدته سَمَّته عبد الله، ثم عبد الرحمن، ثم صالحاً ثم سَمَّتِ الثالث أو الرَّابِع عبد الحارث، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] أي: حَظًّا ونصيباً في التَّسْمِيَةِ لا في العبادة، لا أَنَّ الحارث رَبُّهُمَا، وإنما أنه سبب لنجاة الولد^(٣). وقد يسمَّى الرجل عبد فلان على وجه التواضع.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: «خدعها إبليس مرتين، مرةً في الجنة، ومرةً في الأرض»^(٤).

وقال الواقدي: أوَّلُ وَلِدٍ وَلَدته قابيل وتوأمته إقليما، وآخِرُ وَلِدٍ وَلَدته عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث.

وقال مجاهد: اسم قابيل في التوراة: قابين وقاين وقين.

وذكر ابن إسحاق، عن بعض أهل الكتاب: أَنَّ حَوَاءَ حملت في الجنة بقاين وهو قابيل وتوأمته إقليما، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً. ولما وضعتهما لم تر معهما دمماً لظهر الجنة، فلَمَّا نزلت إلى الأرض حملت بهابيل وتوأمته ليوذا^(٥)، فوجدت الوحم والدم.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٤٨-١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠١١٧).

(٣) انظر «المنتظم» ١/٢١٧.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٦٤) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٥) في (ب): لبوذا، وسترده كذلك، وفي عرائس المجالس ٤٥: لبودا، والمثبت من (ل)، والخبر أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٣٩، وانظر «المنتظم» ١/٢١٩.

قلت : ولا تصحُّ هذه لوجوه :

أحدها : لعدم صحَّة النقل ، فإنَّ أحداً لم يوافقه على هذا .

والثاني : لأنَّ الجنَّة مُطَهَّرَةٌ عن الحبل والولادة .

والثالث : لأنَّه لم يذكر قابيل في الهبوط معهم .

والرابع : لا تُتَّفَقُ أهل السِّير على أنها حملت به في الدنيا ؛ وقد نصَّ عليه الواقدي

فقال : أوَّل ولد ولدته في الدنيا قابيل .

وزعمت المجوس أنَّ آدم لم يخالف في النكاح بين البطنين ، وأنَّ صلاح الحال في

تزويج الرجل بأخته والأم بولدها ، وسنذكر عقائدهم في موضعه إن شاء الله تعالى .

والأصحُّ خلاف ما زعموا ، لإجماع الأمة على أنَّ آدم كان ينكح ولده أيَّ أخواته

شاء ، إلا التي ولدت معه فإنَّه لا تحلُّ له ، احتياطاً منه في الفروج ، ونظراً لذوات

المحارم ، ومراعاة للنسل ، فإنه كان قليلاً ، وما فعل ذلك إلا لضرورة عدمه ، فلما كثروا

حرِّم ذلك .

فصل ومن الحوادث

في أيام آدم عليه السَّلام قتل قابيل هابيل

قال الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ [المائدة : ٢٧] النبأ :

الخبر ، وابنا آدم هما هابيل وقابيل في قول عامَّة العلماء وابن عمر وابن عباس ومجاهد

وقتادة . والقربان : فُعلان من القرية .

وسبب القصَّة ما حكاه السُّديُّ عن أشياخه ، ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعطاء

وغيرهم عن ابن عباس ، قالوا : كانت حواء تلد لآدم توأماً ، في كل بطن غلام وجارية ،

إلا شيث فإنها ولدته مفرداً ، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ما بين ذكر وأنثى في

عشرين بطناً ، ثم بارك الله في نسل آدم ، فلمَّا كان بعد مئة سنة من هبوطه إلى الدنيا

ولدت له قابيل وتوأمته إقليما ، ثم هابيل وتوأمته ، وكان آدم إذا شبَّ الغلام زوجه جارية

البطن الآخر ، وزوج جارية هذا البطن غلامَ البطن الآخر ، وكان الغلام يتزوج أيَّ

أخواته شاء إلا توأمته التي وُلِدَت معه ، فإنَّها لا تحلُّ له ، وذلك لأنه لم يكن لهم نساء

يومئذٍ إلا أخواتهم وأُمَّهم حَوّاءَ.

فلَمَّا ولدت قابيل وتوأمته وهابيل وتوأمته وبينهما ستان - وقيل: خمس سنين - وقابيل أكبر، فلَمَّا بلغا، أمرَ الله آدمَ أن ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل، وينكح هابيل إقليما أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن. فقال قابيل: لا أفعل وأنا أحقُّ بأختي، وُلدت معي في بطن واحد، ونحن من أولاد الجنة، وهابيل وأخته من أولاد الأرض.

فقال آدم: فقرباً قرباناً فأيكما تُقبل قربانه فهو أحقُّ بها.

ومعنى قول قابيل نحن من أولاد الجنة: ما حكينا عن ابن إسحاق عن بعض أهل الكتاب الأوّل: أن آدم كان يغشى حَوّاءَ في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت بقابيل وتوأمته، ولم تجد وحمأً ولا وصبأً ولا طلقاً ولا دمأً لطهارة الجنة، فلَمَّا أهبطا إلى الأرض تغشّاهما فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت الوحم والوصب والطلق والولادة. وقد أجبنا عن هذا فيما تقدّم^(١).

وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب غنم، فقرب قابيل ميرة من طعام من أردأ زرع، وأضمر في نفسه وقال: ما أبالي أتقبل مني أم لا؟ بعد أن لا يتزوج هابيل أختي، وقرب هابيل كبشاً سميناً من خيار غنمه ولبناً وزبدأً، وأضمر في نفسه الرضى بالله تعالى، فوضعا قربانهما على الجبل، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نارٌ بيضاء من السماء فأكلتها، وإذا لم تقبل لم تنزل النار وأكلتها السباع والطيور.

وقام آدم يدعو، وقيل: كان غائباً بمكة، فنزلت النار فأكلت الحَمَلَ والزُّبْدَ واللبن، ولم تأكل من قربان قابيل شيئاً لأنه لم يكن زكياً القلب وكان هابيل زكي القلب. قال ابن عباس: فلم يزل الكبش يرعى في الجنة حتى فدي به إسماعيل^(٢)، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧].

واختلفوا في أي موضع كان القربان: فعامة العلماء على أنه كان بالهند في المكان

(١) في ذكر أولاد آدم عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٣٧-١٣٨، وانظر «المنتظم» ١/٢٢١-٢٢٢.

الذي أهبط فيه آدم، وقال ابن قتيبة في «المعارف»: كان بمنى، فمن ثم صار بها مذبح الناس اليوم^(١).

قلت: وهذه من أوهام ابن قتيبة، فإنه لم يوافق على هذا أحد، وإن الواقعة كانت بالهند.

فإن قيل: فلم رفعت هذه النار وهذه الأمة أحوج إليها من غيرها؟ فالجواب: إنما ارتفعت لطفاً بهذه الأمة لأنها كانت تميز الخالص من الكدر، فرفعت لئلا يفتضح المرذود منها.

وقال مجاهد: ولما تقبل قربان هابيل بقي في نفس قابيل، وأضمر له السوء، وعزم آدم على الحج إلى مكة، فلما أراد أن يتوجه إلى مكة قال للسماء: يا سماء، احفظي ولدي بالأمانة فأبت، فقال للأرض والجبال والشجر: احفظوا ولدي بالأمانة فأبوا فقال لقابيل: احفظ ولدي بالأمانة، فقال: نعم، وستري في ولدك إذا رجعت ما يسرك، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢] ومعناه: حين حمل الأمانة ثم خان^(٢).

فلما غاب آدم جاء قابيل إلى هابيل وهو في غنمه فقال له: لأقتلنك، قال: ولم؟ قال: لأن الله تقبل قربانك ورد قرباني، وتنكح أختي الحسنة بغير أمري، وأنكح أختك الدميمة، وقد تحدث الناس أنك أفضل مني، وأن ولدك يفخرون على ولدي. فقال له هابيل: فما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] الذين يتقون المعاصي والشرك والقتل ﴿لَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨].

فإن قيل: فهلاً دفع هابيل عن نفسه؟ فالجواب: ما ذكره مجاهد قال: كان قد كتبت

(١) «المعارف» ١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١٣/١، وفي التفسير (١١٧١٥) من طريق السدي، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٦.

عليهم في ذلك الوقت إذا أراد الرجل قتلَ رجل أن يتركه ولا يمتنع منه^(١).
وقد فسّره ابن عباس وابن عمر فقالا: وايم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين،
ولكن منعه التّحرّج أن يبسط يده إلى أخيه^(٢). وروي: أنه قتله غيلة.
قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠] واختلفوا في معناه على
أقوال:

أحدها: أن معناه تابعت، قاله ابن عباس.

والثاني: شجعته، قاله مجاهد.

والثالث: زينّت، قاله قتادة.

والرابع: رخصت، قاله الحسن، واختاره الأخفش.

والخامس: فعلت من الطّوع، والعرب تقول طاع لهذه الظبية أصولُ هذا الشجر،
حكاه الزّجاج عن المبرّد^(٣).

وقال السّديّ: جاءه إبليس فحرّضه على قتله.

واختلفوا في كيفية قتله على أقوال:

أحدها: أنه أتاه وهو نائم فلم يدر كيف يقتله، فتمثّل له إبليس وأخذ طيراً فوضع
رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر، وقابيل ينظر إليه، فعلمه القتل، ففعل بهابيل
كذلك، قاله ابن جريج.

والثاني: أنه رماه بالحجارة حتّى قتله، قاله ابن عباس.

والثالث: أنه رضخ رأسه بصخرة، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والرابع: أنه اغتاله فقتله، قاله الربيع^(٤).

واختلفوا في موضع مصرعه على أقوال:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٩٢/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٩١/٦.

(٣) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١٦٧/٢. وانظر هذه الأقوال في «زاد المسير» ٣٣٧/٢.

(٤) انظر تفسير الطبري (١١٧٤٦ - ١١٧٥١).

أحدها: على جبل ثور، قاله ابن عباس.

والثاني: بالبصرة مكان الجامع، روي عن جعفر الصادق^(١).

والثالث: على عَقْبَة حِراء، حكاه ابن جرير الطبري صاحب التاريخ^(٢).

وحكى المسعودي أنه قتله بدمشق^(٣)، وكذا ذكر الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» في حرف القاف فقال: كان قابيل يسكن خارج باب الجابية، وأنه قتل أخاه في جبل قاسيون عند مغارة الدّم^(٤).

وذكر هابيل في حرف الهاء وكرّر هذا وقال: قتله أخوه قابيل بقاسيون عند مغارة الدّم؛ وكان هابيل يسكن سطرا.

قال: وقال كعب: الدّم الذي على قاسيون^(٥) هو دم ابن آدم^(٦).

قلت: والعجب من هذه الأقوال، وقد اتفق أرباب السير أن الواقعة كانت بالهند، وأن قابيل اغتتم غيبة أبيه بمكة، فما الذي أتى به إلى جبل ثور وحراء، وهما بمكة؟ وما الذي أتى به إلى البصرة ولم تكن أسست؟ وأين الهند ودمشق؟ وهل كانت دمشق وجدت أو الجابية أو سطرا؟ وهل وضعت التواريخ إلا لتمييز بين الصحيح والسقيم والسالم والسليم؟ اللهم غفراً.

ثم قد اتفقوا على أن قابيل لما قتل أخاه بالهند هرب في جبال الهند، وقيل: إلى اليمن^(٧)، وهلك هناك لما نذكر.

واختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ على أقوال:

أحدها: من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فخسرانه في الدنيا أنه أسخط والديه

(١) انظر «زاد المسير» ٣٣٨/٢.

(٢) «تاريخ الطبري» ١٤٣/١.

(٣) «مروج الذهب» ٦٤/١.

(٤) «تاريخ دمشق» ٢٤/٤٩.

(٥) من قوله: بقاسيون عند مغارة الدم... إلى هنا ليس في (ب).

(٦) «تاريخ دمشق» ٧، ٢/٦٤.

(٧) انظر تاريخ الطبري ١٤٣/١، والمنتظم ٢٢٥/١.

وبقي بلا أخ، وخسرانه في الآخرة أنه أسخط ربّه وصار إلى النار، قاله ابن عباس.

والثاني: من الخاسرين للحسنات، قاله الزجاج.

والثالث: من الخاسرين أنفسهم لأنه أهلكها، والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١] قال ابن عباس: لما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، وهو أول قتيل قتل في الدنيا، فقصدته السباع، فحملة على عاتقه، فكان إذا مشى تخطّ يده ورجلاه في الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جانبه. قال مجاهد: وضعه في جرابٍ وحملة على ظهره وقد أروح، والطير عاكفة عليه تنتظر متى يلقيه حتى تأكله.

واختلفوا في مدّة حملة إياه: فقال مجاهد: حملة على عاتقه مئة سنة، وقال مقاتل: ثلاثين سنة، وروي عن مقاتل ثلاثة أيام^(١)، وقيل: سنة^(٢)، وكل هذه الأقوال فيها مقال. والأصح أنه حملة أياماً، لأن آدم عاد من مكة بعد الحادثة بيسير.

فبعث الله غرابين فاقتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره ورجله، وقايل ينظر إليه، ثم دفنه. فقال قبايل: ﴿قَالَ يَتَوَلَّى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي﴾^(٣) وفيه قولان: أحدهما عورته، والثاني جيفته^(٤)، وهو أعم، وفيه دليل على أن الميت عورة. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

فإن قيل: أليس الندم توبة فلم لم تقبل منه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الندم توبة لهذه الأمة لا لغيرها، لأن الله خصّها بخصائص لم تكن لسواها، قاله الحسين بن الفضل.

والثاني: أنه ندم على حملة لا على قتله.

والثالث: أنه ندم على فوات أخيه لا على ركوب الذنب^(٥).

(١) انظر «زاد المسير» ٣٣٨/٢.

(٢) انظر البداية والنهاية ٩٤/١.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٩٨/٦.

(٤) انظر «زاد المسير» ٣٣٨/٢.

(٥) انظر «زاد المسير» ٣٣٩/٢.

وقال ابن قتيبة: حمله حتى أتى به وادياً من أودية الهند فكمن فيه. وصاح به صائح من السماء قتله لعنك الله، فهرب من الصوت حتى اختلط بالوحش.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي قال: لما قتل قابيل أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء، فناداه الله عز وجل: يا قابيل، أين أخوك هابيل؟ فقال: ما كنت عليه رقيباً. فقال: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتله؟ وأين دمه؟ فحرم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: لما قتل قابيل أخاه كان آدم بمكة فتغيرت الثمار والأطعمة، وحمضت الفواكه، ويبست الشجر، وأمر الماء، واغربت الأرض^(١).

وفي رواية: وبلغ آدم ما صنع قابيل فجاء على أثر ذلك فوجد الأرض قد نشفت^(٢) دمه، فلعن الأرض، فمن أجل ذلك أن الأرض لا تنشف دماً^(٣)، وأنبت الشوك من أجل لعنته.

وفي رواية: لما يبس الشجر وتغيرت الدنيا قال آدم: حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل وهرب إلى اليمن، فأقام آدم مئة سنة لم يضحك حزناً على هابيل^(٤).

قال أبو إسحاق الثعلبي فأنشأ يقول وهو أول من قال الشعر [الوافر]:

تغيّرت البلادُ ومن عليها	فوجهُ الأرض مغبرُّ قبيحُ
وبُدِّل أهلها أثلاً وخمطاً	بجنّاتٍ من الفردوس فيح
تغيّر كلُّ ذي لونٍ وطعم	وقلّ بشاشةُ الوجهِ الصبيح ^(٥)
وقابيلُ أذاق الموتِ هابِلُ	فواحزني لقد فقد المليحُ

(١) انظر «عرائس المجالس» ٤٧.

(٢) نشفت: شربت.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٩٩/٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٩٠/٦.

(٥) في البيت إقواء، ورواه السيرافي بنصب بشاشة على التمييز مع قطع التنوين ورفع الوجه وصفته، وانظر

الكلام على البيت في «أمالي ابن الشجري» ١٦٤/٢، و«الإفصاح» للفارقي ص ٦١.

وهابيلٌ تضمّنه الضريحُ
لهابيلها وقابيلها تصيحُ
فقلبي عند قتلته جريحُ
فهل أنا من حياتي مستريحُ
لعيناً ما يموت فنستريح^(٢)

بهلك ليس بالثمن الربيح
إذا ما المرء غيب في الضريح
فلست مُخلداً بعد الذبيح

فقد في الخلد ضاق بك الفسيح
وقلبك من أذى الدنيا مريح
إلى أن فاتك الخلد المريح
بكفك من جنان الخلد ريح

هذه صورة ما ذكر الثعلبي^(٣)، وهو شعر ركيك مزحوف، وقد أنكر ابن عباس هذا الشعر.

حدّثني أبو القاسم الحبيبي بإسناده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أنّه قال: من قال إنّ آدم قال شعراً فقد كذب على الله ورسوله، ورمى آدم بالمأثم. إنّ محمداً ﷺ والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم، وهو سرياني، وإنما يقول الشعر من يتكلم بالعربيّة.

فلما قال آدم مرثيته في ابنه هابيل - وهو أوّل شهيد كان على وجه الأرض - قال آدم

(١) الشّهلة: العجوز.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ٤٧-٤٨، وتفسير الثعلبي ٤٤٠/٢، ومروج الذهب ١/٦٥-٦٦.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٨.

لشيث: يا بني، إنك وصيتي^(١) فاحفظ هذا الكلام ليتوارث فيرق الناس عليه. فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، وهو أول من خط بالعربية، وكان يقول الشعر، فنظر في المراثية فإذا هي سجع فقال: إن هذا ليقوم شعراً فردّ المؤخر إلى المقدم والمقدم إلى المؤخر فوزنه شعراً، وما زاد فيه ولا نقص منه، تحريماً في ذلك فقال الأبيات.

وذكر الحسن البصري: أن الرجلين اللذين قربا قربان كانا من بني إسرائيل، وكانا أخوين^(٢).

وهذا قول ضعيف، والعلماء على خلافه. والدليل عليه ما روى الأئمة:

فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها، لأنه أول من سنّ القتل». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣). والكفل: الضعف. وكذا قوله تعالى: ﴿يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] دليل عليه، لأنه لو كان من بني إسرائيل لعرف الدفن.

وهل قتل قابيل هابيل بعد تزويج أخت قابيل أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه قتله قبل ذلك لئلا يدخل بها.

والثاني: أنه قتله بعدما دخل بها غيرة وحنقاً وحسداً له، والله أعلم.

ذكر ما تجدد من الحوادث بعد قتل هابيل

حكى الثعلبي عن سالم بن أبي الجعد قال: أقام آدم باكياً حزيناً مئة سنة لا يضحك، ثم جاءت الملائكة فعزته لما نذكر^(٤). وفي التوراة: أنه كان لهابيل لما قتل عشرون سنة، ولقابيل خمسة وعشرون سنة.

وكان قتله إياه في يوم الثلاثاء.

(١) كذا في النسختين، وفي «عرائس المجالس» ٤٧، وصيبي.

(٢) أخرج الطبري في «تاريخه» ١/١٤٣.

(٣) أخرج أحمد في «مسنده» (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

(٤) أخرج الطبري في تفسيره (١١٧٢٠)، وانظر «عرائس المجالس» ٤٨.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أنس بن مالك، قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال: «ذاك يومٌ دمٍ، فيه حاضت حواء، وفيه قتل ابن آدم أخاه»^(١). إلا أن الحديث غريب.

وقد روينا في صدر الكتاب في حديث أبي هريرة الذي أوله: «خلق الله التربة يوم السبت...» وفيه: خلق المكروه يوم الثلاثاء^(٢).

فصل في تعزية الملائكة لآدم عليه السلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أقام آدم مدّة لم يضحك وهو حزين جاءته الملائكة من عند الله بالتعزية، فتقدّم جبريل فقال له: حيّاك الله وبيّاك، أي: أضحكك، ثم أقاموه من العزاء بأمر الله تعالى فصار ذلك سنة.

فصل في هلاك قابيل وعذابه

قال علماء السير: لما وصل آدم إلى الهند هرب قابيل إلى اليمن، وقيل: إلى الصين، وأفرد آدم أولاده عن أولاده، فهربوا إلى الجبال، وأمر أولاده أن لا يناكحهم ولا يحاضروهم، فاعتزلوهم في رأس جبل لا ينزل إليهم منهم أحد ولا يصعد إليهم أحد، فقاموا على ذلك زماناً حتى مات آدم، فنزلوا من الجبل واختلطوا ببنيه، وشاع فيهم الفساد والزنا. وكان نسل قابيل صباح الوجوه، وهم الذين أهلكهم الله تعالى بالطوفان^(٣) لما نذكر.

وأما قابيل فقد اختلفوا في صورة هلاكه على أقوال:

أحدها: أنه لما طرده أبوه كان لا يراه أحد من ولده إلا رماه، فأقبل ابن له أعمى ومعه ولد يقوده، فقال الابن لأبيه الأعمى: هذا أبوك قابيل، فرماه الأعمى فقتله، فقال له ابنه: ويحك قتلت أباك، فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات. فقال الأعمى: ويلي قتلت أبي برميتي، وابني بلطمتي^(٤)، قاله مجاهد.

(١) تفسير الثعلبي ٥٣/٤، وذكره القرطبي ٤١٩/٧.

(٢) راجع فصل في حد الزمان والأيام.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٨، و«التبصرة» ٣٥/١، و«المنتظم» ٢٢٥/١.

والثاني: أن الله رماه بحجر من السماء فقتله، قاله مجاهد.

والثالث: أن جماعة من أهل عدن قتلوه ولم يعرفوه.

والرابع: أنه علقت إحدى رجله بساقها إلى فخذه ووجهه في الشمس حيث ما دار دارت، وعليه في الصيف حظيرة من نار، وفي الشتاء حظيرة من ثلج إلى يوم القيامة، رواه ابن جريج عن مجاهد^(١).

والخامس: أنه معلق بين السماء والأرض يعذب بأنواع العذاب.

والسادس: أنه معلق على جبل بالهند يصيح: العطش، ولا يسقى إلى يوم القيامة، قاله الربيع بن أنس.

والسابع: أنه عُلق برجليه ثمانين سنة، ثم خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنا لنجد في الكتب أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار شطر عذابهم قسمة صحيحة^(٢)، أشار إلى قوله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كفلٌ منها...» الحديث^(٣).

وقال سالم بن أبي الجعد: مكتوب في التوراة: قال الله: ليذهب قابيل طريداً شريداً مذموماً مرعوباً. فذهب وبيده أخته إقليما، فوصل إلى عدن، فأتاه إبليس فقال: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يعبدها ويخدمها، فانصب لها بيتاً واعبدها فيه أنت وولدك، ففعل، فهو أول من عبد النار في الأرض^(٤).

ولم يبق لهما نسل، أمّا القاتل فهلك نسله بالطوفان، وأمّا المقتول فلم يعقب. وإنما الناس كلهم من شيث، فإنه ولد بعد قتل هاويل لما نذكر.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٤٣ عن ابن عباس.

(٢) انظر «التبصرة» ١/٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/١٩٤، وانظر «التبصرة» ١/٣٦.

(٤) سلف قريباً.

(٥) انظر «التبصرة» ١/٤٨، و«المنتظم» ١/٢٢٩.

فصل

واختلفوا فيمن عبد النار بعد قبايل فقال قوم: الملك جم لأنه قال: هي تشبه الشمس والكواكب.

وقال الشرقي بن القطامي: أول من عبدها بعد قبايل أفريدون، قال: هي واسطة بين الرب العظيم وخلقه، وبها شرف العالم وبقاؤه، وبنى لها بيتاً بطوس وبيتاً ببخارى وبيتاً بسجستان.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: أول من عبدها بهمن بن اسفنديار، وبنى لها بيتاً بأرجان ثم تابع الفرس على عبادتها، لما ذكره.

فصل في وصية آدم ووفاته

روى وهب بن منبه عن ابن عباس قال: لما كثرت ذرية آدم اجتمع إليه من ولده وولد ولده أربعون ألفاً، فجعلوا يتحدثون وهو ساكت، فقالوا له: يا أبانا، ما بالنا نتكلم وأنت ساكت؟ فقال: يا بني، إن الله لما أهبطني من جواره عهد إليّ فقال: يا آدم أقلل من الكلام حتى ترجع إلى جوارى^(١).

فلما احتضر دعا شيئاً فأوصاه وعهد إليه، وكتب وصيته، وأمره أن يخفيها عن بني قبايل، وخص شيئاً وولده بها، وعلمه عبادة الخالق، وساعات الليل والنهار، والحدود والشرائع، وقال: يا بني، إن الله أوحى إليّ أني مُخرج منك نوري الذي أريد به السلوك في الأرومات الشريفة، والقنوات الطاهرة، والأصلاب النقية، والأرحام الزكية، أباهي به الأنوار، وأجعله خاتم الأنبياء، وأجعل أمته خير الأمم، وفيهم الخلفاء والعلماء، أقدس الأرض بوجودهم. وإني غشيت حواء وانتقل ذلك النور إليك، فاحتفظ به. وذكر كلاماً في هذا المعنى^(٢).

وكان آدم يحب شيئاً حباً شديداً، وخصوصاً منذ انتقل إليه النور، وكان شيئاً أسرى

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤٤٧/٧.

(٢) انظر «مروج الذهب» ٦٨٦٧/١.

ولد آدم وأتمهم وقاراً وأحسنهم صورة، متجللاً بالنور، متوشحاً بالجلال، عليه الهيئة والوقار والسكينة^(١) وكان نور النبي ﷺ يشرق في وجه شيث، وفي وجوه ولده إلى زمان عبد الله بن عبد المطلب. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

قال مجاهد: وكان في وصيته لشيث: يا بني، لا تركز إلى الدنيا، فإني ركنت إلى الجنة فأخرجت منها، ولا تعمل عملاً بغير مشورة، فإني لو شاورت الملائكة قبل أن أكل من الشجرة لما أكلت منها، ولا تستشيرن امرأة، فإن حواء أمك فعلت بي ما فعلت، ومتى اضطرب في قلبك أمر فلا تفعله، فإني كنت مضطرب القلب عند أكلي من الشجرة.

وقال ابن عباس: مرض آدم أحد عشر يوماً.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن الحسن قال: رأيت شيخاً يتكلم بالمدينة فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب، فقال: لما احتضر آدم، جاءت الملائكة فعرفتهم حواء، فلاذت به، فقال آدم: إليك عني فإنما أتيت من قبلك، خلني بيني وبين ملائكة ربي، فقبضوه^(٢).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبي بن كعب قال: لما احتضر آدم قال لبنيه: أشتهي من ثمار الجنة أو قطفاً منها، فذهبوا يطلبون له منها، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم الأكفان والحنوط والفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا: ارجعوا فقد قضى أبوكم. وكانت حواء قد لاذت به عند الموت تبكي فقال: إليك عني فإنما أتيت من قبلك خلني بيني وبين ملائكة ربي، فقبضوه وغسلوه وكفنوه ثم حفروا له وألحدوه، وقالوا: يا بني آدم، هذه سنة أبيكم.

وقال أبي بن كعب موقوفاً عليه ومرفوعاً: لما وضع آدم على سريرته قال شيث لجبريل: تقدّم فصلّ عليه، فقال جبريل: إنما أنت أولى بالصلاة على أبيك، فتقدّم

(١) انظر «مروج الذهب» ٦٨/١.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «المسند» عن الحسن بن عتي بن ضمرة، عن أبي بن كعب (٢١٢٤٠) وإسناده ضعيف.

شيث فصلى وكبّر ثلاثين تكبيرة، وقال: أربع للصلاة، وست وعشرون إظهاراً لفضل آدم، فقال له جبريل: أصبت^(١).

وقيل: إن جبريل تقدّم فصلى عليه، والملائكة خلفه، وبنوه خلفهم^(٢).

وقال عطاء الخراساني: بكت الخلائق على آدم سبعة أيام^(٣).

واختلفوا في سنّه على أقوال:

أحدها: أنه توفي يوم الجمعة لسبّ خلون من نيسان في السّاعة التي خلقه الله فيها بعد ألف سنة^(٤). قاله مجاهد، وذكره القضاعي في «تاريخه».

والثاني: أنه عاش تسع مئة سنة وثلاثين سنة^(٥)، حكاه كعب عن التوراة.

والثالث: ثمان مئة سنة، قاله مقاتل.

والرابع: ألف سنة إلا أربعين عاماً، حكاه الضحاك عن ابن عباس^(٦).

وقال ابن عباس: ما مات آدم حتى رأى في ولده الزّنا والفساد وشرب الخمر^(٧).

واختلفوا في المكان الذي توفي فيه على أقوال:

أحدها: بالهند على جبل سرنديب الذي أهبط عليه، وعليه قبره، رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٨)، وهو قول الكلبي.

والثاني: أنه توفي بمكّة وكان قد حجّ في تلك السنّة، ومعه ولده شيث فدفنه في أبي

قيس في غار يقال له: الكنز^(٩)، قاله مقاتل.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٦٠-١٦١ عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم ١/٢٢٧-٢٢٨.

(٣) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ٧/٤٥٩.

(٤) انظر «مروج الذهب» ١/٦٩.

(٥) انظر «مروج الذهب» ١/٦٩، وانظر «البداية والنهاية» ١/٩٩.

(٦) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ١/٢٩.

(٧) انظر «المنتظم» ١/٢٢٨.

(٨) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٦١.

(٩) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦١.

والثالث: أنه توفي بمنى، ودفن بمسجد الخيف وعفي قبره، قاله عطاء، وحكاه عن ابن عباس قال: حملته الملائكة من منى إلى الكعبة فصلّت عليه عندها، وطافوا به، ثم ردّوه إلى مسجد الخيف فدفن به^(١).

قال: ولما ركب نوح عليه السّلام السفينة حملة معه، فلما انقضى الطوفان أعاده إلى أبي قبيس فدفنه في غار الكنز، وقيل: دفنه بالبيت المقدّس^(٢).

قال عبد الله بن أبي فراس: قبر آدم في مغارة فيما بين بيت المقدس وقبر الخليل عليه السّلام، فرأسه عند مسجد إبراهيم، ورجلاه تحت صخرة بيت المقدس، وبينهما ثمانية عشر ميلاً^(٣).

قلت: فأقصى ما كان طول آدم ستّين ذراعاً، فكيف يكون طوله ثمانية عشر ميلاً؟! وقال أبو جعفر الطّبري: أوّل من مات في الأرض آدم، يعني على فراشه، وإلا فقد قُتِلَ هابيل قبله^(٤).

فصل في حجّ آدم عليه السّلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: حجّ آدم من الهند إلى مكّة ثمانين حجّة.

وقال محمد بن إسحاق: بلغنا أن آدم لما أهبط إلى الأرض حزن على ما فاته مما كان فيه من نعيم الجنّة، فبوّأه الله تعالى البيت الحرام، وأمره أن يقيم به، فلم تزل مكّة داره حتى قبضه الله بها^(٥).

وقد روي في هذا المعنى حديث مرفوع إلى النبي ﷺ: أنبأنا به غير واحد عن ميمون ابن مهران قال: قال ابن عباس: كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنّة، وكان له بابان من زمرد أخضر: باب شرقي وباب غربي، وفيه قناديل من الجنّة. فلما

(١) انظر «المنتظم» ٢٢٨/١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ٥٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤٥٨/٧.

(٤) «تاريخ الطبري» ١٤٣/١.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٤٢٥/٧.

أهبط آدم أنزل معه الحجر الأسود وهو يتلألاً نوراً، فأخذ آدم الميثاق من ولده وأودعه الحجر الأسود. ولما وصل إلى مكة تلقّتهم الملائكة فقالوا: يا آدم، برّ حجك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي سنة. قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقالها آدم في الطواف. ثم قال آدم: يا ربّ، اجعل لهذا البيت عمّاراً من ذرّيتي، فقال الله: إني معمّره بنبيّ من أمّتك اسمه إبراهيم أتخذه خليلاً وأعلّمه المناسك. فقال: يا ربّ، أسألك من حجّ هذا البيت من ذرّيتي لا يشرك بك شيئاً أن تدخله الجنّة، فقال: يا آدم، ومن مات في الحرم لا يشرك بي شيئاً أدخلته الجنّة.

إلا أنّ جدي رحمه الله ذكر هذا الحديث في «الواهية»^(١). والظاهر أنه موقوف على ابن عباس^(٢).



(١) «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (٩٣٧) وفيه محمد بن زياد، وهو كذاب خبيث يضع الحديث.
 (٢) أخرجه موقوفاً على ابن عباس الأزرق في «أخبار مكة» ٤٥ / ١.

فصل في ذكر شيث بن آدم عليهما السلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: هو بالسريانية شث وشاث، وبالعبرانية شيث^(١).
 وذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري قال: لما قتل هايل ولدت حواء
 لآدم شيثاً، فقال آدم: هذا هبة الله وخلف صدق من هايل، فسماه شيثاً^(٢)، وشيث
 اسم أعجمي.

وحكى أرطاة بن المنذر قال: بلغني أنّ حواء حملت بشيث الوصي حتى نبتت
 أسنانه، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها، ولما وضعت أخذته الملائكة
 فمكث عندهم أربعين يوماً، فعلموه المهين ثم ردّوه إليها^(٣).

وقال مقاتل: أنزل الله على شيث سبعين صحيفة، وإليه تنتهي أنساب بني آدم لأنّ
 جميع النسل انقرض، ولم يبق إلا نسله.

قال: وأنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب^(٤)، منها صحائف آدم وشيث. وكان شيث
 أفضل أولاد آدم وأشبههم بأبيه، ووليّ عهده، وهو أبو البشر كلّهم، وهو الذي بنى
 الكعبة بالطين والحجارة، يعني أنّه رثّ فجدّده. ولما مات آدم جاء إلى مكة فأقام بها
 يحجّ ويعتمر. وضمّ صحفه إلى صحف أبيه، وعمل بالجميع^(٥).

وقال الربيع بن أنس: ولد بعد هايل بخمس سنين.

وفي أيام شيث توفيت حواء بعد آدم بسنة، فدفنها مع آدم في غار الكنز، فلما جاء
 الطوفان حملهما نوح في السفينة ثم ردّهما إلى مكانهما^(٦).

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٥٢.

(٢) أنساب الأشراف ١/٥.

(٣) أخرجه ابن عساکر في «تاريخه» ٢٣/٢٧٣، وفيه بقية بن الوليد، صدوق كثير التديس، وقد عنعن.

(٤) وقد ورد فيه حديث مرفوع أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٢.

(٦) انظر «المنتظم» ١/٢٢٩.

فصل في وفاة شيث

قال علماء السِّير: أقام يُعمر الأرض ويقيم الحدود على المفسدين كما كان يفعل أبوه حتَّى توفي، وهو ابن تسع مئة سنة واثنى عشرة سنة^(١).

واختلفوا في أي مكان توفي فيه على أقوال:

أحدها: بالهند، قاله مجاهد.

والثاني: بمكة، لأنَّه لم يفارقها بعد وفاة أبيه، قاله مقاتل.

قال: وكان له لما مات آدم مئتان وخمسون سنة. ودفن بغار الكنز مع أبويه^(٢). وبيلد

بعلبك مزارٌ يقال: إنه قبره، والله أعلم.

فصل في ذكر ولده أنوش

قال علماء السِّير: ولد أنوش في زمن آدم، فلمَّا احتضر شيث أوصى إليه، وأخبره

بالتُّور الذي انتقل إليه منه، وأمره أن ينبّه ولده على هذا الشرف كابرًا عن كابر وسلفًا

بعد سلف^(٣). فقام ولده أنوش بعده بالأمر أحسن قيام، ودبّر الرعايا وعمل بالشرائع

على ما كان عليه أبوه. وهو أوّل من غرس النّخل وزرع الحَبّ^(٤) وعاش تسع مئة

وخمسين سنة، وقيل وخمسة وستين^(٥)، وفي التوراة: تسع مئة وخمس سنين^(٦) وولد

أنوش بعدما مضى من عمر والده شيث ست مئة وخمس وستون سنة، وفي التوراة: بعد

أن مضى له ست مئة وخمس سنين.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٣، وانظر «مروج الذهب» ١/٧١.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٢.

(٣) انظر «مروج الذهب» ١/٦٩-٧٠.

(٤) انظر «أخبار مكة» للفاكهي ٣/٢٢٣، و«المنتظم» ١/٢٣٠.

(٥) انظر «تاريخ اليعقوبي» ١/٩.

(٦) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٣، و«المنتظم» ١/٢٣٠.

فصل في ولده قَيْنَان

قالوا: ولما احتضر أنوش أوصى إلى ولده قَيْنَان وأخبره بالسرّ الذي أودعه فيه، وأم قَيْنَان نعمة أخت أبيه أنوش، وهي بنت شيث. وولد قَيْنَان بعد مضي سبعين سنة من عمر أنوش، ومن عمر آدم ثلاث مئة ونيّف^(١)، وانتقل النور إلى قَيْنَان، فسار بسيرة أبيه ثم مات وله تسعمائة وعشرون سنة^(٢).

فصل في ولده مَهْلَائِيل

ولما احتضر قَيْنَان أوصى إلى ولده مَهْلَائِيل بن قَيْنَان، وأعلمه بالنور الذي انتقل إليه، فسار بالناس سيرة أبيه وعاش ثمان مئة سنة^(٣). وقال جدي في «أعمار الأعيان»: عاش مَهْلَائِيل ثمان مئة وخمساً وتسعين سنة^(٤).

قال أبو حنيفة الدينوري: كثر ولد آدم في زمان مَهْلَائِيل، وكان سيّد ولد آدم في عصره والقائم بأموورهم، فوقع التنازع بين يدي آدم في الأوطان، ففرّقهم في مهابّ الرياح الأربع، وخصّ ولد شيث بأفضل الأرض، فأسكنهم العراق وما والاها.

وفي التوراة: أن مولد مَهْلَائِيل بعد أن مضى من عمر آدم ثلاث مئة وخمس وتسعون سنة^(٥).

فصل في ذكر يَرْد

بذال معجمة وقيل: بدال مهملة، وهو ابن مَهْلَائِيل، أوصى أبوه إليه، وأخبره بالسرّ المكنون، وانتقال النور إليه وكان حسن السيرة، بنى المدن واستخرج المعادن، وهو الذي بنى بابل والسّوس، وهما أولّ مدينة بنيتا على وجه الأرض من المدن، وملك الأقاليم السبعة، وأمر الناس ببناء المساجد، وقتل السباع الضارية، وذبح البقر والغنم.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٦٣.

(٢) انظر «تاريخ اليعقوبي» ٩/١، و«مروج الذهب» ١/٧٢.

(٣) انظر «مروج الذهب» ١/٧٢.

(٤) «أعمار الأعيان» ١٢٦.

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٤.

وقال جدِّي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: عاش يرذ تسع مئة وتسعاً وستين سنة^(١)، وقيل: ألف سنة.

قال ابن إسحاق: عاش مهلائيل بعدما ولد له يرذ ثمان مئة سنة وثلاثين سنة^(٢).

وفي التوراة: أن يرذ ولد بعدما مضى من عمر آدم أربع مئة وستون سنة^(٣).
واختلفوا فيه:

فقال البلاذري: هو اليازذ بألف، وقال مقاتل: هو أوشنج، وقال ابن مسكويه في «تجارب الأمم»: هو أوشهنج بهاء^(٤).

والأصحُّ أن يرذ غير أوشنج، لأنَّ طائفة زعموا أن أوشنج ولد آدم لصلبه، وأنه عاش أربعين سنة. أمَّا يرذ فقد عاش زماناً طويلاً.
وفي أيام يرذ عُبدت الأصنام^(٥).

ذكر هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: لما مات آدم جعله شيث في مغارة بالهند في الجبل الذي أهبط عليه، فكان بنو شيث يعظّمونه ويدورون حوله، حتّى مات شيث^(٦). وقام يرذ بن مهلائيل، فقال بنو قاييل: إنَّ لبني شيث دَوَّاراً يدورون حوله ويُعظّمونه وليس لكم شيء، فتصوّر لهم إبليس في صورة شيخ، فنحت لهم صنماً على صورة آدم، فهو أوّل صنم عمل وعبد في الأرض^(٧).

وذكر الشَّرقي بن قُطامي قال: كان وُدٌّ وسُواع ونسر ويغوث ويعوق قوماً صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم أهاليهم وأقاربهم، فقال لهم رجل من ولد قاييل: هل لكم أن تعمل لكم خمسة أشخاص على هيئتهم؟ قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام

(١) «أعمار الأعيان» ١٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٦٤.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/١٦٤.

(٤) أنساب الأشراف ١/٥، و«تجارب الأمم» ١/٥.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/١٧٠ عن ابن عباس.

(٦) «الأصنام» ص ٥٠، ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/٢٣١-٢٣٢.

(٧) «الأصنام» ص ٥١، ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/٢٣٢، وليس فيه ذكر إبليس.

على هيئة أشخاصهم، ونصبها لهم، فعظّموها. وذهب ذلك القرنُ وجاء آخر فعبدوها، وقالوا: ما عظّم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم. فلم يزالوا على ذلك حتى بعث الله إدريس فنهاهم عن عبادتها، فلم ينتهوا، حتى بعث الله نوحاً فأهلكوا بالطوفان، وأحدرها الطوفان من الهند إلى الحجاز، فأرست على جُدّة، فتقاسمها العرب بعد ذلك، فكان وُدُّ بدومة الجندل لكلب، وسُواع لهذيل، ونسر لجمير آل ذي الكلاع، ويعوث لمُراد وغطفان بالجُرف، ويعوق لهمدان^(١).

وذكر ابن إسحاق: أن الأصنام إنما عبدت في زمن أنوش.

وذكر قوم من الأوائل: أن سبب عبادة الأصنام أن طوائف من الهند والصين كانوا يزعمون أن الباري سبحانه وتعالى جسم، وأن الملائكة أجسام، وأنهم احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أنهم اتخذوا تماثيل وأصناماً على صور تخيلوها بالوهم في الباري سبحانه والملائكة مختلفة^(٢) القدود والأشكال، وصوّروا أيضاً على صور بني آدم من مات من الفضلاء والحكماء، وأقاموا يعبدونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور، وأقاموا على ذلك مدّة حتى نبّههم بعض حكمائهم وقال لهم: هذه الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام إلى الباري، وهي حيّة ناطقة، وما يتجدّد في العالم إنما هو بتأثيرها، فعظّموها فهي أولى بالتّعظيم لتقربكم إلى الباري.

فأقاموا على ذلك مدّة، فلما رأوا بعضها يطلع نهاراً وبعضها ليلاً ويخفي نهاراً، صنعوا لها أصناماً على هيئتها، وأشهر ما بنوا لها سبعة هياكل على عدد الكواكب السبعة، وجعلوا لكل كوكب هيكلًا وصنماً.

فالهيكل الأول: للقمر بنى له منوش شهر بيتاً بالنُّوبهار، وسادنه يدعى برمك، وإليه ينسب يحيى بن خالد البرمكي. وكتبوا على بابه: أبواب الملوك تحتاج إلى عقل وصبر ومال. فمرّ به بعض الحكماء فكتب تحته: الواجب على الحرّ إذا كان معه إحدى الثلاث أن لا يقرب أبواب الملوك.

(١) انظر «الأصنام» ص ٥١-٥٨، و«المنتظم» ١/٢٣٢.

(٢) في (ب) و(م): مختلفي.

والهيكل الثاني: لُعْطارد على جبل بأصبهان يقال له: مارس، بناه بعض الأوائل.
والهيكل الثالث: للزُّهْرَة بناه الضحاك بَعْمَدان، ولم يزل حتى أخرج في أيام عثمان
ابن عفَّان رضي الله عنه.
والهيكل الرابع: هيكل للشمس بفرغانة بناه كاوس الملك، وسماه كاوسان، ولم
يزل حتى أخربه المعتصم.
والهيكل الخامس: للمريخ بالهند على جبل يقال له: شروان، أخربه المأمون.
والهيكل السادس: للمشتري ببلاد الصين، وهو الذي ذكرناه في العجائب، وحوله
المقاصير، وهو عظيم.
والهيكل السابع: لزُحَل، وهو بأقصى الصِّين، ويقال: إنه قائم إلى هلمَّ جرًّا. وزعم
قوم أنه بالحجاز وهو الكعبة، ولهذا طال بقاؤها على ممر الدهور والعصور، لأنَّ زحل
تولَّاهَا ومن شأنه البقاء والثبوت^(١).



(١) انظر مروج الذهب ٤/٤٢-٤٤، ٤٧-٥٢.

فَصَلِّ فِي ذِكْرِ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

قال ابن إسحاق: واسمه أَخْنُوخ، وقيل: إنه أَخْنُوخ^(٢)، وهو ابن يَرْدُ بن مَهْلَائِيل بن قَيْنَانَ بن أَنُوش بن شِيث بن آدم عليه السلام.

وقال الجوهري: إنما سمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى^(٣).

وأوحى إليه وأبوه يَرْدُ حَيٌّ قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

قيل: إنَّ الله تعالى ذكره في موضعين^(٤).

قال ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: وهو أوَّل من أعطي النبوة، وبعثه الله بعد آدم، وهو خَنْوُخ بن يَرْدُ^(٥).

قلت: وهو وهم. أوَّل نبيٍّ بعد آدم شِيث، وقد ذكرنا أنَّ الله تعالى أنزل عليه صحائف.

والصَّابِئَةُ تَسْمِي إِدْرِيسَ هِرْمِس، ومعناه: حكيم الحكماء، وتزعم أنه يملك الدنيا وينزل من السماء، وقد أشار إلى هذا أبو العلاء المعرِّي فقال^(٦) [الطويل]:
إذا دخل الهرماسُ جِلَّقَ والياً فما كذبت فيما تقولُ الهَرَامِسُ
يعني الحكماء.

وقال ابن إسحاق: وُلد إدريس في حياة آدم، وقد مضى لآدم ست مئة واثنتان وعشرون سنة، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

وهو أوَّل من خَطَّ بالقلم وخاط الثياب، وكان الناس يلبسون الجلود.

(١) انظر قصته في «تاريخ يعقوبي» ١/ ١١، و«تاريخ الطبري» ١/ ١٧٠-١٧١، ومروج الذهب ١/ ٧٣، و«عرائس المجالس» ص ٥٠، و«المنتظم» ١/ ٢٣٣، و«الكامل» ١/ ٦٢، و«البداية والنهاية» ١/ ٩٩.

(٢) في (ب): (خَنُوخ).

(٣) «الصحاح»: (درس).

(٤) الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

(٥) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٠.

(٦) البيت في «لزوم ما لا يلزم» ٢/ ٨٦١.

وهو أوّل من سبى بني قابيل واسترقّ منهم.

وأوّل من طرز الطرز، وخطّ بالرّمْل، ونظر في علم النُّجوم وسَمَّاهَا، ووضع أسماء البروج والكواكب السيّارة ورَتَّبَهَا في بيوتها، وأثبت لها الشَّرْف والوبال والحضيض والأوج والتربيع والتثليث والتسديس والمقاربة والمقابلة والرجوع والاستقامة ونحو ذلك، لأنه صعد إلى السماء، وألهمه الله تعالى معرفة هذه الأشياء.

وهو أوّل من جاهد في سبيل الله.

وقال ابن عباس، موقوفاً عليه ومرفوعاً: أربعة من الرُّسل سُريانيون: آدم وشيث وخنوخ ونوح^(١).

قال: وجَمَعَ بني آدم ووعظهم وأمرهم ونهاهم عن مداناة بني قابيل، فخالفه جماعة فقتل وسبى واسترقّ^(٢).

قال: وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في السنة، فحسده إبليس وعصاه قومه، فرفعه الله إليه، وأدخله الجنّة، ورُفِعَ وهو ابن ثلاث مئة وخمس وستين سنة^(٣).

قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وعاش أبوه بعد رفعه إلى السماء مئة وخمساً وثلاثين سنة^(٤).

ذكر رفعه

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿٥٧﴾ [مريم: ٥٧] اختلفوا في المكان الذي رفع إليه على أقوال:

أحدها: في السماء الرابعة، وفي «الصحيحين» من حديث مالك بن صعصعة في

(١) ذكره ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ من كلام ابن عباس، وأخرجه الطبري في «تاريخه» ١/

١٧١ وابن حبان في صحيحه (٣٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٥٠.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٤٠، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٣٣.

(٤) «التبصرة» ١/ ٥٠.

المعراج أن النبي ﷺ رآه فيها^(١).

والثاني: أنه في السماء السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنه في السماء السابعة. حكاه أبو سليمان الدمشقي^(٢).

والرابع: في الجنة، قاله ابن زيد. وقيل: إن الجنة في السماء الرابعة.

وفي سبب صعوده إلى السماء أقوال:

أحدها: أنه كان يصعد له في كل يوم من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم في زمانه، فتعجبت منه الملائكة، واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له، فهبط إليه في صورة بني آدم وصحبه، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل معه، فعل ذلك ثلاث ليالٍ، فأنكره إدريس وقال له: من أنت؟ فقال: لا تخف، أنا ملك الموت، استأذنت ربي في زيارتك وصحبتك فأذن لي، فقال له إدريس: لي إليك حاجة، فقال: وما هي؟ قال: تقبض روحي. فأوحى الله تعالى إليه: اقبض روحه، ففعل، ثم ردها الله إليه بعد ساعة، فقال له ملك الموت: وما الفائدة في سؤالك؟ فقال: لأذوق الموت وكرهه فأكون له أشد استعداداً. ثم قال له إدريس: لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء وتريني الجنة والنار، فأذن الله له في رفعه إلى السماء، وسأل ملك الموت أن يسأل مالكاً خازن النار أن يفتح له باباً من أبوابها، ففعل، فرآها فقال لملك الموت: كما أريتني النار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة فأدخله إيَّاهَا، فلما طاف فيها قال له ملك الموت: اخرج منها وعد إلى مستقرِّك، فتعلَّق بشجرة فقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكاً فحكَّم بينهما، فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ فقال: لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقته. وقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مریم: ٧١] وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فلست أخرج. فأوحى الله إلى ملك الموت: بإذني دخل وبأمری فعل ما فعل، فخلَّ عنه، فتركه، قاله

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) انظر الأقوال في «زاد المسير» ٢٤١/٥.

ابن عباس ووهب، ورواه زيد بن أسلم مرفوعاً^(١).

فإن قيل: فمن أين لإدريس هذا وكيف علم ما في كتابنا، وهو لم ينزل عليه؟!
فالجواب: إن الله تعالى ألهم إدريس ما فعل، وعلمه وجوب الورود وامتناع
الخروج من الجنة.

وفيه أيضاً دليل على قدم القرآن، وأنهم قد كانوا يعرفون بعضه من اللوح المحفوظ،
وإليه وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿
[الأعلى: ١٨-١٩] وإن لم يكن فيها بهذه العبارة.

والقول الثاني: أن بعض الملائكة أحب إدريس، فنزل إليه وصادقه، فلما عرف
إدريس أنه ملك قال له: هل بينك وبين ملك الموت معرفة؟ قال: نعم، هو أخي من
الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفني عنده ليرفق بي عند الموت؟ قال: نعم، اركب
على جناحي، ففعل فصعد به إلى السماء فمرَّ به على ملك الموت فرآه جالساً على
كرسي وبين يديه لوح فيه أسماء الخلائق، فكلمه في إدريس، فقال له: تكلمني في
رجل قد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجله إلا طرفة عين؟ فمات إدريس بين
جناحي الملك، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: إن إدريس سار يوماً في الشمس فأصابه وهجها، فقال: اللهم خفف ثقلها
عن من يحملها، فأصبح الملك الموكل بها وقد خفف عنه ما لم يعهده، فسأل الله عن
ذلك فأخبره بدعاء إدريس له، فقال: يا رب اجمع بيني وبينه واجعل بيننا حُلَّةً، فأذن له
فأتاه فقال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت أن يؤخر أجلي، فقال: إن الله لا يؤخر
نفساً إذا جاء أجلها، ولكن أكلمه فيك فما استطاع أن يفعل معك فعل. ثم حمله الملك
على جناحه فوضعه عند مطلع عين الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: لي إليك
حاجة، فقال: وما هي؟ قال: صديق لي من بني آدم أسألك أن تؤخر أجله، فقال:
ليس لي إلى ذلك سبيل، ولكن إن أحببت أخبرتك متى يموت، فنظر في اللوح وقال:
إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً. قال: وكيف؟ قال: لأنني لا أراه يموت إلا

(١) انظر عرائس المجالس ٥٠-٥١، والمنتظم ١/٢٣٤.

عند مطلع عين الشمس. قال: فإني خلّفته هناك، قال: انطلق فما تجده إلا ميتاً، فرجع فوجده ميتاً. رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال كعب^(١).

قال: وذكر إدريس في التوراة فقال: أخنوخ أحسن خدمة الله فرفعه الله إليه.

وقال ابن عباس: أربعة من الأنبياء أحياء فيهم أرواحهم: إدريس وعيسى في السماء وإلياس والخضر في الأرض وكلهم يموتون إلا إدريس، فإنه إذا مات الخلق أصابته دهشة، فيبقى في عداد الموتى وهو حي.

وقيل: هو الذي يجب الله تعالى إذا مات الخلق وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فيقول إدريس: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقال كعب الأخبار: في التوراة: إنه استجاب لإدريس ألف إنسان ممن دعاهم إلى الله تعالى.

وقال الهيثم بن عدي: أوصى إدريس قبل رفعه إلى ابنه مُتُّوشَلُخَ - بالحاء المهملة، ويقال: مُتُّوشَلُخَ بالحاء المعجمة - وكان صالحاً، ولد على مضي ثلاث مئة سنة من عمر والده إدريس.

ومُتُّوشَلُخَ أول من ركب الجمل، وسلك طرائق الخير والصلاح. ولما عهد إليه إدريس عرفه بالنور الذي انتقل إليه منه، وعاش تسع مئة وتسعاً وستين سنة، ويقال: إنه ولد في حياة آدم.

وأقام إدريس في النبوة مئة وخمسة وستين سنة، ورفعه وهو ابن أربع مئة وخمسة وستين سنة، كذا روى الضحاك عن ابن عباس، وحكاه الخطيب.

فصل في ولد مُتُّوشَلُخَ

منهم لَمَكُ أبو نوح عليه السلام، وبربر وروس وصقلاب، وإليه تنسب الصقالبة، وصابىء وإليه تنسب الصابئة، ولم ينتقل النور إلا إلى لَمَكُ ويقال لامك، لما نذكر، وإليه أوصى مُتُّوشَلُخَ.

(١) انظر الأقوال الثلاثة في زاد المسير ٥/ ٢٤١-٢٤٣، والتبصرة ١/ ٥٠-٥٢.

ذكر الجاهلية الأولى

واختلفوا فيهم: فقال الشعبي: كانوا بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم^(١).

قال أبو العالية: بين داود وسليمان^(٢).

وقال مجاهد: بين إبراهيم وموسى.

وقيل: في زمان نمرود، كانت المرأة تلبس قميصاً من الدرّ فيرى باطنها فيه، ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره، تعرض نفسها على الرجال^(٣).

وروى عطاء عن ابن عباس قال: وفي زمان متوشلخ كانت الجاهلية الأولى، وهما بطنان من بني آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، ونساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، فجاء إبليس إلى رجل من السهل فأخذ زمارة فزمر بها فظهر له منها صوت لم يسمع مثله، فاجتمع إليه الرجال والنساء ونزلوا من الجبل، فاختلفوا وتبرّج النساء، فكثرت الفواحش حتى أغرقهم الطوفان، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ أَيُّهَا الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]^(٤).

وإبليس أول من زمر وناح^(٥).



(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤/٢٢.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ٥٢٨/٣.

(٣) أورده البغوي في «تفسيره» ٥٢٨/٣ عن الكلبي.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤/٢٢، وقال ابن حجر في «الفتح» ٥٢٠/٨: إسناده قوي.

(٥) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٢) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فصل في الحوادث التي كانت في زمان إدريس عليه السلام

قصة هاروت وماروت

وهما اسمان سُريانيان لا ينصرفان للعجمة والتعريف، وكانت قصتهما على ما ذكره ابن مسعود وابن عباس والمفسرون: أن الملائكة رأت ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة، وذلك في زمان إدريس، فعَيروهم بذلك، ودعوا عليهم وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين اخترتهم وجعلتهم في الأرض خلفاء وهم يعصونك، فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض ورَّكبت فيكم ما رَّكبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا. فقالوا: سبحانك ما كان لنا - أو ما ينبغي لنا - أن نعصيك. فقال لهم الله تعالى: فاختروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم.

وقال الكلبي: قال الله: اختاروا ثلاثة، فاختروا عزائيل، ووعزا وهو هاروت، وعزايا وهو ماروت، وإنما غُيِّر اسمهما لَمَّا قارفا الذنب - [كما غُيِّر] ^(١) اسم إبليس وكان اسمه عزازيل - قال: فرَّكبت فيهم الشهوة وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن القتل والزنا، والشرك وشرب الخمر.

فأمَّا عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال، وسأل الله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله ورفع، وسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى. وقيل: إنه بقي على حاله.

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم، فصعدا إلى السماء.

قال قتادة: فما مرَّ عليهما شهر حتى افتتنا.

قالوا جميعاً: وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النساء، قال علي كرم الله وجهه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلَمَّا رأياها

(١) في الأصول الخطية: «فركب»، وما أثبتناه من «عراس المجالس».

أخذت بعقولهما أو بقلوبهما فراوداها عن نفسها، فأبت ثم انصرفت. ثم عادت في اليوم الثاني، ففعلت مثل ذلك، فأبت، وقالت: لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل لنا إلى هذه الأشياء، فإن الله تعالى نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت لهما بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا الخمر فانتشيا، ووقعا على المرأة فزنيا، فلما فرغا رأهما الشاب^(١) فقتلاه.

قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم؛ فمسخ الله الزهرة كوكباً.

قال علي بن أبي طالب والسدي والكلبي: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأكبر، قالت: فما أنتما بمدركي حتى تعلماني إياه، فقال أحدهما للآخر: علمها، قال: إني أخاف الله، قال الآخر: فأين رحمة الله؟ فعلمها ذلك، فتكلمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً^(٢).

قال الثعلبي: فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها، وقيدوها فقالوا: هي الكوكبة الحمراء، واسمها بالفارسية أناهيد^(٣)، وبالنبطية بيدخت. قال الثعلبي: ويدل على [صحة] هذا القول ما حدثنا [به] يحيى بن إسماعيل الحربي بإسناده عن علي^(٤) قال: كان النبي ﷺ إذا رأى سهيلاً قال: «لَعَنَ اللهُ سُهَيْلاً إِنَّهُ كَانَ عَشَّاراً بِالْيَمَنِ، لَعَنَ اللهُ الزُّهْرَةَ فَإِنَّهَا فَتَنَتِ الْمَلَائِكِينَ»^(٤).

قال: وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي: ارمق الكوكبة، يعني

(١) في «تفسير البغوي»: (إنسان).

(٢) النقل بالحرفية من «عرائس المجالس» ص ٥١-٥٣، وانظر «تفسير البغوي» ١/١٠٠-١٠١.

(٣) في الأصول الخطية: (هيد)، وفي «عرائس»: (ناهيد) والمثبت من «معجم الذهبي» ص ٧٦.

(٤) أخرجه بشطره الأول الطبراني في «الكبير» (١٨١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣٩١)، وقال ابن الجوزي: وهذا الحديث لا يصح.

وأورد الشطر الآخر السيوطي في «الدر المنثور» ١/٩٧، وعزاه لابن مردويه. وما بين معقوفين من «عرائس المجالس».

الزهرة، فإذا طلعت فأذني أو فأيقظني قال: فلما طلعت أيقظته، فجعل ينظر إليها ويسبها سباً شديداً، فقلت: رحمك الله، أتسب نجماً سامعاً لله مطيعاً؟! فقال: إن هذه كانت بغياً فلقي الملكان منها ما لقياً^(١).

قال نافع: وكان ابن عمر إذا رأى الزهرة قال: لا مرحباً ولا أهلاً^(٢).

وروى أبو عثمان النهدي عن ابن عباس بنحو ما روى مجاهد عن ابن عمر.

وقال الثعلبي: وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله قواماً للعالم وأقسم بها فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥] وإنما كانت هذه التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى الزهرة من جمالها، فلما بغت جعلها الله شهاباً، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة، ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذا سهيل العشار كان رجلاً عشاراً باليمن، فلما رأى رسول الله ﷺ النجم ذكره فلعنه. يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس^(٣) قال: كانت الزهرة امرأة فُضِّلَتْ بالحسن على الناس كما فضلت الزهرة على سائر الكواكب^(٤). ومثله قال كعب الأخبار وغيره، والله أعلم.

قلت: هذا صورة ما ذكره أبو إسحاق، ولم يبين ما في الأحاديث من المقال، وما رواه عن النبي ﷺ في الزهرة وسهيل لا يصح، وكذا ما روي عن ابن عمر. والدليل عليه أن جدي رحمه الله ذكر هذه الأخبار في «الموضوعات»:

أبنا جدي رحمه الله قال أبنا أبو منصور القرّاز بإسناده عن معاوية بن صالح عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر فلما كان آخر الليل قال: يا نافع طلعت الحمراء؟ فقلت: لا، فلما طلعت أخبرته، فقال: لا مرحباً ولا سهلاً. قلت: سبحان الله، نجم سامع مطيع تقول له هذا؟! فقال: ما قلت إلا ما سمعته من رسول الله ﷺ، أو قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ربّ كيف صبرك على بني آدم في الخطايا

(١) «عرائس المجالس» ص ٥٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤٥٨/١.

(٣) في (ب): قيس بن عباد عن أنس وابن عباس.

(٤) «عرائس المجالس» ص ٥٣.

والذُّنوب؟ قال: إنِّي ابتليتهم وعافيتكم، قالوا: لو كنَّا مكانهم ما عصيناك. قال: فاختروا ملكين منكم. فلم يألوا أن اختاروا هاروتَ وماروتَ فنزلا، فألقى عليهما الشَّهوة، فجاءت امرأةٌ يقال لها: الزُّهرة، فوقعت في قلوبهما، فجعل كلُّ واحد منهما يخفي ما في نفسه عن صاحبه. ثم راوداها فقالت: لا أمكنكما حتى تعلَّمني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان، فامتنعا، ثم أجابا ففعلا، فمسخها الله كوكباً، وقطع أجنحتهما. ثم سألا التوبة من ربِّهما فخيرهما بين عذاب الدنيا والآخرة فاخترتا عذاب الدنيا، فأوحى الله إليهما: انطلقا إلى بابل، فانطلقا فهما منكوسان بين السماء والأرض يُعذبان إلى يوم القيامة». قال جدِّي رحمه الله: هذا حديث لا يصحُّ^(١).

وأما حديث سهيل وقول النبي ﷺ: «لعن الله سهيلاً كان عشيراً باليمن» فقال جدِّي في «الموضوعات» أيضاً: لا يصحُّ مرفوعاً إلى رسول الله ولا موقوفاً، تفرَّد به إبراهيم ابن يزيد الخوزي، اتفقوا على تركه^(٢).

وقد رويت لنا هذه القصة وليس فيها أن الزهرة مُسخت كوكباً: قرأتُ على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النُّقور، بإسناده عن عبد الله بن عمر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَهْبَطَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْأَرْضِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَنَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ؟»، فقال الله: هَلُمُّوا مَلَكَينِ مِنْكُمْ حَتَّى نُهْبِطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ، فاختروا هاروتَ وماروتَ، فأهبطا إلى الأرضِ^(٣) ومثَّلت لهما الزُّهرة امرأة من أحسنِ البَشَرِ، فسألاها نَفْسَهَا، فقالت: لا والله حتى تتكلَّما بهذه الكلمة من الإِشْرَاقِ. فقالا: لا والله لا نشركُ بالله شيئاً، فذهبت عنهما. ثم رجعتُ بصبيٍّ تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبيِّ، فقالا: لا والله لا نقتله أبداً، فذهبت ثم رجعت بقدرِ خمر تحمله، فسألاها نَفْسَهَا فقالت: لا والله حتى تشربا هذا القَدَحَ، فشربا القَدَحَ حتى سَكرا فوقعا عليها، وقتلا الصبيِّ، وتكلَّما بالكلمة. فلما أفاقا قالت

(١) «الموضوعات» (٣٨٩).

(٢) «الموضوعات» (٣٩٠).

(٣) من قوله: فننظر كيف يعملان... إلى هناليس في (ب).

لهما : والله ما تَرَكَتُما شيئاً مما أُبَيَّتْماهِ إِلَّا فَعَلْتُماهِ حين سَكِرْتِما ، فخيِّرا بين عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ فاختارا عذابَ الدُّنيا»^(١).

وحكى جدِّي رحمه الله قولين آخرين :

أحدهما : عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنها جارا في الحكم.

والثاني : أنها همّا بالمعصية فقط ، ولم يفعلها^(٢).

قلت : وهذا القول الأخير أليق بالملائكة من مباشرة الزنا والقتل وشرب الخمر.

قال ابن عباس : فلما أمسيا همّا بالصعود إلى السماء بعدما قارفا الذنب ، فلم تطعهما أجنحتهما ، فعلما ما حلّ بهما ، فقصدا إدريس وسألاه أن يشفع لهما إلى الله ، وقالا : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة^(٣) مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا ، فشفع فيهما ، فخيّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لعلمهما أنه ينقطع ، فهما ببابل يعذبان^(٤).

وروى أبو صالح عن ابن عباس ، ورواه معاذ مرفوعاً والموقوف أصحّ ، قال : جاءهما جبريل ، فبكيا وبكى معهما ، فقال لهما : ما هذه البليّة التي أجحفت بكما؟ وما هذا الشقاء؟ فإنّ الله أرسلني إليكما يخيّركما بين عذاب الدنيا وأن تكونا عنده في الآخرة في المشيئة إن شاء عذبكما وإن شاء رحمكما ، وإن شئتما عذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا وأن يكونا عند الله في المشيئة ، قال : فهما ببابل فارس معلقان بين جبلين في غار تحت الأرض ، يعذبان طرفي النهار إلى الصبيحة. فلما رأت الملائكة ذلك خفقت بأجنحتها ثم قالت : اللهم اغفر لولد آدم فذلك قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٥) [الشورى : ٥].

وفي رواية : فقالت الملائكة : عجباً لبني آدم كيف يعبدون الله تعالى ويطيعونه على

(١) «كتاب التوابين» (١) وهو عند أحمد في «المسند» (٦١٧٨) ، وهو حديث باطل انظر الكلام عليه في «المسند».

(٢) ذكرهما في «زاد المسير» ١/١٢٤.

(٣) في (ب) : «العمل».

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٥٣.

(٥) أخرجه المقدسي في «التوابين» (٢) موقوفاً.

ما فيهم من الشهوات^(١)؟!؟

وقال ابن مسعود: فداروا حول العرش أربعة آلاف سنة يعتذرون من اعتراضهم.

واختلفوا في كيفية عذاب الملكين على أقوال:

أحدها: أنهما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة، قاله ابن مسعود.

والثاني: أنهما مكبّلان بالحديد من أقدامهما إلى رؤوسهما، قاله قتادة.

والثالث: أنّ جباً ملىء ناراً وجعلا فيه، قاله مجاهد^(٢).

وحكى أبو إسحاق الثعلبي: أنّ رجلاً قصدهما ليتعلّم السّحر، فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مزرقة عيونهما، مسوّدّة جلودهما، ليس بين ألسنتهما والماء سوى أربعة أصابع، وهما يصيحان: العطش العطش!. فلما رأى ذلك هاله مكانهما، فقال الرجل: لا إله إلا الله، وقد نهيا عن ذكر الله، فلمّا سمعا كلامه قالا: من أنت؟ فقال: رجل من أمة محمد ﷺ، قالا: وقد بُعث؟ قال: نعم، فقالا: الحمد لله، واستبشرا وقالا: هو نبيّ الساعة، وقد دنا [انقضاء عذابنا]^(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء واختبار، فينصحاه وينهياه ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بتعليم^(٤) السّحر.

فصل في حكم السّاحر والسّاحرة

قال أبو حنيفة رضي الله عنه: يكفر السّاحر بسحره ويقتل، أمّا المرأة السّاحرة فتحبس ولا تقتل، سواء كان السّاحر من أهل الإسلام أو من أهل الكتاب.

وقال الشافعي: لا يكفر بسحره، فإن قتل بسحره قُتل به.

وقال أحمد: يكفر بسحره قتل أو لم يقتل. وهل تقبل توبته؟ فيه روايتان.

وأما ساحر أهل الكتاب فلا يقتل عند أحمد إلا أن يضرّ بالمسلمين فيقتل، لنقض

(١) «كتاب التوايين» (٢).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٥٣-٥٤، و«زاد المسير» ١/١٢٥.

(٣) «عرائس المجالس» ص ٥٤. وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) كذا في النسختين (ب) و(ل)، وصوابه: بتعلم.

العهد، وسواء في ذلك الرجل والمرأة^(١). وعنده وعند الشافعي^(٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وإنما وَّحَدَّ الفتنه وهما اثنان لأنَّ الفتنه مصدر، والمصادر لا تثني ولا تجمع. وفي مصحف أبي بن كعب: «وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر» سبع مرَّات وفي مصحف ابن مسعود «وما يعلم الملكان من أحد».

وقال مقاتل: فإن أبي إلا التعليم قالوا: ائت ذلك الرماد فبل عليه، فإن بال عليه خرج منه نور الإيمان والمعرفة ساطعاً في السماء، وينزل شيء أسود فيدخل في مسامعه شبيه الدخان، فذلك غضب الله تعالى وسخطه.

وقال مجاهد: الملكان لا يصل إليهما أحد وإنما يختلف إليهما شيطان في السنة مرَّة واحدة.

ومعنى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهو أن يبغض كل واحد منهما صاحبه ويؤخذ عنه.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله: بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت امرأة من دومة الجندل تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته - حدثاً ذلك - تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعلم به، قالت عائشة لعروة: يا ابن أخي فرأيتها تبكي حتى إني لأرحمها، تقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج فغاب عني، فدخلت إلى عجوز فشكوت إليها فقالت: إن فعلت ما أمرك به جعلته يأتيك، فلما كان الليل جاءني بكليين أسودين فركبت أحدهما، وركبت الآخر، فلم يكن كثيراً حتى أتينا بابل، فإذا برجلين معلقين بأرجلهم فقالا: ما جاء بك؟ قلت: أتعلّم السحر. فقالا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ فلا تكفري وارجعي، فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت إليه ففزعت ولم أفعل شيئاً فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم، قالوا: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت لم تصنعي شيئاً. ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك. قالت: فذهبت

(١) انظر «زاد المسير» ١/١٢٦.

(٢) لم يتضح لنا المراد من هذه العبارة، وانظر المغني لابن قدامة ١٢/٢٩٩-٣٠٦.

فبلتُ فيه، فرأيت فارساً مقنَّعاً بالحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، وجئتُهما وأخبرتُهما، وقلت: رأيت كذا وكذا، فقالا: صدقت، ذاك إيمانك خرج منك، اذهبي.

قالت: فقلت للمرأة، والله ما أعلم شيئاً، ولا قالوا لي شيئاً، قالت: بلى، لن تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرتُ، فقلت: اطلعي فطلعت، فقلت: الحقي فلحقت، فقلت: افركي ففركت، فقلت: اطحني فطحنت، فقلت: اخبزي فخبزت، فلما رأيت أنني لا أريد شيئاً إلا كان، سُقط في يدي وندمت، والله يا أمَّ المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً، فسألت أصحاب رسول الله ﷺ [وفاة رسول الله ﷺ]، وهم متوافرون، فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف وحذر أن يفتيها بما لا يعلم، إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حينئذٍ أو أحدهما.

قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا أهل الورع، ولو جاءنا مثلها اليوم لوجدت نوكي أهل حُمقٍ وتكلفٍ بغير علم^(١).

واختلفوا في كيفية جواز تعليم السحر على الملكين، على قولين:

أحدهما: أنهما كانا لا يتعمدان تعليم السحر، ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه، ويأمران باجتنابه. ولكن الشقي يتعلم منهما في خلال صفتها، ويترك موعظتها ونصيحتها. فعلى هذا التأويل لا يكون تعلم السحر كفرًا، وإنما يكون العمل به كفرًا، كما أن من عرف الزنا ولم يفعله لم يأثم وإنما يأثم الفاعل له.

والثاني: أن الله عزَّ وجلَّ امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، وجعل المحنة في الكفر والإيمان، فيكفر بتعلمه، ويؤمر بترك التعلم، لأنَّ السحر كان قد كثر في تلك الأمة. ويزداد المعلمان عذاباً بتعليمه فيكون ذلك ابتلاء للمعلم والمتعلم. والله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما ابتلى بني إسرائيل بالنهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ودليله قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وهذان القولان

(١) «كتاب التوايين» (١٢٠)، وما بين معكوفين منه.

حكماهما الزَّجَّاج واعتمد عليهما^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ﴾ أي: بالسَّحَر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وعلمه ومشئته ﴿وَيَنَعَمُونَ مَا يُضْرُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] في الدارين ولا ينفعهم.

فصل في الملوك الذين كانوا في زمن إدريس عليه السلام

قال علماء السير: كان في زمانه طهمورث.

وعامة المؤرخين على أنه طهمورت، بقاء منقوطة بنقطتين من فوق.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: طهمورب، بقاء منقوطة بواحدة من تحت.

واختلفوا فيه: فقال بعضهم: هو من ولد آدم لصلبه، وقال قوم: هو ابن أوشهنج أو أوشنج ابن آدم لصلبه. وقال ابن مسكويه في «تجارب^(٢) الأمم»: طهمورث أخو أوشنج. وقال قوم: هو من ولد أوشنج، بينه وبينه عدة آباء^(٣).

فسلك طهمورت طريق الخير، وسار بسيرة من تقدّم من ولد آدم، وملك الأقاليم السبعة، ونفى الأشرار، وهو أول من كتب بالفارسية^(٤)، واتخذ الخيل والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشي، واستمرت أحواله على الصّلاح، وهو أول من وضع التّاج على رأسه من الملوك، وبنى المكان الذي جدّده سابور ملك فارس، وأقام به حتى مات عن ست مئة سنة^(٥).

فصل

ثم ملك بعده أخوه جَم شيد، وتفسيره: سيّد الشعاع، سمي به لأنه كان وضيئاً جميلاً، وملك الأقاليم السبعة، وسار في الناس السيرة الجميلة، وزاد على أخيه

(١) «معاني القرآن» ١/١٨٣-١٨٤.

(٢) كذا في (ب) و(ل)، واسمه الذي طبع به: تجارب.

(٣) انظر تجارب الأمم ١/٦.

(٤) في (ب): «تكلم بالشرمانية».

(٥) «تجارب الأمم» ١/٦ مع تصرف وزيادة، وانظر «التبصرة» ١/٥٢، والمنتظم ١/٢٣٦.

طهمورت، وعمل السيوف والسلاح، واستخرج الابريسم والقز، ورتب الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة علماء، وطبقة خدما، وطبقة كتاباً وصناعاً وحرّائين ونحوهم. وعمل أربع خواتيم: خاتماً للحرب والشُرطة وكتب عليه «الأناة»، وخاتماً للخراج وجباية الأموال وكتب عليه «العمارة»، وخاتماً للبريد وكتب عليه «الوحي»، وخاتماً للمظالم وكتب عليه «العدل»^(١). قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام^(٢).

قلت: ولو استعملت هذه الرسوم في ملك الإسلام أيضاً لكان أولى، لأنّ الرّعية من أحوج الناس إليها.

وألزم جمّ شيد أهل الشرّ والفساد الأعمال الصّعبة من قطع الصخور من الجبال، وعمل الحمّامات، واستخراج المعادن من البحار كالذهب والفضّة والجوهر والياقوت، وأحدث النيروز فجعله عيداً. ولمّا طال عمره تجبّر وطغى وادّعى الرّبويّة^(٣).

قال جدي في «أعمار الأعيان»: عاش جمّ شيد تسع مئة سنة وستين سنة^(٤). فسار إليه الضّحّاك واسمه بيوراسب بن الأهبوب.

واختلفوا في الضّحّاك: فقال قوم: هو من ولد جيومرت، وقيل: إنّ الضّحّاك ابن أخت جمّ شيد، كان جمّ قد زوّج أخته من بعض أشرف بيته فولدت الضّحّاك، وقيل: إنّما زوّجها جمّ من الأهبوب، فولدت الضّحّاك. فسار إليه الضّحّاك، فهرب بين يديه، فتبعه فظفر به، فقال له: مثلك يدّعي الرّبويّة فإن كنت إلهاً فادفع عن نفسك، فنشره بمنشار - ذكره الجوهر بنون^(٥). وغيره يقول: ميثار بالياء - وملك الضّحّاك ألف سنة، وكان يدين بدين البراهمة^(٦).

(١) النقل من «التبصرة» ١/٥٢-٥٣، والمنتظم ١/٢٣٦-٢٣٧، وانظر «تجارب الأمم» ١/٦.

(٢) «التبصرة» ١/٥٣، و«تجارب الأمم» ١/٦.

(٣) وانظر «التبصرة» ١/٥٣، و«تجارب الأمم» ١/٧.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ١٢٧.

(٥) «الصّحاح»: (نشر).

(٦) انظر «تجارب الأمم» ١/٧، و«التبصرة» ١/٥٣، والمنتظم ١/٢٣٧.

وذكر هارون بن المأمون: أنَّ الضحَّاك كان في زمن نوح عليه السَّلام، وأنه أرسل إليه وإلى قومه، قال: والفرس تسمِّيه بيوراسب، والعرب تسمِّيه: الضحَّاك، وهو أوَّل الفراعنة، ومملِك الأقاليم كلها، وكان ساحراً فاجراً، وهو أوَّل من نشر بني آدم بالمنشار وصلب، ووضع العشور، وأوَّل من غُنِّي له، وأوَّل من ضرب الدرَّاهم والدنانير، وسنذكره في الحوادث التي كانت بين نوح وإبراهيم عليهما السَّلام واختلاف الناس فيه وقتل أفريدون له إن شاء الله تعالى.



فَصْلٌ فِي ذِكْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

قال علماء السير: هو نوح بن لَمَكِ، وقيل: ابن لامك بن مُتُوشَلُخِ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السَّلَامُ، ابن مهلائيل بن يَرْدِ بن قَيْنَانَ بن أَنُوشِ بن شِيثِ بن آدم عليه السلام.

وهو أوَّلُ نبيٍّ بعد إدريس.

قال مقاتل: اسمه السَّكَنُ، وقيل: ساكن، ونوح لقب له.

واختلفوا لِمَ سَمِّيَ نوحاً على أقوال:

أحدها: لأنه ناح على قومه، قاله مجاهد.

والثاني: على نفسه، قال مقاتل: كان فيه غضب وحدة فلماً لم يجبه قومه دعا عليهم فجاءه إبليس فقال له: يا سكن لقد عملت معي عملاً لو اجتمع أهل الأرض وجميع جنودي لما قدروا عليه، قال: وما هو؟ قال: دعاؤك على قومك بالهلاك، ولو كنت صبرت على أذاهم لعلَّه أن يؤمن واحد منهم لكان فيه كفاية، فندم نوح وقال: يا ليتني صبرت، فناح على نفسه.

والثالث: أنه نظر يوماً إلى كلب قبيح المنظر فقال: ما أقبح صورة هذا الكلب، فأنطقه الله تعالى وقال: يا سكن، على من عيبت؟ على النَّقْشِ أو على النَّقَّاشِ؟ فإن كان على النَّقْشِ فلو كان خلقي بيدي لحسنته، وإن كان على النَّقَّاشِ فالعتب عليه، أعتراضٌ في ملكه؟ فعلم أن الله أنطقه، فناح على نفسه وبكى أربعين سنة، قاله السُّدي عن أشياخه.

وقيل إن الله تعالى أوحى إليه ذلك^(٢).

وقال ابن إسحاق: هو اسم موضوع له، ونوح بالسُّريانية سكن.

(١) انظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١٣/١، و«تاريخ الطبري» ١٧٩/١، و«البدء والتاريخ» ١٥/٣، و«مروج الذهب» ٧٤/١، و«عرائس المجالس» ص ٥٥، و«تاريخ دمشق» ٢٤٠/٦٢، و«المنتظم» ٢٣٩/١، و«الكامل» ٦٧/١، و«البداية والنهاية» ١٠٠/١.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣٧٤/١، وتفسير البغوي ١٦٨/٢.

وقال السُّدي: إنما سمي سكناً لأنَّ الأرض سكنت به.

وقال ابن عباس: كان نجَّاراً. وقد ذكره الله في مواضع، قيل: في ثمانية وعشرين موضعاً، فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

واختلفوا في ولادته وإرساله: فذكر جدي في كتاب «التبصرة» وقال: ولد نوح بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، ولما تمَّ له خمسون سنة أرسله الله تعالى^(١). وكذا قال الزبير بن بكار.

وقال مقاتل: بينه وبين آدم ألف سنة، وبينه وبين إدريس مئة سنة، وبُعث وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة.

وقيل: كان ابن ثمانين وأربع مئة سنة، وكان أبوه لَمَك قد أخبره بالنور الذي انتقل إليه وأوصاه فقال: يا بني، لا تتَّبِعِ الأُمَّةَ الخاطئة.

واختلفوا في مقامه على قولين: أحدهما: بالهند، قاله مجاهد. والثاني: بأرض بابل والكوفة، قاله الحسن البصري.

وقال ابن عباس: بعثه الله والكفر قد عمَّ الأرض، ولم يكن في الدنيا من يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وكانوا يعبدون الأصنام، وهم ذرية قابيل وغيرهم، فقال لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ يعني: الأشراف والسادة، قال الفراء: هم الرجال ليست فيهم امرأة ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] أي: في خطأ ظاهر عن الحق ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ وإنما لم يقل: ليست، لأنَّ معنى الضلالة الضلال ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

فصل في الرُّسل والرِّسالة

العرب تقول: أرسلت فلاناً في رسالة فهو مرسل ورَسُول. قال الجوهري: والرَّسول أيضاً الرِّسالة، قال كثير: [من الطويل]

(١) «التبصرة» ١/٦٥.

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحِثُ عِنْدَهُمْ بَسِيرٌ وَلَا رَأْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ^(١)
 ومن شرط الرسول أن يكون ذكراً، وقال بعض الناس: يجوز أن يكون أنثى،
 واحتجوا بأن النبي ﷺ قال: «أربع نبيات بعثهن الله: حواء وأم موسى وأم عيسى وامرأة
 فرعون»^(٢).

ولعامة العلماء قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩].
 ولأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، والأنوثة توجب الستر، وبينهما تنافٍ لما
 عرف من نقصان المرأة.

ولا يجب قبول قول الرسول حتى يقيم الدليل على صدق دعواه.
 وقالت الخوارج: يجوز قبل إظهار المعجزة ويجب قبول قوله، وذلك باطل، لأنه
 لا يقع الفرق بين الصادق والكاذب إلا بإظهار المعجزة التي هي خارجة عن قوى
 البشر.

فإن قيل: فلم أرسل الرسل من جنسنا ولم يكونوا من الملائكة؟

فالجواب من وجوه: أحدها: لأنهم لو لم يكونوا من جنسنا لم يشفقوا علينا.
 والثاني: لأننا إذا أخطأنا شفّعوا فينا. والثالث: لأننا إذا عرفنا نسبه وحسبه كان أبلغ في
 تصديقنا إيّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فأمّا ما يتعلق برسالة نبينا ﷺ فسنذكره في سيرته إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥]
 الآية، روى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، فلف في
 لبد، فيرون أنه قد مات، ثم يقوم فيدعوهم إلى الله تعالى ويقول: اللهم اهدهم وإلا
 فصبرني.

وقال مقاتل: لبث يدعو قومه تسع مئة وخمسين سنة، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ
 أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] أي: أقام داعياً إلى الله.

(١) «الصحاح»: (رسل)، و«رواية الديوان» ص ٢٧٨: «بليلى ولا أرسلتهم برسيل»

(٢) لم نقف على من خرج هذا الخبر، وأورده القرطبي في «تفسيره» ٢٧٤/٩.

وذكر ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: ولد نوح ولأبيه ثمانون سنة، فأقام يدعوهم إلى الله مئة وعشرين سنة، وركب في السفينة وهو ابن ست مئة سنة، ثم مكث بعد ذلك ثلاث مئة وخمسين سنة^(١).

وروى الثعلبي عن مقاتل أنه قال: بُعث نوح بعد مئة سنة، وركب السفينة وهو ابن ست مئة سنة، وعاش ألفاً وخمسين سنة.

قلت: والأصح أنه أقام فيهم داعياً إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما ذكر الله تعالى.

وقال مجاهد: لما طال عليه أمرهم، واشتدَّ تجبرهم، دعا عليهم وسأل الله إهلاكهم، فأوحى الله إليه ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقال الربيع: ما دعا عليهم إلا بعد أن أياسه الله من إيمانهم بهذه الآية، وهي قوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ والأنبياء لا يفعلون شيئاً إلا بالوحي ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْبِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أي: آدمياً ﴿وَمَا نَرْبِكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧] أي: سفلتنا، قال ابن مسعود: قيل: إنهم الحاكة. فلما جادلوه وأطالوا الخطاب أخبره الله تعالى أنه مهلكهم. فقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] فحيثُ قال: ﴿لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا﴾ [هود: ٣٧] الآية. الفلك: السفينة.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ على أقوال:

أحدها: بمرأى منا، قاله ابن عباس. والثاني: بمنظر منا^(٢). قاله الضحاك.

والثالث: بعلمنا، قاله مقاتل. والرابع: بحفظنا ووحينا، قاله الربيع^(٣).

وقال ابن عباس: لم يكن يعلم كيف يصنع الفلك، فأوحى الله إليه أن اصنعها مثل

(١) «الطبقات الكبرى» ١/٤٠-٤١.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» ٨/٩٣، عند قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾

[القمر: ١٣-١٤]

(٣) انظر «زاد المسير» ٤/١٠١.

جَوْجُو الطَّيْرِ^(١).

وكان الله قد أمره بغرس السَّاج فغرسه ثلاثين سنة حتى تمَّ واستوى، وقيل: في أربعين سنة.

وقال الربيع: الشجرة التي عمل منها السفينة نبتت حين ولد نوح، فارتفع طولها ثلاث مئة ذراع.

واختلفوا: في كم صنعها؟

فقال عكرمة: في مئة سنة، قال: وكان جبريل يعلمه كيف يصنعها.

وعن ابن عباس: أنه بناها في سنتين، وقال سلمان الفارسي: في أربع مئة سنة، وهذا تفاوت بعيد. قالوا: والأظهر في سنتين، لأنه موافق لحاله. وفجَّر الله عين القار ولم تكن قبل ذلك^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

قال مجاهد: معناه لا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بالطوفان. وقال ابن عباس: أمر أن لا يشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ أي: وكان يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: استهزؤوا به، وهو يقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] إذا رأيت العذاب.

واختلفوا في طولها وعرضها على أقوال:

أحدها: أنه كان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها في الهواء ثلاثة وثلاثون ذراعاً، رواه مجاهد عن ابن عباس^(٣).

والثاني: أنه كان طولها ألف ذراع وعرضها ثلاث مئة وثلاثون. حكاه السُّدي عن أشياخه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» ٣٤/١٢.

(٢) في عرائس المجالس ٥٧: وفجر الله له عين القار بجانب السفينة تغلي غلياناً حتى طلاها به.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣٥/١٢، وفي «تاريخه» ١٨١/١ عن قتادة.

والرابع^(١): كان طولها ألفي ذراع، وعرضها ست مئة ذراع، ذكره جدي رحمه الله في «التبصرة»^(٢).

والقول الأوّل حكاه كعب عن التّوراة، وزاد فيه: أوحى الله إلى نوح أن اصنع الفلك وطوله ثلاث مئة ذراع، وارتفاعه ثلاثة وثلاثون ذراعاً وعرضه خمسون. وليكن بابها في عرضها، واركب أنت وامرأتك وبنوك وكنائك، ومن كلّ شيء من اللّحم زوجان ذكر وأنثى، فإني مُنزل المطر على الأرض أربعين يوماً وليلة، فأُتلف كلّ شيء على وجه الأرض، واعمل تابوتاً من عود الشمشار واجعل فيه جسد آدم، واحمل معك زاد سنة. ففعل نوح ذلك. وأرسل الله الطوفان على الأرض في سنة ست مئة من عمر نوح، في ستة عشر يوماً من الشهر الثاني، ولبث في الماء مئة وخمسين يوماً. ثم أرسل الله ريحاً فغشيت الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وغيون القطر وميازيب السماء، واستقرّت السفينة في الشهر السادس على جبل قردا. هذا نصُّ التوراة^(٣).

وذكر في التوراة: أنه جعلها ثلاث طبقات، فكان هو ومن معه من بني آدم في الطبقة العليا، وفي الوسطى الأنعام والدّواب والطيور، وفي السفلى الوحوش والسباع والبهائم والهوام، وكانت مطبقة.

واختلفوا في عدد من ركب فيها على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أربعين رجلاً وأربعين امرأة، قاله مقاتل.

والثالث: سبعين رجلاً ونوح وأولاده الثلاثة وكنائنه.

والرابع: كانوا ثمانين، وبنوه الثلاثة ونساؤهم، قاله ابن عباس.

والخامس: كانوا ثلاثين رجلاً، قاله ابن عباس أيضاً.

(١) كذا جاء في الأصول الخطية دون ذكر الثالث، وقد ذكر في طول السفينة وعرضها أقوال أخرى، انظر

«البداية والنهاية» ١/ ١١٠.

(٢) «التبصرة» ١/ ٦٥، وانظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٨١-١٨٢.

(٣) النقل من «المعارف» ص ٢٢، وانظر «سفر التكوين» الإصحاح السادس والسابع.

والسادس : كانوا ثمانية ، نوح وبنوه الثلاثة وامرأة نوح وكنائنه ، قاله ابن جريج .

والسابع : كانوا سبعة ، نوح وبنوه وكنائنه ، قاله الأعمش .

والثامن : ثلاثة عشر ، ذكره ابن إسحاق . وقد حكى جدي هذه الأقوال في «التبصرة»^(١) .

قلت : والأصح أنهم كانوا ثمانين .

واختلفوا من أي مكان ركبوا على أقوال :

أحدها : من مكان الكوفة ، قاله ابن عباس ، ومنه فار التَّنُور .

والثاني : من الهند ومنه فار التَّنُور ، قاله ابن مسعود .

والثالث : من الشام من عين وردة ، قاله مقاتل ، وذكره جدي في «زاد المسير»

و«التبصرة» ، وقال : كانت منزل نوح عليه السلام ، يعني عين وردة^(٢) .

وذكره أيضاً أبو الحسين محمد بن عبد الله الرّازي فيما حكاه عنه الحافظ أبو القاسم

في «تاريخ دمشق» قال : إنّ دمشق كانت دار نوح ، ومنشأ السفينة من خشب لبنان ، وأنه

ركب فيها من عين الجرّ في البقاع ببلد بعلبك ، وهو وادٍ بين جبلي لبنان وسنير . قال :

وإنّ الماء فار من تنور خلف حائط الحصن الداخل من مدينة دمشق من ناحية باب

جَيْرُون على طريق باب الفراديس^(٣) .

قلت : ولم ينقل هذا غير أبي الحسين الرّازي ، فإنّ الحافظ نقل عنه أنه قال : قرأته

في كتاب «أخبار الأوائل» . والظاهر أن نوحاً كان مقيماً بأرض بابل ، ومن ثمّ ركب في

السّفينة ، لما نذكر .

وقال مجاهد : بنى السفينة على الجبل الذي أهبط عليه آدم بالهند ، ويقال له : بوذ

وواشم ، ومنه ركب في السفينة ، فصار قولاً رابعاً .

واختلفوا في المراد بالتَّنُور على أقوال :

(١) «التبصرة» ٦٦/١ ، و«زاد المسير» ١٠٦-١٠٧/٤ ، وانظر «تاريخ الطبري» ١/١٨٧-١٨٩ .

(٢) «زاد المسير» ١٠٥-١٠٦/٤ ، و«التبصرة» ٦٦/١ .

(٣) «تاريخ دمشق» ٢٤١/٦٢ .

أحدها : أنه تُنور أهله ، كانت امرأته تخبز فيه وهو في منزله في زاوية مسجد الكوفة ،
واسم امرأته وردة ، وقيل : واغلة ، فنبع الماء ويدها في الخبز ، قاله زرّ بن حبيش^(١) .
والثاني : أنّ المراد بالتُّور وجه الأرض ، قال ابن عباس : قيل له : إذا رأيت الماء
قد علا على وجه الأرض فاركب^(٢) .

والثالث : أنه تنور^(٣) الصبح ، قاله عليّ عليه السلام .

والرابع : تنور الشمس ، وروي عن علي أيضاً^(٤) .

وقال الجوهري : التُّور الذي يخبز فيه قال : وقوله تعالى : ﴿وَفَارَ التُّورُ﴾ قال علي
عليه السلام : هو وجه الأرض^(٥) . هذه صورة ما ذكره الجوهري .

وقال ابن عباس : لما فار التُّور دار الماء حوله وامتدّ ، فصار حول الأرض
كالإكليل ، فأقبلت الوحوش تطلب قلل الجبال ، فنادى نوح : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ
اللَّهِ بَجَرِيهَا وَمُرْسِنَهَا﴾ [هود : ٤١] .

وقال الضحاك : كان إذا أراد أن يرسو قال : ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فرست ، وإذا أراد أن
تجري قال : ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فجرت . قال الزجاج : والفوران : الغليان . وسمي طوفاناً
لأنه طفا فوق كل شيء ، أي : علاه .

وقال الهيثم بن عدي : حمل معه تابوت آدم معترضاً بين الرجال والنساء .

وقال أبو العالية : جاءه إبليس فتعلّق بكوئثلها فقال له نوح : ويحك قد غرق الناس
من أجلك . قال : فما تأمرني ؟ قال : تُب إلى ربِّك . فقال : أسأله هل لي من توبة ؟ فسأل
الله فقال : نعم ، يسجد لآدم ، فأخبره فقال : ما سجدت له وهو صاحب المملكة ،
أسجد له وهو كف من تراب ؟! فقال له نوح : لا أحملك معي ، اذهب . فأوحى الله إليه

(١) انظر «تفسير الطبري» ٣٩/١٢ .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣٨/١٢ ، والضمير عائد على نوح عليه السلام .

(٣) كذا في النسخ والتبصرة ٦٥/١ ، وفي «تفسير» الطبري ٣٨/١٢ : تنوير .

(٤) «زاد المسير» ١٠٥/٤ ، و«التبصرة» ٦٦-٦٥/١ .

(٥) «الصحاح» : (تنر) .

دعه فإنه من المنظرين^(١).

وقال مجاهد: آخر من دخلها الحمار، فتعلق بذنبه إبليس فمنعه نوح من الركوب فيها، وقال: علمني خصالاً أحترس بها منك، قال: إياك والكبر فإني ما وقعت فيما وقعت إلا به، وإياك والحسد فإني حسدت آدم فهلكت، وإياك والطمع فإنه هو الذي أوقع آدم فيما أوقعه، وإياك والعجلة فإنها هي التي أحوجتك إلى الدعاء على قومك حتى هلكوا^(٢).

وقال ابن عباس: أراد بقوله: ﴿أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى حفظاً للنسل ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي ولدك وعيالك ﴿وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وهم الذين ركبوا معه السفينة. ومعنى اثنين على التأكيد، ولأنه لا يستغني أحدهما عن الآخر. قال ابن عباس: أول ما حمل نوح معه الذرة^(٣)، وآخر ما حمل معه الحمار، فلما دخل تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه وصدرة في السفينة، فصاح نوح: ويحك ادخل وهو لا يقدر، فقال: أدخل، ولو كان معك الشيطان - كلمة زلت عن لسانه - فلما قالها خلى الشيطان سبيل الحمار فدخل، ودخل معه إبليس، فقال له نوح: اخرج يا عدو الله، فقال: ألم تقل ادخل وإن كان معك الشيطان؟ لا بد لك من حملي معك. وكانوا يزعمون أنه في ظهر الفلك^(٤).

وقال الثعلبي: وذكر مالك بن سليمان الهروي في «تفسيره» أن الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام وقالتا، احملنا، فقال: أنتما سبب الضرر والبلاء والأوجاع، فلا أحملكما، قالتا: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك، فمن قرأ حين خاف مضرتهما ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] لم يضره^(٥).

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٢٥٩/٦٢. وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ٢٤١/١ عن أنس. الكوثل: مؤخر السفينة.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦٥/١٧ (مخطوط) عن وهب بن منبه مطولاً.

(٣) الذر: النمل الأحمر الصغير، واحده ذرة. «حياة الحيوان» للدميري ٣٥٦/١.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١٨٤/١.

(٥) انظر «عرائس المجالس» ٥٨.

قال ابن عباس: لما ركب في السفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء، قال الله تعالى: ﴿فَفَنَحْنَا أُبُوبَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١-١٢] ارتفع الماء على رؤوس الجبال العالية أربعين ذراعاً، فهلك من كان على وجه الأرض من ذي روح وشجر وغير ذلك، ولم يبق سوى من في السفينة. قال كعب: قرأت في التوراة أنه هلك جميع العالم إلا عوج ابن عناق، وعناق بنت آدم، فإنه لم يبلغ الماء إلى ركبته، وعاش إلى زمان موسى^(١) وسنذكره.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «لما فار التور خشيت أم الصبي على ابنها فصعدت به الجبل، فلما لحقها الماء جعلته على رقبتها، فبلغ الماء رقبتها، فجعلته على رأسها فرفعت يديها به، فذهب بها الماء. فلورحم الله أحداً لرحم أم الصبي»^(٢).

فإن قيل: فما ذنب البهائم والطيور؟ فالجواب ما ذكره مقاتل قال: حضرت آجالهم فأميتوا بالغرق^(٣).

وقال السدي: كثرت أرواث الدواب في السفينة فأوحى إلى نوح: اغمز ذنب الفيل فغمزه، فخرج منه خنزير وخنزيرة، فأكلا الأرواث. ونظر إلى فأر يقرض جوانب السفينة فأوحى إليه اضرب بين جبھتي الأسد، فضرب فخرج منه سنور وسنورة فأكلا الفأر^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٨٥، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٦٦: كيف يزعم بعض المفسرين أن عوج كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى . . . إلى غير ذلك من الهذيان التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

(٢) عرائس المجالس ٥٨، أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٢/ ٣٤٢-٥٤٧، قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٦٦: وهذا حديث غريب وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة، وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقياً عن مثل كعب الأحبار، والله أعلم.

(٣) انظر «زاد المسير» ٤/ ١١٣.

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ١٨١، وانظر «عرائس المجالس» ٦٠، وقال ابن كثير ١/ ٢٧٠: وهذا أثر غريب جداً.

وقال ابن الكلبي، قال نوح: يا ربّ كيف أجمع بين الشاء والأسد؟ فقال الله: أنا أنزع العداوة من بين البهائم^(١).

وقال ابن عباس: ما أهلك الله قوم نوح إلا بطغيانهم، أقام ينذرهم زماناً فمضت عليه قرون، فما كان يأتي عليه قرن إلا وهو أخبث من الآخر، حتى إن الأخير منهم ليأتي إلى نوح بولده فيقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنوناً، فإياك أن تتبعه، ثم يبصق في وجهه ويضربه^(٢).

وقال مالك بن أنس الفقيه: كان الرَّجُل في زمان نوح ينتسب إلى خمسة عشر جدّاً كلهم أحياء^(٣).

وقال مجاهد: كانوا يمرّون عليه وهو يعمل السّفينة فيقولون: يا سكن، صرت نجّاراً بعد النبوة، وهو يدعوهم إلى الله تعالى فيضربونه فيدعو عليهم، فأعقم الله أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد مدّة سنين^(٤)، قال: وكان الثُّور من حجارة يُخبز فيه لآدم، فكانوا يتوارثونه، وكان في دار نوح، فأوحى الله إليه قد جعلت فورانه علماً على هلاكهم^(٥).

فإن قيل: فلم أهلكهم بالغرق؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لما رأوه يعمل السّفينة استهزؤوا به، وقالوا: تزعم أنك تسلّم ونحن نغرق؟! وضربوه ضرباً مبرحاً، فأغرقهم الله.

والثاني: لأنّ عذاب الله مختلف على ما يشاء، وذلك أبلغ في العظة من أن يهلكوا بنوع واحد، فتارة بالغرق وتارة بالريّح، وتارة بالخسف والزلازل، وذلك أبلغ في القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ﴾ أي: في مكان منقطع عن دين أبيه ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿

(١) انظر «عرائس المجالس» ٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣٦/١٢ عن عبيد بن عمير الليثي.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ٢٤٤/١.

(٤) في (ب): ستين سنة.

(٥) انظر «تفسير البغوي» ٦١٩، و«زاد المسير» ١٠٥/٤.

[هود: ٤٢] أي يمنعني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] الآية. ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] وقد وعدتني نجاتي وأهلي. واختلفوا في اسمه: فقال ابن عباس: كنعان، وقال عبيد بن عمير: يام، وكان كافراً^(١)، وليس له في التوراة ذكر، وكان ينافق بإظهار الإيمان، ولم يعلم نوح بذلك، فقال له الله تعالى: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٢) أي: معرفة ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

قرأت على شيخنا: الموفق الحنبلي بإسناده عن عبد الرزاق، عن وهيب بن الورد قال: لما عاتب الله نوحاً في ابنه وأنزل عليه ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بكى ثلاث مئة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجداول من البكاء^(٣).

واختلفوا في ابن نوح؛ فقال بعضهم: كان ولد خُبْثَة، أي: لزنية من غيره ولم يعلم نوح بذلك، فأخبره الله تعالى أنه ليس من أهله، أي: ولده، وبه قال الحسن ومجاهد^(٤).

وقال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه قط، ثم قرأ: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ فقلت: فإن الله حكى عنه أنه قال: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه؟! وأهل الكتابين لا يختلفون أنه ابنه، فقال الحسن: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب؟ إنهم يكذبون^(٥).

وقال عبيد بن عمير: نرى أن رسول الله ﷺ إنما قضى الولد للفراش من أجل ابن نوح^(٦).

وقال جعفر الصادق^(٧): كان ابن امرأته، واحتج بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ولم يقل

(١) انظر «تفسير البغوي» ٦٢٠، و«زاد المسير» ١٠٩/٤.

(٢) في (ب): إنه عمل عملاً غير صالح. اهـ. وهذه قراءة عكرمة، انظر «تفسير الطبري» ٥١/١٢.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ٦٧-٦٨/١، وانظر «التوايين» ٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤٩/١٢، وانظر «زاد المسير» ١١٣/٤.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٠/١٢.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٠/١٢.

(٧) في «تفسير البغوي» ٦٢١: قال أبو جعفر الباقر.

مَنِّي. وعامة العلماء على أنه ابنه لصلبه صيانة لنوح، وحملوا قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إِمَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ، وَإِمَّا عَلَى مَعْنَى لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وَعَدْتِكَ بِنَجَاتِهِمْ^(١).

قالوا: وما بغت امرأة نبي قط، وإنما كان خيانة امرأة نوح ولوط في الدين لا في الفراش، لأن امرأة نوح كانت تقول للناس إنه مجنون، وامرأة لوط تدلهم على الأضياف، وهذا قول ابن عباس وعكرمة وابن المسيب وابن جبير ومجاهد والضحاك^(٢)؛ فحينئذ قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] الآية.

وقال ابن عباس: لما انقضت ستة أشهر قيل: ﴿يَتَأَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَعِي﴾ [هود: ٤٤] ومعنى ﴿أَبْلَعِي﴾ أي: اشربي وانشفي، ﴿وأقْلَعِي﴾: أمسكي ﴿وَعِضْ أَلْمَاءَ﴾ نقص وذهب ونضب.

وقال مقاتل: ابتلعت الأرض ما نبع منها وصار ما نزل من السماء هذه البحور الذين ترون في الأرض.

والأصح أن البحور خلقت مع خلق الأرض. وأهل الهند يقولون: ما نعرف الطوفان ولا وصل إلينا.

وقال كعب: وفي التوراة لما نضب الماء كشف نوح غطاء السفينة فرأى وجه الأرض قد يبس، فعلم أن العذاب قد رفع، فبعث الغراب فوقه على جيفة فأبطأ عليه فلعنه، فبعث الحمامة فعادت مسرعة والطين في رجليها، فدعا لها فطوقها الله الطوق^(٣).

وقال وهب: إن بعض الأرض لم تسرع إلى بلع مائها لما قيل ابلعي ماءك، وبعضها أسرع، فالتى أسرع صار مائها عذبا إذا حُفر، والتي أبطأت صار مائها مرّاً.

(١) انظر «زاد المسير» ١١٣/٤.

(٢) أخرج هذه الأخبار الطبري في «تفسيره» ٥١/١٢.

(٣) أخرج الطبري في «تاريخه» ١٨١-١٨٢/١.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن الماء نزل من السماء من المجرة.
وقال ابن عباس: في «التوراة» مكتوب: يقول الله - أو قال الله - لا أعيد الطوفان
على الأرض أبداً^(١).

وأهل الرصد يزعمون أن الكواكب بأسرها اجتمعت في برج السرطان، فأثرت
الغرق وقضي الأمر بهلاك القوم.

﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ [هود: ٤٤] يعني: السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] أي: استقرت
ورست، والجودي: جبل بأرض قردى بناحية الموصل. فنزلوا هناك بإجماع المفسرين
وبنوا قرية سموها: ثمانين على عددهم، والقرية باقية إلى هلم جراً، وتسمى: سوق
ثمانين، نزل كل واحد في بيت منها^(٢).

وقال ابن قتيبة: في التوراة: إن الله قال لنوح: إن آية ميثاقي الذي أوثقتكم به أن لا
أفسد الأرض بالطوفان، فإذا رأيتم قوسي الذي في الغمام فاذكروا ميثاقي^(٣).

وقال مجاهد: طافت السفينة الدنيا وجاءت إلى الحرم فلم تدخله بل طافت به
أسبوعاً، وكان البيت قد رفع إلى السماء^(٤).

وقال مقاتل: لم يرفع، وإنما جاء جبريل فأخذ الركن والمقام فأودعهما في جبل
أبي قبيس، وخرّب البيت فبقي موضعه ربوة حمراء.

واختلفوا: هل صاموا عاشوراء في السفينة أم على الأرض؟ على قولين. وذكر
وهب بن منبه وابن قتيبة في «المعارف» أن نوحاً صام شهر رمضان في السفينة، وهو
أول من صامه^(٥).

وقال مجاهد: بين الطوفان وآدم ألفا سنة ومئتان واثنان وأربعون سنة.

(١) سفر التكوين الإصحاح ٩ الفقرة ١١.

(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٢٤٢.

(٣) «المعارف» ص ٢٣.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٦٢/ ٢٤٦.

(٥) «المعارف» ص ٢٤.

وفي «التوراة»: إنَّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاث مئة سنة^(١).
وقال مقاتل: ودخل نوح الشام وبنى حرَّان ودمشق وغيرهما.

فصل في ذكر وفاته

قال وهب: ولما انقضى الطوفان ومضت ثلاثة قرون ودخل القرن الرَّابع، احتضر نوح، فعهد إلى ابنه سام وأوصاه بالنُّور الذي انتقل إليه.
واختلفوا في موضع وفاته على أقوال:
أحدها: أنه توفي بثمانين القرية التي أرسى السفينة عليها في أزج في الجودي.
حكاه هارون بن المأمون.

والثاني: بالهند على جبل بوذ، قاله ابن إسحاق.

والثالث: بمكة، قاله عبد الرحمن بن سابط. وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام.

والرَّابع: ببابل. وبيد بعلبك في البقاع قرية يقال لها الكرك فيها قبر يقال إنه قبره، وقريب من الكرك جبل يقال له: جبل الدَّير في سفحه قرية يقال لها: بوارش، يقال: إن كنعان قال ﴿سَأَوِيَّ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] إنه ذاك الجبل.
وذكر جدي في كتاب «أعمار الأعيان» وقال: عاش نوح ألف سنة وأربع مئة وخمسين سنة^(٢).

وقيل: ألف سنة، وقيل: ألفاً وثلاث مئة سنة.

فصل في ذكر أولاده

قد ذكرنا أنه كان معه في السفينة ثلاثة: سام وحام ويافث.
وقال ابن الكلبي: كان له ابن اسمه يونان، واليونان من نسله.
وكان نوح قد نقم على حام، فحكى ابن الكلبي: أن حام بن نوح أصاب امرأته في

(١) سفر التكوين الإصحاح ٩ الفقرة ٢٨، وانظر «المعارف» ص ٢٤.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨، وما بين معقوفين زيادة منه.

السَّفِينَةَ، فدعا عليه نوح بتغيير النطفة فجاء بالسُّودان.

وقال وهب: نام نوح فانكشفت عورته فرآه حام فلم يغطّها، ورآه سام فغطّاها، فلمّا علم نوح دعا على حام فاسودّ لونه، ودعا عليه بأن يجعل أولاده عبيداً لأخويه^(١).
وقال وهب: في «التوراة» إنّ نوحاً لمّا خرج من السَّفِينَةِ غرس كرمًا ثم اعتصر منه خمراً وشربه، فانتشى وتعرّى في جوف قبة، فأبصر حام عورته، فأطلع على ذلك أخويه سام ويافث، فأخذا رداءيهما وألقياه على عورة أبيهما، فأفاق نوح من نشوته، وعلم ما فعلوا، فقال: حام وأولاده عبيد لأخويه، ومبارك سام، ويكثر الله من يافث وذريته، فاستجاب الله له^(٢).

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] أن قابيل غرق أولاده، وهاييل لم يكن له نسل، وإنّما النسل لهؤلاء الثلاثة أولاد نوح.
وقال ابن الكلبي: أقاموا بالجوديّ وياقردي والجزيرة فتناسلوا وكثروا، فضاقت الجزيرة بهم، فنزلوا أرض بابل وامتدّوا مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها، وكانت مدينة بابل عظيمة تمتدّ إلى داوردان حتى صاروا في ثلاث مئة ألف^(٣).

قال ابن عباس: فسام أبو العرب كلها، ومنه الأنبياء ونبيّنا ﷺ، وحام أبو السودان والقبط والبربر، ويافث أبو الترك والروم ويأجوج ومأجوج والصقالبة، وقد رواه سمرة ابن جندب مرفوعاً^(٤).

وقال هشام بن الكلبي: أقاموا ببابل فلبّل الله ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً، فنزل سام سرّة الأرض، حرم مكة وما حوله إلى حَضْرَمَوْتِ وَعُمان ثم إلى عالج ويبرين.
وقال ابن سعد: حدثنا هشام بن محمد عن أبيه قال: نزل بنو سام المجدل سرّة الدنيا، وهو ما بين ساتي دما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام - يعني جزيرة العرب -

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٠٢/١ عن ابن إسحاق، عن أهل التوراة، وانظر «المنتظم» ٢٤٧/١.

(٢) سفر التكوين ٩/٢٠-٢٧، وانظر «المعارف» ص ٢٥.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ٢٤٣/١.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٩٩) ولفظه: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» وإسناده ضعيف.

وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والبياض فيهم، ونزل بنو حام مجرى الجنوب، ويقال لتلك الناحية: الداروم، وجعل الله فيهم الأدمة، ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم النخل والأثل والأراك. ونزل بنو يافث الصفون مجرى الشمال والصباء، وجعل الله فيهم الحمرة والشقرة، وليس فوقهم من النجوم السبعة السيارة شيء لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدي والفرقدين، وابتلوا بالطاعون^(١).

وحكى الخطيب عن ابن عباس قال: عاش سام بن نوح ست مئة سنة منها أربع مئة في حياة أبيه، ومئتان بعده.

فصل في ولد سام

واختلفوا فيهم: فقال هشام بن محمد عن أبيه: هم عمليق وأميم ولوذ وعوص وإرم وجابر وأرفخشذ، وفي فارس خلاف نذكره في الفرس. قال: ألهم الله هؤلاء العربية وأولادهم فتكلموا بها، فمن أولادهم طسم بن لوذ بن سام بن نوح، وعييل وعاد ابنا عوص بن سام، وثمود وجديس ابنا جابر بن سام وقنطور بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام. قال: فأما عاد وعييل ابنا عوص بن سام فنزلت الشحر وفيه لغتان، وهو ساحل البحر بين عدن وعمان، وقيل: نزلت عييل يثرب مدينة رسول الله ﷺ^(٢).

وقال الجوهري: نزلت العمالقة والعماليق صنعاء وما حولها قبل أن تبنى، قال: والعماليق من ولد عملاق - أو عمليق - بن لوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أمم تفرقوا في البلاد^(٣).

كذا ذكر الجوهري: أنه عمليق بن لوذ، وابن الكلبي يقول: عمليق ولد سام لصلبه.

وقال الهيثم بن عدي: ونزلت طائفة من العمالقة بالبحرين وعمان، وطائفة نزلوا الشام، والذين نزلوا الشام يقال لهم الكنعانيون، وكانوا يعبدون الأصنام، وفرعون موسى من الذين نزلوا مصر، وكان سيدهم بكر بن معاوية الذي نزل عليه، وقيل عاد بمكة. ونزلت طائفة منهم بالمدينة يقال لهم: بنو مطر وبنو الأزرق، وملكهم يقال له

(١) «الطبقات الكبرى» ٤٤/١.

(٢) انظر مروج الذهب ٧٨٧٧/١.

(٣) «الصحاح»: (عملق).

الأرقم، وكان يسكن حصن تيماء إلى نواحي فدك ويثرب والبحر. قال هشام: ونزلت ثمود الحجر، واختلفوا في ثمود، قال هشام: ثمود هو جابر بن سام.

وقال غيره: هو ابن جابر بن سام.

وقال غيره: ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.

قال هشام: ثم تحولت طائفة من العمالقة إلى مكان يثرب، وبعضهم إلى مكة، ويثرب اسم رجل منهم. وأقامت عاد بالشحر فهلكت بالريح العقيم، لما نذكر، وجاءت طائفة منهم إلى الجحفة، وقيل: نزلت طائفة منهم يثرب، فأخرجوا من كان بها فأنزلوهم الجحفة، فجاء سيل وذهب بهم فاجتحفهم، فسميت الجحفة.

قال: ولحقت طسم وجديس باليمامة، وتيامنت بنو قنطور بن عابر إلى اليمن، فسميت اليمن، وقيل: بنو يقطن. ولحق قوم من بني أميم بأرض أبار، وهي بين الشحر واليمامة، فأهلكتهم الجن وسنذكرهم. وأبار هو ابن أميم.

وقال ابن الكلبي: يقطن هو قحطان بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وحكى البلاذري عن ابن الكلبي قال: إن العرب العاربة هم عاد وعييل ابنا عوص ابن إرم بن سام بن نوح، وثمود وجديس ابنا غاثار بن إرم بن سام بن نوح، وطسم وعمليق وجاسم وأميم بنو يلمع بن غابر بن اشليخا بن لوذ بن سام بن نوح، وحضرموت وشالاف - وهو السلف - والمرداذ بنو يقطن أبو يقطان بن غابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح. والسلف بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقال البلاذري عن ابن الكلبي أنه قال: وفي حديث مالك بن يخامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العرب كلها من بني إسماعيل إلا أربعة قبائل: السلف والأرواح وثقيف وحضرموت».

وقال البلاذري: قد اختلف الناس في قحطان، فقال قوم: هو يقطان المذكور في «التوراة»، وإنما العرب عربته فقالت: قحطان - بالحاء -، ويقال: هو قحطان بن هود، وقيل: ابن السميّفع^(١).

(١) أنساب الأشراف ١/٦٥.

وقال أبو حنيفة الدينوري: هو قحطان بن عابر، وإنما سمي قحطان لقحطه^(١)، وسنذكره في موضعه.

قلت: ولاختلاف النسابة في هذه الأسامي وما يشاكلها مما سيأتي ذكره، قال النبي ﷺ: «لا تُجاوِزُوا عَدَنَانَ، كَذَبَ النَّسَابُونَ»^(٢).

وقال الشعبي: إرم وأرفخشذ من ولد سام بن نوح، ومن نسل سام الأنبياء والرسل والعرب كلها. قال: وفي زمان نمرود بلبل الله الألسن ببابل، فجعل في ولد سام تسعة عشر لساناً، وفي ولد حام سبعة عشر لساناً، وفي ولد يافث ستة وثلاثين لساناً، قال: ونمرود اسمه كوش بن إرم بن سام بن نوح، نزل أرض بابل لما نذكر.

فصل في حام وولده

قال الكلبي: وهو أوسط ولد نوح، نزل مجرى الجنوب فاسودت ألوان بنيه لكثرة الحر بها، كما نزل بنو يافث مجرى الشمال فايضت ألوانهم واشتدت لكثرة البرد بها. وقال وهب: كان حام من أحسن الناس، أبيض اللون، فلما دعا عليه أبوه غير الله لونه وألوان بنيه.

وقال جالينوس: نزلوا ساحل البحر فكان طعامهم السمك، فحددوا أسنانهم حتى تركوها مثل الإبر لأن السمك كان يلتصق بها.

قال وهب: ثم تفرقوا في البلاد، وولد حام: كوش بن حام، وكنعان بن حام، وقوط بن حام، فنزل قوط الهند والسند فولد هناك.

وقال أبو حنيفة الدينوري: كان أولاد حام سبعة إخوة كأولاد سام: السند والهند والزنج والقطب والحبش والنوبة وكنعان، فأخذوا ما بين الجنوب والدبور والصبأ^(٣).

وذكر جالينوس في كتاب «عجائب أولاد حام» فقال: اجتمعت في الأسود عشر خصال: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، وتتن الجلد، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب.

(١) الأخبار الطوال ص ٥.

(٢) تقدم تخريجه في الفصل الأول في معرفة التاريخ.

(٣) «الأخبار الطوال» ص ٢، وانظر المعارف ٢٦.

قال: وإنما غلب عليهم الطرب لفساد أدمغتهم وضعفها، ولهم من الكواكب زحل.
وكان طاووس اليماني لا يأكل ذبيحة الزنجي ويقول: هو عبد مشوّه الخلق.

قلت: وهذا محمول على أنه كان مجوسياً، أمّا إذا كان مسلماً فإنه لا يضره سواده.

وقال الهيثم بن عدي: تفرّق بنو حام في الأرض، فصار ولد كوش بن كنعان بن حام إلى المغرب، فقطعوا نيل مصر، ثم افترقوا يمنا ويسرة، وهم أنواع كثيرة: النوبة والبجاة والزغاوة والكانم ومركة وغانة وكوكو والدمادم والأحباش والبربر والزيلع^(١).

وفي أرضهم الزرافة، قال قوم: نتجت بين الجمل والنمر، وقال قوم: بل هي نوع من الحيوان قائم بذاته، واحتجوا بأنها توجد في أرض لا جمل بها، وذكر الجوهري ما يدل على أنها مولدة فقال: الزرافة - بالفتح والضم مخففة الفاء - دابة، يقال لها بالفارسيّة: «اشتركاو يَلَنك»^(٢) وأشتر: هو الجمل.

وذكر الشرقي بن قطامي: أن ملك الزنج يركب في ثلاث مئة ألف فارس، وكذا ملك النوبة، وليس عندهم ثلج ولا برد، قال: وفيهم ناس يأكل بعضهم بعضاً، ومساكنهم في أعلى الخليج الذي يتشعب من نيل مصر قريباً من البحر الحبشي إلى بلد الواواق وسفالة، ومقدار مسافة بلادهم سبع مئة فرسخ طولاً وعرضاً، وعندهم الفيلة، كثيرة إلا أن الزنج لا يستعملونها في الحرب ولا في غيرها، ويقتلونهم ليأخذوا أنيابها، ومقدار كل ناب فيل خمسون ومئة من، ويعمر الفيل بأرض الزنج أربع مئة سنة، ويحملها التجار إلى عُمان والبحرين.

قال: وفي بلادهم الحيوان المعروف بالزبرق أصغر من الفهد، وهو أحمر، له زغب وعينان برّاقتان، يشب خمسين ذراعاً، ويبول على الفيلة وبني آدم فيحرقهم، وإذا رآه آدمي هرب منه فصعد شجرة فيشب حتى يصير عنده، وإن لم يصل إليه وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجيباً، فيخرج من فيه قطعة دم ويموت من ساعته، وإن وصل بوله إلى شجرة أحرقتها. وهذا الحيوان مشهور عند الزنج والهند، وهو في مشارق الهند أكثر من الزنج.

(١) في (ل) و(ب): والزغاوة والعافور ومترك وعانة وكركر والدمادم والأحباش والبربر والزيلع. والمثبت من (ط).

(٢) «الصحاح»: (زرف)، وانظر «المعجم الذهبي» ص ٦٩ وص ١٦١.

وحكى من شاهد من وصل بوله إلى وجهه وفيه آثار الحريق كأنه جذري، فسئل عنه فقال: قصدني فصعدت شجرة ارتفاعها خمسون ذراعاً، فبال من الأرض فأصاب بوله بعض وجهي، فهذا أثره.

وهذا الحيوان يهرب من الكركدن كما يهرب منه الفيل، والفيل يهرب من السنور.

وقال الجاحظ: وملك الزنج يسمّى: فليمين^(١)، ومعناه ابن الربّ الأكبر. وقيل: إنما يسمّون الربّ الأكبر مكلنجو، وهو الأعظم عندهم. ومتى ظلم ملكهم أو تعدّى حدّاً قتلوه وأقاموا غيره، لأنهم يقولون: ما أقامه الربّ الأكبر إلا ليقم العدل، فإذا جار لم يكن ابن الربّ، ويحرمون أولاده المُلْك.

وقال الهيثم بن عدي: ومن أولاد حام الثوبة ومنازلهم على نيل مصر متّصلة بديار القبط من أرض الصّعيد ومدينتهم يقال لها: دُنُقْلَة، هي دار الملك. والبجاة منازلهم بين القلزم وأعلى الصّعيد، وعندهم معادن الذهب والفضة وغيرها، ويغيرون على النجائب فيسبون ويقتلون.

ومن أولاد حام الحبشة وملكهم النجاشي، ومدينته يقال لها: كعبر، وهي مملكة واسعة متّصلة ببلاد المشرق في مقابلة اليمن، وجزيرة الدّهْلَك مجاورتهم، وفيها جماعة من المسلمين تحت الذّمة. وبين ساحل الحبشة وساحل زبيد ثلاثة أيام، ومن هذا المكان عبرت الحبشة إلى اليمن في المراكب حين ملكوا اليمن أيام أصحاب الأخدود، وهو أضيق مكان في البحر، ومنه عبر جعفر بن أبي طالب والمسلمون، وقيل: إنما ركب المسلمون من جدّة إلى الحبشة. وفي ساحل بحر الحبشة عند المعبر مدينة كبيرة للحبشة يقال لها: غلافقة^(٢) منها تقع التعديّة إلى اليمن.

فصل في يافث وأولاده

وكان يافث أصغر ولد نوح، وذكر أبو حنيفة الدّينوري في «الأخبار الطّوال» وقال: كان أولاد يافث سبعة إخوة مثل أولاد سام وحام، وهم: ترك وخزر وصقلاب وتاريس ومنسك وكماري والصّين، فأخذوا ما بين المشرق والشمال^(٣).

(١) في (ب): «فيلمن»، وانظر مروج الذهب ٣/ ٦٥-١١، ١٣-٢٩.

(٢) في (ب) و(ل): أولافقة، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٣٤.

(٣) «الأخبار الطّوال» ص ٢.

وقال وهب: ومن ولده الروم والفرنج واللان والجلالقة والإسبان ويأجوج ومأجوج. وكل من كان بناحية الشمال.

وقال: والجلالقة أشدُّ هذه الأجناس بأساً، وأمنعهم جانباً، وأوسعهم ملكاً، وسنذكرهم.

فصل في أعمار أولاد نوح

ذكر جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وقال: عاش سام خمس مئة وثمانياً وتسعين سنة^(١). وغيره يقول ست مئة ونيفاً. وعاش حام سبع مئة سنة. وعاش يافث تسع مئة سنة.

وقال أبو حنيفة الدينوري: كان سام متولي أمر ولد نوح من بعده وكان يشتي بأرض العراق بمكان يقال له: جُوخى، ويصيف بأرض الجزيرة والموصل، وكان طريقه على الموضع الذي فيه سامراء في شرقي دجلة، فكان ينزله ويعجبه، فقليل: سام رأى، أي: رأى هذا المكان فأعجبه. وسام هو الذي تسميه الفرس إيران شهر^(٢).

فصل في ذكر أرفخشذ

ولما احتضر سام بن نوح أوصى إلى ولده أرفخشذ، وأخبره بالنور الذي أودعه فيه فسار بسيرة أبيه.

قال جدي في «أعمار الأعيان»: وعاش أربع مئة وخمسا وستين سنة^(٣).

فصل في شالغ

ولما احتضر أرفخشذ أوصى إلى شالغ، وأخبره بالنور فأقام أربع مئة سنة وثلاثين ثم توفي.

فصل

وقام بعده ابنه عابر، يسمّى: عامر الأرض، لأنه قسمها بين ولد نوح، وانتقل النور

(١) «أعمار الأعيان» ص ١٢٤.

(٢) «الأخبار الطوال» ص ٢.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٢٣.

إليه، ولم تطل أيامه، عاش مئتي سنة وخمسين سنة؛ ذكره جدي رحمه الله، وقيل ثلاث مئة وأربعين سنة.

فصل

وقام بعده ابنه فالغ، وانتقل النور إليه. وقال جدي: عاش مئتي سنة وتسعاً وثلاثين سنة^(١).

فصل

ثم قام من بعده ابنه أرغو، وانتقل النور إليه، وعاش مئتي سنة وثلاثين سنة^(٢).

فصل

ثم قام من بعده ابنه ساروع، وانتقل إليه النور، وعاش مثل عمر أرغو.

فصل

ثم قام من بعده ولده ناحور. قال جدي: وعاش مئتي سنة وخمسين سنة^(٣).

فصل

ثم قام من بعده ولده تارح وقيل: تيرح، وقيل: هو آزر والد الخليل عليه السلام^(٤). قال السدي: وكان النور المحمدي ينتقل في أصلاب هؤلاء.



(١) «أعمار الأعيان» ص ١١١.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١١١.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٠٩.

(٤) انظر مروج الذهب ١/ ٨٠-٨٢.

فصل في الحوادث التي كانت بين نوح والخليل عليهما السلام

منها: قصة الضحّاك^(١)

واختلفوا في نسبه، فقال قوم: هو ابن الأهبوب. وقال الآخرون: ابن علوان، وقيل: ابن عبيد بن عويج، وهو الذي قتل الملك جم شيد، ويقال: إن نوحاً بعث إليه وإلى قومه فخالفوه، فأهلكهم الله تعالى بالطوفان.

والأصح أنه كان بعد نوح، واسمه بيوراسب.

واليمن تزعم أنه منها، وأنه ولّى أخاه سناناً مصر، وهو أول الفراعنة.

وأما الفرس فينسبون الضحّاك إلى جيومرت. وكان مقام الضحّاك ببابل، وكان فاجراً ساحراً، ذكره جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وقال: عاش ألف سنة^(٢).

وقال وهب: ملك الدنيا. وهو بيوراسب - بتقديم الرء على الألف - وهو أول من وضع العشور وضرب الدراهم والدنانير على غير سكة آدم وغير شريعته. وقد ذكره أبو تمام الطائي فقال^(٣): [من الكامل]

بل كان كالضحّاك في سَطَوَاتِهِ
بالعالمين وأنت إفريدونُ

يعني: أن إفريدون قتل الضحّاك.

وكان إفريدون من ولد الملك جم شيد الذي نشره الضحّاك بالمنشار. والعرب تزعم أن الضحّاك لم يكن من ولد الملوك وإنما المُلْك في ولد أوشهنج وجم شيد وظهمورث. وكان الضحّاك غاصباً، وكرهه الناس لسوء سيرته، وكان إفريدون الملك من ولد جم قد ترعرع فاستعدّ لقتال الضحّاك.

وقال ابن مسكويه: كان على كتفي الضحّاك سلعتان يحركهما إذا شاء، وادّعى أنهما

(١) انظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/١٩٤، و«تجارب الأمم» ٨/١، و«المنتظم» ١/٢٤٤، و«الكامل» ١/٥٨.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨.

(٣) البيت في «ديوانه» ٣/٣٢١.

حيّتان يهوّل بذلك على الضّعفاء^(١). وكانا يضربان عليه فلا يسكنان حتى يطليهما بدماع آدميين، فكان يقتل كل يوم رجلين فيطلي سلعتيه بدماعهما.

قال أبو حنيفة الدينوري: وكان له وزير صالح، وكان الضحّاك يذبح كل يوم أربعة رجال، فكان الوزير يستحي اثنين، ويذبح مكانهما كبشين، فيأخذ مخّهما ويقول للرجلين: اذهبا في رؤوس الجبال ولا تقربا الأمصار ولا القرى، قال أبو حنيفة الدينوري: فيقال إنهم أصل الأكراد^(٢).

ذكر مقتل الضحّاك

ذكر علماء السّير أنه لما كثر فسادُه وقتلُه الناس اجتمعوا إلى أفريدون، وكان بأصبهان رجل حدّاد يقال له: كابي، وكان الضحّاك قد قتل له ولدين، وكان صالحاً، فاجتمع إليه الناس وسألوه قتال الضحّاك، لأن أفريدون كان مستخفياً من الضحّاك، وكان لكابي قطعة جلد يتّقي بها حرّ النار، فرفعها على رمح وجعلها علماً، وسار إلى الضحّاك والناس معه، فخرج إليه الضحّاك، فلما رأى ذلك العلم ألقى الله الرعب في قلبه فانهزم وخلّى خزائنه وملكه.

واجتمع الناس على كابي وأرادوا أن يملّكوه فأبى وقال: لست من بيت الملك، ولكن ملّكوا أفريدون فهو من ولد جم شيد، فملّكوه، وكان كابي عوناً له على أمره. ثم إن أفريدون ومن جاء بعده كانوا يعظّمون علم كابي ورصّعوه بالدرّ والياقوت، وكانوا يقدّمونه أمام الجيوش فينصرون، وكانوا يرون ذلك ببركة كابي، وكان عندهم كالتابوت في بني إسرائيل، ويُعرف هذا العلم بدرفش كايان، ولم يزل في خزائن الفرس يتوارثونه، كلّما ملك واحد زاده جواهر إلى أيام يزدجرد بن شهريار، فأخذه المسلمون في وقعة القادسيّة، وحمل إلى عمر رضي الله عنه، فقسّم جواهره بين الناس، وسنذكره.

وقال بعضهم: إن أفريدون وكابي اتفقا على الضحّاك فهزماه، ثم ظفر به إفريدون

(١) «تجارب الأمم» ٨/١.

(٢) «الأخبار الطوال» ص ٥.

فقيده وحبسه بجبل دُنباوَنَد، ثم قتله إفريدون بعد ذلك.

والفرس تزعم أنه مقيّد إلى الآن بذلك الجبل. وكان مُلك الضحّاك ست مئة سنة.

وقال ابن الكلبي: لما ظفر إفريدون بالضحّاك قال له: أتريد أن تقتلني بجدك جَم شِيد؟ فقال له إفريدون: لقد سمّت بك نفسك إلى مقام عظيم حيث نسبتها إلى جدّي، إنما أريد أن أقتلك بثورٍ كان في دار جدّي جَم شِيد.

وفي رواية: أن إفريدون لما جلس على سرير الضحّاك سمّى ذلك اليوم مهرجاناً.

ولم ينقل من سيرة الضحّاك ما يستطرف غير واقعة واحدة، وهي أنه لما اشتدت وطأته وطالت أيامه، تراسل وجوه الناس في أمره، واجتمع الأكابر والعظماء إلى بابه، وكان فيهم كابي، فقدّموه بين أيديهم لأنه كان جريئاً في الكلام، واستأذنوا عليه فأذن لهم، فدخلوا عليه، فلم يسلم عليه كابي بل قال له: أسلم عليك سلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك هذا الإقليم؟ فقال: بل سلام من يملك الأقاليم كلها، فقال له: فإذا كنت تملك الأقاليم كلها فلم خصصت هذا الإقليم بنوابك ومؤونتك؟ وهلاً ساويت بينه وبين الأقاليم؟ ثم عدّد أشياء، وصدّقه الضحّاك ووعد الناس بما يحبون وانصرفوا. وكانت له أمٌ جبّارة، وكانت تسمع ما يجري، فلما خرجوا أنكرت عليه وقالت: لقد جرّأتهم عليك، هلاً قتلتهم؟! فقال لها - مع عتوّه وتجبّره -: إن القوم بدهوني بالحق، فلما هممت بالسّطوة بهم وقف الحق بيني وبينهم كالجبل فحال بيني وبين ما أردت منهم^(١).

فصل في إفريدون^(٢)

واختلفوا فيه، والأصح أنه التاسع من ولد جَم شِيد. وكان شجاعاً جواداً سائساً للملك، شديد القوى، حسن الصورة، وهو أوّل من أظهر علم الطب، وقرّر أحكام النجوم، وذلل الفيلة للحرب وقاتل عليها، وأوّل من وضع الحمام للأخبار^(٣)، وأوّل

(١) «تاريخ الطبري» ٢١٤/١.

(٢) انظر في قصته: «تاريخ الطبري» ٢١٢/١، و«تجارب الأمم» ١٠/١، و«المنتظم» ٢٤٥/١، و«الكامل» ٦٤/١.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٢١٢/١، و«الكامل» ٦٤/١.

من جمع الدرايق، وأول من تسمى بـ «كي» فكان يقال له: كي أفريدون، ومعناه أنه متصل بالله تعالى أو بالروحانيات^(١).

وردّ على الناس ما غصبه الضحّاك، وسار بالناس أحسن سيرة، وما لم يجد له من الغصوب أصحاباً ولا أهلاً وقفه على مصالح العامّة والمساكين، وكان محباً للعلماء والعلم صاحب فلسفةٍ وفضل.

فصل وفاته

ذكر ابن مسكويه: أنه كان له ثلاثة أولاد: سرم وإيرج وطوج، فخشي أن لا يتفقوا بعده، فقسم الأرض بينهم أثلاثاً في حياته فجعل الروم وناحية العراق لسرم، والترك والصين لطوج، والهند وما والاها لإيرج، وهو صاحب التاج والسريير. فلما مات أفريدون وثب طوج وسرم على إيرج فقتلاه واقتسما الأرض بينهما، فملكها ثلاث مئة سنة.

ويقال: إنّ أفريدون ملكّ عليهما إيرج، وأنّ ملوك الروم من نسل سرم، لأنّ أفريدون ملكه الروم وملك ولده طوج على المشرق، فملوك الترك والصين من نسله، وملك ولده إيرج على العراق ويسمّى إيران، فالأكاسرة وهي الفرس الأولى والثانية من نسله.

وقال أفريدون لما قسم الأرض هذه الأبيات^(٢): [من الرمل]

وَقَسَمْنَا مَلَكْنَا فِي دَهْرِنَا	قَسَمَةَ اللَّحْمِ عَلَى ظَهْرِ الْوَضْمِ
فَجَعَلْنَا الشَّامَ وَالرُّومَ إِلَى	مَغْرِبِ الشَّمْسِ لَغَطْرِيفِ سَرَمِ
وَلَطُوجِ مَشْرِقِ الشَّمْسِ لَهُ	وَبِلَادِ الشَّرْقِ يَحْوِيهَا بَرِغَمِ
وَلِإِيرَانَ جَعَلْنَا عُنُودَ	فَارِسِ الْمَلِكِ فَفَازُوا بِالنُّعَمِ

ويقال: إنّ حكم هذه الأبيات حكم الأبيات المنسوبة إلى آدم وهي قوله:

تغيّرت البلاد ومن عليها.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٢١٣/١، و«المنتظم» ٢٤٦/١.

(٢) انظر الأبيات في «البدء والتاريخ» ١٤٥-١٤٦، و«معجم البلدان» ٢٨٩/١.

وملك أفريدون خمس مئة سنة.

وقال ابن مسكويه : وكان إبراهيم عليه السّلام في زمان الضحّاك ، فلهذا قال قوم :
إنه نمرود.

قلت : وهو وهمٌ ، بين الضحّاك وإبراهيم عليه السّلام زمان طويل.

ثم نشأ لإيرج ولد يقال له : منوشهر فغلب عمّيه على الملك ، ثم نشأ لطوج ولد
تركي ، فنفي منوشهر عن بلاده واستولى عليها ، وسنذكر القصة في سيرة الفرس الأولى
بعد أبواب الأنبياء عليهم السّلام.

ومن الحوادث بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قصة عاد وثمود فنذكرهما.



فصل في ذكر هود وقوم عاد^(١)

قالوا: ذكر الله هوداً في ستة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] الأخ في القرآن العزيز على وجوه:

أحدها: الأخ من الأم والأب أو من أحدهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠].

والثاني: الأخ من القبيلة ومنه ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] ﴿وَالِإِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وَالِإِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثالث: الأخ في المتابعة: ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

والرابع: الصَّاحِبُ ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [ص: ٢٣].

والخامس: الأخ في الدين ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والسادس: الإخاء في المودة ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وأخو عاد: هو هود عليه السلام.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قاله قتادة.

وحكاه جدي رحمه الله في «التبصرة»^(٢)، ولم يحقق القول في الخلود، واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه الخلود بخاء معجمة مع تشديد اللام.

والثاني: بالحاء المهملة.

(١) انظر قصته: في «تاريخ الطبري» ٢١٦/١، و«البدء والتاريخ» ٣١/٣، ومروج الذهب ٧٨/٣، و«عرائس المجالس» ص ٦٢، و«المنتظم» ٢٥٢/١، و«التبصرة» ٧٧/١، و«الكامل» ٨٥/١، و«البداية والنهاية» ١/١٢٠.

(٢) «التبصرة» ٧٨/١.

والثالث: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة.

القول الثاني: أنه هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله مجاهد، وحكاه جدي أيضاً في «التبصرة»^(١).

والثالث: أنه هود بن عبد الله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، حكاه ابن قتيبة^(٢).

وقوم عاد هؤلاء هم أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام.

وقال ابن الكلبي: لم يكن بين نوح وإبراهيم من الأنبياء إلا هود وصالح.

وقال هشام بن محمد: كان هود أشبه ولد آدم بآدم ما خلا يوسف عليه السلام، وكان آدم حسن الوجه.

وقال مقاتل: بين هود ونوح ست مئة سنة، وقيل: ثمان مئة سنة، وهود من العرب، وكذا صالح وشعيب ومحمد ﷺ.

وقال ابن عباس: بُعث هود إلى عاد الأولى، فلما هلكوا جاءت عاد الأخرى، ورؤسائهم شداد وشديد.

وقال قتادة: بعث الله إليهم نبياً قبل هود، فوصف لهم الجنة، فقالوا: نحن نعمل الجنة، فعملوا الجنة المعروفة بشداد بن عاد فأهلكهم الله قبل أن يصلوا إليها، وسنذكر القصة.

قال مقاتل: في قوله تعالى: ﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] قال: أخوهم في النسب لا في الدين.

والأحقاف: الرمال، واحدها حقف.

واختلفوا في أي موضع هي؟ على أقوال:

أحدها: أنها بالشحر باليمن على ساحل البحر، قاله مجاهد.

(١) لم نقف عليه في «التبصرة» وذكره في «المنتظم» ٢٥٢/١.

(٢) «المعارف» ٢٨.

والثاني: بين عُمان ومَهرة وصَحار.

الثالث: بالذَّهْناء والدَّو وعالج ويبرين، قاله ابن عباس. وقال: والأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة، وإليه ينسب المهاري، يقال: إبل مهريّة ومهاري قال: وكانوا من قبيلة إرم.

وقال الضحّاك: الأحقاف جبل بالشام.

وقال مجاهد^(١): هي جبال حِسْمَى وأرضها، والأوّل أصح.

وقال مقاتل: وكان ملكهم عاد يعبد القمر، وطال عمره فرأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وتزوج ألف امرأة، وهو أوّل من ملك الأرض بعد نوح.

وكان عاد محسناً إلى الناس يقري الأضياف، ويحفظ السبل، ويرحم المساكين ورأى العاشر من ولده، وعاش ألفاً ومئتي سنة، ثم مات، فانتقل الملك إلى أكبر ولده وهو شديد بن عاد، فأقام خمس مئة وثمانين سنة ثم مات، فانتقل الملك إلى أخيه شدّاد بن عاد وهو بنى إرم ذات العماد وملك تسع مئة سنة^(٢)، وسنذكره.

وقال ابن قتيبة: كانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الأحقاف وبلادها، وكانت ديارهم بالدَّو والذَّهْناء وعالج ويبرين ووبار إلى حَضْرَمَوْت، وكانت أخصب البلاد، فلما سخط الله عليهم جعلها مفاوز وقفاراً^(٣).

وكانوا قد ملكوا الأرض لقوتهم، وافتخروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مئتي سنة. فلما كثر طغيانهم بعث الله إليهم هوداً فقال: يا قوم اعبدوا الله ووحّدوه، يا قوم لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، أي: جُعلاً.

وقال مجاهد: سبب هذا أن الأمم كانت تقول للرّسل: ما تريدون إلا أن تحكموا في أموالنا، فتقول لهم الرّسل كما قال هو. ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

(١) من هنا بدأ خرم في (ب).

(٢) انظر «مروج الذهب» ٣/ ٨٠، ٨١.

(٣) «المعارف» ص ٢٨.

وكان طول الرجل منهم خمس مئة ذراع وإلى عشرة أذرع^(١).

فلَمَّا عصوا منعهم الله القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم حتى هلكوا من الجذب، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى مكة من يستسقي لنا، وكان لهم ثلاثة أصنام يعبدونها يقال لها: صمود وصداء والهباء - قال قتادة: وكان يقال لملكهم الخلجان، وكانوا مع هذا يعظمون الكعبة ويستسقون عندها - فبعثوا سبعين رجلاً فيهم جماعة من أعيانهم: قيل، ولقيم، وجلهمة، ولقمان بن عاد، ومرثد بن سعد، وكان يكتم إيمانه، فنزلوا على بكر بن معاوية، وكان خارج الحرم فأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، وبكر بن معاوية من العمالقة من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وقيل: ابن عمليق بن سام - وقد ذكرنا الخلاف فيما تقدم في ولد سام - فأقاموا عنده شهراً يأكلون ويشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - مغنيتان كانتا لبكر - فلَمَّا طال مقامهم عنده قال: هلك أخوالي وأصهاري - يعني الذين بعثوا هؤلاء - وهؤلاء أضيافي وما أدري ما أصنع، واستحى أن يأمرهم بدخول الحرم ليستسقوا، فشكا ذلك إلى قينته فقالتا: قل شعراً نغنيهم به، فقال: [الوافر]

ألا يا قَيْلُ ويحك قُمْ فهينِمُ
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً
من العطشِ الشَّدِيدِ فليسَ يرجو
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ
وأنَّ الوحشَ تأتيهمُ جهاراً
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتمُ
فَقُبِّحَ وفدكم من وفد قومٍ

لعلَّ الله يمنحنا غمّاما
قد امسّوا ما يُبينون الكلاما
به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
فقد أمست نساؤهمُ أيامي
ولا تخشى لعادي سِهاما
نهاركمُ وليلكمُ التّمّاما
ولا لُقُوا التحيةَ والسّلاما

فغنتهم الجرادتان به، فلَمَّا سمعوه قالوا: ويحكم، ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم فقد هلكوا، فقال مرثد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم

(١) كذا هو في (ل)، ولم نقف على من ذكر هذا القول، اللهم إلا ما ذكره السمعي في «تفسيره» ٣١٢/٥ فقال: وفي القصة أن طول الواحد منهم كان ستمائة ذراع وخسمائة والأقصر ثلاثمائة ذراع. وذكر طولهم ابن الجوزي في «التبصرة» ٧٨/١ وقال: كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً.

سقيتم، فقال جلهممة: احبسوا عنا هذا فلا يقدم معنا مكة، فإنه قد أتبع دين هود، فحبسوه، فأفلت وسبقهم إلى مكة قبل أن يدعوا بشيء.

وكان الناس مؤمنهم وكافرهم يستسقون عند البيت، وأظهر إسلامه حينئذ، فقال بكر ابن معاوية يخاطبه: [الوافر]

أبا سعد فإنك^(١) من قبيل
فإننا لن نطيعك ما بقينا
أتأمرنا لنترك دين رfid
ونترك دين آباء كرام
ذوي كرم وأمك من ثمود
ولسنا فاعلين لدى الوفود
ورمل وآل صد والعبود
ذوي رأي ونثبَع دين هود
رfid ورمل وآل صد والعبود كلها قبائل من قوم عاد.

ثم وقفوا عند البيت يستسقون، فقال واحد منهم: اللهم إنا لم نجئك لأسير نفاديه، ولا لمرىض تشفيه، فإن كنت مسقياً فاسق عاداً ما كنت مسقيه، فنشأت سحابة ونودوا منها: اختاروا لأنفسكم، فقال مرثد: يا رب أعطني صدقاً وبراً، فأعطي، وقال لقمان ابن عاد: يا رب أعطني عمراً فاختر عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة، ويأخذ الذكر لقوته، حتى إذا مات أخذ غيره إلى أن مات سبعة أنسر، وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: ثم نشأت ثلاث سحائب بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نودي منها: يا قيل اختر لقومك، فقال: أختار السوداء لأنها أكثر ماءً، فقيل لها: اذهبي إلى عاد خليها رماداً رمدداً، لا تدع منهم أحداً. وساقها الله إليهم فخرجت من وادٍ لهم يقال له مغيث، فلما رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. وكان أول من رأى ما فيها امرأة منهم، فصاحت وصعقت، فقيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كشهد النار، أمامها رجال يقودونها^(٢).

(١) في (ل): «ألا يا سعد إنك» وما أثبتناه من «تاريخ الطبري» ٢٢١/١، وعرائس المجالس ٦٤.

(٢) انظر الأبيات والقصة في «تاريخ الطبري» ٢١٩-٢٢١، وانظر «البدء والتاريخ» ٣/٣٢-٣٣، و«المنتظم»

٢٥٣/١، وقد رد ابن كثير في البداية والنهاية ٢٩٨/١ هذه القصة.

وقال ابن الكلبي^(١): أوّل ما رأى العذابَ الخَلْجَانُ ملكَ القومِ، فقال: يا هود ما هؤلاء الذين أراهم في السّحاب مثل البخت؟ فقال: ملائكة العذاب، فقال: أرأيت [إن أسلمت] أيعيدني [ربك] منهم؟ قال: نعم، هؤلاء جندي، ولو فعل ما رضيتُ.

وفي رواية: أنه لما خرجت الرياح من الوادي قال الخلجان لرهط معه: تعالوا نردّها، فجاؤوا، فجعلت الرّيح تدخل تحت الواحد فترميه فتدق عنقه، فمال الخلجان إلى جبلٍ فهزّه فاهتزّ في يده، فقال له هود: أسلم، فلم يفعل، فهلك فيمن هلك، فسخرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء وسكنت في آخر اليوم الثامن.

واعتزل^(٢) هود ومن معه من المؤمنين فلا يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود ويلدُّ النفوس.

وقال مجاهد: وكان قد آمن معه أربعة آلاف وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨] وكانت الرياح تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته منهم أهلكته في البراري والجبال، وكانت ترفع الظعينة بين السماء والأرض حتى ترى كأنّها جرادة، وترميهم بالحجارة فتدق أعناقهم.

وقال ابن عباس: دخلوا البيوت وأغلقوا أبوابها فجاءت الرياح ففتحت الأبواب، وسفّت عليهم الرّمْل، فبقوا تحته سبع ليالٍ وثمانية أيام، فكان يسمع أنينهم في الرمل، وماتوا^(٣).

وقيل: معنى ﴿حُسُومًا﴾ حسمت كل شيء، أي: قطعت وأتلفته.

وقال مقاتل: دخلت عجوز سرباً، فدخلت الرياح خلفها فقتلتها، قال: فذلك معنى تسمية العرب هذه الأيام: بأيّام العجوز.

وقال مجاهد: إنما سميت أيام العجوز لأنها في آخر الشتاء، وقد ذكرناه.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢٤، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) هنا ينتهي الحرم في (ب) المشار إليه قريباً.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٨٠.

وقال ابن مسعود: لم تخرج الريح قط إلا بمكيال، إلا في قصة عاد فإنها عصت على الخزان فغلبتهم فلم يعلموا مقدار مكيالها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] والصرصر: ذات الصوت الشديد ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] أي: من أصله.

فإن قيل: فما معنى إهلاكهم بالريح؟ فالجواب: إنما أهلك ذلك الخلق العظيم بالريح التي هي أطف الأشياء لتظهر آثار القدرة، كما أمت الخلق بنفخة ويحييهم بنفخة.

وذكر جدِّي رحمه الله قصتهم بألفاظ مسجوعة، ثم قال: غلبهم الهوى فامتدَّ المقصور.

فإن قيل: فما معنى ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩] ولم يبعث إليهم سوى هود.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه بُعث إليهم نبيٌّ كما ذكرنا، والثاني: لما كذبوا بما جاء به هود فكأنَّهم كذبوا بما جاء من قباه، لأنَّ الأنبياء أولادُ علات أمهاتهم شتى، والأب واحد^(١).

قال مجاهد: لما هلكوا أرسل عليهم طيوراً سوداً فنقلتهم، فألقتهم في البحر.

وقال ابن الكلبي: ولما بلغ مرثد بن سعد هلاكهم قال^(٢): [من الوافر]

عَصَتْ عَادٌ رَسُولَهُمْ فَأُضْحُوا	عظاماً ما تبكهم السماء ^(٣)
وَسُيِّرَ وَفْدُهُمْ شَهْرًا لِيُسْقُوا	فأردفهم مع العطش العماء
بَكَفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ جِهَارًا	على آثار عادِهِمُ العَفَاءُ
لَهُمْ صَنَمٌ يُقَالُ لَهُ صُمُودَا	يُقَابِلُهُ صُداءٌ والهَبَاءُ
أَلَا قَبِحَ إِلَهُ حُلُومَ عَادٍ	وإنَّ ديارَهُمْ قَفَرٌ هَوَاءُ

(١) أخرج البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

(٢) الأبيات عند الطبري في «تاريخه» ١/٢٢٣، والثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٦٧.

(٣) جاء في «تاريخ الطبري» و«عرائس المجالس»: «عطاشاً ما تبكهم السماء»، وهو الصواب.

قصة شدّاد بن عاد وبنائه الجنّة

اختلفوا: هل كان قبل هود أو في أيام هود؟ على قولين.

وهو شدّاد بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح، وفيه يقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦-٨] الآية.

واختلفوا في إرم على أقوال:

أحدها: أنها قبيلة من قوم عاد كان فيهم الملك، قاله مقاتل.

والثاني: إنها اسم الجنّة التي بناها شدّاد بن عاد، قاله مجاهد.

والثالث: دمشق، قاله عكرمة.

والرابع: الإسكندرية، قاله القرظي.

والخامس: أنها آمد، قاله مقاتل. والقول الأوّل أظهر^(١).

قال سعيد بن المسيّب: كانت منازلهم باليمن ومهرة، وكانوا أصحاب عمُد وخيام، وكانوا جبابرة قد خصّوا بالطول - ويقال للطويل مُعمدٌ - وكان الرجل منهم يحمل الصخرة على رأسه فيقتل بها جماعة، وكانوا يطلبون المرعى فينتقلون من مكان إلى مكان.

وقال ابن الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السّواد والجزيرة، وكان مسكنهم بوادي القرى.

وقال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ من لم يُضف^(٢) جعل إرم اسمه ولم يصرفه لأنه جعل عاداً اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرف جعله اسم أمهم أو اسم بلد^(٣).

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن الضحّاك أنه قرأ ﴿أرم ذات العماد﴾ بفتح الألف

(١) انظر الأقوال مفصلة في «زاد المسير» ٩/١٠٩-١١٠، و«التبصرة» ٢/١٣٤.

(٢) في النسخ: «يصرف» والمثبت من «الصحاح».

(٣) «الصحاح»: (أرم).

والراء، والأرم: الهلاك يقال: أرم بنو فلان أي: هلكوا، وهي رواية العوفي عن ابن عباس.

قال: والصَّواب أنها اسم قبيلة أو بلدة فلذلك لم تصرف، ولو كان بمعنى أهلكهم وجعلهم رميماً لصرف.

قلت: ولعامة القراء على الوقف على إرم^(١)، فمن أراد القبيلة وصف قومها بالطول والبطش والقوة والشدة.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن المقدم بن معدي كرب عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «كان الرجل منهم يأتي الصخرة فيحملها على الحيّ فيهلكهم»^(٢).

قال الكلبي: كان طول الرجل منهم أربع مئة ذراع.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كانوا أهل عمد وخيام ينتجعون الكلاً والعشب، وينتقلون إلى الخصب حيث كان في أيام الربيع، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا هاج العود، ومن أراد المدينة.

قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: حدّثنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بإسناده عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة، وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينا هو في صحاري عدن أبين في تلك الفلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظنّ أنّ فيها أحداً يسأله عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن ناقته وعقلها وسلّ سيفه، ودخل باب الحصن، فإذا هو ببايين عظيمين من ذهب مرصّعين بالجواهر واليواقيت - أو بالياقوت الأحمر - فلما رأى ذلك دُهِش وتحيّر وفتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم يُر في الدنيا مثلها، وفيها قصور شواهدق، عليها

(١) بل الوقف هنا ليس بجيد، قال الداني في «المكتفى» ص ٦١٨: وقال نافع: «بعاد إرم» تام، وقال الكسائي: هو وقف جيد، وليس بتام ولا كاف لأن «إرم» بدل من «عاد» و«ذات العماد» نعت له، وانظر «منار الهدى» ص ٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (كما في تفسير ابن كثير ٥٠٧/٤)، وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٩٢٥٤).

قِيَاب الذهب والفضة مرصعة بالجواهر واليواقيت، مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك، وترابها الزعفران، ونظر إلى الأزقة وإذا فيها الشجر مثمر، وتحتة أنهار مطردة تجري في قنوات من فضة، فقال الرجل: إن هذه هي الجنّة، فحمل من لؤلؤها وياقوتها ومسكها ما قدر عليه وخرج، فركب راحلته وعاد إلى اليمن، فأظهر ما كان أخذه، وبلغ معاوية بن أبي سفيان ذلك فأرسل إليه، فلمّا دخل عليه قصّ عليه القصّة، فأنكر معاوية ابن أبي سفيان ذلك وأرسل إلى كعب الأحبار، فلما حضر قال له: يا أبا إسحاق، هل تعرف في الدنيا مدينة من ذهب وفضة - وذكرها على الوصف - فقال: نعم أنا أخبرك بها وبمن بناها، إنما بناها شدّاد بن عاد، واسمها إرم ذات العماد التي وصفها الله عزّ وجلّ في كتابه، فقال معاوية^(١): فحدّثني حديثها، فقال: إن عاداً الأول كان له ابنان: شديد وشدّاد، وهلك عاد وملك شديد، فبقي زماناً ثم مات، وملك شدّاد ودانت له الأمم وملك الدنيا، وكان مولعاً بقراءة الكتب، كلما مرّ بذكر الجنّة دعت نفسه إلى بناء مثلها، عتوّاً على الله، فأمر ببناء إرم ذات العماد، وأمر على بنائها مئة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة وزبرجد ولؤلؤ، تحتها أعمدة من زبرجد، وفوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور وفي أزقتها فنون الثمار، وأجروا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنّة، وأريد أن يكون لي مثلها، قالوا: ومن أين لنا الذهب والفضة والجواهر؟ فكتب إلى ملوك الدنيا - وكان تحت يده مائتان وستون ملكاً - فأمر أن يحملوا إليه من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ما يقدرون عليه، ففعلوا فخرج القهارمة وتبدّدوا في الأرض ليتخيروا أطيب مكان، فإذا هم بأرض طيبة الهواء، خالية عن الجبال والتلال، وفيها أنهار مطّردة، وتربتها صحيحة، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك ببناء المدينة فيها، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وبنوها بالذهب والفضة، وأجروا مياهها في قنوات الذهب والفضة، وأقاموا في بنائها ثلاث مئة سنة. وعاش شدّاد تسع مئة سنة، فلمّا كمل بناؤها كتبوا إليه: قد كملت فما ترى؟ فكتب إليهم: ابنوا عليها حصناً، وابنوا حول الحصن ألف قصر يكون

(١) في (ب): «بعضهم».

في كل قصر وزير من وزرائي، وكان له ألف وزير، وأقام يتجهز للنقلة إليها في عشر سنين، وسار إليها بأهله ووزرائه، فلما كان على مسيرة يوم وليلة منها بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه، ولم يُقدّر على أحد منهم حتى الساعة. هذه صورة ما حكى جدّي رحمه الله في «التبصرة»^(١).

وأما الثعلبي فإنه زاد بعد هذا، وقال: وقال كعب وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له في تلك الصحاري - والرجل عند معاوية جالس - فالتفت إليه كعب فقال: هذا والله ذلك الرجل^(٢).

وحكى الشعبي عن دغفل الشيباني قال: ثم ملك بعده ولده مرثد بن شداد، وكان أبوه قد خلفه بحضرموت على سلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة، فحمل إلى حضرموت مطلياً بالصبر والكافور، وأمر فحفرت له حفيرة في الجبل مثل المغارة، وجعله على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حلة منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحاً من ذهب، وكتب عليه بالقلم المسند: [مجزوء الرمل]

اعتبر بي أيها المغف	رور بالعمري المديد
أنا شداد بن عاد	صاحب الحصن العميد
وأخو القوّة واللبأ	ساء والملك الحشيد
دان أهل الأرض لسي	من خوف وعدي ووعيدي
وملكت الشرق والغر	ب بسلطان شديدي
وبفضل الملك والعد	دة فية والعميد
فأتى هود وكننا	في ضلال قبل هود
فدعاننا لو أجبننا	ه إلى الأمر الرشيد
فمصيناه ونادي	نا ألهل من محيد

(١) «التبصرة» ٢/ ١٣٥-١٣٦، و«عرائس المجالس» ص ١٤٥-١٤٩.

(٢) «عرائس المجالس» ص ١٤٨-١٤٩.

فأتتنا صيحة تهـ وي من الأفق البعيد
فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد
قلت: والعجب من جدي رحمه الله كيف حكى مثل هذه الحكاية ولم يتبين ما فيها^(١)، فإنَّ في إسنادها عبد الله بن لهيعة، وقد ضعّفه في «الواهية» وقال: كان مدلساً، وتكلّم فيه الدارقطني وغيره.

ثم ذكر فيها معاوية، وأين كعب الأحبار من زمن معاوية؟ ولي الأمر في سنة إحدى وأربعين وكعب مات في سنة اثنتين وثلاثين. ثم العقول السليمة تأبى مثل هذا، لأنَّ شدّاد ابن عاد له ألوف السنين، وما كان في العالم من يقف على هذه المدينة إلا ابن قلابة، وكان رجلاً بدويّاً، وكم قد مرّ بتلك الأرض من ملوك اليمن مثل التّابعة وغيرهم.

فصل في وفاة هود

واختلفوا في أي مكان توفي على أقوال:

أحدها: بأرض الشُّحر من بلاد حضرموت، وقبره ظاهر هناك ينزل عليه الندى والطلّ في شدّة الحرّ، وموضعه أحرّ الأماكن، وقد ذكره ابن سعد في «الطبقات»^(٢).
والثاني: بمكة، لما أهلك الله قومه أمره أن ينزل بمكة بمن معه من المؤمنين، قاله مجاهد.

والثالث: بجامع دمشق بالحائط القبلي^(٣). والأوّل أظهر.

وعاش هود مئة وخمسين سنة، وحكى الخطيب عن ابن عباس أنه عاش أربع مئة وستين سنة، وكان بينه وبين نوح عليهما السلام ثمان مئة سنة.

قصة لقمان بن عاد صاحب النور

قد ذكرنا أنه كان في الوفد^(٤)، وسأل الله طول العمر، فأعطاه عمر سبعة أنسر، كان

(١) التبصرة ١٣٧/٢، وعرائس المجالس ١٤٩-١٥٠.

(٢) في (ل): في حائط القبلة، والمثبت من (ب) و(ط).

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/٥٢.

(٤) يعني الوفد الذي خرج من قوم عاد إلى مكة ليستسقوا لقومهم. انظر الصفحة ٣٤٥.

يأخذ الفرخ من البيضة حين يخرج، فإذا مات أخذ غيره، فلم يبق غير واحد. قال له ابن أخيه: يا عم، لم يبق من عمرك إلا عمر هذا النسر. فقال لقمان: هذا لُبْد، واللبد بلسانهم الدهر. فلما انقضى عمر النسر مات.

وذكر جدي في كتاب «أعمار الأعيان» وقال: لقمان هذا هو الأكبر، وهو ابن عاد ابن عاديا من بقية عاد الأولى، وهو صاحب النور، بعثته عاد مع الوفد إلى الحرم يستسقون فدعوا وسأل هو البقاء، واختار عمر سبعة أنسر كلما هلك نسر أخذ مكانه آخر، يأخذ النسر وهو فرخ فيريه إلى أن يموت، فعاش ألفين وأربع مئة ونيفاً وخمسين سنة^(١).

قلت: وقد اختلف الناس في عمر النسر، وعامتهم على أنه يعيش خمس مئة سنة، فعلى هذا قد عاش لقمان ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة، ولم يبلغ هذا العمر أحد من بني آدم.

وقيل: إنه عاش ثلاثة آلاف وثمان مئة سنة، لأنه كان له قبل أن يأخذ النور ثلاث مئة سنة. ولما وقع لبد قال له لقمان: انهض فلم يقدر ومات، فمات لقمان. وقد ذكره الجوهري في حرف الدال، فقال: ولبد آخر نسر لقمان. قال: وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات سمر، من أظب عُفْر، في جبل وعر، لا يمسه القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختر النور، وكان آخر نسوره يسمى لُبْداً، وقد ذكرته الشعراء قال النابغة: [من البسيط]

أضحّت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبْدِ
هذه صورة كلام الجوهري^(٢).

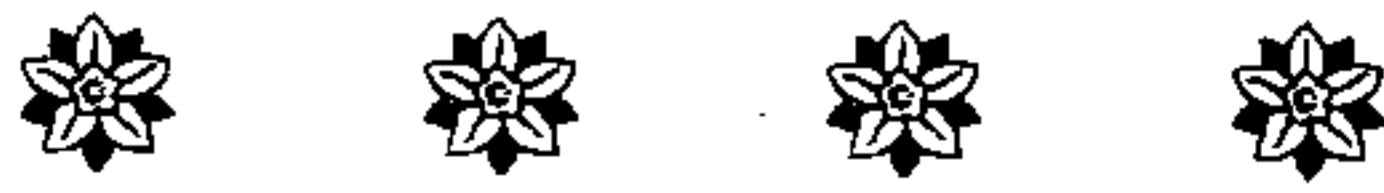
قصة جرت للقمان

ذكر هشام بن الكلبي عن أبيه قال: كان لقمان مغرباً بحب النساء، وكان يتزوج

(١) «أعمار الأعيان» ص ١٢٩ .

(٢) «الصحاح»: (لبد)، والنابغة هو الذبياني زياد بن معاوية، والبيت في ديوانه ص ٣١.

المرأة فتخونه، فتزوّج صغيرة لم تعرف الرجال، فنقر لها مغاراً في جبل، وجعل له سلاسل يصعد إليها فيها، فإذا نزل أزالها، فمرّ بها رجل من العمالقة فرآها فوَقعت في قلبه، فأخبر قومه وقال لأهله: لا بدّ لي منها، فقالوا: ويحك وكيف تصنع؟ فقال: اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني في وسطها وشدّوها حزمةً ثم أودعوها عنده، ففعلوا وجاءوا إلى لقمان فقالوا: نريد أن نساfer، ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع. فأطلع السيوف إلى المغارة وكانوا قد واعدوه يوماً بعينه يرجعون إليه، فكان لقمان إذا نزل خرج الرّجل وأتى الجارية، وإذا جاء لقمان عاد إلى مكانه. وجاء الميعاد فجاء القوم وأخذوا السيوف، فلمّا كان في بعض الأيام نام لقمان على ظهره فرأى في سقف المغارة نخامة، فقال للجارية: من تنخّم هذه؟ قالت: أنا، قال: فتنخمي، فتنخمت فلم تصل إلى السقف، ففطن وقال: من السيوف دُهِيت، ثم رمى بالجارية من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً، وانحدر مغضباً يطلب القوم، فلقيته ابنةً له يقال لها: صحر، فقالت: ما لي أراك يا أبة مغضباً؟ فقال: وأنت أيضاً من النساء، فضربها فقتلها فقالت العرب: ما أذنبت إلا ذنب صحر، فذهبت مثلاً^(١).



(١) انظر «الأمثال» لأبي عبيد ص ٢٧٢.

فصل

في ذكر صالح عليه السلام وقومه^(١)

ذكره الله في خمسة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] الآية. قال الزجاج: الثمد الماء القليل الذي لا مادة له، وإنما قال أخاهم لأنه من قبيلتهم، وقد ذكرناه.

واختلفوا في ثمود، فقال الجوهري: ثمود قبيلة من العرب الأولى، وهم قوم صالح^(٢). وكذا قال الفراء: [سُمُوا]^(٣) ثمود لقلة مائهم، وقيل: هو اسم رجل، قال عكرمة: هو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقال جدي في «التبصرة»: هو ثمود ابن جابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: ثمود بن جابر بن سام بن نوح.

قال الكلبي: وكانت هذه القبيلة تنزل وادي القرى إلى البحر والسواحل وأطراف الشام، وكانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون المساكن فتنهدم، فلما طال ذلك عليهم اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوها وعملوها على هيئة الدور، وكانوا قد عتوا وتجبّروا. وأما صالح فاختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه صالح بن عبيد بن جابر بن إرم بن سام بن نوح، قاله مجاهد.

والثاني: صالح بن عبيد بن أنيف بن ماسخ بن خادر بن جابر بن ثمود. وقيل: جائر بالجيم والشاء. قاله مقاتل.

والثالث: صالح بن كاثوا، قاله الربيع.

والرابع: صالح بن عبيد بن يوسف بن سانح بن عييل بن حاذر بن ثمود، قاله مجاهد. قال: وكان بينه وبين هود مئة سنة.

(١) انظر قصته في «تاريخ الطبري» ٢٢٦/١، وتفسيره ٥٢٥/١٢، و«البدء والتاريخ» ٣١/٣، ومروج الذهب ٨٣/٣، و«عرائس المجالس» ص ٦٨، و«المنتظم» ٢٥٥/١، وتفسير البغوي ١٧٥/٢، و«الكامل» ٨٩/١، و«البداية والنهاية» ١٣٠/١.

(٢) «الصحاح»: (ثمد).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (ب)، وبدله في (ل) كلمة: إسحاق، والمثبت من (ط).

وقال مقاتل: وكان في قومه بقايا من قوم عاد على طولهم وهيئتهم، وكان لهم صنم من حديد يدخل فيه الشيطان في السنة مرة واحدة ويكلمهم، وكان أبو صالح سادنه، فغار لله وهمم بكسره، فناداهم الصنم: اقتلوا كاثوا، فقتلوه ورموه في مغار، فبكت عليه امرأته مدة فجاءها ملك فقال: إن زوجك في المغار الفلاني، فجاءت إليه وهو ميت، فأحياه الله تعالى، فقام إليها فوطئها في الحال، فعلمت بصالح من ساعتها وعاد كاثوا ميتاً. وشبَّ صالح فبعثه الله إلى قومه، ذكره مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له.

واختلفوا متى بعث على قولين:

أحدهما: حين راهق الحلم، قاله وهب. والثاني: لما تمَّ له أربعون سنة، قاله ابن عباس.

قال علماء السير: فلما تجبروا وطغوا وكفروا بعث الله إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله تعالى فقال: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: ابتداء خلقكم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ لأنَّ آدم خلق منها وهم منه ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] أطال أعماركم. وقال ابن قتيبة: وكان صالح تاجراً^(١).

قصة الناقة

روى الوالبي عن ابن عباس قال: لما دعاهم صالح إلى الله تعالى اقترحوا عليه ناقة لأنهم كانوا أصحاب إبل، وكانت النوق عندهم عزيزة، فطلبوا منه الدلالة من حيث ما هم عليه ثم تنطعوا، فقالوا: لتكن سوداء حالكة، عُشراء ذات عرف وناصية ووبر. فسأل الله فأوحى الله إليه: اخرج بهم إلى فضاء من الأرض، فخرجوا، فقال: من أين تريدونها؟ فأشاروا إلى صخرة وقالوا: من هذه. فأشار إليها صالح وقال: اخرجي بإذن الله، فتمخضت تمخض الحامل وانفجرت عن ناقة كما طلبوا، ثم تلاها من الصخرة فصيل لها، فأمن خلق ممن حضر، منهم ملكهم جندع بن عمرو. ثم قال لهم صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] من الكلاء، ليس عليكم مؤونتها ولا علفها - وتأكل مجزوم بجواب الشرط المقدَّر، والمعنى: إن

(١) «المعارف» ص ٣٠، ومن هنا وقع خرم في (ب) ينتهي في أسماء إبراهيم.

تذروها تأكل - ﴿وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣] بعقر.

والسوء في القرآن على وجوه: أحدها: العقر كما ذكرنا. والثاني: الشدة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] والثالث: الزنا ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] والرابع: البرص ﴿تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]. والخامس: العذاب ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ [الزمر: ٦١]. والسادس: الشرك ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] والسابع: السب ﴿وَأَلْسِنَهُم بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: ٢] والثامن: الضرر ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] والتاسع: الذنب ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

ثم قال لهم صالح: لها شرب يوم ولكم شرب يوم؛ لأن مياههم كانت قليلة، فكانت تشرب ماء الوادي في يوم، ويحلبونها في يوم، فيشربون لبنها عوض ما شربت. ولما ألح عليهم صالح بالموعظة لم يلتفتوا إليه، وعزموا على قتله، وكان بيت ناحية عنهم في مسجد له، فكمنا له ليلة تحت صخرة يرصدونه وذلك قوله: ﴿لَبِيتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] فدعا عليهم فوقعت عليهم الصخرة فقتلتهم، فأصبحوا يقولون: قتلهم صالح. فأجمعوا على عقر الناقة وقالوا: قد ضايقتنا في الماء والكلاء.

قال مقاتل: أوحى الله إليه: إن قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ [الشمس: ١٣] أي: احذروا قتلها ولا تمنعوها شربها، فقالوا: ما كنا لنفعل، فقال: ما تعقرونها أنتم، بل يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها، قالوا: وما علامته فوالله ما نجده إلا قتلناه، فقال: غلام أشقر أزرق أحمر قصير أصهب سناط، وهو أحمر ثمود.

وكان في المدينة شيخان عزيزان لأحدهما ابن يُرغَبُ له عن المناكح، وللآخر ابنة لا يجد لها كفواً، فتناكحا، فولد بينهما ذلك المولود، وكان قوم صالح قد وضعوا الشرط مع القوايل يطوفون على النساء، يقتلون كل مولود ولد بهذا الوصف، فلما ولد هذا المولود نظر إليه النساء فصرخن وقلن: هذا والله عاقر الناقة، وأرادوا قتله، فمنعه جداه من القتل، وكانا منيعين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا محمد بن حمدون بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: ذكر رسول الله ﷺ عاقر الناقة، فقال: «انتدب لها رجل»

عارمٌ ذو عزٍّ ومنعةٍ في قومه كأبي زَمْعَةَ» وذكر الحديث^(١).

وقال الثعلبي: كان أشقر أزرق قصيراً، واسمه قديرة^(٢).

وقال الجوهرى: قُدار بن سالف^(٣)، بالدال المهملة. وهو الأصح.

وقال وهب: وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون،

فانضافوا إلى المولود فصاروا تسعة.

وذكر وهب أسماءهم فقال: مصدع بن دهر، وأسلم، ورهمي، ورهيم، ودعيمي،

ودعيم، وقبال، وصدّاق، وقدار بن سالف، قال وهب: وكان الثمانية حاكة، وكان في

المدينة امرأتان لهما جمال فرأهما قدار ومهجع^(٤)، قال مقاتل: إحداهما اسمها عنيزة بنت

غنم، والأخرى صدوف بنت المحيّا، فقالت صدوف: من يكفينا أمر الناقة؟ فقال قدار: أنا

فما لي عندك؟ فقالت: نفسي، وقالت عنيزة للآخر كذلك، فقالا: ميلا علينا بالخمير،

فشربا حتى سكرا وطلبا منهما الزنا فقالتا حتى تفرغا من أمر الناقة. وكان قد استغويا النفر

الذين سمّيناهم فخرجوا إلى الناقة وهي على الحوض قائمة فضربها قُدار على عرقوبها

فوقعت. وقال مجاهد: رماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر

عرقوبها. ثم نحرها، وقالوا: ﴿يَصْلِحُ أُنْتِنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧] من العذاب.

وجاء الخبر إلى صالح فأقبل فرآها كذلك، فوقف يبكي، فجاء قومه يعتذرون إليه

ويقولون: إنما عقرها فلان وفلان.

ولما عقرت صعد فصيلها إلى الجبل، فقال لهم صالح: انظروا فإن أدركتموه فعسى

أن يُرْفَعَ عنكم العذاب. فمضوا خلفه فلم يقدرُوا عليه. ولما علا على الجبل رغا ثلاثة

أصوات، وهذا الجبل يقال له: القارة، وكان قصيراً، فلما قصدوا الفصيل طال إلى

عنان السماء. وصعد صالح ورآه، فلما رآه سالت دموع الفصيل على خديّه، فقال لهم

صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] لكل رغبة يوم، وآية العذاب أن

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٢٣)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٢) «عرائس المجالس» ص ٧٠، وفيه: اسم أمه قديرة.

(٣) «الصحاح»: (قدر).

(٤) كذا في (ل)، ولعله «مصدع»، انظر «عرائس المجالس» ص ٧٠.

تصبح وجوهكم في اليوم الأول محمّرة، وآية العذاب أن تصبح في اليوم الثاني مصفرة، والثالث مسودّة، وذلك في يوم الخميس والجمعة والسبت. وكانوا في ذلك الوقت يسمّون الأيام بأسمائها القديمة: فيوم الخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شيار.

فأصبحت وجوههم في اليوم الأوّل كأنما طليت بدم، وفي اليوم الثاني كأنما طليت بالخلوق، وفي اليوم الثالث كأنما طليت بالقار. ونودوا ألا إن العذاب قد حضر، فتحنطوا وتكفّنوا بالأنطاع، وحفروا قبورهم ونزلوا فيها، ظناً منهم أن الله يرحمهم. فإذا بجبريل عليه السّلام قد ظهر من المشرق، فسدّ عين الشمس وصاح بهم صيحةً ارتجّت لها الدنيا وقال: موتوا لعنكم الله. فتقطّعت قلوبهم في صدورهم وماتوا جميعاً. وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال في حرم مكة، فمنعه الحرم من العذاب، وسنذكره في قصّة أصحاب الفيل.

قال ابن عباس فذلك معنى قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] ومعنى تمتعوا: عيشوا ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ﴾ [هود: ٦٧] أي: هالكين صرعى ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] أي يقيموا.

قال قتادة: كان ملكٌ ثمود إلى أن هلکوا مئتين وثمانين سنة، وكان ملكهم جندع بن عمرو، وقد أسلم فنجاه الله تعالى، واعتزلهم هو وأخوه، وقال: [من البسيط]

كانت ثمود ذوي عزم^(١) ومكرمة
فأهلکوا ناقةً كانت لربهم
ما إن يضام لهم في الناس من جار
قد أنذروها وكانوا غير أبرار

قال مقاتل: واسم العذاب الذي عذبوا به الطغوى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ [الشمس: ١١] ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الدمدمة: الهلاك بعنف، وهي صيحة جبريل ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي: قلب بيوتهم فسوّاها بالأرض ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] أي: العاقر، لأنه لو خاف لما عقرها.

(١) في مروج الذهب ٣/ ٩٠: عز، ونسب فيه البيتان إلى حباب بن عمرو.

قرأت على شيخنا أبي اليمن الكندي رحمه الله في معنى «فدمدم» حكايةً قرأها على شيخه أبي منصور ابن الجواليقي عن مشايخه، عن الأصمعي قال: أشكل عليّ في القرآن مواضع، فسألت عنها رجالاً من أهل العلم فلم أجد عندهم علماً منها، فدخلت البادية أطلب العرب الخُلص، فنزلت على عجوز، قال: والذي أشكل عليّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٤] ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن: ٣٥] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم﴾ [الشمس: ١٤] ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

قال: فأقمت عند العجوز ذلك اليوم فقالت لابتها: أين العصفور الذي كان ها هنا؟ فقالت: ذهب، فقالت: قومي فانظري ما حاله، فقامت وذهبت، وعادت وبيدها عصفور فأخذته العجوز وقالت: ويحك، ظننتُ أن لن تحور. أي: ترجع إلينا، فقلت: هذه واحدة.

ثم قالت: أين أبوك؟ فقالت: عند تلك الباسقة. وأشارت إلى نخلة عالية، فقلت: هذه الثانية.

فقالت: اذهبي إليه ليحضر إلى الضيف، فذهبت وعادت ثم قالت: مضى إلى ذلك النُّحاس. وأشارت إلى دخان بعيد. فقلت هذه الثالثة.

ثم جاءت بقصعة فيها ثريد فأكلت منها ثم قالت: يا بنية اغسلي القصعة ودمدميها، فغسلتها وكبّتها، قال: فقلت: وهذه الرابعة.

ونمت عندهم فلما كان آخر الليل قالت: يا بنية، اجلبي للضيف، فقالت: إنه ليل، فلما طلع الفجر قالت: يا أمّاه، قد طلع الفجر، فقالت: ومن أين علمت؟ قالت: قد برد عرجوني، يعني خلخالها، قال: فانصرفت وقد استفدت من العجوز جميع ذلك.

وقال ابن عباس: كان صالح ينزل الحجر وبينه وبين وادي القرى ثمانية عشر ميلاً. ولما سار النبي ﷺ إلى تبوك لم ينزل الحجر، وسنذكره في سيرته.

قال مقاتل: وضربت بهم العرب المثل في الشؤم فقالوا: أحمر ثمود، وقالوا في الفصيل: رغا فوقهم سقب السماء، فصار مثلاً لكل من يهلكه الله تعالى.

وقال علماء السّير: لما هلكوا قال صالح لمن آمن معه: إنّ هذه دار سخط فاطعنوا بنا عنها. واختلفوا أي مكان نزل؟

فقال الحسن: نزل بلاد فلسطين وأقام بالرّملة.

وقال السّدي: أهلّ من ساعته بالحج هو ومن آمن معه في العباء القطوانى، وركبوا قلائص مخطمة بحبالٍ من ليف، ثم لبّوا وأتوا مكة، فأقاموا يتعبّدون حتى ماتوا، فقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة والحجر. وكذا قال ابن قتيبة^(١).

قال: وأقام في قومه عشرين سنة، وتوفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وقيل: ابن ثلاث مئة وست وثلاثين سنة، وقد حكاه الخطيب عن ابن عباس، وهو الأظهر^(٢).

وأهل التوراة يقولون: لا ذكر لعاد وشمود فيها، وقد كذبوا الله أصدق القائلين.

وقال ابن قتيبة: كان صالح زاهداً يمشي حافياً ولا يتخذ حذاء، ولا مأوى له إلا المسجد، وكان مع الناقة أينما توجهت^(٣). وعيسى بن مريم سلك طريقه في الزهد.

ويقال: إن دانيال الأكبر الذي حفر دجلة والفرات كان بين نوح وإبراهيم، وقيل: في أيام صالح، وقيل: بينه وبين هود، وقيل: بعد الطوفان.

وذكروا أنّ أنفه كان طوله ذراعاً، وهو الذي وجد المسلمون قبره بالعراق في زمان الفتوح، وسنذكره.

وأما دانيال الأصغر فإنه كان في زمان بُخْتَنَصَّر، وسنذكره إن شاء الله تعالى في أيام بُخْتَنَصَّر.

ويقال: إنه كان بين هود وصالح مئة سنة، وبين صالح وإبراهيم ست مئة وثلاثون

سنة



(١) «المعارف» ص ٢٩-٣٠.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/٢٣٢، والمتنظم ١/٢٥٦.

(٣) «المعارف» ص ٢٩.

فَصْلٌ

في ذِكْرِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَام^(١)

اختلفوا في نسبه على قولين :

أحدهما : أنه إبراهيم بن تَارَح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن عابر بن شالخ بن قينان بن أَرْفُخْشَد بن سام بن نوح ، حكاه السّدي عن أشياخه .

والثاني : إبراهيم بن تَارَح بن أشرغ بن أرغو بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، قاله وهب وابن قتيبة . قال ابن قتيبة : قابلت هذا النسب بما في التوراة فوجدته موافقاً لما فيها إلا أنني وجدت مكان أشرغ : شاروغ^(٢) .

واتفقوا على أن تَارَح هو آزر ، وبعضهم يقول : إن آزر اسم صنم ، وليس بصحيح ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

وفي «إبراهيم» لغات ذكر بعضها الجوهري وبعضها ابن الجواليقي في «المعرب» . فأما الجوهري فقال : وإبراهيم اسم أعجمي وفيه لغات : إبراهيم وإبراهم وإبراهم^(٣) .

وقال ابن الجواليقي : وأما إبراهيم ففيه لغات ، قرأت على أبي زكريّا عن أبي العلاء قال : إبراهيم اسم قديم وليس بعربيّ وقد تكلمت به العرب على وجوه فقالوا : إبراهيم وهو المشهور وإبراهام [وقد قرىء به ، وإبراهم على حذف الياء ، وإبرهم^(٤) . وقال الجوهري : وآزر اسم أعجمي^(٥) .

وقال البلاذري عن الشرقي بن قطامي أن معنى آزر : السيّد المعين .

(١) انظر قصته في «تاريخ يعقوبي» ٢٤/١ ، و«تاريخ الطبري» ٢٣٣/١ ، ومروج الذهب ٨٣/١ ، و«البدء والتاريخ» ٤٥/٣ ، و«عرائس المجالس» ص ٧٤ ، و«تاريخ دمشق» ١٦٤/٦ ، و«المنتظم» ٢٥٨/١ ، و«الكامل» ٧٢/١ ، و«البداية والنهاية» ١٣٩/١ .

(٢) «المعارف» ص ٣٠ .

(٣) «الصحاح» : (برهم) ، وما بين معقوفين زيادة منه .

(٤) «المعرب» ص ٦١ ، وما بين معقوفين زيادة منه .

(٥) «الصحاح» : (آزر) .

وقال سلمان التيمي: معنى أزر شين وعيب، وقيل: معناه في لغتهم المعوج.
وقال وهب: اسم أم إبراهيم نوتا بنت كرنبا من بني سام بن نوح، وكرنبا هو الذي
حفر نهر كوئا بالعراق، نسب إلى أبيه أو إلى كوئا. وكوئا مدينة بابل، وكوئا قرية من
سواد الكوفة، ومحلة بالكوفة، وبمكة أيضاً، وكان أهلها يؤذون النبي ﷺ^(١)، وفيهم
يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢): [من الخفيف]

لعن الله أهل كوئا داراً ورمها بالذل والاحتقار
لست أعني كوئا العراق ولكن ربة الدار دار عبد الدار
وأراد علي رضي الله عنه بكوئا الثانية محلة بالكوفة كان ينزلها، قال: وهو معنى قوله: نحن
من أهل كوئا. فأما كوئا العراق فهي مدينة بابل، ولم يذكرها الجوهري ولا في
«المعرب».

وقال ابن سعد في «الطبقات»: وكنية إبراهيم أبو الأضياف^(٣).

فصل في أسمائه

قد سمّاه الله تعالى بأسماء كثيرة:

منها: الأواه، لقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وكان يكثر التأوه في
الصلاة خوفاً من الله تعالى.

ومنها: الحلیم والمنيب ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

ومنها: الحنيف ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] والحنيف: المائل إلى الدين.

ومنها: القانت والشاكر إلى غير ذلك. وقيل: إن هذه أوصاف له.

وقال مقاتل: قد ذكر الله إبراهيم في القرآن في أحد^(٤) وسبعين موضعاً.

(١) إلى هنا ينتهي الحرم في (ب).

(٢) البيتان لحسان بن ثابت رضي الله عنه وهما في ديوانه ص ١٠٩، وتاريخ بغداد ٢٨٧/١، ورواية الديوان:

ورماها بالفقر والإمعار

لعن الله منزلاً بطن كوئي

شرة الدور دار عبد الدار

لست أعني كوئي العراق ولكن

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤٧/١.

(٤) في (ب) و(ل): إحدى، والمثبت من (ط).

وكان النبي ﷺ يثني عليه، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا خير البرية، فقال: «ذاك إبراهيم عليه السلام». انفراد بإخراجه مسلم^(١).

وقال هشام: لم يكن بين نوح وإبراهيم إلا هود وصالح، وكان بين إبراهيم وهود ست مئة سنة وثلاثون سنة، وبين نوح وإبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون سنة، وسنذكر ما بين النبيين من السنين فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأكثرهم على أنه ولد بأرض بابل، إلا في قول^(٢).

رجعنا إلى الحديث: قوله ﷺ عن إبراهيم: إنه خير البرية، قال أبو سليمان الخطابي: إلا أن هذا الحديث منسوخ بقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»^(٣).

ولمسلم أيضاً عن جابر عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ الأنبياء فرأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت شيئاً صاحبكم» يعني نفسه، وذكر موسى وعيسى^(٤). وسنذكره في موضعه.

وقال ابن عباس: سمى الله الخليل شجرة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] وإنما سمّاه شجرة لأن أكثر الأنبياء من صلبه، وقد ذكرنا أنه ولد بأرض بابل إلا في قول.

ذكر مولده عليه السلام

قال علماء السير: ولد الخليل في زمان نمرود الجبار، رأى المنجمون والكهان سيرته في علومهم، فقالوا لنمرود بن كنعان: إننا لنجد في علومنا أن غلاماً يولد في قرينك هذه يفارق دينكم ويكسر أوثانكم، يقال له: إبراهيم، يولد في شهر كذا وكذا في سنة كذا وكذا.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٨٢٦)، ومسلم (٢٣٦٩).

(٢) انظر الاختلاف في مكان ولادته ﷺ في «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٧)، ولفظه: فإذا أقرب من رأيت به شيئاً صاحبكم.

فلما دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كلِّ حاملٍ فحبسهنَّ عنده ولم يعلم بحبل أم إبراهيم، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه^(١).

قلت: وهذا من سفه نمرود، لأنه إن كان قد جرى القدر بإزالة ملكه ودينه فلا بدَّ من ذلك، ولا ينفع الاحتراز، وإن لم يكن جرى القدر بذلك فأين الغلام المطلوب حتى يذبح الغلمان كلهم؟! وعلى هذا قصة فرعون لما أمر بذبح الأطفال احترازاً من موسى عليه السَّلام.

وقال وهب: إنما وجد مولد إبراهيم وسيرته في علوم إدريس، ومن هناك أخذ المنجمون.

وقال الضحَّاك: رأى نمرود في منامه كأنَّ كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر، فارتاع ودعا بالسَّحرة والكهَّان والقافة فأخبرهم بما رأى، فقالوا: يولد مولود من صفته كذا وكذا.

وقال ابن إسحاق: لم تعلم أم إبراهيم بحبلها لأنَّها كانت جارية حديثة السن^(٢).

وقال السُّدي: كان آزر من خواصِّ نمرود، لما قال له الكهَّان ما قالوا خرج من المدينة فنزل ظاهرها، فعرض له أمر مهم إلى قصره، فقال لآزر: أنت أميني وصاحبي، اذهب إلى الحاجة الفلانية ولا تلمَّ بأهلك، فقال آزر: أنا أشحُّ على أمانتي من ذلك. فلما دخل المدينة وقضى الحاجة قال: ما يضرني لو نظرتُ إلى أهلي من غير مباشرة؟ فجاء إلى منزله فواقع امرأته، فحملت بإبراهيم وأخبرت الكهنة نمرود بأنَّ أمَّ الغلام قد حملت به في هذه الليلة، فلم يذهب فكره إلى آزر ثقةً به، وأقامت أمُّ إبراهيم تخفي حملها إلى زمان ولادتها، وضربها الطلق فخرجت إلى مغارة فوضعت هناك، ثمَّ سدَّت بابها، وكانت تتعاهده فتراه يمصُّ إبهامه واللبن يدرُّ منه^(٣).

وقال مقاتل وابن إسحاق: كان يمصُّ من إصبع لبناً، ومن إصبع عسلاً ومن أخرى

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤، و«المنتظم» ١/ ٢٥٩.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٥.

ماء. وسألها آزر عن حملها فقالت: ولدت جاريةً ميتةً، فسكت عنها.
وذكر الثعلبي: أن أمّه أخبرت أباه به فحفر له سَرَباً وسدّ عليه الباب بصخرة مخافة السباع.

واختلفوا في أيّ مكان ولد على أقوال:

أحدها: ببابل من أرض السّواد، مدينة نمرود، قاله ابن عباس.

والثاني: بكوثا، مكان محلّة بالكوفة، قاله مجاهد.

والثالث: بالسّوس من أرض الأهواز، قال عكرمة.

والرابع: بين الكوفة والبصرة، قاله السّدي.

والخامس: بكسكر ثم نقله أبوه إلى كوثة، قاله الرّبيع بن أنس.

والسادس: بحرّان ثم نقله أبوه إلى بابل، قاله وهب. والأول أصح.

وقال السّدي: لما تبين حملها، حمّلها آزر إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها:

أورى، فأنزلها في سَرَب، وجعل عندها ما يصلحها، فولدت هناك، ثم ردها إلى بابل.

وقال الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن ابن عباس: أن أمّه كانت تحبّه في

كهف في جبل قاسيون، بقريّة يقال لها: برزة، في الموضع الذي يعرف اليوم بمقام

إبراهيم، وأنه ولد في هذا المكان ويسمّى برزة قاسيون.

ثم اعترف أبو القاسم بالحقّ ووافق أرباب السّير فقال: والصحيح أنه ولد بكوثا من

إقليم بابل من أرض العراق، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه لما هاجر إلى الشام صلى

فيه^(١). وهذا أشهر.

فصل في النماردة

قال علماء السّير: النماردة ستة:

أحدهم: نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن حام بن نوح وقيل: نمرود بن

كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش وملك الأقاليم كلها، وهو أول من لبس التاج

(١) تاريخ دمشق ٦/١٦٤.

في قول السُّدي، وادَّعى الربوبية، وعمل بأحكام النجوم وكان أجبرَ النماردة.
قال السُّدي: وهو أحد الأربعة الذين ملكوا الدنيا في قوله عليه السلام: «ملك الدنيا مؤمنان وكافران» وقد ذكرنا الحديث^(١)، وهو أحد الكافرين.
وقال هارون بن المأمون: كان نمرود هذا غلاماً للضحَّاك بن الأهبوب، وهذا هو صاحب النسور.

والثاني: نمرود بن كوش بن حام جدّ هذا، قاله مقاتل.
والثالث: نمرود بن شاش بن كنعان بن حام بن نوح.
والرابع: نمرود بن سنحاريب بن كوش بن كنعان.
والخامس: نمرود بن ساروغ بن أرغو بن فالغ من ولد سام بن نوح.
والسادس: نمرود بن كنعان بن المضاض بن يقطن، أو يقطان، من ولد سام بن نوح.

قال مقاتل: فأربعة منهم من ولد حام بن نوح، واثنان من ولد سام بن نوح.

فصل فيما جرى للخليل عليه السلام في السَّرْب ورؤيته الكواكب

قال السُّدي فيما رواه عن أشياخه: كان إبراهيم يشبّ في كل يوم مثل ما يشبّ غيره في شهر، وفي شهر مثل غيره في سنة، وفي سنة مثل غيره في سنتين.
وقال مقاتل: لما أتى عليه سنة تكلم، وهو أول كلامه، فقال: يا أمّاه من ربي؟ قالت: أنا، قال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك، قال: ومن ربّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: ومن ربّ نمرود؟ فلطمته وقالت: اسكت. ثم رجعت إلى أبيه وقالت: رأيت الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض؟ قال: لا، قالت: إنه ابنك. ثم أخبرته بما قال، فجاء إليه أبوه فقال له مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] الآية.
قال مجاهد: قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي﴾ الضمير يعود على قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾

(١) سلف في فصل من ملك الأرض وسلكتها وقطع سبلها.

من قَبْلُ ﴿[الأنبياء: ٥١] وهو قوله لأمه: من ربك، فإنَّ الله ألهمه التوحيد والإيمان. وكذا أريناه ملكوت السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ. و«الملكوت»: الملك زيدت فيه الواو والتاء كما زيدت في الجبروت.

وقال مقاتل: والمراد بملكوت السماوات: الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والأملاك ونحوها، وبملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار والأنهار والمعادن والحيوانات والنبات.

قال مجاهد: وهذا كله رآه في النهار عياناً، كشف عن السَّمَاوَاتِ فرأى العرش، وعن الأرض فرأى الأرض السابعة.

وقال مقاتل: إنما رأى ملكوت السماء في الليل، وملكوت الأرض في النهار.

وقال ابن عباس: أرى خلق السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

وقال سعيد بن جبير: آيات السماوات والأرض، أقيم على صخرة وكشف له عن ذلك حتى نظر إلى مكانه في الجنة.

وحكى الثعلبي عن قتادة قال: إنَّ إبراهيم عليه السَّلَامُ حدَّث نفسه أنه أرحم الخلق، فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض، ورأى أعمالهم، فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهمَّ دمر عليهم، والعنهم، فقال له ربُّه: أنا أرحمُ بعبادي منك، اهبط، لعلهم يتوبون.

وقال الثعلبي بإسناده عن قيس بن أبي حازم، عن عليِّ كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ قال: «لما أرى الله إبراهيم ملكوت السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أشرف على رجل يعصي الله فدعا عليه فهلك، ثم أشرف على آخر فدعا عليه فهلك، وعلى آخر، فلما أراد أن يدعو عليه أوحى الله إليه أن يا إبراهيم، إنَّك رجلٌ مُجَابُ الدَّعْوَةِ فلا تدعونَّ على عبادي، فإنني منهم على ثلاث خصال: إمَّا أن يتوبوا فأتوب عليهم، وإمَّا أن أُخْرِجَ منهم نسمةً تسبح، وإمَّا أن يبعثوا إليَّ فإن شئتُ عفوتُ عنهم وإن شئتُ عاقبتهم»^(١).

قلت: وينبغي أن تكون هذه الآية مؤخّرة في التلاوة لأنه إنما أرى ملكوت

(١) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري ٨/٣٤٧-٣٥١.

السموات والأرض - على قولهم - وهو في السّرب، ابن سنة أو سنتين أو ثلاث، فكيف يقال له: أنت رجل مجاب الدّعوة؟!

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى آخر القصّة.

قال علماء السّير: لما قال لأبويه: مَنْ ربي؟ وأنكرا عليه قال: أخرجوني من السّرب، فأخرجاه. و«جَنَّ الليل»: أظلم وغطّى كل شيء، ومنه سمّيت الجنُّ لاجتنانها فلا ترى. وقال أبو عبيدة: جنون الليل سواده^(١).

واختلفوا في الكوكب الذي رآه:

فقال مجاهد: المشتري. وقال مقاتل: الزهرة. وقال ابن عباس: رأى أنورهما وأشرفهما، أو أنورها وأشرفها، وإنما رأى الكوكب قبل القمر، لأنها كانت آخر ليلة في الشهر والقمر لا يطلع فيها في أوّل الليل^(٢).

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِيكَ﴾ [الأنعام: ٧٦] قال الرّبيع: معناه لا أحبُّ ربّاً لا يدوم ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قال ابن عباس: عبّد الكوكب حتى غاب، ثم عبّد القمر حتى غاب. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] أي: عن الهدى ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] فعبّدها حتى غابت؛ وقد نصّ ابن عباس على هذا.

فإن قيل: فلم لم يقل في الشمس: هذه ربي، وقال: هذا ربي؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه رأى ضوء الشمس وهو الشعاع، ولم ير عين الشمس فردّ النظر إلى الشعاع، ذكره محمد بن مقاتل الرّازي.

والثاني: أنه أراد الطالع، أي: هذا الطّالع ربي، فإنه أضوأ وأعظم، حكاة الأخص.

والثالث: أن على رأي المنجمين أنّ الشمس ذكر والقمر أنثى^(٣)، وهذا جواب لم أسبق إليه.

(١) انظر مجاز القرآن ١/١٩٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٩/٣٥٦، وزاد المسير ٣/٧٣.

(٣) انظر زاد المسير ٣/٧٥-٧٦.

فصل في الكلام على الآية

واختلفت العلماء في هذا فأجراه بعضهم على ظاهره وقالوا: إنما كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفقه الله تعالى وآتاه رشده. ومثله قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] ومعناه: فلما آتاك علمت.

قالوا: وهذا كان في زمان الطفولة، فإنه كان ابن سنة أو ثلاث، والدليل عليه قول ابن عباس: فلما رأى الكوكب عبده، فلما رأى القمر عبده. وأنكر الآخرون هذا - وهؤلاء القائلون بتنزيه الأنبياء عليهم السلام - وقالوا: هذا التأويل غير مستقيم لأن الأنبياء منزّهون عن هذا، وغير جائز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو الله مؤحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وخصوصاً الخليل، فإن الله آتاه رشده من قبل، وقال: ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] فكيف يُتوهم هذا على من عصمه الله وطهره وجعله أصل الأنبياء، وقال في حقه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] أفتراه أراه الملكوت ليقن، فلما أيقن كان ثمرة إيقانه أنه لما رأى الكوكب قال: هذا ربي؟! هذا غير جائز.

قالوا: وفيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم أراد أن يستدرجهم بهذا القول، ويعرفهم خطأهم وجهلهم، ويقيم الحجة عليهم، فأراهم تعظيم ما عظّموا وملتمس الهدى من حيث ما التمسوا، فلما أفل أراهم النقص الداخِل على النجوم، ليتيقنوا خطأ ما كانوا يدعون من تعظيم النجوم وعبادتها. قالوا: ونظير هذا الحوار الذي ورد على قوم يعبدون صنماً لهم، فأظهر تعظيمه وأراهم الاجتهاد في دينهم فأكرموه وعظّموه، وصدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدوّ لهم خافه الملك على مملكته، فشاوروا الحوار في أمره فقال: الرَّأْيُ أَنْ نَدْعُو إِلَهَنَا - يعني الصنم - حتى يكشف ما بنا فإننا لمثل هذا اليوم كنا نرجوه. فاجتمعوا حوله يجأرون ويتضرعون، وأمرُ عدوّهم يستفحل. فلما تبين لهم أن صنمهم لا ينفع ولا يدفع ولا يسمع قال الحوار: ها هنا إله تدعونه فيسمع ويجب وينفع، فهلمّوا ندعوه، فدعوا الله تعالى وتضرّعوا إليه، فصرف عنهم ما كانوا

يخافون من عدوهم، فأسلموا.

والوجه الثاني: أن إبراهيم رآهم يعبدون الشمس والقمر والنجوم، فقال لهم - على سبيل الاستفهام والتوبيخ، مُنكراً لفعالهم -: هذا ربي؟! أي أهدا ربي أم لا؟.

والثالث: أن معناه: ليس هذا رباً لي، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والرابع: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا وإضمارًا، وتقديره: ويقولون هذا ربي، حكاية عنهم^(١).

قلت: وقد بسط أبو إسحاق الثعلبي الكلام في هذا الوجه وبالغ، والعجب منه - وقد اتفق العلماء - أنه إنما قال ذلك عند خروجه من السَّرْب، وهو ابن ثلاث سنين، فيا ليت شعري: أين كان قومه في ذلك الوقت؟ وهل كانت أمه وأبوه يخبران بحاله مخافة عليه؟ فقوله في الوجه الأول إنه أراد أن يستدرجهم باطل، وأمّا عن الوجه الثاني وما بعده فإن حروف الاستفهام لا تضرر إذا كان الاستفهام فارقاً بين الإخبار والاستخبار، فلا يقال هذا زيد في الإخبار، ومعناه: أهدا زيد، وكذا قولهم معناه: هذا رباً لي، لا يجوز أن يحمل الاستفهام على ليس ولا الإخبار، وكذا قولهم إنه حكاية عنهم، لأنه يكون حينئذ عدولاً عن الحقيقة إلى المجاز، وأنه قلب الموضوع.

والصواب: حمل الكلام على ظاهره، وأن ذلك وقع من الخليل وهو في زمان الطفولية، والأنبياء غير معصومين في تلك الحالة، فَحَمِلُ الكلام على ظاهره مع إقامة عذر الخليل أولى من حمله على هذه التأويلات الضعيفة.

والدليل على صحّة هذا قوله عقيب ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] الآية.

فصل في كسره الأصنام

قال وهب بن منبه: يقال: إنه أقام في السَّرْب ثلاث سنين، وقيل: سبع سنين. فلما

(١) انظر تفسير الطبري ٣٥٦/٩-٣٦٠، وزاد المسير ٧٣-٧٥.

أظهر آزر أنه ابنه وأنه كان غائباً عنه رَقَّ عليه أبوه، وكان أبوه يعمل الأصنام فيعطيه الصنم لبيعه، فيخرج به إلى السوق فيقول: من يشتري مني ما لا ينفعه ويضره، كذا روى وهب^(١).

وذكر جدي في «التبصرة»: أنه كان يقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه^(٢).

ثم يأتي بها إلى النهر فيضرب رؤوسها ويقول: اشربي، استهزاء بها ويقومه، لما هم عليه من الضلال، حتى فشا عيبه إيّاها في أهل البلد، وجعل يقول لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي: مقيمون على عبادتها، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] فنحن نقتدي بهم ونقلدهم.

قال ابن عباس: وكان لهم يوم عيد يجتمعون فيه، فخرج معهم ثم ألقى نفسه في الطريق، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩].

فإن قيل: فكيف نظر نظرة في النجوم؟ قلنا: إنما قصد موافقتهم، لأنهم كانوا ينظرون في النجوم، ليتمكن من كسر الأصنام، فلا ينكرون عليه. ومعنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم، لأن الإنسان لا يخلو من السقم. وقيل معناه: إني سقيم عن عبادتها، فكان من المعاريض.

فلما مضوا وتركوه قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] والكيد احتيال الكائد في ضرر المكيد. وكان لهم اثنان وسبعون صنماً من ذهب وفضة وغير ذلك من الرصاص والصفير والنحاس والخشب وغيرها، وكان كبيرهم من ذهب، وعيناه ياقوتتان. وكانوا في ذلك العيد يذبحون الذبائح ويقربون القرابين، ويضعون الطعام بين يدي الأصنام قبل خروجهم إلى عيدهم، يزعمون للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم دخلوا عليها فأكلوه.

﴿فَنَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصفات: ٩٠] أي: إلى عيدهم. فدخل إبراهيم دار الأصنام، فكسر الجميع، وعلق الفأس في رأس الصنم الكبير، فلما فرغوا من عيدهم دخلوا عليها فأروها على تلك الحال.

(١) انظر عرائس المجالس ٧٦.

(٢) «التبصرة» ١٠٦/١.

قال مقاتل: فذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَيَّ إِلَهُهُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) ﴿[الصفات: ٩١] يعني من الطعام الذي بين أيديهم، يستهزئ بهم. ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٢) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣) ﴿[الصفات: ٩٣] لأنها أقوى عملاً من اليسار^(١). وكان قد أقسم بقوله: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ففعل ما حلف عليه. واليمين: القوّة.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ (٩٤) ﴿[الصفات: ٩٤] وهو حال بين الإسراع والرويد، ومنه زفيف النعام بين المشي والطيران ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩] يا إبراهيم، فتمّ عليه رجل كان قد سمعه يقول: والله لأكسرنها، فقال ذلك النمام: ﴿سَمِعْنَا فَمَا يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي: يعيبهم ويسبهم ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ومعنى: أعين الناس أي: بمراى منهم وفي ﴿يَشْهَدُونَ﴾ قولان، أحدهما: عذابه. والثاني: يشهدون عليه أنه فعل ذلك.

قال ابن عباس: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة. فلما حضر ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ﴾ (٦٢) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كِبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣] غضب أن يعبد معه الضعفاء فكسرها.

وكان الكسائي يقف على قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُمُ﴾ ثم يتبدى فيقول: ﴿كِبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣) ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣، ٦٤]^(٢) حيث عبدتم من لا يتكلم.

﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: أدركتهم حيرة وقالوا: قد ظلمناه وما نرى الأمر إلا كما قال ولكن أرادوا أن ينصروا آلهتهم.

قال مقاتل لما جادلوه قال لهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥] أي: وعملكم.

قلت: وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى حيث قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿وعلى أنها مكتسبة للعباد حيث أثبت لهم عملاً، فأبطل مذهب القدرية والجبرية.

(١) من قوله ولا الإيمان ومعناه فلما آتاك . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) انظر «التبصرة» ١/١٠٧، و«زاد المسير» ٥/٧٦٠.

فصل في مناظرته لنمرود

قال علماء السير: لما ألزمهم إبراهيم الحجّة حملوه إلى نمرود، وقالوا: هذا فعل بالهتنا، وقال لنا كذا وكذا.

وأصل حاجّ من الحجّة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهل كانت هذه المناظرة بعد أن ألقى في النار أم عقب كسر الأصنام؟ فيه قولان.

وقال مقاتل: لما كسر الأصنام حبسه نمرود سبع سنين ثم أخرجه فناظره، فقال: من ربك؟

وقال أحمد بإسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان الناس يخرجون فيمتارون الطعام من نمرود، وكان كلُّ من مرَّ بنمرود يقول له: من ربك؟ فإن قال: أنت ماره، وإن لم يعترف لم يعطه شيئاً، فمرَّ به إبراهيم فقال: من ربك؟ فقال: ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فردّه، فرجع وأجماله فارغة، فمرَّ على كئيب رمل أعفر فقال: أخذ منه لثلا أرجع إلى أهلي بغير شيء، فأخذ منه، فلما دخل البيت نام، وكان ليلاً، فقامت امرأته إلى جوالق ففتحته فإذا دقيق حواري، فخبزت منه، فلما استيقظ رأى الطعام، فحمد الله وفطن، ثم ناظر نمرود بعد ذلك^(١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] هذا جواب نمرود لما قال له: من ربك؟ فكان جواب سؤال سابق غير مذكور، فقال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قال ابن عباس: دعا برجلين قد استوجبا القتل، فقتل أحدهما واستبقى الآخر، فسمي ترك القتل إحياء، وهذا من جهله لأنَّ ترك القتل لا يسمي إحياء، بل الإحياء يكون بعد الموت. قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: دهش وتحير وانقطعت حجته ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بترك الحجّة.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤٣٣/٥ (شاكر)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢٠/٢ (مخطوط)، ولم أقف عليه عند أحمد.

فإن قيل : فانتقال الخليل من حجة إلى أخرى مؤذن بالعجز ، فالجواب : إنه ما انتقل عجزاً ، وقد كان له أن يقول لنمرود : فأحيي من أمت إن كنت صادقاً ، وهذا له نظير في العالم ، أمّا إتيان الشمس من المغرب فليس له نظير في العالم ، لأنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، حتى لو قال نمرود : أنا أفعل ذلك لم يلتفت إليه ، لعدم النظر ، فأفحمه وبهته وقطعه وحيّره ، فعدل حينئذ نمرود إلى إحراقه بالنار .

فإن قيل : فقد قال مقاتل : لو قال نمرود : فأنا آتي بها من المشرق فقل لإلهك يأتي بها من المغرب ، لكان متوجّهاً في عناده ، قلنا : لم يكن متوجّهاً لما ذكرنا من عدم النظر ، ولو توجه فقد نطقت الأخبار بأن الله تعالى يأتي بها في آخر الزمان من المغرب فيكون ردّاً على نمرود .

فصل في إلقائه في النار

قال أرباب السير : لما أفحم نمرود استشار أصحابه فيه ، فكل واحد أشار بشيء ، فقال رجل منهم : حرّقه بالنار ، فهو أشدّ لعذابه . قال ابن عباس : فخسف بذلك الرجل فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة . فبنى له نمرود بنياناً إلى سفح جبل طول جداره ستون ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً ، ونادى مناديه : أيّها الناس احطبوا لنار إبراهيم الذي كسر أصنامكم وعابها ، فلم يتخلّف صغير ولا كبير ، فأقاموا أربعين يوماً يحتطبون ، حتى إن المرأة كانت تقول : إن ظفرت بكذا وكذا لأحتطبّنّ لنار إبراهيم .

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : كانت البغال تتناسل وكانت أسرع الدوابّ في نقل الحطب لنار إبراهيم ، فدعا عليها فقطع الله نسلها وأعقم أرحامها . قال : وكانت الضفادع تسكن النار ، فجعلت تطفىء النار عنه ، فدعا لها فأنزلها الله الماء ، وكانت الأوزاغ تنفخ على النار وهو فيها ، وكانت أحسن الدوابّ ، فلعنها وأمر بقتلها^(١) .

وأسند أبو القاسم حديثاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «لما ألقى إبراهيم في النار جعلت الدواب كلّها تطفىء النار عنه إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه» قال : وكان عند

(١) «تاريخ دمشق» ٦ / ١٨٥ .

عائشة رضي الله عنها رمح تقتل به الوزغ، وقالت: أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ، قال: وقد رواه ابن عباس وابن عمر^(١).

قلت: ولا يصح هذا عن رسول الله ﷺ، وإنما هو موقوف على علي كرم الله وجهه وعائشة رضي الله عنها.

وقال مقاتل: ارتفع لهب النار حتى كان الطير يمرُّ بها فيحترق من لهبها، فلما ساوى الحطب رأس الجدار لم يدروا كيف يلقونه، فتمثل لهم إبليس في صورة نجار، فصنع لهم المنجنيق، فهو أول من صنعه، ولم يكن يُعرف قبل ذلك، فنصبوا المنجنيق على رأس الجبل ووضعوه فيه، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، وليس في السماء إله يُعبد سواك، أنت حسبي ونعم الوكيل^(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس أن هذه آخر كلمة قالها إبراهيم.

فلما ألقوه عارضه جبريل في الهواء وناداه: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال: سل من إليه الحوائج، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي^(٣). وفي رواية: أحبُّ الأمرين إليه أحبهما إليّ.

وقال أهل المعاني: لسان حال الخليل يقول: حاجتي إلى الجليل لا إلى جبريل.

وقال عبد الله بن أحمد بإسناده عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما ألقى إبراهيم في النار جارت الخليفة إلى ربها وقالت: يا رب خليك يلقى في النار، فأذن لنا أن نطفئ عنه، فقال الله تعالى: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل سواه، وأنا ربه ليس في السماء رب غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلا فدعوه. فجاء ملك القطر فقال: يا رب، خليك يلقى في النار، فقال: إن استغاث بك فأغثه، وإلا فدعه. وفي رواية: وإن لم يدع غيري فأنا وليه، [فلما ألقى في النار دعا ربه] قال الله تعالى: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فبردت محل كل نار يومئذ على أهل المشرق

(١) «تاريخ دمشق» ٦/١٨٥-١٨٦.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٢٤١-٢٤٢، و«المنتظم» ١/٢٦١.

(٣) انظر «التبصرة» ١/١١٥.

والمغرب فلم ينضج بها كراع^(١).

وقال ابن عباس: لم يبق يومئذ في الأرض نارٌ إلا طفئت ظنت أنها هي التي تعنى، قال: ولو لم يقل ﴿سَلَمًا﴾ لمات إبراهيم من البرد^(٢).

وقال مجاهد: لو لم يقل: سلاماً، لم ينتفع بها أحد إلى يوم القيامة.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن سفيان الثوري أنه قال: أوحى الله إلى النار لئن نلت من إبراهيم أكثر من حل وثاقه لأعذبك عذاباً لا أعذبه أحداً من خلقي، وفي رواية: عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين^(٣).

وقال السدي: لما وصل إلى النار تلقته الملائكة بأيديها وأخذت بضبعه، وجاءه جبريل بقميص من الجنة، وطفنسة من الجنة، فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة، وصار المكان روضةً، وأنبع الله له عيناً من الماء العذب، وأنبت حوله الورد والرياحين والياسمين، وقعد جبريل يتحدث معه.

وحكى المنهال بن عمرو قال: أقام إبراهيم في النار أربعين يوماً، وكان يقول بعدما خرج منها: ما طاب لي عيش غير تلك الأيام، وددت أني كنت فيها أبداً^(٤).

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن عكرمة قال: قالت أم إبراهيم لما ألقى في النار: قد كان ابني يقول: إن له رباً يمنعه، ثم صعدت على سلم فاطلعت عليه، فإذا هو جالس وسط النار فقالت: يا إبراهيم، ادع إلهك أن يجعل لي طريقاً إليك، فسأل الله تعالى، فنزلت إليه فضمته وقبلته^(٥).

وحكى الحافظ أيضاً عن عكرمة قال: لما أخرج الله إبراهيم من النار زاده في حسنه وجماله سبعين ضعفاً^(٦).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١٩/١ من طريق عبد الله بن أحمد، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) انظر «التبصرة» ١١٥/١.

(٣) «تاريخ دمشق» ٦/١٨٢-١٨٣.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٩.

(٥) «تاريخ دمشق» ٦/١٨٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٦/١٨٤.

وقال مقاتل: قال آزر لنمرود: ائذن لي في جمع عظام إبراهيم، فقال: أنا أجيء معك، فنادى في الناس فاجتمعوا وجاء معه الخلائق فنقب الحير^(١)، وإذا بإبراهيم جالس وجبريل إلى جانبه وهما يتحدثان، فتحير نمرود وناداه: يا إبراهيم، إن إلهك لعظيم، إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج من الحير، فقال له: من ذلك الشاب الذي كان معك؟ فقال: جبريل - وفي رواية: ملك القطر، وملك الظل - جاؤوا يؤنسوني فقال: يا إبراهيم أريد أن أقرب لإلهك قرباناً لما رأيت من قدرته، قال: إنه لا يقبل منك ما دمت على كفرك، فقال: لا أقدر أن أترك ملكي، ثم ذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم^(٢).

واختلفوا في عمره لما ألقى في النار على قولين:

أحدهما: أنه كان له ست عشرة سنة، قاله مجاهد، والثاني: ثلاثون سنة، قاله ابن إسحاق، والأول أصح.

فصل في ذكر إيمان لوط وسارة

قال علماء السير: لما ظهرت الآية العظيمة في نار إبراهيم أتبعه رجال من قومه على وجل من نمرود، منهم لوط، وكان ابن أخيه.

وقال ابن قتيبة: وجدت في «التوراة»: أنه ولد لتارخ - وهو آزر أبو إبراهيم - ولدان: ناحور وهاران، وولد لهاران لوط وسارة وملكا، فمات هاران في حياة أبيه تارخ في أرضه التي ولد بها، [فنكح إبراهيم سارة ابنة هاران] ونكح ناحور ملكا بنت هاران. وكانت سارة عاقراً لم تلد، فخرج تارخ بابنه إبراهيم وابن ابنه لوط إلى حران وخرج معهم، فمات تارخ أبو إبراهيم بحرّان^(٣).

قلت: وقول ابن قتيبة: أن ناحور بن تارخ نكح ملكا غير صحيح، لأنها أخت ناحور

(١) في (ب): «الجدار» ولعل ما أثبتناه هو الصواب، فقد ذكر ابن عساكر في «تاريخه» ١٧١/٦ أن نمرود وضع إبراهيم في السجن بضع سنين، بنى له الحير بحصى، وأوقده بالحطب الجزل، وألقى إبراهيم فيه.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٢٤٢-٢٤٣.

(٣) «المعارف» ص ٣١، وما بين معقوفين زيادة منه.

وكلاهما ابنا هاران، فكيف ينكح أخته؟

وحكى ابن قتيبة عن وهب: أن أول من بنى حرّان أخوان لإبراهيم يقال لأحدهما: هاران، وبه سميت حرّان، جعلوا الهاء هاء، وبعضهم قال: يقال له «ناهر» وهو أبو رفقا امرأة إسحاق^(١).

قال ابن قتيبة: ويقال له هرن بغير ألف، وبعضهم يقول هارن.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: وحرّان اسم البلدة معربة، وهي مسماة بهاران بن أزر أخي إبراهيم^(٢).

وذكرها الجوهري، وقد حكيناها في باب البلدان.

وقال قتادة: كانت سارة ابنة عم إبراهيم، هذا هو المشهور، وقيل: إنها كانت ابنة ملك حرّان، وكان قد بلغها خبر الخليل عليه السلام، فأمنت به وعابت على قومها عبادة الأوثان، فلما قدم الخليل حرّان تزوّجته على أن لا يغيرها^(٣).

وقد نسبها هشام بن الكلبي عن أبيه فيما أخرجه عنه ابن سعد في «الطبقات» فقال: هي سارة بنت بثويل بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ - أو فالخ - بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام^(٤).

فصل في عرض إبراهيم على أبيه أزر الإسلام

قال علماء السير: قال لأبيه: قد شاهدت الآية العظمى والمعجزة الكبرى ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] الآيات. فأجابه أبوه بجواب من غلب عليه الشقاء ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُنَّ﴾ [مريم: ٤٦] وليس هذا بجواب شافٍ، لأنه قد علم رغبته عن آلهته، وتيقن أنه يغير الملة، فقله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ﴾ تحصيل الحاصل، وأنه محال.

(١) «المعارف» ص ٣١.

(٢) «المعرب» ص ١٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه ١/٢٤٤ عن السدي.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/٤٧.

فإن قيل: فقد علم الخليل أن أباه لا يسلم وقد قال لإبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأشتمنك ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: حيناً، ومنه الملوان الليل والنهار.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أن أباه كان قد وعد أن يؤمن، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

والثاني: أنه أراد تركيب الحجّة عليه ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ثم قال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] ومعنى «سلام»: أي: أقول لك ما أسلم فيه، وسوف أستغفر، أي: ما أياس من إسلامك، وهذا من باب الشفقة والحنو عليه.

وقال البخاري بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟! فيقول الله: إنني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ عظيم، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» انفرد بإخراجه البخاري^(١)، والذبخ: ذكر الضباع الكثير الشعر.

فصل في هجرته إلى الشام

قال هشام: لما اعتزل إبراهيم أباه وقومه قطع الفرات، ودخل إلى الشام، ووصل دمشق ومعه سارة ولوط ابن أخيه وجماعة ممن آمن به، وكان له على ما ذكر ابن الكلبي أربع مئة عبد يجاهدون بالعصي^(٢)، وكان بدمشق جبار فخرج إليه، فحاربه فقتله إبراهيم.

(١) صحيح البخاري (٣٣٥٠).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٤٧/١.

وقال مقاتل: لم يحارب^(١) من الأنبياء إلا خمسة أولهم إبراهيم، وهو أول من حارب بالعصي، ثم موسى وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

فصل في ذكر قدومه مصر، والجبار وسارة

قال علماء السير: أقام إبراهيم عليه السلام بالشام مدة، ففُحط الشام، فسار إلى مصر ومعه سارة ولوط، وكان بها فرعون، وهو أول الفراعنة - عاش دهرًا طويلًا - واختلفوا فيه: قال قوم: هو سنان بن علوان، وقيل: سنان بن الأهبوب أخو الضحّاك، وهو الذي بعثه إلى مصر، فأقاموا بها.

وكانت سارة من أجمل النساء، فوصفت لفرعون فأرسل يطلبها.

قال أحمد بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، فقيل له: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن النساء، فأرسل إليه الجبار: من هذه معك؟ فقال: أختي، قال: فأرسل بها إلي، فأرسلها إليه، وقال لها: لا تكذبيني، فإنني قد قلت إنك أختي، فما على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. فلما دخلت إليه قام إليها فأقبلت تصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي، إلا على زوجي، فلا تسلط علي الكافر، قال فغط حتى ركض برجليه، فقالت: اللهم إن يمت فيقولوا: هي قتلتها، قال: فأرسل، فقام إليها، فقالت مثل قولها، فغط فدعت فأفاق، فعل ذلك أربعاً، فلما أفاق في الرابعة قال: ما بعثتم إلي إلا شيطانة، رُدوها إلى إبراهيم وأعطوها خادماً، فأخدموها هاجر. فلما جاءت إلى إبراهيم قالت: أشعرت أن الله رد كيد الفاجر وأخدم وليدة». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢)، وهو حديث طويل، وقد روي بروايات كثيرة.

(١) في (ل): يقاتل.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢٤١)، والبخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

وقد أخرجه الحميدي، وقال فيه: «وكانت سارة من أحسن الناس»^(١)، وقال إبراهيم: إن يعلم هذا الجبار أنك امرأتي يغلبني عليك. وقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبِضت يده قبضاً شديداً، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد حتى فعلت ذلك مراراً، فدعا الذي جاء بها وقال: إنما جئتني بشيطان، فأخرجها من أرضي... وفيه: فلما عادت قال لها إبراهيم: مهيم؟ قالت: خير، كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً فقال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء^(٢).

الكلام على الحديث

وقد أنكر جماعة من العلماء الكذب على إبراهيم وقالوا: الكذب قبيح على غير الأنبياء، فكيف على أصل الأنبياء؟

والجواب: إن هذا من المعارض المندوب إلى مثلها، ولو بحث عما قال إبراهيم لكان صدقاً.

فإن قيل: فما معنى امتناع الجبار عنها بقوله: هي أختي، ولو قال: زوجتي كان أمنع لها؟

فالجواب: إن من شرع ذلك الجبار أن من كان له أخت هي زوجته، وهو أحق بها من غيره، ولا تؤخذ منه قهراً، فقال ذلك إبراهيم خوفاً على نفسه وظناً منه أن ينجيه ذلك.

وقوله: «مهيم» قال الجوهرى: مهيم - بفتح الميم الأولى وإسكان الثانية - كلمة يستفهم بها، ومعناها: ما حالك وما شأنك^(٣)؟

وقول أبي هريرة: هي أمكم يا بني ماء السماء، يشير إلى العرب، لأن أمهم هاجر، وهم يسكنون البوادي، ويعيشون بماء المطر.

(١) في (ب): «النساء».

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٢٤١٥)، وهذه رواية مسلم (٢٣٧١).

(٣) «الصحاح»: (مهيم).

وقال ابن إسحاق: كانت هاجر وصيفة فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت: خذها، لعلَّ الله أن يرزقك منها ولداً. وكانت سارة عاقراً.

واختلفوا في هاجر: فقال مقاتل: كانت من ولد هود عليه السلام، وقال الضحاك: كانت بنت ملك مصر، وكان الملك ساكناً بمنف فغلبه ملك آخر، وقيل: إنما غلبه فرعون فقتله وسبى ابنته فاسترقها ووهبها لسارة.

وقال مسلم بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتْفَتْحُ أَرْضٍ يُذَكَّرُ فِيهَا الْقَيْرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا». انفرد بإخراجه مسلم^(١). وفي رواية: «سَتْفَتْحُ مِصْرٍ»^(٢).

وعامة العلماء على أنه ﷺ أراد هاجر أم إسماعيل لأنها أم العرب، وكانت من مصر^(٣).

وقال الشعبي: أراد مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعامة الرواة على الأوّل.

قلت: ويمكن الجمع بين القولين لأنَّ الأصل في ذلك أم إسماعيل، ثم أكدت الرحم أم إبراهيم عليه السلام.

فصل في عوده إلى الشام ونزوله، وذكر ما سنَّ من السنن

قال وهب: لما خرج الخليل من مصر نزل فلسطين بمكان يقال له السبع - بإسكان الباء - واتخذ به مسجداً، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع على يوم وليلة، فبعث الله لوطاً نبياً.

وأقام إبراهيم بالسبع، واحتفر بئراً فكانت غنمه تردّها، ثم إنَّ أهلها آذوه فخرج منها، فنزل بناحية فلسطين، فغار ماء تلك البئر، فندم أهل ذلك المكان على ما فعلوا به وقالوا: أخرجنا الشيخ الصالح من بين أظهرنا. ثم مضوا إليه واسترضوه وسألوه

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٧).

(٣) انظر «شرح مسلم» ٩٧/١٦.

الرُّجُوعُ فَقَالَ: مَا أَنَا بِرَاجِعٍ إِلَى مَكَانٍ أَخْرَجْتَ مِنْهُ، فَقَالُوا: قَدْ نَضَبَ مَاءَ الْبُئْرِ، فَأَعْطَاهُمْ سَبْعَةَ أَعْنَزٍ مِنْ غَنَمِهِ وَقَالَ: أوردوها البئر ولا تغرف منها حائض ولا جنب، فأوردوها فظهر الماء، فيقال: إنما سُمِّيَ ذلك المكان سبع لهذا.

وقال مقاتل: لما خرج إبراهيم من مصر نزل جبل لبنان وأقام به مدة، فاشتاق إلى الأرض المقدسة، فأوحى الله إليه: اصعد على رأس لبنان وانظر أي مكان اخترت من الأرض فهو مقدس، فنظر فأنتهى بصره إلى دمشق والشام والأردن وفلسطين، فقال الله تعالى: هذه الأماكن كلها مقدسة.

والأصحُّ أنَّ الأرض المقدسة أرض فلسطين من الأردن إلى البحر.

وقال مجاهد: اختار فلسطين فنزل بها، وبسط الله له في الرزق، فكان يسمى الشيخ الصالح، وهو أول من أضاف الضيف وثرد الثريد وأطعم المساكين، وقصَّ شاربه واستحدَّ، واختتن، وقلَّم أظفاره، واستاك، وفرق شعره، وتمضمض، واستنشق، واستنثر، واستنجد بالماء.

وهو أول من شاب وهو ابن خمسين ومئة سنة، وأول من رأى الشيب في الدنيا.

قال مجاهد: رأى في وجهه طاقة بيضاء فقال: يا رب ما هذا؟ فقال: نذير ونور ووقار، فقال: يا رب زدني وقاراً، فشاب رأسه في الحال.

وهو أول من خطب على المنبر، ولبس السراويل، واختتن.

قال أحمد بإسناده عن الزُّهري عن أبي الزُّناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اختتن إبراهيم بالقدوم». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

قال أبو الزناد: القدوم بالتخفيف اسم موضع بالشام، وكذا قال الجوهري^(٢).

وقال ابن السكيت: ولا تقل قدوم بالتشديد^(٣)، والعامّة تقوله.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٨١)، والبخاري (٦٢٩٨)، ومسلم (٢٣٧٠) من طرق متعددة، ولم يذكر فيها الزهري، أما رواية الزهري فقد أوردها الدارقطني في «العلل» ٧/ ٢٨١ وقال: رواه أبو قرّة موسى بن طارق عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد، عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة.

(٢) «الصحيح»: (قدم).

(٣) «إصلاح المنطق» ص ٢٠٥.

وقال ابن عباس: اختتن وهو ابن عشرين ومئة سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في حمل إبراهيم إسماعيل وأمه إلى مكة على البراق

قال ابن إسحاق: إسماعيل أكبر ولد إبراهيم، ولما دفعت سارة هاجر إلى الخليل أولدها إسماعيل، فغارت سارة وحلفت أن لا تساكنها، ولتقطعن بضعة منها، فقال لها الخليل: اخفضيها، فخفضتها، أي: ختنها.

وقال السدي: لما حلفت سارة أن لا تساكنها في بلد حملها إبراهيم وابنها إلى مكة على البراق^(١)، وقد ذكر البخاري القصة فقال: حدثنا عبد الله بن محمد عن أيوب السخيتاني وكثير بن المطلب ابن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذته لتعفي أثرها على سارة، فجاء بها إبراهيم وبابنه إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد ولا ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وهو لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيئنا.

ثم رجعت وانطلق إبراهيم نحو الشام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه ولا يراها استقبل البيت بوجهه، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يده وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المرأة

(١) انظر تاريخ الطبري ١/٢٥٣-٢٥٤، والمنتظم ١/٢٦٥.

فقامت عليها ، ونظرت فلم ترَ أحداً - فعلت ذلك سبع مرّات.

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : «فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا ؛ فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ : صِهْ - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ : قَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَبَحَثَ بِجَنَاحِهِ - أَوْ بَعْقِبِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ ، وَجَعَلَتْ تَقُولُ بِيَدَيْهَا كَذَا ، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ».

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : «يَرَحِمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتُ زَمْزَمَ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِينًا». وفي رواية : «لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ». قال : فَشَرِبْتُ وَأَرْضَعْتُ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ : لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ اللَّهَ هَا هُنَا بَيْتًا بَيْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّايَةِ ، وَتَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمِ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءَ ، فَنَزَلُوا أَسْفَلَ مَكَّةَ ، فَأَرَاوُ طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا طَائِرٌ لِيَدُورُ عَلَى مَاءٍ ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ. فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ ، فَرَجَعُوا وَأَخْبَرُواهُمْ ، فَأَقْبَلُوا ، وَأُمَّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ ، فَقَالُوا : أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ. قَالُوا : نَعَمْ.

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تَحَبُّ الْأُنْسَ» فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَجَاؤُوا ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أُبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيَّةَ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجَهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

وماتت أمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلَ يَطَالُعُ تَرْكَتَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا - أَوْ يَصِيدُ لَنَا - ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ : نَحْنُ بَشْرٌ ، فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ ، وَشَكْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ : إِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَأْنِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا رَجَعَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ : نَعَمْ شَيْخٌ مِنْ صَفْتِهِ كَذَا وَكَذَا ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ، فَأَخْبَرْتَهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ ، قَالَ : فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ :

نعم، أمرني أن أقرأ عليك السَّلام ويقول لك: غير عتبة بابك، فقال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقِّي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى. فلبث عنه إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم فلم يجده، فسأل عنه امرأته فقالت: خرج يبتغي لنا، فسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللَّحْمُ والماء - وفي رواية: ما طعامكم قالت: اللَّحْم، قال: وما شرابكم؟ قالت: الماء، فقال اللهم بارك لهم في اللَّحْم والماء.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لدعا لهم فيه بالبركة». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه - وفي رواية: فقال لها: إذا جاء زوجك فاقري عليه السَّلام ومُريه أن يُثبت عتبه بابيه - فلما جاء إسماعيل قال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، وأخبرته الخبر، فقال: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السَّلام ويأمرُك أن تُثبت عتبه بابك، فقال: ذاك أبي، وأنت العتبه، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم أتاهم وإسماعيلُ يبري نبلاً تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيلُ إن الله قد أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: أوتعيني؟ قال: نعم، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفعاً القواعد من البيت، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبني حتى إذا ارتفع البناءُ جاء بهذا الحجر فوضعه، وقام عليه يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية. وجعلاً بينان حتى يدورا حول البيت. وهما يقولان الآية (١).

وفي رواية: أن إبراهيم لما مضى إلى الشام رجعت إلى الصبي فإذا هو كأنه ينشغ للموت، فلم تُقرها نفسها، فإذا هي بصوت فقالت: أغث إن كان عندك غوثٌ أو خير، فإذا جبريلُ، فقال بعقبه على الأرض كذا، فانبثق الماء، فدهشت فجعلت تحفن أو تحفر (٢).

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤)، ومعنى: «يتلبط»: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض. «أنفسهم» كثرت رغبتهم فيه.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٥) «ينشغ»: يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتْ لَكَانَتْ زَمْرُمُ عَيْنًا مَعِينًا»^(١).

وفي رواية أن زوجة إسماعيل الثانية قالت لإبراهيم: انزل حتى أغسل رأسك فقد شعث، فلم تزل به حتى جاءته بالمقام فوضعت عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر القدم فيه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حوّلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلته.

وفي رواية: فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءته باللبن واللحم، فدعا فيهما بالبركة، وقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: قد استقامت عتبة بابك، ودعا لها. قال ابن عباس: ولو كان هناك برٌّ أو شعيرٌ لدعا لهم، فكانوا أكثر الناس خبزاً وتمرّاً.

وفي رواية: أن هاجر عملت عريشاً موضع البيت.

انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري، ورواه بروايات كثيرة مختلفة قد أتينا على معظمها، وعامة ألفاظه موقوفة على ابن عباس، والمرفوع منه ما حكيناه عن رسول الله ﷺ، وقد أخرجه الحميدي برواياته^(٢).

تفسير غريبه: «الدَّوْحَةُ»: الشجرة العظيمة أي شجرة كانت. و«الدَّرْعُ»: القميص. و«المجهود»: الذي نالته مشقة. و«صه»: اسكت. وقال الجوهري: صه: كلمة بنيت على السكون، وهي اسم سمي به الفعل، ومعناه: اسكت^(٣). و«الغواث»: بضم الغين - الغياث. و«جرهم»: اسم قبيلة من العرب العاربة. وقال الجوهري: جرهم حيٌّ من اليمن، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام^(٤).

وفي مكة ثلاثة أماكن يقال لها: كداء، فالأولى كدَاء - بالفتح والمد - بأعلى مكة على طريق العمرة. وكدي - مقصور - مكان أسفلها، وكدي مصغر موضع على طريق اليمن. ولم يذكر الجوهري منها شيئاً، بل قال: الكدية الأرض الصلبة وجمعها كدي^(٥). و«الأكمة»: المكان المرتفع. انتهى تفسير غريب الحديث.

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٢).

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (١١١١).

(٣) «الصحاح»: (صه).

(٤) «الصحاح»: (جرهم).

(٥) «الصحاح»: (كدي).

وذكر ابن إسحاق والسُّدي والكلبي وغيرهم: أنَّ الله تعالى لما أهلك قوم عاد - وهم من العمالقة - خرج من بقي من العرب ومنهم من أرض اليمن، وفيهم جرهم وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوي بن قنطورا بن كركر بن حيدان^(١) بن عمليق، فنزلوا تهامة، وبعثوا روادهم يطلبون الماء، فأشرفوا على وادي مكة فنظروا إلى الطير ترتفع وتنخفض فاستبطنوا الوادي، فنظروا إلى عريش أم إسماعيل على الربوة الحمراء، وفيه هاجر وإسماعيل، وقد زمت حول الماء بأحجار، ومنعته من الجريان. فسلم الرُّواد عليها، واستأذنها في النزول عندها، ويشربون من الماء، فأذنت لهم ورحبت بهم، وحصل لها الأنس، فعادوا إلى من وراءهم فأخبروهم، فجاؤوا ونزلوا، فأضاء لهم نور النبوة من العريش. فلما ترعرع إسماعيل ألهمه الله الكلام بالعربية على خلاف لغة أبيه، ووافق القوم في لغتهم، وتزوج منهم امرأة يقال لها: الجذاء ابنة سعد العملاقي، وهذه الجذاء هي التي سألتها إبراهيم عن عيشتهم.

وقال وهب: ولما جاءها سلم عليها فلم تردَّ عليه السلام، وسألها منزلاً فقالت: لاها الله ذا - وسنذكر هذه اللفظة فيما بعد - وهي التي أمره إبراهيم بطلاقها، وقال لها إسماعيل: الحقي بأهلك.

قال وهب: وكانت هاجر باقيةً لما جاء الخليل يطلب ولده، وهذا قول من سميننا. وقال مقاتل وابن الكلبي: كان على جرهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعيد ابن الرقيب بن ظالم، فاستوطنوا مكة، وتزوج إسماعيل المرأة الثانية منهم، واسمها سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف. واستأذن إبراهيم سارة في زيارة إسماعيل فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فسار على البراق وقيل: على أتان، وكانت هاجر^(٢) قد ماتت ولها تسعون سنة، فدفنها إسماعيل في الحجر. ولما أثرت قدما إبراهيم في المقام قال لها: احتفظي به فسيكون له شأن بعد حين فذلك المقام.

(١) في (ب): «جندب».

(٢) في (ب): «سارة».

فصل في بناء البيت

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى بناه قبل خلق الدنيا لا بيناء أحد. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان العرش على الماء قبل خلق الأرض بألفي عام، فأرسل الله ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة كالقبة، وهي موضع البيت، فدحيت الأرض من تحتها.

وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام، وإن قواعد لفي الأرض السابعة، وكان فيه قناديل من الياقوت، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم.

قال مقاتل: ولما حجَّ آدم تلقته الملائكة فقالت: يا آدم برَّ حجك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، فقال: اللهم اجعل له عماراً من ذريتي، فقال الله: إني سامر نبياً من ذريتك اسمه إبراهيم يعمره.

والثاني: أن الملائكة بنته لما قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] فقال لهم الله تعالى: ابنوا لي في الأرض بيتاً وطوفوا حوله كما تطوفون حول عرشي، وقد ذكرناه، ثم بقي على حاله.

وقيل: إنه تشعث فجدده آدم، وزاده شيث، وبقي إلى أيام الطوفان، فنسفه الغرق وبقي مكانه ربوة حمراء تأتيه السيول من كل مكان، ويأتيه المظلوم فيدعو عنده، حتى جدده إبراهيم.

وحكى ابن سعد عن الواقدي قال: كان لإبراهيم يوم بناه مئة سنة ولإسماعيل ثلاثون سنة^(١).

وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت لم يدر كيف يصنع، وضاق به ذرعاً، فأرسل الله الريح الخجوج، وهي السكينة، ولها رأسان

(١) «الطبقات الكبرى»: ٥٢/١، وفي (ب): «ثمانون سنة».

فتطوّقت موضع البيت كطي الجحفة، وهي على مثال الحية.

وعن علي أيضاً قال: جاءت غمامة وناداه منها مثل رأس الإنسان: يا إبراهيم، علم علي ظلي ولا تزد ولا تنقص.

وقال مقاتل: أيدهما الله بسبعة أملاك حنفاء يعينونهما على بنائه.

وقال ابن عباس: فبناه من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتا - جبل بيت المقدس - وجرأ وأبي قبيس والجودي، وقيل: ولبنان. وجعل طوله ثلاثين ذراعاً، وأدخل الحجر فيه سبعة أذرع. ولما كمل ولم يبق إلا موضع الحجر قال لإسماعيل: اذهب فأنتي بحجر، فذهب ليأتيه فناده أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة. يعني الحجر الأسود كان قد نزل مع آدم من الجنة، فلما كان الطوفان أودعه جبريل فيه، فلما ذهب إسماعيل ليأتيه بحجر جاءه جبريل بالحجر من أبي قبيس فوضعه مكانه، وجاء إسماعيل فقال: يا أبة، من جاءك بهذا الحجر؟ فقال: من لم يكلني^(١) على بنائك، أتاني به جبريل من أبي قبيس.

وقال الترمذي: بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدّ بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم»^(٢).

فإن قيل: فما الفائدة في بناء البيت من هذه الأجل البعيدة، وجبال مكة أقرب، مثل أبي قبيس وجرأ وغيرهما كعرفات وجبال منى؟

فالجواب من وجوه: أحدها: لتشرف هذه الجبال على غيرها. والثاني: ليظهر فضلها. والثالث: أن معناه أن من حج هذا البيت وطاف به وصلى عنده كتبت له من الثواب ما لو وزنت معه هذه الجبال لرجح عليها. والرابع: لتشهد لمن حجّه كما يشهد الحجر الأسود لمن استلمه.

وقال وهب: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾

[إبراهيم: ٣٥] الآيات.

(١) في تفسير الطبري ٧٠/٣، وتاريخه ٢٥١/١، والمنتظم ٢٧٠/١: من لم يتكل.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٢٧٩٥).

فإن قيل: فقوله: ﴿زَيْنًا إِنِّي أَسَكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يكن هناك بيت.

فالجواب من وجهين، أحدهما: أن معناه عند بيتك الذي كان هاهنا وهذه آثاره. والثاني: عند بيتك الذي قضي في سابق علمك أنني أجده هاهنا.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فالجواب: إن معناه أول بيت وضع للعبادة، ولم يكن قبله بيت يُعبد الله فيه. قال أحمد بإسناده عن أنس وأبي ذر. قال أبو ذر: سألت النبي ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض فقال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون عاماً»، انفرد بإخراجه مسلم^(١).



واشتقاق مكة من مكّ الفصيل ضرع أمّه، إذا امتصّ كلّ ما فيه، وأشاروا إلى شدة الحرّ بها وقلة مائها.

وأما بكّة فقد اختلفوا فيها، فقال ابن عباس: لأنها تبكُّ رقاب الجبابرة، وقال مجاهد: لازدحام الناس بها. وقال الضحّاك: لأن الناس يتباكون فيها. وروي عنه أيضاً أنه قال: اسم البلد مكة، وبكة موضع البيت^(٢).

وقيل: مكة وبكة واحد، لأن الباء تبدل من الميم، كقوله: ضربة لازب ولازم، ونحوه.

والآيات البيّنات: مقام إبراهيم والحجر الأسود والركن وزمزم ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] قال ابن خالويه: معناه أي: من دخله فأمنوه. وقال ابن عباس: أول من عاذ بالحرم الحيطان الصغار من الكبار في أيام الطوفان.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٣٣٣)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر، ولم نقف عليه من حديث أنس.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٤/٧، وزاد المسير ٤٢٥/١.

واتفق العلماء على أن من جنى في الحرم أنه يقتصر منه لأنه هتك حرمة، فيقام الحدُّ عليه عقوبة على الجنائية.

واختلفوا فيمن جنى خارجاً منه ثم التجأ إليه:

قال ابن عمر وابن عباس والعبادلة: لا يقام عليه الحدُّ فيه، ولكن لا يبايع ولا يشارى حتى يخرج منه فيقام الحدُّ عليه، وبه أخذ أبو حنيفة.

وقال الشافعي ومالك: يقام عليه الحدُّ فيه قياساً على موارد الإجماع. وقد قتل النبي ﷺ ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة^(١).

ولنا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقياسه على موارد الإجماع لا يصح، لأنه هناك هتك حرمة الحرم بخلاف مانحن فيه. وأمّا ابن خطل فإنه قتل لكفره، وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه.

فصل في فضائل مكة

قال أحمد بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَجِلُّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجِلْ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا مِنْ عَرَفَها، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ». فقال العباس: يا رسول الله، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لَقِينَهُمْ وَبِيوتَهُمْ، فقال: «إِلَّا الْإِذْخِرَ».

وفي رواية: «لَا يُعْضَدُ عِضَاهُها، وَلَا تَحُلُّ لُقَطَتُها إِلَّا لِمَنْشِدٍ» فقال العباس: إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لَصَاغِتِنَا وَسُقُوفِ بِيوتِنَا. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وعضد^(٣) الشجرة أي: قطعها، ذكره الجوهري، والعِضاه شجر له شوك كالطَّلح

(١) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر المغني لابن قدامة ١٢/٤١٣-٤٠٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣)، أما الرواية الثانية فهي روايتان جمع بينهما المصنف وهما عند البخاري (١٣٤٩)، و(٢٤٣٣) وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٩٩٧).

(٣) في (ب): وأعضد، وفي (ل): واعتضدت، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (عضد).

وغيره.

وقال العباس: قال ذلك في يوم الفتح، وقيل: في حجة الوداع.

وقال أحمد بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحمل السلاح بمكة. انفرد بإخراجه مسلم^(١).

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجََّنَّ هَذَا الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرََنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»^(٢).

حدثنا أبو طاهر الحريري بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ ياقوتتانِ من يواقيتِ الجنةِ طُمِسَ نُورُهُما، ولولا ذلك لأضاءتا ما بينَ المشرقِ والمغربِ»^(٣).

وحدثنا غير واحد عن يحيى بن علي المدير بإسناده إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَشْرِينَ وَمِئَةً رَحْمَةً تَنْزِلُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَسُتُونَ لِلطَّائِفِينَ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ، وَعَشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ»^(٤).

وروى ثابت عن أنس قال: رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبيه وأخمص قدميه، غير أن مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك^(٥).

فصل في حدود الحرم

ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أول من وضع أنصاب الحرم الملائكة، لما نذكر، ودثرت بالطوفان فجددها إبراهيم عليه السلام، ثم قصي بن كلاب، وبقيت على حالها إلى زمان المبعث، فقلعتها قريش.

قال أنس: فشق ذلك على رسول الله ﷺ حيث هي آثار آبائه، فجاءه جبريل فقال:

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٢٣٣)، ومسلم (١٣٥٦).

(٢) صحيح البخاري (١٥٩٣).

(٣) وأخرجه أحمد في «مسنده» (٧٠٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو، ولم نقف عليه من حديث ابن عمر.

(٤) وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩٤٠)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٥) ذكر ابن حجر في فتح الباري ١٦٩/٨ أنه في موطأ ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس.

لا يشقّ عليك فإنهم سيعيدونها. فرأى رجالاً منهم في المنام قائلاً يقول: حرم الله أعزّكم الله به، عمدتم إلى أنصابه فقلعتموها، الآن يتخطفكم الناس أو العرب، فأعادوها، فجاءه جبريل فقال له رسول الله ﷺ: «هل أصابوا في وضعها؟» قال: نعم، ما وضعوا منها نصباً إلا بيد ملك. قال أنس: فلما كان عام الفتح بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد فجدها.

قال علماء السير: ثم جدّدها عمر وعثمان، وبنو أمية: معاوية وعبد الملك بن مروان، وأوّل من جدّدها من بني العباس هارون، ثم ابنه المأمون. ثم الخلفاء^(١).

وذكر الأزرقى في «كتاب مكة» عن جماعة من العلماء عن ابن عباس قال: هذا الحرم سابع سبعة إلى السّماء، وفي كل سماء حرم وبيت، وله طائفون يطوفون به، وسكّان من الملائكة، وكذا إلى الأرض السّابعة^(٢).

وقال الأزرقى: حدّ الحرم من طرّف المدينة دون التنعيم عند بيوت تعار على ثلاثة أميال من مكة، ومن طريق اليمن طرّف أضواء على سبعة أميال من مكة، ومن طريق الطائف إلى بطن نمرّة على أحد عشر ميلاً، ومن طرّف العراق إلى ثنية خلّ عشرة أميال، ومن طريق الجعرّانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على خمسة أميال، ومن طريق جدّة منقطع الأعشاش على عشرة أميال؛ فصارت الجملة ستة وأربعين ميلاً^(٣).

وحكى صاحب «المحيط» عن الهندواني^(٤) أنه قال: حدّه من قبل المشرق ستة أميال، ومن الجانب الثاني اثنا عشر ميلاً، ومن الجانب الثالث ثمانية عشر ميلاً، ومن الجانب الرّابع أربعة وعشرون ميلاً. فصارت الجملة ستين ميلاً.

وهو وهمّ من الهندواني؛ وما ذكر الأزرقى أصحّ، لأنه ذكر الحدود على ما شاهد

(١) انظر «المنتظم» ٢٧٠-٢٧١/١، وأخبار مكة للأزرقى ١٢٧/٢-١٢٨.

(٢) «أخبار مكة» ١٢٥/٢.

(٣) الذي في «أخبار مكة» ١٣٠-١٣١/٢: بيوت غفار... ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرّة على أحد عشر ميلاً، ومن طريق العراق على ثنية خلّ بالمقطع على سبعة أميال. وهو الصواب. وانظر شفاء الغرام ١/٥٩-٥٥.

(٤) هو محمد بن عبد الله، أبو جعفر الهندواني الحنفي، توفي سنة ٣٦٢هـ، العبر ١/١٥٢، وذكر قوله السرخسي في المبسوط ١٢/٤٥١.

وعاين، وما ذكره الهندواني يدلُّ على أن الحرم يكون مربَّعاً، وليس كما ذكر، بل هو مختلف الحدود كما ذكرنا.

فإن قيل: فلمَ لم تكن حدود الحرم متساوية إلى مكة؟ فالجواب من وجوه:
أحدها: رواه عطاء عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض أقام باكياً مستوحشاً فأهبط الله إليه البيت المعمور، وكان ياقوتة من يواقيت الجنة، فأضاءت منه الدنيا، فقال إبليس: حدث أمر، فأرسل الشياطين ليكشفوا له الخبر، فجاؤوا فوقفوا موضع الأعلام لم يتجاسروا أن يتعدَّونها، لأن نور البيت انتهى إلى موضع الأعلام، فلم يقدر أحد منهم أن يدنو منها، فنصبت الملائكة الأعلام، فلما احتضر آدم أوصى شيئاً بتجديد الأعلام ونصبها.

والثاني: لأنَّ الخليل لما وضع الحجر الأسود في الركن أضاء منه نور وصل إلى أماكن الحدود، فجاءت الشياطين فوقفت عند الأعلام فبناها الخليل حاجزاً، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والثالث: لأنَّ الملائكة لما بنت البيت في أوَّل الأمر نزل من السماء ملائكة ملؤوا مكان الحرم اليوم، فأمرهم الله أن ينصبوا الحدود حيث انتهوا إليه تعظيماً للحرم، قاله مقاتل^(١).

فصل في قبة كلِّ بلد

القبة: الوجهة التي يتوجَّه إليها، يقال: من أين قبَلتكَ؟ أي: من أين جهتك ووجهتك؟.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: الحرم قبة أهل الأرض، والمسجد قبة أهل مكة، والبيت قبة أهل المسجد، وباب الكعبة قبة البيت^(٢).

وقال أرباب الهيئة: قبة أهل العراق وخراسان والصَّين يسار الركن العراقي الذي

(١) نقل هذه الأقوال الصالحى في سبل الهدى والرشاد ١/٢٣٣-٢٣٤ عن المحب الطبري، وانظر المنتظم ١/٢٧١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه ٩/٢ مرفوعاً وضعفه، وانظر التلخيص الحبير ١/٢١٣، والدر المنثور ١/١٤٧.

فيه الحجر إلى قريب من باب البيت.

وقبله أهل البصرة والأهواز وكرمان وسجستان وما والاها باب الكعبة والملتمزم.

وقبله أهل اليمن وإلى تخوم عدن ما بين الحجر الأسود إلى الركن اليماني.

وقبله أهل مصر والمغرب من الركن اليماني إلى قريب من نصف البيت.

وقبله أهل الشام والأردن وفلسطين وأهل الثغور من نصف البيت إلى الركن

الشامي، وهو مسقط سهيل.

وقبله أهل إرمينية وأذربيجان والجزيرة والروم من الركن الشامي إلى الميزاب.

وقبله أهل المدينة الميزاب إلى آخر البيت.

قلت: وهذا على وجه التقريب لا على وجه التحقيق.

فصل في دلائل القبلة التي يتوصل بها المجتهد إلى جهتها

فمنها: الشمس، فإنها تطلع من المشرق عن يسار المصلي، وتارة عن يمينه، وتارة

أمامه، وتارة خلفه، بحسب اختلاف الأقاليم والمطالع والمغارب والمنازل.

ومنها: القمر فإنه يبدو أول ليلة من الشهر هلالاً عن يمين المصلي في المغرب، ثم

يتأخر كل ليلة نحو المشرق منزلاً منزلاً، حتى يكون ليلة السابع وقت المغرب في القبلة

مائلاً قليلاً إلى المغرب، وفي ليلة أربعة عشر يطلع من المشرق قبل غروب الشمس

بدرًا تاماً، ويكون ليلة إحدى وعشرين في قبلة المصلي أو قريباً منها وقت الفجر، وليلة

ثمان وعشرين يبدو عند الفجر من المشرق كالهلال، وتختلف مطالعه بحسب اختلاف

منازله، وقد ذكرناها في صدر الكتاب^(١).

ومنها: الجدي، وهو من أوثق الأدلة على القبلة، وقد ذكرناه^(٢)، وكذا سهيل.

ومنها: الرياح وهي كثيرة يستدل منها بأربع، تهبُّ من زوايا السماء: الجنوب

وتهبُّ من الزاوية التي بين المشرق والقبلة إلى مطلع سهيل، والشمال: وهي مقابلة

(١) انظر فصل في القمر.

(٢) انظر فصل في الكواكب.

الجنوب، وتهبُّ من بنات نعش إلى مشرق الشمس، والدَّبُور: وتهبُّ ما بين المغرب وسهيل^(١). وبين كلِّ ريحين ريح تسمَّى النَّكْبَاء لتنكبها عن طريق الرياح المعروفة.

وقال الجوهري: والنُّكْبُ في الرياح أربع: فنَّكْبَاء الصِّبَا والجنوب يسمَّى: الأرنب، ونكْبَاء الصِّبَا والشمال وتسمَّى: الصَّابِيَّة والنَّكْبَاء، وإنما صغروها وهم يريدون تكبيرها لأنهم يستدبرونها جداً، ونكْبَاء الشمال والدَّبُور وتسمَّى: الجربياء؛ ونكْبَاء الجنوب والدَّبُور وتسمَّى: الهَيْف^(٢). وأصل النكب: العدول والميل.

ومنها: المياه والأنهار العظام كدجلة والفرات وجيحون وسيحون والأردن ونحو ذلك، وكل هذا يجري إلى القبلة. وكذا الجبال والبحار يستدلُّ بها على القبلة.

إذا ثبت هذا قلنا: متى عرف الإنسان هذه الأدلة كان مجتهداً في أمر القبلة إذا خفيت عليه ولم يجد مخبراً فيصلي إلى جهة يؤديه اجتهاده إليها، وإن خفيت عليه الأدلة لغم أو ظلمة ونحوها، فإنه يتحرى ويصلي إلى أيِّ جهة يغلب على ظنه أنها جهة القبلة، وصلاته تامّة عندنا، وعند الشافعي لا تجزئه إلا إصابة العين لقوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] ولنا أنه أتى بما في وسعه، وهو التوجُّه إلى جهة القبلة، وتكليف ما ليس في الوسع حرجٌ عظيم، وقد اجتهد فصار كالحاكم إذا خفي عليه نصٌّ. وأمّا الآية فالمراد بها إذا كان حاضراً بمكة، أمّا إذا كان غائباً فقبلته جهة الاجتهاد والتحرى، وقد ذكرنا مسائل استقبال القبلة في كتب الفقه.

فصل في حج إبراهيم وتعليم جبريل إياه المناسك

روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما تكامل بناء البيت أوحى الله إلى إبراهيم: أن أذن في الناس بالحج، فقال: يا ربّ، ومن يبلغ صوتي؟ فقال الله: منك الأذان وعليّ البلاغ. فقام على أبي قبيس فاستقبل اليمن ثمّ المشرق ثمّ الشام ثمّ المغرب، ونادى: أيها الناس، إنّ ربكم قد بنى بيتاً فحجّوه^(٣).

(١) انظر «الأزمة والأمكنة» ١٣٧/٢.

(٢) انظر «الصحاح» (نكب).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/١٤٤. وانظر «زاد المسير» ٥/٢٤٣.

قال المفسرون: فأسمع مَنْ بين السماء والأرض وَمَنْ في أصلاب الرِّجال وأرحام النساء؛ قال الضحَّاك: فأجابوه جميعاً: لبيك اللهم لبيك، فمنهم من لَبَّى مرَّةً ومنهم من لَبَّى مرتين وثلاثاً وأقل وأكثر، فحجُّوا على قدر ذلك، ومن لم يلبَّ لم يحج.

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] أي: ركبانا قد ضمَّرهن السَّفر، والفتح العميق: البعيد^(١).

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جاء جبريلُ عليه السَّلام إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام فأراهم الطَّواف، ثم خرج بهما إلى منى، فقال: صلِّيا ها هنا، وأقامَ بهما إلى اليومِ الثاني، فغدا بهما إلى عرفاتٍ فأنزلَهُما حيثُ ينزلُ الناسُ اليومَ، وجمعَ بهما بين الظهرِ والعصرِ، ثم وَقَفَ بهما وعلمَهُما المناسِكَ، فجعلَ إبراهيمُ يقول: عَرَفْتُ عَرَفْتُ فلذلك سُميت عرفاتٍ».

وقال مجاهد: قال إبراهيم: يا ربِّ، كيف أقول؟ فقيل له: اصعد على الجبل وناد: أيها النَّاس، أجيئوا ربِّكم لبيك اللهم لبيك، فقال ذلك في جميع الجهات، فهذا أصل التلبية^(٢).

فإن قيل: فالنفس أبدأ تتوق إلى مكة مع علمها بتحمُّل المشاق فما سببه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: قول الخليل: ﴿فَجَعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أي: تشتاق وتحنُّ، ولو لم يقل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ لحجَّه اليهود والنصارى.

والثاني: لأنَّ الله تعالى أخرج ذرِّيَّةَ آدم بأرض نَعمان، وهي أرض عرفة، وقد ذكرناه^(٣)، فصار ذلك المكان وطناً، والنفس أبدأ تنازع إلى حبِّ الوطن.

والثالث: لأنَّ الله سبحانه ينظر في ليلة النصف من شعبان إلى الكعبة فتحنُّ إليها

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/١٤٥.

(٣) انظر فصل: ومن الحوادث توبته.

قلوب الحاج.

وقال مقاتل: حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين^(١).

وقال ابن مسعود في تأويل قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قال: هو طريق مكة، أمنعهم من الحج^(٢).

حدثنا غير واحد عن أبي منصور القزاز بإسناده عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضاً شديداً فدعا ولده فجمعهم وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبع مئة حسنة من حسنات الحرم. قيل له: وما حسنات الحرم؟ قال: بكل حسنة مئة ألف حسنة»^(٣).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والعمرة إلى العمرة تكفر ما بينهما»^(٤).

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه»^(٥). الحديثان في الصحيحين

فصل في صحف إبراهيم عليه السلام

حدثنا غير واحد عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزاز بإسناده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله؟ فقال: «مئة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على آدم عشرين أو عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/١٤٦ عن مجاهد.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣/١٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٦٩٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٣٥٤) والبخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٢٧٤) والبخاري (١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

وقد رواه ابن قتيبة فقال: أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى إبراهيم عشرين^(١).

قال أبو ذر: فقلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر. وكان فيها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات يناجي ربّه، ساعة يفكر فيها وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال. وعلى العاقل أن لا يكون طاغياً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، ومرمّة لمعاش، ولذّة في غير مُحَرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه. وسلام على من أكرم الضيف، ومن أهانه فهو في الدرك الأسفل من النار». قال أبو ذر: فلهذا كان إبراهيم لا يأكل إلا مع الضيف^(٢).

وقال مقاتل: أنزل الله على إبراهيم الصحف وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في اتخاذ الله إياه خليلاً

قال أهل اللغة: الخليل الصديق، والخُلة الصداقة. قال الجوهري: الخُلة: الخليل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، لأنه في الأصل مصدر^(٣).

فإن قيل: فإذا كانت الخُلة عبارة عن الصداقة فهذا المعنى معدوم في حقّ الله تعالى، قلنا: معنى الخُلة من إبراهيم المودّة والطّاعة لله والتقرب إليه بما يكون سبباً للزلفى، ومن الله تعالى بمعنى الإقبال عليه والإحسان إليه.

واختلفوا في سبب اتخاذ الله إيّاه على أقوال:

(١) انظر «المعارف» ص ٣٢.

(٢) أخرجه ابن حبان مطولاً (٣٦١)، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٧٢-٢٧٣، وإسناده ضعيف جداً.

(٣) انظر «الصحاح»: (خلل).

أحدها : لإطعامه الطعام ولم يكن يأكل إلا مع الضيف، رواه عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ. حدّثنا جدّي حدّثنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : «سألت جبريلَ لم اتخذ الله إبراهيمَ خليلاً؟ فقال : لإطعامه الطّعام^(١)».

الثاني : لأنه أصاب أهل ناحيته جذب^(٢)، روى أبو صالح عن ابن عباس قال : أصابت الناس سنةً جهدوا فيها، فجاؤوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكان له صديق بمصر، وكان يبعث إليه غلمانة بالإبل فيمتارون^(٣)، فذهبوا إلى صديقه فلم يعطهم شيئاً، وقال : لو كان إبراهيم إنما يمتار لنفسه احتملنا ذلك، فقد دخل علينا من الشدة ما دخل على الناس، فرجعوا من عنده، فمروا على كتيب رمل، فقال بعضهم : خذوا منه لئلا يقول الناس لم يأتوا بشيء، فملؤوا تلك الغرائر وجاؤوا فأخبروا إبراهيم بأن صديقه لم يعطهم شيئاً، وأنهم ملؤوا الغرائر رملاً، فنام مهموماً. وجاءت سارة - وكانت غائبة - ففتحت بعض الغرائر تظنُّ أن في الغرائر دقيقا، فإذا دقيق حواري^(٤)، فعجنت وخبزت، فانتبه إبراهيم فرأى الخبز فقال : من أين هذا؟ قالت : من عند خليلك المصري. فقال : بل من عند خليلي الله، ففرقه على الناس فاتخذه الله خليلاً^(٥).

والثالث : لأنه لما كسر الأصنام غيرةً لله اتخذ الله خليلاً، قاله مقاتل^(٦).

والرابع : لأنه لم يخير بين شيئين إلا اختار ما لله فيه رضى. قاله الربيع بن أنس.

وقال ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً كان له يومئذ ثلاث مئة عبد فأعتقهم، فكانوا يجاهدون بين يديه^(٧). وإبراهيم أول من عمل القسيّ العربية، وأما القسيّ الأعجمية فأول من عملها نمرود^(٨).

(١) انظر «زاد المسير» ٢/٢١٢. و«المنتظم» ١/٢٧٣. وأخرجه البيهقي في «شعبه» (٩٦١٦).

(٢) قوله : الثاني . . . إلى هنا ليس في (ل) و(ب)، والمثبت من (ط).

(٣) يمتارون : يجلبون الطعام.

(٤) الحواري الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق.

(٥) انظر «المنتظم» ١/٢٧٣-٢٧٤، و«التبصرة» ١/١٠٩.

(٦) انظر «التبصرة» ١/١٠٩، و«المنتظم» ١/٢٧٤.

(٧) انظر «الطبقات» ١/٤٧.

(٨) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/٢٧٤.

فصل في سؤال الخليل ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى

فإن قيل: فهل كان شاكاً حتى قال: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما أن الإنسان يعلم الشيء ويتيقنه ولكن يحب أن يراه عياناً، كما أن المؤمنين يحبون الله ويختارون رؤيته في الجنان مع الإيمان وزوال الشك، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه رأى دابة مية على جانب البحر تأكلها دواب البحر وتمزقها دواب البر، فجاءه الخبيث فقال له: يا إبراهيم، متى يجمع الله هذه من بطون السباع والحيتان؟ فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لتذهب عني وسوسة الشيطان، قاله ابن زيد ومقاتل.

والثالث: أنه لما بُشِّر بالخلة سأل ذلك ليتيقن بالإجابة صحّة ما بشر به، قاله ابن مسعود والسدي.

والرابع: لأنه لما ناظر نمرود وقال له: أنا أحيي وأميت قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قال له نمرود: أنت عاينت ذلك؟ فلم يقل: نعم لأنه ما شاهده، فلما قال: أرني كيف يحيي الموتى قال له الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾ فلعل نمرود يناظرني مرّة ثانية فأقول: نعم، فلا أحتاج إلى الانتقال إلى حجة أخرى^(١).

فإن قيل: فكل هذه الأجوبة مجاز لا حقيقة، وقد ثبت أنه كان شاكاً مثل قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨] والدليل عليه ما رواه الأئمة، فقال أحمد بإسناده عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من أبنائِ إبراهيم حيثُ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ثم قرأ الآية حتى أنجزها، أخرجاه في الصحيحين^(٢)، وفيه: «يرحمُ اللهُ لوطاً لقد كان

(١) انظر تفسير الطبري ٤٨٥/٥، والبغوي ٢٤٧/١، وزاد المسير ٣١٣/١، والمنتظم ٢٧٥/١.

(٢) أخرجه أحمد (٨٣٢٨)، والبخاري (٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١).

يأوي إلى ركنٍ شديدٍ ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبتُ الداعي»^(١).

والجواب: قالوا: ما شهد له الرسول بالشك، وإنما مدحه لأن معناه نحن أحق بالشك منه وما شكنا، وكيف يشك هو، وإنما شك هل يجيبه إلى سؤاله أم لا؟ وكذا باقي الحديث مدح للوط ويوسف.

وقال ابن إسحاق: هذه الواقعة جرت لإبراهيم قبل النبوة، وقبل إنزال الصحف، وقبل أن يولد له، وقبل بناء البيت، لأنه مرَّ على بحيرة طبرية لما دخل الشام فرأى الميتة على جانبها فيكون هذا من جنس قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾.

وقال محمد بن مقاتل الرّازي: ما كان شاكاً في القدرة بدليل قوله: ﴿أَرِنِي﴾ ولو كان شاكاً لقال: هل تحيي الموتى؟ فكان معنى قوله: ﴿أَرِنِي﴾ أي ما أنا موقن به، ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين والحجة وحقيقة الخلّة وإجابة الدعوة. فقال له الله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾.

واختلفوا في الذي أخذ، والمشهور أنه أخذ طاووساً ونسراً وغراباً وحماماً، رواه مجاهد عن ابن عباس^(٢)، وفيه إشارة إلى أحوال الدنيا فالطاووس من الزينة، والنسر من امتداد الأمل، والغراب من الغربة، والحمام من النياحة، وقيل: وديكاً عوض النسر.

﴿فَصُرَّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ومعناه: اجمعهن وضمهن، ومعناه أيضاً: قطعهن ومزقهن،

وأنشدوا في اللغز: [من الخفيف]

وغلام رأيتُه صارَ كلباً ثمَّ في ساعتين صارَ غزالاً^(٣)
﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي بعضاً.

فإن قيل: فلم قال: ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولم يقل: طيراناً، قلنا: لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك، وأن أرجلها غير سليمة، فكان أبلغ في الحجة وأبعد من الشبهة.

(١) أخرجه أحمد (٨٣٢٩)، والبخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) انظر «زاد المسير» ٣١٤/١.

(٣) البيت في «العقد الفريد» ٤٧٢/٦، قوله: صار كلباً؛ ضم كلباً، من صار يصور.

وقال مقاتل: هذا مثلٌ ضربه الله فكأنه يقول: كما قدرتُ أن أبعث هذه الأطيّار من هذه الأجل الأربعة، فكذا أبعث الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها، وهي الجنوب والشمال والدُّبور والصِّبا.

فإن قيل: فلم خصّ أربعة أطيّار؟ قلنا: لأجل الاستقصات الأربع التي بها قوامُ العالم.

والجبال من جبال الشام، وقيل: على جبل لُبْنان، وسَنِير، وجبل القُدس، وطُور سِيناء.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم ابن حبيب يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيماً يقول: صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ، ولكل حرفٍ حدٌّ ومطلعٌ». وظاهر الآية ما ذكره أهل التفسير، وباطنها أن إبراهيم أمرَ بذبح أربعة أشياء في نفسه بسكين الإياس، كما ذبح الأطيّار الأربعة بسكين الحديد، فالنسر مثلٌ لطول العمر والأمل، والطّاووس زينة الدنيا وبهجتها، والغراب الحرص، والدِّيك الشهوة.

قلت: الخليل عليه السّلام منزّهٌ عن مثل هذا، لأنّ الله تعالى عصمه من كل ما ذُكر من الأمثال، فتحصيل الحاصل محال.

فصل في ابتلائه بالكلمات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] الآية. والابتلاء: هو الامتحان والاختبار.

واختلفوا في الكلمات: قال ابن عباس: هي خمسٌ في الرّأس: قصُّ الشارب، والمضمضة والاستنشاق، والسّواك، وفرق الرّأس، وخمسٌ في الجسد: وهي تقليم الأظفار، وحلق العانة، ونتف الإبط والختان، وغسل موضع الاستنجاء والبول بالماء^(١).

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٥-٢٧٦.

وقال الحسن البصري: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر^(١).

وقال مجاهد: بالنار.

وقال الربيع: بالجبار الذي أخذ سارة.

وقال مقاتل: بنمرود.

وقال مقاتل بن حيان: بذبح الولد.

وروي عن ابن عباس أنها المناسك: الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار والإفاضة، والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة. وقال مقاتل بن سليمان: هي كل مسألة في القرآن مثل قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] ونحو ذلك^(٢). قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] الذرية: من ذرا الله، أي: أخرج، وقال الزجاج: هي فعلية من الذر الذي أخرج من ظهر آدم. قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا ينال ميثاقي العصاة^(٣).

فصل في ابتلائه بذبح ولده^(٤)

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبُنَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] الآية. قال علماء السير: كان السبب في الأمر بذبح ولده أنه لما فارق قومه مهاجراً إلى الشام فاراً بدينه كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩] دعا أن يرزقه ولداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فلما أقام بفلسطين ونزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكات - وهي قرى قوم لوط - وبشروه بغلام حلیم، قال: هو لله ذبيح، فلما ولد له الغلام من سارة وصلاح أن يسعى معه أتاه آت في منامه فقال له: أوف بندرك. وقال ابن عباس: وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة،

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ١٤٠.

(٣) من قوله: مقاتل بن سليمان . . . إلى هنا ليست في (ب).

(٤) جاء هذا الفصل في «ب» بعد فصل هلاك نمرود لاختلاط في الأوراق. وانظر في هذا الفصل تاريخ الطبري ١/ ٢٧٢، وتفسيره ١٩/ ٥٨١، وتفسير البغوي ٤/ ٣٣، وعرائس المجالس ٩٥، وزاد المسير ٧/ ٧٣، والمنتظم ١/ ٢٧٩، والتبصرة ١/ ١٣٧، والبداية والنهاية ١/ ٣٦٣.

وهذا الزمان أحب ما يكون الولد إلى والده، لأنه قد استغنى عن الحضانة وكلفة التربية، ولم يبلغ إلى حالة العقوق، فكانت البلوى به أشد. فقال له: يا بني، انطلق بنا نقرب قرباناً، فأخذ سكيناً وحبلاً وانطلق معه، حتى إذا كان بين الجبال قال له الغلام: يا أبت، أين قربانك؟ فقال: ﴿يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصفات: ١٠٢] الآية.

فإن قيل: فهل يجوز ذبح مثل ذلك الغلام بمنام، وقد كان جبريل يأتيه بالوحي شفاهاً لا في الأحلام؟ فالجواب: إن الإنسان يكره أن يواجه بذبح ولده، فترك مخاطبة جبريل بذلك من باب الاحترام والإجلال والإعظام، وأمّا منامات الأنبياء عليهم السلام فحق لأنها وحي على لسان ملك الرؤيا، وتارة يخاطبهم الله تعالى بما فيه مصالح الأنام.

وقال علماء السير ممن سمينا: لما رأى إبليس ذلك قال: لئن لم أفتن إبراهيم اليوم وولده وسارة، وإلا لم أظفر منهم بشيء أبداً، فأتى أم الغلام فقال لها: هل تدري أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب يحتطب لنا من هذا الشعب، قال: والله ما ذهب به إلا ليذبحه، فقالت: كلاً هو أرحم به وأشدُّ حباً له، قال: يزعم أن الله أمره بذلك، فقالت: إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، سلّمنا لأمر الله وقضائه. فلما يس منها أتى الغلام وهو يمشي وراء أبيه فقال له: يا غلام، هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نعم يحتطب لأهلنا من هذا الشعب، فقال: لا والله، ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره ربه به، سمعاً وطاعة. فلما يس من الغلام أتى إبراهيم فقال: أيها الشيخ، أين تريد بهذا الغلام؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لنا فيه، فقال: والله إنى لأرى أن الشيطان جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم فقال له: إليك يا خبيث عني، فوالله لأمضين أمر ربي. فرجع عدو الله خاسئاً خاسراً لم يبلغ من سارة والغلام وإبراهيم ما أراد^(١).

وقال ابن عباس: فلما علم الغلام أنه ذابحه قال له: يا أبة، اشدد رباطي لئلا أضطرب، واكفف ثيابك عن دمي لئلا يصيب ثوبك فتراه أمي فتحزن، وأسرع مرّاً

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٧.

السكين على حلقي ليكون أهونَ للموت عليّ، وإذا أتيت أمي فأقرئها السلام عني، واذكر لها ثواب الصابرين. فأقبل إبراهيم يقبله ويبكي ويقول: نعم العونُ أنت يا بُنيّ عليّ أمري، والگلام يبكي، وضجّت ملائكة السماء بالبكاء، فقال الله: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي استحقّ الخُلة أم لا؟ فقالوا: إلهنا، لو كنّا مكانه لم نصبر.

وإنما قال له: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفات: ١٠٢] ليختبر ما عنده من الرأى في أمر الله فإن أجاب حزن عليه، وإن امتنع لم يحزن عليه. فلما قال له: ﴿يَتَأْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ازداد بلوىً بفراقه. ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما لأمر الله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣] أي: صرعه على جنبه فصار أحدَ جبنيه على الأرض - وهما جبينان والجهة بينهما، والعوام تسمي الجهة جبيناً - فأمر السكين على حلقة فلم تعمل شيئاً، وضرب الله على حلقة صفيحة نحاس فانقلبت السكين، فناداه الغلام: يا أبت، اقلبني على وجهي فلعلك تستحي أو تدرك رقة فتحول بينك وبين أمر الله. وضجّت السماوات والأرض ومن فيهما لما رأوا من صبر الغلام. فبينما هو كذلك قلب الله الشفرة ونودي الخليل ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصفات: ١٠٥] فالتفت فإذا بكبش أملح من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً. وقال مقاتل: هو الكبش الذي قرّبه هابيل، جاء به جبريل.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين حكاه جدّي رحمه الله في «التبصرة»^(١).

فخلى عن الغلام وجعل يقبله ويبكي ويقول: اليوم وهبت لي يا بُنيّ، واشتغل بذبح الكبش عنه، فحلّ جبريل كتافه فالتفت إبراهيم فرآه فقال: من حلّ كتافك؟ فقال: الذي جاءك بالكبش.

وقال أهل المعاني: هذا جواب إبراهيم لما ذهب إسماعيل ليأتيه بالحجر الأسود وجاءه جبريل به، وجاء إسماعيل فقال: يا أبت، من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني على بنائك^(٢).

(١) انظر «التبصرة» ١/١٣٨، وعرائس المجالس ٩٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/٢٧٣-٢٧٦، و«عرائس المجالس» ص ٩٠.

فإن قيل: فكيف لم تقطع السكين حلق الغلام، وقطعت حلق الحسين عليه السلام؟
فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنَّ النبي ﷺ كان في ظهر الذبيح على قول من يقول إنه إسماعيل، فلم
تعمل السكين فيه احتراماً لرسول الله ﷺ.

والثاني: لأنها لو قطعت عنق الذبيح لاحتاج النَّاس في كل سنة إلى ذبح أولادهم
أسوةً به، ففداه الله بالكبش لطفاً منه ورحمة، فكان الكبش فداء للنَّاس كلهم إلى يوم
القيامة.

والثالث: لأنَّ الذابح للغلام كان شقيقاً، والذابح للحسين كان عدوًّا، العدو ما في
قلبه رحمة بخلاف الوالد.

والرَّابع: أنَّ الحسين وافق أولاد الأنبياء كيحى بن زكريا، ولهذا عدد حروف اسم
الحسين على عدد حروف يحيى، فجعلت الموافقة في الاسم والرَّسم والشَّهادة،
وحظي قاتل الحسين باللعنة إلى يوم القيامة من عالم الغيب والشَّهادة.

قال علماء السُّير: فلما رجع الغلام إلى أمِّه رأته ممتقع اللون، فسألته فأخبرها
فقالت: أردت يا إبراهيم أن تذبح ولدي ولا تخبرني؟! فيقال: إنها انفطرت مرارتها
فماتت بعد ثلاثة أيَّام^(١).

وقال مقاتل: إنما رأى مقدّمات الذَّبْح من المعالجة ولم ير الإراقة، فلما فعل في
اليقظة ما رآه في المنام قيل له: ﴿صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده ﴿بِحَزَى
الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَلْبَتَأُ الْمَيْنُ﴾ [الصافات: ١٠٦] أي
الاختبار الخالص.

وقال الزهري: وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصَّلت^(٢): [من الخفيف]

ولإبراهيم الموفِّي بالنَّذر
راحسباً وحامل الأثقال

(١) انظر «التبصرة» ١/١٣٧.

(٢) «ديوان أمية» ص ٤٤٠-٤٤٤، وتاريخ الطبري ١/٢٧٧-٢٧٨.

يا بُنَيَّ إِنِّي نَذَرْتُكَ لِلَّـ
 بَيْنَمَا يَنْزَعُ السَّرَابِيلَ عَنْهُ
 رَبِّمَا تَجَزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمِّ
 مِنْ أَيْبَاتِ .

﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] أراد الاسم، وهو ما هُيِّئَ للذبيح من الحيوانات، وهو ما يذبح إلى يوم القيامة، وهذا أبلغ. وقيل: إنما وصفه بالعظم، لأنه رعى في الجنة مدة، وقيل: لأنه متقبل^(١).

ذكر اختلاف العلماء في الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

ذهب عامة الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أنه: إسحاق، وهو قول العباس بن عبد المطلب، وعلي، وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية، وكعب الأحبار، والحسن البصري، ومسروق، وقتادة، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، والقاسم بن أبي بزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابط، والزهري، والسدي، وعبيد بن عمير، وهب، وأبي ميسرة، وقول أهل الكتابين التوراة والإنجيل، ومذهب أبي حنيفة وأحمد، وعن ابن المسيب روايتان^(٢).

وقالت طائفة: هو إسماعيل، وبه قال عبد الله بن عمر، وأبو الطفيل وثالة بن الأسقع، ومعاوية، وعبد الله بن سلام، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، ومحمد بن كعب القرظي، والشعبي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس وابن المسيب ومالك والشافعي، والحسن البصري في رواية^(٣).

وجه قول القائلين إنه إسماعيل

قال أبو إسحاق الثعلبي: روى عمر بن عبد الرحمن الخطابي [بإسناده عن الصنابحي] قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟

(١) انظر «التبصرة» ١/١٣٨.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٢٦٣، و«المنتظم» ١/٢٧٧.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/٢٦٧، و«زاد المسير» ٧/٧٢.

فقال معاوية: على الخير سقطتم، كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: عُدْ عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، وما الذبيحان؟ فقال: «أبي عبد الله وجدّي إسماعيل»^(١) مختصر.

وروى أبو جمره^(٢) - واسمه نصر بن عمران الضبعي - عن ابن عباس أنه قال: المفديّ إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت^(٣).

وقال محمد بن كعب القرظي: إننا لنجد في كتاب الله أن الذبيح إسماعيل، وذلك لأن الله تعالى لما فرغ من قصة الذبيح قال: وبشرناه بإسحاق، فدلّ على أن قصة الذبيح كانت متقدمة على البشارة بإسحاق^(٤).

وقال مقاتل: سأل عمر بن عبد العزيز [أحد] أحبار اليهود - وكان قد أسلم - عن الذبيح فقال: هو إسماعيل، قال: فما بال اليهود يقولون إنه إسحاق؟ قال: يعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم فيقولون: هو أبونا إسحاق^(٥). ولأن الأمم توارثت النحر بمنى من زمان الخليل عليه السلام إلى هلمّ جرّاء، وموضع النحر بمنى مشهور، وهو من شعائر الحجّ، فإنّ النحر هناك واجب حتى لو تركه لزمه دم.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والذي نفسي بيده لقد كان أوّل الإسلام، وإنّ رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش، أي يبس^(٦).

وقال الشعبي: أنا رأيت قرنيه وكان يتوارثهما بنو إسماعيل كابراً عن كابر إلى أن احترق البيت في أيام الحجّاج فاحترق القرنان.

وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنّه قال: الكبش الذي فدي به إسماعيل نزل من ثبير فنحره إبراهيم بمنى.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٥. وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤٤٨/٣، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

(٢) في «ل»: أبو الجوزاء، وفي (ب): أبو الجور، والمثبت من تهذيب الكمال (ترجمة نصر).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٦٨/١ عن عطاء بن أبي رباح.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٦٩/١، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٧٠/١، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٧٥-٢٧٦، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٦.

وقال الأصمعيُّ: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح أكان إسحاق أم إسماعيل؟ قال: أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان بها إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والنحر بمنى لا شك فيه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا بكر محمد ابن المنذر الضرير يقول: سمعت أبا محمد الزنجاني المؤذن يقول: سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فقال:

إِنَّ الذَّبِيحَ - هَدَيْتَ - إِسْمَاعِيلُ نَطَقَ الْكِتَابُ بِذَلِكَ وَالتَّنْزِيلُ
شَرَفَتْ بِهِ خَصَّ الْإِلَهَ نَبِيِّنَا وَأَبَانَهُ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ
وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أمر إبراهيم بذبح ولده عرض له الشيطان عند المشعر [الحرام] فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات فذهب، ثم عرض له عند الجمرة الثانية والثالثة وهو يرميه بسبع حصيات حتى مضى إبراهيم لأمر الله تعالى^(١).

وجه قول القائلين بأنه إسحاق

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الأحنف بن قيس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي أراد إبراهيم ذبحه إسحاق»^(٢).

وقال أبو إسحاق بإسناده أيضاً عن عمر بن حفص عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ إِسْحَاقُ بَعْدِي فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، صَدَّقْتَ نَبِيَّكَ وَجَدْتُ بِنَفْسِي لِلذَّبِيحِ فَلَا تُدْخِلِ النَّارَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئاً، فَيَقُولُ اللَّهُ: لَا أُدْخِلُ النَّارَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً»^(٣).

وروى العباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الذَّبِيحُ إِسْحَاقُ». وأسنده جدي في «التبصرة»

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢٧٦/١، وفي تفسيره ٦٠٣/١٩، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٧، وما بين معكوفتين من المصادر.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٤.

(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٤.

ولم يتكلم عليه ولا بين ما فيه، وذكر في إسناده المبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس^(١)، وفيه نظر لما نذكره ولأن الله أخبر عن خليله حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع لوط وسارة فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الصفافات: ٩٩-١٠١]

وروى الثعلبي عن ابن مسعود قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال ابن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن^(٢).

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن موسى مولى أبي بكر الصديق عن سعيد بن جبير قال: أري إبراهيم ذبح ولده إسحاق في المنام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما صرف الله عنه الذبح وأمره بذبح الكبش فذبحه سار به في روحة واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال.

وقال أبو إسحاق: وروى عبيد بن عمير عن أبيه قال: قال موسى: يا رب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم ذلك؟ فقال الله: لأن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جادلني بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاءً زاد بي حسن ظن^(٣).

وذكر جدي في «التبصرة» هذا الحديث على غير هذا الوجه، عن العباس عن النبي ﷺ أنه قال: «قال داود: إلهي، أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعني رابعاً. قال الله: لست هناك، إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جادلني بنفسه، وإن يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف»^(٤).

قال: وروى حمزة الزيات عن ابن إسحاق عن أبي ميسرة قال: قال يوسف للملك: تستنكف أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن

(١) «التبصرة» ١/١٣٥-١٣٦.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٣.

(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٣.

(٤) «التبصرة» ١/١٣٦.

إبراهيم خليلُ الله^(١).

وقد روي أن المذبح كان بالقدس. وقال كعب الأحبار: نصُّ التوراة أن الله قال لإبراهيم: خذ وحيدك الذي أحببته وامض إلى أرض الموريا - يعني صخرة القدس - وأصعده على الصخرة صعيدة، أي قربه، فخرج وصاح بغلمانه: ابعدوا، مخافة أن يستغيث الولد بواحد منهم فيمنعه ممّا يريد، فيبطل ثمرة قبول الأمر - وهو الثواب الدائم - فقال له: يا بني، انطلق بنا نقرّب قرباناً، فأخذ السكين والحطب والنّار، فقال الولد: وأين الصعيدة؟ قال: هي أنت، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين فصعد على الصخرة وبني عليها مذبحاً، وكَتَفَ الولد وجعله فوق الحطب، وأخذ المدينة ليذبح الولد، فناداه الربُّ من السماء: يا إبراهيم، لا تمدّ يدك إلى ولدك بسوء، فإني قد علمتُ وجميع ملائكتي وإنسي وجني أنك لم تمنع وحيدك عني، وإني قد باركت عليكما وفيكما. ثم التفت إبراهيم فأبصر كبشاً مربوطاً بقرنيه فأخذه وذبحه صعيدةً عوض الغلام، ورجع الغلام إلى أمّه سارة^(٢).

وقال وهب: كان المذبح بإيلياء من أرض فلسطين.

قلت: والواجب التوقّف في هذا، فإنّ الأدلة متعارضة من الجانبين: أمّا على قول من قال إنه إسماعيل:

أمّا الصنابحي فضعيف، وضحكهُ ﷺ - إن ثبت الحديث - كان تعجباً من قول الرجل، ولو كان ابن الذبيحين لما ضحك.

وأمّا رواية أبي جمرة^(٣) عن ابن عباس أنّه قال: الذبيح إسماعيل، فقد روى عنه الوالبي أن الذبيح إسحاق.

وأمّا قول محمد بن كعب القرظي: إن الله قال بعد قصّة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢] فقد قال: نبياً وهذا لا ينفي أن يكون ذبيحاً.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣٨/٢٣. وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٣-٩٤.

(٢) «سفر التكوين» ٩١/٢٢.

(٣) في «ل» و«ب» ابن الجوزاء وقد تقدم أنه أبو جمرة والله أعلم.

وقولهم: إِنَّ الأُمَّة توارثت النحر بمنى فلا يدلُّ على أن الذَّبِيح لم يكن إسحاق لوجهين:

أحدهما: لأنه يحتمل أن الله تعالى أمر الخليل بنحر كبش^(١) بمنى، وجعل ذلك من شعائر الإسلام ومناسك الحج.

ويحتمل أن إبراهيم سار بإسحاق إلى منى وعاد كما ذكر سعيد بن جبير^(٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» أنه إسحاق^(٣).

وأما قول ابن عباس: لقد كان رأس الكبش معلّقاً بقرنيه في أوّل الإسلام. فبعيد لأنّ بين إبراهيم ونبيّنا محمد ﷺ ثلاثة آلاف سنة، لما نذكر فيما بين الأنبياء من السنين، فكيف يبقى رأس الكبش هذه المدّة؟ ويحتمل أنه رأس كبش آخر.

وما روي عن عليّ كرم الله وجهه فقد روي عنه أنّ الذَّبِيح إسحاق. وقول ابن عباس عرض له الشيطان عند العقبة لا ينفي أن يكون إسحاق.

وأما على قول القائلين بأنه إسحاق، فالأخبار التي ذكرها الثعلبي غريبة جداً. وأما حديث العباس فلا يصحُّ مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، قال محمد بن إسحاق: رواه المبارك بن فضالة عن الحسن فوقفه على العباس، وكذا رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه، وعكرمة ضعيف.

وقولهم: ليس في القرآن أنه بُشِّر بولد إلا بإسحاق، فقد ثبت في الصحيح: أنّ إسماعيل وُلِدَ له أوّلاً على ما رواه البخاري، فنزل منزلة المتواتر، ولا يختلفون فيه. وأما الآثار فمعارضة بمثلها.

قلت: وإذا وقع التعارض وجب التوقف، أو نطلب الترجيح، فنقول: مذهب من قال بأنه إسحاق مذهب الجَمِّ الغفير من الصحابة وغيرهم، ومن خالفهم مثل عليّ وابن عباس فقد روينا عنهما مثل قول الجميع.

(١) في «ب» كبشين.

(٢) انظر «الزهد» لأحمد بن حنبل ص ١٠٢.

(٣) مسند أحمد (٢٧٩٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف.

ونطلبه أيضاً من التاريخ فإن علماء السير لا يختلفون أن أول ولد إبراهيم إسماعيل وأنه حمله صغيراً مع أمه إلى مكة، وأنه غاب عنه مدة بحيث تزوج امرأتين، وأن إبراهيم جاءه وهو ابن ثلاثين سنة ولإبراهيم مئة سنة؛ واتفقوا أيضاً على أن هاجر ماتت بمكة ولها تسعون سنة، واتفقوا أيضاً على أن الملائكة بشرت سارة بالولد وقد أتى عليها تسعون سنة، وأتت على إبراهيم مئة وعشرون سنة، وأن إبراهيم لما بشره بالولد قال: هو لله ذبيح. واتفقوا على أن سارة لم تدخل الحجاز، وأن إسماعيل لم يدخل الشام؛ وقال جدِّي في «التبصرة»: والأصحُّ أن الذبيح إسحاق^(١). فبان بما ذكرنا من الترجيح أن الذبيح إسحاق.

واختلف العلماء في مَنْ نذر أن يذبح ولده أو ينحره؛

فقال أبو حنيفة وأحمد ومحمد: يصحُّ نذره ويلزمه ذبح شاة ويخرج عن العهدة استحساناً. والقياس أن لا يصح، وبه قال أبو يوسف وزفر ومالك والشافعي، وجه قولهم أن النذر بهذه الأشياء ليس بقربة ولا طاعة، وصار كما لو قال: لله عليّ أن أقتل ولدي أو أذبح والدي أو جدِّي أو عمِّي أو خالي أو عبدي. ولنا قصة الخليل عليه السلام، فإنه نذر أن يذبح ولده ففدي بكبش ولنا به أسوة.

وقولهم ليس بقربة، قلنا: نفس النذر ليس بقربة، لكنَّ النذر يوجب ذبح شاة، والذبح قربة بخلاف ما ذكروا من الأحكام، فإنَّ النذر بها لا قربة فيه، على أن لأصحابنا فيه منعاً. وأمَّا العبد فيصحُّ عند محمد لأنه مال، والمال محبوب، وعند أبي حنيفة إنما لا يصحُّ لأنَّ النصَّ ورد في الولد، والعبد ليس في معناه.

قصة^(٢) الخليل عليه السلام مع العابد

روى وهب بن منبه قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً قال: يا ربّ، أرني ولياً من أوليائك، فأوحى الله تعالى إليه: اطلبه على ساحل البحر، فنزل يمشي على الساحل وإذا بكهليل قائم يصلي، فلما رآه أوجز في صلاته، فسلم عليه إبراهيم وقال: سلامٌ

(١) «التبصرة» ١/١٣٦.

(٢) من هنا وقع سقط في «ب» ينتهي في التالية.

عليك يا وليّ الله، فردّ عليه السّلام وقال: وعليك السّلام يا خليل الله، فقال: من أين علمت أنّي خليل الله؟ فقال: أخبرني الذي أخبرك أنّي وليّ الله، وهناك شجرة خضراء شديدة الخضرة، والسّاحل يشرق من نور وجه الوليّ، فأخذا يتذاكران، فمرّت بينهما غزاة فوقعت مشويّة بين أيديهما، فقال الخليل: بسم الله، فقال الوليّ: والذي دلّك عليّ ما أفطرتُ نهاراً منذ أربعين سنة، ولولا كرامتك لما أفطرت، فأكلا منها، فلمّا فرغا قال الوليّ: عودي كما كنت ياذن الله، فقامت الغزاة تمشي. ثم قام الوليّ وودّع الخليل ودخل البحر يمشي على الماء، فعجب الخليل وقال: يا ربّ، ما كنت أقول إنّ في عبادك من يشبهني فبم أعطيت هذا العبد ما أعطيته؟ فقال الله: بحسن يقينه، ولو ازداد يقيناً لطار في الهواء.

قصة إبراهيم عليه السّلام مع العبد الحبشي

روى السّدي عن أشياخه قال: خرج إبراهيم عليه السلام في السياحة فوقع في مفازة، فعطش ولم يقدر على الماء، فإذا بعبد حبشي يرعى غنماً، فقال: أنا عطشان، فقال: يا خليل، أيما أحبّ إليك اللبن أم الماء؟ فعجب الخليل لما ذكر اسمه وقال: الماء، فضرب الأرض بقدمه، فنبع ماءً أحلى من العسل، وأبرد من الثلج فشرب إبراهيم وبكى، وقال: إلهي، عبد حبشيّ له عندك هذه المنزلة، وأنا خليلك أعطش ولا أقدر على الماء. فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي لو سألتني هذا العبد الحبشي أن أزيل السماوات والأرض لفعلت، إنه لا يريد من الدنيا والآخرة سواي.

قصة الخليل عليه السّلام مع المجوسي

حكى وهب بن منبه عن مجاهد قال: كان إبراهيم عليه السلام لا يُضيف من يكفر بالله، فنزل به مرّة مجوسيّ فأضافه ولم يعلم أنه مجوسي. فلمّا جاء وقت الصلاة قام إبراهيم يصلي، والمجوسي جالس، فقال له: يا شيخ، لم لا تصلي؟ فقال: هو مجوسيّ، فطرده وقال: لا أضيف من يكفر بالله، فقام وخرج وهو منكسر القلب. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، أنا منذ سبعين سنة أرزقه على كفره وأنت بخلت عليه بلقمة؟! فقام إبراهيم وخرج يعدو خلفه، ارجع^(١)، فقال: لا حاجة لي في ضيافتك بعد

(١) يعني ويقول له: ارجع.

أن طردتني، فقال: إن ربي عاتبني فيك فقال لي: كذا وكذا، فبكى المجوسي وقال: نعم الرب رب يعاتب وليه^(١) في عدوه، ثم أسلم.

قصة الخليل عليه السلام مع الملك

روى وهب بن منبه عن أشياخه قالوا: أقام الخليل بالشام، فكثرت أمواله^(٢) ومواشيه وعبئده، فجلس يوماً على تل عالٍ وبين يديه ألف قطع من الغنم، في كل قطع عبد وكلب في عنقه طوق من ذهب، وما شاء الله من الخيل والإبل. فقال بعض الملائكة: أيتخذ ربنا من نطفة آزر خليلاً ويؤتيه هذا الملك العظيم؟! - وفي رواية: فقالت الملائكة ذلك - فأوحى الله إليهم: اعتمدوا على من شئتم ينزل إلى الأرض يختبره، فاختاروا بعض الملائكة، وقيل: اختاروا جبريل وميكائيل، فنزلا في صورة فقيرين، فقال لهما الله: اذهبا فاذا كراني عنده، فجاء جبريل فوقف عن يمينه وميكائيل عن شماله، فقال جبريل بصوت رخيم: قدوس قدوس، وقال ميكائيل: رب الملائكة والروح، فانتفض إبراهيم انتفاضة وقال: ما تريدان؟ فقالا: قطعاً من الغنم، فقال: خذا مهما شئتما أن تأخذا. ثم لم يزا إلا حتى أخذا الجميع فقال: أعيدا ما قلتما وخذا جميع أهلي وأولادي وما أملك، ففعلوا. فضجت الملائكة والسموات والأرض والجبال والشجر والدواب وقالوا: هذا والله الكرم، وقال قائل: الخليل موافق لخليله. ثم ارتفعا إلى السماء وهما يقولان: حق لك يا ربنا، أن تتخذ هذا خليلاً، فقال الله: رداً عليه ما أخذتما وأضعفا له ذلك.

فصل في وفاة سارة وأولاد إبراهيم عليه السلام

قد حكينا أنها توفيت بعد قصة الذبح بثلاثة أيام^(٣)، ودفنت في المغارة التي اشتراها الخليل عليه السلام. قال جدِّي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وعاشت مئة وسبعاً وعشرين سنة^(٤).

(١) في (م): نبيه.

(٢) هنا ينتهي السقط في «ب».

(٣) انظر فصل ابتلائه بذيح ولده.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٨.

قال وهب: فتزوج إبراهيم بعدها امرأة من الكنعانيين من العرب العاربة، فولدت له ستة نفر، منهم مدين الذي أرسل شعيب إلى أولاده، واسم هذه المرأة: قنطوراء بنت يقطان، وقيل: بنت منظور. قال ابن الجواليقي: وقال حذيفة: يوشك بنو قنطوراء بالمدار أن يُخرجوا أهل البصرة منها كأي بهم خُزِرَ العيون عراضَ الوجوه. قال ابن الجواليقي: ويقال: إن قنطوراء كانت جارية إبراهيم فولدت له أولاداً والترك من نسلها^(١).

وقال أبو السائب المخزومي: تزوج إبراهيم امرأة أخرى يقال لها: حجون أو حجورا، فولدت له خمسة بنين، وقال ابن قتيبة: فجميع أولاد إبراهيم ثلاثة عشر رجلاً^(٢).

قلت: وقد حكى ابن سعد عن هشام ابن الكلبي عن أبيه عن أولاد إبراهيم^(٣) فقال: إسماعيل أكبر ولده وأمه هاجر قبطية، وإسحاق وأمه سارة. وقد ذكرناه^(٤).

وقال ابن عباس: فرّق إبراهيم أولاده فبعث إسماعيل إلى جرهم، وإسحاق إلى الشام، ولوطاً ابن أخيه إلى سدوم. وفي أيام الخليل أهلك الله قوم لوط لما نذكر.

فصل في وفاة الخليل عليه السلام^(٥)

روى الضحّاك عن ابن عباس قال: لما أراد الله عز وجل قبض روح إبراهيم أوحى إلى الأرض إنني دافن فيك خليلي، فاضطربت الدنيا وتشامت الجبال، وتواضعت منها بقعة يقال لها: جبري، فأوحى الله إليها: يا جبري، أنت شعشوعي، وأنت قدسي، وفيك خزانة علمي، وعليك أنزل رحمتي، وأسوق إليك خيار عبادي، فطوبى لمن وضع جبهته فيك، فيك أدفن خليلي ووصفي، فمن صلى فيك أمنت يوم الفرع الأكبر.

(١) «المعرب» ص ٣١٠.

(٢) «المعارف» ص ٣٣.

(٣) كذا، ولعله ضمّن حكى معنى الحديث والكلام، وانظر «الطبقات الكبرى» ٤٧/١.

(٤) انظر آخر فصل الذبيح إسحاق.

(٥) انظر المعارف ٣٣، وتاريخ الطبري ٣١٢/١، وعرائس المجالس ١٠٠، والمنتظم ٣٠٣/١، وتاريخ دمشق

٣٥١/٢ و٣٥٧ (مخطوط)، والبداية والنهاية ٤٠٢/١.

وقال الربيع بن أنس: كانت حَبْرُونَ لجَبَّارٍ يقال له: عَفْرُونَ، ومسكنه جَبْرِي، فاشتراها منه إبراهيم بأربع مئة درهم، واشترط عليه عَفْرُونَ كل درهم وزن خمسة دراهم، كل مئة منها ضرب ملك، فلم يقدر عليها، فجاءه جبريل بها، فقال عفرون: من أين لك هذه؟ فقال: بعث بها إليّ خليلي رب العالمين مع أمينه علي وحيه جبريل، فأسلم عفرون على يده. وجعلها إبراهيم لمن مات من أهله، فماتت سارة فدفنها بها.

وروى مقاتل عن أبي إدريس الخولاني قال: لما أراد الله سبحانه أن يقبض روح إبراهيم أمر ملك الموت أن يتلطف به، فجاءه في صورة شيخ ضعيف يرتعش، فقدم له طعاماً، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ليدخلها في فيه فيدخلها في عينه أو أذنه أو أنفه. وكان إبراهيم قد سأل ربه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت، فقال للشيخ: ما الذي بك؟ فقال: الهرم، قال: كم أتى عليك من السنين، فذكر مثل سني إبراهيم إلا سنة^(١)، فقال إبراهيم: قد بقي لي سنة وأصير مثل هذا، اللهم اقبضني إليك، فقام الشيخ فقبضه.

وذكر عبد الله بن أحمد عن أبيه قال: حدثنا الصلت بن مسعود بإسناده عن كعب الأحبار، وذكر بمعناه، وأن إبراهيم كان في كرم وقدم للشيخ عنياً، وذكره. وبهذا الإسناد عن كعب قال: كان إبراهيم يقري الأضياف، فأبطؤوا عليه حتى إنه استراب بذلك، فخرج إلى الطريق فطلب ضيفاً، فمرَّ به ملك الموت في صورة مسكين، فانطلق به إلى البيت فرآه إسحاق فعرفه فبكى، وبكى إبراهيم، وبكى ملك الموت لبكائهما. ومضى ملك الموت، فقال له إسحاق: يا أبة أوصِ فما أرى أجلك إلا قد حضر، وهذا ملك الموت.

وحكى السدي عن أشياخه قال: كان لإبراهيم بيت يتعبَّد فيه ولا يدخله غيره، فجاءه ملك الموت فدخله، فجاء إبراهيم فقال: كيف دخلت بيتي بغير إذني؟ فقال: ما دخلت إلا بإذن، فعرفه، فقال: أرني الصورة التي تقبض فيها أرواح المؤمنين، فأراه إياها، فقال له: اقبض، فقبضه، وصعد بروحه إلى السماء فقال: يا إلهي قد جئت بروح من ليس في الأرض بعده خير.

قال وهب: فقال الله تعالى لإبراهيم، كيف وجدت الموت؟ فقال: كأن روحي تنزع

(١) انظر تاريخ الطبري ١/٣١٢.

بالسُّلَاءِ^(١). فقال الله: قد هوَّنا عليك.

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن ابن عمر قال: قال الله تعالى: يا جبريل، خذ ريحانةً من رياحين الجنة وانطلق بها مع ملك الموت إلى خليلي وحيه بها، وقل له: الخليل إذا طال به العهد أما يشتاق إلى خليله؟ ففعل، فقال الخليل: بلى قد اشتقت إلى لقاءه. ثم شمَّ الريحانة فمات^(٢).

وقال ابن سعد بإسناده عن هشام بن محمد عن أبيه قال: خرج إبراهيم إلى مكة ثلاث مرات، ودعا الناس إلى الحج في آخرهن، فأجابه كل شيء سمعه، فأول من أجابه جرهم قبل العماليق ثم أسلموا ورجع إبراهيم إلى الشام فمات به وهو ابن مئتي سنة^(٣).

وقال مجاهد: مات جماعة من الأنبياء فجأة، منهم الخليل وداود وسليمان والصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الفاجر.

وقال وهب: دفن إبراهيم في مغارة جبري بإزاء سارة، ثم دفن أولاده وأولاد أولاده وأهله في المغارة، وبينها وبين القدس عشرة أميال. ولما طال الزمان عفت آثارها. فلما بعث سليمان أوحى الله إليه بعد ما بنى البيت المقدس أن ابن علي خليلي خيراً عالياً يعرف به قبره، فخرج سليمان فأتى القرية التي شمالي جبري، ويقال لها: بيت الرامة، فبنى هناك بنياناً وآثاره فيه، فأوحى الله إليه: ليس هو هنا ولكن انظر إلى النور المتدلي من السماء فاتبعه، فنظر فإذا هو بالنور على جبري، فبنى عليه البنيان القائم اليوم، أمر الشياطين فبنته.

وفي حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «مررتُ بقبرِ أبي إبراهيم فقال لي جبريلُ: انزلُ فصلٌ هنا ركعتين»^(٤).

(١) في النسخ: «بالسل» والمثبت من تاريخ دمشق ٢٥٦/٦. والسُّلَاءُ: شوك النخل، واحدته: سُلَاءَةٌ. وأخرجه ابن عدي في الكامل ١٥٢/٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٥٥-٢٥٦/٦.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤٨/١.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في فضائل بيت المقدس ١٢٠، وفيه بكر بن زياد الباهلي، قال ابن حبان: دجال يضع الحديث، ثم ساق له هذا الحديث، ثم قال: وهذا شيء لا يشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع. انظر ميزان الاعتدال (١٢٢٢).

وقال كعب الأحبار: في بعض الكتب يقول الله تعالى: مَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زِيَارَةِ قَبْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعَلَيْهِ بِزِيَارَةِ قَبْرِ إِبْرَاهِيمَ.

وقال عبد الله بن سلام: زيارة قبر إبراهيم والصلاةُ عنده حجُّ الفقراء ودرجات الأنبياء. فأما ما يروى عن النبي ﷺ: «من زارني وزار قبر أبي إبراهيم في عام واحد ضمنتُ له على الله الجنة»^(١)، ففيه للمحدثين نظر.

فصل في مبلغ سنّه

واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: مئة وخمس وسبعون سنة، قاله الكلبي.

والثاني: مئة وتسعون سنة، قاله مقاتل.

والثالث: مئتا سنة، وهو الأصحُّ، وحكاه الخطيب عن ابن عباس، وذكره جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وذكر جماعة عاشوا مائتي سنة منهم النابغة الجعدي وأدرك الإسلام وأسلم، وكذا الجعشم^(٢) بن عوف بن جزيمة، ومحسن بن عيسان^(٣) ابن ظالم، وسيف بن وهب بن جزيمة، وعامر بن جوين، والنمر بن تُولب، وجَناب بن مَصاد بن مُرارة، وثُوب بن ثُلدة ووفد على معاوية، وأمّية بن الأسكر^(٤)، والقُدار العَنزي، وسويد بن خَدّاق بن عبد قيس، وامرؤ القيس بن حُمام، وأبو الطّمحان القيني من بني القين واسمه حنظلة، وهو القائل: [من الوافر]

حنتني حانياثُ الدّهر حتّى كأنّي خاتلٌ يَدُنْهُ لَصِيدُ
قصيرُ الخطوِ يحسبُ من يراني ولست مقيّداً أنّي بقَيْدِ^(٥)
انتهت سيرة الخليل عليه الصلاة والسلام.

(١) قال النووي في «المجموع» ٢٢٠/٨: وهذا حديث باطل ليس هو مروياً عن النبي ﷺ، ولا يعرف في كتاب صحيح ولا ضعيف، بل وضعه بعض الفجرة، وزيارة الخليل ﷺ فضيلة لا تنكر، وإنما المنكر ما رووه واعتقدوه.

(٢) في (ب): «الجعشم».

(٣) في «أعمار الأعيان»: «عتبان».

(٤) في (ل) و(ب): «يشكر»، والمثبت من «أعمار الأعيان»، وانظر «الإصابة» ٦٤/١.

(٥) «أعمار الأعيان» ص ١٠٧-١٠٩.

فصل في هلاك نمرود وبنائه للصرح وحديث النسر

قال علماء السير: وفي أيام الخليل عليه السلام احتال نمرود في صعوده إلى السماء لما شاهد نجاة إبراهيم، فازداد عتوّاً، وحلف ليطلبنَّ إله إبراهيم.

فحكى جدي رحمه الله في «التبصرة» عن السدي قال: فأخذ أربعة أفراخ من النُسر، فربّاهم باللحم والخمر حتى كبروا واستفحلوا، فجوعهم أيّاماً وقرنهم بتابوت، ونصب أربعة رماح في جوانب التابوت، وربطها في التابوت بسلاسل، وجعل على رأس كلِّ رمح فخذاً من اللحم، وربط أعينها، وقعد في التابوت، ثم أمر بإزالة العصائب عن عيونها جملةً. فلما رأت اللحم طارت بالتَّابوت فعلت به حتى نظرت إلى الأرض كأنها فلكة في ماء. وصعدت النسر فغابت عنه الأرض حتى وقع في ظلمة وريح ونار، فلم يرَ ما فوقه ولا ما تحته، فخاف ونودي أيها الطاغية: إلى أين تريد؟ فنكس الرماح باللحم فأهوت النسر منقضّات، فلما رأت الجبال ذلك كادت أن تزول^(١). قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقد حكى القصة أبو إسحاق الثعلبي عن علي عليه السلام قال: قال علي وغيره: إن نمرود الجبار قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أعلم ما في السماء، فأعدَّ النسر وقعد في التابوت وجعل معه رجلاً آخر، وجعل له باباً من فوق وباباً من أسفل. فلما طارت النسر طمعاً في اللحم وأبعدت في الهواء قال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها؟ ففتح وقال: إن السماء كهيئتها، فقال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض، ففتح وقال: أراها مثل اللجة والجبال مثل الدخان. قال: وقال عكرمة: وكان معه في التابوت غلام معه قوس ونشاب، فرمى سهماً فعاد إليه السهم ملطخاً بالدم فقال: كفيت شغل إله السماء.

قال: واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ؟ فقال عكرمة: سمكة من السمك فدت نفسها لله تعالى من بحرٍ في الهواء معلق.

(١) «التبصرة» ١/١١٠-١١١، وانظر تفسير الطبري ١٣/٧١٨ و١٤/٢٠٢، وتاريخه ١/٢٨٩، والمنتظم ١/

وقال بعضهم: من دم طائر أصابه السهم^(١).

قلت: وقول الثعلبي: إن السمكة فدت نفسها لله تعالى، كلام ساقط وأين سبع سماوات والعرش والكرسي وسبعون ألف حجاب حتى يصل إليها سهم نمرود، وإنما يقال في هذا: إما أن يكون استدراجاً لنمرود، أو اتفق أن السهم أصاب طائراً.

وقال الثعلبي أيضاً: ولما هبطت النسور بالتابوت سمعت الجبال حفيف النسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، أو أن الساعة قد قامت فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾^(٢).

وقال الربيع بن أنس: لما رأى أنه لا يطيق شيئاً أخذ في بناء الصرح، قال الجوهري: الصرح كلُّ بناء عال^(٣). ويقال للقصر: الصرح.

وقال مقاتل: بناه في ارتفاع ثلاثة أميال. فبينما الناس ذات يوم في ما هم إذ سقط الصرح، ففزعوا وتبلبلت ألسنتهم، وكان الصرح من الطين والآجر.

قلت: والعجب من سفه نمرود فإنه صعد إلى السماء حتى غابت عنه الأرض، ووقع في الظلمة ولم يظفر بطائل، فما قدر ارتفاع الصرح وهو مقدار فرسخ حتى يظفر بمطلوبه؟

وقوله: تبلبلت الألسن، وهم، لأنها إنما تبلبلت في زمان أولاد نوح كما ذكرنا.

وذكر جدِّي في «التبصرة» وقال: وأمّا نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربع مئة عام لا يزداد إلا عتوّاً، ثم حلف ليطلبنَّ إله إبراهيم وذكر حديث النسور والصرح. قال: وقال زيد بن أسلم: بعث الله إلى نمرود ملكاً فقال له: آمن بي وأترك عليك ملكك، فقال: وهل ربُّ غيري؟ فأتاه ثانياً وثالثاً، ففتح عليه باباً من البعوض فأكلت لحوم قومه وشربت دماءهم، وبعث الله بعوضة فدخلت في دماغه فمكث أربع مئة عام يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، فعذب

(١) «عرائس المجالس» ص ٩٨-٩٩.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٩.

(٣) «الصحاح»: (صرح).

بذلك إلى أن مات، هذا صورة ما حكى جدي رحمه الله^(١).

وذكر وهب بن منبه القصة وقال: قال نمرود للملك: أربك جنود؟ قال: ولم؟ قال: ليقاتلني، فإني ملك الملوك، وإن الملوك يقاتل بعضهم بعضاً، فقال: اجمع جنودك إلى ثلاثة أيام، فجمع وحشد، وأمر الله خزنة البعوض أن يفتحوا منها باباً، ففتحوا، فلما كان في صبيحة اليوم الثالث نظر نمرود إلى الشمس وقال: ما لها لا تطلع؟ ظناً منه أنها أبطأت، فقال الملك: حالت دونها جنود ربي. فأحاطت بهم البعوض فأكلت اللحوم وشربت الدماء، فلم يبق من الناس والدواب إلا العظام، ونمرود بحاله لم يصبه شيء فقال له الملك: أتؤمن؟ قال: لا، فأمر الله بعوضة فقرضت شفته العليا أو السفلى فحكها فشريت وعظمت، ثم دخلت منخرية ووصلت إلى دماغه فأكلت منه حتى صارت كالفأرة فأقام أربعين سنة يُضرب رأسه بالمطارق.

وقال مقاتل: أربعين يوماً، وقيل: ست مئة سنة، قال السدي: والأصح أربعين سنة، حتى هلك^(٢).

وقال السدي: نمرود أول ملوك بابل، وهم النبط الذين شقوا الأنهار، وأن الفرس الأول إنما انتقل الملك إليهم منهم، كما أخذت الروم الملك من اليونان. وقال ابن الكلبي: من زعم أن نمرود كان عاملاً للضحاك فقد وهم، لأن نمرود أول ملوك النبط، والضحاك ينسب إلى الفرس، والله أعلم^(٣).



(١) «التبصرة» ١/ ١١٠-١١١.

(٢) عرائس المجالس ٩٩.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٩٠-٢٩٢، والمنتظم ١/ ٢٨٢.

فصل

في ذكر إسماعيل عليه السّلام^(١)

إسماعيل عليه السلام اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل باللام، وإسماعين بالنون.

وحكى ابن سعد عن هشام والواقدي: أن اسمه كان اشمويل فأعرب^(٢).

وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] قال ابن عباس: كان إذا وعد أنجز وعده، وعد رجلاً أن يلتقيه بمكان فأقام سنة ينتظره ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥] وفي مصحف ابن مسعود: وكان يأمر قومه^(٣).

ونبأه الله في حياة أبيه وكان بكر إبراهيم، ولد لإبراهيم تسعون سنة في قول السّدي، وولد إسحاق بعده بثلاثين سنة، وحمله إبراهيم على البراق مع أمّه وله ستان، حكاها ابن سعد عن الواقدي^(٤).

وقال وهب: لما توفي إبراهيم قام إسماعيل مقامه، وبعث إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن، وكانوا يعبدون الأوثان، فأمن بعضهم.

وقال ابن سعد: حدّثنا الواقدي عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت هاجر بمكة وهي بنت تسعين سنة فدفنها في الحجر^(٥).

وشكا إلى الله حرّ مكة فأوحى الله إليه إني أفتح لك باباً في الحجر تجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة فيقال: إنه قريب من هاجر.

وقال عبد الملك ابن هشام في «السيرة»: العرب تقول: هاجر وأجر، فيبدلون

(١) انظر قصته في المعارف ٣٤، و«البدء والتاريخ» ٦٠/٣، و«عرائس المجالس» ص ١٠٣، و«المنتظم» ١/٣٠٤، و«البداية والنهاية» ١/٤٤٢.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/٤٩.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٦/١٩٩.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/٥٠.

(٥) «الطبقات الكبرى» ١/٥٢.

الألف من الهاء، كما قالوا: أهرّاق الماء وأراق الماء^(١).

وحكى ابن سعد عن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام: أوّل من تكلم بالعربية إسماعيل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، قيل له: فما كان كلام الناس يومئذ؟ قال: العبراني، وكذا الكلام الذي أنزله الله على أنبيائه إبراهيم وغيره^(٢). وكان كلام الناس السرياني والعبراني.

وقال السدي: إنما نطق بلغة جرهم. وقال مقاتل: لما نزلت جرهم تكلم كما يتكلمون به، واختن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وختن معه جماعة من أولاد العرب. ووهب له مضاض بن عمرو الجرهمي سبعة أعنز.

وذكر محمد بن عبدوس الجهشياري في «كتاب الوزراء» عن كعب أنه قال: أوّل من وضع الكتاب العربي والسرياني آدم قبل موته بثلاث مئة سنة، كتبها في الطين. فلما انقضى الطوفان أصاب كل قوم كتابهم، فكان الذي وجد كتاب العربية إسماعيل. قال: وقال ابن عباس: أوّل من وضع العربية إسماعيل، ثم تكلم بها الناس^(٣).

ذكر أولاده

ذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً، ولم يسمّ منهم أحداً^(٤). وذكر الواقدي فقال: منهم نبت وقيل: نابت وقيدار، وقيل: إن نبت ابن قيدار، وهو أبو العرب كلهم.

وكان لإسماعيل أذبل وأميم وتيم ومسمع ودوما ودوام ومنشا وجداد وقيم ونطور ونافس وميسم، وكل هؤلاء لهم نسل^(٥).

وذكر عبد الملك بن هشام في «السيرة» أولاد إسماعيل فقال: نبت أو نابت وقيدر^(٦)

(١) «السيرة» ٦/١.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٥٠/١.

(٣) انظر القصد والأمم ١٩، والوزراء والكتاب ص ١.

(٤) «التبصرة» ١٢٥/١.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١/٣٤ (الخانجي)، وتاريخ الطبري ١/٣١٤.

(٦) في (ب) و(ل): وفضل؟! والمثبت من السيرة.

وماشي وكدما^(١) وأذر وطيما^(٢) وقنطور^(٣) ونبش وقيدما، وأمهم بنت مُضاض بن عمرو الجُرهمي. وفي مُضاض لغتان: كسر الميم وضمها، قال: وجرهم من قحطان، وقحطان أبو اليمن كلهم، وإليه تنتهي أنسابها^(٤).

وذكر ابن سعد عن هشام بن محمد الكلبي قال: ولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً وهم نياوذ وهو نبت وهو نابت وهو أكبر ولده، وقيدر، وأذبل، ومنشى، ومسمع، وهو مشماعة، ودما - وهو دوما - وبه سميت دومة الجندل، وماشي، وأذر - وهو أذور - وطيما، ويطور، ونبش، وقيدما، وأمهم في رواية محمد بن إسحاق رعة بنت مُضاض ابن عمرو الجُرهمي، وفي رواية الكلبي: رعة بنت يشجب بن يعرب. قال: وقال الكلبي: وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق ابنة صدى^(٥) قبل الجرهمية، وهي التي جاء إبراهيم لزيارة ابنه فجفّته في القول، وأمره إبراهيم بفراقها ففارقها ولم تلد له شيئاً. وقال ابن سعد بإسناده عن بكر بن سويد عن علي بن رباح اللخمي قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»^(٦).

فصل في وفاة إسماعيل عليه السلام

قال هشام بن محمد: لما احتضر أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته من العيص ابن إسحاق.

وقال جدي: عاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن في الحجر عند أمّه، فقبره ما بين الميزاب إلى الحجر^(٧).

وقال خالد المخزومي: ولما حفر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سفطاً من مرمر

(١) في «السيرة»: «دمًا».

(٢) في (ل) و(ب): «طينا»، والمثبت من «السيرة»

(٣) في «السيرة»: «يطور»

(٤) «السيرة» ١/٤-٥، وزاد فيها: «أذبل، ومبشا، ومسمعا».

(٥) في «الطبقات الكبرى» ١/٥١-٥٢: صبدى.

(٦) «الطبقات الكبرى» ١/٥١.

(٧) «المنتظم» ١/٣٠٥، وانظر «أعمار الأعيان» ص ٩٩، والتبصرة ١/١٢٥، والطبري ١/٣١٤.

أخضر، فسأل العلماء بالأخبار فقالوا: هذا قبر إسماعيل وأمّه، قالوا: والمحدودب مما يلي الركن الشامي فيه قبور العذارى من بنات إسماعيل وكلّما سوّي مع أرض المسجد عاد محدودباً كما كان^(١).

وذكر محمد بن سعد في «الطبقات» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل فإنه تحت ميزاب الكعبة بين الركن والمقام، وقبر هود فإنه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة خضراء تندى دائماً، وموضعه أشدّ الأرض حرّاً، وقد ذكرناه، وقبر رسول الله ﷺ^(٢).

قلت: كذا ذكر ابن سعد ولم يذكر الخليل وهو ثابت أيضاً بالتواتر أكثر من قبر إسماعيل وهود.

فصل في قيذار ونبت، وجرهم وأمر الكعبة

واختلفوا فيهما على قولين: أحدهما: أن نبت بن إسماعيل وقيذار أخوه. والثاني: أن قيذار بن إسماعيل ونبت بن قيذار.

ولما ماتا غلبت جرهم على البيت، وكانت أم نبت جرهميّة، وأبوها مضاض بن عمرو الجرهميّ، وولده الحارث بن مضاض، تولى البيت والحارث أول من وليه من جرهم، وقيل مضاض، وكان ينزل بقعيقان، وكل من دخل مكة يعشره. ومملكت العماليق السّميدع بن هوبر فنزل أجياد أسفل مكة، فكان كل من خرج منها يعشره، وجرت بينهم حروب كثيرة. وإنما سمي قُعيقان لأنه لما خرج الحارث بن مضاض لحرب العمالقة تقعقت هناك الدّرَق والسيوف والرّماح، وخرج السّميدع ملك العمالقة فنزل بالجياد من الخيل هناك فقبل أجياد، وإلى هلمّ جرّاً، ثم بعد ذلك اصطلحوا ونحروا الجزر هناك فسمي ذلك الموضع طابخ^(٣).

وكانت ولاية جرهم البيت ثلاث مئة سنة وآخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر

(١) المنتظم ١/٣٠٥.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/٥٢، والمنتظم ١/٣٠٦.

(٣) في (ب): «كانح».

وهو الحارث بن عمرو بن عوف بن الحارث بن مُضاض الأكبر، وزاد في البيت ورفع، ثم طغت جرهم وبغت حتى فسق رجلٌ منهم في الكعبة بامرأة، وقد ذكرهما الجوهري فقال: وإساف ونائلة صنمان كانا لقريش وضعهما عمرو بن لُحَيٍّ على الصفا والمروة، فكان يذبح عليهما تُجاه الكعبة، قال الجوهري: وزعم بعضهم أنهما من جرهم، إساف ابن عمرو ونائلة بنت سهل، ففجرا في الكعبة فمسخا حجرتين فعبدتهما قريش^(١).

وقال ابن الكلبي^(٢): لما طال العهد عليهما عُبدًا، قال: وسلَّط الله على جرهم الرعاف فهلكوا، وبقيت منهم بقية.

وقال ابن إسحاق: ثم غلب بنو إسماعيل - لما كثروا وصاروا ذوي قوة ومنعة - على أخوالهم جرهم فأخرجوهم من الحرم، فلحقوا ببلاد جهينة فأتاهم سيلٌ في الليل فاجتاحهم بمكان يُدعى بإضم وفيهم يقول القائل: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحَجَّون إلى الصِّفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
من أبيات، قلت: وقد اختلفوا في قائل هذه الأبيات، فقال قوم: هي لمضاض
الأكبر، وقال عبد الملك بن هشام: هي لعمر بن الحارث بن مضاض الأصغر وليست
لمضاض الأكبر، وذكرها، وقال بعد البيت الذي قاله^(٣):

كأن لم يكن بين الحَجَّون إلى الصفا

ولم يتربع واسطاً فجنوبه إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضرٌ
بلى نحن كُنَّا أهلها فأبادنا صُروف الليالي والجدود العوائرُ
وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة ولما تَدُرُّ فيها علينا الدوائرُ
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوفُ ببيت الله والأمرُ ظاهرُ
ملكنا فعزَّزنا فأعظم بمُلكنا فليس لحيٍّ غيرنا ثمَّ فاخرُ
ألم تنكحوا من خير شخص علمتم فأبناؤه منا ونحن الأصاهرُ

(١) «الصحاح»: (أسف).

(٢) في (ب): «الكلبي».

(٣) الأبيات في «السيرة» ١/ ١١٥. أما البيت الثاني: ولم يتربع واسطاً، فليس في «السيرة»، وإنما هو في «الأغاني» ١٨/ ١٥، والبيت الرابع لم نقف عليه لا في «السيرة» ولا في غيرها.

فإن تنثن الدنيا علينا بحالها
فأخرَجنا منها المليكُ بقدره
أقول إذا نام الخليُّ ولم أنم
وبُدلت منها أوجهاً لا أحبها
وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة
فسحَّت دموعُ العين تبكي لبلدةٍ
قلت: وقول ابن هشام إنها ليست لمضاض الأكبر فصحيح، لأن الملك الأول يقال له: الحارث بن مضاض الأكبر في قول ابن إسحاق، والبلاذري يقول: مضاض، لما نذكر. وهذه الأبيات لآخر ولده هو عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر، وفي أيامه زال ملك جرهم فرثاهم بها.

وحكى ابن هشام في «السيرة» أيضاً قال: وجدت مكتوبة باليمن في حجر ولا يعرف قائلها، وهي أول شعر قيل في العرب.

وقال البلاذري: نزلت جرهم بمكة وما والاها، وسموها صلاح مثل قطام، ثم إنهم استخفوا بحرمة الحرم وأضاعوا حقَّ الكعبة فوق فيهم طاعون يعرف بداء العدسة، وقويت عليهم خزاعة فأخرجوهم من الحرم، فنزلوا بين مكة والمدينة فهلكوا بذلك الداء^(٢).

وقال البلاذري^(٣): وكان أول ملوك جرهم مضاض - بكسر الميم - بن عمرو بن سعد بن الرفيت بن هي^(٤) بن نبت بن جرهم بن قحطان، ملك مئة سنة، ثم ملك بعده ولده عمرو بن مضاض مئة وعشرين سنة، ثم ملك بعده الحارث بن عمرو مئتي سنة، ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر أربعين سنة. وانقضت العرب العاربة من عاد وعييل وطسم وجديس وثمود والعماليق، وانمحت آثارهم وانقطعت أنسابهم، ولم يبق إلا من كان من عدنان وقحطان. ثم صارت ولاية البيت في ولد نزار، وكانت بينهم وبين مضر حروب وبين إياد، فكانت لمضر على إياد فأجلوهم إلى العراق، لما نذكر.

(١) في (ب) و(ل): ويخامر، والمثبت من «السيرة» ١/١١٥.

(٢) أنساب الأشراف ١/٩-١٠.

(٣) القول للمسعودي في مروج الذهب ٣/١٠٣.

(٤) في مروج الذهب: بن الرقيب بن هيني.

فصل في ذكر إسحاق عليه السلام^(١)

قال الجوهري: إسحاق اسم رجل^(٢).

وقال ابن الجواليقي: إسحاق اسم أعجمي^(٣).

وذكر في «التوراة» أن إسحاق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح، وهي ابنة عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد، خرج عيصو أولاً ويعقوب بعده ويده عالقة بعقبه فسُمِّي يعقوب. وكان لإسحاق عند مولدهما سبعون سنة^(٤).

وقال السُّدي: أراد يعقوب أن يخرج قبل عيصو، فقال له عيصو: والله إن خرجت قبلي لأعرضنَّ في جوف أمي فأقتلها، فسُمِّي عيصو لأنه عصى أخاه.
قلت: والعجب من ولدين يقتتلان في ظلمة الأحشاء. وإنما عيصو ويعقوب اسمان أعجميان.

وتزوَّج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيصو، فكان أصفر في بياض، فهو أبو الروم كلِّهم، فكل ما كان من بني الأصفر فهو من ولده. وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام على وادي كنعان، وسكنوا على الساحل على جانب البحر الرومي إلى الإسكندرية، وصار المُلْك^(٥) في ولده وهم اليونان.

وقال وهب: ذهب بصر إسحاق قبل موته، فدعا ليعقوب بالرياسة على إخوته والنبوة، ودعا ليعصو بالملك.

وكان إسحاق يميل إلى العيص ويحبه، فقال إسحاق للعيص: أطعمني لحم صيدٍ حتى أدعو لك، فسمعه يعقوب فجاءه بصيد، فقال: اقترب مني حتى أدعو لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان عيصو أحمر أشعر الجلد ويعقوب أجرد، فقالت أمُّ يعقوب: اذبح

(١) انظر قصته في: «تاريخ يعقوبي» ٢٨/١، و«تاريخ الطبري» ٣١٦/١، و«عرائس المجالس» ص ١٠٣، و«البدء والتاريخ» ٦٣/٣، و«المنتظم» ٣٠٧/١، و«الكامل» ١٢٦/١، و«البداية والنهاية» ١/٣٧١ و٤٤٧.

(٢) «الصحاح»: (سحق).

(٣) «المعرب» ص ٦٢.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٢٥/٢٠-٢٦، وانظر «المعارف» ص ٣٨.

(٥) في (ل): «الملوك».

شاةً والبس جلدھا، وتقدّم إلى أبيك وقل: أنا عيصو، ففعل، فمسّه إسحاق وقال: المسّ مس عيصو والريح ریح يعقوب، فأكل ثم دعا له أن يجعل في ذريته الأنبياء والملوك. وذهب يعقوب وجاء عيصو بالصّيد فقدّمه وقال: هذا الذي طلبت فقال إسحاق: يا بنيّ، قد بقيت لك دعوة، فدعا له أن يجعل الله ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم أحد غيرهم. فقالت أم يعقوب ليعقوب: الحقّ بخالك لا يان^(١)، فكان يكمن نهاراً ويَسري ليلاً مخافةً من عيصو، فسمي إسرائيل لأنه كان يَسري ليلاً، وهذا أحد الأقوال، لما نذكر.

ذِكْرُ وَفَاةِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال محمد بن إسحاق: وكانت وفاة إسحاق بفلسطين، ودفن بجبّرى عند أبيه بالمغارة.

واختلفوا في سنّهِ على قولين: أحدهما: أنه عاش خمساً وثمانين سنة، قاله وهب ابن منبه. والثاني: مئة وستين سنة ذكره جدي في «أعمار الأعيان»^(٢). وقيل: مئة وثمانين سنة.

وقال ابن الكلبي: عاش عيصو مئة وسبعاً وعشرين سنة، ودفن في المغارة عند أبيه وجده. ويقال: إن الأسبان من ولد عيصو.



(١) بعدها عند الطبري ١/٣٢٠، فكن عنده خشية أن يقتلك عيصو، فانطلق إلى خاله، فكان...

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٠٢.

فصلٌ في ذِكْرِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

يعقوب: اسم أعجمي. وفي «التوراة» إسرائيل رجل رزين، ويعقوب أبو الأسباط كلهم.

واختلفوا في تسميته إسرائيل على أقوال:

أحدها: أنه «إسرا» بمعنى عبد و«إيل» هو الله، مثل جبريل وميكائيل، قاله ابن عباس^(٢).

والثاني: أن معناه صفوة الله، قاله مجاهد.

والثالث: أنه كان يخدم بيت المقدس ويوقد قناديله فيظهر جنياً فيطفئها، وكان اسم الجنى إيل، فكمن له يعقوب ليلة فأسره وشدّه بسلسلة، وأصبح الناس يقولون يعقوب أسر إيل، ثم قالوا: إسرائيل.

وفيه لغات تكلمت بها العرب ذكرها في «المعرب» فقال: إسرائيل وإسرا وإسرائيل بالنون، كما قالوا: جبرين وإسماعين^(٣).

وقال الجوهري: إسرائيل اسم، يقال: هو مضاف إلى إيل^(٤).

واتفقوا على أن يعقوب ولد في زمان الخليل عليه السلام، وأنه أرسله إلى الشام، وكان إسحاق قد أوصاه أن لا يتزوج امرأة من الكنعانيين، وأمره أن يتزوج إلى خاله لابان بن ناهر بن آزر، وكان يسكن الفدان من أرض حرّان.

وقد ذكرنا أن يعقوب هرب من عيصو إلى حرّان، فبينا هو في بعض المنازل نائم على حَجَرٍ رأى سلماً منصوباً من السماء إلى الأرض، والملائكة تنزل منه وتعرّج فيه، وقال له الله تعالى: يا يعقوب، قد أورثتك الأرض المقدّسة وذريّتك من بعدك،

(١) انظر قصته في: «تاريخ يعقوب» ٢٩/١، والمعارف ٣٩، و«تاريخ الطبري» ٣١٧/١، و«البدء والتاريخ»

٦٥/٣، وعرائس المجالس ١٠٣، و«المنتظم» ٣٠٩/١، و«الكامل» ١٢٧/١، والبداية والنهاية ٤٤٨/١.

(٢) انظر تفسير الطبري (٧٩٨)، والدر المنثور ٦٣/١.

(٣) «المعرب» ص ٦٢.

(٤) «الصحاح»: (سرا).

وباركك فيك وفيهم، وجعلت فيكم الكتاب والحكم والنبوة، ثم أنا معك حتى أردك إلى ذلك المكان، فانتبه وكان قد قرب من خاله، فلما جاء إليه زوجته ابنته راحيل وليا، وكانت ليا هي الكبرى وراحيل هي الصغرى، وكانوا يجمعون بين الأختين إلى أن بعث موسى ونزلت التوراة بتحريم ذلك.

ويقال: إنه لم يكن له مال، فزوجه ليا على خدمة سبع سنين، فرعى له الغنم ثم زوجه راحيل بعد ذلك، وكانت أحسن من ليا - وقيل: لايا - فلما رآها لم تعجبه وقال: زوجني راحيل الحسناء فزوجه إياها.

وقال السدي: لما قال له: زوجني إحدى ابنتيك على رعي سبع سنين قال: قد زوجتك، فلما دخل بها لم تعجبه لأنها كانت دميمة، فقال: وأين الحسناء؟ يعني راحيل فقال له: هل رأيت أحداً يزوج ابنته الصغرى قبل الكبرى؟ فاستخدمه سبع سنين، ثم دفع إليه راحيل.

وقال السدي: كانت راحيل غنية جميلة، ولايا - وقيل: رامين - فقيرة قبيحة، فاختار رامين لفقرها، فجمع الله له بين الأختين، ثم حرم ذلك على لسان موسى، وقيل على لسان نبينا ﷺ.

ذكر أولاد يعقوب عليه السلام

قال وهب: ولدت راحيل من يعقوب يوسف وبنيامين، ومعناه: ابن الوجعة، لأنها ماتت في نفاسها. وقال ابن جرير الطبري: معناه بالعربية شداد^(١)، والأول أصح. وولد من لايا أو من رامين ليعقوب أربعة من الأسباط: روبيل ويهوذا وشمعون ولاوي. قال وهب: ولد ليعقوب من غير هاتين ستة أولاد منهم زبالون ويسجر. وقيل: إن زبالون ويسجر من لايا. وقيل: لايان، وأن لايا وهبت ليعقوب أمتين إحداهما يقال لها: زلفى، والثانية: بلهة، فولدتا ستة من الأسباط كل واحدة ثلاثة، فأولاد يعقوب الذكور اثنا عشر ولداً. وكانت له ابنة يقال لها: رحمة، وقيل: دينا، وهي زوجة أيوب عليه السلام.

(١) «تاريخ الطبري» ٣١٧/١.

وقال علماء السير وابن عباس: وهؤلاء الأسباط في بني يعقوب كالقبائل في بني إسماعيل.

وقال السُّدي: أهل الكتاب يذكرون أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء، وأن روييل أكبرهم ثم شمعون ثم يهوذا، وكان رئيسهم لاوي. وأن داود وعيسى من ولد يهوذا، وأن موسى وهارون من ولد لاوي بن يعقوب.

وقال السُّدي: ولما عاد يعقوب من عند خاله لابان خاف من أخيه عيصو فأعطاه من غنمه خمس مئة وخمسين، قاسمه ماله دفعاً لشره. وكان الله تعالى قد أوحى إلى يعقوب: لا تخف من عيصو فإني أحفظك منه كما حفظت أباك، فلما صانعه أوحى الله إليه: صانعت بالغنم ولم تطمئنْ إلى قولي، وعزّتي لأملكن ولد العيصو ولدك عدد ما صانعت، فملك الروم - وهم من ولد عيصو - هذا المقدار، فأول ملكهم إياهم خراب القدس، أخرجوه واستعبدوا بني إسرائيل إلى زمان عمر بن الخطاب فكان خمس مئة وخمسين سنة^(١)، وسنذكر وفاة يعقوب في أيام يوسف عليهما السلام.



(١) انظر مروج الذهب ١/٨٩.

فصل

في ذكر لوط عليه السلام^(١)

قال مقاتل: ذكر لوط في سبعة عشر موضعاً من القرآن العزيز.

ولوط اسم أعجمي وكذلك نوح، وقد ذكرناه.

ولوط هو ابن هاران بن آزر، وقد ذكرنا أنه ابن أخي إبراهيم، وكانت الروم قد

أسرت لوطاً فغزاهم إبراهيم حتى استنقذه منهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود: ٦٩] وكان هلاك قومه

في أيام الخليل عليه السلام، وكان ينبغي أن يذكر في سيرة إبراهيم، وإنما جعلنا له باباً مفرداً.

قال علماء التأويل: «البشرى»: هي البشارة، وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل

وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة مع هؤلاء المذكورين، وكانت البشارة بإسحاق ومن

وراء إسحاق يعقوب، وبإهلاك قوم لوط لما نذكر.

وذكر ابن إسحاق القصة فقال: كان لوط قد هاجر مع الخليل إلى الشام، واختن

لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط

الأردن. فأرسل الله لوطاً إلى أهل سدوم، وكانت عدة قرى: سدوم، وعامورا،

وصبرانة، وصفراء، ودوما، وصابورا، وداذوما وصبواس^(٢) وصبعة وصبعة^(٣).

وقال مقاتل: وبلادهم ما بين الشام والحجاز بناحية زغر^(٤). قال: وكانت اثنتي

عشرة قرية، وتسمى المؤتفكات، من الإفك، وكان في كل قرية مئة ألف، وكانوا

(١) انظر قصته في: «تاريخ الطبري» ٢٩٢/١، وتفسيره ٥٤٧/١٢، و«البدء والتاريخ» ٥٦/٣، و«عرائس

المجالس» ص ١٠٥، وتاريخ دمشق ٢٦/٦٠، و«المنتظم» ٢٨٢/١، وزاد المسير ٢٢٧/٣ و١٣٥/٤،

والتبصرة ١٥٠/١، و«الكامل» ١١٨/١، و«البداية والنهاية» ٤٠٨/١.

(٢) كذا هي في النسخ الخطية، وجاء في «معجم البلدان» ٣٩٢/٣: «صبوائيم» وهي إحدى قرى قوم لوط.

(٣) جاء في النسخ الخطية: «صبعة وضعوة»، وما أثبتناه من «الروض المعطار» ص ٣٠٨، وانظر تاريخ الطبري

٣٠٧/١، وتاريخ دمشق ٢٩/٦٠.

(٤) انظر تفسير البغوي ٧٠/٣ (بهامش الخازن).

يعبدون الأوثان، ويأتون الفواحش، ويسافد بعضهم بعضاً على الطرق والمجامع، وكانوا أهل كروم وبساتين، قال: وسبب إتيانهم الفاحشة أن إبليس تصوّر لهم في صورة غلامٍ أمرد من أحسن الغلمان، فجاء إليهم وكانت بلادهم أخصب البلاد، وكان الأردن - وهو النهر الخارج من بحيرة طبرية - يقطع الغور ويصل إليهم، وكانت منازلهم زُغر قبل أن تكون البحيرة الممتنة، وكانت الكروم موضع البحيرة، والنخل محددٌ بها، ولم يكن لهم حيطان وكان بعضهم يأكل فاكهة بعض، فزجر بعضهم بعضاً فما انزجروا، فقال لهم إبليس: ألا تمنعون كرومكم من السراق؟ قالوا: قد اجتهدنا فلم نقدّر على ذلك، فقال: أنا أعرفكم طريقاً ينزجرون بها، ثم أمكنهم من نفسه وقال: كل من أكل من كرومكم فاصنعوا به كذا. وإبليس أوّل من فعل به هذا الفعل في الدنيا^(١).

وقال ابن عباس: وكان الله تعالى قد أمر الملائكة الذين أرسلهم لعذاب قوم لوط أن يجعلوا طريقهم على إبراهيم عليه السلام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا عليه سلاماً ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ [هود: ٦٩] وهو المشوي بالحجارة المحماة ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم ﴿وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر وظنهم لصوصاً، لأنه كان إذا نزل به ضيف ولم يأكل من طعامه ظن أنه قد جاء بشرّ فل هذا قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فنحن ملائكة ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] بالعذاب ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ﴾ [هود: ٧١] قال قتادة: كانت واقفة من وراء الستر تخدم الأضياف وتسمع ما يجري بينهم وبين إبراهيم.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿فَضَحِكْتُمْ﴾ قال مجاهد: إنما ضحكت تعجباً من الملائكة، قالت: ما رأيت مثل هؤلاء نخدمهم بنفوسنا ولا يأكلون طعامنا.

وقال ابن عباس: معناه حاضت، وفي الآية تقديم وتأخير، ومعناه: وامراته قائمة فبشرناها بإسحاق فحاضت، والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت، قال الشاعر: [من المتقارب]

(١) انظر تاريخ يعقوب ٢٥/١.

وَضِحْكُ الأَرَانِبِ فَوْقَ الصِّفَا كَمِثْلِ دَمِ الجَوْفِ يَوْمَ اللُّقَا
وهذا أصحُّ، لأنه أمانة على وجود الولد، والذي بشرها جبريل، قال: أيتها
الضاحكة أبري.

وقال الحسن: لما قدّم إليهم الطعام امتنعوا فقال: ألا تأكلون قالوا: لا نأكل طعاماً
إلا بئمنه قال: إنَّ له ثمناً، قالوا: وما هو؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه
على آخره. فنظر جبريل إلى من معه وقال: حُق لهذا أن يتخذه الله خليلاً.

فلما بشروها: ﴿قَالَتْ يَتَوَلَّىءُ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ قال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين
سنة، وقال مجاهد: بنت تسع وتسعين ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] لأنه كان ابن
عشرين ومائة سنة، فقالت لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من صنعه ﴿رَحِمْتُ
اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] ويدخل في هذا رسول الله ﷺ وأهل بيته. ثم
قالت سارة: وما آية ذلك؟ فأخذ جبريل بيده عوداً يابساً فاهترز في الحال أخضر.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بإسحاق ﴿يُجَدِّدُنَا فِي
قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] أي: يجادل رسلنا، قال ابن عباس: قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال لهم إبراهيم: أرايتم إن كان فيها أربع مئة من المسلمين
أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فمئتان، قالوا: لا، قال: وإن كان فيها خمسون من
المسلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطاً، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] أي: الهالكين،
فسكن واطمأنت نفسه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: حزن لمجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا﴾ هذا مثل لمن لم يجد من المكروه مخلصاً ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]
أي: شديد، ومنه عصابة الرأس، وإنما حزن لوط لأنه لم يعلم أنهم رسل الله، وخاف
عليهم من قومه إتيان الفاحشة، ولم يخف على قومه لأنه كان قد سأل الله هلاكهم.

وقال السُّدي: خرجت الملائكة فأتوا لوطاً وقت القائلة وهو في أرض له يعمل،
وقد أمرهم الله أن لا يهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه
فانطلق معهم يمشي إلى بيته.

واختلفوا في قوله: ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] والظاهر أنها الفاحشة المشهورة. الثاني: أنه الرمي بالبندق. والثالث: مضغ العلك.

وقال ابن عباس: الفواحش التي كانوا يعملونها: اللواط، والوشم، والرمي بالبندق، ومضغ العلك، والبصاق في الماء، وفي وجوه بعضهم لبعض، والضراط بالفم، واللعب بالحمام، والنرد، والشطرنج، والتنازب بالألقاب، واستغناء النساء بالنساء.

وقال السدي: فقال لوط للأضياف وهو يمشي معهم إلى بيته: أما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، قال ذلك أربع مرّات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بهم إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته - واسمها واغلة - فأخبرت قومها وقالت: إن عند لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، وقيل: إنها كانت تدخن، وهي العلامة بينها وبينهم ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] أي: من قبل مجيء الرسل إلى لوط.

وقال الربيع: أول من رأى الملائكة ابنتا لوط، واسم الكبرى ريثا وقيل: رية، واسم الصغرى: زعورا، وقيل: عروبة. فقال جبريل للكبرى: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم مكانكم حتى آتيكم، لا تدخلوا القرية فإني أخاف عليكم أهلها. ثم جاءت أباهما فقالت: أدرك فتياناً على باب القرية ما رأيت أحسن وجوهاً منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحونهم. فخرج إليهم فأتى بهم منزله، وعلم قومه فجاءوا مسرعين، فأخذ يتلطفهم ويقول: اتقوا الله ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] يعني بالنكاح، وهن محل الحرث لا الفرث.

واختلفوا في بناته على قولين: أحدهما: أنه أراد بنات نفسه. والثاني: بنات القبيلة. فإن قيل: فكيف قال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ وكن كفاراً؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه أراد بنات صلبه، فيسقط السؤال. والثاني: بناتي على شرط الإسلام. والثالث: أنه كان فيهم سيّدان معظمان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه ويجوز تزويجه بنات الأنبياء من الكفار، فقد زوج النبي ﷺ ابنتيه: زينب من أبي العاص ابن الربيع، ورقية من عتبة بن أبي لهب، وكانا كافرين.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: تهينوني وتذلوني ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أي: صالح سديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَدِي قُوَّةٌ﴾ أي: منعة وعشيرة يمنعوني ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي: وثيق. وقد ذكرنا أن النبي ﷺ قال: يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، أي: الله تعالى. ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: رغبة ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُزِدُ﴾ [هود: ٧٩] من إتيان الرجال. وأخذوا يعالجون الباب ليكسروه، ولوط يناشدهم الله تعالى. فقالت الملائكة حينئذ: يا لوط، إن ركنك لشديد ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦] و﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح ودخلوا. ثم استأذن جبريل ربه في عقوبتهم فأذن له الله فقام في صورته التي خلقه الله عز وجل عليها، ونشر جناحه، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا مشرق الجبين، [ورأسه] حُبْك حُبْك - الحبك: الطرائق - [مثل] المرجان كأنه الثلج وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحيه وجوههم فطمسها وأعمى عيونهم فصاروا لا يهتدون إلى بيوتهم، فهربوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، وجعلوا يتواعدونه ويقولون: كما أنت يا لوط حتى نصبح.

ثم قال لوط للملائكة: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك لو أهلكتموهم الآن، قالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] ثم قالت الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: بطائفة منه ﴿وَلَا يَلْفِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ فإنها تلتفت فتهلك. فخرج لوط ومعه أهله وامراته ونهاهم أن يلتفتوا، إلا امرأته فإنه ما نهاها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، قال ابن عباس: أدخل جبريل جناحه تحت قراهم ورفعها حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديوكتهم، ثم قلبها، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

وقال جدي في «التبصرة»: كانت خمس قرى، أعظمها سدوم، في كل قرية مئة ألف، وكان الطير لا يدري أين يذهب، ثم أمطر الله على مسافريهم ومن غاب منهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾^(١) وسجين - لغتان - وهي التي بعضها طين وبعضها حجر، ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي: على كل حجر اسم صاحبه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]

(١) «التبصرة» ١/١٥٢-١٥٣.

وقال ابن عباس: ما من ظالم إلا وهو يخاف أن يسقط عليه حجر من ساعة إلى ساعة. وقال مجاهد: لم ينكسر عند رفعهم إناء، ولم يُرَقْ عند ذلك ماء. ثم تبع جبريل رعاتهم فقتلهم. وقال مقاتل: كانت الحجارة التي رُموا بها سوداً منقطة ببياض مثل رؤوس الإبل^(١) على كل واحد اسم صاحبه.

وقال ابن عباس: سمعتُ امرأته الهذّة فالتفتت، فرأت العذاب، فقالت: واقوماه! فأصابها حجر فقتلها.

وروى السُّدي عن أشياخه قال: لما أهلك الله قوم لوط لحق لوط بإبراهيم، فلم يزل معه حتى توفي^(٢).

وحكى أبو القاسم ابن عساكر عن علي بن الجارود قال: مررت أنا وصاحب لي بمدائن قوم لوط عشية عرفة، وإذا برجل كوسج أشعث أغبر على جمل أحمر، فسألنا عن حالنا، فأخبرنااه وقلنا: من أنت؟ فتغافل، فقلنا: لعلك إبليس، قال: نعم، قلنا: يا ملعون من أين جئت؟ قال: من عرفة رأيت من أذنب خمسين سنة، فقلت: اليوم أشفي صدري منه، فنزلت عليه الرحمة، فشققت ثيابي ووضعت التراب على رأسي، وجئت إلى ها هنا أنظر إلى قوم لوط لعل يسكن ما بي^(٣).

وقلب الله حبوبهم^(٤) حجارة وأثرها عند سدوم إلى الآن، وصير بساتينهم بحيرة زُغر، فجعلها منتنة لا يعيش فيها حيوان، لا من السمك ولا من غيره.

ويقال: إن في وسطها مكاناً مثل البالوعة يذهب فيه الماء لا يُدرى أين يذهب.

ويقال: إنه يذهب إلى اليمن. ويظهر من هذه البحيرة حجر مثل البطيخة ذو شكلين يعرف بالحجر اليهودي ينفع لمن به وجع الحصى في المثانة، وهو نوعان: ذكر وأنثى، فالذكر للذكر والأنثى للأنثى، ويخرج منها أيضاً شيء على هيئة الحيوان يقال له:

(١) في (ب): «الإبر»

(٢) انظر في تفصيل هذه القصة بطولها: تفسير الطبري ٣٨١/١٥ فما بعدها، وزاد المسير ١٢٧/٤ فما بعدها، وغيرهما من كتب التفسير ومن المصادر التي أحلنا عليها أول القصة.

(٣) تاريخ دمشق ٤٨/٦٠.

(٤) في (ب): «جوههم».

الحمير تُظَلَّى به الكروم فتخصب وتحمل.

فصل في وفاة لوط عليه السلام

قال علماء السير: مات لوط قبل الخليل بمدة سنين، وعاش ثمانين سنة^(١)، ولم يكن إبراهيم اشترى المغارة فدفن على جانب البحيرة في قرية من أعمال الخليل يقال لها: بريكوت، وقبره ظاهر بها.

وقال مقاتل: أقام لوط في سدوم بضعاً وعشرين سنة.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»^(٢).

وحدثنا عمر بن محمد بن معمر الدارقزي بإسناده عن ابن المسيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ مِنْ أُمَّتِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ أَوْ مَاتَ وَهُوَ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ نَقَلَهُ اللَّهُ حَتَّى يُحْشَرَ مَعَهُمْ»^(٣).



(١) انظر «أعمار الأعيان» ص ٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٧٥).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/٤٨٤، وفيه عيسى بن مسلم الصفار وابنه منكر الحديث.

فصل

في ذكر ذي القرنين وردمه بين السدّين ونحوه^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] قال ابن مسعود: الذين سألو رسول الله ﷺ هم اليهود.

واختلفوا في اسمه على أقوال:

أحدها: عبد الله بن الضحّاك بن معدّ، قاله علي كرم الله وجهه.

والثاني: الإسكندر، قاله وهب.

والثالث: عباس بن قيسر، وأبوه أوّل القياصرة، قاله محمد بن علي بن الحسين زين العابدين.

والرابع: صعب بن جابر بن القلمس، ذكره ابن أبي خيثمة.

واختلفوا في علّة تسميته بذِي القرنين على أقوال:

أحدها: لأنه دعا قومه إلى الله تعالى فضربوه على قرنه فهلك، وغبر زمان ثم بعثه الله فدعاهم إليه، فضربوه على قرنه الآخر فهلك، قال علي عليه السلام: فذلك قرناه؛ وهذا القول يدلُّ على أنه كان نبياً.

والثاني: لأنه سار إلى مطلع الشمس وإلى مغربها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: لأنّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قاله مجاهد.

والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتدّ من الأرض إلى السّماء فأخذ بقرني الشمس، فقصّ ذلك على قومه، فسّمِي بذِي القرنين، قاله عكرمة، وكان تأويل رؤياه أنه طاف الدنيا ما بين المشرق والمغرب.

والخامس: لأنه ملك الروم وفارس، قاله مقاتل، قال: وهما عاليان على الأرض

من الجانبين فهما قرنان.

(١) انظر قصته في تفسير الطبري ٣٦٨/١٥ (هجر)، و«البدء والتاريخ» ٧٨/١، و«عرائس المجالس» ص ٣٦٢، وتاريخ دمشق ١٠٨/٦، وزاد المسير ١٨٣/٥، والتبصرة ١٦٥/١، والمنتظم ٢٨٦/١، و«البداية والنهاية»

والسَّادس: كان في رأسه شبه القرنين، وقد رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب أيضاً.

والسَّابع: لأنه كان له غدירתان من شعر، قاله الحسن وابن الأنباري، قال: والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين.

قلت: وقد أشار الجوهري إلى هذا فقال: «والقرن الخصلة من الشعر» ومنه قول أبي سفيان في الرُّوم: ذات القُرُون^(١).

قال الأصمعي: أراد قرون شعورهم وكانوا يطوِّلون ذلك، يعرفون به، وللرَّجل قرنان أي ضفيرتان. وذو القرنين لقب اسكندر الرُّومي، وكان يقال للمنذر بن ماء السماء ذو القرنين لضفيرتين كان يضرهما في قرني رأسه فيرسلهما. هذا صورة كلام الجوهري^(٢).

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف من قبل أبويه، قاله الشعبي.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس وهو حيٌّ، قاله ابن المسيَّب.

والعاشر: لأنه سلك الظلمة والضوء، قاله الرِّبيع.

والحادي عشر: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيده وركائبه جميعاً.

والثاني عشر: لأنه أُعطي علم الظاهر والباطن جميعاً، حكاها الثعلبي^(٣).

واختلفوا في زمان كونه على أقوال:

أحدها: في القرن الأول من ولد يافث بن نوح، قاله علي عليه السلام، وأنه ولد بأرض الروم.

والثاني: أنه بعد ثمود، قاله الحسن.

(١) قال أبو سفيان للعباس عندما رأى طاعة المسلمين للنبي ﷺ: يا أبا الفضل، ما رأيت كاليوم طاعة قوم، لا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون. انظر «الروض الأنف» ١/ ٣٨٠.

(٢) «الصحاح» (قرن).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٢-٣٦٣.

والثالث: أنه كان من ولد إسحاق من ذرية العيص، قاله مقاتل.

والرابع: أنه كان في الفترة بين موسى وعيسى عليهما السلام.

والخامس: بين عيسى ومحمد ﷺ.

والسادس: أنه كان من ذرية يونان بن نوح في أيام الخليل عليه السلام، وهو الأصح، ذكره أبو الحسين ابن المنادي.

وروى عطاء عن ابن عباس فقال: لقي ذو القرنين الخليل عليه السلام بمكة، وكان ذو القرنين قد حج ماشياً، فسلم عليه واعتنقه وتصافحا.

وأخرجه ابن عساكر عن عبيد بن عمير قال: أول من حج ماشياً ذو القرنين، وكان الخليل عليه السلام بمكة، فسمع به فخرج فتلقاه^(١).

وروي أنه اجتمع به بالشام. قال مقاتل: كان إبراهيم جالساً بفلسطين، فسمع أصواتاً وجلبة فقال: ما هذا؟ قالوا: ذو القرنين وجنوده. فأرسل إليه الخليل رجلاً وقال: أقره مني السلام، فأتاه فقال: إبراهيم خليل الله يقرأ عليك السلام، فقال: و خليل الله هاهنا؟ قال: نعم، فنزل عن فرسه ومشى، فقيل له: بينك وبينه مسافة، فقال: ما كنت لأركب في بلد فيه خليل الله تعالى. فقام الخليل فالتقاه وسلم عليه ورحب به، وأوصاه وأهدى له بقرًا وغنماً وحمل إليه ضيافة^(٢).

قلت: وهذا خلاف قول من قال: إن نمرود عاش أربع مئة سنة بعد إبراهيم، لأن ذاك القرنين ما كان في أيام نمرود بل بعده، لأن ذاك القرنين ملك الأرض أيضاً فتكون وفاة نمرود في أيام الخليل عليه السلام كما ذكر مقاتل.

وقال مقاتل: كان ذو القرنين من حمير، وفد أبوه إلى الروم فتزوج امرأة من غسان فولدت له ذاك القرنين، وقد ذكرناه.

واختلفوا: هل كان نبياً أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً، قاله عبد الله بن عمرو والضحاك.

(١) «تاريخ دمشق» ١٧/٣٤٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧/٣٤٠-٣٤١.

والقول الثاني: أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ولا ملكاً، حكاه جدي رحمه الله في «التبصرة» عن عليّ عليه السلام^(١).

وحدثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أدري أكان ذو القرنين نبياً أم لا»^(٢).

قلت: وقد روي عن علي وابن عباس أنه كان ملكاً صالحاً فاضلاً على دين إبراهيم عليه السلام، يأمر الناس بالتوحيد والتقوى.

وحكى جدي رحمه الله في «التبصرة» عن وهب أنه كان ملكاً^(٣). وحكى أيضاً عن علي رضي الله عنه أنه قال: أطاع الله فسخر له السحاب فحمل عليه، ومد له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء^(٤). وحكى هذه الأقوال أبو القاسم ابن عساكر^(٥).

وقال أبو الحسين ابن المنادي: كان ذو القرنين أحد عظماء الملوك، إلا أن الله تعالى أعطاه التوحيد والطاعة واصطناع الخير والمعونة على الأعداء، ففتح الحصون والمدائن وغلب الرجال، وعمر عمراً طويلاً، فبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد، وحصر يأجوج ومأجوج وراءه، وكان رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين^(٦).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: كان أول أمر ذي القرنين أنه كان غلاماً من الروم أعطي ملكاً، فسار حتى أتى مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فخرج به، فقال: انظر ما تحتك؟ فقال: أرى مدينتي وأرى معها مدائن، ثم عرج به فقال: انظر، فنظر وقال: أرى مدينتي وحدها ولا مدائن معها، فقال له

(١) «التبصرة» ١/١٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/٣٣٧، قال ابن كثير في البداية ٢/٥٣٧: وهذا غريب من هذا الوجه.

(٣) «التبصرة» ١/١٦٦.

(٤) «التبصرة» ١/١٦٦.

(٥) «تاريخ دمشق» ١٧/٣٣٣.

(٦) انظر «المنتظم» ١/٢٨٨.

الملك: إنما تلك الأرض كلها، وهذا السواد الذي ترى محيطاً بها هو البحر، وإنما أراد الله أن يريك الأرض، وقد جعلك سلطاناً فيها، فسِرْ فيها شرقاً وغرباً فعلم الجاهل وثبت العالم^(١).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قطع الإسكندر الأرض من مشرقها إلى مغربها في اثنتي عشرة سنة.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كان ذو القرنين إذا سار يكون أمامه على مقدمته ست مئة ألف، وهو في الوسط في ألف ألف، وفي ساقته مئة ألف لا ينقص هذا العدد، كلما هرم واحد جعل مكانه غيره.

فصل في سيره في الأرض وبنائه السد وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ، أَي: وَطَّأْنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَدَيْنَاهُ طَرِيقَهَا ﴿وَأَنْبِئْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه ويستعين به الملوك على فتح الحصون والمدن ومحاربة العدو.

وقوله: ﴿سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] قال ابن عباس: أي علماً يتسبب به إلى ما يريد من بلوغ المقاصد، كما فعل سليمان عليه السلام، وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك^(٢) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥] السبب الطريق، ومعنى «أَتْبَعَ» أي: سلك وسار يقفو الآثار، ومنه ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٧] أي: طرقها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر، هل تدري أين تغرب هذه الشمس؟» قلت: الله ورَسُولُهُ أعلم، فقال: «إِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ»^(٣).

وقد رواه عبد الله بن عمرو فقال: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الشَّمْسِ وَقَدْ غَرَبَتْ فَقَالَ:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٣٦٨/١٥ من حديث عقبة بن عامر.

(٢) انظر «التبصرة» ١/١٦٦-١٦٧. و«زاد المسير» ١٨٥/٥.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٤٥٩).

«في نارِ اللهِ الحامِيَةِ لولا ما يَزَعُهَا من أمرِ اللهِ لأحرقت ما على وَجهِ الأَرْضِ»^(١)، وقد ذكرناه في فصل الشمس.

وقال الحسن البصري: وجدها تغرب في ماء يغلي غليان القدور؛ ويفيض الماء من تلك العين الحارّة حولها ثلاثة أيام، لا يأتي على شيء إلا احترق^(٢).

والجمهور على القراءة الأولى وهي ﴿عَيْنِ حَمِيَّةٍ﴾ مهموز، أي: ذات حماة، وهي الطينة السوداء. وقال كعب: أجدها في التوراة تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس.

وذكر الثعلبي أيضاً بإسناده عن عمرو بن ميمون قال: سمعت أبا حاضر، أو ابن حاضر رجل من الأزدي، يقول: سمعت ابن عباس قال: إني لجالس عند معاوية إذ قرأ: «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس: فقلت ما نقرأها إلا ﴿حَمِيَّةٍ﴾، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: وكيف تقرأها؟ فقال: كما قرأتها يا أمير المؤمنين يعني: حامية، قال ابن عباس، فقلت: في بيتي نزل القرآن، فأرسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال كعب: أمّا العربية فأنتم أعلم منّا بها، وأمّا الشمس فإني أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين، قال أبو حاضر الأزدي: لو كنت عندكما حاضرًا لأنشدتك ما تزداد به بصراً في قولك: حمئة، فقال ابن عباس: وما هو؟ فقلت: قول تبع: [الكامل]

قد كان ذو القرنين قبلي مُسَلِّماً ملكاً تدينُ له الملوك وتسجدُ
بلغ المشارق والمغاربَ يبتغي أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرشد
فرأى مغار الشمس عند غروبها في عين ذي خُلب وثأط حرمد
قال: فقال ابن عباس: ما الخُلبُ؟ قلت: الطين في كلامهم، يعني أهل اليمن،
قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة، قال: وما الحرمد؟ قلت: الأسود. فدعا رجلاً أو

(١) أخرجه أحمد (٦٩٣٤). وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٥٤٦/٢: فيه غرابة، وفيه رجل مبهم لم يسم، ورفع فيه نظر، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو.

(٢) انظر «التبصرة» ١/١٦٧.

غلاماً فقال له: اكتب ما يقول^(١).

قلت: ذكر الثعلبي هذه الآيات مرفوعة، وهي لحن فاحش. قلت: وفيها علة أخرى، وذلك لأن كعباً مات في سنة اثنتين وثلاثين، ومعاوية ولي الأمر بعد الأربعين. فبينهما تسع سنين.

وقال أبو العالية: بلغني أن الشمس تغرب في عين، والعين تقذفها إلى المشرق.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ يعني: أناساً، لباسهم جلود السباع، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدواب عند غروبها، وما لفظت العين من الحيتان، ﴿قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٦] من قال إنه كان نبياً يقول: ﴿قُلْنَا﴾ وحي من الله تعالى، ومن قال: إنه لم يكن نبياً يقول: هو إلهام ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ﴾ أي: تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ﴿وَأِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] يعني الصفح والعفو، وقيل: إمّا أن تأسرهم فتعلمهم طريق الهدى وتبصرهم طريق الرشاد ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: أشرك بالله ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا﴾ [الكهف: ٨٧] أي: منكرأ وهو عذاب النار ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: جزاء الأعمال الصالحة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨] أي: نلين له القول ونهون عليه الأمر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِيًّا﴾ [الكهف: ٨٩] أي: طرقاتاً ومنازل ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك لأنهم كانوا في مكان لا يستقرُّ عليه البنيان، وكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معاشهم وحرثهم. وقال الحسن: كانت أرضهم أرضاً لا تحتمل النبات، فكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تهوروا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم. وقال ابن جريج: جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلع عليكم الشمس وأنتم هاهنا، فقالوا: ما نبرح حتى تطلع الشمس، ثم رأوا عظاماً فقالوا: ما هذه؟ قالوا: عظام قوم طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا، فذهبوا هارين في الأرض^(٢).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧.

وقال قوم^(١): هم الزنج.

وقال الكلبي: هم تاريس ومنسك وتاويل، عراة حفاة عمارة عن الحق^(٢).

وحكى الثعلبي عن عمرو بن مالك بن أمية قال: وجدت رجلاً بسمرقند يحدث عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقبل لي: إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً وسرت بقية عشيتي وليلتي حتى صبحتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، أو يلبس الأخرى، وكان صاحبي يحسن لسانهم فسألهم، قالوا: وما أنتم؟ قالوا: جئنا حتى ننظر إلى الشمس كيف تطلع، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهية الصلصلة، فغشي عليّ فوقعت، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن. فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي كهية الزيت، وإذا طرف السماء كهية الفسطاق، فلما ارتفعت أدخلوني سرباً لهم أنا وصاحبي، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصيدون السمك فيطرحونه في الشمس ويأكلونه^(٣).

وقال مجاهد: مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى بلغ مطلع الشمس، وذكر بمعنى ما ذكرناه.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ على أقوال:

أحدها: كما بلغ مغرب الشمس كذا بلغ مطلعها.

والثاني: أن معناه: كما أتبع سبياً أتبع سبياً آخر وحكم بحكم أولئك، ثم استأنف

فقال: ﴿وَقَدْ أَحْطَأْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١] يعني: بما عنده ومعه من الملك والجيوش والآلات والأمم ﴿خُبْرًا﴾ أي: علماً.

حديث السدِّ ويأجوج ومأجوج

قوله تعالى: ﴿فَأَتَّبَعْ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٩٢] أي: سلك طريقاً إلى المشرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا

(١) في (ل): وقال قتادة، والمثبت من (ب)، وانظر تفسير الطبري ٣٨٣/١٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧، وتفسير الثعلبي ١٩٢/٦.

بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿١﴾ قَالَ وَهَبُ: وَهُمَا جَبَلَانِ مَنِيَعَانِ رَأْسُهُمَا فِي السَّمَاءِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا الْبَحْرُ^(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣] أي: لا يفهمونه إلا بعد إبطاء ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فإن قيل: فقد أخبر عنهم أنهم لا يفقهون، أي: لا يفهمون قولاً، ثم قال: ﴿قَالُوا﴾، قلنا: كلمه عنهم ترجمان يفهم ما يقول، وذلك جائز. وهؤلاء القائلون هم دون سدّ يأجوج ومأجوج ﴿يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤] أصل يأجوج ومأجوج من أجيح النار، وهو ضوءها ولهبها، شَبَّهُوا بِهِ لكَثْرَتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ.

واختلفوا فيهم على أقوال:

أحدها: أنهم من ولد يافث بن نوح، قاله مجاهد.

والثاني: أنهم من غير حواء، وذلك لأن آدم نام ذات يوم فاحتلم، فامتزجت نطفته بالتراب، فلما انتبه أسف على ذلك الماء الذي خرج منه، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم، حكاه الثعلبي عن كعب الأخبار^(٢).

والثالث: أنهم جيل من الترك، قاله الضحاك^(٣). وذكرهم الجوهرى فقال: الأجيح: تلهب النار^(٤).

وقال علي عليه السلام: منهم من طوله شبر، ومنهم مفرط الطول، ولهم شعور تواريتهم، ومنهم من وجهه كلب ووجه أسد ودبّ ونحو ذلك^(٥).

(١) انظر «التبصرة» ١/١٦٨.

(٢) تفسير الثعلبي ٦/١٩٣، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٥٥٣، والتفسير ٣/١٠٤: ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم... فهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن.

(٣) انظر «زاد المسير» ٥/١٩٠.

(٤) «الصحاح»: (أجج).

(٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٥٥٣: فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان.

وقال ابن عباس: السد بين أرمينية وأذربيجان.

ومعنى فسادهم في الأرض: أنهم كانوا يأكلون الناس. وقال الكلبي: كانوا يخرجون في أيام الربيع في السهل فلا يدعون شيئاً إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه. وقيل: معناه في المستقبل، أي: سيفسدون في الأرض، وقد دلّ الحديث عليه لما نذكر في آخر الفصل.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأه العامة بغير ألف، وقرأه حمزة والكسائي وأهل الكوفة «خراجاً» بألف. ومعناه: نجعل لك أجراً وجُعلاً ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤] أي: حاجزاً فلا يصلون إلينا. قال لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وقرأ أهل مكة «مكني» بنونين على الإظهار، وقرأ الباقر «مكني» بنون واحدة على الإدغام. ومعنى ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ﴾ أي: خير من خرجكم، ولكن أعينوني ﴿بِقُوَّةٍ أَجْعَلُ لِيَنَّكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] أي: حائطاً أو حاجزاً. قالوا: وما تلك القوة؟ قال: صنّاع وفعلة يحسنون هذا، قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد فأتوه بها فبناه ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وهما جانبا الجبل، فجعل بينهما الحطب ونسج عليه الحديد وألقى عليه القطر، وهو النحاس المذاب، فأكلت النار الحطب، وصار النحاس موضع الحطب، فاختلط الحديد بالنحاس وهو يقول: ﴿أَنْفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٦] حتى كمل واستوى ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلون فوقه ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] من أسفله. فقال ذو القرنين: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ يعني السد، فلماذا لم يقل: هذه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ [الكهف: ٩٨] أي: مستوياً بالأرض.

وقال مقاتل: وصل إلى مدن معطلة قد بقي فيها بقايا من الناس، فسأله أن يسد ما بينهم وبين يأجوج ومأجوج. وقال مقاتل: لما سار إلى المشرق جعل طريقه على الهند والتبت، فتلقته الملوك بالهدايا والطاعة، إلى أن وصل إلى الأرض السوداء المنتنة، فقطعها سيراً حثيثاً في شهر، ووصل إلى المدائن المجاورة ليأجوج ومأجوج، فنزل بجيوشه فيها ومعه العلماء وأرباب الصنائع. فلما عزم على بناء السد اتخذ القدور الكبار من النحاس والحديد والمغارف، وأمر بأن يجعل دُور كلِّ قدرٍ خمسين ذراعاً، فبناه،

وجعل في وسطه باباً ارتفاعه خمس مئة ذراع وعرضه مائة ذراع بالذراع الأعظم، وهو الباع، وعمل عليه مصراعين وقفلاً كبيراً، وكل ذلك أملس كملاسة الجبل.

وذكر ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك» قال: حدّثني سلام الترجمان قال: رأى هارون الواثق بالله في منامه كأنّ السدّ قد فتح فانزعج، وقال: تجهز إلى السدّ، وضمّ إليّ عسكرياً، ووصلني بخمسة آلاف دينار، وأعطاني ديني عشرة آلاف درهم، وأعطى كلّ فارس معي ألف درهم ورزق ستة أشهر. قال: فشخصنا من سرّ من رأى بكتاب الواثق إلى نائبه بأرمينية وهو إسحاق بن إسماعيل، فوافيناه بتفليس، فكتب لنا كتاباً إلى صاحب مملكة السّرير واللّان، فكتبوا لنا كتاباً إلى ملك الخزر، فبعث معنا الأدلاء وسرنا من عند ملك الخزر خمسة وعشرين يوماً ثم وقعنا في أرض سوداء منتنة الريح، فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب، فسرنا فيها تسعة وعشرين يوماً، فسألنا الأدلاء عنها فقالوا: هذه مدن كان يأجوج ومأجوج يطرقونها فأخربوها. ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي فيه السدّ، وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية، مسلمون يقرؤون القرآن، وعندهم مساجد ولهم زروع وعيون، فقالوا: من أين جئتم؟ قلنا: من العراق، ونحن رسل أمير المؤمنين الواثق، فعجبوا وقالوا: ما سمعنا بهذا قط. ثم صرنا إلى جبل أملس مقطوع بوادٍ عرضه خمس مئة ذراع وأكثر، وفيه السدّ، وإذا عضادتان كل واحدة مما يلي الجبل، وعليها باب بمصراعين عرض كل واحد خمسون ذراعاً في ارتفاع خمسين ذراعاً في ثخن خمسة أذرع، وقائمتها في دَرُونْد من حديد، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً، وفوقه غلقٌ أطول من القفل وقفيز، وعليه مفتاح عظيم بسلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة ذراع، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، وعتبة الباب عشرة أذرع في بسط مئة ذراع، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزنها خمسون ومئة من، فيضربون الباب بتلك المرزبات مراراً ليسمع من خلف الباب، فيعلمون أنّ هناك حفظةً وهناك آلة البناء والقذور والمغارف وبقية اللبن والقذور، ويصعد إليها بسلاّم، فسألناهم: هل رأيتم أحداً من يأجوج ومأجوج؟ قالوا: رأينا مرة

عدداً فوق الشرافات^(١)، فهبت ريح سوداء فألقتهم وراء الجبل، ومقدار الرجل شبر. قال سلام: ثم عدنا فخرجت بنا الأدلاء من خلف سمرقند بسبعة أيام وسبعة فراسخ، ورجعنا إلى سُرَّ مَنْ رأى بعد خروجنا بثمانية وعشرين شهراً. وقد ذكر جدي رحمه الله هذه الحكاية في كتاب «التبصرة» في سيرة ذي القرنين واختصرها^(٢).

وقد روي: أن يأجوج ومأجوج يحفرون السدَّ كل يوم، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لِيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ فَيَرُونَهُ كَمَا كَانَ أَوْ أَشَدَّ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتْهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ فَيَرُونَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ الَّتِي تَرَكُوهُ عَلَيْهَا، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشُقُونَ الْمِيَاءَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ بِحُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسَهَامِهِمْ نَحْوَ السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا أَثَرُ الدَّمِ أَوْ كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَشْكُرُ مِنْ لُحُومِهِمْ أَوْ دِمَائِهِمْ»^(٣).

قال الجوهري: النغف الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم^(٤)، وتُشكر: أي تمتلىء، من قولهم: شكر الضرع إذا امتلأ^(٥).

وقد روى أبو إسحاق الثعلبي حديثاً في هذا المعنى فقال: حدثنا عبد الله بن حامد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

(١) وكذا هي في عرائس المجالس ٣٦٩، وفي «المسالك والممالك» ص ١٤١: فوق الجبل، وفي المنتظم ٢٩٦/١: فوق الشرف.

(٢) «التبصرة» ١/١٦٨-١٦٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦٣٢).

(٤) «الصحاح»: (نغف).

(٥) «الصحاح»: (شكر).

فيخرجون كما قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون إلى حصونهم ومدائنهم، حتى إن أولهم يمرّون بالنهر من أنهار الأرض - وقال أبو الهيثم: دجلة - فيشربون حتى تصير يابسة، فيمرّ به الذين من بعدهم فيقولون: لقد كان بهذا المكان ماءً مرةً. حتى إذا ظهروا على أهل الأرض قالوا: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، وبقي أهل السماء فيهزّ أحدهم حربته، ثم يقذف بها إلى السماء فترجع إليه مُخْضَبَةً دماً للفتنة، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم دوداً في أعناقهم كَنَغَفِ الْجَرَادِ، فيموتون موتَ الْجَرَادِ، فيصبح المسلمون ما يسمعون لهم حسّاً، فيقولون: هل من رجل يشتري لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء القوم؟ فينزل رجل منهم قد أيقن أنه مقتول، فيجدّهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: أبشروا فقد كفاكم الله أمر عدوكم، فيخرج المسلمون فيرسلون مواشيهم فيهم، فما يكون لهم رعي غير لحومهم، فتشكر عليه كأحسن ما شكرت على شيء من النبات أصابته قطّ^(١).

وقال الثعلبي بإسناده عن عبد الله، قال: سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج فقال: «يأجوج أمة ومأجوج أمة، كلُّ أمةٍ أربع مئة ألف، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكرٍ من صلبه كلهم قد سلّ السلاح» فقال: يا رسول الله، صنفهم لنا، فقال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز» قيل: يا رسول الله، وما الأرز؟ قال: «شجرٌ بالشام طول الشجرة عشرون ومئة ذراع، وصنف منهم عرضة وطوله سواء، وصنف منهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية».

قلت: وقد أخرج جدّي هذا الحديث في «الموضوعات» وقال: قال ابن عدي: هذا حديث منكر موضوع^(٢).

وذكر مقاتل أن السدّ عرضه فرسخ وطوله فرسخ. وذكر صاحب «المسالك»: أن

(١) أخرجه أحمد (١١٧٣١).

(٢) «الموضوعات» (٤١٦) والكامل لابن عدي ١٦٩/٦ عن حذيفة.

ارتفاعه في الهواء فرسخين، وكذا عرضه، وينتهي إلى البحر الأعظم^(١). ودونهم قوم لا يعرفون آدم، ودونهم إلى ناحية يأجوج ومأجوج أمة من الحيّات تَبْلَعُ منهم الحيّة الصخرة العظيمة.

وقال قتادة: الجبل الذي فيه السدُّ يقال له: جبل الرّدم، وجميعه على بحر الخزر، وينتهي إلى البحر المظلم، وطوله ألف فرسخ، وليس له طريق إلى البر إلا من ناحية السد، وفيه يأجوج ومأجوج، وطعامهم أفاعي البحر، يبعث الله السحب فتغترف الأفاعي من البحر ثم تمطر عليهم فيأكلونها، ولكل واحد منهم فرجان وينكح نفسه، ولا يموت حتى يرى من نسله ألف إنسان، ثم يموت فيرمى في البحر فتأكله أفاعي البحر^(٢).

فصل في سلوكه الظلمة وطلبه لعين الحياة

قال جدّي رحمه الله في تاريخه المسمّى بـ «المنتظم»: حدّثنا أبو بكر محمّد بن عبد الباقي البزاز بإسناده عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جدّه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان لذي القرنين خليل من الملائكة يقال له: ربائل يتردّد إليه، فقال له يوماً: يا ربائل، أخبرني عن عبادة الملائكة في السماء، فقال: منهم سجود لا يرفعون رؤوسهم، وقيام لا يركعون، وركوع لا يرفعون، ومع هذا فإنهم يقولون: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك. فبكى ذو القرنين وقال: إني أحب أن أعيش حتى أبلغ من عبادة ربي حقّ طاعته، فقال له الملك: أتحب ذلك؟ قال: نعم، قال: فإن في الأرض عيناً يقال لها: عين الحياة، من شرب منها لا يموت حتى يكون هو الذي يسأل ربّه الموت. قال: فهل فيكم من يعلم مكانها؟ قال له الملك: إنها في ظلمة لا يصل إليها إنسي ولا جنّي. فجمع ذو القرنين حكماء أهل زمانه والعارفين بأخبار العالم وقال: هل وجدتم فيما قرأتم من الكتب أنّ الله في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ قالوا: لا، فقال عالم من العلماء يقال له أفشنجير: نعم، إني وجدت في وصيّة آدم أنها في ظلمة على قرن الشمس عند طلوعها. فسار ذو القرنين يطلبها إلى أن

(١) «المسالك والممالك» ص ١٤٢.

(٢) سلف قريباً قول ابن كثير إن هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان.

بلغ طرف الظلمة، وذلك في اثنتي عشرة سنة، فوقع في ظلمة لا تشبه ظلمة الليل بل تفور مثل الدخان، فعسكر هناك، وعزم على دخولها، فنهاه الحكماء فلم ينته، وقال لأهل الخبرة: أيُّ الدواب أبصر بالليل؟ قالوا: إناث الخيل البكارة، فجمع من عسكره ستة آلاف فرس من ذلك الجنس، وانتخب من عقلاء عسكره ستة آلاف، ودفع لكل واحد فرساً. وكان معه الخضر، وهو ابن خالته ومشيره ووزيره، فقدّمه في ألفين، وبقي هو في أربعة آلاف، وأمره بالمشير في مقدمته، فقال له الخضر: إنما نسير في ظلمة، فكيف يصنع من ضلّ منا عن صاحبه؟ فدفع إليه ذو القرنين خريزة حمراء وقال: إذا ضللت فألقِ هذه الخريزة في الأرض، فإذا صاحت فليرجع إليها الضلال. فسار الخضر بين يديه يرتحل الخضر وينزل الإسكندر، وقد علم الخضر ما يطلب الإسكندر. فبينا الخضر يسير إذ عارضه وادٍ، فغلب على ظنه أن العين فيه فرمى بالخريزة، فأضاءت الظلمة، وصاحت الخريزة، فإذا هي على حافة العين، فنزل الخضر فإذا ماء أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وقال لأصحابه: امكثوا. واغتسل وتوضأ وشرب منها ورمى بالخريزة نحو أصحابه فصاحت، فترجعوا إليه وساروا، ومرّ ذو القرنين فأخطأ العين، وساروا أربعين يوماً في الظلمة، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وأرض حمراء رملة، وإذا بقصر مبني فرسخ في فرسخ، فنزل ذو القرنين ودخل القصر، وإذا بحديدة طرفاها على حافتي القصر، وإذا بطائر أسود كأنه الخطاف مزوم أنفه إلى الحديد معلق بين السماء والأرض، فلما سمع الطائر حسّ الإسكندر قال له: ما جاء بك إلى هنا؟ أما كفاك ما وراءك يا ذا القرنين؟ ثم قال: هل كثر البناء بالجص والآجر؟ قال: نعم، فانتفض الطائر وانتفخ حتى بلغ ثلث الحديد، ثم قال: هل كثرت شهادات الزور؟ قال: نعم، فانتفض حتى ملأ الحديد وسدّ بين جداري القصر، ففزع ذو القرنين، فقال الطائر: هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، فانضم الطائر، قال: فهل تركوا الصلاة المفروضة وغسل الجنابة؟ قال: لا. فعاد الطائر كما كان. قال: ورأى في سطح القصر رجلاً قائماً، قال: من أنت؟ قال: صاحب الصور، وقد اقتربت الساعة، وأنا أنتظر أمر ربي فأنفخ. ثم ناول ذا القرنين حجراً وقال: خذه فإن شبع شبع، وإن جاع جعت. وعاد ذو القرنين إلى أصحابه

وأخبرهم بما رأى، وأراهم الحجر فوضعوه في كفة، وتركوا في قبالته حجراً آخر، فرجح عليه، فعلوا ذلك مراراً، ففهم الإسكندر وقال: لو وضعتم في قبالته أحجار الدنيا لرجح عليها، ثم ترك الحجر في كفة، ووضع معه كفاً من تراب، وبمقابلته حجراً آخر، فاستويا في الميزان، فقال الخضر: هذا مثلٌ ضربه الله لابن آدم لا يشبع أبداً حتى يحثي عليه التراب. فقال الإسكندر: هو ما يقول، لا جرم لأرجعن إلى وطني، ولا أطلب أثراً في البلاد. ثم ارتحل راجعاً، فبينما هو في وسط الظلمة وطىء الوادي الذي فيه الزبرجد، فقال: خذوا منه، فمن أخذ منه ندم، ومن ترك ندم. فأخذ منه قوم وترك آخرون، فلما خرجوا من الظلمة نظروا فإذا هو زبرجد، فندم الآخذ حيث لم يزد والتارك حيث لم يأخذ. ورجع ذو القرنين إلى دومة الجندل فلم تزل منزله حتى مات^(١).

قلت: ومن العجائب أن جدي رحمه الله ما ذكر في «الموضوعات» هذه الحكاية، فإنه قد ذكر في «الموضوعات» و«الواهية» أسماء جماعة فيها مثل: إبراهيم بن سعيد الجوزقي وإسماعيل بن مسعدة وإسحاق الفروي، وفي متنها ألفاظ ركيكة جداً، منها الخرزة، وقد كان الإسكندر أحوج إلى الخضر منها. وكذا كون الخضر وقع على عين الحياة ولم يخبر بها الإسكندر وقد علم مقصوده فكان الخضر خائناً له، وكذا الطائر فإنه الدجاج وهو في جزائر الهند، وكذا سؤاله عن الصلوات الخمس وغسل الجنابة ونحوها، فإن هذه الأشياء لم تكن مشروعة في ذلك الوقت، وقد انطلى هذا المعنى على خلق كثير حتى قالوا فيه الأشعار، أنشدنا عمر بن صافي بالموصل في سنة أربع وست مئة لغيره: [من الكامل]

سَلَعِ الْمَطَامِعِ لَا تَفُوتَ وَإِنْ مَنْ
تَرَكَ الْمَطَامِعَ كَانَ أَرْبَحَ مَتَجَرَا
نَالَ الَّذِي تَرَكَ الْمَطَامِعَ خَلْفَهُ
عَيْنَ الْحَيَاةِ وَفَاتَتِ الْإِسْكَندَرَا
لَا تَطْلُبَنَّ سِوَى السَّعَادَةِ لِلْعُلَى
شَيْئاً فَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جُوفِ الْفِرَا
وذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» من هذا الجنس العجائب^(٢).

والمنقول عن الحسن البصري أنه قال: حدّثني أبو أمامة الباهلي: أن ذا القرنين سار

(١) «المنتظم» ٢٨٩/١، وعرائس المجالس ٣٧٠.

(٢) «تاريخ دمشق» ٣٥٠/١٧.

في الظلمة وحده ثمانية عشر يوماً حتى انتهى إلى جبل قاف في طلب عين الحياة^(١). قلت: وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في «تفسيره» عجائب من هذا الجنس، فقال: قال وهب بن منبه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ - وكان عبداً صالحاً - قال الله: يا ذا القرنين، إني باعثك إلى الأمم، وهم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وفيهم أمّتان بينهما عرض الأرض كله، وأمّتان بينهما طول الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فأما الأمّتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. وأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأما التي في المشرق يقال لها: منسك. فلما قال الله له ذلك قال ذو القرنين: إلهي، إنك قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر عليه إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم التي تبعثني إليها: بأي قوّة [أكابره]؟ وبأي جمع وبأي حيلة [أكاثرهم]؟ وبأي صبر أقاسيهم به؟ وبأي لسان أناطقهم به؟ وكيف لي أن أفقه لغاتهم؟ وبأي سمع أسمع أقوالهم؟ وبأي حجة أخاصمهم؟ وبأي عقل أعقل عنهم؟ وبأي قلب وحكمة أدبرهم؟ وبأي قسط أعدل بينهم؟ وبأي جندي أقاتلهم؟ وليس عندي مما ذكرت ما يقوم بهم، وأنت الرحيم الذي لا تكلف نفساً إلا وسعها، ولا تحمّلها إلا طاقتها. فقال الله: إني سأشرح صدرك فتسمع كل شيء، وأفتح فهمك فتفقه كل شيء، وأبسط لسانك فتتطق بكل شيء، وأمدّ لك بصرك فتبصر كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جنداً من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحوطك الظلمة من ورائك - وذكر ألفاظاً من هذا الجنس - قال: فلما قيل له ذلك انطلق يوماً الأمم نحو المغرب، فوجد جمعاً لا يحصيه إلا الله تعالى، وألسنة مختلفة، وأهواء متشتتة، فلما رأى ذلك كآثرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاثة عساكر منها، فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ عليهم النور فدعاهم إلى الله

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٤٢/١٧.

وعبادته، فمنهم من آمن ومنهم من صدَّ عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، فماجوا وتحيروا، فلمَّا أشفقوا أن يهلكوا بها عَجُّوا إليه بصوت واحد فكشفها عنهم، فدخلوا في دعوته، فجنَّد منهم أمماً عظيمة، ثم انطلق بهم يقودهم والنور بين أيديهم والظلمة تسوقهم من خلفهم، وسار يريد الأُمَّة التي في قطر الأرض الأيمن التي يقال لها: تاويل، والأمم تتبعه، فإذا انتهى إلى بحر بنى سُفناً من ألواحٍ صغارٍ ونظمها، ثم حمل فيها مَنْ معه، فإذا قطعها دفع إلى كلِّ واحد منهم لوحاً فلا يكثرثن بحمله، حتى انتهى إلى ناسك فأطاعوه، وإلى هاويل ففعل كذلك، ثم سار إلى مطلع الشمس إلى منسك، وحكم على جميع الأمم، ووصل إلى سد يأجوج ومأجوج، وذكر شكاوى أهل تلك البلاد منهم، وقالوا: اجعل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤] فإنهم يتسافدون كالبهائم، ويأكلون الناس والحشرات، فقاس الإسكندر السدَّ فوجد مكانه مئة فرسخ، فحفر أساسه، وجعل عرضه خمسين فرسخاً ثم بناه وشرفه. وذكر الثعلبي كلاماً مختصراً^(١).

فصل في ذكر الأُمَّة الصالحة التي مربها الإسكندر

ذكر وهب بن منبه عن صفوان بن عمرو الخزاعي قال: أتى ذو القرنين على أمة صالحة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فوجد حالتهم في العدل والتراحم سواء، أخلاقهم حسنة، وطريقهم مستقيمة، وقلوبهم طاهرة، وليس في أيديهم شيء مما يتعامل به الناس، قد احتفروا قبورهم على أبواب بيوتهم، فإذا أصبحوا جاؤوا إليها فتعاهدوها وصلُّوا فيها، فإذا تعالى النهار خرجوا إلى البرية فرعَّوا بقلها كما ترعى الدوابُّ الحشيش، وليس على بيوتهم أبواب، ولا عليهم ولاية ولا بينهم قضاة، ولا يتنازعون ولا يتباغضون ولا يتحاسدون ولا يقتتلون، وليس فيهم فقير ولا مسكين، فعجب الإسكندر منهم وقال: أما لكم ملك؟ قالوا: بلى رجل جالس على رأس هذا الجبل، فأرسل إليه فقال: ما لي إليك من حاجة. فركب الإسكندر وصعد إليه، فسلمَّ عليه، وإذا رجل من أعقل الناس وأزهدهم، وبين يديه جماجم يقلبها بيده،

(١) انظر تفسير الثعلبي ٦/ ١٩٤، و«عرائس المجالس» ص ٣٦٤-٣٦٦، وما بين معكوفين منه.

ولم يكثرث بالإسكندر ولم ينزعج له. فقال له الإسكندر: أخبرني عن هذه الحال التي أنتم عليها، فإني لم أجد في الأمم أحداً على مثلها، فقال: سل عما بدا لك، قال: ما أرى في أيديكم شيئاً من الدنيا، فهلاً استمتعتم بالذهب والفضة وتعاملتم بهما؟ فقال: لأننا ما رأينا أحداً نال منهما شيئاً إلا وتاقت نفسه إلى ما هو أعظم منه، فقال: فما بالكم حفرتم قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قال: لأننا إذا نظرنا إليها قصرنا آمالنا فنذكر الموت، قال: فما بال بيوتكم ليس لها أبواب؟ قال: ليس بيننا متهم ولا خائن، قال: فما بالكم ليس عليكم حاكم؟ قال: لأننا لا نتنازع في شيء، قال: فما بالكم ترعون البقل وتدعون الحيوانات؟ قال: نكره أن نجعل بطوننا قبوراً لها، وفي البقل كفاية ومقنع. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قال: لأننا لا نتكاثر ولا نتفاخر. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تتباغضون ولا تتحاسدون؟ قال: قد أَلَّفَ اللهُ بين قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قال: تواضعنا لله فنزع الحسد والفظاظة منا. قال: فما بالكم أطول الناس أعماراً؟ قال: لأننا نعطي الحق ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تضحكون؟ قال: لا نغفل عن لا يغفل عنا. قال: فما هذه الجماجم التي بين يديك؟ فبكى وقال: جماجم ملوك ملكوا هذه الأرض، أمّا هذه الجمجمة فجمجمة ملكٍ مَلَكَ هذه الأرض مئة عام فعتا وبغى وتجبّر وتكبّر وظلم، فلَمَّا رَأَى اللهُ منه ذلك حسمه بالموت، فصار كالحجر الملقى قد أحصى عليه عمله حتى يجازيه به في معاده. ثم أشار إلى جمجمة أخرى وقال: هذه جمجمة مَلِكٍ مَلَكَ هذه الأرض مئة عام فعدل وأحسن وتواضع، ثم جاءه الموت فصيرَه إلى ما ترى. ثم مدَّ يده إلى جمجمة ذي القرنين وقال: وهذه الجمجمة تصير إلى ما صارت إليه هذه الجماجم، فانظر يا عبد الله، ما أنت صانع. فبكى ذو القرنين وقال: يا أخي، هل لك أن تصحبني فأخذك وزيراً وأشركك في ملكي؟ قال: هيهات هيهات، فقال: ولم؟ قال: لأنَّ الناس كلهم لي صديق، وهم لك عدوٌّ. قال: ولم؟ قال: لرفضى الدنيا وليس في يدي منها ما أُعَادَى عليه، وهي في يدك فيعادونك لأجلها. فقال: إن رأيت أن تمنَّ عليَّ بصحبتك فافعل، فقال: على شريطة، قال: وما هي؟ قال: تضمن لي شباباً لا هرم فيه، وصحة لا سقم فيها، وحياة لا موت معها. قال: لا أستطيع ذلك، قال: فاذهب عني ودعني

بين يدي من يقدر على ذلك. فانصرف عنه ذو القرنين باكياً^(١).

ذكر واقعة جرت له مع أمه

حكى السدي عن أشياخه قال: كانت أم الإسكندر عاقلة فاضلة حازمة، واسمها روفية - وقيل: روقية بالقاف - فلما فتح ولدها الدنيا ودانت له الملوك كتبت إليه: من روفية أم الإسكندر الضعيف الذي بقوة ربه الأعظم قوي، وبقدرته قهر، وبعزته استعلى، يا بني، لا تدع للعجب فيك مساعاً، فإن ذلك يؤذيك، ولا للعظمة والكبرياء فيك مطمعاً فإن ذلك يضعك، وذلل نفسك للذي رفعك، واعلم أنك عن قليل محوّل عمّا أنت فيه كما تحوّل من غيرك إليك، وإياك والشحّ فإنه يرديك، وعليك بنور العدل فإنه يهديك، وانظر ما جمعت من الأموال وكنزت من الكنوز فعجلّ حمله كله إليّ على فرس مع رجل، وإياك والعقوق المحرمة عليك، والسلام.

فلما قرأ كتابها جمع أرباب دولته وعظماء مملكته وحكماء حضرته، وقرأ عليهم كتابها وقال: سمعاً وطاعة، فإنّ طاعة الوالدة مفترضة، والسمع والطاعة للربّ الأعظم ولها، ثم قال: كيف أحمل إليها أموالي وكنوزي على فرس؟ فاستعظموا ذلك فقال: إنّما طلبت أسماء الكنوز وعددها، فكتب أساميها وبعث بها إليها مع رجل على فرس، فلما قرأت كتابه فرحت حيث فهم قصدها^(٢). قال وهب: فإنّ ذلك الكتاب عندهم مكتوب في خزائن الروم، فيه أسامي كنوزه وأمواله.

فصل في ذكر ما بنى من المدائن

قد ذكرنا أنه بنى الإسكندرية وهرة وسمرقند ومرو وهمدان وبرج الحجارة والدبوسية. وقد روي في مرو حديث، قال أحمد بن حنبل: حدّثنا الحسن بن يحيى من أهل مرو بإسناده عن سهل بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جدّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون بعدي بعوث كثيرة، فكونوا في بعث خراسان، ثم انزلوا مدينة

(١) انظر «المنتظم» ١/٢٩٨-٢٩٩.

(٢) انظر «المنتظم» ١/٢٩٣.

مَرَوْ، فَإِنَّهُ بَنَاهَا ذُو الْقَرْنَيْنِ وَدَعَا لَهَا بِالْبَرَكَةِ وَأَنْ لَا يَضُرَّ أَهْلَهَا سُوءٌ»^(١).

وقال الكلبي: أوَّلَ من عمل جِسْراً على جِيحون الإسكندر، لأنه لما عاد من الظلمات قصد خراسان فوصل إلى نهر بلخ، فلم يقدر على العبور عليه، فأمر بشق الخشب الغلاظ وترقيقها، وأمر الحدادين فضربوا المسامير، وعمل السفن الكبار، وقيل: كانت خمس مئة سفينة، ثم أمر الحبالين ففتلوا الغلاظ من الليف والقنب، وعمل الجسر في أضيق مكان، ووضع عليه السلاسل وألقى على السفن التراب والحشيش، وأقام أياماً حتى عبر عسكره من الجانب الشرقي إلى الغربي، ودخل خراسان، ولم يخرج من المشرق حتى هدم بيوت النيران ودعا إلى التوحيد والإيمان، وجاهد الكفار وجمع الأموال ليقوي بها الجيوش على الجهاد، لا حرصاً على الدنيا. قال ابن عباس: ولو لم يكن له إلا بناء السد الذي حفظ به المسلمين، وحماهم به من يأجوج ومأجوج.

وقال السديُّ: لما رجع من المشرق قصد بلاد الروم، فدفن بها الأموال وكنز الكنوز، وكان يكتب على كل كنز طلسماً ويذكر عدد ما فيه.

فصل في وفاته

قال علماء السير: لما علم ذو القرنين أنَّ عين الحياة قد فاتته وحظي بها الخضر اغتم غمّاً شديداً فقال له الحسَّاب: لا بأس عليك، فإنك تعمّر طويلاً ثم تموت على أرض من حديد، وفوقك سماء من خشب. فلما عاد من الروم قصد أرض بابل، فبينما هو يسير على دابته إذ رعف فسقط عن فرسه، فبسط له درع من حديد، وكانت صفائح صفائح فنام على الدرع، فأذته الشمس فجاؤوا بترس فأظلوه به، فنظر فإذا تحته حديد وفوقه خشب، فأيقن بالموت فأمر أن يُكْتَبَ إلى أمّه كتاب تعزية عن نفسه^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠١٨)، وهو حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ كما قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» ٣٠٩-٣٠٨/١.

(٢) انظر «المنتظم» ٣٠٠/١.

ذكر الكتاب

أنبأنا أبو اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله بإسناده عن عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي من كتاب «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان»، قال: حدّثني أبو يوسف يعقوب بن عبيد بإسناده إلى عبد الله بن زياد المدني عن بعض من قرأ الكتب: أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها بلغ أرض بابل، فمرض بها مرضاً شديداً أشفق من مرضه أن يموت، بعدما دَوَّخَ البلاد وحوأها، واستعبد الرجال وجمع الأموال، فدعا كاتبه وقال له: خفّف عليّ المؤنة بكتاب تكتبه إلى أمي تعزّيها بي، واستعن ببعض علماء فارس، ثم اقرأه عليّ، فكتب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الإسكندر بن قيصر رفيق أهل الأرض بجسده قليلاً، ورفيق أهل السماء بروحه طويلاً، إلى أمه روفية ذات الصفا التي لم تتمتع بشمرتها في دار القرب، وهي مجاورته في دار البُعد عما قليل، يا أمّاه، يا ذات الحلم، أسألك برحمتي ووُدّي وولادتك إياي هل وجدت لشيء قراراً ثابتاً أو خيالاً دائماً؟ ألم تَرِيْ إلى الشجرة كيف تنضّر أغصانها ويخرج ثمرها وتلتف أوراقها، ثم لا يلبث الغصن أن يتهشّم والثمرة أن تتساقط والورق أن يتناثر؟! ألم تَرِيْ إلى النبت الأزهر يصبح نضيراً ويمسي هشيماً؟ ألم تَرِيْ إلى النهار المضيء كيف يخلفه الليل المظلم؟ ألم تَرِيْ إلى القمر الباهر ليلة بدره كيف يغشاه الكسوف؟ ألم تَرِيْ إلى شهب النّار الموقدة ما أسرع ما تخمد؟ ألم تَرِيْ إلى عذب المياه الصافية ما أسرعها إلى البحور المغيرة؟ ألم تَرِيْ إلى هذا الخلق قد امتلأت بهم الآفاق واستقلّت به الأشياء وولّعت به الأبصار والقلوب؟ إنّما هما شيئان: إمّا مولود وإمّا ميّت، وكلاهما مقرون به الفناء. ألم تَرِيْ أنه قيل لهذه الدار: روعي بأهلك فإنك لست لهم بدار، يا والدة الموت، ويا مورثة الأحزان، ويا مفرقة بين الأحباب، ويا مخربة العمران؟ ألم تَرِيْ أن كل مخلوق يجري على ما لا يدري؟ وأنّ كلّ واحد مستيقن منهم غير راض بما هو فيه، وذلك لأنه منزل لغير قرار؟ يا أمّاه، هل رأيت معطياً لا يأخذ، ومقرضاً لا يتقاضى، ومستودعاً لا يسترّد وديعته؟ يا أمّاه، إن كان أحد حقيقاً بالبكاء فلتبك السماوات على نجومها، والحيتان على بحورها، أو البحور على مائها، وليبك الجوّ على طائره، والأرض على أولادها، والنبت الذي يخرج منها،

وليبك الإنسان على نفسه التي تموت في كل ساعة وعند كل طرفة عين. يا أمّاه، إن الموت لا يدعني من أجل أنني كنت عارفاً أنه نازل بي، فلا يتعبك الحزنُ فإنك لم تكوني جاهلة بأني من الذين يموتون. يا أمّاه، إني كتبت كتابي هذا وأنا أرجو أن تعزيّ به ويحسن موقعه منك، ولا تخلفي ظني يا أمّاه، إني قد علمتُ يقيناً أن الذي أذهبُ إليه خير من مكاني الذي أنا فيه، أظهر من الهموم والأحزان والسقم والنصب والأمراض فاغتبطي بمذهبي واستعدّي في إجمال الثناء عني. إن ذكري من الدنيا قد انقطع بما كنت أذكرُ به من الملك والرأي فاجعلي لي من بعدي ذكراً أذكرُ به في حلمك وصبرك وطاعة الله والرضى بما يقول الحكماء. يا أمّاه، إنَّ الناس سينظرون إلى هذا منك، وهم بين راض وكاره ومستمع وقائل، فأحسني إليّ وإلى نفسك في ذلك. يا أمّاه، السلام في هذه الدار قليل زائل فليكن عليك وعليّ في دار الأبد السلام الدائم. وذكر ألفاظاً اختصرتها^(١).

وفي رواية ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن لهيعة قال: لما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمّه: يا أمّاه، اصنعي طعاماً واجمعي من قدرتِ عليه من نساء المملكة، ولا تأكل منه امرأة أصيبت بمصيبة. فلما قرأت كتابه صنعت طعاماً عظيماً، وجمعت نساء المملكة، وقالت: لا يأكلُ من طعامي من أصيبت بمصيبة، فامتنعن من الأكل، فقالت: أكلكن ثكالي؟ قلن: نعم، والله ما فينا إلا من مات أبوها أو أخوها أو ابنها، ففطنت وقالت: إنا لله، هلك والله ولدي، وما كتب إليّ بهذا إلا تعزيةً لي^(٢).

واختلفوا في أي مكان توفي على أقوال:

أحدها: بدومة الجندل.

والثاني: بشهرزور لما عاد من المشرق.

والثالث: بأرض بابل.

وكان قد تزهّد وترك الدنيا وهو الأصح، والذي مات بشهرزور الإسكندر الثاني لما نذكر.

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٦٦)، وأخرجه ابن الجوزي في المنتظم ١/٣٠٠.

(٢) «الاعتبار» (٦٨)، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/٣٠٢.

ولما مات بابل جعل في تابوت وُطِّي بالصبر والكافور، وحُمِلَ إلى الإسكندرية، قال ابن أبي الدنيا بإسناده عن محمد بن سليمان الكلبي قال: لما مات الإسكندر خرجت أمه في أحسن زيِّ نساء أهل الإسكندرية حتى وقفت على تابوته^(١) فقالت: واعجباً ممن بلغت السماء حكمته، وأقطار الأرض سلطانه، ودانت الملوك عنوة له، أصبح اليوم نائماً لا يستيقظ وصامتاً لا يتكلم، محمولاً على يدي من لا يناله بضره، ألا هل مبلغ عني الإسكندر بأنه وعظني فاتعظت، وعزاني فتعزيت، وصبرني فصبرت، ولولا أنني لاحقة به ما فعلت، فعليك السلام يا بني، حياً وهالكاً، فنعم البني كنت، ونعم الهالك أنت.

وفي رواية: ولولا علمي بأني لاحقتك لما صبرْتُ، يا إسكندر، عليك السلام. ثم أمرت به فدفن.

واختلفوا في سنه: فذكر جدِّي رحمه الله في كتاب «أعمار الأعيان» أنه عاش ألفاً وست مئة سنة قال: وأهل الكتاب يقولون: عاش ثلاثة آلاف سنة^(٢). قلت: ولا يستبعد ذلك، فقد عاش عُوج بن عناق ثلاثة آلاف وست مئة سنة، حكاه جدي في «أعمار الأعيان» عن محمد بن إسحاق^(٣)، وسنذكره في سيرة موسى عليه السلام.

قال ابن إسحاق: ولد في دار آدم عليه السلام.

وقال مجاهد: عاش الإسكندر ألف سنة مثل آدم، والله أعلم.

فصل في ذكر كلام الحكماء على تابوته

قال ابن أبي الدنيا بالإسناد الماضي عن المبارك بن فضالة عن الحسن، قال: كان الإسكندر أول من خزن الأموال تحت الأرض، فلما حضرته الوفاة دعا ابنه الأكبر، وكان ولي عهده، فقال له: يا بني، إني أراني لما بي، فإذا أنا مت فابعث إلى حذاق

(١) في (ل): «ناموسه». والمثبت من (ب)، وانظر «الاعتبار» (٦٧).

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٣٠.

الصاغة فأدخلهم الخزائن فلينتقوا جيّد هذا الذهب على أعينهم، ثم ليصوغوا تابوتاً، ثم أدخلني فيه، ثم ضعني في وسط قصري، وابعث إلى أهل مملكتك وإلى العلماء منهم فليتكلم كل واحد منهم بما يعلم.

فلما هلك الإسكندر فعل ابنه ما أمره به أبوه، وبعث إلى العلماء، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا حتى أطافوا بالتابوت، كأنهم علموا ما يُراد منهم. فقال لهم ابنه: قوموا فتكلّموا بما تعلمون. فقام الأول فقال وقد وضع يده على التابوت: سلك الإسكندر طريق من قبر، وفي موته عبرة لمن بقي. ثم قام الثاني فقال: هلك الإسكندر ومن يملك من بعده يهلك كما هلك. ثم قام الثالث وقال: خلف الإسكندر ملكه لغيره يحكم فيه بغير حكمه. ثم قام الرابع فقال: تفرّقنا لموتك وقد فارق الإسكندر من كان به يغتبط. ثم قام الخامس فقال: أصبح الإسكندر مشغلاً بما عاين وهو بالأعمال يوم الجزاء أشغل. ثم قام السادس وقال: إسكندر كان يُخزّن الذهب في الخزائن فأصبح مخزوناً في الذهب. ثم قام السابع فقال: من كان يرجو روح الآخرة فليعمل عملاً يُقبل منه ويُرفع. ثم قام الثامن فقال: إسكندر صرت حديثاً وأنا مثلك وشيكاً. ثم قام التاسع فقال: إسكندر وردت يوم وردت ناطقاً وصدرت يوم صدرت صامتاً. وقام العاشر فقال: خضعت الآفاق لموتك وفيك عبرة لمن أبصر. ثم قام الحادي عشر فقال: أرى مصيبتك بعد نعمة وكلنا ينزل به ما نزل بك. ثم قام الثاني عشر فقال: هذا آخر عهدنا بك، مُنعت جواب من يخاطبك. ثم قام الثالث عشر فقال: السّلام على من رضي دار السّلام وأُدخل في دار السّلام^(١).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عون بن إبراهيم بإسناده إلى زهير بن عبّاد أنه قال: لما حضرت ذا القرنين الوفاة كَفَّنُوهُ ثم وضعوه في تابوت من ذهب، فقالت الحكماء: تعالوا حتى نتكلم عليه ونعتبر، فقال أولهم: إن هذا الشّخص كان لكم واعظاً ولم يعظكم بأبلغ من مصرعه هذا. وقال الثاني: إنّ الإسكندر لما فارق الأنجاس صارت روحه إلى روح الطاهرين فيا طوبى له. وقال الثالث: من كانت حياته لله فإنّ وفاته لله،

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٦٩).

وعلى الله تمام كرامته. وقال الرابع: هذا الذي سار إلى مشارق الأرض ومغاربها يقتل الرجال مخافة الموت ولو تركهم لماتوا. وقال الخامس: هذا الذي كان يخبأ الذهب فالذهب اليوم يخبأه. وقال السادس: ويل لأهل العافية في هذه الدار إن كان حظهم منها إلى غير العافية. وقال السابع: لا تكثروا التلاؤم بينكم واستمسكوا بالتوبة فكلكم خاطيء. وقال الثامن: من كان يعمل اليوم بالخطيئة فإنه غداً عبد الخطيئة. وقال التاسع: لا تعجبوا مما تفعلون ولكن اعجبوا مما يفعل بكم^(١).

قال ابن أبي الدنيا: وزاد غير زهير بن عباد: وقال آخر: عجبت من سالك هذا السبيل كيف تشره نفسه إلى جمع الحطام الهامد والهشيم البائد، الخاذل مقتنيه عند الحاجة إليه. وقال آخر: اقبلوا هذه المواعظ وأكثروا ذكر هذا السبيل الذي أنتم سالكوه. وقال آخر: هذا ذو الأسارى قد أصبح أسيراً. وقال آخر: كان الإسكندر كحلم نائم انقضى أو كظل غمامة انجلى. وقال آخر: لئن كنت أمس لا يأمنك أحد لقد أصبحت اليوم لا يخافك أحد. وقال آخر: هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت في ذراعين. وقال آخر: لئن كنت وردت علينا قوياً ناطقاً لقد صدرت عنا ضعيفاً صامتاً. وقال آخر: ما سافر الإسكندر قبل هذه السفرة بلا زاد ولا أعوان. وقال آخر: كلنا غافل عما غفل عنه الإسكندر حتى نلاقي مثل ما لاقى. وقال آخر: إن من العجب أن القوي قد غلب، وأن الضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر: إن بارق هذا الموت لبارق ما يخلف، وإن مخيلته لا تخلف. وقال آخر: انطوت عن الإسكندر آماله التي كانت تغرّه ونزل به أجله الحائل بينه وبين أمه. وقال آخر: يا ويح الموت الذي لا يُستهى ما أقهره للحياة التي لا تُمل، ويا ويح الحياة التي لا تُمل ما أذلها للموت الذي لا يُحب. وقال آخر: قد كان صوتك مرهوباً وملكك عالياً، فأصبح الصوت قد خفت وانقطع، والمُلك قد اتضع. وقال آخر: لقد انتقصك في وجهك من لم يتجاسر أنه يغتابك من خلفك.

قلت: وقد جاء عن الإسكندر الثاني من هذا الجنس، وسنذكره في سيرته، إن شاء الله تعالى.

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٧٠).

قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

قال مقاتل: ذكر الله تعالى يوسف في سبعة وعشرين موضعاً. وقد ذكرنا أن أسماء الأنبياء كلها أعجمية ولهذا لم تنصرف^(٢).

وذكر الثعلبي وقال: اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو اسم عبري. وقال بعضهم: هو اسم عربي. قال: وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع - وكان حكيماً - يقول وقد سئل عن يوسف: إنه من الأسف وهو الحزن، والأسف العبد، وقد اجتمعا في يوسف، فلذلك سمي يوسف^(٣).

قلت: لو كان حكيماً ما فسّر أسامي الأنبياء بهذا. وقوله: هو من الأسف والعبد فليس كذلك، لأن أهل اللغة قد اتفقوا على أنه اسم أعجمي، ذكره ابن الجواليقي في «المعرب» وغيره^(٤)، وأن يعقوب سماه به من صغره.

وقد جاءت أخبار في فضل يوسف، قال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»، انفراد بإخراجه البخاري^(٥).

وقال أحمد بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ يُوسُفُ شَطْرَ الْحُسَيْنِ»^(٦).

ذكر قصته

قال الله تعالى: ﴿مَنْ نَقَضَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] الآيات. وقال سعد بن

(١) انظر قصته في: المعارف ٤١، و«تاريخ الطبري» ٣٣٠/١، وتفسيره ٥٤٩/١٥ و١/١٦ فما بعدها، و«البدء والتاريخ» ٦٦/١، و«عرائس المجالس» ص ١٠٩، و«المنتظم» ٣١٠/١، والتبصرة ١/١٧٨، وزاد المسير ٤/١٨٠، وتفسير ابن كثير، و«البداية والنهاية» ٤٥٦/١.

(٢) انظر ذكر قصة آدم عليه السلام.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٠.

(٤) «المعرب» ص ٤٠٣.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٢).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٠٥٠).

أبي وقاص: أنزل القرآن على عهد رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فكانهم ملؤا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فقالوا: لو وعظتنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] (١).

واختلف العلماء لم سُميت سورة يوسف أحسن القصص على أقوال:

أحدها: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن ما تتضمن، لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والجن والإنس، والأنعام والطيور، وسير الممالك والملوك، والعلماء والرجال، والنساء وحيلهن ومكرهن، وذكر التوحيد والفقهاء، والبكاء والفرح، والسجن والمسجونين، وتعبير الرؤيا وتدبير المعاش، وذكر المحب والمحبوب، والبعد واللقاء، والسياسة والمعاشرة وحسن المحاوراة، والصبر على الأذى والعفو والكرم ونحو ذلك، فكانت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة، والفوائد الجليلة، التي تصلح لمكارم الأخلاق، وذكر التلاقي بعد الفراق، قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

والثاني: لامتداد الأوقات فيما بين مبتدائها إلى منتهاها، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه وأبيه سبعون سنة جرى فيها الغرائب. وقال الحسن البصري: ثمانون سنة.

وقال مجاهد: أربعون سنة، وهو رواية عن ابن عباس وعليه أكثر المفسرين.

والثالث: لأن يوسف كان أحسن البشر، ونسبه أعرق الأنساب، ورؤياه أحسن الرؤيا، وعبارته أحسن التعبير، وبشارته أحسن البشريات، وحاله أحسن الأحوال، وبرهانه أحسن البراهين، وشاهده أحسن الشواهد، ومملكه أحسن المملك، ودعاؤه أحسن الأدعية، وتزويجه أحسن التزويج، وعصمته أحسن العصم، وعاقبته أحسن العواقب، قاله الربيع بن أنس.

وأحسن القصص بمعنى أعجب (٢).

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٥٥٣/١٥، وانظر الدر المنثور ٣/٤.

(٢) انظر تفسير الثعلبي ١٩٦/٥-١٩٧، وعرائس المجالس ١١٠، وزاد المسير ١٧٨/٤.

وقد ذكرنا تزويج يعقوب براحيل أم يوسف^(١).

وقال جدِّي في «التبصرة»: خرج يعقوب من الشام هارباً من أخيه عيصو إلى خاله لابان، فزوجه ابنته ليا فولدت له روييل ثم شمعون ولاوي ويشجب ويهوذا وزبالون، ثم توفيت فزوجه أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، ومعناه: ابن الوجد لأنها ماتت في نفاسها منه، ووُلد له من غيرها أربعة أولاد، فجميع أولاد يعقوب اثنا عشر ولداً، وهم الأسباط^(٢). وقد ذكرناه في ترجمة يعقوب عليه السلام^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤] فإن قيل: فلم قال: رأيتهم لي ساجدين ولم يقل: رأيتها، وهي مؤنثة؟ فالجواب: أن الهاء والميم والياء والنون من كنايات ما يعقل، والسجود مما يعقل، فعبر عنها بكنايتها كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]^(٤).

ذكر رؤيته الكواكب

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة والفرقدان وسهيل والنسران، ذكره مقاتل في كتاب «المبتدأ» له.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدِّي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ من اليهود يُقالُ له: بُسْتَان، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسفٌ ساجدةً له، ما أسماؤها؟ فسكت رسولُ الله ﷺ ولم يُجبهُ بشيءٍ، فنزل جبريلُ عليه السلامُ فأخبرهُ بها وبأسمائها، فقال له رسولُ الله ﷺ: «هل أنت مؤمنٌ إن أخبرتكُ بأسمائها؟» قال: نعم، فقال رسولُ الله ﷺ: «هي حُرثان والطَّارِقُ والذِّيَالُ

(١) انظر فصل في ذكر يعقوب عليه السلام.

(٢) «التبصرة» ١/١٧٨.

(٣) انظر فصل في ذكر أولاد يعقوب عليه السلام.

(٤) انظر تفسير الطبري ١٥/٥٥٦، وتفسير الثعلبي ٥/١٩٧، وزاد المسير ٤/١٨٠.

وذو الكتفين وقابسٌ ووئابٌ وعمودانٍ والمصبحُ والقيلو^(١) والضروحُ والفرغُ والشمسُ والقمرُ، نزلت من السماء فسجدت له، جاءني جبريلُ فأخبرني بأسمائها، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها».

قلت: ولم يذكر أبو إسحاق الثعلبي ما في هذا الحديث، وقد ذكره جدِّي رحمه الله في «الموضوعات»، ثم قال جدِّي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده الحكم بن ظهير، قال ابن معين: الحكم ليس بشيء، وقال النسائي: متروك، وقال أبو حاتم بن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات، وقال البخاري: لا يكتب حديثه البتة، وقال محمد بن طاهر: كان الحكم كذاباً، وقال جدي: إنما قصد واضعه شين الإسلام بمثل هذا^(٢). قلت: وليس في السماوات ما يُعرف من هذه النجوم إلا الطارق. والثاني: أنه رأى كواكب مجهولة، قاله مجاهد، بدليل قوله: «أحد عشر كوكباً» منكرة.

والثالث: بنات نعش والجدي والسها والشعرين، قاله الربيع.

وقال ابن عباس: الشمس أبوه والقمر خالته، لأن أمه قد ماتت، والكواكب إخوته لأنهم كانوا أحد عشر كوكباً.

واختلفوا متى رأى هذه الكواكب على قولين:

أحدهما: أنه كان ابن اثني عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان يوسف قد رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثبت عليها فابتلعتها، فذكر ذلك لأبيه فقال له: إياك أن تذكر هذا لإخوتك. ثم رأى الكواكب بعد اثني عشرة سنة فقصها على أبيه، فقال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ﴾

(١) كذا في النسختين (ب) و(ل)، والذي في المصادر: والفيلق، انظر تفسير الطبري ١٥/٥٥٥، والثعلبي ٥/١٩٧-١٩٨، وعرائس المجالس ١١٣، وتفسير ابن كثير ٤/٤٦٨، والبداية ١/٤٦١، وهو حديث ضعيف.

(٢) «الموضوعات» (٣٠٢).

كَيْدًا ﴿يُوسُفَ: ٥﴾ أي: يبيغونك الغوائل ويحتالون لهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿يُوسُفَ: ٥﴾ ثم قال له يعقوب: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تعبير الرؤيا، وسمي تأويلاً، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني الأسيباط ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالخلة وغيرها، وإسحاق بالنجاة من الذبح^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُوسُفَ: ٦﴾.

قال السُّدِّي: وبلغ إخوته حديث الرؤيا فقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبوه؟! فحسدوه.

وقال مقاتل: لو حفظ وصية أبيه في قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ لما جرى عليه ما جرى، ولكن الإنسان حريص على ما مُنِعَ منه وخصوصاً الصبيان والنساء.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿يُوسُفَ: ٧﴾ أي: في خبره وخبر إخوته، وقد ذكرنا أسماءهم على وجه التفصيل، فنذكرها هنا على وجه الإجمال. قال مقاتل: أسماءهم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويسخر، وأمهم ليًا بنت لابان، ولابان خال يعقوب. ووُلِدَ له من سُرِّيَّتَيْنِ وهبتهما له ليًا، اسم إحداهما زلفى، والأخرى بلهة أربعة نفر: دان ونفثالي وجاد^(٢) وأشر. ثم توفيت ليًا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين.

و«الآيات»: العلامات، والمراد بالسائلين: اليهود، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا وقالوا: من أخبرك بهذا؟ قال: «أخبرني به ربي».

وقال مقاتل: وكانوا أنبياء.

قلت: وقد وَهَمَ مقاتل لأنهم ارتكبوا الكبائر، وإنما قيل إنهم نبؤوا بعدما دخلوا مصر وتابوا.

(١) تفسير الثعلبي / ١٩٨، والمصنف ينقل عنه تفسير الآيات فليرجع إليه، ولن أحيل عليه بعد هذا.

(٢) في (ل) و(ب): وباد.

واختلفوا في العُصبة: فقال الزجاج: هي ما بين الواحد إلى العشرة، وقال غيره: ما بين الواحد إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] بإيثار يوسف وبنيامين علينا ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال وهب: القائل لهذا شمعون، وقيل: روبيل، وقيل: دان ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرضٍ أخرى ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ عن شغله بيوسف وأخيه ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] أي: صلح لكم ما بينكم وبين أبيكم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا، وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأياً ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في قعره وظلمته بحيث يغيب خبره و«الغيابة»: كل شيء غيَّب. و«الجُب»: البئر. وقال مقاتل: هذا الجب على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بأرض الأردن. وبعضهم قال: بين مدين ومصر. وبعضهم قال: بيت المقدس.

قوله: ﴿يَلْقَاهُ﴾ أي: يأخذه، والسيارة: من يمرُّ في الطريق، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] لتستريحوا منه، وقيل معناه: إن كنتم فاعلين ما أشير به. وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك عن إخوة يوسف، وقيل أولاد يعقوب.

ثم اتفقوا على التفرقة بينه وبين ولده بضربٍ من الحيلة حسداً منهم فقالوا: ﴿يَتَأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] بالحفظ والحيطة حتى نردّه إليك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

فإن قيل: فكيف قالوا يلعب وهم أنبياء؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يكونوا أنبياء حينئذٍ.

والثاني: أن اللعب بمعنى النزهة، وذلك جائز. على أنهم قد ارتكبوا من يوسف ما هو أعظم من اللعب، لما نذكر.

وقيل معنى (يرتع): يرعى غنمه. وقال مجاهد: قالوا ليوسف: أما تخرج معنا فلعب ونتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فاسأل أباك، فسأل فمَنعه، فقال: يا أبة، قد أرى من إخوتي اللطف واللين، فأذن له على كره. ثم إنهم ألحوا على أبيهم فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] أي:

لا تشعرون.

فإن قيل: فلم خصَّ يعقوبُ الذئبَ دون سائر الوحوش؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن تلك الأرض كانت كثيرة الذئاب.

والثاني: لأن يعقوب رأى في منامه كأن الذئب شدَّ على يوسف وكان يحذره. وقال مقاتل: كان ذلك من باب معجزات يعقوب، فكأنه يقول: كأني بكم قد جئتم غداً وقلتم أكله الذئب. فإن قيل: فذكره الذئب تلقيناً لهم، وكانوا لا يدرون، فقد عرفهم العلة، قلنا: بل هو تنبيه على ما في نفوسهم وإعلام لهم بما قد عزموا عليه.

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة رجال ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾

[يوسف: ١٤] أي: ضَعَفَةٌ عَجْزَةٌ مغبونون. وقال أبو عبيد: في الكلام محذوف وتقديره: لئن أكله الذئب الذي رأته في منامك إنا إذن لخاسرون، فأرسله معهم.

ذكر خروجه معهم

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: نادينا. فإن قيل: ما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف قال: وأوحينا إليه؟ فالجواب: أن الوحي عبارة عن الإلهام ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] فألهمه الله لتصدقن رؤياك ولتخبرن إخوتك بصنيعهم إذا دخلوا عليك وأنت ملك مصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] ومعنى «لتنبئهم» أي: لتخبرنهم في المستقبل، وهذا معنى قول ابن عباس. وقال مقاتل: معناه وهم لا يشعرون أنك يوسف، لما نذكر في آخر القصة.

وحكى السدي عن ابن عباس قال: لما خرج معهم يوسف أظهروا له الكرامة أولاً، فلما أصبحوا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وجعلوا يضربونه، وكلما لجأ إلى واحدٍ ضربه، فكادوا يقتلونه، وجعل يصيح: يا أبتاه، لو ترى ما يصنعُ بابنك بنو الإماء لعزَّ عليك. ومعنى قوله: بنو الإماء لأن بعضهم كان من الأمتين اللتين وهبتهما لياً ليعقوب. فأخذه روبيل فضرب به إلى الأرض، ويوسف يبكي ويقول: يا أبة، ما أسرع ما نسوا عهدك وضيّعوا وصيتك. فجثم روبيل على صدره ليذبحه فزجره يهوذا وقال:

أين المواثيق والعهود؟ فتركه وهو يصيح: يا أبة، لو رأيت ما أنا فيه لأحزنك وساءك. ثم أجمعوا على أن يلقوه في غيابة الجب، فلما دلّوه جعل يتعلق بجوانب البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليّ قميصي أوارى به عورتى، فقال له روبيل، وكان عليه أشدّ من الباقين: يا ابن راحيل، يا صاحب الأحلام، ادعُ الشمس والقمر والكواكب تخلصك. ثم دلّوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءً فوق فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها، وجعل يبكي، فنادوه فظنّ أنها رحمة له، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان أحنّ عليه منهم لأنه كان ابن خالته، وكان يأتيه بطعام ويتفقد أحواله. قال ابن عباس: وأمر الله الصخرة فارتفعت من الأرض ووقف عليها وهو عريان، وكان إبراهيم لما ألقى في النار جرّده من ثيابه فجاءه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيّاه، فلما توفي إبراهيم ورّثه إسحاق، فلما مات إسحاق ورّثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب القميص في تعويد وجعله في عنقه، فلما ألقى في الجبّ جاءه جبريل فأخرج القميص من التعويد فألبسه إيّاه. وأضاء له الجبّ وعدّب ماؤه، وأنس بجبريل، فلما أراد جبريل أن ينصرف قال له يوسف: إني أستوحش، فقال: إذا استوحشت فقل: يا صريخ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرّج كرب المحزونين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري، فاجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً. - وفي رواية: يا قريباً غير بعيد، ويا شاهداً غير غائب - فلما قالها حفّت الملائكة بالجبّ، واستأنس. وقيل: إنه ما بات فيه بعدما دعا بهذا الدعاء^(١). وقال ابن عباس: أقام في الجب ثلاثة أيام وإخوته حول الجب يرعون أغنامهم، ويهوذا يحرسه منهم لئلا يقتلوه.

واختلفوا في مبلغ سنّه حين ألقى في الجب على أقوال:

أحدها: أنه كان له اثنتا عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

والثالث: ثمان عشرة سنة، قاله الربيع. والأول أظهر.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٥-١١٦.

وقال السُّدِّي: ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] وكان وقت العتمة، وإنما جاؤوا في الليل ليكونوا أجراً على الكذب في الظلمة بخلاف الضوء - ولهذا قيل: لا تطلب الحاجة في الليل فإن الحياء في العين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار فلا تقدر على إتمام العذر - فلما سمع يعقوب أصواتهم فزع وقال: ما الذي بهم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: يسابق بعضنا بعضاً ﴿وَتَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدق ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] لسوء ظنك بنا وتهمتك إيانا في يوسف، وهذا قميصه ملطخ بالدم، وأخرجوا القميص، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: هو كذب، وقيل: مكذوب لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم سخلة. وقرأت عائشة: «بدم كذب» - بدال مهملة - أي: طري. فلما رأى يعقوب القميص صحيحاً قال: تالله ما رأيت ذنباً أحلم ولا أشفق من هذا، أكل ابني ولم يخرق قميصه، فعلم كذبهم، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] أي: زينت وحسنت ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فصبري صبر جميل^(١). وقال الحسن: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى ولا تعيس وجه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] من الكذب والبُهت.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: رفقة مارة من قبل مدين يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان بعيداً من العمران، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف، فأرسلوا رجلاً من العرب من أهل مدين يقال له: مالك بن دُعر ليطلب لهم الماء، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليهيئ لهم الأرشية والدلاء للبر.

واختلفوا في اسم الوارد على أقوال:

أحدها: أنه مالك بن دُعر من العرب. وقال الثعلبي: هو من ولد إبراهيم عليه

السلام.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٧.

والثاني: أن اسمه عنقود، قاله مقاتل.

والثالث: مخلب بن رعويل، قاله وهب بن منبه.

﴿فَأَدَلَّى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩] أي: أرسلها، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بـغلام من أحسن الغلمان. قال الثعلبي: قال النبي ﷺ: «أُعْطِيَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، وَالنِّصْفُ الْآخِرُ لِسَائِرِ النَّاسِ»^(١).

قال: وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسنَ الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مُستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور من ثناياه، وكان جبينه كضوء النهار، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية، وقيل: إنه ورث الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سُدس الحسن^(٢).

قلت: وقد روي في حسنه حديث: أنبأنا جدي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَتْ الْجُبْلَى لَتَرَى يُوسُفَ فَتَضَعُ حَمَلَهَا». إلا أنه حديث لا يصح، ذكره جدي في «الموضوعات» وقال: هذا حديث موضوع، وقد اجتمعت فيه آفات منها: القاسم وهو ابن عبد الرحمن وجعفر بن الزبير وأبو الفضل الأنصاري واسمه عباس، واتفق أحمد بن حنبل وشعبة وابن معين والنسائي وغيرهم على أنهم كانوا كذابين وضّاعين للأخبار^(٣).

قال السدي: فلما رآه الوارد دهش وتحير وقال: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمًا﴾ ومعناه: أن المستقي نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشري، كما تقول: يا زيد، وهو في موضع رفع على النداء، قاله السدي ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَةً﴾ [يوسف: ١٩] أي: أخفوه.

وقال مجاهد: أسره مالك بن دعر وأصحابه التجار الذين هم معه من أهل المياه وقالوا: هو بضاعة استبضعناها، خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه. وجاء يهوذا بالطعام

(١) «عرائس المجالس» ص ١١١، وأخرج شطره الأول أحمد في «مسنده» (١٤٠٥٠).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١١١.

(٣) «الموضوعات» (٣٩٨).

على عادته إلى الجبِّ فلم يجده، فأخبر إخوته فجاؤوا فرأوه عند مالك بن دعر فقالوا: هذا عبد لنا أبق. وكنتم يوسف شأنه خوفاً من إخوته أن يقتلوه، فاعترف بأنه عبدهم، وكانوا أهل شرٍّ ومنعة^(١).

فإن قيل: فالعبودية هوانٌ عظيم، ويوسف «الكريم بن الكريم بن الكريم...» الحديث^(٢)، فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنه خرج ليلعب واللعب لا يليق بمثله. وقال أبو حنيفة عبد الوهاب بن النوبي: لم يضحك يوسف في مدة البلاء إلا ثلاث مرات، حين وقع في البئر قال: من لعب في خدمة مولاه فغيابة الجب مأواه، وحين قيّد قال: من لم يخدم مولاه عظمت بلواه، وحين نودي عليه بالبيع قال: من لم يرض بمولاه تملكه مولى سواه. وهذا الضحك منه على وجه التعجب لا على وجه الفرح.

قال: والوجه الثاني: فلأنه نظر يوماً في المرأة فأعجبته نفسه، فقال: لو كنت عبداً لكان ثمني عظيماً فيبع بأوكس ثمن.

والثالث: ليرحم العبيد إذا ملك، وكذا ابتلاه بالسجن ليرحم المسجونين.

والرابع: لأنه جرى في السابق أنه يصير ملكاً فراضه الله بالعبودية.

وقال أبو حنيفة ابن النوبي: إن الله ابتلى يوسف بعشرة أشياء وعوّضه بعشرة: ابتلاه بفراق أبيه وعوّضه بلقائه، وابتلاه بجفاء إخوته ثم عوّضه سجودهم له، وابتلاه بالجبِّ وأكرمه بمؤانسة جبريل، وابتلاه بالعبودية وعوّضه عبودية أهل مصر، وابتلاه بزليخا وعوّضه بالشاهد، وابتلاه بالنسوة وعوّضه بتصديقهن ﴿مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] وابتلاه بالهمة وعوّضه بالعصمة، وابتلاه بالسجن وعوّضه المُلْك، وابتلاه بالكذب عليه وعوّضه بالاعتراف ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] وابتلاه بفرعون ثم أطاعه له حتى صار على خزائن الأرض.

قال السُّدي: فلما اعترف يوسف لإخوته بالرِّق قال مالك بن دُعر: أنا اشتريه

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٨-١١٩.

(٢) تقدم تخريجه في أول قصة يوسف.

منكم، فباعوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَّوْهُ بِشَمِّ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه. واختلفوا فيه، قال قتادة: ظلم. وقال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحر حرام، وقال الشعبي: قليل. وقال مقاتل بن حيان: زيف دراهم.

فإن قيل: فلم قال: ﴿مَعْدُودَةً﴾ [يوسف: ٢٠] ونحن نعلم قطعاً أن الدراهم معدودة؟ فالجواب: أنه على وجه المبالغة في التحقير، لأن القليل يُعدُّ، والكثير يوزن، وما كانوا يزنون أقل من أربعين درهماً، وإنما كانوا يعدونها عدداً، فإذا بلغ أربعين وزنوه، لأن ذلك عندهم أوقية. وقيل معناه: باعوه بدراهم ناقصة غير وافية لزهدهم فيه.

واختلفوا في مبلغ عدد الدراهم التي باعوه بها على أقوال:

أحدها: عشرون درهماً، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي، اقتسموها درهمين درهمين.

والثاني: بتسعة عشر درهماً، ونعلين، اقتسموها درهمين درهمين، وأخذ واحد منهم درهماً مع النعلين، قاله عكرمة.

والثالث: اثنان وعشرون درهماً، قاله مجاهد.

والرابع: ثلاثون درهماً، قاله عكرمة.

والخامس: أربعون درهماً. والأول أصح، ولم يذكر الثعلبي النعلين^(١).

فإن قيل: فما معنى النعلين؟ قلنا: فيه إشارة إلى التواضع، لأن من كان في ثمنه نعلان فهو حقير الثمن، فإذا ملك مصر لا ينبغي له أن يتكبر بل يتواضع.

قلت: ما جرى على يوسف من أصحاب هذه التأويلات قليل، فإنه لو ملك الدنيا من المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ما جرى عليه لكان ذلك حقيراً لا يساوي نعلين.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] يعني إخوته، لأنهم لم يعلموا كرامته على الله تعالى، ولا منزلته عنده، ولا ما يؤول أمره إليه.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٩.

ذكر قدومه إلى مصر

قال علماء السير: ثم انطلق مالك بن دُعر وأصحابه بيوسف إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون لهم: استوثقوا منه فإنه آبق. فلما قدموا مصر اشتراه العزيز واسمه قطفير بن روبخت، وكان على خزائن مصر. قال ابن عباس: وكان الملك على مصر ونواحيها يومئذ الريان بن الوليد بن ثروان بن راشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه، ومات ويوسف حيٌّ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن البيلوان بن واران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان جباراً كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل، وقيل: إنه أسلم^(١).

واختلفوا في مبلغ ثمن يوسف لما بيع بمصر على أقوال:

أحدها: أنه بيع بعشرين ديناراً ونعلين وثوبين أبيضين، حكاه الثعلبي عن ابن عباس^(٢).

والثاني: بوزنه مسكاً وورقاً، قاله وهب^(٣).

والثالث: بوزنه ذهباً وفضة، قاله مقاتل.

والرابع: بوزنه ذهباً مراراً، قاله الحسن.

فإن قيل: فكيف أثبت الله الشرى في قوله: ﴿وَشَرَّوْهُ﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ ولم ينعقد عليه بيع؟ فالجواب: أن الشرى هو المماثلة، فلما وقعت المماثلة بالمال جاز أن يقال: اشتراه على وجه المجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] الآية.

وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن عبد الرزاق عن معمر عن مجاهد عن ابن عباس قال: يُجاء يوم القيامة بالعبد فيقال له: ما منعك أن تكون

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

عبدتني؟ فيقول: يا رب، أبليتني وجعلت عليّ أرباباً يشغلونني عن خدمتك، فيجاء يوسف في عبوديته فيقول: أنت أشدُّ عبودية أم هذا؟ فيقول: بل هذا، فيقول: إن هذا لم تمنعه عبوديته أن عبدني^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَهُ﴾ واختلّفوا في اسمها على أقوال:

أحدها: راعيل بنت عابيل، قاله محمد بن إسحاق^(٢).

والثاني: زليخا، قاله قتادة.

والثالث: نبوس، قاله أبو هشام الرفاعي^(٣).

ومعنى ﴿أَكْرِمِي مَثْوَهُ﴾ أي: منزلته ومقامه ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ إذا بلغ وفهم الأمور ﴿أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] فتبناه، وقال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء وكانت امرأته حسناء ناعمة طامعة طامعة في ملكه وديناه^(٤).

وحكى الثعلبي عن عبد الله أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز حين قال: «أكرمي مثواه»، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: «يا أبتِ استأجره»، وأبو بكر حين استخلف عمر^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما خلصناه من الجب وكيد إخوته وكانوا قد همّوا بقتله، مكّناه من أرض مصر وصيرناه إلى أعلى المنازل عند عزيز مصر وجعلناه على خزائنها. وقال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٦) أي تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾

(١) لم نقف عليه في كتاب «الزهد»، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٨٨/٣، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٢٧) من كلام مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧٥/١٢.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧٥/١٢.

(٥) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

[يوسف: ٢١] فقد قالت العلماء: حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقصر رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قصّها، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوه فغلب أمر الله حتى كادوا، ثم أراد إخوة يوسف قتله فغلب أمر الله فلم يقدروا عليه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجبّ ليلتقطه بعض السيّارة فيندرس اسمه، فغلب أمر الله حتى اشتهر ذكره ونفذ أمره، ثم باعوه ليصير مملوكاً فغلب أمر الله حتى صار مالكاً وسجد إخوته له، ثم أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين تائبين ناسين لذنوبهم، فغلب أمر الله حتى اعترفوا بعد أربعين سنة ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يغرّوا أباهم بالقميص والدم والبكاء فغلب أمر الله حتى لم يخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] ثم احتالوا حتى تذهب محبته من قلب أبيه، فغلب أمر الله حتى ازداد محبة وشوقاً إليه، ثم احتال يوسف على الخلاص من السجن بقوله للساقي: ﴿أذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فغلب أمر الله حتى نسي الساقي، فلبث في السجن بضع سنين، ثم احتالت امرأة العزيز على أن تزيل المراودة عن نفسها حين قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ [يوسف: ٢٥] فغلب أمر الله حتى شهد الشاهد من أهلها. وكل هذا دليل على القول الأول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] ما الله صانع بيوسف ولا ما يؤول إليه أمره.

فإن قيل: فما سبب ميل يعقوب إلى يوسف دون إخوته؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: للسّرّ الذي كان فيه.

والثاني: لحسنه وجماله.

والثالث: لأنه لم يكن له أم.

والرابع: لعقله وتأنّيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: منتهى شبابه وقوّته، واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أربعون سنة، قاله مقاتل.

والثاني: ثلاث وثلاثون سنة، قاله مجاهد^(١).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/١٧٧.

والثالث: عشرون سنة، قاله الضحاك^(١).

والرابع: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، قاله ابن عباس^(٢).

والخامس: ستون سنة، حكاه الثعلبي. والأول أصح. وقيل: منتهى الأشد ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء عند الأربعين.

﴿ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ واختلّفوا فيه على أقوال:

أحدها: العقل والعلم والنبوة، قاله مجاهد.

والثاني: الإصابة في القول، قاله أهل المعاني.

والثالث: علم الرؤيا.

والرابع: مصادر الأمور ومواردها.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] أي: الصابرين على نوائب الدنيا كما صبر

يوسف، عليه السلام.

فصل في ما جرى له مع امرأة العزيز

قال^(٣) الله تعالى: ﴿وَرَزَوْدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ الآية [يوسف: ٢٣]، أي:

أرادته وطلبت منه أن يواقعها ويوافقها ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: زينت وحسنت.

قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] الآية، معنى الهمّ بالشيء: حديث

المرء به نفسه ولم يفعله، قال الشاعر^(٤): [من الطويل]

هممتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

واختلفوا في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ على أقوال كثيرة، منهم من قال: حلّ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧٧/١٢.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ١٧٧/١٢.

(٣) من هنا يبدأ السقط في (ب) إلى تفسير قوله: ﴿وقال الذي نجا منهما﴾.

(٤) هو ضابء بن الحارث البرجمي، والبيت في «الشعر والشعراء» ٣٥٠/١.

الهَمِيَانُ وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْخَاتَنِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١)، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِهِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: جَعَلَتْ تَذَكْرَ لَهُ مُحَاسِنَ نَفْسِهَا حَتَّى هَمَّ بِهَا، وَكَانَ شَابًا يَجِدُ شَبَقَ الشَّبَابِ^(٢).

وَأَنْكَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ هَذَا وَقَالُوا: لَا يَلِيقُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَوَّلُوا الْآيَةَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَمَّ بِالْفِرَارِ مِنْهَا. وَقِيلَ: هَمَّ بِضَرْبِهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾^(٣) ثُمَّ ابْتَدَأَ الْخَبْرَ عَنْ يُوسُفَ ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(٤) عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَتَقْدِيرُهُ: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بِهَا وَلَكِنَّهُ رَأَى الْبُرْهَانَ فَلَمْ يَهَمْ. وَرُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ أَنْ يَفْتَرِشَهَا وَهَمَّ بِهَا أَنْ تَكُونَ لَهُ زَوْجَةً.

وَهَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ كُلُّهَا غَيْرُ مَرْضِيَّةٍ، أَمَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: هَمَّ بِالْفِرَارِ مِنْهَا فَلَا يَصِحُّ لِأَنَّ الْفِرَارَ غَيْرُ مَذْكُورٍ فِي الْآيَةِ، وَأَمَا تَقْدِيرُ «لَوْلَا» فَالْعَرَبُ لَا تَقْدِمُ جَوَابَ لَوْلَا قَبْلَهَا، لَا تَقُولُ: لَقَدْ قَمْتُ لَوْلَا زَيْدٌ لَقَمْتُ، وَكَذَا أَقْوَالُ مَنْ تَأَوَّلَ غَيْرَ ذَلِكَ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ^(٣) لَمَّا أَقْرَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يُوسُفُ: ٥٢] قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: وَلَا حِينَ هَمَمْتَ بِهَا يَا يُوسُفُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمْرًا بِالسُّوءِ﴾ [يُوسُفُ: ٥٣].

وَالْمَخْتَارُ فِي هَذَا أَنَّ الْهَمَّ هَمَّانٌ: هَمٌّ مَقِيمٌ يُضَافُ إِلَيْهِ عَزْمٌ وَنِيَّةٌ وَرَضَى، مِثْلُ هَمِّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَالْعَبْدُ مَاخُودٌ بِهِ.

وَالثَّانِي: عَارِضٌ وَهُوَ الْخَطَرَةُ وَالْفِكْرَةُ وَحَدِيثُ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ وَلَا عَزْمٍ، مِثْلُ هَمِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَالْعَبْدُ غَيْرُ مَاخُودٍ بِهِ مَا لَمْ يَلْفِظْ بِهِ أَوْ يَفْعَلَهُ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» ١٢/١٨٣.

(٢) انْظُرْ «عَرَائِسَ الْمَجَالِسِ» ص ١٢١.

(٣) فِي (ل): «أَنَّ الْمَلِكَ».

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٠١)، وَمُسْلِمٌ (١٢٨).

وأما من نزه الأنبياء عن الصغائر فغير جائز لوجوه:

أحدها: ليكونوا على وجلٍ من الله إذا ذكروها في الطاعة إشفاقاً منهم ولا يتكلمون على حالهم.

والثاني: ليعرفهم مواقع نعمه عليهم بالعمو عنهم.

والثالث: ليجعلهم قادة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله تعالى وترك الإيأس من عفوه وفضله، بخلاف الكبائر فإنهم مُنزهون عنها، إذ لا عذر لهم في ارتكابها لأنها تكون على وجه العناد.

واختلفوا في البرهان الذي رآه يوسف على أقوال:

أحدها: أن يعقوب مثل له فضرب يده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، رواه سعيد عن ابن عباس. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وابن سيرين وغيرهم: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على إصبغه، قال ابن جبير: فكل ولد يعقوب وُلد له اثنا عشر ولداً، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه واستحى منه. وقال قتادة: قال له يعقوب: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟! وقال ابن أبي مليكة عن ابن عباس: قال له يعقوب: يا يوسف، تزني فتكون كالطير وقع ريشه، فيذهب ليطير ولا ريش^(١).

والثاني: أنه رأى كتاباً في حائط البيت فيه مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] الآية، قاله محمد بن كعب القرظي.

والثالث: أنه لما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت له كفٌ ليس فيها عضد ولا معصم عليها مكتوب: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فقام هارباً عنها وقامت، فلما ذهب الرعبُ منهما عادا، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت الكفُ وفيها مكتوب: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] الآية، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عاد وعادت، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله لجبريل أدرك عبيد قبل أن يصيب

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.

الخطيئة، فانحطَّ جبريل عاضاً على إصبعه وهو يقول: يا يوسف، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوبٌ عند الله في ديوان الأنبياء؟! فذلك قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] قاله ابن عباس^(١).

والرابع: أنه لما همَّ بها خرجت بينهما كفُّ بلا جسد مكتوب عليها بالعبرانية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ثم انصرف الكف وقاما مقامهما ثم رجعت الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وانصرف الكف وقاما مقامهما ثم عادت الكف ثالثة وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ الآية، وانصرف الكف وقاما مقامهما؛ ثم عادت الكف رابعة، وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فولى يوسف هارباً، قاله وهب بن منبه.

قلت: ذكر هذه الأقوال الثعلبي وهي ضعيفة لوجوه:

أحدها: لأن الأنبياء قد نرَّهوا عن مثل هذا.

والثاني: لأن يوسف قد كان يعلم أن الزنا حرام وكذا مقدماته، وأن ارتكاب الفاحشة قبيح، فكان البرهان الذي رآه العصمة عن مثل ذلك الفعل. وقد قال مقاتل: صارت زليخا في عينه سوداء مشوَّهة.

وروى علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه عليه السلام أنه قال في تفسير البرهان: إنه كان عندها صنم تعبدته فغطت وجهه بثوب، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحيي أن يرانا، فقال: ويحك أنت تستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر، أفلا أستحيي أنا ممن يسمع ويبصر^(٢)؟

والثالث: أن القرآن لم يكن نزل على يوسف، فمن أين هذه الآيات التي ذكرها ابن عباس ووهب وغيرهما؟!

وقال جعفر بن سليمان: لقيت امرأة في بعض الطرق وهي ترفث، فقلت: إنكنَّ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٣.

صواحب يوسف، فقالت: واعجبا، نحن دعونا إلى لذة وأنتم أردتم قتله، وقتل النفس أعظم مما أردناه، فمن أصحابه نحن أو أنتم؟

وقال الفراء: جواب ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لَوَاقِعَ الْفِعْلِ ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: الزنا والإثم ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] أراد المختارين للنبوّة. ومن قرأها بكسر اللام كأهل مكة والبصرة أراد المخلصين لله في التوحيد والعبادة.

وقيل: إن البرهان قطفير، رآه عند الباب.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ الآية، قال علماء السير: لما رأى يوسف البرهان قام مبادراً هارباً مما أرادته منه، واتبعت المرأة لتقضي حاجتها، فأدرسته فتعلقت بقميصه فجذبتة إليها وقدته من دبرٍ لأنها كانت طالبةً ويوسفٌ مطلوبٌ، فلما خرجا ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل، وقيل: إن قطفير كان البرهان، فلما رآته هابته فسبقت بالقول إليه ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ كُنْتُ عَنْ الزَّانَا ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] يعني بالضرب بالسياط فقال يوسف: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] فهربت منها فأدركتني فشقت قميصي.

فإن قيل: فالفتى لا يكون غمازاً، فالجواب: ما ذكره نوف الشامي، فإنه قال: ما كان يوسف يريد أن يذكره، فلما قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ غضب وقال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦] واختلفوا في الشاهد على أقوال:

أحدها: أنه كان صبياً في المهد أنطقه الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس وأبي هريرة. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلّم في المهد أربعة: ابن ماشطة فرعون، وصاحب يوسف، وصاحب جريح، وعيسى بن مريم»^(١). وكان الصبي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس موقوفاً (٢٨٢١).

ابن خالتها، فلهذا قال من أهلها.

والثاني: أن الشاهد ابن عم راعيل الذي كان قاعداً على الباب مع زوجها، حكم برأيه فيما أخبر الله عنه في قدِّ القميص، قاله الحسن وعكرمة ومجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس. وكان من خاصة الملك.

والثالث: أن الشَّاهد القميصُ المقدودُ قاله ابن أبي نجيح^(١). وقال ابن عباس: حَكَّمُوا القميصَ فقال ابن عم راعيل: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدِّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فجعل بيان هذا الأمر في القميص.

ولما رأى قطفير القميص قُدِّ من دبر عرف خيانة زوجته وبراءة ساحة يوسف فقال لامرأته: ﴿إِنَّهُ﴾ أي هذا الصنيع ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ وقيل: هو من قول الشاهد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ثم أقبل قطفير على يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: يا يوسف، نداء مفرد ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الأمر واصرف عنه، ولا تكثرن هذا الحديث ولا تذكره لأحد فقد بان عذرك وبراءتك. ثم قال لامرأته: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكِ﴾ وقيل: إنما هذا من قول الشاهد، يقول: سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: المذنبين حيث راودت شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وهذا قول ابن عباس. وخطى الرجلُ يخطيء خطأً إذا أذنب، والاسم الخطيئة، وإنما لم يقل من الخاطئات لأنه لم يرد الخبر عن النساء، وإنما قصد الخبر عن من يفعل ذلك من القوم الخاطئين، ومثله: ﴿وَكَاثٌ مِنَ الْقَتَنِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

فصل في حديث النسوة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآية. والعزیز: نائب الملك؛ وقال ابن عباس: لما شاع حديث راعيل في المدينة - وهي مصر - أنها راودت فتاها عن نفسه عِبْنَ عليها وقلن: عبدها الكنعاني ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] أي: وصل حُبُّه إلى شغافها، وهي جِلْدَةٌ رقيقة تُسمى لسان القلب إذا وصل الحُبُّ إليها عسر خروجه،

(١) انظر «زاد المسير» ٢١٢/٤.

وقيل: إنما هي جلدة رقيقة في باطن القلب، وقيل: برّح بها، وقال مقاتل: إنما قلن ذلك مكرراً منهن ليرين يوسف لأنها كانت قد حجبته عنهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ تعني حديثهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ وكنّ أربعين امرأةً منهن امرأة الساقى والخباز والحاجب وصاحب السجن ﴿وَأَعَدَّتْ﴾ أي: أعدت ﴿لَهُنَّ مَتَكًا﴾ [يوسف: ٣١] وهو مجلس الطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد. قال ابن قتيبة: أصل هذا أن من دعوته ليُطعم عندك أعددت له وسادةً يتكىء عليها، فسمي الطعام متكاً على الاستعارة، قال عدي بن زيد:

فَظَلَلْنَا بِنَعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَيْبِهِ^(١)
واختلفوا فيه: قال ابن عباس: هو الأترج^(٢). وقال الضحاك: البزماورد^(٣). وقيل: الموز والبطيخ، والأصح أنه الأترج وكل ما يقطع بالسكين، دليله قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ﴿وَقَالَتْ﴾ ليوسف: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَا﴾ وزينته بأنواع الجواهر، وكان نور وجهه يشرق على الحيطان كنور الشمس والقمر ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظمنه وأجللنه وهبنه، وقرأ ابن عباس: «أكبرن» بغير هاء، ومعناه: حِضْنَ عند رؤيته ﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] أي: حزننها بالسكاكين وجرى الدم، ولم يشعرن بذلك لشغل قلوبهن بيوسف، وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الأترج.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه أنه قال: بلغني أن تسعاً من الأربعين متن في المجلس وجداً بيوسف^(٤).

فإن قيل: فلم لم تقطع زليخا يدها؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن رؤية يوسف وقعت لهنّ مفاجأة، والمرأة كانت قد اعتادت النظر إليه، وكلُّ أمرٍ يقع بغتةً يؤثر، ألا ترى أن موسى خاف من العصا لما انقلبت حية لأنه ما ألفها كذلك، ولم يخف من النار لأنه ألفها من يوم التنور.

(١) البيت لجميل بن معمر، انظر «الأغاني» ٨/ ٩٤.

(٢) انظر «زاد المسير» ٤/ ٢١٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٢٠٢.

(٤) «عرائس المجالس» ١٢٤.

والثاني : لأنهن بغين عليها ، والبغي مصرع ، فعوقبن بقطع الأيدي .

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف : ٣١] أي : ببشر ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ أي : في حبي له . ثم أخبرتهن بما هو أحسن من الصورة الظاهرة ، وهو العفاف الباطن ، وأقرت فقالت : ﴿ وَلَقَدْ زَوَدْتُهُنَّ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ ﴾ أي : امتنع واستعصى عليّ ، فقلن له : أطع مولاتك ، فقالت راعيل : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَأْمُرُهُ ﴾ أي : يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿ لَيْسَجَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] أي : الأذلاء .

وقال مجاهد : ولما راودته ثانياً اختار السجن على مباشرة المعصية ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي : أميل وأتابعهن ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] أي : العاصين .

فإن قيل : إنما راودته راعيل ، وهي واحدة ، فكيف قال : ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فالجواب : إنهن أشرن عليه ، فانصرف الكلام إليها وإليهن ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ ٣٤ ﴾ بمكرهن .

فصل في سجنه

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ ﴾ أي : للعزیز وأصحابه ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ ﴾ وهي شهادة الطفل ، وقد القميص من دُبر ، وقطع النسوة أيديهن ﴿ لَيْسَجُنَّهُ ﴾ [يوسف : ٣٥] وهذه لام اليمين . والحين : الوقت ، والمراد به هاهنا : سبع سنين ، وقال الكلبي : خمس سنين ، والأول أصح .

وقال السُّدي : قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني بين الناس ، يقول : راودتني عن نفسي ، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستني ، فحبسه بعد علمه ببراءته ، فجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف من همّه بالمرأة وتكفيراً لزلّته ^(١) .

وقال ابن عباس : عشر يوسف ثلاث عشرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال للساقية : ﴿ أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٤٣] فلبث في السجن بضع سنين وأنساه

(١) «عرائس المجالس» ١٢٤ .

الشیطان ذکر ربه، وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

قلت: أمّا قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ فإنه صادق في قوله، وأيُّ سرقة أعظم من يوسف؟

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف: ٣٦]، وهما غلامان كانا للوليد بن الريان صاحب مصر، أحدهما خبازه صاحب طعامه، واسمه: مجلث، والآخر ساقيه صاحب شرابه، واسمه: نبو. وكان الملك قد غضب عليهما فحبسهما، لأنه بلغه أن خبازه يريد أن يسمه، وأن ساقيه ماله على ذلك، وكان أهل مصر قد سئموا الملك فدسوا إليهما مالا، فأما الساقى فرجع عن الرشوة، وأما الخباز فقبلها فسمّ الطعام، فلما أحضره بين يدي الملك قال له الساقى: أيها الملك لا تأكل فإنه مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرّب منه فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ فلم يأكل، فجرّب الطعام في دابة فأنفست وهلكت، فأمر بحبسهما.

وكان يوسف في السجن يعبر الأحلام، فقال الخباز والساقى: نريد أن نجرب هذا العبد العبراني بمنام.

واختلفوا هل رأيا شيئا؟ على قولين: أحدهما: أنهما ما رأيا شيئا وإنما أرادا أن يجرباه، وهذا قول ابن مسعود. والثاني: أنهما رأيا رؤيا، قاله مقاتل.

وقال مجاهد: ولما رأى الفتيان يوسف قالوا له: والله لقد أحبيناك حين رأيناك، فقال لهما: أنشد كما الله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء شديد، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من محبتها بلاء، يشير إلى المنطقة، لما نذكر، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة العزيز فدخل عليّ من حبه بلاء، يشير إلى الحبس، فلا تحباني بارك الله فيكما. قال: فأبيا إلا حبه وألفاه وجعلا يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله، وقد كانا رأيا حين أدخلنا السجن، فقال الساقى ليوسف: رأيت كأنى في بستان فإذا نخيلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه، وقال الخباز: رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال من خبز وألوان الأطعمة وإذا بسباع الطير تنهش منه، فذلك

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً، واسم هذا القائل نبو، وقال الآخر، وهو مجلث: ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثَنَا بِنَاوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] إلى أهل السجن، كان إذا مرض أحد منهم عاده، وإذا ضاق وسَّع عليه، وإذا احتاج جمع له، وكان يداوي مرضاهم ويعزي حزينهم.

وقال قتادة: كره أن يعبر لهما رؤياهما لما علم ما فيها من المكروه، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره، فقال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ وتطعمانه وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِنَاوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره وألوانه، أي طعام أكلتم وكم أكلتم، فقالا له: هذا من فعل العرَّافين والكُهَّان، فقال: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] لأنهم كانوا يعبدون الأصنام وإنما كرر على التأكيد ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، ثم أقبل يوسف عليهما وعلى أهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال: ﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَ﴾ لكونهما فيه ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] الواحد: الذي لا ثاني له، القهار: الذي يقهر كل شيء، ثم بين ضعفها وعجزها فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ وإنما قال: «ما تعبدون» وإن كان الخطاب قد بدأ لاثنين لأنه قصد جميع من هو بمثل حالهما من الكفر. والأسماء: للآلهة والأديان والأرباب، من غير أن يكون للتسمية حقيقة ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ أي: ما القضاء والأمر والنهي ﴿إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ﴾ الذي دعوتكم إليه من التوحيد ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] ثم فسَّر المنامين لما ألحَّا عليه فقال: ﴿يَصَدِّجِي السِّجْنَ أُمَّ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقى ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي: سيده يعني الملك ﴿خَمْرًا﴾ وأما العناقيد الثلاثة التي رآها فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ويخرج بأمر الملك ويعود إلى ما كان عليه ﴿وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلَّبُ﴾ والسهال الثلاث التي رآها فإنها

ثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يخرج الملك ويُصلب ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾^(١) فقالوا: ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب، فقال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي فرغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن سعيد بن جبير عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرَى الرَّجُلُ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرِيَا» انفراد بإخراجه البخاري^(١).

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تحلّم بحلم لم يره كُلف أن يعقد بين شعرتين، ولن يفعل»^(٢).

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي رزين العقيلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ، وَإِنَّ الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»^(٣).

قال أبو سليمان الخطّابي: ومعناه: أن النبي ﷺ أقام في النبوة ثلاثاً وعشرين سنة، منها بمكة ثلاثة عشر وبالمدينة عشراً، وكان يرحى إليه في منامه في أول الأمر ستة أشهر، وهي نصف سنة، فصارت هذه المدة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٤).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يعني الساقى، والظن هنا بمعنى اليقين ﴿أذْكَرْنِي﴾ إذا خرجت ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الملك، وقل له: إن في السجن غلاماً مظلوماً ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

واختلفوا في قوله: «فأنساه»: ظاهر الكلام أن الشيطان أنسى الساقى ذكر يوسف للملك عقوبة له حيث استغاث بمخلوق مثله، وقد نصّ عليه محمد بن إسحاق.

قال ابن عباس: وتلك غفلة من يوسف حيث استغاث بمخلوق، ولو استغاث بربه لأسرع خلاصه، ولكنه زلّ فطال حبسه. والواجب تنزيه الأنبياء على كل حال.

(١) صحيح «البخاري» (٧٠٤٣).

(٢) صحيح «البخاري» (٧٠٤٢) وهو من أفراد، انظر «الجمع بين الصحيحين» (١١٦٢).

(٣) «عرائس المجالس» ١٢٦، وهو في «مسند» أحمد (١٦١٨٢).

(٤) «معالم السنن» ١٣٩/٤.

﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعِ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] واختلفوا فيه، فقال أبو عبيدة: البضع ما بين الثلاثة إلى الخمسة، وقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع، وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس: ما دون العشرة.

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين. وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين^(١).

وحكى الثعلبي عن الفراء: أن البضع لا يذكر إلا مع عشرة وعشرين إلى تسعين، قال: وكذلك رأيت العرب تفعل، ولا يقولون: بضع ومئة ولا بضع وألف.

وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقى: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك، فبكى وقال: يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة، فويل لإخوتي^(٢).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: دخل جبريل الحبس على يوسف، فلما رآه عرفه فقال يوسف: يا أخا المنذرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر ابن الطاهرين، يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك: ما استحيت مني حيث استشفعت بالمخلوقين؟ فوعزتي وجلالي لألبثك في السجن بضع سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي^(٣).

قال الكلبي: وهذه السبع غير الخمس الأول التي كانت قبل ذلك. وقال مقاتل: أجرى الله على لسان يوسف ما كان سبباً لحبسه اثنتي عشرة سنة، خمسة متقدمة وسبعة متأخرة، وهي قوله: ﴿أذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اثنا عشر حرفاً^(٤).

فصل ذكر خروجه من السجن

قال علماء السير: ولما دنا فرجه، رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا هالته، رأى

(١) «عرائس المجالس» ١٢٧.

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٧.

(٣) «عرائس المجالس» ١٢٧.

(٤) «عرائس المجالس» ١٢٧.

سبع بقرات سمانٍ يخرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف مهزليل، فابتلعت العجافُ السمانَ فدخلن في بطونهن، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أُخر يابساتٍ قد استحصدت وأفركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى علين عليها، فجمع السحرة والكهنة والقافة وقصّها عليهم وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فاعبروها ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أي: تفسرون، والرؤيا: الحلم ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُ﴾ [يوسف: ٤٤] أي: مختلطة مشتبهة وأباطيل، واحدها ضِغْتُ، وهو الحزمة من أنواع الحشيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا﴾ [ص: ٤٤] والأحلام: جمع الحلم، وهي الرؤيا^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من القتل وهو الساقى ﴿وَأَذْكُرُ﴾ أي: ذكر حاجة يوسف وقوله: «اذكرني» ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين، وقيل: بعد نسيان ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: فأطلقوني لأمضي إلى السجن، فإن فيه من يعرف تأويلها فأرسلوه. وقال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة بل بعيداً عنها: فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ فيما عبرت لنا من الرؤيا، والصديق: الكثير الصدق ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ الآية فإن الملك قد رأى هذه الرؤيا ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إلى مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] فضلك، فقد عجزوا عنها، فقال يوسف: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر، فسبع سنين مخاصب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة، فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا﴾ أي: كعادتهم في الزراعة سائر السنين ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] وإنما أشار عليه بذلك لتبقى الغلة ولا تفسد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني سبع سنين مُجدبة قحطة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني يأكلن أو يوكل فيهنّ ما أعددتن لهن، وهذا مجاز من الكلام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨] أي: تحرزون وتدخرون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] قال وهب: وهذا من علم الغيب الذي علّمه الله ليوسف، لأنه لم يكن في رؤيا الملك هذه الزيادة. وقال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها. ويغاث الناس: من الغيث، ويعصرون العنبَ خمراً، والزيتون زيتاً، والسّمسم دهنًا.

(١) إلى هنا انتهى السقط في (ب).

وقال الملك: ائتوني به ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾، قال علماء السِّير: لما رجع الساقى إلى الملك، وأخبره بتأويل يوسف لرؤياه قال ذلك، لأنه علم صدق تعبيره، فقال: ائتوني بهذا الذي عبّر رؤياي فقد وقع في قلبي صدقه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ قال له: أجب الملك، فقال للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والمرأة التي حُبست بسببها ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] أي: بصنيعهن.

فإن قيل: فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، لأن طلب الملك له لا تعلق له بالنسوة. فالجواب: إنما قصد براءة ساحته عند الملك وإظهار عذره للناس، لأن حديثه وصل إلى الملك، فأراد أن يزول ما في باطن الملك مما نُقل إليه عنه لينتفع به ويحسن ظنه ولا يبقى في قلبه أثر.

وقد روينا في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ولو لبثت في السِّجْنِ ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١). وقد ذكرنا الحديث في سيرة الخليل عليه السلام.

وذكر الثعلبي حديثاً فقال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجب من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات السّمان والعجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم بشيء حتى يُخرجوني، أو أشرت عليهم أن يُخرجوني، ولقد عجب من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسولُ فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] الآية، ولو كنت مكانه ولبثت في السِّجْنِ ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم إلى الباب وما ابتغيت العذر إنّه كان لحليماً ذا أناة»^(٢). وكل هذا مدح ليوسف عليه السلام.

وقال ابن عباس: لو خرج يوسف قبل أن يعلم الملك شأنه، مازالت في نفس العزيز منه حاجة، يقول: هذا الذي راود امرأتي.

(١) صحيح «البخاري» (٣٣٧٢)، وصحيح «مسلم» (٢٣٨).

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٨، وتفسير الثعلبي ٥/٢٢٨-٢٢٩، وأخرجه الطبري ١٦/١٣٦، وابن أبي حاتم ٧/

٢١٥٦ مرسلًا عن عكرمة.

ولما عاد الرسول إلى الملك وأخبره بما قال يوسف، دعا الملك النسوة وامرأة العزيز وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: ما شأنكن وما قصتكن ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: زنا، وإنما امرأة العزيز أخبرتنا بأنها راودته.

فإن قيل: إنما راودته امرأة العزيز، فكيف قال: «إذ راودتن»؟ فالجواب: لما وافقنها في قولهن ليوسف: أطع سيدتك، صار كأنهن راودنه جميعاً.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنَّ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ أي: ظهر وتبين وبان الصحيح من الكذب ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]. فقال يوسف: ﴿ذَلِكَ﴾ [يوسف: ٥٢] الذي فعلت من ردِّي الرسول إليه في شأن النسوة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز قطفير ﴿أَنِّي لَمَ أَخُنَّهُ بِالْغَيْبِ﴾ في زوجته في حال غيبته عني وخلوتي بها، قال ابن عباس: فقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال مقاتل: اتصل قول يوسف ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ بقول المرأة ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] الذين يخونون مواليهم في نسائهم.

ومعنى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: بالفاحشة ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿[يوسف: ٥٣] فلما ظهر للملك عذر يوسف وعرف أمانته وفضله قال: ﴿أَتُؤْنِنِي بِهِ﴾ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴿[يوسف: ٥٤] لأنه كان قد بلغه حديث زليخا. فلما ظهر برهانه زال ما كان في نفسه، وهذا من معجزات يوسف عليه السلام.

قال مقاتل: ولما جاءه الرسول قال له: أجب الملك، قال: سمعاً وطاعة، أما الآن فنعم. ثم دعا لأهل السجن وبكى وبكوا لفراقه لأنه كان محسناً إليهم، ووقف على باب السجن ودعا لهم فقال: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار. قال وهب: فهم أعلم الناس بأخبار الدنيا، ثم كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء^(١). ثم دخل على الملك

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٢٨.

فسلّم عليه بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة وازداد به عجباً، ورأى حسنه وجماله فدهش، وقربه وأكرمه، وقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] ثم قال له: أحبُّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، قال: نعم أيها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب غرّ حسان كشف لك عنهن النيل، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً ويعجبك حسنهن، إذ نضب النيل وغار ماؤه، فخرج من حماته ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر مقلّصات البطون، ليس لهن ضرور ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وخراطيم كالكلاب والسباع، فافترسن السمان فأكلنهن ومزقن جلودهن، فبينما أنت تعجب إذا بسبع سنابل خضر وسبع آخر سود، فعجبت وقلت: المنبت واحد، فبينما أنت تقول في نفسك ذلك إذ هبت ريح فذرت اليابسات على الخضر اليانعات وأشعلت فيهن ناراً فأحرقتهن، قال: صدقت فما تعبير هذه الرؤيا؟ قال: أرى أن تجمع الطعام وتزرع مهما قدرت عليه في هذه السنين المخصبات، وتجعل الطعام في الأهرام^(١) بحاله في سنبله وقصبه، ليكون علفاً للدواب ويحفظ الطعام من التغير، وإن الناس يشترون منك في الأعوام المجدبة بمال لا تسعه خزائنك، فقال: ومن لي بهذا ومن يكفيني أمره فقال يوسف: أنا، فحينئذ قال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] أي: كاتب حاسب حافظ لأمانتي^(٢).

فإن قيل: قد وصف نفسه بالأمانة والحفظ، وكان ينبغي أن يصفه غيره، فالجواب: إنه علم بسني المجاعة والقحط، فخاف أن يتولّى أمر الناس من يضيعهم، فسأل ذلك لأنه مؤيد بالوحي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾ [الضحى: ١١]. فتوقف الملك سنة، ويوسف عنده في قصره.

(١) بيوت معدة لحفظ الطعام.

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٩، وتفسير الثعلبي ٥/٢٢٥-٢٢٦.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ لو لم يَقُلْ ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ لاسْتَعْمَلَهُ من سَاعَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَخْرَهَ سَنَةً»^(١).

وحكى الثعلبي عن [ابن] أبي الهذيل قال: أقام يوسف عند الملك، فقال له الملك: أريد أن تخالطني في كل شيء سوى أني أنف أن تأكل معي. فقال يوسف: إني أحق أن أنف، أنا ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله، فكان يأكل بعد ذلك معه^(٢).

وروى مقاتل: أن عمر بن الخطاب عرض على أبي هريرة الإمارة فامتنع، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ الْإِمَارَةَ لَمْ يَعِدْ فِيهَا» فقال له عمر: قد طلب الإمارة من هو خير منك يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥]^(٣).

فإن قيل: فلم لم يستثن يوسف وقال: إني حفيظ عليم إن شاء الله؟ قلنا: خص الله هذه الأمة بالاستثناء دون سائر الأمم، ولأن يوسف على ثقة من أمانته بخلاف الغير. ودلت الآية على أن الوالي ينبغي أن يكون جامعاً بين العلم والأمانة؛ لأنه متى كان علمه بغير أمانة ضاع ما يلزم حفظه، ومتى كانت أمانة بغير علم لم يحسن بالوالي أن يتصرف.

وقال ابن عباس: لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلل بالدر والياقوت، وضرب عليه كِلَّةً^(٤) من استبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، وعليه ثلاثون فراشاً وستون

(١) تفسير الثعلبي ٢٣١/٥، وعرائس المجالس ١٢٩-١٣٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٢٣٢/٥، وعرائس المجالس ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/١٤٧، ١٤٨، وابن أبي حاتم ٧/٢١٥٩، وما بين معكوفين من المصادر.

(٣) تفسير الثعلبي ٢٣٢/٥، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» ١٠/٢٥، والذهبي في «السير» ١٢/٩٤ من حديث عمر بن الخطاب قال: «من حرص على الإمارة لم يعدل فيها».

(٤) الكِلَّةُ: الستر الرقيق.

مُفْرَمَةً^(١)، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجّحاً ووجهه كالقمر يرى فيه الناظر وجهه من صفائه، ودخل قطفيرُ بيته، وفوّض إليه الملك وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، ثم لم يلبث قطفير أن مات، فزوج الملك يوسفَ راعيلَ امرأةَ قطفير فلما دخل بها قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني، فإنني كنت امرأةَ حسناء ناعمة كما ترى في دنيا واسعة، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وجمالك، فغلبتني نفسي.

ولما دخل بها وجدها بكرّاً، فولدت له رجلين أفرائيم وميشا، وولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشع، وولد لميشا موسى نبي آخر قبل موسى بن عمران.

قال ابن قتيبة: ويزعم أهلُ التوراة أنه هو الذي رأى الخضرَ عليه السلام^(٢).

وقد روي أن يوسف تزوج امرأة العزيز بعد مدة من ملكه وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: واستوسق ليوسف ملك مصر، وأقام فيهم العدل وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناه ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] أي: الصابرين على مثل ما أصاب يوسف وصبر عليه في الجب والسجن والرق وغيره.

وقد أكثر الشعراء في قصته فقال البحري^(٣):

أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ يُوسُفَ أَسْوَةٌ لِمِثْلِكَ مَحْبُوساً عَلَى الظُّلْمِ وَالْإِفْكِ
أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ فِي الْحَبْسِ بُرْهَةً فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْمُلْكِ
ويوسف أوّل من عمل الكاغد^(٤).

وأمر الناس فزرعوا، وترك الزرع في سنبله في السنين المخصبة، ودخلت السنون المجدبة وكان يوسف قد دعا الملك إلى الإسلام فأسلم هو وأهل بيته، فهذا في الدنيا

(١) في تفسير الثعلبي ٢٣٢/٥: مرفقة، وفي «عرائس المجالس» ١٣٠-١٣١: نمرقة، وكلها بمعنى مَحْشِي الفِراش وما يوضع عليه من ثياب ملونة فيها رقم ونقوش.

(٢) «المعارف» ص ٤١.

(٣) «ديوان البحري» ٣/١٥٦٤، وعرائس المجالس ١٣٠.

(٤) الكاغد: القرطاس.

﴿وَلَا جُرِّ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ (٥٧) [يوسف: ٥٧] أي: ثواب الآخرة.

وقال ابن الكلبي: جاع الناس واشتد الأمر، وجاء هولٌ لم يُعْهَدُ مثله، ولما كان ابتداء القحط، بينما الملك ذات ليلة نائم استيقظ وقد أصابه جوعٌ شديد فصاح: يا يوسف الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط. ودخلت السنة الأولى، باعهم يوسف الطعام بالنقود حتى لم يبقَ عندهم درهم ولا دينار حتى قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، ثم باعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء بأسرهم، ثم باعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع والدور حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم حتى صار جميع من بمصر عبيداً له. فقال الناس: تالله ما رأينا كالיום ملكاً أجلاً ولا أعظم من هذا^(١).

وقال وهب: مدَّ السيل بمضَرَ فحسر عن غارٍ في أصل جبل المُقَطَّم، فأبدى عن بيتٍ عليه مصراعان، ففتحوهما فإذا بيهُو فيه سرير من ذهب، وعليه امرأةٌ عليها سبع عقود وسبع أساور، وعند رأسها لوحٌ من ذهب فيه مكتوب: أنا شادةُ الملكة بنتُ الملكِ الفلاني أصابتنا مجاعةٌ في زمن يوسف فبذلت صاعاً من درٍّ في صاع من برِّ فلم يوجد، فطحنت الدرَّ وأكلته فمِتُّ جوعاً.

ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت الله خولني، أو كيف رأيت صنَعَ الله فيما خولني؟ فماذا ترى؟ فقال: نحن لك تبع، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أموالهم وأملاكهم.

وروي: أن يوسف كان لا يشبعُ في تلك الأيام من طعام، فقيل له: أتجوع ويبيدك خزائن مصر؟ فقال: أخاف إن شبت نسيت الجياع. وأمرَ خبازَ الملكِ وطباخه وساقيه أن يجعلوا طعامه نصفَ النهار، فلذلك جعل الملوكُ طعامهم نصفَ النهار، وما فعل ذلك إلا لئلا ينسى الملكُ الجياع.

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٠-١٣١.

وقال ابن الكلبي: واشتغل يوسف عن زليخا فانحنت وعميت وغيرها الزمان.

ذكر دخول إخوة يوسف مصر لطلب الميرة وما جرى لهم معه

قال علماء السير: ولما وقع القحط بمصر عمَّ ذلك الشام وغيره، فقصد الناس مصرَ من كل ناحية يمتارون، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، وكان يوسف لا يمكِّن أحداً من حمله الطعام إلى الشام سوى حمل بعير واحد، تقسيطاً بين الناس وتوسعةً عليهم، فأرسل يعقوب بنيه العشرة، وكان منزلهم بالعربيات من أرض فلسطين بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاء، وأمسك بنيامين عنده، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وهم له منكرون^(١).

فإن قيل: فلم أنكروه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: ما ذكره ابن عباس قال: كان بين أن ألقوه في الجب وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

والثاني: لأنه كان متزيياً بزِّيِّ فرعون مصر، عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير من ذهب، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر، فلذلك أنكروه، قاله مقاتل.

والثالث: أنه كان بينه وبينهم ستر، قاله مجاهد.

والرابع: كان على وجهه برقع من اللؤلؤ، قاله الضحاك.

والخامس: لأنهم جنوا عليه، والجناية تورث النُّكْرَةَ، والوفاء يورث المعرفة، ولما أراد الله من إنفاذ قضائه وقدره^(٢).

فلما نظر إليهم يوسف كلّموه بالعبرية فقال: من أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم عيونٌ جئتم تنظرون عورةَ بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٣١، وتفسيره ٢٣٣/٥، وزاد المسير ٢٤٧/٤.

صديق يقال له: يعقوب، نبي من أنبياء الله، قال: فكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلى به، قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا نعرف بها أحداً ولا يعرفنا أحد. قال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك. قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنا لفاعلون. فقال: دعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون^(١)، وكان أبرهم بيوسف وأحسنهم رأياً فيه، فخلّفوه عنده فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ يعني حمل لكل واحد بغيراً بعددهم ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي: لا أبخس الناس شيئاً وأتم لهم كيلهم وأزيدهم حمل بغير يعني آخر لأخيكم، وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩] ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾ [يوسف: ٦٠] أي: لا تقربوا بلادني ﴿قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نخدعه حتى يرسله معنا ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١] ما أمرتنا به.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يأخذ منهم رهينة في المرة الأولى، بل ترك بضاعتهم في رحالهم. ثم قال يوسف «لفتيته^(٢)»، أي: لغلمانه: ﴿أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وفتيته هم الذين يكيلون الطعام، والبضاعة هنا ثمن طعامهم.

وروي الضحاك عن ابن عباس قال: كانت بضاعتهم النعال والأدم والرحال والأوعية. وقيل: كانت دراهم فوضعوا كل صرة في حمل ولم يعلم بها صاحبها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢] إلى.

فإن قيل: فلم فعل ذلك؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى، قاله

(١) لعل الصواب: «يهوذا» فهو كان أبرهم بيوسف كما تقدم في الصفحة ٤٧٨، وسيرد في الصفحة ٥١٤ أنه هو الذي كان محتسباً بمصر.

(٢) كذا في النسختين (ب) و(ل). وهذه قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر ونافع وأبي جعفر المدني ويعقوب. وقرأ حفص وخلف والكسائي وحمة: لفتيانه، بنون بعد الألف، انظر التيسير ١٢٩، والنشر ٢٩٥/٢.

ابن الكلبي.

والثاني: خشي أن يضرَّ أخذه منهم ذلك بأبيهم إذ كانت السنة سنة جَدْبٍ وقحط فأحبَّ أن ترجع إليه، وإنما قصد أن يتسع بها أبوه.

والثالث: لأنه رأى [لؤمًا]^(١) أخذ ثمن الطعام من إخوته وأبيه مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون تکرماً وتفضلاً.

والرابع: لأنه علم أن أمانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة، وأنهم لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وطمعاً في كرمه.

والخامس: أنه قصد أنهم إذا رأوها لم يروا أخذها مع الطعام لاحتمال أن كيَّال الطعام نسيها فيرجعون إليه، لا لأنهم أدَّوا الأمانة، لأن خيانتهم قد ظهرت في حق يوسف، وإنما يرجعون بها لئلا يراهم الملك بعين الخيانة، فلا يمكِّنهم من دخول مصر، فيموتون جوعاً.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامةً لو كان رجلاً من ولد يعقوب لما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا. ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: أخذ الملك رهينةً، وقصوا عليه القصة، قال: ولم أخبرتموه؟ قالوا: لأننا كلّمناه بالعبرية فقال: أنتم جواسيس.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا﴾ بِنِيَامِينَ ﴿نَكْتَلُ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣] فقال يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ومعناه: وأي شيء نطلب وراء هذا؟ أوفى لنا الكيل وردَّ علينا الثمن، وأرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم كأنهم قالوا: ما نريد منك دراهم ﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نشترى لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال:

(١) ما بين معقوفين من عرائس المجالس ٣٢، وتفسير البغوي ٤٣٥/٢، و«زاد المسير» ٤/٢٤٩-٢٥٠.

مَارَ أَهْلَهُ يَمِيرُهُمْ مِيرًا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: من أجله ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥] لا كلفة فيه ولا مشقة.

وحكى الثعلبي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: حمل حمار، قال: وهي لغة، يقال للحمار: بعير، ولم يكن بأرض كنعان جمال وإنما كانت الحمير.

فقال: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ميثاقاً وعهداً ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: حتى تحلفوا لي أن لا تغدروا بأخيكم ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فتهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه عهدهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: شاهد وحافظ بالوفاء، وقيل: كفيل، ولما خرجوا من عنده قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

فإن قيل: فالدخول من باب واحد أكثر في الهيئة، فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيبةٍ وصورٍ حسانٍ وقاماتٍ ممتدة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا عند دخولها لئلا تصيبهم العين.

والثاني: أن معناه: لا تسألوا الملك حاجةً واحدةً بأجمعكم، بل كل واحد يسأله حاجة.

والثالث: تفرقوا لعلكم تظفرون بيوسف، ثم قال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ومعناه: أن المقدور كائن، وأن الحذر لا ينفع من القدر ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] أي: المفوضون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ وكان لمصر أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها كلها ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من قدره ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ والحاجة: هي شفقتة عليهم من العين ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يعني يعقوب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

فإن قيل: فكيف جاز ليوسف أن يفرق بين يعقوب وبين بنيامين، مع علمه بما في قلب أبيه من الحزن عليه وأنه يتسلى به.

فالجواب من وجوه: أحدها: أنه قصد تنبيه يعقوب بذلك على حياة يوسف. والثاني: أنه قصد سرور يعقوب بردّ يوسف وأخيه عليه جملة. والثالث: أن هذه التفرقة تكون سبباً للوصلة.

ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين قال لهم: أهلاً وسهلاً بكم، وأكرم مثواهم وقال: سوف أفعل معكم ما ترون. وقال ابن الكلبي: لما دخلوا عليه قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فأجلس كل اثنين منهم على مائدة، وبقي بنيامين وحده يبكي ويقول: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه. فقال يوسف: قد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وأكل معه، ثم فرش لكل اثنين فراشاً، وفرش لبنيامين فراشاً فبكى فقال: نم معي على الفراش، فنام فجعل يضمه إليه ويشم ريحه ويبكي، فلما أصبح أنزلهم منزلاً وأحسن ضيافتهم، وقال: أرى هذا الرجل الذي أتيتم به ليس معه ثابن، فسأضمه إليّ فيكون منزله عندي. وخلا بأخيه فقال: ما اسمك؟ فقال: بنيامين، وقال: وأمك؟ فقال: راحيل، قال: فهل لك أخ؟ قال: كان وهلك، فقال يوسف: أتحب أن أكون أخاك؟ فقال: من لي بذلك، ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل، فبكى يوسف وقال: إني أنا أخوك وقام واعتنقه^(١). فذلك معنى قوله: ﴿ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ثم قال له: اكنم هذا عن القوم ﴿فَلَا نَبْتَسِّسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا.

وقال عبد الصمد بن معقل، سمعت وهب بن منبه، وقد سئل عن قول يوسف لأخيه: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ فكيف أخافه حين أخذ بالصُّواع، وقد زعمتم أن يوسف لم يزل متنكراً لهم إلى آخر الأمر؟ فقال وهب: لم يعترف له بالنسبة، ولكنه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، ولم يقل له: أنا يوسف على الفور.

ثم طلب إخوة يوسف منه الكيل فأمر بذلك، ثم أمر بالسقاية أن تجعل في رحل بنيامين.

والسقاية: المشربة التي يشرب بها الملك، وكانت من ذهب مرصعة بالجواهر،

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٣.

وقيل: كانت من فضة، جعلها يوسف مكيالاً لثلاثين كمالاً بغيرها. وقال ابن عباس: كان لأبي في الجاهلية مثلها وهي الصواع واحد.

وقال السدي: جعلت في رخل بنيامين ولم يشعر.

وقال كعب: لما قال له ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال بنيامين: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: قد علمت اغتنام والدي بي، ومتى حبستك ازداد غمه فلا يمكنني هذا إلا بعد أن أنسبك إلى أمر فظيع لا يليق^(١) بك، فقال: افعل ما بدا لك فإني لا أفارقك. قال: فإني أدسُّ صاعِي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة، قال: افعل، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي: هياً لهم أسباب الميرة ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ثم ارتحلوا مرحلة، وأرسل يوسف من ردهم وحبسهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا الْعَيْرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الجمال، قال الفراء: لا يقال: عير إلا لأصحاب الإبل، وقال مجاهد: كانت العير حميراً ﴿إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ثم قالوا لهم: ألم نكرم مثواكم ونوفقكم الكيل ونحسن إليكم؟ قالوا: فما الذي بكم؟ ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: عطفوا على المؤذن وأصحابه وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ؟﴾ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ وقرأ أبو هريرة: «صاع الملك» ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: كفيل. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناه: والله ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، ولما دخلنا بلادكم كعمنا^(٢) أفواه الإبل لثلاثين ترعى ما ليس لها، فكيف نسرق وقد رددنا عليكم الدراهم؟ فلو كنا سارقين ما رددناها. فإن قيل: فكيف سمّاهم يوسف سارقين وما سرقوا؟ فالجواب: إنه من قول المنادي، ولو كان من قول يوسف فقد سرقوه.

﴿قَالُوا﴾ يعني المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥] وهو أن يسلم إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق. فقال المنادي: لا بد من

(١) من هنا بدأ خرم في (ب) ينتهي بعد ثلاث صفحات.

(٢) كعم البعير: شدّ فاه لثلاثين يعض أو يأكل.

تفتيش رجالكم. وانصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ دفعاً للتهمة، وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً^(١). قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتش ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به^(٢). حتى إذا لم يبق إلا بنيامين قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقال إخوته: والله لا يُتْرَكُ حتى يُنْظَرَ في رحله، فإنه أطيبُ لنفسك ولنفسنا، ففتحوا متاعه واستخرجوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وإنما قال: «استخرجها»، لأن الصاع يذكر ويؤنث، وقيل: رده إلى السقاية، وقيل: إلى السرقة.

واختلفوا في معنى قوله ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ قال مجاهد: يعني كما فعلوا به في الابتداء فعلنا بهم في الانتهاء، لأن الله تعالى أخبر عن يعقوب أنه قال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ والكيد جزاء الكيد.

وقال ابن عباس: معناه «كذلك كدنا ليوسف» أي: ألهمناه وصنعنا له حتى ضمَّ أخاه إلى نفسه وحال بينه وبين إخوته بعلَّة كادها الله له، فاعتلَّ بها يوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ ويضمُّه إلى نفسه ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه وقضائه، وبه قال قتادة.

وقال الضحاك: إن يوسف لم يتمكن من أخذ أخيه بنيامين وحبسه عنده في دين الملك، أي: في حكمه، لولا ما تطفنا له حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجري على لسان إخوة يوسف أن جزاء السارق الاسترقاق فأقرُّوا به وسلَّموا أخاهم، وكان ذلك مراد يوسف به.

﴿نَزَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على درجة إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] قال الحسن: ما على ظهر الأرض عالم إلا وفوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

وقال وهب: ولما أخرج الصُّوع من رحل أخيه نكس إخوته رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين وقالوا: يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٤.

(٢) «عرائس المجالس» ١٣٥.

الصُّواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال بهم منكم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، وُضِعَ الصُّواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحلكم.

ثم قالوا ليوسف: ﴿إِنْ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] واختلفوا في ذلك على أقوال:

أحدها: أن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه في الطريق، قاله سعيد بن جبيرة وقتادة.

والثاني: إن أمه أمرته أن يسرق صنماً لخاله كان يعبد، وكانت مسلمة، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه جلس يوماً مع إخوته على طعام فأخذ يوسف عرقاً فخبأه فعيروه، قاله الربيع.

والرابع: أن سائلاً جاءه فسرق بيضةً من البيت فدفعها إليه فعيروه بها.

والخامس: إنما كانت دجاجة دفعها إلى السائل، قاله سفيان بن عيينة.

والسادس: أنه سرق عناقاً فدفعها إلى السائل، قاله كعب.

والسابع: أنه كان يخبأ من المائدة طعاماً للفقراء، قاله وهب.

والثامن: أنه كان مع أبيه عند خاله لابان فأخذ تمثلاً صغيراً من ذهب، قاله زيد بن أسلم.

والتاسع: أن أول ما دخل من البلاء على يوسف أن أمه لما وضعت رفته يعقوب إلى

أخته بنت إسحاق فأقام عندها حتى ترعرع وأحبته حباً شديداً، فطلبه يعقوب منها

فقال: لا صبر لي عنه فدعته عندي أياماً، وعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق

يتوارثونها بالكبر، وكانت أكبر ولد إسحاق، فشدها على وسطه تحت ثيابه، وكان من

سنتهم أن السارق يُسرق بسرقة، فلما جاء يعقوب يطلبه قالت: فقدت المنطقة، ثم

وضعت من كشف ثياب يوسف فظهرت المنطقة، فأخذته، فلم يقدر عليه يعقوب حتى

ماتت أخته، قاله ابن عباس وابن أبي نجیح والضحاك ومجاهد^(١). وهذا المثل السائر:

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٥.

عُذْرُهُ شَرٌّ مِنْ جُرْمِهِ، كَذَا قَوْلُ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .
 وَقَالَ مِقَاتِلُ: أَقْبَلُوا يَلْطَمُونَ وَجْهَ بَنِيَامِينَ وَهُوَ يَقُولُ: وَشَبِيهَ إِبْرَاهِيمَ مَا سَرَقْتُ،
 وَيَبْكِي، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَقْصُرُوا عَنْ ضَرْبِهِ وَمَعِيرَتِهِ ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أَي:
 أَضْمَرَهَا ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ وَمَعْنَى أَسْرَهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْمَقَالَةِ فَأَنْتَ لِلْكِنَايَةِ وَ﴿قَالَ أَنْتُمْ
 شَرُّ مَكَانًا﴾ أَي: شَرٌّ مَنْزِلًا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّنْ رَمَيْتُمُوهُ بِالسَّرْقَةِ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 تَصِفُونَ﴾ [يُوسُفَ: ٧٧] أَي: تَكْذِبُونَ.

قَالَ مِقَاتِلُ: ثُمَّ إِنْ يُوسُفَ أَخَذَ الصُّوَاعَ بِيَدِهِ فَفَنَقَرَهُ^(١) ثُمَّ أَدْنَاهُ إِلَى أُذُنِهِ وَقَالَ: هَذَا
 الصُّوَاعُ يَخْبِرُنِي أَنْكُمْ كُنْتُمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا وَأَنْكُمْ أَنْطَلَقْتُمْ بِأَخٍ لَكُمْ صَغِيرًا فَالْقَيْتُمُوهُ فِي
 جَبٍّ ثُمَّ بَعْتُمُوهُ، فَقَامَ بَنِيَامِينَ وَسَجَدَ لَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ سَلْ صُوعَاكَ هَلْ أَخِي حَيٌّ
 أَمْ لَا؟ فَفَنَقَرَهُ فَقَالَ: هُوَ حَيٌّ وَسَوْفَ تَرَاهُ^(٢).

فَإِنْ قِيلَ: فَالصُّوَاعُ لَا يَنْطِقُ، قُلْنَا: هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ وَالتَّوَسُّعَةِ، فَقَالَ بَنِيَامِينَ:
 أَيُّهَا الْمَلِكُ سَلْ صُوعَاكَ فَيَخْبِرُكَ بِالْحَقِّ مَنْ الَّذِي سَرَقَهُ وَجَعَلَهُ فِي رَحْلِي؟ فَفَنَقَرَهُ وَقَالَ:
 إِنْ صُوعَايَ غَضِبَانُ يَقُولُ: كَيْفَ تَسْأَلُنِي عَنْ صَاحِبِي وَقَدْ رَأَيْتَ مَعِ مَنْ كُنْتُ؟ وَكَانَ بَنُو
 يَعْقُوبَ إِذَا غَضِبُوا لَمْ يَطَاقُوا، فَغَضِبَ رُوَيْبِيلُ وَقَالَ: وَاللَّهِ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَتَتْرُكُنَا أَوْ
 لِأَصِيحَنَّ صِيحَةً لَا يَبْقَى بِمَضْرُأَةِ امْرَأَةٍ حَامِلٌ إِلَّا وَأَلْقَيْتَ مَا فِي بَطْنِهَا، وَقَامَتْ كُلُّ شَعْرَةٍ
 فِي جَسَدِهِ فَخَرَجَتْ مِنْ ثِيَابِهِ، وَكَانَ بَنُو يَعْقُوبَ إِذَا غَضِبَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ فَمَسَّهُ آخِرُ مَنْ وَلَدَ
 يَعْقُوبَ ذَهَبَ غَضَبُهُ فَقَالَ يُوسُفَ لِابْنِهِ: قُمْ إِلَيْهِ فَمَسَّهُ، ففَعَلَ، فَذَهَبَ غَضَبُهُ، فَقَالَ
 رُوَيْبِيلُ: إِنْ فِي هَذَا الْبَلَدِ لِبَذْرًا مِنْ بَذْرِ يَعْقُوبَ.

فَلَمَّا أَصْرَّ يُوسُفَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ إِلَيْهِمْ أَخَاهُمْ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا
 كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَزَلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [يُوسُفَ: ٧٨] فِي أَفْعَالِكَ وَقَبُولِكَ لَنَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى هَذَا الْإِحْسَانِ وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ؟ فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:
 أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَعْنَاهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إِنْ أَطْلَقْتَ أَخَانًا. وَالثَّانِي: بِإِنزَالِكَ إِيَّانَا وَإِكْرَامَنَا
 وَعَدَمِ الْمَوَازَاةِ بِمَا قُلْنَا.

(١) هُنَا يَنْتَهِي الْحَرَمُ فِي (ب) الَّذِي أَشِيرُ إِلَيْهِ قَرِيبًا.

(٢) انْظُرْ «عَرَائِسُ الْمَجَالِسِ» ١٣٥.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: مَنْ سَرَقَ احْتِرَازاً مِنَ الْكُذْبِ ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩] إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئاً بِسَقِيمٍ.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ أي: يَسُّوا أَنْ يَجِيبَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ واختلَفوا فيه، قال ابن عباس: رُوَيْبِلٌ، وقال مجاهد: شمعون، وقال مقاتل: يَهُودَا، وكان أسنهم وأعقلهم، وقال ابن إسحاق: لاوي ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا﴾ أي: عهداً ﴿مَنْ اللَّهُ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: قَصَّرْتُمْ ﴿فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ﴾ أي: بأرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها وترك أخي فيها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] الفاصلين بين الناس.

قوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ﴾ هذا قولٌ أخيهم يَهُودَا الذي كان محتبساً بمصر ﴿فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ﴾ صُوعَ الْمَلِكِ ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ وليست هذه شهادة، وإنما هي إخبار عن ما نُسِبَ إلى بنيامين من السرقة ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] أي: ما كنا نعلم أن ابنك سيسرق، ولو علمنا ما أخذناه معنا. وقال الضحاك: الغيب بلغة حمير هو الليل، يعنون أنه سرق ليلاً وهم نيام.

﴿وَسَّئِلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر ﴿وَالْعِيرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: القافلة، ومن صحبناه من جيراننا، وكل هذا قالوه ليزيلوا التهمة عنهم.

فلما وصلوا إلى أبيهم وأخبروه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: حَسَنَتْ وَزَيَّنَتْ، ومعناه فصبري جميل ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحزني على فقدهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣] فيما حكم علي ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أَعْرَضَ ﴿وَقَالَ يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ قال مقاتل: أقام ست سنين لم يبصر بهما ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] والكظيم: المكظوم الممسك على الحزن الذي لا ينتهي عنه، ومنه كظم الغيظ.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ يُعْطِ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ» ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] عند المصيبة

إِلَّا هَذِهِ الْأُمَّةَ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ حِينَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَرْجِعْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] (١). وقال الفراء: معناه يا ربِّ ارحم شدة أسفي على يوسف.

وقال الحسن البصري: بين خروج يوسف من حجر أبيه وبين أن التقيا ثمانون عاماً لم تجفَّ فيها عينا يعقوب، وما كان على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وفي رواية: مات أخو الحسن البصري فأقام سنة لا ينام الليل، فقيل له في ذلك فقال: الحمد لله الذي لم يجعل حزن يعقوب على ولده عاراً.

فإن قيل: فقوله: ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ لا يوافق فصبرٌ جميل، قلنا: قد ذكرنا أن معناه يا ربِّ ارحم شدة أسفي على يوسف فلا يكون شكاية.

وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: لما قال: ﴿يَتَأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ نودي: أتشكونا وقد أخذنا منك واحداً وأبقينا أحد عشر؟

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: دنفاً، وقيل: هالكاً فاسداً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي: الموتى.

فلما أغلظوا له ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إليكم، والبث: أشدُّ الحزن، وقيل: إنما سمِّي البثُّ أشدَّ الحزن لأن صاحبه لا يصبرُ عليه حتى يبثَّهُ، أي: يظهره.

وحكى الثعلبي قال: دخل على يعقوب جار له فقال له: ما لي أراك قد انهشمت وفنيت، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ فقال: همُّ يوسفَ فعل بي هكذا، فأوحى الله إليه، يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربِّ خطيئةٌ أخطأتها فاغفرها لي، قال: قد غفرتها لك، وكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وفي رواية: أن يعقوب كبر حتى سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بخرقة، فقال له رجل: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله

(١) «عرائس المجالس» ١٣٧، وتفسير الثعلبي ٢٤٧/٥، وأخرجه الطبري ٢٢٤/٣، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٢) من قول سعيد بن جبير، قال البيهقي: رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم منه إلى النبي ﷺ.

إليه، وذكره.

وفي رواية: وعزّتي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما، وإنما وجدت عليك لأنك ذبحت شاةً فقام ببابك مسكين فلم تطعمه منها شيئاً، وإن أحبّ خلقي إليّ الأيتام ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين، فصنع طعاماً وقال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب.

وذكر الثعلبي عن وهب قال: أوحى الله إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست يوسف عنك ثمانين سنة؟ قال: لا يا إلهي، قال: لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك فلم تطعمه. وفي رواية: وقف على بابك سائلٌ اسمه دانيال فرددته خائباً، فانصرف حزيناً.

قال: وقال وهب والسّدي وغيرهما^(١): جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف وهو في السّجن فقال: هل تعرفني أيها الصديق؟ قال: أرى صورةً طاهرةً وريحاً طيبة، قال: أنا الروح الأمين، رسولُ ربِّ العالمين، قال: فما الذي أدخلك مدخل المذنبين، وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت والأرضين بالنبين وقد طهّر بك السجن وما حوله يا أظهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: وكيف لي باسم الصديقين، وأنا في عداد المذنبين، وقد دخلت مدخل العاصين؟ قال: لأنك لم تعصِ ربّك ولم تطع امرأة العزيز فلذلك ألحقك الله بآبائك الصالحين، قال: هل لك علمٌ بيعقوب؟ قال: نعم وهب الله له الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فما له من الأجر؟ قال: أجرُ مائة شهيد، قال: أفتراني لاقية؟ قال: نعم؛ فطابت نفس يوسف وقال: ما أبالي ما لقيتُ إن رأيتُه.

وقال مقاتل: أوحى الله إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك؟ قال: لا، قال: لأنك ذبحت شاةً وهي تنظر إلى سخلتها، فعاقبتك بفراق ولدك لتذوق ألم الفراق.

وقال أبو حنيفة النُّوبي: فأراه دماً بدم، وفرقةً بفرقة، وحرقةً بحرقة، فقال: يا إلهي

(١) تفسير الثعلبي ٢٤٩/٥-٢٥٠، و«عرائس المجالس» ١٣٧.

فولدي حيّ؟ قال: نعم وسوف تراه. فما ذبح بعدها شاة ولا أكل إلا مع مسكين أو يتيم. وقيل إنه مال إليه بقلبه فابتلي بفراقه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] قال ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنكم ستسجدون له.

وقال مجاهد: دخل ملك الموت على يعقوب فقال له: هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فطمع في لقائه.

وقال مجاهد: خرج يعقوب إلى البرية فرأى ذئباً فسلم عليه وكلمه فقال له يعقوب: أكلتم ولدي وقرّة عيني، قال: لا والله يا يعقوب، إنّ الله حرّم علينا لحوم أولاد الأنبياء، فحينئذ قال لبيه: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا﴾ أي: تقنطوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من فرجه ورحمته ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقال ابن عباس: التحسس - بالحاء المهملة - في الخير، وبالجميم في الشر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وفي الآية إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: يا أيها الملك بلغة حمير ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الجوع والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ﴾ أي: قليلة كاسدة غير نافقة.

واختلفوا في هذه البضاعة ما كانت، على أقوال:

أحدها: كانت دراهم زيوفاً لا تنفق إلا بوضيعة^(١)، قاله ابن عباس. والثاني: أنها متاع الأعراب الصوف، قاله باذان.

والثالث: السمن. والرابع: حبّ الصنوبر وحبّة الخضراء، قاله مقاتل.

والخامس: كانت فلوساً، قاله ابن جبير.

والسادس: كانت أقطاً، قاله الحسن.

والسابع: سويق المقل^(٢).

(١) يعني بنقصان.

(٢) طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة.

والثامن: النعال والأدم، قاله الضحاك.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: تفضل ولا تُنْقِضْنَا من السعر، هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن جريج: معناه وتصدق علينا برداً أحنينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فإن قيل: فلم لم يقولوا: إن الله يجزيك؟ قلنا: لأنهم ما عرفوا أنه على الإسلام وظنوه كافراً. وفي الآية دليل على أن الصدقة كانت على الأنبياء وأولادهم حلالاً، قال سفيان الثوري^(١): ودل على ذلك هذه الآية، وإنما حرمت على نبينا ﷺ. وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدق عليّ فقال: يا هذا إن الله لا يتصدق، وإنما يتصدق من يبغي الثواب، وإنما قل: اللهم أعطني وتفضل عليّ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، على أقوال:

أحدها: أنهم لما كلموه بهذا القول رق لهم وغلبه دمه فباح بما كان يكتنم، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أنه حكى لهم عن مالك بن دعر أنه قال: وجدت غلاماً في بئر فاشتريته بكذا وكذا درهماً، فقالوا: أيها الملك نحن بعنا ذلك الغلام منه، فغاض ذلك يوسف وأمر بقتلهم، فذهبوا بهم ليقتلوهم، فقال يهوذا: كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منّا حتى كفّ بصره، فكيف إذا بلغه قتل بنيه كلهم؟ ثم قال له يهوذا: إذا كان ولا بد من قتلنا فابعث بأمّعتنا إلى أبينا فهو بمكان كذا، فبكى حينئذ ورق لهم، قاله الكلبي.

والثالث: لأن يعقوب كتب إليه كتاباً يقول له فيه: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، أما بعد: فإننا أهل بيت موكل بنا بالبلاء، أما جدي فشئت يده ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشئت يده ورجلاه ووضعت السكين على حلقه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن

(١) القول في تفسير الطبري ٢٤٢/١٦، والشعبي ٢٥٢/٥، وعرائس المجالس ١٣٩، وزاد المسير ٢٧٩/٤ وغيرها من كتب التفسير: عن ابن عيينة لا الثوري.

وكان أحبَّ أولادي إليَّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا: أكله الذئب، فذهبت عيناى من البكاء عليه، وكان له أخ من أمه كنتُ أتسلى به، فذهبوا به وعادوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته. وإنَّا أهل بيت لا نسرق ولا نلدُّ سارقاً، فإن رددته وإلا دعوتُ عليك دعوةً تبلغُ السابعَ من ولدك. فلما قرأ يوسف كتابه لم يملك عينيه أن فاضتا، ثم قال لهم ذلك. قاله سعيد بن جبير.

وروي أن يوسف كتب إلى أبيه: أما بعد فإنك ذكرت ما ابتلي به أبأؤك، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا، والسلام.

والرابع: أن يوسف سأل بنيامين فقال: ألك ولد؟ قال: نعم ثلاثة بنين، قال: فما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف، قال: ولم؟ قال: محبة لك، قال: فما سميت الثاني؟ قال: ذئباً؟ قال: لم فعلت ذلك وهو سبع عقور؟ قال: لأذُكرُك به، قال: فما سميت الثالث؟ قال: دماً، قال: ولم؟ قال: لأنهم جاؤوا على قميصك بالدم. فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، بما يؤول إليه أمره ونصره عليهم^(١). وقيل: جاهلون مذنبون، لأن المذنب جاهل في وقت ذنبه، وقال الحسن: إذ أنتم شباب، لأن مظنة الجهل الشباب، وهذا أجود.

فإن قيل: إنما أسأؤوا إلى يوسف فلم قال: «وأخيه» ولم يسعوا في حبسه؟

فالجواب: إنهم لما فرّقوا بينهما وهما من أمّ واحدة فقد أسأؤوا إليهما.

﴿قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ كشف الحجاب عن وجهه فعرفوه، وقال ابن عباس: لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ تبسّم، وكان إذا تبسّم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف. وعن ابن عباس قال: لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة، وليعقوب وإسحاق ولسارة مثلها، وهي شبيهة الشامة، فقالوا ﴿قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ بنيامين ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأن جمع بيننا بعدما فرقتم أنتم ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ الله بأداء فرائضه واجتناب

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٩.

محارمه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على الوقوع في الجبِّ والبيع والحبس ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فقالوا مقرّين معتردين: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضلك بالعقل والعلم، والفضل والحلم، والحسن والملك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] في صنعنا بك^(١). وسئل ابن عباس فقيل له: كيف قالوا: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ وقد كانوا تعمدوا ذلك؟ [فقال:] معناه أخطؤوا الحق وإن تعمدوا، وكلُّ من أتى ذنباً فقد أخطأ المنهاج.

﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليماً موقفاً: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ﴾ أي: لا تعير ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنباً بعد اليوم، ثم دعا لهم فقال: اليوم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] قال ابن عباس: ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أخذ بعضادتي باب الكعبة، وقد لاذ الناس بالبیت فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية».

ثم قال: ما فعل الشيخ أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه وقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: مبصراً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] فإن قيل: فمن أين علم يوسف ذلك؟ فالجواب: إن ذلك القميص كان من الجنة، وقيل: كان القميص الذي كساه الله الخليل يوم النار، وقد ذكرناه. وقال مقاتل: قال له جبريل: ابعث به فإنه لا يقع على مبتلى إلا وعوفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ يعني من مصر إلى أرض كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ روى مجاهد أن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها فأتته به، قال مجاهد: وجد ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام فوصل إلى يعقوب ذلك لأنها صفتت [القميص] فاحتملت ريح يوسف فوجد يعقوب ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص^(٢). وقال ابن عباس: وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وقال الحسن: كان

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠ وما بين معقوفين زيادة منه.

بينهما ثمانون فرسخاً. وعن ابن عباس: مثل ما بين البصرة والكوفة.

فإن قيل: فلم قال: ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولم يقل: ريح القميص؟

فالجواب: أن غرضه كان يوسف ولهذا لم يجد ريح القميص من كان عند يعقوب ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ [يوسف: ٩٤] أي: تُجهِّلون وتسفِّهون رأيي وتكذبون ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: خطأك في حبِّ يوسف لا تنساه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أي: المبشر، قال ابن عباس: وهو يهوذا بن يعقوب.

قال السُّدي: قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى أبي فأخبرته أنه أكله الذئب، وأنا أذهب بالقميص فأبشره أنه حي فأفرحه كما أحزنته.

وقال السُّدي عن ابن عباس: حمله يهوذا دونهم، وخرج حاسراً حافياً يعدو حتى أتاه، مشى ثمانين فرسخاً في سبعة أيام، ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى وصل إليه ف ﴿أَلْقَنهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ بعدما كان أعمى، وعاد قوياً بعد أن كان ضعيفاً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا؟ فقالوا عند ذلك: ﴿يَتَأَبَّأْنَا اسْتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧] أي: مذنبين ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

فإن قيل: فلم أحرَّ يعقوب الاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ﴾؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أحره إلى وقت السحر لأن الدعاء بالأسحار لا يُحجَّب عن الله تعالى، قال وهب: وأقام يستغفر لهم كل ليلة جمعة وقت السحر نيفاً وعشرين سنة.

والثاني: أن طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ، قاله عطاء الخراساني، قال: ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

والثالث: لأن ذلك الحق كان متعلقاً بالغير، وهو يوسف، فقال: سوف أسأل يوسف، فإن عفا استغفرت، قاله الشعبي.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] ثم قال يعقوب ليهوذا: كيف خلفت

يوسف؟ قال: ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك، على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة^(١).

وقال علماء السير: كان يوسف قد بعث إلى أبيه بمئتي راحلة وجهاز، وسأله أن يأتيه بأهله وولده أجمعين، فتهياً يعقوب وسار، فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه في خروجه، فخرج يوسف والملك في أربع مئة ألف من الجند، وركب معهما أهل مصر يتلقون يعقوب، وأقبل يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال يعقوب: يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: هذا ابنك، فلما دنا كل واحدٍ منهما من صاحبه ترجل يوسف وذهب لبدأه بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك لأن القادم يسلم، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحران.

وقال سفيان الثوري: لما التقيا عانق كل واحدٍ منهما صاحبه، وبكى يعقوب ويوسف، فقال يوسف: يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خفت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك [يوم القيامة].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩] فإن قيل: فأمه

كانت قد ماتت، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله أحيا أمه راحيل وأقامها من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً لرؤياه،

قاله الحسن.

والثاني: أن المراد حالته، لأنها أمه من حيث المعنى، قاله ابن عباس.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على السرير، أجلسهما معه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾

بأجمعهم، وليس المراد به وضع الجبهة لأنه حرام في جميع الشرائع لغير الله، وإنما أراد الانحناء والتواضع على طريق التحية والتسليم لا على وجه العبادة والتعظيم، فقال يوسف عند ذلك واقشعر جلده: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

فإن قيل: فلم لم يسجد له إخوته حين عرفوه؟ فالجواب: لأنه رأى الشمس والقمر

والكواكب قد سجدوا له جملةً، فتأويل رؤياه يكون كذلك.

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤١.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ فإن قيل: فلم لم يقل: من الجبِّ وهو أوَّل ما ابتلي به؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه استعمل الكرم لئلا يذكر إخوته ما فعلوا به فيكون تأنيباً لهم وقد قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾.

والثاني: لأن نعم الله عليه في نجاته من السجن كانت أكثر عليه من نعمته في إنقاذه من الجب؛ لأن وقوعه في الجب كان من حسد إخوته، ووقوعه في السجن مكافأة من الله تعالى لزلَّته.

والثالث: أن السجن جبُّ أيضاً، فحسَّن العبارة.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ لأن يعقوب وبنيه كانوا أهل بادية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ أي: ذو لطف وصنع ﴿لَمَّا يَشَاءُ﴾ عليم عالم بدقائق الأمور وحقائقها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال علماء السير: ولما جمع الله شمل يوسف، وأقرَّ عينه وأتمَّ له رؤياه، وكان موسعاً عليه في دنياه، علم أن ذلك لا يدوم ولا بدَّ من فراقه، فأراد نعيماً هو أفضل منه، فتاقت نفسه إلى الجنة، فتمنى الموت فدعا، ولم يتمنَّ نبيُّ قبله ولا بعده الموت، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ يعني مُلْك مِصْر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا خالقهما وبارئهما ﴿أَنْتَ وَلِيِّيَ﴾ معيني ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ أي: اقبضني إليك ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ [يوسف: ١٠١] بأبائي الصالحين أي الأنبياء. وإنما تمنى الموت لأنه خاف من تغير الحال، فتوفاه الله طيباً طاهراً.

وحكى الثعلبي عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «لما جَمَعَ اللهُ ليعقوبَ شمله، خلا ولده نجياً فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ يعقوب ويوسف؟ قالوا: بلى، قالوا: فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ يعقوب، فأتوه فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جانبه فقالوا له: يا أبانا أتيناك في أمرٍ لم نأتِكَ في مثله قط، ونزل بنا أمرٌ لم ينزل بنا مثله قط، حتى حرَّكوه؛ لأنَّ الأنبياء أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: أَلَسْتَ قد عَلِمْتَ ما كان منا إليك وإلى أحيانا؟ قال: بلى، قالوا: أفَلَسْتُمَا قد عفوتُمَا؟ قالوا:

بلى، قالوا: فَإِنَّ عَفْوَكُمَا لَا يُغْنِي عَنَّا شَيْئًا إِنْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يَعْفُ عَنَّا، قال: فما تُريدون؟ قالوا: نُريدُ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ [لَنَا]، فَإِذَا جَاءَكَ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ قَدْ عَفَا عَنَّا، طَابَتْ قُلُوبُنَا وَقَرَّتْ عُيُونُنَا، وَإِلَّا فَلَا قَرَّتْ لَنَا عَيْنٌ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا، فقامَ الشَّيْخُ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَامَ يَوْسُفُ خَلْفَهُ، وَقَامُوا خَلْفَهُمَا أَذْلَّةً خَاشِعِينَ وَدَعَا يَعْقُوبُ وَيَوْسُفُ يَوْمَئِذٍ، فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ عَشْرِينَ سَنَةً» قال صالح المري: فلما كان رأس العشرين نزل جبريل على يعقوب فقال: إن الله قد أجاب دعاءك فيهم، وقد عفا عمَّا صنعوا، وإنه قد اعتقد موثيقهم من بعدك على النبوة^(١).

وقال مجاهد: إِنَّمَا تَأَخَّرَتِ الْإِجَابَةُ عَشْرِينَ سَنَةً لِأَنَّهُ كَلَّمَا تَفَاقَمَ الذَّنْبُ تَعَاظَمَتِ الْعُقُوبَةُ.

وقال مقاتل: ركب يوسف يوماً في ثمان مئة ألف، وعلى رأسه ألفا لواء يتفقد أمور الرعية، وكان قد هجر زليخا وعميت وانحنت فلبستُ جُبَّةً صُوفٍ وَشَدَّتْ وَسَطَهَا بِحَبْلِ مِنْ لَيْفٍ، وَوَقَفَتْ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَلَمَّا حَاذَاهَا نَادَتْهُ يَا يَوْسُفُ بِالَّذِي جَعَلَ الْعَبِيدَ مَلُوكًا بِالطَّاعَةِ، وَالْمَلُوكَ عَبِيدًا بِالْمَعْصِيَةِ كَلَّمَنِي، فَوَقَفَ وَبَكَى بِكَاءٍ شَدِيداً لَمَّا سَمِعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: زَلِيخَا، قَالَ: وَأَيْنَ شَبَابُكَ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ بِهِ الَّذِي أَذْهَبَ ذَلِكَ وَمَسَكْتِكَ، وَأَعْطَاكَ هَذَا الْمُلْكَ، قَالَ: فَمَا تَرِيدِينَ؟ قَالَتْ: ثَلَاثَ حَوَائِجٍ، قَالَ: سَلِي، قَالَتْ: أَمَّا الْأُولَى فَيُرْدُ عَلَيَّ بِصُرِي وَشَبَابِي وَأَنْ تَتَزَوَّجَنِي، فَسَأَلَ اللَّهُ فَرَدَّ عَلَيْهَا بِصُرِي وَشَبَابِهَا وَتَزَوَّجَهَا، وَإِذَا هِيَ عِذْرَاءٌ كَمَا كَانَتْ بَعْدَ أَنْ أَتَتْ عَلَيْهَا مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَأَوْلَدَهَا أَوْلَادًا.

وذكر جدي في «التبصرة» بمعنى هذا فقال: كان يوسف يركب في كل شهر ركة في ثمان مئة ألف ومعه ألف لواء وألف سيف فيدور في عمله، وينصف المظلوم من الظالم، وكانت زليخا تلبس جبة صوف وتشدُّ وسطها بحبل من ليف وتناديه فلا يسمع، فنادته يوماً: يا أيها العزيز، سبحان مَنْ جَعَلَ الْعَبِيدَ مَلُوكًا بِالطَّاعَةِ، وَذَكَرْتَهُ، فَسَمِعَهَا

(١) الخبر في تفسير الثعلبي ٢٦١/٥، وعرائس المجالس ١٤٢-١٤٣، وتفسير الطبري ٢٨١/١٦ موقوف على أنس، قال ابن كثير في تفسيره ٤٩٣/٢: هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري [الواردان في إسناد هذا الخبر] ضعيفان جداً.

فبكى وقال لفتاه: انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقض لها كل حاجة، فجاء إليها الغلام وقال: ما حاجتك يا عجوز؟ قالت: إن حاجتي مُحَرَّمَةٌ أَنْ يَقْضِيَهَا غَيْرُ يَوْسُفَ، فجاء يوسف فوقف عليها فقال: ما حاجتك؟ فذكرت الثلاث حوائج، فقضاها، وأولدها اثني عشر ولداً، ذكر هذا أبو الحسين ابن المنادي وغيره، وقد ذكره الثعلبي^(١).

ذكر وفاة يعقوب

ذكر جدي أيضاً في «التبصرة» وقال: أقام يعقوب عند يوسف أربعة وعشرين سنة في أهناً عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام، فيدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل^(٢).

وقال مقاتل: لما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت من مصر إلى الشام، ومضى معه بنفسه، ووافق ذلك يوم مات عيص فدفنا في مكان واحد كما ولدا من بطن واحد، وكان عمرهما جميعاً سواء مئة وستاً وأربعين سنة.

وقد ذكره الثعلبي بإسناده إلى وهب بن منبه وقال: دخل يعقوب إلى مصر وولده وهم اثنان وسبعون إنساناً من رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف وخمس مئة وبضع وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمي والزمني، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف سوى المقاتلة. وذكر أن يوسف حمل أباه يعقوب إلى الشام فدفنه عند آبائه، وعاد إلى مصر، وذكر موت عيصو قال: ودفن هو ويعقوب في قبر واحد، وحكى ما حكينا^(٣).

ذكر وفاة يوسف

قال علماء السير: توفي يوسف بعد أبيه بمدة، فدفن في النيل في الليل في صندوق من مرمر، ولما مات تشاح الناس فيه كلُّ يريدُ يدفنه في محلته لما يرجو من بركته، وهموا بالقتال، ثم أجمعوا على أن يدفنوه في النيل حيث يفترق الماء عليه ثم تصل

(١) «التبصرة» ١/١٨١، والمنتظم ١/٣١٥.

(٢) «التبصرة» ١/١٨٢، والمنتظم ١/٣١٩.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/٢٦٠.

بركته إلى الجميع، ففعلوا، وبقي هناك إلى زمان موسى عليه السلام لما نذكر.
وقال مقاتل: ولما احتضر يوسف أوصى إلى أخيه يهوذا فقام بالأمور بعده.
واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه على أقوال: أحدها: غاب ثمانين سنة، قاله
الحسن البصري. والثاني: أربعين سنة، قاله ابن عباس. والثالث: اثنتين وعشرين سنة،
وهو قول الكلبي. والرابع: سبعين. والخامس: سبعاً وسبعين، قاله عبد الله بن شاذب.
وقال الحسن البصري: ألقى في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزل
العزير ثلاث عشرة سنة وفي السجن، ثم استوزر بعد ثلاثين سنة، وعاش بعد لقاء أبيه
اثنتين وعشرين سنة، ومات ابن مئة وعشرين سنة. وفي «التوراة» أنه عاش مئة وعشر
سنين^(١).

وذكر جدي في «أعمار الأعيان»: أنه عاش مئة وعشرين سنة، قال: وكذا عاش
موسى بن عمران عليه السلام، وحكيم بن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وعدي بن
حاتم الطائي، والنابغة الجعدي والحطيئة الشاعران، وعبد خير صاحب علي رضي الله عنه،
وحسان بن ثابت وأبوه وجدّه، لما نذكر، وأبو عمرو سعد بن إياس الشيباني والمغرور
ابن سويد، وأبو عبد الله المغربي الصوفي، وأستاذه علي بن رزين وخير النّساج
وغيرهم، عاش كل واحد مئة وعشرين سنة^(٢).

انتهت ترجمة يوسف عليه السلام



(١) «سفر التكوين» (٥٠ : ٢٢).

(٢) أعمار الأعيان ٩٥-٩٧.

فهرس الموضوعات

٦٤ في فضل دمشق	٥ مقدمة المؤلف
٧٢ في مدائن الروم	٩ في معرفة التاريخ
٧٤ في مدائن مصر وماوالاها	١٥ في انقضاء مدة العالم وابتدائه
٧٨ في بلاد المغرب	١٧ في حدث العالم وإثبات الصانع
.....	في ذكر الجبال والهضاب والقلاع والرمال ...	٢١ اختلاف العلماء في أول المخلوقات ..
٨٠	٢٢ وصف القلم
٩٤ فصل في الهضاب والقلاع والرمال ...	٢٣ فصل في الأوائل
٩٧ فصل في المعادن وحكمها	٢٧ ما خلق الله بعد القلم
٩٩ فصل في البحار	٢٩ في حد الزمان والأيام
١٠٠ في البحر الشرقي	٣٣ في السنة والشهر وأصلهما
١٠٣ في البحر الرومي	٣٦ في شهور الروم
١٠٥ في خليج القسطنطينية	٣٧ في عدد الفرس
١٠٥ في بحر باب الأبواب	٣٨ في عدد القبط
١٠٦ في مبادئ البحار	في خلق الأرضين ومدة التصوير والتكوين
.....	في الجزائر وما فيها من الغرائب والجواهر ...	٣٩
١٠٧	٤٣ في ذكر البيت الحرام
١١٠ في جزائر البحر الرومي	في مساحة الأرض ومقدار طولها والعرض ...
١١١ في المسك والعنبر	٤٥
١١٣ فصل في المد والجزر	٤٨ في الأقاليم الدالة على حكمة الحكيم
١١٦ فصل في ذكر العيون والأنهار	٥٤ في البلدان وما فيها من السكان
١١٧ فصل في النيل	٥٤ فصل في الفنصورة
١٢١ فصل في الفرات	٥٥ في مدائن الهند والشرق
١٢٣ فصل في دجلة	٥٧ في مدائن العراق
١٢٤ فصل في سيحون وجيحون	٥٨ فصل في مدينة بابل
١٢٦ فصل في البحيرات	٥٩ فصل في مدينة يثرب
١٢٧ فصل في أنهار الشام والجزيرة	٦٠ في مدائن الجزيرة
١٢٨ فصل في أنهار العراق	٦١ في مدائن الشام والسواحل

٢٠١	فصل في مقامات الكواكب في البروج	١٣٠	في ذكر ما في الدنيا من العجائب
٢٠١	فصل في شرف الكواكب والمجرة ..	١٣٠	في عجائب المشرق
٢٠٢	فصل في اقتران الكواكب	١٣٢	في عجائب العراق
٢٠٣	فصل في طبائع الكواكب	١٣٣	في عجائب الموصل
٢٠٥	فصل في البيت المعمور وما ورد فيه	في عجائب اليمن والشام ومصر والمغرب ...
٢٠٧	فصل في سدرة المنتهى	١٣٤	١٣٤
٢٠٩	فصل في الكرسي والعرش	١٤٠	فصل في الطبائع
٢١٢	فصل في حملة العرش	١٤١	في سكان الأرض
٢١٤	فصل في الملائكة وخلقهم	١٤٢	فيمن ملك الأرض
٢١٤	فصل في جبريل	١٤٣	فيمن تحت الأرض من السكان
٢١٥	فصل في ميكائيل	١٤٤	فصل في النار
٢١٦	فصل في إسرافيل	١٤٧	فصل في الجن والشياطين وإبليس ...
٢١٧	فصل في عزرائيل	١٥١	في إبليس وجنوده وأولاده
٢١٧	فصل في الروح	١٥٧	في خلق السماوات والعلويات
٢١٨	فصل في أصناف الملائكة	١٥٩	في أبواب السماء
٢٢٤	فصل في تفضيل الملائكة على البشر	١٦٠	مذهب المسلمين أن السماوات سبع .
٢٢٦	فصل في الجنة	١٦٣	فصل في البروج ومطالعها
٢٣٢	قصة آدم عليه السلام	١٦٦	في ما لكل برج من البلدان
٢٣٣	في إعلام الله الملائكة بخلقه	١٦٧	فصل في قسمة الزمان
٢٣٤	فصل في الخليفة	١٦٧	فصل في الرياح
٢٣٧	فصل في خلق آدم	١٦٨	فصل فيما بين كل سماء وسماء
٢٤٣	فصل في تعليمه الأسماء	١٧١	فصل في الشمس والقمر والنجوم
٢٤٥	في سجود الملائكة لآدم	١٧١	فصل في الشمس
٢٤٧	فصل في خلق حواء	١٧٦	فصل في القمر
٢٤٨	في مقام آدم في الجنة	١٧٨	في منازل القمر
٢٥٠	في احتيال إبليس على دخول الجنة ..	١٨٨	في الأنواء ومطالعها
٢٥٥	في المكان الذي أهبطوا إليه	في أسجاع العرب المتعلقة بمنازل القمر
٢٥٧	مقدار لبث آدم بالجنة	١٩١	١٩١
		١٩٣	فصل في النجوم
		١٩٩	في أجرام الكواكب

٣٣٤ يافث وأولاده	٢٥٨ ما أهبط مع آدم من الجنة
٣٣٥ أعمار أولاد نوح	٢٥٩ فيما تجدد بعد نزوله من الحوادث ..
٣٣٧	الحوادث التي كانت بين نوح والخليل	٢٦٣ توبة آدم عليه السلام
٣٣٧ قصة الضحاك	٢٦٥ مسح ظهر آدم وإخراج ذريته
٣٣٨ مقتل الضحاك	٢٧٠ في نبوة آدم عليه السلام
٣٣٩ فصل في أفريدون	٢٧٢ أولاد آدم عليه السلام
٣٤٢ هود وقوم عاد	٢٧٥ قتل قابيل هايل
٣٤٩ قصة شداد بن عاد	٢٨٣ ما تجدد من الحوادث بعد قتل هايل
٣٥٣ وفاة هود	٢٨٤ في هلاك قابيل وعذابه
٣٥٣ قصة لقمان بن عاد	٢٨٦ وصية آدم ووفاته
٣٥٦ صالح عليه السلام وقومه	٢٨٩ في حج آدم عليه السلام
٣٥٧ قصة الناقة	٢٩١ شيث بن آدم
٣٦٣ إبراهيم الخليل عليه السلام	٢٩٢ في ولده أنوش
٣٦٤ أسماء الخليل	٢٩٣ في ولده قينان ومهلثيل ويرذ
٣٦٥ مولد الخليل	٢٩٧ إدريس عليه السلام
٣٦٧ فصل في النماردة	٢٩٨ في رفعه إلى السماء
٣٦٨ رؤية الخليل الكواكب	٣٠١ في ولده متوشلخ
٣٧٢ كسره الأصنام	٣٠٢ في الجاهلية الأولى
٣٧٥ مناظرة الخليل لنمرود	في الحوادث التي كانت على زمن إدريس
٣٧٦ إلقاء الخليل في النار	٣٠٣
٣٧٩ إيمان لوط وسارة	٣٠٣ قصة هاروت وماروت
٣٨٠ عرض إبراهيم الإسلام على أبيه أزر	٣٠٨ حكم الساحر والساحرة
٣٨١ هجرة إبراهيم إلى الشام	٣١١ الملوك الذين كانوا في زمن إدريس ..
٣٨٢ قدومه مصر	٣١٤ نوح عليه السلام
٣٨٤ عودته إلى الشام وما سنَّ من السنن ..	٣١٥ في الرسل والرسالة
٣٨٦ حمل إبراهيم إسماعيل وأمه إلى مكة	٣٢٨ وفاة نوح وأولاده
٣٩١ بناء البيت	٣٣٠ أولاد سام
٣٩٤ فضائل مكة	٣٣٢ حام وأولاده

٤٣٣ قصة إسحاق عليه السلام	٣٩٥ حدود الحرم
٤٣٥ قصة يعقوب عليه السلام	٣٩٧ قبلة كل بلد
٤٣٦ أولاد يعقوب	٣٩٨ دلائل القبلة
٤٣٨ لوط عليه السلام	٣٩٩ حج إبراهيم
٤٤٤ وفاة لوط	٤٠١ صحف إبراهيم
٤٤٥ في ذي القرنين وردمه بين السدين ...	٤٠٢ اتخاذ الله إبراهيم خليلاً
٤٥٢ حديث السد ويأجوج ومأجوج	٤٠٤ سؤال الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى
٤٥٨ سلوك ذي القرنين الظلمة وطلبه لعين الحياة	٤٠٦ ابتلاء إبراهيم بالكلمات
٤٦٢ الأمة الصالحة التي مرَّ بها الإسكندر	٤٠٧ ابتلاؤه بذبح ولده
٤٦٤ واقعة للإسكندر مع أمه	 اختلاف العلماء في الذبيح إسحاق أم
٤٦٤ ما بنى من المدائن	٤١١ إسماعيل
٤٦٥ وفاة الإسكندر	٤١٧ قصة الخليل مع العابد
٤٦٨ كلام الحكماء على تابوت الإسكندر	٤١٨ قصة إبراهيم مع العبد الحبشي والمجوسي
٤٧١ قصة يوسف عليه السلام	٤١٩ قصة الخليل مع الملك
٤٧٣ رؤيته الكواكب	٤١٩ وفاة سارة وأولاد إبراهيم
٤٧٧ خروج إخوة يوسف به	٤٢٠ وفاة الخليل
٤٨٣ قدوم يوسف إلى مصر	٤٢٣ سن إبراهيم
٤٨٦ ما جرى ليوسف مع امرأة العزيز	٤٢٤ هلاك نمرود وبنائه الصرح
٤٩١ حديث النسوة	٤٢٧ قصة إسماعيل عليه السلام
٤٩٣ سجن يوسف	٤٢٨ أولاد إسماعيل
٤٩٧ خروجه من السجن	٤٢٩ وفاة إسماعيل
٥٠٥ دخول إخوة يوسف مصر لطلب الميرة	٤٣٠ في قيذار ونبت وجرهم وأمر الكعبة
٥٢٥ وفاة يعقوب ويوسف		

مِثْلُهَا أَلْفُ مِثَالٍ

فِي تَوْلَادِ الْأَعْيَانِ

تصنيف

شمس الدين أبي القاسم بن يوسف بن قزويني بن عبد الله
العروسي بسطط في الجزء الثاني

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الثاني

حقه هذا الجزء وعلوه عليه

محمد بن كاسم
الكاتب الخطوط
محمد بن كاسم

الرسالة العالمية

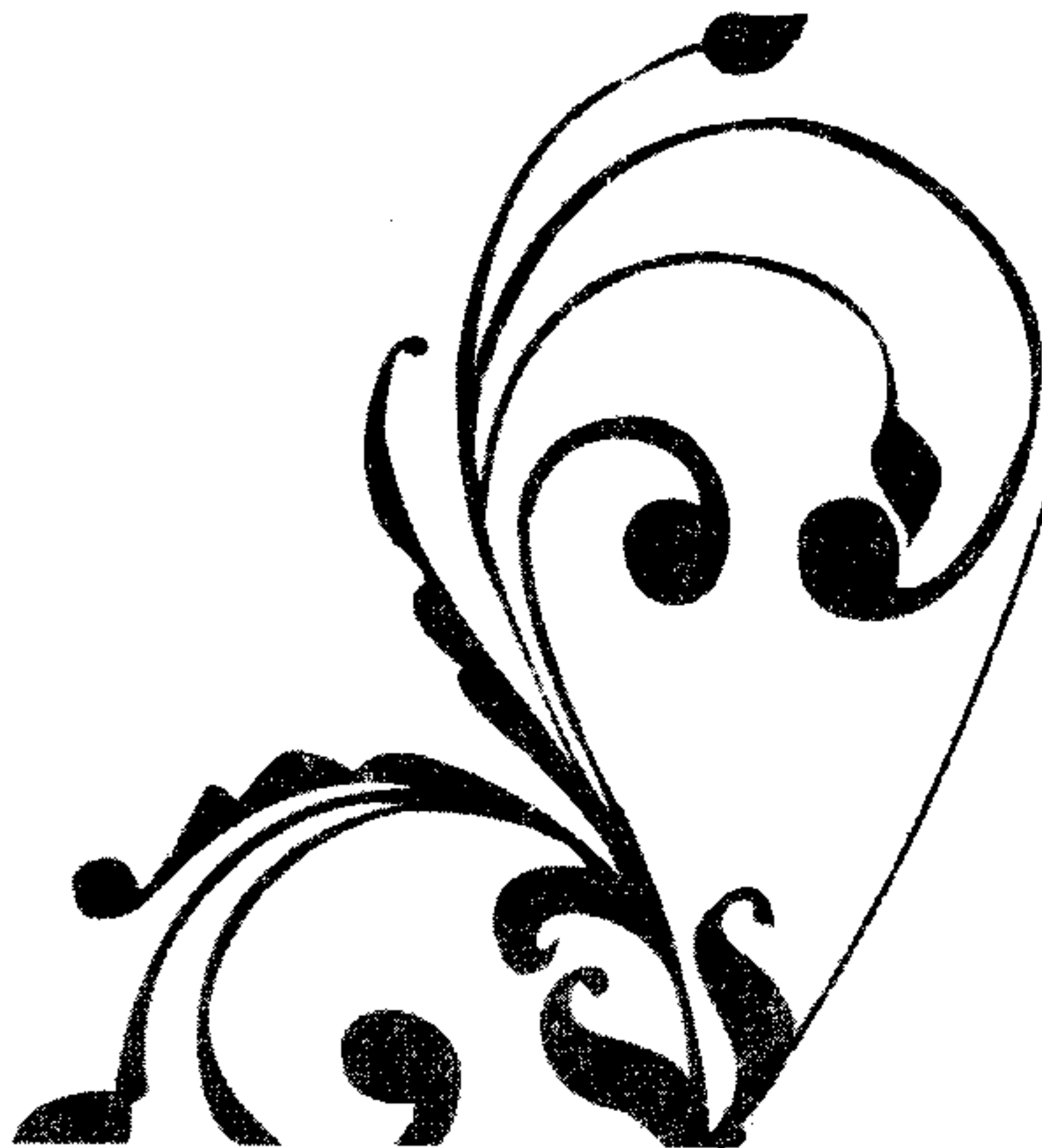
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ آيَةِ الرَّمَّانِ
فِي تَوَارِيخِ الْأَعْيَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جميع الحقوق محفوظة للنّاشر
الطبعة الأولى
١٤٣٤ / ٢٠١٣ هـ



دار الرسالة العالمية

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بجميع طرق
الطبع والتطوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي من:

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Risalah Al-'Alamiyah m.
Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء حولي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON
TELEFAX: 815112- 319039- 818615
P.O. BOX:117460

المخطوطات المعتمدة في هذا الجزء

- ١- نسخة لاله لي، وهي من أول الكتاب إلى عذاب قوم شعيب، ورمزنا لها ب: (ل).
 - ٢- نسخة كوبريللي، من أول أخبار الأمم الماضية إلى سنة (٦هـ)، ورمزنا لها ب: (ك).
 - ٣- نسخة الخزائنية، من قصة زكريا ويحيى إلى سنة (٧هـ)، ورمزنا لها ب: (خ).
 - ٤- نسخة باريس، من أول الكتاب إلى ذكر والد رسول الله ﷺ، ورمزنا لها ب: (ب).
 - ٥- مطبوعة الدكتور إحسان عباس، ورمزنا لها ب: (ط).
- وانظر وصفاً مفصلاً لهذه النسخ في مقدمة الجزء الأول.



فَضْلٌ فِي ذِكْرِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

قال مقاتل: ذكره الله في خمسة مواضع. وأيوب اسم أعجمي، واختلفوا في نسبه، والمشهور أنه أيوب بن أموص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ذكره جدي رحمه الله في «التبصرة»، قال: وأبوه ممن آمن بالخليل عليه السلام لما ألقى في النار، قال: وأمه بنت لوط عليه السلام^(٢).

وكان أيوب في زمان يعقوب، وتزوج ابنة يعقوب واسمها رحمة، وقيل: دينا، وقيل: ليًا، وقيل: إنما تزوج أيوب رحمة بنت ميثا بن يوسف بن يعقوب.

وقال الكلبي: أيوب بن أموص بن رزاح - بتقديم الألف على الزاي - ابن العيص بن أموص بن العيص بن إسحاق عليه السلام. وقال قتادة: أيوب بن رزاح بن دعوايل بن العيص.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان أيوب رجلاً من الروم، وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام^(٣).
واختلفوا في زمانه:

فحكينا عن جدي في «التبصرة» أنه كان في زمان يعقوب.

وقال مجاهد: لم يكن نبياً في زمان يعقوب وإنما نبيء بعد يوسف.

وقال مقاتل: كان بعد سليمان. وقيل: بعد يوسف، والأول أشهر وأثبت.

قلت: وذكر الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في «تاريخ نيسابور» عن قتيبة بن سعيد قال: سمعتُ عبد الله بن لهيعة، وسأله رجل: هل ورد خراسان نبياً، قال: نعم أيوب المبتلى ورد كورة بخارى واستضافهم فأضافوه، فدعا لهم بالبركة فهي مباركة.

قلت: والعجب من رواية الحاكم مثل هذا عن ابن لهيعة، وقد علم أنه ضعيف. ولم

(١) انظر قصته في: الزهد لأحمد ٥٤، ١١٣، وتفسير الطبري ١٦ / ٣٣٣، وتاريخه ١ / ٣٢٢، و«البدء والتاريخ»

٣ / ٧٢، و«عرائس المجالس» ص ١٥٥، و«تفسير الثعلبي» ٦ / ٢٩٤، و«تاريخ دمشق» ٣ / ٢٤٩ (مخطوط)،

و«التبصرة» ١ / ١٩١، و«زاد المسير» ٥ / ٣٧٥، و«المنتظم» ١ / ٣٢٠، و«البداية والنهاية» ١ / ٥٠٦.

(٢) «التبصرة» ١ / ١٩١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٥٥.

يثبت أن نبياً من الأنبياء دخل العجم، وخصوصاً أيوب، فإنه ما فارق الشام.
وقال الكلبي: كانت منازل البشينة من أرض الشام والجابية وكورة دمشق، فكان الجميع له، ومقامه بقرية تعرف بدير أيوب، وقبره بها وإلى هلم جراً. وكان غنياً كثير الضيافة على مذهب إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان له ثلاثة عشر ولداً، وله أصناف من الأموال والإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وكان له خمس مئة فدان يتبعها خمس مئة عبد، لكل عبد امرأة ومال وولد، وكان برّاً رحيماً تقيّاً يكفل الأراامل واليتامى ويحمل المنقطعين، وما كان يشبع حتى يشبع الجائع، ولا يكتسي حتى يكسو العاري، وكان قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى والثروة بالغرة والغفلة، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدّقوه: رجل من أهل اليمن يقال له: أليفز، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما: بلدد، والآخر: صافر^(١).

فصل في تلخيص قصته

ذكر علماء السير كابن إسحاق ووهب والسدي وعطاء فيما رووه عن ابن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في حديث بعض، وحكاه الثعلبي عن وهب بن منبه قالوا: إن لجبريل من الله مقاماً ليس لأحد من الملائكة في القربة والفضيلة مثله، وإن جبريل هو الذي يتلقى الكلام من الله تعالى، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه جبريل، ثم يتلقاه ميكائيل ثم الملائكة المقربون، فيشيع ذلك في الملائكة الحافين من حول العرش، ثم ينزل إلى سماء سماء، ثم تهبط به الملائكة إلى الأرض، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السماوات يقفُ فيهنَّ حيث يشاء، ومن هناك وصل إلى الجنة حتى أغوى آدم، فلم يزل يصعدُ ويتدردُّ إلى السماء حتى رُفِعَ عيسى عليه السلام فحُجِبَ من أربع سماوات، فكان يصعد في ثلاث حتى بُعث نبينا ﷺ، فحجب عن الثلاث الباقيات، فهو وجنوده محجوبون عن السماوات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨].

وكذا قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: وكان إبليس لا يحجب عن

(١) هم في الكتاب المقدس سفر أيوب الإصحاح الثاني: أليفاز التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني.

السموات، قال: وهذا هو خلاف قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] وكان إهباط سخي، وآدم لم يعد إلى الجنة، وكذا إبليس لا يعود إلى السموات، ويحتمل أن الشياطين الذين يسترقون السمع أخبروه بثناء الملائكة على أيوب^(١).

قالوا: ولما سمع إبليس أن الله ذكر أيوب وأثنى عليه أدركه البغي والحسد، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه وقال: يا رب سلطني على أيوب، فقال الله: قد سلطتك على ماله وولده ولم أسلّطك على جسده.

وقد روى هذا المعنى عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن كثير ابن هشام عن حماد بن سلمة بإسناده عن ابن عباس وذكره موقوفاً^(٢).

وقد روى السُّدي ووهب أن إبليس قال: إلهي إني نظرتُ في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تجربهُ بشدةٍ ولا بلاء، وأنا زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنَّ بك، فقال الله تعالى: اذهب فقد سلطتك على ماله. فجمع عفاريتَه وشياطينه وقال لهم: ما عندكم من القوة فإني قد سلّطت على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فأروني سلطانكم، فصار بعضهم ناراً وبعضهم ماء وحالوا ما بين المشرق والمغرب^(٣).

فإن قيل: فكيف قال الله تعالى: اذهب فقد سلّطتك عليه، وتسليط العدو على الولي غير لائق بالحكمة، وخصوصاً إذا لم يفعل فعلاً يستوجب به العقوبة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه نزل به مريض فنظر إليه فاستقذره وأبعده عن فئائه، فابتلاه الله بمثل مرضه، قاله قتادة.

والثاني: لأنه وقف ببابه سائل فقير فردّه خائباً، فقال له الله تعالى: خولتكَ وأعطيتك ووسعت عليك وترد السائل خائباً؟! لأبتلينك، قاله ابن أبي نجیح.

(١) «التبصرة» ١/١٩١.

(٢) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب «الزهد».

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ١٠/٧٠، و«عرائس المجالس» ١٥٦.

والثالث: أنه استغاث به مظلوم فلم يساعده على ظالمه فابتلاه الله، قاله ابن عباس.
والرابع: لأنه كان في زمانه ملك ظالم أقطعه أرضاً ترعى خيله فيها، فدخل العلماء
على الملك فأنكروا عليه ظلمه إلا أيوب، فإنه لم ينهه عن الظلم لأجل مرعى دوابه،
فأوحى الله إليه: تركت إنكارك على الظالم من أجل مرعى دوابك؟! لأسلطنَّ عليك
عدوك، ولأطيلنَّ عذابك، قاله الليث بن سعد.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أن الواقعة كانت بمصر، فقال: قال
أبو إدريس الخولاني: أجذب الشام فكتب فرعون مصر إلى أيوب أن هلمَّ إلينا فإن لك
عندنا سعة، فأقبل بخيله ورجله وبنيه وماشيته، فأقطعه أرضاً، وكان نبي ذلك الزمان
شعبياً عليه السلام، فدخل شعيب على فرعون ووعظه وقال: يا فرعون أما تخاف أن
يغضب الله غضبة تغضب لها السماوات والأرض والجبال والبحار؟! وكان أيوب
حاضراً فسكت، فلما خرج من عنده أوحى الله إلى أيوب: سكت عن فرعون لأجل
أرضه، استعد للبلاء. قال: يا إلهي، فديني؟ قال: أسلمه لك، قال: فما أبالي^(١).

وروى الحافظ حديثاً عن عقبة بن عامر قال: قال النبي ﷺ: «أوحى الله لأيوب:
تدري ما جرمك حتى ابتليتك؟ قال: لا، قال: إنك دخلت على فرعون فداهنته في
كلمتين»^(٢).

قلت: ولا يصح هذا الحديث مرفوعاً وإنما هو موقوف؛ وأيوب لم يفارق الشام ولا
دخل مصر باتفاق الرواة.

والخامس: أن إبليس قال: يا إلهي لو سلطتني عليه لكفر بك وأطاعني، فسَلطه عليه
ليظهر صبره وكذب إبليس، قاله مقاتل.

قال وهب والسدي وغيرهما: ثم إن إبليس فرَّق عفاريتَه في ماله، فأرسل بعضهم
إلى إبله، فجاءوها وهي في مباركها، فلم تشعر الرعاة حتى ثار من تحت الأرض
إعصار من نار تنفخ منه أرواح السَّموم، لا يدنو منه أحدٌ إلا احترق، فلم يزل يحرقها

(١) «تاريخ دمشق» ٦٠/١٠.

(٢) «تاريخ دمشق» ٦٠/١٠.

حتى أتى على آخرها، فلما فرغ منها جاءه إبليس في صورة راعٍ من رعاتها، وأيوب قائم يصلي فقال: يا أيوب هل تدري ما صنع ربك الذي تعبده بإبلك ورعاتها؟ قال: ما صنع؟ قال: أرسل عليها ناراً من السماء فأحرقتها ورعاتها، وقد عجب الناس من ذلك فمن قائل يقول: ما كان أيوب يعبدُ شيئاً وما كان إلا في غرور، ومن قائل يقول: لو كان له إله لدعاه، ولو كان له عنده قدر لحماه. فقال أيوب: الحمد لله حين أعطى، وله الحمد حين أخذ، عرياناً دخلتُ إلى الدنيا، وعرياناً أخرجُ منها، ولو كان فيك أيها العبد خيراً لأخذَ روحك مع الأرواح فأجرى فيك [وصيّرَكَ شهيداً مع الشهداء] لكنه علم منك شراً فأخرك. فرجع إبليس خائباً خاسئاً ذليلاً وقال لأعوانه: ما عندكم من القوة؟ قالوا: مرنا بما شئت، فأرسل بعضهم إلى الغنم وبعضهم إلى البقر وإلى الخيل، ففعلوا بها مثل ما فعلوا بالإبل، وجاء إلى أيوب في صورة راعٍ فذكر له مثل ذلك، فردَّ عليه مثل ذلك الجواب^(١).

فلما رأى أنه لا يلتفت إلى المال سأل الله أن يسلّطه على ولده وقال: فتنة الولدِ أعظم لأن المال يعودُ، فسَلّطه على ولده، فجاء إليهم وهم في قصرهم، فزلزله عليهم، فوقعت الحيطان والخشب عليهم، فشدخهم، ومثّل بهم، وقلب القصرَ عليهم، ثم انطلق إلى أيوب في صورة معلمهم، وقد لطح وجهه بالدم، وهو يبكي وينوح ويقول: يا أيوب، لو رأيت أولادك وما حلَّ بهم من البلاء - ووصفَ ذلك - لأحزنك وساءك، ولم يزل ينوح ويحزن حتى بكى أيوب وحثا التراب على رأسه، فاغتم إبليس الفرصة وصعد إلى الله تعالى. ثم إن أيوب ندم واستغفر، فصعدت الملائكة إلى الله تعالى فأخبرته بندمه وتوبته فرجع إبليس خاسئاً.

وقال مجاهد: لم يبك أيوب وإنما أن أنه. وقال وهب: ولما قال لأيوب ما قال، قال: لو كان فيك خير لهلكت معهم، ثم عرفه فقال: اغرب لعنك الله.

فحينئذ سأل إبليس أن يسَلّطه على جسده، فسَلّطه على جسده وقال: لا سلطان لك على قلبه ولسانه وعقله. فأتاه وهو ساجد فنفخ في منخريه نفخةً أشعل منها جسده،

(١) انظر تفسير الطبري ٣٣٦/١٦، و«عرائس المجالس» ص ١٥٦، وما بين معكوفين منه.

وصار من قرنه^(١) إلى قدمه أمثال الثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حكة لا يملكها، فحكها بأظفاره حتى سقطت، ثم بالحجارة والمسوح حتى تقطع وأنتن.

وقال مجاهد: أول من أصابه الجدري في الدنيا أيوب.

وقال وهب: فأخرجه أهل القرية فألقوه على كنانة، وبنوا عليه عريشاً، ورفضه الناس كلهم ولم يبق من يتردد إليه سوى زوجته رحمة، كانت تختلف إليه بما يصلحه، ولم يبق منه إلا اللسان للذكر والقلب للمعرفة، وكان ترى عروقه وأمعاؤه وعظامه من وراء جلده.

فإن قيل: فما الحكمة في ابتلائه بالدود؟ فالجواب: لأن المريض الذي أبعدته عن بابه كان به هذا المرض، فاستقدره، فابتلي بمثل ذلك.

فإن قيل: فلم ابتلاه أولاً بأخذ المال ثم بالولد ثم بالنفس؟ فالجواب: لأن المال وقاية الولد، والولد وقاية النفس، والنفس وقاية القلب.

وقال وهب: ولما رأى أولئك نفر الثلاثة^(٢) حاله هجروه واتهموه وجاؤوا إليه فأنبوه ولاموه، وقالوا: تب إلى الله فقد أذنبت ذنباً عظيماً، وكان معهم فتى حديث السن، وكانوا هم كهولاً، فقال الفتى: أيها الكهول، لقد كان لأيوب عليكم من الحقوق ما يوجب ترك كلامكم له، فهل تدرون حرمة من انتهكتهم ومن الذي اتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب صفوة الله وخيرته من خلقه؟ فإن كان ما نزل به من البلاء هو الذي نقص منزلته عندكم فإن الله يبتلي الصديقين والنبين والشهداء والصالحين ليكونوا أئمة للصابرين وعظة للعابدين، وليس ذلك لسخطه عليهم ولا لهوانهم عليه، ولكنها كرامة أكرمهم بها، وقد كان الواجب أن تساعدوه وترحموه وتبكونا معه لا أن تعيروه وتوبخوه. فبكى أيوب وقال: إن الله يزرع الحكمة في قلب من يشاء وليست الحكمة بكبر السن وطول التجربة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال: أتيتموني مؤنين^(٣) ظالمين مُبَكِّتِينَ، لقد أعجبتكم نفوسكم وظننتم أنكم ناجون من البلاء، تالله لقد اعتديتم وجرتم، ولو أنصفتم لوجدتم

(١) القرن: جانب الرأس، وانظر عرائس المجالس ١٥٨.

(٢) يعني الثلاثة الذين آمنوا به، وقد مر ذكرهم في الصفحة ٨.

(٣) في (ل) و(ب): مؤنين، والمثبت من (ط).

لكم ذنوباً سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم، ولقد كنتم فيما مضى توقرونني وتسمعون كلامي وتعرفون حقي، فأصبحتم اليوم أشدَّ عليَّ من مصيبي، وذكر كلاماً طويلاً، ثم أعرض عنهم وسجد وقال: إلهي لأيِّ شيء خلقتني؟ ليتك لما كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنت حيضة، يا ليتني كنت نسياً منسياً، ويا ليتني لم تلدني أمي، وذكر الثعلبي عن وهب كلاماً طويلاً أعرضت عنه لأن فيه نوع اعتراضٍ.

فصل في المدة التي أقام فيها في البلاء

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها كانت سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، قاله ابن عباس وعامة العلماء.

والثاني: ثلاث سنين، قاله وهب.

والثالث: ثماني عشرة سنة، قاله الربيع بن أنس. قال جدي في «التبصرة»: وقد رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ^(١). والأول أشهر لوجهين:

أحدهما: لما ذكر الحسن البصري، فإنه قال: أيوب: تنعمت سبع سنين فابتليت سبع سنين.

والثاني: أن المريض الذي وقف ببابه وردّه أقام ببابه سبع ساعات فعوقب سبع سنين، وقال الحسن: مكث أيوب على الكُناسة سبع سنين، وكان يأخذ الدودة من الأرض إذا سقطت ويعيدها إلى جسده ويقول: كلي من رزق ربك، اللهم إن كان هذا رضاك فشدد، وإن كان من سخطك فاغفر.

فصل في سبب سؤاله العافية

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه اشتهى إداماً فلم يقدر عليه حتى باعت امرأته شعرها، أو قرناً من

(١) «التبصرة» ١/١٩٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/١٠٩، والثعلبي في عرائس المجالس ١٦٢، وانظر الدر المنثور ٤/٣٣٠، قال ابن كثير في تفسيره ٣/١٨٩: رفع هذا الحديث غريب جداً.

شعرها، واشترت له ما طلب، فسبقها إبليس إليه وقال: قد وجدتُ امرأتك مع رجل، وقد قطع شعرها فحينئذ قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن الله أنساه الدعاء مع كثرة الذكر، فلما انقضى زمان البلاء ألهمه الله الدعاء، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: أن نفرأ من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعندها دعا، قاله نوف البكالي.

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان له أخوان فأتياه يوماً فوجداهما منه رائحة منكرة فقالا: لو علم الله من هذا خيراً ما بلغ به هذا، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك فقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة وأنا شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني - وهما يسمعان - اللهم إن كنت تعلم أنني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدقني، ثم سجد وقال: اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي فكشف ما به.

والرابع: أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلةٍ وقال: قولي له: ليذبحها وقد برأ، فجاءته وقالت: لقيني شيخ من صفته كذا وكذا وذكر كذا وكذا، فعرفه وقال: كدت أن تهلكيني، لئن فرج الله عني لأجلدك مئة جلدة، أمرتني أن أذبح لغير الله، ثم طردها عنه وبقي وحيداً ليس معه معين فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، قاله الحسن.

والخامس: أن الله أوحى إليه في عنفوان شبابه: إني مبتليك، فقال: يا رب وأين يكون قلبي؟ قال: عندي، قال: افعل ما شئت، فلما ابتلاه قال: إني معافيك، فقال: وأين يكون قلبي؟ قال: عندك، قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، قاله إبراهيم بن شيبان.

والسادس: أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه.

والسابع: أن الدود أكل جميع جسده، فلما دبَّ إلى قلبه خاف فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، قاله مقاتل، وكان اثني عشر ألف دودة.

قال جدي رحمه الله في هذا المعنى: قال بلسان الحال: يا ربِّ قلبي هو الوكيل المنفق أموال الصبر، فإذا قضي عليه لم يبق للضيف قوت.

وقال ابن عباس: أكل الدودُ جميعَ جسدِ أيوب، فلما لم يبق شيءٌ سلَّطَ اللهُ الدودَ بعضه على بعض فأكل بعضه بعضاً حتى بقيت دودتان، فجاءتا فأكلت الواحدة الأخرى، وبقيت واحدة فجاءت فدبَّتْ إلى قلبه لتتقره، فقال أيوب: إلهي إن فقدت حلاوة ذكرك من قلبي لم يهن عليّ ما ابتليت به ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾^(١).

والثامن: أن جبريل جاءه فقال: يا أيوب، لا تقدر أن تصبر معه، فإن بلاياه في خزائنه كثيرة، ومتى لم تشكُ إليه لا يرفع عنك البلاء، فاعترف بالعجز فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، قاله ابن نجيب.

والتاسع: أن دودة عضته فألمته ألماً زاد على جميع ما قاسى، فبكى فرحمه الله، قاله مقاتل.

والعاشر: أن زوجته مرضت فتأخرت عنه أياماً، فلم يبق له من يقوم بأمره فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ قاله مقاتل بن حيان.

وقال الجنيد: عرفه فاقه السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

وقال مجاهد: أوحى الله إليه: لولا أني أفرغتُ مكانَ كلِّ شعرة منك صبراً لما صبرتَ^(٢).

فإن قيل: فلم لم يدعُ أوَّلَ ما نزل به البلاء؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه علم أمر الله فيه ولا تصرفَ للعبد مع مولاه.

والثاني: أنه أراد مضاعفة الثواب فلم يسأل كَشَفَ البلاء ليأخذ منه نصيباً.

فإن قيل: فكيف قال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١] والشيطان لا يمس؟ فالجواب من وجهين أحدهما: أنه لما كان الشيطان هو السبب فيما أصابه أضيف إليه.

والثاني: أنه ما كان يحسن به أن يقول مسني الله، فاستعمل الأدب مع الله، وإن كان ذلك بقضائه وقدره.

قوله تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] قال ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام

(١) انظر «تاريخ دمشق» ٦٥/١٠.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ٦٩/١٠.

فقال له: قم قائماً، فقال: وكيف أقدر، فقال: قم قائماً، فقام وركض برجله، فنبعت عين ماء، فقال: اغتسل فاغتسل، ثم نحاها من مكانه وقال: اركض فركض، فنبعت عين أخرى فقال: اشرب فشرّب، فذلك قوله تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

فإن قيل: فقد كان يكفيه ركضة واحدة، قلنا: الركضة الأولى لزوال الضرّ، والثانية دليل الفرح والطرب بالعافية. وإنما خصّ الرجل بالركض لأن العادة جارية أن ينبع الماء من تحت الرجل، وكان ذلك معجزة له.

قلت: وقد احتج محمد بن طاهر المقدسي على جواز الرقص بهذه الآية، ولا حجة له فيها لأن ذلك الركض لم يكن رقصاً وإنما كان من باب المعجزات لا من باب الرقص المعتاد.

وقال السدي: جاءه جبريل بحلّة من الجنة فألبسه إياها، وكانت امرأته غائبة فجاءت فلم تعرفه، فقالت له: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان هاهنا، لعلّ الذئب أكلته؟ فقال لها: أنا أيوب، فقالت: اتق الله ولا تسخر بي.

واختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَهْلُهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤] على قولين:

أحدهما: ذكره ابن عباس وابن مسعود قالا: كانت امرأته قد ولدت سبع بنين وسبع بنات، فردّهم الله عليه، وأقامهم من قبورهم، وآتاه مثلهم في الدنيا.

والثاني: أن الله ما أحياهم وإنما آتاه أجورهم في الآخرة، قاله مجاهد وابن الكلبي.

والأول أصح، لأن الله سبحانه وتعالى نصّ عليه، وفيه إظهار شرف أيوب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ردّ الله على امرأته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً.

وقال كعب: لما أمطر الله عليه الجراد من الذهب جعل يأخذ الجراد بيده فيجعله في

ثوبه فأوحى الله إليه: يا أيوب، أفما شبعت؟ فقال: يا إلهي ومن يشبع من فضلك.

وقد روي مرفوعاً، قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُريَاناً خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتُو

في ثوبه، فناداه ربُّه تعالى: يا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيْكَ عما ترى؟ قال: بلى يا ربُّ، ولكن لا غنى لي عن بَرَكَتِكَ» انفراد بإخراجه البخاري^(١).

وقال وهب: تطاير الجراد من الماء الذي اغتسل فيه، وكان له أندران أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداها على أندر القمح ذهباً والأخرى [على أندر الشعير] فضة، وتطاير الجراد على الكلِّ وإنما خصَّ الجراد لكثرتة^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا﴾ [ص: ٤٤] وهو السُّمراخ، وقيل: الحزمة، من العيدان أو الحشيش ﴿فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] قال ابن عباس: كان قد حلف ليجلدن زوجته مئة جلدة، وما كان ذلك يحسن في مقابلة صبرها وما لاقت في خدمته من الشدائد، فأفتاه الله تعالى بذلك.

واختلفوا في سبب يمينه على أقوال: أحدها: حديث السخلة التي جاء بها إليها إبليس، وقد ذكرناه. والثاني: أن إبليس جلس على طريق زوجته كأنه طيب، فقالت له: يا عبد الله هاهنا رجلٌ مبتلى فهل لك أن تداويه؟ قال: نعم، على شرط أن يقول إنني شفيته، فأخبرته بذلك فقال: ذاك الشيطان، لله عليّ إن شفاني الله لأجلدك مئة جلدة. قاله ابن عباس^(٣).

والثالث: أن إبليس لقيها فقال: أنا الذي فعلت بأيوب ما فعلت، وأنا إله الأرض وجميع ما أخذت منه بيدي، فانطلقني أريك، ومشى بها غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها وولدها، فأنت أيوب فأخبرته فقال: لعنه الله، ثم حلف، قاله وهب^(٤).

وقال ابن عباس: قال إبليس لجنوده: قد أعيانني أيوب، فقالوا: عليك بزوجه، فإنه ما أخرج آدم من الجنة غير امرأته، فجاء إليها فوسوس لها بأنواع الوسوس حتى حلف

(١) أحمد في «مسنده» (٨١٥٩)، والبخاري (٢٧٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٦٧/١٠ وما بين معقوفين زيادة منه، والأندر: اليبدر.

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ٦٧/١٠.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٦٧/١٠.

أيوب ليجلدنها مئة جلدة، فأفتاه الله لطفاً بها فجمع العيدان، وقيل: كانت مئة سنبله، فضربها ضربة واحدة. وهل ذلك خاصٌّ له أو عام؟ قال ابن عباس: هو عام، وقال مجاهد: هو خاصٌّ، والأول أصح.

واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده أو أمته أو زوجته مئة سوط، أو أقل أو أكثر، فأخذ حزمةً وضرب بها، قال أصحابنا: إن أصابه بكل واحد منها برىء في يمينه، وقال الشافعي ومالك وأحمد: لا يبرأ، وجه قولهم: إن ذلك كان خاصاً بامرأة أيوب رفقاً بها، وهذا المعنى معدوم في حق غيرها. ولنا: ما كان جائزاً في شرع غيرنا فهو جائزٌ في شرعنا إلا أن يوجد النسخ، ولم يوجد، قال الله تعالى: ﴿فِيهِدَهُمْ آقَدَةَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] ولم يصبر حتى قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فأين صبره؟ فالجواب: أن المذموم هو الشكوى إلى الخلق، أما إلى الخالق فلا. وشكواه إلى الله بما ذكرنا من الأسباب لا يدلُّ على أنه لم يصبر، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ثم قال: ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨؛ ٨٣] على أن قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ قد ذهب بعض العارفين إلى أنه دعاء لا شكوى، وقد أشار إليه أبو القاسم ابن حبيب قال: والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] والاستجابة إنما تتعقب الدعاء.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله ﴿وَلَا تَحْنُتْ﴾ وبين قوله تعالى لنينا ﷺ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحریم: ٢].

فالجواب: إنه لم يكن في من تقدّم من الأمم كفارة يمين، وإنما شرعت لهذه الأمة تخفيفاً عنها، فتأخذ مرةً بالعزيمة ومرةً بالرخصة.

وقد روى مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: يجاء يوم القيامة بالمریض فيقول له الله تعالى: ما منعك أن تعبدني؟ فيقول: يا رب، ابتليتني ببلاءٍ شغلني عن عبادتك، فيجاء بأيوب في ضره وبلائه ويقال له: أنت أكثر بلاءً أم هذا؟ فيقول: لا بل هذا، فيقول: إن هذا لم يمنعه ما كان فيه عن عبادتي لحظةً قط.

فصل في ذكر وفاته

واختلفوا في سنِّه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش مئةً وستاً وأربعين سنة، قاله ابن عباس، وقال: عاش منها بعدما ذهب عنه البلاء سبعين سنة.

والثاني: ثلاثاً وسبعين سنة، قاله مجاهد. والثالث: - وهو الأشهر - أنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة، ذكره الطبري في «تاريخه» وجدي في «أعمار الأعيان»^(١).

قال جدي: وعاش لهذا السن جماعة، منهم أبو أيوب الأنصاري، ومحمود بن الربيع، وسليمان بن صُرد، والهيثم بن عديّ، وأبو الحسن المدائني صاحب التاريخ، ومحمد بن بكار، وإدريس بن عبد الكريم، ويونس بن عبد الأعلى، وطراد الزيّبي، وأبو القاسم ابن الحصين، وأبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبو سعد الزُّوزني وغيرهم^(٢).

ودفن أيوب بالشام بالبثينة، وقبره ظاهر بها، وأوصى إلى أخيه حومل بن أموص.



(١) «تاريخ الطبري» ٣٢٤/١، و«أعمار الأعيان» ص ٨٢.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ٨٢-٨٣.

فصل

في ذكر شعيب عليه السلام^(١)

قال مقاتل: ذكر الله شعيباً في تسعة مواضع.

وشعيب اسم عربي وليس بأعجمي، وقد ذكرنا هذا^(٢).

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه شعيب بن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. ذكره وهب ابن منبه وجدّي في «التبصرة»^(٣).

والثاني: شعيب بن نويب بن مدين بن برعويل بن عيفا بن مدين بن إبراهيم، ذكره أبو الحسين ابن المنادي^(٤).

والثالث: شعيب بن بحرون بن نويب بن مدين، ذكره الثعلبي. وقال الشرقي بن القطامي - وكان عارفاً بأنساب العرب - : اسم شعيب القديم يثرون بالعبرانية، وشعيب بالعربية^(٥). قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] [هود: ٨٤] [العنكبوت: ٣٦] الآية.

واختلفوا في مدين على أقوال:

أحدها: أنه ابن إبراهيم لصلبه، قاله مقاتل.

والثاني: أنه مدين بن مديان بن إبراهيم عليه السلام، قاله أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أنه اسم ماء كان عليه قوم شعيب، قاله قتادة^(٦).

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٢٥، وتفسيره ١٢/ ٥٥٤ و ١٥/ ٤٤٣، «عرائس المجالس» ص ١٦٧، تفسير

الثعلبي ٤/ ٢٦٠ و ٥/ ١٨٥ و ٧/ ١٧٨، «المنتظم» ١/ ٣٢٤، «التبصرة» ١/ ٢٠٤، «زاد المسير» ٣/ ٢٢٨ و ٤/

١٤٨ و ٦/ ١٤١، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٥

(٢) انظر قصة آدم عليه السلام.

(٣) «التبصرة» ١/ ٢٠٤.

(٤) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٥) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٦) انظر «التبصرة» ١/ ٢٠٤، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٨.

والرابع: أنه اسم بلدة معروفة تنسب إلى مدين بن إبراهيم، قال الشاعر:
رُهْبَانُ مَدِينٍ وَالَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ يُمَسُونَ مِنَ الْمِ الْفِرَاقِ هُمُودًا^(١)
والخامس: أن مدين اسم دار شعيب. قال الجوهرى: اسم قرية شعيب^(٢). والأيكه خلفها.

والسادس: أن مدين اسم القبيلة، روي عن مقاتل.
قال: ومعنى الآية: أرسلنا شعيباً إلى ولد مدين، وهي القبيلة؛ وعامة المؤرخين على أن مدين ابن إبراهيم لصلبه، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: أرسلناه إليهم.
وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن وهب: أن شعيباً وبلعم كانا من ولد رهط آمنوا بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجروا إلى الشام، وتزوجوا بنات لوط، فكلُّ نبيِّ كان قبل بني إسرائيل وبعد إبراهيم من ولد ذلك الرهط. وحكى أيضاً أن جدّة شعيب بنت لوط. ولم تكن مدين قبيلة شعيب، ولكنها أمة بعث إليها^(٣). وعامة العلماء على خلاف قول ابن قتيبة.

وقال ابن عباس: كان شعيب يسمّى خطيبَ الأنبياء لفصاحته وحسن مراجعته قومه.
وقيل: كانت معجزته في خطبته. وقيل: لم يسم معجزته، وإنما قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] و﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

وقال الشَّرْقِيُّ بن القَطَامِيِّ: بُعِثَ إِلَى مَدِينٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِينَ سَنَةً، وَكَانُوا مَعَ عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ يَبْخَسُونَ الْمَكَايِيلَ وَالْمَوَازِينَ، فَنَهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَقَالَ: يَا قَوْمِ ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤] أي: موسرين في خصب وعيش وسعة. وحذرهم غلاء السعر، وزوال النعمة، وحلول النعمة.

وقال قتادة: إنما كان يخاطبهم بلسان العرب، لأنه من العرب الأول، من ولد

(١) هو كثير عزة، انظر «ديوانه» ١٣٣.

(٢) «الصحاح» (مدن).

(٣) «المعارف» ص ٤١-٤٢.

المحضر بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم.

وقال: ﴿وَيَقَوْمٍ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٥] أي: أتموهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. وقال ابن عباس: إنما قال لهم: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] الآية، لأنه لم يؤمر بالقتال.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأوثان، وكان كثير الصلاة والتلاوة ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ وكانوا يقصون جوانب الدنانير والدراهم لينقصوها ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] أي: السفيه، كما يقال للديغ سليم. وقيل: على وجه الاستهزاء.

﴿وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: خلافي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] فقالوا في الجواب: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] أي: ضعيف البصر. قال مجاهد: ثم عمي في آخر عمره، وقيل: إنه بعث وهو أعمى، وأنكر قوم هذا، وقالوا: ما بعث الله نبياً أعمى ولا به زمانة، لما نذكر.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] يقال: وعدته في الخير، وأوعده في الشر. وحكى جدي في «التبصرة» عن سعيد بن جبير أنه قال: كان قد ذهب بصره. قال: وقال ابن المنادي: إن ثبت هذا فهو كان في آخر عمره، لأنه لا يُبعثُ نبياً أعمى. قال ابن المنادي: وقد قال أبو روق: لم يبعث الله نبياً أعمى ولا به زمانة. وهذا القول أليط بالقلوب من قول سعيد بن جبير^(١).

واختلفوا في الصراط على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يقعدون على الطريق يصدون من آمن به، قاله ابن عباس^(٢).

والثاني: أنهم كانوا عشارين، قاله مجاهد والسدي^(٣).

والثالث: كانوا يقطعون الطريق، قاله أبو روق وابن زيد^(٤).

(١) «التبصرة» ٢٠٦/١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٥٧/١٢.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٢٢٩/٣.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٢٢٩/٣.

﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يصرفون المؤمنين عن إيمانهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٩] أي السبيل، والعوج: الزيغ. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني في العدد، وقيل: في الأموال، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١] أي: شتمناك، وقيل: قتلناك. ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أتراعون رهطي ولا تراعون الله في ﴿وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] أي رميتم أمره وراء ظهوركم ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] لكم العذاب، ولي وللمؤمنين الثواب.

ذِكْرُ عَذَابِهِمْ

قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] واختلفوا فيهم، قال ابن عباس: صاح بهم جبريل صيحة فماتوا عن آخرهم و﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤].

وقال محمد بن كعب القرظي: عُدِّبَ أَهْلُ مَدِينِ بَثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الْعَذَابِ، صَنَفٌ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ، فَخَافُوا أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ دِيَارُهُمْ، فَخَرَجُوا مِنْهَا، فَأَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ، فَبَعَثَ اللَّهُ الظِّلَّةَ، فَتَنَادُوا هَلُمُوا إِلَى الظِّلِّ، فَدَخَلُوا فِيهِ، فَصِيحَ بِهِمْ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ، فَمَاتُوا كُلَّهُمْ. قَالَ جَدِّي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّبَصُّرَةِ»: وَهَذَا الْقَوْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ مَدِينِ هُمْ أَصْحَابُ الظُّلَّةِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَذَهَبَ مُقَاتِلٌ إِلَى أَنَّ أَهْلَ مَدِينِ لَمَّا هَلَكُوا بُعِثَ شُعَيْبٌ إِلَى أَصْحَابِ الأَيْكَةِ، فَأَهْلَكُوا بِالظُّلَّةِ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: شُعَيْبٌ، لِأَنَّهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَالْأَيْكُ: الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ، الْوَاحِدَةُ: أَيْكَةٌ، فِيهَا لَغْتَانٌ، أَيْكَةٌ وَوَيْكَةٌ. وَقِيلَ: الْوَاحِدَةُ: أَيْكَةٌ وَوَيْكَةٌ، وَمِثْلُ مَكَّةَ وَبَكَّةَ.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: وكان أبو جاد، وهو أوز، وحطي، وكلمون، وسعفص، وقرشت، ملوك أهل مدين، وهم بنو الأَمْحَضِ بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة، وكان هوّز، وحطي،

(١) «التبصرة» ٢٠٦/١.

ملكي وَّجَّ ونجد - والطائف هو وَّجَّ - وكان سعفص وقرشت ملكي مدين، ثم خلفهم كلمون، وكان عذاب يوم الظلة في ملكه، فقالت حالفة ابنة كلمون ترثيه^(١):

كَلَمُونَ هَدَّ رَكْنِي هُلْكُهُ وَسَطَ الْمَحَلَّةِ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الـ حَتَفُ نَاراً وَسَطَ ظُلَّةِ
كَوْنَتْ نَاراً فَأُضْحِت دَارَهُمْ كَالْمُضْمَحَلَّةِ

ثم إنَّ شعيباً أقام في أهل الأيكة يدعوهم إلى الله فما ازدادوا إلا عتوا، فسَلَطَ الله عليهم الحرَّ.

وقال قتادة: أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة، وأما أصحاب الأيكة فسَلَطَ عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، فذلك عذاب يوم الظلة.

وقال مجاهد: حبس الله عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى أخذت بأنفاسهم، فدخلوا الأسراب ليتبردوا فيها، فوجدوها أشدَّ حرّاً من الظاهر، فهربوا إلى البرية، فأظلمت سحابة عظيمة، فوجدوا فيها برِّدَ النسيم، فتنادوا تعالوا إلى الظلِّ والبرد، حتى إذا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

فالحاصل أن شعيباً بُعث إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، وإنما اختلفوا إلى أيهم بُعث أولاً.

وقال قتادة: كان في قوم شعيب رجل يقال له: عمرو بن جلهاء، فلما رأى العذاب قال^(٢):

يَا قَوْمِ إِنَّ شَعِيباً مُرْسَلٌ فَدَعُّوا عَنْكُمْ سُمِيراً وَعِمْرَانَ بْنَ شَدَادٍ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨، و«التبصرة» ١/٢٠٦-٢٠٧.

(٢) إلى هنا تنتهي نسخة (ل) وجاء في آخرها: انتهى الجزء الأول يتلوه الثاني شعر عمرو بن جلهاء، تم بحمد الله وعونه، وكان الفراغ منه يوم الأحد مستهل شعبان المبارك، سبع عشر وسبعمائة، وكتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن العلم الحكيمي غفر الله له ولوالديه ولصاحب الكتاب ولجميع المسلمين آمين آمين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. وسأعتمد فيما يأتي من هذا الجزء إلى قصة زكريا ويحيى: مطبوعة الدكتور إحسان عباس، ونسخة (ب) رغم اختصاراتها الكثيرة والتقديم والتأخير فيها الذي بدأ من هنا.

إني أرى غيمةً يا قومُ قد طلعت تدعو بصوت على صمّانةِ الوادي
 وأنه لن تروا فيها غداةً غدٍ إلا الرّقيمُ تمشّي بين أنجادي
 وسمير وعمران: كاهنان، والرقيم: اسم كلب^(١).

وقال ابن المسيب: لما انهزموا من الأسراب رُفِعَ لهم جبلٌ تحته أنهار وعيون،
 فاجتمعوا تحته، فقلب الله عليهم الجبل. وقال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٥]
 أي: لم يسكنوا بمغانيها، من قولهم غنيتُ بالمكان إذا أقمت به، والمغاني: المنازل.
 وقال السدي: ولما هلكوا رثاهم بعضهم فقال^(٢):

ملوك بني حُطّي وسَعَفَص ذو النّدى وهوز أرباب البنيّة والحجر
 همو مَلَكُوا مُلْكَ الحِجَازِ بأوجهٍ كمثلِ شُعاعِ الشَّمسِ أو هالةِ البدر
 وهم وَطَّنُوا البيتَ الحرامَ ورَتَّبُوا أموراً وسادوا بالمكارم والفخر

ذِكْرُ وَفَاةِ شُعَيْبٍ وَمَوْضِعِ قَبْرِهِ

واختلفوا فيه: فقال علماء السير: أقام مدةً بعد هلاك قومه، ووصل إليه موسى عليه
 السلام، وزوّجه بابنته. قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: ثم خرج إلى مكة فمات بها
 وعمره مئة وأربعون سنة، ودفن في المسجد الحرام، حيال الحجر الأسود^(٣).

قلت: وعند طبرية بالساحل قرية يقال لها: حطين فيها قبر يقال: إنه قبر شعيب، وما
 ذكره جدي أصح؛ وكان شعيب قد أوصى إلى موسى.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وتوفي بهذه السن: فروة ونفائة، ومعاذ
 ابن حيان، ومرارة^(٤).

وقال الشّرقي بن قَطامي: إن الله بعث نبياً آخر بعد شعيب، يقال له: شعيب بن ذي
 مهدي بن حصورا، إلى بني حصورا، وهم أمّةٌ عظيمة من ولد يافث بن نوح، وكانت

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨.

(٢) القائل هو: المنتصر بن المنذر. إن صحَّ ذلك، فالأبيات نسبت إليه في «الروض المعطار» ص ٧١.

(٣) «التبصرة» ٢٠٧/١١.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٩-١٠٠.

منازلهم بالسماوة، بين الشام والعراق، وكانت عمائر متصلة، ومياهاً جاريةً، وبساتين مثمرة، وقد ذكرها الزبير بن بكار فقال: حدّ السماوة من أطراف الشام إلى الحجاز والعراق إلى قنّسرين وخصاصة إلى بلاد سورية ودمشق وهي اليوم مفاوز وقفار. وكانوا في عيش ونعمة، فبعث الله إليهم شعيب بن ذي مهديم، فقتلوه، فأوحى الله إلى بعض أنبياء بني إسرائيل أن يأمر بعض الملوك بغزوهم، وقال له: تغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فغزاهم. ويقال: إنما غزاهم بخت نصر، ويقال: إنه صاح بهم صائح من السماء فماتوا، وهم الذين عنى الله تعالى بقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] في قول مقاتل.

ومن الحوادث التي كانت في أيام شعيب عليه السلام

منوجهر - بالجيم - وهو ابن أمان^(١) بن إيرج بن أفريدون - الذي ذكرناه فيما تقدم - وبعث موسى وكان قد مضى في ملكه ستون سنة، وعاش في الملك ستين سنة أخرى، وكان عادلاً سمحاً جواداً محسناً. ويقال: هو أول من حفر الخنادق، ورثب آلات الحرب، وهو من أكابر ملوك الفرس، وكان مقيماً بالمشرق يغازي الترك، والحدّ الفاصل بينه وبين الترك جيحون. ولما مضى من ملكه خمس وثلاثون سنة، أغارت الترك على بلاده، وقطعت جيحون، فجمع الموابذة، والأساورة، وعظماء المملكة، وأجلس موبدان عن يمينه، وهو عالم العلماء، ثم لبس التاج وثياب الملك، ثم قام خطيباً، وهو أول من خطب في الدنيا من الملوك^(٢).

ذكر خطبته

قال علماء السير: قام قائماً على سريرته فقاموا لقيامه، فقال: إنما قمْتُ لأسمعكم فاقعدوا، فقعدوا، فحمد الله وأثنى عليه وقال بالفارسية كلاماً معناه: وإنما الناس ناس ما دفعوا العارَ عنهم والعدوَّ عن بلادهم، وقد نال العدوُّ من أطراف بلادكم، وليس ذلك إلا من ترككم جهادهم، وقلّة مبالاةكم بهم، وإن الله إنما أعطانا هذا الملك

(١) في (ب) منوسهر الملك بن أمان وعند الطبري: منوشهر. انظر «تاريخ الطبري» ١/٣٧٧.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٣٧٩، و«المنتظم» ١/٣٢٦-٣٢٧.

لنشكر فيزيدينا، أو نكفر فيعاقبنا، إنما الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولا بد من كون ما هو كائن، وإن التفكر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، وقد ورد الأول، ولا بد للآخر من اللحاق به، وقد مضى قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد زهاب الأصول، وإن الله أعطانا الملك، فله الحمد ونسأله الرشداً واليقين والصدق، وإنما للملك على أهل مملكته أن يطيعوه ويناصحوه، ويقاتلوا عدوه، وحقهم على الملك إدرار أرزاقهم، وأن يرفق بهم، ويحسن إليهم، ولا يحملهم ما لا يطيقون، ولا يكلفهم ما هم عنه عاجزون. واعلموا أن الجند للملك بمنزلة جناحي الطائر، فمتى نقص من الجناح ريشه كان ذلك نقصاناً منه. وينبغي أن يكون الملك جواداً صدوقاً، لا كذوباً ولا ظالماً، ولا حقوداً ولا حسوداً، ولا بخيلاً، وأن يملك نفسه عند الغضب، فإنه مسلط ويده مبسوطة، وأن يكون عفواً صفوحاً، ولأن يخطيء في العفو خير من أن يصيب في العقوبة. وينبغي للملك أن يتثبت في الأمر الذي فيه قتل النفس وإزهاق الروح، وإن رفع إليه عامل ما فيه عقوبة، جمع ما بينه وبين المتظلم، فإن صحَّ عنده الحق في جهة مال إليها. ألا وإن الملك ملك إذا أطيع، فإذا خولف فهو مملوك. ألا وإن العدو قد طمع فيكم، فانهضوا إلى قتاله، وقد أزعجت العلل بالأموال والسلاح، وأنا شريككم في الرأي إن شاء الله؛ وذكر كلاماً طويلاً.

ثم أمر بالطعام فمدت الموائد، وأفاض عليهم الإنعام، فدعوا له وشكروه، وكتبوا هذه الخطبة بماء الذهب، وأودعوها في خزائن الفرس، فما زالوا يتوارثونها. وعاش في الملك مئة وعشرين سنة، وسار في جيوشه إلى الترك، فدوخ بلادهم. وولي بعده أفراسياب، وقيل: ابن أفراسياب التركي، وسنذكره^(١).

وفي زمان شعيب كان الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويلقب بالرائش، وسنذكره في ملوك اليمن، إن شاء الله تعالى.



(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٠-٣٨١-٣٨٢-٣٨٣، و«المنتظم» ١/ ٣٢٧-٣٢٨-٣٢٩.

فصل (١)

في ذكر موسى بن عمران عليه السلام (٢)

قال مقاتل: ذكر الله موسى في مئة وثمانية عشر موضعاً. وذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» فقال: وموسى اسم النبي ﷺ أعجمي معرب، وأصله بالعبرية موشا. وقال أبو العلاء المعري: ولم أعلم أن في العرب من سمي موسى في الجاهلية، وإنما حدث في الإسلام لما نزل القرآن، وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك (٣).

وأما نسبه فهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي، ابن يعقوب. وقيل: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، واسم أمه يوخابذ. وكان بين موسى وإبراهيم ألف سنة.

وقال أهل التوراة: كان قبل موسى بن عمران نبيُّ يقال له: موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب، عليه السلام، وقد ذكرناه. وكان موسى راعياً.

ذكر صفته

قال وهب: وكان موسى [عليه السلام آدم] جعداً طوالاً، كأنه من رجال أزد شنوءة. وقد وصفه النبي ﷺ لما نذكر. وكان في أرنبة أنفه شامة، وكذا على طرف لسانه.

قال ابن قتيبة في «المعارف»: ولا يعرف أحد قبله ولا بعده، كانت على طرف لسانه شامة غيره، وهي العقدة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧] قال: وكان في وجه أخيه هارون شامة، وكان أخاه لأبيه وأمه. وكان

(١) في (ب): الباب السادس عشر. وليس لدينا في هذا القسم - إلى قصة زكريا - نسخة غيرها، وهي مختصرة، وسياقها مخالف في مواضع كثيرة منه لما في مطبوعة إحسان عباس، لهذا اعتمدنا المطبوعة، وأشرنا إلى ما في النسخة (ب) من زيادات وخلاف.

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٥، «عرائس المجالس» ص ١٦٨-١٦٩، «المنتظم» ١/ ٣٣١، «التبصرة» ٢١٨/١.

(٣) «المعرب» ص ٣٥٠.

هارون أسنَّ منه بثلاث سنين، وكانت مريم بنت عمران أختهما أسنَّ منهما، وكانت تحت كالب بن يوفنا بن فارض به يهوذا بن يعقوب، عليه السلام.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بين آل يعقوب وأيوب نبيًّا، حتى كان موسى^(١).

وقال ابن عباس: مات موسى وهارون ولم يريا الشيب.

فصل في الفراعنة

اختلفوا في فرعون موسى على أقوال:

أحدها: أن اسمه الوليد بن الريان، قاله مقاتل.

والثاني: الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن الهلواش بن عمرو بن عملاق، وعملاق قبيلة، قاله قتادة.

والثالث: الوليد بن مصعب بن الريان.

والرابع: قابوس، ذكره في التوراة.

والخامس: مغيث، قاله ابن أبي نجيح.

والسادس: الوليد بن مصعب، قاله ابن أبي عون.

وقال قتادة: الفراعنة ثلاثة:

أولهم: سنان بن الأشل بن علوان بن العبيد بن عويج بن عمليق؛ وهو صاحب سارة، وكان في زمان الخليل عليه السلام بمصر.

والثاني: الريان بن الوليد بن ليث، وهو فرعون يوسف عليه السلام.

والثالث: فرعون موسى على الاختلاف في اسمه.

وقال وهب: فرعون موسى من القبط عاش أربع مئة سنة، وهو الرابع من الفراعنة،

وكان أخبثهم، وذلك لأن فرعون يوسف لم يكن يؤذي بني إسرائيل، ويحسن إليهم

ويكرمهم؛ وفرعون موسى عذبهم بأنواع العذاب، لما يذكر.

(١) «المعارف» ص ٤٣.

وقد قال قوم: إن فرعون يوسف هو فرعون موسى، وإنه عاش إلى زمان موسى عليه السلام، وهو وَهَم، بينهما زمان طويل.

وقال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وكل عاتٍ متمرّد فرعون، والعُتاةُ الفراعنة، وهو ذو فرعونية، أي: دهاء ونكر^(١).

وقال ابن الجواليقي: والفرعنة مشتقة من فرعون^(٢).

واختلفوا في صفته: قال وهب: كان قصيراً، ولحيته سبعة أشبار. وقيل: كان طوله قدر ذراع. وقيل: كان طوالاً.

واختلفوا في أي مكان كان على أقوال:

أحدها: أنه مَعْلَثَايَا^(٣) من بلد الموصّل، وفي هذا المكان قلعة تعرف بفرعون.

الثاني: أنه من بَلْخ، وكان هامان خبازاً بَلْخ، وفرعون يومئذ فقير، قاله وهب.

والثالث: من بوشنج، قاله مقاتل.

والرابع: من أهل أصبهان، حكاه عبد الله بن المبارك.

فحكى يعمر بن بشر عن ابن المبارك، قال: كان عطاراً بأصبهان فأفلس وركبه دين، فخرج منها هارباً من الدّين إلى الشام، فلم يستقم له حال، فأتى مصر، فرأى على باب المدينة وقرّ حمل بطيخ، فسأل عن سعره، قيل له هذا بدرهم، فدخل المدينة فرأى وقرّ بطيخ، فسأل عنه، فقيل له: كل بطيخة بدرهم، فقال: من هاهنا أقضي ديني، واشترى وقرّاً بدرهم، وأتى به باب المدينة، فنهبه البوابون حتى بقيت بطيخة واحدة، فباعها بدرهم، فقال: ما هذا؟ أما هاهنا أحدٌ ينظر؟ فقالوا: ملكنا مشغولٌ بلذته، وقد فوّضَ الأمور إلى وزير له، ولا ينظر في شيء. فخرج فرعون إلى المقابر، فجعل لا يمكن أحداً من الدفن إلا بخمسة دراهم، وأقام على ذلك مدة لم يتعرض له أحد، فماتت بنت الملك فقال: هاتوا خمسة دراهم، فقالوا: ويحك، هذه بنت الملك، فقال:

(١) «الصحاح» (فرعن).

(٢) «المعرب» ص ٢٩٤.

(٣) في (ب) بدل المعكوفات: وكان من معلثايا، والمثبت من (ط).

هاتوا عشرة دراهم، فلم يزلّ يضاعفها عليهم حتى بلغ مئة درهم، فأخبر الملك بحديثه فقال: ومن هذا؟ قالوا: عامل الموتى، فأرسل إليه الوزير فسأله عنه، فأنكر حاله، فأرسل إليه الملك وقال: من أنت؟ فأخبره بخبر البطيخ، وقال: ما صرتُ عاملَ الموتى إلا حتى يصلَ إليك خبري وتحضرني فأنصحك. استيقظ لنفسك، واحفظ ملكك وإلا ذهب منك، فاستوزره وقتل الوزير، وفوّض إليه الأمور، فسار في الناس سيرة حسنة، وكان عادلاً سخيّاً، يقضي بالحقّ ولو على نفسه، فأحبه الناس. وتوفي الملك فولّوه عليهم، فعاش زماناً طويلاً حتى مات منهم ثلاثة قرون وهو باقٍ، فبطر وتجر وطغى وقال: أنا ربكم الأعلى^(١).

وقال مجاهد: ولما خرج من خراسان تبعه هامان، لما كان بينهما من الصداقة فاستوزره.

والظاهر أن فرعون كان من القبط لما يذكر فيما بعد. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان سخيّاً عادلاً، فلذلك دام ملكه. وقيل: إن ابن عباس هو القائل: كان يقضي بالحق على نفسه.

فصل في مولد موسى عليه السلام وحاله مع فرعون إلى أن خرج من مصر

قال علماء السير، كوهب بن منبه والكلبي والسدي وغيرهم، قالوا: رأى فرعون في منامه كأن ناراً أقبلت من البيت المقدس فأحرقت بيوت مصر وقصر فرعون والقبط فلم يبق منهم أحد، فهاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة وأخبرهم بما رأى، فنظروا في علومهم فقالوا: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك وهلاك قومك على يده. وذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: كانت الكهنة قد أخبرت فرعون وقالت: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك على يده^(٢). ولم يذكر المنام، وهو أصح، لأن موسى إنما ولد بمصر لا بيت المقدس، فالنار التي أحرقت بيوت مصر إنما خرجت من مصر.

(١) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) «التبصرة» ١/ ٢١٨.

قالوا: فأمر فرعون بذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل، ووكّل الشُّرط مع القوابل كلّما وُلِدَ مولودٌ ذبحوه، وأسرع الموتُ في مشيخة بني إسرائيل، فقال رؤساء القبط لفرعون: قد أمرت بذبح الأبناء، وقد أسرع الموت في المشايخ، فإن دمت على هذا لم يبق لنا من يخدمنا. فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون قبل موسى في السنة التي لم يذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها، بعد أن ذبح من بني إسرائيل سبعين ألفاً، وقيل: تسعين ألفاً. فلما ولد موسى دخل الطلب إلى بيت أمه، فألقته في التنور، فلما خرجوا قامت إلى التنور وهو يُسَجَّر، فرأته سالماً، فألهمها الله أن صنعت تابوتاً من البرديّ - وقيل: إنما صنعه رجل مؤمن من آل فرعون - فأوحى الله إلى يوحنا بن مريم، أمّ موسى، أن اقدفيه في التابوت ثم اقدفيه في اليمّ - يعني: في النيل - ففعلت ذلك بعد أن أرضعته.

فإن قيل: فلم أمرت بإلقائه في الماء، قال أبو حنيفة ابن النُّوبي: ليختفي على الكهان أمره، لأن المولود إذا وقع في الماء خفي نجمه. وقيل أيضاً: قيل لأمّه: اطرحيه في التلف لأنجيه بالتلف.

فسار الماء بالتابوت، وكانت قد زَفَّتْ^(١) التابوت، ولَفَّتْ موسى في القطن، فساقه القدر إلى نهرٍ يأخذ من النيل إلى دار فرعون، ووافق جلوسَ فرعون في ذلك الوقت على البركة، ومعه آسية بنت مزاحم، فدخل التابوت إلى البركة، فقال فرعون للخدم والجواري: أخرجوه، فأخرجوه، ففتح التابوت فرآه، فقال: عبراني، كيف أخطأه الذبح وأمر السنة؟ فقالت آسية: هذا أكبر من سنة، فدعه عسى أن يكون ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [القصص: ٩] وكان لا يولد لفرعون إلا البنات، وأحبه فرعون حباً شديداً بحيث لم يصبر عنه لحظة. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]. قال قتادة: كان في عينيه ملاحظة ما رآه أحدًا إلا وأحبه.

فإن قيل: فأني مناسبة بين الماء والنار؟ ولم كان مبدأ موسى ومنتهاه معهما؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الماء مغرق، فكأن فيه إشارة إلى هلاك عدوّه ونجاته. وأما النار فمن

(١) أي طلته بالزَّفَّتْ لئلا يتسرب إليه الماء، وعند الثعلبي: قَيَّرت، أي طلته بالقار.

عاداتها الإحراق، ولكن ظهرت معجزات موسى بأن حصل له المقصود بالتكليم منها.
والثاني: لأن طبع النار على تليين الأشياء، وطبع الماء على الترطيب، فأثر ذلك في العصا التي كانت في معجزاته.

والثالث: أن في النار والماء بقاء العالم، فكذلك كان في موسى حياة الدين.
وقال الضحاك: لما ألقته أمه في النار خافت، فلما ألقته في اليم ندمت وجزعت، فربط الله على قلبها، فقالت لأختها مريم: ﴿قُصِيَّةٌ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي آثاره، فدخلت دار فرعون فوجدته عند آسية، وقد جمعت له المراضع فلم يقبل ثدياً، فقالت مريم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ [طه: ٤٠] أي: من يرضعه ويضمه إليه؟ فقالت آسية: نعم، فأرسلت إلى أمه فجاءت فأعطته ثديها فقبله وشرب ونام، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠] وفي مصحف أبي بن كعب: «فرددناك إلى أمك كي تقر عينها بلبقائك». فلما تم رضاعه ردتته إلى دار فرعون، فأخذه يوماً في حجره، فمدَّ يده للحيته، فقال: عليّ بالذابح، فقالت آسية: إنما هو صبيٌّ لا عقل له، وأحضرت ياقوتاً وجمراً فأخذ جمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقَدَةَ مِنَ لِسَانِي﴾ (٢٧) ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

فإن قيل: فأنى اشتبه بالنار؟ ويوم التنور ألقى فيها فلم تحرق لسانه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه قال لفرعون يوماً: يا «بابا»، فعوقب لسانه ولم تعاقب يده لأنها مدت بلحية فرعون، ولهذا ظهرت المعجزة في اليد دون اللسان ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢].

فإن قيل: ف «بابا» مخرجها من الشفتين، قلنا: لا بد للسان من فعل لأنه آلة النطق، فقد وجدت المشاركة.

والثاني: أنه لم يحترق في التنور ليدوم الأُنس بينه وبين النار إلى ليلة التكليم.
والثالث: أنها لم تحترق يده ليجاهد بها فرعون، وذلك بحمل العصا. وهذا الذي ذكرناه في بداية موسى ذكره من سميننا في أول الفصل من العلماء.

وقد روى الوالبي عن ابن عباس بمعناه قال: ذبح فرعون في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل، قيل: وكانت القابلة التي وكلها بأُمّ موسى مصافيةً لها، فلما ولد موسى ووقع على الأرض لاح نورٌ بين عينيه، فهالها وهابته، فقالت لأُمّه: احفظي ولدك، فهذا هو المطلوب الذي أخبرنا بأنه عدوُّنا لأنها كانت قبطيةً، وهجم عليها الشرط، والتنور يُسَجَر، فلفَّته في خرقةٍ، وألقته فيه، وغشي على أمه من الخوف، وخرج الشرط فقالت أمه لأختها - واسمها مريم، وقيل: كانت له أخت أخرى يقال لها كلثم -: أين الصبي؟ فقالت: لا أعلم، فسمعت بكاءً من التنور، فألهمها الله أن تصنع له تابوتاً وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ والوحي هنا: هو الإلهام. قال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما أفصحك، فقالت: أبعد قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فصاححة؟ فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين. فاشترته من نجار، فقال لها: ما الذي تصنعين به؟ فقالت: أضع فيه ابناً لي أخاف عليه كيد فرعون، فمضى النجار ليغمز عليها فأخرسه الله، فجعل يشير بيده فلم يفهموا إشارته، ثم آمن بعد ذلك بموسى. فألقته في اليم، وكانت لفرعون ابنة برصاء قد أعيا الأطباء داؤها، وقالت الكهنة: لا تبرأ إلا من قبل إنسان يوجد في البحر عند شروق الشمس، في وقت كذا وكذا، فاتفق جلوس فرعون في تلك الساعة على جانب النيل، وعنده ابنته البرصاء وآسية، وإذا بالتابوت يضربه الموج وقد تعلّق بالشجر، فابتدروه بالسفن فأخذوه، فعالجوه فلم يقدرُوا على فتحه، ودنّت منه آسية ففتحته، فلاح نورٌ عظيم من بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه وهو يمصُّ فيدرُّ لبناً، وأخذت ابنة فرعون من ريقه فلطخت به برصها، فبرئت من وقتها، فقَبَلَتْهُ وضمَّته إلى صدرها وفرعون ينظر، فقال الغواة من قومه: إنّنا نظنّ أن هذا المولود هو الذي يزيل ملكك، وإنهم خافوا عليه منك فألقوه في البحر، فاقتله، فهممّ بقتله فمنعته آسية وقالت: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] فوهبه لها، وقال: أما أنا فلا حاجة لي فيه. قال ابن عباس: لو قال فرعون مثل ما قالت آسية ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي﴾ [القصص: ٩] لهداه الله كما هداها، ولكن أحبّ الله أن يجري فيه سابق علمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: سالماً من كل شيء

إلا من ذكر موسى شفقةً عليه. وقال ابن عباس: جاءها إبليس فقال: كرهت أن يقتله فرعون فيكون لك أجره وثوابه، وتوليت أنت قتله فألقيته في اليم؟! فخافت. وقولها لأختها: ﴿قُصِيَّتْ﴾ من القصص، وهو العلم بالخبر ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ [القصص: ١١] أي: بعد، فجعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أمه. وقال السُّدي: لما قالت أخته: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [القصص: ١٢] أخذوها وقالوا: قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله، فقالت: ما عنت بالنصح إلا للملك، فسكتوا عنها. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الكلبي: الأشدُّ إلى ثلاث وثلاثين سنة ﴿وَأَسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤] أربعين سنة، وقد ذكرناه.

ذِكْرُ قَتْلِهِ لِلْقَبْطِيِّ

قال علماء السير: ولما ترعرع ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ وهي مدينة فرعون، ويقال لها: مَنْف ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وكانت وقت القائلة. وقال السُّدي: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَهَذَا مِنْ عَدُوِّ هَذَا﴾ وهم القبط، وقيل: الذي من شيعة هو السامري، والذي من عدوه طباخ فرعون واسمه فلينون. وكان القبطي قد أخذ الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، فقال له موسى: دعه، فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، وكان موسى يسمى ابن فرعون، لا يركب ولا ينزل إلا معه، فقال: دعه، فقال الطباخ: لقد هممتُ أن أحمله على ظهرك ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: مات، ولم يتعمد موسى قتله. والوكز بأطراف الأصابع ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: فرغ من أمره، فندم موسى على قتله، فدفنه في الرمل وقال: لم أؤمر بذلك، فإنه ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار من ناحية القبطي، أن يؤخذ به فيقتل ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ وقد لزمه قبطي آخر يريد أن يُسخره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على قتل القبطي بالأمس، فقال للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] ومعناه: ما كفاني أن قتلتُ بالأمس نفساً بسببك حتى أقتلَ آخر، ثم مدَّ يده إلى الفرعوني وظنَّ الإسرائيلي أنه يريد، فقال: ﴿يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي

كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴿[القصص: ١٩]﴾ فلما سمع الفرعوني مقالة الإسرائيلي، علم أن موسى قتل القبطي، فأخبر فرعون، فأمر بقتل موسى، وعلم حربيل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون فقال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك ﴿فَأَخْرَجَ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسى ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] (١).

فصل في خروج موسى إلى مدين

وقد ذكرنا مدين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصدتها خارجاً عن مصر وسلطان فرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] أي: قُضِدَ الطريق إلى مدين، وبينها وبين مصر عشر ليال (٢). قال وهب: ولم يكن معه زاد ولا درهم ولا دينار ولا حذاء، وكان يأكل ورق الشجر، ويمشي حافياً، حتى سقط نعل قدميه، حتى ورد ماء مدين ف ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣] أي: جماعة، ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الاختلاط بأغنام الناس. وقيل: تحبسان أغنامهما لضعفهما، فإذا شربت أغنام الناس سقيا، وأصل الذِّيَادُ: الطرد. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما، لا تسقيان مواشيكما مع مواشي الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا نقدر أن نزاحم الناس، فإذا صدروا سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

فإن قيل: فقولهما: «وأبونا شيخ كبير» زيادة على الجواب، قلنا: معناه: لا يقدر أن يسقي غنمنا فيريحنا.

وعامة العلماء على أنه شعيب الذي قدمنا ذكره، ذكره جدي في «التبصرة» (٣)، إلا الحسن البصري ومقاتل، فإن الحسن قال: يقول الناس إنه شعيب، وليس بشعيب،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) في (ط): عشرة أميال.

(٣) «التبصرة» ٢١٩/١.

ولكنه سيّد الماء يومئذ. وأما مقاتل فإنه قال: كان شعيب قد مات ودفن بين المقام وزمزم، وإنما هذا يثرون ابن أخي شعيب. قال: وقيل: اسمه يثربي.

فلما سمع موسى كلامهما رحمهما، فاقتلع صخرةً من على رأس بئر أخرى بقرب تلك البئر لا يطبق رفعها إلا جماعة من الرجال، ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: إلى ظلّ شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] والخير: الطعام، وهو في القرآن على وجوه: أحدها: الطعام، وقال الفراء: الخير اسم لكلّ ممدوح، والشرُّ اسم لكل مدموم.

وقال ابن عباس: لقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وإن بطنه قد لصق بظهره، وإنه لأحوجُ الناس إلى شقِّ تمرّة، وإن خضرة البقل لتبين من باطن بطنه، وإنه لأكرمُ خلقِ الله وما أحد على وجه الأرض أعزُّ منه عند الله.

فلما رجعتا إلى أبيهما رأى الأغنام وهي حُفْل، فقال: ما أعجلكما، قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا، فقال لإحدهما: اذهبي فادعيه لي، فأتته ﴿تَمْشَى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ مستترة بكمّ درعها، وقد سترت وجهها بيدها، فقالت: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فتبعها. قال مطرف بن عبد الله: لو كان عند نبيّ الله شيءٌ ما تبعها، ولكن حملة على ذلك الجهد.

وسئل سفيان بن عيينة فقيل له: الرجلُ يعملُ العملَ لله يؤذّنُ أو يؤمُّ أو يعينُ أخاه، فيعطى الشيء فيقبله، قال: نعم، ألا ترى أنّ موسى عليه السلام لم يعمل للعمالة، وإنه عمل لله تعالى فعرض له رزق من الله قبله، ثم قرأ: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

وقال وهب: فمشى وهي بين يديه، فهبت الريح فعطفت ثوبها على ردفها، فقال لها: امشي خلفي فإننا لا ننظر إلى أعجاز النساء ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني شعيباً ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] يعني فرعون وقومه، أي: لا سلطان له على أرضنا.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَعْجِرُهُ﴾ ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] قال لها: وما علمك بقوّته وأمانته؟ قالت: قلّعه صخرة لا

يقلعها إلا جماعة من الرجال، وأما أمانته فإنَّ الريح هبَّتْ بثوبي فقال لي: كوني خلفي. فحينئذ ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَتَيْنِ﴾ الآية. قال وهب: واسم الكبرى صفورا، والصغرى عبورا. وقال جدي في «التبصرة»: صفورا وليا^(١). ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ﴾ [القصص: ٢٧] أن تكون أجيري ثمانين سنين، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «تزوج الصغرى منهما، وهي التي قالت يا أبت، استأجره»^(٢).

قلت: وقد كان في شرعهم تزويج المرأة على رعي الغنم جائز، وكذا عندنا لأنه من باب القيام بمصالح الزوجة، وكذا لو تزوجها على زراعة أرضها، وفيه خلاف، ذكرناه في «شرح الجامع الصغير». وأصل المسألة: رجل تزوج امرأة على خدمة سنة والزوج حرًا، جاز النكاح ولا تكون الخدمة صداقًا، ولها مهر المثل عند أبي حنيفة، وقال محمد: لها فيه خدمة سنة، ولم يذكر في «الأصل» قول أبي يوسف، وقيل: هو مع محمد، وقيل: مع أبي حنيفة؛ وقال مالك والشافعي: لها خدمة سنة. وعن أحمد كالمذهبين. فالحاصل: أن محمداً يقول: استخدام الحرة زوجها حرام، فوجب الرجوع إلى القيمة كما لو تزوجها على عبدٍ فاستحق العبد. والشافعي يقول: لو تزوجها على رعي غنمها أو زراعة أرضها جاز كذا هذا. وأبو حنيفة يقول: استخدام المرأة زوجها إذلالٌ له وهوانٌ لأنه قوَّامٌ عليها، فصار كما لو سمى ما لا قيمة له، فإنه يجب مهر المثل. وأما في رعي الغنم وزراعة الأرض، ففي «الأصل» لا يصحُّ قياساً على الخدمة وعلى التسليم، فهو من باب القيام بمصالحها كما ذكرنا. وقد بسطنا القول في هذا في «شرح الجامع الصغير».

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] أي: في الصحبة ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] أي: العشر أو الثمان، فليس لك أن تطالبنني بأكثر من ذلك فتعددي عليَّ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد.

وقال وهب: ثم أمر شعيب ابنته أن تدفع إلى موسى عصا يدفع بها عنه وعن غنمه السباع، فدفعت إليه عصا، واختلفوا فيها:

(١) «التبصرة» ٢١٩/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٩٦٦/٩. وابن عساكر في «تاريخه» ٢٩/٦١.

قال عكرمة: هي التي أنزلت مع آدم من الجنة، وكان طولها عشرة أذرع من آس الجنة، ولها شعبتان تَقْدَانِ فِي الظلام نوراً، واسمها: عمليق، يتوارثها الأنبياء كإبراهيم عن كابر، حتى وصلت إلى شعيب.

وقال ابن عباس: لما مات آدم أخذها جبريل فكانت في علم الله، حتى وصلت إلى الشيخ، فدفعها إلى موسى.

وقال قتادة: أمر الله ملكاً، فنزل في صورة شيخ، فأودعها عند شعيب. فلما دفعها إلى موسى ندم وقال لابنته: فرطنا في الوديعة. ثم قال لموسى: ردّ عليّ وديعة الرجل، فامتنع، فبعث الله إليهما ملكاً، فتحاكما إليه، فقال: ضعوها في الأرض، فأيكم أقلها فهي له، فوضعها على وجه الأرض، فذهب الشيخ ليقبها فلم يطق، ورفعها موسى فذهب بها، فقال الشيخ: إن لها لشأناً^(١).

وقال مقاتل: كان بأرض مدين تين في أرض مخصبة، ولا يتجاسر أحد أن يدنو من تلك الأرض، فقال له شعيب: احذر من التين، فجاء موسى يوماً بالغنم فرأى الخصب فأعجبه، فأرسل غنمه ترعى، ونام فجاء التين، فقامت العصا تحاربه فقتلته، فانتبه موسى، وإذا بالتين مقتول والعصا ملوثة بدمه، فجاء به إلى شعيب، فقال: ألم أقل لك إن لها شأنًا^(٢).

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] أي: أتمه وفرغ منه، والأجل: انتهاء الشيء. وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال: سئل رسول الله ﷺ أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبعدهما وأطيبهما وأوفاهما»^(٣).

واختلفوا ما الذي أنكحه منهما، قد ذكرنا عن النبي ﷺ أنه أنكحه الصغرى^(٤). وقيل: الكبرى.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٩-١٨٠.

(٣) أخرجه الحاكم ٤٠٧/٢، وفيه حفص بن عمر العدني واه، وانظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧.

(٤) انظر الصفحة السابقة.

قلت: وقد أخرج جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» بمعنى هذا عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قل: خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج موسى؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: ﴿يَتَأْتِ اسْتَعْجِرَةٌ إِيَّاكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فقال لها: ما رأيت من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه عن البئر، قال: وما رأيت من أمانته؟ فقالت: قال لي: امشي من خلفي ولا تمشي أمامي»^(١). ثم قال جدي: هذا حديث لا يصحّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده عوبد بن أبي عمران، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث.

وأبانا جدي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن عليّ بن رباح قال: سمعت عتبة بن النّدر يقول: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ ﴿طَسَّ﴾ حَتَّى بَلَغَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: «إِنَّ مُوسَى آجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي سِنِينَ أَوْ عَشْرًا عَلَى عِفَّةٍ فَرَجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ الْقَزْوِينِي^(٢) عَنْ عْتَبَةَ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ أَحْمَدُ وَلَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَلَيْسَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ اسْمِهِ عْتَبَةُ بْنُ النُّدَّرِ، بَنُونَ وَدَالَ مَهْمَلَةٌ غَيْرُهُ.

وقال مجاهد: أقام موسى بعد فراغ الأجل عشر سنين أخرى، فكمل عشرين سنة؛ وعامة العلماء على أنه لما قضى الأجل سار بأهله كما أخبر الله تعالى.

فصل فيما جرى لموسى بعد انفصاله من مدين وقصة النار والتكليم والرسالة ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ﴾ [القصص: ٢٩] الآية. قال السّدي وغيره: لما طال مقام موسى عند الشيخ، اشتاق إلى والدته وأخيه، فاستأذن الشيخ في زيارتهما فأذن له، فسار بزوجه يطلب أرض مصر، وكان في أيام الشتاء، فحاد عن الطريق، فسار في البرية غير عارف بطرقها، وكانت امرأته حاملاً،

(١) لم نقف عليه في الأحاديث الواهية، وقد أخرج البزار (٢٤٤٤) (زوائد)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦)، والصغير (٨١٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره ٢٩٦٦/٩، والخطيب في تاريخه ١٢٨/٢.

(٢) أخرج ابن ماجه (٢٤٤٤).

فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربي في ليلة مظلمة شديدة البرد، فأخذ الطلق زوجته فجعل يكادح المقادح فلم تور نوراً، فقال لأهله أي لزوجته: ﴿أَمْكُثُوا﴾ أي: أقيموا ﴿إِنِّي ءَأَنْسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: أبصرت. وقال مجاهد: إنما رأى نوراً ولكن وقع الإخبار عما كان في ظنه وما يطلبه ﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ شعلة ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وقال مقاتل: إنما قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] لأنه كان قد ضلَّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من موقد ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] أي: تستعيذون من البرد.

قال ابن عباس: أمر الله تعالى النيران في تلك الليلة أن تخمد فلا تظهر في الأرض نار.

وأبنا جدي رحمه الله في «التبصرة» قال: أبنا محمد بن أبي منصور بإسناده عن وهب بن منبه، وذكر السدي وقتادة ومجاهد بمعناه دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: خرج موسى في ليلة مثلجة شاتية فولد له ابن في الطريق، فحاد عن الطريق، فأخذ يقدح فلم تور المقدحة ناراً، فبينما هو كذلك إذ لاحت له نار وكانت ليلة الجمعة، فقال لأهله: ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي ءَأَنْسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠] أي: شعلة، والقبس: ما اقتبس من عيدان ونحوه. فلما قرب من النار، قال وهب: فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرةً وحسناً، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع في أمرها، إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه. قال مجاهد: وسمع تسييح الملائكة فخاف خوفاً عظيماً. قال وهب: فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضغث في يده ليقبس منها شيئاً، فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها ثم عاد، فلم يزل كذلك، فما كان بأسرع أو بأوشك من خمودها، فتعجب وقال: إن لهذه النار لشيئاً. فوقف متحيراً، فإذا بخضرتها قد صارت نوراً، عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتد خوفه وكاد يخالط في عقله من شدة الخوف. وقال مجاهد: صارت عموداً من نور له شعاع مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار. فعند ذلك خاف ووضع يده على عينيه ولصق بالأرض، فسمع حساً و شيئاً لم

يسمع السامعون مثله. فلما اشتدَّ كربه وكاد أن يذهب عقله - رجع الحديث إلى وهب بن منبه - فنودي من الشجرة يا موسى، فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه، فقال: لبيك، أسمعُ صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى ذلك علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربِّه تعالى، فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي، أكلامك أسمعُ أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك. وقال السُّدي: فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ أي: المقدسة ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ وكانت من العُلُق في قول السُّدي. وفي قول مجاهد: من العوسج. وفي قول مقاتل: من الصنوبر، وقال ابن مسعود: كانت الشجرة مثمرة خضراء ترفُّ. وقال قتادة: ناداه ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

قال مقاتل: عرض له الشيطان في ذلك الوقت فقال له: يا موسى، أتدري من يكلمك؟ قال: نعم، الله ربي، فقال: وإلهك يتكلم؟ إنما كلك شيطان من جندي. قال له موسى عليه السلام: كذبت، قال: ولم؟ قال: لأنني سمعت الكلام من الجهات الست، من فوق، ومن تحت، وعن يميني وشمالي، وورائي وأمامي، وسمعت الموجودات تعظم ربي، فعلمتُ أن أحداً لا يتجاسر أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] إلا الله، فانصرف الملعون خاسئاً.

قال مجاهد: قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ «إني»: للتعريف، و«أنا»: للتحريف، و«الله» تعالى: للتوقيف.

وقد روي في هذا المعنى حديث أخرجه أبو أحمد بن عدي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لما كَلَّمَ اللهُ موسى، قال: من ذا العبري، أو العبراني، الذي يكلمني من الشجرة؟ فقال: أنا الله»^(١)؛ قال جدي رحمه الله: إلا أنه حديث موضوع، فإن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، والمتهم بوضعه حميد بن علي، وقيل: ابن عطاء، وقيل: ابن عمار. وفي هذا الحديث^(٢): «أنه كان على موسى جُبَّةٌ صُوفٍ، وفي رجله نعلان من

(١) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣٩٩)، ولم أقف عليه عند ابن عدي.

(٢) وهو ما أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٧٢/٢ في ترجمة حميد بن علي.

جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ مُذَكِّيٍّ.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] أنه أدنى حتى سمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ.

وقال الحسن البصري: ولما كلم الله موسى ضرب على قلبه صفائح النور، ولولا ذلك لما أطاق سماع كلام الله تعالى.

رجع الحديث إلى وهب: قال: فقال الله تعالى: ادن مني، فجمع موسى يديه في العصا، ثم تحامل حتى استقل قائماً، وأرعدت فرائضه حتى اختلفت واضطربت رجلاه، ولم يبق منه عظم يحمل آخر، فهو بمنزلة الميت، إلا أن روح الحياة يجري فيه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب، حتى وقف بمنزلة قريباً من الشجرة، فقال له الربُّ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴿[طه: ١٧-١٨] أي: أعتد إذا عييت. قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] قال مجاهد: ومعنى أتوكأ عليها: أي أعتد إذا عييت من المشي، وأهش: أخطب بها الشجر ليتناثر الورق فتأكل منه الغنم. وقرأ عكرمة: أهس، بالسين المهملة، أي: أزجر بها الغنم، وهما لغتان، والمآرب: الحاجات.

وقال ابن عباس: كان له فيها ألف حاجة، منها أنه كان يحمل عليها زاده وسقاهه، وإذا خاف حدثته وأنسته، وإذا جاع أو عطش ضرب بها الأرض فيظهر الطعام والشراب، ويحارب العدو، ويدفع عنه الوحوش والهوام، وإذا اشتهى ثمرة غرزها في الأرض فصارت غصناً وأورقت وأثمرت، إلى غير ذلك.

وروى مجاهد أنها كانت من لوز، والصحيح أنها كانت من آس الجنة^(١).

فإن قيل: فقد علم الله تعالى حال العصا فلم كان أول كلامه له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾؟ فالجواب: إن هذا على وجه المباشطة له، لأنه لما رأى النار، وسمع تسبيح الملائكة، وشاهد ما حكيناه، خاف وصار كل عضو منه على حدة، فباسطه الله

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٨-١٧٩.

تعالى بذلك، ليثبت جناحه^(١) فيصلح حينئذ لحمل الرسالة إلى فرعون.

رجع الحديث إلى وهب، قال: وكان لها شعبتان، ومحجن تحت الشعبتين ﴿قَالَ أَلَيْهَا يَمُوسَى﴾ [طه: ١٩] فظن أنه يقول: ارفضها، فألقاها، ثم حانت منه نظرة فإذا هي أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدبُّ كأنه يلتمس شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخليفة^(٢) من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيقتلعها ويبتلعها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن عرفاً فيه شعر مثل النيازك، وعادت الشعبتان فماً مثل القلب الواسع، فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً، فذهب حتى أمعن في البرية، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه، فنودي: يا موسى ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] وعلى موسى يومئذ مدرعة صوف، قد خلها بخلال من عيدان، فأثنى طرف مدرعته على يده ليأخذها، فقال له ملكٌ: أرأيت يا موسى، لو أذن الله لما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنني ضعيف، ومن ضعف خلقت، فكشف عن يده ووضعها في فم الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدتها.

فإن قيل: فلم خاف موسى من العصا ولم يخف إبراهيم من النار؟ فالجواب: إن تحويل العصا من فعل الله تعالى، وإيقاد النار من فعل الخلق، وقيل: خاف موسى أن تلك الحية التي أخرج آدم من الجنة بسببها، أو من جنسها، فلهذا خاف، والسعيد مَنْ وُعِظَ بغيره. وقيل: لما أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ أراه أن من اتكل على غيره تعقبه الفرار.

وقال ابن عباس: ولما حصل في الوادي نودي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢] واختلفوا في معنى الأمر بإلقاء نعليه على أقوال:

أحدها: أنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، قاله قتادة، وابن مسعود رواه مرفوعاً، ولا يصح، وقد ذكرناه في حديث العبري.

(١) في (ب): «جأشه».

(٢) هي الحامل من النوق.

والثاني: إنما أمره بإلقاء نعليه لتنال قدماه من بركة تلك الأرض المقدسة، لأنها قُدِّسَتْ بالكلام، قاله عكرمة.

والثالث: أنه علّمه التواضع، ألا ترى أن من طاف بالبيت فإنه يخلع نعليه تواضعاً، قاله الحسن.

والرابع: أن المراد بالنعلين الزوجة، فكأنه يقول قد حضرت في هذه الحضرة، فلا تشغل قلبك من ناحيتها، ألا ترى أن من رأى في منامه كأنه لبس نعلين فإنه يتزوج امرأة، قاله ابن نجيج.

واختلفوا في قوله: ﴿طوى﴾ قال الضحاك: هو اسم الوادي، وهو مستطيل عميق مثل الطوي^(١) في استدارته. وقال الحسن: طوى، أي: مطهر.

﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ١٣] أي: اصطفتك، إلى قوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] هذا خطاب للعرب بما يفهمونه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في موضع: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] وفي مكان آخر: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠] وهي الحية الصغيرة، وفي موضع آخر: ﴿تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢] فكيف الجمع بين هذا؟ فالجواب: إن قوله كأنها جان عبارة عن ابتداء حالها، ثم صارت حية، وتورمت حتى صارت ثعباناً، والحية تجمع الكبير والصغير والذكر والأنثى.

فإن قيل: فما معنى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣١] فالجواب: أن الجناح أسفل الإبط، وقيل: هو الإبط، والرهب: الفرع. ﴿تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: برص ﴿ءَايَةٌ أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢] سوى العصا، فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كالشمس ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣] أي: الآية الكبرى.

فإن قيل: ذكر ها هنا ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] وفي موضع آخر ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣١] قلنا: المعنى لا يختلف، لأن معنى الكلام: إذا هالك ما رأيت من شعاع يدك، فأدخلها في جيبك، تعد إلى حالتها الأولى.

(١) الطوي: البئر.

وقال الربيع بن أنس: أمره الله أن يضع يده على صدره ليذهب عنه الرعب عند معاينة الحية، قال: والدليل عليه هذه الآية، لأن الرهب هو الخوف والفرق.

وقال مقاتل: الرهب الكمُّ بلغة حمير، فعلى هذا معناه، أدخلها في الكم.

ثم قال له الله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤] أي: علا وتكبر وكفر، فادعه إلى عبادتي، واعلم أنني قد ربطتُ على قلبه، فقال: يا رب، كيف تأمرني بهذا وقد ربطت على قلبه؟ فقال له ملك: يا موسى انطلق، فإننا اثنا عشر ألف خازن من خزان الرِّيح، لا ندري ما هذا ولا علمناه، فحينئذ قال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] أي: بالإيمان والنبوة، والشرح الكشف ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦] سهِّله لأبْلغ الرسالة إلى فرعون ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧] قال ابن عباس: كان في لسانه رتة، وقيل: تمتمة، وقيل: هي الشامة التي ذكرناها، وقيل: مكان الجمرة التي أحرقت لسانه ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] أي: معينا وظهيراً، ثم بين من هو فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٣٠] ﴿أَشْدُدْ^(١) بِهِ أَرْزِي﴾ [طه: ٣١] أي: أقوي به ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ^(١) فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢-٣٠] أي: في الرسالة.

قال ابن عباس: لما أمره الله بالرسالة قال: ﴿إِنِّي قَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأحسن بيانا ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤] أي: معينا، فقال الله له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك ونعينك، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي: قوةً وحقبةً وبرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أُتْبِعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال ابن عباس: لما قتل القبطي كان له اثنا عشرة سنة، وأقام بمدين عشرين سنة.

وقال وهب: لما قتل القبطي كان له عشرون سنة، وأقام عند شعيب عشرين سنة، حتى تمَّ له أربعون سنة فصلح كليماً ونبياً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يُمْسِي﴾.

وقال مقاتل: وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيِّتِي﴾ وهي اليد والعصا. ﴿وَلَا نُنِيَا﴾ [طه: ٤٢] تضعفا وتفترا وتقصرا ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٤٣] أي: عتا وتجر ﴿فَقَوْلًا لَمْ يَلْمِ قَوْلًا لِنِيَا﴾ [طه: ٤٣] أي: لا تعفاه ولا تغلظا له. وقال عكرمة: معناه كنياه

(١) أشد، بفتح الهمزة، وأشركه بضمها، وهي قراءة ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله ابن أبي إسحاق. انظر السبعة ٤١٨، والتيسير ١٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٨/٣.

فقولاً: يا أبا الوليد، وقال السدي: ولينا له لا تَجْبَهاه بمكروه، بل عِداه على الإيمان مُلكاً واسعاً لا يُنزع عنه إلا بالموت.

فإن قيل: فقد قال لمحمد ﷺ ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣ والتحريم: ٩] قلنا: لأن طبع سيدنا ونبينا محمد ﷺ اللين واللفظ، وطبع موسى على الصلابة والقوة، فقال له: ارفق بفرعون ولا تُقرِّعه بين الملاء، فإن الملوك يأنفون من التوبيخ بين الناس، ولهذا قالوا: لا ينبغي لأحد أن يقابل السلطان بما يكره، بل يكتب النصائح في ورقة. وأمر الله هارون أن يخرج من مصر فيلتقي أخاه على رحله ففعل، وقيل غير هذا، لما يذكر.

فإن قيل: فقد علم الله منه أنه لا يؤمن، فما معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] فالجواب: إنما أراد الله تركيب الحججة عليه، لاحتمال أنه إذا رأى العذاب يقول: لا ذنب لي، فيقال له: قد أنذرت قبل ذلك، فلا عذر لك.

رجع الحديث إلى وهب بن منبه: فقال له الله سبحانه وتعالى: يا موسى، إني قد أقمته اليوم مقاماً لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالي فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، فأنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وعُبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني، وإني أقسم بعزتي، لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماوات حصبتها، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمَّرتة، وإن أمرت البحار غرقتة، ولكن هان عليّ وسقط من عيني، ووسع حلمي، وحُق لي، أنا الغني لا غنيّ غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وذكره بأيامي^(١)، وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة. ولا يرعك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس يطرف ولا ينطق ولا

(١) في (ب): «بأياتي».

يتنفس إلا بإذني، قل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربع مئة سنة، وفي كلها أنت مبارزه بالمعاصي وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، ولم تسقم ولم تهرم، ولم تفتقر ولم تُغلب، ولو شاء أن يسلبك ذلك فعل، ولكنه حلیم ذو أناة، وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما محتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتیه بجنودٍ لا قِبَلٍ له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي أعجبتة نفسه وجموعه، أن الفئة القليلة - ولا قليل معي - تغلب الفئة الكثيرة بإذني.

ولا تعجبكما زينته، ولا ما تمتع به، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما بزينة هي أعظم من زينته، حتى يعلم أن مقدرته تعجز عن ذلك، لفعلت، ولكن أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة ومبارك الغرّة، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي موفراً سالماً.

واعلم أنه لم يتزين العباد لي بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعرفون به من السكينة والخشوع ﴿سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] أولئك أوليائي حقاً، فإذا لقيتهم فذلّل لهم قلبك ولسانك، واخفض لهم جناحك، واعلم أن من أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة، وعرض نفسه للهلكة، وإني لأسرّع إلى نصرته أوليائي من الليث الحرب، أفيظن الذي يحاربني أنه يقوم لي، أو يظنّ الذي يبارزني أنه يسبقني، أو يظنّ الذي يصادني أنه يعجزني أو يفوتني، كيف وأنا في الدنيا والآخرة، لا أكِلُ نصرتهم إلى غيري^(١).

قال مقاتل بن سليمان في «المبتدأ»: ولما عزم موسى على قصد فرعون، قال جبريل: يا إله العالمين، أترسله وهو عريان، وعند عدوّه من العُدَد والعدَد ما قد علمت، فقال له الله تعالى: ادخل الجنة وانظر أعظم قلنسوة فيها، فألبسهُ إياها، وانظر أوطأ مركب فأركبه إياه، وانظر أصرم سيف فأعطه إياه، واختر له أشجع جند، فدخل

(١) انظر «كتاب الزهد» ص ٨٢-٨٣، و«عرائس المجالس» ص ١٨٢.

الجنة وخرج وليس معه شيء، فقال الله تعالى: فأين ما ذكرت لك؟ قال: يا إلهي ما وجدت قلنسوةً أعظم من الهيئة، ولا مركباً أعظم من التوفيق، ولا سيفاً أقطع من الحجّة، ولا جنداً أبلغ من النصر، ولا لباساً أتمّ من العافية، فقال الله تعالى: أعطه ذلك كله، فأعطاه إياه.

وقال مجاهد: لما وصل موسى إلى مصر طرق والدته ليلاً، فنزل عليها وهي لا تعرفه ولا يعرفها، وجاء هارون في بعض الليل، فرآه فسأل أمّه عنه، قالت: ضيف، فجلس إليه وتحادثا ساعة، فقال له: ما اسمك؟ قال: موسى، قال: وأنت؟ قال: هارون، فقاما وتعانقا وبكيا، وبكت العجوز، فقال له موسى: إن الله قد أرسلني إلى فرعون وأنت معي، فقال هارون: سمعاً وطاعة، ثم قاما ومضيا إلى فرعون، إلى مدينة مَنف^(١).

رجع الحديث إلى وهب، قال: فأقبل موسى وهارون إلى فرعون في مدينة، قد جعل حولها الأسد، في غيضة قد غرسها، والأسد فيها مع سُؤاسها، إذا آسَدَتْها على أحد أكلته. وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه منه فرعون من مناظرة، فلما رآته الأسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك سُؤاسها، وخافوا من فرعون، وأقبل موسى حتى انتهى إلى باب قبة فرعون، فقرعه بعصاه، وعليه جبة صوف وسراويل صوف، فلما رآه البواب عجب من جرأته، وقال: أتدري باب من تضرب؟ إنما تضرب باب سيدك، فقال: أنا وأنت وفرعون عبيد الله تعالى، فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ أذنهم، وكانوا سبعين حاجباً، كل حاجب تحت يده من الجنود ما شاء الله، حتى خلص الخبر إلى فرعون، فقال: أدخلوه عليّ، فأدخلوه، فقال فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] فقال له: يا فرعون آمن برب العالمين، فقال: خذوه، فبادرهم موسى ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾، فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّيِّنٌ ﴿[الشعراء: ٣٢] فحملت على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً - هذا لم يصح - قتل بعضهم بعضاً، وأدخل الثعبان أحد شذقيه تحت سرير فرعون والآخر فوقه فسلح فرعون في ثيابه، وقام فرعون منهزماً فدخل البيت، فقال لموسى:

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٤.

اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، فقال له موسى: لم أؤمر بذلك، وإنما أمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إليّ دخلت إليك، فأوحى الله إليه: اجعل بينك وبينه أجلاً، واجعل ذلك إليه، فقال فرعون: أجّلني أربعين يوماً، ففعل، وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في كل أربعين يوماً مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة، وخرج موسى فلما مرّ بالأسد بصببت بأذناها، وسارت مع موسى تشيّهه ولا تهيجه. انتهت رواية وهب التي رواها عبد الله بن أحمد في «كتاب الزهد» عن أبيه^(١).

وقال مجاهد: لما وصلا إلى باب القصر قالوا للبواب: ادخل عليه وقل له إنا رسول رب العالمين، فلما دخل عليه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩] فقال له: يا فرعون آمن برب العالمين، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: رب السماوات والأرض وموسى وهارون.

فإن قيل: فما هذا جوابه وقد كان ينبغي أن يذكر اسم الله وصفته. قلت: إنما عدل عن ذكر الاسم والصفة لأن فرعون سأله عن ماهية من لا ماهية له بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فأجابه بهذا الجواب، لأن فرعون لم يكن يعرف الاسم ولا الصفة.

وقال وهب والحسن: أوحى الله إلى هارون، فبشّره برسالته ونبوة موسى، وأنه قد جعله وزيره ورسوله معه إلى فرعون، فإذا كان يوم الجمعة غرة ذي الحجة، فاخرج إلى جانب النيل قبل طلوع الشمس لتلقى أخاك، ففعل. ودخلا على فرعون، وجرى ما جرى.

وقال وهب: إن موسى لما دخل على فرعون قال له: آمن حتى أسأل الله أن يردّ عليك شبابك، فأخبر هامان بذلك، فقال له: اصبغ بالسواد، فصبغ، وهو أول من فعل ذلك. ثم قال فرعون لموسى: قد رددت عليّ شبابي، فقال له: ميعادك ثلاثة أيام، فلما انقضت الثلاث نصل خضابه، قال: فكل خضاب ينصل بعد ثلاثة أيام.

قال علماء السير: لما دخل موسى على فرعون قال له: إن كنت جئت بأية فأت بها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] وأخرجها ولها شعاع مثل شعاع الشمس.

(١) «كتاب الزهد» ص ٨٣-٨٤، والتبصرة ١/٢١٩-٢٢٣.

وقال مقاتل: قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] يعني قوم نوح وعاد وشمود، الآية؟ وإنما سأله عنها لأنه إن كان رسولاً علم حالها، فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لأن التوراة لم تكن أنزلت عليه بعد، لأنها إنما أنزلت عليه بعد غرق فرعون وخروجه من مصر، فردّ العلم إلى الله تعالى ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فيحتاج إلى التذكرة.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أجلاً وميقاتاً ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ أي: لا نتجاوزه ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٧، ٥٨] أي: مستويًا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ واختلفوا فيه: قال ابن عباس: يوم الزينة يوم عاشوراء، كانوا يتزيّنون فيه. وقال مقاتل: يوم عيدهم. وقال ابن المسيّب: يوم النيروز^(١) ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] أي: ضحوة، ليكون أبلغ في الحجة، وأبعد من الزينة في الليل ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: ٦٠] أي: حيله وسحرته في ذلك اليوم لموعد موسى.

فصل في اجتماع السحرة

واختلفوا في عددهم، قال ابن عباس: كانوا سبعين ألفاً، ما بين ساحر وكاهن، ورؤسائهم سبعون ورؤساء السبعين سبعة: ساتور وعاز وحطط وشمعون ويوحنا ويثرون. وقيل: كانوا أربع مئة ألف، والأول أصح.

﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: تختلقوا ﴿فَيَسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرِي﴾ [طه: ٦١] أي: كذب ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢] أي: الحديث. وكان مع كل واحد منهم عصا وحبل ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: أرض مصر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ [طه: ٦٣] أي: يصرفا وجوه الناس إليهما. والطريقة: السنة ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ﴾ أي: اعزموا على إظهار سحرهم ﴿ثُمَّ اتَّوُا صَفًّا﴾ أي: صفوفًا ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ

(١) تفسير الثعلبي ٦/٢٤٧، ٢٤٩، وعرائس المجالس ١٨٨، وزاد المسير ٥/٢٩٢، ٢٩٤-٢٩٥، وما سلف من تفسير للآيات منها وما سيرد كذلك، ولن أشير إليه.

﴿أَسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤] أي: فاز وغلب ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] ومعناه: إما أن تلقي عصاك، وإما أن نلقي نحن عصينا. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] أي: تمشي، وكانوا قد لطحوا عصيهم وحبالهم بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت وتحركت، فظنّ موسى أنها تريده، وامتلاً الوادي بالحيات كأمثال الجبال، يركب بعضها بعضاً ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧] أي: أضمر، فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] أي: الغالب ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] أي: في أي مكان من الأرض، فألقاها، فابتلعت جميع ما في الوادي، حتى لم يبق فيه شيء، وأخذها موسى فإذا هي عصاه ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجُودًا قَالُوا ءَأَمَّنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رب ﴿هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ ﴿فَرَعُونَ: ﴿ءَأَمَّنْتُمْ لَهُ﴾ أي: به ﴿قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنُعَلِّمَنَّ أَيُّنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١] أي: أنا أو ربّ موسى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: [التي] شاهدناها، والدرجات العلى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ وهذا قسم ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فاحكم بما أنتم صانع من القتل والقطع والصلب ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] أي: ليس لك علينا في الآخرة سلطان ﴿إِنَّا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣].

وقال مقاتل: إنما قالوا هذا لأن فرعون أمرهم أن يتعلموا السحر خوفاً من موسى، فقالوا: أرنا كيف ينام موسى، فأراهم، فإذا عصاه قائمة تحرسه، فقالوا: ليس هذا بساحر، فقال: لا بدّ أن تتعلموا، فأكرههم عليه.

وقال السدي: لما شاهدوا العصا رأوا أمراً فهاهم كما كان ما بين شعبتها ثمانين ذراعاً.

وقال ابن عباس: جاؤوا أول النهار سحرة كفرة، وصاروا في آخره شهداء بررة. وقد فرّقوا بين الساحر والسحّار، فالساحر من يكون سحره في وقت دون وقت، والسحّار من يديم السحر.

وقال مجاهد: كانوا يتعلمون السحر بقرية من أرض مصر يقال لها: الفرما، كما يتعلم الصبيان الكتابة في الكتاب، وأن الذين يعلمونهم رجلان من أهل نينوى.

وقال الكلبي: لما قالت السحرة لفرعون ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] أي: جُعلاً ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] أي: عندي في المنزلة، وأول من يدخل وآخر من يخرج، قال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أفزعوهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وهو ما ذكرنا ﴿فَغَلِبُوا هنَالِكَ﴾ لما تلقفت العصا ما جاؤوا به ﴿وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] أي: ذليلين مقهورين ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] حيث تيقنوا أنه أمر سماوي وليس بسحر، فحينئذ قالوا: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ [الشعراء: ٥٠] أي: لا ضرر.

واختلفوا في الذين آمنوا من السحرة: قال مجاهد: إنما آمن رؤساؤهم السبعة، وقال قوم: إنما آمن الكل، وهو الأظهر، لأن الله ذكرهم بالألف واللام، وهما للاستغراق.

وقال مقاتل: ولما غلبت السحرة قال الملاء - وهم الأشراف - لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فلا يعبدك ولا يعبدوها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها. وقال الحسن: كان مع ادعائه الربوبية يعبد تيساً، وقيل: صنماً.

فصل في تعذيبه لبني إسرائيل

قال فرعون: ﴿سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: غالبون. وبلغ موسى، فقال لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يعني أرض مصر ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وقال مجاهد: لما آمنت السحرة اتبع موسى ست مئة ألف من بني إسرائيل، فجار عليهم فرعون، فشكوا إلى موسى فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بقتل الأبناء، واستخدام النساء ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] بحق فرعون علينا، وإعادة

القتل والاعتاب في الأعمال المشقة، لأن أهل القوة منهم كانوا ينحتون السواري من الجبال فقرحت أعناقهم، ودبّرت^(١) ظهورهم، وطائفة ينقلون الخشب، وآخرون يبنون، وقوم يطبخون الآجر، وآخرون يعملون الحديد، ووضع على الضعفة الضرائب، يؤدون كل يوم ضريبة، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غلّت يمينه إلى عنقه شهراً. وأما النساء فيغزلن الكتان وينسجنه، ويخدمن القبط. وموسى يقول لهم: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] قال مجاهد: فحقق الله ظن موسى فيهم.

فصل في الآيات التي أرسلت على قوم فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٠].
قال ابن عباس: بالجذب والقحط سنة بعد سنة. يقال: أسنت القوم: إذا أجذبوا.
وقال سعيد بن جبیر: ملك فرعون أربع مئة سنة، ما جاع ولا حُم ولا صُدِيع، ولو ذاق شيئاً من ذلك لما ادعى الربوبية.
قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].
واختلفوا في الطوفان على أقوال:
أحدها: أنه المطر أغرق كل شيء لهم، قاله ابن عباس.
الثاني: أنه الموت الجارف، قال وهب: الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن، سلّطه على أبكار آل فرعون والمواشي، فأفنى الكل.
والثالث: الجُدريُّ، وهم أول من عُذّب به، وبقي بقاياها في الأرض إلى يوم القيامة.
قال أبو قلابة: وأما الجراد، فأكل كل شيء لهم، قاله ابن عباس.
والثاني: أنه الموت الجارف، قاله وهب.

واختلفوا في القمل: فقال ابن عباس: إنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال السُّدي: صغار الجراد، وقال مجاهد: هو الدّبي^(٢) كان يأكل لحومهم وطعامهم،

(١) في (ب): وثرت، ودبّرت: أي ظهرت فيها الدبّرة، وهي قُرحة تخرج في ظهر الدابة والبعير. تاج العروس: (دبر).

(٢) الدّبي: أصغر الجراد والنمل.

وقال ابن يزيد: هو البراغيث. وقال الجوهري: هو دويبة من جنس القردان يركب البعير عند الهزال، وقيل: هو الحَلَم^(١) بحاء مهملة.

وأما الضفادع فواحدها ضفدع، أقبلت كقطع الليل المظلم، فملأت البيوت والأواني، وأكلت الأطعمة، وملأت الحباب والجرار.

وأما الدم فكان الإسرائيلي والقبطي يأتيان إلى جانب النيل فيشرب الإسرائيلي ماءً والقبطي دماً.

قال ابن عباس: دعا عليهم موسى فأصابهم ذلك، فكادوا أن يهلكوا بالطوفان، ملأ بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ومن قعد منهم غرق، ولم يدخل منازل بني إسرائيل منه قطرة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر، فقد منعنا من الحرث والزرع، ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل ربه فرفع عنهم الطوفان، وكان قد عمهم من السبت إلى السبت، فلم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل جميع مالهم، حتى مسامير الأبواب والحديد، فضجوا وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك، فدعا لهم، فرفع الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، فأمر الله موسى فخرج إلى قرية بظاهر مصر يقال لها: عين شمس، وعندها كثيب أعفر، فضربه بعصاه، فسال قملاً يلحس الزروع وغيرها، وكان يدخل بين جلد أحدهم وثوبه فيكاد يهلكه، واختلط بطعامهم، ولصق بأجفان عيونهم وحوابهم، فاستغاثوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشفه عنا ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل الله فكشف عنهم، فعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الضفادع فدخلت في أفواههم وثيابهم وقدور طعامهم وأوانيهم، فاستغاثوا وقالوا: نحن نتوب، فسأل الله أن يرفعها عنهم، فرفعها، فعادوا، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الدم، فصار النيل دماً فاختلف بأطعمتهم وشرابهم، حتى إن المرأة من القبط كانت تقول للمرأة من بني إسرائيل: اسقيني فقد عطشت، فتصب لها من الجرة ماءً، فتقول لها اجعليه في فيك ثم مجّيه في في فتفعل، فيصير دماً. وأقام بهم كل نوع من هذا من

(١) «الصحاح» (قمل)، والحلم: القراد الضخم وهو ما يتعلق بالبعير فهو كالقمل للإنسان.

السبت إلى السبت، فأقاموا على هذا. وكان فرعون يصيبه من ذلك ما يصيب القبط، فقالوا: يا موسى، قد وضع لنا البرهان، فقد تبنا، فاسأل ربك فينا، فسأله، فرفع عنهم ذلك كله، فنقضوا العهود، وعادوا شرًّا ما كانوا عليه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهذه خمس، فأين الباقيات؟ قلنا: العصا، واليد البيضاء، والبحر، والطمس على الأموال. وذكر عبد الوهاب بن الثوبى وقال: كانت آياته عشرين آية، ذكر التسع التي ذكرنا وزاد: ولم يحترق في التنور، ولا غرق في البحر، ثم السنون، ثم المن والسلوى في التيه، وتظليل الغمام، وخلق البحر، وإحياء عاميل في قصة البقرة، وانفجار الماء له من الحجر، وتكليم الله له، والعمود الذي كان يقدر بين يديه في التيه ليلاً.

وقال الزهري: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال لي: يا ابن شهاب أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] قال: فقلت: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ويده، والبحر، والطمسة، وعصاه، فقال: أحسنت، هكذا يكون العلم، ثم قال: يا غلام آتني بالخريطة، فأتى بخريطة مختومة ففكها ونثر ما فيها، فإذا دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس، فقال: كل يا ابن شهاب، فأهويت إليه فإذا هو حجارة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين، فقال: أصابه عبد العزيز بن مروان بمصر إذ كان والياً عليها، وهو مما طمس الله على أموالهم^(١).

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني المضارب بن عبد الله الشامي، قال: أخبرني من رأى بمصر نخلة مصروعة، وإنها لحجر، ولقد رأيت ناساً قياماً وعوداً في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم ناس، وإنهم لحجارة، ولقد رأيت الرجل يحرق بين ثورين، وإنه وثوراه حجارة^(٢).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٧.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

فصل في قصة آسية بنت مزاحم

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ نساءِ أهلِها خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ مُحَمَّدٍ، ومريمُ بنتُ عِمْرَانَ، وآسيةُ بنتُ مُزاحِمٍ»^(١).

وروى عكرمة عن ابن عباس، موقوفاً عليه قال: كانت آسية من بني إسرائيل، قد آمنت بموسى سرّاً من فرعون، فلما علم بذلك ضرب لها أوتاداً في يديها ورجليها، وأمر بأن تلقى على صدرها صخرة كأكبر ما يكون، قال: فإن رجعت عن دينها فخلوا سبيلها، فكشف الله عن بصرها، فرأت قصرها في الجنة، فقالت: اصنعوا ما بدا لكم، فقد رأيت قصري ومنزلي في الجنة، فذلك قولها: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَنِّجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبَنِّجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١] فاستجاب الله دعاءها، وأراها قصورها ومنازلها في الجنة قبل أن تفارق الدنيا. وكانوا إذا تفرقوا عنها أطلقها الملائكة، فماتت على ذلك.

فصل في ماشطة ابنة فرعون

حدثنا غير واحد، عن عبد الرحمن بن محمد القزّاز، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِىَ بي مررتُ برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الريح؟ قال: هذه ریح ماشطة ابنة فرعون، كانت تمشطها فوق المشط من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، بل ربي وربّ أبيك الله، فأخبرت فرعون، فدعاها فقال: مَنْ ربك؟ فقالت: ربي وربك الله الذي في السماء، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ودعا بها وبولدها، فقالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفنهما جميعاً. فقال: إن لك من الحق علينا ما تستوجبين به ذلك. وكان لها أولاد فجمعهم، ثم ألقى واحداً بعد واحد في البقرة وهي تغلي، حتى إذا كان آخر ولدها، وهو طفل رضيع، أنطقه الله تعالى: يا أمه اصبري، فإنك على الحق،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨).

فألقاها مع أولادها»^(١).

فصل في قصة مؤمن آل فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨-٣٣] الآيات.

واختلفوا في اسمه، قال ابن عباس: خربيل، أو خربال، أو خريال. وقال مقاتل: سمعان، أو شمعان، أو شمعون، وقيل: حبيب. وقال مقاتل: خيرك، وقيل: حزقيل، وكان ابن عم فرعون، وقيل: من آله.

قال مجاهد: وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠] وجادل عن موسى فقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وكان قد أوقع الله في قلبه الإسلام، وكنتم إيمانه خوفاً من فرعون. وقوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ استفهام إنكار ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يضركم ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] من العذاب، والمراد بالبعض ها هنا الكل^(٢).

فصل في قصة فرعون مع النيل

روى وهب بن منبه، عن كعب الأحبار قال: أمسك النيل عن الجريان في بعض السنين، فقالت القبط لفرعون: إن كنت رباً كما تزعم فأجره. فركب في جنوده، ثم انفرد عنهم ونزل عن فرسه، ولبس ثياب المساكين، وسجد وتضرع وقال: إلهي أنت تعلم أنني أعلم أنك إله الخلق، لا إله سواك، ولكن كتبت عليّ الشقاء، وطردتني عن بابك، ولا حيلة لي. فأجرى الله له النيل.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، وقوله: «فأمر ببقرة من نحاس»، قال الحافظ أبو موسى: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصنوعاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيرة واسعة فسامها بقرة، مأخوذاً من التبقر: التوسع أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوايلها فسميت بذلك «النهاية» ١/١٤٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٩، والمنتظم ١/٣٤٥، وتفسير الطبري ٢٠/٣١١.

فصل في بناء الصرح

روى عكرمة عن ابن عباس، قال: لما تضايقت بفرعون الحيل قال: ﴿يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرْحًا﴾ أي: صرحاً عالياً ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: طرقها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] فيما يقول أن له رباً غيري ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] أي: اطبخ الآجر. وفرعون أول من طبخ الآجر وبني به. وقيل: نمرود لما بنى الصرح - فجمع هامان العمال والفعلة حتى بلغوا خمسين ألفاً من البنائين، سوى الأتباع. ومن يعمل الجص وينحت الخشب، فرفعوه ارتفاعاً عظيماً. قال مجاهد: لم يبلغ ببناء أحدٍ منذ خلق الله السماوات والأرض مثله. ولما فرغ صعد عليه فرعون، فرمى بنشابة نحو السماء فعادت وهي ملطخة بالدم، فقال: قتلت إله موسى - وقد تقدم جواب مثل هذه الأشياء في صرح نمرود - فبعث الله جبريل عليه السلام، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة منه على عسكر فرعون، قتلت منهم مئة ألف ووقعت قطعة منه في النيل فسدته، ووقعت الأخرى على العمال والبنائين فأهلكتهم^(١).

فصل في غرق فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] أي: يتبعكم فرعون وقومه. وقال مقاتل: لما وقع الإياس من إيمان فرعون، وأباد بني إسرائيل وأفناهم، شكوا موسى إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر بهم أول الليل من مصر، فأمر موسى بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط بعلّة عرس لهم ففعلوا.

روى الثعلبي عن ابن جريج في هذه الآية قال: أوحى الله إلى موسى: أن اجمع بين كل أربعة من أهل بيت في بيت واحد، ثم اذبحوا أولاد الضأن، ثم اضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سأمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم، وأمرها فتقتل أبقار آل

(١) عرائس المجالس ١٩١.

فرعون، ثم اخبزوا فطيراً، فإنه أسوخ لكم، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فقف هناك، حتى يأتيك أمري، ففعل.

فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى وقومه، أخذوا أموالنا، وقتلوا أبنائنا، ثم أرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] فلما اجتمع الناس والسحرة، قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [٥٤] والشردمة بقية القليل. قال ابن مسعود: وكانت هذه الشردمة ست مئة ألف وسبعين ألفاً^(١).

وقال الجوهري: الشردمة الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء^(٢).

﴿وَأَنبَأَهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٥] أي: أعداء، لمخالفتهم ديننا، وقتلهم أبنائنا، وأخذهم أموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا «وإننا لجميع حادرون» [الشعراء: ٥٦] قال الفراء: يعني عظماً من كثرة الأسلحة، ومنه قيل للعين العظيمة: حذرة^(٣). ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتٍ وَعَيْونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ﴿وَكُنُوزٍ﴾ قال مجاهد: سماها كنوزاً لأنها لم تنفق في سبيل الله وطاعته ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي مجلس حسن ﴿كَذَلِكَ﴾ كما وصفنا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: لحقوهم وقت إشراق الشمس.

وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: خرج موسى في ست مئة ألف، وعشرين ألفاً، لا يعدون ابن العشرين لصغره، ولا ابن السبعين لكبره. وأمر الله موسى أن يأمر قومه أن يوقدوا المصابيح في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم، وأخرج كل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط^(٤)، كل واحد منهم إلى أبيه. ودعا موسى عليهم حين خرج، فقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ [يونس: ٨٨] فصارت دراهمهم ودنانيرهم وحبوبهم حجارة، حتى العدس والقمح والحمص والجوز وغير ذلك. ثم ألقى على القبط الموت، فاشتغلوا بدفن موتاهم عن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

(٢) «الصحاح»: (شردم).

(٣) تفسير الثعلبي ٧/١٦٥، وقراءة حادرون بالبدال شاذة، قرأ بها ابن أبي عمار ومحمد بن السميعة وسميط بن عجلان، انظر المحتسب ٢/١٢٨، وشواذ ابن خالويه ١٠٦.

(٤) كذا في (ب) و«الطبري» ١/٤١٤، وفي المطبوع «كل ولد ربي».

طلب بني إسرائيل. وأخبر فرعون بخروجهم آخر الليل فقال: لا يتبعهم أحد حتى يصبح الديك، فما صاح تلك الليلة ديك. ثم ضرب الله على بني إسرائيل الطريق في الليل، فلم يدرؤا كيف يذهبون، فقال موسى: ما منعنا إلا تابوت يوسف عليه السلام لندفنه في البيت المقدس عند آباءه الأنبياء، وما أتينا إلا من قبله.

حدثنا أبو اليمن زيد بن الحسن بإسناده عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: مرَّ رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له: «تَعَاهِدْنَا» قال: فأتاه، فقال: «اسأل حاجتك» فقال: ناقة برحلهما، وأجير يحلبها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟» فقال له أصحابه: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ فقال: «إِنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ السَّيْرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ لِعُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: نَحْنُ نَخْبِرُكَ: إِنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ مَوَاتِيقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ حَتَّى يُخْرِجُوا عِظَامَهُ مَعَهُمْ، فَقَالَ مُوسَى: أَيُّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْرُهُ؟ قَالُوا: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجَاءَتْ، فَسَأَلَهَا فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَخْبِرُكَ حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: تَأْخِذْنِي مَعَكَ وَأَكُونُ رَفِيقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: نَعَمْ. وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَامَ مُوسَى مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ: أَنْشُدُ اللَّهَ مَنْ عَرَفَ مَوْضِعَ قَبْرِ يَوْسُفَ، فَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْعَجُوزَ، وَقَالَتْ لَهُ: أَرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَحْمِلَنِي مَعَكَ، فَحَمَلَهَا، قَالَتْ: وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَدْخُلُ غُرْفَةً مِنْ غُرَفِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَأَنَا مَعَكَ، فَقَالَ: نَعَمْ. وَسَأَلَ اللَّهُ مُوسَى تَأْخِيرَ طُلُوعِ الْفَجْرِ لِهَذَا السَّبَبِ، فَآتَتْ إِلَى مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: انضُبُوا هَذَا الْمَاءَ فَنَضُبُوهُ، فَقَالَتْ: احْفَرُوا هَاهُنَا، فَحَفَرُوا فَبَدَا تَابُوتٌ مِنْ مَرْمَرٍ مَدْفُونٌ بِأَرْضِ النَّيْلِ، كَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِهِ. فَلَمَّا أَقْلَوْهُ بَانَ لَهُمُ الطَّرِيقُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ^(١).

وقال ابن الكلبي: كانت هذه العجوز من ولد إسحاق، وقيل: من ولد يعقوب، عاشت أربع مئة سنة، وبها يضرب المثل فيقال: أكبر من عجوز بني إسرائيل، وسنذكرها في الأمثال.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣)، والثعلبي في عرائسه ١٩٩، والحاكم في المستدرک ٥٧١/٢، وابن الجوزي في المنتظم ٣٤٧/١، قال ابن كثير في تفسيره للآية (٥٢) من سورة الشعراء: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف والله أعلم.

وقال قتادة: كان يوسف مدفوناً عند مدينة مَنف، وهناك مسجده، قال: ولما حمله موسى معه، دفنه خارجاً من المغارة التي فيها إبراهيم، وإنما لم يدفن معهم في المغارة لأنه تدنَّس بالدنيا وآبائه لم يتدنسوا منها بشيء.

وقال عكرمة: كان هارون في المقدمة وموسى في الساقة. وخرج فرعون في طلبهم في ألف من القبط، وسبع مئة ألف حصان، منها مئة ألف حصان دهم، وهامان على مقدمته في ست مئة ألف، ولم يكن في خيل فرعون أنثى.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا بحيث يرى كل فريق منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] هذا البحر بين أيدينا والعدو من خلفنا، فقال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وكان يوشع بن نون بين يديه، وقيل: مؤمن من آل فرعون، فقال له: يا نبي الله أين أمرت أن تنزل؟ فيقول: أمامك، فيقول: وهل أمامي إلا البحر؟ فيقول: والله ما كذبت ولا كذبت. فوصل موسى إلى بحر القلزم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] وأوحى الله إلى البحر أن أطع موسى، فضربه فتوقف، فقال الله: كَنَّهُ، فقال: انفلق أبا خالد، فاضطرب البحر وانفلق وقام الماء كأمثال الجبال، وصار في البحر اثنا عشر طريقاً على عدد الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً، كل سبط اثنا عشر ألفاً، وكلهم من ولد يعقوب.

وقال ابن عباس: صار بين كل طريقين كالطود العظيم من الماء، فكانوا يمرُّون فيه فلا يدري هذا السبط ما حال السبط الآخر، فاستوحشوا وخافوا أن يكون قد غرق بنو أعمامهم، فأرسل الله على أرض البحر الشمس والريح فصارت ييبساً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ليس فيه ماء ولا طين ﴿لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا نَخَشًا﴾ [طه: ٧٧] من البحر، وكان الماء في غاية الزيادة، وصار الماء مثل الشبايك، فكان بعضهم يرى بعضاً ويأنس بحديث بعض.

وسئل ابن عباس عن مكان لم تطلع عليه الشمس إلا مرة واحدة، فقال: المكان الذي انفلق لبني إسرائيل^(١).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٠.

وقال مقاتل: ولما رأى فرعون أن البحر قد انفلق قال لقومه: خاف البحر فانفلق لأدرك عبيدي وأعدائي. ولما وصل فرعون وجنده إلى الساحل وجدوا موسى وقومه قد عبروا، فقال للقبط: قد سحر موسى البحر، فقالوا له: إن كنت إلهاً فاعبر خلفه، وكان على حصان أدهم، فهاب الحصان أن ينزل، فبعث الله تعالى جبريل على مازيانة وديق، يعني رمكة^(١)، فجاءت بين يدي الحصان، فشمها فتقدم، فدخل جبريل البحر وفرعون والقوم خلفه، وميكائيل خلفهم يحثهم ويقول: الحقوا أصحابكم، فلما تكامل أولهم وآخرهم، وهم أولهم بالصعود، أمر الله البحر فانطبق عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٤] أي: قربناهم إلى الهلاك وقدمناهم إلى البحر ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦] يعني فرعون وقومه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: عظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧] قال مقاتل: لم يؤمن منهم غير حزقيل وآسية والعجوز التي دلت على تابوت يوسف عليه السلام^(٢).

ولما انطبق البحر عليهم نادى فرعون ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

حدثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أدسُّ في فيه حمأة البحر مخافة أن يقول لا إله إلا الله فتدركه الرحمة. أخرجه أحمد فقال: حدثنا سليمان بن حرب بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فسدسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة»^(٣).

وقال مقاتل: فقال له جبريل: ﴿ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١].

وقال مقاتل: قال جبريل: ما أبغضت أحداً مثل ما أبغضت فرعون وإبليس، ذاك

(١) هي الفرس الأنثى المشتبهة للفحل.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠١.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٨٢٠)، وإسناده ضعيف، والأصح وقفه. قاله الشيخ شعيب حفظه الله.

قال: ﴿لَهُ إِلَّا وَمَا﴾ [النازعات: ٢٤]، وإبليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] قال: ولما خرج بنو إسرائيل وأغرق الله فرعون، قال أناس: إن فرعون لم يغرق، فقدفه البحر على نجوة منه، وهي المكان المرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] فلما ارتفع على النجوة قالوا: لم يكن إلهاً، ولو لم يرتفع لقالوا: إنه إله. قال الحسن: فمن هناك أن الغريق يقف على رأس الماء.

وذكر مقاتل في «المبتدأ» له وقال: كان جبريل قد وقف لفرعون بمصر في زيّ فقير ومعه رقعة، فاستغاث إليه فقال: ما الذي بك؟ فقال: اشتريت عبداً وخولته، وكان صغيراً فربيته وأحسنّت تربيته، وحكمتُهُ في رزقي ومالي، وهو الآن يأنف أن يعترف لي بالعبودية، وقد عصاني وتمرد عليّ وجحد نعمتي، فقال فرعون: ولا يستحي منك! فقال: لا، هو خبيث، فما حكمك فيه أيها الملك؟ فقال: تأخذ بيديه ورجليه وتلقيه في بحر القلزم، فقال: اكتب لي خطك بهذا، فكتب له على رأس الورقة، فلما كان يوم البحر جاءه جبريل في صورة ذاك الفقير ومعه القصة فقال له: خذ هذه القصة، فظنه بعض أصحابه، فقال: ليس هذا وقتُهُ، فقال له جبريل: بلى يا خبيث، أنسيت يوم كذا وكذا؟ ففهم المقصود. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهُ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠] الآية، وانقضت أيام فرعون.

وقال قتادة: ملك مصر من أول العالم إلى ولادة المسيح اثنان وثلاثون فرعوناً، وكلُّ مَنْ ملكها يسمى فرعون، كما أن قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس. وقد ملكها جماعة من الروم واليونان والعمالقة وغيرهم، وسنذكرهم.^(١)

فصل في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر

قد ذكرنا أن يعقوب دخل إلى مصر وولده، وهم اثنان وسبعون إنساناً ما بين ذكر وأنثى، وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف مقاتل سوى الهرمى والزمنى، فكان المجموع من الذرية ألف ألف ومئتي ألف.

(١) وقع في المطبوع بعد هذا ما نصه: فإن قيل: فلم أرسله إلى فرعون بعصا قلنا: لأنه كان حماراً، لأنه جحد نعم الله عليه. اهـ. وهي زيادة وضعها الدكتور إحسان عباس بين معقوفين، وحقها أن تذكر أول قصة موسى عليه السلام.

وقال الكلبي: لما أهلك الله فرعون عاد موسى إلى مصر فأقام بها يسيراً ثم أوحى الله إليه: ارجع إلى مقرّ الأنبياء وهو الشام، فإن مصر ليست بأرض الأنبياء، اذهب إلى أرض فلسطين فإنها ميراثكم من آبائكم وهي دار مُلككم فهاجر إلى الشام.

وقال وهب: من هبوط آدم من الجنة إلى خروج بني إسرائيل من مصر ثلاثة آلاف سنة وثمان مئة وأربعون سنة. ومن مولد الخليل إلى خروج بني إسرائيل من مصر ألف وخمس مئة وخمسون سنة. ومن وفاة يوسف إلى خروج بني إسرائيل من مصر أربع مئة سنة، وقيل: خمس مئة سنة.

فصل فيما جرى من الحوادث

بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وقطعهم البحر

قال الله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس: ٩٠ والأعراف: ١٣٨] الآية. روى عكرمة والكلبي عن ابن عباس قال: قطع بهم موسى البحر يوم عاشوراء فلهذا عظموه وصاموه، وكان ذلك يوم الجمعة ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ وهي التماثيل.

واختلفوا في القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام وهي التماثيل على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا من لخم وجذام من العرب، قاله قتادة.

والثاني: من الكنعانيين، قاله مقاتل.

والثالث: من العمالقة، قاله الحسن. فأمر موسى بقتلهم، فقال له قومه: ﴿أَجْعَلْ لَنَا

إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهَةٌ﴾ فغضب موسى وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أي:

نعمة الله عليكم، وقد شاهدتم سلطانه في نجاتكم وإهلاك عدوكم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ

فِيهِ﴾ أي: مهلكٌ ﴿وَيَنْطَلِقُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي: زائل مضمحل.

حدثنا عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أبو السعادات نصر الله بن

عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي واقد الليثي

قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرية خضراء عظيمة يقال لها: ذات

أنواط، كان الكفار يعبدونها ويعكفون عليها، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا هذه،

فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتركبُنَّ سنن من كان قبلكم»^(١).

وقد ذكرها الجوهري فقال: ذات أنواط بالنون اسم شجرة بعينها، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرة دَفْوَاءَ تسمى ذات أنواط. وكررها في المعتل أيضاً فقال: الدفواء بالمد شجرة عظيمة، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرة دَفْوَاءَ تسمى ذات أنواط، لأنه كان يناط السلاح بها وتعبد من دون الله^(٢).

وقال الزهري: جاء بعض علماء اليهود إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فناظره في مسائل منها أنه قال له: أنتم ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه، فقال له عليّ: ويحك نحن ما اختلفنا فيه وإنما اختلفنا عنه، ولكن أنتم ما جفّت أرجلكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ فأفجم^(٣).

ومنها حديث الحَجَر

وقال مقاتل: لما خرجوا من البحر وقعوا في مفازة ليس فيها ماء فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنْبِ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] وكان حجراً خفيفاً يُقلّه إنسان.

واختلفوا في صفته على أقوال:

أحدها: أنه كان مقدار ذراع في ذراع. والثاني: شبر في شبر. والثالث: أنه كان كبيراً إذا ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

وقال ابن عباس: وهو الذي أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠] الآية.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ﴾ وقال في أخرى: ﴿فَأَنْبَجَسْتُمْ﴾ فما الفرق؟ قلنا: الانبجاس يكون أولاً ثم الانفجار بعده.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) «الصحاح»: (نوط) و(دفا).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢.

فقال قوم: إنه كان يضربُ أيَّ حجر كان، والأصح أنه كان حجراً بعينه لأنه عرّفه بالألف واللام، وقد نصَّ عليه ابن عباس وابن مسعود، أما ابن عباس فإنه قال: كان حجراً خفيفاً من الرخام، وقال ابن مسعود: كان من الكذّان يضعه في مخلاته، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة، وكان يسقي كل يوم ست مئة ألف إنسان وزيادة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠، والأعراف: ١٦٠] أي: فلا يقتلون ولا يتعدّى أحدٌ على أحد. وقال بعضهم: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه ففرّ وقال: آدر، وسنذكره.

ومنها إنزال التوراة

قال ابن عباس: طلبوا من موسى كتاباً يضبط نادّهم ويردُّ شاردهم، ويبين لهم فيه الحلال والحرام، فسأل الله تعالى، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتمّها أربعين. واختلفوا فيه على أقوال: أحدها: أنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وقيل: ذو الحجة وعشر من المحرم، وهو الأصح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وكان التكليم يوم عاشوراء، فقال لأخيه هارون: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] أي: كن خليفتي، وأصلح، أصلحهم على طاعة الله وعبادته ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] أي: العاصين.

ثم توجه نحو الميقات وقد صام ثلاثين يوماً، فوجد لفته خلواً فأنكره وقال: كيف أناجي ربي وأنا كذا، فأخذ عود خرنوبٍ فتسوّك به، وقيل: من لحاء الشجرة، فعاتبه الله تعالى وقال: أما علمت أن خلوفَ فم الصائم عندي أطيبُ من ريح المسك؟ فقال: إلهي، ما قصدتُ إلا مناجاتك بضم لا رائحة له وما علمت. قال ابن عباس: قالت له الملائكة كنا نشمُّ منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك^(١).

وقال جدّي رحمه الله: قيل لموسى^(٢): أيها الصائم عن أمرنا لِمَ أفطرت برأيك؟ فقال: وجدتُ لفي خلواً وما قصدت بفعلي خلافاً، قيل له: أما علمت أن خلوفَ فم

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢، و«تفسير البغوي» ص ٤٨٧.

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: قيل لموسى.

الصائم عندنا أطيبُ من فأرة المسك. وقال وهب: ولما تسوّك ذهب بعضُ الخلوف، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام، ولو ذهب الكلُّ لأمره بصيام ثلاثين يوماً. والميقات: الميعاد.

وقال مقاتل: ولما أتى الميقات تطهر ولبس ثيابه، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران، اغسل قلبك من حبِّ الدنيا، ولسانك من ذكرها. وقف على طور سيناء أربعين يوماً بلياليها فإني أريد أن أناجيك بغير ترجمان، ونادى منادٍ من بطنان العرش - أي من وسطه -: يا جبال الدنيا، إن الله يريد أن يكلمك عليك عبده موسى بن عمران، فتناولت الجبال كلها إلا طور سيناء فإنه تواضع واحتقر نفسه، فكلم موسى عليه.

وقال مجاهد: أول ما قال الله تعالى له: يا موسى، أتدري لِمَ اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي؟ قال: لا ياربُّ، قال: لأنك لما كنت ترعى الغنم لشعيب نذت سخلةً عن أمها فوقفت لها وأخذتها ومسحت برأسها وقلت: الحقني بأُمَّك.

وقال ابن عباس: قرَّبه الله وأدناه حتى سمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وأنزل عليه التوراة في عشرة ألواح من الزبرجد، فيها ألف سورة، في كل سورة ألف آية، فيها أمر ونهي ووعد ووعيد وحلال وحرام. وفي الحديث: «أنَّ الله كتَبَ التَّوراةَ بيده»^(١) وهي خمسة أسفار. قال: وأنزل عليه بعد ذلك مئة صحيفة. قال: وكلمه خمس مئة ألف كلمة، كذا روي عن ابن عباس. وقال مجاهد: ألف كلمة.

وقال وهب: وكان في جملة كلامه له: يا موسى، إذا رأيت الفقير مقبلاً فقل: مرحباً بشعارِ الصالحين، وإذا رأيت الدنيا قد أقبلت فقل: ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبته. يا موسى، لن يتقرب إليَّ المتقربون من أعمال البرِّ بمثل الرضى بقضائي، ولن تأتي بعمل أحبَّ لحسناتك من النظر إلى المحارم، وإياك أن تجود بدينك لدنياهم، أغلقْ دونك أبواب رحمتي، يا موسى ادنْ من الفقراء وقربْ مجالسهم منك، وإياك والدنيا فإنك لن تلقاني بكبيرة أضرتَّ عليك من حبِّ الدنيا والركون إليها. يا موسى، قلْ للمذنبين النادمين: أبشروا، وقلْ للمعجبين المتكبرين: اخسؤوا^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٢) انظر «المنتظم» ١/٣٤٢.

وقال وهب: ولما رجع موسى من التكليم غشَّى وجهه نور عظيم فتبرقع، ولو لم يتبرقع لمات من نظر إليه، ومنذ كلمه الله تعالى لم يأت النساء^(١).

فإن^(٢) قيل: فنور النظر أعظم من نور الكلام وقد رأى نبينا ﷺ ربَّه ليلة المعراج، ولما عاد لم يتبرقع، قلنا: موسى كان محبباً والمحبُّ مشهور، ونبينا ﷺ كان محبوباً والمحبوب مستور، ولأن نبينا ﷺ كان رحمة للعالمين، والرحمة لا تكون مستورة بل عامة للخلائق أجمعين.

ومنها تذكارهم بالنعمة المذكورة

وفي قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] أراد نعمي قال ابن عباس: من فلق البحر، وإنجائهم من فرعون، وإهلاك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وظلل عليهم الغمام في التيه يقيهم حرَّ الشمس، وجعل عليهم عموداً يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى. وقال مقاتل: شكوا إلى موسى حرَّ الشمس فأنزل الله عليهم غماماً أبيض رقيقاً وليس بغمام المطر بل أرق وأبرد منه، فقالوا: هذا الظلُّ قد حصل، فأين الطعام؟ فأنزل الله المنَّ والسلوى^(٣).

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه شيء كالصَّمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد، قاله مجاهد.

والثاني: أنه الطَّرَنْجَبِين، قاله الضحاك.

والثالث: أنه الخبز الرقاق، قاله وهب.

والرابع: أنه عسل كان يقع على الشجر من الليل، قاله السدي.

والخامس: شيء مثل الرُّبِّ الغليظ، قاله عكرمة.

(١) انظر «المنتظم» ١/٣٤٢.

(٢) من هنا إلى سؤال موسى ربه الرؤية ليس في (ب).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

والسادس : أنه الزنجبيل.

وقال الزجاج : هو جميع ما من الله به من غير تعب ولا نصب.

والظاهر أنه ما يعرف من هذا المنّ الأخضر الحلو، كان ينزل على الأشجار كل ليلة مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع.

فقالوا : يا موسى، قد قتلنا بحلاوته نريد اللحم، فسأل الله فأنزل السلوى^(١).

واختلفوا فيه أيضاً على أقوال :

أحدها : أنه طائر يشبه السمانى، قاله ابن عباس.

والثاني : طيور حمر، قاله مقاتل.

والثالث : طير أكبر من العصفور يكون بالهند، قاله عكرمة.

والرابع : أنه العسل بلغة كنانة، قاله المؤرّج، واحتج بقول الشاعر^(٢) :

وقاسمها بالله حقاً لأنتم الذُّ من السلوى إذا ما نشورها
والأول أصح، وعليه عامة المفسرين.

وذكّرهم الله بما فجّر لهم من المياه من الحجر، وإنزال التوراة وفيها تبيان كل شيء من نعم كثيرة.

فإن قيل : فكيف خاطب الحاضرين بقوله : ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وعدّد

عليهم النعم، وإنما كان ذلك لأسلاف اليهود المخاطبين؟ قلنا : لأن هؤلاء نجوا بنجاة آبائهم وأجدادهم، ومفاخر الآباء مفاخر الأبناء.

وقال ابن عباس : كان يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومه وليلته، فإذا كان يوم

الجمعة أخذ ما يكفيه يومين لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت. وقيل لهم : لا تدخروا فادخروا ففسد وتغيّر، فقطع الله ذلك عنهم، وهو قوله : ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي : ما ضررنا

ما عصونا ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة : ٥٧] فقطع الرزق عنهم^(٣).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

(٢) هو خالد بن زهير الهذلي، والبيت في شرح ديوان الهذليين ١ / ٢١٥، وقوله : ما نشورها : الشور أخذ العسل وجنيه.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧.

وقال الثعلبي: حدثنا ابن حامد وابن شعيب قالا: حدثنا مكِّي بن عبدان بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْتَزَ^(١) الطَّعامُ ولم يَخْبُثِ اللَّحْمُ، ولولا حوَّاءُ لم تَخُنْ أُنثَى زَوْجَهَا»^(٢).

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حِبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»^(٣). أخرجاه في الصحيحين.

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسول الله، أنتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: «نعم، تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنكم لا تتحدثون عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجب منه»^(٤). ومعنى لا حرج، أي: لا أضيِّق عليكم في الحديث عنهم.

فصل في سؤال موسى الرؤية

قرأت على شيخنا الإمام الموفق عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله بدمشق في سنة أربع وست مئة بقاسيون من كتابه المسمَّى بـ «التوايين» قال: حدثنا أحمد بن المبارك بن ثابت عن جده ثابت بن بندار بإسناده عن وهب بن منبه قال: لما سمع موسى كلام ربه استحلاه واشتاق إليه وطمع في رؤيته، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فقال الله: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وليس لبشر أن يراني، ولا يراني فيها أحد إلا ويموت، ولا يطيق أحد أن يراني، فقال موسى: يا إلهي، لأن أنظر إليك وأموت، أحب إلي من أن أعيش ولا أراك^(٥).

وقال وهب: حدثنا جوير عن ابن عباس قال: لما رأى الله تعالى حرص موسى على الرؤية قال له: اذهب إلى ذاك الحجر الذي في رأس الجبل - وهو جبل بمدين يقال له: طور سيناء أو طور دبير - فاقعد هناك، ففعل، وأمر الله الملائكة أن تمرَّ عليه،

(١) في (ط): يَخْتَرُ، والمثبت من المصادر.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧، والحديث في صحيح البخاري (٣٣٣٠) وصحيح مسلم (١٤٧٠).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٣٠) والبخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٠٩٢).

(٥) «التوايين» ص ٣٩٣٨.

فنزلت ملائكة السبع سماوات، ولهم أصوات مرتفعة بالتسبيح والتهليل والتقديس على صور شتى، ذوو أجنحة منهم كالأسود والنمور والوحوش، وأقبل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش على صورهم التي خلقهم الله عليها، وجاءت الصواعق والرعد والبرق والأهوال، ففزع موسى وكاد أن ينخلع فؤاده وجعل يبكي ويتضرع ويقول: يا رب، ندمتُ على ما سألتُ، فهل أنت منجيتي من مكاني؟ فناداه بعض الملائكة: يا ابن النساء الحيض، اصبر على ما سألت، فقليل من كثير ما رأيت، يا خاطيء، يا ابن الخاطيء، ما الذي جرّأك على ما طلبت؟ وناداه إسرافيل: يا ابن عمران، والله لنحن رؤساء الملائكة منذ خلقنا الله لم نرفع رؤوسنا نحو العرش خوفاً ورفقاً، فما حملك أيها العبد الضعيف على الإقدام على ذلك؟ فقال موسى: أحببتُ أن أعرف من عظمة ربي ما عرفت. قال وهب: ثم أوحى الله إلى الجبل إني متجلّ لك، فارتعدت السماوات والأرض وجميع المخلوقات، ثم خرّوا لله سجّداً، ثم تجلّى الله للجبل ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] من نور ربّ العزّة، وانقلب الحجر الذي كان جالساً عليه فصار مثل القبة. ولولا ذلك لاحترق^(١).

وقال ابن عباس: أظهر الله من نوره للجبل مثل رأس الإبرة فساخ واندك، وموسى ينظر إليه، حتى لصق بالأرض فذلك قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: مستويّاً بالأرض.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «وَصَارَ الْجَبَلُ لِعَظْمَةِ اللَّهِ سِتَّةَ أَجْبُلٍ، وَقَعَ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالْمَدِينَةِ: أَحَدٌ وَوَرِقَانُ وَرَضْوَى، وَوَقَعَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَةٌ: ثَوْرٌ وَثَبِيرٌ وَجِرَاءٌ»^(٢).

قلت: ذكر جدي رحمه الله في «الموضوعات» أحاديث من هذا الجنس، منها هذا الحديث، وقال: لا يصحّ، في إسناده عبد العزيز بن عمران يروي المناكير^(٣).

وحكى عكرمة عن ابن عباس قال: طارت منه قطعة إلى أصبهان فصارت كحلاً للعيون إلى يوم القيامة.

(١) «التوايين» ص ٣٩-٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٤.

(٣) «الموضوعات» ١/١٧٣.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن أبي الحسين الرازي أنه قال: الأطور التي كُلم عليها موسى أربعة: طور سيناء، وهو بالقرب من بحر القلزم، والطور الذي ببيت المقدس، والطور الذي بطبرية عند أكيال، والطور الذي بدمشق، وهو جبل كوكبا موضع الكنيسة الخربة، وكوكبا قبلي دارياً^(١). قلت^(٢): والأصح أنما خوطب على جبل الطور الذي بقرب القلزم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي: غُشي عليه، وقال قوم: مات. والأول أصح، لأنه لو مات ما عاش أبداً ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ عادت روحه إليه و﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ - وهذا دليل على أنه لم يموت - أي: نزهتك ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أنك لا ترى في دار الدنيا، وأن من رآك مات.

وقد روى أبو أحمد بن عدي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما تجلى ربُّه للجبلِ أشارَ بإصبعِهِ فمرَّ نورٌ جعلهُ دَكًّا»^(٣) قال جدي هذا الحديث في «الموضوعات» ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ، وهو من عمل ابن أبي العوجاء، وكان زنديقاً. وكذا حديث: «إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ خِنْصِرَهُ فَضْرَبَ بِهِ عَلَى إِبْهَامِهِ فَسَاخَ الْجَبَلُ»^(٤) من عمل ابن أبي العوجاء.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث أحمد بن حنبل في «المسند» فقال: حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: هكذا - يعني أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ - قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد، أو: وما أنت يا حميد؟ يُحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ فتقول: ما تريد إليه^(٥)!

(١) «تاريخ دمشق» ١٥/٦١.

(٢) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

(٣) ابن عدي في «الكامل» ٣٤٢/١. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٩).

(٥) أحمد في «مسنده» (١٢٢٦٠).

قلت: ولم يذكر أحمد بن حنبل أنه ضعيف^(١)، ولا ابن أبي العوجاء، ويكره تصحيح الحديث بأن يحمل قوله^(٢).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: لما قال موسى: ﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ كشف الله تعالى الحجاب عن الجبال، وأبرز له جبل قاف وقال له: انظر، فنظر فإذا مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً عليهم العباء محرمين ملبّين، كل منهم يقول: ﴿أَرِنِي﴾.

وقال أبو حنيفة بن النُّوبي: رأى ثمانية عشر ألف عالم يقولون: ﴿أَرِنِي﴾.

فإن قيل: فكيف أقدم موسى على طلب الرؤية؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما سمع الكلام وطاب له طار قلبه شوقاً إلى المتكلم، ولما رأى التكليم يُبدأ قبل السؤال قال لسان طمعه: لا عتب عليّ إذا سألت من ابتدأني بالفضل. والثاني: لأن كل جارحة منه أحست بحظها من الكلام، فطمعت عيناه في نصيبها وقال: هذه لذة الكلام فكيف لذة النظر؟

والثالث: لأن طبع المحبّ الترقّي من حال إلى حال أرفع منها، فلما حصل على الكلام طلب ما هو أعلى.

والرابع: لِيتميزَ على من تقدّمه من الأنبياء فيجمع بين الكلام والنظر.

والخامس: لأنه لما ناجى الله تعالى وسوس إليه إبليس وقال: إن الذي يناجيك شيطان. ولهذا روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: جاء إبليس وموسى يناجى ربه فوقف قريباً منه فقال له بعض الملائكة: يا ملعون، ما الذي ترجو منه في هذا الوقت؟ قال: ما رجوت من أبيه آدم، فقال: ﴿أَرِنِي﴾ ليزول الوسواس.

والسادس: أنه سكر من شراب الكلام، والسكران لا يفيق من خماره إلا بشربة ثانية كما قيل^(٣):

تداويت من ليلى بليلى عن الهوى

قال: ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾.

(١) ليس من شرط المسند أن يضعف أحد الأحاديث فيه أو يصححها، فلعله لم يضعفه فيما نقل من أقواله، أو في كتابه العلل.

(٢) كذا وردت هذه الجملة في (ط)؟! وفيها سقط، وهي ليست في (ب).

(٣) القائل هو قيس بن الملوح، وتمام البيت: «كما يتداوى شارب الخمر بالخمر»، انظر ديوانه ص ١٦٠-١٦٣.

فإن قيل : فلمَ منعه الرؤية؟ فالجواب من وجوه :

أحدها : أنه ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ خرج جواباً لموسى ، لأنه سأل ما لم يكن في الدنيا فأخبره بالمستحيل.

والثاني : أن الرؤية غاية الكرامة ومنتهى المنزلة إذ ليس بعدها منزلة فلو حصلت في الدنيا لموسى لم يبق لها في الجنة التي هي دار الكرامة معنى ، فإذا كان يوم القيامة أكرم الله بها أكرم عباده ، وهو محمد ﷺ ، وقد قال ﷺ : «أنا أول من يطرق باب الجنة»^(١) و«الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها»^(٢). فكانه يقول : لن تراني قبل محمد فلا تطمع فيما ليس لك.

وقال عبد الله بن المبارك : لما كانت الدنيا فانية ، والأبصار فانية ، والحق سبحانه باق ، لم يحسن أن ينظر الفاني في الفاني إلى الباقي ، فإذا كان يوم القيامة ، خلق الله لنا داراً باقية وأبصاراً باقية فننظر بالباقي إلى الباقي في الباقي.

وقال سهل بن عبد الله : قيل له : يا موسى ، بالأمس سألتني نصف رغيف وتقول : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : ٢٤] واليوم سألتني الرؤية؟ لن تراني. وقال علي بن مهدي : لو كان سؤال موسى الرؤية مستحيلاً لما أقدم عليه مع علمه ومعرفته بالله فدل على الجواز.

وقال قوم : لما علّق الرؤية باستقرار الجبل دل على الجواز ، ولأن استقراره غير محال. فإن قيل : فلم صار الجبل دكاً لما رآه ، وقلوب المؤمنين تراه دائماً ولا تندك؟ قلنا : جعل الله الجبل نداً لموسى لأنه جماد ، والقلوب بيوت الحق سبحانه وتعالى ، والساكن لا يخرب بيته.

فإن قيل : فقد أحاله على الجبل تعليقاً للرؤية بثبات الجبل ولم يثبت فموسى أولى. وجواب من أحيل على مليء ﴿فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ وقد تعلق نفاة الرؤية بقوله تعالى : ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ وقال : هي للأبد ، ونحن نقول : هي للوقت دون الأبد ، ألا ترى إلى قوله تعالى

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٤٦٢) من حديث مكحول مرسلًا.

في حق الكفار: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] ثم حكى عنهم أنهم يتمنونه بقولهم: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقال الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقد يدخل الجنة من لا ينفق مما يحب.

وقال أهل المعاني: لما أراد موسى الذهاب إلى الميقات جعل بين ربه وقومه واسطة بقوله لأخيه هارون: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] فلما سأل الرؤية جعل الله بينه وبينها واسطة وهو الجبل، فكانه يقول: إن لم أصلح لخلافتك في قومك دون أخيك فكذا أنت لا تصلح لرؤيتي دون استقرار الجبل.

وقال سهل بن سعد الساعدي: أظهر الله نوراً بقدر الدرهم من سبعين ألف حجاب فصار الجبل دكاً.

وقال أبو بكر الوراق: فَعَذَّبَ إِذْ ذَاكَ كُلُّ مَاءٍ، وَأَفَاقُ كُلِّ مَجْنُونٍ، وَبِرَّاءُ كُلِّ مَرِيضٍ، وَزَالَ الشُّوكُ عَنِ الْأَرْضِ، وَاخْضَرَّتِ الدُّنْيَا، وَخَمَدَتِ نِيرَانَ الْمَجُوسِ، وَخَرَّتِ الْأَصْنَامُ سَجْدًا.

وقال سفيان: ساخ الجبل حتى وقع في البحر، فهو يذهب معه تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿تُبَّتْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] من الانبساط على بساط القرب. ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: على من تقدمك من الأنبياء الذين أوحيت إليهم برسالاتي وبكلامي، لا على من يأتي بعدك وهو محمد ﷺ، فإنه شاركه في الكلام وزاد عليه بالنظر.

فصل في قول بني إسرائيل إنه آدر

قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تغتسل عراً ينظر بعضهم إلى بعض - أو إلى سوءة بعض - وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. قال: فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمع موسى في أثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوءته، فقالوا: والله ما بموسى من بأس،

فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ، فَأَخَذَ ثُوبَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ إِنْ بِالْحَجَرِ نَدْباً سِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ مِنْ ضَرْبِ مُوسَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى﴾ [الأحزاب: ٦٩] الآية. أخرجاه في الصحيحين^(١).

وللبخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا يَسْتَتِرُ إِلَّا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنَ اللَّهِ، فَأَذَاهُ مِنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا السُّتْرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا، فَخَلَا مُوسَى يَوْمًا وَحْدَهُ وَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثُوبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، وَجَعَلَ يَقُولُ: ثُوبِي ثُوبِي، وَذَكَرَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُريَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، فَطَفِقَ ضَرْباً لِلْحَجَرِ، فَإِنَّ فِيهِ مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا»، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ^(٢).

وقال الفراء: الأدر: العظيم الخصيتين، وجمع: أسرع إسراعاً لا يرده شيء.

وقال سعيد بن جبير: الحجر الذي وضع عليه ثوبه هو الذي يحمله معه في الأسفار ويضربه فتنفجر منه العيون.

وقال مقاتل: إنما نزلت هذه الآية في قصة هارون، وسنذكره هناك.

فإن قيل: فكشف العورة حرام في غير حق الأنبياء، فكيف مشى موسى وعورته بادية؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن كشف العورة حرام في شرعنا أما في شرعهم فلا، والدليل أنهم كانوا يغتسلون عراة، وموسى يراهم ولا ينكر عليهم، ولو كان حراماً لأنكره، واستتار موسى إنما كان من باب الحياء لا أنه يجب عليه ذلك.

والثاني: أنه يحتمل أن موسى كان عليه مئزر رقيق فظهر ما تحته لما ابتل بالماء فرأوا أنه أحسن الخلق فزال عنهم ما كان في أنفسهم.

(١) أخرج البخاري (٢٧٨)، مسلم (٣٣٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٤٠٤).

فصل في عبادة قومه العجل

قال علماء السِّير: كان السبب في عبادة قومه العجل أنه لما ذهب إلى الميقات وجاء جبريل على فرس يقال له: فرس الحياة، لا يصيب حافرهُ شيءٌ إلا حيي، وكان جبريل قد أتى ليأخذ موسى إلى الميقات، فرآه السامريُّ، وكان صائغاً.

واختلفوا فيه: قال ابن عباس: كان من بني إسرائيل، ولم يزل مع موسى في مصر والشام.

وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كِرمَان. وقيل: من أهل باجرْمَا، قرية من قرى دُقُوقَا بالعراق. والأول أشهر.

واختلفوا في اسمه: فقال ابن عباس: ظفر. وقال مقاتل: اسمه يوسف. وقال الحسن: منجار. وقيل: موسى بن ظفر. وكان منافقاً يظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، وقال ابن عباس: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكنه نافق لما قطع موسى البحر، وهو كان من الذين قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

وقال وهب: فلما رأى السامري ذلك الفرس تحت جبريل قال: لهذا الفرس شأن، وأخذ قبضةً من ترابه الذي وطىء عليه. ولما ذهب موسى إلى الميقات قال السامري لبني إسرائيل: إن الحلبي الذي أخذتموه من القبط على وجه العارية قد صار غنيمةً لا يحلُّ لكم، فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى من الميقات فيرى رأيه فيها، ففعلوا، فأخذ السامريُّ تلك القبضة فألقاها مع الحلبي في الحفيرة فخرج عجلاً من ذهب، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ أي: مجسداً لا روح فيه، وإنما كان لحمًا ودمًا ﴿لَهُ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي: صوت مثل صوت البقرة. قال ابن عباس: خار خَوْرَة واحدة، فزَفَنُوا حوله - أي رقصوا - ولم يعد إلى مثلها. وقرأ عليٌّ عليه السلام: «له جَوَّار»، بالجيم والهمزة، وهو الصوت أيضاً.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى إلى الميقات. وقال مجاهد: خار العجل ومشى وهو مرصع بالجواهر التي أخذوها من القبط، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسي فتركه هنا ثم خرج يطلبه.

وقال مقاتل: عبده منهم عشرة آلاف وهم الذين قالوا يا موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] وكانوا قد عدوا اليوم والليلة يومين فلما مضت عشرون يوماً ولم يرجع افتتنوا. وقال مقاتل: إنما سمي عجلاً لأنهم تعجلوه قبل رجوع موسى.

قوله تعالى: ولما رأوا أنهم قد ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩] ندموا على عبادته ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: حزيناً لما فعلوه لأن الله أخبره بما صنعوا ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي بئس الفعل فعلتم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابِحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] غضباً على قومه، وكان شديد الغضب، قال زيد بن أسلم: كان إذا غضب اشتعلت النار في قلنسوته. قال: وكانت التوراة خمسة أسفار، فرفع أربعة إلى السماء وبقي سفر واحد. وقيل: سُبُعٌ واحد^(١).

وقال أحمد: حدثنا سُرَيْجُ بْنُ النُّعْمَانِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايِنَةِ، إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَابِحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعَ قَوْمُهُ أَلْقَاهَا فَانكَسَرَتْ»^(٢).

وقال مجاهد: وصاغ موسى تابوتاً من ذهب وزنه ستمائة مثقال، ونزل فتات الألواح فيه ﴿وَأَخَذَ﴾ موسى ﴿بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وقيل: إنما أخذ بأذنيه فعبر بالراس عنهما. وقيل: إنما أخذ بلحيته وكان هارون أحب إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان ألين وألطف وأكبر سناً.

وقوله تعالى: ﴿أَبْنِ أُمَّ﴾ أي: يا ابن أمّاه، فاعتذر هارون، وقال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بعقوبتك وأنا أسنُّ منك وكان قد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٠-٢١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤٧).

استخلفه ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] بعبادة العجل. فلما ظهر لموسى عذره ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١] الآية.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه: ٨٥] أي: ابتليناهم واختبرناهم وكانوا ست مئة ألف، فافتن منهم عشرة آلاف. وقيل: كلهم عبده إلا عشرة آلاف ثبتوا مع هارون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾ لأنهم كانوا الجم الغفير. ولما عاتبهم موسى ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: ونحن نملك أمرنا ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي: من حلي [آل] فرعون، فجمعناها ودفعناها إلى السامري، فألقاها في النار أو في الحفيرة لترجع فترى فيها رأيك، ففعل ما فعل.

وقال ابن عباس: كان هارون قد مر على السامري وهو يصوغ العجل، فقال: ما تصنع؟ فقال: ما يضر ولا ينفع، فقال: اللهم ارزقه ما سأل، فكان كما قال هارون. فنهاهم هارون عن عبادته فقالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِيفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١] أي: مقيمين. فلما عاد موسى سمع الصياح والجلبة، وهم يرقصون حول العجل، فقال: ما هذا؟ فقيل له: صوت الفتنة، فقال: ﴿يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أي: أخطأوا، ألا تبتع أمري وقبلت وصيتي أو فارقتهم ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣] فراجعه بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾.

فإن قيل: فهارون أخوه من أبيه وأمه، فلم كرر قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد استعطافه وترقيقه، قاله الكلبي.

والثاني: أنه قد قيل: إنه كان أخاه لأمه.

والثالث: فلأن الولد من الأم من جهة الحقيقة ومن الأب من جهة الحكم.

وإنما خص اللحية والرأس بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِرَأْسِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ لأنهما عضوان يقصد بهما الإكرام من دون سائر الأعضاء ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إن أنكرت عليهم أن يصيروا حزينين يقتل بعضهم بعضاً ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤] أي: لم تراقب وصيتي حين قلت: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾^(١).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٢-٢١٣.

ثم أقبل موسى على السامريِّ وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ؟﴾ أي: ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت ما لم يروه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ يعني: من تراب حافر فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتها في الحلي ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] أي: زينت. فقال: ﴿فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ ما دمت حياً ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ أي: لا تخالط أحداً. وأمر موسى بني إسرائيل أن يعتزلوه ولا يخالطوه. قال قتادة: فبقاياهم إلى اليوم يقولون: ﴿لَا مِسَاسٌ﴾ فلو مسَّهم أحد أخذته الحمى في الوقت.

فإن قيل: فهلا قتله موسى؟ قلنا: ذكر مقاتل وقال: أوحى الله إليه لا تقتله فإنه سخيٌّ، وفي رواية: فإن قتله كان ذلك كفارةً له ثم قال موسى: يا سامريُّ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: بعذابك ﴿لَنْ تُخَلَّفَهُ﴾ أي: لن يخلفك الله إياه ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ أي: معبودك بزعمك ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: مقيماً ﴿لَنْحَرِقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] أي: نعفي آثاره. ثم برده موسى بالمبارد وألقاه في اليم. وقال مقاتل: ثم قال موسى: يا إلهي، من صاغ العجل؟ قال: السامري، قال: فمن جعل فيه الصوت حتى خار؟ قال الله: أنا. قال: فأنت فتنت قومي؟! قال: يا موسى، إني حكيم بيدي الضلال والهدى، ومصدقه قوله: ﴿فَأِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾.

فصل في ذكر توبتهم من عبادة العجل

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله، قلت له: أخبركم أحمد بن المبارك بإسناده عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال: سأل موسى ربه أن يتوب على قومه من عبادة العجل فقال: يا موسى، لا توبة لهم إلا أن يقتلوا أنفسهم، فأخبر موسى قومه وقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أي: خالقكم، فقالوا: نصبر لأمر الله، وندم القوم على ما صنعوا، فأخذ موسى عليهم المواثيق ليصبرنَّ على القتل، فأصبحوا غدوةً بأفئدتهم، كلُّ سبيطٍ على باب بيته، وأمر موسى الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا مَنْ عبده، وقال موسى: لعنة الله على رجل حلَّ حَبْوتَه، فقتلوه^(١).

(١) «التوايين» ص ٨٦-٨٧، والحبوة: أن يجمع المرء بين ظهره وساقه بعمامة ونحوها.

وقال ابن عباس: جعل الله توبتهم القتل لأنهم ارتدوا عن الإسلام، والكفر يبيح الدم، فجلسوا بأفنية البيوت وأصلتوا الخناجر، فكان الرجل يرى ابنه أو أخاه أو قريبه أو جاره أو صديقه فيستحي منه فقالوا: يا موسى، لا نقدر أن نقتل آباءنا وأبناءنا بل وأهلنا وأصدقاءنا، فأرسل الله عليهم ظُلمةً فكان لا يبصر بعضهم بعضاً، فانكشفت الظلمة عن سبعين ألف قتيل، فبكى موسى وهارون عليهم، فأوحى الله إليهما: قد جعلتُ القتلَ للمقتول شهادةً، وللقاتل توبةً وتكفيراً عن ذنوبه. قالوا: فما آية توبتنا؟ قال: على أن يقوم السلاح فلا يعمل، وترتفع الظلمة.

وقال مجاهد: قتلوا حتى خاضوا في الدماء، وصاح النساء والصبيان والشيوخ يا موسى: العفو العفو، فبكى موسى وتضرع، فأنزل الله التوبة، فقتلهم شهداء وأحيائهم مغفور لهم^(١).

فصل في ذهاب السبعين إلى الطور يعتذرون من عبادة العجل

قال الله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] ومعناه: من قومه. فلما نزع حرف الصفة نصب.

واختلفوا في سبب اختيار موسى السبعين:

فقال السُّدي: أمر الله موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختر موسى السبعين، فلما صعدوا الجبل قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فإنك قد كلمته فأرناهُ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا.

وقال ابن إسحاق: إنما اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا.

وقال الكلبي: أمر موسى السبعين أن يتطهروا ويطهروا ثيابهم ويصوموا، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فلما دنوا من ذلك المكان قالوا: يا موسى، اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعَل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تَغَشَّى الجبل كله، ودخل موسى حتى غاب فيه،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧٢/٩. وانظر «تفسير البغوي» ص ٤٩٣.

وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نورٌ ساطع لا يستطيع أحدٌ من بني إسرائيل أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم فدخلوا في الغمام وسمعوه يكلم ربه وربهم يكلمه، يأمره وينهاه. فلما فرغ من المناجاة وانكشف الغمام عن موسى أقبل إليهم، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِقَةَ﴾ [النساء: ١٥٣] وهي الرجفة فماتوا جميعاً، وأنكر قوم أنهم سمعوا كلام الله، وقالوا: إذ سمعوا كلام الله، فأى ميزة لموسى عليهم.

وقال وهب: لم تكن الرجفة موتاً وإنما كانت غشيّة، فخاف موسى عليهم ورق لهم وقال: يا رب، ماذا أقول إذا رجعت إلى بني إسرائيل ﴿لَوْ سِئِتْ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَايْتِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي عبدة العجل؟ فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم^(١).

فإن قيل: فكيف قال موسى هذا وقد علم أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجاني غيره؟ قلنا: هذا استعطافٌ من موسى لله تعالى، وتقديره: لا تهلكننا، فكان دعاء، ونظيره قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

فصل في قصة أريحا

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

قال ابن عباس: من كان له بيت وخادم وامرأة صالحة وبلغه فهو ملك، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، فقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا عبد الله بن حامد بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ خَادِمٌ وَامْرَأَةٌ وَدَابَّةٌ يُكْتَبُ مَلِكًا»^(٢).

﴿يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]. واختلفوا فيها:

قال ابن عباس: هي أرض فلسطين، والأردن، والطور وما حوله، والغور وما والاها.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٤١/٤.

وقال زيد بن ثابت: الشام كله مقدس ويدخل فيه دمشق.

وقال ابن عمر: حرم مكة والبيت المقدس. والأول أصح.

وقال مقاتل: وإنما قال ذلك موسى لما نزل على أريحا، ومعنى ﴿كَتَبَ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. وكانت أريحا قرية الجبارين وهم العمالقة، وقيل: الكنعانيون، وأمر موسى بقتالهم وجهادهم، وكان موسى قد نَقَّبَ على بني إسرائيل اثني عشر نقيباً بعدد الأسباط، ومن هنا نَقَّبَ النبي ﷺ النقباء ليلة العقبة، ومن هؤلاء النقباء يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، والنقيب: الكفيل عن قومه بالوفاء على ما أمروا به.

وقال ابن إسحاق: ولما دنا موسى من أريحا بعث النقباء يتحسسون الأخبار، فلقبهم عوج بن عناق، وقال الثعلبي: قال ابن عمر: كان طوله ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاث مئة وثلاثين ذراعاً، وكان يعتجر بالسحاب ويشرب الماء منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه في عين الشمس ويأكله، وهو ابن بنت آدم^(١) - وقد ذكرناه في الطوفان - وأن الماء كان لا يبلغ كَعْبَهُ. فالتقى بالاثني عشر نقيباً وعلى رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم في حجزته، وانطلق بهم إلى زوجته فقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها، وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت: لا بل خلّ عنهم ليخبروا قومهم بما رأوا، فأرسلهم؛ فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: إن أخبرتم القوم رجعوا عن نبي الله وساروا، فأما كالب ويوشع فإنهما كتما، وأما الباقيون فتحدثوا. ولما شاع الحديث جاؤوا إلى موسى وقالوا: يا ليتنا متنا بأرض مصر وبكوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] وهم الأقوياء، كان يدخل في كُفِّ أحدهم اثنان من بني إسرائيل، ويدخل في قشر الرمانه إذا نزع الحب منها خمسة رجال، ويحمل العنقود خمسة رجال من بني إسرائيل فقالوا: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فدعا عليهم موسى وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] أي: العاصين. وكانت عجلة من موسى فاستجاب له ربه وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٣.

أي: يتحIRON في القفار، فأقاموا أربعين سنة يتيهون في ستة فراسخ، يسيرون كل يوم جادين حتى إذا ملؤوا إذا هم في الموضع الذي رحلوا منه. ومات النقباء العشرة الذين أفسوا الخبر ولم يبق من النقباء إلا يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، ومات الذين قالوا لن ندخلها، وكانوا ست مئة ألف، في أربعين سنة. وكان ينزل عليهم المن والسلوى. ولما ذهبت الأربعون سنة وهلكوا، نشأت ذرية أخرى منهم، ففتحوا أريحا على يد موسى، وقيل: على يد يوشع كما يذكر وهب. وموسى هو الذي قتل عوج بن عناق^(١).

ذِكْرُ مَقْتَلِ عَوْجِ بْنِ عِنَاقٍ

حكى جدي في آخر «أعمار الأعيان» عن ابن إسحاق قال: عاش عوج بن عناق ثلاثة آلاف سنة وست مئة سنة ولم يعيش أحد هذا العمر^(٢).

وقال أبو جعفر الطبري: عاش ألف سنة^(٣). وهو وهم منه، لأن بين موسى وآدم ثلاثة آلاف سنة وزيادة.

وولد عوج بن عناق في دار آدم وهو ابن بنته عناق. وقيل: اسم أبيه عناق صهر آدم. وقال الكلبي: جاء عوج إلى نوح أيام الطوفان وقال: احملني معك في السفينة، فقال: اذهب يا عدو الله، فإن الله لم يأمرني بحملك، وطبَّقَ الأرضَ الماءَ وما جاوز كعبه.

وقال وهب: كان عسكر موسى عدة فراسخ لأنهم كانوا ست مئة ألف، فقال عوج لأصحابه: أنا أكفيكم إياهم، فجاء فوقف عليهم وحذرهم، ثم جاء إلى جبل وقور منه صخرة على قدر العسكر وحملها على رأسه ليقبها على العسكر، فأرسل الله الهدد وفي منقاره عود، فنقبها حتى تقورت في عنقه فصرعته، وبلغ موسى فجاء ومعه عصاه وطولها عشرة أذرع، فنزا في الهواء عشرة أذرع أخرى حتى أصاب كعبه وهو مصروع فقتله، وأقبل جماعة من أصحابه فحزوا رأسه. وقال الثعلبي: ولما قتل وقع على نيل مصر فجسَّره سنة^(٤).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٣٠.

(٣) جاء عند الطبري في «التاريخ» ١/ ٤٣١ أنه عاش ثلاثة آلاف سنة.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

وقال نوف البكالي: كان طول سرير عوج ثمان مئة ذراع وعرضه أربع مئة ذراع. ولما ضربه موسى خرَّ على نيل مصر فجسره الناس سنةً يمرون على أضلاعه وصلبه.

قلت: والعجب من الثعلبي ومن نوف كيف يرويان مثل هذا الكلام الذي تنفر منه العقول السليمة، والواقعة كانت بأريحا وأين نيل مصر؟ وعلى تقدير ما حكى الثعلبي عن ابن عمر أن طوله ثلاثة وعشرون ألف ذراع يكون طوله أقل من فرسخين، لأن الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع وبين أريحا ومصر مئة فرسخ وزيادة.

وروي عن بشر الحافي أنه قال: كان التجار في البحر يخافون منه فيعدُّون له كُرَّين من الدقيق فيخبزه مَلَّتَيْنِ فيأكلهما، فهذا كافرٌ يطعمه الله هذا في كلِّ يوم فكيف يُضيعُك وأنت تعبده وقوتك رغيف أو رغيفان.

وقال وهب بن منبه: وكانت أمه عناق أول من بغى على وجه الأرض، وكانت كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين، وفي كل إصبع ظفران من حديد مثل المناجل، وكان مكان جلوسها مقدار جريب، ولما استمرت على البغي بعث الله سبحانه عليها أسوداً وذئاباً فمزقتها^(١).

فصل في نتق الجبل عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾. قال ابن عباس: لما أنزل الله عليهم التوراة أبوا أن يقبلوها لأن أحكامها ثقلت عليهم، فرفع الله عليهم جبلاً بمقدار عسكرهم، وكانوا ست مئة ألف، وقال لهم: إن لم تقبلوها وإلا ألقيتُ عليكم هذا الجبل. ومعنى الظلة: كل شيء أظلك ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: عليهم ﴿خُدُوا﴾ تقديره: وقلنا لهم: خدوا ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١] أي: بجدٍّ واجتهاد.

وقال الحسن البصري: فسجد كلُّ واحد منهم على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل مخافةً أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الدنيا يهودي إلا ويسجد على حاجبه الأيسر ويقول: هذه السجدة التي رفع الله بها عنا العذاب.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

فصل في التوراة واليهود

فأما التوراة: فقال الفراء: فأصلها من وَرَى الزند - بالفتح، وَرُوي بالكسر أيضاً - فسميت التوراة توراة لأن الأحكام ظهرت منها.
وأما اليهود فأصله من التهود وهو الميل.

وقال الحسن: لما أنزل الله تعالى التوراة لم يبق على وجه الأرض حجرٌ ولا شجر ولا جبل إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهوديٌّ إلا ويهتزُّ عند قراءة التوراة، ويقولون: اهتزت السماوات والأرض.

وقال الجوهري: يقال: هاد وتهوّد إذا صار يهودياً. قال: والهؤد: اليهود، والتهويد: المشيُّ الرؤيد. والتهؤد: أن يصير الإنسان يهودياً، ومنه الحديث: «فأبواه يهؤدانه وينصرانه»^(١).

فصل في بناء ظفار

وقال ابن الكلبي: وفي زمان موسى بنيت مدينة ظفار باليمن، بناها رجل من حمير يقال له: شمر بن الأملوك^(٢) الحميري، وهو أول ملوك اليمن من العرب، ونفى العمالقة من اليمن.

وقال الجوهري: وظفارٍ مثل قَطَامٍ مدينة باليمن، وجزع ظفاري منسوب إليها، وفي المثل: من دخل ظفارٍ حمّر^(٣).

وسألت شيخنا أبا اليمن الكندي رحمه الله عن هذا فقال: سببه أن بعض العرب دخل على ملك ظفار فوقف، فقال له الملك: ثب - وهو بلغتهم: اقعد - فلم يفهم الرجل فوثب إلى فوق فوق وتكسّر، فقال الملك: من دخل ظفار حمّر، أي تكلم بلغة حمير.

(١) «الصحاح» (هود). والحديث أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في تاريخ الطبري ٤٤٢/١: شمير بن الأملول، وفي المنتظم ٣٧١/١: شمير بن الأهلوك.

(٣) «الصحاح» (ظفر).

فصل وفي أيام موسى احترق ابنا هارون

وقال وهب بن منبه: كان يسرج في البيت المقدس كل ليلة ألف قنديل، يخرج من طور زيتا عين من الزيت حتى تصب في القناديل ولا يُمسُّ بالأيدي، وتنحدر من السماء نار بيضاء فتسرج القناديل، وكان المتولي لذلك ابنا هارون، فأوحى الله إليهما لا تسرجا بنار الدنيا، فأبطأت النار عنهما ليلة فعمدا إلى نار من نيران الدنيا فأسرجا بها، فانحدرت النار من السماء فأحرقتهما، فجاء الصريخ إلى موسى بالخبر فقال: يا إلهي أحرقت ابني أخي، فقال الله تعالى: يا موسى، هكذا أفعل بأوليائي إذا عصوني، فكيف أفعل بأعدائي؟^(١).

فصل في قصة البقرة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] الآية. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: وجد قتيل في بني إسرائيل اسمه عاميل، فلم يعرفوا من قتله.

واختلفوا في سبب قتله على قولين:

أحدهما: أنه كان رجلاً كثير المال لا يولد له ولد، وله ابن فقير لا وارث له غيره، فطالت عليه حياته فقتله ليرثه، فلما قتله احتمله ليلاً فأتى به سبطاً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح فادّعاه، فكادوا يقتتلون، فأتوا موسى فأمرهم بذبح البقرة، قاله عطاء وابن سيرين.

والثاني: أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ لا مال له، فخطبها من أبيها فغضب أبوها ولم يزوجه إياها، فقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديته، فأتاه فقال: قد قدم تجار في بعض الأسباط فانطلق معي فخذ لي من تجاراتهم لعلّي أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط قتله ابن أخيه، ولما أصبح جاء يطلب عمه وقال: قتلتموه، ثم

(١) «المنتظم» ٣٧٢/١، وفضائل القدس ١١٣.

نادى: واعمّاه، وطلب منهم ديته، ثم أتى موسى فأخبره وقال: يا نبيّ الله، ما أجدُ أحداً يبيّن لي قاتله سواك، فأمره بذبح البقرة، وذلك قبل أن تنزل القسامة في التوراة، حكاه السدي عن أشياخه.

وقال ابن عباس: أوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح البقرة فتنظّعوا عليه فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٧٠] وما صفتها - وقد ذكرنا ذلك في «التفسير» - ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الفارض والبكر إلى أن قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي: شديدة الصفرة؛ وقال الحسن: أراد بصفراء سوداء، والعرب تسمي الأسود أصفر، وقد أنكروا هذا على الحسن، وقالوا: هو غلط منه، لأن العرب لا تعرف هذا في نعوت البقر، وإنما هو في نعوت الإبل، وإليه أشار الأعشى^(١)، وإنما العرب تقول: أصفر فاقع، وأخضر ناصع، وأبيض يقق، وأسود فاحم وحالك^(٢). وقال الجوهري: وربما سمت العرب الأسود أصفر^(٣).

و﴿تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩] من حسنها وصفاء لونها. وروى الثعلبي عن علي عليه السلام أنه قال: من لبس نعلين أصفرين لا يزال مسروراً، وقرأ هذه الآية.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] ومعناه: أعاملة هي أم سائمة؟ وإنما لم يقل: تشابهت لأنه أراد جنس البقر تشابه علينا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى وصفها^(٤).

حدثنا أبو القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يستثنوا - يعني أصحاب البقرة -

(١) بقوله:

تلك خيلي منه وتلك ركابي

هن صفر أولادها كالزبيب

انظر ديوانه ص ٢٧.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٩٧-٩٨.

(٣) «الصحاح» (صفر).

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٥.

لما اهدتوا إلى وصفها أبدأً، ولو عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها أجزاءهم، ولكن شدّدوا فشّدّد الله عليهم»^(١).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ أي: غير مذلّلة بالعمل ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بالزراعة أي: تقلبها ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً﴾ من العيوب ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: بياض وسواد مختلف اللون ﴿قَالُوا أَلَكُنَّ جِئْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبيان التام ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لغلاء ثمنها فإنها بلغت ما لا عظيماً.

والثاني: مخافة الفضيحة أن يكون القاتل منهم.

والثالث: وما كادوا يفعلون باجتماع أوصافها.

وقال ابن عباس: طلبوها فلم يجدوها إلا عند الفتى البار بوالديه^(٢)، وكانت له عجلة قد خلفها له أبواه في غيضة، وقصتها طويلة، وقد ذكرناها في «التفسير».

حاصلها: أنهم اشتروها منه بملء جلدها ذهباً، وقيل: بوزنها عشر مرات ذهباً ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا﴾ يعني: القليل.

واختلفوا في البعض:

قال ابن عباس: بلسانها.

وقال مقاتل: بعجب ذنبها.

وقال مجاهد: بغضروفها، وهو أصل أذنها، والقولان الأولان أصح. أما اللسان فلأنه آلة الكلام، وأما عجب الذنب فجميع ما في الحيوان يبلى إلا هو فإنه يبني منه الجسد كما تبني السفينة على الخشبة الأولى.

فلما ضربوه قام حياً تشخب أوداجه فقال: فلان قتلني، ثم وقع ميتاً، فقتلوا قاتله.

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: أقاموا في طلبها أربعين سنة حتى وجدوها قلنا:

(١) أخرجه الطبري (١١٧٤) و(١٢٣٥) و(١٢٤٥-١٢٤٦) وابن أبي حاتم (٦٩٨) موقوفاً على ابن عباس، وانظر عرائس المجالس ٢٣٥، وتفسير ابن كثير.

(٢) في (ب): «بأمه».

ضربوا قبره فأحياه الله.

فإن قيل: فقد كان الله قادراً على إحيائه من غير ضرب ببعضها، قلنا: فيه إظهار المعجزة دون الشعبذة، وإكراماً للبارِّ بوالديه^(١).

فصل في مغازيه

قال علماء السير: حارب موسى الكنعانيين واليونان والأمم الكافرة وأباد من كان بالشام منهم، وبعث بعثاً إلى الحجاز فقتلوا العمالقة، وكان ملكهم يقال له: الأرقم، بحصن تيماء ويثرب، وأسروا ابناً له شاباً لم ير الناس أحسن منه فلم تطب نفوسهم أن يقتلوه، وقالوا: نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه، فاستقبلهم الناس بوفاة موسى فمنعهم بنو إسرائيل أن يدخلوا الشام وقالوا: أمركم موسى أن لا تستبقوا كافراً وقد أبقيتهم هذا، فعادت تلك الطائفة - وهم من بني إسرائيل - إلى الحجاز، وسكنوا خيبر ويثرب وتيماء، واتخذوا يثرب مزارع، فبنو قريظة والنضير منهم وكذا بنو الكاهن، والكاهن ابن هارون بن عمران، والكاهن: العالم.

فصل في اجتماع موسى بالخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٠﴾ الآيات.

اختلفوا في فتاه^(٢):

قال ابن عباس: هو يوشع بن نون، وإنما سمِّي فتاه لأنه كان يلازمه ويخدمه ويستفيد منه العلم.

وقال مقاتل: فتاه هو أخو يوشع بن نون.

وقال الكلبي: فتاه عبده. والأول أصح.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) انظر في هذا وفيما سيرد: تفسير الطبري ٣٠٨/١٥، والثعلبي ١٨٠/٦، وعرائس المجالس ٢١٩، وزاد

المسير ١٦١/٥.

ومعنى: «لا أبرح» قال مقاتل: أي: لا أزال أسير، و«مجمع البحرين»: ضفتاهما. واختلفوا في مجمع البحرين:

قال قتادة: البحر الرومي والشرقي، فالشرقي بحر فارس والرومي هو الغربي، وقال أبي بن كعب: اجتمعوا بإفريقية.

والثاني: بطنجة، قاله محمد بن كعب القرظي.

والثالث: أن المراد بالبحرين موسى والخضر، قاله مقاتل ورواه عن علي عليه السلام.

قال ابن عباس: وكان السبب في اجتماع موسى بالخضر أنه لما ظهر موسى وقومه على فرعون وقومه وأورثهم أرضهم وديارهم قام موسى فيهم خطيباً، فذكّرهم بنعم الله عليهم قال: وكلم الله نبيكم^(١) تكليماً واصطفاني لنفسه وألقى عليّ محبة منه، فقال رجل: قد علمنا ما تقول، فهل علي وجه الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا، ولم يقل: فيما أعلم، قال مجاهد: فبعث الله إليه جبريل فقال: بلى لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، وما يدريك أين أضع علمي؟ قال: يا رب وأين هو؟ قال: اطلبه على شاطئ البحر تجده هناك.

وقد اختلفت الروايات في القصة، فنبدأ بما ذكر في الصحيح فنقول:

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن ابن عباس أنه تمارى هو والحارث بن قيس بن حِصْنِ الْفَزَارِيِّ في صاحب موسى عليه السلام فقال ابن عباس: هو الخضر، فمرّ بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال له: يا أبا الطفيل هلمّ إلينا فإنني قد تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سألت موسى السبيل إلى لُقَيْهِ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يقول أو يذكر في شأنه؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إليه: بلى عبْدُنَا الخضر، فسأل موسى السبيل إلى لُقْيَاه فجعَل الله له الحوت آية»، وفي رواية: «وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك

(١) في (ب): «موسى».

سَتَلْقَاهُ، فَسَارَ مُوسَى مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاِنَّا غَدَاءَنَا﴾ فَقَالَ فَتَى مُوسَى حِينَ سَأَلَهُ الْغَدَاءَ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] فَقَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أَي: يَقْصَانِ الْأَثْرَ فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَانَ مُوسَى يَتَّبِعُ الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَهِيَ أَتَمُّ الرِّوَايَاتِ، قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بِإِسْنَادِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتَ نَوْفًا الْبِكَالِيِّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبُ الْخَضِرِ وَإِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخِرُ فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَيْثُ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: أَحْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُ تَفْقَدَ الْحُوتَ فَهُوَ ثُمَّ. قَالَ: فَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ يَمْشِيَانِ، وَقَدْ حَمَلَ الْحُوتَ فِي الْمِكْتَلِ حَتَّى أَتَى الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَّةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا أَي: طَرِيقًا، وَلِفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا وَنَسِيَ صَاحِبُ الْحُوتِ أَنْ يَخْبِرَ مُوسَى، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مِشَاقَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]. قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أَي: يَقْصَانِ الْأَثْرَ حَتَّى أَتَى الصَّخْرَةَ - أَوْ انْتَهَى إِلَيْهَا - فَإِذَا بِرَجُلٍ مَسْجِيٍّ بِثُوبٍ - أَوْ مَسْجِيٍّ عَلَيْهِ ثُوبُهُ - فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ، فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَكَ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿هَلْ

(١) صحيح البخاري (٧٤)، وصحيح مسلم (١٧٤).

أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿ [الكهف: ٦٦]. ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
 وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ
 أَمْرًا ﴿ [الكهف: ٦٧-٦٩] قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ
 مِنْهُ ذِكْرًا ﴿ [الكهف: ٧٠] قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ
 فَكَلَّمَاهُمَ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمِدَ الْخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ
 مِنْ الْأَوْحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدَتْ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ
 فَخَرَقَتْهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿ [الكهف: ٧١] ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
 مَعِيَ صَبْرًا ﴿ [الكهف: ٧٢]. ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي
 عَسْرًا ﴿ [الكهف: ٧٣] الآية. ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غَلَامٌ
 يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَأَقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿ أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ
 لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ [الكهف: ٧٤-٧٥]
 قَالَ: هَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
 فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ
 فَأَقَامَهُ ﴿ قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ [الكهف: ٧٦-٧٧] فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ
 يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿ [الكهف: ٧٧] ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
 وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿ [الكهف: ٧٨] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ
 اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا». قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ: «كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا». وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ثُمَّ
 نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا
 نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ.

قال سعيد بن جبیر: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة
 صالحة غصبا». وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرا»^(١).

وفي رواية: «فاضطرب الحوت في الماء فجعل لا يلتزم عليه حتى صار مثل الكوة،

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

فَقَالَ فَتَاهُ: أَلَا أَلْحَقُ نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخْبِرَهُ، فَنَسِيَ. فَلَمَّا تَجَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا، وَذَكَرُوهُ فِيهِ؛ فَرَأَى خَضِرًا مُسْتَلْقِيًا عَلَى حُلَاوَةِ الْقَفَا فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مُوسَى، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقَالَ: جِئْتُ لِتَعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، فَقَالَ: شَيْءٌ أَمَرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ: «رَحِمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى آلِ مُوسَى لَوْلَا أَنَّهُ عَجَلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ ذِمَامَةٌ مِنْ صَاحِبِهِ». وَكَانَ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ. ثُمَّ قَالَ: «فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِيَأْمُرَ، فَطَافَا الْمَجَالِسَ فَاسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]. قَالَ: فَأَخَذَ بِثَوْبِهِ ثُمَّ تَلَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَقَالَ: فَإِذَا جَاءَ يُسَخِّرُهَا وَجَدَهَا مَنْخَرَقَةً فَيَتَجَاوَزُ إِلَى غَيْرِهَا فَأَصْلَحُوهَا بِخَشَبَةٍ. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ كَافِرًا يَوْمَ طُبِعَ وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَهُمَا أَرَهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «وَفِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: الْحَيَاةُ لَا يَصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيًّا، فَأَصَابَ الْحَوْتَ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَدَخَلَ الْبَحْرَ»^(٢).
وَفِي رِوَايَةٍ: قِيلَ لَهُ: خُذْ حَوْتًا مَيْتًا حَتَّى يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَدَخَلَ الْحَوْتَ الْبَحْرَ فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَةَ الْمَاءِ، وَوَجَدَ الْخَضِرَ عَلَى طِنْفَسَةِ خَضِرَاءَ عَلَى كَبِدِ الْبَحْرِ، وَفِيهِ: فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَةَ بِيَدِكَ وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ»^(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ: إِنَّ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعَلِّمَهُ، وَإِنَّ لِي عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعَلِّمَهُ» وَفِيهِ: «فَأَضْجَعَ الْغُلَامَ فَذَبَحَهُ بِالسُّكِّينِ» وَفِيهِ: «فَخَشِينَا ﴿أَنْ يُرَهِّقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ فَأَبْدَلَا مَكَانَهُ جَارِيَةً»^(٤). هَذَا قَدْرُ مَا أُخْرِجَ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِينَ» وَعِنْدَ الْبَخَارِيِّ غَيْرُ مُسْنَدٍ.

وَيُزَعَمُونَ أَنَّ الْمَلِكَ: هُدَّدُ بْنُ بُدَدٍ، وَاسْمُ الْغُلَامِ الْمَقْتُولِ: جَيْسُورٌ^(٥)، وَكَانَتْ

(١) صحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

الأولى نسياناً، والثانية سهواً، والثالثة عمداً^(١).

تفسير غريب الحديث: «هلمَّ» أي: أقبل، قال الجوهرى: هلمَّ يا رجل بمعنى تعال^(٢).

و«نوف»: رجل من أهل الشام. وبكالة - بفتح الباء - قبيلة من حمير، و«كذب»: أي: أخطأ، والعرب تضع الكذب موضع الخطأ، و«المِكتَلُ»: الزنبيل، و«الطَّاقُ»: عقد البناء، و«السَّربُ»: الطريق، و«المُسَجَّى»: المَغَطَّى، و«حلاوة القفا»: ما أذبر منه، و«الذَّمَامَةُ»: الحياءُ، وقيل: القباحةُ، وهي تكون في الخُلُق، والذَّمَامَةُ في الخُلُقَة.

وقال علماء السِّير: لما سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يُريه الخَضِرَ عليه السَّلَام قال له: ائت جانب البحر فإنك تجد على شطِّه حوتاً، فخذهُ وادفعه إلى فتاك، ثم الزم شطَّ البحر، فإذا نسيت الحوت وذهب منك فهناك تجد العبدَ الصالح.

وفي رواية ابن عباس: فإذا عاش الحوت وجدته.

قال: فتزوَّد خبزاً وسمكة مألحة، وقال: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير حتى أجده ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] أي: مدة ثمانين سنة وهو الحُقْب.

فلما وصل إلى الصخرة التي عند مَجْمَعِ البَحْرين وعندها عينُ الحياة أصاب الحوت روح الماء وبرده فاضطربَ وخرجَ من المِكتَلِ فدخلَ البحرَ، فذلك قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وإنما قال: نسيَا والحوتُ كان مع يوشع لأن الفعل يجوز أن يضافَ إلى اثنين وهو لواحد كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو المالح دون العذب.

فجاء موسى فقال لفتاه: ﴿ءَأِنَّا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣]. قال وهب: الصخرة دون نهر الزيت بالمغرب ﴿فَإِنِّي نَسِيْتُ الْحُوتَ﴾ أن أذكره لأنه كان مع الفتى فأخبر عن نفسه فرجعاً إلى الصخرة فوجد الخَضِرَ

(١) البخاري (٢٧٢٨) وفيه: والثانية شرطاً.

(٢) «الصحاح»: (هلم).

عندها، والخضر لقب له، وسنذكر اسمه بعد هذا، ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] لأنه هو السبب.

وقال مقاتل: وجد الخضر نائماً على وجه الماء على طنفسة خضراء، وهو المراد بما ذكر في الحديث على وجه الماء، أي: وسطه، فسلم موسى عليه فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال موسى: ومن أخبرك بي؟ فقال: الذي ذلك علي، ومن قال الخضر كان نبياً يقول أوحى إليه ذلك.

فإن قيل: فلما ذهب إلى الميقات أقام أربعين ليلة لم يأكل، ويجوع نصف يوم فيقول آتنا غداءنا؟ فالجواب: إن في ذهابه إلى الميقات كان وعد الانتظار يشغله عن الطعام والشراب، وفي سفر الخضر معلماً فكان سفر تأديب فجاع.

﴿ءَأَيَّنَهُ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ٦٥] أي: نعمة ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من علم الغيب ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: صواباً، وهذا تحريض على طلب العلم والتواضع ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٧﴾ أي: لن تطيق لأني أعلم علم الغيب وأنت لا تعلمه، فتنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم الباطن، وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا.

فإن قيل: فما صبر؟ قلنا: ظاهر الشرع أوجب له الإنكار عليه، وقد قيد الله صبره بالمشيئة، فلما ركبا في السفينة قال أهلها: هؤلاء لصوص أخرجوهم، فقال صاحبها: ما هم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء، فأخذ الخضر فأساً فقطع لوحاً منها، وكانوا في اللجة، فحشا موسى موضع اللوح بثوبه وقال: ﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: منكراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٦﴾.

وقال ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»^(١) ولهذا قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ حتى رأى غلاماً فقتله، قال مجاهد: كان اسم الغلام خشن بود^(٢) واسم أبيه ملاس وأمه رحمى^(٣)، ولم يبلغ الحلم، قالوا: ومع هذا فكان يقطع الطريق ويفسد في

(١) صحيح البخاري (٢٧٢٨).

(٢) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: حسنود.

(٣) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: رحمة.

الأرض، فقال له موسى: «أقتلت نفساً زاكية» - بألف^(١) - وهي التي لم تذب قط. ومن قرأ ﴿زَكِيَّةً﴾ أراد التي أذنبت ثم تابت، وقيل هما لغتان.

فإن قيل: ففي الحديث الذي رويتم أن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً فكيف قال زاكية؟ قلنا: الزاكية في البدن، أي: سالمة من العيوب، والزكِيَّةُ في الدين، ذكره المبرّد. وقال الحسن: إنما شق ذلك على موسى لأن الخضر أضجع الغلام وذبحه. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: منكراً، والنُّكْرُ أشدُّ من قوله إمرأاً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ قال ابن عباس: هي أنطاكية، وقال ابن سيرين: الأبلّة، وقيل: باجرّوان من أعمال واسط.

قلت: والعجب من هذا، والواقعة كانت بالمغرب بإفريقيّة، وقيل: بطنجة، وقيل: عند نهر الزيت وهو أقصى المغرب، فما الذي أتى بها إلى أنطاكية والأبلّة؟ وهو من أقصى الدنيا وأبعد الأرض عن السماء، فيحتمل أنها قرية من قرى المغرب.

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ أي: يقروهم، لأنهم كانوا أهل قرية لثاماً ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿جِدَارًا﴾ أي: حائطاً، قال وهب: كان طوله في السماء مائة ذراع ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ أي: يسقط وينهدم، ومنه انقضاض الكواكب وهو سقوطها وزوالها عن أماكنها. وقال ابن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقيل: ضيافة يعني على إقامته وإصلاحه ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سوف أخبرك ﴿بِنَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم شرع يشرح له فصلاً فصلاً:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قال وهب: كانت لعشرة إخوة، خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ووراء بمعنى أمام كقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقيل: معنى ووراءهم خلفهم، رجعوا عليه في طريقهم، وقيل: معناه يأخذ كل سفينة صالحة غصباً.

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر النشر ٢/٣١٣.

واسم الملك جلندي في قول ابن عباس، وكان كافراً. وقال محمد بن إسحاق: كان اسمه منولة بن جلندا اردى^(١) وقيل: اسمه: هُدد بن بُدد، وقال مقاتل: كان من ثقيف، وهو جد الحجاج بن يوسف الثقفي.

فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ يدلُّ على أن المسكين من له شيء ولا يزول عنه اسم المسكنة إذا كانت به حاجة، ويجوز له أخذ الزكاة، وقد قال أبو حنيفة: المسكين من لا شيء له أصلاً، وقال ابن عباس: كانت السفينة تساوي ألف دينار.

والجواب: إن أبا حنيفة يحتجُّ بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] وهو الذي لزق بالتراب من فقره. وقال عيسى بن عمر: قلتُ لأعرابي: أفقر أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين. وأما أصحاب السفينة فقد روى عطاء عن ابن عباس أنهم كانوا أجراء، ولم تكن ملكاً لهم. وأما قوله بأن الزكاة تصرف إلى المساكين فنحن نقول به ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في الوصية إذا قال: ثلث مالي للمساكين، هل يدخل الفقراء في ذلك أم لا؟ عند أبي حنيفة لا يدخلون وتكون للمساكين، وعند الشافعي يدخلون لما عرف.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشاهما، وقيل: يكلفهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال سعيد بن جبير: خشينا أن يحملهما حبه على أن يدخلوا في دينه ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ صلاحاً وإيماناً ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ أي: قرابة. وقال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمةً من الأمم. وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: أبدلهما الله جارية فولدت سبعين نبياً^(٢).

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ واسمهما أصرم وصريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٣٠: منواه بن جلندي الأردني.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٠.

أحدها: كانت فيه صحفٌ فيها علم، حكاه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه لوح من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالْقَدْرِ كَيْفَ يَحْزَنُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتَعَبُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُوقِنُ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفَلُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَظْمِنُ إِلَيْهَا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قاله ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ^(١).

والثالث: أنه مال. قال أبو إسحاق بإسناده عن مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾: «كَانَ ذَهَبًا وَفِضَّةً»^(٢)، وبه قال عكرمة.

والرابع: أنه كان مكتوباً على اللوح الذي من ذهب: أنا الله لا إله إلا أنا، أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشر، فطوبى لمن خلقتَه للخير وأجرته على يديه، والويل لمن خلقتَه للشرِّ وأجرته على يديه، قاله مقاتل.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ واسمه كاشح؛ وقال: معنى صلاحه أنه كان بينه وبين الأب الذي حفظ بصلاحه سبعة آباء.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن محمد بن المنكدر قال: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حول مَسْرَبَتِهِ، فلا يزالون في حفظ الله وستره. وكان سعيد بن المسيَّب إذا رأى ابنه يقول: يا بني لأزيدنَّ صلاتي من أجلك رجاءً أن أُحْفَظَ فَيْكَ، ويتلو هذه الآية^(٣).

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: قوتهما، وهو ثماني عشرة سنة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: يخرجاه من تحت الجدار ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِي﴾ بل بأمر الله وإلهامه وتوفيقه إياي، وإطلاعي على العلم.

(١) انظر عرائس المجالس ٢٣٠، وتفسير الثعلبي ١٨٨/٦، وزاد المسير ١٨١/٥، والتبصرة ١/٢٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٢).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣١.

قلت^(١): والعجب لموسى كيف ينكر على الخضر وقد جرى له من جنس ما أنكر، قال له: ﴿أَخْرَقْنَا لِنُفِّقَ أَهْلَهَا﴾ ونسي ما لقيه في اليمِّ، وأنكر عليه قتل الغلام ونسي قتله القبطيِّ، وأنكر عليه إقامة الجدار بغير أجر ونسي يوم ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾.

فصل

فإن قيل: فكم كانت أسفار موسى؟ فالجواب سبعة أسفار: سفر السلب، وسفر الهرب، وسفر الطلب، وسفر السبب، وسفر النصب، وسفر الحرب، وسفر الطرب، فوجد في سفر السلب الأم، وفي سفر الهرب شعيباً والعصا، وفي سفر الطلب النبوة، وفي سفر السبب النجاة، وفي سفر النصب الخضر، وفي سفر الحرب المن والسلوى، وفي سفر الطرب القرب والمناجاة.

وقد أشار جدي رحمه الله إلى بعض هذا في «المنتخب» فقال: سافر موسى سبعة أسفار: سفر التلف ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] وسفر الهرب ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وسفر الطلب ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [القصص: ٢٩]، وسفر السبب ﴿فَأَسْرِبْ بِيَادِي﴾ [الدخان: ٢٣] وسفر التعب ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، وسفر الطرب ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وسفر العجب ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]. فوجد في كل سفرة فائدة. ففي سفر التلف وجد الأم، وفي سفر الهرب وجد العصا والصهر، وفي سفر الطلب وجد النبوة والتكليم، وفي سفر السبب وجد الراحة من العدو وغرق فرعون، وفي سفر التعب وجد الخضر، وفي سفر الطرب أخذ التوراة، وفي سفر العجب أكرم بالمن والسلوى والغمام. فإن قيل: فكم الألفاظ التي قوبل بها موسى عليه السلام من لفظة «لن»؟ قلنا: خمسة: أمر قومه بالإيمان فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٥٥]، ووقعوا في التيه فقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ [البقرة: ٦١]، وندبوا إلى الجهاد فقالوا: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: أرني قال له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أقبل إلى الخضر للتعليم فقابله بلفظة ﴿إِنَّكَ لَنْ﴾ [الكهف: ٦٧].

(١) في (ب): قال المصنف.

فصل في وفاة هارون عليه السلام

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إنني متوفِّ هارون فأت به جبل كذا وكذا، فخرج به نحو ذلك الجبل، فإذا بيت مبنيٍّ وحوله شجرٌ لم يُر في الدنيا مثله، وفي البيت سريرٌ وعليه فرشٌ وريحٌ طيبةٌ، فأعجب هارون وقال: يا أخي أحبُّ أن أنام على هذا السرير، فقال موسى: نم، فقال: أخاف من صاحب البيت أن يراني نائماً على سريره فيصعب عليه، فقال له موسى: نم ولا تخف فأنا أكفيك أمره، فقال له هارون: نم معي، فناما على السرير فمات هارون وارتفع البيت والسرير والشجر، ورجع موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا: وأين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل أنت قتلته حسداً له على حبِّ الرئاسة، حيث نجبه ونمیل إليه وكونه أرفق بنا منك، فقال لهم: وَيَحْكُمُ أَتْرُونَ أَنِّي أَقْتُلُ أَخِي، فسأل موسى ربه فأنزل الله السرير وهارون نائماً عليه، فرأوه بين السماء والأرض فصدَّقوه. قاله السُّدي^(١).

والثاني: أن هارون مات في التَّيه قبل موسى عليه السلام بثلاث سنين فدفنه موسى، فاتهمه بنو إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى انطلق بهم نحو قبره، فانطلق بهم ونادى موسى: يا هارون أنا قتلتك؟ فخرج من قبره ينفض رأسه ويقول: لا والله أنا متُّ موتي التي كتب الله عليَّ قال: فعُدَّ إلى مضجعك، فعاد. رواه عمرو بن ميمون عن ابن عباس^(٢).

والثالث: أن هارون صعد مع موسى على الجبل فتوفاه الله، وعاد موسى باكياً فقالوا: أنت قتلته، كان ألين لنا منك، فسأل الله تعالى، فجاءت به الملائكة يحملونه، فشاهدوه ميتاً على أيدي الملائكة. رواه ابن عباس عن عليٍّ عليه السلام، قال فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

واختلفوا في موضع قبره:

قال عكرمة: لم يطلع عليه أحد إلا الرَّحْم، فصار أصمَّ، وإنه في التيه.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/٤٣٢، والمنتظم ١/٣٧٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩.

وقال كعب الأحبار: هو في مغارة جبل السراة بمكان يقال له: مرات، مما يلي الطور، موضع في مغارة يسمع منها في الليل دويٌّ عظيم يفرع من سمعه، وقيل: هو مدفون في طور يقال له: طور هارون من بلاد الشَّوْبَك.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: مات هارون وله مئة وعشرون سنة^(١).

وكذا هو في «التوراة»، وقال الحسن البصري: عاش مئة وثمانين سنة، وكان أسنَّ من موسى بثلاث سنين فلما استكملها موسى مات. وقال مقاتل: ذكر الله هارون عليه السلام في أحد عشر موضعاً من القرآن.

فصل في وفاة موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر بن همام، عن أبي هريرة قال: جاء مَلَكُ الموتِ إلى موسى فقال له: أَجِبْ رَبَّكَ، فَلَطَمَ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ فَقَلَعَهَا، فرجع الملك إلى الله فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ وقد فَقَأَ عَيْنِي، فردَّ الله عليه عَيْنَهُ وقال: ارجع إلى عَبْدِي وَقُلْ لَهُ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا تَوَارَى بِبَيْدِكَ مِنْ شَعْرِهِ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةً، فَعَادَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: ثُمَّ مَهْ، قال: تموتُ فقال: فالآنَ مِنْ قَرِيبٍ. قال: يَا رَبِّ أَدْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَةً حَجْرًا. قال رسول الله ﷺ: «لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمَر». متفق عليه^(٢).

وقال الحاكم أبو عبد الله: هذا الحديث موقوف على أبي هريرة لأنه قال في أوله: جاء ملك الموت، والمسند منه قوله عليه السلام: لو كنت هناك لأريتكم قبره، وكذا قال الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»^(٣)، وقد روي في غير الصحيح أن الحديث كله من كلام رسول الله ﷺ^(٤).

(١) «أعمار الأعيان» ص ٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٦٤٦) والبخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٣) «الجمع بين الصحيحين» (٢٣٥٦).

(٤) أخرجه الحديث مرفوعاً كله مسلم (٢٣٧٢) (١٥٨).

فإن قيل: فكيف قلع عين ملك الموت؟ فالجواب: أنه أتاه في صورة البشر، فخفي عنه أنه ملك الموت كما خفي عن رسول الله ﷺ جبريل أول ما جاءه في صورة دحية الكلبي، وكما جاءه في صورة أعرابي يسأله عن الإيمان، ثم عرفه بعد ذلك. فالعين المقلوعة هي العين البشرية دون الملكية، فلما عاد إليه وقد ردَّ الله عليه عينه استسلم لأمر الله.

قال عبد الله بن أحمد بإسناده عن أنس قال: لما مات موسى بن عمران جالت الملائكة في السماوات بعضها في بعض، واضعي أيديهم على خدودهم ينادون: مات موسى كليم الرحمن، والرحمن حي لا يموت أبداً^(١).

قلت: وهذا الذي ذكرته في وفاة موسى من «الصحیح»، ومن كتاب «الزهد» لأحمد ابن حنبل.

أما قول أرباب السير فقد اختلف فيه: فروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان موسى يكره الموت، فأراد الله أن يحبَّه إليه ويبغض إليه الحياة، فنبأ يوشع بن نون، فكان يوشع يغدو على موسى ويروح فيقول له موسى: يا نبيَّ الله ماذا عهد إليك ربُّك؟ فيقول له يوشع: يا نبيَّ الله ألم أضحكك كذا وكذا سنة، فهل سألتك يوماً عن ما عهد الله إليك حتى تكون أنت الذي يتدىء؟ قال: فكره موسى الحياة وأحبَّ الموت^(٢).

قلت: وهذه رواية ضعيفة فإن موسى هو الذي استخلف يوشع بن نون على بني إسرائيل.

وانقطع موسى في عريش يأكل خبز الشعير ويشرب في نقيير، وإنما تمنى موسى الموت لما رأى يوشع قد قام مقامه فأحسن إلى بني إسرائيل، فتمنى الموت لأن قلبه طاب لما رآه كذلك.

(١) «كتاب الزهد» ص ٩٤. ولفظه: لما مات موسى بن عمران عليه السلام جالت الملائكة في السموات يقولون: مات موسى فأبي نفس لا تموت.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/٤٣٣، والمنتظم ١/٣٧٤.

وعلى هذا يحمل قول محمد بن كعب القرظي: إِنَّ موسى لما رأى الجماعة عند يوشع أحبَّ الموت، لا على وجه الحسد.

وأما قول موسى ليوشع: ماذا عهد إليك ربك؟ فإنه أراد أن يختبره هل بلغ منزلة يعقل فيها عن الله ويكون أهلاً لإيداع السرِّ فيه أم لا. فلما رآه قد بلغ إلى تلك الدرجة تمنى الموت.

وروى السُّدي عن أشياخه قال: بينما موسى وفتاه يوشع يمشيان إذ هبت ريح سوداء، فظنَّ يوشع أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: يا نبي الله هذه الساعة، فانسَلَّ موسى من تحت القميص فذهب، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبيَّ الله، فقال: والله ما قتلته ولكنه انسلَّ مني، فكذبوه وأرادوا قتله، وقالوا: أنت قتلته، فأوحى الله إليه لا تخف، فلما كان في تلك الليلة لم يبق ممن اتهم يوشع بقتل موسى إلا وأُتِيَ في منامه فقيل له: إِنَّ موسى رُفِعَ ولم يقتله يوشع، فتركوه^(١).

وذكر وهب بن منبه عن أشياخه قالوا: لما استخلف موسى يوشع بن نون جمع أهله، وعهد إليه بمراى من الناس، وطاب قلبه باستخلافه لنهضته وأمانته - فإنه لم يكن في بني إسرائيل من يصلح للأمر سواه - وانفرد موسى في عريش يستظل به ويجمع السنبل فيأكل منه، وعليه جبَّة من صوف، فخرج يوماً من عريشه فمرَّ بقوم يحفرون قبراً وكانوا ملائكة فعرفهم، واطلع فيه فأعجبه، ورأى فيه من الرُّوح والخضرة والنضارة والبهجة ما حيرَه، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على الله، فقال: إِنَّ هذا العبد من ربه بمنزلة، ما رأيتُ مضجعاً كالיום، فقالوا: يا صفيَّ الله أتحبُّ أن تكون ذلك العبد؟ قال: ودِدْتُ ذلك، قالوا: فانزلْ فاضطجع فيه وتوجَّه إلى ربِّك، ففعل، فقالوا: تنفَّس، فتنفَّس فمات، وسوّت الملائكة عليه التراب^(٢). قال وهب: وصلى عليه جبريل وميكائيل.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠، وتاريخ الطبري ١/٤٣٣-٤٣٤.

قال جدي رحمه الله في «المنتظم»: وفي هذا بعد، وحديث أبي هريرة يدلّ على غير هذا^(١).

قلت^(٢): وليس في حديث أبي هريرة أن ذلك الملك قبضه، وإنما فيه: الآن من قريب؛ ويحتمل أن هذه الواقعة كانت عقب حديث أبي هريرة بيسير، على أن حديث أبي هريرة موقوف عليه وليس بمرفوع على ما بيناه.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كان لموسى ثلاث بنات، فلما احتضر دعاهنّ وقال لهن: أوصيكن بوصية فاعملن بها، كأني ببني إسرائيل وقد عرضوا عليكم الدنيا، فاحذرن منها شيئاً وعليكن بِلَقِطِ السُّنْبِلِ فافركنه واجعلنه زادكنّ إلى الجنة^(٣).

واختلفوا في موضع قبره على أقوال:

أحدها: أنه بأرض التيه هو وهارون، ولم يدخل الأرض المقدسة إلا رمية حجر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

وقال وهب: لا يُعرف قبره، ورسول الله ﷺ أبهم ذلك بقوله: «إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» ولو أراد بيانه لبين صريحاً.

وأما الحديث الذي فيه ذُكر الأرض البريضاء فقالوا: لا يصحّ عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: لو علمت اليهود قبر موسى وهارون لاتخذوهما إلهين من دون الله.

وقال ابن إسحاق: لم يطلع أحدٌ على قبر موسى وهارون إلا الرّخمة، فنزع الله عقلها لئلا تدلّ عليه، ومعنى عقلها إلهامها.

والقول الثاني: أنه بباب لُدّ بالبيت المقدس، قال مجاهد: لما انتهت الأربعون سنة التي تاهوا فيها خرج موسى ببني إسرائيل من التيه وفتح أريحا، وأتى البيت المقدس وقال لهم: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] وقد ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» وقال: هذا هو الصحيح.

(١) «المنتظم» ١/ ٣٧٥.

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في المنتظم . . . قال المصنف رحمه الله.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ١٧٥.

قلت: وكيف يكون هذا هو الصحيح وقد قال ابن عباس ووهب وعامة العلماء: إنه بأرض التيه. وذكره جدي في «التبصرة»^(١)، وقال نبينا ﷺ: «إِنَّ مُوسَى قَالَ: أَذْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةٌ حَجْرٍ»^(٢).

وقال ابن عباس ووهب: ما فتح أريحا موسى، وإنما فتحها يوشع بن نون وهو الذي حُبِسَتْ عليه الشمس، لما نذكر.

وأما قوله: إن المراد بالقرية البيت المقدس، فقد قال ابن عباس: هي أريحا قرية الجبارين، وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العَمَالِقَةُ ورأسهم عوج بن عناق، وقيل: هي بلقاء، وقال ابن كيسان: الشَّام، وقال الضحاك: الرَّمْلَةُ والأردن وفلسطين وتدمر، ولم يقل: إنها بيت المقدس إلا مجاهد وقد خولف.

وقال مقاتل: إيلياء، قال: وكان للقرية سبعة أبواب.

والثالث: أن قبر موسى بين عالية وعويلة، وهما محلَّتان عند مَسْجِدِ الْقَدَمِ، ويقال: إِنَّ عَالِيَةَ وَعُوَيْلَةَ عِنْدَ كَنِيسَةِ توما، ويقال: إِنَّ قَبْرَهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ فِيهَا، وَالْأَصْحَحُّ أَنَّهُ فِي تَيْهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وحكي عن الحسن أنه قال: مات موسى في سبعة أيام من آذار ودفن في الوادي بأرض مآب فصار قولاً رابعاً. ومآب ما بين بصرى والبلقاء.

والخامس: أن قبر موسى بدمشق، ذكره الحافظ أيضاً عن كعب الأخبار^(٣).

وروى الحافظ أيضاً حديثاً عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِمُوسَى وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي قَبْرِهِ بَيْنَ عَالِيَةَ وَعُوَيْلَةَ»^(٤) وقال الحافظ على أثره: قال الحاكم أبو أحمد: هذا حديث غريب من حديث سعيد عن يونس عن أنس، لا أعلم أنه حَدَّثَ بِهِ غَيْرُ الْحَسَنِ بْنِ يَحْيَى الْخَشْنِيِّ عَنْ سَعِيدٍ، ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ: وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَهُوَ يَصَلِّي فِي قَبْرِهِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ عَالِيَةَ وَعُوَيْلَةَ.

(١) انظر تاريخ الطبري ٤٣٦/١، وتفسيره (١٠٠٣)، والتبصرة ٢٢٤/١، والمنتظم ٣٧٦/١.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٢٣) عن أبي هريرة.

(٣) «تاريخ دمشق» ٤١١/٢ (مخطوط).

(٤) «تاريخ دمشق» ١٨٢/٦١.

قلت: والحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِبَيْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي مُوسَى عِنْدَ الْكَنْثَبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»^(١).

وقد ذكرنا أن موسى مات وهو ابن مئة وعشرين سنة.

وقال وهب: عاش موسى عليه السلام في ملك أفريدون عشرين سنة وفي ملك

منوشهر مئة سنة.

وقال ابن عباس: بين إبراهيم وموسى عليهما السلام سبع مئة سنة.

فصل في فضل موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: استبَّ رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، في قَسَمٍ أقسم به، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي، فمضى اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى، فإنَّ النَّاسَ يُضَعِّقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فإذا موسى باطشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فلا أدري أَكَانَ فِيمَنْ ضَعِقَ فَأَفَاقَ أَوْ كَانَ فِيمَنْ اسْتَنَى اللَّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

وقال أحمد بإسناده، وقد أخرجه الحميدي، وفيه: فقال النبي ﷺ للأنصاري: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ؟» فقال: يا رسول الله، فَضَّلَ موسى عليك وعلى البشر، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: «لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيُضَعَّقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فإذا موسى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فلا أدري أَحُوسِبَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي»^(٣). وللبخاري: «إِنِّي لِأَوَّلُ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ فَإِذَا موسى مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْشِ» وذكره^(٤).

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٨٦)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٦٥)، والبخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٧٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١٣).

قال أبو سليمان الخطَّابي: «الصَّعْقُ»: الموتُ، والأصح أنه مثل الغشي، وقوله ﷺ: «لا تخيروا» منسوخ بقوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»^(١).

و«الباطشُ»: الآخذ، وإنما يأخذ موسى بساق العرش قبل الناس لأنه في صورة غريم يطلب الدين من غير مماطل ﴿فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ ومعنى الحديث: أنه صُعقَ مرةً فلا يحتاج إلى أخرى.

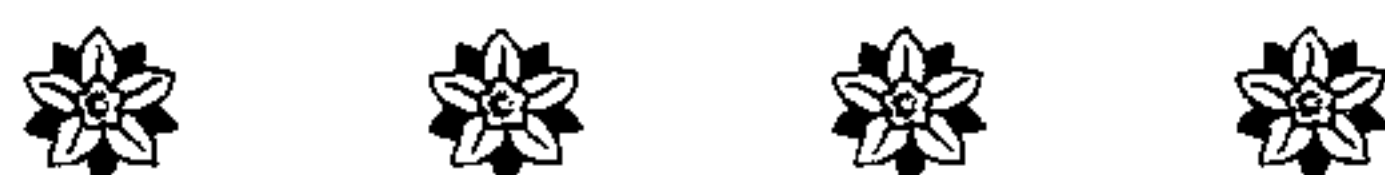
وفي مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»^(٢).

وأخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرَّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَةٍ، وَذَكَرَ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ»^(٣).

والضَّرْبُ: الخفيف اللحم، ورجال شَنْوَاءَةٍ كانوا طوالاً، ويقال: أزد شَنْوَاءَةً، وقد تقدم هذا وأخرجه أحمد^(٤).

وأما إسناد مسلم، فقال مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله، وذكره، وفيه: «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبْهًا صَاحِبِكُمْ، وَرَأَيْتُ عَيْسَى وَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبْهًا عَرُودُ بْنُ مَسْعُودٍ»^(٥).

فإن قيل: فهل تعرفون في المُحَدِّثِينَ من اسمه موسى بن عمران؟ فالجواب: جماعة، منهم: موسى بن عمران أبو عمران السُّلَمي، حدّث بدمشق عن أبيه وروى عنه جمح بن القاسم، ومنهم موسى بن عمران بن موسى بن هلال، سمع مَكْحُولاً البيروتي وأبا الحسن بن جَوْصَا، وأباه وغيرهم، وكانت وفاته بسَلْمَاس في سنة ثمانين وثلاث مئة^(٦).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٧)، وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣٣٩٤).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٦٢٩).

(٥) أخرجه مسلم (١٦٧).

(٦) تاريخ دمشق ١٧ / ٣٩٤ (مخطوط).

فصل في قصة بلعام

الذي ما نجا من بحر الفتن بل عام، وما حلَّ به من الانتقام^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].
واختلفوا فيمن نزلت على أقوال:

أحدها: في بلعام، قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي،
واختلفوا فيه على أقوال، فقال ابن عباس: هو بلعام بن باعوراء من بني إسرائيل، وقال
مجاهد: بلعام بن باعور كان نبياً، وقال مقاتل: بلعام بن باعوراء بن ناب بن لوط عليه
السلام، وكان من مدينة الجبارين الكنعانيين، وقال موسى بن طلحة: كان من البلقاء،
وملكها يقال له: بالق^(٢).

والثاني: أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل
رسولاً في ذلك الزمان، فطمع أن يكون هو، وسنذكره في نبوة نبينا ﷺ، قاله عبد الله
ابن عمرو بن العاص وابن المسيب وأبو روق وزيد بن أسلم.

والثالث: أنها نزلت في البسوس، فروى عكرمة عن ابن عباس قال: كان رجل من
بني إسرائيل كانت له امرأة دميمة، وله منها أولاد، وكان للرجل ثلاث دعوات
مستجابات، فقالت المرأة: اجعل لي منها دعوة، قال: وما هي؟ قالت: تجعلني
أجملَ امرأة في بني إسرائيل، ففعل، فرغبت عنه، فغضب ودعا عليها فصارت كلبةً
نبّاحة، فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا على هذا، فإن الناس
يعيروننا ويقولون: أمكم كلبةٌ نبّاحة، فدعا لها فرجعت إلى حالها الأول، فنفذ فيها
ثلاث دعوات.

واختلفوا في البسوس:

(١) جاء في (ب): الباب السابع عشر في قصة بلعام، والمثبت من (ط)، وانظر في هذه القصة: تفسير الطبري
٢٥٢/١٣ فما بعدها، وتاريخه ٤٣٩/١، «عرائس المجالس» ص ٢٣٩، تفسير الثعلبي ٣٠٤/٤، تاريخ
دمشق ٤٢٦/٣ (مخطوط)، «التبصرة» ٢٦٢/١، «المنتظم» ٣٥٥/١، «زاد المسير» ٢٨٦/٣، «تفسير البغوي»
٢١٣/٢، «الكامل» ٢٠٠/١، تفسير ابن كثير.

(٢) انظر «زاد المسير» ٢٨٧/٣.

فقال كعب: هو اسم الرجل، وقيل: اسم امرأة، وليست هذه البسوس التي أهاجت الحرب بين بكر وتغلب بن وائل، وسنذكرها فيما بعد.

والخامس: أنها عامة في كلِّ مَنْ انسلخ عن الحق من بعد ما أعطيه من اليهود والنصارى والمسلمين، قاله الربيع بن أنس.

والسادس: أنها نزلت في المنافقين، قاله عكرمة.

والسابع: في قريش، أتتهم آيات الله على لسان رسوله فانسلخوا منها، قاله عبادة بن الصامت.

والثامن: في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولكن انسلخوا منه، قاله الحسن وابن كيسان.

والتاسع: في الرهبان الذين آتاهم الله الإنجيل فانسلخوا من أحكامه يرضون النصارى بذلك فغيروا وبدلوا، قاله مقاتل.

والعاشر: أنه ضُربَ مثلاً لمن أعرض عن الهدى بعد أن عرض عليه، قاله مقاتل.

والمشهور: أنها نزلت في بلعام، وقيل: إنه كان يسكن قرية من قرى الشام يقال لها: بالعة.

فصل في ذكر قصته

ذكر علماء السير كابن عباس ووهب والسُّدي وابن إسحاق وغيرهم: أنه كان قد أوتي الاسم الأعظم، وكان يسكن بالبلقاء، فلما نزل موسى عليه السلام على أريحا لحرب الكنعانيين أتى قوم بلعام إليه وقالوا: هذا رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وقد جاء ليخرجنا من أرضنا ويحلها بني إسرائيل، ونحن بنو عمك، وأنت رجلٌ مجاب الدعوة فادعُ عليه أن يرده الله عنا، فقال لهم: ويحكم، نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! إن فعلت ذلك ذهبت دنيائي وآخرتي. فبكوا وتضرعوا إليه فقال: حتى أوامر ربي، وكان لا يدعو حتى يرى ما يؤمر به في المنام، فتآمر في الدعاء عليهم فقبل له في المنام: لا تدعُ عليهم، فقال لقومه: قد أمرت أن لا أدعو عليهم، فأهدوا له هدايا كثيرة ورشوة فافتتن، ووعدهم أن يدعو عليهم.

وقال مقاتل: نصب له ملك البلقاء خشبةً، وأراد صلبه لامتناعه من الدعاء عليهم، فركب أتاناً وخرج متوجهاً إلى جبل يُطلُّه على عسكر موسى، فوقف على جبل حسان المطل على الغور وعسكر موسى قريباً من أريحا، فما سار على الأتان غير بعيد حتى ربضت به، فنزل عنها وضربها حتى إذا أذلقها الضرب قامت، فركبها فلم تسر غير بعيد حتى ربضت، فنزل عنها وأخذ يضربها، فقالت له: وَيْحَكَ إلى أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي^(١) يردونني؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم يرتدع حتى وقف عليهم ودعا عليهم، فجعل لا يدعو عليهم بشيء من الشر إلا انصرف إلى قومه، ولا يدعو لقومه بشيء من الخير إلا صرفه الله إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: وَيْحَكَ ما هذا؟ فقال: شيء لا أملكه، إلا أنه قد دعا عليهم أن لا يدخلوا المدينة فوقعوا في التيه^(٢).

وخرجت من صدره حمامة بيضاء وهي الإيمان والمعرفة.

وقال موسى: يا إلهي قد سمعت دعاءه علينا فاسمع دعاءنا عليه: اللهم انزع منه الاسم الأعظم، فنزع منه في الحال، واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لقومه: ذَهَبَتْ مِنِّي الدنيا والآخرة، ولم يبقَ إلا المكر والحيلة، وسأحتال لكم، زينوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر ليعنها فيه، وأمروهن أن لا يمنعن من أرادهن فإنه إن زنى رجل منهم كُفيتم أمرهم، ففعلوا ذلك، فمرت امرأة من الكنعانيين يقال لها: كشي بنت صور برجلٍ من زعماء بني إسرائيل يقال له: زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب فأعجبته، فقام وأخذ بيدها، ثم جاء حتى وقف على موسى عليه السلام وقال: إني لأظنك ستقول هذه حرام عليك، فقال: أجل والله إنها لحرام عليك فلا تقربها، فقال: والله لا نطيعك في هذا، ثم دخل بها قبته فزنى بها، فأرسل الله عليهم الطاعون في الوقت، فمات منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى غائباً، فجاءه وكان شديد القوى فرأى الطاعون يجوس في بني إسرائيل، فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد

(١) في (ب): الملائكة والنار أمامي.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢٥٨/١، وعرائس المجالس ٢٤٠. وأذلقها: بلغ منها الجهد.

كلها، ثم دخل القبة على زمري وهو مضاجع المرأة فانتظمتها بحربته، وخرج بهما رافعاً حربته إلى السماء، قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى جنبه - وكان بكر العيزار - وجعل يقول: اللهم من يعصيك كذا نفعل به، فهلك من بني إسرائيل من ساعة زنى بالمرأة إلى ساعة فعل فنحاص ما فعل سبعون ألفاً كما ذكرنا، وقيل: تسعون ألفاً، فمن هناك يعطي بنو إسرائيل ولدَ فنحاصَ من كل ذبيحة يذبحونها القبة والذراع واللحي، باعتماده الحربة على خاصرته وأخذة إياها بذراعه وإسناده إياها إلى جنبه، والشطر من أموالهم وأنفسهم في النكاح.

وقال الجوهري: القبة بالكسر ذات الأطاق، وهي الحفث، وقال في حرف الثاء الفحث - بكسر الحاء - لغة في حفث الكرش، وهو القبة ذات الأطاق، ذكرها في موضعين^(١).

واختلفوا في الآيات:

قال ابن عباس والسدي: هي الاسم الأعظم.

وقال ابن يزيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه الله.

وروي عن ابن عباس أنه قال: أوتي كتاباً من كتب الله.

وقال مقاتل: الآيات حجج الله وفهم الأدلة.

وقال مجاهد: هو نبي في بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعور أو باعر، أوتي النبوة

فرشاه قومه على أن يسكت عنهم، فسكت وتركهم على ما هم عليه.

﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج كما تنسلخ الحية من جلدها ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾

[الأعراف: ١٧٥] أي: أدركه ولحقه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] الضالين

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: فضلناه وشرفناه وعصمناه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي:

ركن إليها وسكن ورضي بالدنيا من الآخرة، وهذا مثل ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: انقاد له.

وحكى الثعلبي عن يمان بن رثاب قال: ﴿هَوَاهُ﴾ أي: امرأته لأنها حملته على الخيانة

وطلب الدنيا ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾

(١) «الصحاح»: (قبة) و(حفث) و(فحث).

[الأعراف: ١٧٦] قال مجاهد: منقطع الفؤاد لا يزال يلهث حملت عليه أم لا. وقيل: إن وعظته أو لم تعظه سواء عليه. وقال ابن عباس: معناه: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن ترك لم يهتد إلى الخير. وقال ابن قتيبة: كل شيء من الحيوانات إنما يلهث من عطش أو إعياء إلا الكلب فإنه يلهث على كل حال، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته وهو من لم ينتفع بعلمه. فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال^(١). وقال مقاتل: زجر في منامه فلم ينزجر، وخاطبته الأتان فلم ينتبه، وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضره وكان وبالاً عليه.

وقال منصور بن زاذان: نبئت أن بعض من يُلقى في النار يتأذى أهل النار بتن رائحته، فيقولون له: ويلك ما كفانا ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بتن ريحك، ما كنت تعمل في الدنيا؟ فيقول: كنت عالماً فلم أنتفع بعلمي.

وقال السدي: ثم إن موسى صعد إلى البلقاء وحارب قوم بلعام، وقتل ملكهم بالق وأسر بلعام فقتله شر قتلة، وهذا ما انتهى إلينا، والله أعلم.

فصل في ذكر قارون وسلبه كل مكنون ومخزون^(٢)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] الآية. واختلفوا في نسبه إلى موسى على أقوال:

أحدها: أنه كان ابن عمه لأن موسى: ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وقارون هو ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج والنخعي.

والثاني: ابن خالته رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: كان عم موسى عليه السلام، قاله محمد بن إسحاق^(٣).

(١) تفسير الثعلبي ٩٧/٣، وانظر «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٨٦.

(٢) جاء في (ب): الباب الثامن عشر في ذكر قارون، وانظر في قصته: «تاريخ الطبري» ٤٤٣/١، «تفسير الطبري» ١٠٥/٢٠، «عرائس المجالس» ص ٢١٥، «التبصرة» ٢٥١/١، «المنتظم» ٣٦٥/١، «زاد المسير» ٢٣٩/٦، «البداية والنهاية» ٣٠٩/١، «الكامل» ٢٠٤/١.

(٣) انظر «التبصرة» ٢٥١/١.

وقال قتادة: كان قارون يسمّى المنور لحسنه، وإنما نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي^(١).

قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ واختلفوا في معنى هذا البغي على أقوال:

أحدها: أنه بغى عليهم بالكبر، قاله قتادة.

والثاني: أنه زاد في ثيابه شبراً، قاله عطاء الخراساني.

والثالث: أنه بغى بالنفاق والكفر، قاله الضحاك.

والرابع: أنه كان يخدم فرعون ويتعدى على بني إسرائيل ويظلمهم، حكاه الماوردي^(٢).

والخامس: أنه جعل لبغى جعلاً لتقذف موسى عليه السلام ويتعدى على بني إسرائيل، قاله ابن عباس^(٣). وسنذكره.

وفي مفاتيحه قولان:

أحدهما: أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب، وكانت مفاتيحه وقرستين بغلاً، وكانت من جلود، كلُّ مفتاح مثل الإصبع، قاله مقاتل.

وقيل: كل مفتاح تفتح به عدة خزائن، ووزن كل مفتاح درهمان، قاله مجاهد وقاتادة ومقاتل.

والثاني: أن المراد بالمفاتيح الخزائن نفسها، وحكاه جدي في «التبصرة» عن السدي وأبي صالح والضحاك، قال: وقال الزجاج: وهذا أشبه، وإليه ذهب ابن قتيبة^(٤). وكانت مفاتيح خزائنه تحمل على أربعين جملاً^(٥).

قلت: والأول أشبه، لأن أموال قارون كانت عظيمة تزيد على ما ذكره، فإن أربعين

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٤٤، وانظر «المنتظم» ١/ ٣٦٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ٢٥١-٢٥٢.

(٤) انظر «تفسير غريب القرآن» ص ٣٣٥.

(٥) «التبصرة» ١/ ٢٥٢.

بغلاً بالنسبة إلى أمواله يسيرة.

﴿لَسْنَا بِالْعَصْبَةِ﴾ أي: بنقلهم، وهذا دليل على ما ذكرنا لأنه صريح فيه، وإذا كانت المفاتيح تنوء بنقل العصبة - وهم أربعون رجلاً في قول ابن عباس، وقد ذكرناهم في قصة يوسف - فما ظنك بالخزائن.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦] يعني المؤمنين من آمن بموسى، ومعنى لا تفرح: لا تبطر ولا تمرح ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وهي الجنة، بالإنفاق في طاعة الله ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تعمل فيها للآخرة ﴿وَأَحْسِنْ﴾ بإعطاء فضل مالك ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بأن زادك على قدر حاجتك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] بأن تعمل بالمعاصي.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ يعني المال، وفيه أقوال:

أحدها: أن قومه لما وعظوه قال: إنما أوتيته على خير وصلاح علمه الله مني، ولولا ذلك لما أعطاني إياه، قاله مجاهد.

والثاني: بفضل علمي، قاله الفراء.

والثالث: بالمكاسب والتجارات، حكاه الماوردي^(١).

والرابع: برضا الله عني، قاله ابن زيد.

والخامس: بصنعة الكيمياء، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وحكى جدي في «التبصرة» عن الزجاج أنه قال: وهذا لا أصل له لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له^(٢).

فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾ للأموال. ومعناه: لو كان الله إنما يعطي الأموال لمن يرضى عنه لم يهلك أرباب الأموال الكثيرة ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] بل يدخلون النار بلا حساب، قاله قتادة. فما زاده ذلك الوعظ إلا عتوًّا.

قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩] اختلفوا في الذي خرج فيه على

(١) النكت والعيون ٢٦٨/٤.

(٢) «التبصرة» ٢٥٣/١.

أقوال:

أحدها: في ثيابٍ حمراء وصفراء، قاله الحسن.

والثاني: في ثياب معصفرة، قاله عكرمة.

والثالث: على بغلةٍ شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاث مئة وصيفة عليهنّ الحلبيّ والحلبيّ، وعلى بغال شهباء، قاله وهب. والأرجوان: صبغ أحمر. وقال مقاتل: كان معه سبع مئة جارية عليهن الحلبي والحلبي المصبغة بالأرجوان.

والرابع: أنه خرج في تسعة آلاف مقاتل، ومعه أمواله وذخائره وجواهره، فكاد أن يفتن بني إسرائيل.

ذكر سبب هلاكه

قوله: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ يعني: الكلمة التي قالها المؤمنون، وهي: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، فأما الذي بطر وبغى فهلك.

وقال ابن عباس: لما أنزلت آية الزكاة في التوراة جاء قارون إلى موسى فصالحه على كل ألف دينار دينار، وعلى كل ألف درهم درهم، وعلى كل ألف شاة شاة، وعلى هذا الأسلوب، فحسب ذلك فوجده مالا عظيماً، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: إن موسى يأمركم بكل شيء فتطيعونه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، فقال: أمركم أن تعطوا فلانة - لبغيتي كانت في بني إسرائيل - مئة دينار لتقذفه ففعلوا؛ وجاء قارون إلى موسى فقال: إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاتهم، فخرج فقام فيهم خطيباً وقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مئة، فإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت، فصاح به قارون وقال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فقال: عليّ بها، فجاءت، فقال لها موسى: أنا من فعلت هذا الذي يقول هؤلاء؟ فقالت: لا والله يا نبيّ الله، كذبوا، وإنما جعلوا لي جُعلاً حتى أقذفك بنفسي، فسجد موسى عليه السلام يبكي ويتضرع، فأوحى الله إليه مِرَّ الأرض

بما شئت، فقال: يا أرضُ خذيه، وكان قارون على سريرهِ فأخذته حتى غيبتُ سريرهُ، فقال: يا أرضُ خذيه، فلم يزل يقولُ كذلك حتى غاب معظمه وبقي منه اليسير، قيل: قدماه، فجعل يناشد موسى بالرحم فما رُحِمَ، وجعل يقول: يا أرضُ خذيه، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى، ما أَفْظَكَ!! فوعزَّتِي وجلالي لو استغاث بي لأغثته.

قال سمرة بن جندب، وقد رفعه إلى النبي ﷺ: «فهو يخسف به كلَّ يوم قدر قامة فما يبلغ الأرض السفلى إلى يوم القيامة»^(١)، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: ثم قال موسى: يا أرضُ خذيههم وأشار إلى الذين قذفوه فأخذتهم^(٢).

ولما خسف به قال بعض الجهال: إنما قصد موسى أخذ داره، وكانت داره عظيمة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، فسأل الله فخسف بداره بعد ثلاثة أيام.

﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٨١] وقيل: أراد بداره منزله ومقامه، وإلا فمن أين كان لهم في التيه دور؟ والعرب تسمي المنزل داراً.

قلت: ويحتمل^(٣) أن الواقعة كانت بمصر.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ قد ندموا على تمنيههم ويقولون: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا وَيُكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]. قال الجوهرى: وذلك لأن القوم ندموا فقالوا «وي» متندمين على ما سلف منهم^(٤) ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعْتُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ وذلك بالبغي والبطر والأشر والفساد والعمل بالمعاصي ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٠٢٠/٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٤٧/١. وانظر «التبصرة» ٢٥٣/١.

(٣) في (ب): قال المصنف رحمه الله: ويحتمل.

(٤) لم نجده في «الصحاح» وقد أورده البغوي في «تفسيره» ص ٩٩٣. وابن الجوزي في «زاد المسير» ٢٤٧/٦ ونسباه إلى الخليل دون الجوهرى.

فصل في قصة يوشع^(١) بن نون بن أفراثيم بن يوسف

وقد ذكرنا أن موسى استخلفه^(٢)، فلما توفي موسى قام يوشع بأحكام التوراة على منهاج موسى عليه السلام، وقسم الشام بين بني إسرائيل، وفتح البلاد وأباد الكنعانيين. وقال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: يوشع أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما. قال: وفتح إحدى وثمانين مدينة، وقتل من ملوك كنعان نيماً وثلاثين ملكاً^(٣). قلت: ومن أين بالشام ثمانون مدينة؟! وإنما فتح أريحا وقتل من كان بها وبأئيلة، لما نذكر.

وقال ابن إسحاق: لما مات موسى عليه السلام جمع يوشع بني إسرائيل ونزل على أريحا وقاتلها قتالاً شديداً أسبوعاً كاملاً إلى آخر نهار الجمعة، فخاف يوشع أن تغرب الشمس ويدخل السبت، وكانوا قد أشرفوا على أخذها، فدعا يوشع وقال: اللهم احبس لنا الشمس، فوقفت دون الغروب قيد رمح حتى فتح البلد، وقتل الجبارين وجمع الغنائم وقربوها، فلم تنزل النار ولم تأكل منها شيئاً^(٤).

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة] وهو يريد أن يبني بها ولما بين]، ولا من بنى بيتاً ولم يرفع سقفه، ولا من اشترى غنماً أو خليفات وهو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئاً، فحسبت حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت النار فلم تأكلها، فقال: فيكم الغلoul، فلبيايمني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده فقال: فيكم الغلoul، فلبيايمني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلoul، فجاؤوا برأس مثل رأس البقرة من ذهب،

(١) في (ب): الباب التاسع عشر في قصة يوشع عليه السلام.

(٢) انظر فصل في وفاة موسى عليه السلام.

(٣) «تاريخ دمشق» ٢٤/٤٤٠.

(٤) انظر «المنتظم» ١/٣٧٧.

فوضعه تحت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا». متفق عليه^(١). والذي رُدَّتْ له الشمس يوشع بن نون بإجماع العلماء، وكانت النار إذا نزلت فأكلت القربان علم أنه مقبول.

وقال ابن الكلبي: ولما فتح يوشع أريحا سار إلى البلقاء فقتل بالقاء ملكها - وقد ذكرنا أن موسى قتله، وكان بالقاء من العمالقة - وفرَّق العمالقة من الشام ثم سار إلى أيلة وبها ملك العمالقة السَّمِيدَع بن هوبر فقتله، وفي ذلك يقول عمرو بن سعد^(٢) الحميري:

ألم تر أن العمليقي ابن هوبر بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل ثمانون ألفاً حاسرين ودرعا

وقال ابن الكلبي: ومن بقي من العمالقة وأفلت من يوشع ساروا إلى المغرب، فتفرقوا وصعدوا الجبال، فهم البربر بقية الكنعانيين، وإنما سموا بالبربر لأن ملكهم قال لهم: ما أكثر بربرتكم أي حديثكم بلغتكم^(٣). وذكرهم الجوهري فقال: وبربر جيل من الناس، ذكرهم بغير ألف ولا م، قال: والجمع البرابرة^(٤).

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أوحى الله إلى يوشع إني مهلك من قومك مئة ألف، ستين ألفاً من خيارهم وأربعين ألفاً من شرارهم. قال: يا رب، فما بال الأختيار أكثر هلاكاً؟ قال: كانوا يجالسون الأشرار ولم يغضبوا قط يوماً لغضبي^(٥).

ذكر وفاة يوشع

قال ابن إسحاق: ولما احتضر يوشع استخلف كالب بن يوفنا وأوصى إليه، ودفن

(١) من قوله: قال الإمام أحمد... إلى هنا من (ب) وليس في (ط)، وأخرج الحديث: أحمد (٨٢٣٨) وما بين معكوفين منه، والبخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

(٢) في «ب» سعيد، وفي (ط): مسعود، والمثبت من مروج الذهب ٩٨/١.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٤٤٢/١، و«المنتظم» ٣٧٨/١.

(٤) «الصحاح»: (بر).

(٥) «العقوبات» لابن أبي الدنيا (١٣)، وانظر «المنتظم» ٣٧٨/١.

يوشع في جبال الشراة، وقيل: بجبل يقال له: جبل كنعان، وقيل: أفرائيم. واختلفوا في سنه: ذكر جدي في «أعمار الأعيان» أنه عاش مئة وعشر سنين، وكذا الحسن بن عرفة^(١). وقال أبو جعفر الطبري: عاش مئة وستاً وعشرين سنة. وقيل: مئة وعشرين سنة مثل موسى عليه السلام، وكانت مدة بقائه بعد موسى عليه السلام سبعمائة وعشرين سنة^(٢)، في زمان منوشهر عشرين سنة، وفي زمان أفراسياب سبع سنين.

من كان في أيامه من الملوك

قال الكلبي: كان منوشهر قد هلك في آخر أيام يوشع وملك أفراسياب، وكان أكثر مقامه ببابل، فأكثر الفساد في الأرض، وأفسد مملكة فارس، وردم القني والآبار وغور المياه والأنهار، فيبست الأشجار، فوثب عليه رجل من ولد منوشهر يقال له: زو، وقيل: زومن، فطرده عن مملكة فارس، فعاد إلى الترك وأصلح زو ما أفسده أفراسياب، ووضع عن الرعية الخراج سبع سنين، فعمرت البلاد وكثرت الخيرات، واستخرج من الفرات نهراً سماه الزاب بالسواد بأرض الكوفة، وبنى على جانبه مدينة وهي التي تسمى بالعتيقة، وكان عندها وقعات المسلمين مع الفرس. وهو أول من اتخذت له الألوان في الأطعمة. ولما جلس على سريرته وضع التاج على رأسه وقال: نحن مجتهدون في عمارة ما أخربه أفراسياب؛ ثم مات فكان ملكه ثلاث سنين، وقيل: ثلاثين سنة، وقام بعده ولده كي قباد، وكان متكبراً شبيهاً بفرعون، وكان نازلاً عند جيحون، وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة، ومنعهم أن يتطرقوا لبلاد فارس؛ قالوا: وعاش مئة سنة^(٣).



(١) «أعمار الأعيان» ص ٩٣.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤٤٢/١.

(٣) انظر «المنتظم» ٣٧٩-٣٨٠، وتاريخ الطبري ٤٥٣/١.

فصل في قصة كالب بن يوفنا

قال علماء السير: ولم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً. وهو كالب بن يوفنا بن بارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وهو أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما قال فيهم الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣] وكانت بنو إسرائيل منقادة له، فأقام فيهم على منهاج يوشع أربعين سنة، ومات واستخلف عليهم ابنه. قال كعب: واسمه يوسافاس بن كالب. وكان نظير يوسف عليه السلام في الحسن، فافتتن به الرجال والنساء، وكدن النساء أن يغلبنه على نفسه، فسأل الله أن يغير حسنه ويشوه وجهه خوفاً من الفتنة، فاستجاب دعواه، فعظم في عين بني إسرائيل، وشرفوه وأقروا له بالفضل، فأقام فيهم أربعين سنة على منهاج أبيه^(١).

وقيل: إنما ملك بعد كالب فنحاص بن العازر بن هارون ثلاثين سنة، وهو الذي أخذ مصاحف موسى عليه السلام فجعلها في خابية من نحاس، ورصصها وسد رأسها، وأتى بها صخرة بيت المقدس، فانشقت له وبلعت الخابية. ثم دبّر أمر بني إسرائيل جماعة حتى قام حزقيل.



(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٢-٢٥٣.

فصل في قصة حزقييل بن بوزي^(١)

واختلفوا فيه على أقوال:

فقال قوم: هو ابن العجوز، وكانت أمه قد عقت، فسألت الله ولداً فوهبه لها.

وقال زيد بن أسلم: هو الكفل.

وقال الحسن: ذو الكفل لأنه تكفل سبعين نبياً لليهود عزموا على قتلهم، فأطلقهم

حزقييل وقال: قتلي وحدي أهون من قتل سبعين، وحماه الله من اليهود.

وقال السدي: ولما عظمت الأحداث في بني إسرائيل بعد ابن كالب بن يوفنا ووقع

الاختلاف بين بني إسرائيل، ودعا كل سبط إلى أن يكون هو الإمام، بعث الله حزقييل،

قال: وفي زمانه جرت قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

واختلفوا في كيفية ذلك:

فقال وهب: كانوا من بني إسرائيل أصابهم بلاء وشدة فقالوا: يا ليتنا متنا واسترحنا

مما نحن فيه، فأوحى الله إلى حزقييل: إن قومك ضجوا من البلاء، وزعموا أن في

الموت راحة، وأي راحة في الموت؟ أتظنون أنني لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت؟

فانطلق إلى جبانة كذا وكذا فإن فيها أربعة آلاف، فقم فيهم فنادهم، وكانت عظامهم قد

تفرقت وشعورهم قد تمزقت وأكلت السباع والطيور لحومهم، فوقف حزقييل على

الجبانة ونادى: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تعودي إلى أجسادك، فقاموا وكبروا

تكبيرة واحدة^(٢).

وقال السدي: مرَّ حزقييل على قرية من بلد واسط يقال لها: داوردان وقد وقع بها

الطاعون، فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم

الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا

أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لسلمنا كما سلموا، ولئن وقع الطاعون ببابنا لنخرجنَّ

(١) انظر لهذه القصة: «تاريخ الطبري» ٤٥٧/١، و«تفسير الطبري» ٥٨٧/٢، و«عرائس المجالس» ص ٢٥٣،

و«المنتظم» ٣٨٠/١، و«البداية والنهاية» ٢/٢، و«الكامل» ٢١٠/١.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٥٧-٤٥٨.

إلى أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل، فخرج عامة أهلها فنزلوا بمكان أفيح - أي: واسع - فلما حلُّوا بها واعتقدوا النجاة من الطاعون ناداهم ملكٌ من أعلى الوادي وآخر من أسفله: موتوا جميعاً فماتوا، فمرَّ بهم حزقيل فأحياهم^(١).

وقال الضحاك ومقاتل: أمر بعض الملوك من بني إسرائيل بني إسرائيل بالجهاد، فخرجوا وعسكروا، ثم جبنوا وكرهوا الموت، فاعتلُّوا عليه وقالوا: الأرض التي نأتيها وبئنة، فأمهل حتى يرتفع الوباء منها، فأرسل الله عليهم الموت، فقال ذلك الملك: اللهم رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، قد ترى معصيتهم لي، فأرهم آية في نفوسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فقال لهم الله: موتوا، عقوبة لهم، فماتوا جميعاً ودوابهم وأروحوا ومنتوا، فخرج الناس إليهم فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها فأقاموا مدة طويلة، وقيل: سبعة أيام أو ثمانية.

واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثلاثة آلاف، قاله عطاء الخراساني.

والثاني: أربعة آلاف، قاله ابن عباس.

والثالث: ثمانية آلاف أو سبعة آلاف، قاله مقاتل.

والرابع: ثمانية آلاف، قاله الكلبي.

والخامس: ثلاثين ألفاً، قاله الحسن.

والسادس: أربعين ألفاً، قاله السدي.

والسابع: سبعين ألفاً، قاله عطاء.

والثامن: تسعين ألفاً، روي عن ابن عباس.

والأصحُّ أنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف ولم يكونوا أقل منها لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وما دون العشرة لا يقال لهم ألوف، وإنما يقال ثلاثة

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥٨٧/٢.

آلاف فصاعداً إلى عشرة آلاف، أما الألوف فجمعٌ كثير، وجمع القليل آلاف مثل يوم وأيام ووقت وأوقات، وقال ابن زيد: معنى «ألوف» أي: مؤتلفون، والآية مطلقة، وهذا يدل على ما ذكرناه^(١).

قال مقاتل ووهب والسدي: فمرَّ بهم حزقييل، وغيرهم يقول: شمعون، والأول أصحُّ، فوقف ينظر إلى عظامهم ويتفكَّر فيهم ويتعجب. فأوحى الله إليه: يا حزقييل، أتريد أن أريك آية؟ فقال: نعم - وفي رواية أن حزقييل سأل ذلك فقال: يا ربِّ، لو أحييت هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك - فقال الله تعالى: نادهم، فنادهم: أيتها العظام البالية، إنَّ الله يأمرُك أن تكتسي اللحم فاكتست، ثم نادى: أيتها الأرواح، إنَّ الله يأمرُك أن تعودي إلى أجسادك، فقاموا جميعاً وعليهم الثياب التي ماتوا فيها^(٢). قال: فعاشوا دهرًا وسخنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد دسماً مثل الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كتب الله لهم، وإنَّ رائحتهم لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود.

فإن قيل: فكيف أثبت لهؤلاء موتين في الدنيا والله يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن موتهم كانت عقوبة لا بفناء أعمارهم، فصار كقوله: ﴿وَأَلَّتْ لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. والدليل على أنه كان عقوبة ما حكاه هلال بن ساقه قال: كانت أمة من بني إسرائيل إذا وقع الطاعون فيهم خرج أولياؤهم وقام فقراؤهم، وصاروا عظاماً تبرق، وكنسهم أهل البيوت عن بيوتهم وطرقهم^(٣). وهذا يدل على طول المدَّة لا أنَّهم أقاموا سبعة أيام أو ثمانية.

والجواب الثاني: أن إحياءهم كان آية من آيات حزقييل، وآيات الأنبياء نوادر ولا يقاس عليها، فيكون تقدير قوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] التي ليست من آيات الأنبياء وإظهار معجزاته.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/٤٥٨. وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢/٥٨٩.

وقال ابن عباس: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم على وجه التعجب، كما يقول: ألم تر إلى ما صنع فلان؟!

ابن الأنباري: وفي الآية دليلان:

أحدهما: على منكري البعث، فإن الله أحيا هؤلاء في الدنيا.

قلت: والعجب من هذا القول، لأن منكري البعث لو آمنوا بالقرآن لما أنكروه، وإنما يدفعون بالدلائل العقلية.

والثاني: أن فيها احتجاجاً على اليهود؛ إذ أخبرهم نبينا ﷺ بشيء لم يشاهدوه.

وقال السدي: مضى حزقييل إلى بابل فقتله اليهود وإن قبره ببابل.

ثم كثرت الأحداث فبعث الله إلياس، لما نذكر.

وعاش حزقييل مئة سنة، وأقام فيها نبياً ثلاثين سنة.



فصل في قصة الخضر عليه السلام^(١)

الترتيب أن نذكر الخضر في ترجمة ذي القرنين، لأنه كان ابن خالته، أو في ترجمة موسى لما جرى له معه، وإنما أفردنا له باباً على حدة لأن سيرته تقتضي ذلك. واختلف العلماء في اسمه ونسبه على أقوال:

أحدها: أنه اليسع بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، قاله مجاهد.

والثاني: بلياً بن ملكان بن يقطن^(٢) بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله مقاتل. وكذا ذكر ابن قتيبة في «المعارف»، إلا أنه قال: بلياً بن ملكان بن فالغ أو ابن ملكا^(٣).

والثالث: خضرون بن عاميل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. قاله كعب. وكذا هو في «التوراة».

والرابع: إرميا بن خلقيا، من سبط هارون بن عمران، قاله ابن إسحاق. وأنكره أبو جعفر الطبري وقال: إرميا كان في زمان بخت نصر، وبين بخت نصر وموسى زمن طويل.

قال الطبري: والخضر هو الرابع من ولد إبراهيم لصلبه^(٤).

قلت: وابن جرير الطبري أولى من أن يُنكرَ عليه، وأين الخضر وآدم؟ وقد قال في «تاريخه» ما هو أعظم من هذا، قال: هو الذي دفن آدم حين أنزل من السفينة، وأن نوحاً دعا له أن يطيل الله عمره إلى يوم القيامة. وهذا قولٌ لم يُوافقه عليه أحد.

قال مجاهد: وهو من ولد يافث بن نوح، كما أنه كان وزير ذي القرنين ويسير في

مقدماته.

(١) في (ب): الباب العشرون في قصة الخضر عليه السلام.

(٢) في (ط): مقطن، والمثبت من (ب).

(٣) «المعارف» ص ٤٢.

(٤) لم أقف على كلام الطبري في تاريخه، ونقله المصنف بواسطة جده من المنتظم ٣٥٧/١-٣٥٨.

وقال مقاتل: وقد قيل: إنه ولد رجل من أهل بابل ممن آمن بالخليل عليه السلام وهاجر معه. وقيل: اسمه عاميل بن ملكان.

واختلفوا لم سمي الخضر؟

قال بعضهم: هو أحد أساميه.

وقال عكرمة: وسمي الخضر لأنه كان إذا صلى على أرض أخضر ما حوله.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّيَ الخَضِرُ خَضِرًا لَأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ خَضِرَاءً». انفرد بإخراجه البخاري^(١).

قال الجوهرى: والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة^(٢).

وقال الزجاج: الفروة الأرض اليابسة.

وهل كان نبياً؟ فيه قولان: روى مجاهد عن ابن عباس أنه كان نبياً. والثاني: أنه كان عبداً صالحاً قاله عليّ، وعليه عامة العلماء.

وقيل: إنما سمي الخضر لحسنه وإشراق وجهه. وقد ذكرنا قصته مع موسى ﷺ.

فصل في اختلاف العلماء في حياته وموته

ذهب جماعة من أهل النقل إلى أنه توفي.

ومذهب مشايخ الطريقة والحقيقة وأرباب المجاهدات والمكاشفات أنه حي يرزق ويشاهد في الفلوات، وأنهم يرونه ويشاهدونه، كعمر بن عبد العزيز، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي، وسري السقطي، والجُنيد، والخوَّاص، وغيرهم. وقد ذكر ذلك عامة العلماء في «الحلية» و«الرسالة» و«مناقب الأبرار» وغير ذلك، وحوشوا من الكذب، لأنهم القدوة ولنا بهم أسوة، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١١٣)، والبخاري (٣٤٠٢).

(٢) «الصحاح» (فرا).

واحتجَّ الفريق الأول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبما روى أحمد بإسناده عن ابن عمر قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ العشاء في آخر حياته، فلما سلم بهم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرضِ أحدٌ». قال ابن عمر: فذهل الناس من مقالته. متفق عليه^(١).

وبما أخرج مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ تبلغُ مئةَ سنةٍ وهي حيةٌ يومئذٍ»^(٢).

قالوا: ولأن الخضر لو كان حياً لآتى إلى النبي ﷺ.

ووجه قول الفريق الثاني: ما ذكرناه من إجماع أرباب الحقائق وهو لا يتصور تواطؤهم على الكذب، وكفى بإجماعهم حجة. ومن أنكر حياة الخضر لم يكن له ذوق بإشارات القوم، لأن مثل هذا إنما يعرفه الباحث من جنسه، وسنذكر اجتماع من سمينا به في سير القوم في كتابنا عند تراجعهم.

وأما ما احتجوا به من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ فما ادَّعوا أنه مخلد، وإنما يبقى إلى انقضاء الدنيا، فإذا نفخ في الصور مات لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وأما ما حدَّث ابن عمر وجابر فمتروك، والظاهر أنَّ جماعةً عاشوا أكثر من مئة سنة منهم: سلمان الفارسي، فإنه عاش ثلاث مئة سنة وقد شاهد رسول الله ﷺ، وحكيم بن حزام مئة وعشرين وغيرهما. وإنما أشار ﷺ إلى ذلك الزمان لا إلى ما تقدم وهو الأليق به، على أنه قد عاش بعد ذلك الزمان خلق كثير أكثر من مئة سنة.

وقولهم لو كان حياً لآتى إلى رسول الله ﷺ، فيحتمل أنه تركه إجلالاً أو عذراً وطلب من الله الإذن في ذلك. وقد كان في زمان رسول الله ﷺ جماعة ممن آمن به منعهم الأعداء عن لقائه كأبي مسلم الخولاني وأويس القرني وغيرهما، ويحتمل أنه اجتمع به ولم ينقل.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٦١٧)، والبخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٨).

وقد جمع جدي رحمه الله كتاباً في هذا الفن وذكر فيه العجائب^(١).

وقد روي في حياته أخبار وآثار:

أما الأخبار: فذكر جدي رحمه الله في «الموضوعات» جملة منها: أنه جاء إلى مسجد رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ سمع كلامه ولم يلقه^(٢).

ومنها حديث اجتماع الخضر وإلياس في كل عام بالموسم^(٣). ومنها اجتماع الخضر بالملائكة^(٤) وعليّ عليه السلام^(٥)، وبعمربن عبد العزيز^(٦)، ونحو ذلك، ثم ضعفها جدي وقال عقيب تضعيفها: وإن جماعة من المتزهدين يقولون: رأيناه وكلمناه، فواعجباً ألهم فيه علامة يعرفونه بها؟ وهل يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً فيقول له إنه الخضر فيصدق^(٧)؟

قلت: إجماعاً على أنه شاب حسن الوجه، طيب الرائحة، ظاهر الكرامات، يدلُّ على صحة ما قالوا، فإنهم مجمعون على ذلك لا يختلفون فيه، فإذا قال: أنا الخضر وظهرت هذه العلامات وجب تصديقه.

وقال عطاء: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان وعن الخمس لمن هو، وعن الصبي متى ينقطع عنه اليتيم، وعن النساء هل يُخرج بهن أو يحضرن القتال؟ وعن العبد هل له في المغنم نصيب؟

فكتب إليه: أما الصبيان فإن كنت الخضر تعرف المسلم من الكافر فاقتلهم، وأما الخمس: فكنا نقول إنه لنا، فزعم قوم أنه ليس لنا، وأما النساء: فقد كان رسول الله

(١) وسماه: عجالة المنتظر في شرح حال الخضر، وقد ردّ في المنتظم ١/٣٦١ على من قال بوجوده وحياته إلى زمانه.

(٢) «الموضوعات» (٤٠١-٤٠٢) من حديث أنس.

(٣) «الموضوعات» (٤٠٣-٤٠٤) من حديث ابن عباس.

(٤) «الموضوعات» (٤٠٥) من حديث علي بن أبي طالب.

(٥) «الموضوعات» (٤٠٦).

(٦) «الموضوعات» (٤٠٧).

(٧) «الموضوعات» ١/٣١٤-٣١٥.

ﷺ يُخْرِجُ مَعَهُ النِّسَاءَ فَيَدَاوِينُ الْمَرْضَى وَيَقْمَنُ عَلَى الْجُرْحَى وَلَا يَحْضُرُنَ الْقِتَالَ، وَأَمَّا الصِّبْيَانُ فَيَنْقَطِعُ عَنْهُمْ الْيَتَمُ بِالْإِحْتِلَامِ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْمَغْنَمِ نَصِيبٌ وَلَكِنَّهُمْ قَدْ كَانَ يَرْضَخُ لَهُمْ.

فَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ كُنْتَ الْخَضْرُ تَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُسْلِمِ فَاقْتُلْهُمْ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُوجُودٌ، وَلَوْ كَانَ مَعْدُومًا لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ^(١).

وَأَمَّا الْآثَارُ: فَذَكَرَ مِقَاتِلُ فِي كِتَابِ «الْمَبْتَدَأ» لَهُ: أَنَّ إِيَّاسَ وَالْخَضْرَ شَرِبَا مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ فَلَا يَمُوتَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَالْخَضْرُ يَدُورُ الْبَحَارَ يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ فِيهَا، وَإِيَّاسُ يَدُورُ الْجِبَالَ يَهْدِي مَنْ أَضْلَهُ الْغُولُ، هَذَا دَأْبُهُمَا فِي النَّهَارِ، فَأَمَّا فِي اللَّيْلِ فَإِنَّهُمَا يَجْتَمِعَانِ عِنْدَ سَدِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفَظَانِهِ، وَمَأْكُلُهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْخَضْرُ بَاقٍ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَذَكَرَ أَبُو إِسْحَاقَ الثُّعْلَبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رِوَادٍ: أَنَّ الْخَضْرَ وَإِيَّاسَ يَصُومَانِ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي الْبَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَيُؤَافِيَانِ الْمَوْسِمَ فِي كُلِّ عَامٍ.

وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ لِي: كُلْ مَا يَحْكِي عَنْ الْخَضْرِ حَقًّا، وَهُوَ عَالَمٌ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَرَأْسُ الْأَبْدَالِ، وَهُوَ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْقَاسِمِ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» فِيهِ آثَارًا أَبْلَغَ مِنْ أَنْ تَحْصِيَّ، بَلَغَ بِهَا إِلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى^(٢).



(١) مِنْ قَوْلِهِ: وَقَالَ عَطَاءٌ . . . إِلَى هُنَا زِيَادَةٌ مِنْ (ب) لَيْسَتْ فِي (ط).

(٢) انْظُرْ تَفْسِيرَ الثُّعْلَبِيِّ ٨/١٦٧، وَعَرَائِسَ الْمَجَالِسِ ٢٦٢، وَ«تَارِيخَ دِمَشْقَ» ١٦/٣٩٩.

فصل في ذكر إلياس عليه السلام^(١)

قال مقاتل: ذكر الله إلياس في موضعين: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣].

قال الجوهرى: إلياس اسم أعجمي، وقد سمت العرب به إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان^(٢).

واختلفوا في اسمه ونسبه على أقوال:

أحدها: أنه إلياس بن ياسين بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن هارون بن عمران، قاله ابن عباس، وحكاه أبو جعفر الطبري^(٣).

والثاني: إلياس بن تسبي^(٤) بن الفنحاص بن العيزار بن هارون، قاله ابن إسحاق.

والثالث: إلياس بن نسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون، قاله مقاتل.

وحكى الثعلبي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن إلياس هو إدريس كما أن يعقوب هو إسرائيل، قال عكرمة: وكذا هو في مصحف ابن مسعود: «وإن إدريس لمن المرسلين»^(٥).

والأصح أنه من بني إسرائيل كما حكى علماء السير، وأن إلياس وإدريس بينهما دهر طويل. قال الثعلبي: وإلى قول ابن مسعود ذهب عكرمة، وقد تفرد بهذا القول.

(١) في (ب): الباب الحادي والعشرون في ذكر إلياس عليه السلام، وانظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦١، «عرائس المجالس» ص ٢٥٥، تاريخ دمشق ٣/ ٨١ (مخطوط)، «المنتظم» ١/ ٣٨٢، «الكامل» ١/ ٢١٢، «البداية والنهاية» ٢/ ٢٧٢.

(٢) «الصحاح»: (ألس).

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦١.

(٤) في (ط)، وعرائس المجالس ٢٥٥: يسي، وليس في (ب)، وفي تاريخ الطبري ١/ ٤٦١، والمنتظم ١/ ٣٨٢، وتفسير الثعلبي ٨/ ١٥٨: ياسين، والمثبت من تفسير الطبري ٨/ ٣٨٣ (هجر)، والبداية ٢/ ٢٧٢.

(٥) في (ب): وإن إدريس بن إدريس، وفي (ط): وإن إدريس بن إدريس، والمثبت من تفسير الثعلبي ٨/ ١٥٨، و«تفسير البغوي» ص ١٠٩٥، وغيرهما من التفاسير، وانظر الشواذ لابن خالويه ١٢٨، والبحر المحيط.

ذِكْرُ قِصَّتِهِ

حكى علماء السير كابن إسحاق والسُّدي والكلبي عن ابن عباس وغيره قالوا: لما قبض حزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر فيهم الفساد، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبياً ورسولاً^(١). وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون بتجديد التوراة وإحياء ما أماتوا منها.

وقال ابن إسحاق: بعث الله بين موسى وعيسى ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، ولم يكن بينهم فترة، والكل يدعو إلى أحكام التوراة^(٢). ولهذا قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلَأُحِثَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولم يقل: «كل الذي»؛ وبني إسرائيل يومئذ متفرقون في الشام، وكان يوشع قد قسم الشام بينهم، فأنزل سبطاً منهم بأرض بعلبك ونواحيها، وإلياس منهم، وكان لهم ملك يقال له: بك، وله صنم يقال له: بعل، طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة أوجه في عيونها اليواقيت، وكان الصنم من ذهب مرصعاً بالدرّ والجواهر فنسب إليه، فقليل: بعل بك.

وقال الجوهري: وبعل اسم صنم كان لقوم إلياس عليه السلام، قال: وبعل بك اسم بلد، والقول فيه كالقول في سام أبرص، وقد ذكرناه في باب الصاد^(٣). قلت: ذكر في باب الصاد وقال: وسام أبرص وهو من كبار الوزغ، وهو معرفة إلا أنه تعريف جنس، وهما اسمان جعلتا اسماً واحداً^(٤).

وقال ابن عباس: وكان إلياس ابن عم اليسع، وقيل: عمه، وقال العلماء بأخبار العالم: كان اسم الملك أخب، وكان جباراً يعبد الصنم ويحججه الناس من الأقطار. فلما بعث الله إلياس إليهم كذبوه إلا ما كان من الملك أخب فإنه آمن به وصدقته وجعله وزيراً، فكان يرشده ويسدده، وكان لأخب الملك امرأة يقال لها: أرزِيل^(٥)، فكان إذا

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٦١/١.

(٢) انظر «المنتظم» ٣٨٣/١.

(٣) «الصحاح»: (بعل).

(٤) انظر «الصحاح»: (برص).

(٥) في (ب): أرزِيل، وفي الطبري ٤٦١/١: أحاب... أزيل، وفي عرائس المجالس: أخاب... أربيل.

غاب استخلفها على الرعية، وكانت جبارة قاتلة للأنبياء تبرز في المواكب مثل الرجال، وتجلس في مجلس الحكم تقضي بين الناس، وكان لها كاتب مؤمن يكتم إيمانه قد خلص من يدها ثلاث مئة نبي من بني إسرائيل تريد قتلهم، سوى من قتلت ممن يكثر عددهم. وكانت في نفسها غير مُحَصَّنة، ولم يكن على وجه الأرض امرأة أفحش منها، وهي مع ذلك قد تزوجت بسبعة ملوك من بني إسرائيل وقتلتهم بالاغتيال، وكانت معمرة فيقال: إنها ولدت سبعين ولداً، قال: وكان لأخب الملك جارٌ صالح من بني إسرائيل يقال له: مرزكي وكانت له جُنينة يعيشُ منها، وكانت إلى جانب قصر الملك، وكان أخب وامرأته يشرفان عليها ويتزهران فيها، وكانت المرأة تحسد مرزكي لأجل تلك الجنينة، والملك يراعيه ويحسن إليه ولا يؤذيه، وكانت تحتال في قتل مرزكي لتأخذ الجنينة والملك ينهاها عن ذلك. فاتفق أن الملك خرج في غزاة وطالت غيبته، فاغتنمت امرأته ذلك فأقامت المرأة شهود زور أن مرزكي صاحب الجنينة سبَّ الملك، وكان من حكمهم أن من سبَّ الملك قُتِل، فأحضرت مرزكي وقالت: بلغني أنك شتمت الملك، قال: لا والله وإنه لمن أحب الناس إليّ، فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور، فقتلته وأخذت الجنينة غصباً. فلما قَدِمَ الملك أخبرته فقال: ما أصبت ولا وُفقت ولا أَرانا نفلح بعده، ولا حملك على هذا إلا سَفْهُك وسوء رأيك، وقد جاورنا رجلٌ صالح وتحرم بنا منذ زمان طويل، فأحسنا جواره، فختمت أمره بأسوأ الجوار، فقالت: أنا غضبت لك وحكمت بحكمك، فقال لها: أو ما كان يسعه حلمك عنه وتحفظين له جواره؟ قالت: قد كان ذلك. فغضب الله لعبده الصالح وأوحى إلى إلياس أن أخبر أخب وامرأته أن الله قد غضب لوليّه حين قتلته ظلماً، وآلى على نفسه إن لم يتوبا من صنيعهما ويردّا الجنينة على ورثة مرزكي أن يهلكهما في الجنينة ويدعهما^(١) جيفتين مُلقتين فيها حتى تتعري عظامهما من لحومهما، ولا يمتعان بها إلا قليلاً.

وبلغ الملك فغضب غضباً شديداً وقال لإلياس: والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً، وما أرى فلاناً وفلاناً - ملوكاً سماهم قد عبدوا الأوثان - إلا على مثل ما نحن

(١) في (ب): ويجعلهما.

عليه، يأكلون ويشربون ويتمتعون، ما نقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء.

وهمَّ الملك بقتل إِيَّاسَ، فخرج عنه فلاحق بشواهد الجبال فدخل مغارة وتحصن بها وعاد أحب إلى عبادة بعل، وأقام إِيَّاسَ سبع سنين في شواهد الجبال يأكل من نبات الأرض وثمار الأشجار، وقد وضع عليه الملك العيون واجتهد في طلبه، والله يستره عنهم. فلما تمَّ له سبع سنين أذنَّ الله في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله ابناً لأخْب^(١)، وكان أحبَّ ولده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به، فأذِنَفَ حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلاً، وكان^(٢) له أربع مئة سادن، وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم، وكان السدنة يصغون إليه، فيوسوس لهم بشرائع من الضلال، فيعلمونها الناس ويسمُّونهم الأنبياء. فلما اشتدَّ مرض ابن الملك طلب الملك من السدنة أن يشفعوا إلى الصنم في ابنه، فدعوه فلم يجبههم ومنع الله الشيطانَ الدخولَ فيه، وأكثروا الدعاء والصنم لا يجيبهم، فقالوا له: إن إلهك غضبان عليك، قال: ولم؟ قالوا: لأنك ما قتلتَ عدوَّه إِيَّاسَ، لأنه كافر به يعبد غيره. فقال: لو قدرت عليه لقتلته. قالوا: فإنَّ بالشام آلهة أخرى غير إلهك فاطلب منها الدعاء لولدك. فأرسل الأربعمائة إلى الشام إلى أصنام آخر يسألونها الدعاء لولده، فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبال التي فيها إِيَّاسَ فأوحى الله إليه: انزل إليهم ولا تخف فإني سأصرف شرَّهم عنك، وألقي في قلوبهم الرعب. فنزل إليهم وقال: إنَّ الله أرسلني إليكم وإلى من وراءكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم فإني ناصح لكم لتبلغوا صاحبكم، فارجعوا إليه وقولوا له: إنَّ الله يقول: يا أخْبَ، ألم تعلم أنني أنا الله الذي لا إله إلا أنا، إله بني إسرائيل وإله السماوات والأرض، أليس من جهلك أن تطلب الشفاء لابنك من غيري؟ إني حلفتُ بعزَّتي وباسمي لأغيظنَّك في ابنك ولأميتنَّه من فوره هذا، حتى تعلم أنَّ أحداً لا يملك شيئاً دوني. فلما قال لهم هذا، رجعوا إلى الملك وقد امتلئوا رعباً وقالوا: نزل علينا إِيَّاسَ من الجبل، وهو رجل نحيف طوال قد قشف وتمعَّط شعره، وعليه جبَّة صوف

(١) في (ب): ابنا الملك.

(٢) في (ب): فلم يجب سدنته وكانوا أربعمائة.

من شعر وعباءة قد خلَّها في صدره بخلال، فاستوقفنا فلما صار معنا قُدِّفَتْ له في قلوبنا الهيبة والرعب، وخرست ألسنتنا، ونحن في عدد كبير، وقال كذا وكذا، فلم نقدر على مراجعته، فقال الملك: لا يُتَّفَعُ بالحياة مادام إلياس حيًّا.

فعهد الملك إلى خمسين رجلاً من أهل القوَّة والنجدة والبأس وقال لهم: احتالوا عليه وأظهروا أنكم آمتتم به واغتالوه. فارتقوا الجبل وتفرَّقوا ينادون: يا نبيَّ الله، ابرز لنا، وامنن علينا، فإنَّا قد آمنا بك وصدَّقناك، وكل من عندنا والملك وزوجته، وأنت آمنٌ على نفسك فانزل واحكم فينا برأيك وأقم بين أظهرنا، ننقاد لما أمرتنا وننتهي عما نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا بك وطاعتنا لك. وكان ذلك مكرًّا منهم وخديعة.

فلما سمع إلياس ذلك وقع في قلبه كلامهم وخاف إن لم يجبهم أن يعاتبه الله تعالى، فهمم بالبروز إليهم ثم رجع إلى نفسه وقال: لو سألت الله أن يطلعني على ما في بواطنهم فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي بالبروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فارمهم بنار تحرقهم، فما أتمَّ كلامه حتى أرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم.

وبلغ الملك فلم يرتدع حتى أقام فئةً أخرى مثل أولئك، فصعدوا الجبل وتفرَّقوا ينادون: يا نبيَّ الله، إننا لسنا مثل أولئك، فإنهم كانوا منافقين كذابين، وقد كفاك الله أمرهم. فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم كما فعل بأولئك.

وبلغ الملك فأراد أن يخرج إلى الجبل بنفسه فمنعه من ذلك مرض ابنه، فأرسل الكاتب المؤمن الذي يكتب لامرأته إلى إلياس، فإنه كان يأنس به، وبعث من وراءه فتيةً وأمرهم بإمساك إلياس إذا برز إلى الكاتب، ثم أظهر الملك إلى الكاتب أنه قد آمن بإلياس وتاب واتَّعظ بحريق الفتية ومَرَضِ ابنه، وقال: قل له إننا قد آمنا بك وخلعنا أصنامنا حتى تنزل إلينا وتحرقها أنت وتعود إلى حالك الأول. وكان ذلك مكرًّا من الملك، فانطلق الكاتب إلى الجبل ثم ناداه يا إلياس، فعرف صوته وأوحى الله إليه: ابرز إلى أخيك الصالح وجدِّ العهد، فبرز إليه وسلَّم عليه وتصافحا وتعانقا وتباكيا فقال له: ما الخبر؟ فقال: قد أرسلني الجبَّار الطاغي وقصَّ عليه ما قال، ثم قال له: إني لخائف أن أرجع إليه ولست معي أن يقتلني فأمرني بما شئت، فإن أمرت انقطع

إليك فكنت معك، وإن شئت أن ترسلني إليه بما تحب فافعل، وإن شئت دعوت ربك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. فأوحى الله إليه إنَّ كلَّ شيءٍ جاءك منهم مكر وخديعة، وإن لم يأت بك إليه اتهمه فقتله، فقال: يا إلهي، فما أصنع؟ قال: انطلق معه فإن انطلقك معه عذره وبراءته، وإني سأشغل أحب عنكما بابنه، وأضعف عليه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره، ثم أميته على أشرِّ حال، فإذا مات فارجع عنه.

فانطلق معه حتى قدموا على أحب، وشدَّ الله على ابنه الوجد فاشتغل به عن إياس، ورجع إياس إلى مكانه سالماً. ولما مات ابن أحب فدفنه ثم انتبه لإياس وقال للكاتب: وأين إياس؟ قال: قد أتيتك به فشغلك عنه وجع ابنك، وما أدري ما الذي فعل، وقد كنت أظنُّ أنك أوثقته، فانصرف الملك عن ذكر إياس، واشتغل بالحزن على ابنه.

وأقام إياس بالجبال ثم ملَّ المقام بها، واشتاق إلى العمران فنزل من الجبل، وجاء إلى امرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس بن متى، واستخفى عندها ستة أشهر، ويونس يومئذٍ مولود يرضع - قلت: وهذا وهم، بين إياس ويونس زمان طويل -

فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه ولا تدخر عنه شيئاً، فسئم إياس ضيق البيوت بعد سعة الجبال فعاد إلى الجبل إلى مكانه، وجزعت أم يونس لفراقه، ثم لم تلبث حتى فطمت ابنها يونس فمات، فاشتدَّ حزنها وعظمت مصيبتها، فخرجت في طلب إياس، فلم تزل حتى وقفت عليه، فقالت له: إني قد فجعتُ بعدك بموت ولدي وليس لي غيره فارحمني، واسأل ربَّك أن يحيي ولدي ويجبر مصيبي، فإني قد تركته مسجىً ولم أدفنه، وقد أخفيتُ مكانه. قال: فقام ومشى معها إلى منزلها وسأل الله فأحيا يونس لها، وعاد إلى مكانه، وضاق صدره، وطال عليه عصيان قومه، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: يا إياس، ما هذا الجزع والحزن الذي أنت فيه؟ ألسنَّ أميني على وحيي، وحتي في أرضي، وصفوتي من خلقي؟ فاسألني أعطك، فقال: إلهي، تميتني وتلحقني بأبائي، فإني قد مللتُ بني إسرائيل وملُّوني وأبغضتهم فيك وأبغضوني، فأوحى الله إليه: ما هذا اليوم الذي أخلي - أو أعري - منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحتها بك وأشباهك وإن كنتم قليلاً، ولكن أسألني

أعطك، فقال: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال: وما ذاك؟ قال: تمكنتني من خزائن السماء سبع سنين، فلا يمطرون إلا بدعوتي وشفاعتي، فإنهم لا يذللهم سوى ذلك، فقال الله: أنا أرحمُ بخلقِي وإن كانوا ظالمين، قال: فست سنين، فقال له مثل ذلك، إلى أن قال: فثلاث سنين، فأمسك المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والدواب والهوام ويبس الشجر، وكان ينقل إلى إيلياس طائر سخره الله له طعامه وشرابه.

وقال ابن عباس: لما أصابهم القحط مرَّ إيلياس بامرأة عجوز فقال لها: هل عندك من طعام؟ قالت: شيء من دقيق وزيت، فدعا لها بالبركة حتى ملأ جرابها دقيقاً وخوابيها زيتاً، فجاء الناس إليها وقالوا: من أين لك هذا؟ وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت علموا أن إيلياس قد اجتاز بهم، فلقي منهم أهل البيت شراً لأن الطير كانت تأتيه بالخبز وكان معدوماً، فقالت: مرَّ بي رجل من حاله كذا وكذا، ووصفته فعرفوه، وقالوا: ذلك إيلياس، فطلبوه فوجدوه، فهرب منهم. ثم آوى ليلة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها زوج يقال له: اليسع بن أخطوب، به ضرٌّ وفاقة فأوته وأخفت أمره، فدعا له فعوفي من الضرِّ الذي كان به، فأمن بإيلياس وصدقه ولزمه، وكان إيلياس قد كبر وأسنن، وكان اليسع غلاماً شاباً. ثم أوحى الله إليه: يا إيلياس، إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص الله من البهائم والطيور والدواب والهوام والشجر بحبس المطر عن بني إسرائيل.

فيزعمون أن إيلياس قال: يا رب، دعني أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج لعلمهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك، قال: نعم. فجاء إيلياس إلى بني إسرائيل فقال لهم: إنكم قد جهدتم و متم جوعاً، وهلكت البهائم والوحوش والأشجار بخطاياكم، وأنتم على باطل، فإن أحببتم أن تعلموا ذلك فأخرجوا أصنامكم هذه، فإن استجابت لكم فهو كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على غرور، ودعوت الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا: أنصفت، فخرجوا بأوثانهم ودعوها فلم تستجب لهم، فقالوا لإيلياس: فادع الله لنا، فدعا لهم إيلياس ومعه اليسع فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق، وجاء الغيث،

فعاشرت بلادهم، فنقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم. فلما رأى إيلياس ذلك سأل الله أن يريحه منهم، فأوحى الله إليه: إذا كان يوم كذا وكذا فاخرج إلى موضع كذا وكذا، فما جاءك من شيء فاركبه. فخرج إيلياس ومعه اليسع بن أخطوب إلى المكان الذي عيّن له، وإذا بفرسٍ من نار قد أقبل حتى وقف بين يديه، فوثب إيلياس عليه فانطلق به الفرس، فناداه اليسع: يا إيلياس، ما تأمرني؟ فألقى إليه كساءً من الجوّ الأعلى، وكان ذلك علامة استخلافه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به.

ثم إنَّ الله قطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساء الريش فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً، وسلط الله على أحب وامراته وقومه عدواً لهم، فقصدتهم من حيث لا يشعرون فرهقهم، فقتل أحب وامراته في جنية مرزكي، وبقيا حتى بليت لحومهما ورمّت عظامهما، وبقيا ملقيين في الجنية. ونبأ الله اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله إليه فأمنوا به وكانوا ينتهون إلى أمره، وحكمه فيهم نافذٌ إلى حين فارقههم اليسع. هذا ما ذكره أبو إسحاق الثعلبي، واختصرت البعض^(١).

وذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: أن إيلياس اختفى من الكفار في المغارة التي بجبل قاسيون في دمشق عشر سنين حتى هلك الملك ووليهم غيره، فأتاه إيلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم^(٢).

قلت^(٣): وبجبل لبنان مكان يقال له: قب إيلياس، يقال: إن إيلياس كان يأوي إليه مدة أربع سنين أو سبع سنين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن زيد مولى عون الطفاوي^(٤) عن رجل من أهل عسقلان كان يمشي بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلاً فقال: يا عبد الله، من أنت؟ قال: فلم يكلمني، فقلت: يا عبد الله، من أنت؟ قال: أنا إيلياس، قال: فوقعت عليّ رعدة فقلت: ادع الله يذهب عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك، فدعا لي

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٥ - ٢٦٢.

(٢) «تاريخ دمشق» ٨١/٣.

(٣) في (ب): وقال ابن عساكر... قال المصنف رحمه الله.

(٤) في تاريخ دمشق ٨٦/٣، والمنتظم ٣٦٢/١: داود بن يحيى مولى عون الطفاوي.

بثمان دعوات: يا برُّ يا رحيم، يا حنان يا منان، يا حي يا قيُّوم، ودعوتين بالسُّريانية لم أفهمهما. قال: فرفع الله عني ما كنت أجد، ووضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، وقلت له: أيوحى إليك اليوم؟ قال: منذ بعث الله محمداً ﷺ فإنه ليس يوحى إليّ. قال: فقلت: كم من الأنبياء اليوم أحياء؟ قال: أربعة، اثنان في الأرض واثنان في السماء، في السماء عيسى وإدريس، وفي الأرض: إلياس والخضر. قلت: فكم الأبدال؟ قال: ستون رجلاً، خمسون منها من لدن عرش مصر إلى شاطئ الفرات، ورجلان بالمصيصة، ورجل بعسقلان، وسبعة في سائر البلدان، كلما ذهب الله بواحد جاء بآخر، بهم يدفع الله عن الناس وبهم يمطرون. قلت: فالخضر أين يكون؟ قال: في جزائر البحر، قلت: فهل تلقاه؟ قال: نعم، بالموسم يأخذ من شعري وأخذ من شعره، قال: وذاك حين كان بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال. قال: قلت: فما تقول في مروان؟ قال: ما تصنع به، رجل جبارٌ عاتٍ على الله، القاتل والمقتول والشاهد والمشهود في النار. قال: فقلت: إني قد حضرت - أو قد شهدت - ولم أظعنُ برمح ولم أرم بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله من ذلك المقام وإني لا أعود إلى مثله أبداً. قال: أحسنت هكذا فكن أبداً. قال: فإني وإيَّاه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشدُّ بياضاً من الثلج، فقال: كل، فأكلنا رغيفاً وبعض آخر ثم رفع، وما رأيت أحداً وضعه ولا أحداً رفعه، قال: وله ناقة ترعى في وادي الأردن، فرفع رأسه ودعاها فجاءت وبركت بين يديه، فركبها فقلت: الصحبة، قال: لا تقدر على صحبتي، قلت: لا زوجة لي ولا عيال، قال: تزوج وإياك والنساء الأربع: الناشز والمختلعة والملاعنة والمبارية، وتزوج ما بدا لك من النساء. قلت: فإني أحبُّ لقاءك. فقال: إذا رأيتني فقد رأيتني، ثم قال: إني أريد أن أعتكف في البيت المقدس شهر رمضان، وحالت بيني وبينه شجرة فوالله ما أدري كيف ذهب^(١).

فإن قيل: ففي هذه الحكاية عن رجل مجهول، قلنا: لا يضرُّ فإن عادة المحدثين أن يذكروا في الأخبار النبوية رجلاً ولا يسمونه كما فعل الحميدي في آخر «الجمع بين

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٢-٢٦٣، وتفسيره ١٦٧/٨.

الصحيحين» فإنه روى عن رجل مجهول^(١)، فكيف في الحكايات؟

وقد وقعت ألفاظ من غير طريق الثعلبي أن الدعوتين اللتين لم يسمهما الراوي: يا هيا شراهيا، قالوا: وهي بلغة أهل البحرين يا حيُّ يا قيُّوم. وقيل: فيهما الاسم الأعظم.

وقد وقع في حديث بمعنى هذا في الأبدال: ورجل بأنطاكية وسبعة في سائر الأمصار، فإذا أراد الله هلاك العالم أماتهم جميعاً.

وقال مقاتل: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١١٤) أَنْدَعُونَ أَي: تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وقد ذكرنا أنه الصنم، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك. وروى سعيد بن جبير [عن ابن عباس قال: سمعت أعرابياً يقول] لآخر: مَنْ بَعْلُ هذه الناقة؟ يعني من صاحبها؛ وقال الفراء: هي لغة هذيل^(٢).

ومعنى ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ [الصفات: ١٢٥] أي: فلا تعبدونه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ [الصفات: ١٢٦].

وأخرج جدي حديثاً في «الموضوعات» عن أنس أن النبي ﷺ خَرَجَ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعَ إِنْسَانًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَنَسُ انظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ»، وَأَنَّ أَنَسًا رَأَى رَجُلًا طُولُهُ ثَلَاثُ مِئَةِ ذِرَاعٍ، وَأَنَّهُ إِيَّاسُ، وَأَنَّهُ اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَنَزَلَ عَلَيْهِمَا مِنَ السَّمَاءِ سُفْرَةٌ فِيهَا كَمَاءٌ وَرُمَانٌ وَكَرْفَسٌ، وَجَاءَتْ سَحَابَةٌ فَاحْتَمَلَتْهُ إِلَى الشَّامِ؛ وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَنَسٍ: «إِنَّ إِيَّاسَ يَأْكُلُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَكْلَةً، وَفِي كُلِّ حَوْلٍ شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ زَمَزَمَ». ثُمَّ قَالَ جَدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ وَهُوَ بَاطِلٌ، وَفِي إِسْنَادِهِ يَزِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُوصَلِيُّ وَأَبُو إِسْحَاقَ الْجَرَشِيُّ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ عَنِ أَنَسِ، وَيَزِيدُ وَالْجَرَشِيُّ لَا يَعْرِفَانِ^(٣)، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. انتهت ترجمة إِيَّاسِ.

(١) الجمع بين الصحيحين (٣١٤٠) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، وانظر من أجل الجهالة وأحوالها الشذا الفياح ٢٤٦/١ فما بعدها.

(٢) تفسير الثعلبي ١٦٨/٨، وما بين معكوفين منه.

(٣) «الموضوعات» (٤٠٨).

فصل في ذكر اليسع بن أخطوب وما لقي^(١)

قال مقاتل: ذكر الله اليسع في موضعين؛ وقيل: هو اليسع بن أخطوب ولي عهد إلياس. ويقال: اليسع بن عدي بن سويلح بن أفراثيم بن يوسف عليه السلام. واختلفوا هل كان نبياً أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً كما ذكره الله في موضعين ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ [الأنعام: ٨٦، ص: ٤٨].

والثاني: كان عبداً صالحاً ويقال له: ذو الكفل. وقيل: هما اثنان اليسع الذي نبأه الله في زمان إلياس ويقال له: ذو الكفل، وذو الكفل آخر يقال له: اليسع أيضاً رجل من بني إسرائيل. واليسع اسم أعجمي.

قال وهب: وأقام اليسع زماناً على منهاج إلياس في الدعاء إلى الله، ومات وكثرت الأحداث في بني إسرائيل والفساد، وكان عندهم التابوت يتوارثونه فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون. فلما مات اليسع غزاهم عدو، وكان لبني إسرائيل ملك يقال له: إيلاف^(٢)، فأخذ منهم العدو التابوت وسبى النساء وقتلهم بسبب فسادهم وأحداثهم، ومات إيلاف كمدأ. فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله إسموئيل واستنقذ منهم التابوت وعاد إليهم الملك والنبوة بعد أربع مئة وستين سنة من وفاة يوشع إلى إسموئيل. وكان يليهم الأنبياء تارة، وتارة الرؤساء، وتارة الملوك، وتارة القضاة.

وقال السدي: قام فيهم بعد اليسع شمعون وكان من أفاضل بني إسرائيل ثم مات، واستخلف عليهم عيلوق^(٣) وكان ابن ستين سنة، فأقام فيهم أربعين سنة يقيم الحق حتى بلغ مئة سنة، وكان عفيفاً إلا أنه كان له ابنان فاسقان يأكلان الرشوة، وبلغه فقال لهما: مهلاً يا بني، ولم يقل غير ذلك، فقال الله تعالى: لم يكن من غضبك حين انتهكت محارمي إلا أن قلت: مهلاً يا بني، فسقط عن سريرته فانقطع نخاعه فمات، وقتل ابناه، وقيل: كان عيلوق نبياً فنقل الله النبوة منه إلى إسموئيل.

(١) في (ب): الباب الثاني والعشرون في ذكر اليسع، وانظر لهذه القصة: «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦٤، و«عرائس المجالس» ص ٢٦١، و«المنتظم» ١/ ٣٨٥، و«الكامل» ١/ ٢١٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢٨٥، ومختصر تاريخ دمشق ٣٦/ ٢٨.

(٢) في (ط): إيلاق، والمثبت من (ب)، والمصادر.

(٣) في «ب»: عنادق، وفي عرائس المجالس ٢٦٥: عيلي.

فَصْلٌ فِي قِصَّةِ إِشْمُوئِيلَ وَطَالُوتَ وَالتَّابُوتَ وَجَالُوتَ^(١)

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

اختلفوا في هذا النبي على أقوال: أحدها: أنه إسموئيل.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه إسموئيل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن أليهو بن صوف بن علقمة بن ماحث^(٢) بن عموصا بن عازراء^(٣) بن هارون بن عمران، قاله وهب.

والثاني: أن إسموئيل بالعربية: إسمعيل بن بالي، قاله مقاتل.

والثالث: إسموئيل بن هَلْقَاثَا، قاله مجاهد، ولم ينسبه أكثر من ذلك^(٤)، قال: واسم أمه حنة.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بينه وبين يوشع نبي^(٥). وقد وهم لما ذكرنا ما بينهم من الأنبياء، مثل إلياس واليسع وغيرهما.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أن القائل يوشع بن نون، قاله قتادة^(٦).

والثالث: شمعون بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب.

والأصحُّ أنه إسموئيل وعليه عامة أرباب السِّير، وشمعون لم يكن نبياً، وإنما هو ابن عجوز اسمها صفية، سألت الله أن يرزقها ولداً على الكبر فرزقها فقالت: سمع الله دعائي. والسين تقلب شيئاً بالعبرانية.

(١) في (ب): الباب الثالث والعشرون في قصة أشموئيل... وانظر لهذه القصة: تفسير الطبري ٢٩١/٥، وتاريخه ٤٦٧/١، و«عرائس المجالس» ص ٢٦٥، وتفسير الثعلبي ٢٠٨/٢، و«زاد المسير» ٢٩٣/١، و«تفسير البغوي» ٢٢٦/١، و«الكامل» ٢١٧/١، و«البداية والنهاية» ٢٨٩/٢.

(٢) في (ط): باحث.

(٣) في «ب»: عازر.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٧.

(٥) انظر «المعارف» ص ٤٤.

(٦) انظر «زاد المسير» ٢٩٢/١.

ذكر قصته

قال علماء السّير كابن إسحاق والكلبي ووهب والسدي وغيرهم، قالوا: ولما قبض حزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل فظهر لهم عدوٌّ من العمالقة يقال له: لبشاثا، وهم قوم جالوت، وكانت منازلهم على ساحل البحر الرومي^(١) بين مصر وفلسطين. فقصدوا بني إسرائيل فقتلوهم وسبّوهم وأجلّوهم عن ديارهم، وضربوا على من بقي منهم الجزية، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاماً، وأخذوا منهم التوراة ولقوا منهم بلاءً وشدة، ولم يكن لهم نبيٌّ يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يقاتلون معه العمالقة، وكان سبط النبوّة قد هلك فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيتٍ مخافة أن تلد جاريةً فتبدلها بغلام لما رأوا من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فجعلت المرأة تسأل الله أن يرزقها غلاماً فرزقها إسموئيل، ومعناه: «سمع الله دعاءها». فلما كبر الغلام أسلمته أمه في بيت المقدس يتعلم التوراة، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه، فلما بلغ الغلام وأراد الله أن يبعثه نبياً، أتاه جبريل وهو نائم إلى جانب الشيخ فناده بلغة الشيخ: يا إسموئيل، فقام الغلام فزعاً فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره أن يقول: لا، فقال: يا بني، ارجع فم فرجع، فناده جبريل ثانياً وثالثاً فقال الشيخ في الرابعة: إن دعوتك فلا تجبني، فظهر له جبريل بالرسالة وقال: اذهب إلى القوم، فذهب إليهم وقال: إن الله قد أرسلني إليكم، فكذبوه وقالوا: استعجلت النبوة ولم يؤذّنْ لك، فإن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله فيكون ذلك أمانة نبوتك. وكان قوامُ أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم، وكان الملك هو الذي يسيّر الجموع، والنبي يقيم له أمره ويسدّدّه، وتأتيه الأخبار من ربّه تعالى^(٢).

وقال وهب: أقام فيهم إسموئيل أربعين سنة يتهيؤون لقتال جالوت وعرف ذلك، فلما قالوا: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾

(١) في «ب»: بحر القلزم.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٦.

أَلْقَتَالُ إِلَّا نُقْتِلُوا» [البقرة: ٢٤٦] وهذا استفهام شك، ومعناه: لعلكم لا تقتلون مع ذلك الملك فلا تفعلون ما قلتم ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا إِلَّا نُقْتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهذا قول من بقي منهم ﴿وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي: وأبعدنا عن أبنائنا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض الجهاد ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهم الذين عبروا النهر. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

قال ابن الجواليقي: وطالوت اسم أعجمي، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] قال: فترك صرفه دليل على أنه أعجمي، إذ لو كان فعلوتا من الطول كالرغبوت والرهبوت والتربوت لصرف، وإن كان قد روي في بعض الآثار أنه كان أطول من كان في ذلك الوقت^(١).

قلت: وطالوت ليس باسم بل صفة لأنه طال الخلق بصفته وصورته وقوته.

وقد اختلفوا في اسمه على قولين: أحدهما: شاول أو شاولول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحدت بن أفيح بن إيشا بن بنيامين بن يعقوب.

واختلفوا في مهنته على أقوال:

أحدها: أنه كان يدبغ الجلود. قاله وهب.

والثاني: كان يرعى الحمير، قاله السدي.

والثالث: كان يستقي الماء على حمار له من النيل، قاله مقاتل.

والرابع: خربنده^(٢)، قاله مجاهد.

وقال وهب: ضلّت حُمُرٌ لأبيه فخرج مع الغلام يطلبها، فمرّ على بيت إسموئيل فقال الغلام لطلوت: لو دخلنا على هذا النبي لعله يدعو لنا فترجع الحُمُر إلينا. وكان قوم إسموئيل لما طلبوا منه ملكاً أتى بعصا وقرن فيه دهنُ القدس وقيل له: الملك الذي تطلبونه طوله على طول هذه العصا، فإذا دخل عليك ونشّ الدهنُ في هذا القرن فادهن به رأسه فهو ملك بني إسرائيل وملكه عليهم. فقاسهم كلهم بالعصا فلم يكونوا مثلها،

(١) «المعرب» ص ٢٧٥-٢٧٦، والتربوت: الذلول من الإبل.

(٢) خربنده: حارس الحمار، مؤجر الحمار. انظر «المعجم الذهبي» ص ٢٣٥.

وكان على طولها، ونشّ الدهن في القرن، فدهن به رأسه فلم ينزل على جبينه منه شيء فقال: أنت ملك بني إسرائيل، قال: أما علمت أن بيتي أدنى البيوت؟ فقال: بلى، ولكن الله أمرني بذلك، قال: فأريد أمانة أخرى، قال: ترجع إلى أبيك وقد عادت الحمير. فرجع وقد رجعت.

ثم إن إسموئيل جمع بني إسرائيل وقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: على الجيوش ﴿قَالُوا أَلَيْسَ لَنَا الْمَلِكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: كيف يكون هذا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ﴾ ولم نذكر؟ وإنما أنكروا هذا لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط ملك، فسبط النبوة: سبط لاوي بن يعقوب ومنه موسى وهارون عليهما السلام، وسبط المملكة: وهو سبط يهوذا ابن يعقوب ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت لا من سبط النبوة ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وهم من أحقر الأسباط وأقلهم، كانوا ينكحون النساء على قوارع الطريق نهاراً، فغضب الله عليهم فنزع منهم النبوة والملك ﴿وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] بل هو دباغ لا قدر له ولا قيمة ولا أصل. فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ بالحرب ﴿وَالْجِسْمِ﴾ بالطول والقوة. وكان يفوق الناس برأسه، وكان أعلم بني إسرائيل في زمانه، وأنه أوحى الله إليه حين آتاه الملك ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فلا تنكروا ملكه مع كونه من غير أهل المملكة، فإن الملك ليس بالوراثة وإنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٧] بنسبه حين بعثه عليكم. ثم قالوا: فما آية ملكه؟ قال ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (١).

والتابوت بالتاء عربي. وفي حديث البخاري عن زيد بن ثابت: لما أمره أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن واختلفوا في التابوت، فقال زيد بن ثابت: اكتبوه بالهاء تابوه، وقال عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي: اكتبوه بالتاء: تابوت، فرفع اختلافهم إلى عثمان رضي الله عنه فقال: اكتبوه بالتاء، فإنها لغة قريش فكتبوه (٢).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) هو ضمن حديث طويل أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٠٦). وأخرجه البخاري (٤٩٨٦) مطولاً لكن دون موضع الشاهد.

حديث التابوت

قال وهب: أنزل الله على آدم عليه السلام تابوتاً فيه صورة الأنبياء، أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، وفيه بيوت بعددهم وهي مختلفة الألوان، فبيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء. وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين من عود الشمشار الذي تتخذ منه الأمشاط، وكان مذهباً. ومات آدم عليه السلام فورثه شيث، وتوارثه بنو آدم صاغراً عن كابر إلى إسماعيل بن إبراهيم، فورثه قيدار لأنه كان أكبر ولده، فنازعه ولد إسحاق فيه وقالوا: قد صُرِفَتِ النبوة عنكم يا بني إسماعيل إلينا، ولم يبق لكم غير هذا النور الواحد يعنون به نور محمد ﷺ، ولا يظهر إلى آخر الزمان، فادفع إلينا التابوت يكون عندنا، فامتنع عليهم قيدار وقال: هذا وصية أبي لا أعطيه أحداً من العالمين، فذهب ذات يوم يعالجه ليفتحه وكان مقفلاً فلم يقدر على فتحه، فناداه من السماء: يا قيدار، ليس لك على فتحه سبيل، إنه وصية نبي ولا يفتحها إلا نبي، فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله. فحمل قيدار التابوت على عنقه إلى الشام يريد يعقوب في أرض كنعان، فلما قرب منه صرَّ التابوت صرَّةً سمعها يعقوب، فقال لبنيه: أقسم بالله لقد جاء قيدار بالتابوت فقوموا إليه، فقاموا جميعاً ويعقوب معهم. وكان قيدار قد جاء من مكة لأنه كان يسكنها، فلما التقيا قال له يعقوب: أُبَشِّرُكَ، قال: بماذا؟ قال: ولدت لك البارحة الغاضرة غلاماً، قال: وما علمك وهي بالحرم وأنت بالشام؟ فقال: رأيت أبواب السماء قد فتحت، والملائكة قد نزلت، ونور محمد ﷺ قد أشرق. فسلم إليه التابوت وعاد إلى مكة، فوجد امرأته قد ولدت غلاماً فسماه: حملاً، وفيه نور محمد ﷺ.

وأقام التابوت عند أولاد يعقوب يتوارثونه إلى أيام موسى، فأخذه فجعل فيه فتات ألواح التوراة ومتاعاً من متاعه وعصاه ونعليه وعمامة هارون ولوحين من التوراة، وكانا من الياقوت الأحمر، فكانوا يتوارثونه إلى أن غلبت عليه العمالقة، وبعث الله إسموئيل فقال لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي: بالتابوت ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٩-٢٧٠.

واختلفوا في السكينة على أقوال:

أحدها: أنها ریح خَجُوج هَفَّافَة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان، قاله عليّ عليه السلام.

والثاني: أن رأسها رأسُ هرة مَيِّتة، وذنبها ذنب هرة، كانت إذا صرخت في التابوت أيقنوا بالنصر، وكان يسمع منها صوت الهر، قاله مقاتل.

والثالث: أنها ريحُ رأسها رأس هرة ولها جناحان، قاله مجاهد.

والرابع: أنها طُست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، قاله ابن عباس.

والخامس: كان فيه روح من الله يتكلم ويصوت، قاله وهب.

والسادس: أن المراد بالسكينة: السكون والطمأنينة، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا، قاله أهل المعاني^(١).

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: عند رجوعه إليهم.

وقال السدي: كانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم التابوت وحكم بينهم، وإذا حضر القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم. فلما عصوا وأفسدوا نزع الله منهم. قال: وسبب نزع التابوت منهم أنه كان للشيخ - واسمه عيلي - الذي ربي إسموئيل ابنان أحدثا في القربان شيئاً لم يكن فيه. كان للقربان كلابان يسوطانه على النار، فأحدثا كلاب وتعرضا للنساء، فغضب الله على بني إسرائيل وسلط عليهم العمالقة فأخذوا التابوت، فأخبر عيلي فشقق شهقة ومات، ومَرَجَ أمر بني إسرائيل حتى بعث الله طالوت ملكاً، وهذا قول السدي.

أما وهب، فإنه قال: إنما أخذ التابوت قبل هذه بمدة طويلة^(٢)، وقد ذكرناه.

ذكر ردّ التابوت إلى بني إسرائيل

قال علماء السير: ولما أراد الله أن يرُدّ التابوت على بني إسرائيل كانت العمالقة قد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٠.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٤٦٩-٤٧٠.

دفنته في قرية من قرى الساحل بين غَزَّةَ والأَطْرُون يقال لها: أزدود، وكانوا قد جعلوه تحت صنم لهم، فأصبحوا يوماً والصنم تحته، فأخذوا الصنم وسَمَّروه على التابوت، فأصبحوا والصنم تحته والأصنام كلها منكسة الرؤوس، فأخرجوه من بيت الأصنام وحملوه إلى قرية أخرى. فأخذ أهل القرية وجَعَّ في حلوقهم فمات أكثرهم؛ فقالت لهم جويرية من بني إسرائيل كانت عندهم من بنات الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. قالوا: كذبت، قالت: آية ذلك أن تضعوا التابوت على عَجَلَة وتعلقوها على بقرتين لهما أولاد، وتحبسوا أولادهما، فإنهما تنطلقان بالتابوت إلى أرض بني إسرائيل ثم تعودان إلى أولادهما، ففعلوا ذلك، فخرجت البقرتان به ووكل الله بهما أربعة أملاك يسوقونهما، وأقبلتا حتى وضعتاه في أرض بني إسرائيل وعادتا إلى أولادهما.

وقيل: أقبلت الملائكة تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه، حتى وضعتاه في دار طالوت، فأقروا له بالملك راضين بعد أن كانوا ساخطين^(١).
وروى عطاء عن ابن عباس قال: التابوت وما فيه في بحيرة طبرية لا تقوم الساعة حتى يظهر^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: شخص، وأصل الفصل: القطع كقوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثمانين ألفاً، قاله مقاتل.

والثاني: تسعين ألفاً، قاله مجاهد.

والثالث: ست مئة ألف، لم يتخلف عنه إلا الكبير لكبره والصغير لصغره وصاحبُ

العذر لعذره، قاله الربيع بن أنس.

وكان خروجهم من بيت المقدس، والتابوت بين أيديهم، فلما رأهم طالوت قال:

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٠-٤٧١، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١.

لا حاجة لي فيما أرى، لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة وهو مشغولٌ بها، ولا مديون، ولا من تزوج امرأة ولم يدخل بها، ولا أبتغي إلا الشابَّ النشيط الفارغ. فاجتمع معه مما شرط ثمانون ألفاً، وكان الحرُّ شديداً، وكانوا في قلةٍ من المياه، فسألوا طالوتَ أن يسأل لهم ربَّه أن يجري لهم نهراً، فقال طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: مختبركم ليلو طاعتكم، وهو أعلم^(١).

واختلفوا فيه:

فقال ابن عباس: هو الأردنُّ نفسه. وقال الربيع: نهر بين الأردنِّ وفلسطين عذب ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني وطاعتي ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: يشرب منه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ عبَّر عن الشرب بالطعم - ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقرأه ابن مسعود: «إلا قليلٌ» بالرفع على الاستئناف^(٢).

واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا على قولين:

أحدهما: أنهم كانوا أربعة آلاف، قاله السُّدي.

والثاني: ثلاث مئة وبضعة عشر، وهو الأصح^(٣). والدليل عليه حديث البراء بن عازب قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «أنتم اليوم على عدَّة أصحابِ طالوتَ حين عبَرُوا النَّهْرَ، وما جازَ معه إلا مُؤْمِنٌ»^(٤). قال البراء: وكنا يومئذٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً.

وقال ابن عباس: من اغترف غُرْفَةً قوِي قلبُه وصحَّ إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغُرْفَةُ لنفسه ودوابِّه؛ والذين خالفوا وشربوا من النهر أكثرَ من غُرْفَةٍ اسودَّت وجوههم، وغلبهم العطش ولم يرووا، وبقوا على شطِّ النهر، وجبُّوا عن لقاء العدو،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/٢١٨، والبحر المحيط ٢/٢٧٨ وزاد نسبه إلى أبي والأعمش.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ١٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٩٥٧) عن البراء موقوفاً عليه.

ولم يشهدوا الفتح.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠] الآية. ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] لما نذكر.

وقال وهب وغيره: وكان ممن جاوز النهر إيشا بن عويد أبو داود، ومعه ثلاثة عشر ابناً له، داود أصغرهم، فقال له داود: يا أبت، ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعته فقال: ابشر يا بني، فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك. وقال له يوماً آخر: يا أبت، إني وجدت الأسد رابضاً بين الجبال فركبته وأخذت بأذنيه فلم يهج بي، فقال: أبشر يا بني، فإن هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبت، إني لأمشي بين الجبال وأُسبِحُ فما يبقى جبلٌ إلا ويسبِحُ معي، فقال: أبشر يا بني، فإن هذا خير أعطاك الله إياه^(١).

وقال الكلبي: أرسل جالوت إلى طالوت: ابرز أنت إليّ أو أبرز لي من يقاتلني، فإن قتلني فلکم ملكي، وإن قتلته فلي ملكکم. فشق ذلك على طالوت ونادى في عسكره: من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي، فهاب الناس جالوت لشدة، ولم يكن في زمانه أقوى منه ولا أشجع، يهزم الجيوش وحده، وكانت له بيضة فيها ثلاث مئة من من حديد. فشكا طالوت إلى إسموئيل وسأله أن يسأل الله، فسأله، فأوحى إليه: يقتله ولد من أولاد إيشا، فدعا إسموئيل إيشا فقال: اعرض عليّ أولادك، فأخرج له اثني عشر ولداً أمثال السواري، فجعل يعرضهم واحداً واحداً، فأوحى الله إليه: ليس في هؤلاء من يقتله، وإنما يقتله داود، فطلبه إسموئيل منه، فقال: ليس لي ولد اسمه داود، وإنما قال ذلك: لحقارته ودمايته وقصره، فأوحى الله إليه: كذب، له ولد اسمه داود. فقال له: إن الله يكذبك، فقال: صدق الله، لي ابن صغير اسمه داود استحييت أن يراه الناس لحقارته، قال: فأين هو؟ قال: في الغنم يرعاها. وكان داود رجلاً قصيراً مصفراً مسقماً أزرق أمغر أو أرط لا شعر عليه. فأخبره طالوت فخرج مع الناس في طلبه، فوجد الوادي قد مدّ بينه بين الزريبة - وهي الحظيرة التي تروح إليها الغنم - نهر عظيم، وإذا بداود يحمل شاتين شاتين ويجوز بهما الوادي ولا يخوض الماء، فقال: هذا هو بغير شك.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢. «عرائس المجالس» ص ٢٧٢-٢٧٣.

وكان الله قد بعث إلى إسموئيل تنوراً من حديد وقرناً فيه دهن وقال: من ملأ هذا التنور، ونش على رأسه هذا الدهن، ولم يسلم على وجهه فهو يقتل جالوت، فعرض ذلك على أولاد إيشا فلم ير شيئاً، فلما رآه طالوت وضع القرن على رأسه ففاض وأدخله التنور فملاه، فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي - أو: وأجري خاتمك في ملكي - قال: نعم. فأخذه ورجع به إلى العسكر فمرّ داود على حجر فناده: يا داود، احملني فإني الحجر الذي قتل بي موسى ملك كذا وكذا، فحملة، فناده آخر: يا داود احملني فأنا الذي قتل بي هارون ملك كذا وكذا، فحملة، ومرّ بأخر فناده: احملني فإني حرك الذي تقتل بي جالوت، وقد خبأني الله لك؛ فحمل الجميع في مخلاته؛ ودعا جالوت للبراز فقال طالوت لداود: خذ فرساً ودرعاً ورمحاً ففعل، وبرز لجالوت ثم رجع عنه، فقال الناس: جبن الغلام، فقال له طالوت: ما الذي بك؟ فقال: دعني أقاتل كما أريد، فقال: افعل، فنزع الدرع فأخذ مخلاته فتقلدها والحجارة فيها، وأخذ مقلاعه بيده، وجاء ماشياً فلما نظر إليه جالوت ألقى الله في قلبه الرعب وقال: أنت تبرز إلي بمقلاع وحجر كما تقاتل الكلب، وأنا قاتل الملوك وهازم الجيوش؟! قال داود: أنت شرٌّ من الكلب. ثم قال: بسم الله إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم أخرج الأحجار، فصارت حجراً واحداً، وتركها في مقلاعه ورمى بها، فسخر الله الريح فحملت الحجر، فأصاب طرف أنف البيضة فخالط دماغ جالوت وخرج من قفاه، وقتل من خلفه ثلاثين رجلاً وانهزم القوم وجرّ داود جالوت برجله حتى ألقاه بين يدي طالوت فكبر الناس وفرحوا^(١).

واختلفوا في مكان الواقعة: فقال قوم: بفلسطين من نواحي الرملة، وقيل: في الرملة عند عين الجالوت، وقيل: على بيسان. وذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أنه قتله بمرج الصفر عند قصر أم حكيم^(٢). والأصح أنه قتله بأرض القدس والساحل.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وبين قوله في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢-٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٨٠.

[الأنفال: ١٧]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن داود لم يكن معروفاً في ذلك الزمان ولم يكن مذكوراً، وكان قد شرط له طالوت أن يزوجه ابنته ويقاسمه ملكه، فأضيف القتل إليه ليجب الوفاء بشرطه، ونبينا ﷺ كان مشهوراً معروفاً لم يشترط لأحد شيئاً.

والثاني: أن العلماء قد اختلفوا في زمن النبي ﷺ، قال مجاهد: كان ذلك يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ حصاةً فضرب بها وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا^(١). وقيل: كان ذلك يوم خيبر، رمى بسهم فوق في جبين كنانة بن أبي الحقيق على فرسه فقتله. وقيل: كان ذلك في يوم حنين فعجب المسلمون من ذلك فأراد الله أن يصرف عن رسوله العين، لئلا يعجبوا، فأضافه إلى نفسه.

ورجع طالوت بمن معه إلى البيت المقدس، وذكر الناس داود بخير وأثنوا عليه. وجاء داود إلى طالوت وقال: أنجز لي ما وعدتني، فقال: أتريد بنت الملك بغير صداق؟ قال: ما شرطت عليّ صداقاً، وليس لي شيء، فقال: لا أكلفك ما لا تطيق، إنَّ بجبالنا أعداءً لنا وأنت رجلٌ جريء، اقتل منهم مئة رجل وهم عُلفٌ وأتني بغلفهم حتى أزوجك، فذهب داود ففعل ذلك، فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه^(٢).

ومال الناس إلى داود فحسده طالوت وأراد قتله وعمل الحيلة فيه. قال وهب: ف جاء رجل يقال له: ذو العينين إلى بنت طالوت وأخبرها فقالت لداود: إنك الليلة مقتول، قال: ومن يقتلني؟ قالت: أبي، فقال: وهل أذنبتُ ذنباً؟ قالت: لا، عليك أن تغيب الليلة، فقال: لا، إن أراد أبوك ذلك لا أقدر على الخروج، ولكن ايتيني بزقٍ من خمر، فأتته به فوضعه على سريره موضع منامه وغطاه ودخل تحت السرير. وجاء طالوت نصف الليل فضربه بالسيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب قال: رحم الله داود ما أكثر شربه للخمر. فلما أصبح علم أنه لم يصنع شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني، فاحترس وأغلق أبوابه، فأتاه داود ليلةً وهو نائم، فأعمى الله الحرس عنه، فدخل عليه فوضع عند رأسه سهماً وعن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/١٦٧٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٤-٢٧٥.

يمينه سهماً وعن يساره سهماً وعند رجليه آخر وذهب، فاستيقظ طالوت ورأى السهام فقال: يرحم الله داود، هو خيرٌ مني، ظفري فعفا عني، وأردت هلاكه وما عفوت عنه. ثم أتاه ليلة أخرى، فقطع شعرات من لحيته وبعض ثوبه، فلما رأى طالوت ذلك قال: هذا قاتلي، فطلبه أشدَّ الطلب، فخرج داود إلى الجبال فأقام مع المتعبدين^(١).

وطعن العلماء على طالوت^(٢) فأغرى بقتلهم، فجعل كلما نهاه أحد منهم قتله حتى أفناهم. وأتى بامرأة من بيت النبوة تعرف الاسم الأعظم - وكانت أم إسموئيل وقيل: كانت أم اليسع وقد عمّرت - فأمر جبارها بقتلها فرحمها الجبار وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها^(٣).

ثم إن الله أوقع في قلب طالوت الندم والتوبة على ما فعل، فأقبل على البكاء والنحيب حتى رحمه الناس. وكان يخرج إلى المقابر كل يوم يبكي ويندب نفسه ويقول: أنشد الله من عرف لي توبةً إلا دلّني عليها، فناداه منادٍ من القبور: يا طالوت، أما كفاك أن قتلنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاءه، فرحمه الجبار الذي أمره بقتل العجوز وقال له: إنما مثلك كمثلي رجل نزل قريةً عشاء وصاح ديك فتطير منه. فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه، ونام وقال لأصحابه: إذا صاح الديك فأذنوني حتى أدلج فقالوا: وهل تركت ديكاً يُسمع له صوت. وكذا أنت أيها الملك، وهل تركت في الأرض عالماً يفتيك إلا قتلته؟ فازداد بكاءه، فقال له الجبار: رأيت إن دلتك على عالم أقتله؟ قال: لا. فأخبره بقصة العجوز التي تعرف اسم الله الأعظم فسألها فقالت: والله ما أعرف له من توبة إلا أن يأتي إلى قبر إسموئيل - وقيل: كانت أم إسموئيل - فيناديه لعله أن يدلّه، ففعل، فجاءت العجوز ومعها طالوت، فبكت وتضرعت عند قبر إسموئيل، ودعت بالاسم الأعظم، فقام إسموئيل - وقيل: كانت أم اليسع وكانت قد عمّرت - ينفخ التراب عن رأسه، فلما نظر إليهم قال: أقامت الساعة؟ قالوا: لا، ولكن هذا طالوت، قد جاء يسأل هل له من توبة؟ فقال إسموئيل - وهو الأصح -:

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) في «ب»: داود.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٦.

ويحك يا طالوت، ما أحدثت بعدي؟ فقال: لم أدع شيئاً من الشرِّ إلا فعلته، وقد جئت أطلبُ التوبة، قال: فكم لك من الولد؟ قال: عشرة، قال: ما أعلم لك توبةً إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك في سبيل الله، فتقدم واحداً بعد واحد بين يديك فيقتلون عن آخرهم، ثم تقاتل أنت فتقتل. وعاد إسموئيل إلى القبر فانضمَّ عليه، فرجع طالوت أحزن ما كان، فبكى حتى سقطت أشفاره عينيه خوفاً أن لا يطاوعه ولده، فدخلوا عليه وسألوه عن حاله فأخبرهم فقالوا: وإنك مقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا حاجة لنا في الحياة بعدك. ثم خرج بهم فقدمهم واحداً واحداً بين يديه حتى قتلوا جميعاً، ثم تقدم فقاتل حتى قتل، وجاء قاتله إلى داود وقال: قد قتلت عدوك. فقال: ما أنت بالذي يحيا بعده فقتله. وأتى بنو إسرائيل إلى داود فسلموا إليه خزائن طالوت وملكوه عليهم^(١).

وأقام طالوت في الملك أربعين سنة، وقيل: عشرين سنة، وقيل: إنه مات كمداً ولم يقتل، والأول أصح. انتهت ترجمة طالوت.



(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٤-٤٧٥. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٦-٢٧٧.

ذِكْرُ قِصَّةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)

قد ذكرنا أنه اسم أعجمي. وقال الجوهرى: لا يهمز^(٢). وقال ابن عباس: هو بالعبرائية القصير العمر.

وقال وهب: هو داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمي بن نادب بن آرام بن حَضْرُونَ بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

وقال ابن عباس: كان داود قصيراً أزرق.

وقال الثعلبي: حدثنا الحسين بن محمد الدينوري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الزُرْقَةُ يُمْنٌ وَكَانَ دَاوُدَ النَّبِيَّ أَزْرَقًا»^(٣).

وقال مقاتل: ذكر الله داود عليه السلام في اثني عشر موضعاً.

فصل في سيرته عليه السلام

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَعَاثَكُمُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] أن المراد بالحكمة: النبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ يعني: علمه صنعة الدروع، والتقدير في السرد ونحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠] الآية. قال مقاتل: هو النبوة ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ﴾ أي: سبحي ﴿وَالطَّيْرُ﴾ قال وهب: كان يمر بالجبال فتسبح وتجاوبه وكذا الطير. وقال قتادة: يسبحن، أي: يصلين معه إذا صلى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] قال ابن عباس: كان الحديد في يده كالشمع ﴿أَنِ اعْمَلْ سَيْغَتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعاً طوالاً كوامل ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أن اعمل

(١) في (ب): الباب الرابع والعشرون في قصة داود عليه السلام، وانظر لهذه القصة «تاريخ يعقوبي» ٥١/١، و«تاريخ الطبري» ٤٧٦/١، و«البدء والتاريخ» ١٠٠/٣، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٧، و«التبصرة» ١/٢٧٤، و«الكامل» ٢٢٣/١، و«البداية والنهاية» ٩/٢.

(٢) «الصحاح»: (دود).

(٣) أخرجه الثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٢٧٧-٢٧٨، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٣٥) وقال عقبه: هذا حديث لا يصح.

الجَلَقَ على قدر المسامير، لا تكون واسعة فتعلق المسامير ولا ضيقة فتكسرهما المسامير الغلاظ.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] قال وهب: اللبوس عند العرب السلاح كله، درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وقال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وكانت صفائح، فهو أول من سردها، وعلمه الله منطق الطير.

وقال وهب: كان سبب عمله الدروع أنه كان يخرج متنكراً، فإذا وجد جماعة لا يعرفونه دنا منهم، وسألهم عن سيرة داود، فيثنون عليه ويدعون له، فبينما هو في بعض الأيام على عادته يسأل عن نفسه بعث الله إليه ملكاً في صورة آدمي فقال: نِعَمَ الرجل هو داود لولا أنه يأخذُ من بيت المال، فضاق صدرُ داود، وسأل الله أن يغنيه، فألان له الحديد، فكان في يده مثل الخيوط، وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم يأكل منها ويتصدق ويطعم عياله^(١).

وأعطاه من طيب النغمة ما لم يُعْطَ غيره، فكان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى تُؤخذ بأعناقها وإنها لمُصِيخَةٌ. قال ابن عباس: وما صُنعت الصُّنُوج والمزامير إلا على صوته وكذا كل لحن مطرب. وكان إذا قرأ أظلتُّه الطيور ووقف الماء الجاري وسكنت الرياح^(٢).

وقال مجاهد: كان الله قد أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته، ولونها لون النار، وهي مرصعة بالجواهر وقضبان اللؤلؤ، فلا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ولا يمسُّها ذو عاهة إلا برىء^(٣)، وسنذكرها.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

ذكر ما أنزل عليه

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أنزل الله الزبور على داود مئة وخمسين سورة بالعبرانية، في خمسين منها ما يلقونه من بُخْتِ نَصْرٍ، وفي خمسين ما يلقونه من الروم، وفي خمسين مواعظ وحكم. ولم يكن فيه حلال ولا حرام ولا حدود ولا أحكام.

وقال وهب: ومن الزبور: يا عبدي الشكور، إني وهبتك الزبور، وأتقنت لك فيه الأمور، وهو من الوحي المحفوظ المستور، فاعبدني في الأيام والليالي والشهور. وقال الجوهري: والزبور: كتاب داود عليه السلام^(١).

واختلفوا في فصل الخطاب الذي أوتيته على قولين:

أحدهما: أنه «أما بعد» وهو أول من قالها في قول ابن عباس.

والثاني: أنه البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر، قاله الضحاك.

ذكر عبادته وصيامه وورعه وقيامه

قال وهب: وكان داود كثير التلاوة والعبادة، غزير الدمعة، يصوم يوماً ويفطر يوماً. قال أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عبد الله، صُمْ يَوْمًا وَأَفِطْرُ يَوْمًا فَهُوَ أَعَدَلُ الصَّيَامِ، وَهُوَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي أَطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَفْضَلَ، فَقَالَ: «لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»، انفرد بإخراجه البخاري^(٢).

وقال البخاري بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ صَوْمُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفِطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ صَلَاةٍ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ»^(٣).

(١) «الصحاح»: (زير).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩١٤)، والبخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٢٩٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَفَّفَ اللهُ على دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِإِسْرَاحِ دَوَابِّهِ فَيُتَسَرَّحُ فَيَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(١).
والمراد بالقرآن: الزبور، لأنه مجموع.

وللبخاري أيضاً عن المقدم بن مَعْدِي كَرِب عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصلح^(٢) أحد طعاماً قط خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

وقال وهب: لما استخلف داود على بني إسرائيل عبد الله عبادة لم يعبدها عابداً، وتلا الزبور بصوت لم يُعْطَهُ أحدٌ قبله، فقال إبليس لعفاريته: نفروا الناس عن داود، فنفروهم فلم يقدرُوا على شيء، فلم يمض ساعة من ليل أو نهار إلا وفيها صائم أو قائم من آل داود، فذلك قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. قال وهب: كان يقرأ الزبور ويبيكي، وييده قفة خوص يسفها ويبيعها ويتقوت منها.

وقال مجاهد: قام ليلة لم ينم إلى الصباح فأعجبه نفسه، فنادته ضفدع من الماء: يا داود، أعجبتك نفسك الليلة؟ وعزة ربي إن لي ثلاث ليال ما أطبقت فمي من التسبيح لله تعالى.

وقال مقاتل: سَبَّحَ لَيْلَةً فَأَجَابَتْهُ الْجِبَالُ، فَلَمَّا كَانَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ دَخَلَتْهُ وَحْشَةٌ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْجِبَالِ أَنْ أَنْسِيَهُ، فَاصْطَلَّتْ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ، فَقَالَ دَاوُدُ: إلهي، كيف تسمع صوتي مع هذه الأصوات؟ فأرسل الله إليه ملكاً، فأخذ بيده ففرج له البحر، وانتهى به إلى قراره، ثم ضرب بيده قرار البحر المظلم المحيط، فانفجرت له الأرض حتى ظهر له الحوت، فتنحى له الحوت عن الصخرة التي هو عليها فضربها بيده، فانشقت فخرجت منها دودة تسبح، فأوحى الله إلى داود: إني أسمعُ تسبيحَ هذه الدودة في هذا المكان.

وقال في قوله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] أي: سبَّحِي إِذَا سَبَّحَ، وَرَجَّعِي إِذَا رَجَّعَ. قال ابن عباس: فصدى الجبال اليوم من ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٢) في «صحيح البخاري» (٢٠٧٢): ما أكل.

وقال مجاهد: بنى داود بيتاً للعبادة بأوري شلِّم، وهو موضع محراب داود بالبيت المقدس.

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى داود: هل تدري من الذي أغفر له ذنوبه من عبادي؟ قال: مَنْ هو يا رب؟ قال: الذي إذا ذكر ذنوبه ارتعدت فرائضه، فذلك الذي أمر ملائكتي أن تصلي عليه^(١). فقال داود: يا ربَّ أين أجذك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي أو مخافتي^(٢).

وقال السُّدي وحكاه الثعلبي عن ابن عباس، قال: كان السبب في عِظَمِ داود في أعين بني إسرائيل أن رجلاً استعدى على عظيم من عظمائهم إلى داود وقال: هذا غصبني بقرتي، فسأله داود فأنكر، وسأل الآخر البيّنة فلم تكن لديه بيّنة، فأوحى الله إليه أن اقتل المنكر، وكان ذلك في المنام، فقال: هذا منام ولست أعجل، فأري في منامه ذلك ثانياً وثالثاً: اقتله وإلا نزلت العقوبة، فأحضر داود الرجل وقال له: إنَّ الله أمرني بقتلك، فقال: كيف، بمنام؟ قال: لا بل بوحى صادق، فقال: لا تفعل، فقال: والله لأنفذنَّ أمرَ الله فيك، فلما تيقن أنه قاتله قال: لا تعجل حتى أخبرك، والله ما اغتصبت له بقرةً ولكنني اغتلتُ أباه فقتلته، فقتله داود، فازدادت هيئته في عيون بني إسرائيل^(٣).

وقال ابن عباس: ما كنتُ أعلمُ ما الإشراق في قصة داود إلا من أم هانئ فإنها قالت: هي صلاة الضحى. وكان ابن عباس يصلي الضحى^(٤).

واختلفوا في فصل الخطاب على أقوال؛ قد ذكرنا قولين، قال ابن عباس: هو تبيان الكلام. وقال ابن مسعود: هو علم الحكم بالقضاء. وقال كعب: الشهود والأيمان^(٥).

(١) «الحلية» ٣٢/٤. وانظر «صفة الصفوة» ٢٩٣/٢.

(٢) «الحلية» ٤١/٤. وانظر «صفة الصفوة» ٢٩١/٢.

(٣) في (ط): فقال كيف قال بمنام، والمثبت من (ب)، وانظر عرائس المجالس ٢٨٠-٢٨١، وتفسير الثعلبي ٢٥٣/٥.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٤/٢٠، والحاكم ٥٣/٤، والثعلبي في تفسيره ١٨٣/٨، وهذا السياق في المطبوع والمخطوط مضطرب.

(٥) ورد هذان القولان في «ب» قبل ذكر عبادته وصيامه، وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٩.

فصل في محنة داود عليه السلام

واختلفوا في سبب امتحان الله داود على أقوال:

أحدها: أنه جلس يوماً يقرأ في الكتب، فوجد فيها مآثر آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتمنى منازلهم وقال: يا رب، ذهب آبائي بكل خير، وإنني أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعني رابعاً، فقال: لست هناك، إنهم صبروا على بلائي ورضوا بقضائي، فإن إبراهيم ابتلي بنمرود، وبالنار وغيرها فصبر، وإن إسحاق ويعقوب جادا لي بنفسيهما، وإن يعقوب ابتلي بفراق محبوبه وأعز الخلق عليه فقام ثمانين سنة ولم ييأس من رَوْحِي طرفة عين، فقال: يا رب، فأعطني الذي أعطيتهم وابتلني^(١) بما شئت، فأوحى الله إليه: إني مبتليك في وقت كذا فاحترس. وكان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً من أولاد الأنبياء. فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠]، وهذا قول الحسن والضحاك والسدي وغيرهم^(٢).

والثاني: أنه حدث نفسه أنه يقطع يوماً بغير مقارفة ذنب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده عن يحيى بن كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان داود قد قسم الدهر أربعة أقسام، يوم لبني إسرائيل يُدارسهم العلم ويُدارسونه، ويوم للنساء، ويوم للمحارب ويوم للقضاء، فبينما هو مع بني إسرائيل يُدارسهم العلم قال بعضهم: لا يأتي على ابن آدم يوم لا يصيب فيه ذنباً، فقال داود في نفسه: اليوم الذي أخلو فيه للمحارب تتنحى عني الخطيئة، فأوحى الله إليه: يا داود، خذ جذرك حتى ترى بلاءك»^(٣).

والثالث: لأنه قال يوماً لبني إسرائيل: والله لأعدنَّ فيكم، ولم يستثن، قاله مقاتل.

والرابع: أنه كان كثير العبادة، فأعجبه نفسه، فجاء جبريل فقال: يا داود، أما علمت بأن العُجْبَ يأكلُ العمل كما تأكل النار الحطب، فإن عجبت ثانياً وكلتك إلى

(١) من هنا يبدأ خرم في «ب» إلى ذكر توبته.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) «التوايين» (١٠).

نفسك، فقال: يا رب، أخطأت، ما أعود، قاله أبو بكر الوراق^(١).

والخامس: أنه كان يدعو على العصاة ويقول: لا تغفر خطأ الخاطئين. فابتلاه، فلما وقع في الذنب أوحى الله إليه أتحب أن أغفر لك؟ قاله مقاتل بن حيان. وكان يقول بعد: إلهي، ارحم العصاة وارحم داود معهم.

والسادس: كان إذا دخل المحراب لبس أفخر الثياب وتزيّن بأحسن الزينة فلما ابتلاه الله صار يلبس خَلَقَ الثياب ويدخل منكسراً، فأوحى الله إلى داود: يا داود، هكذا فكن، كنت تدخل عليّ دخول الملوك على عبيدهم، والآن تدخل عليّ دخول العبيد على ملوكهم، أما علمت أن خزائني مملوءة من العبادات، فعليك بالذل والانكسار، قاله سهل بن عبد الله التستري.

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] قال علماء السير: فلما كان اليوم الذي وعده الله أن يبتليه فيه دخل محرابه وأغلق أبوابه وأقام الحرس الذي ذكرناهم يحرسونه فأحدقوا بالمحراب، وقال: لا يدخلن عليّ أحد، وشرع في قراءة الزبور والصلاة، وكان في محرابه كوة، فرفع رأسه من سجوده وإذا في الكوة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، فدخلت من الكوة ووقعت بين يديه، فمدّ إليها يده فطارت من الكوة، فاطلع ينظر أين وقعت وإذا بامرأة تغتسل في بستان إلى جانب بركة، فحار في حسنها، وقال الكلبى: إنما تمثل له الشيطان في تلك الحمامة، وقال مقاتل: حانت منها التفاتة فرأت داود فتجلّت بشعرها فغطت به بدنها فازداد بها إعجاباً^(٢).

وذكر الشيخ الموفق رحمه الله في «التوايين» عن قتادة عن الحسن: أنه وقع بين يديه طائر جسده من ذهب وجناحاه من ديباج مكلّل بالدرّ ومنقاره من زبرجد وقوائمه من

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٣٠٩ (هجر)، وفي تفسيره: وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيلية، منها ما هو مكذوب لا محالة، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه.

فيروزج وكان له ابن صغير فقال: والله لو اتخذتُ هذا لابني، وذكر بمعناه^(١).
واختلفوا في اسمها:

فقال الضحاك: تشايح بنت حنانا^(٢). وقال السُّدي: شايح بنت شايح.

فأرسل داود إلى منزلها فسأل عنها، فقيل: هي زوجة أوريا فقال: وأين زوجها؟
قيل: في الغزاة مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود، وكان قد بعثه غازياً إلى البلقاء.
فيزعمون أن داود كتب إليه قدّم أوريا بالتابوت ومن تقدّم به لا يحلُّ له أن يرجع حتى
يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعث به ففتح له، فكتب أيوب إلى داود يعرفه، فكتب
إليه: قدّمه ثانياً وثالثاً، فقدّمه فقتل. فلما انقضت عدتها تزوجها داود. وقال ابن
الكلبي: فهي أم ابنه سليمان عليه السلام^(٣).

ذِكْرُ دُخُولِ الْمَلِكِينَ عَلَيْهِ

قال وهب: فلما دخل بها لم يلبث أن دخل عليه الملكان في يوم عبادته فجاءةً،
فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب، فما شعر بهما إلا وهما جالسان بين يديه. قال
مقاتل: فذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ
فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴿[ص: ٢٢] لَأَنَّهُمَا هَجَمَا عَلَيْهِ فِي مِحْرَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَأَقَامَ الْحَرَسَ وَلَمْ يَكُنْ
يَوْمَ الْحُكُومَةِ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ وفي معناه قولان:
أحدهما: نحن خصمان.

والثاني: كخصمين أو مثل خصمين، فسقطت الكاف ومثل، وقام الخصمان
مقامهما ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجر ولا تخف ﴿وَأَهْدِنَا
إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: وسط الطريق، ثم بيّن له المراد فقال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] وقيل: إن داود قال لهما تكلّما.

فإن قيل: فكيف أوجب الأخوة بين الملائكة ولا مناسبة بينهم لأنهم لا ينسلون؟

(١) «التوايين»: (١١).

(٢) في تفسير الثعلبي ١٨٦/٨، وعرائس المجالس ٢٨٢: تشايح بنت شايح امرأة أوريا بن حنان.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٢. و«التوايين» ص ٤٣.

فالجواب: إنه على وجه التمثيل لا على وجه التحقيق، لكونهما على طريقة واحدة وجنس واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لجبريل: «يا أخي» فيخاطبه بالأخوة.

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال: لم يكونا ملكين وإنما كانا أخوين من بني إسرائيل تسوّرا المحراب. وليس هذا القول بشيء، لأنه كان يحرس محرابه ثلاثة وثلاثون ألفاً، فكيف يتسوّر عليه رجلان من بني آدم ولا يُعلّمون؟ ولأن عامة العلماء على أنهما كانا ملكين.

وقد ذكر أبو حنيفة الثوبى زيادة على ما ذكر الحسن فقال: اختصما إلى داود فحكم بينهما، وانتبه داود على زلته ولم يشعر بذنبه، وهذا حسن.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ واختلّفوا في معنى النعاج:

فعامة العلماء على أنه كنى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيراً، تورّي عن النساء بالظباء والبقر والنعاج.

وقال الحسين بن الفضل: لم يكن هناك نعاج ولا بغي، وإنما هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لداود. والأول أصح، لأنه من المعارض.

وقال مجاهد: إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود. فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ نِعَاجَهُ﴾ [ص: ٢٤].

فإن قيل: كيف جاز لداود أن يحكم ولم يسمع كلام الخصم الآخر؟ فالجواب: أن أحدهما لما ادّعى على الآخر اعترف له صاحبه، فعند اعترافه قضى عليه، فحذف الاعتراف اكتفاء بفهم السامع ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أي: أيقن وعلم ﴿أَنَّمَا فَنَنَّهُ﴾ أي: ابتليناه. وفي سبب تغييره ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الملكين أفصحاه بذلك، قاله السدي.

والثاني: أنهما عرجا وهما يقولان: قضى الرجل على نفسه، فعلم أنهما عنياه بذلك، قاله وهب.

والثالث: أنهما نظرا إليه وضحكا أو نظر أحدهما إلى الآخر وضحك ثم عرجا،

فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلَاهُ بِذَلِكَ، قَالَ مَقَاتِلٌ ^(١). وَالْوَجْهَ الْأَوَّلَ أَظْهَرَ، قَالَ السُّدِّيُّ.

قَالَ دَاوُدُ لِلْخَصْمِ الْآخَرَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ أُرِيدُ أَنْ آخِذَهَا مِنْهُ فَأُكْمِلَ بِهَا نَعَاجِي، قَالَ: وَهُوَ كَارِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِذْنٌ لَا نَدْعُكَ، وَإِنْ رُمْتَ هَذَا ضَرْبِنَا مِنْكَ هَذَا وَهَذِهِ، وَأَشَارَ إِلَى أَنْفِهِ وَجِبْهَتِهِ. فَقَالَ: أَنْتَ يَا دَاوُدَ أَحَقُّ أَنْ يُضْرَبَ مِنْكَ هَذَا وَهَذِهِ، حَيْثُ لَكَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً وَلَيْسَ لِأُورِيَا إِلَّا وَاحِدَةٌ، فَلَمْ تَزَلْ تُعَرِّضُهُ لِلْقَتْلِ حَتَّى قُتِلَ، فَتَزَوَّجَتْ امْرَأَتُهُ. وَعَرَجَا فَنَظَرَ دَاوُدُ فَلَمْ يَرِ أَحَدًا فَعَرَفَ مَا وَقَعَ فِيهِ ^(٢).

ذِكْرُ مَا جَرَى بَعْدَ صُعُودِ الْمَلِكِينَ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أَي: ابْتَلَيْنَاهُ بِمَا جَرَى فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ ﴿وَوَحَرَ رَاكِعًا﴾. قَالَ مَقَاتِلٌ: أَي سَاجِدًا، عَبَّرَ بِالرُّكُوعِ عَنِ السُّجُودِ لِأَنَّهُمَا بِمَعْنَى الْإِنْحِنَاءِ. وَقَالَ وَهَبٌ: غَشِيَ عَلَيْهِ فَأَقَامَ ثَلَاثًا فِي غَشِيَتِهِ ثُمَّ أَفَاقَ.

وَذَكَرَ جَدِّي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّبَصُّرَةِ» أَنَّهُ بَقِيَ فِي سُجُودِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَّا فِي وَقْتِ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ أَوْ حَاجَةٍ لَا بَدَّ مِنْهَا، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، فَأَكَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ جِبْهَتِهِ، وَنَبَتَ الْعَشْبُ مِنْ دَمُوعِهِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: رَبِّ زَلِّ دَاوُدَ زَلَّةً أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ^(٣).

وَقَالَ وَهَبٌ: اتَّخَذَ سَبْعَ حَشَايَا مِنْ شَعْرٍ وَحَشَاهُنَّ رِمَادًا، ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّهَا مِنْ دَمُوعِهِ، وَلَمْ يَشْرَبْ شَرَابًا إِلَّا مَمزُوجًا بِدَمُوعِ عَيْنَيْهِ، وَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ الْخَطِيئَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَى أَنْ مَاتَ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ.

ذَكَرَ الشَّيْخُ الْمَوْفِقُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّوَابِينِ» عَنِ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ الْقِصَّةَ، قَالَ فِيهَا: إِنَّهُ لَمَّا ضَحِكَ الْمَلِكُ قَالَ لَهُ دَاوُدُ: تَظْلَمُ وَتَضْحَكُ؟ مَا أَحْوَجُكَ إِلَى قَدُومِ يَرْضُ مِنْكَ هَذِهِ وَهَذَا - يَعْنِي جِبْهَتَهُ وَفَاهُ - فَقَالَ الْمَلِكُ: أَنْتَ أَحْوَجُ إِلَى ذَلِكَ، وَتَحَوَّلَا فِي صُورَتَهُمَا وَعَرَجَا وَهُمَا يَقُولَانِ: قَضَى الرَّجُلُ عَلَيَّ نَفْسَهُ. وَعَلِمَ دَاوُدُ فَسَجَدَ أَرْبَعِينَ

(١) انظر «التبصرة» ١/٢٧٧.

(٢) انظر «التبصرة» ١/٢٧٧.

(٣) «التبصرة» ١/٢٧٧.

يوماً^(١). وذكر بمعنى ما ذكرنا.

قال: وكان يقول في سجوده:

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، خلّيت بيني وبين عدوّي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي.

سبحان خالق النور الحائل بين القلوب.

إلهي، لم أتعظ بما وَعظتُ به غيري. إلهي، أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم

وللأرملة كالزوج الرحيم فنسيت عهدك.

سبحان خالق النور.

بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرفٍ خفيّ.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصابه.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود إذا كُشفَ عنه الغطاء فيقال: هذا داود الخاطيء.

سبحان خالق النور.

إلهي، أنت المغيث وأنا المستغيث، فمن يدعو المستغيث إلا المغيث.

سبحان خالق النور.

إلهي، فررت بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تُخزني يوم

الدين^(٢).

وفي غير رواية الشيخ الموفق عن وهب: إلهي، فررت بذنوبي واعترفت بخطيئتي،

وزلّ داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، فإن لم تغفر له صار حديثاً بين الخلق.

سبحان خالق النور.

(١) «التوايين» (١٢).

(٢) انظر «التوايين» (١٢).

إلهي، تبكي الشكلى على ولدها إذا فقدته، وأنا أبكي على خطيئتي.

سبحان خالق النور.

إلهي، الويل لداود مما جنى إذا كُشف عنه الغطاء.

سبحان خالق النور.

الويل لداود إذا نُصبت الموازين واقتَصَّ للمظلومين من الظالمين. الويل له إذا سحب على وجهه مع الخاطئين. إلهي، يُغسلُ الثوب فيذهب درنه والخطيئة لازمة لداود.

سبحان خالق النور... في مناجاة كثيرة.

فإن قيل: فلم خصَّ النور بالذكر دون غيره؟ فالجواب: لأنه لما وقع في ظلمة الذنب وعدم نور الهداية توَسَّلَ بالنور إلى النور يستضيء به في ظلمات ذنبه.

ولما علم نبينا ﷺ أن فقدان نور الطاعة كان سبباً لوقوع داود في الزلة كان يكثر من ذكر النور فيقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً»^(١) الحديث.

وكذا لما دخل عليه وفد عبد القيس، وفيهم غلام أمرد، قال له رسول الله ﷺ: «قم واقعد خلفي» فقيل له في ذلك، فقال: «وهل كانت فتنة داود إلا من النظر»^(٢)؟. هذا وقد كان ﷺ ينظر من ورائه كما ينظر من بين يديه^(٣)، لكن هذا قدر ما أوجبه الاحتياط عليه، والسعيد من وعظ بغيره.

فإن قيل: فإذا كان نبينا ﷺ ينظر من خلفه كما ينظر من بين يديه فأى فائدة في قوله: «كن خلفي»؟ قلنا: نظره من بين يديه نظر طبع، وهو مشوب بما يشتهي الإنسان ويريده، ونظره من خلفه نظر معجز، وهو مقرون بالتأييد.

قلت: وهذا الذي ذكرناه في أقاويل السلف في سبب امتحان الله داود. وقد أنكر من يقول بتنزيه الأنبياء هذا واحتجوا بما روى الحارث الأعور عن عليّ عليه السلام أنه قال: من حدّث بحديث داود معتقداً صحّته، جلدته حدّين لعظم ما ارتكب، وجيل ما

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس.

(٢) حديث موضوع، انظر الكلام عليه في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/٤٨٣.

(٣) انظر «البخاري» (٤١٩)، و«مسلم» (٩٨٥).

احتقب من الإثم، وَرَمِي من قد رفع الله محلّه وجعله رحمة للعالمين وحجة للمهتدين^(١).

قالوا: وإنما كان ذنب داود أنه تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالاً، وحدث نفسه بذلك، واتفق أنه غزا أوريا من غير قصد داود، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذ هلك، ثم تزوّج امرأته، فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله^(٢).

وقال بعضهم: كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجته، فاغتم أوريا غمّاً شديداً، فعاتبه الله على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول وعنده تسع^(٣) وتسعون امرأة^(٤).

وقد أشار جدي رحمه الله في «تفسيره» وفي «المنتظم» إلى هذا وقال: ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء^(٥). وأقرب ما في القصة أن أوريا خطب تلك المرأة ثم خطبها داود فتزوجها فعتب الله عليه حيث لم يدعها لخاطبها.

قلت^(٦): وفصل الخطاب في هذا الباب أن الذي فعله داود عليه السلام لم يكن كبيرةً يعاقب عليها بل صغيرة. غاية ما في الباب أنه نظر إلى المرأة غير متعمد، وكذا أمره لأوريا بالقتال، والأنبياء غير معصومين من الصغائر، وإنما ذنوبهم وإن صغرت فهي عظيمة عند الله، ألا ترى أن آدم لم يسامح في لقمة حتى نودي إلى يوم القيامة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وأما رواية الحارث الأعور عن عليّ عليه السلام فالحارث كذاب باتفاق المحدثين، ولو ثبت كان معناه أنه ارتكب كبيرة.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٣) هنا ينتهي الحرم في (ب) المشار إليه في محنة داود.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٤.

(٥) «زاد المسير» ٧/١١٦-١١٧، والتبصرة ١/٢٧٥، ولم نقف عليه في «المنتظم».

(٦) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

ذِكْرُ تَوْبَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال علماء السير: ولما أقام على تلك الحالة أربعين يوماً جاءه النداء: يا داود، أجاج فطعم، أو عطشان فثسقى، أو مظلوم فتنصر، ولم يجبه في خطيئته بشيء، فصاح صيحةً هاج ما حوله ثم قال: يا رب، الذنب الذي أصبته. فنودي ارفع رأسك فقد غُفِرَ لك، فلم يرفعه حياءً حتى جاء جبريل فرفعه^(١).

وروى قتادة عن الحسن والثعلبي عن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا: لما قال الله تعالى لداود: ارفع رأسك فقد غفرت لك قال: يا رب، وكيف وأنت لا تظلم أحداً؟ قال: اذهب إلى قبر أوريا فنادِهِ وأنا أسمعُهُ نداءك فتحلُّ منه، فانطلق داود حتى أتى قبره وقد لبس المسوح فناداه يا أوريا، فقال: لبيك من هذا الذي قطع عليّ لذتي وأيقظني من رقدتي؟ قال: أنا داود، قال: نبيّ الله؟ قال: نعم. قال: وما الذي جاء بك؟ قال: أسألك أن تجعلني في حلٍّ مما كان مني إليك، قال: ما هو؟ قال: عرضتُك للقتل؟ قال: عرضتني للخير، أنت في حلٍّ من دمي. فأوحى الله إليه: يا داود، ألم تعلم أني حَكَمٌ عدل لا أقضي بالتغريب، هلا أخبرته بأنك تزوجت بزوجته؟ فرجع فناداه فقال: من أنت؟ فقال: داود، قال: أوليس قد جعلتك في حل من دمي؟ قال: بلى ولكن إنما بعثتك للغزاة لمكان امرأتك مني وإني قد تزوجتها، فسكت ولم يجبه، فناداه مراراً ولم يجبه، فقام داود وحثا التراب على رأسه، ونادى بالويل والثبور، ثم بكى بكاءً شديداً، فناداه منادٍ من السماء: يا داود، قد رحمتنا بكاءك وتضرعك وقد غفرنا لك ذنبك. فقال: يا رب، وكيف لي بأوريا؟ فقال الله تعالى: أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه، فيقول: يا رب، من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوضٌ من أجل عبدي داود وأستوهبك منه فيهبك لي. فقال: يا رب الآن علمتُ أنك قد غفرت لي^(٢). قال الحسن فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥] يعني الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ بعد المغفرة ﴿عِنْدَنَا لُزْفَى﴾ أي قربة ومنزلة ﴿وَحَسَنَ مَأْبٍ﴾ [ص: ٢٥]

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/٤٨٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٨٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٦-٢٨٧. و«التوايين» ص ٤٦.

أي: مرجع.

وقال الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه قال: إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمعة ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، قسم الدهر أربعة أقسام - أو أربعة أيام - فيوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يسيح في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك.

فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير ويبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والشجر والرمال والطيور والوحش حتى تسيل من دموعهم الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والسباع وحيتان البحر وطيور السماء، فإذا أمسى رجع.

فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه: إن اليوم يوم نوح داود على نفسه، فليحضر من يساعده. قال: ويدخل الدار التي فيها المحاريب فتبسط له ثلاث فرش من حصير مسوح حشوها ليف، فيجلس عليها، ويجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وبأيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب، ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان أصواتهم فلا يزال يبكي حتى تغرق الفرش من دموعه ويقع داود مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله، فيأخذ داود بيده أو بكفيه من دموعه فيمسح بها وجهه ويقول: يا رب، اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله^(١).

وفي رواية الوالبي عن ابن عباس قال: كان داود إذا جلس للنياحة على نفسه ينوح فتموت طائفة من الرهبان، ثم ينوح فتموت طائفة من الوحوش، ثم ينوح فتموت طائفة من الطيور والدواب، ثم ينوح فتموت طائفة من الناس، فيقول له ابنه سليمان: يا أبت، قتلت الخلائق، فيقع مغشياً عليه وينادي مناديه: ألا من كان له مع داود أخ أو قريب أو ولد فليأت بنعش يحمله عليه، فتأتي الناس بالنعوش، تأتي المرأة فتحمل

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٧-٢٨٨.

ولدها، والأخ فيحمل أخاه، ثم يُحمَلُ داود فيلقى في بيت مظلم على الرماد، فإذا غربت الشمس جاء سليمان فيقول: يا أبت، أظن الصائمون أما أن لك أن تظفر؟ فيؤتى بقرص من شعير وقدح من ماء فلا يشربه حتى يُفيضه من دموعه.

وقد ذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» بمعناه وأسنده عن يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أنه إذا كان يوم نوح داود، مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، فإذا كان قبل ذلك بيوم أُخرج له منبرٌ إلى البرية، ونادى في الجبال والغياض والصوامع ونحوها فتأتي الهوام والوحوش والرهبان والعداري، فيصعد المنبر ويقف سليمان على رأسه، ويأخذ في الثناء على ربه فتموت طائفة من الناس، ثم يأخذ في ذكر الموت فتموت طائفة، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت طائفة من الناس، ثم يحمل على سريره إلى بيت عبادته ويقول: أين فلان وأين فلان؟ فيقول سليمان: ماتوا، فينادي: أغضبان أنت على داود إله داود؟ أم كيف قصرت به أن يموت خوفاً منك^(١).

وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد قال: سمعت ثابتاً يقول: ما شرب داود شراباً بعد المغفرة إلا ونصفه ممزوج بدمع عينيه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من دعاء داود: إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك عادت إليّ روعي. إلهي، أتيت أطباء عبادك ليداووا لي خطيئتي فكلهم دلّوني عليك^(٢).

وروى الثعلبي أيضاً عن الأوزاعي قال: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «خَدَّ الدَّمْعُ فِي وَجْهِ دَاوُدَ خَدِيدَ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ».

وروى الثعلبي أيضاً عن الحسن بن عبد الله القرشي قال: لما أصاب داود الخطيئة فرغ إلى العبادة، فأتى راهباً في قلة جبل، فناداه بصوت عال فلم يجبه، فلما أكثر عليه قال الراهب: من الذي يناديني؟ قال: أنا داود نبيُّ الله، قال: صاحب القصور الحصينة والخيال المسومة والنساء والشهوات؟ لئن نلت الجنة بهذا لأنت أنت. قال داود: فمن

(١) «التبصرة» ١/٢٧٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

أنت؟ قال: راهب راغب مترقب، قال: فمن أنيسك ومن جليسك؟ قال: اصعد تره. قال: فصعد الجبل حتى صار في قلته، وإذا بميت مسجى بين يدي الراهب، فقال: من هذا؟ فقال: هذا ملك قصته مكتوبة في لوح من نحاس عند رأسه، قال: فقرأ داود عليه السلام الكتاب فإذا فيه: أنا فلان بن فلان ملك الأملاك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وأحصنت ألف امرأة، وافتضضت ألف عذراء، فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني مما أنا فيه، فالتراب فراشي، والديدان جيرانني، فخرّ داود مغشياً عليه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ النَّاسُ يُعَوِّدُونَ دَاوُدَ وَيُظَنُّونَ أَنَّهُ مَرِيضٌ، وَمَا بِهِ مَرَضٌ إِلَّا الْحَيَاءُ وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ». قال: وقال وهب: لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا للخاطئين ويستغفر لهم قبل نفسه.

وقال الثعلبي بإسناده عن قتادة عن الحسن قال: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ويقول: تعالوا إلى داود الخاطيء، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ولا يزال يبكي عليه حتى يتلّ بدموعه ويذرّ عليه الملح والرماد ويقول: هذا طعام المذنبين الخاطئين، ثم يأكل^(١).

قال الحسن: وكان داود قبل الخطيئة يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله وقام الليل كله^(٢).

قال إسحاق بن بشر بإسناده عن وهب بن منبه: إن داود لما تاب الله عليه قال: يا رب، غفرت لي؟ قال: نعم، قال: فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها لي وللخاطئين؟ قال: فوسم الله خطيئته في كفه اليمنى، فما رفع بها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيباً في الناس إلا بسط راحته فاستقبل بها الناس ليروا خطيئته^(٣).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٨٨-٢٨٩.

وروى الثعلبي أيضاً عن عبد الرحمن الهذلي قال: ما رفع رأسه إلى السماء بعد خطيئته حتى مات.

وقال الثعلبي: كان إذا قرأ الزبور بعد الخطيئة لا يقف له الماء ولا تصغي إليه البهائم والوحش والطير كما كانت قبلها، ونقصت نغمته فكان يقول: بَحَّ صوتي. فقال: يا إلهي، ما هذا؟ فأوحى الله إليه يا داود، خطيئتك هي التي غيرت صوتك وحالك، قال: يا رب، أليس قد غفرتها لي؟ قال: بلى، ولكن ارتفعت الحالة التي كانت بيني وبينك من الودِّ والقربة فلا تدركها أبداً^(١). وفي رواية: أما الذنب فقد غفرته، وأما الودُّ فلا يعود.

وحدثنا جدي رحمه الله بإسناده عن مجاهد قال: كانت خطيئته في كفه مكتوبة، فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه أو رأسه، ثم نادى: يا رب، قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه في ذنبه شيء، فنودي: أجاع فتطعم، أم عار فتكسى، أم مظلوم فينتصر لك؟ فلما رأى أنه لم يرجع إليه في ذنبه شيء نحب نحبة فهاج ما ثم^(٢). وفي رواية: فأحرق ما حوله بنفسه.

وقال أهل السير: كان له جاريتان قد أعدهما، فكان إذا جاءه الخوف سقط واضطرب، فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه. فإن قيل: فما فائدة التوبة مع هذا البكاء والقلق والخوف، والتوبة تجب ما قبلها؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن فائدتها غفران الذنب ومسامحة أوريا وتهذيب داود.

والثاني: أن الندم توبة لهذه الأمة خصَّها الله به، ولهذا إن الذين عبدوا العجل ندموا فلم ينفعهم الندم حتى أمرهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً.

والثالث: أن بكاءه وتناجيه المرَّ وقلقه بعد التوبة إنما كان أسفاً على ما فاته من المودة والمواد الإلهية، ألا ترى أن خطيئته أثرت في صوته وفي كون الماء لم يقف عند

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٨.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٢٧٧-٢٧٨.

قراءته الزبور، ولأن الوحش لم تعد تصغي إليه كما كانت، ولما شكا إلى الله أوحى إليه: خطيئتك أسقطت منزلتك عندنا وعند الخلق، ورفعت الحالة التي كانت بيننا، فكان بكاءه على تلك الحالة.

فإن قيل: فلم أخر توبته ثلاثين سنة أو أربعين على ما قيل؟ فالجواب من وجوه: أحدها: أنه أراد تعظيم الذنب في عينه وأعين الناس بإغلاق باب التوبة أربعين سنة. والثاني: أنه كان يحب أن يسمع أنينه وبكائه، وفي بعض الكتب: أنين المذنبين أحب إلينا من صياح الصديقين أو وجل المسبحين.

والثالث: خصمه كان ميتاً فعظم الذنب ليزجر العباد عن أذى الخصوم. وقال مقاتل: نظر يوماً إلى حمامة تغرد على غصن فبكى، قال: يا حمامة، قد كنت قبل الخطيئة أفهم ما تقولين أما اليوم فلا، فما زالت الحمامة تضرب بجناحها ومنقارها الأرض حتى خرج الدم من حلقها وماتت.

وقال مقاتل: كان داود يستغفر للخاطئين، فقال الله تعالى: بالأمس تقول: لا أستغفر لهم، قال: يا رب، فبأي الأدعية أتقرب إليك؟ فقال: ادعني بيا حبيب البكائين. وقال أبو سليمان الداراني: ما عمل داود عليه السلام عملاً كان أنفع له من خطيئته، ما زال منها خائفاً هارباً حتى لحق بربه. قالوا: وهذا معنى قولهم: «رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّةَ».

وذكر مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له عن وهب بن منبه أنه قال: إذا دخل الجنة أهلها وُضِعَ لداود منبرٌ في النور من نور، في أعلى درجة في الجنة، ويقول الله: يا داود، قم احمدني في الجنة بصوتك الرخيم كما كنت تفعل في دار الدنيا، فيقوم فيحمد الله تعالى بمحامد يقول: الحمد لله الذي لا يقدر قدره المتفكرون، والحمد لله الذي لا يُحصي نعمه العادون، والحمد لله الذي لا يبلغ مدحه المادحون، والحمد لله الذي لا يؤدِّي حقه المجتهدون. فإذا رفع داود صوته استفرغ نعيم أهل الجنة، قال: وعن يمين المنبر قباب من اللؤلؤ، فيقول داود: يا رب، من يسكن هذه القباب؟ فيقول الله تعالى: من يتواضع لعظمتي، ويقضي زمانه بذكري، ويكف نفسه عن الشهوات لأجلي، يطعم

الجائع، ويكسو العاري، ويؤوي الغريب، ويجبر المكسور، ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في الناس كالشمس، إن دعاني أجبتة، وإن سألني أعطيته، أكلؤه بقوّتي وأحفظه بمتي^(١)، وأوكل به ملائكتي.

فصل في السجدة

وسجدة «صّ» سجدة تلاوة، وبه قال الحسن والثوري ومالك وأبو حنيفة.

وقال الشافعي: هي سجدة شكر. وعن أحمد كالمذهبين.

وثمره الخلاف: لو تلاها في الصلاة وغيرها سجدها عندنا، وعندهم لا يسجد،

واحتجوا بما روى النسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في «صّ» وقال: «سجدها داودُ توبةً ونسجدها شكراً»^(٢).

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة على

المنبر سورة «صّ» فنزل وسجد، فسجد الناس معه، فلما كان في الجمعة الثانية قرأها

فتشّرن الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي توبة نبيٍّ ولكن رأيتم تشزّنتم

للسجود فسجدت»^(٣). ومعنى تشزّنت أي: تهيأ وانتصب.

وأما قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص: ٢٤] أي: ساجداً.

وأما سجود النبي ﷺ فحجة لنا، وقوله: «ونحن نسجدها شكراً» لا يدلُّ على أنها لا

تجب، لأنها سبب وجوب الإنعام على داود ولنا به أسوة. وقوله ﷺ: «رأيتم تشزّنتم

فسجدت» يدل على الوجوب إذ لو لم تكن واجبة لما سجد.

فصل في طاعون وقع في زمان داود

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك بإسناده

(١) في «ب»: بمشيئتي.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٩).

(٣) أبو داود (١٤١٠).

عن وهب بن منبه قال: لما تاب الله على داود، حَسُنَ حالُ بني إسرائيل، وفشت فيهم العافية، وكثروا حتى ملؤوا الشام، وضافت بهم فلسطين وما حولها، فعجب داود من كثرتهم، وأمر بعدهم فلم يقدرُوا على ذلك، فأوحى الله إليه: ألم تعلم أني وعدتُ أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده إسحاق فأطاعني أن أنمي ذريته حتى يكونوا عددَ نجوم السماء وأكثر، ولا يحصيهم العدد، فلما علمت أني منجزُ له ما وعدته ذهبتَ تختبرني، أو ظننت أني مخلف وعدي؟ وإني أقسمت بعزتي لأبتلينهم بثلاثة تُقِلُّ عددهم، فخيرهم بين أن أبتليهم بالقحط ثلاث سنين، وبين أن أسلِّط عليهم العدوَّ شهرين، وبين أن أسلِّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام، فجمعهم داود وخيرهم فقالوا: أنت نبينا فاختر لنا، فقال: أما الجوعُ فبلاءٌ فاضح ولا صبر لأحدٍ عليه، وأما العدوُّ فإن اخترتموه فلا بقيَّة لكم، والموت أعز، فخرج بنو إسرائيل إلى موضع البيت المقدس يسألون الله كَشَفَ الطاعون عنهم، فاتخذ داود ذلك الموضع مسجداً^(١).

وقال ابن الكلبي: كان ذلك لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يتم بناؤه، فأوصى بذلك إلى سليمان، لما نذكر.

وفي رواية عن وهب: فأمرهم أن يتجهَّزوا، فاغتسلوا وتحنَّطوا ولبسوا الأكفان، وبرزوا إلى موضع بيت المقدس بالذراري والأهلين، وضجُّوا إلى الله تعالى ضجَّةً واحدة، وارتفع داود على صخرة بيت المقدس، ولم يكن هناك مسجد، يدعو ويتضرَّع، فأرسل الله عليهم الطاعون يوماً وليلة تَحِلَّةَ القسم، فمات منهم خلق كثير، ثم كشفه الله عنهم، فقال لهم داود: هذا صعيد مبارك ابنوا فيه مسجداً لله تعالى، فبنوا لما نذكر.

وقد أخرج أحمد في «المسند» بمعناه فقال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي بإسناده عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى همس شيئاً لا أفهمه ولا يخبرنا به ثم قال: «أوظننتم بي؟ قلنا: أجل، فقال: «إني ذكرتُ نبياً من الأنبياء أُعطي جنوداً من قومه فقال: من يكافىء هؤلاء، أو من يقوم لهؤلاء، أو غيرها من الكلام، فأوحى الله إليه اختر لقومك إحدى ثلاث: إمَّا الجوعُ، وإمَّا العدوُّ وإمَّا الموتُ، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنت نبى الله فاختر لنا فالكلُّ إليك، فقام إلى صلاته وقال: إلهي، أمَّا عدوُّ من غيرهم فلا، وأمَّا

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٨٤-٤٨٥، وعرائس المجالس ٣٠٩.

الجوعُ فلا ، ، ولكن الموت ، فماتَ منهم سبْعُونَ ألفاً ، فهَمَّسِي الذي ترون أني أقول :
اللهمَّ بِكَ أَقَاتِلْ ، وَبِكَ أَصَاوِلْ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١) .

فصل في حوادث قضى بها داود فاستدرك عليه سليمان

منها قصة الزرع والغنم

حدثنا أبو عبد الله محمد بن البناء الصوفي البغدادي بإسناده إلى أبي الفضل ابن خيرون وأبي طاهر الباقلابي قالا بإسنادهما عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إِذْ يَمْكُؤَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي : رعت ليلاً بغير راع ، قال : تقدّم رجلان إلى داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا سلط غنمه على حرثي فلم تُبْقِ منه شيئاً ، فقال داود : اذهب فلك رقابُ الغنم ، فقضى داود بذلك ، فمرَّ صاحب الغنم على سليمان وهو صغيرٌ ابن إحدى عشرة سنة فقصَّ عليه القصة ، فدخل عليه وقال : يا أبت ، إنَّ القضاء غير ما قضيت به ، قال : وكيف ؟ قال : أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بها طول العام فيأخذ أولادها وأصوافها وألبانها ، وتدفع الأرض إلى صاحب الغنم فينتفع بها طول العام ، فإذا انقضى الحول دفعت - أو رددت - إلى هذا غنمه وإلى هذا أرضه ، فقال داود : أصبت الحكم والقضاء . قال ابن عباس : فذلك قوله تعالى : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾^(٢) .

وقال قتادة : لم يكن بين ثمن الحرث و ثمن الغنم تفاوت فلهذا قضى به داود .

وقال ابن مسعود وشريح : إنه كان كرماً قد نبتت عناقيده^(٣) .

وقال الفراء : النَّفْسُ أن ترعى الغنم ليلاً والحمل نهاراً والكل بغير راع .

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي : لا يخفى علينا من أمرهم .

فإن قيل : فهما اثنان ، فلم جمع بقوله : «لحكمهم» ؟ فالجواب من وجهين :

أحدهما : ما ذكرنا أن الاثنین جمع ، وبه قال أبو يوسف .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٣٧) ، وجاء بعدها في (ب) : فصل في وفاة داود عليه السلام .

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/٤٨٦-٤٨٧ . وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١ .

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩١ .

والثاني: أن الإشارة إلى داود وسليمان والخصوم. والأول أصح، لأن الخصوم لا حكم لهم ولا قضاء. ودلت الآية على أن كل مجتهد مصيب، والحق عند الله واحد، وفيه خلاف عند المعتزلة.

وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة: فعند أبي حنيفة لا ضمان على صاحب الغنم سواء كان ليلاً أو نهاراً إذا لم يرسلها، لأنه لا يوجد منه سبب الضمان.

وقال الشافعي وأحمد: يجب الضمان على صاحبها. واحتجاً بما روى الزهري قال: دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطاً لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، ف قضى على البراء بما أفسدته الناقة وتلا هذه الآية، وقال: «وعلى أصحاب الماشية حفظ ماشيتهم بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حوائطهم بالنهار وحفظ زرعهم»^(١). والجواب من وجوه:

أحدها: أنه أرسلها ويجب الضمان بالاتفاق.

والثاني: أنه منقطع لأن الزهري لم يلق البراء بن عازب.

والثالث: لأنه يخالف الأصول، أو يُحمل [على] أنه خاص في هذه الواقعة.

ومنها قصة الصبي

وقال أحمد: حدثنا يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان، فعدا الذئب على أحدهما، فأخذتا تختصمان في الباقي فاحتكمتا إلى داود، ف قضى به للكبرى، فمرتتا على سليمان فقال: كيف أمركما؟ فقصتنا عليه القصة فقال: الحكم غير هذا، ايتوني بسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: أتشقه؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل، قد وهبت حظي منه لها». وفي رواية: إن داود حكم بأن يبقى الولد عند كل واحدة سنة. وفي رواية: أنه هو ابنها فقال لها: هو ابنك، ف قضى به للصغرى. متفق عليه. قال أبو هريرة: والله إن سمعتُ السكين إلا يومئذ، ما كنا نقول إلا المدية^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

وقال الزهري: كلاهما حكم بالاجتهاد وإنما لسليمان فطنة.

وقال ابن سيرين: كان قضاؤهما بطريق الاجتهاد، ولم يكن نصّاً، لأنه لو كان نصّاً لم يختلفا فيه.

وقال الحسن البصري: لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا، ولكن الله أثنى على سليمان لصوابه وعلى داود لاجتهاده^(١).

ومنها: ما رواه مجاهد قال: شهد أربعة على امرأة بالزنى فرجمها داود، وبلغ سليمان، وكان ابن سبع سنين، فقال: عليّ بالشهود، فجيء بهم فسألهم سليمان متفرقين فاختلفت أقوالهم، وبلغ داود فأمر بقتلهم.

فصل في وفاة داود عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ فِي دَاوُدَ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ دَارِهِ أَغْلَقَ الْأَبْوَابَ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ أَغْلَقَ الْأَبْوَابَ، فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ تَطَّلُعُ فِي الدَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ مَعَهَا فِي الدَّارِ: مَنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ؟ وَاللَّهِ لَنُفْتَضِحَنَّ مَعَ دَاوُدَ. وَجَاءَ دَاوُدُ فَوَجَدَ الرَّجُلَ قَائِمًا فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مَنْ لَا يَهَابُ الْمُلُوكَ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ الْحُجَّابُ، قَالَ: فَأَنْتَ إِذْنُ مَلِكِ الْمَوْتِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ، فَرَمَلَ مَكَانَهُ حَتَّى قَبِضَهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلطَّيْرِ: أَظَلِّي عَلَى دَاوُدَ، فَأَظَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا، فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا» - قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يُرِينَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ فَعَلْتَ الطَّيْرَ، وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ - وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ الْمَضْرَحِيَّةُ^(٢).

فقال الفراء: هي النسور الحمر.

وقال الجوهري: المَضْرَحِيُّ، بالضاد المعجمة والحاء المهملة، الصقر الطويل الجناح^(٣).

(١) انظر «زاد المسير» ٣٧٢/٥. والآية المقصودة: ﴿وَكَأَلَّا أَيْنًا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٣٢). وفيه المضحية بالصاد المهملة، وشرح عليه السندي فقال: اسم فاعل من التصريح غلبت عليه صفة التصريح والإيضاح في البيان حتى يوضح المرام بالكلام ويستعين عليه بالإشارة باليد. اهـ. والله أعلم.

(٣) «الصحاح»: (ضرح).

وقال ابن المسيب: توفي داود عليه السلام يوم السبت فعكفت عليه الطيور تظلمه، وكان داود يُسبِت.

وقال مجاهد: مات يوم الأربعاء، والأول أشهر.

وقال أبو السكن الهجري: وقيل: مات إبراهيم الخليل وداود عليهما السلام فجأة، وكذا الصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الكافر.

وقال وهب: دفن بالكنيسة المعروفة بالجسمانية شرقي بيت المقدس في الوادي.

وقال ابن عباس: شيع جنازته أربعون ألف راهب.

وفي «التوراة»: كان ملكه على فلسطين والأردن ونواحيها، وكان في عسكره ستون ألف مقاتل.

واختلفوا في سنه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عاش سبعمائة وسبعين سنة، ملك منها أربعين سنة، وكذا هو في «التوراة».

والثاني: مئة وأربعين سنة، حكاه أبو إسحاق الثعلبي^(١).

والثالث: مئة سنة، وهو الأصح على ما نطق به الحديث الذي ذكرناه في وفاة آدم، وأنه وهب لداود أربعين سنة، وأنه رجع فيها، فأتم الله لداود المئة^(٢). وكذا قال جدي

في «أعمار الأعيان»: إنه عاش مئة سنة. قال: وكذا عبد المنعم بن إدريس وسويد بن سعيد وأحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي^(٣).



(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٩٤: مئة سنة.

(٢) انظر توبة آدم.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ٩١.

فصل في لقمان الحكيم^(١)

وإنما ذكرته هنا لأنه كان في زمان داود.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: لقمان بن عبقر بن مزيد بن صادق بن النبوت، من أهل أيلة، ولد على عشر سنين خلت من أيام داود، قاله وهب بن منبه.

والثاني: هو لقمان بن باعور بن لبان من ولد آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

والثالث: لقمان بن عنفاء قاله مقاتل.

وقال ابن قتيبة: واسم أمه: ثارات^(٢) بالثاء المنقوطة بثلاث.

وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام.

وقيل: ابن خالته^(٣).

وحكى الثعلبي عن ابن المسيب: أنه كان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين، من سودان مصر، ذا مشافر، وكان يُلقَى الحكمة^(٤).

وقال الربيع: كان عبداً نوبياً اشتراه رجل من بني إسرائيل بثلاثين ديناراً ونصف دينار، والرجل يقال له: القين بن جبير. وروي: أنه كان عبداً لقصاب.

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله من كتاب «التوايين» قال: حدثنا المبارك بن علي الصيرفي بإسناده عن جبير^(٥) أبي جعفر قال: كان لقمان الحكيم الحبشي عبداً لرجل جاء به إلى السوق لبيعه، فكان كلما جاء إنسان يشتريه يقول له لقمان: ما تصنع بي؟ يقول: كذا وكذا، فيقول: حاجتي إليك ألا تشتريني، حتى جاء

(١) انظر قصته في: تفسير الثعلبي ٣١٢/٧، و«عرائس المجالس» ص ٣٥٠-٣٥٤، و«تفسير البغوي» ص ١٠١١، و«زاد المسير» ٣١٧/٦-٣١٨، و«الدر المنثور» ١٦٠-١٦٥/٥.

(٢) في «المعارف» ص ٥٥: واسم أبيه ثاران.

(٣) في (ط): خاله.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

(٥) في «التوايين» ص ١١٠: حسن، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

رجل فقال: ما تصنع بي؟ قال: أصيرك بواباً على باب داري، قال: فاشترني، فاشتراه وجاء به إلى باب داره، فأقعدته على الباب، وكان للرجل ثلاث بنات بغايا يبغين في القرية، فأراد مولاه الخروج إلى ضيعة له فقال: يا بني، إني قد أدخلت إليهنّ طعامهن وشرابهن وما يحتجن إليه فأغلق الباب واجلس من ورائه لا تفتحه حتى أعود، وغاب سيده فأغلق الباب عليهن، وكان يقعد طول النهار على الباب فينادينه: افتح الباب، فلم يفتح، فنادينه ثانياً وثالثاً فلم يفتح فشججته موضححةً، فغسل الدم عن وجهه فعُذّن فشججته فلم يفتح، وقدم سيده فلم يخبره بشيء، فعاد سيده فغاب، ففعلن به كما فعلن في الأول، وقدم سيده فلم يخبره بشيء. ثم غاب سيده ثالثاً وفعلن به كما فعلن في المرة الثانية، وقدم مولاه فلم يخبره بشيء، فقالت الكبرى: ما بال هذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله عز وجل مني، والله لأتوبن. قال: فتابت. فقالت الوسطى: ما بال هذا العبد الحبشي وأختي أولى بالتوبة مني، فتابت. وقالت الصغرى كذلك وتابت. فقالت غواة القرية: ما بال هذا العبد الحبشي وبنات فلان أولى بطاعة الله منا. فتاب الرجال والنساء وصاروا زهاداً عباداً^(١).

وقال الواقدي: كان لقمان قاضياً في بني إسرائيل يسكن ببلد أيلة ومدين، ولم يزل زاهداً في العالم يسكن فيافي الأرض.

وعامة المؤرخين على أنه كان في زمان داود إلا ابن المنادي، فإنه قال: كان على عهد زكريا ويحيى، وكان يسكن الرملة، وقام ما بين الرملة وبيت المقدس حتى مات، وهو وهم منه، والأول أصح.

واختلفوا هل كان نبياً أم عبداً صالحاً؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبياً، قاله ابن المسيب. وحكاه الثعلبي عن عكرمة، ثم قال الثعلبي: تفرّد عكرمة بهذا^(٢).

وعامة العلماء على أنه كان عبداً صالحاً أطاع الله فاتاه الله الحكمة.

(١) «التوايين» ص ١١٠-١١١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١.

وقال سلمان الفارسي: اختار طاعة الله على غيرها فاتاه الحكمة وخزن عنه النبوة.
وقال الحسن البصري: كان خياطاً وليس بلقمان صاحب النور ابن عاد، بينهما
زمان طويل.

وروى الثعلبي عن ابن عمر عن النبي ﷺ ولم يسنده قال: حقاً أقول لم يكن لقمانُ
نبيّاً، ولكن كان عبداً صمّصاماً^(١) كثير التفكير، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبه، فمنّ الله
عليه بالحكمة. كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله
خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت وقال: إن خيرني ربي
قبلت العافية ولم أقبل البلاء، فإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلم إن فعل بي ذلك
أعاني وعصمني، فقالت الملائكة - بصوت لا يراهم -: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن
الحاكم بأشد المنازل وأدركها وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فإن يعدل
فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيراً من أن
يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتته الدنيا ولا تصيبه الآخرة. فعجبت
الملائكة من حسن منطقته، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه يتكلم بها، ثم نودي داود
بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله
عنه. وكان لقمان يؤازره بحكمته. وقال له داود: طوبى لك يا لقمان، أُعطيت الحكمة
وصُرفَت عنك البلوى، وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالبلية والفتنة^(٢).

وقال الثعلبي بإسناده إلى خالد الربيعي قال: كان لقمان نجاراً^(٣).

وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى ابن المسيب يسأله
فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من خيار الناس ثلاثة من
السودان، بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقمان الحكيم^(٤).

(١) في «عرائس المجالس» ص ٣٥١: عصمه الله تعالى والصمّصام: المصمّم. اللسان: (صمم).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١. وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧/٨٥.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥١، وتفسير الثعلبي ٧/٣١٢ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

قال ابن عباس: المراد بالحكمة هاهنا: العقل والفهم والإصابة في القول^(١).
وقال وهب: قرأت في حكمة لقمان عشرة آلاف باب لم تسمع الناس كلاماً أحسن منه، ثم رأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم واستعانوا به في خطبهم.
واختلفوا في أول ما ظهر من حكمته على أقوال:
أحدها: ما حكينا عنه أنه قال لما قيل له: هل لك أن تكون خليفة؟ وقد ذكرناه عن النبي ﷺ.

والثاني: أنه كان يختلف إلى داود يقتبس منه، فاختلف إليه سنة لم ينطق بلفظة، وداود ينسج درعاً، وحكمة لقمان تمنعه من السؤال، فلما تمت الدرع قام داود عليه السلام فلبسها - أو صبها على نفسه - وقال: نعم درع الحرب هذه، قال لقمان لما رأى ذلك: الصمتُ حكْمٌ وقليلٌ فاعِلُهُ. فقال داود: انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقى الفتنة. قاله مقاتل.

والثالث: أن سيده أمره أن يذبح شاةً ويأتيه بأطيب مضغة فيها وأخبث، فجاءه باللسان والقلب، فقال: ما هذا؟ فقال: ليس في الحيوان أطيب منهما إذا طابتا ولا أخبث منهما إذا خبثتا. قاله ابن أبي نجيح^(٢).

والرابع: أن مولاه الذي اشتراه بثلاثين ديناراً وكان يخاطر على النرد، وعلى بابه نهر جار، فلعب يوماً مع رجل على أنه إن قُمر شرب ماء النهر كله أو يفترق نفسه بما يريد صاحبه، فقمر، فقال له القامر: إما أن تشرب ماء النهر وإلا فقأت عينك أو أخذت جميع مالك، فقال: أمهلني الليلة. وأمسى كئيباً قلقاً، وجاء لقمان حاملاً حزمة حطب على ظهره فوضعها، فرأى سيده حزينا فسأله عن حاله، فأعرض عنه ازدراء به، فأعاد عليه القول فلم يلتفت إليه، فقال: أخبرني لعل الله أن يجعل لك على يدي فرجاً، فأخبره فقال: لا تغتم إذا جاءك وقال: اشرب ما في النهر فقل له: أشرب ما بين

(١) انظر «الدر المنثور» ٥/ ١٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢١/ ٦٧-٦٨ عن خالد الربيعي. وانظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢.

الضفتين أو المد، فإن قال: ما بين الضفتين فقل له: فاحبس عني المد، وإن قال: اشرب المد فقل: فاحبس عني ما بين الضفتين فإنه لا يقدر على ذلك. وجاء القامر فأجابه بجواب لقمان، فذهب الرجل خائباً، فأعتقه مولاه، قاله مكحول الشامي والربيع بن أنس.

وقد أخرج هذه الحكاية جدي رحمه الله في «كتاب الأذكياء» بإسناده إلى مكحول قال: كان لقمان عبداً نوبياً أسود كان قد أعطاه الله الحكمة، وكان الرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالاً ونش، يعني نصف مثقال، وذكره بمعناه^(١).

والخامس: أن سيده دخل الخلاء فأطال الجلوس فيه، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الخلاء يورث البواسير ويرقي الأبخرة إلى الرأس ويفسد الكبد، فاجلس هويناً وقم هويناً. فخرج مولاه وكتب على باب الحش تلك الكلمات. وقال: هذه حكمة لقمان. قاله أبو روق.

والسادس: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: وأقام لقمان سنة لا ينطق، فاجتمع إليه أولاد الأنبياء والحكماء وقالوا له: تكلم. فقال: لا خير في الكلام إلا بذكر الله، ولا بالسكوت إلا بالفكر في المعاد.

وقال زيد بن أسلم: قيل للقمان: ألسنت عبداً حبشياً فمن أين لك هذه الحكمة؟ فقال: لصدق هذا الحديث، وترك ما لا يعنيني. قال: وكان يسلف بأمانة الله ولا يأخذ رهنأً ولا كفيلاً، فكثرت ماله ونما حاله.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبد الله بن دينار قال: قَدِمَ لقمانُ من سفر، فتلقاه مولى له فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكتُ أمري. قال: فما فعلتُ أمي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همي. قال: ما فعلت ابنتي؟ قال: ماتت. قال: سُتِرت عورتِي. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدِّدَ فراشي. قال: ما فعل أخي. قال: مات. قال: انقطع ظهري^(٢).

(١) «الأذكياء» ص ٢٧-٢٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٢، وتفسير الثعلبي ٣١٧/٧، وتاريخ دمشق ٣٨٣٧/٢٨، والزهد لأحمد (٥٥٨).

ذكر جدي هذا الأثر في كتاب «التبصرة» في آخرها بغير إسناد.

وقال عبد الله بن دينار: قال رجل للقمان: ما أقبح وجهك!! فقال: عبت النقاش أو النقش^(١)؟

فصل في مواعظ لقمان لولده واسمه أنعم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى﴾ [لقمان: ١٣] الآية. عامة العلماء على الوقف في قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَبْنَى﴾ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦] قال ابن عباس: هي الصخرة التي تحت الأرضين السبع^(٢).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أصل التصعير: الميل. قال ابن عباس: لا تنكر على الناس، وإذا أنكروا عليك ملت عنهم. وقيل: لا تتذلل لغير الله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨] أي: خيلاء ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أقبح ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] لأن أوله زفير وآخره شهيق.

وقال سفيان الثوري: كل شيء يسبح لله إلا الحمار فإنه ينهق بغير فائدة.

وقال وهب: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر عميق وقد هلك فيه عالم كثير، فإن استطعت أن تجعل سفينتك فيه الإيمان بالله وشرائعك فيه التوكل وزادك التقوى، وإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك^(٣)، وإذا سكت فاسكت في تفكير، وإذا تكلمت فتكلم بحكمة، ولا يكن الديك أحسن حالاً منك، فإنه لا ينام الليل كله بل يخفق بجناحيه ويصرخ إلى الله بالتسبيح.

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزاز بإسناده عن ابن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني، لا ينزلن بك أمرٌ رضيته أو كرهته إلا جعلت في ضميرك أن ذلك خيرٌ لك، قال: يا أبت أمّا هذه فلا أقدر عليها حتى أعلم ما قلت إنه كما قلت، قال: يا بني، فإن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ١٠١٣.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٥٣.

الله قد بعث نبياً فهلم بنا نأته فعنده بيان ما قلت لك، فخرجا على حماريهما وتزوذا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً، فلقيتهما مفازةً فسارا فيها إلى أن تعالي النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، واستبطأ حماريهما فنزلا وجعلا يشدان على سوقهما، فنظر لقمان إلى سوادٍ أمامه ودخانٍ فقال في نفسه: الدخان عمران والسواد شجر، فوطىء ابن لقمان على عظم ناتيء في الطريق فدخل في باطن قدمه وظهر من أعلاه، فخر صريعاً مغشياً عليه، فقعد لقمان ووضع رأس ابنه في حجره، واستخرج العظم بأسنانه، وشقَّ عمامته فشدَّ بها رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه وقطرت قطرةً من دمه على خد الغلام فانتبه لها، فرأى أباه يبكي فقال: يا أبت أنت تقول هذا خير لي، وكيف يكون كذلك وقد نفد الطعام والشراب - أو الماء - ونحن في هذه المفازة، وقد دخل هذا العظم في قدمي، فإن أقمنا متنا جميعاً، وإن ذهبنا وتركنا ذهبت بهم وغم، فقال لقمان: أمّا بكائي فرقة الوالد، وودت أني أفديك بجميع مالي من الدنيا، وأمّا قولك كيف يكون هذا خيراً لي فلعل ما صرف عنك أعظم مما بليت به.

ثم نظر لقمان أمامه فلم ير الدخان ولا السواد، وإذا شخص قد أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بيض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحاً، فلما قرب منهما تواري عنهما وصاح: أنت لقمان؟ قال: نعم، قال: الحكيم؟ قال: كذا يقال. ثم قال لقمان: يا عبد الله من أنت؟ أسمع كلامك ولا أرى وجهك، قال: أنا جبريل لا يراني إلا ملك مقرب أو نبي مرسل ولولا ذلك لرأيتني، ما قال لك ابنك هذا السفية؟ قال لقمان في نفسه: إن كنت جبريل فأنت أعلم بما قال مني، فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، ولكن ربي أمرني أن أخسف بهذه المدينة وما يليها، فأخبرت أنكما تريدانها، فدعوت الله أن يحبسكما عنها بما شاء، فحبسكما بما ابتلي به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف.

ثم مسح جبريل على قدم الغلام فاستوى جالساً أو قائماً، ومسح يده على الإناء الذي فيه الطعام والشراب فامتلاً طعاماً وشراباً أو ماءً، ثم ركبا حماريهما فإذا هما في الدار التي خرجا منها.

وقال ابن عباس: مازال لقمان يعظ ابنه ويقول: يا بُني، يا بُني، حتى انفطرت مرارته وانصدع قلبه فمات.

وحكى الخطيب عن محمد بن إسحاق قال: قال لقمان لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فاحذره.

ذكر وفاة لقمان عليه السلام

واختلفوا في موضع قبره: فقال الواقدي والسُّدي: بأيلة، وقال قتادة: بالرَّملة ما بين مسجدها وسوقها، وهناك قبر سبعين نبياً ماتوا بعد لقمان جوعاً في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس فألجؤوهم إلى الرَّملة ثم أحاطوا بهم، فتلك قبورهم هناك.



فَضْلٌ فِي ذِكْرِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنْ عَجَائِبٍ وَقِصَّةٍ سَبَأَ وَبَلْقِيسَ مَلَكَةَ مَأْرِبَ^(١)

قال علماء السير: سليمان اسم عبراني، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية، وقال وهب: اسم سليمان عند الفرس جم، وكنيته أبو الربيع.

وقال مقاتل: ذكر الله سليمان في خمسة عشر موضعاً.

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ الآية [ص: ٣٨]، قال مقاتل: كان لداود تسعة عشر ولداً لم يكن فيهم مثل سليمان، وكان أعظم ملكاً من داود وأفطن منه، وكان داود أشدَّ تعبداً، وعامة العلماء على أنه كان نبياً، وقال أهل الكتابين: لم يكن نبياً [بل ملكاً]، والنبوة كانت في أبيه داود.

واختلفوا في مبلغ سنه بعد وفاة أبيه داود على قولين:

أحدهما: اثنتا عشرة سنة، قاله الضحاك. والثاني: ثلاث عشرة سنة، قاله وهب.

قال: وكان لداود ولد يقال له: شالوم، كان أكبر ولده، خرج على أبيه وأراد قتله، فصرف الله عنه الملك إلى سليمان.

وقال ابن عباس: بعثه الله إلى بني إسرائيل وسأل الله أن يؤتاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأجاب الله سؤاله، فكانت تعكف عليه الطير وتقوم في خدمته والإنس والجن، وسخر الله له الريح وغير ذلك.

وقال مجاهد: كان أبيض جسيماً يلبس البياض ويشاوره أبوه في قضاياه.

وقال محمد بن كعب القرظي، وحكاه جدي في «التبصرة» قال: كان عسكره مئة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، ومثلها للجن، ومثلها للطير، ومثلها للوحش قال: وكان له ألف بيت من القوارير، فيها ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سريّة يحملها الجن على

(١) في (ب): الباب الخامس والعشرون في ذكر سليمان عليه السلام، وانظر قصته في «تاريخ يعقوبي» ٥٧/١، و«تاريخ الطبري» ٤٨٦/١ وتفسيره ٢٤/١٨ و ٢٠/٨٠، و«البدء والتاريخ» ١٠٣/٣، و«عرائس المجالس» ص ٢٩٤، وتفسير الثعلبي ١٩٣/٧ و ٢٠٣/٨، وتفسير الماوردي ١٩٧/٤ و ٩١/٥، وتاريخ دمشق ٥٦٤/٧ (مخطوط)، و«التبصرة» ٢٨٧/١، و«الكامل» ٢٢٩/١، و«البداية والنهاية» ١٨/٢.

الخشب، ثم ترفعها فتقلها الريح وتسير بها بين السماء والأرض، وكذا بعسكره، تقله على البساط^(١).

وروى ابن جبير عن ابن عباس قال: كان يُوضع لسليمان ست مئة كرسي ويجيء أشراف الناس فيجلسون عليها مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الرِّيح فتحملهم فتسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، يركب من تَدْمُر فيَقِيل بِإِضْطَخْر، وَيَرُوح من إِضْطَخْر فيبيتُ بقلعة خُراسان في المباني المعروفة بقلعة سليمان.

وقال الحسن: كان يروح من البيت المقدس فيبيت بكابل، والطباخون وأرباب الصنائع يعملون أشغالهم على بساطه ولا تتغير عليهم حال. وكان مسير الرياح شهراً في رَوْحته وشهراً في غَدوته كما قال الله تعالى.

وقال وهب: وُجد على حجر مكتوب بالمسند بناحية دجلة: نحن نزلنا في غَدوتنا من فلسطين إلى إِضْطَخْر، ومنه نقفل إلى خُراسان.

وحكى الثعلبي: أنه كان مكتوباً على الحجر إنما كتبه بعض الإنس أو الجن ثم نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه، غَدونا إِضْطَخْر فقلناه.

وقال مجاهد: كان سليمان يغدو من دمشق فيقبل بِإِضْطَخْر، ويروح بِإِضْطَخْر فيقبل بكابل، وبين إِضْطَخْر وكابل مسيرة شهر. قلت: وهذا وهم، بينهما مسيرة شهرين وثلاثة.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: سار سليمان من الشَّام إلى خُراسان فصلى العصر بمَرَو، ومضى نحو المشرق فخاض بلاد الهند والسُّند والصِّين في ثلاثة أيام، ثم عاد إلى الشَّام على ظهر الرِّيح. قال: ولما عقر الخيل سَخَّر الله له الرِّيح.

قال وهب: بلغ سليمان أن في البحر مارداً عاتياً فأرسل الله إليه، فجيء به إلى بابه، فأخذ المارد عوداً قدر ذراع فرمى به إلى بين يدي سليمان، فقال سليمان: تدرُونَ ما يقول؟ قالوا: لا، قال: يقول: لا تغترَّ بملكك واصنع ما شئت، فإنك تصير إلى مثل

(١) «التبصرة» ١/٢٨٨.

هذا من الأرض. قال: وكان الله قد أذن للريح مهما سمعت من كلام الإنس والجن تحمله إليه، وهذا شيء لم يُعطه سواه.

وروى في «التبصرة» عن سيّار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: خرج نبيُّ الله سليمان، والجنُّ والإنس عن يمينه ويساره، فأمر الريحَ فحملتهم حتى سمعوا زَجَلَ الملائكة في السماوات بالتقديس، ثم أمرها فخفضتهم حتى مسَّت أقدامهم البحر، فسمعوا صوتاً من السماء يقول: لو كان في قلب صاحبكم - من الكبر مثقال ذرّة لخسفتُ به أبعدَ مما رفعته^(١).

وقال الحسن: كان يحرسه ست مئة ألف، ويوضع له أربعة آلاف كرسي يجلس عليها الأشراف، وملك الأرض كما ملكها ذو القرنين، وهو أحد المؤمنين اللذين ملكاها، وقد ذكرناه.

وقال في «التبصرة»: كان يطعم كلَّ يوم مئة ألف فإن أقل أطمع ستين ألفاً، وكان يذبح كل يوم مئة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة، ويطعم الناس النقي الحواري، ويأكل هو الشعير، ويطعم أهله الخشكار^(٢).

قال الحسن البصري: كان يحمل القصة الواحدة ألف رجل ولا يأكل معهم، ويدخل منزله فيأكل الخلَّ والزَّيت بخبز الشعير، فأثنى عليه الله بقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] أي: رجّاع. فإن قيل: مع هذا التقلل والزهد يقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، أكانت المملكة ضيقةً حتى يحجر على من بعده؟ والجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي﴾ فلما أجاب الله دعاءه بما وهبه من الملك استدلَّ به على الغفران، فتيقَّن أن الله قد غفر له.

والثاني: أنه لم يكن في ملك غيره الريح ولا تسخير الشياطين ولا الطير، فسأل الله ذلك ليكمل حاله، قاله مقاتل.

(١) «التبصرة» ١/ ٢٨٨.

(٢) «التبصرة» ١/ ٢٨٨، الحواري: الدقيق الأبيض، والخشكار: الخبز الذي لم يُنخل طحينه.

والثالث: أنه أراد [أن] يعلم أنه مستجاب الدعوة أم لا، فسأل ذلك كما سأل إبراهيم إحياء الموتى وإن كان موقناً بالإحياء.

والرابع: أنه لما مات داود أوحى الله إلى سليمان سلمي حاجتك، فقال: أسألك أن تجعل قلبي يخشاك ويحبك كما كان قلب أبي داود، فقال الله لسليمان: أرسلت إليك أسألك حاجتك فكان هذا جوابك؟ لأعطينك ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدك في الدنيا ولا حساب عليك في الآخرة، قاله أبو عبيد القاسم بن سلام.

والخامس: أنه خيّر بين العلم والملك والمال، فاختر العلم فأعطاه الكل.

قلت: وهذه جوابات إقناعية، وبعضها لا يطابق السؤال، فإنه قد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٤٠] إنه آصف، كان يعرف الاسم الأعظم، ف قيل له كيف يعرفه آصف، وهو كاتب سليمان، ولا يعرفه سليمان؟ قال: كان يعرفه، فلما قال: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] أنساه الله إياه.

وقال عبد الوهاب ابن النوبي في «الأسئلة»: إن النملة التي وقف عليها سليمان واسمها منذرة قالت له: ماذا سألت ربك؟ قال: ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فقالت: تفوح من سؤالك رائحة الحسد وما كان يضرك لو أعطاه الله لغيرك؟ وهل الكل إلا زائل؟

قلت: وقد تكرم عليه نبينا ﷺ ولم يزاخمه في هذا المعنى، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِتًا»، أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقد أخرجه مسلم بمعناه عن أبي الدرداء، وفيه: «لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح مؤثقا تلعب به ولدان أهل المدينة»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٦٩)، و«البخاري» (٤١٦)، و«مسلم» (٥٤١).

(٢) صحيح «مسلم» (٥٤٢).

قال مقاتل : لما سخر الله لسليمان الشياطين وكل بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه فأحرقه، فذلك قوله : ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ [سبأ: ۱۲] أي : يميل ويعدل عن طاعته.

فصل في عمارته بيت المقدس

حدثنا جدي رحمه الله قال : أنبأنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري بإسناده عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ مَكَّةَ بَلَدٌ عَظَّمَهُ اللَّهُ وَعَظَّمَ حُرْمَتَهُ ، وَحَفَّهَا بِالْمَلَائِكَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِأَلْفِ عَامٍ ، وَوَصَلَهَا بِالْمَدِينَةِ ، وَوَصَلَ الْمَدِينَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ بَعْدُ بِأَلْفِ عَامٍ خَلْقاً وَاحِداً . »
وقال الوليد بن حماد بإسناده عن أبي عمرو الشيباني قال : قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : كانت الأرض ماءً فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قطع ، خلق من قطعة مكة ، ومن الثانية المدينة ، ومن الثالثة بيت المقدس ، ومن الرابعة الكوفة .

ذكر هذا الحديث والأثر جدي رحمه الله في كتاب «فضائل بيت المقدس» ، ثم روى عن كعب الأحبار أنه قال : بنى سليمان بن داود بيت المقدس على أساس قديم كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم .

ثم قال جدي : وسكن الجبارون الأرض المقدسة فسلب الله عليهم يوشع ، ثم سلط الكفار على البيت المقدس فصيروه مزبلة .

ثم روى جدي بإسناده إلى ابن المسيب قال : أمر الله تعالى داود أن يبني بيت المقدس فقال : يا رب وأين أبنيه؟ قال : حيث ترى الملك شاهراً سيفه ، قال : فرآه في ذلك المكان ، فأسس داود قواعده ورفع حائطه ، فلما ارتفع انهدم ، فقال داود : يا رب أمرتني أن أبني لك بيتاً فلما ارتفع هدمته ، فقال : يا داود إنما جعلتك خليفتي في أرضي ، لم أخذته من صاحبه بغير ثمن؟ إنما بينه رجل من ولدك . فلما قام سليمان : ساوم صاحب الأرض عليها ، فقال له : هي بقنطار ، فقال سليمان قد استوجبته ، فقال له صاحب الأرض : هي خير أو ذاك؟ فقال : بل هي خير ، قال : فإنه قد بدا لي ، قال :

أوليسَ قد أوجبتها؟ قال: بلى، ولكن البيّعين بالخيار ما لم يفترقا. قال ابن المبارك: فهذا أصل الخيار. قال: فلم يزل يراؤه حتى استوجبها منه بسبعة قناطير، فبناه سليمان حتى فرغ منه، وتغلّقت أبوابه فعالجها سليمان أن يفتحها فلم تفتح، حتى قال في دعائه: بصلواتِ أبي داود إلا انفتحت الأبواب، ففتحت، وفرغ له سليمان عشرة آلاف من قُرَاء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، لا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله عز وجل يُعبد فيه.

قال جدي رحمه الله عن الوليد عن أبي عمرو الشيباني: أوحى الله إلى داود إنك لن تتم بناء بيت المقدس، فقال: أي يا رب، ولم؟ قال: لأنك غمست يدك في الدماء أو الدم. قال: يا رب، ألم يكن ذلك في طاعتك؟ قال: بلى، وإن كان.

وروى جدي أيضاً عن كعب الأحبار قال: لما ولي سليمان أمره الله ببناء بيت المقدس، فبناه، فلما دخله خرّ ساجداً شكراً لله تعالى، فقال: يا رب، من دخله من خائف فأمنه، أو من داع فأجبه، أو مستغفراً فاغفر له. فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً ودعا بني إسرائيل إليه. وفي رواية: إن الله أوحى إلى داود: ابن لي بيتاً، فبنى لنفسه بيتاً قبل ذلك، ثم بناه فسقط^(١).

وروي: أن داود أراد أن يأخذ بيت رجل فيدخله فيه، قال سعيد بإسناده عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: أوحى الله إلى داود: أن ابن لي بيتاً أذكر فيه، فخط له من هذه الخطة - خطة بيت المقدس - فإذا تربيعها يزويه بيت رجل من بني إسرائيل، فسأله داود أن يبيعه إياه فأبى، فحدث نفسه داود أن يأخذه منه، فأوحى الله إليه: يا داود، أمرتك أن تبني لي بيتاً أذكر فيه، فأردت أن تدخل في بيتي الغضب، وإن عقوبتك أن لا تبنيه. قال: يا رب، بينه من ولدي؟ قال: نعم^(٢). وسنذكر الحديث في ترجمة العباس في سنة اثنتين وثلاثين.

وروى جدي أيضاً عن أبي عبد الملك الجزري قال: لما خلا من ملك سليمان مدة

(١) ما سلف كله في فضائل بيت المقدس المطبوع باسم: فضائل القدس ٧٢-٧٦..

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته ١٩/٤.

شرع في بناء بيت المقدس، فكان عدد من يعمل في بنائه ألف رجل عليهم قطع الخشب، في كل شهر عشرة آلاف وكان عدّة الذين يعملون في الحجارة عشرة آلاف، وعدة الذين يقومون عليهم ثلاث مئة أمين، وأولج فيه التابوت وصلى ودعا، فأوحى الله إليه قد غفرت لمن أتى هذا البيت لا يعنيه إلا الصلاة فيه^(١).

وروى أيضاً عن عطاء الخراساني قال: لما فرغ سليمان من بنائه أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة، إحداهما تنبت الذهب والأخرى تنبت الفضة، فكان في كل يوم ينزع من كل واحدة مئتي رطل ذهباً وفضة، ففرش المسجد بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة. فلما جاء بُخْتُ نَصْر خربه، واحتمل منه ثمانين^(٢) عجلة ذهباً وفضة فطرحة برومية.

قال جدي رحمه الله^(٣): بناه سليمان لأربع سنين خَلَّتْ من مُلكه في سبع سنين، ومن هبوط آدم عليه السلام إلى ابتداء سليمان ببناء بيت المقدس أربعة آلاف وأربع مئة وست وسبعون سنة^(٤).

وفي غير رواية جدي: ومن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر إلى بناء بيت المقدس ست مئة وست وثلاثون سنة.

وروى أيضاً جدي عن وهب بن منبه عن كعب قال: أوحى الله إلى سليمان: أن ابن بيت المقدس، فجمع حكماء الإنس وعفاريت الجن وعظماء الشياطين، ثم فرق الشياطين فجعل منهم فريقاً يبنون، وفريقاً يَقْطَعُونَ الصخور والعُمدَ من معادن الرخام، وفريقاً يغوصون في البحر يستخرجون منه الدرّ والمرجان، الدرّة مثل بيضة النعام والدجاجة، وأخذ في بناء المسجد فلم يثبت البناء، وكان عليه حَيْرٌ بناه داود عليه السلام، فأمر بهدمه، ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء، فقال: أسسوا عليه، فألقوا فيه الحجارة، فكان الماء يلفظها، فاستشار في ذلك فأشاروا عليه أن يتخذ قِلالاً من

(١) «فضائل القدس» ص ٧٧.

(٢) في (ب): «ثلاثين»، والمثبت موافق لما في «فضائل القدس» ص ٧٨.

(٣) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله.

(٤) «فضائل القدس» ص ٧٨.

نحاس ثم يملأها حجارة، ثم يكتب عليها ما على خاتمه من [ذِكْرِ] التوحيد، ثم يلقيها في الماء فيكون أساس البناء عليها ففعل فثبت، فبنى المسجد بناء لا يوصف وزينه بالذهب والفضة والدر والياقوت وألوان الجواهر في سمائه وأرضه وأبوابه وجدره^(١).

وروى جدي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص في تفسير قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُوْرًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] قال: هو سور بيت المقدس الشرقي^(٢).

هذه صورة ما ذكره جدي رحمه الله من عمارة بيت المقدس وبداية أمره.

قلت: وقد روى أبو ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(٣)، وقد ذكرناه، ودثر فجده الضحاك وعمل فيه العجائب، فلما خرج موسى من مصر وقصد الجبارين أخرجوه قبل أن ينزل بهم يوشع بن نون، ثم شرع في بنائه داود وتَمَّمَهُ سليمان.

وقد رويت هذه الألفاظ مرفوعةً وهي قوله لداود: إِنَّكَ غَمَسْتَ يَدَكَ فِي الدَّمِ وَبَنَيْتَ لَكَ بَيْتًا قَبْلَ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتًا.

فقال جدي في «الموضوعات»: أنبأنا أبو منصور بن خَيْرُون، عن الجوهرى، عن الدارقطني، عن أبي حاتم البستي، عن قتيبة، عن محمد بن أيوب بإسناده عن رافع بن عُمير^(٤) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ لِدَاوُدَ: ابْنِ لِي بَيْتًا فِي الْأَرْضِ، فَبَنَى دَاوُدُ لِنَفْسِهِ بَيْتًا قَبْلَ الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ بَنَيْتَ بَيْتَكَ قَبْلَ بَيْتِي، فَقَالَ: يَا رَبُّ هَكَذَا قُلْتَ فِيمَا قَضَيْتَ مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ فَسَقَطَ، فَشَكَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ اللَّهُ: لَنْ تَصْلِحَ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتًا. قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: لِمَا جَرَى عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الدَّمِ قَالَ: يَا رَبُّ أَوْلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي هَوَاكُ وَمَحَبَّتِكَ، قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي وَإِمَائِي أَرْحَمُهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى دَاوُدَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: لَا

(١) «فضائل القدس» ص ٧٩، والحير: الحظيرة أو البستان، أو المكان المنبسط المظمن المرتفع الجوانب.

(٢) «فضائل القدس» ص ٨٠، ومن هنا إلى: فيما كان بالبيت المقدس من العجائب، ليس في (ب).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٤) في (ط): عن نافع عن ابن عمر، والمثبت من الموضوعات (٤١٠).

تحزن، فإني سأقضي ببناؤه على يدي ابنك سليمان».

ثم قال جدي رحمه الله: هذا حديث موضوع، مُحالٌ يتنزه الأنبياء عن مثله، ويقبح أن يقال: أبيع له قتل قوم، أو أمر بذلك، ثم أبعد به عن الرضا عنه. قال ابن حبان: محمد بن أيوب يروي الموضوعات، لا يحلُّ الاحتجاج به، وإنما يروى مثل هذا عن أبي عمرو الشيباني.

وقوله أيضاً: يا داود إنك أخذته بغير ثمن. لا يجوز مثله على آحاد الناس، فكيف على الأنبياء لأنه يكون غصباً، وهو محال في حقهم.

وقد روى الحسن البصري في مراسيله: أن داود لما شرع في بناء البيت المقدس جاء رجل صالح في زي فقير ليختبرهم فقال: إن لي في هذه البقعة حصّة، وأنتم قد عزمتم على بنائها لله مسجداً، ولا أرضى أن تأخذوا أرضي بغير ثمن، فقال داود: أرضوه، قالوا: نعطيه مئة شاة فأبى، فقالوا: مئة بقرة، فأبى، فقالوا: مئة ناقة، فأبى، فلم يزالوا كذلك حتى ملؤوا أرضه ذهباً وفضة فقال: لا حاجة لي فيها، وإنما أردت أختبركم في طاعة ربكم. ثم مات داود ولم يتمه فأتته سليمان.

وروى جدي بإسناده إلى كعب في «فضائل بيت المقدس»: عن رجاء بن حيوة عن أبيه قال: قديم كعب إيلياء فرشاً من بعض أحبار اليهود^(١) بضعة عشر ديناراً على أن دلّه على الصخرة التي قام عليها سليمان حين فرغ من بناء المسجد، وهي مما يلي ناحية باب الأسباط، قام سليمان عليها ودعا بثلاث دعوات، فأراه الله تعجيل الإجابة في دعوتين، وأرجو أن يستجيب الله له في الآخرة. قال: اللهم هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فأعطاه الله ذلك، ثم قال: رب هب لي حكماً يوافق حكمك، فأعطاه الله ذلك، ثم قال: اللهم لا يأت هذا المسجد أحدٌ يريدُ الصلاة فيه إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه.

قلت: وقد أخرج أحمد في «المسند» حديثاً فيه طرف يتعلق بهذا فقال: حدثنا

(١) كذا في (ط)، وفي فضائل القدس ١٤٣: فرشى من أحبار يهود، وفي تاريخ دمشق ٣٥٢/٦٨ (مجمع اللغة): فرشاً - يعني - حبراً من أحبار اليهود.

معاوية بن عمرو بإسناده عن عبد الله الدَّيْلَمِي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو في حائطٍ له بالطائفٍ يقال له: الوهظ، وهو مُخَاصِرٌ فتي من قريش يُزَنُّ بِشُرْبِ الخمر، فقلت له: بلغني عنك حديثٌ: أَنَّهُ مَنْ شَرِبَ الخمرَ لم يَقْبَلِ اللهُ لَهُ تَوْبَةَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، وَأَنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَأَنَّ مَنْ أَتَى بَيْتَ المَقْدِسِ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَلَمَّا سَمِعَ الفتي بِذِكْرِ الخمرِ اجْتَذَبَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ، فَقَالَ عبد الله بن عمرو: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَرِبَ مِنَ الخمرِ شَرْبَةً لَمْ يَقْبَلِ اللهُ لَهُ تَوْبَةَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ - قَالَ: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة - قَالَ: فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنَ الصَّدِيدِ المُخْتَلِطِ يَوْمَ القِيَامَةِ»^(١).

قال: وسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّ اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ - أو خَلَقَهُ - مِنْ، أو فِي، ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ.

وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ سَأَلَ اللهُ ثَلَاثًا فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا»^(٢) الثالثة، سَأَلَهُ حُكْمًا يَصَادَفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي هَذَا المَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»^(٣).

وقال مقاتل: كانت الشياطين تأتيه باليوافيت من البحار فيحتاج إلى ثقبها، ولم يكن لهم خبرة بها، فسأل الشياطين عن ذلك فقالت: ما يعرف هذا إلا صخر الجنى، وإنه في جزيرة من جزائر البحر المظلم، ولا طاعة عليه لأحد. فطبع بخاتمه وبعثه مع العفاريت فجاؤوا به، فسأله سليمان عليه السلام عن ثقب اللؤلؤ فقال: لا يثقبها إلا

(١) في «المسند»: من ردة الخبال يوم القيامة.

(٢) في «المسند»: له.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٦٤٤)، وقوله يُزَنُّ: يتهم.

حجر السامور، ولا أعرف معدنه ولا أعرف في الطيور أشدَّ من العقاب، فاجعل فراخه في صندوق من حجارة، ثم اترك العقاب معهم ليلة، ثم أخرجهم واطرك فراخه في الصندوق فإنه سيأتي بالسامور، ففعل، فجاء العقاب بالسامور فثقب به الصندوق، فأخذه فثقبوا به اللآلىء، فهو إلى اليوم على ذلك.

فصل يتعلق ببيت المقدس

ذكر جدي رحمه الله في «فضائل بيت المقدس» عن قتادة أنه في قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾: أنه جبل عليه بيت المقدس^(١).

وقد جاء في الحديث: أن الوادي الشرقي من القدس وادي جهنم. أنبأنا عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي قال: حدثنا أبو السَّعَادَاتِ نصر الله بن عبد الرحمن القزَّاز بإسناده عن عثمان الرسلي عن أبي قال: قام عبادة بن الصَّامِتِ^(٢) على سور بيت المقدس الشرقي فبكى، فقال له بعض الحاضرين: ما يُبكيك؟ قال: من هاهنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم.

فصل فيما كان بالبيت المقدس من العجائب

أنبأنا جدي رحمه الله قال: حدثنا المبارك بن أحمد بإسناده عن أبي مالك بن ثعلبة ابن أبي مالك القرظي قال: سمعتُ إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله يُحدِّث عن أبيه عن جدِّه يرفعه قال: «إنَّ ذا القرنين كان من حمير، وإنَّه قصَّدَ البيت المقدسَ فرأى فيه من العجائب التي صنَّعها الضحَّاكُ بنُ قيسٍ في الزَّمانِ الأولِ».

إحدى تلك العجائب: أنه صنَّع ناراً عظيمة اللهب، فمن لم يُطع تلك الليلة أحرقتة.

(١) «فضائل القدس» ص ٧٠.

(٢) كذا جاء الإسناد في (ط)، وفي (ب): وقال أبو سودة، وأخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٢٩/٦، والثعلبي في تفسيره ٢٣٨/٩، والحاكم في المستدرک ٦٠٤/٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/١٩٤-١٩٥، وابن الجوزي في فضائل بيت المقدس ١٢٠-١٢١ (المطبوع باسم فضائل القدس) من طريق أبي نصر التمار، عن سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سودة: أن عبادة بن الصامت . . . قال البوصيري في إتحاف الخيرة (٧٨٢٥): منقطع، زياد لم يسمع من عبادة.

والثانية: من رمى بيت المقدس بنشابة رجعت النشابة عليه.

والثالثة: وضع كلباً من خشب على باب البلد، فمن كان عنده شيء من السحر واجتاز بالكلب نبج عليه، فإذا نبج عليه نسي ما عنده من السحر.

والرابعة: وضع باباً، فمن دخله وكان ظالماً ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظلمه.

والخامسة: وضع عصاً في محراب بيت المقدس، فلا يقدر أن يمسه إلا من كان من ولد الأنبياء، فإن كان من غيرهم أحرقت يده.

والسادسة: أنهم كانوا يحسبون أولاد الملوك في المحراب، فمن كان من أهل المملكة فإذا أصبح أصابوا يده مطليّة بالدهن^(١)، وذكر حديث السلسلة التي كانت لسليمان وسنذكرها.

قال ابن سيرين: صنع سليمان قبة في المسجد وطلاها بالخضرة، وصقل حائطها، فكان إذا دخلها الرجل الصالح استبان خياله في الحائط أبيض، وإذا دخلها الفاسق استبان ظله أسود.

فصل في فطنة سليمان

حدثنا غير واحد عن أبي البركات الحافظ المعروف بابن الأنماطي بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل إلى سليمان فقال: يا نبي الله، إن جيرانني يسرقون إوزي، فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وأحدكم يسرق إوز أخيه ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح رجل منهم يده على رأسه، فقال سليمان: خذوه، فإنه صاحبكم^(٢).

وقال أبو نعيم الأصفهاني: حدثنا سليمان بن أحمد بإسناده عن مكحول عن أبي هريرة قال: بينما سليمان بن داود عليه السلام في موكبه إذ مرّ بامرأة تصيح بابنها: يا لادين، فوقف سليمان فقال: إن دين الله الظاهر، وأرسل إلى المرأة فسألها عن ذلك

(١) «فضائل القدس» ص ٨١-٨٢.

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة (٣١٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/٢٨٠، وهو في الأذكياء لابن

فقلت: إن زوجها سافر ومعه شريك له ثم قدم، فزعم أن زوجها مات، وأوصى إلى شريك له إن ولد له غلام يسميه: لادين، فسأل سليمان عن الشريك وطلبه، فحضر بين يديه وقال له: ما هذا؟ وهدده فاعترف بأنه قتل أبا الغلام، فقتله سليمان^(١).

فصل في تعليمه منطق الطير

روى أبو صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] كما نفهم لغة بني آدم. وقال مقاتل: كان سليمان جالساً فمرَّ به طائر يرفرف ويصيح، فقال سليمان لجلسائه: هل تدرون ما يقول هذا الطائر؟ قالوا: الله أعلم وأنت يا نبي الله، قال: إنه يقول: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل، أعطاك الله الكرامة وأظهرك على عدوك، إني لمنطلق إلى فراخي وأعود إلى خدمتك. قال سليمان: وإنه سيرجع إلينا. قال: ومضى الطائر ثم عاد فوقف على سليمان، ثم قال لسليمان: أيها الملك إن أذنت لي أن أكتسب لفراخي حتى يشبوا ثم أتيك فافعل بي ما شئت، فأخبرهم سليمان بما قال وأذن له.

وقال فرقد السبخي: مرَّ سليمان على بلبل وهو على شجرة يحرك رأسه ويترنم ويميل ذنبه فقال: هل تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: أكلت اليوم ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وقد ذكر الثعلبي «في تفسيره» العجائب من هذا الجنس، والله أعلم^(٢).

فصل في ممره على وادي النمل وغيره

قال الله تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

قال مقاتل: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا.

قال مجاهد: كان قد جعل الله على كل صنف منهم وزعةً يحبسون أولاهم على

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣٠١)، وأبو نعيم في الحلية ٢٧٦/٨، وهو في الأذكياء ٢٦-٢٧.

(٢) تفسير الثعلبي ١٩٣/٧ فما بعدها، وانظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٦-٢٩٧.

أخراهم حتى يقف كلُّ صنف منهم عند حدِّه ولا يتقدم في السَّير كما يفعل الملوك.
وأصل الوَزْع: الكفُّ والمنعُ.

وقال وهب: مرَّ سليمان على وادي النَّمْل، واختلفوا فيه، قال قوم: هو بالطَّائِف،
وقال قوم آخرون: بالمغرب، وقيل: بالساحل، وقيل: بالمشرق.

فخرجت نَملة عرجاء اسمها منذرة، فجعلت تمشي وتتكأوس^(١)، فلما رأَت البساط
وما عليه من الجيوش ذهلت ونادت، فقالت: ﴿يَكَايُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾
[النمل: ١٨] الآية، فألقت الريح قولها في سمع سليمان ﴿فَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾
[النمل: ١٩] ووقف ببساطه. قال الضَّحَّاك: اسمها طاخية، وقال مقاتل: حرمى. ثم
أحضرها بين يديه وقال لها: حذرت إخوانك ظلمنا والأنبياء لا يظلمون، قالت: معاذ الله.
قال: فكيف قلت: ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٨] فأجابت بجوابين:

أحدهما: قالت: أما سمعت قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

والثاني: أنها قالت: ما أردت حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خفت أن
يتمنين ما أعطيت فيشتغلن عن ذكر الله ﴿فَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾^(٢).

قال جدي رحمه الله: إنما تبسم ضاحكاً من فصاحتها، لأنها جمعت في الآية
الفصاحة كلها وذلك لأن قولها: ﴿يَا﴾: نادت، ﴿أَيُّهَا﴾: نبَّهت، ﴿النمل﴾: عيَّنت،
﴿ادخلوا﴾: أمرت، ﴿مساكنكم﴾: نصَّت، ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ﴾: حذَّرت، ﴿سليمان﴾:
خصَّت، ﴿وجنوده﴾: عمَّت، ﴿وهم لا يشعرون﴾: عذَّرت^(٣).

قال مقاتل: قال لها سليمان: عِظِينِي، فقالت: لِمَ سُمِّي أبوك داود وأنت سليمان؟
قال: لا أدري. قالت: لأنه داوى جرحه بمراهم التوبة فوداه ربه، وأنت سليم، آن لك
أن تلحق بأبيك^(٤).

(١) الكوس: المشي على رجل واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٨-٢٩٩، وتفسير الثعلبي ٧/ ١٩٤ وما بعدها وعنه زاد المسير ينقل
تفسير الآيات.

(٣) «زاد المسير» ٦/ ١٦٢.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٩.

وقد ذكرنا أنها قالت له: إني لأجد رائحة الحسد من قولك: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

قال وهب: كانت النملة بقدر الذئب^(١).

وفي حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الهدد والضرد والنحلة والنملة^(٢).

قال وهب: احتاج سليمان إلى حنطة فبعث إلى وادي النمل فاقترض منهم، فقالت النملة: إلى غداة غد، فلما أصبحوا إذا الوادي بأسره حنطة، فلما أخصبت الأرض بعث إليهم سليمان أضعاف ذلك، فأخذوا مثلما أقرضوا وردوا الباقي، فأرسل إليهم سليمان يعتيهم على ذلك، فقالت النملة: إنا معاشر النمل لا نأكل الربا.

وحدثنا عبد الله بن أبي المجد الحربي وجدي رحمة الله عليهما قالا: حدثنا هبة الله ابن الحسين بإسناده عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان يستسقي، فمر بنملة وقد استلقت ورفعت قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس لنا غنى عن سؤالك، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، قال: فسقوا^(٣).

وقال عبد الله بن أحمد بإسناده عن وهب بن منبه قال: ركب سليمان يوماً على الريح فمر بحراث فنظر إليه فقال: لقد أوتي ابن داود ملكاً عظيماً، فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان، فنزل من البساط ووقف على الحراث فقال: قد سمعت ما قلت وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود، فقال الحراث: أذهب الله همك كما أذهبت همي^(٤).

وفي رواية: أن الحراث لما قال ذلك ناداه ملك من السماء: لتسيحة واحدة خير

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٦٦) مرفوعاً.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠١) و(٣٥٤١٤) (طبعة عوامة)، وأحمد في الزهد ١١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٠٣)، وأبو نعيم في الحلية ١٠١/٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٨٦/٢٢.

(٤) «الزهد» ص ٥١، و«عرائس المجالس» ص ٢٩٥-٢٩٦.

مما أوتي ابن داود، قال: ولم؟ قال: لأن التسيحة تبقى ومُلك ابن داود يفنى.
وفي رواية: أن الحراث لما رأى البساط قال: لو أن ابن داود عندي كلمته بثلاث
كلمات، فأوحى الله إليه انزل إليه، فنزل سليمان وقال: ما الكلمات؟ قال:
أما الأولى، فإني قلت: والله ما سليمان في لذة التذُّبها أمس وأنا في تعبِ تعبته
أمس إلا سواءً، فلا هو واجد لذة أمس ولا أنا وجدتُ تعبَ أمس.
والثانية: قلتُ: سليمان يموت وأنا أموت.

والثالثة: قلتُ: سليمان سأل وأُعطي وأنا لا أسأل^(١)، فخرَّ سليمان يبكي ويقول:
إلهي لولا أنك جواد لا تبخل لسألتك أن تنزع عني ما أعطيتني.

قال كعب: مرَّ سليمان في طريقه إلى اليمن على يثرب فقال: هذه مهاجرُ نبيِّ يُبعثُ
في آخر الزمان، فطوبى لمن رآه وآمن به. قال: ثم مرَّ على البيت فرأى حوله أصناماً
تُعبدُ من دون الله فجاوزهُ لم ينزل عنده، فبكى البيت، فأوحى الله إلى البيت: سأملؤك
وجوهاً سجداً، وأنزل فيك قرآناً، وأبعثُ منك نبياً في آخر الزمان هو أحبُّ أنبيائي
إليَّ، وأُسكنُ حولك عُمّاراً من أمته يعبدونني ويمجّدونني ويطهّرونك من الأصنام،
وأفترضُ زيارتك عليهم، يزفون إليك زَفيف النسور إلى أوكارها، ويحنون إليك حينَ
النوق إلى أولادها، وسيعود إليك سليمانُ ويقضي واجبَ حقِّك. فلما عاد نزل به وكسر
الأصنام وطاف به وذبح الذبائح وقضى نُسكَه^(٢).

فصل في عرض الخيل على سليمان

وهل عقرها قبل وقوع المحنة أو بعدها؟ فيه قولان.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِينَتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١] العشي: ما
بعد الزوال، لأن النهار قسمان غداة وعشي، فالغداة من طُلوع الفجر إلى وقت
الزوال، والعشي ما بعد الزوال إلى غروب الشمس.

(١) في (ب): «سليمان يسأل غداً وأنا لا أسأل».

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٩٨.

والصافنات: الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل. قاله مجاهد وابن زيد، واختاره الزجاج واحتج بقول الشاعر:

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا^(١)

قال الفراء: إنها القائمة، سواء أكانت على ثلاث قوائم أو على أربع، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ لَهُ الرَّجَالُ صَفُونًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

وأما الجياد: فهي السراع في الجري.

وفي سبب عرضها عليه أقوال:

أحدها: أنه أراد جهاد عدو له، قاله علي عليه السلام.

والثاني: أنها أخرجت له من البحر، قاله الحسن وهب.

وقال وهب: قيل لسليمان: إن خيلاً بلقاء لها أجنحة تطير بها وإنها ترد ماء كذا في جزيرة كذا وكذا، فأمر الشياطين بإحضارها فأخذوا سلاسل ولجماً وجاءوا إلى العين التي تشرب منها، فسكبوا فيها الخمر، فجاءت فشربت، فوضعوا اللجم في رؤوسها والسلاسل في أعناقها وجاءوا بها إليه فاستعرضها^(٣).

والثالث: أنه ورثها عن أبيه فعرضت عليه، قاله ابن السائب.

والرابع: أنه غزا أهل دمشق فأصابها منهم، فجلس يعرضها، قاله مقاتل.

واختلفوا في عددها على أقوال:

(١) البيت في معاني القرآن للزجاج ٤/٣٣٠، وتفسير الماوردي ٥/٩٢، وزاد المسير ٧/١٢٧، والتبصرة ١/٢٨٩، وتفسير القرطبي ١٨/١٩١، وأساس البلاغة، واللسان، وتاج العروس (صفن) دون نسبة.

(٢) أورده بهذا اللفظ الخطابي في غريب الحديث ١/٣٩٧، والثعلبي في تفسيره ٨/٢٠٠، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٩١، والماوردي في النكت والعيون ٥/٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/١٢٧، والتبصرة ١/٢٨٩، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ١٤٢: لم أجده هكذا.

وأخرج أحمد في مسنده (١٦٨٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ٢٢/٢٤٠.

أحدها : أنها كانت ألف فرس ، قاله ابنُ السائب الكلبى .
والثانى : أربعين ، قاله كعب ، وقال : ظلمها بعقرها ، فسلبه الله ملكه أربعين يوماً .
والثالث : أربعة عشر ، قال كعب : فعاقبه الله بزوال ملكه أربعة عشر يوماً .
والرابع : كانت عشرين ، قاله مقاتل وإبراهيم التيمى .
وحكى جدي فى «التبصرة» قولين : أحدهما عن وهب : أنها كانت ثلاثة عشر ألفاً .
والثانى : عشرين ألفاً . عن سعيد بن [جبير و] مسروق^(١) .
والقولان بعيدان . ويحتمل أن الكاتب أراد أن يقول ثلاثة عشر أو عشرين فزاد ألفاً .
قال ابن عباس : صلى سليمان الظهر وقعد على كرسيه وهى تُعرض عليه حتى فاتته صلاة العصر فاغتم لذلك قال : ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص : ٣٣]
فعرقها وقربها إلى الله ، قال مقاتل : وبقي منها مئة فرس ، فجميع ما فى أيدي الناس من الخيل من تلك المئة .
قال محمد بن السائب الكلبى : ورد عليه قوم من الأزد أصهاره فقالوا : يا نبي الله إن أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا ، فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال : إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا ، فإنكم لا تورون ناراً - أو ناركم - حتى يأتىكم بصيد ، ففعلوا ذلك ، فكان الغلام لا تقع عينه على شيء من الصيد فيفلت ، فما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى بلادهم فسّمّوه : زاد الراكب ، فأصلُ فحول العرب من نتاجه^(٢) قال : وكان فحل مالك بن عامر الذى يقال له : أعوج منها ، ويقال : إنه كان لعمر بن نهيك ، وفيه يقول لبيد^(٣) :

مَعَاقِلُنَا الَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّةِ وَالسُّيُوفِ
ومنها : الغَضْبَانُ فرسٌ كان لهارون الرشيد ، وسنذكره .

قال مقاتل : مازالت الخيل تُعرض عليه حتى فاتته صلاة العصر وكان مهيباً ، فلم

(١) «التبصرة» ٢٨٩/١ ، وما بين معكوفين منه .

(٢) انظر «أنساب الخيل» ص ١٣-١٤ ، والعقد ١/١٥٧ .

(٣) البيت فى ديوانه : ص ٣٥١ .

یتجاسر أحدًا أن يذكره، فلما غابت ذكر فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] يعني الصلاة.

واختلفوا في معنى قوله ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ على قولين:

أحدهما: أنه أشار إلى الخيل، في قول عامة المفسرين.

والثاني: إلى الشمس، كأنه قال: يا ملائكة الله رُدُّوا الشمسَ عليَّ، أي: أمسكوها، وكانت قد غابت.

فإن قيل: فقد وقفت الشمس ليوشع بن نون، وكان سليمان أعظم منه ملكاً، فالجواب من وجوه:

أحدها: يوشع إنما سأل وقوف الشمس ليجاهد في سبيل الله، وسليمان كان مشغولاً بالزينة والنظر إلى الخيل لا لأجل الجهاد، وخاف يوشع دخول السبت، أما سليمان فلا.

والثاني: أن فتح أريحا كان معجزةً، لأنه شرع فيه وأتمه يوشع، وموسى أفضل منه، فكان وقوف الشمس من معجزات موسى.

والثالث: أنها بعد الغروب لا يمكن عودها لاختلاف الأفلاك، أما وقوفها فممكن لأنها تسير قليلاً قليلاً.

وفي المراد^(١) بالمسح قولان:

أحدهما: أنه ضربها بالسيف، رواه أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ^(٢).

والثاني: أنه كوى سوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله. حكاه الثعلبي^(٣).
والعلماء على الأول.

فإن قيل: فكيف جاز له ذلك، وعقوبة من لم يذنب على وجه التَّشْفِي من فعل

(١) من قوله: ومنها الغضبان... إلى هنا ليس في (ب).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٠٠: فيه سعيد بن بشير وثقه شعبة وغيره وضعفه ابن معين وغيره، وبقيته رجاله ثقات.

(٣) انظر تفسير الثعلبي ٨/٢٠١، و«عرائس المجالس» ص ٣٠٥.

الجَبَابِرَةُ لا من فعل الأنبياء؟

فالجواب: أنه نبيٌّ معصوم، فلم يكن يفعل إلا ما أُجيز له فعله، وجائز أن يُباح له ما يمنع منه في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً، فما وقع منه تفريط، ألا ترى أن الله سخر له الرِّيح مكانها، ولو كان ذلك الفعلُ حراماً لما فعله، لأنَّ الأنبياء لا يفعلون الحرام^(١).

وقد قال علي عليه السلام: كان عقر الخيل بعد الوقوع في المحنة، ولما بلغه قول كعب: إنه عقر أربعين فرساً فسلبه الله الملك أربعين يوماً فقال: كذب كعب، إنما كان عقر الخيل بعد المحنة ولا عرقبها إلا لَمَّا فاتته الصلاة، وأنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم.

قال ابن عباس: كان عقر الخيل قبل المحنة، وهو الظاهر، لأن المحنة كانت في آخر عمره، لما يذكر.

قال: وقد قال أبو حنيفة: يُكره أكل لحوم الخيل لما فيه من تقليل آلة الجهاد، قال ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ وَالنَّيْلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢). وهذا دليل على أنها مكرومة وفي الذبح إهانتها. وعند الباقيين من الفقهاء: لا يكره لأنها من المباحات كالإبل والبقر والغنم، والفرق لأبي حنيفة ظاهر لما عرف من مسائل الخلاف.

فصل في قصة الهدهد وبلقيس^(٣)

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]. وقال الجوهرى: الهدهد طائر معروف، والهداهد مثله، وهداد حي من اليمن^(٤).

(١) انظر «زاد المسير» ١٣٢/٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٧٩١)، من حديث جابر وأصله في «البخاري» (٣٦٤٣)، و«مسلم» (١٨٧٢) من حديث ابن عمر بلفظ «الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

(٣) من قوله: حكاة الثعلبي . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٤) «الصحاح»: (هدد).

قال علماء السیر: إنما تفقد الهدهد من دون سائر الطيور لوجهين:

أحدهما: لأنه كان يدلُّه على الماء، قاله ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: لأن سليمان كان إذا سافر جلس على كرسیه، وتوضع الكراسي عن يمينه وشماله، وتقوم الجنُّ في خدمته، وتظله الطير، ولكلُّ جنس مقام، وكان موقف الهدهد على رأسه يُظله من الشمس^(۱).

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان هذا بعد فراغه من بناء البيت المقدس، فإنه عزم على دخول الحجاز واليمن، فسار في جنوده على عادته والبساط يُقلُّه، فأتى حرم مكة فنزل به، وأقام أياماً يطوف بالبيت ويسعى ويعتمر، ويذبح كلَّ يوم خمسة آلاف ناقة وعشرة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة.

وقال مجاهد: قال سليمان لأصحابه: هذا مكان شريف يخرج منه نبيُّ كريم اسمه محمد، وفي «التوراة»: أحمد، يُعطى النصر على من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحقِّ سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، يدين بدين الحنيفة، يخرج بعد ألف عام، ثم كسر الأصنام وقضى نسكته. وقيل: إنه قال: وإنَّ اسمه لفي زبر الأنبياء: منيب، ثم دخل إلى اليمن.

وكان كثير الغزو لا يسمع بملك في أطراف الأرض إلا غزاه وأذله، فسار من مكة يومٌ سهيلاً حتى أتى موضع صنعاء، ولم تكن بُنيّت بعد، وإنما أتى مكانها وقت الزوال، وكان قد خرج من مكة وقت الفجر، وذلك بمقدار سير شهر للراكب المجدِّ، فرأى أرضاً خضراء فأعجبته، فنزل بها ليتغذى ويصلي الظهر، فطلب الماء فلم يجد، فسأل الشياطين فقالوا: لا يعلم مكان الماء إلا الهدهد، فطلبه فلم يجده.

قال ابن عباس: كان الهدهد يدلُّه على الماء، وهو يراه من تحت الأرض كما يراه الإنسان في كأسه، ينقر الأرض فيعرف مكان الماء ويستخرجه الشياطين، ولما سمع نافع بن الأزرق هذا من ابن عباس قال: كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخَّ حتى يجيء فيقع فيه فيأخذ بعنقه؟! فقال له ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال

(۱) انظر «عرائس المجالس» ص ۳۱۳.

دون البصر^(١).

وقال جدي رحمه الله: كان الهدهد ينظر إلى الماء في باطن الأرض كما ينظره في الزجاج، غير أن القدر إذا نصب فَنَحَّ شخصٍ بُدِّلَ عَذْبُ نظرِهِ بالأجاج.

قال ابن عباس: لما نزل سليمان بأرض صَنْعَاءَ قال الهدهد: إِنَّ سليمان قد اشتغل بنزوله عني، فارتفع نحو السماء فنظر الدنيا يميناً وشمالاً، فرأى بستان بلقيس، فمال إلى الخضرة فنزل به، وإذا بههدد في البستان، وكان ههدد بلقيس، واسمه: عفير، واسم ههدد سليمان: يعفور. فقال له عفير: من أين أقبلت؟ فقال: من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: وَمَنْ سليمان؟ قال: مَلِكُ الإنس والجن والطيور والوحش والريح، فَمَنْ أنت؟ فقال: أنا صاحب بلقيس، مَلِكَةُ عَظِيمَةٍ. فقال له يعفور: أقول لك نبي الله ابن نبي الله داود آتاه الله ملكاً عظيماً، وأنت تقول امرأة، فقال: هي وإن كانت امرأة فإن تحت يدها اثني عشر ألف قائل - أو قِيلَ - تحت يد كل قائد مئة ألف مقاتل. كذا ذكر الثعلبي^(٢).

وحكى الثعلبي عن ابن عباس أنه قال: كان معها مئة ألف قِيلَ مع كل قِيلَ مئة ألف، وقد ذكره جدي في «التبصرة» وفيه بُعْدٌ^(٣).

وقال قتادة: كانت تحت يدها اثنا عشر ألف قِيلَ، تحت يد كل قِيلَ اثنا عشر ألفاً - والقِيلَ بلغة حمير دون الملك - فهل أنك منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ فقال: أخاف أن يتفقدني سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، فقال عفير: إِنَّ صاحبك يسرُّه أن يأتيه خبر هذه المرأة، أو الملكة. فانطلق به فأراه قصرها ومُلكها، وما رجع إلى سليمان إلى وقت العصر.

قال مقاتل: وأمَّا سليمان فلما تفقده ولم يره قال: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾ [النمل: ٢٠] ومعناه ما للهدهد لا أراه، فَطُلِبَ فلم يوجد، وقيل: إنما طلبه

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٣.

(٣) لم نقف عليه في التبصرة، وذكره في زاد المسير ١٠٤٥ (طبعة ابن حزم)، وانظر تفسير الثعلبي ٧/

لأنه أخلَّ بالخدمة وترك النوبة في مقامه، وقيل: لأجل الماء، وقد رجح بعضهم أنه إنما تفقده لكونه أخلَّ بالخدمة لا لأنه كان يدلُّه على الماء، قالوا: لأنَّ سليمانَ في عظمتِه ومملكته أجلُّ من أن يحتاج إلى هدهد يدلُّه على الماء. وليس هذا القول، بشيء لأنَّ عامة العلماء وابن عباس على أنه كان يدلُّه على الماء. والمعنى فيه: أن الله جعله دليلاً على الماء إظهاراً للكمال والقدرة وتعجيزاً لسليمان مع عظم مملكته، فأحوجه إلى طير حقير يدلُّه على الماء الذي به بقاء الأرواح، ليعلم أنَّ الكمال لله، ولئلا يعجب بنفسه.

وقوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ قيل: معناه بل كان. ثم توعدده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ واختلّفوا فيه على أقوال:

أحدها: لأنتفنَّ ريشه، قاله ابن عباس والجمهور.

والثاني: لألقينّه في الشمس ممعوطاً، قاله زيد بن أسلم.

والثالث: لأجعلنه في قفص، قاله عكرمة.

والرابع: لأحبسنّه مع غير أبناء جنسه، قاله قتادة.

والخامس: لأفرقنّ بينه وبين أحبّابه، قاله الحسن.

والسادس: لأمنعنه من خدمتي^(١).

ثم قال: ﴿لَأَنْزِجَنَّهُ﴾ جعل الذبح آخر العذاب ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] أي: بحجة واضحة. وقال ابن عباس: كل سلطان في القرآن، فالمراد به الحجة^(٢).

قال مقاتل: ولما غضب سليمان على الهدهد دعا بعرفاء الطيور وهما النسر والعُقاب، وقيل: إنما دعا بالعُقاب، وهو ملك الطير، فقال: عليّ الساعة بالهدهد، فارتفع العُقاب إلى عنان السماء فنظر يمينا وشمالاً فرأى الأرض كالقصة، ونظر نحو اليمين وإذا بالهدهد قد أقبل، فانقضَّ عليه العُقاب، فعلم أنه يريد به سوء، فقال له:

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٤، والممعوط: المتوف الريش.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٤.

بالذي أقدرك عليّ إلا ما رحمتني، فقال: ويحك إن نبي الله قد آلى أن يُعذّبك عذاباً شديداً فقال: وما استثنى؟ قال: بلى، قال: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وجاء فوقف بين يدي سليمان خاشعاً ذليلاً فتواعده بالعذاب، فقال له: اذكر وقوفك بين يدي الله أذلّ من وقوفي بين يديك، فانتفض سليمان من خشية الله تعالى ثم قال له: أين كنت؟ قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]. قال ابن عباس. ومعنى ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] أنه غاب عنه من الظهر إلى العصر، قال مقاتل: ومعنى ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي علمت بما لم تعلم مع عظيم سلطانك وحقارتي.

فإن قيل: فمن أين للهدهد هذا الإقدام على مثل سليمان؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما قيل له إن سليمان قد توعدك قال: أما قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّكَ﴾ فتهديد ملك، والحلم أحسن. وأما قوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ﴾ فقول من لم ينظر في العواقب ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ سؤال لازم يقتضي الجواب وهو على ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾. فقيل له: كيف تجاسر الهدهد على هذا؟ فقال: وهو الثاني: إن الهدهد كان مُحِقّاً والمحقُّ ما يخاف.

والثالث: إنه قول مستقبل والمستقبل لا يلتفت إليه.

والرابع: أنه شغله بحديث يحتاج إلى فكرة وروية، وفي تلك المدة يسكن الغضب، ألا ترى إلى قوله: ﴿سَنَنْظُرُ﴾.

والخامس: أنه شغله بذكر الزوجة ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣] فكأنه يقول: إن لم تكن بك رغبة في تزويجها فارغب في مالها بطريق الاستيلاء، ومهما حصل لك من القسمين فهو فدائي من القتل.

والسادس: اشتغل عن قتل عاجز بين يديك بذكر عجزك عن قادر يقتدر عليك.

والسابع: أنا مؤمن وقومها وهي كفار، فاشتغل بقتلهم عن قتلي. ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فاشتغل بقتل من يسجد لغير الله عن قتل من يسجد لله.

والثامن: أن الأنبياء إنما بُعثوا بالعدل، ومن العدل أن تكون العقوبة على قدر

الذنب، فلم جعلت غاية الحدود وهو القتل في مقابلة ساعة؟

والتاسع: إن فاتك الماء فما فاتك المال والملك.

والعاشر: أن لا بد للخادم من ساعة يستريح فيها ويتشاغل بمصالح نفسه عن

مخدومه.

والحادي عشر: أنا وإن غبتُ عنك ساعةً فإنما كنت في خدمتك ومصالحك، وقد

أقام القرآن عذري ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

والثاني عشر: لم قدمت العقوبة قبل إتيان الحجة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ هلاً قلت: إن لم يأت

بحجةٍ عذبتَه.

والثالث عشر: إنما ينبغي أن يُهدد بالقتل المماثل في المرتبة.

والرابع عشر: ليس العجب من تهددك لي مع القدرة، وإنما العجب من مناظرتي

وأنا عاجزٌ عن ردِّ القتل.

والخامس عشر: إنني قد عرّفتك حالة ما فهمها غيري، فإذا قتلني لم تجد من يدُّلك

على مثلها، فيفوتك ما هو أعظم من قتلي.

والسادس عشر: إنك ادّعت أن الله قد آتاك ملكاً لم يؤتِه أحداً من قبلك، أفترضني

أن تكون قدرتك على قتل طويرٍ حقيرٍ أقبل من عند من أوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ

عظيم؟

والسابع عشر: أن من عادة الملوك إذا أرسلوا رسولاً في مهمٍّ أحسنوا إليه، أفيحسنُ

بك وقد أتيتك بخبر لو اجتمع عليه رسل الدنيا وطورها لما قدروا على الإتيان بمثله،

أن تكون جائزتي القتل.

والثامن عشر: إنك إذا قتلني على ذنبٍ حقير، نفر عنك أربابُ الدولة، فدع قتلي

حفظاً لدوام مُلكك.

والتاسع عشر: إنني من بعض رعاياك وأنت مسؤولٌ عني فكيف تقتلني، فجزاء سيئة

سيئة مثلها.

والعشرون: إنك إنما عزَّ عليك غيبي لفوات الماء، وكم قد فاتني حظي منك وما

طالبتك به.

والحادي والعشرون مثله: إنك إنما عزَّ عليك غيبتني لفوات الماء وكم قد فاتني حظي منك وما طالبتك، وإنَّ العفوَّ أحسنُ من العقوبة فأين تأثير ﴿فَيَسْتَبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

والثاني والعشرون: هلاً تذكرت ذنبك الذي أوجب أخذ الخاتم منك، واشتغلت به عن يسير ذنبي؟

والثالث والعشرون: أنك تدَّعي الفطنة، وأنا قد أتيتك بحجة ذكي ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَمِينًا﴾ عامة القراء على عدم صرف «سبأ»، وهو اختيار أبي عبيد والحسن وأبي عمرو وابن كثير، جعلوه اسماً للقبيلة، وصرفه آخرون جعلوه اسماً لرجل معروف^(١).

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن سبأ أَرَجُلٌ هو أو امرأة أم أرض أم جبل أم واد؟ فقال النبي ﷺ: «بَلْ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ، سَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَالشَّامَ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةٌ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَحِمِيرٌ وَأَنْمَارٌ، وَأَمَّا الشَّامِيُّونَ فَلَخْمٌ وَجُدَامٌ وَعَامِلَةٌ وَعَسَّانٌ»^(٢).

وقال الزبير بن بكار: هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، قلت: وهذا يدل على صرفه.

﴿بِنْتًا يَمِينًا﴾ [النمل: ٢٢] أي: لا شك فيه.

قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُكُمْ﴾ واختلفوا في اسمها واسم أبيها:

فقال ابن عباس: هي بلقيس بنت ذي شرح بن الحارث بن صيفي^(٣) بن سبأ بن

(١) انظر النكت والعيون ٢٠٣/٤، وتفسير الثعلبي ٢٠١/٧، وزاد المسير ١٦٤-١٦٥/٦، والنشر لابن الجزري ٣٣٧/٢.

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٨٩٨).

(٣) «تاريخ الطبري» ٤٨٩/١ والمصادر السالفة قبل حاشيتين.

يَشْجُبُ بن يَعْرُبُ بن قَحْطَانَ، ويلقب أبوها بالهدهاد.

وقال عكرمة: بَلْقِيسُ بنت شراحيل بن ذي جَدَن.

وقال قتادة: بَلْقِيسُ لقب لها، واسمها: بلقمة بنت ذي شرح، وقيل: بنت

الشيصبان، وقيل: اسمها ليلي.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن الحسن أن سَبَأَ مدينة باليمن، وبلقيس من

حَمِيرَ بنت شرحيل، قال: وقال الحسن البصري أيضاً: أن ملكة سبأ اسمها ليلي.

وحكى أبو القاسم أيضاً في «تاريخه» أن ذا القرنين مَلَكَ الأَرْضَ كُلَّهَا إلا بلاد

بَلْقِيسَ، وكان ذو القرنين إذا أراد أن يحارب أهل مدينة لبس ثياب المساكين، ودخل

المدينة فكشف عورتها قبل أن يقاتل أهلها. فأخبرت بلقيس بذلك، فبعثت مَنْ صَوَّرَ

صورته في زي المساكين ثم جعلت تطعم المساكين في كل يوم، فإذا أكلوا اعترضتهم

واحدًا واحدًا إلى أن جاء ذو القرنين فعرفته، فقالت: والله لا أفارقك إلا أن تكتب لي

كتابَ أمانٍ على مُلكي، وإلا قتلتك. فكتب لها^(١).

قلت: والعجب من أبي القاسم كيف يحكي مثل هذا، وذو القرنين كان في زمان

الخليل عليه السلام، وأين زمان الخليل من زمان سليمان، بينهما ألوف سنين.

ثم ذكر أبو القاسم أن بلقيس لم يُظَلَّ عمرها وأنها ملكت سبع سنين، وهذا تناقض ظاهر.

وحكى المسعودي من هذا الجنس فقال: إن أبا بلقيس خرج يوماً يتصيد فرأى حيتين

بيضاء وسوداء، فأمر بقتلهما فانتفضتا، فخرج رجل وامرأة وإذا بالمرأة ابنة الرجل

فراها جميلة، فزوجه أبوها إياها، فولدت بلقيس^(٢).

قال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: سئل الحسن البصري عن قول النبي ﷺ: «أحد

أبوي بلقيس كان جنياً»، فأنكر ذلك وقال: إن المرأة من الجن لا تلد من الإنس^(٣)،

كأنه ضعّف الحديث.

(١) انظر «تاريخ دمشق» ٦٨/٦٩.

(٢) «مروج الذهب» ١٥٢/٣.

(٣) «تاريخ دمشق» ٦٧/٦٩.

وذكر قتادة: أن أحد أبويها كان جنيًا وأن مؤخر قدميها مثل حافر الدابة، وكانت تسكن بمأرب.

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ ما ذكره الحسن، ولا يصح، وإنما هو موقوف على أبي هريرة.

وقال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، وولد له أربعون ملكاً، وكان يملك اليمن كلها ويقول: ليس من ملوك الأطراف من يكافيني، فتزوج امرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقمة، وهي بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها. ولما مات أبوها طمعت بلقيس في الملك فأطاعها بعض قومها وعصى عليها البعض، ومَلَكَوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فريق استولى على طرف من الأرض، فمد ذلك الرجل يده إلى أموال الرعية وحرَمهم، وكان يفجر بالنساء فكرهوه، وأرسلت إليه بلقيس ترغب فيه فتزوجها، فلما زُفَّت إليه سقته الخمر حتى سكر وذبحت، ونصبت رأسه على باب قصرها، فعظمت في أعين الناس وأطاعوها، وعلموا أنها تزوجته حيلةً لتريحهم منه، فقالوا: أنتِ أحقُّ بالملك من غيرك، فقالت: إنما قتلته حميةً على نسائكم وغيره عليكم، فدعوا لها^(١).

وقال جدي رحمه الله في «تاريخه» وفي «التبصرة»: إن أباهم ملك سنة ثم اختُصِر، فاستخلفها وعهد إليها، ودعا أشراف قومه وأخبرهم بذلك، لما عَرَف من رأيها وحسن تدبيرها، فقال له بعضهم: أتدعُ أشراف قومك وأفاضلهم وتستخلف امرأة؟ فذكر لهم حُسن سيرتها وما جَرَّبَهُ من تدبيرها ومعرفتها بسياسة الملك، فقالوا: رضينا، وكانت تسكن أرض سبأ وهي مأرب^(٢).

وقال الجوهري: مأرب موضع^(٣). وبعضهم يقول: مأرب اسم قصر بلقيس، وأنشد لأبي الطمَّحان^(٤):

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣١٥.

(٢) «التبصرة» ١/ ٣٠٤، ولم نقف على الخبر في «المنتظم».

(٣) «الصحاح»: (أرب).

(٤) البيت في كتاب «الحيوان» ٦/ ١٥٤ للجاحظ، ومروج الذهب ٣/ ٣٧٤.

أَلَمْ تَرَ مَأْرِبًا مَا كَانَ أَحْصَنَهُ^(١) وما حَوَالِيَهُ مِنْ سُورٍ وَبُنْيَانٍ
وقال المسعودي في «تاريخه»: مَأْرِبُ اسْمِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ يَمْلِكُهُمْ. وَهُوَ وَهْمٌ
مِنْهُ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ^(٢).

قال وهب: كان يحرسها الرّجال ويخدمها بنات الأشراف، وكان معها في قصرها
ألف امرأة، وكانت تأخذ الجارية وهي صغيرة، فإذا بلغت حدّتها حديث الرجال، فإذا
رأتها قد تغيّر لونها ونكست رأسها علمت أنها تريد الرجال فسرّحتها إلى أهلها، وإن
رأتها مستمعةً لحديثها غير متغيرة اللون، عرفت أنها لا تريد الرجال فأسكنتها معها
وجعلتها من خاصّتها.

قال المصنف رحمه الله: وقول من قال: إن أباهما أقام سنة في الملك، بعيدٌ، لأن له
سيرةً مذكورةً وغزواتٍ، وأقام مدة، ذكره الكلبي.

وقال مقاتل: كان لها ثلاث مئة وستون رجلاً من عقلاء الناس تشاورهم في أمرها.

قال مجاهد: أقامت في ملكها سبع سنين، ولم يعلم بها سليمان.

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل ما يحتاج إليه الملوك من العُدَدِ
والعُدَدِ وغير ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] أي: سرير ضخم من الذهب مُرَصَّعٌ
بالدُّرِّ والجَوْهَرِ، وله أربع قوائم، الواحدة من الياقوت الأحمر، والثانية من الياقوت
الأصفر، والثالثة من زمرد، والرابعة من زبرجد.

قال الكلبي: وكان له سبعة أبيات على كل بيت باب مقفل، وقال الحسن وابن
عباس: كان طوله ثلاثين ذراعاً وارتفاعه كذلك وعرضه كذلك، وقال مقاتل: كان
طوله ثمانين ذراعاً وهو مكلل بالجواهر.

قوله: ﴿وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يعبدونها، ثم قال: ﴿أَلَّا
يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥].

وحكى الثعلبي عن يزيد ومحمد بن إسحاق أن من قوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾
إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] من قول الهدهد وكلامه.

(١) في (ط): أحسنه، والمثبت من المصدرين.

(٢) لم يجزم بهذا القول المسعودي ٣/٣٧٣، وإنما ذكره أحد قولين.

قال مقاتل: لما سمع سليمان هذا الكلام استعظمه فقال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧] يعني بما أخبرت، وإنما قال هذا لأنه استعظم أن يكون في الأرض لغيره سلطان، وخصوصاً امرأة لها مملكة تتسع لما ذكر عنها من الجيوش والعظمة.

ثم إنَّ الهدهد دلَّهم على الماء وكانوا قد عطشوا فحفروا الرِّكَايا وشربوا، ثم كتب سليمان كتاباً، واختلفوا في الذي كان فيه: فقال مقاتل: كان فيه: من عبد الله سليمان ابن داود إلى بلقيس بنت الهدهد والسلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وأتوني مُسلمين، وبه قال مجاهد.

وقال الحسن: كتب إليها كتاباً كما أخبر الله عنه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١] لم يزد على هذا.

قال ابن جريج: كان سليمان أبلغ الناس في الكتابة وأقلهم إملاءً، قال: وكذا الأنبياء يكتبون جملاً ولا يطيلون.

فإن قيل: فلمَ قدَّم اسمه على اسم ربِّه؟ قلنا: لأنَّ القوم كانوا يعبدون الشمس من دون الله، ولا يعرفون الله، فخاف أن يبدو منهم ما لا يليقُ عند قراءة اسم الله، فقدَّم اسمه لهذا المعنى.

قال مقاتل: ولما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، وقال للهدهد: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَكَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] أي: يردُّون من الجواب، فأخذ الكتاب وقصد بلقيس وهي بمأرب.

قال الجوهري: مأرب موضع^(١).

وقال مقاتل: هي أرضٌ طيبةُ الهواء، لذيدة الماء، بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام.

فوافها في قصرها وهي نائمة، وأغلقت الأبواب، وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، وهذه كانت عاداتها، فجاءها الهدهد وهي مستلقية على قفاها فألقى الكتاب في نحرها.

(١) «الصحاح»: (أرب).

قال قتادة: حمله في منقاره وجاء إلى كُوَّةٍ مقابلة الشمس تقع فيها عند طلوعها فتسجد لها، فسدَّ الكُوَّةَ بجناحه، فارتفعت الشمس ولم تعلم، فقامت تنظر، فرمى بالكتاب إليها.

وقال مقاتل: حمله في منقاره وجاءها وهي جالسة وحولها الجيوش والأقيال، فرفرف ساعة وهم ينظرون إليه، فرفعت رأسها، فرمى به في حجرها، والأول أشهر^(١). ولما رمى به أخذته، وكانت كاتبةً قارئةً عربيةً من قوم يعرُب، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم منها، وفهمت من قرائن الأحوال أن من جنده الطير لا يُحارب. وقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد، فجلست على سريرها، واستدعت الأشراف والأقيال وأهل المشورة، وقالت: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩].

واختلفوا في معنى كرمه على أقوال:

أحدها: أنه الحسن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨].

والثاني: شريف، قاله ابن عباس.

والثالث: لأن اسم الله كان في الخاتم الذي طبع به، قاله مقاتل.

والرابع: لأنه كان مختوماً، قاله مجاهد^(٢).

وهو الأصح لأن كرم الكتاب ختمه، وقد رواه ابن زيد عن ابن عباس مرفوعاً^(٣)، ولما كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً غير مختوم، فاتخذ الختم^(٤).

ثم قالت: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢] ﴿قَاطِعَةً﴾ أي: قاضية وفاصلة أمراً. ﴿حتى تشهدون﴾ أي: تحضرون ﴿قَالُوا﴾ مجيبين

(١) انظر «زاد المسير» ٦/١٦٧-١٦٨.

(٢) انظر «زاد المسير» ٦/١٦٨.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٧٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩: فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٤) أخرجه «البخاري» (٦٥)، و«مسلم» (٢٠٩٢) (٥٦-٥٧)، وأبو داود (٤٢١٤)، والترمذي (٢٧١٨).

لها ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ﴾ في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] فقالت حين عرضوا عليها الحرب: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: أخرجوها إذا فتحوها عنوة ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها لتستقيم لهم الأمور فصدق الله قولها، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] فالأول حكاة عن بلقيس والثاني عن الله تعالى.

أنشدنا عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي لغيره^(١):

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا فَلَائِكَ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلٌّ
مَاذَا تُؤْمَلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُّوا
وَإِنْ مَدَحْتَهُمْ خَالُوكَ تَخَدَعُهُمْ وَاسْتَثَقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثَقَلُ الْكَلُّ
فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنِ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥] أصانع بها عن نفسي وملكي وأختبره، فإن كان نبياً لم يقبلها ولم يرضها، ولم يرضه إلا إن اتبعنا دينه، وإن كان ملكاً أخذها وانصرف^(٢).

واختلفوا في الهدية:

فذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» قال: بعثت له ثلاث لبناتٍ من ذهبٍ في كلِّ لبنةٍ مئة رطل، وياقوتة حمراء طولها شبرٌ غير مثقوبة، وثلاثين وصيفة، وثلاثين وصيفاً وألبستهم لباساً واحداً، فلا يُعرَفُ الذكر من الأنثى^(٣).

قال ابن عباس والحسن ومجاهد: بعثت إليه بخمس مئة لبنة من ذهب، وخمس مئة لبنة من فضة، في كل لبنة مئة رطل، وخمس مئة وصيف، وخمس مئة وصيفة ألبست الغلمان ثياب الجواري وجعلت في أعناقهم أطواق الذهب، وفي أيديهم أساور الذهب، وفي آذانهم أقراطاً من ذهب، وحملتهم على خمس مئة رَمَكَة، وألبست

(١) الأبيات في «عرائس المجالس» منسوبة لوالد الجنيد ص ٣١٧، وفي تفسير الثعلبي ٢٠٦/٧، وشعب الإيمان

(٩٤٣٤) لوالد أبي القاسم الحبيبي، وفي العقد ٢٠٠/٣ دون نسبة، وفي جمهرة الأمثال ٣٠١/١ لأبي العتاهية.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٣١٧.

(٣) «التبصرة» ٣٠٥/١.

الجواری ثياب الغلمان وحملتهن على خمس مئة برذون، وألبستهن الدباج، وجميع السروج مرصعة بالجواهر واليواقيت، وعمدت إلى حُق فتركت فيه درةً يتيمة حمراء غير مثقوبة طولها شبرٌ، وخرزة جَزَع^(۱) فيها ثقبٌ معوج لا يكاد يبين، وقالت للجواري: كَلْمَنَهُ بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال، وقالت للغلمان: كلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، ودعت رجلاً من أشرف قومها يقال له: المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجلاً من ذوي العقول، وكتبت معه كتاباً فيه: من الملكة بلقيس إلى الملك سليمان، أما بعد، فإن كنت نبياً فميز بين الوصفاء، وأخبرني بما في الحُق قبل فتحه، واثقب الدرة ثقباً مستويًا، وأدخل خيطاً في الجزعة، واختم على طرفي الخيط بخاتمك. وقد بعثت لك كذا وكذا.

وسبق الهدهد فأخبر سليمان بما جرى وبما بعثت، فأمر الشياطين بأن يضربوا لبناً من ذهب، ولبناً من فضة، في كل لبنة ألف رطل، وأمرهم أن يفرشوها من موضعه إلى تسعة فراسخ ميداناً واحداً، وقيل: ثمانية أميال، وأن يجعلوا حائطاً في الميدان من الجانبين ذهباً مرصعاً باليواقيت، وأن يرفعهوا عالياً مشرفاً، ففعلوا، ثم أتى بدواب من البحر والبر مختلفة الألوان لها أجنحة وأعراف ونواصي، فربطها من الجانبين، وألقى علوفها في معالف الذهب والفضة، ثم أقام الجنّ عن يمين الميدان ويساره، ومن ورائهم الشياطين، ثم قعد على سريره ووضع حوله أربعة آلاف كرسي من ذهب وفضة، وأمر الإنس والجنّ والوحش والطيور أن يقوموا في مراتبهم، فقاموا على فراسخ عن يمينه وشماله. وكانت قالت للرسول: انظر إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولنك نظره، فأنا أعز منه، وإن رأيت متواضعاً لطيفاً فهو نبي مرسل.

قال وهب: ولما دنا القوم من الميدان وشاهدوا ملك سليمان عليه السلام ونظروا إلى لبن الذهب والحيطان والدواب والجن والشياطين والطيور والوحش تقاصرت هممهم، وكان قد أخلى في الميدان موضع اللبن للذي معهم، وهموا أن يردوا ما معهم إليها فخافوا منها. ثم أمر سليمان بإدخالهم عليه فدخلوا، وكلما مروا على كُرْدوس من

(۱) الجَزَع: الخرز اليماني فيه سواد وبياض.

الجن والشياطين خافوا، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم نظراً حسناً بوجهٍ طلق، ثم ناولوه الكتاب فقرأه وقال: أين الحقُّ؟ فأُتِيَ به فحرَّكه، وجاء الوحي فأخبره بما فيه، وقال: فيه دُرَّةٌ يتيمة غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجَّة الثقب. فقال الرَّسول: صدقت، وأمر الأَرْضَةَ وقيل الذرَّة فدخلت في الجزعة وخرجت من الجانب الآخر، فقالت: اسأل الله أن يجعلَ رزقي الفاكهة. وثقب الدرَّة بالسامور، وختم على طَرْفِي الخيط بخاتمه، وأمر بإحضار الغلمان والجواري، قال مقاتل: وأمر بإحضار آية الماء وميِّز بينهم بالوضوء للصلاة فكان الغلام يبدأ من كفه إلى مرفقه، والجارية من مرفقها إلى كفها، وقال جدي في «التبصرة»: وهذا قول سعيد بن جبيرة. قال: وقال قتادة: بدأ الغلمان بغسل ظاهر السواعد قبل بطونها، والجواري على العكس^(١).

قلت: والعجب من حكاية مثل هذا، وقد اتفقوا على أن القوم كانوا يعبدون الشمس، وأخبرهم الله على لسان الهدد بذلك، فمن أين كانوا يعرفون الوضوء؟ وإنما ميِّز بينهم بالوحي جبريل، جاءه فأخبره بهم كما أخبره بما في الحقِّ.

ثم رد الهدية وقال للرسول: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَا اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] ومعناه أنتم أرباب مفاخرة ومكاثرة بالدنيا، وليس ذلك من حاجتي، لأن الله أكرمني بالنبوة والملك. ثم قال للمنذر بن عمرو: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْيِنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقة ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ أي: من المملكة ﴿أَذِلَّةً لَهُمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] أي: محتقرون.

قال: فلما عادوا بالهدية إليها قالت: والله لقد علمتُ أنه ليس بملك وأنه نبيٌّ، وأخبرها المنذر بما شاهد، فكتبت إلى سليمان عليه السلام: إني قادمة عليك بملوكٍ قومي لأنظر ما تدعو إليه، ثم أمرت بعرشها فجعلَ في بيت، وأقفلت عليه، ثم في بيت آخر كذلك إلى سبعة بيوت، ووكلت به حرساً يحفظونه، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ، تحت يد كل قَيْلٍ ألف عزيمة. وكان سليمان مهيباً لا يُبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل، فرأى يوماً رهجاً قريباً منه، فسأل عنه فقالوا: بلقيس قد

(١) «التبصرة» ٣٠٦/١، والحكاية بطولها في عرائس المجالس ٣١٧-٣١٩.

قدمت، وهي نازلة قريباً منك قدر فرسخ، فقال سليمان لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(١) [النمل: ٣٨].

فإن قيل: ما مراده بإحضار عرشها قبل مجيئها؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد أخذه لما وصفه له الهدهد، لأنها متى قدمت عليه مُسَلِّمة حَرْمَ عليه أخذ مالها، قاله مجاهد.

قلت: وهذا ليس بشيء لوجهين، أحدهما: لأنه كان زاهداً في الدنيا نبياً ورسولاً، وما عرشها بالنسبة إلى ملكه حتى يحتال على أخذ مالها قبل إسلامها؟ والثاني: أن الغنائم كانت مُحَرَّمَةً عليهم، وإنما أبيحت لهذه الأمة.

والثاني: أنه أراد أن يختبر عقلها، فينظر هل تعرفه أم لا، قاله ابن زيد.

والثالث: أراد أن يريها قدرة الله وسلطانه وأنه صاحب معجزات، فتنقاد إليه من غير عنف، قاله مقاتل. وهذان القولان جيدان.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالْعَفْرِيتُ الْمَارِدُ الْقَوِيُّ﴾، قال وهب: كان اسم العفريت كودي، وقيل: ذكوان. ﴿أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك هذا ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] على ما فيه من الجواهر. فقال سليمان: أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعرف الاسم الأعظم، وكان يقف على رأس سليمان بالسيف ﴿أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] ومعناه إذا مددت عينيك إلى أقصى منظرك، فمدَّ سليمان عينيه، ودعا آصف، فكان من دعائه: يا حيُّ يا قيُّوم يا ذا الجلال والإكرام. فبعث الله ملائكة فَخَذَّتْ الأَرْضَ بالسريير خدّاً حتى صار بين يدي سليمان قبل أن يرجع إليه طرفه^(٢).

فإن قيل: فأصف من أتباع سليمان يعرف الاسم الأعظم وسليمان لا يعرفه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن ابن عباس قال: الذي عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام.

(١) انظر «زاد المسير» ٦/١٧٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢١-٣٢٢.

والثاني: أنه ملكٌ عظيم أيد الله به سليمان، قاله عكرمة.

فعلى هذين القولين سقط السؤال.

والثالث: إنما قصد سليمان أن بعض أتباعه يتولى إحضارَ عرشها، لأن سليمان لا يباشره، وقد كان الاسم الأعظم في خاتمه.

والرابع: أراد أن ينوّه باسم آصف ويرفع منزلته، لا أنه عاجز عن ذلك. وقد ذكرنا أن سليمان كان يعرف الاسم الأعظم قبل قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾.

فلما حصل السرير بين يدي سليمان قال: ﴿نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١] أي: اجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه، لنظر هل تهدي إلى عرشها فتعرفه أم تكون من الجاهلين الذين لا يعرفون ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبّهته به ولم تقرّ ولم تنكر، وهذا دليل على قوة ذهنها وغزارة عقلها، لم تقطع بأنه هو إما لتغيره وإما لبعد المسافة، وقد خلفته تحت سبعة أقفال.

قال الحسين بن الفضل البجلي: شبّهوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم، ولو قالوا لها: هذا عرشك، قالت: نعم. قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي: قبل مجيء هذه المرأة ﴿وَكُنَّا مُسْتَبِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، وإنما أراد سليمان عليه السلام أن يختبر عقلها بتنكيره، وأن يريها قدرة الله تعالى وسلطانه، وأنه صاحب معجزات.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣] وهي الشمس، منعته عن عبادة الله. ثم أمر سليمان بعمل الصرح، وهو كل قصر عال، والجمع صروح، وأصله البناء العالي^(١).

قال وهب: قيل لسليمان إن رجليها رجلا حمار، وعلى ساقها شعر كثير، فاختر عقلها بعرشها وما أمكنه أن يختبر رجليها، فأمر ببناء الصرح، فبنته الشياطين من الزجاج كأنه الماء بياضاً، وألقوا فيه السمك ودواب البحر، ووضع سليمان سريره في صدره، فلما وصلت إليه ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ واللجة: معظم الماء، فنظر سليمان إلى ساقها^(٢)، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٢.

(٢) في (ب): إليها.

إلا أنها كانت شعراء الساقين، فصرف وجهه عنها وقال: ﴿إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ﴾^(١) أي ممّلس من زجاج وليس ببحر.

فإن قيل: فكيف جاز لسليمان النظر إلى الساقين والوجه، وإنما يباح النظر إلى الوجه لا غير، وكيف جاز أن يحتال بهذه الحيلة، والأنبياء معصومون من مثل هذا، وقد يمكنه أن يختبرها بأن يبعث إليها امرأة تنظرها؟

فالجواب: إن النظر إلى ساقها قد كان مباحاً عندهم كالنظر إلى الوجه عندنا، ولا نظنّ بسليمان أن يفعل ما لا يحلّ له، وقد كان لسليمان سبع مئة امرأة، ومثل هذا لا يباح لنا.

ثم دعاها سليمان إلى الإسلام فأسلمت وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وأسلم قومها. ثم عزم على تزويجها فأمر الشياطين، فاتخذوا الحمّام والنّورة وطلّوا بها ساقها فصارا كالفضّة. قال ابن عباس: وسليمان أوّل من صنّع له الحمّام والنّورة^(٢)، وقد رواه أبو موسى مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «أوّل من دَخَلَ الحمّام وصنّعت له النّورة سليمان»^(٣) إلا أنه حديث ضعيف، ضعفه البخاري وغيره، وقال البيهقي: تفرد به إسماعيل الأودي، لا يتابع عليه.

فلما دخل بها سليمان أحبها حباً شديداً وأمر الشياطين فبنوا لها باليمن حصوناً لم يُبنَ في الدنيا مثلها، وهي غمّدان وسلّجين وبيّنون، وأبقاها على ملكها، وكان يزورها في كلّ شهر مرة، يقيم عندها سبعاً، يبكر من الشّام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشّام^(٤). وقال أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: وأمهرها بعلبك ويقال: إنه نقلها إلى تدمر^(٥)، وسنذكره.

وقال محمد بن إسحاق عن وهب عن بعض أهل العلم: لم يتزوجها سليمان، وإنما زوّجها رجلاً من قومها يقال له: ذو تَبَع، ملك همّدان، وأمر زوبعة أمير الجن أن يقيم

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٧٨).

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.

(٥) «تاريخ دمشق» ٧٠/٦٩.

معها باليمن، وبينى ما شاءت من الحصون ففعل^(١)، والأول أصح، وقد ذكره جدي في «التبصرة»: فقال: لما عُمل له الصرح من الزجاج ورأته وعلمت أن مُلك سليمان من أمر الله تعالى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤] بما سبق من الكفر، ثم تزوجها سليمان وردّها إلى مُلكها، وكان يزورها في كلّ شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وبقي مُلكها إلى أن توفي سليمان عليه السلام فزال بموته^(٢).

فصل في قصة قوم سبأ^(٣)

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ والمراد بسبأ القبيلة التي هي من أولاد سبأ. وقال علماء السّير: كانت بلقيس مالكة أمرهم، وكانوا يقتتلون على الماء الذي يجري من الجبال إلى واديهم، فكانت تنهاهم فلا ينتهون، فاعتزلتهم بعيدة عنهم في قصر لها، فلما كثر الشرّ بينهم أتوا إليها وقالوا: ترجعين إلى مُلكك فأبّت، فقالوا: ارجعي وإلا قتلناك، فقالت: إنكم لا تطيعوني فقالوا: بلى، نطيعك. فرجعت إليهم، وكان السيل يأتي إلى واديهم من مسيرة خمسة أيام، فبنت ما بين الجبلين مُسْنَأَةً، وحبست الماء خلف السدّ، وبنت من دونه بركة عظيمة جعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدد أنهارهم، فإذا جاء المطر اجتمع إليها ماء بلاد الشّحر وأودية اليمن وسيولها فتقسّمه بينهم بالسوية، حتى أسلمت مع سليمان وكان من أمرها معه ما كان.

قال كعب الأحبار: كان السدّ فرسخاً في فرسخ، بناه لقمان بن عاد الأكبر صاحب النور.

ويحتمل أن لقمان بناه ودثر فجددته بلقيس.

وقال مقاتل: كان في البركة ثلاثون ثقباً.

وقال مجاهد: إنما بنوا السدّ لئلا يذهب بأموالهم فيغرقها.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٣.

(٢) «التبصرة» ٣٠٧/١.

(٣) انظر القصة في تفسير الطبري ٢٤٤/١٦ (هجر)، ومروج الذهب ٣/٣٦٥، وتفسير الثعلبي ٨/٨٢، وتفسير الماوردي ٤/٤٤٣، و«التبصرة» ١/٣١٥، و«زاد المسير» ٦/٤٤٢، و«تفسير ابن كثير» ٣/٦٩٥، و«الدر المنثور» ٥/٢٣١، و«البداية والنهاية» ٣/١٠٧.

وكانوا يفتحون من أبواب السدِّ ما يريدون، فيأخذون من الماء ما يحتاجون إليه طول السنة، فأخصبت أرضهم، وكثرت أموالهم وفواكههم، حتى أن كانت المرأة لتمرُّ بين الجنَّتين والمكتل على رأسها فيمتلىء من الثمر، وما مسَّت شيئاً بيدها، ولم يكن في بلادهم حيَّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذباب ولا بُرغوث.

قال ابن عباس في تفسير الآية: إنها القدرة والعلامة. ثم فسرها فقال: جنَّتان عن يمين واديهم وشماله ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما أنعم عليكم، تمَّ الكلام. ثم ابتداءً فقال: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: هذه بلدة طيبة الهواء ﴿وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ۱۵] للخطايا.

وقال ابن عباس: كان الرجل الغريب يأتي وفي ثيابه القمل، فإذا نظر إلى أرضهم مات القمل. وكان الراكب يسير من أول البساتين إلى آخرها فلا تقع عليه شمس. قال: فطغوا وبغوا وكفروا بأنعم الله، وذلك قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الحق، وكان الله قد بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وقالوا: ما نعرف لربكم علينا نعمة.

وقال مقاتل: معنى الآية: فأرسلنا إليهم الرسل يدعونهم إلى الله فأعرضوا عنهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ۱۶] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن العَرِم: السدُّ بلغة حمير، فهو اسم للمسناة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه اسم للسيل الذي لا يطاق، وأصله من العرامة، وهي التمرد والعصيان، قاله مجاهد وابن الأعرابي.

والثالث: أنه اسم للوادي، قاله مقاتل وقتادة والضحاك، ورواه عطية عن ابن عباس.

والرابع: أنه اسم الجرد الذي نَقَبَ السدُّ. حكاه الزجاج.

والقول الأول أشهر، واختاره الفراء وابن قتيبة وعامة المفسرين، وذكره الجوهري

فقال: العَرِمُ: المسناة^(۱).

(۱) «الصحاح»: (عَرِم).

وفي قصّة إرسال هذا السيل عليهم قولان:

أحدهما: أن الله بعث عليهم جُرذاً يسمّى: الخُلْد، وهو فأرة عمياء، فثقبه من أسفله، فأغرق جنانهم وأخرب أرضهم. رواه عطية العوفي عن ابن عباس.

قال وهب: كانوا يجدون في كهانتهم أنّ فأرة تخرب سدّهم فلم يتركوا فرجةً بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما آن أوان غرقهم جاءت فأرة حمراء إلى هرة فشاورتها حتى استأخرت عنها الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فثقت السكّر وهم لا يعلمون.

وقال السّدي: كان للذّابة التي ثقت السدّ مخالب من حديد.

قال محمد بن إسحاق: كان لقوم سبأ كاهن يقال له: عمران بن عامر، وقيل: عمرو ابن عامر، فرأى في كهانته أنهم سيُمزقون كلّ ممزّق، فأخبرهم بذلك، قال: من كان ذا همّ بعيد، وجملٍ شديد، ومزاد جديد، فليحق بقصر عُمان المشيد، فليحق وادعة بن عمرو، ثم قال: من كان منكم يريد الراسيات في الوحل المُطعمات في المحل فليحق بيثرب ذات النخل، فليحق الأوس والخزرج، ثم قال: من كان منكم يريد خمراً وخميراً، وذهباً وحريراً، ومُلكاً وتأميراً فليحق بمعان وبُصرى، فليحق غسان وبنو جفنة بالشّام فملكوه، ثم قال: من كان منكم يريد الأموال، ويعتزُّ بالرجال، وتشدُّ إليه الرحال فعليه بكوثى، فليحق الأزْد بموضع الكوفة.

وقال الزبير بن يگار: إنّما لحت بالشّام غسان، والأزْد بعُمان، وخزاعة بتهامة.

وقال ابن الكلبي: إنّ الملك هو عمرو بن عامر، وكان ملك سبأ في ذلك الزّمان. وكان عمران بن عامر أخاه فأخبره بما ذكرنا. قال: وكان للملك كاهنة يقال لها: طريفة، من أهل حمير، فقال لها الملك: ما تقولين فيما قال عمران؟ قالت: صدق، ولقد رأيت غيماً أبرد، أرعد طويلاً ثم أصعق، فما وقع على شيء إلا احترق، وما بعد هذا إلا الغرق. ثم قالت لعمرو: اذهب إلى السدّ فإن رأيت جُرذاً يُكثر بيديه فيه الحفر، ويقلب برجليه من العرم الصخر، فاعلم أن النّفر سَفُر، وأنّه قد وقع الأمر. فأتى إلى السدّ فإذا بجُرذ يقلب بيديه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً فعاد إلى طريفة وقال: متى ترين هلاك السدّ؟ فقالت: إنّما يهلك غيلة بعد سبعين ليلة فانظر الغيلة. فأمر عمرو

أصغر أولاده أن يأتي إليه وهو في مجلسه والملا حوله والأقيال فيفتت عليه، وأمره أولاده أن لا يهيجوه وجلس مجلس الملك، واجتمع الناس إليه، وجاء ولده فكلمه بأقبح الكلام، فقال: يا قوم أكون مَلِكُكُمْ وسيدكم ويُسمعي هذا السفية ما أسمعني، وأنتم سكوتٌ لا تتصرون لي؟! ثم حلف أن لا يساكنهم، وباع أمواله وانتزح عنهم، فبعد سبعين ليلة خرب السدُّ.

قلت: هذه رواية ابن الكلبي، وقد ذكر عبد الملك بن هشام في «السيرة» طرفاً منها، وقد تقدّم إسناده إلى عبد الملك في خطبة الكتاب، فقال: لما رأى عمرو بن عامر الجرذ ينقب السدَّ علم أنه لا بقاء للسدِّ على ذلك، فأمر أصغر أولاده أن يقوم بين الملا فيلطمه ويفتت عليه، ففعل، فباع أمواله، فقال الأشراف: اغتتموا غضبة عمرو فاشتروا أمواله. وانتقل عمرو عنهم وفعل كذلك بنو أسد وقالوا: لا نقيم في بلاد خرج منها عمرو بن عامر، فنزلوا بلاد عكَّ، وتفرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خُزاعة مرّاً، والأزد السراة، وهما أزدان: أزد السراة وأزد عُمان^(١).

وقال السُّدي: إنما سميت خُزاعة لانخزاعها وانقطاعها في ذلك الموضع.

قال الجوهري: وخُزاعة حي من الأزد سموا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مَكَّة لتتفرق في البلاد تخلّفت عنهم خُزاعة^(٢).

وفي رواية ابن إسحاق أنَّ عمران بن عامر قال في كهانته: ومن كان منكم ذا حاجةٍ وفقير، فليلحق ببطن مرّ، فلحقق به خُزاعة وقال: من أراد منكم الخمر والخمير، والذهب والحريز، والأمر والتأمير، فليلحق ببُصرى وحفير، يعني أرض الشام، وحفير قرية من قرى دمشق في جبل صيدنايا قريبة منها. وقال: من أراد منكم الثياب الرقاق، والخيل العتاق، والكنوز والأوراق فليلحق بالعراق، فلحق بها الأزد مع مالك بن فهم الأزدِي.

(١) «السيرة» ١/١٣.

(٢) «الصحاح»: (خزع).

قال وهب: وسار عمرو بن عامر إلى وادي السَّراة بأهله وماله وولده فأقام به وبمكة، والسَّراة جبل الأزْد.

والقول الثاني في سبب هلاك السدِّ حكاة جدي في «التبصرة»^(١) عن مجاهد أنه قال: أرسل الله عليهم ماء أحمر فنسف السدَّ وهدمه وحفر الوادي. وعامة العلماء على القول الأول.

وحكى الضحاك عن ابن عباس: أن عمرو بن عامر سيدهم رأى في منامه كأنه انبثق الردم وسال الوادي، فأصبح حزينا، فانطلق نحو الردم فرأى جُرذاً يحفره بمخالب من حديد وأنياب من حديد، فجمع أهله وبنيه وقال: هل رأيتم ما رأيتم؟ قالوا: نعم، قال: هذا أمرٌ سَمَويٌّ قد اضمحلت فيه الحِيل. ثم قال: هاؤم هرة، فأُتي بها فأرسلها نحو الجُرذ، فلما رآته الهرة ولَّت هاربة، فقال: تحقَّق الآن ما قلتُ لكم، احتالوا لأنفسكم. فدعا أصغر بنيه، وذكر بمعنى ما تقدم.

قال ابن عباس: لما نقب الجُرذ السدَّ فاض الماء عليهم فأخرب جناتهم، ودفن بيوتهم في الرمل، ومزَّقهم كل ممزق، كما قال الله تعالى، حتى صاروا مثلاً عند العرب، فضربوا بهم الأمثال.

وقال الجوهرى: وقولهم «ذهبوا أيدي سبأ»، وأيادي سبأ، أي: متفرقين، قال: وهما اسمان جُعلا اسماً واحداً، مثل معدي كَرِب^(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وهو الأراك ﴿وَأَثَلٍ﴾ وهو الطرفاء، والأكُلُ: الثَّمَرُ، وقيل: الخَمْطُ شجر العضاة. قال مقاتل: معناه: وبدلناهم بجنتيهم اللتين كانتا تطعمان الفواكه جنتين بهذه الصفة ﴿وَشَقِئٌ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦] والسُّدْرُ: شجر النَّبَق، ومعنى «قليل» أن الخَمْطُ والأثل كان في جنتيهم أكثر من السُّدْر لأن السُّدْر توكل ثمرته ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبأ: ١٧] قال طاوس: الكافر يجازى ولا يُغفر له، والمؤمن لا يناقش الحساب.

(١) «التبصرة» ١/٣١٧.

(٢) «الصحاح»: (يدي).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى﴾ وهي قرى الشام ﴿ظَهْرَةً﴾ أي: متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها.

قال الحسن: هي قرى بين الشام واليمن، قال مجاهد: هي السَّروَات.

قال وهب: قرى صنعاء، والأول أصح، لأن القرى التي بارك الله فيها في الأرض المقدسة.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٨] فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يَغْدُونَ فيقولون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً من منزل إلى منزل، فلا ينزلون إلا في قرية عامرة يسرون فيها ليالي وأياماً، أي: وقلنا لهم سيروا في أي وقت شئتم ليلاً أو نهاراً آمنين من مخاوف السفر والعدو والجوع والعطش، لا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، فبطروا وعتوا وملؤوا النعم كما ملّ بنو إسرائيل المن والسلوى.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: لو كانت جناناً أبعد مما هي كانت أجدر أن نشتهيها، قاله مجاهد.

والثاني: أن معناه: اجعل بيننا وبين الشام فُلوات ومفاوز وبراري نركب فيها الرواحل ونحمل فيها الزاد والماء، فاستجاب الله لهم سريعاً، قاله ابن عباس.

﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي والبطر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: مواعظ وعبراً يتمثل بهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

وذكر الهيثم بن عدي: أن بعض القحطانيين افتخر على ولد نزار عند أبي العباس السفّاح، وخالد بن صفوان بن الأهم حاضراً، ولم يجبه، فقال له السفّاح: أذكر هذا مناقب قومه وأنت ساكت؟ لقد غمرتكم قحطان بشرفها، فقال خالد: يا أمير المؤمنين ما سكوتي إلا احتقاراً به وبقومه، قال: ولم؟ قال: ماذا أقول لقوم هم بين دابغ جلد، وسائس قرد، وناسج بُرد، وراكب عَرْد^(١)، غرقتهم فأرة، ومَلَكَتْهُم امرأة، ودلّ عليهم هدهد.

(١) العَرْد: الحمار، والخبر في مروج الذهب ٣/٣٧٢-٣٧٣.

فصل في محنة سليمان عليه السلام وذهاب خاتمه وعوده إليه

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ الآية، أي: ابتليناه بسلب ملكه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ أي: سريره ﴿جَسَداً﴾.

واختلفوا فيه، قال ابن عباس: الجسد هو شيطان يقال له: صخر، ولم يكن ممن سُخِّرَ لسليمان.

وقال وهب: هو صخر بن عمير بن عمرو بن شرحبيل، ويقال: هو الذي دلَّ سليمان على حجر السامور وكان في جزيرة منيعة، فما كان له عليه سلطان.

وقال السدي: هو شيطان اسمه مهدي، وقيل: حفق أو حفيق.

وذكر الثعلبي: أنَّ الجسد إنما كان آصف بن برخيا^(١).

وذكر أبو حنيفة ابن النُّوبي: أنَّ الجسد نفس سليمان، ألقاه مريضاً لا حراك به ولا رُوح فيه. والظاهر أنه صخر الجنى.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] أي: رجع عن ذنبه، وقيل: في ملكه.

واختلفوا في سبب ابتلائه على أقوال:

أحدها: بسبب امرأة، قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله بإسناده إلى ابن عباس قال: كان سليمان رجلاً غزاً يغزو في البحر والبر، فسمع بمَلِكٍ في جزيرة من جزائر البحر، فركب الرِّيح ومعه جنوده من الجن والإنس حتى نزل تلك الجزيرة، فقتل مَلِكها وسبى من فيها، وأصاب جارية لم يُرَ مثلها حُسنًا وجمالاً، وكانت ابنة ذاك الملك، واسمها: جرادة، فاصطفاها لنفسه، وكان يجدُّ بها ما لا يجدُّ بأحدٍ من نسائه، وكان يؤثرها عليهنَّ، فدخل عليها يوماً فقالت: إني أذكر أبي ومُلُكهِ وما أصابه فيحزنني ذلك، فإن رأيتَ أن تأمر بعض الشياطين أن يصوِّروا لي صورةَ أبي في داري، فأراه بكرةً وعشياً، رجوت أن يذهب عني حُزني ويُسَلِّي عني بعض ما أجد في نفسي. فأمر سليمان صخراً المارد فمَثَّل لها أباه في هيئته لا تنكر منه شيئاً إلا أنه لا رُوح فيه،

(١) «عرائس المجالس» ص ٣٢٧.

فعمدت إليه فزيّنته وألبسته مثل لباسه، وإذا خرج سليمان من داره غدت عليه كل يوم مع جواريتها فسجدت له وتسجد جواريتها، وسليمان لا علم له بشيء من ذلك، حتى أتى لذلك أربعون يوماً، وبلغ آصف بن برخيا، وكان صديقاً، فقال لسليمان: يا نبي الله، قد أحببت أن أقوم مقاماً أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بما أعلم فيهم، فجمع سليمان الناس، وقام آصف فأثنى على كل نبي بما فيه، حتى انتهى إلى سليمان، وذكر ما أعطاه الله في حادثة سنه وصغره، ثم سكت، فامتلاً سليمان غيظاً واستدعاه وقال له: ذكرت أنبياء الله وأثنت عليهم بما كان في زمانهم، فلما ذكرتني جعلت تشني عليّ بخير في صغري، وسكتت عما كان في كبري، فما الذي أحدثت في كبري؟ فقال: أحدثت أن غير الله يُعبد في دارك منذ أربعين يوماً في هوى امرأة، قال: في داري؟ قال: نعم، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ عرفت أنك ما قلت هذا إلا لشيء بلغك، ثم رجع إلى داره فكسر الصنم وعاقب المرأة وولائها، ثم دعا بثياب الطهر وهي ثياب لا يغزلها وينسجها إلا الأبقار، ولا يمسها امرأة رأت الدم فلبسها، ثم خرج إلى فلاة من الأرض ففرش فيها الرماد، وجلس عليه يتمعك فيه متضرعاً باكياً تائباً، وكان يبكي ويقول: يا رب ما هذا بلاؤك عند آل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقرؤا في دارهم وأهلهم عبادة غيرك. فلم يزل كذلك حتى أمسى، ثم رجع، وكانت له جارية سمّاها الأمانة، وكان إذا أتى الخلاء أو أراد إتيان امرأة وضع خاتمه عندها، وكان لا يمسّه إلا وهو طاهر، وكان الله قد جعل ملكه في خاتمه^(١).

عن الشيخ الموفق، قال وهب: فجاء يوماً يريد الوضوء فدفع الخاتم إليها، وجاء صخر المارد فدخل المتوضئاً، وسبق سليمان، فدخل سليمان لحاجته وخرج صخر على صورة سليمان ينفض لحيته من الوضوء، لا تنكر المرأة من سليمان شيئاً، فقال: خاتمي يا أمانة، فناولته إياه لا تحسب إلا أنه سليمان، فجعله في يده وجلس فجلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير والإنس والجن، وخرج سليمان عليه السلام فقال: خاتمي يا أمانة، فقالت: ومن أنت؟ فقال: أنا سليمان، وقد تغير حاله وذهب عنه بهاؤه، فقالت: كذبت إن سليمان أخذ خاتمه، وهو جالس على سريره في ملكه.

(١) كتاب «التوابين» ص ٤٦.

فعرف سليمان عليه السلام أنَّ خطيئته قد أدركته^(١).

عن الموفق، قال الحسن: فخرج هارباً مخافةً على نفسه، ومضى على وجهه بغير حذاء ولا قلنسوة في قميصٍ وإزار، فمرَّ ببابٍ شارعٍ على الطريق قد جهده الجوع والحرُّ والعطش فقرعه، فخرجت امرأة فقالت: ما حاجتك؟ فقال: ضيافة ساعة، قد ترين ما قد أصابني من الحرِّ والرمضاء، فقالت المرأة: زوجي غائبٌ وليس يسعني أن أُدخلَ رجلاً غريباً عليّ، ادخل البستان فإن فيه ماء وثمرًا، فأصب من ثماره وتبرّد فيه، فإذا جاء زوجي استأذنته في ضيافتك، فإن أذن لي فذاك، وإن أبى أصبت رزق الله ومضيت. فدخل البستان فاغتسل ووضع رأسه ونام، فأذاه الذباب، فجاءت حية سوداء فأخذت ريحانةً من البستان بفيها وجعلت تروّح عليه. وجاء زوج المرأة فقصّت عليه القصة، فدخل البستان فرأى الحية تروّح عليه، فدعا امرأته وقال لها: تعالي فانظري إلى العجب، فنظرت ثم مشيا إليه فأيقظاه، ثم قالوا له: يا فتى هذا منزلنا لا يسعنا شيءٌ يعجزك، وهذه ابنتي قد زوجتكها، وكانت من أجمل نساء زمانها، فتزوجها وأقام عندهم ثلاثاً، ثم قال: لا يسعني إلا طلبُ المعيشة لي ولأهلي، فانطلق إلى الصيادين فقال لهم: هل لكم في رجل يكون معكم يعينكم وترضخون له بشيء من صيدكم، وكلُّ يأتيه الله برزقه، فقالوا: قد انقطع عنا الصيد، وليس عندنا فضل نعطيك، فمضى إلى غيرهم، فقال لهم مثل هذه المقالة، فقالوا: نعم وكرامة، نواسيك بما عندنا، فأقام عندهم يختلف كلَّ ليلةٍ إلى أهله بما أصاب من الصيد حتى أنكر الناس قضاء الخبيث وفعاله. فلما رأى الخبيث أن الناس قد فطنوا له انطلق بالخاتم فألقاه في البحر، قال الحسن: أمسك الخاتم أربعين يوماً^(٢).

وروي: أنه قعد على كرسيِّ سليمان، فاجتمع له الإنس والجن والشياطين وكلُّ شيءٍ كان يملكه سليمان، إلا أنه لم يُسلِّط على نسائه، قال: وخرج سليمان يسأل الناس ويتضيفهم، ويقوم على باب الرجل والمرأة ويقول: أطعموني فإني سليمان بن داود، فيطردونه ويقولون له: ما يكفيك ما أنت فيه حتى تكذب على سليمان، وهذا

(١) كتاب «التوايين» ص ٤٨.

(٢) كتاب «التوايين» ص ٥٠.

سليمان على ملكه. حتى أصابه الجهد، واشتدَّ عليه البلاء، فلما تمَّ عليه أربعون يوماً، قال آصف بن برخيا: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من خلاف حكم ابن داود ما رأيتم؟ قالوا: نعم، فعمد الشيطان عند ذلك فألقى الخاتم في البحر، فاستقبله جريٌّ فابتلع الخاتم، فصار في جوفه مثل الحريق من نور الخاتم، فاستقبل جرية الماء فوق في شبك الصيادين الذين كان سليمان معهم. فلما أمسوا اقتسموا السمك وأسقطوا الجريَّ وجعلوه لسليمان، فذهب به إلى أهله وأمرهم أن يصنعوه ونام، فلما شقُّوا بطنه أضاء البيت من نور الخاتم، فدعت المرأة سليمان وأرته الخاتم فتختم به وخرَّ ساجداً لله، وحمد الله وأثنى عليه فقال: ربِّ أتمَّ نعمتك عليَّ واغفر لي ما سلف، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(١).

قال: وروي عن عكرمة أن سليمان لما أصاب الملك أمر فحمل أهل ذلك البيت فوضعهم وسط المملكة، ولم يكن سليمان نال تلك المرأة حتى ردَّ الله عليه ملكه^(٢). هذه صورة ما ذكره الموفق في «التوايين».

وقوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ يدل على أنه أعطي الملك الذي ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ بعد وقوعه في المحنة كما قال علي عليه السلام.

وروي عن وهب بن منبه أنه ذكر هذه القصة، وقال فيها: اسم المرأة التي أخذها سليمان من الجزيرة جرادة فأسلمت، وفي قلبها من قتل أبيها ما فيه، وأنه بعدما كسر الصنم وعاقب المرأة وولائها، دعا بثياب الطهرة، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبقار ولا تمسُّها امرأة رأت الدم، فلبسها وخرج إلى الفلاة فجلس على الرماد، كذا ذكره^(٣).

قال ابن عباس: أمينته التي كان يدع الخاتم عندها أم ولده. فأتاها الشيطان صاحب السحر، واسمه صخر، فأخذ الخاتم منها، وفيه، فقال آصف: يا بني إسرائيل أمهلوني حتى أسأل نساء سليمان هل يأتين، فدخل عليهن فسألهن فقلن: ما يدع امرأة منا في

(١) كتاب «التوايين» ص ٥٠.

(٢) كتاب «التوايين» ص ٥١.

(٣) انظر «زاد المسير» ٧/ ١٣٣.

دمها ولا يغتسل من جنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين. والأصح أنه لم يطأ نساء سليمان، قال مجاهد والحسن البصري: لم يثبت ذلك لأن الشيطان خلق من نار، فلو جامع امرأة لأحرقها. فلما مضت أربعون ليلة - وقيل: خمسون - اجتمع علماء بني إسرائيل، ونشروا التوراة، وبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى، فلما رأى الشيطان ذلك طار من مجلس سليمان، ثم قذف بالخاتم في البحر فابتلعتة سمكة.

فإن قيل: فكيف أقدم الشيطان على حمل الخاتم وفيه أسماء الله تعالى؟ فالجواب: إن الله أقدره عليه عقوبةً لسليمان، فغير أوصافه وألقى عليه شبه سليمان إلى المدة المذكورة.

والسبب الثاني: في امتحان الله سليمان ما رواه الوالبي عن ابن عباس قال: كان بين قوم وبين أهل امرأة لسليمان حكومة، فقضى سليمان عليه السلام للقوم على أهل المرأة، إلا أنه ودَّ بقلبه لو كان الحق لأهلها، فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً.

والثالث: أن هذه الزوجة كانت أثر النساء عنده فقالت له: إن بين أخي وبين قوم خصومة، وإني أحب أن تقضي له فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي لأجل ما قال: نعم، قاله السدي. والأصح القول الأول، وعامة العلماء عليه.

وقال جدي في «التبصرة»: وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان، أحدهما: أنه كان جالساً على شاطئ البحر فوق منه، قاله علي عليه السلام. والثاني: أن شيطاناً أخذه^(١).

ثم في كيفية أخذه هو أقوال: أحدها: أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمام، فأخذه الشيطان فألقاه في البحر، قاله ابن المسيب. والثاني: أنه أخذه منه. والثالث: أنه أخذه من الأمانة، وهو الأصح، ذكره سعيد بن جبير ووهب وغيرهما.

واختلفوا في رجوع الخاتم إليه على أقوال:

أحدها: ما ذكرنا عن ابن عباس وروينا.

والثاني: أن الحوت بلع الخاتم فأخذه بعض الصيادين ودفعه إلى سليمان وآخر

(١) «التبصرة» ١/٢٩١.

معه، وكان سليمان قد عمل معه ذلك اليوم، فأخذ سليمان الحوتين فباع أحدهما بأرغفة، ونقر بطن الآخر ليشويه فظهر الخاتم، فلبسه، فردَّ الله عليه ملكه.

والثالث: ذكره الضحاك عن ابن عباس، روى: أن بعض نساء سليمان كان يضع الخاتم عندها، فجاء الشيطان في صورته فأخذه منها، وهرب سليمان إلى الصيادين استطعم، فضربه بعضهم بمسحاة فشجَّه، فجعل يغسل الدم على البحر، فلام الصيادون من ضربه وقالوا: بئس ما فعلت، عمدت إلى رجل فقير مجهود ففعلت هذا، ثم ألقوا عليه حوتاً وكان جائعاً فشقَّ بطنه، فإذا بالخاتم، فلبسه فردَّ الله عليه ملكه، وقام الذي ضربه يعتذر إليه، فعذره وقال: هذا أمرٌ لا بدَّ منه^(١).

وذكر الثعلبي: أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده، فأعاده مراراً وهو يسقط، فقال له آصف: إنك مفتون، وإن الخاتم لا يثبت في يدك حتى ينقضي زمان البلاء، ففرَّ إلى الله تعالى تائباً، وأنا أقوم مقامك، وأسيرُ بسيرتك؛ فهرب سليمان، ولبس آصف الخاتم، وأقام يسير بسيرة سليمان إلى أن يعود^(٢).

قلت: وليس هذا القول بشيء، وعامة العلماء على الأول.

وقال ابن المسيب: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن داود، احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام لم تنظر في أمورهم، ولم تنصف المظلومين من الظالمين، وعزَّتي لأسلبنك ملكك، قال: فكان سليمان بعدها لا يحتجب عن الناس ليلاً ولا نهاراً.

وذكر مقاتل أن سليمان تزوج امرأة من غير بني إسرائيل، فعاقبه الله تعالى، وكل هذه الأقوال فيها نظر، والأصحُّ القول الأول.

وقال جدي في «التبصرة»: لما لبس الخاتم ردَّ الله عليه ملكه وبهاءه، وأظلتُّه الطير، فأقبل لا يستقبله إنسيٌّ ولا جنِّي ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا وسجد له، حتى انتهى إلى منزله، ثم أرسل إلى الشيطان فجيء به، فجعله في صندوق من حديد وقفل وختم

(١) انظر الخبر في «عرائس المجالس» ص ٣٢٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٧.

عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر فهو فيه إلى يوم القيامة.

فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزلزل بالزلزل، واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل، فخطؤه أوجب خروجه من المملكة، وكاد أن يوقعه كما أوقعت لقمة آدم في مهلكة، وعليكم بالتقوى فهي سبب السلامة، ومن أخطأ أخطأته الكرامة^(١).

قلت: وما ذنب الشيطان؟ أليس الله تعالى سلطه عليه عقوبة لما فعل؟

فإن قيل: فلم جعل ملكه في خاتمه؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: ليريه هوان ما أعطاه من الدنيا في جنب ما لم يعطه؛ لقد رفض الخاتم في جنب سائر الأشياء. والثاني: أن الخاتم كان حجراً من أحجار الجنة، حكّم هذا الحكم الباهر، فكيف بما فيها من اللآلئ والجواهر؟

قلت: وقد ورد في الخاتم حديث ذكره جدي في «الموضوعات» عن جابر، قال رسول الله ﷺ: «كان نقش خاتم سليمان: لا إله إلا الله محمد رسول الله»، قال جدي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ^(٢).

فصل في قول سليمان: لأطوفن الليلة على مئة امرأة

قال البخاري: حدثنا أبو اليمان بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سليمان، لأطوفن الليلة على مئة امرأة أو تسعين، كلهن يأتين بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه أو حاجبه: قل إن شاء الله، فلم يقلها، فطاف عليهن كلهن جميعاً فلم تحمِل منهن إلا امرأة، جاءت بشقّ ولد. والذي نفسي بيده لو قالها لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعين»^(٣)، أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيح»: فقال له صاحبه - قال ابن عيينة: يعني الملك - قل: إن شاء الله، فَنَسِي^(٤).

(١) «التبصرة» ١/٢٩١-٢٩٢.

(٢) «الموضوعات» ١/٣٢٤ حديث رقم (٤١١).

(٣) «البخاري» (٢٨١٩)، و«مسلم» (١٦٥٤).

(٤) في (ط): فقال له الملك قل إن شاء الله فَنَسِي، قال ابن عيينة: يعني الملك، وليس في (ب)، والمثبت من «صحيح البخاري» (٦٧٢٠).

قلتُ: وهذه الرواية أليقُ بسليمان أن يكونَ على وجه العناد لله تعالى، لأن الله يقول: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ والنسيانُ لا ينفك عنه أحد. وقد روي أن هذا القول أحدُ أسباب فتنة سليمان.

فصل في قصة جرت لصديق سليمان مع ملك الموت

روى وهب بن منبه عن الضحاک عن ابن عباس قال: كان لداود صديقٌ من بني إسرائيل يُدني مجلسه ويشاوره في أموره، فلما مات داود وقام سليمان أنزله منزله عند أبيه، وكان ملك الموت يدخل على سليمان ويستقضي حوائجه، فدخل عليه يوماً وعنده صديق أبيه، فلما خرج ملك الموت قال له الرجل: أسألك بالله أن تأمر الريح أن تحملني إلى أقصى جزيرة بالهند فتطرحني هناك، قال سليمان: ولم؟ قال: لأن الرجل الذي دخل عليك لحظني لحظة لم أتمالك عندها، فأمر سليمان الريح فحملته إلى الهند، وحزن سليمان لفقده، فدخل عليه ملك الموت فقال: مالي أراك حزينا؟ فقال: لأجل فقدي لصديق أبي. فقال ملك الموت: الساعة قبضتُ روحه بأقصى جزيرة^(١) بالهند، أمرني الله بذلك، فبكى سليمان عليه السلام وقال: يا الله العجب.

حديث الطائر مع سليمان

روى محمد بن إسحاق عن كعب قال: مرَّ سليمان على طائر يرفرف على فراخه ويزقُّهم^(٢) ويعلمهم الطيران، فقال: ليت سليمان حبس جيشه حتى أدخل فراخي إلى العش، فوقف له سليمان حين سمعه، فلما أدخل فراخه العش وخرج من العش أخذ الماء بمنقاره وجعل يرش الطريق بين يدي سليمان شكراً لما صنع.

وذكر أبو المعالي بسند له في كتاب «لوامع أنوار القلوب» قال: راود خطافٌ خطافاً فامتنعت عليه، فقال: لو شئت أن أقلب القبة على سليمان لفعلتُ، وبلغ سليمان فأحضره وقال: قلت كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما حملك عليه؟ قال: يا نبي الله، العشاق لا يؤاخذون بما يبدو منهم، قال: صدقت.

(١) في (ب) و(ط): مدبرة، والمثبت من «العاقبة في ذكر الموت» لعبد الحق الإشيلي ٤١/١.

(٢) يزقُّهم: أي يطعمهم.

فصل في معجزاته

قال علماء السِّير: معجزاته كثيرة منها تسخير الشياطين له، قال ابن عباس: بنوا له مدناً كثيرة منها تَدْمُرُ وَبَعْلَبَك، وفيها يقول النابغة:

إِلا سُلَيْمَانُ إِذْ قَالَ الْمَلِيكُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاخْذُهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَخَيْسِ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَمَرْتَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالْعَمَدِ^(١)

وقال الجوهري: الصُّفَّاح - بالضم والتشديد -: الحجر العريض^(٢). وقيل: الرخام الأبيض والأصفر. وقال السُّدي: لا يختلفون أنه بنى تَدْمُرَ، وفي بَعْلَبَك خلاف، وبنى قلعة سليمان بخراسان والأبلة، والسُّوس، وإِضْطَخِر.

وقال الثعلبي: وَجَدَتْ فِي صَخْرَةٍ مَنْقُورَةٍ بِأَرْضِ كَسْكَرٍ هَذِهِ الْآيَاتُ:

وَنَحْنُ وَلَا حَوْلَ سِوَى حَوْلِ رَبِّنَا نَرُوحُ إِلَى الْأُوطَانِ مِنْ أَرْضِ تَدْمُرِ
إِذَا نَحْنُ رُحْنَا كَانَ رَيْثُ رِوَا حِنَا مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَالْغَدُوُّ لِأَخْرِ
أُنَاسٌ شَرَوْا لَهِ طَوْعاً نَفُوسَهُمْ بَنَصْرَ ابْنِ دَاوُدَ النَّبِيِّ الْمَطْهَرِ
لَهُمْ فِي مَعَالِي الدِّينِ فَضْلٌ وَرَأْفَةٌ وَإِنْ نُسِبُوا يَوْمًا فَهُمْ خَيْرُ مَعْشَرِ
مَتَى يَرْكَبُوا الرِّيحَ الْمَطِيْعَةَ أَسْرَعَتْ مَبَادِرَةٌ مِنْ شَهْرِهَا لَمْ تُقْصِرِ
يُظَلُّهُمْ طَيْرٌ صُفُوفاً عَلَيْهِمْ مَتَى رَفَرَفَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ لَمْ تَفْتَرِ^(٣)

وأمر زوبعة فبنى باليمن حصن سلحين وصرواح ومرواح وبيئون وهند وهنيذة ومبلوم.

ولما مات سليمان صاح صائح من السماء بعد سنة في الليل: يا معاشر الجن والشياطين مات نبي الله سليمان فارفعوا أيديكم، فعمدت الشياطين إلى حجر وكتبوا عليه بالمسند أسماء الحصون التي بنوها وتفرقوا.

وقال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وكانت الشياطين تغوص في البحار

(١) البيتان في ديوانه: ص ٣٣، و«الفند» الخطأ في الرأي والقول، و«خيس»: ذل.

(٢) «الصحاح»: (صفح).

(٣) «عرائس المجالس» ص ٣٠٥.

فیستخرجون له الدرّ واللآلیء، ويعملون له الجفان والقصاع، يجتمع على القصعة ألف رجل، ويأكل من كل قدر ألف رجل، ولا تنزل من مكانها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني الغوص ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ۸۲] حتى لا يخرجوا عن أمره^(۱).

ومنها: الريح، وقد ذكرناها.

فإن قيل: فقد قال في موضع: ﴿عاصفة﴾ [الأنبياء: ۸۱] وفي موضع: ﴿رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ۳۶] فالجواب: إنَّ الرخاء مأخوذة من الرخاوة، وأصاب بمعنى قصد، وأما عاصفة فلأنها كانت تلين إذا أراد، وتشتد إذا أراد. وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ۸۱] يعني: أرض الشام، لأنها كانت منزله.

ومنها: فهم كلام الطير والنمل، وقد أشرنا إلى طرف منه.

ومنها: بساطه، وكان مئة فرسخ، وهو من نسج الجنة، قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه عن كعب قال: إنَّ سليمان عليه السلام كان إذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكُتَّابَه وتلك الصفوف بعضها فوق بعض على قدر درجاتهم، وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد، وقدوراً عظماً تسع القدر عشر جزائر، واتخذ ميادين الدواب أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم. وتمام هذا الأثر: أنه مرَّ بمكة ولم ينزل حتى عاد من اليمن، وأنه بشر نبينا ﷺ وقد ذكرناه^(۲).

ومنها: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ۱۲] قال ابن عباس: يعني أسلنا له عين القطر أي: عين النحاس، ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان من الأرض^(۳).

قال ابن عباس: المراد بالمحاريب: المساجد، والتماثيل: القصور والخاتم

(۱) «التبصرة» ۱/ ۲۹۰.

(۲) «عرائس المجالس» ص ۲۹۸.

(۳) انظر «عرائس المجالس» ص ۳۰۵.

والكرسي وغير ذلك.

وقال مجاهد: هذا في بيت المقدس، عملوا له المحاريب من النحاس والصفير والشبه والزجاج والرخام، والتمثيل صور الملائكة والأنبياء والصالحين، حتى إذا رآهم الناس مصورين ازدادت عبادتهم.

وجفان وهي القصاع، وقد ذكرنا أنه كان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل، والقدور الراسيات: الثابتات في أماكنها لا تنزل، ومنه قيل للجبال: رواسي.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] أي وقلنا: اعملوا بطاعة الله شكراً له على نعمه.

قال ثابت البناني: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة منها إلا وإنساناً من آل داود قائم يصلي أو يقرأ.

وقال مجاهد: كان سليمان عليه السلام قد تخلى عن الدنيا وانقطع إلى العبادة، وسببه أن النملة قالت له: إنما سميت سليمان لأنك سليم الصدر، وقد آن لك أن تلحق بأبيك، فسلم الملك إلى آصف ودخل المحراب، فتعبّد حتى مات.

فصل في وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ الآية.

أنبأنا غير واحد عن إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي بإسناده عن ابن عباس قال: كان سليمان يقيم بالبيت المقدس الشهر والشهرين والسنة والسنتين، يدخل بيوت العبادة فيتعبّد فيها، وكان يصبّح كل يوم وقد أنبت الله في القدس شجرةً فيسألها ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا وكذا، وأصلح لكذا وكذا. فبينما هو ذات يوم قائم يصلي في المسجد، رأى شجرةً قد نبتت بين يديه فقال: ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: ولأي شيء نبتت؟ قالت: لخراب بيت المقدس - أو لخراب هذا المسجد - وذهاب هذا الملك. فقال: ما كان الله سبحانه ليخرّبهُ وأنا حيّ، فقلعها وغرسها في حائط المسجد، ثم أخذ منها غصناً يتوكأ عليه، وهو منسأته، ثم قال: اللهم غمّ عن الجنّ موتي حتى تعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنّ تقول للإنس: نحن نعلم الغيب، ثم دخل المحراب وقام يصلي متكئاً على عصاه فمات، وقال ابن زيد: قال سليمان

لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: قد أمرت بك، وقد بقيت لك سُوَيْعة، فدعا الشياطين وقال: ابنوا لي صرحاً من قوارير ليس له باب، ففعلوا، وقام يصلي، ودخل عليه ملك الموت فقبضه وهو متكئ على عصاه^(١).

وفي رواية أخرى: أن سليمان قال ذات يوم لأصحابه: قد آتاني الله من الملك ما ترون، وما مرّ عليّ يومٌ بحيث صفا لي من الضرر، وقد أحببتُ أن يكون لي يومٌ واحد يصفو إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك اليوم غداً. فلما كان من الغد دخل قصرأ له، وأمر بإغلاق أبوابه، ومنع الناس من الدخول عليه ورفع الأخبار إليه، لئلا يسمع من ذلك ما يسوؤه. ثم أخذ عصاه بيده وصعد فوق قصره واتكأ على عصاه ينظر في ملكه، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر، فسلم عليه فقال سليمان: من أين دخلت وقد منعنا الناس من الدخول؟ فقال: أنا الذي لا يحجبني حاجب، ولا يرذني بواب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن، وما دخلت إلا بإذن ربي. قال: فأنت حينئذ ملك الموت، قال: نعم جئت لقبض روحك، فقال: هذا يوم أردت أن يصفو لي من الكدر ولا أسمع فيه ما يغمني، فقال له ملك الموت: ذاك اليوم الذي تشير إليه لم يخلق في دار الدنيا، فارض بقضاء ربك فإنه لا مردّ له، فقال له: فامض لما أمرت به، فقبضه وهو متكئ على عصاه. وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومصلاه أينما كان، وكان للمحراب كوى بين يديه ومن خلفه، وما كان شيطان ينظر إليه وهو في محرابه إلا احترق، فدخل شيطان من جانب وخرج من جانب ولم يحترق، فنظر إلى سليمان وقد خرّ ميتاً فأخبر الناس، ففتحوا الباب وأخرجوه، ووجدوا الأرضة قد أكلت منسأته - وهي العصا - ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانت الجن تعمل بين يديه بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبونهم لأنهم لو علموا بموته ما عملوا^(٢). ثم قالت الشياطين للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٨.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٢٩.

تشرابين الشراب لأتيناك بأطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت^(١). ويقال لها: القادح، وهي دويبة تأكل العيدان.

وقال الجوهرى: الأَرْضَةُ بالتحريك دويبة تأكل الخشب^(٢).

واختلفوا في مبلغ سنه:

فقال الثعلبي: عاش ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة مملكته أربعون سنة، وملك يومَ مَلِكٍ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضيئ من مُلكه^(١). ولم يذكر الثعلبي غير هذا.

وقال مقاتل: عاش اثنتين وخمسين سنة لأنه ملك وهو ابن اثني عشرة سنة.

وقيل: إنه عاش سبع مئة سنة، وإنه كان في زمان أفريدون. وهذا القول ليس بشيء.

ولم يذكر جدي في «أعمار الأعيان» مبلغ سنه.

واختلفوا في موضع قبره على قولين:

أحدهما: قبره بالبيت المقدس عند الجسمانية^(٣)، هو وأبوه في قبر واحد.

والثاني: على ساحل بحيرة طبرية.

وقال ابن عباس: لما مات سليمان أخرجت الشياطين من تحت كرسيه أوراقاً فيها سحر وطلسمات، وهي على لسان آصف بن برخيا: هذا ما علم آصف سليمان، وكان صخر قد دفنها - وقيل: غيره - تحت كرسي سليمان، ولما أخرجوها قالوا للناس: إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه، فأما صلحاء بني إسرائيل فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان، وإن كان هذا علمه فقد هلك، وقالت السفلة: بلى كان هذا علمه، وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم، وفشت الملامة لسليمان، فلم يزل ذلك حالهم حتى بعث الله رسوله، فأنزل الله تعالى عذر سليمان على لسانه، وأظهر براءته مما رأى فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] يعني اليهود،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٠.

(٢) «الصحاح»: (أرض).

(٣) أي عند كنيسة الجسمانية كما تقدم في الصفحة ١٨٠، وانظر «الروض المعطار» ١/١٢٣.

ومعنى ﴿تتلون﴾ تَلَّتْ، وقرأ الحسن: «الشياطون» بالواو في جميع القرآن^(١)، وهو لحنٌ فاحش عند أهل الأدب. الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: بستان فلان حوله بساتون. ومعنى ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في ملكه.

وقال السُّدي: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع ثم يأتون الكهنة فيخبرونهم، ويخلطون ما سمعوا بالكذب والزور، في كل كلمة سبعون كذبة فيما يكون في الأرض من موتٍ أو غيره، ففشا في بني إسرائيل أن الجنَّ تعلمُ الغيب، فجمع سليمان تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنها تحت مصلاه أو كرسيه، وقال: لا أسمعُ أحداً يقول إن الشياطين تعلم الغيب إلا قتلته. فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين يعرفون حال الكتب ودَفَنَهُ إياها تمثلَ الشيطان في صورة إنسان، وأتى نفرًا من بني إسرائيل، قال: هل أدلكم على كنزٍ لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، فذهب معهم إلى كرسيِّ سليمان وقال: احفروا ها هنا، فحفروا وأخرجوها، فقال: إنَّ سليمان كان يضبط الجنَّ والإنس والطير بهذا. ولما أراهم المكان من بعيد قالوا: ادنُّ، قال: لا أقدر، وما كان شيطانٌ يدنو من الكرسيِّ إلا احترق، وطار في الهواء. ولما ظهرت الكتب فشا في الناس أنَّ سليمان كان ساحراً، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود. فأنزل الله براءة سليمان.

وفي الآية دليل على أنَّ الساحر كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فصل في وفاة بلقيس

حكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» وقال: بلغني أنَّ بلقيس ملكت اليمن تسع سنين، وكانت خليفةً عليها من قبل سليمان أربع سنين، قال: وقال همام بن منبه: قدمت مكة فجلستُ إلى عبد الله بن الزبير وعنده جماعة من قريش فقال رجل: ممن أنت؟ قلت: من اليمن، قال: ما فعلت عجوزكم؟ قلتُ: أيُّ عجوز؟ قال: بلقيس، قلت: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وأما عجوزكم فحمالة الحطب في جيدها

(١) «مختصر في شواذ القراءات» ص ٨.

حبلٌ من مسد^(١).

قال أبو القاسم: وروي عن الأوزاعي أنه قال: كُسِرَ بَرَجٌ من أبراج تَدْمُرُ فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدرجة، كأن أعكانها طيُّ الطَّوامير المدرجة، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً، مكتوب على طرفها: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا بلقيس ملكة سبأ، زوجة سليمان بن داود، ملكت الدنيا كافرةً ومؤمنة، ملكت شيئاً لم يملكه أحدٌ قبلي، ولا يملكه أحدٌ بعدي، ثم صار مصيري إلى الموت فأقصرُوا يا ظُلاب الدنيا^(٢).

واختلفوا فيها على أقوال: فقال السُّدي: توفيت قبل سليمان بشهر، وقيل: إنها توفيت باليمن.



قال: فإن قيل: فهل تعرفون في رواية الحديث من اسمه سليمان بن داود؟
فالجواب: جماعة ذكرهم أبو القاسم في «تاريخ دمشق» والخطيب في «تاريخ بغداد» فنذكر أعيانهم، فمنهم:

سليمان بن داود بن أبي حفص، وكنيته أبو الربيع الخُتلي^(٣)، سمع بالشام أبا الحسن بن أبي الحديد وغيره، وروى عن حفص بن عمر الربيعي وغيره.

ومما روى عن الربيعي^(٤) قال: خرجنا إلى المدائن لنسمع من شعيب بن حرب الواسطي فقال: أحدثكم قبل أن تسمعوا بحديثين في الورع، أما أحدهما فرأيته بعيني قال: خرجتُ حاجاً فركبتُ في سفينة فإذا رجلان كأنهما ارتكضا في رحم واحد، يعظّم كل واحدٍ منهما صاحبه، وإذا في السفينة قمح، فأخذ أحدهما قمحةً فوضعها في فيه، فنظر إليه صاحبه وقال: ما هذا؟ قال: سهوتُ، قال: لا أصحاب من يسهو عن الله، قدّم السفينةَ يا ملاح وإلا رميتُ روعي في البحر، فقلت له: من أجل قمحةٍ تلقي روحك في البحر؟ فقال: هيه استصغرت الذنبَ ولم تنظر من عُصي، ولم يقدم الملاحُ

(١) «تاريخ دمشق» ٧٧/٦٩.

(٢) تاريخ دمشق ٧٨/٦٩، والطوامير: جمع طامور، وهو الصحيفة.

(٣) كذا في (ط)، وليس في (ب)، والصواب: الجيلي كما في تاريخ دمشق ٧/٦٠٣ (مصورة دار البشير)، ومختصره لابن منظور، وابن بدران ٦/٢٧٣.

(٤) كذا في (ط)، وفي تاريخ دمشق ومختصره: المرثعي، وهو الصواب إن شاء الله.

السفينة فزج نفسه في البحر وغاب عنا. فقال صاحبه: والله إني صحبته منذ ثلاثين سنة ما رأى مني زلةً غيرها. قال: وسرنا أياماً وأنا أخدمه حتى أتينا مكة، فبينما نحن في الطواف وإذا برجل، فقلت لرفيقه: هذا صاحبك، فجاء فسلم عليه فقال له: أب إلى الله بالتوبة من ذنبك، ففعل فقلت: الصحبة فقال: قد نهى رسول الله ﷺ عن صحبة الثلاثة، لئلا يتناجى اثنان دون الثالث^(١)، ثم افترقا، فإن يكن أحد من الأبدال فهما ذاك الفتيان.

وأما الذي حدثني سفيان الثوري فقال: بلغني أن المسيح عليه السلام مر بمقبرة، فنادى: يا أهل القبور أخبرونا عن حالكم، فقام رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ويقول: يا روح الله ما الذي تريد منا؟ فإني لواقف في الحساب منذ سبعين سنة، قال: وما كنت تعمل؟ قال: حملاً أحمل الحطب فبعث يوماً حزمةً من رجل، وأخذت منها شظية فتخللت بها ورميتها في الطريق، فعاتبني الله وقال: استهنت بأمرى وقد علمت أني مطلع عليك أسمع وأرى، قال: فشاب مُقَدَّمُ رأسِ المسيح من هول ما سمع منه وقال سفيان: هؤلاء أصحاب الشظايا، فما بالكم بأصحاب الجدوع؟!

قلت: وقد ذكره الخطيب^(٢) وقال: كان أحول، وحدث عنه عباس الدوري ومسلم بن حجاج وأبو زرعة الرازي وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهم، وكان ثقةً، ومات بمدينة أبي جعفر ببغداد، أول يوم من رمضان سنة إحدى وثلاثين ومئتين.

ومنهم: سليمان بن داود بن خالد بن عباد، من ساكني جرود من إقليم معلولا من عمل دمشق^(٣).

ومنهم: سليمان بن داود بن عبد الله أبو أيوب، من أهل نيسابور^(٤)، وذكره الحاكم أبو عبد الله في «تاريخه»، ومات في سنة عشرين وثلاث مئة بنيسابور، وسافر إلى الشام

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٥٦٤)، والنهي فيه عن التناجى فقط وليس عن الصحبة، بل ورد الحض على صحبة الثلاثة في قوله ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب» أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤).

(٢) وهم المصنف رحمه الله في هذا، فالذي ترجم له الخطيب ٤٩/١٠ نسبته «الختلي» وتوفي سنة ٢٣١هـ، أما المقصود فهو «الجيلي»، وتوفي نحو سنة ٤٦٩هـ.

(٣) «تاريخ دمشق» ٣٠٢/٢٢.

(٤) «تاريخ دمشق» ٣٥٤/٦٤.

والحِجَاز والعِراق، وسمع بدمشق أبا زُرْعَةَ الدمشقي وروى عنه في «تاريخه» وأسمعه، وروى عنه جماعة منهم أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري، وعاد إلى نيسابور فتوفي بها، كما ذكرنا.

ومنهم: سليمان بن داود بن عبيد الله بن مروان بن الحكم بن أبي العاص^(١)، كان يسكن دَيْرَ البُخْت من أعمال دمشق، وكان أعور، وهو الذي تزوج فاطمة بنت عبد الله ابن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز بعد عمر، فولدت له هشام بن سليمان، وسليمان هذا هو الذي يقال له الخلف الأعور. وقيل: إنما خلف عليها داود بن بشر بن مروان، وسنذكره فيما بعد.

ومنهم: سليمان بن داود الخولاني الداراني^(٢) أخو عثمان بن داود، روى عن: الزُّهري وعمر بن عبد العزيز وأبي قلابة الجرمي وغيرهم، وروى عنه: الوضين بن عطاء وغيره، وكان حاجباً لعمر بن عبد العزيز ثقةً مأموناً. وقال البيهقي: قد أثنى على سليمان بن داود هذا أبو زُرْعَةَ الرَّازي وأبو حاتم وعثمان بن سعيد الدارمي وجماعة من الحفاظ، وتكلموا فيه بسبب الحديث الذي رواه: أن النبي ﷺ كتب كتاب الصدقات^(٣)، فمنهم من يقول: أرسله، ومنهم من يقول: وقفه، وعلى كل حال فهو مأمون ثقة.

ومنهم: سليمان بن داود، دمشقي، حدّث عن أبي معاوية شيبان بن عبد الرحمن النحوي، وروى عنه محمد بن موسى القَطَّان^(٤).

ومنهم: سليمان بن داود، دمشقي أيضاً، حدّث عن أبي سهل أحمد بن محمد بن عمر اليماني، وروى عنه عبد الله بن محمد بن يوسف^(٥).

وأما الذين ذكرهم الخطيب:

(١) «تاريخ دمشق» ٣٠٣/٢٢.

(٢) «تاريخ دمشق» ٣١٢/٢٢.

(٣) حديث الصدقات حديث طويل أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩)، والحاكم في مستدرکه (١٤٤٧).

(٤) «تاريخ دمشق» ٣١٥/٢٢.

(٥) «تاريخ دمشق» ٣١٥/٢٢.

فمنهم: سليمان بن داود أبو داود الطيالسي^(١)، وقد ذكر.
 ومنهم: سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، ذكرناه أيضاً^(٢).
 ومنهم: سليمان بن داود، أبو الربيع الزهراني^(٣) ذكرناه أيضاً.
 ومنهم: سليمان بن داود بن بشر الشاذكوني^(٤) ذكرناه أيضاً. انتهت ترجمتهم،
 والله أعلم.



(١) «تاريخ بغداد» ٢٤/٩.

(٢) «تاريخ بغداد» ٣١/٩.

(٣) «تاريخ بغداد» ٣٨/٩، وتهذيب الكمال ٢٧٧/٣.

(٤) «تاريخ بغداد» ٤٠/٩.

فصل

في ذكر جماعة ملكوا بعد سليمان عليه السلام^(١)

قال علماء السير: ولما مات سليمان ملك بعده ولده رجيعم بجيم^(٢)، وفيه خلاف، فأقام بعد أبيه سبع عشرة سنة.

واختلفوا فيمن ملك بعده: فقال وهب: ابنه أبيّا بن رُحْبَعْم ثلاث سنين^(٣) ومات بعده.

وقال كعب: إنما ملك بعد رُحْبَعْم رجل من بني إسرائيل يقال له نورغم^(٤)، فاتخذ عجلًا من ذهب وعبداه فأهلكه الله، ثم ملك بعده أبيّا بن رُحْبَعْم ومات، فملك بعده رجل يقال له آحاذ^(٥)، فأقام أربعين سنة، وفي أيام آحاذ انقطع ملك قوم سبأ، وآخرهم الصباح، ملك تسعة عشر شهراً وأياماً، وقال وهب: إنما ملك بعد أبيّا بن رُحْبَعْم ولده أسا بن أبيّا أربعين سنة، وكان رجلاً صالحاً.

فصل في ظهور السامرة

واختلفوا فيهم: فقال وهب: ظهوروا في أيام أبيّا بن رُحْبَعْم، وقيل: في أيام أسا، وأنكروا نبوة داود وسليمان، وأقاموا رؤساء من سبط هارون بن عمران، وسكنوا نابلس، وعظموا الجبل الذي يليها من ناحية القبلة، وسموه الطور، واتخذوا بوقاتٍ من فضة ينفخون فيها في أوقات صلواتهم، وهم الذين يقولون: لا مساس، ويزعمون أن نابلس مدينة يعقوب، وهم صنفان متباينان: أحدهما يقال له: كوشان، والآخر: دوشان، والصنفان يخالفان اليهود، ويدهم تورا غير التي بيد اليهود، ودوشان يقولون بقدم العالم.

(١) انظر «تاريخ اليعقوبي» ٦١/١، و«تاريخ الطبري» ٥١٧/١، ومروج الذهب ١١٢/١.

(٢) كذا في (ط): بجيم، وليس في (ب)، وفي الطبري: رُحْبَعْم، وسترده كذلك قريباً، وفي مروج الذهب: ارخبعم.

(٣) في (ط): ثلاث سنة، وليس في (ب)، والمثبت من الطبري ومروج الذهب.

(٤) في تاريخ الطبري ٥١٧/١، ومروج الذهب ١١٣/١: يوربعم.

(٥) في مروج الذهب: احاب.

فصل

في قصة أسا بن أبيّا بن رُحْبَعْم بن سليمان مع صاحب الهند^(١)

وكان أعرج من عرق النّساء، ولم يكن نبياً، وإنما كان عبداً صالحاً على ما قيل، فطمع فيه الملوك لزمانته.

قال علماء السّير: ولما قام أسا كان في بني إسرائيل من يعبدُ الأصنام، فنادى مناديه ألا إنّ الكفر قد مات، وعاش في بني إسرائيل الإيمان، ومن عبد صنماً قتلته، وكسر الأصنام، وقتل جماعةً منهم فهربوا إلى الهند، وبها ملكٌ يقال له: أزرَج^(٢)، وكان جباراً عاتياً، فدخلوا عليه ووصفوا له بلاد الشام وما في البيت المقدس من الأموال والجواهر، وقالوا: أنت أحقُّ بها فقال: حتى أبعث إلى تلك البلاد من يكشفها لي، وبعث جواسيس في زي التجار ومعهم الأمتعة الفاخرة والجواهر الثمينة، وأمرهم أن يعلموا عِلْمَ شأنِ تلك الأرض وأحوال بني إسرائيل، فقدموا الشام وأظهروا تلك الأمتعة وكشفوا البلاد وعلموا علمها، وقالوا للناس: ما بال الملك لا يشتري منا متاعاً ومعنا الطرائف واليوافيت التي لم ير مثلها؟ فقالوا: إن عنده من الجواهر والأمتعة والخزائن التي سار بها موسى من مصر، وما جمع ملك داود وسليمان ويوشع ومن بعدهم، قالوا: فبم يقاتل إن دهمه عدوٌّ، وعدته للقتال قليلة؟ قالوا: له صديق لو استعان به على أن يزيلَ الجبالَ لأزالها، وله جنود لا تُحصَى. ثم أرسلوا إلى أسا: قد جئنا من بلاد بعيدة ومعنا هدية ونريد أن تقبلها منا، فأحضرهم وما معهم وقال: لا حاجة لي فيه، إنما أطلب ما يبقى وهذا يفنى، ثم أحسن إليهم وعادوا إلى الهند، فأخبروا أزرَج بالخبر، وقالوا: إنّ بلاده في غاية الحسن والنزهة وكثرة الأموال، وخصوصاً المسجد الذي لهم، فإن فيه من الجواهر والأموال ما لم يوجد في غيره، وقالوا: له صديق عظيم لو سأله أن يزيلَ الجبالَ لأزالها، فقال: جنودي أعظم من جنود صديقه، ثم جمع العساكر وكانت ألف ألف فاختر منهم مئة ألف يكونون حوله، وسار في مئة ألف مركب، وزينها بالقباب والفيلة والعُدَّة والخزائن ما لم يشاهد

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٥١٧/١، وعرائس المجالس ٣٣٠، و«المنتظم» ٣٨٩/١، و«الكامل» ٢٥١/١.

(٢) في تاريخ الطبري والمنتظم: زرج، وفي عرائس المجالس: روح.

مثله، وقصد القلزم، وبلغ أسا فقال: اللهم اكفنا شره وافعل به كما فعلت بفرعون، فأوحى الله إليه - أو رأى في منامه - الوعد بالنصر، فعرف بني إسرائيل، ولما قرب ملك الهند وبلغ بني إسرائيل عظم جيوشه خافوا وقالوا: لا طاقة لنا بالقوم، ونحن خارجون إليه لعلهم يرحموننا، فقال أسا: تبا لكم، ما هذا برأي، أنلقي بأيدينا إلى الكفار؟! ولكن أنا أرغب إلى صديقي، ورمى بثياب الملك ولبس المسوح وافترش الرماد، ثم دعا آباءه ونصرهم، ونام في مصلاه، فأتاه آت في منامه فقال له: يا أسا، الصديق لا يتخلى عن صديقه، أتذكرني في الرخاء وأسلمك في الشدائد، قد كفيتك أمر عدوك، وأنا الذي لا يهون من أكرمه، ولا يضعف من قوته، فانتبه فرحاً وأخبرهم بما رأى، فصدقه المؤمنون وكذبه المنافقون. ثم جمع العلماء والعباد والرهبان، وخرج بيني إسرائيل، وقد نشر العلماء أناجيلهم، وقصد القلزم لئلا يطمع الهندي، فلما وصل إلى البحر وقف على رأسه ينظر إلى المراكب، فلما نظر الهندي إليهم استحقرهم وقال للجواسيس: غررتموني وأقدمتموني من بلادي إلى هذه الشردمة، وأي قدر لهم؟ ثم صعدوا من المراكب ورشقوا بني إسرائيل رشقة واحدة، فبعث الله الملائكة فردت عليهم النشاب، ووقع في كل من رمى بنشابة نشابته التي رمى بها، وظهر من أفواه الملائكة شرر النار، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، فغرقوا، وانهزم الهندي في مركب يقول: لا طاقة لنا اليوم بصديق أسا، ثم ضرب ملك مركبه فأغرقه، وغنم بنو إسرائيل عساكره وأمواله وذخائره، وأخذوا ما لم يغنمه غيرهم وانطلقوا، وعظم أسا في أعين الملوك.

وذكر هارون بن المأمون: أن صاحب الحضر كان يقال له: لنقر^(١)، وكان يسكن الثرثار، بريّة سنجار، وكان الحضر أعظم الحصون، وبلغه خبر بيت المقدس، وكان يعبد الزهرة، فجمع العساكر وخرج ومعه بُخت نصر، وكان كاتبه، ونذر لنقر إن أظفره الله ببيت المقدس أن يذبح ابنه للزهرة، فنزل على بيت المقدس، فبعث الله عليه وعلى جيشه ريحاً فأهلكتهم، وأفلت كاتبه بُخت نصر إلى الحضر، وبلغ ابنه أنه نذر ذبحه، وكان كذلك. فغضب بُخت نصر وقام إلى ابنه فذبحه، وملك بُخت نصر بعده. قال هارون: وكان ذلك أول أمر بُخت نصر. قلت: وليس كما ذكر فإن بُخت نصر ظهر بعد

(١) في المعارف ٤٦: ليقر، وفي نسختين ذكرهما المحقق: لنقر، والمثبت من (ط)، وليس في (ب).

ذلك، لما نذكر.

قال: ثم سار ملك الهند إلى الشام بعد هلاك لنقر فأهلكه الله، ثم أقام أسا أربعين سنة ومات.

قال: فملك بعده ولده يَهُو شَافاطَ خمساً وعشرين سنة ومات، وكان عادلاً صالحاً ولم يكن له ولد.

قال: فنظروا فلم يبقَ من بيت المُلكِ إلا امرأة يقال لها: غزليا بنت عمرم^(١) فملكوها، وكانت جبّارة عاتية، فشرعت في قتل أولاد الملوك من بني إسرائيل، فأقامت سبع سنين، ووثب عليها رجل من أولاد الملوك يقال له يواش، فقتلها وملك بعدها أربعين سنة ثم مات.

قال: وملك بعده ابنه أمصيا بن يواش، فأقام تسعاً وعشرين سنة، وكان فاسقاً فقتله أصحابه.

قال: وملك بعده ولده اسمه لعوزيا، وكان صالحاً، فأقام خمسين سنة، ويقال: إن اسمه عوزيا، ثم مات، وملك بعده ولده حزقيا عشر سنين، ثم اختلف بنو إسرائيل وتداولتهم الأيام حتى بعث الله شعيّا، وبين وفاة سليمان ومبعث شعيّا نحو من ثلاث مئة سنة، وقيل: مئتان وستون سنة.



(١) في «الطبري» ٥٣١/١: عتليا ويقال غزليا ابنة عمرم أم أخزايا.

فصل في قصة شعيا بن أمصيا وخراب بيت المقدس^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] والمراد بالكتاب: التوراة، والفساد: قتل الأنبياء مثل شعيا بن أمصيا ويحيى بن زكريا، والمقتول في الفساد الأول: شعيا، وفي الثاني: زكريا، وقال مقاتل: كان بين الفسادين مئتا سنة وعشر سنين.

قال علماء السير: كان بنو إسرائيل فيهم الأحداث والخطايا، وكان الله تعالى متجاوزاً عنهم، منعظاً عليهم، محسناً إليهم.

وقال أبو إسحاق الثعلبي - وقد اختصرته -: كان أول ما نزل ببني إسرائيل بسبب ذنوبهم أن ملكاً منهم يدعى صديقة، وكان الله إذا ملك عليهم بعث نبياً يسدده ويرشده، فبعث الله شعياً بن أمصيا، وكان ذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى^(٢).

وقال جدي في «فضائل بيت المقدس»: وقال ابن إسحاق: وشعياً هو الذي بشر بعيسى ومحمد ﷺ، فقال مخاطباً لبيت المقدس: أبشري أوربي سلم، الآن يأتيك راكب الحمار يعني عيسى، ومن بعده راكب البعير، يعني محمداً ﷺ^(٣).

فملك صديقة بني إسرائيل مدةً وشعياً معه، وعظمت الأحداث في بني إسرائيل فبعث الله سنحاريب ملك بابل في ست مئة ألف راية، فنزل على القدس، وكان الملك مريضاً في ساقه قرحة، فقال شعياً لصديقة: قد نزل بنا هذا الملك وخافه الناس، فقال له الملك: هل أتاك من الوحي فيما حدث؟ قال: لا، فبينما هم كذلك جاء الوحي بأن صديقة قد انتهى ملكه، وأنه سيخلف من يشاء ويوصي وصيته، فلما أخبر شعياً صديقة قام إلى المحراب فبكى ساعةً ودعا وتضرع وقال: إلهي، قد علمت سرِّي وعلانيتي وفعلي في بني إسرائيل - وكان عبداً صالحاً - فرحمه الله وأوحى إلى شعيا أخبر صديقة

(١) انظر قصته في «تاريخ الطبري» ٥٣٢/١، وتفسيره ٤٥٩/١٤، و«البدء والتاريخ» ١١٣/٣، و«عرائس المجالس» ص ٣٢٩، وتفسير الثعلبي ٧١/٦، و«المنتظم» ٣٩٧/١، و«الكامل» ٢٥٥/١، والبداية والنهاية ٣٥٧/٢.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٥٣١.

(٣) «فضائل القدس» ص ١٠٠.

أَنَّ اللَّهَ قَد رَحِمَهُ وَأَخَّرَ أَجْلَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَنَّهُ قَد أَنْجَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ سَنَحَارِيبَ وَجُنُودِهِ. فَأَخْبَرَ شَعْيَا فذَهَبَ عَنْهُ الْوَجَعُ وَفَرِحَ وَسَجَدَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى. وَأَصْبَحَ عَسْكَرُ سَنَحَارِيبَ مَوْتَى إِلَّا سَنَحَارِيبَ وَخَمْسَةَ نَفَرٍ مِنْ كِتَابِهِ، أَحَدَهُمْ بُخْتُ نَصْرٍ. وَخَرَجَ صَدِيقَةٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَى الْقَوْمَ مَوْتَى فغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ، وَطَلَبَ سَنَحَارِيبَ، فَوَجَدَهُ فِي مَغَارَةٍ وَمَعَهُ كِتَابُهُ فَجَعَلَهُمْ فِي الْجَوَامِعِ. وَقَالَ صَدِيقَةٌ لَسَنَحَارِيبَ: كَيْفَ رَأَيْتَ فَعَلَ اللَّهُ بِكُمْ؟ فَقَالَ سَنَحَارِيبَ: قَدْ أَتَانِي خَبْرُكُمْ، وَنَصَرَ رَبُّكُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنْ بِلَادِي فَلَمْ أَطْعَ مَرشِدًا، وَلَمْ يُلْقِنِي فِي الشَّقَاوَةِ إِلَّا قَلَّةَ عَقْلِي. ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَطِيفَ بِهِمْ حَوْلَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ سَبْعِينَ يَوْمًا يَطْعَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ قَرصِينَ مِنْ شَعِيرٍ، فَقَالَ سَنَحَارِيبَ: الْقَتْلُ أَهْوَنُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا شَعْيَا أَطْلِقُوا سَنَحَارِيبَ وَمَنْ مَعَهُ مَكْرَمِينَ لِيَنْدَرُوا مِنْ وِرَاءِهِمْ، فَأَرْسَلَهُمْ، فَلَمَّا قَدَمُوا بِبَابِ بَابِلَ قَالَ لَهُ كَهْتَتُهُ: قَدْ نَهَيْتُكَ وَلَمْ تَطْعُنَا، وَهِيَ أُمَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُهَا أَحَدٌ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَقَامَ سَنَحَارِيبَ سَبْعَ سِنِينَ وَمَاتَ وَاسْتُخْلِفَ بُخْتُ نَصْرٍ، وَكَانَ ابْنُ ابْنِهِ عَلِيٌّ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَسَارَ فِي الْمُلْكِ وَالنَّاسِ سِيرَةً جَدَّةً، فَأَقَامَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَذَكَرَ هَارُونَ بْنُ الْمَأْمُونِ أَنَّ سَنَحَارِيبَ كَانَ يَسْكُنُ نَيْنَوَى، فَسَارَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَعَهُ مَلِكُ أَدْرَبِيجَانَ، وَاسْمُهُ: سَلْمَا عَاسِرٌ، وَمَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ: سَلْمَانٌ^(١) الْأَعْسِرُ، فَلَمَّا نَزَلَا عَلَى الْقُدْسِ اخْتَلَفَا وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا، حَتَّى تَفَانُوا وَغَنِمَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ.

وَتَوَفَّى صَدِيقَةٌ فَمَرَجَ أَمْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَنَافَسُوا فِي الْمُلْكِ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَنَبِيُّهُمْ شَعْيَا بَيْنَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قُمْ فِيهِمْ خَطِيبًا لِأَوْحِي عَلَيَّ لِسَانَكَ، فَقَامَ فَأَنْطَقَهُ اللَّهُ، فَقَالَ مَخْتَصِرًا: يَا سَمَاءُ اسْمِعِي وَيَا أَرْضُ أَنْصِتِي، فَإِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ شَأْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَبَّاهُمْ بِنِعْمَتِهِ وَاصْطَنَعَهُمْ لِنَفْسِهِ، وَخَصَّصَهُمْ بِكَرَامَتِهِ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى عِبَادِهِ، وَكَانُوا كَالْغَنَمِ الضَّائِعَةِ الَّتِي لَا رَاعِيَ لَهَا، فَأَوَى شَارِدَتَهَا، وَجَمَعَ ضَالَّتَهَا، وَجَبَرَ كَسِيرَهَا، وَأَسْمَنَ مَهْزُولَهَا، فَبَطَّرَتْ وَتَنَاطَحَتْ كَبَاشِهَا، فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَظْمٌ صَحِيحٌ، فَوَيْلٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ. وَإِنِّي ضَارِبٌ لَهُمْ مَثَلًا: قُلْ لَهُمْ:

(١) فِي (ب): سَلِيمَانَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ط)، وَالْمَعَارِفُ ٤٦.

كيف ترون في أرض كانت خراباً زماناً، مواتاً لا عمران بعدها، وكان لها ربٌ حكيم قوي، أقبل عليها بالعمارة وأحاط عليها جداراً، وشيّد فيها قصرأ، وأنبط فيها نهراً، وغرس فيها ألوان الثمار والأشجار، واستحفظها ذا رأي وهمة قوياً أميناً، فلما أطلعت جاء طلّعها خروباً، فقالوا: بئست الأرض هذه، نريد أن نهدم جدارها، ونخرب قصرها، وندفن نهرها حتى تعود مواتاً كما كانت، فقال الله تعالى: إنَّ الجدار ذمتي، والقصر شريعتي، والنهر كتابي، والقيّم نبيي، وأنتم الغراس، والخروب أعمالكم الخبيثة، وإنني قد قضيت عليكم قضاءكم على أنفسكم تتقربون إليّ بذبح البقر والغنم التي لا تنالني لحومها، ولم تتقربوا إليّ بالتقوى والكفّ عن ذبح النفوس المحرّمة. تشيّدون المساجد وتنجسون القلوب، وأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها، وأي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها، إنما أمرت برفعها لأذكر فيها، وتكون معلماً لمن أراد الصلاة فيها، وذكر الثعلبي كلاماً طويلاً، وقال: فلما فرغ شعياً من خطبته كذبوه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم، فصادف شجرة فانفجرت له فدخل فيها فانضمت عليه، فأخذ بثوبه الشيطان وبقي هدبة منه، فعرفها بنو إسرائيل فوضعوا المنشار في وسط الشجرة حتى قطعوها وقطعوه في وسطها نصفين^(١).

قال الثعلبي: فاستخلف الله على بني إسرائيل رجلاً منهم يقال له: ناشئة بن أموص، وبعث لهم الخضر نبياً، واسم الخضر: إرميا بن حلقياء، وكان من سبط هارون بن عمران، وإنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزت خضراء^(٢).

قلت: وقد وهم الثعلبي، لما ذكرنا أنّ الخضر لم يكن نبياً، وكان وزير ذي القرنين وابن خالته، وهو صاحب موسى، وقد ذكرناه.

وقال في «المعرب»: إرمياء - بكسر الهمزة والمد - اسم النبي عليه السلام، أعجمي معرب^(٣).

(١) «عرائس المجالس» ص ٣٣٥.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٣٣٥، وتفسير الثعلبي ٦/٧٥، وأخرج أحمد (٨١١٣)، والبخاري (٣٤٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي خضراً أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تحته تهتز خضراء».

(٣) «المعرب» ص ٦٩.

واختلفوا فيه :

فقال وهب : هو إرميا الأكبر .

وقال السُّدي : هو الأصغر .

واختلفوا في زمانه :

فقال وهب : كان في زمان بُخْتِ نَصْرٍ . وقال ابن إسحاق : في زمان الإسكندر

الثاني . وقيل : في أيام كيقابوس وكيخسرو ، والأول أصح .

وقال وهب : كان إرميا غلاماً من أبناء الملوك ، وكان زاهداً ، ولم يكن لأبيه سواه ، وكان أبوه يعرض عليه النكاح وهو ياباه مخافة أن يشتغل عن العبادة ، فألحَّ عليه أبوه وزوَّجه في أهل بيت من عظماء المملكة ، فلما دخل بالمرأة قال : يا هذه إني أُسِرُّ إليك سرّاً فإن سترته عليّ ستر الله عليك في الدنيا والآخرة ، وإن أفشيتَه فَضَحَكِ اللهُ في الدنيا والآخرة ، قالت : وما هو؟ قال : إني لا أريدُ النساء ، فأقامت معه سنة ، فأنكر أبوه ذلك وسأله فقال : ما طال العهد بعد ، وسأل المرأة فقالت كذلك ، ففرَّق بينهما وزوَّجه أخرى ، فاستكتمها أمره ، وأقام سنة ، فسأله أبوه فقال مثل ذلك ، وسأل المرأة فقالت المرأة : وهل تلدُ المرأة من غير زوج؟! فغضب عليه أبوه فخاف منه فهرب^(١) .

وقتل بنو إسرائيل شَعْيَا وطغوا وتجبروا ، فبعث الله إرميا نبياً وكان من أولاد الملوك تزهده ، فلما بعثه الله نبياً ، قال الله تعالى : إني منتقم من بني إسرائيل ومهلكهم . فحثا على رأسه الرماد وقال : إلهي وددتُ أن أُمي لم تلدني حيث جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل ، وجعلت خرابَ البيت المقدس على يدي . ثم قال : يا رب ومن تُسلِّط عليهم؟ فقال : عبدة النيران والأوثان ، لا يخافون عقابي ، ولا يرجون ثوابي ، قم على صخرة بيت المقدس واسمع ما أقول .

وقد روى القصة جماعة منهم وهب والسُّدي والكلبي ومقاتل وابن إسحاق وغيرهم ، قال وهب : ولما بعث الله إرميا كان مع الملك ناشية يسدده ويرشده ، فأقام مدة ، وفشت الأحداث^(٢) فيهم ، ونسوا ما فعلَ اللهُ معهم في قصة سنحاريب ، فأوحى

(١) انظر «المنتظم» ١/٤٠١-٤٠٢ .

(٢) في (ط) : الأحوال ، والمثبت من المصادر .

الله إلى إرميا: قم فيهم وذكّرهم بأيامي، وعرفّهم أحداثهم، فقال: إلهي إني ضعيف فقووني، وعاجز فبلّغني، ومخطيء فسدّدني، وذليل إن لم تعزّني، وضليل إن لم تبصّرني، فقال له: قف على صخرة بيت المقدس^(١).

ذكر الخطبة مختصرة^(٢)

قال علماء السّير ممن سميناه، دخل حديث بعضهم في حديث بعض: فوقف إرميا على الصخرة وأوحى الله إليه: يا إرميا من قبل أن أصورك قدّستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك صوّرتك، لأمر عظيم بعثتك، قل لبني إسرائيل: إنّ الله ذكركم بصلاح آبائكم، فلذلك استبقاكم. كيف وجد من أطاعني غبّ طاعتي؟ وكيف وجد من عصاني غبّ معصيتي؟ هل عصاني أحدٌ فسعد بمعصيتي، وهل أطاعني أحدٌ فشقي بطاعتي، إن هؤلاء العصاة رتعوا في مراتع الهلكة، وتركوا الأمر الذي به أكرمت آبائهم، وابتغوا الكرامة من غيري. أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خولاً يحكمون فيهم بغير حكمي، ويقضون بينهم بغير كتابي، حتى دانوا لهم بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي، وأما أمراؤهم فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وغرّتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي، ونسوا عهدي. وأمّا قرّاءهم فيدرسون كتابي ولا يعملون بما فيه، وينقادون للملوك يتابعوهم على البدع التي يبتدعون في ديني، وكلّ ذلك وأنا أمطر عليهم السماء، وأنبتُ لهم الأرض فألبسهم العافية، وأظهرهم على عدوهم، ولا يزدادون إلا طغياناً، فحتى متى وإلى متى؟ أيّاي يخادعون أم عليّ يتجبرون؟ فوعزتي لأتحن لهم فتنة يتحير فيها الحليم، ويضلّ فيها رأي كلّ ذي رأي، ولأسلطنّ عليهم جباراً عاتياً قاسياً ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرأفة والرحمة، يتبعه عدد النور مثل سواد الليل المظلم، معهم عساكر مثل قطع السحاب، كأنّ خفق راياته أجنحة النور، وصهيل فرسانه كأصوات العقبان، يعيدون العمران خراباً، والأنس وحشة، يجولون في الديار بأصوات زئير الأسود، تقشعر منهم الجلود، وعزتي

(١) انظر عرائس المجالس ٣٣٥، و«المنتظم» ٤٠٢/١.

(٢) انظر الخطبة في «تاريخ الطبري» ٥٤٨-٥٤٩، وتفسيره ٤٤٧/٥، و٤٩٠/١٤ (هجر)، وعرائس المجالس

٣٣٥، و«المنتظم» ٤٠٣/١، و«الكتاب المقدس» سفر إرميا الإصحاح الأول.

لأعطلن مدارسهم من كتبي، ولأُخْلِينَ مجالسهم، ولأُوحِشَنَّ مساجدهم من عُمَارِهَا الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري، ويتعبدون فيها لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العمل، ولأُبدلن مُلوكهم بالعزَّ ذلاً، وبالأنس خوفاً، وبالغنى فقراً، وبالشبع جوعاً، وبالعافية ألوان البلاء، وبلبس الحرير مدارع العباء، وبالأرايح الطيبة جيف القتلى، وبتيجان الذهب أطواق الحديد، وبالقصور الواسعة أنواع الخراب، ولأُبدلَنَّ نساءهم من الخدور بالسَّحْب على الوجوه، ولأمرن السماء فتكون طبقة من حديد، ولأمرن الأرض فتكون صفحة من نحاس، وذكر كلاماً كثيراً طويلاً.

فلما سمع إرميا هذا قال: سبحانك يا ربنا إنك مُهلك هذه القرية، وهي مساكن أنبيائك، ومهبط وحيك، وإنك لمتلف هذه الأمة، وهم ولد خليلك، وأمة موسى نجيبك، وقوم داود صفيك، يا رب فأبي القرى يأمن مكرك بعد أُورِي شليم، وأي العباد يأمنون سطوتك بعد أولاد أنبيائك؟

فأوحى الله إليه: يا إرميا، إنما أكرمت أولئك بحفظهم لطاعتي ولو عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، ولو أن قومك حفظوا حرمتي وراعوا عبادي، الأرملة واليتيم والمسكين وابن السبيل، لكنت الراحم لهم، ولكنهم يتجاهرون بالمعاصي في الأسواق، وبيوت العبادات، ورؤوس الجبال، وتحت ظلال الأشجار، حتى عَجَّت السماء إليّ، واستغاثت الأرض والجبال والطيور والوحش منهم.

فأبلغهم إرميا رسالة ربهم فكذبوه وعذبوه وقالوا: عظمت الفرية على الله، تزعم أنه مخربٌ مسجده، ومعطّلٌ بيوت عبادته وقراءة كتابه، فمن يعبده بعد ذلك؟ ثم قيّدوه وحبسوه، وهذا قول وهب.

وأما ابن إسحاق فقال: أوحى الله إلى إرميا إني مهلك بني إسرائيل بولد يافث وهم ببابل، فبكى ومزّق ثيابه وحثا الرماد على رأسه، فأوحى الله إليه: أشق ذلك عليك؟ فقال: يا إلهي، وكيف لا يشق عليّ إهلاك قومي؟ فقال الله تعالى: وعزّتي لا أهلكهم حتى يكون الأمر من قبلك فطابت نفسه، وأخبر الملك ناشئة فاستبشر، وأقام بعد هذا ثلاث سنين، فازداد طغيانهم، فبعث الله إلى إرميا ملكاً في صورة آدمي فقال: يا نبي الله جئت أستفتيك في أهلي، أحسنت إليهم ولم يزدتهم إحساني إلا إساءة فأفتني فيهم،

فقال: أحسن إليهم، وجاءه ثانياً وثالثاً وهو يقول كذلك، فجاءه في الرابعة وقال: يا نبي الله قد ازداد طغيانهم، فسألتك بالله إلا دعوت عليهم بالهلاك. فقال إرميا: إلهي إن كانوا على حقٍّ وصوابٍ فأبقهم، وإن كانوا على عملٍ لا ترضاه فأهلكهم. فلما خرجت الكلمة من فيه أرسل الله صاعقةً على بيت المقدس من السماء، فأحرقت مكان القربان، وخسفت بسبعة أبواب من المسجد. فلما رأى إرميا ذلك صاح وشقَّ ثيابه وقال: يا رب أين ميعادك؟ فنودي وهل أصابهم العذاب إلا بفتياك ودعائك عليهم؟! فعلم أن ذلك السائل كان ملكاً أرسله الله إلى إرميا. فخرج إرميا من ساعته فخالط الوحش، وقيل: غير ذلك.

ونزل بُخْتَ نَصْرَ على القدس، وقال وهب: نزل بُخْتَ نَصْرَ الشام، وكان قد أتى من بابل، فنزل على دمشق، فصالحه أهلها فأقام، وبعث بعض قواده إلى البيت المقدس فصالحه ناشئة الملك من ولد داود على مالٍ ورهائن، فقال له بنو إسرائيل: داهنت علينا فقتلوه، وبلغ بُخْتَ نَصْرَ فسار إليهم وفتح بيت المقدس عنوة، وهدم المسجد وأخرب بيوت العبادات، وأحرق التوراة، ورمى على الصخرة الجيف حتى عفى آثارها، وأحرق البيوت، وحمل معه من الجواهر والأموال ثمانين عَجَلَةً، وهدم الحصون، وأسر سبعين ألف غلام من أولاد الأنبياء، وسار إلى بابل.

واختلفوا في إرميا على أقوال:

أحدها: أنه صار مع الوحش، ذكره الثعلبي.

والثاني: أنه كان محبوساً، فأطلقه بُخْتَ نَصْرَ وقال: بس القوم قوم عَصَوْا رسول

ربهم.

والثالث: أنه مضى إلى مصر.

والرابع: أنه مضى مع بُخْتَ نَصْرَ إلى بابل^(١).

قال ابن إسحاق: أمر بُخْتَ نَصْرَ جنوده بأن يملأ كلُّ واحد ترسه تراباً ثم يقذفه في القدس، ففعلوا، واختار من أولاد الأنبياء سبعين ألفاً، وقيل: مئة ألف، فقال له

(١) تفسير الثعلبي ٧٥/٦، وانظر «المنتظم» ٤٠٧/١.

الملوك الذين معه: اقسام بيننا هذه الغلّمة، فقسّمهم بينهم، فأصاب كلُّ واحد منهم أربعة غلّمة، وكان من أولئك الغلّمان دانيال الأصغر، وسبعة آلاف من ولد داود، وأحد عشر ألفاً من ولد يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط يساخر ابن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون بن يعقوب ونفتالي بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ابني يعقوب. ومن بقي من بني إسرائيل جعلهم بُخْت نَصْر ثلاث فرق: فثلاثاً قتلهم، وثلاثاً أجلاهم، وثلاثاً أقرهم بالشام^(١).

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنهم في المرة الأولى أفسدوا وعصوا وسفكوا الدم، فبعث الله عليهم جالوت وجنوده، فقتلوا وسبوا وأخذوا التابوت، على ما ذكرناه، قاله ابن عباس.

أنبأنا غير واحد عن عبد الوهاب بن المبارك الحافظ بإسناده عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولُنَّهُمَا﴾ أي: عقوبة أولى المرتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ هم جالوت وجنوده ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥] وضربوا عليهم الخراج والذلّ، فسألوا أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث الله طالوت ملكاً. فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الأخيرة بُخْت نَصْر.

قال الجوهرى: الجَوْسُ مصدر قولك: جاسوا، خلال الديار، أي: تخللوا فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها^(٢). وقال مقاتل: جاسوا بمعنى: داسوا وأخربوا.

والثاني: أن الذي بعث في المرة الأولى بُخْت نَصْر، قاله سعيد بن المسيّب، واختاره الفراء والزجاج، وفي الثانية جالوت.

والثالث: أن الذي بعث في الأولى العمّالقة وكانوا كفاراً، وفي الثانية بُخْت نَصْر.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٧.

(٢) «الصحاح» (جوس).

والرابع: في المرة الأولى سنحاريب، وفي الأخرى بُخْت نَصْر، قاله سعيد بن جبير.
والخامس: في المرة الأولى قوم من أهل فارس، قاله مجاهد؛ والثانية قال ابن
زيد: سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف من الفرس.

والسادس: أن المرة الأولى قتل شعيا والثانية يحيى بن زكريا، قاله مقاتل.

والسابع: أن في الأولى بُخْت نَصْر، وفي الثانية أنطانوس الرومي.

وقال مقاتل في قوله: ﴿أُولَى بَأْسٍ﴾ أي: ذوي عدد وقوة في القتال ﴿فَجَاسُوا خِلَلِ
الدِّيَارِ﴾ أي: طافوها ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾
[الإسراء: ٥] لا بد من كونه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦] في آخر
المرتين، ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] عند قتل شعيا أو يحيى سلط الله
عليهم بُخْت نَصْر ثم الروم فقتلوا وسبوا.

وقال ابن عباس: بعث الله في المرة الأخيرة بُخْت نَصْر ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا
تَتَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] والتَّبَار الهلاك، ثم قال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ﴾ [الإسراء: ٨]
فرحمهم بعد انتقامه منهم، فأعاد عمارة بيت المقدس بعد مئة سنة، ثم بعث الله محمداً
ﷺ فتركهم في عذاب الجزية.



فصل في بُخْت نَصْرَ الْبَابِلِيِّ

قلت: ذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» بإسناده إلى إسماعيل بن موسى - وكان أديباً قد قرأ الكتب - قال: بلغني أن بُخْت نَصْرَ دخل الشام في ست مئة ألف، راكباً على أسد أحمر، متعمماً بثُعبان، متقلداً سيفاً طوله عشرة أشبار في عرض شبر، نَصْلُهُ أخضر مُرَصَّعٌ بالجواهر واليواقيت الحمر، منقوش عليه أبيات منها:

وَأَنْتِ إِنْ لَمْ تَرْجُ أَوْ تَتَّقِي كَالْمَيْتِ مَحْمُولاً عَلَى نَعْشِهِ
وَكَمْ نَجَا مِنْ يَدِ أَعْدَائِهِ وَمَيِّتٍ مَاتَ عَلَى فَرْشِهِ
مَنْ يَفْتَحُ الْقُفْلَ بِمِفْتَاحِهِ يَنْجُ مِنَ التُّهْمَةِ فِي فَشِّهِ
وَنَابِشُ الْمَوْتَى لَهُ سَاعَةٌ تَأْخُذُهُ أَنْبِشٌ مِنْ نَبْشِهِ^(١)

وحكى سعيد بن جبير قال: قرأ رجل في المصحف: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فبكى وقال: يا رب، أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل وخراب القدس على يده، فرأى في المنام قائلاً يقول: إِنَّ ذَاكَ مَسْكِينٌ بِأَرْضِ بَابِلٍ يُقَالُ لَهُ: بُخْت نَصْرَ، فأخذ مالا للتجارة وسار إلى بابل، وطاف على المساكين، وسأل عن بُخْت نَصْرَ فقالوا: هو مريضٌ على قارعة الطريق، فمضى إليه وأخذه إلى منزله وكساه وأعطاه نفقة ومرَّضه حتى برىء، وعزم الإسرائيلي على العود إلى الشام، فبكى بُخْت نَصْرَ فقال له: ما يبكيك؟ فقال: قد فعلت معي ما فعلت، وليس لي ما أجازيك به؟ فقال الرجل: بلى، شيء يسير إن ملكت فأعطني إياه، فقال: أتسخر بي؟ فقال: لا والله، وجعل الرجل يسأله وُبُخْت نَصْرَ يمتنع، فبكى الرجل وقال: لقد علمتُ أنه ما يمنعك أن تعطيني ما سألتُ إلا أن الله يريد أن ينقذ ما قد قضى به وكتبه على بني إسرائيل. ثم قفل الإسرائيلي راجعاً، وكان ملكُ بابل يقول له: صيحون، فأرسل سرية إلى الشام مع رجل من أصحابه في مئة ألف، وخرج بُخْت نَصْرَ معهم في مطبخه، ليس له همٌّ إلا أن يأكل من المطبخ، فلم يقدم الرجل على أهل الشام وعاد إلى بابل. فقال صيحون: أريد رجلاً أعرف من هذا، فقيل له: ها هنا رجل يقال له: بُخْت نَصْرَ، قد

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥/١٥٨-١٥٩.

عرف الشام وخبره، فأرسله في سرية في أربعة آلاف، ومرض الملك فقالوا: استخلف، فقال: حتى يقدم أصحابكم من الشام، فقدم بُخْت نَصْر بالغنائم فقسمها بين الناس فقالوا: هذا أحق بالملك، فملكوه^(١).

وقال السُّدي: رأى رجلٌ من بني إسرائيل في منامه أن خراب بيت المقدس على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بُخْت نَصْر، وكانوا يصدقون فتصدق رؤيائهم، فسار الرجل إلى بابل فسأل عنه فقيل: هو غلامٌ يحتطب، وإذا به قد أقبل وعلى رأسه حزمة حَطَب، فألقاها وباعها وجاء بثمانها إلى أمه، فجاء الرجل فنزل على أمه وأعطاهم دراهم ونفقة وكسوة. وعزم الرجل على العود إلى الشام فقال لِبُخْت نَصْر: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تكتب لي كتاباً إن ملكت يوماً من الدهر، فقال: أتسخر بي؟ قال: لا والله، فما زال حتى كتب له كتابَ أمان. فقال: اجعل لي آيةً تعرفني بها إذا جئتُ إليك والناس حولك، قال: ارفع هذا الكتاب على قصبه، وقد عرفته، فيقال: إنه وفي له^(٢).

واختلفوا في بُخْت نَصْر، فقال ابن الجواليقي في «المعرب» عن الأصمعي قال: بُخْت نَصْر هو الذي أخرج بيت المقدس، ولا يقال بالتخفيف. وقال غير الأصمعي: هو بخت ناصر، وقيل: بُوخت نَصْر فأعرب قال: وَبُوختُ ابنٌ ونَصْرُ اسم صنم، فكأنه وُجد عند الصنم ولم يُعرف له أب يُنسب إليه، فقيل: ابن الصنم^(٣).

وقيل: كان ولد زنى لا يعرف له نسب، ويقال: بخت نصر بن جوذر البابلي.

وقيل: كان أبوه وجده من بقايا جيش نُمرود. وقيل: كان ابن ابن سَنحاريب، وقد ذكرناه.

وقال مجاهد: هو بخت نرسي بالفارسية، وكان كاتباً لسنحاريب. وقيل: كان والياً لهراسف أو لهراسب، ولآه ما بين الأهواز والروم، فسار إلى دمشق فصالح الملك ناشية على مالٍ.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٧، و«تاريخ الطبري» ١/ ٥٤٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٣٨.

(٣) «المعرب» ص ١٢٨-١٢٩.

قال وهب: ولما قدم بُخْتَ نَصْرَ إِلَى بَابِلَ بِالْغَنَائِمِ كَانَ فِيهِمْ دَانِيَالُ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَى بُخْتِ نَصْرَ، فَحَسَدَتْهُ الْمَجُوسُ وَوَشَوْا بِهِ إِلَى بُخْتِ نَصْرَ وَقَالُوا: إِنَّهُ وَأَصْحَابُهُ لَا يَأْكُلُونَ ذَبِيحَتِكَ وَلَا يَعْبُدُونَ إِلَهَكَ، فَدَعَاهُمْ فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: نَعَمْ لَنَا إِلَهٌ نَعْبُدُهُ، فَخَذَّ لَهُمْ أَخَادِيدَ وَأَلْقَاهُمْ فِيهَا، وَنَزَلَ مَعَهُمْ سَبْعًا ضَارِيًا شَرِهًا فَلَمْ يَضُرَّهُمْ.

قال وهب: وكان بُخْتَ نَصْرَ قد رأى رؤيا فعبرها له دانيال، رأى أنه صار صنماً رأسه من ذهب، وصدرة من فضة، وبطنه من نحاس، وفخذه من حديد، وساقاه من حجر فخار، ثم رأى حجراً وقع من السماء عليه فدقّه، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء، وعليها طيورٌ عظيمة، وتحتها دواب كثيرة، ثم رأى عليها رجلاً بيده فأس، وسمع منادياً ينادي: اضرب أصلها لتتفرق الطير من فروعها، والدواب من تحتها، واترك أصلها قائماً، فسأل دانيال عن تعبيرها فقال: أما الصنم فأنت ورأسك من ذهب لأنك أفضل الملوك، وأما الصدر فابنك يملك بعدك، وأما البطن الذي من نحاس فالملك الذي يملك بعده، وأما الفخذان من الحديد فيتفرق الملك فرقتين في فارس وتكونان أشد الملك، وأما الفخار فأخر ملوكهم، وأما الحجر الذي ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبى يبعثه الله في آخر الزمان يفرق ملكهم ويملا بشره ما بين الخافقين، فأما الشجرة فأنت، وقطعها ذهب ملكك، ثم يردك الله طائراً نسرًا، وهو ملك الطير، ثم يردك الله ثوراً ملك الدواب، ثم يردك الله أسداً مع السباع والوحوش، فيكون مسخك سبع سنين^(١)، ومع هذا فيكون قلبك قلب إنسان حتى تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض^(٢).

قال وهب: فمسخ الله بُخْتَ نَصْرَ نَسْرًا فِي الطَّيْرِ، وَثُورًا فِي الدَّوَابِّ، وَأَسَدًا فِي السَّبَاعِ، سَبْعَ سِنِينَ، كَمَا قَالَ دَانِيَالُ، ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مُلْكَهُ فَأَمَّنَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَوْهَبُ: أَكَانَ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: قَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: كَانَ مُؤْمِنًا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، أَحْرَقَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، وَقَتَلَ

(١) في (ب): بعد سبع سنين.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٠.

أولاد الأنبياء، وفعل ما فعل، فغضب الله عليه فلم تُقبل توبته^(١).

قال الفضيل بن عياض: لما سلط الله بُخْتَ نَصْرَ على بني إسرائيل كان فيهم ثلاثون ألفاً عملهم مثل عمل الأنبياء فقتلهم.

قال ابن عباس: ما شَبَّهْتُ إيمانَ بُخْتَ نَصْرَ إلا بإيمان سحرة فرعون.

ويقال: إنه كان إذا مُسِخَ في جنس الذكور انتهى الإنثا واغتلم، فحوّله الله تعالى أنثى، فإذا انتهى الذكور حوّله الله ذكراً، فكان لا يصل إلى شهوته من الجماع ولا يُوصَل إليه.

وقال وهب: لما رده الله إلى صورته دعا إلى توحيد الله وقال: كل إله سوى الله باطل. وكل هذه روايات وهب.

وقد روى كعب الأحمق قصة بُخْتَ نَصْرَ على وجه آخر فقال: إن بُخْتَ نَصْرَ رأى رؤيا فهالته، فدعا كهنته وقال لهم: رأيت رؤيا، قالوا: وما هي؟ قال: أنسيتها فأخبروني بتأويلها، قالوا: لا نعلم، قال: قد أجلتكم ثلاثاً فإن أخبرتموني بها وإلا قتلتم، وبلغ ذلك دانيال، وكان محبوباً مع بني إسرائيل، فقال للسجّان: عرف المَلِكَ أنني أعرف تأويلها، فقال السجّان: لعلّ غمّ الحبس حملك على هذا، وإني أخاف عليك سطوة المَلِكِ، فقال: لا تخف فإن لي رباً يخبرني بما أريد، فأخبر السجّان بُخْتَ نَصْرَ بما قال، فأحضره، وقال: ما رأيت؟ فقال: رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، أعلاه من ذهب، وأوسطه من فضة، وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار؛ فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه إذ قذفه الله بحجرٍ من السماء، فوقع على قبة رأسه فطحنه، فاختلط الفضة والنحاس والحديد والفخار حتى خيل إليك لو أنه اجتمع الإنس والجنّ على أن يميزوا بعضه من بعض لما قدروا، وربا الحجر الذي قُذِفَ به حتى ملأ الدنيا كلّها، فقال بُخْتَ نَصْرَ: صدقت، فما تأويلها؟ فقال: أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وآخره وأوسطه، وأما الذهب فهذا الزمان وهذه الأمة التي أنت مَلِكُها، وأما الفضة فابنك من

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤١.

بعدك، وأما النحاس فالروم، والحديد فارس، والفخار أمّتان يملكهما امرأتان: إحداهما بمشرق المغرب، والأخرى في غربي الشام، وأما الحجر الذي قُذِفَ به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمة في آخر الزمان، فيظهر عليها، ويبعث الله نبياً من العرب فيدوخ الأديان كلها كما فعل الحجر بالصنم. فقال له بُخْتَ نَصْرَ: ما أعلم لأحدٍ عندي يداً مثل يدك، فاختر إحدى ثلاث: إما أن أردك إلى بلادك وأعمرك كل شيء أخربته، وإما أن تقيم عندي فأواسيك، وإما أن أكتب لك كتابَ أمان تَأْمَنُ به حيثما سَلَكَتَ. فقال دانيال: أما قولك إنك تردني إلى بلادي وتعمر لي كل شيء أخربته فإنها أرضٌ كَتَبَ اللهُ عليها الخراب إلى أجل معلوم، فلست تقدر أن تعمروا ما أخربه الله حتى يبلغ الكتابُ أجله، وينقضي البلاء الذي كتبه الله على أهلها. وأما قولك أن تكتب لي كتابَ أمان فلا ينبغي لي أن أطلب أمانَ مخلوقٍ مع أمان الله. وأما مواساتك فهي أرفق بي حتى يقضي الله فينا قضاءه.

فجمع بُخْتَ نَصْرَ ولده وكهنته وحشمه وقال: هذا رجل حكيم قد فرّج الله كربتي الذي عجزتم عنه به، وقد وليته أمركم، فارقوا به، واعرفوا قدره، وخذوا برأيه، ومتى جاءكم رسولان: رسولٌ من عندي والآخر من دانيال فقدموا رسوله على رسولي، وحاجته على حاجتي. ونزل منه دانيال أفضل المنازل، وجعل يدبر مملكته، فحسده علماء أهل بابل وقالوا لبُخْتَ نَصْرَ: لقد ذلّ مملكتك وخضع عند الناس منذ وليت هذا العبد الإسرائيلي علينا، فقال: أتتقمون أني وليت عليكم أحكم الناس^(١)؟!

ولما مات بُخْتَ نَصْرَ حبسوه في جُبٍّ مع سبعين، فأخرجه الله، لما نذكر.

وقال السدي: لما رجع بُخْتَ نَصْرَ إلى صورته بعد المسخ وردَّ الله عليه مملكته، كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عنده، فحسده المجوس ثانياً وقالوا: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه إلا أن يبول، وكان ذلك عاراً عندهم، فصنع بُخْتَ نَصْرَ طعاماً، فأكلوا وشربوا، وقال بُخْتَ نَصْرَ للبوّاب: انظر أول خارج ليبول فاضربه بالطَّبْرَزين^(٢)،

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٥٥٤-٥٥٥، والكتاب المقدس (سفر دانيال الإصحاح الثاني).

(٢) الطَّبْرَزين: فارسي معرّب، وهو فأس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به، وقد تكلمت به العرب. انظر «المعرب» ص ٢٧٦.

وإن قال: أنا بُخْت نَصَّر، فقل: كذبت، فحبس الله عن دانيال البول، وكان أول من قام ليبول بُخْت نَصَّر، وكان ليلاً، فخرج فلما رآه البوّاب شدَّ عليه ليضربه فقال: أنا بُخْت نَصَّر، فقال: كذبت وضربه بالطَّبْرَزين فقتله^(١).

وذكر محمد بن إسحاق في هلاك بُخْت نَصَّر وجهاً آخر عن الحسن البصري قال: لما أراد الله هلاك بُخْت نَصَّر قال لمن في يده من بني إسرائيل: أرايتم هذا البيت الذي أخربت؟ بيت من هو؟ والناس الذين قتلت، مَنْ هُمْ؟ قالوا: بيتُ الله ومسجده، وأولاد الأنبياء، عصوا فسلطك الله عليهم بذنوبهم، وإنَّ ربَّهم هو الله ربُّ السماوات والأرض، قال: فأخبروني ما الذي يطلع بي إلى السماء العليا، لعلِّي أقتل إلهها وأتخذها مُلكاً فإني قد فرغتُ من الأرض وكان قد مَلَكَها فقالوا: لا يقدر على ذلك إلا الله، فقال: لتفعلنَّ أو لأقتلنكم جميعاً، فبكوا وتضرعوا إلى الله فأرسل الله عليه بعوضة فدخلت في منخره حتى عضَّت دماغه، فلما أيقن بالهلاك قال لخواصه: إذا متُّ فشقوا رأسي وانظروا ما الذي قتلني، فلما مات شقوا رأسه، وإذا بالبعوضة عاضَّة على دماغه، فعلموا قدرة الله وسلطانه وضعف عباده وعجزهم، ونجى الله من بقي من بني إسرائيل منه وردَّهم إلى الشام^(٢).

قلت: وقد روى حذيفة عن النبي ﷺ أنه ذكر بُخْت نَصَّر فقال: «مَلَكَهُ اللهُ سبع مئة سنة، وأنه حاصر بيت المقدس وفتحه، وقتل على دم يحيى بن زكريَّا سبعين ألفاً»^(٣). وذكر حديثاً طويلاً. وبنى جماعة من العلماء على هذا وقالوا: إنَّ بُخْت نَصَّر كان في زمان يحيى، وأنه إنما غزا بني إسرائيل بسبب قتلهم ليحيى.

وكذا حكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» فإنه قال: كان أمر بُخْت نَصَّر قبل عيسى، وقيل بعدما رُفِع، وكان من حديثه أن دانيال الأكبر قرأ في التوراة يوماً فأتى على هذه الآية: فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً فقال: يا ربِّ مَنْ هذا الذي جعلت

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤/٤٥٨، وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٣/٣٨) فقال: وروى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزني رحمه الله بأنه موضوع مكذوب.

خراب البيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يديه؟ فقيل له في المنام: يتيم بأرض بابل، يقال له: بُخْتَ نَصْرَ، فقير، فتجهَّز دانيال بمال عظيم، وقَدِمَ بَابِلَ فقسمه بين المساكين، وسأل عن بُخْتَ نَصْرَ حتى ظفر به على الطريق وقد فُرِشَ له الرماد لذرَبٍ^(١) كان به، فداواه حتى برىء، وأعطاه عشرين ألف درهم، وأخبرهم أن سَيَمْلِكُ بلادهم ويغزوهم، وطلب منه كتابَ أمان له ولأهله، فكتب لهم. وعاد دانيال إلى الشام، وفرَّق بُخْتَ نصر الدراهم في أصحابه، ولزم باب الملك سنحاريب، وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، وقتلوا الأنبياء، وسجنوا إرميا، فأرسل الله عليهم بُخْتَ نصر، فسار إليهم في ست مئة ألف، فأخرج إرميا من السجن، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ولم يقتل شيخاً ولا كهلاً ولا وليداً، وإنما قتل أبناء الحرب وقادة الجيوش حتى استكمل العدة، وأخرج دانيال كتابَ أمان بُخْتَ نصر فأمضاه، وخرج بهم معه وكانوا خمسة أنفس شباباً لم يبلغوا الحلم غير دانيال بن حزقيال الأصغر^(٢).

ويقال: إنَّ بُخْتَ نصر مَزَّقَ كتابَ الأمان وألقى دانيال في جُبِّ بفلاةٍ بين جبلين إلى أن أخرجته بعضُ أنبياء بني إسرائيل، وكذا ذكر جماعة: أن الذي قتل سبعين ألفاً على دم يحيى بن زكرياً هو بُخْتَ نصر.

قلت: وليس كما ذكروا، أما حديث حذيفة فلا يثبت عن رسول الله ﷺ، والتاريخ يكشف هذا، فإن عند أهل السير والعلماء بأخبار العالم من أهل الكتابين والمسلمين أنَّ بُخْتَ نَصْرَ إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعِيَا في عهد إرميا، وهي الواقعة الأولى التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ الآية [الإسراء: ٥]، وأنهم بُخْتَ نَصْرَ وجنوده، قالوا: ومن زمان إرميا وبُخْتَ نَصْرَ إلى أن قُتِلَ يحيى بن زكريا أربع مئة سنة وإحدى وستون سنة. وقد أشار إلى هذا أبو إسحاق وقال: من خراب بُخْتَ نَصْرَ لبيت المقدس إلى حين عمرانه في أيام كيرس بن أحشويرش من قبل بهمن بن اسفنديار بن يشتاسف تسعون سنة، ومن ذلك إلى ظهور الإسكندر على القدس وحيازته إلى مملكته إحدى وستون سنة^(٣).

(١) الذرب: فساد في المعدة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥/١٥٧-١٥٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٤.

قال وهب: الذي أخذ بثأر يحيى ملك بابل، يقال له: خردوش بعد بُخْتِ نَصْرٍ بأربع مئة ونيّف وستين سنة، وسنذكره فيما بعد، ولم يقدّم لبني إسرائيل بعد خردوش راية. وذكر الحافظ في «تاريخ دمشق» عن ابن المبارك قال: رثي لقمان الحكيم يعدو خلف بُخْتِ نَصْرٍ فراسخ، فقيل له: يا وليّ الله، تعدو خلف هذا الكافر؟ قال: لعليّ أسأله في مؤمن فيجيبني.

قلت: وأين لقمان الحكيم من بُخْتِ نَصْرٍ بينهما قبل خراب بيت المقدس أربعة آلاف سنة وتسع مئة وثمانين عشرة سنة.

قال علماء السّير: ولما عاد بنو إسرائيل إلى الشام كثروا وأثروا، فبطروا وعتّوا، وعادوا إلى شرّ ما كانوا عليه، وكثرت فيهم الأحداث فسلبّ الله عليهم ملك الروم واسمه ططوس بن اسبانوس فأخرب بلادهم وسباهم وعفى آثارهم، حتى إن المرأة كانت لتبعث بخرق حيضها فتلقئها على الصخرة^(١).

وملك بُخْتِ نَصْرٍ خمساً وأربعين سنة، منها تسع عشرة قبل خراب البيت المقدس، وستاً وعشرين بعده.

وحكى الهيثم بن عدي: أنّ بُخْتِ نَصْرٍ لما عاد إلى بابل بالسبايا بني حبساً أعلى النّجف، وجمع فيه بني إسرائيل، ووكل بهم من يحفظهم، وكانت العرب قد قصدته لتحاربه ورئيسهم معدّ بن عدنان، فصالح العرب، ونقل بني إسرائيل إلى جانب الفرات موضع الأنبار اليوم فأنزلهم هناك، فبنوا المدينة، فقال الناس: أنبار بني إسرائيل.

قال الجوهري: وأنبار اسم بلد، واصله من نبرّت الشيء أي رفعته، ومنه المنبر^(٢).

وقال ابن إسحاق: كانت الحيرة منزل بُخْتِ نَصْرٍ، فلما مات انتقل إلى الأنبار.

ومات عدنان في آخر أيام بُخْتِ نَصْرٍ، فجاء ولده معدّ من أرض بابل إلى مكّة، فطرد من كان بها من جرّهم، وتزوج معانة بنت جوسم فولدت له نزاراً، وولد لنزار مُضَرٌ وإياد وربيعة وأنمار. وتفرقت اليهود فنزل بعضهم الحجاز ويثرب ووادي القرى وغيرها، والله أعلم بالصواب.

(١) انظر تفسير الثعلبي ٨٣/٦.

(٢) «الصّحاح» (نبر).

فصل في عمارة بيت المقدس وقصة العزيز^(١)

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

واختلفوا في هذا المارّ على أقوال:

أحدها: أنه إرميا، قال جدي في «فضائل القدس»: روى عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه وزاد غيره قال: أقام إرميا بعد خراب البيت بأرض مصر مدة، فأوحى الله إليه: أن الحقّ بأرض إيلياء، فإن هذه ليست لك بأرض، فقام فركب حماره وأخذ معه سلة من عنب وسقاءً جديداً فيه ماء وخرج^(٢).

وفي رواية: فأوحى الله إليه: يا إرميا الحقّ بأرض الشام، فإن هذه الأرض ليست للأنبياء بمقام، وإني عامر بيت المقدس، فخرج على حمار ومعه سلة فيها عنب وتين وسقاء من عصير. فلما بدا له شخص بيت المقدس وما حوله من القرى نظر إلى خراب لا يوصف، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، ونزل عن حماره وربطه، وألقى الله عليه السُّبَّاتَ ونزع روحه، فنام مئة عام، فلما انقضت سبعون منها أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس عظيم. واختلفوا في اسمه فقال وهب: كوشك^(٣)، وقال أبو جعفر الطبري: بشتاسب^(٤)، وقال مجاهد: كورش، فقال له الملك: إن الله يأمرك أن تنفّر بقومك فتعمر بيت المقدس حتى يعود أعمر ما كان، فانتدب الملك ألف قهرمان^(٥)، مع كل قهرمان ثلاثة آلاف عامل، فشرع في عمارته، فتمّ في ثلاثين سنة. وجمع كوشك من كان إليه في البلاد من بني إسرائيل، فكثروا وعادوا أحسن ما كانوا. ولما مضى من منام إرميا سبعون سنة دبّت الروح في عينيه، فجعل ينظر إليهم وهم يبنون

(١) من هنا بدأت نسخة كوبريللي، والتي رمزنا لها بـ (ك) وعليها الاعتماد، وانظر قصته في «عرائس المجالس» ص ٣٤٥، و«المنتظم» ٤١١/١، و«البداية والنهاية» ٣٨٠/٢، و«تفسير الطبري» ٤٣٨/٥، والنكت والعيون ٣٣١/١، وتفسير الثعلبي ٢٤٢/٢، وزاد المسير ٣٠٨/١، و«تفسير ابن كثير» ٤١٠/١.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٧.

(٣) في (ك): نوشك، وفي «تفسير الطبري» ٥٩٤/٤، و«عرائس المجالس»: يوشك.

(٤) «تاريخ الطبري» ٥٤٠/١.

(٥) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

فلما انقضت المئة سنة أحياء الله، فقام ينظر إلى عظام حماره وهي بيض تبرق، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام المتمزقة إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت واكتست لحماً وجلداً، وقام الحمار ينهق، ونودي من السماء: يا إرميا، كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعض يوم، وكان قد مات وقت الضحى وعاش قبل مغيب الشمس، فالتفت فرأى بقية الشمس، فقال: أو بعض يوم، فكان يظن أنها قد غربت، فلهذا قال: يوماً، فلما رآها لم تغرب قال كذلك، فقيل: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: لم يتغير، فلم يحمض العنب والتين ولم يتغير العصير. وقال الجوهري: التسنة: التكرج الذي يقع على الطعام والشراب والخبز^(١). ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] كيف تمزقت أوصاله فأعادها الله.

فإن قيل: فلم يلي الحمار ولم يتغير الشراب والطعام، ولم يحمض العصير، قلنا: لو تغير الطعام لتلاشى وانعدم ولم يبق له أثر، وأما الحمار فاستدل بإحيائه على إحياء بيت المقدس وعوده إلى ما كان عليه.

فإن قيل: فهلا قال: وانظر إلى نفسك، ولم يقل: إلى حمارك، قلنا: معناه: انظر إلى حمارك الذي ربطته واقفاً على هيئته.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: عبرة ودلالة على البعث. قال ابن عباس: مات وهو ابن أربعين سنة، وقال أبو جعفر الطبري: إن إرميا لبث في نومه إلى أن هلك بُخْت نَصْر، وكان قد عاش ثلاث مئة سنة - يعني بُخْت نَصْر - وبعث الله عليه بعوضة فقتلته، وهلك المَلِك الذي كان قبله وهو لُهراسب، وقام ولده بشتاسب، فبلغه خراب البيت المقدس، فجمع بني إسرائيل وملك عليهم رجلاً من آل داود عليه السلام وأمره بعمارة بيت المقدس أحسن ما كان، فعمره، وردَّ الله روح إرميا إليه.

وقال وهب: عُمَرُ إرميا، وهو الذي يُرى في الفلوات، ويقال إنه الخضر^(٢).

والثاني: أن الذي مرَّ على بيت المقدس العزير عليه السلام، وعليه الأكلون، وهو

(١) «الصحاح» (سنه)، وتكرج: فسد.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/٥٤٤، و«تفسير الطبري» ٤/٥٩٣.

قول عليّ عليه السلام وقتادة وعكرمة والضحّاك والسّدي في آخرين، وحكاه جدي في «فضائل القدس» عن ابن عباس^(١).

وروى ناجية بن كعب عن عليّ عليه السلام قال: لما فعل بُخْتَ نَصْرَ بيت المقدس ما فعل، وقدم بالسبي إلى بابل، كان فيهم عُزَيْر، وكان من علماء بني إسرائيل، فلما عاد بقاياهم إلى الشام عاد عُزَيْر معهم فمرّ على بيت المقدس وهو شابّ راكب على حمار، فأماته الله مئة عام.

وقال وهب وابن عباس: لما أحياه الله أتى منزله فأنكر المنازل، وهناك عجوز عمياء مقعدة قد أتت عليها مئة وعشرون سنة، وكانت تعرفه قبل ذلك، فقال لها عُزَيْر: هذا منزل عُزَيْر؟ فبكت وقالت: نعم ما سمعنا أحداً يذكر عُزَيْراً منذ مئة سنة، وقد نسيت الناس، فقال: أنا عُزَيْر أماتني الله مئة عام ثم بعثني، فقالت: كان عُزَيْر مستجاب الدعوة فادع لي حتى يردّ الله عليّ بصري، فدعا لها ومسح على عينيها وجسدها فأبصرت وقامت تمشي، فكانما نشطت من عقال، ونادت في بني إسرائيل: إن الله قد أحيا عُزَيْراً، وهناك ابنٌ لعزير قد أتت عليه مئة وعشرون سنة، وبنوه شيوخ، فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف ثوبه فلاح، فتعانقا وبكيا^(٢).

وذكر الثعلبي أنهم كذبوه، فقرأ لهم التوراة على ظهر قلبه، وكانت التوراة قد فُقدت، فقال بعضهم: حدثني أبي عن جدي أنّ التوراة دفنت يوم سُيِّنا في خابية في كرم فلان، فنبشوا الكرم وأخرجوها وعارضوها بما أملى عُزَيْر فما اختلفا في حرف واحد، فحينئذ قالوا: عُزَيْر ابن الله^(٣).

والثالث: أنّ الذي مرّ على القرية لا إرميا ولا عُزَيْر بل رجل كافر بالبعث، قاله مجاهد، والأول أصح.

واختلفوا في القرية: عامة العلماء أنها بيت المقدس، وقيل: قرية العنب غربي بيت

(١) «فضائل القدس» ص ١٠٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٤٩.

المقدس على فرسخين، قاله مقاتل.

وقال الربيع: هي دَاوَرْدَان التي خرج منها الألوف، وقيل: دير هِرْقِل^(١)، والأول أصح.

والخاوية: الساقطة بعضها على بعض، والعروش: السقوف، ومعنى ﴿أَنْتَ﴾ أي: كيف ومتى، وليس المراد به الشك بل التعجب ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ استفهام عن مبلغ العدد، وعامة القراء على إظهار لبث لأنه أظهر^(٢).

فإن قيل: فقد كان عُزَيْر نبياً فلم لم يُذكَر في القرآن باسمه، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الله ذكر قصص جماعة في القرآن من الأنبياء، ولم يذكر أساميهم كشعيا ويوشع وإرميا ونبي أصحاب الرسّ وعُزَيْر في آخرين لحكمة رآها.

والثاني: لأنّ عزيزاً قال: ﴿أَنْتَ يُحْيِي﴾ وفيه نوع شك وإن كان تعجباً.

والثالث: لأنه سأل ربه عن القدر فأوحى الله إليه: سألتني عن غامض علمي فعاقبتك بأن لا أذكر اسمك مع الأنبياء، قاله داود بن أبي هند.

فإن قيل: وما الذي سأل ربه؟ قلنا: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال عُزَيْر: يا رب، لو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت أن لا تُعصى لما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع، ومع ذلك فأنت تُعصى. فأوحى الله إليه: أنا لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون. فقال: يا إلهي، خلقت الشر وقدرته فلم تعاقب عليه؟ فأوحى الله إليه: أعرض عن هذا، فلم يَنْزَجِر، فقال الله: يا عُزَيْر، أتريد أن تسألني عن أصل علمي؟ لأمحون اسمك من ديوان النبوة.

وقال ابن عباس: لم يكن في أولاد الأنبياء مثل عُزَيْر، ولا أَحْكَم للتوراة منه، فعوقب لما سأل عن القدر.

(١) في (ك) و(ب): هرقل، والمثبت من (ط) وهو الصواب، قال ياقوت: بكسر أوله وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة، وأصله حزقيل، ثم نقله إلى هرقل.

(٢) وهو إظهار التاء وعدم إدغامها في التاء، وبالإظهار قرأ ابن كثير ونافع وعاصم، وبالإدغام قرأ أبو عمر وابن عامر وحمة والكسائي، فقالوا: «لبثت». انظر «الحجة للقراء السبعة» ٣٦٧/٢، و«تفسير القرطبي»

- قلت: وذكر الحافظ في «تاريخ دمشق» وقال: جاء في الأثر أن قبر عُزَيْر بدمشق.
- قال: وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أدري أَكَانَ عُزَيْرُ نَبِيًّا أَمْ لَا».
- قال: وقال أنس: جاء عُزَيْرُ إِلَى باب موسى بن عمران بعدما محي اسمه من ديوان النبوة فحجب، فرجع وهو يقول مئة مائة موتة أهون من ذل ساعة^(١).
- قلت: إن كان جاء إلى باب موسى في النوم فيمكن، أما في اليقظة فبينهما أكثر من ألف سنة، فله درُّ التاريخ.
- وقال يحيى بن أبي كثير: دبر عُزَيْرُ أمر بني إسرائيل بعدما عاش أربعين سنة، فكمّل له ثمانون ومئة سنة، ثم مات.
- وقال الهيثم بن عدي: وفي أيام عُزَيْر كان يَزْدَجِرْدُ بن بَهْرَام الملقب بالأثيم، وهو الذي بنى الخَوَزَنَقَ^(٢) والسَّدِيرَ^(٣)، وقيل: إنما كان في أيام إرَمِيَا.
- وقال ابن الكلبي: وفي أيام عُزَيْر كان يَزْدَجِرْدُ بن بَهْرَام، وزال مُلْكُ الفرس عن الشام وصار إلى الروم، وكان مَلِكُ مُلْكِ فارس بشتاسب وقيل: أشتاسب بن لهراسب، وكان لما قتل شعيا، قد آل أمر الشام والقدس إليه.
- قال جدي في «فضائل القدس»: وكان بُخْت نَصَّرَ عامله على ذلك كله^(٤). وفي أيام عُزَيْر ظهر زرادشت المجوسي لما نذكر.
- وحكى جدي في «فضائل بيت المقدس» عن وهب، قال: كان عُزَيْر من السبايا التي سباها بُخْت نَصَّرَ من القدس، فرجع إلى الشام، وبكى على فقد التوراة فنبيء، وكان بُخْت نَصَّرَ قد أحرق التوراة فتلاها عُزَيْر من حفظه فافتنوا به، وقالوا: هو ابن الله، ثم
-
- (١) «تاريخ دمشق» ٣١٧/٤٠، ٣٣٧. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٣٨٤/٢ بعد إيراد هذه الأقوال: وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر.
- (٢) الخَوَزَنَقُ: هو قصرٌ في الحيرة أمر ببناؤه النعمان بن امرئ القيس وهو فارسي، ومعناه موضع الأكل والشرب. انظر «معجم البلدان» ٤٠١/٢، و«المعرب» ص ١٧٤.
- (٣) السَّدِيرُ: قصرٌ، وهو معرَّب، وأصله بالفارسية سِهْ دلَه، أي فيه قباب مُدَاخَلَةٌ. انظر «الصحاح» (سَدَر)، و«المعرب» ص ٢٣٥، و«معجم البلدان» ٢٠١/٣.
- (٤) «فضائل القدس» ص ١٠١.

دفعها إلى تلميذ له اسمه ميخائيل، فبدّلها وزاد فيها ونقص منها، والدليلُ عليه أن فيها أحاديث أسفار موسى وموته وما جرى له، وليس هذا من كلام الله تعالى.

وقال جدي في «فضائل بيت المقدس»، أنبأنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري بإسناده عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: «غزا طاطري بن اسمانوس بني إسرائيل فسباهم وسبى حليّ بيت المقدس وأحرقه بالنار، وحمل منه في البحر ألفاً وتسع مئة سفينة حلياً، وأورده روميةً». قال حذيفة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لِيُخْرِجَنَّ الْمَهْدِيُّ ذَلِكَ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ».

وقال جدي رحمه الله أيضاً: أنبأنا محمد بن ناصر بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال: أخربت أهل رومية بيت المقدس واتخذته مزبلة، حتى كانت المرأة لتبعث بخرقٍ من دمها حتى تلقى في المسجد، فلما قرأ قيصر كتاب رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام قرأه على بطارقة الروم ببيت المقدس ثم قال لهم: ويلكم ما ترون وقد أخربتم هذا البيت - أو هذا المسجد - واتخذتموه مزبلة؟ توبوا مما صنعتُم وإلا قتلتم عليه كما قتل^(١) بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا، فأخذوا في كَنَسِهِ وهو يومئذٍ مزبلة، وقد حازت مِحْرَابُ دَاوُدَ، فما كَنَسُوا إِلَّا الثَّلْثَ، حَتَّى قَدِمَ الْمُسْلِمُونَ، وَحَضَرَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَحَهُ، وَوَلِيَ كَنَسَهُ بِنَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٢).



(١) في (ك) و(ب): اقتلت، والمثبت من (ط)، وانظر قصة يحيى الآتية ومقتله.

(٢) «فضائل القدس» ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩. وأخرج حديث حذيفة الطبري في تفسيره ٤٥٨-٤٥٧/١٥ (دار هجر)، قال ابن كثير: وهو حديث موضوع لا محالة. وسلف قريباً.

فصل في ذكر دانيال الأصغر^(١)

قد ذكرنا أنه كان محبوباً في جُبِّ بَارِضِ بَابِلِ ومعه أسدان، وقيل: أسد ولبؤة. وقال ابن الكلبي: كان محبوباً بفلاة من الأرض، وعلى رأس الجُبِّ صخرة، فأوحى الله إلى بعض أنبياء بني إسرائيل: انطلق فاستخرج دانيال من الجُبِّ فقال: يا رب، ومن يدلني عليه؟ قال: أتأناك، فركب أتانه وجاء إلى موضع الجُبِّ فوقفت فقال: يا صاحب الجُبِّ، فقال دانيال: قد أسمعت فما تريد؟ فقال: إن الله أمرني أن أُخْرِجَكَ، فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذَكَرَهُ، والحمد لله الذي لا يَكِلُ من توَكَّلَ عليه إلى غيره، والحمد لله الذي يجازي بالإحسان إحساناً وبالإساءة غفراناً. فرفع الصخرة واستخرجه، وقام الأسد واللبؤة يمشيان معه، فعزم عليهما دانيال فرجعا إلى الغيضة.

وقال ابن الكلبي: فنقش دانيال على خاتمه أسداً ولبؤة، فكان كل وقت ينظر إليهما لئلا ينسى نعم الله عليه ويشكره على إحسانه إليه. ثم إن دانيال عاد إلى القدس فأقام مدة فعصوا وأفسدوا وعادوا إلى شرِّ مما كانوا عليه، فسلط الله عليهم أنطياخوس الرومي، ففعل بهم كما فعل بُحْتُ نَصْر، وهي آخر مرة في قوله تعالى: ﴿لِنَفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]. قاله وهب بن منبه. قال: وعاد دانيال إلى العراق فمات بالسُّوس، ولما فتحها أبو موسى الأشعري في سنة سبع عشرة من الهجرة في زمان عمر رضي الله عنه على يد أبي سَبْرَةَ بن أبي رُهْم، دخل أبو موسى إلى قبره فإذا ركبته تحاذي رأس أبي موسى وأنفه ذراع وكانوا يستسقون به فيسقون، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره به، فكتب إليه بمواراته ودفنه، ووجدوا في إصبعه خاتماً من فضة عليه صورة الأسد واللبؤة.

قال وهب: وهذا دانيال الأصغر، فأما الأكبر فكان بين نوح وإبراهيم وهو الذي حفر دجلة والفرات وقد ذكرناه.



(١) انظر عرائس المجالس ٣٤٠، والمنتظم ٤١٧/١، والبداية والنهاية ٣٧٥/١.

فصل في ذكر يونس عليه السلام^(١)

وقال مقاتل: ذكره الله في أربعة مواضع، وهو اسم أعجمي، وأبوه مَتَّى في قول مجاهد، ومَتَّى من ولد بنيامين بن يعقوب، وقال مقاتل: مَتَّى اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غير يونس وعيسى بن مريم عليهما السلام، قال: وهو من ولد بنيامين بن يعقوب، وفيه ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها والهمز في اللغات الثلاث، وضم النون أجود.

وذكر أبو حنيفة ابن النُوبي: أن أم يونس كانت من ولد هارون عليه السلام، ومات أبوه وهي حامل، فوضعت له ولم يكن لها لبن، فأتت إلى الرعاء فسألتهم اللبن فمنعوها إياه، فلما منعوها وضعت في غار، فقيض الله له شاة تأتيه كل يوم فيرضع منها، فأقام على ذلك أربع سنين، وفطن له الرعاة، فأمن به سبعون نبياً، ثم أكرمه الله بالنبوة. واختلفوا في زمان كونه على قولين: أحدهما: بعد شعيا، والثاني: بعد سليمان. والأول أشهر.

وكان يونس رجلاً صالحاً من عبّاد بني إسرائيل وأنبياهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

وقد أثنى عليه نبينا ﷺ، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى»^(٢). ونسبه إلى أبيه متفق عليه، وفي المتفق عليه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى» ونسبه إلى أبيه^(٣).

(١) في (ب): الباب التاسع والعشرون في ذكر يونس عليه السلام، وانظر قصته في «تاريخ الطبري» ١١/٢، وتفسيره ٢٠٥/١٥، و«البدء والتاريخ» ١١٠/٣، و«عرائس المجالس» ص ٤١٠، وتفسير الثعلبي ١٥١/٥ و٣٠١/٦، والماوردي ١٨٤/٢، و«المنتظم» ٣٩٥/١، و«التبصرة» ٣٢٦/١، وزاد المسير ٦٥/٤ و٨٦/٧، و«الكامل» ٣٠٦/١، و«البداية والنهاية» ١٦/٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٩٦)، و«البخاري» (٤٨٠٤).

(٣) أخرجه «البخاري» (٣٣٩٥)، و«مسلم» (٢٣٧٧).

وكذا في المتفق عليه عن أبي هريرة: «وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ»^(١).
وأخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» عن عبد الله بن جعفر، وفيه: «ما ينبغي لنبي»
وذكره^(٢).

وهذا دليل على تواضع رسول الله ﷺ لأن يونس كان قليل الصبر. وقيل: إن هذا
الحديث منسوخ بقوله عليه السلام: «أنا سيّد ولدِ آدم»^(٣).

ذِكْرُ قِصَّةِ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا﴾ الآيات [الأنبياء: ٨٧].

اختلف أرباب السير في قصة يونس:

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أحمد بن المبارك
بإسناده، عن قتادة، عن الحسن: أن يونس عليه السلام كان مع نبي من الأنبياء،
فأوحى الله إليه أن ابعث يونس إلى [أهل] نينوى يحذّروهم عقوبتي، قال: فمضى يونس
عليه السلام على كره منه، وكان رجلاً صالحاً حديداً شديد الغضب، فأتاهم فحذّروهم
وأنذروهم، فكذبوه وردوا عليه نصيحته، ورموه بالحجارة، وأخرجوه، فانصرف عنهم،
فقال له نبي من بني إسرائيل: ارجع إلى قومك. فرجع إليهم فرموا بالحجارة، فقال له
النبي: ارجع إليهم فرجع، فكذبوه، فوعدهم العذاب، فكذبوه وكفروا بالله وجحدوا
كتابه، فدعا عليهم عند ذلك فقال: يا ربّ، إن قومي أبوا إلا الكفر، فأنزل عليهم
نِقْمَتَكَ. فأوحى الله إليه: إني أنزل بقومك العذاب. فخرج عليهم يونس وأوعدهم
العذاب بعد ثلاثة أيام. فأخرج أهله وانطلق، فصعد الجبل ينظر إلى أهل نينوى ويترقب
العذاب، فجاءهم العذاب، وعاینوه، فتابوا إلى الله، فكشف عنهم العذاب. فلما رأى
ذلك جاءه إبليس فقال له: يا يونس، إنك إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذبوك،
فذهب مغاضباً لقومه، فانطلق، حتى أتى شاطئ دجلة فركب سفينة، فلما توسّطت

(١) أخرجه «البخاري» (٤٦٠٤)، و«مسلم» (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الماء أوحى الله إليها أن اركدي فركدت؛ والسفنُ تمرُّ يميناً وشمالاً، فقالوا: ما بال سفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال يونس: أنا أدري، إنَّ فيها عبداً أبق من ربه، فلا تسير حتى تلقوه في الماء، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا، وعرفوه، قالوا: أمّا أنت فليس نلقيك؛ والله ما نرجو النجاة إلا بك. قال: فاقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة فألقوه في الماء، فاقترعوا، ففرعهم يونس عليه السلام، فأبوا أن يلقوه، وأقرع القوم ثانياً وثالثاً، ففرعهم يونس، فقال: يا قوم، اطرحوني في الماء وانجوا، فقام القوم فاحتملوه شبه المشفقين عليه، فقال: ايتوا بي صدرَ السفينة، ففعلوا، وإذا بالحوث فاتح فاه، فقال: ردوني إلى مؤخر السفينة، ففعلوا، واستقبله الحوث فاتحاً فاه، فلما رأى جوفه وهوله قال: يا قوم، ردوني إلى وسط السفينة، فردوه، فاستقبله الحوث، فقال: ردوني إلى الجانب الآخر، فاستقبله الحوث فاتحاً فاه ليأخذه، فقال: ألقوني وانجوا؛ فلا منجى من الله إلا إليه. فطرحوه، فالتقمه الحوث قبل أن يبلغ الماء، وانطلق به الحوث إلى مسكنه من البحر، ثم انطلق به إلى قرار الأرض، فطاف به أربعين يوماً، فسمع يونس تسبيح الحصى والحيتان، فجعل يسبح ويهلل ويقدّس، وكان يقول في دعائه: إلهي وسيدي ومولاي، في السماء مسكنك، وفي الأرض قدرتك وعجائبك، سيدي، من الجبال أهبطتني، وفي البلاد سيرتني، وفي الظلمات الثلاث حبستني. إلهي، سجتني بسجن لم يسكن به أحد قبلي. إلهي، عاقبتني بعقوبة لم يُعاقب بها أحد قبلي. فلما تم له أربعين يوماً وأصابه الغم ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال: فسمعت الملائكة بكاءه، وعرفوا صوته، فبكت الملائكة وبكت السماوات والأرض والحيتان لبكائه، فقال الجبار: يا ملائكتي، ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: ربنا، صوت حزين ضعيف نعرفه في مكان غريب، قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوث في البحر، فقالوا: يا ربنا، العبد الصالح الذي كان يصعد له في كل يومٍ وليلة العمل الصالح الكثير؟ وقال ابن عباس: قال الله تعالى: نعم. قال: فشفت له الملائكة والسماوات والأرض، فبعث الله جبريل عليه السلام، فقال: انطلق إلى الحوث الذي حبست يونس في بطنه، فقل له: إن لي في عبدي حاجة،

فانطلق به إلى الموضع الذي بلعته فيه، فأقذفه فيه. فانطلق جبريل عليه السلام إلى الحوت فأخبره، فانطلق الحوت بيونس عليه السلام وهو يقول: يا رب، استأنست في البحر بتسييح عبدك يونس، واستأنست به دواب البحر، وكنت أركى شيء به، وجعلت بطني له مصلياً يقدسك فيه، فقدست به وما حولي من البحار، أفتخرجه عني بعد أنسٍ كان لي به؟ فقال الله تعالى: إني أقلتُ عشرته ورَحِمْتُهُ، فألقه. قال: فجاء به إلى حيث ابتلعه ببلد على شاطئ دجلة، فدنا جبريل من الحوت، وقرب فاه من في الحوت، وقال: السلام عليك يا يونس، رب العزة يُقرئك السلام، فقال يونس: مرحباً بصوت كنتُ خشيتُ أن لا أسمعه أبداً. فقذفه الحوت مثل الفرخ الممعوط^(١) الذي ليس عليه ريش، فاحتضنه جبريل. قال الحسن: فأنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ وهي الدُّبَّاء فكان لها ظلٌّ واسع يستظل به، وأمرت أن ترضعه أغصانها، فكان يرضع منها كما يرضع الصبي.

وقال الحسن: بعث الله إليه وَعَلَةً من وُعُلِ الجبل يدرُّ ضرعها لبناً، فجاءت إليه وهو مثل الفرخ، فجعلت ثديها في فيه وهو يمصُّه مصَّ الصبي، فإذا شبع انصرفت، فكانت تختلف إليه حتى اشتدَّ ونبت شعره خلقاً جديداً، ورجع إلى حاله قبل أن يقع في بطن الحوت، فمرت به مارةً فكسوه كساء. فبينما هو ذات يوم نائم إذ أوحى الله إلى الشمس أن احرقني شجرة يونس، فأحرقتها، فأصابت الشمس جلده فأحرقته، فقال: يا رب، نجيتني من الظلمات، ورزقتني ظلَّ شجرة كنت أستظل بها، فأحرقتها، أفتحرقني يا رب؟ وبكى، فأتاه جبريل، فقال له: يا يونس، إن الله يقول لك: أنت زرعته أم أنا؟ أنت أنبتتها أم أنا؟ فقال: بل الله، قال: فبكاؤك لماذا؟ فكيف دعوت على مئة ألف أو يزيدون أردت هلاكهم؟ وقال ابن عباس: قال له جبريل: أتبكي على شجرة أنبتها الله تعالى لك، ولا تبكي على مئة ألف أو يزيدون أردت هلاكهم في غداة واحدة؟ فعند ذلك عرف يونس ذنبه، فاستغفر ربه، فغفر له.

وعن الزُّهري: لما قوي يونس كان يخرج من الشجرة يميناً وشمالاً، فأتى على رجل

(١) الممعوط: من قلَّ شعره.

يصنع الجرار، فقال له يونس: يا عبد الله، ما تصنع؟ قال: الجرار، فأبيعها أطلب فيها فضل الله. فأوحى الله إلى يونس: قل له يكسر جواره، فقال له يونس ذلك، قال: فغضب، وقال: إنك رجل سوء تأمرني بالفساد؛ تأمرني أن أكسر شيئاً عملته وصنعتة ورجوت خيره. فأوحى الله إليه: يا يونس، ألا ترى إلى هذا الجرار كيف غضب لِمَا أمرته بكسر ما صنع، وأنت تأمرني بهلاك قومك؟! فما الذي يشقُّ عليك أن يصلح من قومك مئة ألف أو يزيدون؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] يعني من المصلين من قبل أن تنزل البليّة ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

قال ابن عباس: من كان ذاكراً لله في الرخاء ذكره الله في الشدة واستجاب له، ومن يغفل عن الله في الرخاء وذكره في الشدة لم يستجب له.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقال الله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، يقول الله تعالى: كذلك نفع بالصالحين إذا وقعوا في الخطيئة ثم تابوا إليّ قبلتُ توبتهم. روى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعا أخي يونس بهذه الدعوات في الظلمات، فأنجاه الله بها؛ فلا يدعو بها مؤمن مكروبٌ إلا كشف الله ذلك عنه، إنَّ بها عدة من الله لا خلف لها».

هذه صورة ما ذكره الشيخ الموفق في «التوايين»^(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون أرض فلسطين، فغزاهم ملك، فسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، فأوحى الله إلى شعيا بن أمصيا أن سر إلى حزقيا الملك، وقل له حتى يبعث نبياً قوياً أميناً، فإني ألقى في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: من ترى؟ وكان قد بقي في مملكته خمسة أولاد من أولاد الأنبياء، فقال: يونس، فإنه قوي أمين. فدعاه الملك، فأمره بالخروج،

(١) «التوايين» (١٥).

فقال له يونس: هل أمرك الله أن تخرجني؟ قال: لا قال: فهل شماني لك؟ قال: لا، قال: فإنَّ ها هنا أنبياء أقوياء أمناء، فألحوا عليه، فخرج مغاضباً للملك حزقيا والنبى شَعِيًا وقومه، فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة فركبها، فوقفت أو تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ها هنا ها هنا عبد عاصٍ أو آبق، ومن رَسَمِنَا أن نقترع في مثل هذا، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ومضينا، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة ومن فيها. ثم اقترعوا ثلاثاً وفي كل مرة تقع القرعة على يونس، فقال يونس: أنا ذلك الآبق العاصي. وألقى نفسه في البحر فالتقمه حوت، وجاء حوت آخر فالتهم الحوت الأول. فأوحى الله إلى الحوت: لا تؤذ منه شعرةً، فإني جعلت بطنك له مسجداً وسجناً، ولم أجعله طعاماً لك^(١).

وقد رواه العوفي عن ابن عباس.

وقال مقاتل: التقمه الحوت بدجلة ثم نزل به إلى الأبلّة، ودخل به إلى البحر، فلم يُبقِ بحراً حتى طاف به.

وقال وهب: كان يونس رجلاً فيه حدة وضيق خلق، فلما حملت عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل - يعني بالربع: الفصيل - فلهذا أخرجه الله من أولي العزم من الرسل بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] أي: لا تتلق أمره كما تلقاه^(٢).

وقال السدي ومقاتل: كان يونس قبل النبوة من عبّاد بني إسرائيل في جبل يفرُّ بدينه من شاهق إلى شاهق، فبعثه الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل، وهو ابن أربعين سنة، وكانوا يعبدون الأصنام، فضاق بالرسالة ذرعاً ودعا إلى الله وشكاً، فأوحى الله إليه: بلّغهم الرسالة فإن لم يستجيبوا لك عدّبتهم، وإن لم تبلّغهم أصابك ما يصيبهم من العذاب، وقد أجلتهم أربعين يوماً، فقام فأنذرهم وكان صوته بالقراءة مثل صوت داود

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٢-٤١٣، و«تفسير البغوي» ٣٦٩/٢.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

عليه السلام، وأخبرهم بالأجل فقالوا: إذا رأينا أسباب العذاب آمناً. فلما مضى من الأجل خمسة وثلاثون يوماً غامت السماء غيماً أسود فاسودت سطوحاتهم، فأيقنوا بالعذاب، فأوحى الله إليه: أخبرهم بأن العذاب مصبّحهم بعد ثلاث، فأخبرهم فقالوا: لم نجرب عليه كذباً قط، فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت وإلا صبّحكم العذاب كما قال. فلما كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب كما يُغشى الثوب^(١)، وصار على رؤوسهم قدر ميل، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، وطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأهاليهم وصبيانهم ومواشيهم، ولبسوا المُسوخ وأظهروا الإيمان وأخلصوا النية في التوبة، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب، فحنّ بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات واختلطوا وعجّوا إلى الله تعالى وبكوا وتضرعوا، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس.

وقال ابن مسعود: تراؤوا المظالم فيما بينهم، حتى إن الرجل كان يأتي إلى أساس داره فيقلع الحجر الذي غصبه ويرده إلى صاحبه وصاحوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى، لا إله إلا أنت، فكشف الله عنهم العذاب^(٢).

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية [يونس: ٩٨]، ومعناه: فهلا، وكذا هو في مصحف ابن مسعود وأبي.

وقال الربيع: معناه: لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين، وهو وقت انقضاء آجالهم.

وقال مجاهد: إنما نفعهم إيمانهم في وقت اليأس لأن آجالهم بقيت منهم بقية فنجوا بما بقي من آجالهم، فأما إيمان من قد انقضى أجله فغير نافع عند حضور الأجل. وهذا الكلام في غاية الجودة.

وقال ابن عباس: غشاهم العذاب كما يغشى الثوب^(٣) القبر إذا دخل صاحبه فيه.

(١) في (ط): التراب القبر، والمثبت من (ب، ك).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١-٤١٢، و«المنتظم» ١/٣٩٥-٣٩٦.

(٣) في (ك): الثوب، وليس في (ب)، والمثبت من (ط).

وقال: وكان العذاب على رؤوسهم قدر ثلثي ميل^(١).

وثار عليهم دخان أسود، فعاينوا الموت، ثم كشفه الله عنهم. فإن قيل: فلم كشف الله العذاب عن قوم يونس دون غيرهم من الأمم ولم يقبل توبة فرعون؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الله علم منهم صدق النيّات. ألا ترى إلى فرعون لما عاين الغرق قال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يخلص النيّة وقد باشره العذاب، وهؤلاء لم يباشرهم، ذكره الزجاج.

والثاني: لأنّ الله تعالى خصّ قوم يونس بذلك لما أقنطهم يونس من رحمة الله تعالى وكما قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]، ذكره ابن الأنباري^(٢).

والثالث: لأنّ القوم افرقوا ثلاث فرق: الشيوخ، والشباب، والصبيان والنساء، فجاء العذاب فوقف على رؤوس الشيوخ فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا، ونحن أرقاؤك فأعتقنا. فانتقل إلى رؤوس الشباب فقالوا: اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنا. فانتقل إلى رؤوس الصبيان والنساء فقالوا: اللهم إنك قد علمت ضعفنا وعجزنا فأنت أولى من رحمتنا. وتضرّع الأطفال فرحمهم الله تعالى.

والرابع: أنه بقيت من آجالهم بقية كما قال مجاهد، وهو الأصحّ، فإنّ من انقضى أجله لم ينفعه إيمانه. والدليل عليه ما رواه أبو حنيفة ابن النُوبي في كتاب «الأسولة» قال: قال بعض الأنبياء: إلهي، لم رفعت العذاب عن قوم يونس وأهلكت قومي؟ فقال الله تعالى: لأنّ آجال قومك فנית، وقوم يونس لم تفن آجالهم.

وأنبأنا شيخنا الموفق رحمه الله بإسناده الماضي في أول الفصل إلى إسحاق بن بشر قال: حدثنا جُوَيْر ومقاتل عن الضحّاك عن ابن عباس قال: لما أيس يونس من إيمان قومه دعا ربّه عليهم فقال: اللهم أنزل عليهم نقيمتك. وخرج ومعه ابنان صغيران، فصعد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٢) انظر «التبصرة» ٣٢٩/١، وزاد المسير ٦٦/٤.

جبلاً ينظر إلى أهل نينوى ويترب العذاب، وبعث الله تعالى جبريل فقال: انطلق إلى مالك خازن النار فقل له يُخرج من سموم جهنم بمقدار مثقال شعيرة. ففعل جبريل ما أمره ربه. قال ابن عباس: فخرجوا إلى موضع يقال له: تل الرماد وتل التوبة، وإنما سُمي به لأنهم وضعوا الرماد على رؤوسهم والشوك تحت أرجلهم. فلما رفعوا أصواتهم بالبكاء قالت الملائكة: يا رب، رحمتك وسعت كل شيء، فهؤلاء الأكابر من ولد آدم تعذبهم، فما بال الأصاغر والبهائم؟ فقال الله تعالى جلت عظمتة وقدرته قد رحمتهم، وأمر جبريل عليه السلام أن يكشف عنهم العذاب^(١).

وروى الموفق أيضاً بإسناده إلى أبي الجلد: أن العذاب لما هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم، مشى ذوو العقول منهم إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا ما ترى، فعلّمنا دعوات ندعو بها عسى أن يرفع الله عنا العذاب، قال: قولوا: يا حيّ حين لا حي^(٢). وقد ذكرناه.

وروى الموفق عن الحسن: أن يونس بعدما أنجاه الله من بطن الحوت مرّ في برية براع من رعاة قومه، فقال له يونس: ممن أنت؟ فقال: من قوم يونس بن متى، قال: فما فعل يونس؟ قال: لا أدري إلا أنه كان من خيار الناس وأصدق الناس، أخبرنا عن العذاب فجاءنا كما قال، فثبنا إلى الله فرحمنا، ونحن نطلبه فلا نجده ولا نسمع له ذكراً، قال يونس: فهل عندك من لبن؟ قال: لا، والذي أكرم يونس ما مطرت السماء ولا أعشبت الأرض منذ فارقنا يونس. قال: ألا أراكم تحلفون بالله يونس؟ قال: لا نحلف بغير إله يونس، من حلف بغير إله يونس في مدينتنا نُزِعَ لسانه من قفاه. فقال له يونس: متى استحدثتم هذا؟ قال: منذ كشف الله عنا العذاب. قال يونس: ايتني بنعجة، فأتاه بنعجة مسلوبة^(٣) فمسح على بطنها وقال: دُرِّي لي بإذن الله، فدرّت فاحتلبها يونس، فشرب يونس وسقى الراعي، فقال الراعي: إن كان يونس حياً فأنت هو. قال: أنا هو، فأت قومك فأقرتهم مني السلام. قال: فإن الملك قال: من أتاني به أو ذكر أنه

(١) انظر «التوابين» ٣٢-٣٣.

(٢) انظر «التوابين» ٣٣.

(٣) في (ب): هزيلة.

رأى يونس وجاء على ذلك ببرهان خلعت له ملكي وجعلته مكاني ولحقت بيونس. ولا أقدر أن أبلغه ذلك إلا بحجة، فإني أخاف أن يقول الملك: إنما قلت هذا طمعاً في ملكي، وليس أحد يكذب كذبة إلا قتلوه. فقال يونس: تشهد لك الشاة وهذه الصخرة التي كان مستنداً إليها. وقال يونس: تشهدا له. فانطلق إليهم الراعي فأخبرهم فكذبوه، فقال: الشاة تشهد لي والصخرة، فشهدتا له فصدقوه وقالوا: أنت خيرنا وسيدنا حيث رأيت يونس، وملكوه عليهم فدبر أمرهم أربعين سنة وقيل: سبعين سنة، وكان آخر العهد بيونس عليه السلام^(١).

وفي رواية: أن الغلام أتى الملك فأخبره فأمر بقتله فقال: إن لي بيئة فأرسلوا معي فأرسلوا معه فشهدت له الشاة والصخرة. قال ابن مسعود: فقال له الملك: أنت أحق بهذا الملك مني. وقام وأخذه بيده وأقعده موضعه، فأقام لهم الغلام أمرهم سبعين سنة^(٢).

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] والمغاضبة إنما تكون بين اثنين، لأنها مفاعلة كالمناظرة والمجادلة والمقاتلة، والله تعالى لا مفاعلة بينه وبين عباده؟ والجواب من وجوه:

أحدها: ما قاله الضحاك: أنه ذهب مغاضباً لقومه. وهي رواية العوفي عن ابن عباس^(٣). وهو ما ذكرنا أن الله أمر شعياً أن يأمر حزقيا أن يبعث نبياً ليخلص بني إسرائيل، وأن يونس خرج على كره منه، وأنه ألقى نفسه في بحر الروم.

والثاني: أنه إنما ذهب مغاضباً لربه حين كُثِفَ عنهم العذاب بعدما أوعدهم به، لأنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم به، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع الله به عنهم العذاب والهلاك، فخرج مغاضباً لربه وقال: والله لا أرجع إليهم كذاباً أبداً. وفي بعض الأخبار: أنهم كانوا يقتلون من جربوا عليه الكذب، فلما لم يأتهم العذاب في الموعد الذي وعدهم خشي أن يقتلوه، قاله وهب^(٤).

(١) انظر «التوايين» ٣٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١٤.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١، و«زاد المسير» ٥/٣٨١.

(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥١.

والثالث: ذكره الحسن وقال: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل الله أن ينظره ليتأهب للشخص إلىهم، فقيل له: الأمر أسرع من ذلك، فلم يُنظر، حتى سأل أن يُنظر حتى يأخذ نعليه فيلبسهما، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلاً في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعليَّ فخرج مغاضباً^(١).

وأما قولهم: إن المفاعلة إنما تكون بين اثنين، فقد تكون من واحد، فإن العرب تقول: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وشارفت الأمر.

ومعنى قوله: ﴿مُغَضِّبًا﴾ أي: غضبان.

وقال مقاتل: إنما غضب لأنه وعد قومه العذاب في يوم بعينه، فلما فات الأجل^(٢) ولم يعذبوا أنف أن يعود إليهم، فمضى إلى السفينة كالعبد الآبق.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن معناه: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة. قاله مجاهد في آخرين^(٣). وقد قرأ عمر بن عبد العزيز: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» بتشديد الدال^(٤).

والثاني: أن معناه: لن نضيّق عليه الحبس من قوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضيّق، رواه العوفي عن ابن عباس.

وقيل: إن معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه. قاله الحسن البصري: قلت: ما نقل الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ معناه: فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه، هذا كلام فاسد لا نظن مثله في أحاديث المؤمنين، فكيف بيونس عليه السلام، ومثل هذا لا يقوله الحسن رحمه الله، والله أعلم.

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

(٢) في (ك): بعينه فلم يأت الأجل، والمثبت من (ب) و(ط).

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢، و«زاد المسير» ٣٨٢/٥.

(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٥٢.

والمراد بالظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة [بطن] الحوت الذي بلعه، وظلمة بطن الحوت [الذي ابتلع الحوت الأول] (١)، وظلمة الذَّنْبِ.

ومعنى ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] حين أغضبتك.

وأبنا أبو القاسم بن مسلم الصفار الموصلي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا نَزَلَ يُونُسُ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ سَمِعَ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةِ وَالْحِيتَانِ فَسَبَّحَ هُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، فَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالَتْ: يَا رَبَّنَا، نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضِ غَرِيبَةٍ، فَقَالَ اللَّهُ: ذَاكَ عَبْدِي يُونُسَ عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ؟! قَالَ: نَعَمْ، فَشَفَعُوا لَهُ فَشَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» (٢).

فإن قيل: فلم عاقبه بحوت؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن عقوبة الله تعالى لا تشبه عقوبات خلقه فيظهر قدرته بما يعجز عنه البشر.

والثاني: لأن الله تعالى له سجون كثيرة وقد كان آيسَ قومَهُ من رحمة الله وقال: لا يغفر الله لكم أبداً.

والثالث: أنه لما ظنَّ أن لن نقدر عليه حسناهُ في أضيق السجون.

وقال مقاتل: واسم الحوت زالوخا.

قال السُّدي: رأى في البحر ملكاً قائماً على كرسي من قرار البحر إلى رأس الماء فقال: يا رب، من هذا؟ قال: ملك البحر. وقد وكله الله به، وبين يديه رجل وهو يبصق في وجهه ويقول: ويحك، أما استحييت تقول: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: من هذا؟ قال: فرعون. قال: ورأى رجلاً يُخسف به كل يوم فقال: من هذا؟ قال: قارون.

وذكر أبو حنيفة بن النُّوبي: أنه صار بطن الحوت كالقوارير حتى رأى عجائب البحر كلها، وسمع أنين قارون، وسمع قارون تسبيح الملائكة، فقال قارون للملك الموكل به: ما هذا التسبيح؟ قال: تسبيح يونس. فناداه: يا يونس، ما فعل ابن عمي موسى؟ قال: مات. قال: واويلاه. ثم قال: وأخوه هارون؟ قال: مات. فقال: والانقطاع ظهراه.

(١) ما بين حاصرتين من «تفسير الثعلبي» ١٦٠/٩، والبداية والنهاية ٢١/٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٢٨/١٩ من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وانظر «غرائس المجالس» ص ٤١٣، و«تفسير ابن كثير» ١٩٢/٣.

فقال له يونس: ألا تتوب إلى الله تعالى؟ فقال: توبتي إلى موسى. فأوحى الله إلى يونس قد خففت عذابه بحزنه على قرابته. وفي رواية فقال: وما فعلت أختهما كلثم؟ قال: ماتت. قال: وانقصر قرابته. قال: ورأى هامان وغيره.

فإن قيل: فكم لبث في بطن الحوت؟ قلنا: فيه أقوال:

أحدها: أربعون يوماً، قاله أنس وغيره.

والثاني: سبعة أيام، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: ثلاثة أيام، قاله مجاهد.

والرابع: عشرون يوماً، قاله الضحاك.

والخامس: بعض يوم، التقمه وقت الضحى وقذفه قبل الغروب، قاله الشعبي^(١).

والأول أصح.

﴿فَبَدَّنَهُ بِالْعَرَاءِ﴾ وهو المكان الذي لا يُتوارى فيه بشجر ولا غيره ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٥] أي: مريض.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧] واختلفوا في «أو» على

أقوال:

أحدها: أنها بمعنى «بل»، قاله ابن عباس والفراء.

والثاني: أنها بمعنى الواو، أي: ويزيدون^(٢).

والثالث: أنها بمعنى الشك في عددهم، لأنهم قد اختلفوا في الزيادة، فروى أبي

ابن كعب عن رسول الله ﷺ: «كانوا عشرين ألفاً»^(٣). وقال ابن عباس: ثلاثون ألفاً.

وقال ابن جبير: سبعون ألفاً^(٤).

فإن قيل: فما معنى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصفات: ١٤٠] الآيات؟

(١) انظر «التبصرة» ١/٣٢٨.

(٢) انظر «التبصرة» ١/٣٢٨، و«زاد المسير» ٧/٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩).

(٤) انظر «التبصرة» ١/٣٢٨-٣٢٩.

فالجواب: أن معنى: أبق، أي: هرب، والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء، وساهم، أي: قارع، وهي إلقاء السهام على وجه القرعة، والمدحض: المغلوب، والتقمه: ابتلعه، والمليم: المذنب الذي يُلام على ما أتى به، والمسبحين: المصلين العابدين.

وقال الحسن: لم يكن له صلاة في بطن الحوت، وإنما قدّم عملاً صالحاً، ولولا ذلك العمل ﴿لَلَيْثِ فِي بَطْنِهِ﴾ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٤] أي: صار بطن الحوت له قبراً^(١).

قال ابن عباس: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذته الحوت، قال: ودليله أن الله ذكر قصة يونس في سورة الصافات ثم عقبها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٢).

قلت: والأصح أن قصة الحوت كانت بعدما أرسله إلى قومه، لأن الله قد ذكره في سورة يونس وهي مقدمة على الصافات، وأيضاً فإن الواو للجمع وعليه عامة المفسرين.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] إذا استغاثوا بنا ودعونا.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقِطِينَ﴾ [الصافات: ١٤٦]؟ قلنا: قد اختلفوا في اليقطين:

قال ابن مسعود: وهو القرع. وقال ابن عباس: هو كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ولا يبقى على الشتاء، وليس له ساق، نحو: القرع، والقثاء والبطيخ، ونحوه.

وقيل: إنما خص اليقطين لأنه لا تقربه الذباب.

وقال مقاتل: ثم عاد يونس إلى الشام، فتوفي بأرض فلسطين.

ويقال: إن قبره بقرية مشهورة يقال لها: حَلْحُول من أعمال^(٣) الخليل عليه السلام.

ورأيت في بعض التاريخ أن قبره بالكوفة، وفيه بُعد، والله أعلم^(٤).

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ١١٠١، و«زاد المسير» ٧/ ٨٦-٨٧.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤١١.

(٣) في (ك): أرض، والمثبت من (ب) و(ط).

(٤) اعتمد الدكتور إحسان عباس فيما بعد هذه الأخبار في نشرته للكتاب على نسخة (ب)، وهي مختصرة جداً، وقد اعتمدنا هنا على نسخة كوبريللي والخزائنية التي رمزنا لها بـ (خ).

فصل في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام^(١)

ذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» عن ابن دريد أنه قال: زكريا اسم أعجمي^(٢).

واختلفوا في نسبه: فقال الثعلبي: هو زكريا بن أدن^(٣) بن مسلم بن صدوق بن نحشان^(٤) بن داود بن سليمان بن صديقة بن برخيا بن ناحور بن شلوم بن يهعياط^(٥) بن أسا بن أييا، أو أسا بن رُحُبعم بن سليمان بن داود عليه السلام^(٦).

وقيل: زكريا بن أدن بن يوحنا بن رحيا من ولد سليمان عليه السلام.

وفي الصحيح: أنه كان نجاراً. قال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريا نجاراً». انفرد بإخراجه مسلم^(٧).

وقال وهب: وكان زكريا قد تزوج أشياع بنت فاقد أخت حنة أم مريم. وقال السُّدي: أشيع هي بنت عمران أخت مريم. وهو وهم منه، والأول أصح، ذكره الثعلبي وغيره.

وقال مقاتل: وحنة هي التي قال الله في حقها: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

(١) في (ب): الباب الثامن والعشرون في قصة زكريا ومن هنا تبدأ النسخة الخزائية والتي رمزنا لها بـ «خ»، وانظر لهذه القصة «تاريخ الطبري» ٥٨٥/١ و«البدء والتاريخ» ١١٦/٣، و«عرائس المجالس» ص ٣٧٣، و«التبصرة» ٣٣٩/١، و«المنتظم» ٧-٦٥/٢، و«الكامل» ٢٩٨/١، و«المختصر في أخبار البشر» ١/٣٤، و«البداية والنهاية» ٣٩٣/٢.

(٢) «المعرب» ص ٢١٩.

(٣) في (خ): أردن، وفي تفسير الثعلبي ١٦٧/٤: أذن، والمثبت من (ك) و(ب)، وانظر البداية والنهاية ٢/٣٩٤.

(٤) كذا في النسخ، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: يحسان، وفي تاريخ دمشق ٤٢٦/٦: محيمان، وانظر البداية والنهاية ٢/٣٩٥.

(٥) في (خ): بهياط، والمثبت من (ب) و(ك)، وفي الطبري ٥٨٦/١: بهشافاط، وفي عرائس المجالس ٣٧٤: نهفاساط، وفي البداية ٣٩٥/٢، وتاريخ دمشق ٤٢٦/٦: بهفانيا.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.

(٧) أخرجه أحمد (٧٩٤٧)، ومسلم (٢٣٧٩).

وعمران: هو ابن ماثان، وليس بعمران أبي موسى. وقال ابن عباس: بينهما ألف وثمان مئة سنة، وكان بنو ماثان ملوك بني إسرائيل وأحبارهم^(١).

ويقال: ماثان من ولد داود.

وقال مقاتل: ذكر الله عمران في ثمانية مواضع.

وقال ابن إسحاق: هو من ولد رُحْبُعُم بن سليمان عليه السلام.

وقال وهب: وكانت حنة قد نذرت حملها لله محرراً، أي: خالصاً، لخدمة بيت المقدس، وكان المحرر لا يفارق الكنيسة حتى يحتلم، ثم يُخَيَّر، فإن أحبَّ المقام أقام، وإن أراد الخروج بعد التحرير لم يكن له ذلك، ولم يكن يُحرَّر إلا الغلمان دون الجوارى، لما يصيبهن من الحيض والبلاء والأذى، فحرَّرت أم مريم ما في بطنها. هذا قول وهب^(٢).

وقال الكلبي: كانت حنة قد أسنت ويئست من الولد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينا هي يوماً في ظلِّ شجرةٍ رأَت طائراً يزقُّ فرخاً له، فتحرَّكت نفسها للولد، وسألت الله ذلك، وقالت: هو لبيت المقدس. ولم تعلم بما في بطنها، فقال لها زوجها: ما تصنعين إن كان الحمل أنثى؟ يعني: أنها لا تصلح للتحرير. ومات عمران وهي حاملٌ بمريم، فلما وضعتها انكسر قلبها واعتذرت إلى الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ يعني النذيرة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي في خدمة الكنيسة، فإن قيل: فقد علم الله أنها أنثى. قلنا: إنما قالت ذلك من باب الاعتذار، ولأن الأنثى لا تصلح للخدمة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] وهي بلغتهم: الجارية^(٣) العابدة^(٤).

وقد شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية، فقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمير بإسناده عن عبد الله بن جعفر عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.

(٣) في (ك) و(خ): الخادمة.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٤-٣٧٥، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١.

نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ^(١) متفق عليه.

وقال أحمد بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرِيْمَ وَابْنَهَا» ثم يقول أبو هريرة: وافرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ متفق عليه^(٢).

وفي المتفق عليه: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ يُوَلَّدُ غَيْرَ عِيسَى بْنِ مَرِيْمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ فِيهِ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»^(٣) أي: في المشيمة، والاستهلال: رفع الصوت.

﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنِ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: رضيها للتحرير وأنبثها نباتاً حسناً، فكانت تشبُّ في كل يوم كما يشب غيرها في شهر، وفي شهر كما يشب غيرها في سنة.

وقال وهب: ولما وضعتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، فوضعتها بين يدي الأحرار أبناء هارون، وهم يومئذ يُلَوْنُ أمر بيت المقدس كحجبة بني شيبه للكعبة. وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها. فقالوا: لا نفعل، ولكننا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه. فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين إلى نهر الأردن قريباً من أريحا، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة والزبور في الماء، وقال الزجاج: هي قداح عليها علامات يعرفون بها القرعة، وإن قيل لها أقلام لأنها تُقلم وتُبرى^(٤). فأرن قلم زكريا، أي: صار له رنين، ووقف، فجرت أقلامهم مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية، أي: ارتفع عليها. فقرعهم زكريا وكفلها، والكفالة: الضم، واسترضع لها زكريا، وقيل: إنما ضمها إلى خالتها أم يحيى. فلما بلغت مبالغ النساء بنى لها

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٠)، والبخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٧٠٨)، والبخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٣٦٦) عن أبي هريرة.

(٤) انظر «معاني القرآن» ١/٤١٠-٤١١.

محراباً في المسجد، وجعل بابه في مكان لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة. وما كان يصعد إليها سواه، ومعه المفتاح، وكانت إذا حاضت أخرجها من المسجد إلى منزله، تكون مع خالتها، فإذا طهرت ردها إلى المسجد.

وقال ابن إسحاق: وإنما أدخلها المسجد من أجل نذر أمها. قال: وإنما اقترعوا عليها بعدما بلغت^(١).

وأصاب الناس سنة، فعجز زكريا عنها، فشكا إلى بني إسرائيل، فجعلوا يتدافعونها بالقرعة، فخرج السهم على يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن عمها، وكان فقيراً، يأتيها باليسير، فرأت في وجهه شدة المؤونة عليه، فقالت: يا يوسف، أحسن الظن بالله، فإنه سيرزقنا. فكان الله يثمر ما يأتي به. وهذه رواية ابن إسحاق. وعامة العلماء على أن زكريا كفلها، ولم تزل عنده يأتيها بطعامها وشرابها، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب على باب المحراب، وهو الغرفة، فإذا عاد وجد عندها رزقاً. قال ابن عباس: فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء من ثمار الجنة، فيقول: ﴿يَمْرِمُ أَنِّي لَكَ هَذَا﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقال ابن عباس: تكلمت وهي صغيرة^(٢).

فإن قيل: فمريم بنت عمران يأتيها رزقها رغداً، وفاطمة بنت محمد ﷺ تطحن حتى يؤثر الطحن في ذراعها؟ فالجواب: أن مريم كانت مفتقرة إلى وجود آية تستدل بها على براءتها من وجود ولد من غير أب كما في الفاكهة في غير أوانها، أما فاطمة فمنزهة عن مثل هذا، فلا تحتاج إلى آية تدل على براءة ساحتها.

قال ابن إسحاق: ولما رأى زكريا هذا تحركت نفسه إلى طلب ولد، وكان قد كبر وأسن وانقرض أهله، فقال: الذي هو قادر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير أوانها من غير سبب، قادر على أن يرزقني الولد بأن يصلح لي زوجتي كذلك. فذلك قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ٣٨] ﴿قَالَ رَبِّ﴾ معناه: يا ربي، ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أي: انتشر فيه الشيب كما ينتشر شعاع

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٥-٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٦، و«تفسير البغوي» ص ٢٠٢-٢٠٣، و«زاد المسير» ١/٣٧٩-٣٨٠.

النار في الحطب.

قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ وهم: بنو العم والعصبة، خاف أن يتولوا صحائف علومه ونبوته.

وقيل: إنما سأل الولد، ليساعده على عبادة ربه، فإنه كان فرداً فطلب الولد. وذكر السُّدِّي: أنه خاف أن يتولوا ماله على وجه الميراث. وهو وهم منه، فإن الأنبياء لا يخلفون ديناراً ولا درهماً بالحديث^(١)، فسأل الولد لئلا ينقطع ذكره، ولا يموت العلم.

وإنما قال: ﴿وَكَانَتْ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل: عاقرة، لأنه أجرى الكلام مجرى حائض وطالق، والعاقرة من النساء والرجال من لا يولد له. قال ابن عباس: وكان ابن عشرين ومئة سنة، وامراته بنت ثمانين وتسعين سنة^(٢).

فإن قيل: وأين زكريا من يعقوب بينهما دهر طويل؟ قلنا: الجواب من وجهين: أحدهما: أن جميع بني إسرائيل من نساء يعقوب.

والثاني: أن المراد به: يعقوب بن ماثان، وهو أخو زكريا، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لما قرأ هذه الآية: «يرحم الله زكريا، وما كان عليه من ورثة»^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَزَكِّرُنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ [مريم: ٧] فإن قيل: ففي مريم هذه الآية، وفي آل عمران [الآية: ٣٩]: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ فقد حصل المقصود بالبشارة الأولى، فما الفائدة في الثانية؟ قلنا: هو تأكيد للبشارة، وليعلم أن الله قد أجاب سؤاله فيفرح.

وقال ابن عباس: دخل عليه المذبح شاب من أحسن الشباب، فخاف منه فقال له: لا تخف أنا جبريل وبشره.

(١) وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا ديناراً ولا درهماً» أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥).

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧٢/٦٤ عن قتادة مرسلًا.

و«يحيى» لا ينصرف للمعرفة. وقال ابن عباس: أحيا الله به عقر أبويه بين شيخ وعجوز. وقال الزجاج: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والتقوى والنبوة والحكمة. وقال مقاتل: بالعصمة، فلم يهَمَّ بالمعصية. قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ يلقى الله يومَ القيامةِ إلا وقد همَّ بمعصيةٍ أو عملها إلا يحيى بن زكريَّا، فإنه لم يهَمَّ ولم يعملها»^(١).

وقال عمر بن عبد الله المقدسي: كان اسم سارة يسارة، فأوحى الله إلى الخليل عليه السلام إني مخرج منكما عبداً لا يموت بمعصيتي اسمه حي، فتهب له سارة من اسمها حرفاً، فوهبت له الياء من أول اسمها، فصار يحيى وصارت يسارة سارة^(٢).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إن الله لم يُسمَّ أحداً قبله بهذا الاسم تشريفاً له، ولم يكل تسميته إلى أبيه وأمه. وقيل: لم يجعل له مثلاً وشبهاً.

وقال مقاتل في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] قال: هي عيسى، قال له: كن فكان^(٣).

واختلفوا في معنى: «الحصور»:

فقال قوم: هو الذي لا يأتي النساء، لأنه ما كان له آلة.

قلت: وهذا ذم لا مدح، لأن الفضيلة أن لا يأتي النساء مع القدرة إلا أن يكون عِيناً، وقد حكى الماوردي: أن الحصور: هو الذي يمنع نفسه عن شهواتها مع القدرة^(٤). وهذا وجه حسن بخلاف الأول.

وقيل: هو الحلیم.

وأصل «السيد» من ساد يسود إذا رأس وعلا، وهو اسم جامع للخصال المحمودة،

(١) (٢) أحمد في «مسنده» (٢٢٩٤).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٧.

(٤) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٣.

(٥) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٨٤.

وقد ذكرنا في «التفسير» تمام الآيات.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿قَالَ ءَايَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]؟ فالجواب من وجهين:
أحدهما: أنه سأل آية أي: علامة على وجود الولد، فقيل له ذلك. والرمز بالشفيتين والحاجبين والعينين، واعتقل لسانه.

والثاني: ذلك عقوبة له بعد ما شافهته الملائكة بالبشارة.

وقال قوم: لم يعتقل لسانه، وليس بشيء، لأن الله يقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]. قال ابن عباس: كتب إليهم في كتاب. وقال مجاهد: أوما برأسه. وقال مجاهد أيضاً: ولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر، وكان ابن خالته. ويحيى أول من آمن بعيسى عليه السلام.

وقال ابن وهب: كانت أم يحيى حاملاً به فاستقبلتها مريم وهي حامل بعيسى فقالت لها أم يحيى: أنت أم عيسى، أنت حامل، قالت: ولم؟ قالت: لأنني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك^(١).

قلت: لا ينبغي السجود إلا لله تعالى.

وقال السُّدي: ولد يحيى عليه السلام في أيام أردشير بن بابك. وقيل: في أيام سابور بن أردشير، والله أعلم.

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

ذكر وهب وغيره: أن مريم لما حملت بعيسى عليهما السلام اتهمت اليهود زكريا بها، فلما استبان حملها، طاف إبليس مجالس بني إسرائيل فقذف زكريا بمريم، وقال: ما كان يدخل عليها إلا هو، وهو الذي أحبلها، فطلبوه، فهرب، فأتى وادياً كثير الأشجار، فأتاه إبليس في صورة راع فقال له: قد جاءك القوم، فادع ربك أن يفتح لك شجرة، فادخل فيها. ففعل. وجاء القوم، وقد بقي هدب ثوبه، وقيل: بل أخذ به إبليس. فقال لهم إبليس: ها هنا دخل، فركبوا عليه المنشار، وشقوه نصفين كما فعلوا بشعيا،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٨.

فأوحى الله إليه: لئن قلت آه محوتك من ديوان النبوة، هلا التجأت إلينا وقد وكلناك إليها، فقطعوه وهو ساكت. وأمر الله الملائكة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بفلسطين، وهي التي تسمى اليوم سبسطية بأرض نابلس.

وذكر ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: أن زكريا مات على فراشه ولم ينشر، والذي نشر إنما هو شعيا وقد ذكرناه. والأول أصح.

وعامة المؤرخين على أن زكريا نشر قبل مقتل يحيى، إلا هارون بن المأمون فإنه قال: قُتِلَ يحيى وزكريا في الحياة، فهرب إلى بستان، فنادته شجرة: يا نبي الله، إلى هاهنا، وانفرجت له، فتبعوه فشقوه. والأول أصح، وقد نص عليه السدي والكلبي وابن إسحاق وقالوا: قتل زكريا ويحيى سبع سنين، وما نُبئ إلا بعد قتل أبيه^(١).

فصل يتعلق بيحيى عليه السلام

ذكر هارون بن المأمون في تاريخه: أن يحيى عليه السلام لما ولد رفع إلى السماء، فكان على باب الجنة حتى فُطِمَ، ثم أنزل إلى أبيه، فكان البيت يضيء بنوره، وكان حسن الصورة، قصيراً، قليل الشعر، مقرون الحاجبين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وفي سنه يومئذ قولان:

أحدهما: ثلاث سنين، قاله قتادة. والثاني: سبع سنين، قاله ابن عباس^(٢).

فإن قيل: فما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف نُبئ يحيى وهو صغير؟

فالجواب: أن الله يختص برحمته من يشاء، وكان ذلك من خصائصه، وهذا هو الجواب عن عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الفهم.

وقال ابن عباس: كان الصبيان يقولون له: هلم لنلعب، فيقول: ما خلقنا للعب،

وإنما خلقنا للعب، يعني: النقل^(٣).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٣، و«البداية والنهاية» ٥٢/٢.

(٢) انظر «التبصرة» ٣٤١/١.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣] أي: ورحمة، وقال ابن عباس: ما أدري ما الحنان، إلا أن يرحم الله عباده ويتعطف عليهم.

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ [مريم: ١٥] أي: سلام له.

وروى قتادة عن الحسن قال: التقى عيسى ويحيى، فقال له عيسى: استغفر لي فأنت خير مني. فقال له يحيى: وأنت كذلك. فقال عيسى: أنت سلم الله عليك، وأنا سلمت على نفسي^(١). يشير إلى قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ [مريم: ٣٣]، وقيل ليحيى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾.

وقيل: كان بينهما ثلاث سنين، يحيى قبله. وهو وهم، بل كان في زمانه.

وقال ابن عباس: كان طعام يحيى قلوب الشجر والعشب، ويخالط الوحش، ويلبس الشعر والوبر، ولا يأنس ببني آدم، ولم يكن له بيت، ولا عبد، ولا أمة، وما ضحك قط إلا متبسماً.

وذكر أبو نعيم في «الحلية» عن وهيب بن الورد قال: كان يحيى في وجهه خيطان أسودان من البكاء، فكان أبوه إذا رآه يبكي يقول: يا إلهي، إنما سألت الولد لتقرّ به عيني، وما أراني إلا وقعت في العناء. فيقول له يحيى: يا أبة، أنت أخبرتني عن جبريل أنه قال: إن بين الجنة والنار عقبة لا يقطعها إلا بكاء العين^(٢). وفي رواية: فيبكي زكريا معه.

وقال وهب بن منبه: بكى يحيى حتى بدت أضراس فيه فقالت أمه: يا بني، لو صنعت لك لبداً. فقال: اصنعي ما بدا لك. فصنعت له لبداً، فكان إذا قام إلى الصلاة يبكي حتى يبيل اللبد، فتقف أمه فتعصر اللبد، فإذا رأى دموعه على ذراعها رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم، هذه دموعي وهذه أمي وإنا عبيدك وأنت أرحم الراحمين^(٣).

وقال السدي: كان زكريا إذا تكلم على الناس نظر يميناً وشمالاً، فإن رأى يحيى لم

(١) انظر «زاد المسير» ٢١٥/٥.

(٢) «حلية الأولياء» ١٤٩/٨.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.

يذكر جنة ولا ناراً^(١).

وقال ابن المسيب: كان يحيى عليه السلام يضرب لبني إسرائيل الأمثال:

مثل في التوحيد، قال: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ومثله: كرجل اشترى عبداً من خالص ماله وأسكنهم داراً له ودفع إليهم مالاً ليتجروا به ويأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ويؤدي إليه فضل الربح، فدفعوه إلى عدو سيدهم.

مثل في الصلاة والمصلي، قال: مثله كرجل استأذن على ملك فأذن له فدخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه وجعل الرجل يلتفت يميناً وشمالاً، فأعرض عنه الملك ولم يقض له حاجة.

مثل في الصيام، قال: مثله كرجل لبس جبة للقتال وأخذ سلاحه وخرج إلى عدوه فلم يصل إليه العدو ولم يعمل فيه السلاح.

مثل في الذكر، مثله: كقوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا أقبل عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم، فكذا الشيطان لا يقدر على ذاكر الله تعالى^(٢).

قلت: وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في «المسند» حديثاً بمعناه فقال: حدثنا عفان بإسناده عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَكَادَ يُبْطِئُ، فَقَالَ لَهُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فِيمَا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخَسَفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرْفِ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرَّكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ.

وأولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٧٩.

يَكُونُ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.
 وَأَمْرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا.
 وَأَمْرُكُمْ بِالصِّيَامِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَرَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكِ فِي عِصَابَةٍ، كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ
 الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.
 وَأَمْرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ^(١)
 وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ
 مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.
 وَأَمْرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا، وَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سَرَاعًا فِي أَثَرِهِ،
 فَآتَى حَصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي
 ذِكْرِ اللَّهِ.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمْرُنِي بِهِنَّ: الْجَمَاعَةَ، وَالسَّمْعَ،
 وَالطَّاعَةَ، وَالهِجْرَةَ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قَيْدًا^(٢) شَبْرٍ فَقَدْ
 خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ، فَهُوَ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ»
 قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ،
 فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بَلْ بِمَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ»^(٣).

و«جُنَا» بجيم: من قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُنْيًا﴾ [مريم: ٧٢]. وهذا
 الحارث بن الحارث أبو مالك الأشعري أخرج له أحمد في «المسند» هذا الحديث ولم
 يخرج له غيره. وقد ذكرنا وقائع يحيى مع الشيطان في صدر الكتاب.



(١) في (ك) و(خ): عنده والمثبت من (ب).

(٢) في (ك) و(خ): قدر والمثبت من (ب).

(٣) «مسند أحمد» (١٧١٧٠).

ذكر مقتل يحيى عليه السلام

واختلفوا فيه :

قال وهب : بعث عيسى عليه السلام يحيى عليه السلام في نفرٍ من الحواريين يعلمون الناس الأحكام، وكان فيما نهوهم عنه نكاح الأخت، وابنة الأخت، وكان لملكهم ابنة أخ يُعجبُ بها، فأراد نكاحها، فمنعه يحيى عليه السلام، فسكر يوماً، وقال لها : اسألي حاجتك. وكان لها كل يوم حاجة مقضية. فقالت أمها : اسأليه رأس يحيى في طشت. فامتنع، فألحت عليه، وغاب عقله، فراودها فامتنعت، فأمر بذبحه، فذبح وجيء برأسه في طشت، والرأس يتكلم، ويقول : لا يحل لك نكاحها. فلما أصبحوا إذا الدم يغلي، فألقوا عليه التراب وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة، فغزاهم ملك، فأقام مدة يحاصر بيت المقدس، فلم يقدر عليهم، فعزم على الرجوع، فخرجت إليه عجوز من بني إسرائيل، فقالت : أتحب أن تفتح المدينة؟ أقسم عسكري أربعة أرباع^(١) في كل ناحية ربعا، وارفع يديك إلى السماء وقل : إنا سنفتحك بالله وبدم يحيى بن زكريا. فإذا فتحتها فاقتل على دمه حتى يسكن، فإن حيطان البلد تتساقط. ففعل، ففتح الله البلد ودخل^(٢)، فجاءت بهم العجوز فأرتهم موضع الدم وهو يفور، فقتل عليه سبعين ألفاً حتى رقاً، فقالت له : ارفع يديك، فإن الله إذا قُتِلَ نبيٌّ لم يرض حتى يقتل من قتله ومن رضي بقتله^(٣).

وقال السُّدي : واسم الملك الذي أخذ بثأر يحيى : خردوس. وقيل : بخت نصر، وهو وهم.

وقال الربيع بن أنس : كان للملك ابنة، فرأت يحيى فأحبهت، فأرسلت إليه تراوده عن نفسه، فأبى، فراودته مراراً وهو يمتنع، فخافت أن يشيع ذلك عنها، فقالت لها أمها : إذا سألك أبوك حاجة، فقولني : رأس يحيى. فقالت له : تذبح يحيى. وندمت، وجعلت

(١) في (ب) و(خ) : أقسام.

(٢) في (ب) : ودخلوا.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٨١-٣٨٢، و«الكامل» ١/٣٠٢.

المرأة تقول: ويل لها ويل لها. حتى ماتت^(١).

واختلفوا في اسمها: فقيل: أزيل. وقيل: ربه. وقيل: هيردونا. وكانت بغياً. قال وهب: قتلت في يوم واحد سبعين نبياً آخرهم يحيى عليه السلام وهي مكتوبة في «التوراة»: قتالة الأنبياء. ولها منبر في النار تعذب عليه لسمع صراخها أهل النار.

وقال جدي في «التبصرة»: فهي أول من يدخل جهنم. وحكى ما ذكرناه^(٢).

وقال الهيثم: اسم الملك الذي أمر بذبح يحيى عليه السلام: هردوش.

واختلفوا في أي مكان ذُبح يحيى:

فعامة المؤرخين على أنه ذُبح بالقدس بصهيون.

وقال مقاتل: على صخرة بيت المقدس في هوى زانية^(٣).

وقال وهب: كان قائماً يصلي، فدُبح، فأخرب الله بيت المقدس، وسلط على بني إسرائيل الجبابرة، فأخربوا الشام كله. وقال قتادة: ذُبح يحيى بدمشق^(٤). وقيل: في موضع المسجد الصغير عند باب جيرون^(٥). وقال ابن سمعان: وكان ذلك قبل رفع عيسى عليه السلام بسنة ونصف ثم رفع بعد ذلك. قال: وكان الدم يفور، فصعد الملك إلى درج جيرون عند الكنيسة، وجعل يجيء بعشرة عشرة، فيضرب رقابهم حتى قتل عليها سبعين ألفاً، فجاء بعض أنبياء بني إسرائيل، فقال: أيها الدم، أفنيت الناس. فسكن^(٦).

وكان الحسن يقول: من هوان الدنيا على الله أن يحيى قتلته زانية^(٧).

(١) انظر «التبصرة» ٣٤٢/١.

(٢) «التبصرة» ٣٤٢/١.

(٣) انظر «البداية والنهاية» ٥٥/٢.

(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٢٤١/٢.

(٥) انظر «تاريخ دمشق» ٣٠٤/٢.

(٦) انظر «البداية والنهاية» ٥٥/٢.

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٧٤) من طريق الهزلي، عن الحسن، عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف، وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه.

ولما حُوصِرَ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال ذلك ^(١).

واختلفوا في موضع رأس يحيى عليه السلام على أقوال:

أحدها: أنه دفن مع جسده بالقدس.

والثاني: أنه حُمِلَ إلى عند أبيه فدفن بفلسطين.

والثالث: بجامع دمشق.

فروي عن زيد بن واقد وكان الوليد قد وُكِّلَه على عمارة جامع دمشق قال: وجدنا مغارة فعرفنا الوليد، فجاء في الليل وبين يديه الشمع، فنزلها فإذا هي كنيسة ثلاثة أذرع في مثلها، وإذا فيها صندوق، ففتحناه، وإذا بسفط فيه رأس مكتوب عليه: هذا رأس يحيى بن زكريا، والبشرة والشعر بحاله لم يتغير، فردّه الوليد إلى مكانه، وقال: اجعلوا عليه عموداً مسفطاً. قال زيد بن واقد: فهو العمود المسفط ^(٢).

الرابع: من ركن القبة الشرقي. وقال ابن مسعود: كانت بنو إسرائيل قتلة الأنبياء؛ قتلوا في أول يوم من الأيام ثلاث مئة نبي، وقامت سوق بقلهم في آخر النهار ^(٣). وقال ابن عباس: ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان بين موسى وعيسى خلق من الأنبياء لا يحصون، وما صدق نبي ما صدقت؛ إن من الأنبياء من لم يتبعه من أمته إلا الرجل والرجلان» ^(٤).



(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٣/ ٥٥٥.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ٢/ ٢٤١.

(٣) في (خ) و(ك): الزمان، والمثبت من (ب).

(٤) أخرج شطره الثاني - من قوله ﷺ: «وما صدق نبي...» - مسلم (١٩٦) (٣٣٢)، وابن حبان (٦٢٤٣)

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فصل في قصة مريم وعيسى عليهما السلام^(١)

قال مقاتل: ذكره الله في ستة وعشرين موضعاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]. ومريم: اسم أعجمي، ومعناه بالعبرية: خادمة الكنيسة، وقيل: خادمة الله، ويقال: لأنها مرت في الطاعة مرور الحوت في اليم.

ومن فضائلها: أن الله سمّاها في القرآن في قصة واحدة في سبع مواضع، ولم يذكر في القرآن غيرها، وخاطبها كما يخاطب الأنبياء، فقال: ﴿يَمْرُومُ﴾. وقال لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ بواسطة جبريل؛ أي: اختارك ﴿وَوَهَّابِكِ﴾ من ميسر الرجال والفواحش، وقيل: إنها ما كانت تحيض و ﴿نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أراد نساء زمانها. ﴿يَمْرُومُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أطيلي عبادته، ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]^(٢).

فإن قيل: فلم قدم السجود على الركوع، وهو مؤخر عنه في الحكم؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الواو للجمع دون الترتيب؛ قاله أهل اللغة.

والثاني: أن فيه تقدماً وتأخيراً، ومعناه: اركعي واسجدي؛ ذكره ابن الأنباري، ونظيره قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

والثالث: أن السجود كان مقدماً على الركوع في شرعهم؛ ذكره أبو سليمان الدمشقي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾ أي: جبريل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهو عيسى، وقيل: قوله: كن منه ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وقد سمّاه الله روحاً وكلمة.

(١) في (ب): الباب التاسع والعشرون في قصة مريم وعيسى عليهما السلام، وانظر في هذه القصة: «تاريخ الطبري» ١/ ٥٨٥، و«البدء والتاريخ» ٣/ ١١٨، ١٢٠، و«عرائس المجالس» ٣٨٤، و«تاريخ دمشق» ٥٧/ ٦٥، و«تراجم النساء» ٣٤٢، و«التبصرة» ١/ ٣٥٢، و«المنتظم» ٢/ ١٦، و«الكامل في التاريخ» ١/ ٣٠٧، و«المختصر في أخبار البشر» ١/ ٣٤، و«البداية والنهاية» ٢/ ٤١٦.

(٢) انظر في تفسير الآيات هذه والآية: تفسير الطبري ٥/ ٣٩٣، والماوردي ١/ ٣٩٢، والثعلبي ٧/ ٦٧، وزاد المسير ١/ ٣٨٧.

فأما المسيح فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن أصله مشيحاً، بالشين المعجمة، فعربته العرب، فقالت: مسيحاً؛ كما قالوا في موسى: موسى، قاله الزجاج.

والثاني: لأنه ممسوح، فعيل بمعنى مفعول، أي: مسح من الأقدار؛ قاله ابن عباس.
والثالث: لم يكن لقدمه أخمص، والأخمص ما يتجافى عن الأرض من باطن القدم.

والرابع: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، قاله أبو سليمان الدمشقي.
والخامس: لأنه ما مسح بيده على ذي عاهة إلا برىء، ولا على أعمى إلا أبصر، روي عن ابن عباس.

والسادس: أنه كان لا يقيم في مكان بل يمسح الأرض بالسياحة، ذكره ثعلب.

والسابع: أنه الصديق بالعبرانية، قاله مجاهد.

والثامن: أنه القاتل، فيقتل الدجال.

فإن قيل: فلفظة المسيح مشتركة، فالدجال يقال له: المسيح، قلنا: قد فرق نبينا ﷺ بينهما، فروى أحمد بن حنبل بإسناده عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: لا والله ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر، ولكن قال: «بينا أنا نائم - أو قائم - أطوفُ بالبيتِ فإذا رجلٌ آدمٌ، سَبَطُ، يُهَادِي بين رجلين، يَنْطِفُ رأسُه - أو يُهراق - ماءً، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: ابنُ مريمَ. فذهبتُ ألتفتُ، فإذا رجلٌ أحمرٌ جسيمٌ، جَعَدُ الرَّأْسِ، أعورُ عينه اليمنى، كأنَّ عينه عِنْبَةٌ طافية، قلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: الدَّجال، وأقرب الناسِ شَبْهاً به ابن قَطَنٍ»، قال الزهري: هو رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

ولمسلم: عن جابر رفعه، قال ﷺ: «ورأيتُ عيسى فإذا هو يُشبهُ عُروَةَ بن مسعودٍ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٣١٢)، والبخاري (٧١٢٨)، ومسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٧).

وأما عيسى: فقال الجوهري: هو اسم عبراني أو سرياني^(١)، وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: قد اختلفوا في عيسى، فقال قوم: لا اشتقاق له، وقال آخرون: هو الأبيض، ومنه العيس، وهي البيض.

فإن قيل: فلم بدأ بلقبه ولم يبدأ باسمه في قوله: ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؟ فالجواب: ما ذكره ابن الأنباري، فإنه قال: المسيح أشهر، وعيسى يقع على عددٍ كثيرٍ بخلاف المسيح، فقدّمه لشهرته، ثم قال: ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم.

وقال الزجاج: كانوا يسمّون بعيسى ولا يعرفون المسيح، فلما سمعوا بقوا متحيرين.

فإن قيل: فلم نسبة إلى أمه بقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؟ قلنا: لينفي عنه ما ادّعت النصارى من النبوة حيث أضافوه إلى الله تعالى.

و«الوجيه»: الذي له جاهٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي: طفلاً قبل أوان الكلام، والمهد مأخوذٌ من التمهد وهو التوطئة.

وقال ابن عباس: تكلم في المهد ساعةً ليبرئ أمه مما قذفت به، ولم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ مرتبة النطق.

وحكى الثعلبي عن مجاهد، قال: قالت مريم: كنت إذا خلوتُ أنا وعيسى حدثته ويحدثني، فإذا شغلني عنه إنسان سبّح في بطني وأنا أستمع.

﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]. قال الفراء: الكهل عند العرب من جاوز الثلاثين لاجتماع قوته وشبابه، من قولهم: اكتهل النبات. أي: استوى.

وقال ابن فارس: الكهل من وخطه الشيب، والعرب تمدح بالكهولة لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن، واستحكام الرأي، وغزارة العقل والتجربة.

(١) «الصحاح»: (عيسى).

وقال ابن عباس: أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام في الرسالة ثلاثين شهراً، ثم رفعه إليه. وقال وهب: أقام في الرسالة ثلاث سنين، ثم رفع.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]؟ فالجواب^(١): ما حكاه علماء السير ممن سمينا، قالوا: معنى ﴿انْتَبَذَتْ﴾ انفردت وتنحّت، وكانت قد خرجت عن أهلها، ومعنى ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: مما يلي الشرق، لأنه كان في الشتاء، وكان أقصر يوم في السنة، قال الحسن: فلهذا اتخذت النصارى الشرق قبلة.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: ضربت ستراً يمنع من ينظر إليها، وكانت إذا حاضت خرجت من المسجد، فتغتسل ثم تعود إليه.

وقد اختلفوا في سنّها يومئذٍ على أقوال:

أحدها: أنه كان لها خمس عشرة سنة، قاله ابن عباس.

والثاني: اثنا عشرة سنة، قاله وهب.

والثالث: ثلاث عشرة سنة، قاله مجاهد.

والرابع: عشر سنين. والأول أصح.

قال مقاتل: بينما هي تغتسل، إذ عرض لها جبريل في صورة غلامٍ أمرد وضيء الوجه، جعد، قَطَط، حين خَطَّ^(٢) شاربه، وهي تمتشط؛ وإنما جاءها في صورة البشر لتثبت ولا تخاف، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

واختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿رُوحَنَا﴾ على قولين: أحدهما: أن الروح جبريل. والثاني: عيسى.

قال أبي بن كعب: كان روح عيسى من الأرواح التي أخذ الله عليها الميثاق في زمن

(١) انظر تفسير الثعلبي ٢٠٩/٦، وعرائس المجالس ٣٨٤، والنكت والعيون للماوردي ١٤/٣، وزاد المسير ٢١٦/٥.

(٢) في (ب): طرّ، وهما بمعنى.

آدم، فأرسله الله إليها في صورة البشر فدخل في فيها، والأوّل أصحُّ لدلالة الكلام عليه، فإن جبريل هو الذي خاطبها.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظت ومنعت ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه على معنى التشریف لمريم وعيسى، وإنما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً﴾ [الأنبياء: ٩١]، ولم يقل آيتين، لأنَّ معناه: وجعلنا شأنهما وأمرهما آية.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: إن كنت مطيعاً مؤمناً، قاله عليُّ عليه السلام، وقد فسره فقال: إن كنت تتقي الله فإنك تنتهي عني بتعودي منك.

والثاني: أنه كان رجل في بني إسرائيل، زاهد عالم عابد ورع، يقال له تقي، فقالت: وإن كنت في الصلاح مثل تقي فإني أعود بالله منك.

والثالث: أن التقي اسم رجلٍ فاجر، كان يتعرّض للجواري، فيعودون منه.

فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ فلا تخافي، إنما أرسلني ﴿لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] أي: صالحاً، طاهراً من العيوب. وإنما أضاف الهبة إليه لأنه هو السبب، فأضافها إلى نفسه: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف يكون لي ولد ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي: لم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] أي: فاجرة. ﴿قَالَ﴾ جبريل: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] أي: يسير أن أهب لك غلاماً من غير أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة على قدرتنا، وعبرة للناس ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن تبعه وآمن به، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١] أي: محكوماً به، مفروغاً منه، كُتِبَ في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: فنفخ جبريل في جيب درعها، فمرت حاملاً في الوقت، فلما تيقنت بحملها انتبذت به، أي: انفردت ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢] أي: بعيداً من أهلها من وراء الجبل. وقال مجاهد: قيل ليوسف النجار، وكان ابن عمها: إن مريم قد حبلت، والآن تُقتل، فأخذها وهرب بها، فأراد قتلها، فناداه جبريل: لا تفعل، فإنه روح الله وكلمته، فتركها.

واختلفوا في مدة حملها على أقوال:

أحدها: ساعة واحدة، حملت به ثم وضعت في الحال؛ قاله ابن عباس.

والثاني: ثلاث ساعات، حملت به في ساعة، وصور في ساعة، ثم وضعت في

ساعة حين زالت الشمس؛ قاله مقاتل.

والثالث: تسع ساعات، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: ستة أشهر؛ أدنى مدة الحمل؛ قاله مجاهد، وذكره الماوردي^(١).

والخامس: سبعة أشهر؛ قاله أبو جعفر الطبري وعكرمة.

والسادس: ثمانية أشهر؛ قاله الزجاج^(٢)، وكان ذلك آية لعيسى عليه السلام، لأنه

لا يعيش مولود لثمانية أشهر.

والسابع: تسعة أشهر؛ الحمل المعتاد، قاله أبو جعفر الطبري والحسن

وابن جبير^(٣).

والثامن: يوماً واحداً.

والوجه الأول أصح، لوجوه:

أحدها: أن الآية دليل عليه، وهي قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴿[مريم: ٢٢-٢٣]، وكل هذا على الفور.

والثاني: لأنه أبلغ في المعجزة.

والثالث: لأن ابن عباس نص عليه.

وقال ابن إسحاق: مشيت ستة أميال فراراً من قومها، مخافة أن يُعيروها بولادتها من

غير زوج.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: فأخذها، وهو وجع الولادة والطلق، وقرأ ابن مسعود:

(١) النكت والعيون ٣/٣٦٢ ونسبه إلى أبي القاسم الصيمري.

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» ٣/٣٢٤.

(٣) لم نقف على كلام الطبري في الموضوعين.

«فأواها»^(١) ﴿إِلَى جِدْعِ النَّخْلَةِ﴾ ، وكانت يابسة في الصحراء ، لم يكن لها سَعَفٌ ولا حُوصٌ^(٢) ، وكانت بيت لحم على ثلاثة أميال من القدس ، وكان يوماً بارداً ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الأمر أو اليوم ، قالت حياء من الناس ، واختلفوا في معناه : قال الحسن : قبل نزول هذه الحادثة العظيمة ، وهي وجود ولد من غير أب .

وقال مجاهد : قالت شفقة على الخلق ، ومعناه : يا ليتني متُّ قبل أن يخرج مني ولد يُعبدُ من دون الله ، فيدخلُ النارَ بسببه خلقٌ كثير .

وقيل : معناه : يا ليتني متُّ قبل أن يجيء من يشغلني عن الله .

وقيل : إنما مضىها وجع الولادة فقالت ذلك .

وقيل : لما كنتُ في محرابي كان يأتيني رزقي من غير تعبٍ ، والآن فقد صرت محتاجةً إلى السبب ، يا ليتني متُّ قبل هذا .

وقيل : نفاس وعدو وخوف ووجع ، يا ليتني متُّ قبل هذا ، قالهما مقاتل .

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ [مريم : ٢٣] أي : لم أكن شيئاً .

﴿فَنَادَيْتُهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ ومعناه : ناداها عيسى لما خرج من بطنها : لا تحزني . وقيل :

جبريل ، ومعناه : ناداها من تحت النَّشْرِ ، لأنها كانت على نَشْرِ عَالٍ ، وقيل : على جبل .

واختلفوا في أي مكان ولد على قولين :

أحدهما : بيت لحم يوم الأربعاء رابع عشرين كانون الأول .

والثاني : بالناصرية^(٣) قرية من أعمال اللُّجُون عند صَفُورِيَّة .

والأول أصحُّ ، لأن في حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال : «قال لي جبريل ليلة

المعراج : انزلها هنا ، فصل ركعتين بيت لحم ، فإن عيسى وُلدَ هنا»^(٤) .

(١) تفسير الثعلبي ٦/٢١٠ ، والماوردي ٣/١٥ .

(٢) السَعَفُ : أغصان النخلة ، الواحدة : سَعْفَةٌ . والحُوصُ : ورق النخل ، الواحدة حوصة .

(٣) في (ب) : الناصرية ، وفي (خ) : البصرة ، والمثبت من (ك) .

(٤) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/١٥-١٦ ، من حديث شداد بن أوس ، وقال : منكر ، وروي من حديث أبي

هريرة ، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ١/١٩٧ ، وقال : موضوع . وانظر «لسان الميزان» ٢/٥٠-٥١ .

فإن قيل: فالنصارى يسمونه إيشوع^(١) الناصري، لأنه ظهر منها، قلنا: سكنها مدة فأضيف إليها.

وذكر ابن حوقل في «عجائب الدنيا وصفتها» أن عيسى وُلد بمصر، بكورة أهناس، ولم تزل نخلة مريم قائمةً في أهناس إلى آخر أيام بني أمية^(٢). وليس هذا بشيء. والأول أصح.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول عامة العلماء، وقال الحسن: المراد به عيسى عليه السلام، لأنه كان سرّياً، أي: عالياً رفيعاً. والأول أصحُّ لوجهين:

أحدهما: لأنها كانت حزينه، لأنها لم يكن عندها طعام ولا شراب، فنوديت: قد أطلعنا لك الرُّطْب من النَّخْلة، وأجرينا لك النهر.

والثاني: لأن الله تعالى جعل آيتها في النهر، فكان طوع أمرها، إن أمرته جرى، وإن أمرته وقف.

وقال ابن عباس: ضرب جبريل بجناحه الأرض، فجرى النهر من عَيْنٍ عذبةٍ باردة، وأورقت النخلة بعد يبسها وأرطبت.

وقال مقاتل: لما سقط عيسى على الأرض ضرب برجله، فنبع الماء، وأطلعت النخلة، وأحدقت بها الملائكة.

وقيل: كان يوسف النجار معها، فأوقد لها ناراً، وأطعمها سبع جوزات.

وقال وهب: لما وضعت خرت الأصنام سجّداً، فأخبرت الشياطين إبليس، فبثهم في الدنيا وخرج، فجاء إلى المكان الذي فيه عيسى، والملائكة قد حفّت به، فلم يتجاسر أن يدنو منه، فرجع إلى أعوانه، وقال لهم: وُلِدَ مولود عظيم معه نور، لم أقدر على الدنو منه، ومن عظم أمره أن الله كتم عني حاله، ولم تضع أنثى إلا وأنا حاضرها. ثم مشى في الناس، فأشاع الفاحشة.

(١) في (خ) و(ك): إيشوى.

(٢) «صورة الأرض» ص ١٤١.

وقيل لها: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: حركيها، والمعنى فيه من وجوه:
أحدها: أنه أخبرها أن بعض الأشياء لا بد له من سبب.

قال الشاعر: [من الطويل]

عليك بتقوى الله في كلِّ حالةٍ ولا تر أن الحزم في تركك الطلبِ
فإن الذي أحيا لمريمَ جذعها وقال لها هزّيه تساقط الرطبِ
فلو شاء أحنى الجذع من غير هزّه إليها، ولكن كلُّ شيءٍ له سببٌ^(١)
والثاني: أراد أن يكون في يدها معجزة، كما جعل معجزات بعض الأنبياء في
أيديهم.

والثالث: لأنها علقت قلبها بولدها فعوقبت بالهز.

والرابع: أنها قالت: لا تعجبوا من ولد بغير أب، فهذه النخلة اليابسة من غير تلقيح
ولا فحل، قد تساقط منها الرطب، أعجب.

وقيل: هزّي إليك شجرة التوحيد والتمكين تساقط عليك رطب الرضى والأنس
والصدق واليقين.

فإن قيل: فلم أجرى النهر بغير سعيها، ولم يعطها الرطب إلا بالهز؟ قلنا: أراد أن
يربها أنه يفعل بسبب وبغير سبب.

﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] أي: غضاً.

وقال الربيع بن خثيم: ما للنفساء مثل الرطب، أو خير من الرطب، وقرأ هذه الآية.
وكان رسول الله ﷺ إذا ولد مولود حنكه بالتمر^(٢).

﴿فَكُلِّي﴾ من الرطب ﴿وَأَشْرِبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بولادة عيسى ﴿فَأِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ
أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أي: صمتاً، أي: سكوتاً، وإنما أمرت
بالسكوت لأنها لم يكن لها حجة عند الناس، وسنّها يومئذ على الخلاف الذي قدمنا.

(١) الأبيات عدا البيت الأول في «المستطرف» ٢٩٤/١، وثمار القلوب ٣٠٧/١، ورواية البيت الأخير:

فلو شاء أن تجنيه من غير هزّه جنّته ولكن كل شيء له سبب

(٢) ورد في تحنيك رسول الله ﷺ المولود بالتمر أحاديث عدّة، منها: ما أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٧٩٥) عن

أنس رضي الله عنه. وما أخرجه البخاري (٥٤٦٧)، ومسلم (٢١٤٥) عن أبي موسى رضي الله عنه.

وقال ابن عباس : إنما أمرها بالصمت لأنها لم يكن لها ما تدفع به الخصوم.

وقال ابن أبي نجيح : هذا إنما قالته قبل أن يتكلم عيسى في المهد.

قلت : وأيُّ حُجَّةٍ أبلغ من جَرِي النهر، وإخراج الرُّطْبِ من جذع يابس، وإنما قد

ورد أن الملائكة كانت تحدِّثها وتؤانسها، فاشتغلت بذلك عن إقامة العذر لبني آدم.

فإن قيل : فإن كان أمرها بالسكوت فقد قال : ﴿فَقُولِي﴾ وإن كان أمرها بالصوم

المتعارف فقد قال : ﴿فَكُلِّي﴾ !

فالجواب : إنما أمرها بالسكوت في بداية الحال لعدم البرهان فلما تكلم عيسى عليه

السلام زال السكوت، وقال لها : ﴿فَقُولِي﴾ ، وأما الصوم فلأنها كانت صائمة، وكانوا

يتعبدون بالصمت في الصوم، فلما ظهر برهانها قال لها : ﴿فَكُلِّي﴾ .

وقال ابن الكلبي : حملها يوسف النجار وابنها، فأدخلهما غاراً، فأقامت فيه أربعين

يوماً حتى تعالت من نفاسها، فخرجت به، فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا

تَحْمِلُهُ﴾ ، فلما رأوه حزنوا وبكوا؛ وكانوا قوماً صالحين، و﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ

شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم : ٢٧] أي : عظيماً.

﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ وفيه أقوال :

أحدها : أنهم عنوا هارون أخا موسى بن عمران، لأن أمها كانت من نسله، ورواه

أنس مرفوعاً^(١).

والثاني : أن هارون كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل، وليس بهارون أخي موسى،

قاله قتادة، قال : وكان رجلاً صالحاً، شيع جنازته من أولاد الأنبياء أربعون ألفاً، كلهم

اسمه هارون، شبهوها به في صلاحه، وكانت كذلك^(٢).

والثالث : أنه كان في بني إسرائيل رجل اسمه هارون من أفسق الناس، فشبهوها به.

(١) لم نقف عليه من حديث أنس مرفوعاً، وانظر تفسير الثعلبي ٢١٢/٦، وأخرجه الطبري في «تفسيره» عن

السُّدي ٥٢٥/١٥، وأخرجه ابن أبي حاتم - فيما ذكر ابن كثير ١١٩/٣ - عن محمد بن كعب القرظي، قال

ابن كثير : وهذا القول خطأ محض، وانظر البداية والنهاية ٤٤٧/٢..

(٢) انظر «تفسير عبد الرزاق» ٧/٢، و«تفسير الطبري» ٥٢٣/١٥، وعرائس المجالس ٣٨٨.

والرابع: هارون اسم أخ لها من أمها وليس من أبيها. رويت هذه الأقوال عن ابن عباس.

﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا﴾ أي: زانياً ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] أي: فاجرة، فمن أين لك هذا الولد؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أن كلموه، فتعجبوا و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

فإن قيل: فمن أين لها أنه يتكلم وهو طفل؟

فالجواب: ما ذكره مقاتل، قال: كلمها عيسى في الطريق، فقال لها: يا أمّاه، أبشري، فإني عبد الله ورسوله ومسيحه. فكانت على ثقة من كلامه. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ وهو الإنجيل، ومعناه: سيؤتيني.

وقال ابن أبي نجیح: إنما نطق عيسى في أول كلامه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ردّاً عليهم، لأنه علم أنهم يقولون: ابن الله، فاعترف بالعبودية والنبوة، فارتفعت ضرورة النبوة. وقال مجاهد: كان ثديها في فمه، فنزعه وكلمهم جالساً.

وقيل: معنى قوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: علم التوراة وأنا في بطن أمي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] أي: سيجعلني، ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهذا يدل على أنه كان لهم شرائع وعبادات.

وروى السدي عن أشياخه، قالوا: كانت مريم تخدم الكنيسة مع ابن عمها يوسف النجار، فهو أول من أنكر حملها، وقال لها: هل ينبت زرع من غير بذر؟! فقالت: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر. قال: وقد وقع في بعض الأناجيل أن يوسف النجار خطب مريم وتزوجها، فلما زفت إليه وجدها حاملاً، فأراد أن يفارقها، فرأى تلك الليلة في منامه ملكاً، فقال: أمرها من الله، فتركها.

وقال مجاهد: كان الملك الذي كان في ذلك الزمان من زنى قتله، واسمه هرادش^(١)، فأخذها يوسف وهرب بها. وهذه روايات ضعيفة. والأول أصح.

(١) في (خ): هرادش.

وقال علماء السِّير: ولد عيسى في زمان أَرْدشِير بن بابك بعد الإسكندر بثلاث مئة سنة وقد ذكرناه في ترجمة يحيى.

وكانت المملكة في ذلك الوقت لملوك الطوائف، وكانت الرياسة بالشام لقيصر ملك الروم، وكان هرادش نائباً من قيصر بالشام. ولما شاع خبر عيسى قصد الملك وبنو إسرائيل قتله؛ وذلك لأنهم نظروا إلى نجم طلع يكون سبباً لظهور دين عيسى، فبعث الله ملكاً إلى يوسف يأمره بإخراج مريم وابنها إلى مصر، فسار بهما على حمار، وكانت مريم تغزل الكتان، وتلقط السنبل وتتقوت به.

ولما بلغ عيسى خمس سنين حملته إلى المعلم، فقال له: قل: بسم الله، فقال: وما بسم الله؟ فقال المعلم: لا أدري، فقال عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم ملكه^(١). فعجب المعلم وأحبه.

وقال مجاهد: كان عيسى آدم، سبط الشعر، وقيل: أبيض، لم يدهن رأسه قط. وكان يمشي حافياً، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويأكل الحشيش، ويصوم النهار، ويقوم الليل، وكان يجتمع على بابه كل يوم من المرضى والزمنى خمسون، فيداويهم بالدعاء فيبرؤون، فاتبعه خلق كثير، وسأله أن يحيي سام بن نوح، فجاء إلى قبره، وناداه: يا سام، فانشق القبر عنه، وقام ينفخ التراب عن رأسه، وقال له عيسى: منذ كم مت؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة، أو ثلاثة آلاف سنة، وما بردت عني حرارة الموت. ثم قال لهم سام: هذا عيسى روح الله وكلمته وآيته، فاتبعوه ولا تعصوه.

وقال السدي: وصف لهم عيسى سفينة نوح، فقالوا: نحب أن نرى من شهدها. فأتى بهم إلى الثنية من أرض حوران، فسأل الله، فأقام سام ابن نوح، وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت القيامة؟ قال: لا، ولكني دعوت الله باسمه الأعظم فأحياك. فنعت لهم السفينة، ثم عاد إلى قبره.

وقال ابن عباس: كان عيسى يقول: لباسي الصوف، وشعاري الخوف، وبיתי

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١١٩/١-١٢٠، من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأورده ابن كثير في «تفسيره»

١٩/١، وقال: وهذا غريب جداً، وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات.

المسجد، وطيبى الماء، وأكلى من نبات الأرض، وإدامى الجوع، ودابتي رجلى، وسراجى القمر، وصلاتي في الشتاء في مشارق الشمس، وفاكهي وريحاني بقول الأرض، وجلسائي المساكين والزمنى، وأصبح وأمسي وليس لي شيء، وأنا طيب^(١) القلب، فمن أغنى مني، وليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا أدخر شيئاً لغد؟ وقال مجاهد: كان يلقط مع أمه السُّبُلَ، فإذا عُرفا في مكانٍ تحولا إلى غيره، وأين ما أدركه المساء بات، ولم يمسَّ امرأةً ولا طيباً، ولم يلبس قطناً ولا كتّاناً، ولم يجعل بينه وبين الأرض حائلاً، ويمشي وعليه بُرنس، ويده عصا، ويقنع باليسير، ويقول: هذا لمن يموت كثيرٌ.

وقال جدي رحمه الله في «التبصرة»: أوحى الله إليه وهو ابن ثلاثين^(٢) سنة، وأنزل عليه الإنجيل، وكان يجتمع على بابهِ خمسون ألفاً، فيداويهم بالدعاء. وذكر بمعنى ما ذكرنا^(٣). قال: وكان يقول لأصحابه: أهينوا الدنيا تَكْرُمُ الآخرةُ عليكم، إنكم لا تُدْرِكُونَ ما تَأْمَلُونَ إلا بالصبر على ما تَكْرَهُونَ، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون^(٤).

وروى جدي في «التبصرة» عن محمد بن سباع النميري، قال: بينما عيسى بن مريم يسبح في بلاد الشام اشتد به المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب شيئاً يلجأ له، فرُفِعَتْ له خيمةٌ من بعيد فيها امرأةٌ، فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه، وإذا في الكهف أسد، فرفع يديه وقال: إلهي، جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى. فأجابه الجليل: مأواك عندي في مستقر رحمتي، لأزوجهنَّك يوم القيامة مائة حوراء، ولأطعمنَّ في عرسك أربعة آلاف عام مثل عمر الدنيا، ولأمرنَّ منادٍ ينادي: أين الزاهدون في الدنيا؟ احضروا عرس الزاهد عيسى بن مريم^(٥).

(١) في (خ): طيب.

(٢) في «التبصرة»: ثلاث سنين.

(٣) «التبصرة» ١/ ٣٥٥.

(٤) «التبصرة» ١/ ٣٥٥.

(٥) «التبصرة» ١/ ٣٥٦.

ورواه السُّدي، وفيه: لأزوجنك أربعة آلاف حوراء، خلقتهن بيدي.
وفي رواية: أنه جاء إلى خيمة العجوز، فجلس في ظلها، فأقامته، وقالت: قم من ظلي، فبكى، وقال: لست التي أقميتني، وإنما أقامني من ما رضي لي ذلك.
وروى ابن أبي الدنيا عن ابن المُسيَّب، قال: مرَّ عيسى في سياحته بنهرين يجريان من أصل جبل، فوقف ينظر إليهما، فأنطق الله الجبل، وقال له: يا عيسى، ممَّ تعجب؟ فقال: من هذين النهرين فقال: أما الذي عن يميني فدمع عيني اليمنى، وأما الذي عن يساري فدمع عيني اليسرى. قال: فما سبب بكائك؟ قال: خوفي من نارٍ وقودها الناس والحجارة، فاسأل ربك أن يؤمّني إياها، ولا يجعلني من وقودها. فسأل الله عيسى فيه، فقال الله: قد أمنتته منها، فأخبره عيسى. فمدَّ الوادي من الجبل إلى الجبل، وارتفع الماء إلى أعلاه، وكاد عيسى يغرق، فقال له عيسى: ما هذا؟! فقال الجبل: يا روح الله، تلك دموع الخوف والحزن، وهذه دموع الشكر والحمد^(١).

وذكر أبو حامد الغزالي في كتاب الزهد من «الإحياء» أن: عيسى اجتاز بقرية خراب، وأهلها موتى على الطرق. فقال عيسى: يا معاشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سُخْطٍ، ولو ماتوا عن رضَى لتدافنوا. فأوحى الله إليه: إذا جاء الليل فاسألهم. فنادى عيسى في الليل: يا أهل هذه القرية، فأجابه واحد منهم: لبيك يا روح الله، فقال: ما بالكم كذا؟ فقال: بتنا في عافية وأصبحنا في الهاوية. قال: ولم؟ قال: لحبنا الدنيا. قال: وكيف كان حبكم لها؟ قال: حبّ الصبيِّ لأمّه، إن أقبلت فرحنا، وإن أدبرت حزناً. ثم قال: يا نبيَّ الله، ولست منهم، وإنما أتيتهم زائراً، فنزل عليهم السُّخْطُ فعمني. قال: وأين أهلها؟ قال: أُلجموا بلجامٍ من نار، فلا يقدرّون على الكلام. فقال عيسى: لأكل خبز الشعير، والنوم على التراب، ولبسُ المُسُوح، أحسن حالاً من هؤلاء، يا معاشر الحواريين، خذوا الحقّ من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا مستعدين لئلا تجوزَ عليكم الزُّيوف^(٢).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٠٤) عن الفضيل بن عياض.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٠٥.

وقال وهب بن منبه: كان عيسى يمشي على وجه البحر، ولم يكن أحب إليه من أن يقال له: يا مسكين.

فصل في واقعات عيسى وهي كثيرة^(١)

فمنها: ما حكاه وهب قال: لما ذهب يوسف النجار بعيسى وأمه إلى مصر نزلوا على دهقان، فسرق له مالاً، فضاق صدر مريم، فقال لها عيسى وكان قد ترعرع: لا تحزني وقولي للدهقان يجمع مساكين داره، فجمعهم وفيهم رجلان أعمى ومقعّد، فأمر عيسى بحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له: قم به، فقال الأعمى: لا أقدر وإنّي ضعيف. فقال له عيسى: كيف قويت البارحة على حمل المال الذي أخذته أو على حمل المقعد إلى الخزانة حتى أخذ المال، فأنكر فضربوه فأقرّ وردّ المال.

ومنها: ما رواه عكرمة قال: كان عيسى^(٢) يحدث الصبيان في المكتب بما يأكلون في بيوتهم، فيخبرون أهاليهم فيقولون لهم: إياكم وهذا السّاحر، وحبسوا الصبيان في بيت، وجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليس ها هنا، قال: فما في هذا البيت؟ فقالوا: خنازير، فقال عيسى: خنازير إن شاء الله، ففتحوا البيت وإذا بهم خنازير.

ومنها: ما حكاه الكلبي قال: أسلمت مريم عيسى إلى صباغين بعدما خرج من الكتاب فاجتمع عند المعلم ثياب كثيرة وعرض له سفر فقال لعيسى: أنا مسافر وعندنا ثياب مختلفة الألوان وقد علّمت على كل ثوب فيها بخيط على اللون الذي يُصبغ به، فلا أقدم إلا وقد فرغت منها، ثم سافر وأخذ عيسى الثياب فجعلها في جُبّ واحد على لون واحد وقال لها: كوني مختلفة الألوان بإذن الله على ما أريد، وقدم أستاذه فقال: أين الثياب، فقال: في الجُبّ الفلاني، فقال: لقد أفسدتها عليّ، وخاف الأستاذ، فقال له: على رسلك، ثم أدخل يده في الجُبّ وأخرج الثياب كل ثوب على لون الخيط الذي كان عليه من بين أحمر وأصفر وأخضر وغيره، فأمن به الصباغ هو وأصحابه فيقال: إنهم الحوارثيون.

(١) انظر عرائس المجالس ٣٩٥.

(٢) في (ك) يحيى.

ومنها: خروجه من مِصْرَ^(١) إلى الشَّام، قال كعب: لما مات هرادش المَلِك أوحى الله إلى عيسى ارجع إلى الشام، فخرج هو وأمه ويوسف النجَّار فنزلوا النَّاصِرَةَ فَنُسِبُوا إليها، وأخذ في مداواة المرضى والعُمَيَّان، فجاء إبليسُ ومعه شيطانان وتصور هو في صورة آدمي، فجلس بمحضرٍ من النَّاس، وأشار إليه وقال: هذا تكلم في المهد ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فهذا هو الله تعالى، فقال أحد الشيطانين: أخطأت أيها الشيخ لا يتصور أن يتجلَّى الله لعباده، ولكن هو ابن الله، فقال الآخر: أخطأتما إنَّما هو إله آخر. فصار النَّاس فيه ثلاث فرق: نسطورية^(٢)، ويعقوبية^(٢)، وملكية^(٤) قالوا بالتثليث.

ومنها: إنعام الله عليه بقوله: ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه الروح الذي نفخ فيه فأضافه الله إلى نفسه تشريفاً له كقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ وبيت الله، فالقُدُس هو الله، قاله ابن عباس.

والثاني: جبرائيل، وتأيدته به أنه كان يأتيه بالوحي ويحرسه إلى حين صعوده إلى السماء. قاله مجاهد.

والثالث: أن القُدُس هو الطهارة، ومعناه الرُّوح الطاهرة، قاله مقاتل.

ومنها: أنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير وهو الخفَّاش، ثم ينفخ فيه الرُّوح فيكون طائراً بإذن الله. قال وهب: لم يخلق غير الخفَّاش، وخلق الخفَّاشَ أعظم من غيره، لأن له خصائص من اليد والرجل واللِّسان ويحيض ويلد ويطير بغير ريش، ولقد نعتته

(١) في (خ): الناصرية.

(٢) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي تصرف في الأناجيل بحكم رأيه وإضافته ومن قوله: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. انظر «الملل والنحل» ١/ ٢٢٤.

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. انظر «الملل والنحل» ١/ ٢٢٥.

(٤) الملكية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية، ومن قولهم: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، وانظر الخبر في عرائس المجالس

بنو إسرائيل به، وكان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم سقط ميتاً، ليميّز فعل الخالق من المخلوق.

وكان يُبرىء الأكمه وهو الذي ولد أعمى والأبرص، وإنما خُصَّ بهذين، لأنه كان في زمنه الأطباء فأراهم الله عجزهم بهذه المعجزة، لأنه ليس في قدرة الطبيب أن يُبرىء من هاتين العلتين، قالوا: ولم يولد في الإسلام أكمه إلا قتادة بن النعمان، وأما بعده فكثير.

ومنها: إحياء الموتى، وقد ذكرنا أنه أحيا سَام بن نُوح، وأحيا العَازِر، قال ابن إسحاق: وكان صديقاً له فأرسلت إليه أخته: إنَّ صديقك العَازِر يموت، وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام، فجاء فوجده قد مات، فجاء فوقف على قبره ودعا فقام العَازِر حياً وعاش زماناً وولد له.

وذكر أبو حامد الغزالي في كتابه المُسمَّى بـ «سر العالمين» وقال: لَمَّا اشْتَهَرَ عيسى بإحياء الموتى بَعَثَ إليه جَالِينُوسُ الحَكِيم - وكان في زمانه -: يا عيسى إنَّا لا نطلب منك إحياء الموتى وإنما ها هنا رجلٌ مسلولٌ به حُمَّى الرَّبْعِ اشْفِه في هذا الشهر - وكان كانون الأول - وأؤمن بك، فقال عيسى: ائتوني بِبِطِّيخَةِ الحُمَّى فسقاه منها فقَاء^(١) الرجل شيئاً أسودَ مثل الحبرِ المحترق وقام سليماً لا مرض به، ثم قال عيسى: أيهددني جَالِينُوسُ، ثم دخل هيكَل العبادات ودعا، فما انتصف الليل إلا وثار على جَالِينُوسِ عِلَّةٌ إسْطُورِيَا الكِراثِيَّة فمات قبل الصبح^(٢).

قلت^(٣): والعجب من الغزالي أن يذكر مثل هذا، فإن جالينوس كان بعد عيسى بمئتي سنة باتفاق المؤرخين.

وقال المصنف رحمه الله بعد هذا في آخر هذه المجلدة عند ذكر حكماء اليونان، فذكر سقراط الحُبَّ^(٤) وجماعة، وقال: منهم جالينوس وكان في زمان عيسى عليه

(١) في النسخ: (فقام) والصواب ما أثبتناه.

(٢) سر العالمين ١٦، وفي نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي شك ومقال، انظر مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ٢٧١.

(٣) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

(٤) انظر ما سيأتي في الصفحة ٤١١.

السلام، ويقال: إنه قصد الاجتماع بعيسى عليه السلام وسار إليه فمات في طريقه. فليتمل، ولم يبق لإنكاره على الغزالي وجه والله أعلم^(١). ثم إن جالينوس إن صحَّ ذلك ما طلب من عيسى أن يُبرئ المريض بالبِطِّيخَة، فإنه كان أعرف من عيسى بها، وإنما طلب أن يُبرئه بطريق المعجزة لا بطريق الطَّبِّ، فإنَّ جالينوس يشاركه في ذلك، ثم نسب إلى أنه دعا على جالينوس حتى مات وما كان طريق عيسى هذا، لأن الله وَصَفَهُ بأنه يُحيي الموتى لا أنه يُميت الأحياء.

ومنها: إنزال المائدة قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [المائدة: ١١٢]، اختلف العلماء في تسمية أصحاب عيسى بالحَوَارِيِّين على أقوال:

أحدها: أنهم الخواصُّ الأصفياء، والوزراء ومن يصلح للخلافة ويستعان به في النوائب، قاله الحسن البصري، ورواه العوفي عن ابن عباس قال: ومنه قوله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيٌّ الرَّبُّيرُ»^(٢).

والثاني: إنما سموا بذلك لبياض ثيابهم، وأصل الحَوَارِ شدة البياض، يقال: رجلٌ أحورٌ وامرأةٌ حوراءٌ لشدة بياض مقلة العينين، ويقال للدقيق الأبيض: حُوَارَى، وهذا مذهب أهل اللغة، قال أبو عبيدة: فالْحَوَارِيُّونَ هم الذين نُقُوا من العيوب كما يُنْقَى الدَّقِيقُ الحُوَارَى من لباب البر.

والثالث: أنهم القصارون كانوا يحورون الثياب، أي: يقصرونها ويبيضونها، قاله الزجاج^(٣). ووهب قال: ومرَّ عيسى على بحيرة طبرية فرأى عليها قصارين فدعاهم إلى الله فأمنوا.

والرابع: أنهم المجاهدون. قاله مقاتل، واحتجَّ بقول القائل: [من الطويل]

وَنَحْنُ أَنْاسٌ تَمَلَأُ^(٤) الْبَيْضَ هَامُنَا وَنَحْنُ حَوَارِيُّونَ حِينَ نَزَّاحِفُ

(١) من قوله: وقال المصنف رحمه الله بعد هذا... إلى هنا زيادة من (خ) و(ك)، وهو من دلائل الاختصار للكتاب، والله أعلم.

(٢) أخرجه «البخاري» (٧٢٦١)، و«مسلم» (٢٤١٥).

(٣) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١/٤١٧.

(٤) في النسخ (على)، والمثبت من زاد المسير ١/٣٩٤، والبرصان والعرجان ٥١٥، والشعر لمسكين الدارمي.

جَمَاعِمُنَا يَوْمَ اللَّقَاءِ تَرَأْسُنَا إِلَى الْمَوْتِ نَمْشِي لَيْسَ مِنَّا تَجَانُفُ
والخامس: أنهم الصَّيَّادُونَ، قال السُّدي: كانوا مَلَّاحِينَ يَصِيدُونَ السَّمَكَ.
والسادس: أنهم المُلُوكُ، حكى هذه الأقوال ابن الأنباري.
والسابع: سُمُوا بِهِ لَصَفَاءِ قُلُوبِهِمْ، قاله الضَّحَّاكُ.

وقال وهب: كانوا اثني عشر رجلاً تبعوا عيسى وآمنوا به، فأما أسماءهم:
شَمْعُونُ، وَلُوقَا، وَيُوحَنَّا، وَمَارْقُسُ، وتوما، وبَطْرُسُ، ويعقوبس، ويُحْنَسُ،
وَأندارييس، وقلس، وقلما، ومَتَّى، وتوماس، ورأسهم شمعون، والذين نقلوا
الإنجيل منهم خمسة: شَمْعُونُ، وقطرس، وقيل: بَطْرُسُ، ويعقوبس ويُحْنَسُ.

واتفقوا على أن عيسى بَعَثَ شَمْعُونُ إِلَى أَنْطَاكِيَّةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٣] واختلفوا في الاثنين، هل كانا من الاثنين
عشر، أم من غيرهم؟ وسنذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وكانوا يُسَمُّونَ يَحْيَى بن زكريَّا المعمداني؛ لأن عيسى عمده في الأردن عند أريحا،
وقيل: في بحيرة طبريَّا، وكان إذا عطشوا يضرب الأرض بيده فينبع الماء فيشربون،
وإذا جاعوا ضرب بيده الأرض فيظهر لكل واحدٍ منهم رغيفان، قالوا: يا روح الله من
أفضل منا ونحن إذا جعنا أطعمتنا وإذا عطشنا سقيتنا؟ فقال: أفضل منكم من عمل بيده
وأكل من كسبه، قال ابن عباس: فصاروا قَصَّارِينَ يَغْسِلُونَ الثِّيَابَ بِالْكَرَاءِ.

وقال مجاهد: مرَّ بهم عيسى وهم يصيدون السمك من بحيرة طبريَّة، فدعاهم إلى
الله وقال: تعالوا حتى نصيد البشر فاتبعوه، وقيل: إنه كان في الأول يستطعم منهم،
فكانوا يتصدَّقون عليه بسُميكةٍ سميكةٍ حتى أنسوا به.

وعامة القراء على تشديد الواو من «الحواريين» وقرأ عاصم بتخفيفها.

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾
[المائدة: ١١٢] عامة القراء على «يستطيع» وقرأ الكسائي «تستطيع» بتاء منقوطة من فوق
بنقطتين، و«رَبُّكَ» بالنصب^(١)، واختاره أبو عبيد، وبه قرأت عائشة رضي الله عنها وابن عباس

(١) كتاب «السبعة» ص ٢٤٩، و«التيسير» ص ١٠١.

وعليّ في آخرين^(١)، ومعناه: هل تقدر أن تسأل ربّك.

فإن قيل: فهذه القراءة أجود من الأولى، لأن في الأولى نوع شكّ واجتراء على الله تعالى، والجواب: أنه لا يجوز لأحد أن يظنّ في الحواريين ذلك، وإنما معناه هل يفعل ذلك بمساءلتك إيّاها. ذكره ابن الأنباري.

قلت: وقول الله إخباراً عن عيسى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنَّمُ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] يدل على عكس ما ذكره ابن الأنباري، لأن معناه: أتنبون إلهكم إلى العجز، وقد قيل: إنما قالوا ذلك قبل أن يصحبوه ويشاهدوا معجزاته، فإن إيمانهم لم يكمل بعد، فأما في الأخير فلا.

وقال ابن عباس: معنى الآية: واتقوا الله ولا تسألوه ما لم يسأله أحد من قبلكم. وأما المائدة: فقد قال الثعلبي: قال أهل الكوفة: إنما سميت مائدة لأنها تميد بالآكلين عليها.

قلت: وليس هذا القول بشيء، لأن المائدة لا تميد بنفسها وإنما يميد من عليها، وقال الجوهري: المائدة الخوان إذا كان عليه طعام، أما إذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وهو خوان^(٢). وعلى هذا ألفاظ كثيرة.

قالوا في الجواب: ﴿زَيْدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ١١٣] وهذا اعتذار منهم حين نهوا عنها ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣] بالإيمان ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله. وقال مجاهد: وتطمئن قلوبنا بأن الله قد أجاب دعائك ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالقدرة ولك بالرسالة، وقال الماوردي: إنما قصدوا التبرك بها^(٣).

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ الآية [المائدة: ١١٤]. والعيد من العود لأنهما يعودان في كل سنة ﴿وَعَايَةً مِنَّا﴾ أي: علامة يُستدل بها على قدرتك ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ الشكر على نعمتك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾.

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٤٠٧.

(٢) «الصحاح»: (ميد).

(٣) «تفسير الماوردي» ٨٣/٢.

﴿ قَالَ اللَّهُ ﴾ مجيباً لهم: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥] وهو المسخ قردة وخنزير. قال الحسن: لما سمعوا هذا الشرط قال بعضهم: لا حاجة لنا فيها.

واختلفوا هل نزلت أم لا؟ على قولين:

أحدهما ما نزلت وإنما هو ضَرْبٌ مَثَلٍ ضربه الله لهم، لأن الله نهاهم عن سؤال الآيات لأنبيائه. قاله مجاهد.

والقول الثاني: أنها نزلت وعليه عامة العلماء، كعليّ وابن عباس وابن مسعود وأنس وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن المسيّب وابن جبير والحسن وعطاء وقتادة والتابعين^(١) وغيرهم.

وقال وهب ومن سَمَّينا من التابعين: وقف عيسى خاشعاً خاضعاً بين يدي الله تعالى يبكي ويتضرع ويدعو، وإذا بمائدة قد نزلت بين غمامتين، واحدة تحتها وأخرى فوقها فاستقرت بين يديه وعليها سفرة خضراء، والقوم ينظرون إليها وهي مغطاة بمنديل.

واختلفوا في الذي كان عليها، على أقوال:

أحدها: سمكة مشوية ليس فيها شوك وحولها البقول ما خلا الكراث وعند ذنبها سُكْرَجَةٌ^(٢) فيها خلٌّ، وعند رأسها أخرى فيها ملح وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمرّ، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمّانات، قاله ابن عباس.

والثاني: خبز ولحم، رواه عمار بن ياسر مرفوعاً^(٣).

والثالث: خبز وسمك، رواه مجاهد عن ابن عباس.

(١) في (خ) و(ك): والمعاملين، والمثبت أقرب للصواب، وانظر تفسير الثعلبي ١٢٨/٤، وعرائس المجالس ٤٠٠-٤٠١، وزاد المسير ٤٥٩/٢.

(٢) السُّكْرَجَةُ: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٦١) بلفظ: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخافوا وادخروا ورفعوا الغد فمسخوا قردة وخنزير» ثم قال: هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبه عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر موقوفاً،... ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً.

والرابع : قَصْعَةٌ من ثريد، رواه الضحَّاك عن ابن عباس.

والخامس : كلُّ شيءٍ إلا اللحم، قاله ابن جُبَيْر.

والسادس : سمكة فيها طعم جميع الأطعمة، قاله عطية العوفي.

والسابع : خبز وأرز وبَقْل، قاله ابن الكلبي.

والثامن : سبعة أرغفة من شعير، وسبع سمكات.

والتاسع : سمك ولحم، قاله عطاء بن السائب.

والعاشر : كان عليها ثمار من ثمار الجنة، وسمن وعسل، قاله عمَّار ومقاتل.

فقال عيسى : أَيُّكُمْ أوثق في نفسه فليكشف هذا المنديل، فقالوا : يا روح الله، أنت أولى، فكشفها، فقال شَمْعُونُ رأس الحَوَارِيِّينَ : يا روح الله، أَمِنْ طعام الدُّنيا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى : لا مِنْ هذا ولا من هذا ولكن شيء قال له الله : كُنْ، فكان، فقال الحَوَارِيُّونَ : نريد أن تُرِينَا آيَةً في هذه الآية، فقال : سبحان الله، أما اكتفيتم بها؟! ثم أشار إلى السَّمكة وقال لها : عودي بإذن الله كما كُنْتَ طَرِيَّةً حَيَّةً فاضطربت على المائدة، فقال : عودي مشوية فعادت، فقال : كلوا، فقالوا : أنت أوَّل مَنْ يَأْكُلُ، فقال : معاذ الله إنَّما يَأْكُلُ منها مَنْ سألها، فلما رأوا امتناعه خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فدعا عيسى الفقراء والمساكين واليتامى والزَّمَنَى، فقال : كُلُوا من رزق ربِّكم ودعوة نبيكم لتكون مهناً لكم وعقوبة لغيركم، قال وهب : فأكل منها ألف وسبع مئة إنسانٍ صدروا عنها شِبَاعاً وهي على حالها، فصَحَّ كلُّ مريضٍ واستغنى كلُّ فقيرٍ أكل منها، ثم كانت تنزل عليهم بعد ذلك فيزدحمون عليها وكانت تنزل يوماً وتغيب يوماً فنزلت أربعين يوماً.

وقال وهب : قال لهم عيسى : كلوا ولا تَدَّخِرُوا، فادَّخَرُوا، فمُسِخُوا خَنَازِيرَ وَقِرْدَةَ.

وقال ابن عباس : إنَّما مُسِخُوا لأنَّ الذين أكلوا منها لمَّا رجعوا إلى قومهم قالوا

لهم : سحر عيسى أعينكم، وبلغ عيسى فدعا عليهم فمُسِخُوا وماتوا بعد ثلاث. قالوا :

ولم يعيش مَسِخٌ أكثر من ثلاث.

وقيل : إنَّما خبئوا منها لأنَّهم ظنُّوا أنَّها لا تنزل بعد ذلك.

وقال قتادة: كانت تنزل متى ما أرادوا كالمُنِّ والسلوى.

وقال سلمان: لَمَّا خانوا مُسِيخَ منهم في يومٍ وليلةٍ ثلاثٍ مئةٍ وثلاثون رجلاً باتوا على فُرُشِهِمْ مع نساءهم، فأصبحوا خنازير يسعون في الطُّرقات ويأكلون العَدِرَات، فمرَّ بهم عيسى فبكوا بين يديه فرقَّ لهم، وسأل الله فيهم، فقال الله تعالى: إِنِّي آليت على نفسي أَنْ من كفر بعد إنزالها أَنْ أُعَذِّبَهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً من العالمين.

وقال عمَّار بن ياسر: لما خصَّ بها الفقراء والمساكين تكلم الأغنياء بالقيح وارتابوا^(١) فمُسخُوا.

ومنها: حديث اللُّص، قال أبو نعيم بإسناده عن وهيب بن الورد قال: بلغنا أَنَّ عيسى عليه السلام مرَّ بلصٍّ في قلعةٍ ومعه رجل من الحَوَارِيِّين، فلَمَّا رآهما اللُّص ألقى الله في قلبه التوبة، فقال في نفسه: هذا عيسى روح الله وكلمته، وهذا حواريه، ومَنْ أنت يا شقي يا لصَّ بني إسرائيل، قطعت الطريق وقتلت النفس، وأخذت المال، ثم هبط من قلعة نادماً تائباً على ما كان منه، فلَمَّا لحقهما قال لنفسه: تريد أن تمشي معهما؟ لست أهلاً لذلك، امشِ خلفهما كما يمشي الخاطيء المذنب، فالتفت إليه الحواريُّ فعرفه، فقال في نفسه: انظروا إلى هذا الخبيث الشقيِّ ومشيه وراءنا، فاطَّلع الله على ما في قلوبهما من توبة اللُّص وندامته وازدراء الحواريِّ به وتفضيله نفسه عليه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى أن مرَّ الحواريِّ ولصَّ بني إسرائيل أن يستأنفا العمل، أمَّا اللُّص فقد غفرت له ما مضى بندامته وتوبته، وأمَّا الحواريُّ فقد أحبطت عمله لعجبه بنفسه وازدراؤه لهذا التائب^(٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ط﴾

[المائدة: ١١٦]. واختلفوا في وقت هذا القول على قولين:

أحدهما: أنه قال له ذلك عند رفعه إليه، قاله السُّدي وقُطرب، قالوا: لأنَّ إذ

للماضي.

(١) بعدها في (خ) زيادة كلمة وهي (الورد).

(٢) «حلية الأولياء» ١٤٧/٨.

والثاني: أنه يقول له يوم القيامة وهو قول الباقيين، وأنَّ معناه: وإذ يقول الله.

فإن قيل: فما الفائدة في هذا السؤال والله عالم بأنه ما قال؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنَّ جماعة من النصارى ادَّعوا أن عيسى أمرهم بعبادته، فأراد تكذيبهم، فلفظ الآية استفهام، ومعناه التوبيخ لمن ادَّعى عليه أنه قال ذلك^(١)، قال أبو عبيدة: ومثله قول القائل لآخر: فعلت كذا وكذا وقد علم أنه لم يفعله. واختاره أبو عبيدة^(٢).

والثاني: أنه أراد اعتراف عيسى بالعبودية؛ ليظهر ذلَّه وخضوعه، والإله لا يكون خاضعاً، قاله ابن عباس.

والثالث: أنه أراد إظهار فصاحة عيسى وأنه مؤيَّد بروح القدس، قاله أهل المعاني، وذلك لأنه أجاب بأحسن الأجوبة وأبلغ، فقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ جواب، لأنَّ التسبيح هو التقديس لله والتنزيه له من كل سوى، ومعناه: تقدَّست وتنزَّهت عن أن يقول مثلي هذا، فأنت المعبود وأنا العبد.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦] جواب ثان، كأنه يقول: قد علمتُ أنني لا ينبغي لي ذلك فما قلتُ، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، جواب ثالث، لأنه قد علم أنه ما قال.

وقوله: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ جواب رابع، لأنه مُطَّلِع على سره وضميره وقد علم أنه ما قال، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ جواب خامس، لأنه إذا كان عالماً للغيب لم يخفَ عليه شيء، وقد علم أنه ما قال.

وقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧] جواب سادس، لأنه ما أمرهم أن يقولوا ذلك.

وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] جواب سابع، لأنه إذا أمرهم بعبادة الله فقد اعترف بالعبودية، والعبد لا يكون إلهاً.

(١) بعدها في (خ): «عند رفعه إليه».

(٢) في (خ) و(ك): أبو عبيد، وليس في (ب)، والمثبت من زاد المسير ٤٦٣/٢، وانظر «مجاز القرآن» لأبي عبيدة

وقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ جواب ثامن، لأنه لما كان بينهم ما ادعوا عليه ذلك وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رفعتني، جواب تاسع، ومعناه: ما زلت معترفاً لك بالإلهية إلى حين وفاتي، فكيف أقول لهم هذا.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] جواب عاشر، ومعناه: إنك تشهد الأشياء وتعلمها، وأنت مُطَّلِعٌ على البواطن والظواهر، والشهيد لا يستتر عنه شيء، وقد علمت أنني ما قلتُ فما قلتُ.

وقال أبو روق: لما قال الله لعيسى ذلك: أرعدت مفاصله، وانفجرت من كل شعرة منه عينٌ من دم^(١).

وقال مجاهد: يبقى أربعين عاماً على وجهه بمنزلة الميت.

فإن قيل: فالنصارى لا تتخذ مريم إلهاً، فكيف قال: ﴿إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فالجواب: أنه لما قالوا: لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً، لزمهم ذلك من حيث البعضية، فصاروا بمثابة من قاله.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ على أقوال: بالرفع إلى السماء. والثاني: غيبتني. والثالث: أمتني عند انتهاء أجلي، فيكون بمعنى قبضتني.

وقال الحسن: الوفاة في كتاب الله على ثلاثة أوجه:

وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] يعني: عند انقضاء آجالها.

وفاة النوم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ووفاة الرفع، كقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فإن قيل: فظاهر الآية لا يدل على الرفع، لأنه قال: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قلنا: فيه تقديم وتأخير، ومعناه: رافعك ومتوفيك بعد ذلك لما نذكر.

ثم أدركته رقة عليهم فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: تميتهم

(١) انظر «تفسير البغوي» ص ٤٠٩.

على الكفر، وإن تغفر لهم بتوبتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز في سلطانك الحكيم في قضائك، فلا ينبغي لأحد أن يعترض عليه. والرقيب: الحفيظ، والشهيد الشاهد.

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] هل هو خاص لعيسى ابن مريم أم عام؟ على قولين: أحدهما: أنه خاص له، أي: نفع عيسى صدقه.

والثاني: أنه على العموم في حق كل صادق. وقيل: معناه ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا وصدقهم في الآخرة.

وقال قتادة: خطيبان يوم القيامة عيسى ابن مريم، والشيطان، فأما عيسى فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه، والشيطان صدق في الآخرة حين أخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾^(١) [إبراهيم: ٢٢] الآية، وكان كاذباً في الدنيا فما نفعه صدقه في الآخرة.

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ يدل على أن السؤال إنما يكون في القيامة، لأن اليوم المشار إليه ليس فيه عمل، وإنما فيه الجزاء والثواب.

ومنها: أنه رأى رجلاً يسرق، قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ فَقَالَ لَهُ: أَسْرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي، أَوْ نَفْسِي». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

فصل في رفع عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا مَنَعَكَ إِذْ قَالَ لَهُ قَاعًا رَافِعًا أَلَمْ تُخِشْ اللَّهََ الَّذِي خَلَقَكَ مِنْ نَفْسٍ نَفْسًا وَرَفَعَكَ فِي الْأَقْدَامِ﴾ [آل عمران: ٥٥] الآية.

قال علماء السير: سبب رفع عيسى أن اليهود حسدوه على ميل الناس إليه، وظهور

(١) تمام الآية هو: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ لِئِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١٥٤)، والبخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨).

دينه ومعجزاته فتأمروا على قتله.

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: علم وعرف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ﴾ [الأنبياء: ١٢]. فأما قوله: ﴿هَلْ نُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] أي: ترى، وقال مقاتل: رأى أمارات القتل، ولما تيقن عيسى منهم القتل استنفر الحواريين فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: من أعواني.

وقال علماء السير: لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل كذبوه، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض، فنزلا على رجل في قرية فأكرمهما، وكان بالقرية جبّاراً، فجاء ذلك الرجل إلى امرأته حزينا مهتماً، فقال لها: لا تسأليني، فقالت مريم: أخبرني لعل الله أن يفرّج عنك على يدي فقال: إن هذا الجبّار قد جعل على كل واحد منا في السنة يوماً يطعمه وجنوده فيه ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم يأتينا وليس عندنا شيء، فقالت مريم لعيسى: ادع الله لهم، فقال: أخاف أن يقع شرٌّ، فقالت: قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال: قولوا له يملأ قدوره، وخوابيه ماءً، ففعل، فسأل عيسى ربه فملأ القدور لحماً والخوابي خمرًا لم ير الناس مثله، وجاء الملك فأكل وشرب وقال: من أين لكم هذا الخمر، فقال الرجل: من أرض كذا، قال: فإن الخمر يُحمل إلينا منها وليست كذا واختلف كلامه، فقال: اصدقني وإلا قتلتك، فقال: عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه إيّاه، وإنه دعا الله فجعل الماء خمرًا. وكان للملك ابناً يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيّام، وكان أعزّ الخلق عليه، فقال: قل له يسأل الله في ابني ليعيش فكلم الرجل عيسى، فقال: إن عاش وقع شرٌّ، فقال الملك: لا أبالي بعد أن أراه، فقال عيسى: إن أحييته تدعوني وأمي نذهب أين شئنا، قال: نعم، فسأل الله فأحياه، فلبس أهل المملكة السلاح وقالوا: أكلنا أبوه حتى إذا دنا موته وأراحنا الله منه، يريد أن يستخلف علينا مثله فيأكلنا كما أكلنا أبوه، واقتلوا^(١).

وزهب عيسى وأمه فمروا بالحواريين وهم يصيدون السمك، فقال: ما تصنعون،

(١) عرائس المجالس ٣٩١-٣٩٢.

قالوا: نصيد، فقال: ألا تمشون معي حتى نصيد بني آدم، فقالوا: مَنْ أنت، قال: عيسى ابن مريم، فأمنوا به وانطلقوا معه، فلمَّا رأت اليهود ما يبدو منه من المعجزات والآيات نسبوه إلى السحر والناَرَنُجِيَّاتِ^(١) فهوهُ عن ذلك، ونهوا الناس عنه فلم ينتهوا، فعزموا على قتله، فاستنفر عليهم الحواريين فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قالوا: نحن أنصار الله، أي: أعوان دينه ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ﴾ علينا يا عيسى ﴿بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقصد اليهود قتله وطلبوه أشد الطلب وأخبروا المَلِكُ وكان يهودياً، فركب بنفسه ومعه اليهود، فدخل عيسى خَوْخَةَ، ووقف الملك على بابها، فقال رجل: أنا أدخل خلفه فدخل فألقى الله عليه شبه عيسى ورفع الله إليه عيسى مِنَ الكُوَّةِ التي في الخَوْخَةَ، وخرج الرَّجُلُ إلى أصحابه فقال: ليس في الخَوْخَةَ أَحَدٌ، فقالوا: بلى، أنت هو، فقتلوه وصلبوه، قال ابن عباس فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فمكر الله إلقاءه على الرجل شبه عيسى، ومكرهم طلبهم لعيسى.

فإن قيل: فالمكر لطف الحيلة والتدبير، وهو من الله ممتنع، فالجواب: إنه من الله المُجَازَاةُ واستدراج العبد ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ أي: المُجَازِينَ، وقال ثعلب: المَكْرُ مِنَ الخَلْقِ الخِدَاعُ والفساد والاحتيال، وَمِنَ اللَّهِ المُجَازَاةُ على الأعمال.

وقال وهب: نصبوا لعيسى خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الدنيا وأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، وهناك رجل يقال له: يهوذا، وهو الذي دلَّهم عليه فصلبوه. قلت: وقد عاب أبو العلاء المَعْرِيَّ على النصارى تخليهم عن المسيح حتى صُلب، وبيَّن فساد اعتقادهم.

قرأتُ على شيخنا تاج الدين الكندي قال: حدثنا أبو منصور بن الجواليقي، قال: حدثنا أبو زكريا التبريزي قال: قرأتُ على أبي العلاء المعري^(٢) من شعره من قصيدة:

(١) النَّيْرُجُ: أَخَذُ كالسحر، وليس به، أي: ليس بحقيقته وإنما هو تشبيهه وتلبيس وهي النَّيْرَنُجِيَّاتُ، انظر تاج العروس.

(٢) في (خ) و(ك): أبي المعرّا (كذا؟)، والقصيدة في «لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري ٣/١٦٧٣.

عَجَباً لِلْمَسِيحِ بَيْنَ أَنْاسٍ
 أَسْلَمَتْهُ إِلَى الْيَهُودِ النَّصَارَى^(١)
 يُشْفِقُ الْحَازِمُ اللَّيْبُ عَلَى الطِّفْلِ
 وَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ فِي عَيْنِ
 كَيْفِ خَلَّى وَلَيْدَهُ لِلْأَعَادِي
 وَإِلَى غَيْرِ وَإِلِدِ نَسَبُوهُ
 وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ صَلَبُوهُ
 لِإِذَا مَا لِدَاتُهُ ضَرَبُوهُ
 سَيِّ صَحِيحاً فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ
 أَمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ غَلَبُوهُ

وقال مقاتل بن حيان: جمع عيسى الحَوَارِيِّينَ في تلك الليلة وأوصاهم وقال:
 لَيْكُفِّرَنَّ بِي وَاحِدٌ مِنْكُمْ وَيَبْعِنِي بِدِرَاهِمٍ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا وَدَخَلَ خَوْخَةَ، وَجَاءَتِ الْيَهُودُ تَطْلُبُهُ
 فَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُ وَأَعْطَوْهُ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شِبْهَ عَيْسَى
 فَصَلَبُوهُ.

وقال مجاهد: دخل عيسى الخَوْخَةَ ومعه سبعة عشرة مِنَ الحَوَارِيِّينَ، فَأَحَاطَ الْيَهُودُ
 بِهِمْ، فَقَالَ عَيْسَى: مَنْ يَبِيعُ مِنْكُمْ نَفْسَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يُلْقَى عَلَيْهِ شِبْهِي
 فَيُضَلَّبُ فَيَكُونُ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ شَابٌ مِنْهُمْ: أَنَا فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شِبْهَهُ فَقُتِلَ وَرُفِعَ
 عَيْسَى.

وقد اختلفوا في اسم المَصْلُوبِ الذي دَلَّ عَلَيْهِ شِبْهُهُ، على أقوال:

أحدها: يهوذا من اليهود.

والثاني: من الحَوَارِيِّينَ، واسمه نودس.

والثالث: سورجس، وقيل: جرجس، وكان قد آمن بعيسى، ويقال له: ابن
 العجوز، وقيل: إنه ندم على ما فعل فخنق نفسه، والأصح أنه صُلب.

وقال ابن عباس: رفع إلى السماء لثلاث ساعات مضين من الليل، وقيل: من
 النهار، وكُسي الرِّيشَ ونزعت منه لذة المطعم والمشرب، فصار إنسياً ملكياً سماوياً
 أرضياً.

وقال مقاتل: لا خلاف بين النَّصَارَى واليهود أن عيسى صُلب، وأنه لما رُفِعَ لِيُضَلَّبَ

(١) في (خ) و(ك): «أسلمته اليهود إلى النصارى»، والمثبت من (ب).

طَعِنَ بَرْمَحَ فَصَاحَ ، وَقَالَ : يَا أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِنَّ قَدْرَتُ أَنْ تَصْرَفَ عَنِّي هَذَا الْكَأْسَ فَاَفْعَلْ ، وَمَعْنَى أَبِي ، أَي : رَبِّي ، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ مِنْهُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ ، فَإِنَّهُ قَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ : إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَقُولُوا : يَا أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ افْعَلْ كَذَا ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ : أَنَّ الْمَضْلُوبَ غَيْرَ عَيْسَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابن أبي نَجِيح : جَاءَتْ مَرْيَمُ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى الْخَشْبَةِ وَمَعَهَا امْرَأَةٌ كَانَتْ عَيْسَى دَعَا لَوْلَدَهَا فَشَفِيَّ مِنَ الْمَرَضِ ، فَوَقَفَتْ تَبْكِيَانِ ، فَجَاءَهُمَا عَيْسَى فَقَالَ : مَا لَكُمَا تَبْكِيَانِ؟ فَقَالَتَا : عَلَيْكَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ رَفَعَنِي إِلَيْهِ وَلَمْ يُصْبِنِي إِلَّا خَيْرًا^(١) ، وَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ شَبَّهَ لَهُمْ .

وقال كعب : وَجَدْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ : يَا عَيْسَى انزِلْ إِلَى مَرْيَمَ الْمَجْدَلَانِيَّةِ - نَسَبَهَا إِلَى قَرْيَةٍ بِالْجَبَلِ يُقَالُ لَهَا : الْمَجْدَلُ - فَإِنَّهُ لَمْ يَبْكْ عَلَيْكَ أَحَدٌ بِكَاءِهَا ، وَلَمْ يَحْزَنْ عَلَيْكَ حَزْنُهَا ، ثُمَّ اجْمَعِ الْحَوَارِيِّينَ وَبَثُّهُمْ فِي الْأَرْضِ دَعَاةَ إِلَيَّ ، فَنَزَلَ عَلَى جَبَلٍ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَاشْتَعَلَ نُورًا ، وَجَمَعَ الْحَوَارِيِّينَ وَبَثُّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَتِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي تَدْخُنُ فِيهَا النَّصَارَى^(٢) . فَلَمَّا أَصْبَحَ الْحَوَارِيُّونَ تَحَدَّثُوا كُلُّ وَاحِدٍ بِلُغَةٍ مِنْ أُرْسُلَ إِلَيْهِمْ .

واختلفوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥] على أقوال :

أحدها : إني قابضك ورافعك إلي من غير موت . قاله الحسن البصري ، قال : ودليله قوله : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ [المائدة: ١١٧] أي : رَفَعْتَنِي وَأَنَا حَيٌّ وَافِيًا لَمْ يَنَالُوا مِنِّي شَيْئًا .

والثاني : أن معناه : إني مُنِمُّكَ مِنَ النَّوْمِ ، مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالْأَيْلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] لِأَنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ . قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ .

والثالث : إني حميتك من الموت . قال ابن عباس : توفاه ثلاث ساعات من نهار ، ثم أحياه ورفعاه إليه .

(١) في النسخ : يصيبني إلا خيراً؟ والمثبت من عرائس المجالس ٤٠٤ .

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤٠٥ ، وفيه أن اسم القرية مجدلان . وانظر «تاريخ الطبري» ١/ ٦٠٢-٦٠٣ .

والرابع: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، ومعناه: إنني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء، قاله مقاتل.

والخامس: إنني متوفيك عن حظوظ نفسك وشهواتك، قاله أبو بكر الوراق، وهو قول حسن؛ لأن عيسى كان في الدنيا بهذه المثابة، وفي الآخرة رفعت عنه لذة المَطْعَم والمشرب فصار كالملائكة.

وقال ابن أبي نجیح: كان عيسى على طور زيتا^(١) جبل بيت المقدس وعليه مدرعة شعر، فهبت ريح فهرول، فرفعه الله إليه.

ذِكْرُ نَزُولِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

قد اختلفت الروايات في ذلك.

حدثنا جدي رحمه الله، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الواحد الدينوري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وفي لفظ: «أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، وليس بيني وبينه نبي، الأنبياء إخوة أبناء علات، أو أولاد علات»^(٣).

وأخرج أحمد في «المسند» بمعناه قال: «وإنه نازل على أمي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر وإن لم يصبه بلل» - وفي رواية: «كأنه خرج من ديماس»^(٤) - بين ممصرتين^(٥) يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، ويسلكن الروحاء حاجاً أو معتمراً، أو ليشينهما جميعاً، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل

(١) في (ب): طور سيناء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨).

(٥) في (ب): ممصرتين.

كُلُّهَا ، وَيُهْلِكُ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ الدَّجَالِ الكَذَّابِ ، ويقع في الأَرْضِ منه الأَمَنَةُ ، حتى تَرْتَعَ الأَسُودُ مَعَ الإِبْلِ ، والنُّمُورُ مَعَ البَقَرِ ، والذُّنَّابُ مَعَ الغَنَمِ ، وتَلْعَبُ الغِلْمَانُ بِالحَيَّاتِ ، لا يَضُرُّ بعضهم بعضاً ، وَيَلْبَثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً - وفي رواية : «أربعاً وعشرين حَجَّةً» - ثُمَّ يَتَزَوَّجُ وَيُولِدُ لَهُ ، ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ»^(١) .

وفي رواية : «ويَدْفِنُونَهُ فِي مَسْجِدِي أَوْ حُجْرَتِي» .

الكلام على الحديث قوله : «رَجُلٌ مَرْبُوعُ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ» كذا وقع في هذا الحديث ، وقد روينا عن ابن عمر في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال : «آدم»^(٢) يعني أسمر ، وقوله : بين مُمَصَّرَيْنِ ، أي : ثوبين فيهما صُفْرَةٌ خفيفة ، و«الرَّوْحَاءُ» : منزل بين مَكَّةَ والمدِينَةَ ، و«الدِّيمَاسُ» : الحَمَّامُ .

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيُفِيضُ المَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، وَتَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] . أخرجاه في «الصحيحين»^(٣) ، وهو حديث طويل .

وفيه : «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ»^(٤) قال ابن أبي ذئب : قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ : ما معنى «فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ» قال : أمَّكُمْ بكتاب الله وسنة نبيكم . وفيه : «وَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ»^(٥) وهذا ظاهر .

«وَلتَشْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها ، ولتَذَهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحاسُدُ»^(٦) والقُلُوصُ من النُّوقِ : الشابة بمنزلة الجارية من النساء ، وكذا القُلُوصُ من الإبل بمنزلة الشاب .

(١) مسند أحمد (٧٢٦٩) و(٧٢٧٣) و(٩٢٧٠) و(٩٦٣٢) ، وانظر عرائس المجالس ٨٢/٣ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٠) ، ومسلم (١٦٩) .

(٣) «مسند أحمد» (١٠٩٤٤) ، والبخاري (٣٤٤٨) ، ومسلم (١٥٥) .

(٤) أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٦) .

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤٩) ، ومسلم (١٥٥) (٢٤٤) .

(٦) أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٣) .

ولمسلم عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرَهُمْ: صَلِّ لَنَا. فيقول: لا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١).

وقال جدي رحمه الله^(٢): إذا نزل عيسى ابن مريم اجتمع بصاحب الزمان، فيحضر وقت الصلاة فيقول صاحب الزمان لعيسى: تقدّم، فيقول له عيسى: أنت أولى، فيتقدم صاحب الزمان، فلو تقدم عليه عيسى لكان ناسخاً لشرعنا، وقد قال نبينا ﷺ: «لَوْ كَانَ عِيسَى وَمُوسَى حَيِّينَ لَمَّا وَسِعَهُمَا إِلَّا اتِّبَاعِي»^(٣). فامتناع عيسى لئلا يتدنس وجهه: «لا نَبِيٌّ بَعْدِي»^(٤) بغبار الشبهة، وهذا معنى حديث جابر، وقوله: «تكرمة لهذه الأمة»، والدليل على أن التَّبَعِيَّةَ قائمة، فإنه ينكح على ما في الحديث ويولد له، لأنه ضيف والضيف يتبع أوامر المضيف «تناكحوا تناسلوا»^(٥) الحديث.

وقد أخرج مسلم حديثاً طويلاً في أمارات الساعة والدجال عن النّوّاسِ بن سَمْعَانَ عن رسول الله ﷺ: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفِّهِ عَلَى أُنْجِيحَةِ مَلَائِكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابٍ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى بَنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيَحْدِثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ». الحديث^(٦).

(١) أخرجه «مسلم» (١٥٦)

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة. ﷺ

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٣٩١) من حديث سعيد بن أبي هلال مرسلًا

ولفظه: «تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة» وأخرج ابن ماجه (١٨٦٣) من حديث أبي هريرة

مرفوعاً «انكحوا فإني مكاثركم»، وهذا الحديث مما اشتهر على الألسنة، انظر كشف الخفاء ١/ ٣٨٠.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

«المهرودتين» المصبوغتين بالصُّفْرَةَ، وفيها لغتان: بالدَّالِ المُهْمَلَةِ والمعجمة. وإنما يَمْسَحُ وجوهَهُم عيسى لما لاقوا من الدَّجَالِ، و«حَرَزَ» أي: ضَمَّهم، هذا قدر ما أخرج في «الصحيح».

وقد رُوِيَ أَنَّ عيسى يقتل الدَّجَالَ على عقبة أفيق^(١).

وفي رواية أوس بن أوس الثقفي: أنه ينزل عند القنطرة البيضاء شرقي دمشق في غمامة، وعليه رِيْطَتَانِ مُؤْتَزِرٍ بإحداهما مُرْتَدٌ بالأخرى، ويأتي مسجد دمشق فيقعد على المنبر ويدخل اليهود والنصارى والمسلمون إلى المسجد وكلُّهم يرجوه^(٢).

وقال ابن عباس: يقتل عيسى الدَّجَالَ على ذُرْوَةِ أفيق^(٣).

وأخرج أحمد طرفاً منه فقال: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار، مصر بمُلْتَقَى البَحْرَيْنِ، ومصرٌ بالبحيرة، ومصرٌ بالشَّامِ، فيفزعُ النَّاسُ ثلاثَ فزعاتٍ، فيخرجُ الدَّجَالُ في أغراضِ النَّاسِ، وأكثرُ تبعه اليهودُ والنِّسَاءُ». وفي رواية: «يتبعه سَبْعُونَ ألفاً من يهود أذربهان^(٤) ويشتدُّ على النَّاسِ أمرُهُ، ويصيبُهُم مَجَاعَةٌ^(٥) شديدة، فيناديهم مُنادٍ في السَّحَرِ: أيُّها النَّاسُ، أتاكم الغوثُ ثلاثاً، وينزلُ عيسى ابنُ مريمَ عندَ صلاةِ الفجرِ، فيقولُ له أميرُهُم: يا رُوحَ الله تقدَّمْ صلِّ، فيقولُ: هذه الأُمَّةُ أمراءُ بعضهم على بعضٍ، فيتقدمهم أميرهم فيصلي، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته، فيذهب نحو الدَّجَالِ، فإذا رآه الدَّجَالُ، ذابَ كما يذوبُ الرِّصَاصُ، فيضعُ حربته في ثُدُوتِهِ، فيقتله وينهزمُ أصحابه، فليسَ يومئذٍ شيءٌ يُواري منهم أحداً، حتى إنَّ الشَّجَرَةَ لتقولُ: يا مؤمن، هذا كافر، ويقولُ الحَجَرُ: يا مؤمن، هذا كافر.

وقيل: يقتله بباب لُدٍّ^(٦)، والمشهور على عقبة أفيق.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٩٢٩) من حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١/٢٢٧.

(٣) تاريخ دمشق ٥٧/٢١٨.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في (خ) و(ك): مجاهدة، والمثبت من (ب)، وهو موافق لما في مسند أحمد (١٧٩٠٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

وقد أخرج أحمد بمعناه بإسناده عن جابر بن عبد الله وذكر حديثاً طويلاً في الدجال، وفيه: «ومعه جبال من خبز ونهران وشياطين تكلم الناس، ويأمر السماء فتُمْطِرُ، ويقتل نفساً ثم يحييها، لا يُسلط على غيرها من الناس، وقد حرم الله عليه مكة والمدينة، فالملائكة قائمة على أبوابها، ويفر المسلمون منه إلى جبل الدخان بالشام، فيأتهم فيحصرهم فيه، ويشتد حصارهم، فينزل عيسى فينادي وقت السحر، أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث، فينطلقون معه ويقولون: هذا رجل جنّي، فتقام الصلاة، فيقال لعيسى: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم. فإذا صلوا صلاة الصبح، خرجوا إليه، فحين يراه الكذاب ينمأ كما ينمأ الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجرة والحجر لينادي: يا روح الله، هذا يهودي، فلا يترك أحداً ممن كان يتبعه إلا قتله»^(١).

وقيل للحسين بن الفضل البجلي: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟ قال: نعم، في قوله تعالى: ﴿وَكَهَلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] وهو لم يكتهل في الدنيا، فصار معناه: وكهلاً بعد نزوله.

وأبنا غير واحد، حدثنا يوسف بن محمد بن محمد بن عمر الأرموي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ تَهْلِكُ أُمَّةٌ أَنَا فِي أَوْلِيهَا، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي أَوْسَطِهَا، وَعَيْسَى فِي آخِرِهَا»^(٢).

وقد روى الشافعي عن محمد بن خالد^(٣) الجندي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزِدَادُ الأَمْرُ إِلا شِدَّةً، وَلا الدُّنْيَا إِلا إِدْبَاراً، وَلا النَّاسُ إِلا شُحّاً، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا على شِرَارِ النَّاسِ، وَلا مَهْدِيٌّ إِلا عَيْسَى ابن مريم»^(٤). إلا أنه حديث لا يصح، قال البيهقي: لم يروه عن الشافعي غير يونس بن عبد

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٥٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٩٥/٥.

(٣) في (خ) و(ك): مخلد، وهو خطأ، وليس في (ب)، بل فيها: وروي عن الشافعي، وسيرد على الصواب.

(٤) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٣٩)، والحاكم في «مستدرکه» (٨٣٦٣)، والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٨٢٧)،

وبيان من أخطأ على الشافعي ص ٢٩٦.

الأعلى^(١). ولما سئل الشافعي عنه قال: كذب علي يونس، ما حدثته به، ولا حدثني به أحد. ومحمد بن خالد الجندي مجهول. وقال البيهقي: إنما أنكروه لأن الأحاديث في خروج المهدي من ولد نبينا ﷺ مشهورة، فلا يعارضها هذا الحديث الواهي.

وقد روي أن عيسى يُدفن مع نبينا ﷺ في الحجرة، وقد ذكرناه في الحديث الذي في أول الفصل، وهو قوله عليه السلام: «ويُدفن في مسجدي أو حجرتي».

وفي حديث عروة عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أتأذن لي إذا متُّ بعُذكَ أَنْ أُدْفَنَ إِلَى جَانِبِكَ، فقال: «ما بقي في الحُجْرَةِ إِلَّا مَوْضِعُ قَبْرِ عَيْسَى»^(٢).

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: نَظَرْتُ فِي التَّوْرَةِ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَّهُ يُدْفَنُ مَعَهُ^(٣).

والجواب أنه ليس في هذه الأخبار ما يصح، أما الحديث الأول فالصحيح من الرواية «ويُدفنُ في مسجدي»، وأما حديث عائشة، فقد ضعّفه الحفاظ، وقالوا: لا يصح عن عائشة، وأما حديث ابن سلام، ففي إسناده أبو مؤدود المدني. قال البخاري: وهذا لا يصح عندي ولا يتابع عليه^(٤).

وقال ابن عباس: يدفن عيسى عند باب حجرة النبي ﷺ، وهو الأصح لوجوه: أحدها: تأدباً مع رسول الله ﷺ.

والثاني: ليكون موافقاً لقوله عليه السلام: «ويدفن في مسجدي».

والثالث: لأنه حاجب، لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

والحاجب ينبغي أن يكون قريباً من المحجوب لا أن يكون معه.

(١) انظر تاريخ دمشق ٥٧/٢٢٨-٢٣١، وانظر «تهذيب الكمال» ٢٥/١٤٩.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٥٧/٢٣٤. من طريق طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبي بكر، عن عائشة. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٥٢٧: لا يصح إسناده.

(٣) سنن «الترمذي» (٣٦١٧).

(٤) «التاريخ الكبير» ١/٢٦٣، وتاريخ دمشق ٥٧/٢٣٥.

فصل في وفاة مريم عليها السلام

واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أنها توفيت بعده، فقال السُّدي عن أشياخه: توفيت بعده بست سنين. وكذا قال ابن عباس وغيره.

والثاني: أنها توفيت قبله، فرُوي أن عيسى كان لا يأكل إلا من غزلها إذا لم يكن زمان اللُّقاط، وكانا يصومان الدهر، فجاء ليلة عند الإفطار وهي نائمة قد ماتت، فنادها: يا أماء، قد أفطر الصائمون، أما آن لك أن تظري، فأوحى الله إليه أنها قد توفيت، فسألها تجيبك، فقال: يا أماء، فقالت: لبيك يا بني، فقال: كيف وجدت الموت؟ فقالت: يا بني، والله لو وقعت عليّ جبال الدنيا لكان أهون عليّ من الموت. والقول الأول أشهر.

وكان سنها يوم ماتت نيفاً وخمسين سنة^(١)، وقيل أقل من ذلك.

وقال السُّدي: حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة، ورفع وهو ابن ثلاثين، وعاشت بعده ست سنين^(٢). ومن قال: حملت به وهي بنت خمس عشرة^(٣) سنة قارب الحساب^(٤). ودفنت بالجسمانية^(٥) شرقي بيت المقدس عند قبر داوود عليه السلام.

وقال علماء السير: ولما رفع عيسى انقطع الوحي بعده ووقعت الفترة حتى بعث نبينا ﷺ.

وقال وهب: كان بين عيسى ونبينا ﷺ أربعة من الأنبياء، ثلاثة منهم ذكروا في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]. والرابع: خالد بن سنان العبسي^(٦). وسنشير إليهم في الفترة إن شاء الله تعالى.

(١) انظر تاريخ دمشق ٣٨٧ (تراجم النساء)، و«المنتظم» ٤١/٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٤٠٦.

(٣) في (خ): «ثلاث عشرة».

(٤) انظر «التبصرة» ٣٥٤/١.

(٥) يعني: كنيسة الجسمانية ببيت لحم. انظر ما تقدم في الصفحة ١٨٠ و ٢٤٤.

(٦) انظر «المنتظم» ٣٨/٢.

فصل

فإن قيل: فكم كانت معجزاته؟ فالجواب: كثيرة، منها: ولادته من غير أب، وتعليمه الكتاب والحكمة، والنطق في المهد، ورفعته إلى السماء، وغير ذلك مما ذكرناه^(١).

فإن قيل: فلم رفعه إلى السماء؟ فلو جوه:

لتصحبه الملائكة فتصل بركته إليهم كما وصلت إلى أهل الأرض.

والثاني: لأنه ضمن له النجاة من أعدائه^(٢) لما ضاقت به الأرض.

والثالث: لقوله: ﴿وَرَأْفِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] قال محمد بن إسحاق: أماته سبع

ساعات ثم أحياه ثم رفعه^(٣). وقد بيناه.

فإن قيل: فلم لم يرده إلى الأرض؟ فالجواب: ليكون علماً للساعة، وليؤمن به

الكفار لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

فإن قيل: فقد ذكرتم أنه كان زاهداً، فكيف قال: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ

وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٣١]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أوصاني بالزكاة على شرط وجود المال^(٤). والثاني: أن الزكاة ها هنا:

الإسلام. والثالث: الطهارة^(٥)، لأن الزكاة طهارة. والرابع: الشناء على الله.

ومذهب^(٦) النصارى: أن من هبوط آدم إلى رفع عيسى، خمسة آلاف سنة وخمس

مئة واثان وثلاثون سنة^(٧).

(١) في واقعات عيسى وهي كثيرة.

(٢) في (ك) و(خ): لوجوه... النجاة لأعدائه، وليس في (ب)، والمثبت أقرب للصواب.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ٢١١.

(٤) انظر «تفسير البغوي» ص ٨٠٢.

(٥) انظر «زاد المسير» ٢٢٩/٥.

(٦) في (ب): فصل ومذهب.

(٧) انظر «المنتظم» ٣٨/٢.

فصل

في عدد الأنبياء والمرسلين، وذكر ما بينهم من السنين^(١)

حدثنا عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الطوسي بإسناده عن ابن المسيب عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مئة ألفٍ وأربعة وعشرون ألفاً» قال: قلت: كم الرُّسلُ منهم؟ قال: «ثلاثُ مئةٍ وثلاثة عشرَ جمًّا غفيراً» قلت: من كان أولهم؟ قال: «آدمُ نبيُّ مُرسلٌ، خلقه اللهُ بيده، ونفخَ فيه من رُوحِهِ، وسواهُ قُبلاً. ثم قال: أربعةٌ منهم سُريانيونَ آدمُ، وشيثُ، وخنوخُ، وهو: إدريسُ، ونوحُ. وأربعةٌ من العربِ: هودٌ، وصالحٌ، وشعيبٌ ونبيُّك، وأولُ الأنبياءِ من بني إسرائيلَ: موسى وأخِرُهُم: عيسى». قال: فقلت: فكم أنزلَ اللهُ مِنَ الكُتُبِ؟ فقال: «مئةٌ وأربعةٌ كُتُبٍ»^(٢). وقوله: «قُبلاً» أي: عياناً. ومنه: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقوله: «أولُ أنبياءِ بني إسرائيلَ موسى» أي: بعد يعقوب ويوسف.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: المرسلون ثلاث مئة وخمسة عشر أو ستة عشر على عدة قوم طالوت.

وروى عنه عكرمة أنه قال: بعث الله من بني إسرائيل أربعة آلاف نبي. قال: وكل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: إدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولوط، وشعيب، ومحمد ﷺ، وقال: ليس من نبي له اسمان إلا يعقوب وهو إسرائيل، وعيسى وهو المسيح^(٣).

فصل في مقدار ما بينهم من السنين

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه كان بين نوح وادم ألفا سنة ومئتا سنة وثمانٍ وعشرون سنة، قاله ابن عباس في رواية مجاهد، وذكره جدي في «التلقيح»^(٤).

(١) في (ب): الباب الثلاثون في عدد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وذكر ما بينهم من السنين.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، وابن الجوزي في «المنتظم» ١٤٢/٢، وإسناده ضعيف جداً.

(٣) انظر «تلقیح فهم أهل الأثر» ص ٤.

(٤) تلقیح فهم أهل الأثر ص ٥.

وفي رواية عكرمة: مئتي سنة لا غير. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: أن بين آدم ونوح ألف سنة عشرة قرون. قال: وكلهم كانوا على الإسلام^(١).

وبين نوح وإبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون سنة. ذكره جدي في «التلقيح»^(٢)، وقد اختلفوا فيه: فروى الوالبي عن ابن عباس قال: بين نوح وإبراهيم ألف ومئة سنة: أحد عشر قرناً.

قال في «التلقيح»: ومن إبراهيم إلى موسى خمس مئة وخمس وسبعون سنة. وروي عن ابن عباس: أن بينهما ست مئة سنة.

قال: ومن موسى إلى داود خمس مئة وتسع وسبعون سنة. وروي عن ابن عباس: أن بينهما ست مئة سنة. وقيل: خمس وخمسون.

ومن داود إلى عيسى ألف سنة وثلاث وخمسون سنة. وقال غيره ألف وثلاث مئة وخمسون سنة.

ومن عيسى إلى محمد ست مئة سنة.

وهذه الرواية بالاتفاق ما بين عيسى ومحمد ﷺ، ولهم فيما عدا ذلك اختلاف كثير اقتصرنا على الأصول.

وحكى في «التلقيح» عن ابن أبي خيثمة قال: منذ خلق الله آدم إلى أن بعث محمداً ﷺ خمسة آلاف سنة وثمان مئة سنة^(٣). وقد أشرنا إلى طرفٍ من هذا في خطبة الكتاب.

وأنبأنا جدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده إلى الضحاك عن ابن عباس قال: كانت فترتان فترة بين آدم ونوح، وفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، فكان أول نبي بعث بعد آدم إدريس، وبين موت آدم وبعث إدريس مئتا سنة، لأن آدم عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً، وولد إدريس وآدم حي، ومات آدم ولإدريس مئة سنة، ورُفِعَ وهو

(١) انظر «المعارف» ص ٥٧.

(٢) «التلقيح» ص ٥.

(٣) انظر تلقيح فهم أهل الأثر ٦-٥، والمنتظم ١/١٤٥ و١٩٧، والمجرب ١-٢، والمعارف ٥٦-٥٧، وطبقات ابن سعد ١/٣٦-٣٥.

ابن أربع مئة سنة وخمس وستين، وكان الناس من لدن آدم إلى إدريس مئة واحدة، مستمسكين بالإسلام، وتصافحهم الملائكة، فلما رُفِعَ إدريس فتر الوحي إلى أن بعث الله نوحاً، وكان يوم بُعِثَ: ابن أربع مئة سنة وثمانين سنة، وكانت نبوة نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد الغرق خمسين عاماً، ومات. وقيل: مئتي عام. وانقطع الوحي ما بين إدريس ونوح، وكان سام ابن نوح بعدما مات نوح ابن أربع مئة سنة، وعاش بعده مئتي سنة.

وكان بين نوح وهود ثمان مئة سنة، وعاش هود أربع مئة وستين سنة.

وكان بين هود وصالح مائة سنة، وعاش صالح ثلاث مئة سنة وثلاثين سنة، وقيل: ثلاث مئة إلا عشرين سنة.

وكان بين صالح وإبراهيم ست مئة وثلاثون سنة، وعاش إبراهيم مئة سنة وخمساً وسبعين سنة، وقيل: مئتي سنة. وعاش إسماعيل مائة سنة وتسعاً وثلاثين سنة، وعاش إسحاق مئة وثمانين سنة، وعاش يعقوب مئة وتسعاً وأربعين سنة.

وكان بين موسى وإبراهيم سبع مئة سنة، وكانت الأنبياء بين موسى وعيسى متواترة. وبين عيسى ومحمد ست مئة سنة^(١).

قلت: وقد وهم الخطيب^(٢) في هذه الرواية بإسقاط شيث، ولم يتدبر حقيقة التاريخ، فإنهم لا يختلفون أنه كان بين آدم وإدريس، وأنه نبي مرسل، ووصي آدم، وكان أفضل أولاده، وقد ذكرناه بعد آدم عليه الصلاة والسلام.

فصل في ترتيب كبار الأنبياء

قال جدي في «التلقيح»: كان من بعد آدم شيث وهو وصيُّه، ثم إدريس، ثم نوح، ثم

(١) لم أقف عليه فيما بين يدي من كتب ابن الجوزي، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/١ (مخطوط) و١/٢٩-٣٠ (طبعة شيري) من طريق الخطيب بإسناده إلى الضحاك عن ابن عباس، وانظر تاريخ الطبري ٢/٢٣٥-٢٣٨.

(٢) في (ب): قال المصنف رحمه الله وقد وهم الخطيب. اهـ. ولم يرد ذكر الخطيب قبلاً، وهذا من دلائل اختصار الكتاب، وانظر التعليق السابق.

هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ثم لقمان الحكيم.

قلت: وأين لقمان من إبراهيم، وبينهما ألف سنين، ولقمان كان في زمان داود؟
والصحيح: أنه كان عبداً صالحاً، ولم يكن نبياً وقد ذكرناه.

ثم قال: وكان لوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وشعيب، ويوسف، ومن
بعد يوسف موسى بن ميثا.

قلت: موسى هذا ابن ميثا مختلف فيه، ولم يُذكر في جملة الأنبياء، إلا في رواية
شاذة.

قال: ثم موسى بن عمران، ثم يوشع بن نون، ثم كالب بن يوفنا، ثم حزقييل، ثم
إلياس، ثم طالوت الملك، ثم داود، ثم سليمان، ثم أيوب، ثم يونس بن متى، ثم
شعيا بن أمصيا، ثم زكريا ويحيى، وعيسى، وإرميا.

قلت: وقد أخلَّ بهارون وجماعة، وقد ذكرناهم^(١).

ثم قال جدي رحمه الله: وكان ذو القرنين بين عيسى ومحمد في الفترة، ثم قال:
كذا ذكروا، والصواب: أنَّ ذا القرنين كان في أيام الخليل عليه السلام، إلا أن يعنى به
اليوناني^(٢).



(١) فصل في قصة يوشع بن نون.

(٢) «التلقيح» ص ٤-٥.

فصل في مذهب أرباب الرصد

ذكر يعقوب بن طارق المنجم في كتاب «الأفلاك» وقال: إن الماضي من سني العالم من هبوط آدم إلى الهجرة على سير الشمس أربعة آلاف ألف ألف سنة - ذكره أربع مرات - وثلاث مئة ألف ألف وعشرين ألف ألف سنة.

وقال النُّوبُختي: من ابتداء حركة الفلك بالكواكب من أول نقطة في برج الحمل أول سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة للهجرة أربعة آلاف ألف ألف سنة وذكرها النوبختي أربع مرات.

قلت: وهذا ضرب من المالنخوليا^(١)، لأن هذا باب لا يدرك بالتخمين والحدس، وهل في طاقة بشر أن يحقق تاريخ مئة سنة على الوجه؟ وإنما هذه تخيلات وظنون، ونظير هذا قول ابن طارق والنُّوبُختي وأبي معشر: إن لكل كوكبٍ من الكواكب السبعة سلطان وزمان يتعلق بعمر العالم الذي هو فيه، فإذا استكمل قطع المسافة، وقع التعداد، ودثر ذلك العالم، وعاد التدبير إلى الكواكب الأول، وعادت أشخاص كل عالم إلى ما كانت عليه، وذلك يتعلق بالبروج والكواكب.

قالوا: فسلطان الحمل وماله من الكواكب - وقد ذكرنا في صدر الكتاب ما لكل برج من الكواكب^(٢) - اثنا عشرة ألف سنة، وسلطان الثور وماله أحد عشر ألف سنة، وسلطان الجوزاء وماله عشرة آلاف سنة. وما زالوا ينقصون من كل برج وماله من الكواكب سنة سنة حتى قالوا: وسلطان الحوت وماله من الكواكب ألف سنة، فجميع عمر العالم ثمانية وسبعون ألف سنة.

قلت: وهذه الأقوال تأبأها العقول السليمة، وتردها الشرائع المستقيمة، والاعتماد في هذا الباب على ما ورد من سيدنا المصطفى زاده الله عزاً وشرفاً.

أنبأنا جدي رحمه الله، وعبد العزيز بن محمود البزاز قالاً: حدثنا أبو القاسم ابن

(١) «المالنخوليا»: يقال مالنخوليا لتغير الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي إلى الفساد وإلى الخوف. انظر «القانون» لابن سينا ٦٥/٢.

(٢) انظر فصل في البروج ومطالعها.

السمرقندي^(١) بإسناده عن قتادة عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَدَّقَ مُنْجِماً بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ». أخرجه ابن ماجه^(٢).

وفي رواية: «مَنْ أَتَى مُنْجِماً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ فَكَأَنَّما كَذَبَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ».

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: لما انصرف عليّ عليه السلام من الكوفة لقتال الخوارج بالنهروان، وكان معه مُسافرٌ بنُ عوفِ بن الأحمَر، وكان يَنْظُرُ في النجوم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تَسِرْ في هذه الساعة، فإنك إن سِرْتَ فيها، أصابك وأصحابك بلاء وشدة، وسِرْ في الساعة الثانية، فإنك تظفر بما تطلب. فقال أمير المؤمنين: الله لا إله إلا هو، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وذكر هذا الحديث، ثم قال: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا للخلفاء بعده، فمن صدَّقك بما تقول، فقد كَذَّبَ بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ثم قال: يا ابن الأحمَر، نخالفك ونسير في هذه الساعة التي نهيته عنها. ثم أقبل على الناس، وقال: إياكم وتعلم النجوم، إلا بما تهتدون به في ظلمات البر والبحر. يا ابن الأحمَر، لئن بلغني بعدها أنك تنظر في النجوم، لأجلدك جلد المفترى، ولأخلدك الحبس ما بقيت، ولأحرمك العطاء ما عشت وكان لي سلطان. ثم سار في الساعة التي نهاه عنها، فظفر بالخوارج وأبادهم^(٣).

وقال: المنجمون أعداء الرسل يكذبون بما جاؤوا به من عند الله، يتسترون بالإسلام ظاهراً، ويستهزؤون بالأنبياء باطناً. وذكر كلاماً طويلاً.

وفي رواية: أن المنجم قال له: لا تسر في هذه الساعة، فإن القمر في العقرب. فقال له: قمرنا أو قمرهم.

وحكى لي شيخنا يوسف بن يعقوب الحربي قال: كان ببغداد رجل مُرجف، يقال

(١) في (خ): أبو القاسم بن محمود، وهو خطأ، انظر مشيخة ابن الجوزي ٨٩، واسمه إسماعيل بن أحمد بن أحمد ابن عمر.

(٢) في سننه (٦٣٩)، وأحمد في مسنده (٩٢٦٠) و(٩٥٣٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظه: «مَنْ أَتَى كَاهِناً أَوْ عَرِافاً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ». ولم نقف على حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج القصة مختصرة الحارث في «مسنده» (٥٦٤).

له: ابن بَشْران، يقف في الأسواق، ويقول: ترك السلطان مسعود هَمَدان، وصلت مقدماته إلى حُلوان، خرج أتائبك زكي من الموصل، وصل تَكْرِيت، فتغلو الأسعار، ويخاف الناس. ولم يكن جرى شيء مما ذكره. وبلغ الخليفة المستنجد، فبعث إلى الوزير وقال له يؤدب ابن بَشْران وينهاه. فأحضره الوزير ونهاه، وأراد أن يوقع به الفعل، فاستحيا منه، وقال له: والله لئن بلغني عنك بعدها كلمة من هذا لأعملنَّ معك الواجب. فخرج من عنده، فأقام أياماً لا يستجري يتكلم، فأعيتة الحيل، فاشتري تقاويم وقعد على دكة بغداد، وشرع يقول: يقترن الكوكب الفلاني مع الكوكب الفلاني، فتهب ريح سوداء تأخذ بأنفاس^(١) العالم، فيهلكون، تنشف دجلة بعد أيام، وشرع في مثل هذا، فمرَّ به بعض ظرَّاف بغداد، فوقف عليه وهو يقول كذا، فعمل فيه هذا الشعر^(٢): [من الكامل]

إِنَّ ابْنَ بَشْرانٍ وَلَسْتُ أَلومُهُ مِنْ خِيفَةِ السُّلطانِ صَارَ مُنَجِّمًا
طُبِعَ المَشومُ عَلَى الفُضولِ فلم يُطَق فِي الأَرْضِ إِرْجافاً فَأَرْجَفَ فِي السَّما
وحكى لي جماعة عن بعض المنجمين ببغداد: أَنَّهُ مرَّ بِهِ شاعرٌ وبِيدِهِ اسطرلاب، فقال: أين الشمس؟ فقال المنجم: في الثور، فقال الشاعر^(٣): [من السريع]

قَامَ إِلَى الشَّمسِ بِأَلاتِهِ يَنْظُرُ بِالتَّخْمِينِ وَالحَدْسِ
فَقُلْتُ: أين الشَّمسُ؟ قالَ الفتى فِي الثَّورِ قُلْتُ الثَّورُ فِي الشَّمسِ
وحكى لي أيضاً جماعة: أَنَّهُ كان ببغداد منجم يقال له: الحُداني، عبر عليه شخص وهو في حلقة يقول: يا قوم، كيف تصنعون؟ قد نظرت في علمي، وإذا بكم تلاقون سنياً كسني يوسف، تبقون سبع سنين لا تمطرون، وتأكلون الجيف والميتة، وجعل يعظم الأمر، قال: فنشأت سحابة مثل الترس، وامتدت، وجاءت كأفواه القرب، وخاض الناس في الوحل، فقال ذلك الشخص هذه الأبيات: [من الكامل]

جَمَعَ الحُدانِي المُنَجِّمُ حَلقَةً وبدا يُسْفِطُ فِي النُّجومِ وَيَحْدِسُ

(١) في (خ، ك): بأتفاع، والمثبت من (ب).

(٢) نسبه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤٠/٧ لابن صابر.

(٣) نسبه الصفدي في الوافي بالوفيات ٣٨٨/١١ إلى جكينا البرغوث.

وَيَقُولُ هَذَا الْعَامُ أَزْعَمُ أَنَّهُ
فَتَدَفَّقَتْ سُحْبٌ فَمَا قَامَ امْرُؤٌ
مِنْ عَامِنَا الْمَاضِي أَجْفُ وَأَيْبَسُ
مِنْ عِنْدِهِ إِلَّا يَشُقُّ وَيَرْفُسُ
وأما الأبيات التي ذكرناها في ترجمة المأمون، فقليل لها أن تكتب بماء الذهب على صفحات الأحداق، وأن يحث في طلبها كوم النياق، وهي هذه الأبيات: ^(١) [من الخفيف]

أَيْهَا الْجَاهِلُ الْمُفَكِّرُ فِي الشَّمِ
تَارِكًا خُطَّةَ الْمَسِيرِ مِنَ السَّبِّ
مَا رَأَيْنَا النُّجُومَ أَغْنَتْ عَنِ الْمَاءِ
خَلَّفُوهُ بِعَرَضَتِي طَرْسُوسِ
سِ الْمُعَنَّى بِهَا اعْتِنَاءَ الْمَجُوسِ
تِ يَرُومِ الْمَسِيرِ يَوْمَ الْخَمِيسِ
مُونَ فِي عِزِّ مُلْكِهِ الْمَأْسُوسِ
مَثَلَمَا خَلَّفُوا أَبَاهُ بِطُوسِ



(١) نسب الأخيران منها في تاريخ الطبري ٦٥٥/٨، وتاريخ بغداد ١٩٢/١٠، وتاريخ دمشق ٣٩/٢٩٢ إلى أبي سعيد الخزومي.

وهنا ينتهي تحقيق الأستاذ مهند خذها لهذا القسم، وقد راجعه له وقومه الأستاذان محمد بركات وعمار رجاوي الذي حقق أيضاً القسم التالي إلى نهاية أخبار الأمم الماضية.

فصل في ذكر الأمم الماضية والقرون الخالية

الأول: في ذكر الهند وأنبائها وبدو ممالكها وآرائها^(١)

قال الجوهري: هند وسند: اسم بلاد، والنسبة إليها: هندي وسندي^(٢).

وذكر العلماء بأخبار العالم أن الهند في قديم الزمان كانت الفرقة التي ينسب إليها الصلاح والحكمة والخير، فاستضعفهم الناس لطيب بلادهم وسعتها، وكثرة المال فيها.

وكان عندهم حكيمٌ قد فاق أهل عصره، يقال له: البرهمن^(٣)، من ولد إبراهيم على ما قيل، فنصبوه ملكاً لهم، وسمّوه: السلطان الأعظم، والإمام المقدم - وبعضهم يقول: هو آدم - وإليه تُنسب البراهمة، فقام بالأمر أحسن قيام، وقرب الحكماء والعلماء، وبنى الهياكل، والهيكل الأعظم، ورصّعه بالجواهر المُشرقة، وصوّر فيه الأفلاك والبروج الاثني عشر، والنجوم الثابتة والسيارة، وبيّن في الصور كيفية العالم وتأثيرات النيرين، وأشار إلى واجب الوجود، وقرّر في أذهان الخواص معرفته، وأن نوره فائض على خلقه، وصنّف كتاباً سماه: «سند هند»، وتفسيره: دهر الدهور، ومنه تفرّعت كتب الحكميات مثل: الميجسطي^(٤) ونحوه، وعمل الزيجات، واستخرج الحروف التسعة المحيطة بالحساب الهندي، وهو أول من أحدث القول بالأكرار^(٥) والأدوار، وأن الأعمار في أول البدو تطول لسعة الدائرة، وتقصّر عند قصرها.

وتكلّم على سير الشمس وأوجها، وأنها تقطع الفلك في ستة وثلاثين ألف سنة، وتُقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة، ومتى انتقلت إلى البروج الجنوبية صار العامر

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/٨٤، والملل والنحل ٢/٢٥٠، والبدء والتاريخ للمقدسي ٩/٤، وتحقيق ما للهند من مقولة ٤٥٢ وما بعدها، ومروج الذهب ١/١٤٨ وما بعدها.

(٢) الصحاح (سند) (هند).

(٣) ضبطه الزبيدي في شرح القاموس (برن): بكسر الموحدة وفتح الراء وسكون الهاء وفتح الميم. وانظر تهذيب اللغة ٦/٥٣٧، والعين ٤/١٣٠.

(٤) بكسر الميم والجيم وتخفيف الياء، انظر كشف الظنون ٤/١٥٩٤.

(٥) في النسخ: بالأكوار، والمثبت من مروج الذهب ١/١٥٢، ١٥٣.

خراباً، والخرابُ عامراً، وسَمَّى العالم في ابتداء كل ثمانية وسبعين^(١) سنة: هازروان، وأن العالم متى قطع هذه المدة عاد الكون والنَّسل. على حسب ما ذكرنا في الباب الماضي^(٢)، وله في هذا كلامٌ طويلٌ، فانقادت له الهند وأطاعته.

وكان قد بنى بيتاً من ذهب يُجالس فيه الحكماء، فجمعهم يوماً وقال لهم: تعالوا ننظر في أمر هذا العالم والسَّرِّ في إيجادهِ، وهل له غاية، وما وَجْهُ إعدامنا بعد إيجادنا؟ فقال حكيم منهم: الواجبُ علينا أولاً أن نبتدئ بمعرفة نفوسنا، التي هي أقربُ الأشياء إلينا منافع نعدُّها، فكيف بالمُبدئِ الأوَّل؟ وقال آخر: لو تناهتُ حكمةُ الخالق في أحد العقول، كان نقصاً في الحكمة، ولكان الغرضُ غير مُدرك، لأن البارئ تعالى لا بداية له ولا نهاية. فقال البرهمن^(٣): ما أدري ما تقولون، غير أنا خرجنا إلى الدنيا مُضطربين، وعشنا فيها حائرين، ونخرجُ منها مُكرهين، فأقروا له بالفضل.

وأقام فيهم البرهمن ثلاث مئة وستاً وستين سنة، ثم مات، وجزعت الهندُ عليه.

وكان قد أوصى إلى ولده واسمه: الباهبود.

فصل

فأقام فيهم على منهاج أبيه، وزاد في بناء الهياكل، وضاعف الإحسان إلى العلماء والحكماء، وزاد على أبيه بأن وَضَعَ أشياء منها: النُّردُ، وجُعِلت مثلاً للمكاسب، وأنها لا تُنالُ بالحيل، وأن الرزق لا يَحْضُلُ في هذه الدُّنيا بالحِدْقِ والاحتِيال، بل بالأقدار، ورتَّب اثني عشر بيتاً بعدد الشُّهور، وجعل كِلابَه ثلاثين كلباً بعدد أيام الشَّهر، وجعل الفُصوصَ مثلاً للقَدْرِ^(٤) وتقلُّبه بأهل الدُّنيا، وأن الإنسان يُلعبُ به، فيبلغ بإسعادِ القدرِ إياه ما يريد، وأن الحازمَ الفِطْنِ لا يَتَنَفَعُ بِحَزْمِهِ إذا لم يُساعده القَدْرُ. ويقال: إن أَرْدَشِيرَ بن بابك أولُ مَنْ وَضَعَ النرد، وليس كذلك، وإنما وضعه

(١) في مروج الذهب ١/١٥١: في كل سبعين ألف سنة.

(٢) انظر فصل البروج والشمس.

(٣) في مروج الذهب ١/١٥٦ أن الذي قال ذلك سابع الحكماء.

(٤) في مروج الذهب ١/١٥٨: ورأى قلب الدنيا بأهلها وجعل بيوتها اثني عشر... وجعل كلابها ثلاثين كلباً

... وجعل الفصين مثلاً للقدر.

الباهبود، ومضى عليه زمان فدثر، فجده أزدشير، فأضيف إليه، فقيل: نردشير.
وأولاد البرهمن أشراف الهند وأكابرهم، ولا يرون ذبح الحيوان، ومن ذبح حيواناً
ذبحوه، ولو كان دجاجة، وفي أعناق النساء منهم والرّجال خيوط صُفْر، يُعرفون بها،
مثل الغيار^(١).

وأقام الباهبود فيهم مئة سنة، ثم مات.

فصل

وملكوا بعده رجلاً يقال له: زامان^(٢)، فأقام فيهم مئة وخمسين سنة على سيرة من
تقدمه، ثم مات.

فصل

فملكوا عليهم رجلاً اسمه: فور^(٣)، فقام بالملك أحسن قيام، ويقال: إنه الذي
قتله الإسكندر اليوناني مبارزة، وكان صاحب مدينة المانكير، وعاش مئة وأربعين سنة
ولم يجدد شيئاً من الحكم.

فصل

فولوا بعده رجلاً يقال له: دبشلم، وكان فاضلاً، وضع شيئين:
أحدهما: كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله ابن المقفع من الهندية إلى العربية،
وصنّف سهل بن هارون للمأمون كتاباً على وصفه وسماه: «ثُعلة وعُفرة»^(٤)، وهيهات،
بينهما كما بين مصر والبصرة.

والثاني: الشطرنج^(٥)، وحكم لها على النرد، وجعلها على وضع الحيوان ناطقٍ

(١) الغيار بالكسر: علامة أهل الذمة كالزناز ونحوه، القاموس المحيط (غير).

(٢) في النسخ: رامان، والمثبت من المسعودي ١/١٥٨.

(٣) في النسخ: بود، والمثبت من تاريخ اليعقوبي ١/٨٧، ومروج الذهب ١/١٥٨، وسيذكر المصنف في
واقعات الاسكندر وقعة له مع ملك الصين واسمه بود.

(٤) انظر الفهرست ص ١٣٤.

(٥) ذكر اليعقوبي في تاريخه ١/٩٠، والمسعودي في مروج الذهب ١/١٥٩ أن الذي صنع الشطرنج واخترها
الملك بلهيت الذي ملك بعد دبشلم.

وصامت، ومثل الشاه بالرئيس الأعظم، وما يليه من القطع على المراتب، وأقام ذلك أمثلةً للأجرام العلوية من السبعة والاثني عشر، وجعل كل قطعة منها لكوكب، وهي تتضاعف إلى ألوف ألوف على حساب الهند.

وأقام دبشلم في الملك مئة وثمانين سنة، ثم مات.

فصل

وملك بعده كورش، فأحدث آراءً في الديانات، وعدل عن مذاهب البراهمة، وفي أيامه كان السندباد، وله تصانيف - أعني السندباد - منها: كتاب «الوزراء السبعة»، وكتاب «معرفة العلل والعلاجات»، و«أشكال الحشائش» وغيرها.

وأقام كورش مئة وعشرين سنة، ثم مات.

فصل

وافترقت الهند، وتحزبت الأحزاب، وانفرد كل واحد بناحية، فكان ملك الهند على الاجتماع ثمان مئة ونيفاً وخمسين سنة، ولما افترقوا، أطاعوا ملكاً من ولد البرهمن يقال له: البلهري، صاحب مدينة المانكير^(١)، وملوك الهند يصلون إليه، وتحت يده ملوك كثيرة، وكلهم مألهم إلى ولد البرهمن لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذا بيوت الوزراء والكبراء والقضاة معروفة لا يتعدون إلى غيرها.

والهند بلاد واسعة برًا وبحراً، والبحر أعظم، وهي من ناحية الشرق متصلة بالصين والزابج^(٢) والمهراج والقمار، وحدها من الغرب ما وراء النهر بأربعين يوماً.

ولا يملكون عليهم رجلاً حتى يبلغ أربعين سنة، ويقولون: هي منتهى كمال العقل وقوة النظر.

ولا يظهر الملك للعوام إلا في وقت معلوم، ويكون ظهوره بسبب النظر في أمور

(١) في النسخ: المناكير، والمثبت من مروج الذهب ١/١٦٢.

(٢) في النسخ والروض المعطار ص ٢٦٦ ونزهة المشتاق ١/٦١: الرانج (بنون بعد الألف)، والمثبت من مروج الذهب ١/١٦٣، ومعجم البلدان ٣/١٢٤. قال ياقوت: بعد الألف باء موحدة تفتح وتكسر وآخره جيم، جزيرة في أقصى بلاد الهند.

الرعية، ويقولون: نظرُ العوامِّ إلى الملكِ يخرِقُ الهيبةَ، وفيه استخفافٌ بالمملكة.
وآراءُ الهند تختلف: منهم من يقول بتناسُخ الأرواح، ومنهم طائفة لا يشربون
الخمرَ ويقولون: إنه يُفسِدُ العقلَ، ومتى شربَ عندهم ملكٌ خلَعوه، ويقولون: هو
حارس، فمتى فقَد عقله انتبه للصوص.

واتفقوا على سَماع الملاهي، قالوا: لأنها تزيدُ في العقل.

وإذا مات الملك جعلوه على عَجَلَةٍ وتحتها بكرة، وشعرُه ينجرُّ على الأرض،
وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وهم يجرُّونه، والمرأة تقول: أيها
الناس، هذا ملككم بالأمس، وقد جرى فيكم حكمه، وقد صار إلى ما ترون من فراق
الدنيا، فلا تغتروا بها. ثم يُطافُ به في شوارع البلد، ويُطلى بالكافور والطيب،
ويجمعون بين يديه الملاهي، وخواصُّه وأهلُه مُحَدِّقون به، ويأتون به إلى الهيكل
الأعظم عندهم، وفيه هُوَّةٌ عظيمة فيها نار، يزعمون أنها نار الخليل عليه السلام، تُوقَد
دائماً بخشب الزيتون لا تَقْتُر، وعليها الكراسي تحت الموابذة: وهم العلماء، ومُوبَد
مُوبَدان - وهو عالمُ العلماء عندهم - جالسٌ على كرسي من ذهب - والهند يعبدون هذه
النار - فإذا جاؤوا بالملك قام المُوبَد والموابذة، ويأتون بالملك إلى بين يديه، فيزْمِزِمُ
عليه ساعة^(١)، ثم يأمر بارتفاع أصوات الملاهي جُملةً، ثم يُقَدَف بالملك في النار،
فيشير المُوبَد إلى خواصُّه وأهله فيتهافُتون في النار على حسب منازلهم عند الملك.

وقال ابن المقفَّع: الهند يُعذِّبون أنفسهم بأنواع العذاب، يتقرَّبون بأرواحهم إلى
بارئهم.

قلت: وقد حكى لي جماعةٌ من التجار الذين يدخُلون الهند، أنهم شاهدوا الملوك
وقد فعلوا بهم ما ذكرنا.

وحكى لي جماعة أن ببلاد المانكير جبلاً شامخاً، وله جانب أملسٌ من أعلاه إلى
الأرض على أسلوب واحد، وفي وسطه شجرةٌ ناتئة شاهقةٌ كثيرةُ الأغصان قد ألبسوها
الأسنَّة، ولهم عيدٌ في السنة يجتمعون فيه على رأس الجبل، ومعهم الملاهي والطبول

(١) بصوت بصوت مبهم يديره في خيشومه وحلقه لا يحرك فيه لساناً ولا شفة. المعجم الوسيط.

والبوقات، فيضربون بها، وتجتمع الشباب وأولو البأس والقوة فيرقصون، ثم يتهافتون من أعلى الجبل إلى الشجرة، فتلقاهم الأسنة، منهم من يدخل السنان في جنبه فيخرج من الجنب الآخر، وتارة يقع في عينه أو في بطنه، فإن مات وإلا بقي على حاله معلقاً حتى يموت ويَبلى ويتقطع ولا يدفنه.

وحكى شيخٌ من أهل بغداد قال: خرجتُ وأنا يومئذٍ ببعض بلاد الهند إلى ظاهر البلد، أتتزه بين البساتين؛ وإذا بشابٌ قد رَبطَ عجزاً إلى شجرة، وجمع لها حطباً، فقلتُ: مَنْ هذه منك؟ قال: أمي. قلت: وما تصنعُ بها؟ قال: أحرقتها. قلت: ولم؟ قال: قد ضجرتُ منها، وأريد أن أقربها. قال: فقلت لها: أوتُحيين هذا؟ قالت: نعم، أمضي إلى هناك، وأشارت إلى السماء، فأحرقها.

قلت: فانظروا إلى هذه العقول التي كادها بارئها، فكيف تتعبدُ بإتلاف النفوس التي يُستدلُّ بها على صنعة مُنشئها؟! وأين هذا من الحكمة التي يمتنون بها على جميع الأمم؟ فسبحان مَنْ أظهر فيهم أسرارَ حكمته، وعجائبَ قدرته، وكم لهم من مثلٍ سائر، ولفظٍ أحسن من اللآلئ والجواهر! فنذكر طرفاً من ذلك.

فصل

ذكر العلماءُ بأخبار العالم فنوناً من كلامهم وأخباراً من^(١) أيامهم

فمنه قول وزير البرهمن: الملكُ العاقل يزدادُ برأي الوزير الحازم زيادة البحر بمواده من الأنهار، وينالُ بالحزم ما لا ينال بالقوة والاستظهار، وقال: المستشار وإن كان أفضل من المشير، فإنه يزدادُ برأيه رأياً، كما تزدادُ النارُ بالسليط^(٢) ضياءً.

وقال حكيم آخر: إذا أحدثك لك العدو صداقةً لعلَّه ألجأته إليك، فمع ذهاب العلة ترجعُ العداوة، كالماءِ فإنك تُسخِّنه، فإذا أمسكت عنه رجع إلى الأصل بارداً.

قلت: أخذه شاعر فقال: [من المتقارب]

(١) في (خ) و (ك): وأخبار أمر.

(٢) السليط: الزيت. (القاموس المحيط)، والقول في الأدب الصغير لابن المقفع ص ٣٢ (رسائل البلغاء)،

وعيون الأخبار ١/ ٢٨٢٧.

وَكُلُّ إِلَى طَبْعِهِ عَائِدٌ وَإِنْ صَدَّه الصَّدُّ عَنْ قَضْدِهِ
كَمَا الْمَاءُ مِنْ بَعْدِ إِسْخَانِهِ يَعُودُ سَرِيعاً إِلَى بَرْدِهِ
وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا، قَوْلُ بَعْضِ عَوَامِّ بَغْدَادٍ فِي كَانٍ وَكَانَ^(١):

الشوك لو سقيته يحمله ما ورد عرق ما يرجع إلا إلى أصله ويحمل الخرنوب
وقال آخر: أجودُ الناس من جاد عن قلة.

أخذه حماد عجرد فقال من أبيات: [من البسيط]

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا يَمْنَعُكَ قَلْتُهُ فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودٌ
إِذَا تَكْرَمْتَ عَنْ بَذْلِ الْقَلِيلِ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُشْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودٌ^(٢)
وقال آخر: إنَّ ذا المروءة لَيَكُونُ خَامِلَ الذُّكْرِ، فَتَأْبَى لَهُ مَرُوءَتُهُ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْلِي؛
كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَصُونُهَا صَاحِبُهَا وَهِيَ تَأْبَى إِلَّا ارْتِفَاعاً، وَإِنْ ذَا الْفَضَائِلِ لَا يَخْفَى
فَضْلُهُ وَإِنْ أَخْفَاهُ، كَالْمِسْكِ يُخْفِيهِ صَاحِبُهُ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَفُوحَ رِيحُهُ.

وقال آخر: لا ينبغي للعاقل أن يرى إلا في مكانين: إمَّا مع الملوك مكرماً، وإمَّا مع
العُبَاد مُتَبَتِّلاً^(٣).

ومن أمثال الهند في الدنيا وآفاتِها، قالوا: مَثَلُ الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ بِالدُّنْيَا، مَثَلُ رَجُلٍ
أَلْجَأَهُ الْخَوْفُ إِلَى بئْرٍ، فَتَدَلَّى فِيهَا، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ نَابِتَيْنِ عَلَى شَفِيرِ الْبئْرِ، فَوَقَعَتْ
رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ، فَنَظَرَ فَإِذَا أَرْبَعُ حَيَاتٍ قَدْ أَطْلَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ حُجْرَتِهِنَّ، وَنَظَرَ أَسْفَلَ

(١) في حاشية (ك): قول المصنف رحمه الله إن البيت من كان وكان أحسن من البيتين، يدل على عدم ذوقه
وإنصافه، بل البيتين نادرين (كذا). اهـ. قلت: وكان كان، نوع من الشعر الشعبي، شاع بين البغداديين في
عصور متأخرة، وقد سمي بهذا الاسم لأن الشعراء كانوا يجعلون في شعرهم «كان وكان» للدلالة على أن ما
يقولون هو روايات لا أصل لها، وقد تحلل ناظموه من بعض قواعد الإعراب وقواعد القافية. معجم
مصطلحات العروض والقافية ص ٢٢٧.

(٢) الأبيات بترتيب آخر في الشعر والشعراء ٧٧٩-٧٨٠، وعيون الأخبار ١٧٨/٣، وطبقات ابن المعتز
ص ٦٩-٧٠، ووفيات الأعيان ٢/٢١٣.

(٣) القول في يتيمة السلطان لابن المقفع ص ١٥٦ (رسائل البلغاء).

البئر، فإذا ثعبانٌ عظيمٌ قد فَعَرَ فاهُ نحوه، فرفع عينه إلى الغصنين اللذين تعلَّق بهما، وإذا في أصلهما جُرْذَانٍ: أبيضٌ وأسود؛ يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران. فبينما هو يُعْمَلُ الحيلة، يتخلَّص مما وقع فيه، إذ حانت منه التفاتةٌ، فإذا بنحلٍ قد عَشَّش في جانب البئر، فمدَّ يده إلى عُشِّه، فأخذ من العسل، فلَعِقَه فوجده حُلُوءاً، فشغله عن الفكر في أمره، والتماسِ النِّجاة لنفسه، ونسي أن رجليه على أربع حَيَّاتٍ لا يدري متى تُساورُهُ إحداهُنَّ، وأنَّ الجُرذَيْنِ دائبان في قَرْضِ الغصنين، وأنهما متى قَطَعَا ذلك وقع في البئر، فالتقمه التَّيْنُ. فلم يزل مشغولاً بلَعَقِ العسل حتى قَرْضِ الجُرذَانِ أصلِ الغصنين، فسقط في البئر، فالتقمه التَّيْنُ.

فالدنيا هي البئر، والغصنان الأمل، والطمع هو العسل، والجُرذَانِ: الأبيضُ النهار، والأسودُ الليل، يقرضان العمر لا يفتران، والحياتُ الأربع: الأخلاط التي بُني عليها الجسدُ: وهي: البلغم، والمرَّةُ الصِّفراءُ والسوداءُ، والدمُّ، والتَّيْنُ الذي في أسفل البئر مَلَكُ الموت، واليسير من العسل لذاتُ الدنيا تُلهيه عن عاقبة ما يؤوُلُ إليه أمرُهُ^(١).

واقعة جرت بالهند

حكى العلماءُ بأخبار الأوائل أنه كان بالهند ملكُ المِهْرَاجِ، وكان عظيمًا يركبُ في ثلاث مئة ألفٍ، وكان مجاوره ملكُ القِمَارِ، فحسد ملكُ القِمَارِ ملكَ المِهْرَاجِ، فقال لوزيرِه يوماً: في نفسي أمرٌ أحبُّ بلوغه قبل موتي. فقال له الوزير: وما هو؟ قال: أرى رأسَ ملكِ المِهْرَاجِ في طُشْتِ بين يديّ، فشَقَّ على الوزير وقال: أيُّها الملكُ، وما الذي بدا من ملكِ المِهْرَاجِ إلينا ما يَسْتوجبُ به ما خَطَرَ في نفسك؟! ووالله إنه نعم الجار، وكان بين المملكتين مقدارُ عشرين يوماً في البحر، وكان الوزيرُ صالحاً ناصحاً، فقال: أعيذك بالله أن يَخْطَرَ هذا ببالك، فضلاً عن أن يَشيعَ عنك. فغضب عليه، وتحدَّثَ مع غير الوزير بذلك.

وبلغ ملكُ المِهْرَاجِ ما جرى لملكِ القِمَارِ مع وزيره، وكان ملكُ المِهْرَاجِ رجلاً

(١) انظر يتيمة السلطان لابن المقفع ص ١٦٨ (رسائل البلغاء).

عاقلاً ثابتاً، فقال لوزيره: قد بدا من ملك القمار كذا وكذا، ولا ينبغي أن نسكت عن هذا الجاهل، بعد أن شاع عنه هذا، فإنه قدح في الملك.

ثم تجهّز وأظهر أنه يقصد بلداً سمّاه، وسار في ألوف مراكب، وطابت له الرياح، فما شعر ملك القمار به إلا وقد بغته، فحاصره في بلده، وانهزم أصحابه، فأخذه أسيراً، وأحضره وأحضر الوزير، وقال للملك: ما الذي حملك على تمنّي ما ليس في وسعك، ولا أوجه سبب من الأسباب؟ فلم يُجر جواباً. فقال له ملك المهرج: أما إنك لو تمنّيت ما تمنيت من أن ترى رأسي بين يديك لتأخذ ملكي، لاعتمدت ذلك فيك، ولكنك تمنّيت شيئاً بعينه، فأنا فاعله بك وراجع إلى بلادي من غير أن أمدّ يدي إلى شيء من بلادك، لتكون عظة لمن بعدك، فلا يتجاوز قدره.

ثم ضرب عنقه، وجعل رأسه في طشت بين يديه، ثم أقبل على الوزير فقال: وأما أنت، فجزيت خيراً من وزير، فقد صحّ عندي أنك أشرت عليه بالرأي لو قبل منك، فانظر من يصلح للملك بعد هذا الشقي فوله. ثم نزل من ساعته إلى المراكب، وسار إلى بلاده، ولم يمس شيئاً من المملكة لا هو ولا أصحابه.

ولما عاد إلى بلاده جلس على سريره، ووضع رأس ملك القمار بين يديه في طشت، وجمع أرباب دولته وخواصه، وعرفهم بالقصة، فعظم في عيونهم ودعوا له. ثم ردّ الرأس إلى القمار، وكتب معه: رُدُّوا رأس صاحبكم إلى جسده، فإنّ الذي حملنا على ما فعلنا به بغيه علينا، فأدبنا أمثاله، وبلغنا فيه ما رامه فينا من غير سبب نستحق به إلا حسن جواره، ورأينا ردّ رأسه إلى جسده، إذ لا فخر لنا في تركه عندنا. وبلغ ملوك الصين ما فعل، فصاروا كل يوم عند طلوع الشمس يسجدون نحو المهرج تعظيماً له^(١).



(١) في مروج الذهب ١/ ١٧٥ أن الذي فعل ذلك هم ملوك القمار لا ملوك الصين.

فصل في ذكر ملوك الصين في سالف الدهر والحين^(١)

قال الجوهري: والصين بلد، والصواني: الأواني، منسوباً إليه^(٢).

وقال غيره: اسم رجل^(٣).

وقال علماء السير: لما قسم فالغ بن غابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام الأرض بين ولد نوح، نزل أولادُ عابورا - وقيل: عامورا بن سويل^(٤) بن يافث بن نوح، وقيل: عامورا بن يافث - عن يسار المشرق ويمينه، وانتشروا في تلك النواحي، ووصلوا إلى جبل القبق^(٥)، وانقسموا عدة ممالك، منهم الترك - قال الجوهري: وهم جيلٌ من الناس^(٦) - فنزلوا براري عن يمين المشرق، وامتدوا إلى الشمال، وكان ملكهم في ذلك الزمان يقال له: زنجان، ثم صار اليوم خاقان، ومنهم: أفراسياب التركي المتغلب على أرض فارس، وكلهم من ولد عامورا.

ثم من أولاد عامورا: الديلم، والأكراد، واللان، والخزر، وأهل مملكة السّير، وكذا النازلون على بحر الخزر والبرغز والصغد والأشروسنة، وهم بين بخارى وسمرقند والجبل، ويسكنون جيلان، وليس فيهم أقوى شوكة من الترك.

وسار مع أولاد عامورا طائفة، فنزلوا في تخوم الهند وبلاد التبت، وبنوا للملك مدينة عظيمة وسموها أنموا، وبينها وبين البحر الشرقي - وهو بحر الصين - ثلاثة أشهر عمائر متصلة، ومصرّوا الأمصار، وعمّروا المدن.

وأول ملوك بني عامورا: انسطوناس بن باعورا بن بريح^(٧) بن عامورا بن سويل بن

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠، ومروج الذهب ١/ ٢٨٦، والبدء والتاريخ ٤/ ١٩، ومعجم البلدان ٣/ ٤٤٠ (الصين)، وأثار البلاد للقرظيني ص ٥٣، والروض المعطار ص ٣٧٠.

(٢) الصحاح (صين).

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ومعجم البلدان، فقد نسبة ياقوت إلى الزجاجي.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٨٦: سويل.

(٥) في النسخ: الفتح، والمثبت من مروج الذهب ١/ ٢٨٧، وضبطه ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٠٦ (قبق) بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره أيضاً قاف.

(٦) الصحاح (ترك).

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: نسطراطس بن باعور بن مدتج.

يافت بن نوح، أقام بأنموا حاكماً عليهم نيفاً وثلاث مئة سنة ثم مات. وملك بعده ابنه غرون^(١)، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وتركه على سرير من الذهب مُرَّصَع بالجواهر، وكان يجلس دون مجلس أبيه، وأقام يسجد للتمثال هو وأهل مملكته خمسين ومئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده عيرون^(٢)، ففعل بأبيه ما فعل أبوه بجده، وأقام مئتي سنة، ثم مات. وملك بعده ولده عيتبان^(٣)، ففعل بأبيه كذلك، وأقام ملكاً أربع مئة سنة، ثم مات. فملك بعده ولده خرابان^(٤)، ويقال: إنه أول من عمل المراكب بالصين وبعث بها إلى الأمصار، وجلب إليه التجار الأمتعة من الدنيا، وملك مئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده يونان^(٥)، فبنى هيكلاً عظيماً ورصَّعه بالجواهر، وبنى فيه بيوت العبادات، ونقل أجسام آبائه وأجداده إليه، وجعلهم في قبة لها طاقات، وأمر بتعظيمها، وجمع خواص مملكته، وقال: الرأي أن نجمع الناس على ملَّة وديانة يرجعون إليها، فإن الملك متى عَدِمَ شريعة^(٦) دخل عليه الخلل، ولم يأمن العثار.

فرتب لهم شريعة عقلية، وفرض عليهم فرائض جعلها رباطاً، ورتب المناكح، والقصاص في النفوس، على حسب ما وردت به الشرائع، وجعل عليهم صلوات مفروضة لخالقهم في اليوم والليلة، وفيها ركوع وسجود يختصان بأزمنة، وأوجب الحد على الزاني والزانية، وأقام للكواكب أبخرة من العقاقير^(٧).

وساس الناس سيرة عادلة، فأحبَّه الناس، واعتقدوا فيه. وعاش مئة وخمسين سنة ثم مات، فجزعوا عليه جزعاً عظيماً، وجعلوه في تابوت من الذهب ورصَّعوه بالجواهر

(١) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: عرون، وفي تاريخ يعقوبي ١/ ١٨٠: عرون.

(٢) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيرون.

(٣) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيتبان، وفي تاريخ يعقوبي ١/ ١٨٠: عيتبان.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٩٢: خرابان، وفي تاريخ يعقوبي ١/ ١٨١: خرابان.

(٥) في تاريخ يعقوبي ١/ ١٨١، ومروج الذهب ١/ ٢٩٣: توتال.

(٦) في (خ) و (ك): شريعته، والمثبت من (ب) ومروج الذهب ١/ ٢٩٥.

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٦: وأمرهم بقرايين الهيكل، ودخن وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه بدخن معلومة بأنواع الطيب والعقاقير محصورة.

النَّفيسة، وبنوا له هيكلًا عظيمًا على حِدَّةٍ، وزينوه بأنواع اليواقيت، وبنوه على هيئة الكواكب السَّبعة، وجعلوا له عيداً يجتمعون إليه فيه مثلَ يومِ وفاته، وصوَّروا صورته وما شرعه في لوحٍ من ذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل، وكتبوا اسمه وما فعل على أبواب المدن والدنانير والدراهم والفلوس وذلك بمدينة أنموا.

ولما ماتت اختلفت الآراء والنحل والممالك بعده، إلا أنهم مع اختلافهم لم يخرجوا عن قضية العقول في نَصْب القضاة والعدل، والنظر في أمور الخواص والعوام.

فروي أن بعض التجار قصد بعض ملوكهم بهدية، فأخذها منه بعض الخدم، ودفع له ثمنًا بخسًا وظلمه، فأحضر الملك التاجر وسأله، فقال: إنما قصدت بالهدية الملك، فقطع عليَّ الخادمُ الطريقَ وظلمني، فدعا بال خادم، وقال له: ويحك، عمدت إلى رجلٍ قصدنا، وخاطر بنفسه يؤمِّلُ فضلنا، ثقةً بكرمنا وعدلنا، يرجو إحساننا، ففعلت في حقِّه ما فعلت، فما الذي أمَّك أن ينصرف عنا فيسيء الأحدثة والسيرة؟ أما والله لولا سابقُ خدمتك لنكَّلتُ بك، ولكن قد جعلت عقوبتك ولايةً قبور الموتى لما عجزت عن سياسة الأحياء، ثم أعطى التاجر أضعاف ما كان يظنُّ وقربه^(١).

وأهل الصين قبائلٌ وأفخاذ وشعوب مثل العرب، ويعتنون بالأنساب، وربما انتسب الرجلُ منهم إلى خمسين أب حتى يصل إلى عامورا.

واقعة جرت بالصين

قال علماء السير: كان بالبصرة رجلٌ من ولد هبَّار بن الأسود، فلما دخل الزنج البصرة، ركب البحر هارباً منهم، فلم يزل ينتقلُ من بحر إلى بحر وبلدٍ إلى بلد حتى وصل إلى الصين، إلى مدينة يقال لها: خانقوا^(٢)، وبلغ الملك خبره، فاستدعاه، وقال: مَنْ أنت؟ قال: أنا رجل من العرب، من ولد صاحبٍ لرسول الله ﷺ. فقال له: كيف قهرت العرب العجمَ مع ضعفهم وقوة العجم؟ فقال: إنما قهروهم بالله تعالى. فقال: لقد غلبت العربُ على أجلِّ الممالك وأوسعها، وأعقلها رجالاً وأبعدها صيتاً.

(١) ذكرها المسعودي في مروج الذهب ٣٠٧-٣١٢ بأطول مما هنا.

(٢) في مروج الذهب ٣١٣/١: خانقوا، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/٤٨٣: بخاء معجمة وألف ونون

وقاف ثم واو، وهي مدينة على النهر.

ثم قال: ما منزلة الملوك عندكم؟ قلت: لا أدري. قال الملك: أما نحن فنعدُّ الملوك خمسة: فأوسعهم ملكاً ملك العراق؛ لأنه وسط الدنيا والملوك به محدقة، وبعده ملكنا، وبعده ملك السَّبَّاع، وهو ملك الترك الذي يلينا وهم سباع الإنس، وبعده ملك الفيلة وهو ملك الهند والحكمة، وبعده ملك الروم، وهو ملك الرجال.

ثم قال: أتعرف صاحبك - يعني النبي ﷺ - إن رأيتَه؟ قال الرجل: فقلت: كيف ترينيه وهو عند الله تعالى؟ فقال: إنما أردتُ صورته. ثم أخرج لي دُرْجاً فيه صفةُ الأنبياء وعلى صورة كلِّ نبيٍّ اسمُه، وإذا نوح عليه السلام في سفينة، فقلت: الحمد لله الذي أغرق أهل الأرض ونجاه، فضحك وقال: لا نعرف غرق الأرض، ولا وصل إلينا ولا إلى الهند والسُّند، ولا نقله إلينا أسلافنا. قال: ورأيتُ موسى عليه السلام ويديه العصا، وعيسى عليه السلام على حمارٍ، ونبينا ﷺ^(١) على جمل، وعند كلِّ نبيٍّ نسبُه وعمرُه وبلدُه وسيرته. ورأيتُ حول نبينا ﷺ أصحابه وفي أوساطهم حبال الليف، وقد علَّقوا فيها المساويك، وفي أرجلهم نعالاً من جلود الإبل، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فلقد ملك نبيكم أجلَّ الممالك، غير أنه لم يُعَين ذلك، وإنما عاينه من بعده.

ثم قال: ما تقولون في عُمر الدنيا؟ فقلت: قد اختلف الناس في ذلك، فمن قائل: سبعة آلاف سنة، وقائل: ستة آلاف. فقال: عمَّن تنقل هذا، عن نبيك؟ فغلطت وقلت: نعم. فضحك ضحكاً عالياً، وضحك وزيره أيضاً، وقال: ما أحسب نبيكم قال هذا، قلت: بلى، فرأيت أثر الكتابة على وجهه، وقال: مِيز كلامك، فإن الملوك لا يُخاطبون إلا عن تحقيق، وما تقوله الأنبياء فمُسلَّم لهم لا يُختَلَف فيه، وهذا مُختَلَف فيه، فأياك أن تحكي عن نبيك مثل هذا، فإنه لا يقوله.

قلت: لله درُّ هذا الملك، ما كان أعقله وأبصره بحقائق الأشياء، فإنه لم يثبُت عن نبينا ﷺ في هذا الباب شيء، وقد ذكرناه في خطبة الكتاب^(٢)، وإنما الجاهل الذي هو من ولد هبار الذي عرَّض نبينا ﷺ لمثل هذا، ولكن الله أنطق الملك بالحق، معجزةً لنبينا ﷺ.

(١) في (خ) زيادة: وزاده فضلاً وشرفاً إلى يوم القيامة.

(٢) في فصل انقضاء مدة العالم، وقد ذكر المسعودي ١/٣١٢-٣٢١ هذه القصة مطولة.

فصل في ذكر السريانيين والكلدانيين والحرانيين

أول السريانيين آدم عليه السلام، حتى إنه قيل: لو ترك كل مولود وطبعه لتكلم بالسريانية. وامتد الزمان عليهم، ولم يكن لهم بين آدم ونوح ملك، فلما كان الطوفان عاد ملكهم بعده.

فأول ملوكهم نبط بن سور بن سام بن نوح، وهم النبط، وقيل: أول ملوكهم سوشان^(١) وكان جباراً، ويقال: إنه أول من وضع التاج على رأسه، فأقام ست عشرة سنة، ثم هلك، وكانت الرعية قد صرفت الهمم إلى هلاكه. وكان ملك السريانيين ببابل، فولي منهم جماعة دون المئة سنة، وآخر من ملك منهم أخوان، يقال لأحدهما: أزود، والآخر: خلنجاس، فأحسنا السيرة وتعاضدا.

فحكى أن أحدهما كان جالساً ذات يوم في قصره، فنظر إلى أعلاه، فرأى طائراً قد فرخ هناك، وهو يصيح ويضرب بجناحيه، وإذا بحية قد دبّت تريد أن تأكل فراخه، فرماها الملك بنشابة فقتلها، وسلمت الفراخ.

فلما كان بعد أيام جاء الطائر وفي منقاره حبة، وفي رجليه حبتان، فصفق بجناحيه وألقى الحب بين يدي الملك، فتأمله وقال: لأمر ما ألقى هذا الطائر الحب، ولا شك أنه قصد مكافأتنا على ما فعلنا معه.

ثم أخذه ولم يعرف أحد في إقليمه ما هو، فقال له بعض الحكماء: أودعه الأرض. فأودعه الأرض فنبت، وأقبل يلتفت، فحصرم وأعنب، ولم يتجاسروا أن يذوقوه خوفاً أن يكون سمّاً، فقال الحكيم: اعصروه، فعصروه، وأودع ماء الآنية، فهدر وقذف بالزبد، وفاحت له ريحة عطرة، فأحضر الحكيم شيخاً كبيراً، فسقاه منه قدحاً فتهلل وجهه، ثم سقاه آخر فضحك، ثم سقاه آخر فصفق وطرب ورفع صوته يتغنى، فقال الحكيم^(٢): هذا شراب يذهب بالعقل، ألا ترون الشيخ كيف عاد إلى الصبا وقوة الشباب وسلطان الدم! ثم أفاق الشيخ وقال: ما أرى هذا الطائر إلا أراد مكافأتكم بهذا

(١) في تاريخ يعقوبي ٨١/١، ومروج الذهب ٧٨/٢: شوسان.

(٢) في مروج الذهب ٩١/٢ أن قائل هذا الكلام هو الملك.

الشراب الشريف، لقد أذهب عني الهموم والأحزان.

ثم أمر الملك بغيرس الكروم بأرض بابل، وأكثروا منع العامة عنه. وقد جرت مثل هذه الواقعة لكسرى في الریحان لما نذكر.

وأما الكلدانيون^(١)

فهم ملوك بابل بعد النبط، وأولهم نمرود بن كنعان، فإنه غرس الأشجار، ورتب العالم، وأجرى الأنهار، وحفر نهر كوثي^(٢) بين قصر ابن هبيرة وبغداد، وتوالت الممالك بعده إلى زمان سنحاريب، وآخرهم بُحْتُ نَصْرُ، فيقال: إنهم ملكوا ألفي سنة.

وأما الحرانيون

فهم الصابئة، وكانوا يسكنون حران يعبدون الكواكب، وكان لهم بحرّان أربعة هياكل مدوّرات الشكل؛ أحدهم: هيكل العقل الفعّال، والثاني: هيكل السلسلة، والثالث: هيكل الصورة، والرابع: هيكل النفس، وكانت لهم الهياكل السبعة على النجوم السبعة، فهيكّل القمر مثنّ، وهيكّل عطارد والزّهرة مربّعان، وكذا هيكّل الشمس، وهيكّل المشتري مُثلث، وهيكّل المريخ وزُحل مُسدّسان، وقيل: هيكّل المريخ مستطيل.

وكان على أبواب حران تماثيلٌ وهياكل، منها على باب الرقة هيكّل يقال له: مغلّسا^(٣)، وكان لآزر والد الخليل عليه السلام، لأنه كان يعبد الكواكب، وكان تحت مغلّسا سراديبٌ فيها تماثيلُ الأجسام العلوية، ولها منافخ وبرابخ^(٤) تصفر فيها السدنة من وراء السترة، فتدخل الأصوات في المنافذ، فتظهر منها أصوات مطربة يصيدون بها عقول الناس مثل الأزعن الذي للروم.

(١) في النسخ: الكلدانيين، وانظر فيهم تاريخ اليعقوبي ٨٢/١، ومروج الذهب ٩٥/٢.

(٢) ضبطه ياقوت في معجم البلدان ٤٨٧/٤ بالضم ثم السكون والهاء مثلثة وألف مقصورة تكتب بالياء لأنها رابعة الاسم.

(٣) في مروج الذهب ٦٣/٤ (وأكثر الكلام منه) مغليّتا.

(٤) البرابخ: منافذ المياه ومجاريه. القاموس المحيط (بربخ)، وفي مروج الذهب ٦٤/٤: فتجري الأصوات في تلك المنافخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور.

وأصل الصابئة: من صَبَأَ، إذا مال إلى ما يهواه.

واختلف العلماء فيهم^(١)، فقال مقاتل: هم صنفٌ من النصارى وافقوهم في بعض الأحكام وخالفوهم في البعض، وهو قولٌ عن الشافعي وأحمد.
وقال ابن زيد: هم يعبدون الكواكب، ويقرؤون الزبور، والكواكب عندهم الآلهة المدبّرات للعالم.

وقال عبيد بن عمير^(٢): كانوا فبانوا وذهبوا فلم يبقَ لهم عينٌ ولا أثرٌ.

قلت: وليس كما ذكر، فإن الصابئة اليوم بأرض البطائح منهم خلق كثير، وهم الذين يُسكرون الأنهار، ولا يُطلعون أحداً على مذاهبهم، فانتقلوا عن حرّان إلى العراق.

وأما حكم مناكحتهم فعند أبي حنيفة: هم قومٌ يقرؤون الزبور، ولا يعبدون الكواكب بل يُعظمونها، كما يعظم المسلمون الكعبة، ومخالفتهم للنصارى في بعض الأحكام لا يُخرجهم من أن يكونوا من جملتهم، كنصارى بني تغلب، فإنهم يُخالفون النصارى في الخمور والخنازير، وهم من جملتهم، وإذا كان لهم كتاب، وهو الزبور فتجوز مناكحتهم كاليهود مع النصارى، إلا أنه يكره مناكحتهم للخلاف.

وعند أبي يوسف ومحمد: يعبدون النجوم، ويخالفون اليهود والنصارى في عقائدهم، فلا يكونون من جملتهم، وإذا كانوا يعبدون الكواكب فهم عبّاد الأوثان، فلا يجوز مناكحتهم، واتفقوا على أنهم لو كانوا يعبدون الكواكب ولا كتاب لهم، أنه لا يجوز مناكحتهم.

وقال بعضُ المشايخ: لا خلافَ على حقيقة؛ لأنَّ أبا حنيفةً أجاب في فرقةٍ لها كتابٌ، وهما أجابا فيمن ليس له كتابٌ وهو عبُد الكواكب، فحينئذٍ ليس بينهم خلاف،

(١) انظر في ذلك تفسير الطبري ١٤٦/٢-١٤٧، وزاد المسير ٩٢/١، وتلبس إبليس ص ٧٣، وتفسير القرطبي

١٦١-١٦٢ (طبعة الرسالة)، والرد على المنطقيين لابن تيمية ٢٨٧، وأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية

٩٢/١، وتفسير ابن كثير (البقرة ٦٢).

(٢) في (خ): بن عبيد، والمثبت من (ب).

وكذا حُكِمَ حِلُّ ذبائِحهم^(١).

وقيل: إن الصحيح أنهم لا كتابَ لهم، لأن الزُّبور إنما أُنزلَ على داود، وليس فيه أحكام ولا حلال ولا حرام، بل كلُّه مواعظ، وقد ذكرناه^(٢) وليس في سيرة داود أنه بُعث إليهم، ولا لهم ذُكر.

ولمَّا ولي القاهرُ محمد بن أحمد المعتضد بَلَّغَهُ ما هم عليه، فاستفتى الفقهاء فيهم، فأفتوه بقتلهم^(٣)، وقالوا: لا كتابَ لهم ولا نبي، وهم يعبدون الكواكب، فنظر، فرآهم خلقاً كثيراً، فبذلوا للقاهر ما لا فِكْفَ عنهم.

وقيل: إنهم طائفةٌ من اليونان. وقال ابنُ الكلبي: الذي أظهر مذاهبهم رجل يقال له: يوداسف^(٤)، في زمانِ طهمورث، وكان من كلامه: إن معالي الأمور، والشرف الكامل، والصلاح الشامل، ومعدن الحياة الأبدية، في هذا السَّقْفِ المرفوع، وإن الكواكب هي المدبِّرات والواردات والصادرات، وذكر كلاماً طويلاً.

فصل في ذِكرِ الفُرسِ الأوَّل، وتَنقُّلِ الأحوالِ بهم وتَقَلُّبِ الدولِ

واختلفوا في فارس على أقوال^(٥):

أحدها: أنه فارس بن سام بن نوح عليه السلام، والثاني: فارس بن ياسور^(٦) بن سام بن نوح، وأن نبيط وفارس كانا أخوين، وأبوهما ياسور بن سام، والثالث: أن فارس اسمه أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وأميم أولٌ من حلَّ ببلاد فارس فُنسبت إليه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة هشام بن محمد الكلبي.

والرابع: أن فارسَ من ولد يوسف عليه السلام.

(١) انظر في رأي أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد إضافة إلى المراجع السالفة: المبسوط للسرخسي ٢١١/٤.

(٢) انظر قصة داود.

(٣) ذكر القرطبي وابن القيم وابن كثير وتاج الدين السبكي في طبقات الشافعية ٢٣١/٣ أن الذي أفتاه بذلك أبو سعيد الإصطخري.

(٤) في مروج الذهب ١١١/٢: يوداسف، وثمة كلامه.

(٥) ذكر هذه الاختلافات المسعودي في مروج الذهب ١٣٨/٢، وانظر صبح الأعشى ٣٦٩/١.

(٦) في (ك): ياسر، وسقطت من (خ)، والمثبت من (ب) وهو موافق لما في مروج الذهب.

والخامس: أنه فارس بن هدرام بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله السدي.

والسادس: أنه من ولد لوط، قال عكرمة: وكان ابن بنته.

والسابع: أنه فارس بن بَوَّان بن إيران بن سام بن نوح عليه السلام، وبَوَّان هو الذي يُنسب إليه شُعب بَوَّان بفارس، وهو أحد المتنزّهات الموصوفة، حتى قيل: إنه أنزّه من غُوطَة دمشق.

والثامن: أنه فارس بن كيومرت.

والتاسع: أنه فارس بن إيران بن كيومرت نفسه.

والعاشر: أنه من ولد منوشهر بن إيرج بن أفريدون بن وترك، ووترك^(١) هو إسحاق

على قول ابن الكلبي.

وقد فخرت العربُ العاربة بفارسَ على قحطان، وكان جرير بن الخطفي يفتخر،

ويذكر أن الفرس والروم من ولد إسحاق، وأن الأنبياء من نسله: [من الطويل]

وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا	حمائل موتٍ لابسين السنورا ^(٢)
إذا افتخروا عدوا الصبهبند منهم	وكسرى وعدوا القيصرين وحميرا ^(٣)
ومنهم سليمان النبي الذي دعا	فأعطي تبياناً ^(٤) وملكاً مقدرًا
أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا	أب كان مهدياً نبياً مطهراً
ويجمعنا والغُر ^(٥) أبناء فارس	أب لا نبالي بعده من تأخرا

وقال آخر من ولد فارس، يفتخر بأن الذبيح إسحاق، وأن الفرس من ولده: [من

المنسرح]

أيا بني هاجر أبانت لكم ما هذه الكبرياء والعظمة^(٦)

(١) في مروج الذهب ١٤١/٢: ويرك.

(٢) الأبيات من (ب) على تحريف فيها، والتصحيح من مروج الذهب ١٤٣/٢ (وعنه ينقل)، وديوان جرير ص ٤٧٢ (بشرح ابن حبيب).

(٣) في مروج الذهب والديوان: الهرمزان وقيصرا.

(٤) في مروج الذهب والديوان: بُياناً.

(٥) في (ب): ويجمعنا الغراء.

(٦) الأبيات من (ب) على تحريف فيها، والتصحيح من مروج الذهب ١٤٦/٢.

ألم تكن في القديم أممكم لأمننا سارة الجمال أمه
والملك فينا والأنبياء لنا إن تنكروا ذاك تُوجدوا ظلمه
وزعم من يحفظ أنساب الفرس ويعتني بها أن ملوك فارس كانت تحج البيت
الحرام، تمسكاً بهدي أبيها إبراهيم عليه السلام، وأن آخر من حج منهم ساسان بن
بابك جدُّ أزدشير بن بابك، وهو أول ملوك الفرس الثانية، وإنما سُميت زمزم بذلك
لأنه لما جاء وقف عليها وزمزم، قالوا للملك: زمزم، فسُميت بذلك لزمزمته، وأن
ساسان هو الذي أهدى إلى الكعبة الغزاليين من الذهب والسيوف، فأخرجهما
عبد المطلب^(١).

وأنكر العارفون بالأنساب هذا، وقالوا بأن فارس من ولد سام بن نوح، وبينه وبين
إسحاق عليه السلام قرون كثيرة على ما ذكرنا، ولا يلتفت إلى قول جرير؛ لأن العصبية
حملته على ذلك، ولا يثبت أن الفرس حكموا على البيت الحرام ولا حجوه، وإن
الغزاليين من دفن جرهم، وزمزم اسم لها من زمان أم إسماعيل، ولو كان من ولد
إسحاق عليه السلام فلم عبدوا النيران وتمجسوا وكفروا؟ وإنما نزل فارس بتلك
الأرض فنُسبت إليه.

قال ابن قتيبة: وكان ينزل بعضهم ببئخ، وبعضهم ببابل^(٢).

وقال ابن الكلبي: أول ملوك فارس كيومرت بالكاف، وقيل: جيومرت بالميم.
وبعضهم يزعم أنه آدم نفسه، وبعضهم يقول: ابن آدم لصلبه من حواء، وهو قول علماء
الفرس^(٣).

وقال قوم: هو أول بني الفرس، وكان منفرداً عن العالم، ولم يكن في زمانه ظلم
ولا فساد، فكثرت الظلم والفساد والبغي، فاجتمع حكماء زمانه وقالوا: إن صلاح هذا
العالم في إقامة ملك يُورد الأمور ويُصدرها، كما أن صلاح الجسد بالقلب، وإن
العالم الصغير من جنس العالم الكبير، لا تستقيم أموره ولا تنتظم أحواله إلا برئيس

(١) انظر مروج الذهب ١٤٨/٢ - ١٥٠.

(٢) المعارف ص ٦٥٢.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١٤٦/١.

يُدبره على ما تقتضيه قضايا العقول.

فصاروا إلى كيومرت وقالوا: أنت أفضلنا وأشرفنا، وبقية أئينا آدم، ولا بد لنا من تقديمك علينا، وتفويض أمورنا إليك. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه، فوضعوا التاج على رأسه، وهو أول من لبسه من ملوك الدنيا.

ثم خطب بالشريانية - وهو أول من خطب - فقال كلاماً معناه بالعربية: نحمد الله على نعمه^(١)، ونشكره على أياديه، ونرغب إليه في مزيده، فإن بالشكر تدوم النعم، ونسأله المعونة على ما دفعنا إليه، وحسن الهداية إلى العقل^(٢) الذي يجمع الشمل ويصفي العيش. وذكر كلاماً طويلاً.

وهو أول من أمر بالسكون على الطعام لتأخذ الطبيعة بقسطها منه، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء، وتسكن النفس عند ذلك.

وقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً، فالفرس تزعم أنه أول النسل، وأنه عاش ألف سنة. ومنهم من يقول: إنه من نبات الأرض من الرباس، وليس له أب، وأنه حارب إبليس فقتله.

ومنهم من يقول: هو جابر^(٣) بن يافث بن نوح، وكان ينزل جبل دُنباوند من بلاد طبرستان، ثم عظم أمره، وكثر ولده، وملك الأقاليم كلها، وبنى المدن والحصون، واتخذ الخيول والسلاح، وتسمى بآدم، وقال: من سماني بغيره قتلته، وتزوج ثلاثين امرأة.

وهو أبو الفرس كلهم، وأما غير الفرس فإنهم يقولون: أقام ملكاً أربعين سنة، ومات^(٤).

(١) في (ك): إنعامه.

(٢) في (ب) و (خ): الفعل، والمثبت من (ك) ومروج الذهب ١٠٨/٢.

(٣) كذا في النسخ، وفي تاريخ الطبري ١٤٧/١: جامر، وفي نسخة منه، والمنتظم ٢١٨/١، والكامل لابن الأثير ٤٦/١: حام.

(٤) مروج الذهب ١١٠/٢.

فصل

ثم قام بعده أوشهنج - ويقال: هوشنك - وهو أخو كيومرْت - وقيل: كيومرت، وقيل: جيومرت بالجيم - وبعضهم يقول: كيومرت جدّ أبيه، فنزل الهند. وهو أولُ مَنْ اتخذ الصوف والشعر وبني سابور بفارس، واتخذ الخيل والبغال والحمير وكلاب الصيد والماشية، وكتب بالفارسية. وكان عبداً صالحاً مطيعاً لله تعالى، يهربُ الشيطان منه إلى المفاوز والجبال هو وجنوده.

فلما تُوفِّي فرح إبليس بموته، ودخل إبليس وجنوده مساكن بني آدم.

وقد اختلفوا فيه، فقال الكلبي: هو ابنُ آدم لصلبه، وقيل: ابن نوح، والأول أصح، ويقال: إنه مهلائيل، وقيل: هو الذي يُسمى فيشداذ، ومعناه: أول مَنْ حكم بالعدل؛ لأن «فاش» معناه: أول، و«داذ»: عدل.

والفرس تزعم أنه ابنُ ابنِ جيومرت، وأن الله بعثه عذاباً ونقمةً على الشياطين، وأنه قهرَ إبليس وجنوده، وكتب عليهم كتاباً، وأخذ عليهم الموائيق أنهم لا يتعرضون للإنس^(١)، وقد ذكرناه^(٢).

وعاش أوشهنج في المُلْك أربعين سنة ومات.

فصل

ثم ملك بعده ولده طهمورث، وقيل: هو ابن ابنه، قال ابن مسكويه: بينهما آباء كثيرة^(٣). ونزل طهمورث سابور^(٤)، وبعد مُضيِّ سنةٍ من ملكه ظهرت الصابئة، وقد ذكرناه^(٥).

(١) انظر تاريخ الطبري ١/١٦٩.

(٢) في فصل إبليس وجنوده.

(٣) تجارب الأمم ٦/١.

(٤) في النسخ: نيسابور، والمثبت من مروج الذهب ٢/١١١، وتاريخ الطبري ١/١٧٢.

(٥) في فصل الحرائين.

ثم مات طهمورت، واختلفوا في سنه قيل: إنه عاش مئة سنة، وذكر جدي في «أعمار الأعيان»^(١) أنه عاش ألف سنة.

فصل

ثم ملك بعده أخوه جَم شيد، وتفسيره: سيد الشعاع، وكان ينزل بفارس، وقد ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» فقال: ملك الأقاليم كلها، وسُخر له من فيها من الجن والإنس، وجعل الناس أربع طبقات: مقاتلة، وفقهاء، وخداماً، وحرّاثين، ووكّل الشياطين بقطع الصخور وأذلّهم.

والفرس تزعم أنه سليمان عليه السلام، وأمر بعمل عجلة من زجاج، فكان يركب عليها، وتحمله الشياطين في الهواء من دُباوند إلى بابل في يوم واحد، فاتخذ ذلك اليوم نيروزاً، وهو الذي قتله الضحّاك ونشره بالمنشار على ما بيننا فيما تقدّم^(٢).

وهو أول من أحدث النيروز، وأقام ست مئة سنة مطيعاً لله تعالى، ثم طغى وتجبّر، وبغى وادّعى الربوبية، فطلبه الضحّاك فهرب من بين يديه مئة سنة، ثم ظفر به فنشره، وقيل: إنه ملك ألف سنة، وقيل: خمس مئة سنة^(٣).

فصل

ثم ملك بعده الضحّاك بن الأهبوب، والعرب تزعم أنه منها^(٤)، وقد ذكرناه في سيرة نوح، وأن أفريدون قتله وكابي، وأنه عاش ألف سنة^(٥)، وفيه يقول أبو نواس:
[من المنسرح]

وكان منّا الضحّاك تحذره الـ خابِل^(٦) والوحش في مساربها

(١) ص ١٢٨.

(٢) مرآة الزمان قصة سليمان وقصة الضحّاك.

(٣) تاريخ الطبري ١/١٧٦-١٧٨ و ٢٠٠-٢٠١، وانظر مروج الذهب ٢/١١٢-١١٣، والبدء والتاريخ ٣/١٤٠-١٤١، وتجارب الأمم ١/٦-٧.

(٤) انظر المحبر ص ٣٩٣.

(٥) انظر سيرة نوح عليه السلام في الجزء الأول.

(٦) في النسخ: الحامل، والتصحيح من تاريخ الطبري ١/١٩٤، وديوانه ٢/٢ (برواية حمزة)، وانظر مروج الذهب ٢/١١٤، والخابل: الجن.

فصل

ثم ملك بعده أفريدون بن قَبَاز بن جَمِّ شِيد، وقيل: إنه التاسع من ولد جَمِّ شِيد، وكانت دار مُلكه بابل، ومَلَك خمس مئة سنة، وقسم الأرض بين ولده، وملك الأقاليم كُلِّها، ورَدَّ جميع ما أخذ الضحاك من الغُصوب على أهله، وما لا وَجد له أهلاً وَقَفه على المساكين.

وكان له ثلاثة أولادٍ قسم الدنيا بينهم، فوثب اثنان منهما على واحد، واسمه إيرج، فقتلاه، وقد ذكرناه فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام^(١)، وعاش أفريدون خمس مئة سنة.

فصل

ثم ملك بعده مَنُوجَهْر - ويقال: مَنُوشَهْر - بن إيرج الذي قتله أخواه، وهو ابن أفريدون، وكان ينزل ببابل، ويقال إن موسى ويوشع عليهما السلام كانا في زمانه، وجرت له وقائع مع عمِّيه اللذين قتلأ أباه، وقيل^(٢): كان في آخر أيام الخليل عليه السلام.

قال ابن مسكويه في «تجارب الأمم»: نشأ لإيرج بن أفريدون ولدٌ يقال له: منوجهر، فغلب على مُلك أبيه، وقاوم عمِّيه طوجا وأخاه سرما، ونشأ لطوج^(٣) ولدٌ، فنفى منوجهر عن بلاده، ثم أُدِيلَ منوجهر عليه فنفاه، وعاد إلى منوجهر ملكٌ أبيه إيرج.

وكان منوجهر عادلاً منصفاً محسناً، وهو أولٌ من حفر الخنادق، وجمع آلة الحرب، ووضع الدَّهْقَنَةَ لكل قرية فجعل لها الدَّهَاقين، وجعل لهم العبيد والخول^(٤).

وسار نحو التُّرك، وطلب دمَ جدِّه إيرج بن أفريدون - وقيل: إنه أبوه - فأدرك ثأره، ثم عاد إلى العراق، وقيل: إنه قتل طوجاً وأخاه، وأقام والياً مئة وعشرين سنة^(٥).

(١) سلف في الجزء الأول، وانظر تاريخ الطبري ٢١٢/١-٢١٤، ومروج الذهب ١١٦/٢، والبدء والتاريخ ١٤٤/٣-١٤٥، وتجارب الأمم ١٠/١.

(٢) في (ك): وقال ابن مسكويه، وليست في (خ)، والمثبت من (ب).

(٣) في النسخ: طوخا وأخاه سرما ونشأ لطوخ.

(٤) في تجارب الأمم ١٢/١: وجعل أهلها عبيداً وخولاً.

(٥) تجارب الأمم ١٢/١، وانظر تاريخ الطبري ٣٧٩/١، ومروج الذهب ١١٧/٥.

ومِنْوَشَهْر هو الذي خَطَب تلك الخُطْبَة الطويلة التي ذكرناها فيما تقدّم، لَمَّا تغلَّب التركُ على البلاد^(١).

فصل

وملك بعده أفراسياب بن فارس من ولد أفريدون، ويقال له: التركي؛ لأنه أقام ببلد التُّرك فنُسِب إليها، لا أنه تركيٌّ.

وذكره ابن مسكويه فقال: ثم نشأ أفراسياب بن ترك، وإليه تُنسب الترك من ولد طوج بن أفريدون، فحارب منوشهر، وحصره بطبرستان، ثم إن منوشهر وأفراسياب اصطلحا وضربا بينهما حدًّا لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر بلخ، فلما مات منوشهر تغلَّب أفراسياب على بابل ومملكة فارس، وأقام بمهرجان قَدَق، وعاث في الأرض ودَفَن القُنْيِيَّ، وغَوَّر المياه، فقَحِطَ الناسُ وأصابهم الجَهد والبلاء^(٢)، وقد أشرنا إلى هذا فيما تقدم^(٣).

فلما مضى من ملكه اثنتا عشرة سنة، خرج عليه رجل من ولد منوشهر، واختلفوا في اسمه على أقوال، أحدها: زو بن^(٤) بهماسب، والثاني: زاب بن طهماسب، قاله هارون بن المأمون، والثالث: زوبا، والرابع: زاغ^(٥)، واتَّفَقوا على أنه من ولد منوشهر.

وقال هارون بن المأمون: لما مات منوشهر تغلَّب أفراسياب على الفرس، وأخرب البلاد، وظلم وجار، فقَحِطَ الناس، فظهر زاب بن طهماسب، وكان منوشهر قد طرد أباه إلى بلاد الترك، فتزوج هناك امرأة فولدت له زاب بن طهماسب، فلما كبر زاب قتل جدّه لأمه، وتبعه جنده، فسار نحو أفراسياب، فأخرجه عن بلاد فارس إلى الترك،

(١) انظر فصل في أفريدون.

(٢) تجارب الأمم ١/١٢ و١٧، وانظر تاريخ الطبري ١/٣٨٠ و٤٥٣، ومروج الذهب ٥/١١٧-١١٨.

(٣) انظر فصل في أفريدون.

(٤) في النسخ: دو، والمثبت من تاريخ الطبري ١/٤٥٣، ومروج الذهب ٥/١١٨، والبدء والتاريخ ٣/١٤٧،

وتجارب الأمم ١/١٨.

(٥) في تاريخ الطبري وتجارب الأمم: زو، زاب، زاغ، زاسب.

فكانت مدة افراسياب على بابل لما أخرجه عن بلاد فارس اثنتي عشرة سنةً.
وملك زاب فأحسن السيرة، ووضع الخراج عن العراق سبع سنين، واستخرج النهر المعروف بالزاب من بلاد أرمينية، وقيل: إنما أخرج الأنهار الثلاثة: الزاب الكبير والأوسط والصغير، وسماهم باسمه، وبنى على جانب النهر مدينة، وهي المسمّاة بالعتيقة، وغرس حولها البساتين، وعدل وأحسن، فأخصبت البلاد، وكثرت الخيرات^(١).

وقيل: إن أفراسياب قتل الملك الذي يقال له: زو، وكان مقام زو ثلاث سنين، وأقام زاب في المُلْك سبع سنين، ومات.

فصل

وخلف بعده ولده كَيّ قَبَاذ، وكان جباراً، وله مع التُّرك وقائع، وكان نازلاً على جانب نهر بَلُخ، يمنع التُّرك من الغارات على بلد فارس، وهو أولُ مَنْ أَخَذَ العُشْرَ من الغَلَّات، وكان له وزيرٌ من ولد أفريدون يقال له: كاشف، ويقال: إنهما شركاء في المُلْك، وأقام عشرَ سنين ثم مات^(٢).

ويقال: إن كيقباز ابنُ زو، وزو ابن زاب، ويقال: إن زو كان وزيراً لزاب؛ ذكره ابن مسكويه، وملك ثلاث سنين^(٣).

فصل

ثم ملك بعد كي قباذ ولده كي كاووس، وقيل: كي قابوس بن قباذ، وكان يسكن بناحية بلخ، ووُلد له ولدٌ سماه سياووس أو سياخوس^(٤)، ولم يكن في عصره أجملَ

(١) انظر الأخبار الطوال ص ١٠-١١، وتاريخ الطبري ١/٤٥٤-٤٥٥، وتجارب الأمم ١/١٨.

(٢) ذكر الطبري في تاريخه ١/٤٥٥، وابن مسكويه في تجارب الأمم ١/١٨ أن كرشاسب (أو كرساسف) كان وزيراً لزو، وقيل: كانا مشتركين في الملك، والأول أصح، وذكر الطبري ١/٤٥٦، والمطهر المقدسي في البدء والتاريخ ٣/١٧٤ أن ملك كيقباز كان مئة سنة.

(٣) الذي في تجارب الأمم ١/١٨ أن ملك زو كان ثلاث سنين، وأما ما سبق فلم أجده فيه، وانظر الحاشية السابقة.

(٤) في تاريخ الطبري ١/٥٠٤، ومروج الذهب ٥/١١٨، وتجارب الأمم ١/٢٠، والمنتظم ١/٤٠٠: سياوخش لم يُر مثله في عصره جمالاً وتمام خلقه، وفي البدء والتاريخ ٣/١٤٨: سياوش.

منه، فسلمه إلى إصْبَهَبْد سِجِسْتَان، واسمُه: رستم بن كاشف الذي ذكرناه، وقيل: رستم بن ديسان، ويُعرف بالشديد، فحملة إلى سجستان، وتخير له المراضع، ثم فطم، فأدبه أحسن تاديب، وعلمه الفروسية فبرع فيها، وقدم على أبيه فامتحنه فرآه كاملاً فأعجبه.

وكان لكي قابوس امرأةً بارعة الجمال، وهي بنت أفراسياب ملك الترك، وقيل: بنت ملك اليمن، فهويت سیاووس وهويها، ودعته إلى نفسها فامتنع احتراماً لأبيه، فقالت لأبيه: إنه تعرّض لي، فأفسدت ما بينهما، فأعرض عنه. وفهم سیاووس فسأل رستمًا أن يسأل أباه أن يوليّه حرب أفراسياب ليبتعد عن أبيه، فأجابه إلى ذلك، وأرسل معه جيشاً عظيماً، فلما نزل بلاد أفراسياب صالحه بواسطة وزيره، وعاد عسكر [كي] قابوس إليه^(١).

وزوج أفراسياب سیاووس ابنته، ويقال لها: شافرنند^(٢)، فحبلت منه بولد سمّاه: كي خسرو.

وأقام سیاووس عند أفراسياب، فأحبه الناس ومالوا إليه، فدسّ إليه أفراسياب من قتله غيلةً.

وبلغ كي كاووس ما فعل أفراسياب بابنه، فدسّ إلى بلد الترك من حمل إليه زوجة ابنه سیاووس وولده كي خسرو، ثم أرسل كي كاووس رستمًا إلى أفراسياب، وبعث معه طوس بن نوردان، وكان مرزباناً على رُبْع العراق، فأوغلا في بلاد أفراسياب وقتلا، وقتل طوس قاتل سیاووس، وقتل رستم ولدين لأفراسياب، ويُقال لهما: سهرة وشهرة. ثم إن كي كاووس تجرّ وطغى، وحدث نفسه بصعود السماء، فعمل النسور، ويقال: هو أحد النماردة، وبلغ إلى السحاب فسقط وكاد يهلك، واضطرب عليه ملكه. وكان باليمن يومئذ ملكٌ يقال له: ذو الأذعار بن أبرهة ذي المنار [ابن] الرائش، فغزاه كي كاووس فخرج إليه ذو الأذعار بجيوشه، والتقى فظفر بكيكاووس، واستباح

(١) انظر تاريخ الطبري ٥٠٦/١، وتجارب الأمم ٢١/١.

(٢) في تاريخ الطبري: وسفاريدي.

عسكره، وألقاه في جُبِّ، وأطبق عليه طبقاً من نحاس، ووَكَّل به خواصَّه، وبلغ رستمًا وهو بسِجِسْتان، فجيَّش الجيوش، وسار إلى اليمن، واجتمع إليه عسكرُ كي كاووس، فأخرج كي كاووس من الجُبِّ وظَفِرَ باليمن وعاد إلى بابل.

ويقال: إن رستمًا لما قصد اليمن خرج إليه ذو الأذعار بجيوشه، فخندق كلُّ واحدٍ منهما على عسكره، وطال الأمرُ بينهما، وخافا الهلاكَ على عسكريهما، فاصطلحا على تسليم كي كاووس إلى رستم، فسَلَّمه إليه، وعاد به إلى بابل، فأعفاه كيكاووس لرستم من الخدمة، وأقطعه سِجِسْتان وغيرها، وعَرَف له ما فعل معه.

وقيل: إن كي كاووس أقام في الجُبِّ سبعَ سنين^(١)، وفيه يقول أبو نُوَاس يفتخر باليمن على الفرس: [من المنسرح]

وقاظ كاووسُ في سلاسلنا سنينَ سبعاً وَفَتَ لحاسِبِها^(٢)
ويقال: قابوس.

وكان كي كاووس بين يوسف وأيوب، واختلفوا في مُدَّة مُلِكِه على قولين: أحدهما: أربعون سنة، والثاني: مئة سنة.

فصل

وملك بعده ابنُ ابنه كي خسرو بن سياووس، الذي أمه بنت أفراسياب، وتَحَيَّل جدُّه كيكاووس حتى حملها إليه إلى بابل، وقد ذكرناه.

فجلس كي خسرو على السَّرير وعلى رأسه التَّاج، وسار يطلب ثأر أبيه من جدِّه لأمه أفراسياب، وكتب إلى إصْبَهَبْد خُرَاسان واسمه جودر^(٣) يأمره بالتقدم إلى أفراسياب، فسار، ثم بعث طوس بن بوذران في ثلاثين ألفاً ومعه عم لكي خسرو يقال له: برزافره^(٤) بن كي كاووس، وكان سياووس بن كي كاووس قد تزوج في الترك امرأة،

(١) جاء عقب هذا في (ب) غزو قابوس لملك اليمن شمر يرعش، ثم بيت أبي نواس وستأتي في (خ) و (ك) بعد ذكر زرادشت، وهناك موضعها.

(٢) ديوان أبي نواس ٣/٢، وانظر: تاريخ الطبري ١/٥٠٤-٥٠٩، وتجارب الأمم ١/٢٠-٢٢.

(٣) في تاريخ الطبري ١/٥٠٩، وتجارب الأمم ١/٢٣: جودرز.

(٤) في النسخ: بزافرة، والمثبت من تاريخ الطبري وتجارب الأمم.

فولدت له ولداً فسماه فردوين، ووُلد قبل أن يُولد كيخسرو، وأم فردوين من بعض نساء الأتراك.

وأوصى كي خسرو طوساً ورستمياً أن لا يقتلا أخاه لأبيه فردوين، فلما التقى العسكران خرج فردوين يقاتل، فقتله طوس - وقيل: قُتل في جملة الناس - وبلغ كي خسرو فحزناً على أخيه، وكتب إلى عمه برزافره أن يقيد طوساً ويبعث به إليه، ففعل. وعبر كي خسرو النهر، وقسم عسكره قسمين من ناحيتين، ودخل إلى الترك، فلم يكن لأفراسياب به طاقة، فانهزم، وأكثر الفرسُ القتلَ في الترك. قال ابن مسكويه: فلم يكن قط مثل ذلك، كان القتلى خمس مئة ألف وستين ألفاً على ما تزعم الفرس، والأسرى ثلاثين ألفاً، والغنائم لا تُحصى^(١).

وتبع كي خسرو أفراسياب، فظفر به عند سيره، فأسره، ثم أحضر الملوك والموابذة والعلماء وقال لهم: ما جزاء من استجار به خائف والتجأ إليه فعدا عليه فذبحه؟ فقالوا: يُفعل به كما فعل. فقال له: لم ذبحت أبي؟ فلم يكن لأفراسياب حجة، فذبحه. وعاد إلى خراسان وقد صفت له الدنيا، فبنى مدينة بلخ وسماها الحسناء^(٢)، وأقام بها.

ولما استقامت له الدنيا تزهد وتنسك، وعهد إلى ولده لهراسب، فلما رأى ذلك أهل مملكته جزعوا لفقدته، وتضرعوا إليه، فقال: قد أقمْتُ لكم من ينظر في أموركم، وهو ولدي لهراسب. وقيل: إنه لم يكن ولده، وإنما كان صاحبه خصيصاً به، وكان ملك كي خسرو ستين سنة، وخفي أمره.

فصل

ثم ملك بعده لهراسب، ويقال: إنه الذي كان بُختُ نصرُ إصبهاند عسكره، وفي أيامه فعل بخت نصر بني إسرائيل ما فعل. قالوا: وفيه بُعد، بينهما زمان طويل، وملك لهراسب عشرين ومئة سنة، ثم مات.

(١) تجارب الأمم ١/٢٤-٢٥، وانظر تاريخ الطبري ١/٥١٢.

(٢) في تاريخ الطبري ١/٥٣٨، ومروج الذهب ٥/١٢١، وتجارب الأمم ١/٢٦ أن الذي بنى بلخ وسماها الحسناء لهراسب الذي ملك بعد كيخسرو.

فصل

ثم ملك بعده بشتاسف بن لهراسب، فغزا بلاد الترك وأوغل فيها، ويقال: إن أباه لم يمت، وإنما عهد إليه.

ولما دخل بلاد الترك خلف أباه لهراسب ببلخ في أثقاله، فجاء ابن أخي أفراسياب فقطع النهر وحاصر بلخاً، ولم يثبت له لهراسب، وكان قد كبر وأسنَّ فقتله ابن أخي أفراسياب، وأسر ابنتين كانتا لبشتاسف، يقال لإحدهما: خُماني، والأخرى: ياذفوه^(١). وبلغ بشتاسف فعاد، وكان قد حبس ولده اسفنديار، فأطلقه وجَهَّز معه الجيوش، فدخل بلاد الترك، وهزم ابن أخي أفراسياب، وقتل عسكره، وسبى، واستنقذ أختيه، وعاد إلى أبيه، فخاف منه أبوه، فأرسله إلى رستم وكان قد عصى عليه، فقتله رستم.

وفي أيام بشتاسف رجع بنو اسرائيل إلى القدس، وعاش العزير، فظهرت المجوسية على يد زَرَادُشتِ المجوسي.

فصل في ذكره

قال علماء السِّير: هو زَرَادُشت بن أسيمان^(٢)، من ولد مَنُوجِهَر، ادَّعى أنه نبيُّ المجوس، وظهر بأذريجان، فكان يُخبر بالعجائب، فيقول: يموت فلان في اليوم الفلاني، ويولد فلان في الوقت الفلاني، وأشباه هذا. وقيل: كان ساحراً.

وجاءهم بكتاب سمّاه: «بستاه»، يدور على ستين حرفاً من حروف الهند، فيه الغرائب، حتى قيل: إنه يكتب في الرفوف، ويُجلّد بجلد اثنتي عشرة ألف بقرة^(٣). قلت: وهو قول بعيد. ولم تزل ملوك الفرس تُعظّمه وتعمل به، وتبني له الهياكل، حتى غزاهم الإسكندر اليوناني فأحرق بعضه، وبقي بعضه في خزائن الهند.

(١) في تاريخ الطبري ١/٥٦٢: باذفراه.

(٢) في (خ) و(ك): أسمان، وفي (ب): أشمان، والمثبت من مروج الذهب ٥/١٢٤، وعند الطبري ١/٥٦١: أسفيمان.

(٣) في تاريخ الطبري ١/٥٦١، وتجارب الأمم ١/٣٠: فكتب في جلد اثني عشرة ألف بقرة حفرأ في الجلود ونقشاً بالذهب. وانظر مروج الذهب ٢/١٢٥.

ويقال: إن زرادشت كان خادماً لبعض تلامذة العُزير أو إرميا، فسرق من علوم بني إسرائيل، فدعا عليه أستاذه فبرص، ولحق بأذربيجان، ثم سار منها إلى بشتاسف وهو ببلخ، فادّعى النبوة وجاء بهذا الكتاب، وقال: أوحى إليّ به، فصدّقه بشتاسف، وبنى له هيكلًا بإصطخر، ووكل به الموازنة^(١)، وألزم الخواص والحكماء تعليمه، وخالف زرادشت جماعة، فقتلهم بشتاسف حتى أفنى خلقاً كثيراً، فانقادوا له، وبنى له بيوت النيران.

وقد ذكره الجاحظ فقال: كان زرادشت يزعم أن الوحي ينزل عليه على جبل سيلان أو جيلان، فدعا أهل تلك النواحي الباردة الذين لا يعرفون الحرّ، وجعل الوعيد بتضاعف البرد، وقال: لم أبعث إلا إلى أهل الجبال فقط. وأباح الوضوء بأبوال الإبل، وأباح غشيان الأمهات والبنات والأخوات وذوات المحارم، وقال: أنتم أحقّ بهنّ من غيركم. وعظّم أمر النيران^(٢).

وكان يقول: كان الله ولا شيء معه، فطالت وحدته ففكر، فتولّد من فكره إبليس، فلما مثل بين يديه أراد قتله، فامتنع عليه، فوادعه إلى مُدّة، وسألته إلى غاية^(٣).

وكانت نبوة زرادشت على زعمه خمسا وثلاثين سنة، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة.

وما زال كتابه يُعمل به إلى زمان كسرى أنوشروان، فأبطل العمل به، وأحرقه الإسكندر، وبقيت منه سورة، فلما ظهر أردشير بن بابك جمع الفرس على تلك السورة، ويقال لها: اسناجه^(٤)، فالفرس إلى هلمّ جراً يعظّمونها، وقيل: اسمها اسمار.

ولما مات زرادشت أقام لهم بشتاسف جاباس^(٥) من أهل أذربيجان، وهو أول موبد قام فيهم بعد زرادشت.

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٥٦١، وتجارب الأمم ١/ ٣٠: الهراينة.

(٢) الحيوان ٥/ ٦٧ و ٣٢٤-٣٢٥، ونقله المصنف عن جده في المنتظم ١/ ٤١٣.

(٣) المنتظم ١/ ٤١٣، وانظر التنبيه والإشراف ص ٩٧.

(٤) في مروج الذهب ٢/ ١٢٥: اسنادا.

(٥) في مروج الذهب ٢/ ١٢٧: خاناس، ومن قوله: وما زال كتابه... إلى: وهو أول موبد قام فيهم بعد زرادشت؛ جاء في (ب) مؤخراً بعد مدة ملك بشتاسف.

قلت: وقد كان للمجوس نبيٌّ وكتابٌ، إلا أنه لا يتحقَّق ذلك، فروى أبو زرعة المقدسي أو الدمشقي: أن فروة بن نوفل قال بمحضر من الصحابة: علام تُؤخذ الجزية من المجوس وليسوا أهلَ كتاب؟! فقام إليه المستورد بن شداد فقال: يا عدوَّ الله، أتردُّ على الخلفاء الراشدين؟! وذَهَبَ به إلى علي عليه السلام، وأخبره بما قال، فقال علي: أنا أعلمُ الناسَ بالمجوس، كان لهم علم يتعلَّمونه، وكتابٌ يدرسونه، وإن ملكهم سَكِر، فوقع على أمه أو ابنته، فاطلع عليه بعضُ أهل مملكته، فلما صحا جاؤوا يُقيمون عليه الحدَّ، فامتنع، وقال: هل تعلمون ديناً خيراً من دين آدم؟ قالوا: لا. فقال: قد كان يُزوّج ابنه من ابنته. فاتَّبِعوه - أو تابعوه - على ذلك، وقتلوا مَنْ خالفه، فأصبحوا وقد أسري بكتابهم، وذهب ذلك العلم الذي في صدور الباقيين^(١).

وقال ابن عباس: لما مات نبيُّهم كتب لهم إبليس المجوسية.

قلت: وقد أخذ النبي ﷺ الجزية من مجوس هَجَرَ على يد العلاء بن الحضرمي، وكذا الخلفاء الراشدون بعده.

وعامةُ العلماء على أنه لا يجوز للمسلم نكاحُ المجوسية، وقال أبو ثور: يجوز، قياساً على أهل الكتاب، فإنه يُؤخذ منهم الجزية. ولعامة العلماء قوله عليه السلام: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب، غير آكلي ذبائحهم، ولا ناكحي نسائهم»^(٢)، وقد بينا أنهم ليسوا بأهل كتاب.

قلت: وبشتاسف بن لُهراسف صاحب هذه الترجمة أقام في الملك مئة وعشرين سنة، ثم مات.

وظاهر الروايات يدل على أن لُهراسب والد بشتاسف ولي بعد كي خسرو بن سیاووس على ما ذكرنا.

(١) القصة والقول في المنتظم ١/٤١٣-٤١٤، وانظر الخراج لأبي يوسف ص ١٣٠، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/١٨٨-١٨٩.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص ١٣٠، ومالك في الموطأ ١/٢٧٨ من حديث عبد الرحمن بن عوف. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢/١١٤: هذا حديث منقطع، وانظر الاستذكار ٩/٢٩٢، وسنن البيهقي ٩/١٨٩ - ١٩٠، وفتح الباري ٦/٢٦١.

وقال بعضهم: إنما ولي بعد كي خسرو [كي] قابوس من ولد أفريدون، وتجرَّ وطغى، وسار إلى اليمن وبها ملك يقال له: شميرعش، فخرج إليه [شمر] فأسر كي قابوس وحبسه في أضيقي الحبوس، فنظرت إليه ابنة لشمر فهويته، واسمها: سعدى، وكانت تحسن إليه وإلى أصحابه سرًّا مدة أربع سنين، فسار إليه رستم من خراسان في أربعة آلاف سرية^(١)، فلم يشعر به شميرعش إلا وقد بغته، فقتله، واستنقذ كي قابوس وردّه إلى ملكه، فأخذ سعدى معه إلى بابل، وأحسن إليها، فهويت ولده سیاووس فلم يطاوعها، فأغرت بينه وبين أبيه حتى كان من أمره مع أفراسياب ما ذكرناه، وتزويجه ابنته وقتله إياه، وقتل كي خسرو أفراسياب بأبيه على ما ذكرناه. ويقال: إن رستمًا قتل سعدى. والرواية الأولى أشهر.

وقيل: إن كي خسرو لم يكن له عقب، فعمد إلى لهراسب لأنه من بيت الملك.

ويروى أن كي خسرو غزا الشام والمغرب، وسبى امرأة من بني إسرائيل اسمها دنيا، فتزوجها، فيقال: إنها كانت سبباً لرجوع بني إسرائيل إلى القدس.

فصل

ولما مات بشتاسف ملك بعده ولدّه اسفنديار، ويقال: أردشير، ويقال: بهمن، وهو جدُّ دارا الأكبر وأبوساسان، ومعنى بهمن: الحسن.

ويقال: إن بهمن ابن اسفنديار بن بشتاسف، وكانت أمُّ بهمن من بني إسرائيل ولد سليمان عليه السلام، وجرت له مع رستم حروب، وكان ملك بهمن عشرين ومئة سنة^(٢).

وفي أيامه رُدَّ البيت المقدس إلى بني إسرائيل، وقيل: إنما رُدَّ في زمان كورش الفارسي نائب بهمن بالعراق، وكان بهمن يبلغ يومئذٍ، ويقال: إن دانيال الأصغر خال بهمن. وملك بهمن الأقاليم كلّها.

(١) في مروج الذهب ١١٩/٥ وما بين معكوفين منه: أسرى رستم من بلاد سجستان سرية في أربعة آلاف.

(٢) في تاريخ الطبري ٥٦٩/١، ومروج الذهب ١٢٧/٢، والتنبيه والإشراف ص ٩٨، والبدء والتاريخ ٣/

١٥٠، والمنتظم ٤٢١/١ أن ملكه كان مئة واثنى عشرة سنة، وقيل: ثمانين سنة.

وقال الجاحظ: كان بهمن يُدعى أردشير الطويل الباع، لأنه كان يتناول ما تمتدُّ إليه يده من الممالك، ويقال: إنه بنى الأُبُلَّةَ، ويقال: إنه جدُّ دارا الأكبر، وقيل: أبوه وأبو ساسان^(١).

وكانت لبهمن ابنةٌ يقال لها: خُماني، حملت من أبيها بدارا الأكبر^(٢)، وكانت أديبةً عاقلةً، وكان ساسان قد ولده بهمن من امرأةٍ أخرى، فسألت خماني أباها أن يعقد التاج على بطنها لدارا، ففعل، وكان ساسان يتوقَّع المُلكَ، ومات أبوه، ومال إليها أهلُ المملكة لإحسان أبيها إليهم فملكوها.

فلما رأى ذلك ساسان تعبد وتسنَّك، ولحق بجبال إصطخر، واتخذ غنيمَةً، وكان يتولَّأها بنفسه - وهذا هو ساسانُ الأكبر، أما ساسان الأصغر فهو أبو الفرس الثانية - ولما اتخذ الغنيمَةَ استقبح الناسُ هذا، وقالوا: صار ساسانُ راعياً.

ثم وضعت خماني بعد شهر من موت بهمن دارا بن بهمن، وكانت قد استولت على الممالك، وجَهَّزت الجيوش إلى الروم، فمنعتهم عن التطرف إلى بلاد فارس، وعاش الناس في أيامها.

فلما وضعت دارا أنفت من إظهاره لاستقلالها بالملك، فجعلته في تابوت، وجعلت معه جوهراً نفيساً، وألقته في نهرٍ من أنهار إصطخر، فساقه الماء إلى طاحونةٍ لرجل من أهل إصطخر، ففتح التابوت، فرآه ورأى ما معه فقال: لهذا شأنٌ. وكنتم أمره، وربَّاه، وعلمه الفروسية.

وظهر أمره للفرس، وبلغ أمه، فأحضرت الأساورة وأحضرتَه، واعترفت أنه ابنُها من بهمن، وحوَّلت التاج عن رأسها ووضعتَه على رأسه، وفوَّضت إليه أمرَ المُلكِ، وانتقلت خماني إلى إصطخر، وبنت مدينةً إصطخر، وأقامت ثلاثين سنةً عادلةً محسنةً عاقلةً.

(١) ذكره ابن الجوزي في المنتظم ٤١٦/١ دون عزو للجاحظ، ولم نقف عليه في كتبه.

(٢) في هامش (ك) حاشية نصها: لعن الله الجوس، كيف تتحرك جوارحهم وشهواتهم على بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم، فهذا من فساد مركزوز في جبلاتهم، لعنهم الله.

وقد قيل: إن خماني إنما حملت بساسان من بهمن، وأنه الذي ألقته في النهر، وليس بصحيح، والأول أصح.

وتُوفيت خماني بعد عمارة القدس في زمان دانيال الأصغر بست وعشرين سنة^(١).

فصل

ولما تُوفيت استقلَّ ابنُها دارا بالملك، فضبط الممالك، وأحسن السيرة، ونزل بابل، فكان من حوله من الملوك يُؤدُّون إليه الإتاوة، يعني الخراج. ووُلد له ولد فسماه دارا الأصغر، وكان معجباً به، وبلغ من حبه إياه أنه سماه باسمه، وعهد إليه بعده. وملك دارا الأكبر اثنتي عشرة سنة، ومات.

فصل

فملك بعده ولده دارا الأصغر، فأساء السيرة، وظلم الرعية، وتجبَّر وطغى وبغى، وقتل الأساورة.

وكان سببُ فساد حاله أنه كان لأبيه دارا الأكبر وزيراً يقال له: رشين^(٢)، وكان عاقلاً، وكان لدارا غلامٌ قد رُبِّي معه اسمه: بيري، فجرى بين بيري وبين الوزير كلامٌ، فأساء أدبه على الوزير، فأخبر الوزير دارا الأكبر بذلك، فسقى الغلام شربة فمات، فحقد دارا الأصغر على الوزير، فلما مات دارا الأكبر وولي دارا الأصغر قتل جماعة الوزير، واستوزر أخا الغلام بيري، ولم يكن أهلاً للوزارة، فأفسد عليه قلوب الناس، فاستوحشوا منه، ونفروا عنه، وكاتبوا الإسكندر الرومي، فسار إليه فقتله لما نذكر.

واختلفوا في مدة ملك دارا الأصغر؛ فقيل: ملك أربع عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وهو آخر ملوك الفرس الأول.

قلت: وقد اختلفوا في عددهم وسنينهم اختلافاً كبيراً، أشار إليه الجاحظ، ومحمود بن الحسن الأصبهاني في «تاريخه»، وأبو معشر، والمسعودي. وقد ذكرت في

(١) انظر الأخبار الطوال ص ٢٧-٢٨، وتاريخ الطبري ١/٥٦٩-٥٧٠، ومروج الذهب ٢/١٢٧-١٢٩، والبدء والتاريخ ٣/١٥٠-١٥٢، وتجارب الأمم ١/٣٤، والمنتظم ١/٤٢١-٤٢٢.

(٢) في تاريخ الطبري ١/٥٧٢: رشتين، وفي تجارب الأمم ١/٣٥: رشتين.

كتابي هذا ما اشتهر من عدد ملوكهم، وسنينهم، وما قالوه.

قال الجاحظ فيما حكاه: فعَدَّة ملوك الفرس الأولى ستة عشر ملكاً وامرأة، ومدة ما ملكوا من السنين ثلاثة آلاف سنة وزيادة.

وقد ذكرنا ذلك، فإن كان كيومرت عاش ألف سنة، وجم شيد ألف سنة، والضَّحَاك ألف سنة، فيكون المبلغُ أكثر مما ذكر الجاحظ.

وقد قسمهم محمود بن الحسن الأصبهاني في «تاريخه» أربع طبقات قال: الفيشدانية، والكيانية، والأشغانية، والساسانية.

قال: فالفيشدانية عددهم تسعة ملوك، أولهم أوشهنج، ويلقب: فيشاد، وزمان ملكهم ألفان وأربع مئة وسبعون سنة.

والطبقة الثانية: وهم الكيانية، وعددهم عشرة، وأولهم كي قباد، وزمان ملكهم سبع مئة سنة.

والطبقة الثالثة: وهم الأشغانية، وعددهم أحد عشر ملكاً، وزمان ملكهم ثلاث مئة وأربع وأربعون سنة، وأولهم أشك بن أشك.

والطبقة الرابعة: الساسانية، وعدتهم أربع وعشرون ملكاً، وزمان ملكهم أربع مئة وتسع وسبعون سنة، وأول ملوكهم أردشير بن بابك، وآخرهم يزدجرد بن شهريار المقتول في أيام عثمان بن عفان.

قلت: وقد لحق الأصبهاني ما ذكر في كتابه وزيادة، لأنه قال: تواريخ الفرس مدخولة غير صحيحة، لأنها نُقلت من لسان إلى لسان، ومن خط متشابه إلى مثله.

قال: وقد لخصت ما وقع لي من كتب ابن المقفع، ومحمد بن الجهم، وخزانة المأمون، وغير ذلك.

وقد وهم؛ لأنه خلط الفرس الأولى بالثانية، وجعل الجميع أربعاً وأربعين ملكاً، وعدد سنينهم - على ما قالوا - زيادة على أربعة آلاف سنة.

وقال ابن الكلبي: ملوك الفرس ستون ملكاً. وقال السدي: ثمانون، وثلاث نسوة.

وسنذكر الفرس الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل في سيرة الإسكندر اليوناني وهو الثاني

واختلفوا في نسبه، قال الغزالي: إن الإسكندر الرومي هو الصَّعب بن جابر، وكان أبوه نَسَاجاً، واسم أمه هيلانة، وكان يتيماً في حمير، سمعت أمه بيت الصنائع في القُسطنطينية فحملته إليه، فشهد صور الأشياء، فقالت له: اختر ما تريد، فوضع يده على تاج الملك، فنَهته مراراً فلم ينته، فنظر إليها يونان متولّي بيت الصنائع، فقال لها: أنت هيلانة؟ قالت: نعم. قال: وهذا ابنك الصَّعب بن جابر^(١)؟ قالت: نعم. فأخذ عهده وذمامه أنه وذريته في أمانه، وقال له: أبشر، فأنت الملك الذي يسحب ذيله على أقطار الدنيا شرقاً وغرباً.

فرجعت به أمه إلى بابل وكتمت أمره. فرأى في ثلاث ليالٍ ثلاث منامات: رأى في الأولى كأنه شرب مياه البحار كلّها، وأكل طينها، ورأى في الثانية: كأنّ الأرض صارت خُبزةً فأكلها، ورأى في الثالثة: كأنه رقي إلى السماء، فعد نجومها ورمى بها إلى الأرض، وركب الشمس، وسحب بناصية القمر. فاجتمع بالخضر فأخبره بما رأى، فبشّره بنيل الممالك، وقال له: استصحب نبياً وحكيماً.

قال المصنف رحمه الله: يا ليت شعري، من أين روى أبو حامد الغزالي هذه الروايات؟! وهل توجد في كتاب يُوثق به من المنقولات؟ وهل قال قائل: إن الإسكندر الثاني اسمه الصَّعب بن جابر؟ إنما هو الأول. وقوله: كان أبوه نَسَاجاً، وقد اتَّفَق أرباب السِّير أنه ملك اليونان. وقوله: يتيماً في حمير، وأين اليونان من حمير؟! وقوله: حملته أمه إلى القُسطنطينية، وهل بُنيت إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بمدة طويلة؟! وقوله: رأى الخضر، وأين هو من الخضر؟! بينهما زمانٌ طويل، وقوله: استصحب معك نبياً، وهل كان اليونان يقرون بالنبوات؟!.

وقد نسبه الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في «المنتظم» فقال: هو الإسكندر ابن فيلفوس بن مرطويس^(٢) بن هرمس بن هردس بن منظور^(٣) بن رومي بن لمكي^(٤) بن

(١) في هامش (ك) حاشية: الصَّعب وجابر من أسماء العرب لا اليونان.

(٢) في (ب) برطويس، وفي الطبري ٥٧٧/١، والمنتظم ٤٢٤/١، والكامل ٢٨٤/١: مطريوس.

(٣) في (ب) وتاريخ الطبري ٥٧٧/١: ميطن.

(٤) في تاريخ الطبري ٥٧٧/١: ليطي، وفي مروج الذهب ٢٤٨/٢: لبط، وفي المنتظم ٤٢٥/١: يلطي.

يونان بن ثوبة بن سرحون بن رومية بن بوبط بن زرمي بن الأصفر بن إيلنفر^(١) بن العيص ابن إسحاق عليه السلام، وكان أبوه ملك اليونان.

وقال علماء السير: وُلد الإسكندر لثلاث عشرة سنة مضت من ملك الأراكنة، وسلّمه أبوه إلى أرسطاطاليس الحكيم، وكان مقيماً بمدينة اقمينية^(٢)، فأقام عنده خمس سنين يتعلّم منه الحكمة والأدب، فنال منه ما لم ينله أحدٌ من تلامذته. ومرض أبوه فخاف على الملك، فاستردّه وعهد إليه ومات، فاستولى الإسكندر على الملك، وكانت الملوك تهابه.

قصته مع دارا^(٣)

كان أبوه ملكاً على بلاد اليونان، وتهابه الملوك إلا الفرس، فصالحه دارا بن دارا ملك فارس على أن يحمل إليه في كل سنة ألف بيضة من ذهب، في كل بيضة مئة مثقال. فلما مات فيلوس لم يحمل إليه الإسكندر شيئاً، فكتب إليه دارا يهدّده ويتوعّده حيث أخر الإتاوة، وبعث إليه بكرة وصولجان وخرقة فيها سمسم، وقال: أنت صبي، فالعب بهذه الكرة والصولجان، فإن أدت الإتاوة وإلا بعثت إليك بجنودٍ بعدد هذا السمسم، وأتيتُ بك في وثاقٍ.

فكتب إليه الإسكندر: أما بعد، فقد تيمّنت بالكرة والصولجان، فإن الدنيا مثل الكرة وسألعب بها، وأضيف ملكك إلى ملكي، وأما السمسم فقد تيمّنتُ به لأنه بعيد عن الحرافة^(٤) والمرارة، وأما الدجاجة التي كانت تبيض ذاك البيض فقد ذبحتها وأكلت لحمها.

فغضب دارا وسار إليه بجموعه، وسار إليه الإسكندر بجموعه، فالتقيا على نصيبين الجزيرة، وقيل: مما يلي الخزر من ناحية خراسان، والأول أصحّ.

فلما همّ دارا باللقاء، بعث إليه الإسكندر يقول له: أيها الملك لا تفعل، فإن دماء

(١) في المنتظم: زوفي بن الأصفر بن أليفز، وفي الطبري والكامل: رومي بن الأصفر بن أليفز.

(٢) في تاريخ الطبري ١/٥٧٣، والكامل ١/٣٨٢: مقدونية.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١/٥٧٣، والأخبار الطوال ص ٢٩-٣٢، ومروج الذهب ٢/٢٤٧، والبدء والتاريخ ٣/١٥٢، وتجارب الأمم ١/٣٥، والمنتظم ١/٤٢٣.

(٤) الحرافة: طعمٌ يُحرق اللسان. «لسان العرب»: (حرف).

الملوك لا يجوز إراقتها، وهدم البيوت القديمة غير محمود، والبغي مصرعه وخيم، والحرب غير مأمونة، وأصحابك قد ملُّوك وكرهوك لسوء سيرتك، فارجع من حيث جئت، فإنك تحمد قولي. فلم يلتفت دارا، وأقاما يتحاربان سنة، فملاً وكلاً، والحرب بينهما سجال.

ذكر حيلة دبرها الإسكندر

لما وقع المملُّ من الفريقين برز منادي الإسكندر فقال: يا معاشر الفرس، علمتم قديماً [ما] كان من مكاتباتكم إلينا، وما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان منكم مقيماً على الوفاء فليتحوّل إلينا، فله منا الوفاء بالعهد. فاتَّهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا، فكان ذلك سبباً لخذلان دارا، ووُثب عليه رجلان في المعركة ممن أحسن إليهما من خلفه، فطعناه، فوقع.

وكان الإسكندر قد نادى: مَنْ ظفر بدارا فلا يؤذيه، وجاء الرجلان إلى الإسكندر فقالا: قد قُتل دارا. فجاء الإسكندر إليه ونزل عن فرسه ووجده بعد حياً، فقعد عند رأس دارا، وقال: والله ما هممتُ بقتلك، ولا سرّني ما أنت فيه، ولقد نهيتُ عنه، ويعزّ عليّ ما أصابك، ثم رَقَّ له وبكى عليه، وقال: سلني حاجةً، فقال: تقتل فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني، فإني كنتُ محسناً إليهما، وأن تتزوج ابنتي روشنك، فقال: سمعاً وطاعة. وأحضر الرجلين ومثّل بهما، وقال: هذا جزاء مَنْ يتجرأ على ملكه.

وتفرق ملك فارس بقتل دارا، وكان مجتمعاً، واجتمع ملك اليونان والروم بالإسكندر، وكان متفرقاً.

ثم سار الإسكندر إلى بابل، وجلس على سرير الملك، ثم قال: أدالنا الله من دارا، وورزقنا خلاف ما كان يتوعّدنا به.

ثم استولى على خزائنه وذخائره وسلاحه وجواهره، فلم يقدر على إحصائها، وتزوج ابنته روشنك، وبنى لها داراً، وقيل: مدينة عند بابل، ولم يكن لها في زمانها نظير. وقيل: إن روشنك كانت زوجة دارا، ولم يكن في زمانها أجمل منها، فقيل له: ألا تتزوجها، فقال: أكره أن يُقال: غلب الإسكندر دارا، وغلبت عليه روشنك.

ولما استولى على مُلك فارس عرض جيشه فكان ألف ألف وأربع مئة ألف، وكان
عسكرُ دارا ألف ألف، وعسكر الإسكندر أربع مئة ألف.

وشرع فهدم بيوت النيران، وقتل الموايذة، وأحرق كتبهم، وسار إلى الشرق فأوغل
في الهند والصين، وفتح المدائن، ودانت له الملوك، وبنى مدينة أصبهان وهراة ومرو
وسمرقند.

ولما وصل إلى الهند خرج إليه ملكها في ألف فيل عليها المقاتلة، وفي خراطيمها
السيوف، فلم تثبت لها خيل الإسكندر، فصنع فيلة من نحاس مجوّفة، وربط خيله بينها
حتى ألفتها، وملاها نبطاً وكبريتاً، ثم ألبسها السلاح، وجرها على العجل إلى ناحية
العدو، وبينها الرجال، فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في أجوافها، فلما أشعلت
تنحّت عنها الرجال، وغشيتها فيلة الهند، فضربت بها بخراطيمها، فاحترقت وولّت
هاربةً، فكانت الدائرة على ملك الهند.

ذكر قصته مع بود ملك الصين

وهو صاحب مدينة المانكير، ولما نزل الإسكندر على المانكير خرج إليه الملك،
وأرسل إليه يقول: علام تُفني العالم؟ ابرز إليّ، فإن قتلتي كنت الملك، وإن قتلتك
فأنا الملك. فتيمن الإسكندر لكونه بدأ بنفسه في ذكر القتل، فبرز إليه، فتجاولا ساعةً،
فقتله الإسكندر وأخذ بلاده.

ذكر قصته مع كند (١)

كان بأقصى الهند ملكٌ حكيمٌ عادل، صاحب سياسة، واسمه كند، أتت عليه سنون
كثيرة. فكتب إليه الإسكندر يستدعيه ويتوعّده إن تأخر عنه. فكتب إليه يتلطفه ويعتذر إليه
بِكبر السنّ ويقول: قد بعثت إليك بهدايا لم يقدر عليها أحد من الملوك، منها:
فيلسوف يخبر بالمقصود قبل أن يُسأل عنه، وطبيب لا يُخاف معه إلا الداء المحتوم،
وجارية لم تطلع الشمس على مثلها، وقدح إذا ملأته شرب منه جميعُ عسكر لا ينقصُ
منه شيء.

(١) انظر مروج الذهب ٢/٢٦٠.

فلما وصلت الهدية إلى الإسكندر مع خواص الملك، أكرمهم وأحسن إليهم، وشاهد الجارية فحار في حُسنها، وأكرم الطبيب، وأنزل الفيلسوف قريباً منه وامتحنه، فأرسل إليه قدحاً مملوءاً سمناً لا يسع شيئاً آخر، فغرز الفيلسوف فيه إبراً وردّه، فأمر الإسكندر بسبك تلك الإبر كُرّةً مدوّرةً متساوية الأجزاء، وردّها إلى الفيلسوف، فأمر الفيلسوف بسبكها مرآةً صقيلةً وردّها إلى الإسكندر، فأعادها إليه، فدعا الفيلسوف بطشت فتركها فيه، وأمر بصبّ الماء عليها، ثم عمّل منها مشربةً وجعلها في الماء فطفّت، وأعادها إلى الإسكندر، فملأها تراباً وردّها إلى الفيلسوف، فلما رآها بكى وتغيّرت أوصافه، وردّها، وجعل يبكي ويقول: ويحك يا نفس، ما الذي قذّف بك في هذه الظلمة؟ ألسنت إذا كنتِ تسرحين في النور، وتَمْرَحين في العلوّ، ثم أنزلت إلى العالم المظلم، عالم الكون والفساد، أين مصادرك الطيبة، ومواردك اللذيذة؟ حللت بين السّباع الضّارية، والأفاعي المهلكة، لا تشاهدين إلا غافلاً، ولا تُعاشرين إلا جاهلاً، وذكر كلاماً طويلاً.

وبلغ الإسكندر، ففهم أنه أشار إلى نقل النفوس من العالم العلوي إلى العالم السفلي، فاستدعاه، فرآه حسن الصورة، مشرق اللون، فقال: ما معنى غرز الإبر في السّمن؟ فقال: فهمتُ من إرسال القدح أنك تقول: قد امتلأ قلبي بالحكمة كما ملئ هذا القدح، فليس فيه مُستزاد، فأخبرتك أن حكمتي تزيد على حكمتك، وتدخل فيها دخول الإبر في السّمن.

قال: فلم عملت الإبر مرآة؟ قال: لأنني علمتُ أن قلبك قد قسا من سفك الدماء، وسياسة العالم، فأريتُك أفعالك فيها. قال: فما الكرة؟ قال: الدنيا. قال: فما بال المشربة؟ قال: هي حبُّ الدنيا، تُشربُ ولا تُشبعُ. قال: فلم طفّت؟ قال: فلم يطفو الأجل؟ قال: فما بال التراب؟ قال: فهمتُ أنك تقول: ما بقي غير النزول فيه، ومفارقة النفس الناطقة هذا الجسد، وذكر كلاماً طويلاً.

فأعجب به الإسكندر، ودفع له أموالاً جليّة فلم يقبلها، وقال: لو أردت المال ما أترت عليه العلم، ولست أدخل على علمي ما يُنافيه، وليس بعاقلي من خدم غير ذاته، واستعمل ما لا يصلح نفسه، والذي يصلحها صقالها بالحكمة، وردّعها عن تناول

اللذات، فإنها صدّوها، ومن عدم النظر في العالم العلوي عدم القربة من بارئه. فقال له الإسكندر: لله دَرُك. ولأحسننّ إلى صاحبك لأجلك، ثم صرفه مكرماً.

ذكر واقعة أخرى

لما توغّل الإسكندر [في] بلاد الصين، بينا هو في بعض الليالي جالساً نصف الليل إذ دخل الحاجب، فقال: رسولُ ملك الصين على الباب. فأذن له، فدخل فجلس، فقال له: قل. فقال: الأمر الذي جئتُ فيه لا يحتمل الزّحام، فأخّلني. ففتّشوه، فلم يجدوا معه حديداً، فأخلى المجلس وبقي هو وإياه، فقال له: قل، فقال: أنا ملكُ الصين. قال: وما الذي آمنك مني؟ قال: ليس بيني وبينك عداوةٌ، ولا مطالبةٌ بدخّل، وبلغني أنك رجل عاقل حكيم، ولو قتلني لم تظفر بطائل، فإنهم يُقيمون غيري، وتُنسب إلى الغدر، فأخبرني ما الذي تريدُ مني؟ فقال: ارتفاع مُلكك ثلاث سنين آجلاً، ونصف ارتفاعها في كل سنةٍ عاجلاً^(١). فقال: لقد أجحفت. فما زال ينقصه حتى اقتصر على سدس المغل، ثم قام مسرعاً فخرج، وبات الإسكندر يفكر فيه.

فلما طلع الصباح، وإذا بملك الصين قد خرج في جيشٍ طبّق الأرض، وعليه تاجه، وبين يديه الأمم، فركب الإسكندر واستعدّ للقتال، ثم ناداه: يا ملك الصين أغدراً؟ فانفرد عن أصحابه، وقال: لا، ولكنني أردتُ أن أعرفك أنني لم أطعك عن ضعف وقلة، وما غاب عنك من جنودي أعظم، ولكن رأيت العالم الكبير مقبلاً عليك، ممكنك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، ومن حارب العالم الكبير غلب.

ثم ترجّل وقبّل الأرض بين يدي الإسكندر، فنزل الإسكندر من فرسه، وأجلسه معه على سريره، وقال: ليس مثلك من يؤخذ منه خراج، وقد أعفيتك، فما أحقك بالإنصاف والفضل، ولم تر عيني مثلك. فقال الملك: أما إذا فعلت هذا، فلا بُدّ من مجازاتك. ثم انصرف وبعث إلى الإسكندر بأضعاف ما كان قرّره عليه، وبعث إليه الإسكندر بمثل ذلك.

(١) في تجارب الأمم ١/ ٤٠، والمنتظم ١/ ٤٢٦: ارتفاع مملكتك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاع مملكتك لكل سنة.

وحكي عنه أنه رأى رجلاً وكان يُسمّى الإسكندر، وكان كثير الهزيمة، فقال له: إمّا أن تغير اسمك، وإمّا أن تغير فعلك.

ذكر وفاته وسنّه

مَلِكٌ وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وتوفي وهو ابن إحدى وثلاثين سنة^(١)، فكان مُلْكُهُ عشر سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة أو ست عشرة سنة، بمقدار مُلْكِ دارا بن دارا الذي قتله الإسكندر، وكان قتله لدارا في السنة الثالثة من ملكه. وتُوفِّي بِشَهْرِ زُور، وقيل: بِنَصِيبِينَ، وقيل: ببابل، والأول أصحُّ.

وقال هارون بن المأمون: دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي، فسار فيها ثمانية عشر يوماً، ثم رجع إلى العراق، فاحتضر، فأوصى أن يُحمل إلى أمه في تابوتٍ من ذهب، فطلي بالأطلية المُمسِكة لذاته وأجزائه، وكانت أمه بالإسكندرية، وكتب إليها أيضاً كتاباً يعزيها بنفسه، فتلقته في نساء المملكة باكية حزينة تقول: إن فقدت من ولدي أمره فما فقد قلبي ذكره.

وقيل: إنه أوصى إلى أرسطاطاليس: أنه إذا مات يُجعل في تابوت من ذهب، ويتكلّم الحكماء عليه، كما فعل بذي القرنين.

فتولاه أرسطاطاليس بنفسه، وجمع الحكماء وقال: ليتكلم كلُّ واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً، وللعامّة واعظاً. فقاموا وأحدقوا بالتابوت، فقال الأول: أصبح مستأسرُ الأسرى أسيراً^(٢).

وقال الثاني: ما أزهّد الناس في هذا الجسد، وأرغبهم في هذا التابوت.

وقال الثالث: من العجب أن القوي قد غلب، والضعفاء لاهون.

وقال الرابع: أيها الساعي الحريص، جمعت ما خذلك عند الاحتياج إليه، فعاد مغناه لغيرك، ووبأله عليك.

(١) في تاريخ الطبري ١/٥٧٨، ومروج الذهب ٢/٢٥٧، والتنبيه والإشراف ص ١١٤، والمنتظم ١/٤٢٨ أن عمره حين توفي كان ستاً وثلاثين سنة.

(٢) في مروج الذهب ٢/٢٥٢: أصبح أسر الأسرى أسيراً.

وقال الخامس: رب حريصٍ على سكوتك [إذ لا تسكت]، وهو اليوم حريصٌ على كلامك [إذ لا تتكلم].

وقال السادس: يا عظيم الشأن، اضمحلَّ سلطانتك كما اضمحلَّ ظلُّ السحاب، وعَفَّتْ آثارُك كما عفت آثار السَّراب^(١).

وقال السابع: يا مَنْ ضاقت عليه الأرضُ، ليت شعري كيف حالُّك فيما احتوى عليك منها.

وقال الثامن: هذا الذي كانت الآذانُ تنصت لكلامه، قد سكت فليتكلم الآن كلُّ ساكٍ.

وقال التاسع: سيلحق بك مَنْ سرَّه موثُّك، كما لِحقت بمن سرَّك موثُّه.

وقال العاشر: كنت تأمرنا بالحركة، فما بالك ساكناً.

ولما مات الإسكندر عرضوا على ولده إسكندروس المُلِك فامتنع، واختار النُّسك والتعبُد، فملكت اليونان عليها بطليموس.

فصل في ذكر أرسطاطاليس

اعلم أن أرسطاطاليس حكيمُ اليونان، ورئيسهم المطلق، وصاحب المنطق، وكان يُؤدِّب الإسكندر في صغره، وكان الإسكندر يُعظِّمُه ويكاتبه ويشاوره، فكان بمنزلة الوزير عنده.

وقيل للإسكندر: إنك تُعظِّم مؤدِّبَكَ أكثرَ من تعظيم والدك؟ فقال: لأن أبي كان سبباً لحياتي الفانية، ومؤدبي سبباً لحياتي الباقية. وقال مرة أخرى: أبي كان سبباً في رقي، ومؤدبي سبباً في نُطقي^(٢).

وجلس يوماً كاملاً لم يسأله أحد حاجةً، فقال لجلسائه: ما أعد هذا اليوم من عمري. قيل: ولم؟ قال: لأن الملك لا يلتذُّ إلا بالجود على السائل وإغاثة الملهوف،

(١) في مروج الذهب ٢/٢٥٤ وما بين معكوفين منه: وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب.

(٢) الملل والنحل ٢/١٣٧.

ومكافأة المُحسِن، وإنالة الراغب، وإسعاف الطالب.

وشاوره أصحابه في السجود له، فقال: لا يستحق ذلك إلا البارئُ تعالى، لأنه كسانا بهجة الفضائل.

وأغلظ له رجل، فقام بعض أصحابه إليه ليقتله، فقال له الإسكندر: لا تنحط إلى دناءته، وارفعه إلى شرفك.

وقال: من انتجعك فقد أسلفك حُسنَ الظنِّ بك^(١).

وكتب إلى أرسطاطاليس: بم تأمرني؟ فكتب إليه: اجمع في سياستك بين بدارٍ لا حِدَّةَ فيه، ورِيثٍ لا غفلة^(٢) معه، وامزج كل شيء بشكله، وُصْنٌ وعدك عن الخلف فإنه شينٌ، وشبٌ وعيدك^(٣) بتأخير العقوبة فإنه زينٌ، وكن عبد الحق فإن عبد الحق حرٌّ، وليكن خُلقك الإحسانَ إلى جميع الخلق، وأظهر لأهلك أنك منهم، ولأصحابك أنك بهم، ولرعيتك أنك لهم.

وكتب الإسكندر إليه يخبره أن في عسكره جماعة لا يأمنهم على نفسه، لبُعد هممهم وشجاعتهم وقلة عقولهم، ويكره أن يُقدم عليهم بالقتل على وجه الظنَّة، مع وجوب الحُرمة وسابق الخدمة، فكتب إليه أرسطاطاليس: أما ما ذكرت من بُعد هممهم، فإن الوفاء من بُعد الهمة. وأما ما ذكرت من شجاعتهم وقلة عقولهم، فإن كانت هذه الحالة فرَفَّهُمْ في معيشتهم، وخصَّهم بحسان النساء، فإن رفاهية العيش تُوهي العزم، وتُحبِّب السلامة، وتُباعد من ركوب الغرور، وأحسن خُلقك تخلص لك النيات، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط رعيتك مثله، فليس مع الاستئثار محبة^(٤)، ولا مع المساواة بغضة. واعلم أن المملوك إذا اشترى لا يسأل عن مال من اشتراه، وإنما يسأل عن خُلق مولاه.

وكتب إليه الإسكندر: إني أرى رجالاً ذوي أصالة في الرأي، وحُسن التدبير،

(١) العقد الفريد ١/٢٣١. وانتجع فلاناً: أتاه يطلب معروفه.

(٢) في النسخ: عجلة، والمثبت من الملل والنحل ٢/١٣٨.

(٣) في النسخ: وعدك، والمثبت من الملل والنحل ٢/١٣٨ وما سبق من أخبار فيه.

(٤) في النسخ: صحبة، والمثبت من تجارب الأمم ١/٣٨، والمنتظم ١/٤٢٧.

واعتدال الخلق، ولهم مع ذلك صرامة وشجاعة، ولا آمنهم أن يثبوا عليّ، ولا تستقيم الأمور إلا ببوارهم. فكتب إليه: أما بعد: فإنك إذا قتلتهم؛ أنبت إقليم بابل أمثالهم، لأنه إنما يُنبت الرجال العقلاء، أهل الرأي والسداد، والاعتدال في التركيب، فصاروا أعداءً لك، وإخراجهم من عسكريك مخاطرةً بنفسك وأصحابك، فافعل ما هو أنفع لك من قتلهم، استدع أولاد الملوك منهم؛ فقلدهم البلدان، وولهم الولايات، ليصير كل واحد منهم ملكاً برأسه، فتفرق أجسامهم، وتجتمع كلمتهم على الطاعة. ففعل الإسكندر ذلك، فصلحت الأحوال^(١).

وكتب إليه: إنما تملك الرعايا بالإحسان إليها، فأحسن تظفرً بالمحبة منها، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فاجمع إليها القلوب.

وقال الجاحظ: أرسطاطاليس تلميذ أفلاطن، وأفلاطن تلميذ سُقراط^(٢).

وقال الهيثم: رؤساء الفلاسفة ستة: سُقراط، وبُقراط، وأفلاطن، وفيثاغورس، وثالس، وأرسطاطاليس، وهو الفيلسوف الأعظم عندهم، وهو الذي رتب علومهم وهذبها وحذف الحشو منها، وانتخب الأقرب إلى الصواب، وزاد على من تقدمه حتى على أستاذه أفلاطن الألمي. وقد اعتذر عن ذلك فقال: أفلاطن أستاذ وصديق، والحق صديق، وهو أصدق منه.

وقال: لكل شيء صناعة، وصناعة العقل حُسن الاختيار.

وقال: اعص الهوى، وأطع من شئت.

وقال: الأديان أوطان.

وقال: إذا خان السفير بطل التدبير، وإذا كان الجاهل عدواً لنفسه، فكيف يكون صديقاً لغيره؟!.

وقال للإسكندر: إن الناس إذا قدروا أن يقولوا، قدروا أن يفعلوا، فاحترز من أن يقولوا، تسلم من أن يفعلوا. فقال له: صدقت أيها الحكيم^(٣).

(١) تجارب الأمم ١/ ٣٩.

(٢) ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف ص ١٢٠، ومروج الذهب ٢/ ٢٥٠ دون عزو إلى الجاحظ.

(٣) في هامش (ك): ليس هذا من كلام أرسطو.

وقيل له: ما البلاغة؟ فقال: حسن الاستعارة، وقيل: الاستدلال بالقليل على الكثير، وقيل: فتح المشكل، وإيضاح المعضل.

وكتب إلى بعض الملوك وكان قد اشتغل باللهو عن النظر في أمور الرعية: أما بعد، فإن الرعية إذا علمت تسلط الهوى على الملك تسلطت عليه، فاقهر هواك بفضل يقظتك. فكتب إليه الملك: إذا كانت بلادنا عامرة، وعمالنا عادلة، وسبلنا آمنة، فلم نمتنع من لذة عاجلة؟ فكتب إليه: إنما تمهدت الأمور على ما ذكرت باليقظة دون الغفلة، فما أخوفني أن تهدم ما بنته اليقظة بما جنته الغفلة. فانتبه الملك وكتب إليه: صدقت أيها الرشيد^(١).

وكانت وفاة أرسطاطاليس بعد وفاة الإسكندر بيسير، وعاش ستين سنة، وقال ابن حوقل: إنه معلق في خشبة بجزيرة صقلية بالكنيسة، وكانت النصارى تستقي به^(٢)، وعاش أفلاطن أيضاً ستين سنة.

قال المصنف رحمه الله: وقد وازن أبو علي بن حسن الحاتمي بين أرسطاطاليس والمنتبي^(٣)، فقال:

قال أرسطاطاليس: من علم أن الكون والفساد يتعاقبان الأشياء، لم يحزن لورود الفجائع. قال المنتبي: [من الطويل]

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها بخبث ثنت فاستدبرته^(٤) بطيب
وقال: النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذل [جداً، وترى فناءها في ذلك بقاءها]،
والنفس الدنية بضد ذلك.

قال المنتبي: [من الطويل]

(١) انظر عيون الأخبار ١/٨، والعقد الفريد ١/٢٤-٢٥ و٤/١٩٠، والمنتظم ١/٤٢٧.

(٢) صورة الأرض ص ١١٣.

(٣) في هامش (ك) حاشية: هذا لا يطلق عليه موازنة ولا وقع الحافر، وإنما المنتبي كان كثير المطالعة لكتب الفلاسفة، فأخذ هذه الكلمات الحكمية فسبكها شعراً، والله أعلم.

(٤) في النسخ: فاستقبلته، والمثبت من الرسالة الحاتمية ص ١٤٦ (ضمن كتاب التحفة البهية والطفرة الشهية)، وديوانه ٢/٢٠٤ بشرح ابن جني.

فحُبُّ الجبانِ النَّفسَ أوردته التُّقى وحبُّ الشجاعِ النَّفسَ أوردته الحَرْبُ^(١)
وقال: أقبِحُ الظلمَ حسدُك لعبدك الذي تُنعم عليه.

قال المتنبي: [من الطويل]

وأظلمُ أهلِ الأرضِ مَنْ بات حاسداً لَمَن بات في نعمائه يتقلَّبُ^(٢)
وقال: موتُ النفسِ حياتُها، وعُدْمُها وجودُها، لأنها تلحقُ بعالمها.

قال المتنبي: [من المتقارب]

كَأنك بالفقرِ تبغي الغنى وبالموتِ في الحربِ تبغي الخلوداً^(٣)
وقال: أقربُ القُربِ مَوَدَّاتِ القلوبِ وإن تباعدت الأجسامُ، وأبعدُ البُعدِ تنافرِ

التداني. قال المتنبي: [من الوافر]

وأبعدُ بُعدنا بُعدَ التداني وأقربُ قُربنا قُربَ البعادِ^(٤)
وقال: إذا كان البناءُ على غيرِ قاعدةٍ، كان الفسادُ أقربَ إليه من الصلاح.

قال المتنبي: [من الوافر]

وإن الجُرحَ ينفِرُ بعد حين إذا كان البناءُ على فسادِ^(٥)
وقال: تعاقبُ أيامِ الزمانِ مفسدةٌ لأحوالِ الحيوانِ. قال المتنبي: [من المنسرح]

فما تُرجي النفوسُ من زمنٍ أحمَدُ حالِيه غيرُ محمودِ^(٦)
وقال: أتعَبُ الناسُ من اتَّسعت مروءتُه، وقصرت مقدرتُه.

قال المتنبي: [من الطويل]

وأتعِبُ خلقِ اللهِ مَنْ زاد همُّه وقصَّرَ عما تشتهي النفسُ وُجْدُه^(٧)

(١) الرسالة ص ١٤٦، وديوانه ٢/٢٣٢.

(٢) الرسالة ص ١٥٢، وديوانه ٢/٥٧٦.

(٣) الرسالة ص ١٥٦، وديوانه ٢/٩٧٣.

(٤) الرسالة ص ١٥٦، وديوانه ٢/٩٤٦.

(٥) الرسالة ص ١٥٦، وديوانه ٢/٩٥٦.

(٦) الرسالة ص ١٤٥، وديوانه ٢/٧٧٠.

(٧) الرسالة ص ١٥١، وديوانه ٢/١٠٦.

وقال: مَنْ استعمل الفكر في موضع البديهة فقد أضرَّ بخاطره، وكذا من استعمل البديهة في موضع الفكر. قال المتنبي: [من الطويل]

وَوَضِعُ النَّدى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلا مُضِرُّ كَوْضِعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدى^(١)
وقال: مَنْ لَمْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ عَنِ قَدْرِ الْجَاهِلِ، رَفَعَ الْجَاهِلُ قَدْرَهُ عَلَيْهِ.

قال المتنبي: [من الطويل]

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنِ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَى نَفْسِهِ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ^(٢)
وقال: مَنْ أَفْنَى مُدَّتَهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ خَوْفَ الْعُدْمِ، فَقَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلْعَدَمِ.

قال المتنبي: [من الطويل]

وَمَنْ يُنْفِقُ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ^(٣)
وقال: مَنْ تَخَلَّى عَنِ الظُّلْمِ بظَاهِرِهِ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ بِحَوَاسِّهِ، فَهُوَ ظَالِمٌ.

قال المتنبي: [من الطويل]

وَإِطْرَاقُ طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمُطْرَقٍ^(٤)
وقال: يَقْبَحُ بذي الْجِدَّةِ أَنْ يَفَارِقَهُ الْجُودُ، لِأَنَّهَا كَشِيءٌ وَاحِدٌ يَحْوِيهِمَا إِنْسَانٌ.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وَالْغِنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ قَدَرَ قُبْحُ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ^(٥)
وقال: نَفُوسُ الْحَيَوانِ أَغْرَاضٌ لِحَوَادِثِ الزَّمَانِ. قال المتنبي: [من الكامل]

[وَالْمَرْءُ مِنْ حَدَثِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ عَوْدٌ تَدَاوَلَهُ الرُّعَاةُ رَكُوبًا
غَرَضٌ لِكُلِّ مَنِيَّةٍ يُرْمَى بِهَا حَتَّى يُصَابَ سِوَاؤُهُ مَنْصُوبًا

وقال: مَنْ اسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِ الْحَوَادِثُ لَمْ يَأَلَمْ بِحَلُولِهَا. قال المتنبي^(٦): [من الوافر]

(١) الرسالة ص ١٤٨-١٤٩، وديوانه ٢/٨٣٣.

(٢) ديوانه ٣/١٥١، وليس في الرسالة الحاتمية.

(٣) الرسالة ص ١٥٠، وديوانه ٣/١٥١.

(٤) الرسالة ص ١٤٨، وديوانه ٤/٤٩٣.

(٥) ديوانه ٣/٦٠٥، وليس في الرسالة الحاتمية.

(٦) الرسالة الحاتمية ص ١٤٥ وما بين معكوفين منها.

إذا اعتاد الفتى حَوْضَ المنايا فأهونُ ما يَمُرُّ به الوُصُولُ^(١)
 وقال: نَقْلُ الطَّبَاعِ من ذوي الأَطْمَاعِ، شديدُ الامتناعِ. قال المتنبي: [من المتقارب]
 يُرَادُ من القلبِ نِسْيَانُكُمْ وتَأبَى الطَّبَاعُ على النَّاقِلِ^(٢)
 وقال: مَنْ علم أن الفناء مُسْتَوِلٌ على كونه، هانت عليه المصائب.

قال المتنبي: [من البسيط]

فالهجرُ أَقْتَلُ لي مما أَحَازِرُهُ أنا الغريقُ فما خَوْفي من البللِ^(٣)
 وقال: العِيَانُ شاهدٌ لنفسه، والأخبارُ يتداخلها الزيادة والنقصان، فأولى ما أخذ
 الإنسان ما كان دليلاً على نفسه. قال المتنبي: [من البسيط]

حُذِّ ما تَرَاهِ ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به في طَلْعَةِ الشمسِ ما يُغْنِيكَ عن زُحَلِ^(٤)
 وقال: قد يفسد العضو الواحد لصلاح أعضاء كثيرة. قال المتنبي: [من البسيط]

لعلَّ عَثْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ وريِّما صَحَّتْ الأجسامُ بالعللِ^(٥)
 وقال: عِلَلُ الأفهامِ أشدُّ من عِلَلِ الأجسامِ. قال المتنبي: [من الطويل]

يَهونُ علينا أن تُصابَ جُسومُنا وتَسْلَمَ أعراضُ لنا وعُقُولُ^(٦)
 وقال: الحكيمُ تُريه الحكمةُ أن فوق علمه علماً، فهو يتواضع لتلك الزيادة،
 والجاهل يظنُّ أنه قد تناهى، فيسقط [بجهله، فتمقته النفوس].

قال المتنبي: [من الطويل]

وما التَّيْبَةُ طِبِّي فيهمُ غيرَ أنني بَغِيضٌ إليَّ الجاهلُ المُتَعاقِلُ^(٧)
 وقال: كلُّ ما له أول، تدعو الضرورةُ إلى أن يكون له آخر. قال المتنبي: [من الكامل]

(١) الرسالة ص ١٤٥، وديوانه ٣/٦٦٥.

(٢) الرسالة ص ١٤٥، وديوانه ٣/٦٩٢.

(٣) الرسالة ص ١٤٧، وديوانه ٣/٧٧٣ وفيهما: أراقبه، بدل: أحاذره.

(٤) الرسالة ص ١٤٧، وديوانه ٣/٧٧٧.

(٥) الرسالة ص ١٤٧، وديوانه ٣/٧٨٥.

(٦) الرسالة ص ١٤٨، وديوانه ٣/٨٣١.

(٧) الرسالة ص ١٤٨ وما بين معكوفين منها، وديوانه ٣/٨٤٣.

إِنْعَمَ وَلَدٌ فَلْأَمُورٍ أَوْ آخِرٌ أَبْدَأُ إِذَا كَانَتْ لَهِنَّ أَوَائِلٌ^(١)
 وقال: عدم الغنى من النفس أشد من عدم الغنى من الملك^(٢).

قال المتنبي [من الطويل]

غَثَاثَةُ عَيْشِي أَنْ تَغَثَّ كِرَامَتِي وَلَيْسَ بَغَثٌ أَنْ تَغَثَّ الْمَأْكَلُ^(٣)
 وقال: مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ ، فَلتَكُنْ فَضِيلَتُهُ تَرْكُ الرَّذَائِلِ.

قال المتنبي: [من البسيط]

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرْكِ الْقَبِيحِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ^(٤)
 وقال: تَخْلِيدُ الذِّكْرِ فِي الْكُتُبِ عَمْرٌ لَا يَبِيدُ ، وَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ذِكْرٌ^(٥) جَدِيدٌ.

قال المتنبي: [من البسيط]

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَعَيْشَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ^(٦)
 وقال: إِذَا كَانَتِ الشَّهْوَةُ فَوْقَ الْقُدْرَةِ ، كَانَ هَلَاكُ النَّفْسِ دُونَ بُلُوغِ الشَّهْوَةِ.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ^(٧)
 وقال: مَنْ لَمْ يُرِدْكَ لِنَفْسِهِ فَهُوَ النَّائِي عَنْكَ [وَإِنْ كُنْتَ قَرِيباً مِنْهُ ، وَمَنْ يُرِدْكَ لِنَفْسِهِ
 فَأَنْتَ قَرِيبٌ مِنْهُ وَإِنْ تَبَاعَدْتَ عَنْهُ]. قال المتنبي: [من البسيط]

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ^(٨)
 وقال: بِالصَّبْرِ عَلَى مَضَضِ السِّيَاسَةِ تَنَالُ شَرَفَ الرَّئِيسَةِ. قال المتنبي: [من الكامل]

(١) الرسالة ص ١٥٥ ، وديوانه ٤ / ١٩٥ .

(٢) في الرسالة ص ١٥٠ : عدم غنى النفس أشد من عدم غنى اليد .

(٣) الرسالة ص ١٥٠ ، وديوانه ٤ / ٨٢ .

(٤) الرسالة ص ١٥٣ ، وديوانه ٤ / ٢٥٢ .

(٥) في (خ) : كثر ، ولم ترد هذه الكلمة في الرسالة .

(٦) الرسالة ص ١٥٣ ، وديوانه ٤ / ٢٥٢ . وفيهما : وحاجته ، بدل : وعيشته .

(٧) الرسالة ص ١٤٥ ، وديوانه ٤ / ٣٤٧ .

(٨) الرسالة ص ١٤٧ وما بين معكوفين منها ، وديوانه ٤ / ٣٨٥ .

لا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ^(١)
 وقال: الظلم في طباع النفوس مُرَكَّبٌ، وإنما يَصُدُّهَا عن ذلك عِلَّةٌ دِيَانَةٌ، أو عِلَّةٌ
 سِيَاسَةٌ^(٢). قال المتنبي: [من الكامل]

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدُّ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلَمُ^(٣)
 وقال: إذا لم تتصَرَّفِ النفوسُ في مُرَادَاتِهَا، فحَيَاتُهَا مَوْتٌ، ووجودُهَا عَدَمٌ.
 قال المتنبي: [من الخفيف]

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بَعِيشٍ رَبُّ عَيْشٍ أَخْفَتْ مِنْهُ الْجِمَامُ^(٤)
 وقال: الفرقُ بين الحِلْمِ والعِجْزِ أن الحِلْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ مَقْدِرَةٍ، والعِجْزَ لَا يَكُونُ
 إِلَّا عَنِ ضَعْفٍ، فليس للعاجز أن يَتَسَمَّى بالحليم. قال المتنبي: [من الخفيف]

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِيٌّ إِلَيْهَا اللَّئَامُ^(٥)
 وقال: النفسُ المَهِينَةُ الذَّلِيلَةُ لَا تَجِدُ أَلَمَ الْهُوَانِ، وَالنَفْسُ الشَّرِيفَةُ الْعَزِيزَةُ يُوَثِّرُ فِيهَا
 سِيرُ الْكَلَامِ. قال المتنبي: [من الخفيف]

مَنْ يَهُنُّ يَسْهَلِ الْهُوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجَرِحَ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ^(٦)
 وقال: بِإِنْفَازِ سَهْمِ الْحَزْمِ، تُدْرِكُ صِحَّةَ الْحَزْمِ^(٧). قال المتنبي: [من الطويل]

مَعَ الْحَزْمِ حَتَّى لَوْ تَعَمَّدَ تَرْكُهُ لِأَلْحَقَهُ تَضْيِيعُهُ الْحَزْمَ بِالْحَزْمِ^(٨)
 وقال: مَنْ نَظَرَ بَعَيْنَ الْعَقْلِ، وَرَأَى عَوَاقِبَ الْأَيَّامِ، لَمْ يَجْزِعْ لِحُلُولِ النَّوَابِ^(٩).

(١) الرسالة ص ١٥٤، وديوانه ٥٧٠/٤.

(٢) في الرسالة ص ١٥٤: الظلم من طبع النفس، وإنما يصددها عن ذلك إحدى علتين؛ إما علة دينية لخوف معاد، أو علة سياسية لخوف السيف.

(٣) ديوانه ٥٧٠/٤، والرسالة ص ١٥٤.

(٤) الرسالة ص ١٥٥، وديوانه ٥٣٢/٤.

(٥) الرسالة ص ١٥٥، وديوانه ٥٣٢/٤.

(٦) الرسالة ص ١٥٥-١٥٦، وديوانه ٥٣٢/٤.

(٧) في النسخ: العزم في الموضوعين، والمثبت من الرسالة الحاتمية.

(٨) الرسالة ص ١٥٧، وديوانه ٤٧٧/٤.

(٩) في الرسالة: من نظر بعين عقله، ورأى عواقب الأمور قبل مواردها لم يجزع لحلولها.

قال المتنبي: [من الطويل]

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتُ بِنَا فَلَمَّا دَهَتْنَا لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمًا^(١)
وقال: حُلُولُ الْفَنَاءِ فِي عَظِيمِ الْأُمُورِ، كَحُلُولِهِ فِي صَغِيرِهَا.

قال المتنبي: [من الوافر]

فَطَعَمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ^(٢)
وقال: مَنْ أَثْرَى مِنَ الْعَدَمِ، افْتَقَرَ مِنَ الْكُرْمِ. قال المتنبي: [من البسيط]
وَرَبُّ مَالٍ فَقِيرًا^(٣) مِنْ مُرْوَعِيهِ لَمْ يُثْرِ مِنْهُ كَمَا أَثْرَى مِنَ الْعَدَمِ
وقال: كُرُورُ الْأَيَّامِ أَحْلَامٌ، وَغَذَاؤُهَا أَسْقَامٌ وَأَلَامٌ. قال المتنبي: [من البسيط]

هَوْنٌ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلْمِ^(٤)
وقال: ثَلَاثَةٌ إِنْ لَمْ تَظْلَمْهُمْ ظَلَمُوكَ: وَلَدُكَ وَعَبْدُكَ وَزَوْجَتُكَ، لِأَنَّ صَلَاحَ أَحْوَالِهِمْ
فِي التَّعَدِّيِّ عَلَيْهِمْ. قال المتنبي: [من الطويل]

مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحِلْمِ طُرُقُ الْمِظَالِمِ^(٥)
وقال: أَيَّامُ الْحَيَاةِ لَا خَوْفَ فِيهَا، كَمَا أَنَّ أَيَّامَ الْمَصَائِبِ لَا بَقَاءَ لَهَا.

قال المتنبي: [من البسيط]

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ^(٦)
وقال: الْأَيَّامُ لَا تُدِيمُ الْفَرَحَ، كَمَا أَنَّهَا لَا تُدِيمُ التَّرْحَ، فَالْأَسْفُ عَلَى الْمَاضِي
تَضْيِيعٌ لِلْعَمْرِ^(٧) مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ. قال المتنبي: [من البسيط]

فَمَا يُدِيمُ^(٨) سُورًا مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزْنَ

(١) الرسالة ص ١٥٧، وديوانه ٥٤٥/٤.

(٢) في النسخ: فعظم الموت... كعظم، والمثبت من الرسالة ص ١٥٠، والديوان ٥٦٤/٤.

(٣) في النسخ والرسالة الحاتمية ص ١٥١: فقير، والمثبت من الديوان ٤٥٦/٤.

(٤) الرسالة ص ١٥٣، وديوانه ٦٤٦/٤.

(٥) الرسالة ص ١٥٤-١٥٥، وديوانه ٥٥٥/٤.

(٦) الرسالة ص ١٥٢، وديوانه ٧٠٥/٤.

(٧) في النسخ: العقل، والمثبت من الرسالة.

(٨) في النسخ: يدوم، والمثبت من الرسالة الحاتمية ص ١٥٢، والديوان ٧٠٥/٤ بشرح ابن جني.

وقال: العشقُ أمرٌ ضروريٌّ داخلٌ على النفس، والعاشقُ جاهلٌ بتلك الضرورة الداخلة عليه^(١). قال المتنبي: [من البسيط]

مما أضرَّ بأهل العِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وما عَرَفُوا الدُّنْيَا ولا فَطَنُوا^(٢)
وقال: على قَدْرِ الهِمَمِ تكون الهُموم. قال المتنبي: [من البسيط]

أفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لَذا الزَّمَنِ يَخْلُو من الهِمِّ أخلاهم من الفِطَنِ^(٣)
وقال: ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميّت القلب من العلم.
قال المتنبي: [من البسيط]

لا يُعجِبُنَّ مَضِيماً حُسْنُ بَزَّتِهِ وهل يَروِقُ دَفيناً جَوَدَةُ الكَفَنِ^(٤)
وقال: ليس من الحزم فناء النفوس في طلب الشهوات، بل في دَرَكِ العالم العلوي.
قال المتنبي: [من الخفيف]

ومُرادُ النُّفوسِ أصغرُ من أن تَتَعادى فيه وأن تَتَفانى^(٥)
وقال: خوفٌ وقوعِ المكروه قبل تناهي المدّة، خورٌ في الطبع.
قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العَجْزِ أن تموتَ جَباناً^(٦)
وقال: الكلال والمَلال يتعاقبان الأجسامَ لضعف آلة الجسم، لا لضعف [آلة] الحسّ. قال المتنبي: [من الخفيف]

وإذا الشَّيخُ قالَ أفِّ فما مَلَّ حِياةً ولكن الضَّعْفَ مَلًّا^(٧)
وقال: الدنيا أبداً تلد، وتأكلُ أولادها^(٨). قال المتنبي: [من الخفيف]

(١) في الرسالة: العشق ضرورة داخل على النفس، والإنسان جاهل بتلك الضرورة.

(٢) الرسالة ص ١٥٢، وديوانه ٧٠٥/٤.

(٣) الرسالة ص ١٥٦، وديوانه ٦٧٤/٤.

(٤) الرسالة ص ١٥٦، وديوانه ٦٨٠/٤.

(٥) الرسالة ص ١٥٢، وديوانه ٧١٤/٤.

(٦) الرسالة ص ١٥٣، وديوانه ٧١٥/٤.

(٧) الرسالة ص ١٤٩ وما بين معكوفين منها، وديوانه ١٤/٤.

(٨) في الرسالة الحاتمية ص ١٤٩: الدنيا تطعم أولادها وتأكل مولودها.

أبداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُّ الدُّنَى يا فيا ليت جودها كان بُخلاً^(١)
وقال: الجُبْنُ ذِلَّةٌ كَامِنَةٌ فِي نَفْسِ الْجَبَانِ، فَإِذَا خَلَا أَظْهَرَ شَجَاعَتَهُ.

قال المتنبي: [من الخفيف]

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهَ وَالنِّزَالَ^(٢)
وقال: على قدر بصيرة العقل [يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل] يرى الأشياء
على حقائقها، والنفس اللئيمة ترى الأشياء بطبعها. قال المتنبي: [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ^(٣) يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
وقال: الغَلْبَةُ بِطَبْعِ الْحَيَاةِ، وَالْمَسْأَلَةُ بِطَبْعِ الْمَوْتِ، وَالنَّفْسُ لَا تُحِبُّ الْمَوْتَ،
فَلِذَلِكَ لَا تُحِبُّ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بِالْغَلْبَةِ لَا بِالسَّأَلَةِ. قال المتنبي: [من الخفيف]

مَنْ أَطَاقَ التَّمَّاسَ شَيْءٍ غِلَابًا واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا^(٤)
وقال أبو يعلى محمد بن محمد بن الهبّارية العباسي في «فلك المعالي»: ذكر
لعبدالله بن المعتز قول أرسطاطاليس: إن الضَّبُعَ تَضَعُ سَنَةً أَنْثَى وَسَنَةً ذَكَرًا، وَتَلْقَحُ عَامًا
وَلَا تَلْقَحُ عَامًا^(٥)؛ فقال: انظروا إلى هذا الجاهل الذي يدفع معجزات الأنبياء،
ويقول: لا أقبل إلا ما يقوم برهانه بالعقل، ويقول مثل هذا.

وقيل لابن المعتز: إنه يقول: إن الجراد لا يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بُوْحِي مِنَ السَّمَاءِ.
فقال: هذا يمنع جواز الوحي إلى بني آدم، ويُجيزه إلى الجراد.

فصل في «الغالب والمغلوب»

ألفه أرسطاطاليس للإسكندر، يُعَرِّفُ بِهِ الْغَالِبَ وَالْمَغْلُوبَ فِي وَقْتِ الْحَرْبِ، وَغَلْبَةُ
الشريك لشريكه، والزوج لزوجته، والخَصْمُ لخصمه، وَمَنْ هُوَ الْمُسْتَظْهَرُ مِنْهُمْ.

(١) ديوانه ١٥/٤.

(٢) الرسالة ص ١٤٩، وديوانه ٣١/٤.

(٣) في النسخ: مرير، والمثبت من الرسالة ص ١٥٥ وما بين معكوفين منها، وديوانه ١٦١/٤.

(٤) الرسالة ص ١٥٨، وديوانه ٣٦/٤.

(٥) ذكر نحوه الجاحظ في الحيوان ١٦٨/٧.

قال: احسب اسم كل واحد من الاثنين على حدة بحساب الجُمَّل، وأسقط مما جمعته من الحساب تسعة تسعة حتى يبقى تسعة أو أقل، فإن بقي من الاسم تسعة ومن الآخر تسعة، فاحكم بالغلبة للصغير منهما على الكبير إن كانا من جنس واحد، وإن كان أحدهما صاحب قلم، والآخر صاحب سيف، فاحكم لصاحب السيف على صاحب القلم، ولا تسقط الألف من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسليمان ونحوه لأنها أصلية، وأسقطه من الحسن والحسين لأن لهما وألفهما زائدتان، وإن كان للرجل اسمان فاحسب أشهرهما.

وقد اعتبروا الغالب والمغلوب من قديم الزمان، فوجدوه مستقيماً على هذا الحساب، فإن وقع اختلال كان منسوباً إلى الغلط في الهجاء.

قالوا: ومن ذلك داود عليه السلام وجالوت، فالباقي من اسم داود ستة، لأن الدال أربعة، والألف واحد، والواو ستة، والدال أربعة، والجملة خمسة عشر، لأنهم أسقطوا الواو الواحدة لأنها زائدة، وأسقطوا تسعة وبقي ستة، والباقي من اسم جالوت ثمانية، لأن الجيم ثلاثة، والألف واحد، واللام ثلاثون، والواو ستة، والتاء أربع مئة، فإذا حسبت تسعة تسعة سقط الجميع إلا ثمانية، فقد غلب القليل الكثير، ولا تسقط الألف من داود وجالوت.

ومن ذلك موسى عليه السلام وفرعون، فالميم أربعون، والواو ستة، والسين ساقط، والألف واحد، لأنهم يكتبونه على اللفظ موسا بغير ياء، فإذا أسقطت تسعة تسعة بقي اثنان، وقيل: واحد، وهو الأصح، لأنه لما كان موسى يكتب بالياء والألف، أسقطوا الألف، وفرعون أربع مئة وستة، لأن الفاء ثمانون، والراء مئتان، والعين سبعون، والواو ستة، والنون خمسون، إذا أسقطت تسعة تسعة بقي واحد في قبالة ما بقي لموسى عليه السلام، لكن موسى عليه السلام أصغر من فرعون، لأنه عاش مئة وعشرين، وفرعون أربع مئة سنة.

وقيل: هذا الحساب^(١) إنما وضعه فيثاغورس صاحب العلوم الأربعة التي كشف بها أسرار الطبيعة وتركيبها.

(١) ينظر في هذا الحساب تاريخ ابن خلدون ١/١١٤، والإشارات في علم العبارات ١/٢٧٥.

فصل في ذكر اليونان وحكمائهم

ويونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

وقال ابن الكلبي: يونان بن ثوبة بن سرحون، ونسبه إلى إسحاق عليه السلام.
وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: يونان أخو قحطان من العرب من ولد عابر،
خرج من اليمن فنزل ديار المغرب، فأقام بها واستعجم لسانه، وتكلم بلغة من هناك من
الروم والفرنج.

وقد ردّ عليه أبو العباس عبدالله بن محمد الناشئ^(١) فقال: [من الطويل]

أبا يوسفٍ إني نظرتُ فلم أجد على الفحص رأياً صحَّ منك ولا عقدا
وصرتَ حكيماً عند قوم إذا امرؤُ بلاههم جميعاً لم يجد عندهم عندا
أتخلطُ قحطاناً بيونانَ ضلّةً لعمري لقد باعدتَ بينهما جدّاً

قال الناشئ^(٢): والأصحُّ أن يونان ابنُ يافث بن نوح عليه السلام، وليس من
العرب ولا من الروم، وإنما جاوَر الرومَ على ساحل البحر الرومي.

وكان جسيماً وسيماً، حسنَ العقل، كبيرَ الهمة، عظيمَ القدر، فأقام هناك حتى كثر
ولده، فخرج يطلب مكاناً يسكنه، فانتهى إلى مدينة بالمغرب يقال لها: أقينة^(٣)، وهي
مدينة الحكماء، وقيل: اسمها مقدونية، فأقام بها وكثر نسله، وبنى بها قصوراً وأبنية
شاهقة.

ولما احتضر أوصى إلى ولده الأكبر واسمه: حربوش^(٤)، فقال: يا بني، إني قد
وافيتُ الأجلَ المحتوم، وإني مفارقكم، وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بي، وكنت
لكم كهفاً في الشدائد، وعوناً على المحن، فعليكم بالجد فإنهُ قُطب الملك، ومفتاح
السِّياسة، وباب السِّيادة، وكن حريصاً على اقتناء الرجال، وإياك والحيد عن الطريقة

(١) في (ب): الرياشي، وفي (خ) و(ك): الرقاشي، والمثبت من مروج الذهب ٢/٢٤٤، وصبح الأعشى ١/
٣٧١ و ٣٧٩/٥. وانظر ترجمته في السير ١٤/٤٠.

(٢) في (ب): الرياشي، وفي (خ) و(ك): الرقاشي، وانظر الحاشية السابقة.

(٣) في مروج الذهب ٢/٢٤٥: أفيتية.

(٤) في مروج الذهب: حربوس.

المثلى التي بُني عليها العقل، فإن من ترك النظر في العواقب؛ تورط في المهالك، ووقع في المغائص^(١).

ثم مات، فاستولى ولده على بلاد المغرب من ناحية إفرنجة والنيوكرد^(٢) والصقالبة ومن جاورهم.

ولما ظهر بُختُ نصرُ على مصر دخل المغرب، ووصل إلى بلاد اليونان، وقرّر عليهم أن يؤدّوا الخراج إلى ملوك فارس، وفي الجملة بيض من ذهب^(٣). واستقر ذلك حتى مات فيلفوس أبو الإسكندر، فأزاله الإسكندر على ما ذكرنا.

وما زالت الملوك في اليونان إلى الإسكندر، فلما مات عرّضوا الملك على ولده إسكندروس فأبى وتنسك، ولحق بالجمال وتعبّد، فملكوا عليهم بطليموس الحكيم، وكان خليفة الإسكندر إذا غاب، وهو أول من لعب بالبزاة والصقور والجوارح.

وكان الملك بالمغرب لليونان، والرئاسة بالقدس لبني إسرائيل، إلى أن ولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام، وجرى ما جرى.

وهذا اللقب - وهو بطليموس - لملك اليونان ككسرى وقیصر. فأقام بطليموس الأول مالكا أربعين سنة، ثم مات.

فصل

فملك بعده بطليموس الصائغ، وكان حاذقا بمعرفة الصياغة حكيمًا، فأقام ستاً وعشرين سنة، ثم مات.

فصل

فملك بعده بطليموس محبُّ الأب، ويقال: إنه ملك الشام، وبني مدينة فامية بين شيزر وأنطاكية، وأقام ملكاً سبع عشرة سنة.

فصل

ثم ولي بطليموس صاحب النجوم وكتاب «المجسطي»، وأظهر علوم الكواكب،

(١) في مروج الذهب ٢/٢٤٦: مقابض المتالف.

(٢) في مروج الذهب: والنوكرد.

(٣) في مروج الذهب ٢/٢٤٧: وكان خراجهم بيضاً من ذهب.

وقدّر مطالعها وما يتعلّقُ بها، وأقام أربعاً وعشرين سنةً يجمعُ الحكماء والعلماء ويذاكرهم، ثم مات.

فصل

ثم ولي بطليموس، ويقال له: محبُّ الأمّ، فأقام خمساً وثلاثين سنةً، ومات.

فصل

وولي بطليموس المخلص، وكان صالحاً، فأقام سبع عشرة سنة، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الإسكندري عشرين سنةً، وقيل: عشر سنين، ثم مات^(١).

فصل

فولي بطليموس الحديدي ثمان سنين، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الجوّال، وكان سائحاً منفرداً، فأقام ثماني سنين، ثم مات.

فصل

فولي بطليموس الخبيث، وكان فاجراً ظالماً خرج عن قانون اليونان، فأقام ثلاثين سنةً، ثم مات.

فصل

فملك ابنته قلان طره، وقيل: بلو قطرا^(٢)، وكانت عاقلةً فاضلةً حكيمةً، لها التصانيفُ في الحكميات والطبيات، وهي آخر ملوك اليونان.

وكان لها زوج مُشارك لها يُقال له: أنطونيوس، وكان له مصر والسواحل، ومصر داخلةً في ملك اليونان.

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٨٥: ثم ملك بطليموس الإسكندراني اثنتا عشرة سنة.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٢٨٥: قلا بطرة.

وكانت قُلان طره تتردُّ من المغرب إلى مصر، وكانت الجزائر بأسرها داخله في ملك اليونان: صِقْلِيَّة وقبرس والأندلس، وجميع ما على البحر الرومي من البلاد الرومية وأعمالها، فإنها كانت للروم. وأقامت قُلان طره ملكةً عشرين سنة، وقيل: اثنتين وعشرين، ثم قتلت نفسها لما نذكر.

وقال علماء السير: فجميع ملوك اليونان بعد الإسكندر عشرةً والمرأة، وقيل: ثلاثة عشر آخرهم المرأة. ومدة ملكهم مئتان ونيف وأربعون سنة، وقيل: مئتان وستون سنة، وقيل: ثلاث مئة وأربع سنين.

حديث المرأة مع ملك الروم

لما اشتهر اليونان بالحكمة والفضائل والملك، حسدهم ملوك الروم، وكان ملك الروم برُومِيَّة، ولم تكن القسطنطينية بُنيت بعد، وما كانوا يتجاسرون أن ينالوا من أطراف اليونان شيئاً، فنبغ فيهم ملك جبار يقال له: انطوطس^(١)، ويُسمى بقيصر، ويقال: إنه أول من تسمَّى به، وإليه تُنسب القياصرة.

وبلغه أن ملوك اليونان قد انقضوا ولم يبق منهم سوى امرأة، فجمع العساكر وسار إليها من رُومِيَّة، وهي وزوجها يومئذٍ بمصر، فخرج إليه زوجها فقتله قيصر. وكانت قُلان طره امرأة حازمة، فأرسل إليها يخطبها ويقول: ما قصدي إلا أن تصير المملكتين واحدة، وأن أقرب منك لفضلك وعقلك. وعلمت أنه متى تمكن منها قتلها، فأجابته وقالت: تقيم في مكانك إلى يوم بعينه، فأقام.

فأفكرت في حيلة تحتال بها عليه، فرأت أن تُهلك نفسها وتُهلكه معها، ولا يتمكن منها. فعمدت إلى حية تكون بالصَّعيد في الرَّمْل، تَثْبُ في الهواء فتضرب الإنسان، فما يجتمع، فجعلتها في إناء من زجاج، وزينت قصرها، وفرشت مجلسها بالرياحين، ولَبِست تاجها، وجلست على سريرها، واستدعت قيصر.

فلما دخل من باب القصر قَرَّبَت يدها من الحية فضربتها، وانسابت في الرياحين، ووصل قيصر إلى السرير، ولم يشك أنها في عافية، فجلس إلى جانبها، فرآها ميتةً،

(١) في مروج الذهب ٢/٢٨٦: أغسطس.

فَعَجِبَ وَفَكَّرَ، وَعَبَثَ بِبَعْضِ الرِّيحِ فِي فَضْرِبَتِهِ الْحَيَّةِ، فَأَيَّسَتْ شِقَّةَ الْأَيْمَنِ، وَأَذْهَبَتْ عَيْنَهُ الْيَمْنَى وَسَمِعَهُ الْأَيْمَنَ، فَفَهِمَ وَعَلِمَ أَنَّ قَلَانَ طَرَهُ آثَرَتِ الْمَوْتَ فِي الْعِزِّ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الذَّلِّ، وَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ. وَانْقَضَى مُلْكُ الْيُونَانِ، وَزَالَتْ أَيَّامُهُمْ، وَدَثَّرَتْ عُلُومُهُمْ بِمَوْتِ قَلَانَ طَرَهُ.

وَكَانَتْ لَهُمْ بِيُوتٌ لِلْعِبَادَاتِ يُعْظَمُونَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْفَرَقْدِينَ، وَبَعْضُهُمْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ. وَكَانَ لَهُمْ بِيُوتٌ عِبَادَاتٍ بِالْمَغْرِبِ وَبِالْأَنْدَلُسِ وَبِمِصْرَ. وَيُقَالُ: إِنَّ الْهَرَمِينَ كَانَ عَلَيْهِمَا بَيْتَانِ، بَيْتٌ عَلَى جَبَلِ أَنْطَاكِيَّةٍ أَخْرَبَهُ قَسْطَنْطِينُ، وَبَيْتٌ بِالْقُدْسِ.

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرَ: كَانَتْ خَزَائِنُ عُلُومِهِمْ بِقُبْرَسَ، فَحُمِلَتْ إِلَى الْمَأْمُونِ فَنَقَلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ الَّتِي فِي أَيْدِي النَّاسِ الْيَوْمَ، مِنَ الْمُنْطَقِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ وَالطَّبِّ وَالنَّجُومِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَلِكُ الرُّومِ بِلَادَهُمْ.

فصل في ذكر حكمائهم

وَفِيهِمْ كَثْرَةٌ، فَذَكَرَ أَعْيَانَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّ أَوْلَهُمْ سُقْرَاطُ الْحُبِّ، وَهُوَ أَسْتَاذُ الْكُلِّ، وَكَانَ قَدْ أَقَامَ فِي حُبِّ مَكْسُورِ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ إِلَّا لِحَاجَةٍ.

جَاءَهُ بَعْضُ مَلُوكِ الْيُونَانِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَلَيْسَ حَاجَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: تَنْحِي فَرَسَكَ وَتَنْصَرِفُ عَنِّي، فَقَدْ كُنْتُ أَسْتَدْفِي بِحَرِّ الشَّمْسِ فَمَنْعَتَنِي.

وَمِنْ كَلَامِهِ: لَا تَخَفْ مَوْتَ الْبَدَنِ، وَلَكِنْ خَفْ مَوْتَ النَّفْسِ. فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ الْقَائِلَ بِأَنَّ النَّفْسَ الْنَاطِقَةَ لَا تَمُوتُ؟ فَقَالَ: بَلَى، إِذَا انْتَقَلَتِ النَّفْسُ الْنَاطِقَةُ مِنْ حَدِّ النَّطْقِ إِلَى الْحَدِّ الْبَهِيمِيِّ^(١) بَطَلَ النَّطْقُ؛ فَالْتَحَقَتْ بِالْمَوْتِ.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ قَدْ أَسَنَّ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِي الْعُلُومِ وَأَسْتَحْيِي. فَقَالَ لَهُ: أَسْتَحْيِي أَنْ تَكُونَ فِي آخِرِ عَمْرِكَ خَيْرًا مِنْ أَوْلِهِ؟

وَقَالَ: خَسَاسَةُ الرَّجُلِ تُعْرَفُ بِشَيْئَيْنِ: بِكَلَامِهِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَبِجَوَابِهِ فِيمَا لَمْ يُسْأَلْ عَنْهُ.

(١) فِي (خ) وَ (ك): الْبَهِيمِي.

ورأى رجلاً حسنَ الوجه سيئَ الأدب، فقال: سلبت فضائلَ نفسك محاسنَ وجهك.
وتعرّض له رجلٌ بكلامٍ قبيح، فأعرض عنه، فقيل له في ذلك، فقال للقائل: لو
رَمَحَكَ حمارٌ أكنت ترمحه؟ أو نبح عليك كلبٌ أكنت تَبِحُ عليه؟ قال: لا. قال: فكذا
السَّفيهُ ما يقابلُ بأبلغ من الإعراض عنه.

ومنهم بُقراط الأول، وقد اعترف بفضلِه الأوائل والأواخر، وهو واضح الطب.
ولما بلغ بهم بن اسفنديار بن بشتاسف خبره، كتب إليه يستدعيه، وبعث له قناطير من
الذهب فردّها، وقال: لا حاجة لي في الدنيا، المال والحكمة لا يجتمعان. ولم يخرج
من بلده. وكان يعالجُ الفقراء، ولا يأخذ منهم شيئاً، ويُعينهم.

وقال: استهينوا بالموت، فإن مرارته في خوفه.

وقال: الأمنُ مع الفقر خيرٌ من الغنى مع الخوف.

وقال: يُداوى كلُّ مريضٍ بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة مُتطلّعة إلى هوائها، ونازعةٌ
إلى غذائها.

وقيل له: لم يتكرَّب الإنسان بشرب الدواء؟ فقال: البيتُ أكثر ما يكون غُباراً إذا
كُنِس.

وعشق بعض أولاد الملوك حظيةً لأبيه، فنحل وسقم وخولط، فقال أبوه لبُقراط:
انظر ما به، فجسَّ نبضه فلم يجد به مرضاً، فأخذ يذاكره بحديث العشق والعُشاق،
فمال إليه وتهلَّل وجهه، فسأل عنه: هل خرج من الدار؟ قالوا: لا. فقال لأبيه: اعرض
عليه كل حظية في الدار. فأخرج كلَّ امرأة في الدار فعرضهنَّ عليه، وهو لا يلتفتُ،
حتى أخرج الخادمُ تلك الحظية، فتغيَّر وجهه، فترك بُقراط يده على نبضه وهو يضربُ،
فقال للملك: هو عاشقٌ لمن لا سبيل له إلى الوصول إليها. قال: ومن هي؟ قال:
حليلتي. قال: انزل عنها ولك أمثالها. قال: فأين العدل؟ تأمرني بطلاق زوجتي؟!
قال: إن أبيت فالسيف، ولا يموت ولدي. فقال: أرأيت لو كانت حظية الملك أينزل له
عنها؟ ففهم الملك باطن الحال، فقال له: عقلك أتم، ومعرفتك أعم. ونزل عنها
لولده، فبرئ.

وقيل لبقرات: لم يثقل الميت؟ قال: لأنهما كانا اثنين: خفيف [رافع] وهو الروح، وثقيل [واضع] وهو البدن، فلما انصرف الخفيف الرافع، بقي الثقيل الواضع.

وقال: علاج الجسد خمسة أضرب: ما في الرأس بالغرغرة، وما في المعدة بالقيء، وما في البدن بالإسهال، وما في أعماق البدن بالفصد، وما بين الجلدين بالعرق^(١).

ويقال: البقارطة أربعة، وهذا هو الأول، وبينه وبين جالينوس ست مئة وخمسون سنة، وكان جالينوس في زمن عيسى عليه السلام^(٢).

ومنهم أفلاطن أستاذ أرسطاطاليس، وهو صاحب المنطق^(٣)، وقد برز عليه أرسطاطاليس وأخذ عليه في مواضع.

ومن كلام أفلاطن: عقول الناس مدونة في رؤوس أقلامهم، وظاهرة في حُسن اختياراتهم.

وقال: الله تعالى بقدر ما يُعطي من الحكمة يمنع من الرزق. قيل له: ولم؟ قال: لأن الحكمة حطُّ النفس الناطقة، والمال حطُّ النفس الشهوانية، والناطقة عالية على الشهوانية، فالمال والحكمة متغايران لا يجتمعان.

وقال أبو يعلى بن الهبّارية: كان على خاتم أفلاطن: تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

وقال أفلاطن: لا ينبغي لك أن تفعل شيئاً إذا عيّرت به غضبت، فإنك إذا فعلت ذلك، كنت أنت القاذف لنفسك.

ومنهم بطليموس صاحب «المجسطي»، المتكلم في هيئات الأفلاك وما يتعلق بالهندسة كلاماً طويلاً.

(١) الملل والنحل ٢/١٠٩ - ١١٠ وما بين معكوفين منه.

(٢) المنتظم ٤/٢.

(٣) في هامش (ك) حاشية: المنطق لأرسطاطاليس لا لأفلاطن، وإن كان المنطق موجوداً في كلام الحكماء، لكن أرسطاطاليس أخرجه من القوة إلى الفعل، وجعله فناً بذاته، وهذا ما لا ينكره أحد من العلماء.

وله كلام حسن، فمنه أنه قال: ما أحسن الإنسان أن يصبر عما يشتهي، وأحسن منه أن لا يشتهي ما لا يقدر عليه.

وقال: لأن يستغني الإنسان عن الملوك، خير من أن يستغني به^(١).

ومنهم صاحب إقليدس، وهو أول من تكلم في الرياضيات، وقال: الخط هندسة روحانية ظهرت بألة جسمانية.

وقال: لما علم العاقل أنه لا ثقة له بشيء من أمور الدنيا، ألقى منها ما منه بُدٌّ، واقتصر على ما لا بُدَّ له منه^(٢).

ومنهم جالينوس، وكان في زمن عيسى عليه السلام، ويقال: إنه قصد الاجتماع بعيسى عليه السلام، وسار إليه فمات في طريقه^(٣). قال ابن حوقل: مات جالينوس اليوناني بمدينة الفرما، وهي شاطئ بحيرة تيس من أرض مصر، وبها قبره^(٤). ومات ابن مئة وتسعة وثلاثين سنة^(٥)، وإليه انتهى علم الطب.

ومن كلامه: علّة الاختلاف الذي يعرض للإنسان إنما سببه الدماغ؛ وذلك لأن أوعية الدماغ ثلاثة: مقدّم الرأس وهو للحسّ والخيال، ومؤخّره للحركة والفكر والحفظ، ووسطه للعقل والفطنة والذكاء، فمتى اعتدل الدماغ، اعتدلت الروح واعتدلت الأفعال، فإن مال الاعتدال إلى البرودة، كان الفعل أبطأ، وإن مال إلى الحرارة، كان الفعل أسرع.

ولما اشتد بجالينوس مرض الموت، قيل له: ألا تتداوى؟ فقال: إذا كان الداء من السماء بطل الدواء، وإذا نزل قدر الرب بطل حذر المربوب، ونعم الدواء الأجل، وبئس الداء الأمل.

(١) الملل والنحل ١١٦/٢.

(٢) الملل والنحل ١١٤-١١٥/٢.

(٣) المنتظم ٤/٢.

(٤) صورة الأرض ص ١٤٩.

(٥) في طبقات الأطباء والحكماء ص ٤٢، وأخبار العلماء ص ٨٩، والمنتظم ٤/٢ أنه عاش سبعاً وثمانين سنة أو ثمانياً وثمانين.

ومنهم حكيم احتُضر، فقال لولده وهو حاضرٌ عنده: يا بني، إنك وإن كنت وارثي وحدك، فليس لك جميع ما حوته يدي، لأن عليّ فيما أخلفه ديوناً لإخوان من مكارمٍ سبقت، لم يقبلوا مني مُجازاةً عليها؛ لاستغنائهم عنها، وقد كنتُ أراعيهم خوفاً من تحوُّل حال واحد منهم، فيحتاجُ إلى ما هو الآن غنيٌّ عنه، فيجدُ عندي مكافأته ذخيـرةً له، وقد أثبتُ أسماءهم في دفترٍ، فإن لِحِقَّتْ أحدهم فأته فاقضِ عني حقه كما يقضي الحُرُّ عارِفةَ الحر. ثم استحلفه على ذلك وأشهد عليه الحاضرين، ومات.

فإن قيل: فقد ذكرت الفلسفة، فما معناها؟

فالجواب: أنها عندهم الإحاطة بمعرفة الحقائق والحكميات. والفيلسوف بالعربية معناه: محبُّ الحكمة. ويدخل فيها علمُ النجوم والطب والهندسة والحساب وتأليف الألحان، والهندسة دون الفلسفة لأنها تختصُّ بمعرفة مقادير الأرض، والأبنية، ومجري المياه، وغرس الأشجار، وآلات الصنائع وتركيبها.

فإن قيل: فما الذي يعتمدُ عليه هؤلاء الحكماء من العقائد؟

فالجواب: أن لهم مذاهب، منها: أن الأرواح عندهم باقية، والفساد والكون إنما يلحقان الجسد، ومكانُ الروح من الجسد مكانُ النار من الفحم، وأن الروح جسمٌ لطيف متداخل في هذا الجسد الكثيف، فالروح بلطافته يحرك الكثيف ويستعمله.

ومن مذاهبهم: أن العالم الأرضي متصل بالعالم السماوي، وأن الفلك يتدورُّ بحركة مستديرة فتتحرك له الكواكب، فيحدث بتحركها في هذه الأجسام الاستحالات، فيقع الكون والفساد. قالوا: وفسادُ كلِّ شيء كونه شيءٍ آخر، كالخشب الذي يحترق بالنار فيصير فحماً.

قال المصنف رحمه الله: والغالبُ على علومهم الحدس والتخمين لا التحقيق واليقين، فإن أسرارَ الباري المخفّيات، وأموره المغيّبات، لا مجالَ فيها للظنون. وأقربُ علومهم إلى الصحة علومُ الهندسة، فإنها مبنية على الحساب، وقد ذكرتُ منها ها هنا جملةً لا يُستغنى عنها.

قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلِ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣] فأقول: الأعدادُ أربعةٌ: آحاد،

وعشرات، ومئين، وألوف. فالآحادُ: تنتظم ما بين الواحدِ إلى التسعة، والعشرات: تنتظم ما بين العشرة إلى التسعين، والمئين: تنتظم ما بين المئة إلى تسع مئة، والألوف: تنتظم ما بين الألف إلى تسعة آلاف، وما بعد ذلك تكرر.

فالآحاد في العشرات كلُّ واحدٍ عشرة، والعشرات في العشرات كلُّ واحد مئة، والعشرات في المئين كلُّ واحد ألف، والمئين في المئين كلُّ واحد عشرة آلاف، والمئين في الألوف كل واحد مئة ألف، والألوف في الألوف كلُّ واحد ألف ألف.

والحَبْل عشرة أبواب، والباب ستة أذرع، والذراع تسع قَصَبَات، والقصبَة أربع أصابع، والحبل في الحبل جَرِيب، والحبلُ في الباب قَفِيز، والحبل في الذراع عَشِير.

والدينار أربعة وعشرون قيراطاً وأربعة عشر طَسُوجاً وست دوانيق وثمان وسبعون حَبَّة، والقيراط ثلاث حبات وعشرة دراهم فضة وزن سبعة مثاقيل ذهب.

والرُّطْل ثنتا عشرة أوقية، والأوقية سبعة مثاقيل ونصف.

والفرسخ ثلاثة أميال، والميلُ اثنا عشر ألف قدم أو أربعة آلاف خُطوة بخطوة الجمل.

فصل في ذكر بني الأصفر

وسُمُّوا الروم، لأنهم من ولد روم بن العيص بن إسحاق عليه السلام، وقيل: لأنهم نُسبوا إلى رُومِيَّة، والأول أصحُّ، لأن رومية بُنيت قبل ظهورهم بأربع مئة سنة، وكان يقال لها: رماس^(١)، فلما سَلَبوها نُسبت إليهم.

وقال ابن الكلبي: وَلَدَ العيصُ بن إسحاق ثلاثين ولداً منهم الروم، وكان أصفر اللون، فقيل: بنو الأصفر.

وقيل: غارت عليهم الحبشة، فوُلِدَ لهم بنات أَخَذْنَ من بياض الروم وسواد الحبشة، فكنَّ صُفراً لُغساً، فنُسبوا إليهن.

وأول ملوكهم الذي قتلته الحية، وقيل: مَلِكٌ قبله هالوس، وبعده قيصر.

(١) في مروج الذهب ٢/٢٩٣: روماس، وفي معجم البلدان ٣/١٠٠: رومانس.

وقال ابنُ الكلبي: عدد ملوكهم الذين ظهروا من رومية أربعون ملكاً، وقيل: ستون، وعدد سنينهم خمس مئة سنة، وقيل: أربع مئة سنة وسبع وثلاثون سنة، إلى أن ظهر الإسلام.

فذكر أعيانهم، لأن أسماءهم لم تُحَقَّقْ، ومنهم أيضاً من ليس له مكرمة، ولا تجدد في زمانه ما يُؤرِّخ.

فثالث ملوكهم أغسطس، ملك نيفاً وخمسين سنة، ولما مضى من ملكه اثنان وأربعون سنة وُلد المسيح عليه السلام، وبين مولده وغلبة الإسكندر الثاني على بابل ثلاث مئة وثمانون سنة، وقيل: خمسون. وقيل: إن الذي قتلته الحية أقام على رومية ملكاً سنة.

وكان يقال له: قيسر لأن أمه كانت حاملاً به فعسرت ولادتها، فشققوا بطنها فخرج، وكان يفتخر على الناس بأن النساء لم يلدنه، فصار ذلك سنة بعده.

وكان جباراً عاتياً، وهو الذي بنى قيسارية الروم، وقيل: وقيسارية الشام بالساحل. ويقال: إن عيسى عليه السلام وُلد في زمانه.

وملك بعده طبارس^(١)، فأقام بعده اثنتين وعشرين سنة، وفي أيامه رُفع عيسى عليه السلام لثلاث سنين بقيت من ملكه.

ثم اختلفت الروم بعده فلم يجتمعوا على ملك، بل تنازعوا الأطراف ثلاث مئة سنة، وكانوا يعبدون التماثيل والأصنام.

فصل

ثم ملك بعده فلورس رومية^(٢) أربع عشرة سنة، وهو الذي قتل النصارى ونفاهم، وفي أيامه قُتل بيرس وبولس، وقيل: وشمعون، وُصِّلَا بأنطاكية^(٣)، وهما اللذان أخبر

(١) في تاريخ اليعقوبي ١/١٤٦، ومروج الذهب ٢/٢٩٩: طباريس، وفي تاريخ الطبري ١/٦٠٦، والتنبيه والإشراف ص ١٢٤: طياربوس.

(٢) في تاريخ اليعقوبي ١/١٤٦، ومروج الذهب ٢/٢٩٩: قلوذيس، وفي تاريخ الطبري ١/٦٠٦، والتنبيه والإشراف ص ١٢٥: قلوذيسوس.

(٣) في مروج الذهب: وقيل إن في أيامه قتل برومية بطرس - واسمه بالسريانية شمعون، والعرب تسميه سمعان - هو وبولس، وُصِّلَا منكسين.

الله عنهم في سورة «يس». ثم لما ظهر دينُ النصرانية نُقِلَا إلى رومية، وجُعِلَا في جُرنين من البلور، فهما في كنيسة رومية إلى اليوم.

فصل

ثم ولي بعده رجلان: طنطس واسبانوس^(١)، اشتركا في الملك، وقصدا بيت المقدس وأخرباه، وقتلا من بني إسرائيل ثلاث مئة ألف، وكانا يعبدان التماثيل.

فصل

ومنهم انطونس^(٢)، وفي أيامه يُقال: مات جالينوس الحكيم.

فصل

ومنهم دقيانوس الذي نام في أيامه أصحابُ الكهف.

فصل

ومنهم قُسطنطين، وكان يعبد الأصنام، وهو الذي بنى القُسطنطينية، جاء إلى موضعها - وتُسمى برزيطيا^(٣) - فقال: بنى ها هنا مدينةً تحفظ بلد الروم من ملوك فارس، فبناها وانتقل من رومية.

ولما مضى من ملكه ست سنين خرج عليه عدوٌّ من فارس اسمه: برجان، فظهر عليه وخاف منه، فرأى في نومه رماحاً نزلت من السماء عليها صُلبان من ذهب مرصعة بالجواهر، وقائل يقول له: خذ هذه الرماح فقاتل بها عدوك، فإنك تُنصر عليه. فأخذها في المنام وقاتل عدوه، فانتصر عليه، فاستيقظ وعمل رماحاً مثلها، وقاتل عدوه فانهزم ونُصر عليه. فسأل العلماء عن الصُلبان فقالوا: بيت المقدس من يعرف هذا. فبعث إليه، فقدم منهم ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفاً، فسألهم، فقصوا عليه قصة المسيح عليه السلام، وشرعوا له دين النصرانية، ونصروا النصارى، فسُمي هذا الاجتماع السنودس، وهي ستُّ سنودسات، وهي لفظة رومية معناها الاجتماعات، وكان

(١) في مروج الذهب ٢/٣٠٤: طنطس واسفانوس.

(٢) في مروج الذهب ٢/٣٠٦: أبطونيس.

(٣) في مروج الذهب ٢/٣١١: بوزنطيا.

اجتماعهم بِنَيْقِيَّة من أرض الروم.

وكان لِقُسطنطين أمُّ حَكِيمَة يقال لها: هِلاني، خَرَجَت إلى الشام وبنَت الكنائس، وطلَبَت الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فأحضروها، فزَيَّنَتها بالجواهر، واتخذت ذلك اليومَ عيداً، وسمَّته: عيدَ الصليب، وذلك لأربع عشرة خلت من أيلول. وملك قسطنطين ثمانين سنة، ومات.

فصل

ثم ولى بعده أخوه بالس^(١)، فرفض دينَ النصرانية، ويُعرف بالحنيفي لرجوعه عن النصرانية، ويُسمى: البرباط^(٢) أيضاً، غزا العراق، فقتل وسبى في أيام أردشير بن بابك، وقيل: في أيام سابور بن أردشير، فلم يكن لسابور به قِبَلُ لكثرة جنوده، فبينا هو يقتل ويسبى جاءه سَهْمٌ غَرَبٌ فقتله، وقيل: كان ذلك باحتيال سابور. وكان مقامه في المُلْك سنة واحدة.

فصل

ثم ملك بعده أوبالس، وفي أيامه انتبه أهل الكهف من منامهم، فأقام أربع عشرة سنة.

ثم ملك شرهو^(٣)، وهو الذي بنى عمورية، فوجد في أرضها كنوزاً عظيمة.

فصل

ثم ملك سطناس^(٤)، وهو الذي عمر كنيسة الرُّها، وكان بها منديل تزعم النصارى أن المسيح لما خرج من المعمودية تنشف به. ولما حوصرت الرُّها في سنة اثنتين [وثلاثين] وثلاث مئة، واشتدَّ الحصار على أهلها، وكانت للمسلمين، طلبت منهم الرومُ المنديل ويرحلوا عنهم، فأعطوهم إياه ورحلوا.

(١) في مروج الذهب ٢/٣٢٥، والتنبيه والإشراف ص ١٤١ أن اسمه ليلانس (أويوليانوس) وأنه ابن أخي قسطنطين بن هيلاني.

(٢) في (خ) و (ك): الرباط، وفي التنبيه والإشراف ص ١٤١: باربديس.

(٣) في مروج الذهب ٢/٣٣١: نسطاس.

(٤) في مروج الذهب وما سيرد بين قوسين منه: يسطانياس.

فصل

ومنهم هرقل، ولسبع سنين من ملكه هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهرقلية. وهو الذي كتب إليه رسول الله ﷺ. ومات في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وملك بعده ابنه قيصر، وهو الذي أجلاه أبو عبيدة وخالد بن الوليد عن الشام وإلى هلم جراً.

وقيل: عدة ملوكهم قبل ظهور النصرانية من الملك الذي نهشته الحية إلى قسطنطين ثلاثون ملكاً، ومن قسطنطين إلى مورك بن لاوي الذي كان في أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثلاثون ملكاً، أقاموا في الملك أربع مئة سنة.

فصل في ذكر ملوك الطوائف

وكانوا من الفرس، وقيل: من النبط، وقيل: من العرب، ويقال: هم الأزدوان. قال علماء السير: لما قتل الإسكندر دارا بن دارا، وأوغل في بلاد الهند والصين، تغلب كل قوم على ناحية، وكانوا أصنافاً، فكاتبهم الإسكندر، وكان مقصوده تشتيت كلمتهم، وأن ينقادوا إلى ملك واحد^(١). وكانوا بأسرهم يميلون إلى ملوك الجبال من نواحي الديونور ونهاوند، ويقال لهم: الأشغانيون، وكان يقال لملوك الطوائف: الأشغانيون، لميلهم إليهم، وكانت منازل النبط منهم - وهم الأزدوان - على الفرات مما يلي قصر ابن هبيرة إلى ناحية الطفوف وما والاها، وكانت ملوك العرب من مضر ابن نزار^(٢) وربيعه وأنمار وقحطان بالحجاز واليمن. وكان أرسطاطليس هو الذي أشار على الإسكندر بمكاتبتهم واستمالتهم، وأقام كل ملك في أرضه، ومن مات منهم ورثه ولده أو قريبه، وكان ملكهم خمس مئة سنة، وكانوا تسعين ملكاً مفرقين في العراق والشام ومصر والحجاز واليمن.

(١) في مروج الذهب ١٣٣/٢: وكان مراد الإسكندر تشتيت كلمتهم وتحزيبهم وغلبة كل رئيس منهم على السقع الذي هو به فيعدم نظام الملك ولا ينقاد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم.

(٢) في النسخ: مضر ونزار، والمثبت من مروج الذهب ١٣٤/٢.

وقال ابن قتيبة: كان ملوكهم أربع مئة وخمسة وستين سنة^(١).

وقال أبو عبيدة: لما رجع الإسكندر من الشرق تُوفِّي يوم الأربعاء، فأقاموا بعده مئتين وخمسين سنة. وفي أيامهم كان قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام، وولادة المسيح عليه السلام، وأول ملوكهم بالعراق أشك بن أردوان بن أشغان، وإليه نُسبوا ف قيل: الأشغانية، وقيل: الأشكانية.

قال ابن مسكويه: أشك هو ابن دارا الأكبر، جمع جمعاً عظيماً وسار إلى أنطيوخس الملك الرومي، وكان مقيماً بسواد العراق من قبل الروم، وزحف إليه أنطيوخس، والتقى ببلاد الموصل، فقتل أشك أنطيوخس، وغلب على السواد، وصار في يده من الموصل إلى الرِّي وأصبهان، وعظمه ملوك الطوائف لشرفه وكونه من بيت الملك، وبدؤوا به على نفوسهم في كتبهم، وأهدوا إليه من غير أن يعزل أحداً [منهم] أو يستعمله^(٢).

ثم ملك بعده جماعة آخرهم الأردوان من ولد أشك، وظهر أردشير بن بابك فغلب على ملوك الطوائف، وقتل الأردوان مبارزة واستولى على الممالك، وانقضت أيام ملوك الطوائف. وعدد ملوكهم من أشك إلى الأردوان سبعة ملوك، وملكوا مئة ونيفاً وسبعين سنة، غير أيام أشك فإنها كانت عشرين سنة.

وملك بعده ولده جودرز بن أشك إحدى وعشرين سنة^(٣)، ثم ملك فيروز بن سابور ابن أشك عشرين سنة، ثم ملك بعده ابنه سابور تسع عشرة سنة، ثم ملك بعده حوض ابن جودرز^(٤) أربعين سنة، ثم ملك بعده أخوه هرمز عشرين سنة، ثم ملك بعده أردوان بن هرمز خمس عشرة سنة، ثم ملك بعده ولده بلاش^(٥) أربعاً وعشرين سنة، ثم ملك الأردوان وهو آخرهم ثلاث عشرة سنة.

(١) المعارف ص ٦٥٣.

(٢) تجارب الأمم ٤٣/١ وما بين معكوفين منه.

(٣) في تاريخ الطبري ٥٨٢/١، ومروج الذهب ١٣٦/٢، والتنبيه والإشراف ص ٩٩ أنه ملك عشر سنين.

(٤) في مروج الذهب ١٣٧/٢، والتنبيه والإشراف ٩٩، وتاريخ الطبري ٥٨٢/١: نرسي بن نيزر.

(٥) في النسخ: بلا سون، والمثبت من تاريخ الطبري، ومروج الذهب ١٣٧/٢، والتنبيه والإشراف ص ١٠٠،

وتجارب الأمم ٤٤/١، والمنتظم ٧٨/٢.

فصل في ذكر ملوك الفرس الثانية

وأول ملوكهم ساسان الأصغر، وكان بالجبال لا يُؤبّه إليه، فجمع جموعاً كثيرة، ومَلَك البلاد وأباد ملوك الطوائف، ولم يبقَ منهم غير الأردوان فهرب منه، واستولى ساسانُ على الممالك، وإليه تنتهي أنساب الفرس الثانية. وهو الذي كَوَّر الكُور، ورتَّب الصنائع والحرف والنواميس، وأقام مدةً لم تضبط، ثم مات.

فمَلَك بعده أردشير بن بابك بن بهمن بن إسفنديار بن بُشتاسف، فسَمَّى نفسه شاهنشاه الأعظم، وبنى المدائن، واستولى على الممالك، وإنما خرج طالباً بثأر ابن عمّه دارا بن دارا بن بهمن الذي قتله الإسكندر.

وكان مولده بقرية من قرى إصطخر، وكان أبوه بابك شجاعاً يلتقي وحده مئة رجل^(١)، وقتل أردشير الأردوان^(٢) ووطئ رأسه بقدميه، وفي ذلك اليوم سمَّى بشاهنشاه الأعظم، وكان منصوراً لا تُردُّ له رايةٌ. وملك خمس عشرة سنة، واختلفوا في نسبه، ولا خلاف أنه من ولد منوَجهر.

وهو أول من خَطب من الفرس الثانية، فقال لما قتل الأردوان^(٣): الحمدُ لله الذي خَصَّنَا بنعمه، ووفَّر لنا من عطاياه، وشملنا بفوائده، ومهَّد لنا البلاد، [وقاد إلى طاعتنا] العباد، ألا وإنا شارعون^(٤) في إقامة منار العدل، وإدراار الفضل، وتشيد المآثر، والإقبال على الرأفة والرحمة، وإنصاف الضعيف من القوي، ومن الشريف للدني، فإن العدل سُنَّةٌ محمودة، وشريعةٌ مسلوكة، وسترون في أيامنا ما تحمدونا عليه، وتشكروننا على فعله، وسوف تُصدِّق أفعالنا أقوالنا... في كلام طويل.

وبأردشير اقتدى الخلفاء والملوك في ترتيب الممالك، فإنه رتَّب الناس على ثلاث طبقات؛ فالأولى: الحكماء والعلماء وكان مجلسهم عن يمينه، والثانية: الملوك وأبناؤهم

(١) في تاريخ الطبري ٣٧/٢، والمنتظم ٧٩/٢ أن جده ساسان هو الذي يلتقي وحده ثمانين رجلاً.

(٢) في النسخ: وقتل ملك أردشير الأردوان.

(٣) في النسخ: لما قتل ملك الأردوان، وانظر تاريخ يعقوب ١٥٩/١، والطبري ٤٠/٢، ومروج الذهب ٢/١٥٢، وتجارب الأمم ٥٤/١.

(٤) في مروج الذهب ١٥٢/٢ وما بين معكوفين منه: ساعون.

وسمّاهم الخواصّ، وكان مجلسهم عن يساره، والثالثة: المرآة والأصبهنية وهم بين يديه. ولم يكن في هذه الطبقات وضع ولا خسيس الأصل ولا ناقص الخلق^(١).

ثم زادهم سبع طبقات: أولها: الوزراء، والثانية: الموايد، وهم الحكام والقضاة وأصحاب الشرع، والثالثة: نواب هؤلاء.

وجعل الأصبهنية أربعة: فالأول على خراسان، والثاني على بلاد الشمال، والثالث على المغرب، والرابع على ناحية الجنوب. ودانت له الدنيا.

ومن كلامه: معاشره الوضيع للشريف شهراً، تُفسد عقله دهرأ. وقال: يجب على الملك أن يكون فائض العدل، فإن فيه جماع الخيرات، وهو الحصن الحصين من زوال الملك، وإن أول مخايل الإدبار في الملك ذهاب العدل منه^(٢)، وما خفقت راية الجور في دولة إلا لفحتها نسائم الخذلان فردتها على أعقابها. وليس أحد ممن يصحب الملوك أولى باستجماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطرائف الملح، وغرائب التنف من النديم، فإنه يحتاج إلى تواضع العبيد مع قربه من الملك، وعفاف النسك، ووقار الشيوخ، وأن يفهم ما مراد الملك فيناجيه على حسب ما يبلوه من خلائقه، ويكون له جمالاً ومروءة، أما جماله فنظافة ثوبه، وطيب رائحته، وفصاحة لسانه، وأما مروءته فكثرة حياته، ووقار مجلسه مع طلاقة وجهه، وأن يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة^(٣).

وكتب إلى من كان بقربه من ملوك الطوائف يخبره بما أجمع عليه من الطلب للملك لما فيه من صلاح الرعية وإقامة العدل، وكان من كتابته: من أردشير بن بابك المستأثر دونه بحقه، المغلوب على ميراث آبائه، الداعي إلى الله المستنصر به، فإنه وعد المظلومين النصر والظفر، وجعل لهم العاقبة، إلى من يصل إليه كتابي هذا من ملوك الطوائف، سلامٌ عليكم بقدر ما تستوجبون به معرفة الحق، وإنكار الباطل والجور.

فمنهم من أقر له بالطاعة، ومنهم من تربص عليه، ومنهم من عصاه. فلما استوسق

(١) انظر مروج الذهب ١٥٣/٢.

(٢) في النسخ: وإن أول مخايل الملك في الإدبار وذهاب عدله، والمثبت من مروج الذهب ١٥٥/٢.

(٣) في مروج الذهب ١٥٦/٢: ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة.

ملكه، أباد من تربص عليه وعصاه^(١).

وكتب إلى رعيته: من أردشير ملك الملوك، ووارث العُظماء المؤيّد، إلى العلماء الذين هم حملة الدين، والأساورة الذين هم حُفاظ الدولة، والكتّاب الذين هم زينُ المملكة، سلامٌ عليكم؛ اعلّموا أنّا قد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا الإتاوة التي كانت عليها، ونحن كاتبون بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشمَلكم القحط، وتزوّجوا في الأقربين؛ فإنه أمس للرحم، وأثبت للنسب، ولا تعدّوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبقي على أحد، ولا تهتموا لها، فالرزق بيد الباري، ولا ترفضوها بمرّة فإن الآخرة لا تُدرِك إلا بها^(٢).

وأجدبت الأرض، فكتب إلى عُماله: ليس من العدل أن يفرح الملك ورعيّته محزونون، ثم فرّق جميع ما في بيت المال.

ورُفع إليه أن جماعةً من بطانتك قد فسدت نياتهم، فكتب عليها: إنما أملك الأجسام دون النيات، وأحكّم بالعدل دون الرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

ومدحه مادح فقال: طوبى للممدوح إن كان أهلاً للمدح^(٣).

وكتب إليه مُتنصّح: إن قوماً اجتمعوا على ثلبك، فوقع عليها: لئن كانوا نطقوا بالسنّة شتى لقد جمعت ما قالوه في ورقتك، فجرحك أعجب، ولسانك أكذب.

وكتب إليه جماعة من بطانته يشكون إليه سوء حالهم، فوقع: ما أنصفكم من الجأكم إلى الشكوى. ثم فرّق فيهم مالاً وأغناهم.

قال ابن قتيبة: وهو الذي بنى مدينة جور بفارس، ومدينة أردشير بفارس أيضاً، ومدينة أستراباذ، وهي كرخ ميسان، ومدينة الأبلّة وغيرها^(٤).

ولما تمّ لأردشير أمره، ودانت له الممالك، زهد في الدنيا وانقطع إلى بيوت

(١) المعارف ص ٦٥٣.

(٢) مروج الذهب ٢/١٦٢-١٦٣.

(٣) العقد الفريد ١/٢٥ و ٢/١٣٣ و ٤/٢٢٢، وزهر الآداب ١/٢٠٧.

(٤) المعارف ص ٦٥٤.

العبادات والخلوة، وأجلس ولده سابور مكانه وتوجه، وكان أكبر ولده وأعقلهم وأفضلهم.

وأقام أردشير ثلاث سنين يتعبد، ولما احتضر أوصى ولده سابور، وكان فيما أوصاه: يا بني إن الدين والملك توأمان لا غنى لواحدٍ منهما عن الآخر، فالدين أساس، والملك حارس له، وما ليس له أسٌّ فمهدوم، وما لا حارس له فضائع^(١).

فصل

في ذكر ولده سابور، ويقال له: سابور الجنود، لكثرة جنوده واعتناؤه بهم، ولما ولي سار بسيرة أبيه وزاد عليها، وأحسن السياسة، وضبط الممالك، ولما شاع ذلك عنه كتب إليه قيصر: لَمَّا بَلَغَنِي حَسَنُ سِيرَتِكَ وَتَدْبِيرِكَ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ طَرِيقَتَكَ، فَكُتِبَ بِهَا إِلَيَّ.

فكتب إليه: اعلم أنني ما نلتُ ما نلتُ إلا بثلاث خصال: لم أهزل في أمرٍ ولا نهى، ولم أخلف وعداً، وربّما أخلفتُ وعيداً، ولا عاقبتُ إلا للذنب لا للغضب.

وسابور هو الذي حاصر حصن الضيزن، وقيل: اسم الحصن السَّاطِرون وهو على الفرات، وقيل: هو الحَضْر، وقيل: السَّاطِرون اسم الملك. وقال أبو عبيدة: اسمُ الملك الضَّيْزَن بن معاوية بن مالك التَّنُوخي القُضاعي، ويلقب بالسَّاطِرون.

وكان السبب في قُصْدِ سابور له، أنه غاب بخراسان يُحارب عدواً له، فتطرق الساطرون إلى بلاده، فلما عاد سابور حصره في الحصن - وكان حصناً لا يُراد - فأقام عليه أربع سنين، وكان للملك ابنةٌ يقال لها: نَضِيرَة، ولم يكن في زمانها أجملٌ منها، فنظرت من فوق الحصن إلى سابور فعشقتَه، فراسلته: إن دَلَلْتُكَ عَلَى عَوْرَةِ الْحَصْنِ أَتَزَوَّجُنِي؟ قال: نعم. قالت: فعليك بحمامة مُطَوَّقة زرقاء، فاكتب في رجليها بحيض جارية بكرٍ، يُفتح بها الحصن فهي طَلَّسُمُه، وسقت هي حراس الحصن الخمر، وفعل هو، فانهدم جانبُ الحصن، ودخله عَنوَةٌ، فقتل الملك وأقيال قُضاعة، وأخرب الحصن، وحمل معه نَضِيرَة فأعرس بها، فلم تزل طول ليلتها تقلق على الفراش، وكان

(١) مروج الذهب ٢/١٦٢.

محشواً حريراً وقزاً، فقال لها: ما الذي بك؟ ثم فتش الفراش وإذا بطاقة آس كانت عليه قد أثرت في عُكْنَةٍ من عُكْنِهَا، وكان ينظر إلى مَخِّ ساقها من لين بشرتها، فقال لها سابور: بأيِّ شيءٍ كان يَغْدُوكِ أبوك؟ فقالت: بالزُّبْدِ والمخ والشَّهْدِ وصَفْوِ الخَمْرِ. فقال: إذا كان أبوك فعل معك هذا وقابليته بما فعلت؟! فلا آمَنُك أن تفعل بي كما فعلتِ بأبيك. ثم شدَّ ضَفِيرَتَهَا في رِجْلِ فرسين وأمر أن يُرَكِّضَ بهما، فَرُكِّضَ فَقُطِّعَتْ قطعاً قطعاً^(١).

وسابور هو الذي بنى جُنْدِي سابور، وكانت أيامه ثلاثين^(٢) سنة، وقيل: إحدى وثلاثين سنة. ولما احتضر دعا ولده هُرْمُز بن سابور فأوصاه، ثم مات. وملك بعده ولده هُرْمُز، وكان عادلاً منصفاً على سَنَنِ جَدِّه، وكان يُلقَّب بالبطل لشجاعته، وهو الذي بنى بالعراق دَسْكَرَةَ الملك، وأقام والياً سنة واحدة، وقيل: ثلاث سنين، ثم مات.

ويقال: إن أباه اتَّهَمَهُ بأمر وأبعده عنه، ففَطَعَ يدَ نَفْسِهِ وبعث بها إليه، فاستحى أبوه وقال: ما يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ سِوَاهُ، فولَّاه الملك. ولما احتضر، عهد إلى ولده بهرام بن هرمز.

فصل

ملك بهرام، وقتل ماني الزنديق القائل بمذهب الثنوية، وصلَّبه، وحشى جلده تَبْنًا وعلَّقه على باب جُنْدِي سابور.

واختلفوا في ظهور ماني، فقال قوم: ظهر في أيام أردشير بن بابك، وقال بالهين اثنين، وأباح نكاح المحرَّمات كالأمهات والبنات والأخوات. وقال لأردشير: لا بُدَّ لي من أم سابور أطوَّها، فإن في ظهري نبياً، وما أحبُّ إلا أن يكون فيها. فأجابه أردشير إلى ذلك، وعزَّ على سابور، فبكى بين يدي ماني، وتضرع إليه، فسكت عنها. وقيل: إن سابور لما ولي قتله، وقيل: بل قتله بهرام بن هُرْمُز لأنه طلب منه أن ينكح أمه

(١) انظر تاريخ الطبري ٤٧/٢-٥٠، وتجارب الأمم ٦٩/١-٧١، والمنتظم ٨١/٢-٨٢.

(٢) في النسخ: ثمانين، ولم يذكر أحد أنه ملك هذه المدة، انظر المعارف ص ٦٥٤، والأخبار الطوال ص ٤٧،

وتاريخ الطبري ٥١/٢، ومروج الذهب ١٦٣/٢ و١٦٦، والتنبية والإشراف ص ١٠٣، والبدء والتاريخ

١٥٨/٣، وتجارب الأمم ٧١/١، والمنتظم ٨٢/٢.

كما أراد أن يفعل بسابور، فقتله. وأقام بهرام في الملك عشرين سنة، ثم مات^(١).

فصل

فولي بعده ولده نرسي، فأقام تسع سنين على منهاج أبيه، ثم مات. فولي بعده هرمز ابن نرسي، فأقام سبع سنين ومات.

فصل

ولما مات هرمز بن نرسي لم يُخلف ولداً، فشَقَّ على الفرس، وسألوا نساءه: هل فيكن حاملٌ؟ فقالت امرأة منهن: أنا. ففرحوا وبعثوا إليها القوابل، وقد استبان حملها، ورأين من نضارة لونها، وخِفَّة الجنين في بطنها ما دلَّهن على أنه ذكرٌ، فأخبرن الفرس، فاجتمعوا ووضعوا التاج على بطنها. فلما انقضت أيامها وضعت ولداً فسَمَّوه سابور، واستبشروا به.

وأقام الوزراء والأساورة يُدبِّرون أمر الفرس، وفشا في الآفاق أن الفرس يُملكون الحمل، ومَن هو في المهد، فطمع فيهم الناس، وغزتهم العرب: عبد القيس وكاظمة والبحرين^(٢)، والروم، والترك، وكثر الفساد وقلَّت هيبة الفرس.

فلما ترعرع سابور كان أوَّل ما عُرِف من علوِّ هِمَّته أنه سمع بالمدائن عند السَّحَر ضجَّة، فسأل عنها، فقيل له: الناسُ يزدحمون على جسر المدائن مُقبِلين ومُدبرين. وكان الجسر على دجلة، فقال: وما الذي دعاهم إلى هذه المشقَّة وهم قادرون على حَسْمِها بأيسر مؤونة، بأن يجعلوا جسرين: أحدهما للمقبِلين، والآخر للمدبرين، ولا يقع أحدٌ في الماء. ثم قال: لا تغربُ الشمس حتى يُعمَل الجسر. ففرح الناس لما رأوا

(١) كذا ذكر، والذي ذكره المؤرخون أن بهرام بن هرمز ملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ثم قام بعده بهرام بن بهرام بن هرمز، وبقي ثماني عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة، ثم ملك بعده بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز، فبقي أربع سنين وقيل: أربعة أشهر. انظر المعارف ص ٦٥٥، والأخبار الطوال ص ٤٧، وتاريخ اليعقوبي ١/١٦١، وتاريخ الطبري ٢/٥٣، ٥٤، ومروج الذهب ٢/١٦٧، ١٦٨، ١٧٤، والتنبية والإشراف ص ١٠٣-١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/١٥٨، ١٥٩.

(٢) في تاريخ الطبري ٢/٥٥، وتجارب الأمم ١/٧٢: فسار جمع عظيم منهم في البحر، من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على أبرشهر...

من علو همته.

ولما بلغ ست عشرة سنة سار إلى العرب الذين تحزّبوا عليه، ومنهم إياد بن نزار، وكان يقال لها: طَبَق، لإطباقها على البلاد، ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغرّ الإيادي، فقتلهم سابور وسباهم ونفاهم، وجعل له مسالح بالأنبار وعَيْن التمر، فكان إذا أُتِيَ بالرجل منهم نزع كتفيه، فسُمِّي ذا الأكتاف.

قال ابن الكلبي: بعث معاوية جماعةً من تميم ليفتكوا بعلي عليه السلام، فقال:

[من الخفيف]

إِنَّ حَيًّا يَرَى الصَّلَاحَ فَسَادًا ويرى الغي في الأمور رشادا
لَقَرِيبٌ مِنَ الْهَلَاكِ كَمَا أَهْ لك سابور بالسَّوادِ إيادا^(١)

ولما فرغ سابور من إياد سار إلى البحرين وبها بنو تميم، فقتلهم وأجلاهم، وعليهم عمرو بن تميم، وكان قد أتت عليه ثلاث مئة سنة، وكان يُعَلَّقُ في عمود في البيت في قُفَّةٍ قد اتُّخِذت له، فأرادوا حملة فقال: دَعُونِي، فلعلَّ الله يُنجيكم بي من صَوْلَةِ هذا الملك المُسَلِّطِ على العرب. فتركوه وانهمزوا، وجاءت خيلُ سابور وعمرو معلق في شجرة، فأخذوه وأتوا به إلى سابور، فلما رآه عَجِبَ وقال: مَنْ أنت أيها الفاني؟ فقال: عمرو بن تميم.

ثم قال لسابور: أيها الملك، قد هرب الناس منك، فلم تقتل رعيّتك؟ فقال: لما ارتكبوا من بلادي وأهل مملكتي، فقال له عمرو: فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم، فلما بلغت أمسكوا هيبةً لك. فقال: إنما أقتلهم لأننا نجد في علومنا أن العرب ستُدَالُ علينا. فقال له عمرو: فوالله لأن تُحسن إليهم ليكافئوك عند الإدالة أولى بك من الإساءة. قال: صدقت. وأمر برفع السيف عنهم. وعاش عمرو بعد هذا اليوم ثمانين سنة^(٢).

وسابور هذا هو الذي بنى الإيوان وسكّنه، وكان إلى جانبه كوخٌ عجوزٌ فلم يُغيّره. ولما اجتاز هارون الرّشيد بالإيوان نزل به فأعجبه، فقال خادم من خُدّامه لآخر: ترى الذي بنى هذا الإيوان أراد أن يصعد إلى السماء؟! فسمعه هارون فضربه مئة سوط،

(١) مروج الذهب ١٧٧/٢-١٧٨، والبدء والتاريخ ١٦٠-١٦١.

(٢) مروج الذهب ١٧٨/٢-١٨١.

ف قيل له في ذلك، فقال: المُلْكُ نِسْبَةٌ، والملوك فيه إخوة، فَلَحِقَنِي غَيْرَةٌ عَلَى الْمَلِكِ، فَأَدَّبْتُ هَذَا الْجَاهِلَ.

وسابور هذا هو الذي بنى نيسابور بخراسان، وهو الذي دخل بلاد الروم متجسساً وعرفه مَلِكُ الروم، فأخذه وجعله في بقرَةٍ من جلود، وأتى به العراق، ثم نصره الله عليه، وملك اثنتين وتسعين سنة^(١)، وقيل: إحدى وثلاثين سنة.

فصل

ثم ملك بعده أخوه أَرْدَشِيرُ بْنُ هُرْمُزٍ، فأفسد وظلم، وأساء السيرة، فخلَعَتْهُ الْفَرَسُ، وكانت مدة أيامه أربع سنين.

فصل

ثم ملك بعده ابنُ أخيه سابور بن سابور بن هُرْمُزٍ، وكان عادلاً منصفاً، فأقام إحدى عشرة سنة، وقيل: خمس سنين^(٢)، ضربوا له فُسْطَاطاً فوقه عليه، فمات.

فصل

ثم ملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وكان يُلقَّبُ: كَرْمَانَ شَاهٍ، وكان عادلاً حسن السيرة والسياسة، فأقام إحدى عشرة سنة، ثم تجبَّرَ وطغى، فرماه رجل من الفُتَّاكِ بِسَهْمٍ فقتله.

فصل

ثم ملك بعده يَزْدَجَرْدُ بْنُ بَهْرَامِ بْنِ سَابُورٍ، وكان يُلقَّبُ بِالْأَثِيمِ لسوء سيرته، وكان يحترق العلماء، ظالماً جباراً، سيئ الخلق، لا يقبل شفاعَةً، ولا يجازي على صنيع، وكان ينزل بجرجان، فلما رأى ذلك أهل مملكته وأشرافهم، اجتمع الصلحاء منهم والمظلومون ودَعَوْا عليه، وصرخوا هممهم إليه.

(١) في المعارف ص ٦٥٩، والأخبار الطوال ص ٥٠، وتاريخ اليعقوبي ١/١٦٢، وتاريخ الطبري ٢/٦١، ومروج الذهب ٢/١٧٥، والتنبيه والإشراف ص ١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/١٦٣، وتجارب الأمم ١/٧٧، والمنتظم ٢/٨٧ أنه ملك اثنتين وسبعين سنة.

(٢) الذي ذكره المؤرخون أنه ملك خمس سنين وأشهرًا، انظر المصادر في الحاشية السابقة.

فبينما هو ذات يوم في قصره إذا بفرسٍ عائرٍ^(١)، لم يُر مثله في الخَلقة، فجاء فوقف على باب قصره وبلغه، فأمر بإسراجه وإدخاله عليه، فقام السُّواس إليه، فلم يُمكنهم من نفسه، فقام يزدجرد إليه بنفسه، فلما رآه الفرس سكن، فألجمه وأسرجه، فلما أراد أن يرفع ذنبه لِيُثْفِرَه^(٢) استدبره الفرس، ورفضه على رأس فؤاده، فمات من ساعته، وذهب الفرس فلم يُر له أثر. وروي أنه ركب فجرى به مثل الطير، فاقتحم به البحر فهلك، وفرح الناس وقالوا: هذا صنْعُ الله تعالى.

وأقام والياً اثنتين وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده ولده بهرام بن يزدجرد، ويسمى: بهرام جُور. وكان المنجمون قد أخبروا أباه عند مولده أن إرضاعه يكون ببلاد العرب، فضمه إلى المنذر بن النعمان صاحب الخورنق والسدير، فاسترضع له المراضع.

فلما بلغ [خمس] سنين قال للمنذر: أحضر لي مؤدبين يعلمونني^(٣) الكتابة والرمي. فقال له: إنك صغير السن. فقال: أنا وإن كنت صغير السن فعقلي عقل مُحْتَنِكٍ، وأنت مُحْتَنِكٌ وعقلك عقل رضيع، أما علمت أنني من ولد الملوك، وأن الملك صائرٌ إليّ، وأول ما يُطلب من الملوك^(٤) صالحُ العمل والأدب، لأنه زين لهم وركن لدولتهم.

فاستدعى العلماء من الآفاق والرماة، فما بلغ اثنتي عشرة سنة إلا وقد برع وكَمُل حاله، وتعلّم الفروسية. ودفع له المنذر فرساً أشقر فكان يأخذ عليه الأسد.

ثم إنه قصد باب أبيه يزدجرد فلم يقبله، فأنف أن يعود إلى المنذر، فسار إلى الهند، فأكرمه ملك الهند وزوجه ابنته، وأقطعته الديبل ومكران والسند.

(١) عار الفرس، إذا ذهب يتردد كأنه مُنْقَلِت. المخصص ١٧٠/٦.

(٢) ليشد عليه السير الذي في مؤخر السرج. القاموس (نفر).

(٣) في النسخ: يعلماني، والمثبت من تاريخ الطبري ٦٩/٢، وتجارب الأمم ٧٩/١، والمنتظم ٩٢/٢ وما بين معكوفين منها.

(٤) في النسخ: الملك.

فلما هلك أبوه يزدجرد عاد إلى المنذر، وكانت الفرس قد ملكت عليها رجلاً من غير نسل يزدجرد لِمَا لقوا منه، فقال له المنذر: طَبَّ عيشاً، وسار إلى المدائن مع بهرام في أربعين ألفاً، فخرج إليه الأساورة، وشكوا إليه ما لقوا من أبيه، فعذرهم، وقال: لله عليّ لئن وليتكم لأصلحنّ ما أفسد.

واجتمعت الموابذة، وحضر الرجل الذي ولّوه، فقال موبذ موبذان: ضعوا التاج بين أسدين ضارين، فمن أخذه منكما فهو أحقُّ بالملك. فقال بهرام: أنصفتم.

فأحضروا التاج والأسدين، ورموه بينهما، فصاح بهرام بالرجل: أيها المتغلبُ على مُلكنا، دونك التاج. فقال له: أنت أولى؛ لأنك تطلب الملك بالميراث، وأنا في زي غاصب. فصاح موبذ موبذان ببهرام: بوبد بويك، فنحن برآء من دمك. فحمل على الأسدين، ووثب فصار على ظهر أحدهما، وعصر جانيه برجليه فقتله، ثم أخذ رأس الأسد الآخر، فما زال يضرب به رأس الأسد الآخر حتى قتله، وهو يومئذ ابنُ عشرين سنة، فصاح به الرجل المتغلب: يا بهرام، ليَهْنِكَ المُلْك.

ولما ملك اشتغل باللهو واللذات عن الرعية، فسار إليه خاقان ملك الترك في مئتين وخمسين ألفاً، فبيته بهرام ليلاً فقتله، وغنم أمواله وعساكره، وعَظُم في عين الفرس. ثم أقام ثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أشهر، ثم هلك.

وسبب هلاكه أنه كان مُغرَىً بالصيد، فظهر له حمار وحشٍ، فركض خلفه فوقع في جُبٍّ فيه ماء فغرق، فأخبرت أمّه فقصدت الجب، وأنفقت أموالاً عظيمة على الغوّاصين، ولم يقدرُوا على جثته بعد أن أخرجوا كل ما في الجب. ولم يزل مغلُّ الدَّيْبِل ومكران والسُّنْد يُحمل إليه حتى هلك.

فصل

ثم ملك بعده بهرام بن بهرام^(١)، فاشتغل باللهو والصيد عن النظر في الأمور،

(١) كذا ذكر المصنف، وذكر المؤرخون أن الذي ملك بعد بهرام جور هو: يزدجرد بن بهرام جور، والقصة التي ساقها المصنف إنما جرت لبهرام بن بهرام بن هرمز، كما ذكر المسعودي في مروج الذهب ١٦٨/٢، ثم ملك بعد بهرام هذا: بهرام بن بهرام بن بهرام بن هرمز، ثم ملك نرسي بن بهرام. انظر المعارف ص ٦٦١، والأخبار =

فخربت البلاد، وعمّ القحط، وضعفت بيوت الأموال، وقلّ الجند، وهرب الفلاحون. فركب بهرام يوماً إلى بعض مُتزهاته، فجَنَّ عليه الليلُ وكانت ليلةً مقمرة، والموبذ يسايره ويحادثه، فمروا بقرية كانت أمّ القرى، وهي خرابٌ لا أنيسَ بها إلا البوم يصيح ويتجاوب، فقال بهرام: أتري أعطي أحدٌ من الناس فهمَ منطقِ هذا الطير المتجاوب في الليل الهادي؟ فقال الموبذ: نعم أنا أعرف. قال: فما يقول؟ قال: هذا المصوّتُ بومٌ ذَكَرَ يخاطب بومة أنثى، يقول لها: أمتعيني بنفسك حتى يخرج منا أولادٌ يسبحون الله، ويبقى لنا في العالم ذكرٌ. فقالت البومة: إن لي في هذا الحظّ الأوفر، ولكن أريد أن تقطعني إقطاعاً على ذلك عوضَ مهري، فقال: وما هو؟ قالت: عشرين قرية من أمهات القرى الخراب التي خربت في أيام هذا الملك السعيد. فقال لها: إن دامت أيامه أقطعتك ألف قرية خراباً.

فلما سمع بهرام ذلك، ترجّل عن فرسه وقال للموبذ: أيها القيمُّ بأمر الدين، الناصح للملك، المنبّه على ما أهمله الملك من أمور رعيته، وإضاعة مملكته، ما هذا الكلام الذي خاطبني به؟! فقد حركت مني ما كان ساكناً، وأيقظت ما كان غافلاً. فقال: أيها الملك، اعلم أنه لا قوام للملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا أموال إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، لأن العدل هو الميزان بين العالم، نصبه الله لخليقته، وأقام له قيماً وهو الملك، وإنك أقطعت البلاد الوزراء والخدم والحاشية، فأخذوا ما كان فيها من الغلات، ولم يعمروها فخربت. فجزاه بهرامُ خيراً، وعاد إلى النظر في أمور رعيته بنفسه، فحسنت أيامه، واستقام ملكه، ثم أقام مالكاً أربعاً وعشرين سنة، وقيل: سبع عشرة سنة.

فصل

واختلفوا فيمن ملك بعده على ثلاثة أقوال:

أحدها: بهرام بن بهرام، ونظير ذلك في ملوك غسان: الحارث الأصغر بن

= الطوال ص ٥٨، وتاريخ يعقوبي ١/١٦٣، وتاريخ الطبري ٢/٨١، ومروج الذهب ٢/١٩٣، والتنبيه والإشراف ص ١٠٤، والبدء والتاريخ ٣/١٦٥، وتجارب الأمم ١/٨٥، والمنتظم ٢/١٠٤ وغيرها.

الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، وفي الطالبين: حسن بن حسن بن حسن، وفي المحدثين: هاشم بن هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن ابن المُجَبَّر، وعلى هذا الباقي كثرة في المتأخرين.

والثاني: فيروز بن يزدجرد بن بهرام بن سابور، وقُحِط الناس في زمانه سبع سنين، ثم استسقى فسُقوا، وجاء الله بالخصب، وكان مُلك فيروز ستاً وعشرين سنة.

والثالث: إنما ملك بعد بهرام بن بهرام ولده يزدجرد، وكان محمود السيرة، فأقام ثماني عشرة سنة.

فصل

ثم ملك بعد يزدجرد ابنه هرمز، وكان له أخ يُقال له: فيروز بن يزدجرد، وهو الذي ذكرناه آنفاً، فنازع أخاه هُرمز على الملك، فلم يقدر عليه، فهرب فيروز إلى ملك الهياطلة، واستجار به فأجاره، وبعث معه جيشاً، فحارب أخاه هرمز، فلم يكن لهرمز بفيروز طاقةً فضعف، واستولى عليه فيروز فقتله، وكان مُلك هُرمز سبع عشرة سنة.

وكلّ مَنْ تقدم هرمز من الملوك مات على فراشه إلا هو، فإن أخاه فيروز قتله.

ثم أقام فيروز بعده مدة يسيرة وهلك، وملك بعده ولده بلاش بن فيروز، فأقام أربع سنين ثم هلك.

فصل

ثم ملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز، وهو الذي بنى حلوان. ولما مضت لقباذ عشر سنين اجتمعت الفرس على خلعه، وسببه أنه تابع رجلاً يُقال له: مَزْدَك، أحدث مقالاتٍ لا يعرفها الفرس من إباحة الأموال والفروج، وكان لا يأكل اللحم ولا يسفك الدم وغير ذلك، فأخذوا قباذ فحبسوه، وأقاموا أخاه جاماست بن فيروز فأقام ست سنين.

ثم إن أخت قباذ احتالت حتى دخلت إلى الحبس، ولفت أخاها في بساط وأخرجته على قفا حمال، ولم يعلم السجنان، فمضى قباذ إلى ملك الهياطلة واستجار به، فأنجده على أخيه جاماست، فجاء فقتل جاماست وأخذ الملك.

فصل

ثم ملك أنوشروان بن قباذ المسمى بالملك العادل، واختلفوا في أبيه قباذ بن

فيروز، فروي أنه لما هرب من أخيه^(١) بسبب نسبه إلى الزندقة، ومضى إلى بلاد الترك، نزل على دهقان فتزوج ابنته، فأولدها أنوشروان، فلما قدم المدائن وملك تيمّن بطلعة أنوشروان.

قالوا: وقباز بنى مدينة أرّجان، وأقام في الملك أربعاً وأربعين سنة ومات بالمدائن، فعهد إلى ابنه أنوشروان. وقيل: أشارت عليه المَزْدَكِيَّة بقتل مَنْ خالفه، فشرع في ذلك، فاجتمعت الفرسُ على قتله، فانهزم إلى ملك الهياطلة فمات عنده. وكان ولده أنوشروان بالمدائن، فملكوه بعده لما رأوا من نجابته وحسن سيرته.

فصل

فلما ملك أحسن السيرة، ومهد الممالك، وأحسن إلى الموابذة والأساورة والخاص والعام، وشرع في قتل المَزْدَكِيَّة فأفناهم، فعُظُم في عين الفرس. وكان مولده بناحية نيسابور، ولما ترعرع كانت مخايل الملك لائحةً عليه.

وفي أيامه وُلد رسول الله ﷺ، وسلك أنوشروان سيرة أردشير بن بابك، وجدّد في الإيوان.

وروي أنه كان جالساً في الإيوان، فرأى على جانب البساط وردةً، فقال لبعض غلمانته: ناولني تلك الوردة. فقال: ما هنا وردة؟ قال: بلى. فقال: لا والله. فقام من حنقه ليأخذها، فلما خرج من الإيوان سقط سقفه، فتصدّق بمال جليل، وأعاد السقف إلى حاله.

وكان جالساً يوماً في الإيوان، وإذا بحية قد دبّت إلى عُشِّ حمامة في بعض شُرف الإيوان لتأكل الفراخ، فضربها ببندقية فقتل الحية، وقال: هكذا نفعلُ بعدوَّ مَنْ استجار بنا. فلما كان بعد أيام جاءت الحمامةُ بحبِّ في منقارها وبين رجليها فألقته إليه، فقال: ازرعوه. فزرعوه فنبت ريحاناً، فقال: نِعْم ما كافأنا به الحمامةُ، ولن يضيع المعروف، فنسأل الله الذي ألهم هذه الحمامة ما ألهمها، أن يُلهمنا شكره، والإحسان إلى الرعية والصبرَ عليهم^(٢).

(١) في النسخ: أبيه، وهو خطأ.

(٢) المنتظم ١١١/٢-١١٢.

وروي أن حُطَّافَةً عَشَّشَتْ فِي مَجْلِسِ أَنْوَشْرَوَانَ، فَدَبَّتْ حَيَّةٌ فَأَخَذَتْ فِرَاحَهَا، فَحَزَنْتْ حُزْنًا شَدِيدًا، فَعَزَّاهَا جَمِيعُ الطَّيْرِ، فَلَمْ تَقْبَلْ عِزًّا، فَلَامَهَا بَعْضُ الطَّيْرِ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَبْكَى عَلَيَّ نَفْسِي الرَّزِيَّةَ، وَإِنَّمَا أَبْكَى لِمَا جَرَى عَلَيَّ مِنَ الظُّلْمِ فِي مَجْلِسِ العَدْلِ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّ أَنْوَشْرَوَانَ لَمْ يَعْلَمْ. فَقَالَتْ: هَذَا أعْظَمُ، يَتَوَلَّى أُمُورَنَا وَيَغْفُلُ عَنَّا.

وكان على خاتمه: عَدْلُ السُّلْطَانِ خَيْرٌ مِنْ خِصْبِ الزَّمَانِ.

وكان له أربعة خواتيم: خاتم الخراج، وفُصُّهُ ياقوت أحمر يَتَّقِدُ كالنَّارِ، وَنَقْشُهُ: العَدْلُ. وخاتم الضِّياع، وفصه فيروز، ونقشه: العِمَارَةُ. وخاتم البريد، وفصه ياقوت أصفر، ونقشه: الوَحْيُ الوَحْيُ. وخاتم المعونة وفُصُّهُ ياقوت كحلي ونقشه: التَّائِي (١).

وكان له جامٌ ذهب يأكل فيه، فسرقه بعض الغلمان وكسرى ينظر إليه، فافتقد الطباخ الجام فلم يجده، فُبْهَتَ، فَقَالَ لَهُ كَسْرَى: لَا تَتَعَنَّي، الَّذِي أَخَذَهُ مَا يَرِدُهُ، وَالَّذِي رَأَاهُ مَا يَنْمُ عَلَيْهِ. ودخل السارق بعد مدةٍ وعليه مِنْطَقَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ، فَقَالَ لَهُ بِالْفَارْسِيَّةِ: هَذَا مِنْ ذَاكَ. فَخَجَلَ الرَّجُلُ وَخَافَ، فَقَالَ لَهُ كَسْرَى: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ.

وكتب إليه صاحب خراجه: إني قد جبيت في هذه السَّنة زيادةً على المعهود ثمانية آلاف ألف درهم. فوَقَّعَ كَسْرَى عَلَى وَرْقَتِهِ: إِنْ الْمَلِكُ إِذَا عَمَّرَ بِيوتِ أَمْوَالِهِ بِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِ رَعِيَّتِهِ، كَانَ كَمَنْ عَمَّرَ سَطْحَ بَيْتِهِ بِمَا يَقْلَعُهُ مِنْ قَوَاعِدِ بِنْيَانِهِ. ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ الْمَالِ إِلَى الرَّعِيَّةِ (٢).

وأنوشروان هو الذي بنى السُّورَ عَلَى جَبَلِ القَبْجِ عِنْدَ بَابِ الأَبْوَابِ، وَغَرَمَ أَمْوَالًا جَلِيلَةً، وَحَسَمَ بِهِ مَوَادَّ الفَسَادِ مِنَ الأُمَّمِ الَّتِي خَلْفَهُ، وَعَمَلَ فِيهِ الأَبْوَابَ وَأَقَامَ عَلَيْهَا الحَرَسَ.

وقتل في يوم واحدٍ من المزدكية ثمانين ألفاً، وقتل مزدك أيضاً على النهروان من أرض العراق، وكان قد استفحل أمرهم.

(١) مروج الذهب ٢/٢٠٤.

(٢) المنتظم ٢/١١٤، ١١٣.

وبعث إليه ملك الروم رسولاً، فلما شاهد الإيوان هاله، وتأمله وإذا فيه يسيراً اعوجاج، فقال: يحتاج أن يكون مربعاً، فقيل له: هكذا بُني، وإن عجوزاً لها إلى جانبه بيتٌ، وقد أرغبها الملك بالأموال النفيسة لتعطيه البيت فيدخله في الإيوان، فامتنعت، وقالت: هكذا وجدته وورثته عن آبائي. فتركها ولم يعرض لها لئلا يشقَّ عليها. فقال الرومي: هذا الاعوجاجُ أحسن من الاستواء^(١).

ويُروى أن العجوز قالت: أرغبني في هذا الكوخ ما أشتري به المنازل العالية والقصور الشاهقة، ولكن قصدتُ شيئين؛ أحدهما: أن تبقى لك هذه المأثرة، ويتحدث بها الناس بعدك، والثاني: من أين لي جارٌّ أجاوره مثلك، فلو أعطيتني جميع ما تملك ما بعت به جوارك؟ فبكى الملك وقال: زه، ولم يكن عنده أحظى منها. وسابور بنى الإيوان، وزاد فيه أنوشروان.

وقال أنوشروان: صلاحُ العمال باستقامة الوزراء، ورأسُ الكل تفقُّدُ الملكِ أمورَ رعيته، فإن صلاح الرعية أنصر من [كثرة] الجنود.

وقال: أيام السرور كلمح البصر، وأيام الحزن تكاد تكون أعواماً^(٢).

قال علماء السير: فتح أنوشروان الشرق والشام والمغرب والروم، وبنى مدينة قريبة من المدائن وسماها: رومية، ونقل إليها من الشام الرخام والمرمر والفصوص، وحكم بلاد الهند والصين، وزوجَه خاقان ابنته وابنة أخيه، وخضعت له ملوك الدنيا، وكاتبوه وكانوا على بابهِ، وقطع النهر، وقتل الاخشنوار ملك الهياطلة، وكان ملكاً عظيماً، وأوغل في الهند وتخوم الصين، فخافته ملوك المشرق.

وكتب إليه ملك الصين: من بود ملك الصين الذي له قصر الدرّ والجواهر واليواقيت، ويجري فيه نهران يسقيان شجر الكافور والعود، وتوجد رائحة قصره من مسيرة شهرين، ويخدمه ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل بيض؛ إلى أخيه كسرى أنوشروان. وبعث مع الكتاب هدايا، من جملتها فارسٌ من دُرِّ عيناه ياقوتتان، والفرس

(١) مروج الذهب ٢/١٩٧-١٩٨.

(٢) مروج الذهب ٢/٢١٠ وما بين معكوفين منه.

من الياقوت الأحمر، وقائم سيفه قضيب من الجوهر، وثوب حرير مرصع بالجواهر، فيه صفة الملك وقصره وجُلاسُه وعساكره، والجميع في سَفَط من ذهب، تحمله جارية تغيب في شعرها، تتلأأ حُسنًا وجمالاً.

وأهدى له ملك الهند جاماً من الياقوت، فَتَحُه شِبْرٌ في شبر، مملوءاً دُرّاً، وعوداً يختم فيه كالشمع، وعشرة أمْناء مثل الفستق^(١)، وجارية طولها سبعة أذرع، تضرب أشفارُ عينيها خديها، وبين أشفار عينيها مثلُ لَمَعان البرق، لها صفائر بطولها.

وكاتبه ملوك الهند والصين في لحاء شجر الكاذي، مكتوب فيه بالذهب، له رائحة طيبة، وهو أرقُّ من الورق، يكاتب فيه ملوك الهند والصين.

وأنوشروان أول مَنْ وضع الخراج بالعراق على كل جَرِيب من المزارع يبلغه الماء من الحنطة والشعير درهماً، وعلى جَرِيب الرُّطبة خمسة دراهم، وعلى جريب الكَرْم عشرة دراهم^(٢). وكان يقال له: كسرى الخير.

وكان قد علّق على ستر الإيوان أجراساً يُحرِّكها المظلوم فيسمع، ويقول: أخاف أن تحجب عني دعوة المظلوم^(٣).

وقيل له: ما أعظم الكنوز قدراً وأنفعها عند الحاجة؟ فقال: معروفٌ أودعته الأحرار، وعلم أورثته الأعقاب.

وقيل له: مَنْ أطول الناس عمراً؟ فقال: مَنْ كَثُرَ علمه فتأدّب به مَنْ بعده، أو كَثُرَ معروفه فتشرف به عَقِبُه.

وقال: الإنعام لقاح، والشكر وِلاد، والمُنعم هو الجاعل للشاكر إلى شُكره سبيلاً^(٤).

(١) في مروج الذهب ٢/٢٠١-٢٠٢: وأهدى إليه ألف منّ عوداً هندياً، يذوب في النار كالشمع، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتبين به الكتابة، وجاماً من الياقوت الأحمر، فتحه شبر، مملوءاً من الدر، وعشرة أمْناء كافور كالْفستق. قلت: والأمناء: جمع المنّ، وهو رطلان.

(٢) في مروج الذهب ٢/٢٠٥: والكرم ثمانية دراهم، والرطبة سبعة دراهم.

(٣) المنتظم ٢/١١٥.

(٤) مروج الذهب ٢/٢٠٧-٢٠٨.

وأنوشروان هو الذي مَلَّك النعمان بن المنذر على العرب، وأمه ماء السماء .

وفي أيام أنوشروان ظهرت الحبشة على اليمن.

وخرج أنوشروان في بعض أيامه مُتصيّداً، فعَنَّ له صيد، فتبعه فانقطع عن أصحابه، وأظلمت سحابة، فأمرت مطراً حال بينه وبينهم، فمضى لا يدري أين يقصد، فلاح له كوخٌ في البرية فقصده، فإذا عجوزٌ على بابها جالسة، فقال لها: أنزل؟ قالت: نعم. فنزل ودخل الكوخ، وأدخل فرسه، وجاء الليل، وإذا بابنة العجوز قد جاءت ومعها بقرةٌ قد رعتها، فقامت العجوز فحلبتها لبناً كثيراً، فقال أنوشروان في نفسه: هذا حِلاب كثير، والخراج بالحماية، وينبغي أن تُجعل على كل بقرة إتاوة. وقدمت له اللبن، فشرب ونام إلى وقت السَّحر، فقالت العجوز لابنتها: قومي فاحلبي اللبن للضيف. فقامت لتحلبها فوجدتها حائلاً ليس في ضرعها قطرةٌ من لبن، فنادت يا أمّاه، قد أضمر الملك لنا شراً. فقالت: ولم؟ قالت: هذه البقرة حائلٌ لا قطرة فيها. فقالت: لعله ليل، امكثي قليلاً. فقال كسرى في نفسه: من أين علمت ما أضمرت؟ أما إني لا أفعل ذلك. ثم مكثت ساعة، وقالت: قومي فاحلبيها. فقامت وإذا ضرعها قد امتلأ لبناً، فقالت: يا أمّاه، ذهب والله ما كان في نفس الملك من الشر، هذه البقرة حافل.

وطلع الصبح، وجاء أصحابه، فركب، وأمر بحمل المرأة وابنتها معه إلى قصره، وأحسن إليهما، ثم قال للعجوز: من أين علمت ابنتك أن الملك قد أضمر في نفسه شراً ثم عدل عنه؟ فقالت: نحن بهذا المكان منذ كذا وكذا سنة، ما عمل فينا بالعدل إلا أخصبت أرضنا، وعاشت بلادنا وأموالنا، وما عمل فينا بالظلم إلا أجذبت أرضنا، وضاق عيشنا، وانقطعت موادُّ النفع عنا. فقال كسرى: إن شفقة الملك على رعيتيه وعدله فيهم يؤثر ما قلت، وإن غشّه لهم يضيّق الأعطان، ويجذب الأوطان^(١).

وكان مُلك أنوشروان ثمانياً وأربعين سنة، وهو كان طرازَ القوم، وواسطة عقدهم^(٢).

(١) المنتظم ١١٦/٢-١١٧.

(٢) من هنا سقط في (خ) إلى قوله: وجمع أبرويز من الأموال والخيول والفيلة والممالك والجواري والأمتعة ما لم يجمعه أحد ممن تقدمه.

فصل

ثم ملك بعده ولده هرمز، وكان عادلاً حسن السيرة، وكان في جرايته وراتبه ثلاثة عشر ألفاً، وأمه فاقم بنت خاقان، فالترك أخواله.

ثم أساء السيرة وظلم، فقصدته الأعداء من كل مكان، فسار إليه شابة ملك الترك في أربع مئة ألف لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، ووصل إلى هراة، وقصدته ملك الروم في مئة ألف، فوصل إلى الضواحي^(١)، وقصدته ملك الخزر في ست مئة ألف، فوصل إلى باب الأبواب.

فأرسل هرمز بهرام جوين^(٢) مرزبان الرّي في اثني عشر ألف سرية، فكان يسري ليلاً ويكمن نهاراً، فبيّت ملك الترك ولم يشعر به، فرماه بهرام بسهم فقتله، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة من مولد النبي ﷺ، واستولى على خزائنه وعساكره وذخائره.

وبعث بهرام إلى هرمز من الأموال والأمتعة والجواهر وقرمّتي [ألف وخمسين ألف] بغير^(٣)، فاستكثر ذلك هرمز، فقال له وزيره وكان يحسد بهرام: ما أوصل إليك من الشاة إلا أذنها. فغضب هرمز، وأنفذ إلى بهرام حمل جمل مغازل، فقال بهرام للعساكر: قد جعلنا مثل النساء، فما ترون؟ قالوا: نخلعه ونقاتله.

وسار بهرام بالعساكر نحو المدائن، فاتفق عظماء المملكة على خلع هرمز لسوء سيرته وقبح تدبيره، فقال عظماء المملكة: نخلعه ونؤلي ابنه أبرويز. وعلم هرمز فبعث إلى ابنه أبرويز من يغتاله ويقتله، فهرب أبرويز إلى أذربيجان.

وكان هرمز قد أفنى خواصه وأرباب دولته بالقتل، فيقال: إنه قتل ثلاثة عشر ألفاً، فانخرمت عليه قواعد الملك، وكان قد أزال أحكام الموابذة، وغير الأحكام، وأزال الرسوم، واستخف بالعلماء.

فكتب بهرام اسم أبرويز بن هرمز على الدراهم والدنانير، ودسها مع التجار،

(١) في (ب) و (ك): الصوافي، والمثبت من تاريخ الطبري ١٧٤/٢، والمنتظم ٣٠٢/٢.

(٢) في (ب) و (ك): جوين، والمثبت من تاريخ الطبري، ومروج الذهب ٢١٣/٢، والتنبيه والإشراف ص ١٠٥، وتجارب الأمم ١١٦/١.

(٣) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ١٧٥/٢، وتجارب الأمم ١١٧/١، والمنتظم ٣٠٢/٢.

فألقوها في المدائن، ولما وقف عليها هرمز ظن أن أبرويز فعل ذلك، وكان هرمز قد حبس خالتي أبرويز، فاتفقا مع المحبسين، وكسروا الباب، ودخلوا على هرمز فسَمَلوه وقيّدوه.

وبلغ أبرويز، فجاء من أذربيجان إلى المدائن، فدخل على أبيه فأخبره أنه لا ذنب له، وإنما هرب خوفاً منه، وقال له: يا أبت ما خلعتك، وإنما خلعتك أشراف قومك لسوء سيرتك، فقال: يا بني أريد أن تنتقم لي ممن سَمَلني، وتؤنسني بثلاثة نفر. فقال أبرويز: إن بهرام قد أظننا بمن معه، فاصبر حتى يقضي الله بيننا وبينه.

فتوجه هرمز وملكه. وبلغ بهرام جوبين، فسار إلى المدائن، فخرج إليه أبرويز فالتقيا على النهروان، فكانت الدائرة على أبرويز فانهزم، وقام تحته فرسه المعروف بسندان^(١)، وهو فرس مشهور عند العرب. ولما قصّر به الفرس طلب من النعمان بن المنذر فرسه اليعقوم، فأبى عليه ونجا عليه النعمان، ونظر حسان بن حنظلة بن حية الطائي إلى أبرويز قد خانته فرسه، وخامر عليه أصحابه^(٢)، وأشرف على الهلاك، فأعطاه فرسه المعروف بالضبيب^(٣)، وقال: أيها الملك، أنج عليه؛ فإن حياتك للناس خيرٌ من حياتي. وأعطاه أبرويز فرسه سندان، ومضى أبرويز إلى المدائن إلى أبيه فقال له: استنجد بقيصر على بهرام. وجاء حسان سالماً على سندان، فأحسن إليه أبرويز، وعرف له ما صنع، وحقدتها على النعمان حتى قتله.

ثم خرج أبرويز من المدائن قاصداً قيصر، وتبعه خاله بسطام وبندويه، فعبر دجلة، وتأخرا عنه ذلك اليوم، فاستراب بهما، ثم لحقاه، فسألهما عن تأخرهما، فقالا: قتلنا أباك.

ودخل بهرام إلى المدائن فأقام بها، ووصل أبرويز إلى الرها، فأقام بها، وكتب إلى قيصر يستنجد به، وأهدى إليه الهدايا النفيسة والجواهر المثمينة، فبعث إليه قيصر مئة

(١) في مروج الذهب ٢/٢١٦: بشدار.

(٢) كذا، ولعلها: وتامر، ففي مروج الذهب ٢/٢١٦: وخانه الرجال، وأشرف على الهلاك.

(٣) في (ب): بالصبيب، وفي (ك): بالصليب، والمثبت من مروج الذهب ٢/٢١٧، والبدء والتاريخ ٣/١٧٠، وأنساب الخيل لابن الكلبي ص ٩٥، وأسماء خيل العرب للغندجاني ص ١٥٣، والحلبة للصاحبي التاجي ص ٥٢.

ألف فارس وألفي دينار، وألف ثوب من ديباج وجواهر، وزوجه ابنته مارية، وحملها إليه مع أخيه ثيادوس^(١)، واشترط عليه قيصر أن لا يتعرض للجزيرة والشام ومصر مما غلب عليه أنوشروان، فأجابه إلى ذلك.

وجاء أبرويز إلى المدائن، وخرج إليه بهرام والتقى، فانهزم بهرام ولحق بالترك، وعاد أبرويز إلى المدائن دار ملكه، ووفى لملك الروم بما شرطه، واستولى قيصر على الجزيرة والشام ومصر.

وبعث أبرويز إلى امرأة ملك الترك وبذل لها الأموال، فاغتالت بهرام، فقتلته وبعثت برأسه إلى المدائن، فنصبه أبرويز على باب قصره. وكان بسطام وبندويه خاله قد مضيا إلى الديلم وإلى الترك، فكاتب أبرويز امرأة ملك الترك في قتلها بأبيه هرمز فقتلتها، وعلم خاقان فطلقها ونفاها، فقدمت المدائن فتزوجها أبرويز، واسمها كردية.

وجمع أبرويز من الأموال والخيول والفيلة والممالك والجواري والأمتعة^(٢) ما لم يجمعه أحد ممن تقدمه.

أما الأموال فإنه كان يُرفع إلى خزائنه في كل سنة من الخراج أربع مئة ألف ألف دينار وأضعافها من الفضة. وكانت جواهره في ألف صندوق. وكان له مئة ألف مملوك، ومئة ألف فرس، منها خمسون ألفاً سروجها مكللة بالجواهر واليواقيت.

وكان على مَربطه ألفُ فيل منها ما هو أبيض مثل الثلج، ومنها ما ارتفاعه من الأرض اثنا عشر ذراعاً، وهذا نادر؛ لأن أكثر ما يكون ارتفاع الفيل من الأرض سبعة أذرع.

وكان له من النساء عشرة آلاف امرأة، ومن الجواري مئة ألفٍ جارية للغناء والفراش. وكان يَشْتُو بالمدائن، ويصيف بقصر شيرين، وكانت شيرين أحظى نسائه عنده.

(١) في النسخ: بيدرس، وفي مروج الذهب ٢/٢٢١: تندوس، والمثبت من الأخبار الطوال ص ٩٢، وتاريخ اليعقوبي ١/١٦٨، وتاريخ الطبري ٢/١٨٠، وتجارب الأمم ١/١٢٠.

(٢) إلى هنا نهاية السقط في (خ) المشار إليه قريباً.

وفي أيامه مات قيصرُ ملك الروم، فتغلبَ بعضُ الروم على ابن قيصر فأخرجه من المُلْك، فقدم على أبرويز مستنصراً به، فأنجده وبعث معه ولده شهريار في مئة ألف، فأوغلوا في البلاد- وفي هذه الواقعة نزل قوله تعالى ﴿الْمَغْلَبِينَ﴾ [الروم: ١] وقتلوا المتغلب على الرومية بأنطاكية، فوثب آخرُ بالقسطنطينية فغلب عليها، وجَهَّز ألف مركب إلى قتال شهريار، فيها السلاح والأموال والخزائن، فضربتها الريح فألقته إلى ساحل أنطاكية، فغنم شهريارُ ما فيها وجَهَّز ابن قيصر فملك القسطنطينية.

ذكر قصة أبرويز مع وزيره بزرجمهر^(١)

وكان بزرجمهر بن البختكان وزير أبرويز والحاكم عليه، وكان من حكماء الفرس. فلما مضى من ملك أبرويز ثلاث عشرة سنة، ظهر طغيانه وفساده، فوشى إلى أبرويز أنه اتفق مع الأساورة على قتله، فأظهر أنه اتهمه بالزندقة، فقبض عليه، وقال: الحمد لله الذي أظفرتني بك. فقال له بزرجمهر: فكافئه بما يُحبُّ كما أعطاك ما تُحب. قال: بماذا؟ قال: بالعفو. فحبسه في بيت مظلم مثل القبر، وصدفه بالحديد، وألبسه خشن الصوف، وأمر أن لا يُزاد في كل يوم على قرصين من شعير، وكفَّ ملح جريش، ودورقٍ من ماء.

فأقام شهوراً لا يُسمع منه لفظة، فأمر أبرويز تلامذته بالدخول عليه، وأن يخبروه بما يقول، فدخلوا عليه فرأوا لونه نقياً، وسخنته ظاهرة، وجسمه صحيحاً، فقالوا: أيها الحكيم، أنت في هذا الحديد والضيق، وحالك كما نرى؟! فقال: إني عملت جوارشاً من ستة أخلاط، فأنا آخذ منه كل يوم شيئاً، فهو الذي أبقاني على ما ترون. قالوا: فصِّفه لنا، لعلنا نقع فيما وقعت فيه فنتناول منه.

فقال: أما الخلط الأول: فالثقة بالله تعالى، وأما الثاني: فعلمي بأن كلَّ مقدورٍ كائنٌ لا محالة، وأما الثالث: فالصبر أولى ما استعمله الممتحن، وأما الرابع: إن لم أصبر أيش أعمل؟ وأما الخامس: فقد يمكن أن أكون في شرٍّ مما أنا فيه، السادس:

(١) جمع المصنف ها هنا بين ما ورد في مروج الذهب ٢/٢٢٤ من قصة أبرويز مع بزرجمهر، وما ورد في المنتظم ١٣٦/٢ من قصة كسرى أنوشروان مع بزرجمهر، فجعلهما قصة واحدة.

فمن ساعةٍ إلى ساعةٍ فرجٌ.

فأخبروا أبرويز، فكتب إليه: كان ثمرة علمك، ونتيجة ما أدّاه إليك عقلك أن صرتَ به أهلاً للقتل والحبس، وموضعاً للعقوبة.

فكتب إليه: أما إذا كان معي السَّعدُ والجدُّ فقد كنتُ أنتفعُ بثمره عقلي، والآن لما فاتني ذلك فأنا أنتفعُ بالصبر، ولئن كنتُ فقدتُ كثيراً من الخير، فلقد استرحتُ من كثير من الشر.

فدعا به أبرويز وقال: يا عدوَّ الله المخالف. ثم أمر بكسر أنفه، فقال: إني أهلٌّ لما هو شرٌّ من هذا. قال: ولم؟ قال: لأنني كنتُ أصفك للخواص والعوام بما ليس فيك؛ لأقربك إلى قلوبهم، وأرفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه. فقال: اقتلوه. فقال: يا أحبث الملوك نفساً وفعلاً، وشرَّ الحيوانات وأسوأهم عشرةً، أتقتلني بالشك، وتدفع به اليقين الذي تيقنته من التمسك بولائك، والمحافضة على الشرائع؟ فمن ذا الذي يرجو بعدي عدلك، ويثق بك، ويطمئن إليك؟ فقتله، ثم ندم على قتله، فاستدعى وزيراً كانت منزلته دون منزلة بزرجمهر، فلما رآه قتيلاً قال: يا أحبث العالم، انتظر أقبح من هذه القتلة. فقتله.

قيل لبزرجمهر: من أحبُّ الناس إليك أن يكون عاقلاً؟ فقال: عدوي، قيل: ولم؟ قال: لأنني أكون منه في دعة.

وقال: إذا كان الرزق مقسوماً، فالحرصُ باطلٌ، وإذا كانت الأمورُ بمشيئة الله تعالى، فما آفتنا إلا العلل. وقال: مداراة الناس نصف العقل.

ولما قتل أبرويز هذين الوزيرين، مع ما كانا عليه من النهضة والكفاية، وحسن التدبير، وسياسة الملك، نفر عنه الخواص والعوام، وكان قد ظلم وسفك، وحمل الناس على ما لم يعهدوه منه، فقتلوه^(١).

وقال أبرويز لابنه شيرويه: لا تُوسعن على جنك بسعةٍ يستغنون بها عنك، ولا تُضيّقن عليهم ضيقاً يضيّجون منك، ولكن أعطهم عطاءً قِصداً، وامنعهم منعاً جميلاً،

(١) مروج الذهب ٢/٢٢٥-٢٢٦، والمنتظم ٢/١٣٧.

وابسُط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء^(١).

وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه وأبرويز في الحبس: كلُّ كلمةٍ منك تَسْفِكُ دماً، وأخرى تحقن دماً، وسَخَطَك سيف مسلول على من سَخِطت عليه، ورضاك بركةٌ مستفيضة على من رَضِيتَ عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، واحترس في غضبك من قولك أن تخطيء، ومن لونك أن يتغيّر، وإن الملوك تُعاقبُ حَزْماً^(٢)، وتعفو حِلْماً.

ذكر مقتله

وسببه أن الناس استَوْحِشوا منه لظلمه، وسفكه دماء العلماء والأساورة، وكان مسيئاً إلى ابنه شيرويه، قد نفاه إلى بابل، فبعثوا إليه واتفقوا على قتله، وكان قد عرض السجون فوجد فيها ثلاثين ألفاً من أشرف قومه، فأمر بقتلهم.

وعلم أهل مملكته، فأرسلوا إلى بابل، فأحضروا شيرويه، وهجموا به [على] المدائن، وأجلسوه على سرير الملك، وحبسوا أباه أبرويز، وأرسل إليه ابنه شيرويه يؤنِّبه، ويؤبِّخه على أفعاله، ويقول: أنا ما وثبت على الملك، وإنما جازاك الله بسوء فعالك، فتكت بأبيك هرمز، وسملت عينيه، وأزلت ملكه، وقتلته شرَّ قتلة، وأسأت إلى الأساورة والخواص، وظلمت الرعية، وبخلت بالمال، وحبست ثلاثين ألفاً من الأشراف، وأمرت بقتلهم، وضبطت عشرة آلاف امرأة في قصرِك مُكرهات مع عجزك عنهن^(٣).. وعدد أفعاله.

فبعث إليه أبرويز: إذا أدبر الأمر لم تنفع الحيل [في إقباله] وإذا أقبل أعيت الحيل في إدباره^(٤).

وحبسوه أياماً، ثم اجتمعت الفرس إلى شيرويه وقالوا له: إما أن تقتل أباك ونحن لك مطيعون، وإما أن نُعطيه الطاعة. فأخرج أباه من دار الملك على بردون، مُقنَّع

(١) عيون الأخبار ١/١١، والعقد الفريد ١/٢٦.

(٢) في (ب) و (خ) وصبح الأعشى ١/٢٣٦: جرماً، وفي (ك): جزماً، والمثبت من عيون الأخبار ١/٢٨٩، والعقد الفريد ١/٢٧.

(٣) انظر الأخبار الطوال ص ١٠٨، وتاريخ الطبري ٢/٢١٩.

(٤) تاريخ الطبري ٢/٢٢١، والمنتظم ٣/٢٨٦ وما بين معكوفين منهما.

الرأس إلى دار بعض الأساورة أو الدهاقنة، فمرّ على إسكافٍ، فضربه بقالبٍ وشتمه، وبعث إليه رجالاً ليقتلوه فلم يُقدموا عليه، فضربه غلامٌ منهم اسمه هرمز - كان أبرويز قتل أباه بطبرزين^(١) - عدة ضرباتٍ فلم يعمل فيه، ففتشوه فوجدوا في عنقه تعويذاً فأزالوه عنه، فضربه فقتله^(٢)، وكان قتله بمكان يقال له: الماحوزة، عند سامراء، وفيه قتل المنتصر أباه المتوكل، ولما قُتل أبرويز شقَّ ابنه شيرويه ثيابه، وقتل قاتل أبيه.

وكان لأبرويز ثمانية عشر ولداً، فقتلهم شيرويه كلهم. وكان أبرويز يمنعهم من النكاح وعليهم الحَفَظَة، لأن المنجمين أخبروه أنه يُولد مولود من ولده يكون ذهابٌ مُلكهم على يده، فاحترز، فأفلت يوماً ولده شهریار بن أبرويز فدخل على زوجة أبيه شيرين، وسألها أن تبعث إليه امرأةً وإلا قتل نفسه، فأرسلت إليه جاريةً كانت تحجمها فوطئها، فحملت بيزدجرد ووضعت، فكتمته شيرين خمس سنين. وكان المنجمون قد ذكروا لأبرويز أن ذلك الغلام في بدنه نقصٌ، فوقف يوماً يلعب مع الصبيان بالكرة فرآه أبرويز، فقال: من هذا؟ فقالت شيرين: بعضُ أولاد الخاصّة. فألحَّ عليها، فأخبرته الخبر، فنظر إلى نقصٍ في وركيه، فأراد قتله، فنهته عنه، وقالت: إن يكن لله أمرٌ فيه، فلا مردّ له. فقال: هذا المشؤوم لا أراه ها هنا بعد اليوم. فذهبوا به إلى سجستان.

وأقام شيرويه بعد قتل أبيه نادماً حزيناً على أبيه وإخوته، وابتلي بالأمراض المزمنة، ولم يَلْتَدَ بشيء من الدنيا، وسُمِّي: الغشوم المشؤوم، ووقع في أيامه طاعونٌ فمات نصف العالم. ودخلت عليه أختاه بُوران وآزرمي دخت، فقالتا له: ويحك، ما حملك على ما صنعت بأبيك وإخوتك لأمرٍ لا يتم لك؟! فبكى بكاءً شديداً، ورمى التاج عن رأسه، ودخل بيتاً مظلماً فأقام فيه.

ولما قتل أبرويز وجدوا في خزائنه جميع ما ذكرنا من الأموال وغيرها، ووجدوا بيتاً مملوءاً جواهر، وأقام عشرة آلاف موبد، وبلغت خيله القسطنطينية وإفريقية. وقُتل في سنة ست أو سبع من الهجرة.

وفي أيامه كان يومٌ ذي قارٍ، انتصفت فيه العربُ من العجم، وذلك لتمام أربعين

(١) هو فأس السرج، لأن فرسان العجم تحمله معها يقاتلون به. العرب ص ٢٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٢٩، والمتنظم ٣/٢٨٧.

سنة من مولد نبينا ﷺ.

وأبرويز هذا هو الذي قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي كتب إليه رسول الله ﷺ فمزق كتابه، وكتب أبرويز إلى واليه باليمن أن يحمل إليه رسول الله ﷺ، فدعا عليه، فقتله ابنه.

وهو الذي أرسل الاصبهذ إلى الروم فقتل وسبى وفتح البلاد، فخاف منه أبرويز، فبعث إليه رجلاً ليقتله؛ فلما رأى عقل الاصبهذ وتدييره رقى له، وأخبره بما جاء له، فأرسل الاصبهذ إلى ملك الروم وطلب الاجتماع به، فاجتمعا، فقال له: حسدني الخبيث، وأنا آخذ لك بلاده ومملكه وكنوزه. فسار معه حتى نزلا المدائن، فأقاما محاصرين له، فدس أبرويز رجلاً نصرانياً بكتاب، عنوانه إلى الاصبهذ، وأعطاه مالاً وقال له: تحيل في إيصاله إلى قيصر. وفيه: إلى الاصبهذ، قد علمتُ حُسنَ رأيك، وقد آمنك الله من العدو، وأنا خارجٌ إليك في ساعة كذا من الليل لنبغت القوم، فكن مستعداً. فلما قرأه قيصر ولّى منهزماً إلى بلاده، وهرب الاصبهذ.

قصة شيرين مع شيرويه

كانت شيرين يتيمةً في حجر رجلٍ من أشرف المدائن، وكان أبرويز صغيراً يدخل منزل ذلك الرجل، فيلاعب شيرين وتلاعبه، فأخذت من قلبه موضعاً، فنهاها ذلك الرجل عنه فلم تنته، فرآها وقد أخذت في بعض الأيام من أبرويز خاتماً، فقال لبعض خواصه: اذهب بها إلى دجلة فغرّقها. فأخذها ومضى، فقالت له: وما الذي ينفحك تغريقي؟ فقال: قد حلفتُ لمولاي. فقالت: اقدني في مكانٍ رقيق، فإن نجوتُ لم أظهر، وتبرُّ أنت في يمينك. ففعل، فأقامت في الماء حتى غاب عن عينها، وصعدت إلى دير هناك فترهبت فيه، فأحسن إليها الرهبان.

فلما تقرر الملك لأبرويز بعد أبيه هرمز، مرَّ بذلك الدير رسل من قيصر إلى أبرويز، فدفعت الخاتم إلى رئيسهم، وقالت: ابعث به إلى أبرويز فتحظي عنده. فأرسله مع قاصدٍ وعرفه مكان شيرين، فسرَّ سروراً كبيراً، وأعطى القاصد مالاً عظيماً، وأرسل إليها فأحضرها. وكانت من أجمل النساء وأظرفهن، ففوض إليها أمره، وهجر نساءه

وجواريه، وعاهدها أن لا تمكّن منها أحداً بعده، وبني لها القصر المعروف بقصر شيرين بالعراق.

فلما قتل شيرويه أباه أبرويز راودها عن نفسها فامتنعت، فضيّق عليها واستأصلها، ورماها بالزنى، وتهدّدها بالقتل إن لم تفعل، فقالت: أفعل على ثلاث شرائط. قال: وما هي؟ قالت: تُسَلِّم إليّ قَتلة زوجي أقتلهم، وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به من الزنى، وتفتح لي ناووس^(١) أبيك فإن له عندي وديعة عاهدته إن تزوّجتُ رددتها عليه. فدفع لها قَتلة أبرويز فقتلتهم، وصعد المنبر فبرأها مما قذفها به من الزنى، وفتح لها ناووس أبيه وبعث بالخدم معها. فجاءت إلى أبرويز فعانقته ومصّت فصّاً مسموماً كان معها، فماتت من وقتها. وأبطأت على الخدم فصاحوا بها فلم تكلمهم، فجاءوا إليها فوجدوها معانقة لأبرويز ميتةً، فجاءوا إلى شيرويه وأخبروه، فشقّ عليه، ومات بعد أيام^(٢).

وكان سبب موته ما حكاه الجاحظ قال: أبرويز أول من أخذ بثأره من حيٍّ وهو ميّت، وذلك لأن المنجمين أخبروه أنه سيقتل، فقال: والله لأخذنّ بثأري ممن قتلني، وعمل حُقّاً فيه حبوب، وخلطه بسُمّ ساعةٍ، وختم الحُقّ، وجعله في صندوق من ذهب. فلما أرسل إليه شيرويه من يقتله، قال له: لا تقتلني وأدلك على غني الأبد. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فيه حُقّ فيه غناك، فلما قتله أخبر شيرويه، واشتغل بالملك عن الحُقّ. فلما كان بعد ستة أشهر من قتل أبرويز، فتح شيرويه ذلك الصندوق، فوجد الحُقّ وعليه مكتوب: مَنْ أخذ من هذا الحبّ حبةً وابتلعها افتضّ عشرة أبكار. وكان شيرويه مولعاً بالنساء. فأخذ حبة فبلعها، فتقطّعت أمعاؤه، ورأى العبر بنفسه، ومات^(٣). وكانت مدة ولايته ستة أشهر.

فصل

وكان لشيرويه ابنٌ صغير اسمه أزدشير، عمره سبع سنين، فولّوه الملك، فأقام خمسة أشهر.

(١) الناووس: مقابر النصارى.

(٢) المنتظم ٢/٣٠٦-٣٠٨.

(٣) انظر المنتظم ٢/٢٨٤-٢٨٥.

وكان شهريار بن أبرويز مقيماً بأنطاكية مذ جهَّزه أبوه لقتال الروم على ما ذكرنا، فلما قُتل أبوه أقام مكانه خائفاً من شيرويه، وجعل الروم ظهره، وكتب إلى قيصر يستمده ويقول: قد علمت ما فعلتُ معك. فأمدّه بالمال والرجال، وأقام متحصّناً بأنطاكية. فلما مات شيرويه وولي ابنه أردشير، سار إلى المدائن طالباً بثأر أبيه، فقتل أردشير، وجار وظلم، وفضح نساءهم وسفك دماءهم، فوثبوا عليه وقتلوه، فكان مُقامه في المُلْك عشرين يوماً.

ولم يبق من نسل الفرس ذكر، قتل شيرويه الجميع ولم يبق إلا ابنتين لأبرويز: بوران وأزرمي دخت.

فصل

فملكوا عليهم بُوران: فأقامت العدل، وأحسنت السيرة، وأصلحت القناطر والجسور. ولما جلست على السرير قالت: ليس يبطش الرجال تُدوِّخ البلاد، ولا بمكائدهم يُنال الظفر، وإنما ذلك بعون الله ومشيتته. فأقامت سنة وسبعة أشهر. ولما بلغ النبي ﷺ أمرها، قال: «لا يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(١). ثم ماتت، ويقال: إنها قُتلت.

فصل

ثم ملكوا آزر ميدخت بنت أبرويز، وكانت من أجمل نساءها، فلما جلست على السرير قالت: منهاجنا العدل والإنصاف، فإن زغنا زيغ بنا. فأرسل إليها فرُّخ بن رستم صاحب خراسان يخطبها، فقالت: لا ينبغي للملكة أن تتزوج علانية. ووعده أن يقدم عليها سرّاً في ليلة عينتها له، فجاءها في تلك الليلة فقتلته، فسار إليها أبوه رستم فقتلها^(٢)، وكانت أيامها ستة أشهر.

فصل

ثم ملكوا عليهم يزْدَجِرْد بن شهريار بن أبرويز، الذي كان خرابُ البيت على يده، وكان عمره يومئذٍ خمس سنين، وقيل: خمس عشرة، وصغرُ سنّه هو الذي أوجب

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٨)، والبخاري (٤٤٢٥) من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

(٢) في تاريخ اليعقوبي ١/١٧٣، والطبري ٢/٢٣٢، والتنبيه والإشراف ص ١٠٦، وتجارب الأمم ١/١٤٤، والمنتظم ٣/٣١٢ أن الذي خطبها هو فرخ هرمز، وأن الذي سار إليها فقتلها هو ابنه رستم.

تمليك النساء. فأقام والياً عشرين سنةً، ثم هلك في أيام عثمان رضي الله عنه.
قال هشام: فعده ملوك الفرس من أول الزمان إلى آخره ثمانون ملكاً وثلاث نساء،
من كيومرت إلى يزدجرد، وعدده ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وخمسون سنة.
قال المصنف رحمه الله: وليس ما ذكره هشام على التحقيق، بل على التقريب، فإن
بعضهم قال: ملك منهم ستون ملكاً، وعدده سنيهم ثلاثة آلاف سنة. وقد ذكرنا أن
الغالب على التواريخ عدم التحقيق لاختلاف الأمم والألسن، وتقلب الدهر، وتغيير
الأمر، والله أعلم.



فصول تتعلق بالعرب والأنساب والأدب

الفصل الأول^(١)

في ذكر القبائل والعمائر، والشعوب، والجماجم، والجمرات، والأرحاء^(٢)، وما يتعلّق بالشعر والشعراء، والأعراب سكان البادية خاصة.

ويعرّب بن قحطان أول من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلهم. والعرب العاربة والعرباء: هم الخُلص منهم، والمستعربة: الذين ليسوا بخُلص.

والقبيلة: بنو أبٍ واحدٍ، وقيل: إنما سُموا القبائل من القبيلة، وأن بعضهم يُقابل بعضاً، أي: يكافئهم^(٣)، وقال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلّموا من النسب ما تعرفون به أنسابكم^(٤)، وتصلون به أرحامكم، ولا تكونوا كنبط السّواد إذا قيل لأحدهم: من أنت؟ فيقول: أنا من قرية كذا وكذا^(٥).

فصل في القبائل

ومن القبائل القديمة: عادٌ وعيّيل، ابنا عوّص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وثمود وجديس ابنا غاثار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

(١) في (ب): أبواب تتعلق بالعرب والأنساب والآداب الباب الأول.

(٢) الأرحاء: القبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها.

(٣) صحاح الجوهري (عرب) و (قبل).

(٤) في (خ) و (ك): أحسابكم.

(٥) العقد الفريد ٣/٣١٢، وإنباه الرواة ص ١٢، وأخرج بعضه البخاري في الأدب المفرد (٧٢).

وَطَسْمُ وَعِمْلِيقُ وَجَاسِمٌ وَأَمِيمٌ بَنُو يَلْمَعِ بْنِ عَابِرِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَشَالَافٌ وَحَضْرَمَوْتُ، وَهُمُ السَّلْفُ، وَالْمَرَادُ بَنُو عَابِرِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ.

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العربُ كلُّها من إسماعيل إلا أربع قبائل، وهم: السلف والأوزاع، وحَضْرَمَوْتُ، وثَقِيفٌ»^(١).

ومعنى قوله عليه السلام: كلُّ العرب بنو إسماعيل إلا من استثنى من القبائل أنهم ليسوا بخُلَص.

أما طَسْمٌ وَجَدِيسٌ وَجُرْهَمٌ، فهم العرب العاربة، لأنهم جُبلوا على العربية المَحْضَةِ فكانت لسانهم.

وأما بنو إسماعيل عليه السلام فهم المستعربة، لأنهم تكلموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم.

فصل

فمن القبائل: أَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ الْيَاسِ أَبُو قَبِيلَةَ مِنْ مُضَرَ، وَأَسَدُ بْنُ رَبِيعَةَ ابْنِ نَزَارٍ قَبِيلَةَ مِنْ رَبِيعَةَ.

ومنها تَيْمٌ فِي عَشْرِ قَبَائِلٍ: تَيْمُ اللَّهِ بْنِ عُكَابَةَ، وَهُمُ اللَّهَازِمُ مِنْ بَكْرِ، وَتَيْمُ اللَّهِ فِي النَّمْرِ بْنِ قَاسِطٍ، وَتَيْمُ بْنُ مِرَّةَ رَهْطِ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رضي الله عنه، وَتَيْمُ بْنُ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ، وَهُمُ بَنُو الْأَدْرَمِ مِنْ قَرِيْشٍ، وَتَيْمُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ أَدَّ بْنِ طَابِخَةَ فِي مُضَرَ، وَتَيْمُ بْنُ ضَبَّةَ، وَتَيْمُ اللَّاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ وَاسْمُهُ النَّجَارُ، وَتَيْمُ اللَّاتِ أَيْضاً فِي ضَبَّةَ.

وأما قول امرئ القيس: [من الوافر]

بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ الظَّلَامِ^(٢)

فهم بنو تيم بن ثعلبة من طييء.

(١) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف ٤١/١٥٠، وابن عساكر في تاريخه ١٠/٧٠ عن مالك بن يخامر قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... الحديث. قال ابن عبد البر في الإنباه على قبائل الرواة ص ٧٩ بعد إيراده: وهي آثار كلها ضعيفة الأسانيد، لا يقوم بشيء منها حجة، والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) ديوانه ص ١٤١، وصدوره: أقرَّ حشا امرئ القيس بن حجر.

ومنها جَدِيلَةٌ: حَيٌّ من طَيِّء، وهو اسمٌ أمهم، وهي جَدِيلَةُ بنت سُبَيْع بن عمرو بن حَمِير، وجديلة في ربيعة.

ومنها جُشَمٌ في أربع قبائل: جُشَمٌ بن خزرج، حَيٌّ من الأنصار، قال الشاعر: [من الرجز]

إِنْ سَرَّكَ الْعِرْزُ فَجَخَّجْ بِجُشَمٍ^(١)

وَجُشَمٌ بن ثَقِيف، وجشم حَيٌّ من تَغْلِب وهم الأرقام، وجُشَمٌ في هوازن، وهو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن.

ومنها الخزرج بن قَيْلَةَ، قبيلةٌ من الأنصار، والخزرج في النمر بن قاسط.

ومنها الدَّيْلُ بن شَنَّ بن أَفْصَى، والدَّيْلُ بن عمرو بن وديعة بن عبد القيس، منهم^(٢) أهلُ عُمان، والدَّيْلُ حَيٌّ من كِنانة، ينسب إليهم أبو الأسود الدَّؤْلِي، والدَّؤْلُ في حنيفة. ومنها دُودان بن أسد بن خُزَيْمَةَ، ودُودان في جذام من اليمن.

ومنها ذُهْلُ بن شيبان بن ثعلبة بن عُكَّابَةَ، وذُهْلُ بن ثعلبة بن عُكَّابَةَ، وذُهْلُ في ضَبَّة. ومنها شيبان بن ثعلبة بن عُكَّابَةَ بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وشيبان بن ذُهْلُ ابن ثعلبة بن عُكَّابَةَ.

ومنها ربيعةٌ في سبع قبائل: ربيعة بن عُقَيْلُ أبو الخُلَعَاء^(٣)، وربيعه بن عامر بن عُقَيْلُ أبو الأبرص، وربيعه بن مالك بن زيد مناة، ويُلقَّب: ربيعة الجُوع، وربيعه بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وربيعه بن عامر بن صَعْصَعَةَ بنو مَجْد، وهي أمهم نُسَبُوا إليها، وربيعه بن نزار بن مَعَدَّ بن عدنان، وهو ربيعةُ الفَرَس، وربيعه الصُّغْرَى: وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة.

ومنها سعد، وهو في ستِّ قبائل: سعد تَمِيم^(٤)، وسعد هُذَيْل، وسعد قَيْس، وسعد

(١) البيت للأغلب العجلي، وهو في المعارف ص ١٠٩، ومقاييس اللغة ٤٠٦/١، وصحاح الجوهري (جشم)، وتهذيب اللغة ٥٤٥/٦، ولسان العرب (جخ وجشم)، وتاج العروس (جشم).

(٢) في النسخ: من، والمثبت من صحاح الجوهري (دول).

(٣) في النسخ: الخلفاء، وهو خطأ، والمثبت من صحاح الجوهري (ربع)، وانظر الاشتقاق ص ٢٩٩، وتاج العروس (ربع) ٤٠/٢١.

(٤) في النسخ: تيم، وهو خطأ، والمثبت من صحاح الجوهري (سعد)، والمعارف ص ١١٥.

ابن بكر بن هوزان - هم أظارُ رسول الله ﷺ - وسعد بن ذبيان، وسعد في عجل، وقال الشاعر: [من الطويل]

رأيتُ سُعوداً في شعوبٍ كثيرةٍ فلم أرَ فيها مثلَ سعدِ بنِ مالكٍ^(١)
وفي المثل: «في كل وادٍ بنو سعدٍ» قاله الأضبط القرعبي السعدي لما تحوّل عن
قومه وانتقل في القبائل، فلما لم يحمدهم رجع إلى قومه وقال: بكلّ وادٍ بنو سعد،
يعني سعد بن زيد مناة بن تميم^(٢).

ومنها سُليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وسُليم قبيلة من جذام،
وسُليم قبيلة من بني قشير، وهو سلمة الشر، وأمه لُبينة بنت كعب بن كلاب، وسلمة
الخير، وهو سلمة بن قشير، وهو ابنُ القشيرية^(٣).

ومنها سَهْم^(٤) قبيلة في قريش، وقبيلة في باهلة.

ومنها شَقْرَة قبيلة من بني ضبّة، وفي بني تميم.

ومنها ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل، رهط الأعشى
ميمون بن قيس، وضُبَيْعة في ضبّة، وضُبَيْعة في عجل.

ومنها ضَمْرَة في بني كنانة رهط عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، وبنو ضَمْرَة في قشير.

ومنها عَدِيّ بن كعب بن لؤي بن غالب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعدي بن عبد
مناة من الرباب رهط ذي الرمة، وعدي في بني حنيفة، وعدي في فزارة.

ومنها غاضرة: قبيلة في بني أسد بن خزيمة، وهي من بني صعصعة، وبطن من
ثقيف في هوازن.

ومنها كلاب بن مرة في قريش، وكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومنها محارب بن فهر بن مالك في قريش، ومحارب بن خصفة بن قيس عيلان،

(١) البيت لطرفة، وهو في ديوانه ص ٨٨.

(٢) صحاح الجوهري (سعد)، والمثل في جمهرة الأمثال ٦١/١، ومجمع الأمثال ٥٣/١.

(٣) خلط المصنف هنا في نقله عن الجوهري بين سلمة وسُليم.

(٤) في (ب): شم، وفي (خ) و(ك): سليم، والمثبت من صحاح الجوهري (سهم)، والمعارف ص ١١٥.

ومحارب بن عمرو بن وديعة بن عبد القيس.

ومنها مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ومازن في بني صعصعة بن معاوية، ومازن في بني شيبان، ومازن في قيس عيلان، وهم رهط عتبة بن غزوان رضي الله عنه.

فصل في العمائر

قال التغلبي^(١): [من الطويل]

لكل أناسٍ من معدِّ عمارةٍ
عروض إليها يلجؤون وجانبُ
والشَّعب: القبيلة العظيمة.

وقال بعضهم^(٢): الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، وهي أهل بيت الرجل خاصة، قال الله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيَّبُ﴾ [المعارج: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال أبو عبيدة: أرحاء العرب ست؛ لمضرا اثنان: تميم بن مر، وأسد بن خزيمة، ولربيعه اثنان: بكر بن وائل، وعبد القيس بن أفصى، ولليمن اثنان: كلب بن وبرة، وطىء بن أدد. وإنما سُميت هذه الأرحاء لأنها أحرزت مياهها ومنازلها، ولم يكن للعرب مثلها، ولم تبحر من أوطانها، ودارت في دورها دوران الأرحاء على أقطابها، إلا أن يتتبع بعضها في أعوام الجذب، وكان ذلك قليلاً.

وأما الجماجم فثمان: أربع في مضر، اثنان منها في قيس، وهما: غطفان وهوازن، واثنان في خندف، وهما: كنانة وتميم، وفي ربيعة اثنان: بكر بن وائل وعبد القيس بن أفصى، وفي اليمن اثنان من مذحج؛ وهما: مالك بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ، وقضاعة بن مالك بن زيد بن مالك بن سبأ^(٣).

وجمرات العرب ثلاث: بنو ضبة بن أدد، وبنو الحارث بن كعب، وبنو نُمير بن

(١) هو الأخنس بن شهاب، والبيت في المفضليات ٣٠٤، وصحاح الجوهرى (عمر).

(٢) هو ابن الكلبي كما في العقد الفريد ٣/٣٣٥.

(٣) العقد الفريد ٣/٣٣٥، ٣٣٦.

عامر، طَفِئَتْ منهم جمرتان: ضَبَّةٌ لأنها حالفت الرِّبَابَ، وبنو الحارث لأنها حالفت مَدْحِجَ، وبقيت نُمير لم تَطْفَأَ لأنها لم تُحالِف.

ويقال: الجَمَرَاتُ: عَبَسُ والحارث وضَبَّةٌ، وهم إخوةٌ لأم، وذلك لأن امرأةً من عرب اليمن رأت في منامها أنه خرج من فَرْجِهَا ثلاثُ جَمَرَاتٍ، فتزوَّجها كعبُ بن عبد المَدَّانِ رجل من اليمن، فولدت له الحارث بن كعب، وهم أشرفُ اليمن، ثم تزوَّجها بغيض بن رَيْث فولدت له عَبَسًا، وهم فُرسان العرب، ثم تزوَّجها أد فولدت له ضَبَّةً، فجمرتان في مُضَرَ، وجمرة في اليمن^(١).

فصل في الشعر والشعراء

والشعر ديوان العرب، ومَنبَعُ الفضل والأدب، ومن عناية العرب به وحُبِّها له؛ أنها عَمَدَت إلى سبع قصائد من الشعر، فعَلَّقَتْها في البيت الحرام، وافتخرت بذلك على الأمم، وهي الموسومة بـ «السَّبع المعلقة».

فالأولى: قصيدة امرئ القيس بن حُجر الكندي: [من الطويل]

قفا نَبِكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل^(٢)

والثانية: قصيدة زهير بن أبي سُلمى: [من الطويل]

أمن أم أوفى دِمْنَةٌ لم تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَاَلْمُتَثَلِّمِ^(٣)

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مُغْرَى بشعره، وكان زهير لا يمدحُ إلا مستحقاً

للمدح، كهَرَمِ بن سِنان^(٤) وأمثاله، ولما دخل [ابنُ] هَرَمِ على عمر رضي الله عنه، قال له: أنتم

الذين كان زهيرٌ يقول فيكم فيحسِن؟ فقال: ولذلك كنا نُجزِلُ له في العطاء. فقال: ذهب

ما أعطيتُموه وبقي ما أعطاكم^(٥).

(١) صحاح الجوهري (جر).

(٢) تمامه: بسقط اللوى بين الدخول فحومل، وهو في ديوانه ص ٨.

(٣) ديوانه ص ٩ بشرح الشنتمري.

(٤) في النسخ: حيان، وهو خطأ.

(٥) العقد الفريد ٢٩٢/٥، والعمدة لابن رشيقي ٨١/١، وما بين معكوفين منهما.

وزهير هو القائل: [من البسيط]

وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ يُقالُ إذا أنشدته صدقاً^(١).

وقيل للحطيئة: من أشعر الناس؟ فقال: زهيرٌ حيث يقول: [من الطويل]

ومَن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرضِهِ يفرُّهُ ومَن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشتم^(٢)

والثالثة: قصيدة طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن بكر بن وائل: [من الطويل]

لخولة أطلالٌ ببرقةٍ نهمدٍ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ^(٣)

وقال أبو عمرو بن العلاء: أشعرهم طرفة الذي يقول: [من الطويل]

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزود^(٤)

ولما أنشد رسولُ الله ﷺ هذا البيت، قال: «هذا من كلام النبوة»^(٥).

والرابعة: قصيدة عنترة العبسي: [من الكامل]

يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكلمي وعمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي^(٦)

والخامسة: قصيدة عمرو بن كلثوم: [من الوافر]

ألا هبِّي بصحنِك فاصبَحينا^(٧)

والسادسة: قصيدة لبيد بن ربيعة بن مالك من ولد نزار: [من الكامل]

عفتِ الديارُ محلُّها فمقامُها بمنى تآبَدَ غولُها فرجامُها^(٨)

قال الأصمعي: أصدق بيت قالت العرب قول لبيد: [من الطويل]

(١) تابع المصنف في نسبة هذا البيت إلى زهير صاحب العقد الفريد ٥/ ٢٧٠، ٣٢٦، والبيت لحسان في ديوانه ٤٣٠/١، والعمدة ١/ ١١٤.

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٢٤، والعقد الفريد ١/ ٢٨٣، والأغاني ٢/ ١٦٨، والبيت في ديوانه ص ٢٦.

(٣) ديوانه ص ٦.

(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٧١، والبيت في ديوانه ص ٤٨.

(٥) العقد الفريد ٥/ ٢٧١.

(٦) ديوانه ص ١٨٦ بشرح الشتمري.

(٧) تمامه: ولا تبقي خمور الأندرينا، وهو في شرح المعلقة لابن كيسان ص ٤١، وشرح القصائد العشر ص ٣٢٠.

(٨) ديوانه ص ٢٦٧.

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ وكل نعيمٍ لا محالة زائلٌ^(١)
ومن شعر لبيد: [من الطويل]

لَعَمْرِي لئن كان المَخْبِرُ صادقاً لقد رُزئتُ في سالفِ الدهرِ جَعْفَرُ
أخألي أمّا كلّ شيءٍ سألتَه فيُعطي وأما كلّ ذنبٍ فيَغْفِرُ
فإن يكُ نوؤٌ من سحابٍ أصابه فقد كان يعلو في اللّقاء فيَظْفَرُ^(٢)
والسابعة: قصيدة الحارث بن حلزة: [من الخفيف]

أذنتنا ببينها أسماء^(٣)

وقد أضاف الخطيب التبريزي إلى هذه القصائد ثلاثاً أخرى، قصيدة ميمون بن قيس
الأعشى، وكنيته أبو بصير: [من البسيط]

ودّع هُريرة إنَّ الركب مُرتحلٌ وهل تُطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ^(٤)
والثانية: قصيدة النابغة الذبياني، واسمه زياد بن عمرو من ولد نزار، وكنيته أبو
ثمّامة: [من البسيط]

يا دارَ مَيَّةَ بالعُلياء فالسَّنَدِ أقوُتُ وطال عليها سالفُ الأبدِ^(٥)
والثالثة: قصيدة عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر من ولد مُدركة بن إلياس: [من
مخلع البسيط]

أقفر من أهله مَلْحوبٌ فالقُطبيّاتُ فالذَنوبُ^(٦)

فصل في مدح الشعر وذمه

قد تعارضت فيه الأخبارُ، فأخرج الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال

(١) ديوانه ص ٢٥٦.

(٢) من قوله: قال الأصمعي... إلى هنا زيادة من (ب)، والأبيات في ديوانه ص ١٦٧ يرثي أخاه فيها.

(٣) تمامه: رُبّ ثاوٍ يعلّ منه الثواء، وهو في شرح القصائد العشر ٣٧٠.

(٤) شرح القصائد العشر ص ٣٨٨، وديوانه ص ١٠٦.

(٥) شرح القصائد العشر ص ٤١٤، وديوانه ص ١٤ بشرح الشتمري.

(٦) شرح القصائد العشر ص ٤٣٤، وطبقات فحول الشعراء ١٣٩.

رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً». وفي رواية: «لِحِكْمًا». انفراد بإخراجه البخاري (١).

وروى الإمام أحمد رضي الله عنه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلَىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلَىءَ شِعْرًا» وأخرجه مسلم (٢).

وفصل الخطاب في الباب جوازُه، وما رُوي من الدَّم، فمحمول على الهجو دون المدح؛ لأن النبي ﷺ سمع الشعر، وأجاز عليه، وقال لحسان: «هاجهم» (٣)، ونصب له منبراً في المسجد. ولأن الله تعالى بعث رسوله ﷺ في زمن الفصحاء والشعراء، وأنزل عليه القرآن، فعجبت قريش من نظمه ونثره، وعجزوا عن الإتيان بمثله.

وروى كعب الأخبار قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: نِعَمَ الأبياتُ من الشعر يُقدِّمها الرجل في صدر حاجته يستعطفُ بها قلبَ الكريم، ويستميلُ بها لؤم اللئيم (٤).

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: سمع رسول الله ﷺ قائلاً يُنشد بيتَ الحُطيئة: [من البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَا يَعدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ
فقال: «نعم» (٥).

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن رواحة: «ما الشعرُ؟» فقال: شيء يعتلج في صدري، فينطقُ به لساني. قال: «فأنشدني منه»، فقال:

وَتَبَّتْ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ

فقال رسول الله ﷺ: «وَأَنْتَ تَبَّتْكَ اللهُ» (٦).

(١) مسند أحمد (٢١١٥٤)، وصحيح البخاري (٦١٤٥).

(٢) مسند أحمد (١٥٠٦)، وصحيح مسلم (٢٢٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٦٥٠)، والبخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) العقد الفريد ٥/٢٧٤، والعمدة ١/١٦.

(٥) لم أقف عليه، وانظر العقد الفريد ٥/٢٧٦، والبيت في ديوانه ص ٢٨٤.

(٦) العقد الفريد ٥/٢٧٨، والخبر بنحوه في طبقات فحول الشعراء ٢٢٥-٢٢٦، وطبقات ابن سعد ٣/٥٢٨، وتهذيب

الآثار (٩٧٧) (مسند عمر)، والمعجم الكبير للطبراني ١٣/ (٤٣٧) الجزء المتمم، وسير أعلام النبلاء ١/٢٣٤.

فصل في شعراء الإسلام

روي عن ابن سيرين أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم شعراء، وكان علي أشعرهم، وكان ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن رواحة وحسان وكعب بن مالك وجماعة من الصحابة شعراء.

ومن التابعين خلق كثير كعبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة، وابن المسيب، والحسن البصري، وابن سيرين والزُّهري وغيرهم. وكان ابن المبارك يشعر، وكذا سفيان الثوري وابن عيينة، وعامة خلفاء بني العباس، وبعض بني أمية^(١).

فصل

فيما عيبَ من الشعر المستقيم، وآفته من الفهم السقيم.

قال الأصمعي: أنشد عند حماد الراوية قول حسان بن ثابت: [من الكامل]

يُغَشُونَ حتى ما تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عن السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
فقال حماد: هذه صفة كلاب الخانات^(٢).

ومراد حسان أن كلابهم آنسة بالأضياف لكثرة الطِّراق، فلا يَنْبَحُونَ عليهم.

ومن ذلك قول الفرزدق: [من الطويل]

أيا ابنة عبد الله وابنة مالكٍ ويا ابنة ذي البردَيْنِ والفرَسِ الوَرْدِ^(٣)

قال بعضهم: وأيُّ مدح في كون الرجل يلبس بُردين، ويركبُ فرساً ورْداً؟!!

وليس كما ذكروا، وإنما لهذا القول سبب؛ وهو أن وفود العرب اجتمعوا عند

النُّعمان بن المنذر، فأخرج لهم بُردَيَّ مُحَرَّق، وقال: مَنْ كان أعزَّ العرب فليلبَسْهُمَا.

(١) انظر العقد الفريد ٥/٢٨٣، والعمدة ١/٣٢ فما بعدها.

(٢) العقد الفريد ٥/٣٣٠، والبيت في ديوانه ١/٧٤.

(٣) تابع المصنّف صاحب العقد الفريد ٥/٣٣٠ في نسبة هذا البيت إلى الفرزدق، وليس في ديوانه، وقد نسب

التبريزي في شرح الحماسة ٤/١٠٠ هذا البيت إلى حاتم الطائي، وهو في ديوانه ٤٣ (صادر)، ونسبه المبرد في

الكامل ٧٠٩، وأبو الفرج في الأغاني ١٤/٧١ إلى قيس بن عاصم المتقري، وورد في البيان ٣/٣٠٩، وعيون

الأخبار ٣/٢٦٣، وشرح المرزوقي للحماسة ١٦٦٨ دون نسبة، وانظر شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/٣١٥.

فقام عامر بن أُحيمر بن بهدلة السَّعدي فأتَزَرَ بأحدهما، وارتدى بالآخر. فقال له النعمان: أنت أعزُّ العرب؟ قال: نعم. قال: ولم؟ قال: لأن العزَّ والعدد في معدِّ، ثم في نزار، ثم في مُضَر، ثم في خِنْدِف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عَوْف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا، فليبارني^(١) أو يُنافرني. فلم يُجِبْه أحد، فقال له النعمان: فهذه عشيرتُك، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عَشْرَةٍ، وعمُّ عشرة، وأخو عشرة، وخالُّ عشرة، وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي، ثم وضع قدمه في الأرض وقال: مَنْ أزالها عن مكانها فله مئة ناقةٍ من الإبل سودِ الحَدَق، فقام الجماعة إليه فلم يقدرُ أحد على زوال قدمه من الأرض، فذهب بالبُرْدَيْن، فافتخر الفرزدقُ بذلك.

ومن ذلك قولُ ذي الرُّمَّة: [من الوافر]

رَأَيْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً فقلتُ لَصَيْدِحَ انْتَجِعِي بِبِلَالَا
فلما أنشدها بلالاً، قال لُغلامه: مُرْ لَصَيْدِحَ - وهو اسم ناقة ذي الرمة - بَعْلِفِ^(٢).
وإنما أراد به قصد نفس بلالٍ، لا غيره. ومن هذا كثير.

فصل

ومن عادة الشعراء تحسينُ القبيح، وتقبیحُ الحسن.

قال الحارث بن هشام يعتذر عن فراره يوم بدر، وكان مع المشركين: [من الكامل]
الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مُزْبِدِ
فصدفت^(٣) عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مُرْصِدِ
ولما بلغ بعض ملوك الروم هذا قال: يا معاشر العرب، حسنتم كلَّ شيء حتى الفرار.

وقال بشارُ العُقيلي في سليمان بن علي، وقد وصل رجلاً وأحسن إليه: [من البسيط]

(١) في (خ): فليبارزني، وفي (ب): فليناوئني، والمثبت من (ك).

(٢) العقد الفريد ٣٣٣/٥، والبيت في ديوانه ١٥٣٥/٣.

(٣) في (ب): فصددت، وانظر العقد الفريد ٣٣٦/٥، والبيتان في سيرة ابن هشام ١٨/٢.

يا سَوْءَةً يُكثِرُ الشَّيْطَانَ مَا ذُكِرَتْ منها التَّعَجُّبَ جَاءَتْ مِنْ سُلَيْمَانَ
لَا تَعَجَّبَنَّ لِخَيْرٍ زَالَ عَنْ يَدِهِ فَالْكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانًا^(١)

فصل

وقد تختلف الشعراء في المعنى الواحد. قال الشَّماخ^(٢): [من الوافر]

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدَمِ الْوَتِينِ
وقد عكسه بعضهم فقال^(٣): [من الوافر]

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذْ بَلَّغْتَنِي لَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنِّي بِالْيَمِينِ
فَلَمْ أَجْعَلْكَ لِلْعَرَبَانِ نَهْبًا وَلَا قَلْتُ اشْرَقِي بَدَمِ الْوَتِينِ
ومن هنا أخذ أبو نؤاس في قوله: [من الكامل]

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ^(٤)

فصل

واختلفوا في قَصْرِ الممدود، ومَدِّ المقصور، والحذف.

أما قَصْر الممدود فجائزٌ بالاتفاق.

وأما مَدُّ المقصور فقيح، وقد عيب على حسان بن ثابت لما هجا النعمان، ومدح ملك بني غَسَّان: [من المتقارب]

قَفَاؤُكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَأَمُّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُنْذِرِ^(٥)
وأما الحذف فجائز، وهو من باب الفصاحة، ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإنما هو: في أشهر.

وقال مسلم بن الوليد: [من الطويل]

(١) العقد ٣٣٦/٥، وديوانه (٦١٢)، ونسبهما ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٤٢٩/١ إلى أبي الغول النهشلي، وانظر خزنة الأدب ٤٣٩/٦.

(٢) ديوانه ص ٣٢٣.

(٣) هو أبو نؤاس، والبيتان في ديوانه ٣٠٣-٣٠٤/٣.

(٤) ديوانه ١٣٢/١، والعقد الفريد ٣٤٠/٥ وما سلف منه.

(٥) ديوانه ٤٨٩/١، والعقد ٣٥٦/٥، وما يجوز للشاعر في الضرورة ٢١٧.

سَلِّ النَّاسَ إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ وَحْدَهُ وصائُنْ عِرْضِي عَنْ فُلَانٍ وَعَنْ فُلٍ (١)
وقال آخرُ: [من الرجز]

نَادَوْهُمْ أَنْ أَلْجِمُوا أَلَا تَأْتَا قالوا جميعاً كلُّهم بلى فإ (٢)
أراد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبوا.
وقال آخر: [من الرجز]

قلنا لها قفي فقالت قاف (٣)

تريد: وقفتُ.

وقال آخر (٤): [من الرجز]

خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ زِيَادٍ كَالْخَرْفِ تَخُطُّ رِجْلَايَ بِخَطِّ مَخْتَلِفِ
تُكْتَبَانِ فِي الطَّرِيقِ لَامَ الْإِفِ
ولم يقل لأمًا ولا ألفًا، ومن هذا كثير

ذكر ملوك الحيرة

وعُمِّرت الحيرةُ في زمنِ عَمْرُو بنِ عَدِي بنِ أختِ جَذِيمَةَ الأبرشِ، فاتَّخذها منزلًا، فأقامت عامرةً خمسَ مئة سنةٍ إلى أن وضع المسلمون الكوفةَ. وكانت الحيرةُ والأنبارُ بُنيًا جميعاً في زمنِ بُخْتِ نَصْرٍ، وأقامت الأنبارُ عامرةً خمسَ مئة سنةٍ، ولما خربت الحيرةُ تحوَّلَ أهلها إلى الأنبارِ.

وأولُ ملوكِ الحيرةِ من العربِ: مالكُ بنُ فَهْمِ بنِ غانمِ بنِ دَوْسِ بنِ الأزْدِ بنِ غوثِ ابنِ نَبْتِ بنِ مالكِ.

وكان بُخْتِ نَصْرٍ قد أُخْرِبَ الحيرةَ وطرد عنها العربَ زمانًا، فلما ضَعُفَ أمرُ الفُرسِ، قصدَها مالكٌ لَمَّا خرجَ من اليمنِ مع ولدِ جَفْنَةَ حينَ أحسُّوا بسَيْلِ العَرَمِ، فملك

(١) ديوانه ص ٢٦، والعقد الفريد ٣٥٥/٥.

(٢) ما يجوز للشاعر ص ٣٤٨، وضرائر الشعر ١٨٥ والمصادر فيهما.

(٣) تأويل مشكل القرآن ٢٣٨، وضرورة الشعر للسيرافي ص ٨٩، وضرائر الشعر ١٨٦ والمصادر فيها.

(٤) هو أبو النجم العجلي، والأبيات في ديوانه ١٤١.

مالك على مُضَر ونزل الحيرة، فأقام مدةً، ثم مات.

فصل

فملك بعده ولده جَذِيمةً، ويُلقَّب بالأبرش، والوضَّاح لوضَّح كان به، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأشدَّهم نكاية^(١)، وهو أول من اجتمع له ملك العراق، وحكم على العرب، وكانت منازلُه من الحيرة إلى الأنبار وهيت وعين التمر. وكان لا يُنادم إلا الفرقدين ترفُعاً، وكان إذا شرب قدحاً صبَّ لهما قدحين، وكانت تُجبي إليه الأموال، وتقدُّ عليه الوفود، وفي أيامه كانت زرقاء اليمامة.

فصل في ذكرها

كان قد خرج جَذِيمة يغزو طسماً وجديساً، فوجد حسان بن تبع الحميري قد سبقه إلى غزوهم، فعاد جَذِيمة إلى منزله.

وسبب غزو حسان لهم: أنه كان لهم ملك يقال له: عملوق، وكان جباراً فاتكاً فاسقاً، وكان من طسّم وهو حاكم على جديس، ظالماً لها بحيث أنه لا يُزفُّ من جديس امرأة إلى زوجها إلا وتُحملُ إليه، فيفتريها عملوق قبل زوجها.

فتزوَّجت امرأة شريفة في جديس يُقال لها: الشَّموس بنت عفار أخت الأسود بن عفار الجديسي، فلما كانت ليلة زفافها ذهبوا بها إلى عملوق، فافتريها وخلقى سبيلها، فخرجت على قومها في دمائها، وقد شقَّت جيبها، وكشفت عورتها، وقالت تُحرِّضُ جديساً على طسّم: [من الطويل]

أَيصْلُح ما يُؤتى إلى فتياتكم	وأنتم رجالاً فيكم عددُ النملِ
أَيحسُن تمشي في الدِّماء فتياتكم	صبيحة زُفَّت في النساء إلى البعلِ ^(٢)
فإن أنتم لم تغضبوا عند هذه	فكونوا نساءً لا تريموا ^(٣) من الكحلِ

(١) في النسخ: مكانة، والمثبت من المنتظم ٥٠/٢.

(٢) في مروج الذهب ٢٧٩/٣: أيحسن تمشي في الدماء فتاتكم، وفي معجم البلدان (عمامة) ٤٤٣/٥: أيجمل تمشي في الدماء فتاتكم... في العشاء إلى بعل.

(٣) في أسماء المغتالين لابن حبيب (نوادير المخطوطات) ١١٩/٢، ومعجم البلدان، والخزانة: لا تغب، وفي الأغاني ١٦٦/١١، وتاريخ ابن الأثير ٣٥٣/١: لا تُعاب، وفي مروج الذهب ٢٧٩/٣: تغيضوا.

ودونكم طيبُ النساءِ وإنما
 فلو أننا كنا الرجالَ وأنتمُ
 فموتوا كراماً واصبروا لعدوكم
 فيهلك فيها كلُّ خبِّ مُخادعٍ
 فلما سمعت جديس ذلك غضبت، فقال لهم أخوها الأسود وكان فيهم مُطاعاً: يا
 جديس، أطيعوني. قالوا: وما ذاك؟ قال: قد علمتم أن طسماً ليسوا بأعزَّ منكم، وإنما
 تملكُ عملوق علينا، وميله إليهم، هو الذي فعل بنا ما فعل، وإني صانعٌ لهم طعاماً،
 وأدعوا عملوقاً وطسماً إليه، فإذا جاؤوا قتلُ أنا عملوقاً، واقتلوا أنتم رؤساءهم.
 وصنع طعاماً، وأحضرهم، وقتل عملوقاً، وقتلوا رؤساءهم حتى أفنؤهم، ولم يُفَلت
 من رؤسائهم إلا رياح بن مُرّة، فهرب إلى حسان بن تَبَع فأخبره، وقال: قد انتهك من
 طسّم ما لم يُنتهك^(٢) من أحد. فسار حسان إليهم بقبائل حَمِير وهم باليمامة، فلما بقي
 بينه وبينها ثلاثة أيام قال رياحٌ لحسان: أيها الملك، أخشى من امرأة في جديس ليس
 في الدنيا أبصرُ منها، إنها لتبصرُ الراكب من مسيرة ثلاثة أيام، وأخافُ أن تُنذرَ القومَ،
 فلو أمرت أصحابك أن يحمل كلُّ واحد منهم شجرةً ويجعلها أمامه، فأمرهم حسان
 بذلك.

ونظرت زرقاءُ اليمامة إلى القوم من مسيرة ثلاثة أيام، فأندرت قومها، وقالت: يا
 جديس، لقد سار إليكم الشجرُ من ورائها الرجال، وأرى فيهم رجلاً يَخِصِفُ نعلًا،
 وآخر يَنْهَشُ كَتِفًا، فكذبوها، فقالت: [من البسيط]

إني أرى شجراً من خلفه بشرٌ
 ثوروا بأجمعكم في صدر أوله
 ثم قالت:

أقسم بالله لقد دبَّ الشجر
 أو حَمِير قد أخذت شيئاً يُجرُّ

(١) في (ب) و(خ): بالكرام من الذل؟! والمثبت من مروج الذهب ٢٨٠/٣.

(٢) في (ب): انتهك... تنتهكه، وفي (خ) و(ك): وقال: هل من طسّم ما لم ينتهله، والمثبت من مروج الذهب

فصَبَّحَهُمْ حسان فاجتاحهم، وأخذ زرقاء اليمامة، فشَقَّ عينيها، فإذا عروقٌ سود، فسألها عن ذلك، فقالت: إني لأكتحلُّ بالإثمد في كل ليلة فيشِبُّ بصري، وهي أولُ من اكتحلت به فاتَّخذته الناس بعد ذلك. ثم أمر بها حسانُ فُصِّلت على باب اليمامة. وزرقاء اليمامة لقبٌ لها، واسمُها يمامة بنت مُرَّة أخت رياح الذي أتى بحسان. ويقال: هي من بنات عاد، وبها يُضْرَبُ المثلُ في حِدَّةِ البصر. واختلفوا في أيام جَدِيمة، فقيل: ستين سنة، وقيل: ملك مئة وثمانية عشرة سنة، وأقام ملكاً في زمان ملوك الطوائف خَمْساً وتسعين سنة، وفي أيام أَرْدشير بن بابك ثلاثاً وعشرين سنة. وقصصُه مع أخته رَقاش، وتزويجها بعدي بن نصر، وحديث عمرو بن عدي، واستطارة الجن له وعَوْدَه إليه، وطلبه لزواج الزَّباء، وقتلها له، وتحيلُ قصير وعمرو بن عدي على قتلها مشهور، لا حاجة إلى الإطالة بذكره.

فصل

وملك عمرو بن عدي بعد خاله، فأقام نيِّقاً وستين سنة، وقيل: مئة وستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولده امرؤ القيس بن عمرو، فأقام ستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولده عمرو بن امرئ القيس، وأمه مارية من ولد ملوك غسان، وهو من لَحْمٍ وَيُسَمَّى مُحَرَّقاً؛ لأنه أول من حَرَّقَ بالنار، وفيه يقول الأسود بن يعْفُر: [من الكامل]

ماذا أوْمَلُ بعد آلٍ مُحَرَّقٍ^(١)

الآيات.

فأقام خمساً وعشرين سنة، ثم مات.

فصل

وولي بعده النعمان بن امرئ القيس، وأمه الهَيْجُمَانَةُ، وقيل: هي التي يُقال لها:

(١) تمامه: تركوا منازلهم وبعد إيادٍ، وهو في «المفضليات» ص ٢١٧ وتخرجه فيه.

ماء السماء، لجمالها.

وهو الذي بنى الخورنق والسدير، وهو النعمان الأكبر، وكان أعور، وهو الذي ملكه أنوشروان بن قباد، وهو الذي أشرف يوماً على الخورنق والسدير، فنظر إلى ما حولهما، فقال: أكل ما أرى يصير إلى فناء؟ قالوا: نعم. فقال: أريد عيشاً لا يزول. فقالوا: تخلع أسباب الملك، وتلبس الأمساح، وتسيح في الأرض، ففعل. وأقام في الملك خمساً وستين سنة.

وروى الأصمعي: أن النعمان بن امرئ القيس الأكبر - وهو الذي بنى الخورنق والسدير - ركب يوماً، فأشرف على الخورنق، فنظر إلى ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أن أحداً أوتي مثل ما أوتيت؟ قالوا: لا، إلا رجلاً منهم ساكت لا يتكلم، وكان من حكمائهم، فقال له: مالك لا تتكلم؟! فقال: أيها الملك، إن أذنت لي تكلمت. قال: قل. قال: رأيت ما جمعت، شيء هو لك لم يزُل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك، وزال عنه وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ فقال: لا، بل كان لمن قبلي فزال عنه، وصار إليّ، وكذا يزول عني. قال: فسرت بشيء تزول عنك لذته غداً، وتبقى تبعته عليك، تكون فيه قليلاً، وتترتهن فيه كثيراً طويلاً؟!!

قال: فبكى النعمان، وقال: أين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم، فتعمل بطاعة ربك، وإما أن تُلقني عليك أمساحاً، ثم تلحق بجبل، وتفر من الناس، وتقيم وحدك تعبد ربك حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا فعلت ذلك فما لي؟ قال: حياة لا تموت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، ومُلْك جديد. قال: والله لأطلبن عيشاً لا يزول أبداً.

قال: فانخلع من ملكه، ولبس الأمساح، وساح في الأرض، وتبعه الحكيم، فعبداً الله جميعاً حتى ماتا.

وهو الذي يقول فيه عدي بن زيد العبادي: [من الخفيف]

أيها الشامتُ المُعيرُ بالدهنِ رِأنتَ المخلدُ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيامِ بل أنت جاهلٌ مغرورُ
مَن رأيت المنونَ أخلدَنَ أم مَن ذا عليه من أن يُضامَ خفيرُ

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمَلُوكِ أَبُو سَا سَانَ أُمَّ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامُ مُلُوكُ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
 وَأَخُو الْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَةَ تُجَبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْدَ سَا فَلَطَّيْرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
 لَمْ يَهَبْهُ رَبُّ الْمُنُونِ فزال الـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوَزَنْقِ إِذْ أَشْ رَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
 سِرَّهُ مَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُ لِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضُ وَالسَّديْرُ
 فَارَعَوَى قَلْبُهُ وَقَالَ: وَمَا غِبُّ طَةَ حَيًّا إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقُّ جَفَّتْ فَالْتُوتُ بِهِ الصَّيْبَا وَالْدَّبُورُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَّاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 يَا دِيَارَ الْأَحْبَابِ غَيْرِكَ الدَّهْرُ رُ وَكَانَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ^(١)

وفيهم يقول الأسود بن يعفر: [من الكامل]

مَاذَا أُوْمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقِ تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
 أَرْضِ الْخَوَزَنْقِ وَالسَّديْرِ وَبَارِقِ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرْفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
 نَزَلُوا بِأَنْقِرَةَ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
 أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لَطِيبٌ مَقِيلَهَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ أُمَّ دُوَادِ
 جَرَّتِ الرِّيَّاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
 فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهِى بِهِ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلَى وَنَفَادِ^(٢)

قال ابن الكلبي: ملك بعده ولده المنذر بن النعمان، وأمه الفراسية من آل نصر بن ربيعة اللخمي، فأقام في الملك خمسا وعشرين سنة، ويقال لأمه: ماء السماء. وكان يقال له: ذو القرنين، لضفيرتين كانتا له في جانبي رأسه يُرسلهما.

وقال المدائني: إنما ملك بعد النعمان الحارث بن عمرو جد امرئ القيس

الشاعر، والأول أشهر.

(١) التوايين ص ٦٧-٦٨، وانظر الأغاني ١٣٧/٢، والمنتظم ٧/٢١٥-٢١٧.

(٢) المفضليات ص ٢١٧، والشعر والشعراء ١/٢٥٥-٢٥٦، والأغاني ١٣/١٦-١٩، وانظر التوايين ص ٦٩.

فصل

ثم ولي بعد المنذر بن النعمان ولده عمرو، ويقال له: الأسود. وأمّه هند بنت الهيجمانة. أقام عشرين سنةً وسُمِّي مضرط الحجارة لشدة صرامته، وسُمِّي محرقتاً لأنه أحرق من بني تميم تسعة وتسعين رجلاً، وكملهم مئةً برجلٍ من البراجم، وكان بنو تميم قتلوا أخاه سعد بن هند.

ومحرقت أيضاً لقب الحارث بن عمرو، ملك الشام من آل جفنة، سُمِّي بذلك لأنه أول من حرقت العرب في ديارهم.

وعمر بن هند صاحب طرفة والمتلمس، وكان كتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين، أوهمهما أن في الكتابين صلةً، وفي الكتابين يأمره بقتلهما ويقول: إذا أتاك طرفة والمتلمس فاقطع من كل واحدٍ منهما أكحله، ودعه حتى يموت.

فأما المتلمس فإنه مرّ على رجل يفلي ثيابه ويأكل خبزاً، فقال: ما رأيت أحرق من هذا. فرفع الرجل رأسه وقال: أما أنا فأرمني خبيثاً وأكل طيباً، وأحمق مني من حمل حتفه بيده. ففتح الصحيفة فرأى ما فيها من الشرّ فرمى بها في النهر. وأما طرفة فمضى بالكتاب إلى العامل فقرأه فقطع أكحله، وتركه حتى مات.

وكان ملك عمرو بن هند أربعاً وعشرين سنة.

والمتلمس اسمه: جرير بن عبد المسيح الضبعي، عشق أخت عمرو بن هند وشبب بها، فطلبه عمرو ليقتله فهرب، وهو من المقلين من الشعر، وهو خال طرفة بن العبد، وإنما سُمِّي المتلمس لقوله: [من الطويل]

فهذا أوان العرض جنّ ذبابه
زنابيره والأزرق المتلمس
وأول الأبيات:

ألم تر أن المرء رهن منية
صريعاً لعافي الطير أو سوف يُرْمَسُ
فلا تقبلن ضيماً مخافة ميتة
وموتن بها حرّاً وجلدك أملس
فمن طلب الأوتار ما حرّ أنفه
قصيرٌ وخاض الموت بالسيف بيّهس
بيّهس كان خرج في سفر ومعه سبعة إخوة فقتلوا، ورجع هو فاستحمق، فرجع حتى أخذ بثأره، وكان يُقال له: نعامه.

نَعَامَةٌ لَمَا صَرَّعَ الْقَوْمُ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ
وقيل: كان يلبس ثوبه مقلوباً حتى أخذ بثأره.

وما الناس إلا ما رأوا وتحذثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا
ألم تر أن الجون أصبح راسياً تُطِيفُ بِهِ الْأَيَّامُ مَا يَتَأَيَّسُ
عصى تبعا أيام أهلكت القرى يُطَانُ عَلَيْهِ بِالصَّفِيحِ وَيُكَلَّسُ
هلم إليها قد أثيرت زروعها وَعَادَتِ عَلَيْهَا الْمُنْجَنُونَ تَكْدَسُ
فهذا أو أن العريض جن ذبابه زَنَابِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمَتَلَمَّسُ
يكون نذير من ورائي جنة وَيَنْصُرْنِي مِنْهُمْ جُلِّيٌّ وَأَحْمَسُ
وجمع بني قران فاعرض عليهم فَإِنْ يَقْبَلُوا هَاتَا الَّتِي نَحْنُ نُوبَسُ
فإن يقبلوا بالود نقبل بمثله وَإِلَّا [فإننا] نَحْنُ أَبِي وَأَشْمَسُ
وإن يك عنا في حبيب ثاقل فَقَدْ كَانَ فِينَا مِقْنَبٌ مَا يُعْرَسُ^(١)
وقال الخطابي: إن النبي ﷺ كتب كِتَابًا لِعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَخَتَمَهُ وَنَاوَلَهُ إِيَّاهُ،
فقال: يا محمد، أراني حاملاً إلى قومي صحيفة المتلمس^(٢). أي: لا أحمل كتاباً لا
أدري ما فيه.

ومن شعر المتلمس: [من الوافر]

وأعلم علم حق غير ظن لَتَقْوَى اللَّهُ مِنْ خَيْرِ الْعَتَادِ
لحفظ المال أيسر من بغاه وَضَرْبٍ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادِ
وإصلاح القليل يزيد فيه وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ^(٣)

فصل

ثم ملك بعده أخوه قابوس بن المنذر، فأقام والياً ثلاثين سنة، وقيل: أربع سنين،
وأمه هند أيضاً.

(١) ديوانه ١١٠-١٢٩، وما بين معكوفين منه.

(٢) معالم السنن ٥٨/٢، وهو من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه، وهو في سنن أبي داود (١٦٢٩)، ومسنند أحمد (١٧٦٢٥).

(٣) من قوله: والمتلمس اسمه جرير... إلى هنا زيادة من (ب)، والأبيات في ديوانه ١٧٢-١٧٣، وانظر الشعر والشعراء ١/١٧٩.

فصل

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر بن امرئ القيس، وهو الذي يقال له: أبيت اللعن، ومعناه: أبيت أن تأتي ما تلعن عليه. وكانت تحية الجاهلية فسخها الإسلام. وأمه: سلمى بنت وائل، كلبية، وأمها الشقيقة بالضم. وهو صاحب النابغة الذبياني مدحه وهجاه، قال يهجو: [من الخفيف]

خبروني بني الشقيقة ما يم نَعُ فقعاً بقرقر أن يزولا^(١)
والشقيقة بنت عبّاد بن زيد بن عمرو بن ذهل بن شيبان، وهي أم سيّار وسمير
وعبد الله وعمرو بن أسعد بن همّام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكانوا سيّارة مرّدة لا
يأتون على شيء إلا أفسدوه.

وكنية النعمان أبو قابوس، قال النابغة: [من البسيط]

نُبئتُ أن أبا قابوس أوعدني ولا قرارَ على زارٍ من الأسد^(٢)
ومن مديح النابغة - واسمه زياد بن معاوية أبو أمّامة - في النعمان قصيدته
المشهورة^(٣): [من البسيط]

يا دارَ ميّة بالعلياء فالسند
وقفتُ فيها أصيلاً أسائلها
إلا أوارِيّ لأياً ما أبينها
أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا
ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه
واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت
أقوت وطال عليها سالف الأبد
عيّت جواباً وما بالرّبع من أحد
والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد
أخنى عليها الذي أخنى على لبّد
ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلى حمام سراع وارد الثّمّد
وهذه القصيدة قالها معذراً إلى النعمان لما بلغه أنه تعرّض لزوجته المتجرّدة.

والنابغة من الطبقة الأولى من المتقدّمين على سائر الشعراء، وهو أحد شعراء
الجاهلية المشهورين، وأحد الأشراف الذين غصّ منهم الشعر.

(١) ديوانه ص ٩٩، والفقع: ضرب من الكمأة، والقرقر: الأرض المطمّنة الرخوة اللينة.

(٢) ديوانه ص ٣٦.

(٣) هي المعلقة، وهي في ديوانه ص ٣٠ فما بعدها، وسلف أن كنيته أبو ثمامة، وقد كني بابنتيه أمّامة وثمامة،
انظر الشعر والشعراء ١٥٧.

وكان خصيصاً بالنعمان ومن ندمائه، فرأى زوجة النعمان المتجرّدة، وقد سقط نصيفها ودرعها فسترت وجهها بيدها.

وكان النعمان أبرشَ قبيح المنظر، وكان من ندمائه المنخلُ اليشكري الشاعر، وكان من أجمل العرب، وكان يُرمى بالمتجرّدة، ويتحدّث للعرب أن ابني النعمان كانا منه، فلما رآها النابغة قال: [من الكامل]

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاظَهُ
وَأَوَّلُهَا:

من آلِ مِيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مَغْتَدِي
لو أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ
لَصَبَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا
ووصف بطن المتجرّدة وظهرها وغير ذلك، فغار المنخل، وقال للنعمان: ما يقدرُ

أن يقولَ هذا الشعر إلا من جرّب. فغضب النعمان وتنگر له، وعزم على قتله. فهرب النابغة إلى الشام، فالتجأ إلى عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمير الغساني، وأمه مارية بنت ظالم الكنديّة ذات القرطين، وأختها هند الهنود امرأة حُجرٍ آكل المُرار، فمدحه النابغة وقال: [من الطويل]

كَلِينِي لَهُمْ يَا أُمِيمَةَ نَاصِبٍ
وَلَيْلٍ أَقَاسِيَهُ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
ومنها:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ
تَقْدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ
بهنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ
وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَابِ^(٣)

ومدح النعمان بن الحارث الأصغر الغساني أخا عمرو الذي التجأ إليه، فقال وقد رآه يمشي وهو غلام: [من السريع]

هَذَا غَلَامٌ حَسَنٌ وَجْهُهُ
مُقْتَبِلُ الْخَيْرِ سَرِيعُ التَّمَامِ

(١) ديوانه ص ٤٠.

(٢) ديوانه ص ٣٨.

(٣) ديوانه ص ٩، ١١، وانظر الشعر والشعراء ١/١٦٦-١٦٧، والأغاني ١١/١٤-١٦.

للحارث الأكبر والحارث الـ
 ثم لهندٍ ولهندٍ فقد
 خمسة آباء هم ما هم
 أصغر والأعرج خير الأنام
 أسرع في الخيرات منه إمام
 هم خير من يشرب صوب الغمام^(١)
 ولم يزل النابغة مقيماً عند عمرو بن الحارث الغساني حتى مات عمرو، وولي أخوه
 النعمان بن الحارث، فاستعطفه النعمان بن المنذر، فعاد إليه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً: من القائل: [من الطويل]

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً
 ولست بمُستبقي أخاً لا تلمه
 وليس وراء الله للمرء مذهب
 على شعث أي الرجال المهدب^(٢)
 قالوا: النابغة. فقال: فمن الذي يقول: [من البسيط]

إلا سليمان إذ قال المليك له
 قُم في البرية فازجرها عن الفند^(٣)
 قالوا: النابغة. قال: فمن القائل: [من الوافر]

فلست بذاخر لغد طعاماً
 حذار غد لكل غد طعام^(٤)
 قالوا: النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم وأعلم الناس^(٥).

استأذن النابغة يوماً على النعمان، فقال الحاجب: هو على شرابه. قال: فإنه وقت
 الملق، فإن تبلج فلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفدت. فقال الحاجب:
 كيف أرغب فيما قصدت ووصفت، ودون ذلك رهبة التعدي؟ وكيف السبيل؟ قال:
 فمن عنده؟ قال: خالد بن جعفر الكلابي نديمه. قال: فهل لك أن تؤدّي إلى خالد ما
 أقول؟ قال: قل. قال: قل له: يقول لك النابغة: عظيم قدرك يفي بمأمول الدرك منك،
 وأنا من الشكر من قد علمت، فدخل الحاجب، فقام خالد يقضي حاجته، فبلغه
 الحاجب ما قال النابغة. فلما عاد خالد إلى المجلس، قال للنعمان:

(١) ديوانه ص ١١٧، والأغاني ١١/١٩-٢٠.

(٢) ديوانه ص ١٧.

(٣) ديوانه ص ٣٣.

(٤) ديوانه ص ١١٦.

(٥) انظر الأغاني ١١/٤-٥، و«طبقات فحول الشعراء» ص ٥٦، والعقد الفريد ٥/٢٧٠.

[إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد]
 أبيت اللعن، إن أملاك ذي رعين - يعني ملوك اليمن - قد مدت لهم قصبات
 المجد^(١) إلى معالم الأحساب، ومناقب الأنساب، في حلبة أنت غرّتها، فجئت سابقاً
 لها. فقال له النعمان: لأنت أبلغ في وصفهم من النابغة في نظم قافيته. فقال خالد: ما
 أبلغ فيك مدحاً إلا وهو دون قدرك، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا. فقال: عليّ
 بالنابغة. فخرج الحاجب، فقال: فُتِحَ البابُ، ورُفِعَ الحجابُ، ادخل، فدخل وأنشد:
 [من البسيط]

أخلاقُ مجدك جَلَّتْ ما لها خَطْرُ في البأسِ والجُودِ بين العِلْمِ والخبرِ
 مُتَوَجِّجٌ بالمعالي فوق مَفْرِقِهِ وفي الوغى ضَيِّغُمُ في صورةِ القمرِ^(٢)
 فملاً فاه دُرّاً، فقاسمه الحاجبُ.

وكان يُضربُ للنابغة قُبَّةً من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرضُ عليه
 أشعارها، فأنشده الأعشى، ثم حسان بن ثابت، ثم الخنساء، فمما أنشدته أبياتها التي
 تقول فيها: [من البسيط]

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الهُدَاةُ به كأنه عَلمٌ في رأسه نارُ^(٣)
 فقال النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً، لقلتُ إنك أشعرُ أهلِ زمانك من
 الإنس والجنِّ.

ومن شعر الخنساء في «الحماسة»: [من السريع]

دَلَّ على مَعْرُوفِهِ وجهُهُ بُورك هذا هادياً من دليلِ
 تَحْسَبُهُ غَضبانَ من عِزِّهِ ذلك منه خُلِقَ ما يحولُ
 وَيَلُ أمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ إذا ألقى فيها وعليه الشَّلِيلُ^(٤)

(١) في النسخ: قد مدت لهم قصب السبق، والمثبت من مروج الذهب ٢٠٣/٣ وما بين معكوفين منه، والبيت في ديوانه ص ٣٣.

(٢) ديوانه ص ٧٤، وانظر مروج الذهب ٢٠٤/٣.

(٣) ديوانها ص ٤٨.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٧٩٨/٤، وديوانها ص ١١٥.

فقام حسان بن ثابت، فقال: والله أنا أشعرُ منها ومنك ومن أبيك. فقال النابغة: حيث تقول ماذا؟ فقال: حيث أقول: [من الطويل]

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا
وَلَدْنَا بَنِي العَنُقَاءِ وابْنِي مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمُ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمُ بِنَا ابْنَمَا^(١)
فقال له النابغة: يا بُنَيَّ إنك قلت: الجففات فقللت عددك، ولو قلت: الجفان كان
أولى، وقلت: يلمعن بالضُّحَى، ولو قلت: في الدُّجَى، كان أبلغ، لأن الضيفان يكثرون
في الليل، وقلت: يقطرن. ولو قلت: يجرين، لكان أكثر للدم، وفخرت بمن ولدته،
ولم تفخر بمن ولدك^(٢).

وكسرى أبرويز هو الذي قتل النعمان بن المنذر، وسبب قتله أنه قتل عدي بن زيد
ابن حمار بن أيوب^(٣)، وكان يسكن الحيرة، وكان عدي نصرانياً، وكان منزلُ جدّه
أيوب بن محروف باليمامة، في بني امرئ القيس بن زيد مناة، فأصاب دماً باليمامة
فهرب، فنزل الحيرة على أوس بن سلام^(٤) أحد بني الحارث بن كعب، وكان بين أوس
وأيوب نسبٌ من قبل النساء، فأنزله أوس وأكرمه، وأقام عنده مدة ثم ماتا.

ونشأ زيد أبو عدي، وتعلّم الكتابة ووُلِد له عدي، فعلمه الكتابة، فخدم كسرى
وأنفق عليه، وكان يكتب له، وكان ذلك في زمان المنذر، فجعل المنذر ابنه النعمان في
حجر عدي بن زيد، وتزوج عدي هنداً بنت النعمان، ومات المنذر، فأشار عدي على
كسرى بتولية النعمان دون إخوته، وكان أصغرهم، فغضب الأسود بن المنذر أخو
النعمان وأهله على عدي، واحتالوا وتوصلوا إلى النعمان، ووشوا بينهما، وقالوا: إن
عدياً يقول: إنما النعمان عاملٌ من قبله. فحبسه، وأطال حبسه، فكتب إليه عدي من
الحبس يقول: [من الرمل]

أَبْلَغِ النُّعْمَانَ عَنِي مَالِكاً أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتَظَارِي

(١) ديوانه ص ٢٢١.

(٢) انظر الأغاني ٦/١١، وخزانة الأدب ٨/١١٢-١١٣.

(٣) في النسخ: حماد بن أثوب، والمثبت من طبقات فحول الشعراء ١/١٣٧، وانظر حاشيته لزاماً.

(٤) في الأغاني ٢/٩٨: قلام.

لو بغير الماءِ حَلَقِي شَرِقُ
وَعُدَاتِي شُمَّتُ أَعْجَبَهُمْ
فَلَمَّ نَ دَهْرٌ تَوَلَّى خَيْرُهُ
رُبَّمَا مِنْهُ قَضِينَا حَاجَةً
وَمَدَحُهُ بِقِصَائِدٍ كَثِيرَةٍ فَلَمْ تَغْنِ عَنْهُ شَيْئًا.

وبلغ كسرى حبسُ النعمانِ لِعَدِيٍّ، فبعث إليه يتوَعَّدُهُ ويتهدَّده، ويأمرُه بإطلاقه. فأشار أعداءُ عديٍّ على النعمانِ بقتله، فغمَّوه في ليلة، فلَمَّا وصل رسولُ كسرى إلى النعمانِ يطلبُ عديًّا، أمره أن يذهب إلى الحبسِ ويُخرجه، فجاء فوجده ميتًا، فقالوا: مات البارحة. فعاد الرسول إلى كسرى فأخبره، فتَغَيَّبَ وقال: قتلني الله إن لم أقتله. وكان في قلبه منه من يوم طلب منه فرسه اليَحْموم لينجو عليه، فمنعه النعمان منه^(٢).

ثم إن النعمان ندم على قتل عدي، وأحضر ابنه زيدًا، واعتذر إليه، وجَهَّزه إلى كسرى، وكتب معه كتابًا: إن عديًّا كان ممن أُعِين به في المُلْك، وقد انقضت مُدَّتُهُ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدَّ من مصيبيتي به، وقد بلغ له ابنٌ وليس بدونه، فإن رأى المَلِك أن يجعله مكان أبيه فعل.

فلما حضر زيد عند كسرى أُعجب به، وسأله عن النعمان فأثنى عليه، وأقام زيدٌ يُعْمَلُ الحيلة في قتل النعمان، فما زال حتى قتله، لما نذكر.

وكان النعمان يعبد الأوثان، فلم يزلْ به عديٌّ حتى نَصَّرَه؛ خرج يوماً معه إلى الصيد، فمرا بمقبرة، فقال له عديٌّ: أيها الملكُ أتدري ما يقولُ أهلُها؟ قال: لا. قال: إنهم يقولون: [من الرمل]

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا
يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالماءِ الزُّلالِ
ثُمَّ عَادُوا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ
وكذاك الدَّهْرُ حالاً بعد حالٍ
فقال له النعمان: إنَّ هؤلاء لا ينطقون فما الذي أردت؟ قال: أردتُ وَعَظُّكَ، وأن ترجع عن عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، وتدينَ بدين المسيح. فتنصَّرَ النعمان^(٣).

(١) انظر العقد الفريد ٢٦١/٥، والأغاني ١١٤/٢.

(٢) سلفت القصة ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٣) انظر الأغاني ٩٦/٢، ١٣٤.

وعديّ القائل: [من البسيط]

يا أيُّها الرِّكْبُ سِروا إن قَضَرَكُمُ أن تُصَبِّحُوا ذات يومٍ لا تُسِرونا
حُثُّوا المَطِيَّ وأرخوا من أزمَّتْها قبل المماتِ وقَضُوا ما تُقَضُّونا^(١)

وكان عديّ يهوى هنداً بنت النعمان، وكانت من أجمل النساء، رآها في بيعة في خميس الفضح، وذلك في أيام المنذر، وكان قد قدم عليه بهدية من عند كسرى. وكان لهند أمة يقال لها: مارية، فعشقت عدياً، فأرادت أن تتقرّب إليه بهند، فقالت له: هل لك أن تقع عليّ، وأتسبب لك في هند؟ فأدخلها حانوت خمار، ووقع عليها، فأعملت الحيلة حتى جمعت بينهما في البيعة، فعشقت هند وخطبها إلى النعمان فزوجه إياها، وكان جميلاً، وأقامت معه حتى قتله النعمان، فترهبت بدير هند ظاهر الحيرة، وأقامت به إلى صدر الإسلام، وماتت في ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة من قبل معاوية، وخطبها المغيرة، فقالت: والله ما بي بقيّة من جمال، ولكنك أردت أن تقول في المواسم: ملكت مملكة النعمان، ونكحت ابنته. فقال المغيرة: صدقت.

ويقال: إن هنداً كانت تهوى زرقاء اليمامة، وهي أول امرأة أحبّت امرأة من العرب، فلما قتلت زرقاء اليمامة، ترهبت ولبست المسوح، وبنّت بظاهر الكوفة ديراً وسكنته. وهذا بعيد؛ أين هند من زرقاء اليمامة؟ الزرقاء كانت في زمن جذيمة، والنعمان في آخر ملوك الحيرة.

ولما حبس النعمان عدياً أكرهه على طلاقها، فطلقها^(٢).

ذكر مقتل النعمان

أقام زيد بن عدي عند كسرى يُعمل الحيلة في قتل النعمان، والأخذ بثأر أبيه، وما كانت الفرس تتعرض لنساء العرب، فوصف زيد لأبرويز نساء آل المنذر، فكتب أبرويز إلى النعمان أن يبعث إليه بأخته أو ابنته ليتزوجها، وبعث بالكتاب مع زيد بن عدي. فلما قرأ الكتاب قال: أما كان لأبرويز في مها السواد كفاية حتى تخطى إلى كرائم

(١) تاريخ دمشق ٤٧/١٢٨ (طبع الجمع)، ونسبهما أبو الفرج في الأغاني ١٥/١٩ إلى مضاض بن عمرو.

(٢) انظر الأغاني ٢/١٢٨-١٣٣.

العرب؟ فقال له زيد: إنما أراد الملك إكرامك ورفع منزلتك بمصاهرته إياك، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعل. فقال له النعمان: قد علمت ما على العرب من العار والشناعة بتزويج الأعاجم. فقال له: طب نفساً سأصرفه عن ذلك.

فلما عاد زيد إلى أبرويز أعاد عليه ما قال النعمان، وقال: إنه قال: فأين أبرويز عن بقر السواد، وحرّف عليه. وقال زيد: ربّ عبد صار من الطغيان إلى أكثر من هذا^(١).

فأرسل كسرى يطلب النعمان، فرحل بأمواله وأثقاله وأهله إلى البادية، فنزل على أصهاره من طيء فلم يحمّوه، فانتقل إلى بني رواحة فأجاروه. وضجر وملّ من التنقل في البادية، فأشارت عليه امرأته المتجرّدة بأن يقصد باب كسرى مستجيراً به.

وبلغ كسرى فصفت ثمانية آلاف جارية، عليهن الحلبي والحلّ صفيين، فلما صار النعمان بينهن قلن جميعاً: أما فينا للملك غناء عن بقر السواد؟ فعلم النعمان أنه غير ناجٍ منه.

ولقيه زيد بن عديّ فقال: أنت فعلت بي هذا، ولئن تخلّصت لأسقيّتك بكأس أبيك، فقال زيد: امض نعيم، فقد أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الأرن.

ثم أمر به كسرى فحُبس بساباطٍ بالمداخن، ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فداسته حتى مات. وقيل: إنه حبسه بخانقين فوق طاعون هناك فمات. والأول أصح.

وقد أكثرت فيه الشعراء، قال زهير بن أبي سلمى: [من الطويل]

ألم تر للنعمان كان بنجوة من الشر^(٢) لو أن امرأ كان ناجيا
فلم أر مسلوباً له مثل ملكه أقلّ صديقاً باذلاً أو مؤاسياً^(٣)
خلا أن حياً من رواحة حافظوا وكانوا أناساً يتقون المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهم وودّعهم توديع أن لا تلاقيا

(١) في المصادر أن القائل لذلك هو كسرى أبرويز، انظر تاريخ اليعقوبي ٢١٥/١، والطبري ٢٠٥/٢، ومروج الذهب ٣٠٦/٢، والأغاني ١٢٥/٢، وتجارب الأمم ١٣٣/١.

(٢) في النسخ: ألم تريا النعمان كان بنجوة من الأرض، والمثبت من العقد الفريد ٢٦١/٥، ومروج الذهب ٣/٢٠٧، وديوانه ص ١٧١ بشرح الششمري، وص ٢٨٨ بشرح ثعلب.

(٣) في النسخ: مساويا، والمثبت من المصادر.

ولما قصد النعمانُ بابَ كسرى مرَّ على بني شيبان فأودعهم أهلَه ووعيالَه ودروعَه وسلاحَه وزوجته المتجرده - وكانت دروعُه عشرة آلاف شِكَّةً^(١) - فلما قُتِلَ أرسل كسرى يطلبها، وكان زعيمُ القوم هانيءُ بنُ قبيصة بن هانيء بن مسعود، فامتنع هانيء من تسليمها إليه، وقال: قد استجار بي، فكيف أخفر ذمامه؟ فكان ذلك سبباً ليوم ذي قار.

فصل في ترجمة النعمان بن المنذر

كان شجاعاً فاتكاً، وكان له يومان: يوم بُؤسٍ، ويوم نعيم. فمن لقيه في يوم نعيمه وصله، ومن لقيه في يوم بُؤسه قتله. فلقبه عبيد بن الأبرص الشاعرُ في يوم بُؤسه فقتله.

وقال الهيثم: لقي يومَ بُؤسِهِ رجلاً فقال له: ما حملك على الخروج في هذا اليوم وقد علمت أنه يوم بُؤسي؟ فقال: حملني العشقُ لابنة عمِّ لي، تواعدنا إلى مكان كذا، فخيرتُ نفسي بين أن أراها وبين أن أُقتلَ، فاخترتُ القتل. فقال: اقتلوه. فقال: أيها الملك، دَعني أرى محبوبتي واقتلني بعد ذلك. فقال: ومن يضمنك أن تعود؟ فالتفت الرجل وجعل يُدير طَرْفَه في الناس، فاختر كاتبَ النعمان، فقال: هذا. فقال النعمان للكاتب: أتضمنه؟ قال: نعم. قال: فإن لم يأت قتلُك. قال: نعم. فمضى الرجل ثم عاد، فقال له النعمان: أيها الرجل، ما حملك على الرجوع وقد علمت أنني قاتلك؟ قال: خفتُ أن يذهب الوفاء. قال لكاتبه: ما حملك على ضمانه ولم تعرفه؟ قال: إنه تصفح الوجوه فاخترني، فخفتُ أن يذهب الكرمُ. فقال: وأنا أخاف أن يذهب العفو، فعفا عنه ورفع يوم البؤس.

ذكر وفادة النعمان على كسرى وتفضيله العرب على سائر الأمم

وفد النعمان على كسرى وعنده وفود الصِّين والهند والفرس والروم وغيرهم، فذكروا^(٢) ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان على جميع الأمم بالعرب، ولم يستثن فارساً ولا غيرها، فغضب كسرى، وأخذته عِزَّة المُلِك، وقال: يا نعمانُ، إني فكَّرت في أمر العرب ومن يرِدُ عليَّ من الأمم؛ فوجدت أهلَ الهند والصِّين لهم حظُّ في اجتماع آرائها، وكثرة صنائعها، وبُعْدِ هِمَمِها وفُروسِيَّتِها، وطِيبِ بلادها واتساعها،

(١) الشِّكَّةُ: ما يُلبس من السلاح. اللسان (شك).

(٢) في النسخ: فذكر، والمثبت من العقد الفريد ٤/٢.

وكثرة أموالها وحكمها، وكذا الروم في نسبها^(١) وعظم سلطانها، وكثرة مدائنها، وأن لها ديناً تتبين فيه حلالها من حرامها، وكذا الترك لهم النضارة والحسن والشجاعة، وكذا جميع الأمم، لكل أمة ملك يُدبرها ويجمع كلمتها. وذكر كلاماً طويلاً ثم قال: ولم أر للعرب شيئاً من هذه الخصال، لا في أمر دين ولا دنيا ولا عقول، مع مهانتها وذللها وصغر نفوسها، ومخالطتها الوحوش النافرة والحشرات القبيحة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها وشهواتها ولذاتها، فأفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع، لثقلها وسوء طعمها. وإن قرى أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة، وإن أطعم طعمة عدّها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، ويفتخر به رجالهم، ما عدا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها، وشدد مملكتها، وحماها من عدوها، يعني اليمن.

فقال له النعمان: أيها الملك حق لأمة أنت منها أن تسمو بفضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجتها، إلا أن عندي جواباً عن كل ما نطق به الملك من غير رد عليه، فإن أمنت غضبه قلت. قال: قل، فأنت آمن. فقال: أصلح الله الملك، إن أمتك ليست تُنازع في الفضل لموضعها في عقولها وأحلامها، وما أكرمها الله به من ولايتها وأحكامها. وأما العرب فإنها تفضل الأمم التي ذكرت بعزها ومنعتها، وبأسها وشجاعتها، وأنسابها، وسخائها، وفصاحتها ولغتها، ودينها، وحسن ألوانها، وشدة عقولها، وأنفتها، ووفائها.

فأما عزها ومنعتها؛ فإنها لم تزل مجاورةً لآبائك الذين دوخوا البلاد، ووطدوا الممالك، وقادوا الجيوش، لم يطمع فيها طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم ظهور خيلهم، وجنتهم رماحهم وسيوفهم، وغيرهم من الأمم عزهم الطين والحجارة وجزائر البحور. وأما حسن ألوانها؛ ففضلها ظاهر على الهنود المحترقة، والترك المشوهة والروم المقشرة.

وأما أنسابها؛ فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت أنسابها، حتى لو سُئل واحدٌ

(١) في (خ) و(ك): نسبتها.

عما وراء أبيه لم ينسبه، ولم يعرفه، وما في العرب إلا من يُسمي آباءه أباً أباً، وجداً جداً، يحفظون بذلك أحسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا يدعى إلى غير أبيه. وأما سخاؤها؛ فإن الرجل يكون عنده البكر أو الناب، عليها بُلغته من العيش، فيطرقة الطارق، فيعقرها له ويرضى أن يخرج من دنياه كلها بحسن الأحدث، وجميل الذكر.

وأما فصاحتها؛ فإن الله أعطاها في نظمها ونثرها ما لم يعطه غيرها من الأمم. ثم إن خيولهم أفضل الخيول، ونساءهم أعف النساء.

وأما دينها؛ فإن لها بيتاً محجوجاً، وشهراً حراماً، وبلداً محرماً ينسكون فيه نسائهم، ويذبحون ذبائحهم، ويلقى الرجل قاتل أبيه، أو ابنه، أو أخيه، فلا يتعرض له في الشهر الحرام.

وأما وفاؤها، فإن أحدهم إذا عقد عقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض؛ فيكون رهناً بدينه وذمته، فلا يعلق رهنه ولا تخفر ذمته. وإن أحدهم ليبلغه أن شخصاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفتني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفتني قبيلته، لما أخفر من ذمامه وجواره، وإنه ليلجأ إليهم المحدث المجرم من غير معرفة ولا قرابة، فتكون نفوسهم دون نفسه، وأموالهم دون أمواله.

وأما قتلهم الإناث من أولادهم؛ فليس للفاقة، بل أنفة من العار، وغيره من الأزواج.

وأما أكلهم لحوم الإبل؛ فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له، فجعلوها طعامهم ومراكبهم، مع أنها أكثر البهائم شحوماً، وألذها لحوماً، وأرقها ألباناً، وأقلها غائلة. وذكر كلاماً طويلاً، فعجب كسرى من كلامه، وقال: إنك لموضع الرئاسة في أهل مملكتك، وفيما هو أفضل. ثم كساه من كسوته وسرّحه إلى الحيرة.

فكتب النعمان إلى رؤساء العرب وحكمائها، مثل: أكثم بن صيفي، وحاجب بن زُرارة التميمي، والحرث بن عباد البكري، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي،

والحارث بن ظالم، وقيس بن مسعود البكري، وخالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة العامري، وعمرو بن الشريد السلمي، فقدموا عليه، فأكرمهم وأخبرهم بما جرى له مع كسرى، وقال:

قد سمعتُ منه مقالةً أتخوِّف أن يكون لها غورٌ، [أو يكون إنما أظهرها لأمر]، وهو أن يتخذ العرب خولاً كبعض^(١) طماطمته، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. وإنما أنا رجلٌ منكم، وما عززتُ إلا بمكانكم، وبما يتخوِّف من ناحيتكم. وقد رأيتُ أن تنطلقوا إليه بكتابي، وأن ينطق كلُّ واحدٍ منكم بما حضره، ليعلم أن العرب غير ما ظنَّ، ولا تنطقوا بما يُغضبُه، فإنه ملكٌ عظيمُ الشأن، كثيرُ الأعوان، ولا تنخزلوا له انخزالَ الخاضعِ الدليل، وليكن أمراً بين ذلك تظهر به وثاقةُ حلومكم، ورزانةُ عقولكم. وليكن أولُ من يتكلم منكم أكثمُ بنُ صَيْفِي، ثم تابَعوا على الولاء بقدر منازلكم التي وصفتكم^(٢) بها، فإنما دعاني إلى ذلك لئلا يحرصَ كلُّ واحدٍ منكم على التقدُّم قبل صاحبه، فيجد في آدابكم مطعناً، فإنه ملكٌ مُترفٌ، وقادرٌ مُسلطٌ.

ثم كساهم الحُللَ الثمينة، وحملهم على المَهاري والخيل العِتاق، وكتب معهم كتاباً فيه: أما بعد، أيها الملك، فإني قد أنفذتُ إليك وجوهَ العربِ وحكماءهم ورؤساءهم، ومن لهم حزمٌ وعزمٌ، وفصاحةٌ وصباحةٌ، وأحسابٌ وأنسابٌ. وقد كنتُ أحبُّ الملكَ عمّا رماهم به، وأحببتُ أن يكونَ منهم على علمٍ ويقينٍ، فليسمع الملك منهم، ويتغافل عن جفَاءٍ إن ظهر منهم، ويكرمني بإكرامهم، والسلام.

فلما وفدوا على كسرى أكرمهم، وجلس لهم مجلساً عاماً، ولبس تاجه، وجمع علماء أهل مملكته، ونصب كراسي الذهب والفضة للوفود عن يمينه وشماله، ودعا بالأساورة والمرازبة والموايذة، وأجلس العرب مجالسهم التي وصفها النعمان في كتابه، وأقام التُّرجمان ليؤدِّي إليه ما يقولون، وأذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صَيْفِي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمُّها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبُها، وأفضل الخطباء أصدقُها. الصدقُ

(١) في النسخ: لبعض، والمثبت من العقد الفريد ٩/٢ وما بين معكوفين منه.

(٢) في العقد ١٠/٢: وضعتكم.

مَنْجَاةً، وَالْكَذْبُ مَهْوَاةٌ، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ، وَالْخَيْرُ عَادَةٌ. وَذَكَرَ الْفَاظَاً، فَأَعْجَبَ كَسْرَى بِكَلَامِهِ وَقَالَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ غَيْرُكَ لَكَفَاهَا.

ثُمَّ قَامَ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ التَّمِيمِيَّ فَقَالَ: وَرَى زَنْدَكَ، وَعَلَتْ يَدُكَ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ. نَحْنُ وَفُودُ الْعَرَبِ إِلَيْكَ، ذِمَّمْنَا مَحْفُوظَةً، وَأَنْسَابُنَا مَضْبُوطَةً، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةً، وَعَشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ. وَذَكَرَ الْفَاظَاً.

ثُمَّ قَامَ الْحَارِثُ بْنُ عُبَادِ الْبَكْرِيِّ فَقَالَ: دَامَتْ لَكَ الْمَمَالِكُ بِاسْتِكْمَالِ جَزِيلِ حَظِّهَا، وَعُلوُّ شَأْنِهَا، وَارْتِفَاعُ سُلْطَانِهَا أَوْ سِنَانِهَا. نَحْنُ جِيرَانُكَ اللَّائِذُونَ، وَمُجَاوِرُونَ الْأَعْلُونَ، خِيولُنَا مُجَمَّةٌ وَجِيوشُنَا جَمَّةٌ، لَا نَنْشِي لَذَعْرًا، وَلَا نَنْتَكِرُ لَدَهْرًا، رَمَاحُنَا طَوَالٌ، وَأَعْمَارُنَا قِصَارٌ.

فَقَالَ كَسْرَى: أَنْفُسٌ عَزِيزَةٌ، وَآلَةٌ ضَعِيفَةٌ. فَقَالَ الْحَارِثُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنْ الْفَارِسُ إِذَا حَمَلَ عَلَى الْكُتَيْبَةِ يَقْدُمُ عَلَى الْمَوْتِ، فَهِيَ حَيَاةٌ اسْتَدْبَرَهَا وَمَنِيَّةٌ اسْتَقْبَلَهَا، وَمَتَى اسْتَعْرَتْ نَارُ الْحَرْبِ وَاشْتَدَّ لَظَاهَا، جَعَلْتُ مَقَادِمَهَا رُمُحِي، وَبَرَقَهَا سِيفِي، وَرَعَدَهَا زَيْبِي، وَلَمْ أَقْصُرْ عَنْ خَوْضِ ضَحْضَاحِهَا حَتَّى أَنْغَمَسَ فِي غَمْرَاتِ لُجَجِهَا، فَأَتْرَكَ حُمَاتَهَا جَزْرًا لِلسَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمٍ.

فَقَالَ كَسْرَى لِلْقَوْمِ: أَهَكَذَا هُوَ؟ قَالُوا: فَعَالَهُ أَنْطَقَ مِنْ لِسَانِهِ. فَقَالَ كَسْرَى: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَفَدَاءَ أَحْشَدٍ، وَلَا شُهُودًا أَرْفَدٍ.

ثُمَّ قَامَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ فَقَالَ: إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ: قَلْبُهُ وَلسَانُهُ. فَاشْتَرَّ طَاعَتَنَا بِفَضْلِكَ^(١)، وَاكْظَمَ بَادِرَتَنَا بِحِلْمِكَ، وَأَلِنَ لَنَا كَنْفَكَ يَسْلُسُ لَكَ قِيَادَنَا، فَإِنَّا أَنَاسٌ لَمْ يَكْسِرْ صِفَاتَنَا قِرَاعُ مَنَاقِيرٍ مِنْ أَرَادَ لَهَا قِضْمًا، وَقَدْ مَنَعْنَا حِمَانًا عَنْ كُلِّ مَنْ أَرَادَ لَهُ هِضْمًا.

ثُمَّ قَامَ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ فَقَالَ: آفَةُ الْمَنْطِقِ الْكَذْبُ، وَمَنْ لَوْمُ الْأَخْلَاقِ الْمَلَقُ، وَمَنْ خَطَلَ الرَّأْيَ خِفَّةُ الْمَلِكِ الْمُسَلِّطِ، فَإِنْ أَعْلَمْنَاكَ أَنْ مُوَاجَهَتْنَا لَكَ عَنْ ائْتِلَافٍ، وَانْقِيَادَنَا لَكَ عَنْ إِنْصَافٍ، مَا أَنْتَ بِقَبُولِ ذَلِكَ مِنَّا بِخَلِيقٍ، وَلَا ائْتِمَادٍ عَلَيْهِ بِحَقِيقٍ، وَلَكِنْ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَإِحْكَامُ الْعُقُودِ، وَالْأَمْرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مُعْتَدِلٌ، مَا لَمْ يَأْتِ مِنْ قِبَلِكَ مَيْلٌ.

فَقَالَ كَسْرَى: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمٍ، قَالَ: إِنْ فِي اسْمِ أَبِيكَ دَلِيلًا عَلَى

(١) فِي (ب) وَ(ك): بِلَطْفِكَ.

قِلَّة وفائك. فقال الحارثُ: الحِلْم مع القُدرة، فلتُشبه أفعالك مجلسك. فقال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قام قيسُ بن مسعودٍ فقال: أطاب الله لك المرآيد، إنا لم نقدم عليك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولا لنسمعك ما يُخشن صدرك، ويزرع لنا الحقد في قلبك، ولكن لتعلم ومن حضرك من الوفود أنا في المنطق غيرُ مُفحَمين، وفي البأس غيرُ مُقصرين، إن جورينا غيرُ مسبوقين، وإن سومينا غيرُ مغلوبين.

فقال له كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ موفين، يُعرض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد، فقال قيس: ما كنتُ في ذاك إلا كوافٍ غدير به.

ثم قام خالد بن جعفر فقال: أرشد الله الملك إرشاداً، وزاده إسعاداً. إن لكلٍ منطقي فُرصةً، ولكلٍ جابيةً^(١) غُصة، وعيُّ المنطق أشدُّ من عيِّ السُّكوت، وعثار القول أنكى من عثار الوعث، وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونعم موضعُ المعروف والإحسان. أنفُسنا لك بالطاعة باخعة، ورقابنا لك بالنصيحة خاضعة، وأيدنا لك بالوفاء رهينة. فقال كسرى: نطقت بعقلٍ، وسموت بفضلٍ.

ثم قام علقمة بن عُلاثة فقال: نهجت لك سبيلُ الرِّشاد، وخضع لك العبادُ والبلاد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوالج، وخيرُ القول أصدقُه، وأفضلُ الطلب أنجحُه. نحن وإن أحضرنا المحبَّة، فليس من حضرك منا بأفضلَ ممن غاب عنك. فقال له كسرى: أبلغت. وذكر كلاماً طويلاً.

ثم قام عمرو بنُ الشَّريد فقال: نعيمُ بالِك، ودام في السُّرور حالك، إن عاقبة الكلام مُتدبِّرة، وأشكال النظام مُعتبرة، وهذا قول ما بعده شرفٌ^(٢). إن في أموالنا مرتفداً، وعلى عِزنا المُعتمد^(٣)، فلذلك لا نتعرضُ لِرِفدك، وتخلص نياتنا في قصدك، ونحن مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامك مكافحون.

(١) في النسخ: جارحة، والمثبت من العقد الفريد ١٥/٢، والجابة هي الإجابة.

(٢) في العقد ١٤/٢: وهذا موطن له ما بعده، شرف فيه من شرف...

(٣) في النسخ: المنتقد.

فقال كسرى: قد فهمت ما نطق به خطباؤكم، وتفنن فيه متكلّموكم، وإني لأكره أن أجبه وفودي، وأحنق صدورهم، وقد قبلت ما كان في منطقتكم من صواب، وصفحتم عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى ملككم، والزموا طاعته، وأحسنوا مؤازرته. ثم وصلهم وسرّحهم.

وأقام النعمان والياً على الحيرة ثلاثين سنة. وكان له ابنتان: هند التي ذكرناها، وحُرقة بنت النعمان، وهي التي دخلت على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في فتوح القادسية.

فصل

ولما قتل أبرويز النعمان بن المنذر ولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، فأقام تسع سنين، ومات بعين التمر، وفيه يقول زيد الخيل: [من الطويل]
فإن يك ربّ العينِ خَلَى مكانه فكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ^(١)
ثم قتل أبرويز وولي شيرويه، وجاء الإسلام.
فهؤلاء المشهورون من ملوك الحيرة، ومدّة أيامهم أربع مئة سنة، وقيل: ست مئة، وقيل: ملك منهم ثلاثون ملكاً.

فصل

وحكى المدائني أن الرابع من ملوك الحيرة الحارث بن عمرو، جدّ امرئ القيس ابن حُجر بن الحارث الكندي، ولأه قباذ. ومَلِك الحارث ابنه حُجراً على بني أسد، وكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً، فعصوه، فسار إليهم، فقتل سرواتهم بالعصا، فسُموا عبيد العصا، وأسر منهم جماعة، منهم عبيد بن الأبرص الشاعر، ثم عفا عنهم وردّهم إلى بلادهم.

وعَمرو بن الحارث هذا يقال له: ابن حُجر آكل المُرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مُرتع^(٢) بن معاوية بن كندة بن ثور. وإنما سُمي

(١) ديوانه ص ٨٢، والمعارف ص ٦٥٠.

(٢) في (خ) و(ك): ريع، والمثبت من (ب)، هذا والاختلاف في سياق النسب كبير، انظر طبقات فحول =

حُجْرٌ أَكَلَ المُرَارَ؛ لأن السَّلِيحِيَّ أَغَارَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ امْرَأَتَهُ هِنْدَ بِنْتَ ظَالِمِ بْنِ وَهَبِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الأَكْرَمِينَ فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ رَأَيْتِ حُجْرًا؟ فَقَالَتْ: شَدِيدَ الطَّلَبِ، حَيْثُ الكَلْبُ، كَأَنَّهُ بَعِيرٌ أَكَلَ مُرَارًا، وَهُوَ نَبْتُ حَارٍّ^(١) تَقَلَّصَ مِنْهُ شَفَةَ البَعِيرِ. فَأَقَامَ عَلَى الحَيْرَةِ مَدَّةً، فَلَمَّا مَاتَ قَبَاذُ وَوَلِيَّ أَنُوشِرَوَانَ؛ وَوَلَّى عَلَى الحَيْرَةِ المُنْذِرَ بْنَ مَاءِ السَّمَاءِ، فَهَرَبَ مِنْهُ الحَارِثُ، وَاتَّبَعْتَهُ خَيْلُ المُنْذِرِ ففَاتَهُمْ، فَأَدْرَكُوا ابْنَهُ عَمْرًا وَحُجْرًا فقتلوهما^(٢).

فصل في ترجمة امرئ القيس بن حُجْر

وكان حُجْرٌ قد طرد ابنه امرأ القيس لأجل عُنَيْزَةَ، واسمها: فاطمة، فإنه عشقها، وشبب بها في أشعاره، وعرض بالدخول وحومل وتوضيح والمقراة، وكل هذه أماكن بحوران وما والاها، وقيل بالعراق.

وقال الشعر، وبلغ أباه، فقال لعبد له: اذهب فاقتله، وائتني بعينه، فذبح العبدُ شاةً، وجاءه بعينها، فندم وبكى، فرق له العبدُ وأخبره أنه لم يقتله، وفرح أبوه، وأعتق العبدُ وقال: عليّ به، فجاء به، فاستتابه من قول الشعر، فقال: [من الطويل]

ألا انعم صباحاً أيها الظللُ البالي^(٣)

فطرده، فغاب عنه مدةً، فلما قتل المنذرُ أباه حُجْرًا قال: ضيَّعني صغيراً وحملني دمه كبيراً. ثم آلى ألا يأكل لحمًا، ولا يشرب خمراً حتى يأخذ بثأر أبيه.

فخرج إلى قيصر ملك الروم مستصرخاً به على المنذر، فأكرمه وأنزله، فعشقتُه ابنةُ قيصر، فكان يأتيها. وكان الطرمّاح بن قيس الأسدي الشاعر^(٤) عند قيصر، فوشى به

= الشعراء ٥١/١، والشعر والشعراء ١١٤/١، والمؤتلف والمختلف ص ٥، والأغاني ٧٧/٩، وجهرة ابن حزم ٤٢٧، وتاريخ دمشق ٩١/٣.

(١) في النسخ: وهو بيت حمار، وهو خطأ، والمثبت من تاريخ دمشق.

(٢) المنتظم ١٣٨/٢.

(٣) تمامه: وهل يعمن من كان في العُصْر الخالي، وهو في ديوانه ص ٢٧.

(٤) كذا في النسخ وأصل المنتظم ١٣٩/٢ والمصنف ينقل عنه، وهو خطأ صوابه: الطمّاح بن قيس الأسدي، وليس بالشاعر، انظر الشعر والشعراء ١٠٩/١، ١٢٠، والأغاني ٩٩/٩، والكامل لابن الأثير ٥١٨/١، وديوان امرئ القيس ص ١٠٨.

إليه، فطلبه، فأدركه الطلب عند أنقرة، أو دونها بيوم، وكان مع الرسول حُلَّةٌ مسمومة فألبسه إياها في يومٍ صائفٍ، فتناثر لحمه، ومات فدفن بأنقرة.

وكان إذا عرق فاحت منه ريح الكلب، فكنّ النساء يكرهنه لذلك، وكانت أمه قد ماتت وهو رضيع، فطلبوا له من يرضعه فلم يجدوا، فأرضعوه بلبن كلبه أياماً.

وتزوج امرأة، فطالت ليلتها معه فقال لها: ما كرهت مني؟ فقالت: أنت سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، ريحك ريح كلبٍ فطلقتني، فطلقها^(١).

وكان امرؤ القيس يُلقب بالملك الضليل وذي القروح، وأمه: تملك، وقيل: اسمها هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الأكرمين^(٢). وامرؤ القيس أول من اخترع المعاني اللطيفة مع قرب المأخذ.

وروي أنه قدم وفد على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا ضللنا الماء فعطشنا، وإذا براكبٍ على قلوصٍ، وهو يترنم ويقول: [من الطويل]

ولمّا رأّت حرّ الهَجِير بكَفِّها وبردَ الحَصِي من تحت أرجلها حامي
تيمّمت العَيْنَ التي عند ضارج يفيءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طامي
ثم قال الراكب: أتدرون من قائل هذا الشعر؟ قلنا: لا. قال: امرؤ القيس، وهذه ضارجُ ترونها، فسرنا خطواتٍ، وإذا بعين ماءٍ عذبٍ عليها العَرْمَضُ^(٣) فشربنا، ولولاه لمتنا عطشاً، فأحيانا الله بيتين من الشعر، وكان كلُّ واحدٍ منا قد جلس تحت شجرةٍ ينتظر الموت، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك رجل مشهورٌ في الدنيا، خاملٌ الذكر في الآخرة، يجيء يومَ القيامة ومعه لواءُ الشعراء، يقودهم إلى النار».

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: لا يصح هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، في إسناده أبو الجهم عن الزهري، وأبو الجهم مجهول^(٤).

(١) المنتظم ١٣٩/٢-١٤٠، وانظر الشعر والشعراء ١٢١/١.

(٢) انظر الأغاني ٧٨-٧٧/٩، والمنتظم ١٣٨/٢، وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١١٤-١١٥ أن أمه هي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير.

(٣) هو الطحلب.

(٤) انظر الشعر والشعراء ١١١-١١٢/١، ١٢٦، والمنتظم ١٤٠/٢، ومسند أحمد (٧١٢٧)، والجرح والتعديل ٣٥٤-٣٥٥/٩، والعلل المتناهية ١٣٨/١.

قال المصنف رحمه الله: قد روى ابن عساكر هذا الحديث، وذكر له ثلاثين طريقاً، ولم يبين ما فيه، وما كان يخفى عنه ذلك^(١).

ولما خرج امرؤ القيس إلى قيصر أخرج معه عمرو بن قميئة الشاعر، ويُعرف بالضائع، وهو أقدم من امرئ القيس وأكبر سناً منه، بلغ تسعين سنة، ومات في طريقه إلى الروم. وإنما سمّته العرب: الضائع؛ لموته ببلاد الروم في دار غريبة من غير مطلب ولا أرب. وهو الذي رثاه امرؤ القيس بقوله: [من الطويل]

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبك عينك إنما نحاولُ ملكاً أو نموت فنُعدرا^(٢)

قال ابن ماکولا: أوّل مَنْ عَمِلَ فِي الْخِيَالِ شعراً عمرو بن قميئة، وهو قوله: [من الطويل]

كأنّي وقد جاوزتُ تسعين حجّةً خلعتُ بها عني عذار لجامي
رَمْتَنِي بِنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فما بال مَنْ يُرمى بغير سهام
وأهلكني تأمیلُ يومٍ وليلَةٍ وتأمیلُ عامٍ بعد ذاك وعام^(٣)

فصل في ملوك الردافة

وإردافُ الملوك في الجاهلية: هو أن يجلس الملك، ويجلس الردفُ عن يمينه، فإذا شرب الملك شرب الردفُ قبل الناس، وإذا غزا الملك جلس الردفُ مكانه، وكان خليفته على الناس حتى ينصرف، فإذا عادت^(٤) كتيبة الملك، أخذ الردفُ منها المربع^(٥).

(١) تاريخ دمشق ٣/ ٩٢-٩٩ (مخطوط).

(٢) ديوانه ص ٦٥-٦٦.

(٣) ديوانه ص ٤٤-٤٧، والإكمال لابن ماکولا ٥/ ٢٣٦، وتاريخ دمشق ١٣/ ٥٩١-٥٩٢، ولم يذكر ابن ماکولا وابن عساكر الأبيات التي عملها عمرو في الخيال، فذكر المصنف أبياتاً لا تدلّ على الخيال، والأبيات كما ذكر الشريف المرتضى في طيف الخيال ص ٩٩ هي:

نأثك أمامة إلا سُوالاً وإلا خيالاً يوافي خيالاً
تُوافي مع الليل مُستوطناً وتأبى مع الصبح إلا زيالاً
خيالٌ يُخيلُ لي نيلها ولو قد رثت لم تُخيلُ نوالاً

(٤) كذا في (ب) و(خ) وصحاح الجوهري (ردف)، وفي المعارف ص ٦٥١، ونقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ص ٢٩٩: غارت.

(٥) هو ربع الغنائم.

وكانت الردافة في الجاهلية لبني يربوع؛ لأنه لم يكن في العرب أكثر غارة منهم على ملوك الحيرة، فصالحوهم على أن يجعلوا لهم الردافة، ويكفوا عن أهل العراق الغارة. قال جرير وهو من بني يربوع: [من الطويل]

رَبَعْنَا وَأَرْدَفْنَا الْمُلُوكَ فَظَلَّلُوا وَطَابَ الْأَحَالِيْبِ الثُّمَامَ الْمُنَزَّعَا^(١)
وأول من ردف من بني يربوع عتاب بن رياح، ثم ابنه عوف بن عتاب، ثم ابنه يزيد ابن عوف، وذلك على عهد المنذر بن ماء السماء، وأول الردافة أن المنذر بعث جيشاً إلى بني يربوع وعليه قابوس وحسان ابنا المنذر، فالتقوا بمكان يقال له: طخفة، فاقتتلوا، فانهزم جيش المنذر، وأسروا ابنيه، ففداهما بألفي بعير، وأقر الردافة فيهم، وفي هذا اليوم يقول جرير: [من الطويل]

وَيَوْمَ أَتَى قَابُوسٌ لَمْ نُعْطِهِ الْمَنَى وَلَكِنْ صَدَعْنَا الْبَيْضَ حَتَّى تَهَزَّمَا^(٢)
ولما انقضى ملك الحيرة، وجاء الإسلام، ذهبت الردافة.

فصل في ذكر ملوك اليمن

وأصل اليمن قحطان بن الهميسع بن نبت بن إسماعيل عليه السلام.

وقيل: قحطان هو يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وإنما عرّب يقطن فقالوا: قحطان.

وكان لقحطان ثلاثون ولداً ذكوراً، وأم الجميع حي بنت روق بن فزارة بن سام بن نوح عليه السلام، منهم كهلان وحمير، وكانوا يسكنون التّهائم والأنجاد، وبلاد حضرموت، والشحر، والأحقاف، وعمان وما والاها.

فولد لقحطان يعرب، وولد ليعرب يشجب، وولد ليشجب ولدان، [أحدهما] عبد شمس، وهو سبأ، وسبأ لقب له لأنه أول من سبى السبأيا من ولد قحطان^(٣).

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٣٦، والمعارف، وصحاح الجوهري، والوطاب جمع وّطب، وهو وعاء اللبن، والأحاليب ما زاد على السقاء من اللبن إذا جاء به الراعي حين يورد إبله، والثمام: نبت يتنزع من أصله، وتبرّد به أوطاب اللبن.

(٢) «المعارف» ٦٥١، و«نقائض جرير والفرزدق» ص ٦٦ وفيه: أبي قابوس، وكلاهما صحيح.

(٣) مروج الذهب ٣/ ١٤٤ وما بين معكوفين منه.

والعقب من ولد قحطان لحمير وكهلان، ويقال: إنهما من ولد سبأ.
 وكان لسبأ أولاد أخر منهم: عمرو، والأشعر، وأنمار، وعاملة، ومُرّ، وكلهم بنو سبأ.
 والأنصار من ولد كهلان.
 ويعرب أول من دخل اليمن وأقام بها، وحِييَ بتحية الملك، وقيل له: أبيت اللعن،
 وأنعم صباحاً.
 وقد أنكر قوم أن يكون قحطان من ولد إسماعيل عليه السلام.
 واسم حمير: العرنجج^(١).

فصل

وأول ملوكهم سبأ بن يشجب، أقام ملكاً أربع مئة سنة وثمانين سنة حتى مات
 هرماً، وعامة ملوك اليمن من ولده.
 وكان لسبأ أولاد، منهم: حمير وكهلان، وهما أعيان ولده.

فصل

وملك بعد سبأ حمير، وكان شجاعاً جميلاً، وهو أول من وضع التاج على رأسه
 من ملوك اليمن، وعاش مثل أبيه حتى مات هرماً، وقيل: إنه أقام خمسين سنة مالكاً.
 وكان لحمير أولاد، منهم: عامر بن حمير فولد دهمان، وولد دهمان يحضب كلها.
 وأما سعد بن حمير فولد السلف وأسلم.
 وأما عمرو بن حمير فولد عدي بن عمرو، وولد عدي لخم بن عدي، ومن لخم بنو
 الدار، ومنهم تميم الداري. وقيل: إن عمرو بن حمير ولد الحارث، وولد الحارث آل
 ذي رعين^(٢).

وأما مالك بن حمير فولد قضاة كلها، ومن قبائلها: كلب بن وبرة^(٣)، ومن

(١) المعارف ٢٧، ١٠١، ١٠٩، والاشتقاق ٣٦٢، والصحاح (عرج ١/٣٢٩).

(٢) المعارف ص ١٠٣.

(٣) في النسخ: كلب ووبرة، وهو خطأ.

بُطونهم: بنو عَدِيّ بن جَنَاب، وبنو عُليم بن جَنَاب، وبنو العُبَيْد، ورُفَيْدَة، ومَصَاد، وبنو القَيْن، وسَلِيح، وتَنُوخ، وجَرَم بن رَبَّان، وراسِب بن جَرَم، وِبَلِيّ^(١)، ومَهْرَة، وعُذْرَة، وسَعْدُ بن هُذَيْم.

ومن قضاة: ذو الكَلَاع، وذو نُواس، وذو أَصْبَح - وإليه تُنسب السِّياط الأَصْبَحِيَّة - وذو جَدَن، وذو يَزَن، وذو فائِش، وجُرَش، والسَّحُول، وبطون كثيرة. وأما وائِلة بن حَمِير؛ فولد السَّكاسِك بن وائِلة، والعدد من حَمير في السَّكاسِك. وأما الأشعر بن حَمِير، فمن ولده رَهْطُ أبي موسى الأشعري^(٢).

وقد اختلفوا في أسامي، منها: أنمار وعامِلة، فقال قوم: هم من ولد حَمِير بن سَبَأ، وقال آخرون: بل هم ولد سَبَأ لَصْلْبِه.

فأما أنمار فولد خَنَعَم وبَجِيْلَة - اسم امرأة - ومن بطونها قَسْر؛ رَهْطُ خالد بن عبد الله القَسْرِيّ.

وأما عامِلة فولد قبائل كثيرة، ونَسَاب اليمن يزعمون أنهم من وِلْد قاسِط بن وائل، وفيهم يقول الأعشى: [من المتقارب]

أَعامِلَ حَتَّى مَتَى تَذَهَبِينَ إلی غَيْرِ والِدِكَ الأَكْرَمِ
ووالِدُكُمْ قاسِطٌ فارْجِعُوا إلی النِّسَبِ الأَثَلَدِ الأَعْظَمِ^(٣)
ومات حَمير.

فصل

فملك بعده أخوه كَهْلان بن سَبَأ، فأقام مالكاً ثلاث مئة سنة، وجرت في أيامه حروبٌ وخطوب، وتفرقت القبائل، ومضت القُرُونُ على ولد حَمِير وكَهْلان وهم على ذلك، حتى ملك الحارث، ويُسمَّى: الرَّائِش.

وولد كَهْلان بن سَبَأ: زيد بن كَهْلان، وولد زيدُ مالِك بن زيد، وأدَد بن زيد، وولد

(١) في النسخ: نصر وبلي، والمثبت من المعارف ١٠٤.

(٢) كذا قال، وفي المعارف ١٠٢ أنه الأشعر بن سَبَأ.

(٣) المعارف ١٠٣، والصحاح (عمل)، وليس في ديوانه.

أُدَد طِيء بن أُدَد، والغوث بن أُدَد، فمن طِيء بنو نبهان بن عمرو، وبنو ثعل بن عمرو، وحاتم الطائيّ منهم، وكذا بنو سنبس.

واختلفوا في أول ملوك اليمن بعد كهلان، وبعد تفرّق القبائل ومضيّ القرون على قولين: أحدهما: أبو مالك بن كليكرب من ولد سبأ^(١)، وكان عادلاً منصفاً، أقام ثلاث مئة سنة ملكاً.

والثاني: الحارث الرّائش من ولد كهلان بن سبأ، وبينه وبينه خمسة عشر جَدّاً.

والرّائش أول من غزا منهم بلادَ حضرموت، فغنم غنائم كثيرة، وعاد بها إلى اليمن، فأعطى أهل اليمن فسّمي: الرّائش، وفي أيامه كان لقمان بن عاد صاحب النسور.

وكان الحارث من أشجع ملوك اليمن، غزا المشرق، والهند، وخراسان، وأذربيجان، وكان يذكر نبينا ﷺ ويقول: إنه يأتي في آخر الزّمان. ومن قوله: [من الوافر]

وَيَمْلِكُ بَعْدَنَا رَجُلٌ عَظِيمٌ نَبِيٌّ لَا يُرَخِّصُ فِي الْحَرَامِ
يُسَمَّى أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي أَعْمَرُ بَعْدَ مَخْرَجِهِ بَعَامٍ^(٢)
وأقام مالكا مئة وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده، ولده أبرهة بن الرّائش، وهو ذو المنار، لأنه أول من عمل المنار على طريقه في مغازيه ليهتدي بها إذا رجع، وغزا غزوات كثيرة، وملك مئة ونيفاً وثلاثين سنة^(٣).

فصل

ثم ملك بعده ولده أفريقيش بن أبرهة، فغزا بلاد المغرب ووصل طنجة. ويقال: إنه

(١) في مروج الذهب ٣/ ١٥٠: أبو مالك بن عسكر بن سبأ.

(٢) المعارف ص ٦٢٧، والبدء والتاريخ ٣/ ١٧٥.

(٣) في المعارف ص ٦٢٧، وتاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٦، ومروج الذهب ٣/ ١٥١ أنه ملك مئة وثمانين سنة أو مئة وثلاثاً وثمانين سنة.

الذي بنى إفريقية، ونقل البربر من الشام ومصر والسواحل إلى مساكنهم اليوم - والبربر بقيّة العمالقة، ومن أفسد بالشام، وقتلهم يوشع بن نون عليه السلام. وملك مئة وأربعاً وستين سنة.

فصل

ثم ملك أخوه العبد بن أبرهة، ويقال له: ذو الأذعار، لأنه غزا بلاد النّسناس، وعاد إلى اليمن ومعه من النّسناس شيء كثير، وجوهمهم في صدورهم، فدعّر الناس منهم، وكان غزوه في زمن أبيه، وفلج فبطل شقّه الأيمن. وملك خمساً وعشرين سنة.

فصل

ثم ملك بعده الهدهاد بن شراحيل بن عمرو بن الحارث الرّائش والد بلقيس، ملك سنة، وقيل: عشرين، وأوصى إلى ابنته بلقيس بعده. وقال ابن قتيبة: لقبه الهدهاد، واسمه: ذو شرح بن صيفي بن سبأ^(١). وليس كما ذكر، بينه وبين سبأ زمانٌ طويل.

فصل

وملكت بلقيس، وقد ذكرناها في قصة سليمان عليه السلام.

فصل

ثم ملك بعد بلقيس ياسر بن عمرو بن يعفر، وقيل: ابن ينعم بن يعفر بن عمرو بن شرحبيل بن الحارث الرّائش، ويعرف بناشر النعم؛ لأنه أنعم على الناس ويسر أمورهم. وغزا المغرب، فبلغ إلى وادي النمل، ولم يبلغه بعد سليمان عليه السلام غيره؛ فنزل هناك ولم يقدر أن يتجاوزّه، ووجد هناك نملاً مثل البخاتي^(٢)، تصرع النملة الفارس، فأمر أن يُعمل صنمٌ من نحاس، وكتب في صدره: ياسر الحميري، ليس وراء هذا الصنم مسلك، فلا يسلكن أحدٌ فيعطب، وعاد.

(١) لم أجد كلام ابن قتيبة.

(٢) هي الإبل الخراسانية.

وهو الذي ردَّ الملك بعد موت سليمان عليه السلام إلى اليمن، وكان ملك ياسر خمساً وثلاثين سنة، وقيل: خمساً وثمانين سنةً.

فصل

ثم ملك بعده شمر بن أفريقيش بن أبرهة بن الرائش، وكان به ارتعاشٌ، فقيل له: شمر يرعش.

وغزا المشرق في جيش عظيم، وأوغل في بلاد الهند والصين، وفتح المدائن والحصون، وأحرق مدينة الصُّغد، وهي سمرقند، فقيل: شمر كند، أي: أخربها، فعربتها العرب فقالت: سمرقند، ثم عاد إلى اليمن. وكان ملكه مئة وسبعاً وثلاثين سنة، وقيل: ثلاثاً وخمسين سنة.

فصل

فملك الأقرن بن شمر يرعش، فغزا بلاد الروم، وأوغل فيها، حتى قُرب من وادي الياقوت، فمات قبل دخوله فدفن هناك. وكان ملكه مئة وثلاثاً وستين سنة، وقيل: ثلاثاً وخمسين سنة.

فصل في التَّبَاعَة

وتُبَّع: لقبٌ لملوك اليمن، ككسرى للفرس، وقیصر للروم ونحوه.

واختلفوا في أول التَّبَاعَة بعد اتِّفَاقهم على أنهم ثلاثة، فقال قوم: الأول: الأقرن ابن شمر يرعش الذي ذكرناه آنفاً، وقيل: ولده تُبَّع بن الأقرن ويُسمَّى: تُبَّعاً الأكبر، والثالث: أسعد بن كلكب، وقيل: حسان بن تبان.

واختلفوا في تُبَّع صاحب هذه الترجمة، فقال قوم: اسمه الأقرن بن شمر يرعش. وقال آخرون: ملكي كَرَب بن تُبَّع. وقال ابن الكلبي: اسمه زيد بن عمرو بن تُبَّع بن أبرهة ذي المنار، وهو الذي غزا في زمان بشتاسب^(١).

(١) في المحبر ٣٦٧، وصبح الأعشى ٢٣/٥ أنه أسعد أبو كرب بن قيس بن زيد بن عمرو ذي الأذعار تبع الآخر ابن أبرهة ذي المنار.

والظاهر أن تَبَعاً الأول هو ابنُ الأقرن بن شَمِرٍ يرعش، وهو أول من اشتهر بلقب تَبَع، وهو القائل^(١): [من الكامل]

مَنع البقاء تَقَلُّبُ الشمسِ وطلوعها من حيث لا تُمسي
وطلوعها بيضاء صافيةً وغروبها صفراء كالورسِ
تجري على كِبِدِ السَّماءِ كما يجري حمامُ الموت بالنفسِ
اليومَ نعلم ما يجيء به ومضى بفضل قضائه أمسِ

وكان تَبَعٌ عظيماً، بلغه أن الترك قاصدته، فسار إليهم على جبلي طيء، ثم سلك على الأنبار، وهذا الطريق الذي سلكه الرائث، فلقيهم في حدٍّ أذريجان فقتل وسبى، وأوغل في الهند والصين، ووصل إلى التبت، وخلف جيشاً عظيماً هناك رابطة، فأعقابهم هناك إلى اليوم. ولما عاد إلى العراق خلف بالحيرة قوماً من الأزد وقضاة ولخم وجذام وعاملة فبنوها، وهابته الملوك وهادوه، ثم عاد إلى اليمن.

وسأل ابنُ عباس رضي الله عنهما ابنَ مسعود رضي الله عنه^(٢) قال: سمعت الله تعالى يذكر تَبَعاً فلم يذمه، وذمَّ قومه؟ فقال: نعم. إن تَبَعاً غزا بيت المقدس، فسبى أولاد الأخبار، وقدم بفتية منهم على قومه، فجعل يُذنيهم، ويسمعُ منهم، ويُخبرونه عن الله تعالى، فتحدث قومُه، وقالوا: إنا نخافُ أن يفتنوه عن دينه، وكان يعبد الأوثان، وبلغ تَبَعاً ما قالوا، فأخبر الفتية فقالوا: بيننا وبينهم النصف. قال: وما هو؟ قالوا: نارٌ تحرق الكاذبَ وينجو منها الصادقُ.

فجمع قومه وقال: اسمعوا ما يقول هؤلاء، وقال لهم: تكلموا، فقالوا: لنا خالقٌ نعودُ إليه، وبين أيدينا جنةٌ ونار، فإن أبيتُم علينا، فبيننا وبينكم النصف. فقالوا: قد رضينا. فأضرموا ناراً، وقام الفتية فذكروا اسم الله، واقتحموها، وخرجوا منها سالمين، ودخل من أولئك جماعةٌ فاحترقوا، فأسلم تَبَع، وكان رجلاً صالحاً فذكره الله تعالى ولم يذمه وذمَّ قومه.

(١) المعارف ص ٦٣٠، والبدء والتاريخ ٣/١٧٧، والروض الأنف ١/٢٦، وتاريخ دمشق ٣/٥١٠.

(٢) في تاريخ دمشق ٣/٥٠٢ سؤال ابن عباس لعبد الله بن سلام، وانظر تفسير ابن كثير للآية (٣٦) من سورة الدخان.

وسُمِّي تَبَعاً لكثرة أتباعه، وكسا البيت، وكان يعبد النار فأسلم، وأقام ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: ثمانين سنة. وهو تَبَع الأوسط.

فصل

ثم ملك بعده تَبَع الآخر، وهو أسعد بن كَلِيكِرِب، وقيل: حسان بن تَبان، وقيل: هو ابن تَبَع الأوسط وكُنِيته أبو كرب.

وقال ابن سيرين: هو أول من كسا البيت، وملك الدنيا والأقاليم بأسرها. وحكى ابن عساكر: أنه كان إذا عرض الخيل قاموا صفاً من دمشق إلى صنعاء^(١). وهذا بعيد.

وكان يغزو على النجوم، ويستضيء بها. وطالت مدته، وثقل على حمير من كثرة ما كان يغزو بها.

ولما رجع من غزو المشرق، جعل طريقه على المدينة، وكان لما مرّ بها لم يهج أهلها، وخلف فيها ابناً له فقتلوه غيلةً، وبلغه؛ فرجع إليها، وهو مُجمَع على خرابها، واستئصال أهلها، وقطع نخيلها. فجمع له هذا الحي من الأنصار، ورئيسهم يومئذ عمرو بن طَلَّة أخو بني النجار، وجاء تَبَع فنزل على المدينة، ولم يتعرّض لها، فجاء رجل من أصحابه فصعد نخلة لرجل من الأنصار، يُقال له: أحمر، فضربه الأنصاري بمنجل فقتله، وألقاه في بئر. وبلغ تَبَعاً فازداد حنقاً عليهم فقاتلهم، فكانوا يقاتلونه نهاراً، ويقرونه في الليل العسل والتَّمَر والبُرّ، فقال: ما رأيت أكرم من هؤلاء.

فبينا هو على ذلك إذ جاءه حَبْران من اليهود من بني قُرَيْظَة عالمان، فقالا: أيها الملك، لا تقاتل هذا البلد، فإننا نجد في كُتُبنا أن هذا المكان مُهاجرٌ نبيّ يخرج من هذا الحي من قريش في آخر الزمان اسمه محمد، فتكون المدينة داره وقراره، وإنا نخاف عليك العقوبة، فكفّ عن القتال. ثم دعواه إلى دينهما فأجابهما وكان وقومه يعبدون الأوثان.

وقال هشام: كانت الأنصار من أعزّ العرب وأشرفها، وهم الأوس والخزرج ابنا

(١) تاريخ دمشق ٣/٥٠٠.

قَيْلَةٌ، لَمْ يُؤَدُّوا خَرَاஜًا وَلَا إِتَاوَةً قَطُّ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ تُبَّعُ أَبُو كَرْبٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مَخَالَفَتَهُ. فَكَتَبُوا إِلَيْهِ: [مِنَ الْكَامِلِ]

الْعَبْدُ تُبَّعُ كَمْ يَرُومُ قِتَالَنَا وَمَكَانُهُ بِالْمَنْزِلِ الْمُتَنَزِّلِ
إِنَّا أَنْوَاسٌ لَا يَنَامُ بِأَرْضِنَا عَضَّ الرَّسُولُ بِبَظْرٍ أُمَّ الْمَرْسَلِ^(١)
فَسَارَ إِلَيْهِمْ، فَقَاتَلَهُمْ، فَلَمْ يَنْلِ مِنْهُمْ طَائِلًا.

قال ابن الكلبي: وله شعر يذكر فيه خروج النبي ﷺ، وأولُه: [من الكامل]

مَا بَالُ نَوْمِكَ مِثْلَ نَوْمِ الْأَرْمَدِ أَرِقًا لَجَنَبِكَ بِالْعَرَاءِ مَسْهَدِ
وَلَقَدْ هَبَطْنَا يَثْرِبًا وَصَدُورُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُهَا بِقَتْلِ مُحْصِدِ
حَنْقًا عَلَى وَلَدِي وَصَاحِبِ أَسْرَتِي أَضْحَى قَتِيلًا عِنْدَ بَابِ الْمَرْبِدِ
وَلَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينَ صَدَقِ مُؤَلِيًّا قَسَمًا لَعَمْرِي لَيْسَ بِالْمُتَرَدِّدِ
إِنْ جِئْتُ يَثْرِبَ لَا أَغَادِرُ وَسْطَهَا عِدْقًا وَلَا نَخْلًا يَكُونُ لِمُعْتَدِي
حَتَّى أَتَانِي مِنْ قُرَيْظَةَ عَالِمٌ حَبْرٌ لَعَمْرُكَ فِي الْيَهُودِ مُسَدِّدِ
قَالَ أَنْزَجِرَ عَنْ قَرْيَةٍ مَحْفُوظَةٍ لِرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُؤَيِّدِ
فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِهِمْ وَتَرَكْتُهُمْ لِعِقَابِ يَوْمِ سَرْمَدِ
فَرَحَلُ وَمَعَهُ الْحَبْرَانُ، فَقَصِدَ مَكَّةَ، فَلَمَّا نَزَلَ عُسْفَانَ، جَاءَهُ نَفْرٌ مِنْ هُدَيْلٍ، فَقَالُوا
لَهُ: أَلَا نَدُلُّكَ عَلَى بَيْتِ مَالٍ أَغْفَلَهُ الْمُلُوكُ، فِيهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْيَوَاقِيتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالُوا: بِمَكَّةَ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ. وَإِنَّمَا
قَصَدُوا أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ فِيهِلِكَ.

فَأَخْبَرَ الْحَبْرَيْنِ فَقَالَا: إِنَّمَا قَصِدُ الْهُدَلِيِّونَ هَلَكَكَ وَهَلَكَ جُنْدُكَ. قَالَ: فَمَا
تَأْمُرَانِي؟ قَالَا: تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَتَعْظُمُهُ، وَتَحْلُقُ رَأْسَكَ عِنْدَهُ، وَتَذْبَحُ لَهُ؛ فَإِنَّهُ بَنِيَّةٌ أَبِينَا
إِبْرَاهِيمَ. قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمَا مِنْهُ؟ قَالَا: أَهْلُهُ حَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي حَوْلَهُ.
فَعَلِمَ صِحَّةَ قَوْلِهِمَا، فَعَمِدَ إِلَى الْهُدَلِيِّينَ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، فَقَالَا: سِرُّ إِلَيْهِ،
وَافْعَلْ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُهُ.

فسار إليه، وعظّمه، وذبح له، وفعل ما أمراه، ورأى في المنام وهو بمكة قائلاً يقول: اكس هذا البيت، فكساه بالملاء والوصائل.

قال ابن إسحاق: وهو أول من كساه، وجعل عليه باباً ومفتاحاً، ونهى الحِيض عن دخوله، ثم سار إلى اليمن^(١).

وذكر ابن سعد أن تَبَعاً نزل بقناة بسفح أحد، وقال: إني مُخربٌ هذا البلد، ولا أبقى فيه يهودياً، حتى يرجع الأمر إلى العرب، فخرج إليه سامول اليهودي - وهو أعلم اليهود يومئذ - فقال له: أيها الملك، إن هذا البلد مُهاجرٌ نبيٍّ من ولد إسماعيل، اسمه أحمد، يولد بمكة، وهذا البلد قبره، ويكون له في هذا المنزل وَقْعَةٌ مع أهله فرجع، وقال: ما لي إلى هذا البلد سبيل^(٢)، وأنشد: [من الكامل]

ولقد تركت^(٣) بها ضحى من قومنا
نفرأ يكون النصر في أعقابهم
ما كنت أحسب أن بيتاً طاهراً
حتى أتاني من هذيلٍ أعبُدُ
قالوا بمكة بيت مالٍ دائرٍ
فأمرتُ أمراً حال ربي دونه
فرددتُ ما أمّلتُ فيه وفيهم
قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً

نفرأ أولي حَسَبٍ بغير تَفَنُّدٍ
أرجو بذاك رضى النبيّ محمّدٍ
لله في بَطْحَاءِ مَكَّةَ يُعْبَدُ
بالبرِّ من عُسْفَانِهَا بتوَدُّدٍ
وكنوزه من لؤلؤٍ وزبرجدٍ
والله يدفع عن خراب المسجدِ
وتركتهم مثلاً لأهل المشهدِ
ملكاً يفوق على الملوك بسوددٍ

وقال عبد الملك بن هشام: هذا الشعر مصنوع، وليس لتبع^(٤).

وقال الأزرقى، عن محمد بن إسحاق: سار تبع الأول إلى الكعبة - ومذهبه أن الذي سار إليها هو تبع الأول - فأراد هدم الكعبة، فأخذه الله بالصُّدَاعِ، وأجرى من أنفه وفمه وأذنيه ومنخرتيه ماءً مُتَيْتاً، بحيث لم يستطع أحدٌ أن يدنو منه، فخلا به وزيره،

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٤-٢٥، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ١٠٥-١١٠.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٥٩، وتاريخ دمشق ٣/ ٥٠٧.

(٣) في النسخ: نزلت، والمثبت من تاريخ الطبري ٢/ ١١٠.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٢٣.

وقال له: هل نويتَ لهذا البيت أمراً؟ قال: نعم هَدَمَهُ. قال: فارجع عما نويتَ وقد عُوْفِيَتَ، ففعلَ فَعُوْفِي، فأمن بالله، وبدين إبراهيم عليه السلام، وخالع على الكعبةِ سبعةَ أثواب، وهو أولُ من كساها.

ثم خرج إلى يَثْرِب وهي بُقْعَةٌ فيها عين، وليس بها بُنيان ولا أحدٌ، فنزل على رأس العين.

واعتزل من الحكماء والعلماء الذين في صحبته أربع مئة، وقالوا: لا نفارق هذه البقعة، ترقباً لخروج نبيٍّ من بني إسماعيلَ بن إبراهيم، اسمه محمدٌ ﷺ.

فقال: سيروا معي، فأبوا، وعَرَّفوه ما أجمعوا عليه، فبنى لهم أربع مئة دارٍ، وأعطى كلَّ واحد منهم جاريةً، وأجزل عطاءهم، وكتب لهم كتاباً وختمه بالذهب، ودفعه إلى العالم الذي نصحه في شأن الكعبة، وقال له: إن خرج محمدٌ ﷺ، فادفعه إليه إن أدركته، فإن لم تُدركه فإلى أولادكم، وأولاد أولادكم.

وكان في الكتاب: أما بعد، يا محمد، فإني آمنتُ بالله، وبك وبكتابك الذي أنزله الله عليك، أنا على دينك، وقد آمنتُ بشرائع الإسلام، فإن أدركتُك فيها ونعمتُ، وإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسني، فإني من أمَّتِك. وذكر كلاماً هذا معناه.

ثم خرج إلى الهند، فمات بغلسان بلدة من بلاد الهند، قال: ومن يوم مات تُبِعَ إلى مولد نبينا ﷺ ألف سنة، وأن الأنصار من أولاد أولئك العلماء الأربع مئة، وأن أولادهم أوصلوا الكتاب إلى النبي ﷺ، وأنه قال: «مرحباً بالأخ الصَّالِح»، قال: وأن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه كان من ولد ذلك العالم الذي نهى تبعاً عن خراب الكعبة، وأن الدَّار التي نزلها رسول الله ﷺ هي الدَّار التي بناها تبعٌ له.

وقد ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» هذا الأثر وقال: هو حديث مُنكر، وفيه غير واحد من الضعفاء^(١).

وقال الرِّقَاشِي: كان أبو كَرِبٍ أسعد الحميري من التَّبَاعَةِ، آمن بالنبي ﷺ قبل مَبْعَثِهِ بسبع مئة سنة وقال: [من المتقارب]

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٣٢، وتاريخ دمشق ٣/٥٠٤-٥٠٧.

شهدتُ على أحمد أنه رسولٌ من الله باري النَّسَمِ
فلو مُدَّ عمري إلى دَهْرِهِ لَكُنْتُ وزيراً له وابنَ عمِّ^(١)
وقال عروة: هو الذي قالت عائشةُ فيه: كان رجلاً صالحاً، ذمَّ اللهُ قومه ولم
يذمه^(٢).

وقال هشام بن محمد: خرج تُبَّعُ معه بِالْحَبْرَيْنِ إلى اليمن، فلما دنا منها؛ حالت
حَمِيرٌ بينه وبين دخولها، وقالوا: لا تدخلها حتى تفارقَ هذين الحَبْرَيْنِ، وترجع إلى
دين حَمِيرٍ - وكانوا يعبدون الأوثان - فقال: إن دين هذين الحَبْرَيْنِ خيرٌ من دينكم،
فقالوا: حاكمنا إلى النَّارِ - وكانت نارٌ باليمن في أسفلِ جبلٍ يتحاكمون إليها، تأكلُ
الظالم دون المظلوم - فقال تُبَّعُ: أنصفتم.

فخرجوا بأوثانهم يُقربونها إلى النار، ومعهم القرابين، فغشيتهم نارٌ، فأحرقتهم وما
معهم. وجاء الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما يتلوان التوراة، فهجما على النَّارِ،
فنكصت حين رأتهما، وعادت إلى المكان الذي خرجت منه، فدخلت فيه. فرجعت
حمير عن عبادة الأوثان، ودانت باليهودية، فمن هناك أصل اليهودية باليمن.

وكان لهم بيتٌ يعظّمونه ويذبحون عنده، ويكلّمهم منه شيطان، فقال الحَبْران: ائذَنْ
لنا في خرابه، فإنما يكلّمهم منه شيطان، فهدهما، فخرج منه كلبٌ أسود فذبحاه، فبقايا
ذلك البيت في اليمن إلى اليوم^(٣).

ومن شعر تُبَّعٍ: [من الخفيف]

إذ جَنَبْنَا جِيادَنَا من ظَفَارِ
فاسْتَبَحْنَا بالخيلِ مُلْكَ قِبادِ
وكسونا البيت الذي حرم اللـ
وأقْمْنَا به من الشهرِ عَشْرًا
ثم سِرْنَا بها مسيراً بعيدياً
وابن أفلوذ جاءنا مَصْفوداً
ه ملاء مُعَصِّباً وبُروداً
وجعلنا لبابه إقليداً

(١) المعارف ص ٦٣١، ومروج الذهب ١/١٣٣، والبدء والتاريخ ٣/١٧٧، والروض الأنف ١/٣٥ وفيها:
مد عمري إلى عمره.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/٢٠٨، والطبري ٢١/٥٠ (دار هجر).

(٣) تاريخ الطبري ٢/١٠٨-١٠٩.

وَنَحْرْنَا فِي الشُّعْبِ سِنَّةَ آلا
ثُمَّ سِرْنَا نَوْمٌ قَضَدَ سُهَيْلٍ
وقال: [من الخفيف]

لَسْتُ بِالتُّبَّعِ الْيَمَانِيِّ إِنْ لَمْ
تُؤَدِّي رِبِيعَةَ الْخَرْجِ قَهْرًا
أَوْ تَعُقْنِي عَوَائِقُ الْعَوَاقِ^(٢)

وكان لتبّع مع نزار بن معدّ بن عدنان وقائع كثيرة، واجتمعت العرب إلى نزار، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء، والتّقوا، فكانت الدائرة على تبّع. وفي ذلك يقول أبو دُوَادِ الإياديّ من قصيدة: [من المتقارب]

ضَرْبْنَا عَلَى تُبَّعِ جَزِيَّةً
وَوَلَّى أَبُو كَرِبٍ هَارِبًا
جِيَادَ الْبُرُودِ وَخَرْجَ الذَّهَبِ
وكان جباناً كثير الكذب^(٣)

ذكر مقتله

قال ابن قتيبة: لما طالت مدّته على حمير، وأخذهم بالغزو؛ ملّوه وضجروا منه. فإنه أقام ملكاً عليهم ثلاث مئة وعشرين سنة.

واختلفوا في زمان ملكه، فقيل: كان في أيام ملوك الطوائف، وقيل: قبلهم، وقيل: في أيام كسرى أنوشروان. وهو غلط.

ولما طالت أيامه، اجتمعت حمير إلى ولده حسان، وقالوا: ما رضي أبوك أن يُطِيلَ غزونا حتى أحدث اليهودية في ديننا، لا بدّ من قتله. وساعدهم ولده حسان على ذلك، وهو الذي فعل بزرقاء اليمامة ما فعل.

وبلغ تبّعاً ما عزموا عليه، فقال: أما إذا قتلتموني، فدعوني قائماً، ولا تدفنوني مضطجعاً، فلا يزال ملككم قائماً باقياً مادمت قائماً. فقالوا: والله لا ملكناه علينا حياً

(١) أخبار مكة ص ١٣٤، وتاريخ اليعقوبي ١/١٩٨، ومروج الذهب ٣/٢٢٦، والروض الأنف ١/٤٠، وتاريخ دمشق ٣/٥٠٨-٥٠٩، وذكر ابن قتيبة في المعارف ص ٦٣٥، والمقدسي في البدء والتاريخ ٣/١٨٠ منها بيتاً واحداً.

(٢) مروج الذهب ٣/٢٢٦.

(٣) مروج الذهب ٣/٢٢٧.

وميتاً. فقتلوه ودفنوه وملكوا ابنه حساناً، وشرطوا ألا يؤاخذهم بقتل أبيه.
وقيل: ملكوا عليهم أخاه عبد كلال، فلم يأخذه النوم، فقيل له: إنك لا تنام حتى
تقتل قتلة أخيك، فقتلهم وهم قيام. والظاهر أنهم ملكوا حساناً ولده.

فصل

ثم ملك بعد تبع ولده حسان، فأقام مدة، ونديم على قتل أبيه، فشرع بقتلهم واحداً
بعد واحد، فبايعوا أخاه عمرو بن تبع على أنهم يقتلون حساناً ويملكونه. فجاء رجل من
أشرافهم يُقال له: ذو رعين، فأخبر حساناً، وحذره سوء العاقبة؛ فكف عن قتلهم.
وقيل: إن ذا رعين حذر أخاه، وقال: إن قتلتَه ذهب المُلك، فلم يلتفت، ودفع ذو
رعين إلى عمرو صحيفةً، وقال: هذه وديعتي عندك، وختمها.

ولما أراد عمرو قتل حسان، قال له حسان: لا تعجل عليّ، فالمُلك تأخذه بغير
حُشود^(١). فلم يسمع منه، وقتله بمكان يُقال له: فُرصة، وهي رَحبة مالك بن طوق. فلما
قتله عديم النوم، فقال له كاهنه: ما قتل أحد أخاه أو ذا رحم إلا عديم النوم حتى يقتل من
ساعده عليه. فنادى في المملكة: إن الملك يريد أن يعهد عهداً، فلا يتخلفن أحد.
فاجتمعوا، وأقام لهم الرجال، وأدخلوا عليه خمسة خمسة، وعشرة عشرة، فقتل
الجميع، وأدخل عليه ذو رعين، فأمر بقتله فقال: وديعتي عندك. فأخرج الصحيفة
وفيها: [من الوفرا]

ألا من يشتري سهرأ بنوم سعيذ من يبيت قريراً عين
فإن تك حُمير غدرت وخانت فمَعذرة الإله لذي رعين^(٢)
فقرَّبه، وأحسن إليه، واختصَّ به.

وكان عمرو يسمى مَوثبان القعود^(٣)، لأنه ترك الغزو، ولزم الدعة.

(١) انظر تاريخ الطبري ١١٥/٢، والمعارف ٦٣١ - ٦٣٤.

(٢) المعارف ص ٦٣٣، وتاريخ اليعقوبي ١٩٧/١، والطبري ١١٥-١١٦، والبدء والتاريخ ١٧٨/٣،
والروض الأنف ٤٢-٤٣.

(٣) في المعارف ٦٣٤: لقعوده.

وفي أيامه انتقل عمرو بن عامر مُزَيْقِيَاءَ من أرض اليمن لما أَحْسُوا بخراب السدِّ، وعمرو مزيقياء هو أبو الأوس والخزرج وخزاعة.
وأقام عمرو بن تَبَعٍ مالكاً ثلاثاً وثلاثين سنة، ثم هلك.

فصل

وملك بعده [عبد] كُلال بن مُثَوَّبٍ أربعاً وسبعين سنة، وكان مؤمناً على دين عيسى عليه السلام^(١).

فصل

ثم ملك بعده تَبَعٌ بن حَسَّان بن تَبَعٍ، ويقال: إنه تَبَعٌ الأصغر، آخر التَّبَاعَةِ.
وكان مهيباً، فسار إلى الشام، وملوكه غَسَّان، فأطاعوه. وصار إلى يثرب وبها قوم من اليهود، فشكا إليه بعض مَنْ خرج مع عمرو بن عامر من اليمن ضيقَ مُجاورة اليهود؛ فقتل من اليهود ثلاث مئة وخمسين رجلاً صبراً. وأراد أن يُخرب يثرب، فخرج إليه حَبْرٌ من أحبار اليهود، قد أتت عليه مئتان وخمسون سنة، فقال: أيها الملك، إنك لا تقدر على إخراج هذه القرية، قال: ولم؟ قال: لأن بها مُهاجِرُ نبيٍّ من ولد إسماعيل عليه السلام. فرجع عن المدينة إلى اليمن وطالت أيامه، فمَلَكَ ثمانياً وسبعين^(٢) سنة.
ويقال: إنه الذي أخذ الحَبْرين، وقال الشعر، وأُخْبِرَ بخروج النبيِّ ﷺ، ثم مات.

فصل

وملك بعده أخوه لأُمِّهِ مَرْتَدٌ بن عبد كُلال، وكان ذا رأيٍ وشجاعة، فأقام إحدى وأربعين سنة، وتفرَّق كلُّ حِمير بعده.

فصل

ثم ملك بعده وَلِيْعَةُ ابنه، وكان عاقلاً شجاعاً، فأقام سبعاً وثلاثين سنة لم يتعدَّ اليمن ومات.

(١) المعارف ص ٦٣٤ وما بين معكوفين منه.

(٢) في النسخ: وتسعين، والمثبت من المعارف ٦٣٥، وانظر تاريخ اليعقوبي ١/١٩٨، والبدء والتاريخ ٣/١٧٩.

فصل

فملك أبرهة بن الصَّباح، وكان عالماً جواداً قارئاً للكتب، فرأى في الكتب أن أولاد النَّضر بن كِنانة يَمْلِكُون فكان يُكرمهم، ويُحسِنُ إلى ولد مَعَدِّ، وكان ملكه ثلاثاً وأربعين سنة^(١)، ثم مات.

فصل:

فملك حسان بن عمرو [بن تَبَع] بن كلرب، فأقام خمساً وسبعين سنة^(٢)، وكان قد غزا بني كِلاب، فأسر منهم ألوفاً، فأتاه خالد بن جعفر الكلابي فمدحه، فأطلقهم.

فصل

ثم ملك بعده ذو شناتير وكان فاسقاً يتعرَّض إلى أولاد الأقيال، وكان فظاً غليظاً، لا يسمع بسلامٍ حسنٍ إلا بعث إليه وفسق به، واسمه لَخْنِيعة، ولم يكن من بيت المُلِك، وهو أوَّل من أظهر اللُّواط باليمن، ولا يقرب النساء، وكان له مَشْرَبَة يجلس فيها، فإذا قضى حاجته من الغلام، أخذ سواكاً فجعله في فيه، وأطلع على حرسه وجنوده، وكان ذلك آية فراغه من الغلام، فينزل من عنده وقد افتضح، وكان قد بقي من أولاد الملوك غلامٌ يقال له: ذو نواس بن أسعد أبي كرب، واسم الغلام: زُرْعَة، وقيل: يوسف بن شراحيل بن تَبَع، فسمع به لَخْنِيعة، فأرسل إليه، فعلم الغلام ما يريد منه، فأخذ سَكِيناً، فدفنها بين نعله وقدمه، فلما صَعِد المَشْرَبَة، وثب عليه ليؤاقيعه، فأخرج السكين، فضربه بها فقتله، ثم قطع رأسه وجعل سواكه في فيه، وتركه في كوة المشربة، ثم نزل فخرج عليهم، فقالوا: ذو نواس؛ أَرَطْبُ أم يَباس؟ فقال: لا بأس، وأشار إلى الطَّاقة، فنظروا، فإذا رأسُ لَخْنِيعة، فقاموا إليه، وقالوا: أنت أحقُّ بالملك حيث أَرَحْتنا من الفاسق، وملكوه، وكان مُلْك لَخْنِيعة سبعاً وعشرين سنة.

(١) في المعارف ص ٦٣٦، والبدء والتاريخ ٣/ ١٨١: ثلاثاً وسبعين سنة، وفي تاريخ يعقوب ١/ ١٩٩، ومروج الذهب ٣/ ١٥٥: ثلاثاً وتسعين سنة.

(٢) في المعارف وما بين معكوفين منه، والبدء والتاريخ: سبعاً وخمسين سنة.

فصل

ثم ملك ذو نواس، وكان على دين اليهود، فبلغه أن أهل نجران اليمن تنصروا، فسار إليهم، فخذلهم الأخاديد، وغرق ذو نواس في البحر، وكانت أيامه ثمانياً وستين سنة. وانقضت أيام التَّبَاعَةِ، وكانوا نيفاً وعشرين ملكاً، وقيل: ثلاثين، وقيل: أكثر، وقيل: أقل، وقد ذكرنا أعيانهم، وكان ملكهم ثلاثة آلاف سنة، وقيل: ألفين وثمان مئة سنة.

فصل في ذكر ملوك اليمن الذين ملكوا الشام

أول من ملك الشام منهم: عمرو بن عامر الغساني، وعاش ثمان مئة سنة، أربع مئة سوقة، وأربع مئة ملكاً.

وقال الهيثم: أول من نزل الشام من طوائف اليمن قضاة بن مالك بن حمير بن سبأ، فتنصر، فملكته الروم على الشام، وكان أول ملوك تنوخ بالشام.

وقال ابن قتيبة: أول من ملك بالشام منهم: النعمان بن عمرو بن مالك بن حمير بن سبأ، ثم ملك بعده ولده مالك بن النعمان، ثم ملك بعده ولده عمرو بن مالك، ولم يملك من تنوخ غير هؤلاء الثلاثة، ثم وردت سليح إلى الشام فتنصرت، وغلبت على تنوخ، فملكها الروم.

وقال السدي: أول ملوك الشام من أهل اليمن: عمرو بن عامر، ثم ملك بعده ولده الحارث بن عمرو، فأقام ملكاً بعد أبيه عشرين سنة، ومات. فأبوه أول ملوك الشام من غسان، وهو الظاهر.

فصل

ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر، وأمه مارية بنت ظالم بن وهب بن معاوية بن ثور [وهو] كندة، صاحبة القرطين، وإليها ينسب ملوك غسان، فأقام الحارث عشرين سنة.

وهم آل جفنة، وقد ملك منهم جماعة؛ منهم: الحارث بن أبي شمر، وهو الذي بعث النبي ﷺ في زمانه^(١)، وزاره حسان بن ثابت، وكان النعمان بن المُنذر في ذلك

(١) «المعارف» ص ٦٤٠، ومروج الذهب ٣/٢١٦-٢١٨.

الوقت على الحيرة، وكان يُسامي الحارث، فقال الحارثُ لحسان: يا ابنَ الفُرَيْعَةِ، لقد بلغني أنك تُفضِّلُ النعمانَ عليّ، فقال حسان: كيف أفضُّله عليك؟ ووالله لقفاك أحسنُ من وجهه، ولأبوك أشرفُ من جميع قومه، ولأمُّك أشرفُ من أبيه، ولشمالك أجودُ من يمينه، ولحرماتك أنفعُ من عطائه، ولقليلك خيرٌ من كثيره، ولكرسيك أرفعُ من سريره، ولجداولك أغزرُ من بحوره، وليومك أطولُ من شهره، ولشهرك أمدُّ من حوله، ولحوالك خيرٌ من حقبه، ولزندك أورى من زنده، ولرجلك أعزُّ من خيله، ولعبيدك أكرمُ من جنده، وأنت من غسان وهو من لخم، فكيف أفضُّله عليك، أو أعدله بك؟ فقال الحارث: إن هذا لا يُسمع إلا في شعر، فقال حسان: [من المتقارب]

وُنُبِّئْتُ أَنْ أَبَا مَنْذِرٍ^(١) يساويك يا حارٍ في المخبرِ
قذالك أحسنُ من وجهه وأمُّك خيرٌ من المُنذرِ
ويُسرَى يدك على عُدْمِهَا^(٢) كيمنى يديه على الميسرِ^(٣)

فصل

ثم ملك بعد الحارث جبلة بن الأيهم الغساني من آل جفنة، وهو الذي امتدحه حسان بأشعارٍ كثيرة منها: [من الكامل]

لله دَرٌّ عِصَابَةٌ نَادَمْتُهُمْ يوماً بجِلْقٍ فِي الزمانِ الأوَّلِ^(٤)
وجبلة الذي كاتبه رسول الله ﷺ على يد شجاع بن وهب، وعزم على قضده، فمنعه قيصر، وأسلم في زمان عمر رضي الله عنه، ثم تنصّر.

وقال ابن قتيبة: كان طول جبلة اثني عشر ذراعاً^(٥)، وإذا ركب مسح قدماه الأرض. ولم يوافق ابن قتيبة على هذا أحد، وإنما كان طوالاً من الرجال. وكانت منازل آل جفنة وملوك غسان باليرموك والجولان، والصّمان، والأردن وأعمال دمشق إلى مشاريق الشام.

(١) في النسخ: ونبت أن نعيمان، والمثبت من مروج الذهب ٢١٩/٣، وديوانه ص ٢٣٨ (برقوقي).

(٢) في مروج الذهب: غيرها، وفي الديوان: عسرها.

(٣) في الديوان: المعسر.

(٤) ديوانه ص ٣٦٤ (برقوقي).

(٥) في المعارف ٦٤٤: اثني عشر شبراً.

فصل

وقيل: إن عمرو بن عامر لم يملك الشام، ولا وصل إليه؛ وذلك لأنه لما خرج من اليمن في ولده وأهله ومن معه من الأزد، نزلوا بلاد عك، ومليكتهم سملقة، وسألوهم أن يأذنوا لهم في المقام حتى يبعثوا من يرتاد لهم المنازل ويعود، فأذنوا لهم، فبعث عمرو بن عامر ثلاثة من ولده: الحارث، ومالك، وحارثة، وهم أولاد عمرو لصلبه، ومات عمرو قبل أن يرجع إليه الرواد، ولما احتضر استخلف ولده ثعلبة.

ووثب رجل من الأزد يقال له: جذع بن سنان على سملقة ملك عك فقتله، ونشبت الحرب بينهم، فخرج ثعلبة بن عمرو بالأزد إلى مكة، وجرحهم يومئذ ولاء البيت، فنزل بمنى، وخرجت إليهم جرحهم فحاربتهم، فنصرت الأزد عليهم، فأقاموا بمكة، فضاقت بهم، فرحلوا عنها. فصار بعضهم إلى سواد العراق، فملكوا عليهم مالكا أبا جذيمة الأبرش، وصار قوم إلى يثرب، فهم الأوس والخزرج، وصار قوم إلى عمان وقوم إلى الشام، فهم آل جفنة.

وكان فيهم جذع بن سنان قاتل سملقة، وبالشام يومئذ سليح، فكتب ملك سليح إلى قيصر يستأذنه في إنزالهم، فقال قيصر: على شرط ألا يفسدوا ويطيعوا، فأنزلهم، وقدم عامل لقيصر إلى الشام ليحببهم، فطالبهم بالخراج، فقال له جذع بن سنان: خذ هذا السيف رهناً إلى أن أعطيك، فقال العامل: اجعله في كذا وكذا من أمك. فضرب به جذع عنق العامل، فقال بعضهم: خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلاً^(١)، ثم انتقل جذع إلى يثرب، وأقام بنو جفنة بالشام، وتنصروا، وأطاعوا قيصر، وكانوا من قبله.

فأول ملوك الشام على هذا القول: الحارث بن عمرو بن عامر، ثم الحارث بن أبي شمير الأعرج الذي قتل المنذر بن ماء السماء.

قال ابن قتيبة: وأم الحارث الأعرج مارية ذات القرطين، وكان خير ملوكهم، وأيمنهم نقيبة، وأسعدهم طائراً.

(١) المعارف ٦٤١ وعنه ينقل المصنف، والمثل في أمثال أبي عبيد (١٠٢٣)، وجهرة الأمثال ١/٤٢١، ومجمع الأمثال ١/٢٣١.

ثم ملك بعده الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر، وأخوه
 النعمان بن الحارث، وكان له ثلاثة بنين: حُجْر، وبه كان يُكنى، والنعمان بن النعمان،
 وعمرو بن النعمان، وفيهم يقول حسان: [من الرمل]
 من يَغْر^(١) الدهر أو يَأْمُنُه من قبيلٍ بعد عَمْرٍو وحُجْر
 مَلِكاً من جبل التَّلجِ إلى جانبَي أَيْلَةَ من عبدٍ وحُرِّ
 وآخر ملوكهم جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَم، فملوك آل جَفْنَةَ أحد عشر ملكاً، وكان مُلْكُهُم
 خمسَ مئة سنة وأقل، وكان بالشام ملوك بعضهم ببلاد مأرب والبلقاء^(٢)، وكذا على
 زُغَر، ومنازل قوم لوط والسواحل، وكلُّ مَلِكٍ من هؤلاء يقال له: يارع، كما يقال:
 كسرى وقيصر.

فصل

وفي أيام ملوك غسان كان الأعشى، وهو الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل،
 وهذا اللقب واقع على جماعة من الشعراء منهم:
 ميمون بن قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل أبو بصير، وهو أعشى قيس، وهو الأعشى
 القديم، إذا أُطلق هذا اللقب انصرف إليه.
 وكان سفيان الثوري يتمثل دائماً بقوله: [من الطويل]
 إذا أنتَ لم تَرَحَلْ بزادٍ من التُّقى ولا قيَّتَ بعد الموت من قد تزوَّدا
 نديمتَ على أن لا تكون كمثلِه وأنك لم تُرصد كما كان أرصدا^(٣)
 وقيل لمحمد بن مروان: مَنْ أشعُرُ الناس؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، والنابعة
 إذا رهب، وزهير إذا عجب، والأعشى إذا طرب. وفي رواية إذا شهد^(٤).
 ومنهم أعشى بني ربيعة، واسمه عبد الله بن خارجة.

(١) في النسخ: يعتب، والمثبت من المعارف ٦٤٣، والديوان ص ٢٦١.

(٢) في (ب) و(ك): بالبقاء، وفي مروج الذهب ٣/٢٢١: ببلاد مادب من أرض البلقاء من بلاد دمشق.

(٣) ديوانه ١٨٧.

(٤) ذكره أبو الفرج في الأغاني ٩/١٠٨ عن يونس النحوي.

ومنهم أعشى بني تغلب، واسمه ربيعة، وقيل: النعمان، لم يُسلم.

وهذا القائل يمدح النبي ﷺ: [من الطويل]

ألم تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا

الآيات^(١)

ومنهم أعشى همدان، واسمه: عبد الرحمن بن عبد الله، قتله الحجاج، وهو
آخِرُهُمْ^(٢).

فصل

في ظهور الحبشة على اليمن وعودها إلى العرب

كان باليمن ملك يقال له: ربيعة بن نصر، فيما بين التَّابِعة، رأى رؤيا هالته، فلم يدع في مملكته كاهناً ولا ساحراً إلا ويقول له: رأيت رؤيا، فيقول: أخبرني بها حتى أعبرها، فيقول: لا، اعرفها^(٣)، فقيل له: عليك بشق وسطيح، وكانا كاهنين.

فبعث الملك إلى سطيح وشق فأقدمهما عليه، فقدم سطيح أولاً، فقال له: يا سطيح رأيت رؤيا فأخبرني بها، فقال: نعم، رأيت حُمَّة، خرجت من ظُلْمَة، فوقعت بأرض تَهْمَة، فأكلت [منها] كل ذات جُمُجْمَة، فقال: صدقت، فما تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرَّتين من حَنَش، لِيَهْبِطَنَّ أَرْضَكُمْ الْحَبَش، وَيَمْلِكَنَّ مَا بَيْنَ أَيْبِنَ إِلَى جُرَش. فقال الملك: إن هذا لنا لغائظ، فمتى يحدث في زمانى أم بعده؟ قال: بل بعده، فقال: كم مقداره؟ قال: يجيء أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين، ثم يُقتلون أجمعين، ويخرجون^(٤) هارين، قال: ومن يتولى ذلك؟ قال: إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن فلا يُبقي أحداً منهم باليمن، قال: أفيدوم ذلك من سلطاناه؟ قال: لا، قال: فمن يُزيله؟ قال: نبي زكي، يأتيه الوحي من العلي، من آل غالب بن فهر، يكون الملك فيه

(١) تمامه: وعادك ما عاد السليم المسهدا، وهو في ديوانه ١٨٥.

(٢) انظر المؤلف والمختلف للآمدي ١٠-٢١.

(٣) في الطبري ١١٢/٥: لا يعرف تأويلها إلا من يعرفها قبل أن أخبره بها.

(٤) في النسخ: وملكوا... يقتلوا... يخرجوا.

إلى آخر الدهر، قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى المسيئون، فقال: أحقاً ما تقول يا سطيح؟ قال: نعم، والشفق، والليل إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق.

ثم قدم شق بن مصعب^(١) الأنماري فقال له الملك: إني رأيت رؤيا، فأخبرني بها، ولم يذكر له ما جرى بينه وبين سطيح ليخترهما، هل يتفقان أو يختلفان؟ فقال له شق: رأيت حُمَّمة، خرجت من ظُلْمة، فوقعت بين رَوْضة وأكْمة، فأكلت [منها] كل ذات نَسْمة، قال: فما تأويلها؟ قال: أقسم بما بين الحرَّتين من إنسان، لينزلن أرضكم السودان، وليغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن^(٢) ما بين أبين إلى نجران، قال: فمتى يكون ذلك؟ قال: بعدك بزمان، ثم يستنقذهم ذو شان، ويذيقهم الذل والهوان، قال: ومن هو؟ قال: غلامٌ ليس بدني، يخرج من آل ذي يزن في زي غني، قال: أفيدوم ملكه؟ قال: لا، بل ينقطع برسولٍ يُبعث بالعدل من بيت الخير والفضل، يكون الملك في أمته إلى يوم الفضل، قال: وما يوم الفضل؟ قال: يوم يُجازى فيه الآباء، والأبناء، والأمهات، والأخوة، والأخوات، يصيح بهم داعٍ من السماوات، فيسمع الأحياء والأموات، يكون لمن اتقى فيه الفوز والخيرات، فقال: أحقاً ما تقول؟ قال: نعم ورب السماوات والأرض، وما بينهما من رفِعٍ وخَفُضٍ، إن ما أخبرتك لحق، ما فيه مضٍ. أي: لا، بلغة الحبشة^(٣)، فنقل الملك أهله إلى الحيرة، وكان ذلك في أيام سابور من الأكاسرة.

(١) كذا في النسخ، وفي السيرة ١٥/١ وشروحا، وتاريخ الطبري ١١٢/٢: صعب. وما بين معكوفين منها.

(٢) في النسخ: وليملأن.

(٣) في السيرة ١٨/١: أمض، قال ابن هشام: يعني شكاً، هذا بلغة حمير، وقال أبو عمرو: أمض، أي: باطل. قال السهيلي في الروض الأنف ٢٨/١: أكلت منها كل ذات جمجمة وكل ذات نسمة، نصب (كل) أصح في الرواية وفي المعنى، لأن الحممة نار، فهي تأكل ولا تُؤكل. وقال الخشني في شرح غريب السير ١/٧٧ من ظلمة؛ من جهة البحر. فوقعت بأرض تهمة، التهمة: الواسعة المتطامنة، ولذلك قيل لما انخفض من أرض الحجاز: تهامة. وأبين: بلد باليمن، وجرش بلد أيضاً. الحرَّتين؛ الحرّة: أرض فيها حجارة سود. طفلة البنان: ناعمة أطراف الأصابع.

ذكر سبب خروج اليمن على العرب

كان ذو نواس على اليمن، وهو الذي قتل لَحْنِيعة، وكان يهودياً، فبلغه أن أفيميون من بقايا النصارى، دخل اليمن، وكان مجاب الدعوة، يُبرئ الأكمه والأبرص، فأقام بينهم، وظهرت كراماته، فأمن به أكثر أهل اليمن، وكان بنجران نخلة طويلة يعبدونها، فدعا عليها، فبيست، وبلغ حديثه ذا نواس، فسار إليهم، فخذ لهم الأخاديد، وخيرهم بين العود إلى اليهودية وبين أن يرميهم في الأخاديد، فاختاروا القتل، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً، وقتل سبعين ألفاً، وعاد إلى صنعاء، وكان ذلك في أيام كسرى أنوشروان، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

ولما أكثر ذو نواس القتل في النصارى، خرج رجل منهم يقال له: ذو ثعلبان، ومعه خبر من أحبارهم ومعه الإنجيل قد احترق، فركبا البحر إلى النجاشي، وكان نصرانياً، فدخلا عليه وبكيا بين يديه، وأخرجا الإنجيل وقد احترق، وقيل: إن ذا ثعلبان خرج أولاً إلى قيصر، واستنصر به، فقال: أرضكم بعيدة عني، وليس عندي سفن، وسأكتب لك إلى النجاشي فإنه قريب منكم. ثم كتب له إلى النجاشي، فجهز معه تسعين ألفاً من الحبشة، وأمر عليهم أزياط بن أسحم^(١)، وفي جيشه أبرهة بن الصباح صاحب الفيل، فعبروا من بلاد ناصع والزئلع، وهو أضيح مكان في البحر بين اليمن والحبشة، فخرج إليهم ذو نواس بحمير والقبائل، فاقتلوا، فانهزم ذو نواس، وأتى البحر، فاقتحم به فرسه، فكان آخر العهد به. وفيه يقول عمرو بن معدي كرب: [من الوافر]

أتوعدني كأنك ذو رعين
وكائن كان قبلك من نعيم
بأنعم عيشة أو ذو نواس
أزال الدهر ملكهم فأضحى
وملك ثابت في الناس راسي
ينقل من أناس في أناس^(٢)

فأقامت حمير بعده ذا جدن، فالتقى بالحبشة ثانياً فهزموه، وغرق أيضاً في البحر، وكان النجاشي قد أوصى أزياط أن يُخرب حصون اليمن، ويقتل ثلث رجالها، ويسبي ثلثاً، ويبعث إليه بالسبايا، ففعل، وأخرب غمدان وسلحين وغيرهما.

(١) في مروج الذهب ٣/١٥٧: أضخم.

(٢) ديوانه ١٣١، والسيرة ٤٠/١، والبدء والتاريخ ٣/١٨٣.

ذكر مقتل أرياط

كان أبرهة بن الصَّباح في جُند أرياط، فطمع في المُلك، ومالت إليه طائفةٌ من الحبشة، وعلم أرياط فانحاز بمن معه، وانحاز أبرهة بمن استمال، والتقوا، فقال أبرهة لأرياط: لا فائدة في فناء الناس، ابرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل صاحبه كان أولى بالمُلك، فتبارزا، وخرج خلف أبرهة عتودةٌ وزيره^(١)، وكان بيد أرياط حربة، فضرب بها أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وشفته، فسُمي الأشرم، وكان قصيراً دميماً، وأرياط طويلاً جسيماً، واشتغل أبرهة بنفسه، وحمل عتودةً على أرياط فقتله، واجتمعت الحبشة على أبرهة، وبلغ النجاشي فغضب، وحلف لا بدَّ أن يَجُزَّ ناصية أبرهة، ويطأ البلاد، وقال: تعدّي على أميري وقتله، وكان أبرهة حازماً، فحلق رأسه، وملاً جراباً من الأرض^(٢)، وكتب إلى النجاشي: أيها الملك، إنما كان أرياط عبداً من عبيدك، ولم يكن له خبرةٌ بسياسة المُلك، وأنا أخبرُ منه بذلك، وقد بعثتُ إليك بناصيتي، وبجرابٍ فيه ترابٍ من أرض اليمن لتضعه تحت قدميك، وتبرّ في يمينك. فرضي النجاشي عنه، وأعجبه فهمه، وأقره على أرض اليمن.

وأبرهة الذي قصد البيت الحرام، فأهلكه الله سبحانه وتعالى.

ذكر عودة اليمن إلى العرب

كان سيفُ بن ذي يزن من أشرف ملوك حِمير، مُعتزلاً في طرف من أطراف اليمن، فلما طال البلاء على حِمير، ولقوا من السّودان ما لقوا من الفسق، والفُتْكَ، والظلم، وغَضِب النساء على نفوسهن، خرج إلى قيصر مُستصرخاً به، وشكا إليه، وسأله أن يبعث عليهم نائباً من عنده، فمَظله، وأقام عنده سبع سنين، فكان آخر كلامه أنه قال: أنتم يهودٌ، والحبشة نصاري، وليس من الدّيانة نصرةُ المخالف على المُوافق. ففارقه وأتى الحيرة، فنزل على النُّعمان بن المُنذر عاملِ كسرى أنوشروان، وكان للنُّعمان كل عام وفادة على كسرى، فقال له: أقم عندي حتى تسيرَ معي إليه، فأقام عنده، فقدم النُّعمان على كسرى فقضى حوائجه، وذكر له قصّة سيف، وما قدّم له، وسأله أن يدخل

(١) في السيرة ٤٢/١، واليعقوبي ٢٠٠/١، والطبري ١٢٩/٢ أنه غلام أبرهة.

(٢) في السيرة: وملاً جراباً من تراب اليمن.

عليه، فأذن له، وكان كسرى إذا دخل عليه أحدٌ سجد له، فدخل سيف وطأطأ رأسه، فعلم كسرى بُعدَ همّته، وشرف نفسه، ثم سلّم وجلس، وقال: أيها الملك، غلبتنا الحبشة على بلادنا، فجتتكَ مستصرخاً لتخرجهم منها، وتكون بلادنا لك.

فقال: بَعَدَتِ أَرْضُكُمْ عن أرضنا، وهي قليلةُ الخير، وإنّما هو البعير والشاء، وذلك مما لا حاجة لنا به، ولم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك، وأجازه بعشرة آلاف درهم، فنثرها في الدهليز، فنهبها الغلمان، وأخبر كسرى بذلك، فقال: إن لهذا الرجل لشأناً، رُدُّوه فردُّوه، فقال له: عَمَدتِ إلى جِباء الملك الذي حباك به فأعطيته الناس، فقال: ما أصنع بالذهب والفضة، وأرضي نَبْتُهَا^(١)، وأنا من أملاك ذي رُعين، وهل أجزتُ أحداً بدون عشرة آلاف دينار؟ وإنما قصد تعظيم نفسه وأرضه في عين كسرى، فقال له: أقم عندنا حتى ننظرَ في أمرك.

فأقام عنده مدة، فاستشار كسرى أصحابه فيه، فقالوا: إن في سُجونك رجالاً حبستهم للقتل، فابعث بهم معه، فإن هلكوا، كان الذي أردت بهم، وإن ظهروا على البلاد كان ملكاً ازددته إلى مُلكك، فأمر بعرض السجون، فكانوا ثمان مئة، فقدم عليهم رجلاً من العُظماء، يقال له: وَهْرِز بن حَمِير في ثمان مئة سفائن، في كل سفينة مئة رجل وما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح، فغرقت منها سفينتان، ونجت إلى اليمن ستة، فأرْسوا بساحل عَدَن.

وقال ابن الكلبي: كان أبو مُرّة الفياض ذو يزن من أشرف اليمن، وكانت تحته ريحانة ابنة ذي جَدَن، فولدت له غلاماً فسماه: معدي كرب، وكانت ذات جمال، فانترعها أبرهة من أبي مرة، فنكحها قهراً.

وخرج أبو مُرّة من اليمن، فلحق ببعض ملوك بني المنذر، ويقال: هو عمرو بن هند، فسأله أن يكتب له كتاباً إلى كسرى يُعرِّفه شرفه ومكانته، فقال له: أقم عندي، فلي في كل سنة وفادة على كسرى. وذكر بمعنى ما تقدّم، وأن كسرى قال له: أقم عندي حتى أنظرَ في أمرك، ووعدته أن ينصره، فأقام عنده، واشتغل عنه كسرى بحرب الروم.

ومات أبو مُرّة بباب كسرى، وولدت ريحانة من أبرهة غلاماً سماه: مسروقاً، ونشأ

(١) في (خ) و(ك): تنهبتها، والمثبت من (ب)، وفي الطبري ٢/١٤٠: ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة.

معدي كرب في حجر أبرهة، لا يحسبه إلا أباه، فسبه ابن أبرهة، وقال له: لعن الله أباك، فأتى أمه وقال: من أبي؟ قالت: الأشرم، قال: لا والله، لو كان أبي ما سبني فلان ابنه، فأخبرته بالقصة.

ثم إن الأشرم هلك، وهلك ابنه يكسوم، وولي مسروق، وهو أخو معدي كرب لأمه، فخرج معدي كرب إلى قيصر فلم يجد عنده فرجاً، فرجع إلى كسرى، ووقف له على الطريق، وناداه: أيها الملك، لي عندك ميراث، فدعا به كسرى، وقال: من أنت، وما ميراثك؟ فقال: أنا ابن الشيخ اليماني ذي يزن، الذي وعدته النصرة، فمات على بابك، فرق له كسرى، وأمر له بمال فنثره في الدهليز.

وقال له موبد موبدان: إن لهذا الغلام حقاً بموت أبيه على بابك، ونزوعه إليك من أوطانه، وفي سجونك أهل البأس والنجدة، وذكر بمعنى ما تقدم، وأنه جهز معه الرجال في السفن، ومقدمهم وهريز، وكان إضبهبذ الديلم، فركبوا من الأبلّة، وهي فرج بحر فارس، وقصدت [السفن] اليمن، فأرسوا بمكان يقال له: مثوب، من أعمال حضرموت في ست مئة رجل، وقيل: في ألف.

وكان على اليمن مسروق بن أبرهة، فخرج إليهم في مئة ألف من الحبشة، ولحق بابن ذي يزن عامّة حمير، وكان وهريز يعدّ بألف رجل، ولما رأى مسروق قلتهم، طمع فيهم، وبعث إليهم: إن شئتم أن ترجعوا إلى بلادكم، فارجعوا.

وتهادنوا عشرة أيام حتى ينظروا، وكان لوهرز ولد، فقتلته الحبشة غيلة، فأحرق وهريز المراكب والزاد، وقال لأصحابه: ما عندي غير الموت، وباعوه وبايعه ابن ذي يزن وأصحابه على الموت، ثم استعدّوا للقتال، ولم يكن أهل اليمن رأوا النشاب بعد. وركب مسروق على فيل وعلى رأسه تاجه، وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة، ولا يظن إلا أنه منصور عليهم، ثم نزل عن الفيل، وركب حماراً احتقاراً لهم، فقال وهريز: هذا كبيرهم؟ قالوا: نعم، قال: ذلّ ملكه بنزوله من الفيل وركوبه الحمار، ثم رماه وهريز بسهم فوق بين عينيه وخرج من قفاه، فخر صريعاً.

وانهزمت الحبشة، وغنمت الفرس أموالهم وعساكرهم، وانقلبت حمير والعرب مع الفرس، فقال وهريز: دونكم السودان، لا تبقوا منهم أحداً، فقتلوهم، ولم يبق

منهم إلا مَنْ كان في أطراف اليمن، وسار وَهْرَز إلى صنعاء وعلى رأسه راية كسرى، فأراد دخولها، وكان الباب قصيراً، فقال: اهدموه فإني لا أنكس راية الملك، فهدموه. وكتب وهرز إلى كسرى بالفتح، ويقول: قتلْتُ من السُّودان سبعين ألفاً - وقيل: مئة ألف - وبعث بالأموال والسبایا، وقال: ما يأمرُ المَلِك في اليمن، فكتب إليه: سلّم البلاد إلى ابن ذي يزن، وانصرف، ففعل، وتَوَجَّح كسرى ابنُ ذي يزن، وشَرَط عليه أن تتزوَّج الفُرس في اليمن، ولا تتزوَّج اليمنُ في الفرس، وكان ابنُ ذي يزن يؤدي الخراج في كل سنة إلى كسرى.

وقد أكثر الشعراء في غلبة الفرس على اليمن، فقال بعض أولاد فارس: [من الخفيف]

نحن خُضْنَا البحارَ حتى فَكَّكْنَا
بَلْيُوثٍ من آلِ ساسانِ شُوسٍ
فقتَلْنَا مسروقَ إذ تاهَ لما
ففلَقْنَا ياقوتةً بينَ عيني
وحَوِينَا بلادَ قحطانَ قَهْرًا
فنَعِمْنَا فيه بكلِّ سُورٍ
جَمِيرًا من بليَّةِ السُّودانِ
يَمنعونَ الحريمَ بالمرزبانِ^(١)
أنْ تداعت قبائلُ الحُبْشانِ
ه بنُشابةِ الفتى السَّاساني
ثم سِرنا إلى ذرى عُمدانِ
ومَننا على بني قحطانِ

وقال آخر من أهل خَضرموت: [من الرجز]

أصبح في مَثُوبِ ألفٍ في الجُننِ
ليُخْرِجوا السُّودانَ من أرضِ اليَمَنِ
وقال أبو الصَّلْتِ [أبو] أمية بن أبي الصلتِ^(٣): [من البسيط]

لن يدرك الثَّارَ^(٤) أمثالُ ابنِ ذي يزن
أتى هِرْقَلٌ وقد شالتْ نعامُتهُ
حتى تغيَّب للأعداءِ أحوالا
فلم يجد عنده القولَ الذي قالا

(١) في مروج الذهب ٣/١٦٧: بالمران.

(٢) مروج الذهب ٣/١٦٤.

(٣) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ٢/١٤٧، وانظر طبقات ابن سلام ٢٦٢، والروض الأنف ١/٨٤.

(٤) كذا في النسخ، وفي المصادر وديوانه أمية ٤٥٣: ليطلب الوتر.

ثم انثنى نحو كسرى بعد سابعة حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم من مثل كسرى وبهرام الجنود له لله درهم من عصبية خرجوا فاشرب هنيئاً عليك التاج مُرتفقاً هذي المكارم لا قعبان من لبن قالوا: وهذا البيت للتابغة الجعدي، ولعله وقع تظميناً^(٢)

من السنين لقد أبعدت إقفالاً هناك عمري لقد أسرعت إرقالاً ومثلٌ وهَرزِ يوم الجيش إذ صالاً ما إن رأينا لهم في الدهر أمثالاً في رأس غمدان داراً منك محللاً شيباً بماءٍ فعادا بعد أبوالا^(١)

ذكر ملوك الحبشة

وكانوا أربعة: أرياط، وأبرهة، ويكسوم بن أبرهة، ومسروق بن أبرهة، وأقاموا ثلاثاً وتسعين سنة، ملك أرياط عشرين سنة، وأبرهة أربعين سنة، ويكسوم عشر سنين، ومسروق ثلاث سنين، وقتله الفرس، وكانت أيامه أشد على حمير ممن تقدمه مع قتلها، لأنه أذل أقبال اليمن، وسلط عليهم السودان، فنكحوا نساءهم، وسبوا أولادهم، وبقية جيش الفرس باليمن يقال لهم: الأبناء.

ذكر مقتل سيف

ولما ملك أمعن في قتل السودان، وبقيت منهم بقية، فاستخدم منهم جماعة يمشون بين يديه بالحراب، فخرج يوماً إلى الصيْد وهم بين يديه فمالوا عليه فقتلوه، وبلغ كسرى، فبعث وهَرز في أربعة آلاف، وأمره أن لا يبقى من السودان في اليمن أحد إلا قتله، ففعل، وأقام بها وهَرز.

وقال ابن قتيبة: أقام سيف ملكاً باليمن من قبل كسرى، يُكاتبه ويصدر عن رأيه في الأمور إلى أن قتله السودان، وبقي اليمن شاغراً بلا ملك، وصاروا كملوك الطوائف، ملك على كل طائفة منهم رجل^(٣).

(١) ديوان أمية ٤٥٣-٤٥٩ وتخريجها ورواياتها ثمة.

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ٥٧-٥٨، والسيرة ١/٦٦-٦٧.

(٣) المعارف ٦٣٨-٦٣٩.

وكان وَهْرَز مُقِيمًا بِصَنْعَاءَ، فمات، فولّى كسرى أبرويز عليها ابنه التينجان^(١) بن وهرز، ثم غضب عليه فعزله، وولّى عليها باذان، فلم يزل عليها حتى مات في صدر الإسلام، وبعث رسول الله ﷺ وعاملُ أبرويز عليها باذان، وفيروز، وداذويه، وقدموا على رسول الله ﷺ^(٢)، وقيل: إن الذي خلصت اليمن على يده معدي كرب بن ذي يزن، والله أعلم.

فصل في قصة أصحاب الفيل

لما أقام أبرهة بصنعاء، رأى الناس يتجهّزون أيّامَ الموسم إلى مكة، فقال: أين يذهبون؟ قالوا: إلى البيت الحرام، قال: وما هذا البيت؟ قالوا: بيتُ بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال: وبأي شيء هو مبني؟ قالوا: بالطين والحجارة، فقال: وحقّ المسيح، لأبينّ لكم بيتاً خيراً منه، فبنى كنيسةً بصنعاء؛ لم يُبنَ في زمانها مثلها، بناها بالرّخام، وزخرفها بالذهب والفضّة والجواهر واليواقيت، ولطخ حيطانها بالمسك، وجعل في أعلاها قبةً عظيمةً من عجائب الدُّنيا، وجعل على رأسها ياقوتةً حمراءً تُضيء تلك النّاحية في الليل منها، وجعل على أبوابها السُّتور والحجبة والسّدنة، وسماها: القلّيس، وأمر الناس بحجّها، وكتب إلى النجاشي: قد بنيتُ لك كنيسةً لم يُبنَ مثلها، ولستُ بمُنْتَهٍ حتى أنقلَ إليها حجّ العرب.

فدخل نفيلُ بن حبيب الخثعمي فلطخ القلّيس بعذيره، ودخل أبرهة ليصلي، فرأى العذرة في القبة، فقال: مَنْ فعل هذا؟ فقال السّدنة: رجلٌ من العرب، من أهل البيت الذي أبطلت حجّ النَّاسِ إليه، غضب لكعبتهم.

وكان أبرهة قد منع أهل اليمن من الحجّ إلى مكة، فأقاموا سنين، فغضب أبرهة، وقال: وحقّ المسيح لأنقضنّ بيّتهم حجراً حجراً، وكتب إلى النجاشي يطلبُ فيله الأعظم، واسمه: محمود، ولم يكن في زمانه أقوى منه ولا أعظم، فبعث به إليه،

(١) في تاريخ الطبري ١٤٨/٢: البينجان، والمثبت من السيرة ٦٩/١، والنسخ مضطربة في رسمه.

(٢) في المعارف ٦٣٩: وأن النبي ﷺ بعث باذان عامل أبرويز عليها - يعني اليمن - ومعه قائدان من قواد أبرويز يقال لهما: فيروز وداذويه، فأسلموا.

ومعه ثلاثة عشر فيلاً، ثم خرج أبرهةً بجنوده ومعه ملوك حمير والأقيال، وبلغ العرب فأعظموه، ورأوا جهاده حقاً عليهم.

وخرج عليه ملك من ملوك حمير، يقال له: ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه، وأخذ ذو نفر فأتي به إلى أبرهة، فقال له: أيها الملك، لا تقتلني فإن بقائي لك خير، فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة ذا أناة.

ثم مرَّ ببلاد خثعم، فخرج إليه نقيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم، وأخذ نقيلاً، فقال له: أيها الملك، لا تقتلني فإنني دليل في أرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع والطاعة، فاستبقاه، وخرج معه يدلُّه.

فلما مرَّ بالطائف، خرج مسعود بن معتب الثقفي في رجال من ثقيف، فقال: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تُريد - يعنون اللات - إنما تُريد البيت الذي بمكة، نحن نبعثُ معك من يدلك عليه، فبعثوا أبا رغال مولى لهم، فمات بالمغمس، وهو الذي يُرجم قبره إلى هلمَّ جرًا.

وقال البلاذري: كان أبو رغال من العرب العاربة، وله سلطان بالطائف، وكان ظلوماً غشوماً، أتى يوماً على امرأة تُربي طفلاً يتيماً في عام جذب بلبن عنز، لم يكن بالطائف شاةً لبون غيرها، فأخذها منها، فمات الصبي جوعاً، فرماه الله بقارعة فأهلكه، فدفن بين مكة والطائف، فقبره هناك يُرجم على وجه الدهر.

ويقال: إنه كان عبداً لشعيب بن ذي مهدم^(١) الحميري الذي قتله قومه، وكان فيما يزعمون أنه مبعوث إليهم، فلما بلغه ما فعله بالصبي، أمر به شعيب فقتل، ورُجم قبره. وقيل: كان جدُّ الحجاج يخدم أبا رغال، ولهذا قيل للحجاج: عبدُ بني رغال^(٢).

وأبو رغال من بقيّة ثمود. قال جرير يهجو الفرزدق: [من الوافر]

إذا مات الفرزدقُ فارجموه كما ترمون قبرَ أبي رغال^(٣)

(١) في (ب) و(ك): مهدي، وفي (خ): معدي، والمثبت من أنساب الأشراف ٢٩/١.

(٢) في (ب): عبد آل ذي رغال، وفي أنساب الأشراف: عبد أبي رغال.

(٣) ديوانه ٥٤٧/٢.

وبعث أبرهة على مُقدمته الأسود بن مَقْصود من الحبشة، فجمع أموال أهل الحرم، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير.

وبعث أبرهة حُنَاطَةَ الحميريِّ إلى أهل مكة، يسأل عن شريفها، ويقول لهم: لم آت لقتالكم، وإنما جئتُ لأهدم هذا البيت، فدلوهُ على عبد المطلب، فقال عبد المطلب: نحن لا نُقاتله، وليس لنا به طاقة، وسنُخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا البيت الحرام بيتُ الله، وبيتُ إبراهيم خليله، فإن يمنعه، فهو بيته وحرمة، وإن يُخلُّ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به طاقة.

قال: فانطلق معي إلى الملك، فأردفه على بغلة له، وخرج به حتى قَدِم العسكر، وكان ذو نَفَرٍ صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نَفَرٍ، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: وما غَناءٍ أسير لا يأمنُ أن يُقتَلَ بكرةً أو عشياً، ولكن سأبعثُ إلى أنيس سائس الفيل، فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويُعظّم خَطَرَكَ ومنزلتك عنده.

وأرسل إلى أنيس، فأتاه فقال: إن هذا سيّد قريش الذي يُطعم الناس في السَّهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وصاحب عير^(١) مكة، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فإن قدرت أن تنفعه عنده، فانفعه، فإنه صديقٌ لي، فدخل أنيس على أبرهة، وعرفه منزلة عبد المطلب، وذكر له مثل ما ذكر ذو نَفَرٍ، وقال: أحبُّ أن تأذنَ له في الدخول عليك.

وكان عبد المطلب وسيماً جسيماً عظيماً، فأذن له فدخل، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يُجلسه معه على سريره، أو يجلسه تحته، فهبط عن سريره، فجلس على البساط، ثم أجلسه معه، وقال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فسأله التَّرجُمان فقال: حاجتي أن يردَّ علي الملك مئتي بعير لي أخذها أصحابه، قال: قل له: لقد أعجبتني حين رأيتك، والآن فقد زهدتُ فيك، قال: ولم؟ قال: جئتُ إلى بيتِ هو شرفك وشرفُ آبائك لأهدمه لا تكلمني فيه، وتكلمني في مئتي بعيرٍ أصبَّتها، فقال عبد

(١) في النسخ: عين. والمثبت من السيرة ٤٩/١، والطبري ١٣٣/٢.

المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل، ولهذا البيت ربُّ سيمنُّه، فقال: ما كان ليمنعه منِّي، قال: فأنت وذاك، وأمر بردَّ إبله، فرُدَّت إليه.

قال ابن إسحاق: وذهب عبد المطلب إلى أبرهة بعَمُرُو^(١) بن نُفَائِة بن عدي بن الدُّثُل سَيِّد بني كنانة يومئذ، وِخْوَيْلِد بن وائِلة سَيِّد بني هُذَيْل، فعرضاً على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبى عليهم، فرجع عبد المطلب إلى مكة، وأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشَّعَاب، ويتحرَّزوا في رؤوس الجبال، تخوُّفاً عليهم من معرَّة^(٢) الجيش، ففعلوا، ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة، فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول: [من مجزوء الكامل]

لا هُمَّ إن المَرءَ يَم — نَعُ رَحْلَه فامنع جلالك
لا يَغْلِبَنَّ صَليْبُهُم — ومِحَالُهُم غَدُوا مِحَالَكُ
جَرُّوا جُمُوعَ بِلادِهِم — والفيلَ كي يَسْبُوا عِيَالَكُ
عَمَدُوا جِمَاك بَكِيدِهِم — جَهْلًا وما رَقَبُوا جَلَالَكُ
إن كنت تاركهم وكعد — بَتْنَا فَأمرُّ ما بدالك^(٣)
ثم قال لهم: [من الرجز]

يا ربِّ لا أرجو لهم سواكا — إن عدوَّ البيت من عاداكا
يا ربِّ فامنع منهم جِماكا — امنعهم أن يُخربوا قِراكا^(٤)

ثم ترك الحلقة، وتوجَّه مع قومه في بعض الوجوه، وأصبح أبرهة بالمُغَمَّس قد تهيأ للدُّخول، وعبى الحبشة، وهيأ الفيلَ الأعظم، فأقبل نُفَيْل الخُثَمِي إلى الفيل، فأخذ بأذنه وقال: ابْرُك محمود، أو ارجع راشداً حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام.

وكان الفيل أمام الجيوش مُزَيَّنًا بالسلاح، والرجال حوله، فبرك، فبعثوه نحو مكة فأبى، فضربوه بالمِعْوَل في رأسه، وأدخلوا تحت مَراقِه مَحَاجِنَهُم، وضربوه ليقوم فأبى

(١) في السيرة ١/ ٥٠: يَعْمُر، والمثبت موافق لتاريخ الطبري ١٣٤/٢.

(٢) في النسخ: مغيرة، والمثبت من السيرة والطبري.

(٣) انظر السيرة ١/ ٥١، والطبري ١٣٥/٢.

(٤) تاريخ الطبري ١٣٤/٢.

أن يتوجه إلى الحرم، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول، فوجهوه إلى الشام فتوجه، ثم إلى المشرق فتوجه، فصرفوه إلى الحرم فبرك، وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل، وأرسل الله طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طير منها حجر في منقاره، وحجران في رجله، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنا عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل القوم أصابت، فخرجوا هارين، يتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بالقوم من النعمة: [من الرجز]

أين الممفر والإله الطالب والأشرم المغلوب غير الغالب
ومرج أمر القوم، وماج بعضهم في بعض، فخرجوا يتساقطون في كل طريق، ويهلكون على كل منهل، وبعث الله على أبرهة داء في جسده، فجعل تتساقط أنامله وجسده، كلما سقطت أنملة اتبعتها أنملة، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل الفرخ، ثم انصدع قلبه ومات.

وقيل: كان أبو مسعود الثقفي - وهو مكفوف البصر - يصيف بالطائف، ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبهاً نبياً، وكان خلاً لعبد المطلب، فقال له: يا أبا مسعود، ماذا عندك؟ هذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك.

فقال أبو مسعود: اصعد بنا حراء، فصعدا الجبل، فمكثا فيه، فقال أبو مسعود: اعمد إلى مئة من الإبل، فاجعلها لله تعالى، وقلدها، ثم بثها في الحرم، لعل بعض هذه السودان أن يعقر منها، فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم، ففعل عبد المطلب ذلك، فعمد القوم إلى تلك الإبل، فعقروا بعضها.

فقال [أبو مسعود]: إن لهذا البيت رباً يمنعه، فقد نزل تبع وأراد هدمه، فمنعه الله وابتلاه، فكساه، وعظمه، ونحر له، فانظر نحو البحر، فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاً، نشأت من شاطئ البحر، قال: فهل تعرفها؟ قال: لا والله، وليست بنجدية، ولا تهامية، ولا عدنية، ولا شامية، وهي أمثال العاسيب، في مناقيرها حصى مثل حصى الخذف، قد أقبلت كالليل، يتبع بعضها بعضاً، أمام كل فرقة طائر أحمر يقودها.

فجاءت، حتى إذا حاذت العسكر طارت فوق رؤوسهم، ثم هالت عليهم ما في مناقيرها، وعلى كل حجر مكتوب اسم صاحبه، ثم إنها انصاعت راجعة من حيث جاءت.

فلما أصبحوا نزلوا من الجبل، وجاءوا إلى العسكر فإذا هم خامدون، يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها، وتغيب في الأرض، فحفر عبد المطلب حفرة له، وحفرة لصاحبه، وملاهما ذهباً أحمر، ونادى في الناس فتراجعوا، وأصابوا من أموالهم ما ضاقوا به ذرعاً.

وقال أبو الجوزاء: خلقها الله في ذلك الوقت، فكان الحجر يُنفذ في البيضة، ويغيب في دماغ الرجل، ثم يخرج فيغيب في الأرض من شدة وقعه، وكذا فعلت بالدواب والفيلة، إلا محموداً فإنه سلم لكونه لم يقدر على الكعبة، وأفلت أبو يكسوم صاحب جيش أبرهة، ووزيره ونديمه، فسار إلى الحبشة وعلى رأسه طائر لم يشعر به، حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم، فلما استتم كلامه، رماه ذلك الطائر بحجر فقتله، فأرى الله النجاشي كيف كان هلاكهم.

وامتلأت بهم الأودية، وفجاج مكة، فبعث الله سيلاً، فحملهم فألقاهم في البحر، وعظمت قريش في أعين الناس، وقالوا: هؤلاء أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم، وأكثر الناس الأشعار في ذلك، فقال أمية بن أبي الصلت: [من الخفيف]

إن آيات ربنا بيّنات
حبس الفيل بالمغمس حتى
حوله من رجال كندة فتيا
غادروه ثم ابذعروا سراعاً
كل دين يوم القيامة عند الـ

ما يُماري فيهنّ إلا الكفورُ
ظلّ يحبو كأنه معقورُ
نُ مصاليتُ في الحروب صقورُ
كلّهم عظم ساقه مكسورُ
له إلا دين الحنيفة زور^(١)

والنجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ - واسمه: أصحمة - هو ابن ابن النجاشي الذي كانت في أيامه قصة الفيل، وكانت قصة الفيل في أيام كسرى أنوشروان

(١) ديوانه ص ٣٩١. وابدعروا: تفرقوا.

العاذل، وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيتُ قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أعميين مُقعدين، يستطعمان الناس^(١).

وقصَّ الله قصة الفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ السورة، واتفق أهلُ السَّيرِ على أن أوَّلَ يومٍ من المُحرَّمِ عام الفيل كان يوم الجمعة، وأن أبرهة وصل إلى مكة يوم الأحد سابع عشر مُحرَّم، وفيه هلك.

فصل في قصة عبد الله بن الثامر

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عفان بن مُسلم، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فمرض الساحر، فقال للملك: إني قد كبرت، وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً أعلمه السَّحر، فدفع إليه غلاماً، فكان يَختلفُ إليه، وكان في طريقه راهبٌ، فمرَّ به الغلامُ، فأعجبه كلامه، فكان يُطيلُ القُعودَ عنده، فإذا أتى أهله ضربوه، وكان إذا أتى الساحر ضربته، فشكا ذلك إلى الرَّاهب، فقال: يا بني، إذا استبطأك الساحر فقل: حَبَسني أهلي، وإذا استبطأك أهلُك، فقل: حبسني الساحر. فمرَّ ذات يوم بدابةٍ قد حبست الناس، وكانت فظيعةً، فقال: اليوم أعلمُ أمرَ الراهب والساحر، الرَّاهبُ أفضلُ أم السَّاحر؟ فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة، فرماها، فقتلها، ومضى الناسُ، وأخبر بذلك الراهب، فقال له: يا بني، إنك ستبتلي، فإن ابتليت فاصبر، وفي رواية: يا بني، أنت اليوم أفضلُ مني، وقد بلغ من أمرِك ما أرى، فإنك ستبتلي، فإن ابتليت، فلا تدلَّ عليَّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويُداوي الناس، فبينما هو على ذلك إذ عمي جليسُ الملك، فأتاه بمالٍ عظيم، وقال: اشفني، ولك هذا، ولك ما هاهنا، فقال: إني لا أشفي أحداً، ولكن الله هو الشافي، فإن آمنت به دعوتُه فشفاك، فأمن بالله، فدعا له الله فشفاه.

فجلس إلى الملك فقال: يا فلان، من شفاك؟ فقال: ربي. قال: أولك ربُّ غيري؟ قال: نعم، ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء به، فقال له الملك: قد بلغ من سحرِكَ أنَّك تُبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما الله سبحانه الشافي، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعه على مفرقه، فشقه نصفين، ثم جيء بجليس الملك، ففعل به كذلك.

ثم جيء بالغلام، فقال له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه وقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فإذا بلغتُم ذرْوَتَه، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به إلى الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم، بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء الغلام يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ آخر وقال: اذهبوا به في قُرُقور - أي: سفينة - وتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقدفوا به في البحر، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال الغلام للملك: إنك لست قاتلي حتى تفعل ما أمرك، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناس في صعيدٍ واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، وتضعه في كبد القوس، ثم قل بسم الله ربَّ الغلام، ثم ارم به، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيدٍ واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، وقال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه ومات، فقال الناس: آمنا برَبِّ الغلام، فأتي الملك، وقيل له: رأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرُك، قد آمن الناس، فأمر بالأخاديد فحُدَّت بأفواه السكك، وأضرم فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه، وإلا اقدفوه في النار وأقحموه، ففعلوا، وجاءت امرأةٌ ومعها صبيُّ لها، فقيل: ارجعي عن دينك، فتقاعست أن تقع فيها، أي: توقفت، فتكلَّم ابنُها وقال: يا أمَّاه اصبري، فإنك على الحق». انفراد بإخراجه مسلم^(١).

(١) مسند أحمد (٢٣٩٣١)، وصحيح مسلم (٣٠٠٥).

وقال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون، وعيسى، ويحيى عليهما السلام، وصاحب جريج، وصاحب الأخدود.

وقد اختلف العلماء فيمن نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج: ٤]، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعمامة المفسرين: نزلت في عبد الله بن الثامر وأصحابه، وقال ابن عباس: كان عبد الله بن الثامر في زمان ذي نواس، وعبد الله يومئذ بنجران، فسار إليه، فخذ له ولأصحابه الأخاديد قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة.

وقيل: إن بعض الملوك سكر، فوقع على أخته، فلما صحا قال له الناس: ما صنعت؟ فندم، فقالت له أخته: ادع الناس إلى إباحة مثل هذا، فدعاهم، فأبوا، فقالت: خذ لهم الأخاديد، ثم اقدفهم في النار، ففعل، فمن وافقه تركه، ومن خالفه ألقاه في النار^(١).



(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/٢٧٠-٢٧٦.

فصل في أيام العرب

فمن ذلك يوم ذي الأثل : غزا صخر بن عمرو بن الشريد بني أسد بن خزيمة ، فساق إبلهم ، فنذروا به ، فلحقوه ، فطعن ربيعة بن ثور صخرأ في جنبه ونجا ، وأقام مريضاً من تلك الطعنة سنة ، فسمع امرأته سلمى يوماً وهي تقول لأخرى وقد سألتها عنه فقالت : لا حيٌّ فيرجى ، ولا ميتٌ فيسلى ، ولقد لقيت منه الأمرين .

وكانت أم صخر إذا سُئلت عنه تقول : أرجو له السلامة والعافية إن شاء الله تعالى .

فقال صخر : [من الطويل]

أرى أم صخرٍ ما تملُّ عيادتي ومَلَّتْ سُليمي مَضْجعي ومَكَاني
وأبيُّ امرئٍ ساوي بأمِّ حَليلةٍ فلا عاش إلا في أذى وهوانِ
وما كنتُ أخشى أن أكونَ جنازةً عليكِ ومن يغترُّ بالحدَثانِ
لعمري لقد أيقظتُ من كان نائماً وأسمعتُ من كانت له أذنانِ
أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان^(١)
فلما طال عليه البلاء ، نتأت قطعة من جنبه مثل الكبد^(٢) في موضع الطعنة ، فقالوا له : لو قطعناها رجونا أن تبرأ ، فقال : افعلوا ، فقطعوها فمات ، فرثته أخته الخنساء بالمراثي المشهورة^(٣) .

ومنها يوم أقرن : غزا عمرو بن عمرو بن عدس الدارمي بني عبس ، فاستاق الإبل والشاء والسبايا ، ثم أقبل فنزل عند ثنية أقرن ، فلحقه أنس الفوارس فقتله ، وانهمزت بنو مالك ، فكان لبني عبس على بني دارم ، وفيه يقول جرير : [من الكامل]

هل تذكرون على ثنية أقرن أنس الفوارس يوم يهوي الأسلع
أراد بالأسلع عمرو ؛ لأنه كان أبرص^(٤) .

(١) الأصمعيات ١٤٦ .

(٢) في العقد ١٦٧/٥ : اليد .

(٣) انظر الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ١/١١٠ .

(٤) النقائص ٩٧٧ ، والعقد الفريد ٥/١٧٨-١٧٩ .

ومنها يوم الإبل، قُتل فيه بسطامُ بنُ قيسٍ.

ومنها يوم أوارَة، هو اسمُ ماءٍ كانت به وقعةٌ بين عمرو بن هند وبني تميم، وفيه يقول بعض بني تيم الله بن ثعلبة: [من الكامل]

ولقد شهدتُ الخيلَ يوم طرادِها فطعنتُ تحت كنانةِ المُتمطِّرِ^(١)
ومنها يوم بَرزَة لكانةِ على بني سليم، لما قتلت بنو سليم ربيعةَ بنَ مُكدم - فارس كنانة - يوم الكديد رجعوا، فأقاموا مدة، فملكوا عليهم مالك بن خالد بن صخر بن الشريد، وتوجوه، وكان يُقال له: ذا التَّاج، وخرجوا معه، فعرفه بنو كنانة، فأغار على بني فراس ببرزَة، ورئيسُ بني فراس يومئذ عبد الله بن جذل، فدعا عبدُ الله إلى البراز، فبرز إليه هندُ بن خالد بن صخر أخو مالك، فقال له عبد الله: مَنْ أنت؟ فقال: هند بن خالد، فقال: أخوك مالك أسنُّ منك، نريد مالكا، فرجع، فأخبر مالكا، فبرز إليه مالكُ فقتله عبدُ الله، ثم برز إليه كُرز بنُ خالد أخو مالك، فقتله عبدُ الله^(٢).

ومنها يوم البشر، ويقال له: يوم الجحاف، وفيه يقول الأخطل: [من الطويل]

لقد أوقعَ الجحافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المُشتكى والمُعولُ^(٣)

ومنها يوم بُعات، كان قبيل الإسلام بين الأوس والخزرج.

ومنها يوم التَّاءة^(٤) لعبسٍ على بني عامر، خرجت بنو عامر لتدرك ثأرها من عبس يوم الرِّقم، فوصلوا التَّاءة وهي في أرض عبس، وقد نذروا بهم، فالتقوا، وعلى بني عامر: عامر بن الطفيل، وعلى عبس: الربيعُ بن زياد، فاقتلوا قتالاً شديداً، وانهممت بنو عامر، وطعن ضبيعةُ بنُ الحارثِ عامرَ بن الطفيل، فلم يضره.

ومنها يوم تحلاق اللِّم، كان لتغلب^(٥) على بكر بن وائل، وكان الحلق شعار تغلب يومئذ، حلقوا رؤوسهم علامةً لهم.

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/١٣٣، تمطر الرجل، إذا أسرع، والكنانة من الكنن، لأنه يُصان بها التَّبل.

(٢) العقد ٥/١٧٤، والأنوار ١/١٢٠.

(٣) ديوانه ص ١٠.

(٤) في النسخ: البناءة، هنا وفيما يأتي، وهو خطأ، والمثبت من العقد ٥/١٦١.

(٥) يعرف بيوم قِصة، وكان لبكر على تغلب، انظر العقد ٥/٢٢٠.

ومنها يوم جَبَلَة، وهي هضبة حمراء بين الشُّرَيْف والشَّرَف، وهما ماءان: الشُّرَيْف لبني نُمَيْر، والشَّرَف لبني كِلَاب، وكان بين عبس وذُبيان ابني بَغِيض، وفيه يقول الرَّاجِز:

لَم أَرِ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ جَبَلَةَ
يَوْمِ أَتَانَا أَسَدٌ وَحَنْظَلَةٌ
وَعَطْفَانٌ وَالْمَلُوكُ أَزْفَلَةٌ^(١)

ويقال له: يوم شِعْب جَبَلَة، وكان لعامرٍ وعبسٍ على ذُبيان وتميم، وسببه أنه لما انقضت وَقْعَة رَحْرَحَان، جمع لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ لبني عامر، وألب عليهم، وبين يوم رَحْرَحَان ويوم جبلة سنة، وكان يوم جَبَلَة في العام الذي وُلِدَ فيه رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وكان لبني عبس في بني عامر حُلَفَاء لهم، فاستعدى لَقِيْطُ بْنُ ذُبيان لعداوتهم لبني عبس من أجل حرب دَاحِس، فأجابته عَطْفَانُ كُلِّهَا غير [بني] بدر، وتجمعت تميم كلها غير بني سَعْد، وخرجت معه بنو أسدٍ بِحَلْفٍ كان بينهم وبين عطفان، ثم أتى لَقِيْطُ إِلَى الجَوْنِ الكَلْبِيِّ، وهو ملك هَجْر، فقال: هل لك في قوم غَارِّين قد ملؤوا الأرض نَعْمًا وشَاءً، وترسلُ معي ابنيك، فما أصبنا من نَعْمٍ وشَاءٍ فهو لهما، وما أصبنا من دَمٍ فعلينا؟ فأجابه الجَوْنُ إِلَى ذلك.

ثم أتى لَقِيْطُ النُّعْمَانُ بْنُ المُنْدَرِ، فاستنجده ووعدته بالغنائم، فأجابه، وكان لَقِيْطُ وَجِيهًا عند الملوك، فلما كان رأسُ الحَوْلِ من يوم رَحْرَحَان، أقبلت الجيوش نحو لَقِيْطُ، وأقبل سِنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ المُرِّي فِي عَطْفَان، وهو والد هَرَمِ الجَوَاد، وجاءت بنو أسد، وأرسل الجَوْنُ ابنيّه معاوية وعمراً، فقال الأَحْوَصُ بْنُ جَعْفَرٍ - وهو يومئذ رَحَا لهوازن^(٢) - لقيس بن زهير: ما ترى؟ فإنك تزعم أنه ما عَرَضَ لك أمران إلا وجدت في أحدهما المخرج، فقال قيس: الرأي أن نرتحل بالأموال والعيال، فندخل شِعْبَ جَبَلَة فنقاتل القومَ من وجه واحد، فإن لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ رجل فيه طَيْشٌ، وسيقتحم عليك

(١) النقائض ٦٦٣.

(٢) يعني سيدهم.

الجبل، فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا تُسقى ولا ترعى وتُعقل، وتجعل الذراري وراء ظهورنا، وتأمر الرّجالة يأخذون بأذنان الإبل، فإذا دخلوا الشّعب، حلّت الرّجالة عُقل الإبل، ثم لزمت أذنانها فتحدّر عليهم، وتحنّ إلى مرعاها وورودها الماء، فلا يردّ وجوهها شيء، وتخرج الفرسان في إثر الرّجالة الذين خلف الإبل، فتحطّم ما لقيت، فقال: نعم ما رأيت.

وأقبل لقيط والملوك معه، فوجد بني عامر قد دخلوا شِعبَ جبلة، فنزلوا على فم الشّعب، فقال لهم رجل من بني أسد: خذوا عليهم فم الشّعب حتى يجوعوا ويعطشوا، فإنهم يتساقطون عليكم تساقط البعر من است الجملة، فأبوا، ودخلوا، وكانوا قد عقّلوا الإبل اثنتي عشرة ليلة لم تطعم، ولم تشرب، وحلّت الرّجالة عُقلها، فأقبلت تهوي، فسمع القوم دويها في الشّعب، فظنوا أنّ الشّعب قد تدهدى عليهم، والرّجالة خلفها، والفرسان في إثرهم، فانهزم القوم لا يلوون على شيء، وقُتل لقيط بن زُرارة، وأسر أخوه حاجب، أسره ذو الرّقبة، وأسر عروة الرّحال سنان بن أبي حارثة، فجزّ ناصيته، وأطلقه، وقُتل معاوية بن الجون، وأسر قيس بن المنتفق عمرو بن أبي عمرو ابن عدس، فجزّ ناصيته، وأطلقه طمعا في المكافأة، فلم يفعل، وقُتل جماعة من سروات الناس منهم: مُنقذ بن طريف الأسدي، ومالك بن رباعي بن جندل بن نهشل، وأكثر الشعراء في يوم جبلة، قال جرير: [من الطويل]

وعَمرو بن عمرو إذ دعا يا لدارم
وبالحزن أصبحتم عبدا للهازم^(١)

كأنك لم تشهد لقيطاً وعامراً
ويوم الصّفا كنتم عبداً لعامر
وقال المعرّ البارقي: [من الطويل]

مع الصّبح أم زالت قبيل الأباغر
فليس عليها يوم ذلك قادر
عليها إذا أمست من الله ناظر
وحسان في جمع الرّباب مكائر

أمن آل شعشاء الحمول البواكر
وحلّت سليمي^(٢) في هضاب وأيكة
وصبّحها أملاكها بكتيبة
معاوية بن الجون ذبيان حوله

(١) العقد ٥/١٤٣، وهما في النقائض ٤٠٩-٤١٠.

(٢) في النسخ: فحلت وجالت، والمثبت من العقد ٥/١٤٤، والنقائض ٦٧٦، والأغاني ١١/١٦٠.

وقد زحفت دودان تبغي ثورها
وقد جمعوا جمعاً كأن زهاءه
ومروا بأطناب البيوت فردهم
فباتوا لنا ضيفاً وبثنا بنعمة
وصبّحهم عند الشروق كتائب
كأن نعام الدوّ باض عليهم
أظنّ سراة القوم أن لن يُقاتلوا
ضربنا حبيك البيض في غمر لجة
ومنها:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
وقيل: إن هذا البيت لراشد بن عبد ربّه، وكان رسول الله ﷺ قد ولّاه المظالم
بنجران، فقال: [من الطويل]

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه
وحلمه شيب القذال عن الصبا
فأقصر جهلي اليوم وارتدّ باطلا
وخبّرها الواشون أن ليس بينها
وردت عليه ما بعثه (٢) ثم اضرب
وللشيب عن بعض الغواية زاجر
عن اللهولما ابيض مني الغرائر
وبين قري بصرى وحوران كافر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى... البيت

ومنها يوم جدود، وهو موضع فيه ماء يُسمّى الكلاب، كان الحوفزان بن شريك
على بني سعد، طعنه قيس بن عاصم فبقي الحوفزان أياماً ومات.

وقال أبو عبيدة: غزا الحوفزان وهو الحارث بن شريك، فأغار على من بالقاعة من
بني سعد بن زيد مناة، فأخذ نعاماً وشاء، وأخذ الزرقاء من بني ربيع بن الحارث،
فأعجب بها، وأعجبت به، فلم يتمالك أن وقع عليها، فلما انتهى إلى جدود منعته بنو
يربوع أن يرد الماء، ورئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب فقاتلهم، فلم يكن له بهم

(١) كذا، وفي المصادر: إذا دُعيت بالسفح.

(٢) العقد ١٤٦/٥ و٢٨٦، قوله: بعته؛ أي: أصابت منه، انظر اللسان، والتاج (بعو).

طاقةً، فصالحهم على أن يُعطيهم بعض الغنائم. وورد الماء، وأجازوه ومن معه من بكر^(١)، وبلغ قيس بن عاصم فركب في آثارهم، ومعه بنو سعد، وقال: [من الطويل]
 جرى الله يربوعاً بأسوأ سعيها إذا ذكرت في النائبات أمورها
 ويوم جدودٍ قد فضحتُم أباكم وسالمتُم والخيلُ تدمي نُحورُها^(٢)
 فأدركه قيسٌ وقد أزدفَ الزرقاءَ خلفه على فرسه، وعقدَ شعرها بصدره، فناداه
 قيسٌ: يا [أبا] حمار أنا لك خير من البيداء والعطش، فقطع قرون الزرقاء وألقاها عن
 الفرس، وأدركه قيسٌ فطعنه فأصاب وركه، ومضى، فمات بعد أيام، وردَّ قيسُ الزرقاء
 إلى بني ربيع، وفيه يقول سوار بن حيان المنقري: [من الطويل]

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة سقته نجيعاً من دم الجوف أشكلاً^(٣)
 ومنها يوم الحاجز، قتل فيه وائل بن صريم اليشكري، قتله بنو أسيد بن عمرو بن
 تميم، كانوا يغمسونه في الماء، ويقولون: [من الرجز]

يا أيها الماتح دُلوي دُونكا

حتى مات، فغزاهم أخوه باعث بن صريم، فقتل منهم مئة سيّد من ساداتهم^(٤).
 ومنها يوم حُسا، لما أصاب بنو عبس من ذبيان يوم المريقب، اجتمعوا والتقوا بذي
 حُسا، وهو وادي الصفا من أرض اليعمرية، فهربت بنو عبس خوفاً أن لا يقوموا ببني ذبيان
 فقالوا: الفداء أو الفناء، فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد أن لا يناجزهم، وأن
 يعطوهم رهائن من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم، فاتفقوا أن يكون الرهن عند سبيع بن
 عمرو، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، فدفَعوا إليه ثمانية من أبنائهم وانصرفوا.

وكان من رأي الربيع مناجزتهم، فصرفه قيس عن ذلك، وحضرت سبيعا الوفاة،
 فقال لابنه مالك بن سبيع: إنَّ عندك مكرمة لا تبيد إن أنت حفظت هؤلاء الغلّمة،

(١) في العقد ٥/١٩٩: فصالحوهم على أن يعطوا بني يربوع بعض غنائمهم، على أن يخلوهم يردوا الماء، فقبلوا ذلك وأجازوهم.

(٢) النقائض ١٤٦ و٣٢٧، والأغاني ١٤/٧٩، والعقد، والأنوار ١/٩٣.

(٣) العقد ٥/٢٠١ وما بين معكوفين منه، وانظر الحاشية السابقة.

(٤) العقد ٥/٢١١.

وكأني بخالك حذيفة بن بدر قد جاءك، وعصر عينيه وقال: هلك سيّدنا، ثم خدعك حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، ولا تشرف بعدها أبداً، فلما مات سبيع، جاء حذيفة، فخدع مالكا، وأخذ الغلّة فقتلهم، فكان كل يوم يُخرج واحداً واحداً، ويقول: نادِ أباك، فيناديه، فينصبه غرضاً ويقتله^(١).

ومنها يوم حلّيمة، وحلّيمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان بين الحارث وهو ملك الشام، وبين المُنذر بن ماء السماء ملك العراق، سار المُنذر بعرب العراق إلى الشام، فالتقيا بمشاريق الشام، وكان يوماً عظيماً لم يكن في أيام العرب مثله، ارتفع الغبار حتى سدّ عين الشمس، وظهرت الكواكب في وسط النهار، وزاد الفريقان على أربع مئة ألف، فخرجت حلّيمة كاشفة رأسها في المعركة تُحرّض الناس.

وفي هذا اليوم للعرب أمثالٌ منها: ما يوم حلّيمة بسرّ، أي: ليس بمخفيّ، ومنها: لأرينك الكواكب نهاراً، ومنها: أعزُّ من حلّيمة^(٢).

وفي المثل: ما يوم حلّيمة بسرّ؛ يُضرب لكلّ أمرٍ متعالم مشهور، وجّه أبوها جيشاً إلى المُنذر بن ماء السماء، فأخرجت لهم طيباً في مرّكن، فطيبّتهم، فنُسب اليوم إليها، وكانت الدائرة على المُنذر قتل في ذلك اليوم، وانهزمت جيوشُ العراق، ولم يتبعهم الحارث، فماتوا في البرية عطشاً وجوعاً.

ومنها يوم حوزة، كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي وبين هاشم بن حرّملة أحد بني مرّة بن غطفان كلام بعكاظ، فقال له معاوية: والله لو ددتُ أني لو سمعتُ الظعائن يندُبُنك، فقال له هاشم: وأنا والله وددتُ أني قد تربّت الرّطبة، وهي جُمّة معاوية، وكانت تنطفُ دهنًا وإن لم تدهن، ثم تهيأ معاوية ليغزو هاشماً، فقال له أخوه صخر: كأني والله بك وقد تعلقَ بجُمّتك حَسكُ العرْفُط، فلم ينته، وغزاهم يوم حوزة الأول، فخرج إليه هاشم وكان ناقهاً من مرض، فقتل معاوية.

وأما اليوم الثاني؛ فإنه لما قُتل معاوية، قتل خُفاف بن نُدبة مالك بن حمار الفزاري

بمعاوية وقال: [من الطويل]

(١) العقد ٥/١٥٤-١٥٥.

(٢) الكامل ٨٣٤، وجمهرة الأمثال ٢/٢٣٣، وجمع الأمثال ١/٤٥ و٢/٢٧٢.

فإن تك خيلي قد أُصِيبَ صَمِيمُهَا فَعَمَدًا عَلَى عَيْنِ تَيْمَمْتُ مَالِكا
وكان هاشم على فرسه الشَّمَاءَ، فوقع منها، وعادت، ومشى، فلقية عمرو بن قيس
الجُشَمِي فقتله بمعاوية وقال: [من الرجز]

أنا قتلتُ هاشمَ بنَ حَرَمَلَةَ أقتلُ ذا الذَّنْبِ وَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ (١)
ومنها يوم الخابور بالجزيرة، قتل فيه عميرُ بن الحُبابِ نَفِيعَ بن سالم، وفيه يقول
الشاعر: [من الكامل]

وَلَوْ قَعَةُ الْخَابُورِ إِنْ تَكُ خِلْتَهَا خَلَقْتُ فَإِنْ سَمَاعَهَا لَمْ يَخْلُقِ (٢)
ومنها يوم خُو، فيه قتل ذُوَابُ بنُ رُبَيْعَةَ الأَسَدِي عُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب صيَّادَ
الفوارس، وسبب ذلك:

أغارَت بنو أسد على بني يَرْبُوعَ، فاستاقوا إِبْلَهُمْ، وأتى الصَّرِيخُ إلى الحيِّ، فلم
يتلاحقوا إلى آخر النَّهارِ، وجاء الليل وكان ذُوَابُ على فرسٍ أنثى، وعُتَيْبَةُ على
حصان، فجعل الحصان يَسْتَنشِقُ رِيحَ الأَنْثَى في سواد الليل، ولم يعلم عُتَيْبَةُ إلا وقد
أُقْحِمَ حصانُه على فرسِ ذُوَابِ، وكان عُتَيْبَةُ قد لبسَ دِرْعَهُ، وغفل عن جَيْبِهَا فلم يشدَّه
لِعَجَلَتِهِ، وراه ذُوَابُ، فطعنه في ثُغْرَةِ نَحْرِهِ فقتله، وشدَّ الربيعُ بن عتيبة على ذُوَابِ
فأسره، ولم يعلم أنه قاتلُ أبيه، فكان عنده أسيراً، حتى فاداه أبوه رُبَيْعَةُ على إبلٍ
معلومة، وأن يوافيه بها إلى سوق عُكَاظِ في الأشهر الحُرْمِ، ويوافيه الربيعُ بذُوَابِ،
وأقبل رُبَيْعَةُ بالإبلِ، وشُغِلَ الربيعُ فلم يحضر بالأسير، فلم يشكَّ أبوه أنهم قد قتلوه
بعتبية، فقال يرثيه بأبيات منها: [من الكامل]

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ بَعُتَيْبَةَ بنِ الْحَارِثِ بنِ شِهَابِ (٣)
وسمعه رجل من يَرْبُوعَ، فجاء إلى بني عُتَيْبَةَ فقال: هل تدرُونَ من قتل أباكم؟
قالوا: لا، قال: ذُوَابُ أسيركم، وأنشدهم الشعر، فقالوا له: أنت قاتلُ أبنينا، فقال:
لا والله، لا أقرُّ عيونكم بها، فأخرجوه فقتلوه.

(١) العقد ٥/١٦٥-١٦٦، وبيت خفاف في ديوانه ٤٨٤ (شعراء إسلاميون).

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٣٥، وفيه أن المقتول عمير بن الحُبابِ، والشاعر نفيع بن سالم.

(٣) العقد ٥/٢٤٩، وأمالي القالي ٢/٧٢، وشرح ديوان الحماسة ٨٤٥.

ومنها يوم داحس، وهو فرس مشهور لقيس بن زهير العبسي، وداحس بن ذي العقال، فرس حوط بن [أبي] جابر بن حنظلة^(١)، وكانت أم داحس لقرواش بن عوف ابن عاصم، ويقال لها: جلوى، وإنما سُمي: داحساً؛ لأن ذا العقال نزا على جلوى من غير علم صاحبه حوط، فلما علم شقَّ عليه، وقال: والله لا أرضى حتى آخذ ماء فحلي، فكرهت بنو ثعلبة الشر، وقالوا: دونك ماء فحلك، فأدخل يده في رجم جلوى، ودسها حتى كاد أن يفتح رجمها، فلم يلق شيئاً، ونتجت جلوى داحساً، فرآه حوط فقال: ابن فحلي، لا أتركه، فكرهوا الشر، فبعثوا به إليه ومعه قلائص، فاستحيا، فردّه عليهم.

وتلخيصُ القصة: أنه كان من حديث داحس والغبراء، أن رجلاً من بني عبس يُقال له: قرواش بن هني باري حمل بن بدر، فقال: داحس أجود من الغبراء، وقال حمل: الغبراء أجود، وكانت الغبراء لحذيفة بن بدر، وداحس لقيس بن زهير، وتراهننا على عشر قلائص، فأتى قرواش إلى قيس بن زهير فأخبره بالرهان، فقال قيس: راهن من شئت، وجنّبي بني بدر فإنهم قومٌ يظلمون، فقال قرواش: قد أوجبنا الرهان، فقال: والله لتشعلنَّ علينا شراً، ثم أتى قيس حمل بن بدر وحذيفة بن بدر، فقال: إنما أتيتك لأوضحك الرهان عن صاحبي، فقال: لا والله، أو تجيء بالعشر قلائص، فأحفظ ذلك قيساً، وغضب، وتزايد حتى بلغا مئة قلوص، ووضع الرهان على يدَي غلاق بن سعد أحد بني ثعلبة^(٢)، وجعلا الغاية مئة غلوة، وجعلا الغلوة من ذات الإصاد إلى هضب القلب^(٣)، ثم قادوا الفرسين إلى الغاية، فجعل حمل بن بدر حيساً في دلاء، ووضع في شعب من شعاب هضب القلب، على طريق الفرسين، وأكمن فيه فتياناً، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يرُدُّوا وجهه إلى الغاية، فسبق داحس، فلما دنا من الفتية، وثب زهير بن عبد عمرو فلطم وجهه، وردّه إلى الغاية، وجاءت الغبراء، وعلم

(١) في النقائص ٨٣، والأغاني ١٧/١٨٧: حوط بن أبي جابر بن أوس بن حميري. وما بين معكوفين منهما.

(٢) في النقائص ٨٦، والفاخر ٢٢١، والأغاني ١٧/١٩١، ومجمع الأمثال ١١١/٢: ووضع السبق على يدَي

غلاق أو ابن غلاق أحد بني ثعلبة بن سعد.

(٣) الغلوة: الرمية بالنشابة، وهذه أسماء مواضع.

قيس بن زهير والذي على يده الرّهان بذلك، فقال قيس لحذيفة: يا حذيفة أعطني سبقي، وقال الذي على يده الرّهان: يا حذيفة أعطه سبّقه، فقد سبق داحس، فأعطاه السّبَق، فقال قيس بن زهير^(١): [من الوافر]

كما لا قيت من حمّل بن بدر وإخوته على ذات الإصا
هم فخرُوا عليّ بغير فخرٍ ورَدُّوا دون غايته جوادِي
ثم إن جماعة من قوم حذيفة نَدَمُوهُ على دَفْعِهِ السَّبَقِ إلى قيس، ونهاه آخرون عن الشّرِّ،
وقالوا: إن قيساً لم يسبقك إلى مكرمة، وإنما سبقت دابةً دابةً فأبى، وبعث ابنه مالك بن
حذيفة، وكنيته أبو قرفة إلى قيس يطلب منه السّبَق، فقال له: هذا سبقي، فكيف أعطيك
إياه، فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه، وأغلظ له، وكان إلى جانب قيس رمح،
فطعنه فدقّ صُلبه، واجتمع الحيّان فأدّوا دية المقتول مئة من الإبل، دفعاً للشّر، فأخذها
حذيفة، وسكن الناس، ثم إن قوم حذيفة نَدَمُوهُ فعاد القتال بينهم، حتى تفانوا.

وفي هذه القصة يقول بشر بن أبي [بن] حُمام العَبَسِيّ: [من الطويل]

إن الرِّباط النُّكْدَ من آل داحسٍ أبينَ فما يُفْلِحَن يومَ رِهانِ
جَلَبَنَ بإذن الله مَقْتَلَ مالِكِ وطَرَحَنَ قيساً من وراء عُمانِ
لُطَمَنَ على ذات الإصاِدِ وجمَعُكم يَرونَ الأذى من ذلّةٍ وهوانِ
سَيَمْنَعُ منك السَّبَقُ إن كنتَ سابقاً وتُقتَلُ إن زَلَّتْ بك القَدَمَانِ^(٢)

وحمل الحارث بن عوف المرّي الدماء بين القبيلتين، وصالح بين عبس وذبيان،
فقال قيس: والله لا نظرتُ إلى غطفانية، قتلتُ أباهَا أو أخاهَا، ومضى إلى عُمان فأقام
ببرقة عُمان حتى مات.

ومنها يوم الذّنائب، ظفر دُرَيْدُ بن الصّمّة فيه بغطفان، فأخذ ثأرَ أخيه عبد الله، وفيه
يقول: [من الطويل]

(١) في النسخ: زهير بن قيس، وهو خطأ، والبيتان في النقائض ٩٠-٩١، والفاخر ٢٢٠، والأغاني ١٧/

١٩٨، والعقد الفريد ٥/١٥٠، ومجمع الأمثال ٢/١١١.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤٥٠، وللتبريزي ٢/٢، ونسبها ياقوت في معجم البلدان (الإصاِد) ١/

٢٠٥ إلى بدر بن مالك بن زهير. الرباط: الخيل المربوطة، النكد: جمع أنكد، القليل الخير، وقوله: أبين فلا
يفلحن، دعاء على داحس ونسله.

جَزِينَا بَنِي عَبْسٍ جَزَاءً مَوْفَرًا بمقتلِ عبد الله يومَ الذَّنَائِبِ
ولولا سَوَادُ اللَّيْلِ أَدْرَكَ رَكُضُنَا بذِي الرَّمْثِ والأرطَى عِيَاضَ بَنِ نَاشِبِ
قَتَلْنَا بَعْدَ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُوَابَ بَنِ أَسْمَاءَ بَنِ زَيْدِ بَنِ قَارِبِ
وبلغ قوله عبد الملك بن مروان، فقال: كاد ينسبه إلى آدم، وليت أن الشمس لم
تغب له قليلاً حتى يدركه.

وقالت رِيحانة أمُّ دريد: يا بُني إن عَجَزت عن أخذ الثَّارِ ممن قتل أخاك، فاستعن
بأخوالك من زبيد، فأنف من كلامها، وغزاهم بنفسه، فأسر ذُوَابَ بَنِ أَسْمَاءَ، وجاء به
إلى فِنَائِهَا فقتله بعد الله ابنها^(١).

ومنها يوم الرِّقْمِ، عُقِرَ فِيهِ قُرْزُلُ فَرَسُ عَامِرِ بَنِ الطُّفَيْلِ^(٢).

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر على بلاد غَطَفَانَ بالرِّقْمِ، وعلى بني مُرَّةَ عامرُ بن
الطُّفَيْلِ، فركب عُيَيْنَةُ بَنِ حِصْنِ فِي بَنِي فَزَارَةَ، وَيَزِيدُ بَنُ سِنَانَ فِي بَنِي مُرَّةَ، وَالتَّقْوَا
فانهزمت بنو عامر، وجعل عامر بن الطُّفَيْلِ يقول: [من الرجز]

يا نَفْسُ إِنْ لَمْ تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ^(٣)
فيقال: إِنْ غَطَفَانَ أَصَابَتْ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِينَ رَجُلًا فقتلوهم، وانهزم
الحكم بن الطُّفَيْلِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَعَطَشُوا، فَخَنَقَ الْحَكْمُ نَفْسَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ خَوْفًا
مِنَ الْمُثَلَّةِ، فَقَالَ فِيهِ عُرْوَةُ بَنُ الْوَرْدِ: [من الطويل]

عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَخْنُقُونَ نَفُوسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ تَحْتَ الْوَعْيِ كَانَ أَعْذَرًا^(٤)
ومنها يوم الزُّوَيْرِينَ، وهما جَمَلَانِ مَقْرُونَانِ. أغارت بنو تميم على بكر، وأقبلت
بجَمَلَيْنِ مَقْرُونَيْنِ، وَقَالُوا: لَا نُؤَلِّي حَتَّى يُوَلِّي هَذَا الْجَمَلَانِ، وَاقْتَتَلُوا، فانهزمت بنو

(١) هذا الخبر عن يوم الصلعاء لا الذنائب، انظر العقد ٥/١٧٢، ومعجم البلدان ٣/٤٢٢، والأبيات في
الأصمعيات ١١١، والخبر والأبيات في الأغاني ١٠/١٣، وديوان دريد ٢٧.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٤٠، وعنه نقل، وإنما اسم فرس عامر بن الطفيل المعقور: كلب، وقرزل اسم فرس
الطفيل بن مالك، والد عامر، انظر شرح المفضليات للأنباري ١/٦٢، ونسب الخيل لابن الكلبي ٤٩،
وأسماء خيل العرب لابن الأعرابي ٦٣، وللغندجاني ١٩٨.

(٣) شرح المفضليات ١/٦٢، والعقد الفريد ٥/١٦٠، وتروى لعبد الله بن رواحة في السيرة ٢/٣٧٩.

(٤) ديوانه ٨٢.

تميم، وأخذت بكر الجملين فنحروهما، وأكلوهما.

قال شاعرهم: [من البسيط]

نحن الذين هزَمنا يوم صَبَحنا جيشَ الزُّوَيْرين في جمع الأَحاليفِ^(١)
ومنها يوم السُّوبان، أغارت بنو عامر على تميم وضَبَّة، وكان على ضَبَّة حَسَّان بن
وَبرة، أخو النِّعمان بن المُنذر لأُمَّه، فأسره يزيد بن الصَّعق، وانهزمت تميم، وفدى
حَسَّان نفسه بألف بعير، وهي دِيَّة المُلوك، وكان عامر بن مالك بن جعفر يَنْتقل من
سَرَج الفرس إلى جانبه، ومن جانبه إلى ظهره، فسُمِّي ملاعب الأَسِنَّة^(٢).

ومنها يوم الشَّقِيقَة، كان بِسْطام بن قيس قد أغار على بني ضَبَّة، فاستاق ألف بعير
لمالك بن المُتَنَفِق الضَّبِّي، وكان مالك في الإبل، فركض فرسه، وأنذر قومه، فركبوا
وركب فيهم عاصم بن خَلِيفَة الصَّبَاحي، فقال عاصم: مَنْ رَئِيسُ القوم؟ قالوا: بِسْطام
ابن قيس، وأشاروا إلى بسْطام، وكان على فرسٍ أَدْهَم، فحمل عليه عاصم، فطعنه في
أذنه فأنفذه. ووَلَّتْ بنو شيبان، فهم بين قتيلٍ وأسير، وجريح وكسير، وأسر بجاد بن
قيس أخو بِسْطام، وقتلوا تسعين من أعيان بني شيبان^(٣)، وكان بِسْطام عظيمًا في بني
شيبان، وفيه يقول عبد الله بن عَنَمَة الضَّبِّي: [من الوافر]

لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ^(٤)
المِرْبَاع: ما يأخذه الرئيس، وهو رُبُع الغنيمة. والنَّشِيطَة: ما يَغْنَمُه الغزاة في الطريق
قبل البلوغ إلى المَوْضِع الذي قصدوه، والفُضُول: ما يَفْضُل من السَّبِي.

وكان عاصم بن خليفة يُضَعِّفُ في عقله، زار يوماً أمَّه ويده حديدة، وهو يضقُّلها،
فقال له: ما تصنعُ بها؟ قال: أصقُّلها لأقتلَ بها بِسْطام بن قيس، فقالت مستخفةً به:
أست أمك أضيِّقُ من هذا.

وأدرك عاصم أوَّلَ الإسلامِ فأسلم. وكان إذا طلب الإذن على عُمر رضي الله عنه، يقول:

(١) العقد ٢٠٦/٥.

(٢) العقد الفريد ١٧٧/٥.

(٣) في النقائض ٢٣٥، والعقد ٢٠٣/٥: وأسر بنو ثعلبة بجاد بن قيس في سبعين من بني شيبان.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٠٢٤، والنقائض ٢٣٦، والعقد ٢٠٤/٥.

ائذنوا لعاصم قاتل بسطام، يفتخر بذلك.

ومنها يوم الشَّيْطِين، كان في أوّل الإسلام، سارت بكر إلى السَّوَاد، وقالوا: نُغِير على تميم، فإن في دين ابن عبد المُطَّلَب: مَنْ قَتَلَ نَفْساً قُتِلَ بِهَا، فنشئ هذه الغارة ثم نُسَلِّم، فساروا من لَعْلَع إلى الشَّيْطِين في أربع ليال، وبينهما مسيرة أيام، فسبقوا أخبارهم، وصبَّحوا بني تميم وهم غارون، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، فيقال: إنهم قتلوا منهم ست مئة رجل، وسَبَّوْا، واستاقوا الأموال، ثم بعثوا وافدَّهم إلى رسول الله ﷺ، وأسلموا بعد ذلك^(١).

ومنها يوم عاقل، قُتِلَ فيه خالد بن جعفر، وذلك لأن خالداً وعروة الرَّحَّال قَدِمَا على الأسود بن المُنذر أخي النُّعمان، وعند الأسود الحارث بن ظالم الذُّبْيَانِي، فوضع الأسود بين أيديهم تمراً على نِطْع، وجلسوا يأكلون، فقال خالد للحارث: يا حارث، لي عندك يدٌ، قتلْتُ سيِّدَ قومك زهيراً وتركتك، وكان مع زهير يوم قُتِلَ، وجعل خالد يكرِّر عليه القول، فقال الحارث: سأخبرك بشُكْر ذلك^(٢)، ثم قام الحارث وخرج، فقال الأسود لخالد: ما دعاك إلى أن تتحرَّشَ بهذا الكلب وأنت ضيِّفي؟ فقال خالد: إنما هو عبدٌ من عبيدي، ولو رأي نائماً ما أيقظني، وانصرف خالد إلى قُبَّتِهِ، ولامه عروة الرَّحَّال، وناما فلما هدأت العيون، أخرج الحارث ناقته، وقال لخراش: كن لي بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصُّبْح، ولم آتكَ، فأذهب حيثُ شئتَ، ثم دخل القُبَّة، فقتل خالداً وخرج، وانزعج عروة الرَّحَّال، وصاح، فاجتمع الناس، وهرب الحارث، وبلغ الأسود، وعنده امرأةٌ من بني عامر، يقال لها: المُتجرِّدة، فشقت جيبها وصرخت، فقال عبد الله بن جَعْدَةَ يرثيه: [من الكامل]

شَقَّتْ عَلَيْهِ الْعَامِرِيَّةُ جَيْبَهَا أَسْفَاً وَمَا تَبْكِي عَلَيْهِ ضَلَالَا
يَا حَارِ لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ لَا طَائِشاً رَعِشاً وَلَا مِعْزَالَا
وَلَنَقُتُلَنَّ بِخَالِدٍ سَرَوَاتِهِمْ وَلَنَجْعَلَنَّ لِلظَّالِمِينَ نَكَالَا

ومنها يوم الغَيْط، ويُقال له: يوم الثَّعَالِب، غزا بسطام بن قيس، ومفروق بن عمرو، والحارث بن شريك، وهو الحَوْفَزَان، بلاد بني تميم، فأغاروا على بني ثعلبة ابن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضَبَّة، وثعلبة بن عدي بن فزارة، وثعلبة بن سعد بن

(١) النقائض ١٠٢٠، والعقد ٢٠٦/٥، قوله: غارون: غافلون.

(٢) في العقد ١٣٨/٥: سأجزيك شكر ذلك.

ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلج، فاقتتلوا، فانهزمت الثعالب، وساقوا أموالهم، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الواقعة، لأنه كان نازلاً في بني مالك بن حنظلة، ثم أغار بسطام بن قيس وأصحابه - في وجههم ذلك - على بني مالك بن حنظلة، وهم بصحراء فلج والغبيط، فأخذوا إبلهم، فركب عتيبة بن الحارث بن شهاب ورائهم في بني مالك، ومعه فرسان بني يربوع، فأدركهم بغبيط المدرة فقاتلوهم، فظهروا عليهم، ولحق عتيبة بسطام بن قيس، فقال له: استأسر أبا الصهباء، فأنا لك خير من الفلاة والعطش، فقال: من أنت؟ فقال: عتيبة بن الحارث، فاستأسر له، ففدى نفسه بأربع مئة بعير، وثلاثين فرساً، وكان عظيم القدر، لم يكن عربي عكاظي أعلى منه قدراً، وجز عتيبة ناصيته، وعاهده أن لا يغزوه أبداً، ورد عتيبة الأموال والسبايا، وقال: [من البسيط]

أبلغ سراة بني شيبان مألكةً أني أبأت بعبد الله بسطاما
قاظ الشربة في قيد وسلسلة صوت الحديد يغنيه إذا قاما^(١)
ومنها يوم قحح^(٢)، لبني يربوع على بكر، قتل المنهال بن عصمة المجبة بن ربيعة، فقال ابن نمران الرياحي: [من الكامل]

وإذا لقيت القوم فاطعن فيهم يوم اللقاء كطعنة المنهال
ترك المجبة للضباع مجندلاً والقوم بين سوافل وعوال
ومنها يوم فيحان، لما فدى نفسه بسطام بن قيس من عتيبة بأربع مئة ناقة، وثلاثين فرساً، قال ولده: لأدركن بثأر أبي، فأغار فأسر الربيع بن عتيبة، واستاق ماله، فلما سار يومين، اشتغل ابن بسطام عن الربيع بالشرب، وكان الربيع قد بال^(٣) على قده حتى لان، فحلّه وركب [ذات] النسوع^(٤) - فرس بسطام - وهرب، ونذروا به فركبوا خلفه، فلم يدركوه، وجاء إلى الحي فنزل عن الفرس، فماتت في الحال، فدفعها،

(١) النقائض ٧٦ و ٣٦٥، والعقد ١٩٧/٥، الشربة: موضع، وقاظ: أقام زمن القيظ، والمألكة: الرسالة، وأبأت: عاقبت.

(٢) لم تجود الكلمة في النسخ، والمثبت من العقد ١٩١/٥.

(٣) في العقد ٢١٠/٥: مال.

(٤) في النسخ: وركب الشموع، والمثبت من العقد ٢١٠/٥، وأسماء خيل العرب لابن الأعرابي ٧٧، وللغندجاني ١٠٤.

فُسِّمِي ذلك المكان: قبر^(١) الفرس، وأخلف له أبوه ماله.

ومنها يوم قِضَّة، وهو من حرب البسوس، كانت بَكْرٌ قد قتلت بُجَيْرَ بنَ الحارث بن عباد، فخرج أبوه في قبائل تَغْلِب، يطلب ثأرَ ابنه من بَكْر، وكان له فرسٌ يقال لها: النَّعامة، فقال: [من الخفيف]

قَرِّبَا مَرَبَطَ النَّعامة مَنِّي لَقِحَتْ حَرْبٌ وائِلٍ عَن حِيال^(٢)
وركبها، وكان معه مُهْلَهْل التَّغْلِبِي والتَّقْوَا، فانهزم الحارث بن عباد، فنجا، وهرب مُهْلَهْل، فنزل على جشم في مكان يقال له: جَنْب، فخطبوا إليه ابنته، فأبى، فساقوا إليه المَهْر، وفيه جلود من أَدَم، فقال: [من المنسرح]

أَعَزُّ عَلَى تَغْلِبِ بِمَا لَقِيَتْ أَخْتُ بَنِي الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشَمِ
أَنكحها فَقَدُّهَا الْأَرَاقِمَ فِي جَنْبٍ وَكَانَ الْحَبَاءُ مِنْ أَدَمِ
لَوْ بِأَبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا زُمَّلٌ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بِدَمِ^(٣)

ومنها يوم قَطْن، وهو من أيام عَبْسٍ وذُبْيَان، وذلك لأن عَبْسًا لما مَثَّلُوا بِحُذَيْفَةَ بنِ بَدْرِ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ، أعظمت غَطْفَانُ ذلك، وتجمعت، وعلمت بنو عَبْسٍ أنهم لا طاقة لهم بهم، فرحلوا عنهم فنزلوا اليمامة على أخوالهم من بني حَنيفَةَ، ثم رحلوا عنهم، فنزلوا على بني سَعْدِ بنِ زَيْدِ مَنَاةَ، فغدر بهم بنو سعد، واستجاشوا عليهم بمعاوية بن الجَوْنِ^(٤)، ورحل بنو عَبْسٍ عنهم لما علموا بذلك، وقدموا ظُعْنَهُمْ، ووقفت فرسانهم بمكان يقال له: الفُروُق، وأغارَت بنو سَعْدِ عليهم ومن معهم من جنود الملك ابنِ الجَوْنِ، فلم يجدوا في منازلهم إلا مَوَاقِدَ النَّارِ، فاتَّبَعُوهم إلى الفُروُق، وإذا بالفرسان

(١) في العقد: هَبِير. وهو ما اطمأن من الأرض.

(٢) الأصمعيات ٧١، وتخريجها ثمة.

(٣) هذا السياق فيه أكثر من خطأ، فالحارث بن عباد من بني بكر، ومهلهل بن ربيعة كان رأس تغلب وسيدها في حروبها ضد بني بكر، ولم يكن مع الحارث، وإنما أسره الحارث بن عباد البكري، ولم يكن يعرفه، ثم أطلقه. انظر الشعر والشعراء ٢٩٨/١، والكامل للمبرد ٧٧٥/٢، والأغاني ٥١-٤٧/٥، والعقد الفريد ٢٢٠/٥ - ٢٢٢، وديوان الحارث ١٣٠.

(٤) استجاشوا: طلبوا منه جيشاً.

والرَّجَالَةَ وَالظُّعْنَ، فانصرفوا عنهم، ومضى بنو عَبَسٍ إلى بني ضَبَّة فأقاموا فيهم^(١)، ثم رجعوا إلى قومهم بني ذُبْيَانَ فصالحوهم، ثم جرى بينهم أمرٌ فالتقوا، ثم اصطلحوا.

وسبب ما جرى بينهم أن حَرْمَلَةَ بن الأشعر بن صِرْمَةَ بن مُرَّة سعى لهم في الحَمَالَةَ بينهم، فمات، فسعى ابنه هاشم بن حَرْمَلَةَ، فلما توافقوا على الصلح، وقفت بنو عَبَسٍ بِقَطْن، فأقبل حُصَيْن بن ضَمْضَم، فطعن تَيْحَانَ المخزومي، فقتله بأبيه ضَمْضَم، فقالت بنو عَبَسٍ: لا نصالحوهم أبداً، والتقوا بِقَطْن، فسفر بينهم السُّفَرَاءُ، فاصطلحوا.

ومنها يوم الكَدِيد، قُتِلَ فيه ربيعة بن مُكَدَّم فارس كِنَانَةَ، قتله بنو سُلَيْم، وهو من بني فِرَاس بن غَنَم، وهو أنجد العرب، كان الرجل منهم يُعَدُّ بعشرة من غيرهم، وقد مدحهم عليٌّ عليه السلام، فقال: يا أهل الكوفة، وِدِدْتُ والله أن لي بجمعكم، وأنتم مئة ألف، ثلاث مئة من بني فِرَاس بن غَنَم.

وكان يُعَقَّر على قبر ربيعة بن مُكَدَّم في الجاهلية، ولم يُعَقَّر على قبر أحدٍ سواه^(٢).

ومنها يوم الكُّلَابِ الأول، لما غلب سُفَهَاءُ بَكْرِ بن وائل على كُبْرَائِهَا، اجتمع رؤساؤهم، وقالوا: الرأي أن نُمَلِّكَ علينا ملكاً يُنصِفُ المظلومَ من الظالم، ويردُّعُ القويَّ عن الضعيف، فأتوا تَبْعاً، وعَرَّفوه أمرهم، فولَّى عليهم الحارث بن عمرو الكِنْدِي، أكل المُرَار، فقدم عليهم، ونزل ببطن عاقل، فغزا بيكر، حتى انتزع ما في أيدي ملوك الحيرة اللَّخْمِيِّين، وما في أيدي الغَسَّانِيِّين، وردَّهم إلى أقصى أعمالهم، ثم طُعِنَ في بطنه ببطن عاقل، فمات.

وخلف ابنه شُرْحَيْبِيل وسلمة، فاختلفا [في الملك] وتواعدا الكُّلَابِ، وأقبل شُرْحَيْبِيل في ضَبَّة والرِّبَابِ وبني يربوع وبكر بن وائل، وأقبل سلمة في النَّمِرِ^(٣)، ومالك ابن حنظلة، وعليهم سفيان بن مُجَاشِع، وتغلب، وعليها السَّفَّاح لأنه سفح أسقيَّة قومه، وقال: اسبقوهم إلى الكُّلَابِ، فسبقوا ونزلوا عليه، والتقوا واستحروا القتل في

(١) في النسخ: فصالحوهم، والمثبت من العقد ١٥٨/٥، وقد جمع المصنف هنا بين يومي قطن والفروق، وانظر النقائض ٤٢٠.

(٢) العقد ١٧٤/٥، وانظر الأنوار ١١٣/١.

(٣) في النسخ: اليمن، والمثبت من العقد ٢٢٣/٥ وما بين معكوفين منه.

بني يربوع، فشدَّ أبو حنش على شُرحبيل فقتله، وكان شُرحبيل قد قتل ابنه حنشاً، وبعث أبو حنش برأس شُرحبيل إلى سلمة مع عَسيف له، وخاف أبو حنش من سلمة أن يحمله بنفسه، فلما حصل الرأس بين يدي سلمة، دمعت عيناه وقال للعَسيف: أنت قتلتَه؟ قال: لا، وإنما قتله أبو حنش، فقال سلمة: أنا أدفع الثَّواب إلى قاتله، وجاء العَسيف فأخبر أبا حنش، فخاف فهرب، فقال سلمة: [من الوافر]

تَعَلَّم أن خَيْرَ النَّاسِ طُرّاً قَتِيلٌ بَيْنَ أَحْجَارِ الْكُلابِ
تَدَاعَتْ حَوْلَهُ جُشْمُ بَنُ بَكْرِ وَأَسْلَمَهُ جَعاسيسُ الرِّبابِ^(١)
وأما الكُلابُ الثاني: أغار بنو تميم على لَطِيمة^(٢) لكِسرى، فيها مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ
وجوهر كثير ومالٌ عظيم، فأخذوها، فأوقع بهم كِسرى في هَجْر، فأخذ الأموال وسبى
الدُّرية، فاجتمع رؤساؤهم: أكثم بن صَيْفِي الأسيدي، وقيس بن عاصم المِنْقري،
والزُّبْرُقان بن بدر السَّعدي وغيرهم، وقالوا: قد أغضبنا الملك، ولا نأمن ذئاب العرب
أن تتخطَّفنا، فماذا ترون؟ فمسح أكثم بن صيفي يده على صدره وقلبه وقال: إني قد
نَيْتٌ على التسعين، وإنما قلبي مُضغَةٌ من جَسدي، وقد نحل كما نحل جَسدي،
وأخاف أن لا يُدركَ ذهني الرأيَ لكم، فاعرضوا عليَّ آراءكم، فإني متى ما أسمع الحَزْمَ
أعرفه، فقال النُّعمان بن جِساس: الرأي أن تنزلوا الكُلاب، وتنظروا في أمركم، ولا
تُخبروا أحداً بحالكم، فقال أكثم: هذا الرأي فاكْتُموه، وساروا إلى الكُلاب فنزلوه،
وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، [وأعلاه] مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق،
فنزلت سعدٌ والرِّبابُ بأعلى الوادي، ونزلت حَنْظلة بأسفله.

وكانوا لا يُغيرون في القَيْظِ لُبُعدِ المسافات، وقِلَّةِ المياه بها، وشِدَّةِ الحرِّ، فأقاموا
مكانهم، ولم يعلم بهم أحد، فلما انقضى القَيْظُ مرَّ بهم رجل من هَجْر، فرأى الشاء
والنَّعم، فرجع إلى ملوك هَجْر فقال: هل لكم في جارية عذراء، ومُهْرَةَ سوداء^(٣)،
وبكْرَةَ حمراء ليس دونها مانع؟ قالوا: وكيف؟ قال: تميم بقِدَّة، مُطَّرَحِينِ غارِينِ، فسار

(١) النقائض ٤٥٥، والعقد ٢٢٣/٥، والأغاني ٢١٢/١٢، والأنوار ٢١٦/١، والجعاسيس: جمع جُعسوس،

القصير الدميم.

(٢) اللطيمة: القافلة التي تحمل البزَّ والطيب. فقه اللغة ٤٩/١.

(٣) في «العقد» ٢٢٥/٥: شوها، وهي الطويلة الرائعة.

إليهم أربعة أملاك يُقال لهم: اليزيديون، وهم: يزيد بن عبد المَدان، ويزيد بن المأمور، ويزيد بن هُوَبر، ويزيد بن المُخَرَّم، ومعهم عبد يغوث الحارثي، وساروا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة، قال جزء بن جزء الباهلي لابنه: يا بُني، هل لك في أكرومة لا يُصاب مثلها؟ قال: وما هي؟ قال: هذا الحي من تميم، قد لجأوا إلى هذا المكان خوفاً من العرب، وهذا الجيش يأخذهم، فاركب جملي الأرحبي، وسِرْ سيراً رويداً، عُقبَةً من الليل، ثم أنخه وحلَّ حبله، وتوسد ذراعَه، فإذا سمعته قد أفاض بجِرتِه^(١)، فشُدَّ حبله، ثم احمل السَّوط عليه، فإنك لا تسأله شيئاً من السير إلا أعطاكه، فحذر القوم من الجيش، وكان جيشاً عظيماً، لم يجتمع مثله إلا في يوم ذي قار ويوم جبلة ويوم الحارث بن أبي شمر الغساني، ففعل ابنه ما أمره، ووافاهم قبيل الصُّبح، وصاح يا صباحاه، وحذَّره الجيش، ودَّهَمَهُمُ القَوْمُ، فساقوا النَّعمَ، وإذا قد أقبل رجل منهم ينادي: واصباحاه، قالوا: ما الخبر؟ قال: أتِي على النَّعمِ، وكَرَّ راجعاً نحو الجيش، ولقيه عبدُ يغوث الحارثي فطعنه على رأس مَعِدَتِه، فسبق اللَّبنُ الدَّمُ، ثم تقدم عبد يغوث إلى الجيش وقال لهم: يا قوم أطيعوني، وامضوا بالنَّعمِ، وخلَّوا عجائز تميم ساقطةً أفواههن، فقالوا: لا بُدَّ من نكاح بناتهن، فقال ضمرة بنُ لبيد المذحجي الكاهن: انظروا إذا سُقتم النَّعمِ، إن أتتكم الخيلُ عُصباً - العصبه تنتظر الأخرى حتى تلتحق بها - فإن أمرهم هين، وإن لحقوكم فردُّوا النَّعمَ ولم ينتظر بعضهم بعضاً، فإن الأمر شديد^(٢).

وتقدمت سعد والرَّباب في أوائل الخيل، فالتقوا بالقوم ولم يلتفتوا إليهم، واستقبلوا النَّعمَ، ولم ينتظر بعضهم بعضاً، ورئيسُ الرَّباب النُّعمان بن جِسَّاس^(٣)، ورئيس سعد قيس بن عاصم، والتقى القومُ، فكان النُّعمانُ أولَ قَتيلٍ؛ طعنه عبد يغوث الحارثي فقتله^(٤)، وحجَزَ بينهم الليلُ، وأصبحوا على راياتهم، وتنادوا، واعتزت كلُّ

(١) ما يخرج البعير فيأكله ثانية، من الاجترار.

(٢) في العقد ٥/٢٢٦: وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضهم بعضاً حتى يردوا...

(٣) في (خ) و(ك): الحسان، وفي (ب): الجساس.

(٤) في النقائض ١٥١، والأغاني ١٦/٣٣١ أن الذي قتله عبد الله بن كعب من بني حنظلة، وفي الكامل لابن

الأثير ١/٦٢٤ أن الذي قتله يزيد بن شداد الحارثي.

طائفة، فنأدى قيس بن عاصم: يا آل سعد، ونأدى عبد يَغوث: يا آل سعد، وقيس ينادي بسعد بن زيد مَناء، وعبد يَغوث ينادي بسعد العشيرة، ونأدى قيس بن عاصم: يا آل مقاعس، وكان وَعُلة بن عبد [الله] الجَرَمي بيده لواء اليمن، فلما سَمِعَ صوت قيس، طرح اللواء وانهزم القوم، وصاح قيس: يا بني تميم لا تقتلوا إلا فارساً، فالرجالة لكم، فتبعوهم يقتلون ويأسرون، وأسر عِصمةُ بن أُبَيْر عبد يَغوث الحارثي، وكان عِصمةُ غلاماً، فوضع عبد يَغوث عند الأَهتم، وكانت عنده امرأته العَبْشَميَّةُ، فأعجبها خَلق عبد يَغوث وجماله، فقالت: مَنْ أسر هذا؟ فقال: أسرنى عِصمة، فقالت: من أنت؟ فقال: سيد القوم عبد يَغوث، فضحكت، وقالت: قَبَّحَكَ اللهُ من سيِّدٍ أسره مثل هذا الغلام، واجتمعت الرِّباب إلى الأَهتم، وقالوا: ثأرنا عندك، وكان قد قتل النعمان ابن الجِساس ومَصَاد بن ربيعة بن الحارث، فامتنع من تسليمه، وقال: لا أُسَلِّمُهُ إلا إلى مَنْ دَفَعَهُ إِلَيَّ، وكادت الفِتنة أن تقع بين سعد والرِّباب، حتى أقبل قيس بن عاصم فضرب الأَهتم بقوس فهتَمه، فسُمي الأَهتم، وأتوا عِصمة، فقالوا: ثأرنا عندك، قتل سيِّدنا النعمان وفارسنا مَصَاد، فقال: إني مُمْلِق، وقد أصبتُ الغنى، فباعهم إِيَّاه، فأخذوه فشدوا لسانه بِنِسْعَةٍ، فقال: أنتم قاتلي لا محالة، فدعوني أنوح على نفسي، وأذمُّ أصحابي، فقالوا: أنت شاعرٌ ونخاف أن تهجونا، فعاهدتهم أن لا يفعلَ، فأطلقوا لسانه فقال أبياتاً منها: [من الطويل]

فيا راكباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْ نداماي من نجران أن لا تلاقيا
وتضحكُ مني شيخاً عَبْشَميَّةً كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
يعني امرأة الأَهتم، فضربوا عُنُقَهُ (١).

ومنها يوم اللوى، غزا عبد الله بن الصِّمَّة، واسمه معاوية الأصغر، من بني غَزِيَّة، فأغار على غطفان، فأطردَ إبلاً عظيمةً، فقال له أخوه دريد: النَّجاءُ فقد ظَفِرْتَ، فقال: لا أبرحُ حتى أنحرَ ناقةً، وأطبخَ منها طعاماً لي ولأصحابي، فنحرها بمكان يقال له: اللوى، وقسم الإبلَ بين أصحابه، وأدركه القومُ، وقُتِلَ عبدُ الله، وارثُ دريد (٢)، وقام

(١) العقد ٥/٢٢٤-٢٣٠، وانظر النقائض ١٤٩-١٥٤، والأغاني ١٦/٣٢٩-٣٣٤، والفضليات ١٥٧.

(٢) حُمل من المعركة جريحاً وبه رَمَق.

من بين القتلى يمشي، فنزل على امرأة من هوازن فأقام عندها، فداوته حتى برىء، فعاد إلى أهله، وقال أبياتاً أولها: [من الطويل]

أَعَاذِلَ إِنْ الرُّزَّءَ فِي مِثْلِ خَالِدٍ وَلَا رُزْءَ فِيمَا أَهْلَكَ المِرْءَ عَنِ يَدِ
ومنها:

أَمْرُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللُّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَى الغَدِ
عَلَانِيَةً ظَنُّوا بِأَلْفِي مُدَجِّجِ سَرَاتُهُمْ فِي الفَارِسِيِّ المَسْرِدِ
فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى غَوَايَتَهُمْ وَأَنْنِي غَيْرُ مُهْتَدِي
وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرُشِدَ غَزِيَّةَ أَرُشِدِ
ومنها:

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللهِ خَلَى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَافاً وَلَا طَائِشَ اليَدِ
قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمَصَائِبِ حَافِظُ مِنَ اليَوْمِ أَعْقَابَ الأحَادِيثِ فِي غَدِ
كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ نَصْفُ سَاقِهِ بَعِيدٌ مِنَ الآفَاتِ طَلَّاعُ أَنجُدِ
صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ^(١)

ومنها يوم مبايض، كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام، وأمن بعضهم بعضاً، تقننوا لئلا يُعرفوا، وكان طريف بن تميم لا يتقنع، وكان قد قتل شراحيل الشيباني، فوافى سوق عكاظ، فراه حمصيصة بن شراحيل، فقال: من هذا؟ قالوا: قاتل أبيك، فصار كلما مرَّ به يتأمله، فقال له طريف: مالك تنظر إليّ؟ قال: أتوسمك لأعرفك، فله عليّ إن لقيتك لأقتلنك أو تقتلني، فقال طريف: [من الكامل]

أَوْ كَلَّمَا وَرَدَتْ عُكَازَ قَبِيلَةَ بَعَثْتُ إِلَيَّ عَرِيفَهَا يَتَوَسَّمُ
فَتَوَسَّمُونِي إِنْنِي أَنَا ذَاكُمُ شَاكٍ سَلاحِي فِي الحَوَادِثِ مُعْلِمُ

ومضت على ذلك مدة، فأغار حمصيصة على بني تميم وهم غارون، فخرج إليه

طريف فقتله حمصيصة، وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

(١) العقد ٥/١٦٨-١٧٠، والأبيات في الأصمعيات ١٠٧ وتخريجها ثمة. المدجج: تام السلاح، سراتهم: أشرافهم، الفارسي المسرد: الدرع محكم النسج، كميّش الإزار: مشمر مجدّد، طلاع أنجد: يركب صعب الأمور.

خاض الغداة إلى طريف في الوغى حَمَصِيصَةُ المِعْوَانُ فِي الهِجَاءِ^(١)
ومنها يوم مَنَعِج، قُتِلَ فِيهِ شَأْسُ بن زهير، وكان قد أقبل من عند النعمان بن المنذر
وقد حباه بمالٍ وطيبٍ كثير، وفيه قَطِيفَةٌ حمراء ذاتُ أهداب، فورد مَنَعِج، وهو ماءٌ
لغنيٍّ، فأناخ راحلته إلى جانب الرِّدْهَةِ، وعليها خِباءٌ لرياح بن الأسَلِ الغنويِّ، فجعل
يغتسل، وامرأةٌ رياح تنظر إليه، وهو مثل الثور الأبيض، فرماه رياح بسهم فقتله، ونحر
ناقته فأكلها، وضمَّ متاعه، وغَيَّبَ أثره، وفُقِدَ شَأْس، حتى وجدوا القطيفة الحمراء تُباع
في سوق عكاظ، قد باعها امرأةٌ رياح، فطلبوا رياحاً ليقتلوه، فأفلت إلى قومه فنجا^(٢).

ومنها يوم المُرَيْقِب، كان لبني عَبْس على فزارة، اقتتلوا فانهزمت فزارة، وقتل
عوف بن بدر عنتره، وقتل أيضاً ضَمُضَماً المُرِّي، وبلغ عنتره أن حُصَيْنَ بن ضَمُضِمْ
وأخاه يتواعدانه ويشثمانه، فقال: [من الكامل]

يا دارَ عِبْلَةَ بالجِواءِ تَكَلِّمِي وعمي صباحاً دارَ عِبْلَةَ واسلمي
إلى أن قال:

ولقد خَشِيتُ بأن أَموتَ ولم تَدُرْ للحربِ دائِرَةٌ على ابني ضَمُضِمْ
الشَّاتِمِي عِرْضِي ولم أَشْتُمُهُمَا والنَّاذِرِينَ إذا لَقِيَتْهُمَا دَمِي
إن يَفْعَلَا فلقد تَرَكتُ أباهما جَزَرَ السَّبَاعِ وكلَّ نَسْرِ قَشْعَمِ^(٣)

ويُقال: إن عنتره لم يقتل عوف بن بدر، وإنما قتل ضَمُضَماً المُرِّي في ذلك اليوم.

ومنها يوم النَّفْرَاوات، قُتِلَ فِيهِ زُهَيْرُ بن جَذِيمَةَ بن رَواحةِ العَبْسِيِّ، وكانت هَوازن
تؤدي إليه الإتاوة، فجاءته عَجُوزٌ بَعَكَّةِ سَمْنٍ، فذاقها فلم يَرْضُها، فقال: ما هذا؟
فقال: تتابعُ السنين والقحط، فضربها بقوس في صدرها، فوَقَعَتْ على ظَهرِها،
وبدت عورتُها، وبلغ خالد بن جَعْفَرِ الكلابي فقال: والله لأقتلنه، ثم غزاه، فخرج زهير
إليه فقاتله، فجرح زهير، وأقام ثلاثة أيام لا يسقونه ماءً خوفاً عليه، فعطش. فقال:
اسقوني، فسقوه فمات، فقال خالد بن جعفر: [من الكامل]

(١) مجمع الأمثال ٤٤٢/٢، وروايته: خاض الغداة... المغوار.

(٢) العقد ١٣٣/٥، والأغاني ٧٥/١١.

(٣) العقد ١٥٣-١٥٤، والأبيات في ديوانه ١٨٧ و٢٢١.

وَقَتَلْتُ رَبَّهُمْ زُهَيْرًا بَعْدَ مَا جَدَعَ الْأَنْفُوفَ وَأَكْثَرَ الْأُوتَارَا
 وَجَعَلْتُ مَهْرَ بَنَاتِهِمْ وَدِيَاتِهِمْ عَقْلَ الْمَلُوكِ هَجَائِنًا وَبِكَارًا^(١)
 ومنها يوم واردات، وهو من أيام حرب البسوس، ظهرت فيه بنو تغلب على بكر،
 وقتلت فيهم همّام بن مروة، أخو جساس لأبيه وأمه، فمرّ به مهلهل فقال: والله ما قُتل
 بعد كليب قتيلٌ أعزُّ منك^(٢).

ومنها يوم الوقيط، كان في الإسلام بين تميم وبكر بن وائل، تجمعت اللهازم
 ليغيروا على تميم وهم غارون، وكان ناشب بن بشامة العنبري أسيراً في بني سعد بن
 مالك، وكان أعور، وكان حنظلة بن الطفيل أسيراً في بني سعد بن مالك أو في بني
 العنبر، فقال ناشب: أعطوني رسولاً إلى بني العنبر، أوصيهم بصاحبكم خيراً، كما
 تفعلون معي من الإحسان، فقالوا: على أن توصيه ونحن حضور، قال: نعم،
 فأحضروا رجلاً، فقال له ناشب: اذهب إلى بني العنبر، وقل لهم يُحسنوا إلى
 أسيرهم، وملاً كفه من الرمل، وأشار إلى الشمس، وقال: قل لهم يُعروا جملي
 الأضهب، ويركبوا ناقتي العيساء، و[يرعوا] حاجتي في بني مالك، وأن العوسج قد
 أورق، وأن النساء قد اشتكت، وليعصوا همّام بن بشامة فإنه مشؤوم، ويطيعوا [هذيل
 ابن] الأخنس فإنه حازم ميمون.

فمضى الرسول إليهم وأدى الرسالة، فلم يفهموا ما قال، وقالوا: والله لا نعرف له
 ناقة عيساء، ولا جملاً أضهب، ومضى الرسول، فقال رجل من بني العنبر: ويحكم!
 والله إنه يقول حقاً لو فهمتم، أما الرمل الذي قبض عليه، فإنه يقول: أتاكم عدوكم كعدد
 الرمل، وأما إشارته إلى الشمس فإنه قال: يوافقونكم عند طلوع الشمس، وأما الجملة
 الأضهب فهو الصّمان، والناقة العيساء هي للدّهناء، وهو يأمركم أن تحترزوا [فيها]،
 وأما بنو مالك فهو يأمركم أن تُنذروهم، وأن تتمسكوا بالحلف الذي بينكم وبينهم،
 وأما العوسج فيقول: إنهم قد لبسوا السلاح، وأما اشتكاء النساء فيقول: قد عملن لهم
 كل ما يحتاجون إليه حتى أسقية الماء، وأما همّام بن بشامة فكان جباناً يأمرهم

(١) العقد ٥/١٣٥-١٣٧، والأغاني ١١/٩٠.

(٢) العقد ٥/٢١٩.

بالقعود، و[هذيل بن] الأخنس كان حازماً يأمرهم بالرحيل، وأنذرت بنو عمرو بني مالك، فخالقوهم، وقالوا: ما ندري ما يقول صاحبكم، وما نحن بمتحولين، وصَبَّحَتْهُمْ اللَّهَازِمُ، فوجدوا بني عمرو قد ارتحلوا، فاجتاحوا بني مالك^(١).

قال المصنف رحمه الله: وقد روي أن الأسير حَمَلَ الرسول رسالة بغير محضر من اللهازم، وهو الأصح لأن هذا الكلام ظاهرٌ في التحذير من الرسول، فكيف كانوا يمكنونه من أداء هذه الرسالة.

ومنها يوم الهباءة، لقيس بن زهير العبسي على حذيفة بن بدر الفزاري، قتله قيس في جَفَر الهباءة، وهو مستنقعٌ بها، وقال أبو عبيدة: كانت الدائرة لبني عبس على ذبيان، قُتِلَ حذيفةٌ وحَمَلَ ابنا بدر الذُّبَيَانِ، التقوا في يوم شديد الحرِّ، فاقتلوا إلى جانب جَفَر الهباءة من أول النهار حتى اشتدَّ الحرُّ وحَجَزَ بينهم، وركض حذيفةٌ وحَمَلَ ومالك بنو بدر، وكان حذيفة على فرس يقال له: صارف، وأخوه حَمَلَ على الحنفاء، فنزلوا الجَفَر، فقال قيس بن زهير: يا بني عبس احذروا أن يفوتوكم، فساقوا خلفهم، فأدركوهم في الجَفَر، فرآهم حَمَلُ بن بدر، فقال لحذيفة ومن معه: مَنْ أَبْغَضُ إِلَيْكُمْ أَنْ يَقِفَ عَلَى رَأْسِ الجَفَرِ؟ فقالوا: قيس بن زهير والربيع بن زياد، قال: فهذا قيس والربيع، فصاح قيس: لِيَيْكُمْ لِيَيْكُمْ، أشار إلى الغلظة الذين أوصى بهم سبيع بن عمرو ولده مالك بن سبيع وقال: لا تُسلمهم إلى حذيفة، وأنه سلّمهم إليه فقتلهم حذيفة، وقد ذكرناه^(٢)، وإنما صاح قيس: لِيَيْكُمْ لِيَيْكُمْ، لأنهم كانوا يُنادونه: يا أبة يا أبة، وحذيفةٌ يُقتلهم، قال حذيفة: يا قيس ناشدتك الله والرحم، فقال قيس: لِيَيْكُمْ لِيَيْكُمْ، فعلم حذيفةٌ أنه قاتله، فقال: والله لئن قتلتنني لا تنصلحُ غطفانُ أبداً، فقال قيس: أبعدها الله ولا أصلحها.

ثم توافت فرسانُ بني عبس، وكان معهم في الجَفَر ورُقَاءُ بن هلال الثعلبي وحَنَسُ ابنُ وَهَب، وحمل عليهم شَدَادُ بن معاوية العبسي، فحال بينهم وبين خيولهم، وقتلوا الجميع، ومثلوا بحذيفة كما فعل بالغلظة، وقطعوا مذاكيره وجعلوها في فيه، ودسّوا

(١) النقاظ ٣٠٥-٣٠٧، والعقد ١٨٢/٥-١٨٤ وما بين معكوفين منهما، وانظر الملاحن لابن دريد ٥٦، وأمالي القالي ٦/١، واللاي ٢١/١، ومعجم ما استعجم ١٣٨٢/٤، ومجمع الأمثال ٤٣٣/٢.

(٢) في يوم حُسا.

لسانه في استه، ولهم في يوم الهباءة أشعار كثيرة، منها قول قيس بن زهير: [من الوافر]
تعلّم أن خير الناس ميثٌ علي جفّر الهباءة لا يريمُ
ولولا ظلّمه مازلتُ أبكي عليه الدهر ما طلع النجومُ
بغى حملُ بن بدر مع أخيه وإن البغي مصرعه وخيم^(١)
أظنّ الحلم دَلّ عليّ قومي وقد يُستضعف^(٢) الرّجل الحلِيمُ
ومارستُ الرّجالَ ومارسوني فمعوّجٌ عليّ ومُستقيمُ
ومنها يوم اليعمرية، لما بلغ عبساً ما فعل حذيفة بالغلّمان، اجتمعوا والتّقوا، فقتلوا
مالك بن سبيع الذي سلّم الغلّمة إلى حذيفة، وأخاه يزيد بن سبيع، وعامر بن لوذان
وغيرهم، وانهمز حذيفة بن بدر، ثم قُتل بعد ذلك على ما ذكرنا^(٣).



(١) رواية البيت في المصادر:

ولكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغي مرتعه وخيم
ولم أجد رواية المصنف، انظر النقائض ٩٦، والفاخر ٢٢٧، والعقد ١٥٧/٥، والأغاني ٢٠٦/١٧، وشرح
ديوان الحماسة ٤٢٩/١، وشرح الحماسة للتبريزي ٢٢١/١، ومجمع الأمثال ١١٦/٢.

(٢) في النسخ: يُستعطف، والمثبت من العقد.

(٣) العقد ١٥٥/٥.

فصل في ذكر ما سار من الأمثال

قد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه القديم، وعلى لسان رسوله الكريم، فأما أمثال القرآن العظيم فنيّف وثلاثون مثلاً، وأما ما جاء عن رسول الله ﷺ فكثير.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا همام، عن حفص بن عاصم، عن النّوّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جانبي الصّراط سُوران فيهما أبواب مُفْتَحَة، وعلى الأبواب سُتورٌ مُرخاة، وعلى باب الصّراط داعٍ يقول: أيّها النّاس، ادخلوا الصّراط ولا تعوجوا، وداعٍ يدعو من جوف الصّراط، فإذا أراد العبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: وَيَحْك لا تَفْتَحُه، فإنك إن تَفْتَحُه تَلْجُه، فالصّراط: الإسلام، والسّتور: حدودُ الله، والأبواب: محارمُ الله، والدّاعي على رأس الصّراط: كتابُ الله، والدّاعي من جوفه: واعظُ الله في قلب كلِّ مُسلم»^(١).

وقد تكلمت العربُ العاربةُ بفنون الأمثال، وقد عنيّ بجمعها علماء اللغة، كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، والميداني وغيرهم، فمن ذلك: **أَبْلَغُ مَنْ قُسَّ**، هو قُسُّ بن ساعدة الإياديّ، كان من حكماء العرب، وهو أوّل مَنْ أقرّ بالبعث منهم، وأول مَنْ قال: أما بعد، بعد داود عليه السلام، وأول مَنْ كتب: من فلان إلى فلان، وأول مَنْ قال: البينة على المدعي، واليمين على مَنْ أنكر، وأول مَنْ اتكأ على سيف أو عصا عند خطبته^(٢).

أَبْخَلُ مَنْ مَادِر، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة، سقى إبله، فبقي في أسفل الحوض ماءً قليل، فسَلَحَ فيه، ومدَرَ به الحوض^(٣)، بخلاً أن يُشرب من فضله،

قال الشاعر: [من الطويل]

(١) مسند أحمد (١٧٦٣٤) عن الحسن بن سوار، عن ليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن النّوّاس. والإسناد الذي ذكره المصنف ليس في المسند ولا في الكتب الستة، انظر أطراف المسند ٤٢٢/٥، وتحفة الأشراف ٦٠/٩-٦١.

(٢) الدرّة الفاخرة ٩١/١، وجمهرة الأمثال ٢٤٩/١، ومجمع الأمثال ١١١/١.

(٣) يعني لَطَخه.

لقد جَلَلْتُ خِزِيًّا هَلالُ بنُ عامرٍ بني عامرٍ طُرّاً بِسَلْحَةِ ما دِرِ
واسم ما دِرِ: مُخارِقٌ^(١).

أبصر من زرقاء اليمامة، من نُمير، وكانت تبصر الشَّعْرَةَ البيضاء في اللبن^(٢).

أبله من باقِل، هو رجل من ثَعْلَبَة^(٣)، اشترى ظَبِيًّا بأحد عشر درهماً، فقيل له: بكم
اشتريته؟ ففتح كَفِّه وفرَّق أصابعه، وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر درهماً،
فأنفلت الظَّبِيُّ، فضربوا به المثل في العِيِّ، قال حُمَيْدٌ يهجو ضيفاً له: [من الطويل]

أتانا وماداناه سَحْبانُ وائلٍ بياناً وعِلْماً بالذي هو قائلُ
فما زال عنه اللَّقْمُ حتَّى كأنه من العِيِّ لما أن تكَلَّمَ باقِلُ
وقال ابن الكلبي: لما نسبوه إلى العِيِّ قال: [من المتقارب]

يلومون في حُمِقِه باقِلاً كأنَّ الحَمَاقَةَ لم تُخَلَقِ
فلا تُنكِروا العِيِّ في فعله فللْعِيِّ أَجْمَلُ بالأَمْوقِ
خُرُوجُ اللِّسانِ وَفَتْحُ البَنانِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ المَنْطِقِ^(٤)
وقال أبو العلاء المَعْرِي: [من الطويل]

إذا سَفَّه الطَّائِيَّ بالبُخْلِ ما دِرُ وعَيَّرُ قَسّاً بالفَصاحَةِ باقِلُ
وقال السُّها للشَّمسِ أنت خَفِيَّةُ وقال الدُّجى للصُّبحِ لَوْنُكَ حائلُ
فيا مَوْتُ زُرْ إن الحِياةَ ذَمِيمَةٌ ويا نَفْسُ جِدِّي إنَّ دَهْرَكَ هازلُ^(٥)

أسرعُ من نكاح أم خارجة، وهي عَمْرَة بنت سعد بن عبد الله بن قُداد بن ثَعْلَبَة،
كانوا يقولون لها: خِطْبُ، فتقول: نِكْحُ، وخارجة ابنها لا يعلم ممن هو، ويُقال: هو
خارجة بن بَكْر بن يَشْكُر بن عَدْوان، ولدت أم خارجة لبَكْر بن عبد مناة الدُّبَلِ، وهو:

(١) الدرّة ٨٦/١، وجمهرة الأمثال ٢٤٦/١ و١٦/٢، ومجمع الأمثال ١١١/١، والمستقصى ١٣/١.

(٢) الدرّة ٧٩/١، والعقد ٧١/٣، والجمهرة ٢٤١/١، والمجمع ١١٤/١، والمستقصى ١٨/١.

(٣) كذا ذكر، والذي في المصادر أنه من إِياد من بني مازن، ورواية المثل: أعياء، لا أبله، انظر أمثال أبي عبيد
٣٦٨، والدرّة ٣١١، والعقد ٧٠/٣، والجمهرة ٧٢/٢، والمجمع ٤٣/٢، والمستقصى ٢٥٦/١، وفصل
المقال ٤٩٦، والوسيط ٧١/١.

(٤) المستقصى ٢٥٦/١.

(٥) شروح سقط الزند ٥٣٨-٥٣٣/٢، الطائي: هو حاتم، السُّها: كوكب خفي.

العنبر، والهَجِيم^(١).

وكانت تسير يوماً في الهُودَج وابنٌ لها يقودها، فرأت رجلاً فقالت: أظنه خاطباً،
أتراه يُعْجِلُنَا أَنْ نَحِلَّ الهُودَج، يا بنيَّ أَنْخ أَنْخ، فنكحها، وكانت ذوَاقَةً للرجال،
تزوَّجت نيفاً وأربعين زوجاً، وولدت عدَّةً قبائل: الهُجِيم، وثعلبة، وبهراء، وهلالاً،
وغيرهم^(٢).

وقال أبو عمرو بن العلاء: ولدت نيفاً وعشرين حياً من آباء متفرِّقين، وابنها خارجة
كان يصدُر في كل سنة من المَوسم وقد رحل الناس، فيرفع صوته وهو واقفٌ على
ناقته، ويقول: [من الطويل]

ولمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنيِّ كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
وَقَدْ قَلِقَتْ خُوصُ الرُّكَّابِ لَبِينِنَا وَلَمْ يَعْلَمْ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنِنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ^(٣)

أَتِيمٌ مِنَ الْمُرْقُشِ، وهو من بني سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، كان عاشقاً لفاطمة بنت المنذر بن
ماء السماء، مُتِيماً بها، وله معها قصص، وبلغ من وَجْدِهِ بِهَا أَنَّهُ قَطَعَ إِبْهَامَهُ، وبعث بها
إليها^(٤).

أَتِيَهُ مِنْ أَحْمَقِ ثَقِيفٍ، وهو يوسف بن عُمر، ولأه هشام بن عبد الملك العراق،
فضربت العربُ المثلَ بِحُمَقِهِ، حَجَمَهُ حَجَّامٌ، فارتعدت يداه خوفاً منه، فقال يوسفُ
لحاجبه: قل له: لا بأس عليك. وكان قصيراً ذميماً، فإذا فصل الخياط له ثوباً، وقال:
يحتاج إلى زيادة خِرقة أكرمه، وإن قال: هذه الخِرقة تكفيك أهانه^(٥).

(١) كذا ذكر، والذي في الدرّة الفاخرة ٢٢٤/١، ومجمع الأمثال ٣٤٨/١ أن العنبر ولدَ عامر بن عمرو البهراني
من قضاة، وأن الهُجِيم ولدَ عمرو بن تميم، وانظر جمهرة ابن حزم ٣٩٠.

(٢) المثل في الفاخر ٦٠، وأمثال السدوسي ٦٥، والكامل ٥٨٠، وثمار القلوب ٤٨١، وانظر فضل تخريج في
حواشيها.

(٣) نسبت هذه الأبيات إلى نصيب وكثير وابن الطثرية والمضرب، انظر ديوان كثير ٥٢٥، و«الشعر والشعراء»
٦٦/١.

(٤) «الدرّة» ٩٩/١، و«الجمهرة» ٢٨٣/١، و«المستقصى» ٣٨/١، و«المجمع» ١٤٨/١.

(٥) «الدرّة» ١٠٠/١، و«الجمهرة» ٢٥٨/١، و«المستقصى» ٤٠/١، و«المجمع» ١٤٩/١.

- أثقل من نَهْلان، وأُحد، وشَمام، ونَضاد، وعَماية، وهذه جبال^(١).
- أثقل من الزَّواقي، وهي الدُّيوك، كانت العرب تَسْمُرُ ليلاً، فإذا زَقَت استثقلتها؛ لأنها تُؤذِنُ بالصبح^(٢).
- أَجْرأُ من دُبَاب، إنما ضربوا به المَثَلُ لأنه يقع على أنف الملك والأسد، ويُطْرَدُ فيعود^(٣).
- أجوْدُ من كعب بن مامة بن إياد، خرج مع رِفْقَة في سفر فَعَطِشُوا، وكان معه ماءٌ فسقاهم إياه، ومات عطشاً^(٤).
- أَجْبِنُ من صافِر، وهو طائرٌ يتعلَّق في الشجر برجليه، ويُنكس رأسه خوفاً أن ينام فيؤخذ، فلا يزال يَصْفِرُ إلى السَّحَرِ^(٥).
- أَجبن من هَجْرَس، وهو الثعلب^(٦).
- أجول من قَطْرُب، وهو دُوَيْبَة تجولُ الليلَ لا تنام^(٧).
- أَجْوَع من زُرْعَة، وهي كَلْبَة لبني يَرْبوع أماتوها جوعاً^(٨).
- أَجْمَعُ من نملة^(٩).
- وأَجْرَدُ من جراد^(١٠).
- وأَجْرأُ من أسامة، وهو الأسد^(١١).

(١) «الدرّة» ١٠٣-١٠٤، و«الجمهرة» ٢٩٢/١، و«المستقصى» ٤٢/١، و«المجمع» ١٥٥-١٥٦.

(٢) الدرّة ١٠٤/١، والجمهرة ٢٩٣/١، والمجمع ١٥٦/١، والمستقصى ٤١/١.

(٣) الدرّة ١١٤/١، والجمهرة ٣٢٧/١، والمجمع ١٨١/١، والمستقصى ٤٦/١.

(٤) الدرّة الفاخرة ١٢٩/١، وجمهرة الأمثال ٣٣٨/١، ومجمع الأمثال ١٨٣/١، والمستقصى ٥٤/١.

(٥) الدرّة ١١١-١١٢، والجمهرة ٣٢٥/١، والمجمع ١٨٤/١، والمستقصى ٤٤/١.

(٦) الدرّة ١١٣/١، والجمهرة ٣٢٦/١، والمجمع ١٨٥/١، والمستقصى ٤٥/١.

(٧) الدرّة ١١٦/١، والجمهرة ٣٣٠/١، والمجمع ١٨٥/١.

(٨) الدرّة ١١٧/١، والجمهرة ٣٣١/١، والمجمع ١٨٦/١، والمستقصى ٥٧/١ وفيها أنها لبني ربيعة.

(٩) الدرّة ١٢١/١، والجمهرة ٣٣٤/١، والمجمع ١٨٨/١، والمستقصى ٥١/١.

(١٠) الدرّة ١٢٢/١، والجمهرة ٣٣٥/١، والمجمع ١٨٩/١، والمستقصى ٤٨/١.

(١١) الدرّة ١١٦/١، والجمهرة ٣٢٩/١، والمجمع ١٨٩/١، والمستقصى ٤٨/١.

أحمق من أبي عُبْشان، وهو الذي اشترى منه قُصَيّ [مفاتيح] الكعبة بزقّ خمر، وكان قد سقاه الخمر فأسكره، فلما أفاق ندم، فقال الناس: أحمق من أبي عُبْشان، أو أندم، وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

إذا افتخرت خزاعة في قديم وَجَدْنَا فَخْرَهَا شُرْبَ الْخُمُورِ
وباعوا كعبة الرحمن بخساً بزقّ بئس مُفْتَخِرَ الْفُخُورِ^(١)

أحمق من عجل، وهو ابن لُجَيْم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، قيل له: ما سميت فرسك؟ فقام ففقأ عينه، وقال: سمّيته الأعور، وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

رَمْتَنِي بِنُو عَجَلٍ بَدَاءِ أَبِيهِمْ وَأَيُّ امْرِئٍ فِي النَّاسِ أَحْمَقُ مِنْ عَجَلٍ
أليس أبوهم عارَ عين جواده فصارت به الأمثال تُضْرَبُ فِي الْجَهْلِ^(٢)

أحمق من هَبْنَقَة، وهو ذو الودعات، يزيد بن ثروان، ضلّ له بعير فجعل ينادي: مَنْ رأى بعيري فهو له، فقيل له: فأى فائدة لك؟ فقال: تستمّ فائدة حلاوة الوجدان^(٣).

أحمق من رجلة، وهي بقلة تنبت في مجاري السيول، فتمرّ بها فتقلعها^(٤).
أحلم من الأحنف بن قيس، سذكروه^(٥).

أحمى من مجير الجراد، وهو مُدْلِج بن سُوَيْد الطائي، وقيل: حارثة بن أبي حنبل، كان يمنع أحداً أن يتعرّض للجراد إذا نزل بأرضه^(٦).

أحذر من غراب، في المثل قال [الغراب لابنه]: يا بُنَيَّ إذا رُميت فتَلَوِّص [أي: تَلَوِّ]، قال: أنا أتَلَوِّص قبل أن أرمى^(٧).

(١) الدرّة ١/١٤٠-١٤١، والجمهرة ١/٣٨٧ وليس فيه الأبيات، والمجمع ١/٢١٦-٢١٧، والمستقصى ١/٧٢-٧٣ وما بين معكوفين منها.

(٢) الدرّة ١/١٤٤-١٤٥، والجمهرة ١/٣٩٠، والمجمع ١/٢١٧، والمستقصى ١/٨٣.

(٣) الدرّة الفاخرة ١/١٣٥، والعسكري ١/٣٨٥، والميداني ١/٢١٧، والزنجشري ١/٨٥.

(٤) الفاخر ١/١٥، والدرّة ١/١٥٥، والعسكري ١/٣٩٥، والميداني ١/٢٢٦، والزنجشري ١/٨١.

(٥) الفاخر ١/٢٩٨، والدرّة ١/١٦٤، والعسكري ١/٤٠٧، والميداني ١/٢١٩، والزنجشري ١/٧٠.

(٦) الدرّة ١/١٦٦، والعسكري ١/٤٠٨، والميداني ١/٢٢١، والزنجشري ١/٨٧.

(٧) أمثال أبي عبيد ١/٣٦٠، والدرّة ١/١٥٦، والعسكري ١/٣٩٦، والميداني ١/٢٢٦، والزنجشري ١/٦٢، وما بين معكوفات منها.

أَحْذَرُ مِنْ ذَيْبٍ، لَأَنَّهُ يَنَامُ وَإِحْدَى عَيْنَيْهِ مَفْتُوحَةٌ، خَوْفًا مِنْ مُعْتَالٍ، قَالَ حُمَيْدُ بْنُ ثُورٍ: [من الطويل]

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الْمَنَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمٌ^(١)
وَذَكَرُوا فِي الْخَوَاصِّ أَنَّ الْعَيْنَ الَّتِي يَنَامُ الذَّيْبُ وَهِيَ مَفْتُوحَةٌ، إِذَا عَلِقَتْ عَلَى شَخْصٍ لَا يَنَامُ حَتَّى تُزَالَ عَنْهُ، وَالْعَيْنَ الَّتِي تَنَامُ وَهِيَ مَضْمُومَةٌ إِذَا عَلَّقَهَا عَلَيْهِ لَا يَزَالُ نَائِمًا حَتَّى تُزَالَ عَنْهُ^(٢).

أَخِيرٌ مِنْ ضَبٍّ، لَأَنَّهُ إِذَا فَارَقَ جُحْرَهُ لَا يَهْتَدِي إِلَى الرَّجُوعِ إِلَيْهِ^(٣).

وَفِي الْمَثَلِ: أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ، لَأَنَّهُ رَبِّمَا أَكَلَ حُسُولَهُ^(٤).

وَمِنْ كَلَامِهِمْ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى يَرِدَ الضَّبُّ؛ لَأَنَّهُ لَا يَرِدُ الْمَاءَ وَلَا يَشْرَبُهُ^(٥).

أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ^(٦)، كَانَ لَسِينًا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَيَانِ، خَطِيبٌ مِضْقَعٌ

شَاعِرٌ، وَهُوَ الْقَائِلُ: [من الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ أَنَّنِي إِذَا قَلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنِّي خَطِيبُهَا

دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فَقَالَ لَهُ: قُمْ فَاخْطُبْ، فَقَالَ: عَلِيٌّ بَعْصًا، فَقِيلَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِهَا

وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: كَمَا صَنَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْصَاهُ وَهُوَ يَخَاطِبُ

رَبَّهُ، فَجِيءَ بِهَا، فَقَامَ فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا، وَخَطَبَ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ، فَمَا تَنَحَّحَ، وَلَا

سَعَلَ، وَلَا أَعَادَ كَلِمَةً، وَلَا شَرَعَ فِي مَعْنَى فَخَرَجَ عَنْهُ وَقَدْ بَقِيََتْ مِنْهُ بَقِيَّةٌ، وَلَمَّا جَاءَتْ

صَلَاةُ الْعَصْرِ، قَالَ مَعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَمَامَكَ، أَلَسْنَا فِي تَحْمِيدِ

(١) الدرّة ١/١٥٦، والعسكري ١/٢٩٦-٢٩٧، والميداني ١/٢٢٦-٢٢٧، والزنجشري ١/٦١، وديوان حميد

١٠٥، ورواية البيت في هذه المصادر: يقظان هاجع، وهو برواية المصنف في العقد ٦/٢٤٢.

(٢) انظر عجائب المخلوقات ص ٤٢٥.

(٣) الدرّة ١/١٥٩، والعسكري ١/٤٠٠، والميداني ١/٢٢٧، والزنجشري ١/٩٠.

(٤) الدرّة ١/٣٠٦، والعسكري ١/٦٩، والميداني ١/٤٧، والزنجشري ١/٢٥٠ وحسوله: أولاده.

(٥) الدرّة ١/٢١٠، والميداني ١/٣١٥.

(٦) الميداني ١/٢٤٩، والزنجشري ١/١٠٢، وروي في الدرّة ١/٩٠، والعسكري ١/٢٤٨: أبلغ من سحبان

وائِل، والبيت الآتي في المصادر خلا المستقصى.

وتمجيد، ووعيدٍ ووعيدٍ؟ فقال له معاوية: أنت أخطبُ العرب، فقال: العرب وحدها؟!
والعجم، والجن، والإنس، فقال معاوية: صدقت^(١).

وهو الذي مدح طلحةَ الطَّلحات فقال: [من مجزوء الكامل]

يا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسَباً وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدِ
مَنْكَ الْعِطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدِ
فقال له طلحةُ: احتكم، فقال: بِرِذْوَنِكَ الْوَرْدِ، وَغُلَامِكَ الْخَبَّازِ، وَقَصْرِكَ بَزْرَنْجِ،
وعشرة آلاف درهم، فقال طلحة: أفتُ لك، إنما سألتني على قَدْرِكَ، ولو سألتني على
قَدْرِي لأعطيْتُكَ كُلَّ دَابَّةٍ، وَكُلَّ عَبْدٍ، وَكُلَّ قَصْرِ، وَكُلَّ مَالٍ هُوَ لِي، ثم أمر له بما سأل،
ثم قال: تالله ما رأيتُ مسألةً مُحَكِّمٍ أَلَّامٍ مِنْ هَذَا^(٢).

أُخِنْتُ مِنْ هَيْتِ، كَانَ بِالْمَدِينَةِ^(٣).

أُخِنْتُ مِنْ مُصَفَّرِ اسْتِهِ، هُوَ أَبُو جَهْلٍ بِنِ هِشَامِ، وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبَتِهِ الْأَنْصَارِ، كَانُوا
يَغِيظُونَ بِهِ مِنْ هَاجِرٍ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، فَنَهَاَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ^(٤).

أَخْلَى مِنْ جَوْفِ حِمَارٍ، وَهُوَ اسْمُ وَادٍ فِي أَرْضِ عَادٍ، فِيهِ مَاءٌ وَشَجَرٌ، حَمَاهُ حِمَارُ
ابْنِ مُوَيْلَعٍ، وَكَانَ لَهُ بَنُونَ فَمَاتُوا، فَكَفَرَ كُفْرًا عَظِيمًا، وَقَتْلَ كُلِّ مَنْ مَرَّ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،
فَأَقْبَلَتْ نَارٌ مِنْ أَسْفَلِ الْجَوْفِ فَأَحْرَقَتْهُ وَمَنْ فِيهِ، وَغَاضَ مَاءُوهُ، فَقَالُوا: أَكْفَرَ مِنْ حِمَارٍ،
وَوَادٍ كَجَوْفِ حِمَارٍ.

وقيل: المراد به حمار الوَحْشِ، لأنه يُرمى جميعُ ما في جوفه إذا صِيدَ، فلا يُتَفَعُّ به^(٥).

أَدَقُّ مِنْ خَيْطِ بَاطِلٍ، هُوَ لُعَابُ الشَّمْسِ، وَقِيلَ: الْخَيْطُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ فَمِ
العنكبوت، وكان مروان بن الحكم يُلقَّبُ خَيْطَ بَاطِلٍ^(٦).

(١) جمهرة الأمثال ١/٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الخبر مع الشعر في الدرر ١/٩١، و«الميداني ١/٢٤٩».

(٣) الدرر ١/١٨٢، والعسكري ١/٤٣٥، والميداني ١/٢٤٩، والزنجشري ١/١١١.

(٤) الدرر ١/١٨٨، والعسكري ١/٤٣٨، والميداني ١/٢٥١، والزنجشري ١/١١٠.

(٥) الدرر ١/١٨٠، والعسكري ١/٤٣٥، والميداني ١/٢٥٧، والزنجشري ١/٩٨.

(٦) الدرر ١/١٩٨، والعسكري ١/٤٥٤، والميداني ١/٢٧٣، والزنجشري ١/١١٨.

أَدَلُّ من حُنَيْفِ الحَنَاتِمِ، هو رجل من تَيْمِ اللَّاتِ بن ثَعْلَبَةَ، كان ماهراً بالدَّلالة ومعرفة الطُّرُق^(١).

أَذَلُّ من فَقْعِ [بَقْرَقَر]، يُشَبَّه به الرجل الذَّلِيلُ، يقال: هو فَقْعُ قَرَقِرٍ، لأن الدَّوَابَّ تَنْجُلُهُ بأرجُلها، وهو ضَرْبٌ من الكَمَأَةِ البيضاء الرِّخْوَةِ^(٢).

أَرْوَى من النَّعَامَةِ، لأنها لا تُرِيدُ الماءَ ولا تطلبه، فإن رَأَتْهُ أو شربته كان عَبثاً^(٣).

أَزْكَنُ من إِيَّاسٍ، وهو التَّفْرُسُ والظَّنُّ، وإِيَّاسٌ: هو ابن معاوية المَزْنِي، والعامَّة تقول: أذكى، وهو خطأ، فإن قيل: فقد قال أبو تمام: [من الكامل]

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي جِلْمِ أَحْنَفِ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ
فالجواب: إنما قاله لضرورة الشعر^(٤).

أَزْنَى من ظُلْمَةٍ، وهي امرأة زَنَتْ أربعين سنة، ثم قَادَتْ^(٥) أربعين سنة، ولما عَجَزَتْ عن القسمين اتَّخَذَتْ تَيْساً وَأَعْنُزاً، فقيل لها في ذلك، فقالت: لأسمع أصوات الجِماع. أَزْنَى من قِرْدٍ^(٦).

أَزْهَى من غُرَابٍ، لأنه إذا مَشَى يَخْتَالُ وَيَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ، قال الشاعر: [من المتقارب]

أَشَدُّ لَجَاجاً مِنَ الحُنْفَسَاءِ وَأَزْهَى إِذَا مَا مَشَى مِنْ غُرَابٍ^(٧)
ويقال: أزهى من طاووس وديك^(٨).

(١) الدرّة ٢٠٠/١، والعسكري ٤٥٦/١، والميداني ٢٧٣/١، والزنجشري ١١٨/١.

(٢) الدرّة ٢٠٤/١، والعسكري ٤٦٩/١، والميداني ٢٨٤/١، والزنجشري ١٣٤/١.

(٣) الدرّة ٢١٠/١، والعسكري ٤٩٨/١، والميداني ٣١٥/١، والزنجشري ١٤٧/١.

(٤) الدرّة ٢١٥/١، والعسكري ٥٠٧/١، والميداني ٣٢٥/١، والزنجشري ١٤٨/١، وديوان أبي تمام بشرح التبريزي ٢٤٩/٢.

(٥) في النسخ: ثم استحسنت!؟ والمثبت من العقد ٧٢/٣، والمثل في الدرّة ٣٥٣/٢، والعسكري ١٣١/٢، والميداني ١٢٥/٢، والزنجشري ٢٨٧/١ برواية: أقود من ظلمة.

(٦) الدرّة ٢١٣/١، والعسكري ٥٠٦/١، والميداني ٣٢٦/١، والزنجشري ١٤٩/١.

(٧) الدرّة ٢١٤/١، والعسكري ٥٠٧/١، والميداني ٣٢٧/١، والزنجشري ١٥١/١.

(٨) الميداني ٣٢٧/١، والزنجشري ١٥١/١.

أَسْرَقُ من بُرْجان، هو سارق بالكوفة، صُلب في سَرِقة، فسرق وهو مصلوب^(١).
 أَسْرَقُ من شِظاظ، وهو لصٌّ في بني ضَبَّة، مرَّ بامرأةٍ من نُمَيْرٍ تَعْقِلَ بعيراً لها،
 وتَعَوَّذَ من شِظاظ، وكان راكباً على بَكْرٍ له، فقال لها: تخافين من شِظاظ، فغافلها
 وركب بعيرها، وساق بعيره، وقال: [من الرجز]

رُبَّ عَجُوزٍ من نُمَيْرٍ شَهَبَرَه عَلَّمْتُهَا الإِنْقَاضَ بعد القَرْقَرَةِ^(٢)
 أَسْأَلُ من فَلَاحِس، وكان سيِّداً عزيزاً في قومه، مرَّ به قومٌ يَغزُونَ، فقال لهم: اجعلوا
 لي قسماً في الجيش، قالوا: نعم، قال: ولامرأتي، قالوا: نعم قال: ولابني زاهر،
 قالوا: نعم، قال: ولعبدي، قالوا: نعم، قال: ولناقتي، قالوا: لا، قال: فإني جارٌّ
 لمن طلعت عليه الشَّمْسُ، وما نَعُهُ منكم، فرجعوا خائبين، ولم يَغزُوا عامهم ذلك^(٣).
 أَسْأَلُ من قَرْنَع، وهو من بني أوس بن ثعلبة، كان في زمن معاوية، وفيه يقول
 أعشى باهلة^(٤): [من الوافر]

إذا ما القَرْنَعُ الأَوْسِيُّ وَالْيَ عَطَاءُ النَّاسِ أَوْسَعَهُمْ سُؤْالاً
 أَسْمَعُ من سِمْعٍ، وهو مُرْكَبٌ من الضَّبْعِ والدُّبِّ، يَثِبُ مقدارَ ثلاثين ذراعاً، ويُسَابِقُ
 الطَّيْرَ^(٥).

أَشْأَمٌ من أحمر ثمود، وهو قُدار بن سالف^(٦).
 أَشْأَمٌ من البَسُوسِ، وهي بنتُ مُنْقِذٍ^(٧) من بني تميم، خالة جَسَّاس بن مُرَّة الشيباني،

(١) الدرّة ١/٢٣١، والعسكري ١/٥٣٣، والميداني ١/٣٥٣، والزنجشري ١/١٦٦.
 (٢) الدرّة ١/٢٣٠-٢٣١، والعسكري ١/٥٣٢، والميداني ١/٣٤٧، والزنجشري ١/١٦٧.
 (٣) الدرّة ١/٢٢٩، والعسكري ١/٥٣٢، والميداني ١/٣٤٧، والزنجشري ١/١٥٢.
 (٤) كذا، والذي في الدرّة ١/٢٣٠، والعسكري ١/٥٣٢، والميداني ١/٣٤٧، والزنجشري ١/١٥٢: أعشى
 بني تغلب.

(٥) الدرّة ١/٢٢٦، والعسكري ١/٥٣٠، والميداني ١/٣٥٢، والزنجشري ١/١٧٢-١٧٣.
 (٦) الدرّة ١/٢٤٧، والعسكري ١/٥٥٨، والميداني ١/٣٧٩، والزنجشري ١/١٧٦.
 (٧) في النسخ: سعد، والمثبت من مجمع الأمثال ١/٣٧٤، والعقد ٥/٢١٤، والاشتقاق ٢٥٨، وثمار القلوب
 ٤٧٥، والمثل في الدرّة ١/٢٣٦، والفاخر ٩٣، والعسكري ١/٥٥٦، والزنجشري ١/١٧٦، وفصل المقال
 ٥٠٤، والعقد ٣/٧١.

كانت لها ناقةٌ يقال لها: سَرَاب، فرآها كُليبٌ ترعى في حِماه، وقد كَسرت بِيضَ طائرٍ كان قد أجاره، فرمى ضَرَعها بسهم فوثب جَسَّاسٌ على كُليبٍ فقتله، فهاجت الحربُ بين بكرٍ وتغلب ابني وائل بسببها أربعين سنة، حتى ضربت بها العربُ المثلَ في الشُّوم، وكان بين هذه الحرب ومبعث رسول الله ﷺ ستون سنة.

وقال أبو عبيدة: وكان للبَسوس جَارٌ من جَرَمٍ يقال له: سَعْد بن شمس، وكان له ناقةٌ يقال لها: سَرَاب، وكان كُليبٌ قد حمى أرضاً من أرضِ العالية في مستقبل الربيع، فلم يكن يرها أحدٌ إلا جَسَّاسٌ لمصاهرةٍ بينهما، لأن جَليلة بنت مُرَّة أخت جَسَّاس كانت تحت كُليب، فخرجت ناقة الجَرَمي ترعى في حِمى كُليب فأنكرها، فرماها بسهم فأصاب ضَرَعها، فولت حتى بَرَكتُ بفناء صاحبها، وضَرَعها يَشخب لبناً ودماً، فلما نظر إليها صاحبها صاح واذلاًه، واذلاًه جاراه، فخرجت جارية البَسوس، فلما رأت الناقة ضربت يدها على رأسها وصاحت: واذلاًه، وقالت: [من الطويل]

لَعَمْرِي لو أصبحْتُ في دار مُنقِدٍ لما ضِيمَ سَعْدٌ وهو جارٌ لأبياتي
ولكنني أصبحْتُ في دارِ غُرْبَةٍ متى يَعْدُ فيها الذئبُ يعدو على شاتي
فيا سَعْدُ لا تغرر بنفسك وارتحلُ فإنك في قومٍ عن الجار أمواتِ
ودونك أذوادي فإني عنهم لراحلةٌ لا يَغْدِروا ببُنَيَّاتي^(١)

فسمعها جَسَّاس، فقال: اسكني أيُّها المرأة، فليقتلنَّ جملٌ عظيم، هو أعظم من ناقة جارك، ولم يزل جَسَّاس يتوقع غِرَّةَ كُليبٍ حتى خرج كُليبٌ لا يخاف شيئاً، فتباعد عن الحيي، وتبعه جَسَّاس ومعه عمرو بن الحارث، فأدرك جَسَّاس كُليباً فطعنه بالرُمح، فدقَّ صُلْبُه فأنفذه، فقال كُليب: يا جَسَّاسُ اسقني شربةَ ماء، فقال: [تركت] الماء وراءك، ثم أدركه عمرو بن الحارث فأجهزَ عليه، ونشبت الحرب بينهم أربعين سنة حتى قُتل أكثر بكر، وكانت الغلبة لتغلب عليهم.

وقال هشام بن الكلبي: لم تجتمع مَعَدُّ كلُّها إلا على ثلاثة رَهْطٍ من رؤساء العرب: عامر بن الظَّرِب، وربيعه بن الحارث، وكُليب بن وائل، وكان كُليبٌ قد بلغ في مَعَدُّ منزلةً عالية، حتى ضرب به المثلُ، فقالوا: أعزُّ من كُليبٍ وائل^(٢)، حتى كان يحمي

(١) الفاخر ٩٣، وثمار القلوب ٤٧٥، والمستقصى ١٧٦/١، والميداني ٣٧٥/١.

(٢) الفاخر ٩٣، والدرة ٣٠٠/١، والعسكري ٦٥/٢، والميداني ٤٢/٢، والزنجشري ٢٤٦/١.

مَوَاقِعَ السَّحَابِ، فَلَا تُرْعَى، وَيُجِيرُ عَلَى الدَّهْرِ فَلَا تُخْفَرُ ذِمَّتُهُ، وَيَقُولُ: وَحُشُّ الأَرْضِ فِي جَوَارِي فَلَا يُهَاجُ، وَلَا يُورِدُ أَحَدٌ مَعَ إِبِلِهِ، وَلَا تُوقَدُ نَارٌ مَعَ نَارِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ ابْتِدَاءً، وَهُوَ كَلِيبُ بَنِ رِبِيعَةَ بِنِ وائِلٍ، سَيِّدُ رِبِيعَةَ فِي زَمَانِهِ، وَأَطَاعَتُهُ العَرَبُ وَمَلَكَتُهُ، وَجَعَلُوا لَهُ قِسْمَ الأَمْوَالِ، وَكَانَ كَلِيبٌ قَدْ فَضَّ جُمُوعَ اليَمَنِ كُلَّهَا، فَتَوَجَّهَتْهُ العَرَبُ، وَتَزَوَّجَ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةٍ.

وَكَانَ بَنُو جُشَمٍ وَبَنُو شِيْبَانَ يَنْزِلُونَ بِتِهَامَةَ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَتِ البَسُوسُ فِي بَنِي شِيْبَانَ، وَلَهَا نَاقَةٌ يُقَالُ لَهَا: سَرَابٌ، وَبِهَا ضَرَبَتِ العَرَبُ المَثَلَ، فَقَالُوا: أَشْأَمُ مِنْ سَرَابٍ^(١)، فَمَرَّتْ إِبِلٌ مِنْ [إِبِل] كَلِيبِ بِسَرَابٍ، وَهِيَ مَعْقُولَةٌ بِفِنَاءِ بَيْتِ البَسُوسِ جَوَارِ جَسَّاسٍ، فَلَمَّا رَأَتِ النَاقَةَ الإِبِلَ نَازَعَتْ عِقَالَهَا إِلَيْهِمْ حَتَّى قَطَعَتْهُ، وَتَبَعَتْ الإِبِلَ، فَاخْتَلَطَتْ بِهَا حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الحَوْضِ وَكَلِيبٌ عَلَيْهِ، فَرَأَاهَا فَأَنكَرَهَا، فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَخَرَمَ ضَرَعَهَا، فَفَرَّتِ النَاقَةُ وَهِيَ تَرغُو، فَلَمَّا رَأَتْهَا البَسُوسُ أَلْقَتْ خِمَارَهَا عَنِ رَأْسِهَا وَصَاحَتْ: وَادُّلَاهُ وَاجارَاهُ، وَسَمِعَهَا جَسَّاسٌ، فَركَبَ فَرَساً لَهُ عُرْيَانَةٌ، وَتَبَعَهُ عَمْرُو بْنُ الحَارِثِ^(٢) بَنِ ذُهَلِ بْنِ شِيْبَانَ، وَكَانَ كَلِيبٌ قَدْ طَغَى وَبَغَى، فَدَخَلَ عَلَى كَلِيبِ الحِمِيِّ، فَطَعَنَهُ جَسَّاسٌ، فَقَصَمَ صُلْبَهُ، وَتَمَمَهُ عَمْرُو، فَوَقَعَ كَلِيبٌ يَفْحَصُ بِرِجْلَيْهِ، وَقَالَ لَجَسَّاسٍ: أَغْنِنِي بِشَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَقَالَ: [هِيَهَاتَ، تَجَاوَزْتَ] شُبَيْثًا وَالأَحْصَ، يَعْنِي: مَوْضِعَ المَاءِ، وَفِيهِ يَقُولُ عَمْرُو بْنُ الأَهْتَمِ: [مِنَ الطَوِيلِ]

وَإِنْ كَلِيباً كَانَ يَظْلَمُ قَوْمَهُ
فَأَذْرَكَهُ مِثْلُ الَّذِي تَرِيَانِ
فَلَمَّا حَشَاهُ الرُّمْحَ كَفُّ ابْنِ عَمِّهِ^(٣)
تَذَكَّرُ ظُلْمَ الأَهْلِ أَيَّ أَوَانِ
وَقَالَ لَجَسَّاسٍ أَغْنِنِي بِشَرْبَةٍ
وَإِلَّا فَخَبِّرْ مَنْ رَأَيْتَ مَكَانِي
فَقَالَ تَجَاوَزْتَ الأَحْصَ وَمَاءَهُ
وَبَطْنَ شُبَيْثٍ وَهُوَ غَيْرُ دِفَانِ

أَي: قَلِيلٌ.

(١) الدرّة ١/٢٣٧، والعسكري ١/٥٥٦، والميداني ١/٣٩٠، والزنجشري ١/١٨٢.

(٢) فِي النسخ: وائِلٌ، والمثبت من النقائض ٩٠٥، والعقد ٥/٢١٤.

(٣) فِي النسخ: كَفُّ بَزَعَمِهِ، والمثبت من العقد ٥/٢١٥، وما بين معكوفين منه، وانظر معجم ما استعجم ٣/٧٨٠.

وقال النابغة الجعدي: [من الطويل]

كُلَيْبٌ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ ذَنْبًا مِنْكَ ضُرِّجَ بِالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بِطَعْنَةٍ كحاشية البرد اليماني المُسَهَّمِ
وَقَالَ لَجَسَّاسٍ أَغْثَنِي بِشَرْبَةٍ تَدَارِكُ بِهَا مَنْنًا عَلَيَّ وَأُنْعِمَ
فَقَالَ تَجَاوَزْتَ الْأَحْصَى وَمَاءَهُ وَبَطْنَ شَبِيثٍ وَهُوَ ذُو مُتْرَسَمٍ^(١)

ولما قُتل كُليب، ارتحلت بنو شيبان، فنزلوا بماء يُقال له: النَّهْي، واستعدَّ عديُّ بن ربيعة أخو كُليب لحرب بَكْر، ويقال له: المَهْلَهْل؛ لأنه أوَّل من هَلَهَلَ الشعر، أي: أَرَقَّهُ، وجمع مُهلهل قومه، وحرَّم الشراب والنساء والغزل والقمار، حتى يأخذ بثأر أخيه، وهو القائل: [من الكامل]

نُبِّئْتُ أَنْ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُليبُ الْمَجْلِسُ
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتُ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا^(٢)

ولما استعدَّ مُهلهلٌ لحرب بَكْر، أرسل رجلاً من قومه إلى بني شيبان يُعذر إليهم، فأتوا مُرةً بن ذهل بن شيبان، وهو في نادي قومه، فقالوا: لقد ارتكبتم عظيمًا بقتلكم كليباً بنابٍ من النوق، فقطعتم الرِّحْم، وانتهكتم الحُرْمَةَ، وإنَّا كرهننا العَجَلَةَ عليكم دون الإعذار إليكم، ونحن نعرض عليكم خِلالاً، قال: وما هي؟ قالوا: إما أن تُحيوا لنا كُليباً، أو تدفعوا إلينا جَسَّاساً وعمراً أو همَّاماً - يعني أخا عمرو - أو تمكَّنَّا من نفسك، فإن بها وفاء من دمه. فقال مُرة: أما إحيائنا كليباً فهذا من السَّفَه، لأنه تكليفٌ ما ليس في الوسع، وأما جَسَّاس فإنه غلامٌ طعن طَعْنَةً على عَجَل، وركب فرسه، ولا أدري إلى أين ذهب ومعه عمرو، وأما همَّام فإنه أبوعشرة، وأخو عشرة، وعمُّ عشرة، كلُّهم فرسان قومهم، ولن يُسلموه لي فأدفعه فيقتل بجريرة غيره، وأما أنا فلا ناقة لي في هذه ولا جَمَل، ولا جنيتُ جنايةً فأسلم نفسي، وما هو إلا أن تجول الخيل، فأكون أوَّل قتل بينهم، فلم أتعجل الموت، ولكن لكم عندي خصلتان:

(١) ديوانه ١٤٢-١٤٥، والنقائض ٩٠٦، والعقد ٢١٥/٥، والأغاني ٣٣-٣٤، ومعجم ما استعجم ٣/٧٨٠. المسهم: المخطط بصورة على شكل السهام.

(٢) شرح ديوان الحماسة ٩٢٩، والكامل ٤١٢، والتعازي والمرائي ٢٩٠، والعقد ٢٩٨/٣، والأماي ٩٥/١.

أما إحداهما: فهؤلاء أولاد القاتلين^(١)، عَلَّقُوا فِي عُنُقِ أَحَدِهِمْ، أَوْ أَيٍّ مِنْ شَتْمٍ مِنْهُمْ نِسْعَةً، وانطلقوا به إلى رحالكم، فاذبحوه ذَبْحَ الشَّاةِ. وأما الأخرى: فهذه أَلْفُ نَاقَةِ سُودِ الْحَدَقِ، أُقِيمَ لَكُمْ بِهَا كَفِيلًا مِنْ بَكَرٍ وَائِلٍ. فغضبوا وقاموا عنه، ووقعت الحرب بينهم، ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها، ورثى مهلهل كليباً بأشعار منها: [من البسيط]

كَلِيبُ لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا
كَلِيبُ أَيِّ فِتْيٍ عِزٌّ وَمَكْرُمَةٌ
نَعَى النُّعَاةُ كَلِيبًا لِي فَقُلْتُ لَهُمْ
العَزْمُ وَالْحَزْمُ كَانَا مِنْ طَبِيعَتِهِ
لَيْتَ السَّمَاءُ عَلَى مَنْ تَحْتَهَا وَقَعَتْ
لَا أَصْلَحَ اللَّهُ مَنَا مَنْ يُصَالِحُكُمْ
إِذْ أَنْتِ خَلَّيْتَهَا مَعَ مَنْ يُخَلِّيهَا
تَحْتَ السَّقَائِفِ إِذْ يَعْلُوكُ سَافِيهَا
مَادَتْ بِنَا الْأَرْضُ أَوْ زَالَتْ رِوَاسِيهَا
مَا كُلُّ آلَاءِهِ يَا قَوْمُ نَحْصِيهَا
وَانشَقَّتْ الْأَرْضُ فَانجَابَتْ بِمَنْ فِيهَا
مَا لَاحَتْ الشَّمْسُ فِي أَعْلَى مَجَارِيهَا^(٢)
أَشَامُ مِنْ رَغِيفِ الْحَوْلَاءِ، هِيَ خَبَازَةٌ كَانَتْ فِي بَعْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، نَازِلَةٌ فِي جِوَارِهِمْ، وَكَانَتْ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ، مَرَّتْ بِخُبْزِهَا عَلَى رَجُلٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا رَغِيفًا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَخَذْتَهُ إِلَّا لِتُخْفِرَ جِوَارَ فُلَانٍ - يَعْنِي الَّذِي كَانَتْ فِي جِوَارِهِ - فَجَاءَ الرَّجُلَ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهَا فِي جِوَارِهِ إِلَى الَّذِي أَخَذَ الرَّغِيفَ، فَقَالَ لَهُ: أَخْفَرْتَ جِوَارِي؟! فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، وَاقْتَتَلُوا فَقُتِلَ مِنْهُمْ أَلْفُ رَجُلٍ^(٣).

أَشَامُ مِنْ طُوَيْسٍ، وَهُوَ مُخَنَّثٌ نَذَرُهُ^(٤).

أَشَامُ مِنْ قَاشِرٍ، اسْمُ فَحْلٍ كَانَ لِبَنِي عُوَافَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ، وَكَانَتْ لِقَوْمِهِ إِبِلٌ [تُذَكِّرُ]، فَاسْتَطْرَقُوهُ رَجَاءً أَنْ يُؤْنِثَ إِبِلَهُمْ، فَمَاتَتِ الْأَمَهَاتُ وَالنَّسْلُ، فَضْرِبَتْ الْعَرَبُ بِهِ الْمَثَلَ.

وقيل: قاشر اسم الرجل الذي دلَّ حسان بن تَبَعٍ عَلَى جَدِيسٍ حَتَّى اسْتَأْصَلَهُمْ^(٥)،

(١) في العقد ٥/٢١٦: فهؤلاء بنى الباقون.

(٢) العقد ٥/٢١٧.

(٣) الدررة ١/٢٤٧، والعسكري ١/٥٥٧، والميداني ١/٣٨٢، والزنجشري ١/١٨٢.

(٤) الدررة ١/٢٣٥، والعسكري ١/٥٣٨، والميداني ١/٣٩٠، ويروى: أخنث.

(٥) سلفت القصة في باب ملوك الحيرة. وانظر الدررة ١/٢٣٧، والعسكري ١/٥٥٦، والميداني ١/٣٨٠.

وهو قاشر بن مَرَّة أخو زرقاء اليمامة، واسمه رياح، ولقبه قاشر لشؤمه.

أشام من منشم، امرأة كانت بمكة عطاراً، وكانت خُزاعة وجُرهم إذا أرادوا

القتال، تطيبوا من طيبها، فتكثر القتلى، فصارت مثلاً. قال زهير: [من الطويل]

تداركُثما عَبَساً وذُبيان بعدما تفانُوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمٍ^(١)

وقيل: إنها كانت تباع الحنوط بمكة، وقيل: إنها كانت عطاراً بمكة، وكان من أراد

أن يشتري منها عطراً شمّه، فقالوا: عِطْرُ مَنْ شَمَّ، وأن جماعة تعدّوا عليها وأخذوا

طيبها، فتطيبوا به، ثم إنهم فضحوها، وعلم بهم أهلها فأدركوهم وقالوا: اقتلوا من

تَطَيَّبَ بعِطْرِها، فشَمَّوهم فقتلوهم^(٢).

أشغل من ذات النخيين، هي امرأة من تيم الله بن ثعلبة، كانت تباع السمن في

الجاهلية، فأتاها خوات بن جبير الأنصاري يبتاع منها سمناً، فلم يجد عندها أحداً،

فساومها، فحلت نَحياً مملوءاً، فنظر إليه وقال: أمسك به حتى أنظر إلى غيره، ثم فتحت

له نَحياً آخر، فنظر فيه وقال: أمسك به حتى أعيد النظر إلى الآخر، فلما شغل يديها

ساورها، فلم تقدر على دفعه لشغل يديها، ففضى ما أراد منها وهرب، وقال في ذلك:

[من الطويل]

خَلَجْتُ لها جارَ اسْتِها خَلَجَاتِ

بِنِخَيْينِ من سَمْنِ ذوي عُجْرَاتِ

وويلُّ لها من شِدَّةِ الطَّعْنَاتِ

على سَمْنِها والفتكُ من فَعَلَاتِي^(٣)

وذا تِ عِيالٍ واثِقِينَ بعقلها

شَغَلْتُ يديها إذ أردتُ خِلَاطَها

فكانت لها الويلا ت من تَرَكَ سَمْنِها

فشدَّت على النِّخَيْينِ كفاً شحيحةً

وهجا رجلٌ تيم الله فقال: [من الوافر]

فَعُدُّوها إذا عُدَّ الصَّمِيمُ^(٤)

أناسُ رَبَّةُ النِّخَيْينِ منهم

(١) ديوانه ١٥.

(٢) الدرّة ١/٢٤٢، والعسكري ١/٥٥٧، والميداني ١/٣٨١، والزنجشري ١/١٨٤.

(٣) الفاخر ٨٦، والدرّة ١/٢٦٠ و٢/٤٠٤، والعسكري ١/٥٦٤ و٢/٣٢١، والميداني ١/٣٧٦، والزنجشري ١/٩٩-١٠٠ و١٩٦.

(٤) الفاخر ٨٧، والميداني ١/٣٧٧.

أَصْحٌ من عَيْرِ أَبِي سَيَّارَةَ، هو رجل من بني عَدُوَان، كان له حمارٌ أسود، أجاز الناس عليه في الجاهلية من عرفات إلى منى أربعين سنة^(١).

أَصْدَقُ من قَطَاةٍ؛ لأن لها صوتاً واحداً لا تُغَيِّرُهُ، تقول: قَطَا قَطَا^(٢).

أَصْفَى من ماء المَفَاصِلِ، هذا مثل للعرب في رِقَّةِ الشَّيْءِ وصفائه^(٣).

أَظْلَمُ من حَيَّةٍ، لأنها لا تَتَّخِذُ بيتاً لنفسها، وإنما تدخل بيتاً لغيرها فتَسْكُنُهُ، فيهرب صاحبُه.

وكذا قولهم: أَظْلَمُ من أفعى، وأظلم من ذئب، لأنه يتعدى بالطبع كالعقرب.

وكذا قولهم: أَظْلَمُ من تِمَسَاحٍ، وأظلم من الجُلَنْدِي، وهو من أجداد الحجاج، بينهما سبعون جَدًّا، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وَأَظْلَمُ من شَيْبٍ، لأنه ربما هجم على صاحبه قبل أوانه^(٤).

أَعْرُ من بَيْضِ الْأَنْوَقِ، وهو الرَّخَمُ يَخْزِنُ بَيْضَهُ في رؤوس الجبال ويُحَمِّقُ، قال الكُميت: [من الوافر]

وذا تُ اسْمَيْنِ والألوانُ شَتَّى تُحَمِّقُ وهي كَيْسَةُ الحَوِيلِ^(٥)
ذات اسمين: لأنها تُسَمَّى الأنوق والرَّخَمَةَ.

وَأَعْرُ من الغرابِ الأَعْصَمِ، وهو الذي إحدى رجليه بيضاء، وهو نادر، والذي في جناحه ريشة بيضاء.

و: الأَبْلَقُ العَقُوقُ: لكلِّ شيءٍ يَعْرُ وَجُودُهُ، وهو مثلٌ لما لا يكون.

وَأَعْرُ من الكبريت الأحمر، فإنه لا يُوجد أيضاً.

(١) الدرّة ٢٧١/١، والعسكري ٥٨٨/١، والميداني ٤١٠/١، والزنجشري ٢٠٥/١.

(٢) الدرّة ٢٦٥/١، والعسكري ٥٨٤/١، والميداني ٤١٢/١، والزنجشري ٢٠٦/١.

(٣) الدرّة ٢٢٦/١، والعسكري ٥٨٤/١، والميداني ٤١٢/١، والزنجشري ٢١٠/١.

(٤) الدرّة ٢٩٣-٢٩٥/١، والعسكري ٢٩-٣١/٢، والميداني ٤٤٥-٤٤٧/١، والزنجشري ٢٣١-٢٣٤.

(٥) ديوانه ٣٥٤، والدرّة ١٥٤/١، والميداني ٢٢٦/١، والزنجشري ٨٢/١.

أَعَزُّ مِنْ أُمِّ قِرْفَةٍ، هِيَ امْرَأَةٌ مِنْ فَزَارَةَ، كَانَتْ تَحْتَ مَالِكِ بْنِ حُذَيْفَةَ، وَكَانَ يُعَلِّقُ فِي بَيْتِهَا خَمْسُونَ سَيْفًا لْخَمْسِينَ رَجُلًا، كُلَّهُمْ لَهَا مَحْرَمٌ^(١).

أَعْطَشُ مِنْ ثُعَالَةٍ، وَهُوَ اسْمٌ لِلذَّبِّ، وَقِيلَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُجَاشِعٍ، خَرَجَ هُوَ وَنَجِيحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُجَاشِعٍ فِي غَزَاةٍ فَعَطَشَا، فَشَرِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَوْلَ الْآخَرِ، فَمَاتَا عَطَشًا^(٢).

أَعْدَرُ مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ، لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ أَعْدَرُ مِنْهُ وَلَا أَكْذَبُ، أَمَّا غَدْرَاتُهُ فَكَثِيرَةٌ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي مِثْقَرِ قَوْمِهِ، فَجَبَّاهَا وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَلَّغَهُ، فَقَسَمَهَا فِي قَوْمِهِ، وَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَالَ: [مِنَ الطَّوِيلِ] أَلَا أَبْلِغَا عَنِّي قَرِيشًا رِسَالَةً إِذَا مَا أَتَتْهُمْ مَهْدِيَاتُ الْوُدَاعِ حَبَوْتُ بِمَا جَمَعْتُ مِنْ آلِ مِثْقَرٍ وَأَيَسْتُ مِنْهَا كُلَّ أَطْلَسٍ جَائِعٍ^(٣) وَأَمَّا كَذِبُهُ فَهوَ يُضْرِبُ الْمِثْلَ، قَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَلَسْتُ بِفَرَّارٍ إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ وَلَسْتُ بِكَذَّابٍ كَقَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ^(٤) أَفْرَغُ مِنْ حَجَّامِ سَابَاطٍ، كَانَ يَحْجُمُ الْجُنْدَ بِالذَّانِقِ وَالذَّانِقِينَ، نَسِيئَةً إِلَى حِينِ رُجُوعِهِمْ مِنَ الْغَزْوِ، يَمْضِي عَلَيْهِ الْأَسْبُوعُ وَمَا يَقْرُبُهُ أَحَدٌ، فَيُخْرِجُ أُمَّهَ فَيَحْجُمُهَا، لِيُرِيَ النَّاسَ أَنَّهُ غَيْرُ فَارِغٍ، فَمَا زَالَ يَحْجُمُ أُمَّهَ حَتَّى نَزَفَ دَمُهَا فَمَاتَتْ، فَضْرِبُ بِهِ الْمِثْلَ، قَالَ الشَّاعِرُ: [مِنَ السَّرِيعِ]

مَظْبَخُهُ قَفْرٌ وَطَبَّاخُهُ أَفْرَغُ مِنْ حَجَّامِ سَابَاطٍ وَبَلَّغَ كَسْرِي حَدِيثَهُ فَاسْتَدْعَاهُ، فَحَجَّمَهُ، فَأَعْطَاهُ مَالًا كَثِيرًا، فَأَغْنَاهُ عَنِ الْحِجَامَةِ، وَسَابَاطٌ مَوْضِعٌ بِالْمَدَائِنِ^(٥).

(١) الدرّة ١/٢٢٩-٣٠٢، والعسكري ٢/٦٤-٦٦، والميداني ٢/٤٣-٤٥، والزنجشري ١/٢٤٢ و٢٤٥.

(٢) الدرّة ١/٣٠٩، والعسكري ٢/٧٠، والميداني ٢/٤٩، والزنجشري ١/٢٤٨.

(٣) الدرّة ١/٣٢٤، والعسكري ٢/٨٧، والميداني ٢/٦٥-٦٦، والزنجشري ١/٢٥٩، وانظر الكامل ٥١٠ و٧١٢، والأغاني ١٤/٧٥.

(٤) ديوانه ٢٠٥ (شعراء إسلاميون)، والدرّة ٢/٣٦٥، والعسكري ٢/١٧٤، والميداني ٢/١٦٩، والزنجشري ١/٢٩٣.

(٥) الدرّة ٢/٣٣١، والعسكري ٢/١٠٧، والميداني ٢/٨٦، والزنجشري ١/٢٧٠، وليس فيه البيت، وثمار القلوب ٢٣٥ منسوباً لابن بسام ضمن ثلاثة أبيات.

أَفْرَسٌ مِنْ بَسْطَامِ بْنِ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ فَارِسٌ بَكْرٌ، وَكَانُوا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى عَمْرٍو بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ^(١).

أَفْرَسٌ مِنْ عَامِرٍ، هُوَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، أَفْرَسٌ أَهْلِي زَمَانِهِ وَأَجْوَدُهُمْ، وَكَانَ مَنَادِيهِ يَنَادِي بِسُوقِ عُكَاظٍ: هَلْ مِنْ رَاجِلٍ فَنَحْمِلُهُ، أَوْ جَائِعٍ فَنُطْعِمُهُ، أَوْ خَائِفٍ فَنُجِيرُهُ وَنُؤَمِّنُهُ، وَالْعَامِرَانِ: عَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ أَبُو بَرَاءٍ، مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ، عَمُّ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ، وَعَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابِ أَبُو عَلِيٍّ^(٢).

أَفْتَكُ مِنَ الْبَرَّاضِ بْنِ قَيْسِ الْكِنَانِيِّ، قَاتِلُ عُرْوَةَ الرَّحَّالِ، كَانَ فَاتِكًا، نَبَتْ بِهِ بِلَادُهُ مِنْ كَثْرَةِ قَتْلِهِ وَفَتْكِهِ، وَتَبْرًا مِنْ قَوْمِهِ، فَرَحَلَ إِلَى النَّعْمَانِ، وَكَانَ يَبِيعُ فِي كُلِّ عَامٍ بِلَطِيمَةٍ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، فَقَالَ يَوْمًا: مَنْ يُجِيرُ لَطِيمَتِي؟ فَقَالَ الْبَرَّاضُ: أَنَا أُجِيرُهَا عَلَى بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ: مَا أُرِيدُ إِلَّا مَنْ يُجِيرُهَا عَلَى الْحَيِّينِ قَيْسِ وَكِنَانَةَ، فَقَالَ الرَّحَّالُ لِلنَّعْمَانِ: أَهَذَا الْعِيَّارُ الْخَلِيعُ يُجِيرُ لَطِيمَتَكَ عَلَى كِنَانَةَ، أَنَا أُجِيرُهَا عَلَى أَهْلِ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ مِنْ نَجْدٍ وَتِهَامَةَ، فَأَخَذَهَا وَرَحَلَ بِهَا، فَاتَّبَعَهُ الْبَرَّاضُ يَقْفُو أثرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عُرْوَةَ بَيْنَ ظَهْرِي قَوْمِهِ بِجَانِبِ فَدَكٍ، أَخْرَجَ الْبَرَّاضُ قِدَاحًا يَسْتَقْسِمُ بِهَا، فَمَرَّ بِهِ عُرْوَةَ فَقَالَ: وَيْحَكَ مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا؟ فَقَالَ: أَسْتَخْبِرُ الْقِدَاحَ فِي قَتْلِي إِيَّاكَ، فَقَالَ عُرْوَةُ: اسْتُكْ أَضِيقُ مِنْ ذَلِكَ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ الْبَرَّاضُ، فَضْرَبَهُ بِسَيْفِهِ حَتَّى قَتَلَهُ، وَاسْتَأَقَ الْعِيرَ^(٣).

أَفْتَكُ مِنَ الْجَحَّافِ، هُوَ ابْنُ حَكِيمِ السُّلَمِيِّ، كَانَ مِنْ فُتَّاكِ الْعَرَبِ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ عُمَيْرِ بْنِ الْحُبَابِ السُّلَمِيِّ، وَكَانَ عُمَيْرٌ قَدْ نَهَضَ فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الزُّبَيْرِيَّةِ وَالْمُرَوَّانِيَّةِ بِالشَّامِ، فَلَقِيَتْهُ خَيْلُ بَنِي تَغْلِبٍ فِي بَعْضِ الْغَارَاتِ فَقَتَلُوهُ.

فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُرْوَانَ، دَخَلَ الْجَحَّافُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَعِنْدَهُ الْأَخْطَلُ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

أَلَا سَائِلِ الْجَحَّافِ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ بِقَتْلِي أُصِيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ^(٤)

(١) الدرّة ١/٣٣٣، والعسكري ٢/١٠٩، والميداني ٢/٨٧ و٨٦، والزنجشري ١/٢٦٨ و٢٦٩.

(٢) الدرّة ١/٣٣٣، والعسكري ٢/١٠٩، والميداني ٢/٨٧ و٨٦، والزنجشري ١/٢٦٨ و٢٦٩.

(٣) الدرّة ١/٣٣٥-٣٣٦، والعسكري ٢/١١٠، والميداني ٢/٨٧-٨٨، والزنجشري ١/٢٦٥-٢٦٦.

(٤) ديوانه ٢٨٦.

فقال الجَحَّاف: [من الطويل]

بلى سوف أبكيهم بكلُّ مُهَنِّدٍ وأبكي عُميراً بالرِّمَّاحِ الخَوَاطِرِ^(١)
ثم قال: يا ابن التَّصْرَانِيَّةِ، ما ظننتُ أنك تجترىء عليّ بمثل هذا ولو كنتُ مأسوراً،
فَحَمَّ الأخطل في الحال خوفاً منه، فقال عبد الملك للأخطل: لا تخف، فإني جارُّ لك
منه، فقال: يا أمير المؤمنين: فهبْ أنك تُجِيرُنِي منه في اليَقْظَةِ، أُتْجِرُنِي منه في
المنام؟ ونهض الجَحَّاف فخرج يجرُّ رداءه، فقال عبد الملك: إن في قفاه لَعَدْرَةً،
وجمع الجَحَّاف قومَه، وأتى الرُّصَافَةَ، فصادف في طريقه أربع مئةٍ من بني تغلب رهط
الأخطل فقتلهم، وأتى ماءً لبني تغلب يقال له: البِشْرُ، عليه جمعٌ كثيرٌ منهم فقتل منهم
خمس مئة رجل، ثم تعدَّى إلى قتلِ النساءِ والولدان، فصاحت به عجزوزٌ منهم: قاتلك
الله يا جَحَّاف، تعدَّيت من قتل الرجال إلى قتل النساءِ والولدان، أما تخاف العاقبة؟!
فرفع السيف عنهم.

وبلغ الأخطل، فدخل على عبد الملك وعنده أمراء دولته، وقال: واقوماه، وأنشد
أبياتاً منها: [من الطويل]

لقد أوقع الجَحَّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً إلى الله منها المُشْتَكِي والمُعَوَّلُ^(٢)
فأهدر عبد الملك دمَ الجَحَّافِ، فدخل بقومه بلادَ الرُّومِ، فأقام بها سبع سنين حتى
مات عبد الملك، فكتب إليه الوليد فرجع فأَمَّنَه^(٣).

أفتكُ من الحارث بن ظالم، كان قد فتك برجالٍ من أصحاب الأسود بن المنذر بن
النعمان ملك الحيرة، فطلبه الأسود ففاته، فأرسل إلى جاراتِ كُنَّ للحارث، فأخذهنَّ
واستاق الإبل، وأخبر الحارث، فعارض الجيش، واستنقذ ما أخذوه، وفتك
بأصحاب الأسود.

أفتكُ من عمرو بن كلثوم، سار إلى عمرو بن هند ملك الحيرة في دار مملكته ما بين

(١) الأغاني ٢٠٥/١٢.

(٢) ديوانه ١٠.

(٣) المثل والقصة في الدرّة ٣٣٧/١، والعسكري ١١١-١١٢/٢، والميداني ٨٩-٨٨/٢، والنزخشي ١/
١٩٣-١٩٢ وانظر الأغاني ١٩٨-٢٠٨/١٢.

الحيرة والفرات، ففتك به، وانتهب أمواله، وسار بها إلى الشام، ولم يلتفت إلى أحد^(١).

أقرى من زاد الركب، ضرب هذا المثل لثلاثة من قريش: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وأبي أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وإنما سُموا بذلك لأنهم إذا سافروا لم يمكنوا أحداً من رفقتهم من حمل زاد^(٢).

أَكْذَبُ مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ، معناه: أكذب الأحياء والأموات.
أَكْذَبُ مِنْ فَاخِحَتَه، لأنها تقول إذا صَوَّتَتْ: هذا أوان الرطب، والظُّلُعُ لم يَطَّلِعْ بَعْدُ،
قال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

أَكْذَبُ مَنْ فَاخِحَتَه تَقُولُ وَسَطَ الْكَرْبِ
وَالظُّلُعُ لَمْ يَبْدُلْهَا هَذَا أَوَانُ الرَّطْبِ^(٣)

أكبر من عجوز بني إسرائيل، وهي التي دلت موسى عليه السلام على تابوت نبي الله يوسف عليه السلام، وهي من ولد إسحاق عليه السلام، وقيل: من ولد يعقوب عليه السلام، وعاشت أربع مئة سنة^(٤).

الْأُمُّ مِنْ أَسْلَمَ، هو ابن زُرْعَةَ، ولي خراسان، ف قيل له: إن الفرس كانوا إذا مات منهم ميت جعلوا في فيه درهماً، فنبش المقابر ليستخرج الدراهم، فقال صهبان الجرمي: [من الطويل]

تَعَوَّذَ بِنَجْمٍ وَاجْعَلِ الْقَبْرَ فِي صَفَاً مِنْ الطُّودِ لَا يَنْبُشُ عِظَامَكَ أَسْلَمُ
هُوَ النَّابِشُ الْمَوْتَى الْمُحِيلُ عِظَامَهُمْ لِيَنْظُرَ هَلْ تَحْتَ السَّقَائِفِ دِرْهَمٌ^(٥)
الْأُمُّ مِنْ رَاضِعِ اللَّبَنِ، هو رجل من بني تميم كان يرتضع من ضرع ناقته، ولا

(١) المثان في الدرّة ٣٣٧/٢ و٣٣٩، والعسكري ١١٢/٢، والميداني ٨٩/٢، والزنجشري ٢٦٦/١.

(٢) الدرّة ٣٥٦/٢، والعسكري ١٣٣/٢، والميداني ١٢٧/٢، والزنجشري ٢٨١/١.

(٣) المثان والشعر في الدرّة ٣٦٤/٢، والعسكري ١٧٣/٢، والميداني ١٦٧/٢، والزنجشري ٢٩٢/١،
والفاخحة من أنواع الحمام.

(٤) الدرّة ٤٣٨/٢، والميداني ١٦٨/٢، والزنجشري ٢٨٨/١.

(٥) الدرّة ٣٧٢/٢، والعسكري ٢١٩/٢، والميداني ٢٤٩/٢، والزنجشري ٢٩٨/١.

يَحْلِبُهَا مَخَافَةً أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ وَقْتَ الْحَلْبِ، فَيَطْلُبُ مِنْهُ لَبْنًا^(١).

أَلَذُّ مِنَ الْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا قِتَالَ فِيهَا^(٢).

أَلَذُّ مِنَ الْمُنَى، قَالَ الشَّاعِرُ: [من الطويل]

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدًا^(٣)

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: كَثْرَةُ الْأَمَانِيِّ تَطْرُدُ الْقِنَاعَةَ، وَتُفْسِدُ الْحِسَّ، وَتُخْلِقُ الْعَقْلَ^(٤)،

وَأَنْشُدْ: [من البسيط]

إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ^(٥)

وَقَالَ آخَرُ: [من الكامل]

إِنَّ الْمُنَى طَرَفٌ مِنَ الْوَسْوَاسِ^(٦)

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: الْغَالِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَعِيشُوا بِالْأَمَانِيِّ، قَالَ

الشَّاعِرُ: [من البسيط]

لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مَتُّ أَسَى يَفْنَى الزَّمَانُ وَمَا تَفْنَى الْمَوَاعِيدُ^(٧)

أَلْحَنُ مِنْ قَيْتِي يَزِيدُ، هُوَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَهِيَ حَبَّابَةُ وَسَلَّامَةُ، وَكَانَتَا أَلْحَنَ

مِنْ رُؤْيَى مِنَ الْقِيَانِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَعْنَاهُ أَفْطَنُ، قَالَ الْفَزَارِيُّ: [من الخفيف]

وَخَدِيثُ أَلَدُّهُ هُوَ مِمَّا يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنًا

مَنْطِقُ رَائِعٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا نَأٌ وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

يُرِيدُ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ وَتُرِيدُ غَيْرَهُ^(٨).

(١) الدرّة ٣٧٣/٢، والعسكري ٢٢٠/٢، والميداني ٢٥١/٢، والزنجشري ٣٠٠/١.

(٢) الدرّة ٣٧٥/٢، والعسكري ٢٢١/٢، والميداني ٢٥٢/٢، والزنجشري ٣٢١/١.

(٣) الحيوان ١٩١/٥، وعيون الأخبار ٢٦١/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٤١٣.

(٤) المثل والشعر وقول ابن المقفع في الدرّة ٣٧٦/٢، والعسكري ٢٢١/٢، والميداني ٢٥٣/٢.

(٥) صدره:

إِذَا تَمَنَيْتُ بِتِ اللَّيْلِ مُغْتَبِطًا

وَهُوَ فِي الْحَيَوَانَ ١٩١/٥، وَعَيُونَ الْأَخْبَارِ ٢٦١/١، وَالْمِيدَانِيِّ ٢٥٣/٢.

(٦) مجمع الأمثال ٢٥٣/٢.

(٧) البيت في معجم الأدباء ٦٨/١٧ للمبارك بن المبارك المعروف بالوجيه.

(٨) الدرّة ٣٧٩-٣٨٠، والعسكري ٢٢٤/٢، والميداني ٢٥٥/٢، والزنجشري ٣١٤/١، والبيتان لمالك بن =

أُنَجَبُ من أمِّ البَيْنِ، هي ابنةُ عمرو بنِ عامرِ فارسِ الضَّحِياءِ، ولدتِ خمسةً من النُّجَباءِ، وكانوا إذا ولدتِ المرأةُ ثلاثةً، قالوا: مُنْجِبَةٌ، وهذه ولدتِ خمسةً من مالكِ ابنِ جعفرِ بنِ كلابِ، وهم: أبو براءِ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ، وفارساً وهو الطُّفَيْلُ أبو عامرِ، ورَبِيعَةُ [رَبِيعِ] المُقْتَرِينِ، ونَزَّالُ [المُضِيقِ]، ومعاوية مُعوَّدُ الحُكَماءِ، وقد افتخر بها لبيدُ فقال: [من الرجز]

نحن بنو أمِّ البَيْنِ الأربَعَةَ

وإنما قال: أربعة، وهم خمسة لضرورة الشعر^(١).

أُنَجَبُ من مَاريّة، هي بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عوف بن عمرو بن ربيعة، وابنها الحارث الأعرج الذي قال فيه حسان: [من الكامل]

أولادُ جَفْنَةَ حولِ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ ماريّةِ الكريمِ المُفضِلِ^(٢)

وقال أبو عبيد: مارية بنت عبد مناة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم.

وقال ابن قتيبة: مارية بنت ظالم بن وهيب بن الحارث بن معاوية الكندي، وأختها هند الهنود امرأة أكل المرار^(٣)، ويُقال في المثل: خُذْها ولو بقرطِي ماريّة، فُضْرِبْ مثلاً للشَّيءِ الثَّمِينِ^(٤).

أُنَجَبُ من عاتكة، هي بنت هلال بن مرة بن ذكوان السُّلَمِيَّةِ، جدَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ، ولدت لعبد مناف بن قُصَيِّ هاشماً وعبد شمس والمُطَّلِبِ^(٥).

أندم من الكُسَعِيِّ، واسمه مُحارِبُ بنُ قيسِ من بني كُسَعِ، وقيل: غامدُ بنُ الحارثِ، كان يرعى إبلًا بوادٍ مُعْشِبِ، فرأى نَبْعَةً في صخرةٍ فأعجبته^(٦)، فقطعها

= أسماء في البيان ١/١٤٧، وأمالي القالي ١/٥، والشعر والشعراء ٧٨٢.

(١) الدرّة ٢/٤١١، والعسكري ٢/٣٥، والميداني ٢/٣٥٠، والزنجشري ١/٣٨٢، وديوان لبيد ٣٤١.

(٢) ديوانه ١/٧٤ (عرفات).

(٣) المعارف ٦٠٩.

(٤) أمثال أبي عبيد ٣٣٢، والفاخر ١٠٧، والدرّة ٢/٤١٠ و٤١٢، والعسكري ٢/٢٩٩ و٣٢٦، والميداني ٢/

٣٤٩ و٣٥٧، والزنجشري ١/٣٨٤ و٢/٧٣، وفصل المقال ٣٣٥.

(٥) الدرّة ٢/٤١٢، والعسكري ٢/٣٢٦، والميداني ٢/٣٥٠ - ٣٥١، والزنجشري ١/٣٨٤.

(٦) النبع من أشجار الجبال.

وَاتَّخَذَ مِنْهَا قَوْسًا، فَمَرَّتْ بِهِ قُطْعَانٌ مِنْ حُمْرِ الْوَحْشِ لَيْلًا، فَرَمَى عَيْرًا فَأَنْفَذَهَا، وَخَرَجَ السَّهْمُ مِنْهَا فَأَصَابَ الْجِبَلَ، فَأَوْرَى نَارًا، فَظَنَّ أَنَّهُ أَخْطَأَ، ثُمَّ مَرَّ قَطِيعٌ آخَرَ، فَرَمَاهُ فَأَنْفَذَهُ، وَخَرَجَ السَّهْمُ فَأَصَابَ الْجِبَلَ، فَظَنَّ أَنَّهُ أَخْطَأَ، فَعَلَّ ذَلِكَ مِرَارًا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُخْطِئُ، فَعَمِدَ إِلَى قَوْسِهِ فَكَسَرَهَا مِنْ حَنْقِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَظَرَ إِلَى الْحُمْرِ قَتَلَى مُضْرَجَةً بِالْدمِ، فَندِمَ، وَعَضَّ إِبْهَامَهُ فَقَطَعَهَا، وَقَالَ: [من الوافر]

نَدِمْتُ نَدَامَةً لَوْ أَنَّ نَفْسِي تَطَاوَعُنِي إِذَا لَقِطَعْتُ خَمْسِي
فَضْرَبْتُ الْعَرَبُ بِهَ الْمِثْلُ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْدَمُ فِيهِ^(١).

أَنْسَبُ مِنْ دَغْفَلِ الشَّيْبَانِي، وَقِيلَ: السَّدُوسِي، وَاخْتَلَفُوا فِي صُحْبَتِهِ^(٢)، كَانَ أَعْلَمَ أَهْلَ زَمَانِهِ بِالْأَنْسَابِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالنُّجُومِ، وَقَدْ عَلِيَ مَعَاوِيَةَ فَقَالَ لَهُ: بِمَ عَلِمْتَ مَا عَلِمْتَ؟ فَقَالَ: بِلِسَانِ سَوَّوَلٍ، وَقَلْبِ عَقُولٍ. وَكَانَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ قُدَامَةً بِنُ جَرَادِ الْقُرَيْعِيِّ، فَنَسَبَهُ حَتَّى بَلَغَ أَبَاهُ الَّذِي وَوَلَدَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَوَلَدَ جَرَادٍ وَوَلَدَيْنِ: أَحَدُهُمَا نَاسِكٌ وَالْآخَرُ شَاعِرٌ سَفِيهٌ، فَمِمَّنْ أَنْتَ مِنْهُمَا؟ فَقَالَ: مِنَ الشَّاعِرِ^(٣).

وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ بَصْرُهُ، فَمَرَّ عَلَيْهِ وَاحِدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: أَشْرَافُ أَهْلِ الْيَمَنِ. فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ مَلِكِهَا الْقَدِيمِ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ كِنْدَةَ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمَنْ الطَّوَالِ قَصَبًا، الْمُمَحْضِينَ نَسَبًا، بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمَنْ أَقْوَدِهَا لِلزُّحُوفِ، وَأَخْرَقِهَا لِلصُّفُوفِ، وَأَضْرَبِهَا بِالسُّيُوفِ، بَنِي زُبَيْدٍ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمَنْ أَحْضَرِهَا قِرَاءً، وَأَطْيَبِهَا فِنَاءً، وَأَصْدَقِهَا لِقَاءً، طَيِّبٌ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَمَنْ الْغَارِسِينَ لِلنَّخْلِ، وَالْمُطْعِمِينَ فِي الْمَحَلِّ، وَالْقَائِلِينَ بِالْعَدْلِ، الْأَنْصَارُ؟ قَالُوا: نَعَمْ^(٤).

(١) الفاخر ٩٠، والدره ٤٠٧/٢، والعسكري ٣٢٤/٢، والميداني ٣٤٨-٣٤٩، والزنجشري ٣٨٦/١، وثمار القلوب ١٣٣، والمعارف ٦١٢.

(٢) انظر الإصابة ١٩٤/٣.

(٣) المعارف ٥٣٤، ومجمع الأمثال ٣٤٦/٢ وفيهما: أنا الشاعر السفيه، والمثل دون قصة في الدره ٣٩١/٢، والعسكري ٢٩٩/٢، والزنجشري ٣٩١/١، وبرواية: أعلم من دغفل في الدره ٢٩٨/١، والعسكري ٣٤/٢، والميداني ٥٤/٢، والزنجشري ٢٥٢/١.

(٤) أمالي القالي ٢٨٤/٢، والعقد ٣٢٧-٣٢٨.

أَنْعَمُ مِنْ حَيَّانٍ أَخِي جَابِرٍ، كَانَ مُتَنَعِّمًا، وَفِيهِ يَقُولُ الْأَعَشَى: [مَنْ السَّرِيعُ]
 شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ
 يقول: أنا في المسير والشقاء، وأخو جابر في الراحة والغناء^(١).
 أَنْعَمُ مِنْ خُرَيْمٍ، هُوَ ابْنُ خَلِيفَةَ الْمُرِّيِّ، وَيُلَقَّبُ بِالنَّاعِمِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الْخَلْقَ مِنْ
 الثِّيَابِ فِي الصَّيْفِ، وَالْجَدِيدَ فِي الشِّتَاءِ^(٢)، وَدَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ فَقَالَ لَهُ: مَا النُّعْمَةُ؟
 قَالَ: الْأَمْنُ، لِأَنَّ الْخَائِفَ لَا يَنْتَفِعُ بِالْعَيْشِ.
 أَنْمٌ مِنْ صُبْحٍ، لِأَنَّهُ يَهْتِكُ الْأَسْتَارَ^(٣).

أَوْفَى مِنَ السَّمَوِّءَلِ، هُوَ ابْنُ عَادِيَاءِ الْيَهُودِيِّ، بَلَغَ مِنْ وَفَائِهِ أَنْ أَمْرًا الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ
 الْكِنْدِيِّ أَوْدَعَ عِنْدَهُ دَرُوعًا لَمَّا ذَهَبَ إِلَى قَيْصَرَ، وَأَوْصَاهُ إِذَا مَاتَ أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَى وَرَثَتِهِ،
 فَغَزَاهُ بَعْضُ مَلُوكِ الشَّامِ، فَسَبَى وَلَدَهُ وَقَالَ: إِنْ لَمْ تَدْفَعْ إِلَيَّ الدَّرُوعَ وَإِلَّا ذَبَحْتُ وَلَدَكَ،
 وَكَانَ قَدْ أَحْصَرَهُ فِي حِصْنِهِ بِتَيْمَاءَ وَهُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكَ إِيَّاهَا أَبَدًا،
 وَلَا أُفْرِطُ فِي أَمَانَتِي، فَذَبَحَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَوْسِمِ
 وَافِيَ بِالدَّرُوعِ، فَدَفَعَهَا إِلَى وَرَثَتِهِ وَقَالَ: [مَنْ الْوَافِرُ]

وَفَيْتُ بِأَذْرُعِ الْكِنْدِيِّ إِنْ بِي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
 وَقَالُوا إِنَّهُ كُنْزٌ رَغِيبٌ وَلَا وَاللَّهِ أَغْدِرُ مَا مَشَيْتُ
 بَنَى لِي عَادِيَاءُ حِصْنًا حَصِينًا وَبِئْرًا كَلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ^(٤)
 أَهْوَنُ مِنْ تَبَالَةِ عَلَى الْحَجَّاجِ، وَهِيَ بَلَدَةٌ بِالْيَمَنِ خِصْبَةٌ، كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَلَاهَ إِيَّاهَا،
 فَلَمَّا أَتَاهَا اسْتَحْقَرَهَا، فَلَمْ يَدْخُلْ إِلَيْهَا، وَلَمَّا سَارَ إِلَيْهَا قَالَ لِلدَّلِيلِ: أَيْنَ هِيَ؟ قَالَ:
 سَتَرْتَهَا عَنْكَ هَذِهِ الْأَكْمَةُ، فَقَالَ: أَهْوَنُ بِعَمَلٍ تَسْتُرُهُ أَكْمَةٌ، ثُمَّ رَجَعَ.

(١) الدرّة ٤٠٣/٢، والعسكري ٣٢٠/٢، والميداني ٣٥٦/٢، والزنجشري ٣٩٣/١، وديوان الأعشى ١٩٧.
 (٢) كذا، والذي في كتب الأمثال: أن الحججاج سأله عن تنعمه فقال: لم ألبس خلقاً في شتاء، ولا جديداً في
 صيف، انظر الدرّة ٤٠٢/٢، والعسكري ٣١٩/٢، والميداني ٣٥٦-٣٥٥/٢، والزنجشري ٣٩٤/١.
 (٣) الدرّة ٣٩٢/٢، والعسكري ٣١٥/٢، والميداني ٣٥١/٢، والزنجشري ٤٠١/١.
 (٤) الدرّة ٤١٥/٢، والعسكري ٣٤٥/٢ وليس فيه الأبيات، والميداني ٣٧٤/٢، والزنجشري ٤٣٥/١، وثمار
 القلوب ١٣٢، وديوانه ٧٩، وانظر الخبر ٣٤٩، والفاخر ٣٠٢.

أَهْوَنُ مِنْ قُعَيْسٍ عَلَى عَمَّتِهِ، هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ زَارَ عَمَّتَهُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ وَكَانَ بَيْتَهَا ضَيْقًا وَعِنْدَهَا كَلْبٌ، فَأَدْخَلَتْ الْكَلْبَ الْبَيْتَ وَأَخْرَجَتْ قُعَيْسًا، فَمَاتَ مِنَ الْبَرْدِ.
وقيل: هو قعيس بن مقاعس من بني تميم، مات أبوه، فرهنته عمته على صاع من برٍّ، ولم تستفكه فاستعبده الذي رهنته عنده^(١).

فصل

إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ. أَوَّلُ مَنْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه^(٢).

إِنَّ مِنَ الْبَيَانَ لِسِحْرًا، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَمْرٍو بْنِ الْأَهْتَمِ لَمَّا وَصَفَ الزُّبْرَقَانَ بْنَ بَدْرِ^(٣).

إِنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ، يُضْرَبُ مِثْلًا لِلضَّعِيفِ يَصِيرُ قَوِيًّا، وَالذَّلِيلَ يَعْزُّ، وَمَعْنَاهُ: إِنْ مَنْ جَاوَرَنَا عَزَّ بِنَا^(٤).

إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ عَمْرٍو بْنُ مَامَةَ، وَكَانَتْ مُرَادَ قَدْ أَصَابَتْهُ،

فَقَالَ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ: [مَنْ الرِّجْزُ]

لَقَدْ حَسَوْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ

إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

وَالثَّوْرُ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ^(٥)

(١) المثان على الترتيب في الدرّة ٤٣١/٢ و٤٣٢، والعسكري ٣٧٣/٢، والميداني ٤٠٨/٢ و٤٠٧، والزنجشري ٤٤٥/١ و٤٤٧.

(٢) الفاخر ٢٣٥، ومجمع الأمثال ١٧/١، وأمثال الحديث لأبي الشيخ (٥١)، ومن كلام عبّيد بن شربة في عيون الأخبار ٣٠٥/٢، والمستقصى ٣٠٥/١، ومن كلام ابن مسعود رضي الله عنه في الزهد لوكيع (٣١١)، ومصنف ابن أبي شيبة ٥٧٨/٨، والزهد لهناد (١١٩٣)، وروي مرفوعاً من حديث علي وحذيفة وأنس وأبي الدرداء وابن مسعود والحسن مرسلًا، وفي كل منها مقال، انظر المقاصد الحسنة (٣٠٥)، وفيض القدير ٣/٢٢٣، وتنزيه الشريعة ٢/٢٩٦، وكشف الخفاء ١/٣٤٣.

(٣) أخرجه أحمد (٤٦٥١)، والبخاري (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مطولاً العسكري ١٣/١، والبيهقي في دلائل النبوة ٣١٦/٥ و٣١٧، وانظر الميداني ٧/١، والزنجشري ٤١٤/١، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٧١ (السيرة)، والبداية والنهاية ٧/٢٤٢ و٢٤٣ (هجر).

(٤) أمثال أبي عبّيد ٩٣، والبكري ١٢٩، والعسكري ١٩٧/١ و٢٣١، والميداني ١٠/١، والزنجشري ٤٠٢/١.

(٥) أمثال أبي عبّيد ٣١٦، والبكري ٤٣٩، والعسكري ١١٤/١، والميداني ١٠/١، والزنجشري ٤٠٣/١.

إن الحديد بالحديد يُفْلَحُ، معناه: أن يُستعان على الأمر الشديد بما يُقاربه ويُشاكله^(١).

إن في المعاريض لَمَنْدُوْحَةٌ عن الكذب^(٢)، والمعارضض: التَّورِيَةُ بالشيء عن الشيء، أي: فيها سَعَةٌ.

إن القُدرة تُذهب الحَفِيْظَةَ، طلب رجلٌ عَظِيْمٌ رجلاً، فلما ظَفِرَ به قال: لولا أن القُدرة تُذهب الحَفِيْظَةَ لانتقمتُ منك، ثم عفا عنه^(٣).

بلغ السَّيْلُ الزُّبِي، والزُّبِيَّة: حُفْرَةٌ تُحْفَرُ لِلأسد إذا أرادوا أن يَصِيدُوهُ، ولا يَعْلُوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفاً مُجْحِفاً، فضرب مثلاً لما جاوز الحد^(٤).

وكذا قولهم: الحِزَامُ الطُّبِّيْنُ^(٥).

وكذا: اتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ^(٦).

بَرَحَ الخَفَاءُ، معناه: وَضَحَ الأمرُ^(٧).

تَجوع الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ تُذِيْبُهَا، معناه: أن الحُرَّةَ وإن آذاها الجوع لا تكون ظِئراً،

(١) أمثال أبي عبيد ٩٦، والبكري ١٣٤، والعسكري ٣٤٥/١، والميداني ١١/١، والزنجشري ٤٠٣/١.
(٢) روي عن عمران بن حصين مرفوعاً وموقوفاً، فأخرجه ابن عدي في الكامل ٩٦٣/٣، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٣٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠١١) مرفوعاً، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٨٧/٤ و١٤٤/٧، وابن أبي شيبة في المصنف ٧٢٣/٨، وهناد في الزهد (١٣٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٧) و(٨٨٥)، والطبري في تهذيب الآثار (٩٤٣) (مسند عمر)، والطبراني في الكبير ٢٠١/١٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٥٨)، وفي السنن الكبرى ١٩٩/١٠، وابن عبد البر في التمهيد ٢٥٢/١٦ موقوفاً.

قال البيهقي: هذا هو الصحيح موقوفاً، وروي من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه ابن أبي شيبة ٧٢٣/٨، والبيهقي ١٩٩/١٠، وابن عبد البر ٢٥٢/١٦، وانظر كشف الخفاء ٢٧٠/١، ومجمع الأمثال ١٣/١.

(٣) أمثال أبي عبيد ١٥٥، والبكري ٢٣٤، والميداني ١٤/١، والزنجشري ٣٤٩/١.

(٤) أمثال السدوسي ٤٠، والعسكري ٢٢٠/١، والميداني ٩١/١، والزنجشري ١٤/٢.

(٥) الكامل ٢٧، والمستقصى ١٣/٢.

(٦) العسكري ١٦٠/١، والزنجشري ٣٥/١.

(٧) أمثال أبي عبيد ٦٠، والبكري ٦٣، والعسكري ٢٠٥/١، والميداني ٩٥/١، والزنجشري ٧/٢، والفاخر

٣٥، وأمثال أبي بكرمة ٨٤.

وأوّل من قال ذلك: الحارث بن سليل الأَسدي، أراد به: أن الرجل الحُرَّ يَصونُ نفسَه عن الخَسائس^(١).

لا أَطْلُبُ أثراً بعد عَيْنٍ، أوّل من قاله مالك بن عمرو الباهلي، وقيل العاملي: قُتل أخوه سِمَاك، فخرج يطلب قاتله، فرآه في رَكْبٍ، فقالوا له: يا مالكُ خُذْ مئةً من الإبل ولا تقتله، فقال: لا أَطْلُبُ أثراً بعد عين، وحمل عليه فقتله. فضرب مثلاً لمن ترك شيئاً وهو يراه، ثم تتبّع أثره بعد فوات عينه^(٢).

تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيّ لا أن تراه، يُضْرَبُ مثلاً للرجل الذي له صِيْتٌ وذكرٌ في الناس، فإذا رأيتَه اَزْدَرَيْتَه، وأوّل من قال ذلك المُنذر بن ماء السماء، بلغه عن بعض أحياء العرب أن لهم جمالاً وهيبة، فلما حضروا بين يديه لم يجدهم كما وصفوا، فقال ذلك، فصار مثلاً^(٣).

تَعَسَتِ العَجَلَةَ، أوّل من قاله فنْدُ مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، بعثته ليأتيها بنار، فصادف قوماً خارجين إلى مصر، فخرج معهم، فأقام بها سنة، ثم ندم فعاد، وأخذ ناراً وجاء بها إلى عائشة يعدو، فعثر فتبدّد الجمر، فقال: تَعَسَتِ العَجَلَةَ. وفيه يقول عبيد الله بن قيس الرُّقَيّات: [من الخفيف]

قُلْ لِفِنْدٍ يُشِيْعُ الأَظْعَانَا طَالَ مَا سَرَّ عَيْشِنَا وَكَفَانَا^(٤)
كجار أبي دُوَاد، هو كَعْبُ بنُ مامة، ما جاوره جارٌ إلا وأحسن إليه، وأخلف له ما تَلَفَ من مال وغير ذلك. فضربت العربُ به المَثَلُ، قال قيس بن زهير:

أَطَوَّفُ مَا أَطَوَّفُ ثُمَّ أَوِي إِلَى جَارِ كَجَارِ أَبِي دُوَادِ^(٥)

(١) أمثال أبي عبيد ١٩٦، والبكري ٢٨٩، والفاخر ١٠٩، والعسكري ٢٦١/١، والميداني ١٢٢/١، والزنجشري ٢٠/٢.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٤٨، والعسكري ٣٨٩/٢، والميداني ١٢٧/١ و٢١٥/٢، والزنجشري ٢٤٢/٢.

(٣) أمثال أبي عبيد ٩٧، والفاخر ٦٥، والعسكري ٢٦٦/١، والميداني ١٢٩/١، والزنجشري ٣٧٠/١، والبكري ١٣٥.

(٤) الفاخر ١٨٩، ومجمع الأمثال ١٣٩/١، والأغاني ١٧٦/١٧، وديوان عبيد الله ١٥٧.

(٥) مجمع الأمثال ١٦٣/١، وثمار القلوب ١٢٧، وبرواية: أجود من كعب في الدرّة ١٢٩/١، والزنجشري ١/٥٤ وفيهما البيت.

جَوْعَ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ حِمِيرَ، كَانَ ظَالِمًا لِرَعِيَّتِهِ، غَاصِبًا لِأَمْوَالِهِمْ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ تَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَقُولُ: أَخَافُ أَنْ يَصِيرُوا سِبَاعًا بَعْدَ أَنْ كَانُوا تِبَاعًا، فَيَقُولُ لَهَا: جَوْعَ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ، فَاجْتَمَعَتِ الرَّعِيَّةُ إِلَيْهِ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَلِيَّ عَلَيْهِمْ، وَقَتَلُوا الْمَلِكَ وَوَلَّوْا أَخَاهُ، فَمَرَّ بِهِ عَامِرُ بْنُ جَذِيمَةَ وَهُوَ مَقْتُولٌ فَقَالَ: رَبِّمَا أَكَلَ الْكَلْبُ سَيِّدَهُ إِذَا لَمْ يُشْبِعْهُ، فَصَارَتْ مَثَلًا^(١).

جَاءَ بِقَرْنِي حِمَارًا، مَعْنَاهُ: جَاءَ بِالْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ، لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا قَرْنَ لَهُ^(٢).
حَدِيثُ خُرَافَةٍ، وَهُوَ رَجُلٌ اسْتَهْوَتْهُ الْجَنُّ، فَكَانَ يُحَدِّثُ بِمَا رَأَى فَكَذَّبُوهُ، وَقَالُوا:
حَدِيثُ خُرَافَةٍ^(٣).

حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، يُضْرَبُ مَثَلًا لِمَنْ جَرَّبَ الدَّهْرَ^(٤).
حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ، هُوَ حَدِيثٌ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٥)، وَمَعْنَاهُ: يُخْفِي عَلَيْكَ
مَسَاوِيَهُ، وَيُصِمُّ سَمْعَكَ عَنِ الْعَدْلِ فِيهِ.

وَحَبِيبٌ إِلَى عَبْدٍ مَنْ كَدَّه، مَعْنَاهُ: أَنْ مَنْ أَهَانَ الْعَبْدَ وَأَتَعَبَهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّنْ
أَكْرَمَهُ، لِأَنَّ طَبَاعَ الْعَبْدِ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْهَوَانِ^(٦).

الْحَدِيثُ شُجُونٌ، أَوَّلُ مَنْ قَالَهُ ضَبَّةُ بْنُ أَدِّ بْنِ طَابِخَةَ بْنِ إِيَّاسٍ، قَالَ الْفَرَزْدَقُ: [مَنْ

الطويل]

فَلَا تَأْمَنَنَّ الْحَرْبَ إِنَّ اسْتِعَارَهَا كَضَبَّةٌ إِذْ قَالَ الْحَدِيثُ شُجُونٌ^(٧)
وَكَانَ لَضَبَّةَ وَلَدَانِ: سَعْدٌ وَسُعَيْدٌ، فَفَرَّتْ إِبْلَهُ، فَبَعَثَ وَلَدَيْهِ فِي طَلَبِهَا، فَلَقِي

(١) أمثال أبي عبيد ٣٥٨، والفاخر ١٥٨، والعسكري ١١١/١، والميداني ١٦٥/١، والزنجشري ٥٠/١.

(٢) مجمع الأمثال ١٦٦/١.

(٣) مجمع الأمثال ١٩٥/١، وبرواية: أمثل من حديث خرافة في الدرر ٣٨٩/٢، والعسكري ٢٩٥/٢،
والميداني ٣٢٦/٢، والزنجشري ٣٦١/١.

(٤) العسكري ٣٤٦/١، والميداني ١٩٥/١، والزنجشري ٦٤/٢.

(٥) الصحيح أنه موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه كما ذكره محققو مسند أحمد (٢١٦٩٤)، وانظر مجمع الأمثال ١/
١٩٦.

(٦) الميداني ١٩٦/١، والزنجشري ٥٧/٢.

(٧) ديوانه ٣٣٣/٢ (صادر).

الحارث بن كعب سُعيداً وعليه بُردان، فسأله الحارث إياهما فأبى عليه، فقتله الحارث ولم يعرفه، وغاب خبره عن أبيه ضَبَّةَ زماناً، ثم خرج إلى الموسم، فرأى الحارث وعليه البُردان فقال: من أين لك هذان؟ فقال: لقيتُ غُلاماً من صفته كذا وكذا، فسألته إياهما فأبى، فقتلته وأخذتهما. فقال ضَبَّةُ: الحديثُ سُجون، ثم قال للحارث: أقتلته بسيفك هذا؟ قال: نعم. قال: أظنه صارماً، فناوله إياه، فهزّه ثم ضرب به الحارث حتى برد، وأخذ بثأر ولده^(١).

الحَرْبُ سِجَال، أولُ مَنْ قاله أبو سفيان بن حرب يوم أُحد^(٢).

حَمَّامٌ مِنجاب، هو ابنُ راشد الضَّبِّي، بنى حَمَّاماً بالبصرة، فكان يجتمع إليه الفُسَّاق، فضربت العرب به المثل، واحتُضِرَ بعض الناس فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: [من البسيط]

يا رَبِّ قائلَةٌ يوماً وقد لَغِبَتْ كيف الطَّرِيقُ إلى حَمَّامِ مِنجابٍ
ومات^(٣).

حُفَّاءُ حُنَيْن، كان رجلاً شديداً، ادَّعى أنه ابنُ أسد بن هاشم بن عبد مناف، فأتى عبد المطلب، وعليه حُفَّان أحمران، فقال: يا عمُّ، أنا ابنُ أسد بن هاشم، فقال عبد المطلب: لا وثياب [ابن] هاشم، ما أعرف فيك شمائلَ هاشم فارجع، فرجع، فقال الناس: رجع حُنَيْنٌ بخُفِّيه، فصارت مثلاً.

وقيل: كان حُنَيْنٌ إسكافاً من أهل الحيرة، ساوَمَه أعرابيٌّ بخُفِّين، ولم يَشتر منه شيئاً، وغازه ذلك، فخرج فعلق أحد الخُفِّين في شجرة على طريقه وتقدَّم قليلاً، وطرح الآخر وكَمَن، وجاء الأعرابيُّ فرأى أحد الخُفِّين فقال: ما أشبهَ هذا بخُفِّ حُنَيْن لو كان معه آخر، فتقدَّم فرأى الخُفَّ الآخر مطروحاً في الطريق، فنزل وعقل بعيَره وأخذه، ورجع ليأخذ الأوَّل، فخرج حُنَيْنٌ من الكمين، فأخذ بعيَره، وذهب الإسكاف بالبعير،

(١) أمثال أبي عبيد ٦١، والبكري ٦٧، والفاخر ٥٩، والعسكري ٣٧٧/١، والميداني ١٩٧/١، والزنجشري ٣١٠/١.

(٢) السيرة ٩٢/٢، ومسند أحمد (١٨٥٩٣)، وصحيح البخاري (٤٠٤٣) بقصة غزوة أحد من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) التعازي والمراثي ٢٥٢، والمعارف ٦١٤، وعيون الأخبار ٣١١/٢، وثمار القلوب ٤٨٨ (صالح).

ورجع البدوي إلى حيّه بخُفّي حُنِينٍ^(١).

خَلا لَكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي، أَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ طَرْفَةُ بِنُ الْعَبْدِ الشَّاعِرِ، خَرَجَ مَعَ عَمِّهِ فِي سَفَرٍ وَهُوَ غَلَامٌ، فَزَلُّوا عَلَى مَاءٍ، فَنَصَبَ طَرْفَةُ الْفِيخَاخَ لِيَصِيدَ الْقَنَابِرَ، وَجَلَسَ عَامَّةَ يَوْمِهِ، فَلَمْ يَقَعْ فِي الْفِيخَاخِ شَيْءٌ، فَأَخَذَ الْفِيخَاخَ وَارْتَحَلُوا، فَنَظَرَ إِلَى الْقَنَابِرِ فَإِذَا بِهِنَّ يَلْقُظْنَ مَا نَثَرَهُ مِنَ الْحَبِّ، فَقَالَ طَرْفَةُ: [مِنَ الرَّجْزِ]

يَا لَكَ مِنْ قُنْبَرَةٍ بِمَعْمَرِ
خَلا لَكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي
وَنَقَّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقَّرِي
قَدْ رَحَلَ الصِّيَّادُ عَنْكَ فَابْشِرِي
وَرُفِعَ الْفَخُّ فَمَاذَا تَحْذَرِي
لَا بُدَّ مِنْ صَيْدِكَ يَوْمًا فَاصْبِرِي^(٢)

دَرَدَبَ لَمَّا عَضَّهُ الثَّقَافُ، خَشْبَةُ تُسَوَّى بِهَا الرَّمَاحُ، وَمَعْنَاهُ: ذَلَّ وَخَضَعَ، يَضْرِبُ مِثْلًا لِمَنْ اِمْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ ذَلَّ وَانْقَادَ إِلَيْهِ^(٣).

ذَكَرْتَنِي الطَّنَّ وَكُنْتُ نَاسِيًا، أَوَّلُ مَنْ قَالَه: رُهَيْمُ بْنُ حَزْنِ الْهَلَالِيِّ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ يُرِيدُ بِلَادًا أُخْرَى، فَاعْتَرَضَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ، فَعَرَفُوهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: خَلِّ مَا مَعَكَ وَانْجُ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: خَذُوا الْمَالَ وَدَعُوا الْحَرِيمَ - وَكَانَ قَدْ نَسِيَ أَنْ رُمِحَ فِي يَدِهِ - فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: فَأَلْقِ رُمُحَكَ، فَتَذَكَّرَ وَقَالَ: وَإِنْ رُمِحَ مَعِي، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلَ مِنْهُمْ جَمَاعَةً، وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

رُدُّوا عَلَيَّ أَقْرَبَ بِهَا الْأَقَاصِيَا

(١) أمثال أبي عبيد ٢٤٥، والبكري ٣٥٤، والعسكري ٤٣٣/١، والميداني ٢٥٦/١ و٢٩٦، والزنجشري ١/١٠٥ و١٠٠/٢، وما بين معكوفين منهما.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٥١-٢٥٢، والفاخر ١٧٩، والبكري ٣٦٣، والعسكري ٤٢٢/١، والميداني ٢٣٩/١، والزنجشري ٧٥/٢، وديوان طرفة ١٥٧.

(٣) أمثال أبي عبيد ٣١٨، والعسكري ٤٤٤/١، والميداني ٢٦٤/١، والزنجشري ٧٩/٢.

إِنَّ لَهَا بِالْمَشْرِفِيِّ حَادِيَا
ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا

وقيل: أصل هذا أن رجلاً حمل على رجلٍ ليقْتُلَهُ، وكان في يد المحمول عليه رُمْحٌ، فأنساه الدَّهْشُ ما في يده، فقال الذي حمل عليه: ألقى الرُّمْحَ، فتذكر، فحمل عليه برُمحه فقتله. وصاحب الرُّمْحِ: يزيد بن الصَّعِقِ، والمقتول: صخر بن معاوية السُّلَمي (١).

رُمِيَ فُلَانٌ بِحَجَرِهِ، يعني: بِقِرْنِهِ فِي الصَّلَابَةِ وَالصُّعُوبَةِ.

ولما بعث معاوية عمرو بن العاص حكماً في أيام صفين قال الأحنف لعلبي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنك قد رُميت بحجر أهل الأرض، أي: لا نظير له في الدهاء، فابعث ابن عباس، فإنه رجلُ الدهر، أي: نظيره (٢).

رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ لُقْمَانُ بْنُ عَادٍ، خَرَجَ فِي سَفَرٍ فَعَطِشَ، فَالاحت له خيمةٌ، فقصدَها، فإذا فتاةٌ إلى جانبها شابٌ تُغازله، فاستسقى ماءً، فقالت المرأة: أتبغي اللبن أم الماء؟ فقال: كلاهما. فقالت: إن أردت اللبن فخلِّفك، وإن أردت الماء فأمامك، فقال: ما هذا الرجل منك؟ فقالت: أخي، فقال: ربَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمَّكَ. فذهبت مثلاً، ثم نظر إلى شعرٍ مفتولٍ فعرف أن زوجها أغسر، فقال: ثكَّلت الأَعْيَسِرَ أُمَّهُ، لو يَعْلَمُ الْعِلْمَ لَطَالَ غَمُّهُ. فذهبت مثلاً.

وَذُعِرَتْ مِنْهُ الْمَرْأَةُ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فَأَبَى، وَقَالَ: الْمَبِيتُ عَلَى الطَّوِيِّ حَتَّى تَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَثْوَى خَيْرٌ مِنْ إِيْتَانِ مَا لَا تَهْوَى. فَذَهَبَتْ مَثَلًا.

ثم مضى، وإذا برجلٍ يسوق إبلًا وقت العشاء، فعرف صوته ولم يره قبل ذلك، وهو يقول: [من الرجز]

(١) أمثال أبي عبيد ٦٢، والفاخر ١٤٢، والعسكري ٤٦٣/١، والميداني ٢٧٩/١، والزنجشري ٨٥/٢، والبكري ٧٠.

(٢) أمثال أبي عبيد ٩٧، والعسكري ٤٨٠/١، والميداني ٢٨٧/١، والزنجشري ١٠٣/٢، ووقع في (ب) بعد هذا: حمل العصا للمبتلى...، وموضعه قبل المثل: قوس حاجب.

رُوحِي إِلَى الْحَيِّ فَإِنْ نَفْسِي
رَهِينَةٌ فِيهِ بِخَيْرِ عَرْسِ
حُسَّانَةَ الْمُقْلَةَ ذَاتُ أَنْسِ
لَا يُشْتَرَى الْيَوْمُ لَهَا بِأَمْسِ

وكان اسم الرجل هانيء، فناداه لقمان: يا هانيء، فقال: مالك؟ فقال:

يَا ذَا الْبِجَادِ الْحَلَكَةَ
وَالزَّوْجَةَ الْمُشْتَرَكَةَ
لَسْتَ لِمَنْ لَيْسَتْ لَكَ

فذهبت مثلاً، فقال له هانيء: نَوَّرْ، نَوَّرَ اللهُ أَثْرَكَ، فقال له لقمان: عَلِيَّ التَّنْوِيرِ،
وعليك التَّغْيِيرِ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ نَكِيرٌ، كُلُّ أَمْرٍ فِي بَيْتِهِ أَمِيرٌ، فذهبت مثلاً، ثم قال:
مَرَرْتُ وَبِي أَوَامٌ^(١)، فَدَفَعْتُ إِلَى خِيْمَةٍ مِنَ الْخِيَامِ، وَإِذَا بَفْتَاةٍ إِلَى جَانِبِ غُلَامٍ، وَالْمَنْزِلُ
مَنْزِلُكَ، وَالْمَرْأَةُ أَمْرَأْتُكَ وَهِيَ تُغَازِلُ شَابِئًا، فَسَأَلْتُهَا عَنْهُ فزَعَمَتْهُ أَخَاهَا، وَلَوْ أَنَّهُ كَمَا
قَالَتْ لِأَفْصَحِ شِقَّاهَا، قَالَ هَانِيءٌ: وَمَنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنْزِلِي، وَالْعَرُوسُ عَرْسِي؟
فقال: رَأَيْتَ عَقَائِقَ هَذِهِ النَّوْقِ فِي الْأَفْيَاءِ، وَأَثْرَ هَذِهِ الْخَلِيَّةِ فِي الْفِنَاءِ، وَسَقَبَ هَذِهِ
النَّابِ، وَأَثْرَ يَدِكَ فِي الْأَطْنَابِ^(٢)، فقال: صَدَقْتَ، فذاك أبي وأمي، وكذبتُ نفسي،
فما الرَّأْيُ؟ فقال: تَحْمِي عَرْسَكَ، وَتَحْفَظُ نَفْسَكَ، وَتَقْلِبُ الظَّهْرَ بَطْنًا وَالْبَطْنَ ظَهْرًا،
حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكَ الْأَمْرَ أَمْرًا، قال: أَلَا أَعَالَجُهَا بِكَيْفَةٍ تُورِدُهَا الْمَنِيَّةَ، فقال لقمان: آخِرُ
الدَّوَاءِ الْكَيْفِيُّ، فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَالَهَا، وَجَاءَ هَانِيءٌ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ:
مَرَّ بِكَ رَجُلٌ مِنْ هَيْئَتِهِ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَسَلَّ سَيْفَهُ، ثُمَّ ضَرَبَهَا بِهِ حَتَّى بَرَدَتْ^(٣).

(١) أي: عَطَش.

(٢) العقائق: جمع عقيقة، الشاة التي تذبح عند حلق شعر المولود، أو صوفها، والأفياء: جمع فيء، ما بعد
الزوال من الظل، والخلية: الإبل المخلاة للحلب، والناب: الناقة المسنة، والسقب: ولدها، والأطناب:
حبال يشد بها سرادق البيت، أو الأوتاد.

(٣) مجمع الأمثال ١/ ٢٩١، وأمثال أبي عبيد ١٧٥، والعسكري ١/ ٤٢٤ و٤٨١، والزنجشري ٢/ ٩٣.

رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، أَوَّلُ مَنْ قَالَه: النابغة الذبياني. قَدِمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْوُفُودِ عَلَى النعمان ابن المنذر وفيهم شقيق العبسي، فمات عنده، وأعطى النعمان الوُفُودَ الْجَوَائِزَ، وبعث بجائزة شقيق إلى أهله بمثل ما حبا به واحداً من الوفود، فقال النابغة: [من الطويل]

أَبْقَيْتَ لِلْعَبْسِيِّ فَضْلاً وَنِعْمَةً وَمَحْمَدَةً مِنْ بَاقِيَاتِ الْمَحَامِدِ
حِبَاءً شَقِيقٍ فَوْقَ أَعْظَمِ قَبْرِهِ وَمَا كَانَ يُحْبِي قَبْلَهُ قَبْرٌ وَافِدِ
أَتَى أَهْلَهُ مِنْهُ حِبَاءً وَنِعْمَةً وَرُبَّ امْرِيءٍ يَسْعَى لِآخِرِ قَاعِدِ^(١)

رُبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، أَوَّلُ مَنْ قَالَه الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثِ الْمِنْقَرِيِّ، كَانَ قَدْ آلَى أَنْ يَرْمِيَ مَهَاءً، فَرَمَاهَا فَأَخْطَاهَا، وَكَانَ مَعَهُ ابْنٌ لَا يُحْسِنُ الرَّمِيَّ، فَرَمَى مَهَاءً فَأَصَابَهَا، فَقَالَ الْحَكَمُ: رُبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ^(٢).

شَرُّ أَيَّامِ الدَّيْكِ يَوْمٌ تُغَسَلُ فِيهِ رِجْلَاهُ، وَإِنَّمَا تُغَسَلُ بَعْدَ ذَبْحِهِ وَتَهْيِئَتِهِ لِلطَّبْخِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الْبَاخْرَزِيُّ يَشْكُو قَوْمَهُ: [من البسيط]

وَلَا أَبَالِي بِإِذْلَالٍ خُصِصْتُ بِهِ فِيهِمْ وَمِنْهُمْ وَإِنْ خُصُّوا بِإِعْزَازِ
رَجُلُ الدَّجَاجَةِ لَا مِنْ عِزِّهَا غُسِلَتْ وَلَا مِنَ الذُّلِّ خِيَطَتْ مُقْلَةُ الْبَازِ^(٣)

شِنْشِنَةٌ أَعْرَفُهَا مِنْ أَخْزَمٍ، أَوَّلُ مَنْ قَالَه أَبُو أَخْزَمِ الطَّائِي جَدُّ حَاتِمٍ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ: أَخْزَمٌ، وَكَانَ عَاقِلاً لَهُ، فَمَاتَ الْابْنُ، وَتَرَكَ بَنِينَ، فَوَثَبُوا عَلَى جَدِّهِمْ أَبِي أَخْزَمٍ فَأَذَمَوْهُ، فَقَالَ: [من الرجز]

إِنْ بَنِيَّ ضَرَّجُونِي بِالِدَمِّ شِنْشِنَةٌ أَعْرَفُهَا مِنْ أَخْزَمِ
أَي: أَشْبَهُوا أَبَاهُمْ فِي الْعُقُوقِ.

وقيل: كان عقيل بن علفة المري يسكن البادية لشرف نفسه، وكان يصهر إليه الخلفاء، خطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته الجرباء على أحد بنيها، فقال له: جَنَّبْنِي هُجَنَاءَكَ.

(١) أمثال أبي عبيد ١٩٥، والفاخر ١٧٥، والعسكري ٤٧٩/١، والميداني ٢٩٩/١، والزنجشري ٩٥/٢، والبكري ٢٨٧، وديوانه ٤٦ (صادر).

(٢) أمثال أبي عبيد ٥١، والبكري ٤٣، والعسكري ٤٩١/١، والميداني ٢٩٩/١، والزنجشري ١٠٥/٢.

(٣) مجمع الأمثال ٣٥٩/١.

وكان غيوراً خرج يمتارُ ومعه ابنته الجرباء وابنه عمّلس، فنزل ديراً بالشام يُقال له:
دير سعد، فلما ارتحلوا قال عقيل: [من الطويل]

قَضْتُ وَطَرًا مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَرُبَّمَا عَلَى عُرْضِ نَاطِحِنَه بِالْجَمَاجِمِ
ثم قال لابنه: أجز، فقال: [من الطويل]

فَأُضْبِحَنَ بِالْمُومَاةِ يَحْمِلُنَ فِثْيَةَ تَمِيلُ مِنَ الْإِدْلَاجِ مَيْلَ الْعَمَائِمِ
ثم قال لابنته: يا جرباء أجزني فقالت: [من الطويل]

كَأَنَّ الْكِرَى سَقَّاهُمْ صَرْخِدِيَّةً عُقَارًا تَمَشَّتْ فِي الْمَطَا وَالْقَوَائِمِ
فقال: وما يدريك ما نعتُ الخمر، وأخذ السّوط، وأهوى إليها؟ فحال بينهما
عمّلس، فأراد أن يضربه، فرماه عمّلس بسهم، فاختلّ فخذه فبرك، ومضوا وتركوه،
حتى إذا بلغوا أدنى ماءٍ لهم قالوا: إنا خلفنا جزوراً، فأدركوه وخذوا معكم ماء،
فأخذوا وقصدوه، وإذا بعقيل باركٌ وهو يقول: [من الرجز]

إِنْ بَنِي ضَرَجُونِي بِالْدَمِّ شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ
مَنْ يَلْقَ أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكَلِّمِ

وقيل: كان في الجاهلية فحلاً يُقال له: أخزم، أنجب أولاده جميعاً، وكان يُضرب
به المثل.

وشاور عمر بن الخطاب ابن عباس رضي الله عنهما في أمر، فأشار عليه بما أعجبه، فقال عمر
رضي الله عنه: شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ. أشار إلى العباس رضي الله عنه، لأنه لم يكن في قريش شبيهه في
الرأي والحزم^(١).

صارت الفتيان حُمَّماً، أوّل من قاله الحمراء، واسمها: ضمرة بنت جابر، كان
عمرو بن هند ملك الحيرة قد نذر دماء بني تميم؛ لأنهم قتلوا أخاه سعد بن هند وقال:
والله لأحرقنّ منهم مئةً من ساداتهم. وسار إليهم في جيوشه، ففترقوا فأتى دارهم، فلم
يجد فيها إلا عجوزاً كبيرة، فنظر إلى حمرتها، فقال: إني لأحسبك أعجميةً، فعرفته،

(١) العققة والبررة لأبي عبيدة ٣٥٧/٢ (نوادير المخطوطات)، وطبقات فحول الشعراء ٧١٠-٧١٦، وأمثال أبي
عبيد ١٤٤، والبكري ٢١٩، والعقد ١٩١-١٩٢، والعسكري ٥٤١/١، والميداني ٣٦١/١، والزنجشري

وعرفت أنه قاتلها، فقالت: لا والذي أسأله أن يخفض جناحك، ويهد عمادك، ويضع وسادك، ويسلبك أهلك وأولادك وبلاذك ما أنا بأعجمية، فقال: من أنت؟ فقالت: ضمرة بنت جابر الحمراء، بنت من ساد معداً كبيراً عن كابر. قال: فمن زوجك؟ قالت: هوذة بن جرول. قال: أما تعرفين مكانه؟ فقالت: لو علمت مكانه لحال بيني وبينك، فقال: وأي رجل هو؟ فقالت: طيب العرق، سمين العرق، يأكل ما وجد، ولا يسأل عما فقد، فقال عمرو: أما والله لولا أنني أخاف أن تلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك، فقالت: إنك لا تقتل إلا نساءً أعاليهن ثدي، وأسافلهن دمي، والله ما أدركت ثاراً، ولا غسلت عاراً.

فأمر بها أن تحرق، فقالت: صارت الفتيان حُمماً، ثم ألقاها في النار. وأقام عامة يومه لا يقدر منهم على أحد، حتى إذا كان آخر النهار أقبل راكباً اسمه عمّار، فقال له عمرو: من أنت؟ فقال: وافد البراجم. فقال عمرو: إن الشقي وافد البراجم، فذهبت مثلاً^(١).

صبراً على مجامر الكرام، أوّل من قال ذلك مولاة يسار الكواعب، راودها مولاها يسار عن نفسها، فأبت عليه، فألح عليها، قالت: إن ريحك سهكة، فإن بخرتك ببخور طاوعتك، فقال: افعلي. فجاءت بمجمرة فجعلتها تحته، وأدخلت يدها تصلحها، وقبضت على ذكره ومخاصيه، فجذبته فصاح، فقالت: صبراً على مجامر الكرام، فأرسلتها مثلاً لمن يصبر على ما يكره، قال الفرزدق يخاطب جريراً: [من الطويل]

وإني لأخشى إن خطبت إليهم عليك الذي لاقى يسار الكواعب^(٢)
الصيف ضيغت اللبن، كانت امرأة تحت رجل مؤسر، فكرهته لكبره فطلقها، فتزوجها رجل مملق، فبعثت إلى زوجها الأول تستمنحه، فقال: الصيف ضيغت اللبن، وكان طلقها في الصيف^(٣).

(١) مجمع الأمثال ١/٣٩٤، والمستقصى ٢/١٣٧، وانظر أمثال أبي عبيد ٣٢٨، والبكري ٤٥٤، والعسكري ١٢١/١، والميداني ٩/١، والزنجشري ٤٠٥/١.

(٢) النقائض ٨١٦، والفاخر ٩٩، والميداني ٣٩٣/١، والزنجشري ١٣٩/٢، وديوانه ٩٧/١ (صادر).

(٣) أمثال أبي عبيد ٢٤٧، والبكري ٣٥٧، والفاخر ١١١، والعسكري ٥٧٥/١، والميداني ٦٨/٢، والزنجشري ٣٢٩/١.

ظَاهِرُ الْعِتَابِ خَيْرٌ مِنْ بَاطِنِ الْحَقْدِ، ومثله قول القائل: [من الوافر]
 إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَا وَدَادَ وَيَبْقَى الْوَدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ
 ظَنَّ الْعَاقِلُ خَيْرٌ مِنْ يَقِينِ الْجَاهِلِ^(١).

عند جُهَيْنَةَ الْخَبَرِ الْيَقِينُ، وكان من حديثه: أَنَّ حُصَيْنَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ مَعَاوِيَةَ بْنَ عَمْرٍو
 ابْنَ كِلَابٍ خَرَجَ وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ جُهَيْنَةَ، وَأَخَذَ مَالَهُ، وَكَانَتْ صَخْرَةٌ بِنْتُ مَعَاوِيَةَ تَبْكِيهِ فِي
 الْمَوَاسِمِ. فَقَالَ الْأَخْنَسُ: [من الوافر]

تُسَائِلُ عَنْ حُصَيْنٍ كُلِّ رَكْبٍ وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرِ الْيَقِينُ
 فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنْهُ فَعِنْدِي لِصَاحِبِهِ الْبَيَانَ الْمُسْتَبِينُ
 وَقِيلَ: جُهَيْنَةُ اسْمُ خَمَارٍ^(٢).

عند الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ الشُّرَى، أَوَّلُ مَنْ قَالَه رَافِعُ الطَّائِي دَلِيلُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ، أَوَّلُ مَنْ قَالَه مَالِكُ بْنُ جُبَيْرِ الْعَامِرِيِّ، وَكَانَ مِنْ حُكَمَاءِ
 الْعَرَبِ.

وَسَأَلَ هَارُونَ الرَّشِيدَ الْأَصْمَعِيَّ عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ الْأَصْمَعِيُّ: عَلَى الْخَبِيرِ
 سَقَطَتْ، فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ: أَسْقَطَ اللَّهُ أَسْنَانَكَ، أَبْمِثْلِ هَذَا تُخَاطَبُ أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: هَذِهِ لُغَةُ الْعَرَبِ، فَهَاهُنَا هَارُونَ وَقَالَ: صَدَقَ^(٤).

عَلَى يَدَيَّ دَارَ الْحَدِيثِ، يُضْرَبُ مِثْلًا لِمَنْ كَانَ عَالِمًا بِالْأَمْرِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بِهِ جَابِرُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ فِي حَدِيثِ الْمَتْعَةِ^(٥).

(١) المثلان في مجمع الأمثال ١/٤٤٥، والبيت في العقد ٢/٣١٠ و ٤/٢٣٠.

(٢) أمثال أبي عبيد ٢٠١، والفاخر ١٢٦، والعسكري ٢/٤٤، والميداني ٢/٣، والزنجشري ٢/١٦٩،
 والبكري ٢٩٥.

(٣) أمثال أبي عبيد ١٧٠، والبكري ٢٥٤، والفاخر ١٩٣، والعسكري ٢/٤٢، والميداني ٢/٣، والزنجشري
 ١٦٨/٢.

(٤) أمثال أبي عبيد ٢٠٦، والعسكري ٢/٤٦، والميداني ٢/٢٤، والزنجشري ١/١٦٤.

(٥) أمثال أبي عبيد ٢٠٣، والميداني ٢/٨، والزنجشري ٢/١٦٧، وأخرج حديث المتعة أحمد (١٤١٨٢)،
 ومسلم (١٢١٧).

عَضَّتْ الخَيْلُ عَلَى اللُّجْمِ^(١)، يُضْرَبُ مِثْلًا لِمَنْ يَغْضِبُ غَضْبًا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ فِيهِ.

فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكْمُ، وَضَعَتِ الْعَرَبُ أَمْثَالَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ، فَقَالَتْ: التَّقَطْتُ الْأَرْنَْبُ تَمْرَةً، فَأَخَذَهَا الثَّعْلَبُ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى الضَّبِّ، فَجَاءَ إِلَى بَابِ بَيْتِهِ، فَنَادَتْ الْأَرْنَْبُ: يَا أَبَا لِحْسَيْلٍ، فَقَالَ الضَّبُّ: سَمِيعًا دَعَوْتِ، فَقَالَتْ: أَتَيْنَاكَ لِنَحْتَكِمَ إِلَيْكَ، فَقَالَ: عَادِلًا حَكْمُثُمَا، قَالَتْ: فَأَخْرَجَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكْمُ، فَقَالَتْ: إِنِّي التَّقَطْتُ تَمْرَةً، فَقَالَ: حُلُوعًا جَنَيْتِ، قَالَتْ: فَأَخْتَطَفَهَا ثُعَالَةً - يَعْنِي الثَّعْلَبَ - قَالَ: حُلُوعًا جَنَيْتِ، قَالَتْ: فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: بِحَقِّكَ أَخَذْتِ، قَالَتْ: فَلَطَمَنِي، فَقَالَ: كَانَ حُرًّا فَانْتَصَرَ، قَالَتْ: فَأَقْضِ بَيْنَنَا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ^(٢).

قَدْ يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمِكْوَاةُ فِي النَّارِ، أَوَّلُ مَنْ قَالَهُ مُسَافِرُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ أُمَيَّةَ، كَانَ يَهْوَى هِنْدًا بِنْتَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَقَالَتْ لَهُ: أَنْتَ فَقِيرٌ، وَأَهْلِي لَا يُزَوِّجُونَكَ وَأَنْتَ مُعْسِرٌ، فَازْهَبْ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ لَعَلَّكَ أَنْ تُصِيبَ مَالًا.

فَذَهَبَ إِلَى النِّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ مَلِكِ الْحَيْرَةِ فَأَقَامَ عِنْدَهُ، وَتَزَوَّجَ أَبُو سَفْيَانَ هِنْدًا وَقَدِمَ الْحَيْرَةَ، وَكَانَ صَدِيقًا لِمُسَافِرٍ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَأَخْبَرَهُ، وَقَالَ: تَزَوَّجْتُ هِنْدًا، فَشَهَقَ شَهَقَةً عَظِيمَةً، وَسَقَى بَطْنَهُ، فَأَمَرَ النِّعْمَانَ أَنْ يُكْوَى، فَأَتَى بِطَشْتٍ فِيهِ نَارٌ، فَوَضَعَ الْحَجَّامَ عَلَيْهِ مِكْوَاةً لَتُحْمَى، فَضَرَطَ الْحَجَّامُ، فَقَالَ مُسَافِرٌ: قَدْ يَضْرُطُّ الْعَيْرُ وَالْمِكْوَاةُ فِي النَّارِ. يُضْرَبُ مِثْلًا لِلرَّجُلِ يَتَخَوَّفُ مِنَ الْأَمْرِ، فَيَجْزَعُ قَبْلَ وَقُوعِهِ^(٣).

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَامَاهَا، وَسَبَبَ هَذَا أَنْ رَجُلًا مِنْهُمْ التَّقَى رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ الْقَارِيُّ: إِنْ شِئْتَ سَابَقْتُكَ، وَإِنْ شِئْتَ رَامَيْتُكَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: قَدْ اخْتَرْتُ الْمُرَامَاةَ. فَقَالَ الْقَارِيُّ: [مِنَ الرَّجْزِ]

(١) كَذَا، وَالَّذِي فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ٥٦/٢، وَالْمُسْتَقْصَى ١٧٧/٢: غَضِبَ الْخَيْلَ عَلَى اللَّجْمِ، بِنَصْبِ غَضَبٍ وَرَفْعِهَا.

(٢) أَمْثَالُ أَبِي عُبَيْدٍ ٥٤، وَالْفَاخِرُ ٧٦، وَالْعَسْكَرِيُّ ٣٦٧/١ وَ ١٠١/٢، وَالْمِيدَانِيُّ ٧٢/٢، وَالزَّمْخَشَرِيُّ ٦٠/٢ وَ ١٨٣.

(٣) أَمْثَالُ أَبِي عُبَيْدٍ ٣٠٩، وَالْفَاخِرُ ٧١ وَ ١٥٤، وَالْعَسْكَرِيُّ ١٢٣/٢، وَالْمِيدَانِيُّ ٩٥/٢، وَالزَّمْخَشَرِيُّ ١/١ وَ ٣٣٦، وَالْبَكْرِيُّ ٤٣٢.

قد علمت سلمى ومن والها
 إنا إذا ما فئنة نلقاها
 نردُّ أولاهها على أخراها
 قد أنصف القارة من رامها

ثم رماه القاريُّ بسهم فأصاب فؤاده فمات، والقارة: رُماة الحدق^(١).

قَلَبَ له ظَهَرَ المِجَنِّ، يضرب مثلاً لمن كان على مَوَدَّةٍ ورعايةٍ لصاحبه، ثم تغيَّر واستحال. وكتب عليُّ عليه السلام إلى ابن عباس رضي الله عنهما: قَلَبْتَ لي ظَهَرَ المِجَنِّ^(٢).

قد ألقى عصاه، مثل لمن استقرَّ من سفرٍ وغيره، قال جرير: [من الطويل]

فلما التقى الحَيَّانُ أَلْقَيْتِ العَصَا ومات الهوى لَمَّا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ^(٣)

وفي عكسه يقول عليُّ بن الحسن بن أبي الطيب الباخري: [من مجزوء الكامل]

حَمَلُ العَصَا لِلْمُبْتَلَى بالشَّيبِ عُنوانُ البِلا

وُصِفَ المُسَافِرُ أَنَّهُ ألقى العَصَا كي يَنْزِلَا

فَعَلَى القِيَّاسِ سَبِيلُ مَنْ حَمَلُ^(٤) العَصَا أن يَرْحَلَا

قَوْسٌ حَاجِبٌ، دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بني تميم، فأجدبت أرضهم، فوفد حاجبُ

ابن زُرارة التَّميمي على كسرى، يسأله أن يأذن له ولقومه أن ينزلوا في أرياف العراق

بسبب المَرعى، فقال له كسرى: أنتم قوم فُسدُّ غُدْرُ، وأخاف أن تُؤذوا الرِّعايا، فقال

حاجب: أنا ضامنٌ أن لا يفعلوا شيئاً من ذلك، فقال: ومن أين لي بوفائك؟ قال: هذه

قوسي، فضحكت أساورته، فقال كسرى: ما كان ليُسَلِّمَهَا أبداً، فأخذ قوسه رهناً،

وأذن لهم فنزلوا الأرياف.

(١) أمثال أبي عبيد ١٣٧، والفاخر ١٤٠، والعسكري ٥٥/١، والميداني ١٠٠/١، والزنجشري ١٨٩/٢، والبكري ٢٠٤.

(٢) العسكري ١٢٥/٢، والميداني ١٠١/٢، والزنجشري ١٩٨/٢.

(٣) النقااض ٦٣٠.

(٤) في النسخ: ألقى، والمثبت من مجمع الأمثال ١٠١/٢-١٠٢.

ثم وفد جماعةٌ منهم على رسول الله ﷺ وأسلموا، فدعا لهم فأخصبت أرضهم، ومات حاجب، فأمر عطارذ بن حاجب قومه بالرحيل إلى بلادهم، وجاء إلى باب كسرى يطلب قوس أبيه، فقال: إنك لم تُسلم إليّ شيئاً، فقال: أيُّها الملك، إني وارثُ أبي، وقد وَفينا بالضَّمان، ورحلنا عن بلادك، فإن لم تدفع إليّ قوسَ أبي صار عاراً عليّ وسُبَّةً، فدفع إليه القوس، وكساه حُلَّةً من حُلِّه، فوفد عطارذ على رسول الله ﷺ في نفرٍ من بني تميم وأسلم، وأهدى الحُلَّةَ لرسول الله ﷺ فردَّها عليه، فباعها عطارذ من يهوديٍّ بأربعة آلاف درهم.

فكان بنو تميم يتوارثون ذلك القوس، وآخرٌ من كان عنده جعفر بن عمير بن عطارذ ابن حاجب، فهو في ولده، يَعُدُّونها من أعظم المفاخر، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها، فقال أبو القاسم الزمخشري: [من الطويل]

فكلُّ وفاءٍ كان في قوسِ حاجبٍ وأنت جمعتَ الغدرَ في قوسِ حاجبٍ
وقال آخر: [من المنسرح]

تزهو علينا بقوسِ حاجبِها تيهَ تميمٍ بقوسِ حاجبِها^(١)
قيل للبعل: مَنْ أبوك؟ قال: خالي الفرس، يُضرب مثلاً للمُختلِطِ النسبِ^(٢).

أكثرُ من الصِّديقِ فإنك على العدوِّ قادرٍ، أوَّلُ مَنْ قاله: أبجر بن جابر العجلي في وصيته لولده حجار بن أبجر^(٣).

كلُّ شاةٍ برجلِها، معناه: لا ينبغي لأحدٍ أن يأخذَ بالذنبِ غيرَ المُذنبِ^(٤).
كلُّ الصِّيدِ في جوفِ الفراءِ، خرج ثلاثة نفرٍ إلى الصِّيدِ، فصاد أحدهم أرنباً، والآخر ظبياً، والآخر حماراً وحشياً، فتطاولا عليه وقالوا: ما صِدَّتْ شيئاً، فقال: كُلُّ الصِّيدِ في

(١) المعارف ٦٠٨، وثمار القلوب ٦٢٥-٦٢٦، وربيع الأبرار ٣٤٣/٥، والبيت الثاني فيهما للمطراني، وهو له في يتيمة الدهر ١٣٨/٤.

(٢) العسكري ١٠٠/٢، والميداني ١١٠/٢.

(٣) الفاخر ٢٤٧، والميداني ١٥٣/٢.

(٤) أمثال أبي عبيد ٢٧٤، والعسكري ١٥٣/٢، والميداني ١٣٣/٢، والزمخشري ٢٢٦/٢. وروايته فيها: كل شاة برجلها تناط، وفي الفاخر ٢٨٨ برواية: برجلها مُعلَّقة.

جَوْفِ الْفَرَأِ، أَي: إن هذا الحمار يشمل ما معكما؛ لأنه أكبر الصُّيُودِ، فكلُّ صَيْدٍ حَقِيرٍ في جانبه^(١).

كَلَابِسُ ثَوْبِي زُورٌ^(٢)، معناه: أن الرجلَ يلبسُ ثيابَ الزُّهَّادِ، ويُظهرُ من التَّخَشُّعِ أكثرَ ممَّا فيه.

كَلَامٌ كَالْعَسَلِ، وَفِعْلٌ كَالْأَسَلِ، يُضْرَبُ لِمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُ فِعْلَهُ^(٣).

كِلَاهُمَا وَتَمْرًا، وخطب عمرو بن حُمران الجعديّ امرأةً من العرب^(٤)، وكانت تسجع، وكان هو يسجع فتزوَّجها، فولدت له أولاداً فسَمَّى أحدهم عَمْرًا، فنشأ فصيحاً، ودفع إليه إبلاً يرعاها، فبينما هو يرعى، وبين يديه زُبْدٌ وَتَمْرٌ وَتَامِكٌ - وهو لحمُ السَّنَامِ - إذ مرَّ به رجلٌ عطشانٌ جائعٌ، فقال: أَتَطْعَمُنِي من هذا الزُّبْدِ وَالتَّامِكِ؟ فقال: نعم، كلاهما وَتَمْرًا، فسار مثلاً^(٥).

لَبِستُ له جِلْدَ النَّمِرِ، يُضْرَبُ في إظهارِ العداوةِ وَكَشْفِهَا^(٦).

لو تُرِكَ القَطَا لهدا وناما، أولُ مَنْ قاله حَدَامُ بنتُ الرِّيَّانِ، قَصدهم عايطسُ بنُ خِلاجِ ليلاً، فنَفَرَ القَطَا، فقالت لأهلها: ارتحلوا فهذا العدوُّ، فلم يلتفتوا إليها، فقالت: [من الوافر]
ألا يا قومنا ارتحلوا فسيروا فلو تُرِكَ القَطَا ليلاً لناما
فعرف قولها دَيْسَمُ بنُ طارقٍ وكان حازماً فقال: [من الوافر]
إذا قالت حَدَامٌ فَصَدَّقْوها فإنَّ القَوْلَ ما قالت حَدَامٌ^(٧)

(١) أمثال أبي عبيد ٣٥، والبكري ١٠، والكامل ٤١٤، والعسكري ١٦٢/٢، والميداني ١٣٦/٢، والزنجشري ٢٢٤/٢، وفي حواشي الكامل فضل تخريج.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٥٣٤٠)، ومسلم (٢١٢٩) عن عائشة، وانظر مجمع الأمثال ١٥٠/٢.
(٣) الميداني ١٣٣/٢.

(٤) كذا، والصواب أن الخاطب حمران الجعدي، انظر المصادر في الحاشية التالية.

(٥) أمثال أبي عبيد ٢٠٠، والفاخر ١٤٩، والعسكري ١٤٧/٢، والميداني ١٥١/٢، والزنجشري ٢٣١/٢، والبكري ١١٠.

(٦) أمثال أبي عبيد ٣٥٣، والبكري ٤٨٠، والعسكري ١٩٩/٢، والميداني ١٨٠/٢، والزنجشري ٢٧٨/٢.

(٧) أمثال أبي عبيد ٢٧١، والبكري ٣٨٤، والفاخر ١٤٥، والعسكري ١٩٤/٢، والميداني ١٧٤/٢، والزنجشري ٢٩٦/٢.

لعلَّ له عُذْرًا وَأَنْتِ تُلُومٌ، وهذا نصفُ بيت، وأوَّلُه: [من الطويل]

تَأَنَّ وَلَا تَعَجَّلْ بِلُومِكَ صَاحِبًا

يُضْرَبُ مِثْلًا لِمَنْ يَلُومُ مَنْ لَهُ عُذْرٌ^(١).

لَا تَعْدَمُ الْحَسَنَاءُ ذَامًا، أي: أن الحَسَدَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَمِّهَا^(٢).

لَا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمْسِكًا سَاقًا، معناه: لَا يَدْعُ حَاجَةً إِلَّا سَأَلَ أُخْرَى^(٣).

لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ، تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأَةً، فَقَالَ: أَيْنَ الطَّيِّبُ؟ فَقَالَتْ: خَبَأْتُهُ، فَقَالَ:

لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ، أي: لَا يُخْبَأُ الطَّيِّبُ بَعْدَ الْعَرَسِ^(٤).

مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ، وَهُوَ نَبْتُ مِنْ أَفْضَلِ مَرَاعِي الْإِبِلِ^(٥).

الْمَلِكُ عَقِيمٌ، معناه: أن الرجلَ قَدْ يَقْتُلُ ابْنَهُ إِذَا خَافَهُ عَلَى الْمَلِكِ، وَإِذَا تَنَازَعَ قَوْمٌ فِي

مُلْكٍ، انْقَطَعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَرْحَامُ، فَلَمْ يُبْقِ فِيهِ وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ، فَصَارَ كَأَنَّهُ لَمْ يُوَلِّدْهُ^(٦).

مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ، هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، أَتَاهُ أَخٌ لَهُ يَسْأَلُهُ شَيْئًا، فَقَالَ: إِذَا أَطْلَعَ نَخْلِي

فَأْتِنِي، فَلَمَّا أَطْلَعَ جَاءَهُ، فَقَالَ: إِذَا أَبْلَحَ، فَلَمَّا أَبْلَحَ جَاءَهُ، فَقَالَ: حَتَّى يُزْهِيَ، فَلَمَّا أَزْهِيَ

جَاءَهُ، فَقَالَ: حَتَّى يُرْطِبَ فِجَاءَهُ، فَقَالَ: حَتَّى يُثْمِرَ، فَلَمَّا صَارَ ثَمْرًا أَخَذَهُ فِي اللَّيْلِ، وَلَمْ

يُعْطِهِ شَيْئًا. فَضْرِبَتْ بِهِ الْعَرَبُ الْمَثَلَ فِي الْخُلْفِ، وَفِيهِ يَقُولُ كَعْبٌ: [من البسيط]

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٧)

(١) أمثال أبي عبيد ٦٣، والبكري ٧٣، والعسكري ٤٧٤/١، والميداني ١٩٢/٢، والزنجشري ٢٨٢/٢.

(٢) أمثال أبي عبيد ٥١، والفاخر ١٥٥، والعسكري ٣٩٨/٢، والميداني ٢١٣/٢، والزنجشري ٢٥٦/٢، والبكري ٤٣.

(٣) أمثال أبي عبيد ٢٤٢، والبكري ٣٥٠، والعسكري ٣٨٨/٢، والميداني ٢١٧/٢، والزنجشري ٢٦٩/٢.

(٤) أمثال أبي عبيد ٣٠٣، والفاخر ٢١١، والعسكري ٣٩٥/٢، والميداني ٢١١/٢، والزنجشري ٢٦٣/٢، والبكري ٤٢٦.

(٥) أمثال أبي عبيد ١٣٥، والفاخر ٦٤، والعسكري ٢٤٢/٢، والميداني ٢٧٥/٢، والزنجشري ٣٤٤/٢، والبكري ١٩٩.

(٦) أمثال أبي عبيد ١٤٨، والعسكري ٢٤٧/٢، والميداني ٣١١/٢، والزنجشري ٣٥٠/٢.

(٧) أمثال أبي عبيد ٨٧، والبكري ١١٣، والفاخر ٦٤، والميداني ٣١١/٢، وشرح بانة سعاد لابن هشام ٣٩، وبرواية أخلف من عرقوب في الدرر ١٧٧/١، والعسكري ٤٣٣/١، والزنجشري ١٠٧/١.

المَوْتُ دُونَ الْجَمَلِ الْمُجَلَّلِ ، قاله عبد الرحمن بن عَتَّاب بن أسيد يوم الجَمَلِ (١) .
 نار الحَبَاحِبِ ، ضربت العربُ المَثَلُ بهذه النار لكلِّ نارٍ لا يُتَفَعُّ بها (٢) .
 نَوْمَةٌ عَبُودٌ ، هو رجلٌ تَمَاوت على قومه ، وقال : انْدُبُونِي حتى أعلم كيف تَنْدُبُونِي
 مَيِّتاً؟ ثم نام فمات على تلك الحالة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ أَسْوَدُ يُقَالُ لَهُ : عَبُودٌ ، بعث الله نبياً
 إلى أهل قرية ، فلم يُؤْمِنَ إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية أخذوا ذلك النبي ،
 فألقوه في بئر ، وجعلوا على رأسها صخرةً ، فكان عَبُودٌ يَحْتَطِبُ كلَّ يوم ، ويبعُ
 الحَطَبَ ، فيشتري بثمنه طعاماً وشراباً ، ويأتي إلى رأس الصخرة ، ويلقيه إلى النبي ،
 فخرج العبدُ يوماً يَحْتَطِبُ ، فجلس لِيَسْتَرِيحَ ، فنام سبع سنين ، ثم استيقظ ، وجاء يطلب
 النبي فلم يجده في البئر ، وكانوا قد استخرجوه ، فضربوا به المَثَلُ (٣) .

وَأَفَقَ شَنْ طَبَقَةً ، يُضْرَبُ مِثْلًا لِلْمُتَوَافِقِينَ فِي الشَّدَّةِ (٤) .

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ ، هذا نصفُ بيتٍ وتَمَامُهُ :

مَا هَكَذَا تَوُرَّدُ يَا سَعْدُ الْإِبِلُ

وهو سَعْدُ بن زيد مناة أخو مالك ، وكان يُحَمِّقُ ، تزوج امرأةً ، فلم يُحَسِّنْ إليها ،
 فقال له أخوه ذلك (٥) .

(١) الفاخر ٢٩٤ ، والميداني ٣١١/٢ .

(٢) ثمار القلوب ٥٨١ ، وبرواية : أخلف من نار الحباحب في الدرّة ١٧٩/١ ، والعسكري ٤٣٤/١ ، والميداني
 ٣٥٣/١ ، والزنجشري ١٠٨/١ .

(٣) الفاخر ١٣٥ ، والميداني ٣٣٦/٢ ، وثمار القلوب ١٤٣ ، والحديث فيها عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً ،
 قال الفيروزآبادي في القاموس (عبد) وهو حديث مُعْضَلٌ ، وورد المثل مختصراً برواية : أنوم من عبود في الدرّة
 ٤٠٢/٢ ، والعسكري ٣١٩/٢ ، والزنجشري ٤٢٦/١ .

(٤) أمثال أبي عبيد ١٧٧ ، والفاخر ٤٧ ، والعسكري ٣٣٦/٢ ، والميداني ٣٥٩/٢ ، والزنجشري ٣٧١/٢ ،
 والبكري ٢٦٢ .

(٥) كذا ، والذي في مصادر التخريج أن مالكا كان يُحَسِّنُ رَعِيَّ الْإِبِلِ ، فتزوج ، فخرج أخوه سعد بالإبل وهو
 متلقّف بثوبه ، فأعاقه ذلك عن إحسان عمله ، فقال له ذلك ، انظر طبقات فحول الشعراء ٢٨-٣٠ ، وأمثال
 أبي عبيد ٢٤٠ ، والعسكري ٩٣/١ ، والميداني ٣٦٤/٢ ، والزنجشري ٤٣٠/١ ، والبكري ٣٤٧ .

أَوْسَعْتُهُمْ سَبًّا وراحووا بالإبل، أَوْلُ مَنْ قَالَه كَعْبُ بن زهير، كان له إبلٌ يرعاهَا، فأغار عليها الحارث بنُ وِرْقَاء فاستاقها، وصعد كعبٌ على أكمة، وجعل يشتم الحارث وهو لا يلتفت. يُضْرَبُ لِمَنْ لم يكن له حيلةٌ وقد ذهب ماله^(١).
اليومَ خَمْرٌ وغداً أَمْرٌ، أَوْلُ مَنْ قَالَه امرؤ القيس بن حُجر الكِندي، ومعناه: اليوم يومٌ خَفِضٍ ودَعَا، وغداً جِدٌّ واجتهاد^(٢).

فصل في ذكر طوائف العرب وما كانوا يعتقدون من الأديان

وكانت العربُ في الجاهلية تدين بأديانٍ، فمنهم مَنْ كان يدين بالله تعالى، وباليوم الآخر، والبعث، والنشور، وأن الله يُثيب المُطيع ويُعذب العاصي، كقُسسِ بن ساعدة ومَنْ كان في الفترة.

ومنهم مَنْ كان يُثبِتُ حَدَثَ العالم، وقَدَمَ الصَّانع، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تُقَرِّبُهُمْ إلى الله زُلْفَى.

ومنهم مَنْ أقرَّ بالخالق، وكذَّبَ بالرُّسُلِ والبعث والنشور، وقال بالدهر.
ومنهم مَنْ تنصَّرَ وتهودَ وتمجَّسَ.

ومنهم طائفةٌ عَبدت الكواكب، وقالت: هم بناتُ الله.

ومنهم من كان يُثبِتُ التَّوْحِيدَ والوَعْدَ والوَعِيدَ، وَيترك التَّقْلِيدَ، كعبد المطلب بن هاشم وغيره، ومع هذا كانوا يُعظِّمون الأصنام^(٣).

فصل في أخبار قوم منهم أهلكهم الله تعالى

فمنهم عاد وثمود وطسم وجديس، ولما هلك هؤلاء تفرق مَنْ بقي من القبائل، فنزل بعضهم مكة، وبعضهم الطائف، ونزل يثرب بن مهلايل بن إرم مكان المدينة فنسبت إليه.

(١) أمثال أبي عبيد ٣٢١، والفاخر ١٧٦، والعسكري ١١٦/١، والميداني ٣٦٣/٢، والزنجشري ٤٣١/١.

(٢) أمثال أبي عبيد ٣٣٣، والعسكري ٤٣١/٢، والميداني ٤١٧/٢، والزنجشري ٣٥٨/١.

(٣) مروج الذهب ٢٥٦/٣.

ومنهم داسم قبيلة عظيمة، خرجوا إلى الشام، فنزلوا أرض السماوة بين العراق والشام، وكانت عمارة وبساتين ومياه تتدفق، فأقاموا مدة، ثم طغوا وفسدوا، ومال قوتهم على ضعيفهم، فبعث الله عليهم ريحاً سوداء في ليلة مظلمة فسفتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، ويبيست الثمار، وغارت المياه كأن لم تكن بالأمس^(١).
وأهلك الله أمماً كثيرة بعدهم لما طغوا وبغوا، قال الله تعالى: ﴿هَلْ نُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

فصل

في مذاهب العرب في النفس والروح، والغيلان، والسعالى، والهواتف، والنسناس، والزجر، والسائح، والبارح، والكهانة، والسحر، والعائف، والقائف.
فأما النفس فقال بعضهم: هي الدّم، وقال بعضهم: هي الروح، وقالت طائفة: النفس شبه طائر، ينبسط في جسم الآدمي، فإذا مات لم يزل مطيفاً به يصدح على قبره، وهو الهام، ثم يكبر حتى يصير كالبوم، وهو متوحش من الناس، يسكن الخراب والنواويس، وعند مصارع القتلى^(٢).

وأما الغول: فقد زعم قوم من العرب أنها تتراءى لهم في البراري، وتظهر في أنواع من الصّور، فتخاطبهم ويخاطبونها، وربما باضعوها.

وقال تائب شراً: [من المتقارب]

فأصبحت والغول لي جارةً فيا جارتني أنت ما أهولاً
فطالبتُها بضعها فالتوت بوجه تغول فاستغولاً
فمن كان يسأل عن جارتني فإن لها باللوى منزل^(٣)

وقال عمر رضي الله عنه: كنت في طريق الشام قبل الإسلام فغالطني الغول، فضربتُها بسيفي فانهمت^(٤).

(١) انظر مروج الذهب ٣/٢٨٩.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٠٩-٣١٢.

(٣) ديوانه ١٦٤-١٦٦، ومروج الذهب ٣/٣١٤-٣١٥.

(٤) مروج الذهب ٣/٣١٦.

وفَرَّقُوا بين الغُول والسَّعْلَاءِ، قال الشاعر: [من الطويل]

وساخِرَةٌ مِنِّي ولو أن عَيْنَهَا رأَتْ ما أَلَاقِيه من الهَوْلِ جُنَّتِ
أَتَيْتُ وَسِعْلَاءٌ وَغُولٌ بِقَفْرَةٍ إذا اللَّيْلُ وارى الجِنَّ منه أَرَنْتِ^(١)
وعلى هذا القَطْرُبُ والغَدَّارُ وما شاكل ذلك، والغالب عليها أنها تظهر بأكتاف
اليمن وتهامة وصعيد مصر والأماكن البعيدة، وقد تغلب على الإنسان فتتكحه، فيُدوِّد
دُبْرَهُ فيموت.

ومن أمثال أهل تهامة: أَمْنُكُوحٌ أم مَدْعُورٌ، لَمَنْ رَأَى في طريقه شيئاً من ذلك، فإن
قال: مَدْعُورٌ قالوا: لا بأس عليك، وإن قال: مَنكُوحٌ يسوا منه.

وروي عن وهب بن منبه أنه قال: أصلُ هذه الأنواع المَتَشَيِّطَةُ أن إبليس خلق الله له
زوجةً من نار السموم فنكحها، فباضت بيضاً، فمنه هذه الأشياء^(٢).

وأما الهواتف، فالهتف: الصوت يُسمع من غير أن يُرى جسمه.

وأما النسناس، فهو جنس من الخلق يثب على رجل واحدة، وهو بحضرموت
واليمن، وحمله حنين بن إسحاق إلى المتوكل من أرض حضرموت وهو حي.

قال حنين: هو على صورة ابن آدم إلا أن وجهه في صدره، وله نصف وجه، وإليته
كإلية الغنم، وأهل حضرموت يأكلونه، ولحمه لذيد، ولا يتولد إلا في بلادهم.
والعرييد: دابةٌ من جنس النسناس.

وقال شبيب بن شيبه التميمي: قَدِمْتُ حضرموتَ، فنزلت على رجل من أكبر
أهلها، فتذاكرنا النسناس، فقال لغلمانه: صيدوا لنا منه، فصادوا واحداً، فلما رأني
صاح: أنا بالله وبك، فسألته فأطلقه. ثم خرج ذلك الرجل وخرجت معه أتصيد، وإذا
بواحد منهم يعدو، وله ثدي كثدي المرأة، فأطلقوا عليه الكلاب فأمسكوه وذبحوه،
فقلت: ما أشدَّ حُمرةَ دمه، فصاح نسناسٌ آخرٌ من شجرة: مما يأكل السماق، فأخذوا
الآخر فذبحوه^(٣).

(١) البيتان لعبيد بن أيوب العنبري في الحيوان ٦/١٦٠، ومروج الذهب ٣/٣١٨.

(٢) مروج الذهب ٣/٣١٩-٣٢٠، وانظر عجائب المخلوقات ٣٩١-٣٩٩.

(٣) مروج الذهب ٤/١٠-١٧، وانظر أمثال السدوسي ٦٨.

وأما الزَّجْرُ: فهو العِيافة، وهو ضَرْبٌ مِنَ التَّكْهَنِ.

وأما السَّانِحُ: فهو ما وُلَاكَ مِيَامِنُهُ مِنْ ظَنِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ، وَالْبَارِحُ بِخِلَافِهِ. وَالْعَرَبُ تُتِمَّنُ بِالسَّانِحِ وَتَتَشَاءَمُ بِالْبَارِحِ^(١).

وخرج جماعةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْصِدُونَ سَيِّدًا فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ، فَسَنَحَ قَطِيعٌ مِنَ الظُّبَاءِ مُعْتَرِضَةً لِلرَّكْبِ، ثُمَّ كَرَّتْ رَاجِعَةً، فَقَالَ زَاجِرٌ مَعَهُمْ^(٢): [مِن الطَّوِيلِ]

أَلَمْ تَدْرِ مَا قَالَ الظُّبَاءُ السَّوَانِحُ عَظْفَنَ أَمَامِ الرَّكْبِ وَالرَّكْبُ رَائِحُ
فَكَبَّرَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الزَّجْرَ مِنْهُمْ وَأَيَّقَنَ قَلْبِي أَنَّهُنَّ نَوَائِحُ
ثُمَّ قَالَ: قَضَى الرَّجُلُ، قَالُوا: مِنْ أَيْنَ لَكَ؟ قَالَ: أَمَا رَأَيْتُمُ الظُّبَاءَ سَنَحَتْ، ثُمَّ
رَجَعَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَتَمُّ، فَجَاؤُوا فَوَجَدُوا الرَّجُلَ قَدْ
لُدَّغَ فَمَاتَ^(٣).

وأما الكَهَّانَةُ وَالسَّحْرُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، يَسْتَعْدِمُ الْكَاهِنُ وَالسَّاحِرُ الشَّيْطَانَ، بِفَنُونِ
الرُّقِيِّ وَالْأَسَامِيِّ وَالْبَخُورَاتِ، فَيُخْبِرُهُ بِالْغَائِبَاتِ، وَقَدْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ مَبْعَثِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْعَدُ السَّمَاءَ، فَتَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَبَتْ حِرَاسَهُ
الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ.

وَالسَّحْرُ حَقٌّ.

ذِكْرُ أَسَامِيِّ الْكُهَّانِ بَعْدَ الْمَبْعَثِ

وَهُمْ: شِقُّ، وَسَطِيحٌ، وَسَمْلَقَةٌ، وَزُوبَعَةٌ، وَسَدِيفٌ، وَالْأَفْعَى الْجَرَهْمِيُّ، وَعَمْرَانُ
أَخُو عَامِرٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَامِرِ الْخَارِجِ مِنَ الْيَمَنِ وَكَاهِنَتُهُ طَرِيفَةٌ، وَكَاهِنَةٌ بَاهِلَةٌ، وَكُهَّانٌ أُخْرٌ.
وَالْعَرَّافُ: الْكَاهِنُ، وَقِيلَ: هُوَ الطَّيِّبُ.

وأما العِيافةُ فهي: زَجْرُ الطَّائِرِ، وَهُوَ أَنْ يَنْظَرَ فِي أَسْمَائِهَا، وَمَسَاقِطِهَا، وَأَصْوَاتِهَا،
وَيُقَالُ لِلْعَائِفِ: الْمُتَكَهَّنِ.

(١) الصَّحَاحُ (زَجْرٌ، سَنَحٌ، بَرِحٌ).

(٢) هُوَ الرَّاعِي النَّمِيرِيُّ، وَالْبَيْتَانُ فِي دِيْوَانِهِ ٤٥.

(٣) مَرْوَجُ الذَّهَبِ ٣/ ٣٤٠-٣٤١.

وأما القِيَافَةُ فهي: معرفة الآثار^(١)، وهي لا توجد إلا في الفُطْناء من العرب. وكانت كلُّ قبيلة مخصوصة بشيء، فلبعضهم الكهانة، ولبعضهم الزُّجر والفأل، ولبعضهم القافة، والشَّبه يكون في القدم غالباً. وكانت القِيَافَةُ في مُصر وربيعة وأنمار أولاد نزار، وكذا في إياد ومذحج، وهم اليوم بالحجاز وتهامة، وبالجزء بين مصر والشام.

فصل

وقد كان لهم العَدْوَى، والطَّيْرَةُ، والصَّفْرُ، ثم انتسخ الجميع بقوله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»^(٢).

فصل في أطعمة العرب

منها البَسِيْسَةُ، وهي كلُّ شيءٍ خَلَطْتَهُ بغيره من غير طَبَخ. ومنها البَكِيْلَةُ، وهي أن يُخلط السُّويق بماء وتمر. ومنها الخُرْسُ، وهي طعام الولادة.

والإعذار: طعام الختان للجارية والغلام. والنَّقِيْعَةُ، طعام القادم من السَّفَر.

ومنها الحريرة، وهي أن تُنصَبَ القِدْرُ، ويُقَطَّعَ اللَّحْمُ صِغاراً على ماء كثير، فإذا نَضِجَ ذُرٌّ عليه الدَّقِيقُ، وإن لم يكن فيها لحم فهي عَصِيْدَةٌ^(٣).

ومنها الرِّيْكَةُ، وهي تَمْرٌ يُعَجَّنُ بِسَمْنٍ وَأَقِطٍ، وفي المثل: غَرثان فازبُكوا له، لأن أعرابياً أتى أهله، فبُشِّرَ بغلام وُلِدَ له، فقال: ما أصنعُ به، آكله أم أشربُه؟ فقالت امرأته: غَرثان فازبُكوا له، أي: جائعٌ فأطعموه^(٤).

(١) الصحاح (غيف، قيف).

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر العقد ٦/٢٩١-٢٩٢، وإصلاح المنطق ٣٨٣، وفقه اللغة ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٥.

(٤) إصلاح المنطق ٣٨٢-٣٨٣، والصحاح (ربك)، وفقه اللغة ٤٥٣، والمثل في جمهرة الأمثال ٨٢/٢، ومجمع الأمثال ٥٦/٢.

ومنها الرَّغِيْدَة، وهي اللَّبْنُ الحَلِيْب، يُغْلَى وَيُذَرُّ عَلَيْهِ دَقِيْق، ثُمَّ يُسَاطُ وَيُلْعَقُ لَعْقًا^(١).

- ومنها السَّخِيْنَة، وهو خَلْطُ الدَّقِيْقِ بِالمَاءِ لا غير، وكانت قريش تُعَيِّرُ بِهَا^(٢).
- ومنها السُّلْفَة، وهو ما يَتَعَجَّلُهُ الرَّجُلُ مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ الغَدَاءِ.
- ومنها الصَّفِيْف، وهو ما صُفِّ مِنَ اللِّحْمِ عَلَى الجَمْرِ لِيُشْوَى^(٣).
- ومنها العَيْثَة، وهي اللَّبْنُ يُطْبَخُ وَيُلْقَى فِيهِ الجَرَادُ، وَقِيلَ هُوَ: الأَقِطُ لا غير^(٤).
- ومنها العَصِيْدَة، وهي ما يُعْصَدُ بِالمِسْوَاطِ مِنَ الدَّقِيْقِ^(٥).
- ومنها العَقِيْقَة، وهي الشَّاةُ الَّتِي تُذْبَحُ عَنِ المَوْلُودِ يَوْمَ أُسْبُوعِهِ^(٦).
- ومنها العَلِيْثُ، وهو الطَّعَامُ المَخْلُوطُ بِالشَّعِيْرِ^(٧).
- ومنها الفَرِيْقَة^(٨)، وهي تَمْرٌ يُطْبَخُ بِحُلْبَةِ اللُّنْفَسَاءِ.
- ومنها العَكِيْسُ، وهو الدَّقِيْقُ يُصَبُّ عَلَيْهِ المَاءُ ثُمَّ يُشْرَبُ^(٩).
- ومنها اللَّفِيْتَة، وهي الغَلِيْظَة مِنَ العَصَائِدِ^(١٠).
- ومنها المَأْدُبَة، وهو كُلُّ طَعَامٍ يُصْنَعُ لِدَعْوَةٍ^(١١).

(١) إِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٩٢، وَالصَّحَاحُ (رغذ)، وَالعَقْدُ ٦/٢٩٢، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥٢.

(٢) العَقْدُ ٦/٢٩٢، وَانظُرْ إِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٥٦، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥١.

(٣) الصَّحَاحُ (سلف، صفف)، وَالعَقْدُ ٦/٢٩٢.

(٤) العَقْدُ ٦/٢٩١، وَإِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٤٦، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥٤.

(٥) إِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٩٣، وَالصَّحَاحُ (عصد).

(٦) العَقْدُ ٦/٢٩٢، وَانظُرْ الصَّحَاحُ (عقق)، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥٠، وَإِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٢٦٣.

(٧) العَقْدُ ٦/٢٩١.

(٨) فِي النِّسْخِ: الفَرِيْعَة، وَهُوَ خَطَأٌ، انظُرْ إِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٤٤، وَالصَّحَاحُ (فرق)، وَالعَقْدُ ٦/٢٩١، وَفَقْهُ

اللُّغَةِ ٤٥٢، وَالنِّهَايَة ٣/٤٤٠، وَالجُرَاثِيْمُ ١/٣٢٢، وَالغَرِيْبُ المِصْنَفُ ١/٩٠.

(٩) العَقْدُ ٦/٢٩٢، وَالغَرِيْبُ المِصْنَفُ ١/٩٠، وَالجُرَاثِيْمُ ١/٣٢٢.

(١٠) إِصْلَاحُ المَنْطِقِ ٣٤٧، وَالصَّحَاحُ (لفت)، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥٧.

(١١) الغَرِيْبُ المِصْنَفُ ١/٨٦، وَالجُرَاثِيْمُ ١/٣١٥، وَالعَقْدُ ٦/٢٩٢، وَفَقْهُ اللُّغَةِ ٤٥٠، وَانظُرْ إِصْلَاحُ المَنْطِقِ

ومنها الوَشِيْقَة، وهو أن يُغلى اللحم، ثم يُقَدَّد ويُحْمَل في الأَسْفار^(١).
ومنها الوَكِيْرَة، وهو طعام ما يَبْنِيهِ^(٢) الرَّجُلُ في داره. والوَلِيْمَة: طعامُ العُرْس.
ومنها الهَرِيْسَة، وهي أَفْخَرُ طعامِهِمْ، سُمِّيَتْ بذلك لأنّها تهرسُ اللحم^(٣).

فصل

في ذكر مَنْ كان في الفترة بين عيسى ﷺ ونبينا ﷺ

كان في الفترة جماعةً من أهل التَّوْحِيدِ مَمَّنْ يُقَرُّ بِالْبَعْثِ والنُّشُورِ، والجنة والنار، وكان بعضهم دُعاةً إلى الله تعالى، وبعضهم أنبياء، فمنهم:

جرجيس: كان عبداً صالحاً من أهل فلسطين، أدرك بعضَ الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام، وكان تاجراً، يكتسب ما يستغني به، ويعود بالفضل على المساكين، فسافر إلى المَوْصِلِ وبها جَبَّارٌ يُجْبِرُ النَّاسَ على عبادة الأصنام، فَوَعَّظَهُ، فأخذه وعذبه بأنواع العذاب، وقتله عِدَّةَ قَتَلَاتٍ فلم يَمُتْ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكاً، فقال له: لا تَخَفْ، فإنك تَبْقَى في جهاده سبع سنين، ويقتلك مرَّةً رابعة.

فجعله في تَوْرٍ من نُحَاسٍ، وحشاهُ نَفْطاً وكبريتاً، وأدخله فيه، وأوقد عليه، فاختلطت عظامه، وبعث الله جبريل، فحمل التَّوْرَ فألقاه بين السماء والأرض، فخرج جرجيس حياً، فقال: يا إلهي، قد وَعَدْتَنِي مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وأكْرَمْتَنِي بهذا البلاء، وهذا آخرُ يومي الذي وَعَدْتَنِي فيه الرَّاحَةَ، فأسألك أن تَقْبِضَ رُوحِي، وتُنزِلَ عُقُوبَتَكَ بهذا الجَبَّارِ، فما استتمَّ كلامه حتى نزلت نارٌ من السماء، فلما رأوها مالوا عليه فضربوه بالسِّوْفِ حتى قتلوه.

وأحرق اللهُ الجَبَّارَ وقومَه والمَوْصِلَ، فصارت رَماداً مُنتنّاً، وجعل اللهُ عاليها سافلها، ولبثتْ زماناً يخرج منها الدُّخَانُ المُنتِنُ، وخرج مَنْ آمَنَ بجرجيس منها،

(١) الغريب المصنف ١/٨٦، والجرائم ١/٣١٧، والصحاح (وشق)، والعقد ٦/٢٩٠.

(٢) في النسخ: الوديرة... ما يثبت، وهو خطأ، انظر الغريب المصنف ١/٨٦، وإصلاح المنطق ٣٨٤، والجرائم ١/٣١٥، والصحاح (وكر)، والعقد ٦/٢٩٢، وفقه اللغة ٤٥٠.

(٣) العقد ٦/٢٩١، والصحاح (هرس).

وكانوا أربعة وثلاثين ألفاً^(١).

ومنهم: حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ، نَبِيُّ أَصْحَابِ الرَّسِّ، كَانَ فِي الْفِتْرَةِ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَامَ فِي قَوْمِهِ خَطِيْبًا، فَنَهَاهُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَيُوحِّدُوهُ، فَقَتَلُوهُ، وَرَمَوْهُ فِي بئرٍ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ أَلْهَمَ اللَّهُ بَعْضَ الْمُلُوكِ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فَقَتَلَهُمْ، وَشَرَّدَهُمْ، وَفَعَلَ بِرُؤَسَائِهِمْ كَمَا فَعَلُوا بِحَنْظَلَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ^(٢).

ومنهم: خَالِدُ بْنُ سِنَانَ بْنِ غَيْثِ الْعَبْسِيِّ، كَانَ عَبْدًا صَالِحًا، وَأَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَظَهَرَتْ نَارٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَعَبَدَهَا طَوَائِفُ مِنَ الْعَرَبِ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَاقْتَحَمَهَا، فَأَطْفَأَهَا غَضَبًا لِلَّهِ، لئَلَّا تُعْبَدَ مَعَهُ، وَلَمَّا عَزَمَ عَلَى دُخُولِهَا، قَالَ: [كُلُّ هَذِي مُؤَدَّى إِلَى] اللَّهِ الْأَعْلَى، لِأَدْخُلْنَهَا وَهِيَ تَلْظِي، وَلَا أُخْرَجَنَّ مِنْهَا وَثِيَابِي تَنْدَى، فَكَانَ كَمَا قَالَ.

ولما احتضر قال: ادفنوني في حِقْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَحْقَافِ، وَاحْرُسُونِي أَيَّامًا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ حِمَارًا أَشْهَبَ أَبْتَرٍ يَدُورُ حَوْلَ الْحِقْفِ فَانْبُشُونِي، وَأَحْضِرُوا كَاتِبًا يَكْتُبُ مَا أَقُولُ، فَإِنِّي سَأُخْبِرُكُمْ بِالْكَائِنَاتِ وَالْمَغِيْبَاتِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَرَصَدُوا قَبْرَهُ ثَلَاثًا، فَجَاءَ الْحِمَارُ فَدَارَ حَوْلَ الْحِقْفِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُهُ لِيَنْبُشُوهُ، فَقَامَ بَنُوهُ، وَشَهَرُوا سُيُوفَهُمْ وَقَالُوا: نَخَافُ الْعَارَ فَتَرْكُوهُ، فَقَالَ شَاعِرٌ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

بَنِي خَالِدٍ لَوْ أَنَّكُمْ إِذْ حَضَرْتُمْ
لَأَبْقَى لَكُمْ فِي آلِ عَبْسٍ ذَخِيرَةٌ
نَبَشْتُمْ عَنِ الْمَيْتِ الْمُغَيَّبِ فِي الْقَبْرِ
مِنَ الْفَضْلِ لَا تَبْلَى عَلَى سَالِفِ الدَّهْرِ

ولما ظهر رسول الله ﷺ بمكة؛ وَفَدَتْ عَلَيْهِ ابْنَةُ خَالِدِ بْنِ سِنَانَ وَهِيَ عَجُوزٌ مُسِنَّةٌ كَبِيرَةٌ، فَرَحَّبَ بِهَا وَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَةِ أَخِي خَالِدٍ، كَانَ أَبُوهَا نَبِيًّا، وَإِنَّمَا ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ»^(٣)، وَسَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]

(١) ذكر القصة مختصرة المسعودي في مروج الذهب ١/١٢٧، ومطولة الطبري ٢/٣٦-٢٤، والثعلبي في عرائس المجالس ٤٣٢-٤٣٨، وابن الجوزي في المنتظم ٢/١٤٨-١٤٩.

(٢) مروج الذهب ١/١٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/٢٠٠، وابن شيبة في أخبار المدينة ٤٢١ عن سعيد بن جبير، قال الحافظ في الإصابة ٣/١١٧: ورجاله ثقات إلا أنه مرسل.

فقلت: كان أبي يقرؤها، قال ابن عباس: وقد بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

ومنهم: رثاب بن البراء، كان على دين عيسى عليه السلام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

قال السدي: سمع الناس قائلاً يقول من السماء: خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرى الراهب، ورثاب الشني، وآخر لم يجرى بعد، يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن قتيبة: لما سمع رثاب النداء قال: صدق فيما قال.

وقال وهب: ما مات أحد من ولده إلا ورأوا النور على قبره (٢).

ومنهم: زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب

رضي الله عنه (٣).

ومنهم: صرمة بن أبي أنس، أبو قيس من بني النجار، كان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وهجر الأوثان، وهمم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، واتخذ في بيته مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبدُ إله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم في السنة الأولى من الهجرة، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا قوم، هذا الذي كنت أنتظره (٤).

ومنهم: قس بن ساعدة.

ومنهم: أصحاب الكهف والرقيم، قال سعيد بن جبير: الرقيم: لوح من ذهب على

باب الكهف، فيه مكتوب أسماء الفتيه وقصتهم.

وقال ابن عباس: الرقيم: واد بين عسفان وعمان البلقاء، فيه أصحاب الكهف.

قال مجاهد: كانوا من أولاد الملوك.

قال وهب: كان من قصتهم أنه لما رفع عيسى عليه السلام، وكثرت الأحداث،

(١) ذكر قصته مطولة ومختصرة ابن قتيبة في المعارف ٦٢، والجاحظ في الحيوان ٤/٤٧٦-٤٧٧، وابن شبة في

أخبار المدينة ٤٢٠-٤٣٣، والمسعودي في مروج الذهب ١/١٣١-١٣٢ وما بين معكوفين منه و٤/٢١-٢٢،

وابن الجوزي في المنتظم ٢/١٤٧، والحافظ في الإصابة ٣/١١٧ فما بعدها.

(٢) المعارف ٥٨ وليس فيه كلام ابن قتيبة، ومروج الذهب ١/١٣٢-١٣٣.

(٣) السيرة ١/٢٢٤، والمعارف ٥٩، ومروج الذهب ١/١٣٦، والمنتظم ٢/٣٢٨.

(٤) المعارف ٦١، ومروج الذهب ١/١٤٤، وانظر الإصابة في ترجمته.

وَذَبِحَ لِلطَّوَاغِيتِ، وَعُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَفِي النَّاسِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ بِلَدِ الرُّومِ مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ: دَقْيَانُوسُ، يَأْمُرُ النَّاسَ بِالذَّبْحِ لِلْأَصْنَامِ، وَيُخَيِّرُهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْقَتْلِ، وَبَلَغَهُ خَبْرُ الْفَتِيَّةِ، فَاسْتَدْعَاهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالذَّبْحِ لِلطَّوَاغِيتِ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ لَنَا إِلَهًا مَلَأَتْ عَظْمَتُهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا آخَرَ، فَقَالَ دَقْيَانُوسُ: أَنْتُمْ مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَأَنْتُمْ شَبَابٌ، حَتَّى أَضْرِبَ لَكُمْ أَجَلًا تَنْظُرُونَ فِيهِ لِأَنْفُسِكُمْ، فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ.

وَاتَّفَقَ أَنَّهُ مَضَى إِلَى بَلَدٍ آخَرَ لِأَمْرِ عَرَضَ لَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اخْرُجُوا بِنَا إِلَى الْجَبَلِ، فَإِنْ عَادَ الْمَلِكُ وَذَكَرْنَا قَتْلَنَا، فَخَرَجُوا، وَاتَّبَعَهُمْ كَلْبٌ رَاعٍ، فَطَرَدُوهُ فَلَمْ يَرْجِعْ، فَطَرَدُوهُ ثَانِيًا فَأَنْطَقَهُ اللَّهُ وَقَالَ: لِمَ تَطْرُدُونِي؟ إِنَّ لَمْ أَكُنْ مِنْ جِنْسِكُمْ، فَمَعْبُودِكُمْ لَيْسَ مِنْ جِنْسِكُمْ، دَعُونِي أَحْرُسُكُمْ إِذَا نِمْتُمْ، فَعَجِبُوا مِنْهُ.

ثُمَّ دَخَلُوا الْكَهْفَ، وَجَعَلَ يَمْلِيخَا - أَحَدُهُمْ - يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَيَأْتِيهِمْ بِالطَّعَامِ، وَيَتَحَسَّسُ لَهُمُ الْأَخْبَارَ، وَقَدِمَ الْجَبَّارُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَذَكَرَهُمْ، فَجَاءَ يَمْلِيخَا إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَبْكِي، فَأَخْبَرَهُمْ، فَخَرُّوا سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ، وَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، فَنَامُوا وَنَامَ الْكَلْبُ وَهُوَ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ، أَي: بَعْتَبَةِ الْبَابِ.

وَجَاءَ دَقْيَانُوسُ وَرَاءَهُمْ، فَوَجَدَهُمْ فِي الْكَهْفِ، فَسَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَابَ عِقُوبَةً لَهُمْ، وَفِي ظَنِّهِ أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ يُقَاظُونَ.

وَكَانَ فِي أَصْحَابِ دَقْيَانُوسِ رَجُلَانِ عَلَى دِينِ الْفَتِيَّةِ، فَكَتَبَا أَسْمَاءَ الْفَتِيَّةِ فِي لَوْحٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَدَفَنَاهُ عِنْدَ الْبَابِ، وَقَالَا: لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُطَّلِعَ عَلَى أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةِ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ، فَيُعَلِّمَ عِلْمَهُمْ، وَمَاتَ دَقْيَانُوسُ، وَخَلَفَتْ الْمُلُوكُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ. فَقَصَّ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَخْبَارَهُمْ.

وَكَانَ سَبَبُ إِيقَازِهِمْ أَنَّهُ مَلَكَ تِلْكَ الْبِلَادِ مَلِكٌ صَالِحٌ، فَرَأَى اخْتِلَافَ النَّاسِ فِي الْأَدْيَانِ، فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُرِيَهُ آيَةً يَسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى التَّوْحِيدِ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعٍ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ، فَفَتَحَ بَابَ الْكَهْفِ وَأَوَى إِلَى جَانِبِهِ غَنَمَهُ.

وأيقظ الله الفتية، فجلسوا كأنهم ناموا من ساعتهم، لا يُنكرون من أحوالهم شيئاً، وهم يرون أن الملك دقيانوس، فبعثوا يملبخا إلى المدينة على عادتهم ليشتري لهم طعاماً، فتَنكَّرَ وخرج، فرأى الحجارَةَ على باب الكهف فعجب، ورأى أثرَ البنيان، وأتى بابَ المدينة، فرأى عليها علامةً تكون للمؤمنين، ورأى أناساً لا يعرفهم، وسمعهم يحلفون بالمسيح، فقال: والله ما أدري ما هذا، عَشِيَّةَ أمسٍ ليس على وجهِ الأرض أحدٌ يذكر المسيح إلا قُتل، واليومَ كلُّ أحدٍ يحلف به لا يخاف.

ثم دنا من واحدٍ، ودفع إليه دراهم، فنظر إليها وعجب، ثم ناولها آخر فتعجَّب، فقالوا له: إنك قد وَجَدْتَ كَنْزاً، وإن لم تُخْبِرْنَا به حَمَلْنَاكَ إلى المَلِكِ، وهو ساكت، فجعلوا كِسَاءَهُ في عُنْقِهِ، وسحبوه في سِكِّكَ المدينة، وما يرى أحداً يَعْرِفُهُ، وهو يَظُنُّ أن أباه وأهله في الحياة، وأنهم يحملونه إلى دقيانوس، وجعل يبكي ويقول: فُرِّقَ بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما حلَّ بي.

وكان على تدبير الملك رجلان صالحان: أرنوس وأنطوس، فقالا: يا فتى، أين الكنز الذي وجدت؟ فقال: والله ما وَجَدْتُ كَنْزاً، قالوا: فهذه الدِّراهم تشهد عليك بتاريخ ضَرْبِهَا من زمن دقيانوس منذ ثلاث مئة سنة، وأنت شابٌّ وخزائنُ هذه المدينة بأيدينا، وما فيها منها شيء، فإن أَخْبَرْتَنَا وإلا عَذَّبْنَاكَ، وهو يبكي ويقول: والله ما أدري ما أقول، ثم قال: وأين دقيانوس؟ قالوا: ما نعرف اليوم في الأرض ملكاً يُقال له: دقيانوس، وإنما كان هذا منذ ثلاث مئة سنة.

فقال: أَصْدُقْكُمْ؟ كُنَّا فِتْيَةً أَكْرَهْنَا دقيانوس على الذَّبْحِ لِلطَّوَاغِيَتِ، فهربنا منه عَشِيَّةَ أمسٍ، ونمنا في كهف؛ فلما كان اليوم بعثوني أَشْتَرِي لَهُمْ طَعَاماً، وهاهم في الكهف جُلُوسٌ يَعْبُدُونَ الله، فلما سمع أرنوس كلامه قال لهم: يا قوم، هذه آيةٌ أراكم الله إِيَّاهَا على يَدَيِ هذا الفتى، انطلقوا معه، وأخبروا الملك، وخرج معه الناس، وسبق يملبخا ودخل عليهم، وأخبرهم الخبر.

وجاء أرنوس فدخل عليهم، فرأى وجوههم مُشْرِقَةً، لم تَبَلْ ثِيَابُهُمْ ولم تتغيَّرْ، ووَجَدَ اللُّوحَ على باب الكهف، وفيه عَدَدُهُمْ وتاريخُ يومهم، فأرسل إلى الملك: بادِرْ، فقد أراك الله آيةً للعالمين، وجاء الملك فدخل عليهم الكهف واعتنقهم وبكوا جميعاً،

ثم قالوا: نستودعك الله.

ثم عادوا إلى مضاجعهم وناموا، فتوفى الله نفوسهم، وأمر الملك أن يتخذ لكل واحدٍ منهم تابوت من ذهب، فرآهم في منامه وهم يقولون: لا تفعل هذا، فنحن من التراب خُلِقنا، وإليه نعود، فاتركنا على حالنا، فتركهم وبنى عليهم مسجداً، وصنع لهم عيداً في كل سنة، وهم من الحواريين^(١).

ومنهم أصحاب يس، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [يس: ١٤]. اتفقوا على أنهما أرسلتا إلى أنطاكية فكذبوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِكِ﴾ والثالث: شمعون، وقيل: سمعان.

ذكر القصة

كان ملك أنطاكية يعبد الأوثان، فلما قرباً من أنطاكية إذا بشيخ يرعى غنماً، وهو حبيب النجار، فسلما عليه فقال: من أنتم؟ قالوا: رسولا عيسى المسيح، قال: وما جاء بكما؟ قالوا: ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. قال: أمعكما آية؟ قالوا: نعم، نشفي الأكمه والأبرص بإذن الله. فقال حبيب: إن لي ابناً صاحب فراش منذ سنين، وانطلق بهما إلى منزله، فمسحا أيديهما عليه، فقام صحيحاً بإذن الله.

ثم شفا خلقاً عظيماً، وبلغ الملك، فاستدعاهما وقال: من أنتما؟ فقالا له مثل ما قالنا لحبيب، فقال: قوما حتى أنظر في أمركما، وقيل: إنهما لم يصلتا إلى الملك، بل أقاما عند حبيب النجار وكان قرآزاً.

فركب الملك يوماً، فوقفا له، وكبراً وذكراً الله، فغضب، وأمر فجلد كل واحد منهما مئة جلدة وحيساً، فحينئذ بعث عيسى عليه السلام شمعون رأس الحواريين على إثرهما لينصروهما، فلما وصل إلى أنطاكية دخل متخفياً، يؤنس حاشية الملك، حتى أنسوا به، وأعجبهم عقله، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه فأعجبه وأنس به.

فقال له يوماً: أيها الملك، بلغني أنك ضربت رجلين وسجنتهما حين دعواك إلى

(١) ذكر قصتهم الطبري في تفسيره ١٥/١٦٢-١٧٦، وتاريخه ٢/٩٥، وانظر عرائس المجالس ٤١٤-٤٣٢،

دينهما، فهل كلمتهما؟ قال: لا، حال الغضب بيني وبينهما، قال: فإن رأى الملك أن يحضرهما ويسمع كلامهما، فدعاهما، فقال لهما شمعون: من أرسلكما؟ فقالا: الذي خلق كل شيء، وليس له شريك، فقال: صفاه وأوجزا، قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال: فما آيتكما؟ قالا: نُبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

فأمر الملك، فجيء بغلام مَطموس العينين، فدعوا الله فانشق موضع عينيه، فأخذا بُندقتين من طين، فوضعاهما موضع عينيه، فصارتا مُقلتين، فأبصر بهما، فعجب الملك، فقال له شمعون: إن أنت سألت صنمك أن يفعل مثل هذا كان له ولك الشرف، فقال له الملك: ما منك سرّ، إن إلها الذي نعبد لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ثم قال الملك للرجلين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنّا [به وبكما].

وكان شمعون يُظهر للملك أنه على دينه، وكان قد مات ابن دِهقانٍ منذ سبعة أيام، فجاءوا به وقد أروح، فسألا الله فأحياه، فقام ينفخ التراب عن رأسه ويقول: منذ مت وإلى الآن أنا في سبعة أودية من نار، وأنا أحذرُكم ما أنتم فيه، فأمنوا بالله، ثم قال: قد فتحت أبواب السماء، ونزل منها شاب حتى يشفع لهؤلاء الثلاثة، وأشار إلى الرسولين وشمعون، فأمن الملك ومعه خلق كثير، وكفر آخرون.

وقال مقاتل: لم يؤمن الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرُّسل، وبلغ حبيب بن إسرائيل النجار قصتهم - وكان رجلاً صالحاً مُتصدّقاً مؤمناً، يعبد الله سرّاً، وكان بيته بعيداً عن المدينة - فأقبل يسعى ويقول: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] فلما قال ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد، فوطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصبه^(١) من دُبُرِه، ورمّوه بالحجارة وهو يقول: [اللهم] اهدِ قومي، حتى مات. فعلقوه على سور البلد، فأوجب الله له الجنة، فلما دخلها قال: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] الآية، فهو فيها حيٌّ يرزق قد آمن أسقام الدنيا وأوصابها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما قتلوه، أمر الله جبريل فأخذ بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة فخدموا وصاروا رماداً، المدينة وجميع ما فيها من بني آدم، والمواشي والملك، ولم يبق لهم باقية.

(١) القُصبُ: اسم للأععاء كلها. اللسان (قصب).

وكانت القصة في أيام ملوك الطوائف في حياة عيسى عليه السلام، وقيل: بعد رفعه^(١).

فصل في ذكر جماعة من القدماء

فمنهم خليفة موسى عليه السلام، كان بنو إسرائيل استخلفوا عليهم خليفة بعد موسى عليه السلام، فقام يُصلي في ليلة مُقَمَّرَةٍ فوق بيت المقدس، فذكر أموراً كان صنعها، فتدلى^(٢) بسبب، فأصبح السبب معلقاً في المسجد.

وانطلق، فأتى على قوم يضربون اللبن، فلبن معهم، وكان يأكل من عمل يده، فرفع ذلك العمال إلى قهرمانهم، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه، فجاءه القهرمان بنفسه إليه، فلما رآه فرّ، فاتبعه وقال: إني لأظن أني لاحق بك، فلحقه، فعبدا الله حتى ماتا برؤميلة مصر.

ومنهم ابن الملك الذي تزهد، كان رجل من ملوك بني إسرائيل قد أعطي طول العمر، وكثرة المال والولد، وكان أولاده إذا كبر أحدهم لبس [ثياب] الشعر، ولحق بالجبال، وساح في الأرض يأكل من بقولها وشجرها حتى يموت، ففعل ذلك جماعة منهم واحداً بعد واحد حتى تتابعوا على ذلك، فأصاب ولداً على كبر، فدعا قومه وقال: إني قد أصبت هذا الولد على الكبر وقد تروون شفقتي عليكم، وأخاف أن يتبع سنة إخوته، فحببوا إليه الدنيا عسى أن يبقى بعدي لكم.

فبنوا له حائطاً فرسخاً في فرسخ فكان فيه دهرًا، ثم ركب يوماً، فرأى الحائط فقال: إني لأحسب أن وراء هذا الحائط أناساً وعالماً آخر، أخرجوني ألقى الناس، وأزدد علماء، فأخبر أبوه بذلك فجزع وقال: اجمعوا عليه كل لهو ولعب، ففعلوا.

ثم ركب في السنة الثانية. وقال: لا بُدَّ من الخروج. فأخرجوه على عجلة مُكَلَّلَةً بالدرّ والياقوت والذهب والزبرجد، والناس حوله، فبينا هو يسير إذ مرَّ برجلٍ مُبْتَلَى، فقال ما هذا؟ قالوا: مُبْتَلَى قال: أئصیبُ هذا أناساً دون أناس، أو كلُّ خائفٍ منه؟ قالوا: بل كلُّ خائفٍ منه، قال: وأنا فيما أنا فيه من السلطان؟ قالوا: نعم، قال: أفّ

(١) تفسير البغوي ٤/٧-١١، وما بين معكوفين منه، وانظر قصص الأنبياء للشعبي ٤٠٨-٤١٠، والبداية والنهاية ٢/١٠-١٥.

(٢) في النسخ: فبكى، وهو تصحيف، والمثبت من التوابين ٧٤، وقد ورد هذا الخبر من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً في المسند (٤٣١٢)، وانظر المنتظم ٢/١٨٤، السبب: الحبل.

لعيشكم هذا، إنه عيش كَدْر.

فرجع مَهْموماً مَحْزُوناً. فَأُخْبِرُ أبوه بذلك فقال: قَرَّبُوا إِلَيْهِ كُلَّ لَهْوٍ وَبَاطِلٍ حَتَّى تَنْزَعُوا مِنْ قَلْبِهِ هَذَا الْغَمَّ وَالْحُزْنَ.

فَلَبِثَ حَوْلًا ثُمَّ قَالَ: أَخْرَجُونِي، فَأُخْرِجْ عَلَيَّ مِثْلَ حَالِهِ الْأَوَّلِ، فَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ إِذْ مَرَّ بِرَجُلٍ هَرِمٍ، وَلُعَابُهُ يَسِيلُ مِنْ فِيهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا رَجُلٌ هَرِمٌ، قَالَ: أَيُصِيبُ هَذَا نَاسًا دُونَ نَاسٍ، [أَوْكَلُّ خَائِفٌ مِنْهُ؟] قَالُوا: بَلْ كُلُّ خَائِفٍ مِنْهُ، فَقَالَ: أَفَّ لَعِيشِكُمْ هَذَا، إِنَّهُ لَعِيشٌ كَدْرٌ، لَا يَصْفُو لِأَحَدٍ، فَقَالَ أَبُوهُ: احْشَرُوا لَهُ كُلَّ لَهْوٍ وَبَاطِلٍ. فَفَعَلُوا.

فَمَكَثَ حَوْلًا، ثُمَّ رَكِبَ، فَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ إِذَا بَنَعَشٍ يَحْمِلُهُ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَعَلَيْهِ مِيتٌ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: مِيتٌ. قَالَ: وَمَا الْمَوْتُ؟ قَالُوا: هَلَاكٌ، قَالَ: قَرَّبُوا إِلَيَّ. فَقَرَّبُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: أَجْلِسْهُ، قَالُوا: إِنَّهُ مَا يَجْلِسُ، قَالَ: كَلِّمُوهُ، قَالُوا: مَا يَتَكَلَّمُ، قَالَ: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهِ؟ قَالُوا: نَدْفِنُهُ تَحْتَ التُّرَابِ، قَالَ: فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: يُحْشَرُ، قَالَ: وَمَا الْحَشْرُ؟ قَالُوا: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيُجْزَى كُلُّ أَحَدٍ عَلَى قَدْرِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ. قَالَ: وَلَكُمْ دَارٌ غَيْرُ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَعَلَ يُعَفِّرُ وَجْهَهُ بِالتُّرَابِ وَيَقُولُ: مَنْ هَذَا كُنْتُ أَخْشَى، كَادَ هَذَا يَأْتِي عَلَيَّ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ بِهِ، أَمَا وَرَبُّ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعْطِي وَيُجَازِي، إِنَّ هَذَا آخِرُ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ الْيَوْمِ، قَالُوا: لَا نَدْعُكَ حَتَّى نُسَلِّمَكَ إِلَى أَبِيكَ.

فَرَدَّوهُ إِلَيْهِ وَكَادَ يُنَزِّفُ دَمَهُ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا هَذَا الْجَزَعُ؟ فَقَالَ: يَا أُمَّتِ، جَزَعِي لِيَوْمٍ يُعْطَى فِيهِ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مُجَازَاتَهُمَا عَلَى مَا عَمِلَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

ثُمَّ لَبَسَ الْمُسُوحَ، وَخَرَجَ مِنَ الْقَصْرِ نِصْفَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ خِرْ لِي فِي أَمْرٍ سَبَقْتُ بِهِ الْمَقَادِيرَ، إِلَهِي لَوَدِدْتُ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ فِي الْمَاءِ، وَالطِّينَ فِي الطِّينِ، وَلَمْ أَنْظُرْ بَعِينِي إِلَى الدُّنْيَا نَظْرَةً وَاحِدَةً. فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ.

قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: فَهَذَا رَجُلٌ خَرَجَ مِنْ ذَنْبٍ وَاحِدٍ لَا يَعْلَمُ مَاذَا عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بَمَنْ يُذْنِبُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا عَلَيْهِ، وَلَا يَجْزَعُ وَلَا يَتُوبُ^(١)؟!

(١) التوابين ٦١-٦٤، والمجالسة (٢٨٦٨)، والمنتظم ٢/١٨٤-١٨٧، وما بين معكوفين منها.

ومنهم ذو الرّجل، كان في بني إسرائيل رجل يتعبّد في صومعته، فأقام زماناً، فأشرف يوماً، فإذا بامرأة، فرآها فافتتن بها، وهمّ أن ينزل، فأخرج رجله لينزل إليها، فأدركه الله بسابقة منه، فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟! ورجعت إليه نفسه، وجاءته العصمة ونديم، فلما أراد أن يُعيد رجله إلى صومعته قال: هيهات هيهات، رجلٌ خرجت تُريد أن تعصي الله، والله لا عادت إلى صومعتي أبداً. فتركها مُعلّقةً ظاهر الصومعة، تُصيبها الرياحُ والمطرُ والشمسُ والحَرُّ والبردُ، حتى تقطعت، فشكر الله له ذلك، وأنزل في بعض الكتب: [«وذو الرّجل»] يُثني عليه^(١).

ومنهم صاحبُ الغمامة، ولِعَ رجلٌ قَصَابٌ بجاريةٍ لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها لحاجة لهم في قريةٍ أُخرى، فتبعها، فراودها عن نفسها، فقالت له: لا تفعل فأنا أشدُّ حُباً لك منك لي، ولكنني أخافُ الله. فقال: وأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟ فرجع تائباً، فعطش حتى كاد أن ينقطع عُرقه، فإذا هو برسولٍ لبعض أنبياء بني إسرائيل، فقال له: ما الذي بك؟ قال: العطشُ. فقال: تعال حتى ندعو الله تعالى، فتُظِلُّنا سحابةٌ إلى أن ندخلَ القرية، فقال: مالي من عمل، فقال: أنا أدعو وأنت تُؤمّن، فدعا الرسولُ وأمّن القَصَابُ، فأظلتُّهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القَصَابُ إلى مكانه، ومالت السحابةُ معه، فقال له الرسول: زعمتَ أنه ليس لك عمل! وأنا الذي دعوتُ وأنت أمنتَ، فلما افترقنا أظلتك السحابةُ، فأخبرني ما الذي صنعتَ. فأخبره، فقال الرسول: التائب إلى الله من ذنبه بمكان ليس أحدٌ من الناس بمكانه^(٢).

ومنهم ذو الكفل، رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما^(٣) أنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحدِّث حديثاً، لو لم أسمعُه إلا مرّةً أو مرّتين لم أُحدِّث، سمعتهُ منه أكثر من سبع مرات، قال: «كان رجلٌ من بني إسرائيل يُقال له ذو الكفل، لا ينزعُ عن ذنبِ عمله، فاتبع امرأَةً، فأعطاها ستين ديناراً على أن تُعطيه نفسَها، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة، أُرعدت وبكّت، فقال: ما يُبيك؟ فقالت: من هذا العمل ما عملته قط. قال:

(١) التوايين ١٠٠-١٠١، والمتنظم ١٨٠/٢، وما بين معكوفين منهما.

(٢) المتنظم ١٧٧/٢، والتوايين ٩٧.

(٣) في النسخ: روي عن عمر رضي الله عنه، وهو خطأ، فالحديث من رواية ابنه عبد الله في مسند أحمد (٤٧٤٧)، وسنن الترمذي (٢٤٩٦)، وصحيح ابن حبان (٣٨٧)، وانظر المتنظم ١٦٣-١٦٤، والتوايين ٩٤-٩٥.

أكرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حملتني عليه الحاجة، قال: اذهبي فهي لك، ثم قال: والله لا أعصي الله أبداً. ثم مات من ليلته، فقيل: مات ذو الكفل، فوجد على باب داره مكتوب: إن الله قد غفر لذي الكفل».

ومنهم جريج الراهب، قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهة إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وكان في بني إسرائيل عابداً يقال له جريج، فقالت بغي منهم: إن شئت فتنه، قالوا: قد شئنا، فأتته، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكنث من نفسها راعياً كان يؤوي غنمه إلى أضل صومعته، فحملت منه، وولدت غلاماً فقالوا: ممن هذا؟ قالت: من جريج. فأتوه، وأنزلوه من صومعته، وضربوه وشتموه، وهدموا صومعته، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنت بهذه البغي، وقد ولدت غلاماً. فقال: وأين هو؟ قالوا: ها هو. فقام فصلى ودعا، ثم انصرف إلى الغلام، فطعنه بإصبعه وقال: بالله يا غلام، من أبوك؟ فقال: فلان الراعي، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه، وقالوا: نبي صومعتك ذهباً، قال: لا حاجة لي في ذلك، ابنوها طيناً كما كانت.

قال: وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه، إذ مر بها راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الصبي الثدي، وأقبل على الراكب وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم عاد إلى ثديها يمضه.

ثم مرت بأمة تضرب، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك ثديها، وأقبل على الأمة فقال: اللهم اجعلني مثلها، ثم قال: يا أمها، أما الراكب فجبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون لها: زنت، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل». أخرجاه في الصحيحين^(١).

حديث العقار والجرة

قال رسول الله ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقاراً، فوجد المشتري فيه جرة فيها ذهب، فقال المشتري: خذ ذهبك، فإنما اشتريت العقار ولم أشر الذهب، فقال البائع: إنما بعث الأرض بما فيها. فتحاكما إلى رجل، فقال: ألكما ولد؟ قال: نعم.

(١) البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٨٠٧١).

قال أحدهما: لي غلامٌ، وقال الآخر: لي جاريةٌ، فقال: أنكحوا الغلامَ الجاريةَ، وأنفقوا عليهما منه، وتصدَّقوا. وفي رواية: وأنفقاً عليهما، وتصرفاً فيه». أخرجاه في الصحيحين^(١).

حديث الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةَ وَتَسْعِينَ ثُمَّ أَكْمَلَ الْمِئَةَ

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا همام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: لا أحدثكم إلا ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعته أُذُنَايَ، ووعاه قلبي:

«إن عبداً قتل تسعةً وتسعين نفساً، فعرضت له التوبة، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجلٍ، فأتاه، فقال: إني قتلُ تسعةً وتسعين نفساً، فهل لي من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المئة.

ثم عرضت له التوبة، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجلٍ، فأتاه فقال: إني قتلُ مئة نفس، فهل لي من توبة؟ فقال: من يحول بينك وبينها، اخرج من القرية الخبيثة التي أنت بها إلى القرية الصالحة. فخرج، فعرض له أجله في الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال إبليس: أنا أولى به؛ لأنه لم يعصني طرفة عينٍ، أو ساعة قط، فقالت ملائكة الرحمة: إنه خرج تائباً». قال همام: فحدثني حميد الطويل، عن بكر بن عبد الله المزني، عن أبي رافع قال: «بعث الله ملائكة، فاختصموا فيه». رجع الحديث إلى قتادة، قال: فقال: «انظروا إلى أيّ القريتين كان أقرب، فألحقوه بأهلها».

قال قتادة: فحدثنا الحسن: أنه لما عرف الموت احتفز بنفسه، فقربه الله من القرية الصالحة، وهو في رواية: «فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر، فغفر له». ومعنى الحفز، أي: اندفع من خلفه^(٢).

(١) البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٨١٩١).

(٢) أخرجه أحمد (١١١٥٤)، والبخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، وانظر التوابين ١٠٨-١٠٩.

حديث الرّغيف

قال مُغيثُ بنُ سُمَيٍّ: تَعَبَّدَ رَاهِبٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صَوْمَعَتِهِ سِتِينَ سَنَةً، فَنَظَرَ يَوْمًا فِي غَبِّ سَمَاءٍ، فَأَعْجَبَتْهُ الْأَرْضُ، فَقَالَ: لَوْ نَزَلْتُ فْتَمَشَّيْتُ فِي الْأَرْضِ، وَنَظَرْتُ فِيهَا. قَالَ: فَنَزَلَ مَعَهُ بَرغِيفٍ، فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، فَتَكَشَّفَتْ لَهُ، فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ أَنْ وَقَعَ عَلَيْهَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَجَاءَ سَائِلٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّغِيفَ، وَمَاتَ. فَجِيءَ بِعَمَلِ سِتِينَ سَنَةً، فَوُضِعَ مَعَ عَمَلِهِ، فَرَجِحَ بِخَطِيئَتِهِ^(١).

حديث القرد

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرني إسحاق بن عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حَمَلَ رَجُلٌ مَعَهُ خَمْرًا فِي سَفِينَةٍ يَبِيعُهُ، وَكَانَ مَعَهُ قَرْدٌ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا بَاعَ الْخَمْرَ شَابَهُ بِالْمَاءِ، فَأَخَذَ الْقَرْدُ الْكَيْسَ، وَصَعِدَ عَلَى رَأْسِ الدَّقْلِ^(٢)، فَجَعَلَ يَطْرَحُ دِينَارًا فِي الْبَحْرِ وَدِينَارًا فِي السَّفِينَةِ، حَتَّى قَسَمَهُ نِصْفَيْنِ».

حديث السقاء

قال وهب بن منبه: كان في بني إسرائيل عابدٌ لم يكن له إلا جُبَّةٌ صوف، وقربةٌ يَسْتَقِي فِيهَا الْمَاءَ لِلْفُقَرَاءِ وَالْأَرَامِلِ، فَلَمَّا احْتَضَرَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي لَا أُخَلِّفُ مِنَ الدُّنْيَا سِوَى هَذِهِ الْجُبَّةِ وَالْقَرِبَةِ، فَإِذَا مِتُّ، فَاحْمَلُوهَا إِلَى الْمَلِكِ، وَقُولُوا لَهُ: إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى حَمْلِ هَذِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاحْمَلْهَا مَعِي مَا تَحْمِلُ مِنْ دُنْيَاكَ. فَلَمَّا مَاتَ حَمَلُوهَا إِلَى الْمَلِكِ، وَأَبْلَغُوهُ رِسَالَتَهُ، فَقَالَ الْمَلِكُ: هَذَا الزَّاهِدُ عَجَزَ عَنْ حَمْلِ قَرِبَةٍ وَجُبَّةٍ مِنْ صُوفٍ، وَأَنَا قَدْ تَحَمَّلْتُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآثَامِ وَالْمِظَالِمِ مَا حَمَلْتُ! ثُمَّ أَخَذَ الْجُبَّةَ فَلَبَسَهَا، وَحَمَلَ الْقَرِبَةَ عَلَى كَتْفِهِ، وَصَارَ يَسْتَقِي لِلنَّاسِ الْمَاءَ كَمَا كَانَ الْعَابِدُ يَفْعَلُ، وَانْخَلَعَ مِنَ الْمَلِكِ حَتَّى مَاتَ عَلَى ذَلِكَ^(٣).

(١) التوابين ٩٩.

(٢) في النسخ: المرقل! والمثبت من مسند أحمد (٨٠٥٥)، وهي خشبة يُمدد عليها شراع السفينة.

(٣) التوابين ٧٤.

حديث الخائف

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر قال: قال لي الزُّهري: ألا أحدثك حديثين عجيبين؟ قال الزهري: عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أسرف رجلٌ على نفسه، فلما احتضر أوصى بنيه فقال: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربّي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، قال: ففعلوا ذلك به، فقال الله عز وجل للأرض: أدي ما أخذتِ، فإذا هو قائم، فقال له الله تعالى: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خَشِيْتُكَ يَا رَبِّ، أَوْ مَخَافَتُكَ. فغفر له بذلك»^(١).

قال الزهري: وحدثني حميد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»

قال الزهري: ذلك لئلا يتكل رجلٌ، ولا ييأس رجلٌ. أخرجاه في الصحيحين^(٢).

حديث الكلب

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «بيننا كلبٌ يُطيفُ بركبة، قد أدلَعَ لسانه في يوم حارٍّ، قد كاد يقتله العطشُ، إذ رآته بغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فغفر الله لها»^(٣). الموق: الخُفُّ القصير.



(١) مسند أحمد (٧٦٤٧)، وأخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) مسند أحمد (٧٦٤٨)، وأخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	أيوب عليه السلام
٨	تلخيص قصته
١٣	المدة التي أقام فيها في البلاء
١٣	سبب سؤاله العافية
١٩	ذكر وفاته
٢٠	شُعيب عليه السلام
٢٣	عذابهم
٢٥	وفاة شعيب وموضع قبره
٢٦	ومن الحوادث التي كانت في أيام شعيب عليه السلام
٢٨	مُوسى بن عمران عليه السلام
٢٨	صفته
٢٩	في الفراعنة
٣١	في مولد موسى عليه السلام وحاله مع فرعون إلى أن خرج من مصر
٣٥	قتله للقبطي
٣٦	خروج موسى إلى مدين
٤٠	فيما جرى لموسى بعد انفصاله من مدين
٥١	في اجتماع السحرة
٥٣	في تعذيبه لبني إسرائيل
٥٤	في الآيات التي أرسلت على قوم فرعون
٥٧	في قصة آسية بنت مزاحم
٥٧	في ماشطة ابنة فرعون
٥٨	في قصة مؤمن آل فرعون
٥٨	في قصة فرعون مع النيل
٥٩	في بناء الصرح
٥٩	في غرق فرعون
٦٤	في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر
٦٥	فيما جرى من الحوادث بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وقطعهم البحر

٦٦ حديث الحجر
٦٧ إنزال التوراة
٦٩ تذكّارهم بالنعم المذكورة
٧١ في سؤال موسى الرؤية
٧٦ في قول بني إسرائيل إنه آدر
٧٨ في عبادة قومه العجل
٨١ في ذكر توبتهم من عبادة العجل
٨٢ في ذهاب السبعين إلى الطور
٨٣ في قصة أريحا
٨٥ مقتل عوج بن عناق
٨٦ في نتق الجبل عليهم
٨٧ في التوراة واليهود
٨٧ في بناء ظفار
٨٨ احتراق ابني هارون
٨٨ في قصة البقرة
٩١ في مغازي موسى
٩١ في اجتماع موسى بالخضر عليهما السلام
١٠٢ في وفاة هارون عليه السلام
١٠٣ في وفاة موسى عليه السلام
١٠٨ في فضل موسى عليه السلام
١١٠ قصّة بلعام
١١٤ قارون
١١٧ سبب هلاكه
١١٩ قصّة يوشع بن نون
١٢٠ وفاة يوشع
١٢١ من كان في أيامه من الملوك
١٢٢ قصّة كالب بن يوفنا
١٢٣ قصّة حزقيل بن بوزي
١٢٧ قصّة الخضر عليه السلام
١٢٨ اختلاف العلماء في حياته وموته
١٣٢ إلياس عليه السلام
١٤٢ اليسع بن أخطوب

١٤٣	قِصَّةُ إِشْمُوئِيلَ وَطَالُوتَ وَالتَّابُوتَ وَجَالُوتَ
١٤٤	قصته
١٤٧	حديث التابوت
١٤٨	ردُّ التابوت إلى بني إسرائيل
١٥٦	قِصَّةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٥٦	سيرته عليه السلام
١٥٨	ما أنزل عليه
١٥٨	عبادته وصيامه وورعه وقيامه
١٦١	محنة داود عليه السلام
١٦٣	دخول الملكين عليه
١٦٥	ما جرى بعد صعود الملكين
١٦٩	ذكر توبته عليه السلام
١٧٥	في السجدة
١٧٥	في طاعون وقع في زمان داود
١٧٧	في حوادث قضى بها داود فاستدرك عليه سليمان
١٧٧	قصة الزرع والغنم
١٧٨	قصة الصبي
١٧٩	في وفاة داود عليه السلام
١٨١	في لقمان الحكيم
١٨٦	في مواعظ لقمان لولده واسمه أنعم
١٨٨	وفاة لقمان عليه السلام
١٨٩	سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
١٩٣	عمارته بيت المقدس
١٩٩	فيما كان بالبيت المقدس من العجائب
٢٠٠	في فطنة سليمان
٢٠١	في تعليمه منطق الطير
٢٠١	في ممره على وادي النمل وغيره
٢٠٤	في عرض الخيل على سليمان
٢٠٨	في قصة الهدهد وبلقيس
٢٢٦	في قصة قوم سبأ
٢٣٢	في محنة سليمان عليه السلام وذهاب خاتمه وعوده إليه
٢٣٨	في قول سليمان: لأطوفن الليلة على مئة امرأة

- ٢٣٩ في قصة جرت لصديق سليمان مع ملك الموت
- ٢٣٩ حديث الطائر مع سليمان
- ٢٤٠ في معجزاته
- ٢٤٢ في وفاة سليمان عليه السلام
- ٢٤٥ في وفاة بلقيس
- ٢٥٠ جماعة ملكوا بعد سليمان عليه السلام
- ٢٥٠ في ظهور السامرة
- ٢٥١ في قصة أسا بن أيّا
- ٢٥٤ في قصة شعيا بن أمصيا وخراب بيت المقدس
- ٢٦٣ في بُخْت نَصْر البابلي
- ٢٧١ في عمارة بيت المقدس وقصة العزيز
- ٢٧٧ دانيال الأصغر
- ٢٧٨ فصل في ذكر يونس عليه السلام
- ٢٩٢ في قصة زكريّا ويحيى عليهما السلام
- ٢٩٨ مقتل زكريا عليه السلام
- ٣٠٣ ذكر مقتل يحيى عليه السلام
- ٣٠٦ في قصة مريم وعيسى عليهما السلام
- ٣٢٠ في واقعات عيسى وهي كثيرة
- ٣٣١ في رفع عيسى عليه السلام
- ٣٣٦ ذكر نزل عيسى عليه السلام
- ٣٤٢ في وفاة مريم عليها السلام
- ٣٤٤ في عدد الأنبياء والمرسلين ، وذكر ما بينهم من السنين
- ٣٤٦ في ترتيب كبار الأنبياء
- ٣٤٨ في مذهب أرباب الرصد
- ٣٥٢ في ذكر الأمم الماضية والقرون الخالية
- ٣٥٢ في الهند
- ٣٥٩ واقعة جرت بالهند
- ٣٦١ في ذكر ملوك الصين
- ٣٦٣ واقعة جرت بالصين
- ٣٦٥ في ذكر السريانيين والكلدانيين والحرانيين

٣٦٨	في ذِكر الفُرس الأوَّل
٣٨٧	في سيرة الإسكندر اليوناني وهو الثاني
٣٨٨	قصته مع دارا
٣٨٩	حيلة دبرها الإسكندر
٣٩٠	قصته مع بود ملك الصين
٣٩٠	قصته مع كند
٣٩٢	واقعة أخرى
٣٩٣	ذكر وفاته وسنَّه
٣٩٤	في أرسطاطاليس
٤٠٥	في «الغالب والمغلوب»
٤٠٧	في اليونان وحكمائهم
٤١٠	حديث المرأة مع ملك الروم
٤١١	في حكمائهم
٤١٦	في بني الأصفر
٤٢٠	في ذكر ملوك الطوائف
٤٢٢	في ذكر ملوك الفرس الثانية
٤٤٢	قصة أبرويز مع وزيره بزرجمهر
٤٤٤	مقتله
٤٤٦	قصة شيرين مع شيرويه
٤٥٠	فصول تتعلق بالعرب والأنساب والأدب
٤٥٠	في القبائل
٤٥٤	في العمائر
٤٥٥	في الشعر والشعراء
٤٥٧	في مدح الشعر وذمه
٤٥٩	في شعراء الإسلام
٤٦٢	ملوك الحيرة
٤٧٦	مقتل النعمان
٤٧٨	في ترجمة النعمان بن المنذر
٤٧٨	وفادة النعمان على كسرى وتفضيله العرب على سائر الأمم
٤٨٥	في ترجمة امرئ القيس بن حُجر
٤٨٧	في ملوك الرِّدافة

٤٨٨	في ملوك اليمن
٤٩٣	في التَّبَاعَة
٥٠٤	في ملوك اليمن الذين ملكوا الشام
٥٠٨	في ظهور الحبشة على اليمن وعودها إلى العرب
٥١٠	سبب خروج اليمن على العرب
٥١١	مقتل أرياط
٥١١	عودة اليمن إلى العرب
٥١٥	ملوك الحبشة
٥١٥	مقتل سيف
٥١٦	في قصة أصحاب الفيل
٥٢٢	في قصة عبد الله بن الثامر
٥٢٥	في أيام العرب
٥٤٩	في ما سار من الأمثال
٥٩٠	في طوائف العرب وما كانوا يعتقدون من الأديان
٥٩٠	في أخبار قوم منهم أهلكتهم الله تعالى
٥٩٣	ذكر أسامي الكُهَّان بعد المَبْعَثِ
٥٩٤	في أطعمة العرب
٥٩٦	مَنْ كان في الفترة بين عيسى <small>عليه السلام</small> ونبينا <small>عليه السلام</small>
٦٠٣	في جماعة من القدماء
٦٠٦	حديث العقار والجرة
٦٠٧	حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين ثم أكمل المئة
٦٠٨	حديث الرغيف
٦٠٨	حديث القرد
٦٠٨	حديث السقاء
٦٠٩	حديث الخائف
٦٠٩	حديث الكلب
٦١١	فهرس الموضوعات

مِيسَلَةُ الرِّمَّانِ فِي تَوْجِيحِ الْأَعْيَانِ

تصنيف

شمس الدين محمد بن أبي لطف محمد بن يوسف بن محمد بن قزويني بن محمد بن عبد الله بن
العروبة بن بسطام بن الجوزي في

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الثالث

٥٦ - ١

حقوقه هذا الجزء وعلوه عليه

محمد بن جاورج

محمد بن كاديت

الرسالة العالمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِثْلُ آتِ التَّمَانِ
فِي نَوَاحِي الْأَيْمَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دار الرسالة العالمية

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بجميع طرق
الطبع والتطوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي من:

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Basalah Al-'Alamiyah m.
Publishers

جميع الحقوق محفوظة للناسخ

الطبعة الأولى

١٤٣٤ / ٢٠١٣ هـ

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء حلوي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

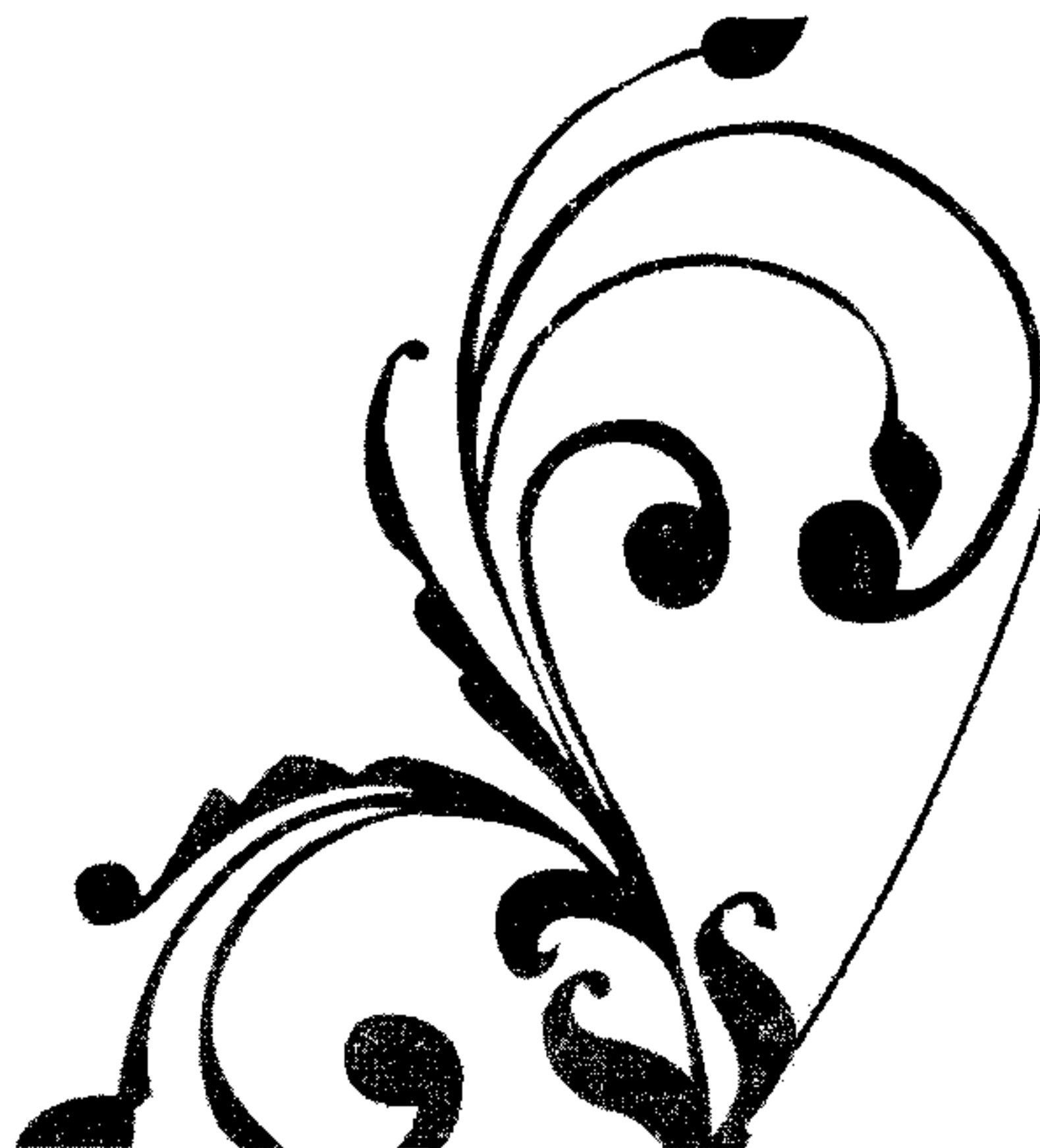
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460



النسخ المعتمدة في هذا الجزء وتاليه:

- ١- نسخة المتحف البريطاني، وهي من أول الكتاب إلى ذكر أبي النبي ﷺ.
 - ٢- نسخة كوبريللي (ك) وهي في جزأين:
 - أ- من ذكر الأمم الماضية إلى سنة (٦هـ).
 - ب- من سنة (٩-٣١هـ).
 - ٣- نسخة الخزائنية (خ)، وهي في جزأين:
 - أ- من قصة زكريا ويحيى إلى أثناء سنة (٦هـ).
 - ب- من أثناء سنة (٦هـ-٢٩هـ).
 - ٤- نسخة أحمد الثالث (أ) من سنة (٢هـ-٢١هـ).
- وانظر وصفاً مطولاً لها في مقدمة الجزء الأول من الكتاب.

فصول ذكر نبينا ﷺ

فصل في ذكر نسبه وأجداده

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. متفق على صحته، وما بعده مختلف فيه. قال عبد الملك بن هشام: عدنان بن أدد بن المقوم^(١) بن ناحور بن تارح بن يعرب ابن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وقيل غير ذلك.

فصل في ذكر أبيه عبد الله

قال الزبير بن بكار: كان عبد الله، والزيبر، وأبو طالب، وعبد الكعبة، وعاتكة، وبرة، وأميمة أولاد عبد المطلب بن هاشم، وأمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن مخزوم، وعبد الله بن عبد المطلب أصغر ولد أبيه وأمه، وهو الذبيح.

ذكر القصة:

قال الشيخ موفق الدين رحمته الله^(٢): يروى أنه لم يكن لعبد المطلب إلا الحارث، فجرى بين عبد المطلب وبين ابن عمه عدي بن نوفل ما يكون بين بني العم، فقال له عدي: وهل أنت إلا غلام من غلمان قومك، لا لك عدد ولا مال ولا ولد، ولقد كنت بيثرب عند غير أبيك حتى رجعت عمك المطلب، فحمي عند ذلك وقال: أبقت العرب تُعيرني، فله عليّ النذر والدماء لئن رزقني الله عز وجل عشرة ذكورا أن أجعل أحدهم

(١) «سيرة ابن هشام» ٥/١، وجاء في النسخ زيادة بين أدد والمقوم، وهي: «بن زند بن محثوم» وهذه الزيادة لم يذكرها ابن هشام في سيرته، ولا غيره من أصحاب السير والتواريخ المعتمدين، اللهم إلا ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها في حق «زند» فأخرج الطبري في «تاريخه» ٢/٢٧١، والطبراني في «الصغير» (٩٤٦)، والحاكم ٢/٤٠٣، ٤٦٥ عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «معد بن عدنان بن أدد بن زند بن يري بن أعرق الثرى» قالت أم سلمة: وأعرق الثرى: إسماعيل بن إبراهيم، وزند: هميسع، ويري: نبت. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/١٩٣: وفيه عبد العزيز بن عمران من ذرية عبد الرحمن بن عوف، وقد ضعفه البخاري وجماعة، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الدارقطني: لا نعلم زندا إلا في هذا الحديث، وزند بن الهون وهو أبو دلامة الشاعر. وأما الاسم الآخر فلم نقف عليه عند أحد.

(٢) في التبيين ٩٧.

لله نحيرة، ثم افترقا على ذلك، حتى إذا كان بعد أعوام وُلِدَ لعبد المطلب عشرة ذكور سوى الحارث، وإنما كان النذر في غيره، وست بنات، فلما بلغ الذكور عشرة، ذكر نذره، فجمعهم وأخبرهم بنذره، وأدخلهم الكعبة، وأعطى صاحب القِداح رِشْوَتَهُ وقال: أجل عليهم القِداح، فلما أُجِلت الأزلامُ عليهم خرج على عبد الله، فأخرجه ورداؤه على عنقه، وقال: هذا ابنك الذي خرج عليه القِداح، ففزع لذلك وأعظمه لأنه كان يُحِبُّه، ثم عزم على إمضاء نذره، فأخذ بيده وجاء به إلى إساف ونائلة، فأضجعه بينهما، وربطه والمُدِيَّة في يده، فجاء أخواله من بني مخزوم وقالوا: والله ما أحسنت عشرة أمه.

وأمره بخروجه إلى الكاهنة، وخرجوا معه إلى خيبر، وقصّوا لها القصة، فقالت لهم: اذهبوا بصاحبكم إلى الكعبة، وقربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقِداح، فإن خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا فيها إلى أن تخرج على الإبل، فذلك علامة رضى ربكم ونجاة صاحبكم، فرجع عبد المطلب، ودخل على هبل، وقام صاحب القِداح وضرب على عبد الله وعلى عشرة، فخرج على عبد الله، فلم يزل يزيد حتى صارت الإبل مئة، فخرجت القرعة على الإبل، فكبر عبد المطلب والناس، وقالوا: قد رضى عنك ربك، فنحر الإبل وتركها لا يصدُّ عنها إنساناً ولا طائراً ولا وحشاً.

فصارت المئة أضلاً في باب الدية بعد أن كانت عشراً، ولما جاء الإسلام قرّرها على ما قرّرها عبد المطلب؛ ولذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين»^(١). يعني إسماعيل عليه السلام وعبد الله. وفي ذلك نظر.

وقد روي أن سبب النذر كان مع قريش لعبد المطلب من حفر زمزم، وهو الأظهر، والله أعلم.



(١) تقدم تخريجه في قصة إسماعيل.

قصة عبد الله مع الخثعمية^(١)

لما رجع عبد المطلب من ضَرْبِ القِداحِ ونَحْرِ الإبلِ ، أخذ بيد عبد الله وهو يبكي ويقول: اليوم وَهَبْتَ لي يا بُنَيَّ. فمرَّ بامرأةٍ من خَثْعَمٍ يقال لها: فاطمة بنت مرٍّ، وكانت من أجمل النساء وأعفهنَّ، وكانت قد قرأت الكتب، وكان شبابُ قريشٍ يجلسون إليها ويتحدَّثون عندها، فرأت نورَ النُّبوةِ بين عَيْنَيْهِ، فقالت له: يا فتى، مَنْ أنت؟ فقال: عبد الله بن عبد المطلب، فقالت: هل لك أن تقعَ عليَّ وأعطيك مئةً من الإبلِ مثلَ ما نحر أبوك؟ فنظر إليها وقال: [من الرجز]

أَمَّا الحِرامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ

وَالحِجْلُ لَا حِجْلَ فَاسْتَبَيْنَهُ

فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَنْوِينَهُ

ثم مضى مع أبيه عبد المطلب إلى وَهَبِ بن عبد مناف بن زُهرة، وهو يومئذٍ سيِّدُ بني زُهرة نسباً وسِنّاً وشرفاً، فخطب إليه ابنته آمنة، وهي يومئذٍ أفضلُ نساءِ قريش، فزوجه إياها، فأقام عندها ثلاثاً، وعمره يومئذٍ سبع عشرة سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة.

وحملت آمنةُ برسول الله ﷺ، ثم ذكر عبد الله الخثعميةَ وجمالها وما عرضت عليه، فأقبل يُريدها، فلم يرَ من إقبالها عليه أخيراً ما رأى منها أولاً، فقال: هل لك فيما عرضتِ عليَّ؟ فنظرت إليه وقالت: «قد كان ذلك مرَّةً، فالיום لا». فذهبت مثلاً، ثم قالت له: ما الذي صنعتَ بعدي؟ قال: واقعتُ امرأتي آمنة، فقالت: والله يا هذا لستُ بصاحبةِ رِيبَةٍ، ولكنِّي رأيتُ نورَ النُّبوةِ بين عينيك مثلَ غُرَّةِ الفَرَسِ ساطعاً إلى السماء، فأردتُ أن يكون ذلك فيَّ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء، ثم عدتَ وليس في

(١) اختلف في المرأة التي لقيها عبد الله على قولين: أولهما ما ذكر ابن هشام في السيرة ١/١٤٣ عن ابن إسحاق

أنها امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل.

والثاني: ما ذكره المصنف، وانظر كلا الروايتين عند ابن سعد في «الطبقات» ١/٩٥، والطبري في «تاريخه»

٢/٢٤٣، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (قسم السيرة) ص ٢٠٤-٢٠٦، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢/

٢٠١، وابن الأثير في «الكامل» ٢/٧-٨، وابن كثير في «البداية» ٢/٢٣١-٢٣٢.

وجهك منه شيء، فأخبر زوجتك أنها قد حملت بخير أهل الأرض، وإني لأحسبك أبا النبي المبعوث الذي قد أظلم زمانه.

وحملت آمنة برسول الله ﷺ في الليلة التي أقام فيها عبد الله عندها.

قال الزبير: حملت به في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى.

وكان عبد المطلب إذا قدم اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير، فوجد عنده مرة رجلاً قد قرأ الكتب، فقال: أتأذن لي يا عبد الله أن أفتش مكاناً منك؟ فقال: ليس كل مكان آذن لك في تفتيشه، فقال: إنما هو منخراك، فقال: انظر، فنظر في منخريه وقال: أرى نبوة وملكاً، وأحدهما في بني زهرة.

فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب، وزوج ولده عبد الله آمنة بنت وهب، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة، وولدت آمنة رسول الله ﷺ^(١).

وكان عبد المطلب يخرج في رحلة الشتاء إلى اليمن، فنزل مرة على يهودي قد قرأ الكتب، فنظر إليه فقال: أرى في أحد منخريك نبوة وفي الآخر ملكاً، فهل لك من شاعة، أي: زوجة؟ فرجع عبد المطلب فتزوج هالة، وزوج عبد الله آمنة.

فصل في ذكر هاشم

وأمه عاتكة بنت مرة بن هلال، وهاشم لقب له، واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله ابن الزبير: [من الكامل]

عمرو العلى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنون عجاف
من جملة أبيات^(٢).

وقال مطرود بن كعب الخزاعي^(٣): [من الكامل]

يا أيها الرجل المحوّل رخله
هلاً نزلت بآل عبد مناف

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٨٦/١، والحاكم ٦٠١/٢، والبيهقي في «دلائل النبوة» ١٠٦/١.

(٢) البيت في ديوانه ص ٥٣، ومستنون: أصابتهم سنة مجدية.

(٣) اختلف في قائل هذه الأبيات على قولين: أحدهما: مطرود كما أورده المصنف هاهنا، وابن هشام في «السيرة» ١٦٣/١، و«أنساب الأشراف» (قسم السيرة) ص ٦٨، و«الحماسة البصرية» ١٥٥/١. والثاني: =

هَبِلْتُكَ أُمَّكَ، لو نزلت عليهم
والمُطْعَمِينَ إِذَا الرِّيحُ تَنَاوَحَتْ
والمُفْضِلِينَ إِذَا المُحُولُ تَرَادَفَتْ
وَالخَالِطِينَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ
وذلك لأن قومه أصابهم قَحْطٌ شديد، وسنوات أذهبت المال، فرحل إلى الشام،
فاشترى الدَّقِيقَ والسَّمْنَ والزَّيْتَ، وحمله إلى مكة، وكان يَنْحَرُ الجَزُورَ، ويصنع الثَّرِيدَ
وَيَلْتُهُ بالسَّمْنَ والزَّيْتَ، وَيَهْشِمُهُ، ويجمعُ الناسُ عليه فعاشوا.
وكنية هاشم: أبو ثريد، وقيل: أبو نضلة، وقيل: أبو أسد.

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ

كانت العربُ تَعْتَفِدُ^(٣) في الجاهلية، واعتفادها أن أهل البيت منهم إذا هلكت مواشيهم، ولم يبقَ لهم شيء؛ خرجوا إلى البرية يضربون على نفوسهم الأُخْيِيَّةَ، ثم لزموها حتى ماتوا قبل أن يُعْلَمَ بِخَلَّتِهِمْ، فلما عَظُمَ قَدْرُ هَاشِمٍ قَالَ: يا معشر قريش، إن العِزَّ مع كثرة العَدَدِ، وقد أصبحتم أكثر العرب مالا وأعزها نفراً، وإن هذا الاعتفاد قد أتى على كثير منكم، وإني قد رأيتُ رأياً. قالوا: ما هو؟ فإن رأيتك رشيداً، فمُرْنَا بِأَمْرِكَ نَأْتِمِرُ.

قال: رأيتُ أن أخلِطَ فقراءكم بأغنيائكم، فأضُمَّ إلى كل غنيٍّ فقيراً يعيش في ظلِّه يُوَاكِلُهُ، ويكون ذلك قاطعاً للاعتفاد، ثم ترحلون رحلتين رحلةً للشتاء والأخرى للصيف، فنساعدكم على ذلك، فقالوا: نعم ما رأيت. فألف بين الناس، وأحیی

= عبد الله بن الزبير، والأبيات في ديوانه ص ٥٤ س، وقال في «الحماسة»: ويروي لعبد الله بن الزبير، والأول أكثر.

(١) هبلتك: ثكلتك.

(٢) تناوحت: تقابلت، وهي الرياح التي تهب في الشتاء، فهي تهب من جهات متعددة، وقوله: «الموقصين» كذا جاءت في نسخنا، ولم نقف على هذه الرواية، وجاء البيت في ديوان عبد الله بن الزبير:

والمطعمون إذا الرياح تناوحت
ورجال مكة مسنتون عجاف
وهو كذلك في الحماسة ١/ ١٥٥ لمطروود بن كعب.

(٣) في النسخ: «تحتقد»، والمثبت من «لسان العرب»، و«القاموس»: (عقد).

الفقراء، فأخبر الله عن ذلك فأنزل: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾. السورة (١).

وكان هاشمٌ إذا قَدِمَ على ملوك اليمن والروم أكرموه، وأحسنوا إليه، وربّما بلغ إلى أنقرة، وهي موضع فيه قلعة الروم (٢)، ولمّا جاء الإسلام انتسخ ذلك.

وقال سعيد بن جبير: مرّ رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه بملاً وهم ينشدون: [من

الكامل]

قُلْ لِلذِّي طَلَبَ السَّمَاةَ وَالنَّدى هَلَّا نزلتَ بآلِ عبدِ الدَّارِ
هَلَّا مررتَ بهم تُريدُ قِراهُمُ مَنَعوكَ من جَهدٍ ومن إقتارِ
فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أهكذا قال الشاعر؟» قال: والذي بعثك بالحق إنما قال:

قُلْ لِلذِّي طَلَبَ السَّمَاةَ وَالنَّدى هَلَّا مررتَ بآلِ عبدِ مَنافِ
هَلَّا مررتَ بهم تُريدُ قِراهُمُ مَنَعوكَ من فقْرٍ ومن إجحافِ
القائِليْنِ هَلُمَّ للأضيافِ والقائِمينِ بكلِّ وِعْدِ صادقِ
عَمرو العُلا هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِهِ سَفَرَيْنِ سَنَّهُما له [ولقومه] (٣)

وكان هاشم إذا حضر الموسم قام فقال: يا معاشر قريش، أنتم جيران الله، وأهل بيته، وسكان حرمة، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زواراً الله يعظّمون بيته، فهم أضيافه، وأحقّ من أكرم أضياف الله أنتم، فاقروهم، واسقوهم. ثم ينصب حياض الأذم في موضع زمزم، ثم يخرج أموالاً كثيرة، وترافده قريش، فيطعم الحاج ويسقيهم قبل يوم التروية بيوم وبمنى وجمع، وبعرفة، مدّة مقامهم في أيام الموسم، يترد لهم الخبز،

(١) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٣٩٧/٦ إلى الموفقيات للزبير بن بكار - وليس فيما طبع منه لأنه مخروم - عن عمر بن عبد العزيز، قوله.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٧٥/١.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في النسختين، والمثبت من «الكشف والبيان» للنيسابوري ٥٥٨/٦.

وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ فِدْرَ اللَّحْمِ، وَيَذُرُّ عَلَيْهِ السَّوِيقَ، وَيَخْلِطُهُ بِالسَّمْنِ إِلَى أَنْ يَصْدُرَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ.

ذِكْرُ مُنَافَرَةِ هَاشِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ

وكانا وُلدا تَوَأمينَ، وإصْبَعُ أحدهما مُلتصِقَةٌ بِجِبْهَةِ الآخرِ، فانفصلَ منها دَمٌ، فقال الناسُ: يَكُونُ بَيْنَهُمَا دَمٌ^(١). ووُلِدَ بَعْدَهُمَا المَطْلَبُ وهو أصغرهم، واسمُ أمِّ الثلاثة: عاتكة بنت مُرَّة السُّلَمِيَّةِ، وآخِرهم نَوفَلٌ وأُمُّه واقدة، وكان لعبد مناف أولادٌ أُخَرُ، إلا أن المشار إليه منهم هؤلاء الأربعة، فإنهم سادوا بعد أبيهم، فلما توفي عبد مناف ولي بعده هاشم، فأخذ السُّقَايَةَ والرَّفَادَةَ، وساد قومَه، فحَسَدَهُ أُمِيَّةُ بِنْتُ عبد شمس وكان ابن أخيه، فتكَلَّفَ أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ هَاشِمٍ فَعَجَزَ، فَعَيَّرَتْهُ قَرِيشٌ وَقَالُوا: تَتَشَبَّهُ بِهَاشِمٍ؟ فَغَضِبَ وَقَالَ: وَمَنْ هَاشِمٌ؟ ثُمَّ دَعَا هَاشِمًا إِلَى المُنَافَرَةِ، فَأَبَى لِسِنِّهِ وَعِظَمِ قَدْرِهِ، فَلَمْ تَدْعُهُ قَرِيشٌ، فَقَالَ هَاشِمٌ: أَنَا فِرْكٌ عَلَى خَمْسِينَ نَاقَةً سُودِ الحَدَقِ تُنْحَرُ بِمَكَّةَ، وَالجَلَاءِ عَنِ مَكَّةَ عَشْرَ سَنِينَ. فَرَضِي أُمِيَّةٌ بِذَلِكَ، وَجَعَلَا بَيْنَهُمَا الكَاهِنَ الخُزَاعِيَّ وَهُوَ جَدُّ عمرو بن الحَمِيقِ كَانَ يَنْزِلُ بَعْسِفَانَ، فَخَرَجَ هَاشِمٌ فِي نَفَرٍ مِنْ قَرِيشٍ، وَخَرَجَ أُمِيَّةٌ وَمَعَهُ أَبُو هَمَّهَمَةَ ابْنُ عبد العَزَّى وَكَانَتْ ابْنَتُهُ تَحْتَ أُمِيَّةَ، فَزَلُّوا عَلَى الكَاهِنِ، فَعَلِمَ مَا جَاؤُوا فِيهِ وَلَمْ يُعْرِفُوهُ، فَقَالَ: وَالقَمَرِ البَاهِرِ، وَالكوكبِ الزَّاهِرِ، وَالغَمَامِ المَاطِرِ، وَمَا بِالجَوِّ مِنْ طَائِرٍ، وَمَا اهْتَدَى بِعَلَمٍ مُسَافِرٌ مِنْ مُنْجِدٍ وَغَائِرٍ، لَقَدْ سَبَقَ هَاشِمٌ أُمِيَّةً إِلَى المَفَاخِرِ، وَأَبُو هَمَّهَمَةَ بِذَلِكَ خَابِرٌ. فَنَفَّرَ هَاشِمًا عَلَى أُمِيَّةَ، وَعَادَ هَاشِمٌ إِلَى مَكَّةَ، وَأَخَذَ الإِبِلَ فَنَحَرَهَا، وَأَطْعَمَ النَّاسَ، وَخَرَجَ أُمِيَّةٌ إِلَى الشَّامِ، فَأَقَامَ بِهَا عَشْرَ سَنِينَ، فَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ عِدَاوَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ هَاشِمٍ وَأُمِيَّةَ، وَتَوَارَثَ ذَلِكَ بَنُوهُمَا^(٢).

ذِكْرُ حِلْفِ المُطَيِّبِينَ^(٣)

وكان في أيام هاشم، وذلك أن هاشمًا وعبد شمس والمطلب ونوفلاً، بني عبد

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٢٥٣.

(٢) انظر «أنساب الأشراف» ١/٦٩، و«الطبقات الكبرى» ١/٧٦، و«تاريخ الطبري»، و«المنتظم» ٢/٢١٢.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٧٧، و«سيرة ابن هشام» ١/١٣٠، و«تاريخ يعقوب» ١/٢٤٨، و«البدء =

مناف، أجمعوا بأن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قُصَيِّ مِمَّا كان جعل قُصَيِّ إلى عبد الدار من الحِجَابَةِ والسَّقَايَةِ واللَّوَاءِ والنَّدْوَةِ والرَّفَادَةِ، ورأوا أنهم أحقُّ بذلك لِشَرَفِهِمْ وَفَضْلِهِمْ عَلَى قَوْمِهِمْ، وكان القائم بالأمر هاشمٌ، وأبى ذلك بنو عبد الدار، وانضمَّ إلى بني عبد مناف بنو أسد بن عبد العزَّى، وبنو زهرة^(١)، وبنو تميم بن مُرَّة، وبنو الحارث بن فِهر، وانضمَّ إلى بني عبد الدار بنو مَخْزُوم، وبنو سَهْم، وبنو جُمَح، وبنو عَدِيَّ بن كعب، وعَقَدَ كُلُّ قَوْمٍ حِلْفًا مَوْكِدًا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَتَخَاذِلُونَ، وأخرجت بنو عبد مناف جَفَنَةً مَمْلُوءَةً طِيبًا، فوضعوها عند الكعبة، وغَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهَا، وتعاهدوا وتعاقدوا، وَمَسَحُوا الكعبة بأيديهم تأكيداً^(٢)، فَسُمُّوا الْمُطَيَّبِينَ.

ولما رأت ذلك بنو عبد الدار نحروا جُزُورًا، وجعلوا دمَه في جَفَنَةٍ، وغمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهَا، وتحالفوا، فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدَّمِ، ووقع الشرُّ بينهم، وتهيأ الفريقان للقتال، فقال أعيان قريش: هذا سبُّ هلاك الفريقين، وطمع العدو في بيت الله وحرَمِهِ، ودخلوا بينهم، فاتَّفَقُوا عَلَى أَن يُعْطُوا لبني عبد مناف الرَّفَادَةَ والسَّقَايَةَ، وتكون الحِجَابَةُ واللَّوَاءُ ودارُ النَّدْوَةِ في يد بني عبد الدار، فلم تَزَلْ دارُ الندوة في أيديهم حتى باعها عكرمة بنُ عامر من معاوية بن أبي سفيان، فجعلها دارَ الإمارة، وهي اليوم على ذلك.

ذكر أشرف قريش في الجاهلية^(٣)

وانتهى الشَّرَفُ في قُريش إلى عشرة رَهْطٍ من عشرة أبطن، وهم: هاشمٌ، وأمِيَّةُ، ونوفلٌ، وعبدُ الدار، وأسدٌ، وتيمٌ، ومَخْزُوم، وعَدِي، وجُمَح، وسَهْم.

فكان من بني هاشم العباسُ بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له

= والتاريخ» ١٢٨/٤، و«أخبار مكة» ١٧٥/٥، و«المنتظم» ٢١٨/٢، و«الكامل» ٣٥٠/١ و ٥٥٨، و«البداية والنهاية» ٢/١٩٤، ٢٧٠.

(١) في «النسخ»: «زهير» والمثبت من السيرة، والمصادر.

(٢) جاءت العبارة في (ك): «وتعاقدوا ومسحوا بالكعبة تأكيداً»، وجاءت في (خ): «وتعاقدوا بالكعبة تأكيداً» والتصويب من «السيرة» ١/١٣٢.

(٣) انظر «العقد الفريد» ١/٣١٣-٣١٤، و«المنتظم» ٢/٢١٦، و«جمهرة النسب».

ذلك في الإسلام، وكان إليه أمر المسجد الحرام، فلا ينطق فيه أحد بهُجْرٍ ولا رَفَثٍ، ولا يرفع صوته فيه إلا وللعباس أن ينهأ عن ذلك، وكانت إليه عمارته وأسبابه، واتصل ذلك ببنيه في الإسلام.

وأما أمية: فمن بنيه أبو سفيان، كانت عنده راية تُسمى «العقاب» وكانت لقريش يسرون تحتها، وجاء الإسلام وهو على ذلك.

وأما نوفل: فمن بنيه الحارث بن عامر، كان إليه الرِّفَادَةُ، وهي ما تُخْرِجُهُ قريش من أموالها، ترفدُ به مُنْقَطِعُ الحاجِّ.

وأما عبد الدار: فمن بنيه عثمان بن طلحة، كان إليه اللِّوَاءُ، والسَّدَانَةُ، والحِجَابَةُ، ودار النَّدْوَةِ، وبقي ذلك إلى أول الإسلام، فزال اللِّوَاءُ ودارُ النَّدْوَةِ، وبقيت الحِجَابَةُ.

وأما أسد: فمن بنيه يزيد بن ربيعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة، واستشهد يوم الطائف مسلماً.

وأما تيم: فمنها أبو بكر رضي الله عنه، كانت إليه في الجاهلية الأشناق، وهي الديات والمغارم.

وأما مخزوم: فمنها خالد بن الوليد، كانت إليه أعنة الخيل في الحرب دون غيره، وما يجمعونه لتجهيز الجيوش^(١).

وأما عدي: فمنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت إليه السفارة في الجاهلية، إذا وقعت بين قريش وبين غيرها منافرة، أرسلوه فأصلح بينهم^(٢).

وأما جمح: فمنهم صفوان بن أمية، كانت إليه الأزلأم، وهي الأيسار.

وأما سهم: فمنها الحارث بن قيس، كانت إليه الحكومات في المال الذي يجعلونه لآلهتهم.

(١) جاء في «العقد الفريد» ٣/٣١٤، و«المنتظم» ٢/٢١٧: أن له القبة والأعنة، فأما الأعنة فقد ذكرها المصنف، وأما القبة: فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش.

(٢) جاء في «العقد الفريد» ٣/٣١٤، و«المنتظم» ٢/٢١٧: أنه كان سفيراً لقريش في الحرب، وإن نافرهم حي لفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به.

فهذه المكارم التي كانت لقريش ، ولهاشم أعظمها ، ثم جاء الإسلام فوصل ما يصلح وصله ، قال شريك بن عبد الله : سئل عليٌّ عليه السلام عن بني أمية وبني هاشم؟ فقال : هم أكبر وأمكر وأشكر ، ونحن أفصح وأصبح وأنصح^(١) .

ذِكْرُ وِفَاةِ هَاشِمٍ

اتفقوا على أنه مات بغزة بساحل البحر ، وهو ابن عشرين سنة ، وقيل : ابن أربع وأخمس وعشرين سنة ، ولما احتضر أوصى إلى أخيه المطلب ، فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة إلى اليوم ، وبنو نوفل وبنو عبد شمس ابني عبد مناف يد واحدة إلى اليوم .

ذِكْرُ أَوْلَادِ هَاشِمٍ

كان له من الولد عشرة ، خمسة ذكور وخمس إناث ، فالذكور : أبو صيفي واسمه عمرو وكان أكبر ولده ، وصيفي^(٢) ، وشيبة وهو عبد المطلب ، وأسد ، ونضلة . وأما الإناث : فرقية ، والشفاء ، وضعيفة ، وخالدة ، وحية .

فأما أبو صيفي فسماه هاشم عمراً لمحبته إياه ، فولد أبو صيفي الضحاك ورقية ، وهي أم مخرمة بنت نوفل الزهري صاحبة حديث استسقاء عبد المطلب .

وأما صيفي فلم يُعقب . وأمه أم أبي صيفي واسمها هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجي . درج^(٣) ولم يولد له .

وأما شيبة فسنذكره .

وأما أسد فأمه قيلة بنت عامر خزاعية ، وهي بنت هرم بن رواحة من بني عامر بن لؤي ، فولدت له فاطمة بنت أسد أم علي عليه السلام وأخوته .

وأما نضلة بن هاشم فأمه أميمة بنت عدي من قضاة ، ولد له الأرقم بن نضلة ،

(١) انظر «العقد الفريد» ٣/٣١٥ .

(٢) صيفي وأبو صيفي ، جعلهما البلاذري في «أنساب الأشراف» (قسم السيرة) ص ٩٩ رجلاً واحداً .

(٣) درج : مات .

وولد الأرقم زينب، تزوجها عبد يغوث بن وهب الزهري وولد الأرقم هنداً، تزوجها جميل بن معمر الجمحي، وليس لنضلة عقب من الذكور.

وأما رقية، فهي شقيقة عبد المطلب وأما سلمى، ماتت وهي بكر.

وأما الشفاء، فتزوجها عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، فأولدها السائب بن يزيد. وكان السائب يُشبه رسول الله ﷺ، وقد رثت أباها هاشماً فقالت^(١): [من الخفيف]

عين جودي بعبرة وسجوم
عين واشتغيري وسحي دموعاً
وربيع للمجدبين وجرز
شيظمي مهذب ذي أيا
غالببي سميذع أحوذي
صادق البأس في المواطن شهم
وأما ضعيفة وخالدة فأمهما واقدة بنت أبي عدي من بني مازن، كانت تحت عبد مناف، فلما مات خلف عليها ولده هاشم.

وأما حية فأمها أم عدي^(٤) بنت حبيب ثقفية.

وقالت خالدة ترثي أباها هاشماً^(٥): [من الكامل]

بكر النعي بخير من وطئ الحصى
بالسيد الغمر السميذع ذي النهي
زين العشيرة كلها، وربيعها
ذي المكرمات وذي الفعال الفاضل
ماضي العزيمة غير وغد واغل^(٦)
في الضيقات^(٧) وفي الزمان الماحل

(١) الأبيات في «الطبقات الكبرى» ٨١/١.

(٢) الشيطمي: الطويل الجسيم الفتى.

(٣) السميذع: السيد الكريم الشريف السخي، والأحوذي: الحاذق.

(٤) سقطت كلمة (أم) من النسخ و«الطبقات» ٨٠/١، والمثبت من «تاريخ يعقوبي» ٢٤٤/١، و«توضيح

المشبه» ١٠٠/٣، وانظر «الروض الأنف» ١٣٠/١.

(٥) الأبيات في «الطبقات الكبرى» ٨٠/١.

(٦) الوغل: النذل الساقط.

(٧) جاء في «الطبقات»: «المطبات».

بأخي المكارم والفواضل والعلی
 إنَّ المهدَّبَ من لُؤيِّ كُلهَا
 أبكي عليه ما بقيتُ بعوْلةٍ
 ولقد فقتُ قريعَ فهِرٍ كُلهَا
 عمرو بن عبد منافٍ غير الخاذلِ
 بالشَّام بين صفائحٍ وجنادلِ
 فلقد رزئتُ أخا ندىٍ وفواضلِ
 ورئسَهَا في كلِّ أمرٍ شاملِ

فَصْلٌ فِي عَبْدِ مَنْافٍ

واسمه المغيرة، وكان يلقَّب بالقمر لجماله. وأمُّه حُبَي بنت الحُلَيْل الخُزاعي،
 وقيل: عاتكة بنت هلال من بني سُليْم^(١). وكان قُصيُّ أبو عبد مناف يقول:
 وُلد لي أربعةٌ أولاد سميتُ منهم اثنين باسم إلهي، وواحدًا بداري، وواحدًا
 بنفسي، وهم: عبدُ مناف، وعبدُ العزَّى، وعبدُ الدارِ، وعبدُ قُصيِّ^(٢).

ذِكْرُ أَوْلَادِ عَبْدِ مَنْافٍ

وُلد له ستَّة ذكورٍ وستُّ إناث. فالذكور: هاشمٌ، والمطلب، وعبد شمسٍ، ونوفل،
 وأبو عمرو، وأبو عبيد^(٣).

والإناث: تماضر، وحيّة، وريطة، وقلاية، وبرّة، وهالة^(٤).

فأمّا هاشمٌ فكان أكبرَ ولده، وهو الذي عقد الحلف لقريشٍ من النجاشي^(٥).
 وأمّا عبد شمس فأمه عاتكة أم هاشم.

ذِكْرُ أَوْلَادِ عَبْدِ شَمْسٍ

وهم أمية الأكبر، وأمّية الأصغر، وحبیب، وعبد العزَّى، وسُفيان، وربيعة، وعبد
 أمية، ونوفل، وعبد الله، وأميمة^(٦).

(١) انظر «أنساب الأشراف» ص ٦٦.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢/ ٢٥٤.

(٣) انظر «الطبقات الكبير» ١/ ٥٦ وجاء في «أنساب الأشراف» ص ٧١: أبو عمرو واسمه عبيد، وانظر «البدایة
 والنهاية» ٢/ ٢٣٧.

(٤) انظر «أنساب الأشراف» ص ٧١.

(٥) جاء عند الطبري في «تاريخه» ٢/ ٢٥٢، و«المنتظم» ٢/ ٢١٢ أن الذي أخذ الحلف هو عبد شمس.

(٦) انظر «أنساب الأشراف» ٤/ ٦٥.

فأما أُمَيَّةُ الأكبر فكان عبد شمس يُكنى به، وأمه تَعْجُزُ بنتُ عُبيد بن رُوَاس بن كلاب. ويقال لها أيضاً عاتكة، وهي أم حبيب بن عبد شمس. وذهبَ بَصْرُ أُمَيَّةَ بن عبد شمس.

ذكر أولاد أُمَيَّةَ الأكبر

فُوَئِدٌ لِأُمَيَّةَ الأكبر: حَرْبٌ، وأبو حَرْبٍ، وسُفْيَانٌ، وأبو سُفْيَانٍ، وعمرو، وأبو عمرو، وهم العنابسُ من قريش، والعاص، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص، وهم الأغياص من قريش.

وفيهم يقول فضالة بن شريك الأسدي^(١): [من الوافر]

مَنْ الأعياصِ أو من آلِ حَرْبٍ أَعْرُ كُفْرَةَ الفَرَسِ الجَوَادِ
وأُمهم آمنَةُ بنتُ أبانِ بنِ كُليبِ بنِ ربيعةِ بنِ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، وفي ذلك يقول
النايغَةُ الجَعْدِي^(٢): [الوافر]

وشارَكنا قَريشاً في تُقاها وفي أَحسابِها شِرْكَ العِنانِ
بما وُلدت نساءً بني هلالٍ وما وُلدت نساءً بني أبانِ
فأما حرب بن أُمَيَّةَ الأكبر فكنيته أبو عمرو، وهو أبو أبي سفیان صخر بن حرب، وأمُّ جميل حَمَّالة الحَظْب بنت حرب، وكان شريفاً في قومه، وكان ينادم عبد المطلب، فجرى بينهما كلام فتنافرا، فنفر عبد المطلب عليه، وأبى النجاشي أن يدخل بينهما، فجعل بينهما نُفَيْل بن عبد العزى بن رباح العدوي.

فقال نُفَيْلٌ لحرب: أَتُنافِرُ رجلاً هو أطولُ منك قامَةً، وأعظمُ هامَةً، وأوسمُ وسامةً، وأقلُّ ملامَةً، وأكثرُ منك ولداً، وأعظمُ مدداً، وأعزُّ والداً، وأجزلُ صفداً^(٣) وأطولُ يداً؟ فنفره عليه. فقال حرب: من انتكاثِ الزمان أن جعلت حكماً^(٤). والنكيسة: خطة صعبة.

(١) انظر «جمهرة النسب» ص ٣٨، و«أنساب الأشراف» ٧/٤، و«الأغاني» ٧٢/١٢.

(٢) الأبيات في ديوانه ص ١٦٤، و«أنساب الأشراف» ٧/٤، وانظر «جمهرة النسب» ص ٣٨.

(٣) الصفد: العطاء.

(٤) انظر الخبر في «الطبقات الكبرى» ٨٧/١، و«تاريخ الطبري» ٢٥٣/٢.

ولما مات حرب، كُنَّ نساء قُرَيْش كلما مات مَيِّتٌ بَكَيْنُهُ وَقُلْن: واحْرَبَاه - بِإِسْكَانِ الرَّاءِ - يُشْرِنَ إِلَى حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ، مِنْ عِزَّتِهِ وَشَرَفِهِ، فَأَقْمَنَ مَدَّةً عَلَى هَذَا، فَمَاتَ ابْنُ لَامْرَأَةٍ، فَجَعَلَنَ النِّسَاءُ يَقْلُن: واحْرَبَاه، فَقَالَتْ أُمُّهُ: وما أَضْنَعُ بِحَرْبٍ؟ افْتَحَنَ الرَّاءُ، وَقُلْن: واحْرَبَاه مِنَ الْحَرْبِ، فَقُلْن ذَلِكَ فَصَارَ سُنَّةً لِلنِّسَاءِ.

ذَكَرَ أَوْلَادَ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ

وَهُمْ: أَبُو سَفِيَانَ وَالْفَارِعَةُ، وَأُمُهُمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَزْنِ هِلَالِيَّةٍ. وَأُمُّ جَمِيلِ بِنْتُ حَرْبِ أُمِّهَا فَاخِتَةُ بِنْتُ عَامِرِ بْنِ مُغِيثِ الثَّقَفِيِّ. وَأُمِيمَةُ وَأُمُّ الْحَكَمِ ابْنَتَا حَرْبٍ، أُمُّهُمَا أُمُّ وَوَلَدٌ، وَالْحَارِثُ^(١) بِنُ حَرْبٍ، وَأُمُّهُ يَمَانِيَّةٌ دَرَجٌ، وَعَمْرُو بْنُ حَرْبٍ [وَأَبُو عَمْرُو بْنِ حَرْبٍ]^(٢)، وَالصَّهْبَاءُ بِنْتُ حَرْبٍ.

فَأَمَّا أَبُو سَفِيَانَ، فَسَنَذَكُرُهُ فِي تَرْجُمَتِهِ.

وَأَمَّا الْفَارِعَةُ فَكَانَتْ تَحْتَ شَيْبَةَ بِنْتُ رِبِيعَةَ بِنْتُ عَبْدِ شَمْسٍ، فَخَلَفَ عَلَيْهَا الْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى.

وَأَمَّا أُمُّ جَمِيلٍ فَتَزَوَّجَهَا أَبُو لَهَبٍ بْنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ.

وَأَمَّا فَاخِتَةُ، فَتَزَوَّجَهَا جَثَامَةُ اللَّيْثِيِّ، ثُمَّ خَلَفَ عَلَيْهَا عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ الْمَازِنِيِّ.

وَأَمَّا الصَّهْبَاءُ فَتَزَوَّجَهَا بِشْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ السَّكُونِيِّ. فَهَؤُلَاءِ أَوْلَادُ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةِ الْأَكْبَرِ.

وَأَمَّا سَفِيَانُ بْنُ أُمِيَّةِ الْأَكْبَرِ فَلَا عَقِبَ لَهُ.

وَأَمَّا أَبُو سَفِيَانَ بْنِ أُمِيَّةِ فَاسْمُهُ عَنبَسَةُ، وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ، وَلَا عَقِبَ لَهُ.

وَأَمَّا عَمْرُو بْنُ أُمِيَّةِ، فَلَا عَقِبَ لَهُ، وَأُمُّهُ بِنْتُ أَبِي هَمَّامَةَ مِنْ وَلَدِ الْحَارِثِ بْنِ فَهْرٍ.

وَأَمَّا أَبُو عَمْرُو بْنِ أُمِيَّةِ، فَأُمُّهُ مِنْ لَحْمٍ. وَوَلَدَ عَمْرُو بْنُ أُمِيَّةِ أَبَا مُعَيْطَ جَدِّ الْوَلِيدِ بْنِ

عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ.

(١) فِي النِّسَخِ: «الْحَرْبِ» وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «أَنْسَابِ الْأَشْرَافِ» ٩/٤.

(٢) مَا بَيْنَ مَعْقُوفَيْنِ زِيَادَةٌ مِنْ «نَسَبِ قُرَيْشٍ» ص ١٢٣.

ومن ولد أمية الأكبر العاص بن أمية، كان سيداً حكيماً، قال له قومه: اهْجُ بني أسد بن عبد العزى، فقال^(١): [مجزوء الكامل]

أنى أعادي معشراً كانوا لنا حِصناً حصينا
خُلِقُوا من الجوزاء إذ خُلِقُوا ووالدُهم أبونا
أبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي أُمِيَّةَ آيَةً نُصْحاً مُبِيناً^(٢)
أنا خُلِقْنَا مُضْلِحِينَ وما خُلِقْنَا مُفْسِدِينَ

وولد أبو العيص بن أمية الأكبر أسيداً أبا عتاب بن أسيد، عامل رسول الله ﷺ على مكة.

وأما العاص بن أمية، فولد سعيد بن العاص، وكنيته أبو أحيحة.

وأما أبو العاص بن أمية فولد عفاناً أبا عثمان - رضي الله عنه -، والحكم أبو مروان.

عدنا إلى أولاد عبد شمس

فمنهم: أمية الأصغر، وعبد أمية، ونوفل، وأمهم: عبلة بنت عبيد بن جاذل من بني تميم من البراجم^(٣)، ويُدعون العبلات لأجل أمهم. وأولاد أمية الأصغر بمكة، ومنهم الثريا التي شَبَّ بها عمر بن أبي ربيعة. وبنو عبد أمية ونوفل بالشام.

ومنهم: حبيب بن عبد شمس، فولده ربيعة جد عامر بن كُرَيْز بن ربيعة، وسمره بن حبيب، وكان له أمة سوداء يقال لها: زبيبة^(٤). وأخوه لأمه أبو جمعة الشاعر جد كثير ابن عبد الرحمن بن أبي جمعة^(٥).

(١) الأبيات في «نسب قريش» ص ٩٩، و«جمهرة نسب قريش» ص ٤٣١، و«أنساب الأشراف» ٦/٤.

(٢) الآية: الرسالة.

(٣) البراجم: هم قوم من بني حنظلة بن مالك، قال لهم حارثة بن عامر بن عمرو بن حنظلة: أيتها القبائل التي ذهب عددها، تعالوا فلنجتمع فنكن كبراجم كفي هذه، ففعلوا فسموا بذلك.

(٤) كذا جاءت العبارة في النسخ، وفي «المعارف» ص ٧٣: وسمره بن حبيب وكانت أمه سوداء تسمى زبيبة.

(٥) كذا جاءت العبارة في النسخ، وفي «المعارف» ص ٧٣: وأخوه لأمه أبو جمعة، جد كثير بن عبد الرحمن بن

أبي جمعة الشاعر. وانظر «الإصابة» ٣٧/٤.

ومنهم: أميمة بنت عبد شمس، وأمها تَعْجُزُ بنت عُبيد، تزوجها حارثةُ بنُ الأوقص السَّلَمي، ثم خلف عليها عمرو بن ثعلبة^(١) الكِناني.

ومنهم: سُفيان بن عبد شمس، لا عقب له.

ومنهم: ربيعةُ بن عبد شمس، وهو أبو عتبة وشيبة. وربيعَةُ يقال له: جَرُّو البطحاء.

ومنهم: عبد العزَّى بن عبد شمس. وُلد له ربيع وربيعة. فأما ربيع: فهو أبو أبي

العاص بن الربيع زوج زينب عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وأمُّ عبد العزَّى بن عبد شمس فاطمة^(٢) أزدية.

ومنهم: عبدُ الله بنُ عبد شمس الأعرَج. وأمُّه عمرةُ كِنْدِيَّة^(٣).

عدنا إلى أولاد عبد مناف

ذِكْرُ أَوْلَادِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ

وهم: عَدِيٌّ أَكْبَرُ ولده، وبه يكنى، وعامرٌ وَعَمْرُو وأبو عمرو وعبد عمرو، وضعيفة وأمة.

فَوَلَدَ عَدِيٍّ الْمُطْعَمُ وَطُعَيْمَةُ، والخيار والبذال، والصَّالِحُ واسمُه عُبيدُ الله، والمبارك واسمُه عبدُ الله.

وأما أبو عمرو بن عبد مناف فلا عقب له، وأبو عبيد بن عبد مناف^(٤)، أمُّهُمَا واقِدَةُ بنت أبي عَدِيٍّ من بني صَعْصَعَةَ.

وأما بنات عبد مناف؛ ثَمَاضِرٌ وَحِيَّةٌ وَقِلَابَةٌ وَبِرَّةٌ وَهَالَةٌ فَأُمُّهُنَّ عاتكةُ الكبرى بنت مُرَّةَ بنِ هِلَالٍ من وَلَدِ نَضْرَةَ.

وَرِيْطَةُ بنت عبد مناف أمُّهَا واقِدَةُ^(٥) ثَقْفِيَّةٌ.

(١) انظر «أنساب الأشراف» ٦/٤، وجاء في «نسب قريش» ص ٩٧: ثعلبة بن عمرو.

(٢) انظر «أنساب الأشراف» ٥/٤، واسمها في «نسب قريش» ص ٩٨: عمرة بن وائلة.

(٣) انظر «أنساب الأشراف» ٦-٥/٤، واسمها في «نسب قريش» ص ٩٨: أمامة بنت الجودي من كندة.

(٤) تقدم في ذكر عبد مناف أنه أبو عمرو واسمه عبيد وانظر «أنساب الأشراف» ٧١/١.

(٥) انظر «أنساب الأشراف»، واسمها في «نسب قريش» ص ١٥: هند بنت كعب من ثقيف.

وأما الْمُطَّلِبُ بن عبد مناف، فكان له من الولد: الحارث، وعَبَّادٌ، وهاشمٌ، وعِكرمةٌ، وأنيسٌ، وأبو عمرو، وأبو رُهم^(١) الأكبر، وأبو عمران، ومِحْصَنٌ، وعلقمة، وبنات.

وكان الحارث أكبر ولده، ووَلَدَ عبيدة بن الحارث، وهو الذي قتل يوم بدر شهيداً رضي الله عنه. وأول من مات من ولد عبد مناف هاشمٌ بغزة، وعبدُ شمس بمكة وقبره بأجباد، ونُوْفَلٌ بالسُّلَّمان، منزلٌ على طريق العراق من منازل الحُجَّاج، والمُطَّلِبُ برَدِّمان من أرض اليمن، ونُوْفَلٌ آخرهم موتاً، وفيهم يقول مطرود بن كعب الخُزاعي: [من السريع]

قبرُ برَدِّمانَ وقبرُ بِسَلْـُـمَ مان وقبرٌ عند غَزَاتِ

فصل في ذكر قُصَيِّ بنِ كِلاب

كان له أربعة أسامي: قُصَيٌّ، وزيدٌ، ومُجَمِّعٌ، والنَّدَى، والمشهور زيدٌ، وغيره ألقاب، وفيه يقول القائل: [من الطويل]

هُمامٌ له أسماءٌ صِدْقٍ وسُوْدُدٍ قُصَيٌّ وزيدٌ والنَّدَى ومُجَمِّعٌ

وفيه يقول حُذافة بن غانم العَدَوِي يخاطب أبا لهَب^(٢): [من الطويل]

أبوكم قُصَيًّا كان يُدعى مُجَمِّعاً به جَمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهرِ

ذكر السبب في تسميته قُصَيًّا:

وإنما سمي قُصَيًّا لتَقْصِي أمه به، وذاك لأن أباه كِلاب بن مرة كان قد تزوج فاطمة بنت سعد بن سَيْل من بني عذرة من أزد السُّرارة، فولدت له زيدا وزُهرة، ثم مات كِلابٌ وزيدٌ صغيراً، فتزوج أمه ربيعة بن حَرَام بن ضِنَّة، وقصي فطيماً، وزُهرة رجل قد بلغ، فاحتملها ربيعة إلى بلاده من أرض بني عذرة من مشارف الشام، فاحتملت قُصَيًّا معها، [فسمي قُصَيًّا] لتقصي أمه به، وبُعِدِه عن ديار قومه. ونشأ بأرض قُضاعة لا يَعْرِفُ له أباً

(١) جاء في «نسب قريش» ص ٩٢ أن اسمه أنيساً.

(٢) جاء في «نسب قريش» أبو حذافة بن غانم، والبيت في «الطبقات الكبير» ٥٣/١، و«أنساب الأشراف» ١/

٥٨، و«نسب قريش» ص ٣٧٥.

إلا ربيعةَ بنَ حَرامٍ، فجرى بينه وبين رجلٍ كلام، فقال له: الحَقُّ بقومك فليست مِنَّا، فسأل أمَّهُ عما قال الرجل، فقالت: أنت واللهِ أكرمُ نَفْساً ووالِداً، أنت ابنُ كِلَابِ بنِ مُرَّةٍ، وقومُك عند الكعبةِ بمكة.

فأجمع رأيُ قُصَيِّ على الخروجِ إلى مكةَ وكرِهَ العُربةَ، فقالت له أمه: يا بُنَيَّ، لا تُعَجَلْ حتى يدخلَ الشهرُ الحرامُ، فتخرُجْ مع الحاجِّ فتأمنَ على نفسك، فإني أخاف عليك. فأقام حتى تجهَّزَ جماعةٌ من قُضاعةَ، فخرج معهم، وقَدِمَ مكةَ وعليها يومئذ حُلَيْلُ بنُ حُبْشِيَّةَ بنِ سَلولِ بنِ كعبِ الخُزاعي، وإليه حِجَابَةُ البيتِ، فخطبَ إليه ابنته حُبَيُّ فزوجه إياها، فولدت له عبدَ الدارِ، وعبدَ منافِ، وعبدَ العزى، وعبدَ قُصَيِّ، فلما انتشر ولده، وكثر ماله، وعَظُمَ شرفُه، هَلَكَ حُلَيْلُ، فَحَجَبَ البيتَ ابنُه المُحترش وهو أبو غَبْشان.

وقال الواقدي: لما احتضر حُلَيْلُ أوصى بولاية البيتِ إلى ابنته حُبَيُّ فقالت: أنا امرأةٌ فكيف أفتَحُ البابَ وأغلقُه؟ فقال: أنا أجعل ذلك إلى رجل. فجعله إلى أبي غَبْشان واسمه سليم بن عمرو، وكانت العرب تجعل له جُعللاً في كل سنة، فقَصَّروا عنه فغضب، فسقاه قُصَيُّ الخمر حتى سَكِرَ وقال له: يا أبا غَبْشان لا خير في العرب، فقال له: اشترِ مني البيتَ. فباعه إياه بزِقِّ خمرٍ وقعودٍ وكَبْشٍ، وقيل: بزِقِّ خمرٍ لا غير، فقال الناس: أخسرُّ من صَفْقَةِ أبي غَبْشان. فذهبت مثلاً.

وقيل: إن حُلَيْلاً لما رأى ولد قُصَيِّ قد كثروا سُرَّ بهم، فأوصى بالبيتِ إلى قُصَيِّ وقال: أنت أحقُّ به وهؤلاء أولادك من ابنتي، والأول أشهر.

ثم إن قُصَيّاً رأى أنه أولى^(١) بالبيتِ من خُزاعةَ وبَكْرٍ، وأن قريشاً صريحٌ وولدُ إسماعيلَ، فعاهد رجالاً من كِنانةَ وقُريشٍ على إخراجِ خُزاعةَ وبَكْرٍ من مكةَ، وكتب إلى أخيه لأمه رِزاح بن ربيعةَ يَسْتَنجده عليهم، فأنجده في نَفَرٍ من خُزاعةَ، وكانت صوفةٌ ترمي الجِمارَ قبل الناس وتُفِيضُ قَبْلهم، وكانوا يقفون بعرفةَ والناسُ تَبِعُ لهم، فلا يَدْفَعون حتى يقول قائل: أجزِي صوفةً، فإذا عَبَرُوا العقبَةَ تَبِعَهُم الناسُ، فلما أراد

(١) في النسخ: «أوصى» والمثبت من «طبقات ابن سعد» ٥٠/١.

قُصِيَّ في العام الذي حج فيه أن يرمي ويُفيض منعه صُوفَةً وقالوا: حتَّى نرمي نحن ونُفيض. فلما كان العام القابل قَدِمَت قُضَاعَةٌ وفيهم أخوة قُصَيِّ لأمه، وهم: رزاح، ومحمود، وجُلُهْمَةٌ، وحُنُّ أولاد ربيعة، واجتمع إلى قصي قبائل مُضَر وقريش وكنانة عند العَقَبَة، فمنعتهم صُوفَةٌ عن رمي الجِمار واقتتلوا، فهزم قصي صُوفَةً، فقال رزاح لأخيه: أَجِزْ قُصَيِّ بالناسِ، فأنت أولى، فأجازهم، فلم تزل الإفاضة في وَلَدِ قُصَيِّ، وإلى هَلَمَّ جِراً.

ثم انحازت عنه خُزَاعَةٌ وبَكَر إلى الأبطح، فقاتلهم قصي، وكثرت الجراحات والقتلى بين الفريقين، فحَكَّموا بينهم يَعْمَر بن عوف بن كعب من ولد كِنَانَة، ورضوا بحكمه، فحَكَّم لِقُصَيِّ بالبيت والحُكْم على مكة، وأن كلَّ دَمٍ أصاب قريشاً يَشْدُخُه تحت قدميه من دماء خُزَاعَة وبَكَر، وما أصاب خُزَاعَة وبني بكر من قريش ففيه الدِّيَة، فسُمِّيَ يَعْمَر يومئذِ الشَّدَّاح، ولما فرغ قُصَيِّ من أمر مكة انصرفت أخوه رزاح وأخوته وقومه إلى الشام، وكانوا ثلاث مئة رجلٍ، بعد أن أكرمهم قصي وأحسن إليهم، وكانوا يوافقون الموسم كل عام، فينزلهم في دار الندوة، ويكرمهم، ويصلُّهم.

ولما استقام أمره بمكة أجلى خُزَاعَة من الأباطح، وأنزل قريشاً في أماكنهم، وكانوا في الجبال والشُّعاب، وهو أول من أصاب مُلكاً من بني لؤي بن غالب، وأطاعه قومه وملَّكوه عليهم، وكان شريفاً، وهو الذي بنى دار الندوة، وجعل بابها إلى المسجد، وما كانوا يتشاورون في أمر ولا يتناكحون ولا يعقدون لواء الحرب ونحوه إلا فيها^(١).

وأول من أوقد النار بالمُزْدَلِفَة قصي، فكان يراها الناس من عَرَفَة، وكان يُصَيِّفُ الناسَ أيامَ الموسم طول مُقامهم بمكة ومِنَى وعَرَفَة^(٢)، والنسبة إليه قُصَوِيٌّ.

ذكر أولاده:

وهم: عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد قُصَيِّ، وكان يُحِبُّ عبد الدار،

(١) انظر «طبقات ابن سعد» ٤٨/١ - ٥٤، و«أنساب الأشراف» ٥٤/١ وما بعدها، و«تاريخ الطبري» ٢/٢٦٥

(٢) انظر «طبقات ابن سعد» ٥٤/١، و«تاريخ الطبري» ٢/٢٦٥.

ولما كَبُرَ ورقَ عَظْمِهِ، أُعْطِيَ وَلَدَهُ عَبْدَ الدَّارِ الحِجَابَةَ، والسَّقَايَةَ والرَّفَادَةَ، واللُّوَاءَ وَدَارَ النَّدْوَةِ.

وكان عبد الدار بِكْرَ قُصَيٍّ وكان ضَعِيفاً، وكان إِخْوَتُهُ قد شَرُّفُوا عَلَيْهِ؛ فقال قُصَيٌّ: وَاللَّهِ لَأُلْحِقَنَّكَ بِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قد شَرُّفُوا عَلَيْكَ، فلا يَدْخُلُ أَحَدُهُم الكَعْبَةَ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تَفْتَحُهَا لَهُ، وَلَا يُعْقَدُ لِقَرِيْشٍ لُوَاءُ الحَرْبِ إِلَّا وَأَنْتَ الَّذِي تَعْقِدُهُ بِيَدِكَ، وَلَا يَشْرَبُ رَجُلٌ مَاءً بِمَكَّةَ إِلَّا مِنْ سِقَايَتِكَ، وَلَا يَأْكُلُ أَحَدٌ بِمَكَّةَ طَعَاماً إِلَّا مِنْ طَعَامِكَ، وَلَا تَقْطَعُ قَرِيْشٌ أَمْراً إِلَّا فِي دَارِكَ^(١).

ذِكْرُ وَفَاتِهِ:

وَتُوفِيَ قُصَيٌّ بِمَكَّةَ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِينَ وَمِئَةَ سَنَةٍ، وَقِيلَ: لَمْ يَبْلُغِ المِئَةَ، وَلَمَّا احْتَضَرَ أَوْصَى بَنِيهِ، فَقَالَ: اجْتَنِبُوا الخَمْرَةَ، فَإِنَّهَا تُصْلِحُ الأَبْدَانَ، وَتُفْسِدُ الأَذْهَانَ.

فَصْلٌ فِي كِلَابِ بْنِ مُرَّةٍ

وَأُمُّهُ هِنْدُ بِنْتُ سُرَيْرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ، وَقِيلَ: نُعَيْمُ بِنْتُ سُرَيْرِ^(٢).

وَمَنْ وُلِدَ كِلَابُ بْنُ مُرَّةٍ: زُهْرَةُ بِنْتُ كِلَابٍ، وَهِيَ امْرَأَةٌ^(٣) نُسِبَ وَلَدُهَا إِلَيْهَا دُونَ الأَبِ، مِنْهُمْ أَخْوَالُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَكَانَ لِكِلَابٍ أَخْوَانٌ مِنْ أَبِيهِ، وَهُمَا: تَيْمٌ وَيَقْظَةُ، وَأُمُهُمَا هِنْدُ بِنْتُ حَارِثَةَ البَارِقِيَّةِ، وَقِيلَ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عَدِيِّ بْنِ حَارِثَةَ.

فَصْلٌ فِي مُرَّةِ بْنِ كَعْبٍ

وَأُمُّهُ وَحْشِيَّةُ بِنْتُ شَيْبَانَ، مِنْ وَلَدِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، وَأَخْوَاهُ عَدِيُّ وَهَضِيصٌ.

(١) انظر «طبقات ابن سعد» ١/ ٥٥.

(٢) انظر «أنساب الأشراف» ١/ ٥٤.

(٣) بل زهرة اسم رجل كما هو مصرح به عند ابن هشام في السيرة ١/ ٩٦.

فصل في كعب بن لؤي

واسم أمه ماوية بنت كعب من قضاة، وقيل: سلمى بنت محارب من بني فهر، وأخواه لأمه عامر وسامة.

وكعب أول من سمى يوم الجمعة يوم الجمعة، وكان قبل ذلك يسمى يوم عروبة، وإنما سماه يوم الجمعة لأن قريشاً اجتمعت عليه وإليه فيه.

وكعب أول من خطب من العرب، وقال في خطبته: أما بعد.

وسبب خطبته أنه لما مات لؤي تفرقت العرب، فجمعها كعب، وقال في خطبته:

أيها الناس، اسمعوا وعوا، وافهموا، وتعلموا، ليل ساج، ونهار داج، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والسماء سقف مرفوع، والشمس والقمر والنجوم من قدرة القادر، وصنعة الفاطر، صلوا أرحامكم، وعظّموا حرمكم، فسيأتي له نبأ عظيم، ويخرج منه نبي كريم. وذكر خطبة بليغة عظيمة، وله الخطب البالغة.

وكان له إخوة من أبيه دون أمه: خزيمه ويسمى عائذة قريش، وأمّه عائذة^(١) بنت

الخمس بن قحافة خثعمية، وسعد: وأمّه بُنانة، وكان لكعب من الولد: مرة، وهصيص، وعدي.

فمن مرة: رهط أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لأنه من تيم بن مرة. ومن هصيص بن

كعب: بنو سهم وجمح. ومن عدي: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وزيد بن عمرو بن نفيل.

فصل في لؤي بن غالب

وأمّه عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة، وهي أول العواتك اللاتي ولدن رسول الله

ﷺ من قريش^(٢).

وغالب بن فهر، أمّه ليلى بنت الحارث، هذلية.

(١) في النسخ: «عائذة الله» وانظر «الإكمال» ٢٤/٦.

(٢) انظر «طبقات ابن سعد» ٤٣/١، و«أنساب الأشراف» ٦٢٤/١، و«المنتظم» ٢٢٥/٢.

وفهر بن مالك: أمه جندلة بنت عامر^(١)، جُرْهُمِيَّة، وكان فِهْرٌ سيِّدَ العرب بالحجاز وتهامة، وكان ذو جَدَن حسانُ بنُ عبدِ كُلالِ الحِميرِي قد سار من اليمن إلى مكة ليخرب الكعبة، وينقل أحجارها إلى اليمن بيني بها بيتاً، ويجعل حجَّ الناس إليه، فنزل بطن نخلة في جيوشٍ عظيمة، فجمع فِهْر قبائل العرب من قريش وكنانة وأسد وخزيمة وجذام وغيرهم، وخرج إليه والتقوا، وكانت الدائرة على ذي جَدَن، فقتل أكثر أصحابه، وأُسر هو، استأسره الحارثُ بنُ فِهْر، وانهزمت حمير، فأقام حَسَّان بمكة أسيراً ثلاث سنين، فافتدى نفسه بمال كثير، وخرَج من مكة متوجهاً إلى اليمن فمات في الطريق. وهابت العرب فِهراً، وعظموه، وعلا أمره واستفحل^(٢).

ومالك بن النضر أمه عكرشة بنت عدوان، وقيل: عاتكة، وعكرشة لقب لها، وذكرها البلاذريُّ في العواتك^(٣).

والنضر بن كنانة اسمه قيس، والنضر لقب له لحسنه وجماله، أمه برة بنت مر بن أد ابن طابخة، أخت تميم بن مر، وكانت تحت جدّه خزيمة، فخلف عليها كنانة.

وقد اختلف في قريش، هل هو فِهْر بن مالك أو النضر بن كنانة، ومن لم يكن من ولد النضر بن كنانة فليس بقُرشي، وبطون قريش خمسة وعشرون بطناً. وكنانة بن خزيمة [أمه عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان. وقيل: بل أمه هند بنت عمرو بن قيس.

وخزيمة بن مدركة]^(٤) أمه سلمى بنت أسلم قُضاعِيَّة، كنيته أبو الأسد لشجاعته، وهو أول من وضع هبل في جوف الكعبة.

ومدركة بن الياس اسمه عمرو، وكنيته أبو الهذيل، وأمّه ليلي بنت حلوان قُضاعِيَّة، ولقبها خندف.

(١) جاء في «السيرة» ٨٨/١: «جندلة بنت الحارث بن مضاض» وفي «جمهرة النسب» ٢٢/١، و«الطبقات الكبرى» ٤٧/١: «جندلة بنت عامر بن الحارث بن مضاض».

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٢٦٢-٢٦٣، و«المنتظم» ٢/٢٢٦-٢٢٧.

(٣) «أنساب الأشراف» ١/٦٢٥.

(٤) ما بين معقوفين زيادة من «المنتظم» ٢/٢٣٠، وانظر «جمهرة النسب» ص ٢١، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠.

والياس بن مضر اسمه الحُسَيْن^(١)، وأُمُّهُ الرَّبَابُ بِنْتُ حَيْدَةَ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، واليَاسُ أَوَّلُ مَنْ أَهْدَى إِلَى الْبَيْتِ الْبُدْنَ، وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الرُّكْنَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وَكَانَتْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ غَيَّرَتْ مَعَالِمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا طَالَ الزَّمَانُ، فَرَفَعُوا الرُّكْنَ مِنَ الْبَيْتِ وَتَرَكَوهُ فِي أَبِي قُبَيْسٍ، فَرَدَّهُ إِيَّاسُ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا رَدَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ إِلَى الْبَيْتِ، وَكَانَ فِي الْعَرَبِ مِثْلَ لَقْمَانَ الْحَكِيمِ فِي قَوْمِهِ، وَكَانُوا يُعْظَمُونَهُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا سُنَنَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ مَاتَ مِنَ الْعَرَبِ بِعِلَّةِ السَّلِّ، فَجَزَعَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ خِنْدِفٌ جَزَعًا أَخْرَجَهَا إِلَى الْوَلَةِ، فَخَرَجَتْ عَنْ مَكَّةَ لَمْ يُظَلِّهَا سَقْفٌ حَتَّى مَاتَتْ سَائِحَةً، فَضَرَبُوا بِهَا الْمِثْلَ، فَقَالُوا: حُزْنُ خِنْدِفٍ^(٢)، وَفِيهَا يَقُولُ الشَّاعِرُ^(٣):

[من الطويل]

ولو أنه أغنى لكنت كخندفٍ على الياس حتى أعجبت كلُّ مُعْجَبٍ
إذا مؤنسٌ لاحت خراطيمُ شمسِهِ بكت غدوةً حتى ترى الشمس تغربُ
ومعنى مؤنس، لأنه مات يومَ الخميس، وكانوا يسمونه مؤنساً، فكانت تبكي من غدوةٍ إلى الليل.

وَمُضَرُّ بْنُ نِزَارٍ أُمُّهُ سُودَةُ بِنْتُ عَكِّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ حَدَا.
وَنِزَارُ بْنُ مَعَدِّ أُمُّهُ مُعَانَةُ بِنْتُ جَوْشَمٍ^(٤)، وَكَانَ عَظِيمًا وَافِرَ الْمَالِ، حَاكِمًا عَلَى الْعَرَبِ، مُنْفَذَ الْأَحْكَامِ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ: مُضَرُّ، وَإِيَادُ، وَرَبِيعَةُ، وَأَنْمَارُ. وَكَانَ رَبِيعَةُ وَمُضَرُّ مِنْ أَعْيَانِ أَوْلَادِهِ، وَيُقَالُ لِهَاتَيْنِ: الصَّرِيحَانِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمَّا حَضَرَتْ الْوَفَاةَ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ، قَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ وَكَانُوا أَرْبَعَةَ، وَقَالَ: هَذِهِ الْقُبَّةُ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ مَالٍ لِمُضَرِّ، وَكَانَتْ قَبَّةً حَمْرَاءَ فَسُمِّيَ مُضَرُّ الْحَمْرَاءَ، قَالَ: وَهَذَا الْخِجَابُ الْأَسْوَدُ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْخَيْلِ الدُّهْمِ لِرَبِيعَةَ، فَسُمِّيَ رَبِيعَةُ الْفَرَسَ، وَهَذِهِ الْخَادِمُ وَمَا

(١) وفي «سبل الهدى والرشاد» ٣٤١/١: اسمه: حبيب.

(٢) انظر «تاريخ يعقوبي» ٢٢٨/١.

(٣) البيتان في «تاريخ يعقوبي» ٢٢٨/١، و«أنساب الأشراف» ٣٧/١.

(٤) جاء في النسخ: «حوشب»، والمثبت من «جمهرة النسب» ص ١٩، و«نسب قريش» ص ٥، و«أنساب الأشراف» ١٧/١.

أشبهها من مال - وكانت شمطاء - لإياد، فأخذ البلق. وهذه البدرّة والمجلس لأنمار، فأخذ العين وما أشبهها، وأوصاهم أن يتناصفوا في الغنيمة، وقال: إن أشكل عليكم شيء من ذلك، أو اختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمي، وكان كاهناً بنجران اليمن من بيت الملك.

ثم مات نزار، واختلفوا في القسمة، فخرجوا يريدون الأفعى الجرهمي، فبينما هم يسرون إذ مروا بأرض فيها كلاً قد رعي، فقال مضر: إن البعير الذي رعى هذا لأعور، وقال ربيعة: وإنه لأزور^(١)، وقال إياد: وإنه لأبتر، وقال أنمار: وإنه لشروذ، فبينما هم كذلك إذا برجل توضع به راحلته فسألهم عن البعير؟ فقالوا: ما رأينا. فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، وقال ربيعة: وهو أزور؟ قال: نعم، وقال إياد: وهو أبتر؟ قال: نعم، وقال أنمار: وهو شروذ؟ قال: نعم، ثم قال الرجل: أنتم أخذتم بعيري فلا أفارقكم إلا به.

ثم سار بهم حتى نزلوا على الأفعى الجرهمي، فسألهم عن أخبارهم؟ فعرفوه بنفوسهم، فأكرمهم وأنزلهم. فقال له صاحب البعير: إن هؤلاء أخذوا بعيري، قالوا: ما رأينا. فقال: قد وصفوه؟ قالوا: نعم وصفناه، فقال: كيف تصفونه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيتُه وقد كان يرعى جانباً ويدع جانباً فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر، فعلمت أنه أزور. وقال إياد: رأيت بعره مجتمعاً فعلمت أنه أبتر، ولو كان ذياً لَمَصَع به. وقال أنمار: رأيت يرعى الجانب الرقيق ويدع الجانب الكثيف، فعلمت أنه شروذ. فقال الأفعى لصاحب الجمل: اذهب انشد بعيرك، فليس هؤلاء بأصحابه.

ثم سألهم عن مقدمهم؟ فأخبروه بحالهم، فقال: أحتاجون إليّ وأنتم على ما أرى؟ فقسم التركة بينهم على ما قال نزار، فرضوا بحكمه، وقال لهم: إن العصا من العصية. يعني أنهم أولاد نزار، وكان نزار فطناً. وقال الأفعى لقهرمانه: أنزلهم دار الضيافة وأكرمهم، فأنزلهم وجاءهم بطعام فأكلوا، وبخمر فشربوا، وبقرص من شهد،

(١) الأزور: من أشرف أحد جانبيه على الآخر.

فقال مضر: لم أرَ لحماً أطيبَ من هذا، لولا أنه رُبِّي بلبَن كَلْبَةٍ، وقال ربيعة: لم أرَ خَمْراً أجودَ من هذا، لولا أنه نبت على قبرٍ، وقال إياد: لم أرَ شهيداً ألدَّ من هذا، لولا أن نَحله عَشَشَ في رأسِ جَبَّان، وقال أنمار: لم أرَ رجلاً أسرى منه لولا أنه يدعى لغير أبيه. يعني الأفعى. وكان الأفعى يسمع كلامهم ولا يروونه، فقال: إِنَّ هؤُلاءِ لَشياطينُ، ثم دعا بقَهْرمانه فسأله عن اللحم؟ فسأل الراعي؟ فقال الراعي: إن هذه الشاة وضعتُها أمها وليس لها لبن، فأرضعتُها كَلْبَةً. وقال للقَهْرمان: وهذه الخمرة من حَبَلَة عُشْب نَبَتَ على قبر أبيك، وهذا الشَّهد من نحل عَشَشَ في جُمُجْمَة إنسان.

ودخل الأفعى على أمه، فقال: أخبريني من أبي؟ وتوعَّدها، فقالت: كان أبوك شيخاً كبيراً لا يُولدُ له، وخفت أن يذهب المُلْك، ووفد علينا شابٌ فأمكنته من نفسي، فعَلقت بك. ولما انفصلوا عن الأفعى، قيل لمُضر: من أين علمت أن اللحم رُبِّي بلبن كَلْبَةٍ، قال: وجدت له زُهْمَةً. وقيل لربيعة: من أين علمت أن الخمر نبتت على قبر؟ قال: أصابني عطشٌ شديد. وقيل لإياد: من أين علمت أن النحل عَشَشَ في رأسِ جَبَّان^(١)؟ فقال: لأنه كان ضعيفاً. وقيل لأنمار: من أين علمت أنه لغير أبيه؟ فقال: ما رأيت عليه مَخايلَ السُّودُدِ والشَّرَفِ^(٢).

والأفعى: هو ابن الحُصَيْن بن غَنَم بن رُهْم بن مُرَّة بن أَدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكانت العرب تتحاكم إليه، وهو أول من قال: الشرطُ أمْلِك. وسببه أن مُرَّع بن معاوية بن ثور الكِندي - إليه ينسب كِنْدَة - تزوج امرأة من حَضْرَمَوْت، وشرط عليه أبوها أن لا يتزوج عليها ولا تلدَ إلا في دارِ قومِها، فلم يَفِ لها بالشرط، فتحاكموا إلى الأفعى وأثبتوا الشرطَ عنده، فقال الأفعى: الشرطُ أمْلِك. فأخذ الحضرميون المرأة وابنها من مرَّع، واسم الابن مالك، فقال مُرَّع: أما ابني مالك فصدف عني، فسمي الصدْف^(٣).

(١) الجبان: المقبرة.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٢٦٨-٢٧٠، و«المنتظم» ٢/٢٣٣-٢٣٥، و«الأذكياء» ص ١١٠، والحبلَة: شجرة العنب.

(٣) انظر «أنساب الأشراف» ١/١١.

ومعدُّ بن عدنان كنيته أبو نزار، وأمه مهَّد بنت اللّهم^(١) من جدّيس، وكان معدّ مع بُخْتَنْصَرَ لما غزا اليمن، ولما بلغ بنو سعدٍ عشرين ومئة رجلٍ؛ أغار بالشام على قوم موسى عليه السلام، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فلم يُسْتَجَبْ له فيهم، فقال: يا رب، ما هذا؟ فأوحى الله إليه: دعوتني على قوم هم خيرتي في آخر الزمان، إنه يكون منهم نبيُّ أحبُّه وأحبُّ أمته، أمّا حبي إياه فأغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمّا حبي لأُمَّته فإن استغفروني أو استغفروني واحدٌ منهم؛ غفرتُ له، وإن دعاني أجبتُه. فقال: يا رب اجعلني منهم؟ فقال الله تعالى: إنك تقدّمت واستأخروا.

وعدنان كنيته أبو معدّ، وإليه انتهى نسب رسول الله صلى الله عليه وآله، وما بعده مُختلف فيه، واتفقوا على أنه من ولد إسماعيل عليه السلام بغير شك.

فصل

وأُم رسول الله صلى الله عليه وآله: آمنة بنتُ وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ففي كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه. وأمُّ آمنة: برة بنت عبد العزى بن قُصي. [وأم برة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قُصي بن كلاب]^(٢) وأمُّ أم حبيب: برة بنت عوف بن عُبيد بن عويج بن عدي ابن كعب بن لؤي. وأم برة: قلابة بنت الحارث بن مالك من ولد مُدركة بن الياس. وأم قلابة: أميمة بنت ملك بن غنم بن لحيان. وأم أميمة: دُب بنت ثعلبة بن الحارث بن تميم من ولد مُدركة. وأم دب: عاتكة بنت غاضرة من ولد الياس بن مُضر. وأم عاتكة: ليلي بنت عوف، ثقفية.

فصل في العواتك

قال هشام بن محمد: كتبتُ للنبي صلى الله عليه وآله خمس مئة أم، فما وجدتُ فيهن سِفاحاً ولا شيئاً من أمرِ الجاهلية^(٣).

(١) في النسخ: «اللهم»، والمثبت من «جمهرة النسب» ص ١٨، و«الطبقات الكبرى» ٤٨/١. وضبطه الشامي في «سيرته» ٣٤٧/١ بكسر اللام وسكون الهاء.

(٢) ما بين معقوفين زيادة يقتضيها السياق، انظر «الطبقات الكبرى» ٤١-٤٢/١.

(٣) انظر «الشفاء» ١٧/١.

وقال ﷺ: «أنا ابنُ العواتِك»^(١). يعني: جدّاته من قبل النساء، وهن تسع: عاتكة بنت هلال أم جدّ هاشم^(٢)، وعاتكة بنت مُرّة بن هلال أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله ﷺ من قبل أمّه آمنه. وقال الهيثم: العواتك^(٣) إحدى عشرة. وقال ابن الرقي: هن أربع عشرة: ثلاث قرشيّات، وأربع سلّميات، وعدويّتان، وهذليّة، وقحطانيّة، وقضاعيّة، وثقفية، وأسديّة أسد خزيمه.

فصل في الفواطم

وهنّ: ثمانٍ. وقيل: عشر. وقيل: ست. وقيل: خمس، واحدة قرشية وقيسيّتان ويمانيّتان، فاطمة أم عبد الله بن عبد المطلب، وهي بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. وأم عمرو بن عائذ: فاطمة بنت عبد الله بن رزام من هوازن وأمها: فاطمة بنت الحارث بن بُهثة. وفاطمة بنت سعد أم قصي من أزد شنوءة، وجدّة عبد مناف لأبيه. وأمّه: حُبّي بنت حُلَيْل بن حُبشية الخزاعي، وأمها: فاطمة بنت نصر بن عوف من خزاعة^(٤).



(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٨٤١)، والطبراني في «الكبير» (٦٧٢٤)، والبيهقي في «الدلائل» ٥/١٣٦ من حديث سيّابة.

(٢) الصواب: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم «جمهرة النسب» ص ٢٦.

(٣) ذكر المصنف هنا جدتين من جدات النبي ﷺ واحدة من طرف والده، وواحدة من طرف والدته، وأما العواتك: فهن ثلاث من قريش: عاتكة بنت وهيب، وعاتكة بنت عتّارة بن الظرب، وعاتكة بنت يخلد بن النضر. وثلاث من سليم: عاتكة بنت مرة بن هلال بن سليم، وعاتكة بنت مرة بن عدي بن سليمان، وعاتكة بنت عصية بن خفاف بن امرئ القيس، وثنتان من عدوان: عاتكة بنت عامر بن الظرب بن عمرو، وعاتكة بنت عدوان بن عمرو بن قيس وهي عكرشة، وواحدة من قضاعة: عاتكة بنت رشدان بن قيس بن جهينة، وأسديّة: عاتكة بنت دودان بن أسد بن خزيمه، وهذلية: عاتكة بنت سعد بن هذيل. وأزديّة: عاتكة بنت الأزد بن يغوث. انظر «الطبقات الكبرى» ٤٣/١، و«المحبر» ص ٤٧-٥١، و«تاريخ يعقوبي» ٢/١٢٠-١٢١.

(٤) انظر «المحبر» ص ٥١-٥٢، و«طبقات ابن سعد» ٤٣/١.

فصل

في ذكر ولادته ﷺ

قالت آمنه: لما حملتُ به لم أجد له ثِقلاً كما تجدُ النساء، إلا أنني قد أنكرتُ رُفَعِ حَيْضِي، وأتاني آتٍ في منامي وأنا بين النوم واليقظة، فقال: أشعرتِ أنك قد حملتِ بسيد هذه الأمة ونبيها؟ وذلك في يوم الإثنين، فلما دنت ولادتي؛ أتاني ذلك الآتي فقال: إذا ولدته فقولِي: أعيذه بالواحد من شرِّ كلِّ حاسد، ثم قال: سمِّيهِ مُحَمَّدًا أو أحمد^(١).

وَوُلِدَ ﷺ بمكة، في الدار التي كانت له ﷺ بمكان يقال له: زُقاق المَوْلِد، وهذه الدار كان ﷺ وَهَبَهَا لعَقِيلِ بن أبي طالب، فباعها ورثته من محمد بن يوسف أخي الحجاج، فأدخلها في داره، ثم اشترت الخيزرانُ جارية المهدِيّ الدارَ، وأخرجت منها ذلك البيت الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ فجعلته مسجداً^(٢).

وُلِدَ ﷺ يوم الإثنين في ربيعِ الأوَّلِ لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، عام الفيل بعد قدومه بخمسٍ وخمسين ليلةً في اليوم الثاني والعشرين من نَيْسانِ سنة اثنتين وثمان مئةٍ من تاريخ الإسكندرِ الرومِيّ في أيامِ كِسْرَى أنوشِروانَ لِأربعينَ سنةً خلت من مُلكِهِ. قال: واتَّفَقَ أهلُ السَّيْرِ على أنَّ من هُبوطِ آدم ﷺ إلى عام الفيل ستة آلاف سنةٍ وثلاثاً وتسعين سنة.

واختلفوا في زمانِ حَمَلِهِ ﷺ على أقوال: أحدها: تسعة أشهر، والثاني: عشرٌ، والثالث: ستة، والرابع: سبعة، والخامس: ثمانية.

قالت آمنه: لقد عَلِقْتُ به فما وَجَدْتُ له مشقَّةً، ولما فُصِّلَ عني؛ خرج مني نورٌ أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ووقَّع إلى الأرض ساجداً معتمداً بيديه على

(١) ابن سعد في «الطبقات» ٧٨/١، وانظر «السيرة» ١/١٤٥-١٤٦.

(٢) «المنتظم» ٢/٢٤٧، و«نهاية الأرب» ١٦/٦٧.

الأرض، ثم رفع رأسه إلى السماء وأشار بإصبعه، وظهر منه شهابٌ نورٍ أضاءت له قصور الشام حتى رأيت أعناق الإبل يبصرى^(١).

وقالت آمنة: فما رأيتُ إلى شيء إلا نُورٌ لي، ورأيتُ النجوم تدنو من الأرض حتى أقول إنها لتقع عليّ^(٢).

وقالت: ولدته جاثياً على رُكبتيه ينظر إلى السماء، ويشير بإصبعه الإبهام، ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً، فغطيته ببرمة أو بإناءٍ فانفلق عنه، وإذا به يمص إبهامه وهو يشخبُ لبناً، وسمعت قائلاً يقول: أبشري يا آمنة فقد ولدت سيد هذه الأمة.

وقال العباس - رضي الله عنه - : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مختوناً مسروراً - أي مقطوع السرة - فسُرَّ به عبد المطلب، وقال: ليكوننَّ لولدي شأنٌ من الشأن. قال ابن عباس: فكان والله كما قال عبد المطلب^(٣).

وقال ابن الجوزي: وُلد جماعة من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم مختونين: آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وسام، وهود، وصالح، ولوط، ويوسف، وموسى، وشعيب، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وحنظلة بن صفوان نبي^(٤) أصحاب الرّس.

وقال كعب الأحبار: كلُّهم وُلدوا مختونين إلا إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليكون إماماً للناس.

وقال علي بن يزيد بن عبد الله بن وهب بن زمعة، عن أبيه، عن عمته^(٥) قالت: لما وُلدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسلت إلى عبد المطلب وهو في الحجر مع أولاده، فجاءه البشير فسُرَّ به وقام، فدخل على آمنة فأخبرته بكل ما رأت، وما قيل لها، وما أمرت به، فأخذه عبد المطلب على يديه وجاء به إلى الكعبة، فدخل به إليها وقام يدعو ويقول:

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٨٢/١.

(٢) «دلائل النبوة» لليهقي ١١١/١، و«المنتظم» ٢٤٧/٢.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٨٣/١، و«دلائل النبوة» ١١٤/١ و«المنتظم» ٢٤٨/٢، وقال ابن كثير في «البدية النهاية» ٣/٤٠ وهذا الحديث في صحته نظر.

(٤) في (ك): «بن»، وفي (خ): «من»، والمثبت من «المنتظم» ١٤٦/٢.

(٥) في النسخ: بن وهب بن ربيعة، عن عمته، والمثبت من الطبقات ٨٣/١، و«المنتظم» ٢٤٩/٢.

الحمد لله الذي أعطاني
 هذا الغلام الطيب الأردان
 قد ساد في المهدي على الغلمان
 أعيذه بالبيت ذي الأركان
 حتى أراه بالبعث البنيان
 أعيذه من شر ذي شأن
 من حاسد مضطرب العنان

وقال الهيثم: لما دخل على آمنة قالت له: يا أبا الحارث، ولد لك اليوم مولود أمره عجب، قال: وما ذاك؟ قالت: خرج معه نورٌ أضاءت منه قصور الشام، ومدائن كسرى، وقصور صنعاء، ونوديت: سمي محمدًا، فإن اسمه في التوراة أحمد، فقال عبد المطلب: وأنا والله رأيت الساعة عجبًا، كنت أطوف بالبيت، فرأيت هبل قد مال حتى كاد أن يسقط، فجعلت أمسح على عيني وأقول: أنا نائم أم يقظان؟ ثم أخذه وانصرف إلى الكعبة، فطاف به وقال:

يا رب كل طائف وجاهد
 ورب كل غائب وشاهد
 أدعوك يا رب دعاء جاهد
 لا هم فاصرف عنه كيد الكائد
 واحطم به كل عدو حاسد

وكان بمكة يهوديٌّ قد قرأ الكتب كلها، فأصبح ذات يوم فقال: يا معاشر الناس، ولد الليلة نبي العرب، قالوا: وما علامته؟ قال: بين كتفيه شامة سوداء فيها شعرات. فقيل له: ولد لعبد المطلب مولود، فجاء فرأى الشامة، فقال: ذهبت والله نبوة بني إسرائيل، أفرحتم يا معاشر قريش، والله ليسطون عليكم سطوة تخرج أبناؤها من

المشرق إلى المغرب^(١).

وقال حسان: إني لغلّامٌ يَفَعُّ ابن سبع سنين ، وإذا يهوديٌّ يصرخ بيثرب: يا معاشر يهود، طلع والله نَجْمٌ أحمد في هذه الليلة، ولدته أمه^(٢). قال حسان: فأدرکه والله اليهودي، ولم يؤمن به حسداً وبغياً.

حديث مخزوم بن هانيء عن أبيه:

وكان قد أتت عليه خمسون ومئة سنة، قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجَّ إيوان كسرى، فانشق وسقط منه أربع عشرة شُرْفَة، وغاضت بُحيرة ساوة، وخمدت نيرانُ فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، ورأى موبذ موبذان رؤيا هالته، ولما رأى كسرى انشقاق الإيوان، ووقوع الشرفات؛ هالته وجلس على سريره ودعا وزراءه، فاجتمعوا. فقال لهم: قد رأيتُ ما أفرعني. فبينما هو كذلك؛ إذ جاء الموبذ خائفاً، فقال له: ما لك؟ فقال: رأيت رؤيا هالتي، قال: وما هي؟ قال: رأيتُ إبلاً صعباً تقود خيلاً عراباً قطعَتْ دجلة، وانتشرت في بلاد فارس، وبيننا هم على ذلك؛ إذ ورد كتاب يُخبر فيه بخمود النيران، وذهاب بحيرة ساوة، فازدادوا غمًا، قال لهم: ما عندكم؟ فلم يردوا عليه شيئاً، فقال للموبذ: فما تأويل رؤياك؟ فقال: حادثة تكون من ناحية العرب.

فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر - وهو على الحيرة - : وَجَّه إِلَيَّ رجلاً من العلماء أسأله عما أريد، فبعث إليه بعبد المسيح بن عمرو بن قيس الغساني، فلما قدم على كسرى أخبره بما حدث، فقال: عَلِمْتُ ذلك عند خالٍ لي يسكن مَشَارِيقَ الشام يقال له: سَطِيح، قال: فاذهب إليه وأخبره بما حدث، وعجّل لي بالجواب. فركب عبد المسيح راحلته وسار مجدداً حتى قدم الشام، وسطيح بالجافية قد أشرف على الموت، فسلم عليه، فلم يُحِرْ جواباً فقال عبد المسيح: [من الرجز]

(١) أخرجه الحاكم ٦٠١-٦٠٢، والبيهقي في «الدلائل» ١٠٨-١٠٩. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وخالفه الذهبي.

(٢) انظر «السيرة» ١٤٧/١، والمستدرک ٤٨٦/٣، و«دلائل النبوة» ١١٠/١.

أَصُمَّ أُم يَسْمَعُ غِطْرِيْفُ الْيَمْنُ
يا فاضل الحكمة أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ عَسَنُ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذَيْبِ بْنِ حَجْنُ
أَبِيضُ فَضْفَاضُ الثِّيَابِ وَالْبَدَنُ
رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ مَسْلُوبِ الْوَسْنِ^(١)

فلما سمع سطيح كلامه، رفع رأسه وقال: جاء عبد المسيح على جمل مُشِيح^(٢) إلى سطيح، وقد أشرف على الضريح، بعثك ملك ساسان لارتجاج الإيوان، ورؤيا الموبدان، وخمود النيران، رأى الموبذ إبلاً صعباً تقود خيلاً عراباً، قطعت دجلة وانتشرت في بلاد فارس، ثم قال سطيح: يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نيران فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملوك وملكات، عدد الشرفات، وكلُّ ما هو آت آت، ثم مات سَطِيح. ورجع عبد المسيح إلى كسرى وهو يقول^(٣): [من البسيط]

(١) هكذا جاءت الأبيات عند المصنف مختزلة متداخلة كما سيتبين لك، وهي كذلك في «العقد الفريد» والأبيات في المصادر كالأتي:

أَصُمَّ أُم يَسْمَعُ غِطْرِيْفُ الْيَمْنُ	أُم فَاذَ فَاذَلَمَّ بِهِ شَأُو الْعَنَّ
يا فاضل الحُطَّة أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ	وَكاشف الكُربة عن وجهِ غَضِنُ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ	وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذَيْبِ بْنِ حَجْنُ
أَزْرَقُ بِهِمُ النَّابِ صَوَّارِ الْأُذُنُ	أَبِيضُ فَضْفَاضُ الرِّدَاءِ وَالْبَدَنُ
رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ يَسْرِي بِالرَّسَنُ	لَا يَرْهَبُ الرَّعْدَ وَلَا رَبَّ الزَّمْنُ
تَجُوبُ بِي الْأَرْضَ عَلَنُداةَ شَزَنُ	تَرْفَعُنِي وَجناً وَتَهْوِي بِي وَجْنُ
حتى أتى عاري الجاجي والقطنُ	تَلِفُهُ فِي الرِّيحِ بَوُغَاءِ الدَّمْنُ
	كَأَنَّمَا حُثِحْتُ مِنْ حِضْنِي ثَكْرُنُ

(٢) مشيح: جاد مسرع.

(٣) جاء في المصادر بيت قبل هذه الأبيات وهو:

شَمْرُ فَإِنَّكَ ماضِي الهم شِمِّيرُ
لا يُفزعَنَّكَ تَفْرِيقُ وَتَغْيِيرُ

إِنْ يُمَسِّ مُلْكُ بَنِي سَاسَانَ مُنْقَرَضاً
 وَرَبَّماً أَضْبَحُوا يَوْماً بِمَنْزِلَةِ
 مِنْهُمْ أَخُو الصَّرْحِ بَهْرَامٌ وَإِخْوَتُهُ
 وَالنَّاسُ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ فَمَنْ عَلِمُوا
 فَهَمَّ بَنُو الْأُمِّ إِلَّا إِنْ رَأَوْا نَشَباً
 وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ
 فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى كَسْرَى، أَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ سَطِيحٌ، فَقَالَ كَسْرَى: إِلَى أَنْ يَمْلِكَ مِنَّا أَرْبَعَةٌ
 عَشْرَ مَلَكاً تَكُونُ أُمُورٌ، فَمَلِكٌ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ، وَمَلِكٌ الْبَاقُونَ إِلَى أَيَّامِ عَثْمَانَ
 ابْنِ عَفَانَ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذِكْرُ سَطِيحٍ

وَأَسْمُهُ الرَّبِيعُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مَازِنِ بْنِ ذَيْبٍ، وَوُلِدَ فِي زَمَنِ سَيْلِ الْعَرِمِ،
 وَعَاشَ إِلَى زَمَنِ كَسْرَى أَنْوَ شِرْوَانَ، وَذَلِكَ نَحْواً مِنْ عَشْرَةِ قُرُونٍ، وَقِيلَ: عَاشَ أَلْفَ
 سَنَةٍ. وَقَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: عَاشَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ^(٢).
 وَقِيلَ: خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَنَزَلَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً، ثُمَّ انْتَقَلَ
 إِلَى الشَّامِ فَنَزَلَ بِمِشَارِيقِهِ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ: شِقُّ كَاهِنٍ آخَرَ، فَكَلَّمَا سُئِلَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ
 شَيْءٍ أَخْبَرَ عَنْهُ بِكَلَامِ مَسْجُوعٍ يَقْذِفُهُ إِلَيْهِ تَابِعُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَكَانَ سَطِيحٌ لِحِمْماً عَلَى وَضْمٍ،
 وَكَانَ يُحْمَلُ عَلَى شَرِيحَةٍ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، فَيُؤْتَى بِهِ حَيْثُ شَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ عَظْمٌ وَلَا
 عَصَبٌ إِلَّا الْجَمْجَمَةُ وَالْعَنْقُ وَالْكَفَيْنِ، وَكَانَ يُطَوَّى مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ كَمَا يُطَوَّى
 الثَّوْبُ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ يَتَحَرَّكُ سِوَى لِسَانِهِ. وَأَنْشَدَ أَبُو سَهْلٍ الرَّازِيُّ لِسَطِيحٍ: [مَنْ
 الطَّوِيلُ]

عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ وَلَا تَلْبَسُوا صِدْقَ الْأَمَانَةِ بِالْغَدْرِ

(١) «تاريخ الطبري» ١٣١-١٣٢/٢، و«العقد الفريد» ٢٨-٣١/٢، و«دلائل النبوة» ١٢٦-١٢٩/١ و«المنتظم»

٢٤٩-٢٥٢/٢، و«البداية والنهاية» ٢٤٩-٢٥١/٢.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٥.

وكونوا كجار الجنبِ حصناً وجنّةً إذا ما عرّته النَّائباتُ من الدَّهرِ^(١)
وروى عروة^(٢) بن الزبير - رضي الله عنه - ، عن أبيه ، قال : خرج نفرٌ من قريش فيهم ورقة بن
نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان^(٣) بن الحويرث ، إلى
صنم لهم في يوم عيد كانوا يجتمعون إليه ، وينحرون له ، ويعظمونه ، فدخلوا عليه فأوه
على وجهه مكبواً ، فردوه إلى حاله فوق ، وفعلوا ذلك مراراً ، فقال عثمان بن
الحويرث : هذا لأمر حدث في هذه الليلة ، وكان رسول الله ﷺ قد ولد في تلك الليلة ،
فهتف بهم هاتف من الصنم يقول : [من الطويل]

تردى لمولودٍ أنارت بنوره
وخرّت له الأوثان طراً وأرعدت
ونارٌ جميع الفرسِ باخت وأظلمت
وصدّت عن الكهّان بالغيبِ جنبها
فيا لقصيٍّ ارجعوا عن ضلالكم
فما سمعوا ذلك خلصوا نجياً ، وقال لهم ورقة بن نوفل :

جميعُ فجاجِ الأرضِ بالشرق والغربِ
قلوبُ ملوكِ الأرضِ طراً من الرعبِ
وقد بات شاه الفرسِ في أعظمِ الكربِ
فلا مخبر عنهم بصدقٍ ولا كذبِ
وهبوا إلى الإسلامِ والمنزلِ الرَّحِبِ

ما قومكم على دين ، ولقد أخطؤوا والله الحجة ، وتركوا دين إبراهيم ، وعبدوا
حجراً لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين .

وقال عثمان بن الحويرث يخاطب الصنم : [من الطويل]

أيا صنمَ العيد الذي صُفَّ حوله
تكوّست مقلوباً فما ذاك قل لنا
فإن كان من ذنبِ أتينا فإننا
وإن كنت مغلوباً تكوّست^(٤) صاغراً

صناديدُ وفدٍ من بعيدٍ ومن قُربِ
أذاك سفيه أم تكوّست للعُتبِ
نبوءٌ بإقرارٍ ونلوي عن الذنبِ
فما أنت في الأربابِ بالسيدِ الرَّبِّ

ثم خرجوا يضربون في الأرض ، فرجع ورقة إلى مكة وقد تنصّر ، وأما زيد بن عمرو

(١) مختصر تاريخ دمشق ٨ / ٢٩٥ - ٢٩٧ .

(٢) في النسخ : «عكرمة» ، والخبر في تاريخ دمشق ١ / ٣٤٢ (السيرة) من طريق يحيى بن عروة ، عن أبيه عروة .

(٣) في النسخ : «عمار» في الموضعين ، والصواب ما أثبتناه ، انظر المصادر .

(٤) في تاريخ دمشق : تكوست ، في المواضع الثلاثة .

فخرج إلى الجزيرة، فلقي راهباً فسأله عن الدين؟ فقال: هو أمامك وقد أظلك نبي، وأما عبيد الله بن جحش فإنه أقام بمكة حتى ظهر رسول الله ﷺ، ثم هاجر إلى الحبشة فتنصر، وأما عثمان بن الحويرث فتنصر، وحسنت مكانته عند قيصر، وأقام عنده فأطمعه في ملك تهامة والحجاز واليمن، فأجابه قيصر إلى ذلك، وقال: أنت نائبي هناك، فرجع إلى مكة فأطاعه الناس، وهموا بتمليكه، وأن يضعوا التاج على رأسه، فقال لهم أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد، وكان ابن عم عثمان بن الحويرث: يا معاشر قريش، أتملكون عليكم، وهل يكون ملك بتهامة؟ إن الحجاز لا يملك، فرجع الناس عنه، فخرج ابن الحويرث إلى قيصر خوفاً على نفسه، فمات عنده.

فصل

في وفاة عبد الله بن عبد المطلب

ولد عبد الله في أيام كسرى أنوشروان لأربع وعشرين خلت من ملكه، وكنيته: أبو أحمد^(١)، ومات ورسول الله ﷺ حمل، قبل ولادته بشهر أو شهرين. وكانت وفاته بالمدينة في دار النابغة عند أخواله من بني النجار، بعثه أبوه يمتار له تمرًا من المدينة^(٢).

وقيل: خرج في تجارة إلى الشام في غير لقريش، ثم انصرفوا ومروا بالمدينة وعبد الله يومئذ مريض، فأقام عند أخواله مريضاً شهراً، ثم توفي، فحزن عليه عبد المطلب حزناً شديداً، ووجد أخوته لفقده^(٣).

قال الواقدي: وتوفي عبد الله وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقيل: ثلاثين سنة، وترك أم أيمن واسمها بركة، فكانت تحضن رسول الله ﷺ، وترك خمسة أجمال وثلاثة من غنم، ورثته أمنة بنت وهب زوجته، فقالت^(٤): [من الطويل]

(١) انظر «أنساب الأشراف» ١/١٠٤.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٨٠.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٧٩.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٨٠، و«أنساب الأشراف» ١/١٠٥.

عفا جانبُ البَطْحَاءِ من ابنِ هاشمٍ
دَعَتْهُ المنايا دعوةً فأجابها
عَشِيَّةَ راحوا يحملونَ سَرِيرَهُ
فإن تكُ غالتُهُ المنايا ورَيْبُهَا
وجاورَ لحداً بعد موتِ الغماغمِ
وما تَرَكتُ في الدَّارِ مثلَ ابنِ هاشمِ
تعاوَرَهُ أصحابُهُ في التَّزاحمِ
فقد كان مفضالاً شديدَ الدَّعائمِ

فصل في ذكر أسمائه ﷺ وكنيته

قال الواقدي: كان له ﷺ سبعون اسماً، ذكرها الله في كتبه السالفة والقرآن العزيز، فقال جبير بن مطعم: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أَحْمَدُ، وأنا الماحي يَمْحُو اللهُ بِي الكُفْرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشِرُ النَّاسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ الذي ليسَ بَعْدَهُ نبيٌّ». أخرجاه في «الصححين»^(١).

ذكر أسماء المحمدين

قال علماء السير: إن الله صان هذا الاسم أن يتسمى به أحد في الجاهلية، كما فعل بيحيى بن زكريا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، إلا أنه لما قرب أوان ظهوره مرَّ جماعة من العرب براهب بالشام قد قرأ الكتب، فأخبرهم باسم نبي مبعوث من العرب اسمه محمد، فسموا أبناءهم بهذا الاسم طمعاً في النبوة.

وقال ابن إسحاق: خرج عدي، وسفيان، وزيد بن عمرو بن ربيعة، وأسامة بن مالك بن حبيب يريدون الشام، فنزلوا بدير وهم يتحدثون، فأشرف عليهم راهب وقال: ما هذه اللغة ليست لأهل هذه الأرض، ممن أنتم؟ قالوا: من العرب. قال: ممن؟ قالوا: من مُضَر، فقال: أما إنه سيبعث فيكم نبيٌّ، فبادروا إليه فإنه خاتمُ النبيين، قالوا: فما اسمه؟ قال: محمد. فلما رجعوا إلى أهاليهم، فكانوا معهن، فولد لكل واحد ولداً، فسماه محمداً طمعاً في ذلك.

وقال البلاذري: كانوا ستة: محمد بن سفيان، ومحمد بن الحرَّماز بن مالك بن عمرو، ومحمد بن بَرٍّ^(٢) بن طَريف بن عُتْوارة، ومحمد الشويعر بن حُمران الذي يقال

(١) صحيح البخاري (٣٥٣٢)، وصحيح مسلم (٢٣٥٤).

(٢) في النسخ: «بشر»، والمثبت من «أنساب الأشراف» ١/٦٢٩-٦٣٠، وهكذا ضبطه صاحب السيرة الشامية ١/٥٠٤.

له: امرؤ القيس بن حُجر^(١)، ومحمد بن [عقبة بن] أحيحة بن الجُلاح الأوسي،
ومحمد بن مسلمة الأنصاري.

قال القاضي عياض: هم ستة لا سابع لهم^(٢)، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.
وأما أحمد فلم يتَّسَمَّ به أحد قبل رسول الله ﷺ^(٣).

فصل

وكنيته: أبو القاسم، وبعده: أبو إبراهيم، وأول ولد ولد له من خديجة عليها السلام:
القاسم^(٤)، فكني به.

قال حسان^(٥): [من السريع]

لِلَّهِ مِمَّنْ قَد بَرَا صَفْوَةً وَصَفْوَةُ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ
وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مُحَمَّدُ النُّورِ أَبُو الْقَاسِمِ



(١) كذا في النسخ؟! وفي أنساب الأشراف ١/٦٢٩، والاشتقاق ٨.٩ أن امرأ القيس هو الذي سماه الشويعر لقوله:

أبلغنا عني الشويعر أني عمد عين حلتهن حريماً

(٢) «الشفأ» ١/٣١٣-٣١٤.

(٣) انظر «الشفأ» ١/٣١٣.

(٤) في النسخ: «أبو القاسم»، وانظر «الطبقات الكبرى» ١/١١٠.

(٥) مروج الذهب ٤/١١٩ دون نسبة.

فصل

فيما حدث من سنة مولده إلى زمن هجرته

وما لقي من أهله وعشيرته

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وذريته وأزواجه والتابعين إلى يوم

الدين وسلم تسليماً

في السنة الأولى

يوم جَبَلَة^(١)، وهو من أعظم أيام العرب، وقصة الفيل^(٢).

ذكر إرضاعه ﷺ:

أرضعته أمه ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أرضعته ثوية جارية أبي لهب - وهو الأشهر - بلبن ابنها مَسْرُوح أياماً قبل قدوم حليلة مكة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ﷺ، ثم أرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي^(٣). وأعتق أبو لهب ثوية، فكانت تدخل على النبي ﷺ بعد ما تزوج خديجة ﷺ، فكان يكرمها وتكرمها خديجة^(٤). وكلم يوماً خديجة رسول الله ﷺ فيها، فوهبت لها غنماً^(٥).

وقيل: إنما أعتقها أبو لهب بعد ما هاجر رسول الله ﷺ، وسألته خديجة ﷺ أن يبيعها منها فأبى، وكان رسول الله ﷺ بعدما هاجر يبعث إليها بكسوة وصلة، وتوفيت ثوية في سنة سبع من الهجرة^(٦).

وذكر أبو نعيم الأصبهاني في إسلامها قولين.

وقال عروة: كانت ثوية مولاة أبي لهب فأعتقها، فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب رآه بعض أهله في منامه بِشْرٍ حَيْبَةٍ، فقال له: ما لقيت أبا لهب؟ فقال:

(١) انظر «تاريخ الطبري»، و«المنتظم» ٢/٢٥٩، و«الكامل» ١/٥٨٣.

(٢) انظر «السيرة» ١/٤١، وقد سرد ابن الجوزي في الوفا ص ٩٧ جملة أمهات الحوادث في سنه ﷺ.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٨٧، و«المنتظم» ٢/٢٦٠.

(٤) انظر «المنتظم» ٢/٢٦٠.

(٥) كذا جاء في النسخ، والصواب أن التي كلم رسول الله ﷺ في شأنها، إنما هي حليلة، أتت إليه فشكت جذب بلادها وهلاك الماشية، فكلم رسول الله ﷺ خديجة، فأعطتها أربعين شاة وبعيراً. انظر «الطبقات الكبرى» ١/٩٣، و«أنساب الأشراف» ١/١٠٨-١٠٩، وسيأتي الخبر عند المصنف قبل السنة السادسة من مولده ﷺ.

(٦) انظر «أنساب الأشراف» ١/١٠٩.

ما لقيت بعدكم روحاً غير أني سُقيت في هذه - وأشار إلى نقرة بين إبهامه وسبابته - قال: بعثني ثوية^(١).

ذكر إرضاع حليلة إياه ﷺ:

وهي: حليلة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن سِجْنَةَ^(٢) بن جابر بن رِزَام بن ناصرة بن [فُصَيَّة بن نصر بن] سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصْفَةَ بن قيس بن عَيْلان بن مُضَر بن نزار، وزوجها: الحارث بن عبد العزى بن رِفاعَة بن مَلان ابن ناصرة بن فُصَيَّة بن [نصر بن] سعد بن بكر بن هوازن. وكنيته: أبو ذؤيب، وكان له من الولد: عبد الله، وهو الذي أَرْضَعَتْ حليلة رسول الله ﷺ بلبانه. [وأنيسة وجُدامة بنت الحارث] ولقبها: الشَّيْماء، وكانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمِّها، وهي التي سُبِّيت يوم حنين، وقالت: إني أخت نبيكم^(٣).

قال ابن إسحاق: عن الجَهْم بن أبي الجَهْم قال: حدثني من سمع عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب يقول عن حليلة ابنة الحارث السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته قالت: خرجت في نسوة من سعد بن بكر بن هوازن نلتمس الرُّضْعَاء بمكة، فخرجت على أتانٍ لي قمراء قد أذَمَّت بِالرَّكْب^(٤)، وخرجنا في سنة شهباء لم يبق لنا شيء أنا وزوجي الحارث بن عبد العزى ومعنا شارفٌ لنا، والله لم تَبْضُ علينا بقطرة من لبن، ومعني صبي لنا، والله ما ننام ليلنا من بكائه، وما في ثديي لبن يغنيه ولا في شارقنا من لبن يُغْذِيهِ إِلَّا أَنَا نَرْجُو، فلما قدمنا مكة لم يبق منا امرأة إِلَّا عُرِضَ عَلَيْهَا رسول الله ﷺ فتأباه، وإنما كنا نرجو الكرامة في رضاعة من نُرْضِع له من والد المولود، وكان ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٥١٠١). وهذا هو الصحيح أن إعتاقها كان عند ولادة النبي ﷺ، انظر «السيرة الشامية» ٤٥٨/١. وقوله: بشر حبية، أي: سوء حال.

(٢) هكذا هي في (ك)، وفي (خ) غير منقوطة، وضبطها ابن حجر في «الإصابة» ٢٧٤/٤: بالشين المعجمة، وضبطها صاحب «السيرة الشامية» ٤٦١/١ بالشين المهملة.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٩٠-٨٩/١، و«أنساب الأشراف» ١٠٦/١. وما بين معقوفين زيادة منهما.

(٤) يروى: «أذَمْتُ» أي: أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها، وروى: «أذَمْتُ» أي: تأخرت بالركب والضمير في «أذَمْتُ» يرجع إلى الأتان. «إملاء المختصر» ١٣٤/١.

يتيماً، فقلنا: ما عسى أن تصنع أمه؟ حتى لم يبق من صواحباتي امرأة إلا أخذت رضيعاً، غيري، فكرهت أن أرجع ولم آخذ شيئاً، وقد أخذوا صواحباتي، فقلت لزوجي الحارث: والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلاخذه، فأتيته فأخذه، ثم رجعت به إلى رَحلي، فقال لي زوجي: قد أخذتِه؟ قلت: نعم، وذاك أني لم أجد غيره، قال: قد أصبت، عسى أن يجعل الله فيه خيراً، قالت: فوالله ما هو إلا أن وضعته في حجرِي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من اللبن فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي، فقام زوجي إلى شارفنا من الليل فإذا هي تَسحُّ علينا ما شئنا من اللبن، فشربنا حتى روينا، ومكثنا ليلتنا بخير شباعاً رواء، فقال زوجي: يا حليلة، ما أراك إلا قد أصبت نَسَمَةً مُباركة، قد نام صبياننا وروينا.

قالت: ثم خرجنا فوالله لخرجتُ أتاني أمام الركب قد قطعتم حتى ما يتعلق بها أحد منهم، حتى إنهم ليقولون: ويحك يا بنت الحارث، كُفِّي علينا، أليست هذه أتانك التي خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله، فيقولون: إن لها لشأناً. حتى قَدِمْتُ منازلنا من حاضرِ منازل بني سعد بن بكر، فقدمنا على أجذب أرض الله، فوالذي نفس حليلة بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا، وأسرحُ راعي غنيمتي، وتروح غنمي حُفلاً بَطاناً، وتروح أغنامهم جِباعاً هالكة ما لها من لبن، ونشرب ما شئنا من اللبن وما من الحاضرين أحد يحلب قطرة ولا يجدها، فيقولون لرُعَاتِهِمْ: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليلة. فيسرحون في الشَّعب الذي يسرح فيه، وتروح أغنامهم جِباعاً، وتروح غنمي حُفلاً، قالت: وكان يشب في اليوم شباب الصبي في [الشهر ويشب في الشهر شباب الصبي في] سنة، فبلغ سنتين وهو غلام جَفْر، فقدمنا به على أمه ومكة وبيئته، فقلنا أو قال لها زوجي: دعي ابني فلنرجع به، فإننا نخشى عليه وباء مكة. قالت: ونحن أضنُّ شيء به لِمَا رأينا من بركته. فلم يزل بها حتى قالت: ارجعي به. قال: فمكث عندنا شهرين.

وقال ابن قتيبة: إنما أقام عندهم خمس سنوات^(١).

(١) «المعارف» ص ١٣٢.

فبينما هو يلعب يوماً مع الغلمان خلف البيوت إذ جاء أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: أدركا أخي القرشي، فقد جاءه رجلان فأضجعاه وشقاً بطنه، قالت: فخرجنا نشد نحوه، فانتهدنا إليه وهو قائم ممتقع لونه، فاعتنقته واعتنقه أبوه وقال: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقاً بطني، ووالله ما أدري ما صنعنا. قالت حليلة: فاحتملناه فرجعنا به، قالت: يقول زوجي: يا حليلة، والله ما أرى الغلام إلا قد أصيب، فانطلقني فلنردّه إلى أمه قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه. فرجعنا به إلى أمه، فقالت: ما ردّكما به وقد كنتما حريصين عليه؟ فقلنا لها: قد كفّلناه وأدّينا ما علينا من الحق فيه، ثم تخوفنا عليه الأحداث فقلنا: يكون عند أمه. فقالت: والله ما ذاك بكما، فأخبراني خبره، فأخبرناها. فقالت: أتخوفتما عليه، والله إن لابني هذا لشأناً^(١).



السنة الثالثة من مولده ﷺ

فيها ولد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ودخلت السنة الرابعة وبعض الخامسة، وهو ﷺ عند حليلة السعدية رضي الله عنها.



السنة الخامسة من مولده ﷺ

وفيها شق بطنه.

قال شداد بن أوس: جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ فقال: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ فأخبرني عن بدء أمرك، فقال: «يا أخا بني عامر، بدءٌ أمرى دعوة أخي إبراهيم، وبُشرى أخي عيسى، وإنّي كنتُ مسترضعاً في بني سعد، فبينما أنا ذات يومٍ مُتَبَدِّدٌ مع أتراب لي من الغلمان في وادٍ بعيدٍ عن أهلي، إذا بثلاثة رهطٍ معهم طستٌ من ذهبٍ قد

(١) «السيرة» ١/١٤٨-١٥٣، والنقل عن «المنتظم» ٢/٢٦١-٢٦٣.

مُلئ ثلجاً، فأخذني واحدٌ منهم، فَهَرَبَ أَثْرَابِي وَوَقَفُوا عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الْقَوْمِ وَقَالُوا: يَا قَوْمُ، إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ لَيْسَ مِنَّا إِنَّمَا هُوَ مُسْتَرَضِعٌ فِينَا، وَهُوَ ابْنُ سَيْدِ قَرِيشٍ وَهُوَ يَتِيمٌ، فَمَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكُمْ قَتْلُهُ؟ فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بَدَّ قَاتِلِيهِ فَاخْتَارُوا أَيَّنَا شِئْتُمْ مِنَّا فَاقْتُلُوهُ عَوَضَهُ، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ جَوَاباً، فَاَنْطَلَقُوا هَارِبِينَ يَسْتَصْرَخُونَ الْحَيَّ، فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ فَأَضْجَعَنِي إِضْجَاعاً رَفِيقاً، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مَتْنِي عَانَتِي، وَلَمْ أَجِدْ لَذَلِكَ مَسّاً، ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي فَغَسَلَهَا بِمَاءٍ وَثَلَجٍ، فَأَنْعَمَ غَسَلَهَا، ثُمَّ رَدَّهَا إِلَى مَكَانِهَا، ثُمَّ جَاءَ آخِرٌ فَأَخْرَجَ مِنْ قَلْبِي مُضْغَةً سُودَاءَ فَرَمَى بِهَا، وَإِذَا بِيَدِهِ خَاتَمُ النَّبِوةِ مِنْ نُورٍ فَخْتَمَ بِهِ قَلْبِي، فَامْتَلَأَ نُوراً ثُمَّ رَدَّهَ إِلَى مَكَانِهِ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْخَاتَمِ فِي قَلْبِي دَهْرًا، ثُمَّ أَمَرَ الثَّالِثَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي فَالْتَأَمَ ذَلِكَ الشَّقَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَنْهَضَنِي، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ: زِنِّهِ، اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ وَاجْعَلِ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، فَفَعَلَ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْأَلْفِ، فَرَجَحْتُ عَلَيْهِمْ، فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وَزَنْتُ بِهَ لِمَالٍ بِهِمْ، ثُمَّ أَقْعَدُونِي وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَقَالُوا: يَا حَبِيبَ، لَا تُرْعَ؛ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَاذَا يُرَادُ مِنْكَ - أَوْ بِكَ - لَوْ عَلِمْتَ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ، قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، وَإِذَا بِالْحَيِّ قَدْ أَقْبَلُوا بِحِذَائِهِمْ - أَيَّ بِأَسْرِهِمْ - وَإِذَا بِأُمِّي وَهِيَ تَهْتَفُ فِي أَوَائِلِهِمْ وَتَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا: وَاضْعِيفَاهُ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: حَبِذَا أَنْتَ مِنْ ضَعِيفٍ، فَقَالَتْ: يَا يَتِيمَاهُ. فَقَالَ الْآخَرُ: حَبِذَا أَنْتَ مِنْ يَتِيمٍ، فَقَالَتْ: يَا وَحِيدَاهُ^(١). فَقَالَ الْآخَرُ: حَبِذَا أَنْتَ مِنْ وَحِيدٍ، ثُمَّ ضَمَمْتَنِي إِلَى صَدْرِهَا وَجَعَلَتْ تَقُولُ: اسْتُضْعِفْتِ مِنْ بَيْنِ أَثْرَابِكَ وَتَبْكِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَفِي حَجْرِهَا وَإِنْ يَدِي فِي يَدِ بَعْضِ الْقَوْمِ، وَأَنَا أَلْتَفْتُ إِلَيْهِمْ أَظُنُّ أَنَّ الْقَوْمَ يَبْصُرُونَهُمْ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْحَيِّ: هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أَصَابَهُ لَمَمٌ، فَاَنْطَلَقُوا بِهِ إِلَى الْكَاهِنِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَذَهَبُوا بِي إِلَى الْكَاهِنِ، فَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي؟ فَأَخْبَرْتَهُ، وَضَمَمَنِي إِلَى صَدْرِهِ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشَرَ الْعَرَبِ، اقْتُلُوهُ وَاقْتُلُونِي مَعَهُ، فَوَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لئنْ تَرَكْتُمُوهُ لِيَبْدُلَنَّ دِينَكُمْ، فَقَالَتْ أُمِّي: انْظُرْ لِنَفْسِكَ قَاتِلًا غَيْرِي، فَإِنْ وَلَدْنَا مَا بِهِ مِمَّا قَلْتَ شَيْءٌ، وَلَقَدْ شَبِهَ عَلَيْكَ^(٢).

(١) في النسخ: «يا وواحدها» والمثبت من «المنتظم» و«تاريخ دمشق».

(٢) انظر «تاريخ دمشق» (قسم السيرة) ١/ ٣٨٠-٣٨٣، و«المنتظم» ٢/ ٢٦٥-٢٦٧. وضعفه ابن عساكر، وقال

ابن كثير في «البداية» ٢/ ٢٥٦: وفيه عمر بن الصبح وهو متروك كذاب متهم بالوضع.

قال الواقدي: لما تم له خمس سنين؛ قدمت به حليلة مكة، وقد رأت غمامة تظله في الطريق، إن سار سارت، وإن يقف وقفت، فأفزعها ذلك، فلما قربت من مكة؛ نامت في بعض الأباطح، ثم انتبهت فلم تجده^(١).

وذكر الثعلبي في «تفسيره» القصة عن كعب الأحبار قال: لما قضت حليلة حق الرضاع أتت بالنبي ﷺ إلى مكة لترده إلى عبد المطلب، قالت: فأتيت به إلى الباب الأعظم من أبواب مكة، فسمعت منادياً ينادي: هنيئاً لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد عليك النور والدين والجمال والبهاء، قالت: فوضعت عند الباب وذهبت لأصلح من شأني، فسمعت هدةً شديدة فالتفت فلم أره، فقلت: يا معاشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا: أي الصبيان تعين؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، نضر الله به وجهي، وأغنى عيلى، ربيته حتى إذا أدركت فيه سروري وأملي، اختلس من يدي قبل أن تمس قدماه الأرض، واللآت والعزى لئن لم أره لأرمين نفسي من شاهق هذا الجبل فلاقطعن إرباً إرباً، فقالوا: ما رأينا أحداً. قالت: فلما آيسوني وضعت يدي على أم رأسي وقلت: وامحمداه، واولداه، فأبكيت الجواري والأبكار ببكائي، وإذا بشيخ فان يتوكأ على عصاه، قال: ما لك يا سعدية؟ فقلت: فقدت ابني محمداً.

فقال: لا تبكي أنا أدلك على من يعلم علمه، وإن شاء أن يرده عليك فعل، قلت: فدتك نفسي من هو؟ قال: الصنم الأعظم هبل. فقالت: فدخل، وطاف بهبل، وقبل رأسه، وناداه: أيها الإله الأعظم، لم تزل منتك على قريش عظيمة، وهذه السعدية تزعم أن محمداً قد ضل، فرده عليها. قالت: فأكب هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام وقالت: إليك عنا يا شيخ، إنما هلاكنا على يد محمد. فأقبل الشيخ وأنا أسمع لأسنانه اصطكاكاً، ولركبتيه ارتعاداً، وقال: يا حليلة، إن لابنك رباً لا يضيعه، فاطليه على مهل. قالت: فأتيت إلى عبد المطلب، فلما رأي علي ذلك، قال: أسعد نزل بك أم نحس؟ قلت: نحس. ففهم وقال: لعل ابنك قد ضل منك؟ قلت: نعم. فسل سيفه - وكان لا يثبت له أحد - [ونادى بأعلى صوته]: يا آل غالب يا آل غالب، فأجابته

(١) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١/ ٩١، وأخرج ابن سعد أيضاً ١/ ١٢٦-١٢٧: أن أخته هي التي رأت الغمامة تظله.

قريش بأجمعها، فأخبرهم الخبر وركب وركبوا معه، وقالوا: إن تسنمت جبلاً تسمناه معك، وإن خضت البحر خضناه، ثم خرج إلى أعلى مكة وأسفلها فلم يجد شيئاً. فأتى إلى الكعبة، وطاف أسبوعاً، ثم قال: [من الرجز]

يا ربُّ أُرْدُدْ ولدي محمداً رُدَّةً إليّ واتَّخِذْ عندي يدا
فسمع منادياً من السماء: أيها الناس، إن لمحمد رباً لا يضيعه. فقال عبد المطلب:
وأين هو؟ قال: بوادي تهامة عند شجرة اليمن، فخرج عبد المطلب ولقيه ورقة بن
نوفل، وسارا جميعاً إلى ذلك المكان، وإذا به تحت الشجرة، فاحتمله عبد المطلب
على قربوس سرجه، وعاد به إلى مكة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾
[الضحى: ٧] على أحد الأقوال^(١).

وأما حليلة، فإنها أسلمت وأسلم زوجها، وقدمت مكة بعد ما تزوج رسول الله ﷺ
خديجة رضي الله عنها، فشكت إليه جذب البلاد، فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً، ثم
قدمت عليه بعد النبوة فأسلمت.

قال الواقدي: لما قدمت عليه، قال: أمي أمي، وبسط لها رداءه فجلست عليه^(٢).



السنة السادسة من مولده ﷺ

وفيهما توفيت والدته ﷺ.

قال الزهري: لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين، خرجت به أمه إلى المدينة إلى
أخواله من بني عدي بن النجار، فنزلت دار النابغة^(٣) الجعدي التي مات فيها أبوه،

(١) تفسير الثعلبي ١٠/٢٢٦-٢٢٨، وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ١/١٤٢-١٤٣، وقد أخرج القصة مختصرة،
ابن سعد في «الطبقات» ١/٩١-٩٢، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/٩٣-٩٤، وابن الجوزي في
«المنتظم» ٢/٢٦٩. وانظر «سمط النجوم العوالي» ١/٢٦٧.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٩٣.

(٣) كذا هي في الأصول الخطية، وضبطها صاحب «السيرة الشامية» ١/٤٠٠: التابعة بالتاء، وعند الطبري
٢/٢٤٦ بالروايتين، وانظر المنتظم ٢/٢٧٢، والوفا ١١٤.

فأقامت عندهم شهراً، واختلف قوم من اليهود إلى الدار ورأوا رسول الله ﷺ، وجعلوا يقولون: هذا نبيُّ هذه الأمة، وهذه دار هجرته. ولما رجعت به إلى مكة؛ توفيت بالأبواء، فقبرها هناك، وكانت معها أم أيمن فرجعت بالنبي ﷺ إلى مكة. ولما مرَّ رسول الله ﷺ بالأبواء في عمرة الحديبية؛ زار قبرها^(١).



السنة السابعة من مولده ﷺ

فيها كَفَلَهُ جده عبد المطلب بعد وفاة أمه آمنة.

قال الزهري: إن عبد المطلب ضمَّه إليه، ورقَّ عليه رِقَّةً لم يَرَقَّها على أولاده، فكان لا يفارقه، ويدخل عليه، ويجلس على فراشه عند الكعبة، فإذا نهاه أحد يقول: دعوا ابني، فإنه ليؤنِسُ مُلْكاً. وما كان أحد يجلس على فراش عبد المطلب من ولده إجلالاً له إلا رسول الله ﷺ، وقدم مكة قوم من القافة من بني مُدَلِج، فلما نظروا إليه، قالوا لعبد المطلب: احتفظ بهذا الغلام، فإننا لم نجد قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام من قدميه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء واحتفظ به، وقال عبد المطلب لأم أيمن: احتفظي بابني، فإن اليهود تزعم أنه نبي هذه الأمة^(٢).



السنة الثامنة من مولده ﷺ

وفيها توفي عبد المطلب.

ولما احتُضِرَ عبد المطلب، أوصى به إلى أبي طالب، فقبضه وضمه إليه وأحبه حباً شديداً، وقَدَّمه على أولاده، وكان لا يفارقه، وكان عيال أبي طالب إذا لم يأكل معهم رسول الله ﷺ لم يشبعوا، وإذا أكل معهم شبعوا، فيقول له أبو طالب: إنك لمبارك^(٣).

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٩٥، و«المنتظم» ٢/٢٧٢.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٩٦-٩٧، و«المنتظم» ٢/٢٧٤.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٩٨، و«المنتظم» ٢/٢٨٣.

وكان شقيق عبد الله.

وقال الشيخ موفق الدين رحمته الله في «الأنساب»: إن عبد المطلب أوصى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب، وقال له^(١): [من الرجز]

أوصيك يا عبد منافٍ بَعْدِي
بِمُفْرَدٍ بَعْدَ أَبِيهِ فَرْدٍ
فَارِقَهُ وَهُوَ ضَجِيعُ الْمَهْدِ
فَكُنْتُ كَالْأُمِّ لَهُ فِي الْوَجْدِ
تُدْنِيهِ مِنْ أَحْشَائِهَا وَالْكَبْدِ
فَأَنْتَ مِنْ أَرْجَى بَنِي عِنْدِي
لِرَفْعِ ضِيمٍ أَوْ لَشَدِّ عَقْدِ

وقيل: إن الزبير بن عبد المطلب وأبا طالب اقترعا عليه، فطارت القرعة للزبير، وكان الزبير أيضاً شقيق عبد الله، ويحتمل أن الاثنین كفلاه، لأن الزبير كان وصي عبد المطلب.

فصل وفيها توفي:

أنوشروان

كسرى العادل، وولي بعده ولده هُرمز، وكان في أول ملكه عادلاً مُحسناً إلى الرعية، كان إذا سافر نادى مناديه: من تعرّض لزرع ضمن قيمته، إلا أنه أساء السيرة في آخر أمره، فتغيرت قلوب الرعية عليه، فقتلوه^(٢).

حاتم

ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي^(٣) وبه يضرب المثل في الجود، قال

(١) التبيين ١٠٩، وانظر «تاريخ اليعقوبي» ١٣/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢٢/٢.

(٢) «تاريخ الطبري» ١٧٢/٢، و«المنتظم» ٢٨٩/٢، و«الكامل» ٤٦٩/١.

(٣) «تاريخ اليعقوبي» ٢٦٤/١، و«تاريخ دمشق» ٣٥٧/١١، و«المنتظم» ٢٨٥/٢، و«البداية والنهاية» ١٩٧/٢.

الشاعر^(١): [الطويل]

على حالة لو أن في القوم حاتماً على جوده ما جاد بالماء حاتم
وكنيته: أبو عدي^(٢). وأم حاتم: عنبه بنت عفيف بن لحي، وابنه عدي من الصحابة.
قال الواقدي: كان حاتم سيد الأجواد، فاضلاً، عاقلاً، فصيحاً، شاعراً، يقري
الأضياف ويبالغ في إكرامهم، وأخباره مشهورة.

قال عدي بن حاتم: قلت: يا رسول الله، إن أبي كان يصل الرحم، ويؤطعم الطعام،
ويعتق الرقاب، فهل له في ذلك من أجر؟ فقال: «إن أباك التمس أمراً فأدركه»^(٣).
قال سماك بن حرب: هو حُسنُ الذكر^(٤).

وقال الشعبي: خلف حاتماً أبوه في إبله، وهو في إبله، فمر به جماعة من الشعراء
فيهم: عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، والنابعة الذبياني، يريدون النعمان بن
المنذر، فقالوا لحاتم: هل من قرى ولم يعرفهم؟ فقال: تسألوني عن قرى وأنتم ترون
الإبل والغنم، انزلوا فنزلوا. فنحر لكل واحد منهم جزوراً، وسألهم عن أسمائهم؟
فأخبروه، ففرق فيهم الإبل والغنم، وجاء أبوه فقال: ما فعلت؟ فقال: طوقتك مجد
الدهر وحسن الذكر تطويق الحمامة، فقال أبوه: فإذا لا أساكنك. فقال حاتم: فإذا لا
أبالي. ورحل عنه، فقال حاتم: [من الطويل]

وإني لعفُّ الفقير مُشْتَرِكُ الغنى
ولي نيّةٌ في الجود والبذل لم يكن
وما ضرّني أن سار سَعْدٌ^(٥) بأهله
وما من كريم عالهِ الدَّهر مرّةً
وما من بخيل عالهِ الدَّهر مرّةً
تروك لشكلٍ لا يُوافقُه شكلي
ليألفها فيما مضى أحدٌ قبلي
وخلفني في الدار ليس معي أهلي
فيذكرها إلا تزيد في البذل
فيذكرها إلا تزيد في البخل

(١) هو للفرزدق والبيت في ديوانه ص ٢٩٧.

(٢) ويكنى أيضاً أبا سقانة، وهي ابنته، انظر «المنتظم» ٢/٢٨٥.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٢٦٢).

(٤) انظر «مسند أحمد» (١٨٢٦٣).

(٥) في النسخ: «عبد» والمثبت من الديوان ٧٦، والمنتظم.

وقال الشعبي: مر حاتم في مسير له ببني عَنزَةَ وفيهم أسير، فاستغاث به، فقال له حاتم: لقد أسأت إليّ حيث نَوَّهتَ باسمي، وليس معي ما يفديك، ولستُ ببلاد قومي، ولكن طب نَفْساً، وجاء إلى الذي أسره فاشتراه منه بمئة ناقة، وفك القيد من رجليه وجعله في رجل نفسه، وقال: اذهب إلى أهلي، وأعطاه أمانة إليهم بالتسليم، ومضى الرجل، وأقام حاتم في قيوده حتى عاد الرجل بالإبل، وأطلق حاتم^(١).

وقال الشعبي: سأل رجل حاتماً: هل في العرب أكرم منك؟ فقال: كل العرب أكرم مني، نزلتُ على غلام يتيم، وكان له مئة شاة، فذبح لي شاة، فقلت: ما أطيب مخها أو دماغها. فلم يزل يأتيني بدماع دماغ حتى ذبح المئة، فأصبح ولا شيء له، قيل له: فما صنعت مع الغلام؟ قال: وما عساني أن أبلغ شكره، والله لو خرجت معه من جميع مالي ما جازيته، كان لي مئة من الإبل سودُ الحدق، دفعتها إليه^(٢).

ولما احتضر حاتم قال لابنه عدي: يا بني، والله ما خنت جارة لي لريبة، ولا اتُّمنت على أمانة إلا أدّيتها، ولا بدّأ مني إلى أحد مكروه قط، ولا قصدني قاصد فخبثته.

ودفن حاتم على جبل يقال له: عوارض.

فصل

وأجواد الجاهلية ثلاثة^(٣): حاتم، وهَرَم بن سِنان، وكعب بن مامة.

فأما هَرَم، فكان أبوه سنان سيّد غطفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا مت؛ فشقوا بطني، فإن فيها سيد غطفان. فلما ماتت، شقوا بطنها واستخرجوا سناناً، فولد هَرَمًا. وفي هَرَم يقول زهير: [من البسيط]

متى تلاقٍ على عِلاته هَرَمًا تلقى الندى منه في خُلُقٍ وفي خُلُقٍ
وفيه وفي إخوته يقول زهير - وقيل: إنها لغيره -: [من البسيط]

(١) انظر «المنتظم» ٢/ ٢٨٥، والعقد الفريد ١/ ٢٨٧.

(٢) انظر «البداية والنهاية» ٢/ ٢٠٠-٢٠١.

(٣) انظر خبرهم في «العقد» ١/ ٢٨٧.

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسِبُهُمْ
لو كان يَتَعُدُّ فوقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
مَحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ
وفي هَرَمٍ يَقُولُ زَهِيرٌ وَفِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَيُصِفُ مَا فِيهِ مِنْ آيَاتٍ: [مِنَ البَسيطِ]

حَتَّى دَفَعْنَ إِلَى حُلُوِّ شَمَائِلِهِ
مِنْ أَهْلِ بَيْتِ بَرَى ذُو العَرشِ فَضَلَهُمْ
المَطْعَمِينَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزِمَتْ
كَأَنَّ آخِرَهُمْ فِي المَجْدِ أَوْلَهُمْ
إِنْ فَوخَرُوا فَخَرُوا أَوْ طَوَعَنُوا طَعَنُوا
وفيه يَقُولُ زَهِيرٌ أَيْضاً: [مِنَ الطويلِ]

وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً
أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ: [مِنَ الطويلِ]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ
وَقَالَ زَهِيرٌ مِنْهَا: [مِنَ الطويلِ]

أَخُو ثِقَةٍ لَا يُذْهِبُ الخَمْرُ مَالَهُ
أَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ فَقَالَ: [مِنَ الطويلِ]

فَتَى لَا تَلُوكُ الخَمْرُ شَحْمَةَ مَالِهِ

وَأَمَّا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ الإِيَادِي، فَإِنَّهُ رَافِقُ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ فِي مَفَازَةٍ وَمَعَهُمَا مَاءٌ
يَسِيرُ فَعَطِشًا، فَأَثَرَ كَعْبُ بْنُ مَامَةَ السَعْدِيَّ وَمَاتَ عَطِشًا، وَنَجَا السَعْدِيُّ. وَهَذَا أَبْلَغُ مَا
يُوصَفُ مِنَ الجُودِ، لِأَنَّ حَاتِمًا وَغَيْرَهُ أَثَرُوا بِالمَالِ، وَكَعْبُ أَثَرَ بِالرُوحِ.

وفي كَعْبِ وَحَاتِمٍ^(١) يَقُولُ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي: [مِنَ الكَامِلِ]

كَعْبٌ وَحَاتِمٌ اللِّذَانُ تَقَاسَمَا
خُطَّطَ العُلَى مِنْ طَارِفٍ وَتَلِيدِ

(١) فِي (خ) وَ(ك): كَعْبُ بْنُ حَاتِمٍ، وَهُوَ خَطَأً.

هذا الذي خَلَفَ السَّحَابَ ومات ذا
 في المَجْدِ مَيِّتَةً خِضْرِمِ صِنْدِيدِ
 إن لم يكن فيها الشَّهيدَ فقومُه
 لا يَسْمَحون له بألف شهيد^(١)

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف

واسمه: شَيْبَةَ، وقيل: عامر، وكنيته: أبو الحارث، وأمه: سلمى بنت زيد بن عمرو بن أُسَيْدِ بن حزام بن خدّاش بن جندب بن عدي^(٢) بن النجار، وكانت قبل هاشم عند أُحِيحَةَ بن الجُلاح الأوسي، فمات عنها وترك ولدين منها وهما: عمرو ومَعْبُد، فزَوَّجها أبوها من هاشم بن عبد مناف.

قال الواقدي: خرج هاشم في تجارة إلى الشام، فمر بالمدينة، فنزل سوق النَّبَطِ فباعوا واشتروا، فنظر هاشم إلى امرأة حازمة جَلْدَةَ تبيع وتشتري، فسأل عنها فقيل: هي سلمى كانت تحت أُحِيحَةَ، وكانت لا تتزوج حتى تشتري على الزوج أن يكون الأمر بيدها، متى اشتتت فارقت، وذلك لشرفها، فخطبها هاشم وعرفت شرفه، فتزوّجته، فأولم عليها، ودعا رجالاً من الخزرج فأطعمهم، وأقام أياماً فعلمت بعبد المطلب، وسار إلى غزة، فمات بها، ورجع أبو رُهم بن عبد العزى العامري وأصحابه إلى المدينة بِتَرِكَّتِهِ^(٣).

وقال البلاذري: إنما تزوجها هاشم وشرط عليه أبوها أنها لا تلد إلا في أهلها، فرجع بها من المدينة إلى مكة، فلما دنت ولادتها، خرج بها إلى المدينة إلى منزل أبيها ومضى إلى الشام، وتوفي بغزة فولدت عبد المطلب^(٤) وسمته: شَيْبَةَ^(٥).

(١) العقد الفريد ١/ ٢٩١-٢٩٣.

(٢) كذا هي في النسخ، وفي «نسب قريش» ص ١٥، و«أنساب الأشراف» ١/ ٧٤: عمرو بن ليبد بن خدّاش بن عامر بن غنم بن عدي، وانظر الطبري ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٦٠.

(٤) في النسخ: «عبد الملك»، والمثبت من «أنساب الأشراف» ١/ ٧٤ وغيره.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/ ٧٤.

ذكر تسميته بعبد المطلب:

قال هشام: أقام عبد المطلب في أخواله مُكرِّماً، فيينا هو يناضل الصبيان ويقول: أنا ابن هاشم، فسمعه رجل من قريش فقدم مكة، فقال للمطلب: إني مررت بدور بني قَيْلَةَ، فرأيت غلاماً يعتزي إلى أخيك، وما ينبغي ترك مثله في الغُربَةِ. فرحل إلى المدينة في طلبه، فلما رآه عرفه ففاضت عيناه، وضمه إليه، وأنشد يقول: [من البسيط]

عرفتُ شَيْبَةَ والنَّجَارُ قد جَعَلتُ أبناؤها حَوْلَهُ بالنَّبْلِ تَنْتَضِلُ
عَرَفْتُ أَجْلادَهُ فينا وشيمته ففاضَ مِنِّي عليه وابلٌ هَطِلُ
فركب المطلب، فلما قدم يثرب أردفه على راحلته، فقال: يا عم ذلك إلى الوالدة، فجاء إلى أمه وسألها أن ترسل به معه، فامتنعت، فقال لها: إنه يمضي إلى مُلْك أبيه وإلى حرم الله، فأذنت له فقدم به مكة، فقال الناس: هذا عبد المطلب؟ فقال: ويحكم، إنما هو ابن أخي هاشم. وروي غير ذلك^(١).

ولما قدم المطلب بشيبة مكة، أقام عنده حتى ترعرع، فسلم إليه ملك هاشم من أمر البيت، والرَّفادة، والسقاية، وأمر الحجيج، وغير ذلك^(٢).

وكان المطلب شريفاً مُطاعاً، وكانت قريش تسميه: الفَيَّاض لسخائه، وهو عَقَد الحلف بين النجاشي وبين قريش، فلما أدرك عبد المطلب، خرج المطلب إلى اليمن تاجراً، فتوفي بمكان يقال له: رَدْمَان^(٣)، فولي شيبة مكانه، وكان للمطلب من الولد: الحارث، وهاشم، ومخرمة، وعباد، وأنيس، وأبو عمرو، وأبو رُهم الأكبر، وأبو عمر^(٤)، ومحسن، وعلقمة، وبنات.

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٦٣-٦٤، و«أنساب الأشراف» ١/٧٤-٧٥، و«تاريخ الطبري» ٢/٢٤٧-٢٤٨ و«المنتظم» ٢/٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر «السيرة» ١/١٣١، و«الطبقات الكبرى» ١/٦٤، و«المنتظم» ٢/٢٠٧.

(٣) في النسخ: «رمدان» والمثبت من «الطبقات» ١/٦٤، وانظر «معجم البلدان» ٣/٤٠.

(٤) في «ك»: «أبو عمران»، وانظر «نسب قريش» ص ٩٢.

ذكر وثوب نؤفل بن عبد مناف على أخيه شيبة^(١):

ولما مات المطلب، وثب نؤفل على أركاح^(٢) لشيبة فغصبه إياها، فسأل عبد المطلب رجلاً من قومه النصرة على عمه فأبوا، وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، فكتب إلى المدينة إلى أخواله من بني النجار يذكر ما فعل به عمه نؤفل، وقال: [من السريع]

من مُبلِّغ قومي على بُعديهم أني منهم وابئُهُم والخميس
بأن عمي نؤفلاً قد أبى إلا التي يُغضي عليها الخسيس
وقال هشام بن الكلبي: إنه كتب أبياتاً منها: [من البسيط]

يا طول ليلي لأحزاني وأشغالي هل من رسول إلى النجار أخوالي
يُنبي عدياً وديناراً ومازنها ومالكاً عضة الجيران عن حالي
قد كنت فيهم وما أخشى ظلامه ذي ظلم، عزيزاً منيعاً ناعم البالي
حتى ارتحلت إلى قومي وأزعجني لذاك مُطلب عمي بترحالي
فغاب مُطلب في قعر مظلمة ثم انبرى نؤفل يعدو على مالي
أأن رأى رجلاً غابت عمومته وغاب أخواله عنه بلا وال
أخنى عليه ولم يحفظ له رجماً ما أمنع المرء بين العم والخال
فاستنفروا وامنعوا ضيم ابن أختكم لا تخذلوه فما أنتم بخذال

فلما وقف خاله أبو سعد بن عدي^(٣) النجاري على كتابه بكى، وسار من المدينة في ثمانين راكباً حتى نزل مكة ونزل الأبطح، فلتقاه عبد المطلب وقال له: المنزل يا خال، فقال: لا والله حتى ألقى نؤفلاً، فقال: تركته في الحجر جالساً في مشايخ قريش، فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم، فقام نؤفل قائماً وقال: يا أبا سعد أنعم صباحاً، فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحاً، وسل سيفه وقال: ورب هذه البنية لئن لم تردن على ابن أختي أركاحه لأملأن منك هذا السيف، فقال: قد رددتها عليه، فأشهد عليه

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٢٤٨-٢٥١، و«أنساب الأشراف» ١/٧٩-٨٠.

(٢) الأركاح: الساحات والأفنية.

(٣) في تاريخ الطبري ٢/٢٤٩: أبو أسعد بن عدس.

مشايخ قريش، ثم نزل على شيبة وأقام عنده ثلاثاً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة، فقال عبد المطلب:

ويأبى مازن وبنو عديّ ودينار بن تيم الله ضيمي
بهم ردّ الإله علي رُححي وكانوا في انتسابٍ دون قومي

ذكرُ الحلفِ الذي جرى بين نوفل وبين عبد شمس على بني هاشم

وحالفت بنو هاشم خزاعة على بني عبد شمس وبني نوفل، وكان ذلك سبباً لفتح مكة لما نذكر، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب، قالوا: نحن ولدناه كما ولده بنو النجار، فنحن أولى بنصرته. ومعنى هذا: أن عبد مناف جد عبد المطلب، أمه حُبَي بنت حُلَيْل بن حُبْشِيَّة سيد خزاعة، فقالوا لعبد المطلب: هلم فلتتحالف. فدخلوا دار الندوة، وتحالفوا، وتعاهدوا، وكتبوا بينهم كتاباً كتب لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ولم يحضره أحد من بني نوفل ولا من بني عبد شمس، وعلقوه في الكعبة، وصورته: باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه بنو هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصر والمواساة، ما بلّ بحر صوفة، وما أشرفت الشمس على ثبير، وحنّ بفلاةٍ بعير، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان. وتزوج عبد المطلب يومئذ لبني بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر، فولدت له: أبا لهب، وتزوج ممنة بنت عمرو بن مالك بن نوفل^(١)، فولدت له: العيذاب.

حديث الاستسقاء بعبد المطلب^(٢):

قال مخزومة بن نوفل: عن أمه رُقَيْقَةَ بنت [أبي] صَيْفِي - وكانت امرأة عبد المطلب - قالت: تابعت على قريش سنون، أقحلتِ الضرعَ، وأدقت العظم، فبينما أنا نائمة بهمهم - أو مهمومة - إذا بهاتف يصرخ بصوت صَحْلٍ^(٣) يقول: يا معاشر قريش، إن هذا النبي

(١) في أنساب الأشراف ١/٨٣: مؤمل.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٧٠-٧١، و«أنساب الأشراف» ١/٩٤-٩٥، و«دلائل النبوة» ٢/١٥، و«المنتظم» ٢/٢٧٥، والسيرة الشامية ٢/١٧٨.

(٣) الصوت الصحيح: الذي فيه بحة.

المبعوث فيكم، قد أظلتكم أيامه، وهذا إِبَانُ نُجُومِهِ، فحَيَّ هَلَا بِالْحَيَا^(١) وَالخِصْبِ،
 أَلَا فَانظُرُوا رَجُلًا مِنْكُمْ وَسَيْطًا، عُظَامًا، جُسَامًا، أَيْضًا بَضًّا^(٢)، أَوْطَفَ^(٣) الْأَهْدَابِ،
 سَهْلَ الْخَدَّيْنِ، أَشَمَّ الْعَرْنَيْنِ^(٤)، لَهُ فخر يَكْظُمُ عَلَيْهِ^(٥)، وَسُنَّةٌ تَهْدِي إِلَيْهِ، فليخلص هو
 وولده، وليهبط إليه من كل بطن رجل، فليشئوا من الماء، وليمسوا من الطيب، ثم
 ليستلموا الركن، ثم ليرتقوا أبا قَيْسٍ، فليستسق الرجل، وَلِيُؤْمِنِ الْقَوْمُ، فغِثْمٌ مَا شِئْتُمْ.
 قَالَتْ رُقَيْقَةُ: فَأَصْبَحْتُ وَاللَّهِ مَذْعُورَةً، قَدْ اقشَعَرَ جِلْدِي، وَوَلَّهَ عَقْلِي، وَاقْتَصَصْتُ
 رُؤْيَايَ، فَوَالْحَرَمَةَ وَالْحَرَمَ مَا بَقِيَ أَبْطَحِي إِلَّا وَقَالَ: هَذَا لِشَيْبَةَ الْحَمْدِ، وَتَمَامَتْ إِلَيْهِ
 رَجَالَاتُ قَرِيْشٍ، وَهَبَطَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنِ رَجُلٍ، فَشَنُّوا، وَمَسُّوا، وَاسْتَلَمُوا، ثُمَّ ارْتَقَوْا
 أبا قَيْسٍ، وَطَبَّقُوا جَانِبِيهِ فَمَا يَبْلُغُ سَعِيهِمْ مَهْلَهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَوْا بِذُرُوءِ الْجَبَلِ، قَامَ عَبْدُ
 الْمَطْلَبِ وَمَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، غَلَامٌ قَدْ أَيْفَعُ أَوْ كَرَبٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَادَّ الْخَلَّةِ،
 وَكَاشَفَ الْكُرْبَةَ، أَنْتَ تَعْلَمُ غَيْرَ مُعَلَّمٍ، وَمَسْئُولٌ غَيْرَ مَبْخَلٍ، وَهَذِهِ عِبْدَاؤُكَ وَإِمَاؤُكَ
 بَعْدِرَاتٍ^(٦) حَرَمَكَ يَشْكُونَ إِلَيْكَ سَنَّتَهُمْ، أَذْهَبَتِ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ، اللَّهُمَّ فَأَمَطِرْ عَلَيْنَا
 غَيْثًا مُغِيثًا مُغْدِقًا مَرِيْعًا، فَوَالْكَعْبَةَ مَا رَامُوا حَتَّى تَفْجُرْتَ السَّمَاءَ بِمَائِهَا، وَاکْتِظِ الْوَادِي
 بِشَجِيحِهِ فَلَسَمِعْتَ [شَيْخَانَ] قَرِيْشٍ وَجَلَّتْهَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ^(٧)، وَحَرْبُ بْنُ أُمِيَّةَ،
 وَهَاشِمُ بْنُ الْمُغِيرَةَ الْمَخْزُومِيَّ، يَقُولُونَ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ: هِنِيئًا لَكَ أبا الْبَطْحَاءِ، أَي:
 عَاشَ بِكَ أَهْلُ الْبَطْحَاءِ.

وفي ذلك تقول رقيقة بنت أبي صيفي: [من البسيط]

بشيبَةَ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَتَنَا لَمَّا فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلَوذَ الْمَطَرُ
 مُبَارَكِ الْأَمْرِ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عِذْلٌ وَلَا خَطَرُ

(١) الحيا: الغيث.

(٢) البضاضة: رقة اللون وشفاهة الذي يؤثر فيه أدنى شيء.

(٣) الوطف: طول شعر العين مع سعتها.

(٤) العرنين: الأنف.

(٥) يكظم عليه: لا يبيديه ولا يظهره.

(٦) العذرات: جمع عذرة، وهي فناء الدار.

(٧) في (خ) بدل هذه العبارة: فجاءت إليه قريش يهثون: عبد الله بن جدعان.

مَنَّا مِنْ اللَّهِ بِالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ وَخَيْرٌ مِنْ بُشْرَتِ يَوْمًا بِهِ مُضَرُّ^١ ولما سقى الله الناس، لم تصل الحياة إلى بلاد قيس ومضر، فاجتمعوا إلى زعمائهم وقالوا: قد أصبحنا في جذب وجهد، وقد سقى الله الناس بعبد المطلب، وإنه استسقى فسقي، وشفع فشفع، فاقصدوه لعله يسأل الله فيكم. فقدموا مكة، ودخل خطباؤهم وساداتهم عليه فحيّوه بالسلام فقال: أفلحت الوجوه. وقام خطيبهم وقال: نحن ذو رحمك الواشجات، وقد أصابتنا سنون مجذبات، وقد بان لنا أثرك، ووضح عندنا خبرك، فاشفع لنا إلى من شفّعك، وأجرى الغمام لك ومعك، فقال عبد المطلب: سمعاً وطاعة يا أقرب القربات، موعدكم عرفات. ثم أصبح غادياً إليها، وخرج الناس معه وولده ورسول الله ﷺ غلام، فنُصِبَ لعبد المطلب كرسيٌّ أو سريرٌ، فجلس عليه، وأخذ رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم قال عبد المطلب ورفع يديه ثم قال: اللهم رب البرق الخاطف والرعد القاصف، ربّ الأرباب، ومُليّن الصّعاب، هذه قيس ومضر من خير البشر، قد شعثت رؤوسها، وحدثت ظهورها، يشكون إليك شدة الهزال، وذهاب النفوس والأموال، اللهم فأسحّ لهم سحاباً خوّارة، وسماءً خرّارة، لتضحك أرضهم، فيزول ضرهم. قال: فما استتم كلامه حتى نشأت سحابةٌ دكّناء لها دويٌّ، وقصدت نحو بلادهم، فقال عبد المطلب: يا معاشر قيس ومضر، انصرفوا فقد سُقيتم. فرجعوا وقد سقوا.

قصة عبد المطلب مع ابن ذي يزن^(١):

قال محمد بن السائب الكلبي: لما ملك سيف بن ذي يزن اليمن، وأباد عنها الحبشة، وفد عليه أشراف العرب للتهنئة، وكان من أشرافها خمسة: عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وعبد الله بن جُدعان، وخويلد بن أسد، ووهب بن عبد مناف بن زهرة^(٢)، وكان ابن ذي يزن بعمدان وهو قصره بصنعاء، فلما علم بهم جلس لهم على سريره - وكان من الذهب - ، ولبس ثياب الملك، ووضع على رأسه التاج،

(١) انظر «تاريخ يعقوبي» ١٢/٢، و«أخبار مكة» للأزرقي ١٤٩/١، و«تاريخ دمشق» ٣٥٧/١، و«المنتظم» ٢/٢٧٦، و«البداية والنهاية» ٣٠٥/٢.

(٢) في النسخ: «زهيرة» والصواب ما أثبتناه، انظر «نسب قريش» ص ٢٦١.

وتضمَّخَ بالغالية، وجعل بين يديه^(١) سيفاً مسلولاً، واستدعى بهم، فدخلوا عليه وملوك حمير عن يمينه وشماله، ووضع الكرسي فاستأذنه عبد المطلب في الكلام وقام قائماً، فقال له سيف: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فتكلم. فقال عبد المطلب:

أما بعد، فإن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً منيعاً، وأنتك نباتاً طابت أرومته، وعزّت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه بأكرم معدن وأطيب موطن، فإنك - أبيت اللعن - رأس العرب الذي تنقاد إليه، وعمودها الذي تعتمد عليه، وسائسها الذي يقوم بأمرها، ومقلها الذي تلتجئ إلى ذراه، سلفك لنا خير سلف، وأنت لنا منهم خير الخلف، ولن يجهل من تقدم سلفه، ولم يهلك من أنت خلفه. أيها الملك، نحن أهل بيت الله وسكان حرمة وسدنة كعبته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة لا وفد المرزئة^(٢).

فقال له ابن ذي يزن: من أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم. فقال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فقال: ادنه، فدنا منه، فأقبل عليه وقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، ومُلكاً رِبْحَلاً^(٣)، يعطى عطاءً جزلاً، قد سمع الملك مقالتك، وعرف قرابتك، أنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والجباة إذا ظعتتم، أنتم قريش الأباطح، أهل الشرف والفضل، والسناء والمجد، وأنت يا عبد المطلب ربيع الأنام وسيد الأقوام.

ثم أنزلهم دار الضيافة، وأجرى عليهم الإنزال، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب من بينهم خاصة، فأتاه فأجلسه معه على سريره، وقال له: يا ابن هاشم إني مفض إليك من سري ما لو كان غيرك لم أبح به، ولكني رأيتك أهلاً له وموضعه، فليكن عندك مطوياً حتى ينفذ الله أمره، ثم قال: إني لأجد في الكتاب الناطق، والعلم الصادق الذي اخترناه لأنفسنا واحتجنا^(٤) دون

(١) في (خ): «عينه».

(٢) المرزئة: جمع رُزء، وهو المصيبة بفقد الأعزة. «اللسان»: (رزأ).

(٣) الرجل: العظيم الشأن.

(٤) احتجن الشيء: احتوى عليه «اللسان»: (حجن).

غيرنا، خيراً عظيماً وخطباً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، هو لك خاصة، ولقومك عامة.

فقال: أيها الملك، لقد أُبْتُ بخير ما آب به [وافد]^(١) فخبر، ولولا هيبة الملك لسألته من كشف بشارته إياي ما أزداد به سروراً، فقال: نبيُّ هذا حينه الذي يولد فيه، اسمه محمد وأحمد، خَدَلَجُ الساقين، أكحل العينين، في عينيه علامة، وبين كتفيه شامة بيضاء^(٢)، كأنَّ وجهه فلقة قمر، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وقد ولدناه مراراً والله باعِثُهُ جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً يُعزُّ بهم أوليائه، ويخذل بهم أعداءه، يضربون دونه الناسَ عن عرض، ويفتح الله بهم كرائم الأرض، يكسر به الأوثان، ويُعبد الرحمن، ويُدخضُ به الشيطان، وتخدم النيران، قوله فصل، وحكمه عدل، فقال له عبد المطلب: عَزَّ جَدُّكَ، وعلا كَعْبُكَ، وطال عُمرُكَ، أفصح لي إفصاحاً، وأوضح لي إفصاحاً.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحُجُب، والعلامات على النُّصب، إنك لجده يا عبد المطلب من غير كذب. فخر عبد المطلب ساجداً، ثم رفع رأسه، فقال له الملك: ثَلَجَ صدرُكَ، وعلا أمرُكَ، وبلغت أملك في عَقِبِكَ، هل أحسست مما قلتُ شيئاً؟ قال: نعم، كان لي ولد كنتُ عليه شفيقاً، وبه رفيقاً، زوجته كريمة من كرائم قومي اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام فيه كلُّ ما ذَكَرَ الملك. فقال له: فاحتفظ به من اليهود فإنهم أعداؤه ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، والله مُظهِرُ دعوته، وناصر شريعته، فأغضَّ على ما قلت لك، واستره دون هؤلاء الرهط الذين معك، فلست آمن أن تدخلهم النفاسة في أن تكون لك الرياسة، فينصبوا لك الحبائل، ويغتالوا لك الغوائل، وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم، ولولا علمي أن الموت مجتاحي قبل مخرجه، لسرت إليه بخيلي ورجلي، وصيرت يثرب دار ملكي حيث يكون فيها خبره، فأكون وزيره وصاحبه، ومشيره وظهيره على من عاداه وعانده وناوأه، فإننا نجد في العلم المصون والسر المكنون، أن يثرب دار مُلكه، وبها استحكام أمره، وتربتها موضع قبره، ولولا الذمامة بعد الزعامة،

(١) ما بين معقوفين زيادة من المصادر.

(٢) في (ك): «أبيض بض».

وصغر سنه، لأظهرت أمره وأوطأت العرب كعبه.

ثم أمر لكل واحد من القوم بمئتي بعير وعشرة أعبد وعشرة إماء، وعشرة أرطال فضة، وخمسة أرطال ذهب، وكِرش مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا كان في رأس الحول، فأتني بخبره وما يحدث من أمره. فتوفي الملك قبل رأس الحول، وكان عبد المطلب يقول لأصحابه: لا تغبطوني بعطاء الملك وجزيله، ولكن اغبطوني بما أسره إلي، فيقولون: وما الذي أسره إليك؟ فيقول: ما شاء الله ويسكت. وكان كلما رأى من النبي ﷺ مخايل ما قال له الملك، يقول: أنا أبو الحارث، ما رميت غرضاً إلا أصبته.

وكانت هذه الوفادة ولرسول الله ﷺ ثلاث سنين.

وقال ابن سعد: أول من خضب بالسواد من قريش: عبد المطلب، كان قد سافر إلى اليمن، فنزل على رجل من حمير - وكان قد شاب - فعلمه الخضاب، فلما قدم مكة، كأن شعره من حلك الغراب، فقالت له زوجته نائلة بنت جناب بن كليب أم العباس: يا شيبة^(١)، ما أحسن هذا لو دام، فقال عبد المطلب: [من الطويل]

لو دام لي هذا السواد حمدته	وكان بديلاً من شبابٍ قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة	ولا بُدَّ من موتٍ يُواتي ومن هرم
وماذا الذي يُجدي على المرء خفضه	ونعمته يوماً إذا عرَّشه انهدم

ثم خضب أهل مكة بالسواد.

وقال ابن إسحاق: كان عبد المطلب من سادات قريش جسيماً وسيماً محافظاً على العهود والأمانات، متخلِّقاً بمكارم الأخلاق، يحب المساكين، ويعظم الظلم، ويقمع الظالمين، ويقوم بالحجيج، ويُطعم في الأزمان، ويكثر الصدقة والطواف، إذا أهلَّ رمضان دخل غار حراء يتعبد فيه طول الشهر، ورأى رجلاً يضرب رجلاً وليس له ناصر، فقال: يوشك أن يكون لنا دار أخرى، وقال: إن كان للقطيع راع، فسيقتصَّ للجَمَاءِ من القرناء، وإن لم يكن فالمصيبة بفقده أعظم. وكان يطعم حتى الوحوش

(١) في (خ): شيب، وفي (ك): شيب، والمثبت من «الطبقات الكبرى» ٦٧/١-٦٨.

والطيور في رؤوس الجبال، وفيه يقول أبو طالب: [من الطويل]
 ونطعمُ حتى يأكل الطيرُ فضلنا إذا جُعِلت أيدي المُفِضين تُرْعَد
 ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحده الله، وسنناً كثيرة نزل القرآن
 بأكثرها، وجاءت السنة من رسول الله ﷺ بها، فمنها: الوفاء بالندى، ومئة من الإبل في
 الدية، ولا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي
 عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا والحد عليه، ولم يشرب الخمر، وسن أن لا
 يطوف بالبيت عُريان، ولا ينفقون في الحج إلا من طيب أموالهم، وإضافة الضيف،
 وتعظيم الأشهر الحرم إلى غير ذلك^(١).

ودخل دَغْفَلُ النَّسَابَةِ على معاوية بن أبي سفيان، وكان من المُعَمَّرِينَ، فقال له: من
 رأيت من عِلَّةِ قريش؟ فقال: عبد المطلب وأمّية بن عبد شمس، فقال: صفهما، فقال:
 كان عبد المطلب أبيض بضاً مديداً القامة، حسن الوجه، شديد العارضة، في جبينه نور
 النبوة، وعِزُّ المُلْكِ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسدٌ غاب، قال: فَصِفْ لي أمّية؟
 فقال: رأيت شيخاً قصيراً أعمى، نحيف الجسم، يقوده عبده ذكوان، فقال معاوية: مه،
 ذلك ابنه عمرو؟ فقال دَغْفَلُ: هذا شيء أحدثتموه أنتم، فأما الذي رأيت أنا فقد أخبرتك.

ذكر وفاة عبد المطلب:

توفي في السنة الثامنة من مولد النبي ﷺ.

سئل رسول الله ﷺ: أتذكر يوم وفاته؟ قال: «نعم، كان ذلك وأنا ابنُ ثمانِ
 سنين»^(٢).

وقال مخرمة بن نوفل الزهري: توفي عبد المطلب وقد قاربت عشرين سنة، وإن
 أمي رُقَيْقَةُ بنت أبي صيفي لتقول لي: شق ثوبك على خالك، فمن تستبقيه بعده. ونظرت
 إلى نساء بني عبد مناف قد جززن شعورهن^(٣).

(١) انظر «تاريخ يعقوبي» ١٠/٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ٥١/١، وانظر «الطبقات الكبرى» ٩٧/١.

(٣) انظر «أنساب الأشراف» ٩٦/١.

واختلفوا في سنه على أقوال:

أحدها: أنه عاش ثمانين سنة^(١)، والثاني: مئة وعشر سنين وعشرة أشهر.

والثالث: مئة وعشرين سنة.

ودفن بالحجون عند جده قصي.

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ جَدِّي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِي زِيِّ

الْمَلُوكِ وَأُبْهَةَ الْأَشْرَافِ»^(٢).

ذكر أولاده:

كان لعبد المطلب ثلاثة عشر ذكراً، وقيل: هم اثنا عشر، وقيل: أحد عشر، وقيل:

عشرة، وست بنات. فالذكور: الحارث كان أكبر ولده، وبه كان يُكْنَى، توفي في حياة أبيه في السنة التي نحر فيها أبوه الإبل عن عبدالله، وأمه صفية بنت جُنْدَب بن عامر بن صَعْصَعَة، ولم يدرك الإسلام، وأسلم من أولاده نوفل، وربيعة، وأبو سفيان، وعبدالله.

وقُتِمَ بن عبد المطلب شقيق الحارث، مات صغيراً في حياة أبيه قبل مولد رسول الله

ﷺ بثلاث سنين، فَوَجِدَ عليه أبوه وَجْداً شديداً، فلما ولد رسول الله ﷺ سماه عبدالمطلب قُتْمًا لِحبه لِقُتْمٍ، فأخبرته آمنة أنه قيل لها: سميه محمداً، فسماه محمداً.

والزبير بن عبدالمطلب، كان شقيق عبدالله والد رسول الله ﷺ، وكان أشد قريش

شكيمةً، ورئيس بني هاشم وبني المطلب في حروب الفجار وغيرها شريفاً شاعراً،

وأوصى إليه عبدالمطلب ولم يدرك الإسلام، وكان له من الولد: عبدالله، أسلم

وصحب رسول الله ﷺ، وجاهد في سبيل الله، وكان رسول الله ﷺ يحبه ويقول: ابن

عمي وحبي. واستشهد بأجنادين. وحجّل بن الزبير^(٣)، واسمه: المغيرة، درج،

(١) في «الطبقات الكبرى» ٩٧/١، و«المنتظم» ٢٨٢/٢: اثنتان وثمانين.

(٢) ذكره اليعقوبي في تاريخه ١٤/٢.

(٣) هكذا جاء عندنا في النسخ، وهو كذلك عند الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» ٨٠٧/٢، وابن ماكولا في «الإكمال» ٥٠/٢، وابن حجر في «التبصير» ٢٤٤/١، و«نزهة الألباب» ١٩٦/١، ولم يرد عند ابن =

وضُّبَاعَة، ومُرَّة، وقُرَّة، وأم الحكم، وصَفِيَّة، وعاتكة.

وحَمْزَةُ بن عبد المطلب ﷺ، أمه: هالة بنت أهيب بن عبدمناف بن زُهْرَة أخت آمنة أم رسول الله ﷺ.

والعباسُ بن عبد المطلب: كنيته: أبو الفضل، وأمّه، نُتَيْلَةُ بنت جناب الكلبيّة.

وأما أبو طالب بن عبد المطلب فاسمه: عبد مناف وهو شقيق عبد الله بن عبد المطلب.

وأما أبو لهب فاسمه عبد العزى، وكنيته أبو لهب لجمال وجهه، أمه: لبنى بنت هاجر من عبد مناف بن ضاطر خزاعية، مات عقيب يوم بدر بيسير.

وكان له من الولد: عتبة، وبه كان يكنى، ومعتب أسلم هو وعتبة يوم الفتح، فسّر رسول الله ﷺ بإسلامهما، ودعا لهما، ومشيا إلى جانبه وهو بينهما، وقال: «الحمد لله الذي أيّدني بكما»^(١). وشهدا الطائف وحينئذ مسلمين، وفُتت عين معتب يومئذ، وأقاما بمكة مسلمين، وعُتبية أكله السبع بالشام كافراً^(٢) في سنة اثنتي عشرة من النبوة. ومن أولاد عتبة: العباس بن الفضل بن عتبة الشاعر، وكان لمعتب ابن اسمه: مسلم، يُشَبَّه برسول الله ﷺ، وشهد معه وقعة حنين.

ودُرَّة بنت أبي لهب، وغرة بنت أبي لهب، وخالدة بنت أبي لهب.

وحَجَل، وكان ابن عبد المطلب، واسمه: المغيرة وهو شقيق حمزة ﷺ يُكنى

= الكلبي في «جمهرة الأنساب» ١٦/١، ومصعب في «نسب قريش» ص ١٧، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١٠٣/١ إلا حجل بن عبدالمطلب، واسمه المغيرة. ولكن ذكر صاحب كتاب «الإيناس بعلم الأنساب» أن للزبير ولداً اسمه حجل فقال: ومن قول الزبير:

تذكرت ما شفني إنما	يهيج ما شفنه الذاكر
ويمنعه النوم حتى يقال	به سقم باطن ظاهر
فلو أن حجلاً وأعمامه	شهود وقرة والظاهر

حجل وقرة والظاهر، بنو الزبير، وقد كان له أخ يقال له: حجل أيضاً. اهـ. والله أعلم.

(١) لم نقف عليه في حق عتبة ومعتب، وإنما هو في حق أبي بكر وعمر ﷺ، كما أخرجه الحاكم ٧٤/٣، وضعفه الذهبي في «التخليص» والحافظ في «الإصابة» ٥/٤.

(٢) انظر «نسب قريش» ص ٨٩.

أبا قُرَّة، وكان حَجَلٌ أصغر من المقومِ بسنة فاستكمل عمره.

وضرار بن عبدالمطلب شقيق العباس، وكنيته: أبو عمرو^(١)، وكان من فتيان قريش، وكان أسنَّ من العباس بسبع سنين، ومات ضرار في أيام أُوحِي إلى النبي ﷺ، وكان شاعراً، ولم يتزوج ولم يولد له.

والمُقوم بن عبد المطلب شقيق حمزة رضي الله عنه، وكنيته: أبو بكر، مات عبد المطلب وهو ابن خمس عشرة سنة. ومات المقوم قبل المبعث بثلاث سنين، وقيل: بست سنين، وكان له بنات: هند، وأروى، وأم عمرو^(٢)، وفاخته.

والغيداق بن عبد المطلب، واسمه: مصعب، وقيل: نوفل، وكان أجود قريش، وأمه: ممتعة^(٣) بنت عمرو بن مالك الخزاعي، وأخوه لأمه: عوف بن عبدعوف الزهري والد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

وأم حكيم وهي البيضاء وقبة الديباج^(٤)، كانت في الجاهلية عند كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب^(٥) بن عبدشمس، فولدت له: عامراً، وطلحة، وأم طلحة، وأروى.

فتزوج أروى عَفَّانُ بن أبي العاص بن أمية، فولدت له: عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم خلف عليها عُقبة بن أبي مُعَيْط، فولدت له: الوليد بن عقبة وخالداً وأم كلثوم، ولم تُسلم أم حكيم، وكانت توأمة عبدالله، ووُلدا في بطن واحد، أم عبد الله أولاً، ثم ولدت بعده، وعاشت ابنتها أروى أم عثمان - رضي الله عنه - إلى خلافة ابنها، وتوفيت فصلى عليها، ثم انصرف عن قبرها وهو يقول: اللهم اغفر لأمي.

ماتت أم حكيم بعد المبعث ولها سبعون سنة، وهي القائلة: إني لحصانٌ فما أُكَلِّمُ، وصنَّاعٌ فما أُعَلِّمُ^(٦).

(١) في (خ): «أبو عمر».

(٢) في (خ): «أم عمر».

(٣) في (ك): «ممتعه»، والمثبت من (خ)، و«الطبقات الكبرى» ٧٤/١، و«أنساب الأشراف» ١٠٣/١.

(٤) انظر «الكامل» للمبرد ٩١٦/٢، ونسب قريش ١٧، وطبقات ابن سعد ٧٣/١ و٤٥/١٠، وأنساب الأشراف ١٠٠، والمعارف ١١٨، والتبيين ١٧٣.

(٥) في النسخ: «جندب»، والصواب ما أثبتناه انظر «نسب قريش» ص ٧٩ و١٤٧، و«أنساب الأشراف» ١٠٠/١.

(٦) انظر «تاريخ دمشق» ٧/٣٩.

وبرّة بنت عبد المطلب: كانت عند عبد الأسد بن هلال المخزومي، فولدت له أبا سلمة، وبرّة شقيقة عبد الله.

وعاتكة بنت عبد المطلب شقيقة عبد الله، وكانت عند أبي أمية بن المغيرة المخزومي، فولدت له عبد الله، أسلم وله صُحبة، وزهيراً وقريبة. وعاتكة هذه هي صاحبة المنام قبيل يوم بدر، واختلف في إسلامها.

وصفية بنت عبد المطلب رضي عنها، شقيقة حمزة رضي عنه، أسلمت وهاجرت وهي أمّ الزبير بن العوّام رضي عنه، وروّت الحديث عن النبي ﷺ.

وأروى بنت عبد المطلب، اختلف في إسلامها.

وأُميمة بنت عبد المطلب كانت عند جحش بن رثاب حليف بني أمية، فولدت له عبد الله وأبا أحمد، وعبيد الله وزينب وحمّة^(١).

فأما عبد الله فقُتِل يوم أحدٍ شهيداً، وشهد بدرًا، وأما أبو أحمد فكان شاعراً وكان أعمى، واسمه: عبْد، وأما عبيد الله فأسلم ثم تنصّر بالحبشة، فمات كافراً. وأما زينب فتزوجها رسول الله ﷺ. وأما حمّة فحدّثها رسول الله ﷺ في قذف عائشة رضي عنها.



السنة التاسعة من مولده ﷺ

وفيها خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة، وأوصى أولاده برسول الله ﷺ، فلما وصل إلى بصرى نظر في أمر اليهود فخاف عليه منهم، فرجع إلى مكة^(٢).



(١) وزاد في «نسب قريش» ص ١٩: حبيبة بنت جحش.

(٢) كذا، وفي المنتظم ٢/٢٨٩ أن أبا طالب خرج برسول الله ﷺ إلى بصرى وهو ابن تسع ولم أقف على من أورد سياق المصنف.

السنة العاشرة من مولده ﷺ

وفيهما كانت الفجارات، وكانت الدائرة فيها لقريش على قيس، وإنما سميت هذه الحروب فجاراً، لأنها كانت في الأشهر الحرم. قال أبو عبيدة: لأنهم فجروا فيها فاستباحوا الأموال والنفوس. قال خدّاش بن زهير: [من الطويل]:

فلا تُوعِدُونِي بِالْفِجَارِ فَإِنَّهُ أَحَلَّ بَبَطْحَاءِ الْحِجَارِ الْمُحَارِمَا
وقال هشام بن محمد: كان الفجار الأول: بين كنانة وهوازن، والثاني: بين قريش وكنانة، والثالث: بين نصر بن معاوية وبين كنانة، والرابع: بين قريش وهوازن.

الفجار الأول: وسببه أن بدر بن معشر الكناني كان منيعاً، ورد سوق عُكاظ، وكان له مجلس يجلس فيه ويفتخر، ويشمخ على الناس ويقول: [من الرجز]

نحن بنو مُدْرِكَةَ بنِ خَنْدِفٍ
مَنْ يَطْعَنُوا فِي عَيْنِهِ لَمْ يَطْرَفِ
وَمَنْ يَكُونُوا قَوْمَهُ يُعْطَرِفِ
كَأَنَّهُمْ لُجَّةٌ بَحْرِ مُسْدِفٍ^(١)

وكان يمدّ رجله وكان [يقول: أنا]^(٢) أعزُّ العرب، فمن ادّعى أنه أعز مني فليضربها، فوثب عليه رجل من هوازن - وقيل: من بني نصر بن معاوية - يقال له: الأحيمر بن مازن، فضربه بالسيف على ركبته، فجرحه جرحاً يسيراً - وقيل: إنه أندرها، والأول أصح - ثم قال:

خذها إليك أيها المُخَنْدِفِ
نحن بنو دهمان ذو التَّغَطْرِفِ
نحنُ ضربنا ركبَةَ المعجرفِ
إذ مدّها في أشهرِ المعرفِ^(٣)

(١) مسدف: مظلّم.

(٢) ما بين معقوفتين زيادة من «العقد الفريد» ٢٥١/٥.

(٣) جعله ابن الجوزي في «المنتظم» ٢٩٠/٢ من كلام رجل آخر من هوازن.

ونشبت الحربُ، ثم نظروا فإذا الخطب يسير فكفوا.

الفجار الثاني: اجتمع شباب من كِنانة في سوق عُكاظ، وفيه امرأة من بني عامر وَسِيمَةٌ جَسِيمَةٌ، جالسة وعليها دِرْعُهَا، فسألوها أن تُسْفِرَ عن وَجْهِهَا فأبت، فجاء أحدهم من خلفها فحل طرف درعها وشده إلى ما فوق عَجْزِهَا بشوكة، فلما قامت ارتفع درعها، فبدت عورتها فضحكوا، وقالوا: منعينا النظر إلى وجهك، وَجُدْتِ لَنَا بالنظر إلى دُبْرِكَ. فنادت: يا آل عامر، فأجابوها. ونادى الشباب: يا آل كِنانة. وتناور الحَيَّانِ واقتتلوا، ووقعت بينهم دماءٌ كثيرة، فتوسطها حرب بن أمية، وأرضى بني عامر من مُثَلَّةٍ صاحبتهم.

الفجار الثالث: وسببه أن رجلاً من بني كِنانة كان له على رجل من بني نَضْر بن معاوية دَيْنٌ، فوافى النَّصْرِي الكِنَانِي، فطالبه به وذكر قومه بسوء، وسمعه رجل من بني كِنانة، فقام إليه فضربه فقتله، وثار الحَيَّان واقتتلوا، ثم حمل الدين عبدالله بن جُدَعان من ماله واتَّفَقوا.

الفجار الرابع: وكان أعظَمَها، وكان الذي أهاجه: أَنَّ النعمان بن المنذر اللخمي ملكُ الحيرة كان يبعث^(١) في كل سنة إلى سوق عكاظ بِلَطِيمَةٍ - وهي التي تحمل الطيب وَبَزَّ التِّجَار - في جوار رجل شريف من أشرف العرب يُجِيرها له، فتباع ويُشترى له بها من أَدَمِ الطائف، وما يحتاج إليه، وكانت سوق عكاظ تقوم في كل يوم من ذي القعدة إلى انسلاخ المحرم، وقيل: أول يوم من ذي الحِجَّة، يتسَوَّقون بحضور الحج، ثم يحجون وينفصلون، وعكاظ بين نخلة والطائف، وكانوا إذا اجتمعوا أَمِنَ بعضهم بعضاً.

فلما جهز النعمان اللطيمة وعنده جماعة من العرب فيهم: البَرَّاضُ بن قيس أحد بني بكر بن عبدمناف بن كِنانة، والرَّحَّال، وهو عروة [بن عتبة] بن جعفر بن كلاب، فقال البَرَّاض: أجيئها على بني كِنانة؟ فقال النعمان: ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتِهامة، فقال الرَّحَّال - وهو يومئذ رجل من بني هوازن^(٢): أنا أجيئها لك. فقال

(١) في النسخ: «يُبعث إليه» والمثبت من العقد ٥/٢٥٣ وما سبق فيه، وما سيرد بين معكوفين منه.

(٢) في النسخ: «كِنانة» والمثبت من العقد الفريد.

البرّاض: أعلى بني كنانة تُجيرها؟ قال عروة: نعم، وعلى أهل الشّيح والقَيْصوم. ونال من البرّاض، وقال: أجيرها على الناس كلهم، فدفعها إليه النعمان وخرج بها الرّحّال، وتبعه البرّاض والرّحّال لا يخشى منه ولا من غيره شيئاً، فسار حتى نزل جانب فدك بأرض يقال لها: أواره^(١)، فشرب الخمر وغنّته القينات وسكر، فنام، وجاءه البرّاض فاستيقظ فحمل عليه، فقال الرّحّال: ناشدتك الله لا تقتلني فقد كانت مني زلة وهفوة، فلم يلتفت إليه وقتله، واستاق اللّطيمة نحو خبير وقال: [من الرجز]

قَدْ كَانَتْ الْغَفْلَةُ مِنِّْي ضَلَّه

هَلَّا عَلَى غَيْرِي جَعَلْتَ الزَّلَّةَ

فَسَوْفَ أَعْلُو بِالْحَسَامِ الْقُلَّةَ

وتبعه المُساور بن مالك العظفاني وأسد بن خثيم الغنوي، ولم يعلم بهما البرّاض حتى دخل خبير فرأهما، فقال: من أنتما؟ فانتسبا له، فقال: وما شأنكما بهذه الأرض التي ليست لكما بأرض؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا من أهل خبير. قالوا: هل لك علمٌ بالبرّاض؟ قال: نعم، دخل علينا طريداً، فلم يأوه أحدٌ منا، قالوا: فدُلّنا عليه. فقال: هو نائم خلف هذا الجدار، فنزلا وعقلا راحلتيهما، ودخلا فدخل وراءهما فقتلتهما وأخذ راحلتيهما وسلاحهما، ثم إن البرّاض لقي بشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر فأخبره الخبر، وقال: أخبر عبدالله بن جدعان وقريشاً، ومُرهم يوافوا سوق عكاظ، وخبر قيس بن عيلان خبر البرّاض، وما فعل الرّحّال، فثاروا وأجمعوا، وعليهم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر، ودريد بن الصّمة، ومسعود بن مغيث الثقفي أبو عروة، وكانت رايتهم بيد أبي براء، وهو المقدم عليهم، وخرجت قريش وعليهم عبدالله بن جدعان، وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية، وعتبة بن ربيعة، وانضافت إليهم كنانة، وأسد، وخزيمة، والأحابيش، والقارة، وعُضل، وعلى الجميع عبدالله بن جدعان، ولما اجتمعوا طلبوا قريشاً، فدخلوا الحرم ونادى حرب بن أمية - وقيل: رجل من بني عامر يقال له: الأدرم بن شعيب -: يا معاشر قريش، موعدكم هذا المكان من قابل،

(١) في النسخ: «امرى»!؟

فقال خدّاش بن زهير: [من البسيط]

يا شدّة ما شدّدنا غيرَ كاذبةٍ على سَخينةٍ لولا اللّيلُ والحَرَمُ
 لَمَّا رأوا خيلنا تُزجِي أعِنَّتها آسادُ غيلٍ حمى أشبالها الأجمُ
 وأقامت قريش تتأهب سنةً حتى التقوا في العام القابل، وقيل: التقوا في هذا
 العام، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الدائرة في أول النهار على قريش فقتلتهم قيس
 قتلاً ذريعاً، ثم كانت الدائرة في آخر النهار على قيس فقتلت منهم قريش مقتلة عظيمة،
 وحضر رسول الله ﷺ آخر النهار مع عمومته، ورمى فيه بأسهم وقال ﷺ: «كنتُ أنبئ
 فيه لأعمامي - أي: أناولهم النبئ - وما أحبُّ أني لم أخضر». ولما حجز بينهم الليل،
 باتوا على راياتهم، فلما أصبحوا نادى عُتبة بن ربيعة - وهو يومئذ شابٌ لم يبلغ ثلاثين
 سنة -: الصُّلحُ أصلح. فأجابوا وعدوا القتلى، وودت قريشُ قتلى قيس، ووضعت
 الحرب أوزارها.

وقال أبو عبيدة: أبت بنو كلاب أن تقتل البرّاض بالرحّال، لأنّ البرّاض كان خليعاً
 في كنانة، وكان الرّحال سيد هوازن، فأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش^(١).
 وكان لرسول الله ﷺ يومئذ عشر سنين، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: عشرون
 سنة، والأول أصح.

* * *

السنة الثانية عشرة من مولده ﷺ

فيها سمع رسول الله ﷺ كلاماً من فوق رأسه^(٢).

* * *

(١) «السيرة» لابن هشام ١/١٦٨، و«الطبقات الكبرى» ١/١٠٤، و«الكامل» ١/٥٨٩، و«المنتظم» ٢/٢٩٦.

(٢) انظر «المنتظم» ٢/٢٩١.

السنة الثالثة عشرة من مولده ﷺ

فيها خرج أبو طالب برسول الله ﷺ إلى الشام وهو ابن اثني عشرة سنة، وقيل: عشرون سنة، والأول أصح، فنزل الركب ببصري، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له، وكان ذا علم بالنصرانية، [ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها - فيما يزعمون - يتوارثونه كابراً عن كابر] (١)، وكان كثيراً ما يمرُّ به الركب فلا يكلمهم حتى إذا كان في ذلك العام نزلوا منزلاً قريباً من الصومعة كانوا ينزلونه، فصنع لهم طعاماً ودعاهم إليه، وإنما حملة على ذلك، أنهم حين طلوعوا رأى غمامة تظلُّ رسول الله ﷺ دون القوم، ولما نزلوا نزلوا تحت ظلِّ شجرة، فنظر إلى الغمامة قد أظلت تلك الشجرة فاخضلت أغصانها على رسول الله ﷺ دون القوم، ولما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام، فحضر وأرسل إلى القوم يقول: يا معاشر قريش، أحب أن تحضروا طعامي ولا يتخلف منكم صغير ولا كبير، ولا حرٌّ ولا عبد، فإن هذا شيء تكرموني به. فقال رجل منهم: إن لك لشأناً يا بحيرى، ما كنت تصنع بنا قبل هذا اليوم مثل هذا؟ فقال: إني أحب أن أكرمكم فلکم حق، فاجتمعوا، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لصغير سنه، فنظر بحيرى إلى الغمامة فلم يرها على رأس أحد من القوم وهي على رأس رسول الله ﷺ، فقال: ألم أقل لا يتخلفن أحد عن طعامي؟ فقالوا: ما تخلف أحد إلا غلام صغير وهو أوسطنا نسباً، وهو ابن أخي هذا الرجل - يعنون أبا طالب -، فقال أبو طالب (٢): والله إنه للوأم أن يتخلف عنا محمد. فقام الحارث فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه بين القوم، والغمامة على رأسه وبحيرى يلاحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى جسده فيجد ما يجد عنده من الصفة، فلما تفرقوا قام إليه الراهب، فقال: يا غلام، أسألك بالللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني بالللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً كبغضتي لها، قال: فبالله أخبرني، قال: سلني؟ فسأله عن أشياء حتى عن نومه والنبي ﷺ يخبره، فوافق ما عنده. فكشف عن ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فقبله. وجعلت قريش

(١) جاء في النسخ: «وكان ذا علم بالنصرانية صاغراً عن كابر، وفيها كتب يدرسونها» والمثبت من «سيرة ابن هشام» ١/١٦٥، والمنتظم ٢/٢٩٢، وانظر طبقات ابن سعد ١/١٢٨.

(٢) في «سيرة ابن هشام» أن القائل رجل من قريش، وعند ابن سعد أنه: الحارث بن عبد المطلب.

تقول: إن لمحمداً عند هذا الراهب قَدْرًا، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب، فقال بَحِيرَى لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو ابنك، وما ينبغي أن يكون أبوه حيًّا، قال: فإنه ابن أخي، قال: ما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حامل به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: هلكت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود. والله لئن عرفوا منه ما أعرفُ لَيَبْغُنَّهُ عَتًّا^(١)، وإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا، ونرويه عن أكابرنا. فلما فرغوا من التجارة عاد به أبو طالب سريعاً إلى مكة.

وكانت رجال من اليهود قد رأوا رسول الله ﷺ، وعرفوا صفة في التوراة فأرادوا أن يغتالوه، فذكروا ذلك لبَحِيرَى فنهاهم عنه أشدَّ النَّهي وقال: قد وجدتم صِفَتَهُ في التوراة، وأنه كائن لا محالة فلا سبيل لكم عليه، فتركوه، فما خرج به بعدها في سَفَرٍ خَوْفًا عَلَيْهِ^(٢).



السنة الرابعة عشرة من مولده ﷺ

فيها تحرَّكت قيس لحربِ قريش، فخرج إليها عبدالله بن جُدعان وشيخان قريش، فذكروهم الله فرجعوا^(٣).



السنة الخامسة عشرة من مولده ﷺ

فيها رُوي أن النبي ﷺ رأى قُس بن ساعدة الإيادي في سوقِ عكاظ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قدم وقد عبد قيس على رسول الله ﷺ فقال لهم: «ما فعل قُسُّ؟» قالوا: هلك. قال: «ما أنساه على جملٍ أورقٍ يخطبُ بسوقِ عكاظٍ ويقول: أيُّها

(١) في (خ): «والله لئن عرفوا منه ما أعرف لتبعته حيث كان وقتلوه».

(٢) انظر «سيرة» ابن هشام ١/١٦٥، و«الطبقات الكبرى» ١/١٢٨، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢/٢٦، و«المنتظم» ٢/٢٩٢.

(٣) هو حرب الفجار الأخير وقد تقدم ذكره قريباً، انظر «المنتظم» ٢/٢٩٦.

النَّاسُ، اجْتَمَعُوا وَاسْتَمِعُوا وَعُؤَا، مِنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ
 آتٍ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا، مَهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ،
 وَنَجُومٌ تَمُورٌ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ، أَقْسَمُ قُسٌّ قَسْمًا حَقًّا أَنْ لَلَّهِ تَعَالَى دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ
 دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، مَالِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ، أَرْضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ
 تُرِكُوا فَنَامُوا؟» ثُمَّ قَالَ: «أَيْكُمْ يَرُوي شَعْرَهُ؟»، فَأَنْشَدُوهُ: [مِنْ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

فِي الذَّاهِبِينَ الْأُولِي—
 لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ
 أَيَقْنَتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ
 نَ مِنْ الْقُرُونِ لَنَا بِصَائِرُ
 لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 يَمْضِي الْأَكْبَرُ وَالْأَصَاغِرُ
 وَلَا مِنْ الْبَاقِينَ غَابِرُ
 حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ^(١)

* * *

السنة السادسة عشرة من مولده ﷺ

شَعَثَ الْمَلُوكَ عَلَى هُرْمُزِ بْنِ أَنْوَشِرْوَانَ وَاتَّفَقُوا عَلَى قَصْدِهِ^(٢).

* * *

السنة السابعة عشرة من مولده ﷺ

فِيهَا وَصَلَ مَلِكُ التُّرْكِ وَيُقَالُ لَهُ: شَابَةُ إِلَى هَرَاةَ فِي أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ يَرِيدُ
 الْمَدَائِنَ لِقِتَالِ هُرْمُزٍ، وَقَصَدَهُ مَلِكُ الرُّومِ فِي مِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ وَوَصَلَ إِلَى الضَّوَاحِي،
 وَقَصَدَهُ مَلِكُ الْخَزَرِ وَبَابُ الْأَبْوَابِ فِي سِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ، وَقَصَدَهُ مِنَ الْعَرَبِ رَجُلَانِ:
 عَبَّاسُ الْأَحُولِ، وَعَمْرُو الْأَزْرَقُ فِي جَمُوعِ الْعَرَبِ وَالْقِبَائِلِ، وَنَزَلَا عَلَى شَاطِئِ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٢٥٦١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» ١٠٢/٢، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «المَوْضُوعَاتِ»
 (٤٢٤). وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ بَاطِلٌ، قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْأَزْدِيُّ: هُوَ حَدِيثٌ
 مَوْضُوعٌ لَا أَصْلَ لَهُ. وَأَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» ٤١٨/٩ وَقَالَ: وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ اللَّخْمِيُّ، وَهُوَ
 كَذَابٌ. وَانظُرْ «اللَّيْلِي الْمَصْنُوعَةَ» ١٨٤/١.

(٢) انظُرْ «الْمُنْتَضِمَ» ٣٠١/٢.

الفرات، وشنًا الغارات على السواد، وأرسل ملك الترك يقول لهرمز: أصلح لي القناطر والجسور لا أغير عليك. فعزَّ على هُرْمُز ذلك، وبعث إليه بهرام جوبين مرزبان الري سريَّةً في اثني عشر ألفاً، وأقام هُرْمُز بالمدائن في سبعين ألفاً على عزم المسير لقتال [ملك] التُّرك وبنيه بأرض هراة، والتقى القوم، فرماه بهرام بسهم فذبحه، وانهزمت الترك، وغنم بهرام أموال ملك الترك وخزائنه، وأخذ ابنه أسيراً، فبعث به إلى هُرْمُز، وبعث معه بالجواهر والأموال بحيث إنها كانت على ألف بعير، ثم وقع بين هُرْمُز وبهرام بسبب هذه الأموال^(١).



السنة الثامنة عشرة من مولده ﷺ

عاد أبرويز إلى المدائن من عند قيصر، وكان قد خرج مستصرخاً به على بهرام فأنجده، فهرب بهرام من المدائن إلى الترك فقتل هناك.



السنة التاسعة عشرة من مولده ﷺ

هلك هُرْمُز بن أنوشروان بعد خَلْعِهِ وَسَمْلِهِ، وولي ابنه أبرويز مكانه. ومعنى أبرويز: المُنْظَرُ^(٢).



السنة العشرون من مولده ﷺ

وفيهما كان حلف الفضول، وحضره رسول الله ﷺ. وقال الزبير بن بكار: كان مبدأ الحلف في جرهم، نزل منهم ثلاثة رجال: فضل، وفضالة، ومفضل، فلذلك سمي حلف الفضول، ثم جدَّدته قريش.

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٧٤، والمنتظم ٢/ ٣٠١-٣٠٣، مع خلاف في سبب الخلاف بين هرمز وبهرام.

(٢) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٠٣-٣٠٤.

وقال ابن إسحاق: إنما سماه حلف الفضول الأحناف والأحابيش^(١)، لأنهم ما سرهم وقوعه، وقالوا: هذا فضول ما نوافق عليه.

وقال الواقدي: كانت قريش تتظالم في الحرم، فقام عبد الله بن جُدعان والزبير بن عبد المطلب، فدعا كل واحد إلى التناصر والتعاون، والأخذ من الظالم للمظلوم، فأجابوهما إلى ذلك، فتحالفوا وتعاهدوا، والذي جمعهم الزبير بن عبد المطلب، ثم أكدوه في دار عبد الله بن جُدعان.

وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب^(٢):

حَلَفْتُ لِنَعْقِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَّا أَبَاةُ الضَّمِيمِ نَهْجُرُ كُلَّ عَارِ
وقال وهب: باع قيس السُّلَمي متاعاً من عمرو بن أمية بن عبد شمس بمكة فمطله، فصعد على أبي قُيس ونادى:

يَا قُصِيَّ كَيْفَ فِي هَذَا الْحَرَمِ
وَحُرْمَةِ الْبَيْتِ وَأَحْلَافِ الْكَرَمِ
أَظْلَمُ لَا يُمْنَعُ مِنِّي مَنْ ظَلَمَ

فقام العباس وأبو سفيان بن حرب فردوا عليه ماله، وتحالفا على رد المظالم^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفًا فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ، مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى مِثْلِهِ لِأَجِبْتُ»^(٤).

ولم يتجدد من الحوادث في السنة الحادية والعشرين من مولده ﷺ إلى آخر سنة أربع وعشرين ما يذكر.

(١) جاء في «المنتظم» ٢/ ٣١٠-٣١١: «المطيين»، وانظر «الاكتفاء» ١/ ٨٩.

(٢) انظر «أخبار مكة» للفاكهي (١٣٣)، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢٧٠-٢٧١.

(٣) انظر «أخبار مكة» للفاكهي (١٢٩)، و«تاريخ اليعقوبي» ٢/ ١٧، و«المنتظم» ٢/ ٣٠٩.

(٤) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٢٩) مع القصة، وأخرج الحديث أحمد في «مسنده» (١٦٥٥)، والبزار في «مسنده» (١٠٢٤) من حديث عبدالرحمن بن عوف.

السنة الخامسة والعشرون من مولده ﷺ (١)

قالت نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية: لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، قال له أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد علينا الزمان، وهذه غير قومك قد حضر خروجها، وهذه خديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك، فلو أتيتها فتعرضت لها، لأسرعت إليك.

وبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه إياه، فبعثت إليه وقالت: أنا أعطيك ضِعْفِي ما أعطي رجلاً من قومك، فقال له أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك.

فخرج مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها، فقدموا بصرى من الشام، فنزلا في ظل شجرة هناك، فرآه نسطور الراهب، فدعا ميسرة فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال لميسرة: أفي عيني صاحبك حمرة؟ قال: نعم. فقال: لا تفارقه، فهو نبي، وهو آخر الأنبياء (٢). ثم إنه باع ما كان معه من المتاع، فوقع بينه وبين رجل تلاح في سلعة، فقال له الرجل: ائلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: والله ما حلفتُ بهما قط، وإنِّي لأمرُّ بهما، فأعرض عنهما. فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة: هذا والله نبيٌّ نجده في كتبنا منعتاً. وكان ميسرة إذا اشتد الحرُّ رأى ملكين يُظللان رسول الله ﷺ من الشمس، فصار كأنه عبد له، وألقى الله عليه حبَّ رسول الله ﷺ، ثم إنهم باعوا وربحوا ضِعْفِي ما كانوا يربحونه، وعادوا إلى مكة، واتفق دخولهم إليها في وقت الهاجرة، وخديجة رضي الله عنها في عليّة لها، فرأت ملكين يظللان رسول الله ﷺ وهو على بعيره، فأرته نساءها فعجبن، ودخل عليها ميسرة فأخبرها بما ربحوا، وحدثها بما رأى وبما قال نسطور الراهب، فسرت بذلك، وأضعفت له ما كانت سمته له (٣).

(١) جاء العنوان في (خ): «ذكر تزويجه ﷺ خديجة رضي الله عنها».

(٢) هكذا هي العبارة في النسخ، وفي «الطبقات» ١/١٠٨: «أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء».

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١/١٧١، و«الطبقات الكبرى» ١/١٠٧-١٠٩، و«المنتظم» ٢/٣١٣-٣١٤، و«الاكتفاء» ١/١٩٥، وقال الذهبي في «السيرة» ١/٦٢: هو حديث منكر.

ذكر تزويجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها (١):

قالت نَفِيسَةُ بنت مُنِيَّةَ: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي امرأة حازمة جَلْدَةً شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي أوسط قریش نسباً، وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها حريصٌ على نكاحها لو قدروا على ذلك، وبذلوا لها الأموال، فلم تُجِب.

قالت نَفِيسَةُ: فأرسلتني خديجة إلى النبي ﷺ لما رجع من الشام دسيساً، فقلت له: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي شيء أتزوج به. قلت: فإن كفيتك ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، أتجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ فقلت: علي. قال: فأنا أفعل ذلك، فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه: أن ائت في ساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها منه فحضر، وأقبل رسول الله ﷺ في عمومته فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة (٢).

وذكر ابن إسحاق: أن حمزة رضي الله عنه هو الذي خطب خديجة لرسول الله ﷺ من عمها عمرو (٣).

وذكر بعض العلماء: أن أبا طالب حضر العَقْدَ ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر، فخطب وقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ مَعَدٍّ، وغُنصر مَضر، وجعلنا حَصْنَةَ بيته، وسُوَاسَ حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحَكَّامَ على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من ماله، وهو والله له بعد هذا نبأ عظيم، وخطب جليل. فتزوجها رسول الله ﷺ (٤).

(١) جاء في (خ): «السنة الخامسة والعشرون من مولده ﷺ». وما أثبتنا في هذا العنوان والذي قبله من (ك)،

وهو موافق لما في «المنتظم» ٣١٣/٢، وانظر «الطبقات الكبرى» ١٠٧/١-١٠٩.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٠٩/١، و«المنتظم» ٣١٤/٢-٣١٥.

(٣) «سيرة ابن هشام» ١٧٤/١، و«أنساب الأشراف» ١١١/١.

(٤) انظر «المنتظم» ٣١٥/٢.

وقال ابن سعد: إن أبا طالب ذكر ثلاثين بكرة، واثنتي عشرة أوقية.
ولم يتجدد من سنة ست وعشرين إلى سنة إحدى وثلاثين ما يستطرف.



السنة الثانية والثلاثون من مولده ﷺ

فيها قتلت الروم ملكها موريق لظلمه وفساده، وكان له ولد اسمه: موق^(١)، فهرب إلى كسرى مستصرخاً به، فأنجده كسرى أبرويز بثلاثة من مرازبته: ريمون^(٢)، وشاهين، وفرخان، فساروا في جيوش عظيمة.

فأما ريمون فدوَّخ بلاد الشام، ونزل على القدس فطلب من الأساقفة صليب الصَّلْبوت، وهَدَّدهم - وكانوا قد دفنوه في تابوت من ذهب في مَبْقلة - فخافوا منه القتل^(٣)، فاستخرجوه وناولوه إليه، فبعث به إلى كسرى^(٤).

وأما فرخان فإنه سار حتى أناخ على خليج القُسْطَنْطينية، فدوَّخ البلاد، وقتل وسبى، فلم يستقم لابن موريق أمر، لأن الروم ملكوا عليهم رجلاً صالحاً يقال له: هرقل. فلما رأى ما الروم فيه، سأل الله أن ينقدهم من الفرس، فرأى في المنام رجلاً ضخماً في عنقه سلسلة، وآخر يقوده ويقول: هذا كسرى قد دفعناه إليك. فخرج بالجيوش، فانهزم بين يديه فرخان وجنود فارس، وسار حتى أناخ على مدائن كسرى، فحصر كسرى فيها، ودوخ البلاد فقتل وسبى، ولم يكن لكسرى به طاقة، فأقام مدة وعاد إلى الروم سالماً غانماً.

ولم يتجدد في السنة الثالثة والرابعة والثلاثين ما نذكره.



(١) في «المنتظم» ٣١٧/٢: «فوقا»، وفي الطبري ١٨١/٢: قوفا.

(٢) في الطبري و«المنتظم»: «رميوزان».

(٣) في (خ): «فخافوا على أنفسهم منه».

(٤) وجاء بعدها في «المنتظم»: وأما القائد الآخر، وكان يقال له: شاهين، فسار حتى احتوى على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة، وبعث إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية.

السنة الخامسة والثلاثون من مولده ﷺ

فيها هدمت قريش الكعبة. قال علماء السير: كان أمر البيت بعد إسماعيل ﷺ إلى ولده نبت، ولم يكثر ولد إسماعيل ﷺ، فغلبت جرهم على البيت، فأول من وليه منهم: مضاض الجرهمي الذي يقول ولد ولده عمرو بن الحارث بن مضاض: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

البيت المشهور، فلم يزل البيت في أيديهم حتى استحلوا حرمة، وأكلوا ما يُهدى إليه، وظلموا من دخل مكة، ولم يقنعوا بهذا حتى إن الرجل منهم كان إذا أراد أن يزني ولم يجد مكاناً، دخل البيت فزنى فيه، وكان رجل من جرهم يقال له: إساف، ونائلة زنيا في الكعبة، فمسخا حجرين، وسلط الله الرعاف والنمل على جرهم فأفناهم.

ثم وليت خزاعة البيت بعد جرهم، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال: الإجازة بالناس من عرفة يوم الحج إلى مزدلفة تجيزهم صوفة^(١). والثانية: الإفاضة من جمع غداة يوم النحر إلى منى، وكان ذلك إلى [بني]^(٢) زيد بن عدوان وكان آخر من ولي ذلك منهم: أبو سيارة، واسمه: عميلة^(٣) بن الأعزل. والثالثة: نسيء الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى القلمس واسمه: حذيفة بن فقيم من ولد كنانة، ثم صار ذلك إلى أبي ثمامة جنادة بن عوف في آخر الأمر.

وجاء الإسلام، وكانت الكعبة رزمة فوق القامة، وكان كثر الكعبة في بئر في جوفها، وكان في حيطانها صور الأنبياء ﷺ بأنواع الأصباغ، وصورة إبراهيم ﷺ وفي يده الأزام يستقسم بها^(٤)، وإسماعيل ﷺ إلى جانبه فرس يجيز الناس، وصورة أولاده إلى عدنان وسيرة كل واحد، وكانت ستين صورة، فسرق كثر الكعبة دويك مولى

(١) الصوفة: كل من ولي شيئاً من عمل البيت.

(٢) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ٢/٢٨٦، والمنتظم ٢/٣٢٣.

(٣) في النسخ: «عمير» والمثبت من المصادر، وانظر «الإصابة» ٤/٩٧-٩٨.

(٤) أخرج البخاري (٣٣٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزام، فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزام قط».

بني مُلَيْح، فقطعت قريش يده، ولم تكن الكعبة مُسَقَّفة، فعزموا على تسقيفها، وكان فيها حَيَّةٌ تَأْوِي إِلَى الْبئرِ التي يُطْرَح فيها ما يُهْدَى إِلَى الكعبة، وكانت تَخْرُج من البئر فتمتد على جدار الكعبة، فإذا قصدها أحد فتحت فاها وطلبتة فانهزم، فامتنعوا من رفع جدار الكعبة وتسقيفها، فبعث الله طائراً فاخطف الحية ومضى، فقالت قريش: إن الله قد رضي عنا وقَبِلَ ما قد عزمنا عليه لأنه كفانا أمر الحية^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السيل يأتي مكة فيدخل الكعبة فانصدعت، فخافوا أن تنهدم، وكان باب البيت موضوعاً لاصقاً بالأرض، فأقبلت سفينة في البحر فيها روم، ورأسهم رجل يقال له: باقوم، فألقته الرياح إلى الشُعْبِية، وكانت مرمى السفن قَبْلَ جُدَّة فتحطمت، فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش فابتاعوا خشبها، وكلموا باقوم أن يقدّم مكة معهم فقدم، وقال: هذه السفينة بعث بها قيصر إلى الحبشة في بحر القلزم ليبني بها هناك كنيسة^(٢).

وأجمعوا على هدم الكعبة، فقام أبو وهب بن عمرو المخزومي فأخذ حجراً من الكعبة، فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه فقال: يا معشر قريش، لا تُدْخِلُوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، ولا يكون فيه مهر بغيٍّ ولا ربا ولا مظلمة.

وهاب الناس هدمها، فأخذ الوليد بن المغيرة المِعْوَل، وصعد عليها وقال: اللهم لم تُرْعِ^(٣) فما نُريدُ إلا الخَيْرَ، ثم هدم ناحية منها فترَبَّص الناس وقالوا: ننتظر هذه الليلة فإن نزل بالوليد أمر وإلا هدمناها، فأصبح الوليد غادياً إليها وقريش معه، فنزعوا منها حجراً فتحرّكت مكة بأسرها، ثم هدموا فظهر في الأساس حجارةٌ خضر، كأنهما أسنمة البُخْت، ثم شرعوا في جمع الحجارة ورسول الله ﷺ ينقل معهم، وكانوا يرفعون أزرهم على عواتقهم ويحملون الحجارة على رؤوسهم، ففعل ذلك رسول الله ﷺ فليط

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ١٧٨/١-١٧٩.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٢٠، و«أخبار مكة» للفاكهي (١٩٩)، و«أخبار مكة» للأزرقي ١/١٥٧،

و«المنتظم» ٣٢٥/٢.

(٣) ترع: بمثناة فوقية فراء مفتوحة، أي: لم تفزع، أي: الكعبة. ويروى: «نزع» بفتح النون وكسر الزاي

وبالغين المعجمة أي: لم نمل عن دينك ولا خرجنا عنه. «السيرة الشامية» ٢/٢٣٥.

به - أي: انكب على وجهه -، ونودي: عورتك، فكان ذلك أوّل ما نودي به من النبوة، فقال له أبو طالب: اجعل إزارك على رأسك. فقال: ما أصابني ما أصابني إلا في تعريّ. فما رُئيت لرسول الله ﷺ بعد ذلك عورة، ثم اقترعوا على بناء البيت بعد هدمه، فوقع لبني عبدمناف وبني زهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحجر، وجه البيت، ووقع لبني أسد بن عبدالعزّي وبني عبدالدار ما بين ركن الحجر إلى ركن الحجر الآخر، ووقع لبني تيم [ومخزوم]^(١) ما بين ركن الحجر إلى الركن اليماني. ووقع لبني سَهْم وبني جُمَح ما بين الركن اليماني إلى الحجر الأسود. فلما بلغوا موضع الركن، اختصمت القبائل كل قبيلة تريد أن ترفعه، وشرعوا في القتال وأقاموا أياماً على ذلك، وكان أبو أمية بن المغيرة أسنّ قريش يومئذ فقال: اجعلوا بينكم أوّل داخل من باب المسجد، فرضوا. وكان رسول الله ﷺ أول داخل، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا به، فقال لهم: هلموا ثوباً، فجاؤوا به فوضعوا [الركن] فيه، وقال: ليأخذ كلُّ سيّد قبيلة بناحية منه فليرفعه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه أخذ رسول الله ﷺ موضعه مكانه.

وقال الواقدي: كان في ربع بني عبدمناف: عتبة بن ربيعة، وفي الربع الثاني: أبو زمعة، وفي الثالث: أبو حذيفة بن المغيرة، وفي الرابع: قيس بن عدي، فلما بلغوا خمسة عشر ذراعاً، سقّفوه على ستة أعمدة، فذهب رجل من أهل نجد ليناول رسول الله ﷺ حجراً يشد به الركن، فقال: لا^(٢) ونحاه. وناول العباس رسول الله ﷺ حجراً فشد به الركن، فغضب النجدي، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه ليس بيني معنا في هذا البيت إلا رجل منّا». وكان ذلك أول تحكيمهم رسول الله ﷺ، فقال النجدي: قد حكموا أصغرهم سنّاً، واللوات والعزى ليكونن له شأن وليفوتنهم سبقاً. وقيل: إن النجدي كان إبليس تصوّر بصورة رجل من أهل نجد، وبه يُضرب المثل، فيقال: الشيخ النجدي، وأخرجوا الحجر من البيت لقلّة نفقتهم^(٣).

(١) ما بين معقوفين زيادة من المصادر.

(٢) في النسخ: «كذا» ولعلها محرفة عن: «كلا» والمثبت من المصادر.

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١/١٧٨-١٨٤، و«الطبقات الكبرى» ١/١٢٠-١٢٢، و«المنتظم» ٢/٣٢٠-٣٢٧.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنَّ قَوْمَكَ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشَّرْكِ لَأَعَدْتُ فِيهِ مَا تَرَكَوْا مِنْهُ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ، وَبَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ أَنْ يَبْنُوهُ، فَهَلُمَّيْ أُرِيكَ مَا تَرَكَوْهُ مِنْهُ، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ فِي الْحِجْرِ» ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرِينَ لِمَ رَفَعَ قَوْمُكَ الْبَابَ؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَرِهُوا أَنْ يَدْخُلَ تَرَكَوْهُ حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ»^(١).

ولما تمَّ بناؤها، كساها الزُّعماءُ أرديتهم، وكانت من الوصائل^(٢)، وأعادوا الصور إلى ما كانت عليه، ولم يكسها أحد بعد ذلك حتى كساها رسول الله ﷺ الحِبرَات في حجة الوداع.

وفي هذه السنة: ولدت فاطمة عليها السلام.

فصل وفيها توفي

زيد بن عمرو بن نُفَيْل

قال هشام بن محمد، عن أبيه: خرج زيد بن عمرو وورقة بن نوفل إلى الشام يسألان عن الدين الصحيح، فالتقيا راهباً، فسألاه، فقال لهما: بعد قليل يبعث نبي من مكة، فرجعا فأقاما. فأما ورقة فقال: أنا ثابت على نصرانيتي حتى يظهر هذا الدين. وأما زيد فقال: أنا أعبد رب هذا البيت حتى يظهر هذا الدين.

وكانت صفية بنت الحَضْرَمِي امرأة زيد، كلما عزم زيد على الخروج إلى الشام، أذنت الحَطَّاب فمنعه، فخرج إلى الشام وطاف الجزيرة والمَوْصِل، ثم عاد إلى البلقاء فلقي راهباً انتهى إليه عِلْمُ النصرانية، فسأله عن الحَنْفِيَّة، فقال له: إنك لتسأل عن دين ما أنت عليه وقد درس، وقد أظلك خروج نبي يبعث بأرض مكة التي خرجت منها، فارجع إلى بلادك التي خرجت منها فإنه مبعوث الآن وهذا زمانه. فخرج سريعاً يريد مكة، حتى إذا كان بأرض لَحْمِ عَدَوَا عَلَيْهِ فقتلوه^(٣).

(١) أخرجه ابن سعد ١/١٢٢، وأصله عند البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣) (٤٠٣).

(٢) انظر «أخبار مكة» للأزرقي ١/١٧٢.

(٣) ساق الخبر بتمامه ابن عساكر في «تاريخه» ٩/٤٩٨، وابن كثير في «البداية والنهاية» ٢/٢٢١-٢٢٢، =

وقال هشام: قتل زيد بن عمرو بالبلقاء بمكان يقال له: مَيْفَعَةُ، وقيل: مات بمكة في أصل حراء^(١).

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا اللَّيْث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن ابن المسيَّب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لقي رسول الله ﷺ زيد بن عمرو بن نُفَيْل والد سعيد بن زيد بأسفل بَلَدَح، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سُفْرَةً فيها لحم، فأبى زيد أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لا أكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا أكل إلا ما يذكر اسم الله عليه^(٢).

وأخرج البخاري: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: رأيت زيد بن عمرو قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: والله يا معاشر قريش، ما منكم على دين إبراهيم غيري، قالت: وكان يحيى الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها وأنا أكفيك مؤنتها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت فدعها^(٣).

وقال ابن المسيب: توفي ابن عمرو وقريش تبني الكعبة قبل المبعث بخمس سنين، ولقد نزل به الموت وإنه ليقول: أنا على دين إبراهيم، وأسلم ابنه سعيد، وهو من العشرة، قال: وسأل سعيد رسول الله ﷺ عن أبيه؟ فقال: «غفر الله له ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم» فكان المسلمون يستغفرون له^(٤).

وقال ابن سعد: حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن عامر بن ربيعة، قال: قال زيد بن عمرو: أنا منتظر نبياً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب ما بقي غيره، وما أراني أدركه، وأنا أومن به، وأشهد أنه نبي، وإن طالت بك يا عامر مدة ورأيت فأكفرتني مني السلام، وسأخبرك بنعته: ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكث الشعر ولا بقليله، وليس

= وانظر «السيرة» لابن هشام ٢٠٤/١، و«الطبقات الكبرى» ١٣٦/١، وأخرجه البخاري (٣٨٢٧)، والبيهقي في «الدلائل» ١٢٤/٢.

(١) انظر «تاريخ دمشق» ٥١٦/١٩.

(٢) هذا الحديث بهذا الإسناد ليس في شيء من الكتب الستة، انظر تحفة الأشراف ٩٦-٩٩، وأخرجه البخاري (٣٨٢٦) عن محمد بن أبي بكر، عن فضيل بن سليمان، عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، به.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٢٨).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣٥٣-٣٥٤، وابن عساكر في «تاريخه» ٥١٢/١٩.

تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه محمد وأحمد، وهذه البلدة مولده، وبها مبعثه، ثم يخرج قومه منها، ويكرهون ما جاء به فيها جر إلى يثرب، فيظهر الله أمره، وإياك أن تخدع، فإني طفت البلاد كلها أطلب الدين، فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك. قال: فلما نُبئ رسول الله ﷺ أخبرته بقول زيد، وأقراته منه السلام، فترحم عليه وقال: «رَأَيْتَهُ فِي الْجَنَّةِ يَسْحَبُ ذُبُولاً»^(١).
وخرجت سنة ست وثلاثين، وسبع وثلاثين ولم يتجدد فيها من الحوادث شيء.



السنة الثامنة والثلاثون من مولده ﷺ

فيها رأى الضوء، وسمع الصوت.

قال ابن مسعود: أقام بمكة ثلاث سنين يسمع الصوت ولا يدري ماهو، ويرى الضوء، وأقام ثلاث عشرة سنة يوحى إليه - يعني بمكة -^(٢).



السنة الأربعون من مولده ﷺ

وفيها قتل كسرى أبرويز النعمان بن المنذر. قال الواقدي: قتل قبل المبعث بتسعة أشهر^(٣).

وفيها كان يوم ذي قار، وكان لبني شيبان على كسرى، وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم. وفي حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «وبي نُصِرُوا»^(٤).

(١) «الطبقات الكبير» ١/١٣٥-١٣٦ و ٣/٣٥٢ عن الواقدي، عن علي بن عيسى الحكمي، عن أبيه، عن عامر. ولم نقف فيه على الإسناد الذي ذكره المصنف، وأخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٤١٩)، والطبري

٢/٢٩٥، وابن عساكر في «تاريخه» ١٩/٥٠٤، وابن الجوزي في المنتظم ٢/٣٢٨ من طريق ابن سعد.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٥٣)(١٢٣) من حديث ابن عباس، ولم نقف عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) انظر «المنتظم» ٢/٣٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٢/٦٣ من حديث الأخرم عن النبي ﷺ، والطبراني في «الكبير» (٥٥٢٠) من حديث سعيد بن العاص مطولاً.

ويسمى: يوم قُراقر، ويوم الجُبابات، ويوم ذي العُجْرُم، ويوم بَطحاء، ويوم الحِنُو. وكلها أماكن حول ذي قار، وقد ذُكرتها الشعراء في أشعارها^(١).

قال الجوهري^(٢): ويوم ذي قار يوم لبني شيبان، وكان أبرويز أغزاهم جيشاً، فظفرت بنو شيبان، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم.

وسبب يوم ذي قار: أن النعمان بن المنذر لما قصد باب كسرى، أودع حلقتة وكانت عشرة آلاف شِكَّة^(٣) وابنتيه حُرقة وهنداء، وزوجته المُتجرِّدة عند هانيء بن قبيصة ابن هانيء بن مسعود الشيباني، فبعث كسرى إلى هانيء يطلب شِكَّة النعمان، وما أودع عنده، فامتنع هانيء من تسليمها وقال: هي عندي أمانة ووديعة، والحر لا يضيع أمانته، فغضب كسرى وقطع الفرات، ودعا إياس بن قبيصة الطائي، وكان قد أقطعه ثمانين قرية على شاطئ الفرات، وملَّكه على الحيرة، فشاوره في أمر هانيء، قال: إن أطعني فلا تُخبرنَّ أحداً لأي شيء قَطَعَت الفرات لثلاثِ حُرمتك عند الناس، ولكن ارجع إلى المدائن وابعث إليهم حَلْبَة^(٤) من العَجَم، فيها بعض القبائل من العرب التي تليهم من أعدائهم فيواقعونهم، فقال كسرى: قد بلغني أنهم أخوالك، وأنت لا تألوهم نصحاً، فقال: هذا رأيي، ورأي الملك أفضل. فاستشار النعمان بن زُرعة التغلبي، وكان قد قدم عليه، فقال: الرأي أن تتركهم على ما هم عليه، وتظهر الإضراب عن ذكرهم، فإذا جاء القَيْظُ دَنَوْا من بلادك، واجتمعوا على ماءٍ يقال له ذو قار، يتساقطون عليه تساقط الفراش في النار، فإذا نزلوا عليه فدونك وإياهم، ففعل أبرويز ما قال التغلبي، فلما نزلوا بذئ قار أرسل إليهم أبرويز مع النعمان بن زُرعة هذا يُخَيِّرهم بين ثلاث: إما أن يُسلموا الحَلْقَةَ، وإما أن يخرجوا من هذه الديار، وإما أن يأذنوا بالحرب، فقال هانيء للنعمان: لولا أنك رسول ما أُبْتُ إلى قومك، انصرف.

فلما انصرف، أشار هانيء بن قبيصة على بكر بركوب الفلاة، وقال: لا طاقة لكم بكسرى، ولم يُر لهانيء سَقْطَةً قبلها، فقال حنظلة بن ثعلبة العِجْلِيُّ: إن ركبنا الفلاة متنا عطشاً، وإن أعطينا بأيدينا قَتَلَ مقاتلتنا وسبى ذرارينا، وما أرى غير الحرب. فنزلوا بذئ

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٢٠٦، و«العقد» ٥/٢٦٢.

(٢) في الصحاح (قور).

(٣) الشِكَّة: السلاح.

(٤) رسمت في النسخ: «حسله» وما أثبتناه من الأغاني ٢٤/٦١، وفي «المنتظم» ٢/٣٣٥: قبيلة.

قار، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثة نفر: هانئ بن قبيصة الشيباني، ويزيد بن مُسهر الشيباني، وحنظلة بن ثعلبة العجلي، ولم يشهدهم أحد من بني حنيفة ولا غيرهم، وجهاز إليهم كسرى إياس بن قبيصة الطائي، وكان قد ملكه بعد ما قتل النعمان بن المنذر على العرب، فسار في طيء، واللهازم، وسائر العرب.

وكتب كسرى إلى قيس بن مسعود بن ذي الجدين، وأمره أن يوافي إياس بن قبيصة، فوافاه في جمع عظيم، وانضم إليهم ألف من إياد، وألف من بهراء، عليهم خالد البهراني، وجهاز كسرى الهرمزان في ألفين من العجم والأساورة، فدخلوا البرية وإياس ابن قبيصة في المقدمة، ولما علم القوم، أرسل يزيد بن مُسهر الشيباني إلى هانئ بن قبيصة: أن ابعث إلينا بحلقة النعمان فانثرها في بني شيبان، وكانت عشرة آلاف، فقال هانئ: وكيف أصنع بأمانتي؟ فقال يزيد: إنكم إن هلكتم، فسيأخذون الحلقة وغيرها، وإن ظهرتم فما أقدركم على استردادها من قومكم، فنثرها هانئ في بني شيبان، ودنا إياس والأعاجم من بني شيبان، فقال حنظلة بن ثعلبة: يا معاشر بكر، إن نُشاب الأعاجم يُفرِّقكم، فبادروهم باللقاء وعاجلوهم بالقتال، ونادى هانئ: يا قوم، هالك معذور خير من ناج مغرور، والصبر من أسباب الظفر، والمنية خير من الدنية، واستقبال الموت في عز خير من استدباره في ذل، والجِدُّ الجِدُّ فما من الموت بد، ثم ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته وولده، فقالوا: طب نفساً، فنحن نمشي إلى الموت، وكان على الميمنة يزيد بن مُسهر الشيباني، وعلى الميسرة حنظلة بن ثعلبة العجلي، وهانئ بن قبيصة في القلب، وكان على ميمنة الأعاجم الهرمزان، وعلى الميسرة عسكر السواد في مقدم من الأساورة، وفي القلب إياس بن قبيصة الطائي في العرب، والتقى الجمعان فكان يوماً لم يُر في الجاهلية مثله. ثبتت العرب على نُشاب العجم، وقطعت بنو شيبان أكمام أقيبتها من المناكب ليتمكنوا من ضرب السيوف، وأعطى الله النصر لبني شيبان، فانهزمت الفرس، وأتبعهم بنو شيبان حتى دخلوا في السواد، واستدلوا عليهم قتلاً، وأسر عامة الفرس، ونجا الهرمزان وحده وإياس بن قبيصة على فرس يقال لها: الحمامة، وغنموا أموالهم وخيولهم وسلاحهم، وكان أول من قدم على كسرى إياس بن قبيصة، وكان كسرى لا يخبره أحد بهزيمة جيش إلا نزع أكتافه، فلما أتاه إياس قال له: ما الخبر؟ قال: هزمتنا بكراً، وقتلنا رجالهم، فأعجب به وأعطاه مالاً وكسوة، فاستأذن إياس في الانصراف إلى عين تمر وقال: أخي مريض. فلهذا

سارَعَتْ، فأذن له، ثم سار كسرى من المدائن، فنزل الخورنق والسدير ينتظر الغنائم والأسارى، ثم ركب إلى ظاهر الخورنق يتنسم الأخبار، فأتاه رجل فسأل: هل دخل على كسرى أحد؟ قالوا: نعم، فظن أنه قد أخبره الخبر لأنه لم يكن أحد يجترئ أن يخبر كسرى بمثل ذلك، فأخبر كسرى فنزع كتفيه.

وقد أكثر الشعراء في يوم ذي قار، قال جرير: [من البسيط]

مِنَّا فَوَارِسُ ذِي بَهْدَى^(١) وَذِي نَجَبٍ وَالْمُعَلَّمُونَ صَبَاحاً يَوْمَ ذِي قَارِ
وَقَالَ الْعُدَيْلُ بْنُ الْفَرَّخِ الْعِجْلِيُّ^(٢): [من البسيط]

مَا أَوْقَدَ النَّاسُ مِنْ نَارٍ لِمَكْرُمَةٍ إِلَّا اصْطَلِينَا وَكُنَّا مَوْقِدِي النَّارِ
وَمَا يَعُدُّونَ مِنْ يَوْمٍ سَمِعْتَ بِهِ لِلنَّاسِ أَعْظَمَ مِنْ يَوْمِ بَدِي قَارِ
جئنا بأسلابهم والخيل عابسةً لَمَّا اسْتَلَبْنَا لِكَسْرَى كُلِّ إِسْوَارِ

وقد قال بعضهم: إن يوم ذي قار كان في سنة سبع من الهجرة، والأول أصح.

وفيها: ظهرت أمارات النبوة قبل أن يوحى إليه ﷺ. قال أبو طالب: وكنت بذي المجاز ومعى ابن أخي - يعني: رسول الله ﷺ - فأدركنى العطش، فشكوت إليه، فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء، فقال: اشرب يا عم، فشربت^(٣).

وقالت برة: لما ابتدأه الله بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً، ويُفْضِي إِلَى الشُّعَابِ وَبَطُونِ الْأُودِيَةِ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فكان يلتفت يمينا وشمالاً فلا يرى أحداً^(٤).

وقال ﷺ: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن. انفراد بإخراجه مسلم^(٥).



(١) في (خ) و (ك) وأصول العقد الفريد ٥/٢٦٥: ذي نهد، والمثبت من مطبوع العقد وديوانه ٢٣٥.

(٢) الأبيات في «الشعر والشعراء» ١/٤١٤، و«العقد» ٥/٢٦٦.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/١٢٧.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/١٣٢، والحاكم ٤/٧٠.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

السنة الحادية والأربعون من مولده ﷺ

وفيها: اختصه الله برسالته وبعثه إلى كافة خليقته، ولم يزل منذ شبَّ يكلؤه الله ويحرسه من أقداء الجاهلية ومعاييبها لما يريد الله من كرامته. واتفقوا على أنه بعث في أيام كسرى أبرويز في يوم الاثنين. واختلفوا أي الاثنين على أقوال:

أحدها: لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، ظهر له جبريل بالرسالة، قاله جمهور الصحابة: عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأنس، وأبي بن كعب، في آخرين.

والثاني: لثمانية عشرة ليلة خلت من ربيع.

والثالث: لسبع وعشرين خلت من رجب.

والرابع: لأربع وعشرين خلت من رمضان. وقال مجاهد: سبع وعشرين خلت منه. والقول الأول أشهر، وعليه العمل عند أهل العلم.

فصل في مبادئ الوحي:

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري قال: أخبرني عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة - أو الصالحة - في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل ^(١) فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه - والتحنث هو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها ويتزوّد لمثلها حتى جاء - أو فجأه - الحق في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطّني الثانية والثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني

(١) من هنا بدأ سقط في (ك) ينتهي بعد صفحتين.

وقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ حتى بلغ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، قالت: فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده - وللبخاري: بواده (١) - فدخل على خديجة فقالت: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فزَمَّلُوهُ حتى ذهب عنه الرَّوْع، فأخبر خديجة بالخبر، وقال لها: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فقالت له: كلا، أبشِر، فوالله لا يخزيك - أو لا يحزنك - الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمها أخي أبيها. وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب من الإنجيل بالعربي أو بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بالخبر، أو خبر بما رأى. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال: «أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، ولم يأت رجل قط بمثل ما أتيت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً، أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم يلبث ورقة أن مات، وفتّر الوحي فترةً حزن فيها رسول الله ﷺ مراراً حتى كاد يتردى من شواهق الجبال، فكان كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك لرسول الله حقاً. فيسكن لذلك، وتقوى نفسه ويرجع، فإن طالت عليه الفترة عاد لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك. أخرجاه في «الصحيحين» (٢).

ولورقة في ذلك أشعار كثيرة منها: [من الطويل]

فإن ابن عبد الله أحمد مرسلٌ	إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
وظني به أن سوف يُبعث مرسلًا	كما أرسل العبدان هودٌ وصالحُ
وموسى وإبراهيم حتى يرى له	هنالك منشور من الذكر فائحُ
فإن أبق حتى يدرك الناسُ دهره	فإني به مُستبشر القلبِ فارحُ

(١) البخاري (٤٩٥٣).

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٥٩٥٩)، والبخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)(٢٥٣).

وقال^(١): [من الطويل]

إن يك حقاً يا خديجة فاعلمي
وجبريلُ يأتيه وميكالُ معهُما
يفوز به من فاز يوماً بصِدْقِهِ
فريقان منهم فرقةٌ في جنانه
فسبحان من تجري الرياحُ بأمره
ومَنْ عرشه فوق السماوات كلها

فصل في السابقين إلى الإسلام^(٢):

اتفقوا على أن أول من أسلم من النساء: خديجة رضي الله عنها. واختلفوا فيما عداها على أقوال:
أحدها: أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[قال أحمد:] حدثنا يعقوب، عن أبيه، عن ابن إسحاق، حدثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي، عن أبيه، عن جده، قال: كنت امرءاً تاجراً، فقدمت الموسم فأتيت العباس بن عبدالمطلب وهو بمينى لأبتاع منه بعض التجارة، وكان تاجراً. فوالله إني لعنده بمينى إذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس، ثم قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء فقامت تصلي خلفه، ثم خرج من ذلك الخباء غلام حين راهق الحُلْمَ فقام يصلي خلفه، قال: فقلت للعباس: من هذا؟ فقال: محمد^(٣) بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن أخي. قلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة. قلت: فمن هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن أخي. قلت: فما هذا الذي يصنع؟ قلت: يصلي ويزعم أنه نبي، ولم يتابعه على أمره إلا امرأته وابن عمه، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر، وإيم الله، ما أعلم على وجه الأرض كلها أحد على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

(١) الشعر هذا وسابقه في سيرة ابن إسحاق برواية يونس بن بكير ١١٥-١٢٣.

(٢) انظر «المنتظم» ٣٥٨/٢.

(٣) هنا ينتهي السقط في (ك).

فكان عَفِيف - وهو ابن عم الأشعث بن قيس - يقول: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ لكنت ثالثاً أو رابعاً. ثم أسلم وحسن إسلامه^(١).

وقال جابر: بُعِثَ النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى [علي] يوم الثلاثاء^(٢).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن حَبَّة العُرَني قال: رأيت علياً كرم الله وجهه ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه، ولم أره ضحك أكثر منه. فقيل له في ذلك، فقال: ظهر علينا أبي أبو طالب وأنا مع النبي ﷺ ببطن نَخْلَة نصلي، فقال: ماذا تصنعان يا ابن أخي؟ فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام. فقال: لا والله لا تعلوني استي أبدأ. فذلك الذي أضحكني. ثم قال علي رضي الله عنه: اللهم إني لا أعرف عبداً من هذه الأمة عَبْدَكَ قبلي غير نبيك ﷺ، لقد صليت قبل أن يصلي الناس بسبع سنين^(٣).

والثاني: علي، وخديجة، وزيد بن حارثة رضي الله عنه.

والثالث: أبو بكر رضي الله عنه وبلال.

وفي حديث عمرو بن عَبَسَة الذي أخرجه مسلم: أنه لما لقي النبي ﷺ بمكة، قال: فمن معك على هذا؟ قال: حُرٌّ وَعَبْدٌ، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال^(٤).

وقد وَفَّقَ بعض العلماء بين هذه الأقوال، فقال: أول من أسلم من الرجال: أبو بكر، ومن الفتيان: علي، ومن الموالى: زيد، ومن النساء: خديجة رضي الله عنها.

ثم أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه بعد إسلامه جماعة، منهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه^(٥).

وفيها تغيَّرت أحوال كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان.

قال علماء السير: كانت دجلة تجري قديماً في أرض جُوخا، فأغورت وتفرقت،

(١) مسند أحمد (١٧٨٧)، وما بين معقوفتين زيادة من «المنتظم» ٣٥٩/٢.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٠/٢ وما بين معقوفين منه، وأخرجه الترمذي (٣٧٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٥) انظر «سيرة ابن هشام» ٢٣٢/١.

فأنفق عليها أبرويز أموالاً عظيمة، وأسكرها مراراً، والماء يقلع السكر، وكان عنده ثلاث مئة من الحزاة - وهم: السحرة، والكهنة، والمنجمون - فجمعهم كسرى، وكان فيهم رجل من العرب يقال له: السائب، يعتافُ اعتيافَ العربِ فلا يخطئ، وكان بعث به بأذان إليه من اليمن، وكان لأبرويز طاق في الإيوان يضع فيه تاجه، فلما كانت الليلة التي بعث فيها رسول الله ﷺ، انقصم الطاق، وانقطع السكر، فانخرقت دجلة فأصبح كسرى حزيناً، ودعا القوم فقال لهم: انقصم طاق تاج ملكي، وانخرق الماء عن بلادي «شاه بِشْكَسْت» أي: انكسر الملك، فانظروا.

فانظروا، فأظلمت الدنيا عليهم وتحيروا، فلم ينتفع كاهن بكهنته، ولا ساحر بسحره، ولا منجم بنجومه، فقام السائب عنهم، وبات على رابية يرُمُقُ نجوم الحجاز، فرأى في موضع قدميه روضة خضراء، فقال: لئن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ ملكه المشرق والمغرب، تخصب الأرض في زمانه، واجتمعت الحزاة وقالوا: والله ما حال بينكم وبين علومكم إلا أمر سماوي، وإنه لنبيُّ بُعثَ يسلب كسرى ملكه، ولئن أخبرتم كسرى بذلك، ليأتين على آخركم، فاتفقوا على أمر تدفعوا به عنكم. فقالوا له: قد نظرنا، فإذا وُضِعُ الطاق والسكر كان في طالع النحوس، ونحن نبصر لك طالعا سعيداً تعيد فيه الطاق والسكر.

وعينوا له وقتاً، فشرع في السكر على دجلة، وغرم عليه أموالاً عظيمة، فلما فرغوا منه فرش عليه الفرش، وأحضر الأساور والمرازبة والأشراف والأعيان، وجميع من في مملكته، ثم جلس على السكر وأخذ في اللعب والشرب، فبينما هم على ذلك انقطع السكر نصفين، وغرق جميع من كان عليه، واستخرجوا كسرى في آخر نفس، فقتل من الحزاة مئة رجل، فقال الباقون: أخطأنا كما أخطأ من قبلنا، ونحن نحسب حساباً صحيحاً، فقال: افعلوا، وحسبوا وأمروه بوضع السكر فوضعه، وجلس عليه فانقطع نصفين وأصابه أعظم من الأول، فقال لهم: والله لئن لم تصدقوني لأرمينكم تحت أرجل الفيلة، كم تُلفقون عليّ؟ فقالوا: نحن نصدقك، إنا نظرنا في علومنا فرأينا أنه قد ظهر نبيُّ، وأظهر له السائب ما رأى، فلها عنهم وعن دجلة، وذلك قبل أن يأتيه

كتاب النبي ﷺ^(١).

قال الحسن البصري: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، ما حجة الله على كسرى فيك؟ فقال النبي ﷺ: بعث الله إليه ملكاً، فأخرج يده من سور جدار بيته تتلألاً نوراً، فلما رآها فزع، فقال له: يا أبرويز، لا تُرَع فإن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً، فاتبعه تسلم لك دنياك وآخرتك، فقال: سأُنظر في ذلك^(٢).

وقال الواقدي: بعث الله إليه ملكاً وقت الهاجرة وهو في بيت لا يدخل عليه أحد، فلم يرعه إلا وهو قائم على رأسه، وفي يده عصا، فقال له: يا أبرويز، أسلم وإلا كسرت هذه العصا على رأسك، فقال: بهل بهل - أي اصبر -، ثم انصرف عنه، فدعا حجابته وحراسه، وقال: من أين دخل هذا؟ قالوا: ما رأيناها. ثم جاءه بعد سنة، فقال له كذلك. ثم انصرف وجاءه في السنة الثالثة، فكسر العصا على رأسه. فكان ذلك سبباً لقتله، فقتله ابنه شيرويه^(٣).

وفي رواية: نام كسرى يوماً فرأى في منامه كأنه رُمي به إلى السماوات، وأوقف بين يدي الله تعالى، وإذا رجل عليه إزار ورداء، والله تعالى يقول له: «يا أبرويز، سلم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا». فسلمها إليه، ثم أراد أن يستردها فأيقظه بعض حجابته لأمر دهمه.

قال حاتم بن عطاء: والذي حكى المنام: خالد بن ويدة، وكان مجوسياً فأسلم، والرجل الذي كان عليه الإزار والرداء: محمد ﷺ^(٤).



(١) انظر «المنتظم» ٢/٣٦٠-٣٦٢، وتاريخ الطبري ٢/١٨٨، و«السيرة الشامية» ١/٤٢٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٢/١٩٠، وانظر «المنتظم» ٢/٣٦٢.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٢/١٩١.

(٤) انظر «المنتظم» ٢/٣٦٣-٣٦٤، والوفا (٢٣٨).

السنة الرابعة من النبوة

وفيهما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال علماء السير: وأقام رسول الله ﷺ بعد النبوة ثلاث سنين مستخفياً يدعو إلى الله سرّاً في الجبال والأودية والشعاب^(١)، ولما دعا إلى الله تعالى، استجاب له مَنْ شاء الله من الأحداث وَضَعْفَةَ الناس والنساء، وكَثُرَ من آمن به، وكَفَّار قريش غير مكترئين بأمره ولا بما يقول. وكان إذا مر على مجالسهم، أشاروا عليه وقالوا: إن غلام عبد المطلب ليَكَلِّمُ من السماء. فكان على ذلك حتى عاب آلهتهم، وسَفَّه آباءهم الذين ماتوا على الكفر. فشنَّفوا^(٢) له عند ذلك، وعادوه، وحسدوه^(٣).

وقام بنصرته عمُّه أبو طالب أحسن قيام، ومنعهم من التعرض له.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى علا المروة، ثم قال: يا آل فهر، فجاءته قريش وفيها أبو لهب فقال: هذه فهر عندك فقل. فقال: يا آل غالب. فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر. فقال: يا آل لؤي بن غالب. فرجع بنو الأدرم. فقال: يا آل كعب بن لؤي. فرجع بنو عامر بن لؤي. فقال: يا آل مرة بن كعب. فرجع بنو عدي بن كعب، وبنو سَهْمٍ، وبنو جُمَحٍ، أبناء عمرو بن هُصَيص بن كعب، ثم قال: يا آل كلاب ابن مرة. فرجع بنو مخزوم وبنو تميم بن مرة. فقال: يا آل قُصي. فرجع بنو زهرة بن كلاب. فقال: يا آل عبد مناف. فرجع بنو عبدالدار بن قصي، وبنو أسد بن عبدالعزى بن قصي، فناداه أبو لهب: هذه بنو عبد مناف عندك فقل. فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، وَأَنْتُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ حَظًّا، وَلَا مِنْ الْآخِرَةِ نَصِيبًا، وَإِلَّا أَنْ تَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَأَشْهَدُ لَكُمْ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا

(١) في (خ) و(ك): والشعوب، والمثبت أقرب للصواب.

(٢) في النسخ: «فسيفوا» والمثبت من «الطبقات الكبرى»، ومعنى شنَّفوا له: أبغضوه.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٦٩.

العَرَبُ وَالْعَجَمُ». فقال أبو لهب: تَبًّا لك، ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ السورة (١).

وقال عبدالله بن كعب بن مالك: أقام رسول الله ﷺ بمكة في كل موسم يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ، ومَجَنَّة، وذي المَجَاز، يدعوهم إلى الله وأن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، ولهم الجنة فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه. وأبو لهب يمشي خلفه ويقول: لا تطيعوه فإنه كذاب صابئ. فيردون على رسول الله ﷺ أقبح مردِّ ويقولون: أُسْرْتُكَ وَعَشِيرَتُكَ أَعْلَمُ بِكَ حَيْثُ لَمْ يَمْنَعُوكَ (٢).

وفي رواية طارق المحاربي: ورأيت خلفه رجلاً قد أدمى عقبه بالحجارة وكعبه، قال طارق: من هذا؟ قالوا: غلام بني عبد المطلب. قلت: والذي خلفه؟ قالوا: عمه أبو لهب (٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ بَيْنَ شَرِّ جَارَيْنِ: أَبِي لَهَبٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، إِنْ كَانَ لِيَأْتِيَانِ بِالْفُرُوثِ فَيَطْرَحَانِيَا عَلَى بَابِي، فَأَخْرَجُ فَأَقُولُ: يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَيُّ جَوَارٍ هَذَا؟ ثُمَّ أَلْقِيهَا فِي الطَّرِيقِ» (٤).

وفيها: ضُرب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رجلاً من المشركين فشجه. وسببه: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشُّعَاب والأودية فيصلُّون، فبينا سعد رضي الله عنه في جماعة من المسلمين يصلُّون إذ رآهم رجل من الكبار ومعه جماعة من قريش، فسبَّوهم وعابوهم، فضرب سعد رضي الله عنه رجلاً منهم فأسال دمه، فكان أول دم أهرق في الإسلام (٥).

وكان النبي ﷺ إذا جلس في المسجد وحوله المستضعفون من أصحابه مثل: عمار

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٥٥-٥٦، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/١٣٦، وأخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) مختصراً.

(٢) كذا في النسختين (خ) و(ك)، وفي «الطبقات» ١/١٨٤: يتبعوك، وهو الصواب، وأورده ابن هشام في «السيرة» عن ربيعة بن عباد ٢/٥٠.

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١٧١، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/١٤٩.

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٣١٨، و«المنتظم» ٢/٣٦٧.

ابن ياسر، وخبّاب بن الأرتّ، وصهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، وأشباههم. فإذا مرت بهم قريش استهزؤوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه قد منّ الله عليهم من بيننا. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾^(١) [الأنعام: ٥٣].

وقال هشام: أول من أظهر الإسلام بمكة: أبو بكر رضي الله عنه وبلال وعمار وصهيب وخبّاب رضي الله عنه. فأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الباقر فلم يكن لهم عشائر يمنعونهم، فعذبوا عذاباً شديداً، وفيهم نزل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١]، كانوا يلبسونهم أدرع الحديد، ويصهرونهم في الشمس في وقت الهاجرة^(٢).

فقد أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لفتيان بني هاشم: خذوا سلاحكم، وكونوا على مكاناتكم حتى أرجع. وخرج إلى الجبل ونادى: يا محمد. وإذا بالنبي صلى الله عليه وآله قائم يصلي في أسفل مكة، فقال له: مالك يا عم؟ فقال: ظننت أنك قد اغتلت، فكدت أن تجرمني فأقتل قومي اليوم. وأن النبي صلى الله عليه وآله عرض عليه الإسلام، فقال: أريد آية. فقال: ترى تلك الشجرة؟ فقال: نعم. فقال: أدعو ربي أن يأتيك بها؟ قال: فافعل، فدعا الله، فأقبلت تهتز بإذن الله تعالى، فقال لها: ارجعي بإذن الله. فرجعت. فقال: يا ابن أخي، لهذا يقول قومك بأنك ساحر. فانطلق به أبو طالب إلى مجالس قريش وقال: اليوم أؤيسهم منك، ووقف عليهم وقال: قد كنت أراكم قتلتم ابن أخي، ورب البيت الحرام والبلد الحرام لو فعلتم ذلك؛ لقتل كل واحد من هؤلاء الفتيان جليسه، ثم قال: أخرجوا أشفاركم، فأخرجوها. فلما رأت قريش ذلك يسوا من رسول الله صلى الله عليه وآله^(٣).

ولما اشتد الأمر وعلمت قريش أن أبا طالب لا يُسلمه إليهم ولا يخذله، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة - وكان من أجمل فتیان قريش وأسراهم - فقالوا له: يا أبا طالب، هذا أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذة واتخذة ولداً وسلّم إلينا محمداً، فإنه قد

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ٢/٢٩، و«حلية الأولياء» ٢/٢٤-٢٥، و«الاكتفاء» ١/٣٧٤.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٢١٤، و«المنتظم» ٤/٢٩٨.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/١٧٢ نحوه، أما انصياع الشجرة لأمره صلى الله عليه وآله فقد ورد بذلك عدة أحاديث، انظرها في «دلائل النبوة» ٦/٧، و«سبل الهدى والرشاد» ١٠/١١٧.

خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعتنا، وإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: ويحكم، لبس والله ما سمتوني، أتعطوني ولدكم أغذوه لكم، وأعطيكم ولدي تقتلونه، والله ما أنصفتموني، فرقوا بين النوق وفصلانها، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها، دفعته إليكم^(١)، ثم قال^(٢):

والله لن يصلوا إليك بجمّعهم
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وعرضت ديناً لا محالة أنه
لولا الملامة أو حذار مذمة
فصل وفيها توفي

حتى أوسد في التراب دفيننا
وابشروا بقر بذاك منك عيوننا
من خير أديان البرية ديننا
لوجدتني سمحاً بذاك ظنيننا

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي^(٣)

من تميم، حكيم العرب، كان من بطن يقال لهم: بنو شريف بن جرّوة، أدرك مبعث رسول الله ﷺ، وأوصى قومه بالتباعه، وعاش مئتي سنة، وقيل: مئة وتسعين سنة، واسودّ شعره، ونبتت أضراسه، وعاد شاباً، ولا يُعرف في العرب أعجوبة مثله، وكان حكيماً فصيحاً لبيباً فاضلاً سيداً في بني تميم، وهو القائل: [من الطويل]

وإن امرأ قد عاش تسعين حجّة
إلى مئة لم يسأم العيش جاهل
ولما بلغه خبر رسول الله ﷺ، عزم على قصده، فمنعه بنو تميم، وقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا، فابعث إليه. فكتب إلى رسول الله ﷺ مع ابنه حبيش بن أكثم: باسمك اللهم، من العبد أكثم إلى العبد. أما بعد: فأخبرنا من أنت، وبم جئت؟ وقد بلغنا عنك خبر، فإن كنت أريت، فأرنا، وإن كنت علّمت، فعلمنا، وأشركنا معك في خير والسلام.

(١) انظر القصة دون الشعر في «السيرة» لابن هشام ٢٤٠-٢٤١، و«أنساب الأشراف» ٢٦٦-٢٦٧، و«المنتظم» ٣٦٩/٢.

(٢) انظر الأبيات في «تاريخ يعقوبي» ٣١/٢، و«البداية والنهاية» ٤١/٣، ولم نقف على سياق للقصة يجمع الشعر مع الحادثة.

(٣) انظر «المعارف» ص ٢٩٩، و«المنتظم» ٣٧٥/٢، و«الإصابة» ١١٠/١.

فكتب إليه: «من محمد رسول الله إلى أكثم. أما أنا فمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، عبد الله ورسوله. وأما الذي جئت به: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، وإن الله أمرني أن أقول: لا إله إلا الله، ولتعلمن نبأه بعد حين، والسلام».

فلما قرأ كتابه، قال: نسب وسيط، وأراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملامتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا أذناً.

ثم جمع أكثم بني تميم، وقال: لا يحضرني سفيه، فإن السفيه واهي الرأي وإن كان قوي البدن، ولا خير فيمن كان كذلك، وإن بتمام العقل تتم الأمور، ثم أمرهم بالإسلام، واتباع رسول الله ﷺ. فقام مالك بن نويرة اليربوعي وهو يقول: إن هذا الشيخ قد خرف، إنه ليدعو إلى الفناء والتعرض للبلاء، فإن أجبتموه فرّق جمعكم، وذلل عزكم، وأظهر أضغانكم. وسمعه أكثم فقال: دعوا كلام هذا الأحمق، فويل للشجي من الخلي، إن الحق إذا قام دمع الباطل.

وخرج أكثم إلى مكة يريد لقاء رسول الله ﷺ، فلما كان ببعض الطريق عمد ابنه حبيش إلى الرواحل فنحرها، وإلى المزايدة فشقها، ثم هرب. فمات أكثم بالعطش، ولما أيقن بالموت، أوصى من معه باتباع رسول الله ﷺ، وأشهدهم على نفسه أنه مسلم.

روي عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه نزل فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومن كلام أكثم: أوصيكم بتقوى الله، وصلة الأرحام، وإياكم ونكاح الحمقى. وإن العدم عدم العقل، لا عدم المال. وإن مقتل الرجل بين فكيه، وإن قول الحق لا يدع لقائله صديقاً. ومن صحب الدنيا رأى الهوان، وفي طلب المعالي يكون العز، ومن قنع بما هو فيه قرّت عينه. والتغافل من أخلاق الكرام، والمن يذهب الصنعة. ومن ظلم يتيماً ظلم أولاده، ومن سل سيف البغي أغمد في رأسه.

وقال لبنيه: يا بني، ذللوا أخلاقكم للطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تدمونه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلوا بالجوّد تلبسكم المحبة، ولا تلبسوا البخل فتعجلوا الفقر.

وصَيْفِي بن تميم ، كنيته أبو أَكْثَم ، عاش مئتي سنة وستاً وخمسين سنة .
وحَنْظَلَةُ الكاتب هو ابن أخي أَكْثَم ، لأنه حَنْظَلَةُ بن ربيعة بن صَيْفِي ، وكان يكتب
الوحي لرسول الله ﷺ ، وعاش إلى أيام معاوية .

وَرَقَةُ بن نوفل

ابن أسد بن عبد العزى بن قصي ، ابن عم خديجة ﷺ ، ولما رأى النبي ﷺ ، وسمع
كلامه ، وانصرف عنه ، قال ورقة لخديجة ﷺ : قدوس قدوس ، والله لئن صدقتني فإنه نبي
هذه الأمة ، ولقد جاءه النَّامُوس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى ، فقولي له : ليثبت .
فرجعت خديجة ﷺ ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، فسُرِّي عنه بعض ما كان فيه من الغم ^(١) .
وسئل رسول الله ﷺ عن ورقة ، فقال : «رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ» ^(٢) .
ومن شعره ^(٣) : [من البسيط]

يا للرجال وصرف الدهر والقدر
جاءت خديجة تدعوني لأخبرها
بأن أحمد يأتيه فيخبره
فقال حين أتانا منطلقاً عجباً ^(٤)
إني رأيت أمين الله واجهني
فقلت ظني وما أدري يصدقني
واختلفوا على أي دين مات على أقوال : أحدها : على النصرانية ، والثاني : موحداً
على دين عيسى وموسى ﷺ ، والثالث : على الإسلام . وورقة آخر من مات في
الفترة ، ودفن بالحجون .

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ١/٢٢٢ .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٣٦٧) من حديث عائشة ﷺ .

(٣) انظر الأبيات في «السيرة» لابن إسحاق ص ١٠٤ ، و«أخبار مكة» للفاكهي ٤/٨٩ ، و«دلائل النبوة»
للبهقي ٢/١٥٠ .

(٤) في النسخ : «فقلت حين أتانا معظفاً عجباً» والمثبت من المصادر .

السنة الخامسة من النبوة

فيها أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لما اشتد بهم أذى الكفار.

ذكر الهجرة الأولى^(١):

قال الزهري: لما ظهر الإسلام وكثر المسلمون، ثار جماعة من الكفار إلى من آمن من قبائلهم وعشائرتهم، فعذبوهم وسجنوهم، وأرادوا أن يفتنوهم عن دينهم. فقال لهم رسول الله ﷺ: تفرقوا في الأرض. فقالوا: إلى أين؟ فأشار إلى الحبشة بيده، وقال: إن بها رجلاً لا تُظلمُ الناس عنده، فتحرزوا عنده حتى يأتي الله بالفرج. فخرجوا متفرقين، وستر قومٌ إسلامهم، وكانت الحبشة متجر قريش، فخرج منهم اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة متسللين سراً من قريش، وكان مخرجهم في رجب، منهم الماشي والراكب، فوافقوا سفيتين للتجارة في الشَّعْبَةِ^(٢)، فركبوا فيها، وخرجت قريش في آثارهم ففاتوهم.

ذكر أساميهم^(٣):

حاطب بن عمرو بن عبد شمس، الزبير بن العوام رضي الله عنه، سهيل بن بيضاء، عامر بن ربيعة ومعه امرأته بنت أبي حثمة، عبد الله بن مسعود، أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، ومعه امرأته أم سلمة رضي الله عنها، عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقيل: إنه لم يهاجر الأولى، وعثمان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، عثمان بن

(١) الخبر في «الطبقات الكبرى» ١/١٧٢، وانظر «السيرة» لابن هشام ١/٢٨٠، و«تاريخ الطبري» ٢/٣٢٩، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢/٢٨٥، و«المنتظم» ٢/٣٧٤، و«الكامل» ٢/٧٦، و«السيرة» للذهبي ١/١٤٦، و«البداية والنهاية» ٣/٤٦، و«سبل الهدى والرشاد» ٢/٤٨٥.

(٢) في (ك): «الشعشة» وفي (خ): «الشعشة» والمثبت من «طبقات» ابن سعد ٣/١٧٣، و«سبل الهدى» ٢/٤٨٦.

(٣) انظر «السيرة لابن هشام» ١/٢٨٠-٢٨٦، و«الطبقات الكبرى» ١/١٧٣-١٧٤، و«المنتظم» ٢/٣٧٥، وانظر تمة أسمائهم هناك.

مَظْعُون، مصعب بن عمير، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ولد له بالحبشة محمد بن أبي حذيفة من امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، أبو سبرة بن أبي رهم. فأقاموا في الحبشة شهر شعبان ورمضان، ورجعوا في شوال.

ذكر سبب رجوعهم

قال المطلب بن عبد الله: رأى رسول الله ﷺ من قومه كفافة، فجلس خالياً وتمنى أن لا يُنزلَ عليه شيء ينفرهم عنه، وقارب قومه ودنا منهم، ودنوا منه، فجلس يوماً في بعض أنديتهم، فنزلت سورة النجم، فقرأها حتى بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]؛ ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه من مقاربة أهله وقومه، لأنه كان قد شق عليه مباعدهم إياه، فتمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبينهم حرصاً منه على إيمانهم، فقال: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، ومضى في قراءة السورة كلها، وسجد وسجد معه المسلمون والمشركون، فلم يبق في المسجد إلا من سجد لسجوده إلا الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذتا حفنةً من الحصباء فرفعاها إلى جبينهما وسجدا عليه، وكانا شيخين كبيرين لا يستطيعان السجود، وتفرقت قريش، وقد سرهم ذلك، وقالوا: ذكر محمد آلهتنا بخير، فأحسن الشاء عليها، وقد علمنا أن الله يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا قد جعل لها محمد نصيباً، فنحن معه. فلما أمسى رسول الله ﷺ، جاءه جبريل ﷺ فلما بلغ إلى قوله: تلك الغرائق العلى، قال: ما أتيتك بهاتين الكلمتين - وفي قول ابن إسحاق: قال: لقد قلت عن الله ما لم أقل، وتلوت عن الله ما لم أتل به عن الله - فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً عظيماً، وندم على ما جرى. فأنزل الله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الحج: ٥٢] الآيات^(١)، ولما رجع النبي ﷺ عن ذلك بعد أن وقع ذكر الغرائق في فم كل كافر،

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ١٧٤.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٥٠) عن ابن عباس، وأخرجه - أيضاً - الطبراني (٨٣١٦) عن عروة

عادوا إلى أشراً مما كانوا عليه، وازدادوا شدة على من أسلم، وكان قد سمع من هاجر إلى الحبشة بأن قريشاً قد صافوا رسول الله ﷺ، فرجعوا إلى مكة، فلما قربوا منها، بلغهم ما جرى فوقفوا عن الدخول، ثم دخل كل رجل منهم في جوار رجل من قريش. فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، فكان يأتي رسول الله ﷺ في طرفي النهار آمناً.

ودخل أبو حذيفة بن عتبة في جوار أبيه.

ودخل مصعب بن عمير في جوار النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ، ويقال: في جوار أبي عزيز بن عمير أخيه، ودخل الزبير بن العوام رضي الله عنه في جوار زمعة بن الأسود.

ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم رد عليه جواره ورضي بجوار الله لَمَّا رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً في جوار رجل من المشركين، وأصحابي يلقون من البلاء ما لا يصيبني مثله لنقص كثير في نفسي، ذمة الله أعز وأمنع. ودخل سهيل بن بيضاء في جوار رجل من عشيرته من بني فهر، وقيل: دخل مستخفياً بغير جوار حتى هاجر الثانية.

ودخل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في جوار الأسود بن عبد يغوث، وقيل: دخل بغير جوار.

وعبد الله بن مسعود فدخل بغير جوار، والأشهر أنه ما دخل مكة ورجع إلى الحبشة.

فصل في الهجرة الثانية إلى الحبشة:

قالت أم سلمة رضي الله عنها: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ من الحبشة في الهجرة [الأولى إلى مكة]، اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائهم، ولقوا منهم أذى شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية، فقال له عثمان بن

= مرسلًا. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٢٨٥ بسنده إلى موسى بن عقبة في كتابه «المغازي» مرسلًا، وانظر كلام القاضي عياض على هذه القصة في «الشفاء» ٢/ ٧٥٠، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٣٠ ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، ولكنها من طرق مرسله، لم أرها مسندة من وجه صحيح.

عنان رضي الله عنه: يا رسول الله، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى الحبشة ولست معنا - يعني ما حكمها -؟ فقال: أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ^(١). فخرج منهم خلق كثير واختلفوا فيهم، فقال ابن سعد: كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية نسوة^(٢). وقيل: وإحدى عشرة امرأة. وقال الهيثم: كانوا مئة وثمانية، وقيل: وعشرة منهم عشر نسوة.

فصل في ذكر من ولد بالحبشة من المسلمين:

قال علماء السير: ولد بها: عبدالله، وعون، ومحمد - وفي رواية: ومعين -، أولاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أسماء بنت عميس^(٣). وسعيد، وأمنة ابنا خالد بن سعيد بن العاص. وعبد الله بن المطلب^(٤). ومحمد بن حاطب. ومحمد بن أبي حذيفة. وزينب بنت أبي سلمة^(٥). وموسى، وعائشة، وزينب أولاد الحارث بن خالد التيمي.

هؤلاء سوى من خرج بهم أهلهم من مكة صغاراً، أقاموا بالحبشة من سنة خمس من النبوة إلى سنة سبع من الهجرة، فلما بلغهم مهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانية نسوة يريدون مكة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس منهم سبعة، وشهد منهم بداراً أربعة وعشرون.

فلما كان في سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام، وأن يبعث إليه بجعفر ومن معه - أو عنده - من المسلمين إلى المدينة، وأن يزوجه أم حبيبة. وكان النبي صلى الله عليه وسلم محاصر خيبر، فأسلم النجاشي، وزوجه أم حبيبة، وجهاز إليه جعفر وأصحابه - رضي الله عنهم -^(٦).

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٧٦.

(٢) جاء في «الطبقات» ١/١٧٦-١٧٧: وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب.

(٣) انظر «نسب قريش» ص ٨٠، «وطبقات» ابن سعد ٤/٣١، وليس فيها ذكر لمعين.

(٤) هو المطلب بن أزمهر.

(٥) في (ك): «سلمى» وفي (خ): «مطحي»، والمثبت من المنتظم ٢/٣٧٧، وانظر «الإصابة» ٤/٣١٧.

(٦) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٧٧، وانظر نص كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيهقي في «الدلائل» ٢/٣٠٨،

فصل في صبر رسول الله ﷺ على أذى الكفار:

لما أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، ومنعه الله بعمه أبي طالب، ورأت قريش أنهم لا سبيل لهم عليه، قذفوه بأنواع العيوب، فقالوا: ساحر، كاهن، شاعر، كذاب، مجنون، وبالغوا في أذاه. فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأنزل في ذلك آيات^(١).

قال ابن مسعود: بينا النبي ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل بن هشام وأصحاب له جلوس، وقد نُحرت جزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلى جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم وأخذه، فألقاه على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، واستضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر إليه، ولو كانت لي منعة، طرحته عن ظهره، وهو ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم تَسُبُّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، رفع يديه فدعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً-، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثلاثاً. فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنِي رَيْبَعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ». وذكر السابع: عُمارة بن الوليد^(٢).

والسلى: الوعاء الذي يكون فيه الولدُ إذا وضع من الناقة. فأما في الجزور فما في بطنه. وأشقى القوم: عقبة بن أبي معيط.

= وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» ٣/ ٨٠-٨١: هكذا ذكره البيهقي بعد قصة الهجرة وفي ذكره هاهنا نظر، فإن الظاهر أن هذا الكتاب إنما هو إلى النجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر وأصحابه، وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله عز وجل قبيل الفتح، ويؤيده ما أخرجه مسلم (١٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، لكن ذكر ابن حجر في «الفتح» ٨/ ٤٧٣ أن النبي ﷺ كاتب النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لما مات، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافراً.

(١) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤).

فوالذي بعث محمداً ﷺ لقد رأيت الذي سَمَى صَرَعَى، ثم سُجِبُوا إلى قلب بدر قد غَيَّرْتَهُم الشمس، وكان يوماً حاراً^(١).

وخرج رسول الله ﷺ يوماً فلقه أبو البَخْتَرِي فَأَنكَرَ وجهه، فسأله عن حاله فأخبره، وكان بيده سوط، فأتى أبا جهل فعلاه به، فسار بنو مخزوم وبنو أسد بن عبد العزى، فقال أبو جهل: ويلكم، كفوا فإنما يريد محمدٌ أن يوقع بينكم العداوة^(٢).

فقال رسول الله ﷺ لعقبة بن أبي معيط: يا ابن أبان، ما أنت بمقصر عما أرى؟ فقال عقبة: لا، حتى تدع ما أنت عليه. فقال رسول الله ﷺ: والله لتنتهين أو لتحلن بك قارعة.

قال أبو جهل: والله لئن رأيت محمداً يصلي لأطأَنَّ رقبته. فبلغه أنه يصلي، فجاءه وقال: ألم أنك عن الصلاة؟ فانتهره رسول الله ﷺ، فقال: أنتهري وأنا أعز أهل البطحاء؟ فقال له العباس - وكان قريباً منه -: كذبت. فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى

عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(٣) [العلق: ٩-١٠].

قال عبد الله بن عمرو: بينا النبي ﷺ بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه. فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤) [غافر: ٢٨] وفي رواية: أقبلوا على أبي بكر فجعلوا شعره خُصْلاً وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام، وفي ضمنه: كيف تسلط عدوك على وليك^(٥)؟

وقال ابن عباس: اجتمع القوم في الحِجْر، فتعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ،

(١) مسلم (١٧٩٤)(١١٠).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (١٨٥٣)، والطبراني في «الأوسط» (٧٦٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٤٩٣-٤٩٤ من حديث ابن عباس، وأخرجه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة بغير هذا السياق.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١٥).

(٥) لم نقف عليها.

فجاءت فاطمة ابنته تبكي حتى دخلت عليه فأخبرته، فقام وتوضأ ودخل المسجد، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم، وقال: شأهت الوجوه. فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً^(١).

وكان أبو إهاب بن عزيز التميمي قد عزم على الفتك برسول الله ﷺ، وعلم به طليب، فضربه بلخي جمل فشجه، فأخبرت أمه أروى بنت عبد المطلب، فقالت: نعم ما فعل طليب، محمد ابن خاله. فهو أولى به وأحق من دافع عنه، ثم قالت^(٢):

إن طليبا نصر ابن خاله

أساه في ذي دمه وماله

وأسلم طليب في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر إلى الحبشة، ولما أسلم دخل على أمه أروى، فقال: يا أماه، أسلمت لله رب العالمين، واتبعت محمداً. فقالت: إن أحق من وازرت وعاضدت ابن خالك، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذبنا عنه. فقال لها: ما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه، فقد أسلم أخوك حمزة؟ فقالت: أنظر ما تصنع أخواتي، أكون واحدة منهن^(٣).

ذكر أسامي الذين أظهروا العداوة لرسول الله ﷺ:

أبو لهب عمه، أبو جهل، الأسود بن عبد يغوث، عتبة بن أبي معيط، الحكم بن أبي العاص، الحارث بن قيس بن عدي وهو ابن الغيطة، شيبه وعتبة ابنا ربيعة، أبو سفيان بن حرب، الوليد بن المغيرة، أبي وأميه ابنا خلف، العاص بن وائل السهمي، النضر بن الحارث، العاص بن هشام، وهؤلاء كانوا جيرانه، وكانوا أشد الناس عليه^(٤).

وأما من قريش فخلق كثير.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦٢).

(٢) انظر «أنساب الأشراف» ص ٢٥٧، و«تاريخ ابن عساکر» ١٤٢/٢٥.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١١٤/٣.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١٧٠/١.

وفيها استتر رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وتسمى الدار: دار الخيزران^(١).

وفيها: بعثت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة إلى النجاشي بهدايا يطلبون منه أن يسلم إليهم من عنده من المسلمين المهاجرين.
فصل وفيها استشهدت

سُمَيَّةُ بِنْتُ خُبَّاطٍ^(٢)

أم عمار بن ياسر، مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، أسلمت بمكة قديماً، وكانت ممن يُعذَّب في الله لترجع عن دينها، فما رجعت. وهي أول شهيدة في الإسلام، مر بها أبو جهل بن هشام وهي تعذب في الله تعالى، فطعنها في قُبْلِها بحربة فماتت^(٣).



(١) انظر «أخبار مكة» للفاكهي ٣/ ٣٣٠، و«المنتظم» ٢/ ٣٨٠، وعرفت بهذا الاسم عندما وهبها المهدي لامرأته الخيزران أم هارون الرشيد، فبنتها وجددتها فعرفت بها، كما سيذكره المصنف سنة ٥٥ في ترجمة الأرقم، وانظر «المنتظم» ٥/ ٢٨٠، و«البداية والنهاية» ٨/ ٧٤.

(٢) ضبطها السمعاني في «الأنساب» ٢/ ٣١٦ بفتح الحاء وتشديد الباء، وضبطها ابن حجر في «الإصابة» ٤/ ٣٣٤ بضم الحاء وفتح الباء المشددة.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١٠/ ٢٥١، و«المنتظم» ٢/ ٣٨٤.

السنة السادسة من النبوة

وفيها أسلم حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وقيل: في سنة خمس من النبوة، وقيل: في السنة الثانية من النبوة، وكان إسلام عمر رضي الله عنه - بعد حمزة - رضي الله عنه - بيوم، وقيل: ثلاثة^(١).

ذكر إسلام حمزة رضي الله عنه:

قال محمد بن كعب القرظي: نال أبو جهل وعدي بن الحمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ حمزة رضي الله عنه فقام ودخل المسجد، فضرب رأس أبي جهل بالقوس فشجه فوضّحه، وأسلم فعزّ به المسلمون وذلك بعد دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم^(٢).

وقال ابن إسحاق: مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس عند الصفا فأذاه ونال منه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد، وجلس في ظل الكعبة، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا تسمع ذلك، وأقبل حمزة رضي الله عنه من القنص متوشحاً قوسه، وكان يسمى: أعزّ قريش وأشدّها شكيمة، فقالت له مولاة ابن جدعان: يا أبا عُمارة، ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل آنفاً؟ وجده ها هنا خالياً فسبّه، وشتمه، وبالغ في أذاه، ولم يكلمه ابن أخيك. فغضب حمزة رضي الله عنه ودخل المسجد وأبو جهل جالس في نادي قومه عند الكعبة، فقال: يا مصفرّ استيه، أتشتم ابن أخي وأنا على دينه، أقول بما يقول؟ ثم ضربه بالقوس فشجه فوضّحه، فقام رجال من بني مخزوم، وثار بنو هاشم، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. ودخل حمزة دار الخيزران فتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أما آن لك يا عم» فأسلم، فعلمت قريش حينئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ، وأنه سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه^(٣).

(١) انظر «المنتظم» ٢/ ٣٨٤.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٨/ ٣.

(٣) «السيرة» ١/ ٢٦٠.

ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام». فكان أحبهما إليه: عمر^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فافتتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قلت: والله هذا شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣] فوقر الإسلام في قلبي وأسلمت^(٢).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: لم سُميت الفاروق؟ فقال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة أحب إلي من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألت عنه؟ فقالوا: هو في دار ابن الأرقم. فأتيت الدار، وحمزة في أصحابه جلوس في الدار، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في البيت، فضربت الباب، فاجتمع القوم، فقال لهم حمزة: ما بالكم؟ فقالوا: عمر بن الخطاب. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثيابي ثم نترني نتره لم أتمالك أن وقعت على ركبتي، فقال: «مَا أَنْتَ بِمُتِّهِ يَا عُمَرُ؟» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، فقلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا، وإن حيننا؟ قال: «بلى». قلت: فقيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن فأخرجناه في صفين، حمزة في صف، وأنا في صف له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، فلما نظرت إلينا قريش، أصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها قط، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم: الفاروق^(٣).

وقال الزهري: لما أسلم عمر، نزل جبريل فقال: يا محمد، استبشر أهل السماء بإسلام عمر^(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٦٩٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٤٠/١، وانظر «صفة الصفوة» ٢٧٣/١.

(٤) انظر «صفة الصفوة» ٢٧٤/١، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ابن مسعود: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر^(١).

وقال صهيب: لما أسلم عمر، جلسنا حول البيت حلقاً فطفنا وانتصفنا ممن أغلظ علينا^(٢).
واختلفوا، بَعْدَ كَمْ أسلم؟ والمشهور أنه أسلم بعد تسعة وثلاثين، وقد عددهم الهيثم ابن عدي، فقال: خديجة، علي، زيد بن حارثة، أبو بكر، بلال، عثمان بن عفان، عبدالرحمن بن عوف، طلحة، سعد، سعيد، أبو عبيدة، الزبير، حمزة، عبيدة بن الحارث، خباب، عمار، جعفر، مصعب بن عمير، ابن مسعود، عيَّاش بن أبي ربيعة، عثمان بن مظعون، أبو سلمة بن عبد الأسد، المقداد، طليب، صهيب، عامر بن فهيرة، عمرو بن عَبَسَة، نُعَيْم بن النَّحَام، حاطب بن الحارث، خالد بن سعيد، خالد ابن البكير، عبد الله بن جحش، أبو أحمد بن جحش^(٣)، عامر ابن البكير، عتبة بن غزوان، الأرقم، واقد بن عبدالله، عامر بن ربيعة، السائب بن عثمان بن مظعون، وتمم الله الأربعين: بعمر.

قال المصنف - رحمه الله -: والعجب من هذا، وقد هاجر إلى الحبشة نيف وثمانون بالاتفاق، ونيف ومئة على الخلاف، وهم إنما هاجروا في سنة أربع من النبوة، وعمر إنما أسلم في سنة ست منها، فقد ازدادوا. فما وجه قولهم: أتم الله به الأربعين؟ اللهم إلا أن يكون أسلم في سنة اثنتين من النبوة على ما قيل^(٤).



السنة السابعة من النبوة

وفيهما كانت وقعة بُعَاث، وهو يوم الأوس والخزرج، وكان أبو أسيد بن حُضَيْرِ
رئيس الأوس في ذلك اليوم^(٥).

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٥٠/٣.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٤٩/٣.

(٣) هو أخو أم المؤمنين زينب، واسمه عبد.

(٤) ولعل الصواب أن عمر أسلم بين الهجرتين فكان عدد المهاجرين في الأولى أربعين رجلاً وعشر نسوة. ثم حصلت الزيادة بعد إسلام عمر انظر «السيرة الشامية» ٤٩٣/٢، و«الطبقات الكبرى» ٢٤٩/٣، و«دلائل

النبوة» للبيهقي ٢٢٢/٢.

(٥) انظر «المنتظم» ٣٨٥/٢.

السنة الثامنة من النبوة

وفيها كتبت قريش الصحيفة بينها وبين بني هاشم.

واختلفوا في سببه على أقوال:

أحدها: أنه لما أسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما شق ذلك على كفار قريش، واتفقوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه ويتعاقدون، أنهم لا ينكحون إلى بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعونهم ولا يكلمونهم.

والثاني: أنه لما بلغ قريشاً فعل النجاشي بجعفر وأصحابه، وإكرامه إياهم، وردّه عمراً وصاحبه خائئين، شق ذلك عليهم، وكتبوا الصحيفة.

والثالث: أنه لما فشا الإسلام في القبائل، كتبوا الصحيفة، والذي كتبها منصور بن عكرمة بن [عامر بن] هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فشلت يده، وقيل: كتبها بغيض ابن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار^(١) فبيست يده حين كتبها، وبقيت أياماً عند أم الجلاس خالة أبي جهل، وهي التي يقال لها: الحنظلية، وقيل: بل كانت عند أسماء بنت مخرّبة أم أبي جهل، ثم أخذها المطعم بن عدي فأقامت عنده أياماً، ثم علقوها في الكعبة، ولما رأت بنو هاشم ذلك انحازوا إلى الشعب المعروف بشعب بني هاشم بمكة، ودخل معهم بنو المطلب، ولم يتخلف عنهم سوى أبي لهب، فأقاموا إلى السنة العاشرة من النبوة^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حصرونا في الشعب، وقطعوا عنا الميرة والمادة حتى كان صبياننا يتضاغون جوعاً، يُسمع ذلك من وراء الشعب حتى مات منا قوم.

وحكى الطبري: أن أبا جهل بن هشام لقي حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل حنطة، وما كان يُحمل إليهم شيء إلا سراً من قريش، وكان حكيم يريد بالطعام عمته

(١) وهو كذلك في «نسب قريش» ص ٢٥٤، و«جمهرة النسب» ص ٦٦.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ٣/٢، و«الطبقات الكبرى» ١/١٧٧.

خديجة رضي الله عنها وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشَّعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟! والله لا أبرح حتى أفضحك بمكة. فجاء أبو البَخْتَرِي فقال له: خل عن هذا الرجل، فأبى أبو جهل. فضربه أبو البختري بلحْيِ جمل فشج أبا جهل، ووطئه ووطئاً شديداً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ذلك، ويدعو إلى الله سرّاً وجهراً، وليلاً ونهاراً، والوحي يأتيه من الله ولم ينقطع عنه في الشعب.

وفيها: قُبِلَ دخولهم الشَّعب وصل الخبر بغلبة فارس على الروم.

قال علماء السير: عزم كسرى على غزو الروم، فاستشار امرأة عاقلة من فارس كانت تلد الملوك، فقالت: هذا فرُّخان، أحذر من صقر، وأروغ من ثعلب، وأنفذ من سنان، وهذا أخوه شهريار أحلم أهل زمانه، فقال: ما أريد إلا الحلم. فقدم شهريار على الجيوش، فأوغل في بلاد الروم قتلاً وأسرّاً، وهدم الحصون، وقطع الأشجار، وعاد إلى الشام، فأرسل إليه قيصر رجلاً من بطارقه يقال له: يُحْنَس، فالتقيا بأذرعَات وبصرى، وهي أذنى أرض الشام إلى أرض العرب فغلبت فارسُ الروم، وبلغ الخبر إلى كسرى، ثم إلى مكة فشقَّ ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، وكان يكره ظهور الفرس، لأنهم مجوس لا كتاب لهم، والروم لهم كتاب. وفرح كفار قريش بذلك، لأنهم عبدة الأوثان مثل الفرس، وقالوا للمسلمين: قد ظهر إخواننا، فلو قاتلناكم لظهرنا عليكم. فأنزل الله تعالى: ﴿الْمَ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ١-٣] الآيات، فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفار وهو يقول لهم: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، لا تفرحوا فوالله لتظهرنَّ الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم. فقام إليه أبي بن خلف الجُمَحي، فقال: كذبت يا أبا الفضيل. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: اجعل بيننا أجلاً أناجُبك عليه - والمناحبة: المراهنة -، على عشر قلائص منِّي وعشر منك، فإن ظهرت الروم على فارس، غرمت. ففعلاً ذلك، وجعلاً الرهن ثلاث سنين، وذلك قبل تحريم القمار.

وأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هكذا ذُكِرَتْ، إنّما البِضْعُ: ما بين الثلاثِ إلى التسعِ. فزايده في الخطر، وماده في الأجل» فخرج أبو بكر رضي الله عنه فلقي أبا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا. فقال: تعال أزايدك وأمادك في

الأجل فنجعلها مئة قلوصل إلى تسع سنين ، فقال : قد فعلت . فلما خشي أبي أن يخرج أبو بكر رضي الله عنه من مكة ، فقال : أقم لي كفيلاً . فكفله ابنه عبد الله - رضي الله عنه - ، فلما أراد أبي أن يخرج إلى أحد ، أتاه عبد الله بن أبي بكر - رضي الله عنه - ، فقال له : أقم لي كفيلاً . فأعطاه ، ثم رجع أبي مجروحاً ، فمات من جراحته بمكة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جرحه ، ثم ظهرت الروم على فارس يوم الحديدية وذلك على رأس تسع سنين من مناجبتهما ، وهذا قول عامة المفسرين ^(١) .

وقال أبو سعيد الخدري : إنما ظهرت الروم على فارس يوم بدر ^(٢) .

وقال الشعبي : إنما كان صاحب قمار الكفار بمكة أبي بن خلف ، وصاحب قمار المسلمين أبو بكر رضي الله عنه ، وذلك قبل تحريم القمار ، فلم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وعمروا رومية ، فامر أبو بكر رضي الله عنه أيماً ، وأخذ مال الخطر من ورثة أبي ، فجاء به رسول صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تصدق به» ^(٣) .

ذكر السبب في ظهور الروم على فارس :

ذكر علماء السير : أن شهريار لما هزم الروم على أذرعان ، سار خلفهم فأناخ على خليج القسطنطينية ، وكان أخوه فرخان في جملة الجيش ، فسكرو يوماً ، فقال : رأيت في المنام كاني جالس على سرير كسرى . وبلغ كسرى ، فكتب إلى شهريار : ابعث إليّ رأس فرخان . فكتب ذلك على أخيه ، وكتب إلى كسرى : إذا قتلت فرخان ، فمن للنكاية في العدو ، ومن للحرب . فكتب إليه كسرى : إن في رجال فارس خلفاً عنه ، فعجل عليّ برأسه . فكتب إليه شهريار : إنك لا تجد مثله ، فلا تعجل على قتله . فغضب كسرى ولم يجبه ، وكتب كتاباً إلى الجيش : إني قد نزلت عنكم شهريار ، ووليت عليكم فرخان ، ثم دفع إلى الرسول صحيفة صغيرة إلى فرخان يأمره بقتل أخيه شهريار ، وقال : إذا

(١) ساق القصة ابن كثير في «تفسيره» ٤٢٤ / ٣ - ٤٢٥ ، وانظر «تاريخ الطبري» ١٨٥ / ٢ ، و«دلائل النبوة» ٢ / ٣٣٠ ، و«المنتظم» ٣١٩ / ٢ و ٣٨٧ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٣٥) .

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٤٨٠ / ٦ ، وعزاه إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه .

جلس فرخان على السرير، وأطاعه الجند، فناوله إياها. فلما قرأ كتاب كسرى على الجيش، قال شهريار: سمعاً وطاعة، ونزل عن السرير، وسلم الأمر إلى فرخان، فدفع إليه الرسول الصحيفة، فقال: علي بشهريار، فجاء فأمر بقتله. فقال له: يا أخي، لا تعجل، ودعا بسفطٍ وأخرج منه ثلاث صحائف من كسرى إليه بقتل فرخان، ثم قال: قد راجعت فيك مراراً ولم أقتلك، وأردت أن تقتلني بكتاب واحد. فنزل فرخان من السرير، وسلم الملك إليه.

وكتب شهريار إلى قيصر: إن لي حاجة لا تُقَلِّها البُرْدُ، ولا تحملها الصحف، فالقني في خمسين فارساً. وخرج شهريار في خمسين فارساً وضربت لهما قبة، فدخلها وبينهما ترْجُمان، فقال شهريار: إن الذي أخرب مدائنك، وسبى رعيتك، ودوخ بلادك، أنا وأخي، وإن الخبيث كسرى حسدنا، وأغرى بيننا، وعرفه الخبر، ونحن نقاتله معك، ونملكك داره وملكه، فسير معنا. فقال: أصبتما، ثم أشار كل واحد منهما إلى صاحبه بأن السرمتي جاوز اثنين شاع.

فقتلا التَّرجُمان، وساروا جميعاً نحو المدائن يخربون أرض فارس ويقتلون. ومات كسرى، وأديلت الروم على فارس، وجاء الخبر يوم الحديبية إلى رسول الله ﷺ، ففرح ومن معه، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ، غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ الآية^(١).

وقرأ أبو عمرو، وأبو سعيد الخدري، والحسن، وعيسى بن عمر: «غَلَبَتِ الروم» بفتح الغين، و«سَيَغْلِبُونَ» بضم اللام^(٢) وفتح الياء.

قالوا: نزلت هذه الآية حين أخبر الله نبيه ﷺ عن غلبة الروم فارس، وأن المسلمين يغلبونهم في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة، أخذ المسلمون في التأهب لجهاد الروم، وكان أبو الدرداء يقول: سيأتي قوم يقرأون: «غَلَبَتِ الروم» بالفتح، وإنما هي: ﴿غَلَبَتِ﴾ بالضم، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني من قبل دولة الروم على فارس، ومن بعدها^(٣).

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١٨٢/٢ فما بعدها، و«المنتظم» ٣١٩-٣٢٠.

(٢) في (ك): «الباء»، وانظر تفسير الطبري ٤٤٦/١٨، والبحر المحيط ١٦١/٧.

(٣) جاء بعدها في (خ): «يعني من قبل ذلك».

قال يحيى بن أبي عمرو السيباني، قال رسول الله ﷺ: «فارسٌ نَطْحَةٌ أو نَطْحَتَان، ثم لا فارسَ بعدها أبداً، والرُّومُ ذاتُ القرونِ، كلُّما ذهبَ قرْنٌ خَلَفَهُ قرْنٌ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إلى آخر الأبد»^(١).

وفيها: قدم ضِمَاد الأزدِي مكة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قدم ضِمَاد مكة، وكان من أزدِ شَنْوَةَ، وكان يرقى من الريح، فسمع سفهاء قريش يقولون: إن محمداً لمجنون، فقال: لو أني لقيت هذا الرجل ففعل الله أن يشفيه على يدي، قال: فلقيته. فقلت: يا محمد، إني أرقى من الريح والله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِي اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فلا هَادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أما بعدُ». فقال له ضِمَاد: أعد علي ما قلت - أو أعد علي كلماتك هؤلاء - فأعادهن عليه ثلاثاً. فقال ضِمَاد: لقد سمعت كلام الكهان والسحرة والشعراء فما سمعت مثل كلماتك هذه، لقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك؟» فقال: وعلى قومي. فبعث رسول الله ﷺ بعد ذلك سرية، فمرت بقوم ضِمَاد، فقال صاحب الجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل: أصبت منهم إداوة. فقال: ارددْها، فإن هؤلاء قوم ضِمَاد^(٢).

ولما دخلت السنة التاسعة من النبوة، مرض أبو طالب وهم في الشعب.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٢٩٨/٥، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٣٤٦)، وهو مرسل بين السيباني

والنبي ﷺ عبدالله بن محيريز.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).

السنة العاشرة من النبوة

فيها خرج بنو هاشم من الشعب، واختلفوا في سبب خروجهم على أقوال:

أحدها: أن هشام بن عمرو بن الحارث من بني عامر بن لؤي، وكان أوصل قريش لبني هاشم حين كانوا في الشعب، كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً في الليل، فإذا جاء إلى الشعب، خلع خظامه وضربه على جنبه، فيدخل الشعب، وعلمت به قريش فنهته فلم ينته، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه فإنه رجل وصل رحمه، أما والله لو فعلنا ما فعل لكان أجمل بنا.

فمشى هشام إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، وكانت أمه: عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وتلبس الثياب، [وأخوالك حيث قد علمت لا يُبايعون]، ولا يناكحون، أما تستحي؟ فقال: ويحك، ما أصنع وأنا رجل واحد، أما والله لو كان معي رجل آخر، لقمتم في نقضها. فقال: قد وجدته، قال: ومن هو؟ قال: أنا. قال: فابغنا ثالثاً. قال: أبو البختري بن هشام، قال: ابغنا رابعاً، قال زَمْعَةُ بن الأسود: قال: فابغنا خامساً، قال المُطْعِم بن عدي: قال: فاجتمعوا عند الحجون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، قال زهير: أنا أبدأ بها، فجاوزوا إلى الكعبة وقريش مُحَدِّقَةً، فطاف زهير بالبيت سبعاً، ثم نادى: يا أهل مكة، إننا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكت، والله لا أقعد حتى نشق هذه الصحيفة القاطعة، فقال له أبو جهل: كذبت لا تُشَقُّ والله. فقال زَمْعَةُ بن الأسود: أنت والله أكذب، مارضينا حين كُتِبَتْ. وقال أبو البختري: صدق زَمْعَةُ، لا نرضى ما كتب فيها، فقال المُطْعِم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. فقال هشام بن عمرو: نتبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِيَ بليلاً وتُشَوَّرَ فيه. وقام المُطْعِم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرْضَةَ قد أكلت ما فيها من الظلم، ولم يبق إلا «باسمك اللهم»^(١).

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ١٧/٢-١٨، و«تاريخ الطبري» ٣٤١/٢، و«المنتظم» ٣/٤-٥، وما بين معكوفين منها.

فقال أبو طالب^(١): [من الطويل]

جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا
أعان عليها كلُّ صقر كأنه
قُعوداً لدى جنب الحجون كأنهم
قال: وأسلم هشام بن عمرو يوم الفتح.

والثاني: أن الله بعث الأَرْضَةَ فأكلت ما في الصحيفة من الجور والظلم، وأبقت ما فيها من قوله: «باسمك اللهم»، فأخبر رسول الله ﷺ أبا طالب، فقال: أحقاً ما تقول يا ابن أخي؟ فقال: نعم، أخبرني بذلك ربي. فأخبر أبو طالب أخوته وقال: والله ما كذبتني قط. قالوا: فما ترى؟ قال: أرى أن نخرج إلى قريش فنخبرهم بذلك قبل أن يصلهم الخبر. فخرجوا من الشعب، فدخلوا المسجد، فلما رأتهم قريش، أنكروا ذلك، فناداهم أبو طالب: إنا قد جئناكم في أمر، فأجيبوا عنه، قالوا: وما هو؟ قال: أخبرني ابن أخي، ولم يكذبني قط: أن الأَرْضَةَ قد أكلت ما فيها من الظلم والجور وقطيعة الرحم، ولم تتعرض لما كان من اسم الله تعالى، فإن كان ابن أخي صادقاً، فكفوا عنا، وإن كان كاذباً، دفعناه إليكم. فقالوا قد أنصفت، وجاءوا بالصحيفة فلما فتحوها، وجدوا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، فسقط في أيديهم، ونكسوا رؤوسهم. فقال لهم أبو طالب: هل تبين لكم ظلمكم وجوركم؟ فلم يجبه أحد، وانصرفوا. فلم يتعرض أحد بعدها لبني هاشم^(٢).

والثالث: أن المُطْعِم بن عدي شرب ليلة فانتشى، فقال: من مثلي؟ فقال له عدي ابن قيس التميمي أو عتبة بن ربيعة: إن كنت كما تقول، فما بال بني عمك يموتون في الشعب جوعاً؟ فقام، فلبس سلاحه، ولبس معه أبو البخري، وزهير بن أبي أمية، وهشام بن عمرو، ومن سَمِينَا، وجاءوا إلى الشعب، وصاحوا بهم: اخرجوا على رغم

(١) الأبيات في «السيرة» ٢/٢٠، من ضمن أبيات.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٧٨-١٧٩، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢/٣١٢، و«المنتظم» ٣/٣-٤.

قريش، فقال أبو طالب: إنا نخاف. فقال المطعم^(١): لا خوف عليكم بعد اليوم. فخرجوا.

وأقاموا في الشعب ثلاث سنين، وقيل: سنتين وأشهرًا.

وفيها: خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة له من قومه.

قال جبير بن مطعم: لما توفي أبو طالب، تناولت قريش رسول الله ﷺ، فخرج إلى الطائف في آخر شوال من هذه السنة، ومعه زيد بن حارثة^(٢).

قال البلاذري: خرج لثلاث بقين من شوال سنة عشر من النبوة، وعاد إلى مكة يوم الثلاثاء لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة^(٣).

وقيل: أقام عشرة أيام^(٤). والأول أصح.

قال الواقدي: لم يدع أحداً من أشرافهم إلا كلمه، فلم يجبه أحد منهم، وخافوا على أحداثهم منه، فقالوا له: اخرج عنا. وأغروا به سفهاءهم، فرمؤه بالحجارة حتى أدموه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً كثيرة^(٥).

وقال كعب الأخبار^(٦): اجتمع النبي ﷺ بالطائف بسادات ثقيف وهم ثلاثة أخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبیب، أولاد عمرو بن عمير الثقفي، فدعاهم إلى الله تعالى، والقيام معه على إظهار الإسلام ومن خالفه من قومه، فقال له عبد ياليل: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال مسعود: أما وجد الله من يرسله غيرك؟ وقال له حبيب: إن كنت رسولاً كما تزعم، فلأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، وإن كنت

(١) في النسخ: أبو المطعم. انظر «أنساب الأشراف» ١/ ٢٧٢.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٨٠، و«المنتظم» ٣/ ١٢.

(٣) أنساب الأشراف» ١/ ٢٧٣.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٨٠، و«المنتظم» ٣/ ١٢.

(٥) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٨٠.

(٦) هكذا جاء في النسخ، والصواب: «محمد بن كعب القرظي» كما في المصادر.

كاذباً على الله، فما ينبغي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف، وأغرّوا به عبيدهم وصبيانهم يسبونه ويصيحون عليه حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة وأخيه شيبه ابني ربيعة وهما فيه، فعمد إلى ظل حُبلة، فجلس في ظلها وشيبة وعتبة ينظران إليه، ويريان ما يلقي من سفهاء ثقيف، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس، [يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المُستضعفين، وأنت ربِّي] فإلى من تكلمني، [إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري] فإن لم يكن منك عليّ غضبٌ فلا أبالي [ولكن عافيتك هي أوسع لي]، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات، وأضاءت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، [لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك] وهو ﷺ يبكي، فلما رأى ابنا ربيعة ذلك، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما يقال له: عدّاس، نصرانياً، فقالا: خذ قِظفاً من العنب فضعه في طبق، واذهب به إلى ذلك القاعد، فضعه بين يديه، ففعل ذلك عدّاس، فمد رسول الله ﷺ يده وقال: «بسم الله». وسمعه عدّاس، فنظر إليه وقال: والله إن هذا كلامٌ ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «فمن أنت، وما دينك؟» قال: نصراني، من أهل نينوى. قال: «من قرية العبد الصالح يونس بن متى» قال: نعم وما يدريك ما يونس؟ فقال: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي». فأكبَّ عدّاسٌ يقبل يديه ورجليه، فقال عتبة لأخيه شيبه: أفسد عليك غلامك. فلما جاءهما، قال له: ويحك، ما هذا؟ فقال: والله ما في الأرض رجل خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا الله أو نبي. فقالا: ويلك، لا يصرفك عن دينك، فدينك خير من دينه^(١).

قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٤٧/٢-٤٨، و«تاريخ الطبري» ٣٤٤/٢، و«المنتظم» ٣/١٣-١٥، وما بين معقوفتين زيادة من المصادر.

فقال: «يوم عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَّالِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أُسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي وَفِيهَا جَبْرَيْلُ، فَنَادَانِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَقَالَ لِي: إِنَّ شِئْتَ أَطَبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ. فَقُلْتُ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(١).

ولما عاد رسول الله ﷺ من الطائف، أقام بنخلة أياماً، فمر به نفر من الجن وهو يصلي الفجر، فوقفوا فاستمعوا لقراءته، ثم ولوا إلى قومهم منذرين، وأنزل الله سورة الجن^(٢).

وأول من تعوَّذ بالعرب من الجن قوم من اليمن، ثم بنو حنيفة، وفشا ذلك في العرب، كان إذا أمسى قوم في بريّة، يقولون: نعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فيبيتون في أمنٍ وجوار.

[عن كَرْدَمِ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ أَبِي] فِي حَاجَةٍ وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ مَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَأَوَانَا الْمَبِيتَ إِلَى رَاعِي غَنَمٍ، فَجَاءَ ذئْبٌ فَأَخَذَ شَاةَ أَوْ حَمَلًا مِنَ الْغَنَمِ، فَوَثَبَ الرَّاعِي وَقَالَ: يَا رَاعِي الْوَادِي، جَارِكَ، فَنَادَى مُنَادٍ لَا نَرَاهُ: يَا سِرْحَانَ، أَرْسَلَهُ. فَأَتَى الْحَمَلُ يَشْتَدُ حَتَّى دَخَلَ الْغَنَمَ، وَلَمْ يُصِبهُ شَيْءٌ^(٣).

ذَكَرَ رَجُوعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

لَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى مَكَّةَ، قَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَى الْقَوْمِ بِغَيْرِ جَوَارٍ، وَقَدْ أَخْرَجُوكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى مَنْ شِئْتَ فَادْخُلْ فِي جَوَارِهِ. فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي رِسَالَةَ؟ قَالَ:

(١) صحيح البخاري (٣٢٣١)، و صحيح مسلم (١٧٩٥).

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام ٤٩/٢.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٩/ (٤٣٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٢٩/٧ وقال: وفيه عبدالرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف. وما بين معكوفتين زيادة من معجم الطبراني.

نعم. قال: إئت الأخنس بن شريق، فقل له: يقول لك محمد بن عبد الله: هل أنت مُجيري حتى أُبلِّغ رسالات ربي؟ فأتى الأخنس فأخبره، فقال له: قل له: إن الحليف لا يجير على الصريح. فأتى النبي ﷺ فأخبره. فقال له: إئت سهيل بن عمرو، فقل له كذلك، فأتاه فقال سهيل: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب، فقال: فأت المَطعم بن عدي، فأتاه، فقال: قل له قد أجرته، فليدخل. وأصبح المَطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه وقومه، ودخلوا المسجد، فقال له أبو جهل: أمجير أم متابع؟ فقال: بل مجير. فقال: أجرنا من أجرنا من أجرنا. ودخل رسول الله ﷺ المسجد، ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فطاف بالبيت، وصلى ركعتين، واستلم الركن، ونادى المَطعم: يا معاشر قريش، قد أجرْتُ محمداً. ثم طاف حوله هو وقومه وأهله حتى دخل النبي ﷺ [وكان النبي ﷺ يرى ذلك للمطعم بن عدي وقومه، وأقام في جوار المَطعم يبلغ رسالات ربه^(١)].



وفيها: تزوج رسول الله ﷺ بعائشة وسودة رضي الله عنهما بعد وفاة خديجة رضي الله عنها.

قال أبو سلمة: لما هلكت خديجة، جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ فقال: «من؟» قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً. قال: «فمن البكر؟» قالت: بنت أبي بكر، أحب خلق الله إليك، وأما الثيب فسودة بنت زمعة آمنت بك، وأتبعتك على ما تقول. قال: «فأذهبي فأذكريهما عليّ». قالت: فدخلت بيت أبي بكر، فقلت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير؟ قالت: وما ذاك؟ قلت: أرسلني إليكم رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. فقالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر فأخبرته، فقال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه؟ قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «هو أخي في الإسلام، وابنته تحلُّ لي». قالت: فأخبرت أبا بكر، فقال: انتظريني، وخرج - وكان المَطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، وما وعد أبو بكر أحداً فأخلفه - فدخل على

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٨١، و«تاريخ الطبري» ٢/٣٤٧، و«المنتظم» ٣/١٥. وما بين معقوفين

زيادة يقتضيها السياق، وانظر «أنساب الأشراف» ١/٢٧٣.

المطعم وعنده امرأته أم الفتى، فقالت له: يا ابن أبي قحافة، لعلك مُصْبِيٌّ صاحبنا ومُدْخِلُهُ في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك. فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: أبقول هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد أذهب الله من نفسه عِدَّتَهُ التي وعده بها، وقال لخولة: ادع لي رسول الله ﷺ فدعته. فزوجها منه وعائشة رضي الله عنها يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت خولة، فدخلت على سَوْدَةَ، فقالت لها: إن رسول الله ﷺ يخطبك، فقالت: ادخلي على أبي - وكان شيخاً كبيراً - فاذكري له ذلك، فدخلت عليه فحيتته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالوا: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودة. فقال: كفؤ كريم، فما قالت صاحبك؟ قالت: قد أجابت إلى ذلك. فقال: ادعيها إلي، فدعتها. فقال: يا بنية أتحنين ما قالت خولة؟ قالت: نعم قال: فاذهبي، فادعيه لي. قالت: فدعوت رسول الله ﷺ فجاء، فزوجه إياها.

قالت خولة: وكان أخوها عبد الله بن زَمْعَةَ حاجّاً، فقدم فحشا التراب على رأسه، فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه أحتي التراب على رأسي أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة^(١).



وفيها: قدم مكة سويد بن الصامت، وكانوا يسمونه: الكامل، لشرفه وحسبه وفضله. وهو القائل: [من الطويل]

ألا رَبِّ من يُدعى صديقاً ولو ترى
يسرُّك باديه وتَحَّتْ أديمه
تُبِينُ لك العينان ما هو كاتمٌ
فَرِشْنِي بخير طالما قد بَرَيْتَنِي
مقالته بالغيب ساءك ما يفري
نميمةٌ غِشٌّ تبترى عَقِبَ الظهر
وتُبْديهِ بالبغضاء والنظر الشَّرير
فخير الموالي من يريش ولا يبيري^(٢)

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٧٦٩).

(٢) فَرِشْنِي: قَوْنِي، بَرَيْتَنِي: أضعفتني.

فتصدى له رسول الله ﷺ، ودعاه إلى الله. قال سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك - وكان فصيحاً -؟ فقال: معي مجلة لقمان - يعني حكمته -، وعرضها على رسول الله ﷺ، فقال: كلام حسن ولكن معي أفضل منه، قال: وما هو؟ قال: قرآن أنزله الله عليّ، هدى ونور، وقرأ عليه منه، ودعاه إلى الله، فلم يبعد عنه، وقال: إن هذا لحسن. ثم انصرف إلى المدينة، فقتلته الخزرج في هذه السنة، وقيل: في يوم بُعث^(١).

وفيها: قدم قيس بن مالك الهمداني مكة، فلقي رسول الله ﷺ، فقال: إنما جئت لأؤمن بك ولأنصرك، فقال له رسول الله ﷺ: «مَرَحَباً بِكَ، أَتَأْخُذُونِي بِمَا فِيَّ يَا مَعْشَرَ هَمْدَانَ؟» قال: نعم. قال: «فَاذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ، فَإِنْ فَعَلُوا، فَارْجِعْ إِلَيَّ». فذهب قيس إلى قومه وأخبرهم الخبر، فأسلموا وقالوا: اذهب إلى رسول الله ﷺ وعرفه ذلك، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، قد أسلموا وأمروني أن آخذك. فقال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ وَافِدُ الْقَوْمِ قَيْسٌ، وَفِيَتْ وَفَى اللَّهُ لَكَ» ومسح على ناصيته وكتب له عهده على همدان^(٢).

فصل وفيها توفيت

خديجة بنت خويلد

ابن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب رضي الله عنه زوج النبي ﷺ، وكانت تُدعى في الجاهلية: الطاهرة، وسيدة نساء قريش، وتكنى: أم هند، وأمها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وأم فاطمة: هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن سعد، وأم هالة: العرقة وهي قلابة بنت سعيد بن تميم بن لؤي بن غالب، وأمها: عاتكة بنت عبد العزى بن قصي، وأم عاتكة: الخُطَيَّا وهي رَيْطَةُ بنت كعب بن سعد بن تميم بن مُرَّة، وأمها: نائلة بنت حُذافة بن جُمَح.

نبذة من فضائلها:

كان رسول الله ﷺ يحترمها ويكرمها ويوادها، ويشاورها في أموره كلها، وكانت

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٥٢-٥٣، و«تاريخ يعقوبي» ٣٧/٢، و«تاريخ الطبري» ٣٥١/٢.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٩٣-٢٩٤.

وزيرة صدوق^(١)، صاحبة عزم.

سئل الزهري: أنفقت خديجة على رسول الله ﷺ أربعين ألفاً؟ فقال: وأربعين ألفاً وكررها.

وقال علي بن أبي طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». متفق عليه^(٢). أراد بالأول: نساء بني إسرائيل، وبالثاني: نساء هذه الأمة.

وفي المتفق عليه: عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله ابن أبي أوفى: أكان رسول الله ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ؟ قال: نعم، بَشَّرَهَا بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ^(٣).

وفي المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرث من أحد من نساء رسول الله ﷺ مثل ما غرث من خديجة، وما رأيتها قط، وتزوجني بعد موتها بثلاث سنين، ولقد كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ ذِكْرَهَا، وربما ذبح الشاة فقطعها أعضاء، ثم يبعث بها إلى صدائقي خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»^(٤).

وفي المتفق عليه: أن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يوماً: خديجة - بالتصغير - فزجرني وقال: «إني رزقت حبها» فأذكرتني الغيرة، فقلت: وهل كانت إلا عجوزاً قد أخلف الله لك خيراً منها، فغضب حتى اهترَّ مقدم شعره، وقال: «والله ما أخلف لي خيراً منها، لقد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء». قالت: فقلت في نفسي: والله لا أذكرها أبداً^(٥).

(١) في (خ): «وكانت صدوقة».

(٢) صحيح البخاري (٣٤٣٢)، وصحيح مسلم (٢٤٣٠).

(٣) صحيح البخاري (٣٨١٩)، وصحيح مسلم (٢٤٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٣٨١٨)، وصحيح مسلم (٢٤٣٥).

(٥) قوله ﷺ: «إني رزقت حبها» أخرجه مسلم (٢٤٣٥)(٧٥) ولم يخرج البخاري، وقول عائشة: وهل كانت =

وفي المتفق عليه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً هالة أخت خديجة، فارتاع لذلك، وقال: «اللهم هالة بنت خويلد» قالت: فغرت وقلت: ما تذكر من عجوز حمراء الشدين، هلكت في الدهر، فزجرني^(١). وذكر بمعنى ما تقدم.

ذكر وفاتها رضي الله عنها:

اتفقوا على أنها توفيت في هذه السنة بعد وفاة أبي طالب.

قال الواقدي: عاشت بعده ثلاثة أيام.

وقال ابن إسحاق: شهراً وخمسة أيام.

وقال الهيثم: خمسة وخمسين يوماً، ولما توفيت كان لها خمس وستون سنة.

وقال البخاري: ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرتها،

ولم تكن سنت الجنازة يومئذ، ولا فرضت الصلوات الخمس، ودفنت بالحجون^(٢).

ذكر أولادها:

وهما قسمان من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم

فمنهم: هند وهالة.

وقال بعضهم: هما ذكران، وقال بعضهم: ذكر وأنثى، وهي: هند، وكانت تسمى

ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأختاً وأخاً، وأبي

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمي خديجة، وأختي فاطمة، وأخي القاسم.

أما أولادها من رسول الله صلى الله عليه وسلم: القاسم وبه كان يكنى، مات قبل النبوة، وحزن

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عبدالله، ولقبه الطاهر، ثم الطيب، وقيل: إنهما ولدا بعد

= إلا عجوزاً.. أخرجه البخاري ومسلم كما سيأتي في تخريج الحديث الآتي، وأخرج أحمد في «مسنده»

(٢٤٨٦٤) عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثني عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً

فقلت: ما أكثر ما تذكر حمراء الشدق قد أبدلك الله بها خيراً منها.. وذكر تمام الحديث، وانظر «الجمع بين

الصحيحين» (٣٢٢٣).

(١) صحيح البخاري (٣٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٤٣٧).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٩/١٠، و«مستدرك الحاكم» ١٨٢/٣.

النبوة، وقيل: الْمُطَيَّب والمُطَهَّر.

وكانت تعق عن الغلام بشاتين، وعن الجارية بشاة.

والحاصل: أن في القاسم وعبدالله اتفاقاً، وفي الباقي خلاف^(١).

فأما الإناث: فزينب، ورُقِيَّة، وأم كلثوم، وفاطمة عليهن السلام.

وقد روت خديجة رضي الله عنها الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيهما توفي

أبو طالب

قال ابن المسيب عن أبيه: لما احتضر أبو طالب، أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عند رأسه عبدالله بن أبي أمية، وأبا جهل بن هشام، فقال: «يا عمّ، قل كلمة أشهد لك بها عند الله غداً، قل لا إله إلا الله». فقال له عبد الله وأبو جهل: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يردد عليه، وهما يرددان عليه، حتى كان آخر كلمة قالها: أنا على ملة عبد المطلب ومات. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته وجعل المسلمون يستغفرون لموتاهم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢) [التوبة: ١١٣].

وقال الواقدي: دعا أبو طالب بني عبد مناف، وبني المطلب، وبني هاشم عند وفاته، وقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من ابن أخي محمد، فاتبعوه، وأعينوه ترشدوا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَتَأْمُرُهُمْ بِهَا، وَتَدْعُهَا أَنْتَ يَا عَمّ؟» فقال: يا ابن أخي، أما

(١) قال ابن حجر في «الفتح» ١٧٢/٧: المتفق عليه من أولاده منها القاسم وبه كان يكنى، مات صغيراً قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة، وقيل: كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة. وعبد الله ولد بعد المبعث فكان يقال له: الطاهر والطيب، ويقال: هما أخوان له، وماتت الذكور صغاراً باتفاق.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠).

إنك لو سألتنيها وأنا صحيح لتابعتك على ما تقول، ولكن أكره أن يقال: جزع عند الموت، فترى قريش أني أخذتها جزعاً، ورددتها في صحتي. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١) [القصص: ٥٦].

وقال الشيخ موفق الدين رضي الله عنه في «الأنساب»: قد كان أبو طالب يقر بنبوته رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء ذلك في أشعار له منها قوله: [من الطويل]

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤياً وخُصّاً من لؤي بني كعب
بأننا وجدنا في الكتاب محمداً نبياً كموسى خُطّ في أول الكُتب
وأنّ عليه في العباد محبةً ولا خير ممن خصّه الله بالحُب
ومنها قوله أيضاً: [من الطويل]

تعلّم خيار الناس أن محمداً وزير لموسى والمسيح بن مريم
أتى بالهدى مثل الذي أتيا به فكلُّ بأمر الله يهدي ويعصم
وأنكم تتلونّه في كتابكم بصدق حديث لا حديث المترجم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا فإن طريق الحق ليس بمُظلم
ولكنه أبي أن يدين بذلك خشية العار^(٢).

وقال إسحاق بن عبدالله بن الحارث: قال العباس: يا رسول الله، عمك أبو طالب قد كان يكلؤك ويحوطك، فقال: «غفر الله له ورحمته» فقال العباس: وإنك لترجو له، فقال: «إي والله، إنني لأرجو له كل الخير من ربي»^(٣).

قال علي رضي الله عنه: لما توفي أبو طالب، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن عمك قد مات، فقال: «أذهب فواره، ولا تُحدث حدثاً حتى تأتيني». ففعلت، وأتته فدعا لي بدعوات ما يسرني بها حُمر النعم^(٤).

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٠١.

(٢) «التبيين في أنساب القرشيين»، ص ١١٠-١١١، وانظر «السيرة» لابن هشام ٤/٢.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/١٠٣، وأحمد في «مسنده» (١٧٨٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٠٧)، وابن سعد ١/١٠٢.

وقال ابن عباس: عارض رسول الله ﷺ جنازة أبي طالب، فلما مرت به، بكى وقال: «وَصَلَّتْكَ رَحْمٌ يَا عَمُّ، وَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا»^(١).

وقال ابن إسحاق: رثاه علي - عليه السلام - بأبيات منها^(٢): [من الطويل]

أرقتُ لطيرٍ آخرَ الليلِ غردًا يذكرني شجواً عظيماً مجدداً
أبا طالبٍ مأوى الصَّعاليكِ ذا الندى جوادٌ إذا ما أصدر الناسُ أوردا
فأمست قُريشٌ يفرحون بموته ولستُ أرى حيًّا يكون مُخلداً
أرادوا أموراً زينتها حلومهم ستوردهم يوماً من الغيِّ مورداً
يُرجون تكذيبَ النبي وقتله وأن نفتري قدماً عليه ونجحداً
كذبتم وبيتِ الله حتى نذيقكم صدور العوالي والحسام المهندا
فإمَّا تُبیدونا وإمَّا نُبیدكم وإمَّا تروا سلمَ العشيرة أرشداً
وإلا فإن الحيِّ دون محمدٍ وأسرته خير البرية مَحْتِداً

قال الواقدي: أقام أبو طالب من سنة ثمان من مولد رسول الله ﷺ إلى السنة العاشرة من النبوة، ثلاثاً وأربعين سنة يحوطه، ويقوم بأمره، ويذبُّ عنه، ويلطف به، ويمنعه من الكفار^(٣).

وقال عروة: ما زالوا كافين عن رسول الله ﷺ حتى مات أبو طالب - يعني قريشاً -^(٤).

وقال الواقدي: أصاب أبا طالب يوم الفجار سهم في قدمه، فكان يجمعُ منه.

ذكر أولاده:

المشهور أنه كان له أربعة ذكور وأنثيان.

فالذكور: طالب، وعقيل، وجعفر، وعلي رضي الله عنه، وبين كل واحد وواحد عشر

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١/ ٢٦٠، والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٤٩، وقال الذهبي في «الميزان» ١/ ٤٥: هذا خبر منكر.

(٢) الشعر في «تاريخ دمشق» ٦٦/ ٣٤٤.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٩٩.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٠٣.

سنين، فطالب أسنهم، ثم عقيل، ثم جعفر رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه - وهو أصغرهم. فأما طالب: فكنيته أبو زيد، وكان أبو طالب يُكنى به، وكان عالماً بالأنساب^(١) من قريش والعرب، عارفاً بأيام الجاهلية، أخرجته المشركون يوم بدر لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرهاً، فقال: [من الرجز]

لا هم إمّا يَغزُونَ طالِبَ في مِقْنَب من هذه المَقَانِبِ
فليكن المغلوب غير الغالب وليكن المسلوب غير السالب
فلما انهزم الكفار يوم بدر، طُلب طالب فلم يوجد في القتلى، ولا في الأسرى، ولا رجع إلى مكة، ولا يُدرى ما أصابه، وليس له عقب^(٢).

وأما عقيل فأخرج أيضاً يوم بدر وأسر، ولم يكن له مال، ففداه العباس، ثم رجع إلى مكة، فأقام بها إلى سنة ثمان من الهجرة، ثم هاجر إلى المدينة، فشهد غزاة مؤتة مع أخيه جعفر رضي الله عنه -، وأصاب في ذلك الوجه خاتماً من ذهب عليه تماثيل، فنقله رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه^(٣). وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَهَل تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنَزِلٍ»^(٤).

وكان طالب وعقيل قد ورثا أبا طالب، ولم يرثه جعفر وعلي رضي الله عنهما^(٥).

وتوفي عقيل سنة خمسين من الهجرة، وسنذكره.

وأما جعفر وعلي رضي الله عنهما فسندكرهما فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما البنات: فالمشهور ابنتان: أم هانئ وجمانة، واسم أم هانئ: هند، وقيل: ربيعة. وفاختة، وقيل: جعدة، وهرب زوجها هُبيرة بن أبي وهب المخزومي يوم الفتح إلى نجران، وكانت قد أجارته، وأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) في «الطبقات الكبرى» أن عقيل بن أبي طالب هو العالم بالنسب، وكنيته أبو يزيد، انظر «نسب القرشيين» ص ١١٠-١١١، ولم نقف على كنية لطالب هذا.

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام ١٩١/٢، و«الطبقات الكبرى» ١/٩٩-١٠٠.

(٣) انظر الطبقات الكبرى ٤/٤٠.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (١٣٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم بعد (١٣٥١).

قال وقد بلغه إسلام أم هانئ يوم الفتح^(١):

أشاقَّتْكَ هِنْدٌ أَمَّ أَتَاكَ سُؤَالُهَا
وَقَدْ أَرَّقَتْ فِي رَأْسِ حِضْنٍ مَمْنَعٍ
فَإِنْ كُنْتِ قَدْ تَابَعْتِ دِينَ مُحَمَّدٍ
فَكُونِي عَلَيَّ أَعْلَى سَحُوقٍ بِهَضْبَةٍ
وَأَمَّا جُمَانَةٌ فَتَزَوَّجَهَا أَبُو سَفِيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَوَلَدَتْ لَهُ جَعْفَرًا،
وَهَاجَرَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَطْعَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَبِيرٍ ثَلَاثِينَ وَسُقَاءً مِنْ تَمْرٍ^(٢)، وَتَوَفَّيْتُ
فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وكل أولاد أبي طالب من فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف^(٣).

وذكر الواقدي: أنه كان لأبي طالب ابنة أخرى اسمها: رَيْطَةٌ، ويقال لها: أم طالب^(٤).

وذكر الواقدي: وبلغنا أنه كان لأبي طالب ابن اسمه: طليق، واسم أمه وَعَلَةٌ^(٥).

وقد روى أبو طالب عن رسول الله ﷺ حديثاً أخرجه الشيخ جمال الدين بن الجوزي في «جامع الأسانيد»، ورفعته إلى محمد بن الحنفية، عن عروة بن عمرو الثقفي قال: سمعت أبا طالب يقول: سمعت ابن أخي الأمين يقول: «أشكر ترزق، ولا تكفر فتعذب»^(٦).



(١) الأبيات في السيرة ٢/٤٢٠، ونسب قريش ٣٤٤.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٠/٤٨.

(٣) انظر التبيين ص ١١١.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١٠/٤٨، و«الإصابة» ٤/٣١٠.

(٥) جاء في (خ): «طلق، وقيل اسمه وعلة!» وانظر «الطبقات الكبرى» ١/١٠٠. وفيه: «عله» بدل «وعله».

(٦) أورده السخاوي في «فتح المغيث» ٢/١٣٣، وقال: لا يصح.

السنة الحادية عشرة من النبوة

قال علماء السَّير: لما توفي أبو طالب وخديجة رضي الله عنهما، اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبتان، فلزم بيته وقَلَّ الخُروج، وطمعت قريش فيه ونالت منه، فرقَّ عليه أبو لهب فجاءه فقال: يا ابن أخي، لا بأس عليك، امض لما أمرت به، واصنع ماكنت تصنع وأبو طالب حيٌّ، فواللآت والعزى لن يوصل إليك وأنا في الحياة. ثم إن ابن الغيظلة سبَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فنال منه أبو لهب، فصاح: يا معاشر قريش، قد صبأ أبو لهب. فقال: ما صبأتُ، ولكن أَمْنَعُ ابن أخي من أن يُضامَ. وأقام على ذلك مدة، فجاءه عقبه وأبو جهل^(١) وجماعة من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سلِّ ابن أخيك أين مستقر أبيك، فسأله؟ فقال: مع قومه. فقالوا: إنه يقول: في النار. فشق ذلك على أبي لهب، ورجع إلى عداوته^(٢).

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل يدعوهم إلى الله تعالى ومعه أبو بكر، وعلي رضي الله عنهما. قال ابن إسحاق: أتى بني حنيفة في منازلهم، فعرض عليهم نفسه، ودعاهم إلى الله تعالى، فلم يرد عليه أحد من العرب أقبح من ردهم، وقال له رجل منهم: ما يؤوب بك قوم إلى دارهم إلا أبو بشرٍ مآبٍ. وقال له رجل من كُلب: ما أحسن ما تدعو إليه إلا أن قومك باعدوك، فلو صالحت قومك لاتبعتك العرب.

قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع الغلام الشيباني:

قال علي رضي الله عنه: لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرضَ نفسه على القبائل، خرجتُ أنا وأبو بكر معه، فدُفِعْنَا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر وكان مقدماً في كل خير، فسَلَّم عليهم، وكان رجلاً نَسَابَةً فقال: من القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأي ربيعة؟ قالوا: من ذهل الأكبر. قال أبو بكر: من هامتها أو من لهازمها؟ قالوا: من

(١) في «النسخ»: «أبو لهب» والمثبت من «الطبقات الكبرى».

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٧٩-١٨٠.

هامتها العظمى، قال: أفيكم عوف الذي يقال له: عليك بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أفيكم بسطام بن قيس مُنتهى الأحياء، ومعدن السخاء؟ قالوا: لا. قال: أفيكم جَسَّاس بن مرة حامي الذُّمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا^(١). قال: أفيكم أخوال الملوك من كِنْدَةَ؟ قالوا: لا. قال: فأصهار الملوك من لَحْم؟ قالوا: لا. قال: فلستم من ذُهَلِ الأكبر، أنتم من ذُهَلِ الأصغر. قال: فقام إليه غلام من بني شيبان، يقال له: دَغْفَل.

ودَغْفَل بن حنظلة بن زيد من بني بكر بن وائل شيباني، اختلفوا في صحبته، وروى عنه الحسن البصري، ومحمد بن سيرين. واستقدمه معاوية فأمره أن يعلم ابنه يزيد. قال الحسن البصري: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة، ولم يسمع من النبي ﷺ شيئاً، وقد أدركه. قال الأصمعي: دخل دَغْفَل على معاوية فقال له: أيُّ بيت قالت العرب أفخر؟ قال: قول الشاعر^(٢): [من الطويل]

لَهُمْ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا عَلَى الْبَرِّ كَانَ الْبَرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

فقال له: أحسنت. وعاش دغفل حتى قتل يوم دولا ب من فارس في قتال الخوارج.

فقال دغفل: [من الرجز]

نأتي على سائلنا فنسأله

والعبء لا نعرفه أو نحمِّله

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ونحن نسألك فأخبرنا: ممن أنت؟ فقال أبو بكر: من قريش. قال: بَخِ بَخِ، أهل الشرف والرياسة. فمن أي قريش؟ قال: من ولد تيم بن مرة. فقال الفتى: أمكنت الرامي من الهدف، أمكنكم قصي الذي جمع الله به القبائل من فھر؟ قال: لا. قال: أمكنكم عمرو العلي الذي هشم الثريد لقومه؟ قال: لا. قال: أمكنكم شيبَةُ الحمْد الذي أسقى الله به البلاد، وأحيا به العباد؟ قال: لا. قال: فمن

(١) في المصادر زيادة: «فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالباها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا.»

(٢) هو لبكر بن النطاح والبيتان في «الكامل في الأدب» ١٠٣٢/٢.

أهل الدار والندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة، أو الرفادة، أو السقاية، أو الإفاضة؟ قال: لا. قال: فأنت إذاً من زمعات قريش؟ قال: فجذب أبو بكر زمام ناقته وعاد إلى رسول الله ﷺ مغضباً. فأنشد الغلام: [من الرجز]

صَادَفَ دَرُّ السَّيْلِ سَيْلًا يَدْفَعُهُ

يَهِيضُهُ حِينًا وَحِينًا يَضْدَعُهُ

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، قال علي رضي الله عنه: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت على باقة^(١)؟ قال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق.

قال علي رضي الله عنه: فدفعنا إلى مجلس عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم عليهم فردوا، فقال: من القوم؟ قالوا: من شيان بن ثعلبة. فقال: يا رسول الله، هؤلاء غرر الناس ليس وراءهم من فوقهم شيء، منهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، ثم قال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على ألف، ولن يغلب ألف عن قلة. قال: فكيف المنعة فيكم؟ قال: علينا الجهد، ولكل يوم حد. قال: فكيف الحرب فيكم؟ قال: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من الله، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، ثم أشاروا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: لعله أخو قريش؟ فقال: نعم. قال: فإلام يدعو؟ قال: فتقدم رسول الله ﷺ، وأبو بكر قائم يُظَلُّه بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله، وأن تنصروني وتأوؤوني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله» ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآية. قال مفروق: والله ماسمعت أجمل من هذا الكلام. فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية. فقال مفروق: ليس هذا من كلام أهل الأرض، ولكن دعوت إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن

الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب رأينا^(١)، فقال هانيء: سوف ننظر في هذا الأمر. وقال المثني بن حارثة، صاحب حزمهم^(٢): قد سمعنا ما قلت يا أخا قريش، ولكن نحن نزل حُدَّ اليمامة - أي مستنقع الماء -، فما كان منها مما يلي كسرى، فذنب صاحبها غير مغفور، وعذره غير مقبول، وقد أخذ كسرى علينا العهود أن لا نأوي مُخَدِّثًا، ولا نُخَدِّث حدثًا، والذي تدعو إليه تكرهه الملوك، فإن شئت آويناك ونصرناك على من يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الردَّ إذاً، إنَّ دينَ الله لن ينصُرَه إلاَّ من أحاطَه مِن جميع جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُورِثَكُمُ اللهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشَكُم نِسَاءَهُمْ، أَفَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ». فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذاك. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]. قال: فما برحنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ.



(١) في المصادر الآتية: «ديننا».

(٢) كذا جاءت هذه الكلمة في النسخ، ولعلها «حربهم» ففي «المنتظم» ٢١-٢٥/٣ و«الدلائل» ٤٢٢-٤٢٧: وهذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

السنة الثانية عشرة من النبوة

وفيها كان المعراج

وقد اختلفت الروايات في أحاديث المعراج بما ورد في «المسند»^(١) و«الصحيحين»^(٢)، وغير ذلك.

وقد ذكر الثعلبي ذلك^(٣) وأطال فيه، وذكر سِدْرَةَ المنتهى، وأنه غشيها نور من نور الله، وغشيتها ملائكة كأنهم جراد من ذهب، فتحوّلت حتى ما يستطيع أحد أن ينعتها، وأن جبريل انتهى به إلى حجاب من فراش الذهب، وأن ملكاً أخرج يده من الحجاب فاحتمله، وتخلّف جبريل، فقال له: «إلى أين؟» فقال: هذا منتهى الخلائق، وإنما أُذِنَ لي في الدنو من الحجاب إجلالاً لك.

ثم دُلِّي له رَفْرَف أخضر يغلب ضَوْؤُهُ ضَوْءَ الشمس، وأنه وُضِعَ عليه، وحُمِلَ إلى العرش، قال رسول الله ﷺ: «لما رأيت العرش، اتضع عندي كل شيء، فقربني الله وأدناني إلى سند العرش، ووقعت على لساني قطرة من العرش فما ذاق الذائقون أحلى منها، فأنبأني الله نبأ الأولين والآخرين، وأطلق الله لساني بعد ما كَلَّ من هيبة الرحمن، فقلت: التحيات لله والصلوات الطيبات، فقال الله: سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقال الله: يا محمد، هل تعلم فيم يختصم الملاء الأعلى؟ فقلت: أنت أعلم يارب بذلك، وبكل شيء، وأنت علام الغيوب، فقال: اختلفوا في الدرجات والحسنات، فالدرجات: إسباغ الوضوء في السُّبْرَات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الحسنات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والتهدج بالليل والناس نيام.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥٠٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، و(٧٨٣٥) من حديث مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

ثم ألهمني أن قلت: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، لا نفرق بين أحد من رسله كما فرقت اليهود والنصارى. قال: فماذا قالوا؟ قلت: قالوا: سمعنا وعصينا، والمؤمنون قالوا: سمعنا وأطعنا. قال: صدقت، فسل تعطه؟ فقلت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قال: رفعت عنك وعن أمتك الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. قلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني اليهود. قال: لك ذلك ولأمتك. قلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: فعلت. ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ قال: قد فعلت.

ثم فرض علي خمسين صلاة كل يوم، فلما عهد إليّ بعهدته؛ تركني عنده ما شاء، ثم قال: ارجع إلى قومك، فبلغهم عني، فحملني على الرفرف الأخضر إلى أن انتهيت إلى سدرة المنتهى، وجبريل عليه السلام عندها، فقال لي: يا محمد، أنت خير خلق الله، حباك الله بما لم يحب به أحداً من خلقه، وبلغت مكاناً ما وصل إليه سواك من أهل السماوات وأهل الأرض.

وفيه: أنه انطلق به إلى الجنة، فأراه إياها، ووصف من قصورها وحوورها وولدانها وما فيها، وأراه شجرة طوبى ووصفها، ثم أراه السلاسل والنار وما فيها، ثم إنه مر على موسى عليه السلام، وردده في الصلوات، وأنه عاد إلى الله تعالى، وسأله حتى أبقى خمساً. وذكر أنه عاد إلى مكة^(١).

وقال ابن عباس: وفقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وتفرق بنو عبد مناف في طلبه، وخرج العباس رضي الله عنه حتى بلغ ذا طوى، وجعل يصرخ: يا محمد، يا محمد. فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليتك لبيك». فقال: يا ابن أخي، عنيت قومك منذ الليلة، فأين كنت؟ قال: «كنت بالبيت المقدس». قال: من ليلتك هذه؟ قال: «نعم». قال: فما أصابك إلا خير؟ قال: «نعم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما كانت ليلة أسري بي وأصبحت بمكة، عرفت أن الناس لا يصدقوني، فضقت بأمرى ذرعاً، وقعدت معتزلاً حزيناً

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٨٢-١٨٣.

مهموماً، فمرّ بي أبو جهل فجلس إليّ كالمستهزئ بي، فقال: هل كان شيء؟ قلت: نعم، أسري بي إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قلت: نعم، قال ابن عباس: فلم ير أبو جهل أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث، قال: رأيت لو دعوت قومك أتحدثهم بما حدثني به، قال: نعم، فصاح أبو جهل: يا معشر قريش هلموا، فانفضت إليه المجالس، فجاؤوا فجلسوا إليهما، فقال له: حدّث قومك بما حدثني به، فقال: «نعم، أسري بي الليلة من هنا إلى البيت المقدس» قالوا: وأصبحت بين أظهرنا، قال: «نعم» قال: فهُم بين مصفق، وواضع يده على رأسه متعجباً، ثم قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى؟ قال: نعم، فجيء بالمسجد فوضع دون دار عقيل، فنعتهم لهم، وفيهم من قد سافر إليه، فقالوا: أما النعت فقد أصاب والله في وصفه^(١).

قالوا: فأخبرنا عن غيرنا، هل لقيت منها شيء؟ قال: نعم، مررت على عير بني فلان بالروحاء، وقد أضلوا بعيراً لهم، وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح وفيه ماء فعطشت، فشربت منه، فسلوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا؟ وذكر لهم أشياء تحقّق عندهم صدقته فيها. فقالوا: هذا سحر مبین^(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما أصبح الناس يتحدثون بحديث الإسراء إلى بيت المقدس، سعى رجال من الكفار إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه قد أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أوقد قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: صدق. قالوا: أتصدّقه أنه مضى إلى الشام في ليلة ثم عاد قبل أن نصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء غدوه ورواحه. قالت: فلذلك سمي الصديق^(٣).

(١) إلى هنا الخبر عند أحمد في «مسنده» (٢٨١٩)، والبيهقي في «الدلائل» ٣٦٣/٢ من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «معجمه» (١٠)، والمقدسي في «فضائل بيت المقدس» (٥٢) من حديث أم هانئ، مطولاً بالقصتين معاً، وكان المصنف رحمه الله جمع بين الخبرين.

(٣) أخرجه الحاكم ٦٢/٣، والبيهقي في «الدلائل» ٣٦١/٢، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي.

وحكى هشام بن محمد، عن أبيه قال: لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، فلما كان بذي طوى، قال: يا جبريل، إن قومي لا يصدقوني. قال: يصدقك أبو بكر، وهو الصديق ﷺ^(١).

فصول تتعلق بالمعراج

منها: أن مذهب عامة الصحابة، والتابعين، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين: أن الله عزوجل عرج بنبيه ﷺ جسده وروحه. وحكى عن معاوية بن أبي سفيان: أنه إنما عرج بروحه دون جسده^(٢). وقال الواقدي: كان الإسراء بجسده إلى بيت المقدس، وإلى السماء بروحه.

وذكر السهيلي^(٣) في «شرح السيرة»: واحتج ابن إسحاق لمعاوية بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وفي حديث أنس^(٤) وأم هانئ: «فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام»^(٥).

وقالت عائشة رضي الله عنها: أسري بروح رسول الله ﷺ وهو نائم على فراشه، وما فقدت جسد رسول الله ﷺ^(٦).

وجه ما روي أنه عرج بروحه إلى البيت المقدس، وروحه إلى السماء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] جعل الإسراء إلى القدس غايةً لمعراجه ومن هناك عرج بروحه.

ووجه قول الأولين قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ الآية، ذكر الجملة، ولو كان مناماً لقال بروحه، لأنه لو كان مناماً لم تكن معجزة، ولا أنكرته

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/١٨٣ من حديث أم هانئ، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/٣٤.

(٣) في (خ): «الثعلبي».

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٧) من حديث أنس، ولم نقف عليه من حديث أم هانئ.

(٥) «الروض الأنف» ٢/١٩١.

(٦) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (مسند علي) ص ٤٤٧، وانظر «السيرة» لابن هشام ٢/٣٤.

قريش. وقد دلت عليه الأحاديث الصحاح، وإجماع العلماء مثل: الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وجابر، وأنس، وأبي هريرة، وحذيفة، وابن مسعود، ومالك بن صعصعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وعبدالله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وعائشة، وأم هانئ، في آخرين. ومن التابعين خلق يطول ذكرهم لم يُذكر مخالف إلا ما روي عن معاوية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، فقد روى عكرمة، وأبو صالح، والواليبي، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ رأى في منامه بني أمية ينزون على منبره نَزْو القردة، فساءه ذلك، فأنزل الله هذه الآية. فلا تعلق لها بالمعراج^(١).

وأما قول عائشة رضي الله عنها: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ. فأين كانت عائشة في زمن المعراج، فإنها كانت بنت ست سنين بإجماع العلماء، وأن رسول الله ﷺ لم يدخل بها إلا في المدينة بعد ثلاث سنين من المعراج، فلا تثبت الرواية.

وقوله: جعل الإسراء إلى بيت المقدس غاية، فلا ينبغي أن يكون إلى غيره، وقد ثبت بالنصوص الصحاح: أن ذلك كان يقظة لا مناماً.

وذكر القاضي عياض في كتاب «الشفاء»^(٢): أن مذاهب المسلمين والمذهب الحق: أن الله عرج بنينا بجسده ﷺ وبروحه جملة.

فإن قيل: فلم قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ولم يقل: نهاراً.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الليل أستر للأحوال لئلا يصير فتنة كما صار عيسى عليه السلام.

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٤٦١) والحاكم ٤/٤٨٠، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٦٨) و (١١٦٩) من حديث أبي هريرة، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن الجوزي: حديث لا أصل له.

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥/٢٤٤ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، غير مصعب بن عبدالله بن الزبير، وهو ثقة.

(٢) «الشفاء» ١/٢٤٨.

وقال أبو يزيد البسطامي: الليل ميدان المحبين، يجري فيه من الانبساط ما لا يجري بالنهار.

وقال بعض أهل المعاني: لما كان الذهاب من مكة إلى البيت المقدس في ليلة والرجوع منه إلى مكة، مما تأباه عقول قوم سبح الله نفسه عند ذلك، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، وكذا لما كان مجيء الليل وإقبال النهار خرقاً للعادة، سبح الحق نفسه، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] في نظائر كثيرة، فالحق سبحانه ما سبح نفسه إلا عند كل عظيم.

فإن قيل: فما الحكمة في إسرائه من مكة إلى القدس ولم يسر به من مكة إلى السماء؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إنما أسري به إلى القدس ليستأنس، فيتدرج به إلى صعود السماء.

والثاني: لأن الأنبياء ﷺ جُمِعوا له هناك، فصلى بهم، وفي ضمن ذلك نسخ شرعهم بشرعه.

والثالث: لأنه مر على الأماكن التي كلم الله عليها موسى وشاهدها، ثم عرج به إلى السماوات، وزيد على ذلك النظر ليظهر له التفاوت^(١).

ومنها^(٢): أن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وهو قول من سمينا من العلماء في الليلة الماضية. وروي عن عائشة رضي الله عنها، أنها أنكرت ذلك، وقالت: إنما رآه بعيني قلبه.

قال مسروق: سألت عائشة: هل رأى محمد ﷺ ربه بعيني رأسه؟ فقالت: لقد قفّ شعري مما قلت، من حدّثك بهذا فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] الآية.

ولما قال مسروق لعائشة رضي الله عنها: هل رأى ربه رسول الله ﷺ قط، وقرأ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]؟ قالت عائشة رضي الله عنها: إلى أين تذهب؟ بل إنما رأى جبريل في صورته^(٣).

(١) لم يذكر المصنف الوجه الثاني لحكمه الإسرائ به ليلاً.

(٢) أي من الفصول المتعلقة بالمعراج.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٢٧٨).

والصحيح: قول عامة الصحابة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١). ولو رآه بعيني قلبه، لم يكن له مزية على آحاد أمته، فإن عامة المؤمنين يرون الله تعالى بقلوبهم دائماً.

وحكى النقّاش، عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه قال: أنا أقول: رأى ربه بعيني رأسه، رآه، رآه، رآه، ... حتى انقطع نفس الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه^(٢).

وحكى القاضي عياض، عن أبي الحسن الأشعري أنه قال: رآه ببصره وعيني رأسه، قال: وكل آية أوتيتها نبي من الأنبياء فقد أوتيتها نبينا ﷺ، وخصّ نبينا ﷺ من بينهم بتفضيل الرؤية^(٣).

وما روي عن عائشة رضي الله عنها، فالجواب عنه من وجوه:

أحدها: أنه رأي منها، لا رواية عن رسول الله ﷺ، ولما قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: بماذا ترد قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي».

والثاني: أنها لم تكن عند رسول الله ﷺ في زمن المعراج.

والثالث: أنها نفت، والعمل على الإثبات، وقد أثبت الرواية أعيان الصحابة، وقولهم مقدّم على رأيها، خصوصاً وقد رفعوه إلى النبي ﷺ.

وقد قال القاضي عياض: رؤية الله في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، ولهذا سألتها موسى عليه السلام، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله تعالى^(٤).

قال المصنف - رحمه الله -: فالنبي ﷺ ما رأى ربه في دار الدنيا، وإنما رآه في الدار الآخرة، لأن ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] ليس من حساب الدنيا، وخصوصاً وقد خرق

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٨٠).

(٢) في (خ) تكرر الحديث السابق بسنده فلعله سبق قلم من الناسخ. وانظر الخبر في «الشفاء» ١/ ٢٦٠،

(٣) «الشفاء» ١/ ٢٦١.

(٤) «الشفاء» ١/ ٢٦١.

سبعين حجاباً من النور بعد أن جاوز سدره المنتهى، فثبتت الرؤية.
وسئل أبو العباس بن عطاء، قال: كيف أصف لكم مقاماً انقطع عنه جبريل،
والملائكة المقربون، ولم يبق إلا محمد وربه تعالى؟ وفي تلك الليلة ارتفعت
الوسائط، ألا ترى إلى قوله لجبريل عليه السلام، لَمَّا زَجَّه فِي النُّورِ: يا جبريل، ها هنا يفارق
الخليل خليله؟ فقال: لو دنوت أنملة لا احترقت.

* * *

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] على
أقوال:

أحدها: ما شاهد عند قاب قوسين.

والثاني: الرفرف الأخضر الذي سد الأفق.

والثالث: جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها^(١).

والرابع: الجنة والنار، وما رأى من الملائكة عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١٨]، جاء عتبية بن
أبي لهب، فوقف على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا محمد، هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي
دنا فتدلى، ثم تفل عليه وسبه. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد زوجه إحدى بناته، فطلقها عتبية في
ذلك اليوم، ولم يكن دخل بها. فدعا عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْباً مِنْ
كِلَابِكَ». وبلغ أبا لهب، فقال: ما كان أغنى عتبية عن دعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم إن أبا لهب خرج إلى الشام في تجارة ومعه عتبية، فنزل الزرقاء، فاطلع راهب
من صومعته وقال: يا قوم، احفظوا رجالكم، فهذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب
لأصحابه: أعينونا الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا حمالهم،
وفرشوا لعتبية في أعلاها، ونام القوم حوله، وجاء الأسد فجعل يتشمم القوم حتى
وصل إلى عتبية وشمه، ثم ضرب بيده، فأخذ يافوخه، وانتبه القوم وقد أكله، فعاد أبو

(١) انظر تفسير الثعلبي ١٥/٦.

لهب إلى مكة حزينا، وهو يقول: استجيب لمحمد في ابني. وكان كنية عتبة: أبا واسع، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت^(١): [من السريع]

سائل بني الأشعر إن جئتهم
لا وسَّع الله له قبره
رمى رسول الله من بينهم
فاستوجب الدعوة منه بما
أن قيَّض الله له كلبه
حتى أتاه وشط أصحابه
فالتقم الرأس بيافوخه
ثم علا بَعْدُ بأنيا به
قد كان هذا لكم عبرة
من يرجع الآن إلى أهله
قال البلاذري: وجعل عتبة يقول وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق
الناس، ومات^(٢).

واختلف الناس في المدة التي كانت بين المعراج والهجرة على أقوال:

أحدها: سنة. والثاني: ستة أشهر. والثالث: ثمانية أشهر. والرابع: سنة ونصف.
وعلى ذلك يُبنى خلافهم في أي شهر كان، والله أعلم.



(١) أخرجه الحاكم ٥٣٩/٢ والبيهقي في «الدلائل» ٣٣٨/٢ من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ في «الفتح» ٣٩/٤: حديث حسن.

وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣٠٢/٣٨ من حديث هبار بن الأسود.

وأخرجه الدولابي في «الذرية الطاهرة» ص ٥٨، وأبو نعيم في «الدلائل» ٢٢٠/١ من حديث محمد بن كعب القرظي وعثمان بن عروة بن الزبير. والأبيات في ديوانه ص ١٥٣.

(٢) «أنساب الأشراف» ١٤٩/١.

وفي هذه السنة لقي رسول الله ﷺ جماعة من الأوس والخزرج، فأمنوا به. قال الواقدي: قدم جماعة منهم إلى الحج، فأنتهى رسول الله ﷺ إلى فريق منهم، فقرأ عليهم القرآن، فدعاهم إلى الله، فأمنوا.

قال ابن إسحاق: قدم أبو الحيسر بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، لما كان بينهم من الحرب، فسمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم، وقال لهم: «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذلك؟ قال: «تعبدون الله وتوحدونه» وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان حدثاً عاقلاً: أي قوم، والله إن هذا لخير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء، فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا من هذا، فلعمري لقد جئنا إلى غيره. فصمت إياس، فقال أبو الحيسر: جئنا نطلب حلف قريش على أعدائنا، فنرجع وقريش أعداؤنا، وقام عنهم رسول الله ﷺ، ورجعوا إلى المدينة. وكانت وقعة بُعث بين الأوس والخزرج.

كذا وقعت هذه الرواية: أن وقعة بُعث كانت في هذه السنة، وقد تقدم أنها كانت قبلها، والله أعلم.

فيقال: إن إياس بن معاذ أول من أسلم، ومات يوم بعث مسلماً لما سمع رسول الله ﷺ، فكان عند موته يكبر ويهلل^(١).

واختلفوا في أول الأنصار إسلاماً، على أقوال:

أحدها: إياس بن معاذ، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أسعد بن زُرارة، وذكوان بن عبد قيس، قدما مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة، فلما اجتمعا به - وكان رسول الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد - فأشار إليه عتبة، وقال: لقد شغلنا هذا المصلي عن كل شيء، يزعم أنه رسول الله، وكان أسعد ابن زُرارة وأبو الهيثم بن التَّيهان يتكلمان في التوحيد بيثرب، ويسمعان من أحبار اليهود

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٥٣-٥٤، و«الطبقات الكبرى» ٤٠٤/٣، والطبراني في «الكبير» (٨٠٥) والحاكم ١٨٠/٣، والبيهقي في «الدلائل» ٤٢٠-٤٢١. وقال الحافظ في «الإصابة» ٩١/١: رواه جماعة عن ابن إسحاق هكذا، وهو من صحيح حديثه. وبعث يقال بالعين وبالغين.

أنه قد بعث نبي يدعو إلى الله تعالى، فقال ذكوان لأسعد لما سمع قول عتبة: دونك، هذا دينك، فقاما إلى النبي ﷺ فقرأ عليهما القرآن، فأسلما وعادا إلى المدينة، فلقي أسعدُ أبا الهيثم بن التيهان فأخبره بإسلامه، فقال: وأنا أشهد أنه رسول الله، وأسلم. قاله الواقدي^(١).

والثالث: رافع بن مالك الزُرقي، ومعاذ بن عفراء، خرجا إلى مكة مُعْتَمِرَيْن، فذَكَرَ لهما رسول الله ﷺ فأتياه، فقرأ عليهما القرآن فأسلما، ثم عادا إلى المدينة. فأول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق. قاله ابن الكلبي^(٢).

ذكر نسب الأنصار:

قال الزبير بن بكار: الأنصار من اليمن وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة ابن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبيد الله بن الأسد^(٣) بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان^(٤).

والأوس والخزرج ابنا قَيْلة، وهي أمهما نسبا إليها، وهما ابنا حارثة - وهو العنقاء - ابن عمرو - وهو مُزَيْقياء - ابن عامر - وهو ماء السماء - ابن حارثة - وهو الغَطْرِيف - ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد - واسمه: دَرَا^(٥) - ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان [بن سبأ]^(٦) - واسمه: عامر وسمي: سبأ، لأنه أول من سبى السبي، وكان يدعى عبدشمس من حسنه - ابن^(٧) يَشْجُب بن يَعْرُب - وهو المُرْعَف^(٨) - ابن يَقْطَن، وهو قَحْطَان وإلى قَحْطَان جماع اليمن، فمن نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ قال: قحطان بن الهَمَيْسَع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل ﷺ. قال ابن سعد:

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٨٥-١٨٦.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٨٦.

(٣) الأزد ويقال: الأسد بوزن العقل، وهو الأفصح، إلا أن الأول أكثر: «الإيناس بعلم الأنساب» ص ٥٧.

(٤) انظر «سيرة» ابن هشام ١/١٠.

(٥) في «النسخ»: «ذر»، والتصويب من «الطبقات» ٣/٣٨٨، و«سبل الهدى والرشاد» ٣/٢٥١.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من «الطبقات».

(٧) في «النسخ»: «واسمه يشجب» والمثبت من الطبقات.

(٨) في «النسخ»: «بن المرعف» والتصويب من «الطبقات» و«الإكمال» ٧/٢٣٨.

هكذا كان ينسبه هشام بن محمد الكلبي، عن أبيه. قال: وعليه عامة الأنساب أن قحطان من ولد إسماعيل عليه السلام، ومن نسبه إلى غيره يقول: قحطان بن فالغ بن عابر بن [شالغ بن] ^(١) أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

قال ابن سعد: وأم الأوس والخزرج قبيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن سؤد بن أسلم بن الحاف بن قضاة. وكان حصن سعداً عبداً حبشي، يسمى: هذيماً فغلب عليه، فيقال: سعد بن هذيم.

ذكر أولاد الأوس بن حارثة:

مالك بن أوس، ومنه تفرقت القبائل كلها وبطونها، فولد مالك: عمراً وهو النبيت، ومنه بنو عبد الأشهل، وبنو ظفر - واسم ظفر: كعب - وبنو حارثة بن الحارث. فهذه النبيت من الأوس ^(٢).

وقال الجوهري: والنبيت حي من اليمن ^(٣)، ومنهم عمرو بن عوف، وجحجبي وقبائل شتى ^(٤).

ذكر أولاد الخزرج بن حارثة:

وهم خمسة نفر: جشم وعوف وهما الخرطومان، والحارث وعمرو، وكعب، بنو الخزرج.

فأما جشم، فكان منيعاً وبه يضرب المثل:

إن سرك العز فجججج بجشم ^(٥)

أي: لذب.

ومن جشم: بنو تزيد منهم سلمة وبطونها.

(١) ما بين معكوفتين زيادة من «الطبقات».

(٢) انظر «المعارف» ص ١١٠.

(٣) «الصحاح» (نبت).

(٤) كذا، وفي المعارف ١١٠: وعوف بن مالك، ومنهم بنو عمرو بن عوف أهل قباء ومنهم جحجبي.

(٥) هو رجز للأغلب العجلي، وهو في المعارف ١٠٩ وسلف في القبائل والعمائر من الجزء الثاني.

ومن جُشم أيضاً: بنو بياضة.

وأما عوف بن الخزرج، فمنهم: بنو الحُبلى. رهط عبد الله بن أبي بن سلول.
ومنهم القواقل، وكان يقال للرجل إذا استجار بيثرب: قَوَقِلَ وقد أَمِنَتْ^(١)، واسم
القَوَقِل: غَنَم بن عوف بن عمرو بن الخزرج، وقيل: عمرو بن عوف، ومنهم: بنو
سالم.

وأما عمرو بن الخزرج، فمنهم: بنو النجار، واسم النجار: تيم اللات بن ثعلبة،
وإنما سمي النجار، لأنه نجر رجلاً بقُدُوم فقتله.

وأما كعب بن الخزرج، فهم بطون بني ساعدة رهط سعد بن عبادة. فهذا أصل نسب
الأوس والخزرج^(٢).

ذكر العقبة الأولى:

لما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز مواعده، لقي رسول الله ﷺ بالموسم
جماعة من الأنصار.

واختلفوا فيهم على قولين:

أحدهما: أنهم كانوا اثني عشر رجلاً، عشرة من الخزرج، واثان من الأوس.

فمن الخزرج: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن
الصامت، وعبّاس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقُطبة بن عامر، وعوف ومعاذ^(٣) ابنا
عَفْرَاء وهي أمهما، - وأبوهما: مالك بن رفاع، وقيل: الحارث بن رفاع - ويزيد بن
ثعلبة. فهؤلاء العشرة من الخزرج.

(١) قال ابن دريد في «الاشتقاق» ص ٤٥٦: القَوَقَلَة: التغلغل في الشيء، والدخول فيه. وقال ابن هشام في
«السيرة» ٥٧/٢: وإنما قيل لهم: القواقل، لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهماً وقالوا له:
قوقل به بيثرب حيث شئت. وقال: القوقلة: ضرب من المشي.

(٢) انظر «المعارف» ص ١٠٩.

(٣) في «النسخ»: «معوذ» والصواب: معاذ كما في «السيرة» لابن هشام، و«الطبقات الكبرى» وانظر «الإصابة»
٤٢٨/٣.

وأما من الأوس: فعُويم بن ساعدة، وأبو الهيثم بن التيهان^(١)، قاله الواقدي.
والثاني: أنهم كانوا ستة، ذكره ابن إسحاق، وقال: لما أراد الله إظهار الإسلام،
خرج رسول الله ﷺ إلى الموسم، فصادف جماعة من الأنصار، فقرأ عليهم القرآن،
ودعاهم إلى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: ويحكم، هذا والله النبي المبعوث الذي
وعدكم به اليهود، فلا يسبقكم إليه أحد، فأجابوه. وكانوا ستة: أسعد بن زُرارة،
وعوف بن مالك، وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وقُطبة بن عامر بن
حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبدالله بن رثاب^(٢).

وقال الواقدي: الثابت عندنا، أنه لم يسلم أحد قبل هؤلاء، وواعدوه على أن يأتوا
العام القابل، وبايعوه على الإيمان بالله ولوازمه، ولم يبايعوه على الحرب لأعدائه.
وقال عبادة بن الصامت: بايعناه عند العقبة، بيعة النساء^(٣). يعني من غير ذكر
الحرب والنصر.

وحكى الواقدي: أن النبي ﷺ قال: «أبايعكم على أن تمنعوا ظهري حتى أبلغ
رسالات ربي». قالوا: يارسول الله، نحن أعداء مُتباغضون، وإنما كانت وقعة بعث
عام أول، فإن تَقَدَّم علينا ونحن على ذلك، لا يكون لنا عليك اجتماع، فدَعْنَا نرجع إلى
أهالينا وعشائرننا لعل الله أن يصلح ذات بَيْنِنَا، وموعدك العام القابل، فبايعوه على أن
لا يشركوا بالله شيئاً.

قال عبادة: ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، فإن وفوا بذلك فلهم الجنة،
وإن غَشَوْا شيئاً فأمرهم إلى الله، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عَذَّبَهُمْ، ثم انصرفوا إلى
المدينة، وبعث معهم مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن وَيُفَقِّهُهُمْ في الدين، وفشا الإسلام
في المدينة، فلم يبق فيها دار إلا وفيها ذكر لرسول ﷺ، وكان مصعب قد نزل على
أسعد بن زُرارة، وكان يسمى المُقْرِي، فقال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَيْر: ائت
أسعد بن زُرارة فأخبره عنا، فقد بلغني أنه جاء بهذا الرجل الغريب معه يُسَفِّه سفهاءنا،

(١) انظر «السيرة» ٥٦-٥٧/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٨٧/١، و«المنتظم» ٣٢-٣٣/٣.

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام ٥٤-٥٥.

(٣) انظر «السيرة» لابن هشام ٥٧/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٨٧/١، و«دلائل النبوة» لليهقي ٤٣٦/٢.

فذهب أسيد بن حُضَيْرِ إلى أسعد، فقال له: مالنا ومالك قد أتيتنا بهذا الرجل الغريب يُسَفُّه ضعفاءنا. فقال: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته تركته. فقال: أنصفت.

فجلس فقراً عليه مصعب القرآن، وعرض عليه الإسلام، فقال أسيد: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قال: نتطهر، ونُطَهِّرُ ثيابنا، ونشهد شهادة الحق، ففعل ذلك. وخرج فأخبر سعد بن معاذ فجاء إليهم، فدعاه مصعب إلى الإسلام فأسلم، وجاء حتى وقف على بني عبد الأشهل فقال: أيُّ رجل تعلمون أنا؟ قالوا: خيرنا وأفضلنا. فقال: إن كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تسلموا، وتؤمنوا بالله، وتصدقوا محمداً ﷺ، قالوا: فوالله ما أمسى في ذلك اليوم رجل وامرأة من بني عبد الأشهل حتى أسلموا^(١).

قال ابن إسحاق: لما فشا الإسلام في المدينة وكثر المسلمون، عاد مصعب بن عمير إلى مكة وأخبر رسول الله ﷺ، فسُرَّ بذلك، وكان رجوع مصعب إلى مكة قبل العقبة الثانية^(٢).



(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٥٨/٢-٦٠، و«دلائل النبوة» ٤٣١/٢-٤٣٢.

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام ٦١/٢.

السنة الثالثة عشرة من النبوة

وفيها خرج رسول الله ﷺ إلى الموسم على ميعاد الأوس والخرج، فلقية جماعة، فواعدهم العقبة من أوسط أيام التشريق.

قال ابن إسحاق: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي بن كعب أخو بني سلمة، أن أخاه عبدالله بن كعب حدثه، أن أباه كعب بن مالك حدثه، وكان ممن شهد العقبة، وبأيع رسول الله ﷺ، قال:

خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة، فلما فرغنا من الحج، خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر بن عبدالله، وهو مشرك، وكنا نكاتمه الأمر ومن معنا من المشركين، فقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن يكون حظنا الجنة وحظك النار فقال: وما ذاك؟ فأخبرناه الخبر وعرضنا عليه الإسلام، فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ، ولما مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مُستخفين، وكان معنا ابن أبي في الرحال، ولا يعلم بما نحن فيه، وأمرهم رسول الله ﷺ أن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، فاجتمعوا عند الشعب ليلة النفر الأول أوسط أيام التشريق - وفي رواية: فوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدرت من منى أسفل العقبة حيث المسجد اليوم -، وقد سبقهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه، وإنما أراد أن يستوثق لابن أخيه، فتكلم العباس وقال: يا معاشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحي من الأنصار الخزرج، سواء كان خزرجياً أو أوسياً -، إن محمداً ابن أخي، وقد علمتم مكانته منا، وهو منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على ديننا أو على مثل رأينا، وهو في عزٍّ ومنعةٍ في بلده، وقد أبا إلا الانقطاع إليكم، واللحاق بكم، فإن كنتم تفون له بما وعدتموه أو دعوتموه إليه، فمانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتكم له، وإن كنتم خاذلوه بعد الخروج معكم، ومسلموه إلى أعدائه، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده وأهله.

فتكلم البراء بن معرور وقال: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك ما أحببت، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أبناءكم ونفوسكم ونساءكم». فقال البراء - وقد أخذ بيد رسول الله ﷺ - : والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايع يا رسول الله، فنحن أهل الحرب والحلقة ورثناها كابراً عن كابر، فاعترضه أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل، وقال: إن بيننا وبين الناس حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «لا والله، بل الدّم الدّم، والهدم الهدم، أحارب من حاربتم، وأسألم من سألمتم». فاعترضهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري وقال: يا معشر الخزرج، أتدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم إنما تبايعونه على حرب الأحمر والأبيض والأسود من الناس، فإن كنتم إن أنهكتكم مصيبة، ترجعون عنه وتسلمونه، فمن الآن وهو والله [إن فعلتم] خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه من قتل الأشراف، وهلاك الأموال، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. فقالوا بأجمعهم: بل نأخذه على ما ذكرت، ثم قال: يا رسول الله، فمالنا إن وفينا؟ فقال: «لكم الجنة». فقال: ابسط يدك، فبايعوه^(١).

قال ابن عباس: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، فقالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل^(٢).

وأول من بايعه: أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور، وقيل: أبو الهيثم بن التيهان، ثم كثر اللغظ، فقال العباس: على رسلكم، فإن علينا عيوناً، ثم قال رسول الله ﷺ: نقبوا اثني عشر نقيباً يكونوا كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم - وفي رواية: أن موسى اتخذ من قومه اثني عشر نقيباً فلا يجدن أحدكم في نفسه أن يؤخذ غيره - فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة، ونقيب بني سلمة: البراء بن معرور وعبدالله بن عمرو بن حرام أبا جابر، ونقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة والمنذر

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٦١/٢-٦٧، و«الطبقات الكبرى» ١٨٨/١، وهي العقبة الآخرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤٩٩/١٤ من حديث عبدالله بن رواحة، وانظر «أسباب النزول» للواحدي

ص ٢٦٣، ولم نقف عليه من حديث ابن عباس.

ابن عمرو، ونقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان، ونقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة وسعد بن الربيع، ونقيب القواقل: عبادة بن الصامت، ونقيب الأوس: أسيد بن حُضَيْر وأبو الهيثم بن التيهان، ونقيب بني عوف: سعد بن خيثمة^(١).

قال مقاتل: وإنما قصد رسول الله ﷺ أن يضبطهم بالنقباء كما فعل موسى ﷺ ببني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية.

ولما بايع القوم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سُمِعَ قط: يا أهل الأخشب، هل لكم في مُذَمَّم والصُّبَاة معه، فإنهم قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «ندعو الله يا أزب العقبة^(٢)، ما تقول؟ والله لأتفرغنَّ لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم». فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله، إن شئت ملنا بأسيافنا على أهل منى - وكانوا مئة رجل -، وإنما لقي رسول الله ﷺ منهم سبعون، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي بذلك، ارجعوا». فانصرفوا إلى رحالهم.

ولما أصبح القوم غدا عليهم جلة قريش وأشرافهم وقالوا: قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. وانبعث رجال من الأنصار - لم يحضروا البيعة - يحلفون لقريش بالله ما كان من هذا شيء، والذين شهدوا العقبة ينظر بعضهم إلى بعض، وقال عبد الله بن أبي بن سلول - وكان في الرحال ولم يشهد البيعة -: ما كان لقومي أن يفتاتوا عليّ بمثل هذا حتى يؤامروني، وإن هذا الأمر جسيم.

ثم تفرقوا، ولما انفصلت الأنصار عن منى، تقدم البراء بن معرور إلى بطن يأجج وتلاحق به أصحابه المسلمون، وصح عند قريش الحديث، فخرجوا في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو بالحاجر وكلاهما نقيبان، فأما المنذر فإنه

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٦٥/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٨٩/١، و«دلائل النبوة» ٤٤٢/٢-٤٤٩.

(٢) في النسخ: «الكعبة» والمثبت من المصادر، انظر الحاشية السابقة.

أَعَجَزَ القَوْمَ ومَضَى ، وأما سعد فقالوا له : أنت على دين محمد؟ قال : نعم. فربطوا يديه إلى عنقه بِنِشْعِ رَحْلِهِ ، وعادوا به إلى مكة يضربونه ويسحبونه بشعره ، وكان ذا جُمَّةٍ ، فقال له رجل : ويحك ، أما بينك وبين أحد جوار؟ قال : بلى كنت أجير لجبير بن مُطْعَمٍ والحارث بن أمية بن عبد شمس ، قال : فاهتف باسمهما ، فصاح بهما عند الكعبة فجاءا فخلَّصاه ، ولَكَمْ سعداً سهيلاً بن عمرو لكمةً شديدةً ، وكان الذي أسر سعداً ضرار بن الخطاب الفهري ، وكان أشدَّ الكفار على رسول الله ﷺ ، وقال : [من الطويل]

تَدَارَكْتُ سعداً عَنوَةً فَأَسْرَتْهُ وكان شِفائي لو تَدَارَكْتُ مُنْذِرَا
ولو نِلْتُهُ طُلْتُ دِماءَ جِراحِهِ أَحَقُّ دِماءٍ أَنْ تُطَلَّ وتُهدِرا^(١)
فأجابه حسان بن ثابت^(٢) : [من الطويل]

فخرت بسعدٍ الخير حين أسرتَه وقلت شِفائي لو تَدَارَكْتُ مُنْذِرَا
وإن امرءاً يَهْدِي القِصائدَ نحونا كمستبضعٍ تمراً إلى أهل خيبرا
فلا تك كالشاةٍ التي كان حَتْفُها بحفر ذراعِها فلم ترض مَحْفَرا
ولما خلص سعد ، لحق بالأنصار وكانوا قد عزموا على أن يَكْرُوا على أهل مكة ، فتوجهوا إلى المدينة^(٣).

وبين العقبة والهجرة ثلاثة أشهر.



وفيها : أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها : لما حَدَرَ رسول الله ﷺ من منى وقد انصرف الأنصار من عنده ، وطابت نفسه بأن جعل الله له قوة ومنعة وقوماً هم أهل حرب ونجدة ، وجعلَ البلاءُ يشتد على مَنْ بمكة من المسلمين لِمَا علم أهل مكة من شدة بأس الخزرج ، فضيَّقوا

(١) البيتان في «السيرة» لابن هشام ٢/٦٩-٧٠ ، ورواية الشطر الأخير عنده : وكان حرياً أن يهان ويهدرا ، وهما في «أنساب الأشراف» ١/٢٩٥ كما عند المصنف.

(٢) الأبيات في «أنساب الأشراف» ١/٢٩٥ ، و«السيرة» ١/٤٥١.

(٣) «السيرة» لابن هشام ٢/٦٨-٧٠ ، و«الطبقات الكبرى» ١/١٩٠ ، و«مسند أحمد» (١٥٧٩٨) ، و«تاريخ الطبري» ٢/٣٦٧-٣٦٨ ، و«المنتظم» ٣/٤٢ .

عليهم، وعبثوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه قبل ذلك، فشكا أصحاب رسول الله ﷺ إليه واستأذنوه، فقال: «إنه لم يُؤذَن لي في ذلك بَعْدُ»، ثم إنه خرج عليهم بعد ذلك، فقال: «قد أريتُ دارَ هِجْرَتِكُمْ وهي سَبْخَةٌ ذاتُ نَخْلٍ بينَ لَابِتَيْنِ و [لو] كانت السراة أرض نخل وسبخ لقلت: هي هي» ثم مكث أياماً وخرج إليهم مسروراً وقال: «قد أريتُ دارَ هِجْرَتِكُمْ، وهي يَثْرِبُ، فَمَنْ أَرَادَ الخُرُوجَ فَلْيَخْرُجْ» فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتسللون ويتواسون ويخفون خروجهم^(١).

وأول من قدم المدينة بعد مصعب بن عمير من فقراء المهاجرين: ابن أم مكتوم^(٢)، وأبو سلمة بن عبد الأسد بعده، وقيل: أول من قدم مهاجراً: أبو سلمة قبل العقبة الأولى بسنة، وكان قد هاجر إلى الحبشة، ثم قدم مكة وهاجر منها إلى المدينة^(٣).

وكانت أم سلمة رضي الله عنها أول امرأة وردت المدينة، وقيل: أول ظعينة قدمت المدينة: ليلي بنت أبي حثمة بن عدي زوجة عامر بن ربيعة العنزي^(٤).

ولما قدموا المدينة على الأنصار آوؤهم وواسوهم، وسالم مولى أبي حذيفة يؤم بهم في قباء، ثم قدم المدينة: بلالٌ وسعدٌ وعمرٌ وعمار رضي الله عنهم.

وتتابع الناس فلم يبق بمكة من بني أسد بن خزيمة أحد حتى أغلقت أبوابهم، وأبواب بني البكير، وأبواب بني مظعون.

وقدم جماعة من الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة البيعة الثانية إلى مكة، ثم هاجروا منها إلى المدينة، فهم مهاجرون أنصاريون منهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب، والعباس بن عباد، وزبيد بن ليبيد.

وخرج من مكة [مَنْ فِيهَا] من المسلمين، ولم يبق فيها سوى رسول الله ﷺ، وأبي

(١) «الطبقات الكبرى» ١/١٩٢، وهو عند البخاري (٢٢٩٧).

(٢) أخرج البخاري (٣٩٢٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يقرؤون الناس.

(٣) «سيرة» ابن هشام ٢/٨٠. وجمع ابن حجر في الفتح ٧/٦٧٧ بين القولين: بأن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين، بخلاف مصعب بن عمير فإنه خرج إليها للإقامة بها وتعليم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فكلُّ أولية من جهة.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/١٩٢، و«الأوائل» لابن أبي عاصم ص ٧٣.

بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ^(١). فهاجر عمر رضي الله عنه قبلهم في قول البعض.

وقد روى الهيثم بن عدي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، ومضى نحو البيت والملا من قريش بفناء الكعبة، فطاف بها سبعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده ركعتين، ودار على المجالس والحلق واحداً واحداً يقول: شأهت الوجوه لا يُرغمُ الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يوتّم ولده، أو يرمل زوجته، أو تشكله أمه، فليلحقني ببطحاء مكة، أو بوادي مكة، فإني مهاجر إلى الله ورسوله. ثم خرج فركب فرسه، وحمل سلاحه، فما جسر أحد أن يتبعه ثم مضى إلى المدينة ^(٢).

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يستأذنه في الهجرة، وهو يقول له: «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً»، فطمع أبو بكر أن يكونه ^(٣).



(١) انظر «سيرة» ابن هشام ٧٧-٧٩/٢، و«الطبقات الكبرى» ١/١٩٣، وليس فيها ذكر عمر.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساکر» ٥١-٥٢/٤٤.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٢/٤٦٢ من حديث هشام بن العاص بن وائل السهمي. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/٦٢ وقال: وفيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي، ضعفه أبو حاتم. وله شاهد عند البخاري (٢٢٩٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

السنة الرابعة عشرة من النبوة

وفيها: اجتمعت قريش في دار الندوة يتشاورون في أمر رسول الله ﷺ خوفاً أن يلحق بالمدينة، فيقوى عليهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشاورت قريش بمكة ليلة على قتل رسول الله ﷺ، فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي عليه السلام على فراشه، وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً عليه السلام يحسبونه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه رد الله مكرهم وقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره. وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] (١).

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الغار:

قال الطبري في «التاريخ»: إن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام في تلك الليلة لما خرج إلى الغار: إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أنني قد توجهت إلى غار ثور، فليلحق بي، وأرسل إليّ بطعام، واستأجر لي دليلاً يدلني على طريق المدينة، واشتر لي راحلة، ثم مضى وأعمى الله أبصار الذين كانوا يرصدونه حتى خرج (٢).

وقال الواقدي: خرج رسول الله ﷺ في تلك الليلة وهم مجتمعون على بابه، فأخذ كفاً من تراب وقال: شأهت الوجوه، ثم مر عليهم وهو يقرأ سورة يس حتى بلغ قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّاءً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فلم يبصره أحد، ومر رجل عليهم فقال: ما يقعدكم ها هنا؟ قالوا: نتظر محمداً، فقال: لقد خبثتم وخسرتهم، قد مرّ عليكم وضرب بالتراب وجوهكم، وحثاه على رؤوسكم، قالوا: والله ما أبصرناه. وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم،

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٨٩/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٩٣/١، و«أنساب الأشراف» ٣٠٠/١، و«دلائل النبوة» ٤٦٩/٢، و«المنتظم» ٤٥/٣.

(٢) «تاريخ الطبري» ٣٧٢/٢.

وعلي عليه السلام نائم في فراشه، فلما رأوه قالوا: والله لقد صدقنا الرجل الذي حدثنا^(١).
والذين كانوا ينتظرونه: أبو جهل، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط،
والنضر بن الحارث، وأمّية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو لهب، وطعيمة بن
عدي، وأبي بن خلف في آخرين^(٢).

قال الطبري: ضربوا علي بن أبي طالب وحسوه ساعة، وأطلقوه، قال: وكان أبو
بكر قد أتى علياً رضي الله عنه فسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره أنه لحق بغار ثور، فخرج أبو
بكر رضي الله عنه مسرعاً حتى لحق النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم جرس أبي بكر
رضي الله عنه فحسبه من الكفار فأسرع المشي فانقطع قبلاً نعليه، ففلق إبهامه حجر فسال الدم،
فخاف أبو بكر رضي الله عنه أن يشق عليه فرفع صوته، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتاه، فانطلقا
ورجل رسول الله صلى الله عليه وسلم تستنّ دماً حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه^(٣).

وقال ابن إسحاق: جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصاح: يا نبي الله،
يحسب أنه على الفراش، فقال له علي رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انطلق نحو بئر
ميمون، فأذركه. فانطلق حتى لحقه، وبات الكفار يرمون علياً رضي الله عنه بالحجارة وهو
يتصور قد لف رأسه في الثوب إلى الفجر^(٤).

قال الثعلبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف علياً عليه السلام بمكة لقضاء ديونه وردّ الودائع التي
كانت عنده.

ذكر دخولهما إلى الغار:

قال أنس: لما كان ليلة الغار، قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أدخل
قبلك، فإن كان ثم حية أو شيء كانت بي قبلك، قال: «ادخل». فدخل وجعل أبو بكر
رضي الله عنه يلمس يديه، فكلما رأى جحراً قال بثوبه فشقه، ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك
بثوبه أجمع، قال: فبقي جحر واحد، فوضع عقبه فيه، قال: ادخل يا رسول الله
فدخل، فلما أصبح قال: «أين ثوبك يا أبا بكر؟» فأخبره بالذي صنع، فرفع رسول الله

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٩١-٩٢/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٩٤-١٩٥/١، و«المنتظم» ٤٨-٤٩/٣.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٩٥/١، و«المنتظم» ٤٩/٣.

(٣) «تاريخ الطبري» ٣٧٤/٢.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٦١) ضمن حديث طويل.

ﷺ يديه وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أبا بَكْرٍ في دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فأوحى الله إليه: إن الله قد استجاب لك^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عفان^(٢)، حدثنا همام، حدثنا ثابت، عن أنس: أن أبا بكر رضي الله عنه حدثه: قال: قلت: يا رسول الله - ونحن في الغار -، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». متفق عليه^(٣).

قال ابن عباس: وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ٤٠].

ومعنى الآية: أن الله هو المتولي لنصره حين كان أولياؤه قليلاً وأعداؤه كثيراً، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؟ قلنا: لأن أبا بكر رضي الله عنه حزن إشفاقاً على رسول الله ﷺ، قال له: يا رسول الله، إني إن قُتِلْتُ فمثلي كثير، وإن قُتِلت أنت هَلَكَتِ الأُمَّةُ. فكان حزنه على رسول الله ﷺ لا على نفسه^(٤).

وقال ابن عباس: عاتب الله أهل الأرض بهذه الآية إلا أبا بكر^(٥) رضي الله عنه. والهاء في قوله: ﴿سَكِينَتُهُ﴾^(٦) عائدة إلى أبي بكر رضي الله عنه.

لأن الإزعاج والخوف على رسول الله ﷺ إنما كان من أبي بكر رضي الله عنه وحده، فرد السكينة إليه ولو أرادهما، لقال: (عليهما) بخلاف الهاء في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] حيث يرجع إلى رسول الله ﷺ، لأن التأيد بالملائكة لا يصلح إلا له وحده.

وذكر وهب بن منبه: أن رسول الله ﷺ إنما هاجر من بيت أبي بكر رضي الله عنه، أحاطت قريش بالبيت، فخرج من خَوْخَةٍ في ظهر الدار. والأول أصح.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٣٣/١، وابن الجوزي في «المنتظم» ٥٣/٣.

(٢) في النسخ: «عثمان»، والمثبت من أحمد.

(٣) أحمد في «مسنده» (١١)، والبخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٤) انظر «تفسير» البغوي ٢٩٣/٢.

(٥) أورده الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» ١٥٤/٢ عن الحسن رضي الله عنه، والبغوي في «تفسيره» ٢٩٣/٢، وابن الجوزي في «زاد المسير» ٤٣٩/٣ عن الشعبي. وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٤٨٢/٢.

(٦) كذا في النسختين، وفي زاد المسير ٤٤٠/٣: وفي هاء عليه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر.

وقال الواقدي: جاءت قريش إلى باب الغار - وقد نسجت عليه العنكبوت، وأمر الله شجرة فنبتت في وجه الباب، وجاءت حمامتان فعششتا على الباب - ومعهم القائف فنظر إلى الأقدام وقال: هذا قدم ابن أبي قحافة، وهذا الآخر أعرفه إلا أنه قدم يشبه القدم الذي في المقام - يعني مقام إبراهيم عليه السلام، فقالت قريش: ما وراء هذا شيء، فأنصرفوا.

وقال ابن سعد: جاءت قريش إلى باب الغار، فرأت العنكبوت قد نسجت عليه، فقال بعضهم لبعض: لو كان ها هنا أحد ما نسجت هذه العنكبوت. وقال بعضهم: هذه العنكبوت هنا قبل أن يولد محمد. وأقبل فتيان قريش من كل بطن قد شهروا سيوفهم، فرأوا الحمامتين فقالوا لأصحابهم: ليس هنا أحد. وسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم، فسَمَّت عليهن، فأنحدرت إلى حرم الله، وحرَّم الله صيدهن^(١).

وقال ابن إسحاق: ضربت الملائكة وجوه الكفار، فعادوا.

وقال البلاذري: بعثت قريش قائفين يقصان الأثر، أحدهما: كُرْزُ بن علقمة الخزاعي، ومعهما أُبَيُّ بن خلف، فقال القائفان: إلى هنا انتهى الأثر. وقال أمية بن خلف: والله إني لأرى هذا النسيج ها هنا قبل أن يخلق محمد، وبال حتى جرى بوله بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رضي الله عنه، ونادت قريش: من جاء بمحمد وبابن أبي قحافة، فله مائتا بعير أو ديتهما^(٢).

وفي الغار يقول أبو بكر رضي الله عنه^(٣): [من البسيط]

قال النبي - ولم أجزع - يُثَبِّتُنِي	ونحن في سُدَفٍ من ظُلْمَةِ الْغَارِ
لا تخش شيئاً فإنَّ الله ثَالِثُنَا	وقد تكفَّل لي منه بإظهارِ
وإنَّما كيد مَنْ تُخشى بَوَادِرِهِ	كيد الشَّيَاطِينِ قد كادت لكفارِ
والله مُهْلِكُهُمْ طُرّاً بما صنعوا	وجاعلُ المنتهى منهم إلى النَّارِ

* * *

(١) «الطبقات الكبرى» ١/١٩٥، والتسميت: ذكر الله تعالى على الشيء.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٣٠٢.

(٣) أورد هذه الأبيات في قصيدة مطولة الفاكهي في «أخبار مكة» ٤/٨٤، وابن عساكر ٣٠/٨٦ من رواية

يونس بن بكير عن ابن إسحاق.

فصل في سني هجرته ﷺ

واختلفوا في مدة إقامتهما في الغار، على أقوال:

أحدها: ثلاثة أيام وخرجا ليلة الخميس غرة ربيع الأول^(١).

والثاني: أنهما خرجا ليلة الاثنين لأربع ليالٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول^(٢).

والثالث: خرجا وقد بقي في صفر ثلاث ليالٍ^(٣).

وكان عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه يتردد إليهما، وعامر بن فهيرة يرمى غنمهما، ويأتيهما باللبن.

أحاديث الهجرة:

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرَّ علينا يوم إلا ورسول الله ﷺ يأتينا فيه طرفي النهار بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فلما ابْتُلِيَ المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرَكَ الغماد، لقيه ابن الدَّغْنَةِ^(٤)، وهو سيد القارة، فقال له: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأريد أن أسبح في الأرض فأعبد ربي، فقال ابن الدَّغْنَةِ: إن مثلك لا يُخْرَجُ، إنك تكسبُ المعدوم، وتصلُّ الرِّحْمَ، وتحمل الكَلَّ، وتقرئ الضَّيْفَ، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جارٌّ، فارجع فاعبد ربك، فرجع وارتحل معه ابن الدَّغْنَةِ، فطاف في أشراف قريش وقال لهم: إن مثل أبي بكر لا يُخْرَجُ، إنه يكسب المعدوم - وذكر بمعنى ما تقدم من

(١) انظر «المنتظم» ٥٣/٣.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١٩٩/١.

(٣) انظر «الوفا» ص ٢٣٨.

(٤) الدغنة: بضم المهملة والمعجمة وتشديد النون عند أهل اللغة، وعند الرواة بفتح أوله وكسر ثانيه وتخفيف

النون. «فتح الباري» ٦٣٩/٧.

وصفه -، قال: فأنفذت قريش جوار ابن الدَّغِنَةَ، وأمَّنوا أبا بكر، وقالوا: ليعبد ربه في داره، وليصل فيها، ويقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فأقام أبو بكر يعبد ربه كذلك، ثم بدا له فابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي فيه، فيتقصف^(١) عليه نساء المشركين وأبناؤهم يتعجبون منه، وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، وأرسلوا إلى ابن الدَّغِنَةَ فقدم عليهم، فقالوا: كنا قد أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، والآن فقد أعلن، وإننا نخشى منه أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن اقتصر على عبادة ربه في داره وإلا فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا لا نُقرُّه على ذلك. فذكر ابن الدَّغِنَةَ ذلك لأبي بكر، وقال: إمامان تقتصر على ما عاهدنا عليه القوم، وإما أن تُرجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرتُ في رجل عقدت له، فقال له أبو بكر: فإني أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار ربي.

قالت: ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: «إني أريتُ دارَ هَجْرَتِكُمْ سَبْخَةَ ذَاتِ نَخْلِ بَيْنَ لَابَتَيْنِ». فهاجر من هاجر إلى المدينة، ورجع عامة من كان بالحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر ﷺ: أترجو ذلك؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر ﷺ نفسه على رسول الله ﷺ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمْرِ أربعة أشهر.

قالت: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر - ﷺ - في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال له أبو بكر: يا رسول الله، ما جاء بك في هذه الساعة إلا أمر، فقال: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر ﷺ: إنما هم أهلك - وفي رواية: ليس علينا عين، إنما هما ابتاي يعني عائشة وأسماء^(٢) - فقال: «قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة - أو الصحابة - يا رسول الله؟ قال: «نعم».

(١) أي: يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض.

(٢) أخرجها أحمد في «مسنده» (٢٥٧٧٤).

قال: فخذ إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت: فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة في جراب، وقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها، فربطت به فم الجراب، فبذلك سميت: ذات النطاقين، ثم لحق أبو بكر ورسول الله ﷺ بغارٍ في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليالٍ بيوت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِفَ لَقِنٌ^(١)، يدُلِّجُ من عندهما بسحرٍ، فيصبح مع قريش كبائتٍ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك إذا اختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحةً من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعةً من العشاء، فيبيتان في رِسلٍ [وهو لبنٍ منحتهما ورَضيفهما] حتى ينق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل من بني عدي هادياً خريئاً [والخريت الماهر بالهداية] قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، لكنهما أمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما، فأتاهما صُبْحَ ثلاثٍ، فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الدليلي، فأخذ بهم على طريق الساحل.

قال الزهري: فحدثني - أو أخبرني - عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقه بن جُعْشَم الكِنَانِي ثم المدلجي، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقه بن جُعْشَم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةً كل رجلٍ منهما لمن قتله أو أسره، قال: فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدَلِّج، وأقبل رجل منهم فقال: ياسراقه، إني قد رأيت أنفاً أسوداً بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم. قال: فقلت له: ليسوا هم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس^(٢)، وقمت فدخلت الخباء، وأمرت جاريتي أن تُخرج فرسي من وراء الأكمة، وأخذت رُمحي وخرجت به من ظهر البيت، فخطت بزُجِّه^(٣) الأرض، وخفضت عليه حتى أتيت فرسي فركبتها، ورفعتها

(١) الثقف: الحاذق، اللقن: السريع الفهم.

(٢) في «النسخ»: «بالمسجد»، والمثبت من صحيح البخاري.

(٣) الزُج: الحديدية التي في أسفل الرمح.

تَقَرَّبُ بي حتى دنوت منهم، فعثرت فرسي فخررتُ عنها، وقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام [فاستقسمت بها، أضربهم أم لا؟ فيخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام^(١)] تَقَرَّبُ بي من النبي ﷺ، إذ سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات، فساخت يدا فرسي حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، ولم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لِأثر يديها عُثَانٌ^(٢) ساطع في السماء مثلُ الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم الأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر رسول الله ﷺ، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريدُ الناس بهم، وعَرَضْتُ عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني شيئاً، إلا أنهم قد قالوا: أخفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمان؟ فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي رُقعةً من أدم، ومضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير: أن رسول الله ﷺ لَقِيَ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً بالشام أو قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ، قال: وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يَعدُّون كل غداة إلى الحَرَّةِ ينتظرونه حتى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا الانتظار، فلما أَوْوا إلى بيوتهم، أوفى رجل من اليهود على أُطْمٍ من آطام المدينة، لأمر ينظر إليه، فبصُرَ رسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضِينَ يزولُ بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن صاح بأعلى صوته: يا معاشر العرب، قد أظلكم الذي تنتظرونه، فثار المسلمون إلى السلاح، فلقوا رسول الله ﷺ بالحَرَّةِ، فعدل بهم ذات اليمين، فنزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فَطَفِقَ من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يُحْيِي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر - رضي الله عنه - حتى ظَلَلَ

(١) ما بين حاصرتين زيادة من صحيح البخاري.

(٢) العثان: الدخان من غير نار.

على رسول الله ﷺ بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك^(١).

حديث الرَّحْلِ:

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: جاء أبو بكر إلى أبي في منزله، فاشترى منه رَحْلاً بثلاثة عشرة درهماً، وقال له: ابعث معي ابنك يحمله إلى منزلي. قال: لا، حتى تحدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع النبي ﷺ؟ فقال: نعم، أسرنا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمرُّ فيه أحد، حتى وقعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها فسوّيتُ بيدي مكاناً ينام عليه رسول الله ﷺ في ظلها، وبسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام وخرجت أنفض ما حوله، هل أرى أحداً من الطَّلَبِ، وإذا براع يُقبل نحو الصخرة بغنمه يريد منها الذي أردنا، فقلت له: يا غلام، لمن أنت؟ فقال: لرجل من أهل المدينة من قريش. فقلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم. فاعتقل شاة، فقلت: انفض الضرع من القذا والشعر والتراب، ففعل، قال: ومعني إداوة أرتوي فيها لرسول الله ﷺ يشرب منها ويتوضأ، فحلب لي كُثْبَةً من لبن في قَعْبٍ، فصبيت عليه من الماء حتى برد أسفله، وأتيت رسول الله ﷺ، وكرهت أن أُوقِظَه من نومه، فوقفت حتى استيقظ من نومه، فقلت: اشرب يا رسول الله من هذا اللبن فشرب حتى رضيت، وقال: «ألم يأن الرحيل؟» قلت: بلى. فارتحلنا بعد الزوال، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد إلا سراقة بن مالك بن جُعْشَم، ونحن في جَلَدٍ من الأرض، فقلت: يا رسول الله، أتيناه؛ هذا الطلب قد لحقنا، فقال: «لا تحزن إنَّ الله مَعَنَا». حتى إذا دنا منا، وكان بيننا وبينه قيْدُ رمح أو رمحين أو ثلاثة وهو على فرس فبكيت، فقال: «ما يُبيكيك؟» فقلتُ: ما أبكي على نفسي بل عليك يا رسول الله. فقال: «اللَّهُمَّ اكفناهُ». فارتطمت قوائم فرسه إلى إبطها، ثم ثبتت فساخت في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عمك، فادع الله لي أن ينجيني مما أنا فيه، والله لأعمينَّ على مَنْ وَرَائِي من الطَّلَبِ وهذه كنانتي، فخذ منها سهماً

(١) صحيح البخاري (٣٩٠٥).

فإنك ستمر بإبلي، وغنمي، وغلماني في موضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها» ودعا له. فانطلق ورجع إلى أصحابه فلا يلقى أحداً إلا رده، قال: وقدما المدينة ليلاً.

قال الحميدي: فتنازعوا أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل علي بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك» وصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطريق، وعلى الأجاجير^(١) ينادون: يا محمد يا رسول الله^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سلك بهم عبدالله بن أريقط الليثي من الغار على السواحل وقت السحر ليلة الاثنين، فقالوا يوم الثلاثاء بقديد، ثم أخذ أسفل من عسفان، ثم سلك الخرار، ثم مر على ثنية المرة، ثم على المدلجة والروحاء، ثم على العرج، ثم على بطن رثم، ثم إلى المدينة^(٣).

ذكر لقائه ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي:

قد ذكرنا أن قريشاً جعلت لمن يرث رسول الله ﷺ وأبا بكر مئتي بعير، وبلغ بريدة فركب في سبعين فارساً من بني أسلم، فلقى رسول الله ﷺ في الطريق فقال له: من أنت؟ فقال: بريدة - وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل - فالتفت إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: برد أمرنا، ثم قال: فممن أنت؟ قال: من أسلم. قال: سلماً، ثم قال: من بني من؟ قال: من بني سهم، قال: خرج سهمنا. فأوقع الله في قلب بريدة الإسلام فأسلم ومن كان معه، ثم قال: يا رسول الله، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، وحل بريدة عمامته وشدها في رمح، ومشى بها بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، انزل علي؟ فقال: ناقتي مأمورة. فقال بريدة: الحمد لله الذي أسلمت بنو أسلم طائعين غير مكرهين^(٤).

(١) الأجاجير: جمع إجار، وهو السطح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم ٤/٢٣٠٩-٢٣١١، وأحمد (٣)، والبيهقي في «الدلائل» ٢/٤٨٣-٤٨٤، وبعضهم أتم من بعض في السياق، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٣).

(٣) لم نقف عليه من حديث ابن عباس. وانظر «السيرة» لابن هشام ٢/٩٧-٩٨، و«الطبقات الكبرى» ١/١٩٩-٢٠٠.

(٤) القصة في «أسد الغابة» ١/٢٠٩، و«المنتظم» ٣/٥٦-٥٧.

حديث أم مَعْبِد^(١):

قال أبو معبد الخُزاعي: لما هاجر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر -رضي الله عنه-، وعامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، مرّوا بخيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جِلْدَةٌ بَرَزَةٌ تقعد بفناء الخيمة، ثم تُسقي وتطعم، فسألوها تمرّاً ولحماً يشترون منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وإذا القوم مُرْمِلُونَ مُسْتِنُونَ^(٢)، فقالت: والله لو كان عندها شيء ما أَعَوَزْنَاكم القري، فنظر رسول الله ﷺ إلى الشاة في كِسْرِ الخيمة^(٣)، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: شاة خَلَفَهَا الجَهْدُ عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حَلْباً. فدعا رسول الله ﷺ بالشاة، ومسح على ضرعها، وذكر اسم الله عليها وقال: اللهم بارك لها في شاتها. قال: فتفاجت ودرت واجترت، ودعا بإناء يُرْبِضُ^(٤) الرَّهْطَ، فحلب فيه ثَجًّا^(٥) حتى غلبه الثَّمَالُ^(٦)، وسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا، وشرب رسول الله ﷺ آخرهم، وقال: «سَاقِي القَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً» فشربوا عَلَلاً بعد نَهْلٍ^(٧) حتى أراضوا، ثم حلب فيه ثانياً عَوْداً على بَدْءٍ، فغادره عندها، ثم ارتحلوا، فقلّ ما لبث زوجها أبو معبد أن جاء يسوق أَعْنُزاً حُيَّلاً^(٨) عِجَافاً هَزَلِي، فلما رأى اللبن عَجِبَ، فقال: من أين لكم هذا، والشاة عازب^(٩) ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كَيْتٌ وكَيْتٌ، فقال: إني والله لأراه صاحب قريش الذي يطلبونه، ثم قال: صفيه لي يا أم معبد،

(١) واسمها عاتكة بنت خالد. انظر «الإصابة» ٤/٤٩٧.

(٢) مرمِلون: نغد زادهم. مستنون: أجدبوا، أي: أصابهم القحط.

(٣) كسر الخيمة: أي جانبها.

(٤) يربض: أي يرويهم ويثقلهم حتى يناموا.

(٥) ثجاً: أي: لبناً سائلاً كثيراً.

(٦) الثمال: الرغوة.

(٧) العلل: الشرب الثاني، والنهل: الشرب الأول.

(٨) جمع حائل وهي التي لم تحمل.

(٩) الشاة العازب: البعيدة المرعى.

فوصفته. فقال: هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولو كنت وافيته لالتمست أن أضحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، قال: وأصبح صوتاً عالياً بمكة بين السماء والأرض يقول ولا يرون شخصه: [من الطويل]

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقِينَ قَالَا خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبِدِ
هَمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلَا بِهِ فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فِيَالَ قُصِيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَعَالٍ لَا تُجَازِي وَسُودِدِ
سَلُّوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ^(١)
فَغَادِرُهُ رَهْنًا لَدَيْهَا بِحَالِبِ تَدِرُّ بِهَا فِي مَضْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ^(٢)

فأصبح الناس قد فقدوا نبيهم ﷺ، وأخذوا على خيمتي أم معبد حتى لحقوا بالنبي ﷺ، فأجابه حسان بن ثابت^(٣): [من الطويل]

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدِّسَ مِنْ يَسْرِي إِلَيْهِ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عَقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بَنُورٍ مُجَدِّدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسَكَّعُوا عَمَى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمَهْتَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبِ فَتَصْدِيقُهَا فِي ضُحْوَةِ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةٌ جَدُّهُ بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ
وَيَهْنِ بَنِي سَعْدٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِمَرْصَدِ

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: مكثنا بمكة ثلاث ليال لا ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات غناء العرب، نسمع صوته ولا نرى شخصه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

(١) الصريح: اللبن الخالص. والضرة: أصل الضرع. ومزبد: علاه زيد.

(٢) مصدر ثم مورد: أي يجلبها مرة بعد أخرى.

(٣) الأبيات في ديوانه ص ٥٢، وأخرج القصة ابن سعد في «الطبقات» ١/١٩٦-١٩٨، وهي مروية أيضاً عن

أم معبد وغيرها انظر «سبل الهدى والرشاد» ٣/٣٤٦.

جزى الله رب الناس خير جزائه... الأبيات، فلما سمعنا صوته، علمنا أين توجه رسول الله ﷺ^(١).

وقال الواقدي: قالت أم معبد: طلع علينا أربعة على راحلتين، فنزلوا بي، فجئت رسول الله ﷺ بشاة أريد أن أذبحها له، فإذا هي ذات در فأدنيتها منه فلمس ضرعها وقال: لا تذبحيها. وأخذت أخرى غيرها، فذبحتها وطبختها لهم، فأكل هو وأصحابه منها، وملاأت سفرتهم، وبقي عندي لحمها أو أكثره، وبقيت الشاة التي لمس ضرعها عندنا حتى كان عام الرمادة في عهد عمر - رضي الله عنه -، فكنا نحلبها صبوحةً وغبوقاً، وما في الأرض قليل ولا كثير. وعام الرمادة كان في سنة ثمان عشرة من الهجرة^(٢).

ذكر ما جرى بعد خروج النبي ﷺ:

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: جاء في تلك الليلة أبو جهل ومعه نفر من قريش، فوقفوا على الباب وصاحوا، فخرجت إليهم، فقال أبو جهل: أين أبوك؟ قلت: لا أدري. فرفع يده فلطم خدي لكمة طرح منها قرطي، وذكر كلاماً فاحشاً^(٣).

وقالت أسماء: لما خرج أبو بكر رضي الله عنه احتمل ماله كله، وكان ستة آلاف درهم، فدخل عليّ جدّي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت: كلا قد ترك لنا خيراً كثيراً، وأخذت أحجاراً، فوضعتها في كوة البيت، وقلت: ضع يدك على المال، فوضعها وقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. قالت: ووالله ما ترك لنا شيئاً، وإنما أردت أن أسكن الشيخ^(٤).

وقال الطبري: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة، سمعت قريش قائلاً في الليل على أبي قبيس يقول: [من الطويل]

فإن يُسلم السَّعدانِ يُضحى مُحمداً
بمكة لا يخشى خلاف المخالف

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/٩٥-٩٦، و«طبقات ابن سعد».

(٢) «الطبقات الكبرى» ١٠/٢٧٣-٢٧٤.

(٣) «السيرة» لابن هشام ٢/٩٥.

(٤) «السيرة» لابن هشام ٢/٩٦.

فلما أصبحوا، قالوا: من السَّعدان؟ فقال أبو سفيان: سعد بن بكر، وسعد بن تميم، فلما كانت الليلة القابلة، سمعوه يقول: [من الطويل]:

فيا سَعْدُ سَعْدَ الأَوْسِ كُنْ أَنْتَ ناصراً ويا سَعْدُ سَعْدَ الخَزْرَجِينَ الغطارِفِ
أجيباً إلى داعي الهدى وتمنياً على الله في الفردوسِ مُنيّةً عارِفِ
فإنَّ ثوابَ الله للطالبِ الهدى جِنانٌ من الفردوسِ ذاتُ رِفارِفِ
فقال أبو سفيان: هذان والله سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ^(١).

ذكر قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة:

قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وولد يوم الاثنين، ووضع^(٢) الحجر في الكعبة يوم الاثنين، ونُبئَ يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين.

ولما وصل إلى المدينة عدل ذات اليمين، فنزل في بني عمرو بن عوف بقُباء.

قال الواقدي: نزل على كلثوم بن الهدم أخى بني عمرو بن عوف^(٣).

وقال الهيثم: نزل على سعد بن خيثمة بن الحارث بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس، لأنه كان عَزَباً ومنزله يسمى منزل العُزاب.

وروي: أنه إنما نزل على كلثوم، وكان يتحدث مع أصحابه في منزل سعد^(٤).

وروي أنه نزل على أخوال عبد المطلب ليكرمهم بذلك^(٥).

فيحتمل أنه نزل عليهم ليلة، ثم ارتحل إلى بني عمرو بن عوف.

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على حُبيِّب بن إساف، ولما انتقل رسولُ الله ﷺ من قُباء، نزل

(١) «تاريخ الطبري» ٢/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) كذا هي في النسخ، وجاء الخبر في «تاريخ الطبري» ٢/ ٣٩٣، و«المنتظم» ٣/ ٦٣ عن ابن عباس، وفيه: ورفع الحجر.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٢٠٠، وانظر «السيرة» لابن هشام ٢/ ٩٩، و«المنتظم» ٣/ ٦٣.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٢٠٠، و«أنساب الأشراف» ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٥) أخرجه مسلم ٤/ ٢٣١١.

أبو بكر رضي الله عنه على خارجة بن زيد الخزرجي بالسُّنْح وهو مكان بأعلى المدينة^(١).

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس ينظرون إلى وجهه، فلما رأته عرفت أنه ليس بكذاب، فكان مما حفظت من كلامه: «أيُّها الناسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا الأَرْحَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بالليل والناس نيامٌ، تدخلوا الجنةَ سلاماً»^(٢).

ثم قدم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المدينة فنزل على كلثوم بن الهدم^(٣). وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ثلاثاً^(٤)، وقيل: بضع عشرة ليلة.

وقال ابن إسحاق: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني عمرو بن عوف يوم الجمعة سادس وعشرين ربيع الأول، فمر على بني سالم، فجمّع بهم وخطب، وهي أول جمعة صلّاها بالمدينة، وذلك الموضع يعرف بوادي رانونا. وكان معه مئة من المهاجرين^(٥).

ثم مرت ناقته فبركت في بني النجار على باب دار أبي أيوب الأنصاري، فنزل عليه وأقام عنده سبعة أشهر، وقيل: شهراً، والأول أصح.

وأول قَصْعَةٍ أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في منزل أبي أيوب، قصعة من ثريد فيها خبز وسمن أهدتها له أم زيد بن ثابت، فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاءت قصعة سعد ابن عبادة فيها ثريد وعراق، ثم تناوبت الأنصار القِصَاعَ كل ليلة^(٦).

وقال الواقدي: لما ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني سالم إلى المدينة، مرَّ بجوار من الأنصار فقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار يا حَبَّذا محمدٌ من جارٍ

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٩٩/٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٧٨٤).

(٣) انظر «سيرة» ابن هشام ٩٩/٢.

(٤) كذا جاء في نسخنا، والصواب ما جاء في «السيرة» لابن هشام ٩٩/٢، و«المنتظم» ٦٥/٣: وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها.

(٥) «السيرة» لابن هشام ١٠٠/٢، وانظر «المنتظم» ٦٥/٣، و«الطبقات الكبرى» ٢٠٣/١.

(٦) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٠٣-٢٠٤، والعراق: العظم.

فقال لهن رسول الله ﷺ: «الله يعلم أنني أحبكن»^(١).

وكان بالمدينة حبشٌ يلعبون بالحراب، فلعبوا بين يديه ﷺ. وما فرح الأنصارُ فرحهم بشيء كفرحهم بقُدومه.

ولما نزل بني سالم يوم الجمعة، فخطب وقال: «الحمدُ لله أحمدُه، وأستعينُه وأؤمن به، وأعادي مَنْ يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، من يُطع الله فقد رشد، ومن عصاه، فقد غوى»، وأوصاهم بتقوى الله وإصلاح ذات البين. ثم قال في آخر خطبته: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] الآية^(٢).

ولما ركب ناقته من بني سالم أرخى زمامها، فجعلت لا تمر بدارٍ من دور الأنصار إلا دعاه أهلها: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدد والمنعة. فيقول: «خلوا زمامها فإنها مأمورة» حتى انتهى إلى موضع المسجد اليوم، فبركت عنده وهو مربدٌ لغلامين يتيمين وهما: سهل وسهيل ابنا عمرو بن عبادة^(٣)، وهما في حجر معاذ بن عفراء، وقيل: في حجر أسعد بن زرارة.

ولما بركت به لم ينزل عنها، فقامت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه، ووضعت جرائنها على الأرض، فنزل رسول الله ﷺ عنها، فخرج أبو أيوب فاحتمل رحله، فنزل عليه وقال ﷺ: «المرء مع رحله»^(٤). وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بناقته، فكانت عنده^(٥).

وفي رواية: فأسس رسول الله ﷺ بقاء المسجد الذي أسس على التقوى، ثم سار إلى المدينة.

(١) وأخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥٠٨/٢، وابن الجوزي في «المنتظم» ٦٤/٣ من حديث أنس.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٣٩٤-٣٩٥/٢، و«المنتظم» ٦٦/٣.

(٣) في المصادر: عباد.

(٤) الخبر في «تاريخ الطبري» ٣٩٦/٢، و«المنتظم» ٦٧/٣.

(٥) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٠٣/١.

ذكر بناء مسجده ومساكنه ﷺ

قالت عائشة - رضي الله عنها - في تمام الحديث المتقدم تُعْظِمُهُ^(١) : فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه، ثم ركب راحلته، وسار يمشي الناس معه، حتى بركت عند المسجد اليوم، وهو يُصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهلي وسُهيلي غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا إن شاء الله المنزل». ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذة منزلاً ومسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول:

اللهم إن أجر الأجر الآخرة

فارحم الأنصار والمهاجرة

قال البلاذري: وهذا لامرأة من الأنصار، وتمامه^(٢):

وعافهم من حر نار ساعرة

فإنها لكافر وكافرة

وقال هشام بن محمد: كان المسجد جداراً مجرداً من غير سقف، وله قبلة إلى بيت المقدس، وكان فيه غرقد ونخيل، فأمر به رسول الله ﷺ ففُطِعَ، وكان فيه قبورُ الجاهلية، فأمر بها رسول الله ﷺ فنبشت، ثم أسس رسول الله ﷺ المسجد، فجعل طولَه مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك، فهو مربع، وجعل عرض أساسه ثلاثة أذرع من حجارة، وبنوا عليها باللبن، وجعل له ثلاثة أبواب: باباً يقال له: باب الرحمة، وهو الذي يُدعى باب عاتكة، وباباً يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو الذي يلي دار عثمان رضي الله عنه، وباباً في مؤخره، وجعل ارتفاع الجدار قامة وبسطة، وسقفه بجذوع النخل والجريد، وبعضه من النخل الذي كان فيه، ف قيل له: ألا تسقفه

(١) كذا في (خ، ك)، ولعلها: المتقدم بعضه، وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ٦٨/٣ من رواية عائشة، وأخرجه البخاري (٣٩٠٦) مطولاً من حديث سراقه بن جعشم رضي الله عنه.

(٢) «أنساب الأشراف» ٣١٣/١.

بخشب السَّاج، فقال: «عَرِيْشٌ كَعَرِيْشِ مُوسَى ﷺ» ثم بنى إلى جانبه بيوتاً وسقفها بجذوع النخل، فلما فرغ من البناء جعل باب عائشة شارعاً في المسجد، وجعل سودة بنت زَمْعَةَ في البيت الذي يليه^(١).

وفي المتفق عليه: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢). «فصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة مما سواه إلا المسجد الحرام»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حرّم النبي ﷺ ما بين لابتي المدينة. قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتُها، وجعل حول المدينة حمى اثني عشر ميلاً^(٤).

ذكر مقام النبي ﷺ بالمدينة:

وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة - يعني بعد النبوة -، وهو الأصح، وقيل: عشر سنين، وقيل: خمس عشرة سنة. وهاجر في أول السنة الرابعة عشرة.

وفيها: بعث رسول الله ﷺ إلى مكة: زيد بن حارثة وأبا رافع مولياه ليحضرا أهله، ودفع إليهما بعيرين وخمس مئة درهم اقترضها من أبي بكر رضي الله عنه، فحملا إلى المدينة: فاطمة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما ابنتي رسول الله ﷺ، وكانت رقية رضي الله عنها قد هاجرت مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحبس أبو العاص بن الربيع زينب بنت رسول الله ﷺ عنده، وحمل زيد معه أيضاً ابنه أسامة رضي الله عنه إلى المدينة، وخرج عبد الله بن أبي بكر رضي الله بأم رومان وعائشة رضي الله عنهما إلى المدينة، وخرج عبدالله ومعهم طلحة بن عبّيد الله رضي الله عنه^(٥).

وبلغ أبا أحمد بن جحش الأسدي الأعمى، أن أبا سفيان بن حرب باع دورهم من

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) جمع المؤلف هنا بين حديثين في سياق واحد، وقد فرق بينهما الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (٢١٩٤)، وانظر البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤)، وانظر الجمع بين الصحيحين (٢٤٧٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٧٣)، ومسلم (١٣٧٢)(٤٧٢) واللفظ له.

(٥) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٢٠٤، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٤٠٠، و«المنتظم» ٣/ ٧٠.

عمرو بن علقمة العامري بأربع مئة دينار، وقضى بثمنها ديناً كان عليه^(١).

ذكر وباء المدينة:

قالت عائشة رضي الله عنها: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي وبيّة، فمرض أبو بكر رضي الله عنه فكان إذا أخذته الحمى، يقول: [من الرجز]

كل امرئ مُصَبَّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلال إذا أخذته الحمى يقول: [من الطويل]

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بوادٍ وحولي إذ خِرٌّ وجليلُ
وهل أرددنّ يوماً مياه مَجِنَّةٍ وهل يَبْدُون لي شامةً وطفيلُ

اللهم العن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأمّية بن خلف، كما أخرجونا من مكة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما لقوا، قال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ، اللهم صحّحها وبارك لنا في صاعها ومُدّها، وانقل حمّاها إلى الجحفة». قالت: فكان المولود يولد بالجحفة، فما يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى. متفق عليه^(٢).

ذكر أول امرأة بايعته ﷺ:

أول امرأة بايعت رسول الله ﷺ حين قدم المدينة: ليلي بنت الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر، تزوجها في الجاهلية مسعود بن أوس، فولدت له: عميرة وعمرة، وتوفي عنها، ووهبت نفسها للنبي ﷺ ثم استقاله بنو ظفر فأقالهم، وفارقها. وكانت غيوراً، وكان يقال لها: أكلة الأسد، وقد ذكرت في أزواج النبي ﷺ اللاتي لم يدخل بهنّ^(٣).

وفيها: بنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها بالسُّنح في منزل أبي بكر رضي الله عنه، وكانت بنت تسع سنين، وقيل: ست سنين، والأول أصح. ودخل بها في ذي القعدة، وقيل: في

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ١٠٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٢٤٠).

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣١٨/١٠.

رمضان، وقيل: في شوال، وهو الأصح.

وفي مسلم: أنها كانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال، فقيل لها في ذلك، فقالت: وهل تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال، وهل دخل بي إلا في شوال، وأي نسائه كان عنده أحظى مني؟^(١)

قال أبو عاصم: إنما كره الناس أن يدخلوا النساء في شوال لطاعون وقع فيه في الجاهلية^(٢)، فخالفتهم عائشة رضي الله عنها في ذلك، وأدخلت نساءها في شوال.

قالت عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعت فتمزق شعري فوفى جُميمةً، فأتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة ومعى صواحب لي، فصرخت بي فأتيتهما، والله ما أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى أوقفني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهن، فأصلحن شأني فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين، فقلت: هه هه، وكنت أعب بالبنات مع الجواري، فيدخل علي فينقمعن منه صواحيبي، فيخرج فيسربهن إلي أو علي. متفق عليه^(٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا أعب بالبنات، فقال: «ما هذه؟» قلت: خيل سليمان عليه السلام، فضحك رسول الله ﷺ^(٤).

وفيها: زيد في صلاة الحضر ركعتين، فصارت أربعاً أربعاً وذلك بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة بشهر في ربيع الآخر^(٥).

وفيها: ولد النعمان بن بشير، وهو أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة^(٦).

(١) صحيح مسلم (١٤٢٣).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٠/٦١.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٤)، ومسلم (١٤٢٢).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في الطبقات ٨/٦٢، وأخرجه مطولاً أبو داود (٤٩٣٢).

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٤٠٠.

(٦) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٤٠١.

وفيها: نزل أهل الصفة المسجد ومن جاء مهاجراً، وكان أهل الصفة ناساً فقراء لا منازل لهم، فكانوا ينزلون على عهد رسول الله ﷺ المسجد يظلمون فيه، وليس لهم مأوى غيره، وكان رسول الله ﷺ يدعوهم في الليل إذا تعشى فيفرقهم في أصحابه، وتتعشى طائفة منهم معه حتى جاء الله بالغننى، وفيهم نزل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]، ولم يكن لهم بالمدينة عشائر، فحنن الله الناس ليتصدقوا عليهم^(١).

ومنهم وائلة بن الأسقع أبو قرصافة، ونبيط بن شريط الأشجعي^(٢)، وطلحة بن عمرو الليثي.

قال وائلة: كنت من أصحاب الصفة، وما منا إنسان يجد ثوباً تاماً، قد جعل الغبار والعرق في جلودنا طرقاتاً^(٣). وكنا عشر سنين^(٤).

منهم: عبّاد بن خالد الغفاري، وربيعه بن كعب الأسلمي، خادم رسول الله ﷺ، وجرهد بن رزاح الأسلمي^(٥)، ويعيش بن قيس بن طهفة الغفاري^(٦) في آخرين.

وفيها: أعد رسول الله ﷺ مكاناً ليصلي فيه على الجنائز. قال الواقدي: فهم إلى اليوم يصلون فيه على الجنائز^(٧).

(١) «الطبقات الكبرى» ٢١٩/١.

(٢) لم نقف على ذكره في أهل الصفة، وهو معدود من صغار الصحابة، انظر «الاستيعاب» بهامش الإصابة ٣/٥٦٤، و«تقريب التهذيب» ص ٤٩١.

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٢٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٢١).

(٤) كذا وردت هذه العبارة في النسختين، ولعلها قطعة من حديث وائلة الذي أخرجه أحمد (١٦٠٠٦)، والبيهقي في الشعب (٥٩٢١) قال: كنت من أصحاب الصفة ... فدعاني رسول الله ﷺ يوماً ... ثم قال: انطلق ادع لي عشرة من أصحابك أنت عاشرهم ...

(٥) هو جرهد بن خويلد بن بجرة بن عبد ياليل بن زرعة بن رزاح، انظر «الإصابة» ٢٣١/١.

(٦) جاء في النسخ: يعيش بن طلحة الغفاري، والمثبت من طبقات ابن سعد ٢٢٠/١ وهذا ليس من أصحاب الصفة، بل كان أبوه من أهل الصفة، كما صرح يعيش بذلك في حديث أبي داود (٥٠٤٠) قال: كان أبي من أصحاب الصفة، وكما في طبقات ابن سعد، وانظر «الإصابة» ٢٣٥/٢.

(٧) جاء في «الطبقات الكبرى» ٢٢٠-٢٢١/١: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا مقدم النبي ﷺ المدينة إذا =

وفيها: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار^(١).

قال أنس بن مالك رضي عنه: إن النبي ﷺ حالف بين المهاجرين والأنصار^(٢).

[وكان ذلك] قبل وقعة بدر على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، وهم تسعون رجلاً، خمسة وأربعون من المهاجرين وخمسة وأربعون من الأنصار، فلما كانت غزاة بدر، وأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] نسخت آية الموارث المؤاخاة، ورجع كل إنسان إلى نسبه، وورث أولو الأرحام، وبقيت المؤاخاة فيما دون الميراث^(٣). ومعنى حالف أي: آخى. والثاني: أنهم كانوا ثلاث مئة.

والثالث: مئتين.

والرابع: مئة، خمسون من هؤلاء، وخمسون من هؤلاء.

وفيها: أسلم عبد الله بن سلام بن الحارث^(٤) أبو يوسف، قال عبد الله بن سلام:

= حضر منا الميت أتينا فأخبرناه، فحضره واستغفر له، حتى إذا قبض انصرف ومن معه، وربما قعد حتى يدفن، وربما طال ذلك على رسول الله ﷺ من حبسه، فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض: والله لو كنا لا نؤذن النبي بأحد حتى يقبض فإذا قبض آذناه فلم تكن لذلك مشقة عليه ولا حبس، قال: ففعلنا ذلك، فكنا نؤذنه بالميت بعد أن يموت، فيأتيه فيصلي عليه ويستغفر له. فربما انصرف عند ذلك وربما مكث حتى يدفن الميت، فكنا على ذلك أيضاً حيناً، ثم قالوا: والله لو أنا لم نشخص رسول الله ﷺ، وحملنا الميت إلى منزله حتى نرسل إليه فيصلي عليه عند بيته لكان ذلك أرفق به وأيسر عليه، ففعلنا ذلك. قال الواقدي: فمن هناك سمي ذلك الموضع موضع الجنائز، لأن الجنائز حملت إليه.. وانظر «أخبار المدينة» لابن شبة ٨٧/١.

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٢٠٤-٢٠٥.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٤٠)، ومسلم (٢٥٢٩).

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٢٠٤-٢٠٥، وما بين حاصرتين زيادة منه.

(٤) في النسخ «الحصين» والمثبت من مصادر ترجمته، ويقال: كان اسمه الحصين فغيره رسول الله ﷺ. انظر «الطبقات الكبرى» ٥/٣٧٧.

أمر بالتأذين، فكان بلال يؤذن بذلك ويدعو رسول الله ﷺ إلى الصلاة، فدعاه ذات غداة إلى الفجر، فقيل: إن رسول الله ﷺ نائم، فصرخ بأعلى صوته: الصلاة خير من النوم، مرتين. قال سعيد بن المسيب: فأدخلت هذه الكلمة في التأذين لصلاة الفجر^(١).

فالتأذين ثبت بحديث عبد الله بن زيد بإجماع الأمة، لا يُعرف بينهم خلافاً، إلا ما روي عن محمد بن الحنفية فإنه كان ينكر هذا، ويقول: أتعمدون إلى ما هو الأصل في شرائع الإسلام ومعالم الدين، فتثبتونه بمنام كلاً، وإنما أخبرني أبي علي ﷺ أنه ليلة أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وجمع له الأنبياء هناك، قام جبريل فأذن وأقام، فتقدم رسول الله ﷺ فصلّى بهم، ثم أعاد جبريل الأذان في السماء، فسمعه عبدالله بن زيد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأرض، فالأذان ثبت بقول جبريل ﷺ لا بمنام يحتمل الصدق والكذب، وقد يكون أضغاث أحلام.

والجواب: لو ثبت الأذان بقول جبريل ﷺ لما احتاجوا إلى المشورة، والمعراج كان قبل الهجرة، فلو تقدم فيه توقيف لما أشار البعض بالناقوس وغيره^(٢).

وفيها: عقد رسول الله ﷺ لحمزة رضوان الله عليه لواءً أبيض بيده، وهو أول لواءٍ عُقدَ بيده، وكان يحمله أبو مرثد كنان بن الحصين الغنوي حليف حمزة، وذلك في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره، وبعث معه ثلاثين رجلاً من المهاجرين، ولم يبعث معه أحداً من الأنصار لأنهم شرطوا عليه أن يمنعوه في دارهم لا خارجاً، وخرج حمزة رضي الله عنه يعترض لغير قريش، لقي أبا جهل - لعنه الله - وهو في ثلاث مئة، واصطفوا للقتال، فحال بينهم مجدي^(٣) بن عمرو الجهني، وكان حليفاً في قريش للفريقين، ومشى بينهم فلم يجز قتال، وعاد حمزة إلى المدينة ومضى أبو جهل إلى مكة^(٤).

وفيها: عقد رسول الله ﷺ لعبيدة بن الحارث بن المطلب لواءً في شوال، وأمره أن

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٤٧٧).

(٢) انظر «السيرة الشامية» ٥٢٣/٣.

(٣) جاء في «دلائل النبوة»: مخشي.

(٤) الخبر في «السيرة» لابن هشام ١٧٤/٢، و«الطبقات الكبرى» ٦/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٢/٢،

و«دلائل النبوة» لليهقي ٩٨/٣، و«المنتظم» ٨٠/٣.

يسير إلى بطن رابع على رأس ثمانية أشهر من مهاجره في ستين رجلاً من المهاجرين، وكان حامل اللواء مسطح بن أثاثة، فالتقى بأبي سفيان بن حرب على ماء يقال له: أحياء، وأبو سفيان في مئتي راكب من قريش، وكان مع عبيدة سعد بن أبي وقاص، فرمى يومئذ في الكفار، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وتراموا بالنبل، ثم انصرف الفريقان ولم يجر بينهم مسابقة، وفر إلى المسلمين المقداد وعتبة بن غزوان، وكانا قد أسلما، وإنما خرجا ليتوصلا إلى المسلمين بالمشركين^(١).

وقال ابن إسحاق: كانت هذه السرية في السنة الثانية، وكان على المسلمين مركز ابن حفص، وعلى الكفار أبو جهل^(٢).

وفيها: عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص لواء أبيض، وأرسله إلى الخرار، وكان حامله المقداد بن عمرو، وبعث معه عشرين رجلاً من المهاجرين، وكانوا رجالة يعترض عير قريش، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار، وهو واد بين الجحفة ومكة، ففاتتهم العير إلى مكة، فعادوا إلى المدينة^(٣).

وفيها: فرض القتال، ونزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ الآية [الحج: ٣٩]^(٤).

وفيها: كانت قصة فاطمة بنت النعمان مع تابعها من الجن.

قال علي بن الحسين عليه السلام: كانت امرأة من بني النجار، يقال لها: فاطمة بنت النعمان لها تابع من الجن، فكان يأتيها، فأتاها يوماً حين هاجر رسول الله ﷺ، فانقضت

(١) «السيرة» لابن هشام ١٧١/٢، و«الطبقات الكبرى» ٧-٦/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٢/٢، و«دلائل النبوة» ١٠/٣، و«المنتظم» ٨١-٨٠/٣.

(٢) كذا، والذي في السيرة ٥٩٢/١: أنه كان على الكفار عكرمة بن أبي جهل، وقيل: مركز بن حفص، وانظر طبقات ابن سعد ٧/٢.

(٣) هذه رواية الواقدي في «المغازي» ١١/١، وعنه ابن سعد في «الطبقات» ٧/٢، والطبري في «تاريخه» ٢/٤٠٣. ورواية ابن إسحاق أنهم كانوا ثمانية رهط من المهاجرين، انظر «السيرة» لابن هشام ١٧٨/٢.

(٤) لم نقف على من عين السنة التي فرض فيها القتال إلا ما ذكر المقدسي في «البدء والتاريخ» ١٨٠/٤ فقال: وكانت سنو الهجرة عشرة سنين: السنة الأولى سنة الهجرة، والثانية سنة الأمر بالقتال. وانظر كلام الدكتور محمد أبو شهبه في كتابه «السيرة النبوية» ٧٦-٧٥/٢.

على الحائط، فقالت: مالك لم تأت كما كنت تأتي؟ فقال لها: قد جاء نبيٌّ يحرم الزنا والخمر^(١).

وقيل: إن المختار^(٢) وزياداً^(٣) ولدا في هذه السنة^(٤).

فصل في ذكر من توفي من الأعيان

أسعد بن زُرارة^(٥)

ابن عُدَس بن عُبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار، وأمه سعاد بنت رافع خزرجية. وأسعد من الطبقة الأولى من الأنصار، وكنيته: أبو أمامة، وهو أحد النقباء الاثني عشر، حضر العقبتين مع الأنصار، وكانت وفاته بالذَّبْحَةِ قبل أن يفرغ رسول الله ﷺ من بناء مسجده، ودفن بالبقيع، وله صحبة ورؤية، وليس له رواية.

البراء بن مَعْرور^(٦)

ابن صخر بن سنان بن عُبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، أحد النقباء الاثني عشر، وأمه: الرباب بنت النعمان ابن امرئ القيس من الأوس. والبراء من الطبقة الأولى من الخزرج شهد العقبتين، وكانت وفاته في صفر قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وهو أول من مات من النقباء، ولما قدم رسول الله ﷺ، صلى على قبره وترحّم عليه، وقال: «اللهم ارض عنه وقد فعلت» وهو أول من أوصى

(١) الخبر في «الطبقات الكبرى» ١/١٤٠، و«المنتظم» ٣/٨١-٨٢.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب مات سنة ٦٧هـ وسيذكره المصنف فيها.

(٣) هو زياد بن عبيد الثقفي الملقب بزياد بن أبيه، مات سنة ٥٣هـ وسيذكره المصنف فيها.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٤٠٢.

(٥) انظر ترجمته في: «السيرة» لابن هشام ٢/١١٠، و«الطبقات الكبرى» ٥/٥٦٢، و«تاريخ الطبري»

٢/٣٩٧، و«المنتظم» ٣/٨٢، و«الكامل» ٢/١١٠، و«أسد الغابة» ١/٨٦، و«سير أعلام النبلاء»

١/٢٩٩، و«الإصابة» ١/٣٤.

(٦) طبقات ابن سعد ٣/٥٧١، و«المنتظم» ٣/٨٣، و«أسد الغابة» ١/٢٠٧، و«سير أعلام النبلاء» ١/٢٦٧،

و«الإصابة» ١/١٤٤.

بثلث ماله، وأجازه رسول الله ﷺ. وكان له من الولد: بَشْر، ومبَشَّر، وهند، وسُلافة، والرَّباب، أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ.

جُندع بن ضمرة الجُنْدعي^(١)

واختلفوا في اسمه، وكان قد مرض بمكة، فقال لبيته: أخرجوني منها. قالوا: إلى أين؟ فأوماً بيده نحو المدينة، وهو يريد الهجرة، فلما بلغ أضاة بني غفار مات، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠] الآية^(٢).

كلثوم بن الهدم^(٣)

ابن امرئ القيس بن الحارث بن زيد بن مالك بن عوف الأنصاري الذي نزل عليه ﷺ بقاء، وهو من الطبقة الأولى من الأوس.

كان رجلاً صالحاً كبيراً شريفاً، أسلم قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وحسن إسلامه، ونزل عليه جماعة من الصحابة^(٤). وقيل: إنه توفي في السنة الثانية.

وفيها: - يعني في السنة الأولى من الهجرة - توفي من رؤساء الكفار:

الأسود بن عبد يَغوث

ابن وهب بن عبد مناف، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، فخرج يوماً إلى البرية، فعطش، فاسودَّ وجهه، فأتى داره فلم يعرفوه، وأغلقوا في وجهه الباب، فمات عطشاً^(٥).

وقيل: أخذ جبريل ﷺ في عنقه، فحنى ظهره حتى احقوب، فقال رسول الله

(١) انظر ترجمته في «الطبقات الكبرى» ١١٩/٥، و«الإصابة» ٢٥١/١. وذكره ابن الجوزي في «المنتظم» ٣/١٧٦ ضمن وفيات السنة الثالثة.

(٢) الخبر في الطبقات الكبرى» ١١٩/٥-١٢٠.

(٣) انظر ترجمته في «الطبقات الكبرى» ٥٧٤/٣، و«المنتظم» ٨٣/٣، و«أسد الغابة» ٤٩٥/٤، و«سير أعلام النبلاء» ٢٤٢/١، و«الإصابة» ٣٠٥/٣.

(٤) الخبر في «الطبقات الكبرى» ٥٧٤/٣.

(٥) الخبر في «أنساب الأشراف» ١٥٠/١، و«الكامل» ٧١/٢، وعندهما: أصابته السموم فاسود وجهه.

ﷺ: خالي خالي. فقال جبريل ﷺ: دعه دعه. فهلك^(١). وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥] ودفن بالحجون.

العاص بن وائل السهمي

أبو عمرو، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، خرج من مكة يريد الطائف على حماره، وكان له به مال، فربض به الحمار على شبرقة، فأصابته رجله شوكة، فانتفخت وصار مثل عنق البعير فهلك منها، وهو ابن خمس وثمانين سنة^(٢).

الوليد بن المغيرة

ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو عبد شمس، كان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان يسمي نفسه: الوحيد والعذل، أي: أنه وحيد قومه ولا يعادله أحد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١] الآيات^(٣).

وقال الوليد لسعيد بن العاص: يا أبا أحيحة، هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم مثلك أو مثل عروة بن مسعود الثقفي، فقال له سعيد: أو مثلك يا أبا عبد شمس، فنزل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾^(٤) [الزخرف: ٣١].
وطئ الوليد سهماً فخدشه، فتممه جبريل، فهلك وهو ابن خمس وتسعين سنة، ودفن بالحجون^(٥).

ولما احتضر جلس عند رأسه أبو جهل، فجزع جزعاً شديداً، فقال له أبو جهل: يا عم، فيم جزعك وأنت سيد قريش، وقد عمّرت طويلاً، ولك المفاخر والمآثر، وأنت

(١) أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» ١/ ١٥٠، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ١٠٤ وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) الخبر في «أنساب الأشراف» ١/ ١٥٨، و«الكامل» ٢/ ٧٢.

(٣) انظر «أنساب الأشراف» ١/ ١٥١-١٥٢، و«المنتظم» ٣/ ٨٤، و«الكامل» ٢/ ٧١.

(٤) انظر «أنساب الأشراف» ١/ ١٥٣.

(٥) الخبر في «أنساب الأشراف» ١/ ١٥٣، و«الكامل» ٢/ ٧٢، والنص عندهما: وكان مرّ برجل من خزاعة يريش نبلاً فوطئ على سهم منها فخدشه، ثم أوماً جبريل إلى ذلك الخدش بيده فانتفض ومات منه.

أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة، وقطعت في السرقة، وقضيت في الخنثى من حيث يبول؟ وعدد مآثره. فقال: والله ما بي جزع من الموت، وإنما أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة، وكان أبو سفيان جالساً عند رأسه، فقال: يا عم، لا تجزع فأنا ضامن لك أنه لا يظهر بمكة أبداً، ومات^(١).

وفي هذه السنة صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه^(٢).

عن سلمة بن الأكوع: أن النبي ﷺ أمر رجلاً من أسلم أن يؤذن في الناس يوم عاشوراء: «من كان صائماً فليتم صومه ومن كان آكلاً فلا يأكل وليتم صومه». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).



(١) انظر «المنتظم» ٨٤/٣، و«السيرة» لابن هشام ٤٠/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣١٦/٢.

(٢) قال ابن حجر في «الفتح» ٧٧٢/٤: كان الأمر بصيام عاشوراء أول قدومه المدينة، ولا شك أن قدومه كان في ربيع الأول، فحيث كان الأمر بذلك في أول السنة الثانية وفي السنة الثانية فرض شهر رمضان.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٤)، ومسلم (١١٣٥).

السنة الثانية من الهجرة

وفيهما تزوج علي عليه السلام فاطمة رضي الله عنها في صفر^(١). وقيل: في رجب، وقيل: في رمضان، ودخل بها في ذي الحجة، وقيل: مرجعه من بدر^(٢).

ذكر خطبتها:

قال ابن سعد: حدثنا مسلم^(٣) بن إبراهيم، حدثنا المنذر بن ثعلبة، حدثني علباء بن أحمر اليشكري، أن أبا بكر رضي الله عنه ذكر فاطمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني أنتظرُ بها القضاء» فذكر أبو بكر ذلك لعمر فقال: ردك. ثم خطبها عمر رضي الله عنه فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فأخبر عمر أبا بكر، فقال: ردك يا عمر. ثم إنَّ أهلَ علي قالوا: اخطبها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم? فقال: أبعدَ أبي بكر وعمر؟ فذكروا له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطبها فزوجها إياها، فباع عليٌّ بغيراً ومتاعاً بأربع مئة درهم وثمانين درهماً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعل ثلثين في الطيب وثلثاً في المتاع».

وقد اختلفت الرواية في كيفية الخطبة:

فذكر ابن سعد أيضاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «ما تصدقها؟» فقال: ما عندي شيء. فقال: «أين درعك الحطيمية؟» قال: عندي، قال: «فأصدقها إياها»^(٤).

وروى عبد الكريم^(٥) بن سَليط، عن بريدة، عن أبيه، قال: أتى علي بن أبي طالب عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليه. فقال: «ما جاء بك؟» فقال: أخطب فاطمة. فقال:

(١) انظر «المنتظم» ٨٤/٣.

(٢) جاء في «الطبقات الكبرى» ٢٣/١٠ قال: تزوج علي بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها مرجعه من بدر.

(٣) في النسخ: «مسلمة» والمثبت من «الطبقات» ٢٠/١٠.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٢١/١٠.

(٥) في النسخ: «عبد العزيز» والمثبت من «الطبقات» ٢١/١٠، وانظر «تهذيب الكمال» ٢٥٠/١٨.

«مَرْحَبًا وَأَهْلًا». ولم يزد على ذلك، فخرج علي إلى نفر من الأنصار، فقالوا: ما قال لك؟ فأخبرهم، فقالوا: قد أعطاك الأهل والمَرْحَب، ثم زوجه بعد ذلك.

قال ابن سعد: ولما خطبها علي رضي الله عنه، دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خدرها، وقال: إن علياً يطلب فاطمة^(١).

فصار ذلك أصلاً في كلِّ بَكر تُستأمر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يزوج أحداً من بناته، جلس إلى خدرها وقال: «إِنْ فُلَانًا يَذْكَرُ فُلَانَةً». فيسميها ويسمي الرجل الذي ذكرها، فإن هي سكتت زوجها، وإن كرهت نقرت الستر، فإذا نقرته لم يزوجها^(٢).

وفيها: كانت غزاة الأَبواء^(٣) في شهر ربيع الأول، وهي أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. واستخلف على المدينة سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان أبيض، وخرج في المهاجرين لا غير يتعرَّض لِعَيْرِ قَرِيش، فأقام بالأبواء ووَدَّانَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ووَادِعَ مَخْشِيَّ بْنَ عَمْرٍو سَيِّدَ بَنِي ضَمْرَةَ، أن لا يغزوهم ولا يغزونه، ولا يعينون عليه أحداً، وكتب بينه وبينهم كتاباً، ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وفيها: كانت غزاة بُوَاطِ^(٤) في ربيع الأول أيضاً، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في المهاجرين، وكانوا مئتين يتعرض أيضاً لِعَيْرِ قَرِيش، وكان فيها أمية بن خلف الجمحي في مئة رجل من قريش، وفيها ألفان وخمسة مئة بعير، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، ثم رجع ولم يلق كيداً.

وفيها: كانت غزاة سَفَوَانَ^(٥) في آخر ربيع الأول مَرَجِعَهُ مِنْ بُوَاطِ، وَسَفَوَانَ وادٍ

(١) «الطبقات الكبرى» ٢٠/١٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤٩٤).

(٣) انظر «السيرة» لابن هشام ١٧٠/٢، و«المغازي» ١١/١، و«الطبقات الكبرى» ٧/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٧/٢، و«المنتظم» ٨٨/٣ وهي غزوة وَدَّانَ.

(٤) بواط: بضم الباء وفتحها. وانظر الخبر في «السيرة» ١٧٦/٢، و«المغازي» ١٢/١، و«الطبقات الكبرى» ٨/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٧/٢، و«المنتظم» ٨٩/٣.

(٥) وهي غزوة بدر الأولى، انظر الخبر في «السيرة» ١٧٨/٢، و«المغازي» ١٢/١، و«الطبقات الكبرى» ٨/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٧/٢، و«المنتظم» ٨٩/٣.

بالحجاز، وكان كُرُز بن جابر الفهري قد أغار على سرح المدينة، فخرج النبي ﷺ في طلبه في المهاجرين، وحمل علي بن أبي طالب لواءه، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، ومضى حتى بلغ سفوان، وفاته كُرُز فرجع إلى المدينة.

وفيها: كانت غزاة ذات العُشيرة^(١)، خرج رسول الله ﷺ من المدينة في جمادى الآخرة في مئة وخمسين راكباً من المهاجرين، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فبلغ ذات العُشيرة يتعرض لعير قريش ففاته إلى الشام، وهذه العير لما رجعت من الشام خرج يعترضها، فكانت وقعة بدر في رمضان، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووادع مُذَلِجاً^(٢) فأكرموه، وأحسنوا ضيافته.

وفي هذه الغزاة كنى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا تراب^(٣).

وفيها: كانت سرية عبد الله بن جحش^(٤) إلى نخلة، في جمادى الآخرة^(٥)، وكانوا اثني عشر، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: ثمانية، وقيل: تسعة، وهم: عبد الله بن جحش، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وعُكَّاشَةُ بن مِخْصَن، وأبو حذيفة بن عتبة، وعتبة بن غزوان، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة^(٦)، وواقد بن عبد الله، وكان كل اثنين يعتقبان بغيراً، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يرصدوا عير قريش بنخلة.

قال عروة بن الزبير: إن رسول الله ﷺ كتب لعبد الله بن جحش كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه ويمضي لما أمره به، ولا يستكرهنَّ أحداً من

(١) انظر الخبر في «السيرة» ١٧٦/٢، و«المغازي» ١٣-١٢/١، و«الطبقات الكبرى» ٩/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٠٨/٢، و«المنتظم» ٩٠/٣. ويقال لها: العسيرة، بالسین المهملة.

(٢) في النسخ: «مذحجاً» والمثبت من المصادر.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٩/٢.

(٤) انظر «السيرة» ١٧٨/٢، و«المغازي» ١٣/١، و«الطبقات الكبرى» ٩/٢، و«تاريخ الطبري» ٤١٠/٢، و«المنتظم» ٩١/٣.

(٥) ولعل الصواب أنها كانت في رجب كما في «المصادر»، وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ١٧/٣.

(٦) جاء في «السيرة»: عامر بن ربيعة. ويؤيده ما أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٣٤٧٩) و«الإصابة» ٥٣٧/٢ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية نخلة...

أصحابه، فسار يومين ثم نظر في الكتاب، وإذا فيه: «أما بعد: فإذا نظرت في كتابي هذا، فسِرْ حتى تنزل بطن نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش، وتعلم أخبارهم لنا».

قال ابن إسحاق: فلما قرأه استرجع، ثم قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه، وقال: من رغب منكم في الشهادة، فليطلق معي، ومن كرهها فليرجع، فإن رسول الله ﷺ أمرني أن لا أستكره أحداً. فساروا معه ولم يتخلف منهم أحد، فسلك الحجاز، حتى إذا كانوا بمَعْدِنِ فَوْقِ الْفُرْعِ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَعَتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرَهُمَا، فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله وأصحابه حتى نزل نخلة، ومرت عير قريش تحمل زيباً، وأدماً، وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل، فلما رأهم القوم هابوهم، وكانوا قد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة وقد حلق رأسه، فلما رأوه أمِنُوا وقالوا: عُمَارٌ لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ. وكان ذلك آخر يوم من جمادى الآخرة، فتشاوروا في أمرهم وقالوا: والله لئن تركتم هذه الليلة ليدخلن الحرم فيمتنعون منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، لأن بعضهم ظن أنه أول يوم من رجب. ثم عزموا على قتالهم، فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل إلى مكة، واستاقوا العير والأسيرين إلى المدينة، وهي أول غنيمة قسمت في الإسلام، وأول لواء جرى تحته قتال، فلما قدموا المدينة وقَفَّ رسول الله ﷺ أمر العير والأسيرين، وقال: «ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام». ولم يأخذ منه شيئاً، وسقط في أيدي القوم: عبد الله وأصحابه ولامهم المسلمون، وقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، فسفك الدماء وأخذ المال وأسر الرجال، وتفاءلت اليهود بذلك، وقالت: واقد: وقدت الحرب، وعمرو: عمرت، والحضرمي: حضرت، وضاق صدر النبي ﷺ، وجلس عبد الله ومن كان معه في بيوتهم، وضاق بهم ذرعاً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية، فكانت تسلياً لعبد الله وأصحابه، وفرج الله عنهم، وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وقيل: حبسهما حتى قسّمهما مع غنائم بدر، وبعثت قريش في فداء الأسيرين، فقال رسول الله

ﷺ: حتى يقدم صاحبانا سعد وعُتبة. فأقاما حتى قدما، ففاداهما رسول الله ﷺ، فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند النبي ﷺ حتى قتل شهيداً ببئر معونة. وفي هذه السنة: سمي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين، وهو أول من تسمى بها. وفي هذه السنة: تحولت القبلة إلى الكعبة في شعبان، وقيل: في يوم الاثنين النصف من رجب.

عن ابن عمر قال: بينا الناس بقاء في صلاة الفجر، إذ جاءهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها - وكانت وجوههم إلى الشام - فاستداروا إلى الكعبة. متفق عليه^(١).

وكانت صلواته إلى البيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: تسعة أشهر.

وفيها: جدد رسول الله ﷺ مسجد قباء لما صُرفت القبلة إلى الكعبة.

عن سهل بن سعد قال: لما صُرفت القبلة إلى الكعبة، أتى رسول الله ﷺ مسجد قباء، فقدم جدار المسجد إلى موضعه اليوم، وأسس بيده، ونقل الحجارة ونقل معه أصحابه لبنائه، وكان رسول الله ﷺ يأتيه كل سبت ماشياً، قال سهل: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى في مسجد قباء، كان له أجرُ عمرة»^(٢).

وقال ابن عباس: لو كان في طرف من أطراف الأرض، لضربنا إليه أكباد الإبل، وكان يأتيه كل خميس ويقول: هو المسجد الذي أسس على التقوى^(٣).

وفيها: نزلت فريضة رمضان في شعبان^(٤).

وفيها: كانت غزاة بدر الكبرى^(٥) في سابع عشر رمضان، وقيل: في تاسع عشره،

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/٢١٠، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ١/٢٢٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/٢١٠ عن عمر رضي الله عنه.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٤١٧.

(٥) انظر الخبر في «السيرة» ٢/١٨٢، و«المغازي» ١/١٩، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٠، و«تاريخ الطبري»

٢/٤٢١، و«المنتظم» ٣/٩٧.

وبدر اسم ماء، وقيل: بئر لرجل يدعى بدرأ، وهو عن يمين طريق مكة بين مكة والمدينة. والسبب في هذه الغزاة، أن أبا سفيان بن حرب كان خرج إلى الشام في عير فيها أموال قريش، وكان رسول الله ﷺ قد خرج بسببها ففاته - كما ذكرنا -، ثم بلغه خبر عودها من الشام، فخرج يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وقيل: أبو لبابة^(١) بن عبد المنذر، وأخبر النبي ﷺ بما في العير من الأموال وبقلّة عددهم، فخرج معه جماعة من الأنصار لم يكن غزا بهم قبل ذلك، وإنما خرجوا طمعاً في الأموال، ولا يُحدّثون أنفسهم بكثير قتال، وضرب رسول الله ﷺ عسكره ببئر أبي عنبّة وهي على ميل من المدينة، وبعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل يتحسسان خبر العير.

قال ابن سعد: جميع من شهد بدرأ من المهاجرين الأولين من قريش وحلفائهم ومواليهم في عدد ابن إسحاق: ثلاثة وثمانون، وفي عدد الواقدي: خمسة وثمانون^(٢). وجميع من شهدها من الأوس ضرب له بسهمه وأجره في عدد موسى بن عقبة والواقدي: ثلاثة وستون، وفي عدد ابن إسحاق وأبي معشر: أحد وستون^(٣). وجميع من شهدها من الخزرج في عدد الواقدي: مئة وخمسة وسبعون، وفي عدد ابن إسحاق مئة وسبعون، قال: فجميع من شهدها من المهاجرين والأنصار، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم وأجر في عدد ابن إسحاق: ثلاثمئة وأربعة عشر، وفي عدد أبي معشر والواقدي: ثلاث مئة وثلاثة عشر، وفي عدد موسى بن عقبة: ثلاث مئة وستة عشر^(٤).

قال المصنف رحمه الله: وهذا الذي ذكر ابن سعد في المجمع على هؤلاء لا في المختلف فيه.

(١) في النسخ: «أسامة» والمثبت من المصادر.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٣ / ٣٨٧، وانظر «السيرة» لابن هشام ٢ / ٢٣٧.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣ / ٤٤٨.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٣ / ٥٥٥.

فصل في فضل أهل بدر:

قال رفاعه بن رافع الزُرقي: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ فقال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها، فقال جبريل: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. انفراد بإخراجه البخاري^(١).

وفي المتفق عليه من حديث علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال في قصة حاطب: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢).

وقال قيس بن أبي حازم: كان عطاء البدرين خمسة آلاف خمسة آلاف، وقال عمر: لأفضلنهم في العطاء على من بعدهم^(٣).

عدنا إلى أول الغزاة

وأقبل أبو سفيان من الشام في سبعين راكباً من قبائل قريش كانوا تجاراً، فيهم: مخرمة بن نوفل الزهري وعمرو بن العاص ووجوه قريش، في ألف بعير، فأقبلوا على الساحل يريدون مكة، ورحل رسول الله ﷺ من بئر أبي عنبه يريد العير بعد أن عرض أصحابه فرداً من استصغره، وكان فيمن رد عبد الله بن عمر، والبراء بن عازب، وأسامة ابن زيد، ورافع بن خديج، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعمير بن أبي وقاص، فبكى، فرده إلى بدر، فقتل في ذلك اليوم، ولم يكن في ظن رسول الله ﷺ أنه يحارب، وإنما قصد العير، ولما خرج من المدينة خلف عثمان بن عفان على ابنته رقية يمروضها حتى توفيت، وخلف أبا لبابة أميراً على المدينة، ورد الحارث بن حاطب إلى بني عمرو ابن عوف لشيء بلغه عنهم.

قال البلاذري: وأبطأ على رسول الله ﷺ أناس من الصحابة ظناً منهم أنه لا يحارب، منهم: سعد بن عباد، وقيل: إنه لسع، ورافع بن مالك، وعبد الله بن أنيس، وكعب بن مالك، والعباس بن عباد بن نضلة، وأسيد بن حضير^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٢٢).

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٣٣٧.

ذكر ما كان مع المسلمين من الإبل والخيول :

كان معهم سبعون بعيراً يتعاقبُ البعيرَ النفرُ، وكان بين رسول الله ﷺ وعليّ وزيد ابن حارث رضي الله عنهما بعير، وبين حمزة ومُرثد بن أبي مرثد وأبي كبشة وأنسة مولياً^(١) رسول الله ﷺ بعير، وبين عبدة بن الحارث والطّفيل والحُصين بن الحارث بعير، وبين أبي بكر وعمرو بن عوف بعير^(٢).

وكان معهم ثلاثة أفراس: فرس المقداد بن عمرو، وفرس لِمُرثد الغنوي، وفرس الزبير بن العوام.

ذكر الرجل الذي تبع رسول الله ﷺ عند خروجه :

قالت عائشة رضي الله عنها: لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، فلما كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر له جُرأةً ونَجْدَةٌ، فلما رآه أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا به، فقال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأُصيبَ معك. فقال له: «أَتُؤْمِنُ باللهِ ورَسُولِهِ؟» قال: لا. قال: «فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ» ثم تبعه ثانياً وثالثاً، وهو يقول له ذلك، ثم أسلم الرجل وتبع النبي ﷺ. انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

قال ابن سعد: اسم هذا الرجل: خُبَيْبُ بن يَسَّافِ الخزرجي، وكان قد خرج مُنْجِداً لقومه، وطالباً للغنيمة، وأسلم وغزا مع رسول الله ﷺ فقتل رجلاً من الكفار، وضربه الكافر فشجّه، ثم مات. وتزوج خبيب ابنته بعد ذلك، وكانت الضربة في وجهه، فكانت المرأة تقول: لا عدمتُ رجلاً وشَحَكُ بهذا الوشاح، فيقول: لا عدمتُ رجلاً أعجل بروح أبيك إلى النار^(٤).

ذكر مسير رسول الله ﷺ إلى بدر :

ولما رحل إلى بدر، بعث العيون، فمنهم: بَسْبَسُ بن عمرو الأنصاري، وعدي بن

(١) في النسختين (ك، خ): مولوي، والمثبت من المصادر.

(٢) انظر: «السيرة» لابن هشام ١٨٦/٢، و«أنساب الأشراف» ٣٣٩/١، و«السيرة الشامية» ٣٩/٤.

(٣) أخرجه مسلم (١٨١٧).

(٤) انظر: «الطبقات الكبرى» ٤٩٥/٣.

أبي الزَّغْبَاءِ عَلَى الْمَقْدَمَةِ، وَجَعَلَ عَلَى السَّاقَةِ قَيْسَ بْنَ أَبِي صَعْصَعَةَ، وَأَمَرَ بِمَنْ بَعَثَهُ فِي الْمَقْدَمَةِ أَنْ يَلْحَقُوا بِالْمَشْرِكِينَ عِيوناً لَهُمْ^(١).

وَلَمَّا وَرَدَ أَبُو سَفْيَانَ بَدْرًا وَكَانَ خَائِفًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيَ فِي طَرِيقِهِ بِيَدْرَ مَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو، فَقَالَ لَهُ: هَلْ أَحْسَسْتَ مِنْ عِيونِ مُحَمَّدٍ أَحَدًا، فَوَاللَّهِ مَا بِمَكَّةَ قَرَشِيٌّ وَلَا قَرَشِيَّةٌ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ بِهَا مَعَنَا، فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ مَا أُدْرِي وَلَا رَأَيْتُ مَا أَنْكَرَهُ إِلَّا رَاكِبِينَ أَتَى هَذَا الْمَكَانَ، وَأَشَارَ إِلَى مَنَاخِ بِسَبْسِ وَعَدِي، فَقَامَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى مُنَاخِهِمَا، فَأَخَذَ مِنْ بَعْرِ بَعِيرِهِمَا، فَفَتَّهُ فَإِذَا فِيهِ نَوَى، فَقَالَ: هَذِهِ عَلَائِفُ يَثْرِبَ، هَذِهِ عِيونُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ ضَرَبَ وَجْهَ الْعَيْرِ فَسَاحَلَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ، وَاسْتَأْجَرَ ضَمُضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ وَبَعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ يَسْتَنْفِرُهُمْ لِأَجْلِ أَمْوَالِهِمْ^(٢).

وَكَانَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَدْ رَأَتْ قَبْلَ قُدُومِ ضَمُضَمِ بَثْلَاثَ لَيَالٍ، كَأَنَّ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِالْأَبْطَحِ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا آلَ غُدْرٍ، يَا آلَ فُجْرٍ، انْفِرُوا إِلَى مِصَارِعِكُمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ وَالنَّاسَ خَلْفَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ حَوْلَهُ إِذْ مَثَلُ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ كَذَلِكَ، ثُمَّ مَثَلُ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ، فَصَرَخَ بِمِثْلِهَا ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً فَأَرْسَلَهَا، فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي حَتَّى إِذَا كَانَتْ بِأَسْفَلِ الْجَبَلِ، أَرْفَضَتْ، فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بِيوتِ مَكَّةَ، وَلَا دَارٌ مِنْ دَوْرِهَا إِلَّا دَخَلَ فِيهَا مِنْهَا فَلَقَّةٌ، فَحَدَّثَتْ عَاتِكَةَ أَخَاهَا الْعَبَّاسَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: اكْتَمِيهَا. ثُمَّ لَقِيَ الْعَبَّاسَ الْوَلِيدَ بْنَ عَتَبَةَ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ، وَاسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهُ، فَذَكَرَهُ الْوَلِيدَ لِأَبِيهِ، وَفَشَا الْحَدِيثَ. قَالَ الْعَبَّاسُ: فَلَقِينِي أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْفَضْلِ، مَتَى ظَهَرَتْ فِيكُمْ هَذِهِ النَّبِيَّةُ؟ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مَنَامُ عَاتِكَةَ، فَأَنْكَرَهُ، فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، أَمَا رَضِيْتُمْ أَنْ يَتَبَّنَّا رِجَالُكُمْ حَتَّى تَنْبَأَتْ نِسَاؤُكُمْ، وَقَدْ زَعَمْتَ عَاتِكَةَ أَنَّهُ قَالَ: انْفِرُوا إِلَى مِصَارِعِكُمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ. وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ هَذِهِ الثَّلَاثَ، فَإِنْ يَكُنْ مَا قَالَتْ حَقًّا فَسِيَكُونُ، وَإِنْ مَضَتْ الثَّلَاثُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَيْكُمْ كِتَابًا أَنْكُمْ أَكْذِبُ بَيْتَ فِي الْعَرَبِ، قَالَ: ثُمَّ مَضَى الْعَبَّاسُ، قَالَ: فَلَمَّا أَمْسَيْتُ لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ١٨٧/٢، و«المنتظم» ٩٨/٣.

(٢) انظر «السيرة» ١٩٠/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٢٧/٢.

المطلب إلا أتنني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ويتناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لما سمعت، قال العباس: فلما سمعت قولهن، قلت: والله لأتعرضنَّ له، فإن عاد لأوقعنَّ به، فلما كان اليوم الثالث من رؤيا عاتكة تعرضت له وأنا مغضب، أرى أن قد فاتني منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه، فدخلت المسجد وإذا به جالس فيه، فمشيت نحوه عساه يعود فأوقع به، إذ خرج عدو الله من باب المسجد يشتد، فقلت: ماله لعنه الله، أكلُّ هذا فرقاً من أن أشاتمته، وإذا به قد سمع ما لم أسمع، وهو صوت ضَمْضَم بن عمرو الغفاري وهو قائم على بعيه يصرخ ببطن الوادي، قد شق ثيابه، وجدع أنف بعيه وهو ينادي: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، وما أظنكم تدركونها، الغوث الغوث، فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر.

قال ابن إسحاق: فخرجوا سراعاً معهم القينات بالدفوف يقولون: أیظن محمد أنها غير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك.

وكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، ولم يبق من رجال قريش وأشرفهم أحد إلا أن أبا لهب قد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكان أمية ابن خلف شيخاً كبيراً ثقيلاً فأزمع القعود، ثم عُير فخرج، وقال عتبة لأخيه شيبة، وقد كره الخروج: إن ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - رجل مشؤوم وليس يمسه من محمد قرابة ولا رَحِمٌ مثل ما يَمَسُّنا، فقال له شيبة: إن لم نخرج صار علينا سُبَّةٌ، فامض بنا يا أبا الوليد مع قومنا، ولما اجتمعت قريش على المسير، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من العداوة وقالوا: نخشى أن يأتوا من خلفنا، فتوقفوا عن الخروج، فتبدى لهم إبليس في صورة سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم المَدْلَجِي، وكان من أشرف كنانة فقال لقريش: أنا جار لكم من كنانة وبكر، فقال لهم أبو جهل: هذا سيد كنانة وقد أجاركم ومن خلفكم فشجَّ^(١) القوم فخرجوا^(٢).

(١) كذا في النسخ، ولم نقف على هذه اللفظة فيما بين أيدينا من المصادر.

(٢) انظر «السيرة» ٢/١٨٢-١٨٦، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٢٨-٤٣١، والبيهقي في «الدلائل» ٣/٢٨،

و«المنتظم» ٣/٩٨-١٠٠.

ولما نزلت قريش الجحفة، قال جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب: رأيت فيما بين النائم واليقظان رجلاً أقبل على فرسه ومعه بعير، فقال: قُتل شيبه، قُتل عتبة، قتل فلان وفلان، حتى عدد رجالاً قتلوا في ذلك اليوم، قال: ورأيت ضربه بعيره في لَبته، ثم أرسله في العسكر، فلم يبق خباء من الأخبية إلا أصابه نضح من دمه، فأخبر الناس بما رأى، فقال أبو جهل: هذا نبي آخر، ستعلم غداً إذا التقينا من المقتول.

وأرسل أبو سفيان من مكة إلى قريش: قد أحرز الله عيركم وأموالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان الأحنس بن شريق حليف بني زهرة قد خرج بهم، ثم أفكر، فقال: يا بني زهرة، قد أنجى الله أموالكم ولا تسمعوا قول هذا المائق، واعصبوا جبنها بي، ثم رجع وكانوا مئة^(١).

وفيه يقول ابن أبي الزغباء^(٢): [من الرجز]

أَقِمْ لَهَا صُدُورَهَا يَا بَسْبَسُ
 إِنَّ مَطَايَا الْقَوْمِ لَا تُحَبَّسُ
 وَحَمْلُهَا عَلَى الطَّرِيقِ أَكَيْسُ
 قَدْ صَنَعَ اللَّهُ وَفَرَّ الْأَخْنَسُ

ولما رجع الأحنس لقيه أبو سفيان بمَرِّ الظَّهران، فقال: لم رجعتم، لا في العير ولا في النفير، فذهبت مثلاً. فقال له الأحنس: أنت بعثت إلى قريش لترجع، وأبلغه ما قال أبو جهل، فقال له أبو سفيان: واقوماه، هذا من عمل عمرو بن هشام يعني أبا جهل، ثم لحق أبو سفيان ببدر، فقاتل مع الكفار قتالاً شديداً، وجرح جراحات كثيرة، وهرب إلى مكة ماشياً^(٣).

ونزل رسول الله ﷺ ببدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان.

ونزلت قريش العُدوة القصوى من الوادي خلف الكثيب، ورسول الله ﷺ بالعدوة

(١) انظر «السيرة» ٢/١٩٠، و«المنتظم» ٣/١٠٢.

(٢) البيتان في «السيرة» ٢/٢٠٧، و«المغازي» ١/٤٥.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٢/١٣.

الدُّنيا، فأرسل الله مطراً عظيماً، فأصاب المسلمين ما لَبَد لهم الأرض، ولم يمنعهم من السير، وأصاب الكفار منه ما منعهم من المسير. فبادرهم رسول الله ﷺ، ونزل بأدنى وادٍ من بدر، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أمنتك هذا أنزلك الله إياه، أم رأيي رأيت في الحرب؟ فقال: «بَلْ رَأَيْ رَأَيْتُهُ» فقال: انهض فليس لك هذا بمنزل، فانزل أدنى ماء من القوم، ثم غَوَّر باقي المياه والقُلُب، وابنِ على الماء حوضاً واملاًه، ثم قاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فنزل جبريل ﷺ فقال: الرأي ما رأى حُباب، فنهض رسول الله ﷺ وفعل ما قال^(١).

ولما نزل رسول الله ﷺ على الماء، قال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً من الجريد تكون فيه، واجعل ركائبك عندك، ثم نلقى عدونا، فإن أظفَرنا الله عليهم، فذلك الذي أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ولحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك قوم ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فدعا له رسول الله ﷺ، وبني له العريش، فكان فيه هو وأبو بكر^(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد أمرهم بالإفطار، فأفطر البعض وامتنع البعض، فأمر مناديه، فنادى: يا معاشر العصاة، أفطروا. فأفطروا، وكان رسول الله ﷺ مفطراً^(٣).

وعقد رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية، فكان لواؤه الأعظم وهو لواء المهاجرين بيد مصعب بن عمير، ولواء الخزرج بيد الحُباب بن المنذر، ولواء الأوس بيد سعد بن معاذ. وكان مع المشركين ثلاثة ألوية: لواء مع أبي عزيز بن عمير، ولواء مع النَّضْر بن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة. وكان المشركون في تسع مئة وخمسين رجلاً من المقاتلة، وكان معهم مئة فرس، وأقبلت قريش، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ قَرِيشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بُخَيْلًا بِهَا وَحَدَّهَا وَحَدِيدًا تَحَادُّكَ وَتَكْذِبُ رُسُوكَ، اللَّهُمَّ نَصْرَكَ»^(٤).

(١) «المغازي» ١/٥٣-٥٤، وانظر «السيرة» ٢/١٩٢، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٤.

(٢) «السيرة» ٢/١٩٢، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٤، و«أنساب الأشراف» ١/٣٤٤.

(٣) «أنساب الأشراف» ١/٣٤٣.

(٤) «السيرة» ٢/١٩٢.

ثم استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقام أبو بكر فأحسن القول، وقام عمر فأحسن القول، وقام المقداد وقال: يا رسول الله، امض لما أمرك به ربك، فنحن لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق نبياً، لو ضربت بطونها إلى برك الغماد لجالدنا معك حتى تبلغه، فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعاه به.

[ثم قال رسول الله ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»^(١)] وإنما أراد رسول الله ﷺ بقوله: أشيروا علي، الأنصار، لأنهم لما بايعوه ليلة العقبة قالوا: نحن بُرَاءٌ من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلى دارنا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا. فخاف رسول الله ﷺ أن لا ينصروه خارج المدينة، ففطن سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، لعلك تريدنا، يعني الأنصار؟ قال: «أَجَل». قال: قد آمنا بك، وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك العهد على السمع والطاعة، فامض لما أمرت به، فوالذي بعثك بالحق نبياً لو اعترضت البحر فخضته لخضناه، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، ونحن صُبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فقال رسول الله ﷺ: «أَبَشِّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ»^(٢).

فبينما هم كذلك إذ وردت رَوَايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه؟ فيقول: ما لي بهم علم، ولكن هذا عتبة، وشيبة، وأمّية بن خلف، وأبو جهل، فإذا قال لهم ذلك ضربوه، والنبى ﷺ قائم يصلي، فيقول: نعم أخبركم، هذا أبو سفيان، فإذا تركوه يقول: مالي بأبي سفيان علم، ولكن هذا عتبة، وشيبة، وأمّية في الناس، فيضربونه. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، انصرف من صلاته وقال: والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم، وتتركونه إذا كذبكم، لقد صدق والله، إنها لقريش^(٣).

(١) ما بين حاصرتين زيادة من «السيرة» ١٨٨/٢.

(٢) «السيرة» ١٨٨/٢.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر «تاريخ الطبري» ٤٢٢/٢-٤٢٣ وإلى هنا انتهى سياق الطبري وما بعده من ابن هشام.

وقال رسول الله ﷺ للغلامين - وهما أسلم وعريض - : أخبراني أين قریش؟ قالوا : وراء هذا العَقْنَقَلِ الذي ترى بالْعُدْوَةِ القصوى. فقال لهما : فكم الجمع؟ قالوا : كثير. قال : فكم عدتهم؟ قالوا : لا ندري. قال : فكم ينحرون كل يوم؟ قالوا : تسع جزائر ويوماً عشراً. فقال : القوم ما بين التسع مئة إلى الألف، وكانوا كذلك. قال : ومن فيهم من الأشراف؟ قالوا : عتبة وشيبة وأبو البَخْتري، وحكيم بن حزام، وطُعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، ونُبَيْه ومُنْبَه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد وُدّ في آخرين، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس وقال : هذه مكة قد أَلقت إليكم أفلاذ كبدها^(١).

وكان المطعمون في غزاة بدر: عتبة، وشيبة، والعباس بن عبد المطلب، وحكيم ابن حزام، وزمعة بن الأسود، والمطلب بن أسد، وأبا البَخْتري، والعاص بن هشام، ونوفل بن خويلد بن أسد بن العدوية^(٢).

وقيل : كانوا عشرة.

وَبَعَثَ القوم عُميرَ بن وهب الجُمَحي ليحزر أصحاب رسول الله ﷺ، فجاء فجال بفرسه في العسكر، ثم رجع إليهم وقال : هم ثلاث مئة رجل يزيدون أو ينقصون شيئاً، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان، ثم قال : أمهلوني حتى أنظر هل لهم كمين؟ فجال بفرسه في الوادي، ثم عاد وقال : لم أر شيئاً ولكن رأيت الولايا^(٣) تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، ليس لهم معاقل ولا منعة إلا سيوفهم، أما ترونهم خُرساً لا يتكلمون يتلمّظون تَلْمُظَ الأفاعي، فوالله لا يقتل منهم رجل حتى يَقْتُلَ منكم رجلاً أو رجلاً، فإذا قتلوا منا مثل عددهم فما خير في العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم.

فمشى حكيم بن حزام في الناس، فقال لعتبة بن ربيعة : يا أبا الوليد، أنت كبير

(١) «السيرة» ١٨٩/٢ .

(٢) في «المحبر» ص ١٦١-١٦٢ المطعمون: أبو جهل، وأمّية، وسهيل، وشيبة، وعتبة، ومنبه، ونُبَيْه، والعباس، وأبو البختري.

(٣) جمع ولية: وهي البرذعة التي تكون تحت الرحل. وعند ابن هشام: «البلايا» جمع بلية: وهي الناقة التي تربط على قبر الميت، فلا تعلق ولا تسقى حتى تموت.

قريش وسيدها، فهل لك أن لاتزال تُذكر بخيرٍ آخرِ الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، وما أصاب محمد من تلك العير ببطن نخلة، فإنكم لا تطلبون من محمد غير هذا الدم، قال عتبة: قد فعلت وأنت شاهد عليّ بذلك، ووافقه أخوه شيبه ثم جلس عتبة على جملة وسار في المشركين من قريش يقول: يا قوم أطيعوني ولا تقاتلوا هذا الرجل، واعصبوا هذا الأمر بي، وأنا أتحمّل الدية وثمن العير، وقال لحكيم: اذهب إلى ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - وقل له: هل لك أن ترجع إلى قومك مع ابنك؟ قال حكيم: فجئت إليه وهو في جماعة، وعامر بن الحضرمي يقول: قد فسخت عقدي من بني عبد شمس، وجعلته في بني مخزوم، فأبلغته ما قال عتبة، فقال: ما وجد رسولاً غيرك، ثم طلع على عتبة والشرف في وجهه وقال: انتفخ سحرك؟ فقال له عتبة: ستعلم. فسلاً أبو جهل سيفه وضرب به متن فرسه، وكان إيماء بن رَحْضَةَ حاضراً، فقال لأبي جهل: بسّ الفأل هذا^(١).

وقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله في «المسند» بمعناه فقال: خرج عتبة بن ربيعة على جمل أحمر وهو يقول لأصحابه: يا قوم، والله إني لأرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقد علمتم نصحي وقولوا: جَبْنُ عتبة ابن ربيعة، فقال له أبو جهل - لعنه الله في الدارين - : لو قال غيرك هذا لأَعْضَضْتُهُ بظُر أمه، قد ملأت رئتكَ جوفك رُعباً. فقال له عتبة: يا مُصَفَّرَ استه، ستعلم أينما الجبان^(٢).

ونظر رسول الله ﷺ إلى عتبة فقال: إن يكن في القوم من يأمر بخير، فعسى صاحبُ الجملِ الأحمر، فقال له حمزة: هو عتبة بن ربيعة^(٣).

وقال خفاف بن إيماء بن رَحْضَةَ: ما كان شيءٌ أحبَّ إلى أبي من إصلاح بين الناس، ولما سُقَّتْ الجزائرُ - يعني التي بعثها أبوه إلى قريش، وكان بعث إليهم عشر جزائر - لحقني أبي، فقبلوها ووزعوها، فمر أبي على عُتْبَةَ بن ربيعة وهو سيدُ الناس

(١) الخبر في المصادر التالية: «السيرة» ٢/١٩٣-١٩٤، «المغازي» ١/٦٠، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٥، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٤٢-٤٤٣. وانتفخ سحره: عدا طوره وجاوز قدره.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه (٣٧٨٣٤)، وأحمد (٩٤٨) من حديث علي رضي الله عنه.

يومئذ، فقال له: يا أبا الوليد، ما هذا المسير؟ قال: لا أدري والله، غُلبتُ. قال: فأنت سيدُ العشيرة، فما يمنعك أن تَرَجَعَ بالناس، وتحملَ دمَ حليفك، وتحملَ العيرَ التي أصابوا بنخلة، فتوزَّعها على قومك، والله ما تطلبون قِبَل محمدٍ إلا هذا، والله ما تقتلون إلا أنفسكم^(١).

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي وقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثارك بعينك فأنشد مقتل أخيك، فقام عامر واكتشف وصاح: واعمره واعمره، وثار الناس، ونشبت الحرب^(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد هياً أصحابه، وعبأهم بعد صلاة الفجر، وقال علي رضي الله عنه: ما منا رجل ليلة بدر إلا نام إلا النبي ﷺ، فإنه مازال متوشحاً بسيفه تلك الليلة يصلي ويدعو إلى الصبح^(٣).

وبعث إلى قريش عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: ارجعوا فلأن يلي هذا الأمر مني غيركم، أحب إلي من أن تلوه مني وأليه من غيركم أحب إلي من أن أليه منكم. فقال حكيم بن حزام: قد عرض عليكم النصف^(٤) فاقبلوه، والله لا تنصرون بعد أن عرضه عليكم، فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منه، ولا نطلب أثراً بعد عين، ولا يعترض لعيرنا بعدها أبداً^(٥).

وأول قتال جرى يوم بدر، أن الأسود بن عبد الأسد المخزومي قال: عاهدت الله لأشربن من حوضهم، ولأهدمته. وهجم عليهم، فحمل عليه حمزة رضي الله عنه فضربه بالسيف في رأسه، فوقع على ظهره فلم يزل يخبو حتى اقتحم الحوض يريد أن يبر في يمينه، فقتله حمزة^(٦).

(١) «المغازي» ٦٠/١ .

(٢) «السيرة» ١٩٤/٢ .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٢٣)، وانظر «تاريخ الطبري» ٤٢٧/٢، و«المنتظم» ١٠٥/٣ .

(٤) في (خ): «النصح».

(٥) «المغازي» ٦١/١ .

(٦) «السيرة» ١٩٤/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٤٥/٢، و«المنتظم» ١٠٧/٣ .

وأقبل نفر من الكفار فأوردوا حوضَ رسول الله ﷺ وفيهم حكيم بن حزام على فرس، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم». فما شرب منه أحد إلا قتل أو أسر إلا حكيم بن حزام، فإنه هرب إلى مكة على فرس يقال له: الوجيه، ثم أسلم بعد ذلك. وكان إذا حلف يقول: لا والذي نجاني يوم بدر^(١).

ثم خرج عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، فدعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقال لهم عتبة: من أنتم؟ قالوا: نحن من الأنصار. فقال عتبة: لا حاجة لي فيكم، ونادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفأنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم، إذ جاء القوم بباطلهم ليظفئوا نور الله، قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث» فقاموا. وكان على رؤوسهم البيض، فلم يعرفوهم، فقالوا: تكلموا. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: وأنا أسد الحلفاء - يعني الأجمة -، ثم قال: ومن معك؟ قال: ابن أخي علي وعبيدة بن الحارث، فقال: أكفأ كرام، ثم قال عتبة لابنه الوليد: تقدم يا وليد. فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد بن عتبة، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه، وكرّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، وكان ذباب سيف^(٢) عتبة قد أصاب ساق عبيدة، فاحتملاه إلى رسول الله ﷺ والدم يسيل من عضلة ساقه، فقال: يا رسول الله! ألسنتُ شهيداً؟ قال: بلى والله. فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً، لعلم أنني أحق بما قال منه حيث يقول: [من الطويل]

كذبتم وبیت الله نخذلُ أحمدا
وَنُسَلْمُهُ حَتَّى نُصَرِّعَ حَوْلَهُ
وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلُ
وَنُذْهِلَ عَن أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ^(٣)
ثُمَّ حُمِلَ عَبِيدَةُ فَمَاتَ بِالصَّفْرَاءِ^(٤).

(١) «تاريخ الطبري» ٤٤١/٢، وانظر «السيرة» ١٩٣/٢.

(٢) ذباب السيف: حده.

(٣) الخبر في «المغازي» ٦٨/١-٧٠.

(٤) انظر «السيرة» ٢٥١/٢، و«الطبقات الكبرى» ٤٩/٣، و«المنتظم» ١٤٠/٣، والصفراء: واد كثير النخل قرب

ثم تراحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، وقال رسول الله ﷺ : «إِذَا كَثَبَكُمْ الْقَوْمُ فَاَنْضَحُوهُمْ بِالنَّبْلِ»^(١). ثم دخل رسول الله ﷺ العريش يناشد ربه بما وعده من النصر.

وفي أفراد البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر وهو في قبة له : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ لَا تُعَبِّدُ بَعْدَ الْيَوْمِ» فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، لقد ألححت على ربك . فخرج رسول الله ﷺ وهو في الدرع يقول : ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ [القمر : ٤٥]^(٢) والقتال يعمل بين الفريقين . ثم خفق رسول الله ﷺ خفقة ، ثم انتبه ، فقال : «يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَتَاكَ النَّصْرُ ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانٍ فَرَسَهُ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَائِيهِ النَّقْعُ»^(٣).

ولما دخل رسول الله ﷺ العريش ، قام سعد بن معاذ على باب البيت ومعه نفر من الأنصار بأيديهم السيوف يحرسون ، وخرج رسول الله ﷺ من العريش ، وجعل يحرض الناس على القتال ، ويعطي القاتل سلب المقتول.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف ، وإلى المشركين وهم ألف وزيادة ، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه وعليه إزاره ورداؤه ، وقال : «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» يكررها ، ثم قال : «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ لَا تُعَبِّدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا». قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده ، والتزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٩] الآية ، فأمده الله بالملائكة^(٤).

ولما اشتد القتال ، هبت ريح شديدة لم ير مثلها قط ، ثم ذهب وجاءت أخرى ، فكان جبريل في الأولى في ألف من الملائكة فوق في الميمنة ، وجاء ميكائيل في الثانية في ألف فوق في الميسرة ، وجاء إسرافيل في ثلاثة آلاف [فوق] في القلب مع

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٠) من حديث أبي أسيد ، وانظر الخبر في «السيرة» ٢/ ١٩٥ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٥).

(٣) «السيرة» ٢/ ١٩٦ .

(٤) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

رسول الله ﷺ^(١).

وقيل: إنما وقف جبريل مع رسول الله ﷺ، وهو الأصح.

ولم تقاتل الملائكة إلا في يوم بدر، وفيما سواه يشهدون القتال ولا يقاتلون، بل يكونون مدداً وعدداً^(٢). ورئي رسول الله ﷺ في آثار المشركين مصلتاً لل سيف وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وأخذ كفاً من حصى أو تراب، ورمى به في وجوه الكفار وقال: شأهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا وقع في عينه من ذلك شيء، وانهمزوا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] الآية^(٣).

وعن أبي طلحة: أن النبي ﷺ مر يوم بدر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، فخذفوا في طوي من أطواء بدر، وكان إذا ظهر على قوم، أقام بالعريضة ثلاث ليال، فلما كان اليوم الرابع من بدر أمر براحلته فشد عليها رحله، ثم مشى واتبعه أصحابه، فجاء فوق على شفير الركي وجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟» فقال له عمر بن الخطاب: ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها، فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يرينا مصرع القوم، فيقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى، هذا مصرع فلان». فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حددها لهم، فجعلوا في بئر بعضهم فوق بعض^(٥).

ولما وقف رسول الله ﷺ على القلب قال: «يا أهل القلب، بئس والله العشيرة

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٨٩)، والحاكم في «المستدرک» ٦٩/٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٩٩/٤، والطبراني في «الأوسط» (٩١٢٥) من حديث بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٢٨) من حديث حكيم بن حزام، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨٤/٦: إسناده حسن.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٧٣).

كُتِبَ لابنِ عَمِّكُمْ؛ كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقْتُمُونِي النَّاسَ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسَ، وَقَتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتُمُونِي النَّاسَ^(١). وقال رسول الله ﷺ في قتلى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء، لتركتهم له»^(٢).

ولمَّا سُحِبَ عْتَبَةُ إِلَى الْقَلِيبِ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَجْهِ ابْنِهِ أَبِي حَذِيفَةَ وَقَدْ تَغَيَّرَ وَهُوَ كَثِيبٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَعَلَّكَ دَخَلْتَ مِنْ شَأْنِ أَبِيكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرَى فِي أَبِي رَأْيًا وَحِلْمًا، فَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، حَزَنْتُ عَلَيْهِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعِهِ. فدعا له رسول الله ﷺ بخير^(٣)، فقال أبو بكر: لقد كان كارهاً للخروج، ولكن حملة الحين ومصارع السوء.

ذكر من استشهد يوم بدر من المسلمين^(٤):

عَاقِلُ بْنُ الْبَكَّيْرِ، مِنْ كِنَانَةَ حَلِيفِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَوَّلُ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي دَارِ ابْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ، قَتَلَهُ مَالِكُ بْنُ زَهْرٍ الْجُشَمِيُّ.

عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْمَطْلَبِ^(٥) بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ أَبِي الْحَارِثِ، وَأُمُّهُ سُخَيْلَةُ بِنْتُ خُزَاعِيٍّ، ثَقْفِيَّةٌ، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، أَسْلَمَ قَدِيمًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَارَ الْأَرْقَمِ، وَهَاجَرَ وَجُرِحَ فِي سَاقِهِ، جَرَحَهُ شَيْبَةُ^(٦) بْنُ رَبِيعَةَ، وَمَاتَ بِالْصَفْرَاءِ، فَحَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَكَفَّنَهُ فِي ثَوْبِهِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ وَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ سَنَةً، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ مَعَاوِيَةُ، وَعُوفٌ، وَمَنْقُذٌ، وَالْحَارِثُ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُحَمَّدٌ، وَخَدِيجَةُ، وَرَيْطَةُ، وَسُخَيْلَةُ، وَصَفِيَّةٌ، لِأُمَّهَاتِ أَوْلَادِ شَتَى.

(١) «السيرة» ٢/٢٠٤، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٥٧.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم.

(٣) «السيرة» ٢/٢٠٥ و«تاريخ الطبري» ٢/٤٥٧، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٨٨).

(٤) من هنا تبدأ نسخة أحمد الثالث ورمزنا لها بـ (أ).

(٥) في النسخ: «عبد المطلب» والمثبت هو الصواب، انظر «السيرة» ٢/٢٥١، و«نسب قريش» ص ٩٣، و«جمهرة النسب» ص ٦٠.

(٦) كذا جاء في النسخ وعند الواقدي ١/١٤٥، والصواب: عتبة كما في «السيرة» ٢/٢٥١.

عُمير بن أبي وقاص بن وهيب بن عبد مناف بن زُهرة^(١) بن كلاب أخو سعد بن أبي وقاص، أمه حَمْنَةُ بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، جعل عمير يتواري مخافة أن يراه رسول الله ﷺ فيستصغره فيرده، فلما عُرِضَ عليه رده فبكى، فأجازه. قال أخوه سعد: فلقد كنت أعقد له سيفه من صغره، قتله عمرو بن عبدوُدٍّ، وهو ابن ست عشرة سنة.

ذو الشماليين عُمير بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي، من الطبقة الأولى من المهاجرين، قتله زهير بن معاوية الجشمي وهو ابن بضع وثلاثين سنة.

وأما صفوان بن بيضاء، فأبوه: وهب بن ربيعة من بني فهر، وأمّه: دَعْدُ بنت جَحْدَمَ فهرية، والبيضاء لقب لها، وصفوان من الطبقة الأولى من المهاجرين. وعامة الرواة على أن طَعِيمَةَ قتله ببدر، إلا الواقدي والزهري^(٢).

قال الواقدي: عاش إلى سنة ثمان وثلاثين. وقال الزهري: مات بطاعون عمواس.

وأما أنسة مولى رسول الله ﷺ، فهو من المهاجرين الأولين، واستشهد ببدر، قاله الواقدي^(٣). وقال البلاذري: وشهد أحداً ومات في خلافة أبي بكر ﷺ^(٤).

واستشهد من الأنصار:

حارثة بن سراقه بن النعمان^(٥)، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمّه: جعدة وقيل: الرُّبَيْع بنت النَّضْر، وقيل: بنت عبد المطلب. أسلمت وبايعت، رماه حِبَّان بن العَرِقة بسهم، فأصاب حَنْجَرَتَهُ فذبحه، وقيل: جاءه سَهْمٌ غَرَبٌ فقتله.

(١) في النسخ: «زهيرة»، وانظر «نسب قريش» ص ٢٥٧.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٣/٣٨٥.

(٣) «المغازي» ١/١٤٦.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٣٤٩.

(٥) خلط المصنف رحمه الله هنا بين ترجمتين لصحابيين شهدا بدرأ أحدهما من شهداء بدر والآخر عُمر بعدها،

الأول وهو المترجم: حارثة بن سراقه بن الحارث بن عدي، وأمّه الرُّبَيْع بنت النَّضْر، وهي عمّة أنس بن

مالك وقتل شهيداً ببدر. انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٤٧٣.

الثاني: حارثة بن النعمان بن نفع، وأمّه جعدة بنت عبيد بن ثعلبة، وشهد حارثة بدرأ وأحدأ والمشاهد

كلها، انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٤٥٢.

وعن أنس قال: جاءت الرُبَيْع بنت النَّضْر وهي أم حارثة بن سراقه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر جاءه سهم غَرَبٌ - ، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم حارثة، إنها ليست بجنة واحدة ولكنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». انفراد بإخراجه البخاري^(١).

رافع بن المعلى، من الطبقة الأولى من الأنصار، قتله عكرمة بن أبي جهل. سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النَّحَّاط، أبو مسعود، من الطبقة الأولى من الأنصار وهو أحد النقباء الاثني عشر، وأمه: هند بنت أوس، شهد العقبة مع السبعين، ولما ندب رسول الله ﷺ الناس إلى بدر، قال له خيثمة: آثرني بالخروج، فإنه لا بد لأحدنا أن يقيم فأبى سعد، وقال: لو كان غير الجنة لآثرتك بها، وإني لأرجو الشهادة في هذا الوجه، فاستهما فخرج سهم سعد، فقتل ببدر، قتله عمرو بن عبدود، وقيل: قتله طعيمة بن عدي^(٢).

عمير بن الحُمَام بن الجموح من الطبقة الأولى من الأنصار.

وفي الحديث: فسار رسول الله ﷺ إلى بدر، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ». قال عمير بن الحمام: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». فقال: بخ بخ يا رسول الله، فقال: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنيه فجعل يأكل منهن، ويقول: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، ثم رمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتِلَ^(٣).

عوف ومعوذ ابنا عفراء. قد ذكرنا في ترجمة أبي جهل: أن معوذاً أثبت أبا جهل، ثم قتله^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٤٤٧/٣.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) طبقات ابن سعد ٤٥٦/٣ - ٤٥٧.

مُبَشَّر بن عبد المنذر من الطبقة الأولى من الأنصار، قتله أبو ثور.
 يزيد بن الحارث بن قيس، وأمه فُسْحَم من بني القين، قضاعية، ويزيد من الطبقة
 الأولى من الأنصار، قتله نوفل بن معاوية^(١).
 وذكر الواقدي: أن النبي ﷺ صلى على قتلى بدر، ودفنهم في مصارعهم بدمائهم
 على حالهم ﷺ^(٢).

ذكر أعيان من قتل يوم بدر من الكفار

قال ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنهم قتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا
 سبعين. فنذكر أعيانهم:

أمية بن خلف الجُمَحِيّ، كان أشدَّ الناس على رسول الله ﷺ.

عن ابن مسعود أنه حدث عن سعد بن معاذ وكان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية
 إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا أتى مكة نزل على أمية، فقدم سعد مكة
 معتمراً فنزل على أمية، ورسول الله ﷺ بالمدينة، فقال سعد لأمية: انظر لي ساعة لعلني
 أطوف بالبيت فيها، فخرجنا نصف الليل فلقيهما أبو جهل، فقال لأمية: يا أبا صفوان،
 من هذا معك؟ فقال: سعد بن معاذ. فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنًا وقد
 أويتم الصُّبَاةَ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان،
 لما عُدتَ إلى أهلِكَ سالمًا، فرفع سعد صوته على أبي جهل وقال: والله لئن منعتني
 هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، قال: وما هو؟ قال: طريقك على المدينة. فقال له
 أمية: يا سعد، لا ترفع صوتك على أبي جهل، فإنه سيد أهل هذا الوادي. فقال له
 سعد: دع عنك هذا يا أمية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه قاتلك». فقال أمية:
 والله ما كذب محمد قط، ثم قال: أبمكة؟ قال سعد: لا أدري.

(١) طبقات ابن سعد ٣/١٩٥.

(٢) انظر «المغازي» ١/١٤٦.

ففرع أمية ورجع إلى أهله، فقال لها: يا أم صفوان، ألم ترني إلى ما قال سعد، وأخبرها بما قال، وقال: والله لا أخرج من مكة أبداً. فلما كان يوم بدر، لزال به أبو جهل حتى أخرجه، وقال له: يا أبا صفوان، إنك متى ما رأى الناس قد تخلّفت وأنت سيد أهل هذا الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان، جهزيني للخروج، فقالت: أنسيت قول أخيك اليثربي؟ فقال: لا، ما أكون معهم إلا قريباً، فخرج معهم فقتل بيدر^(١)، قتله خُبيب بن يساف، واتفقوا على أن بلالاً رضي الله عنه كان سبب قتله.

قال عبد الرحمن بن عوف: كاتبت أمية بن خلف كتاباً على أن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته^(٢) بالمدينة، فلما ذكرت عبد الرحمن، قال: لا أعرف عبد الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو، فلما كان يوم بدر خرجت لأُحرزَه فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من مجالس الأنصار، وقال: يا معاشر الأنصار، هذا أمية بن خلف لا نجوت إن نجا. فخرج مع فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا، خلّفت لهم ابنه لأشغَلهم به فقتلوه، ثم لحقونا. وكان أمية رجلاً ثقيلاً، فقلت له: انزل، فنزل، فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخلّوه بالسيوف حتى قتلوه من تحتي، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، فكان عبد الرحمن يريهم ذلك الأثر في قدمه^(٣).

قال الواقدي: فلما سقط أمية على ظهره، أقبل الحُباب بن المنذر فأدخل سيفه فقطع أنف أمية، وجاء إليه خُبيب بن يساف فضربه حتى قتله، وكان أمية قد ضرب يد خُبيب حتى قطعها من المنكب، فأعادها رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتحمت، ثم تزوج خُبيب بن يساف بعد ذلك ابنة أبي بن خلف، فقالت: لا يَسُلل الله يداً فعلت بك هذا، فيقول حبيب: والله لقد أوردته شُعب^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٠).

(٢) الصاغية: كلُّ من ألم بالرجل من أهله. لسان العرب: (صغا).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٠١).

(٤) «المغازي» ١/٨٣، والشعوب: الموت.

وأخذ حُيَيْبُ درعه وسَلَبه، واعترض الحُبابَ عليُّ بن أمية، فقطع رجله، فصاح صوتاً لم يُسْمَعْ بمثله جزعاً، ثم قتله عمار بن ياسر^(١)، وقيل: معاذ بن رفاعه.

وقيل لأم صفوان بن أمية: انظري إلى الحُباب بن المنذر هو الذي قتل أمية، فقالت أم صفوان: دعونا من ذكر من قُتِلَ على الشرك، قد أهان الله علياً بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه^(٢).

وقال صفوان لقدامة بن مَظْعُون بعدما أسلم صفوان: أنت المُشْلِي بأبي الناسَ يوم بدر، قال قُدامة: والله ما فَعَلْتُ، ولو فَعَلْتُ ما اعتذرت من قتل مشرك، ولكن رأيت فتيةً من الأنصار منهم: معمر بن حبيب بن عبد الحارث يرفع سيفه ويضعه، يقول صفوان: أبو قرد، وكان معمر رجلاً دميماً، وبلغ ذلك الحارث بن حاطب، فدخل على أم صفوان وهي كريمة^(٣) بنت حبيب، فأخبرها بمقالة صفوان وقال: ما يدعنا من الأذى في الجاهلية والإسلام، فقالت أم صفوان: ويحك يا صفوان تنتقص معمر بن حبيب، والله لا أقبل لك صلةً وكرامة سنة، فقال صفوان: يا أماه، والله لا أعود، تكلّمتُ بكلمةٍ لم ألق لها بالاً^(٤).

الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، كان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان ممن أعان على نقض الصحيفة، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخَطِّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، إلا أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ لَقِيَ الْحَارِثَ فَلَا يَقْتُلْهُ وَلِيَدَعْهُ لِأَيِّتَامِ بَنِي نَوْفَلٍ»^(٥). فلقية حُبيِّب بن يَسَاف، ولم يعلم بقول رسول الله ﷺ فقتله كافراً^(٦).

(١) «المغازي» ٨٤/١.

(٢) «المغازي» ٨٥/١.

(٣) هكذا سماها الواقدي، والذي في «الطبقات الكبرى» ١٠٩/٦، و«نسب قريش» ص ٣٨٨، و«الإصابة» ١٨٧/٢ أن اسمها: صفية.

(٤) «المغازي» ٨٥-٨٤/١.

(٥) أورده البلاذري في «أنساب الأشراف» ٣٥٠/١، وأورده الواقدي في «المغازي» ٨١/١ قال: نهى النبي ﷺ عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل، وقال: «ائسروه ولا تقتلوه» وكان كارهاً للخروج إلى بدر، فلقية حبيب ابن يساف فقتله ولا يعرفه، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لو وجدته قبل أن تقتله لتركته لنسائه».

(٦) انظر الخبر في «أنساب الأشراف» ٣٥٠/١.

حنظلة بن أبي سفيان، وأمه: هند بنت عتبة، قتله علي^(١)، وقيل: حمزة رضي الله عنه^(٢).
شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو هاشم، وأمه: هند بنت المضرّب
من بني لؤي، وكان أسنّ من أخيه عتبة بثلاث سنين، وكان يضع على رسول الله صلى الله عليه وآله من
يؤذيه من غير مباشرة منه، وكان له ابنة يقال لها: رملة، تزوجها عثمان رضي الله عنه وهاجرت
معه.

طعيمة بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله ويبالغ في
شتمه وتكذيبه، وأسر يوم بدر فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله حمزة رضي الله عنه فقتله.

العاص بن هشام بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أبو البختري، كان ممن أعان
على نقض الصحيفة، وكان قليل الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر:
«مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ فَلَا يَقْتُلْهُ». فلقية المُجَدَّر بن زياد البلوي، فقال له: استأسر، فإن
رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن لا تقتل، فقال: معي رفيق، جنادة بن مُلَيْحَة، فإن استبقيتموه وإلا
فلا حاجة لي في الحياة بعده، فأعيرَ بخذلانه، فقتله المُجَدَّر، وأتى رسول الله صلى الله عليه وآله
وقال: والله لقد اجتهدت على أن لا أقتله، فقاتلني فقتلته^(٣). ويقال: إن الذي قتل [أبا]
البختري عمير بن عامر المزني.

العاص بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب، قتله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
عاصم بن أبي عوف، أقبل يوم بدر كأنه ذئب وهو يقول: يا معاشر قريش، عليكم
بالقاطع المفرّق للجماعة الآتي بما لا يُعرَف، محمّد، لا نجوتُ إن نجا، فاعترضه أبو
دُجانة، فاختلفا ضربتين، فقتله أبو دجانة ووقف بسلبه، فمر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وهو على تلك الحال، وقال: دع سلبه حتى نُجهضَ العدو، وأنا أشهد لك به، وجاء
مَعْبَد بن وهب فضرب أبا دجانة ضربة برك فيها كما يبرك البعير، ثم انتهض وأقبل على
مَعْبَد فضربه ضربات، فلم يصنع سيفه شيئاً، فبرك عليه وذبحه بسيفه^(٤).

(١) «المغازي» ١/١٤٧.

(٢) وقيل زيد بن حارثة انظر «السيرة» ٢/٢٥١.

(٣) انظر الخبر في «السيرة» ٢/١٩٧، و«المغازي» ١/٨٠.

(٤) «المغازي» ١/٨٦.

عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو الوليد، وقيل : أبو هاشم، وأمه : هند بنت المضرِّب أمُّ شيبَةَ، لقي رسول الله ﷺ، فقال له : يا محمد، إن كنت تريد الشرف شرفناك وملكناك، وإن كنت تريد المال مؤلناك. فقال : «اسمع يا أبا الوليد» وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ السجدة، فقال عتبة : هذا كلام ما سمعت بمثله، ثم التفت إلى قريش وقال : خَلُّوا بينه وبين العرب فليس بتارك أمره^(١).

وكان عتبة سيداً شريفاً شاعراً، يسمى : ريحانة قريش، وكان يقال له : السيد المُمَلِّق، ولم يعرف له من الرفث سوى قوله لأبي جهل : يا مُصَفِّرُ استه، ولحمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنا سيد الحلفاء - يعني الأجمة - وكان يتوهم أنه النبي المبعوث، وفيه نزل : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَاتِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ [الزخرف : ٣١] في أحد الأقوال.

وعتبة هو الذي أصلح بين كنانة وقيس بعد حروب أفتتهم، نادى يوم عكاظ : يا معاشر قريش، إن أبعدكم إلينا قريب، فهلّموا إلى الصلح وصلة الأرحام. فقالوا : من أنت؟ فقال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. قالوا : فما تعطونا؟ قال : إني أعرض عليكم أن نُعْطِيَ دية من أصيب منكم، ونعفو عمَّن أصيب منا، فما كان لنا عندكم من فضل فهو لكم، وما كان لكم من فضل أديناه إليكم. قالوا : نريد رهناً بذلك، فأخرج إليهم خمسين غلاماً من قريش فيهم حكيم بن حزام، وقال : هؤلاء الغلَمَةُ أعزُّ من فينا، فإن وفينا وإلا أخذتم قودكم، فلما رأت بنو عامر أن الرهن قد صار في أيديهم رفقوا ورجبوا في العفو، قال حكيم بن حزام : فأطلقونا عشية، وقالوا : الحقوا بأهلكم فقد اصطلح الناس^(٢).

وقتل عتبة وله سبعون سنة، وقيل : إنه جاوز المئة سنة.

ومن أولاد عتبة : أبو حذيفة، وأبو هاشم واسمه : شيبَةَ، وقيل : هُشِيم، وهو أخو أبي حذيفة لأبيه، وأخو مُصعب بن عُمير لأمه، أمهما : خُناس بنت مالك عامرية

(١) انظر «السيرة» ١/ ٢٦١-٢٦٢.

(٢) هو حرب الفجار الرابع، انظر «المنق» ص ١٦٤-١٨٠، و«تاريخ دمشق» ٣٨/ ٢٤٠.

قرشية، أسلم أبو هاشم يوم الفتح، وسكن الشام، وكان من فضلاء الصحابة، وكان أبو هريرة يقول إذا ذكره: ذاك الرجل الصالح، ومات في أيام عثمان رضي الله عنه، ولما مرض دخل عليه معاوية يعوده فبكى، فقال: يا خالي ما يبكيك، أوجع أم حرص على الدنيا؟ فقال: لا والله لا لهذا ولا لهذا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ فقال: «يا أبا هاشم، لعلك أن تدرك الأموال، وإنما يكفيك من الدنيا مَرَكَبٌ وخادِمٌ»^(١). وأراني قد جمعت حولي^(٢).

وكان لعتبة من البنات هند أم معاوية نذكرها في سنة أربع عشرة، وأم أبان تزوجها طلحة رضي الله عنه، وسنذكرها. واتفق لأم أبان ما لم يتفق لغيرها، كان لها أربعة أخوة وعمان شهدوا بدرًا: فأخوان وعم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخوان وعم مع المشركين. أما الأخوان المسلمان: فأبو حذيفة ومصعب بن عمير، والعم المسلم: مَعْمَرُ بن الحارث.

والأخوان المشركان: الوليد بن عتبة وأبو عزيز، والعم المشرك: شيبه بن ربيعة^(٣). وفاطمة بنت عتبة تزوجها عَقِيلُ بن أبي طالب، وكان إذا دخل عليها تقول: أين عتبة وشيبة؟ فيقول: إذا دخلت النار فانظري عن يسارك تجديهما، فشكته إلى عثمان رضي الله عنه، ثم اصطلحا^(٤).

عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَرُ بن مخزوم، وكان يكنى أبا الحكم، فكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل، وقال: «من كنى أبا جهل أبا الحكم، فقد أخطأ خطيئةً يستغفر الله منها، ولكل أمة فرعون وفرعون هذه الأمة أبو جهل»^(٥). وأمه أسماء بنت مُخَرَّبَةَ بن جندل بن أُبَيْرِ بن نَهْشَلِ بن دارم، وأم أسماء بنت الجان من تغلب بن وائل، وأم عناق يقال لها: الشَّموس.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٤٩٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨١١)، وفي «المجتبى» (٥٣٧٢).

(٢) انظر القصة في «تاريخ دمشق» ٢٩٢/٦٧.

(٣) انظر «المحبر» ص ٤٠٠-٤٠١.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٢٦/١٠.

(٥) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرج شطره الثاني عبد الرزاق في «تفسيره» ٣/٣٨٤ من حديث قتادة مرسلًا، وانظر «سبل الهدى والرشاد» ٨٠-٧٩/٤٠.

ذكر مقتله :

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : إني لواقف يوم بدر في الصف نظرت عن يميني وعن شمالي فإذا بغلامين من الأنصار، حديثه أسنانهما، تمنيت أني كنت بين أضلعٍ منهُما، فغمزني أحدهما وقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل بن هشام؟ قلت: نعم. وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: بلغني أنه يسبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو رأيته لم يفارق سوادي سواده حتى يموت الأَعْجَلُ منا، فغمزني الآخر وقال مثل ذلك. فعجبت، فلم أنشب حتى نظرتُ إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فاستقبلهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أَيْكَمَا قَتَلَهُ؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتله. قال: «فَهَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَكُمَا؟» قالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين وقال: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ». ثم قضى لهما بسَلْبِهِ، وهما: معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

قال معاذ بن عمرو بن الجموح: ضربت أبا جهل ضربةً أظننت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلد من جنبي، وقاتلت عامة نهاري وأنا أسحبها من خلفي، فلما آذنتني جعلت رجلي عليها ثم تمطيت حتى طرحتها. وعاش معاذ إلى أيام عثمان رضي الله عنه^(٢).

وقال البلاذري: أمر رسول الله ﷺ حين وضعت الحرب أوزارها أن يلمس أبو جهل في القتلى، وقال: «اللهم لا يعجزك».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: وجدته مرمياً في القتلى على آخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه وقلت: الحمد لله الذي أخزأك. فقال: إنما يخزي الله ابنَ أمِّ عبد، رُوِيَ عِينَا بِالْأَمْسِ، لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله، فاقتلع البيضة عن قفاه. فقلت: إني قاتلك. فقال: يا رويعي الغنم، لست بأول عبدٍ قتل سيده. أما إنَّ أشدَّ [شيء] عليّ لقتلك إياي،

(١) أخرجه البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

(٢) «السيرة» ٢/٢٠١، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٥٤، و«المنتظم» ٣/١١٦. وأطنت: أطارت.

وأن لا يكون ولي قتلتي رجل من الأُخلاف، فقتلته وجئت برأسه وسلاحه إلى رسول الله ﷺ فقال: «والله إنَّ ذلكَ لأحبُّ إليَّ من حُمُرِ النَّعَمِ»^(١).

ورأى بجسده خُضرةً، فسألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «ذاك أثر ضرب الملائكة». وكان أبو سلمة عند رسول الله ﷺ فَوَجِدَ في نفسه، فأقبل على ابن مسعود فقال: أنت قتلته؟ قال: الله قتله. قال: فأنت وليتَ قتله؟ قال: نعم. فقال: لو شاء أن يجعلك في كمِّه، لفعل. فقال ابن مسعود: فقد والله قتلته وجرَّدته. فقال أبو سلمة: فما علامته؟ قال: شامة سوداء في فخذة اليمنى. فقال: جرَّدته ولم يُجرِّدْ قُرْشي غيره، فقال: لم يكن في قريش أعدى عدواً لله ورسوله منه، وما أَعْتَذِرُ من شيء صنعت به. فسكت أبو سلمة، ثم استغفر الله بعد ذلك من كلامه في أبي جهل^(٢).

قال الواقدي: قتل أبو جهل وهو ابن سبعين سنة، وكان يقال له: دَعِيُّ بني شَجْع، ولم تثبت نسبته.

وفيه يقول حسان^(٣): [من الطويل]

ألا لَعَنَ الرَّحْمَنُ قَوْمًا يَحْتُثُّهُمْ
مَشُومٌ لَعِينٌ قَدْ تَبَيَّنَ جَهْلُهُ
فَأَنْزَلَ رَبِّي نَصْرَهُ لِرَسُولِهِ
وَأَيَّدَهُ بِالْعِزِّ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
دَعِيُّ بَنِي شَجْعٍ لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ
قَلِيلُ الْحَيَاءِ أَمْرُهُ غَيْرُ مُرْشِدٍ

ذكر أولاده:

عكرمة، وأبو علقمة، واسمه: زُرارة قتل باليمن، وأبو حاجب واسمه: تميم، ولم يعقب منهم أحد. ومن البنات: دُرَّة^(٤)، وهي التي عزم عليٌّ على نكاحها، وعزَّ على رسول الله ﷺ، فتركها. وجويرية أسلمت يوم الفتح، تزوجها عبد الرحمن بن عتَّاب بن أسيد، فقتل عنها يوم الجمل.

(١) «أنساب الأشراف» ١/٣٥٢. وما بين معكوفين منه.

(٢) «المغازي» ١/٩٠-٩١.

(٣) أنساب الأشراف ١/٣٦١.

(٤) لأبي جهل أربع بنات: صخرة، الحنفاء، أسماء، جويرية، وليس لديه بنت اسمها درة، وإنما درة هذه ابنة

أبي لهب، والتي خطبها علي بن أبي طالب هي جويرية، انظر «الإصابة» ٤/٦٥، والحديث في البخاري

(٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

فصل: وعفراء بنت عُبيد^(١) بن ثعلبة بن غنم الأنصارية، كانت عند الحارث بن رفاعة فولدت له معاذاً ومعوذاً، ثم طلقها، فقدمت مكة فتزوجها بكير بن ياليل، فولدت له خالداً وإياساً وعاقلاً وعامراً، ثم رجعت إلى المدينة، فراجعها الحارث، فولدت له عوفاً، وكلهم شهدوا بدرأ، فشهد لها ببدر سبعة بنين مسلمين ﷺ^(٢).

منبه ونبيه ابنا الحجاج السهمي، كانا من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان يدعو عليهما.

فأما منبه فقتله علي ﷺ، وقيل: أبو اليسر الأنصاري، وقيل: أبو أسيد الساعدي. وأما نبيه فقتله علي ﷺ بغير خلاف، وكان ذو الفقار لنبيه، وقيل: لمنبه، فأخذه علي وجاء به إلى رسول الله ﷺ فتنقله.

أبو ذات الكرش، واسمه: عبيدة بن سعيد بن العاص. قال الزبير بن العوام ﷺ: لقيته يوم بدر وهو مُدَجَّجٌ لا يرى منه إلا عيناه، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه فطعنته بالعنزة في عينه، فمات^(٣).



ذكر أعيان المشهورين من المشركين:

وقد قتل منهم سبعون، منهم:

الحارث بن الأسود بن المطلب، قتله علي ﷺ^(٤).

(١) في النسخ: عبد الله. والمثبت من «الطبقات الكبرى» ٤١٢/١٠، و«المحبر» ص ٣٩٩.

(٢) انظر «المحبر» ص ٣٩٩.

(٣) «المغازي» ٨٥/١.

(٤) لم نقف على هذا الرجل، ولعله الحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، قتله عمار بن ياسر. انظر «السيرة» ٢٥٢/٢، و«الكامل في التاريخ»، وجاء في «المغازي» ١٤٨/١: الحارث بن ربيعة بن الأسود قتله علي، والله أعلم.

- وجابر^(١) بن السائب وأخوه عويمر^(٢)، قتلهما علي رضي الله عنه.
- ورفاعه بن أبي رفاعه، قتله سعد بن الربيع.
- وزيد بن مليص بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله علي رضي الله عنه، وقيل: بلال^(٣).
- والسائب بن صيفي بن عابد^(٤)، قتله الزبير.
- والسائب بن أبي رفاعه، قتله عبد الرحمن بن عوف.
- وعبد الله بن أبي رفاعه، قتله علي رضي الله عنه.
- وعاصم بن أبي عوف، قتله أبو دُجانة^(٥).
- وعقيل بن الأسود بن المطلب، اشترك في قتله حمزة وعلي رضي الله عنهما.
- وزمعة بن الأسود، قتله أبو دجانة^(٦).
- وعمير بن أبي عمير، قتله سالم مولى أبي حذيفة.
- وعمير بن عثمان بن عمّار^(٧) بن عمرو التيمي، قتله علي، وقيل: صهيب^(٨).
- وقُتِلَ أبو قيس بن الفاكه، قتله حمزة، وقيل: الحباب بن المنذر^(٩).

- (١) هكذا جاء في النسخ و«أنساب الأشراف» ٣٥٣/١، والصواب: حاجر، ويقال: حاجب. انظر «السيرة» ٢/٢٥٥، و«المغازي» ١/١٥١.
- (٢) قتله هو النعمان بن مالك القوقلي. انظر «السيرة» ٢/٢٥٠، و«المغازي» ١/١٥١. وما ذكر المصنف هو قول الكلبي كما في «أنساب الأشراف» ١/٣٥٣.
- (٣) وقيل المقداد بن عمرو. انظر «السيرة» ٢/٢٥٣، و«المغازي» ١/١٤٩.
- (٤) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» ٢/٢٥٤، والواقدي ١/١٥١ في قتلى المشركين يوم بدر، وهو معدود في الصحابة، انظر «الطبقات الكبرى» ٦/٩٣-٩٤، و«الإصابة» ٢/١٠.
- (٥) جاء في «السيرة» ٢/٢٥٥: قتله أبو اليسر.
- (٦) جاء في «السيرة» ٢/٢٥٢: قتله ثابت بن الجذع.
- (٧) لا وجود لهذا الاسم في نسب عمير بن عثمان. انظر «نسب قريش» ص ٢٨٠، و«السيرة» ص ٢/٢٥٣.
- (٨) جاء في «السيرة» ٢/٢٥٣، و«المغازي» ١/١٤٩: عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، قتله علي بن أبي طالب، ويقال: عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب، قتله صهيب بن سنان.
- (٩) في «السيرة» ٢/٢٥٤: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: عمار بن ياسر.

ابن عدي، وكنيته: أبو العاص^(١)، قتله علي رضي الله عنه. وقيل: الحباب بن المنذر.
ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة قتله علي رضي الله عنه.
ومعبد^(٢) بن وهب، قتله أبو دجانة.
ومعاوية بن عبد قيس، قتله عكاشة.
ونوفل بن أسد بن عبد العزى^(٣)، قتله علي رضي الله عنه.

وعن الزهري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «اللهم اكفني نوفل بن خويلد». وكان أول ما التقى الصفان، يصيح بصوت رفيع: يا معاشر قريش، اليوم يوم الرفعة والعلاء، فلما انكشفت قريش قال: يا معاشر الأنصار، ما حاجتكم إلى دماننا. فأسره جبار بن صخر فهو يسوقه، إذ رأى علياً رضي الله عنه مقبلاً نحوه، فقال: يا أبا الأنصار، من هذا؟ واللآت والعزى إنه ليريدني. فقال: هذا علي بن أبي طالب. فصمد له علي رضي الله عنه فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من له علم بنوفل بن خويلد؟ فقال علي: أنا قتلته. فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه»^(٤).

وبلغ النجاشي مقتلاً قريش ببدر، فخرج في ثوبين أبيضين، وجلس على الأرض، ثم دعا جعفرأ وأصحابه وقال: أيكم يعرف بدرأ، فأخبروه. فقال النجاشي: أنا عارف بها، قد رعيت الغنم في جوانبها، هي من الساحل على بعض نهار، ولكنني أردت أن أثبت منكم، قد نصر الله رسوله ببدر وأحمد الله على ذلك. فقال له بطارقه: قد رأيناك صنعت اليوم شيئاً لم تكن صنعته، لبست ثوبين أبيضين، وجلست على الأرض، فقال: إني من قوم إذا أحدث الله فيهم نعمة، ازدادوا بها تواضعاً، وفي رواية: إن عيسى عليه السلام كان إذا أحدث له من الله نعمة، ازداد تواضعاً^(٥).

(١) هو أبو العاص بن قيس بن عدي، قتله علي، ويقال: أبو دجانة. «المغازي» ١/١٥٢، و«أنساب الأشراف» ٣٥٤/١.

(٢) في النسخ: «معد».

(٣) هو نوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى. انظر «السيرة» ٢/٧٠٩، و«المغازي» ١/١٤٩، و«نسب قريش» ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) «المغازي» ١/٩١-٩٢.

(٥) «المغازي» ١/١٢٠-١٢١.

وعن أنس: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، جاءه جبريل ﷺ على فرس أنثى حمراء، وعليه درع وبيده رمح، فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى، فهل رضيت؟ قال: نعم. فانصرف جبريل ﷺ^(١).

وقال ابن عباس: أول من قدم مكة بمصاب قريش، الحَيْسُمَانُ بن عبد الله الخزاعي، وهو ينادي بالويل والشبور، فقيل له: ما وراءك؟ فقال: قتل عتبة، قتل شيبه، قتل أمية، قتل الوليد، قتل أبو جهل، قتل فلان وفلان. وجعل يُعَدُّهم، وكان صفوان ابن أمية في الحجر، فقال: إن يَعْقِلُ هذا، فسלוه عني؟ فقالوا: ما فعل صفوان؟ قال: هو قاعد في الحجر، ولقد رأيت والله أباه وأخاه حين قتلا^(٢).

وكانت هند بنت عتبة تقول: لو أعلم أن الحزن يذهب البكاء لبكيت، وقالت: [من

مجزوء الكامل]

لله عَيْنِنَا مَنْ رَأَى
يَا رَبِّ بَاكِ لِي غَدَاً
كَمْ غَادَرُوا يَوْمَ الْقَلْبِ
مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فِي الْمُحَوِّ
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ مَا جَرَى
يَا رَبِّ قَائِلَةً غَدَاً
هُلْكَأَ كَهْلِكَ رَجَالِيَهُ
فِي النَّائِبَاتِ وَبَاكِيَهُ^(٣)
بِغَدَاةِ تَلِكِ الْوَاعِيَهُ^(٤)
لِإِذَا الْكَوَاكِبِ جَارِيَهُ^(٥)
فَالْيَوْمَ حُقَّ حِذَارِيَهُ
يَا وَيْحَ أُمَّ مَعَاوِيَهُ

وكان الأسود بن المطلب من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكلمه يوماً كلاماً شقاً عليه، فدعا عليه رسول الله ﷺ بالعمى والشكل، فأعماه الله وأثكله.

وكان خرج يوماً إلى ظاهر مكة يستقبل بعض بنيه، وقد قدم من الشام، فجلس في ظل شجرة، فجاءه جبريل ﷺ، فجعل يضرب وجهه وعينه بشوك حتى عمي، فشغل

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢/ ٢٤ من حديث عطية بن قيس، وانظر «المغازي» ١/ ١١٣.

(٢) انظر «السيرة» ١/ ٦٤٦.

(٣) في النسخ، و«أنساب الأشراف» ١/ ١٧١: «النائحات»، والمثبت من «السيرة» ٢/ ٢٨٢.

(٤) الواعية: الصيحة.

(٥) رواية «السيرة» و«الأنساب»:

عن رسول الله ﷺ. فلما كان يوم بدر، قتل بنوه الثلاثة فكان يقول: دعوت علي محمد أن يكون طريداً في غير قومه وبلده، فاستجيب، ودعا علي بالعمى والشكل فاستجيب له^(١).

و مات الأسود في السنة الثالثة من الهجرة والمشركون يتجهزون إلى أحد، وعاش مئة سنة.

ولما ذكر رسول الله ﷺ عاقرة الناقة، قال: «كان عزيزاً في قومه كأبي زمعة الأسود ابن المطلب في قومه»^(٢).

وبعث رسول الله ﷺ البشائر إلى المدينة: عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، وزيد ابن حارثة إلى أهل السافلة.

قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: قدم أبي إلى المدينة وقد سوينا التراب على رقيقة بنت رسول الله ﷺ، وكانت عند عثمان بن عفان رضي الله عنه خلفه عليها يمرضها. قال أسامة: فأتيت أبي وهو قائم بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول: قتل شيبة، قتل عتبة، قتل فلان وفلان. فقلت: يا أبت، بالله حقاً ما تقول؟ فقال: إي والله يا بني^(٣).

واستعمل رسول الله ﷺ على الغنائم عبد الله بن كعب المازني، وقيل: عبد الله بن قيس، ثم ارتحل ﷺ قافلاً إلى المدينة، ونزل على كئيب فقسم الغنائم بين المسلمين على السواء^(٤).

وكان الكفار قد جاؤوا بمئة فرس، فنجوا منها بسبعين وحصل في أيدي المسلمين ثلاثون وسبع مئة بعير، وأسلحة ودروع وسيوف كثيرة، وتنقل رسول الله ﷺ ذا الفقار وجمل أبي جهل، وكان مهرياً، فكان رسول الله ﷺ يغزو عليه ويضرب في لقاحه^(٥).

(١) «أنساب الأشراف» ١/١٧١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة، وانظر «أنساب الأشراف» ١/١٧٣.

(٣) «السيرة» ٢/٢٠٧.

(٤) انظر «السيرة» ٢/٢٠٧، و«المغازي» ١/١٠٠. وقيل: استعمل عليها خباب بن الأرت كما في «المغازي».

(٥) انظر «الطبقات الكبرى» ٢/١٧، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٧٨-٤٧٩.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، فقتلت سعيد بن العاص بن أمية، وأخذت سيفه وكان يسمى : ذا الكتيفة، فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله، إن الله قد شفا صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال : «لَيْسَ هَذَا لِي وَلَا لَكَ، فَادْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبْضِ». فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلْبِي، وقلت : عسى يُعْطَى هَذَا لِمَنْ لَا يُبْلَى بِلَائِي، فما جازوت قليلاً حتى جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخفت أن يكون نزل في شيء، وأنزل الله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ [الأنفال : ١] الآية، فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لي : «يَا سَعْدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي السَّيْفَ، وَلَيْسَ لِي، وَقَدْ صَارَ الْآنَ لِي، فَادْهَبْ وَخُذْهُ»، فأخذته^(١).

وكان قد تخلف عن بدر ثلاثة من المهاجرين، وخمسة من الأنصار لعذر، فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهامهم وأجورهم.

فمنهم : عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته رقية رضي الله عنها يَمْرُضُهَا.

وظلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجسسان العير وخبر قريش ففاتهم ذلك، وقدا المدينة يوم وقعة بدر.

ومن الأنصار : عاصم بن عدي بن العجلان، خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة على أهل العالية لشيء بلغه عنهم.

والحارث بن حاطب العُمري، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فردّه من الرّوحاء إلى بني عمرو بن عوف. والحارث بن الصمة، وخوات بن جبير خرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فردهما إلى المدينة.

وأبو لبابة بن عبد المنذر خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة، ولا خلاف في هؤلاء الثمانية^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩٦)، وأحمد في «مسنده» (١٥٦٧).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١١/٢.

ولما وصل رسول الله ﷺ الرُّوحَاءَ التقاه المسلمون يهنؤونه بالفتح والظفر، فقال [سلمة بن] سلامة بن وقش - وكان مع رسول الله ﷺ ببدر -: وهل لقينا إلا عجائز صُلُعاً كالْبُدُنِ الْمُعَقَّلَةِ، فنحرناها نحرأً، فبماذا يهنتون رسول الله ﷺ. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «لا يا ابن أخي، لا تَقُلْ كَذَا، أُولَئِكَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ - يعني السادة الأشراف - لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَهَبَّتَهُمْ، ولو أَمْرُوكَ لَأَطَعْتَهُمْ، ولو رَأَيْتَ فِعَالِكَ مع فِعَالِهِمْ لاحتقرته»^(١)، ولبئس القوم كانوا على ذلك لنبئهم»^(٢).

وعند انفصال رسول الله ﷺ عن بدر قاصداً إلى المدينة، قتل عُقْبَةُ بنَ أَبِي مُعَيْطٍ، والنَّضْرَ بنَ الحارث، واسم أبي معيط: أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان أبو عمرو يُسَمَّى ذَكْوَانَ، وكان عبداً، فاستخلفه أمية وكناه أبا عمرو، فخلف على امرأة أبيه وهي بنت أبان أم الأعياص^(٣).

وقال هشام بن الكلبي: خرج أمية إلى الشام، فأقام به عشر سنين، فوقع على أمة يهودية من أهل صفورية لرجل من لحم، يقال لها: الثريا، وكان لها زوج يهودي، فحملت منه بذكوان وهي على فراش اليهودي، فاستلحقه^(٤) أمية، ثم قدم به مكة وكناه أبا عمرو.

وكان عقبة يكنى: أبا الوليد، وكان هو والنضر أشدَّ عداوة لرسول الله ﷺ من جميع قريش، فأسره يوم بدر عبد الله بن سلمة بن العجلاني، فأخذه وأتى به رسول الله ﷺ فأمر بقتله، فقال: يا ويلتي علام أقتل من بين هؤلاء؟ فقال رسول الله ﷺ: «لِعَدَاوَتِكَ اللهُ وَرَسُولُهُ»^(٥). فقال: يا محمد، ناشدتك الله والرحم، فقال: «وَأَيُّ رَحِمٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا عِلْجٌ مِنْ أَهْلِ صَفُورِيَّةَ».

(١) في النسخ: لاختصرته، والمثبت من «الغازي» ١١٦/١.

(٢) وانظر الخبر مختصراً في «السيرة» ٢٠٨-٢٠٧/٢، وأخرجه مختصراً الحاكم في «المستدرک» ٤١٨/٣، والبيهقي في «الدلائل» ١٤٧/٣.

(٣) هي أمة بنت أبان، والأعياص هم: العاص، وأبا العاص، والعيص بنو أمية الأكبر «جمهرة النسب» ص ٣٨.

(٤) في النسخ: «فاستخلفه» والمثبت من المعارف ٣١٩.

(٥) «الغازي» ١١٤/١، وانظر مقتل عقبة في «السيرة» ٢٠٨/٢.

وقال الواقدي: كان عقبة يقول بمكة، والنبي ﷺ مهاجر بالمدينة: [من البسيط]

يا رَاكِبَ النَّاقَةِ الْقَضَوَاءِ هَاجِرِنَا عَمَّا قَلِيلٍ تَرَانِي رَاكِبَ الْفَرَسِ
أَعْلُ رُمَحِي فَيْكُمْ ثُمَّ أَنَّهُلَهُ وَالسَيْفُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ كُلَّ مُلْتَبَسِ
وبلغ رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم كُبهْ لِمَنْخِرِهِ وَاضْرَعْهُ»^(١).

وحكى البلاذري: أنه لما حضر بين يدي رسول الله ﷺ، قال له: «والله لأقتلنك». فقال: يا محمد، مَنْ للصبيّة، قال: «النار». فقيل لرسول الله ﷺ: أتقتله من بين قريش؟ قال: «نعم، لقد وطئ على عُقْبي يوماً وأنا ساجد، فما رفع رجله حتى ظننت أن عيني قد سقطتا، وجاء يوماً بسلا جزور فألقاه على رأسي» الذي قتله ثابت بن أبي الأفلح، ضرب عنقه ثم صلبه. فهو أول مصلوب في الإسلام^(٢).

النَّضْرُ بن الحارث بن علقمة بن كَلْدَةَ بن هاشم بن عبد مناف بن قصي^(٣)، أبو فائد. كان أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، ولقي رسول الله ﷺ فقال له: أنت الذي تزعم أنه يوحى إليك، وأنت ستوقع بقريش عن قريب؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وَأَنْتَ مِنْهُمْ» ثم قرأ: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾^(٤) [الأعراف: ١٨٥].

قال البلاذري: والذي أسره يوم بدر المقداد بن الأسود، فلما نزل رسول الله ﷺ الصفراء أمر علياً بقتله^(٥).

قال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال: إنه كان يؤذي الله ورسوله ويقول ما قال. اللهم أغنِ المقداد من فضلك، ولما جاء به إلى بين يدي رسول الله ﷺ أسيراً، قال لرجل: والله إن محمداً قاتلي، قال: ومن أين علمت؟ قال: لقد نظر إلي بعينين فيهما الموت، ثم قال لمصعب بن عمير: أنت أقرب من ها هنا وأمس بي رحماً من

(١) «المغازي» ٨٢/١.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/١٧٠، ٣٤٩.

(٣) هذا النسب غير صحيح، فالنضر هو ابن الحارث بن علقمة بن كلدَةَ بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. وأما هاشم فهو أخو كلدَةَ. انظر «نسب قريش» ص ٢٥٤-٢٥٥، و«جمهرة أنساب العرب» ص ١٢٦.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/١٦٠.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/١٦١.

القوم، فكلم صاحبك في عسى أن يجعلني كواحد من أصحابي. فقال: إنك قلت كذا وفعلت كذا. فقال: يا مصعب ليس هذا بحين عتاب، فوالله لو أسرتك قريش لدافعت عنك، فقال مصعب: إن الإسلام قطع بيننا وبينكم العهود، فقتله علي - رضوان الله عليه - بالأثيل^(١)، فقالت أخته قتيلة^(٢): [من الكامل]

يَا رَاكِباً إِنَّ الْأَثِيلَ مَظِنَّةٌ
أَبْلِغْ بِهَا مَيْتاً هُنَاكَ تَحِيَّةٌ
مَنْيَ إِلَيْهِ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ
قَوْلَا لِأَحْمَدَ أَنْتَ ضِنْءٌ كَرِيمَةٌ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّ مَا
وَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ قَتَلْتَ قَرَابَةً
ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوِشُهُ
قَسْراً يَقَادُ إِلَى الْمَنِيَةِ مَتَعْباً

مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ
مَا إِنْ تَزَالَ بِهَا الرِّكَائِبُ تَخْفِقُ
جَادَتْ لَسَافِحِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ
أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيْتٌ أَوْ يَنْطِقُ
لِنَجِيبَةٍ وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقٌ^(٣)
مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمُخْنَقُ
وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِثْقٌ يُعْتَقُ
لِللَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقٌ^(٤)
رَسَفَ الْمُقَيَّدَ وَهُوَ عَانٍ مُوْتَقٌ^(٥)

فَيُقَالُ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَا بَلَغَهُ هَذَا الشَّعْرُ قَالَ: «لَوْ سَمِعْتُهُ قَبْلَ قَتْلِهِ لَمَا قَتَلْتُهُ»^(٦).

وسبق رسول الله ﷺ الأسرى إلى المدينة بيوم، وقال للذين معهم: «استوصوا بهم خيراً»^(٧)، واستعمل عليهم شقران مولاه^(٨).

(١) «المغازي» ١/١٠٦-١٠٧، وانظر «أنساب الأشراف» ١/١٦١.

(٢) جعل المصنف قتيلة أخت النضر بن الحارث تبعاً لابن إسحاق كما في «السيرة» ٢/٢٨٥، والصواب أنها ابنته، قال السهيلي في «الروض» ٢/١١٩: الصحيح أنها بنت النضر لا أخته، كذلك قال الزبير وغيره. انظر «نسب قريش» ص ٢٥٥، و«الإصابة» ٤/٣٨٩.

(٣) الضنء: الأصل. والمعرق: الكريم.

(٤) تنوشه: تتناوله.

(٥) الرسف: المشي الثقيل، والعاني: الأسير.

(٦) «السيرة» ٢/٢٨٥.

(٧) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٢/٩٧٧، وفي «الصغير» (٤٠٩) من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/٨٦، وقال: إسناده حسن.

(٨) «المغازي» ١/١١٦.

قال الواقدي: كانوا تسعة وأربعين رجلاً^(١).

وروى مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنهم أسروا سبعين^(٢).

فذكر أعيانهم: الأسود بن عامر، الحارث بن أبي وَجْزَة، خالد بن الأعمى العُقيلي، سهيل بن عمرو، العباس بن عبد المطلب، عبد الله بن أبي بن خلف، عثمان ابن عبد الله بن المغيرة، عثمان بن عبد شمس، المطلب بن حَنْطَب، الوليد بن الوليد ابن المغيرة، أبو العاص بن الربيع، أبو عَزِيز بن عمير، أبو عَزَّة الشاعر، أبو ثور. واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأسرى، فأشار أبو بكر رضي الله عنه - بالفداء، وأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم^(٣).

ففدى كل واحد بأربعة آلاف درهم^(٤)، وقيل: بأربعين أوقية، وبعضهم بأقل^(٥).

ذكر ما جرى في الأسارى:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تقولون في هؤلاء؟» فقال أبو بكر: قومك يا رسول الله وأهلك، استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة.

وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، ما أرى ما رآه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنني من فلان - نسيباً كان لعمر - فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا للمشركين هوادة، هؤلاء صنّاديدهم وقادتهم وأئمتهم.

وقال عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً. فقال له العباس: قُطِعَتْ رَحْمُكَ.

(١) «المغازي» ١/١١٥.

(٢) صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) «السيرة» ٢/٢٢٠.

(٥) «الطبقات الكبرى» ٢/٢٠.

فسكت رسول الله ﷺ عنهم، فقام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة. ثم خرج عليهم، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وَمِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، مِثْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية. وَمِثْلَكَ يَا عُمَرُ، مِثْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وَمِثْلَكَ يَا عُمَرُ، كَمِثْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] الآية. ثم قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ الْيَوْمَ عَالَةٌ، فَلَا يُفْلِتَنَّ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ».

قال ابن مسعود: فقلت: إلا سهيل بن بيضاء، فإني رأيته أو سمعته يذكر الإسلام. فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيته في يوم أخوف من أن يقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «إِلَّا سُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ» وأنزل الله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾^(١) [الأنفال: ٦٨].

وقد أكثر الشعراء في غزاة بدر، قال أمية بن أبي الصلت^(٢): [من مجزوء الكامل]

هَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَا	مِ بَنِي الْكِرَامِ أُولِي الْمَمَادِخِ
كَبُكَ الْحَمَامِ عَلَى فُرُو	عِ الْأَيْكِ بِالصَّبْحِ الْجَوَانِحِ ^(٣)
يَبْكِينَ حَرَّى مُسْتَكِي	نَاتٍ يَرْحُنَ مَعَ الرَّوَائِحِ
أَمْثَالَهُنَّ الْبَاكِ يَا	تُ الْمُغُولَاتُ مَعَ النَّوَائِحِ
مَاذَا بِبَدْرٍ وَالْعَقْنُ	قَلِّ مِنْ مَرَاذِبِ جَحَاجِحِ
الْقَائِلِينَ الْفَاعِلِي	نِ الْأَمْرِينَ بِكُلِّ صَالِحِ
فَلَقَدْ تَنَكَّرَ بَطْنُ مَكَّةَ	فَهِيَ مُوَجِّشَةُ الْأَبَاطِحِ
لِللَّهِ دَرُّهُمْ فَكُم	مِنْ أَيِّمٍ فِيهِمْ وَنَاكِحِ

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٤٧٦-٤٧٧/٢، وهو مروى عن عدد من الصحابة بروايات مختلفة انظرها في «السيرة الشامية» ٩١/٤.

(٢) الأبيات في «السيرة» ٢٧٢-٢٧٧.

(٣) كذا في النسخ، وفي «السيرة»: «في الغصن».

وقال كعب بن مالك^(١): [من الوافر]
وَرَدْنَاهُ وَفِينَا الْبَدْرُ يَجْلُو
رَسُولُ اللَّهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ
فَلَا تَعَجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وَارْقُبْ
بِنَصْرِ اللَّهِ، رُوحَ الْقُدْسِ فِينَا

وقال شداد بن الأسود الليثي^(٣): [من الوافر]

تُحِيِّي بِالسَّلَامَةِ أُمَّ بَكْرٍ
ذَرِينِي أَصْطَبِحْ بِكَرًا فَإِنِّي
وَنَقَّبَ عَن أَخِيكَ وَكَانَ حُرًّا
وَنَقَّبَ عَن أَبِيكَ أَبِي يَزِيدٍ
وَوَدَّ بَنُو الْمَغِيرَةِ لَوْ فَدَوْهُ
وَمَاذَا بِالْقَلْبِ قَلِيبِ بَدْرٍ
أَلَا مَنْ مَبْلُغُ الْأَقْوَامِ عَنِّي
ومنها:

دُجِيَ الظُّلْمَاءِ عَنَّا وَالْغَطَاءِ^(٢)
مِنَ الرَّحْمَنِ يَحْكُمُ بِالْقَضَاءِ
جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ
وَمِيكَالٍ فَيَا طَيْبَ الْمَلَاءِ

وهل لي بعد رهطي من سلام
رأيت الموت نقب عن هشام
من الفتيان شربه المدام^(٤)
أخي الفتيان والشرب الكرام
بألف من رجال أو سوام
من الرغبات والنعم الجسم
بأني تارك شهر الصيام

إذا ما الرأس فارق منكبيه فأبعد ما يكون من القيام
وفي هذه السنة أمر رسول الله ﷺ بزكاة الفطر، وذلك قبل أن تفرض الزكاة في
الأموال، وأن تُخرج عن الكبير والصغير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، قبل أن
يغدو إلى المصلى^(٥).

(١) الأبيات في «السيرة» ٢٧٢/٢ .

(٢) رواية «السيرة»: وردناه بنور الله يجلو.

(٣) رواية «السيرة» ٢٧٤-٢٧٥ مخالفة تماماً لما عند المصنف، ولم نقف على هذه القصيدة بتمامها بهذه الرواية،
وانظر «أنساب الأشراف» ٣٦١/١ .

(٤) هذا البيت ليس في (أ)، وقد ورد في النسختين (خ، ك) هكذا، ولم نقف على من ذكره .

(٥) أخرج البخاري (١٥٠٣)، ومسلم (٩٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من
رمضان على الناس، صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على كل حر أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين. وانظر
«تاريخ الطبري» ٤١٨/٢ .

وفيها: خرج النبي ﷺ إلى المصلى، وصلى بالناس صلاة العيد، وهي أول خُرْجَةٍ خَرَجَهَا، وحمل بلال بين يديه العَنَزَةَ التي بعثها له النجاشي مع الزبير، وكانت تُحْمَلُ بعد ذلك بين يدي الخلفاء^(١).

وكان ﷺ يصلي العيد بغير أذان ولا إقامة^(٢)، ويخطب بعد الصلاة^(٣). حتى قام بنو أمية فجددوا للعيد أذاناً وإقامة، وخطبوا قبل الصلاة.

وفيها: ولد عبد الله بن الزبير بن العوام في شوال بعد الهجرة بعشرين شهراً، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة، فكبر أصحاب رسول الله ﷺ تكذيباً لليهود، لأنها كانت تقول: قد سحرناهم فلا يولد لهم عندنا مولود^(٤).

وفيها: كانت قصة عمير بن وهب مع رسول الله ﷺ في شوال^(٥).

وفيها: سرية عمير بن عدي إلى عصماء بنت مروان اليهودي، وكانت تعيب على المسلمين، وتهجوهم، وتؤذي رسول الله ﷺ فقال عمير بن عدي الخطمي لما بلغه قولها، ورسول الله ﷺ يومئذ على بدر: عليّ الله نذر إن [رددت رسول الله ﷺ]^(٦) إلى المدينة لأقتلنها. فجاءها وهي تُرَضِعُ صبيّاً لها، فجسه بيده، ونحاه وقتلها، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فالتفت إلى من حوله، وقال لهم: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب، فانظروا إلى عمير. فقال عمر بن الخطاب: انظروا إلى هذا الأعمى الذي يسري في طاعة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «لا تقل الأعمى ولكنه البصير». وقال له قومه: أنت قتلتها؟ قال: نعم، والله لو قلتكم كلكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أقتلكم كلكم أو أموت. فيومئذ ظهر الإسلام في بني خَظْمَةَ، وكان

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٢١٧/٣، و«تاريخ الطبري» ٤١٨/٢، و«المنتظم» ٩٦/٣.

(٢) أخرجه مسلم (٨٨٧) من حديث جابر بن سمرة.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٣)، ومسلم (٨٨٨) عن ابن عمر أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يصلون العيدين قبل الخطبة.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ٤٠٠-٤٠١/٢.

(٥) وهي قصة إسلامه. انظرها في «السيرة» ٢٢٠/٢.

(٦) ما بين حاصرتين من «المغازي» وجاءت العبارة في النسخ: عليّ الله نذر إن رجعت إلى المدينة. وهو خطأ لأن عميراً لم يخرج إلى بدر لأنه كان ضريباً.

منهم رجالٌ يخفونه^(١).

وفي شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبي عَفَك اليهودي، وكان شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، عاش عشرين ومئة سنة، فكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرّض عليه ولم يسلم، فاستأذن سالم رسول الله ﷺ في قتله فاغتاله فقتله، وسالم من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، وأحدًا، والمشاهد كلها^(٢).

وفيها: كانت غزاة بني قَيْنُقَاع من اليهود في شوال^(٣).

وفيها: كانت غزاة السَّوَيْق في ذي الحجة، وكان أبو سفيان لما رجع من بدر آلى أن لا يَمَسَّ طيباً، ولا يغتسل من جنابة، ولا ينام على وسادةٍ حتى يغزو رسول الله ﷺ، فخرج من مكة في مئتي راكب من قريش، ولما وصل إلى المدينة، نزل بصدر قناة على بريدٍ من المدينة، ثم أتى في الليل على بني النضير، فضرب باب حَيِّ بن أخطب فلم يفتح له وخافه على نفسه، وأتى باب سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير، ففتح له وقراه وأصحابه الخمر، وأتى أبو سفيان طرفاً من أطراف المدينة، فحرق بعض نخيلها، وقتل حليفاً للأنصار اسمه معبد. ولما بلغ رسول الله ﷺ خرج من المدينة في مئتين وخمسين من المهاجرين، واستخلف أبا لُبَابَةَ، وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يدركوهم، فطرحوا ما كان معهم من الزاد وانهمزوا، وكان عامة أزوادهم السويق فغنمه المسلمون، وفاته أبو سفيان، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن يكون لنا في هذه الغزاة أجر؟ قال: «نعم». فسميت غزاة السويق^(٤).

وفيها: كانت غزاة قرقرة^(٥).

وفيها: كتب رسول الله ﷺ معاقِلَ الدِّيةِ، وجعلها في حمائل سيفه^(٦).

(١) «المغازي» ١/١٧٢-١٧٣، وانظر «السيرة» ٤/٢٠٩.

(٢) «المغازي» ١/١٧٤، وانظر «السيرة» ٤/٢٠٨.

(٣) «المغازي» ١/١٧٦، وانظر «السيرة» ٣/٥.

(٤) «السيرة» ٣/٣، و«المغازي» ١/١٨١.

(٥) «السيرة» ٣/٣، و«المغازي» ١/١٨٢.

(٦) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٤٨٦.

وفيها: صلى رسول الله ﷺ صلاة العيد، وضحي بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه، والآخر عن أمته، ممن يقر بالشهادتين^(١).

وفيها: بنى علي بفاطمة رضي الله عنها في آخر ذي الحجة، قال بُرَيْدَة: لما خطب علي فاطمة، قال رسول الله ﷺ: «لأبْدَ لِلْعُرْسِ مِنْ وَلِيمَةٍ»، فقال سعد: عليّ كبش، وقال فلان: عليّ كذا وكذا من ذرة^(٢).

وقال علي رضي الله عنه: لقد تزوجت فاطمة ومالي ولها غيرُ جلدِ كَبْشٍ ننامُ عليه في الليل، ونعلفُ عليه الناضحَ في النهار، ومالي ولها خادمٌ غيرها^(٣).
ولقد أُهْدِيَتْ إِلَيَّ في بردتين ومعها مرفقة من أدم حشوها ليفٌ، وقِرْبَةٌ وَمُنْحَلٌ، وِرْحَا وجراب وجَرَّتَانِ^(٤).

وقال علي رضوان الله عليه: قال النبي ﷺ ليلة البناء بفاطمة: «لا تُحَدِثَنَّ حَدَثًا حَتَّى آتَيْكُمَا». قال: فأتانا فجلس عند رؤوسنا، ودعا بإناء فدعا فيه بالبركة ورشّه علينا، قال: فقلت: يا رسول الله، أيما أحب إليك أنا أم هي؟ قال: «هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْهَا»^(٥).

وقال علي رضي الله عنه: لما أُهْدِيَتْ إِلَيَّ فاطمة لم تجد عندي إلا وسادة ورملاً مبسوطاً وجرة، فجاء رسول الله ﷺ، فقامت في مِرْطَها تتصبّبُ عَرَقاً من الحياء، فنضح علينا من الماء، وقال: «أَمَّا إِنِّي لَمْ أَنْكِحْكَ إِلَّا أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، وَأَعَزَّهُمْ عَلَيَّ»^(٦).

وعن أبي جعفر قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل على أبي أيوب، فلما تزوج عليّ فاطمة رضي الله عنها قال له: اطلب لك منزلاً، فطلب فوجده بعيداً عن رسول الله ﷺ قليلاً،

(١) انظر «المنتظم» ١٣٧/٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٠٣٥).

(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (٧٥٣)، وابن عساكر في «تاريخه» ٣٧٦/٤٢.

(٤) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٥/١٠.

(٥) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٧٦)، وابن عساكر في «تاريخه» ١٢٤/٤٢.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٨١)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٩٥٨)، والطبراني في «الكبير»

٢٤/٣٦٥) من حديث أسماء بنت عميس، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢١٠/٩، وقال: رجاله

فبنى بها فيه، فجاءهما رسول الله ﷺ وقال: «إني أريد أن أحولكما إلي». فقال: كَلِّمْ حارثة بن النعمان؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد حَوَّلَ حارثَةُ حتى لقد استحيت منه». فبلغ حارثة، فتحوَّلَ من منزله وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد بلغني أنك تريد أن تحوَّلَ فاطمة إليك، وهذه منازلِي لله ولرسوله، فحولها إلى منزل حارثة^(١).

وقال عطاء بن السائب عن أبيه، عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة، بعث معها خميلة ووسادة من آدم حَشُوها ليف، ورحاتين وسقاء وجرتين. فقال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سَنَوْتُ^(٢) حتى لقد اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بِسَبِيٍّ فاذهبي فاستخدميه. فقالت: والله أنا طحنت حتى مَجَلَّتْ^(٣) يداي. فأت رسول الله ﷺ، فقال: «ما جاء بك يا بُنَيَّةُ؟» فقالت: جئت لأُسلِّمَ عليك. واستحييتُ أن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلتِ؟ فقالت: استحيت. فأتياه جميعاً فسألاه، فقال: «والله لا أُعطيكم وأدعُ أهلَ الصَّفَةِ تُطَوِّى بَطونُهُم لا أجدُ ما أنفقُ عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم». ثم أتاهما في منزلهما، فقال: «ألا أعلمكما وأخبركما بخير ممَّا سألتُماني؟» قالا: بلى. قال: «كلماتٌ علَّمني إياهنَّ جبريل عليه السلام، تسبَّحانِ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ عشراً، وتحمدانِ عشراً، وتكبرانِ عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما، فسبَّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدًا ثلاثاً وثلاثين، وكبَّرا أربعاً وثلاثين». قال علي: فوالله ما تركتهنَّ منذ علَّمني إياهن رسول الله ﷺ. فقال له ابن الكواء: ولا ليلة صفين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفين^(٤).



فصل وفيها توفي

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢٣/١٠.

(٢) سنوت: سقيت.

(٣) مجلت: نفطت من العمل.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢٦. ٢٥/١٠، وأحمد في «مسنده» (٨٣٨)، وهو عند البخاري (٣١١٣)،

ومسلم (٢٧٢٧) مختصراً.

خُنَيْسُ بْنُ حِذَافَةَ^(١)

ابن قيس بن عدي [بن سعد] بن سهم [بن عمرو] بن هُصَيْص، أبو حُذَافَةَ السَّهْمِي، وأمه: ضعيفة بنت حِذِيم من بني سهم^(٢)، أسلم قديماً، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، مرض ببدر مع رسول الله ﷺ، ومات مَقْدَمَ رسول الله ﷺ من بدر، وكان تحته حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ [فخلف عليها رسول الله ﷺ بعد ذلك^(٣)].

رقية بنت رسول الله ﷺ^(٤)

تزوجها عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، فلما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قالت أمه أم جميل بنت حرب: قد هجانا محمد، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية، وعزم عليه أبوه أيضاً أن يطلقها ففعل. فزوجها رسول الله ﷺ عثمان ﷺ، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين، ثم هاجرت معه إلى المدينة، وكانت قد أسقطت من عثمان - ﷺ - سقطاً، ثم ولدت بعد ذلك ولداً سماه: عبد الله، واكتنى به في الإسلام وعاش إلى سنة أربع، وبكت النساء على رقية ﷺ، فجاء عمر بن الخطاب ﷺ فجعل يضربهن بسوطه، فأخذه رسول الله ﷺ من يده، وقال: «ابكين وإياكن ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من القلب والعين، فإنه من الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان». وقعدت فاطمة - ﷺ - تبكي على شفير، وطفق رسول الله ﷺ يمسح دمعها بطرف ثوبه رحمة لها^(٥).

(١) انظر ترجمته: في «الطبقات الكبرى» ٣/٣٦٤، و«المنتظم» ٣/١٨٥، و«البداية والنهاية» ٣/٣١٨، و«الإصابة» ١/٤٥٦. وترجم له ابن الجوزي في وفيات السنة الثالثة، وكذا ابن الأثير في «الكامل» ٢/١٤٨.

وقال ابن حجر: شهد بدرًا وأصابته جراحة يوم أحد فمات منها.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٣٦٤، وما بين حاصرتين زيادة منه، ومن «نسب قريش» ص ٤٠٠-٤٠٢.

(٣) «أنساب الأشراف» ١/٥٠٨.

(٤) انظر ترجمتها في: «الطبقات الكبرى» ١٠/٣٦، و«أنساب الأشراف» ١/٤٨٥-٤٨٦، و«المنتظم» ٣/١٣٨، و«الإصابة» ٤/٣٠٤ وما بين حاصرتين منها.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ١٠/٣٧، وأحمد في «مسنده» (٣١٠٣) من حديث ابن عباس ﷺ.

وقال ابن سعد: الثبت عندنا من جميع الرواية أن رقية توفيت ورسول الله ﷺ ببدر ولم يشهد دفنها، ولعل هذا الحديث في غيرها من بنات النبي ﷺ اللاتي شهد دفنهن، فإن كان في رقية وكان ثبتاً فلعله أتى قبرها بعد قدومه المدينة، وبكاء النساء عليها بعد ذلك. وقال الذهبي في «الميزان» ٣/١٢٨-١٢٩: هذا حديث منكر، وفيه شهود فاطمة الدفن، ولا يصح.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٢٧) وفيه أنها زينب.

ومن رؤساء الكفار: أمية بن أبي الصلت^(١) ربيعة بن وهب بن علاج الثقفي، وقيل: أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن ثقيف، وأم أمية رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، وكنيته: أبو عثمان، وقيل: أبو الحكم، وكان شاعراً فصيحاً، وكان قد تنبأ في الجاهلية في أول زمانه، وكان على الإيمان، ثم زاغ عنه. وقال علماء السير: كان أمية قد قرأ الكتب القديمة، وكان يتجر إلى الشام، ويجتمع بأهل الكتابين، فأخبروه بخروج نبي من العرب في آخر الزمان يرغب عن عبادة الأوثان، وكان يؤمل أن يكون هو، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ حسده، واغتاظ منه، وتأسف أن يكون ذلك في غيره^(٢).

وحكى ابن إسحاق، عن أبي سفيان بن حرب قال: خرجت أنا وأمّية تاجرّين إلى الشام في جماعة من قريش، فكان كلما نزلنا منزلاً أخرج سفيراً فيقرؤه علينا، فنزلنا يوماً بقرية فيها نصارى فأكرموا وأهدوا له، وذهبوا به إلى كنيستهم، ثم عاد وسط النهار فنزع ثوبه، ولبس ثوبين أسودين، ثم قال: يا أبا سفيان، هل لك في عالم من علماء النصارى تسأله عما بدا لك؟ فقلت: لا إرب لي فيه، أخاف أن يحدثني بشيء فيفسد علي قلبي.

قال: فمضى، ثم جاء بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ثم قلب على الفراش إلى الصباح، فوالله ما نام حتى أصبح حزينا كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه، فسرنا ليلتين وهو على حاله من الهم والغم، فقلت له: ما رأيت بمثل الذي رجعت به عن صاحبك، قال: لمُنْقَلَبِي. فقلت: وهل لك من منقلب؟ قال: إي والله لأموتنّ، ثم قال: لأبعثن ثم لأحاسبن [قال: قلت: هل أنت قابل أمانتي، قال: على ماذا، قلت: على أنك لا تبعث ولا تحاسب. قال: فضحك، ثم قال: بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن] وليدخلن قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار. فقلت: ففي أيها أنت؟ فقال: لا أدري. قلت:

(١) انظر ترجمته في «الشعر والشعراء» ٤٥٩، و«الأغاني» ١٢٠/٤، و«المنتظم» ١٤٢/٣، و«البداية والنهاية» ٢٢٠/٢، و«الإصابة» ١٢٩/١. وقال ابن حجر: والمعروف أنه مات في التاسعة، وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر.

(٢) انظر «المعارف» ص ٦٠، و«المنتظم» ١٤٢/٣.

فهل أخبرك صاحبك بهذا؟ فقال: إن صاحبي لا يعلم بذلك.

وسرنا إلى دمشق فبعنا متاعنا، ثم رجعنا فمررنا بذلك المكان، فذهب إلى النصراني وجاء كئيباً على حاله، فسرنا يومين وهو ساكت باهت. فقال: يا صخر، إني سائلك فأجبني، قلت: سل؟ فقال: أخبرني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم؟ قلت: نعم، ويصل الرحم وكريم الطرفين، ليس فينا قرشي أشرف منه. قال: فقد أخبرني هذا العالم، أن النبي الذي يخرج في هذا الزمان، رجل من أهل البيت الذي يحجه الناس، وقد كنت أرجو أن أكون أنا ذلك الرجل، فأصابني ما رأيت. قال أبو سفيان: فظهر رسول الله ﷺ وأمية في اليمن، قد ذهب بتجارة ثم قدم الطائف، فخرجت فنزلت عليه، فقلت: أتذكر حديث النصراني يا أبا عثمان؟ قال: وكيف؟ قلت: قد ظهر ما قال، قال: ومن ذاك؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: فتصبب عرقاً، ثم أتى مكة فلقى رسول الله ﷺ، فقال له: ما هذا الذي تقول؟ قال: «فما الذي تقول أنت؟» فقام فخطب، وأنشد شعراً، فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ إلى آخر السورة. فبهت، وقام يجر رجله، فتبعته قريش، وقالت له: ما تقول؟ قال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ قال: أنظر في أمري، وقال أبياتاً منها: [من الوافر]

إله محمداً حقاً إلهي وديني دينه غير انتحال
قال أبو سفيان: لما عدنا من الشام، مضى أمية إلى الطائف ودخل مكة، وكان معي بضائع للناس، ولرسول الله ﷺ بضاعة، فجاء الناس يهنؤني بالسلامة ويسألوني عن بضائعهم، وجاء رسول الله ﷺ فسلم علي وهنأني بالسلامة، ولم يسألني عن بضاعته، فلما قام، قلت لهند: والله إن هذا الفتى ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألتني عنها إلا هو. فقالت هند: وما علمت شأنه؟ ففرغت وقلت: وما شأنه؟ قالت: زعم أنه رسول الله، فذكرت قول النصراني فوجمت، وخرجت إلى الطائف، وأخبرت أمية، فقال: لئن ظهر وأنا حي لأبليّن الله في نصرته عذراً، فمضيت إلى اليمن وعدت إلى الطائف، فقلت له: أين أنت من محمد؟ فقال: ما كنت لأصدق شيئاً من غير ثقيف أبداً، وفي رواية: قلت له: ما يمنعك منه؟ قال: هو على الحق، ويمنعني

الحياء من نُسَيَّاتِ الطائف، كنت أحدثهن أنني هو، ثم أصير تبعاً لغلام من بني عبد مناف^(١).

ذكر وفاته:

قال سعيد بن المسيب: قدمت الفارعة أخت أمية على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وكانت ذات جمالٍ وعقلٍ وأدب. فقال لها: «هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟» قالت: نعم، وأعجب منه ما رأيت. قال: «وما رأيت؟» قالت: قدم من سفر فدخل علي، فنام على السرير، إذ انشق سقف البيت، ونزل منه طائران أبيضان، فوقع أحدهما على بطنه، ونقر صدره فاستخرج منه قلبه، فقال له الطائر الآخر: وَعَى، فقال: وعى، قال: أفقبل؟ قال: أبى، قالت: فرداً قلبه وطارا، فأتبعه أمية بصره، وقال: ليكما ليكما، ها أنا ذا لديكما، لا مال يغنيني، ولا عشيرة تحميني، لا بريء فأعذر، ولا ذو عشيرة فأنتصر. ثم عادا فشقا قلبه، وهو يقول كذلك، فعلاه مراراً. ثم قال: [من الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا

وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا

ثم طارا من سقف البيت، فالتأم كما كان، واستوى أمية جالساً. فقلت له: يا أخي، هل تجد شيئاً؟ قال: حرارة في صدري، ثم مسح يده على صدره وقال: [من الخفيف]

إِنَّ يَوْمَ الْحَسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ شَيْباً طَوِيلاً
كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ يَوْمًا صَائِرٌ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ يَزُولَا
فَجَعَلَ الْمَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَاحْذَرُ غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غَوْلَا
لِيَتْنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدَّ بَدَا لِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرعى الوُغُولَا

قالت: ثم خرج من عندي، فمات بين بيتي وبيته^(٢).

(١) الخبر في «تاريخ دمشق» ٢٥٧/٩، و«المنتظم» ١٤٢-١٤٦. وما بين حاصرتين زيادة من «تاريخ دمشق».

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٨٢-٢٨٣.

وقال هشام: كان أمية قد آمن برسول الله ﷺ وهو بالشام، فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر، فلما نزل بدرًا قيل له: إلى أين يا أبا عثمان؟ فقال: إلى الطائف، آخذ مالي وأعود إلى المدينة أتبع محمداً. فقيل: هل تدري ما في هذا القلب؟ قال: لا. قيل: فيه شيبة وعتبة ابنا خالك، وفيه فلان وفلان ابنا عمك، وعدوا له أقاربه. فجذع أنف ناقتة، وهلب ذنبها، وشق ثيابه وبكى، فقال: [من مجزوء الكامل]

ماذا ببدرٍ والعقنُ قَلٍ من مَرَاذِبِ جَحَايِجِ
الأبيات المتقدمة، ثم عاد إلى الطائف فمات به^(١).

وقال ابن السكيت: بينا أمية يشرب الخمر مع رُفْقَةٍ له، إذ سمع نعيقَ غُرَابٍ نعق ثلاثة أصوات وطار، فقال أمية: هل تدرون ما قال؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: تشرب الكأس الثالث وتموت. فشربه فمات^(٢).

ومن شعره يمدح عبد الله بن جُدعان التيمي^(٣): [من الوافر]

أذْكَرُ حَاجَتِي أُمٍ قَدْ كَفَانِي
وَعِلْمُكَ بِالْحَقُوقِ وَأَنْتَ فَرَعٌ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا
خَلِيلٌ لَا يَغْيِرُهُ صَبَاحٌ
تَبَارِي الرِّيحَ مَكْرُمَةً بَنَاهَا
وقال أمية^(٥): [من الكامل]

حَايَاؤُكَ إِنَّ شِيَمَتَكَ الْحَيَاءُ
لَكَ الْحَسَبُ الْمَهْدَبُ وَالسَّنَاءُ
كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
عَنْ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ وَلَا مَسَاءُ
بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ^(٤)
لَتَطْلُبَ الْعِبَلَاتُ بِالْعِيدَانِ
عِنْدَ السُّؤَالِ تَهْلُلَ الْأَلْوَانِ

(١) «تاريخ دمشق» ٢٨٦/٩ ، و«المنتظم» ١٤٦/٣ .

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٨٥/٩ ، و«المنتظم» ١٤٩/٣ .

(٣) الأبيات في «ديوانه» ص ١٧ .

(٤) هكذا في نسخنا وجاء البيت في الديوان ص ١٩ :

فأرضك كل مكرمة بناها

(٥) الأبيات في «ديوانه» ص ١٩٣ برواية أخرى .

وَإِذَا الْمُقِلُّ أَقَامَ بَيْنَ رِحَالِهِمْ رَدُّوهُ رَبِّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانِ
وَإِذَا دُعُوا يَوْمًا لَخَطْبِ مُلِمَّةٍ سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ
زهير بن أبي أمية^(١)، أخو أم سلمة رضي الله عنها، كان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنه أعان على نقض الصحيفة، وأمه: عاتكة بنت عبد المطلب. قيل: إنه خرج إلى بدر مع الكفار، فسقط عن بعيره فمات. وقيل: إنه أسر يوم بدر، فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وصل إلى مكة مات. وقيل: إنه شخص إلى اليمن فمات به كافراً. وقيل: مات بالشام. وقيل: مات في السنة الثالثة بعد وقعة أحد، جاءه سهم فقتله.

سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو أحيحة^(٢)، كان من وجوه قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا مرَّ به، يقول: إن محمداً ليكلم من السماء. فقال له النضر بن الحارث: بلغني أنك تحسن القول في محمد، وكيف تفعل هذا وهو يسب آلهتنا، ويزعم أن آباءنا في النار. فأظهر سعيد عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وذمه، وكان ذا شرف بمكة، إذا اعتم لم يعتم أحد بمكة إعظماً له، ويقال له: ذا التاج، وتوفي بالطائف. ورئي قبره مشرفاً، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لعن الله صاحب هذا القبر، فلقد كان يحادُّ الله ورسوله. فقال ابنه عمرو وأبان - وكانا قد أسلما - : لعن الله أبا قحافة، فإنه لا يقري الضيف، ولا يدفع الضيم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تسبوا الأموات، فإنَّ سبَّهم يُؤذي الأحياء، فإذا سببتم فعموا»^(٣).

وكان لسعيد عدة أولاد، منهم: أحيحة قُتل يوم الفجار. وعبيدة^(٤) قتله علي - رضي الله عنه - يوم بدر كافراً، وخالد وعمرو وأبان والعاص وسعيد والحكم^(٥)، وسنذكرهم إن شاء الله تعالى.

(١) انظر ترجمته: في «الكامل» ٧٠/٢، و«الإصابة» ٥٥٢/١.

(٢) انظر ترجمته: في «تاريخ دمشق» ١٠٥/٢١، و«المنتظم» ١٥٥/٣، و«الإصابة» ١٢٦/٢.

(٣) أخرج شطره الأول الترمذي (١٩٨٢)، وأحمد (١٨٢٠٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأما قوله: «فإذا سببتم فعموا» فلم نقف عليه.

(٤) في «السيرة» ٢٥٢/٢، و«نسب قريش» ص ١٧٤: عبيدة قتله الزبير بن العوام، والعاص قتله علي بن أبي طالب.

(٥) سماه رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله. «نسب قريش» ص ١٧٤، و«جمهرة أنساب العرب» ص ٨٠.

أبو لهب عبد العزى عم رسول الله ﷺ، كانت وفاته بعد غزاة بدر بسبعة أيام^(١)، ومات بالعدسة، وبقي ثلاثاً مطروحاً في بيته حتى أنتن، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون.

فقال رجل لابنيه عتبة ومعتب: ألا تدفنا أباكما، فإنه قد أنتن؟ فقالا: نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا وأنا معكما إليه. فما غسلوه إلا من بعيد، فخذفوا عليه الماء، وقد تفسخ وبقي كالزق، فأدرجوه في كساء ورموه في حفرة بأعلى مكة^(٢).

وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ، ومن أكابر المستهزئين به، ودعا عليه مراراً. ومر حمزة - رضي الله عنه - يوماً بأبي جهل^(٣) ومعه مكمل فيه قذر وهو يطرحه على باب رسول الله ﷺ، فأخذه حمزة وطرحه على رأس أبي لهب، فجعل ينفذه ويقول: صابىء أحمق^(٤).

وأولاده: عتيبة وهو الذي أكله الأسد بالشام، وعتبة ومعتب، أسلما وشهدا مع رسول الله ﷺ حنيناً، ودرة بنت أبي لهب، أسلمت وبايعت.

المطعم بن عدي^(٥) أبو وهب، كان من رؤساء الكفار، وكان قليل الأذى لرسول الله ﷺ، ودخل مكة في جواره، وكان يقوم بأمر بني هاشم حتى خرجوا من الشعب. وكانت وفاته في صفر قبل غزاة بدر بستة أشهر، ودفن بالحجون وهو ابن بضع وسبعين سنة^(٦)، وأقيم عليه النوح سنة.

وقال رسول الله ﷺ: «لو كان المطعم حياً لوهبت له هؤلاء السبي»^(٧).

(١) «أنساب الأشراف» ١/١٤٩.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤/٦٨، «تاريخ الطبري» ٢/٤٦٢، و«تاريخ دمشق» ٤/٢٥٤. والعدسة: هي بثرة تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون تقتل صاحبها غالباً.

(٣) كذا في النسخ، والصواب: أبو لهب.

(٤) انظر «أنساب الأشراف» ١/١٤٩.

(٥) انظر ترجمته: «أنساب الأشراف» ١/١٧٦، و«المنتظم» ٣/١٥٥.

(٦) في «أنساب الأشراف» و«المنتظم»: «سبعين سنة».

(٧) ذكره بهذا اللفظ ابن الجوزي في «المنتظم» ٣/١٥٥، وأخرجه البخاري (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم، أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له».

السنة الثالثة من الهجرة

فيها : كانت غزاة ذي أمر^(١) .

وسببها : أن جمعاً من بني ثعلبة بن سعد من غطفان، وبني محارب بن خصفة، جمعهم دُعُثُور بن الحارث المحاربي، وبلغ رسول الله ﷺ خبرهم، فخرج في أربع مئة وخمسين رجلاً، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضوان الله عليه، فلما بلغ إلى ذي القصة لقي بها رجلاً من بني ثعلبة، فقال له المسلمون: أين تريد؟ فقال: يثرب لأنظر لنفسي. فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم، وأخبر رسول الله ﷺ بخبر المشركين، ولما سمعوا برسول الله ﷺ، تفرقوا في الجبال واضطجع رسول الله ﷺ تحت شجرة، فأقبل دُعُثُور ومعه سيفه فقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله» فدفع جبريل ﷺ في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: «يا دُعُثُور مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْيَوْمَ؟» فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فأعطاه ﷺ سيفه ومضى إلى أصحابه فأخبرهم بما رأى، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١].

وقيل : كانت قصة دُعُثُور في سنة خمس من الهجرة.

وفيها : كانت غزاة بني سُلَيْم بن منصور^(٢) .

(١) انظر «السيرة» ٤/٣ ، «المغازي» ١٩٣/١ ، و«الطبقات الكبرى» ٣١/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٤٨٧/٢ ، و«دلائل النبوة» للبيهقي ١٦٧/٣ ، و«البداية والنهاية» ٢/٤ .

(٢) انظر «السيرة» ٣/٣ ، و«المغازي» ١٩٦/١ ، و«الطبقات الكبرى» ٣٢/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٤٨٧/٢ ، و«دلائل النبوة» ١٧٢/٣ ، و«المنتظم» ١٥٩/٣ ، و«البداية والنهاية» ٣/٤ .

وهي غزوة الفرع من نجران، وسببها أنه بلغ النبي ﷺ أن بها جمعاً كثيراً من بني سليم بن منصور فخرج في ثلاث مئة رجل من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولم يظهر وجهاً للسير، حتى إذا كان دون نجران بليلة لقي رجلاً من بني سليم فأخبرهم أن القوم افترقوا فحبسه مع رجل، وسار حتى ورد نجران وليس بها أحد، فأقام أياماً، ثم رجع ولم يلق كيداً، وأرسل الرجل.

وفيها: كانت غزاة وَدَّان^(١).

وفيها: كانت سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة^(٢) - اسم ماء بنجد - في جمادى الآخرة، وهي أول غزاة خرج فيها زيد بن حارثة، وكان في العير أبو سفيان بن حرب، وقد استأجر فرات بن حَيَّان من بكر بن وائل يدلُّهم على الطريق إلى العراق، فوافاهم زَيْدٌ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ، فاستاق العير، وهرب أبو سفيان والرجال، وأسرَ زيدُ صفوانَ بن أمية وُفْرَاتَ بن حَيَّان، فهرب صفوان، وأطلق رسول الله ﷺ فراتاً دليلهم، وكان الخُمُسُ عشرين ألفاً، وقسم رسول الله ﷺ الأربعة أخماس بين السرية.

وفيها: ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما^(٣).

[عن علي رضي الله عنه قال: لما وُلد الحسن سميته: حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أرؤني ابني، ما سميت ابني؟» قلت: حرباً. قال: «لا، بل هو حَسَنٌ». فلما ولد الحسين سميته: حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أرؤني ابني ما سميتَه؟» قلت: حرباً. قال: «لا، بل هو حُسَيْنٌ». فلما ولد الثالث سميته: حرباً، فقال رسول الله ﷺ: «أرؤني ابني ما سميتُموه؟» فقلت: حرباً. فقال: «بل مُحَسِّنٌ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلِدِ هَارُونَ: شَبْرٌ وَشَبِيرٌ وَمُشَبَّرٌ»^(٤).

وذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه في «الفضائل»: عن علي كرم الله وجهه قال: لما ولد الحسن سميته باسم عمي حمزة، ولما ولد الحسين سميته باسم أخي جعفر، فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا تُراب، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُغَيِّرَ اسْمَ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ»^(٥). فسماهما حسناً وحسيناً.

وعق رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين بشاتين^(٦).

- (١) وهي غزوة الأبواء نفسها، تقدم ذكرها ضمن حوادث السنة الثانية، وهي أولى غزواته ﷺ.
 (٢) انظر «السيرة» ٧/٣، و«المغازي» ١٩٧/١، و«الطبقات الكبرى» ٣٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٩٢/٢، و«المنتظم» ١٦٠/٣، و«البداية والنهاية» ٥/٤.
 (٣) انظر «تاريخ الطبري» ٥٣٧/٢، و«المنتظم» ١٦١/٣.
 (٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٦٩) وما بين حاصرتين زيادة منه.
 (٥) «فضائل الصحابة» (١٢١٩)، وهو في «المسند» (١٣٧٠).
 (٦) أخرجه أبو داود (٢٨٤١)، والنسائي (٤٢٣٠)، وفي «الكبرى» (٤٥٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢٣٠٠١) من حديث بريدة رضي الله عنها.

ووزنت فاطمة عليها السلام شعرهما لَمَّا حلقته، وتصدقت بوزنه ذهباً^(١)، وقيل: فضة، وبلغ وزن شعرهما درهماً^(٢)، وذلك في اليوم السابع.

وفي هذه السنة عُلقت فاطمة عليها السلام - عليها السلام - بالحسين بعد ولادتها الحسن رضي الله عنه بخمسين ليلة، ويقال: إن الحسن رضي الله عنه ولد لسته أشهر^(٣).

وفيها: تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بحفصة بنت عمر رضي الله عنه في رمضان، وقيل: في شعبان^(٤).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تأيَّمت حفصة من حُنيس بن حُذافة، قال عمر: فَلَقِيْتُ عثمان، فقلت له: إن شئت أنكحْتُكَ حفصة، فقال: سأُنظرُ في ذلك. فلبثت ليالي، فلقيني وقال: ما أريد أن أتزوج الآن، قال عمر: فلقيتُ أبا بكر، فقلت له: إن شئت أنكحْتُكَ حفصة، فلم يرجع إليَّ بشيء، فكنت أوجدُ عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي فخطبها رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكحته إيَّاهَا، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً؟ قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئاً حين عرضتها عليَّ، إلا أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يذكرها، ولم أكن لأفشي سرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو تركها لنكحْتُها. انفرد بإخراجه البخاري^(٥).

وقد رواه البلاذري وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعمر: «ألا أدلك على ختنٍ خيرٍ لك من عثمان، وأدُلُّ عثمانَ على ختنٍ خيرٍ له منك»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «زوّجني ابنتك حفصة، وأزوّج عثمان ابنتي أم كلثوم»^(٦) وأم حفصة زينب بنت مطعون.

وفيها: تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله زينب بنت خزيمة بن الحارث العامرية الهلالية. وكانت

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧١٨٣)، وابن أبي الدنيا في «العيال» (٥٣) من حديث أبي رافع رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله: «....احلقتي رأسه ثم تصدقت بوزن شعره من فضة على المساكين». وجاء عند ابن أبي الدنيا: «من الورق أو الذهب». وأخرجه البيهقي ٢٩٩/٩ من حديث محمد بن علي بن حسين.

(٢) أخرجه البيهقي ٣٠٤/٩ من حديث أبي رافع.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٥٣٧/٢، و«المنتظم» ١٧٤/٣.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ٤٩٩/٢، و«المنتظم» ١٦٠/٣.

(٥) أخرجه البخاري (٤٠٠٥).

(٦) «أنساب الأشراف» ٥٠٩/١.

في الجاهلية تسمى: أم المساكين، لإطعامها إياهم وحبها لهم^(١).
وفيها: كانت سرية محمد بن مسلمة الأنصاري^(٢) إلى كعب بن الأشرف اليهودي
في رمضان، وقيل: في ربيع الأول.

وكان كعب بن الأشرف من طيء، ثم أحد بني نبهان حليف بني النضير، وكانت
أمه منهم، واسمها: عقيلة بنت أبي العقيق، وكان أبوه قد أصاب دماً في قومه، فأتى
المدينة فنزلها.

ولما جرى بدر ما جرى قال: ويحكم أحق هذا، أو أن محمداً قتل أشرف العرب
وملوكها؟ والله لئن كان هذا حقاً، لبطن الأرض خير من ظهرها، فخرج^(٣) حتى قدم
مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي^(٤)، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي
العيص بن أمية، فأكرمه المطلب، فجعل ينوح ويبكي على قتلى بدر، ويحرض الناس
على رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار، فمن ذلك^(٥): [من الكامل]

طَحَنْتُ رَحَى بَدْرِ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ وَلِمِثْلِ بَدْرِ تَسْتَهْلُ وَتَدْمَعُ
قُتِلَتْ سَرَاةُ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِ لَا تَبْعِدُوا إِنْ الْمُلُوكُ تُصْرَعُ
لِيَزُورَ يَثْرَبَ بِالْجَمُوعِ وَإِنَّمَا يَحْمِي عَلَى النَّسَبِ الْكَرِيمِ الْأَوْرَعُ
وشبب بأم الفضل زوجة العباس وبغيرها، ثم رجع إلى منزله بظاهر المدينة، وبلغ
رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «من لكعب بن الأشرف؟» فقال محمد بن مسلمة
الأنصاري: أنا له يا رسول الله^(٦).

قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف، فقد آذى الله
ورسوله؟» فقال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فأذن لي فلاأقل.

(١) انظر «المنتظم» ١٦١/٣ .

(٢) انظر «السيرة» ٧/٣ ، و«المغازي» ١٨٤/١ ، و«الطبقات الكبرى» ٢٨/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٤٨٧/٢ ،
و«دلائل النبوة» للبيهقي ١٨٧/٣ ، و«البداية والنهاية» ٥/٤ .

(٣) في (ك): حتى خرج ، وليس في (أ ، خ) ، والمثبت من طبقات ابن سعد .

(٤) في النسخ: «التميمي» ، والمثبت من «السيرة» ، وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص ١٦٣-١٦٤ .

(٥) الأبيات في «السيرة» ٨/٣ ، وما بين حاصرتين زيادة منه .

(٦) «السيرة» ٨/٣ .

قال: «قُل». فأتاه وذكر ما بينهم وقال: إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وقد عَنَّانا، فلما سمعه قال: والله لتملَّنه. فقال: إنا قد اتبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى ما يؤول إليه أمره، وقد أردت أن تسلفني سلفاً، قال: فما ترهنني؟ قال: ما شئت، قال: ترهنني نساءكم، قال: أجملَ رجل في العرب، كيف نرهنك نساءنا؟ قال: فأولادكم، قال: يُسبُّ ابن أحدنا، فيقال: رُهِنَ في وَسْقٍ من طعام أو وَسْقِينَ من تمر، ولكن نرهنك اللأمة - يعني السلاح - قال: نعم.

وواعدته أن يأتيه بالحارث بن أوس، وأبي عيس جبر^(١)، وعباد بن بشر، قال: فجاءوه فدعوه ليلاً، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم، فقال: إنما هو محمد بن مسلمة ورضيعة أبو نائلة، وإن الكريم لو دعي إلى طعنة لأجاب.

وقال محمد: إني إذا جاء سأمُدُّ يدي إلى رأسه، فإذا استمسكت منه فدونكم، قال: فنزل وهو متوشَّح. فقالوا له: نجد منك ريح الطيب. قال: نعم، تحتي فلانة أعطرُ نساء العرب. فقال محمد: أتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم. فتناول فشم، ثم عاد فشم، فلما استمكن منه، قال: دونكم. فقتلوه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه. متفق عليه^(٢).

وقال محمد بن مسلمة: ولما قتلنا ابن الأشرف، وأصبح الناس وشاع قتله، خافت يهود منا. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ مِنَ الْيَهُودِ فَأَقْتُلُوهُ»^(٣). فوثب مُحَيِّصَةُ بن مسعود - وكان قد أسلم - على رجل من اليهود يقال له: [ابن] سُنِينَةَ فقتله، وكان يبايعهم ويلا بسهم، فقال حُوَيْصَةُ أخو مُحَيِّصَةَ - ولم يكن أسلم - : يا عدو الله قتلته، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله.

وجعل حُوَيْصَةُ يضرب أخاه مُحَيِّصَةَ، فقال له مُحَيِّصَةُ: والله لو أمرني رسول الله ﷺ بقتلك لقتلتك. فقال حُوَيْصَةُ: والله إن ديناً بلغ بك أن تقتل أخاك لدين حَقٍّ وأسلم. فكان ذلك أوَّلَ إسلام حُوَيْصَةَ^(٤).

(١) في النسخ: «وأبي عيس بن جبير بن عسل» والمثبت من «الصحيحين».

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٠٢) من حديث محيصة.

(٤) «السيرة» ١٢/٣-١٣.

وفيها: كان مقتل أبي رافع اليهودي^(١)، واسمه سلام، وكان يسكن خيبر، قال عبد الله بن كعب بن مالك: كان مما صنع الله تعالى لرسوله ﷺ أن هذين الحيين يعني الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين؛ لا تصنع الأوس شيئاً إلا قالت الخزرج: والله لا ندعهم يذهبون بالفضل علينا، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثله، فلما قتلت الأوس كعب بن الأشرف استأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع ليعادلوا به كعباً، فأذن لهم في قتله وقال: «لا تقتلوا امرأة ولا وليداً» فخرجوا حتى قدموا خيبر فقتلوه، ونذرت بهم امرأة فأرادوا قتلها، فذكروا قول رسول الله ﷺ فتركوها، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت: [من الكامل]

لله درُّ عِصَابَةٍ لَأَقِيَّتَهُمْ يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يَسْرُونَ بِالْبَيْضِ الْخِفافِ إِلَيْكُمْ شُزُراً كَأَسَدٍ فِي عَرِينٍ مُغْرَفٍ^(٢)
حَتَّى أَتَوْكُمْ فِي مَحَلِّ بِلَادِكُمْ فسقوكم حتفاً ببيضٍ ذُفِّفٍ^(٣)
مُسْتَبْصِرِينَ لِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّهِمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُجْحِفٍ^(٤)

وقال البراء بن عازب: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجلاً من الأنصار، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي النبي ﷺ، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس يسرحهم، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنني مُنْطَلِقٌ ومُتَلَطِّفٌ للبواب لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عَبْدَ اللَّهِ، إن كنت تريد تدخل فادخل فإنني أريدُ أن أُغْلِقَ الباب، قال:

(١) «السيرة» ٣/١٧٠، و«المغازي» ١/٣٩١، و«الطبقات الكبرى» ٢/٨٧، و«تاريخ الطبري» ٢/٤٩٣، و«المنتظم» ٢/٢٦١، واسمه سلام بن أبي الحقيق، اختلف في سنة قتله فعند المصنف والطبري مقتله في هذه السنة، وعند الواقدي في سنة أربع، وعند ابن هشام في سنة خمس بعد غزوة الخندق، وعند ابن سعد وابن الجوزي في سنة ست، وانظر الاختلاف في «تاريخ الطبري» ٢/٤٩٣-٤٩٩.

(٢) بالبيض الخفاف: السيوف، مغرف: ملف الشجر.

(٣) ذفف جمع ذفيف: وهو السريع الخفيف.

(٤) في (ك): «مستنصرين لدين نبيهم». وفي المصادر: «مستبشرين» والمثبت من (أ) و(خ)، ومجحف: الذي يذهب بالنفوس والأموال.

فدخلتُ فكمنتُ، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغالق على وتد، قال: فقممت فأخذتها وفتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علالِي له، فلما ذهب عنه أهل سَمَره صعدتُ إليه، فجعلتُ كلما فتحتُ باباً أغلقت عليّ من داخل؛ قلت: إن القوم نذروا بي لم أخلص إلى قتله، فانتهيتُ إليه وهو في بيت مظلم وَسَط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبو رافع، فقال: من هذا؟ فأهويتُ نحو الصوت، فأضربه ضربةً بالسيف وأنا دَهشٌ، فما أغنت عنه شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت عليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لِأُمَّكَ الويل، رجل في البيت ضربني بالسيف قَبْلُ، قال: فأضربه ولم أقتله، ثم وضعت ضَيْبَ^(١) السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى دَرَجَةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أنني انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت رجلي أو ساقِي، فعصبتها بعصابة، ثم انطلقتُ، وجلست على الباب وقلت: لا أخرج الليلة حتى أسمع أو أعلم أقتلته أم لا؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور ينعاه، فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، قال: فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النجاء النجاء، قُتِلَ عَدُوُّ اللَّهِ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فحدثته الحديث، فقال: «ابْسُطْ رِجْلَكَ»، فبسطتها، فمسح عليها فكأنها لم أشكها قط. انفرد بإخراجه البخاري.



وفيها: حُرِّمَتِ الخمرُ، روى مجاهد، عن ابن عباس قال: قالت الصحابة: يا رسول الله، أفتنا في الخمرِ والميسرِ، فإنهما مُذْهِبان للعقل سالبان للمال، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^(٢) [البقرة: ٢١٩] الآية.

وقال ابن عباس: أنزل الله في الخمر أربع آيات بمكة، قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يومئذ يشربونها وهي حلال لهم، ثم نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، فقال رسول الله

(١) في النسخ: «حلبة»، والمثبت من البخاري (٤٠٣٩).

(٢) «أسباب النزول» ص ٦٤، وتفسير الثعلبي ١٤١/٢.

ﷺ: «إن ربكم تقدم في تحريم الخمر»، فتركها قوم لقوله ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وقالوا: لا حاجة لنا إلى الإثم، وشربها آخرون وتأولوا قوله: ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وأقاموا على ذلك مُدَّةً (١).

واختلفوا في سبب تحريمها على أقوال:

أحدها: قصة حمزة رضوان الله عليه، قال علي ﷺ: كانت لي شارف من الغنم من نصيبي يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ قد عارني (٢) شارفاً من الخمس، فلما أردت أن أبني بفاطمة، واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع يرتحل معي، فنأتي بإذخر فنيعه من الصواغين أستعين به في وليمة عرسي، فبينما أنا أجمع لشارفي متاعاً من الحبال، وشارفاني مُناخان إلى جانب حُجرة رجل من الأنصار، أقبلت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاني قد جُبت أسنمتها وبُقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهن، فلم أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر، فقلت: من فعل هذا؟ فقالوا: عمك حمزة بن عبد المطلب وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار، غنته قينة:

أَلَا يَا حَمْرُ لَلشَّرْفِ النُّوَاءِ

فوثب حمزة إلى السيف ففعل بهما ما فعل، أو ما رأيت، قال علي ﷺ: فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة فقلت: ألا ترى يا رسول الله ما فعل عمك حمزة بشارفي، وأخبرته الخبر، فقام ولبس رداءه، ثم انطلق يمشي، واتبعت أنا وزيد حتى جاء إلى البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن فإذا هم شرب، فطفق يلوم حمزة على فعله، وإذا حمزة ثملٌ محمرة عيناه فنظر إلى رسول الله ﷺ، فصعد النظر إلى ركبتيه ثم إلى سُرته ثم إلى وجهه أو في وجهه، وقال: وهل أنتم إلا عبيد لأبي، فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص على عقبيه القهقري، وخرج وخرجنا معه وذلك قبل تحريم الخمر. أخرجاه في «الصحيحين» (٣).

قال ابن عباس: فكانت هذه القصة سبباً لتحريم الخمر. قال: وأصبح حمزة فغدا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٤٣٦/٢ من حديث الربيع. وانظر تفسير الثعلبي ١٤٣/٢.

(٢) هكذا جاء في النسخ، وفي «الصحيحين»: «أعطاني».

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٠٣)، ومسلم (١٩٧٩).

على رسول الله ﷺ يعتذرُ إليه، فقال له: «مه يا عم، فإني سألتُ الله فعفا عنك».

وذكر الأبيات الثعلبي^(١) وغيره: [من الوافر]

ألا يا حمزُ للشُّرفِ النَّواءِ وهُنَّ معقَّلاتُ بالفِناءِ
ضَعِ السَّكِينِ فِي اللَّبَاتِ مِنْهَا فَضَرَّجُهُنَّ، حَمْزَةٌ بِالدَّمَاءِ
وَعَجَّلْ مِنْ أَطَايِبِهَا طَبِيخاً لَشَرْبِكَ مِنْ قَدِيرٍ أَوْ شِوَاءِ
فَأَنْتَ أَبُو عُمَارَةَ الْمُرَجِّي لِكَشْفِ الضَّرِّ عَنَا وَالْبَلَاءِ

والثاني: أن عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله عنه صنع دعوةً ودعا إليها جماعة من الصحابة وسقاهم الخمر فسكروا، وحضر وقت الصلاة فقدموا بعضهم يصلي فقراً: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢-١] إلى آخر السورة بحذف «لا» فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾^(٢) [النساء: ٤٣].

فَحُرِّمَ السُّكْرُ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ. فقال عمر: إن ربنا ليقاربُ في تحريم الخمر وما أراه إلا سيحرمها، فتركها قوم وشربها آخرون في غير وقت الصلاة. فأقاموا على هذا الحال إلى سنة ثلاثٍ من الهجرة، فشربها رجل فسكر وجعل ينوح على قتلى بدرٍ ويبكي وينشد: [من الوافر]

تُحْيِي بِالسَّلَامَةِ أُمَّ بَكْرٍ وَهَلْ لِي بَعْدَ رَهْطِكَ مِنْ سَلَامِ
الأبيات المتقدمة.

وبلغ رسول الله ﷺ فجاء يسعى يجرُّ رداءه، حتى انتهى إلى الرجل، ورفع شيئاً كان بيده ليضربه، فقال الرجل: أعود بالله من سُخْطِ الله وسُخْطِ رسوله، والله لا أطعمها أبداً، ونزل تحريمها.

والثالث: أن عثبان بن مالك الأنصاري صنع دعوةً، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان قد شوى لهم رأسَ جزور، فأكلوا منه،

(١) في تفسيره ١٤٣/٢ مع القصة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٦) وأبو داود (٣٦٧١) من حديث علي بن أبي طالب وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وشربوا الخمر، وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد رضي الله عنه قصيدة فيها هجو الأنصار، وفخر بقومه، فضربه رجل من الأنصار بلخي جمل فشجه، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه، فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا رأيك في الخمر بياناً شافياً. فأنزل الله تحريم الخمر في المائدة إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩٠] فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب^(١).

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ يُعْرِضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّه يُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ [فَلْيَبِيعْهُ وَلِيَنْتَفِعْ بِهِ]»، قال: فما لبثنا إلا يسيراً حتى قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ. فَلَا يَبِعْهُ وَلَا يَشْرَبْهُ». قال: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طُرق المدينة فسفكوها. انفراد بإخراجه مسلم^(٢).

وفي المتفق عليه: عن أنس قال: نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قال: فجرت في سِكَك المدينة، فقال بعضهم: قد قتل قوم وهي في بطونهم. فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] الآية^(٣).

وأخرج مسلم عن ابن عباس: أن رجلاً أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا؟» قال: لا. فسار الرجل إنساناً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بِمَ سَارَرْتَهُ؟» فقال: أمرته ببيعها، قال: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ ثَمَنَهَا». ففتح الرجل المزادة حتى ذهب ما فيها^(٤).

وقال أنس: لقد حُرِّمَتِ الْخَمْرُ، ولم يكن للعرب شراب أعجب إليهم منها، وما حرم عليهم شيءٌ أشدَّ منها. قال: فأخرجنا الحِباب إلى الطريق، فصببنا ما فيها، فمنا من كسر حُبَّه، ومنا من غسله بالماء والطين. ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً كلما أمطرت، استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها^(٥).

(١) تفسير الثعلبي ١٤٢/٢-١٤٣ (و عنه نقل ما تقدم) ، وذكره الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار»

١٣١/١ وقال: غريب بهذا اللفظ، وذكره الثعلبي هكذا من غير إسناد.

(٢) مسلم (١٥٧٨) وما بين حاصرتين منه.

(٣) البخاري (٢٤٦٤)، ومسلم (١٩٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (١٥٧٩).

(٥) تفسير الثعلبي ١٤٣/٢.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

فصل

وقد حرّم شرب الخمر في الجاهلية جماعة منهم: حرب بن أمية، والزبيرقان بن بدر، وأبو أحيحة سعيد بن العاص، وأكثم بن صيفي، وشيبة بن ربيعة، وعبد الله بن جُدعان، وعبد المطلب، وولده أبو طالب، وعامر بن الظرب، وأمّية بن خلف، وعثمان بن مظعون، والعباس بن مرداس، وأبو مرداس، وصفوان بن أمية، والوليد بن المغيرة، وورقة بن نوفل، وهشام بن المغيرة، ومقيس بن صباية، وقيس بن عاصم.

سكر قيس ليلة فراود ابنته على نفسها، فتغيبت عنه، فلما أصبح قالت له زوجته منفوسة بنت زيد الفوارس: أنت السيد الحلیم منذ الليلة، فقال: ولم؟ فأخبرته، فألى أن لا يشربها أبداً، وقال: [من الوافر]

رأيتُ الخمرَ سالحةً وفيها معائبُ تفضح الرجل الحلّما
فلا والله أشربُها صحيحاً ولا أشفي بها أحداً سقيماً
وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في خلق كثير يطول ذكرهم^(٢).



وفيها: كانت غزاة أحد^(٣) في منتصف شوال يوم السبت، وقيل: لتسع خلون منه. وسببها أبو سفيان، فإنه لما أصيب كفار قريش ببدر، جمعهم وفيهم: عبد الله بن زمعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وغيرهم. فقال لهم: قد أصيب آباؤكم

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٢) انظر «المحبر» ص ٢٣٧، و«تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣٣٢.

(٣) انظر «السيرة» ١٤/٣، و«المغازي» ١٩٩/١، و«الطبقات الكبرى» ٣٣/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٣٦٨، و«تاريخ الطبري» ٤٩٩/٢، و«المنتظم» ١٦١/٣، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢٠١/٣، و«البداية والنهاية» ٩/٤.

وأبناؤكم وأهلكم وإخوانكم وخياركم يوم بدر، فأعينوني بأرباح هذه البضائع، فكان خمسين ألف دينار، وقيل: لم يأخذوا من المال ولا من العير شيئاً، وتجهزوا بالجميع^(١). وانضم إليهم الأحابيش، وقبائل كنانة، وأهل تهامة، وخرج أبو عزة الشاعر معهم يسير في قبائل كنانة يحرضهم على رسول الله ﷺ، وخرج عمرو بن العاص وهبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى قبائل العرب يستنجدونهم على قتال رسول الله ﷺ، ودعا جبير بن مطعم غلامه وحشيياً، فقال له: إن قتلت حمزة فانت حر. وكانت له حربَةٌ يقذف بها فقلٌّ أن يخطيء.

وخرجت قريش بحدها وحديدها ومن تبعها من الأحابيش والقبائل، وخرجوا بالظعن التماساً للحفيظة ولئلا يفروا، فخرج أبو سفيان ومعه هند بنت عتبة، وأميمة بنت سعد الكنانية^(٢)، وعكرمة بن أبي جهل، ومعه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، والحارث بن هشام، ومعه فاطمة بنت الوليد، وصفوان بن أمية، ومعه امرأته برزة بنت مسعود الثقفية، والبغوم بنت المعدل الكنانية، وعمرو بن العاص، ومعه امرأته ربيعة بنت منبّه بن الحجاج، وطلحة بن أبي طلحة، ومعه زوجته سلافة بنت سعد أوسية، والحارث ابن سفيان بن عبد الأسد، ومعه امرأته رملة بنت طارق كنانية، وكنانة بن عدي^(٣) بن ربيعة، ومعه امرأته أم حكيم بنت طارق، وسفيان بن عريف، وامرأته قتيبة بنت عمرو بن هلال، وخرجت خناسة بنت مالك بن المضرب مع ابنها أبي عزيز بن عمير، وهي أم مصعب بن عمير رضي الله عنه، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة ابن كنانة، وهي التي رفعت لواء الكفار يوم أحد حين قتل بنو عبد الدار.

وخرج بهم أبو سفيان وهو قائدهم، ويده زمام أمورهم، وخرج معهم أبو عامر الراهب في سبعين فارساً من الأوس، وساروا بالقيينات والدفوف والمعازف والخمور والبغايا، وكانوا في ثلاثة آلاف من قريش والقبائل، وكان معهم سبع مئة دارع، ومئتا

(١) وقيل: مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب أبائهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب... «السيرة» ١٤/٣.

(٢) في «أنساب الأشراف» ٣٦٩/١: أميمة بنت سعيد بن وهب بن أشيم الكنانية امرأته. ولم نقف عليها عند أحد غيره.

(٣) في النسخ: «علي» والمثبت من «جمهرة أنساب العرب» ص ٧٨، و«الإصابة» ٣٠٧/٣.

فارس، وثلاثة آلاف بعير.

وكان وحشي يمشي بالحربة في أوائلهم، فتماشيه هند بنت عتبة وتبسطه وتقول: إيه أبا دَسَمَة اشف اشف.

وكتب العباس إلى رسول الله ﷺ يخبره بعدّتهم وبما معهم، وبما قد عزموا عليه، وكانوا قد راودوه على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه من الغرم يوم بدر، ولم يساعدهم بشيء. وبعث بكتابه مع رجل من بني غفار، فوافى المدينة، فدفع الكتاب إلى رسول الله ﷺ، فقرأه عليه أبي بن كعب وقال له: اكنم ما فيه.

وأتى رسول الله ﷺ منزل سعد بن الربيع فأخبره بما فيه واستكتمه إياه، فلما خرج رسول الله ﷺ من عنده، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقال: لا أم لك، وما أنت وذاك، فقالت: قد سمعتُ ما قال، فاسترجع سعد وأتى بها إلى رسول الله ﷺ وأخبره، وقال: أخاف أن يفشو الحديث، فقال: «خَلَّ عنها»^(١).

وسار المشركون يطوون المنازل حتى نزلوا ذا الحليفة، فرعوا زرع المدينة، وأفسدوا نخيلها، وباتوا، ثم أصبحوا فنزلوا شفير الوادي مما يلي المدينة.

وبات وجوه الأنصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن الحضير، يحرسون رسول الله ﷺ، ومعهم الأشراف من الأوس والخزرج، وعليهم السلاح إلى الصباح، ولما نزل القوم خطب رسول الله ﷺ، وقال: «رَأَيْتُ فِي مَنَامِي بَقْرًا تُذْبِحُ، فَأَوْلَتْهَا حَرْبًا يُنْحَرُ فِيهَا أَصْحَابِي، وَرَأَيْتُ سَيْفِي ذَا الْفَقَارِ قَدْ انْفَصَمَ، وَرَأَيْتَنِي مُرْدِفًا كَبَشَ الْكُتَيْبَةَ، وَكَأَنِّي أُدْخِلُ يَدِي فِي حِصْنِ حَصِينَةَ، فَأَوْلَتْهَا الْمَدِينَةَ، وَأَوْلْتُ مَا فِي سَيْفِي هَزِيمَةَ أَصْحَابِي، وَقَتْلَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ نُقِيمَ بِالْمَدِينَةِ وَنَدَعُهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بَشْرًا، وَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَا هُمْ فِيهَا».

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة، فقال رجل من المسلمين ممن أكرمهم الله يوم أحد بالشهادة: يا رسول الله، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يروا أننا جبننا عنهم.

(١) «أنساب الأشراف» ١/ ٣٧٠-٣٧١.

فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يدعه قبلها فاستشاره، فقال: يا رسول الله، لا نخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا عدو إلا أصبنا منه، فذرهم، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوها علينا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

فلما فصل عنه عبد الله بن أبي، اجتمع إليه جماعة من الأنصار وقالوا: يا رسول الله، لا تحرمنا الشهادة.

فصلى رسول الله ﷺ الجمعة، ومات في ذلك اليوم مالك بن عمرو من بني النجار، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ودخل بيته وخرج وقد لبس لأمته وحمل السلاح، فندم الذين كلموه وسقط في أيديهم، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ والوحي ينزل عليه، بش ما صنعنا. فقاموا واعتذروا إليه، وقالوا: افعل ما بدا لك، فقال: «لا ينبغي لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يُقاتل»^(١).

فخرج بعدما صلى الجمعة، فبات بالشيخين، وهما أطمان في طرف المدينة، وكان رسول الله ﷺ قد خرج في ألف من أصحابه، واستعمل على حرسه تلك الليلة محمد بن مسلمة الأنصاري في خمسين رجلاً، ولما بات بالشيخين سمع كتيبة لها زجل، فقال: ما هذا؟ فقالوا: حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «لا تستنصروا بالكفار على أهل الشرك»^(٢)، ثم قال: «من يخرج بنا على القوم من كذب؟ أي: من قريب، فقال أبو خيثمة^(٣) بن الحارث: أنا. فتقدم بين يديه في حرة بني بياضة، فلعب فرس بذنبه فأصاب سيفاً فاستله، فقال رسول الله ﷺ وكان يحب الفأل ويكره الطيرة: «يا صاحب الفرس، شم سيفك فإني لأرى السيف اليوم لتسل»^(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٧٨٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وانظر «المغازي» ٢١٤/١، و«تاريخ الطبري» ٥٠٣/٢.

(٢) «المغازي» ٢١٥-٢١٦/١، و«الطبقات الكبرى» ٣٦/٢.

(٣) ويقال: أبو حثمة، ويقال: أبو حثمة، وانظر «الإصابة» ٤٢/٤، و«السيرة الشامية» ٢٧٩/٤.

(٤) ولفظه عند الواقدي ٢١٨/١، والطبري ٥٠٦/٢: «يا صاحب السيف، شم سيفك، فإني إخال السيف ستسل فيكثر سلها». وشم سيفك: اغمده.

ومر رسول الله ﷺ حتى نزل بشعبٍ من أحدٍ في عُذوة الوادي، وجعل ظهره إلى أحد، وانخزل عبد الله بن أبي في ثلاث مئة ونيفٍ - ثلث المسلمين - ورجع وهو يهدرُ كالْفَنِيْقِ^(١) ويقول: أطاع الأحداث ومن لا رأي له وعصاني، سيعلم، ثم قال: على ماذا نقتل أنفسنا، ارجعوا أيها الناس. فرجع معه قومه أهل النفاق، وتبعه عبد الله بن عمرو بن حرام يناشده الله، ويقول: قاتلوا عن حوزتكم، فما رجع، فقال له: أَبْعَدَكَ اللهُ يا عدوَّ الله ومن معكم، الله يغني عنكم، فقال ابن أبي: لو نعلم قتالاً لا تبعنناكم. ولما رأت بنو سُليْمٍ وبنو حارثة عبد الله بن أبي قد انخزل، هموا بالانصراف معه، وكانوا جناحي العسكر، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٢]، ثم عصمهما الله تعالى^(٢).

وعقد رسول الله ﷺ الألوية، وكان لواء المهاجرين الأعظم يومئذ بيد مصعب بن عمير، ولواء الأوس بيد أسيد بن حضير، ولواء الخزرج بيد سعد بن عباد، وقيل: بيد الحُباب بن المنذر^(٣).

وركب رسول الله ﷺ فرسه، ولم يكن معه سوى فرسين أحدهما له، والأخرى لأبي بُرْدَةَ بن نيار، وتعباً مع رسول الله ﷺ سبع مئة دارع، ثم تنكب رسول الله ﷺ قوسه، وأخذ بيده القناة وبين يديه مئة دارع، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة ورتب معه خمسين رجلاً من الرماة، وقال له: «انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك سواء كانت لنا أو علينا لا نُوتى من قبلك، وأقم بأصل عَيْنَيْنِ^(٤)، فإننا لانزال عالين ما ثبتتم في مكانكم ولم تفارقوا المركز^(٥)».

وأقبلت قريش وعلى ميمنتها خالد بن الوليد في الخيل، وقيل: صفوان بن أمية،

(١) الفنيق: الفحل المكرم من الإبل الذي لا يُركب ولا يُهان لكرامته عليهم. اللسان: (فندق).

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٥٠٤/٢، والمغازي ٢١٩/١، والطبقات ٣٧/٢.

(٣) «أنساب الأشراف» ٣٧٤/١.

(٤) عينين: هضبة جبل أحد.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وانظر «السيرة» ١٨/٣، و«تاريخ الطبري» ٥٠٧/٢.

وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وأبو سفيان في القلب، والظعائن والقينات
تبتدرهن هند بنت عتبة في أوائل الصفوف ويدها دُفٌّ وهي تقول:

نَحْنُ بِنَاتُ طَارِقٍ^(١)

نَمَشِي عَلَى النَّمَارِقِ

إِنْ تُقْبَلُوا نُعَانِقِ

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقِ

فِرَاقٍ غَيْرِ وَامِقٍ^(٢)

ولما سمع رسول الله ﷺ قول هند، قال: «اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولٌ وَأُجُولٌ، وَفِيكَ أَقَاتِلٌ،
وَأَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٣). وكانت هند ترتجز وتقول:

إِيهِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ

إِيهِ حُمَاةَ الْأَدْبَارِ

بِكُلِّ سَيْفٍ بَتَّارٍ^(٤)

فراها أبو دُجَانَةَ فحمل عليها لِيَقْتُلَهَا، ثم كف عنها فلامه الأنصار، فقال: أكرمتُ
سيف رسول الله ﷺ عنها - وكان قد أعطاه سيفه في ذلك اليوم^(٥).

وأول من أنشب الحرب أبو عامر الراهب، وكان يقول لقريش: متى التقينا لم
يختلف عليّ منهم اثنان، فتقدم أبو عامر في الأحابيش وعُبدان مكة، فنادى: يا معاشر
الأوس، أنا أبو عامر الراهب. فقالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً، ولا أنعم الله بك يا

(١) يقال: هي بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادي. انظر «الروض الأنف» ١٢٩/٢-١٣٠، و«السيرة
الشامية» ٣٨٤/٤.

(٢) وامق: فراق غير محب.

(٣) أورده البلاذري في «أنساب الأشراف» ٣٧٥-٣٧٦. وأخرج شطره الأول البزار في «مسنده» (٨٠٤) من
حديث علي، ولفظه: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً قال: «اللَّهُمَّ بِكَ أَجُولٌ، وَبِكَ أَصُولٌ، وَبِكَ أَقَاتِلٌ».

(٤) رواية «السيرة» ٢٠/٣: ضرباً بكل بتّار.

(٥) «تاريخ الطبري» ٥١١/٢.

فاسق، ورموه بالحجارة، فانهزم وهو يقول: لقد أصاب قومي بعدي شر^(١).
ونادى أبو سفيان: يا معاشر الأوس والخزرج، خلّوا بيننا وبين ابن عمنا،
ونصرف عنكم. فثتموه أقبح شتم ولعنوه، فتأخر.
ونادى طلحة بن أبي طلحة حامل اللواء: هل من مبارز؟ فبرز إليه علي رضي الله عنه فقتله،
فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون، وقالوا: هذا كبش الكتيبة^(٢).
وقال هشام: برز طلحة بن أبي طلحة وقال: يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن
الله يُعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويُعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يُعجلني
بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة. فبرز إليه علي رضي الله عنه فضربه، فأبان رجله
ووقع إلى الأرض، فبدت عورته، فقال: يا ابن عم، أنشدك الله والرحم، فرجع عنه،
فقال له رسول الله ﷺ: «ما منعك أن تجهز عليه؟» فقال: ناشدني الله والرحم، فقال:
«اقتله»، فقتله^(٣).

فأخذ اللواء عثمان بن أبي طلحة أبو شيبة، وهو يقول: [من الرجز]
إنّ على أهل اللواء حقاً أن تُخضب الصَّغْدَةَ أو تَنَدِّقاً
فحمل عليه حمزة رضي الله عنه فضربه بالسيف على كاهله، فقطع يده وكَتَفَه. فقتله، ثم رجع
وهو يقول: أنا ابن ساقى الحجيج.
فأخذ اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقتله، فأخذ
اللواء مُسَافِع بن طلحة فرماه عاصم بسهم فقتله، فأخذ اللواء كِلاب بن طلحة، فقتله
الزبير بن العوام، فأخذه الجلاس بن طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله.
فهؤلاء أربعة لُصِبِ طلحة قُتِلوا في ساعة واحدة، وقُتِل أبوهم طلحة، وأخوه
عثمان بن طلحة قبلهم وهم بنو عبد الدار، وأم بني طلحة سُلَافَة بنت سعد أوسية.
ثم أخذ لواء المشركين شريح بن قارظ فقتل، ثم أخذه صُؤَاب غلام أبي طلحة وهو

(١) «السيرة» ١٩/٣، و«الغازي» ٢٢٣/١.

(٢) «الغازي» ٢٢٦-٢٢٥/١.

(٣) انظر «السيرة» ٢٤-٢٣/٣، و«الغازي» ٢٢٦-٢٢٥/١، و«تاريخ الطبري» ٥١٠-٥٠٩/٢.

أَخْرُ مَنْ أَخَذَهُ، قَطَعْتَ يَدَهُ، فَأَخَذَهُ بِصَدْرِهِ وَاعْتَنَقَهُ فَقَتَلَهُ قُرْزَانَ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ أَعْدَرْتُ^(١)، فَقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ^(٢): [مَنْ الْوَافِر]

فَخَرْتُمْ بِاللُّوَاءِ وَشَرُّ فَخْرٍ لَوَاءٌ حِينَ رُدَّ إِلَى صُؤَابٍ
جَعَلْتُمْ فَخْرَكُمْ فِيهِ لِعَبْدٍ وَأَلَامٌ مِنْ يَطَا عَفَرَ التَّرَابِ
وَوَقَعَ لَوَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ، فَجَاءَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةُ فَأَخَذَتْهُ
فَلَاذُوا بِهَا، وَلَمَّا قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَلْوِيَّةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَحْمِلْ عَلَيْهِمْ».
فَحَمَلَ فَبَدَّدَ شَمْلَهُمْ، وَقَتَلَ شَيْبَةَ بْنَ مَالِكٍ أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍ^(٣).

وَسَبُّ قَتْلِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ عَلَى اللُّوَاءِ: أَنْ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ: يَا بَنِي عَبْدِ
الدَّارِ، إِنَّكُمْ وَلَيْتُمْ أَمَرَ اللُّوَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَصَابْنَا مَا أَصَابْنَا، وَإِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسَ مِنْ قِبَلِ
رَايَاتِهِمْ، فَإِذَا زَالَتْ زَالُوا، فِيمَا أَنْ تَكْفُونَا أَمَرَ اللُّوَاءِ أَوْ تُخَلُّوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَغَضِبُوا
وَتَوَاعَدُوهُ وَهَمُّوا بِهِ، وَقَالُوا: سَتَعَلِّمُنَا إِذَا التَّقِينَا كَيْفَ نَصْنَعُ؟ وَكَانَ قَصْدُ أَبِي سُفْيَانَ أَنْ
يُقْتَلُوا، فَقَتَلُوا جَمِيعاً^(٤).

وَلَمَّا قَتَلَ أَصْحَابُ اللُّوَاءِ، انْهَزَمَ الْكُفَّارُ لَا يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَنَسَاؤُهُمْ يَدْعُونَ
بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ^(٥).

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرِ أَمِيرِ الرِّمَاءِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَنْتَهَبُ الْغَنَائِمَ،
وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نَتْرِكُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَانْطَلَقَ عَامَتُهُمْ إِلَى الْعَسْكَرِ طَلَباً لِلنَّهْبِ،
فَلَمَّا رَأَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قِلَّةَ الرِّمَاءِ، وَاشْتَغَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّهْبِ، صَاحَ فِي خَيْلِ
الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ حَمَلَ وَمَعَهُ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنِ مِرْدَاسِ الْفَهْرِيِّ
مَنْ خَلْفَهُمْ، فَقَتَلُوا أَمِيرَ الرِّمَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ وَأَصْحَابَهُ، فَانْتَقَضَتْ صَفُوفُ الْمُسْلِمِينَ
وَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ^(٦).

(١) «المغازي» ٢٢٨٢٢٦/١، و«الطبقات» ٣٩٠٣٨/٢.

(٢) البیتان فی «السيرة» ٢٧/٣.

(٣) «تاريخ الطبري» ٥١٤/٢.

(٤) «تاريخ الطبري» ٥١٢/٢.

(٥) «المغازي» ٢٢٩/١، و«الطبقات» ٣٩/٢.

(٦) «المغازي» ٢٣٢/١، و«الطبقات» ٣٩/٢.

ولم يبق مع رسول الله ﷺ سوى اثني عشر رجلاً^(١): أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ومن الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجاجة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والحارث بن الصمة، وقيل: وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسهل بن حنيف، وبايعه على الموت ثمانية فلم يقتل منهم أحد: علي، وطلحة، والزبير، وأبو دجاجة، وعاصم بن ثابت، والحباب بن المنذر، وسهل ابن حنيف، والحارث بن الصمة^(٢). وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَأَلْرَسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

قال البراء: فأصابوا منا سبعين^(٣).

ورأى عبد الله بن قميئة الهذلي رسول الله ﷺ، فضربه بحجر، فشج وجهه فوضحه، ونادى: قتل محمدًا، فقال له أبو سفيان بن حرب: إذا نُسورك كما تفعل الأعاجم، وسمعه خالد بن الوليد، فقال: كذب ابن قميئة، أنا رأيت محمدًا في نفر من أصحابه مُصْعدين في الجبل^(٤).

ولما ضرب ابن قميئة وجه رسول الله ﷺ، دخلت حلقتا المغفر في وجنتيه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فسقطت ثناياه، فلم يُرَ قط أثرُ كان أحسنَ فَمَا مِنْهُ^(٥).

ولما رمى ابن قميئة رسول الله ﷺ، قال: خذها وأنا ابن قميئة. فقال رسول الله ﷺ: «أقمأك الله». فسَلَطَ اللهُ عليه بعد الواقعة كبشاً فنطحه حتى قتله^(٦).

ورمى حبان بن العرقة رسول الله ﷺ بسهم، وقال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال

(١) البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء، وفي «المغازي» للواقدي، و«الطبقات»: أربعة عشر رجلاً.

(٢) «المغازي» ١/ ٢٤٠.

(٣) البخاري (٣٠٣٩).

(٤) انظر «المغازي» ١/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٥) «المغازي» ١/ ٢٤٧، والحاكم ٣/ ٢٩ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/ ١١٧:

وفيه حفص بن عمر العبدي وهو ضعيف، وانظر «المغازي» ١/ ٢٤٦.

رسول الله ﷺ: «عَرَّقَ اللهُ وجهك في النار»^(١).

ورماه عتبة بن أبي وقاص فشجَّ وجهه وجبينه وكسر رباعيته، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: «اللهم لا يحلُّ عليه حَوْلٌ»^(٢). فمات كافراً مِنْ وَجَعِ أَرْمَنَهُ.

وقال البلاذري: كان عبد الله بن شهاب الزُّهري، وعتبة بن أبي وقاص، وعبد الله بن الأدرمي^(٣)، وأبي بن خلف، وعبد الله بن حميد بن زهير، قد تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فأما ابن شهاب فأصاب جبهته، وأما عتبة فرماه بأربعة أحجار فكسر رباعيته اليمنى وشق شفته العليا، وأما ابن قميئة فكلمَ وَجَّتِيهِ وَغَيَّبَ حَلَقَ الْمَغْفَرِ فِيهَا، وعلاه بالسيف فلم يعمل فيه، وسقط رسول الله ﷺ فُجِحِشَتْ رِكْبَتَاهُ، وأما أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ فَشَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَرْبَةٍ، فأعانه الله عليه فقتله، وأما عبد الله بن حميد فشد عليه أبو دجاجة فضربه بالسيف^(٤). وأما ابن شهاب فنهشته أفعى عند عودته إلى مكة فمات.

وقال سهل بن سعد: جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ الْيُمْنَى، وَهَشُمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَغْسِلُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْكُبُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الْمَاءَ يَزِيدُ الدَّمَ كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ، فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٥).

(١) هكذا جاء سياق الحديث في نسخنا، والصواب أن حبان بن العرقعة إنما رمى سعد بن معاذ في أكحله، وكان ذلك في يوم الخندق كما أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أصيب سعد يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له: ابن العرقعة رماه في الأكحل.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٢/ (١٠٩١) من حديث الزبير بن بكار في معرض حديثه عن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: وحبان بن عبد الله أخو هالة لأبيها وأمها هو الذي رمى سعد بن معاذ يوم الخندق فقال: خذها وأنا ابن العرقعة فقال رسول الله ﷺ: «عرق الله وجهك في النار» فجعل هذا الدعاء من كلام النبي ﷺ، وانظر «المغازي» ٤٦٩/١.

وأخرجه ابن هشام في «السيرة» ٣/ ١٣٥-١٣٦ من حديث عائشة، والحاكم ٣/ ٢٢٧ من حديث عبد الله بن كعب بن مالك قال: فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقعة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار. فجعل الدعاء من كلام سعد. والله أعلم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٦٤٩) من حديث مقسم، وانظر «السيرة» ٣/ ٢٨.

(٣) هو ابن قميئة.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/ ٣٧٨.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

وجعل رسول الله ﷺ يَسْلُتُ الدم عن وجهه ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١).

وجعلت فاطمة رضي الله عنها تعتنق رسول الله ﷺ وتبكي، فقال رسول الله ﷺ: «لن ينالوا منا مثلها أبداً» (٢).

وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، واختلط المسلمون، وصاروا يقاتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضاً، ونادى الكفار بشعارهم: يَا لَهْبَلْ، يَا لِلْعُرَى، وقتلوا في المسلمين، وافترق المسلمون فرقاً (٣)، فقال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي، وقال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى أبي سفيان بن حرب، يأخذ لنا منه أماناً، وقال المنافقون: ارجعوا إلى الدين الأول، وصاح فيهم أنس بن النضر: ويحكم إن كان محمدٌ قد قتل، فربُّ محمدٍ لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قاتل حتى قُتل رضوان الله عليه (٤).

وتحامل رسول الله ﷺ، وصعد على صخرة وجعل يدعو الناس إليه. قال كعب بن مالك: فأنا أول من عرفه، عرفته بعينه وهما يُزهران تحت المغفر، فناديت: يا معاشر المسلمين، أبشروا فهذا رسول الله ﷺ، فأشار إلي أن اسكُت (٥).

وفوق رجلٍ سَهْمًا وأراد أن يرميه به. فقال: «أنا رسول الله» وانحازت إليه طائفة من المسلمين فلامهم على الفرار، فقالوا: سمعنا أنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مُدبرين (٦).

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٤١/٢.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٣٩/٢.

(٤) «تاريخ الطبري» ٥٢٠/٢، وانظر «السيرة» ٣٠/٣.

(٥) «السيرة» ٣١/٣.

(٦) انظر «تاريخ الطبري» ٥٢٠/٢.

وقال ابن إسحاق: اجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه، وكشفوا الكفار عنه، ورمى سعد بن أبي وقاص بالنبل حتى انكسرت سيئه قوسه، وأصابت يد طلحة بن عبيد الله؛ وقي بها رسول الله ﷺ، فصار أشل، وكان الذي رماه مالك بن زهير الجشمي، وكان قضده رسول الله ﷺ، فاتقاه طلحة رضي الله عنه بيده، فأصاب السهم خنصره فشل، فقال: حس، فقال رسول الله ﷺ: «لو قال بسم الله ولم يقل حس دخل الجنة والناس ينظرون إليه»^(١).

ونثّل رسول الله ﷺ كنانته لسعد بن أبي وقاص وقال: «ارم فداك أبي وأمي». وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كان رجل من المشركين قد أحرق قلوب المسلمين، فرمته بسهم فأصبت جنبه، فوقع فبدت عورته، فضحك رسول الله ﷺ^(٢).

وقال أنس: لما كان يوم أحد انهزم المسلمون عن رسول الله ﷺ، وأبو طلحة مجوب عليه بحجفته، وكان أبو طلحة رامياً شديداً النزع، وقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر ومعه الجعبة من النبل، فيقول له رسول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة»، ويُسرف رسول الله ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا يصيبك سهم من سهامهم، نحري دون نحرك.

قال: ولقد رأيت عائشة وأمّ سليم لمشمرات أرى خدام سوقهن، ينقلان القرب على متونهن يُفرغانها في أفواه القوم، ولقد وقع سيف أبي طلحة من يده مرتين أو ثلاثاً، يعني لما يلقي من النعاس. متفق عليه^(٣).

وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا يوم أحد، أرسل الله علينا النوم، وإني لأسمع قول مُعْتَبٍ والنعاس يغشاني، فما أسمعه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا، فحفظتها منه^(٤).

(١) أخرجه الحاكم ٤١٦/٣ من حديث طلحة بن عبيد الله، وانظر «المغازي» ٢٥٤/١، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٢٠. وسية القوس: ما عطف من طرفيها.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٠٧/٢٠ من حديث سعد.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١). ومجوب عليه: مترس عنه ليقية السلاح، والخدم: الخللخال.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٨٠/٤، والبيهقي في «دلائل النبوة» ٢٧٣/٣.

وقال أبو طلحة: رفعتُ رأسي يوم أحد، فجعلتُ ما أرى أحداً إلا وهو يمد تحت حجفته من النعاس، وكان يقع السيف من يدي فأخذه، ثم يسقط السوط من يدي من النعاس فأخذه^(١).

وقال أنس: أُفرد رسول الله ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رُهِقوا قال: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ دونه، فلم يزل كذلك حتى قتل سبعة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»^(٢).

وأصابت عينُ قتادة بن النعمان فوقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ بيده فعادت أحسن ما كانت^(٣).

وتقدم مُصعبُ بنُ عُميرٍ وبيده لواء المهاجرين، فقاتل حتى قتل. فأخذ اللواء علي رضي الله عنه، وقاتل حمزة رضوان الله عليه قتالاً شديداً، ومرّ به سباع بن عبد العزى الغبشاني، فقال له حمزة: هلم يا ابنَ مُقَطَّعَةِ البُظور، وكانت أمه ختانةً بمكة، فقتله حمزة. قال وحشي: فنظرت إلى حمزة وهو يهذُّ الناسَ هذّاً بسيفه كأنه جملٌ أورقٌ، فرميتُه بالحرّبة، فوقعت في نُتَيْتِه حتى خرجت من بين رجليه، فأخذتها وتَنَحَّيْتُ^(٤).

وقيل: كان حمزة يجول في القوم فعثر فوقع على وجهه، فزرقه وحشي بحربته فقتله^(٥).

ورُمي أبو رُهم الغفاري بسهم في نحره، فتفل عليه رسول الله ﷺ فبرىء، فكان يسمى المنحور^(٦).

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد حَرَصْتُ على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص،

(١) أخرج شطره الأول الترمذي (٣٠٠٧)، وانظر «تفسير الطبري» ١٧٧/٤.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٩).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٥٤٩).

(٤) «السيرة» ٢١/٣.

(٥) «المغازي» ٢٨٥/١.

(٦) «المغازي» ٢٤٣/١.

فراغ مني روغان الثعلب، ولقد علمته والله عاقاً لوالديه، سيء الخلق^(١).

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ تسقي المسلمين الماء في نسوة من الأنصار، فرماها حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيلها، فاستغرب ضحكاً، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «ارمه» فرماه فوق ابن العرقة مستلقياً، فقال رسول الله ﷺ: «استقاد لها سعد أجاب الله دعوتك وسدد رميتك^(٢)». فكان سعد مجاب الدعوة رامياً.

وصعدت قريش على الجبل فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يعلونا». فأقبل عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين فأنزلوهم، ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة ليعلوها، فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض فاستوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة^(٣)».

وجاءت هند بنت عتبة ومعها نساء المشركين، فجعلن يحدغن الآذان والأنوف، واتخذت هند من ذلك قِلادةً ومعاوِداً، وبقرت بطن حمزة رضوان الله عليه، وأخرجت كبده فمضغتها فلم تستطع ولفظتها، وأعطت وحشياً ما كان عليها من القلائد وقُرطها، ووعدته إذا قدمت مكة بعشرة دنانير^(٤).

وقال البلاذري: ناولها وحشي كبد حمزة، فجعلتها في فمها ثم رمتها، وقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه، وقطعت أذنيه، وقدمت مكة بجميع ذلك، ثم علت صخرة وقالت^(٥): [من الرجز]

نحن جزيناهاًم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سُعر
ما كان بعد عترتي من صبر

(١) «السيرة» ٣/ ٣٢.

(٢) «المغازي» ١/ ٢٤١.

(٣) «السيرة» ٣/ ٣٢-٣٣.

(٤) انظر «السيرة» ٣/ ٣٦.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/ ٣٨١، ونصه: فقتله وأخذ كبده، فأق بها هند بنت عتبة، فمضغتها ثم لفظتها، وجاءت فمثلت به، واتخذت مما قطعت منه مسكين ومعضدتين وخدمتين. ولم يذكر الشعر، وانظر «السيرة» ٣/ ٣٦.

أبي وعمّي وأخي وبكري
شفيت وحشيّ غليل صدري
شفيت قلبي وقضيت نذري

وبلغ رسول الله ﷺ قولها ، فقال : «إن الله حرّم لحم حمزة على النار»^(١).

قال ابن إسحاق : وهذه شديدة على هند المسكينة^(٢).

ولما فقد رسول الله ﷺ حمزة رضي الله عنه ، قال للحارث بن الصمة الأنصاري : «ألا تعلم لي علم عمي». فطاف فوجده بين القتلى ، فكره أن يخبر رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لسهل بن حنيف : «ألا تعلم لي علم عمي» ، ثم قال لعمار بن ياسر كذلك ، فأخبره بقتله فبكى^(٣).

ولما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه من جُدع الأنوف والآذان ، وقطع المذاكير ، قال : «لئن أدالنا الله عليهم لنمثلنّ بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب قط»^(٤).

وقال أبو سفيان : أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيئوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قالها ثلاثاً ، ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب؟ قالها ثلاثاً ، فرجع إلى أصحابه وقال : أما هؤلاء فقد قُتلوا ، فما ملك عمر ابن الخطاب نفسه ، فقال : كذبت يا عدو الله ، إن الذين عدت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسوؤك. فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني ، ثم أخذ يرتجز : أعلُّ هُبَل ، أعلُّ هُبَل . فقال رسول الله ﷺ : «ألا تُجيبوه؟» قالوا : وما نقول؟ قال : «قولوا : الله أعلُّ وأجلّ». فقال : لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ : «ألا تُجيبوه؟» قالوا : وما نقول؟ قال : «قولوا : الله

(١) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» ١٧٥/٧٠ .

(٢) هذا القول ليس لابن إسحاق وإنما هو لمحمد بن سيرين كما في «الطبقات الكبرى» ١١/٣ ، و«تاريخ دمشق» ١٧٥/٧٠ .

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٤٧٢/٣ .

(٤) انظر «السيرة» ٣٩/٣ .

مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»^(١).

وقال أنس: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حَيْصَةً، وقالوا: قتل محمد. وكثرت الصوارخ في نواحي المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار، فمرت على ابنها وأخيها وزوجها، فلم تلتفت إليهم حتى جاءت رسول الله ﷺ، فأخذت بناحية ثوبه وجعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي بمن عَطَبَ إِذَا سَلِمْتَ، كُلُّ مَصِيْبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ^(٢).

وكان عامة الناس قد حملوا موتاهم إلى المدينة، فنادى رسول الله ﷺ: «رُدُّوا قتلاكم إلى مضاجعهم»^(٣). فأدرك مناديه رجلاً واحداً لم يدفن وهو: شماس بن عثمان المخزومي، فرده إلى مضجعه^(٤).

ثم انصرف رسول الله ﷺ في ذلك اليوم وهو يوم السبت، فصلى بالناس المغرب. واستقبلته حَمْنَةُ بنت جحش، فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش، فاستغفرت له، ثم نعى إليها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى إليها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «لَزَوْجُ الْمَرْأَةِ مِنْهَا بِمَكَانٍ»^(٥).

وَسَمِيَتِ الْمَنَافِقُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي^(٦).

ولما دخل رسول الله ﷺ بيته، ناول فاطمة ؓ سيفه وقال: «اغسلي عنه الدم يا

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٤٤/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٩٩)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١١٥/٦ وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

أما قوله: كل مصيبة بعدك جليل، فهو من حديث سعد بن أبي وقاص كما في «السيرة» ٤٣/٣.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٦٥)، والترمذي (١٧١٧)، والنسائي (٢٠٠٤)، وأحمد في «مسنده» (١٤١٦٩) من حديث جابر ؓ.

(٤) انظر الخبر في «المغازي» ٣١٢/١، و«الطبقات الكبرى» ٤١/٢.

(٥) «السيرة» ٤٢/٣.

(٦) «الطبقات الكبرى» ٤١/٢.

بنية، فلقد صدقني اليوم»^(١).

وانهزم جماعة يوم أحد منهم: ثعلبة بن حاطب، والحارث بن حاطب، وخارجة ابن عامر، وسواد بن غزيرة، وسعد بن عثمان، وأوس بن قيثي، وعقبة بن عمار، وعثمان بن عفان في آخرين^(٢). وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: ١٥٥] الآية.

ذكر شهداء أحد

قال ابن عباس: قتل من المسلمين يوم أحد سبعون. وقال ابن إسحاق: خمسة وستون. وقال ابن سعد: سبعة وستون. وزاد غيرهم ونقص فيهم.

الأغر بن ثعلبة: أنصاري اشترك في قتله جماعة، ودفن هو وخارجة بن زيد في قبر واحد.

أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه هند بنت زيد نجارية.

قال أنس بن مالك: غاب عمي أنس عن بدر، فقال: غبت عن أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ، لئن أشهدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع. فلما انهزم الناس يوم أحد، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين -، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه، فلقى سعد بن معاذ فقال له: إلى أين؟ فقال: إني لأجد ريح الجنة قبل أحد. ومضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته، وبه بضع وثمانون جراحة بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

أنيس بن قتادة بن ربيعة الأنصاري.

أوس بن أرقم بن زيد بن النعمان، خزرجي.

(١) «السيرة» ٤٣/٣، وأخرجه الحاكم ٢٧/٣ من حديث ابن عباس.

(٢) «المغازي» ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣).

أوس بن المنذر الأنصاري.

إياس بن أوس بن عتيك، أوسي، قتله ضرار بن الخطاب وكان ضرار يقول: زوّجت عشرةً من أصحاب محمد يوم أحد بالبحور العين، وكان فارس قريش وشاعرها، والتقى في ذلك اليوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضربه بالقناة، ثم رفعها عنه وقال: ما كنت لأقتلك يا ابن الخطاب^(١)، ثم من الله على ضرار فأسلم وحسن إسلامه.

ثابت بن الدّحداح بن نعيم الأنصاري من بني عمرو بن عوف، من الطبقة الأولى أو الثانية من الأنصار، وكنيته: أبو الدّحداح. قال يوم أحد والمسلمون متفرقون: يا معاشر الأنصار، ألا إن كان محمد قد قتل فربّ محمد حيّ لا يموت، قاتلوا عن دينكم. فنهض إليه نفر من الأنصار وقد وقفت له كتيبة خشناء فيها خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، فجعل يحمل عليهم يميناً وشمالاً، فحمل عليه خالد بن الوليد [بالرمح] فأنفذه فسقط ميتاً ومن كان معه^(٢).

وقيل: إنه جرح يوم أحد، وبريء من جراحته، ومات على فراشه من جرح كان أصابه، ثم انتقض عليه مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية. ولم يكن لثابت غير ابن أخته وهو أبو لبابة بن عبد المنذر، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ميراثه^(٣).

وهذا ثابت الذي أقرض ربّه حائطه. قال زيد بن أسلم: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] الآية، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، فذاك أبي وأمي إن الله يستقرض منا وهو غني عن القرض؟ قال: «نعم، يريد أن يدخلكم به الجنة». قال: فإني قد أقرضت لربي عز وجل قرضاً تضمن لي به الجنة؟ قال: «نعم، من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة». قال: وزوجتي أم الدحداح معي؟ قال: «نعم». قال: وصبيتي الدحداحة معي؟ قال: «نعم». قال: ناولني يدك. فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا

(١) «الطبقات الكبرى» ٦/١٣٥-١٣٦.

(٢) «المغازي» ١/٢٨١، و«الطبقات الكبرى» ٤/٢٩٧-٢٩٨.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤/٢٩٨.

أملك غيرهما، وقد جعلتهما قرصاً لله. فقال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما لله والأخرى معيشة لك». قال: فإني أشهدك أنني قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ست مئة نخلة. قال: «إذا يجزيك الله به الجنة».

قال: فانطلق أبو الدحداح حتى أتى أمَّ الدَّحْدَاح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور حول النخل، فأخبرها، فقالت: ربح بيعك، بارك الله لك فيما اشتريت وبعث، وأقبلت إلى صبيانها تُخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم، حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال رسول الله ﷺ: «كم من عَذْقٍ رَدَّاحٍ في الجنة لأبي الدَّحْدَاح»^(١).
ثابت بن عمرو بن زيد، من بني غنم من الطبقة الأولى، ولا يُدرى من قتله، ولا عقب له.

ثابت بن وقش بن زغبة، من بني عبد الأشهل، من الطبقة الثانية من الأنصار.
ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية، وهو الذي نزل فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] وقصته متأخرة عن أحد^(٢).

ثعلبة بن سعد بن مالك، من الطبقة الثانية من الخزرج، عم أبي أسيد^(٣) الساعدي.
ثقيف بن فروة، من الطبقة الثانية من الخزرج.
الحارث بن أنس الأشهلي، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، واستشهد يوم أحد.

الحارث بن ثابت بن عبد الله، من الطبقة الثانية من الأنصار.
الحارث بن أوس بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، وكان في جملة من قتل كعب بن الأشرف، واستشهد وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة.

(١) تفسير الثعلبي ٢/٢٠٧-٢٠٨.

(٢) ثعلبة بن حاطب المذكور هنا استشهد في أحد، أما صاحب القصة التي ذكر المصنف، فهو: ثعلبة بن أبي حاطب، وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه، فهما رجلان. انظر «الإصابة» ١/١٩٨. وانظر قصته في «أسباب النزول» للواحد ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) هكذا في النسخ، وفي «الطبقات الكبرى» ٤/٣٦٧: «عم أبي حميد».

الحُباب بن قَيْظي، من بني عبد الأشهل، قتله ضرار الفهري.

حبيب بن زيد بن تميم، من بني بياضة.

حُسَيْل بن جابر بن ربيعة بن عمرو بن جرّوة العبسي - وهو اليمان أبو حذيفة^(١) - قُتِلَ يومَ أحدٍ غلطاً.

قال عروة: لما اختلط المسلمون يوم أحد وجالوا تلك الجولة، التقت سيوف المسلمين على حُسَيْل ولم يعرفوه، فجعل ابنه حذيفة يقول: أبي أبي، فلم يفهموا قوله حتى قتلوه. فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ما صنعتم قتلتم أبي؟ فزاد قدر حذيفة وارتفع بقوله^(٢).

حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو يعلى، وقيل: أبو عُمارة رضي الله عنه، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه: هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين.

وكانت أمه تقول: والله ما حملته وُضِعاً، ولا وضعته يَتناً، ولا أرضعته غَيْلاً، ولا أنمته على مَاقَةٍ.

وكان حمزة رضوان الله عليه رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: أسنّ منه بثلاث سنين. وكان بيده يوم أحد سيفان يجاهد بهما في سبيل الله ويقول: أنا أسد الله وأسد رسوله^(٣). فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والذي نفسي بيده إنه لمكُتُوبٌ في السماءِ كذلك»^(٤).

وأوصى حمزة رضي الله عنه يوم أحد إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهما، فلما حضر القتال أكَّد الوصية^(٥).

(١) في طبقات ابن سعد ٤/٢٤٩: وجروة هو اليمان، ومن ولده حذيفة.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤/٢٥٠.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/١١.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٩٥٢)، والحاكم ٣/٢١٩ من حديث أبي لبينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«والذي نفسي بيده إنه لمكُتُوبٌ عند الله في السماء السابعة: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

(٥) انظر «المنتظم» ٣/١٧٩.

وعن عثمان بن أبي عمار: أن حمزة سأل رسول الله ﷺ أن يريه جبريل، فقال: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ». قال: بلى. فأراه إياه في الكعبة، ورجلاه مثل الزبرجد الأخضر، فخر حمزة مغشياً عليه^(١).

ولما قتل حمزة رضي الله عنه، ومثلت به هند، مر به أبو سفيان بن حرب فجعل يضرب في شذقه بالرمح [ويقول]: ذُقْ عُقُقْ، فرآه الحُلَيْسُ بن زَبَّان سيد الأحابيش، فصاح: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون، قد صار لحمًا، فقال له أبو سفيان: اكنمها علي فإنها كانت زَلَّةً^(٢).

واشترك معاوية بن المغيرة بن أبي وقاص^(٣) بن أمية، وهند بنت عتبة في المثلة بحمزة رضوان الله عليه، وكان حمزة صائماً في يوم أحد، فقتل على حاله وأذن رسول الله ﷺ لصفية رضوان الله عليها أن تشاهد أخاها حمزة فشاهدته، وقالت: قد مثلوا بأخي وذلك قليل في ذات الله، والله لأصبرنَّ ولأحتسبنَّ. ثم صلَّت عليه واستغفرت له.

وقال أبو هريرة: وقف رسول الله ﷺ على حمزة فنظر إلى شيء لم ير مثله قط، ولا كان أوجع لقلبه منه وقد مثلوا به، فقال: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلَقَدْ كُنْتُ فِيْمَا عَلِمْتُ وَصَوْلًا لِلرَّحِمِ، فَعَالًا لِلْخَيْرَاتِ، وَلَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدَكَ عَلَيْكَ أَوْ تَكُونُ سُنَّةً مِنْ بَعْدِكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدْعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ بَطُونِ السَّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ، أَمَا وَاللَّهِ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ». فنزل جبريل بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخرها، فصبر رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد. وفي رواية: فكفر عن يمينه، ونهى عن المثلة^(٤).

وصلى رسول الله ﷺ على حمزة، وكبر سبعين تكبيرة^(٥).

ولما حُفِر لحمزة نزل في قبره أبو بكر وعمر وعلي والزبير رضي الله عنهم، وجلس رسول الله

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١١/٣.

(٢) «السيرة» ٣٧/٣.

(٣) هكذا هو في النسخ، والصواب: بن أبي العاصي. انظر «جمهرة أنساب العرب» ص ١١٠.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١٢/٣، والطبراني في «الكبير» (٢٩٣٧)، والحاكم ٢١٨/٣.

(٥) «الطبقات الكبرى» ١٤/٣.

ﷺ على شفير القبر وقال: «لقد رأيت الملائكة غسلت حمزة»^(١).

وأمر أن يُوضَعَ على قدميه الحَرْمَلُ، ودفن حمزة وعبد الله بن جحش في قبر واحد^(٢).

وقتل حمزة رضوان الله عليه وهو ابن تسع وخمسين سنة، وقيل: ابن ثلاث وستين سنة.

وبكت نساء الأنصار على قتلاهن، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فذرفت عيناه، وقال: «لكن حمزة لا بواكي له». فسمعه سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، فرجعا إلى نسائهما فساقاهنَّ إلى باب رسول الله ﷺ وقالوا: ابكين حمزة، فبكينه، فدعا لهن رسول الله ﷺ وأمرهن بالانصراف^(٣).

ولما رجع الكفار عن أحد، هرب معاوية بن المغيرة على وجهه فدخل المدينة، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان ابن عمه فضربه، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ: من أنت؟ فقال: أين عثمان؟ فقالت: ليس هو هنا. فقال: أرسلني إليه فله عندي ثمن بعير كنتُ اشتريته منه. وجاء عثمان فنظر إلى معاوية فقال: أهلكتني وأهلكت نفسك. فقال: يا ابن عم، لم يكن أحد أمسَّ بي رحماً منك فأجرني، فأدخله عثمان منزله وصيره ناحية، ثم خرج عثمان ليأخذ له أماناً من رسول الله ﷺ، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مُعَاوِيَةَ بِالْمَدِينَةِ، فَاطْلُبُوهُ». فدخلوا منزل عثمان، فأشارت إليهم أم كلثوم رضي الله عنها بأنه في ذلك المكان الذي هو فيه، فأخرجوه وأتوا به رسول الله ﷺ، فأمر بقتله. فقال عثمان: والذي بعثك بالحق ما جئتُ إلا لأخذ له أماناً، فهبه لي، فوهبه له وأجله ثلاثاً، وأقسم إن وجده بعدها قتله، وخرج رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، وأقام معاوية ثلاثاً يستعلم أخبار رسول الله ﷺ ليأتي بها قريشاً، فلما كان في

(١) «الطبقات الكبرى» ٩/٣.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٩/٣.

(٣) ذكره بهذا اللفظ الطبري في «تاريخه» ٥٣٢/٢، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٥٦٦٦) من حديث ابن عمر ولم يذكر سعداً ولا أسيداً وزاد فيه: «يا ويجهن! أنتن ها هنا تبكين حتى الآن؟! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم».

اليوم الرابع عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة وقال: «إِنَّ مُعَاوِيَةَ بِالْمَدِينَةِ، فَأَقْتُلُوهُ». فتبعه علي وزيد بن حارثة وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فقتلوه بالجَمَاء^(١)، وكان قد هرب. وقيل: أدركوه على ثمانية أميال من المدينة فرموه بالنبل حتى قتلوه. وقيل: إنما تبعه علي رضوان الله عليه فقتله، وليس لمعاوية عَقِبَ إلا عائشة بنت معاوية تزوجها مروان بن الحكم، فولدت له عبد الملك بن مروان^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحسان بن ثابت: يا ابن الفُرَيْعَةِ، لو سَمِعْتَ هنداَ يوم قتل حمزة وهي قائمة على صخرة ترتجز وتذكر ما صنعت بحمزة، وقد بقرت بطنه، فلو رأيتَ أَشْرَهَا وهي تقول:

شَفِيتَ وَحَشِيَّ غَلِيلَ صَدْرِي... الأبيات.

فقال حسان بن ثابت يهجوها^(٣): [من الكامل]

أَشِرْتَ لَكَاعِ وَكَانَ عَادَتَهَا	لَوْمٌ إِذْ أَشِرْتَ مَعَ الْكُفْرِ ^(٤)
أَخْرَجْتَ مُرْقِصَةً إِلَى أَحَدٍ	فِي الْقَوْمِ مُقْتَبَةً عَلَى بَكْرِ
أَخْرَجْتَ ثَائِرَةً مُبَادِرَةً	بِأَبِيكَ وَابْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ ^(٥)
وَبِعَمِّكَ الْمَسْتَوِهِ ذِي رَدَعٍ	وَأَخِيكَ مَنْعَفَرِينَ فِي قَبْرِ ^(٦)
وَنَسِيتِ فَاحِشَةً أَتَيْتِ بِهَا	يَا هِنْدُ وَيَحْكُ سُبَّةَ الذُّكْرِ
زَعَمَ الْوَلَائِدُ أَنَّهَا وَلَدَتْ	وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عَهْرِ
لَعَنَ الْإِلَهُ وَزَوَّجَهَا مَعَهَا	هِنْدَ هَنُودٍ عَظِيمَةَ الْوِزْرِ

ذكر أولاد حمزة رضي الله عنه:

كان له أربعة: يعلى، وعامر وعُمارة، وأمامة.

(١) في النسخ: «الحمى» والمثبت من المصادر.

(٢) انظر الخبر في «المغازي» ١/٣٣٢-٣٣٣، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠٠-٤٠١.

(٣) انظر الخبر في «السيرة» ٣/٣٧، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٢٥-٥٢٦.

(٤) لكاع: اللثيمة.

(٥) في النسخ: «أفرحت ثائرة» والمثبت من «تاريخ الطبري» ورواية الديوان ٣٨٤: «أقبلت زائرة».

(٦) جاء في هامش النسخ: المستوه: الكبير الاست.

فأما يعلى وعامر فأمهما بنت الملة بن مالك، أنصارية أوسية، وعامر دَرَج. وكان لحمزة ولد اسمه بكر من بنت الملة.

وأما عمارة فأمه خولة بنت قيس بن قَهْد أنصارية، وأما أمامة فأمها أسماء^(١) بنت عُمَيْس.

وزوَج النبي ﷺ أمامة بنت حمزة سَلَمَة بن أبي سلمة، وقال: هل جُزيت أبا سلمة^(٢)؟ فهلك قبل أن يصل إليها. وقيل: أصابه خبل فلم يجتمعا، وكان أخوه عمر أسن منه فتزوج أمامة.

وهي التي عُرِضت على رسول الله ﷺ، فقال: «إنها ابنةُ أخي مِنَ الرِّضَاعَةِ»^(٣).

وقال الشيخ موفق الدين رحمه الله تعالى في «الأنساب» عن مصعب الزبيري: أنه كان لحمزة خمسة أولاد لصلبه: يعلى وعمارة وأمامة وأم الفضل وفاطمة، وماتوا من غير أن يُعْقِبُوا^(٤).

وروى علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث إليه بحلة مُسَيَّرَة، وقال: «شَقَّقَهَا خُمُرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ». قال: فشققها بينهن، فأعطيت خماراً لفاطمة بنت أسد - يعني أمه -، وخماراً لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخماراً لفاطمة بنت حمزة^(٥).

ولحمزة رضوان الله عليه رواية.

وقال جابر بن عبد الله: لما أراد معاوية بن أبي سفيان أن يُجْرِيَ العَيْنَ التي تأخذ من أحد إلى المدينة، كتب إلى عامله بذلك، فكتب إليه: إنا لا نستطيع أن نُجْرِيهَا إِلَّا عَلَى قُبُورِ الشَّهْدَاءِ. فكتب إليه: انبشوهم. قال جابر: فرأيتهم يُحْمَلُونَ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ كَأَنَّهُمْ قَوْمُ نِيَامٍ، وَأَصَابَتِ الْمَسْحَاةُ طَرْفَ رَجُلٍ حَمْزَةً فَانْبَعَثَ دَمًا^(٦).

(١) الصواب: سلمى كما في «الطبقات» ٨/٣، و«الإصابة» ٣٣٢/٤.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٨/٣ وفيه: هل جزيت سلمة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

(٤) التبيين ١٤٧.

(٥) أخرجه مسلم مختصراً (٢٠٧١) (١٨)، والطبراني في «الكبير» ٢٤/ (٨٨٧).

(٦) «الطبقات الكبرى» ١٠/٣.

حنظلة بن أبي عامر الراهب، واسم أبي عامر: عبد عمرو بن صيفي بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة، وكان أبو عامر يقول: أنا على دين الحنيفة ودين النبي المبعوث. فلما بعث رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أنت تخلط الحنيفة بغيرها، فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت»، فقال أبو عامر: ما كذبت. فقال رسول الله ﷺ: «أما الله الكاذب منا طريداً وحيداً»، فقال: آمين، ثم حمله الحسدُ على أن يخرج إلى مكة، وأقام عند الكفار وشهد أحداً معهم، ثم رجع إلى مكة فأقام بها إلى عام الفتح، ثم خرج هارباً إلى قيصر فمات بالشام طريداً وحيداً، واختصم في ميراثه عند قيصر علقمة ابن عُلاثة وكنانة بن عبد يا ليل، ففضى به قيصر لكنانة لأنه من أهل المدر، ولم يحكم به لعلقمة لأنه من أهل الوبر^(١).

وكان ابنه حنظلة من خيار المسلمين، مُبايناً لأبيه، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين شماس بن عثمان المخزومي، وحنظلة من الطبقة الثانية من الأنصار، واستأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه فنهاه عن ذلك، وأوصاه به خيراً.

وكان حنظلة قد تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي كان صُبْحُها يومَ أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ في المبيت عندها، فلما أصبح غداً يريد رسول الله ﷺ بأحدٍ وكان قد أجنب منها، فأرسلت زوجته إلى أربعة من قومها فأشهدتهم عليه أنه دخل بها، فقيل لها في ذلك فقالت: رأيتُ كأنَّ السماءَ فُرِجتْ له، ثم دخل فيها وأطبقت عليه فقلت: هذه الشهادة، وعَلِقَتْ منه تلك الليلة بعبد الله بن حنظلة.

وأخذ حنظلة سلاحه، ولحق برسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف، فقاتل معه، فاعترض أبو سفيان حنظلة، فضرب حنظلة عُرقوبَ فرس أبي سفيان فوق، وصاح بقريشٍ وقد استعلاه حنظلة، فرآه شداد بن الأسود بن شعوب^(٢)، فحمل عليه فقتله، فقال أبو سفيان: حنظلة بحنظلة، يعني ابنه.

(١) الخبر في «الطبقات الكبرى» ٢٩٠/٤، و«المنتظم» ١٨٤/٣.

(٢) هكذا في النسخ، والصواب أن اسمه: الأسود بن شعوب كما في المصادر و«جمهرة أنساب العرب» ص

ومرَّ به أبوه فرآه قتيلاً ، فوقف عليه وقال : يا بُنَيَّ قد كنتُ أهدرك مثلَ هذا المصراعِ ولقد كنتَ باراً بأبيك ، شريفَ الخلقِ في حياتك ، وإن مماتك لمع سِراة أصحابك وأشرافهم ؛ لأنه كان مقتولاً إلى جانب حمزة وعبد الله بن جحش ، وصاح أبو عامر : يا معاشر قريش ، لا تمثّلوا بابني^(١) ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن حرب^(٢) : [من الطويل]

ولو شئت نجّنتني كُمَيْتٌ طَمْرَةٌ
أَقَاتِلُهُمْ وَأَدَّعِي يَالَ غَالِبِ
فَبِكِّي وَلَا تَرْعِي مَقَالَةَ عَاذِلِ
وَسَلَّى الَّذِي قَدْ كَانَ فِي النَّفْسِ أَنِّي
فَأَجَابَهُ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ^(٥) : [من الطويل]

وَلَمْ أَحْمِلِ النِّعْمَاءَ لِابْنِ شَعُوبٍ^(٣)
وَأَدْفَعُهُمْ عَنِّي بِرُكْنِ صَلِيبٍ^(٤)
وَلَا تَسَامِي مِنْ عِبْرَةٍ وَنَحِيبِ
قَتَلْتُ مِنَ النِّجَارِ كُلَّ نَجِيبِ
أَلَمْ يَقْتُلُوا عَمْرَأً وَعُتْبَةَ وَابْنَهُ
ذَكَرَتِ الْقُرُومُ الصَّيْدَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَلَمَّا قُتِلَ حَنْظَلَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا شَأْنُ حَنْظَلَةَ ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ
الْمَلَائِكَةَ تُغَسِّلُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَاءِ الْمُزْنِ فِي صُحْفِ الْفِضَّةِ » . قَالَ أَبُو أُسَيْدٍ
السَّاعِدِيُّ : فَذَهَبْنَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذَا رَأَسُهُ يَقْطُرُ مَاءً ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتَهُ ،
فَأَرْسَلْتُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا فَقَالَتْ : إِنَّهُ جَامِعٌ ، فَلَمَّا سَمِعَ الْهَيْعَةَ أَعْجَلَهُ الْأَمْرُ عَنِ الْغَسْلِ ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَلِذَلِكَ غَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ »^(٦) .

قال ابن سعد : فولده يقال لهم : بنو الغسيل .

خارجة بن زيد بن أبي زهير ، أبو زيد الخزرجي الذي نزل عليه أبو بكر الصديق

(١) «المغازي» ١/٢٧٣-٢٧٤ ، و«الطبقات الكبرى» ٤/٢٩١-٢٩٢ .

(٢) الأبيات في «السيرة» ٣/٢٥ .

(٣) الطمرة : الفرس السريعة الوثب .

(٤) الصليب : الشديد .

(٥) البيتان في «السيرة» ٣/٢٦ .

(٦) الخبر في «السيرة» ٣/٢٥ ، و«المغازي» ١/٢٧٤ ، و«الطبقات الكبرى» ٤/٢٩٢ . وأخرجه ابن حبان في

«صحيحه» (٧٠٢٥) من حديث عبد الله بن الزبير .

رضوان الله عليه لما هاجر إلى المدينة، وتزوج ابنته، وخارجة من الطبقة الأولى من الأنصار. وأمه السيدة بنت عامر أوسية، شهد العقبة الثانية وبدراً، وأخذته الرماح يوم أحد، وكانت بضعة عشر رمحاً، فمر به مالك بن الدخشم، فرأى الجراحات قد أنفذت مقاتله، فقال: يا خارجة، أما علمت أن محمداً قد قتل، فقال خارجة: فإن الله حي لا يموت، فقاتل عن دينك، فقد بلغ محمد رسالات ربه^(١).

ومر به صفوان بن أمية فعرفه، فقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر، فمثل به وقال: الآن شفيت نفسي، قتل الأماثل من أصحاب محمد، قتل ابن قوقل، وأوس بن الأرقم، وخارجة^(٢).

ودُفن خارجة وسعد بن الربيع في قبر واحد^(٣)، وقيل: هو والأغر بن ثعلبة.

وكان لخارجة من الولد زيد، تكلم في عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٤)، وحببة تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فولدت له أم كلثوم، وأم حببة بنت خارجة هزيلة بنت عنبه خزرجية، وهي أم سعد بن الربيع^(٥).

خلاد بن عمرو بن الجموح الأنصاري قتل مع أبيه.

خيثمة بن الحارث بن مالك الأوسي، وهو أبو^(٦) سعد، من الطبقة الثانية من

(١) «المغازي» ٢٨٠/١.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤٨٦/٣.

(٣) «المغازي» ٢٦٨/١.

(٤) هكذا جاءت العبارة في نسخنا، وصواب العبارة: وكان لخارجة من الولد زيد بن خارجة، وهو الذي سمع منه الكلام بعد موته في زمن عثمان بن عفان كما في «الطبقات»، وقصته:

أنه لما سجي بثوبه سمعوا جلجلة في صدره، ثم تكلم ثم قال: أحمد أحمد في الكتاب الأول، صدق صدق، أبو بكر الضعيف في نفسه القوي في أمر الله في الكتاب الأول، صدق صدق، عمر بن الخطاب القوي الأمين في الكتاب الأول صدق صدق، عثمان بن عفان على منهاجهم، مضت أربع وبقيت ثنتان أتت بالفتن وأكل الشديد الضعيف، وقامت الساعة، وسيأتيكم عن جيشكم خبر بئر أريس وما بئر أريس؟! ذكر القصة: ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١٩٢٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤)، والبيهقي في

«الدلائل» وصحح إسناده، وابن كثير في «البداية والنهاية» ١٥٦/٦، والصفدي في «الوافي بالوفيات» ١٥/٢٧.

(٥) «الطبقات الكبرى» ٤٨٦/٣.

(٦) في النسخ: «ابن» والمثبت من «الطبقات» ٣١٤/٤.

الأنصار، وأمه من بني جُشم بن معاوية، وهو القائل يوم بدر لابنه سعد: آثرني بالخروج، فقال سعد: لو كان غير الشهادة لآثرتك بها، فقتل سعد ببدر شهيداً، وقتل خيثة بأحد شهيداً، قتله هُبيرة بن وهب المخزومي، وخيثة أحد النقباء الاثني عشر^(١).

ذكوان بن عبد قيس بن خَلْدَةَ، أبو السَّبْع، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه من أشجع، شهد ذكوان العَقَبَتَيْنِ، ولحق برسول الله ﷺ بمكة فأقام معه حتى هاجر إلى المدينة، فكان مهاجراً أنصاريّاً، وشهد بدرّاً، واستشهد يوم أحد، قتله [أبو] الحكم بن شريق، فرآه علي بن أبي طالب فحمل علي [أبي] الحكم فضربه فقطع رجله، ثم ذَفَفَ عليه فقتله^(٢).

رافع بن مالك بن العَجَلان، من بني زُرَيْق، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه مارية^(٣) بنت العَجَلان خزرجية، وهو أول من لقي رسول الله ﷺ بمكة هو ومعاذ بن عَفراء، فأسلما وشهدا العقبة مع السبعين، ولم يشهد بدرّاً، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل^(٤).

رافع بن يزيد بن كُرْز بن سكن بن زَعوراء، من بني عبد الأشهل، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه عقرب بنت معاذ بن النعمان بن امرئ القيس من بني عبد الأشهل، أخت سعد بن معاذ، شهد رافع بدرّاً وأحدّاً، وقُتِلَ في ذلك اليوم شهيداً، وكان له من الولد أسيد قتل يوم الحرّة، وعبد الرحمن، وأمهما عقرب بنت سلامة بن وقش بن زُغبة^(٥).

رفاعة بن [وقش بن] زُغبة بن زَعوراء، قتله خالد بن الوليد^(٦).

رفاعة بن عمرو بن زيد أبو الوليد، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد العقبة مع

(١) هكذا جاء في النسخ، والصواب أن ابنه سعد بن خيثة كان أحد النقباء الاثني عشر. انظر «السيرة» ٦٥ / ٢.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٥٤٨ / ٣، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٣) هكذا جاء في النسخ، وجاء في «الطبقات»: «ماوية».

(٤) «الطبقات الكبرى» ٥٧٣-٥٧٤ / ٣، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من الأنصار.

(٥) «الطبقات الكبرى» ٤٠٧-٤٠٨ / ٣.

(٦) «الطبقات الكبرى» ٢٤٠ / ٤، وما بين معقوفين زيادة منه.

السبعين وبدرأ، وأمه أم رفاعة بنت قيس بن مالك.

زياد بن السَّكَنِ بن رافع أشهلي، وقيل: هو عمارة بن زياد^(١).

سُبَيْع بن حاطب بن قيس بن هَيْشَةَ من الطبقة الثانية من الأنصار، قتله ضرار بن الخطاب^(٢).

سعد بن خَوْلِي بن سبرة من قضاة، من الطبقة الأولى من الأنصار.

سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس الخزرجي، وأمه هُزَيْلَةُ بنت عِنْبَةَ، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار، وهو أحد النقباء الاثني عشر. وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، وهو الذي انطلق بعبد الرحمن بن عوف إلى بيته، وقال: أُقاسِمُكَ مالي ونسائي.

شهد سعد العقبة مع السبعين وبدرأ، ولما كان يوم أحد، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ؟» فقال رجل: أنا، فانطلق، فرآه بين القتلى، فقال: بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، فقال: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام، وأخبره أنني قد طَعَنْتُ اثنتي عشرة طعنة أنفذت مقاتلي، وأخبر قومك أنه لا عُذْرَ لَهُمْ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وواحد منهم حي^(٣). ثم تشهد ومات، ودفن سعد بن الربيع وخارجة بن زيد في قبر واحد، ولما أجرى معاوية الماء إلى المدينة، أُخرجوا من قبريهما طريين^(٤).

قال جابر: قتل سعد يوم أحد وترك ابنتين وامرأة وأخاً، فاحتوى أخوه على ماله، فأتت امرأته رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن سعداً قُتِلَ بين يديك شهيداً، وترك هاتين الابنتين، وإنهما لا ينكحان إلا بمال وجمال، وقد ذهب عمهما بالمال، ولا جمال، فقال لها رسول الله ﷺ: «اذهبي حتى يقضي الله فيك قضاءه»، فذهبت وأقامت حيناً، ثم جاءت فبكت وشكت فنزل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] إلى آخرها. فدعا رسول الله ﷺ أخا سعد، وقال له: «أعط ابنتي سعدِ الثلثين

(١) اختلف في اسمه، انظر «الإصابة» ٥٥٧/١.

(٢) «المغازي» ٣٠٢/١، وفيه سيق، وانظر الخلاف في اسمه في «الإصابة» ١٥/٢.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» ٤٦٥/٢، وابن سعد في «الطبقات» ٤٨٥/٣، عن يحيى بن سعيد مرسلًا.

(٤) في النسخ: «طريين» والصواب ما أثبتناه، انظر «الطبقات» ٤٨٥/٣.

وَأَمَّهَما التُّمْنُ وما بقي فهو لك»^(١).

ولم يورث الحمل ، وورثه بعد ذلك ، وولدت امرأة سعد بنتاً وهي امرأة زيد بن ثابت ، فلما كانت خلافة عمر قال لها : تكلمي في ميراثك من أبيك [إن كنت] تحبين ذلك ، فإن أمير المؤمنين قد ورث الحمل اليوم ، فقالت : ما كنت لأطلب من أختي شيئاً^(٢).

قال الزبيرى : فهو أول ميراث قسم في الإسلام.

سعد بن سويد بن عبيد ، من الطبقة الثانية من الخزرج.

سلمة بن ثابت بن وقش بن زغبة ، من الطبقة الأولى من الأنصار ، وأمه ليلى بنت اليمان أخت حذيفة ، شهد بدرأ ، وقتله أبو سفيان ، وقتل أيضاً أبوه ثابت وعمه رفاعه شهيدين.

سُلَيْم بن الحارث ، وأمه السُميراء ابنة قيس ، نجارية ، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار.

سُلَيْم بن عمرو بن حديدة ، أنصاري.

سهل بن رومي بن وقش ، أوسي ، من الطبقة الأولى من الأنصار ، وهو ابن عم كعب بن مالك ، شهد بدرأ^(٣).

سهل بن عدي بن زيد ، وأمه أميمة بنت قَيْظي ، من الطبقة الثانية من الأنصار من بني عبد الأشهل.

سهل بن قيس بن أبي كعب ، وأمه نائلة بنت سلامة بن وقش ، من الطبقة الأولى من المهاجرين ، شهد بدرأ^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٩٢) ، والترمذي (٢٠٩٢) ، وابن ماجه (٢٧٢٠) ، وأحمد في «مسنده» (١٤٧٩٨).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٣٣٨-٣٣٧/١٠ ، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٣) قوله : وهو ابن عم كعب...إلخ ، هكذا جاءت هذه العبارة هاهنا في جميع النسخ ، وهي مقحمة هاهنا ، لأن سهل بن رومي لم يذكر أحد من العلماء أنه حضر بدرأ ، ثم هو ليس ابن عم كعب بن مالك ، وإنما ابن عمه هو سهل بن قيس بن أبي كعب الآتي ذكره عند المصنف ، وانظر «الطبقات الكبرى» ٢٤٣-٢٤٢/٤ ، و«الإصابة» ٨٧/٢.

(٤) هو ابن عم كعب بن مالك كما تقدم ، وانظر «الطبقات» ٥٣٨/٣.

شمّاس بن عثمان بن الشّريد بن سويد بن هرْمِيّ بن عامر بن مخزوم، من الطبقة الأولى من المهاجرين، كان يسمى: ابن ساقِي العَسَل، لأن جده هرمي كان يسقي العسل بمكة، وكنية شمّاس: أبو المقدام، وقيل: اسمه عثمان وشمّاس لقب له. وأمه صفية بنت ربيعة بن عبد شمس، أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، وكانت معه امرأته أم حبيب بنت يربوع بن عَنكثة، ولما هاجر إلى المدينة نزل على مُبشّر بن المنذر، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين حنظلة بن أبي عامر.

شهد شمّاس بدرًا، وقاتل يوم أحد عن رسول الله ﷺ، وفداه بنفسه، وجرح جراحات كثيرة، وحمل إلى منزل أم سلمة وبه رمق لأنه كان ابن عمها، فلما مات أمر رسول الله ﷺ برده إلى أحد فحمل فدفن هناك، قتله أبي بن خلف وهو ابن أربع وثلاثين سنة.

صيفي بن قيظي بن عمرو، من بني عبد الأشهل، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه: أم الحُباب بنت التَّيَّهان، واسمها: الصعبة ولم يشهد بدرًا، وقتله ضرار الفهري، وضرار قتل أيضاً أخاه لأبيه وأمه الحُباب^(١) بن قيظي.

ضمرة الجهني^(٢).

عامر بن أمية بن زيد بن وقش^(٣)، من الطبقة الأولى من الأنصار.

عامر بن قيس بن نجاري^(٤).

عامر بن مُخَلَّد بن الحارث، وأمه عمارة بنت خنساء، من بني غنم، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا.

(١) في النسخ: «الحارث» والمثبت من «الطبقات الكبرى» ٢٤٣/٤-٢٤٤، و«الإصابة» ٣٠٢/١.

(٢) هو ضمرة بن عمرو بن كعب، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار. انظر «الطبقات» ٥١٩/٣، و«الإصابة» ٢١٢/٢.

(٣) ليس في نسبه وقش، ونسبه: عامر بن أمية بن زيد بن الحَسْحاس بن مالك. انظر «الطبقات» ٤٧٥/٣، و«جمهرة أنساب العرب» ص ٣٥٠.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٤٣٩ فيمن استشهد بأحد، ولم نقف عليه عند غيره، انظر «السيرة» ٦٠/٣، و«المغازي» ٣٠٦/١.

عبّاد^(١) بن سهل بن مخزومة من بني النجار، من الطبقة الثانية من الأنصار، قتله صفوان بن أمية الجُمَحِيّ.

عبادة بن الخَشَخَاش^(٢).

العباس بن عبادة بن نَضْلَة بن مالك بن العجلان، من الطبقة الأولى من الأنصار، من بني ساعدة، وأمه: عُميرة بنت ثعلبة خزرجية، وكان خطيباً، شهد العَقَبَتَيْن وعاد إلى مكة، وهاجر مع رسول الله ﷺ فكان أنصارياً مهاجرياً، وهو من القَوَاقِلَة، قتله صفوان بن أمية، وافتخر بقتله لأنه كان عظيماً، وقيل: شاركه فيه سفيان بن عبد شمس السلمي والد أبي الأعور السلمي الذي كان مع معاوية بصفين.

والعباس من الستة الذين لقوا رسول الله ﷺ بمكة أول الأمر فأسلموا.

عبد الله بن ثعلبة، خزرجي من ولد طريف، وأخوه قيس بن ثعلبة^(٣).

عبد الله بن جحش بن رثاب بن يَعْمَر الأسدي أبو محمد، وأمه: أميمة بنت عبد المطلب.

وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، أسلم قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، ورجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة. وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.

وسمع رجلُ عبدَ الله بن جحش يقول قبل يوم أحد بيوم: اللهم إنا ملاقو هؤلاء غداً، وإنني أقسم عليك لما يقتلونني، ويبقروا بطني، ويجدعونني، فإذا قلتَ لي: لم فعلوا بك هذا؟ قلتُ: فيك ومن أجلك. قال: فلما التقوا، فعلوا به ذلك، فقال الرجل

(١) في النسخ: «عبادة» والمثبت من «الطبقات» ٢٤٣/٤، و«الإصابة» ٢٦٥/٢.

(٢) هو عبدة بن الحساس كما سيأتي.

(٣) ذكرهما الواقدي في «المغازي» ٣٠٢/١، ولم نجد لهما ذكراً عند غيره هكذا، ولعل المصنف جعل قيساً أخاً

لثعلبة من سياق «المغازي». ونص «المغازي» هو: ومن بني طريف: عبد الله بن ثعلبة، وقيس بن ثعلبة،

وطريف، وضمرة حليفان لهم من جهينة. ولعل الصواب ما ذكره ابن هشام في «السيرة» ٦١/٣: ومن بني

طريف رهط سعد بن عبادة: عبد الله بن عمرو بن وهب بن ثعلبة بن وقش بن ثعلبة بن طريف، وضمرة

حليف لهم من بني جهينة رجلان. والظاهر أن قيساً الذي ذكره المصنف مصحف عن وقش، والله أعلم. انظر

«الطبقات» ٣٦٩/٤، و«الإصابة» ٣٥٤/٢.

الذي سمعه: أمّا هذا فقد استُجيب له، وأعطاه الله ما سأل في الدنيا، ونرجو أن يعطى ما سأل في الآخرة، وقتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق، ودفن مع خاله حمزة في قبر واحد، وكان له يوم قتل بضع وأربعون سنة.

عبد الله بن جُبَيْر بن النعمان بن امرئ القيس، أخو خَوَّات صاحب ذات النُّحَيْن^(١)، وأمه من بني عبد الدار^(٢) وهو من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد العقبة مع السبعين وبدراً، واستعمله رسول الله ﷺ على الرُّمّة.

عبد الله بن سلمة العجلاني، من الطبقة الأولى من الأنصار، قتله عبد الله بن الزُّبَيْر.

عبد الله بن عمرو بن حَرَام بن ثعلبة، أبو جابر، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه الرِّباب بنت قيس أنصارية، شهد العقبة مع السبعين، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا.

قال جابر: أصيب أبي يوم أحد، فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وجعلوا ينهونني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، وجعلت فاطمة بنت عمرو تبكيه، فقال لها رسول الله ﷺ: «تَبْكِيهِ - أو لا تَبْكِيهِ - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظَلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وللبخاري عن جابر قال: قال لي أبي من الليل: يا بني إني مقتول غداً، وإنَّ عَلِيَّ دَيْنًا فاقضه، واستوص بأخواتك خيراً، قال: فلما أصبحنا كان أول قتيل^(٤).

وأخرجه الحميدي، وفيه: ما أراني غداً إلا مقتولاً، وإنني لا أترك بعدي أعز علي منك إلا نفس رسول الله ﷺ، قال: فدفننا معه آخر في القبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كما وضعت غير أذنه، فجعلته في قبر علي حدة^(٥).

(١) النحي: هو ظرف السمن، وسيذكر قصتها المصنف في سنة ٤٠، وسلفت في الأمثال من الجزء الثاني.

(٢) في «الطبقات» ٣/ ٤٤٠: من بني عبد الله غَطَفَان.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١) (١٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٥١).

(٥) «الجمع بين الصحيحين» (١٥٨٥).

وقال جابر: قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، أعلمت أن الله أحيا أباك؟ فقال له: تمنّ. فقال: أُرِدُّ إلى الدنيا فأُقْتَل مرة أخرى. فقال: إني قضيت أنهم لا يرجعون»^(١).

وقال جابر: صُرخَ بنا إلى قتلانا يوم أحد حين أجرى معاوية العين، فأخرجناهم بعد أربعين سنة لينة أجسادهم تشني أطرافهم^(٢).

عبد الله بن عمرو بن وهب، من الطبقة الثانية من الأنصار من بني ساعدة^(٣).

عبد الله بن نضلة بن مالك العجلاني أنصاري.

عبد الله بن الهيب وأخوه عبد الرحمن، من بني بكر بن عبد مناة من المهاجرين.

عبد بن الحسحاس^(٤) بن عمرو، شهد بدرًا، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار.

عبيد بن التيهان أخو أبي الهيثم، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد العقبة مع

السبعين وبدرًا، قتله عكرمة بن أبي جهل، وولده عبيد الله بن عبيد قتل يوم اليمامة.

عتبة بن الربيع بن رافع، من بني ثعلبة، أنصاري.

عمرو بن ثابت بن وقش بن زغبة، وأمه ليلى بنت اليمان أخت حذيفة، من الطبقة

الثانية من بني عبد الأشهل، دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة، وذلك لأنه كان شاكًا في

الإسلام إلى يوم أحد، فوقع في قلبه الإسلام، فأخذ سيفه وخرج فقاتل حتى ألقى في

القتلى وبه رمق، فقالوا: ما جاء بك؟ فقال: آمنت بالله وبرسوله، ومات على أيديهم،

فأخبروا رسول الله ﷺ به، فقال: «هو من أهل الجنة»^(٥).

عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري، أبو معاذ، من بني سلمة، قال

رسول الله ﷺ يوم أحد: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقام عمرو

وكان أعرج فقال: والله لأطأَنَّ بعرجتي في الجنة^(٦). ثم قاتل حتى قتل.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٨٨١).

(٢) «الطبقات الكبرى» ٥٢٢/٣.

(٣) هو عبد الله بن ثعلبة المتقدم.

(٤) هو عبادة بن الخشخاش ويقال له أيضاً: عبّاد، وتقدم عند المصنف باسم عبادة بن الخشخاش. انظر

«الإصابة» ٢٦٨/٢.

(٥) ذكره ابن سعد في «الطبقات» ٢٤١/٤.

(٦) ذكره ابن سعد ٣٧٤/٤.

قال أبو طلحة: نظرت إلى عمرو حين انكشفت الناس، ثم تابوا وهو في الرعيل الأول، وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة، ورأيتُ ابنه خلاداً يعدو في أثره، فقتلا جميعاً.

ودفن عمرو وعبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد، فأخرب السيل قبريهما، فحُفِرَ القبر ليعبرَ عنهما^(١) فإذا بهما لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس. وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه، ودفن كذلك، فأميّطت يده عن جرحه، ثم أرسلت فعادت كما كانت، وكان بين حفر القبر ويوم أحد سِتٍّ وأربعون سنةً.

عمرو بن قيس بن زيد بن غنم، من الطبقة الأولى من الأنصار، قتله نوفل بن معاوية الدثلي.

عمرو بن قيس بن مالك أبو حرام النجاري، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه: النجود بنت الأسود.

عمرو بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس أبو عثمان، من الطبقة الأولى من بني عبد الأشهل من القواقلية، وأمه: كَبْشَةُ بنتُ رافع، وهي أم سعد بن معاذ، وأخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين عُمير بن أبي وقاص، قتله ضِرار الفهري وله ثلاثون سنة.

عمرو بن مُطَرِّف بن عمرو، وقيل: ابن علقمة، أنصاري.

عمارة بن زياد.

عترة مولى سليم بن عمرو.

قُرَّة بن عُقبة بن قُرَّة، من حلفاء بني عبد الأشهل.

قَوِّقْل بن عبد الله^(٢).

قيس بن عمرو بن قيس النجاري، من الطبقة الأولى من الأنصار.

قيس بن مُخَلَّد بن ثعلبة، أنصاري من الطبقة الأولى من بني النجار، شهد بدرًا.

(١) جاءت العبارة في «الطبقات» ٣٧٧/٤: فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما فوجدا.

(٢) هكذا جاء في النسخ: «قوِّقْل»، ولم نقف له على ذكر بين الصحابة.

كيسان مولى الأنصار، وقيل: مولى بني مازن، والأصح أنهما اثنان^(١).
مالك بن ثعلبة بن دعد الخزرجي^(٢).

مالك بن خلف بن عوف، من الطبقة الثانية من المهاجرين من بني دارم، وكان هو وأخوه النعمان بن خلف طليعتين للنبي ﷺ يوم أحد، فقتلا، قتل النعمان صفوان بن أمية.

مالك بن سنان بن ثعلبة أبو أبي سعيد الخدري، ومالك من الطبقة الثانية من الخزرج، وهو الذي شرب من دم رسول الله ﷺ يوم أحد لما نزعوا المغفر عن وجهه، ولم يزل مالك يدافع عن رسول الله ﷺ حتى حمل عليه غراب بن سفيان الكِنَاني، فأنفذه. ولما رجع رسول الله ﷺ من أحد، تلقاه أبو سعيد فعزاه في أبيه.

مالك بن عمرو بن ثابت بن كلفة بن ثعلبة بن عمرو بن عوف.

مالك بن نَمَيْلة وهي أمه، وأبوه ثابت المزني. ومالك من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، وذكره ابن سعد في شهداء أحد^(٣).

المجدّر بن زياد بن عمرو البلوي، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، وذكره ابن سعد في شهداء أحد^(٤)، قُتل يوم أحد غيلةً، وكان قد قتل سويد بن الصامت في الجاهلية، وسببه: أن حُضِرَ الكتاب استزار عدة من بني عمرو، منهم سويد بن الصامت، وخوات بن جبير، وأبو لبابة بن عبد المنذر، والمجدّر، فأقاموا عنده ثلاثاً ثم انصرفوا، وكان سويد بن الصامت قد ثَمَلَ من الخمر، فجلس يبول، وكان الشرُّ بين الأوس والخزرج مستعراً، فقتله المجدّر، وذلك الذي أهاج وقعة بُعث^(٥).

(١) انظر «الإصابة» ٣/٣١٠.

(٢) لم نجد له ذكراً بين الصحابة، ولعله هو: النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد، وسيأتي عند المصنف بعد قليل. انظر «الطبقات» ٣/٥٠٧، و«الإصابة» ٣/٥٦٥.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/٤٣٦.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٣/٥١٢.

(٥) أنساب الأشراف ١/١٤٥، والمغازي ١/٣٠٣.

وكان لسويد ابنُ يقال له: الحارث، فلما انقضت وقعة بُعثت رسول الله ﷺ المدينة أسلم الحارث والمجذّر، وشهد المجذّر بدرأً، والحارث يطلب غرّته ليقته بأبيه، فلم يقدر على قتله، فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة، أتاه الحارث من خلفه وهو لا يعلم فقتله، ولما رجع رسول الله ﷺ من حمراء الأسد، أخبره جبريل عليه السلام، وقال: إنما قتله غيلةً، فاقتله به. فركب رسول الله ﷺ إلى قباء، وكان يوماً حاراً، وكان لا يأتي قباء إلا يوم السبت والاثنين، فجعلوا ينكرون مجيئه في غير هذين اليومين، واجتمع الناس وطلع الحارث بن سويد في ملحفةٍ مُورّسةٍ، فقال رسول الله ﷺ لعويمر بن ساعدة: «قدّمه إلى باب المسجد فاضرب عنقه، فقد أخبرني جبريل أنه قتل المجذّر غيلةً» فقدمه عويمر فقتله^(١).

مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله القرشي، ويسمى مصعب الخير، وفتى مكة شاباً وجمالاً، وأمه: خناس بنت مالك بن لؤي.

وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، أسلم قديماً في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكتّم إسلامه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرّاً من أبيه وقومه، وكان أبواه يحبانّه، فرآه عثمان بن طلحة يصلي، فأخبر أباه فحبسه، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى الحبشة، وكان من أنعم الناس عيشاً، وأعطرهم بمكة قبل أن يسلم، فلما أسلم زهد في الدنيا فتخشّف جلده.

وبعثه رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد البيعة الأولى فكان يُقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، حتى أسلم على يده خلق كثير، ثم قدم مكة مع السبعين فأقام بها قليلاً، ثم قدم المدينة قبل رسول الله ﷺ مهاجراً، وهو أول من قدمها، وأول من جمّع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ، وقيل: أول من جمع أسعد بن زرارة. وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهابٌ كبشٍ قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذي قد

(١) أخرجه الواقدي في «المغازي» ٣٠٥/١، ومن طريقه البيهقي في «السنن» ٥٧/٨. وانظر «المنتظم» ٣/

نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترون». فنكس أصحاب رسول الله ﷺ رؤوسهم رحمةً له، وليس عندهم ما يُغيرون به عليه^(١).

وقال محمد بن شرحبيل: حمل مصعبُ بن عمير اللواء يومَ أُحُدٍ، فلما جال المسلمون، ثبت مصعب، فأقبل ابن قميئة فضرب يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه فضربها فقطعها، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه^(٢).

وكان مصعب رقيق البشرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، وقُتِل وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئاً.

وقال عبد الله بن الفضل: قُتِل مصعب فأخذ اللواء ملكٌ في صورة مصعب، [فجعل رسول الله ﷺ يقول له في آخر النهار: تقدم يا مصعب] فالتفت إليه الملك وقال: لستُ بمصعب، فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أُيِّد به^(٣).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أحد، مرَّ على مصعب فرآه مقتولاً على طريقه، فقرأ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٤) [الأحزاب: ٢٣] الآية.

وقال خباب: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد شيئاً نكفنه فيه إلا نمرَةً كُنَّا إِذَا غَطِينَا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَغْطِي بِهَا رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ الْإِذْخَرَ عَلَى رِجْلَيْهِ، وَمَنَا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمْرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِي بِهَا. أخرجاه في «الصحيحين»^(٥).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/١٠٨، والبيهقي في «الشعب» (٦١٨٩).

(٢) «الطبقات الكبرى» ٣/١١٢.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/١١٢، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) «الطبقات» ٣/١١٢-١١٣.

(٥) أخرجه البخاري (٤٠٤٧)، ومسلم (٩٤٠). ويهدبها: يجتنيها.

وكان مصعب من جِلَّةِ الصحابة وسُبَّاقِهِم إلى الإسلام والهجرة، وهاجر قديماً، وهاجر إلى الحبشة في أول من هاجر إليها، وشهد بدرًا. ولم يشهد بدرًا من بني عبد الدار غيره، وكانت له ابنة اسمها زينب وأمها: حَمْنَةُ بنت جحش.

مَعْبَدُ بن مَخْرَمَةَ بن قِلْع بن حَرِيش، من الطبقة الثانية من بني عبد الأشهل، قتله صفوان بن أمية.

المغيرة بن الحارث بن هشام أبو سفيان، مختلف في صحبته^(١).

النعمان بن مالك بن ثعلبة بن عمرو، خزرجي، قتله صفوان بن أمية.

النعمان بن عمرو^(٢) من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمُّهُ السُّمَيْرَاء بنت قيس أنصارية، شهد بدرًا.

نوفل بن عبد الله بن نَضْلَةَ، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، قتله سفيان ابن عُويِف.

وهب بن قابوس المزني، قُتِلَ ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، قدما من جبل مُزِينَةَ بغنمٍ لهما إلى المدينة فوجداها خالية، فقالا: أين الناس، فقيل: بأحد، فتشهدا وخرجا مسلمين، وقالوا: لا نَسْأَلُ أثراً بعد عين، فقاتلا دون رسول الله ﷺ حتى قتلا، فمر بهما رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي قد رَضِيتُ عنهما، فَارْضَ عنهُمَا». ولم يزل واقفاً على قدميه مع ما به من ألم الجراح حتى دفنهما معاً. فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أحب مَوْتَةَ إليَّ أموتها مَوْتَةُ المُرَيْنِيِّينَ^(٣).

يزيد بن حاطب^(٤) أبو حَيَّة من بني ظَفَر، من الطبقة الثانية من الأنصار، وكان أبوه منافقاً.

(١) قال ابن حجر في «الإصابة» ٥٢٨/٣: سقط بين المغيرة والحارث عبد الرحمن، كذلك ذكره البخاري في «تاريخه»، وعبد الرحمن بن الحارث له رؤية، وهو والد أبي بكر أحد فقهاء المدينة، والمغيرة هذا أخوه، وكان مولده في خلافة معاوية، ولم يدرك العصر النبوي قطعاً.

(٢) في «الطبقات» ٤٨١/٣، و«الإصابة» ٥٦٢/٣ اسمه: النعمان بن عبد عمرو.

(٣) «المغازي» ٢٧٤-٢٧٥/١، و«الطبقات» ٢٣٢/٤.

(٤) ويقال: زيد بن حاطب، انظر «الإصابة» ٥٦٤/١.

يزيد بن السَّكَن بن رافع بن امرئ القيس، من الطبقة الثانية من بني عبد الأشهل، وقتل معه ولده عامر بن يزيد.

يسار مولى الهيثم بن التَّيهان.

أبو أيمن مولى عمرو بن الجَموح.

أبو النعمان^(١).

أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة، من الطبقة الثانية من الأنصار نجاري، طعنه خالد ابن الوليد فأنفذه، وقال: أنا أبو سليمان.

أبو سفيان بن قيس^(٢) بن زيد، من الطبقة الثانية من الأنصار.

فهؤلاء شهداء أحد على اختلافهم. وقال الواقدي: قتل يوم أحد أربعة من المهاجرين: حمزة، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان. وقيل: وسعد مولى عتبة، وباقي القوم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين^(٣).

وقد شهد أحداً منافق ويهودي.

فأما المنافق: فُقُزَّمان بن الحارث من بني عَبَس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد عيَّره النساء، فقلن له: ويحك يا قُزَّمان، خرج الناس وبقيت أنت، فخرج شاك في سلاحه، فخرق الصفوف حتى قتل من الكفار تسعة، ونادى: يا معاشر الأوس والخزرج، قاتلوا على الأحساب، ويحمل ويقول: أنا الغلام الظفري، فارتث فمرَّ به قتادة بن النعمان فقال: هنيئاً لك الشهادة. فقال: يا ابن عم، والله ما قاتلت على دين بل على الأحساب والحرم، واشتد به ألم الجراحة فقتل نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٤).

(١) في «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣٢٠: أبو النعمان بن عبد عمرو، وتقدم عند المصنف أنه النعمان بن عبد عمرو. والله أعلم.

(٢) هو أبو سفيان بن الحارث بن قيس «الطبقات» ٤/٢٩٣.

(٣) «المغازي» ١/٣٠٠.

(٤) «المغازي» ١/٢٦٣، و«الطبقات» ٤/٢٦٩-٢٧٠. وانظر كلام الحافظ عليه في «الفتح» ٧/٤٧٣.

وأما اليهودي: فمُخَيَّرِيقُ بنُ مُحَيَّرِيز، وكان يوم أحد يوم السبت فلم يلتفت، وأخذ سلاحه وقال: لا سبت، ثم قال: إن أُصِبتَ فمالي لمحمد ﷺ يصنع فيه ما شاء. ثم جاء إلى أحد فقاتل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريقي خيرُ يهود»^(١).
 وقتل من المشركين نيف وعشرون، منهم حملة اللواء، وأبي بن خلف الجُمَحي، وأبو عَزَّةَ الشاعر.

ترجمة أبي: كان يلقي رسول الله ﷺ فيقول له: عندي فرس أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها. فيقول له رسول الله ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله تعالى». فلما كان يوم أحد رأى رسول الله ﷺ، فقصدته وقال: لا نجوتُ إن نجوت. فأخذ رسول الله ﷺ الحربة فحَدَّشَه في عنقه، فتدهدى عن فرسه يخور كما يخور الثور، ويقول: قتلتني محمد، لو كانت هذه بريعة ومضر لقتلتهم، فقال له أصحابه: لا بأس عليك، إنما هو حَدَّشَ، فقال: أليس قد قال ابنُ أبي كَبْشَةَ: أنا قاتلك؟ والله لو بصق عليَّ بعد هذه المقالة لقتلني، فمات بسرف^(٢). فقال حسان بن ثابت^(٣): [من الوافر]

لقد وَرِثَ الضلالةَ عن أبيه أبي حين بارزه الرسولُ
 أتُفَسِّمُ حين تلقاه بأحدٍ وتُوعِدُهُ وأنت به جهولُ
 وقد قتلت بنو النجار منكم أمية إذ يضيق به السبيلُ

وأما أبو عَزَّةَ فإن رسول الله ﷺ كان قد منَّ عليه يوم بدر، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من أحد، أخذ أبو عَزَّةَ أسيراً ولم يُؤَسِّرْ غيره، فأمر رسول الله ﷺ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بقتله، فقال: عَفُوكَ يا محمد. فقال رسول الله ﷺ: «المؤمن لا يُلدغُ من جُحْرِ مَرَّتَيْنِ، قد عَفَوْتُ عنكَ وهَجَوْتَنِي وأصحابي، والله لا أدعُكَ تَمَسُحُ عليَّ لحيتك بمكة وتقول: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا وأصحابه» فضرب عاصم عنقه^(٤).

(١) «السيرة» ٣/ ٣٤.

(٢) «السيرة» ٣/ ٣١، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٥١٩-٥٢٠.

(٣) الأبيات في «الديوان» ص ٢٩٦، وانظر «السيرة» ٣/ ٣٢.

(٤) «السيرة» ٣/ ٤٦، و«المنتظم» ٣/ ١٧٣، وقوله: «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين» أخرجه البخاري

وأنزل الله في قصة أحد آيات من القرآن منها :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١] الآيات، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية. ومنها قوله تعالى : ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: ١٥٥] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] الآية، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية.

ولما انصرف أبو سفيان بالمشركين عن أحد طالبا مكة، نادى : موعدكم بدر من قابلٍ. فقال رسول الله ﷺ : «قولوا : نعم».

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة وقال لعلي عليه السلام : «اتبعهم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن امتطوا الإبل وأجنبوا الخيل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن ساروا إليها لأناجزنهم فيها».

فقال علي رضوان الله عليه : فخرجت في آثارهم، فأجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وساروا نحو مكة، وكان رسول الله ﷺ قد قال لي : «أي ذلك كان فأخفه حتى تأتيني»، قال : فلما رأيتهم قاصدين مكة، أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم ما أمرني به رسول الله ﷺ من شدة الفرح حيث انصرفوا عن المدينة^(١).

= (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) «السيرة» ٣/٣٨، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٢٧-٥٢٨.

وفيها كانت غزاة حمراء الأسد^(١)، وهي عن المدينة بعشرة أميال.

وسببها: أن أبا سفيان لما انصرف من أحد وبلغ الرُّوحاء، تلاوم هو وأصحابه فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتهم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق غير الشريد تركتموهم، ارجعوا إليهم فاستأصلوهم^(٢).

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يُرعبهم ويُريهم من نفسه ومن المسلمين قوةً، فندب أصحابه إلى الخروج إليهم.

وكان رسول الله ﷺ لما انصرف من أحد تلك الليلة، بات على بابه وجوه الأنصار يحرسونه، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم، فلما أصبح نادى مناديه: لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فانتدب الناس على ما بهم من ألم الجراح، وكلمه جابر بن عبد الله: يا رسول الله، لم أشهد الحرب معك بالأمس فأذن لي في الخروج معك؟ فأذن له، ولم يخرج معه أحد ممن لم يشهد القتال يوم أحد غيره^(٣).

وركب رسول الله ﷺ فرسه وهو مؤثقٌ بالجراحات ومعه سبعون رجلاً من أعيان المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وابن عوف وأبو عبيدة وابن مسعود وغيرهم، وحمل لواءه علي، وقيل: أبو بكر، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وسار حتى بلغ حمراء الأسد وهي على طريق العقيق متياسرةً عن ذي الحليفة، فوجد القوم على عزم الرجوع وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، وبعث رسول الله ﷺ في آثارهم ثلاثة طليعة لهم فقتلوهم، وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بحمراء الأسد فدفن القتلى، وأوقد المسلمون في تلك الليلة خمس مئة نار حتى يُرى ضوءها من مكان بعيد^(٤).

(١) انظر «السيرة» ٤٤/٣، و«المغازي» ٣٣٤/١، و«الطبقات الكبرى» ٤٥/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠٢، و«تاريخ الطبري» ٥٣٤/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/٣١٢، و«المنتظم» ٣/١٧٢، و«البداية والنهاية» ٤٨/٤.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٠١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٤٥/٢.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٤٦/٢.

ومرّ رسول الله ﷺ في طريقه بمَعْبِدِ الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عَيْبَةً^(١) رسول الله ﷺ بتهمته لا يخفون عنه شيئاً، ومَعْبِدٌ يومئذٍ مشرك، فقال له: يا محمد، لقد عَزَّ علينا ما أصابك، ولوَدِدْنَا أن الله كفاك فيهم فما تأمرنا؟ قال: «تُخَذَلْ عَنَّا»^(٢). فسار حتى لحق بأبي سفيان فوجده على عَزْمِ الرجوع إلى حمراء الأسد، فقال له: ما وراءك يا مَعْبِدُ؟ قال: محمد قد خرج في جمع عظيم ما رأيت مثله، وقد اجتمع إليه من كان تخلف عنه بالأمس، وندموا على صنيعهم، وفيهم من الحَنَقِ شيء لم أر مثله قط. فقال: ويحك ما تقول؟ فقال: ما أظنك ترتحل حتى ترى الخيل أو نواصيها، ولقد حملني ما رأيت على أن قلت: [من البسيط]

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدِي بِأَسَدٍ كِرَامٍ سَادَةٍ فَضُلِي عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا خُرْقٍ مَعَاذِلِ
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدَ لَا شَيْءٌ يَمِثْلُهُ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَبْدَيْتُ بِالْقِيلِ
وَقَلْتُ: وَيْحَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ إِذَا أَتَيْتُمْ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فانثني عزم أبي سفيان وعاد إلى مكة^(٣).

وخرج رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد يوم الأحد سادس عشر شوال، وغاب عن المدينة خمس ليال، ولقي أبا عزة الشاعر فقتله على ما ذكرنا. وأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] الآية.

وفي «الصححين»: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير: يا ابن أختي، كان والله أبوك وأبو بكر الصديق من ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية^(٤).

ولقي أبو سفيان ركباً من بني القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: المدينة نمتار منها. فقال: هل أنتم مبلّغون محمداً رسالة، وأحمّل لكم إبلكم زيباً بعكاظ غداً إذا

(١) العيبة: موضع السر.

(٢) هذا الحديث لم يرد في أي من المصادر في هذه الغزوة، وإنما قالها النبي ﷺ لنعيم بن مسعود في غزوة الخندق كما في «السيرة» ٣/ ١٣٧.

(٣) انظر «السيرة» ٣/ ٤٤-٤٥، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

(٤) البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).

وافيتموها؟ قالوا: نعم. فقال: إذا لقيتموه فأخبروه أنا عائدون إليه لنستأصله وأصحابه. ثم سار إلى مكة ومر ذلك الركب بحمراء الأسد فبلغوا الرسالة، فقال رسول الله ﷺ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(١).

فصل وفيها توفي

عثمان بن مظعون^(٢)

وأمه سُخَيْلَة، وعثمان من الطبقة الأولى من المهاجرين، أسلم قديماً. قال يزيد بن رومان: انطلق عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، [وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد] وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم.

وهاجر عثمان إلى الحبشة الهجرتين، وحرّم الخمر في الجاهلية وقال: لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني أن أنكح كريمتي من لا أريد. فنزل تحريم الخمر في سورة المائدة^(٣).

وعثمان خال حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

عن ابن شهاب: أن عثمان بن مظعون أراد أن يختصي ويسيح في الأرض، فقال له رسول الله ﷺ: «أليس لك في أسوة حسنة، فأنا أصوم وأفطر، وأكل، وآتي النساء، إن خِصَاءَ أُمَّتِي الصَّوْمِ، لَيْسَ مِنِّي مَنْ خَصَى وَاخْتَصَى»^(٤).

ومات عثمان رضي الله عنه في شعبان سنة ثلاث من الهجرة، وقيل: في سنة اثنتين، وهو أول من دُفِنَ بالبقيع من المهاجرين، وقبّل رسول الله ﷺ خَدَّهُ لما مات، وسماه السلف الصالح، وكان زاهداً مشغولاً بالتعبد.

(١) «السيرة» ٤٥/٣ .

(٢) انظر ترجمته في «الطبقات الكبرى» ٣/٣٦٥، و«سير أعلام النبلاء» ١/١٥٣، و«الإصابة» ٢/٤٦٤ .

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/٣٦٥، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣/٣٦٦ .

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ دخل على عثمان حين مات فأكبَّ عليه، ثم رفع رأسه وهو يشهق فعرفوا أنه يبكي، ثم قال: «اذهَبْ عَنَّا أبا السَّائِبِ، فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا وَلَمْ تَلْتَبِسْ مِنْهَا بِشَيْءٍ»^(١).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: قبل رسول الله ﷺ خدَّ عثمان بن مظعون وهو ميت، قالت: فرأيت دموعه تسيل على خد عثمان بن مظعون^(٢).

وقالت أم العلاء: اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فمرَّ ضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمك الله أبا السائب، فشهادتي عليك أن الله أكرمك. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدريك أن الله أكرمهُ؟» فقالت: لا أدري. فقال: «أمَّا عثمان فقد جاءهُ اليقينُ، والله إنني لأرجو له الخيرَ، والله ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعلُ بي» فوالله لا أزكي بعده أحداً، فأحزنتني ذلك، قالت: فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذَلِكَ عَمَلُهُ»^(٣).

وعن ابن عباس قال: لما مات عثمان، قالت امرأته: هنيئاً لك الجنة. فنظر إليها رسول الله ﷺ نظرة غضبان، قال: «وما يُدريك؟» قالت: صاحبك. فقال: «إنني لرسول الله وما أدري ما يُفعلُ بي ولا به». فاشتد ذلك على المسلمين حتى ماتت بنت رسول الله ﷺ، فقال: «الْحَقِّي بِسَلْفِنَا عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ»^(٤).

ذكر أولاد عثمان:

كان له من الولد: عبد الله^(٥)، والسائب، وأمهما خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة، سلمية.

فأما السائب: فهاجر إلى الحبشة المرة الثانية مع أبيه، ثم قدم مكة وهاجر إلى

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/١٠٥.

(٢) «الطبقات» ٣/٣٦٨.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٢٧).

(٥) هكذا ورد في النسخ، والصواب: «عبد الرحمن» كما في «نسب قريش» ص ٣٩٤، و«الطبقات» ٣/٣٦٥.

المدينة، وكان من الرماة المذكورين، أصابه سهم يوم اليمامة في خلافة أبي بكر فمات وهو ابن بضع وثلاثين سنة^(١)، وولد ولأبيه ثلاثون سنةً.

وقال ابن سعد: كان لعثمان ابنة يقال لها: زينب، تزوجها عبد الله بن عمر بعد وفاة أبيها، وزوجه إياها عمها قدامة، فأرغبهم المغيرة بن شعبة في الصِّداق، فقالت أم الجارية: لا تُجيزي، فكرهت الجارية النكاح، وأعلمت رسول الله ﷺ ذلك هي وأمها، فنكحها المغيرة بن شعبة^(٢).

أسند عثمانُ الحديثَ عن رسول الله ﷺ.



(١) توفي في سنة اثني عشرة، وسيذكره المصنف هناك، وانظر «الطبقات» ٣/ ٣٧٢.

(٢) «الطبقات» ١٠/ ٢٥٥.

السنة الرابعة من الهجرة

فيها: كانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي إلى قَطْن^(١)، جبلٍ بالحجاز ناحية قُدَيْد^(٢)، في هلال المحرم في مئة وخمسين رجلاً يقصد طليحة وسَلْمَةَ ابني خويلد، وكانا قد جمعا لرسول الله ﷺ فهربا، فساق أبو سلمة نَعَمَهَا وشاءهما إلى المدينة.

وفيها: كانت سرية عبد الله بن أنيس^(٣)، في المحرم إلى سفيان بن خلف^(٤) الهذلي، وكان ينزل بطن عُرْنَةَ، وكان قد جمع لرسول الله ﷺ، قال عبد الله بن أنيس: فقلت: يا رسول الله، صفه لي. فوصفه فأخذت سيفي وقصدته، فلما جئته، قال: من الرجل؟ قلت: من خُزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك. فاستحلى حديثي حتى إذا تفرق عنه أصحابه نام، فقتلته فجئت برأسه أحمله، فدخلت غاراً في جبل وجاءت عنكبوت فנסجت على بابه، وجاء الطلب فوجدوا العنكبوت قد سدت على الباب فرجعوا، وجئت برأسه إلى رسول الله ﷺ وقال: «أفلح وجهك». ودفع إلي عصاة، وقال: «تخصّر بهذه في الجنة»^(٥).

وفيها: كانت قصة بئر معونة^(٦)، قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مُلَاعِب

(١) انظر «المغازي» ٣٤٠/١، و«الطبقات الكبرى» ٤٦/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣١٩/٣-٣٢٠، و«المنتظم» ١٩٧/٣، و«البداية والنهاية» ٦١/٤.

(٢) هكذا ورد في النسخ: «قديد» والصواب: «فيد» كما في «الطبقات» ٤٦/٢، و«معجم البلدان» ٣٧٥/٤.

(٣) انظر «السيرة» ٦١٩/٢، و«المغازي» ٥٣١/٢، و«الطبقات الكبرى» ٤٧/٢، و«تاريخ الطبري» ١٥٦/٣، و«المنتظم» ١٩٧/٣، و«البداية والنهاية» ١٠٤/٤.

اختلف في تاريخ هذه السرية: فذكرها المصنف في هذه السنة تبعاً لابن سعد، وذكرها الطبري في السنة العاشرة، وقال ابن حبيب في «المحبر» ص ١١٩: إنها في سنة خمس، والله أعلم.

(٤) هكذا وردت في النسخ، والصواب: «خالد» كما في المصادر.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٤٨-٤٧/٢ وأحمد في «مسنده» (١٦٠٤٧).

(٦) انظر «السيرة» ١٨٣/٢، و«المغازي» ٣٤٦/١، و«الطبقات الكبرى» ٤٨/٢، و«تاريخ الطبري»

٥٤٥/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣٣٨/٣، و«المنتظم» ١٩٨/٣، و«البداية والنهاية» ٧١/٤.

الأسِنَّة - وكان سيد بني عامر بن صعصعة - على رسول الله ﷺ المدينة في صفرٍ على رأس أربعة أشهر من أحد، وأهدى لرسول الله ﷺ هدية، فأبى أن يقبلها وقال له: «يا أبا براء، لا أقبلُ هديَّةَ مُشْرِكٍ، فإن أردت أن أقبلَ هديَّتكَ فأسَلِم». ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه، وما وعد الله المؤمنين من الثواب، وقرأ عليه القرآن، فلم يسلم ولم يُبعده عن الإسلام، وقال: يا محمد، إن الله أمرك بهذا الذي تدعو إليه، والله إنه لحسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، وإلى قومي تدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «أخشى عليهم أهلَ نجد». فقال أبو براء: أنا لهم جار إن تعرَّض لهم أحد.

فبعث لهم رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو بن لؤذان أخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين من القراء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بني عامر وحرّة بني سليم - فقال بعضهم لبعض: أيكم يُبلِّغُ رسالة رسول الله ﷺ أهلَ هذا الماء؟ فقال حرامُ بنُ ملحان: أنا، فخرج بكتاب رسول الله ﷺ وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل، فلما أتاه بالكتاب لم ينظر فيه عامر، فقال حرام: يا أهل بئر معونة، إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم فأمنوا بالله ورسوله، فخرج رجل من كسر البيت برمحٍ فضرب به جنبه، فخرج من الجانب الآخر، فقال: الله أكبر فزت وربّ الكعبة. ثم استصرخ عامر ابن الطفيل بني عامر على المسلمين، فأبوا أن يُنجدوه، وقالوا: أبو براء قد عقد لهم عقداً وجواراً فلا نخفرُ ذمته، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم عُصيّة، وريغلاً، وذكوان، فأجابوه وأحاطوا بالقوم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان في سرح المسلمين عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو ابن عوف، فلم يُنبِّههما على مصاب أصحابهما إلا الطير يحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، والخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ قال: نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو. ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذ عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر، أطلقه عامر بن الطفيل، وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة، وزعم أنها كانت عن أمه، فقدم عمرو

ابن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: «هذا من عمل أبي براء، والله لقد كنتُ كارهاً لهذا متخوفاً». وبلغ أبا براء فشق عليه إخفارُ عامرٍ إياه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره^(١).

فقال حسان بن ثابت يحرض بني أبي براء على عامر بن الطفيل^(٢): [من الوافر]

بني أمّ البنين ألم يرُعْكُمْ
تَهْكُكُمْ عامرٌ بأبي براء
أبوك أبو الحُرُوبِ أبو براء
وقال كعب بن مالك^(٣): [من الوافر]

لَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً كُلَّ وَجْهِ
بَنِي أُمِّ الْبَنِينَ أَمَا سَمِعْتُمْ
وَتَنْوِيهِ الصَّيْرِيخِ بَلَى وَلَكِنْ
عَرَفْتُمْ أَنَّهُ صَدَقُ اللَّقَاءِ

قال: فلما بلغ ربيعة بن أبي براء قول حسان وكعب، حمل على عامر بن الطفيل فطعنه، فخر عن فرسه فقال: هذا عمل أبي براء، إن مت فدمي لعمي لا يتبع به، وإن أعش فسأرى فيه رأيي^(٤).

وقال أنس بن مالك: فأنزل الله في شهداء بئر معونة قرآناً: (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) ثم نسخت بعد ما قرأناها زماناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية^(٥). هذا كلام الثعلبي.

ولما أطلقوا عمرو بن أمية الضمري، خرج قاصداً إلى المدينة، حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر فنزلا تحت شجرة وناما وكان معهما عقْدٌ وجوارٌّ من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمرو، وكان قد سألهما: من أنتما؟ فقالا:

(١) النقل عن «السيرة» ١٨٣/٢-١٨٤.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٥٤٨/٢، والسيرة ١٨٧/٢.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٥٤٨/٢-٥٤٩.

(٤) «تاريخ الطبري» ٥٤٩/٢.

(٥) أخرجه البخاري (٢٨١٤)، ومسلم (٦٧٧) ولم يذكر الآية الناسخة، وانظر «تاريخ الطبري» ٥٥٠/٢.

من بني عامر. فلما ناما قتلتهما عمرو وهو يرى أنه قد أصاب ثأراً ممن قتل أصحابه، ثم قدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فودى الرجلين الذين قتلتهما عمرو.

ذكر أعيان شهداء بئر معونة:

أمير السرية: المنذر بن عمرو بن لؤذان من الطبقة الأولى من الخزرج، وأمه هند بنت المنذر من بني سلمة، وكان يكتب في الجاهلية بالعربية، شهد العقبة مع السبعين، وهو أحد النقباء الاثني عشر، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين طليّب بن عمير، وشهد المنذر بدرأً وأحدأً، ولما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: «مَشَى إِلَى الْمَوْتِ فَاعْتَنَقَهُ وَهُوَ يَعْرِفُهُ»^(١).

عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضوان الله عليه، وهو أخو عائشة رضي الله عنها، أم رومان، وكنيته أبو عمرو، واشتراه أبو بكر فأعتقه، وكان يعذب في الله بمكة، من المستضعفين، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، أسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر مع رسول الله ﷺ، وكان يرعى الغنم لما كان رسول الله ﷺ في الغار، وشهد بدرأً وأحدأً، وقتل ببئر معونة وهو ابن أربعين سنة.

وقال عروة: كان عامر بن الطفيل يقول: من منهم الرجل الذي لما قتل رأيتَه قد رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه؟ قالوا: عامر بن فهيرة^(٢).

وطعنه جبار بن سلمى فأنفذه، فقال: فزت ورب الكعبة. فقال جبار: فما معنى هذا؟ قالوا: الجنة، فأسلم جبار.

وقال الزهري: بلغني أنهم التمسوا جسده فلم يقدرُوا عليه، فيرون الملائكة دفنته^(٣).

الحكم بن كيسان مولى بني مخزوم، من الطبقة الأولى من المهاجرين^(٤)، أسرف في

(١) «الطبقات» ٣/ ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٩٣).

(٣) «الطبقات» ٣/ ٢١١-٢١٢.

(٤) عده ابن سعد في الطبقة الثانية من المهاجرين، «الطبقات» ٤/ ١٢٨.

الغير التي أخذها عبد الله بن جحش بنخلة، فلما قدم على رسول الله ﷺ أسلم وحسن إسلامه.

وهب بن سعد بن أبي سرح أخو عبد الله، من الطبقة الأولى من المهاجرين، وأمهما مَهانة بنت جابر من الأشعريين، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سُويد بن عمرو، فقتلا جميعاً ببئر معونة^(١).

حَرَام بن مِلْحَان النَجَّاري من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه مُلَيْكَةُ بنت مالك نجارية، هو خال أنس بن مالك، وقتل معه في ذلك اليوم أخوه سليم بن مِلْحَان، شهد حَرَامُ العقبه مع السبعين وبدراً وأحدًا.

خالد بن ثابت بن النعمان، من الطبقة الثانية من الأنصار، ظفري شهد أحدًا.

الحارث بن الصِّمَّة بن عمرو أبو سعد، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه تُمَاضِر بنت عمرو بن قيس عَيْلان، وهو الذي كُسِرَ بِالرَّوْحَاءِ لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، فَضْرَبَ له بسهمه وأجره، وباع رسول الله ﷺ على الموت يوم أحد، وقتل يومَ أحدٍ عِتْبَانَ بنَ المغيرة المخزومي^(٢)، وأخذ سلبه ولم يُسَلَبْ سواه، وللحارث عقب بالمدينة وبغداد، وقتل ولده سعيد بن الحارث مع علي ﷺ بصفين^(٣).

عبد الله بن قيس بن صِرْمَةَ الأنصاري، من الطبقة الثانية من بني النجار، وأمه زينب بنت قيس، شهد أحدًا.

سعد بن عمرو بن ثَقْف، من الطبقة الثانية من الأنصار، شهد أحدًا ولم يُعَقَّب.

الضَحَّاك بن عبد عمرو بن مسعود، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه السُّميراء بنت قيس أشهلية، شهد بدرًا وأحدًا.

قُطْبَةُ بن عبد عمرو بن مسعود أخو الضحَّاك لأبويه، شهد أحدًا.

(١) جاء في «الطبقات» ٣/ ٣٧٧، و«الإصابة» ٣/ ٦٤٢، أنهما قتلا يوم مؤتة، وعد ابن هشام وهب بن سعد في شهداء مؤتة. «السيرة» ٢/ ٣٨٨.

(٢) هكذا هو في النسخ، وفي «الطبقات» ٣/ ٤٧١: عثمان بن عبد الله بن المغيرة.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٤٧١.

مسعود بن سعد بن قيس، من الطبقة الثانية من بني زُرَيْق من الأنصار، شهد أحداً^(١).

معاذ بن ماعص بن قيس بن خَلْدَة من بني زُرَيْق، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه من أشجع، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سالم مولى أبي حذيفة.

وفيها: كانت سرية مَرْتَد بن أبي مَرْتَد الغنوي إلى الرَّجِيع^(٢)، وكانت في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجرته ﷺ.

قال أبو هريرة: قدم رَهْطٌ من عَضَلٍ والقارة على رسول الله ﷺ بعد أحد، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً وخيراً، فأبعث معنا نفراً من أصحابك يُفَقِّهونا في الدين، ويُعَلِّمونا القرآنَ والشرائعَ، فبعث معهم رسول الله ﷺ نفراً ستة من أصحابه: مَرْتَد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب، وخالد بن البكير حليف بني عدي بن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخا بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي أخا بني جَحْجَبِي بن كُفَّة بن عمرو بن زيد^(٣) بن عوف، وزيد بن الدثنة أخا بني بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليفاً لبني ظفر، ويقال: ومُعْتَب بن عبيد، وأمر عليهم مَرْتَد بن أبي مَرْتَد.

فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم - غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرعهم إلا وقد غشيهم القوم بالسيوف، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا: إنا لا نريد قتالكم، ولكن نريد أن نصيب بكم من أهل مكة شيئاً، ولكم علينا عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مَرْتَد بن أبي مَرْتَد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبلُ من مشركٍ عهداً. وقاتلوهم حتى قُتِلوا جميعاً.

وأما زيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق فرغبوا في الحياة وأعطوا

(١) وشهد بديراً أيضاً، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى «الطبقات» ٥٥١/٣.

(٢) «السيرة» ١٦٩/٢، و«المغازي» ٣٥٤/١، و«الطبقات الكبرى» ٥١/٢، و«تاريخ الطبري» ٥٣٨/٢،

و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣٢٣/٣، و«المنتظم» ٢٠٠/٣، و«البداية والنهاية» ٦٢/٤.

(٣) ليس في نسبه «زيد» وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص ٣٣٠.

بأيديهم. فأسروا، فلما وصلوا إلى مرّ الظهران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه بمرّ الظهران، وقدموا بخييب وزيد إلى مكة فباعوهما، فأما خييب فابتاعه حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميمي أخو الحارث بن عامر لأمه ليقتله الحارث بن نوفل، وكان خييب قتل عامراً يوم بدر فقتله به، وأما زيد بن الدثنة فقتله صفوان بن أمية^(١).

ذكر ترجمة عاصم:

واسم أبي الأقلح قيس بن عظمة بن مالك من بني ضبيعة، وكنية عاصم: أبو سليمان، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه الشموس بنت أبي عامر الراهب، وأمها عميرة بنت الحارث، شهد عاصم بدرًا وأحدًا، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد لما انهزم الناس عنه، وبايعه على الموت، وكان من الرماة المذكورين، وقتل يوم أحد أصحاب اللواء مسافعًا والحارث، وكانت سلافة بنت سعد أمهما نذرت أن تشرب الخمر في قحف عاصم، وجعلت لمن جاء برأسه مئة ناقة، فلما قال المشركون: إنا لا نريد قتلكم، قال عاصم: أما أنا فلا أقبل جوار مشرك. وجعل يقاتلهم حتى فني نبله، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه، فقال: اللهم إني حميت دينك أول النهار، فاحم لحمي آخره، فجرح رجلاً وقتل واحداً وقتلوه، وأرادوا أن يحزوا رأسه، فبعث الله الدبر فحمته، ثم بعث الله سيلاً في الليل فحملة، وكان قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك تنجساً منه. فلهذا أكرمه الله باحتمال السيل إياه، فكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول: عجباً لحفظ الله العبد في حياته وبعد مماته.

وكان لعاصم ولد اسمه محمد، وأمه هند بنت مالك، ومن ولد محمد الأحوص الشاعر، وهو عبد الله بن محمد بن عاصم^(٢).

خالد بن البكير بن عبد ياليل بن كنانة شهد بدرًا وأحدًا، وقتل في هذا اليوم، وله أربع وثلاثون سنة.

(١) «السيرة» ٢/١٦٩-١٧١.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٤٢٨.

خُبَيْب بن عدي الأنصاري من بني عمرو بن عوف، من الطبقة الأولى من الخزرج، لما أسر على ما تقدم، وقدم مكة ابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف. وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى ليستجدَّ بها فأعارته، فدرج لها ابنٌ صغيرٌ وهي غافلةٌ عنه حتى أتاه، فأخذه فوضعه على فخذه والموسى بيده، ففزعت المرأة فزعةً عرفها خبيب وقالت: أصاب الرجلُ واللهِ ثأره. فقال خبيب: أتحسبن أنني أقتله؟ قالت: نعم. فقال: ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، ليس الغدرُ من شأننا. وكانت المرأة تقول: والله ما رأيت أسيراً قط مثل خبيب، لقد رأيت يوماً يأكل قِظفاً من عنب في يده، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لرزق الله ساقه الله إليه، وإنه لموثقٌ في الحديد. فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلِّ، قال لهم: دعوني أصلي ركعتين. فتركوه، فركع ركعتين وقال: والله لولا يحسبوا أن ما بي جَزَعٌ من الموت لزدت ثم قال: [من الطويل] ولستُ أبالي حين أُقتلُ مُسليماً على أي جنبٍ كان في الله مَصْرَعِي وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأُ يُباركُ على أوصالِ شِلْوِ مُمَزَّعِ ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً. فقام إليه عقبه بن الحارث وكنيته أبو سِرْوَعَةَ فقتله، وكان خُبَيْبٌ هو الذي سنَّ الصلاة لكل مسلم قُتِلَ صَبْرًا. وأخبر رسولُ الله ﷺ أصحابه يومَ أُصيبوا خَبْرَهُمْ^(١).

ثم أسلم أبو سِرْوَعَةَ بعد ذلك وحسن إسلامه.

وقال سعيد بن عاصم: شهدت مصرعَ خبيب، وقد بَضَعَتْ قريشٌ لحمه وحملوه على جِذْع، وقالوا: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي، وأن محمداً شِيكٌ بشوكة، ثم نادى: وامحمداه، فقتلوه ﷺ^(٢).

وعن جعفر بن أمية، عن أبيه قال: بعثني رسول الله ﷺ وحدي عيناً إلى قريش، فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون فرقيتُ فيها، وحللتُ خبيباً فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفتُ فلم أر خبيباً وكأنما ابتلعتهُ الأرض، فلم ير

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/٢٤٦.

لخبيبٍ أثرٌ حتى الساعة^(١).

زيد بن الدثنة بن معاوية، من الطبقة الثانية من الأنصار شهد أحداً، واشتراه في هذه السرية صفوان بن أمية ليقته بأبيه، فأخرجه إلى التنعيم، ثم قام إليه نسطاس غلام صفوان فقتله رضي عنه^(٢).

* * *

وفيهما كانت سرية عمرو بن أمية الضمري إلى مكة ليقول أبا سفيان في ربيع الأول^(٣).

* * *

وفيهما كان إجلاء بني النضير^(٤)، في ربيع الأول، وهم حيٌّ من يهود خيبر، دخلوا في العرب وهم على نسبهم إلى هارون عليه السلام، وسبب إجلائهم: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، صالحته اليهود على أن لا يقاتلوه ولا يظاهروا عليه، فلما ظهر يوم بدرٍ على الكفار قالت النضير: هذا هو النبي المبعوث الذي لا تُردُّ له راية، فلما جرى يوم أحد ما جرى ارتابوا، وناقوا، وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: لو كان هذا نبياً ما جرى عليه ما جرى، وأجمعوا على الفتك به، فبعثوا إليه أن اخرج في ثلاثين من أصحابك، ويخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان كذا، وهو نصف بيننا وبينك، فيسمعوا منك، فإن آمنوا آمننا كلنا.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من أصحابه، وخرجوا هم في ثلاثين حبراً، فلما

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٢٥٢) من حديث عمرو بن أمية الضمري.

(٢) «السيرة» ١٧٢/٢.

(٣) «السيرة» ٦٣٣/٢، و«الطبقات الكبرى» ٩٠/٢، و«تاريخ الطبري» ٥٤٢/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣٣٣/٣، و«المنتظم» ٢٦٥/٣، و«البداية والنهاية» ٦٩/٤. وذكرها ابن الجوزي وابن كثير في حوادث السنة السادسة.

(٤) «السيرة» ١٩٠/٢، و«المغازي» ٣٦٣/١، و«الطبقات الكبرى» ٥٣/٢، و«تاريخ الطبري» ٥٥٠/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ١٧٦/٣ و٣٥٤، وتفسير الثعلبي ١٣٨-١٣٩/٦، و«المنتظم» ٢٠٣/٣، و«البداية والنهاية» ٧٤/٤.

أصحروا قالوا: كيف نخلصُ إليه ومعه ثلاثون من أصحابه، وكل واحدٍ منهم يحب أن يموتَ قبله، فأرسلوا إليه: اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا، فإن الكثرة تمنع السماع، فخرجوا في ثلاثة نفر، وخرج في ثلاثة، وكانوا قد اشتملوا على الخناجر المسمومة ليقتلوه، فأرسلت امرأة من اليهود إلى أخيها وكان مسلماً من الأنصار، فأخبرته بما عزموا عليه، فسبقهم إلى رسول الله ﷺ فساره بذلك، فرجع من الطريق، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصروهم^(١).

وقال الواقدي: وكان السبب في ذلك أن عامر بن الطفيل بعث إلى النبي ﷺ يقول: إنكم قتلتم رجلين لهما منكم جوارٌ وعهد، فابعث إلينا بديتَيْهما - يريد اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري عند مرجعه من بئر معونة - فانطلق رسول الله ﷺ إلى قُباء، ثم مال إلى بني النضير يستعين بهم في دية الرجلين - وكان بين بني عامر وبني النضير حلفٌ وعقد -، وكان معه أبو بكر وعمر وعلي وأسيد بن الحضير رضي الله عنه، فلما استعان رسول الله ﷺ ببني النضير قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك بما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً على مثل هذه الحالة - وكان رسول الله ﷺ جالساً إلى جانب دار من بيوتهم -، فقالوا: مَنْ يعلو هذا الجدار فيرمي عليه صخرة فيقتله ونستريح منه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا فوالله ليُخبرنَّ بما قد عزمتم عليه، وأخذ عمرو الصخرة وعلا على الجدار، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فقام من مكانه، وعاد إلى المدينة وأخبر أصحابه بما عزموا عليه، وتهاياً لحربهم، وكانت منازلهم بناحية الغرس وما والاها، مقبرة بني خزيمة اليوم، وخرج رسول الله ﷺ إليهم يوم السبت في ربيع الأول، وحمل لواءه علي رضي الله عنه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وسار في المهاجرين والأنصار، فتحصنوا بالحصون، ورَمَوْه بالنبل والحجارة، فقاتلهم، وقطع نخلهم وحرَّق، ثم أرسل إليهم محمد بن مسلمة يقول: قد نقضتم العهد، وهممتم بالغدر، فاخرجوا من بلادي ولا تساكنوني أبداً.

فلما بلغ محمدُ الرسالة قالوا: يا محمد، ما ظننا أن يجيئنا بمثل هذه الرسالة رجل

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٣٣)، وأبو داود (٣٠٠٤)، والبيهقي في «الدلائل» ١٧٦/٣.

من الأوس، فقال محمد: معا الإسلام العهود وغير القلوب، فقالوا: نعم نتحمل إلى غير هذه البلاد.

فأرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول: لا تخرجوا فإنّ معي من العرب ومن قومي ألفين، وأنا واصل إليكم وداخل معكم حصونكم، وقرينة داخلون معي.

وبلغ ذلك كعب بن أسيد صاحب عهد بني قريظة، فقال: لا والله لا ينقض العهد رجل من قريظة وأنا حي، فقال سلام بن مشكم لحبي بن أخطب: يا حبي، إقبل ما قال محمد، فأبى عليه وقال: لا ندع ديارنا وأموالنا، فاصنع ما بدا لك، فرجع محمد بن مسلمة إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، فحاصروهم خمس عشرة ليلة، وقيل: ست ليال، ثم خذلهم حلفاؤهم بنو غطفان وعبد الله بن أبي بن سلول، فيئسوا من النصر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الصلح على حنّ دمائهم وله الحلقة والمال، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، ويجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً^(١).

وقال الزهري: إنما صالحهم على ما أقلت الإبل من شيء إلا الحلقة، فخرج رؤسائهم إلى خيبر وهم: حبي وجدي وأبو ياسر ومالك بنو الأخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، وسلام بن أبي الحقيق، فأقاموا بخيبر، وتوجه الباقر إلى أذرعات الشام^(٢).

قال ابن إسحاق: وكانت أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها في المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف، وأبا دجاجة سيماك بن خرشة، والحارث بن الصمة، فإنهم شكوا إلى رسول الله ﷺ فقراً وفاقة، فأعطاهم منها، ولم يسلم من بني النضير سوى يامين بن عمير بن كعب وأبي سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما^(٣).

وكان في أموال بني النضير خمسون درعاً، وخمسون بيضة، وثلاث مئة وأربعون

(١) «المغازي» ١/٣٦٤-٣٧٥.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢/٥٥٤.

(٣) «السيرة» ٢/١٩٢، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٥٤-٥٥٥.

سيفاً، ولم يخمسها ولم يقسمها، وكانت حُبساً لنوائبه، ونفقة أهله سنة، وما فَضَلَ جعله في سبيل الله^(١).

قال ابن الكلبي: أعطى رسول الله ﷺ منها تبرعاً أبا بكر بئر حجر، وعمر بئر جرم، والزبير البويرة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي حَزْنًا^(٢). وحَزَنَ المنافقون وابنُ أبي عليهم حُزْنًا كثيراً.

قال عكرمة: ولما سار رسول الله ﷺ إليهم وجدهم يبكون وينوحون على سيدهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد، واعية على أثر واعية، وباكية على أثر باكية؟ قال: «نعم أنتم قومٌ غُدْرٌ فُجْرٌ». فقالوا: ذرنا نبكي شَجُونًا، ثم ائتمر بأمرك، فقال: «اخرجوا من جوارِي»، فقالوا: الموت أهون علينا من فراق أوطاننا وأموالنا، وتنادوا بالحرب، ودرّبوا الأزقة وحصّنوها، وقاتلوا رسول الله ﷺ، ثم صالحوه ونزلوا على حكمه كما ذكرنا.

وأنزل الله تعالى سورة الحشر بأسرها في بني النضير.

غزاة بدر الصغرى للموعد^(٣)

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في شعبان، وقيل: في شوال، لموعد أبي سفيان في ألف وخمس مئة من المسلمين، وعشرة أفراس، وسلاح كثير وعدة. وخرج أبو سفيان من مكة في ألفين ومعه خمسون فرساً، فبلغ عُسْفَانَ، وقيل: مَجَنَّةً، وقيل: مَرَّ الظهران.

وأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان، فمر به مَخْشِي بن عمرو الضمري، فقال

(١) «المغازي» ١/٣٧٧-٣٧٨.

(٢) النص في «الطبقات» ٥٥/٢: فكان ممن أعطى ممن سُمي لنا من المهاجرين أبو بكر الصديق بئر حجر، وعمر بن الخطاب بئر جرم، وعبد الرحمن بن عوف سائلة، وصهيب بن سنان الضراطة، والزبير بن العوام وأبو سلمة بن عبد الأسد البويلة، وسهل بن حنيف وأبو دجانة مالا يقال له مال ابن خرشة. وانظر «المغازي» ١/٣٧٩-٣٨٠، وليس فيه ذكر عبد الله بن عبد الله بن أبي.

(٣) «السيرة» ٢/٢٠٩، و«المغازي» ١/٣٨٤، و«الطبقات الكبرى» ٥٥/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠٤، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٥٩، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/٣٨٤، و«المنتظم» ٣/٢٠٤، و«البداية والنهاية» ٤/٨٧.

له: يا محمد، أجيئت للقاء قريش؟ قال: «نعم، وإن شئت يا أخا ضمرة ردّدنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك» فقال: لا والله يا محمد ما لي بذلك من حاجة^(١).

وقال الواقدي: كانت هذه الغزاة في ذي القعدة، وكان نعيم بن مسعود قد اعتمر، فلما قدم مكة للعمرة، قال له أبو سفيان: من أين؟ قال: من يثرب قال: هل رأيت لمحمد حركة؟ قال: نعم تركته على تعبئة لغزوكم، وذلك قبل أن يسلم نعيم. فقال له أبو سفيان: ونحن قاصدوه. ثم خرج إلى مرّ الظهران، وقال لنعيم: هل لك في عشر قلائص يضمونها لك عني سهيل بن عمرو، وترجع إلى يثرب فتبّطهم عنا، فإن هذا عام جذب ولا يضلحنا إلا عام غيّدق - أي: خصيب - فرجع نعيم إلى المدينة ورسول الله ﷺ على عزم الخروج، فجعل يثبّط الناس: ألم يُجرّح محمد في نفسه؟ ألم يُقتل أصحابه، وبلغ رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد، لخرجت بنفسى».

ثم خرج وخرج معه المسلمون، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي عنه.

وخرج التجار بتجاراتهم، وكان بدر سوقاً يقام في كل سنة، ولما نزل رسول الله ﷺ بدرأ، وبلغ أبا سفيان، ألقى الله في قلبه الرعب وقال: كانوا يوم أحد شردمة يسيرة وقد جاؤونا بالحد والحديد. فرجع إلى مكة^(٢)، وأنزل الله تعالى: ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] الآية، وأنزل الله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية.

وفيها: ولد الحسين بن علي رضي عنه^(٣)، لخمس ليال خلون من شعبان، وكان بين علوق فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام ومولد الحسن عليه السلام خمسون يوماً، وأذن رسول الله ﷺ في أذنه وعق عنه، كما فعل بالحسن عليه السلام.

(١) «السيرة» ٢/ ٢١٠.

(٢) «المغازي» ١/ ٣٨٥-٣٨٨.

(٣) انظر «الطبقات» ٦/ ٣٩٩، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٥٥٥، و«المنتظم» ٣/ ٢٠٤، و«البداية والنهاية» ٤/ ٩٠.

قالت أم الفضل: قلت: يا رسول الله، رأيتُ في منامي كأن في حجري عضواً من أعضائك، قال: «تَلِدُ فاطمةُ إن شاء اللهُ غُلاماً فتكفلينه»، فولدت حسينا، فدفعته إليها، فأرضعته بلبن قُثم. قالت: فأتيت به النبي ﷺ أزوره، فأخذه فوضعه في حجره، فبال فأصاب إزاره، فقلت بيدي بين كتفيه، فقال: «أوجعت ابني أصلحك الله». فقلت: أعطني إزارك أغسله، فقال: «إنما يُغسلُ بولُ الجاريةِ ويُصبُّ على بولِ الغُلامِ». ثم دعا بماء فحدره عليه حذراً^(١).

وفيها: تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة رضي الله عنها^(٢)، واسمها هند بنت أبي أمية، ودخل بها في شوال، ولما انقضت عدتها، بعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحباً برسول الله ﷺ وبرسوله، أخبر رسول الله ﷺ أني امرأةٌ غيري وأنني مُصيبةٌ، وأنه ليس أحدٌ من أوليائي شاهداً، فبعث إليها رسول الله ﷺ: «أما قولك: إنك مُصيبةٌ، فإن الله سيكفيك صيانتك، وأما قولك: إنني غيري، فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء، فليس منهم أحدٌ شاهد أو غائب إلا سيرضى بي» فقال^(٣): يا عمر، قم فزوج رسول الله ﷺ، فزوجه. ثم قال رسول الله ﷺ: «أما إنني لم أنقصك عمّا أعطيتُ فلانة» - وكان قد أعطى فلانة، جرّتين تضعُ فيهما حاجتها، ورَحَى، ووسادةً من آدمٍ حشوها ليفٌ - ثم انصرف رسول الله ﷺ^(٤).

وقد أخرج مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيقولُ ما أمرَ اللهُ به: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهمَّ اجْرني في مُصِيبَتِي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله عليه خيراً منها، وأجره في مُصِيبَتِهِ». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خيراً من أبي سلمة، أوّل بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إنني قُلْتُها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٨٧٥).

(٢) «تاريخ الطبري» ٥٦١/٢، و«المنتظم» ٢٠٦/٣، و«البداية والنهاية» ٩٠/٤.

(٣) في «المسند»: قلت.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٦٩).

(٥) صحيح مسلم (٩١٨).

وفيها: أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود^(١)، وقال: «إني لا آمنهم على كتابي»^(٢). فتعلمه زيد في خمس عشرة ليلة.

وفيها: رجم رسول الله ﷺ اليهوديين في ذي القعدة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً وامرأة منهم زنيا، فقال: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم» قالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال ابن سلام: ارفع يدك، فرفعها فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فأمر بهما فرجما، قال ابن عمر: فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وفيها: كانت قصة طعمة بن أبيرق^(٤).

فصل وفيها توفيت

زينب بنت خزيمة

ابن الحارث بن عبد الله الهلالية أخت ميمونة لأمها، في ربيع الآخر، وكان رسول الله ﷺ تزوجها في رمضان سنة ثلاث، وصلى عليها رسول الله ﷺ، ودُفنت في البقيع، ولم يمت عنده رضي الله عنه من نسائه رضي الله عنهن إلا خديجة رضوان الله عليها، وزينب رضي الله عنها^(٥).

(١) «تاريخ الطبري» ٥٦١/٢، و«المنتظم» ٢٠٦/٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٦١٨) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩).

(٤) انظر «المنتظم» ٢٠٦/٣، وقصته أنه سرق درعاً لعبادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف: مالي بها علم، فنظروا في أثر الدقيق فانتهوا إلى منزل اليهودي، فقالوا له، فقال: دفعها إلي طعمة، فقال قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ لنجادل عن صاحبنا، فهم أن يفعل وأن يعاقب اليهودي، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وانظر «أسباب النزول» للواحد ص ١٧٢-١٧٣.

(٥) «الطبقات الكبرى» ١١١/١٠، «تاريخ الطبري» ٥٤٥/٢، و«المنتظم» ٢١٠/٣، و«البداية والنهاية» ٤/٤.

٩٠، و«الإصابة» ٣١٥/٤.

أبو سلمة

عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأمه: برة بنت عبد المطلب بن هاشم عمّة رسول الله ﷺ، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين.

أسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، ومعه زوجته أم سلمة رضي الله عنها، ثم قدم مكة وهاجر إلى المدينة، وهو أول من هاجر إليها، قدمها لعشر خلون من المحرم، وقدمها رسول الله ﷺ في ربيع الأول.

وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن خيثمة، وشهد أبو سلمة بدرًا وأحداً، وجرح يوم أحد، رماه أبو أسامة الجشمي بسهم في عضده، فأقام شهراً يداويه حتى برىء.

ثم بعثه رسول الله ﷺ في سرية على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة إلى بني أسد بقطن - جبل لهم - في المحرم، فغاب بضع عشرة ليلة، ثم قدم المدينة، فانتقض جرحه فمات في جمادى الآخرة، فأغمضه رسول الله ﷺ، وقال عند موته: اللهم اخلفني في أهلي بخير^(١). فخلفه رسول الله ﷺ^(٢)، وصارت أم سلمة رضي الله عنها أم المؤمنين، وصار رسول الله ﷺ ربيب أولاده.

وأخرج مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقّ بصره، فأغمضه، ثم قال: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصْرُ» فضجّ ناسٌ من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإنّ الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه»^(٣).

وكان لأبي سلمة من الولد: عمر، وزينب، ودرة، وأم كلثوم، وسلمة.

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/ ٢٢٠، و«المنتظم» ٣/ ٢١١، و«سير أعلام النبلاء» ١/ ١٥٠، و«البداية والنهاية» ٤/ ٨٩، و«الإصابة» ٢/ ٣٣٥.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٦٩) ضمن حديث طويل.

(٣) صحيح مسلم (٩٢٠).

عبد الله بن عثمان

ابن عفان^(١) رضوان الله عليه من رقية بنت رسول الله ﷺ، نقره ديك في عينه فمات وهو ابن ست سنين، وصلى عليه رسول الله ﷺ، ونزل عثمان رضي الله عنه في قبره.

فاطمة بنت أسد^(٢)

ابن هاشم بن عبد مناف، والدة علي ﷺ، وأمها: فاطمة بنت هَرَم بن رواحة، من ولد عامر بن لؤي، وتلقب: بحُبِّي، وأمها: خديجة^(٣) بنت وهب بن ثعلبة من بني فهر، وأمها: فاطمة بنت عبد بن معبد بن عمرو بن بغيض^(٤) بن عامر بن لؤي، وأمها: سلمة^(٥) بنت عامر بن ربيعة بن هلال، من فهر، وأمها: عاتكة بنت أبي همهمة من فهر، وأمها: تماضر بنت أبي عمرو بن عبد مناف، وأمها: حبيبة، وهي: أمة الله بنت عبد يا ليل ثقفية، وأمها: حُبِّي بنت الحارث بن النابغة من هوازن.

وفاطمة بنت أسد أول امرأة هاشمية تزوجت هاشمياً، وأول من بايعت رسول الله ﷺ من النساء بعد خديجة، وأول هاشمية ولدت خليفة هاشمياً.

وقال بريدة: سمعت فاطمة بنت أسد رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً»، فقالت: واسوأته، فقال لها رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبْعَثَكَ كَاسِيَةً». قال: وسمعته يذكر ضغطة القبر، فقالت: واضعفاه، فقال: «إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكْفِيكَ ذَاكَ».

وكانت صالحة تنقل الماء إلى بيت فاطمة ﷺ، وتذهب للحاجة.

وكان رسول الله ﷺ يزورها ويقبل في بيتها، ولما توفيت ألبسها رسول الله ﷺ

(١) «تاريخ الطبري» ٥٥٥/٢ ، و«المنتظم» ٢١٠/٣ ، و«البداية والنهاية» ٨٩/٤ ، و«الإصابة» ٦٢/٣ .

(٢) «الطبقات الكبرى» ٥١/١٠ و٢١١ ، و«المنتظم» ٢١٣/٣ ، و«سير أعلام النبلاء» ١١٨/٢ ، و«الإصابة» ٣٨٠/٤ .

(٣) في الخبر ١٦ : جدية .

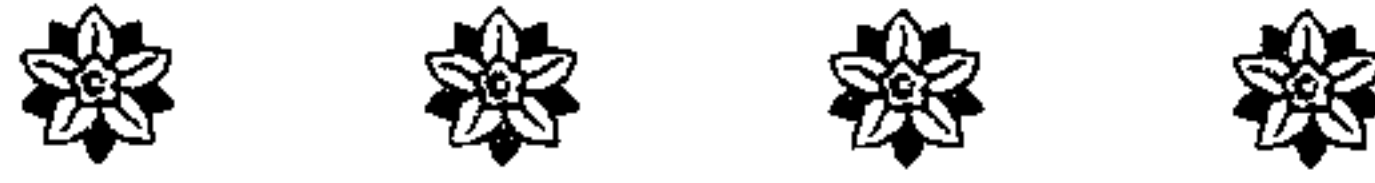
(٤) في الخبر ١٦ : فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص .

(٥) في الخبر : سلمى .

قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقال له أصحابه: ما رأيناك صنعت بأحد مثل ما صنعت بهذه؟ فقال: «إنه لم يكن بعد أبي طالب أحد أبربي منها، وإنما ألْبَسْتُهَا قَمِيصِي لِتُكْسَى مِنْ حُلْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا اضْطَجَعْتُ مَعَهَا لِيُهَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهَا ضَغْطَةَ الْقَبْرِ»^(١).

ودفنت بالبقيع إلى جانب رقية رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروت الحديث عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم.



(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٣٥) من حديث ابن عباس، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٥٧/٩ وقال: وفيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال الذهبي في «السير» ١١٨/٢: غريب.

السنة الخامسة من الهجرة

فيها كانت غزاة ذات الرقاع على خلاف في ذلك^(١)، غزا رسول الله ﷺ نجداً يريد بني مُحارب وِعَظفان، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢)، وتقارب الناس للقتال، ولم يَجْرِ بينهم حرب، وغاب رسول الله ﷺ عن المدينة خمس عشرة.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نَعْتَقِبُهُ، قال: فَنَقَبْتِ أَقْدَامُنَا، وسقطت أظفاري، فكنا نَلْفُ الخِرْقَ على أقدامنا وأرجلنا، فَسُمِّيتِ غزاة ذاتِ الرقاع لما كنا به نَعْصِبُ على أرجلنا من الخرق. قال أبو بردة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك وقال: وما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يفشي شيئاً من عمله^(٣). لأن عمل السر أفضل من عمل العلانية.

قال المصنف رحمه الله: هذا الحديث يدل على أن غزاة ذات الرقاع كانت بعد خيبر، لأن أبا موسى قدم على رسول الله ﷺ بعد خيبر.

وكذا روى ابن إسحاق القصة عن أبي هريرة، وأبو هريرة إنما قدم على رسول الله ﷺ بعد خيبر^(٤).

(١) اختلف في زمنها، فمن ذكرها في سنة أربع ابن هشام في «السيرة» ٢٠٣/٢، والطبري في «تاريخه» ٥٥٥/٢، والذهبي في «السيرة» ٤٥٧/١، وابن كثير في «البداية والنهاية» ٨٣/٤.

وذكر الواقدي في «المغازي» ٣٩٥/١، وابن سعد في «الطبقات» ٥٧/٢، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ٤٠٥/١، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢١٤/٣ أنها في سنة خمس.

وذكر البخاري في باب غزوة ذات الرقاع قبل (٤١٢٥) أنها بعد خيبر.

(٢) ويقال: أبا ذر الغفاري «السيرة» ٢٠٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦).

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ٥٥٦/٢. وقال البيهقي في «الدلائل» ٣٧٢/٣: وروينا عن الواقدي في الغزوة التي غزاها محارباً وبني ثعلبة أنها سميت ذات الرقاع لأنه جبل كان فيه بقع حمرة وسواد وبياض، فإن كان الواقدي حفظ ذلك فيشبه أن تكون الغزوة التي شهدها أبو موسى وأبو هريرة وعبد الله بن عمر غير هذه والله أعلم. وانظر «فتح الباري» ٤١٧/٧.

وفي هذه الغزاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وفي هذه الغزاة نزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: غزونا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل ومعه الناس أدركتهم القيلولة في وادٍ كثير العِصَاهِ، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه بغصنٍ من أغصانها، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، قال: فنمنا نومةً، وإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه وعنده أعرابي، فقال: «إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي وَالسَّيْفُ بِيَدِهِ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتَ: اللَّهُ، فَشَامَ السَّيْفَ». أي: أعاده إلى جفنه، قال جابر: فلم يعرض له رسول الله ﷺ ولم يعاقبه ^(١).

وفيه: فأخذ رسول الله ﷺ السيف من يد الرجل، وقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فقال الرجل: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فقال: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ». قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع من يقاتلك. فخلّى سبيله، فأتى أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس ^(٢).

وفيها: كانت غزاة دُومَةِ الْجَنْدَلِ ^(٣)، وهي أرض فيها زرع ونخل وعيون، ولها مدينة وحصنٌ منيعٌ يدعى ماردًا، ويقال في المثل: تمرّد ماردٌ وعزّ الأبلق ^(٤).

وهي أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ إلى الشام، خرج إليها على رأس تسعة وأربعين شهرًا من مهاجره، واستخلف على المدينة سبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ الْغِفَارِيِّ، وكان قد بلغه أن بها جمعًا من الأعراب، فكان يكمن نهاراً ويسير ليلاً، ومعه دليل من بني [عُدرة] يقال له: ^(٥) مذكور، فهجم عليهم فهربوا، فأخذ رجالاً منهم فأسلم بعضهم، ورجع إلى

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٣)، ومسلم (٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٢٩) وفيه صلاة الخوف، وقد جمع المصنف هنا بين حديثين.

(٣) انظر «السيرة» ٢/٢١٣، و«المغازي» ١/٤٠٢، و«الطبقات الكبرى» ٢/٥٨، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠٦، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٦٤، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/٣٨٩، و«المنتظم» ٣/٢١٥، و«البداية والنهاية» ٤/٩٢.

(٤) والأبلق حصن للسموئل بن عادياء قصدته الزبلاء هو وماردًا فلم تقدر عليهما فقالت: تمرّد مارد وعز الأبلق، فذهب مثلاً. «مجمع الأمثال» ١/١٢٦.

(٥) ما بين معقوفين زيادة من «الطبقات» ٢/٥٩.

المدينة ولم يلق كيداً.

وفي هذه الغزاة وادع رسول الله ﷺ عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ عَلَى أَنْ يَكْفَ عَنْهُ وَيُرْعَى بِتَغْلَمَيْنِ إِلَى الْمَرَاضِ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بِلَادَ عُيَيْنَةَ أَجْدَبَتْ، وَأَخْصَبَتْ تَغْلَمَيْنِ وَالْمَرَاضُ لِسَحَابَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا، فَوَادَعَهُ عَلَى أَنْ يُرْعَى هُنَاكَ.

وفيها: قدم وفد مُزَيْنَةَ^(١) في رجب في أربع مئة، فجعل رسول الله ﷺ لهم الهجرة في دارهم، وقال: «أَنْتُمْ مُهَاجِرُونَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ»^(٢). فَأَسْلَمُوا وَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

وأجدبت مكة في هذه السنة، فبعث إليهم رسول الله ﷺ ما لَأَ قَبْلُوهُ^(٣).

وفيها: كانت غزاة المُرَيْسِيْعِ^(٤)، ويقال لها: غزاة بني المِصْطَلِقِ، في شعبان، وكان الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق قد جمع لحرب رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ بُرَيْدَةَ بنَ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ لِيَعْلَمَ لَهُ خَبَرَ الْقَوْمِ، فَأَتَاهُمْ فَلَقِيَ الْحَارِثَ، وَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلَّيْلَتَيْنِ خَلْتَا مِنْ شُعْبَانَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بنَ أَبِي، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ زَيْدُ بنَ حَارِثَةَ^(٥) وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثُونَ فَرَساً، وَبَلَغَ الْحَارِثُ فُخَافَ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسِيْعِ ومعه عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وكان تحته فرسه

(١) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٥٢/١، و«المنتظم» ٢١٧/٣، و«البداية والنهاية» ٤١/٥.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢٥٢/١ وورد الحديث في قصة أخرى عن سلمة بن الأكوع قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابدؤا يا أسلم، فتنسموا الرياح، واسكنوا الشعب» فقالوا: إنا نخاف يا رسول الله أن يضرنا ذلك في هجرتنا قال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم». أخرجه أحمد (١٦٥٥٣).

(٣) انظر «المنتظم» ٢١٦/٣.

(٤) اختلف في زمن هذه الغزوة، فذكرها الواقدي في «المغازي» ٤٠٤/١، وابن سعد في «الطبقات» ٥٩/٢، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ٤٠٧/١، وابن الجوزي في «المنتظم» ٢١٨/٣ في السنة الخامسة، ورجحه في «الفتح» ٤٣٠/٧.

وذكرها ابن إسحاق «السيرة» ٢٨٩/٢، والطبري في «تاريخه» ٦٠٤/٢، وابن كثير في «البداية والنهاية» ٤/١٥٦ في سنة ست، وانظر «فتح الباري» ٤٣٠/٧.

(٥) ويقال: استعمل عليها أبا ذر الغفاري، انظر «السيرة» ٢٨٩/٢.

لِزَازٍ، وَدَفَعَ رَايَةَ الْمَهَاجِرِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَايَةَ الْأَنْصَارِ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَثَبَتَ الْحَارِثُ فِي قَوْمِهِ وَاصْطَفُوا لِلْقِتَالِ، وَتَرَامَوْا بِالنَّبْلِ سَاعَةً، ثُمَّ حَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَانْهَزَمَ الْحَارِثُ، وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَشْرَةٌ، وَسَبَى الْمُسْلِمُونَ مِئْتِي أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ، وَأَخَذُوا مِنَ الْإِبِلِ الْفِي بَعِيرٍ، وَمِنَ الشَّاةِ خَمْسَةَ آلَافٍ.

قال ابن عمر: أغار عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم غارون، فقتل وسبى وقدم بالسبي إلى المدينة، وكان في السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم^(١)، ف وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عمه فكاتبها على تسع أواق.

قالت عائشة: وكانت امرأة حلوَةً لا يكاد أحد أن يراها إلا أخذت بنفسه، فبينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله عن كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها عليه، وعرفت أنه سيرى منها الذي رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، ف وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عمه فكاتباني فأعني في كتابتي، فقال: «أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟» قالت: وما هو؟ قال: «أُوْدِي عَنْكَ كِتَابَتِكَ وَأَتَزَوَّجُكَ». قالت: نعم. قال: «قَدْ فَعَلْتُ».

وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْتَرْقُونَ. فأعتق الناس ما كان بأيديهم من نساء بني المصطلق، فبلغ عتقهم مئة بيت بتزويجه إياها، قالت عائشة: فلا أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها^(٢)، وجعل عتقها صداقها. وكان اسمها برة فغيره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجويرية^(٣).

وفي هذه الغزاة قال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وسبب ذلك:

ازدحم الناس على الماء، ومع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جهجاه الغفاري يقود فرس

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠)، وانظر «الطبقات الكبرى» ٦٠ / ٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٣٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عمر، فزحمه رجل من الأنصار يقال له: سنان الجُهني حليف الخزرج، فاقتلا على الماء، فصرخ الجهني: يا معاشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معاشر المهاجرين، فأعانه رجل من المهاجرين يقال له: جُعال وكان فقيراً، فقال له عبد الله بن أبي بن سلول: وإنك لهنالك؟! فقال: وما يمنعني أن أفعل ذلك؟! واشتد لسان جُعال على ابن أبي، فغضب ابن أبي وقال: والذي يُحلف به لأرِينك غير هذا، وعند عبد الله رهط من قومه منهم: زيد بن أرقم وكان غلاماً حَدَثًا، وقال ابن أبي: أوقد فعلوها، قد نافرنا في بلادنا وكاثرونا، والله ما مثُلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سَمَّنْ كَلْبَكَ يَا كُلكَ، أما والله، أما والله، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل، وعنى بالأعرز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ زاده فضلاً وشرفاً وعزة وتعظيماً.

ثم أقبل على قومه وقال: ما فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جُعال وذويه فضلَ طعامكم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم ويلحقوا بعشائهم ومواليهم، فلا تنفقوها عليهم حتى ينفضوا مِنْ حَوْلِ محمد. فقال له زيد بن أرقم: أنت والله الذليلُ الحقيِرُ القليلُ المُبغضُ إلى قومك، ورسول الله ﷺ في عِزٍّ من الرحمن ومودةٍ من المؤمنين، والله لا أحبك أبداً، فقال له عبد الله: اسكت، فإنما كُنْتُ أَلْعَبُ.

وجاء زيد إلى رسول الله ﷺ فأخبره، وذلك بعد فراغه من الغزو وعنده عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عُنقَ هذا المنافق، فقال: «إِذَا تَرَعُفُ لَهُ أَنْفٌ كَثِيرَةٌ يِثْرَبُ»، فقال له عمر: فإن كرهتَ يا رسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين، فمر سعد بن معاذ أو محمد بن مَسْلَمَةَ فليقتلوه. فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرِيدُ يَا عَمْرُ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، وَلَكِنْ أَدْنُ بِالرَّحِيلِ» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأتاه، فقال له: «أَنْتَ صَاحِبُ الْكَلَامِ الَّذِي بَلَّغَنِي عَنْكَ؟» فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتابَ ما قلتُ شيئاً من ذلك، ولقد كذب زيدٌ.

وكان عبد الله شريفاً في قومه عظيماً، فقال مَنْ حضر من الأنصار: يا رسول الله، شيخنا وكبيرنا، تُصَدِّقُ كَلَامَ غُلامٍ من غِلْمَانِ الأنصار؟! عسى أن يكون هذا الغلامُ

وَهُمْ فِي الْحَدِيثِ، فَعَذَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَفَشَتِ الْمَلَامَةَ فِي الْأَنْصَارِ لَزِيدٍ وَكَذَّبُوهُ، وَقَالَ لَهُ عُمَرُ - وَكَانَ زَيْدٌ مَعَهُ - : مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ، وَمَقْتُوكَ. وَكَانَ زَيْدٌ يَسَائِرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَحْيَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ سَائِرًا لَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ رُحِتَ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا كُنْتُ تَرُوحُ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ ابْنُ أَبِي؟». قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: «زَعَمَ أَنَّهُ إِذَا رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ يُخْرِجُ الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ». فَقَالَ أُسَيْدٌ: أَنْتَ وَاللَّهِ تَخْرُجُهُ إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللَّهِ الذَّلِيلُ وَأَنْتَ الْأَعْرُضُ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِرْفُقْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِكَ، وَإِنْ قَوْمَهُ لَيُنْظِمُونَ لَهُ الْخَرْزَ لِيَتَوَجَّوهُ، فَهُوَ يَرَى أَنَّكَ سَلَبْتَهُ مَلَكًا^(١).

وَبَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَغَنِي أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي لِمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَمُرْنِي لِأَحْمَلَ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ الْخَرْجُ مَا كَانَ بِهَا رَجُلٌ أَبْرُّ بِوَالِدِيهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ أَبِي يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلْ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخُلَ النَّارَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَجُلًا مُؤْمِنًا صَالِحًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَفَّقْ بِهِ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ وَنَحْنُ كَذَلِكَ مَا بَقِيَ مَعَنَا»^(٢).

وَسَارَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمُ الشَّمْسُ، فَنَزَلَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ وَقَعُوا نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ لِشِغْلِ النَّاسِ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي جَرَى مِنْ ابْنِ أَبِي.

ثُمَّ رَاحَ بِالنَّاسِ حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ بِالْحِجَازِ فَوَيْقَ النَّقِيعِ يُقَالُ لَهَا: بَقَعَاءُ، فَهَاجَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَآذَتْهُمْ وَتَخَوَّفُوا مِنْهَا، وَضَلَّتْ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَخَافُوا الرِّيحَ، فَإِنَّمَا هَاجَتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنَ الْكُفَّارِ بِالْمَدِينَةِ»، فَقِيلَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: «رِفَاعَةُ بْنُ التَّابُوتِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: يَزْعَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَعْلَمُ مَكَانَ نَاقَتِهِ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ الْمُنَافِقِ وَبِمَكَانِ نَاقَتِهِ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) «السيرة» ٢/ ٢٩٠-٢٩٢.

(٢) «السيرة» ٢/ ٢٩٣.

أصحابه، وقال: «ما أعلم الغيب ولكن الله أخبرني أن الناقة في شعب كذا وكذا، قد تعلق زمامها بشجرة». فذهبوا إلى الشعب فوجدوها كذلك.

ولما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن التابوت - وكان من عظماء اليهود وكهف المنافقين - قد مات في ذلك اليوم^(١).

ولما قرب رسول الله ﷺ من المدينة وجاء عبد الله بن أبي ليذر إليها جاء ابنه عبد الله فأناخ على جامع طريق المدينة وصاح بأبيه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ فقال: لا والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ، وليعلمن اليوم من الأعر من الأذل. فجاء عبد الله إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه ما صنع به ابنه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ابنه يقول: «خل عنه». فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم، فدخل^(٢).

فقال زيد بن أرقم: فجلست في بيتي والله أعلم ما بي من الهم والحزن والحياء من رسول الله ﷺ والمسلمين، فأنزل الله تعالى في تصديق زيد وتكذيب ابن أبي سورة المنافقين، فأخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد وقال: «يا زيد، إن الله قد صدقك وأوفى بأذنيك»^(٣).

ولما نزلت هذه الآيات، قيل لعبد الله: يا أبا حباب، قد أنزل الله فيك آيات شداً، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فأمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فأعطيت، وما بقي إلا أن أسجد لمحمد. وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ﴾^(٤) [المنافقون: ٥].

وجعل قوم عبد الله يلومونه ويوبخونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر رضوان الله عليه: «وكيف ترى؟ أما والله لو قتلته يوم أشرت بقتله لرغفت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: إن رأي رسول الله ﷺ أعظم بركة من رأيي.

(١) «السيرة» ٢/ ٢٩٢.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٢/ ٦١.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٤٩٠٠) بلفظ: «إن الله قد صدقك يا زيد».

(٤) انظر «أسباب النزول» للواحد ص ٤٦١.

وفي هذه الغزاة قتل رجلٌ من رهطِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ هِشَامَ بنِ صُبَابَةَ من بني عامر خطأً، لأنَّه ظنَّه من المشركين، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قدم أخوه مِقْيَسُ بنُ صُبَابَةَ من مكة، فدخل على رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، جئتكَ مُسْلِماً وأريدُ دِيَةَ أخي، فأمر له بِدِيَتِهِ، وأقام بالمدينة أياماً، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً وقال^(١): [من الطويل]

شَفَى النَّفْسَ أَنْ قَدَّ بَاتَ بِالْقَاعِ مُسْنَدًا تُضَرِّجُ ثَوْبَيْهِ دِمَاءَ الْأَخَادِعِ
وكانت همومُ النفس من قبل قتله تُلِمُّ فَتَحْمِينِي وَطَاءَ الْمَضَاجِعِ
حَلَلْتُ بِهِ وَثْرِي وَأَدْرَكَتْ ثَوْرَتِي وكننت إلى الأوثانِ أوَّلَ راجِعِ
وبلغ رسول الله ﷺ قوله، فأهدرَ دمه، وقُتِلَ يومَ الفتحِ لِمَا نذكر.



وفي هذه الغزاة كان حديث الإفك، وحديثه في «الصحيحين»^(٢).

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزُّهري، قال: أخبرني سعيد بن المسيَّب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبيدُ الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها حين قال لها أهلُ الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ممَّا قالوا، قال الزُّهري: كلُّهم قد حدَّثني بطائفةٍ من حديثها، وبعضهم

(١) انظر «السيرة» ٢/٢٩٣.

(٢) وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم وقيل في غير هذه الغزوة، أخرج البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناسُ معه وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس ليسوا على ماء ليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته.

وانظر الاختلاف في وقت نزول التيمم في «فتح الباري» ١/٤٣٤.

كان أوعى لحديثها من بعض، وبعضٌ حديثهم يصدقُ بعضاً، ذكروا أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه؛ قالت: فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج فيها سهمي فخرجتُ معه، وذلك بعدما أنزل الحجاب، وكنتُ أُحملُ في هودجِي وأنزل فيه أو وأتركُ فيه، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفلَ يريدُ المدينة ودنوا منها، آذنَ ليلةً بالرحيل، فقمْتُ ومشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلما قضيتُ شأني، أقبلتُ إلى الرَّحْلِ فلمستُ صدري فإذا عقْدُ لي من جَزَعِ أَظْفَارٍ قد انقطع، فرجعتُ ألتِمِسُ عِقْدِي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يَرَحَلُونَ لي فاحتملوا هودجِي، فراحلوه على بعيري وهم يحسبونُ أني فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يُهَبِّلُهُنَّ ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ ولم يَثْقُلْنَ، وإنما كُنَّ يَأْكُلْنَ العُلُقَةَ من الطعامِ، فلم يستنكرِ القومُ حين حملوا الهودجَ وكنتُ جاريةً حديثة السنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عِقْدِي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجنْتُ منازلهم وليس فيها داعٍ ولا مجيب، فتيممتُ منزلي الذي كنتُ فيه وظننتُ أن القومَ سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسةٌ غلبتني عيناى فنمتُ، وكان صفوان بن المعطل السلمي - ثم الذكواني - قد عرس من وراء الجيش، فادَّلج فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رأني، وقد كان يراني قبلَ أن يُضربَ الحجابُ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما كلَّمني كلمةً ولا سمعتُ منه غيرَ استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته ووطىء على يديها فركبُتها، وانطلق بي يقودها حتى أتينا الجيشَ - أو فانطلق يقود بي راحلته حتى أتينا الجيشَ - بعدما نزلوا معرّسين أو مؤغرين في نحرِ الظهيرة.

قالت: فهلك مَنْ هلك في شأني، وكان الذي تولّى كِبْرَهُ منهم عبدُ الله بن أبي بن سلول، وقدِمنا المدينة فاشتكى بها شهراً، والناسُ يفيضون في قول أهلِ الإفك، ولا أشعر بشيءٍ من ذلك، وقد يرئبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ فيقول: «كيفَ تيكُم» ثم ينصرفُ، فذلك الذي يرئبني، ولا أشعر بالشرِّ حتى خرجتُ بعدما نَقَهْتُ من مرضي، وخرجتُ معي أمُّ

مِسْطَحَ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنْفَ قَرِيبًا مِنْ بَيوتِنَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ - وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ - وَأَقْبَلْنَا قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأِنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمَّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطَهِهَا فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ، فَقُلْتُ لَهَا: بَسَّ مَا قُلْتَ! أَتَسْبِيْنَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعِي يَا هَتَّاهُ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوِيَّ؟ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَيِّقَنَّ الْخَبَرَ مِنْهُمَا، فَأَذِنَ لِي فَجِئْتُ أَبَوِيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيْتَهُ، هُوَ نِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يَحِبُّهَا وَلَهَا ضِرَائِرٌ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَوْ قَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

فَبَكَيْتُ لَيْلَتِي حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَأَصْبَحْتُ أَبْكِي، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: لِمَ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْكَ، النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَصَدُّقَكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ وَقَالَ لَهَا: «هَلْ رَأَيْتِ مِنْ عَائِشَةَ مَا يَرِيْبُكَ؟» فَقَالَتْ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتِ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَيَأْتِي الدَّاجِنُ فَيَأْكُلُهُ.

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَقَالَ: «يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، [وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا] كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي، وَمَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذِ الْأَنْصَارِيِّ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أُعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ، ضَرَبْنَا عُقْقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ، أَمَرْتَنَا

ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، وكانت أم حسان بن ثابت بنت عمه من فخذيه، فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر عليه، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، إنك لمناقق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يُخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي وليتي القابلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح عندي أبواي، وأنا أظن البكاء قد فلق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فدخلت فجلست تبكي معنا، ودخل رسول الله ﷺ فسلم وجلس، ولم يكن يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد مكث شهراً لا يوحي إليه في أمري بشيء، فتشهد حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسبرئك الله، وإن كنت ألممت - أو هممت - بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى مقاله قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني، فقال: والله لا أدري ما أقول، فقلت لأمي: أجيبني عني، فقالت كما قال أبي، فقلت - وأنا جارية حديثه السنن لا أقرأ كثيراً من القرآن -: والله قد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - ما تصدقوني، [ولئن اعترفت لكم بأمر - والله عز وجل يعلم أني بريئة - تصدقوني] وما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أعلم أن الله يُبرئني، ولكن ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني قرآناً أو وحياً يتلى، أنا أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بقرآن يتلى، وإنما كنت أرجو أن يري الله رسوله في المنام رؤيا يبرئني بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ من البيت، حتى أنزل الله على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه.

قالت: فَسُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَحْمَدِي اللَّهَ وَأَبْشِرِي، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَرَّأكَ» فقالت لي أُمِّي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا الله الذي أنزل براءتي من السماء. وأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١] العشر آيات.

قالت: وكان أبو بكرٍ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَيْهِ أَبَدًا بَعْدَمَا قَالَ فِي عَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى، إني أحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا عَنْهُ أَبَدًا.

وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحشٍ عن أمري فقال: يا زينب، ما رأيت؟ ما بلغك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ عليها إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواجه فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمئة بنت جحش تجادلها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وأمر رسول الله ﷺ بحسان بن ثابت وحمئة بنت جحش ومِسْطَحٍ فَضْرَبُوا الْحَدَّ لِأَنَّهُم الَّذِينَ أَشَاعُوا الْفَاحِشَةَ^(٢).

وقال مسروق: دخلتُ على عائشة وعندها حسان بن ثابت يُنشدُها وقد أَلقت له وسادةً بعدما عمي: [من الطويل]

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزْنُ بَرِيْبَةً وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٦٢٣)، والبخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، وما بين معقوفين زيادة من مسند أحمد. قولها: يهبلن: من هبله اللحم إذا كنز عليه وركب بعضه بعضاً، و«العلقة»: أي قدر ما يمسك الرمق. «عرس» أي: نزل آخر الليل. «فاستعذر من عبد الله» أي: طلب العذر من عقوبته، أي: بين أنه إن عاقبه فهو معذور. «البرحاء» شدة الكرب. «الجمان»: اللؤلؤ الصغار.

(٢) «السيرة» ٣٠٢/٢، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٠٦٦) دون تصريح بأسمائهم من حديث عائشة قالت: لما نزل عذري، قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم.

فقلت له عائشة: لكنك لست كذلك، فقلتُ لها: أتأذنين لهذا أن يدخلَ عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى، أليس قد ذهب بصره وكسَع^(١).

وهذا البيت من أبياتٍ يعتذر بها حسان إلى عائشة هو أولها، وبعده^(٢): [من

[الطويل]

حَلِيلَةٌ خَيْرِ النَّاسِ دُنْيَا وَمَنْصِبَا	نَبِيُّ الْهُدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ ^(٣)
عَقِيلَةٌ حَيٌّ مِنْ لَوْيِّ بْنِ غَالِبِ	كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مَهْدَبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ ذِكْرَهَا	وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَبَاطِلِ ^(٤)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قَلْتُهُ	فَلَا رَفَعْتَ سَوَاطِي إِلَيَّ أَنْ مَلِي
وَإِنْ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطِ	بِكَ الدَّهْرَ، بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاجِلِ ^(٥)
وَكَيفَ وَوَدَّيْ مَا حَيِّتُ وَنُصْرَتِي	لَأَلِ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ
لَهُ رُتَبٌ يعلو على الناسِ فضلُها	تُقَصِّرُ عَنْهَا سَوْرَةُ الْمَتَطَاوِلِ ^(٦)

فقلت عائشة رضوان الله عليها لمسروق: إنه كان يُنافح عن رسول الله ﷺ. وقالت: ما سمعت أحسن من قول حسان، وما تمثّل به إلا رجوت له الجنة، فإنه هو القائل لأبي سفيان^(٧): [من الوافر]

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨) وفيه: وأي عذاب أشد من العمى؟ قالت له: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ. وتزن: تتهم، وغرثي: أي خميصة البطن، كناية عن عدم استغابة الناس وأكل لحومهم.

(٢) الأبيات في «السيرة» ٣٠٦/٢.

(٣) لم نقف على هذا البيت في ديوان حسان، ولا في غيره من المصادر.

(٤) في الديوان: «خيمها» بدل ذكرها، والخيم: الطبع والأصل.

(٥) اللائط: اللصيق، والماحل: الواشي النمام.

(٦) السورة: الوثبة.

(٧) الأبيات في ديوانه ص ٦٤ والخبر أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف على منازل الأشراف» (٥٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٦٤٠).

فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي لعرضٍ محمّدٍ منكم وِقَاءٍ
أتشتمُّه ولستَ له بكفٍّ فشرُّكمَا لخيرُكمَا الفِداءُ

وقال الزهري: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة؟
فقلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد
الرحمن بن الحارث بن هشام، أن عائشة قالت لهما: إنَّ علياً كان مُسلماً في شأنها^(١).

وقال الزهري: كتب إليّ الوليد بن عبد الملك: الذي تولى كِبْرَهُ منهم علي بن أبي
طالب. قال: فكتبت إليه: حدثني سعيد بن المسيب، وعروة، وعلقمة وعبيد الله بن
مسعود كلهم يحدث عن عائشة، أن الذي تولى كِبْرَهُ منهم عبد الله بن أبي^(٢).

وقالت امرأةُ أبي أيوب الأنصاري لأبي أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في
عائشة؟ فقال: سبحانك، هذا بهتان عظيم، ثم قال: يا أم أيوب، لو كنتِ بدلَ عائشة
أكنتِ تفعلينه؟ فقالت: لا والله. فقال: فعائشة والله خيرٌ منك وأظهر^(٣).

وقال الواقدي: غاب رسول الله ﷺ في هذه الغزاة ثمانية وعشرين يوماً، وقدم
المدينة لهلال رمضان^(٤).

وفيها: تزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ في ذي القعدة، في قول الواقدي^(٥).
والأصح أنه تزوجها قبل حديث الإفك^(٦)، لِمَا رَوَيْنَا عن عائشة أنها قالت: وهي التي
كانت تُساميني، ولقولها: وذلك بعد ضرب الحجاب، والحجاب إنما ضُرب في
تزويجه ﷺ بزَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ بنِ رِثَابِ بنِ يَعمَرَ بنِ صَبْرَةَ بنِ مَرَّةٍ، من بني أسد بن
خُزَيْمَةَ، وأمها أُمَيْمَةُ بنتُ عبدِ المطلبِ عمَةُ رسولِ الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤٩) مختصراً دون ذكر قصة الوليد بن عبد الملك، وأخرجه مطولاً وبتمامه عبد
الرزاق في «تفسيره» ٥٢/٣، والطبراني في «الكبير» ٢٣/١٤٥.

(٣) «السيرة» ٣٠٢/٢.

(٤) «المغازي» ٤٠٤/١.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١١٠-١١١، و«تاريخ الطبري» ٥٦٢/٢، و«المنتظم» ٢٢٥/٣.

(٦) وقيل كان في السنة الثالثة، انظر «الإصابة» ٣١٣/٤، والذي في «الفتح» ٣٧٨/١: أنه تزوجها في السنة

قال ابن عباس: خطب رسول الله ﷺ زينب من أخيها عبد الله بن جحش على زيد ابن حارثة مولاه، وكان قد تبناه، فكان زيد مولى في الإسلام، غريباً في الجاهلية، فلما خطبها رسول الله ﷺ لنفسه أجابت، فلما علمت أنه خطبها لزيد أنكرت وأبت وقالت: أنا بنت عمك، تزوجني مولى لا أرضاه. وأبى أخوها عبد الله ذلك، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقالت: رضيت. وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، وفعل أخوها كذلك، فزوجه زيداً وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً ودرعاً وخماراً وملحفةً وإزاراً، وخمسين مuddاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، فأقامت عند زيد حيناً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل رابك منها شيء؟» قال: هي سيئة الخلق، وتتعظم علي بشرفها، وتؤذيني بلسانها.

وكان رسول الله ﷺ لا يصبر عن زيد ساعة، فغاب عنه يوماً فجاء إلى بيته يطلبه فلم يجده، وقامت إليه زينب فقالت: ليس ها هنا، فادخل، فداك أبي وأمي. وعجلت زينب أن تلبس ثوبها لما قيل لها رسول الله ﷺ على الباب، فوثبت عجلةً فأعجبت رسول الله ﷺ، فولى يهيمهم بشيء لم يفهم منه إلا «سبحان مقلب القلوب أو مصرف القلوب...» وجاء زيد إلى بيته فأخبرته زينب بما كان، فقال: هلاً عرضت عليه الدخول؟ قالت: قد فعلت وأبى. قال: فهل قال شيئاً؟ قالت: نعم، قال كذا وكذا. فجاء زيد إليه فقال: يا رسول الله، بلغني أنك جئت إلى منزلي فهلاً دخلت؟ لعل زينب أعجبتك، أفارقها؟ فقال له: «أمسك عليك زوجك». فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم، ففارقها واعتزلها.

فبينما رسول الله ﷺ عند عائشة إذ أخذته غشية فأفاق، ثم قال: «من يذهب إلى زينب فيبشرها، أن الله قد زوجنيها من السماء، ثم قرأ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآيات^(١).

(١) «الطبقات الكبرى» ٩٩/١٠، وقد رد العلماء هذا الخبر وأمثاله، ونزهوا النبي ﷺ عما نسب إليه فيها، انظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٣١، والشفا للقاضي عياض ٢/٤٢٥، والمفهم للقرطبي ١/٤٠٦، وفتح الباري ٨/٥٢٣.

قال ابن عباس: فلو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً لكنتم هذه الآية: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] (١).

قال ابن مسعود: ما نزل على رسول الله ﷺ آية أشد عليه منها.

ولما تزوجها رسول الله ﷺ قال المنافقون: أيتزوج الرجل زوجة ابنه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (٢) [الأحزاب: ٤٠]، وما كانوا يدعون زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، إنما كانوا يدعونه زيد بن محمد، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ (٣) [الأحزاب: ٥].

قالت عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد لما أعلم من جمالها، وأخرى وهي أعظم الأمور، وهي: أن الله زوجه، فكانت تفخر علينا بذلك، وخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ فبشرتها بذلك فأعطتها أوضاحاً كانت عليها (٤).

وقال أنس: لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرني لها». قال زيد: فلما قال لي ذلك عظمت في عيني أو في نفسي، فذهبت إليها فجعلت ظهري إلى الباب وقلت: يا زينب، إن رسول الله ﷺ يذكرك، وقد بعث بي إليك. فقالت: ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، وأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. انفرد بإخراجه مسلم (٥).

ومن حديث أنس قال: وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حتى أنزل الله، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، أصبح رسول الله ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام وخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى ومشيت معه حتى جاء

(١) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وأخرجه البخاري (٤٦١٢)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤١/٣.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤١/٣.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٩٩/١٠.

(٥) صحيح مسلم (١٤٢٨) (٨٩).

إلى عَتَبَةِ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخلَ على زينب فإذا هم جلوسٌ لم يقوموا، فرجعَ ورجعتُ معه، حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم قد خرجوا فَضْرِبَ بيني وبينه السترُ وأنزلَ الحِجَابُ. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وفيه: فلم أر رسول الله ﷺ أولم على امرأة من نساءه ما أولم على زينب، فإنه ذبح شاة وأطعم خبزاً ولحماً^(٢).



وفي هذه السنة كانت غزاة الخندق^(٣) - وهي غزاة الأحزاب - في شوال، وقيل: في ذي القعدة.

وسبب هذه الغزاة: أن رسول الله ﷺ لما أجلى بني النضير عن ديارهم، خرج سَلامُ بن أبي الحُقَيْق، وْحَيِّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، في نفر من اليهود، فقدموا مكة ودَعَوْا قريشاً إلى حربِ رسولِ الله ﷺ، وقالوا: نحن معكم حتى نستأصلَ شأنَ هذا الرجل. فقالت لهم قريشٌ: أنتم أصحاب كتابٍ وعلم، أدیننا خيرٌ أم دينُ محمد؟ فقالوا: دينكم، وأنتم أولى بالحق منه، فَسَرَ قُريشاً ذلك، ونَشِطُوا لحربِ رسولِ الله ﷺ، واتفقوا معهم على ذلك، وأرسل أبو سفيان إلى القبائل، فجاؤوا إليه من كل وجه، وجمعَ الأحابيشَ، وانضمت إليه أسد وغطفان وغيرهم، فعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن أبي طلحة، وساروا في عشرة آلاف، ومعهم ثلاث مئة فرس، وألفاً بعير، وقيل: وخمس مئة، وأربعة آلاف دارع، ووافاهم عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ في أُلوفٍ من غطفان وفزارة.

ولما نزل أبو سفيان مرَّ الظهران، وافته سُلَيْمٌ في سبع مئة رجل عليهم سفيان بن عبد شمس السُّلَمي أبو أبي الأعور الذي كان مع معاوية بصيفين، وكان سفيان حليفاً لأبي

(١) أخرجه البخاري (٥١٦٦)، ومسلم (١٤٢٨) (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧١)، ومسلم (١٤٢٨) (٩٠).

(٣) انظر «السيرة» ٢/٢١٤، و«المغازي» ٢/٤٤٠، و«الطبقات الكبرى» ٢/٦٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٠٩، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٦٤، و«دلائل النبوة» ٣/٣٩٢، و«المنتظم» ٣/٢٢٧، و«البداية والنهاية» ٤/٩٢.

سفيان بن حرب، وجاءت بنو أسد يقودها طليحة بن خويلد الأسدي في ألف، وجاءت أشجع في أربع مئة يقودهم مسعود بن رُخيلة، وجاءت بنو مُرّة في أربع مئة يقودها الحارث بن عوف، ووافاهم جميع اليهود فصاروا عشرين ألفاً.

وبلغ رسول الله ﷺ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق وقال: هو عندنا في بلاد فارس. وأشار أيضاً بعمل المنجنيق وقال: إنه يعمل عندنا بفارس يدفع العدو. وسلمان يومئذ حر^(١).

وقال الواقدي: هذا أول مشهد شهده^(٢).

وخط رسول الله ﷺ الخندق من أطم الشيخين، طرف بني حارثة إلى المذاد، وجعل كل أربعين ذراعاً بين عشرة^(٣).

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين نزلوا قريباً من سلع جعلوه وراء ظهورهم، والخندق بينهم وبين الكفار.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر رسول الله ﷺ بالذراري والنساء والضعفاء، فرُفِعُوا في الآطام.

قال: وخرج يوم الاثنين لثمان ليالٍ مَضِينٍ من ذي القعدة، وحمل لواءه زيد بن حارثة، وحمل لواء الأنصار سعد بن عباد، وصار المسجد والبيان وراء الخندق، ورتب على المدينة الحرس، فيهم: سلمة بن أسلم، وزيد بن حارثة، وجعل شعار المسلمين «حم لا ينصرون».

قال ابن إسحاق: فبينما هم على ذلك إذ طلعت طلائع الأحزاب، فقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٤) [الأحزاب: ٢٢]. وأقبل أبو سفيان في قريش، فنزل بمُجْتَمَعِ الأسيال بين الجرفِ

(١) إشارة سلمان بالمنجنيق كانت في غزوة الطائف، كما في «المغازي» ٣/ ٩٢٧، و«تخريج الدلالات» ص ٤٩١.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٢/ ٥٦٧.

(٣) «تاريخ الطبري» ٢/ ٥٦٨.

(٤) «السيرة» ٢/ ٢٤٧.

والغابة^(١) في عشرة آلاف، وجاءت غطفان وأهل نجد فنزلوا بذنبِ نَقَمَى إلى طرف أحد، وأحرق باقي القبائل بالمدينة، وأبطأ على رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين، وجعلوا يتسللون إلى أهاليهم.

وكان جُعيلاً عمل مع جماعة فسماه رسول الله ﷺ عمراً^(٢).

وكان سلمان رجلاً قوياً، فاختم فيه المهاجرون والأنصار، فقال المهاجرون:

سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»^(٣).

قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان، وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرن المُرَني، وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً، قال حذيفة: فظهرت علينا في الخندق صخرة كسرت معاولنا، فأتى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو على جانب الخندق فأخبره بها، فقام ونزل إلى الخندق وضربها فانصدعت، وبرق منها بركة أضاءت منها ما بين لابتيها - يعني المدينة - حتى كأنها مصباح، وكبر رسول الله ﷺ، ثم ضربها ثانياً وثالثاً وهي تَبْرُقُ كذلك، فسأله سلمان فقال: «أمّا في البرقة الأولى: فَإِنِّي رَأَيْتُ مِنْهَا قُصُورَ الْحِيرَةِ وَمَدَائِنَ كِسْرَى، كَأَنَّهَا أُنْيَابُ الْكَلَابِ، فَأَخْبَرَنِي جَبْرِيْلُ ﷺ أَنَّ أُمَّتِي سَتَظْهَرُ عَلَيْهَا، وَأَمَّا فِي الثَّانِيَةِ: فَأَضَاءَتْ لِي الْقُصُورُ الْحُمْرُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَالرُّومِ، وَأَخْبَرَنِي جَبْرِيْلُ أَنَّ أُمَّتِي سَتَظْهَرُ عَلَيْهَا، وَأَمَّا فِي الثَّلَاثَةِ: فَأَضَاءَتْ لِي قُصُورُ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَنِي جَبْرِيْلُ أَنَّ أُمَّتِي سَتَظْهَرُ عَلَيْهَا». فاستبشر المسلمون، فقال المنافقون: يا عجباً، أيمنكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن صنعاء والشام، وأنها ستُفْتَحُ لكم وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تخرجوا من المدينة! وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٤) [الأحزاب: ١٢].

(١) هكذا جاءت في النسخ الخطية، وهي كذلك عند الطبري ٥٧٠/٢، وفي «السيرة» ٢١٩/٢: زغابة، وهو ما رجحه ياقوت في «معجم البلدان» ١٤١/٣.

(٢) انظر «السيرة» ٢١٧/٢، و«المغازي» ٤٤٧/٢، وصار المسلمون يرتجزون:

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبياس يوماً ظهراً

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠٤٠)، والحاكم ٦٩١/٣ من حديث عبد الله المزني، وانظر «السيرة» ٢٢٤/٢.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٧٧/٤، والطبري في «تاريخه» ٥٦٧-٥٧٠، والبيهقي في «الدلائل»

فكان أبو هريرة يقول لما فتحت هذه الأمصار في زمن عُمر وما بعده: افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفسُ أبي هريرة بيده ما فتحتم مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطي محمدٌ ﷺ مفاتيحها^(١).

وقال جابر: مكث النبي ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثاً لم يذوقوا طعاماً، فقالوا: يا رسول الله، إن ها هنا كُدْيَةٌ من الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «رُشُّوْهَا بِالْمَاءِ»، فرشوها، ثم جاء النبي ﷺ فأخذ المِعْوَلَ والمِسْحَاةَ، ثم قال: «بِسْمِ اللَّهِ»، وضرب ثلاثاً فصارت كثيباً مُهَالاً. قال جابر: فحانت مني التفاتة، فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجراً. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وقال البراء بن عازب: رأيت رسول الله ﷺ ينقلُ معنا التراب ويقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبَّت الأقدام إن لاقينا
والمُشركون قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا
يرفع صوته وقد وارى التراب بياضَ إبطيه. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣)، والأبيات لعبد الله بن رواحة.

قال أنس: وكانوا يُؤْتَوْنَ بملء كَفِّ من شعير، فيُصْنَعُ لهم بإهالةٍ سِنخةٍ، ويوضع بين أيديهم والقوم جِاعٌ وهي بشعةٌ في الحلق ولها ریح منكرة. انفرد بإخراجه البخاري^(٤).

ولما استقر نزول الكفار على المدينة، خرج حِيَّيُّ بنُ أَخْطَبِ إلى كعب بن أسد صاحبِ عَقْدِ بني قريظة، وكان كعب قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاهده أن لا يُعِينَ عليه، فلما علم كعب بمجيء حِيَّي، أغلق باب الحصن دونه، فناداه: يا كعب،

(١) «السيرة» ٢/٢١٩، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٧٠.

(٢) البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩) بقصة المجاعة التي أصابتهم ووضع ﷺ الحجر على بطنه، وهذا لفظ أحمد في «مسنده» (١٤٢١١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٤)، ومسلم (١٨٠٣)، واللفظ للحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (٨٥٢).

(٤) البخاري (٤١٠٠).

افتح لي. فقال: لا أفتح لك، إنك امرؤ مشؤوم، وقد عاهدتُ محمداً فلم أر منه غير الوفاء والصدق، فلستُ بناقض ما بيني وبينه، فقال: ويحك افتح الباب، فقال: ما أنا بفاعل، فقال: والله ما أغلقتُ بابك دوني إلا خوفاً على جشيتك^(١) لئلا آكل معك منها، فأخفظ ذلك كعباً ففتح له الباب، فدخل وقال: يا كعب قد جئتك بعز الأبد وبيحر طام: أبي سفيان في قريش، والأحابيش، وقبائل العرب، فأنزلتهم حول المدينة في عشرين ألفاً، وعاهدتهم أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: جئتني بذل الدهر، وجهام^(٢) قد أهرق ماءؤه، ورعد وبرق ليس فيه مطر، فدعني وما أنا عليه مع محمد، فلم أر منه ما أكره، فلم يزل بكعب يفتله في الذروة والغارب^(٣) حتى سمح له بنقض العهد الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ، وأنه إن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا من محمد شيئاً أنه يدخل معه حصنه فيصيبه ما أصابه.

ولما بلغ النبي ﷺ ذلك، ندب جماعة من أصحابه منهم: سعد بن عبادة، وعبد الله ابن رواحة، وخوات بن جبير، وقال: «انطلقوا إلى قريظة، واعلموا لنا علمها فإن كان حقاً فالحنوا لحناً ولا تفشوه، فتفتتوا في أعضاء الناس وإن كان كعب على الوفاء فأذيعوه». فخرج إليهم، فإذا هم أبلغ مما بلغه عنهم، فعادوا وأخبروا رسول الله ﷺ، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٤).

واشتد الحصار على المسلمين، وجاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون الظنون، ونجم النفاق وتحدث المنافقون، وقال معتب أخو بني عمرو بن عوف: يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط^(٥).

(١) الجشيشة: طعام يصنع من البر، يطحن غليظاً.

(٢) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٣) الذروة والغارب على ظهر البعير، وأراد بذلك أنه لم يزل يخذعه كما يخذع البعير إذا كان نافرأ فيمسح باليد على ظهره، حتى يستأنس فيجعل الخطام على رأسه.

(٤) انظر «السيرة» ٢/٢٢٠-٢٢٢، و«المغازي» ٢/٤٥٥-٤٥٩، وعندهما أن النبي ﷺ قال: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين».

(٥) انظر «السيرة» ٢/٢٢٢.

وقال أوسُ بن قَيْظي أحد بني حارثة: يا رسولَ الله، إن بيوتنا عورةٌ - أي خالية - ، فَأُذِنَ لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارجُ المدينة. وكان ذلك عن رأي رجال من قومه المنافقين^(١).

فلم يأذن لهم وأقاموا محاصرين بضعاً وعشرين، ولم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبل يتناوبون عليهم.

قال أنس: لما اشتد القتال جاءهم أبو سفيان بن حرب، وخالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبي جهل، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب الفهري، ووجوه القبائل والأحباش، واستمر القتال بينهم عامّة النهار، وفات رسول الله ﷺ أربع صلوات، فلما رجع الناس إلى منازلهم، أمر بلالاً فأذّن وأقام لكل صلاة^(٢).

ولما طال الأمر، كتب أبو سفيان إلى النبي ﷺ: باسمك اللهم أحلف باللات والعزى، وإساف ونائلة وهبل، لقد سرتُ إليك لأستأصلك وأصحابك، فرأيتك قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظلّ رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، وإن لك مني يوماً كيوم أحدٍ والسلام.

وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمي، وأراد بالمكيدة الخندق، فقرأه أبي بن كعب على رسول الله ﷺ، فأمره أن يكتب جوابه، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، أما بعد، فقد أتاني كتابك يا أحمق بني [غالب] وسفيهم، وقديما غرّك بالله الغرور، وسيحولُ الله بينك وبين ما حاولت، ويجعلُ لنا العاقبة، وليأتينَّ عليك يومٌ أكسرُ فيه اللات والعزى، وإساف ونائلة، وهبل، والسلام^(٣)».

ولما اشتد الحصارُ على الناس، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، والحارث ابن عوف بن أبي حارثة المري^(٤)، وهما قائدا غطفان، فصالحهما على أن يعطيها

(١) انظر «السيرة» ٢/٢٢٢ و٢٤٦.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٢/٦٥.

(٣) انظر «المغازي» ٢/٤٩٢-٤٩٣، و«أنساب الأشراف» ١/٤١١، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) في النسخ: المزني، وكذا جاء في «الإصابة» ١/٢٨٦، وفي «السيرة» ٢/٢٢٣: المري، ولعله هو الصواب.

انظر «جمهرة النسب» ص ٤١٨.

ثُلث ثمار المدينة، ويرجعاً بمنّ معهما. فأجابا وكتب بينهما كتاب الصلح، ولم يبق إلا الإِشهادُ. فاستشار رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد في ذلك، فقالا: يا رسول الله، آله أمرك بهذا أم رأيٌّ رأيت من عندك؟ فقال: «لو أمرني الله ما شاورتُكما، ولكن رأيتُ العربَ قد رَمَتُكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبُوكُم من كلِّ جانبٍ، فأردتُ أن أكسِرَ شوكتَهُم عنكم». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وإياهم على شِرْكٍ وعبادةِ أوثانٍ، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يَظْمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرِيٌّ أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزَّنَّا بك نعطِيهم أموالنا، والله ما نعطِيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «أنتم وذاك». فتناول سعد الكتابَ فَمحاه وقال: لِيَجْهَدُوا علينا جهدهم.

وكان عيينة بن حصن والحارث بن عوف قد جاءا مُستخفيين من أبي سفيان ليشهدوا الصلح، فمد عيينة بن حصن رجله بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له أسيد بن حضير: يا عينَ الهِجْرَسِ^(١)، اقبضِ رِجْلِيكَ عن رسول الله ﷺ، وإلا أخذت الذي فيه عيناك، والله لا نعطِيكم إلا السيف، والله يا رسول الله إن كانوا ليأكلون العِلْهَزَ من الجَهدِ، وما طمَعوا بهذا. فقاما وهما يقولان: والله لا نُدرِكُ من هؤلاء شيئاً^(٢).

وكان فوارسٌ من قريش يقاتلون ويترامون منهم: عمرو بن عبد ود بن أبي قيس أخو بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وضِرار بن الخطاب الفِهْرِي، ومِرْدَاسُ^(٣) من بني محارب بن فِهْر، وغيرهم قد لبسوا للقتال، فجاؤوا يوماً للقتال مشاة وركباناً، فوقفوا على الخندق، فلما تأملوه عجبوا وقالوا: مكيدة ما كانت العرب تعرفها، فقال بعضهم: مع محمد رجل من فارس يدله على مثل هذا، يعنون سلمان الفارسي.

ثم قصدوا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت خيلهم في السَّبْحَةِ بين

(١) الهجرس: ولد الثعلب.

(٢) «المغازي» ٤٧٨-٤٧٩، والخبر فيه مطول.

(٣) هكذا جاءت العبارة في النسخ، وفي «السيرة»: ضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس، وهو الصواب،

الخنديق وسَلَع، وأقبل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من الصحابة رضي الله عنهم، فأخذ عليهم الثُّغرة التي اقتحموها وأقبلتِ الفرسانُ تُعِنُّ نحوهم ^(١).

ذِكْرُ مَقْتَلِ عَمْرُو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ:

قال الواقدي: لم يشهد عمرو أحداً، وإنما قاتل يوم بدر قتالاً شديداً، فأُثخن بالجراحات وهرب إلى مكة، فلما كان يومُ الخندق خرج مُعلماً ليُرى مكانه، وهو يومئذ ابنُ سبعين سنةً، وكان يُعَدُّ بألفٍ مقاتل، فدعا إلى البراز، فلم يبرز إليه أحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَهُ؟» فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه: أنا، فعَمَّمه بيده وأعطاه سيفه ذو الفقار، فبرز إليه وناداه: يا عمرو، إنك عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خَطْبَيْن ^(٢) إلا أجبته إلى أحدهما. قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام. فقال: لا حاجة لي في ذلك. قال: فأنا أدعوك إلى البراز. فعرفه، فقال: ولم يا ابن أخي فوالله ما أُحِبُّ أن أُقْتَلَكَ. فقال علي رضي الله عنه وأرضاه: ولكني أُحِبُّ أن أُقْتَلَكَ. وناداه رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقدم على اسم الله. فعند ذلك غضب عمرو وأنشد: [من مجزوء الكامل]

ولقد بُجِحْتُ مِنَ النَّدَا
وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الشُّجَا
إِنِّي كَذَلِكَ لَم أَزَلْ
إِنَّ الشُّجَاعَةَ فِي الْفَتَى
لَجَمِعِهِمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزُ
عُ تَوَقُّفَ الْبَطْلِ الْمَنَاجِزُ
مَتَسَرَّعاً نَحْوَ الْهَزَاهِرُ
وَالجُودَ مِنْ خَيْرِ الْغَرَائِزُ

فأجابه عليٌّ رضوان الله عليه: [من مجزوء الكامل]

لا تعجلنَّ فقد أتَا
ذو نيَّةٍ وبَصِيرَةٍ
إِنِّي لأرجو أن أُقِيَّ
مِنْ ضَرْبَةٍ فَوْهَاءٍ يَبُ
كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزُ
وَالصُّدُقُ مَنجَى كُلِّ فَائِزُ
مَ عَلَيْكَ نَائِحَةُ الْجَنَائِزُ
قَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِرُ

(١) «السيرة» ٢/٢٢٤، «تاريخ الطبري» ٢/٥٧٣-٥٧٤.

(٢) في «السيرة»: خلتين.

وفي رواية: فقال له عمرو: فارجع فإنك شاب. فأغلظ له علي رضي الله عنه في القول، فغضب وعرقب فرسه. ثم تجاوزا ساعة وثار بينهما الغبار، فانجلى عن عمرو وهو قتيل، اختلفا ضربتين سبقه علي رضي الله عنه ففلق رأسه، ويقال: أن عمراً جرح علياً رضي الله عنه في رأسه، ولما قطع يد عمرو انقضت عُقابُ فأخذت كفه وفي خنصره خاتمته، فحملت الخنصر وطارت إلى مكة فألقته فعرفته أخته، فقالت: قتل أخي. فلما عاد أبو سفيان إلى مكة، قالت: من قتل أخي؟ قالوا: علي بن أبي طالب، فقالت^(١): [من البسيط]

لو كان قاتلُ عمرو غير قاتله لطلال حزني عليه آخر الأبد
لكن قاتله من لا يُقاد به من كان يُدعى أبوه بيضة البلد
ولما قُتل عمرو ولت خيولُ أهله وأصحابه خارجةً من الخندق منهزمة، وقتل معه رجلاً: مُنَّبَه بنُ غنم بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم فأثخنه فمات بمكة منه، ومن بني مخزوم نؤفل بن عبد الله بن المُغيرة، وكان ممن اقتحم الخندق، فرمّوه بالحجارة وقد تورط فيه فنادى: يا معاشر العرب، قتلتهُ أحسنُ من هذه. فقتله علي رضوان الله عليه، وقيل: الزبير رضوان الله عليه. فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيعهم جثته، فقال: «لا حاجة لنا في جيفته ولا في ثمنه، فإنه خبيثٌ، خذوه». فأخذوه^(٢).

وقال ابن إسحاق: وكانت عائشة رضوان الله عليها وأم سعد بن معاذ رضي الله عنه في أطمٍ من أطام بني حارثة، فمر سعد بن معاذ وعليه دِرْعٌ مُقلّصة قد خرج منها ذراعُه وهو يقول: [من الرجز]

لبث قليلاً يشهد الهيجا حملُ لا بأسَ بالموتِ إذا جاء الأجلُ
قالت عائشة: فقلت: يا أمَّ سعد، ودِدْتُ أن دِرْعَ سَعْدِ أسبغُ مما هي، فإني أخاف عليه. قالت: فرماه حبان بن قيس بن العرقة بسهم فقطع أكحله، وقال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد رضي الله عنه: عرّق الله وجهك في النار، اللهم إن كنت أبقيت من حرب

(١) البیتان فی «ثمار القلوب» ص ٤٩٦ وفيه أن القائلة ابنته، وفي «المنتظم» ٢٣٤/٣ أنها أمه.

(٢) سياق القصة مأخوذ من عدة مصادر لا عن الواقدي وحده، وقد وردت في «المغازي» ٤٧٠-٤٧١، كما ذكر المصنف، والسياق من ابن إسحاق كما في «السيرة» ٢٢٤-٢٢٥، و«تاريخ الطبري» ٥٧٣-٥٧٤. وهي عندهم دون ذكر أبيات الشعر. والبيهقي في «الدلائل» ٤٣٧-٤٣٩، و«المنتظم» ٢٣٢/٣.

قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحبُّ إلي أن أجاهدَهم من قومٍ كذبوا رسولك، وآذوه، وأخرجوه، اللهم ولا تُمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة، واجعله لي شهادة^(١). وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية.

قالت عائشة رضي الله عنها: واقتحمتُ حديقةً فيها نفرٌ من المسلمين، فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيهم رجل عليه تسبغةٌ لا يرى منه إلا عيناه، والتسبغة: المغفر. فقال لي عمر: إنك لجريئةٌ ما جاء بك؟ وما يدريك لعله يكون تحوُّزٌ أو بلاءٌ. فوالله ما زال يلومني حتى ودِدْتُ أن الأرض انشقت ساعتئذٍ فدخلت فيها، فكشف الرجل عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبَّيد الله، فقال لعمر: ويحك يا عمر، قد أكثرت، فأين الفرار؟ أين التحوُّزُ إلا إلى الله تعالى^(٢)؟

وقال عبدُ الله بن كعب بن مالك: ما أصاب سعداً يومئذٍ إلا أبو أسامة الجُشمي، حليفُ بني مخزوم، رماه بالسهم في أكحله^(٣).

حديث نعيم بن مسعود الغطفاني:

قال علماء السير: كان نعيم بن مسعود صديقاً لبني قريظة، نديماً لكعب بن أسد يقدم عليه فيكرمه ويؤدُّه من التمر، فلما اشتد الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال نعيم: فأوقع الله الإسلام في قلبي، فكتمت قومي ذلك، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً، فقال: «ما جاء بك؟» فأخبرته بإسلامي، وقلت: قد كتمته عن قومي، فمُرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذلنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة». فخرج نعيم فأتى بني قريظة، فرحبوا به وقالوا: ما جاء بك؟ فقال: قد عرفتم وُدِّي إياكم، وكان صديقاً لهم في الجاهلية، قالوا: صدقت ولا نتهمك في شيء. فقال: إن قريشاً وغطفان ليسوا من أهل هذه البلاد، وإنما جاؤوا طلباً للغنائم، فإن أصابوها وإلا رجعوا إلى بلادهم، وخلَّوا بينكم وبين محمدٍ، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوه معهم

(١) «السيرة» ٢/٢٢٦-٢٢٧، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٧٥.

(٢) «تاريخ الطبري» ٢/٥٧٦.

(٣) «تاريخ الطبري» ٢/٥٧٦-٥٧٧.

حتى تأخذوا رهائن من أشرافهم. فقالوا: نعم الرأي رأيت، ونعم ما أشرت به. ثم خرج من عندهم وأتى أبا سفيان ومن معه من قريش، فقال: يا معاشر قريش، قد علمتم وُدي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أمر فاكتموه عليّ. قالوا: وما هو؟ قال: إن بني قريظة قد ندموا على نقض العهد بينهم وبين محمد ﷺ، وقد أرسلوا إليه يقولون: قد ندمنا على ما فعلنا، فهل ترضى عنا بأن نأخذ من أشراف قريش وغطفان أناساً رهائن، فندفعهم إليك فتضرب أعناقهم؟ قال: نعم، فإن بعثت إليكم يهود تطلب رهائن فلا تعطوهم.

ثم خرج فأتى غطفان، فقال لهم كما قال لقريش، فلما كانت ليلة السبت، أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة يقولون: لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال غداً حتى نناجزهم. وكان الرسول عكرمة بن أبي جهل ووجوه قريش وغطفان، فقالت بنو قريظة: إن غداً يوم السبت، والعمل علينا فيه حرام، ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن من أشرافكم يكونوا بأيدينا ثقة، فإننا نخشى أن تُضرسكم الحرب فترحلوا عنا وتتركونا ومحمداً في قُطرٍ واحد، فيستأصلنا. فلما رجعت الرسل إليهم قالوا: صدق نعيمٌ والله. ثم أرسلوا إلى قريظة: إننا لا ندفع إليكم أحداً، فإن شئتم أن تخرجوا فتقاتلوا وإلا فلا. فقالت قريظة: صدق والله نعيم. وانخذل الفريقان^(١).

حديث صفيّة بنت عبد المطلب ﷺ مع اليهودي:

كانت صفيّة ﷺ في حصن فارع، وهو حصن حسان بن ثابت، قالت: وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فجاء يهودي فجعل يُطيف بالحصن وليس بيننا وبين قريظة من يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نُحور أعدائهم لا يقدر أن يصلوا إلينا، ولا يدفعون عنا.

قالت: فقلت: يا حسان، والله ما آمن هذا اليهودي أن يدلهم على عورات الحصن فيأتون إلينا، فانزل فاقتله.

(١) «السيرة» ٢/٢٢٩-٢٣١، و«المغازي» ٢/٤٨٠، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٧٨.

فقال حسان: يا بنت عبد المطلب، قد عرفت ما أنا بصاحب هذا، وكان حسان من أجبين الناس. قالت: فلما يئست منه اعتجرت وأخذت عموداً ونزلت ففتحت باب الحصن، وأتته من خلفه فضربته بالعمود حتى قتلته، وصعدت الحصن فقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: يا بنت عبد المطلب، ما لي بسلبه حاجة^(١).

حديث رحيلهم:

خذلهم الله وأيسر ضرورهم مواشيهم، وأرسل عليهم رياحاً شديدة باردة فأظلمت الدنيا، وجعلت تكفاً قدورهم وترمي آنتهم. قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] الآيات. وتقلعت الأوتاد، وطفئت النيران، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حي يقول: يا بني فلان، هلموا إلي. فإذا اجتمعوا إليه، قال: النجاء النجاء أتيتم، فانهزموا من غير قتال.

وقال محمد بن كعب القرظي: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا ولفعلنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ يوم الخندق في ليلة باردة لم أجد قبلها ولا بعدها برداً أشد منه، فصلى رسول الله ﷺ هويّاً من الليل، ثم التفت إلينا وقال: «مَنْ يَقُومُ فَيَذْهَبُ

(١) انظر «السيرة» ٢/٢٢٨، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٧٧، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/٤٤٢-٤٤٣.

وقال السهيلي في «الروض الأنف» ٢/١٩٣-١٩٤: ومحمل هذا الحديث عند بعض الناس أن حساناً كان جباناً شديد الجبن، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو صح هذا لهجي به حسان، فإنه كان يهاجي الشعراء، كضرار وابن الزبير وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيره أحد منهم بجن ولا وسمه به، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فلعل حسان أن يكون معتلاً في ذلك اليوم بعله، منعه من شهود القتال، وهذا أولى ما تأول عليه. وانظر «سبل الهدى والرشاد» ٤/٥٦٤.

إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم، أدخله الله الجنة» فما قام أحد منا من الخوف والبرد والجوع، فعل رسول الله ﷺ ذلك ثلاثاً. فلما لم يقم أحد، دعاني فقال: «قم يا حذيفة» فلم يكن لي بُدُّ من القيام حين دعاني، فقلت: لبيك يا رسول الله، وقمت حتى أتته وإن جنبي ليضربان، فمسح على رأسي ووجهي ثم قال: «أنت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم، ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى ترجع إليّ»، ثم دعا لي فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته».

قال: فشددت عليّ أسلابي، وأخذت قوسي وأسهمي، وانطلقت أمشي كأنما أمشي في حمّام حتى دخلت في القوم، وأرسل الله عليهم ريحاً قطعت أطناب خيامهم، وذهبت خيولهم، فلم تدع لهم شيئاً حتى أهلكته، وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذت سهماً ووضعته في كبد قوسي وأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تُحدثنَّ حدثاً حتى ترجع» فرددت سهمي إلى كنانتي، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم، قام فقال: يا معاشر قريش، ليأخذ كل رجل منكم بيد جلسه فلينظر من هو، فأخذت بيد جليسي فقلت: من أنت؟ فقال: سبحان الله ما تعرفني؟! أنا فلان بن فلان، فإذا هو رجل من هوازن، فقال أبو سفيان: يا معاشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والحف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذا الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جملي وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوقف على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، وسمعت غطفان بما صنعت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، وهزم الله الأحزاب، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، فضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وذهب عني الدفء، فأدناني رسول الله ﷺ فأنامني عند رجليه، وألقى عليّ طرف ثوبه، وألزق صدري ببطن قدمه^(١).

وقد أخرج مسلم بمعناه عن حذيفة فقال فيه: فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حذيفة» فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي إلا أن أقوم، فقال: «لا تدعهم»، قال: فأردت أن أرمي

(١) «السيرة» ٢/٢٣٣-٢٣١، و«المغازي» ٢/٤٨٨-٤٩٠، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٧٩-٥٨٠.

أبا سفيان ولو رميته لأصبتُه، فرجعت فأخبرت النبي ﷺ، فلما فرغت قُرِرتُ فألبسني فضلاً عباءة كانت عليه، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فقال: «قم يا نومان» وفيه: فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام^(١). معناه: من شدة الخوف، يشير إلى حرارة الفزع. وللبخاري، عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ - حين أُجلي الأحزاب عنه -: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»^(٢) أي: نغزوهم في ديارهم. فغزاهم عام الفتح.

وقال الواقدي: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الأحزاب يوم الإثنين والثلاثاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر. قال جابر: فعرفنا البشر في وجهه^(٣). وكان من دعائه: «اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب» وفي رواية: «ومجري السحاب اهزمهم وزلزلهم». أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قبل المشرق، عليهم مالك ابن عوف النَّصْرِي، وعيينة بن حصن، وطليحة بن خويلد الأسدي، وحِييُّ بن أخطب في بني قريظة، ﴿وَمِنَ اسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ يعني: من بطن الوادي من قبل المغرب: أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه من الأحابيش، وأبو الأعور عمرو بن سفيان من قبل الخندق، ولم يقتل من المسلمين في غزاة الخندق سوى ستة نفر من الأنصار:

منهم: عبد الله بن سهل بن زيد الخزرجي من الطبقة الأولى، وأمه: الصَّعبَةُ بنت التَّيَّهَانِ بن مالك، شهد عبد الله بدرًا وأحدًا، ورماه رجل من بني عوف بسهم في الخندق فقتله.

ومنهم: كعب بن زيد بن قيس، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه: ليلي بنت عبد الله الأنصارية، شهد بدرًا، وأحدًا، وبئر معونة، وارتث في ذلك اليوم، واستشهد بالخندق، قتله ضرار الفهري، وليس له عقب.

(١) مسلم (١٧٨٨).

(٢) البخاري (٤١١٠).

(٣) «المغازي» ٤٨٨/٢.

(٤) البخاري (٤١١٥)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

وفيها: كانت غزاة بني قريظة^(١).

قال علماء السير: لما انصرف الأحزاب عن المدينة، لحق أبو سفيان بمكة، وعُيِّنهُ بنجد، والأعراب بأماكنها، دخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضي الله عنها، ووضع المسلمون سلاحهم، فجاء جبريل عليه السلام مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وَقِيلَ: كَانَتْ سُودَاءَ، قَدْ أَرَخَى ذُؤَابَتِيهَا بَيْنَ كَتْفَيْهِ، وَهُوَ عَلَى بَعْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ أَوْ رِحَالَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، فَوَقَفَ عِنْدَ مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «يَا مُحَمَّدُ، عَذِيرُكَ^(٢) مِنْ مُحَارِبٍ! أَوْ قَدْ وَضَعْتَ السَّلَاحَ، وَاللَّهِ يَا مُرُّكَ أَنْ تَسِيرَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ». فَخَرَجَ رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ عُرِّيٍّ وَالنَّاسُ يَمْشُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَدَعَا عَلِيًّا رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ لَوَاءَهُ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسِتَّةٌ وَثَلَاثِينَ فَرَسًا، وَذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِسَبْعِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، أَوْ الْقَعْدَةِ^(٣).

وقال له جبريل عليه السلام: إني مُزَلِّزٌ عَلَيْهِمْ حُصُونَهُمْ.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عليه، عن عائشة رضوان الله عليها: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب، دخل إلى المُغْتَسَلِ لِيُغْتَسَلَ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَوْ قَدْ وَضَعْتُمُ السَّلَاحَ، مَا وَضَعْتَ الْمَلَائِكَةُ أَسْلِحَتَهَا، أَوْ مَا وَضَعْنَا سِلَاحَنَا أَوْ أَسْلِحَتْنَا بَعْدُ، إِنْ هَذَا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

قالت عائشة: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جَبْرِيلَ مِنْ خَلَلِ الْبَابِ قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ فِي زِقَاقِ بَنِي غَنَمٍ^(٤).

فسار إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم بضع عشرة ليلة. وفي رواية: خمس عشرة

(١) «السيرة» ٢/٢٣٣، و«المغازي» ٢/٤٩٦، و«الطبقات الكبرى» ٢/٧٠، و«أنساب الأشراف» ١/٤١٤، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٨١، و«المنتظم» ٣/٢٣٨، و«البداية والنهاية» ٤/١١٦.

(٢) أي: هات من يعذرک.

(٣) «المغازي» ٢/٤٩٧، و«الطبقات» ٢/٧٠.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٩٩٤)، وقوله: «في زقاق بني غنم» هو من حديث أنس الآتي، ولم نقف عليه من حديث عائشة.

ليلة، فاشتد عليهم البلاء ولم ينصرهم أحد، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان مُثَخَّنًا من الجرح الذي أصابه يوم الخندق.

وللبخاري، عن أنس قال: كأني أنظرُ إلى غُبار ساطع في سكة بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة^(١).

وعن ابن عمر قال: لما رجع النبي ﷺ من الأحزاب قال: «لا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». فأدرك بعضهم العصرَ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرِدْ ذلك مِنَّا. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعَنِّفْ مِنْهُمْ أَحَدًا. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

قال ابن إسحاق: وسار علي عليه السلام بالراية حتى إذا دنا من الحصون، سَمِعَ مقالة قبيحة في حق رسول الله ﷺ فرجع، فلقى في الطريق فقال له: يا رسول الله، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «أظنك سمعت لي منهم أذى» قال: نعم، قال: لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً من ذلك.

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، ناداهم: «يَا إِخْوَةَ الْقِرَدَةِ وَالْحَنَازِيرِ، هَلْ أَخْزَاكُمُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟» فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً. ومرَّ رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «هل مرَّ بكم أحدٌ؟» قالوا: نعم، مرَّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة شهباء عليها قطيفة من ديباج. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريلُ عليه السلام بُعثَ إلى بني قريظة، يُزَلِّزُ عَلَيْهِمْ حُصُونَهُمْ، وَيَقْدِفُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ». ثم نزل رسول الله ﷺ على بئر من آبارهم، وتلاحق به الناس^(٣).

وقال الواقدي: لما دخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضوان الله عليها، جاءه جبريل عليه السلام وعلى ثناياه النقع، فقال له: سر إلى بني قريظة^(٤).

وضرب رسول الله ﷺ على سعد بن معاذ في المسجد قبة، وترك عنده امرأة من

(١) أخرجه البخاري (٤١١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠)، وعند مسلم: الظهر بدل العصر.

(٣) «السيرة» ٢/٢٣٤، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٨٢.

(٤) «المغازي» ٢/٤٩٧.

المسلمين يقال لها: رُفَيْدَة، كانت تداوي الجرحى، وتقوم على المرضى تحتسب فعلها عند الله تعالى، وكان كَلْمُ سَعْدٍ قد انفجر^(١).

وقال هشام^(٢): حاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وكان حُيَي بن أخطب قد دخل في حصن كعب بن أسد وفاءً لكعب بما عاهده عليه، فلما تيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصور عنهم حتى يُناجزهم، اجتمعوا وتشاوروا، فقال لهم كعب بن أسد: قد نزل بكم ما تَرَوْنَ فاختراروا إحدى ثلاث: إما أن نباع هذا الرجل ونصدقه وقد علمتم أنه نبي مُرْسَلٌ، وأنه الذي قد وجدتم نَعْتَه في كتابكم، فآمنوا به، واحقنوا دماءكم، وأحرزوا أموالكم وأولادكم ونساءكم، فأبوا وقالوا: لا نترك ديننا، قال: فتعالوا حتى نقتل أبناءنا ونساءنا، ونخرج بسيوفنا، فإما أن نُقتل أو نظفر، فإن قُتِلنا لم يكن وراءنا همٌّ، وإن ظفِرنا فما نعجزُ عن اتخاذ الأبناء والنساء. قالوا: فإذا قتلنا أهلنا فأبي عيش يبقى لنا بعدهم.

قال: فإن أبيتُم فالليلة ليلة السبت ومحمدٌ وأصحابه آمنون من خروجنا إليهم، فاخرجوا فلعلنا أن نصيب منهم غرّة، فقالوا: لا تُفسد علينا سبتنا فَنُمسَخَ كما مُسِخَ غيرنا. فقال لهم: يا إِخْوَةَ الْقِرْدَةِ، والله ما بات أحدكم منذُ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً!

ثم اتفقوا فيما بينهم أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ يطلبوا منه أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ليستشروه في أمرهم، وكانوا حلفاء الأوس.

قال أبو لبابة: فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس والخزرج»، فدخلت إليهم فمشوا إلي، وبكى النساء والصبيان وقالوا: نحن مواليك دون الناس كلهم، وقد عرفت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بُعَاثٍ، وكلَّ حَرْبٍ كنتم فيها، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، وخيرنا بأن [لا] يفارقنا حتى نزل على حكمه، فماذا ترى؟ فإننا قد اخترناك على غيرك. فرق لهم وقال: نعم فانزلوا على حكمه. وأشار إلى حلقة إنه الذبح.

(١) «السيرة» ٢/٢٣٩.

(٢) هكذا جاء في النسخ، ولعله ابن هشام.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدمي عن مكانها حتى ندمت واسترجعت، وقلت: حُنتُ الله ورسوله، ونزلتُ، وإنَّ لحيتي مبتلةٌ بالدموع والناس ينتظرون رجوعي إليهم، فأخذت طريقاً من وراء الحصن إلى المسجد، فربطت نفسي إلى سارية، وبلغ النبي ﷺ صنيعي. فقال: «دَعُوهُ حَتَّى يُحْدِثَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، لَوْ كَانَ جَاءَنِي لاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَإِذْ لَمْ يَأْتِنِي وَذَهَبَ، فَدَعُوهُ». فأقام سبعاً لا يأكل ولا يشرب في حرٍّ شديد وقال: لا أزال كذا حتى أفارق الدنيا أو يتوبَ اللهُ علي.

قالت أم سلمة: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ يحلُّ رباطه، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته، وما يدري كثيراً مما يقول من الجهد والضعف، ولقد كان الرباط حَزًّا في ذراعه، وكان من شَعْرٍ، وكان يداويه بعد ذلك دهنراً^(١).

وقال ابن إسحاق: نزلتُ توبةً أبي لبابة ورسولَ الله ﷺ في بيت أم سلمة. قالت: فقلت: ألا أبشُّره؟ قال: «بلى». فناديته: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك. فثار الناس ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده. فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه^(٢).

قال الواقدي: وأسلم في تلك الليلة جماعة من قريظة والنضير منهم: عمرو بن سعدى القرظي، وكان قد أبى أن ينقض ما بينه وبين رسول الله ﷺ لما نقضت قريظة، وقال: لا أغدرُ بمحمد. فخرج في تلك الليلة، فمر بحرس رسول الله ﷺ، وفيهم محمد بن مسلمة فلم يعرض له، فذهب فلا يدري أين سلك^(٣).

قال البلاذري: ومن أشرف قريظة أسيد بن أعصم الساحر أخو لييد، ورفاعة بن زيد بن التابوت، والزبير بن باطا، وقردم بن كعب، وكعب بن أسد، وكان المشار إليهم، في آخرين^(٤).

(١) انظر «السيرة» ٢/٢٣٥-٢٣٧، و«المغازي» ٢/٥٠٣-٥٠٨، وسياق القصة منهما جميعاً.

(٢) «السيرة» ٢/٢٣٧.

(٣) «المغازي» ٢/٥٠٣-٥٠٤.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٣٣٣، وذكرهم البلاذري في معرض حديثه عن عظماء اليهود فذكرهم، لا أنهم

ولما أصبحوا، نزلوا على حُكْمِ رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس وقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج ما فعلت، يشيرون إلى بني قينقاع الذين شفع فيهم عبد الله بن أبي. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «فَذَاكَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ». قالوا: رضينا، فقال: «عَلِيِّ بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». فجيء به على حمار وعليه إكافٌ من ليف، فجعلوا يقولون: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ. وسعد يقول: أنا لا أبالي في الله لومة لائم. فقال له رسول الله ﷺ: «احْكُمْ فِيهِمْ». فقال: أحكم فيهم أن يُقْتَلَ مُقَاتِلَهُمْ، وتُسبَى ذراريهم، وتُقَسَمَ أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله، وأنزلهم رسول الله ﷺ دار ابنة الحارث، امرأة من بني النجار^(١).

وكان من حكم سعد أن يقتل كل من جرت عليه موسى^(٢). قال عطية القرظي: وكانوا يقتلون من أنبت، فكنت فيمن لم يُنبت^(٣). ثُمَّ كُتِفُوا، وجعل عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن سلام، ثم جلس رسول الله ﷺ في السوق الذي هو اليوم سوق المدينة، وحفر لهم الخنادق، وخذ لهم الأخاديد، وأُخْرِجُوا رَسَلًا فَضْرِبَتْ أَعْنَاقَهُمْ، وكان عدَّتْهُمْ من الست مئة إلى السبع مئة أو ثمان مئة، وقيل: أربع مئة، وفيهم كعب بن أسد، وحبيي بن أخطب، وعزال بن شمويل^(٤).

ولما جيء بحبيي بن أخطب، كان عليه حُلَّةٌ قضاعية^(٥) قد شققها من كل جانب لئلا يلبسها غيره، ويدها مجموعة إلى عنقه، فلما رأى رسول الله ﷺ قال: والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَلْ، وهذا أمر قدّره الله، وملحمة كتبها على بني إسرائيل، ثم قُدِّمَ فَضْرِبَتْ عَنْقَهُ^(٦).

(١) انظر «السيرة» ٢/٢٣٩-٢٤٠.

(٢) انظر «المنتظم» ٣/٢٣٩.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٦٥٩).

(٤) انظر «السيرة» ٢/٢٤٠-٢٤١، و«تاريخ الطبري» ٢/٥٩٠.

(٥) هكذا في النسخ، وفي «السيرة»: «فقاحية» وهي التي تضرب إلى الحمرة.

(٦) «السيرة» ٢/٢٤١.

وكان الزبير بن باطا يكنى أبا عبد الرحمن قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس؛ أخذه يوم بُعث أسيراً، فجز ناصيته وأطلقه. وكان الزبير شيخاً كبيراً فرآه ثابت في ذلك اليوم فعرفه وقال له: هل تعرفني؟ فقال: وهل أجهلك؟ قال: فإني أريد اليوم أن أجزيك بيدك عندي، فقال: إن الكريم يجزي الكريم.

فجاء ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه منه وعرفه يده عنده فوهبه له، فقال له: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك. فقال: شيخ كبير لا مال ولا أهل، فما يصنع بالحياة؟ فاستوهب ثابت ماله، وأهله وولده وأتاه فأخبره، فقال: أي ثابت ما فعل الذي كأن وجهه مرأة صقيلة يترآى فيها العذارى وجوههن، كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيّد الحاضر والبادي حبي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مُقدّمنا إذا شدّدنا، وحامينا إذا كررنا: عزّال بن شمويل قال: قتل. وعدّ جماعة، وثابت يقول: قتلوا. فقال له: يا ثابت، فإني أسألك بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعدهم خير حتى ألقى الأحبة. فقال له: تلقاهم في نار جهنم، فقتله^(١).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، والله إنها لقاعدة عندي تتحدث وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ في السوق يقتل رجالهم، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ فقالت: ها أنا والله. فقلت لها: مالك ويلك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحديث أحدثته. فذهبوا بها فضربوا عنقها، فلا أنسى طيب نفسها، وكثرة ضحكها. وقد عرفت أنها تُقتل، وهذه المرأة رمت على خلاد بن سويد رحاً فقتلته، فقتلها رسول الله ﷺ^(٢).

وقسم رسول الله ﷺ أموالهم، ونساءهم وأولادهم بين المسلمين، ووُجد في حصونهم ألف وخمسة مئة سيف، وألف رمح، وألف وخمسة مئة ترس، وأموال عظيمة، ومواشي كثيرة، فكانت السهمان بعد ما أخرج رسول الله ﷺ الخمس على ثلاثة آلاف ونيّفاً وسبعين سهماً، للفارس سهمان^(٣)، وللراجل سهم، واستعمل على

(١) «السيرة» ٢/٢٤٢-٢٤٣، والقائل له هذه المقالة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) «السيرة» ٢/٢٤٢.

(٣) في «السيرة»: للفارس سهمان، ولفارسه سهم.

الخُمس مَحْمِيَّةَ بَنِ جَزْءِ الزُّبَيْدِيِّ، وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري إلى نجد بسبايا من قريظة، فابتاع له بها خيلاً وسلاحاً^(١).

وكان رسول الله ﷺ يهب ويعتق من الخُمس، واصطفى رِيحانة بنت عمرو بن جُنَافَةَ، وكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، وكان أراد أن يتزوجها فأبت، وقالت: إذا كنت في المِلكة، كان أخفَّ عليَّ وعليك. ولما سبأها، أقامت مدة على يهوديتها، فهجرها حتى أسلمت، وبشره بإسلامها ثعلبةُ بنُ سَعِيَةَ فسرَّ بها^(٢).



وفيها: سقط رسول الله ﷺ من الفرس، فجُحش على شقه الأيمن.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا علي بن خلاد، عن أبيه، عن ثابت، عن أنس قال: سَقَطَ رسول الله ﷺ من فرس، فَجُحِشَ شِقُّهُ الأيمنُ، فدخلوا عليه فصلى بهم قاعداً وأشار إليهم أن اقعدوا، فلما سلم قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الإمامُ إماماً لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فلا تَخْتَلِفُوا عليه، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قرَأَ فَأَنْصِتُوا، وَإِذَا صَلَّى قَاعِداً فَصَلُّوا خلفه قعوداً». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).



وفيها فُرِضَ الحجُّ^(٤)، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قدم وفدُ ضِمَامِ بنِ ثَعْلَبَةَ من بني سَعْدِ علي رسول الله ﷺ سنة خمس من الهجرة، فذكر لهم فرائض الإسلام من الصلاة، والزكاة، والصَّيام، والحجِّ^(٥).

(١) «السيرة» ٢/٢٤٤-٢٤٥، وانظر ٢/٣٦١.

(٢) «السيرة» ٢/٢٤٥.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٦٥٦)، والبخاري (٨٠٥)، ومسلم (٤١١)، وقوله: «فلا تختلفوا عليه» هو من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٢٢) ومسلم (٤١٤).

(٤) في «البداية والنهاية» ٤/١٨٠: أنه فرض في سنة ست وهو الأصح كما رجحه ابن حجر في «الفتح» ٣/٣٧٨.

(٥) لم نقف عليه في «المسند» من حديث ابن عمر، وهو في «المسند» (٢٢٥٤) من حديث ابن عباس، وليس فيه ذكر للسنة الخامسة.

فصل وفيها توفي

جَلَيْبِبٌ^(١)

من بني ثعلبة، حليفُ الأنصار، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، وقال ابن سعد: حدثنا عارم قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي بَرزَةَ الأسلمي: أن جَلَيْبِباً كان امرئاً من الأنصار، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان لأحدهم أيمٌ، لم يزوجهما حتى يُعَلِّمَ رسولَ الله ﷺ؛ ألهُ فيها حاجةٌ أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار: «أتزوجهني ابنتك؟» قال: نعم. قال: «لستُ أريدها لنفسي» قال: فلمن؟ قال: «جَلَيْبِب»، قال: حتى أستمُر أمها، فأخبرها. فقالت: حَلَقِي، لَعَمْرُ اللهِ لا أزوجهما، فلما قام أبوها ليأتي رسولَ الله ﷺ، قالت الفتاة من خدرها: من خطبني إليكما؟ قال: رسولُ الله ﷺ، قالت: أفتردانِ على رسولِ الله ﷺ أمره؟ اذفعاني إليه، فإنه لا يُضَيِّعُنِي. فذهب أبوها إلى رسولِ الله ﷺ فقال: شأنك بها، فزوجهما من شئت. فزوجهما جَلَيْبِباً، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَ صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهُمَا كَدًّا». فبينما رسول الله ﷺ في مغزى له، قال: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قالوا: نفقد فلاناً وفلاناً. فقال: «وَلَكِنِّي أَفْقِدُ جَلَيْبِباً. فَاطْلُبُوهُ»، فوجدوه في القتلى إلى جانب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»، فوضعه رسول الله ﷺ على ساعديه حتى حفروا له، ماله سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيمٌ أنفقَ منها^(٢).

وقول المرأة: «حَلَقِي» بإسكان اللام مخففة معناه: أصابها وجع في حلقها.

خَلَادُ بْنُ سُوَيْدٍ

ابن ثعلبة الأنصاري الخزرجي^(٣) من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه عمرة بنت

(١) «الطبقات الكبرى» ٣٩٣/٥، و«المنتظم» ٢٤١/٣، و«الإصابة» ٢٤٢/١.

(٢) أخرجه ابن سعد «الطبقات الكبرى» ٣٩٣-٣٩٤/٥، وأحمد في «مسنده» (١٩٧٨٤).

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤٩١/٥، و«تاريخ الطبري» ٥٩٣/٢، و«المنتظم» ٢٤٢/٣، و«الإصابة» ٤٥٤/١.

سعد خزرجية، شهد العقبة مع السبعين، وبدراً، وأحدًا، والخندق، ووثبت عليه بنانة من حصن لبني قريظة فشدخت رأسه، فقتلها رسول الله ﷺ به - وقد ذكرناه - ولما قتل، جاءت أمه مُنتقبةً فقبل لها: أنتقين وقد قُتلَ خَلاَّدٌ؟ فقالت: إن كنت رُزئتُ خَلاَّدًا فما رُزئتُ حياءً وجهي.

سعد بن معاذ^(١)

ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، أبو عمرو، من الطبقة الأولى من الأخيار، وأمّه: كَبْشَةُ بنتُ رافع بن معاوية خزرجية، أسلمت وبايعت. وأسلم سعد على يَدَيِّ مُضْعَبِ بن عمير، فأسلم بإسلامه بنو عبد الأشهل، وشهد بدرًا وأحدًا ووثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ، وأخى بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وقيل: بينه وبين سعد ابن أبي وقاص.

وقال أبو المتوكل: إن نبي الله ﷺ قال: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»، فسألها سعد فلزمته، فلم تفارقه حتى مات^(٢).

قال أبو سعد: وكواه رسول الله ﷺ بالنار مرتين بسبب جرحه، وكان جرح في الخندق.

وقال سعد لما جرح: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحب إلي أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم وإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان قد بقي من حرب قريش شيء فأبقني أجاهدكم فيك، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فأفجرها واجعل موتي فيها. فانفجرت من ليلته، فلم يرعهم - وفي المسجد معه قومٌ من بني غفار - إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا جرح سعد يَغْدُو دَمًا، فما زال يسيل حتى مات^(٣).

(١) «الطبقات الكبرى» ٣/٣٨٨، و«المنتظم» ٣/٢٤٢، و«سير أعلام النبلاء» ١/٢٧٩، و«الإصابة» ٢/٣٧، و«البداية والنهاية» ٤/١٢٦.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣/٣٨٩.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) (٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال جابر: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فَقُطِعَ أَكْحَلُهُ، فَحَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّارِ، فَحَسَمَهُ أُخْرَى فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ فَنَزَفَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ. فَاسْتَمْسَكَ عِرْقَهُ فَمَا قَطَرَ مِنْهُ قَطْرَةً، فَلَمَّا نَزَلُوا عَلَى حَكْمِهِ - وَكَانُوا أَرْبَعَ مِائَةٍ - فَقَتَلُوا، انْفَتَقَ عِرْقُهُ فَمَاتَ^(١).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: انفجر جرح سعد وقد كان برأ، فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، والذي نفسي بيده إني لأَعْرِفُ بكاء أبي من بكاء عمر. قيل لها: فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عيناه لا تدمعان على أحد ولكنه إذا وَجِدَ فإنما هو آخذ بلحيته^(٢).

وقال ابن إسحاق: إنما توفي سعد قبل قتل بني قريظة وقسمة أموالهم، ويقال: مرت به عَنز وهو مضطجع في المسجد فأصابته جرحه، فما رَقَاً حتى مات^(٣).

وقال الواقدي: كانت وفاته في ذي القعدة وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وصلى عليه رسول الله ﷺ، وحمل جنازته بين العَمُودَيْنِ مقدار ثلاثين ذراعاً، وحفروا قبره فوجدوا منه رائحة المسك، ودفن بالبقيع^(٤).

وعزى رسول الله ﷺ أمه فيه وقال لها: «ابنك أول من ضحك الله إليه»^(٥).

وقال ابن سعد، يرفعه إلى رجل من الأنصار قال: لما قُضِيَ سَعْدٌ فِي بَنِي قَرِيظَةَ ثُمَّ رَجَعَ، انفجر جرحه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاه فأخذ رأسه فوضعه في حجره، وسُجِّيَ بثوب أبيض إذا مَدَّ على وجهه خرجت رجلاه، وكان رجلاً أبيض جسيماً، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ سَعْدًا قَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ، وَصَدَّقَ رَسُولَكَ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ، فَتَقَبَّلْ رُوحَهُ بِخَيْرٍ مَا تَقَبَّلْتَ بِهِ رُوحًا». وسمع سعد كلام رسول الله ﷺ ففتح

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٨) مختصراً، والترمذي (١٥٨٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٧٧٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» ٣/٣٩١.

(٣) لم نقف عليه في «السيرة» ولا غيرها من المصادر التي تأخذ عن ابن إسحاق، وأورده ابن سعد في «الطبقات» ٧٣/٢.

(٤) «المغازي» ٢/٥٢٧-٥٢٨.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٥٨١) من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن.

عينيه، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله، أما إني أشهد أنك رسول الله. فلما رأى أهل سعد أن رسول الله ﷺ قد وضع رأسه في حجره دُعِرُوا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ عَدَدَكُمْ لِيَشْهَدُوا وَفَاةَ سَعْدٍ»^(١).

وقال الحسن: لما مات سعد، وكان سميناً جَزْلاً، جعل المنافقون وهم يمشون خَلْفَ جِنَازَتِهِ يقولون: لم نَرَ كاليوم رجلاً أخف. وقالوا: تدرُونَ لم ذلك؟ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قَرِيظَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ سَرِيرَهُ»^(٢).

وقال ابن عمر رضوان الله عليهما: بلغني أنه شهد سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض. وقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ ضَمَّ صَاحِبُكُمْ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ»^(٣). وفي رواية: فخرج رسول الله ﷺ يمشي في جنازته على رؤوس أصابعه، فقيل له في ذلك: فقال: «مَا قَدَرْتُ أَنْ أَضَعَ قَدَمِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ كَثْرَةِ مَا نَزَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي جِنَازَتِهِ»^(٤).

وفي رواية ابن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «هَذَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَنْزِلُوا الْأَرْضَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَقَدْ ضَمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ أُفْرِجَ عَنْهُ»^(٥).

وفي رواية عن سعيد المقبري قال: لما دَفَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَعْدًا قَالَ: لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ ضَعْفَةِ الْقَبْرِ، لَنَجَا سَعْدٌ، وَلَقَدْ ضَمَّ ضَمَّةً اخْتَلَفَتْ مِنْهَا أَضْلَاعُهُ مِنْ أَثَرِ الْبَوْلِ^(٦).

وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»^(٧).

(١) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٣٩٥.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٣٩٧.

(٣) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٣٩٧.

(٤) لم نقف على هذه الرواية.

(٥) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٣٩٨.

(٦) «الطبقات الكبرى» ٣/ ٣٩٨.

(٧) أخرجه البخاري (٣٨٠٣).

وقالت أسماء بنت يزيد: إن رسول الله ﷺ قال لأم سعد بن معاذ: «أَلَا يَرَقَا دَمْعُكَ وَيَذْهَبُ حُزْنُكَ، فَإِنَّ ابْنَكَ أَوَّلُ مَنْ ضَحِكَ اللهُ لَهُ، وَاهْتَزَّ لَهُ الْعَرْشُ»^(١).

وروى الحسن، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَقَدْ اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لَوْفَاةِ سَعْدٍ». فرحاً به، قوله: فرحاً به، تفسير من الحسن^(٢).

وقال البخاري يرفعه إلى جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ». فقال رجل لجابر: فإن البراء يقول: «اهْتَزَّ السَّرِيرُ». فقال: إنه كان بين هذين الحيين ضغائن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ ابْنِ مَعَاذٍ»^(٣).

وعن البراء: أن رسول الله ﷺ أتى بثوبٍ حريرٍ فجعل أصحابه يتعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: «لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَلْيَنُ مِنْ هَذَا»^(٤).

وأُتِيَ النبي ﷺ وسلم بَجَبَّةٍ مِنْ دِيْبَاجٍ مَنْسُوجَةٍ بِالذَّهَبِ، بَعَثَ بِهَا أُكَيْدِرُ دُؤْمَةَ الْجَنْدَلِ فِي غَزَاةِ تَبُوكَ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا، لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِمَّا تَرَوْنَ»^(٥).

وكان لسعد رضي الله عنه من الولد: عمرو وعبد الله، أمهما هند بنت سِمَاكِ بْنِ عَتِيكَ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ.

وكان لعمرو بن سعد من الولد تسعة نفر وثلاث نسوة، منهم: عبد الله بن عمرو، قُتِلَ يَوْمَ الْحَرَّةِ، وَلِسَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ عَقِبٌ^(٦).

أسند سعد الحديث عن رسول الله ﷺ.



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٥٨١) وتقدم قريباً.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤٠١/٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٠٢)، ومسلم (٢٤٦٨).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (٢٤٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) «الطبقات الكبرى» ٣٨٩/٣.

ذكر أخي سعد لأبيه وأمه:

واسمه: عمرو^(١)، من الطبقة الأولى من الأنصار وليس له عقب، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمير بن أبي وقاص، شهد عمرو بدرًا، وقتل: يوم أحد، وكان له يوم قتل ثنتان وثلاثون سنة.

عمرة بنت مسعود^(٢)

ابن قيس بن عمرو، أم سعد بن عبادة الخزرجي، توفيت وسعد مع رسول الله ﷺ بدومة الجندل، فلما قدم رسول الله ﷺ أتى قبرها فصلى عليها، وسأله سعد عن نذر كان عليها، فقال: «اقضيه عنها»^(٣)

أسلمت عمرة، وبايعت، وتوفيت في شهر ربيع الأول.

وقال ابن عباس: قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، إن أمي ماتت وأنا غائب عنها، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: «نعم». قال: يا رسول الله، فإني أشهدك أن حائطي المخرف صدقة عنها^(٤).

وقال قتادة: سمعت الحسن يحدث عن سعد بن عبادة أن أمه ماتت، فقال: يا رسول الله، إن أمي ماتت فأتصدق عنها؟ قال: «نعم». قال: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء». قال: فتلك سقاية آل سعد بالمدينة^(٥).

وكان الحسن يقول: قد شرب أبو بكر وعمر من سقاية أم سعد^(٦).

وهب بن محصن بن حُرثان^(٧)

أبو سنان الأسدي أخو عكاشة، من الطبقة الأولى من الأنصار، شهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، وتوفي ورسول الله ﷺ يحاصر بني قريظة، وله أربعون سنة.

(١) «الطبقات الكبرى» ٤٠٢/٣، و«الإصابة» ١٧/٣.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤١٩/١٠.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦١)، ومسلم (١٦٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٢).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٤٥٩).

(٦) «الطبقات الكبرى» ٥٦٨/٣.

(٧) «الطبقات الكبرى» ٨٧/٣، و«تاريخ الطبري» ٥٩٣/٢، و«الإصابة» ٩٦/٤.

السنة السادسة من الهجرة

فيها: كانت سرية محمد بن مَسْلَمَةَ الأنصاري^(١) لعشرِ خَلَوْنَ من المحرم إلى القُرطَاءِ، بطنٍ من بني كلاب، كانوا ينزلون ماءً يقال له: البَكَرات قريباً من ضَرِيَّة، وبين ضَرِيَّة والمدينة سبعُ ليالٍ، فشنَّ عليهم الغارة، وأسر ثُمَامَةَ بن أثال الحَنَفِي وقتل منهم جماعة، وساق مئة وخمسين بعيراً، وثلاثة آلاف شاة، وغاب عن المدينة تسع عشرة ليلة.

وفيها: كانت غزاةُ بني لِحِيان^(٢) في ربيع الأول، وقيل: في جمادى الأولى. خرج رسول الله ﷺ من المدينة في مئتي رجل، واستخلف عليها ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، وسار نحو عُسْفَانَ في طلب ثار حُيَيْب بن عدي وأصحابه، وسلك على جبل يقال له: عُراب قريباً من المدينة في طريق الشام، ثم عطف نحو ناحية المَحَجَّة فنزل على ماء لبني لِحِيان يقال له: عُرَانَ، في وادٍ بينه وبين عُسْفَانَ خمسُ ليالٍ حيث كان مُصَابُ أصحاب بئر مَعُونَة، فنزل هناك فترحم عليهم واستغفر لهم.

وسمعتُ به بنو لِحِيان فهربوا إلى رؤوس الجبال، وبعث أبا بكر رضوان الله عليه في عشرة، فوصل إلى كُرَاعِ الغَمِيمِ لِيُرْعِبَ أهل مكة، وقيل: في هذه الغزاة مر رسول ﷺ بقبر آمنة بعُسْفَانَ.

وفيها: كانت غزاة الغابة^(٣) في ربيع الأول، ويقال لها: غزاة ذي قَرَدٍ، وهي على بريدٍ من المدينة.

(١) «المغازي» ٥٣٤/٢، و«الطبقات الكبرى» ٧٤/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٤/١، و«المنتظم» ٢٤٩/٣، و«البداية والنهاية» ١٤٩/٤.

(٢) «السيرة» ٢٧٩/٢، و«المغازي» ٥٣٥/٢، و«الطبقات الكبرى» ٧٤/٢، و«أنساب الأشراف» ١/١، و«تاريخ الطبري» ٥٩٥/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣٦٤/٣، و«المنتظم» ٢٤٩/٣، و«البداية والنهاية» ٨١/٤.

(٣) «السيرة» ٥٨١/٢، و«المغازي» ٥٣٧/٢، و«الطبقات الكبرى» ٧٦/٢، و«أنساب الأشراف» ٤١٦/١، و«تاريخ الطبري» ٥٩٦/٢، و«المنتظم» ٢٥١/٣، و«البداية والنهاية» ١٥٠/٤.

قال ابن إسحاق: رجع رسول الله ﷺ من غزاة بني لحيان، فأغار عيينة بن حِصْن بن بدر الفزاري في خيل غطفان على إقحاح رسول الله ﷺ، وكانت عشرين لُقحةً ترعى بالغابة، وفيها رجل من بني غطفان وامرأة، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة، وكان عيينة في أربعين فارساً. وقيل: إن الرجل الراعي كان ابن أبي ذر، وجاء الصَّريخُ إلى المدينة فنودي: يا خيل الله اركبي. وهي أول ما نودي بها في المدينة، وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح وسَلْمَةَ بن الأكوغ في آثارهم.

قال البخاري: حدثنا حسان، عن محمد بن طلحة، عن حميد، عن ثابت، عن سَلْمَةَ بن الأكوغ قال: خرجتُ قبل أن يؤذَنَ بالأولى، وكانت إقحاح رسول الله ﷺ ترعى بذئ قرد، فلقيني غلامٌ لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخذتُ إقحاح رسول الله ﷺ. قلت: من أخذها؟ قال: غطفان. فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه. قال: فأسمعتُ ما بين لابتَيْها - أو لابتَي المدينة - ثم اندفعت على وجهي فأدرکتهم يسقون على الماء، فجعلت أرميهم ببلي وكنت رامياً، وأقول: أنا ابن الأكوغ، اليوم يوم الرُّضْع. وأرتجزُ حتى استعدتُ اللقح منهم، واستلبت ثلاثين بُردةً.

قال: وجاء النبي ﷺ والناس معه، فقلت: يا نبي الله، قد حميتُ القوم الماء. فقال: «يا ابن الأكوغ، ملكت فأسجح». قال: فرجعنا، وأردفني رسول الله ﷺ ناقته حتى دخلنا المدينة. وهو حديث طويل متفق عليه^(١).

وفيه قال سلمة: فرجعنا من^(٢) الحديبية إلى المدينة، فنزلنا منزلاً، بيننا وبين بني لحيان جبلٌ - وذكر ما يدل على أن هذه الغزاة بعد غزاة الحديبية - وبنو لحيان مشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقي ذلك الجبل في تلك الليلة طليعةً لرسول الله ﷺ وأصحابه. قال سلمة: فرقيته مرتين أو ثلاثاً، ثم قدِمنا فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح، فخرجت معه بفرس طلحة، وذكر غارة عبد الرحمن الفزاري على المدينة، وأخذهُ ظهَر رسول الله ﷺ وقتل راعيه.

قال سلمة: فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس، فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر

(١) أخرجه البخاري (٤١٩٤)، ومسلم (١٨٠٦) والحديث بهذا السياق انفراداً بإخراجه مسلم كما سيأتي.

(٢) في النسخ: إلى؟!

رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، ثم قمت على أكمة فاستقبلت المدينة وناديت: يا صباحاه ثلاثاً، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، فألحق رجلاً فأصغته^(١) سهماً حتى خلص نضله إلى كتفيه، وأقول: خذها وأنا ابن الأكوع، فما زلت أرميهم وأعقرهم، فإذا رجع فارس إليّ جلست في أصل شجرة ثم أرميه فأعقره، حتى دخلوا في مضائق الجبل، فجعلت أعلو على الجبل وأرميهم بالحجارة حتى خلصت ظهر رسول الله ﷺ أجمعه، وألقوا أكثر من ثلاثين بردةً، وثلاثين رمحاً، ولا يطرحون من شيء إلا جعلت عليه آراماً^(٢) من الحجارة يعرفها النبي ﷺ وأصحابه، حتى إذا أتوا متضايقاً من ثنية أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون، وجلست على رأس قرن، فقال الفزاري: ما هذا؟ فقالوا: لقينا منه البرح، ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، فقال: فليقم إليه نفر منكم أربعة.

قال: فصعد إلي منهم أربعة، فلما أمكنوني من الكلام قلت لهم: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني. فرجعوا، وإذا بفوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر وفي أوائلهم الأخرم الأسدي على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي.

قال: فأخذت بعنان الأخرم، وقلت: يا أخرم، احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة. قال: فخلّيته، فالتقى هو وعبد الرحمن الفزاري، فعثر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ عبد الرحمن فقتله، فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب رسول الله ﷺ أحداً ولا غبارهم شيئاً حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شغب فيه ماء يقال له: ذا قردي ليشربوا منه وهم عطاش قد ولّوا هاربين، قال: فحلّيتهم عنه^(٣)، فما ذاقوا منه

(١) صكه: ضربه.

(٢) الآرام: الأعلام.

(٣) أي: أجليتهم عنه.

قطرة. قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، فأعدو فألحق منهم رجلاً فأصغته بسهم في نغض^(١) كتفه وقلت: خذها وأنا ابن الأكوع. فقال: يا ثكلته أمه، أكوغه بكرة^(٢)؟ قلت: نعم يا عدو نفسه.

قال: وأوردوا فرسين على ثنية، فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ. ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن، وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربت، فأتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلّيتهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكل برودة ورُمح استنقذته من المشركين، وكل شيء خلصته، وإذا بلال قد نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم وهو يشوي منها لرسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، خلني، وأنتخب من القوم مئة رجل فأتبع القوم فلا أبقى منهم مخبراً إلا قتلته. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ظل النار، وقال: «يا سلمة، أترأى كُنتَ فاعلاً؟» قلت: نعم والذي أكرمك، فقال: «إنهم الآن ليُقرُونَ في أرضِ غطفان». فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً، فلما كشطوا جلده رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هارين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمة».

قال: وأعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم للفارس وسهم للراجل، فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ على العُضباءِ راجعين إلى المدينة.

قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ^(٣). وسنذكر تمام الحديث إن شاء الله تعالى في غزاة خيبر.

(١) هو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف، وقيل هو أعلى الكتف.

(٢) أي: أنت الأكوع الذي كنت بكرة هذا النهار.

(٣) إلى هذا الحد الذي ذكره المصنف انفراداً بإخراجه مسلم (١٨٠٧). وأما ذكر قصة خيبر فهي من المتفق عليها، وقال الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» ١/ ٥٨٧: في هذا الحديث ذكر الإغارة على السرح، وقصة عامر وارتجازه، وقوله ﷺ: «لأعطين الراية» مما قد اتفق البخاري معه على معناه، ولكن فيه من الزيادة والشرح ما يوجب كونه من أفراد مسلم.

وفيها: كانت سرية عُكَّاشَةَ بن مُحْصَن إلى الغَمْر^(١)، في ربيع الآخرة، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فَيْد، ويقال له: غَمْر مرزوق، خرج رسول الله ﷺ^(٢) في أربعين رجلاً منهم ثابت بن أقرم، وشجاع بن وهب، فنزل ماءهم فهربوا، فساق مئتي بعير إلى المدينة.

وفيها: كانت سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القَصَّة^(٣)، في ربيع الآخر، وبين ذي القَصَّة والمدينة أربعة وعشرون ميلاً من ناحية الرَبْدَة، وكان مع محمد عشرة من الأنصار، فبدرهم العدو فقتلوه، ونجا محمد جريحاً مُشْخِناً.

وفيها: كانت سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القَصَّة أيضاً^(٤)، يطلب ثأراً له، للذين قُتِلوا مع محمد، وكان هناك أنمار، وثعلبة، ومحارب، وكان أبو عبيدة في أربعين رجلاً، فلما بلغهم مجيئه هربوا في الجبال، فاستاق نَعْمَهُمْ إلى المدينة،

(١) «المغازي» ٢/ ٥٥٠، و«الطبقات الكبرى» ٢/ ٨١، و«أنساب الأشراف» ١/ ٤٥٥، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٦٤٠، و«المنتظم» ٣/ ٢٥٣، و«البداية والنهاية» ٤/ ١٧٨.

(٢) كذا، والذي في المصادر أن الذي خرج هو عكاشة.

(٣) «المغازي» ٢/ ٥٥١، و«الطبقات الكبرى» ٢/ ٨١، و«أنساب الأشراف» ١/ ٤٥٥، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٦٤١، و«المنتظم» ٣/ ٢٥٤، و«البداية والنهاية» ٤/ ١٧٨.

(٤) «المغازي» ٢/ ٥٥٢، و«الطبقات الكبرى» ٢/ ٨٢، و«أنساب الأشراف» ١/ ٤٥٥، و«تاريخ الطبري» ٢/ ٦٤١، و«المنتظم» ٣/ ٢٥٥، و«البداية والنهاية» ٤/ ١٧٨.

وقد جعل المصنف خروج أبي عبيدة لطلب الثأر وسريته خروجاً واحداً، وقد ذكر علماء السير أن خروج أبي عبيدة خروجان، الأول: بعثه رسول الله ﷺ في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نعماً وشاء فساقه ورجع كما ذكر ذلك ابن سعد ٢/ ٨٢، والبلاذري ١/ ٤٥٥، وابن الجوزي في «المنتظم» ٣/ ٢٥٥ عقب سرية محمد بن مسلمة.

وأما الثاني: السرية التي خرج فيها كانت بعد شهر من سرية محمد بن مسلمة، وقصتها: قالوا: أجذبت بلاد بني ثعلبة وأنمار، ووقعت سحابة بالمراض إلى تَغْلَمِين، والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، فسارت بنو محارب وثلعة وأنمار إلى تلك السحابة، وأجمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهيفا - موضع على سبعة أميال من المدينة - فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً من المسلمين حين صلوا المغرب، فمشوا إليهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح، فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصاب رجلاً واحداً، فأسلم وتركه، فأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه ورثة من متاعهم، وقدم بذلك المدينة، فخمسه رسول الله ﷺ، وقسم ما بقي عليهم.

وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم، فتركه رسول الله ﷺ.

وفيها: كانت سرية زيد بن حارثة^(١) إلى بني سليم في ربيع الآخر، وكانوا بمكان يقال له: الجُموم، بينه وبين المدينة أربعة بُرْدٍ، فمروا بامرأة من مُزَيْنَةَ يقال لها: حليلة، فدلّتهم على العدو وساعدتهم زوجها^(٢)، فأصابوا من بني سليم نَعَمًا وأسرى وشاءً، فلما عاد زيد إلى المدينة، حمل المرأة وزوجها ووهب الجميع لزوجها^(٣).

وفيها: كانت سرية زيد أيضاً إلى العيص^(٤)، في جمادى الأولى، وبينه وبين المدينة أربعة أميال، في مئة وسبعين راكباً يطلب عير قريش، جاءت من الشام، أخذها وما فيها، وأسر أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، فقدم به المدينة.

وقال الواقدي: هرب أبو العاص من زيد، فدخل المدينة ليلاً وأتى باب زينب رضي الله عنها فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الفجر، صاحت زينب رضي الله عنها: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلّم رسول الله ﷺ قال: «سَمِعْتُمْ ما سَمِعْتُمْ؟» قالوا: نعم، قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ، حَتَّى سَمِعْتُ ما سَمِعْتُمْ، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى النَّاسِ أَدْنَاهُمْ، وَقَدْ أَجَرْتُ مَنْ أَجَارَتْ زَيْنَبُ»، ثم قال: «يا بُنَيَّةُ، أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصْ إِلَيْكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَحْلِينَ لَهُ» ثم ردّ عليه ماله. وخرج أبو العاص إلى مكة، ثم عاد إلى المدينة مسلماً.

وذكر موسى بن عقبة: أن الذي أسر أبا العاص إنما هو أبو بصير وأبو جندل، قال: لما قال رسول الله ﷺ لأبي بصير بعد قتل جُحَيْش: «اذْهَبْ أَيْنَ شِئْتَ». خرج في خمسة نفر كانوا قدموا معه من مكة مسلمين، فنزلوا بين العيص وذي المَرَوَّةِ يقطعون الطريق

(١) «الطبقات الكبرى» ٨٣/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٥/١، و«تاريخ الطبري» ٦٤١/٢، و«دلائل النبوة» ٨٤/٤، و«المنتظم» ٢٥٦/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٨/٤.

(٢) الصواب أنهم أسروه فيمن أسر.

(٣) العبارة في «الطبقات»: وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها.

(٤) «المغازي» ٥٥٣/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٣/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٥/١، و«دلائل النبوة» لليهقي ٨٤/٤، و«المنتظم» ٢٥٦/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٨/٤.

على قريش، وأفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو في سبعين راكباً أسلموا وهاجروا، وكرهوا أن يقدموا على النبي ﷺ في هدنة المشركين، فلحقوا بأبي بصير، وكان أبو بصير يؤمُّ بأصحابه، فلما قدم أبو جندل كان هو الإمام، واجتمع إليهم أناس من بني غفار وأسلمَ وجُهَيْنَةَ، وطوائفُ مسلمون حتى بلغوا ثلاث مئة مقاتل، فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل ومن معهم أن يقدموا عليه، وشكوا إليه ما يلاقون منهم، ولم يزل أبو بصير وأبو جندل وأصحابهما بذلك المكان حتى مرَّ بهم أبو العاص من الشام في رفقة من قريش، فأخذوهم وأخذوا ما معهم، ولم يقتلوا منهم أحداً لأجل أبي العاص وخلوا سبيله، فقدم المدينة فجاء إلى زينب ؓ، واستجار بها، وكلمها في أصحابه وما أخذ لهم. فكلمت رسول الله ﷺ في ذلك، فقام خطيباً وقال: «إنا صاهرنا أناساً، وصاهرنا أبا العاصِ فَنِعَم الصُّهْرُ وجدناه، وإنه أقبل من الشام ومعه رفقة، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير، وأخذوا ما كان معهم، وقد سألتني زينب أن أجيرهم، فهل أنتم مجيرون أبا العاصِ وأصحابه؟» قال الناس: نعم.

وبلغ أبا بصير وأبا جندل، فردوا عليهم جميع ما أخذوه حتى العقال، وكتب لهم رسول الله ﷺ يأمرهم بالقدوم عليه^(١).

* * *

وفيها: كانت سرية زيد - أيضاً - إلى الطَّرفِ^(٢) ما دون النُّخيل على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة قريباً من المِراضِ في خمسة عشر رجلاً، فأغار على بني ثعلبة وعاد سالماً.

* * *

(١) «دلائل النبوة» ٤/١٧٤-١٧٥.

(٢) «المغازي» ٢/٥٥٥، و«الطبقات الكبرى» ٢/٨٤، و«أنساب الأشراف» ١/٤٥٥، و«تاريخ الطبري» ٢/

٦٤١، و«دلائل النبوة» ٢/٨٤، و«المنتظم» ٣/٢٥٧، و«البداية والنهاية» ٤/١٧٨.

وفيها: كانت سرية زيد - أيضاً - إلى حِمْي (١) وراء وادي القُرى، فيها جبالٌ شواهقٌ مُلْسُ الجوانب لا يكاد القتامُ (٢) يفارقها في جمادى الآخرة.

قال الواقدي: وسببها: أن رسول الله ﷺ بعث دِحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ إِلَى قَيْصِرِ مَلِكِ الرُّومِ بِكِتَابِهِ، ثُمَّ عَادَ وَقَدْ أَجَازَهُ قَيْصِرٌ وَكَسَاهُ، فَلَقِيَهُ الْهُنَيْدُ بْنُ عَارِضٍ فِي نَاسٍ مِنْ جُذَامٍ فَقَطَعُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ مَعَهُ وَأَسْرَوْهُ. فَسَمِعَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ فَاسْتَنْقَذُوهُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ دِحْيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ، فَبَعَثَ زَيْدًا فِي خَمْسِ مِائَةٍ وَرَدَّ مَعَهُ دِحْيَةَ، وَكَانَ يَسِيرُ لَيْلًا وَيَكْمُنُ نَهَارًا حَتَّى بَغْتَهُمْ، فَقَتَلَ الْهُنَيْدَ وَأَبَاهُ وَابْنَهُ، وَجَمَاعَةً مِنْ قَوْمِهِ، وَسَبَى مِائَةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَأَخَذَ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَخَمْسَةَ آلَافٍ شَاةً، وَكَانَ فِيهِمْ قَوْمٌ مِنْ جُذَامٍ، فَقَدِمَ زَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ الْجُدَامِيُّ الْمَدِينَةَ بِكِتَابٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَتَبَهُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ لِيَالِي الْهَجْرَةِ، فَأَسْلَمَ وَقَوْمَهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمِيعَ مَا أَخَذُوهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَحْرِمْ عَلَيْنَا حَلَالًا وَلَا تَحِلَّ حَرَامًا. فَقَالَ: «كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلَى؟» فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ بْنُ عَمْرٍو - وَكَانَ مِنْ قَوْمِ رِفَاعَةَ - : أَطْلُقْ لَنَا مَنْ كَانَ حَيًّا، وَمَنْ قَتَلَ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ. قَالَ: صَدَقَ، فَرَدَّهُمْ عَلَيْهِ.

قال المصنف رحمه الله: وقول الواقدي إن هذه الواقعة كانت بسبب دحية عند رجوعه من عند قيصر، وهم لأن رسول الله ﷺ إنما كتب إلى قيصر وغيره بعد غزاة الحديبية في آخر هذه السنة، وجاءه الجواب في سنة سبع من الهجرة.

وفيها: كانت سرية عبد الرحمن بن عوف (٣)، إلى دُؤْمَةَ الْجَنْدَلِ إِلَى كَلْبٍ، وَعَمَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ لَهُ: «اغْزُ بِسْمِ اللَّهِ، وَعَلَى بَرَكَاتِهِ، وَلَا تَغُلَّ وَلَا تَغْدِرْ، وَلَا تَقْتُلْ وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً». فسار حتى وصل إلى ماء بين خيبر وفدك يقال له: الهَمَجُ، فوجد

(١) «السيرة» ٦١٢/٢، و«المغازي» ٥٥٥/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٤/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٦/١، و«تاريخ الطبري» ٦٤١-٦٤٢/٢، و«دلائل النبوة» ٨٤/٤، و«المنتظم» ٢٥٨/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٩/٤.

(٢) القتام: الغبار.

(٣) «السيرة» ٦٣١/٢، و«المغازي» ٥٦٠/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٥/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٦/١، و«تاريخ الطبري» ٦٤٢/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٨٥/٤، و«المنتظم» ٢٥٩/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٩/٤.

رجلاً فأمنه وسأله عنهم، فدلّه عليهم، فصَبَّحهم وقت الغارة، فأسر سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبي فأسلم، وتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر، فهي أم ولده سلمة بن عبد الرحمن، وهرب بعضهم فأخذ منهم خمس مئة بعير وألفي شاة^(١).

وفيها: كانت سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى فدك^(٢) في شعبان وفيها بنو سعد بن بكر، وكانوا قد عزموا على إمداد يهود خيبر، فأغار عليهم، وأخذ منهم خمس مئة بعير وألفي شاة، وكان معه مئة راجل.

وفيها: في رمضان كانت سرية زيد بن حارثة إلى أم قِرْفَة^(٣) بوادي القرى، على سبع مراحل من المدينة.

وسببه: أن زيد بن حارثة خرج إلى الشام تاجراً في جماعة، فلما عاد إلى وادي القرى لقيه جماعة فيهم أم قِرْفَة، فأخذوا ما كان معهم، وقتلوه، وأثخنوا زيداً بالجراح، فارتث بين القتلى ثم تحامل في الليل إلى المدينة، وأقام حتى اندملت جراحه، وكان قد نذر أن لا يغتسل من جنابة حتى يغزو أم قِرْفَة، فسار إليها في جيش كثيف فقتل من كان بالوادي، وأخذ أم قِرْفَة فربطها بين بعيرين وساق بها حتى قطعها نصفين، ومثّل بها. وكانت عجوزاً كبيرة منيعة يضرب بها المثل: لو كنت أعز من أم قِرْفَة، ما زاد علي هذا. واسمها: فاطمة بنت ربيعة، وقيل: بنت ربيعة، وقيل: بنت حذيفة بن بدر، وأخذ سلمة بن الأكوع ابنتها سلمى، وقيل: حارثة بنت مالك، فسأله النبي ﷺ يهبها له، فأهداها لخاله حزن بن أبي وهب، فولدت له عبد الرحمن بن حزن، ولما عاد زيد إلى المدينة طرق باب رسول الله ﷺ فقام إليه عرياناً واعتنقه وقبله.

وقال الهيثم بن عدي: كان أبو بكر رضي الله عنه أمير هذه السرية، والأصح: أن السرية التي كان أبو بكر رضوان الله عليه أميرها، وجرت له الواقعة مع سلمة كانت في سنة تسع.

(١) هذا السياق لهذه السرية مخالف لما ورد في المصادر، بل فيه خلط سريتين: سرية عبد الرحمن وسرية علي رضي الله عنه.

(٢) انظر «المغازي» ٥٦٢/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٦/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٥٦/١، و«تاريخ الطبري» ٦٤٢/٢، و«دلائل النبوة» ٨٤-٨٥/٤، و«المنتظم» ٢٦٠/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٨/٤.

(٣) انظر «السيرة» ٦١٧/٢، و«المغازي» ٥٦٤/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٦/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٥٦، و«تاريخ الطبري» ٦٤٢/٢، و«المنتظم» ٢٦٠/٣.

قال سلمة: خرجت مع أبي بكر في سرية، فأخذت امرأة معها ابنة لم يكن في العرب أحسن منها، فلما قدمنا المدينة، قال رسول الله ﷺ: «ياسلمة، هبها لي». فقلت: هي لك يا رسول الله، والله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها إلى مكة ففدى بها أسارى من المسلمين^(١).



وفيها: كانت سرية عبد الله بن رواحة^(٢) إلى أسير بن رزام^(٣) اليهودي بخيبر في شوال، وكانت اليهود قد أمّرت عليه بعد قتل أبي رافع، فسار في القبائل يحرضهم على رسول الله ﷺ، فبعث إليه عبد الله ابن رواحة، وعبد الله بن أنيس، وآخر، فلما جاؤوا إليه قالوا له: إن رسول الله ﷺ قد استعملك على خير، فاقدم عليه ليحسن إليك. فخرج معهم فلما وصل قرقرة، ندم وعزم على الهرب، ففهم عبد الله بن أنيس حاله فقال: أغدراً يا عدو الله، فقتله.



وفيها: كانت سرية كرز بن جابر إلى العرنيين^(٤)، في شوال، في عشرين فارساً. قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: أسلم ناس من عرينة فاجتوا المدينة، فقال لهم النبي ﷺ: «لو خرّجتم إلى ذؤد لنا فشربتم من ألبانها» - ما قال حميد، وقال قتادة عن أنس: «وأبوالها» - فلما صحوا كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ وساقوا الذؤد وهربوا، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا، فقتل رسول الله ﷺ أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، وتركهم في

(١) سيذكرها المصنف في السنة السابعة.

(٢) انظر «السيرة» ٦١٨/٢، و«المغازي» ٥٦٦/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٨/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٥٧، و«المنتظم» ٢٦٢/٣.

(٣) في «السيرة»: اليسير بن رزام، وقال ابن هشام: ويقال: رازم.

(٤) انظر «السيرة» ٦٤٠/٢، و«المغازي» ٥٦٨/٢، و«الطبقات الكبرى» ٨٩/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤٥٧، و«تاريخ الطبري» ٦٤٤/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٨٥/٤، و«المنتظم» ٢٦٣/٣، و«البداية والنهاية» ١٧٩/٤.

الحرّة حتى ماتوا. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

قال الواقدي: وكانت اللقاح خمس عشرة غزاراً، فردّها إلى المدينة، وفقدوا منها واحدة نحروها، ويقال لها: الحناء، والذي خرج في آثارهم يسار مولى رسول الله ﷺ في ثلاثة نفر، وقيل: هم الرعاة، فعطفوا عليهم فقطعوا يد يسار ورجله، وغرسوا في لسانه وعينه شوكة حتى مات، فبعث رسول الله ﷺ كُرْز بن جابر الفهري في خمسين فارساً، فجاء بهم إلى المدينة، ففعل بهم ما ذكر أنس، وهذا كُرْز هو الذي أغار على سرح المدينة، وخرج رسول الله ﷺ خلفه فلم يدركه، ثم منّ الله عليه بالإسلام، وقتل يوم الفتح، لما يذكر إن شاء الله تعالى.



وفيها: كانت غزاة الحُدَيْبِيَّة^(٢)، وهي شجرة حَدْبَاء على تسعة أميال من مكة، وقيل: هي اسم بئر.

قال ابن إسحاق وغيره: خرج رسول الله ﷺ من المدينة معتمراً في ذي القعدة لا يريد حرباً، واستنفر من حوله من الأعراب الذين يسكنون قريباً من المدينة ليسيروا معه مخافة أن تصدّه قريش عن البيت، فأبطأ عليه كثير منهم، فخرج في المهاجرين والأنصار، ولحقه بعض القبائل فصلى ركعتين، وركب راحلته القصواء بعد ما أحرم بعُمْرَةٍ ليأمن الناس منه، وساق الهدى ليعلم الناس أنه جاء معظماً للبيت، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج يوم الإثنين لهلال ذي القعدة، ولم يأخذ معه من السلاح إلا السيوف في القرب، وأشعر بَدْنَهُ في شقها الأيمن، وساق الصحابة بَدْنَهُم وأشعروها، وكان في البَدْنِ جَمَلُ أَبِي جَهْل الذي غنمه يوم بدر، وكان في رأسه بُرَّة من فضة ليغيب به الكفار.

وفي «المسند»: عن ابن عباس قال: أهدى رسول الله ﷺ مئة بَدَنَةٍ فيها جملُ أبي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٠٤٢)، والبخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١).

(٢) انظر «السيرة» ٣٠٨/٢، و«المغازي» ٥٧١/٢، و«الطبقات الكبرى» ٩١/٢، و«أنساب الأشراف» ١/٤١٧، و«تاريخ الطبري» ٦٢٠/٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٩٠/٤، و«المنتظم» ٢٦٧/٣، و«البداية والنهاية» ١٦٤/٤.

جهل ، في أنفه بُرَّةٌ من فضة ليغيظ به المشركين^(١) . ولم يذكر في الحديبية.

وقال هشام^(٢) : كان معه سبعون بَدَنَةً ، البَدَنَةُ عن عشرة أنفس ، وهذا يدل على أنهم كانوا سبع مئة .

وفي الصحيح : أنهم كانوا بضع عشرة مئة^(٣) . وقال ابن عباس : كانوا ألفاً وخمس مئة ، وقيل : ألفاً وثلاث مئة^(٤) ، ويحتمل أنهم كانوا حين خرجوا من المدينة سبع مئة ، ثم لحقهم الناس فزادوا على ألف فارس .

قال الواقدي : وأخرج رسول الله ﷺ معه أم سلمة ، فلما كان بعُسفان لقيه بُسر بن سفيان الخزاعي ، وقيل : إنما لقيه بغدير الأَشْطَاط ، فقال له : يا رسول الله ، أو يا محمد ، هذه قريش سمعت بمسيرك ، فأجمعت على صدك عن البيت الحرام ، وقد خرجوا بالعُوذِ المَطَافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، ونزلوا بذي طوى يألون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموه إلى كراع الغميم ، وقدّموا مئتي فارس مع خالد^(٥) .

قال المصنف - رحمه الله - : وذكر الطبري في «تاريخه» : أن خالد بن الوليد كان مع رسول الله ﷺ يومئذ مسلماً ، وأن عكرمة بن أبي جهل خرج من مكة في خمس مئة فارس ، وأن النبي ﷺ قال لخالد بن الوليد : «هَذَا ابْنُ عَمِّكَ قَدْ أَتَاكَ فِي الْخَيْلِ» . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ، قال : فيومئذ سمي سيف الله . ثم قال خالد : يا رسول الله ، ارم بي حيث شئت ، فبعثه على خيل فلقى عكرمة في الشعب فهزمه ، فأنزل

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٢) .

(٢) لعله ابن هشام ، انظر «السيرة» ٣٠٩-٣٠٨/٢ .

(٣) الحديث مروى عن عدد من الصحابة : فأخرج البخاري (٤١٥٣) ، ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر ﷺ قال : كانوا خمس عشرة مائة . وأخرج البخاري (٤١٥٥) ، ومسلم (١٨٥٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمئة . وللبراء بن عازب ﷺ عند البخاري (٤١٥٠) قال : كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة . ولسلمة بن الأكوع عند مسلم (١٨٠٧) قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مئة .

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٦٢١/٢ .

(٥) «المغازي» ٥٧٩-٥٨٠/٢ .

الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الآية^(١).

قال المصنف - رحمه الله -: والعجب من الطبري أن يذكر مثل هذا، ولا خلاف بين علماء النقل أن خالد بن الوليد أسلم في سنة ثمان من الهجرة.

قال ابن إسحاق: ولما قال بسر لرسول الله ﷺ ما قال، قال: «يا وَيْحَ قُرَيْشٍ، ماذا عليهم لو خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَاللَّهِ لَا أَزَالُ أَجَاهِدُهُمْ حَتَّى يُظْهِرَ اللَّهُ أَمْرَهُ، أَوْ يَفْرُقَ بَيْنَ سَالِفَتِي وَذَاقَتَتِي»، ثم قال: «مَنْ يَخْرُجُ بِنَا عَلِيٍّ غَيْرَ الطَّرِيقِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمٍ: أَنَا. فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقاً وَعَرَّةً بَيْنَ الشُّعَابِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى أَرْضِ سَهْلَةٍ عِنْدَ مَنْقَطِ الْوَادِي، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ». فَقَالُوا، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لِلْحِطَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقْبَلُوهَا، وَبَدَّلُوهَا، وَلَمْ يَقُولُوهَا»، ثم قال: «اسْلُكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ» فِي طَرِيقٍ يَخْرُجُهُ إِلَى ثَنِيَّةِ الْمُرَارِ عَلَى مَهْبِطِ الْحَدِيبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ. فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ قَتْرَةَ الْجَيْشِ، وَأَنَّهُ قَدْ خَالَفَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ، رَجَعُوا نَاكِصِينَ إِلَى مَكَّةَ.

ولما سلك رسول الله ﷺ فِي ثَنِيَّةِ الْمُرَارِ، بَرَكْتَ نَاقَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: خَالَاتِ الْقَضْوَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا خَالَاتِ، وَلَا هُوَ بِخُلُقٍ لَهَا، وَلَكِنَّهَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّجِمِ أَوْ رُشْداً إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»^(٢).

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري - رحمهما الله - حديثاً رفعاه إلى المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبع مئة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، حتى إذا كان رسول الله ﷺ بعسفان، لقيه بسر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر، معاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد

(١) «تاريخ الطبري» ٢/ ٦٢٢.

(٢) «السيرة» ٢/ ٣٠٩-٣١٠.

في خيلهم قد قدموه إلى كُراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبينَ سائرِ النَّاسِ، فإنْ أَصَابُونِي كانَ الَّذِي أَرَادُوا، وإنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإسلامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وإنْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فماذا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ وَاللهِ لا أَزالُ أَجَاهِدُهُمْ على الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ عَلَيْهِ - أوله - حتى يُظْهِرَهُ اللهُ، أو تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»، ثم أمر الناس فسلَكوا ذات اليمين بين ظَهري الحَمْض على طريقٍ تخرجه على ثِيبةِ المُرار والحديبية من أسفل مكة.

قال: فسلَكوا بالجيش تلك الطريق، فلما رأت قريش الجيش قد خالفوهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى مكة، ولما سلك رسول الله ﷺ ثِيبةَ المُرار بركت ناقته، فقال الناس: خَلَّات. قال: «ما خَلَّات وما هو بِخُلُقٍ لها، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفيلِ، أما وَاللهِ لا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ اليَوْمَ إلى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فيها صِلَةَ رَحِمٍ إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

ثم قال للناس: «انزِلُوا». فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كِنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القُلْبِ فغرز فيه، فجاش الماء حتى ضرب الناس عنه بعَظَن، فلما اطمأن الناس^(١) إذا بِبُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءِ الخُزاعي في رجال من خُزاعة، فقال لهم كقوله لبُسر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خُزاعةُ عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله ﷺ مشرِكها ومسلمها، لا يُخفون عنه شيئاً كان بمكة، قالوا: وإن كان إنما جاء لذلك، فلا وَاللهِ لا يدخلها أبداً علينا عَنوةً، ولا تتحدث بذلك العرب.

ثم بعثوا إليه مِكرَزَ بنَ حَفْصِ أحدِ بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رَجُلٌ غَادِرٌ». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، كَلَّمَهُ بنحو ما كَلَّمَ به أصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم.

فبعثوا إليه الجِلسَ بنَ علقمة الكِناني وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله

(١) في «المسند»: فلما اطمأن رسول الله ﷺ.

ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى». فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معاشر قريش، قد رأيت ما لا يحلُّ صدّه، الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معاشر قريش، إني قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه فقال: يا محمد، قد جمعت أوباش الناس وجئت بهم لبيضتك لتفضّها، إنها قريش قد عاهدت الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

قال: وأبو بكر رضي الله عنه قاعدٌ خلف رسول الله ﷺ، فقال له: امصص بظن اللات والعزى، أنحن ننكشف عنه؟ فقال: من هذا يا محمد؟ فقال: «ابن أبي قحافة». فقال: أما والله لو لا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فقرع يده بقائم سيفه وقال: اكفف يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا تصل إليك، فقال: يا محمد، من هذا؟ قال: «ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: يا غدر، وهل غسلت سواتك إلا بالأمس؟! فكلّمه رسول الله ﷺ بما كلف به أصحابه، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: إني والله جئت قيصر وكسرى والنجاشي في ملكهم، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فرؤوا رأيكم.

قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، فأرادت قريش قتله فمنعهم الأحابيش حتى أتى

رسول الله ﷺ، فدعا عمر لبيعته إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحدٌ يمنعني، وقد عرفتُ قريشُ عداوتي إيَّها، وهذا عثمان بن عفان أعزُّ مني.

فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ عثمان بن عفان يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء مُعظماً لحُرمةِ هذا البيت، وزائراً له.

فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقية أبا نُبَيْعَةَ بنُ سعيد بن العاص فنزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردف خلفه، وأجاره حتى يُبلِّغَ رسالة رسول الله ﷺ، فأتى عثمانُ أبا سفيان ووجوهَ قريش، فبلَّغهم رسالة رسول الله ﷺ فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، قال: واحتبسته قريش عندها، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد بن إسحاق: فحدثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً، فصالحه على أن يرجع عنا العام، فوالله لا تتحدّث العرب أنه دخل علينا عنوةً أبداً. فأتاه سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القومُ الصلحَ حينَ بعثوا هذا الرَّجُلَ» فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلمًا وطال الكلام بينهما، وتراجعا، واستقر الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتابُ، وثب عمر فأتى أبا بكر فقال له: يا أبا بكر، أوليسَ برسولِ الله، أو لسنا بالمسلمين، أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعطي الذلَّةَ في ديننا، فقال أبو بكر: الزم غرزه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد.

ثم أتى عمرُ رسولَ الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال: «أنا عبدُ الله ورسولُه، لَنْ أُخَالِفَ أمرَهُ ولن يُضَيِّعَنِي». قال عمر: فمازلتُ أصوم وأصلي وأتصدق وأعتقُ من الذي صنعتُ مخافةً كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «اكتب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال له سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال

رسول الله ﷺ وسلم: «اكتب: [باسمك اللهم] هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ سهيل ابن عمرو». فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله، لما قاتلتك، ولكن اكتب: محمد ابن عبد الله. قال: اكتب: فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان في الكتاب: أن يرجع عنا عامنا هذا فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل خرجنا عنها، فدخلها بأصحابه ويقم فيها ثلاثاً معهم سلاح الراكب، لا يدخلها بغير السيوف في القرب.

فبينا علي يكتب الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد، قد أفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حين خرجوا لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمّل رسول الله ﷺ على نفسه، دخلهم من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون. ولما رأى سهيلُ أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد تمّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت» فقام إليه فأخذ بتلابيبه. فصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى المشركين فيفتنونني عن ديني. قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولِمَن مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحاً، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ عَهْداً، وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْداً، وَإِنَّا لَن نَعْدِرَ بِهِمْ».

قال: فوثب عمر بن الخطاب وجعل يمشي إلى جنب أبي جندل ويقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما هم دم كلب. ويؤذني إليه قائم السيف رجاء أن يأخذه منه فيضرب به أباه.

قال: فضنّ الرجل بأبيه، فلما فرغا من الكتاب وكان رسول الله ﷺ يصلي في

الحرم وبعضه في الحل، فقام وقال: « أَيُّهَا النَّاسُ، انْحَرُوا واحلُّقُوا». فما قام أحد، فدخل رسول الله ﷺ على أمِّ سلمة فشكا إليها الناس، فقالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً، واعمِدْ إلى هَدْيِكَ حيث كان فانحره واحلق رأسك، فلو قد فعلت ذلك فعله الناس. فخرج رسول الله ﷺ ففعل ذلك، فقام الناس ينحرون ويحلِّقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وَسَطِ الطريق نزلت سورة الفتح.

وجاء نِسْوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَعْضِ الْكُوفِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فطلق عمر رضوان الله عليه امرأتين كانتا له في الجاهلية، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة^(١).

قال موسى بن عقبة: وتفلت رجلٌ من أهل الإسلام من ثقيف يقال له: أبو بصير بن أسيد، فأتى رسول الله ﷺ مسلماً مهاجراً، فبعث في أثره الأخنس بن شريق رجلين من بني منقر، أحدهما مولى، والآخر جحش بن خليفة من أنفسهم، وجعل لهما جُعلاً في إحضاره، فدفعه رسول الله ﷺ إليهما، فخرجا به حتى إذا كانا بذي الحليفة سلَّ جحش سيفه ثم هزه وقال: سأضرب بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل. فقال له أبو بصير: أو صارم سيفك هذا؟ قال: نعم. قال: ناولنيه لأنظر إليه. فلما قبضه ضربه به حتى برد، ويقال: بل تناول سيف المنقري وهو نائم فقطع به إيساره ثم ضربه به حتى برد، وطلب الآخر ففر مذعوراً حتى دخل المسجد على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأى هذا دُعراً». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإني والله لمقتول. وجاء أبو بصير بسلبِ المقتول فقال: يا رسول الله، خَمْسُهُ. فقال: «إِذَا خَمْسَتُهُ لَمْ أَفِ لَهُمْ بِالَّذِي عَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِسَلْبِ صَاحِبِكَ وَاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ».

وقيل: جاء أبو بصير إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم. فقال رسول الله ﷺ: «وَيْلُ أُمَّهِمْ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ رِجَالٌ». فلما سمع

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١).

ذلك، عرف أنه سيرجع إليهم فخرج إلى سيف البحر، وتفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فإنه آمن، فأرسل إليهم. وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] حتى بلغ: ﴿حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنه لم يُقروا بسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين البيت. وقد أخرج الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» أتم من هذا^(١).

قال ابن إسحاق: والذي نزل بالسهم إلى القلب ناجية بن عمير الأسلمي سائق بذن رسول الله ﷺ، ولما نزل وقفت عليه جارية من الأنصار وقالت: [من الرجز]

يا أيُّها المائِحُ دَلَوِي دُونَكَ

إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ

يُثْنُونَ خَيْرًا وَيُمَجِّدُونَكَ

فقال وهو في القلب:

قد علمتُ جاريةً يمانِيَهُ

أَنِّي أَنَا المائِحُ واسمي نَاجِيَهُ^(٢)

وقد فرقت العرب بين المائِح والماتِح، فجعلت النقطتين اللتين من تحت لمن تحت، واللتين من فوق لمن فوق.

وقال جابر بن عبد الله: عَطَشَ الناس يوم الحديبية، وبين يدي رسول الله ﷺ رَكْوَةٌ يتوضأ منها، إذ جهش الناس إليه أو نحوه، فقال: «ما شأنكم؟» قالوا: يا رسول الله، ليس لنا ماء نشرب منه ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك. فوضع رسول الله ﷺ يده في الرَكْوَةَ فجعل الماء يفيض من بين إصبعيه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قال سالم بن أبي الجعد: فقلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، لكننا كنا خمس عشرة مئة.

(١) أخرج أحمد في «مسنده» (١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١)، والحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (٢٨٦٠).

(٢) «السيرة» ٢٠٠/٣١٠-٣١١.

أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

تفسير الألفاظ الغريبة:

«العوذ المطافيل»: هي النياق التي وُضعت، لأن أولادها تعوذ بها وأطفالها يأوون إليها.

و«قترَةُ الجيش»: غبرته.

و«خَلَّات الناقة»: مثل حَرَنْتِ الفرس.

وقوله ﷺ: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» وهو الله تعالى، فعل بها كما فعل بالفيل لما جيء به لهدم البيت.

فإن قيل: فرسول الله ﷺ جاء زائراً معظماً للبيت، فما معنى حِرَانِ الناقة؟

فالجواب: إن فيه إشارةً إلى تعظيم البيت، أي: من جاء معظماً له، هكذا حاله. فكيف من جاء مقاتلاً.

وأما قوله ﷺ: «وإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ» لمكان الضرورة.

و«جاش»: اضطرب وزخر. و«الجَهْشُ»: أن يفرغ الإنسان إلى غيره، وهو يريد البكاء.

وقوله: «ضَرَبَ النَّاسَ بَعْظُنَّ» أي: تُرِكت الإبل لتشرب من كثرة الماء. و«المعاطن»: مبارك الإبل عند الماء للشرب.

قال الواقدي: ولما رجع الحُلَيْسُ إلى قريش، وأنكر عليهم حبس البُذْنِ وقالوا له: أنت أعرابي لا علم لك. غضب وقال: والله ما على هذا حالفناكم، ولا عليه عاقدناكم، أن تصدوا عن بيت الله من جاء له معظماً، والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلَّنَ بين محمد وبين ما جاء له، أو لَأَنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ. فقالوا: كُفَّ عَنَا حَتَّى نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٦) (٧٢)، ولم يخرج مسلم إلا قوله: لو كنا مائة ألف لكفانا... وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٥٧٧).

(٢) «المغازي» ٥٩٩/٢ - ٦٠٠.

و«الأوباش»: الأخلاط من الناس.

وبيضة كل شيء: حوزته، ويقال: هم الأهل.

وقول أبي بكر رضي الله عنه: «امصص بظُر اللّات والعزى»: هو سب لطاغية ثقيف وهي صنمهم.

وأخذُ عُرْوَةَ بلحية رسول صلى الله عليه وسلم: إنما هو على عادة العرب في الملاطفة عند الكلام.

والغَرزُ: موضع الركاب.

وقول عمر رضي الله عنه ما قال إنما كان إعزازاً للدين لا اعتراضاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعلم باطن الأمر فوقف مع الظاهر، ثم ندم واستغفر ربه.

وقوله: «بيننا عيبةٌ مكفوفةٌ» أي: مُشْرِجة، وأراد بالعياب القلوب، ومعناه: في صدورنا بقية من الغلِّ والخِداع.

وقوله: «لا إسلال» أي: السرقة الخفيفة و«الإغلال»: الخيانة.

و«الثمد»: الماء القليل، وقيل: البئر لا مادة لها، وأعداد مياه الحديدية، العُدُّ: الذي لا انقطاع لمادته.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «ويلُ أمّه مسعرُ حربٍ». معناه: كلمة تعجّبٍ من الإقدام، و«سيفُ البحر» جانبه.

واسم أبي بصير: عتبة بن أسيد، والرجلان: حبيش بن جابر، ومولاه: كوثر، والمقتول: حبيش، والهارب: كوثر.

ولما بلغ سهيل بن عمرو، قتلُ أبي بصير صاحبهم أسند ظهره إلى الكعبة وقال: والله لا يفارق ظهري الكعبة حتى يدُوا الرجل. فقال له أبو سفيان: إن هذا والله السّفهُ، والله لا يدُوه أبداً^(١).

والمرأة التي طلقها عمر - رضوان الله عليه - : قريبة بنت أبي أمية، فتزوجها معاوية، وابنة جرّول الخزاعي، وهي: أم كلثوم بنت عمرو بن جرول، وهي: أم عبد

(١) «السيرة» ٢/ ٣٢٤ .

الله، تزوجها أبو جهم^(١).

قال المِسْوَر: كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن هاجر إلى رسول الله ﷺ يومئذ بعد ما شرط سهيل بن عمرو على رسول الله ﷺ أن يرد إليهم من جاء مسلماً، وكانت أم كلثوم عاتق فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يُرْجِعَهَا إليهم، فلم يرجعها لما نزل فيهن: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾^(٢) [المتحنة: ١٠].

قال عروة: فأخبرتني عائشة أن النبي ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٠].

قال: فمن أقرت بهذا الشرط منهن، قال رسول الله ﷺ: «قد بايعتِك» كلاماً يُكَلِّمُهَا به، والله ما مسَّتْ يده يد امرأة قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله^(٣).

وقال ابن عباس: لما كتب رسول الله ﷺ بينه وبين أهل مكة الكتاب، وفيه: من أتاه منهم رده عليهم، ومن أتى مكة من أصحابه لم يردوه عليه، وختم الكتاب، جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة، وزوجها مسافر من بني مخزوم وكان كافراً - وقال مقاتل: إن زوجها صيفي بن الراهب - فقال: يا محمد، اردد علي زوجتي فقد شرطت لنا ما شرطت، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد. فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾^(٤) [المتحنة: ١٠] أي: اختبروهن، فيستحلفن أنهن ما خرجن بسبب غير الإسلام، فحلفت سبيعة فأعطى زوجها مهرها، وما أنفق عليها ولم يردّها عليه. فتزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان رسول الله ﷺ يردُّ من جاءه من الرجال، ولا يردُّ من جاءه من النساء بعد الامتحان، ويعطي أزواجهن مهورهن وما أنفقوا عليهن.

وقال مجاهد: كان عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد

(١) «السيرة» ٣٢٧/٢ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧١١) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧١٣) .

(٤) انظر «تفسير البغوي» ٣٣٢/٤ .

المطلب، فَفَرَّقَتْ بينهما هذه الآيةُ يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، وكان طلحةُ قد هاجرَ وهي على دينها بمكة، ثم أسلمت فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وكانت فيمن فرَّ من نساء الكفار فلم يردها رسولُ الله ﷺ وزوجها خالدًا.

وكانت أمنة بنت بشر عند ثابت بن الدحداحية ففرت منه وهو يومئذ كافر، فزوجها رسول الله ﷺ سهلَ بن حنيفٍ فولدت له عبد الله بن سهلٍ.

قال ابن عباس: وكان جميعُ من لحق بالكفار من نساء المسلمين المهاجرين راجعاتٍ عن الإسلام ستَّ نسوةٍ:

أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب كانت تحت عياض بن شداد الفهري.
وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب ﷺ
فلما أراد أن يهاجر أبت وارتدت.

وأم كلثوم بنتُ جرول كانت تحت عمر أيضاً.

وبرؤع بنت عقبة كانت تحت عثمان بن عفان^(١) ﷺ.

وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود.

وهند بنت أبي جهل كانت عند هشام بن العاص بن وائل. فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنائم^(٢).

وقال سلمة بن الأكوع: قدمنا الحديبية مع النبي ﷺ ونحن أربع عشرة مئة وعلينا خمسون شاةً لا تُروينا، ففعد رسول الله ﷺ على جبا الركيّة، فإمّا دعا وإمّا بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا، ثم دعانا رسول الله ﷺ للبيعة في أصل الشجرة، قال: فبايعته أوّل الناس، ورآني أعزل فأعطاني حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثم قال في أوسط الناس: «بايع»، فبايعته، ثم قال في آخر الناس: «ألا تُبايعيني يا سلمة» فقلت: يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم وآخرهم، قال: فبايعته الثالثة، ثم قال لي: «يا سلمة، أين

(١) في تفسير البغوي ٣٣٣/٤، وفتح الباري ٣٤٨/٥ أنها كانت تحت شماس بن عثمان.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ٣٣٤/٤.

حَجَفْتُكَ - أو دَرَقْتُكَ - التي أَعْطَيْتُكَ؟ فقلت: يا رسول الله، لقيني عمي عامر وهو أعزل فأعطيته إياها فَضِحَكَ فقال: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ: اللَّهُمَّ ابْغِنِي حَبِيباً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي».

ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشينا بعضنا في بعض واصطلحنا، قال: وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه وأحسسه وأخدمه وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فَكَسَحْتُ شوكتها واضطجعت في أصلها وإذ قد أتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قتل ابن زُئيم فاخترطت سيفي ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم فجعلته ضِعْثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم محمداً لا يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا أخذت الذي فيه عيناه، ثم جئت بهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمي عامر برجل من العَبَلاتِ يقال له: مكرز بن هُوذة يقوده على فرسٍ مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين يقودهم إلى رسول الله ﷺ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾ [الفتح: ٢٤] الآية، قال: ثم رجعنا إلى المدينة فنزلنا منزلاً وبيننا وبين بني لحيان جبلٌ وهم مشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى الجبل طليعةً، قال: فرقت تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً^(١).

وعن أنس بن مالك قال: لما كان يومُ الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم وأخذوا فعفا عنهم، ونزل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾ الآية^(٢).

تفسير ألفاظ غريبه:

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٨).

«الجَبَا»: بالفتح مقصور: نَيْلَةُ البئر وهي ترابها الذي حولها تراه من بعيد، و«الرَّكِيَّة»: البئر قبل أن تُطوى.

وقوله: «قتل ابن زُنَيْم»: ليس في الصحابة من يقال له ابن زُنَيْم إلا سارية وأخوه أنس.

و«الضُّغْث»: الحزمة من العيدان تجمع.

و«العَبَلَات»: حي من قريش نُسبوا إلى أمهم يقال لها: عبلة، وأمّية الصغرى يقال لهم: العبلات، لأن أمهم اسمها عبلة.

و«التجافيف»: كل ما يمنع وصول الأذى إلى الإنسان.

وعن جابر قال: نحرنا بالحديبية مع رسول الله ﷺ البدنة عن عشرة والبقرة عن سبعة. متفق عليه^(١).

وقوله: «بايعت رسول الله ﷺ مراراً» هذه بيعة الرضوان، وسببها أن رسول الله ﷺ بعث عثمان إلى مكة فاحتبسته قريش عندها وبلغ المسلمين أنهم قتلوه فقال رسول الله ﷺ: «لا أبرح حتى أناجزهم»، وكان هذا قبل الصلح.

وقال إياس بن سلمة [عن أبيه]: بينا نحن على الحديبية إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس، قال: فثُرْنَا إلى النبي ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعناه^(٢).

قال الواقدي: وأول من بايعه سنان بن أبي سنان الأسدي^(٣)، وقيل: أبو سنان^(٤)، وهو وهم؛ أبو سنان قُتِل في حصار بني قريظة^(٥).

وضرب رسول الله ﷺ بيمينه على شماله وقال: «هذه عن عُثْمَانَ» يعني: أنه ما غاب إلا في حاجة الله ورسوله.

(١) أخرجه مسلم (١٣١٨)، وهو من أفرادها كما في «الجمع بين الصحيحين» (١٦١٣).

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٦٣٢/٢. وما بين معقوفين زيادة منه.

(٣) انظر «المغازي» ٦٠٣/٢.

(٤) انظر «السيرة» ٣١٦/٢.

(٥) بل صوب ابن حجر أنه أبو سنان، وأن الذي مات في حصار بني قريظة غيره. انظر «الإصابة» ٩٥-٩٦.

قال ابن إسحاق: ولم يتخلف عن البيعة أحد^(١)، وفيهم نزل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

قال يزيد بن أبي عبيد: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وقال جابر بن عبد الله: بايعنا نبي الله يوم الحديبية على أن لا نفر^(٣).

وعن معقل بن يسار أنه شهد مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وهو رافعُ غصناً من أغصان الشجرة بيده عن رأس رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس، قال: فبايعوه على أن لا يفروا، وهم يومئذ ألف وأربع مئة^(٤).

قال جابر: إلا الجد بن قيس فإنه اختفى تحت شجرة، وفي رواية: تحت بطن بعيره يستتر به من الناس^(٥). وكان منافقاً.

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(٦).

وقال جابر: جاء عبد لحاطب بن أبي بلتعة يشكو سيده فقال: والله يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها، إنه قد شهد بداراً والحديبية». انفرد بإخراجه مسلم^(٧).

وقال جابر: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض». أخرجاه في «الصحيحين»^(٨).

(١) انظر «السيرة» ٣١٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٦٩)، ومسلم (١٨٦٠).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤١١٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٨٥٦) (٦٩)، ولم نقف على الرواية الأولى.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٧٧٨).

(٧) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦) (٧١).

وقال ابن عمر: بايعت رسول الله ﷺ يوم الشجرة أنا وأبي، ثم رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان تحتها، كانت رحمة من الله، قيل لنافع: فعلى أي شيء بايعوه؟ على الموت؟ قال: لا، على الصبر^(١).

وقال ابن إسحاق: كانوا إذا مروا على الشجرة صلوا عندها، فأمر عمر بن الخطاب رضوان الله عليه بقلعها لئلا يتخذوها حناناً^(٢).

وقال حبيب بن أبي ثابت: أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء الذين قتلهم عليّ رضوان الله عليه بالنهروان، فقال: كنا بصيفين، فلما استحرّ القتل بأهل الشام اعتصموا بتلّ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى عليّ بمصحف واذعّه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك، فجاء به رجل وقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، فقال عليّ رضوان الله عليه: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله، قال: فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القراء وسيوفهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ما نتظر بهؤلاء القوم الذين هم على التل؟ ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فتكلم سهل بن حنيف وقال: أيها الناس، اتّهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصلح - الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحقّ وهم على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، وذكر بمعنى ما تقدم، قال: وأنزل الله سورة الفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه ذلك فقال: أوفّتح هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه ورجع^(٣).

وقال أبو وائل: قال سهل بن حنيف: اتّهموا رأيكم، فلقد رأيتنا يوم أبي جندل لو نستطيع أن نردّ أمر رسول الله ﷺ لرددناه - أو أرددناه يعني: أبا جندل - والله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا منذ أسلمنا لأمر أظعنناه إلا أسهل بنا إلى أمرٍ نعرفه، إلا هذا الأمر

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٨) من قوله: رجعنا من العام المقبل.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٩٦/٢.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٧٥).

ما ندري كيف هو، ما شددنا منه خُصماً إلا انفتح خُصمٌ آخر^(١).

«الخُصمُ»: جانب العَدْلِ وزاويته، وخُصمٌ كل شيءٍ جانبه وناحيته. وأشار سهل إلى يوم صفين وهو كناية عن انتشار الأمر وصعوبة تلافيه.

ومعنى قوله: «اتهموا رأيكم» أن الإنسان قد يرى رأياً والصواب في غيره كما رأى عمر رضوان الله عليه ثم بان له أن الصواب ما رآه رسول الله ﷺ، ومعناه أن عامة من صدَّ رسولَ الله ﷺ عن البيت أسلموا كأبي سفيان وسهيل بن عمرو وغيرهما، وقد أظهر الله تعالى من أصلا بهم من أعزَّ بهم الدين.

قال ابن إسحاق: ولما فرغوا من الكتاب أشهدوا رجالاً من المسلمين منهم أبو بكر وعمر وعلي وابن عوف وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومن المشركين مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى وغيرهما^(٢).

وقال المسور: إن رسول الله ﷺ نحر قبل أن يخلق وكان الذي حلق رأسه خراشُ ابن أمية بن الفضل الخزاعي^(٣).

وقال البخاري: الذي حلق رأس رسول الله ﷺ معمر بن نضلة بن عوف^(٤).

وقال ابن عباس: حلق رجالٌ يوم الحديبية وقصَّ آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ» قالوا: يا رسول الله، والمقصرين، فقال: «يَرَحِمُ اللهُ المُحَلِّقِينَ» قالوا: والمقصرين، فقال: «يَرَحِمُ اللهُ المُحَلِّقِينَ» قالوا: والمقصرين، قال لهم «والمُقَصِّرِينَ» قالوا: فلم ظاهرت الترحم على المحلقين دون المقصرين؟ قال: «لأنهم لم يشكوا»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٧٨٥) (٩٥)، وأحمد (١٥٩٧٤).

(٢) انظر «السيرة» ٣١٩/٢، ووقع في «السيرة»: محمود بن مسلمة بدل: محمد، وهما أخوان.

(٣) انظر «السيرة» ٣١٩/٢، وأخرجه البخاري (١٨١١) شطره الأول.

(٤) لم يذكره البخاري في «صحيحه» بل هو من زيادات الحميدي في «الجمع» (١٣٥٢)، قال: قال أبو مسعود: زاد ابن جريج: وزعموا أن الذي حلق رسول الله ﷺ معمر بن عبد الله بن عوف بن نضلة. وانظر «الفتح» ٥٦٢/٣.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٣١١).

وقال الواقدي: أقام رسول الله ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل: عشرين يوماً ثم انصرف راجعاً إلى المدينة فنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] فهنأه المسلمون^(١). وقال عمر: أفتَحُّ هو؟ قال: «نعم».

قال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكة إلا يوم الحديبية بهذه السورة.

ولما قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر لم يُعْطِ إلا من شهد الحديبية.

وقال البراء: أنتم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية^(٢).

وقال الشَّعْبِيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: فتح الحديبية، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفتح عليه خيبر وبلغ الهدى محله، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس^(٣).

وقال أنس: المراد به فتح مكة. وقال مجاهد: خيبر. والأول أشهر.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن قتادة عن أنس قال: نزلت على النبي ﷺ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] الآية مَرَجَعُهُ مِنَ الحديبية، فقال: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ» ثم قرأها رسول الله ﷺ فقالوا: هنيئاً لك مريئاً فنحن ما يفعلُ بنا؟ فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥] إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾. أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

وقال الواقدي: دخل رسول الله ﷺ في العام المقبل في الشهر الذي صُدَّ عنها فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(٥) [البقرة: ١٩٤].

وفي هذه الغزاة مرَّ رسول الله ﷺ على قبر أمه بالأبواء فنزل وصلى عندها ركعتين وبكى وأبكى الناس^(٦).

(١) «المغازي» ٦١٦/٢ و ٦١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٢٥/٣.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠٣٥)، والبخاري (٤١٧٢)، ومسلم (١٧٨٦).

(٥) «المغازي» ٧٣١/٢ - ٧٣٢.

(٦) انظر «الطبقات الكبرى» ٩٥/١.

ولمسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فزجرت، أو لم يؤذن لي»^(١).

وقال كعب بن عُجرة: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون، وكانت لي وَفْرَةٌ فجعلت الهوامَّ تساقط على وجهي، فمر بي النبي ﷺ فقال: «أَيُّوْذِيكَ هَواْمٌ رَأْسِكَ؟» قلت: نعم، فأمره أن يحلق، ونزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾^(٢) [البقرة: ١٩٦] الآية.

وفي هذه الغزاة صاد أبو قتادة حمار وحش، قال: خرجت مع النبي ﷺ زمن الحديبية فأحرم أصحابي ولم أحرم، فرأيت حمار وحش فحملت عليه فصدته وأتيت به إلى رسول الله ﷺ وذكرت له أنني لم أكن محرماً وإنما صدته لك، فأمر أصحابه فأكلوا ولم يأكل حين أخبرته أنه صيد له^(٣).

وعن نافع مولى أبي قتادة: أن أصحابه أحرموا عام الحديبية ولم يحرم، ورأى حمار وحش وشد عليه فعقره، ثم جاء به فأكلوا منه، قال: وخبأت عضده معي فأدركناه رسول الله ﷺ فسألناه عن ذلك فقال: «إِنَّمَا هُوَ طُعْمَةٌ أَطَعَمَكُمُ اللهُ، فَكُلُوا فَهُوَ حَلَالٌ»^(٤).

وأخرجه الحميدي وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟» قلت: نعم، فناولته العضد فأكلها وهو محرم^(٥).

وفي هذه الغزاة نزل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥] قال زيد بن خالد الجهني: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٩١)، ومسلم (١٢٠١) (٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٢٢)، ومسلم (١١٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٤)، ومسلم (١١٩٦) (٥٧)، وأما قوله: «فكُلُوا فَهُوَ حَلَالٌ» فهو من رواية صالح

بن كيسان عن نافع عن أبي قتادة، انظر «الجمع بين الصحيحين» (٧٢١).

(٥) الجمع بين «الصحيحين» (٧٢١).

رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، مؤمنٌ بالكوكب كافرٌ بي، فأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب»^(١). ولمسلم بمعناه، وفيه: فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾^(٢).

«السماء»: المطر، لأنه يأتي من السماء فنسب إليها.

و«الأنواء»: ثمانية وعشرون نوءاً، أي: نجماً معروفة، فكانت العرب تنسب إليها المطر.

* * *

وفيها: بعث رسول الله ﷺ الرسل، قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ ستة نفر في ذي الحجة عند مرجعه من الحديدية مصطحبين: حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي^(٣).

قال عكرمة: وكان كل رسول يتكلم بلسان القوم الذي أرسل إليهم. وقيل: إنهم خرجوا أول المحرم سنة سبع من الهجرة.

قال الواقدي: لما كتب الكتب قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ الخاتم من فضة وفصه منه.

قال ابن سعد: فليل لأبي العالية: ما كان نقشه؟ قال: صدق الله. وإنما الخلفاء

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٧٠٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، ولفظه: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء «كذا وكذا» قال: فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾^(٨٢).

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٢٢/١، و«تاريخ الطبري» ٦٤٤/٢. وانظر «السيرة» ٦٠٦/٢-٦٠٧.

بعده ألقوا «لا إله إلا الله» سطر «محمد» سطر «رسول الله» سطر^(١).

وقال أنس: لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب كتاباً إلى الروم قالوا: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة، قال أنس: كأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله ﷺ نقشه: محمد رسول الله^(٢).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «إني قد اتخذت خاتماً، ونقشت عليه محمد رسول الله، فلا تنقشوا عليه»^(٣).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً»^(٤).

أما الاستضاءة بنار المشركين فأخذ آرائهم، وأما النقش العربي فقال الحسن: لا تنقشوا عليه محمد رسول الله.

وعن الشعبي: أن رسول الله ﷺ كتب في هذه الكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: وكان يكتب في صدر الإسلام باسمك اللهم كما كانت تكتب قريش حتى نزل قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا﴾ [هود: ٤١]، فكتب بسم الله، حتى نزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فكتب: بسم الله الرحمن، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتبها^(٥). وفي رواية: وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين^(٦).

قال ابن سعد: وقد كتب لجماعة لم يضبط لهم تاريخ، وكتب لأساقفة نجران

(١) الخبر عند ابن سعد في «الطبقات» ٤٠٩/١: ما كان نقش خاتم نبي الله ﷺ قال: صدق الله، ثم ألحق، بعده محمد رسول الله.

وأخرج أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» عن أنس قال: كان فص خاتم النبي ﷺ حبشياً وكان مكتوباً عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، «لا إله إلا الله» سطر، و«محمد» سطر و«رسول الله» سطر.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٨)، ومسلم (٢٠٩٢) (٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٧٧)، ومسلم (٥٠٩٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٩٥٤).

(٥) «الطبقات الكبرى» ٢٢٧/١.

(٦) انظر «السيرة» ٦٠٧/٢.

ورهبانهم: «أن لا يُغَيَّرَ عليهم ما هُم فيه وما تَحْتَ أيديهم، ولا يُغَيَّرَ أُسُقُفٌ عن أُسُقُفَتِهِ، ولا رَاهِبٌ عن رَهْبَانِيَّتِهِ، ولا كَاهِنٌ عن كِهَانَتِهِ»^(١).

قال المصنف رحمه الله: وقد بعث رسول الله ﷺ رسلاً إلى الأطراف إنما الكلام فيمن بعثه في هذه السنة.

فصل: فأما حاطب حليف بني أسد بن عبد العزى فإنه سار إلى المُقَوِّسِ صاحب الإسكندرية، فقبله وأكرمه، وكتب إلى رسول الله ﷺ جوابه: قد علمت أنه قد بقي نبي وقد أكرمتُ رسولك، وأهدى إليه هدية، وجعل كتاب رسول الله ﷺ في حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى قَهْرمانته وقال: احتفظي به^(٢).

وعاد حاطب من عنده في سنة سبع من الهجرة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل: وأما شجاع فهو حليف حرب بن أمية، شهد بدرًا، كتب رسول الله ﷺ على يده كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر: سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وأني رسوله، فأجب ليدوم لك ملكك. والسلام^(٣).

قال شجاع: فأتيته وهو بغوطة دمشق يهيبُ الأموال لقيصر وكان قاصداً إلى البيت المقدس، فأقمت على بابه أياماً لا أصل إليه، وكان له حاجب يقال له: مري، فقلت له: أخبره بأني رسول رسول الله ﷺ، فقال: إنك لا تصل إليه [حتى يخرج] في يوم كذا وكذا، وجعل يسألني عن رسول الله ﷺ وصفته وما يدعو إليه، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول: هذه والله صفته في الإنجيل، وأنا أو من به وأصدقه وأخاف من الحارث أن يقتلني، قال: وكنت في ضيافة الحارث وإكرامه إلى أن جلس يوماً ووضع تاجه على رأسه وأذن لي في الدخول عليه، فدخلت ودفعت إليه الكتاب فقرأه ورمى به وقال: من ينتزع مني ملكي، أنا سائر إليه ولو كان باليمن، ثم عرض الناس

(١) «الطبقات الكبرى» ٢٢٩/١.

(٢) انظر «الطبقات» ٢٢٤/١.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٦٥٢/٢.

وأمر بالخيال أن تُنَعَلَ وقال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره بالخبر وبما قد عزم عليه، فكتب إليه قيصر لا تَسِرْ إليه ولا تتعرض له، فدعاني وأمر لي بمئة مثقال من الذهب، ووصلني حاجبه مري بنفقة وكِسْوة وقال: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام. قال: فقدمت على رسول الله ﷺ وأبلغته ما جرى فقال: «بَادَ مُلْكُهُ» وأقرأته سلام مري فقال: و عليه السلام.

ومات الحارث عام الفتح وتمزق ملكه^(١).

فصل: وأما دِحْيَةُ فقدم بكتاب رسول الله ﷺ [على قيصر] قال الإمام أحمد رحمه الله: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْتَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَبْعَثُ بِكِتَابِهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بَصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بَصْرَى إِلَى قَيْصَرَ، وَكَانَ قَيْصَرٌ لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى مِنْ حِمَصَ إِلَى إِيْلِيَاءَ عَلَى الزَّرَّابِيِّ تَبَسَّطَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَهُ: التمسوا لي من قومه من أسأله عنه.

قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجاراً، وذلك في الهدنة التي كانت بين يدي رسول الله ﷺ وبين قريش، قال أبو سفيان: فأتاني رسول قيصر فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه، وإذا هو جالس في مجلس ملكه، عليه تاجه، وحوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً إليه، قال: ما قرابتك منه؟ قلت: هو ابن عمي، وقال أبو سفيان: وليس في الركب يومئذ رجل من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: ادن مني، فدنوت، وأمر أصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا عن هذا الرجل

(١) «الطبقات» ١/٢٢٤ - ٢٢٥، و«المنتظم» ٣/٢٨٩.

الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الاستحياء أن يَأْثُرَ عني أصحابي الكذب لكذبتُه حين سألتني، ولكن استحييت أن يَأْثُرُوا عني الكذب فصدقته، ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول فيكم أحدٌ قبله؟ قال: قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أفيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخَطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: قلت: لا. قال: فهل يَغْدِرُ بأحدٍ؟ قال: قلت: لا، ونحن الآن في مدَّةٍ ونحن نخاف ذلك. قال أبو سفيان: ولم تُمكنني كلمةٌ أُدْخِلُ فيها شيئاً أنتقصه بها غيرها لأنني أخاف أن يؤثر عني. قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان حربكم وحربه؟ قلت: سجالاً نُدال عليه مرَّةً، ويُدال علينا أخرى. قال: فما يأمركم؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصَّدق، والوفاء والعفاف، والمحافظة على العهود، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام. قال: فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال هذا القول أحدٌ قبله قط؟ فزعمت أن لا؛ فقلت: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله، قلت: رجلٌ يَأْتُمُ بقولٍ قيل قبله. وسألتك: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقلت: لم يكن ليكذب على الناس فكيف على الله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجلٌ يطلب مُلْكَ آبائه. وسألتك: أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل يرتدُّ أحدٌ سَخَطَةً لدينه. بعد أن يَدْخُلَ فيه؟ فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يَسْخَطُهُ أحدٌ. وسألتك هل يَغْدِرُ؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل. وسألتك هل قاتلتموه؟ فزعمت أنه قد فعل وأن الحرب بينكم تكون دُولاً تُدالون عليه ويُدال عليكم، وكذلك الرسل تبلى وتكون لها العاقبة.

وسألتك: ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ولا تشركوا به شيئاً، وبينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصدق، والصلاة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وهذه صفة نبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، وإن يكن ما قلت فيه حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، والله لو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لُقيته، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فأمر به فقرأ عليه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرَك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين - يعني الأكرّة - و ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قضى مقالته، علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم، فما أدري ماذا قالوا، وأمر بنا فأخرجنا.

قال أبو سفيان: فقلت لأصحابي: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة؛ هذا ملك بني الأصفر يخافه، قال أبو سفيان: فوالله ما زلت ذليلاً مُستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله الإسلام قلبي، وأنا كاره.

أخرجاه في «الصحيحين» و«المسند»^(١).

وللبخاري: وكان ابن الناطور - صاحب إيلياء وهرقل - أسقفه على نصارى الشام، فحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقه: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاءً ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختن من هذه الأمة؟ فقالوا: اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيها من اليهود، فإنه ليس يختن سواهم، فبينما هم على ذلك إذ أتى هرقل برجل أرسله إليه ملك

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٣٧٠).

غَسَّانٌ يخبره عن خبر رسول الله ﷺ، فقال هرقلُ: انظروا أمختن هو أم لا؟ قال: فنظروا فإذا هو مختن، فأخبروه، فسأله عن العرب، فقال: هم يختنون، فقال هرقل: هذا مَلِكُ هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم يخبره، وسار هرقل إلى حمص ولم يَرَمْ حِمَصَ حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج رسول الله ﷺ وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم: هل لكم في الصلاح والرشد وأن يَثْبُتَ ملكُكم فُتُبَايَعُوا هذا النبي؟ فحاصوا حِصَّةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبواب فوجدوها مُغَلَّقة فقال: عليّ بهم فدعاهم وقال: إني اختبرت شدتكم في دينكم، فرأيت منكم الذي أَحْبَبْتُ، فسجدوا له ورضوا عنه، وكان ذلك آخر شأن هرقل^(١).

وقد ذكر هذا الحديث أرباب السير، فقالوا:

قال ابن عباس، حدثني أبو سفيان قال: كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد أنهكتنا وذهبت أموالنا، فلما كانت الهدنة بيننا وبينه، خرجتُ في نَفَرٍ من قريش تجاراً إلى الشام، وكان وجه متجرنا غزّة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرض الشام من فارس وأخرجهم منها، وانتزع صليبه الأعظم، وكانوا قد سلبوه إيّاه، وكانت حِمَصُ منزله، فخرج يمشي على قدميه حين ردّ الله عليه ما ردّ، فصلى في بيت المقدس شكراً لله تعالى وكانت تُبْسَطُ له البُسْطُ، ويلقى عليها الرياحين، فلما وصل إلى إيلياء وقضى صلاته فيها ومعه بطارقه، أصبح ذات يوم مهموماً يُقَلِّبُ طرفه في السماء، فقيل له: ما لك؟ فقال: رأيت مَلِكَ الخِتانِ قد ظَهَرَ، فقال له بطارقه: ما نعلم أنه يختن إلا اليهود، وذكر بمعنى ما تقدم، وقال: فينا هم على ذلك إذ أتى رسولُ صاحبِ بَصْرَى برجل من العرب وكانت الملوك تهادي الأخبار بينها، فقال الرسول: أيها الملك، هذا من العرب من أهل الشاء والإبل، يحدث عن أمر عَجَبٍ حَدَثَ في بلادهم فَسَلُّهُ عنه، فقال قيصر لترجمانه: سَلُّهُ عن هذا الحديث الذي حدث ببلاده؟ فقال: خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي وقد أتبعه ناسٌ، وخالفه ناسٌ، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة وقد تركتهم على ذلك.

(١) صحيح البخاري (٧).

فقال قيصر: جَرْدُوهُ، فجرّدوه فإذا هو مختونٌ فقال قيصر: هذا والله الذي رأيت، لا ما تقولون، فأطلقه ثم دعا صاحب شُرطته، وقال: اقلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل الذي قد ظهر بالحجاز.

قال أبو سفيان: فوالله إننا بغزّة إذ هجم علينا صاحب الشرطة فقال: أنتم من قوم هذا الرجل؟ قلنا: نعم، فقال: قوموا إلى الملك، قال: فانطلق بنا فدخلنا عليه فقال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم، قال: فأيكم أمسُّ به رحماً؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا - وإيُّم الله ما رأيت رجلاً كان أمكر من ذلك الأقف - فقال: أذنه، وأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، وقال: إني مسائله، فإن كذب فردوا عليه.

قال أبو سفيان: فوالله لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امراً سيداً أتكرم على الكذب، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبتُه أن يحفظوا ذلك عليّ، ثم يتحدثوا به عني، فلم أكذبه، ثم قال: أخبرني عن هذا الرجل ما يدعي؟ فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وهو لا يلتفت إليّ، وقال: أنبئني عما أسألك عنه من شأنه، فقلت: سل. فقال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو من أمحضينا نسباً.

قال: فهل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به؟ قلت: لا. قال: فهل كان فيكم ملكاً فسلبتموه ملكه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: فأخبرني عن أتباعه من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين وأحداث من الغلمان والنساء، فأما ذوو الأنساب والأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرني عن من تبعه أيحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه؟ قلت: ما تبعه أحد ففارقه. قال: فهل يغدر؟ قلت: بينا وبينه هدنة ولا نأمن فيها من غدره. ولم أجد شيئاً مما سألتني عنه أن أغمزه فيه غيرها فوالله ما التفت إليها مني، ثم كر عليّ الحديث.

فقال: سألتك عن نسبه فقلت: إنه محض من أوسطكم نسباً، وكذلك الأنبياء، فإن الله لا يختار نبياً إلا من أوسط قومه نسباً... وذكر بمعنى ما تقدم، وقال لأبي سفيان: قم، قال: فقمت من بين يديه وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأنا أقول: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إذ أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه بالشام^(١).

(١) «تاريخ الطبري» ٢/٦٤٦ - ٦٤٨، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٤/٣٨١ - ٣٨٣.

قال الزهري: فحدثني أسقفُ للنصارى أدركته زمن عبد الملك بن مروان أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله ﷺ وهرقل وعقله قال: لما قدم عليه دحية بكتاب رسول الله ﷺ كتب إلى صاحب له برومية كان يقرأ الكتب يخبره بأمر الكتاب ويصف له ما فيه، فكتب إليه صاحبه وكان يكتب بالعبرانية والعربية: إنه النبي الذي كنا ننتظره، لا شك فيه فاتبعه وصدقته، فجمع بطارقه في دسكرة^(١) ثم أغلق الأبواب وأطلع عليهم من علية له، فخافهم على نفسه، وقال: يا معاشر الروم إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله النبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا فهلما نصدقته ونتبعه فتسلم لنا دُنيانا وأخرانا. قال: فنحروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا الأبواب فوجدوها مغلقة فردهم وقال: إنما اختبرتمكم فسجدوا له ورضوا عنه.

وقال ابن إسحاق: قال هرقل لدحية: والله إني لأعلم أنه نبي ولكني أخاف على نفسي، ولكن اذهب إلى ضغاطر الأسقف واذكر له أمر صاحبك.

فجاء إليه دحية وعرفه صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فقال: هذا صاحبك والله نبي، وهو الذي نجد صفته في كتبنا، ثم دخل بيتاً فترع السواد عنه واغتسل ولبس ثياباً بيضاء وأخذ عصاه وخرج إلى الروم في الكنيسة فقال: يا معاشر الروم إنه قد جاء كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله تعالى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله. فوثبوا إليه فقتلوه، فرجع دحية إلى هرقل فأخبره بما جرى فقال: والله إن ضغاطر عندهم والله أعظم مني وأجوز قولاً، فكيف آمنهم على نفسي^(٢)!

وفي رواية: أن هرقل قال لهم: هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به عيسى وإني مُخَيَّركم بين ثلاثة أشياء: إما أن نتبعه فتسلم لنا بلادنا ودمائنا وأموالنا، وإما أن نؤدي إليه الجزية فنكسر بها شوكته، وإما أن نصالحه على أرض سورية ويدع لنا الروم.

فقالوا: أما دُخولنا في طاعته فكيف نفعل هذا ونحن أكثر أموالاً ورجالاً وأبعد بلاداً، وأما أداء الجزية فكيف نعطي العرب الذل والصغار ونحن أعز منهم، وأما أن

(١) بناء على هيئة القصر، فيه منازل للخدم والحشم.

(٢) «تاريخ الطبري» ٢/٦٤٩ - ٦٥٠، و«دلائل النبوة» ٤/٣٨٤.

نعطيه أرض سورية ويدع لنا الروم فكيف نعطيه بلادنا وأموالنا وأوطاننا، لا كان ذلك أبداً، فوالله ما دعتنا ضرورة إلى ذلك.

فقال: والله لتؤدُنَّ أحد الأشياء الثلاثة إذا ضغطكم في بلادكم، ثم سار حتى وصل الدرب والتفت إلى الشام وقال: السلام عليك يا سورية، سلام مودّع، ثم مضى حتى دخل القسطنطينية^(١). فكان آخر العهد به. ويقال: إنه مات مسلماً. وسورية أرض الشام وحدها درب الروم.

ورجع دحية إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: كان أحزم القوم.

وقال موسى بن عقبة: خرج أبو سفيان إلى الشام تاجراً فقدم على قيصر فأرسل إليه قيصر يسأله عن رسول الله ﷺ فلما جاءه قال: أخبرني عن هذا الرجل أيظهر عليكم؟ قال: ما ظهر علينا إلا مرة وأنا غائب، ثم غزوتهم مرتين فبقرنا البطون وجدعنا الأنوف وقطعنا الذكور. فقال قيصر: أترأه كذاباً أو صادقاً؟ قال: بل هو كاذب. فقال قيصر: لا تقولوا هكذا، فإن الكذب لا يظهر به أحد، فإن كان فيكم نبياً فلا تقتلوه فإن أفعال الناس لذلك اليهود^(٢).

فصل: وأما سليط بن عمرو العامري فإنه قدم على هوزة بن علي الحنفي ودفع إليه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فقرأه وكتب إليه: ما أحسن ما تدعوننا إليه وأجله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك. وأجاز سليطاً بجائزة ونفقة وثياب من نسج هجر، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «والله لو سألتني سيابة من الأرض ما أعطيتها، باد ملكه» فمات عام الفتح، وكان من عقلاء الملوك^(٣).

والسيابة بفتح السين: البلحة.

(١) «تاريخ الطبري» ٦٥١/٢ .

(٢) «دلائل النبوة» لليهقي ٣٨٥/٤ - ٣٨٦ عن موسى بن عقبة .

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٢٢٥/١ - ٢٢٦ ، و«المنتظم» ٢٩٠/٣ .

فصل : وأما عبدُ الله بنُ حُذافة السَّهْمِي فَقَدِمَ عَلَى كَسْرَى.

قال الواقدي : بعث رسول الله ﷺ إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب إليه :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَةً ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس : ٧٠] الْآيَةَ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ اللَّهِ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا، فَإِنْ أَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ. وَالسَّلَامُ».

فلما قرأ كتابه خرقة وقال : يكتبُ إلي مثلُ هذا وهو عبدي، ثم كتب إلى باذان عامله باليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدتين فليأتياني به.

فبعث قهرمانه بابويه وكان كاتباً حاسباً ورجلاً آخر من الفرس يقال له : خُرْخُسْرَه وكتب معهما كتاباً إلى رسول الله ﷺ يأمره بالانصراف معهما إلى كسرى، وبلغ قريشاً ففرحوا، وقالوا : كفيتم أمره فقد نصب له العداوة ملك الملوك كسرى، فقدم الرجلان على رسول الله ﷺ ودخلا عليه وكلمه القهرمان وقال : إن شاهنشاه قد كتب إلى الملك باذان يأمره بإنفاذك إليه، وقد بعث بي لتنتلق معي، فإن فعلت كتب فيك الملك كتاباً إلى ملك الملوك ينفعك عنده ويكف عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، وإنه مهلكك وقومك ومخرب بلادك، وكانا قد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما، فكره رسول الله ﷺ النظر إليهما فقال : «وَيْلَكُمَا مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا؟» قالا : ربنا، يعنيان كسرى، فقال رسول الله ﷺ : «لَكِنَّ رَبِّي اللَّهُ أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِي» ثم قال : «ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غَدًا» وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا في ليلة كذا، فدعاهما فأخبرهما، فقالا : هل تدري ما تقول؟ فإننا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا؟ أفنكتب عنك بهذا إلى الملك، قال : نعم وقولا له : «إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَلِكَ كِسْرَى، وَيَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ، وَقَوْلَا لَهُ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَمَلَكَتْكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الْأَبْنَاءِ» ثم أعطى خُرْخُسْرَه مِنطَقةً بها ذهب وفضة أهداها له بعضُ الملوك، وخرجا من عنده، فقدا على باذان فأخبراه الخبر، فقال : والله ما هذا ملك، وإني لأراه كما يقول نبياً، ولننظر ما قال،

فإن كان حقاً فهو نبيٌّ مُرسَلٌ، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا.

فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه بن كسرى يقول فيه: أما بعد: فإنني قد قتلْتُ كِسْرَى ولم أقتله إلا غَضَباً لفارسٍ لما كان استحل من قتل أشرافها وسوء سيرته، وما قتله إلا برأيهم، فانظر من قبلك فخذ عليه الطاعة، والرجل الذي كتب إليك أبي بسببه فلا تُهْجُهُ حتى يأتيك أمري فيه. والسلام.

فلما قرأ كتابه قال: آمنت أن هذا الرجل رسول الله ﷺ فأسلم معه الأبناء ومن كان باليمن من فارس، فكانت حمير تقول: لخرخره: ذو المعجزة، للمنطقة التي أعطاها إياها رسول الله ﷺ وهي بلسان حمير كذلك، فبنوه اليوم ينسبون إليها^(١).
وسأل باذان قهرمانه: هل مع الرجل شُرْطٌ؟ قال: لا، قال: هو نبي.

وقال الزهري: كتب كسرى إلى باذان: بلغني أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا ابعث إليّ برأسه. فبعث باذان كتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يَقْتُلَ كِسْرَى فِي وَقْتِ كَذَا فِي شَهْرِ كَذَا» فقتل في الوقت الذي ذكره رسول الله ﷺ، فأسلم باذان ومن كان عنده من الفرس باليمن^(٢).

وقال الواقدي: قُتل كسرى ليلة السبت لست ساعات مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة. وقيل: لعشر مضين منه سنة ست من الهجرة.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». متفق عليه^(٣).

وكان كما قال، لأن أمر فارس انحل بعد أبرويز، وكذا هرقل ما عاد إلى الشام واستولى المسلمون في مدة يسيرة على العراق والشام.

(١) «تاريخ الطبري» ٢/٦٥٤ - ٦٥٧، و«المنتظم» ٣/٢٨٢ - ٢٨٣، وانظر «الطبقات الكبرى» ١/٢٢٣.

(٢) «السيرة» ١/٦٩.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨).

فصل : وأما عمرو بن أمية الضمري فإنه قدم على النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، وكان قد كتب إليه رسول الله ﷺ :

«سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ ، فَحَمَلَتْ بَعِيْسَى فَهُوَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُؤْمِنَ بِي ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاسْتَوْصِ خَيْرًا بِابْنِ عَمِّي جَعْفَرَ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَوَاضَعْ لَهُمْ وَلَا تَتَّكِبْ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّلَامُ» .

فكتب إليه النجاشي :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله الذي هداني للإسلام ، وقد بلغني كتابك فيما ذكرت [من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ، إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت] ثفروقاً وقد عرفت ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، وأشهد أنك رسول الله ، وقد أسلمتُ على يد ابن عمك وبايعته وأسلمت لله رب العالمين ، وقد بعثتُ إليك بابني أرها بن الأصحم ، وإنِّي لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت^(١) ، والسلام .

قال ابن إسحاق : فذكروا أنه بعث بابنه في ستين من الحبشة في سفينة ومعه هدايا حبرة ، فغرق في وسط البحر .

وقال الواقدي : لما قرأ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ نزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعاً لله تعالى وقال : لو قدرت على إتيانه لأتيته .

«الأصحم» : الأسود يضرب إلى الصفرة ، وقيل : هو لقب لملوك الحبشة و«الثفروق» قمع البُسرة وقيل : قمع التمرة .

(١) في النسخ : وإن شئت آتيتك بنفسي فعلت ، والمثبت من «تاريخ الطبري» ٢/٦٥٢-٦٥٣ ، و«المنتظم» ٣/

قال ابن إسحاق^(١) : ثم كتب رسول الله ﷺ بعد ذلك كتاباً آخر إلى النجاشي بأن يزوجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ويبعث إليه بجعفر ومن عنده من المسلمين، فأخذ الكتاب وجعلهما في حُقٍّ من عاج وقال: لا تزال الحبشة بخير ما دام هذان الكتابان بين أظهرهما.

قال أنس: وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ^(٢).

قال المصنف: وظاهر هذا القول أنه كان في زمن النبي ﷺ نجاشي آخر ولم ترد الأخبار بذلك، والظاهر أن المشار إليه هو الذي صلى عليه رسول الله ﷺ.



وفيها: ذبح أبو بردة بن نيار قبل صلاة العيد فأمره رسول الله ﷺ أن يُعيد الأضحية. قال البراء بن عازب: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبَدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا: أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحِرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النَّسُكِ فِي شَيْءٍ». قال: وذبح خالي أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، ذبحتُ قبل الصلاة وعندي جذعةٌ خيرٌ من مُسِنَّةٍ، قال: «اجعلها مكانها، ولكن تجزئ - أو توفي - عن أحدٍ بعدك». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).



وفيها: وقع طاعون بالمدينة فأفنى الخلق، وهو أول طاعون وقع في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِنْ سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْرَبُوهَا»^(٤).



(١) في «تاريخ الطبري» ٦٥٣/٢ عن الواقدي.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٤)، وقال ابن حجر في «الفتح» ١٢٩/٨: والجمع بين القولين أنه كاتب النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لما مات، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافراً.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (١٩٦١).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وفيها: تزوج عمر بن الخطاب رضوان الله عليه جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، فولدت له عاصم بن عمر فطلقها عمر رضي الله عنه بعد ذلك فتزوجها يزيد بن جارية^(١)، فولدت له عبد الرحمن بن يزيد، فهو أخو عاصم لأمه.



وفيها: أجدبت الأرض فاستسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

قال أنس بن مالك: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة إذ قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء قزعة، فثار سحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته، قال: فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو رجل غيره، فقال: يا رسول الله، غرق المال وتهدم البناء، ادع الله لنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: «اللَّهُمَّ حَوَالِنَا وَلَا عَلَيْنَا» قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا انفرجت حتى صارت المدينة مثل الجوبة، حتى سال وادي قناة شهراً، ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود. أخرجاه في «الصحاحين»^(٣).

وقد رواه الهيثم بن عدي، وفيه أن الأعرابي أنشد: [من الطويل]

أتيناك والعدراء يدمى لبانها وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وليس فرار الناس إلا إلى الرسل
فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء وقال: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، عَامًّا طَبَقًا
سَحًّا» فنشأت سحابة من وراء سلع مثل الترس ثم انتشرت وأمطرت سبعا، فشكى
الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالظُّرَابِ وَالْجِبَالِ وَالْأودية وَمَنَابِتِ

(١) في النسخ: عبد الرحمن بن زيد بن حارثة، والمثبت من «الطبقات الكبرى» ٨٦/٧، و«تاريخ الطبري»

٦٤٢/٢، وانظر «المنتظم» ٢٩١/٣.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٦٤٢/٢، و«المنتظم» ٢٩١/٣.

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧) (٩).

الشَّجَرِ». قال: فتقطعت وخرجنا نمشي في حر الشمس.

وفي رواية: فانجاب السحاب مثل الإكليل عن المدينة فضحك رسول الله ﷺ وقال: «للهِ دَرُّ أَبِي طَالِبٍ لو كان حَيًّا لَقَرَّتْ عَيْنُهُ، فمن يُنْشِدُنَا قوله؟ فقام علي رضي الله عنه فقال: تريد قوله^(١): [من الطويل]

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمَّالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأراملِ
يَلُوذُ به الأَقْيَالُ مِنْ أَهْلِ هاشمٍ فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ
وهذان البيتان لأبي طالب في أبيه عبد المطلب لما استسقى فسُقي.

وفيها: وَقَفَ عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أمواله^(٢).

قال ابن عمر: أصاب عمر أرضاً بخير فاستأمر النبي ﷺ بها فقال: «إن شئتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا». فتصدق بها في الفقراء والقربى والرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضَّيف، لا جناح على مَنْ وَلِيهَا أن يأكل منها بالمعروف غير متأثِّلٍ فيها مالاً. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).



وفيها: ظاهر أوس بن الصامت من امرأته، واسمها خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل في نسبها غير ذلك، وقيل: خويلة، وقيل: فاطمة، وقيل: جميلة. والأول أشهر^(٤).

قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن تميم بن سَلْمَةَ، عن عروة، عن عائشة، قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المُجَادِلَةُ إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٥) [المجادلة: ١] الآية.

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢١٨٠)، والبيهقي في «الدلائل» ١٤١/٦.

(٢) انظر «المنتظم» ٢٩١/٣.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٤)، ومسلم (١٦٣٢).

(٤) انظر «المنتظم» ٢٩١/٣.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١٩٥).

وقد حكى الثعلبي عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن اسمها جميلة، وكانت حسنة الجسم، فرآها أوس بن الصامت ساجدة في صلاتها، فنظر إلى عجزها، فلما انصرفت أرادها فامتنعت عليه، فغضب وكان امرأاً فيه سرعة ولمم، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الظهارُ والإيلاءُ من طلاق الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت علي، فقالت: لا تقل ذلك، ائت رسول الله ﷺ فسله، فقال: إني لأستحي منه أن أسأله عن مثل هذا، قالت: فدعني أسأله، قال: سليه، فأتت رسول الله ﷺ وأنا أغسل شق رأسه فقالت: يا رسول الله، إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابةٌ غنيّةٌ ذاتُ مالٍ وأهلٍ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سني، ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء تبعثني به؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدي، قد طالت صحبتي ونفضتُ له بطني. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا حرمت عليه، ولم أؤمر في شأنك بشيء» فجعلت تراجع رسول الله ﷺ فإذا قال لها حرمت عليه هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أوّلَ ظهارٍ كان في الإسلام. فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلتُ فداك يا رسول الله، فقالت لها عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السُّبات، فلما مضى الوحي قال: «ادعي زوجك» فجاء فتلا عليه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] الآيات، وبيّن حُكْمَ الظَّهار، وجعل فيه الكفارة، ثم قال له رسول الله ﷺ: «هل تستطيع أن تعتق رقبةً؟» قال: إذا يذهب مالي كله وأنا قليل المال. فقال رسول الله ﷺ: «فهل تستطيع أن تصومَ شهرين مُتتابعين؟» فقال: يا رسول الله، إني إن لم آكل في النهار ثلاث مرات كلَّ بصري وخشيت أن تعشوَ عيني. قال: «فهل تستطيع أن تُطعمَ ستين مسكيناً؟» قال: لا إلا أن تعينني على ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «إني مُعِينُكَ بِخَمْسَةِ عَشْرَ صَاعاً، وأنا دَاعٍ لَكَ بِالْبُرْكََةِ» فأعانه

رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ونزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢] الآية^(١).

قال الزهري: كان الظهار طلاقاً في الجاهلية، فنقل الشرع أصله، ونقل حكمه إلى تحريم مؤقت بالكفارة. وكذا الإيلاء.

وخولة هذه هي التي مرَّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدما ولي الخلافة ومعه الجارود العبدي فسلم عليها، فقالت له: إيه يا عمر، عهدتك بالأمس في سوق عكاظ تدعى عُميراً تززع الصبيان بعصاك، ثم لم تذهب الأيام والليالي حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام والليالي حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أن من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن حذر الموت خشى الفوت. فبكى عمر، فقال لها الجارود: لقد أغلظت لأمر المؤمنين، فقال له عمر: مه، دعها، أما تعرفها؟ هذه خولة التي سمع الله كلامها من فوق سبع سماواته، فعمر أولى أن يسمع كلامها^(٢).



وفيها: سابق رسول الله ﷺ بناقته العضباء وهو اسمها، فسُبِّقَتْ.

قال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ تُسمى العضباء، وكانت لا تكاد تُسبِّقُ، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، حتى عرف رسول الله ﷺ ذلك في وجوههم وقالوا: يا رسول الله سُبِّقت العضباء، فقال: «حَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ». أخرجه البخاري^(٣). وفي رواية: أَنْ لَا يُرْفَعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا... وذكره^(٤).



(١) تفسير الثعلبي ٦/ ١٢٥-١٢٦.

(٢) أخرجه الخبر ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٧٢).

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٤١٧).

فصل وفيها توفيت

أم رومان^(١)

بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس، وقيل: أم رومان بنت عامر بن عميرة بن ذهل، وذكره إلى كنانة، وقيل: أم رومان بنت الحارث بن الحويرث بن قيس بن غنم. امرأة الحارث بن سَخْبَرَة بن جُرثومة بن عادية الأزدي، قدم بها من السَّراة إلى مكة وولده منها، فحالف أبا بكر الصديق رضي الله عنه ثم مات بمكة، فتزوجها أبو بكر رضي الله عنه فولدت له عائشة وعبد الرحمن رضي الله عنهما.

أسلمت أم رومان بمكة قديماً وبايعت وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناته، وكانت امرأةً صالحَةً، توفيت في ذي الحجة سنة ست من الهجرة، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرها وقال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ».

وقال بعض العلماء: عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دهرًا طويلاً وروت عنه الحديث^(٢). وأخرج لها البخاري حديثاً واحداً^(٣).

عتبة بن أسيد^(٤)

ابن جارية الثقي أبو بصير، وأمه سالمة، قرشية، وهو من الطبقة الأولى من

(١) «الطبقات الكبرى» ١٠/٢٦٢، و«المنتظم» ٣/٢٩١، و«الإصابة» ٤/٤٥٠.

(٢) هو قول أبي نعيم في «معركة الصحابة»، ونفى الخطيب سماع مسروق من أم رومان وجعله من المرسل كما في «تحفة الأشراف» ١٣/٧٩-٨٠، وقال ابن حجر في «الفتح» ٧/٤٣٨: وعمدة الخطيب ومن تبعه في دعوى الوهم الاعتماد على قول من قال: إن أم رومان ماتت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم سنة أربع، وقيل: سنة خمس، وقيل: ست، وهو شيء ذكره الواقدي، وهو لا يتعقب الأسانيد الصحيحة، وذكر الزبير بن بكار بسند منقطع فيه ضعف: أن أم رومان ماتت سنة ست في ذي الحجة، وقد أشار البخاري إلى رد ذلك في «تاريخه الأوسط» و«الصغير» فقال بعد ذكر أم رومان في فصل من مات في خلافة عثمان: روى علي بن يزيد، عن القاسم قال: ماتت أم رومان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم سنة ست، قال البخاري: وفيه نظر، وحديث مسروق أسند. أي أقوى إسناداً وأبين اتصالاً.

(٣) وهو حديث الإفك (٣٣٨٨) عن مسروق قال: سألت أم رومان، الحديث.

(٤) انظر «الطبقات» ٥/١٨٠، و«المنتظم» ٣/٢٩٢، و«الإصابة» ٢/٤٥٢.

المهاجرين، وقد ذكرنا قصته زمن الحديبية، وأن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ أن يدخله ومن معه إلى المدينة، فكتب إليه فجاءه كتاب رسول الله ﷺ وهو مريض قد أشرف على الموت، فوضعه على عينيه وجعل يقرأه ويبكي، ومات وهو في يده، فغسله أصحابه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بناحية العيص وبنوا عليه مسجداً، وقدموا المدينة، فأخبروا رسول الله ﷺ فترحم عليه واستغفر له.

قال موسى بن عقبة: تولى أمره أبو جندل بن سهيل.

مُحَرِّزُ بْنُ نَضْلَةَ^(١)

ابن عبد الله بن مُرَّة، أبو نَضْلَةَ الأَسَدِي، من الطبقة الأولى من المهاجرين، وكان يلقب: فُهَيْرَة، أخى رسول الله ﷺ بينه وبين عُمارة بن حَزم. شهد محرز بدرأً وأحداً والخندق، وقتل يوم الغابة، وهي غزاة ذي قرد سنة ست مع رسول الله ﷺ.

قال صالح بن كيسان: قال محرز بن نضلة: رأيت سماء الدنيا فرجت لي حتى دخلتها، فانتهيت إلى السماء السابعة وسدرة المنتهى، فعرضتها على أبي بكر الصديق ﷺ وكان أعبر الناس، فقال: أبشر بالشهادة، فقتل بعد ذلك بيوم.

خرج مع رسول الله ﷺ إلى الغابة يوم السرح، وهي غزوة ذي قرد سنة ست، قتله مسعدة بن حكمة.

شهد محرز بدرأً، وهو ابن إحدى أو اثنتين وثلاثين سنة، وكان يوم قتل ابن سبع أو ثمان وثلاثين سنة. والله أعلم^(٢).



(١) انظر «الطبقات» ٣/ ٨٩، و«الإصابة» ٣/ ٣٦٨.

(٢) جاء في آخر الجزء الثاني من نسخة كوبريلي: تم الجزء الثاني من مرآة الزمان بحمد الله وعونه وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

فهرس الموضوعات

٢٧ كِلاب بن مُرَّة	٨ نسبه ﷺ وأجداده
٢٧ مُرَّة بن كعب	٨ أبوه عبد الله
٢٨ كعب بن لؤي	١٠ قصة عبد الله مع الخُثعميَّة
٢٨ لؤي بن غالب	١١ هاشم بن عبد مناف
٣٣ العواتك	١٢ رحلة الشتاء والصيف
٣٤ فصل في الفواطم	١٤ مُنافرة هاشم وعبد شمس
٣٥ ولادته ﷺ	١٤ ذكر حلف المُطيين
٤٠ سَطِيح	١٥ أشراف قريش في الجاهلية
٤٢ وفاة عبد الله بن عبد المطلب	١٧ وفاة هاشم
٤٣ أسماءه ﷺ وكنيته	١٧ أولاد هاشم
٤٣ أسماء المحمدين	١٩ فصل في عبد مناف
	ما حدث من سنة مولده ﷺ إلى		
٤٥ زمن هجرته	١٩ أولاد عبد مناف
٤٦ السنة الأولى	١٩ أولاد عبد شمس
٤٦ إرضاعه ﷺ	٢٠ أولاد أمية الأكبر
٤٩ السنة الثالثة من مولده ﷺ	٢١ أولاد حرب بن أمية
٤٩ ولادة أبي بكر	٢٣ ذكر أولاد نوفل بن عبد مناف
٤٩ السنة الخامسة من مولده ﷺ	٢٤ قُصي بن كِلاب
٤٩ شق بطنه		

٧٩	السنة الثامنة عشرة من مولده ﷺ	٥٢	السنة السادسة من مولده ﷺ
٧٩	السنة التاسعة عشرة من مولده ﷺ	٥٢	وفاة والدته
٧٩	هلاك هرمز	٥٣	السنة السابعة من مولده ﷺ
٧٩	السنة العشرون من مولده ﷺ	٥٣	كفالة جده
٧٩	حلف الفضول	٥٣	السنة الثامنة من مولده ﷺ
٨١	السنة الخامسة والعشرون من مولده ﷺ	٥٣	وفاة جده عبد المطلب
٨١	خروجه في تجارة لخديجة	٥٦	أجواد الجاهلية
٨٢	تزويجه ﷺ بخديجة رضى الله عنها		الحلف الذي جرى بين نوفل
٨٣	السنة الثانية والثلاثون من مولده ﷺ ...	٦١	وبين عبد شمس على بني هاشم
٨٣	قتل ملك الروم	٦١	حديث الاستسقاء بعبد المطلب
٨٤	السنة الخامسة والثلاثون من مولده ﷺ	٦٣	قصة عبد المطلب مع ابن ذي يزن ..
٨٤	هدم قريش الكعبة	٧١	السنة التاسعة من مولده ﷺ
٨٧	ولادة فاطمة	٧١	خروج أبي طالب إلى الشام
٨٩	السنة الثامنة والثلاثون من مولده ﷺ ..	٧٢	السنة العاشرة من مولده ﷺ
٨٩	السنة الأربعون من مولده ﷺ	٧٢	حروب الفجار
٨٩	مقتل النعمان بن المنذر	٧٥	السنة الثانية عشرة من مولده ﷺ
٨٩	يوم ذي قار	٧٦	السنة الثالثة عشرة من مولده ﷺ
٩٢	ظهور أمارات النبوة		خروج أبي طالب برسول الله ﷺ
٩٣	السنة الحادية والأربعون من مولده ﷺ	٧٦	إلى الشام
٩٣	مبادئ الوحي	٧٧	السنة الرابعة عشرة من مولده ﷺ
٩٥	في السابقين إلى الإسلام	٧٧	تحرك قيس لحرب قريش
٩٦	تغير أحوال كسرى	٧٧	السنة الخامسة عشرة من مولده ﷺ
٩٩	السنة الرابعة من النبوة	٧٧	رؤيته قس بن ساعدة
٩٩	إنذاره عشيرته	٧٨	السنة السادسة عشرة من مولده ﷺ
١٠٥	السنة الخامسة من النبوة	٧٨	السنة السابعة عشرة من مولده ﷺ
١٠٥	الهجرة الأولى إلى الحبشة	٧٨	الحرب بين الفرس والروم والترك ...
١٠٧	الهجرة الثانية إلى الحبشة		

- ١٥٥ السنة الثالثة عشر من النبوة
 خروجه ﷺ إلى الموسم
- ١٥٥ للقاء الأوس والخزرج
- ١٥٨ الأمر بالهجرة إلى المدينة
- ١٦١ السنة الرابعة عشر من النبوة
- ١٦١ اجتماع قريش في دار الندوة
- ١٦١ خروج رسول الله ﷺ إلى الغار
- ١٦٥ فصل في سني هجرته ﷺ
- ١٦٥ أحاديث الهجرة
- ١٦٩ حديث الرّحل
- ١٧٠ لقاءه ﷺ بربيدة بن الحصيب
- ١٧١ حديث أم مَعْبَد
- ١٧٤ قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة
- ١٧٧ بناء مسجده ومساكنه ﷺ
- ١٧٨ مقام النبي ﷺ بالمدينة
- ١٧٨ إرساله موليه لإحضار أهله من مكة
- ١٧٩ وباء المدينة
- ١٧٩ أول امرأة بايعته ﷺ
- ١٧٩ بناؤه بعائشة
- ١٨٠ زيادة صلاة الحضر ركعتين
- ١٨٠ أول مولود بعد الهجرة
- ١٨١ نزول أهل الصفة المسجد
- ١٨٢ المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين
- ١٨٢ إسلام عبد الله بن سلام
- ١٨٣ إسلام مخيريق وأبي قيس صرمة
- ١٨٣ أمر الأذان
- ١٨٤ عقده لحمزة لواء أبيض
- ١٨٤ عقده لعبيدة بن الحارث لواء
- ١٨٥ عقده لسعد بن أبي وقاص لواء
- ١٨٥ فرض القتال
- قصة فاطمة بنت النعمان
- ١٨٥ مع تابعها من الجن
- ١٠٨ من ولد بالحبشة من المسلمين
- صبر رسول الله ﷺ على
- ١٠٩ أذى الكفار
- أسامي الذين أظهروا العداوة
- ١١١ لرسول الله ﷺ
- ١١٣ السنة السادسة من النبوة
- ١١٣ إسلام حمزة رضي الله عنه
- ١١٤ إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ١١٥ السنة السابعة من النبوة
- ١١٥ وقعة بعاث
- ١١٦ السنة الثامنة من النبوة
- ١١٦ صحيفة المقاطعة
- ١١٧ غلبة فارس على الروم
- ١١٨ ظهور الروم على فارس
- ١٢٠ قدوم ضماد الأزدي مكة
- ١٢١ السنة العاشرة من النبوة
- ١٢١ خروج بني هاشم من الشعب
- ١٢٣ خروجه ﷺ إلى الطائف
- ١٢٦ زواجه بعائشة وسودة
- ١٢٧ قدوم سويد بن الصامت مكة
- ١٢٨ قدوم قيس الهمداني مكة
- ١٣٦ السنة الحادية عشر من النبوة
- ١٣٦ دعوته ﷺ القبائل
- ١٤٠ السنة الثانية عشر من النبوة
- ١٤٠ المعراج
- ١٤٩ لقاءه جماعة من الأوس والخزرج
- ١٥٠ نسب الأنصار
- ١٥٢ العقبة الأولى

٢٤٣	غزوة بني سليم	١٨٩	صيامه عاشوراء
٢٤٤	غزوة ودان	١٩٠	السنة الثانية من الهجرة
٢٤٤	سرية زيد بن حارثة إلى القردة	١٩٠	زواج علي من فاطمة
٢٤٤	ولادة الحسن	١٩١	غزوة الأبواء وبواط وسفوان
٢٤٥	تزوجه <small>عليه السلام</small> بحفصة بنت عمر	١٩٢	غزوة ذات العشيرة
٢٤٥	تزوجه <small>عليه السلام</small> بزینب بنت خزيمة	١٩٢	سرية ابن جحش إلى نخلة
	سرية محمد بن مسلمة إلى	١٩٤	تحويل القبلة
٢٤٦	كعب بن الأشرف	١٩٤	فريضة رمضان
٢٤٨	مقتل أبي رافع اليهودي	١٩٤	غزوة بدر الكبرى
٢٤٩	تحريم الخمر	١٩٦	فضل أهل بدر
٢٥٣	غزوة أحد		ما كان مع المسلمين من
٢٦٩	شهداء أحد	١٩٧	الإبل والخيول
٢٩٥	غزوة حمراء الأسد		الرجل الذي تبع رسول الله <small>صلى الله عليه وسلم</small>
	السنة الرابعة من الهجرة	١٩٧	عند خروجه
٣٠٠	سرية أبي سلمة إلى قطن	١٩٧	مسير رسول الله <small>صلى الله عليه وسلم</small> إلى بدر
٣٠٠	سرية ابن أنيس إلى سفیان الهذلي	٢٠٩	من استشهد يوم بدر من المسلمين
٣٠٠	قصة بئر معونة	٢١٢	أعيان من قتل يوم بدر من الكفار
٣٠٣	شهداء بئر معونة	٢٢٩	ما جرى في الأسارى
	سرية عمرو بن أمية الضمري	٢٣٠	ما قيل من الشعر في بدر
٣٠٨	إلى مكة	٢٣١	زكاة الفطر
٣٠٨	إجلاء بني النضير	٢٣٢	خروجه إلى المصلى في العيد
٣١١	غزوة بدر الصغرى	٢٣٢	ولادة عبد الله بن الزبير
٣١٢	ولادة الحسين	٢٣٢	سرية عمير بن عدي إلى العصماء
٣١٣	تزوجه <small>عليه السلام</small> بأم سلمة	٢٣٣	سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك
٣١٤	أمره زيد بن ثابت تعلم كتاب يهود	٢٣٣	غزوة بني قينقاع
٣١٤	رجم اليهوديين	٢٣٣	غزوة السويق
٣١٤	قصة ابن أبيرق	٢٣٣	غزوة قراقره
	السنة الخامسة من الهجرة	٢٣٣	معاقل الدية
٣١٨	غزوة ذات الرقاع	٢٣٤	صلاة العيد
٣١٩	غزوة دومة الجندل	٢٣٤	بناء علي بفاطمة
٣٢٠	قدوم وفد مزينة	٢٤٣	السنة الثالثة من الهجرة
		٢٤٣	غزوة ذي أمر

- ٣٦٧ سرية زيد إلى الطرف
- ٣٦٨ سرية زيد إلى حسمى
- سرية عبد الرحمن بن عوف
- ٣٦٨ إلى دومة الجندل
- ٣٦٩ .. سرية علي بن أبي طالب إلى فدك ..
- ٣٦٩ سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة
- سرية عبد الله بن رواحة إلى
- ٣٧٠ أسير اليهودي
- ٣٧٠ سرية كرز بن جابر إلى العرنين
- ٣٧١ غزوة الحديبية
- ٣٩١ بعثه ﷺ الرسل
- إعادة الأضحية لمن ذبح قبل
- ٤٠٤ صلاة العيد
- ٤٠٤ طاعون المدينة
- ٤٠٥ زواج عمر بجميلة بنت ثابت
- ٤٠٥ استسقاؤه ﷺ حين أجذبت الأرض
- ٤٠٦ وقف عمر أمواله
- ٤٠٦ مظاهرة أوس بن الصامت من امرأته
- المسابقة بين ناقة رسول الله ﷺ
- ٤٠٨ العضباء وقعود الأعرابي
- ٤١١ الفهرس
- ٣٢٠ غزوة المريسي
- ٣٢٥ حديث الإفك
- ٣٣١ زواجه بزینب بنت جحش
- ٣٣٤ غزوة الخندق
- ٣٤١ مقتل عمرو بن عبد ود
- ٣٤٣ حديث نعيم بن مسعود
- ٣٤٤ حديث صفية بنت عبد المطلب
- ٣٤٥ رحيل الأحزاب
- ٣٤٧ من استشهد في الخندق
- ٣٤٨ غزوة بني قريظة
- ٣٥٤ فرض الحج
- ٣٦١ السنة السادسة من الهجرة
- ٣٦١ سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء
- ٣٦١ غزوة بني لحيان
- ٣٦١ غزوة الغابة
- ٣٦٥ سرية عكاشة إلى الغمر
- سرية محمد بن مسلمة
- ٣٦٥ وأبي عبيدة إلى ذي القصة
- سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم
- ٣٦٦ والعيص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِثْلُهَا الرِّمَانُ

فِي تَوَالِيهِ الْأَعْيَانُ

تصنيف

شمس الدين ابن كلفه مؤلفه به قزل و غياي به عبد الله
العروف بسبب ابن الجزري

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الرابع

٧ - ١٠ هـ

حقوه هذا الجزء وعلوه عليه

عمر بن الخطاب

محمد بن كاديت

الرسالة العالمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِائَةُ التَّمِيمَاتِ
فِي تَوَارِيخِ الْأَعْيَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دار الرسالة العالمية

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بجميع طرق
الطبع والتطوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوب وغيرها إلا بإذن خطي من:

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Basalah Al-Aalamiya
Publishers

الإدارة العامة
Head Office

دمشق - الحجاز
شارع مسلم البارودي
بناء حولي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

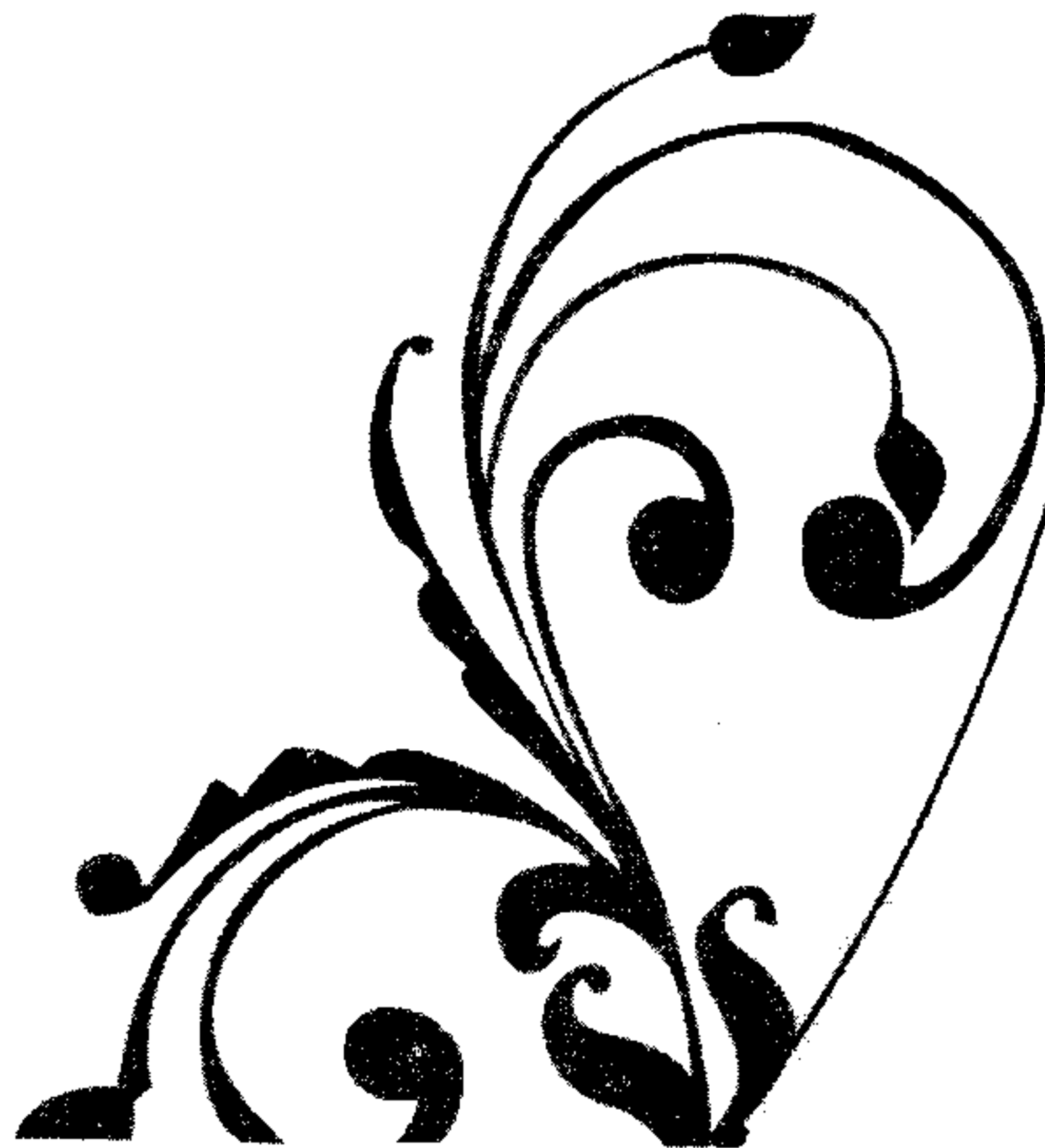
الجمهورية العربية السورية
Syrian Arab Republic

info@resalabonline.com
http://www.resalabonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON
TELEFAX: 815112- 319039- 818615
P.O. BOX:117460

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ / ١٤٣٤ هـ



السنة السابعة من الهجرة

فيها كانت غزاةُ خيبر^(١).

قال الطبري: لما رجع النبي ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة بقيّةَ ذي الحجّة، ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم. وقال ابن إسحاق: كانت في صفر^(٢). وقال الواقدي: في جمادى الأولى. واستخلف على المدينة سبّاع بن عُرفطة^(٣)، ودفع لواءه إلى عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: إلى الحُباب بن المنذر^(٤).

وقال موسى بن عقبة: خرج رسول الله ﷺ في رايتين، ولم تكن الرايات قبل خيبر وإنما كانت الألوية. وكان شعارهم «يا منصور، أمت». وساروا إلى خيبر، وهي على ثمانية بُرْدٍ من المدينة. وأخرج معه أمّ سلمة، ومضى بالجيش حتى نزل قريباً من خيبر، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، إنزل بين حصونهم لنقطع عنهم الأخبار والمادة، فنزل وادي الرّجيع، بين خيبر وغطفان، فحال بينهم، لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله ﷺ^(٥). فلما سمعت غطفانُ بنزولهم هناك جمعوا جمعاً عظيماً لِيُساعدوا اليهود، ثم خافوا على أهلهم وأموالهم فتخلّوا عنهم^(٦). ونازل رسول الله ﷺ حصونهم، وكانت كثيرة، منها: القموص، حصنُ كنانة بن أبي الحقيق، ونطاة والصّعب والكتيبة والوطيح وناعم والسّلام، وهو أحصنها، وقيل: نطاة. ولم يعلموا بنزوله ﷺ، حتى بغتهم، وكانوا قد خرجوا أوّل النهار على عادتهم معهم المساحي

(١) انظر «السيرة» ٣٢٨ / ٢، و«المغازي» ٦٣٣ / ٢، و«الطبقات الكبرى» ١٠٠ / ٢، و«أنساب الأشراف» ٤٢٠ / ١، و«تاريخ الطبري» ٩ / ٣، و«دلائل النبوة» للبيهقي ١٩٤ / ٤، و«المنتظم» ٢٩٣ / ٣، و«البداية والنهاية» ١٨١ / ٤.

(٢) في «السيرة» ٣٢٨ / ٢: المسير إلى خيبر كان في المحرم، وفي موضع آخر ٣٤١ / ٢: وكان فتح خيبر في صفر. والقول بخروج النبي ﷺ إلى خيبر في صفر هو للواقدي في «المغازي» ٦٣٤ / ٢.

(٣) في «السيرة» ٣٢٨ / ٢: واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي.

(٤) بل دفع للحباب بن المنذر الراية، وراية إلى سعد بن عبادة، انظر «الطبقات» ١٠١ / ٢.

(٥) انظر «المغازي» ٦٤٣ / ٢ - ٦٤٤.

(٦) انظر «السيرة» ٣٣٠ / ٢.

والفؤوسُ للعمل، فلم يشعروا برسولِ الله ﷺ إلا وقد نزلَ بساحتهم فقالوا: محمدٌ والخميسُ، فولَّوا هارين إلى حصونهم، ورسولُ الله ﷺ يقول: «اللهُ أكبرُ خربتُ خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذرين»^(١). قال الواقدي: فقاتلهم رسولُ الله ﷺ قتالاً شديداً، وقُتِلَ من أصحابه جماعة^(٢).

وأوَّلُ حصنٍ افتتحه حصنُ ناعم، وعنده قُتِلَ محمود بن مسلمة، ألقت عليه امرأةٌ رَحَى فقتلته، ثم فتح حصناً حصناً، فلما رأوا ذلك التجؤوا إلى نطاة والوطيح والسَّلام^(٣).

حديث مَرَحِب:

واختلفوا في قاتله، فروى الإمام أحمد رحمه الله يرفعه إلى بُرَيْدَةَ قال: حاصرنا خيبر، وأخذ أبو بكر اللواء فلم يُفتح له، ثم أخذه عُمَرُ فلم يُفتح له، فقال رسولُ الله ﷺ: «إني دافعُ اللِّوَاءِ غداً إلى رَجُلٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ [ويُحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ] لا يَرِجُ حتى يُفْتَحَ له، أو على يديه». قال: فبقينا طيبةً نفوسنا أن الفتح غداً، فلما صلى الفجر قام فدعا باللِّوَاءِ، والناسُ على مصافِّهم، ودعا علياً، فقال له: «اذهب فانزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام» فأخذ اللِّوَاءَ فبرز إليه مرحب وهو يقول: [من الرجز]

قد عَلِمْتُ خيبرُ أني مَرَحِبُ شاكي السَّلاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبُ
أَطَعَنْ أحياناً وحيناً أَضْرِبُ إذا الليوثُ أقبلت تلَهَّبُ
ثم قال: هل من مبارز؟ فقال علي:

أنا الذي سَمَّني أُمي حَيْدَرَةٌ كليث غاباتِ كريبه المنظرَةٌ
عَبْلُ الذراعين شديداً القَسُورَةٌ أَضْرِبُ بالسيفِ رقابَ الكَفَرَةِ
ثم ضرب رأس مَرَحِبٍ بالسيف فقتله، وجاء برأسه إلى رسولِ الله ﷺ فَسَرَّبه ودعاه^(٤).

وحكى الطبري عن بُرَيْدَةَ قال: كان رسولُ الله ﷺ ربما أخذته الشَّقِيقَةُ فلم يخرج

(١) أخرجه البخاري (٤١٩٨)، ومسلم (١٨٠١)(١٢٠). وانظر «السيرة» ٢/٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) انظر «الطبقات» ١٠١/٢.

(٣) انظر «المغازي» ٢/٦٤٥.

(٤) الحديث بهذا السياق ليس عند أحمد، وحديث بريدة عند أحمد (٢٢٩٩٣) إلى قوله: فدعا علياً، وفيه أنه كان =

إلى الناس، فأخذ أبو بكر الراية فقاتل ورجع، ثم أخذ عمرُ فقاتل ورجع، ثم أخذها عليٌّ عليه السلام، فبرز مَرَحَبٌ وعليه مِغْفَرٌ مُعْضَفَرٌ يمانٍ، وعلى رأسه حَجَرٌ قد ثقبه مثل البيضة، فضربه عليٌّ فَقَدَّ البيضةَ ورأسه حتى وقع في أضراسه، وفتح الله الحصن ^(١).

وقال موسى بن عقبة وابن إسحاق: لما برز مَرَحَبٌ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ لهذا؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، فبرز إليه فضرب محمداً بالسيف فاتقاه بِدَرَقَتِهِ فنشب فيها، وضربه محمد بالسيف فقتله. فخرج أخوه ياسر فقال:

قد علمت خيبرُ أني ياسرُ
شاكِ السلاحِ بطلٌ مُغاورُ
إذا الليوثُ أقبلت تبادرُ
وأحجمت عن صولتي المغاورُ
أن حماي فيه موت حاضر

فبرز إليه الزبيرُ بن العوام فقالت صفيئةُ: أَيْقَتُلُ ابني يا رسول الله؟ فقال: بل ابنك يقتله، فضربه الزبير فقتله ^(٢).

وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: خرجنا مع علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الحصن لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته، فخرجوا إلينا فقاتلونا، فطرح عليُّ تُرْسَهُ من يده وتناول باباً كان عند الحصن، فترس به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يده، ثم ألقاه من يده، فلقد رأيتني في سبعة نفرٍ نجتهد أن نَقْلِبَ ذلك الباب فلم نقدر عليه ^(٣).

وقال ابن إسحاق: حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح حصونهم إلا الوطيحَ والسلاَمَ، فتحصن من بقي منهم فيهما، [حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم ويحقن

= أرمد فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في عينيه، وفي (٢٣٠٣١) القصة مطولة، فيها ارتجاز مرحب دون ارتجاز علي عليه السلام، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «اذهب فانزل بساحتهم» فأخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل ابن سعد، وأخرجه أحمد قريباً من هذا السياق مطولاً (١٦٥٣٨) من حديث سلمة بن الأكوع.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١٢/٣ - ١٣.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١٠/٣ - ١١، و«دلائل النبوة» ٢١٧/٤ - ٢١٨.

(٣) انظر «السيرة» ٢/٣٣٥، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٥٨).

دماءهم، ففعل، وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ [يسألونه مثل ذلك. وكان الذي مشى بينهم مُحَيِّصَةٌ بن مسعود أخو بني حارثة، فلم يزل أهل خيبر على ذلك حتى سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم بالأموال على النصف، فعاملهم على أنه متى شاء أن يُخرجهم أخرجهم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً للمسلمين، وفدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يُوجفوا عليها بخيل ولا ركاب^(١).

وقال ابن عمر: أتى رسول الله ﷺ أهل خيبر عند الفجر، فقاتلهم حتى ألجأهم إلى قُضْرِهِمْ، وغلبهم على الأرض والنخيل، وصالحهم على أن يحقن دماءهم ولهم ما حملت ركابهم، وللنبي ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة والسلاح، وشرطوا أن لا يكتموه شيئاً وأن يُخرجهم، وإن كتموا شيئاً فلا ذمّة لهم ولا عهد، فلما وجد المال الذي غيّبوه في مسك الجمل سبي نساءهم وغلب على الأرض والنخيل ودفعتها إليهم على الشطر، وكان ابن رواحة يخرصها عليهم ويضمنهم الشطر^(٢).

وكان جبّار بن صخر الأنصاري يخرصها أيضاً^(٣).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ دفع خيبر أرضها ونخلها مقاسمة على النصف^(٤).

حديث الغنائم:

قال علماء السير: وأمر رسول الله ﷺ بالغنائم، فجمعت، واستعمل عليها فروة بن عمرو البياضي، وكان المسلمون ألفاً، والخيل مئتي فرس، وكان مع رسول الله ﷺ نساءً مسلمات، فرضخ لهنّ من الفئء، ولم يضرب لهنّ بسهم، وكانت المقاسمة على خمسة أسهم: سهم لله والرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، والمساكين،

(١) انظر «السيرة» ٣٣٧/٢، و«تاريخ الطبري» ٣/١٤ - ١٥، وما بين معقوفين زيادة منهما.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٢/١٠٤، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥١٩٩)، والمسك: الجلد.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/٥٣٣.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٥٥). وبهذا الخبر يتم الجزء الثاني من النسخة الخزائنية.

وابن السبيل، وطعمة لأزواج رسول الله ﷺ، وقُسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، ولم يغب عنها إلا اليسير، ولم يحضرها جابر بن عبد الله، فأعطاه رسول الله ﷺ منها كمن حضرها^(١).

قال ابن سعد: ولما قسم رسول الله ﷺ خيبر، جعل نصف سهمه لنوائبه ونوازله، فلما صارت الأموال بيده لم يكن للمسلمين من يعملها، فدفعتها إلى اليهود، يعملونها على نصف ما يخرج منها، فلم يزالوا كذلك إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلاهم إلى الشام، وقسم الأموال بين المسلمين^(٢). لما نذكر.

حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها:

كانت قد رأت في منامها وهي عروس بكنانة بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها، فقصت رؤياها على كنانة، فلطمها، فاخضرت عينها، قال: وما ذاك إلا لأنك تتمنين ملك الحجاز محمداً.

فلما فتحت خيبر أتى رسول الله ﷺ بكنانة وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه فأنكر، فقال رجل من اليهود: رأيت كنانة يطيف كل غداة بهذه الخربة، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت إن وجدناه عندك، قتلناك؟» قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بتلك الخربة فحُفرت، فأخرج منها بعض الكنز، فسأله عن الباقي فأنكر، فدفعه إلى الزبير وقال: «عذبه حتى يُقرَّ بالباقي» وكان الزبير يقدح بزئد في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه إلى محمد بن مسلمة، فقتله بأخيه محمود بن مسلمة.

ولما وصلت صفية إلى رسول الله ﷺ سألتها عن عينها فأخبرته فعجب^(٣).

وفي حديث أنس الذي رواه: أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، قال: فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب رسول الله ﷺ وأبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى رسول الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله، وانحسر الإزار عن فخذي

(١) انظر «السيرة» ٣٤٩/٢، ورضخ: أعطى وقسم.

(٢) انظر «الطبقات» ١٠٧/٢ - ١٠٨.

(٣) انظر «السيرة» ٣٣٦/٢، و«تاريخ الطبري» ١٤/٣.

نبي الله فإني لأرى بياضَ فِخْذِهِ، فلما دخل القرية قال: «اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبِرُ؛ إنا إذا نَزَلْنَا بِقَوْمِ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ» قالها ثلاثاً، وقد خرج القوم إلى أعمالهم فقالوا: محمدٌ والخَمِيسُ، فأصبناها عَنُوءَةً، فُجِعَ السَّبِيُّ، فجاء دِحْيَةَ فقال: يا رسول الله، أعطني جاريةً من السَّبِيِّ، فقال: «اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً» فأخذ صفية بنت حبي، وذكّر أن رجلاً^(١) قال: يا رسول الله، أعطيت دِحْيَةَ صفية بنت حبي سيدة بني قريظة والنضير! ما تصلح إلا لك، فقال رسول الله ﷺ: «ادعوه». فجاء بها، فلما نظر إليها رسول الله ﷺ قال: «خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبِيِّ غَيْرَهَا». قال: ثم إن نبي الله ﷺ أعتقها وتزوجها. فقال ثابت لأنس: يا أبا حمزة، ما أضدقها؟ قال: نَفْسَهَا، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كُنَّا بالطريق جَهَّزْتَهَا أُمَّ سُلَيْمٍ، فأهدتها له من الليل، فأصبح رسول الله ﷺ عروساً، فقال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِهِ» وبسط نِطْعاً، فجعل الرجل يجيء بالبرِّ والرجلُ يجيء بالسمن، قال: وأحسبه ذكر السَّوِيقِ، قال: فحاسوا حَيْساً، وكانت وليمة رسول الله ﷺ^(٢).

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «الْتَمِسُوا لِي غُلَاماً مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي» فخرج أبو طلحة يُرِدْفُنِي وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ، فكنت أسمعُه يكثرُ أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ» فلم أزل أخدمُه حتى أقبلنا من خيبر، وأقبل بصفية بنت حبيٍّ قد حازها، فكنتُ أراه يُحَوِّي لها بعباءةٍ أو بكساءٍ، ثم يُرِدْفُهَا خلفه، حتى إذا كنا بالصَّهْبَاءِ صَنَعَ حَيْساً فِي نِطْعٍ، ثم أرسلني فدعوت رجلاً فأكلوا، فكان ذلك بناءً بها، ثم أقبل حتى بدا له أُحُدٌ، فقال: «هَذَا أُحُدٌ، هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فلما أشرف على المدينة قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ». أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وقال موسى بن عقبة: أعطى رسول الله ﷺ دِحْيَةَ مكان صفية ابنتي الربيع بن أبي الحقيق.

(١) في (أ) و(خ): دحية، والمثبت من صحيح البخاري ومسلم.

(٢) أخرج البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٤٢٧) (٨٤).

(٣) أخرج البخاري (٥٤٢٥)، ومسلم (١٣٦٥).

وعن ابن عباسٍ قال: لما أراد رسولُ الله ﷺ أن يخرجَ من خيبر قال الناس: الآنَ نعلمُ أسريَّةَ صفيَّةَ أم امرأة؟ فإن كانت امرأة [فإنه سيحجبها، وإلا فهي سرية، فلما خرج أمر بستر فُستر دونها، فعرف الناس أنها امرأة]، ولما أراد أن يركب أدنى فخذها منها لتركب عليها، فأبت إجلالاً لرسولِ الله ﷺ ووضعت ركبتهَا على فخذِهِ فحملها، فلما كان الليلُ ودخل الفُسطاط وهي معه جاء أبو أيوب الأنصاريُّ فوضع رأسه على باب الفُسطاط، فلما أصبح رسول الله ﷺ سمع حركته فقال: من هذا؟ قال: أنا خالد، قال: ما شأنك؟ قال: يا رسول الله جاريةٌ شابةٌ حديثُهُ عهدٌ بعُرسٍ وقد صنَّعت بأهلها وزوجها ما صنعت، فإن تحرَّكت، كنتُ قريباً منك، فقال: «يَرَحْمَكَ اللهُ يا أبا أيوب»^(١).

وقال ابن إسحاق: أتى رسولُ الله ﷺ بصفيةَ وامرأةٍ أخرى معها، فمَرَّ بهما بلالٌ على قتلى يهود، فلما رأتهم المرأة التي مع صفية صاحت وصكَّت وجهها وحثت على رأسها التراب، فلما رآها رسولُ الله ﷺ قال: «أَغْرَبُوا عَنِّي هذه الشَّيْطَانَةَ» وأمر بصفيةَ فحيزت خلفه، وألقى عليها بردائه، فعرف الناس أنه اختارها لنفسه، وقال لبلال: «أَنْزَعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ حَيْثُ تَمَرُّ عَلَى قَتْلَى رَجَالِهِمَا»^(٢).

[ذكر من استشهد بخيبر]

ثقف، وقيل: ثقف بن عمرو بن سُمَيْط، أخو مالك ومدلاج، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، من حلفاء بني عبد شمس، شهد بدرًا وأحداً والخندق والحديبية، وقتله أسير اليهودي في يوم خيبر^(٣).

الحارث بن حاطب بن عمرو بن عبيد، وأمه أمامة بنت الصامت بن خالد، والحارث من الطبقة الثانية من الأنصار، وهو الذي بعثه^(٤) رسول الله ﷺ من الطريق

(١) «الطبقات الكبرى» ١٠٩/٢ - ١١٠ وما بين معكوفين منه .

(٢) «السيرة» ٣٣٦/٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٩١/٣ .

(٤) في طبقات ابن سعد ٤٢٧/٣: رده، وهو الصواب .

لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى بَدْرٍ إِلَى بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ لَشَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْهُمْ، وَضَرَبَ لَهُ بِأَجْرِهِ وَسَهْمِهِ،
وَشَهِدَ أَحَدًا وَالْخَنْدَقَ وَالْحَدِييَةَ، فَلَمَّا حَاصَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ حَصَنِ
بِحَجَرٍ فَدَمَعَهُ، وَهُوَ أَخُو ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَفِي ثَعْلَبَةَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] وسنذكره إن شاء الله.

رَبِيعَةُ بْنُ أَكْثَمِ بْنِ سَخْبَرَةَ بْنِ عَمْرٍو، أَبُو يَزِيدِ الْأَسَدِيِّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، شَهِدَ
بَدْرًا وَأَحَدًا وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَشَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَمَاهُ
الْحَارِثُ الْيَهُودِيُّ أَبُو زَيْنَبٍ مِنَ النَّطَاةِ بِحَجَرٍ فَقَتَلَهُ فِي حِصَارِ خَيْبَرَ، وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ
وِثَلَاثِينَ سَنَةً.

رِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ زَنْبِرٍ، أَبُو رَافِعٍ أَخُو أَبِي لِبَابَةِ الْأَنْصَارِيِّ، شَهِدَ
رِفَاعَةَ بَدْرًا، وَلَهُ رُؤْيَةٌ وَرَوَايَةٌ^(١).

عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ سِنَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُشَيْرٍ مِنَ بَنِي أَفْصَى، مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ، أَسْلَمَ الْأَكْوَعُ قَدِيمًا هُوَ وَابْنَاهُ عَامِرٌ وَعَمْرٍو، وَصَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،
وَعَامِرٌ عَمُّ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، فَسَلْمَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ سِنَانٍ، وَسِنَانُ هُوَ الْأَكْوَعُ^(٢).

قَالَ سَلْمَةُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ:
أَلَا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيَّاتِكَ، وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا، فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ وَيَقُولُ:

تَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا
فثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
وَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَنِينَا

(١) الترجمتان في طبقات ابن سعد ٣/٨٩، ٤٢٢.

(٢) انظر «السيرة» ٢/٣٢٨.

إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : «من هذا؟» قالوا : عامر، قال : «يرحمه الله»، فقال رجل من القوم : وَجَبْتُ يا نبيَّ الله، لولا مَتَّعْتَنَا به.

وقيل : إن القائل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه.

وخرج ملكهم مَرْحَبٌ يخطر بسيفه ويقول :

قد علمت خبيراً أني مَرْحَبٌ الأبيات المتقدمة.

وقال :

قد علمت خبيراً أني عامر شاك السلاح بطل مُغاورٍ
ثم التقيا، فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مَرْحَبٍ في ثرس عامر، وذهب عامر يسفلاً
له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه. قال سلمة : فخرجت فإذا بنفراً
من أصحاب رسول الله ﷺ يقول : بطل عمل عامر، قتل نفسه، قال : فأتي رسول الله
ﷺ وأنا أبكي فقلت : يا رسول الله بطل عمل عامر، قال : «من قال ذلك؟» قال : قلت :
نفر من أصحابك، قال : «كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»^(١).

وفي رواية عن سلمة قال : أتينا خبير فحاصرناهم وأصابتنا مخمصة شديدة، ثم إن
الله فتحها، فلما أمسى الناس اليوم الذي فتحت فيه خبير، وأوقدوا نيراناً كثيرة، فقال
رسول الله ﷺ : «ما هذه النيران؟ على أي شيء يوقدون؟» قالوا : على لحوم الحمر
الإنسية. فقال رسول الله ﷺ : «أهريقوها واكسروا القدور» فقال رجل : يا رسول الله أو
نغسلها؟ فقال : «أو ذلك» فلما تصافت القوم كان سيف عامر فيه قصر، فتناول به يهودياً
ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبه فمات منها، فلما قفلوا قال سلمة : رأيت
رسول الله ﷺ شاحباً شاكياً، قال سلمة : فأخذ بيدي أو هو أخذ بيدي، فقلت : فدى
لك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبِط عمله، فقال : «من قاله؟» قلت : فلان وفلان
وأسيد بن الحضير، فقال : «كذب من قاله، إن له لأجرين» وجمع بين أصابعه أو أضعفه

(١) «الطبقات الكبرى» ١٠٥/٢، و ٢٠٨/٥، وانظر «السيرة» ٣٢٨/٢.

«إنه لجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ»^(١).

وفي رواية: إن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا فيه وقالوا: رجل مات بسلاحه، وقال سلمة: يا رسول الله إن قوماً ليهابون الصلاة عليه، فقال: «كذبوا»^(٢) وذكره متفق عليه.

ومعنى يهابون الصلاة عليه: أي الدعاء له، ومعنى يسفل: أي يخطرُ يده إلى أسفل. وروى ابن سعد: أن النبي ﷺ قال: إن عامراً يعوم في الجنة عوم الدُّغْمُوصِ^(٣). وهو دُوبِيَّةٌ تغوص في الماء.

محمودُ بنُ مَسْلَمَةَ بن سلمة بن خالد، حليف بني عبد الأشهل، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه خُلَيْدَةُ بنت أبي عُبيدٍ، شهد أُحُدًا والخندق والحديبية، ألفت عليه امرأة^(٤) بخير رَحَى قَسَمَتِ الْبَيْضَةَ على رأسه فمات، فُقِبَ هو وعامر بن الأكوع في قبرٍ واحدٍ لأنهما قُتِلَا في يوم واحد، وقبرهما في غارٍ بالرَّجِيعِ، وله رؤية ورواية. وفي ذلك اليوم قُتِلَ مَرْحَبٌ.

النعمانُ بنُ ثابت بن النعمان بن أمية بن البرك وهو امرؤ القيس، وكُنْيَةُ النعمان: أبو ضِيَّاح - بضاد معجمة [وياء] مشددة وحاء مهملة - شهد بدرًا وأحُدًا والخندق والحديبية وخيبر وقُتِلَ بها شهيداً، ضربه رجلٌ منهم بسهم فأطنَّ قِحْفَ رأسه، وليس له عَقِبٌ.



قال الواقدي: قُتِلَ من المسلمين في غزاة خيبر ستة عشر رجلاً، ذكرنا أعيانهم، ومن اليهود سبعون رجلاً^(٥). منهم الحارث - أبو زينب التي سمَّت رسول الله ﷺ - ومرحبٌ وياسرٌ وأسيرٌ وكنانة بن أبي الحُقَيْقِ، وغيرهم.

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٨)، ومسلم (١٨٠٢).

(٢) هي رواية لمسلم (١٨٠٢) (١٢٤).

(٣) «الطبقات» ٢٠٩/٥.

(٤) في «الطبقات» ٢٤٧/٤: أن مرحب اليهودي هو الذي ألقى عليه الحجر.

(٥) «الغازي» ٧٠٠/٢ وعنده: خمسة عشر من المسلمين، وثلاثة وتسعون رجلاً من اليهود.

وعن أبي هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار» فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابه جراحة، فأخبر رسول الله ﷺ بقتاله، فلما كان في الليل لم يصبر على ألم الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ فقال: «الله أكبر، أشهد أنني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلائاً فنادى في الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة أو مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية - ابنة أخي مَرْحَب، امرأة سَلام بن مِشْكَم - شاةً مَصلِيَّةً، وكانت قد سألت: أيُّ الأعضاء أحبُّ إليه؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيه السَّم، وجاءت بالشاة إلى رسول الله ﷺ فتناول من الذراع مُضغَةً فلم يُسغها، فلفظها، وكان عنده بشر بن البراء بن معرور فأخذ [كما أخذ] رسول الله ﷺ فأساغها، ثم قال النبي ﷺ: «إنَّ هذا الذراع ليُخبرني أنه مَسْمومٌ» فدعا بها فسألها فاعترفت، فقال: «ما حَمَلِكِ على هذا؟» فقالت: بلغت من قومي ما قد بلغت، فقلت: إن كان نبياً، فسَيُخبرُ، وإن كان ملكاً، استرحنا منه^(٢).

قال البخاري: فعفا عنها ولم يقتلها^(٣).

وقال الواقدي: الثابت عندنا أنه قتلها^(٤).

وقال الهيثم: لما مات بشر بن البراء دفعها إلى أوليائه، فقتلوا بها.

وفيها: حرَّم رسول الله ﷺ لُحومَ الحُمُرِ الإنسيَّة، وقد كانت مباحةً قبل ذلك.

قال أبو ثعلبة: غزوتُ مع النبي ﷺ خيبر، فأصبنا بها حُمراً من الحُمُرِ الإنسية فذبحناها، وأخبر رسول الله ﷺ فأمر عبد الرحمن بن عوف فنادى في الناس: «إنَّ

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٢) «السيرة» ٢/٣٣٧ - ٣٣٨.

(٣) لم نقف عليه عند البخاري.

(٤) انظر «المغازي» ٢/٦٧٧ - ٦٧٨.

لَحُومِ الْحُمْرِ الْإِنْسِيَّةِ لَا تَحَلُّ لِمَنْ يَشْهَدُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ»^(١) .

وقد روى هذه السنة جماعة من الصحابة منهم: علي بن أبي طالب^(٢) وجابر بن عبد الله^(٣)، والبراء بن عازب^(٤) .

وكذا يَحْرُمُ أكلُ البغال عند عامة الفقهاء والعلماء، وعند مالك رحمة الله عليه لا يَحْرُمُ شيء من ذلك لقوله ﷺ لغالب بن أبجر وكان له حُمْر: كُلُّ من سَمِينِ مالِك^(٥) .
إلا أنه مَنْسُوخٌ بحديث خبير.

وقال جابر: حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ لحومَ البغال، وكلَّ ذي نابٍ من السباع، وذي مِخْلَبٍ من الطير^(٦) .

[وفيها:] نهى رسول الله ﷺ أن يسقي الرجل ماءه زرع غيره .

قال رويغ بن ثابت البلوي: قال رسول الله ﷺ يوم خبير: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَسْقِي مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَقَعُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ السَّبِيِّ حَتَّى يَسْتَبْرِئَهَا»^(٧) .



وفيها: قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله ﷺ وهو بخبير، فقام إليه رسول الله ﷺ فاعتقه وقبله وقال: «ما أدري بأيهما أُسْرُ: بقُدومِ جعفر أو بفتح خبير»^(٨) وسأل رسول الله ﷺ المسلمين أن يُسْهِمُوا له ولأصحابه، ففعلوا.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد رحمة الله عليهما: حدثني أبي، عن علي بن المديني

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٤١) .

(٢) أخرجه البخاري (٥١١٥)، ومسلم (١٤٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢١٩) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٢٦)، ومسلم (١٩٣٨) .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤٨٢٦)، وابن أبي عاصم (١١٦٢) .

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٤٦٣) .

(٧) أخرجه أبو داود (٢١٥٨)، وأحمد في «مسنده» (١٦٩٩٧) .

(٨) أخرجه الحاكم ٣/٢٣٠، وانظر «السيرة» ٢/٣٥٩ .

قال: كنتُ جالساً في مجلس مالك بن أنس، فاستأذن عليه سفيان بن عُيينة، فأذن له فدخل فسلم، وقال: السلام خاصٌّ وعام، السلام عليك أبا عبد الله، فقال مالك: وعليك السلام أبا محمد ورحمةُ الله وبركاته، وقام إليه فصافحه، وقال: لولا أنَّ المعانقة بِدَعَةٍ لعانقتُكَ، فقال سفيان: قد عانق من هو خير مني مَنْ هو خيرٌ منك، قال مالك: رسول الله ﷺ وجعفرأ؟ قال: نعم، قال مالك: ذاك خاصٌّ وليس بعام، فقال سفيان: ما عمَّ جعفرأ يعمنا وما خصَّه يَخُصُّنا. ثم قال سفيان: يا أبا عبد الله أتأذن لي أن أُحدِّثَ في مجلسك؟ قال: نعم، حدثنا عبد الله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: أن جعفر بن أبي طالب لما قدم من أرض الحبشة تَلَقَّاه رسول الله ﷺ واعتنقه وقال: جعفرُ أشبههُم بي خَلْقاً وخلقاً^(١).



وفيها: قَدِمَ أبو هريرة على رسول الله ﷺ بخيبر.

قال الواقدي: قدم الطَّفِيلُ بن عَمْرٍو الدَّوسِيُّ وقومه المدينة بعدما أسلموا، في سبعين راكباً، وفيهم أبو هريرة، ورسول الله ﷺ بخيبر، فخرجوا إليه، فلقوه هناك، فأسهم لهم، وقَدِمُوا معه المدينة فقال الطفيل: يا رسول الله لا تُفَرِّقْ بيني وبين أصحابي، فَأَنْزَلَهُمْ حَرَّةَ الدجاج، وقال أبو هريرة: لما أقبلتُ أريدُ الإسلام كان معي غلام ضلَّ عني وأقبل غلامي بعد ذلك وأنا جالس عند رسول الله ﷺ فقال: يا أبا هريرة هذا غلامك قد أتاك، فقلت: يا رسول الله إني أشهدك أنه حر.

وفي رواية: لما قدمتُ على رسول الله ﷺ قلت وأنا في الطريق: [من الطويل]

يا ليلةً من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نَجَّتِ
فقدمتُ على النبي ﷺ فبايعته، فبينما أنا عنده إذ طلع الغلام فقال: هذا غلامك،
فقلت: هو حر لوجه الله^(٢).

وفي أفراد البخاري، عن أبي هريرة قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعدما

(١) أخرج القصة ابن عساكر في «تاريخه» ٣٦٥/٥٨ .

(٢) انظر «الطبقات» ٣٠٤/١، و ٢٣١/٥ .

افتتحها، فقلت: يا رسول الله أسهم لي، فقال بعض بني سعيد بن العاص: لا تسهم له، قال أبو هريرة: فقلت: يا رسول الله هذا قاتلُ ابنِ قَوْقَل، فقال ابن سعيد بن العاص: واعجباً لو بُرِّ تدلَّى علينا من قُدومِ ضَانٍ، ينعى عَلِيَّ قَتَلَ رجُلٍ مسلمٍ أكرمه الله بيَدَيَّ ولم يُهَنِّي بيده، أو على يده. قال عنبسة بن سعيدٍ راوي الحديث: فلا أدري أسهم له أم لا^(١)؟

وأخرج البخاري بمعناه فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبان بن سعيد بن العاص على سريّة من المدينة قبلَ نجدٍ، فقدم أبان وأصحابه على رسول الله ﷺ بخير بعدما افتتحها. قال أبو هريرة: فقلتُ: يا رسولَ الله، لا تقسم لهم. فقال أبان: وأنت بهذا يا وَبْرُ انْحَدَر من رأس ضال. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبان، اجلس». فلم يقسم لهم^(٢).
الوَبْرُ بإسكان الباء: دويبة تشبه السَّنور^(٣). والقُدوم: بالتخفيف ما تقدّم من الشاة. ورواه البخاري: ضال، وهو جبل. وغيره يقول: ضان. والتدلي: النزول. وابن قَوْقَل: رجلٌ من الأنصار. وابنُ سعيد هو أبان. وإنما قال ذلك احتقاراً لأبي هريرة.
وقيل: إنه لم يُسهم له. وسنذكر أخبار أبي هريرة إن شاء الله تعالى في سنة ثمان وخمسين.

وفيها: كانت غزاةُ وادي القري^(٤).

قال أبو هريرة: خرجنا مع رسولِ الله ﷺ إلى خيبر فلم يغنم ذهباً ولا فضةً، وغنمنا المتاعَ والطعامَ والثيابَ، ثم انطلقنا إلى وادي القري مع رسولِ الله ﷺ. ومع رسولِ الله عبدٌ - أهداه له رجل جاءه من جذام يُدعى رفاعه بن زيد من بني ضبيب - يُقال له: مدعم. فلما نزلنا الوادي قام العبد يحلُّ رحله، فجاءه سهم عائر فقتله، فقلت: هنيئاً له الجنة، فقال رسولُ الله ﷺ: «كلاً والذي نفسُ محمدٍ بيده، إن شملتهُ الآن لتَحترقُ عليه

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٧).

(٢) البخاري (٤٢٣٨).

(٣) في النسخ: «الأمر» والمثبت من «فتح الباري» ٧/٤٩٢.

(٤) انظر «السيرة» ٢/٣٣٨، و«المغازي» ٢/٧٠٧، و«تاريخ الطبري» ٣/١٦، و«المنتظم» ٣/٢٩٧،

و«البداية والنهاية» ٤/٢١٨.

في النَّارِ، أو تحترقُ عليه ناراً» وكان قد غلَّها من فيءِ المسلمين يَوْمَ خَيْبَرَ، فسمع ذلك رجلاً من الصحابة فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلٍ لي، فقال: «هذا لك شراكانٍ من نارٍ»^(١).

واختلفوا في غزاة وادي القرى: هل هي داخلة في غزاة خيبر أو منفردة عنها؟ وفيها: كانت ليلة التَّعْرِيسِ.

قال الترمذي: حدَّثنا محمود بن غيلان، حدَّثنا النَّضْرُ، عن صالح بن أبي الأَخْضَرِ، عن الزُّهْرِيِّ، عن ابن المُسَيَّبِ، عن أبي هريرة قال: لما قفل رسولُ الله ﷺ من خيبر أسرى ليلةً، حتى إذا أدركه الكرى أناخَ فعرَّسَ، فقال النبي ﷺ: «هل من رجلٍ يحفظُ علينا الطريقَ لعلنا ننامُ»؟ فقال بلال: أنا يا رسولَ الله، فنزل ونزل الناس، فنام وناموا، وقام بلالٌ يُصلي، فصلى ما شاء الله، ثم استند إلى بغيره واستقبل الفجرَ بطرفه فغلبته عينه فنام، فلم يُوقِظني إلا حر الشمس، فكان أولَ من هبَّ من نومِ النبي ﷺ فقال: «ما صنعتَ يا بلالُ»؟ فقال: يا رسولَ الله أخذتُ بنفوسكم، فقال: «صدقتَ» ثم سار غير كثير، ثم أناخ فتوضأً وصلى ركعتين ثم صلى الفجرَ^(٢).

ولمسلم: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ليأخذ كلُّ رجلٍ رأسَ راحلته، فإنَّ هذا منزلٌ حَضَرنا فيه الشَّيْطَانُ» قال: ففعلنا، فدعا بالماء فتوضأ ثم صلى ركعتين قبل صلاة الغداة، ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة^(٣).



وفيها: نزلت آية التيمم، وقيل: في غزاة ذات الرقاع، وقيل: في غزاة المريسيع. قال البخاري: حدَّثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله ﷺ على

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٦٨٠) (٣١٠).

التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، أو وكَيْسَ معهم ماء، فأتى الناسُ أبا بكرٍ فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشةُ؛ أقامتُ بالناسِ على غير ماء، فجاء أبو بكرٍ فأغلظ لها، قالت: ورسولُ الله ﷺ نائمٌ، رأسُه على فِخْذِي، وقال ما شاء، وجعل يَطْعُنُ بيده في خاصرتها، قالت: ولا يمنعني من التحركِ إلا مكانُ رسولِ الله ﷺ، فنام حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آيةَ التيمم، فقال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وهو أحدُ النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكرٍ، ما نزل بك أمرٌ تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين منه فرجاً ولكِ منه مخرجاً. قالت: فَبَعَثْنَا البعيرَ الذي كان تحتي أو كنت عليه فإذا العقد تحته^(١).

وفيها: كانت قصة الحجَّاج بن علاط بن خالد بن ثُويرة السُّلمي^(٢)، وهو من الطبقة الثالثة من المهاجرين، شهد فتح خيبر.

قال أرباب السير: كانت تحته أمُّ شَيْبَةَ أختُ بني عبد الدار، وكان كثير المال، فلما رجع رسولُ الله ﷺ قال له: يا رسول الله إن لي أموالاً بالحجاز وبمكة، وذهبي عند أمِّ شَيْبَةَ، وإن عَلِمْتُ بإسلامي هي ومن عنده مالي ذهب، فأذن لي في الذهاب قبل أن يفشو الخبر، فأذن له وقال: قل ما شئت.

قال الحجَّاج: فخرجت وأسرعت المسير، فلما كنت بالثنية البيضاء رأيت رجالاً يتجسسون أخبار رسول الله ﷺ من قريش وقد علموا أنه صار إلى خيبر وهي قرية الحجاز، ريفاً ومنعةً ورجالاً وعُدَّةً وسلاحاً، فلما رأوني قالوا: الحجَّاجُ؟! ولم يكونوا علموا بإسلامي، فقالوا: أخبرنا عن القاطع، فقلت: عندي من الخبر ما يسركم، فالتبطوا بجانبِي ناقتي يقولون: إيه يا حجَّاجُ، فقلت: هُزِمَ هَزِيمَةً لم يُهَزَمَ مثلها قطُّ وأسر وقتل أصحابُه قتلاً ذريعاً، وأرادت اليهودُ قتله فقال رؤساؤهم: دَعُوهُ حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم، ففرحوا وانطلقوا إلى أهلها فبشروهم، فقلت: أعينوني على جمع مالي من غرْمائي حتى أقدم على خيبر فأشتري من الذين أصابوا من أموال محمد ﷺ وأصحابه قبل أن يسبقني التُّجَّارُ، فجمعوا مالي في أسرع وقت، وجئت إلى صاحبتِي فأخذت ما كان عندها وقلت لها

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤).

(٢) انظر «السيرة» ٣٤٥/٢، و«الطبقات» ١٥٧/٥، و«تاريخ الطبري» ١٧/٣.

مثل ما قلت لهم، ولما شاع الخبر بمكة التقاني العباس فقال: ويحك يا حجاج، ما الذي جئت به؟ فقلت: اذهب إلى مكان كذا، فأخذت جميع مالي وخرجت، فقلت له: أبشر فتح الله على ابن أخيك خبير وتركته عروساً على بنت ملك خبير، وقد أسلمت وجئت أخذت مالي خوفاً من أن أُغلب عليه، فاكتم عني ثلاثاً. فلما كان بعد ثلاث لبس العباس حُلَّةً وتخلَّق ثم خرج يطوف بالبيت، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التَّجَلُّدُ في المصيبة، فقال: ويلكم فتح الله خبير على رسول الله ﷺ وأعرسَ بابنة ملكهم، وأحرز رسوله أموالهم ونخيلهم وقسمها بين المسلمين، فقالوا: من جاء بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به لقد دخل عليكم مسلماً وأخذ أمواله وانطلق ولحق رسول الله ﷺ ليكون معه، فقالوا: قُتِلَتْ عدوُّ الله، أما والله لو عَلِمْنَا لكان لنا وله شأن من الشأن. فلم يلبثوا أن جاء الخبر بذلك، فأعتق العباس في ذلك اليوم عبداً له يقال له: أبو زبيبة.

وقال موسى بن عقبة: لما سمع العباس بما أُخبر به الحجاج أولاً أراد أن يقوم فلم يقدر على القيام.



قال الواقدي: وفيها رد رسول الله ﷺ ابنته زينب عليها السلام على أبي العاص بن الربيع رضي عنه (١).

وفيها: قدمت أم حبيبة رضي عنها بنت أبي سفيان من الحبشة على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، وكان قد كتب إلى النجاشي فزوجه إيَّها، وكانت قد هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصّر ومات هناك.

وعن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أم حبيبة رضي عنها قالت: رأيت في المنام كأنَّ عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ حال، وأشوه صورة، ففرعتُ وقلت: تَغَيَّرْتُ والله حاله. فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في هذا الدين فلم أر ديناً خيراً من دين النصرانية، وكنتُ قد دُنتُ بها، ثم دخلتُ في دين محمد، ثم رجعت

(١) «تاريخ الطبري» ٢١/٣ .

إلى النصرانية، قالت: فقلت له: والله ما خَيْرَ لك، وأخبرته بما رأيت له فلم يحفل بي، وأكبَّ على الخمر يشربه حتى مات، فرأيت في المنام كأن آتياً يقول: يا أم المؤمنين، ففرغتُ، وأولتُها أن رسولَ الله ﷺ يتزوجني، قالت: فما هو إلا أن انقضت عِدَّتِي، فما شعرتُ إلا بجارية النجاشي يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودُهْنِه تستأذن عليَّ، فأذنتُ لها فدخلتُ، وقالت: الملك يُسَلِّمُ عَلَيْكَ ويقول: إن رسولَ الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجه إِيَّاكَ، فقلت: بشرك الله بالخير، فقالت: وكلي من يُزوّجك، فأرسلتُ إلى خالد ابن سعيد بن العاص فوَكَّلْتُهُ، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا في رجلي وخواتيم فضة كانت في أصابعي سروراً بما بشرتني به، فلما كان العشيُّ أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان هناك من المسلمين فحضروا وخطب النجاشي خطبة بليغة؛ حمّد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: أما بعدُ فإن رسولَ الله ﷺ كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة، فأجبتُه إلى ما دعاني إليه وأصدقتُها من مالي أربع مئة دينار وصبَّها بين يدي القوم، فحمد الله خالد بن سعيد وصلى على رسوله وقال: قد أجبت رسولَ الله ﷺ إلى ما سأل، فبارك الله لرسوله. ثم حضر الطعامُ فأكلوا وانصرفوا.

وفي رواية: أن أم حبيبة دفعت إلى أبرهة خمسين ديناراً فلم تقبلها وردت عليها جميع ما أعطتها وقالت: إن الملك أمرني أن لا أرزأك شيئاً، وإني قد أسلمتُ وبايعتُ رسولَ الله ﷺ - وقد أمر الملك نساءه أن يبعثنَ إليك بكلِّ ما عندهنَّ من العطر - ثم جاءتني بعودٍ وعنبرٍ ومسكٍ وحلبي كثيرة - فقدمتُ بذلك على رسول الله ﷺ - وأخبرته أنني قد بايعته وهذه حاجتي إليك، قالت: فلما قدمت عليه أخبرته فقال: وعليها السلام، ولما بلغ أبا سفيان قال: ذاك الفحل الذي لا يُقدِّعُ أنفه^(١).

وفي تزويج أم حبيبة نزل قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾^(٢) [المتحنة: ٧].

قال الواقدي: وبعث النجاشي أم حبيبة رضي الله عنها مع شرحبيل بن حسنة.



(١) «الطبقات» ١٠/٩٥-٩٦.

(٢) «الطبقات» ١٠/٩٧.

وفيها: قدم حاطب بن أبي بلتعة^(١) من عند الْمُقَوْسِ صاحب الإسكندرية على رسول الله ﷺ بهديّة، وهي أربع جوارٍ منهن مارية وهي أم إبراهيم ﷺ ابن رسول الله ﷺ، وسيرين، وبغلته الدُّلْدُل، وحماره اليعفور، وألف دينار من ذهب وعشرين ثوباً، وخصيّي يقال له: مآبور، شيخٌ كبير كان أختاً لمارية، أقام على دينه حتى قدم المدينة.

وكان حاطب قد دعا مارية وسيرين إلى الإسلام فأسلما قبل وصولهما إلى المدينة، فأنزلهما رسول الله ﷺ على أم سليم بنت ملحان، وكانت أم إبراهيم وضيئة بيضاء جميلة جعدة من كورة أنصنا، فوطئها رسول الله ﷺ بملك اليمين، ثم حولها إلى ماله بالعالية، كان قد أخذه من بني النضير وكان يأتيها فيه، وكانت في مشربة تعرف بمشربة أم إبراهيم - والمشربة: المنظرة - وكان الخصيّي يختلف إليها، فكثرت الناس فيه وقالوا: عِلْجٌ يَدْخُلُ على عِلْجَةٍ، فبلغ رسول الله ﷺ فدعا علياً رضوان الله عليه وقال: انطلق، فإن وجدته عندها فاقتله، فقال: يا رسول الله إذا بعثني أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فقال: فأقبلت متوشحاً بالسيف وإذا به عندها فاخرطت السيف فأقبلت نحوه، فلما رأني صعد نخلة هناك وألقى نفسه على قفاه وشعر برجليه فإذا هو أجب ممسوح، ليس له قليل ولا كثير، فأغمدت السيف وأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت»^(٢).

قال الواقدي: إنما أمر بقتله لأنه كان كافراً لم يسلم.

وقال المنافقون: إنه فحل فأكذب الله المنافقين.

وأما سيرين فوهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت فأولدها عبد الرحمن.

وأما بغلته الدُّلْدُل فبقيت إلى أيام معاوية.

وأما حماره اليعفور فنفق في حجة الوداع عند منصرفه منها.

(١) «تاريخ الطبري» ٢١/٣، وانظر «الطبقات» ٢٠١/١٠.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساکر» ٢٣٦/٣، و«البداية والنهاية» ٣٠٤/٥.

ولما قرأ رسول الله ﷺ كتاب المقوقس قال: «ضَنَّ بِمُلْكِهِ».

وفيها: قدم أبو موسى الأشعري^(١) على رسول الله ﷺ المدينة في خمسين رجلاً ومعه إخوته وكانوا قد ركبوا من اليمن في سفينة وأرسوا بجُدَّة، فلقوه وقد قفل من خيبر.

قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ غَدًا قَوْمٌ هُمْ أَرْقُ قُلُوبًا لِلْإِسْلَامِ مِنْكُمْ». قدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون؛ يقولون:

غَدًا نَلْقَى الْأَحَبَّ
مَحْمُودًا وَحِزْبَهُ

فلما قدموا تصافحوا، فكانوا أوَّلَ من أحدث المصافحة. أخرجه الإمام أحمد^(٢) رحمة الله عليه.

وفيها: كانت سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هوازن^(٣) في شعبان إلى مكان يقال له: تُرْبَةُ، على أربع ليالٍ من مكة، وقيل: على أربعة أميال، في ثلاثين راكباً فانهمزوا وعاد إلى المدينة.

وفيها: كانت سرية أبي بكر رضوان الله عليه إلى نجد^(٤)، قال سلمة بن الأكوع: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فزارة وكنت معه، فلما دنونا من الماء عرسَ وشنَّ الغارة وقت الصبح، فقتلتُ سبعةً من الكفار، ورأيت عُقْماً من الناس فيهم الذراري فخشيتُ أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم ورميت بسهمٍ بينهم وبين الجبل، فلما رأوه قاموا -

(١) «الطبقات» ١/٣٠٠، و«المنتظم» ٣/٣٠٤.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٥٨٢).

(٣) «المغازي» ٢/٧٢٢، و«الطبقات» ٢/١١٠، و«تاريخ الطبري» ٣/٢٢، و«المنتظم» ٣/٣٠١، و«البداية والنهاية» ٤/٢٢١.

(٤) «المغازي» ٢/٧٢٢، و«الطبقات» ٢/١١١، و«تاريخ الطبري» ٣/٢٢، و«المنتظم» ٣/٣٠١، و«البداية والنهاية» ٤/٢٢٠.

أي: وقفوا - وإذا أنا بامرأة من فزارة عليها قشع من آدم معها ابنة لها من أجمل العرب، فجئت بها إلى أبي بكر فنفلني ابتها، فلم أكشف لها ثوباً [حتى قدمت المدينة، ثم باتت عندي فلم أكشف لها ثوباً حتى لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة، هب لي المرأة» فقلت: يا نبي الله، والله لقد أعجبني وما كشفت لها ثوباً، فسكت حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق ولم أكشف لها ثوباً، فقال: «يا سلمة، هب لي المرأة، لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسول الله قال: [فبعث بها إلى مكة ففدى بها أسرى المسلمين.

وفيها: كانت سرية بشير بن سعد إلى بني مرة^(١)، في شعبان بناحية فدك في ثلاثين راكباً، وقيل: في ثلاثين رجلاً، فساق أموالهم ونعمهم فأدركوه فقتلوا أصحابه وجرح في كعبه فأرثت بين القتلى فعاد إلى المدينة.

وفيها: كانت سرية علي عليه السلام^(٢) إلى بني سعد في شعبان، فهزمهم وساق أموالهم إلى المدينة.

وفيها: كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة^(٣)، وراء بطن نخلة في رمضان إلى بني عدي وبني غزال، في مئة وثلاثين رجلاً فاستاقوا النعم والشاء. وقال ابن إسحاق: إنما كانت إلى يمين وجبار.

وفيها: كانت سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الحرقات من جهينة^(٤).

قال أسامة: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة أو الحرقات من جهينة، فصبحناهم فقاتلناهم، قال: وكان منهم رجل إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا وإذا أدبروا كان

(١) «المغازي» ٧٢٣/٢، و«الطبقات» ١١٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٢/٣، و«المنتظم» ٣٠٢/٣، و«البداية والنهاية» ٢٢١/٤.

(٢) هي سرية علي بن أبي طالب إلى فدك، تقدم ذكرها عند المصنف في السنة السادسة.

(٣) «السيرة» ٦٢٢/٢، «المغازي» ٧٢٦/٢، و«الطبقات» ١١٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٢/٣، و«المنتظم» ٣٠٣/٣.

(٤) أدرجها أصحاب السير مع سرية غالب كما في «السيرة» ٦٢٣/٢، و«الطبقات» ١١٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٢/٣، و«المنتظم» ٣٠٣/٣.

حاميهم، قال: فغشيتُه أنا ورجل من الأنصار، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري وقتلته أنا، وبلغ رسول الله ﷺ فقال: «يا أسامة، أقتلتُه بعدما قال لا إله إلا الله؟» فقلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً من القتل، قال: فكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

وفي رواية عن أسامة: أنه قال: لما قتلته عرض في نفسي منه شيء، فذكر لرسول الله ﷺ فقال: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: قلت: يا رسول الله قالها مخافة القتل، فقال: «ألا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة» فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم يومئذ. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

ولمسلم: كيف تصنع بلا إله إلا الله، قال: وأسامة يقول: يا رسول الله استغفر لي، ورسول الله ﷺ لا يزيد على ذلك^(٢).

وفيها: كانت سرية بشير بن سعد إلى الجنب^(٣) من خيبر ووادي القرى، في ثلاث مئة رجل، وكان قد جمع عيينة بن حصن في ذلك المكان جمعاً كثيراً، فقدم حسيل بن نؤيرة الأشجعي فأخبر رسول الله ﷺ بذلك وأن عيينة قاصده، فأرسل إليه بشير بن سعد فانهزم عيينة، فساق بشير النعم والشاء إلى المدينة وقتل عبداً لعيينة.

وفيها: كانت عمرة القضاء^(٤) في ذي القعدة، خرج رسول الله ﷺ من المدينة لهلال ذي القعدة - وهو المسير الذي صده المشركون فيه - في ألفين، وقاد مئة فرس، معه السلاح، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، فلما سمعت به قريش صعدوا إلى الجبال ودخلوا في الشعاب.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢١٨٠٢).

(٢) مسلم (٩٧).

(٣) «المغازي» ٧٢٧/٢، و«الطبقات» ١١٣/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٣/٣، و«المنتظم» ٣٠٣/٣.

(٤) «السيرة» ٣٧٠/٢، و«المغازي» ٧٣١/٢، و«الطبقات» ١١٣/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٣/٣، و«دلائل النبوة» ٣١٣/٤، و«المنتظم» ٣٠٤/٣، و«البداية والنهاية» ٢٢٦/٤.

وقال أنس : لما أراد رسول الله ﷺ أن يدخل مكة استأذن أهلها فأذنوا له ، فدخلها من الثنية التي تطلع على الحجون ، وبين يديه عبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقته يرتجز ويقول : [من الرجز]

خَلُّوا بني الكفارِ عن سبيله
 خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ مع رسوله
 يا ربِّ إني مؤمن بقيله
 أعرفُ حقَّ الله في قبوله
 نحن ضربناكم على تأويله
 كما ضربناكم على تنزيله
 ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مقلبه
 ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال له عمر بن الخطاب : يا ابن رواحة أفي حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ : «خَلُّ عَنْهُ يَا عَمْرُؤُ ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ»^(١) .

وقال ابن عباس : اصطف من بقي من الكفار بمكة عند دار الندوة لينظروا إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلما دخل المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده الأيمن منه ثم قال : «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمْ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً» ثم استلم الركن اليماني ، وخرج يهرولاً وأصحابه معه يفعلون ذلك ، فهروا ثلاثة أشواط ومشى باقيها ، وإنما فعل ذلك لأن المشركين قالوا : قد وهنتهم حمى يثرب ، فرمل في الطواف وسعى بين الصفا والمروة فصار ذلك سنة ، ثم فعله في حجة الوداع^(٢) .

وعن ابن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ وقد وهنتهم حمى يثرب فقال المشركون : إِنَّهُ يَقْدُمُ الْيَوْمَ قَوْمٌ قَدِ وَهَنْتَهُمُ الْحُمَى وَلَقُوا مِنْهَا شَرًّا ، فَأُطْلِعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى مَا قَالُوا ،

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٨٨) ، وانظر «السيرة» ٣٧١ / ٢ .

(٢) «السيرة» ٣٧١ / ٢ .

فأمرهم أن يرمُلوا ثلاثة أشواط وأن يمشوا بين الرُّكنين، فلما رَمَلوا قال المشركون: أهؤلاء الذين ذكرتُم أن الحمى وهنتهم، هؤلاء أجلدُ منا^(١).

وقال ابن الكلبي: خرج رسولُ الله ﷺ من المدينة ومعه الخيل، واستعمل على الخيل محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد، وبلغ قريشاً فخافوا منه، فبعثوا إليه مكرز بن حفص فلقية بمر الظهران، فقال: يا محمد ما عرفتُ صغيراً وكبيراً إلا بالوفاء، فما هذا السلاح؟ فقال: ما أدخلُ عليكم به وإنما يكون قريباً مني، فرجع فأخبرهم فاطمأنوا^(٢).

وقال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدَّثنا حُجَيْنُ، حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: اعتمر رسولُ الله ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوهُ يدخل مكة، حتى قاضاهم أن يعود في العام المقبل ويقيم بها ثلاثة أيام، وذكر حديث الكتاب وأن لا يدخل مكة من السلاح إلا السيف في القراب ولا يخرج من أهلها أحد إلا من أراد أن يتبعه، فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً وقالوا: قل لصاحبك يخرج عنا، فقد مضى الأجل، فخرج رسول الله ﷺ^(٣).

وللبخاري ومسلم زيادة: فتبعهتهم ابنة حمزة تُنادي: يا عمّ، يا عمّ، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فاحتمليها، فاخصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أحق بها هي ابنة عمي، وقال جعفر: بنت عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: بنت أخي، فقضى بها رسولُ الله ﷺ لخالتها، وقال: «الخالَةُ بمنزلة الأمِّ» وقال لعلي: «أنت منِّي وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خُلقي وخُلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»^(٤).

واختلف العلماء في اسم بنت حمزة: فقيل: أمامة، وقيل: عنزه، وقيل: فاطمة، وخالتها أسماء بنت عميس.

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢٦٣٩).

(٢) انظر «المغازي» ٧٣٤/٢.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٦٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، ولم نقف عليه عند مسلم، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٨٥٨).

وقال الواقدي: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فجاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش فقالوا: قد انقضى الأجل فاخرج عنا. وكان قد تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوّجها به العباس وهي خالة عبد الله بن عبد العزى^(١).

وقال البلاذري: [وكانت ميمونة قبل رسول الله ﷺ عند أبي سبرة بن أبي رهم وتوفي، فأرسل رسول الله ﷺ أبا رافع مولاة ومعه أوس بن خولي الأنصاري إلى العباس فزوجه إياها بمكة، فلما قال له المشركون: اخرج عنا قال: ما ضرّكم لو تركتموني فأعرستُ عندكم وصنعتُ لكم طعاماً فحضرتموه، فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، ووكلوا به جماعةً منهم حويطب^(٢).

قال ابن إسحاق: فقال لهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه: البلد بلد رسول الله ﷺ وبلد آبائه، فقال له رسول الله ﷺ: مهلاً يا سعيد، أو: مه، وخلف رسول الله ﷺ أبا رافع عند ميمونة، فخرج بها على قلوص، فجعل أهل مكة يُنْفِرُونَهُ ويقولون: لا بارك الله لك^(٣).

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة نادى مناديه: لا يبقى بها أحد من المسلمين. قال هشام: والصحيح: أن العباس زوجه بها بموضع يقال له: سرف وبنى بها فيه لماً حلّ من عمرته عند عودته إلى المدينة. وتوفيت بهذا المنزل في سنة إحدى وستين، وسنذكرها هناك إن شاء الله تعالى.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: حدّثنا عفان بن مسلم، حدّثنا وهيب، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ تزوّج ميمونة وهو مُحْرَمٌ. متفق عليه^(٤).

وعن ابن عباس أيضاً: أن رسول الله ﷺ تزوّج ميمونة وهما مُحْرَمَانِ^(٥).

(١) «المغازي» ٧٣٩/٢ .

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٥٣٤ - ٥٣٥ ، وما بين معقوفين زيادة منه .

(٣) انظر «أنساب الأشراف» ١/٥٣٥ .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٣)، والبخاري (١٨٣٧)، ومسلم (١٤١٠) .

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠٠) .

وفيها: كانت سرية ابن أبي العوّجاء إلى بني سُليّم في ذي الحجة^(١): لما رجع رسول الله ﷺ من عُمرَةَ القضاء، فنزل ابن أبي العوجاء بساحة بني سُليّم في خمسين رجلاً فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا فيه واستمدوا الأمداد من كل ناحية، فقاتل هو وأصحابه قتالاً شديداً حتى قتل منهم عامتهم، وأرثت ابن أبي العوجاء في القتلى فتحامل حتى قدم المدينة.

فصل وفيها توفي

بِشْرُ بن البراء^(٢)

ابن معرور بن صخر بن خنساء الأنصاري، وأمه خُلَيْدَةُ بنت قيس أشجعية، وأبوه البراء شهد العقبة ومات بالمدينة في صفر قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها مهاجراً بِشْهْرٍ، وبِشْرٌ من الطبقة الأولى، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وأكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة.

واختلفوا في وفاته: فقيل: إنه لمّا أكل من الشاة مات مكانه، وقيل: بعد شهر، وقيل: أقام شهوراً إلى آخر السنة.

قال موسى بن عقبة: لما قال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنه مسموم» قال بشر: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلي الذي أكلت، وذكره، وفيه: فلم يُقْم بِشْرٌ من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان وما طله وجعه حتى كان لا يتحوّل إلا ما حوّل، واحتجم يومئذ رسول الله ﷺ على الكاهل، حجه أبو هلال مولى بني بياضه بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله ﷺ بعده ثلاث سنين حتى كان مرضه الذي توفي فيه فقال: «ما زالت أكلة خيبر تُعاودني، وهذا أوانُ قطعِ أبْهَري»^(٣)

(١) «المغازي» ٧٤١/٢، و«الطبقات» ١١٥/٢، و«تاريخ الطبري» ٢٦/٣، و«دلائل النبوة للبيهقي» ٣٤١/٤، و«المنتظم» ٣٠٦/٣، و«البداية والنهاية» ٢٣٥/٤.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٥٢٨/٣، و«المنتظم» ٣٠٦/٣، و«سير أعلام النبلاء» ٢٦٩/١، و«الإصابة» ١٥٠/١.

(٣) وأخرجه البخاري (٤٤٢٨) من حديث عائشة.

فكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة^(١).
والأبهر: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

ولما مرض رسول الله ﷺ مرضاً دخلت عليه أم بشر تَعَوَّدُهُ فقال لها ذلك^(٢).
وكان لبشر ابنة يقال لها: سُلَافَة، وأمها حُمَيْمَةُ بنتُ صَيْفِي من بني سَلِمْة، تزوجها
[أبو] قتادة بن ربعي بن بَلْدَمَة من بني سَلِمْة، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن^(٣).
وأمُّ بَشْرٍ خُلَيْدَةُ بنت قَيْس بن ثابت بن خالد بن أشجع، أسلمت وبايعت رسول الله
ﷺ وروت عنه.

عن محمود بن لبيد، عن أم بَشْرٍ أنها قالت: يا رسول الله، تَتَعَارَفُ الموتى؟ فقال:
«تَرَبَّتْ يَدَاكِ، النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ طَيْرٌ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنْ كَانَ الطَّيْرُ يَتَعَارَفُونَ فِي رُؤُوسِ الشَّجَرِ،
فِي أَنَّهُمْ يَتَعَارَفُونَ»^(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت أم بشر على رسول الله ﷺ في مَرَضِهِ الذي مات فيه
وهو محموم فَمَسَّتُهُ، وقالت: ما وجدتُ مِثْلَ وَعْكِ عَلَيْكَ على أَحَدٍ، فقال: «كما
يُضَاعَفُ لنا الأجرُ، كَذَلِكَ يُضَاعَفُ عَلَيْنَا البلاءُ» وقال: «ما يقولُ النَّاسُ؟» قالت:
زعموا أن بك ذات الجنب، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَهَا عَلَيَّ، وَإِنَّمَا هِيَ هَمَزَةٌ من
الشَّيْطَانِ، وَلَكِنَّهُ من الأكلَّة التي أَكَلْتُ أنا وابنك يومَ خيبر، ما زال يُصِيبُنِي منها عِدَادٌ،
حتى كان هذا أو أن انقطاع أبهري»^(٥).

ثَوْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ^(٦)

وهي التي أرضعت رسول الله ﷺ بلبن ابنها مسروح، وكان رسول الله ﷺ يَصِلُهَا

(١) أخرج الخبر عن موسى بن عقبة البيهقي في «الدلائل» ٢٦٣/٤ - ٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٣٣).

(٣) الصواب أنها ابنة البراء، فهي أخت بشر، انظر «الطبقات» ٣٧٣/١٠.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢٩٦/١٠.

(٥) أخرجه ابن سعد ٢٩٧/١٠.

(٦) «المنتظم» ٣٠٧/٣، و«الإصابة» ٢٥٧/٤ - ٢٥٨.

ويحسنُ إليها، واختلفوا في إسلامها، وذكرها أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله من جملة النساء اللاتي لهنَّ صُحْبَةٌ ورُؤْيَةٌ^(١).

حليمة بنت أبي ذؤيب^(٢) السعدية

التي أرضعت رسول الله ﷺ، أسلمت هي وزوجها ودخلت على رسول الله ﷺ فاحترمها وثنى لها وسادة وبسط لها رداءه وقال: «أُمِّي أُمِّي»^(٣). حدثت عن رسول الله ﷺ.

سعدُ بنُ خَوْلَةَ^(٤) بن سعيد

حليف بني عامر بن لؤي، وهو من أهل اليمن، أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وهو من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا وأُحُدًا والخندق والحديبية.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فمرضت مرضاً أشفيتُ منه على الموت، فعادني رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلاثي مالي؟ قال: «لا»، قلت: فبالشطر؟ قال: «لا»، قلت: فثلث مالي؟ قال: «الثلثُ، والثلثُ كثيرٌ، إنك يا سعدُ، أن تدعَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ لك من أن تدعَهُمَ عالةً يتكففون الناسَ، إنك يا سعدُ، لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك» قال: قلت: يا رسول الله، أخلفُ بعد أصحابي؟ قال: «إنك لَنْ تُخْلَفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجهَ الله إلا ازددتَ به درجةً ورفعةً، ولعلك أن تُخْلَفَ حتى ينفعَ الله بك أقواماً ويضرَّ بك أقواماً آخرين، اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردِّهم على أعقابهم، لكن البائسُ سعدُ بن خَوْلَةَ» يرثي له النبي ﷺ وكان مات بمكة. أخرجاه في «الصحيحين»^(٥).

ومعناه: أن رسول الله ﷺ كان يكره لمن هاجر إلى المدينة أن يُقيمَ بعد نُسكِهِ بمكة.

(١) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٢٣٧.

(٢) «الإصابة» ٢٧٤/٤.

(٣) أخرج ابن سعد في «الطبقات» ٩٣/١.

(٤) «الطبقات الكبرى» ٣٧٨/٣.

(٥) أخرج البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

وقيل: إن سعد بن خولة إنما دخل مكة لحاجةٍ ويعود فأدركه الموت، وله رؤية وصحبة.

وقيل: هو مولى أبي رُهم. وقيل: مولى حاطب بن أبي بلتعة.

وقيل: إن امرأته ولدت بعد وفاته بأربعين يوماً فمرَّ بها أبو السنابل^(١) فقال: أراك تتهيأين للأزواج، لا، إلا بعد أربعة أشهر وعشرٍ، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: «انكحي من شئت»^(٢).

الوليد بن الوليد بن المغيرة^(٣)

أبو الوليد، من الطبقة الثانية من المهاجرين، كان أبوه من المستهزئين برسول الله ﷺ وأمه أميمة بنت الوليد من بَجيلة، خرج مع الكفار يوم بدر وهو على دينهم، فأسره عبد الله بن جحش بن رئاب، وقيل: سَلِيْطُ بن قيس من الأنصار، فقدم في فدائه أخواه خالد وهشام، وأبى رسول الله ﷺ أن يدفعه إلا بِشِكَّةٍ^(٤) أبيه، وكانت درعاً فضفاضةً وسيفاً وبيضةً، فأبى ذلك خالدٌ وأطاع هشام أخوه لأبيه وأمه ففدَّوه بأربعة آلاف درهم، وقوموا الشِّكَّةَ بألف درهم منها، وقيل: بمئة دينار ودفعوها إلى رسول الله ﷺ، فلما خرجا إلى ذي الحليفة أفلتت منهما إلى المدينة فعادا إليه، وقالوا: هلا كان ذلك قبل أن تخرج من أيدينا مآثرةً أبيننا يعني الشِّكَّةَ؟ فقال: ما كنت لأسلم حتى أفتدي، لئلا تقول قريش: إنما أسلم فراراً من الفداء، فرجعا به إلى مكة وحبساه فكان رسول الله ﷺ يقنُتُ ويقول في قنوته: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلِّمته بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة» الحديث، وهو في «الصحیح»^(٥)، ثم إنه أفلت من مكة إلى الساحل فأقام مع أبي بصير يقطع الطريق على قريش، فلما مات أبو بصير قدم المدينة فأقام بها حتى توفي فبكته أم سلمة رضي الله عنها وقالت: [من مجزوء الكامل]

(١) في النسخ: «أبو السائل» والمثبت من «الطبقات» ٢٧٢/١٠.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣١٨).

(٣) «الطبقات» ١٢٣/٤، و«المنتظم» ٣٠٩/٣، و«الإصابة» ٦٣٩/٣.

(٤) الشِّكَّة: ما يلبس من السلاح.

(٥) البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يا عينُ بَكِّي للوليِّ — د بن الوليد بن المغيرة
 كان الوليد بن الوليِّ — د أبو الوليد فتى العشيرة
 فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «لا تُقولي كذا، وقُولي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]»^(١).

وكان قد وُلِدَ للوليد ولد فسماه الوليد، وكُنِّيَ به، فغير رسول الله ﷺ اسمه وسماه عبد الله^(٢).

ولعبد الله بن الوليد ابن اسمه سلمة، ولسلمة ابن اسمه أيوب ورث دار خالد بن الوليد بالقعد.

وقيل: إن الوليد أفلت من الوثاق بمكة فقدم المدينة، فسأله رسول الله ﷺ عن عيَّاشٍ وسَلَمَةَ، فقال: تركتهما في ضيق وشدة وهما في وثاقٍ: رَجُلٌ أَحَدُهُمَا مَعَ رَجُلٍ صَاحِبِهِ، فقال رسول الله ﷺ: «انطلق حتى تنزل على القَيْنِ فإنه قد أسلم واحتل في إخراجهما»، فانطلق فأخرجهما، فقدموا المدينة، وتبعهم خالد ونفرٌ من قريش إلى عُسْفَانَ ثم رجعوا عنهم^(٣).

وأخرج الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند» له حديثاً، فقال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَانَ، عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمُخَزُومِيِّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ وَحْشَةً، فَقَالَ: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ وَبِالْحَرَى أَنْ لَا يَقْرَبَكَ»^(٤).



(١) «الطبقات» ١٢٤/٤ - ١٢٥.

(٢) «الطبقات» ١٢٥/٤.

(٣) «الطبقات» ١٢٤/٤.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٥٧٣).

السنة الثامنة من الهجرة

فيها: قَدِمَ عمرو بن العاص وخالِدُ بن الوليد وعثمانُ بن طلحة العَبَدري على رسولِ الله ﷺ في صَفَرٍ إلى المدينةِ مسلمين^(١).

قال عمرو: كنت للإسلام مجانباً مباعداً معانداً، حضرتُ بدرأ مع الكفار فنجوتُ، و حضرتُ أحداً والخندق فنجوتُ، فقلت في نفسي: كم أَوْضِعُ! فوالله لَيُظْهَرَنَّ مُحَمَّدٌ على قريش، فلحقت بمالي بالوَهْطِ^(٢)، فلما حَضَرَتِ الحديبيةُ وانصرف رسولُ الله ﷺ إلى المدينة بالصلح، قلت: والله لَيَدْخُلَنَّ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ من قابل، ولئن دخلها فليست لنا بمنزل، وكنت أقول: لو أسلمتُ قريشٌ ما أسَلَمْتُ، فقدمتُ مَكَّةَ فجمعت رجالاً من قريش كانوا يرون برأبي ويسمعون مني ويُقَدِّمونني فيما نابهم فقلت لهم: إني لأرى محمداً يعلو الأمور عُلوًّا مُنْكَرًا، وإني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما ذلك؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمدٌ على قومنا، كنا تحت يد النجاشي أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يد محمدٍ، وإن ظهر قومنا، لا يأتينا منهم إلا خير، فقالوا: هذا الرأي. فجمعنا أدمًا كثيرًا هَدِيَّةً وكان يحب الأدمَ، فقدمنا عليه فوالله إننا لعنده إذ قدم عليه عمرو بن أمية الضَّمري وكان رسولُ الله ﷺ قد بعثه في شأن جعفر وأصحابه وتزويج أمِّ حبيبة، فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: لو سألت النجاشي فأعطاني عمراً فضربت عنقه فترى قريش أنني قد قتلتُ رسولَ محمدٍ، فدخلت على النجاشي فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي هل معك هدية؟ قلت: نعم، الأدمُ الكثير فقدمته إليه، فأعجبه وفرَّق منه شيئاً في بطارقه وأمر بحفظ الباقي، فلما رأيت طيبَ نفسِه قلت له: أيُّها الملكُ، رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجلٍ هو عَدُوُّنا قتل أشرافنا ووترنا، فادفعه إلي لأقتله. فغضب غضباً شديداً ورفع يده فضرب بها أنفي، فظننت أنه قد كُسِرَ، فلو انشقت الأرضُ لدَخَلْتُ فيها فرقاً

(١) «السيرة» ٢/٢٧٦، و«المغازي» ٢/٧٤١، و«تاريخ الطبري» ٣/٢٩، و«المنتظم» ٣/٣١٤، و«البداية والنهاية» ٤/٢٣٦.

(٢) في النسخ: بالرهط، والوهط: قرية بالطائف كانت لعمر بن العاص. معجم البلدان ٤/٩٤٣.

منه، وسال الدم على ثيابي ووجهي من أنفي، وأصابني من الذل ما لا أقدر أن أصفه، وقال: ويحك أعطيك [رسول] رسول الله ﷺ من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى فقتله. فقلت: أيها الملك أكذلك هو؟ قال: إي والله، ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله على الحق وسيظهر على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون. فقلت: أيها الملك لو ظننت أنك تكره ذلك ما سألتك، فاستحيا مني، فقلت: أتبايعني على الإسلام وقد غير الله ما في نفسي، فبسط يده فبايعته، فدعا بطست فغسل الدم عني وكساني غير ثيابي، فخرجت إلى أصحابي وكتمت إسلامي وأتيت إلى موضع السفن فوجدت سفينة قد سُحِنَتْ فركبتُ فيها حتى إذا انتهوا إلى الشَّعْبَةِ^(١) خرجتُ منها ومعني نفقة، فأبتعتُ بعيراً وخرجتُ أريدُ المدينة، حتى إذا كنت بالهدَّة إذا برجلين فتأملتُهما فإذا خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة فقلت: أين تريدان؟ فقال خالد: نريدُ محمداً فقد دخل الناس في الإسلام فلو أقمنا لأخذنا برقابنا كما تؤخذ الضبع برقبتها في مغارها، فقلت: والله وأنا أريد محمداً، فسرنا نحو المدينة وإذا بصائح يصيح: يا رباح، فتفاءلنا به، فلما رأنا قال: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، فظننتُ أنه يعني خالداً وإيَّاي، ثم ولى مدبراً إلى المسجد يُبشِّرُ رسولَ الله ﷺ بقدومنا وقد أذنَ العصرُ فأنخنا ولبسنا صالح ثيابنا ودخلنا المسجد، فلما رأنا رسولَ الله ﷺ تهلَّلَ وجهه والمسلمون حوله قد سُروا بقدومنا، فتقدم خالد وعُثمانُ فأسلما، ثم تقدمت إليه، فوالله ما هو إلا أن جلستُ بين يديه فلم أستطع أن أرفع طرفي إليه حياءً منه، فقلت: أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر، فقال: «إنَّ الإسلامَ يَجِبُ ما قبله، والهجرة تجبُّ ما قبلها»^(٢).

وفي رواية: فقلت: على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، قال: «نعم».

وأما خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال: لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي الإسلامَ وحضرني رُشدي، وقلت: كنت في هذه المواضع كُلِّها على محمد، وليس موطنٌ أحضره إلا وأنصرفتُ وأنا أرى في نفسي أنني موضعٌ في غير شيء، وأنَّ محمداً

(١) هو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٧٧)، وانظر «السيرة» ٢/٧٦ - ٢٧٨، و«المغازي» ٢/٧٤١ - ٧٤٥.

سيظهر، ودافَعْتَهُ قريشُ يومَ الحديبية بالراحِ فقلت: أين المذهبُ؟ أخرج إلى هرقل فأدخل في النصرانية وأترك ديني وأقيم مع عجمِ رومٍ أصير تبعاً لهم وذلك عيب علي؟ ودخل رسول الله ﷺ مكةَ عامَ عمرة القضاء فتغيَّبْتُ فكتبَ إليّ أخي: لم أر أعجبَ من ذهابِ رأيك عن الإسلامِ وَعَقْلُكَ وَعَقْلُكَ، ومِثْلُ الإسلامِ يجهله أحدٌ؟! وقد سأل رسول الله ﷺ عنك فقلت: يأتي الله به فقال: «ما مثلُ خالدٍ من يجهلُ الإسلامَ» فاستدركَ يا أخي ما فاتك.

فلما جاءني كتابه نشطتُ للخروجِ وسررتني مقالةُ رسول الله ﷺ فأجمعتُ الخروجَ إلى المدينة وطلبتُ من أصحابي، فلقيت عثمان بن طلحة فأخبرته بما أريد، فأسرع الإجابة وخرجنا جميعاً فأدلجنا سَحَرًا فلما كنا بالهَدَّةِ إذا بعمر بن العاص فقال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين؟ قلنا: نريد رسول الله، فقال: وأنا أيضاً أريد ذلك، فقدمنا المدينة في أول يومٍ من صفرِ سنة ثمان فسلمت على رسول الله ﷺ بالنُّبوة، فرد بوجه طلقٍ فقلت: يا رسول الله، اغفر لي كلَّ ما صنعتُ، فقال: «الإسلامُ يَجِبُ ما قبله». وتقدم عمرو وعُثمان فأسلما، قال خالد: فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يَعدِلُ بي أحداً من أصحابه^(١).

وروى الواقدي^(٢) عنه قال: أوقع الله الإسلام في قلبي فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيته بعسفان فقامت بإزائه فصلى بأصحابه الظهر، فَيَمَّمْتُ أن أُغِيرَ عليه، ثم لم يصحَّ عزمي وكانت خيرةً، فأطلعه الله على ما في نفسي، فصلى بأصحابه صلاة الخوف، وقت العصر فوق ذلك مني موقعاً، وقلت: الرجل ممنوعٌ منا ومن غيرنا، ثم افترقنا فلما صالحته قريشُ يومَ الحديبية قلت في نفسي: أين أذهب؟ أذهب إلى النجاشي وهو قد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده؟ أفأخرج إلى هرقل فأتنصر وأقيم عنده؟ أو أقيم بمكة في داري؟ فبينا أنا في ذلك إذ قدم علينا رسول الله ﷺ في عُمرَةِ القضاء فتغيَّبْتُ ولم أشهد دُخُولَهُ، وكان أخي الوليد بن الوليد معه فأرسل إليّ أخي... وذكر بمعنى ما تقدم، فأجمعت الخروجَ إلى رسول الله ﷺ

(١) «الطبقات الكبرى» ٢٦/٥ - ٢٧.

(٢) في المغازي ٧٤٦/٢ - ٧٤٩.

فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب ما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأسٍ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قَدِمْنَا عليه واتبعناه فإن شرفه شرفنا. فقال: لو لم يبق من قريش غيري ما تبعته أبداً. فافترقنا وقلت: رجلٌ موتورٌ يطلب وثره، قُتِلَ أبوه وأخوه ببدر وعمه بأحد، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فرد علي كما ذكر صفوان، فقلت: فاطورٍ ما قلت لك، فلقيت عثمان بن طلحة فقلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلبٍ في جحرٍ لو صبَّ عليه ماءٌ لخرج، فقال: صدقت. واتعدنا بطن يأجج فوافينا، وأذلجنا، فلقينا عمرو بن العاص بالهدية فرافقنا إلى المدينة، فلقيني أخي فقال: أسرع، فإن رسول الله ﷺ في انتظاركم، فدخلنا عليه فأسلمنا.

وقال خليفة بن خياط: كان إسلام خالد بن الحديبية وخير^(١). وإسلام عمرو بن العاص سنة ست^(٢). وهو وهم، والأصح أن إسلامهما كان في هذه السنة في صفر.

وفيها: كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوّح بالكُديد^(٣)، في ربيع الأول، وكان في بضعة عشر رجلاً، فأخذوا الحارث بن مالك بن البرصاء فقال لهم: خرجت لأسلم فقال له غالب: إن كنت خرجت لهذا فما يضرك رباط يوم وليلة، فربطه وسلّمه إلى رُوَيْجِل وقال له: إن نازعك وثاقه فاحتز رأسه، فلما قدم المدينة أسلم واستاق غالب أموالهم ونعمهم.

وفيها: كانت سرية غالب^(٤) أيضاً إلى [مُصاب] أصحابِ بشير بن سعد، فساق نعمهم وعاد إلى المدينة في ربيع الأول.

وفيها: كانت سرية كعب بن عمير الغفاري^(٥) إلى ذات أطلاق بناحية الشام بعد

(١) «تاريخ خليفة» ص ٨٦ .

(٢) «تاريخ خليفة» ص ٧٩ .

(٣) انظر «السيرة» ٦٠٩/٢ و«المغازي» ٧٥٠/٢ ، و«الطبقات» ١١٦/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٢٧/٣ ، و«المنتظم» ٣١٤/٣ ، و«البداية والنهاية» ٢٢٢/٤ .

(٤) انظر «الطبقات» ١١٧/٢ ، و«المنتظم» ٣١٥/٣ ، و«البداية والنهاية» ٢٢١/٤ . وما بين معقوفين زيادة من المصادر.

(٥) انظر «المغازي» ٧٥٢/٢ ، و«الطبقات» ١١٩/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٢٩/٣ ، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٤/٣٥٧ ، و«المنتظم» ٣١٦/٣ ، وجاء عند الطبري: عمرو بن كعب بدل كعب بن عمير، وانظر «الإصابة»

وادي القرى، وهو مكان كثير الطَّلح، في خمسة عشر رجلاً، وكانت قضاةً بذاتِ أطلاق في خلق كثير، فقاتلوهم فأصابوا أصحاب كعب وعاد كعب إلى المدينة جريحاً.

وقيل: كان أمير هذه السرية عمرو بن كعب الغفاري.

وفيها: كانت سرية سعد بن زيد بن مالك بن كعب بن عبد الأشهل^(١)، في رمضان إلى مناة بالمشلل فهدمها.

وفيها: كانت غزاة مؤتة^(٢) في جمادى الأولى.

وسببها أن النبي ﷺ بعث رسولاً اسمه الحارث بن عُمير الأزدي، وقيل: ابن عمرو الأزدي إلى صاحب بُصرى بكتاب، فلما نزل أرض مؤتة وهي أدنى أرض البلقاء إلى الحجاز عَرَضَ له شُرْحَبِيلُ بْنُ عَمْرٍو الغساني فقتله، ولم يُقتل للنبي ﷺ رسولٌ سواه، وبلغ رسول الله ﷺ فندب المسلمين للمسير إلى الشام فخرجوا فعسكروا بالجُرف في ثلاثة آلاف فارس، وأمر عليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، قال: «فإن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» وعقد لزيدٍ لواءً أبيض ودفعه إليه، وخرج رسول الله ﷺ يُشيعهم وقال لهم: ائتوا مقتل الحارث بن عُمير فادعوا من هُناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا قاتلوهم واستعينوا بالله عليهم، ولم يزل معهم إلى ثنية الوداع. وودع الناس بعضهم بعضاً فبكى عبد الله بن رواحة فقال الناس: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما أبكي على الدنيا ولا صباةً بها، ولكني سمعت النبي ﷺ يقول قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فقد أخبرني أنني وارد ولم يخبرني أنني صادر، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين، فقال: [من البسيط]

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغ تَقْدِفُ الزبدا
أو طعنة بيدي حران مُجَهِّزَةً بحربة تُنفِذُ الأحشاء والكبدا

(١) انظر «الطبقات» ١٣٦/٢، و«تاريخ الطبري» ٦٦/٣، و«المنتظم» ٣٣٠/٣.

(٢) انظر «السيرة» ٣٧٣/٢، و«المغازي» ٧٥٥/٢، و«الطبقات» ١١٩/٢، و«تاريخ الطبري» ٣٦/٣،

و«المنتظم» ٣١٨/٣، و«البداية والنهاية» ٢٤١/٤.

ثم مَضَوْا حتى نزلوا أرض الشام فبلغهم أن هِرَقْلَ قد نزل أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضمت إليه المُسْتَعْرِبَةُ من لَحْمٍ وَجُذامٍ وَبَلْقَيْنٍ وغيرهم في مئة ألف، فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعددِ عدونا، قال ابن رواحة: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، إنا لا نقاتل الناس بِعُدَّةٍ ولا قُوَّةٍ ولا كَثْرَةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين، إمّا ظهورٌ وإمّا شهادة، فقال الناس: صدق والله ابنُ رواحة، وساروا حتى نزلوا أرض معان، فبلغهم أن هِرَقْلَ قد نزل البلقاء في الروم والقبائل المستعربة، وكان على ميمنة العرب شُرْحَيْلُ بنُ عمرو الغساني وعلى الميسرة مالك بن زافلة والروم في القلب، وساروا حتى بلغوا مشارف قرية عند مؤتة، وانحاز المسلمون إلى مؤتة وجعلوا على الميمنة قطبة بن قتادة العُدْرِيّ وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري وزيد وجعفر وابن رواحة في القلب.

وفي معان يقول عبد الله بن رواحة: [من الوافر]

أقمنا ليلتين على معانِ
فرحنا بالجياد مسوماتِ
إلى ماب نسيرُ مَسِيرَ عَجَلِ
فرام الله أعينهم فجاءت
بذي لَجَبٍ كأن البيض فيه

وكان زيد بن أرقم مقيماً في حجر ابن رواحة، قال زيد: فكنت معه في هذه الغزاة

فبينا هو يسير إذ تمثّل: [من الوافر]

إذا أدنيتني وحمليتِ رَحْلِي
فشأنك فأنعمي وخلاكِ ذَمُّ
وعاد المسلمون وغادروني
هنالك لا أبالي هَجَرَ حِلِّ

مسيرة أربع بعد الحساءِ
ولا أرجع إلى أهلي ورائي
بأرض الشام مُشْتَهِي الشَّوَاءِ^(١)
من الخِلالِ مُنْقَطِعِ الإخاءِ

(١) في النسختين (خ) و (أ): مسهر البراءة؟ والمثبت من السيرة ٣٧٦/٢، والطبري ٣٨/٣.

قال زيد: فبكيت وارتفع صوتي فقال: يا لكع أتأنف لي بالشهادة؟! وترجع إلى المدينة على ناقتي، وكان كما قال، ثم التقى الفريقان فتقدم زيد بن حارثة فقاتل في نحر العدو قتالاً شديداً لم يُر مثله، فمالوا عليه فاقْتَسَمَتْهُ الرماح فشاط عليها - أي هلك - فنادى الناس أين جعفر؟ فقال: ها أنا ذا وأخذ الراية وتقدم فقاتل قتالاً عظيماً، فلما أَلَحَمَهُ القتالُ اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، وهو أول من عَقَرَ فرساً في الإسلام، ثم ارتجز: [من الرجز]

يا حبذا الجنةُ واقتربُها
طيِّبةً وبارداً شرابها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابها
عَلَيَّ إن لاقيتها ضرابها

ولما أخذ جعفرُ الراية جاءه الشيطان فمناهُ الحياةَ وكرَّه إليه الموتَ فقال: الآن حين استحکم الإيمان في قلبي؟ ثم قاتل حتى قتل، فنادى الناس عبدَ الله بن رواحة في جانب العسكر ومعه ضِلْعُ جمل يَنْهَشُهُ ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاثة أيام فرمى بالضلع ثم قال: وأنتِ مع الدنيا، ثم تقدم فقاتل فأصيبتُ أُصبعه فجعل يقول: [من الرجز]

هل أنتِ إِلَّا أُصْبَعٌ دَمِيَّتِ
وفي سبيلِ الله ما لَقِيَّتِ
يا نفسِ إِلَّا تُقْتَلِي تموتي
إن تفعلِي فِعْلَهُما هُدِيَّتِ
هذا حياضُ الموتِ قد صَلِيَّتِ
وما تَمْنِيَّتِ فقد لَقِيَّتِ
وإن تأخرتِ فقد شَقِيَّتِ

ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانةٍ فهي طالق ثلاثاً، وإلى فلان وإلى فلان - غُلْمان له - هم أحرار، وإلى معجفٍ - حائطٍ - فهو لله ولرسوله ثم قال:

يا نفس مالك تكرهين الجنَّة
أقسم بالله لتنزِلنَّه
طائِعَةً أو لتُكْرِهِنَّه
فَطالما قد كنت مطمئنَّة
هل أنت إلا نطفة في شَنَّة
قد أجلبَ الناس وشدوا الرنَّة

ولما قُتِلَ عبد الله بن رواحة صاح ثابت بن أقرم: يا قوم اتفقوا على واحد منكم فقالوا: أنت، فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء.

وقال الهيثم: دفع عبد الله بن رواحة الراية إلى ثابت فدفعها ثابت إلى خالد وقال: أنت أعرفُ مني بالقتال، فقال خالد: لا بل أنت أحق، يعني أن ثابتاً كان قد شهد بدرًا، فقال ثابت: خذها أيها الرجل فوالله ما أخذتها إلا لك فأخذها وواقع القوم فانحازوا.

وأخرج البخاري عن خالد أنه قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية^(١).

وقال الواقدي: انهزم المسلمون يوم مؤتة أقبح هزيمة، فلما أخذ خالد الراية انهزم الروم أقبح هزيمة.

وقال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدَّثنا الأسود بن شيبان [عن خالد بن سُمير]، قال: قدم علينا عبد الله بن رباح فاجتمع عليه الناس، فقال: حدَّثنا أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ جيشَ الأمراء وقال: «عليكم زيد بن حارثة»، فإن أصيب زيدٌ فجعفرٌ، فإن أصيب جعفرٌ فعبدُ الله بن

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٥).

رَوَاحَةٌ» فوثب جعفر فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كنت لأرهب أن يستعمل علي زيد، فقال: «امضوا، فإنك لا تدري أي ذلك خير» فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الله، ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر وأمر أن ينادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي؟ إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو، فأصيب زيد شهيداً فاستغفروا له» فاستغفر له الناس، ثم قال: «فأخذ اللواء جعفر، فشد على القوم حتى قتل شهيداً، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رَوَاحَةَ فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه، ورفع رسول الله ﷺ أصبعه وقال: «اللهم هو سيف من سيوفك فانصره» فسمي خالد يومئذ سيف الله، ثم قال رسول الله ﷺ: «انفروا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد منكم» فنفر الناس في حر شديد مشاة وركبانا^(١).

وعن أبي هريرة قال: رُفِعَت الأرضُ لرسولِ الله ﷺ فرأى مصارع القوم فنعاهم واحداً واحداً، فلما أخذ خالد اللواء قال رسول الله ﷺ: «الآن حمي الوطيس»^(٢). وقال ابن إسحاق: قدم جيش مؤتة إلى المدينة لم يفقد من أعيانهم إلا الأمراء الثلاثة ونفر يسير، وخرج الناس ورسول الله ﷺ معهم، فجعلوا يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فراراً، ورسول الله ﷺ يقول: «ليسوا بفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» وكان قد حمل عبد الله بن جعفر بين يديه^(٣).

ذكر من استشهد يوم مؤتة

جابر بن عمرو بن زيد، أبو كلاب^(٤) النجاري، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه شيبه بنت عاصم نجارية.

قال ابن عبد البر: شهد جابر بدرأً وأحداً والخندق والعقبة، وجعله رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٥٥١).

(٢) انظر «الطبقات» ١٢٠/٢، و«دلائل النبوة» ٣٦٩/٤.

(٣) «السيرة» ٣٨٢/٢.

(٤) هكذا جاء في النسخ، والصواب: وأبو كلاب بن عمرو. فهما أخوان، انظر طبقات ابن سعد ٣٣٩/٤.

يوم بدر على الساقة^(١).

قال ابن سعد: كان له ثلاثة إخوة صحبوا رسول الله ﷺ منهم: الحارث استشهد يوم اليمامة وقيس قُتل يوم مؤتة^(٢).

جعفر بن أبي طالب، أبو عبد الله ﷺ، كان أسنَّ من علي كرم الله وجهه بعشر سنين، أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان يسمى: ذا الهجرتين، ويكنى أبا المساكين لأنه كان يتلطف بهم، وكان من المهاجرين الأولين، والمقدم بالحبشة على أصحاب رسول الله ﷺ والمترجم عنهم عند النجاشي، واختط له رسول الله ﷺ داراً بالمدينة إلى جانب مسجده، وأخى بينه وبين معاذ بن جبل، وأنكر الواقدي ذلك، لأن المؤاخاة كانت قبل بدر، ثم انقطعت بآية الميراث وجعفر يومئذ بالحبشة^(٣).

ذِكْرُ مَقْتَلِهِ:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، ثم جعفرأ، ثم ابن رواحة وكنت معهم في تلك الغزاة، فالتمسنا جعفرأ فوجدناه في القتلى ووجدنا فيما أقبل من جسده بضعا وسبعين ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم، ليس في دبره منها شيء. أخرجه البخاري^(٤).

وقال الواقدي: ضربه رومي فقطعه نصفين، فوقع أحد نصفيه في كرم، فوجدوا في نصفه ثلاثين جراحة^(٥).

وقال البخاري: كان ابن عمر إذا سلم على عبد الله بن جعفر يقول: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين^(٦). لأن النبي ﷺ أخبر بذلك.

وقال ابن [سعد] رَفَعَهُ إِلَى أَبِي عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «رَأَيْتُمْ أَصْحَابَ مُؤْتَةَ

(١) في الاستيعاب (٢٠٩٩)، وطبقات ابن سعد ٤٧٩/٣ أن الذي شهد العقبة وبدراً وجعله رسول الله ﷺ على الساقة هو قيس.

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤٧٩/٣، ولم يذكر أن موت قيس كان في مؤتة.

(٣) انظر «الطبقات» ٣٢/٤.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٦١).

(٥) «الطبقات» ٣٥/٤.

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٠٩).

في الجنة على سرر متقابلين، ورأيت جعفرًا ملكًا ذا جناحين مضرَّجًا بالدماء مصبوغَ القوادِمِ»^(١).

وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: مرَّ بي البارحة جعفرٌ في نفر من الملائكة له جناحان مُخَضَّبَ القوادِمِ بالدم، يريدون أرض بيشة^(٢).

قال الشعبي: بيشة من أطيبِ أراضي اليمن وأحسنها، قريبة من قبر هود عليه السلام، يجتمع إليها الشهداء والصائمون.

قال الجوهري: بيشة - بكسر الباء - اسم موضع، قال الشاعر^(٣):

سقى جَدَثًا أَعْرَاضُ غَمْرَةٍ دُونَهُ وبيشة وَسَمِيَّ الرِّبِيعِ ووَإِبلُهُ

وقال عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: جاء رسولُ الله ﷺ إلى بيت جعفر فوجدهم يبكون عليه فقال: «لا تَبْكُوا على أخي، فَإِنَّهُ يَطِيرُ في الجنة» فحَلَقَ رُؤُوسَهُمْ، وقال: «أَمَّا مُحَمَّدٌ: فَشِيبُهُ بَعَمْنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ: فَشِيبُهُ بِخَلْقِي وَخُلْقِي» ثم صنع لهم طعاماً وجعلهم معه في أهله، وقال: «أنا وَلِيُّهُمْ في الدنيا والآخرة»^(٤).

وقال الواقدي: دعا رسول الله ﷺ بأولاد جعفر وهم ثلاثة: عبد الله ومحمد وعون، وأمهم أسماء بنتُ عُمَيْسٍ فشمَّهم ودمعت عيناه وقال لأهمهم: «استوصي بهم خيراً» ولم تكن علمت، فقالت: وما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: «أصيبَ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ في هذا اليوم» فأخذت تصيح فقال: «لا تَفْعَلِي فَإِنَّهُ يَطِيرُ في الجنة بِجَنَاحَيْنِ» ثم دخل على فاطمة رضي الله عنها وهي تبكي وتقول: واعمَّاه، فبكى وقال: «يا بنية، على مثل جعفرٍ فلتبكي البواكي»^(٥).

(١) «الطبقات» ٢/ ١٢٠ - ١٢١ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٤/ ٣٦ دون ذكر بيشة، من حديث عبد الله بن المختار .

(٣) هو الشمردل بن شريك اليربوعي، والبيت في «الصحاح» (بيش)، وفي «الوافي بالوفيات» ١٦/ ١٠٦ .

(٤) الطبقات ٤/ ٣٤ .

(٥) «المغازي» ٢/ ٧٦٦ .

وأخرج الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند» عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه بمعناه، وذكر له في أوله: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً واستعمل عليهم زيد بن حارثة، ثم جعفرأ، ثم ابن رواحة، وذكر فيه: ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عليهم، وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وأخبر بمصارع القوم، ثم أمهل ثلاثاً، ثم أتى آل جعفر فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي» فجيء بنا كأننا أفرأخ فدعا بالحلاق فحلق رؤوسنا ثم قال: «أمأ محمد فشيبة بعمنأ أبي طالب، وأمأ عبد الله فشيبة بخلقي وخلقي» ثم أخذ بيدي فأشالها وقال: «اللهم اخلف جعفرأ في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه - قالها ثلاثاً - فجاءت أمنا فذكرت يئمنأ فقال: «العيلة تخافين [عليهم] وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»^(١).

وفي «المسند» أيضاً عن عبد الله بن جعفر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد جاءهم ما يشغلهم، أو أمر يشغلهم»^(٢).

وقال هشام: حضرت أسماء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «وعليكم السلام» فقالت له: يا رسول الله، على من ترد السلام؟ فقال: «هذا جعفر في كئببة من الملائكة يسلمون علي، وقد عوضه الله بجناحين» وفي رواية: «أخذ اللواء بيده اليمنى فقطعت، ثم باليسرى فقطعت، فعوض بالجناحين فلذلك سمي الطيار بجناحيه حيث شاء»^(٣).

وقال سعيد بن المسيب في مراسيله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثلوا لي في الجنة في خيمة من درة، كل واحد على سرير من ذهب، ورأيت في عنق زيد وابن رواحة صدوداً، وأمأ عنق جعفر فمستقيم ليس فيه صدود، قال: فقيل لي: إنهما لما غشيتهما الموت كأنهما صدأ بوجهيهما، أما جعفر فإنه لم يفعل»^(٤). والصدود: الإعراض.

وحكى شيخنا موفق الدين رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدنا ما بين صدر

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٥٠).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٥١).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٣٦)، والحاكم ٢٣٢/٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٥٦٢).

جَعْفَرٍ وَمَنْكِبِيهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْهُ تَسْعِينَ جِرَاحَةً مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةً^(١) .

قال الشيخ موفق الدين أيضاً: ولما جاء رسول الله ﷺ نَعِيَ جَعْفَرَ وَأَصْحَابَهُ بِكَيْ وَقَالَ: «أَخَوَايَ وَمُؤَنِسَايَ وَمُحَدِّثَايَ» يعني جعفرًا وزيداً^(٢) .

وكان سنُّه يوم قتل سبعاً وثلاثين سنة، لأنه كان أسن من علي ﷺ بعشر سنين، وقيل: كان له خمس وعشرون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل: إحدى وأربعون سنة، والأول أقرب للصواب.

ذكر أولاده:

وهم: محمد، وعبد الله، وعون.

فأما محمد فكان صغيراً على عهد رسول الله ﷺ، وكنيته أبو القاسم، تزوج أم كلثوم بنت عمه علي بعد موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

واختلفوا في وفاته:

فذكر الأموي في «مغازيه» أنه كان مع محمد بن أبي بكر حين بعثه علي رضي الله عنه والياً على مصر، فلما قتل محمد بن أبي بكر هرب محمد بن جعفر إلى فلسطين، فاستجار بأخواله من خثعم فأجاروه، فطلبه معاوية منهم وقال للذي هو عنده: ادفعه إلينا، فقال: والله لا أدفعه إليك أبداً، فقال: إنك لأورّه، أي أحرق، فقال له الرجل: إني والله لأورّه حين أقاتل عن ابن عمك وأقدم ابن أختي حتى تقتله، فأعرض عنه، فلم يزل عنده حتى مات^(٣) .

وقال الهيثم: استشهد بِسُتْرٍ.

وذكر أبو الفرج الأنصاري: أنه قتل يوم صفين، برز له عبيد الله بن عمر بن الخطاب فاعتنقا ووقعا عن فرسيهما ميتين. وليس هذا القول بشيء.

(١) التبيين ١١٤، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٦٤).

(٢) التبيين ١١٥، وانظر «الاستيعاب» ٥٤٨/١ بهامش الإصابة.

(٣) التبيين ١١٩-١٢٠.

وكان لمحمد ولد اسمه: القاسم، تزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر، وأمهما زينب بنت علي عليه السلام، وأم زينب فاطمة عليها السلام، فولدت له طلحة وفاطمة، فتزوج فاطمة بنت القاسم حمزة بن عبد الله بن الزبير.

وأما عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فسندكره إن شاء الله تعالى في سنة ثمانين.

وأما عون بن جعفر فكان غلاماً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الهيثم: ادعى رجل اسمه المساور أنه ابن عون فأقرَّ به عبدُ الله بن جعفر وأعطاه عشرة آلاف درهم وزوجه ابنةً له كانت عمياء، فلما مات عبد الله نفاه أولاده، وليس لعون عقبٌ (١).

أسند جعفر رضي الله عنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه ابنه عبد الله، وأبو موسى الأشعري، وابن عمر، وعمرو بن العاص، وابن مسعود، وعائشة، وأم سلمة وغيرهم رضي الله عنهم.



حُنيف بن رثاب [بن الحارث] بن أمية من بني عمرو بن عوف، من الطبقة الثانية من الأنصار، شهد أحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأستشهد يوم مؤتة، وكان له ولد يقال له: رثاب، شهد الحديبية وباع تحت الشجرة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم اليمامة شهيداً (٢).

زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر، أبو أسامة الكلبي، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال له: زيد بن محمد، وزيد الحَبِّ، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، وأمه سُعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من طيء، زارت قومها ومعها زيد وهو غلامٌ يَفَعَّةٌ فأغارت عليهم خيل لبني القَيْن بن قُضاعة فاحتملوا زيدا فوافوا به سوقَ عكاظ فباعوه، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها بأربع مئة درهم، وقيل: ست مئة، فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضوان الله عليها وهبته له فتناه.

(١) المعارف ٢٠٦، والتبيين ١٢٠.

(٢) تاريخ دمشق ٣٧٢/٥ (مخطوط)، وما بين معكوفين منه.

ويقال: إن رسول الله ﷺ اشتراه لما خرج إلى الشام في تجارة لخديجة، وهو وهم.
وقال ابن عبد البر: تبناه رسول الله ﷺ قبل النبوة بثمان سنين^(١)، وكان رسول الله ﷺ أكبر منه بعشر سنين.

ولما اشتد حزن أبيه عليه حين فقده أقام مدة ينشده ويبكي وقال الشعر، فمن قوله^(٢): [من الطويل]

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أُدْرِ مَا فَعَلَ
فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِى وَإِنْ كُنْتُ سَائِلاً
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرَ رَجْعَةً
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَإِنْ هَبَّتِ الأرواحُ هَيَّجَنَ ذِكْرَهُ
سَأُعْمِلُ نَصَّ العَيْسِ فِي الأَرْضِ جَاهِداً
حَيَاتِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيَّتِي
وَأُوصِي بِهِ كَعَباً وَعَمراً كِلَيْهِمَا

أراد كعب بن شراحيل أخا حارثة، وأما عمرو فهو ابن عم حارثة وهو عمرو بن الحارث بن عبد العزى، وكنيته أبو بشر، وهو جد محمد بن السائب الكلبي، وأما يزيد فهو أخو زيد بن حارثة لأمه وأبيه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، وأما جبل: أراد جبلة، وهو أخو زيد لأمه وأبيه.

وذكر بعض النساب، أن حارثة تزوج امرأة من طيء وقيل: من بني نبهان، فأولدها جبلة وأسماء وأسامة وزيداً ثم توفيت أمهم وبقوا عند جدهم لأهمهم، وأراد حارثة حملهم إلى أهله فأبى جدهم وقال: عندي أرفق لهم، ثم تراضوا على أن يحمل جبلة وأسماء وأسامة ويبقى زيد عنده، فجاءت خيل من تهامة من فزارة فأغارت على طيء فسبت زيداً فوافقت به سوق عكاظ، فرآه رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، فقال لخديجة: «رأيت في السوق غلاماً من صفته كذا وكذا» يصف عقله وأدبه، فأمرت خديجة ورقة

(١) في «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٥٤٥/١: فتبناه رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان سنين.

(٢) الأبيات في «الطبقات» ٣/٣٩.

ابن نوفل فاشتراه من مالها ، فوهبته لرسول الله ﷺ فتبناه إلى أن جاء رجل من كلب فنظر إلى زيد فعرفه فقال : أنت زيد بن حارثة؟ فقال : بل أنا زيد بن محمد، فقال : إن أباك وعمومتك وإخوتك قد أتعبوا الأبدان وأنفقوا الأموال بسببك^(١) .

وقيل : حجَّ قومٌ من كلب فرأوه بمكة فعرفهم وعرفوه، فقال : هل فيكم من يبلغُ

أهلي هذه الأبيات : [من الطويل]

أَلِكُنِي إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِيًا بَأَنِي قَطِينُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ
فَكُفُّوا عَنِ الْوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمْ وَلَا تُعْمِلُوا فِي الْأَرْضِ نَصَّ الْأَبَاعِرِ
فإني بحمد الله في خير أسرة كرام مَعَدُّ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ

فقالوا : نعم، وانطلقوا فأخبروا أهله، فخرج أبوه حارثة وكعب ابنا شراحيل فقديما

مكة، فسألا عن رسول الله ﷺ، فقيل : هو في المسجد، فدخلوا فإذا هو في الحجرِ قاعدٌ

فسلما عليه وقالوا : يا ابن عبدِ المطلب، يا ابن سيِّدِ قومه أنتم أهلُ الله وجيرانه وسكانُ

حرمه تفكُّون العاني وتطعمون الجائع وتكسون العاري وتحملون المنقطع، فقال : «ما

الذي بكما»؟ قالوا : جئناك في فداء زيد ابنا فامن علينا أو أحسن في فداءه إلينا، فقال

رسول الله ﷺ : «فهلَّا غيرَ ذلك»؟ قالوا : وما هو؟ قال : خيرا، فإن اختاركمما، فهو لكما

بغير فداء، وإن اختارني، فما أنا بالذي أختارُ على مَنْ يَخْتَارُنِي أَحَدًا» فقالوا : أحسنت

والله لقد زدت على النصف، فدعاه رسولُ الله ﷺ وقال : «يا زيدُ، أتعرفُ هذين»؟ قال :

نعم، هما أبي وعمي، فقال : «أنا مَنْ قد عَلِمْتَ ورأيتُ صُحْبَتِي، فاخترني أو اخترهما»

فقال : ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنت مني بمنزلة الأب والعم، فقالوا : ويحك يا

زيدُ، أختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهلك؟ قال : نعم، إني قد رأيت

من هذا الرجل أشياء ما أنا بمفارقة ولا أختار عليه أحداً أبداً. فلما قال ذلك قام رسولُ الله

ﷺ في الحجرِ وفيه أعيانُ قريش فقال : «يا مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمَلَأِ، اشهدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي،

أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي» فلما سمع ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا شاكرين، فدعي من ذلك

اليوم زيد بن محمد زماناً حتى جاء الإسلام^(٢) .

(١) انظر «تاريخ ابن عساكر» ١٣٧/١٠ .

(٢) «الطبقات» ٣/٣٩ - ٤١ .

وزوجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وطلَّقها وتزوجها رسول الله ﷺ فقال المنافقون: تزوج محمد زوجة ابنه فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فدعي يومئذ زيد بن حارثة. ونُسب كل من تبناه إلى أبيه^(١).

وقال أسامة بن زيد: كان بين رسول الله ﷺ وبين زيدٍ عشرُ سنين، رسول الله ﷺ أكبر منه، وكان رجلاً قصيراً آدم شديداً الأذمة في أنفه فطس^(٢).

قال المصنف رحمه الله: قوله: «كان آدم شديداً الأذمة» وهم ولين، ففي حديث محرز المدلجي لما رأى أقدام زيد وأسامه، قال الدارقطني: وكان زيد أبيض أحمر أشقر، وأسامه أسود^(٣).

وكُنِيَّةُ أبو أسامة، وهو أول من أسلم من الموالي، شهد بدرًا وأحداً والخندق والحديبية، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة لما خرج إلى المريسيع، وأمره رسول الله ﷺ في سبع أو تسع سرايا وكان من الرماة المذكورين.

وقالت عائشة رضوان الله عليها: لو عاش زيد لاستخلفه رسول الله ﷺ على الأمة^(٤).

وقال ابن عباس: لم يسم أحد من الصحابة باسمه في القرآن إلا زيد ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمه حمزة فأوصى حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إليه.

وقال أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اجتمع جعفر وعلي وزيد بن حارثة فقال جعفر: أنا أحبُّكم إلى رسول الله ﷺ، وقال عليٌّ كذلك، وقال زيد كذلك، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ نسأله، فقال أسامة: فجاؤوا فاستأذنوا عليه فقال: «اخرج فانظر من

(١) «الطبقات الكبرى» ٤١/٣، وفيه: ودُعي الأدياء إلى آبائهم.

(٢) «الطبقات» ٤٢/٣.

(٣) «سنن الدارقطني» (١٣٠).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٤١٠).

هؤلاء؟ فخرجت فقلت: هذا جعفر وعلي وزيد ولم أقل: أبي، فقال: «إئذَن لَهُمْ» فدخلوا فقالوا: يا رسول الله، من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «فاطمة»، قالوا: نسألك عن الرجال؟ فقال: «أما أنت يا جعفر، فأشبهه خُلُقك خُلُقي، وأنت مني وشَجرتي، وأما أنت يا علي، فَخَتني وأبو ولدي، وأنا منك وأنت مني، وأما أنت يا زيد، فمولاي ومني وأحبُّ القوم إليّ» أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه في مسند أسامة رضي الله عنه (١).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عُريانا قط إلا مرة واحدة؛ جاء زيد بن حارثة من غزاة فاستفتح فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فقام عُريانا يجر ثوبه فاعتنقه وقبله (٢).

وعن الهيثم وابن عبد البر عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: حدثني أبي قال: اكرت دابة من الطائف إلى مكة فمال بي الكاري إلى خربة فقال: انزل فنزلت فإذا هي مملوءة قتلى، فأراد أن يقتلني فقلت: دعني أصلي ركعتين فقال: صل فقد صلى هؤلاء قبلك فما نفعهم صلاتهم، قال: فصليت ركعتين وأتاني ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين، فسمع صوتاً يقول: لا تقتله، فخرج يطلب الصوت وهابه وعاد ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين فسمع صوتاً يقول: لا تقتله، فخرج يطلب الصوت وعاد ثالثاً، فبينما أنا كذلك إذا بفارس قد أقبل ويده حربة فيها شعلة نار قطعنه بالحربة فقتله، فقلت: من أنت؟ فقال: ملك لما دعوت في المرة الأولى، كنت في السماء السابعة، فلما دعوت الثانية كنت في السماء الرابعة، فلما دعوت الثالثة كنت في السماء الدنيا، فقيل لي: أدركه، فأيتك (٣).

وقال أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أصيب زيد بن حارثة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهله فجهشت إليه ابنة زيد، فبكى حتى انتحب فقال له سعد بن عباد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «شوق الحبيب إلى حبيبه» (٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢).

(٣) «الاستيعاب» (بهاشم الإصابة) ١/٥٤٨ - ٥٤٩.

(٤) «الطبقات» ٣/٤٤.

وقال علي عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ تَدْمِي قَادِمَتَاهُ، وَرَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ دُونَ جَعْفَرَ، فَقُلْتُ: مَا أَظُنُّ زَيْدًا دُونَ جَعْفَرَ، فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: لَيْسَ زَيْدٌ بِدُونَ جَعْفَرَ، وَإِنَّمَا فَضَّلْنَا جَعْفَرًا لِقَرَابَتِهِ مِنْكَ»^(١).

استشهد زيد وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقيل: ابن ثلاث وخمسين سنة.

ذكر أولاده

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوّج مولاته وحاضنته زيد بن حارثة فولدت له أسامة وكان زيد يكنى به، وكانت تزوجت في الجاهلية قبل زيد عبيد بن عمر^(٢) بن بلال الخزرجي، فولدت له أيمن فكنيت به، استشهد أيمن يوم خيبر.

وقال محمد بن السائب: قَدِمَتْ أم كلثوم بنت عقبة - وأمها أروى بنت كُرَيْزٍ وأم أروى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب - مهاجرة إلى المدينة، فخطبها جماعة منهم: زيد بن حارثة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، فاستشارت أخاها لأمها عثمان رضوان الله عليه فقال: استشيرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشارته فأشار عليها بزید، فتزوجته فولدت له زيد بن زيد، مات وهو صغير، ورُقِيَّةٌ ماتت في حجر عثمان رضي الله عنه، وطلّق زيد أم كلثوم فتزوجها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ثم عمرو بن العاص، ولما طلق زيد أم كلثوم تزوج دُرَّةَ بنت أبي لهب، ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام^(٣).

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله في «المسند» لزيد حديثاً واحداً عن أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَاهُ فِي أَوَّلِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ فَعَلَّمَهُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْوُضُوءِ أَخَذَ غَرْفَةً مِنَ الْمَاءِ فَنَضَحَ بِهَا فَرْجَهُ»^(٤).



(١) «الطبقات» ٣٥/٤ .

(٢) في «الطبقات» ٢١٢/١٠ : عبيد بن زيد .

(٣) «الطبقات» ٤٣/٣ .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٤٨٠) .

سراقة بن عمرو بن عطية، وأمه عَتَيْلَة^(١) بنت قيس نجارية، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار، أبلى يوم مؤتة بلاء حسناً وليس له عَقَب.

عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه كبشة بنت واقد، وكنيته أبو رواحة، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو عمرو، وهو أحد النقباء الاثني عشر، شهد العقبة مع السبعين، وبدراً وأُحُدًا والخندق والحديبية وعُمرة القضاء وخيبر، واستخلفه رسولُ الله ﷺ على المدينة في غزاة بدر الموعد، وبعثه بشيراً إلى أهل العالية بغزاة بدر، وأرسله إلى أسير بن رزام اليهودي فقتله بخيبر، وظلَّ يَخْرُصُ كلَّ عامٍ نخل خَيْبَرٍ إلى أن استُشهِدَ.

وقال موسى بن عقبة: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر يَخْرُصُ نخلهم ويقاسمهم، جعلوا يُهدون له من الطَّعام وجمعوا من حُلِيِّ نساءهم وقالوا: هذا لك وخفَّف عنا وتهاون في القسم. فقال: يا معاشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وإنما بعثني رسولُ الله ﷺ عدلاً بينه وبينكم، فلا إزْبَ لي في دنياكم ولن أحيْفَ عليكم، وإنما عرضتم علي السُّحتَ وأنا لا آكله، فلما أقام الخَرْصَ خيَّروهم فقال: إن شئتم ضمنت لكم نصيبكم وإن شئتم ضمنت لنا وقمتم عليه، فاختروا أن يَضْمَنُوا ويُقيموا عليه. وقالوا: يا ابن رواحة هذا الذي تعملون، به تقومُ السماء والأرض، وإنما يقومان بالحق.

وقال أبو الدرداء: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الشديد الحر، [حتى] إنَّ الرجلَ ليضعُ يدهُ على رأسه من شدة الحر وما في القوم صائمٌ إلا رسولُ الله ﷺ وعبدُ الله بن رواحة^(٢).

وقال النعمان بن بشير: أغمي على خالي عبد الله بن رواحة فجعلت أخته تبكي وتقول: واجبلاه واركناه، وتعدَّد عليه، فلما أفاق قال: ما قلت شيئاً إلا وقيل لي: أنت كذلك؟^(٣).

(١) في النسخ: عقيلة، والمثبت من طبقات ابن سعد ٤٨٠/٣.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤٥)، ومسلم (١١٢٢) (١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٧).

ومدح عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ كثيراً، وكان شاعراً فصيحاً، واستنشدته رسول الله ﷺ فأنشد: [من البسيط]

يا هاشم الخَيْرِ إن الله فضلكم
إني تفرستُ فيك الخيرَ أعرفه
أنت النبيُّ ومن يُحرّم شفاعته
فثبّت الله ما آتاك من حسنٍ
على البرية فضلاً ماله غيرُ
والله يعلم أن ما خانني البصرُ
يومَ الحسابِ فقد أودى به القدرُ
تثبّيت موسى ونصراً كالذي نصروا
فقال رسول الله ﷺ: «وأنت يا عبد الله فثبّتك الله أحسن الثبات»^(١).

وقال قيس بن أبي حازم: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن رواحة: «انزل، فحرك بنا الرّكاب» فقال: يا رسول الله قد تركتُ قولي، فقال له عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: اسمع وأطع، فنزل وجعل يقول:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا الأبيات

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحمه» فقال عمر: وجبت^(٢).

ومعنى قوله: «تركت قولي» لما نزل قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤] قال ابن رواحة: هل ترى أنا منهم وترك الشعر، فنزل قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] الآية^(٣).

وقد رثاه ورثي أصحابه رضي الله عنهم حسان بن ثابت فقال: [من الطويل]

تأوَّبني ليلٌ بيثربٍ أعرُ
لذكرى حبيب هيجت لي عبرة
بلى إن فُقدانَ الحبيبِ بليّة
رأيتُ خيار المؤمنين تتابعوا
وهمُّ إذا ما نَوَّمَ القومُ مُسهرُ
سَفوحاً وأسباب البكاءِ التذكُّرُ
وكم من كريمٍ يُبتلى ثم يَضبرُ
بمؤتةٍ منهم ذو الجناحين جعفرُ
تداعوا وأسباب المنيّة تخطرُ
وزيدٌ وعبدُ الله ابنُ رواحة

(١) انظر «الطبقات» ٤٨٩/٣ ، و«تاريخ دمشق» ٦/٢ ، و«سير أعلام النبلاء» ٢٣٤/١ .

(٢) «الطبقات الكبرى» ٤٨٨/٣ .

(٣) «الطبقات الكبرى» ٤٨٩/٣ .

غداة [مضوا] بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهراً
أغر كضوء البدر من آل هاشم أبي شريف القدر يقظان أخور^(١)
وليس لابن رواحة عقب، وقد روى الحديث فأخرج له البخاري حديثاً موقوفاً^(٢).

وعن عبد الله بن رواحة أنه قدم من سفر ليلاً فتعجل إلى امرأته، فإذا في بيته
مصباح، وإذا مع امرأته صبي، فأخذ السيف فقالت امرأته: إليك عني فهذه فلانة
تمشطني، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فنهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً^(٣).

وعن عكرمة مولى ابن عباس: أن عبد الله بن رواحة كان مضطجعاً إلى جنب
امرأته، فقام وخرج إلى الحجرة فواقع جارية له، وانتبهت امرأته فلم تره، فخرجت فإذا
هو على بطن الجارية، فرجعت وأخذت شفرةً وخرجت فلقبها فقال: مهيم؟ فقالت:
أما إني لو وجدتك حيث كنت لوجأتك بها فقال: وأين كنت؟ فقالت: على بطن
الجارية فقال: ما كنت، قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ نهى أن يقرأ القرآن وهو
جنب، فقالت: فاقرأ فقال: [من الطويل]

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما لاح مشهور من الصبح طالع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
فقالت المرأة: آمنت بالله ورسوله وكذبت بصري، قال: فغدوت إلى النبي ﷺ
وأخبرته فضحك حتى بدت نواجذه^(٤).

قال الإمام أحمد رضوان الله عليه: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحجاج، عن الحكم،
عن ميسم، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك
يوم الجمعة فقدم أصحابه وقال: أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم ألحقهم،

(١) الأبيات في السيرة ٢/ ٣٨٤ وما بين معكوفين منها .

(٢) هو حديث الإغماء المتقدم عند المصنف، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٣٠٢٠)، وجاء في النسخ بعد
قوله: موقوفاً: «رفعه»، ولم يتضح لنا المراد منه، فأثبتناه هكذا .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٧٣٦) .

(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» ١/ ١٢٠، وانظر سير أعلام النبلاء ١/ ١٣٨ .

فلما صلى رآه رسول الله ﷺ فقال له: «لو أنفقت ما في الأرض ما أدركتكم»^(١).

عبد الله بن الربيع بن قيس بن عامر الخزرجي، من الطبقة الأولى من الأنصار، وأمه فاطمة بنت عمرو نجارية، شهد العقبة وبدراً واستشهد بمؤتة.

عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، من الطبقة الأولى من المهاجرين وأمه صفية بنت المغيرة مخزومية، وكان اسمه الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبد الله.

عباد بن قيس بن عبسة، وقيل: عبادة بن قيس بن أمية، من الطبقة الأولى من الخزرج شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

عبيد بن المعلّى بن لؤذان الزرقي، وأمه إدام بنت عوف نجارية، وهو من الطبقة الثانية من الأنصار.

قيس بن عمرو بن زيد^(٢) بن مبدول، من الطبقة الثانية من الأنصار، وأمه شيبه بنت عاصم، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقُتِلَ معه يوم مؤتة أخوه لأبيه وأمه: جابر.

مسعود بن سويد بن حارثة، من بني عدي بن كعب، من الطبقة الأولى من المهاجرين.

وهب بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسيل بن عامر بن لؤي، وأمه مهبنة بنت جابر من الأشعرين، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، شهد بدراً في قول أكثرهم، وشهد أحداً والخندق والحديبية وخيبر، ولما هاجر إلى المدينة نزل على كلثوم، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سويد، فقتلا جميعاً يوم مؤتة شهيدين، ووهب ابن أربعين سنة^(٣).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٦٦).

(٢) وهو قيس بن أبي صعصعة.

(٣) انظر التراجم السالفة في طبقات ابن سعد (على الترتيب) ٤٩٩/٣، ١٢/٥، ٤٩٤/٣، ٤٠٤/٤، ٣/٣.

٤٧٩، ١٣١/٤، ٣٧٧/٣.

وفيها: كانت سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل^(١)، وهي وراء ذات القرى، وبينها وبين المدينة عشر ليالٍ في جمادى الأولى، وقيل: كانت قبل غزاة مؤتة. قال أبو محمد ابن حزم: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاة قد جمعوا للغارة على المدينة، فعقد لعمرو لواءً أبيض ورايةً سوداء، وبعث معه ثلاث مئة من المهاجرين والأنصار، فبلغه أن القوم في جمع عظيم، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فأمدّه بأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في مئتين من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر رضوان الله عليهم، وإنما أمر عمرو بن العاص وقدمه على من ذكر لأن جدته أم العاص بن وائل من قضاة، وقيل: من بلي، وأمره لهذا المعنى، وأوصى رسول الله ﷺ أبا عبيدة رضي الله عنه أن لا يخالف عمراً فأدركه بأرض جدام بذات السلاسل، وجاء وقت الصلاة فتقدم أبو عبيدة، فقال عمرو: أنا الأمير وأنت جئت مدداً، فقال: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ أوصاني وقال «لا تختلفا»، فإن عصيتني أطعتك، دونك فصل بالناس، فصلي، وساروا نحو القوم فهربوا، فغنم المسلمون أموالهم وبعثوا بها إلى المدينة، وكتب عمرو إلى رسول الله ﷺ كتاباً يخبره بهزيمة العدو ووطء بلادهم، وأنفذه مع عوف بن مالك الأشجعي^(٢).

وقال عمرو: لما بعثني رسول الله ﷺ عام ذات السلاسل، فاحتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت له ذلك فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فقلت: نعم يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فتيمنت ثم صليت، فضحك ولم يقل شيئاً^(٣).

قال ابن إسحاق: ومنع عمرو أصحابه أن يؤقدوا في تلك الليلة ناراً وكانت ليلة

(١) «السيرة» ٢/٦٢٣، و«المغازي» ٢/٧٦٩، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٢١، و«تاريخ الطبري» ٣/٣٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٤/٣٩٧، و«المنتظم» ٣/٣٢١، و«البداية والنهاية» ٤/٢٧٣.

(٢) انظر «الطبقات» ٢/١٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٨١٢).

باردةً، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فسأله فقال: كان في أصحابي قلةٌ وفي العدو كثرةٌ فخشيت فقال: «أصبّت»^(١).

وفيها: كانت سرية الخَبَطِ^(٢)، وأميرهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، بعثه رسول الله ﷺ في ثلاث مئة من المهاجرين والأنصار قِبَلَ جُهَيْنَةَ، فأصابهم جَهْدٌ عَظِيمٌ، فأكلوا الخَبَطَ حتى صارت أشداقهم كأشداق الإبل.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن بن موسى، حدَّثنا زهير، حدَّثنا أبو الزبير^(٣)، عن جابر قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة نَتَلَّقَى عَيْرَ قَرِيشٍ وَزَوَدَنَا جِرَاباً مِنْ تَمْرٍ، لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عَبِيدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ فَقَالَ: كُنَّا نَمُصُّهَا ثُمَّ نَشْرِبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ فَتَكْفِينَا إِلَى اللَّيْلِ قَالَ: وَكُنَّا نَضْرِبُ بَعْصِينَا الْخَبَطَ ثُمَّ نَبْلُهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ، قَالَ: وَانْطَلَقْنَا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَرَفَعْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِثْلَ الْكُثِيبِ الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هُوَ دَابَّةٌ تَدْعَى الْعَنْبَرَ قَالَ أَبُو عَبِيدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قَالَ: لَا، بَلْ نَحْنُ رَسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِهِ وَقَدْ اضْطَرَرْنَا فَكُلُوا، فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلَاثٌ مِئَةٌ حَتَّى سَمِنَّا، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَعْتَرِفُ مِنْ وَقْبٍ عَيْنِيهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنِ، وَنَقَطَّعَ مِنْهُ الْفِدْرَ كَقَدْرِ الثَّوْرِ، قَالَ: وَلَقَدْ أَخَذَ أَبُو عَبِيدَةَ ثَلَاثَةَ عَشْرَ رَجُلًا فَأَقَعَهُمْ فِي وَقْبٍ عَيْنِهِ وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا وَتَزَوَدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَاتِقٍ، فَلَمَّا قَدَمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعَمُونَا؟» فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٤).



(١) وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٤٠).

(٢) «السيرة» ٦٣٢/٢، و«المغازي» ٧٧٤/٢، و«الطبقات» ١٢٢/٢، و«تاريخ الطبري» ٣٢/٣، و«دلائل النبوة» لليهقي ٤٠٦/٤، و«المنتظم» ٣٢٢/٣، و«البداية والنهاية» ٢٧٦/٤.

(٣) في النسخ «أبو الوليد» والمثبت من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٣٨)، ومسلم (١٩٣٥)، وأخرجه البخاري (٤٣٦٠) من طريق وهب بن كيسان عن جابر. قوله: «وقب»: هو النقرة التي تكون فيها الحذقة. و«الفدر»: جمع فُدْرَة، وهي القطعة من اللحم و«وشائق» أن يؤخذ اللحم فيغلى قليلاً ولا ينضج، ويحمل في الأسفار.

وفيها : كانت سرية أبي قتادة الأنصاري إلى خضرة^(١) ، وهي أرض مُحارب بنجد ، في شعبان ، بعثه رسول الله ﷺ في ستة عشر رجلاً ، فشنوا الغارة على غطفان ، وقتلوا أشرافهم ، وساقوا مئتي بعير وألفي شاة وأربع نسوة .

وقيل : كان أمير هذه السرية عبد الله بن أبي حذرَد الأسلمي ، وهو وهم ؛ لأن سرية ابن أبي حذرَد إلى قيس بن رفاعة الجشمي في شعبان .

هذا ذكر سرية عبد الله بن أبي حذرَد :

قال الإمام أحمد رحمه الله عليه : حدَّثنا يعقوب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن عبد الواحد^(٢) بن أبي عون ، عن جدته ، عن عبد الله بن أبي حذرَد الأسلمي أنه ذكر أنه تزوج امرأة ، فأتى رسول الله ﷺ يستعينه في صداقها ، فقال : «كَمْ أَصْدَقْتَهَا؟» قال : مئتي درهم ، قال : «لو كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ الدَّرَاهِمَ مِنْ وَاوَدِيكُمْ هَذَا مَا زِدْتُمْ ، مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ» قال : فمكثتُ ، فدعاني رسول الله ﷺ فبعثني في سرية نحو نجد وقال : «لَعَلَّكَ أَنْ تُصِيبَ شَيْئاً فَأَنْفَلَكَهُ» .

قال : فخرجنا حتى جئنا الحاضرَ مُمَسِّينَ ، فلما ذهبَت فَحْمَةُ العِشَاءِ ، بَعَثْنَا أَمِيرُنَا رَجُلَيْنِ رَجُلَيْنِ فَأَحْطَنَا بِالْعَسْكَرِ ، وَقَالَ : إِذَا كَبَّرْتُ وَحَمَلْتُ فَكَبِّرُوا وَاحْمِلُوا ، قَالَ : وَسَمِعْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ يَصِيحُ : يَا خَضِرَةَ ، فَتَفَاءَلْتُ بِأَنَا سُنُصِبُ مِنْهُمْ خَضِرَةَ ، فَلَمَّا أَغْنَمْنَا كَبَّرَ أَمِيرُنَا وَحَمَلَ ، فَكَبَّرْنَا وَحَمَلْنَا ، وَكَلُّ اثْنَيْنِ مِنَّا فِي نَاحِيَةٍ ، قَالَ : فَمَرَّ بِي رَجُلٌ فِي يَدِهِ سَيْفٌ فَاتَّبَعْتَهُ ، فَقَالَ لِي صَاحِبِي : إِنْ أَمِيرُنَا عَهْدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُنْمِعَنَّ فِي الطَّلَبِ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا تُتْبَعَنَّ ، فَتَبَعْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِسَهْمٍ عَلَى جُرَيْدَاءٍ مَثْنَهُ فَوْقَ ، وَقَالَ : أَدُنُّ يَا مُسْلِمُ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَلَمْ أَدُنُّ إِلَيْهِ وَرَمَيْتَهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَأَخْنَتُهُ فَرَمَانِي بِالسَّيْفِ فَأَخْطَأَنِي ، وَأَخَذْتُ السَّيْفَ فَقَتَلْتَهُ بِهِ وَاحْتَزَزْتُ بِهِ رَأْسَهُ ، وَشَدَدْنَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذْنَا نَعْمًا كَثِيرًا وَغَنِمْنَا وَانصَرَفْنَا ، فَأَصْبَحَتْ إِذَا بَعِيرِي مَقْطُورٌ بِبَعِيرٍ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ شَابَةٌ جَمِيلَةٌ ، فَجَعَلْتُ تَلْتَفْتُ إِلَى خَلْفِهَا وَتَكَثَّرَ الِالْتِفَاتُ ، فَقُلْتُ لَهَا : إِلَى أَيْنَ تَلْتَفْتِينَ؟ فَقَالَتْ : إِلَى رَجُلٍ لَوْ كَانَ حَيًّا لَخَالَطَكُمْ ، قَالَ : وَظَنَنْتُ أَنَّهُ صَاحِبِي ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ قَدْ قَتَلْتُهُ وَهَذَا سَيْفُهُ ، وَهُوَ مَعْلَقٌ فِي قَتَبِ البَعِيرِ

(١) «المغازي» ٧٧٧/٢ ، و«الطبقات» ١٢٣/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٣٤/٣ ، و«المنتظم» ٣٢٢٣/٣ .

(٢) في النسخ : «عبد الله» والمثبت من أحمد .

الذي أنا عليه، وغمدُ السيف الذي ليس فيه شيء معلقٌ بقتبٍ بغيرها، فلما قلت لها ذلك قالت: دونك هذا الغمد فشيمه فيه إن كنت صادقاً، فأخذته فشيمته فطبقته، فلما رأته ذلك بكت، وقدمنا على رسول الله ﷺ فأعطاني من ذلك النعم الذي قدمنا به (١).

وقال الواقدي: كان عبد الله بن أبي حدرد قد تزوج امرأة، فاستعان برسول الله ﷺ في مهرها، فقال: «كم مهرها؟» قال: أصدققتها مئتي درهم، فقال: «سبحان الله، لو كنتم تأخذون الدرهم من بطن وادٍ ما زدتم على هذا، ما عندي ما أعطيك» فأقمت أياماً وأقبل قيس بن رفاعة الجشمي في جيشٍ كثيفٍ فنزل الغابة يريد أن يجمع الناس على حرب رسول الله ﷺ، فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين وقال: «اخرجوا إلى هذا الرجل، وأتوني بخبره» وأعطانا شارفاً عجفاءً فحملنا عليها أحدنا فما قامت حتى دعمها الرجال من خلفها وقال: «تبلغوا عليها واعتقبوها»، قال: فخرجنا إلى الحاضرِ عشيةً مع غروب الشمس، وكمنْتُ في ناحية وكمن صاحباي في ناحية، وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبرت فكبروا وشدوا معي على القوم، ثم كبرت وكبروا وشددنا عليهم، وكان لهم راعٍ فأبطأ عليهم، وكان قيس بن رفاعة قد خرج في طلبه بنفسه، قال عبد الله: ومرّ بي فرميتُه بسهم فوق في فؤاده فمات وسيفه في عنقه، فوثبت إليه فقطعت رأسه، ثم شددنا على القوم فصاحوا: النجاء النجاء، واستقنا إبلاً كثيرةً وغنمنا وجئنا بها إلى رسول الله ﷺ، فوضعتُ رأس قيس بين يديه فدعا لي وأعاني بثلاثة عشر بغيراً، فسقت مهر امرأتي من بعضها (٢).

وفيها: كانت سرية أبي قتادة الأنصاري إلى بطنِ إضم (٣)، جبل بينه وبين المدينة ثلاثة بُردٍ، وكان في السرية مُحلم بن جثامة اللثي وعبدُ الله بن أبي حدرد المذكورُ آنفاً. قال عبد الله: فلقينا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعودٍ، فسلم بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه مُحلم بن جثامة فقتله لشيء كان في نفسه وأخذ بغيره وسلبه،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٨٢).

(٢) «الغازي» ٧٧٧/٢ - ٧٨٠.

(٣) «الطبقات» ١٢٣/٢، و«تاريخ الطبري» ٣٥/٣، و«المنتظم» ٣٢٣/٣، وفي «السيرة» ٦٢٦/٢ غزوة ابن

فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر، فأنكر علينا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] الآية (١).

قال المصنف رحمه الله: وهذا أحد الأقوال في سبب نزول هذه الآية.

والثاني: أن المقداد خرج في سرية إلى قوم، فوجدهم قد تفرقوا وبقي منهم رجل كثير المال، فقصده المقداد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله، فنزلت هذه الآية (٢).

والثالث: أن رجلاً من بني سليم مرَّ على نفر من المسلمين ومعه غنم فسلم عليهم فقالوا: ما سلم إلا متعوذاً، فقتلوه وأخذوا غنمه (٣).

والرابع: أنها نزلت في سرية كان فيها أسامة بن زيد رضي الله عنه أغار على قوم فهربوا وبقي منهم رجل قد أسلم يقال له: مرداس، فسلم عليهم، فقتله أسامة (٤).

وقيل: إنما كان أمير السرية غالب بن فضالة وأسامة معه.

وقال الواقدي: إنما بعث رسول الله ﷺ هذه السرية في رمضان، وكانوا ثمانية، ثم خرجوا إلى غزاة الفتح فبلغهم خروجه فوافوه بالسُّقيا (٥).

وفيها: عَمِلَ المنبر، وقيل: في سنة سبع، قيل: عمله غلام للعباس يقال له: كلاب، وقيل: صباح، وقيل: غلام لامرأة من الأنصار يقال له: مينا.

وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع في المسجد، فشق عليه القيام فقال له تميم الداري: يا رسول الله، ألا أصنع لك منبراً كما يصنعون بالشام؟ فشاور رسول الله ﷺ أصحابه فقالوا: لا بأس به، فقال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٨١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٧٩) من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث سرية فيها المقداد بن الأسود... وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ١٦٥ من حديث سعيد بن جبير قال: خرج المقداد بن الأسود في سرية....

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٢٣) من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥/٢٦٣ - ٢٦٤.

(٥) انظر «الطبقات» ٢/١٢٣ - ١٢٤.

إن لي غلاماً يقال له: كلاب، أعملُ الناس لهذا، فقال له ﷺ: «مُرُهُ فَلْيَعْمَلْهُ»، فأرسله إلى أثل الغابة فقطع أثلةً، وعمل فيها دَرَجَتَيْنِ ثُمَّ جاء به فوضعه موضعه اليوم، فجاء رسولُ الله ﷺ فقام معه وقال: «مِنْبَرِي هَذَا عَلَى تُرْعَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَوَائِمُهُ رَوَاتِبٌ فِي الْجَنَّةِ» ثُمَّ سَنَّ الْأَيْمَانَ عَلَى الْحَقُوقِ عِنْدَ مَنْبَرِهِ وَقَالَ: «مَنْ حَلَفَ عِنْدَ مَنْبَرِي كَاذِبًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ مَا بَيْنَ مَنْبَرِي إِلَى حُجْرَتِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ مَنْبَرِي عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وقال جابرٌ: كان رسولُ الله ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهَا غَلَامٌ نَجَارٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي غَلَامًا نَجَارًا، أَفَلَا أَمْرُهُ يَتَّخِذُ لَكَ مَنْبَرًا تَخْطُبُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَاتَّخَذَ لَهُ مَنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَطَبَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَإِنَّ الْجَذَعِ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ كَانَ يَتُّنُّ كَمَا يَتُّنُّ الصَّبِيُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذُّكْرِ». انفرد بإخراجه البخاري^(٣).

وعن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنْدُ إِلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ مَنْبَرُهُ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ، حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلَ الْمَسْجِدِ، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا فَاعْتَنَقَهَا فَسَكَتَتْ. أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»^(٤).

ولم يزل المنبر على حاله حتى حج معاويةٌ بَعْدَمَا بُويعَ، فزاد فيه ستَّ درجاتٍ، فشق ذلك على الصحابةِ ﷺ وقالوا: غَيَّرَ آثَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ: يَا قَوْمَ لَا تَعْجَبُوا مِنْ هَذَا وَاعْجَبُوا مِنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ كَيْفَ يَقُومُ مَقَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَمِيتُ السُّنَنَ وَيُحْيِي الْبِدْعَ.

وكان عزمُ معاويةَ إذا عاد من الحج نقلَ المنبرَ إلى الشام، فلما قفل من الحج أمر

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢١٥/١ .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٥١٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٨٤)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٤٢٠٦) .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤١٤٢) .

بنقله فأظلمت الدنيا وزُلزلت وجاءت الصواعقُ من كل مكان، فتركه وبقي على تلك الحال مدة أيام بني مروان، فلما ولي السفاح ردهُ إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ وبقيت آثاره.



وفيها: كانت غزاةُ الفتحِ في رمضان^(١)، أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد مؤتة جمادى الآخرة ورجب وشعبان.

قال الواقدي: كانت خزاعة في الجاهلية قد أصابوا رجلاً من بكر وأخذوا ماله، فمَرَّ رجل من خزاعة على بني الدَّيل بعد ذلك فقتلوه، ووقعت الحرب بينهم^(٢).

قال ابن إسحاق: كان الذي أهاج الحرب بين خزاعة وبكر، أن رجلاً من بني الحضرمي يقال له: مالك بن عَبَّاد خرج^(٣) تاجراً، فلما تَوَسَّطَ أرضَ خُزَاعَةَ عَدَّوْا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجلٍ من خزاعة فقتلوه، واستمرت الحربُ، فمَرَّ بنو الأسود بن رِزْنٍ - وهم ذُؤَيْبٌ وكُلثُومٌ وسَلْمَى - فقتلوهم عند أنصاب الحرم بعرفة، وكان بنو الأسود يُدَوِّنُ في الجاهلية بديتين لفضلهم في بني بكر. فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك جاء الإسلام فحجز بينهم، فلما كان صلحُ الحديبية دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وبكرٌ في قريش، على ما تقدم.

قال الواقدي: وكانت خزاعة حُلَفَاءَ لعبد المطلب، فجاءت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بكتاب الصلح فقرأه أبي بن كعب عليه وفيه:

باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة، إذ قَدِمَ عليه سرَّواتهم وأهل الرأي منهم، غائبهم مُقَرِّباً بما قضى عليه شاهدتهم، إن بيننا وبينهم عهدُ الله وعقودُه، ما لا يُنسى أبداً، ما أشرفَ ثبيرٍ وثبت حِراءَ، وما بَلَّ بحرٌ صُوفَةَ، لا يزداد

(١) «السيرة» ٣٨٩/٢، و«المغازي» ٧٨٠/٢، و«الطبقات الكبرى» ١٢٤/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٢/٣، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/٥، و«المنتظم» ٣٢٤/٣، و«البداية والنهاية» ٢٧٨/٤.

(٢) «المغازي» ٧٨١/٢.

(٣) في «النسخ» مالك بن عباد بن خلف، وما أثبتناه من «السيرة» ٣٨٩/٢، و«تاريخ الطبري» ٤٣/٣.

فيما بيننا وبينكم إلا تَجَدُّدًا أَبَدَ الدهرِ سَرْمَدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أَعَرَفَنِي بِحَقِّكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحِلْفِ، وَكُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا تَأْكِيدًا»^(١).

ولمسلم: عن جابر بمعناه، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ»^(٢).

قال الواقدي: وكان آخر ما كان بين خزاعة وكنانة وبكر أن أنس بن رهم الدبلي هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلامٌ من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشرُّ مع ما كان بينهم من العداوة، فلما دخل شعبان هذه السنة كلَّمت بكرٌ أشرافَ قريش في النُّصرة على خزاعة، فأعانهم على ذلك صفوان بن أمية ومِكرزُ بن حفص وحُوَيْطُبُ بن عبد العزى وعِكرمةُ بن أبي جهل ولم يشاوروا أبا سفيان بن حرب، وقيل: إنهم شاوروه فأبى عليهم، ثم اتَّعدوا الوتيرَ: ماءً قريب من مكة، وخرج رؤساء قريش بمن معهم إلى بكر، ورأس بكر نوفل بن معاوية الدبلي، فبيَّتوا خزاعة ليلاً وهم غارُّون، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى انتهوا إلى الحرم ودخلوا دارَ زَيْدِ بنِ وَرْقَاءِ، وعاد رؤساء قريش في عماية الصُّبْحِ إلى منازلهم وهم يظنون أنهم لم يُعْرِفُوا وَأَنَّ هَذَا لَا يَبْلُغُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وقتلوا من خُزاعة عشرين، فلما أصبحوا ندمت قريشٌ وعرفوا أنه سببٌ لنقض العهد بينهم وبين رسولِ الله ﷺ^(٣).

وجاء الحارثُ بن هشام وعبدُ الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان بن حربٍ وأخبراه بما فعل القومُ، فقال: هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وإنه لشرٌّ، والله ليغزونا محمد، ولقد حدثني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت دمًا أقبل من الحَجون يسيلُ حتى وقف بالخندمة، فكره القومُ ذلك، فقال له الحارث: ما لها سواك؛ أُخْرِجْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَكَلِّمَهُ فِي تَجْدِيدِ الْعَهْدِ وَزِيَادَةِ الْمُدَّةِ.

(١) «المغازي» ٢/ ٧٨١ - ٧٨٢ .

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٦١)، ومسلم (٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم، وليس من حديث جابر .

(٣) «المغازي» ٢/ ٧٨٣ - ٧٨٤ .

وقيل : إن أبا سفيان قال ذلك ابتداءً ، فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين وهو يرى أنه أول من يخرج إلى رسول الله ﷺ فأسرع السير^(١) .

وقال رسولُ الله ﷺ لعائشة رضوان الله عليها صبيحة كانت الوقعة بالوتير : «يا عائشةُ ، قد حدثَ في خُزاعة أمرٌ» ، فقالت : أفترى قُريشاً تجترئ على نقض العهد بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ : «ينقضونَ العهدَ لأمرٍ يُريدُهُ اللهُ تعالى بهم» . قالت عائشة : لخير أو لشر؟ قال : «لخير»^(٢) .

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسولَ الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم من قريش ، فقدموا المدينة ورسولُ الله ﷺ في المسجد ورأسُ خزاعة عمرو بن سالم ، فاستأذن رسولَ الله ﷺ في الإنشاد فأذن له فقال : [من
الرجز]

لا هُمَّ إني ناشدُ محمداً
حلفَ أبينا وأبيكَ الأثلدا
قد كُنْتُمْ وُلداً وكنّا والدا
ثُمَّتْ أسلمنا ولم نَنْزِعْ يدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
فانصر هداك الله نصرأ أيّدا
وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا
هم بيّتوننا بالوتير هُجّدا

(١) «المغازي» ٢/ ٧٨٥-٧٨٦ .

(٢) «المغازي» ٢/ ٧٨٨ .

فَقَتَّلُونَا رُكْعَا وَسُجَّدَا
وَزَعَمُوا أَن لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

فقام رسول الله ﷺ وهو يجر طرف ثوبه ويقول: «لا نُصْرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ
بِمَا أَنْصُرُ مِنْهُ نَفْسِي»^(١). وقال: «وَكَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَقَدْ جَاءَ يَقُولُ: جَدُّ
الْعَهْدِ وَزِدُّ فِي الْمَدَّةِ وَهُوَ رَاجِعٌ بِسَخَطِهِ».

وكان القوم لما خرجوا من المدينة تفرقوا، وسلك بديل بن أسرم الطريق في نفرٍ
يسير، فلقيهم أبو سفيان فقال: أين كنتم؟ قال بديل: كنا في الساحل نصلح بين الناس
في قتيل، قال: فهل أتيت محمداً بيثرب؟ قال: لا نعلم أنه قد كان بالمدينة. فلما
ارتحل بديل قام أبو سفيان إلى مباركهم ففتت أبعار إبلهم، فوجد فيها النوى فتيقن
ذلك، فقدم المدينة فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إني كنت غائباً عن
صلح الحديبية فجدد الهدنة وزد في المدّة، فقال له رسول الله ﷺ: «ولهذا قدمت؟»
قال: نعم، قال: «فهل حدث منكم حدث؟» قال: معاذ الله، فقال رسول الله ﷺ:
«فَنَحْنُ عَلَى مَدَّتِنَا وَصُلْحِنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ».

فقام من عنده فدخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله
ﷺ طوته دونه، فقال: أرغبت بهذا الفراش عني، أو بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش
رسول الله ﷺ وأنت امرؤ مشرك نجس، فقال: يا بنية، لقد أصابك بعدي شر، فقالت:
هداني الله للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، واعجباً منك يا أبت، وأنت
سيد قريش وكبيرها. فقال: أفأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد، ثم قام من
عندها، فلقي أبا بكر رضي الله عنه فقال له: يا ابن أبي قحافة كلم محمداً، أو تُجير أنت بين
الناس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: جوارِي فِي جِوَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثم لقي عمرَ رضوان الله عليه فكلمه بمثل ما كلم به أبا بكر، فقال عمر: أنا أكلم
رسول الله ﷺ! والله لو وجدت الذرّ يُقاتلكم لأعنتها عليكم، فقال أبو سفيان: جُزِيتَ
من فتى رحمة شراً.

(١) «المغازي» ٢/ ٧٩٠-٧٩١.

ثم دخل على عثمان رضوان الله عليه فقال: ليس في القوم أحد أقرب بي وأمسُّ رحماً منك، فقال: جوارِي في جِوارِ رسولِ الله ﷺ^(١).

فدخل على فاطمة رضي الله عنها وعندها علي رضوان الله عليه والحسن والحسين رضوان الله عليهما يَدْبَانِ بين يديهما فقال لها: يا بنت محمد، أجيري بين الناس، فقالت: أنا امرأة، فقال: قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع وأجاز ذلك محمدٌ، فقالت: هذا إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: مُري أحدَ ابنك هذين أن يجير بين الناس، فقالت: هما صبيَّان وليس مثلُهما يُجِير، فقال لعلي رضوان الله عليه: يا أبا الحسن، أجر بين الناس أو كلِّم محمداً، فقال: ويحك يا أبا سفيان ليس أحد منا يستطيع أن يكلم رسولَ الله ﷺ فيما يكره، فقال: أشرْ عليّ. قال: ما أجد لك شيئاً مثل أن تقوم فتجير بين الناس، فإنك سيِّدُ بني كنانة، قال: فهل ينفعني؟ قال: لا أظن ذلك ولكن لا أجد لك غيره^(٢).

فقام وصاح: ألا إني قد أجرْتُ بين الناس، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت تقولُ هذا يا صخرُ» ثم ركب راحلته وسار نحو مكة وكانت غيبته قد طالت واتهمته قريش وقالوا: قد صبأ واتبع محمداً وكنتم إسلامه، فدخل على امرأته هند ليلاً، فقالت: قد طالت غيبتك حتى اتَّهَمَكَ قومُك، فإن كنت مع طول غيبتك جئتهم بنُجْحِ فأنت الرجل، ثم دنا منها وجلس مَجْلِسَ الرجلِ من امرأته فجعلت تقول: ما الخبر؟ قال: لم أجد إلا ما قال عليٌّ، فضربت برجلها في صدره وقالت: قم قُبِّحْتَ من رسولِ قومٍ، فلما أصبح حلق رأسه عند إساف ونائلة وذبح لهما ومسح بالدم رؤسهما إبراءً لما اتهمته به قريش، ثم سأله أعيان قريش عما جرى فأخبرهم، قالوا: فأجاز محمد قولك؟ قال: لا، قالوا: والله ما زاد عليّ على أن لَعِبَ بك^(٣).

وقال رسولُ الله ﷺ لعائشة رضوان الله عليها: «جَهِّزينا ولا يشعُر أحدٌ»، فكتمت ذلك^(٤).

(١) «المغازي» ٢/ ٧٩١ - ٧٩٣ .

(٢) «المغازي» ٢/ ٧٩٣ - ٧٩٤ .

(٣) «المغازي» ٢/ ٧٩٤ - ٧٩٥ .

(٤) «المغازي» ٢/ ٧٩٦ .

ولما أجمع رسول الله ﷺ على المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وأعيان قريش يخبرهم الخبر، ودفع الكتاب إلى سارة مولاة المطلب - وقيل: اسمها كنود من مزينة - وجعل لها جُعللاً على أن تبلغ الكتاب إلى قريش، فجعلته في رأسها وقتلت عليه قُرونها وخرجت به، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فقال لعلي والزبير رضي الله عنهما: «أدركا المرأة فإن معها كتاب حاطب إلى الكفار بما أزمعنا عليه»، فخرجا فأدركاها بذي الحليفة، فاستنزلاها وفتشا رحلها وفتشاها فلم يجدا شيئاً، فقال علي رضوان الله عليه: والله لتخرجن الكتاب أو لا أكشفنك، فلما رأت الجد حلت قُرونها وأخرجته، فرجعا به إلى رسول الله ﷺ فدعا حاطباً وقال: «ما دعاك إلى هذا؟» فقال: يا رسول الله، والله إني مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكن ليس لي في مكة عشيرة وأهل، وولدي بين ظهرانيتهم فصانعتهم عليهم. فقال عمر رضوان الله عليه: دعني أضرب عنقه فقد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] الآية^(١).

وقد أخرجنا القصة في «الصحيحين» أن عبد الله بن أبي رافع سمع علياً يقول: بعثني رسول الله ﷺ والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا إليها تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلت: لتُخرجن الكتاب أو لتُقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصيها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟» فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهاليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً - أوفيهم يداً - يحمدون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا

(١) «السيرة» ٣٩٨/٢، و«المغازي» ٧٩٧/٢ - ٧٩٨.

رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «قد صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب رقبة هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». متفق عليه^(١).

و«روضة خاخ»: مكان قريب من المدينة.

و«العقاص»: الخيط الذي يعقص به الشعر الملتصق القريب.

قال البلاذري: ومضت سارة من فورها إلى مكة وكانت مغنية، فأقبلت تهجو رسول الله ﷺ وتتغنى بذلك، فأمر يوم الفتح بقتلها^(٢).

وقال الثعلبي: هي سارة مولاة عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة بعد بدر بسنتين فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا، قال: «أفمهاجرة؟» قالت: لا، قال: «فما جاء بك؟» فقالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليي واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتحملوني وتكسوني، فقال لها رسول الله ﷺ: «[أين] أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية نائحة، فقالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر. فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب فكسوها وحملوها، فأتاها حاطب حليف بني أسد بني عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة كتاباً وأعطاه عشرة دنانير.

وقال مقاتل: أعطاه عشرة دنانير وكساها بُرداً، وكتب معها إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ [يريدكم] فخذوا جذركم. وخرجت تريد مكة، ونزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل علياً وعماراً وعمر والزيبر وطلحة والمقداد وأبا مرثد الغنوي وكانوا فرساناً وقال: «انطلقوا إلى روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها وخلوا سبيلها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها». فلما وصلوا إليها سألوها فأنكرت، ففتشوها فلم يجدوا معها شيئاً فهموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا ولا كُذبتنا وسل سيفه، وقال: أخرجني الكتاب وإلا ضربت

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) «أنساب الأشراف» ٤٢٤/١، وليس فيه: فأمر بقتلها.

عنقك، فلما رأت الجدَّ أخرجته من ذوائبها قد خبأته في شعرها، فخلوا سبيلها، فرجعوا بالكتاب وذكر بمعنى ما تقدم^(١).

ذِكْرُ مَسِيرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ:

كتب إلى القبائل فقدم عليه إلى المدينة أسلم وغفار ومزينة وجُهينة وأشجع، وبعث إلى بني سليم فوافوه بقديد، فأما جميع العرب فخرجوا معه من المدينة في عشرة آلاف. قال علماء السير: وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضي من رمضان وهو صائم، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، وسار في المهاجرين والأنصار، ووافته القبائل على المياه.

قال الواقدي: لقيه العباس بن مرداس بقديد في ألف من بني سليم وأنس بن عباس^(٢)، وكان أنس وفد على رسول الله ﷺ المدينة في بني سليم وفيهم قيس بن نُسَبة، فسمع كلام رسول الله ﷺ ورجع إلى بني سليم وقال: والله لقد سمعت تراجم الروم، وهممة فارس، وكهانة الكهان، وقصائد العرب، فما يشبه كلام محمد شيئاً من ذلك، فأسلموا ترشدوا، فأسلموا وكان لهم صنم وله سادن يقال له: غاوي بن عبد العزى، فدخل يوماً على الصنم فرأى ثعلبين يبولان عليه فقال:

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب ثم شد على الصنم فكسره وجاء رسول الله ﷺ مسلماً فقال له: «ما اسمك؟» فقال: غاوي بن عبد العزى، فقال: «أنت راشد بن عبد ربّه» وحسن إسلامه، وأقطعه رسول الله ﷺ رهاطاً وفيها عين يقال لها: عين الرسول، وعقد له لواءً على قومه وقال: «خير سليم راشد» وكان يُقدّم سليماً أنس بن عباس يوم الفتح^(٣).

ولما نزل رسول الله ﷺ قديداً وافته القبائل من الأعراب الذين حول المدينة: أسلم

(١) انظر تفسير الثعلبي ٢٩١/٩، و«أسباب النزول» للواحي ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢) في «الطبقات»: أنس بن عياض بن رعل. وفي «الإصابة» ٧٠/١: أنس بن عباس بن رعل، نقلاً عن «الطبقات».

(٣) انظر «الطبقات» ٢٦٥/١ - ٢٦٦، ورواية البيت في كتب اللغة: «يبول الثعلبان»، والثعلبان: ذكر الثعالب. أدب الكاتب ٢٢/١، وفقه اللغة ١٢٧٨/١.

وغفار ومزينه وجهينه وأشجع ونحوهم، فعقد لهم الرايات وفرقتها فيهم، ولحقه عيينة ابن حصن بالعرج والأقرع بن حابس بالسُّقيا^(١).

قال البلاذري: ولقيه العباس بن عبد المطلب بذي الحليفة قد أظهر إسلامه، فأمره أن يبعث بثقله إلى المدينة ويعود ليشهد فتح مكة وقال له: «يا عم، هجرتك آخر هجرة، كما أن نبوتني آخر نبوة»^(٢).

وعمى الله الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل.

وقال الواقدي: نزل رسول الله ﷺ بالعرج، ولا يعلم الناس أين يقصد إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف، فقال كعب بن مالك: أنا أعلم لكم علمه، فجاء فجثا بين يديه وقال: [من الوافر]

قضينا من تهامة كل ريب
نسائلها ولو نطقت لقات
ولست لمالك إن لم تروها
وننتزع الخيام ببطن وج
وخيبر ثم أجمنا السيوفا
قواطعهن دوساً أو ثقيفا
بساحة دارهم منّا ألوفنا
ونترك دارهم منهم خلوفنا
فتبسم رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فلما نزل مر الظهران تيقنوا أنه قاصد مكة^(٣).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح في رمضان، فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر^(٤).

قال الزهري: وكان الفطر آخر الأمرين من رسول الله ﷺ وإنما يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ بالآخر فالآخر. أخرجه مسلم^(٥).

وقال ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ إلى مكة فصام حتى بلغ عُسفان، ثم دعا بماء

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٣/ ٥١ - ٥٢.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/ ٤٢٥.

(٣) «المغازي» ٢/ ٨٠٢.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٤٤)، ومسلم (١١١٣).

(٥) مسلم ٢/ ٧٨٥.

فرفعه على يده ليريه الناس فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان، وكان ابن عباس يقول: قد صام رسول الله ﷺ وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر^(١).

وأخرجه الحميدي وفيه: خرج رسول الله ﷺ من المدينة في عشرة آلاف وذلك على رأس ثماني سنين ونصف من هجرته أو من مقدمه المدينة، فسار بمن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد، وهو ما بين عُسْفَانَ وقُدَيْدِ أفطر وأفطروا، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر فصَبَّح رسول الله ﷺ مكة لثلاث عشرة مضت من رمضان^(٢).

ولمسلم: عن جابر قال: لما بلغ رسول الله ﷺ كُرَاعَ الغَمِيمِ وصام الناس، قيل له: قد شق على الناس، فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه، فأفطر بعضهم وصام البعض، وبلغ رسول الله ﷺ فقال: «أولئك العُصَاةُ»^(٣).

قال الواقدي: ولما كانت الليلة التي نزل بها رسول الله ﷺ مَرَّ الظهران خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعي - وكان نازلاً بمكة - يتجسسون الأخبار، فقال العباس رضي الله عنه: واسوء صباحاه، والله لئن بَغَت ابن أخي قريشاً في دارها ودخل مكة عَنَوَةً إنه لَهلاك [قريش] آخر الدهر، قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وقلت: أَخْرُجْ إلى الأراك لعلي أرى حطاباً أو صاحب لبن يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيأخذون منه أماناً.

قال العباس: فوالله إني لأطوف في الأراك إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وأبو سفيان يقول: والله ما رأيت نيراناً مثل هذه، فقال بُدَيْلُ: هذه نيران خُزَاعَةَ، وكانوا قد أوقدوا في تلك الليلة عشرة آلاف نار، فقال أبو سفيان: خُزَاعَةُ أَقْلٌ من ذلك وأذُلُّ، قال العباس: فناديته: أبا سفيان، فَعَرَفَ صوتي فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، فقال: لبيك، فداك أبي وأمي ما وراءك؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ قد دَلَفَ إليكم في عشرة آلاف من المسلمين ولا قِبَلَ لكم به، وقلت: اركب على

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٨)، ومسلم بعد (١١١٣).

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٩٧٨)، وأخرجه البخاري (٤٢٧٥) و (٤٢٧٦).

(٣) مسلم (١١١٤).

عَجَزِ هذه البغلة فأستأمنُ لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفِرَ بك ليَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، قال: فَرَدَفَنِي فخرجت أركضُ البَغْلَةَ، فكلّما مررت بناٍرٍ قالوا: هذا عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررتُ بناٍرِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلما رأى أبا سفيان عرفه فقال: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدوّ الله بغير عقد ولا عهد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ وركضتُ البغلة حتى اقتحمت باب القبة فسبقته، ثم جاء فقال: يا رسول الله، هذا عدوّ الله ابنُ حرب قد أمكن الله منه فدعني أضرب عنقه، قال: فقلت: فإني قد أجرته فلا سبيل عليه، فأكثر عمر القول، فقلت: يا ابن الخطاب والله ما تفعلُ هذا إلا لأنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان رجلاً من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، فقال: مهلاً يا عباس، فوالله إن إسلامك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك سرّ رسول الله ﷺ [فقال رسول الله ﷺ] «قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فاذهب به حيث شئت، حتى تغدو به عليّ الغداة»، قال: فذهبتُ به إلى منزلي ثم عدتُ به على رسول الله ﷺ فقال له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله» فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، أما هذه ففي النفس منها شيء، فقال له العباس: ويحك أسلم وإلا قتلك، فأسلم^(١).

وروي أنه قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: بلى بأبي أنت وأمي، قد كان يقع في نفسي أن لو كان مع الله إله لأغنى عنا شيئاً. ثم أسلم.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا عم، اذهب به فاحبسه عند خَظَمِ الجبل بمضيق الوادي حتى يمرّ عليه جندُ الله، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ يُحِبُّ الفَخْرَ فاجعل له شيئاً يكون له فخراً له في قومه، فقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ». ومضيت به إلى خَظَمِ الجبل وجعلت القبائل تمر به فيقول: من هؤلاء؟ فأقول سليم، فيقول: مالي ولسليم، ويمر بجُهَيْنَةَ فيقول: من هذه؟ فأقول جهينة، فيقول: مالي ولجهينة، كذلك حتى أقبل موكبُ رسول الله ﷺ والكتيبةُ الخضراءُ وفيها رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدقُ

(١) «المغازي» ٢/٨١٦-٨١٨.

فقال: من هؤلاء؟ قلت: كتيبة رسول الله ﷺ فقال: لقد أوتي ابن أخيك ملكاً عظيماً، فقلت: ويحك إنما هو النبوة، فقال: نعم، فقلت: الحق بقومك فحذّرهم، فذهب سريعاً حتى دخل المسجد فصرخ بأعلى صوته: يا معاشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبّل لكم به، قالوا: وما ترى؟ قال: من دخل داري فهو آمن، قالوا: ويحك فما تُغني عنا دارك؟ قال: من دخل المسجد أو أغلق بابه فهو آمن، ثم جاء ليدخل داره فقالت له هند: وراءك قبحك الله، فإنك شرٌّ وافدٍ^(١).

فإن قيل: فلم خص رسول الله ﷺ دار أبي سفيان؟ قلنا: لوجهين:

أحدهما: لما ذكر العباس.

والثاني: لأن النبي ﷺ كان إذا أوزي بمكة ونالت قريش منه دخل دار أبي سفيان فأمن^(٢). قال الزهري: فأراد رسول الله ﷺ مكافأته على ذلك وحقن دمه، لأن قلوب أصحابه ﷺ كانت حري عليه.

وحكى الطبري في إسلام أبي سفيان وجهاً آخر:

عن ابن عباس قال: لقي أبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة رسول الله ﷺ بنيق العقاب بين مكة والمدينة، فحجبهما، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، ابن عمك وصهرُك، تشير إلى أبي سفيان وأخيها عبد الله، فقال: «لا حاجة لي بهما بعدما قالا وفعلا» فخرج الخبر إليهما، وكان مع أبي سفيان ولدٌ له صغير فقال: والله لتأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً، فأذن لهما بعدما رقى لهما، فلما دخلا عليه أسلما، وقال أبو سفيان أبياتاً في مدح رسول الله ﷺ منها:

وهادٍ هداني غير نفسي ونالني مع الله من طردتُ كلُّ مُطردٍ
فضرب رسول الله ﷺ بيده في صدر أبي سفيان وقال: «أنت فعلت هذا»^(٣).

(١) «المغازي» ٢/ ٨٢٢ - ٨٢٣ .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٩/ ٦ - ١٠ من حديث ثابت البناني مرسلًا .

(٣) «تاريخ الطبري» ٣/ ٥٠ - ٥١ ، وانظر «السير» ٢/ ٤٠٠ - ٤٠١ ، و«البداية والنهاية» ٤/ ٢٨٧ ، وهذه القصة وردت في جميع المصادر عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، لا ابن حرب كما عند المصنف .

قال المصنف رحمه الله : وهذه رواية شاذة.

وقد أخرج الحميدي من أفراد البخاري حديثاً : عن [هشام بن] عروة بن الزبير، عن أبيه قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى مكة عام الفتح وبلغ ذلك قريشاً، خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبُدَيْلُ بن ورقاء يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسرون حتى أتوا مَرَّ الظهران، فإذا هم بنيرانٍ كأنها نيرانُ عَرَفَةَ، فقال أبو سفيان : ما هذه؟ لكانها نيرانُ عرفة، فقال بديلُ بن وَرْقَاءَ : هذه نيران بني عمرو بن عوف، يعني الأنصار، فقال أبو سفيان : هم أقلُّ من هذا، فرآهم ناس من حرسِ رسولِ الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسولَ الله ﷺ فأسلم أبو سفيان، فلما سار رسولُ الله ﷺ قال للعباس : «احتبس أبا سفيان عند خَظْمِ الجبلِ حتى ينظرَ إلى المُسلمين» فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمرُّ عليه كتيبةً كتيبةً، فمرت كتيبة فقال للعباس : من هذه؟ قال : غفار، فقال : مالي ولغفار، ثم مرت جُهينة وبنو سليم وسعد بن هُذَيْم وهو يقول كذلك، حتى أقبلت كتيبةً لم يرَ مثلها قال : من هذه؟ قال : الأنصار عليهم سعد بن عبادة بيده الراية، فلما رأى سعدُ أبا سفيان قال له : يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة - والملحمة : الحرب - فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الذمار - بذال معجمة - يوم يحمي الإنسان أهله، كأنه تمنى ذلك، ثم جاءت كتيبة وهي أجلُّ الكتاب فيهم رسولُ الله ﷺ والمهاجرون ورايته بيد الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال : ما قال؟ قال : كذا وكذا، قال : «كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعْظَمُ اللهُ فِيهِ الكَعْبَةُ».

وأمر رسول الله ﷺ أن تُرَكِّزَ رايته بالحجون، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أعلاها من كداء، ودخل رسول الله ﷺ من كُدَى، فَقُتِلَ من خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان : حُبَيْشُ بنُ الأشعر وكرز بن جابر الفهري. انفراداً بخارجه البخاري^(١).

وقال نافع بن جبیر : سمعت العباس يقول للزبير بن العوام لما ركز رايته بالحجون :

يا أبا عبد الله أهنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال : نعم^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٠)، والحميدي في «الجمع بين الصحيحين» ٣/ ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٦) .

وفي رواية الواقدي: أَنَّ سَعْدًا نَادَى أَبَا سَفِيَانَ: الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تَسْتَحِلُّ الْحَرَمَةَ، الْيَوْمَ أَذَلَّ اللَّهُ قَرِيشًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْيَوْمَ يَوْمُ الرَّحْمَةِ، الْيَوْمَ أَعَزَّ اللَّهُ قُرَيْشًا»^(١).

و«كَدَاءٌ»: بِالْمَدِّ وَفَتْحِ الْكَافِ: مَوْضِعٌ بِأَعْلَى مَكَّةَ. وَ«كُدَى» بضم الكاف والقصر: مَوْضِعٌ بِأَرْضِ أَسْفَلَ مَكَّةَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزَّبِيرِ (رضي الله عنه): أَقِمْ هُنَا عِنْدَ الْحَجَّوْنَ بِالرَّايَةِ وَلَا تَبْرُحْ مَكَانَكَ حَتَّى آتِيكَ، وَكَانَ فِي طَرِيقِ خَالِدِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَالْأَحَابِيشِ، كَانَتْ قَرِيشٌ قَدْ اسْتَنْفَرْتَهُمْ فَمَنَعُوا خَالِدًا مِنَ الدُّخُولِ فَقَاتَلَهُمْ فَانْهَزَمُوا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَوْصَى خَالِدًا وَالزَّبِيرَ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَقَالَ لَهُمَا: «لَا تَقَاتِلَا إِلَّا مِنْ قَاتِلِكُمَا».

وقال الواقدي: أمر رسول الله ﷺ الزبير أن يدخل من كداء وسعد بن عباد من كدى، ولما عزم سعد على الدخول سمعه رجل من المهاجرين يقول: اليوم يوم الملحمة وتُستحلُّ الحرمة، فقال: يا رسول الله لا نأمن أن يكون لسعد في قريش اليوم صولة؛ إنه يقول كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ لعلي (رضي الله عنه): «أذركه فخذ الراية منه وادخل بها ولا تُقاتل أحدًا إلا أن يُقاتلك»، ولما قال سعد ما قال شق ذلك على قريش، فعارضت امرأة رسول الله ﷺ وقالت^(٢): [من الخفيف]

يا نبي الهدى إليك لجا حين حين ضاقت عليهم سعة الأبر إن سعداً يريد قاصمة الظهر خزرجي لو يستطيع من الغي فانهينه فإنه الأسد الأسو فلئن أقحم اللواء ونادى لتكونن بالبقاع قريش إنه مصلت يدير لها الرأ	ي قريش ولات حين لجا ض وعاداهم إله السماء ر بأهل الحجون والبطحاء ظ رمانا بأنجم العواء د والليث والغ في الدماء يا حماة اللواء يوم اللقاء نهبة القاع في أكف الإماء ي صموت كالحيّة الرقطاء
--	---

(١) «المغازي» ٢/ ٨٢١ - ٨٢٢ .

(٢) انظر «السيرة الشامية» ٥/ ٣٣٥ ، وقد وقع اضطراب في أوراق النسخ أعدنا ترتيبها .

وَعَرُ الصِّدْرَ لَا يَهْمُ بِشَيْءٍ غَيْرِ سَفْكِ الدِّمَا وَسَبِي النِّسَاءِ
وقيل: إن الشعر لضرار بن الخطاب الفهري.

وروى ابن إسحاق عن أم هانئ أنها جاءت إلى فاطمة فقالت: ألا تعذريني من
زوجك، استجار بي رجلان من أحمائي من بني مخزوم فزعمَ زوجك أنه يقتلُهما،
فقالت فاطمة: ومالك والمشركين تجيرهم علينا، فوجدتها أشدَّ من زوجها، فأنت
رسول الله ﷺ فأجارهما^(١).

وقال الواقدي: دخل الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة على أم هانئ يومَ
الفتح فاستجارا بها، فدخل عليها أخوها علي رضي الله عنه فلما رأهما شَهَرَ السِّيفَ عليهما،
فقامت إليه أم هانئ فاعتنقته وقالت: أتصنع بي هذا من بين سائر الناس لتبدأنَّ بي
قبلهما، فقال: أتجيرين المشركين؟! وخرج.

قالت: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرته فقال: «قد أجزنا من أجزتِ وأمننا من أمنتِ»
فرجعت إليهما فأخبرتهما فرجعا إلى منازلهما، فقيل لرسول الله ﷺ: هما جالسان في
ناديهما، فقال: «لا سبيلَ عليهما قد أمناهما»، ثم قال الحارث: فاستحييتُ من
رسول الله ﷺ أن أراه وقد قاتلته في كل موطن، ثم أذكر برَّه وصِلته فجئته مسلماً فقال:
«الحمدُ لله الذي هدانا للإسلام»^(٢).

وقال الواقدي: مرَّ رسول الله ﷺ يومَ الفتح وهو على ناقته وعلى رأسه المِغْفَرُ وأبو
بكر رضي الله عنه إلى جانبه، فرأى بنات سعيد قد نشرن شعورهنَّ وهنَّ يَلْطَمُنَ وجوهَ الخيل
بُخْمُرِهِنَّ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال لأبي بكر رضوان الله عليه: أنشدني قول حسان
فأنشد^(٣): [من الوافر]

تَظَلُّ جِيادُنَا مُتَمَطِّراتٍ يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءِ
واختلفوا إلى من دفع رسول الله ﷺ الراية على ثلاثة أقوال:

(١) «السيرة» ٤١١/٢ .

(٢) «الطبقات» ٨٣/٦ - ٨٤ .

(٣) «المغازي» ٨٣١/٢ .

أحدها: إلى علي رضوان الله عليه وقد ذكرناه.

والثاني: إلى الزبير رضي الله عنه.

والثالث: إلى قيس بن سعد بن عبادة.

قال ابن الكلبي: قال رسول الله ﷺ لقيس: «اذهب إلى أبيك فخذ منه الراية» فجاء قيس إلى أبيه فقال: ادفع إليّ الراية فامتنع وقال: لا أسلمها إلا بأمانة، فعاد قيس إلى رسول الله ﷺ فأخبره فدفع إليه عمامته فعرّفها سعد فدفع إليه الراية^(١). قال الكلبي: فأحب رسول الله أن لا يخيب قصد المرأة ولا يشق على سعد فدفع الراية إلى ابنه.

وقال الواقدي: أمر رسول الله ﷺ خالداً أن يدخل من الليط أسفل مكة وفيها أسلم وسليم^(٢) وغفار وجهينة ومزينة، وكان خالد على المجنبة اليمنى، والزبير رضي الله عنه على اليسرى، ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر فنزل بأعلى مكة وضربت له قبة هناك.

وكان صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأوباش قريش والعيبد قد اجتمعوا بالخندمة ليقاتلوا رسول الله ﷺ وكان خالد في مقابلتهم فانهزموا، وكان حماس بن قيس بن خالد البكري قبل مقدم رسول الله ﷺ يرش نبلاً له ويصلحه، فقالت له امرأته: لمن تصنع هذا؟ فقال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أرى شيئاً يقوم لمحمد، فقال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعض أصحابه، ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فمالي علّة هذا سلاح كامل وألّة
ثم شهد الخندمة، وأقبل منهزماً حتى أتى بيته، فدخل فقالت له زوجته: أين الخادم الذي وعدتني به ما زلت منتظرتك منذ اليوم؟ فقال: دعي عنك هذا، أغلقتي بابي فمن أغلق بابه فهو آمن، فقالت: ويحك، ألم أنك عن قتال محمد؟ فقال: [من الرجز]

إنك لو شهدت يوم الخندمة
إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمّة

(١) انظر «المغازي» ٨٢٢/٢ .

(٢) ما بين معقوفين زيادة لإيضاح النص، انظر «السيرة» ٤٠٧/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٥٧/٣ .

واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمة
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَةٍ
ضَرْباً فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةً^(١)
لَهُمْ نَهَيْتُ خَلْفَنَا وَهَمَّهَمَهُ
لَمْ تَنْطَقِي فِي اللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(٢)

قال هشام: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، وأسيد بن حُضير رضوان الله عليه في كتيبه الخضراء، على ناقته القصواء، وكان نهى عن القتال، فرأى بارقة السيوف فأرسل إلى خالدٍ وقال: ألم أنك عن السيف؟ فقال: ما وقع في أذني إلا ضَعِ السيف، إنهم قاتلوني فقاتلتهم، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله خيرٌ.

قال الواقدي: قُتِلَ من المشركين بالخندمة أربعة وعشرون من قريش، وأربعة من هذيل، واستشهد من المسلمين ثلاثة: كُرْزُ بن جابر بن حُسَيْلِ أبو عبد الرحمن الفهري، وأمه أسماء بنت مالك فهريّة، وهو من الطبقة الثالثة من المهاجرين، وهو الذي أغار على سرح المدينة وأخذ لقاح رسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ثم من الله عليه بالإسلام في السنة الثانية أيضاً، وشهد الحديبية وخيبر^(٣).

وعن أبي هريرة قال: أقبل رسول الله ﷺ يوم الفتح فدخل مكة، وبعث الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسر، فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبه، وقد وبّشت قريش أوباشها وقالوا: نُقَدِّمُ هؤلاء، فإن كان لهم شيءٌ، كُنَّا معهم وإن أُصيبوا، أعطينا الذي سُئِلنا.

قال أبو هريرة: ففطن رسول الله ﷺ فقال لي: «اهتِفْ بالأنصارِ» فهتفتُ بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله ﷺ فقال: «ألا تَرَوْنَ إِيَّيَّ أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ؟» ثم قال

(١) الغمغمة: أصوات الأبطال في الحرب.

(٢) النهيت: صوت في الصدر. والهمهمة: صوت في الصدر أيضاً. وانظر الخبر في «المغازي» ٨٢٧/٢، و«تاريخ الطبري» ٥٧/٣ - ٥٨، وانظر «السيرة» ٤٠٨/٢.

(٣) انظر «الطبقات» ٩٧/٥ - ٩٨. وعند الواقدي في «المغازي» ٨٢٨/٢: أنهما رجلان، والثاني هو: خالد الأشعر، ويقال: حبيش بن خالد الأشعر. انظر «الطبقات» ١٩٧/٥ - ١٩٨.

بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى «احْضُدُوهُمْ حَصْدًا حَتَّى تُوَافُونِي بِالصِّفَا» قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَمَا يَشَاءُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ إِلَّا قَتَلَهُ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا، فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ: أُبِيدَتْ أَوْ أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» فَغَلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سَفْيَانَ، وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [إِلَى] الْحِجْرِ وَطَافَ بِالْبَيْتِ وَفِي يَدِهِ قَوْسٌ قَدْ أَخَذَ بِسَيْتِهِ، فَأَتَى فِي طَوَافِهِ عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَانِبِ الْبَيْتِ يَعْبُدُونَهُ، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِهَا فِي عَيْنِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ثُمَّ أَتَى الصِّفَا فَعَلَاهُ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى الْبَيْتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَذْكُرَهُ وَيَدْعُوهُ [وَالْأَنْصَارَ تَحْتَهُ، قَالَ] يَقُولُ بَعْضُهُمْ: أَمَا الرَّجُلُ فَقَدْ أَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرَابَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، وَجَاءَهُ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَمْ يَرْفَعْ أَحَدٌ مِنَّا ظَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْضِي. فَلَمَّا قَضَى رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «يَا مَعَاشَرَ الْأَنْصَارِ، أَقْلُتُمْ كَذَا وَكَذَا؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «كَلَّا، مَا اسْمِي إِذَا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»، فَأَقْبَلُوا يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا قُلْنَا إِلَّا ضِنًّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِيكُمْ». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بَعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿وَمَا يُبَدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٢).

وَقَالَ هِشَامٌ: مَا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ إِلَّا مُحْرَمًا، إِلَّا فِي يَوْمِ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ دَخَلَهَا وَعَلَيْهِ السَّلَاحُ. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَسْجِدِ طَافَ وَسَعَى وَجَلَسَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ وَرَأَيْتُهُ سُودَاءَ وَلَوْ أَوْهَ أُسُودَ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٧٨٠)، وَأَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٠٩٤٨)، وَمَا بَيْنَ مَعْقُوفِينَ مِنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٧٨)، وَمُسْلِمٌ (١٧٨١).

(٣) أَوْرَدَهُ الْوَاقِدِيُّ فِي الْمَغَازِيِّ ٢/٨٢٤. وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ (١٣٥٨) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ.

قال الواقدي: والتفت رسول الله ﷺ إلى بعض الأنصار فقال له: كيف قال حسان

ابن ثابت؟ فأنشده: [من الوافر]

تثير النقع من طرفي كداء^(١)

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
وهو إقواء من أبيات أولها:

إلى عذراء منزلها خلاء
يكون مزاجها عسل وماء
وأشداً ما يُنهِنُنا اللقاء
تسيلُ بها كُديٌّ أو كداء
على أكتافها الأسَلُ الظمَاءُ
يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمْرِ النساءُ
وكان الفتح وانكشف الغطاء
يُعينُ الله فيه مَنْ يشاء
وروح القدس ليس له كفاء
قتال أو سباب أو هجاء
وعند الله في ذاك الجزاء
فشرُّكمما لخيركمما الفداء
ويمدحهُ وينصُرهُ سواء
لِعرضِ محمد منكم فداء

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ
كَأَنَّ سِلَافَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ
وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مَلُوكَا
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُنَازِعِنَ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَاتٍ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مَتَمَطَّراتٍ
فإِذَا تُعْرِضُوا عَنَا اغْتَمَرْنَا
وإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ يَوْمٍ
وَجَبْرِيْلُ رَسُوْلُ اللهِ فِينَا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدِّ
هَجَوْتِ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَذَكَّرُهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ
وَمَنْ يَهْجُو رَسُوْلَ اللهِ مِنْكُمْ
فإنَّ أبِي ووالدتي وعرضي

وعن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قُتل من الأنصار ستون رجلاً وستة من

المهاجرين، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: إن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين
لنربين عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف: لا قریش بعد اليوم، فنادى
منادي رسول الله ﷺ: أمِنَ الأسودُ والأبيضُ إلا فلاناً وفلاناً، ناسٌ سمّاهم رسول الله

(١) «المغازي» ٢/ ٨٢٥. ورواية «السيرة» ٢/ ٤٢٢ :

تثير النقع موعدها كداء

عدمنا خيلنا إن لم تروها

وعليه فلا إقواء .

ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] الآية، فقال رسول الله ﷺ: «نَصَبْرٌ وَلَا نُعَاقِبُ»^(١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله عليه: حدثنا يحيى، عن حسين المعلم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لما فُتِحَتْ مَكَّةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُفُّوا السَّلَاحَ، إِلَّا خُرَاعَةَ عَن بَنِي بَكْرٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ قَالَ: «كُفُّوا السَّلَاحَ» فَلَقِيَ رَجُلًا مِّنْ خُرَاعَةَ رَجُلًا مِّنْ بَنِي بَكْرٍ عِنْدَ الْمُزْدَلِفَةِ فَقَتَلَهُ، وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ خَطِيبًا مُّسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: «إِنَّ أَعْدَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ مَنْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قَتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٢).

وقال الحارث بن البرصاء: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح: «لا تُغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة» يعني على: كفر^(٣).

ذكر حديث أخذ المفتاح:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما دخل النبي ﷺ يوم الفتح إلى مكة بعث إلى أم عثمان بن طلحة أن: «ابعثي إلينا مفتاح البيت» قالت: لا واللات والعزى لا أبعث به إليه، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليها من يأخذه منها قهراً، فقال ابنها عثمان: يا رسول الله، إنها حديثة عهد بكفر فابعثي إليها، فقال له: «اذهب» فجاءها فقال: يا أماء، قد حدث أمر غير الذي كان، فإن لم تدفعي المفتاح قُتِلْتُ أنا وأخي، فدفعته إليه، فجاء به مسرعاً، فلما دنا من رسول الله ﷺ عثر فوقع المفتاح من يده، فقام رسول الله ﷺ فحنا عليه وفتح الباب ودخل، فقام عند أركان البيت وأرجائه يدعو، ثم صلى ركعتين بين الأسطوانتين ثم خرج، فقام على الباب، فتناول إليه العباس رجاء أن يجمع له بين السقاية والحجابه، فقال: «يا عثمان، خذ ما أعطاكم الله، خذوها خالدة»

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٢٢٩). قوله: «لنريين» أي: لنزيدن على ما قتلوا منا.

(٢) أحمد في «مسنده» (٦٦٨١). والذخل: الثأر.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤٠٤).

تالدة لا ينزعها عنكم إلا ظالم»^(١).

وفي «زاد المسير»: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ طلب مفتاح البيت يوم الفتح من عثمان بن طلحة، فذهب عثمان ليعطيه إياه فقال له العباس: بأبي أنت وأمي اجمعه لي مع السقاية، فكف عثمان يده مخافة أن يُعطيه للعباس، فقال النبي ﷺ: «يا عثمان، هات المفتاح» فأعاد العباس قوله، وكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: «هات المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر» فقال: هاكه يا رسول الله بأمانة الله، ففتح البيت ودخل فنزل جبريل بهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٢) [النساء: ٥٨].

قال العلماء: هذه الآية وإن نزلت على سبب فهي عامة في الودائع وغيرها من الأمانات.

وقال الواقدي: أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يمضي إلى عثمان بن طلحة ويأتيه بالمفتاح، فجاء بلال إليه وقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتي بمفتاح الكعبة - [ومفتاح الكعبة] يومئذ عند أمه وهي بنت شهيد - فقال لها عثمان: يا أمه إن رسول الله ﷺ قد أرسل يطلب المفتاح، فقالت له: أعيدك بالله أن تكون الذي يذهب بمأثرة قوم، فقال: لتدفعه إلي أو ليأتينك غيري فيأخذه منك، فأدخلته في حُجْرَتِهَا وقالت: أي رجل يدخل يده هاهنا؟، فبينما هما على ذلك إذ سمع صوت أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما في الدار وعمر يقول: اخرج يا عثمان، فقالت أمه: يا بني خذ أنت أحب إلي من أن يأخذه غيرك، فأتى به رسول الله ﷺ فناوله إياه... وذكر الحديث^(٣).

قال الواقدي: وقد سمعت في المفتاح وجهاً آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل رسول الله ﷺ [يوم الفتح على بعير لأسامة بن زيد، وأسامة رديف رسول الله ﷺ ومعه

(١) أخرجه ابن أبي شيبه في «مصنفه» (٣٨٠٥٥)، وأخرج عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٠٧٣) من حديث الزهري بنحوه. وأخرج الطبراني (١١٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوها يا بني

طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وانظر «السيرة الشامية» ٣٥٧/٥.

(٢) «زاد المسير» ١١٤/٢.

(٣) «المغازي» ٨٣٣/٢، والحُجْرَةُ: مَعْقِدُ السراويل والإزار. اللسان (حجز).

بلال وعثمان بن طلحة، فلما بلغا رأس الثنية أرسل عثمان فجاءه بالمفتاح فاستقبله به، قالوا: وكان عثمان قدم على رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلماً قبل الفتح، فخرج معنا من المدينة^(١).

وقال الواقدي: وكان رسول الله ﷺ قد قبض السقاية من العباس وقبض المفتاح من عثمان، فلما جلس قال: «ادعوا إليَّ عثمان» فدعي له عثمان بن طلحة، وكان رسول الله ﷺ قد قال لعثمان بن طلحة يوماً بمكة وهو يدعو إلى الإسلام والمفتاح بيد عثمان: «لعلك يا عثمان ترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت»، فقال له عثمان: لقد هلكت قريشٌ وذلت، فقال رسول الله ﷺ: «بل عمّرت وعزّت». فلما دفع إليه المفتاح وولى ناداه رسول الله ﷺ فقال له: «يا عثمان، أتذكر يوم كذا وكذا؟» فذكر عثمان فقال: أشهد أنك رسول الله^(٢).

وعن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ يوم الفتح فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنكم من آدم وادم من التراب» ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: «يا معاشر قريش، ماذا ترون أنني فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». فأعتقهم رسول الله ﷺ وقد كان الله أمكنه من رقابهم وكانوا قبالة، فلذلك يسمون الطلقاء^(٣).

ثم قال: «ألا كل دين ودم ودعوى ومأثرة كان في الجاهلية فهو تحت قدمي، وأول ما أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب»^(٤) وذكر بمعنى ما ذكر الواقدي ثم قال: «يا معاشر قريش قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية».

وابن ربيعة بن الحارث اسمه آدم، وقيل: إياس، وقيل: تمام، كان مسترضعاً في بني سعد أصابه حجر فقتله.

قال ابن عباس: إنما خطب بعد الظهر، وفي رواية: خطب في اليوم الثاني.

(١) «المغازي» ٢/ ٨٣٣ - ٨٣٤ .

(٢) «المغازي» ٢/ ٨٣٧ - ٨٣٨ ، وما بين معقوفين زيادة منه .

(٣) انظر «السيرة» ٢/ ٤١٢ ، و«تاريخ الطبري» ٣/ ٦١ .

(٤) هذا الحديث إنما هو في حجة الوداع لا في الفتح كما أخرجه مسلم (١٢١٨) .

قال عكرمة: حدثني ابن عباس قال: وقف رسول الله ﷺ بالحزورة وقال: «والله إنك لمن أحب أرضها إليّ، وإنك لخير البلاد أو لخير أرض الله، ولولا أن قومك أخرجونني منك لما خرجت»^(١). «وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت كحرمتها بالأمس»^(٢).

وعن أبي هريرة قال: لما فتح الله على رسوله مكة قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»، ثم قال: «هي حرام إلى يوم القيامة لا يُعضد شجرها، ولا يُنفر صيدها، ولا تحل لقطتها، ومن قتل له قتل فهو بخير النظرين: إما أن يفدى، وإما أن يقتل». فقام رجل من أهل اليمن يقال له: أبو شاه، فقال: يا رسول الله، اكتبوا لي. فقال: «اكتبوا لأبي شاه». قيل: للأوزاعي: ما قوله: اكتبوا لي؟ ما يكتبون له؟ قال: خطبته التي سمعها. متفق عليه^(٣).

صعود بلال على ظهر الكعبة:

فأذن وصعد وقريش في رؤوس الجبال، منهم الخائف ومنهم من يطلب الأمان، فلما قال: «الله أكبر» تزعزت بيوت مكة، فلما قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» خرّت الأصنام سجّداً، فلما قال: «وأشهد أن محمداً رسول الله» تقول جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع نهيق عبد بني جُمح على ظهر الكعبة، قد لعمرى رفع لك ذكرك، أما الصلاة فنصلي، ولكن والله ما نحب من قتل الأعبة أبداً. وقال خالد بن سعيد بن العاص: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم ير هذا اليوم ولم يسمع هذا الصوت. وقال الحارث بن هشام: واثكل أماه ليتني مت قبل اليوم. وقال الحكم بن مروان: هذا والله الحدث العظيم، أن يصيح عبد بني جُمح ينهق على بنية أبي طلحة.

وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً من الله فسيغيره، وإن كان فيه رضى

(١) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٧١٥) من حديث عبد الله بن عدي الزهري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤) من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥).

فسيقره. وقال أبو سفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصة، وجاء رسول الله ﷺ الوحي بما قالوا، فجاء إليهم ووقف عليهم وقال: أنت قلت كذا وأنت قلت كذا، فقال أبو سفيان: وأنا قلت شيئاً؟ فقال: لا، وضحك^(١).

وقالت أم هانئ: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ يوم الفتح فوجدته يغتسل وابنته فاطمة تستره بثوب، فسلمتُ عليه، فقال: «مَنْ هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: «مَرَحَباً يا أمَّ هانئ». فلما فرغ من غُسله قام فصلى ثماني ركعات مُلتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف من صلاته قلتُ: يا رسول الله، زعم ابنُ أبي أنه قاتلُ رجلاً قد أجرته، فلانُ بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا مَنْ أجزتِ يا أمَّ هانئ». وكان ذلك ضحىً. أخرجاه في «الصحيحين» ولمسلم بمعناه^(٢).

وعنها قالت: لما فتح الله على رسوله مَكَّةَ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم، فأجزتهما وأدخلتهما بيتي، فجاء أخي فقال: لأقتلنهما، فقلت: إني قد أجرتهما، وأغلقتُ عليهما بابي، ثم جئت رسول الله ﷺ بأعلى مَكَّةَ فوجدته يغتسل من جَفْنَةٍ فيها من أثر العجين، وابنته فاطمة تستره بثوبٍ، فلما فرغ من غُسله أخذ ثوبه فتوشحه، ثم ركع ثماني ركعات من الضحى، ثم أقبل عليّ وقال: «مَرَحَباً وأهلاً يا أمَّ هانئ، ما جاء بك؟» فأخبرته الخبر فقال: «ليسَ بقاتلِهما»^(٣).

ذَكَرُ النَّفَرِ الَّذِينَ أَبَاحَ رَسُولُ اللَّهِ دِمَاءَهُمْ:

وهم أنس بن زُئيم بن عمرو بن عبد الله من كنانة، وهو أخو سارية بن زُئيم صاحب وقعة نهاوند، والحارث بن نُقيد، وصفوان بن أمية، وعبدُ الله بن خَطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرَح، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابه، ووحشي قاتل حمزة، وهبَّار بن الأسود.

ومن النساء: سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب، وفرتنى، وقُريبة، وهند

(١) انظر «المغازي» ٨٤٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٤٥٢/١٢، وأحمد في «مسنده» (٢٦٨٩٢).

بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب.

فأما أنس بن زنيم فكان قد نقل إلى رسول الله ﷺ أنه قد هجاه، فقال يعتذر^(١):

[من الطويل]

أنت الذي تُهدى مَعَدُّ بِأَمْرِهِ
فما حَمَلْتِ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَحْتَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَوْسَعَ نَائِلًا
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ احْتِدَائِهِ
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ
وَنُبِّي رَسُولُ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
سَوَى أَنِّي قَدْ قَلْتُ يَا وَيْحَ فِثْيَةٍ
ذُؤَيْبًا وَكُلْثُومًا وَسَلَّمِي تَبَايَعُوا
عَلَى أَنْ سَلَّمِي لَيْسَ فِيهِمْ كَمِثْلِهِ
فإِنِّي لَا عِرْضًا خَرَقْتُ وَلَا دَمًا
وتعلم أن الركب ركب عويمر

يشير إلى خزاعة وما نقلوا إلى رسول الله ﷺ عنه، عني ذؤيبًا وكلثومًا وسلمي وكانوا من سادات العرب يُدَوَّنُ بَدِيَّتَيْنِ لِفَضْلِهِمْ فِي بَنِي بَكْرٍ، وَهُمْ: بَنُو الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْنِ مَرُوا عَلَى خَزَاعَةَ فَقَتَلُوهُمْ عِنْدَ أَنْصَابِ الْحَرَمِ، فَكَانُوا سَبَبًا لِإِعَانَةِ قَرِيْشٍ عَلَى خَزَاعَةَ^(٢).

لما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن أنس^(٣) بن زنيم الديلي هجأك، فأهدر دمه، فلما قال هذه الأبيات كلّمه فيه نوفل بن معاوية الديلي سيّد بكر، وقال: يا رسول الله كذبت عليه خزاعة، وأظنّب فيه، فقال رسول الله ﷺ: «قد عفوت عنه».

(١) السيرة ٢/ ٤٢٤، والمغازي ٢/ ٧٨٩، والطبقات ٦/ ١٥١-١٥٢.

(٢) انظر «السيرة» ٢/ ٤٢٤، وطبقات ابن سعد ٦/ ١٥١.

(٣) في النسخ: أنيس، والمثبت من السيرة ٢/ ٤٢٤.

وقال بُدَيْلُ بن أَضْرَمَ يرد على أنس^(١): [من الطويل]

بكى أنسُ رزناً فأعوزه البُكا وأشفقَ لَمَّا أوقدَ الحربَ مُوقدُ
ويبكي على سلمى وكلثومَ بعده سقاهم بكأس الموت قيسٌ ومَعْبَدُ

* * *

وأما الحارث بن نقيد^(٢) بن وهب بن عبد بن قصي بن كلاب، ويقال له: الحويرث، كان شديداً على رسولِ الله ﷺ يهجوهُ ويهجو أصحابه ويؤذيه، فلقيه علي رضي الله عنه يوم الفتح فقتله كافراً^(٣).

وكان له ولد اسمه جبير بن الحارث من التابعين، قال الواقدي: أدرك رسول الله ﷺ ولم يرو عنه شيئاً. وقال ابن عبد البر: في صحبته نظر^(٤). وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من تابعي أهل المدينة، روى عن أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما وغيرهما، وروى عنه عروة بن الزبير وابن المسيب وغيرهما، شهد اليرموك، فسمع صائحاً يصيح: يا خيل الله اركبي، يا معاشر المسلمين هذا يوم من أيام الله تعالى قاتلوا فيه بلا حياء. قال: فتأملته فإذا به أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد.

* * *

وأما صفوان بن أمية فهرب يوم الفتح حتى أتى الشُعْبَةَ ومعه غلامه يسار فقال له: ويحك انظر من ترى، فنظر فقال: هذا عمير بن وهب، فقال صفوان: ما أصنع بعمير، والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمداً فلاحقه، فقال: يا عمير ما كفاك ما صنعت

(١) لم نقف على هذين البيتين بهذه الرواية في المصادر، ورواية «السيرة» ٤٢٥/٢ :

بكى أنس رزناً فأعوله البكا فألاً عدياً إذ تُظَلُّ وتُبعَدُ
بكيّت أبا عبس لقرب دمائها فتُعذِرُ إذ لا يوقد الحرب مُوقدُ
أصابهم يوم الخنادم فتية كرامٌ فسَلَّ منهم نفيل ومعبد
هنالك إن تسفح دموعك لا تلم عليهم وإن لم تدمع العين فاكمدوا

(٢) في النسخ: «معبد» والمثبت من «الطبقات» ٥/٧ في ترجمة ابنه جبير.

(٣) انظر «المغازي» ٨٥٧/٢، و«أنساب الأشراف» ٤٣١/١.

(٤) «الاستيعاب» بهامش الإصابة ٢٣٢/١.

بي؛ حملتني دينك وعيالك وجئت تريد قتلتي، فقال: أبا وهب، جعلت فداك جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس وقد أمّنتك، فقال: والله لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع وقال: يا رسول الله قال كذا وكذا، فقال: «خذ عمامتي» وهي البردة التي دخل بها رسول الله ﷺ يوم الفتح مُعْتَجِراً بها، فعاد بها إليه فجاء معه فوافى النبي ﷺ وهو يُصَلِّي العَصْرَ، فوقف حتى سلّم وناداه: يا محمد إن هذا جاء ببردك وزعم أنك أمّنتني فقال: «نعم أبا وهب»، فأقام مع رسول الله ﷺ على حاله حتى خرج معه إلى هوازن وهو كافرٌ.

وأرسل إليه رسول الله ﷺ يستعير سلاحاً، فقال: أطوعاً أو كُرْهاً؟ قال: «بل عارية مؤداة» فأعاره مئة درع وسلاحاً وحمله إلى حنين وشهد حيناً والطائف وهو على شركه، ثم رجع إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها وصفوان معه، فجعل ينظر إلى شِعْبٍ مَلَى نَعْمًا وشاء ورعاءً، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «أبا وهب، يُعجبك هذا الشُعْبُ؟» قال: نعم فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ لَكَ وما فيه»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفسٌ أحدٍ بمثل هذا إلا نفسُ نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأسلم مكانه^(١).

وكانت تحته فاختة بنت الوليد بن المغيرة، فأسلمت قبله ففرق الإسلام بينهما، فلما أسلم رُدَّت عليه بالنكاح الأول^(٢)، وقيل: بنكاح جديد.

وأما عبدُ الله بنُ خَطَلٍ فقال أنس: دخل النبي ﷺ يومَ الفتح مَكَّةَ وعلى رأسه المِغْفَرُ، فلما نزعه جاءه جبريل فقال: ابن خَطَلٍ متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقْتُلُوهُ» فقتلوه^(٣).

قال أبو بَرزَةَ الأسلمي: أخرجته من بين أستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام، وهربت قَيْتَاهُ، فقتلت إحداهما وعاشت الأخرى إلى زمن عثمان رضوان الله

(١) «المغازي» ٨٥٣/٢، و«الطبقات» ١١١/٦ - ١١٢، و«أنساب الأشراف» ٤٣٥/١، و«المنتظم» ٥/

٣٣٢، و«تاريخ دمشق» ١١٢/٢٤، و«السيرة الشامية» ٣٧٩/٥ - ٣٨٠.

(٢) «الطبقات» ١١١/٦.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧).

عليه، فكُسِرَ ضِلْعٌ من أضلاعها فماتت فقضى عثمان فيها بثمانية آلاف درهم، الستة آلاف ديتها وألفين تعظيماً لأمر الجناية في الحرم^(١).



وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأمه مُهانة بنت جابر من الأشعريين، قدمت على رسول الله ﷺ مسلمة، فأحسن إليها ووصلها، فعادت إلى مكة مرتدة تهجوه وتهجو المسلمين، فصادفها علي رضوان الله عليه يوم الفتح فقتلها^(٢).

وعبد الله أخو عثمان رضوان الله عليه من الرضاة، فلما كان يوم الفتح جاء إليه وقال: أنت أخي من الرضاة فكلم محمدًا فيّ، فإنه إن رآني قتلني، فإن ذنبي أعظم الذنوب. فلم يُرغ رسول الله ﷺ إلا وعثمان رضي الله عنه أخذ بيد عبد الله فقال: يا رسول الله، أخي من الرضاة، فأعرض عنه، فردّد عليه الكلام وأكبّ عليه يقبل رأسه ويقول: فذاك أبي وأمي، قال: «نعم» وكان رجلٌ من الأنصار نذر أن يقتله وكان حاضرًا، فقال له رسول الله ﷺ: «هَلَّا وَفَّيتَ بِنَدْرِكَ» فقال: انتظرتك أن تومئ إليّ، فقال: «الإيماءُ خيانةٌ، ما كان لنبِيّ أن يُومئَ»^(٣).



وأما عكرمة بن أبي جهل فإنه هرب يوم الفتح، فاستأمنت له زوجته رسول الله ﷺ فأمنه، فخرجت في طلبه، وكان قد ركب البحر فهبّ بهم فجعل النّواتي يدعون الله ويوحّدونه فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى، فقال: هذا إله محمد الذي يدعو إليه فأرجعوني، فرجع ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فوقف بين يديه ومعه امرأته فقال: إلام تدعو؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة... وعدّ له خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى

(١) «المغازي» ٢/ ٨٥٩ - ٨٦٠ .

(٢) لم نقف في مصدر من المصادر أن علياً قتل مهانة ولا أنها قتلت ولا أسلمت، وإنما ذكر البلاذري في «أنساب الأشراف» ١/ ٤٣٢ - ٤٣٣ أن الذي قتلها علي يوم الفتح هي سارة صاحبة كتاب حاطب، وذكر صاحب «السيرة الشامية» ٥/ ٣٤١ أنها أسلمت وعاشت إلى خلافة عمر بن الخطاب. والله أعلم .

(٣) «المغازي» ٢/ ٨٥٥ - ٨٥٦ ، و«الطبقات» ٦/ ١٣٠ - ١٣١ .

الحق. ثم أسلم، وردَّ عليه رسول الله ﷺ امرأته بالنكاح الأول^(١).

وأما مقيسُ بن صبابَةَ فكان رسول الله ﷺ أهدر دمه، فلما كان يومَ الفتحِ شرب الخمرَ وأصبح مصطبِحاً في ندامى له، فعلم بمكانه نُميلةُ بنُ عبد الله فأتاه فوجده يترنم:
[من الوافر]

دَعَيْني أَصْطَبِحَ بَكْرًا فَإِنِّي رَأَيْتُ المَوْتَ نَقَّبَ عَن هِشَامِ
وَنَقَّبَ عَن أَبِيكَ أَبِي يَزِيدِ أَخِي القَيْنَاتِ وَالشَّرْبِ الكِرَامِ
بِهِم أَرَسَتْ رَوَاسِيَّ مِنْ ثَبِيرِ وَمَنْ ثَوْرٍ وَلَمْ يُضْمَمِ صَمَامِ
تُغْنِينِي الحِمَامُ كَأَنَّ رَهْطِي خُزَاعَةَ أَوْ أَنَاسٌ مِنْ جُدَامِ

قال: فبادره نُميلةُ فضربه بالسيف حتى برد.

ويقال: إنه خرج وهو يتمثل بين الصفا والمروة، فرآه المسلمون فقتلوه^(٢).

* * *

وأما وحشي فهرب إلى الطائف، ثم قدم على رسول الله ﷺ مُسْلِماً^(٣).

* * *

وأما هَبَّارُ بن الأَسودِ فكان رسول الله ﷺ أهدر دمه فهرب يوم الفتح.

قال جبير بن مطعم: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ في مسجده بالمدينة منصرفه من الجِعْرَانَةِ فطلع هَبَّارُ بن الأَسودِ، فنظر إليه القوم وقالوا: هذا هَبَّارُ، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ رَأَيْتُهُ»، وأراد بعض القوم أن يقوم إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «اجْلِسْ» فوقف عليه هبار وقال: السلام عليك يا رسول الله، وذكر الشهادتين، ثم قال: لقد هربت منك في البلاد وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرك وصفحك، واعتذر طويلاً فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ، وَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ إِذْ هَدَاكَ للإِسْلَامِ، وَالإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ». وخرجت سلمى مولاة رسول الله ﷺ فقالت: لا أنعم

(١) «المغازي» ٢/ ٨٥١-٨٥٢، و«الطبقات» ٦/ ٨٥-٨٦.

(٢) «المغازي» ٢/ ٨٦٠-٨٦١. وفيه أنه خرج وهو تمثل فيما بين الصفا والمروة

(٣) «المغازي» ٢/ ٨٦٢-٨٦٣.

الله بك عيناً، أنت الذي فعلت وفعلت، فقال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ مَحَا ذَلِكَ»^(١).
ونهى رسول الله ﷺ عن سبه وقال له: «سُبِّ مِنْ سَبِّكَ»^(٢).

* * *

وأما هند بنت عتبة فأسلمت.

ولما قتل النفر الذين عيّنهم رسول الله ﷺ سُمع النوح عليهم بمكة، وجاءه أبو
سفيان بن حرب فقال: فداك أبي وأمي، البقية على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «لا
يقتل قرشي بعد اليوم صبراً» يعني: على كفر^(٣).

* * *

وطلبَ عبدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ فهرب إلى نجران، فحصنوا حصنهم، وأرسل حسانُ بن
ثابت إلى ابن الزُّبَيْرِ بأبيات منها: [من الكامل]

لا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضَهُ نَجْرَانَ فِي عَيْشٍ أَحَدٌ لئِيمِ
بَلِيَّتْ قَنَاتِكَ فِي الْحَرُوبِ فَأَلْفِيَتْ خَمَّانَةً جَوْفَاءَ ذَاتِ وُصُومِ
غَضَبُ الْإِلَهِ عَلَى الزُّبَيْرِ وَابْنِهِ وَعَذَابُ سُوءِ فِي الْحَيَاةِ مَقِيمِ
فلما وقف على الأبيات تهيأ للخروج، فقال له هبيرة: أين تريد؟ قال: محمداً،
قال: تتبعه؟ قال: نعم، قال: يا ليت أني رافقتُ غيرك، والله ما ظننت أنك تتبع محمداً
أبداً، قال: على أي شيء أُقيمُ عند الحارث بن كعب وأدع ابن عمي خير الناس وقومي
وداري، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا
الله وأنت عبده ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد عاديتك وأجلبتُ
عليك، وركبت الفرس والبعير، ومشيت على قدمي في عداوتك، ثم هربت منك إلى
نجران . . . واعتذر، فقال رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ،
وَالْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ»^(٤).

(١) «المغازي» ٢/ ٨٥٧-٨٥٨، و«الطبقات» ٦/ ٦٠.

(٢) «المغازي» ٢/ ٨٥٩، و«الطبقات» ٦/ ٦٢.

(٣) «المغازي» ٢/ ٨٦٢، والحديث أخرجه مسلم (١٧٨٢) من حديث مطيع بن الأسود.

(٤) «المغازي» ٢/ ٨٤٧-٨٤٨، و«الطبقات» ٦/ ١٠٨-١٠٩.

وقال لما أسلم^(١): [من الكامل]

منع الرُقَادَ بلائلاً وهمومٌ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَأَمْنِي
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتُ عَلَى أَوْصَالِهَا
إِنِّي لَمَعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مَنْ الَّذِي
أَيَّامَ تَأْمَرْنِي بِأَسْوَأِ خُطَّةٍ
وَأَمَّا هُبَيْرَةٌ فَأَقَامَ بِنَجْرَانَ وَمَاتَ بِهَا كَافِرًا.

والليلُ معتلجُ الرواقِ بهيمٌ
فيه، فبِتُّ كَأَنَّني محمومٌ
عيرانةٌ سُرُحُ اليدين غَشُومٌ
أَسْدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضلالِ أَهيمٌ
سَهْمٌ وتَأْمَرْنِي بِهَا مخزومٌ

وأسلمت أم هانئ فكتب إليها لما بلغه إسلامها في أبيات^(٢):

فإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمّدٍ
فكوني على أعلى سحوق بهضبةٍ
وقطعتِ الأرحامَ منكِ جبالها
مُلمّمةٍ حمراءِ يَبْسُ بلاؤها

* * *

وأما سهيل بن عمرو فقال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة أغلقت بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله أن يطلب لي جواراً من رسول الله ﷺ فإني لا آمن القتل، وجعلت أتذكر آثاره وما فعلت يوم الحُدَيْبِيَّةِ، وقاتل رسول الله ﷺ في كلِّ موطنٍ، وطلب لي عبد الله أماناً، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن» وقال لمن حوله: «من لقي منكم سهيلاً فلا يُحدِّ النظر إليه، فإن له عقلاً وشرفاً وليُخرج من بيته آمناً»، فأخبره ابنه بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله براً صغيراً وكبيراً.

وكان سهيل يُقبَلُ ويُدبَرُ ولا ينظر إليه أحد، وخرج مع رسول الله ﷺ إلى حُنين وهو كافر فأسلم بالجِعْرَانَةِ^(٣).

ذِكْرُ مُبَايَعَةِ النِّسَاءِ:

قال أبو حبيبة مولى الزبير: لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة، وأم حكيم

(١) الأبيات في «السيرة» ٤١٩/٢ .

(٢) الخبر في «السيرة» ٤٢٠/٢ - ٤٢١ ، و«المغازي»، ٨٤٨/٢ - ٨٤٩ .

(٣) «المغازي» ٨٤٦/٢ - ٨٤٧ ، و«الطبقات» ١٢٣/٦ .

بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة بن أبي جهل، وكلثوم بنت المعدل كنانية امرأة صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، ونسوة من قريش، فأتين رسول الله ﷺ وهو بالأبطح وعنده زوجته وابنته فاطمة ونساء من بني عبد المطلب فبايعنه، فقالت هند: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتمسني رَحْمُكَ يا محمد، فإني امرأة مؤمنة بالله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: هند بنت عتبة، فقال لها: «مَرَحَباً بِكِ» فقالت: والله يا رسول الله، ما كان على الأرض من أهل خِباء أحبُّ إلي من أن يَذِلُّوا من خِبايِكَ، ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خِباء أحبُّ إلي من أن يَعِزُّوا من أهل خِبايِكَ. فدعا لها رسول الله ﷺ وقرأ عليهن القرآن وبايعهن، فقالت هند: يا رسول الله ألا نصافحك؟ فقال: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ»^(١).

وقال الهيثم: جاءت هند متكرة في النساء إلى الصفا ورسول الله ﷺ جالس عنده، وعمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائم على رأسه ويده السيف صلتاً، فبايعه الناس وهند قد أرسلت خمارها على وجهها خوفاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكنَّ على أن لا تُشركن بالله شيئاً». قلن: نعم. قال: «ولا تزنين». فقالت هند: وهل تزني الحرّة. فقال: «ولا تسرقن ولا تقتلن أولادكن». فقالت: أما الأولاد فإننا ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، وأما السرقة فقد كنت أصبت من مال أبي سفيان ولا أدري أيحلُّ لي ذلك أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهيئة؟». قالت: نعم. فقال: «مَرَحَباً وَأَهْلَاءً». وكان أبو سفيان حاضراً فقال: أما ما مضى فأنت منه في حلٍّ، ومن الآن فلا. فقالت: يا رسول الله اعف عني. فقال: «عفا الله عنك»^(٢).

وهذا بمكة، وأما في المدينة فقد بايعه معظم نساء الأنصار.

ولما أسلمت هند كسرت كل صنم كان في بيتها وقالت: لقد كنا منهم في غرور، وأهدت إلى رسول الله ﷺ جديين مرصوفين وسقاء من لبن، فأنت الجارية خيمته فاستأذنت، فأذن لها فدخلت وسلمت وقالت: إن مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية وهي معتذرة إليك، وتقول: إن غنمنا اليوم قليلة.

(١) «الطبقات» ١٠/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٣/٦١ - ٦٢ .

فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكم في غنمكم وأكثر أولادها». فرجعت الجارية إليها فأخبرتها فسرت بذلك^(١).

ذكر إسلام أبي قحافة:

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: لما كان عام الفتح ونزل رسول الله ﷺ بذي طوى، قال أبو قحافة لابنة له صغيرة أصغر ولده: يا بُنَيَّةُ أشرفي بي على أبي قبيس، وكان قد كُفَّ بصره، فأشرفت به عليه فقال: ماذا ترين؟ فقالت: أرى سواداً مُجْتَمِعاً وأرى رجلاً يَشْتَدُّ بين ذلك السواد، فقال: تلك الخيل، أسرع بي إلى منزلي، فخرجت به سريعاً حتى هبطت الأبطح، فلقيتها الخيل وفي عنقها طوق من ورق فاقتطعه إنسان من عنقها، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد خرج أبو بكر رضوان الله عليه فجاء بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «وهلاً تركت الشيخ في بيته حتى كنت أجيئه»، فقال: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك، فأجلسه بين يديه ثم مسح على صدره وقال: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ» فأسلم، ثم قام أبو بكر رضوان الله عليه فأخذ بيد أخته وقال: أنشد الله والإسلام رجلاً رأى طوق أختي فردّه، قالها مراراً، فما أجابه أحد فقال: يا أُخِيَّةُ احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل^(٢).



وجاء أبو أحمد الأعمى بن جحش إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لما هاجرت إلى الله ورسوله باع أبو سفيان داري بأربع مئة دينار وأريدُ ثمنها، فكان أبو سفيان حاضراً، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى بها داراً في الجنة؟» قال: بلى^(٣).

ذكر إسلام عتبة ومعتب ابني أبي لهب:

وأمهما أم جميل بنت حرب، حمالة الحطب، قال رسول الله ﷺ يوم الفتح للعباس

(١) «المغازي» ٢/٨٦٨-٨٦٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٩٥٦) دون قوله: فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل.

(٣) «الطبقات» ٤/٩٦.

ﷺ: «أين ابنا أخيك عتبة ومعتب؟» فقال: حاضران، فجاء بهما فسر رسول الله ﷺ بإسلامهما، وخرجا معه من فوره وشهدا حنيناً وثبتا، وأصابت عين معتب يوم حنين، وأقاما بمكة بعد الفتح، ولم يقم بها أحد من بني هاشم سواهما^(١).
ولما دخل رسول الله ﷺ مكة قيل له: ألا تنزل بعض بيوتك؟ فقال: «وهل ترك لي عقيل من منزل»^(٢).

وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل بني هاشم، فضربت لرسول الله ﷺ قبة بالحجون، فكان يمشي من الحجون إلى المسجد وقت كل صلاة.
وقال ابن عباس: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو دوس، فلقيه يوم الفتح براوية من خمر، فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت أن الله حرمها؟» فسار غلامه بشيء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما الذي قلت له؟» قال: قلت له: اذهب بها إلى الزورة فبعها، فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي حرمها حرم ثمنها» فأمر بها فأفرغت بالبطحاء. انفراد به مسلم^(٣).

ذكر ما استسلف رسول الله ﷺ من المال:

استسلف من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، واستقرض من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألفاً، فقسم الجميع بين أصحابه من أهل الضعف، فلما فتح الله عليه هوازن أوفى الجميع وزادهم.

ذكر تجديد أنصاب الحرم:

وكان أول من وضعها آدم وإبراهيم وجبريل يريه ذلك، ثم لم تحرك حتى كان إسماعيل فجدها، ثم لم تحرك حتى كان قصي فجدها، ثم لم تحرك حتى كان يوم الفتح فجدها رسول الله ﷺ، ثم لم تحرك حتى كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه

(١) «الطبقات» ٥٥/٤ - ٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٥٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤١).

[فبعث مخزومة بن نوفل وأزهر بن عبد عوف وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع المخزومي فجددوها، ثم كان عثمان بن عفان رضي الله عنه] فبعث هؤلاء النفر فجددوها، ثم حج معاوية [فبعثهم فجددوها]، ثم جددها عبد الملك بن مروان^(١).



وفي هذه الغزاة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم مليكة بنت داود الليثية^(٢). وقيل: اسمها عمرة بنت كعب، وقيل: إنها كنانية، وأنه دخل بها وماتت عنده^(٣).

وقال الزهري: ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانية قط، ولا دخل بهذه^(٤). وهي التي استعادت منه، وتزوجها قبل الفتح، وقيل: بعده، وكان أبوها قُتل يوم الفتح.

قال البلاذري: كانت حادثة جميلة، فجاء إليها بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لها: ألا تستحين أن تنكحي قاتل أبيك؟ فاشمأزت، وقالت: فكيف أصنع؟ فقالت لها: إذا جاء إليك فقولي: أعوذ بالله منك، ففعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد عدت بمعاذ» وفارقها^(٥). والتي قالت لها عائشة رضوان الله عليها.

وقال أبو حصين الهذلي: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة امرأة من نساء بني سعد بن بكر بنخي مملوء سمناً وجراب فيه أقط، فدخلت عليه وهو بالأبطح، فانتسبت له فعرفها ودعاها إلى الإسلام فأسلمت، فقبل هديتها، وسألها عن حليلة فأخبرته بوفاتها فذرفت عيناه، ثم سألها: «من بقي منهم؟» فقالت: أخواك وأختك وهم والله محتاجون إلى بركك وصلتك، ولقد كان لهم موئل فذهب، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أين أهلك؟» فقالت: بذات أوطاس، فأمر لها بكسوة وأعطهاها حمل طعينة ومئتي درهم، فانصرفت وهي تقول: نعم والله المكفول كنت صغيراً، ونعم المرء كبيراً عظيم البركة^(٦).

(١) المغازي ٢/٨٤٢ وما بين حاصرتين منه.

(٢) رجح ابن حجر أن اسمها مليكة بن كعب. انظر «الإصابة» ٤/٤١٠.

(٣) «الطبقات» ١٠/١٤٣، و«أنساب الأشراف» ١/٥٤٨ - ٥٤٩.

(٤) «الطبقات» ١٠/١٤٤.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٨، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لقد عدت بمعاذ» إنما قاله لأسماء بنت النعمان بنت الجون الكندية، انظر «أنساب الأشراف» ١/٥٤٦.

(٦) «المغازي» ٢/٨٦٩.

فصل في المتعة

حدّث الربيع بن سبرة الجُهَنِيُّ عن أبيه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الفتح فأقمنا خمس عشرة ما بين يوم وليلة، فأذن لنا رسول الله ﷺ في المتعة، فخرجت أنا وابنُ عمِّ لي، فلقينا فتاةً من بني عامر بن صعصعة كأنها البكرة وأنا قريب من الدمامة، وعليّ برد جديد وعلي ابن عمي بُرْدٌ خَلَقَ وابنُ عمي وَسِيمٌ، فقلنا لها: هل لك أن يستمتع منك أحدنا؟ قالت: وهل يصلح ذلك؟ قلنا: نعم، فجعلت تنظرُ إلى ابن عمي، فقلتُ لها: بُردي هذا بُرْدٌ جديد وبرد ابن عمي خَلَقٌ، قالت: برد ابن عمك لا بأس به، فاستمتع منها، فلم نخرج من مكة حتى حرّمها رسول الله ﷺ (١).

قال المصنّف رحمه الله: وقد اختلف الناس في جواز المتعة، فعامة العلماء على أنها باطلة، وروى جوازها عن جماعة منهم علي (٢)، وابن عباس (٣)، وجابر بن عبد الله (٤)، وأبي سعيد الخدري (٥) وعطاء بن أبي رباح، وابن جُرَيْج، وابن أبي مُليكة، وطاووس (٦) وحكاه أصحابنا.

قال ابن عبد البر: حرّم مالك المتعة في أهل المدينة والشافعي في أهل الحجاز، وأبو حنيفة في أهل الكوفة، والأوزاعي في أهل الشام، والليث في أرض مصر،

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٦) (٢٠)، وأحمد في «مسنده» (١٥٣٤٦).

(٢) لم نقف على قول لعلي بن أبي طالب ﷺ في جواز المتعة، بل ورد عنه النهي عنها، وهو، كما سيذكره المصنّف بعد قليل، دليل على أن علي بن أبي طالب يرى النسخ كما قال البخاري عقب (٥١١٩): وقد بينه علي عن النبي ﷺ أنه منسوخ.

(٣) أخرجه البخاري (٥١١٦) عن أبي حمزة قال: سمعت ابن عباس يسأل عن متعة النساء، فرخص، فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه؟ قال: نعم.

وقال الترمذي عقب (١١٢١): وإنما روي عن ابن عباس شيء من الرخصة في المتعة، ثم رجع عن قوله حيث أخبر عن النبي ﷺ، وسيذكر المصنّف عدول ابن عباس عن هذه الرخصة.

(٤) أخرجه البخاري (٥١١٧)، ومسلم (١٤٠٥) عن جابر وسلمة بن الأكوع قالا: خرج علينا منادي رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا يعني متعة النساء.

(٥) ذكره ابن قدامة في «المغني» ١٣٦/٧.

(٦) انظر «المغني» ١٣٦/٧.

والحسن في أهل البصرة.

واحتج من أباها بقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، وبأحاديث منها:

ما روي عن ابن مسعود قال: غزونا مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي؟ فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم رخص لنا في المتعة، وكان أحدنا يأخذ المرأة أو ينكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ ابن مسعود ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] متفق عليه^(١).

ولعامة العلماء قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] والمتعة ليست من هذا القبيل، ألا ترى أنها ترتفع من غير طلاق ولا يجري بينهما توارث.

وأخرج البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عام خيبر عن متعة النساء وعن لحوم الحمر الأهلية^(٢).

وكذا قال عمر: أباح رسول الله ﷺ المتعة ثم حرّمها.

وأما الآية فالمراد بها الاستمتاع بطريق النكاح المؤبد لا المؤقت، لأنه وسيلة إلى الأغراض المطلوبة من التناسل والتوالد وغيره، والتوقيت يبطله.

وروي أن عروة بن الزبير قال لابن عباس: أهلكت نفسك وأهلكت الناس، فقال له: وما هو يا عري؟ قال: إباحة المتعة، وقد كان أبو بكر وعمر ينهيان عنها فقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتخبرني عن أبي بكر وعمر، فقال عروة: هما كانا أعلم بالسنة منك.

وقال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس: لقد أكثرت في المتعة حتى سارت بها الركبان، وقال فيها الشاعر: [من البسيط]

أقول وقد طال الشواء بنا معاً يا صاح هل لك في فتوى ابن عباس

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥١١٥) وأخرجه أيضاً مسلم (١٤٠٧).

يا صاح هل لك في بيضاء أنسية تكونُ مشواك حتى رجعة الناس فانزعج ابن عباس وقال: ما إلى هذا ذهبت، ثم قام خطيباً في يوم عرفة وقال: أيها الناس إن المتعة حرامٌ كالميتة والدم ولحم الخنزير^(١).

وقال جابر بن يزيد: والله ما فارق ابن عباس الدنيا حتى رجع إلى قول الصحابة في تحريم المتعة.

وكان عمر رضوان الله عليه يقول: والله لا أوتى برجل أباح المتعة إلا رجمته^(٢).



وبث رسول الله ﷺ سراياه حول مكة وهو مقيم بها وسير خالد بن الوليد لهدم العزى، فخرج في ثلاثين فارساً فهدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: «هدمتها؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «فهل رأيت شيئاً؟» قال: لا، قال: «فإنك لم تهدمها، فارجع إليها» فرجع وهو متغير، فجرد سيفه، فخرجت امرأة عريانة سوداء ناشرة شعرها، قال خالد: فأخذني في ظهري قشعريرة وأقبل إليها وبيده السيف فضربها فجزلها اثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى، وقد يئست أن تُعبد ببلادكم أبداً». وكان هدمها لخمس بقين من رمضان، وسادنها أفلح بن النضر السلمي^(٣).



وبعث رسول الله ﷺ بالطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكففين صنم عمرو بن حممة الدوسي فهدمه وحرقه بالنار^(٤).

ذكر هدم سواع صنم هذيل:

قال عمرو بن العاص: انتهيت إليه وعنده السادن فقال: ما الذي تريد منه؟ قلت:

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» ٢٠٥/٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٧).

(٣) «الطبقات الكبرى» ١٣٥/٢، وانظر «السيرة» ٤٣٦/٢ - ٤٣٧.

(٤) «الطبقات» ١٤٥/٢.

أمرني رسول الله ﷺ بهدمه، فقال: لا تَقْدِرُ؛ إنه يمتنع عليك، فقلت له: وأنت إلى الآن في الباطل، وهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنوت منه فهدمته وقلت للسادن: كيف ترى؟ فقال: أسلمت لله رب العالمين^(١).

ذكر مسير خالد إلى بني جَذِيمَةَ:

لما افتتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فخرج حتى نزل على بني جَذِيمَةَ بن عامر بن مناة بن كنانة وهم على ماء لهم يقال له: الغُمَيْصَاءُ، وكانوا قد أصابوا في الجاهلية عمه الفاكه بن المغيرة وعوفاً أبا عبد الرحمن ﷺ، فلما غشيهم أخذوا السلاح، فقال خالد: إن الناس قد أسلموا فضعوا السلاح، وأبى جَحْدَمُ - رجل منهم - أن يضع سلاحه، وقال: يا بني جَذِيمَةَ، إنه خالد، ولا والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسَارُ وما بعد الإِسَارِ إلا ضَرْبُ الأَعْنَاقِ، فقالوا: يا جَحْدَمُ، تريد أن تُصِيبَ دِمَاءَنَا، فإن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمنت الناس، فلم يزالوا به حتى أخذوا سلاحه، فنزل خالد وأمر برجال منهم فأسروا وضربت أعناقهم، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا عَمِلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: «اخرُجْ إلى هؤلاء القومِ فدِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، واجْعَلْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْكَ» وأعطاه مالا، فخرج فودى دماءهم وأموالهم حتى أعطاهم ثمنَ مِئْلَغَةِ الكَلْبِ، وبقيت بقية من المال فقال: أعطيتكم هذا احتياطاً لرسول الله ﷺ فيما لا يعلم وفيما لا يعلمون فأعطاهم إياه، ثم قَدِمَ على رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة ورفع يديه حتى رُؤِيَ بياض إبطيه، ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ»^(٢).

وقال ابن سعد: لما رجع خالد من هَدَمِ العزى إلى رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة بعث إلى بني جَذِيمَةَ داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فخرج في ثلاث مئة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فقبل لبني جَذِيمَةَ: هذا خالد في المسلمين، فقالوا:

(١) «الطبقات» ٢/ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) «السيرة» ٢/ ٤٢٨ - ٤٣٠ .

ونحن مسلمون قد صلينا وبيننا المساجد وأذنا فيها وصدقنا محمداً ﷺ، فقال لهم خالد: ما أنتم؟ فقالوا: مسلمون، وقال: فما بال سلاحكم عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوةً فخفنا أن تكونوا هم، فأخذنا السلاح لندفع عن أنفسنا، قال: فضعوا السلاح، فقال لهم جحدم: ويحكم يا بني جذيمة، والله إنه خالد، ولا يريد منا ما يراد بالمسلمين وقد عرفتموه، فما زالوا يكلمونه حتى ألقى سيفه وقالوا: نحن مسلمون وقد فتح الله مكة، فقال: والله ليأخذنكم بما تعلمون من الأحقاد القديمة، فقال خالد: استأسروا، فاستأسروا وأمر بهم فكثفوا ودفع إلى كل رجل من المسلمين الرجل والرجلين فباتوا في وثاق، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة كلموا المسلمين فيصلون ثم يربطون، فلما كان في السحر والمسلمون قد اختلفوا بينهم، فقائل يقول: إنما أسرهم ليذهب بهم إلى النبي ﷺ، وناس يقولون: إنما يختبرهم ليلو طاعتهم، فلما كان وقت السحر نادى مناديه: من كان معه أسيرٌ فليداقه، والمدافاة الإجهاز عليه بالسيف، فأما بنو سليم فقتلوا كل أسيرٍ في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأطلقوا أسراهم، وكان في الجيش عبد الله بن عمر رضي الله عنه فأطلق أسيره^(١).

قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صباناً. وذكر أنهم لما قدموا على النبي ﷺ أخبروه بما صنع خالد، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين^(٢).

وقال الواقدي: لما أرسل المهاجرون والأنصار أسراهم غضب خالد، فقال له أبو أسيد الساعدي: اتق الله يا خالد، والله ما كنا لنقتل قوماً مسلمين، قال: وما يدريك؟ فقال: قد سمعنا إقرارهم بالإسلام ورأينا مساجدهم^(٣).

ولما قدم خالد على النبي ﷺ عاب عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ما صنع وقال:

(١) «الطبقات» ١٣٦/٢ - ١٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٣٨٢).

(٣) «المغازي» ٨٧٧/٣.

يا خالد، أخذت القومَ بأمر الجاهلية قاتلك الله، وأعان عمر رضي الله عنه على خالد، فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك، فقال عبد الرحمن: كذبت والله لقد قتلتُ قاتلَ أبي بيدي، واستشهد بعثمان رضي الله عنه فقال: نعم، ثم قال عبد الرحمن: ويحك يا خالد، ولو لم أقتل قاتل أبي أكنت تقتل قوماً مسلمين بأبي في الجاهلية؟ فقال: من أخبرك أنهم أسلموا؟ فقال: أهل السرية كلهم^(١).

ذكر من شهد الفتح ومدة مقام النبي ﷺ:

شهد مع رسول الله ﷺ الفتح عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار والقبائل، وقيل: شاهده اثنا عشر ألفاً، وبريدة بن الحُصَيْب في خمس مئة وخزاعة في خمس مئة. وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصُرُ، وإذا سلّم من صلاته يقول: «يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإننا قوم سفر».

وقيل: أقام خمس عشرة ليلة، وقيل: عشرين ليلة، وكان قدومه لعشر ليالٍ بقين من رمضان، واستخلف على مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أميراً وهو ابن ثمانين سنة، وقيل: ابن عشرين، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقهاء.



وفيها: كانت غزاة حنين^(٢) في شوال، وحنين: اسم موضع، وقيل: جبل بتهامة، وقيل: وادٍ إلى جانب ذي المجاز: بينه وبين مكة ثلاث ليال.

وسبب هذه الغزاة، لما فرغ رسول الله ﷺ من مكة بلغه أن أشراف ثقيف وهوازن اتفقوا وجمّعوا، وجعلت هوازن أمرها إلى مالك بن عوف النَّصْرِي وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، وكان في ثقيف سيدان: قارب بن الأسود بن مسعود، وذو الخمار سبيع

(١) «المغازي» ٣/ ٨٨٠، وانظر «السيرة» ٢/ ٤٣١.

(٢) «السيرة» ٢/ ٤٣٧، و«المغازي» ٣/ ٨٨٥، و«الطبقات» ٢/ ١٣٨، و«أنساب الأشراف» ١/ ٤٣٨، و«تاريخ الطبري» ٣/ ٧٠، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٥/ ١١٩، و«المنتظم» ٣/ ٣٣١، و«البداية والنهاية» ٤/ ٣٢٢.

ابن الحارث، ويقال له: الأحمر بن الحارث^(١)، وتجمعت كلها إلى هوازن، وكان مالك بن عوف قد مضى بنفسه إلى الطائف ودعاهم إلى قتال رسول الله ﷺ فأجابوه، وخرج غيلان بن سلمة الثقفي ومعه ثقيف وعشرة من ولده على عشرة أفراس، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب.

وحضرها دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ في بني جُشَم وهو ابن ستين أو سبعين ومئة سنة، شيخ كبير لا يراد منه إلا رأيه ومعرفته بالحروب، وكان شيخاً مُجرباً قد ذهب بصره وأمرُ الناسِ يومئذٍ ثقيفٍ وغيرها إلى مالك بن عوف النَّصْرِي، وأمرَ الناسَ فجاؤوا بأموالهم ونسائهم وأهلهم فنزلوا بأوطاس وادٍ عند حُنَيْنٍ فعسكروا به، والأمدادُ تأتيهم من كل ناحية.

وأمرُ جُشَمِ إلى دُرَيْدِ بن الصَّمَّةِ [بن بكر بن]^(٢) علقمة بن خُزاعة بن غزية بن جشم ابن معاوية بن بكر، وقد جعلوه في شجارٍ مثل الهودج يقاد به على بعير، فلما نزل الناس^(٣) لمس بيده الأرض وقال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، فقال: نعم [مجال الخيل، لا حزنٌ ضرس، ولا سهل دَهْسٌ، مالي]^(٤) أسمع رُغاءَ البعير، ونُهاقَ الحمير، ويُعارَ الشاء، وخوارَ البقر، وبكاء الصغير، قالوا: ساق مالك مع الناس أولادهم ونساءهم وأموالهم، فقال: يا معاشر هوازن، أمعكم من بني كلاب أحد؟ قالوا: لا، قال: فمعكم من بني كعب بن ربيعة أحد؟ قالوا: لا، قال: فهل معكم من بني هلال بن عامر؟ قالوا: لا، فقال دريد: لو كان خيراً ما سبقتوهم إليه، ولو كان ذكراً وشرفاً ما تخلفوا، فأطيعوني وارجعوا وافعلوا كما فعلوا، فأبوا عليه، فقال: أين مالك؟ فدُعِيَ به فقال: يا مالك، إنك مقاتلٌ رجلاً كريماً وأنت رأس قومك، إن هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام، يا مالك مالي أسمع رُغاءَ البعير، ونُهاقَ الحمير، وخوارَ البقر، ويعار

(١) في «السيرة» ٤٣٧/٢ : وأخوه أحمر بن الحارث .

(٢) ما بين معقوفين زيادة من «تاريخ دمشق» ٢٣١/١٧ .

(٣) في «المغازي»: «الشيخ» .

(٤) ما بين معقوفين زيادة من «السيرة» و«المغازي»، و«الحزن»: المرتفع من الأرض، و«الضرس» الذي فيه حجارة محددة، و«دهس»: لين كثير التراب .

الشاء، وبكاء الصغير؟ فقال: سُقْتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال دريد: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده وشاءه حتى يقاتلوا عنهم، فنفض دريد يده وقال: راعي ضأن، ماله وللحرب، وهل يرُدُّ المنهزمَ شيءٌ؟ إنها إن كانت لك، لم يَنْفَعَكَ إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فُضِحَتْ في أهلك ومالك، يا مالك، إنك لن تصنع بتقديم بَيْضَةِ هوازن إلى نُحور الخيل شيئاً، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك أَلْفَاكُ ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فغضب مالك وقال: والله لا أُغَيِّرُ أمراً أصنعه، إنك قد كبرت وكبر عملك وحدث بعدك من هو أبصر منك بالحرب. فقال دريد: يا معاشر هوازن، والله ما هذا لكم برأي، هذا فاضحكم في عورتكم وممكّن منكم عدوكم، ولا حقّ بحصن ثقيف وتارككم، فانصرفوا ودعوه. فسلّ مالك سيفه ثم نكسه، وقال: والله يا معاشر هوازن لتُطِيعُنِي أو لأتكنن على السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكرٌ، فقال بعضهم لبعض: والله لئن عصينا مالكا وهو شاب ليقتلن نفسه ونبقى مع دريد شيخ كبير لا قتال فيه، فأجمعوا رأيهم على مالك، فلما رأى ذلك دريد قال: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه: [من مجزوء الرجز]

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ
أُحِبُّ فِيهَا وَأَضَعُ
أَقُودُ وَظَفَاءَ الرِّمَعِ
كَأَنَّهَا شَاءُ صَدَعِ

وخرج رسول الله ﷺ من مكة في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار والقبائل الذين شهدوا معه الفتح، وفي ألفين من أهل مكة من الطلقاء، وكان المشركون أربعة آلاف فقال قائل: لن نُغَلَبَ اليوم من قِلَّةِ، فلما سمع النبي ﷺ ذلك ساءه^(١).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا

(١) «السيرة» ٤٣٧/٢ - ٤٤٠، و«المغازي» ٣/٨٨٥ - ٨٨٩.

أربع مئة، وخيرُ الجيوشِ أربعةُ آلافٍ، ولا يُغلبُ اثنا عشرَ ألفاً من قِلَّةِ كلمتهم واحدةٌ»^(١).

وقال أبو واقد الليثي: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، وكان لكفارِ قريشٍ ومن سواهم شجرةٌ عظيمةٌ خضراءُ يقال لها: ذات أنواط، يأتونها في كل سنة يُعلِّقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً، فبينما نحن نسيرُ مع رسول الله ﷺ أتينا شجرةً عظيمةً خضراءَ فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «اللهُ أكبرُ، قُلْتُمْ والذي نفسي بيده كما قال قومُ موسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨] لتأخذنَّ سننَ من قبلكم»^(٢).

قال: وانتهى رسول الله ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء، لعشر ليالٍ خلونَ من شوال^(٣).

وقال أمية بن عبد الله بن عثمان بن عفان: بعث مالك بن عوف عيوناً ممن معه، فأتوه وقد تقطعت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلقي، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فما ردّه ذلك عن وجهه^(٤).

ودعا رسول الله ﷺ ابنَ أبي حذرٍدِ الأَسلميَّ فقال له: انطلق فادخل في الناس حتى تأتيني بأخبارهم، فانتهى إلى خباء مالك فسمعه وهو يقول لأصحابه: إن محمداً لم يلق قط مثل المرة، وإنما لقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان في السحر فصفوا مواشيكم وأبناءكم و نساءكم من ورائكم، ثم اكسروا جفون سيوفكم واحملوا حملة رجل واحد، فإنكم تلقونه بعشرين ألف سيف.

وهذا يدل على أنهم كانوا عشرين ألفاً.

ورجع ابن أبي حذرٍدِ إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال عمر: كذب ابن أبي حذرٍدِ، فقال ابن أبي حذرٍدِ: لئن كذبتني يا عمر، فلطالما كذبتَ بالحق، فقال عمر رضوان الله

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧١٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧).

(٣) «المغازي» ٣/ ٨٩٢.

(٤) «المغازي» ٣/ ٨٩٢.

عليه: أسمع يا رسول الله ما يقول؟ فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ، كُنْتَ ضَالًّا فَهَذَاكَ اللهُ»^(١).

وخرج من مكة رجالٌ فرساناً ومُشاةً ينظرون لمن تكون الدائرة، فيصيبون من الغنائم، ولا يكرهون أن يكون الصَّدْمُ للنبي ﷺ وأصحابه.

وخرج أبو سفيان بن حرب في أثر العسكر، كلما مرّ بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبي ﷺ حمله على بعيره، والأزلام في كنانته حتى أوقر جملة.

وخرج صفوان ولم يُسَلِّم وهو في المدة التي جعلها رسول الله ﷺ له، وحكيم بن حزام، وحويطب بن عبد العزى، وسُهَيْل بن عمرو، والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، والكل ينظرون لمن تكون الدائرة وهم خلف الجيش^(٢).

وعباً رسول الله ﷺ أصحابه صُفُوفاً في السحر، وعقد الألوية ووضع الرايات مع أهلها، فكان لواء المهاجرين بيد علي رضي الله عنه، ولواء الخزرج بيد الحُباب بن المنذر، وقيل: مع سعد بن عُبادة، ولواء الأوس بيد أُسَيْد بن حُضَيْر، وراية بيد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، وراية بيد سعد بن أبي وقاص، في كل بطن وقبيلة لواء أو راية^(٣).

ذِكْرُ الْقِتَالِ:

انحدر رسولُ الله ﷺ بأصحابه وقد مضت مقدمته على تعبته في وادي حنين، وركب بغلته الدُّلْدُلَ، وظاهرَ بِدْرَعَيْنِ، ولبس المِغْفَرَ والبَيْضَةَ.

وقال أنس بن مالك: لما انتهينا إلى وادي حنين وهو وادٍ من أودية تهامة، له مضائق وشُعَبٌ، فاستقبلنا من هوازن بشيء، لا والله إن رأيتُ مثله قط، من السَّوَادِ والكثرة، قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذرايرهم، ثم صَفُّوا صفوفاً، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفرُّوا، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً، فبينا نحن في غَبَشِ الصُّبْحِ إن

(١) «المغازي» ٣/ ٨٩٣، وانظر «السيرة» ٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠.

(٢) «المغازي» ٣/ ٨٩٤ - ٨٩٥.

(٣) «المغازي» ٣/ ٨٩٥ - ٨٩٦.

شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشُعبه، فحملوا علينا حملة رجل واحد، فانكشفت أول الخيول مؤلّيةً، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين لا يلوون على شيء، فسمعتُ رسولَ الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس مُنهزمون وهو يقول: «يا أنصارَ الله، وأنصارَ رسولِهِ، أنا عبدُ الله ورسولُهُ، أنا عبدُ الله ورسولُهُ» ثم تقدم بحربته، فوالذي بعثه بالحق ما ضربنا بسيف ولا طعنًا برمح حتى هزَمَهُم اللهُ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العسكرِ وأمر بأن يُقتل كلُّ من قُدِرَ عليه منهم، وجعلت هوازن تؤول وثاب من انهزم من الناس^(١).

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: سبق رسول الله ﷺ مالك بن عوف إلى الوادي، فانحطّ بهم في عماية الصبح، وثارَت في وجوههم الخيلُ فشَدَّت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: «أيُّها الناسُ، هلُمُّوا إليَّ، أنا رسولُ الله، أنا مُحمَّدٌ» ومعه رَهْطٌ من أهل بيته ورَهْطٌ من المهاجرين، والعباسُ أخذُ برأسِ بَغْلته البيضاء، ورسولُ الله ﷺ عليها قد شجرها، وثبت معه من أهل بيته علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما.

قال: ورجلٌ من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء على رأس رمحٍ طويل أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدرك الناسَ طعنَ برمحه، وإذا فاته الناسُ رفعَ رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فلما انهزم مَنْ كان مع النبي ﷺ من جُفَاة أهل مكة، تكلم رجالٌ منهم بما في أنفسهم من الضُّغنِ^(٢).

وعن جابر قال: لما رأى رسول الله ﷺ يوم حنين ما رأى قال: «يا عباسُ اصرخُ بالأنصار» فنادى العباس: يا أصحاب السُّمرة، فأجابوه: لبيك لبيك، فجعل الرجلُ منهم يذهب ليعطف بغيره فلا يقدر عليه، فيقذف درعه ويأخذُ سيفه وقوسه ثم يؤمُّ الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مئة، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه

(١) «المغازي» ٣/ ٨٩٧-٨٩٨، وفيها: تولى وثاب.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٠٢٧).

وقال: «الآن حمي الوطيس».

وروى عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن أبيه قال^(١): انكشف الناس يوم حنين عن رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا رجل يقال له: زيد، أخذ بعنان بغلته الشهباء فقال له: «ويحك ادع الناس»، فنادى: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ فلم يجبه أحد، فقال: «ادع الأنصار» فنادى: يا معشر الأنصار، فلم يجبه أحد، فقال: «خُصَّ الأوس والخزرج» فنادى: يا معشر الأوس والخزرج، فلم يجبه أحد، فقال: «ويحك ادع المهاجرين، إن الله في أعناقهم بيعتين وهذا رسولُ الله ﷺ يَدْعُوهُمْ» فأقبل منهم ألف قد كسروا جفون سيوفهم، فأتوا رسول الله ﷺ ثم مشوا قُدماً حتى فتح الله على يديه^(٢).

وعن العباس رضي عنه قال: لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون، فولى المسلمون يومئذ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا أبو سفيان بن الحارث أخذ بثُفْرٍ^(٣) بغلة رسول الله ﷺ فأخذت بلجامها وكنت رجلاً صيِّتاً، فقال: «يا عباس، اصرخ بالأنصار: يا أصحاب السُّمْرِ» فناديت، فأقبلوا كأنهم الإبلُ إذا حنت إلى أولادها، يقولون: لبيك لبيك، وثاب الناس، فقال رسول الله ﷺ: «الآن حمي الوطيس» ثم أخذ بيده من الحصى فرماهم به ثم قال: «أنهزموا ورب الكعبة» فانهزموا، وركض رسول الله ﷺ بغلته خلفهم^(٤).

وقيل: لما ناداهم العباس رضي عنه رجعوا وهم يقولون: الكرة بعد الفرة، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أنشدك وعُذَّكَ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا»^(٥).

وقال هشام بن الكلبي: ثبت مع رسول الله ﷺ ثلاث مئة رجل من أهل بيته وغيرهم. وسأل رجلُ البراء بن عازب فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١٢٩/٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في «مصنفه» ٤١٧/٧ ، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٨١/٦ ، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات .

(٣) الثفر: بالتحريك، السير في مؤخر السرج .

(٤) «المغازي» ٣/٨٩٨ - ٨٩٩ .

(٥) «المغازي» ٣/٨٩٩ .

البراء: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ؛ كانت هوازن ناساً رُماً، وإنّا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكبنا على الغنائم فاستقبلونا بالسّهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها، ورسول الله ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقال سلمة بن الأكوع: لما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من الأرض واستقبلهم بوجهه وقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ الله عينه تراباً بتلك القبضة، فولوا منهزمين، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين^(٢).

وقال البلاذري: قال العباس رضي الله عنه: كنت أخذاً يوم حنين بحكمة بغلة رسول الله ﷺ، وأقبل نفر من كنانة يريدونه فدنا منه أحدهم، فاحتضنت الرجل وصحت بأقرب موالي رسول الله ﷺ إليّ وقلت: اضربه ولا تتق مكاني ولا تُبالي أيّنا قُتل، فقتله المولى، ثم جاء آخر يريدُه ففعلت به كذلك، حتى قتلنا ستة أنفس من القوم، فقبل رسول الله ﷺ وجهي.

وفي يوم حنين يقول العباس: [من الطويل]

نصرنا رسول الله في الحرب سبعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
وثامننا لاقى الجمام بسيفه بما مسّه في الله لا يتوجع
يعني نفسه وابنه الفضل وعلي بن أبي طالب وأبا سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد
وأبا رافع وأيمن بن أم أيمن^(٣).

ذكر أقوال أهل الأضغان:

قال أبو سفيان بن حرب: ما تنتهي هزيمتهم إلا إلى البحر، وأخرج الأزام من كنانته يستقسم بها، فقال له رجل من أسلم يقال له أبو مغيث: أما والله لولا أني سمعت

(١) أخرجه البخاري (٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٣) المذكورون هنا سبعة فقط، والثامن اختلف فيه، انظر أنساب الأشراف ٣/٧-٨، والاستيعاب ١/٢٤٥.

رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك.

وصرخ كَلْدَةُ بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية وهما مشركان: أَلَا بَطَلُ السَّحَرِ الْيَوْمَ، فقال له صفوان: أَسْكَتَ فَضَّ اللهُ فَاكُ، فوالله لأن يرُبَّنِي رجلٌ من قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رجلٌ من هَوَازِنٍ^(١).

وقال سهيل بن عمرو: لا يجتبرُها محمد وأصحابه، فقال عكرمة بن أبي جهل: إن هذا ليس بقول، إنما الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أُدِيلَ عليه اليوم فإن له العاقبة غداً، فقال له سهيل: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا والله نُوضِعُ في غير شيءٍ وعقولنا عقولنا، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع^(٢).

وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة: خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى حُنين وقد أضمرت غِرَّتَه وقلت: عسى أن أصيب بثأر قريش، فلما اختلط الناسُ اخترطتُ سيفي وقصدته، فلما رفعت يدي رفع لي شواظٌ من نارٍ كالبرق فسقط السيف من يدي، وناداني رسول الله ﷺ وقال: «أعيذك بالله يا شيبه» أطلعه على ما كان في نفسي، فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأحببته، فهو أحب إلي من سمعي وبصري^(٣).

ذِكْرُ هَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ:

كانت الهزيمة أولاً على هوازن، فخلَّفوا الدَّراري، ثم تنادوا: يا حماة السوء أذكروا الفضائح، فراجعوا فانكشف المسلمون. فقال الطلقاء بعضهم لبعض: اخذلوه فهذا وقته، فانهزموا، فهم أول من انهزم.

وقال جابر بن عبد الله: لما انكشف الناسُ والله ما رجعت راجعةً هزيمتهم حتى وجدنا الأسرى عند رسول الله ﷺ مُكْتَفِينَ، ولما انكشف الناسُ قال رسول الله ﷺ لحارثة بن النعمان: يا حارثة كم ترى من الرجال الذين ثبتوا؟ قال: فحزرتهم فكانوا مئة رجل^(٤).

(١) انظر «السيرة» ٢/٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) «المغازي» ٣/٩١٠ - ٩١١.

(٣) «المغازي» ٣/٩٠٩ - ٩١٠.

(٤) «المغازي» ٣/٩٠٠.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ لما انهزم الناس وبقي في المئة الصابرة: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان» فقال له جبريل ﷺ: لقد لُقنت الكلمات التي لُقن الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه^(١).

ويقال: إن المئة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الأنصار.

وقصد أبو دجانة الرجل الذي كان على الجمل الأحمر وبيده راية سوداء على رمح طويل، وكان قد أكثر القتل في الناس، فعرقب جملة وشد عليه هو وعلي فقتلاه^(٢).

وبلغت هزيمة المسلمين مكة، ثم تراجعوا، فأسهم لهم رسول الله ﷺ جميعاً، وجعلت أم سليم تقول: يا رسول الله أرأيت هؤلاء الذين فروا عنك وخذلوك، لا تعف عنهم إذا أمكنك الله منهم، اقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين، فقال: «يا أم سليم قد كفى الله»^(٣).

ولقد قتل أبو طلحة يومئذ عشرين بطلاً وسلبهم.

ولما حمل المسلمون على المشركين قتلوهم وأسرعوا إلى قتل الذرية [فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية] ألا لا تقتل الذرية» قالها ثلاثاً، فقال أسيد بن حضير: أليس هم أولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوليس خياركم أولاد المشركين، كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها»^(٤).

وقال جبير بن مطعم: لما تراءينا نحن والقوم رأينا سواداً لم نر مثله قط، فأقبل مثل الظلمة السوداء من السماء حتى أظلمت علينا وعليهم وسدت الأفق، فنظرنا فإذا وادي حنين يسيل بنمل أسود مبعوث لم نشك أنه نصر أيدينا الله به^(٥).

(١) «المغازي» ٣/٩٠١.

(٢) «المغازي» ٣/٩٠٢.

(٣) «المغازي» ٣/٩٠٣ - ٩٠٤.

(٤) «المغازي» ٣/٩٠٤ - ٩٠٥، وما بين معقوفين زيادة منه، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٩) من حديث

الأسود بن سريع.

(٥) «السيرة» ٢/٤٤٩، و«المغازي» ٣/٩٠٥، و«دلائل النبوة» ٥/١٤٦.

وقال رجل من المشركين: التقينا نحن وأصحاب محمد فلم يقفوا لنا حَلْبَ شاةٍ، فلما كشفناهم جعلنا نخترقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء - يعني رسول الله ﷺ - فلاقانا رجال بيضُ الثياب، حسانُ الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، فرجعنا وركبونا^(١).

وحكي أيضاً عن رجل يقال له: شجرة من بني نصر أنه قاله بعدما انهزموا، وبلغ رسول الله ﷺ فقال: «تلك الملائكة».

وقال الواقدي: نزلت الملائكة يوم حنين، سيماهم عمائم حمراء، فنظر إليهم الكفار فانهزموا^(٢).

وقال مالك بن أوس بن الحدثان: حدثني عدَّةٌ من قومي أنهم رأوا يومئذ رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلُقٍ، عليهم عمائم حمراء، أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض، كتائب كتائب، ما يستطيع أحد من الرعب ينظر إليهم^(٣).

وهربت ثقيف بعد أن قُتِلَ منهم مئة رجل تحت راياتهم حتى دخلوا حصن الطائف.

وقال أبو قتادة: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت له فأتيته من ورائه فضربته بالسيف على حَبْلِ عاتقه، فأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلقيتُ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه فقال: ما بال الناس؟ فقلت: أمرُ الله، ثم رجع الناسُ وجلس رسولُ الله ﷺ فقال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ إِذَا كَانَتْ لَهُ بَيِّنَةٌ» فقلتُ وقلت: من يشهدُ لي، ثم جلستُ، وقيمتُ ثانياً وثالثاً فقال: «مَالِكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟» فقصصت عليه القصة، فقال رجل من القوم: صدق يا رسول الله وسلبُهُ عندي، فأرضه من حقه، فقال أبو بكر: لاها الله إذاً، لا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أَسَدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُعْطِيكَ سَلْبَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «صدق فأعطيه إياه» قال: فأخذت الدرع فابتعت به مخرقاً، فإنه لأول مال تأثَّلتُهُ في الإسلام.

(١) «المغازي» ٩٠٦/٣.

(٢) «المغازي» ٩٠٥/٣.

(٣) «المغازي» ٩٠٦/٣.

أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وهذا الحديث يتضمن فتوى أبي بكر رضوان الله عليه بحضرة رسول الله ﷺ.
ومرّ رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة، وكان قد قدّم خالدًا في مقدّمته مع بني سليم
فأرسل إليه وقال: «لا تَقْتُلَنَّ امرأةً ولا عَسِيفاً»^(٢) أي: أجيلاً.
وفي رواية: «ما كانت هذه تقاتل فلم قتلت».

وجاءته الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخته من الرضاعة بعد أن أتعبوها من
المشي وهي تقول: والله إني أخت صاحبكم، ولا يُصَدِّقُونَهَا، فلما دخلت على
رسول الله ﷺ قالت: يا محمد إني أختك من الرضاعة، فقال: «وما علامة ذلك؟»
قالت: عضضتني في إبهامي هذه وأنا مُتورِّكُكَ بوادي السرور ونحن نرعى بهمّ أبيك
وأبي، وأرته مكان العضة، فعرف العلامة وقام لها قائماً وبسط لها رداءه ثم أجلسها
عليه، ورحب بها وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما، فدمعت عيناه، وخيرها بين
المقام عنده وبين الرجوع إلى أهلها، وأسلمت فأحسن إليها ووهبها ثلاثة أعبُد
وجارية، فأحدهم يقال له: مكحول، فزوجوه الجارية^(٣). ثم عادت إلى رسول الله ﷺ
بالجِعْرَانَةِ فأعطاها نِعْماً وشاءً^(٤).

وهرب مالك بن عوف إلى حصن الطائف.

ذِكْرُ الْغَنَائِمِ:

كانت الإبل أربعاً وعشرين ألفاً، والبقر ثلاثة آلاف، والغنم أربعين ألفاً، ومن
الخيول ألفان، ومن السبايا ستة آلاف، وقيل عشرة آلاف، ومن الفضة شيء كثير، فأمر
رسول الله ﷺ بإصدار الجميع إلى الجِعْرَانَةِ ليعودَ إلى الطائف، وولّى مسعود بن عمرو
القاري ذلك، وقيل: استعمل على السبي مَحْمِيَةَ بن جَزْءٍ.

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

(٢) «المغازي» ٩١٢/٣، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٦١٠) من حديث حنظلة الكاتب.

(٣) «السيرة» ٤٥٨/٢، و«المغازي» ٩١٣/٣ - ٩١٤.

(٤) «المغازي» ٩١٤/٣.

وقال الحريش بن هلال القريعي من شعراء الحماسة^(١): [من الوافر]

شَهْدَنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوِّمَاتٍ حُنَيْنًا وَهِيَ دَامِيَةُ الْحَوَامِي^(٢)
 وَوَقَعَةَ خَالِدٍ شَهَدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا عَلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ^(٣)
 نَعْرَضُ لِلسَّيْفِ إِذَا التَّقِينَا وَجُوهَا لَا تُعَرِّضُ لِلطَّامِ
 وَلَسْتُ بِخَالِعٍ عَنِّي ثِيَابِي إِذَا كَرَّ الْكُمَاةُ وَلَا أَرَامِي
 وَلَكِنِّي يَجُولُ الْمُهْرُ تَحْتِي إِلَى الْغَارَاتِ بِالْعَضْبِ الْحُسَامِ

ذكر من استشهد من المسلمين في ذلك اليوم:

أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، وَقِيلَ: ابْنُ عَمْرٍو^(٤) الْخَزْرَجِيُّ، وَهُوَ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ مَوْلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَخُو أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِأُمِّهِ، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ، وَثَبَتَ يَوْمَ حُنَيْنٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَقَاهُ بِنَفْسِهِ، وَقُتِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيُقَالُ لَهُ: الْحَبَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَبِي اللَّحْمِ، وَاسْمُهُ الْحُوَيْرِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَقِيلَ: اسْمُهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ مَالِكٍ، مِنْ بَنِي غِفَارٍ، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَبِي اللَّحْمِ لِأَنَّهُ أَبِي أَنْ يَأْكُلَ مِنَ اللَّحْمِ مَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ وَالْأَصْنَامِ.

سَرَاقَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَدِيِّ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي الْعَجْلَانِ.

أَبُو عَامِرِ الْأَشْعَرِيِّ، وَاسْمُهُ عُبَيْدٌ، وَقِيلَ: عَبْدِ اللَّهِ، وَقِيلَ: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، حَلِيفُ بَنِي تَمِيمٍ رَهْطِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَمُّ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ أَبُو نَعِيمٍ: قَتَلَهُ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ. وَهُوَ وَهْمٌ لِأَنَّهُ دَرِيدٌ كَانَ شَجَاعًا شَيْخًا كَبِيرًا عَاجِزًا عَنِ الْقِتَالِ، وَإِنَّمَا قَتَلَهُ سَلْمَةُ بْنُ دَرِيدٍ.

وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: لَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرَ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَةِ، فَقُتِلَ دَرِيدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ.

(١) الأبيات في الحماسة، وفي «السيرة» ٤٣٣/٢ هي للحجاج بن حكيم السلمي.

(٢) المسومات: الملمات. والحوامي: ما فوق الحافر.

(٣) سنابكها: مقدم أطراف الحوافر.

(٤) نسبه في «الطبقات» ٣٦٨/٥: أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ بِلَالٍ... بْنِ خَزْرَجٍ.

قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته، رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه وقلت: يا عم، من رماك؟ فقال: ذاك قاتلي الذي رماني تراه؟ فلحقت الرجل فلما رأيته ولى هارباً، فاتبته وجعلت أقول: ألا تستحي، فوقف فالتقينا، فقتلته ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت له: قد قتل الله صاحبك، فقال: انزع هذا السهم فنزعتة فنزا منه الماء، قال: فانطلق إلى رسول الله ﷺ وأقرته مني السلام واسأله أن يستغفر لي، ثم لتخلفني على الناس، ومكث يسيراً ومات، فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ دخلت عليه وهو في بيت على سرير مُرْمَلٍ وعليه فراش وقد أثر رمال السرير في ظهره وجنبه، فأخبرته خبر أبي عامر، فدعا له واستغفر، فقلت: ولي، فقال: «اغفر اللهم لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله مدخلاً كريماً يوم القيامة»^(١).

وقال الواقدي: بارز أبو عامر عشرة فقتل تسعة، وبرز له العاشر وهو مُتَعَمَّمٌ بعمامة صفراء فقال أبو عامر: اللهم اشهد، فقال الرجل: اللهم لا تشهد، فضرب أبا عامر فأثبته، فحملوه وبه رمق، واستخلف أبا موسى الأشعري ففتح الله عليه، وقتل قاتل أبي عامر وجاء إلى رسول الله ﷺ فاستغفر لأبي عامر، فقال له أبو موسى: يا رسول الله، فهذا لأبي عامر فادع لي، فقال: «اللهم اغفر لأبي موسى، واجعله في أعلى أمتي»^(٢).

يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب، جمع به فرسه، فقتله المشركون.

ذكر من قتل من الكفار:

قتل منهم زيادة على المئة، وقيل: تسعون، وقيل: سبعون، فمن أعيانهم: دُرَيْدُ بن الصِّمَّة^(٣)، واسم الصمة: معاوية، وكنية دريد: أبو قرة الجشمي، وهو الذي خطب الخنساء ابنة عمرو بن الشريد فلم تُجِبْهُ فقال: [من الوافر]

كفاك الله يا ابنة آل عمرو
من الفتيان أمثالي ونفسي
أترعُم أنني شيخ كبير
وهل أنبأتها أني ابنُ أمس

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٢٤٩٨).

(٢) «المغازي» ٣/٩١٥-٩١٦.

(٣) انظر ترجمته في «تاريخ دمشق» ١٧/٢٣١.

ودريد يعد في الشعراء الفرسان، ووفد على الحارث بن أبي شمر الغساني.
وقال أبو حاتم: كان مالك بن عوف يخرج بدريد في الحروب يتيمن برأيه، ولم
يخالفه إلا في هوازن.

ذكر مقتله:

يقال: إن أبا عامر الأشعري قتله، فرماه ابنه سلمة بن دريد بسهم فقتل أبا عامر.
وقال الواقدي: لما انهزم الناس يوم حنين أتوا الطائف، وعسكر ناس منهم
بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأدرك ربيعة بن
رُفيع بن وهبان السلمي دريد بن الصمة، فأخذ بخطام جملة وهو يظن أنه امرأة وهو في
شجار له^(١)، فأناخ الجمل، وإذا فيه شيخ كبير ابن ستين ومئة وهو لا يعرفه، فقال له
دريد: ما تريد؟ قال: قتلك، قال: وما تريد إلى المرعش الكبير الفاني الأدردي^(٢)، فقال
الفتى: ما أريد إلى غيره ممن هو على مثل دينه، فقال له دريد: من أنت؟ فانتسب له،
وضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً، فقال دريد: بش ما سلحتك أمك، خذ سيفي من وراء
الرَّحْل في الشجار واضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك
أقتل الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد منعت
فيه نساءك، فلما ضربته تكشفت عجزه وبطون فخذيه فإذا بها مثل القراطيس من ركوب
الخيال، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها فقالت: والله لقد أعتق دريد أمهات لك ثلاثاً في
غداة واحدة وجزاً ناصية أيبك، فقال الفتى: لم أشعر^(٣).

فقالت عمرة^(٤) في قتل ربيعة دريداً: [من الوافر]

جَزَى عَنِي الإلهُ بَنِي سُلَيْمٍ وَأَعَقَبَهُمْ بِمَا فَعَلُوا عَتَاقِ^(٥)
وَأَسْقَانَا إِذَا قُدْنَا إِلَيْهِمْ دِمَاءَ خِيَارِهِمْ عِنْدَ التَّلَاقِ

(١) الشجار: هو مركب مكشوف دون الهودج.

(٢) الأدردي: الذي لا سن له.

(٣) «المغازي» ٣/٩١٤-٩١٥، وما بين معقوفين زيادة منه، وانظر «السيرة» ٢/٤٥٣-٤٥٤.

(٤) هي عمرة بنت دريد بن الصمة، والأبيات في «السيرة».

(٥) في السيرة: وعقتهم بما فعلوا عتاق.

فربّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتَ عَنْهُمْ
 وَرَبِّ مُنَوِّهِ بِكَ مِنْ سُلَيْمٍ
 وَرَبِّ كَرِيمَةٍ أَغْتَقَتَ مِنْهُمْ
 فَكَانَ جَزَاؤُنَا مِنْهُمْ عُقُوقاً

وهرب سلمة بن دريد مع مالك بن عوف، فلما طلع مالك على ثنية قال لأصحابه:
 قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم ويلحقوا بإخوانكم، ووقف حتى مضوا^(١).

واختلفوا في سنّ دريد، فقيل: ستون ومئة سنة، وقيل: مئة وسبعون سنة، وقيل:
 مئتا سنة وعشرون سنة.

وقال أبو عبيدة: كان دريد ميمون النقيبة، غزا مئة غزوة، وأدرك أوّل الإسلام ولم
 يسلم حتى قُتِلَ كافراً.

وكانت بنو يربوع قتلوا الصّمة، فأوقع بهم دريد فقتلهم.

وكان له إخوة: عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد بنو الصّمة، وأمهم جميعاً ريحانة
 بنت معدي كرب الزبيدي أخت عمرو، وكان الصّمة سبها^(٢) ثم تزوجها، فأولدها
 بنيه، وفيها يقول أخوها عمرو: [من الوافر]

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعِ
 وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَيَقَالُ لَهُ: الْعَارِضُ، أَغَارُ هُوَ وَدَرِيدٌ عَلَى نَعَمٍ لَقَيْسٍ فَاسْتَاقَوْهَا، فَلَمَّا
 كَانُوا بِيَعْضِ الطَّرِيقِ نَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ فِي مَكَانٍ، فَقَالَ لَهُ دَرِيدٌ: لَا تَفْعَلْ، فَجَاءَتْ قَيْسٌ
 فَأَحَاطَتْ بِهِمْ، فَأُولَ مَنْ قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ وَكَانَ أَشْجَعُ إِخْوَةِ دَرِيدٍ، فَقَالَ دَرِيدٌ: [من الطويل]

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوِيِّ
 فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى
 وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ
 فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِالْفِي مَدَجِّجِ

فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضحى الغدِ
 غَوَايَتُهُمْ وَأَنْنِي غَيْرُ مُهْتَدِ
 غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةُ أَرَشَّدِ
 سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارَسِيِّ الْمُسَرِّدِ

(١) «المغازي» ٩١٦/٣ .

(٢) في النسخ: «سماها»، والمثبت من الأغاني ٤/١٠ .

وإن يكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ
 كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نَصْفُ سَاقِهِ
 قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمَصِيبَاتِ حَافِظٌ
 صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ
 وَأَوَّلَهَا:

أَرَتْ جَدِيدَ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ بعاقبةٍ وأخلفت كلَّ موعد
 وَأُمُّ مَعْبَدٍ: امرأةٌ دريد، لما جزع على أخيه عاتبت وصغرت أمر أخيه عبد الله،
 فألحقها بأهلها وكان عبد الله يكنى أبا فرغان، وأبا ذفافة، وأبا أوفى.

واليوم الذي قتل فيه يسمى: يوم اللوى، واليوم الذي ظهر فيه دريد يسمى: يوم
 الدلائل، فإنه أخذ بثأر أخيه وقتل سادات غطفان واستقراهم حيًّا حيًّا.
 وأما عبد يغوث بن الصمة فقتله بنو مرة.

وأما قيس بن الصمة فقتله بنو كلاب.

وأما خالد بن الصمة فقتله بنو الحارث بن كعب^(١).

وأنزل الله تعالى في قصة حنين ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾
 الآية [التوبة: ٢٥].

غزاة الطائف^(٢)

وسار رسول الله ﷺ من فُورٍ على تعبته وقد تحصن القوم بحصنهم، وقدم خالد بن
 الوليد في مقدمته.

وكان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة بجرش يتعلمان عمل الدبابات والمجانق
 لأجل حصنهم^(٣).

(١) الأغاني ٥/١٠ .

(٢) «السيرة» ٤٧٨/٢ ، و«المغازي» ٩٢٢/٣ ، و«الطبقات الكبرى» ١٤٥/٢ ، و«تاريخ الطبري» ٨٢/٣ ،
 و«دلائل النبوة» للبيهقي ١٥٦/٥ ، و«المنتظم» ٣٤١/٣ ، و«البداية والنهاية» ٣٤٥/٤ .

(٣) «السيرة» ٤٧٨/٢ ، و«المغازي» ٩٢٤/٣ .

وسلك رسول الله ﷺ على نخلة اليمانية ثم على ليّة، وابتنى بها مسجداً بيده، وأصحابه ينقلون إليه الحجارة.

وأُتي يومئذٍ برجلٍ من بني ليث قتل رجلاً من هذيل فسلمه إلى هذيل فقتلوه، وكان أول دم أُقيد في الإسلام، وحرقت قصر مالك بن عوف بليّة ولم يكن به أحدٌ، ومالك بن [عوف في] ^(١) حصن ثقيف، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف، فجاءهم النبلُ كأنه الجرادُ، حتى أُصيبَ من المسلمين أناسٌ، فقال له الحُبابُ بن المنذر: إن كان نزولك يا رسول الله عن أمرٍ، سلّمنا، وإن كان عن غير أمرٍ، فالرأيُ أن نتأخّر، فقال: «انظروا مكاناً مُرتفعاً» فنزلوا في موضع مسجد الطائف خارجاً من القرية، وأبو محجن يرمي من فوق الحصن بمعايل ^(٢) كأنها الرماحُ ما يسقطُ له سهمٌ، وخرج من الحصن امرأةٌ ساحرةٌ فاستقبلت الجيش بعورتها، يدفعون بذلك عن حصنهم ^(٣).

وشاور رسولُ الله ﷺ أصحابه في ذلك، فقال له سلمان: قد كُنّا بفارسٍ ننصبُ المجانيق [وإن لم يكن المنجنيق] ^(٤) طال الثواءُ، فأمره بعمله ونصبه على الحصن، وعمل يزيدُ بن ربيعة دبابتين، ونثر رسول الله ﷺ حَسَكاً من عيدانٍ حول حصنهم، ودخل المسلمون تحت الدبابتين وهما من جلود البقر، وقاتلوا ثم رجعوا إلى جدار الحصن ليحصروه، فرمى عليهم القوم سلك الحديد المُحَمَّاة بالنار فأحرقوا الدبابتين، وخرج بعض المسلمين منهما، فسُمِّيَ: يوم الشدخة، ورماهم القومُ بالنبلِ فقتلوا جماعةً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها، فنادى منادي القوم: يا محمدُ، لِمَ تقطعُ أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظفرت علينا، وإما أن تدعها لله والرحم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أدعها لله والرحم» فتركها ^(٥).

وتقدّم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى ثقيف فقالوا: أمّونا حتى نتكلّم،

(١) ما بين معقوفين زيادة لتوضيح النص .

(٢) المعايل: جمع مِعْبَلَة، وهي: نصل طويل عريض .

(٣) «المغازي» ٣/ ٩٢٥ - ٩٢٦ .

(٤) ما بين معقوفين زيادة من «المغازي» .

(٥) «المغازي» ٣/ ٩٢٧ - ٩٢٨ .

فأمّنوهما. فدَعَوَا نساءً من قريشٍ ليخرجنَ إليهما وهما يخافان السبيَ عليهن، منهن ابنة أبي سفيان كانت عند عروة بن مسعود ولم يكن عروة حاضراً، والفراسيّة بنتُ سُويد بن عمرو بن ثعلبة عند قارب بن الأسود، وامرأةٌ أخرى^(١).

وكان رجلٌ يقومُ على الحصنِ فيقول: روحوا يا رعاءَ الشاء، يا عبيد محمد، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ روحه إلى النار» فرماه سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه بسهم فوقع في نحره، فهوى من الحصن ميّتاً، فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك^(٢).

ورمى أبو محجن عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله عنه، ثم أخرج السهمُ من الجرح وبرىء واندمل، وأمسك أبو بكر [السهمَ عنده، وتوفي عبدُ الله، وقدم أبو محجن في خلافة أبي بكر]، فأخرج له السهم وقال: هل تعرف هذا يا أبا محجن؟ فقال: [كيف] لا أعرفه وأنا برئتُ قدحه ورشّته ورميتُ به ابنك، والحمد لله الذي أكرمه بيدي ولم يُهنني بيده^(٣).

ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبدٍ نزل إلينا من الحصن فهو آمن، فنزل جماعةٌ منهم: أبو بكره نفيح بن الحارث بن مسروح، وكان [عبدًا] للحارث بن كلدّة، وكُنّي بأبي بكره لأنه نزل من الحصن في بكره، فسلمه رسول الله ﷺ إلى عمرو بن العاص يعلمه القرآنَ والسُننَ، وكذا فعل بالباقيين؛ دفع إلى كلِّ واحدٍ من المسلمين رجلاً يموّنه ويعلمه^(٤). فلما أسلم هل الطائف تكلموا فيهم ليردّوا إلى الرّق، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك عتقاء الله، لا سبيلَ لكم عليهم» فبلغ ذلك من أهل الطائف.

وقال ابن إسحاق: ردّ رسول الله ﷺ - كل عبدٍ إلى مولاه لما أسلم مواليتهم.

وقال عبيد بن حصن: يا رسول الله، ائذن لي حتى آتي الحصن فأكلّمهم، فأذن له فجاءهم وقال: أدنو منكم وأنا آمن؟ فعرفه أبو محجن فقال: أدنوه، فدخل الحصن فقال: فداكم أبي وأمي، والله لقد سرّني منكم ما رأيتُ، والله إن في العربِ أحدٌ مثلكم، والله ما لاقى محمد مثلكم قط، ولقد ملّ المُقامَ فاثبتوا في حصنكم فإنه حصين، وسلاحكم كثيرٌ. فلما خرج قالت ثقيف لأبي محجن: إنا كرهنا دخوله علينا،

(١) «المغازي» ٣/ ٩٢٩، وانظر «السيرة» ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٢) «المغازي» ٣/ ٩٢٩ - ٩٣٠.

(٣) المغازي ٣/ ٩٢٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) «المغازي» ٣/ ٩٣١ - ٩٣٢.

وَحَشِينَا أَنْ يُخْبِرَ مُحَمَّدًا بِخَلَلِ رَأْيِهِ فِي حَصِينِنَا. فَقَالَ أَبُو مُحَجَّجٍ: لَا تَخَافُوا، فَلَيْسَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ أَشَدُّ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: مَا الَّذِي قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُمْ: ادْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَبْرُحُ مُحَمَّدٌ عُقْرَ دَارِكُمْ حَتَّى تَنْزِلُوا، فَخُذُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَمَانًا، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ سَاحَةَ غَيْرِكُمْ: بَنِي قَيْنِقَاعَ وَالنُّضَيْرَ وَقَرِيظَةَ وَخَيْبَرَ أَهْلَ الْعِدَّةِ وَالْحَلَقَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَذَبْتَ، قُلْتَ لَهُمْ كَذَا وَكَذَا، الَّذِي قَالَ، فَقَالَ عُيَيْنَةُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَغْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنِي أَقْتُلُ أَصْحَابِي». وَأَغْلَظَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عُيَيْنَةُ، إِنَّمَا أَنْتِ أَبَدًا تُوضَعُ فِي الْبَاطِلِ، لَنَا مِنْكَ مِنْ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ وَقَرِيظَةَ وَخَيْبَرَ وَالْخَنْدَقِ، تُجَلِبُّ عَلَيْنَا وَتَقَاتِلُنَا بِسَيْفِكَ، ثُمَّ أَسْلَمْتَ كَمَا زَعَمْتَ فَتَحَرَّضُ عَلَيْنَا عَدَوْنَا؟! فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، لَا أَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا^(١).

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعِنْدَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ وَالْمَخْنَثُ يَقُولُ لَهُ: إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الطَّائِفَ غَدًا فَعَلَيْكَ يَا بِنْتُ غَيْلَانَ، فَإِنَّهَا تَقْبَلُ بِأَرْبَعٍ وَتَدْبِرُ بِثَمَانَ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأُمِّ سَلْمَةَ: «لَا يَدْخُلُ هَذَا عَلَيْكَ»^(٢).

ذِكْرُ رَحِيلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ ثَقِيفًا: «يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أُهْدِيَتْ لِي قَعْبَةٌ مَمْلُوءَةٌ زُبْدًا، فَنَقَرَهَا دِيكٌ فَهَرَّاقَ مَا فِيهَا». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَظْنُكَ تَدْرِكُ مِنْهُمْ مَا تَرِيدُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا أَنَا، مَا أَرَى ذَلِكَ».

ثُمَّ إِنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمِ بْنِ أُمِيَّةِ بْنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةِ امْرَأَةَ عَثْمَانَ بْنِ مِظْعُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ حُلِيِّ بَادِيَةَ بِنْتِ غَيْلَانَ بْنِ سَلْمَةَ أَوْ حُلِيِّ الْفَارَعَةِ بِنْتَ عَقِيلِ وَكَانَتَا مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ ثَقِيفٍ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أُذُنٌ لِي فِي ثَقِيفٍ»، فَخَرَجَتْ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَتْهُ،

(١) «المغازي» ٣/ ٩٣٢ - ٩٣٣، و«الطبقات» ٦/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣٥)، ومسلم (٢١٨٠).

فدخل على رسول الله ﷺ فسأله فقال: «نعم» فقال: ألا أوزنُ الناس بالرحيل؟ قال: «بلى» فأذن فيهم بالرحيل^(١).

وبعث رسول الله ﷺ حنظلة بن الربيع ابن أخي أكثم بن صيفي إلى أهل الطائف ينظر هل يريدون الصلح أم لا؟ فدخل عليهم فسألهم فقالوا: الموت دون ذلك، فرجع إلى رسول الله ﷺ.

ونادى سعيد ابن عمرو بن علاج الثقفي من الحصن: ألا إن الحي لمقيم، فقال عيينة: أجل والله، مَجْدَةٌ كِرَامٌ، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة تمدح قوماً مشركين وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ؟! فقال: إني والله ما جئت أقاتل معكم ثقيفاً، ولكن أردت إذا فتح محمد الطائف أن أصيب من ثقيف جارية فأتطئها لعلها أن تلد ذكراً، فإن ثقيفاً قومٌ مذاكير^(٢).

فلما ولى عيينة قال رسول الله ﷺ: «هذا الأحمق المطاع»^(٣).

وقال أبو هريرة: لما مضت خمسة عشر يوماً من حصارهم استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال: «ما ترى؟» قال: يا رسول الله ثعلبٌ في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك شيئاً، قال: ولم يؤذن له في فتحها، فأذن عمر في الناس بالرحيل فضجوا، فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال» فغدوا فأصاب المسلمين جراحاتٌ، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون إن شاء الله» فسروا بذلك وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك^(٤).

وأقام رسول الله ﷺ بضعاً وعشرين ليلة - والله أعلم - وكل ذلك يصلي ركعتين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: حاصر الطائف إلى آخر شوال. فلما دخل ذو القعدة وهو شهرٌ حرامٌ لا يحلُّ القتال فيه أنصرف عنهم، وكان معه من نسائه أم سلمة وأخرى قيل: هي زينب بنت جحش.

(١) «السيرة» ٢/ ٤٨٤.

(٢) «السيرة» ٢/ ٤٨٥.

(٣) المغازي ٣/ ٩٣٧، والطبقات ٦/ ١٧٨.

(٤) «المغازي» ٣/ ٩٣٦ - ٩٣٧.

ولما رحل عن الطائف قيل له: ادع عليهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»^(١)
فاستجاب الله دعاءه.

ذِكْرُ الْمُسْتَشْهِدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعُرْفُطَةُ بن حباب^(٢) بن حبيب، وقيل:
الحباب بن جبير، وعبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه رمي بسهم فمات بالمدينة منه،
وعبد الله بن أبي أمية مات من رمية رُميها يومئذٍ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، والسائب
ابن الحارث [بن قيس بن عدي، وأخوه عبد الله بن الحارث، وجليحة بن عبد الله بن
محارب، والحارث]^(٣) بن سهل بن أبي صَعَصَعَةَ، والمنذر بن عبد الله بن وقش بن
ثعلبة، ورُقَيْم بن ثابت بن زيد بن لُوذَانَ، وقيل: ويزيد بن زمعة بن الأسود، جمع به
فرسه إلى حصن الطائف فقتلوه، وثابت بن ثعلبة^(٤) بن زيد بن حَرَامٍ.

ومما قيل في الطائف من الشعر لما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وحنين قول كعب بن
مالك قبل نزوله على الطائف^(٥): [من الوافر]

قضينا من تهامة كل ريبٍ	وخيبر ثم أجمنا السيوفا
نخبّرها ولو نطقنا لقات	قواطعهنّ دوساً أو ثقيفا
فلسنّ لمالك إن لم يزرکم	بساحة داركم منها ألوفا
وننتزع العروشَ ببطن وجّ	وتترك داركم منكم خلوفا
نجاهد لا نبالي من لقينا	أهلكنّا التّلاذّ أم الطريفا
بأمر الله والإسلام حتى	أقمنا الدين مُعتدلاً حنيفا

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٧٠٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) ضبطه ابن حجر في «الإصابة» ٣٠١/١ عند ذكر والده الحباب: بضم المهملة والموحدين الأولى خفيفة. وفي
ترجمته ٤٧٥/٢ قال: وضبط ابن إسحاق أباه بجيم ونون، و ابن هشام بمهملة مضمومة بعدها موحدة.
(٣) ما بين معقوفين زيادة من «السيرة» ٤٨٦/٢ - ٤٨٧، و«المغازي» ٩٣٨/٣.
(٤) هو: ثابت بن الجزع، واسم الجذع ثعلبة. «الإصابة» ١٩٠/١.
(٥) الأبيات في «السيرة» ٤٧٩/٢.

ذكر رجوع النبي ﷺ إلى الجِعْرَانَةِ:

خرج من الطائف، ففي منحدره إلى الجِعْرَانَةِ لقيه سراقة بن مالك بن جُعْشُم الذي تبعهم في طريق المدينة لما هاجر النبي ﷺ، قال سراقة: فدفعت الكتاب الذي كتبه لي أبو بكر وناديتُ: أنا فلان وهذا كتاب رسول الله ﷺ فعرفني، فقال: «أدُنْ» فدنوت، فقال: «هذا يومٌ وفاءٍ وبرٍّ» فأسلمت وسقت إليه الصدقة^(١).

وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجِعْرَانَةِ والغنائم والسبي بها، وقد اتخذ للسبي حظائر يستظلون بها من حر الشمس، وكان السبي ستة آلاف، فأمر رسول الله ﷺ بشر بن سفيان الخزاعي أن يقدم مكة فيشتري للسبي ثياباً يكسوهم بها ففعل^(٢).

ذِكْرُ مَا فَرَّقَ مِنَ السَّبِيِّ:

أعطى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه جارية منهن فوطئها بالملك بعد أن حاضت. وأعطى صفوان بن أمية أخرى، وعلي بن أبي طالب أخرى يقال لها: رَيْطَةُ، وأعطى عثمان رضوان الله عليه أخرى اسمها زينب بنت خُنَاس^(٣) فوطئها فكرهته، وأعطى عمر رضي الله عنه جاريةً فأعطاها لابنه عبد الله، فبعث بها إلى أخواله بني جمح بمكة ليصلحوها حتى يطوف بالبيت ثم يعود إليها قال: فيينا أنا أطوف بالبيت وفي عزمي أن أعود إليها فأطأها، فلما خرجتُ من المسجد وإذا بالناس يَشْتَدُّون، فقلت: ما لهم؟ قالوا: رُدَّ سَبِيُّ هِوَاظِن، فقلت لأهلها: دونكم إياها، فأخذوها.

وأعطى جبير بن مطعم جارية فلم يطأها، وأعطى طلحة بن عبيد الله وأبا عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام رضي الله عنهم جواري فوطئوهن، وهذا كله بحنين، فلما رجع إلى الجِعْرَانَةِ أقام يتربص أن يقدم عليه وفد هِوَاظِن^(٤).

(١) أخرجه الحميدي في «مسنده» (٩٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٦٦٠٢)، وانظر «المغازي» ٣/٩٤١.

(٢) «المغازي» ٣/٩٤٣.

(٣) «في السيرة» ٢/٤٩٠، و«المغازي» ٣/٩٤٤: بنت حيان.

(٤) «المغازي» ٣/٩٤٣ - ٩٤٤.

وقال أنس: نادى رسول الله ﷺ يوم أوطاس: «ألا لا تُوطأ الحَبَالِي حتى يَضَعْنَ، ولا غيرَ الحَبَالِي حتى يَسْتَبْرِئْنَ بِحَيْضَةٍ»^(١).

وعن سلمة بن الأكوع قال: رخص رسول الله ﷺ في متعة النساء عام أوطاس ثلاثة أيام ثم نهى عنها^(٢).

وعنه عن رسول الله ﷺ: «أيُّما رجل وامرأةٍ تَوَافَقَا، فَعِشْرَةٌ ما بَيْنَهُمَا ثَلَاثُ لَيَالٍ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَزَايِدَا، أَوْ يَتَارَكَا» فما أدري شيء كان لنا خاصة أم للناس عامة^(٣).

ذكر وفد هوازن:

لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب من أموال هوازن وسباياهم أدركه وفدهم بالجِعْرَانَةِ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، نحن الأهل والعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو كنا ملكنا ابن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا برهما وعائدتهما وعظفهما، وأنت خير المكفولين، وأنشده^(٤): [من البسيط]

أَمُنُّنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمِ	فإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدَّخِرُ
أَمُنُّنْ عَلَى بَيْضَةٍ إِغْتَاقَهَا قَدَرٌ	مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غَيْرُ
أَمُنُّنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا	إِذْ فُوكَ يَمَلُؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دِرَرٌ
اللَّائِي إِذْ كُنْتَ طِفْلاً كُنْتَ تَرْضَعُهَا	وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ
أَلَا تَدَارِكُهَا نِعْمَاءٌ تَنْشُرُهَا	يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْمًا حِينَ يُخْتَبَرُ
لَا تَجْعَلُنَا كَمَنْ شَالَتْ نِعَامَتُهُ	وَاسْتَبَقَ مِنَّا فَإِنَّا مَعْشَرُ زُهْرٍ
إِنَّا لَنَشْكُرُ آلاءَ وَإِنْ قَدُمْتُ	وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مُدَّخِرُ

(١) أخرجه أبو داود (٢١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري، ولم نقف عليه من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٥٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥١١٩).

(٤) الأبيات في «المغازي» ٣/٩٥٠ - ٩٥١.

فقال رسول الله ﷺ: «نِسَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ أَحَبُّ [إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالِكُمْ؟]» فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبُّ [(١)] إلينا، فقال: «مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهَوَ لَكُمْ، وَإِذَا صَلَّيْتُ الظَّهْرَ بِالنَّاسِ فَقُومُوا وَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَبْنَاؤِنَا وَنِسَائِنَا»، فلما صلوا الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهَوَ لَكُمْ» وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لله ورسوله، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم [فلا، فقالت بنو سليم: [بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه» فقال المسلمون: رضينا وسلمنا، ودفعوا ما كان بأيديهم من السبي إلى أهاليهم (٢).

وكان عيينة قد اختار من السبي عجوزاً كبيرة وقال: هذه أم الحي، لعلهم أن يغلوا بفدائها وعسى أن يكون لها في الحي نسب، فجاء ابنها إليه فقال: هل لك في مئة من الإبل؟ قال عيينة: لا، فانصرف وجعلت العجوز تقول لابنها: دعه فوالله ليتركني بغير فداء، فرجع الفتى إليه فقال عيينة: هل لك فيما دعوتني إليه؟ قال: لا أزيدك على خمسين ناقة، فقال عيينة: خذها بغير شيء لا بارك الله لك فيها، لا حاجة لي إليها، فقال ابنها: هي عُريانة، فأخذ لها منه شملة (٣).

وكان رسول الله ﷺ قال: «إن قدرتم على بجاد - رجلٍ من بني سعد بن بكر - فلا يفوتنكم» وكان قد أحدث حدثاً فظفر به المسلمون فأتوا به، وكانت الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألته فيه فأطلقه لها (٤).

ولما ردَّ رسول الله ﷺ على هوازن نساءهم وأبناءهم اتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسِم علينا فيئنا، حتى اضطرروه إلى شجرة فانتزعت رداءه، فقال: «أَيُّهَا

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من «السيرة» ٤٨٩/٢ .

(٢) «السيرة» ٤٨٩/٢ - ٤٩٠ ، و«المغازي» ٩٥٠ - ٩٥٢ .

(٣) «المغازي» ٩٥٢/٣ - ٩٥٤ ، وانظر «السيرة» ٤٩٠/٢ .

(٤) «تاريخ الطبري» ٨٠/٣ - ٨١ .

الناس، رُدُّوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان لكم بِعَدَدِ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعْمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثم ما أَلْفَيْتُمُونِي بِخِيلاً وَلَا جَبَاناً وَلَا كَذَاباً»^(١).

حديث الغار:

عن أبي سعيد قال: أصبنا سبايا يوم حنين، فكنا نلتمس فِداءهُنَّ، فسألنا رسول الله ﷺ عن العزل فقال: «اصنعوا ما بدا لكم، فما قضى الله فهو كائن، وليس من كل الماء يكون الولد». انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

وقال أبو سعيد: كانت اليهود تزعم أن العزل: المؤودة الصغرى، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت اليهود، ولو أراد الله أن يخلقه لم يستطع أحد أن يصرفه». أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند»^(٣).

ذكر ما أعطى رسول الله ﷺ المؤلفه قلوبهم:

أعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، وابنه معاوية مئة بعير، وحكيم بن حزام مئة بعير، والنضر بن الحارث^(٤) بن كلدَةَ بن علقمة مئة بعير، والعلاء بن جارية الثقفي مئة من الإبل، وسهيل بن عمرو مئة من الإبل، وحويطب بن عبد العزى مئة من الإبل، وسهل بن مطعم مئة من الإبل، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر دون المئة^(٥).

وأعطى مخزومة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب الجُمحي وهشام بن عمرو، وأعطى سعيد بن يربوع بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل.

وأعطى عباس بن مرداس السلمي أبا عر^(٦) فسخطها، وعاتب رسول الله ﷺ فقال:

وإيقاظي القوم أن يرقدوا إذا هَجَعَ الناسُ لم أهْجَعِ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٧٧٥) من حديث جبير بن مطعم.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٨) (١٣٣) واللفظ لأحمد في «مسنده» (١١٤٣٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٤٧٧).

(٤) ويقال: الحارث بن الحارث، كما في «السيرة» ٤٩٣/٢.

(٥) في «السيرة» ٤٩٣/٢، و«المغازي» ٩٤٦/٣: أنه أعطاه مئة بعير.

(٦) في النسخ: «أبا عامر» والمثبت من «السيرة» ٤٩٣/٢.

فأصبح نَهَبِي ونَهَبُ العُبَيْدِ
وقد كنتُ في الحَرْبِ ذا تُدْرِي
إلا أفأئِلَ أُعْطِيْتُهَا
فما كان حِصْنٌ ولا حَابِسٌ
وما كنت دون امرئٍ مِنْهُمَا
فقال رسول الله ﷺ: «اذْهَبُوا فاقْطَعُوا لِسَانَهُ» فزادوه حتى رضي^(١).

وقال الواقدي: أخذ بلال بيده ليذهب به فيقطع لسانه فقال: يا معاشر المسلمين انقطع لساني، وأعطاه مئة من الإبل^(٢).

وقال صفوان بن أمية: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(٣).

وقيل لرسول الله ﷺ: أعطيت عينه والأقرع وتركت جعيل بن سُراقَةَ الضَّمْرِي؟! فقال: «والذي نفسي بيده، لجعيلٌ أَحَبُّ إليّ من طِلاعِ الأرضِ كلها مثل عينه والأقرع، ولكنّي تَأَلَّفْتُهُمَا لِيُسَلِّمَا، وَوَكَلْتُ جُعَيْلًا إِلَى إِسْلَامِهِ»^(٤).

وجعيل من الطبقة الثانية من فقراء المهاجرين، شهد أحداً وما بعدها وكان صالحاً^(٥).

وكان رسول الله ﷺ قد غنم فضة كثيرة، فقال أبو سفيان بن حرب: يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالاً! فتبسم، فقال: أعطني من هذا المال، فقال لبلال: «يا بلال زِنْ لأبي سفيان أربعين أوقية» فأعطاه ومئة من الإبل، فقال أبو سفيان: فداك أبي وأمي إنك لكريم، لقد حاربتك فنعمة المُحَارَبُ كنت، ثم سالمتك فنعمة المسالمُ كنت، جزاك الله خيراً^(٦).

(١) «السيرة» ٤٩٣/٢ - ٤٩٤، والأفائل جمع أفيل، وهي الصغار من الإبل.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١٦٢/٥، والخبر فيه أوضح مما هنا.

(٣) «الطبقات» ١١٢/٦.

(٤) «السيرة» ٤٩٦/٢، و«المغازي» ٩٤٨/٣.

(٥) انظر «الطبقات» ٢٣١/٤، وفيه: اسمه جعال.

(٦) «المغازي» ٩٤٤/٣ - ٩٤٥.

وقال حكيم بن حزام: سألت رسول الله ﷺ بحنين مئة من الإبل فأعطانيها، ثم سأله مئة فأعطانيها، ثم سأله مئة فأعطانيها، ثم قال: «يا حكيم بن حزام، إن هذا المال خضرةٌ حلوةٌ، فمن أخذه بسخاءٍ نفسٍ، بُورِكَ له فيه، ومن أخذه بإشرافٍ، لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خيرٌ من السفلى، وابدأ بمن تعول».

فكان حكيم يقول: والذي بعثك بالحق لا أسألُ أحداً بعدك شيئاً. وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول: أيها الناس إني أشهدكم على حكيم أنني أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه^(١).

قال الواقدي: والثابت أن رسول الله ﷺ أعطى هؤلاء من الخمس^(٢).

وأمر زيد بن ثابتٍ بإحصاء الغنائم ففعل، وكان أبو حذيفة العدوي يتقاسم الغنم^(٣).

ذكر معاتبه الأنصار رسول الله ﷺ:

قال أبو سعيد الخدري: لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين، وقسم في المنافقين من قريش وسائر العرب ولم يعط الأنصار شيئاً، وجدوا في نفوسهم وقالوا: لقيي والله رسول الله ﷺ قومه، فقال سعد بن عباد: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا في نفوسهم عليك، قال: «ولم؟» قال: لأنك قسمت الغنائم في قريش والعرب، ولم يك فيهم من ذلك شيء، قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال: «فاجمع لي قومك»، فجمعهم في حظيرة، فقام رسول الله ﷺ خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«يا معاشر الأنصار، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألف بين قلوبكم بي؟»، قالوا: بلى، قال: «ألا تُجيئونني» قالوا: وما نقول؟

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥)، وأما قوله: «وابدأ بمن تعول» فهو قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام أيضاً، وهذا اللفظ بأجمعه من المغازي ٩٤٥/٣.

(٢) «المغازي» ٩٤٨/٣.

(٣) انظر «المغازي» ٩٤٩/٣.

قال: «قولوا، ولو شئتم لقلتم فصدقتم: جئتنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك»، فقالوا: المنُّ لله ورسوله. فقال: «أوجدتم في لعاعة من الدنيا ألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون إلى رحالكم برسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار»، فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله^(١).

ذكر إسلام مالك بن عوف النصري:

[وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف: ما فعل؟]^(٢) فقالوا: هو بالطائف، فقال: «أخبروه فإن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل» فأخبر مالك فخرج من حصن الطائف فحبسوه^(٣)، فأمر براحلته فهيئت، وأمر بفرس له فأتي به، فخرج ليلاً حتى لحق برسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه ماله وأهله، وأعطاه مئة من الإبل، واستعمله على من أسلم من قومه^(٤).



وفي هذه الغزاة قال ذو الخويصرة واسمه - حرقوص بن زهير - لرسول الله ﷺ: اعدل فما عدلت.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: أتى ذو الخويصرة التميمي إلى رسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم بحنين فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت، فقال: «وكيف؟» قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟!» فقال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، فقال: «دعه، فإنه سيكون لهذا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٧٣٠).

(٢) ما بين معقوفين زيادة من «السيرة».

(٣) هكذا جاء النص في نسخنا، وجاء في «السيرة»: فخرج إليه من الطائف، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه، أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال ما قال، فيحبسوه، فأمر....

(٤) «السيرة» ٤٩١/٢.

شِيعَةً يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ حَتَّى يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يُمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١).

وذكر الطبري: أن ذا الخويصرة قال لرسول الله ﷺ في مالٍ بعثه عليٌّ عليه السلام من اليمن إلى رسول الله ﷺ^(٢).

[عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي من اليمن إلى رسول الله ﷺ^(٣) بذهبة في أديم مقروظٍ لم تُحصَلْ من تُرابها، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: بين زيد الخيل، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة أو عامر بن الطفيل، فوجد من ذلك بعضُ الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبْرُهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً»؟. ثم أتاه رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كثُ اللحية، مشمر الإزار، محلوق الرأس فقال: اتق الله يا رسول الله، فرفع رأسه إليه وقال: «وَيْحَكَ، أَلَيْسَ أَحَقُّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ أَنَا؟» ثم أدبر، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «فَلَعَلَّهُ يَكُونُ قَدْ صَلَّى» فقال خالد: رَبِّ مَصَلِّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقَبَ عَن قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشَقُّ بُطُونَهُمْ» ثم قال ﷺ: «سَيَخْرُجُ مِن ضِئْضِئِ هَذَا.. وذكره»^(٤).

فصل في المؤلفات قلوبهم

فمنهم: الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي، جبير بن مطعم بن عدي، الحر بن قيس، الحارث بن هشام بن المغيرة، حويطب بن عبد العزى، حكيم بن حزام، حكيم ابن طليق، خالد بن قيس، سعيد بن اليربوع، سهيل بن عمرو، صخر بن حرب، صفوان بن أمية، العلاء بن جارية الثقفي، العباس بن مرداس السلمي، عبد الرحمن بن يربوع، علقمة بن علاثة، عمير بن وهب، عمر بن مرداس، عمر بن مالك أبو السنابل، عيينة بن حصن، قيس بن عدي، قيس بن مخزومة، مالك بن عوف، مخزومة بن نوفل،

(١) «السيرة» ٤٩٦/٢، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١١٥٣٧).

(٢) «تاريخ الطبري» ٩٢/٣.

(٣) ما بين معقوفين زيادة من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

معاوية بن أبي سفيان، الحارث بن علقمة بن كَلْدَةَ وأخوه النَّضْر، هشام بن عمرو، وقيل: زيد الخيل.

قال عمرو بن العاص: كان رسولُ الله ﷺ إذا جلس بين أصحابه يتحدَّثُ يُقبلُ بوجهه على أهلِ الرُّتَبِ يتألَّفهم بذلك، فكان يقبل بوجهه وحديثه عليّ، حتى قلتُ: ما في أصحابه أحدٌ أحبُّ إليه مني، فسألته يوماً عن شيء ووَدِدْتُ أني لم أكن سألته فقلت: يا رسولَ الله، أيما أحبُّ إليك أنا أم أبو بكر؟ فقال: «أبو بكرٍ» فقلت: عمر فقال: عمر، وذكر عثمان وعلياً وجماعةً من أصحابه وهو يقول: فلان لمن أذكُّره ولم يذكرني، فعلمت أنه كان يتألَّفني^(١).

وقال أنس: كان الرجل يأتي النبي ﷺ لشيء يعطاه من الدنيا، فلا يمشي حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها^(٢).

وقال الشعبي: لم يبق في الناس اليوم من المؤلفة قلوبهم أحدٌ، إنَّما كانوا على عهدِ رسولِ الله ﷺ فلما وليَ أبو بكر رضوان الله عليه انقطعت الرشا^(٣).

وقال الشافعي: المؤلفة قلوبهم صِنْفان: مسلمون مجاهدون في سبيل الله، ومشركون أشراف مُطاعون، فالمشركون لا يُعْطَوْنَ شيئاً، أما المسلمون فأرى أن يُعْطَوْا من الخُمس ما يُتألَّفون به سوى سهامهم، لأن النبي ﷺ كان يتألَّفُ أقواماً في صدر الإسلام^(٤).

وقال أبو جعفر محمد بن علي: سهم المؤلفة قلوبهم ثابت لم يتغير.

قال المصنف رحمه الله: وكان أشدَّهم على رسول الله ﷺ عيينةُ بن حِصْن بن حذيفة بن بدر من بني فزارة، [واسم فزارة]^(٥) عمرو، فضربه أخ له ففزره، وكنيته أبو مالك، ويقال لهم: بنو اللَّقيطة لأن جدَّتهم وُجِدَتْ لَقِيطةً فَنُسِبوا إليها، وجدُّه حذيفةُ

(١) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٥/٩ وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٠٥٠).

(٣) ذكره البيهقي ٢٠/٧.

(٤) «الأم» ٢٠٩/٣.

(٥) ما بين معقوفين زيادة من «الطبقات» ١٧٤/٦.

كان سيّد غطفان وقتلته بنو عبس، وابنه حِصْن كان سيّداً قتلته بنو عَقِيل، وكان عيينة سبب الفجار الثاني، لأنه أغار على سوق عُكاظ.

وأسلم قبل الفتح وكان منافقاً، وارتدّ وقاتل المسلمين مع طليحة، ثم عاد إلى الإسلام فقبله أبو بكر رضوان الله عليه وأمنه. وعاش إلى زمن عثمان رضي الله عنه ودخل عليه، فقال له: يا عثمان، سرّ فينا بسيرة عمر، فإنه أعطانا حتى أغنانا، فقال: والله ما كنت راضياً بسيرة عمر، ثم قال له: هل لك إلى العشاء؟ فقال: إني صائم، فقال: أتواصل؟ فقال: وما الوصال؟ قال: تصلُّ يومك بليلتك، فقال: لا، صيامُ الليل أهونُ عليّ من صيام النهار. وذهبت عيناهُ في أيام عثمان رضي الله عنه ومات فيها، ولم يضبط تاريخ وفاته.

وأما الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، وكان سيّد قومه، واسمه فراس، ولقب الأقرع لقرع كان في رأسه، وهو نادى رسول الله صلى الله عليه وآله من وراء الحُجرات، شهد حُنيناً والطائف، قيل: وفتح مكة، وأسلم قبل الفتح، وشهد مع خالد بن الوليد مشاهدته كلها واليمامة، ولم يذكر تاريخ وفاته، وقيل: إنه استعمل على جيش فدخل الجوزجان فأصيب هو والجيش، وروى الحديث.

قال الإمام أحمد رحمه الله: حدّثنا عفان، حدّثنا وهيب، حدّثنا موسى بن عُقبة، حدّثني أبو سلمة ابن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس أنه نادى: يا رسول الله من وراء الحجرات، فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزيّن، وإن ذمي لشين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذاك الله عزّ وجلّ»^(١).

وأما العباس بن مُرداس بن أبي عامر، أبو الهيثم، وقيل: أبو الفضل السلمي، وكان [العباس بن]^(٢) مُرداس ممّن حرّم شرب الخمر في الجاهلية وقيل: هو أول من حرّمها.

وقال الزبير بن بكار: كان العباس فارساً شاعراً، وأسلم قبل الفتح، ووافى رسول الله صلى الله عليه وآله بقُدَيْدٍ في ألف فارسٍ من قومه. وقيل: في تسع مئة عليهم الدروع والسلاح التام، وبأيديهم القنا. وهو من الطبقة الثالثة من المهاجرين، ولم ينزل مكة

(١) مسند أحمد (١٥٩٩١).

(٢) ما بين معقوفين زيادة من «الإصابة» ٢/٢٧٢.

ولا المدينة بل البادية، وكان يغزو مع النبي ﷺ ثم يرجع إلى بلاد قومه، وكانت له بدمشق [دار] وبقية^(١).

وقال أبو الفرج الأصبهاني^(٢): كان العباس فارساً شاعراً، شديد العارضة والبيان، سيداً في قومه من كِلا طرفيه، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وأمه الخنساء بنت عمرو بن الشريد.

ذكر رجوع رسول الله ﷺ من الجِعْرانة إلى المدينة

وأقام بالجِعْرانة ثلاث عشرة ليلة، وخرج منها ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً، فأحرم من مُصَلَّاهُ، فلم يزل حتى دخل مكة واستلم الركن، ويقال: إنه لما نظر إلى البيت قطع التلبية وأناخ راحلته عند باب بني شيبه، ودخل وطاف ثلاثة أشواط يرمل فيها وتم طوافه، ثم خرج فسعى بين الصفا والمروة على راحلته، وحلق رأسه عند المروة أبو هند عبْدُ بني بياضة، وقيل: حلقه خراش بن أمية، ولم يسُق رسول الله ﷺ هدياً، ثم خرج من مكة فسلك على الجِعْرانة، ثم على سرف حتى انتهى على مر الظهران. واستعمل على مكة عتاب بن أسيد وقال له: «استعملتك على أهل الله» وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يُعلِّمانِ الناسَ القرآنَ والفِقهَ، وأقام الحج في هذه السنة عتاب بن أسيد، وحج ناس من المسلمين والمشركين على مُدَّتِهِمْ^(٣).

وقدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الجمعة لثلاثِ بقينَ من ذي القعدة.

وفيها: تزوج رسول الله ﷺ الكلابية، واسمها: فاطمة بنت الضحاك، وقيل: عمرة بنت يزيد بن عبِيد بن كلاب، وقيل: العالية بنت ظبيان، وقيل: هي التي استعادت منه فقال لها: «الحقي بأهلك»، فكانت تقول: أنا الشقية. وقيل: إنها من بني بكر بن

(١) هكذا جاء في نسخنا، وجاء في «الطبقات» ١٦٢/٥: ولم يسكن العباس بن مرداس مكة ولا المدينة، وكان يغزو مع النبي ﷺ ويرجع إلى بلاد قومه، وكان ينزل بوادي البصرة وكان يأتي البصرة كثيراً، وبقية ولده ببادية البصرة وقد نزل قوم منهم البصرة. وما بين معقوفين زيادة من «تاريخ دمشق» ٤٠٣/٢٦.

(٢) «الأغاني» ٢٩٤/١٤.

(٣) «المغازي» ٩٥٩/٣ - ٩٦٠.

كلاب، ولما وصفها أبوها لرسول الله ﷺ قال: وأزيدك أنها لم تمرض قط، فقال رسول الله ﷺ: «ما لهذه عند الله من خير» فطلَّقها.

وقيل: إنه دخل بها، ولما خيَّر نساءه اختارت قومها ففارقها.

وقيل: وجد بكشْحها بياضاً ففارقها، وتوفيت سنة ستين في قومها^(١).

وفيها: وفَدَّ على رسول الله ﷺ امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة، وهو ثور بن عقيل بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الكندي، فأسلم ورجع إلى بلاده، ولما توفي رسول الله ﷺ ثبت على إسلامه ومنع قومه من الردة لما ارتدَّ بعضهم مع الأشعث بن قيس، وهو من الطبقة الرابعة ممن وفد وشهد اليرموك، ونزل بيسان من أرض الشام.

وفيها: طَلَّق رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة، فجعلت يومها لعائشة رضي الله عنها فردَّها، وقيل: إنه عَزَم على طلاقها فتركها.

وفيها: غلا السعر بالمدينة فقالوا: يا رسول الله سَعِّر لنا، فقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْبَاسِطُ الرِّزَاقُ الْمُسَعِّرُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَا أَحَدٌ يُطَالِبُنِي بِمُظْلِمَةٍ ظَلَمْتُهُ إِيَّاهَا»^(٢).

وفيها: قَدِمَ عُرْوَةُ بن مسعود الثقفي من الطائف على رسول الله ﷺ.

وفيها: وُلِدَ إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ من مارية، في ذي الحجة، وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله ﷺ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته، فأخبر رسول الله ﷺ فوهب له عبداً، وعقَّ عن إبراهيم شاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بوزنه فضة على المساكين، ودفن شعره في الأرض، وشقَّ مولده على نساء رسول الله ﷺ ولا مثل عائشة رضوان الله عليها^(٣).

وتنافس فيه نساء الأنصار، أيهنَّ ترضعه، فدفعه رسول الله ﷺ إلى أمِّ بُرْدَةَ بنت المنذر بن زيد وزوجها البراء بن أوس أنصاري، وكان رسول الله ﷺ يقبل عندها، وكان لرسول الله ﷺ ثلَّة غنم يروح عليها، ولبنُ لِقَاحٍ، فقال لعائشة: «انظري إلى

(١) «الطبقات» ١٠/١٣٦-١٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٠٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر «الطبقات» ١/١١٢.

شَبَّهِي» فقالت: ما أرى شبهه، فقال: «ألا تَرَيِ إلى يَياضِهِ وَلَحْمِهِ»^(١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «ولد لي البارحة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم، فجاءني جبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم». قال أنس: ودفعه إلى أم سيف، امرأة قَيْنٍ بالمدينة، فجاء يوماً وقد امتلأ البيت دُخاناً، فقلت لأبي سيف: أمسك فقد جاء رسول الله ﷺ فأمسك، ودعا رسولُ الله ﷺ بالصبي فضمَّه إليه، وقال ما شاء الله أن يقول^(٢).

وفيهما توفيت

زينب بنت رسول الله ﷺ

وأما خديجة رضي الله عنها، وكانت أكبر بناته، وزوجها: أبو العاص بن الربيع في الجاهلية ثم أسلم، وكانت زينب رضي الله عنها أسلمت قبله بست سنين، فردَّها رسول الله ﷺ بالنكاح الأول، لم يحدث شهادة ولا صداقاً. ورُوي أنه ردَّها بنكاحٍ جديد وولدت له علياً وأمامة، فأما علي فتوفي وقد ناهز الحُلُمَ، ودخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وهو رديفُه على ناقته وقيل: إنه عاش بعد رسول الله ﷺ، وهو وهم.

وأما أمامة فهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا قام حملها^(٣).

وأهدى النجاشي إلى النبي ﷺ حليَّةً فيها خاتمٌ من ذهب، فبعث به إلى أمامة، وقال: «تحلِّي بهذا يا بُنَيَّة»^(٤).

ولما توفيت فاطمة رضي الله عنها تزوج علي رضوان الله عليه أمامة، زوجه إياها الزبير بن العوام رضي الله عنه وكان أبو العاص أوصى إليه، ولما احتضِرَ علي رضي الله عنه قال لها: لا آمن أن يَخْطُبَكَ هذا الطاغيةُ بعد موتي - يعني معاوية - فإن كان لك في الرجال حاجةٌ فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً.

(١) «الطبقات» ١/ ١١٤.

(٢) «الطبقات» ١/ ١١٣.

(٣) أخرج البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب، فإذا ركع وسجد وضعها، وإذا قام حملها.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٨٠).

فلما انقضت عدتها كتب معاوية إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه وبذل لها مئة ألف دينار، فأرسلت إلى المغيرة وأخبرته وقالت: هذا خطبني، فإن كانت لك بي حاجة فأقبل، فجاء إلى الحسن عليه السلام فخطبها إليه فزوجه إياها^(١).

وقال ابن سعد: لما قتل عليّ رضوان الله عليه خطبها معاوية، فقال لها المغيرة بن نوفل: أتزوجين بابت آكلة الأكباد، فلو جعلت أمرك إلي، قالت: نعم، فقال: قد تزوجتك، قال ابن أبي ذئب: فجاز نكاحه^(٢).

وقال شيخنا موفق الدين رحمه الله: أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلادة من جَزَعٍ فقال: «لأدفعنها إلى أحب أهلي إليّ» فقال النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامة بنت زينب فعلقها في عنقها^(٣).

وقال الواقدي: كانت أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم سلمة فيمن غسل زينب عليها السلام، وقال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اغسلنها وترأ: ثلاثاً أو خمساً أو سبعا، واجعلن في الماء سدرأ وفي الأخيرة كافورأ، وابدأن بميامننها ومواضع الوضوء منها». قالت أم عطية: فجعلنا رأسها ثلاثة قرون: ناصيتها وقرنيها، وألقيناه خلفها، ثم دفع إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره وقال: «أشعرنها إياها» ففعلنا، ثم أدنينها منه فصلى عليها ونزل في قبرها^(٤).

وقال أنس: شهدنا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس على القبر وعيناه تدمعان فقال: «هل فيكم رجل لم يقارِف الليلة؟» فقال أبو طلحة: نعم أنا، قال: «انزل» فنزل في قبرها^(٥)، سلام الله ورحمته ورضوانه عليها.

عروة بن مسعود

ابن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، وهو قسي بن منبه

(١) انظر «الإصابة» ٢٣٧/٤ .

(٢) «الطبقات» ٤٠/١٠ .

(٣) التبيين ٢٢٥ .

(٤) انظر «الطبقات» ٣٥/١٠، وأخرجه البخاري (١٢٥٣)، ومسلم (٩٣٩) من حديث أم عطية رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٨٥) .

ابن بكر بن هوازن بن منصور، أبو يعفور الثقفي، وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

قذف الله في قلبه الإسلام فقدم المدينة على رسول الله ﷺ فأسلم في ربيع الآخر فسر رسول الله ﷺ والمسلمون بإسلامه، ونزل على أبي بكر رضوان الله عليه وقال: يا رسول الله، ائذن لي أن أذهب إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام، فأقدم عليهم بخير ما وفد وافد على قومه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم إذا قاتلوك» فقال: يا رسول الله، لأننا أحب إليهم من أبنائهم، ثم استأذنه ثانياً، فقال له مثل قوله الأول، وقال له: يا رسول الله، لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، ثم استأذنه ثالثاً فقال له: «إن شئت فاخرج».

فسار إلى الطائف فقدمه عشياً ودخل منزله ليلاً، فأنكر قومه دخوله منزله، فحيوه بتحيةة الشرك فقال: عليكم بتحيةة أهل الجنة، ثم دعاهم إلى الإسلام فاتهموه وقالوا: واللات والعزى لقد وقع في نفوسنا حيث لم تحلق رأسك أنك قد صبأت، ونالوا منه فحلم عنهم، وخرجوا من عنده يأترون كيف يصنعون به، حتى إذا طلع الفجر أوفى على غرقة له فأذن بالصلاة، فرماه رجل من رهطه من الأحلاف يقال له: وهب بن جابر بسهم، وقيل: إن الذي رماه أوس بن عوف من بني مالك وهو أثبت، وكان عروة من الأحلاف فأصاب أكحله فلم يرقأ دمه، وحشد قومه ولبسوا السلاح، وفعل الآخرون كذلك، فلما رأى عروة ذلك قال: لا تقتلوا بي، فإني قد تصدقت بدمي على قاتلي لأصلح بينكم، فهي كرامة أكرمني الله بها، وهي الشهادة ساقها الله إلي، ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله، أخبرني أنكم تقتلونني، ثم قال لرهطه: ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فدفنوه معهم، وبلغ رسول الله ﷺ قتله فقال: «مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الصلاة فقتلوه»^(١).



(١) «الغازي» ٣/ ٩٦٠ - ٩٦١، و«الطبقات» ٨/ ٦٤ - ٦٥.

السنة التاسعة ^(١) من الهجرة

فيها: قدم وفد بني أسد في أول المحرم إلى المدينة، وفيهم: طليحة بن خويلد بن نوفل، وكان يُعدُّ بألف فارس. وكان في الوفد ضرار بن الأزور والحضرمي بن عامر، فقال حضرمي: يا رسول الله، لقيناك مُتَدَرِّعين الليل البهيم في سنة شهباء لم تبعث إلينا بعثاً ولم تُرسل إلينا رسولاً، ثم أسلم طليحة وأخوه سلمة والقوم، ثم ارتدَّ طليحة وأخوه بعد وفاة رسول الله ﷺ ^(٢)، ويقال: إن فيهم نزل قوله تعالى: ﴿يُمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧].

وفيها: بعث رسول الله ﷺ لما رأى هلال المحرم المُصَدِّقين إلى العرب، فبعث بريدة إلى أسلم وغفار، وعباد بن بشر إلى سليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب، وبشر بن سفيان إلى بني كعب، وابن اللثبية الأزدي إلى بني ذبيان، وبعث رجلاً من بني سعد على صدقاتهم.

وقيل: إنما سعى على بني كعب نعيم بن عبد الله النخام العدوي، فجاء وقد حلَّ بنواحيهم من بني تميم بنو عمرو وهم يشربون على غدير بذات الأشطاط، وقيل: وجدهم على عُسفان، فأمر بجمع مواشي خزاعة ليأخذ منها الصدقة، فحسرت عليه خزاعة الصدقة من كل ناحية، فاستنكر ذلك بنو تميم وقالوا: ما هذا؟ أتؤخذ أموالكم منكم بالباطل؟ فقاموا إلى السلاح، فقال الخزاعيون: نحن قوم ندين بدين الإسلام وهذا من ديننا، وقال التميميون: والله لا يصل إلى بغير منها أبداً، فهرب المصدِّق خوفاً على نفسه، والإسلام يومئذٍ لم يعمَّ العرب، وقدم المصدِّق على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وأخرجت خزاعة بني تميم من بلادهم، وقالوا: لولا قرابتكم لما وصلتكم إلى بلادكم، ليدخلن علينا من محمدٍ بلائٌ وعداوة، وعلى نفوسكم، فقال

(١) في النسختين: السابعة، وهو خطأ.

(٢) ثم أسلم طليحة بعد وفاة أبي بكر، وقال ابن سعد: وأسلم طليحة إسلاماً صحيحاً ولم يغمص عليه في إسلامه، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين. «الطبقات» ١٥٦/٦.

رسول الله ﷺ: «مَنْ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا؟» فقال عيينة بن حصن: أنا والله لهم، أتبع آثارهم وآتيك بهم إن شاء الله فترى فيهم رأيك أو يُسلموا.

وخرج في خمسين فارساً من العرب ليس منهم مهاجريٌّ ولا أنصاريٌّ، وكان يكمن بالنهار ويسير بالليل، حتى انتهى إلى العرج، فاقتصَّ آثارهم فوجدهم قد عدلوا من السُّقيا يريدون أرض بني سليم، فنزلوا في صحراء وسرَّحوا مواشيهم والبيوت خلوف ليس فيها إلا النساء ونفرٌ، فأخذ منهم أحدَ عشرَ رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً، وقدمَ بهم المدينة فحبسهم رسولُ الله ﷺ في دار رملة بنت الحارث^(١).

وفيها: قدم وفد تميم بهذا السبب وهم عشرة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب بن زُرارة، والزُّبُرْقَان بن بدر، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، وتميم^(٢) بن سعد، وعمرو بن الأهتم، والأقرع بن حابس، ورياح بن الحارث بن مجاشع، فدخلوا المسجد قبل الظهر وسألوا عن سببهم فأخبروا أنهم في دار رملة، فجاءوهم فبكى الذراري والنساء، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ورسولُ الله ﷺ يومئذ في بيت عائشة رضوان الله عليها وقد أذن بلال الظُّهرَ والناس ينتظرون خروجَ رسول الله ﷺ، فتعجلوا خروجه، فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا، فقال بلال: إن رسول الله ﷺ يخرج الآن، وخرج رسولُ الله ﷺ وأقام بلالُ الصلاة فتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه ويقولون له: أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاستمع لهم، وصلى رسول الله ﷺ الظُّهرَ، ثم دخل بيته فصلى ركعتين، ثم خرج فجلس، فقام عطارد بن حاجب فخطب وقال:

الحمد لله الذي له الفضل علينا، والذي جعلنا ملوكاً وأعطانا الأموال نفعل بها المعروف، وجعلنا أعزَّ المشرق وأكثرهم مالاً وعدداً، فمن مثلنا في الناس، فمن فاخرنا فليعدِّدْ مثل ما عدَّدنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكننا نستحي من الإكثار فيما أعطانا الله، أقول هذا إلا أن يأتي من يقول ما هو أفضل منا^(٣).

فقال رسولُ الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمَّاس: «قُمْ فَأَجِبْهُمْ» فقال: الحمد لله الذي

(١) «المغازي» ٣/ ٩٧٣ - ٩٧٥ .

(٢) ذكره ابن حجر في «الإصابة» ١/ ١٨٥ وقال: كان في وفد تميم الذين قدموا وأسلموا، وذكره أيضاً ٣/ ٥٦٧ في نعيم وقال: ذكره ابن سعد فيمن قدم في وفد تميم .

(٣) انظر «السيرة» ٢/ ٥٦٢ .

خلق السماوات والأرض، وقضى فيهما أمره، ووسّع كلَّ شيءٍ علمه، ثم كان فيما قدر لنا وأنعم علينا أن اصطفى من خلقه رسولاً، أكرم الناس نسباً، وأشرفهم حساباً، وأحسنهم زياً، وأصدقهم حديثاً، أنزل عليه كتابه، وجعله أميناً على خلقه، وكان خيرته من عباده، فدعا إلى الإيمان بالله، فأمن به المهاجرون من قومه، ثم كنا أول الناس إجابةً له، فنحن أنصارُ الله ورسوله، نقاتلُ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا دمه وماله، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات. ثم قعد.

فقالوا: يا رسول الله، ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزبيرقان بن بدر فقال: [من

البيط]

نحن المملوك فلاحٍ يعادلنا
وكم قسرنا من الأحياء كلهم
ونحن نطعم عند القحط ما أكلوا
وننحر الكوم عبطاً في أرومتنا
ولا ترانا إلى حيّ نفاخرهم
فمن يفاخرنا في الناس نفخره

فينا المملوك وفينا تُنصبُ البيع
عند النهابِ وفضلُ الخير يُتبع
من السديف إذا لم يُونسِ القرع
للنازلين إذا ما استنزلوا شبعوا
إلا استعاذوا وكاد الرأسُ يُقتطع
فيرجع القولُ والأخبارُ تُستمع

فقال رسول الله ﷺ لحسان: «يا حسان، أجب» فقام فقال: [من البيط]

إنّ الذوائبَ من فهِرٍ وإخوتهم
أكرمَ بقوم، رسولُ الله شيعتهم
وأنهم أفضلُ الأحياءِ كلهم
قومٌ إذا حاربوا ردّوا عدوّهم
إن كان في الناس سباقون بعدهم
أهدى لهم مدحاً قلبٌ يُوازره

قد شرّعوا سنةً للناس تُتبع
إذا تفرقت الأهواءُ والشيع
إن جدّ بالناسِ جدُّ القولِ أو شمعوا
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
فكلُّ سبقٍ لأدنى سبقهم تبع
فيما أحب لسان حائك صنع

من أبيات (١).

(١) المغازي ٣/ ٩٧٧ - ٩٧٨ ، والسيرة ٢/ ٥٦٣ - ٥٦٤ .

وخلا الوفد بعضهم إلى بعض فقالوا: والله خطيبهم أبلغ من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا وهم أحلم منا، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] ورد رسول الله ﷺ الأسرى والسبي وأجازهم فأحسن جوائزهم، وكان عمرو بن الأهتم في رحالهم وظهرهم ومن أحدثهم سبباً، وقيس بن عاصم يبغضه فقال: يا رسول الله إنه قد تخلف غلام منا في رحالنا وهو حدث لا شرف له، فقال رسول الله ﷺ: «وإن كان فإنه وافد وله حق». فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى واحداً من القوم، وبلغ عمراً فقال يهجو قيس بن عاصم: [من البسيط]

ظَلِمْتَ تَغْتَابُنِي سِرًّا وَتَشْتُمُنِي عند الرسول فلم تصدق ولم تُصِبِ
سُدْنَاكُمْ سُودَدًا رَهْوًا^(١) وَسُودَدُكُمْ بادِ نواجذهُ مُتْعِ عَلَى الذَّنْبِ
إِنْ تُبْغِضُونَا فَإِنَّ الرُّومَ أَصْلُكُمْ والروم لا تملك البغضاء للعرب

وقال أبو إسحاق الثعلبي: جاءت بنو تميم إلى رسول الله ﷺ فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وذمنا شين، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله، مدحه زين وذمه شين». فقالوا: نحن أناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بالشعر بُعثت، ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا» فقال الزبيرقان لشاب فيهم: قم فاذكر فضلك وفضل قومك، وذكر بمعنى ما تقدم.

ثم إن حسان بن ثابت أنشد بعد إجابته لشاعرهم بالأبيات المتقدمة: [من الطويل]
نصرنا رسول الله والدين عنوة على رُغم عاتٍ من معدٍّ وحاضرٍ
فأحياؤنا من خير من وطئ الحصا وأمواتنا من خير أهل المقابر
فقام الأقرع وقال: قد قلت شعراً فاسمعه مني، فإني ما جئت لِمَا جاء له هؤلاء،
فقال: «هات» فقال: [من الطويل]

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا إذا جاء أمرٌ عند ذكر المكارم

(١) في النسخ: نهزأ، والمثبت من السيرة ٢/ ٥٦٧، وانظر المغازي ٣/ ٩٨٠.

وأنا رؤوسُ الناس من كل معشر
وَأَنَّ لَنَا الْمِرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ
وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِمٍ
تَكُونُ بَنَجِدٍ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَائِمِ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَسَانَ أَجِبْ» فَقَالَ: [مِن الطَّوِيلِ]

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرْتُمْ
هَبِلْتُمْ، عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ؟ وَأَنْتُمْ
يَعُودُ وَبِالْأَعْيُنِ ذِكْرُ الْمَكَارِمِ
لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظُئْرٍ وَخَادِمٍ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ كُنْتُ غَنِيًّا يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ تَذَكَرَ النَّاسَ مَا كَانُوا قَدْ
نَسَوْهُ» فَكَانَ قَوْلُهُ ﷺ أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ حَسَانَ.

ثم عاد حسان إلى شعره فقال:

فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنِ دِمَائِكُمْ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً وَأَسْلِمُوا
وَالْأَرْبَابِ مَالَتِ أَكْفُنَا
عَلَى هَامِكُمْ بِالْمَرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
فَقَالَ الْأَقْرَعُ: وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَمْؤَتِي لَهُ! تَكَلَّمَ خَطِيبُهُمْ فَكَانَ أَحْسَنَ قَوْلًا، وَتَكَلَّمَ
شَاعِرُهُمْ فَكَانَ أَشْعَرَ مِنْ شَاعِرِنَا، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْكَ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا». ثُمَّ أَعْطَاهُمْ وَكَسَاهُمْ وَارْتَفَعَتْ
الْأَصْوَاتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾
[الحجرات: ٢] الآيات، يعني جفافة بني تميم^(١).



وفيها: كانت سرية قطبة بن عامر إلى الخثعم، في صفر^(٢).

وفيها: كانت سرية الضحّاك بن سفيان الكلابي إلى القرطاء إلى بني كلاب في ربيع
الأول^(٣).

(١) تفسير الثعلبي ٥/٥٢٢ - ٥٢٤ ، والخبر بتمامه في «تاريخ دمشق» ١٢/٤٠٩ - ٤١١ ، وانظر «السيرة» ٢/٥٦٤ - ٥٦٧.

(٢) «المغازي» ٣/٩٨١ ، و«الطبقات» ٢/١٤٨ ، و«المنتظم» ٣/٣٥٨ .

(٣) «المغازي» ٣/٩٨٢ ، و«الطبقات» ٢/١٤٩ ، و«المنتظم» ٣/٣٥٩ .

وفي ربيع الأول وَفَدَ وَفَدُ عبد قيسٍ إلى المدينة.

قال الواقدي: كتب رسول الله ﷺ إلى البحرين أن يقدّم عليه عشرون رجلاً من عبد القيس، فقدموا ورأسهم: عبد الله بن عوف الأشج، وفيهم الجارود العبدي، ومنقذ بن حيان، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بكم وأهلاً، نعم الوفد وفد عبد القيس، أيكم الأشج» وكان دميماً فقال: أنا، فنظر رسول الله ﷺ، فقال الأشج: يا رسول الله، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فقال له: «فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» فقال: أشيء حدث أم جيلت عليه؟ فقال: «لا بل جيلت عليه»، وكان الجارود نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه، واسمه بشر، وأنزلهم رسول الله ﷺ دار رملة ومسح على وجه منقذ بن حيان، ثم أعطاهم جوائزهم وأحسن إليهم وانصرفوا^(١).

وفيها: كانت سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب، غير السرية الأولى^(٢).

وفيها: وفد بكر بن وائل، في ربيع الأول، وكان فيهم بشير بن معبد السدوسي وأمه الخصاصية أزدية، قال هشام: هي أم أحد أجداده، وأسلم وحسن إسلامه وصار من أهل الصفة، وماشى رسول الله ﷺ يوماً فأخذ بيده وقال له: «يا ابن الخصاصية، ما أصبحت تنقم على الله حيث أصبحت تُماشي رسول الله؟» فقال: ما أصبحت أنقم شيئاً، قد أعطاني ربي كل خير^(٣).

وكان في الوفد حسان بن حوط، بحاءٍ مهملة، وفيه يقول بعض ولده^(٤): [من

الرجز]

أنا ابن حسان بن حوط وأبي

رسول بكر كلها إلى النبي

* * *

(١) انظر «الطبقات» ١/ ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) لم نقف عليها ولعلها كانت في بعثه على الصدقات.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٨٧).

(٤) «الطبقات» (١/ ٢٧٢).

وفيها: كانت سرية علقمة بن مُجَزَّز المَدَلْجِي إلى جُدَّة في ربيع الآخر^(١)، بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة تَرَاءَهُمْ أَهْلُ الشُّعْبِيَّةِ: - ساحلِ بناحية مَكَّة - في مراكب، فبعث علقمة في ثلاث مئة رجلٍ، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فخاض الماءَ إليهم فهربوا منه فأنصرف، فلما كان ببعض المنازل استأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يلقوا كيداً، فأذن لهم، وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان فيه دُعايةٌ فنزلوا ببعض [الطريق] وأوقدوا ناراً يصطلون بها، فقال عبد الله: عزمت عليكم إلا توابثتم في هذه النار، فقام بعض القوم فتحجَّزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها قال: اجلسوا، إنما كنت أضحك معكم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «مَنْ أَمَرَكَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تُطِيعُوهُ»^(٢).

وفيها: كانت سرية علي رضي الله عنه في ربيع الآخر إلى الفُلس^(٣) صنمِ طيِّ، بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً، فأجنبوا الخيل واعتقبوا الإبل حتى أغاروا على حيٍّ من أحياء العرب، وسألوا عن محلَّة آلِ حاتم فدلُّوا عليها، فشنُّوا الغارة مع الفجر فسبَّوا حتى ملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وهَدَمُوا الفُلسَ وكان صنماً لطيء.

وفي رواية: خرج ومعه رايةٌ سوداء مع سهل، ولواء أبيض مع جبار بن صخر، وبين يديه دليلٌ خريثٌ، فسلك بهم طريق فيد، فلما انتهى بهم إلى موضع قال: قد بقي بينكم وبين الذي تُريدون يوم، فإن سرتم نهاراً رآكم رعاؤهم فيُنذروا بكم، ولكن أقيموا يومكم ها هنا ونمشي ليلتنا فنُصَبِّحُهم في عماية الصبح، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم، فبعث علي رضوان الله عليه أبا قتادة والحباب بن المنذر وأبا نائلة على خيولهم يطوفون حول العسكر، فوجدوا غلاماً أسوداً، فقالوا: من أنت؟ فقال: أطلب بُغيتي، فأتوا به علياً فشدد عليه، فقال: أنا غلام من طيء، بعثوني إلى هذا المكان وقالوا: إن رأيت خيل محمد فطرُ إلينا. فقال علي رضوان الله عليه: ما تروُن؟

(١) «السيرة» ٢/٦٣٩ - ٦٤٠، و«المغازي» ٣/٩٨٣، و«الطبقات» ٢/١٤٩، و«المنتظم» ٣/٣٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٦٣٩).

(٣) «المغازي» ٣/٩٨٤، و«الطبقات» ٢/١٥٠، و«المنتظم» ٣/٣٦٠.

فقال جبار بن صخر: أرى أن نسري ليلاً على خيلنا والعبدُ معنا حتى نصبَّحهم، فقال: سيروا واجعلوا العبد دليلاً وهو مكتوف يردفه بعضهم عقبه، فلما ابهار الليل وقف وقال: أخطأت الطريق وتركتها ورائي فرجع بهم مقدار ميل ثم قال: أنا على خطأ، فقال علي رضوان الله عليه: أنا منك على خدعة، قدّموه فاضربوا عنقه. فلما رأى السيف قال: أرأيتم إن صدقتكم أينفعني؟ قالوا: نعم، قال: فإني صنعت ما رأيتم لأنه أدركني ما يدرك الناس من الحياء فقلت: أقبلت بالقوم أدلهم على الحي من غير محنة، فلما عاينت القتل كان لي عذر، الحي منكم قريب. فتسمّعوا نباح الكلاب، فصبّحهم وقت السحر وسبّوا وأخذوا النساء والأموال، فنظرت جارية إلى العبد وهو موثوق فقالت: هذا عمل رسولكم أسلم، فقال: يا ابنة الأكارم والله ما فعلت حتى قدّمت لتضرب عنقي.

وأصابوا أخت عدي بن حاتم فعزلوها ناحية^(١).

وقال هشام: جعل رسول الله ﷺ أخت حاتم في حظيرة، فمرّ بها رسول الله ﷺ فنادته: يا محمد أنا ابنة سيد قومي، كان أبي بحمي الذمار، ويفك العاني، ويقر الضيف، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ولم يردّ طالب حاجة قط. فقال لها رسول الله ﷺ: «هذه صفة المؤمنين، لو كان أبوك مؤمناً ترحمنا عليه، أطلقوا عنها، فإن الله يحبّ مكارم الأخلاق».



وفي ربيع الآخر قدم وفدٌ تجيب، وكانوا ثلاثة عشر، ساقوا صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ فسرّ بهم وأنزلهم وأحسن إليهم وأجازهم بأكثر مما كان يجيز الوفود، وقال: «هل بقي منكم أحد؟» قالوا: غلام خلفناه في رحالنا، فدعاه وقال: «ما حاجتك؟» فقال: أن تدعو لي بأن يغفر الله لي ويجعل غناي في قلبي، فدعاه، وأمر أن يعطى مثل ما أعطى واحداً منهم، ورجعوا إلى بلادهم، ثم وافوا رسول الله ﷺ بالموسم سنة عشر فسألهم عن الغلام، فقالوا: ما رأينا أقنع منه بما رزقه الله تعالى،

(١) «المغازي» ٣/ ٩٨٤ - ٩٨٧.

فقال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن نموت جميعاً» فمات الغلامُ ورسولُ الله ﷺ في يومٍ واحدٍ^(١).



وفي ربيع الآخر بعث رسولُ الله ﷺ الوليدَ بنَ عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ مُصَدِّقاً إلى بني المصطلق من خُزاعة وكانوا قد أسلموا وبنوا المسجد، فلما دنا منهم الوليد خرج إليه عشرون رجلاً يتلقونه بالجزور والغنم فرحاً به، فلما رأهم ولَّى راجعاً إلى المدينة وأخبر رسولَ الله ﷺ أنهم لقوه بالسلاح وحالوا بينه وبين الصدقة، فهم رسولُ الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ القوم، فقدم عليه الذين لقوا الوليد وقالوا: يا رسول الله هل ناطقنا أو كلمنا كلمةً واحدة؟ فأنزل الله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ [الحجرات: ٦]. وقيل: كان بين الوليد وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمعوا به تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ، فظنَّ أنهم يريدون قتله فهابهم ورجع^(٢).

وفيها: قدم عدي بن حاتم إلى المدينة في جمادى الأولى.

قال عدي بن حاتم: ما كان رجلٌ من العرب أشدَّ كراهيةً لرسولِ الله ﷺ مني، لأنني كنت رجلاً نصرانياً شريفاً في قومي ملكاً عليهم، فخِفتُ على مُلكي ونفسي، فقلت لغلامي: أَعِدْ لِي إِبْلاً سِمَاناً فَاخْتَبِسْهَا قَرِيباً مِنِّي، فَإِذَا سَمِعْتَ بِجَيْشِ مُحَمَّدٍ وَطِئَ الْبِلَادَ فَادْنِي، فَجَاءَ يَوْمًا فَقَالَ: هَذِهِ جِيوشُ مُحَمَّدٍ، فَاخْتَمَلْتُ بِأَهْلِي وَقَلْتُ: الْحَقُّ بِالشَّامِ فَأَكُونُ عِنْدَ النَّصَارِيِّ، وَخَلَفْتُ ابْنَةَ حَاتِمٍ بِالْحَاضِرِ، وَجَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَأَصَابَهَا فِيمَنْ أَصَابَ وَقَدِمَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَبَايَا طِيٍّ، وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَرَبِي إِلَى الشَّامِ، فَجَعَلَ ابْنَةَ حَاتِمٍ فِي حَظِيرَةٍ، وَذَكَرَ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهَا: هَلَكَ الْوَالِدُ وَغَابَ الْوَاوِدُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ قَالَ لَهَا: «قَدْ مَنَنْتُ عَلَيْكَ فَلَا تَخْرُجِي حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكَ ثِقَةً». قَالَتْ: فَقَدِمَ قَوْمٌ مِنْ قُضَاعَةَ فَقَلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ قَوْمِي لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبِلَاغٌ، قَالَ: فَكَسَانِي وَأَعْطَانِي وَحَمَلَنِي وَدَفَعَ إِلَيَّ نَفَقَةً،

(١) «الطبقات» ٢٧٩/١ - ٢٨٠.

(٢) «السيرة» ٢٩٦/٢، و«المغازي» ٩٨٠/٣، و«الطبقات» ١٤٨/٢.

فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدي: فوالله إني لقاعدٌ في قومي إذ نظرت إلى ظعينة تضرب إليّ، فقلت: ابنة حاتم؟! فإذا هي هي، قال: فخرجت، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو في مسجده، فسلمت عليه فقال: «مَنْ الرَّجُلُ»؟ فقلت: عدي بن حاتم، فقام وانطلق بي إلى منزله، فلقيته امرأة ضعيفةً فاستوقفته فوقف لها، فكلّمته في حاجتها فقضاها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بمملك، ثم دخل بيته وناولني وسادةً من أدمٍ حشوها من ليف وقال: «اجلس عليها» فجلست عليها وجلس هو على الأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بمملك، ثم قال: «إيه يا عدي، ألم تك ركوسياً»؟ قلت: بلى، قال: «ألم تسر في قومك بالمرباع»؟ قلت: بلى، قال: «فإن ذلك لم يك في دينك».

الركوسيون: قرية من النصارى والصابئين. والمرباع: ما يأخذه المقدم من الغنيمة، ومعناه: أن الغنائم لم تحل لأحد إلا لهذه الأمة.

فقلت في نفسي: هذا نبيٌ مرسلٌ يعلم ما نجهل، فقال: «لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشك أن يفيض المال فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما تمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن يسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعير، حتى تزور هذا البيت لا تخاف»^(١)، ولعلك إنما تمنعك من الدخول فيه ما ترى من الملك والسُلطان، فوالله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض في أرض بابل قد فتحت».

وأسلم عدي وكان يقول: قد مضت اثنتان وبقيت واحدة، رأيت القصور البيض قد فتحت، ورأيت الظعينة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً حتى تأتي، وإني والله ليفيضان المال حتى لا يوجد من يأخذه^(٢).



(١) ما بين معقوفين زيادة من «الطبقات».

(٢) «السيرة» ٥٧٨/٢ - ٥٨١، و«الطبقات» ٢١٤/٦ - ٢١٧، و«تاريخ الطبري» ١١٢/٣ - ١١٥.

وفي جمادى الآخرة قدم على رسول الله ﷺ واثلة بن الأسقع وهو يتجهز إلى تبوك فأسلم، ورجع إلى قومه فهجره أبوه وقال: والله لا أكلمه أبداً، وسمعتة أخته فأسلمت وجهته إلى تبوك، فلحق برسول الله ﷺ فجهزه مع خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، فجاء بسهمه من الغنيمة إلى كعب بن عجرة، وكان قد حمله من المدينة إلى تبوك على جملة، وكان واثلة قد قال: من يحملي وله سهمي؟ فقال له كعب: إنما حملتك لله، ولم يأخذ منه شيئاً^(١).

وفيها: كانت غزاة تبوك^(٢).

كانت الأنباط يقدّمون المدينة من الشام بالزيت ودقيق الحواري، فكانت أخبار الشام عند المسلمين بهذا السبب، فقدمت قادمة منهم فأخبروا أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه رزق سنة، وأجلبت معه لحم وجذام وغسان وعاملة وغيرهم، ونزلوا البلقاء، وعسكروا بها، وتخلف هرقل بحمص، وأنه يأتي إليهم ويقصدون الحجاز.

قال الواقدي: ولم يكن شيء من ذلك ولم يكن عدو أخوف [عند المسلمين منهم]. وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزاة إلا ورى غيرها لئلا تذهب الأخبار حتى كانت غزاة تبوك، كان الحر شديداً واستقبل سفراً بعيداً وعدواً كبيراً، فجلى للناس أمره ليتأهبوا، وأخبرهم بالوجه الذي يريد، واستنفر القبائل وأهل مكة، ورغبهم في الجهاد، وذلك في زمن عسرة من الناس وجذب من البلاد وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، وتكره الشخصوص عنها.

وأمر رسول الله ﷺ بحمل الصدقات، فأول من جاء أبو بكر رضوان الله عليه بماله كله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله ﷺ: «هل أبقيت شيئاً؟» قال: أبقيت الله ورسوله.

وجاء عمر رضوان الله عليه بنصف ماله فقال له رسول الله ﷺ: «هل أبقيت شيئاً؟»

(١) «المغازي» ١٠٢٨/٣، و«الطبقات» ١٢٩/٥ - ١٣٠.

(٢) «السيرة» ٥١٥/٢، و«المغازي» ٩٨٩/٣، و«الطبقات» ١٥٠/٢، و«تاريخ الطبري» ١٠٠/٣، و«دلائل

النبوة» لليهقي ٢١٢/٥، و«المنتظم» ٣٦٢/٣، و«البداية والنهاية» ٢/٥.

قال: نعم نصف مالي، وبلغه ما جاء به أبو بكر رضوان الله عليه فقال: والله ما استبقنا إلى خيرٍ قط إلا سبقني إليه أبو بكر.

وجَهَّز عثمان بن عفان رضوان الله عليه ثلث الجيش، وقيل: جاء بألف بعير وألف دينار فصَبَّها في حَجْرٍ رسول الله ﷺ فجعل يقلبها ويقول: «ما ضرَّ عثمانَ ما فعل بعد هذا».

وحمل عبد الرحمن بن عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِئَتِي أُوقِيَّةً، وحمل معظم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ إِلَى رسول الله ﷺ، وحمل العباس وطلحة وسعد بن عبادَة ومحمد بن مَسْلَمَةَ مَالاً، وحمل عاصم بن عَدِيٍّ تِسْعِينَ وَسَقاً مِنْ تَمْرٍ (١).

وقال هشام: جلس رسولُ الله ﷺ على المنبر وحضَّ على الصدقة في سبيل الله، فجاءه العباسُ عُمُه بسبعين ألفاً، وعثمان بألف دينار ومِئَتِي بعير.

وقال ابن إسحاق: أنفق عثمان رضوان الله عليه في ذلك الوجه نفقةً عظيمةً لم ينفق أحدٌ أعظمَ منها، وحمل على مِئَتِي بعير (٢).

وحمل كلُّ أحدٍ حتى النساء كن يبعثن بمعاضِدِهِنَّ وخلائيلِهِنَّ وخواتيمِهِنَّ وغير ذلك.

وضرب عسكرُ رسولِ الله ﷺ في ثنيةِ الوداع والناس كثير لا يجمعهم كتاب ولا ديوان، واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة سِبَاعاً الغفاري، وقيل: محمد بن مَسْلَمَةَ، وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، وخلفَ علياً رضوان الله عليه في أهله، فقال: يا رسول الله خلفتني في النساء والصبيان؟ فقال: «ألا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» (٣).

وعقد رسولُ الله ﷺ الألوية والرايات على الثنية، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر

(١) «المغازي» ٣/ ٩٩٠ - ٩٩١ .

(٢) «السيرة» ٢/ ٥١٨ .

(٣) انظر «السيرة» ٢/ ٥١٩ ، والحديث أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي

رضوان الله عليه، ورايته العظمى إلى الزبير رضي الله عنه، وراية الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى أبي دُجانة، وقيل: إلى الحباب بن المنذر.

وكانوا يرحلون عند ميل الشمس فما يزالون إلى الليل^(١). وكان سيرهم في خامس رجب، وقيل: في عاشره.

وكان قد تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المسلمين أبطأت بهم النية من غير شك منهم ولا ارتياح، فمنهم: كعب بن مالك، ومُراة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة^(٢).

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان يتخلف رجل، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان فيقول: «دعوه، إن يك فيه خير، فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه»، فلاح راكب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُنْ أبا ذرٍّ» فقالوا: هو أبو ذر، فقال: «يرحمه الله يمشي وحده»^(٣).

ورجع أبو خيثمة بعد مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء وهيات له فيه طعاماً، فلما نظر إلى ذلك قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل وماء بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء، مقيم في ماله، ما هذا بالنصف، ثم قال لأهله: لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهياً لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه وارتحل في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه بتبوك حين نزلها، وقد كان وافق عمير بن وهب الجمحي في الطريق فقال له: تخلف عني فلي ذنب، فلما دنا قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُنْ أبا خيثمة» فلما وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فدعا له وقال خيراً^(٤).

وحين مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر ونزله ليستقي الناس من بثرها قال: «لا تشربوا من

(١) «المغازي» ٣/ ٩٩٦.

(٢) «السيرة» ٢/ ٥١٩.

(٣) «السيرة» ٢/ ٥٢٣ - ٥٢٤، و«دلائل النبوة» ٥/ ٢٢١ - ٢٢٢.

(٤) «السيرة» ٢/ ٥٢٠ - ٥٢١.

مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً» ثم ارتحل حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، وأسرع الناس إلى دخول الحجر فقال رسول الله ﷺ: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟». ولما نهاهم عن الشرب من مياه الحجر قال: «لا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له» ففعل الناس ما أمرهم به، إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته، والآخر في طلب [بعيرٍ له، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق، وأما الذي ذهب في طلب] بعيره فاحتملته الريح فطرحته بجبلٍ طيء، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «ألم أنهكم أن يخرج رجلٌ منكم إلا ومعه آخر» ثم دعا للذي خنق فشفي، وأما الآخر فإن طيئاً أهدته للنبي ﷺ لما قدم من تبوك^(١).

وأصبح الناس في طريق تبوك على غير ماء، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش. قال عبد الله بن أبي حدرد: فرأيتُه استقبل القبلة فدعا، ولا والله ما رأيت في السماء سحاباً، فما برح يدعو حتى إني لأنظرُ إلى السحاب يتألف من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحَّت علينا السماء بالرواء، ثم كشف الله عنا السماء من ساعتها وإن الأرض [إلا غدر تناخس فسقى الناس وارتووا]^(٢)، فقلتُ لرجل من المنافقين: أبقى بعد هذا شيء؟ فقال: سحابةٌ مارة^(٣).

ثم إن رسول الله ﷺ سار، حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها وعنده عُمارة بن حزم الأنصاري، وكان في رَحْلِ عُمارة زيد بن اللصيت، فقال زيد: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ لعُمارة: «إن رجلاً قال كذا وكذا، وإني لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وإنها في الوادي الفلاني قد حبستها شجرة بزمامها». فانطلقوا فجاؤوا بها، فرجع عُمارة إلى رحله فأخبر الخبر فقال رجل: إن زيدا قال هذه المقالة قبل أن يأتي، فقام إلى زيد فوجأ عنقه وقال: يا عدو الله، في رَحلي داهيةٌ ولا أدري، أُخرج عني. فيقال: إن زيدا تاب، وقيل: لم يزل مُصيراً حتى هلك^(٤) والله أعلم.

(١) «السيرة» ٢/ ٥٢١ - ٥٢٢، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ الخطية: «وإن الأرض لا عذراً فسقى وأروى» والمثبت من «المغازي».

(٣) «المغازي» ٣/ ١٠٠٨ - ١٠٠٩.

(٤) «السيرة» ٢/ ٥٢٢ - ٥٢٣.

حديثُ مسجدِ الضَّرارِ

قال يزيد بن رومان: أقبل رسولُ الله ﷺ حتى نزل بذي أوان، وقد جاءه من أصحابِ مسجدِ الضرار: مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ، وَثَعْلَبَةُ وَخِدَامٌ، وَأَبُو حَبِيبَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتَلٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا رُسُلٌ مَن خَلَفْنَا مِنْ أَصْحَابِنَا، وَإِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لَدَى الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ، وَنَحْنُ نَحْبُ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلِّيَ بِنَا فِيهِ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ - فَقَالَ: «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، فَإِذَا قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا بِكُمْ فِيهِ»، فَلَمَّا عَادَ مِنْ تَبُوكَ وَنَزَلَ بِذِي أَوَانَ، أَتَاهُ خَبْرُهُ وَخَبَرُ أَهْلِهِ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَانُوا إِنَّمَا بَنَوْهُ لِأَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ، فَكَانَ بِالشَّامِ هَارِبًا، وَأُرْسِلَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ أَنْ اسْتَعَدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَسِلَاحٍ فَابْنُوا لِي مَسْجِدًا، فَإِنِّي قَادِمٌ بِخِيُولِ الرُّومِ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ فَأُخْرِجَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، وَكَانَ الَّذِي بَنَوْهُ اثْنِي عَشَرَ^(١).

وقال الثعلبي: جاء المنافقون إلى رسولِ الله ﷺ فسألوه أن يصليَ فيه، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله عليه خبرَ السماء وما هموا به، فدعا مالك بن الدخشم ومعن ابن عدي وعامر بن السَّكَنِ وقال: «اذْهَبُوا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدَمُوهُ»^(٢).

وقال ابن إسحاق والواقدي: بعث مالك بن الدخشم وعاصم بن عدي وقال لهما: «انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدَمَاهُ واحرقاه». فخرجا مُسْرِعَيْنِ، وَأَخَذَ مَالِكُ سَعْفًا مِنَ النَّخْلِ وَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا، وَانْتَهَى إِلَيْهِمْ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَهُمْ فِيهِ وَإِمَامُهُمْ يَوْمَئِذٍ مُجَمِّعُ بْنُ جَارِيَةَ، قَالَ عَاصِمٌ: فَأَحْرَقْنَاهُ وَهَدَمْنَاهُ وَثَبِتَ فِيهِ مِنْهُمْ زَيْدُ بْنُ جَارِيَةَ بْنُ عَامِرٍ فَاحْتَرَقَتْ إِيَّتَاهُ، وَجَعَلْنَاهُ مَعَ الْأَرْضِ وَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَعْطَاهُ لِعَاصِمِ بْنِ عَدِيِّ يَتَّخِذُهُ دَارًا، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَتَّخِذَ مَسْجِدًا - قَدْ نَزَلَ فِيهِ مَا نَزَلَ - دَارًا، وَإِنِّي لَفِي غِنَى عَنْهُ، أَعْطَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتَ بْنَ أَقْرَمٍ، فَأَعْطَاهُ ثَابِتًا، وَكَانَ قَدْ احْتَرَقَ مَعَهُ دَارٌ وَدَيْعَةٌ بِنِ ثَابِتِ بْنِ عَامِرٍ إِلَى جَنْبِهَا، وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ قَدْ أَعَانَهُمْ فِيهِ بِخَشَبٍ، وَكَانَ غَيْرَ مَغْمُوصٍ عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، فَلَمَّا هَدَمَ أَبُو لُبَابَةَ خَشْبَهُ ذَلِكَ فَبَنَى بِهِ مَنْزِلًا^(٣).

(١) انظر «السيرة» ٥٢٩/٢، و«المغازي» ١٠٤٥/٣ - ١٠٤٦.

(٢) تفسير الثعلبي ٢٤٧/٣.

(٣) «السيرة» ٥٣٠/٢، و«المغازي» ١٠٤٦/٣ - ١٠٤٧.

والذين أسسوا مسجد الضرار كانوا خمسة عشر رجلاً^(١) ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٧].

وقال الثعلبي: أمر رسول الله ﷺ أن يتخذ ذلك المسجد كناسة يلقي فيها الجيف والتن والقمامة.

ومات أبو عامر بالشام وحيداً فريداً غريباً ، وفيه يقول كعب بن مالك: [من الوافر]
معاذ الله من فعل خبيث كسعيك في العشيرة عبد عمرو
وقلت بأن لي شرفاً وذكراً فقدمت إيماناً بكفر
وقال الثعلبي: سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً منهم: بماذا أعنت في هذا
المسجد؟ قال: بسارية، فقال عمر رضي الله عنه: أبشر بها في عنقك في نار جهنم.

وروي: أن بني عمرو بن عوف الذي بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه في خلافته ليأذن لمجمّع بن جارية أن يؤمّ بهم في مسجدهم فقال: لا ولا نعمة، أليس بإمام المسجد الضرار؟ فقال له مجمّع: لا يا أمير المؤمنين، فوالله لقد صليتُ وأنا لا أعلم ما أضمرُوا عليه ولو علمت ما صليتُ فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً قد عَشَوْا لا يقرؤون من القرآن شيئاً، وكنت أظنهم يتقربون إلى الله ولم أعلم بما في نفوسهم. فعذره عمر رضوان الله عليه وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء^(٢).

وروي عن ابن عباس، أن المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء. وروي أنه مسجد رسول الله ﷺ.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الخميس عاشر رمضان، فبدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين وجلس، وكان قد تخلّف عنه رهط من المسلمين والمنافقين، فصفح عن المنافقين ولم يعذر من تخلّف من المسلمين إلا من كان عاجزاً، ومدح ذوي الأعدار من المسلمين.

(١) عددهم ابن إسحاق اثني عشر رجلاً، وسلف أنهم كذلك، انظر «السيرة» ٥٣٠/٢ .

(٢) تفسير الثعلبي ٢٤٧/٣ .

قال أنس: قال رسول الله ﷺ لما رجع من غزاة تبوك ودنا من المدينة قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً، مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ»، فقالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ». أخرجه البخاري (١).

قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا

لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ لَمْ يُعْذِرْ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ، مِنْهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَالِكِ الشَّاعِرِ، وَمُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَّةَ، وَهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَخَلَّفُوا مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ مَعَ صِحَّةِ إِسْلَامِهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُغْمَصُوا بِالنِّفَاقِ، فَوَقَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُمْ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ كَلَامِهِمْ حَتَّى نَزَلَتْ تَوْبَتُهُمْ فِي الْقُرْآنِ.

وقد أخرج حديثهم الإمام أحمد والبخاري ومسلم رحمة الله عليهم:

عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنيفة قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ، فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فتجهز

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٣).

رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمرّ بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدرِكهم فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقدّر ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي ﷺ يُخزِنني أنني لا أرى لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممّن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه والنظر في عطفه، فقال له معاذ بن جبل: بس ما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيّضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كُن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، فطفقتُ أتذكرُ الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخطه؟ وأستعين على ذلك بكلّ ذي رأيٍ من أهلي، فلما قيل: إنّ رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتُ صدقه، وصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئتُ، فلما سلّمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابّعت ظهرك؟» قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذرٍ، لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صدقٍ تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عبي الله عز وجل، والله ما كان بي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ:

«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقمْتُ، وثارَ رجالٌ من بني سَلَمَةَ فاتَّبَعُونِي فقالوا لي: والله ما علمناكَ أذُنَيْتَ ذَنْباً قَبْلَ هذا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكْذِبَ نَفْسِي. قَالَ: ثُمَّ قُلْتَ لَهُمْ: هَلْ لَقِي هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتَ مِنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَمْرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَةَ الْوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا لِي فِيهِمَا أَسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ. قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ إِلَى نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرَفُ، فَلَبَّيْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً.

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بَيْتِهِمَا بَيْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرَجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَكْلُمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسَلَّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَحَلِّهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكْتُ شَفْتَيْهِ لِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ النَّظْرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، فَعَدْتُ فَأَنْشُدْتَهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَيَّ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يَشِيرُونَ لِي، حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانٍ وَكُنْتُ كَاتِباً فَقَرَأْتَهُ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضاً مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التُّورَ فَسَجَرْتُهَا.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبت الوحي إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزليها فلا تقرّبها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنك» فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

قال: فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صَلَّيْتُ صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عَلَيَّ نفسي وضاقت عَلَيَّ الأرض بما رَحُبْتُ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أَوْفَى على سَلْعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بنَ مالكٍ، أبشر، قال: فخررتُ ساجداً وعرفتُ أنْ قد جاءَ الفَرَجُ.

قال: وآذَنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبةِ الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناسُ يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبي مُبَشِّرون، وركض إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي، وأوفى على الجبل، فكان الصوتُ أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرنني نزعته له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فَوْجاً فَوْجاً يهتئونني بالتوبة، ويقولون: ليهنك توبةُ الله عليك، حتى دخلتُ المسجدَ فإذا رسول الله ﷺ حوله الناس، فقام طلحةُ بنُ عبيد الله يهروء حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلّمتُ على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدتك أمك» قال: فقلت: أَمِنْ عِنْدِكَ يا رسول الله، أم من عند

الله؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك، قال: فلما سلمتُ بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أُمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قال: فقلت: فإني أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ، قال: فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما علمتُ أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله، ووالله ما تعمّدتُ كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عز وجل ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿ حتى بلغ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا [فإن الله قال للذين كذبوا] حين أنزل الوحي شراً ما قال لأحد، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إلى قوله ﴿الْفٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥].

قال كعب: كنا خُلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خَلَفُوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا تخلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه^(١).

وفي حديث إسحاق بن راشد: ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي، ولم يَنْهَ عن كلام أحدٍ من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناسُ كلامنا، فلبثتُ كذلك حتى طال

(١) أحمد في «مسنده» (١٥٧٨٩)، والبخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يسلم علي ولا يصلي عليّ. قال: فأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضي الله عنها، وكانت أم سلمة رضي الله عنها مُحْسِنَةً في شأني مَعْنِيَةً بأمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أمّ سلمة، تيب علي كعب» قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره؟ قال: «إِذَا يَحْطِمُكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ»، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا^(١).

ونزل في غزاة تبوك جُمْلَةً من سورة براءة.

ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك قال له العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: يا رسول الله، إني أريد أن أمدحك. فقال: «قل لا يَفْضُضُ اللهُ فاك»، قال: فقال^(٢): [من المنسرح]

مُسْتَوْدِعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ	مِنْ قَبْلِهَا طُبْتُ فِي الظُّلَالِ وَفِي
أَنْتَ وَلَا مُضْغَةً وَلَا عَلَقُ	ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلَادَ لَا بَشْرُ
أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ	بَلْ نَطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينِ وَقَدْ
فِيهَا زَمَانًا وَلَسْتَ تَحْتَرِقُ ^(٣)	وَرَدَّتْ نَارَ الْخَلِيلِ مُكْتَتَمًا
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ	تَنَقَّلُ مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ
خِنْدَفَ عَلِيَاءَ تَحْتَهَا النُّطْقُ	حَتَّى انْتَهَى بَيْتَكَ الْمَهِيمُنُ مِنْ
أَرْضٍ وَضَاءٍ مِنْ نَوْرِكَ الْأُفُقُ	وَأَنْتَ لَمَّا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ الـ
رِ سُبُلِ الرِّشَادِ نَخْتَرِقُ	فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُّو

وفي هذه السنة تابعت الوفود على رسول الله ﷺ.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤١٦٧) من حديث خريم بن أوس، وانظر منال الطالب ٤٤٠.

(٣) في سمط النجوم العوالي ١/١٦٤، وسبل الهدى والرشاد ٥/٤٧٠:

وردت نار الخليل مكتتماً في صلبه أنت كيف يحترق

وفد الطائف:

كان عمرو بن أمية أخو بني علاج مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو بن عمير، فجاء عمرو إلى باب عبد ياليل، فقيل له: عمرو واقف على بابك، فقال: هذا شيء ما كنت أظنّه، وكان عمرو أَمْنَعَ في نفسه من ذلك، فخرج إليه ورَحَّبَ به فقال له عمرو: إنه قد نزل بنا أمرٌ ليس معه هِجْرَةٌ؛ إنه قد كان من أمرِ هذا الرجلِ ما رأيتَ، وقد أسَلَمَتِ العربُ كُلُّها، وليس لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم، فعند ذلك اتتمرت ثقيف، وقال بعضهم لبعض: ألا تَرَوْنَ أنه لا يَأْمُنُ لكم سِرْبٌ ولا يخرج منكم أحدٌ إلا اقْطِطَعَ، فاتفقوا على أن يُرْسِلُوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً، فكلّموا عبد ياليل فأبى أن يفعل، وخشي أن يفعلوا به إذا رجع كما فعلوا بعُرْوَةَ، وكانوا هم الذين أرسلوه إلى رسول الله ﷺ ثم قتلوه، وقال لهم عبد ياليل: لستُ فاعِلاً حتى تبعثوا معي رجلاً، فبعثوا معه خمسة: رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك. من الأحلاف: الحكم بن وهب ابن مُعْتَبٍ، وشَرْحَيْلُ بْنُ غَيْلَانَ بن سلمة بن معْتَبٍ، ومن بني مالك: عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونَمِيرُ بن خَرَشَةَ، فخرج بهم عبد ياليل وهو نابُ القَوْمِ وصاحبُ أمرهم، فلما فصلوا قناة، لقوا بها المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ يرعى رِكَابَ رسولِ الله ﷺ وكانت رعايتها نُوباً على أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فلما رأهم ترك الرِّكَابَ عندهم وضَبَرَ يَشْتَدُّ لِبِشْرِ رسولِ الله ﷺ بهم، فلقيه أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأخبره بقدمهم وأنهم قد جاؤوا يريدون الإسلام وأن يكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتاباً شرطوا فيه شروطاً على قومهم وبلادهم، فقال له أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ لا تَسْبِقُنِي إلى رسولِ الله ﷺ حتى أكونَ أنا الذي أبشره، ففعل، ودخل أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأخبر رسولَ الله ﷺ بقدمهم فسر، وقال لهم المغيرة: إذا دخلتم على رسولِ الله ﷺ فحيّوهُ بتحية الإسلام، فلما دخلوا عليه حيّوهُ بتحية الشُّركِ، فضرب عليهم قُبَّةً في المسجد، وكان خالدُ بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين رسولِ الله ﷺ وما كانوا يأكلون الطعامَ يأتيهم من عند رسولِ الله ﷺ حتى يأكل هو منه، حتى أسلموا وبايعوا، وكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتاباً، وسألوه أن يَدَعَ لهم اللَّاتَ ولا يهدمها إلى ثلاث سنين، فأبى، فقالوا: سنة، فأبى، فسألوه فقالوا: شهراً بعد قدومهم فأبى عليهم، وسألوه أن يُعْفِيَهُمْ

من الصلاة وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم: فقال: «أما الصلاة، فلا خير في دين لا صلاة فيه» وأعفاهم أن يكسر غيرهم أوثانهم وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي وكان من أحدثهم سناً، وإنما كان حريصاً على الفقه وتعلم القرآن.

قال عثمان بن أبي العاص: آخر كلام كلمني به رسول الله ﷺ إذ استعملني على الطائف فقال: «خفف الصلاة على الناس» حتى وقت لي ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ وأشباهاها من القرآن^(١).

وفي «المسند»: «جوّز في صلاتك واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الصغير والكبير وذا الحاجة»^(٢). وفي «المسند»: «واتخذ مؤذناً، فلا يأخذ على أذانه أجراً»^(٣).

وكان قدومهم في رمضان، فلما أسلموا صاموا، وكان بلال رضي الله عنه يأتيهم بفطرم فيقولون: يا بلال، ما نرى الشمس توارت بعد، لما يرون من السدف، فيضع بلال يده فيه ويأكل منه، ويقول: ماجئتكم حتى أكل رسول الله ﷺ، ويأتيهم بسحورهم وقد تخوفوا الفجر وأمسكوا ويقولون: يا بلال، قد أصبحت، فيقول: نزلت ورسول الله ﷺ يتسحر. ولما توجهوا إلى الطائف بعث معهم رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، فلما قدما الطائف قال المغيرة لأبي سفيان: تقدم، فقال: أنت أولى بالدخول على قومك، وأقام أبو سفيان في ماله بذي الهدم، فلما دخل المغيرة على اللات علاها بمغول يضربها، وقام دونه بنو معتب بالسلاح خشية أن يصاب كما أصيب عروة بن مسعود، وخرج نساء ثقيف حُسراً يبكين عليها، ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهاً لك، آهاً لك، ثم بعث إلى أبي سفيان بمالها وحليها^(٤).

وكان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود لما قُتل عروة قدما على رسول الله ﷺ وأسلما، وقال لهما: «توليا خالكما أبا سفيان بن حرب» فقال أبو مليح: يا رسول الله،

(١) «السيرة» ٥٣٨/٢ - ٥٤٠، و«المغازي» ٩٦٢/٣ - ٩٦٨.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٩١٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٧٠).

(٤) «السيرة» ٥٤٠/٢ - ٥٤٢.

اقض دينَ أبي من مال الطَّاغية؟ قال: نعم، وقال له قارب بن الأسود: يا رسول الله، وعن الأسود فاقضه، فإن عروة والأسود كانا أَخَوَيْنِ لِأَبٍ وَأُمٍّ، فقال رسول الله: فإن الأسود مات وهو مشرك، فقال قارب: يا رسول الله إنما الدِّينُ علي وأنا الذي أُطالِبُ به، فإذا فَعَلْتَ وَصَلْتَ مُسْلِمًا.

وكتب النبي ﷺ إلى أبي سفيان أن اقض دِينَ عروة والأسود من مال الطاغية، ففعل^(١).

وكانت سَدَنَةُ الطاغية من ثقيف بنو العجلان.

قال هشام: كان سبب إسلام ثقيف أن مالك بن عوف النَّضْرِيَّ لما قَدِمَ على رسول الله ﷺ بالجِعْرَانَةِ وَرَدَّ عَلَيْهِ ماله وأهله أسلم وَحَسُنَ إسلامه، واستعمله على القبائل، فقال له: يا رسول الله، أنا أكفيك ثقيفًا، فأزعجهم بالغارات والنَّهْبِ، فلما رأت ذلك ثقيفٌ مشوا إلى عبد ياليل وسألوه أن يقدم على رسول الله ﷺ، فقدم هو وابناه في سبعين رجلاً وهم رؤساؤهم.



وفيها: في رمضان قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير وهَمْدَانِ باليمن بإسلامهما، وبعث إليه زرعة بن ذي يزن^(٢) مالك بن مرة الرهاوي، فسُرَّ بهم رسول الله ﷺ، فكتب إليهم بعد البسملة: «من محمد رسول الله إلى ملوكِ هَمْدَانِ وَالْمَعَاوِرِ وَحَمِيرِ - وَسَمَاهِمِ - أما بعد: فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَإِنَّا لَقِينَا رَسُولَكُمْ وَنَحْنُ قَافِلُونَ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ فَبَلَّغْنَا رِسَالَتَكُمْ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَدُوا خُمْسَ أَمْوَالِكُمْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَعَلَيْكُمْ عَشْرُ مَا سَقَتِ الْعَيْونُ وَالسَّمَاءُ... وَذَكَرَ أَسْنَانَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالغَنَمِ وَمَا يَجِبُ فِيهَا». وفيه: «وعلى كل حالم وحالمة من اليهود والنصارى دينار أو قيمته من المعافر».

(١) «السيرة» ٥٤٢/٢ .

(٢) في «السيرة» ٥٨٨/٢ : زرعة ذو يزن، وانظر «الطبقات» ٣٠٦/١ .

وقوله: وحالمة: سهو من الكاتب أو الراوي، لأن المرأة لا جزية عليها بالإجماع.
والمعافر: ضَرْبٌ من ثيابِ اليَمَنِ.



وفيها: قدم وفد فزارة، وكانوا سبعة عشر رجلاً ومنهم الحرُّ^(١) بن حصن، وكان أصغرهم سنًا، فلقوه عند رجوعه من تبوك وهم على رحالٍ عِجاف، فسألهم رسولُ الله ﷺ فقالوا: أَسْتَتَّ^(٢) بلادنا وهلكت مواشينا، وسألوه الدعاء لبلادهم بالحيا، فخطب ودعا لهم، فقال: «اللهم اسق بلادك عاجلاً نافعاً، سقيا رحمة لا سقيا عذاب، اللهم حوالينا ولا علينا». فعادوا إلى بلادهم وقد سقوا^(٣).

وفيها: قدم وفد همدان^(٤)، وفيهم ذو المشعار مالك بن نمط فقام فقال: يا رسول الله أَتَتَكَ نَصِيَّةٌ من همدان من كل حاضر وبادٍ، أتوك على قُلُصِ نِوَجٍ مُتَّصِلَةٍ بِحِبَائِلِ الإِسْلَامِ، لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لائِمٌ، من مِخْلَافِ خَارِفٍ، وعهدهم لا يُنْقَضُ عن سنة ما قام لَعْلَعٌ^(٥) وجرى اليَعْفُورُ بصلع، فكتب لهم رسول الله ﷺ:

هذا كتابٌ من محمد رسول الله لِمِخْلَافِ خَارِفٍ وأهل جِنَابِ الهَضْبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ، لوافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فِرَاعَهَا وِوَهَاطَهَا وَعَرَارَهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ، يَأْكُلُونَ عُلاَفَهَا وَيُرْعَوْنَ حِقَافَهَا، وليأمن ذَمِّيهِمْ وَضَامِهِمْ مَا سَلِمُوا بِالمِثَاقِ وَالأَمَانَةِ، ولهم من الصَّدَقَةِ: الثَّلبُ وَالنَّابُ وَالفَصِيلُ وَالدَّاجِنُ وَالكَبْشُ الحِوَارِيُّ وَعَلَيْهِمْ فِيهِ الضَّالَعُ وَالقَارْحُ.

تفسيره: «النصية» من الإبل والقوم والمال: خياره، و«القلوص» من النوق: بمنزلة الجارية من النساء، و«النواج»: الناجية بصاحبها. والمخلاف: لأهل اليمن واحد المخاليف، وهو كورها، ولكل مخلاف اسم يعرف به، و«اليعفرور»: اسم واد،

(١) في النسخ: «الحارث» وانظر «الإصابة» ١/٣٢٤.

(٢) أستتت: أجدبت من قلة المطر.

(٣) «الطبقات» ١/٢٥٧، و«المنتظم» ٣/٣٥٣.

(٤) السيرة ٢/٥٩٧-٥٩٨.

(٥) لعلع: اسم جبل.

و«صلع»: موضع لا يُنبِتُ، و«الفراع»: أعالي الجبال، و«الوهْطَة»: ما اطمأن من الأرض، و«العرار»: نَبْتُ طَيْبِ الرِّيحِ، و«العُلف»: بتشديد اللام، ثمرُ الطَّلْحِ، و«الحِقَافُ»: الرِّمالُ، و«الثُّلبُ»: الجمل الذي انكسرت أنيابه من الهَرَمِ وتناثر ذنبه، و«النَّابُ»: المِسِنَّةُ من النوق، و«الفارض»: البقرة الكبيرة، و«الداجن»: الشاة تألف البيوت، و«الضَّلَعُ»: الغَمَزُ في مَشْيِ البعير، و«القارح»: ما أتت عليه خمس سنين. وفيها: وَفَدَ عَلَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدُ الدَّارِيَيْنِ.

قال زياد بن أبي هند الداري، عن أبيه^(١): قَدِمْنَا عَلَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَةَ وَنَحْنُ سِتَّةُ أَنْفُسٍ: تَمِيمُ الدَّارِي وَأَخُوهُ نُعَيْمُ بْنُ أَوْسٍ، وَالْفَاكَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَزَيْدُ بْنُ قَيْسٍ، وَأَبُو هِنْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَخُوهُ الطَّيِّبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَسَمَّاهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [عبد الرحمن]^(٢) فَأَسْلَمْنَا وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يُعْطِيَنَا أَرْضاً مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَأَعْطَانَا، وَكَتَبَ لَنَا فِي جِلْدٍ أَدِيمٍ كِتَاباً فِيهِ شَهَادَةُ الْعَبَّاسِ وَخُرَيْمِ بْنِ قَيْسٍ وَشُرْحَيْلِ بْنِ حَسَنَةَ^(٣).

قال أبو هند - فهو صاحب الحديث - : فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة هاجرنا إليه، وسألناه أن يجدد لنا كتاباً.

وفي رواية: فقالوا: ما شئتم؟ فقال تميم: أرى أن أسأله بيت المقدس وكورها، فقال أبو هند: أخاف أن لا يتم لنا ذلك لأنه يكون بها ملك العرب، فقال تميم: فنسأله بيت جبرين، فقال أبو هند: فهذا أكبر، اطلبوا منه عين، وجبرون، وبيت إبراهيم، وطلبناه فكتب لنا، ثم قال: «إذا سمعتم أني قد هاجرت فاقدموا علي»، فلما هاجر قدموا عليه فجدد لهم الكتاب.

وقال الكلبي: قدم وفد الدارين على رسول الله ﷺ عند منصرفه من تبوك وكانوا عشرة، فمنهم: تميم ونعيم ابنا أوس بن خارجة، [ويزيد بن قيس بن خارجة]^(٤)

(١) في النسخ: «زياد بن هند». والمثبت من الطبراني، و«الإصابة» ٢/٢٣٦.

(٢) ما بين معقوفين زيادة من المصادر.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥٤٨)، والطبراني في «الكبير» ٢٢/ (٨٠٦). وجاء عندهم أن رسول الله ﷺ سمي الطيب: عبد الرحمن، وعند الواقدي ٢/ ٦٩٥، وابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٩٦ أنه ﷺ سمي الطيب عبد الله.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في النسخ وهو من الطبقات ١/ ٢٩٦.

والفاكه بن النعمان بن جبلة بن صفارة، وعزيز ومرة أبنا مالك^(١)، والطيب وأبو هند ابنا ذر، وجبلة بن مالك بن صفارة، وهاني بن حبيب بن هاني، وخارجة بن أسود^(٢)، وقيل: وأسود بن جبير اللخمي، فأهدى هاني بن حبيب لرسول الله ﷺ راوية خمر وأفراساً وقبأً مَخَوَّصاً بالذهب - أي مَنْسُوجاً - فقبلَ القباء والأفراس وردَّ الخمر، وقال: «إن الله حرم شربها وبيعها» فانطلق فأهرقها في بقيع الجحفة، وأعطى رسول الله ﷺ القباء للعباس رضي الله عنه فباعه من يهودي بثمانية آلاف درهم. وسمى رسول الله ﷺ عزيزاً: عبد الرحمن، والطيب: عبد الله، فقال له تميم: يا رسول الله إن لنا جيرة من الروم ولهم قريتان يقال لإحدهما: جبرى، والأخرى: بيت عينون، فإن فتح الله عليك بالشام فهبهما لي، فقال: «هما لك»^(٣).

وقال الواقدي: وكتب رسول الله ﷺ لنعيم بن أوس وأخيه تميم بن أوس: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أنطى محمد رسول الله نعيم بن أوس وأخاه تميماً الدارين جبرى وبيت عينون بالشام، سهلها وجبلها وماءها وأنباطها وبقرها، ولعقبه من بعده، لا يحاقهما فيها أحد ولا يلج عليهم فيها بظلم، فمن ظلمهم وأخذ منهم شيئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وكتب علي بن أبي طالب^(٤).

وقال الهيثم: نسخة الكتاب: هذا ما أنطى محمد رسول الله لتمييم الداري وأصحابه، أنطاهم عين، وحبرون، والمرطوم بيت إبراهيم بدمتهم، وجميع ما فيها، نطية بتة، وهي لأعقابهم من بعدهم أباد الأبدين، فمن آذاهم فيه آذاه الله. وشهد أبو بكر ابن أبي قحافة رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب، وأقاموا عند رسول الله ﷺ بالمدينة حتى توفي، وقام أبو بكر رضوان الله عليه فأعطاهم ذلك، وأوصى لهم رسول الله ﷺ بمئة وسقٍ من تمر خيبر.

(١) في النسخ: «وعزيز بن مرة بن مالك»، والمثبت من طبقات ابن سعد ٢٩٦/١.

(٢) لم نقف على من اسمه خارجة بن أسود، ولا أسود بن جبير ضمن وفد الدارين في شيء من المصادر، ولا من ذكرهم في الصحابة، وذكر ابن سعد والواقدي بدله: يزيد بن قيس بن خارجة.

(٣) «الطبقات» ٢٩٦/١.

(٤) انظر «الطبقات» ٢٥٥/٦.

وكتب أبو بكر رضوان الله عليه إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أما بعد، فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الدارين، وإن كان أهلها قد أجلوا عنها وأراد الداريون أن يزرعوها فلهم ذلك، وإن أراد أهلها الرجوع إليها فهي لهم وهم بها أحق^(١).
و«المرطوم»: هو بيت إبراهيم عليه السلام وهو موضع قبره، و«جبرى» قرية إلى جانب المرطوم.

ترجمة تميم الداري

وكنيته: أبو رُقَيْة، ولم يكن له ولدٌ ذكرٌ، إنما كانت له هذه البنتُ فكنِّي بها. قاله يعقوب بن سفيان.

وقال ابن عبد البر: لم يُولد له ولدٌ غير رُقَيْة، وكان نصرانياً فأسلم سنة تسع من الهجرة^(٢).

وتميم من الطبقة الرابعة من الصحابة، نزل المدينة، وتحوّل إلى الشام بعد قتل عثمان رضي الله عنه، وكان يقرأ القرآن في ركعة، وربما ردّد الآية الواحدة إلى الصباح، وكان يشتري الرداء بألف درهم فيصلي فيه بالليل.

وفي تميم نزل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ الآية [المائدة، ١٠٦].

وقال الحميدي عن ابن عباس: خرج رجل من بني سَهْمٍ مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلما قدموا بتركته فقدوا جاماً من فضةٍ مَخَوَّصاً بالذهب، فأحلفهُما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم وُجدَ الجامُ بمكّة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي بن بداء، فقام رجلان من أوليائه فحلفا لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم، فنزلت الآية، الكلام على الحديث^(٣).

وقال تميم: خرجتُ من الشام إلى الحجاز حين بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركني الليل

(١) «تاريخ دمشق» ٦٦/١١.

(٢) «الاستيعاب» ١٨٤/١.

(٣) كذا وردت هذه العبارة هنا، وهي دليل على كلام مختصر، والحديث أخرجه البخاري (٢٧٨٠)، وانظر

«الجمع بين الصحيحين» (١١٢٩).

في وادٍ فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة، فناداني منادٍ: عُدْ بالله، فإن الجن لا تجترئ على الله؛ قد خرج الرسول الأمين، وصلينا خلفه بالحجون وأسلمنا واتبعناه، وذهب كيد الجن ورميت الشياطين بالشهب، فانطلق إلى محمد ﷺ، فلما أصبحت أتيت دَيْرَ أيوب وفيه راهبٌ فأخبرته، فقال: صدق، نجدُهُ يخرج من الحرم، وهو خير الأنبياء فلا تُسبقُ إليه. فقدمت على رسول الله ﷺ المدينة فأسلمت^(١).

وهو أول من قصَّ في أيام عمر رضوان الله عليه، فقال له: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن وأمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر، قال: افعل، فكان يقصُّ يوماً واحداً في الجمعة، فلما قام عثمان رضوان الله عليه استزاده يوماً آخر^(٢).

ومرَّ به عمر رضوان الله عليه وهو يقصُّ ومعه ابن عباس، فقال له: سلّه عن زلّة العالم، فقال تميم: لأن العالم إذا زلَّ زلَّ الناسُ فيؤاخذ بهم^(٣)، فقال عمر رضي الله عنه: أحسنت.

وقال أبو سعيد الخدري: أول من أسرج المسجد تميم الداري^(٤).

وسكن تميم دمشق، ثم انتقل إلى فلسطين، فتوفي بها سنة أربعين، قاله الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى، وقبره بيت حبرون.

وروى الحديث عن النبي ﷺ، وروى عنه من الصحابة: ابن عباس وأنس وأبو هريرة وغيرهم، وقدم مصر لغزو البحر فروى عنه جماعة من المصريين، وأخرج له الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند» ثمانية أحاديث.

وقد روى رسول الله ﷺ حديث الجساسة عن تميم الداري: كانت فاطمة بنت قيس من المهاجرات الأول، وسألها الشَّعْبِيُّ - واسمه عامر بن شراحيل من شعب همدان - فقال: حدثيني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا تُسنديه إلى أحدٍ غيره، فقالت: لئن

(١) «الطبقات» ٢٥٥/٦ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٤٠٠) من حديث الزهري، وأحمد في «مسنده» مختصراً (١٥٧١٥) من حديث السائب بن يزيد .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٤٩)، والخطيب في «الجامع لأدب الراوي» (٣٨٩) .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٧٦٠) .

سئلت لأفعلن، فقال لها: أجل، حدثيني، قالت: نكحتُ ابنَ المغيرة وهو من خيرِ شباب قريش يومئذ، فأصيب في أول الجهاد مع رسولِ الله ﷺ فلما تأيَّمتُ خطبني عبد الرحمن بنُ عوفٍ في نفر من أصحاب رسولِ الله ﷺ [وخطبني رسولِ الله ﷺ] على مولاه أسامة بن زيد، فلما كلمني رسولُ الله ﷺ قلتُ: أمري في يدك فأنكحني من سئلت، فقال: «انتقلي إلى أمِّ شريك» وأمِّ شريك امرأة غنيَّة من الأنصار، عظيمة النفقة في سبيلِ الله، ينزل عليها الضيفانُ، فقلت: سأفعل، فقال: «لا تفعلي، إنَّ أمَّ شريكٍ كثيرةُ الضيفانِ، وأكرهُ أن يسقطَ خمارُك وينكشفَ الثوبُ عن ساقيك، فيرى القومُ منك بعضَ ما تكرهين، ولكن انتقلي إلى ابنِ عمِّك، ابنِ أمِّ مكتوم». فانتقلتُ إليه، فلما انقضتُ عدتي سمعنا نداءً منادي رسولِ الله ﷺ ينادي: الصلاةُ جامعةٌ، فخرجت مع النساء إلى المسجد، فصلَّيتُ مع رسولِ الله ﷺ، فكنت من النساء اللاتي بين ظهور القوم، فلما قضى رسولُ الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «ما جمعتكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ، ولكن جمعتكم لأنَّ تميمًا الداريَّ حدثني حديثاً وافق ما كنتُ حدثتكم عن المسيح الدجالِ، حدثني أنه ركبَ في سفينةٍ بحريةٍ مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموجُ شهراً في البحر، ثم أرفؤوا إلى جزيرةٍ في البحر حين تغربُ الشمسُ، فجلسوا في قاربٍ ودخلوا الجزيرةَ، فلقيتهم دابةٌ أهلبُ كثيرُ الشَّعرِ، لا يدرون ما قبُّله من دُبِّره، فقالوا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجساسةُ، قالوا: وما الجساسةُ؟ قالت: أيُّها القومُ، انطلقوا إلى هذا الرجلِ الذي في الدَّيرِ فإنه إلى لقاءكم بالأشواقِ، قال: فلما سمَّت لنا رجلاً فرقتنا منها أن تكونَ شيطانةً - أو شيطاناً - فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدَّيرَ فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأينا قطُّ خلقاً، وأشدُّه وثاقاً، مجموعةٌ يده إلى عنقه، ما بين رُكبتيه إلى كعبه بالحديدِ، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناسٌ من العربِ ركبنا في سفينةٍ بحريةٍ فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموجُ شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرةَ فلقينا دابةً أهلبُ كثيرُ الشَّعرِ.. وذكر القصة إلى قوله: فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعاً وفرعنا منها، ولم نأمن أن تكونَ شيطانةً، فقال: أخبروني عن نخلِ بيسان؟ قلنا: عن أيِّ شيء تستخبر؟ قال: أسألكم

عن نخلها هل يثمر؟ قلنا: نعم، قال: يوشك أن لا يُثْمِرَ، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية؟ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: أسألکم هل فيها ماء؟ قلنا: هي كثيرة الماء، قال: إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زُغَر؟ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قلنا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: قاتلته العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، فقال: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مُخبركم عني، أنا المسيح، وإني أُوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في الأربعين ليلة غير مكة وطيبة، هما مُحَرَّمَتان عليَّ كِلتاهُما، كلما أردت أن أدخل واحدةً منها استقبلني ملكٌ بيده السيفُ صلّتا يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها، قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة» يعني المدينة. قال: فإنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن مكة والمدينة، إلا أنه من بحر الشام أو بحر اليمن لا من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق» يكرره وأوماً بيده إلى المشرق. قالت: فحفظتُ هذا من قول رسول الله ﷺ، وهذا حديث طويل أخرجه الحميدي^(١) من أفراد مسلم.



وفيها: كتب رسول الله ﷺ إلى سمعان بن عمرو الكلابي كتاباً يدعو إلى الإسلام، فرقع به دلوّه، فقالت له ابنته: عمدت إلى كتاب سيد العرب فرقت به دلوك ستصيبك قارعة، فمرت به سرية رسول الله ﷺ فاستباحوا كل شيء كان له، فهرب، ثم قدم على رسول الله ﷺ مسلماً، فرد عليه من ماله ما لم يقسم^(٢).



(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٢) والحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (٣٥٣٦).

(٢) «الطبقات» ١/٢٤٢.

وفيها: وَفَدَّ وَفَدُّ بَنِي الْبَكَّاءِ، وهم: معاوية بن ثور بن عبادة وهو يومئذ ابن مئة سنة، ومعه ابنه بشر، والفُجَيْعُ بن جُنْدَعٍ^(١)، وعبد عمرو، فأكرمهم رسولُ الله ﷺ وأجازهم، فقال له معاوية بن ثور: يا رسول الله، إني قد كبرت فامسح علي وجه ابني بشر، فمسح عليه ووهبه أَعْنَزاً عُفْراً - أي بيضاء - فكانت السُّنَّةُ تُصِيبُ بَنِي الْبَكَّاءِ ولا تصيبهم، وفي ذلك يقول محمد بن بشر بن معاوية: [من الكامل]

وأبي الذي مَسَحَ الرَّسُولُ بوجْهِهِ ودعاه بالخَيْرِ والْبَرَكَاتِ
أعطاه أحمدُ إذ أتاهُ أَعْنَزاً عُفْراً ثَواجِلَ لَسَنٍ باللَّجِبَاتِ
يملأن رِفْدَ الْحَيِّ كُلَّ عَشِيَّةٍ ويعودُ ذاك المَلءُ بالْغَدَوَاتِ
بُورِكَنَ مِنْ مَنَحٍ وَبُورِكَ مَانِحاً وعليه مِنِّي ما حَيْثُ صَلَاتِي
وكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتاباً فهو عند الفُجَيْعِ وقومه^(٢).

وفيها: قدم وفد بني عُقيل بن كعب، وفيهم ربيع بن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل، وعقال بن خويلد وغيرهما، وأخذ عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، وقال لعقال ابن خويلد: قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فقال: أَشْهَدُ أَنْ هُبَيْرَةَ بِنَ النَّفَاضَةِ نِعَمَ الْفَارِسُ يَوْمَ قَرْنِي لَبَانٍ^(٣) - اسم موضع. فقال له: قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فقال: أَشْهَدُ أَنْ الصَّرِيحَ تَحْتَ الرَّغْوَةِ، فقال ثلاثاً له، فَأَسْلَمَ، فكتب لهم رسول الله ﷺ العقيق، ويُسمى: عقيق بني عُقيل، وفيه عيون ونخل، وكتب لهم في أديم أحمر^(٤).



وفي هذه السنة جرت قصة ثعلبة بن حاطب أحد المنافقين.

قال أبو أمامة الباهلي: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أَدْعُ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالاً، فقال: «وَيْحَكَ يَا ثُعْلَبَةُ، أَمَّا لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَرَدْتُ أَنْ تَسِيرَ الْجِبَالُ مَعِيَ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ». ثم

(١) في طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٣: والفجيع بن عبد الله بن جندح.

(٢) «الطبقات» ١/ ٢٦٢ - ٢٦٣، والثواجل: العظام البطون.

(٣) في النسخ: «موليان» والمثبت من «الطبقات».

(٤) «الطبقات» ١/ ٢٦٠ - ٢٦١.

أتاه ثانياً وثالثاً، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأؤدِّينَ إلى كلِّ ذي حقِّ حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبةً مالاً» قالها مرتين، فاتَّخذَ غنماً فتمت كما ينمو الدودُ، وضاعت عليه المدينةُ فتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها وهي تزداد، وكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهرَ والعصرَ ويصلي في غنمه باقي الصلوات، ثم كثرت فتباعده عن المدينة وانقطع عن الصلوات والجموع، فسأل رسول الله ﷺ عنه ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، كثرَ ماله فأبعدَ عن المدينة، فقال: «يا ويح ثعلبة»، وأنزل الله آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليمٍ وآخر من جهينة على الصدقات وقال لهما: «مرًّا بثعلبة وببني سليم»، فمرًّا بثعلبة فقرأ عليه أسنان الصدقة، فقال: ما هذه إلا جزية، انطلقا حتى تفرَّغا ثم عودوا إليَّ، فذهبا إلى بني سليم فاستقبلهما رجل من بني سليم بصدقته وقد عزل لهما خيارَ ماله، فقالا: ما هذا عليك، فقال: خذاها طيبةً من نفسي. وعادا إلى ثعلبة فلم يعطهما شيئاً، وقال: حتى أرى رأيي. وأقبلا لما رآهما رسول الله ﷺ فقال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة» مرتين، فأخبراه بقول ثعلبة وفعل السلمي، فأنزل الله في ثعلبة: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات وعند النبي ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبُ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ صَدَقَتَكَ» فحشى الترابَ على رأسه وجعل يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا فِعْلُكَ بِنَفْسِكَ، قد أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي». وتوفي رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ولما ولي أبو بكرٍ رضي الله عنه أتاه فعرض عليه أخذَ الصَّدقة فقال: لم يأخذها مِنكَ رسولُ الله ﷺ أفأخذها منك أنا؟ ثم مات أبو بكرٍ رضي الله عنه، وقام عمر رضي الله عنه فجاءه يعرضها عليه، فقال له كذلك، ثم قام عثمان رضي الله عنه فجاءه فعرضها عليه، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، أفأقبلها أنا؟ ولم يأخذ منه شيئاً، فمات في أيام عثمان رضي الله عنه (١).



(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨٧٣)، والبيهقي في «الدلائل» ٢٨٩/٥، وفي «الشعب» (٤٣٥٧) وقال:

وفي إسناد هذا الحديث نظر، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولاً بأسانيد ضعاف.

وفيها: بعث رسول الله ﷺ أبان بن سعيد بن العاص بن أمية على الصدقات إلى البحرين، وأبان من الطبقة الثالثة من المهاجرين، وأمه: هند بنت المغيرة المخزومي، وأبوه كنيته: أبو أحيحة، مات كافراً بالطائف، وكان له أولاد: أبان، وعمرو، وخالد، وعبيدة، والعاص، أما خالد وعمرو فأسلما قديماً وهاجرا إلى الحبشة، وأما العاص وأبان وعبيدة فخرجوا إلى بدر مع الكفار، فقتل عليّ العاص كافراً، وقتل الزبير رضي الله عنه عبيدة كافراً، وأفلت أبان صاحب هذه الترجمة، فكاتبه أخواه خالد وعمرو من الحبشة: أسلم، فقال: لا أدع دين آبائي، وأقام بمكة على كفره، حتى كان زمن الحديبية، ودخل عثمان رضي الله عنه إلى مكة رسولاً من عند رسول الله ﷺ فأجاره، ثم قدم خالد وعمرو من الحبشة سنة سبع مع أصحاب السفيتين وكتبا من الشُعيبية إلى أبان وهو بمكة: اقدم علينا، فقدم عليهم ورسول الله ﷺ بخير، فأسلم وحسن إسلامه، وولاه رسول الله ﷺ صدقات البحرين سنة تسع فسار إليها، وأقام بها حتى ارتدت العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان قد جمع مئة ألف، فقدم بها على أبي بكر رضي الله عنه فسُرَّ به، وكان معه ثلاث مئة من عبد القيس، فأكرمهم أبو بكر رضي الله عنه، وقال له: ارجع إلى عمك، فقال: والله لا عملت لأحد بعد رسول الله ﷺ فلم يُكرهه أبو بكر رضي الله عنه^(١).



وفيها^(٢): رجم رسول الله - ﷺ - ماعزاً والغامدية.

[وقد روى القصة جماعة من الصحابة منهم بريدة بن الحصيب، وجابر بن سمرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن الحصين وغيرهم.

فأما حديث بريدة فقال [أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال]^(٣): كنت جالساً عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه رجل

(١) «الطبقات» ٨/٥ - ١٢.

(٢) من هنا تبدأ نسخة كوبريللي والمرموز لها بـ (ك) وما فيها من زيادات على النسختين (خ، أ) يوضع بين معكوفين.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من (ك).

يقال له: ماعز بن مالك، فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، وأريد أن تطهرني، فقال له رسول الله ﷺ: «ارْجِع»، فلما كان من الغد أتاه، فاعترف عنده بالزنا، فقال له رسول الله ﷺ: «ارْجِع»، ثم أرسل إلى قومه، فقال: «ما تَعْرِفُونَ من ماعز بن مالك الأَسْلَمِي، هَلْ تَرُونَ به بأساً، أو تُتَكِرُونَ من عَقَلِهِ شَيْئاً؟» فقالوا: لا، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ الثالثة والرابعة، فأرسل إلى قومه، فقالوا: ما نعلمه إلا وفيَّ العقل من صالحينا، فأمر رسول الله ﷺ فحفر له حفرة إلى صدره، ثم أمر الناس أن يرموه.

قال بريدة: كنا نتحدث - أصحاب النبي ﷺ - أن ماعزاً لو جلس في رحله بعد اعترافه ثلاث مرات لم يطلبه، وإنما رجمه عند الرابعة^(١).

وقال أحمد رحمة الله عليه: حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن سعد، أخبرني أبي يزيد ابن نعيم بن هزال، عن أبيه قال: كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: أتت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت، لعله يستغفر لك، فخرج، فأتاه، فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله، فأعرض عنه إلى أن أتاه الرابعة، فقال: «إِنَّكَ قد قُلْتَهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَبِمَنْ؟» قال: بفلانة، قال: «هَلْ ضَاغَعْتَهَا؟ هل جَامَعْتَهَا؟» قال: نعم، فأمر به، فرجم، فوجد مَسَّ الحِجَارَةِ، فخرج يشتد، فلقبه عبد الله ابن أنيس، فنزع له بَوْظِيفٍ بَعِيرٍ، فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ - فقال: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ، لَعَلَّهُ يَتُوبُ، فَيُتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ، يَا هَزَّالُ، لو كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِشُوبِكَ كانَ خَيْراً لَكَ مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ»^(٢).

وروى ماعز عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمانٌ باللهِ وَحَدَهُ، ثم الجِهَادُ، ثم حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ - أو بَرَّةٌ - تَفُضُّ سَائِرَ العَمَلِ، كما بينَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ إلى مَغْرِبِهَا» أخرجه الإمام أحمد رحمه الله^(٣).

وقال بريدة^(٤): كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من غامد، فقالت: يا

(١) أخرجه أحمد بتمامه في «المسند» (٢٢٩٤٢)، ومسلم دون قول بريدة الأخير (١٦٩٥). ومن هنا إلى بداية حديث الغامدية ساقط من (ك).

(٢) أحمد في «مسنده» (٢١٨٩٠).

(٣) أحمد في «مسنده» (١٩٠١٠).

(٤) في (ك): «وبهذا الإسناد عن بريدة قال» وكأنه جمع بين حديث ماعز وحديث الغامدية.

رسول الله، إني قد زنيْتُ وأريد أن تطهرني، فقال لها: «ارْجِعي» فجاءته ثانياً وثالثاً، فاعترفت عنده، فقال لها: «ارْجِعي» فقالت: فلعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لَحُبلى، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَمَّا الْآنَ فَادْهَبِي حَتَّى تَلِدِي»، فلما وُلدت جاءت بالصبي تحمله، فقالت: ها قد وُلدت، قال: «فَادْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ». فلما فطمته، جاءت به، وفي يده كِسْرَةٌ خبز، فقالت: يا نبي الله، هذا الصَّبِي قد فطمته، فأمر رسول الله ﷺ بالصبي، فدفعه إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فحفر لها حفرة، فجعلت فيها إلى صدرها، ثم أمر الناس أن يرمُموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى به رأسها، فنضح الدم على وجه خالد، فسبها، فقال ﷺ: « [مهلاً ياخالد] فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لُغْفِرَ لَهُ». وأمر بها رسول الله ﷺ فصلَّى عليها، ودُفنت. انفراد بإخراجه مسلم^(١).

وروى الجماعة بقية الحديث مشابهاً لحديث بريدة، وقد اختصرناه.



وفيها^(٢): لا عَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَتِهِ.

روى الأعمش، عن إبراهيم بن علقمة، عن ابن مسعود قال: كُنَّا جُلُوساً عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَحَدُنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا قَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ حَدِيثُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَيَّ مَضْضٌ أَوْ غِيْظٌ؟! وَ اللَّهُ لَئِنْ أَصْبَحْتَ صَالِحًا لِأَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَأَلَهُ كَمَا سَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ» يرددها، فنزلت آية اللعان، فابتلي ذلك الرجل من بين الناس، فجاء هو وامرأته، فتلاعنا عند رسول الله ﷺ فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم قال في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، والتعنت المرأة أيضاً^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥) (٢٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٩٤٩).

(٢) الخبر ليس في (ك).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٩٥).

وفي أفراد البخاري، عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي - ﷺ - بشريك بن سحماء، فقال رسول الله - ﷺ - «البيّنة، أو حدٌّ في ظهرك» فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيّنة؟! وجعل رسول الله - ﷺ - يقول: «البيّنة وإلا حدٌّ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليُنزلنَّ الله ما يُبرئ ظهري من الحد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦]. فأرسل النبي - ﷺ - إليها، فجاءت، وقام هلال، فشهد، والنبي ﷺ يقول: «الله يعلم، إنَّ أحدكما كاذبٌ، فهل منكما تائبٌ؟». ثم قامت، فشهدت، فلما كان عند الخامسة، وقفوها، وقالوا: إنَّها موجبةٌ، قال ابن عباس: فتلكأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال رسول الله ﷺ: «انظروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(١).



وفيها: أسلم كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر^(٢)، وكان خرج كعب وأخوه بَجِير^(٣) بن زهير إلى أبرق العزّاف، وكان قريباً من زرود، فقال بجير لأخيه: أقم أنت في النعم حتى آتي هذا الرجل، فأسمع كلامه، وأعرف ما عنده، فأقام كعب، ودخل بجير على رسول الله - ﷺ - المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فأسلم، وبلغ كعباً، فقال: [من الطويل]

ألا أبلغا عنِّي بَجيراً رسالَةً على أيِّ أمرٍ دِنْتَ غيرك دلّكا
على خُلُقٍ لم تُلفِ أمّاً ولا أباً عليه ولم تُدرِك عليه أخاً لكَا
سقاك أبو بكر بكأسِ رويّةٍ وأنّهلك المأمون منها وعلّكا
فاتصل ذلك برسول الله - ﷺ - فأهدر دمه، وقال: «مَنْ لَقِيَ كَعْباً فَلْيَقْتُلْهُ»، فكتب إليه

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٧). قوله «سابغ الأليتين»: تامهما، و«خدلج الساقين»: عظيمهما.

(٢) الخبر في (ك) إلى هنا فقط.

(٣) في (أ) و(خ): «يحيى» والمثبت من «الإكمال» ١٩١/١ و«الإصابة» ١٣٨/١.

أخوه بُجَيْر يخبره بذلك، ويقول: النجاء، وما أظنك ناجياً، وإن رسول الله ﷺ ما جاءه أحد قط يفوه بالشهادتين إلا قبله، ولم يؤاخذه بما تقدم قبل الإسلام، قال كعب: فقدمت المدينة، فأنخت راحلتي على باب المسجد، ودخلته، ورسول الله ﷺ جالس بين أصحابه مثل موضع المائدة من القوم، وهم متحلقون حوله حلقة ثم حلقة ثم حلقة، فيقبل على هؤلاء مرة، ثم على هؤلاء، فدنوت منه، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال: «مَنْ أَنْتَ؟» قلت: كعب بن زهير، فقال: «الذي يقول ما يَقُولُ؟» ثم أقبل على أبي بكر ﷺ فاستشده الشعر إلى أن قال:

سقاك أبو بكر بكأس روية وأنهلك المأمور.....
فقال: يا رسول الله، ما قلت هكذا، قال: «فَكَيْفَ قُلْتَ؟» قال: قلت: وأنهلك المأمون بالنون، فقال رسول الله - ﷺ - : «مَأْمُونٌ وَاللَّهِ» ثم استشدني، فأنشدته: [من البسيط]

بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبولٌ.....

فلما بلغت إلى قولي:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُونٌ
فقال رسول الله - ﷺ - : «وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُونٌ»، فلما قلت:

لَا تَأْخِذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

فقال: «لا»، ثم أعطاني بردته من على كتفيه، فبعثها بعد بعشرين ألفاً^(١)، وهي التي اشتراها معاوية، فكانت عند بني أمية، ثم انتقلت إلى بني العباس.

* * *

وفيها: ألى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً.

واختلفوا في سببه على أقوال:

أحدها: حديث العسل، قالت عائشة رضوان الله عليها: كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحلوى والعسل، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه، فيدنو منهن، فدخل يوماً على

(١) الخبر في «دلائل النبوة» ٢٠٧/٥، وانظر «السيرة» ٥٠١/٢.

حفصة، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكَّةَ عسلٍ، فسقت رسول الله ﷺ منها، فقلت: والله لنحتالن له، فذكرت ذلك لسودة، وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك، فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولي: ما هذه الريح؟ وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن يوجد منه ريح، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة من عسل، فقولي له: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطُ، وسأقول له ذلك، وقولي أنت له يا صفية، فلما دخل على سودة قالت له ذلك، ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك، فلما دخل على حفصة قالت له: ألا أسقيك يا رسول الله منه؟ فقال: «لا حاجة لي فيه». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

والثاني: أن حفصة بنت عمر رضي الله عنها استأذنت رسول الله ﷺ أن تزور أباهما فأذن لها، فلما خرجت من البيت، أرسل رسول الله ﷺ - إلى مارية القبطية، فجاءت، فواقعها في بيت حفصة، وجاءت حفصة، فرأت الباب مقفلاً، فجلست تبكي عند الباب، وخرج رسول الله ﷺ - فرآها تبكي ووجهه يقطر عرقاً، فقال لها: «ما يُبكيك؟» فقالت: إنما أذنت لي حتى تدخل أمتك بيتي، وتقع عنيني في فراشي وفي يومي، ما رعيت حقي، ولا حفظت حرمتي، ما كنت تصنع هذا بامرأة من نسائك، فقال لها: «اسكُتي، فهي حرامٌ عليّ، ألتمسُ بذلك رضاك، فلا تُخبري بهذا امرأةً منهنّ، هو عندك أمانة» ولما خرج رسول الله ﷺ من عند حفصة، قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة رضوان الله عليها وقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ - قد حرم عليه أمته مارية، فقد أراحنا الله منها، وكاننا متصافيتين متظاهرتين على جميع أزواجه، وأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية [التحریم: ١ - ٢]. في العسل ومارية^(٢).

والثالث: أن رسول الله ﷺ ذبح شاة، فقسمها بين أزواجه، وبعث منها إلى زينب بنت جحش، فردته، ثم أرسل إليها، فردته، فاستشاط غضباً، فألى منهن.

وقال البخاري: حدَّثنا أحمد بن محمد المُنْزِي، حدَّثنا عمرو بن يحيى، عن جده،

(١) البخاري (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١).

(٢) الخبر عند البغوي في «تفسيره» ٣٦٣/٤.

عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى فيهما: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] حتى حج عمر، وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل، وعدلت معه بالإداوة، فتبرّز، ثم أتاني، فسكبت على يديه، فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري: كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه، قال: هما عائشة وحفصة، ثم ساق الحديث، فقال:

كنا معاشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، فغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت ذلك، فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه، وتهجره إحداهن من اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهجره إحداكن إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعلت ذلك منكن وخسرت، أفتأمن أن يغضب الله عليها الغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعيه، ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك جارتك، هي أوسم منك، وأحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك، يريد عائشة رضوان الله عليها، قال: وكان لي جار من الأنصار، قال: فكنا نتناوب النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً، ويأتيني بخبر الوحي، وآتية بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، قلت: وما ذاك؟ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون.

حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في مشربة، قال: فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو استأذن لعمر، فدخل، ثم خرج، وقال: قد ذكرت لك له فصمت، فخرجت، فجلست عند المنبر وإذا

عنده رهط يبكون، - أو يبكي بعضهم - ، فجلست قليلاً، ثم غلّبتني ما أجد، فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فدخل، ثم خرج، فقال مثل الأول، ثم فعلت ذلك الثالثة، فقال لي مثل ذلك، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، فقد أذن لك، فدخلت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه وهو متكئ على رمال حصير قد أثر في جنبه، فقلت: يا رسول الله، أطلقت نساءك؟ فرفع رأسه إلي، وقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معاشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، وذكر بمعنى ما ذكرنا، قال: فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فجلست، ورفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة^(١) ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدع الله أن يوسع عليك وعلى أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدونه، فاستوى جالساً، ثم قال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل على نسائه شهراً لأجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله عليه.

قال الزهري: فأخبرني عروة، عن عائشة قالت: لما مضت تسع وعشرون ليلة بدأ بي رسول الله ﷺ فدخل علي فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت أن لا تدخل على نساءك شهراً، أو علينا، وإنك دخلت عن تسع وعشرين، أعدهن، فقال: «إن الشهر تسع وعشرون» وفي رواية: وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة، ثم قال: «يا عائشة، إنني ذاك لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك»، ثم قرأ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣٥] فقالت: قد علم والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم قلت: يا رسول الله، لا تخبر نساءك أنني اخترتك، فقال: «إن الله أرسلني مبلغاً، ولم يرسلني متعنتاً»، وقال عمر لحفصة: والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك، واستأذن عمر

(١) في (ك) زيادة: «والأهبة هي الجلد لم يدبغ».

رسول الله ﷺ أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه، فأذن له، فقام عند المنبر، وقال: إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه، وقال له عمر: يا رسول الله، إن كنت طلقتهن فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر والمؤمنون، ونزلت آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا خَيْرًا مِّنْكَ﴾^(١) [إلى قوله: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ الآية [التحريم: ٥].

وفي الباب عن جماعة من الصحابة، ولمسلم عن جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ صباح تسعاً وعشرين فقلنا له في ذلك، فقال: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا» ثم طبق رسول الله بيده ثلاثاً ثم خنس إبهامه في الثالثة^(٢)، وكذا في حديث ابن عمر أنه خنس إبهامه^(٣).

وفي المتفق عليه عن عائشة: لما خيرها رسول الله ﷺ قالت: قد خيرنا رسول الله، فاخترناه، أفكان طلاقاً^(٤).

[فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا خَيْرًا مِّنْكَ﴾^(٥) يشعر بأن غيرهن خيراً منهن، قلنا: هذا خرج مخرج التهديد، لا أن في الأمة من هو خير منهن، والدليل عليه أن الله قد علم أنه لا يطلقهن، وصار كقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٨] فكان إخباراً عن القدرة لا عن الكون في الوقت.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم أنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢] إذا حلفتم أن تكفروها، وكفر رسول الله - ﷺ - عن يمينه، ورجع إلى جاريته، وإلى ما حلف عليه.



وفيها: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضوان الله عليه فحج بالناس.

كان رسول الله ﷺ قبل أن تنزل براءة، قد عاهد أناساً من المشركين عهداً،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٨١) (١٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٣)، ومسلم (١٤٧٧)، وما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٥) ما بين معقوفين من (ك).

فاستعمل على الحج أبا بكر رضوان الله عليه، فخرج من المدينة في ثلاث مئة، ومعه عشرون بدنة قلدها رسول الله ﷺ النعال، وأشعرها بيده في الجانب الأيمن، واستعمل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وساق أبو بكر خمس بدنات، وحج عامئذ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فأهدى بدناً، وأهل أبو بكر رضوان الله عليه من ذي الحليفة، وسار حتى إذا كان بالعرج في السحر سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فقال: هذه القصواء، وإذا بعلي كرم الله وجهه فقال له: استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ على الناس براءة، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقد كان رسول الله ﷺ عهد إلى أبي بكر رضوان الله عليه أن يخالف المشركين، فيقف يوم عرفة بعرفة، ولا يقف بجمع، ولا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس، ويدفع من جمع قبل طلوع الشمس، فقدم أبو بكر رضوان الله عليه مكة، وكان مفرداً بالحج، فخطب الناس قبل يوم التروية بيوم بعد الظهر، فلما كان يوم التروية حين زاغت الشمس طاف بالبيت سبعاً، ثم ركب راحلته من باب بني شيبه، وخرج إلى منى، فأقام بها، وصلى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والصبح بمنى، فلما طلعت الشمس على ثبير، ركب راحلته، فوقف بالهضبات من عرفة، فلما أفطر الصائم دفع، وكان يسير العنق حتى انتهى إلى جمع، فنزل قريباً من الماء التي على قزح، فلما طلع الفجر صلى الفجر، ثم وقف، فلما أسفر دفع، وجعل يقول في وقته: أيها الناس، أسفروا، قالها مرتين، ثم دفع قبل طلوع الشمس، وكان يسير العنق، حتى انتهى إلى محسر، فأوضع راحلته، فلما جاوز وادي محسر عاد إلى مسيره الأول، حتى رمى الجمرة راكباً بسبع حصيات، ثم رجع إلى المنحر، فنحر وحلق، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم النحر براءة عند الجمرة، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقال: إن رسول الله - ﷺ - يقول: «لا يحج بعد هذا اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»، وكان أبو هريرة يقول: حضرت ذلك اليوم، فكان يقول: هو يوم الحج الأكبر، وخطب أبو بكر رضوان الله عليه في حجته ثلاث خطب في ثلاثة أيام لم يزد عليها، قبل يوم التروية بمكة بعد الظهر، وبعرفة قبل الظهر، وبمنى يوم النحر بعد الظهر، ورمى أبو بكر رضوان الله عليه الجمار ماشياً، فلما كان يوم الصدر رمى ماشياً، فلما جاوز العقبة ركب، ويقال: إنه رمى يومئذ راكباً، فلما انتهى إلى الأبطح صلى به الظهر والعصر، ودخل مكة، فصلى المغرب

والعشاء، ثم خرج من ليلته قافلاً إلى المدينة^(١).



وفيها: توفي النجاشي^(٢) - واسمه أضحمة - ملك الحبشة، الذي هاجر إليه المسلمون فأحسن إليهم، وزوج رسول الله ﷺ أمّ حبيبة رضي الله عنها وجهازاً إليه جعفرًا، وكانت وفاته في رجب.

[قال هشام: ورسول الله ﷺ بتبوك فنعاها إلى أصحابه، وصلى عليه لما عاد من تبوك وبلغه خبره].

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مالك، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: نعى لنا النبي ﷺ النجاشي في اليوم الذي مات فيه؛ فخرج إلى المصلّى، فصفت أصحابه خلفه، وكبر عليه أربعاً^(٣).

[وفي الباب عن جابر وعمران بن الحصين، وأحاديثهم في «الصحیح» وفيها: «إنّ أخاً لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه»^(٤)، وهذا يدل على أن النجاشي مات ورسول الله بالمدينة.

وبهذه الأحاديث يحتج الشافعي وأحمد على جواز الصلاة على الميت الغائب، وعند أبي حنيفة ومالك: لا يجوز، وهذا الخلاف بيني على أن صلاة الجنازة عند أبي حنيفة لا تعاد، لأن الأمة توارثت (ترك الصلاة على رسول الله ﷺ والخلفاء والصحابة، ولو جاز لما ترك مسلم الصلاة عليهم)^(٥) والشافعي يقول بتكرار الصلاة كما في الصلاة على النجاشي، وجوابه من وجوه:

أحدها: لأن النبي ﷺ كان وليه، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

(١) النقل عن «المغازي» ٣/١٠٧٦ - ١٠٧٨.

(٢) «تاريخ الطبري» ٣/١٢٢، و«المنتظم» ٣/٣٧٥.

(٣) أحمد في «مسنده» (٩٦٤٦)، وأخرجه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٧٧)، ومسلم (٩٥٢) (٦٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٩٥٣) من

حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

(٥) ما بين قوسين زيادة من بدائع الصنائع ١/٣١١.

والثاني: لأن الأرض زويت له، ولهذا صف أصحابه خلفه، فكان من معجزاته.

والثالث: لأنه لم يكن في الحبشة من يعرف الصلاة عليه، لأنهم كانوا حديثي الإسلام، فكان ذلك من خصائصه.

وقد أخرج أبو داود^(١) عن عائشة رضي الله عنها لما مات النجاشي كانوا يتحدثون أنهم لا يزالون يرون النور على قبره^(٢).

[وقد أخرج أحمد في «المسند» حديثاً يتعلق بالنجاشي، فقال: حدثنا ابن النضر بإسناده عن عامر بن شهر قال: سمعت كلمتين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «انظروا قريشاً فخذوا من قولهم وذروا فعلهم» وكنت عند النجاشي جالساً فجاء ابنه بشيء من الكتاب، فقرأ آية من الإنجيل فعرفتها أو فهمتها، فضحكت، فقال: مم تضحك؟ أمن كتاب الله؟ فوالله إن مما أنزل على عيسى بن مريم أن اللعنة تكون في الأرض إذا كان أمراؤها الصبيان^(٣).

ولم يخرج أحمد عن عامر بن شهر غير هذا الحديث].

وفيهما توفيت

أم كلثوم^(٤) رضي الله عنها

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم [وأما خديجة، وقد ذكرنا أنه قد] كان تزوجها في الجاهلية عتبة بن أبي لهب، ثم طلقها لما نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [أمره أبوه بطلاقها] ولم يكن دخل بها، وهي بكر.

[قال جدي في «التلقيح»]: فأقامت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، وأسلمت، وبايعت، [ولما أسلمت أمها وأخواتها] وهاجرت إلى المدينة، فلما توفيت رقية سلام الله عليها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم، فتوفيت

(١) ما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٢٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٣٦). وما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٤) «الطبقات» ٣٧/١٠، و«المنتظم» ٣٧٥/٣، و«الإصابة» ٤٨٩/٤.

في شعبان من هذه السنة، فصلى عليها رسول الله ﷺ، ونزل في حفرتها علي، والفضل، وأسامة رضي الله عنهما (١).

وجلس رسول الله ﷺ على قبرها، وقال: «لو كان لنا ثلاثة لزوّجناها عثمان» (٢)، ولم تلد من عثمان رضوان الله عليه. وغسلتها أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب، وقيل: غسلتها نساء من الأنصار، منهم أم عطية، ونزل أبو طلحة في قبرها.

[وذكر ابن سعد بإسناده عن أنس: رأيت رسول الله ﷺ جالساً على قبر أم كلثوم وعيناه تدمعان، فقال رسول الله ﷺ: «أفيكم أحد لم يقارف الليلة» فقال أبو طلحة: أنا، فقال: «انزل في قبرها» فنزل (٣).] ومعنى قارف: أي جامع، ومنه حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يصبح جنباً من قرافٍ غير احتلامٍ، ثم يصوم (٤).

قلت: وفي الصحاحيات أربع يقال لكل واحدة منهن: أم كلثوم، وإحداهن: ابنة رسول الله، لها رواية.

والثانية: بنت أبي سلمة. والثالثة: بنت أبي بكر الصديق. قال ابن سعد: ولم ترو عن رسول الله شيئاً. والرابعة: بنت عقبة بن أبي معيط، وروت منهن اثنتان الحديث عن رسول الله ﷺ: بنت أبي سلمة، وبنت أبي معيط، وأخرج عن هذه في «الصحاحين» (٥).

والكلثوم: الكثيرة لحم الخدين والوجه، هكذا ذكره الجوهري (٦).



(١) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣١ - ٣٢.

(٢) «الطبقات» ٥٣/٣، وأخرجه الطبراني في «الكبير» ١٧/٤٩٠ من حديث عصمة بن مالك. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨٣/٩: وفيه الفضل بن المختار، وهو ضعيف.

(٣) «الطبقات» ٣٨/١٠.

(٤) أخرجه أبو عبيد في «الغريب» ٣٢٣/٤.

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً...».

(٦) «الصحاح»: (كلثم). وما بين معقوفين زيادة من (ك).

سهيل بن بيضاء^(١)

وبيضاء لقب أمه، واسمها دعد بنت جحدم من بني فهر، وأبوه وهب بن ربيعة بن هلال من بني فهر، وكنية سهيل: أبو موسى، وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، هاجر الهجرتين إلى الحبشة، وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي مرجعه من تبوك، وصلى عليه رسول الله ﷺ في المسجد.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما أسرع ما نسي الناس، وهل صلى رسول الله ﷺ على سهيل ابن بيضاء إلا في المسجد؟ أخرج مسلم^(٢).

وإنما قالت ذلك لما أنكر الناس عليها الصلاة على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - في المسجد.

وتوفي سهيل رضي الله عنه وهو ابن أربعين سنة، وليس له عقب، وكان له أخوان: سهل، أسلم قبل الهجرة بمكة، فأكرهه المشركون على الخروج إلى بدر، فأسر، فشهد له ابن مسعود أنه رآه يصلي بمكة، فأطلقه رسول الله ﷺ بغير فدية. وصفوان بن بيضاء، أسلم وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وكنيته أبو عمرو، واختلفوا في وفاته، فقيل: استشهد يوم بدر، قتله طعيمة بن عدي بن الريان، وقيل: مات سنة ثمان [وثلاثين]^(٣)، وليس له عقب.

روى سهيل عن رسول الله ﷺ الحديث. قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدثنا قتيبة بن سعيد، أنبأنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن سعيد بن الصلت، عن سهيل بن البيضاء قال: بينا نحن في سفر مع رسول الله ﷺ وأنا رديفه، فقال رسول الله ﷺ: «يا سهيل» رفع صوته مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يجيبه سهيل، فسمع الناس صوت رسول الله ﷺ فظنوا أنه يريدهم، فحبس من كان بين يديه، ولحقه من كان خلفه، حتى إذا اجتمعوا، قال رسول الله ﷺ: «إنه من شهد أن لا إله إلا الله، حرّمه الله على النار، وأدخله الجنة»^(٤).

(١) «الطبقات» ٣/ ٣٨٤، و«المنتظم» ٣/ ٣٧٦، «الإصابة» ٢/ ٩١. وهذه الترجمة ليست في (ك).

(٢) أخرج مسلم (٩٧٣).

(٣) زيادة من «الطبقات» ٣/ ٣٨٥.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٥٧٣٨).

ويقال: إن ذلك كان في غزاة تبوك.

[وفيها: توفي]

عبد الله بن أبي

[ابن سلول المنافق^(١)]، وأبي هو ابن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم، ويعرف سالم بالحُبَلَى، وسلول امرأة من خزاعة وهي أم أبي بن مالك، وأم عبد الله بن أبي خولة بنت المنذر بن حرام^(٢)، من بني النجار، وعبد الله سيد الخزرج في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد جمعوا له الخرز ليتوجوه، حسد عبد الله بن أبي بن مالك^(٣) رسول الله ﷺ، وبغى عليه، وناق، فاتضع شرفه.

[وقد ذكره الواقدي في «المغازي» فقال:] ومرض في ليالي من شوال، ومات في ذي القعدة، فكان مرضه عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ يعود فيه، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال له رسول الله ﷺ: «قد نهيتك عن حب يهود» فقال عبد الله: قد أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه، ثم قال ابن أبي: يا رسول الله، ليس بحين عتاب، هو الموت، إن مت فاحضر غسلي، وأعطني قميصك أكفن فيه، فأعطاه قميصه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال: أريد الذي يلي جلدك، [فتزع قميصه الذي يلي جلده] فأعطاه، ثم قال: صل علي، واستغفر لي.

[قال الواقدي: وكان جابر بن عبد الله يقول خلاف هذا، يقول: جاء رسول الله ﷺ بعد موت ابن أبي إلى قبره فأمر به فأخرج، فكشف عن وجهه ونفث عليه من ريقه، وأسنده إلى ركبتيه وألبسه قميصه.

قال الواقدي: والأول أثبت عندنا أن رسول الله ﷺ حضر [جنازته و] غسله، وتكفينه، ثم حمل إلى موضع الجنائز، فتقدم رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فوثب عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا، يعدُّ عليه، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخر عني يا عمر» فلما

(١) ما بين معقوفين زيادة من (ك)، وانظر جمهرة ابن حزم ٣٥٤، والمنظم ٣/٣٧٧، وطبقات ابن سعد ٥٠٠/٣.

(٢) في طبقات ابن سعد ٣/٥٠١ أن خولة أم عبد الله بن عبد الله، فهي زوجة عبد الله بن أبي.

(٣) في (ك): عبد الله بن أبي سلول.

أكثر عليه قال رسول الله ﷺ: «إني قد خيَّرت، فاخترت، ولو أعلم أنني إذا زدتُ على السبعين غُفر له زدتُ عليها» وهو قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] فصلى عليه رسول الله ﷺ وانصرف، فلم يكن إلا يسيراً حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية [التوبة: ٨٤].

[ويقال: إنه لم تنزل قدماءه حتى نزلت عليه هذه الآية فعرف رسول الله في هذه الآية المنافقين، وكان من مات لم يصل عليه].

وقال مجمع بن جارية: ما رأيت النبي - ﷺ - أطال الوقوف على جنازة مثل ما أطال على جنازة عبد الله. وقال أنس: شهدت رجله وقد فضلنا السرير من طوله.

وقالت أم عمارة: ما تخلف أحد من الأوس والخزرج عن جنازته، ورأيت ابنته جميلة بنت عبد الله تقول: واجبلاه، وأبتاه، ما ينهاها أحد، ولا يعيب عليها.

وقال عمرو بن أمية الضمري: لقد جهدنا أن ندنو من جنازته أو سريره، فما قدرنا عليه، غلبنا عليه المنافقون من بني قينقاع وغيرهم سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، وسلامة بن الحمام، ومعاذ بن أبي عمرو^(١)، ورافع بن حرملة، وداعس، وسويد، وكانوا يظهرون الإسلام وهم أخابث المنافقين، وكانوا هم الذين يمرضونه، وكان ابنه عبد الله بن عبد الله ليس عليه شيء أثقل ولا أعظم من رؤيتهم، وكان به بطن، فكان ابنه يغلق الباب دونهم، وكان أبوه يقول: لا يليني غيرهم، ويقول لهم: أنتم أحب إلي من الماء على الظمأ، ويقولون: يا ليت أنا نفديك بالأرواح والأولاد والأموال، فلما وقفوا على حفرتة، [ورسول الله واقف يلاحظهم ازدحموا على النزول في حفرتة] وارتفعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس، وجعل عبادة بن الصامت يذبهم، ويقول لهم: اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ﷺ فنزل في حفرتة رجال من قومه أهل فضل وإسلام، ولم ينزل أحد من المنافقين، فنزل ابنه^(٢) وسعد بن عبادة، وعبادة بن الصامت، وأوس بن خولي لما رأوا رسول الله ﷺ قد حضره، وكفنه، ووقف عليه.

(١) في «المغازي»: «نعمان بن أبي عامر».

(٢) في النسخ: «أبوه» والمثبت من المغازي.

وزعم مجمع [بن جارية] أن النبي ﷺ دلاه بيده إلى حفرتة، ثم قام على القبر حتى دفن، وعزى ابنه، ثم انصرف، وجعل المنافقون يحثون التراب على رؤوسهم، ويقولون: ليت أنا فديناك بالأنفس وكنا قبلك^(١). [هذا معنى ما ذكر الواقدي .

وقال هشام: مرض عبد الله أول شوال، وأقام مريضاً إلى العشرين منه، ثم بعث إلى رسول الله، فجاء فجلس عنده، فقال: «يا عبد الله أهلكك حب اليهود» فقال: يا رسول الله، إني لم أبعث إليك لتؤنّبني وتوبخني، ولكن لتشهدني وتكفني في قميصك وتستغفر لي وتقف على قبري، ومات في هذا اليوم، وعاد رسول الله إلى منزله، ولما مات انطلق ابنه عبد الله بن عبد الله - وكان اسمه الحُباب، فسماه رسول الله: عبد الله، فقال: «أنت عبد الله، والحباب شيطان» وكان قد أسلم وحسن إسلامه، وشهد بدمراً مع رسول الله مسلماً، وكان يصعب عليه صحبة أبيه للمنافقين، وهو الذي جلس على باب المدينة ومنع أباه في غزوة المريسيع من دخولها، وقد ذكرناه - فقال: يا رسول الله، مات عبد الله، فقام رسول الله معه وشهد جنازة عبد الله وفعل ما ذكره الواقدي، وما كان إلا اليسير حتى نزلت هاتان الآيتان اللتان هما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٨٤] فما صلى على قبر منافق ولا قام عليه حتى قبضه الله تعالى. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وفيهما توفي

ذو البجادين

- بدال مهملة - واسمه [عبد الله بن عبد نُهم بن عفيف المزني، وأمه جَهْمَة بنت الحارث، همدانية، وهو من الطبقة الثانية من المهاجرين، [قال ابن سعد:] وكان يتيماً لا مال له، مات أبوه ولم يورثه شيئاً، فكفله عمه حتى أيسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ولا يقدر عليه خوفاً من عمه، حتى مضت المشاهد كلها، فقال له: يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمداً، فأذن لي في الإسلام، فقال له: والله لئن أسلمت لا تركت في يدك شيئاً كنت أعطيتك إلاً نزعته منك

(١) «المغازي» ٣/ ١٠٥٧ - ١٠٦٠، وما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٦)، ومسلم (٢٧٧٤). وما بين معقوفين زيادة من (ك).

حتى ثوبيك، فقال: أنا والله تابع محمداً ﷺ، وتارك عبادة الحجر، وهذا ما بيدي فخذ، فأخذ ما بيده حتى جرّده من إزاره، فأتى أمه، فقطعت له بجادها قطعتين، فاتزر بواحدة، وارتدى بالأخرى [والبجاد كساء مخطط من أكسية الأعراب].

ثم قدم المدينة، وكان قد أقام بورقان جبل من جبالها، فدخل المسجد، فاضطجع فيه، وكان رسول الله ﷺ يتصفح وجوه الناس إذا انصرف من صلاة الصبح، فلما نظر إليه أنكره، فقال: «من أنت؟» فانتسب له، وكان اسمه عبد العزى، فقال: «أنت عبدُ الله ذو البجادين»، ثم أنزله قريباً منه، فكان في ضيافته، وعلمه القرآن حتى قرأ قرآناً كثيراً، وكان صيتاً يرفع صوته بالقرآن، فقال عمر رضوان الله عليه: يا رسول الله، ألا ترى إلى هذا الأعرابي قد منع الناس القراءة، فقال: «دعه يا عمر، فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله»، ثم خرجوا إلى تبوك، فقال: يا رسول الله، ادع لي بالشهادة، فقال: «أبغني لحاء سُمرة» فربطها في عضده، وقال: «اللهم إني أحرّم دمه على الكفار» فقال: يا رسول الله، ليس هذا أردت، فقال: «إنك إذا أخذت الحمى كنت شهيداً وإن وقصتك دابتك فأنت شهيد»، وأقام رسول الله ﷺ بتبوك أياماً، فتوفي ذو البجادين بها.

قال بلال بن الحارث: حضرت مع رسول الله ﷺ ومع بلال شعلة من نار عند القبر واقفاً بها، وإذا رسول الله ﷺ في القبر وأبو بكر وعمر رضوان الله عليهما يدلّيانه على رسول الله ﷺ وهو يقول: «دلياً إلي أخاكما» فلما هياه^(١) لشقه في اللحد قال: «اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه» فقال ابن مسعود: ليتني كنت صاحب الحفرة، ولقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة، وترك ابنة ففضى بها رسول الله ﷺ لأماها.

[وفيها توفي]

معاوية بن معاوية

الليثي، وقيل: المزني، من الطبقة الثالثة من المهاجرين، قال [ابن سعد بإسناده عن العلاء أبي محمد الثقفي قال: سمعت] أنس بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ -

(١) في (أ، خ): أنهياه، والمثبت من (ك)، و«الطبقات» ١٣٨/٥، وانظر «المنتظم» ٣٧٦/٣، و«الإصابة»

بتبوك إذ طلعت الشمس بيضاء مضيئة لا شعاع لها ولا نور، لم ير فيما طلعت لذلك، فسأل جبريل عن ذلك، فقال: مات اليوم بالمدينة معاوية بن معاوية الليثي، فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه، قال: «وفيم ذلك؟» قال: كان يكثر قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الليل والنهار، وفي ممشاه، وقيامه وقعوده، ويحبها، فهل لك يا محمد أن أقبض لك الأرض حتى تصلي عليه؟ قال: «نعم» فقبضها، فصلى عليه^(١).

[وليس في الصحابة من اسمه معاوية بن معاوية غيره، وله صحبة ورواية، وأخرج له أحمد حديثاً واحداً، فقال: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي بإسناده إلى [معاوية بن معاوية: قال رسول الله ﷺ: «يكونُ الناسُ مُجَدِّبِينَ فَيَنْزِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ رِزْقاً مِنْ رِزْقِهِ، فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ» فقليل له: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ فقال: «يَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا»^(٢).



(١) طبقات ابن سعد ٥ / ١٣٠.

(٢) أحمد في «مسنده» (١٥٥٣٧).

السنة العاشرة من الهجرة

وفيها: تتابعت الوفود على رسول الله ﷺ وتسمى سنة الوفود، قدم عليه فيها سبعون وفداً، فنذكر أعيانهم:

وفد الأزد: قدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبد الله الأزدي في وفد من الأزد، فأسلم، وحسن إسلامه، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فخرج صرد، فنزل جرش، وهي يومئذ مدينة مغلقة، وبها قبائل من اليمن، وقد ضوت إليهم خثعم، فحاصروهم قريباً من شهر، وامتنعوا عليه، فرجع عنهم قافلاً، فنزل بجبل لهم يقال له: كشر، فظن أهل جرش أنه إنما ولي عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه، فأدركوه، فعطف عليهم، فقاتل قتالاً شديداً، وكانوا قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ بعد العصر، قال النبي ﷺ: «بأي بلاد كشر؟» فقال الجرشيان: هو جبل ببلادنا، فقال: «ليس بكشر، ولكنه شكر» قالا: فما له يا رسول الله؟ قال: «إن بदन الله لتنحر عنده الآن» فقاما من عند رسول الله ﷺ فجلسا إلى أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فقال لهما: ويحكما، إن رسول الله ﷺ ينعي لكما قومكما، فسلاه أن يدعوا لكما فيرفع عن قومكما، فقاما إليه، فسألاه، فقال: «اللهم ارفع عنهم» فرجعا إلى قومهما، فوجدوا صرد بن عبد الله قد أصاب قومهما في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال في الساعة التي ذكر فيها ما ذكر^(١).

ثم قدم وفد الأزد على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس والراحلة والميرة^(٢).

وفد هلال بن عامر، وكان فيهم زياد بن عبد الله العامري، فنزل على ميمونة رضي الله عنها

(١) «السيرة» ٥٨٧/٢، و«تاريخ الطبري» ١٣٠/٣، والطبقات ٢٩١/١.

(٢) «الطبقات» ٢٩١/١ - ٢٩٢.

وكان ابن أختها، وهو يومئذ شاب، فدخل رسول الله ﷺ فرآه عندها، فغضب، ورجع، فنادته: يا رسول الله إنه ابن أختي، فرجع، وأكرمه، وصلى بعد الظهر والعصر، ومسح على رأسه وبعض وجهه، فكانت بنو هلال بن عامر يقولون: ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد، وكان لزياد ابن اسمه علي، فقال فيه الشاعر^(١): [من الكامل]

يا بن الذي مسح الرسول بوجهه ودعاه بالخير عند المسجد
أعني زياداً لا أريد سواه من متيمن أو غائر أو منجد
ما زال ذاك النور في عرنيته حتى تبوأ بيته في ملحد

وفد الرهاويين، وكانوا خمسة عشر رجلاً، فأنزلهم رسول الله ﷺ دار رملة بنت الحارث، وجاءهم، فأسلموا، وأهدوا له هدية فيها فرس يقال له: المرواح، فأعجبه، وأجازهم، وكتب لهم بمئة وسق من خبير، وعقد لهم لواءً، فلم يزل عند عمرو بن سبيع الرهاوي، وكان عليهم حتى قاتل يوم صفين مع معاوية، وقال عمرو في طريقه إلى رسول الله ﷺ هذه الأبيات^(٢):

إليك رسول الله أعملت نصّها تجوز الفيافي سملقاً بعد سملق
على ذات ألواح أكلفها السرى تخب برحلي مرة ثم تُعنق
فما لك عندي راحة أو تلجلجي بباب النبي الهاشمي الموفق

وفد بني عامر بن صعصعة، وكان فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وخالد بن روم^(٣)، وجبار بن سلمى بن مالك، وهؤلاء النفر رؤساء القوم وشياطينهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال له عامر بن الطفيل: يا محمد، ما لي إن أسلمت؟ قال رسول الله ﷺ: «لَكَ ما للمسلمين، وعليك ما عليهم»، قال: لا، إلا أن تجعل لي الأمر بعدك، فقال: «ليس ذاك لك ولا لقومك» قال: فتجعل لي الوبر، ولك المدر، قال: لا،

(١) «الطبقات» ١/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) «الطبقات» ١/ ٢٩٧.

(٣) كذا، وفي السيرة ٢/ ٥٦٨، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٦٨: فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر، وفي الطبري ٣/ ١٤٤: وأربد بن قيس بن مالك بن جعفر.

ولكن أجعلُ لك أعنة الخيلِ» فقال: أوليست لي؟ ثم قال: يا محمد، والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً، ولأربطن بكل نخلة فرساً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامراً وأربداً، واهد بني عامر، واهد للإسلام عامراً، وأغن الإسلام عن عامر»، ثم انصرفوا إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فاندلع لسانه في فيه كضرع الشاة، فمال إلى بيت امرأة من سلول، وجعل يقول: غدة كغدة البعير، والموت في بيت سلولية، ثم مات، وكان من فرسان العرب، فواراه أصحابه، وجعلوا على قبره أنصاباً ميلاً في ميل، وجعلوه حمىً، ولما رجعوا إلى قومهم، قالوا: ما وراءك يا أربد؟ فقال: لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي فأرميه بنبلي هذه حتى أقتله، فخرج بعد مقاتله بيوم أو يومين ومعه جمل، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما، وذلك ببركة رسول الله ﷺ وكان أربد أخو ليبد بن ربيعة لأمه. وقال رسول الله ﷺ: «لو أسلمت عامرٌ لزاخمت بنو عامرٍ قريشاً في برّها».

وفد كندة، ورئيسهم الأشعث بن قيس، قدم على رسول الله ﷺ في ثمانين راكباً أو ستين من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده، وقد رجّلوا جُممهم، وكحلوا عيونهم، ولبسوا جباب الحبرات مكفوفةً بالحرير، فقال رسول الله ﷺ: «أولم تُسلموا؟» قالوا: بلى، فقال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» فنزعوه، فقال الأشعث: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «نحن بنو النضر بن كنانة لا ننتفي من أينا، ولا نَقْفُوا أُمَّنا، ولكن انسبوا هذا النسب للعباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث، كانا تاجرين، فكانا إذا سارا في الأرض سئلا: من أنتما؟ فقالا: نحن بنو آكل المرار، فيدفعون بتلك عن أنفسهم، لأن من آكل المرار من كندة كانوا ملوكاً»، فقال الأشعث عند ذلك: أفرغتم يا معاشر كندة؟ لا أسمع رجلاً يقولها بعد اليوم إلا ضربته ثمانين، ثم انصرفوا راجعين^(١).

(١) «السيرة» ٥٨٥/٢.

وقال هشام: دخلوا على رسول الله ﷺ وعليهم الدِّياج المخصوص باللؤلؤ والذهب، فأنزلهم دار رملة بنت الحارث وأكرمهم.

وفد زيد، ورأسهم عمرو بن معدي كرب، وقد كان لقيس بن المكشوح المرادي: يا قيس، إنك سيد قومك اليوم، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش قد ظهر بالحجاز يقال له: محمد، يقول: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يزعم، فلن يخفى علينا إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس، فركب عمرو في جماعة من قومه، وقدم على رسول الله ﷺ فأسلم، وصدقه، وبلغ قيساً، فتوعده، وقال: خالفني^(١)؟ وقيل: إن عمراً لم يأت رسول الله ﷺ.

وحكى ابن سعد قال: قدم عمرو بن معدي كرب المدينة في عشرة نفر من زيد، فقال: من سيد هذه البحيرة؟ قالوا: سعد بن عبادة، فأناخ راحلته على بابه، فخرج سعد إليه، فرحب به، وأكرمه، وأنزله، وراح به إلى رسول الله ﷺ هو ومن معه، وأقاموا أياماً، فأجازهم رسول الله ﷺ ما يجيز به الوفد، وانصرفوا إلى بلادهم، فلما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو، ثم أسلم، وحسن إسلامه، وأبلى يوم القادسية بلاءً حسناً^(٢).

وفد عبد القيس: عن ابن عباس: أن وفد عبد القيس لما وفدوا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، وقال: «أتدرون ما الإيمان بالله؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم» أخرجاه في «الصححين»^(٣) مختصراً. وكان فيهم الجارود، وكان نصرانياً فأسلم، وأسلم أصحابه.

وفد بني حنيفة [قال ابن إسحاق: قدم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ]، وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، [فأنزلهم في دار امرأة من الأنصار من بني النجار] فأتوا به إلى رسول الله ﷺ يسترونه بالثياب، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، وفي يده

(١) «السيرة» ٥٨٣/٢.

(٢) «الطبقات» ٢٨٣/١.

(٣) أخرج البخاري (٨٧)، ومسلم (١٧).

عسيب من سعف النخل، فكلم رسول الله ﷺ وسأله، فقال: «لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك». فلما قدموا اليمامة ارتدّ، وتنبأ، وكذب، وقال: إني قد أشركت معه في الأمر، وجعل يسجع لهم الأسجاع [فيقول] مضاهاة للقرآن: [قد أنعم الله على الحُبلى، إذ أخرج نسمة تسعى من بين شراسيف وحشا] ووضع عنهم الصلاة، وأباح لهم الزنا والخمر، وهو يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، فأصفقت معه حنيفة على ذلك^(١).

وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني قد أشركت معك في الأمر، ولكن قريش قوم يعتدون، وبعث به مع ابن النواحة وثمانة بن أثال الحنفي [وفي رواية: لنا نصف الأرض ولكم نصف الأرض]، فقال رسول الله ﷺ لرسوليه: «وأنتما تقولان مثل هذا؟» قالا: نعم، فقال: «أما والله لولا أن الرُّسل لا تُقتل لقتلتكما» ثم كتب إليه: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أمّا بعد: فإنّ الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

[قال ابن إسحاق: وكان ذلك في آخر سنة عشر^(٢)].

قال: قال الحسن: كان ثمانية بن أثال الحنفي رسول مسيلمة إلى رسول الله [فدعا الله أن يمكنه منه] قال ابن إسحاق: فحدثني سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: كان إسلام ثمانية بن أثال الحنفي أنه [دخل المدينة، وقد اعتمر يريد مكة [وهو مشرك] فيتجر بها، فأخذ فأتي به رسول الله ﷺ فأمر به فربط إلى عمود في المسجد، [وكان قد عرض لرسول الله يريد قتله، فلما رُبط مرّ عليه رسول الله ﷺ فقال: مالك يا ثمام؟ هل أمكن الله منك؟ فقال: قد كان ذلك يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، وإن تسأل مالا تُعطه، فمضى رسول الله وتركه].

فلما كان من الغد مرّ به وقال له مثل ما قال في اليوم الأول، وأجابه بمثل ذلك،

(١) «السيرة» ٥٧٦/٢ - ٥٧٧.

(٢) «السيرة» ٦٠٠/٢ - ٦٠١.

فعل ذلك ثلاثة أيام، ثم قال: أطلقوه فقد عفوت عنه، أو قد عفوت عنك يا ثمام، فقام واغتسل وأسلم ثم قال: يا رسول الله، إني خرجت معتمراً وأريد أن أتمم عمرتي، فعلمه رسول الله.

فخرج فقدم مكة، وسمعتة قريش يتكلم بأمر رسول الله، فقالوا: صبا ثمامة، فقال: ما صبأت ولكني أسلمت. وايم الله لا يأتيكم حبة من اليمامة ما بقيت - وكانت ريف مكة -.

ثم انصرف إلى اليمامة، ومنع الحمل منها حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى النبي ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة كتاباً يسأله أن يخلي لهم الطعام، ففعل رسول الله ﷺ^(١).

قال هشام: كان مسيلمة بن حبيب الكذاب صاحب مخرقة و نارنجيات، وهو أول من أدخل البيضة في القارورة، وأوصل الجناح المقصوص من الطائر ونحوه، وسنذكره في سنة ثلاث عشرة.

وأما ابن النواحة فإنه أمكن الله منه لابن مسعود رضي عنه فيما بعد، فقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنك رسول لقتلتك» فأما اليوم فلست برسول، قم يا خرشة فاضرب عنقه، فقام إليه، فضرب عنقه^(٢).

وفد طييء، قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم زيد بن مهلهل بن يزيد بن منهب^(٣) الطائي، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وقال رسول الله ﷺ: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضلي، ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يُقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه» ثم سماه: زيد الخير، وقطع له أراضي من قيد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يسلم زيد من حمى المدينة يظل عمره» فمرض، فلما وصل إلى ماء من مياههم، يقال له: الفردة أخذته الحمى، فقال حين أحس بالموت: [من الطويل]

(١) «السيرة» ٦٣٨/٢ - ٦٣٩ وما بين معكوفين من (ك)، وجاء بدله في (أ، خ): ثم عفى عنه وأطلقه فأسلم.

(٢) «تلقيح فهم أهل الأثر» ص ٤٨١، وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٣٣٣/٥.

(٣) في (أ، خ): زياد بن مهلهل بن زيد بن مهذب، والمثبت من طبقات ابن سعد ٢١٢/٦، والأغاني ٢٤٥/١٧، وتاريخ دمشق ٦/٦٧٥ (مخطوط)، وهذا الخبر ليس في (ك).

أمام لقد جُنِبْتُ بيتك غدوة وأنزلُ في بيت بفردة منجد^(١)
 ألا ربَّ يومٍ لو مرضتُ لعادني عوائدُ من لم يبرَ منهن يجهد
 فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان منه من كتاب القطائع التي أقطعه إياها رسول الله
 ﷺ فحرقتها بالنار^(٢).

وكان فارساً، مغواراً، شجاعاً، شاعراً، مخضرمًا يقول الشعر في غاراته
 ومفاخراته، وسمي بزید الخيل لكثرة خيله: الهطال، والكميت، والورد، والكامل،
 ودؤول، ولاحق، ولم يكن لأحد من العرب سوى فرس أو فرسين^(٣).

وكان إذا ركب الفرس المشرف تخط رجلاه الأرض، وكان جميلاً، ولما ورد على
 رسول الله ﷺ طرح له متكاً، فأبى أن يتكئ بين يدي رسول الله ﷺ إجلالاً له، وكان من
 قوله لرسول الله ﷺ: الحمد لله الذي أيدنا بك، وعصم لنا ديننا، فما رأيت أحسن مما
 تدعوننا إليه، وقد كنت أعجب لعقولنا واتباعنا حجراً نعبده يسقط منا فنظل نطلبه^(٤).

قال محمد بن السائب الكلبي: خرج رجل من بني نبهان من الحرة، وترك بها
 أهله، وقال: والله لا أرجع إليكم حتى أكسب خيراً، أو أموت، فلم يزل يقطع
 الفيافي حتى انتهى إلى حي زيد الخيل، فإذا بخباء عظيم فيه قبة من آدم، وفي القبة
 شيخ كبير كأنه نسر، قال: فلما وجبت الشمس جلست خلفه فإذا بفارس قد أقبل لم
 أر فارساً أعظم منه ولا أجسم على فرس مشرف، ومعه أسودان يمشيان إلى جنبيه،
 ومئة من الإبل مع فحلها، فبرك الفحل، وبركن حوله، فنزل، وقال لأحد عبديه:
 احلب فلانة، وأشار إلى ناقة، فحلبها في عُسٍّ، ووضعها بين يدي الشيخ، وتنحى
 عنه، فكرع الشيخ منه مرة أو مرتين، ثم نزع، ومددت يدي فشربته، فجاء العبد،
 فأخذ العُس، وقال: يا مولاي، قد أتى على آخره، ففرح، وقال: احلب ثانياً،

(١) رواية «السيرة»، والطبري ٣/١٤٥: أمرتخل قومي المشارق غدوة.... والمثبت موافق لما في تاريخ دمشق
 ٦٧٧/٦.

(٢) «السيرة» ٢/٥٧٧-٥٧٨، و«الطبقات» ١/٢٧٧.

(٣) انظر «الأغاني» ١٧/٢٤٨.

(٤) «تاريخ دمشق» ١٩/٥١٩.

وضعه بين يديه، فأخذت العُس، وشربت نصفه مخافة أن آتي على آخره فيعلمون بي، ثم ذبح شاة، وشوى منها، وأطعم الشيخ، وأكل هو والعبدان، وناموا، فثرت إلى الفحل، فأطلقت عقاله، وركبته، فاندفع بي، فتبعته الإبل، فما زلت ليلتي أسرع بها إلى الفجر، فلما تعالى النهار وإذا بفارس كأنه طائر، فتأملته فإذا به صاحبي، فنزلت، وعقلت الفحل، ونثرتُ كنانتي، ووقفت بينه وبين الإبل، فصاح بي: أطلق عقاله، فقلت: كلا، لقد خلفت نسيات بالحيرة، وآليت أن لا أرجع إليهن حتى أفيدهن خيراً أو أموت، فقال: إنك ميت، أطلق عقاله لا أم لك، فقلت: هو ما قلت لك، فقال: إنك لمغرور، انصب خطامه، واجعل فيه خمس عشر، ففعلت، فقال: أين تريد أن أضع سهمي، فأشرت إلى موضع، فرماه، فكأنما وضعه بيده، ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمسة بخمسة أسهم، فرددت نبلي إلى كنانتي، وألقيت قوسي، ووقفت مستسلماً، فدنا، فأخذ السيف والقوس مني، ثم قال: ارتد فإني خلفي، وعرف أنني الذي شربت عنده اللبن، ثم قال: ما ظنك بي؟ قلت: أحسن الظن، قال: وكيف؟ قلت: لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك الله بي، قال: أفتراني أهيجك وقد بتتُ نادماً مهلهلاً يعني أباه؟ قلت: أزيد الخيل؟ قال: نعم، قلت: كن خيراً آخذ، قال: ليس عليك بأس، ولو كانت هذه الإبل لي لما ذهبت إلا بها، ولكنها لابنة مهلهل، ثم عاد إلى مكانه، وقال: أقم عندي مكرماً، فإني على شرف غارة، ثم أغار على بني نمير بالملح، فاستاق مئة بعير، فدفعها إليّ، وبعث معي الخُفراء من ماء إلى ماء، حتى وردت الحيرة، فلقيني نبطي، فقال: أيسرك يا أعرابي أن لك بإبلك هذه بستانان من هذه البساتين؟ قلت: وكيف؟ قال: هذا زمن نبي يخرج فيملك هذه الأرض ويحول بينها وبين أربابها، حتى إن أحدهم ليبيع البستان بثمان بعير، قال: فما مضت إلا هنيهة حتى بعث الله رسوله ﷺ - فأسلمنا، وما مضت إلا مدة يسيرة حتى فتح الله علينا الحيرة، فاشتريت بثمان بعير من إبلي بستاناً بالحيرة^(١).

قال أبو الفرج: كانت الحمى تعترني زيداً دائماً، وكان له أربعة بنين كلهم يقول

(١) الخبر في «الأغاني» ١٧/٢٥٥ - ٢٥٧.

الشعر، وهم: عروة، ومهلل، وحرث، ومكنف، فأسلم مكنف وحرث، وشهدا قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد، فلهما صحبة، وعروة شهد القادسية، وقُسَّ الناظف، ويوم مهران، وأبلى بلاءً حسناً.

وفد شيبان، كان فيهم حرث بن حسان الشيباني، فأسلم، وكانت تحته قيلة بنت مخرمة، هاجرت، وقدمت المدينة، فدخلت المسجد، فجلست خلف رسول الله ﷺ وأخذتها رعدة، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا مسكينة عليك السكينة» ولحقها حرث، فقال: يارسول الله، اكتب بيننا وبين بني تميم لا تُجاوزُ الدهناء إلينا منهم إلا مسافراً أو مُجتازاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا غلام، اكتب لهم بالدهناء» فقالت قيلة: وكانت الدهناء وطني وداري، فقلت: يارسول الله، الدهناء مرعى الإبل والغنم ونساء بني تميم فسراها^(١)، فقال: «أمسك يا غلام، صدقت والله المسكينة، المسلم أخو المسلم»^(٢).

وفد بجيلة، ومنهم: جرير بن عبد الله البجلي، قال جرير: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي، ثم حللت عيبي، ثم لبست حلتي، ودخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ [يخطب، فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذكرني رسول الله ﷺ؟] قال: نعم، ذكرك آنفاً بأحسن الذكر بينا هو يخطب إذ عرض له في خطبته، فقال: «يدخل عليكم من هذا الباب - أو من هذا الفج - من خير ذي يمن، إلا أن على وجهه مسحة ملك». قال جرير: فحمدت الله على ما أولاني. أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه^(٣).

وقال جرير: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصيحة لكل مسلم. أخرجاه في الصحيحين^(٤).

(١) هذه الكلمة لا معنى لها هنا، ونص الخبر عند ابن سعد ٢٧٦/١: يا رسول الله، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك، فقال: «أمسك يا غلام.....».

(٢) «الطبقات» ٢٧٤/١ - ٢٧٧.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١٨٠) وما بين معكوفين منه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

وقال جرير: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تُريحُنِي من أمرِ ذي الخَلَصَةِ؟» وكان بيتاً في خثعم يسمى: كعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، فأخبرت رسول الله ﷺ أنني لا أثبت على الخيل، فضرب في صدري، وقال: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، واجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا» فانطلقت إليها، فكسرتها، وحرقتها، وأرسل جرير [رجلاً] إلى رسول الله ﷺ يبشره، فقال لرسول الله ﷺ: والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب، فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات^(١).

واعتماد الفقهاء في المسح على الخفين على حديث جرير، قال رضي الله عنه: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسخ بعدما أسلمت^(٢).

وفد العنس - بنون - فيهم ربيعة العنسي^(٣)، قال له رسول الله ﷺ: «أراغباً جئت أم راهباً؟» فقال له: أما الرغبة، فوالله ما في يديك من مال فأرغب فيه، وأما الرهبة فوالله إنني في مكان ما تبلغه جيوشك، ولكن جئت مسلماً، فأجازه رسول الله ﷺ وقال له: «إن أحسست في الطريق بوَعَكَ فمِلْ إلى أدنى قرية منك»، فوعك في الطريق، فمال إلى قرية هناك، فمات فيها.

وفد سعد العشيرة، وفيهم ذباب بن أنس، فأسلم، وكسر صنماً لهم يقال له: فرّاص، وقال: [من الطويل]

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ
شَدَّدْتُ عَلَيْهِ شِدَّةً وَتَرَكْتُهُ
فَأَصْبَحْتُ لِلْإِسْلَامِ مَا عَشْتُ نَاصِرًا
فَمَنْ مَبْلَغُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَنَّنِي
وَعَاشَ ذُبَابٌ حَتَّى شَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه صَفِينًا، وَقِيلَ: اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٠)، ومسلم (٢٤٧٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٢٢١).

(٣) نص الخبر في نسخنا كالتالي: وفد عبد القيس - بنون - فهم بن ربيعة العيس. وانظر «الطبقات» ١/ ٢٩٥.

(٤) «الطبقات» ١/ ٢٩٥.

وفد جُهينة، وفيهم عمرو بن مرة سادِنُ صنم جُهينة، فكسره، وأسلم، وقال: [من الطويل]

شهدتُ بأنَّ الله حقٌّ وأنَّني
وشمَّرت عن ساقِي الإزارَ مُهاجراً
لأصحبَ خيرَ الناسِ نفساً ووالداً
رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائِكِ
ثم بعثه رسول الله ﷺ إلى قومه، فأسلموا إلا واحداً ردَّ عليه، فدعى عليه عمرو، فسقط فوه، وخرس، وعمي، واحتاج إلى الناس، وقيل: إنما قدم وفد جُهينة المدينة حين قدمها رسول الله ﷺ في صدر الإسلام^(١).

وفد كلب، وكان فيهم حارثة بن قطن، وحمل بن سعدانة الكلبيان، فأسلموا، وعقد رسول الله ﷺ لحارثة لواءً على قومه، فشهد به صفيين مع معاوية، فأقطعه أرضاً بدومة الجندل، وكتب له بها كتاباً^(٢).

وفد جرْم، قال البخاري: حدَّثنا سليمان بن حرب، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عمرو بن سلَّمة قال: كنا بماء ممرِّ الناس، وكان يمر بنا الركبان، فنسألهم: ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، وأوحى إليه بكذا، وكنت أحفظ ذلك الكلام، وكانت العرب تلوم بإسلامها الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبادروا قومي بإسلامهم^(٣)، فلما قدم قال: جئتكم من عند النبي ﷺ حقاً، قال: «صلُّوا صلاةَ كذا في حينِ كذا، وصلاةَ كذا في حينِ كذا، فإذا حَضرتِ الصلاةُ فليؤدِّن أحدكم، وليؤمِّكم أكثركم قرآناً» فنظروا، فلم يكن أحد أقرأ مني لما كنت أتلقى الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطُّوا عنا است قارئكم، فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. انفرد بإخراجه البخاري.

(١) «الطبقات» ٢٨٧/١.

(٢) «الطبقات» ٢٨٨/١ - ٢٨٩.

(٣) كذا؟! وفي صحيح البخاري (٤٣٠٢): وبدر أبي قومي بإسلامهم. وانظر «الطبقات» ٢٨٩/١.

وفد النَّخَع، قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أُرطاة بن شراحيل، والأرقم بن عمر، فأعجب رسول الله ﷺ ما رأى من حُسن هَيْئتهما، فأسلما، وقال لهما رسول الله ﷺ: «هَلْ خَلَفْتُمَا وِرَاءَكُمَا مِنْ قَوْمِكُمَا مِثْلَكُمَا؟» فقالا: خَلَفْنَا وِرَاءَنَا سَبْعِينَ رَجُلًا كُلَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَّا، فدعا لهما، وقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي النَّخَعِ» وعقد لأرطاة لواءً على قومه، فكان في يده يوم الفتح، ثم شهد به القادسية، فقتل أرطاة يومئذ، فأخذه أخوه، فقتل، فأخذه سيف بن الحارث، فدخل به الكوفة.

وقيل: إنما قدموا في المحرم سنة إحدى عشر، وهم مئتا رجل، فأنزلهم دار رملة بنت الحارث، وقالوا: بايعنا معاذاً باليمن، وكان منهم زرارة بن عمرو، وكان نصرانياً، فأسلم، وهم آخر وفد وفد على رسول الله ﷺ^(١).

وفد حَضْرَمَوْت، وكان فيهم وائل بن حجر، فسر رسول الله ﷺ.

[وحكى ابن سعد عن هشام بن محمد: أن رسول الله سرّاً [بقدمه، ونادى الصلاة جامعة، ثم خطب فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ أَتَاكُمْ مِنْ حَضْرَمَوْت - وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ - رَاغِبًا فِي الْإِسْلَامِ» ثم قال لمعاوية بن أبي سفيان: «انْطَلِقْ فَأَنْزِلْهُ مَنْزِلًا بِالْحَرَّةِ» قال معاوية: فانطلقت معه، فأحرق الرَّمْضَاءَ رَجُلِي، فقلت له: أردفني ورائك، فقال: لست من أرداف الملوك، قال: فقلت: فادفع لي نعليك أمشي فيهما أتوقُّ بهما من الحرِّ، فقال: لا يبلُغُ أهل اليمن أنَّ سوقاً لبسَ نعلَ ملك، ولكن إن شئت فامش في ظلِّ ناقتي، وكفاك به شرفاً في قومك، قال: فسرت في ظلِّ ناقتي حتى أنزلته منزلاً، ولما رجع إلى بلاده أجازه رسول الله ﷺ وكتب له كتاباً بأراضي وحصون.

[وفي رواية]: فأخبر معاوية رسول الله ﷺ بما قال له وائل، فقال: «إِنَّ فِيهِ لُعْبِيَّةً مِنْ عِبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، ارْفُقُوا بِهِ فَإِنَّهُ قَرِيبٌ عَهْدٍ بِمُلْكٍ»^(٢).

فلما استخلف معاوية قدم عليه وائل، فأكرمه، وأجلسه معه على سريريه، وقال له: أتذكر يوم كذا وقولك لي؟ ووائل يقول: نعم، وهل هو إلا ذلك؟ قال وائل: وأنا أقول في نفسي ليتني حملته بين يدي^(٣).

(١) «الطبقات» ١/ ٢٩٨ .

(٢) «الطبقات» ١/ ٣٠٠ - ٣٠٣، وما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٢٣٨) من حديث وائل بن حجر رضي عنه.

وبعثت امرأة من أهل اليمن يقال لها: تهناة بنت كليب في ذلك الوفد بكسوة إلى رسول الله ﷺ مع ابن لها يقال له: كليب بن لبيد^(١)، فدفعها إلى رسول الله ﷺ ثم قال: [من البسيط]

من وادِ برهوت تهوي بي عذافرة
تجوب بي صفصفاً غبراً مناهله
شهرين أعملها نصاً على وجل
أنت النبي الذي كنا نخبره
إليك يا خير من يحفى وينتعل
تزداد عفواً إذا ما كلت الإبل^(٢)
أرجو بذاك ثواب الله يا رجل
وبشّرنا به التوراة والرسل

[وقد ذكر العلماء في تواريخهم وائل بن حجر، فقال خليفة: هو من حضرموت، وسكن الكوفة.]

وقال أبو نعيم: من أبناء الأقيال باليمن، وفد على رسول الله ﷺ فأنزله وأصعده معه على منبره، وقال: «هذا وائل بن حجر، سيد الأقيال جاءكم حباً لله ولرسوله» وأعطاه وأقطعه القطائع، وكتب له كتاباً، ثم سكن الكوفة، وعقبه بها.

وقال أبو بكر الخطيب: كان ملك قومه، قدم على رسول الله ﷺ مسلماً، فقربه وأدناه، وبسط له رداءه وأجلسه عليه، ثم نزل بعد رسول الله الكوفة وأعقب بها، ونزل المدائن في صحبة علي عليه السلام حين خرج إلى صفين، وكان على راية حضرموت يومئذ^(٣).

وقال الهيثم: لما قدم على النبي ﷺ صعد المنبر وأخذ بيده فأقعه معه وقال: «أيها الناس، هذا وائل بن حجر قد أتاكم من أراض بعيدة، طائعاً لله ولرسوله غير مكره، وهو بقية أبناء الملوك، اللهم بارك فيه وفي ولده وولد ولده» ثم نزل من المنبر وأنزله معه، وكتب له ثلاثة كتب بأراضي.

وذكره جدي في «التلقيح» فقال: وائل بن حجر بن ربيعة الحضرمي، وهو وائل القيل^(٤).

(١) في «الطبقات»: كليب بن أسد بن كليب.

(٢) في النسخ: «مهمها غبراً» والمثبت من «الطبقات» ٣٠٢/١.

(٣) «تاريخ بغداد» ١/١٩٧ - ١٩٨.

(٤) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ١٩٠.

وروى وائل الحديث عن رسول الله ﷺ وأخرج عنه مسلم، وسنذكره فيما بعد.
وفي الحديث: «أن حضرموت فيها وادي برهوت»^(١)، وفي الحديث: «خير بئر في
الأرض زمزم فيها أرواح المؤمنين، وشر بئر في الأرض برهوت وفيه أرواح
الكفار»^(٢).

وفيها: كانت سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب، ذكرها ابن إسحاق.
وأمره رسول الله ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، فخرج خالد إليهم،
وبث الركبان في كل وجه يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الناس، وأقام فيهم خالد
يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وكتب إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، وكان في
كتابه: لمحمد رسول الله من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله
وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن القوم قد أسلموا، وإني
مقيم فيهم أعلمهم كتاب الله ومعالم السنن والسلام.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد، سلام
عليك، أمّا بعد: فإنّ كتابك ورد عليّ يُخبرني بإسلامهم، فالحمد لله على ذلك،
فبشرهم، وأنذرهم، وخوفهم، وحذرهم، وليقبل معك وفدهم، والسلام».

فقدم خالد على رسول الله ﷺ بجماعة، منهم: قيس بن الحُصَيْن، ويزيد بن عبد
المدان، فلما دخلوا على النبي ﷺ قال لهم: «أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا؟» فقال
له يزيد: نعم، قال: «أما والله لولا كتاب خالد ورد عليّ بإسلامكم لألقيت رؤوسكم
تحت أقدامكم» فقال له يزيد: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا، بل حمدنا الله
الذي هدانا بك، فقال: «صدقتُم» ثم قال لهم: «بم كُنتم تغلبون من قاتلكم في
الجاهلية؟» قالوا: كنا نجتمع ولا نفرق ولا نبداً أحداً بظلم، فقال: «صدقتُم» وأمر

(١) لم نقف عليه .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩١١٨) من حديث علي موقوفاً قال: خير
واديين في الناس ذي مكة، ووادي الهنط به آدم ﷺ، فيه هذا الطيب الذي تطيبون به، وشر واديين في
الناس وادي الأحقاف ووادي بحضرموت يقال له: برهوت، وخير بئر في الناس زمزم، وشر بئر في الناس
بلهوت وهي بئر برهوت، تجتمع فيه أرواح الكفار. وما بين معقوفين زيادة من (ك).

عليهم قيس بن الحصين، وأجازهم، فرجعوا إلى بلادهم.

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ بعد ذلك عمرو بن حزم الأنصاري ليفقههم في الدين، ويعلمهم معالم الإسلام، وكتب معه كتاباً طويلاً، وذكر فيه أسنان الإبل، والصدقات، والعبادات وغيرها، ومات رسول الله ﷺ وعمرو عندهم باليمن^(١).

والكتاب مشهور أخرجه الدارقطني وغيره، وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا كتابٌ من الله ورسوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] عهدٌ من محمدٍ رسولِ الله لعمرِو بنِ حَزْمٍ حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله ف: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشّر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلمهم القرآن، ويفقههم فيه، وينهى الناس، فلا يمس القرآن إلا طاهرًا، ويشدّد عليهم في الظلم ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ويعلم الناس معالم الحجّ، وسننه، وفرائضه، وما أمر الله به، والحجّ الأكبر يوم النحر، والأصغر العمرة^(٢) وذكر أسنان الإبل، وما يجب فيما تخرج الأرض، وذكر الجزية، وقال: «وعلى كلّ حالٍ ذكرًا كان أو أنثى دينارًا».

وفيها: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمن، فقاتلوه، فبعث علياً -رضي الله عنه- والتقوا، فبرز علي بين الصفيين، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها، وأطاعوا؛ فكتب علي رضوان الله عليه إلى رسول الله ﷺ يخبره، فخر ساجدًا، وقال: «السّلامُ على همدان» قالها ثلاثًا، ورجع خالد إلى المدينة، وأقام علي -رضي الله عنه- باليمن يفقههم في الدين، ويأخذ الصدقات، فلما كان في الموسم وافى رسول الله ﷺ في حجة الوداع^(٣).

وفيها: كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً يذكر فيه معنى ما تقدم، [وقيل: إنما كتب إلى رسول الله بعد انفصاله من حجة الوداع].

وفيها: كتب رسول الله ﷺ إلى جيلة بن الأيهم يدعوه إلى الله تعالى، فأسلم،

(١) «السيرة» ٢/٥٩٢ - ٥٩٣.

(٢) ذكره الدارقطني في سننه مقطوعاً في أبواب متفرقة، ولم يذكره بطوله، وانظر «السيرة» ٢/٥٩٤ - ٥٩٦.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ٣/١٣١ - ١٣٢، و«دلائل النبوة» ٥/٣٩٦.

وأهدى لرسول الله ﷺ هدية يخبره بإسلامه، ثم ارتد في أيام عمر رضوان الله عليه^(١)،
وسنذكره.

وفيها: بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي كلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع، ملك اليمن، [وقيل: اسمه سُميفع، وذو الكلاع لقب له، قال الجوهري: ذو الكلاع بالفتح اسم ملك من ملوك اليمن من الأذواء].
وقيل: كان من ملوك الطوائف [فحكى ابن دريد عن الرياشي عن الأصمعي قال: كان رسول الله ﷺ كاتب ذو الكلاع من ملوك الطوائف على يد جرير بن عبد الله] يدعو إلى الإسلام، وكان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية، وأطيع حتى توفي رسول الله ﷺ قبل عود جرير، وأقام ذو الكلاع على ما هو عليه إلى أيام عمر رضوان الله عليه ثم رغب في الإسلام، فقدم على عمر وسنذكره، وقيل: إنه أسلم على يد جرير، وأسلمت امرأته ضريبة بنت أبرهة بن الصباح، والأول أصح^(٢).

وفيها: كتب فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، وأهدى له [هدية، وقد ذكره ابن سعد وقال: كانت الهدية] بغلة شهباء، وحماراً، وثياباً، وقباءً من سندس مخوص بالذهب، وبعث به مع مسعود بن سعيد الجذامي، وكان عاملاً لقيصر على عمان البلقاء، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «أما بعد، فإنه قد وصلني كتابك، ورسولك، والحمد لله على هدايتك» وأمر بلالاً فأعطى رسوله اثنتي عشرة أوقية ونشاً - أي نصفاً - [وقال هشام:] وكان مسكنه بمعان وما حولها من الشام، وبلغ قيصر إسلامه وما فعل، فكتب يستدعيه، فلما دخل عليه قال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: لقد علمت أن عيسى ﷺ بشر به وأنه نبي حق، فقال له: ارجع عما أنت عليه، فقال: لا والله ولا بملكك، فحبسه، ثم نصب له خشبة، [ليصلبه، وأخرجه فلما رفع على الخشبة قال: [من الكامل]:

أبلغ سَراة المسلمين بأنني سِلْمٌ لربِّي مُهْجَتِي وَعِظَامِي
قال الهيثم:]

(١) «الطبقات» ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر «الطبقات» ١/ ٢٢٩، وما بين معقوفين زيادة من (ك).

وصلبه على ماء يقال له: عَفْرَى من أرض فلسطين، فلما رفع على خشبته قال: [من

الطويل]

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها على ناقة لم يضرب الفحل أمها
على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
مشذبة أطرافها بالمناجل^(١)

وفيها: كانت حجة الوداع، وتسمى: حجة التمام، والكمال، والبلاغ، وحجة الإسلام [وحجة الوداع أشهر، وقد أخرج البخاري عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات، وجعل يقول: «اللهم اشهد» وودع الناس، وما كنا ندري ما حجة الوداع إلى ذلك اليوم^(٢).

وقال ابن عباس: كرهوا أن يقولوا حجة الوداع، فقالوا: حجة الإسلام.]

قال الإمام أحمد رحمه الله عليه: حدثنا يحيى بن آدم وأبو النضر، قالا: حدثنا زهير، حدثنا أبو الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج، معنا النساء والولدان، فلما قدمنا طفنا بالبيت وبالصفا والمروة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «من لم يكن معه هدي فليحليل» قلنا: أي الحل؟ قال: «الحل كله» قال: فأتينا النساء، ولبسنا الثياب، ومسسنا الطيب، فلما كان يوم التروية أهللنا بالحج، وكفانا الطواف الأول بين الصفا والمروة، وأمرنا رسول الله ﷺ أن نشرك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة، فجاء سراقه بن جعشم فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، أرأيت عمرتنا هذه ألعامنا هذا أو للأبد؟ فقال: «لا، بل للأبد» قال: يا رسول الله، فيم العمل اليوم؟ أفأفيم جفت فيه الأقلام، وجرت به المقادير [أو فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير] قال: ففيم العمل؟ قال أبو النضر: فسمعت من سمع من أبي الزبير يقول: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٣).

وعن جابر قال: لم يكن معنا هدي يومئذ إلا مع رسول الله ﷺ وطلحة، وإن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يجعلوها عمرة، يطوفوا، ثم يقصروا، ويحلقوا إلا من

(١) انظر «السيرة» ٥٩١/٢، و«الطبقات» ٢٤٣/١، و«تاريخ دمشق» ٢٧١/٤٨.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤٢) و(٤٤٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤١١٦)، وما بين معقوفين زيادة منه.

معه الهدي، قالوا: ننطلق إلى منى، وذكرنا أحدا يقطر، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لو أنني استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت»، وحاضت عائشة فنسكت المناسك كلها غير أنها لم تطف بالبيت، فلما طهرت طافت، ثم قالت: يا رسول الله، أتطلقون بحج وعمرة وأنطلق بالحج؟ فأمر عبد الرحمن أن يخرج معها إلى التَّعِيمِ، فاعتمرت بعد الحج في ذي الحجة^(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: رمى رسول الله ﷺ الجمرة بمثل حصي الخذف^(٢).

فصل في التلبية:

ومعنى لبيك: أنني مقيم على طاعتك وأمرك، وقيل: هي مأخوذة من الإجابة للخليل ﷺ لما أذن في الحج فنادى: «أيها الناس، إن ربكم قد بنى بيتاً فحجوه» قال ابن عباس: فلا يأتي أحد هذا البيت إلا وهو يقول: لبيك اللهم لبيك، فرسول الله ﷺ أهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة والملك لك، لا شريك لك».

وروي أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان يزيد: لبيك ذا النعماء والفضل الحسن، لبيك لبيك مرغوباً إليك.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: لبيك وسعديك، والخير كله بيدك، والرغبة إليك.

وكان أنس يقول: لبيك وسعديك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً.

وقال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: عجباً لا اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلاله بالحج!؟ فقال ابن عباس: إنني لأعلم الناس بذلك، إنها إنما كانت حجة واحدة من رسول الله ﷺ فمن هنالك اختلفوا، خرج رسول الله ﷺ حاجاً، فلما صلى في مسجده بذي الحليفة ركعته أوجب في مجلسه، فأهل بالحج حين فرغ من صلاته، فسمع ذلك منه أقوام فحفظوا عنه، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالاً، فسمعوه حين استقلت به ناقته، ثم مضى رسول الله ﷺ فلما علا على شرف البيداء

(١) أخرجه البخاري (١٦٥١)، ومسلم (١٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٩٩).

أهلّ، فأدرك ذلك منه أقوام، فقالوا: إنما أهلّ حين علا شرف البيداء، وإيم الله، لقد أوجب في مصلاه، وأهلّ حين استقلت به راحلته، وأهلّ حين علا شرف البيداء. فمن أخذ بقول ابن عباس أهلّ حين فرغ من ركعتيه^(١).

وأهدى رسول الله ﷺ في حجة الوداع مئة بدنة، نحر منها بيده ثلاثين، ثم أمر علياً، فنحر ما بقي منها، وقال: «اقسم جلالها ولحومها وجلودها بين الناس، ولا تعطين جزاراً منها شيئاً، وخذ لنا من كل بعير بضعة من لحم، ثم اجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحومها، ونحسّو من مرقها» ففعل^(٢).

وقال ابن عباس أيضاً: انطلق رسول الله ﷺ من المدينة بعد ما ترجل، فادّهن، ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه، فلم ينه عن شيء من الأزدية والأزر إلا المزعفرة التي تردع - أي تصبغ الجلد - فأصبح بذى الحليفة، ثم ركب راحلته، حتى إذا استوى على البيداء أهلّ هو وأصحابه، وقلد بُدنه، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة، فقدم مكة لأربع خلون من ذي الحجة، وطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل لأحد بُدنه، لأنه قلدها، ثم نزل بأعلى مكة عند الحجون وهو مهلّ، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه، حتى رجع من عرفة، وأمر أصحابه أن يطوفوا بالبيت، ويسعوا بين الصفا والمروة، ثم يقصروا رؤوسهم، ثم يحلوا وذلك لمن لم يكن معه بدنة قلدها، ومن كان معه امرأته فهي حلال له، والطيب، والثياب. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وقال: جاء رسول الله ﷺ إلى السقاية، فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال له رسول الله ﷺ: «اسقني» فقال: إنهم يضعون أيديهم فيه، فقال: «اسقني»، فشرب منه، ثم أتى زمزم، فهم يستقون ويعملون فيها، فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح»، فقال: «لولا أن يغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على عاتقي، أو على هذه» يعني عاتقه. انفرد بإخراجه البخاري^(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٥٩)، وانظر «المغازي» ١١٠٨/٣.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٤٥) وهو من أفراد انظر «الجمع بين الصحيحين» (١٠٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٦٣٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي رواية: «لولا أن الناس يتخذونه نُسكاً لَنَزَعْتُ»^(١).

وقال: طاف رسول الله ﷺ بالبيت على ناقه يَسْتَلِمُ الحَجَرَ بِمِخْجَنِهِ، وبين الصفا والمروة. متفق عليه^(٢).

وقد أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه، وفيه: جاء النبي ﷺ وكان قد اشتكى، فطاف على بعير ومعه مِخْجَنٌ، فلما مرَّ عليه استلمه، فلما قضى طوافه أناخ، فصلى العشاءين^(٣).

وقال ابن عباس أيضاً: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إذا لم يجد المُحْرَمُ إزاراً، فَلْيَلْبَسِ السَّرَاوِيلَ، وإذا لم يجد النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الخُفَيْنِ». أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

وقال أيضاً: إن رجلاً كان مع رسول الله ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبداً»^(٥). وفي رواية: «وهو يهل أو يلبي»^(٦). متفق عليه.

والملبد: الذي يجعل في رأسه شيئاً من الصمغ ليلبد شعره ولا يقمل.

وقال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جَمَعَ: «هَلُمَّ القُطَّ» فَلَقَطْتُ له حَصِيَاتٍ مثل حَصَى الخَذْفِ، فلما وضعهنَّ في يده فقال: «نَعَمْ، بأمثالِ هؤلاءِ، وإيَّاكم والغُلُوَّ في الدين، فإنما هَلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ بالغُلُوِّ في الدين»^(٧).

وقال: إن أسامة بن زيد كان رَدِيفَ رسول الله ﷺ يومَ عَرَفَةَ، فدخَلَ الشَّعبَ، فنزل، فأهراقَ الماءَ، ثم توضأَ، وركب ولم يصل^(٨).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٧٢) وفيه: «فصلى ركعتين».

(٤) البخاري (١٨٤١)، ومسلم (١١٧٩).

(٥) البخاري (١٢٦٦)، ومسلم (١٢٠٦) (٩٩).

(٦) البخاري (١٢٦٨)، ومسلم (١٢٠٦) (٩٤).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٥١).

(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٦٥).

وقال: كان رسول الله ﷺ بالروحاء، فلقي ركباً، فسلم عليهم، فقال: «من القوم؟» قالوا: المسلمون، قالوا: فمن أنت؟ قال: «رسول الله ﷺ»، ففرغت امرأة، فأخذت بعضدٍ صبيٍّ فأخرجته من محفّتها، وقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر». انفراد بإخراجه مسلم (١).

وقال: صلى النبي ﷺ الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بيدته، فأشعر صفحة سنامها الأيمن، ثم سلت الدم عنه، وقلدها نعلين، ثم أتى براجلته، فلما قعد عليها واستوثق به على البيداء أهل بالحج (٢).

وقال ابن عباس: ليس المحصّب بشي، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ. متفق عليه (٣).

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رميتم الجمره فقد حل لكم كل شيء إلا النساء» (٤).

وقال: وقت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل اليمن يلملم، ولأهل نجد قرناً، وقال: «هن وقت لأهلهن ولمن مرّ بهن من غير أهلهن - يريد الحج والعمرة - ومن كان منزله من وراء الميقات فإهلاله من حيث ينشئ، حتى أهل مكة إهلالهم من حيث ينشئون». أخرجاه في «الصحيحين» (٥).

وقال: لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حجّ، فقال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟» قال: وادي عسفان، فقال: «لقد مرّ به هودٌ وصالحٌ على بكراتٍ خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق» (٦).

وقال: إن امرأة من خثعم استفتت رسول الله ﷺ في حجة الوداع والفضل بن عباس

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٦) واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٨٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٦٦)، ومسلم (١٣١٢)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٩٢٥).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٩٠).

(٥) أخرجه البخاري (١٥٢٤)، ومسلم (١١٨١) واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢١٢٨).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٦٧).

رديفه، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده أدرکت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «نعم»، فأخذ الفضل بن العباس يلتفت إليها، وكانت امرأة حسناء، فأخذ رسول الله ﷺ وجه الفضل فحواله إلى الشق الآخر. متفق عليه^(١).

وفي رواية «المسند»: فقال له رسول الله ﷺ: «يا ابن أخي، إن هذا يومٌ من مَلَكٍ فيه سمعه وبصره ولسانه عُفِرَ له»^(٢).

وقال: كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صفرًا، ويقولون: إذا برأ الدبر، وعفى الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر، فلما أمرهم رسول الله ﷺ بالعمرة تعاضم ذلك عندهم^(٣).

وقال: ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة ليلة الحصة، إلا قطعاً لأمر الشرك^(٤).

وفي «المسند»: عن عروة بن الزبير أنه قال لابن عباس: حتى متى تُضلُّ الناس؟ فقال: وما ذاك؟ قال: تأمرهم بالعمرة في أشهر الحج وقد نهى عنها أبو بكر وعمر! فقال ابن عباس: قد فعلها رسول الله ﷺ فقال عروة: هما، أو كانا، أتبع لرسول الله ﷺ منك^(٥).

وقال ابن عباس: فلما أمرهم أن يجعلوها عمرةً لبست القميص، وسطعت المجامر، ونكحت النساء^(٦).

وفي «المسند»: عن ابن عباس قال: تمتع رسول الله ﷺ حتى مات، وأبو بكر حتى مات، وعمر حتى مات، وعثمان حتى مات، وكان أول من نهى معاوية، فعجبت منه، وقد حدثني أنه قصر عن النبي ﷺ بمشقص^(٧).

(١) أخرجه البخاري (١٨٥٤)، ومسلم (١٣٣٤)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢٢٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٤١).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٦٤)، ومسلم (١٢٤٠).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦١).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٧).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٤١).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٤).

قال المصنف - رحمه الله - : وهذا وهم ، فإن رسول الله ﷺ إنما حج مرة واحدة قارناً وهي هذه الحجّة ، فكيف يقول : تمتّع حتى مات ؟
وفي «المسند» : أن رسول الله ﷺ ذبح ، ثم حلق^(١) .

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود : أنه رمى جمرة العقبة من بطن الوادي ، ثم قال :
والذي لا إله غيره ، هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٢) .

قال ابن عباس : وأشهر الحجّ التي ذكر الله : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجّة ، فمن تمتّع في هذه الأشهر فعليه دمٌ أو صوم^(٣) .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدّثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، أنه سمع سعد بن أبي وقاص ، والضحّاك بن قيس عام حجّ معاوية في صفر ، وهما يذكران التمتع بالعمرة ، فقال الضحّاك : لا يصنع ذلك إلا من جهل ، فقال سعد : بئس ما قلت ، قال الضحّاك : فإن عمر بن الخطاب ينهى عنها ، فقال سعد : قد صنعها رسول الله ﷺ - وصنعناها معه^(٤) .

ولمسلم : فعَلناها ، وهذا كافرٌ بالعرش ، يعني معاوية^(٥) .

و«العرش» : بيوت مكة ، سميت بذلك لأنها عيدان تُنصب وتظلل .

وقال أنس : كان على ناقة رسول الله ﷺ رَحْلٌ رث لا يساوي أربعة دراهم^(٦) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله عليه : حدّثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي بكر قال : خطب رسول الله ﷺ في حجته ، فقال : «ألا إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤٧) ، ومسلم (١٢٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري (١٥٧٢) وهو قطعة من حديث طويل .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٠٣) .

(٥) أخرجه مسلم (١٢٢٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠) .

حُرْم، ثلاثة مُتوالياتٍ: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمِ، ورجبُ مُضَرِّ الذي بين جُمادى وشَعْبَانَ» ثم قال: «ألا أيُّ يومِ هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: «أليس يومَ عَرَفَةَ؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أيُّ شهرٍ هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: «أليس ذا الحِجَّة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أيُّ بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلدُ الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قال: وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُونَ بَعْدِي كُفَّارًا، أَوْ ضَلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ مِنْكُمْ، فَلَعَلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

ذكر الصيام بعرفة:

قال عطاء الخراساني: إن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ دخلَ على عائشة يومِ عرفة وهي صائمةٌ والماء يرشُّ عليها، فقال لها عبد الرحمن: أفطري، فقالت: أفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ صَوْمَ يَوْمِ عَرَفَةَ يُكْفِّرُ الْعَامَ الَّذِي قَبْلَهُ؟» أخرجهُ الإمام أحمد رحمة الله عليه^(٢).

ولمسلم: عن أبي قتادة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أرايتَ صيامَ يومِ عرفة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْفِّرَ السَّنَةَ الْبَاقِيَةَ وَالْمَاضِيَةَ»^(٣).

وقد اختلف العلماء في صوم يومِ عرفة للحاج.

فكرهه قوم لمعنيين: أحدهما: لأنَّ الحجاجَ ضيوفُ الله تعالى، ولا يحسنُ صوم الضيف عند المضيف، والثاني: ليتقوى الحاج على الدعاء.

(١) أخرجهُ أحمد في «مسنده» (٢٠٣٨٦)، والبخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) أخرجهُ أحمد في «مسنده» (٢٤٩٧٠).

(٣) أخرجهُ مسلم (١١٦٢).

وقال ابن عمر: حججت مع رسول الله ﷺ فلم يصم يوم عرفة، وحججت مع عمر فلم يصمه^(١).

وقالت أم الفضل زوجة العباس: شك الناس في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة، فبعثت إليه بلبن فشربه وهو يخطب الناس^(٢).

قال ابن عباس: إنما فعل رسول الله - ﷺ - ذلك لئلا يظنه الناس فرضاً، أما من كان قوياً على الدعاء فهو في صومه بالخيار.

وقالت عائشة رضوان الله عليها: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، فإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، يقول: ماذا أراد هؤلاء؟»^(٣). انفراد بإخراجه مسلم.

وقال الواقدي: وقف مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع عشرون ومئة ألف، قيل له: فمن أين كان هؤلاء؟ قال: من المدينة ومكة وما بينهما وحولهما من الأعراب، والمشهور: أنه وقف يوم الجمعة.

قال طارق بن شهاب: قال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، إنكم لتقرؤون آية في كتابكم لو أنزلت علينا معاشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال عمر: أي آية هي؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] قال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، نزلت في يوم عرفة يوم الجمعة. انفراد بإخراجه البخاري^(٤).

ذكر دخوله ﷺ البيت في حجة الوداع:

قالت عائشة رضوان الله عليها: دخل رسول الله ﷺ البيت، ثم خرج وعليه كآبة، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ فقال: «فعلت اليوم أمراً وددت أني لم أكن فعلته، دخلت البيت، ولعل الرجل من أممي لا يقدر أن يدخله فينصرف وفي نفسه منه شيء، إنما

(١) أخرجه عبد الرزاق (٧٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٨٨١).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٦٨).

أمرنا بالطوافِ حوله، ولم نُؤمر بالدخولِ»^(١).

وروى عروة، عن عائشة رضوان الله عليها: أنها كانت تحملُ ماءً زمزم، وتُخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله^(٢).

واتفقت الروايات: أن رسول الله ﷺ نحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وأتمها علي رضوان الله عليه مئة.

وقال الواقدي: أقام رسول الله ﷺ تسع سنين يُضحِّي كلَّ عامٍ ولا يحلقُ ولا يُقصرُ، حتى أجمع الخروج في سنة عشر إلى الحج، فخرج، وكان خروجه من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة، فصلى الظهر بذي الحليفة ركعتين، وأحرم من يومه ذلك في ثوبين صُحاريتين، وأبدلهما عند التنعيم بمثلهما من جنسهما، وحج معه نساؤه في الهوادج، ثم أصبح يُقلد هديه، وأشعر بُدنه. وأمر ناجية بن جندب الذي استعمله على الهدى أن يشعر الباقي، فكان مئة، وقال ناجية: يا رسول الله، ما عطب منها كيف أصنع به؟ قال: «تَنَحْرُهُ، وتُلقي قلائده في دمه، وتضربُ به صفحته اليمنى، ثم لا تأكل منه لا أنت ولا رِفقتك شيئاً»، وكان رسول الله ﷺ يأمر المشاة أن يركبوا بدنه.

قال: وقالت عائشة: وأصبح رسول الله - ﷺ يوم الأحد بمَلَل، ثم راح فتعشى بسرف، وأصبح بعرق الظبية بين الروحاء والسيالة دون الروحاء في المسجد الذي عن يمين الطريق، ونزل الروحاء، ثم راح فصلى الظهر^(٣) بالمنصرف، ثم صلى المغرب والعشاء، وصلى الصبح بالأثاية، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج، ونزل السقيا يوم الأربعاء، ثم أصبح يوم الأربعاء فأهدى له الصعب بن جثامة حمار وحش أو عَجْزَ حمار، فرده، وقال: «إِنَّا حُرْمٌ» وصلى رسول الله ﷺ في المسجد الذي ببطن وادي الأبواء، على يسارك وأنت متوجه إلى مكة، ثم راح من الأبواء فصلى بتلعات اليمن، ثم صلى في المسجد الذي يهبط من ثنية أراك^(٤) على الجحفة يوم الجمعة، ثم راح

(١) «الطبقات» ١٦٢/٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٩٦٣).

(٣) في «المغازي»: «العصر» ١٠٩٣/٣.

(٤) في النسختين (خ، أ): غزال، والمثبت من المغازي ١٠٩٦/٣.

منها، فصلى في المسجد الذي يحرم منه خارج الجحفة وهو دون خم عن يسار الطريق، فكان يوم السبت بقديد، فصلى في المسجد المُشَلَّل، وصلى في المسجد الذي دون لفت و كان يوم الأحد بعُسفان، ونزل يوم الاثنين بمر الظهران، وغربت الشمس عليه بسرف، فلم يصل المغرب حتى دخل مكة، وقيل: دخل مكة نهراً من كُدى على راحلته من أعلاها، ودخل المسجد من باب شيبة.

وقال العباس: كسا رسول الله ﷺ البيت في حجته الحبرات، وقال: قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الثلاثاء فأقام الثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وهو يوم التروية، وهذا يدل على أنه ﷺ وقف بعرفة يوم السبت، قال: وكانت قريش تدفع في الجاهلية من عرفة والشمس على رؤوس الجبال كهيئة العمائم، فخالفهم رسول الله ﷺ ودفع حين غربت الشمس^(١).

قال الواقدي: حدثني [الثوري، عن] أيمن بن نابل، عن قدامة بن عبد الله الكلابي قال: رأيت رسول الله ﷺ في جمرة العقبة يوم النحر على ناقة صهباء لا ضرب، ولا طرد، ولا إليك إليك^(٢).

قال: ثم حلق رسول الله ﷺ رأسه، وقسمه بين أصحابه، فأعطى ناصيته لخالد بن الوليد، وشقه الأيمن أبا طلحة، وجلس للناس، فما سئل يومئذ عن شيء قدم أو أخر إلا قال: «افعله ولا حرج»^(٣).

وأخرج الإمام أحمد رحمة الله عليه عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أين تنزل غداً؟ في حجته، فقال: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً»، ثم قال: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث حالف قريش على بني هاشم أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يؤوهم»، ثم قال عند ذلك: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

(١) «المغازي» ٣/ ١٠٨٨ - ١١٠٢، بتصرف من المصنف واختصار.

(٢) «المغازي» ٣/ ١١٠٧، وما بين معكوفين منه.

(٣) «المغازي» ٣/ ١١٠٨ - ١١٠٩ باختصار من المصنف.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧٦٦)، والبخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١).

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عليه عن عائشة رضوان الله عليها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نبني لك بمنى بيتاً أو بناءً يُظَلُّك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مناخ لمن سبق إليه»^(١).

وفيها: بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن، [وكان قد بعثه قبل ذلك وعاد، فلما فصل رسول الله ﷺ عن حجة الوداع بعثه إليها] فتوفي رسول الله - ﷺ - ومعاذ باليمن.

وعن ابن عباس قال: لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، وصدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عليه، عن معاذ: أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي وقبري» فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت، فأقبل بوجهه نحو المدينة، وقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»^(٣).

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عليه عنه أنه كان يقول: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «لعلك تمر بقبري ومسجدي، قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم، يُقاتلون على الحق مرتين، فقاتل بمن أطاعك منهم من عصاك، ثم يفيئون إلى الإسلام حتى تُبادر المرأة زوجها، والولد والده، والأخ أخاه، وانزل بين الحين السكون والسكاسك»^(٤).

وفيها: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجندى ملكي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩)، وما سلف بين معكوفين من (ك).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠٥٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠٥٣).

عُمان بعد رجوعه من حجة الوداع يدعوها إلى الإسلام، قال عمرو: فلما قدمت البحرين بدأت بعبد، وكان أرقهما وأسهلها خلقاً، وكان الكتاب مختوماً، فقال عبد: إن أخي أكبر سنّاً مني، وهو الملك، ولكن أوصلك إليه، فأوصلني إلى جَيْفَر، فناولته الكتاب، فقرأه، ودفعه إلى أخيه عبد، وقال: أنا أضعف العرب إن ملكت ما في يدي غيري، فقلت: أنا راجع غداً، فلما كان من الغد دعاني، فأسلما، وخلقياً بيني وبين الصدقة، فأخذتها من أغنيائهم، فدفعتها إلى فقرائهم.

قال ابن الكلبي: وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

وفيهما توفي

إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ

وأمه مارية القبطية، يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول، وقيل: سلخه، وولد ﷺ في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة، فكان عمره ستة عشر شهراً [وبعضهم يقول: عاش شهرين وعشرة أيام، وهو وهم]، وغسّله الفضل بن العباس، وقيل: أم درة. [وقال أحمد بإسناده، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «وُلد لي الليلة غلامٌ فسميته إبراهيم...» وقد ذكرنا أول الحديث في مولد إبراهيم في سنة ثمان، وإنه دفعه إلى أم سيف امرأة قين يقال له: أبو سيف... وذكر الحديث، وقال في آخره: فلقد رأيت بين يدي رسول الله ﷺ وهو يكيده بنفسه، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله إننا بك يا إبراهيم لمخزونون» أخرجه مسلم بلفظه، والبخاري بمعناه مختصراً، وفيه: إن عبد الرحمن بن عوف قال حين بكى: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف؛ إنها رحمة»^(١)].

وقال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدّثنا إسماعيل، حدّثنا أيوب، عن عمرو بن سعيد، عن أنس قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مُسترضعاً في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليُدخن، وكان ظئره قيناً فيأخذه فيقبله، ثم يرجع. قال عمرو: فلما توفي إبراهيم، قال رسول الله

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠١٤)، ومسلم (٢٣١٥)، والبخاري (١٣٠٣)، وما بين معقوفات زيادة من

ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ ظِئْرَيْنِ يُكْمِلَانِ رِضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ»^(١). [«القين»: الحداد، و«الظئر»: المرضع، وكانت امرأته ترضع إبراهيم فأضيف إليها].

وقد أخرج ابن سعد بمعناه، وفيه: فقال له ابن عوف: هذا الذي تنهى الناس عنه؟ متى يراك الناس تبكي بكوا، فقال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، إِنَّمَا أَنهى النَّاسَ عَنِ النَّيَاحَةِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ وَعَدُّ جَامِعٌ، وَسَبِيلُ مَيْثَاءٍ، وَأَنَّ آخِرَنَا لَاحِقٌ لِأَوْلَانَا، لَوَجَدْنَا عَلَيْهِ وَجَدًا غَيْرَ هَذَا»^(٢). [قال الجوهرى: «المَيْثَاءُ بفتح: الأرض السهلة»^(٣)، وفي رواية: «وإنها لسبيل مئة»].

وقال البلاذري: لما قبض إبراهيم كان مستقبل الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «يا جبل لو كان بك مثل ما بي لهدك ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون»^(٤).

وللبخاري عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: رأيت إبراهيم بن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، مات صغيراً، ولو قُضي أن يكون بعد محمد ﷺ نبي لعاش ابنه، ولكن لا نبي بعده^(٥).

وصلى عليه رسول الله ﷺ وكبر أربعاً، وقال: «هو صديق، ادفنوه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون» وجلس على شفير قبره ومعه عمه العباس، ونزل أسامة بن زيد في قبره، ورش عليه رسول الله ﷺ قربة من ماء، ووضع عند قبره حجرين، وقبره إلى جانب الطريق قريب من دار عقيل^(٦).

وقال ابن سعد: صرخ أسامة بن زيد فنهاه رسول الله ﷺ فقال: رأيتك تبكي، فقال: «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان»^(٧).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٠٢).

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/١١٤.

(٣) «الصحاح»: ميث.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٥٤١-٥٤٢.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٩٤).

(٦) «الطبقات» ١/١١٧ و«أنساب الأشراف» ١/٥٤٠.

(٧) «الطبقات» ١/١١٥.

ورأى في قبره بين اللبن فرجة، فقال: «أَمَا إِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ عَمَلًا يَنْبَغِي أَنْ يُتَقَنَّهُ»^(١).

وفي حديث أنس: فلقد رأيت بين يدي رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ، وَاللَّهِ إِنَّا بَكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٢).

[وقال علماء السير]: وفي يوم وفاة إبراهيم ﷺ انكسفت الشمس، [وقد روى حديث الكسوف جماعة من الصحابة: ابن عباس، وأبو موسى، وعبد الله بن عمر، وابن العاص، وعبد الرحمن بن سمرة، وأبو بكر، وعائشة، وفي بعضها: كسفت وخسفت الشمس، وفي بعضها انكسفت، قال: حدثنا أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: خسفت الشمس... وذكره، ولم يذكر فيه موت إبراهيم، وذكره في حديث] أبي بكر فقال: مات لرسول الله ﷺ ابن يقال له: إبراهيم، فقال الناس في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُمَا آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يُكْشَفَ مَا بَكُمْ». انفراد بإخراجه البخاري^(٣).

وأخرجه أحمد أيضاً بإسناده عن أبي بكر قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقام يجر ثوبه مستعجلاً حتى أتى المسجد، وثاب الناس، فصلى ركعتين فجُلِّي عنها، ثم أقبل علينا فقال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» وذكره^(٤).

وكان عروة بن الزبير يقول: لا تقل كسفت ولكن قل: خسفت^(٥).

وقال ثعلب: كسفت الشمس وخسفت القمر، هذا أجود الكلام.

باذان

والي اليمن من قبل كسرى، وكان قد أسلم، وتوفي في ذي الحجة بعد رجوع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، ففرق رسول الله ﷺ اليمن بين جماعة، وهم: شهر بن

(١) «الطبقات» ١/١١٩.

(٢) «الطبقات» ١/١١٦، وأخرجه البخاري (١٣٠٣)، مسلم (٢٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٤٠)، وما بين معقوفين زيادة من (ك).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٣٩٠).

(٥) أخرجه مسلم (٩٠٥).

باذان، وعامر بن شمر الهمداني، وأبي موسى الأشعري، وخالد بن سعيد بن العاص، وبعث زياد بن لبيد على حضرموت، وعكاشة بن ثور على السكون والسكاسك^(١).

أبو عامر الفاسق

واسمه عمرو بن صيفي، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، ودعى عليه رسول الله ﷺ فقال: «أما الله الكاذب منّا طريداً» فاستجاب الله لرسوله ﷺ فيه، فمات عند هرقل بالشام.

سعد بن خولة^(٢)

أبو سعيد، من الطبقة الأولى من المهاجرين، وهو من اليمن، وقيل: هو مولى أبي رهم، وقيل: مولى حاطب بن أبي بلتعة، وهو الذي مات بمكة بعد الهجرة، وقال رسول الله ﷺ في حقه: «ولكن البائس سعد بن خولة» يرثي له أن مات بمكة بعد ما هاجر، هاجر سعد إلى الحبشة المرة الثانية، وشهد بدرًا وهو ابن خمس وعشرين سنة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وقيل: إنما شهد الحديبية، ثم رجع إلى مكة لأجل مال كان له بها فأدركه الموت، وله صحبة ورواية، وهو زوج سبيعة بنت الحارث.

قال مسلم: حدثنا أبو الطاهر، أنبأنا وهب، حدثني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية يسألها عن حديثها وعن ما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب إليه عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعالت من نفاسها أو تعلت، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت ثيابي علي حين أمسيت، وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني أنني قد حللت للأزواج حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. انفرد بإخراجه مسلم، وأخرجه البخاري مختصراً^(٣).

(١) «تاريخ الطبري» ٢٢٨/٣، و«المنتظم» ٦/٤.

(٢) «الطبقات» ٣٧٨/٣، و«الإصابة» ٢٤/٢.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨٤)، والبخاري (٣٩٩١) مطولاً بمثل رواية مسلم.

السنة الحادية عشرة

وفيها: جهز رسول الله ﷺ أسامة بن زيد إلى الشام^(١).

ولم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه، وكان قد وجد عليهم وجداً شديداً، فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد يوم الثلاثاء دعا أسامة بن زيد، فقال له: «يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتكَ هذا الجيش، فاغز صباحاً على أهل أبنى وحرّق، وأسرع السير تسبق الخير، وخذ معك الأدلاء، وقدم الطلائع أمامك والعيون»، فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، بدئ برسول الله ﷺ المرض، فصدع، وحُم، فلما أصبح يوم الخميس دعى أسامة، فعقد له لواءً بيده، ثم قال: «يا أسامة، اغز بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تميلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا تتمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرن لعلكم تُبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكف بأسهم عنا، فإن لقوكم وأجلبوا فعليكم بالسكينة والوقار والصمت، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واعلموا أن الجنة تحت البارقة» فخرج، فعسكر بالجرف، وكانوا ثلاثة آلاف من أعيان المهاجرين والأنصار فيهم: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد رضي الله عنه، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم وغيرهم.

فقال رجال من المهاجرين منهم عياش بن أبي ربيعة: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، وكثرت المقالة في ذلك، فجاء عمر رضوان الله عليه فأخبر رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً، وخرج وقد عصب رأسه بعصابة، وعليه قتيبة، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعد، فما مقالة بلغتني عنكم، أو عن بعضكم في تأميري أسامة؟ والله لئن طعنتم في إمارته لقد طعنتم في إمارة أبيه من

(١) «السيرة» ٢/٦٠٦ و ٦٤١، و«المغازي» ٣/١١١٧، و«الطبقات الكبرى» ٢/١٧٠، و«تاريخ الطبري»

٣/١٨٤، و«المنتظم» ٤/١٦.

قَبْلَهُ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا بِالْإِمَارَةِ، وَإِنَّ ابْنَهُ بَعْدَهُ لَخَلِيقٌ بِهَا، وَإِنْ كَانَ أَبُوهُ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا كَذَلِكَ، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ». ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ بَيْتَهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَى أَسَامَةَ، وَخَرَجُوا مَعَهُ إِلَى الْجُرْفِ^(١).

قال هشام: إنما طعنوا فيه لأنه ابن مولى، وكان صغير السن، وقيل: إنما قال ذلك المنافقون. والله أعلم.



(١) «المغازي» ٣/ ١١١٧- ١١١٩.

ذِكْرُ أَبْوَابِ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

الباب الأول

في بداية المرض [وما اعتراه من الألم، اتفقوا على أن ابتداءه المرض لليلتين خلتا من صفر كما حكينا عن الواقدي وغيره، وحكى الطبري أنه ابتداء به في المحرم^(١). وهو وهم.

ذكر استغفاره ﷺ لأهل البقيع:

قال هشام بن محمد، عن أبيه: وقيل قبل وفاته بليال استغفر لأهل البقيع.

فقال ابن سعد: حدثنا الواقدي بإسناده عن [أبي مويهبة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي» فانطلقنا ليلاً، فاستغفر لأهله، فقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنكم ما أنتم فيه مما الناس فيه، جاءت الفتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضاً، الآخرة شر من الأولى» ثم قال: «يا أبا مويهبة، إن الله خيرني بين لقاءه والجنة، وبين مفاتيح كنوز الدنيا والخلد فيها والجنة، فاخترت لقاءه في الجنة» قال أبو مويهبة: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فقال: «لقد اخترت لقاء ربي» ثم انصرف، فلما أصبح ابتداء بوجعه الذي قبضه الله فيه^(٢)، [فمكث سبعا أو ثمانياً.

وقال ابن إسحاق: وكان أول ما ابتداء به مرضه أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل، فاستغفر لأهله، فلما أصبح ابتداء به الوجع من يومه ذلك^(٣).

وقال ابن إسحاق بإسناده عن [عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وهو يُصدع، وأنا أشتكي رأسي، فقلت: وارساه، فقال: «بل أنا يا عائشة وارساه»، ثم قال: «وما عليك لو مت قبلي تولى أمرك، وصليت عليك، وواريتك» فقلت: والله إني لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك في بيتي في آخر النهار فأعرست

(١) «تاريخ الطبري» ٣/ ١٨٥.

(٢) «الطبقات» ٢/ ١٨٢، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٩٧)، وما بين معقوفين زيادة من (ك)، وما يأتي منها ولن أشير إليه.

(٣) «السيرة» ٢/ ٦٤٢.

بها، فضحك رسول الله ﷺ، ثم تَمَادَى به وجعه^(١).

[قلت: وقد احتج الشافعي وأحمد بهذا الحديث على أنه يحل للرجل أن يغسل زوجته].

وقال يحيى بن سعيد: سمعت القاسم بن محمد يقول: قالت عائشة: وَارَأَسَاهُ، فقال رسول الله ﷺ: «لو كانَ وأنا حيٌّ فَاسْتَغْفِرَ لَكَ، وَأَدْعُو لَكَ» فقالت عائشة: واثكلاه، والله إنني لأظنك تحب موتي، ولو كانَ ذلك لَظَلْتُ آخرَ يومكَ معرَّساً ببعضِ أزواجك، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ أَنَا وَارَأَسَاهُ، لَقَدْ هَمَمْتُ، أَوْ أَرَدْتُ، أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ، وَأَعْهَدَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ، أَوْ يَتَمَنَّى الْمُتَمَنِّونَ، ثُمَّ قَلْتُ: يَا أَبَى اللَّهِ وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ، أَوْ يَدْفَعُ اللَّهُ وَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ» انفرد بإخراجه البخاري^(٢).

وأخرجه أحمد رحمة الله عليه عنها، وفي آخره: «ادْعُوا إِلَيَّ أَبَاكَ وَأَخَاكَ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ أَوْ يَتَمَنَّى مُتَمَنِّ، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»^(٣).

وأخرجه أيضاً أحمد رحمة الله عليه وفيه: إن النبي ﷺ لما ثقل قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: «ائْتِنِي بِكْتِفٍ أَوْ لَوْحٍ حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ» فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم قال رسول الله ﷺ: «أَبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ أَنْ يُخْتَلَفَ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»^(٤).

وقال هشام: صدع رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ثم اشتد به المرض في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له. وفي هذا المرض دخلت عليه فاطمة عليها السلام.

[قال أحمد بإسناده عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن

(١) «السيرة» ٢/٦٤٢ - ٦٤٣، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٩٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٧٥١) من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة، وهو عند مسلم (٢٣٨٧) من طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١٩٩).

مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه، أو عن يساره، ثم إنه أسر إليها حديثاً، فبكت، ثم أسر لها حديثاً، فضحكت، فقلت لها: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، ما الذي أسر إليك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى إذا قبض سألتها، فقالت: إنه أسر إليّ: «أن جبريل كان يُعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول من يلحقني من أهل بيتي، ونعم السلف أنا لك» فبكت لذلك، ثم قال: «ألا ترضي أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة [أو سيدة نساء المؤمنين]»، فضحكت لذلك. [أخرجاه في «الصحيحين»، وليس لفاطمة في الصحيح غيره^(١)].

وقال هشام ابن الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح عن [ابن عباس]: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ في مرضه، فجعلت تبكي، وتقول: بأبي أنت وأمي، وأنت والله كما قال القائل:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه

فأفاق، وقال: «هذا قول عمك أبي طالب» ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، ثم قال: «واكرباه» فقالت: واكرب أبتاه، فقال لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم».

ذكر صلاة أبي بكر رضي الله عنه بالناس وما يتعلق بمرض رسول الله ﷺ:

[قد روت عائشة في هذا الباب حديثاً طويلاً جامعاً كثير الروايات، قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، بإسناده، عن [عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت على عائشة، فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى، ثقل رسول الله ﷺ فقال: «صلى الناس؟» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: «ضعوا لي ماءً في المخضب» ففعلنا، فاغتسل، وذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس؟» قلنا: هم ينتظرونك، فقال: «ضعوا لي ماءً في المخضب»، فوضعناه له، فاغتسل، ثم ذهب ليتوضأ فأغمي عليه، فعل ذلك ثلاثاً، وفي كل مرة يغمى عليه،

(١) مسند أحمد (٢٦٤١٣)، وصحيح البخاري (٣٦٢٣)، وصحيح مسلم (٢٤٥٠).

والناس عُكُوف في المسجد ينتظرونه لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً، فقال: يا عمر، صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفةً، فخرج بين رجلين أحدهما العباسُ لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأوماً إليه أن لا يتأخر، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائماً، ورسول الله ﷺ يصلي قاعداً، قال: فدخلت على ابن عباس، فقلت: ألا أعرضُ عليك ما حدثتني به عائشة عن مرض رسول الله ﷺ؟ قال: هات، فحدثته، فما أنكر منه شيئاً، غير أنه [قال: أسمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا] قال: هو عليّ^(١).

[طريق آخر:

قال أحمد بإسناده، عن الأسود، عن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يُؤذنه بالصلاة، فقال: «مُرُوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناسِ» قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقوم مقامك لا يُسمعُ الناس، فلو أمرت عمر، فقال: «مُرُوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناسِ» قالت: فقلت لحفصة: قولي له مثل ما قلتُ له، فقال: «إِنَّكُمْ لَأَنْتَنَّ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ، مُرُوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناسِ» قالت: فأمرُوا أبا بكرٍ فصلى بالناس، فلما دخل في الصلاة، وجد رسول الله من نفسه خفةً، فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حسه ذهب ليتأخر، فأوماً إليه رسول الله ﷺ أن قم كما أنت، وجاء رسول الله فجلس عن يسار أبي بكر، وكان رسول الله يصلي قاعداً وأبو بكر قائماً يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ والناس يقتدون بصلاة أبي بكر^(٢).

والأسيف: السريع الحزن والبكاء.]

وقال عبد الله بن زمعة: دخلتُ على رسول الله ﷺ أعوده، فقال: «يا عبد الله، مُرِ النَّاسَ بِالصَّلَاةِ» فخرجتُ فرأيتُ رجلاً، لم أكلمهم حتى رأيتُ عمر، فقلت: صل بالناس، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ تكبيره، فأخرج رأسه من حجرته، وقال: «لا لا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦١٣٧)، و البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٧٦١)، و البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨)(٩٦).

لا» قالها ثلاثاً وهو مغضب، ثم قال: «لِيُصَلِّ بِالنَّاسِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ» فانصرف عمر، وقال: يا ابن أخي، أمرك رسول الله ﷺ أن تأمرني؟ قلت: لا، ولكنه قال لي: «يا عبد الله، مر الناس بالصلاة» فلما رأيتك لم أبغ من وراءك، فقال: ما ظننت إلا أن رسول الله ﷺ أمرك أن تأمرني، ولولا ذلك ما صليت^(١).

وعن أنس: أن أبا بكر رضي الله عنه كان يصلي بالناس في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، فلما كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتن من الفرح برويته، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف ظناً منه أن رسول الله ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر، وتوفي من يومه. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال: «أهريقوا عليّ سبع قرب لم تحلل أوكيتهنّ لعليّ أعهد إلى الناس» قالت عائشة رضي الله عنها: فأجلسناه في مخضب، وطفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده: أن قد فعلت، ثم خرج إلى الناس، فخطب^(٣).

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يعوذ بهذه الكلمات: «أذهب الباس رب الناس، اشف أنت الشافي شفاء لا يغادر سقماً» قالت: فلما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه أخذت بيده، فجعلت أمسحه بها، وأقولها، فنزع يده مني، ثم قال: «رب اغفر لي، وألحطني بالرفيق الأعلى» فكان هذا آخر ما سمعت من كلامه^(٤). [وفي لفظ: كان رسول الله إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث]^(٥).

وقال [البخاري: بإسناده عن] عروة عن عائشة: إن النبي ﷺ كان يسأل في مرضه

(١) «الطبقات» ١٩٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٨)، ومسلم (٤١٨) (٩١) مختصراً، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٣٢١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١) وقولها: فكان هذا آخر ما سمعت من كلامه، أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١٨٧/٢، وابن ماجه (١٦١٩).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢) (٥١).

الذي مات فيه: «أين أنا غداً، أين أنا غداً؟» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها، قالت عائشة: فمات في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي وإن رأسه لبين سحري ونحري، وخالط ريقه ريقني، قالت: ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستنّ به، فنظر إليه رسول الله، فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه، فقضمته، ثم مضغته، فأعطيته رسول الله ﷺ، فاستنّ به وهو مستندٌ إلى صدري^(١). [«السحر»: - بفتح السين - الرئة وما يتعلق بها، وهذه الطرق كلها في «الصحيحين»].

وقالت عائشة رضوان الله عليها: كان رسول الله - ﷺ - يقول: «لم يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُخير» فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذي غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» فقلت: إنه كان حديثه الذي كان يحدثنا به^(٢).

وقالت: ما رأيت الوجع أشد على أحد منه على رسول الله ﷺ^(٣).

[وقال البخاري: بإسناده، عن عائشة أنها كانت تقول: إن من نعم الله أن رسول الله توفي بيّتي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقني وريقه عند الموت].
وقالت: كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده فيها، ويمسح بالماء وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده^(٤).

وقالت: مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقتي وذاقتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعدما رأيت رسول الله ﷺ^(٥).

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل يده في قدح فيه ماء ويقول: «اللهم

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٠)، ومسلم (٢٤٤٣) مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤) (٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٤٦).

أعني على سكرات الموت»^(١).

[وفي المتفق عليه عنها] قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، فإنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وقالت: ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً فحذّرهم مثل ما صنعوا^(٢).

[وهذا الحديث كثير الروايات.

واختلفوا: كم صلى أبو بكر بالناس في مرض رسول الله ﷺ؟ على قولين: أحدهما: تسع عشرة صلاة. ذكره ابن حبيب الهاشمي.

والثاني: خمس عشرة صلاة. ذكره الواقدي، وثلاثة أيام لم يصل فيها رسول الله].

وقالت: ما رأيت أحداً كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ^(٣).

[وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده عليه فوجد حرارتها فوق القطيفة] فقلت له في ذلك، فقال: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل، وكما يشدد علينا البلاء يضاعف لنا الأجر»^(٤).

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ في مرضه إذا أدير على نسائه يحمل في ثوب يأخذ أطرافه الأربعة مواليه أبو مؤهبة، وشقران، وثوبان، وأبو رافع حتى استقر في بيت عائشة.

وفي هذا المرض لدؤه:

فيروي عن عائشة قالت: لدّنا رسول الله ﷺ في مرضه، فأشار أن لا تلدوني، قلنا: كراهية المريض الدواء، فلما أفاق قال: «ألم أنهكم أن تلدوني؟ لا يبقى منكم أحدٌ إلا لدّ غير العباس فإنه لم يشهدكم». انفرد بإخراجه البخاري^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠) وسلف قريباً.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢/١٨٥، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧١٢).

قال [أحمد بإسناده عن] هشام بن عروة: أخبرني أبي أن عائشة قالت له: يا ابن أختي، لقد رأيت من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أمراً عجيباً، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تأخذه الخاصرة، فيشتدُّ به جداً، فكنا نقول: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم - عرق الكلية لانهتدي أن نقول الخاصرة، ثم أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فاشتدَّت به حتى أغمي عليه، وخفنا عليه، وفزع الناس إليه، فظننا أن به ذات الجنب، فلددناه ثم سُري عنه، وأفاق، فعرف أنه قد لُدَّ، ووجد أثر اللدود، فقال: «ظننتم أن الله سلَّطها عليّ؟ ما كان الله ليفعل ذلك، أمّا والذي نفسي بيده، لا يبقَى في البيتِ أحدٌ إلا لُدَّ، إلا عمِّي العباسُ» فرأيتهم يلدونهم رجلاً رجلاً، وبلغ اللدود أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلدت امرأة امرأة، حتى بلغ اللدود امرأة منا [فقال ابن الزناد: لا أعلمها إلا ميمونة، قال: وقال بعض الناس: أم سلمة] قالت: إني والله صائمة، فقلنا: بس ما ظننت أنا نتركك وقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلددناها وإنما لصائمة^(١). [وفي رواية: فقالت أم سلمة: هذا من دواء الحبشة لُدُّوه، فلُدَّ بالكُستِ والزيت.

وفي رواية الواقدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كان الله لِيُسلِّطها على رسوله، إنها همزةٌ من الشيطان، ولكِنَّها من الأكلة التي أكلتُ بخيبر» وكانت عنده أم بشر بن البراء ابن معرور، فقال: «هذه من الأكلة التي أكلتُ أنا وابنك، ما زالت تُعاودني وهذا أوانٌ قطعتُ أبهري»^(٢).

و«الأبهر»: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

وقال الجوهري: «اللُدود»: هو ما يُصَبُّ من الأدوية في أحد شقِّي الفم^(٣).

وقال الزجاج: هو مثل السُّعوط يكون من الكست والزيت.

وقال الزهري: الذي لد به رسول الله صلى الله عليه وسلم العود الهندي والزيت.

وفي هذا المرض صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر، وذكر التخير.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٧٠).

(٢) «الطبقات» ٢/٢٠٨.

(٣) الصحاح (لدد).

قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن ابن أبي العلاء، عن أبيه أن النبي ﷺ خطب يوماً فقال: «إن رجلاً خيره ربه عز وجل بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يعيش فيها، ويأكل منها ما شاء أن يأكل، وبين لقاء ربه، فاختر لقاء ربه»، قال: فبكى أبو بكر، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لا تعجبون من هذا الشيخ يبكي أن ذكر رسول الله ﷺ رجلاً صالحاً خيره ربه بين لقاءه وبين الدنيا، فاختر لقاء ربه، وكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: بل نفديك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك بأموالنا وآبائنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما من الناس أحد أمن علينا في صحبتته وذات يده من ابن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً خليلاً اتخذت ابن أبي قحافة، ولكن وداً وإخاء إيمان - قالها مرتين - ولكن صاحبكم خليل الله تعالى»^(١).

وفي هذا المرض نبغ مسيلمة والأسود العنسي [حدثنا أبو الطاهر الخزيمي بإسناده] عن ابن عباس قال: خرج رسول الله - ﷺ - في مرضه عاصباً رأسه، فصعد المنبر، فحمد الله، وقال: «أيها الناس، رأيت في منامي كأن سوارين من ذهب في يدي، فكرهتهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمامة، وصاحب اليمن»^(٢).

وفي هذا المرض اقتص من نفسه ﷺ.

[قال ابن سعد بإسناده، عن جعفر بن برقان، حدثني رجل من أهل مكة قال: دخل الفضل بن العباس على رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه، فقال: «يا فضل، أشد رأسي بهذه العصابة»، فشده، وأخذ الفضل بيده، فدخل المسجد، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، فأئماً رجل جلدت له ظهراً فهذا ظهري، وأئماً رجل أصبت من عرضه فهذا عرضي، ومن بشره فهذا بشري فليقتص مني، أو من ماله فهذا مالي، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء فأخذه وحلطني، فلقيت ربي وأنا محلل، ولا يقول أحدكم: إنني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله ﷺ فإنهما ليسا من طبيعتي ولا من خلقي» فقام رجل،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤)، وعندهما عنه عن أبي هريرة، وانظر «المسند» (٢٣٧٣).

فقال: يا رسول الله، إنك أخذت مني ثلاثة دراهم، فتصدقت بها على مسكين، فقال: «يا فضل، أعطه إياها»^(١).

[قال كثير بن هشام: وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريف الأمة، أن من فعل ذلك ظلماً ينبغي له أن يؤدّب،] وإلاً فهو منزّه عن الظلم.

قلت: وقد أخرج جدي رحمه الله في «الموضوعات» بإسناده عن وهب بن منبه حديثاً من هذا الجنس، وفيه: فقام عكاشة بن محصن فقال: إنك ضربتني بقضيب وأريد القصاص، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحضر قضيباً وأمره أن يقتص منه، وذكر ألفاظاً ركيكة ومعاني سمجة وحديثاً طويلاً.

ثم قال جدي في آخره: هذا حديث موضوع محال، كافأ الله من وضعه، وقبح من شين الشريعة بمثل هذا التخليط البارد والكلام الذي لا يليق بمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة، والمتهم بوضعه عبد المنعم بن إدريس، قال أحمد بن حنبل: كان يكذب على وهب، وقال يحيى: عبد المنعم كذاب خبيث، وقال ابن المديني وأبو داود: ليس بثقة^(٢).



(١) «الطبقات» ٢/٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) «الموضوعات» (٥٥٩).

الباب الثاني

في ذكر وصيته عليه الصلاة والسلام لأصحابه وأتباعه وأحبابه

قال ابن سعد: حدثنا الواقدي، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عون، عن ابن مسعود قال: نعى رسول الله - ﷺ - إلينا نفسه قبل موته بشهر، جمعنا في بيت أمنا عائشة، ونظر إلينا، فدمعت عيناه، وقال: «مَرَحَبًا بِكُمْ، حَيَّاكُمْ اللَّهُ بِالسَّلَامِ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، أَوَّاكُمُ اللَّهُ، حَفِظَكُمُ اللَّهُ، رَفَعَكُمُ اللَّهُ، نَصَرَكُمُ اللَّهُ، نَفَعَكُمُ اللَّهُ، وَفَقَّكُمْ اللَّهُ، هَدَاكُمُ اللَّهُ، سَلَّمَكُمْ اللَّهُ، وَقَاكُمْ اللَّهُ، [أَيَّدَكُمُ اللَّهُ] أَوْصِيَكُمُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَوْصِي اللَّهُ بِكُمْ، وَأَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ، وَأَحْذَرِكُمُ اللَّهُ، إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَائِلُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]»، قال: فقلنا: يا رسول الله، متى الأجل؟ قال: «قد دَنَا، وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَجَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى» قلنا: يا رسول الله، من يُغْسَلُكَ؟ قال: «رجالُ أهلِ بَيْتِي، الْأَذْنَى فَالْأَذْنَى» قلنا: يا رسول الله، ففيم نكفُّنكَ؟ قال: «في ثيابي هذه إن شِئْتُمْ أَوْ حُلَّةِ يَمَانِيَةِ أَوْ بِيَاضِ مِصْرَ» قلنا: فمن يصلي عليك، وبكينا، فقال: «مَهْلًا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، وَجَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا، إِذَا وَضَعْتُمُونِي عَلَى سَرِيرِي بَعْدَ أَنْ تَغْسَلُونِي وَتُكْفِنُونِي، فَضَعُونِي عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَأُولَ مَنْ يَصَلِّي عَلَيَّ خَلِيلِي وَحَبِيبِي جَبْرِيلُ» وفي رواية: «اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ إِسْرَافِيلُ، ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ ادْخُلُوا عَلَيَّ فَوْجًا فَوْجًا، فَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا، وَلَا تُؤْذُونِي بِصِيحَةٍ وَلَا بَرْنَةٍ، وَلِيبدأ بِالصَّلَاةِ عَلَيَّ رِجَالُ أَهْلِ بَيْتِي، ثُمَّ نِسَاؤُهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ، وَأَقْرَبُوا السَّلَامَ عَنِّي مَنْ غَابَ مِنْ أَصْحَابِي وَمَنْ تَبَعَنِي عَلَى دِينِي مِنْ يَوْمِي هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَا وَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ سَلَّمْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وفي رواية: فقلنا: من يدخلك قبرك؟ فقال: «أهلي مع ملائكة كثيرة»، قلنا: وإلى أين المصير؟

فقال: «إلى الرفيق الأعلى، والعيش الأهنأ، والكأس الأوفى»^(١).

قلت: وهذه الوصية العامة، فأما الخاصة فقال ابن سعد بإسناده، عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته: «ادع لي علياً، أو أخي علياً»، فدعي له، فقال: «ادن مني» قال علي: فدنوت منه فاستند إليّ، فلم يزل يكلمني حتى إن بعض ريقه ليصليني، قال: ثم ثقل في حجري فصحت: يا عباس أدركني فإني هالك، فجاء العباس فكان جهدنا أن أضجعناه^(٢).

وقد أنكرت عائشة أن علياً كان وصياً، فقالت: متى أوصى إليه، فقد كنت مسندته إلى صدري أو قالت: في حجري، فدعا بالطست، فلقد انخث في صدري وما شعرت أنه مات، فمتى أوصى إليه، أخرجاه في «الصحيحين»^(٣). ومعنى «انخث»: انثنى.

وقد ردّ ابن عباس هذا وأن رسول الله توفي بين سحرها ونحرها، قال: والله لقد توفي وإنه لمستند إلى صدر علي، وهو الذي غسله وأخي الفضل بن العباس^(٤).

وروى ابن إسحاق، عن الشعبي قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجر علي بن أبي طالب^(٥).

وقال محمد بن إسحاق في «المغازي» في أولها: حدثنا عبد الله بن عينية العبدي، عن وهب بن كعب بن عبد الله بن سور الأزدي^(٦)، عن سلمان الفارسي قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، ليس من نبي إلا وله وصي، فمن وصيك؟ فقال:

(١) «الطبقات الكبرى» ٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥، وجاء بعدها في (ك): وقد ذكر الواقدي بمعناه. وما سيرد بين معكوفين منها.

(٢) «الطبقات» ٢/ ٢٣٠.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤١)، ومسلم (١٦٣٦).

(٤) «الطبقات» ٢/ ٢٣٠ - ٢٣١.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٢/ ٢٣٠ عن الواقدي.

(٦) كذا جاء في (ك)؟! وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٣٦٨ من طريق يونس بن بكير، عن عتبة بن عتبة البصري العبدي، عن أبي سهل، عن وهب بن عبد الله بن كعب بن سور، مختصراً.

«إن الله بعث أربعة آلاف نبي كان لهم أربعة آلاف وصي، وثمانية آلاف سبط، والذي نفسي بيده لأنا خير النبيين، وإن وصيي لخير الوصيين، وسبطاي خير الأسباط.

وقالت أم سلمة رضي الله عنها: إن علي بن أبي طالب لأقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ - دعا به في مرضه، فناجاه طويلاً وأوصاه بما أراد^(١).

وأخرج أحمد رحمة الله عليه عن أنس قال: قلنا لسلمان: من كان وصي رسول الله ﷺ [فسأله سلمان] عن ذلك فقال: «مَنْ كَانَ وَصِيَّ مُوسَى؟» قلت: يوشع بن نون، فقال: «إِنَّ وَصِيَّ وَوَارِثِي وَمُنْجِزَ وَعَدِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»^(٢).

وقال الإمام أحمد - رحمة الله عليه - : حدثنا حجاج، حدثنا مالك بن مغول، أخبرني طلحة قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قلت: كيف أمر المؤمنين بالوصية [ولم يُوصر؟] قال: أوصى بكتاب الله. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

أشار ابن أبي أوفى إلى الوصية [التي كتبها الله في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] فكانت الوصية فرضاً ثم نسخت بآية الميراث.

قال المصنف - رحمه الله - : وقد أخرج الحميدي حديث عبد الله بن أبي أوفى في «الجمع بين الصحيحين»، وقال على أثره: وقد أخرج أبو مسعود والبرقاني في هذا الحديث زيادة لم يخرجها البخاري ولا مسلم، وهي أن هزيل بن شرحبيل قال: أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله ﷺ؟ ودَّ أبو بكر لو وجد عهداً من رسول الله ﷺ - فَخَزَمَ أَنْفَهُ بِخِزَامَةٍ^(٤).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٥٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٥٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١٢٣) والبخاري (٢٧٤٠)، ومسلم (١٦٣٤).

(٤) الجمع بين الصحيحين (٨٢٢)، وقد أخرج هذه الزيادة أحمد في «مسنده» (١٩٤٠٨).

الباب الثالث

في ذكر ما أعتق ﷺ في مرضه وما تصدق به

[قال علماء السير]: أعتق جميع أعبده في مرضه وإمائه [وسنذكرهم فيما بعد]، ولم يكن عنده سوى ستة دنانير، فأخرجها، [قال ابن سعد بإسناده، عن عائشة]: غُشي على رسول الله - ﷺ - في مرضه الذي مات فيه، فلما أفاق قال لها: «هل أنفقت ذلك الذهب؟» قالت: قلت: لا، قال: «فعليَّ به»، فجئته به، فوضعه في كفه، وعده، فإذا هو ستة دنانير، فقال: «ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده؟» فأخرجها، وتوفي في ذلك اليوم^(١).



(١) طبقات ابن سعد ٢/٢٠٩.

الباب الرابع

في ذكر وفاته [والكتاب الذي أشار إليه قبيل مماته ونحو ذلك:

ذكر الواقدي في «المغازي» وقال: [لما كان يوم السبت عاشر ربيع الأول جاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ فيهم عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه -، ورسول الله ﷺ يقول: «أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسَامَةَ» ودخلت عليه أم أيمن، فقالت: يا رسول الله لو تركت أسامة يقيم في معسكره حتى تماثل، فإن أسامة إن خرج على حاله هذه لم ينتفع بنفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أَنْفِذُوا بَعَثَ أُسَامَةَ» فمضى الناس إلى المعسكر، فباتوا ليلة الأحد، ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور، وهو اليوم الذي لَدُّوه فيه، فدخل على النبي ﷺ وعيناه تَهْمُلَانِ، وعنده العباس، والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبله ورسول الله ﷺ لا يتكلم، وجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يصبهما على أسامة، يدعو له، وغدا أسامة إلى معسكره، فلما أصبح يوم الاثنين غدا من معسكره، وأصبح رسول الله ﷺ مُفِيقاً، فجاء أسامة يُودِّعه، فقال: «اغْدُ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ» فودعه أسامة، ورسول الله ﷺ مُفِيقٌ، وجعل نساءه يتماشطن سروراً.

ودخل أبو بكر رضوان الله عليه فقال: يا رسول الله، أصبحت بحمد الله مُفِيقاً، واليوم يوم ابنة خارجة، فأذن لي، فأذن له، فذهب إلى السُّنْحِ وخرج أسامة إلى معسكره، وصاح في أصحابه باللحوق به، ونزل أسامة بالجرف، وأمر الناس بالرحيل، وقد متع النهار [أي: ارتفع]، فبينا أسامة يريد أن يركب من الجرف أتاه رسول أم أيمن، وهي أمه، تخبره أن رسول الله ﷺ يموت، [قال ابن إسحاق: إنما بعث رسولاً إلى أسامة امرأته] فأقبل أسامة إلى المدينة ومعه عمر وأبو عبيدة [بن الجراح] ﷺ فانتهاوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت، فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بُرَيْدَةُ بن الحصيْب بلواء أسامة رضوان الله عليه معقوداً

حتى أتى باب رسول الله ﷺ فغرزته عنده، فلما ولي أبو بكر رضوان الله عليه أمرَ بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة، وأن لا يحله أبداً حتى يغزوهم أسامة، قال بريدة: فخرجت باللواء حتى انتهيت إلى بيت أسامة، ثم خرجت به إلى الشام معقوداً مع أسامة، ثم رجعت به إلى بيت أسامة فما زال معقوداً في بيته حتى توفي أسامة. هذا قول الواقدي^(١).

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: خرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه من عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بارئاً بحمد الله، فأخذ العباس بيد علي، وقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني لأرى رسول الله ﷺ يموت في مرضه هذا، وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ نسأله فيمن يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا، وإن كان في غيرنا أوصى بنا من بعده، فقال له علي: والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمنعنا إياها لا يعطينا الناس إياها أبداً، والله لا أسألها أبداً^(٢).

حديث الكتاب:

[قال أحمد بإسناده] عن ابن عباس قال: لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة قال: «هلمَّ أكتب لكم كتاباً لن تَضِلُّوا بعده» وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله أو القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت، واختصموا، منهم من يقول: يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما كثر اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني» فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب [من اختلافهم ولغظهم]^(٣). وهذا حديث مختصر.

(١) «المغازي» ٣/ ١١١٩ - ١١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٩٩٠)، وأخرجه البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (١٦٣٧) (٢٢).

طريق آخر: قال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدثنا سفيان، عن سليمان بن أبي مسلم، أنه سمع سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى بلّ دمعهُ الحصى، قلنا: يا أبا العباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ المرضُ برسول الله ﷺ فقال: «ايتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً» فتنازعوا، وما ينبغي عند نبيّ تنازع، فقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ استفهموه، فذهبوا يعيدون عليه، فقال: «دعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ ممّا تدعونني إليه» وأمرهم بثلاث فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوَفْدَ بنحو ما كنتُ أجيزهم»، وسكت سعيد عن الثالثة، فلا أدري أسكت عنها أو نسيها^(١)؟ وقد أخرج الحميدي هذا الحديث، وفيه: فقالوا: ما شأنه؟ فقال عمر: إن الرجل ليهجر^(٢).

قال المصنف رحمه الله: والظاهر من حال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه لا ينسب إلى النبي ﷺ مثل هذا، ولعلّه من تحريف الرواة، ويحتمل أن يكون معناه أن رسول الله ﷺ ليهجركم، من الهجر الذي هو ضد الوصل لما قد ورد عليه من الواردات الإلهية، ولهذا قال: «الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» ألا ترى إلى قوله: «قوموا عني، فما أنا فيه خيرٌ مما أنتم فيه».

وقال القاضي عياض: لا يصح أن يهجر رسول الله ﷺ وهو معصوم، لأن الهجر ما لا حقيقة له، وأنه لا يقول في الصحة والمرض والنوم واليقظة والرضى والغضب إلا حقاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾^(٣) [النجم: ٣].

[وفي رواية ابن سعد قال: لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام جاءه جبريل فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضلاً يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ فقال: «يا جبريل، أجدني مغموماً، وأجدني مهموماً، وأجدني مكروباً» قالها مرتين أو ثلاثاً، فلما كان في الثالث هبط جبريل ومعه ملك يقال

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٣٥)، وأخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧).

(٢) لم أقف عليه في «الجمع بين الصحيحين» والحديث فيه برقم (٩٨٠)، وعزاه الحافظ في «الفتح» ١٣٣/٨ إلى ابن سعد، وهو في «الطبقات» ٢١٣/٢.

(٣) انظر «إكمال المعلم»: ٣٧٩/٥.

له : إسماعيل ، يسكن الهواء ، لم يصعد إلى السماء قط ، ولم يهبط إلى الأرض منذ خلق الله المخلوقات ، وهو مقدّم على سبعين ألف صف من الملائكة تحت يد كل ملك سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم هبط ملك الموت فقال : هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على أحد من قبلك ، ولا يستأذن على أحد من بعدك ، فقال : «إئذن له» فدخل فوقف بين يديه وسلم عليه وقال : يا أحمد ، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما أمرتني به ، إن أمرتني قبضت وإن أمرتني تركت ، فالتفت إلى جبريل كالمستشير له ، فقال : يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك ، فقال : «امض يا ملك الموت لما أمرت به» فقال جبريل عليه السلام : هذا آخر هبوطي الأرض ، إنما كنت حاجتي من الدنيا^(١) . وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتفع جبريل وهو يقول : واصفياًه .

وقد أخرج جدي في «الصفوة» بمعناه فقال : [وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه ، فقال : إن الله تعالى يُقرئك السلام ، وكيف تجدك؟ قال : «أجدني وجعاً يا أمين الله» ثم جاءه من الغد ، ومن بعد الغد ، وهو يقول كذلك ، وجاء معه في اليوم الثالث ملك الموت ، وقال جبريل : هذا آخر عهدي بالدنيا بعدك ، ولن آسى على هالك من بني آدم بعدك^(٢) .

[وفي رواية ابن سعد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يا جبريل ، ادن مني» قالها ثلاثاً^(٣) .

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . متفق عليه^(٤) .

وقال الواقدي : بدئ برسول الله صلى الله عليه وسلم المرض يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر ، وتوفي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول .

[قال : وهو الثبت عندنا ، وكذا قال ابن عباس وأبو هريرة وأنس وغيرهم ، أنه أقام مريضاً ثلاثة عشر يوماً ، وقيل : اثني عشر يوماً .

(١) «الطبقات» ٢/٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) «صفوة الصفوة» ١/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) «الطبقات» ٢/٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٠٣٧) ، والبخاري (٥٨١٨) ، ومسلم (٢٠٨٠) .

وقال ابن عباس: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، ونبي يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين^(١).

وقال أحمد بإسناده عن أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضواء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا^(٢).

وفي رواية أحمد أيضاً، وفيه طرف من قدوم النبي ﷺ المدينة، وفيه: فما رأيت يوماً قط كان أنور ولا أحسن من يوم دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، وشهدت يوم وفاته، فما رأيت أقبح من اليوم الذي مات فيه^(٣).



(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٣/ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣١٢) .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٢٣٤) .

الباب الخامس

في ما جرى بعد وفاته

قام عمر رضوان الله عليه يقول: ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، وجاء أبو بكر رضوان الله عليه فكشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبله، وقال: بأبي أنت، طُبتَ حياً وميتاً يا رسول الله، لا يجمعُ الله لك بين موتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متَّها، ثم خرج، فقال: أيها الحالف، على رسلك، فلما تكلم أبو بكر رضوان الله عليه جلس عمر رضوان الله عليه فحمد أبو بكر الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ، فقال عمر: أيها الناس هذا أبو بكر فبايعوه.

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: والله ما هو إلا أن تلاها أبو بكر، يعني ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ حتى خررت إلى الأرض، وأيقنت أن رسول الله ﷺ قد مات^(١).



(١) أخرج الخبر البخاري (٣٦٦٧) (٣٦٦٨)، وابن سعد في «الطبقات» ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥.

الباب السادس

في ذكر غسله وأكفانه والصلاة عليه ودفنه

قال ابن عباس: لما اجتمع القوم لغسل رسول الله ﷺ وليس في البيت إلا أهله: عمه العباس، وعلي، والفضل بن عباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وصالح مولاه، فلما اجتمعوا لغسله نادى من وراء الباب أوس بن خولي الأنصاري ثم أحد بني عوف بن الخزرج، وكان بدرياً، علي بن أبي طالب فقال: يا علي نشدتك الله، وحظنا من رسول الله ﷺ، فقال له علي: ادخل، فدخل، فحضر غسل رسول الله ﷺ ولم يل من أمره شيئاً، فأسنده علي إلى صدره، وعليه قميصه، وكان العباس والفضل وقثم يقلّبونه مع علي، وكان أسامة بن زيد وصالح يصبّان الماء عليه، وعلي يغسله، ولم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت، وعلي يقول: بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً.

حتى إذا فرغوا من غسله، وكان يُغسل بالماء والسدر، ثم أدرجوه في ثلاثة أثواب، ثوبين أبيضين وبرد حبرة.

قال: ثم دعا العباس رجلين، فقال: ليذهب أحدهما إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان أبو عبيدة يضرخ لأهل مكة، وليذهب الآخر إلى أبي طلحة بن سهل الأنصاري، وكان أبو طلحة يلحد لأهل المدينة، ثم قال العباس حين سرحهما: اللهم خر لرسول الله ﷺ، قال: فذهب فلم يجد صاحب أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء، فلحد لرسول الله ﷺ. أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند»^(١).

[وقال ابن إسحاق: لما غسل علي رسول الله ﷺ نودي علي: ارفع طرفك إلى السماء^(٢)].

(١) أحمد في «المسند» (٢٣٥٧).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٧/٢٤٤ - ٢٤٥، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/١٢١: وهذا منقطع.

وقال ابن سعد: اسم الرجل الذي نادى علياً: نَشُدُّكَ اللهُ حَظَّنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، هو أوس بن خُولَيِّ، شهد بدرًا وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأمه جميلة بنت أبي بن مالك، أخت عبد الله بن أبي بن سلول.

وكان يُسَمَّى الكامل؛ لأنه جمع بين الرمي والكتابة والسباحة، وهو الذي جعله رسول الله ﷺ على الغنائم لما دخل مكة في غزوة القُضَيْيَّة، وعاش إلى أيام عثمان^(١). وأخرج أحمد عن جرير بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال: «اللَّحْدُ لَنَا وَالشَّقُّ لغيرنا»^(٢) يعني أهل الكتاب.

وقد روي ذكر الكفن وحده في حديث: فقال أحمد: بإسناده [عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ: قَمِيصِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَحُلَّةٍ نَجْرَانِيَّةٍ^(٣)].

[وفي رواية «المسند» أيضاً عن ابن عباس]^(٤) أنه قال: كفن في ثوبين أبيضين وبرد أحمر^(٥)، [قلت: وقد أخرج أحمد في «المسند» بإسناده عن محمد بن الحنفية [عن أبيه علي ﷺ قال: [كفن رسول الله ﷺ في سبعة أثواب^(٦)].

[وقال أحمد بإسناده، عن هشام بن عروة عن أبيه] عن عائشة أن أبا بكر قال لها: يا بِنْتِ، أَيُّ يَوْمٍ تُوْفِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قلت: يوم الاثنين، قال: في كم كفنتم رسول الله ﷺ؟ قلت: يا أبة كَفَّنَاهُ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ جُدُدٍ يَمَانِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ، أُدْرَجَ فِيهَا إِدْرَاجاً^(٧). [أخرجاه في «الصحيحين» من غير قول أبي بكر لها. و«سحول»: قرية باليمن يعمل فيها الثياب البياض.

(١) طبقات ابن سعد ٢/٢٤٣ و ٣/٥٠٢.

(٢) مسند أحمد (١٩١٥٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٤٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٨٤).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٢٨).

(٦) مسند أحمد (٧٢٨).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٦٩).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده، عن [جعفر بن محمد قال: كان الماء يَسْتَنْقِعُ في جُفون رسول الله ﷺ، وكان علي يحسوه^(١)].

[قال ابن سعد]: وكان علي رضوان الله عليه يقول: أوصى إلي رسول الله ﷺ أن لا يغسله غيري^(٢).

[قال الهيثم:] وروي أنهم شدوا عيونهم بالعصائب إلا علي، فقال الشاعر: [من الكامل]

غسل النبي وعينه مفتوحة وعيونكم معصوبة في الهام
[وقال ابن سعد بإسناده عن] عائشة رضوان الله عليها قالت: لما أرادوا أن يغسلوا رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، وقالوا: ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا أم نغسله في ثيابه؟ فألقي عليهم النعاس حتى ما منهم رجل إلا وذقنه على صدره، ثم ناداهم مناد من ناحية البيت: غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فغسلوه كذلك، وكانت تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه^(٣).

[قال ابن سعد: حدثنا الواقدي] قال علي رضي الله عنه: لما أخذنا في جهاز رسول الله ﷺ أغلقنا الباب دون الناس جميعاً، فنادت الأنصار: نحن أخواله، وهو ابن أختنا، ومكاننا في الإسلام مكاننا، ونادت قريش: نحن عصبته، فقال أبو بكر: القوم أولى به، لا يدخل عليهم إلا من أرادوا^(٤).

وغسل من بثر غرس، وكان يشرب منها، وغسل في المرة الأولى بالماء القراح، وفي الثانية بالماء والسدر، وفي الثالثة بالماء والكافور.

[وقال هشام:] ولما فرغوا من غسله وضعوه على سريره، وخرجوا كما أمرهم، فصلى عليه الله تعالى، وملائكته أفواجاً أفواجاً.

ثم دخل المسلمون فصلوا عليه بغير إمام، الرجال أولاً، ثم النساء، ثم الصبيان،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٠٣).

(٢) «الطبقات» ٢/٢٤٢.

(٣) «الطبقات» ٢/٢٤٠، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢٦٣٠٦).

(٤) «الطبقات» ٢/٢٤٢.

وهم يبكون، ويقولون: السلام عليك يا رسول الله، لقد أديت، ونصحت، وجاهدت في سبيل الله، اللهم اجمع بيننا وبينه.

وقال الواقدي: لما أدرج رسول الله ﷺ في أكفانه وضع على سريره، ثم على شفير قبره. [فحدثني محمد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، وابن عباس قال:] وأول من صلى عليه من الناس العباس وبنو هاشم، ثم خرجوا، ودخل المهاجرون والأنصار، فلما صلوا دخل النساء والصبيان، ثم وضع أزواجه الجلايب عن رؤوسهن، وجعلن يلتدمن في صدورهن، ونساء الأنصار يضربن الوجوه فذبحت حلوقهن من الصياح.

[وقال الواقدي]: وكانت قريش تحب النوم على السرير، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أهدى له أسعد بن زرارة سريراً قوائمه ساج، فكان ينام عليه، ثم وهبه لعائشة، فلما توفي رسول الله ﷺ وضع عليه، وصلي عليه وهو فوقه، ثم حمل عليه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - واشترى ألواح عبد الله بن إسحاق الإسحاقي بأربعة آلاف درهم من موالي معاوية^(١).

[وذكر الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل»: أن الصحابة] اختلفوا في دفن النبي ﷺ، فأراد أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكة، وقالوا: هي مسقط رأسه ووطن أهله. وقال الأنصار: المدينة أولى لأنها دار هجرته وفيها أظهر الله دينه، وقال قوم: ننقله إلى بيت المقدس لأنها مقر الأنبياء ومنه عرج به إلى السماء [ثم اتفقوا على المدينة^(٢)].

وقال أحمد بإسناده، عن ابن جريج، عن أبيه: أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يدروا أين يقبروه [حتى قال لهم أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يقبر نبي إلا حيث يموت» فأخروا فراشه، وحفروا له تحته^(٣)].

(١) «أنساب الأشراف» ١/٦١٦.

(٢) «الملل والنحل» ١/٢٣ - ٢٤.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٧).

وكان دفنه ليلة الأربعاء بعد نصف الليل^(١) [وقال هشام: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين عند ارتفاع الضحى، فأقام يومين وليلة حتى دفنوه. وكذا روى جعفر بن محمد، عن أبيه. حكاه جدي في «الصفوة»، فإنه قال: قبض ﷺ يوم الاثنين فمكث ذلك اليوم ويوم الثلاثاء، ودفن في الليل^(٢)].

وقال هشام: أرادوا أن يدفنوه في المسجد، فقالت لهم عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣) فدفنوه في حجرتها.

وقال الواقدي: [نزل في حفرته العباس وقثم والفضل وعلي وأسامة وأوس بن خولي رضي الله عنه، وبني عليه في قبره تسع لبنات، فلما فرغوا خرجوا من اللحد، وأهالوا التراب عليه.

وروى الواقدي عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي في المسجد ليلة الثلاثاء^(٤).

وقالت أم سلمى رضي الله عنها: فصحننا، وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة، فلما أذن بلال الفجر بكى فانتحب، فزادنا حزناً، [وقد روي أن النبي ﷺ دفن ليلة الثلاثاء، وليلة الأربعاء أصح.

واختلفوا هل سنم قبره أو سطح على قولين ذكرهما الواقدي، فحكى عن موسى بن محمد، عن أبيه: أنه جعل قبره ﷺ ارتفاعه شبراً^(٥). قال: ورشوا عليه الماء، وجعلوا على قبره طناً من قصب^(٦).

وأخرج مسلم عن سفيان التمار قال: أخبرني من رأى قبر النبي ﷺ مستمماً^(٧).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٨) من حديث ابن عباس، وانظر «الطبقات» ٢/٢٣٨.

(٢) «صفوة الصفوة» ١/٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢٥١٢٩).

(٤) «الطبقات» ٢/٢٦٥.

(٥) انظر «الطبقات» ٢/٢٦٧ فالخبر فيه عن جعفر بن محمد، عن أبيه.

(٦) أي: حزمة من قصب.

(٧) لم يخرج مسلم، وإنما أخرجه البخاري بإثر (١٣٩٠)، وهو من أفراد كافي «الجمع بين الصحيحين» (١١٧٩).

وقيل: [كان قبره ﷺ مسطوحاً^(١) .

[وحكى ابن إسحاق عن أبي معشر عن محمد] بن قيس: لما انهدم الحائط الذي على قبر رسول الله ﷺ [رأيت قبره] مرتفعاً من الأرض مقدماً إلى القبلة، وقبر أبي بكر وراءه من قبل رأس رسول الله ﷺ، وقبر عمر وراء قبر رسول الله ﷺ من قبل رجله بحذاء قبر أبي بكر، كان قبر رسول الله ﷺ أمام وهما خلفه.

وقال عامر بن سعد بن أبي وقاص: قال أبي: الحدوا لي لحداً، وانصبوا عليّ اللبن نصباً كما صنع لرسول الله ﷺ^(٢) .

[قلت: وقد اختلفوا في صفة قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، وسنذكره في ترجمة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .]

واختلفوا في آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ:

[فحكى ابن سعد عن الواقدي] أن المغيرة بن شعبة كان يقول: أنا أحدثكم برسول الله ﷺ عهداً، ألقيت خاتمي في قبره، وقلت: خاتمي خاتمي [وإنما فعلته] لأمس رسول الله ﷺ فأضع يدي على اللبن فأكون آخر الناس عهداً به^(٣) .

قال الواقدي: فقالوا له: إنما ألقيت خاتمك لكي تنزل فيقال: نزل في قبر رسول الله ﷺ، فوالله لا تنزله أبداً، فنزل بعضهم فأخرجه إليه^(٤) .

وروي: أن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه نزل فأعطاه إياه، أو أمر قثم بن العباس فأعطاه إياه.

قال: وروي أن المغيرة نزل فأخذه. [وروي عن ابن عباس قال وقيل له بأن المغيرة يزعم أنه أقرب الناس عهداً برسول الله؟ فقال: كذب، آخر الناس عهداً برسول الله قثم ابن العباس^(٥) .

(١) «أنساب الأشراف» ١/ ٦٦٤ .

(٢) «الطبقات» ٢/ ٢٥٨ .

(٣) «الطبقات» ٢/ ٢٦٤ .

(٤) انظر «الطبقات» ٢/ ٢٦٤ .

(٥) «الطبقات» ٢/ ٢٦٤ .

وذكر البلاذري: أن علياً عليه السلام قال لابنه الحسن: انزل فأخرج خاتم المغيرة، فنزل فناوله إياه، فكان الحسن آخر الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١).

وحكى ابن سعد عن جابر بن عبد الله قال: فرش في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [قطيفة حمراء كان يلبسها] ^(٢).

وفي رواية: ألقاها غلامٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره، وقال: والله لا لبسها أحد بعدك ^(٣).

[وقال ابن قتيبة: والذي ألقاها شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤).

وقال وكيع: وهذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ^(٥).

وقال ابن سعد بإسناده [عن الحسن البصري أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افرشوا لي قطيفتي في لحدي، فإن الأرض لن تسلط على أجساد الأنبياء» ^(٦). قال الحسن: وهذه القطيفة أصابها يوم بدر.

وكانت عائشة رضي الله عنها قد رأت في منامها كأنه سقط في حجرتها ثلاثة أقمار، فأخبرت أباهما، فلما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرتها قال لها أبو بكر رضي الله عنه: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها ^(٧).

[ذكر تعزية الملائكة لأهل البيت:

حكى ابن سعد والبلاذري عن المدائني، وذكره هشام، قالوا جميعاً: [

عن ابن عمر رضوان الله عليهما قال: لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسجى قعدنا نبكي

(١) «أنساب الأشراف» ١/٦٦٥.

(٢) في (أ، خ): ثم وضع تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء كان يلبسها، والمثبت من (ك)، وانظر «الطبقات» ٢/٢٦١.

(٣) «الطبقات» ٢/٢٦١.

(٤) «المعارف» ص ١٦٦.

(٥) «الطبقات» ٢/٢٦٠.

(٦) «الطبقات» ٢/٢٦١.

(٧) أخرجه مالك في «الموطأ» (٥٥٢)، وابن سعد في «الطبقات» ٢/٢٥٦.

حوله، فسمعنا صوتاً من الهوي يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله خلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإليه فارجعوا، وإنما المصاب من حُرْمِ الثواب، قال ابن عمر: فسمع هذا الكلام أهل البيت والمسجد والطرق، وبكى الناس حتى كادت أنفسهم تخرج من الصراخ، وخرج الولدان والنساء والصبيان، فظنناه جبريل يعزينا في رسول الله ﷺ^(١).
وعن علي رضي الله عنه أنه قال: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا، قال: هو الخضر عليه السلام^(٢).

[ذكر نذب فاطمة عليها السلام:]

قال البخاري: بإسناده، عن أنس قال: لما نُقِلَ رسول الله ﷺ جَعَلَ يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال لها: «ليسَ على أبيك كَرْبٌ بعدَ اليوم». فلما مات قالت: يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، فلما دفن قالت فاطمة رضوان الله عليها: يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب.
[انفرد بإخراجه البخاري^(٣).

ورواه أحمد مختصراً وزاد فيه: يا أبتاه من ربه ما أدناه^(٤).

كذا وقع في عامة النسخ: أنعاه، وهو غلط من الرواة، والصحيح ننعاه بغير ألف^(٥).

وقد ذكره الجوهري وقال: هو نعي، والنَّعْيُ: خبر الموت، فيقال: جاء نعي فلان، والنَّعْيُ: الناعي، قال: وقال الأصمعي: كان إذا مات من العرب ميت له قدرٌ ركب راكباً فرساً وسار في الناس ويقول: نعاء فلاناً أي: انعه^(٦).

(١) «الطبقات» ٢/٢٣٩، و«أنساب الأشراف» ١/٦٥٢.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٦٥٣.

(٣) في صحيحه (٤٤٦٢)، وما سيرد بين معكوفين زيادة من (ك).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠٣١).

(٥) قال ابن حجر في فتح الباري ٨/١٤٩: قيل: الصواب: إلى جبريل نعاه، جزم بذلك سبط ابن الجوزي في «المرآة»، والأول موجه، فلا معنى لتغليط الرواة بالظن.

(٦) «الصحاح»: (نعاء).

قلت: وقد أشار محمد رحمه الله إلى هذا في «الجامع الصغير» بقوله: ولا بأس بالإذن في صلاة الجنازة^(١). وهي من خواص «الجامع الصغير». وفي بعض النسخ: ولا بأس بالآذان، أي الإعلام بأن يُعلم بعض الناس بعضاً ليحضر إخوان الميت فيقضوا حقه، ولم يرد به في النداء في الأسواق لأنه فعل الجاهلية، نهى رسول الله ﷺ عن النعي^(٢)، لأن أهل الجاهلية كانوا ينعون موتاهم ويتكلمون بالكذب في مدح أهاليهم، فنهاهم عن ذلك.

وقد اختلف السلف في الإعلام بالجناز:

فرخص فيه ابن عمر وأبو هريرة وأنس، وروي أنه لما مات رافع بن خديج قال ابن عمر: كيف تريدون أن تصنعوا به؟ قالوا: نجسه حتى نرسل إلى قباء وإلى قريات حول المدينة ليشهدوا جنازته، فقال: نعم ما رأيتم^(٣).

وكره ذلك ابن مسعود وعلقمة والربيع بن خثيم، فإنهم قالوا عند الموت: لا تؤذنوا بموتنا أحداً^(٤).

والصحيح: أنه لا بأس به، وإنما المكروه النداء في الأسواق وهو فعل الجاهلية. وقد أشار إليه في «المحيط» فقال: لا بأس بالنداء لتكثير الجماعة والمستغفرين للميت وتحريض الناس على الطاعة وحثهم على الاستعداد لمثله، وإنما المكروه فعل الجاهلية.

وقال ابن منصور: يجوز النداء في الأسواق إذا كان الميت محتشماً مثل الأئمة والصالحين، وقد ثبت أن النبي ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج إلى المصلى وقد ذكرناه].



(١) «الجامع الصغير» ص ١١٦.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٢٧٠) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أورده ابن عبد البر في «التمهيد» ٦/ ٣٢٧.

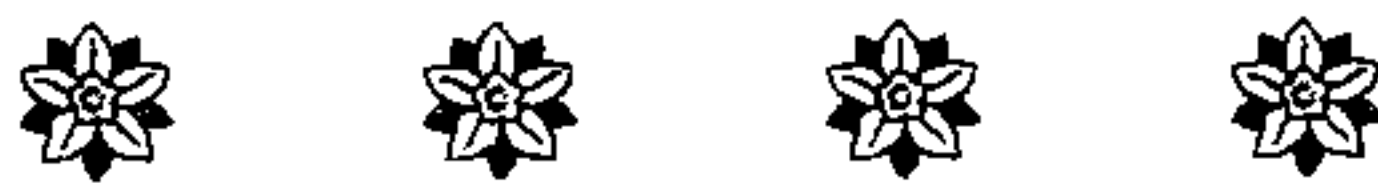
(٤) أخرج أقوال الثلاثة ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٢/ ٤٧٥.

الباب السابع في مبلغ عمره

[واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه عاش ثلاثاً وستين سنة، وعلى هذا عامة العلماء] قال الإمام أحمد -
رحمة الله عليه -: حدثنا يزيد بن هارون، ومحمد بن جعفر قالا: أنبأنا هشام، عن
عكرمة، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، ومكث بمكة
ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة. متفق
عليه^(١).

وقال عمار مولى بني هاشم: قلت لابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟
قال: خمس وستون، بعث لأربعين، وأقام بمكة خمس عشرة، وبالمدينة عشر^(٢).
[والثاني: ستون سنة، قال البخاري، قالت عائشة: مكث رسول الله ﷺ عشر سنين
بالمدينة، وأنزل عليه وهو ابن أربعين سنة]^(٣).
والأصح ثلاثاً وستين سنة.



(١) أحمد في «مسنده» (٢١١٠)، والبخاري (٣٩٠٣)، ومسلم (٢٣٥١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٤).

الباب الثامن

في ذكر شيء مما رثي به من الأشعار وما ورد في ذلك من الآثار

وقد رثي رسول الله ﷺ بأشعار كثيرة فنقتصر على شيء منها، [وقد ذكر ابن إسحاق والواقدي طرفاً من ذلك فقالا: وقال أبو بكر رضي الله عنه يرثي رسول الله ﷺ ويبيكه^(١): [من الكامل]

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَّجِدِلًا ضَاقَتْ عَلَيَّ بَعْرُضِهِنَّ الدُّورُ
فَارْتَعَتْ رَوْعَةً مُسْتَهَامٍ وَالهِ وَالْعَظْمُ مِنِّي وَاهِنٌ مَكْسُورُ
أَعْتِيقُ وَيَحْكُ إِنَّ جِبَّكَ قَدْ ثَوَى وَبَقِيَتْ مُنْجِدِلًا وَأَنْتَ حَسِيرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلِكَ صَاحِبِي غُيِّبْتُ فِي جَدَثٍ عَلَيَّ صَخُورُ
فَلتَحْدِثْنِ بَدَائِعُ مَنْ بَعْدِهِ تَعْيَابِهِنَّ جَوَانِحُ وَصَدُورُ
قال ابن إسحاق: وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هذه الأبيات^(٢):

[من الوافر]

أرقتُ وبياتٍ ليلى لا يزولُ وليلٌ أخي المحبَّة فيه طولُ
وأسعدني البكاءُ وذاك فيما أصيبَ المسلمونَ به قليلُ
فقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل: قد قبضَ الرسولُ
فأضححت أرضنا ممَّا عراها تكادُ بها جوانبُها تميلُ
فقدنا الوحيَ والتنزيلَ فينا يروحُ به ويغدو جبرئيلُ
وذاك أحقُّ ما سألت عليه نفوسُ الناسِ أو كادت تسيلُ
نبيٌّ كان يجلو الشكَّ عنَّا بما يُوحى إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً علينا والرسولُ لنا دليلُ
أصبنا بالنبيِّ وقد رزينا مصيبتَهُ فمحملُها ثقلُ

(١) الأبيات في «الطبقات» ٢/٢٧٨، و«نهاية الأرب» ١٨/٤٠٠.

(٢) الأبيات في «الروض الأنف» ٢/٣٧٩ - ٣٨٠، و«البداية والنهاية» ٥/٢٨٢. وانظر «سير أعلام النبلاء»

فلم نر مثله في الناس حياً
أفاطم إن جَزَعْتَ فذاك عذرٌ
فَعُوذِي بالعزاءِ فإنَّ فيه
وقولي في أبيك ولا تملِّي
فَقَبِرُ أبيك سيِّد كلِّ قَبْرِ
وقال ابن إسحاق: [وقال عمر بن الخطاب يبكي رسول الله ﷺ ولم يحزن عليه فيما بلغني حزنه، فقال هذه الأبيات: [من الكامل]

مازلتُ مُذُ وضع الفراشُ لجنبه
حذراً عليه أن يزولَ مكانه
نفسِي فداؤكَ مَنْ لنا في أمرنا
ليتَ السماءُ تَفْطَرَتْ أكنافها
لما رأيتُ الناسَ هدَّ جميعهم
والناسُ حولَ نبيهم يدعونَه
فسمعتُ صوتاً قبل ذلك هدَّني
وإذا تحل بنا الحوادثُ من لنا
فليبكه أهلُ المدينة كلهم
وقال ابن إسحاق: قال حسان بن ثابت^(٢): [من البسيط]

والله ما حملت أنثى ولا وضعت
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحدٍ
هو الذي كان نوراً يُستضاء به
مصدقاً للنبيين الألى صدقوا
اللطفُ والبرُّ كانا من خلائقه
[فلتبكه الدهر عيني كلما ذرفت
مثلَ الرسولِ نبي الأمة الهادي
أوفى بذمة جارٍ أو بميعادٍ
مبارك الأمرِ ذا حزمٍ وإرشادٍ
وأبذل الناس للمعروف في البادِ
والجودُ بالمال والإطعامُ للزادِ
وما حدا بالمطايا خلفها حادي]

(١) ذكر منها البلاذري في أنساب الأشراف ٢٠/٢ أربعة أبيات، وانظر «سمط النجوم العوالي» ٣١٨/٢.

(٢) «السيرة» ٦٧١/٢، وطبقات ابن سعد ٢٧٩/٢.

ما عشت حتى يكون الموت يأخذني والموت في كل ما وجه بمرصاد
وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: [من الطويل]

ألا طرق الناعي بليل فراعني وأرّقني لما استقلّ مناديا
فقلتُ له لما رأيت الذي أتى أغير رسول الله إن كنت ناعيا
فحقّق ما أشفقتُ منه ولم يُبلِّ وكان خليلي عدّتي ورجائيا
فو الله ما أنساك أحمد ما مشّت بي العيسُ في أرض وجاوزت واديا
لتبّك رسول الله خيلٌ مغيرة تثيرُ غباراً كالضبابة كابيا^(١)
[وقال الواقدي: وقد رثاه بنات عبد المطلب: أروى وعاتكة وصفية.

فأما أروى فقالت:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت رحيماً هادياً ومعلماً
وكان على قلبي لذكر محمدٍ كما خفت من بعد النبي المكاويا
لعمرك ما أبكي النبي لموته ولكن لما أخشى من الهرج آتيا
أفاطمُ صلى الله ربُّ محمدٍ على جدّث أمسى بيثرب ثاويا
فدئى لرسول الله أمني وخالتي وعمي وآبائي ونفسي وماليا
فلو أن ربّ الناس أبقى محمداً سَعِدْنَا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السّلامُ تحيةً وأدخِلت جنّاتٍ من العَدْنِ راضيا^(٢)
وقالت عاتكة^(٣) بنت عبد المطلب: [من الطويل]

أعينيّ جوداً بالدموع السّواجمِ على المصطفى والنور من آل هاشمِ
أعينيّ ماذا بعد ما قد فُجعتما به تبكيان الدهر من ولد آدمِ
على المصطفى بالحقّ والنور والهدى وبالرشد بعد المعضلات العظامِ

(١) جاءت هذه الأبيات في (ك) عقب مرثية أبي بكر رضي الله عنه، وهي في أنساب الأشراف ٢/ ٢٠.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣، ونسبها البلاذري ٢/ ٢٢ إلى صفية بنت عبد المطلب.

(٣) في النسختين (أ، خ): عائشة، والمثبت من (ك)، و الأبيات في «الطبقات» ٢/ ٢٨٤.

وذي الجودِ والراعي لخير المراحمِ
ربيع اليتامى في السنين الأرازمِ^(١)

[على الطاهر الميمون ذي الجلم والنهى
فجوداً بدمعٍ واندباً كلَّ شارقٍ
[وقالت صفة:

واندبى خيراً هالكٍ مفقودٍ
خالط القلبَ فهو كالمعمودِ
ولهم رحمةٌ وخيرَ رشيدٍ
وجزاه الجنانَ يومَ الخلودِ
ولهنّ فيه أشعار كثيرة ذكرها الواقدي وغيره^(٢)

عينُ جودي بدمعةٍ وسُهودٍ
واندبى المصطفى بحُزنٍ شديدٍ
فلقد كان بالعباد رؤوفاً
فعليه السلام حياً وميتاً
ولهنّ فيه أشعار كثيرة ذكرها الواقدي وغيره^(٢)

وقدم أعرابي المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ فوقف عند قبره ﷺ، وقال^(٣): [من
البيسط]

فطابَ من نَشْرهنِ القاعِ والأكمِ
فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ
لا تمشِ إلا على خدي لك القدمُ
ببطنٍ يشربُ لما ضمّه الرحمُ
حيٌّ ونعبده ما أورق السلمُ
فأخذ هذين أحمد بن عبيد العزيز القرشي الواعظ بالرافقة فضمنها أبياتاً منها:

يا خيرَ مَنْ دُفنت في التُّربِ أعظمه
نفسى الفداء لِقبرِ أنت ساكنه
لو كنتُ أبصرته حياً لقلتُ له
هدى به الله قوماً قال قائلهم
إن مات أحمدُ فالرحمنُ خالقُه
فأخذ هذين أحمد بن عبيد العزيز القرشي الواعظ بالرافقة فضمنها أبياتاً منها:

لما رأيت جدارَ القبرِ يستلمُ
من المهبابة أو داعٍ فملتزمُ
في الصدرِ كادت لها الأحشاءُ تضطرمُ
فطابَ من نَشْرهنِ القاعِ والأكمِ

أقول والدمع من عيني ينسجمُ
والناسُ يغشونه باكٍ ومنقطعُ
فما تمالكت أن ناديت من حرق
[يا خيرَ من دفنت في القاعِ أعظمه

(١) في «الطبقات»: البوازم.

(٢) ما بين معكوفين من (ك)، والأبيات في الطبقات ٢٨٦/٢.

(٣) ذكر النووي في «أذكاره» ص ٣٣٥ - ٣٣٦ في فضل زيارة قبر رسول الله ﷺ وأذكارها عن العتيبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي.... وذكر القصة وذكر البيتين الأولين، أما بقية الأبيات فلم نقف عليها. وانظر «الفتوحات الربانية» ٣٩/٥.

روحي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه
 وفيه شمسُ التقى والدين قد غربت
 حاشا لوجهك أن يبلى وقد هُديت
 لئن رأيناه قبراً إن باطنه
 طافت به من نواحيه ملائكة
 [انتهت «مغازي» الواقي عند ذكر أشعار بنات عبد المطلب ولم يبق من رواياته إلا
 ما رواه ابن سعد عنه.

وقد روى الحكاية محمد بن حرب قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي ﷺ فزرته
 وجلست بإزائه، وإذا بأعرابي قد جاء فوقف عند القبر وقال: يا خير الرسل إن الله
 تعالى أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
 اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وإني قد جئت مستغفراً ومستشفعاً
 بك ثم بكى وأنشد البيتين، ثم انصرف.

قال: فرقدت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال: الحق الرجل فبشره بأن الله قد
 غفر له بشفاعتي، فاستيقظت وطلبت الرجل فلم أجده.



الباب التاسع^(١) في حديث السقيفة

قال الزهري : لما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة ، واعتزل علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله بن حضير في بني عبد الأشهل من بين الأنصار [فأتى آتٍ إلى] أبي بكر وعمر فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عباد قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل تفاقم أمرهم ، ورسول الله ﷺ في بيته لم يفرغ من أمره بعد أن أغلق دونه الباب .

فقال عمر لأبي بكر رضوان الله عليهم : انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار لننظر ما هم عليه .

وقال هشام بن محمد : بلغ العباس أن سعد بن عباد قد جمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وأنهم قد بايعوه بالخلافة ، فدخل العباس و المهاجرون من ذلك وحشة ، فخرج العباس على الناس وأبو بكر لا يشعر ، فقال : أيها الناس بلغني أن [سعد بن عباد بنيت له وسادة ودعا إلى نفسه وأجابه من أجابه نقضاً لعهد رسول الله ﷺ] ^(٢) ، انهض يا أبا بكر إلى هؤلاء القوم يعني الأنصار . فقال له المهاجرون : إنه ليدلنا على صدقك يا أبا الفضل أنه لم يصل الظهر اليوم منهم أحد معنا ، فنهض أبو بكر إلى الأنصار .

طرف من حديث السقيفة :

قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : وإنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله ﷺ أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلّفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ وتخلّفت عنا الأنصار بأجمعها ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت له : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فانطلقنا نريدهم ، فلما دنونا منهم لقينا رجلاً صالحاً منهم ممن قد شهد بدرأ ، فقالا : أين تريدون يا معاشر

(١) من هنا إلى قوله : فصل وللبخاري عن عمرو ، بعد عدة صفحات ؛ ليس في (ك).

(٢) في النسخ بياض قدر سطر ، وما بين معقوفين زيادة من «المنتظم» ٥٢/٤ .

المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالوا: لا عليك ألا تقربوهم، وأمضوا أمركم، وارجعوا، فقلت: لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة وإذا [بين ظهرانهم رجلٌ مزمل، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عباد، فقلت: ما له؟ قالوا:] توعك، فلما جلسنا قليلاً، قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويحضنونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت في نفسي مقالة أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وقد كنت أرى منه بعض الجد، وكان أعلم مني وأوقر، فلما أردت أن أتكلم قال: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فقام، فحمد الله، وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنت زورت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت إلا وقد جاء به أحسن منه، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا وقد قال في بديهته مثلها وأفضل منها حتى سكت، فقال:

أما بعد يا معشر الأنصار، فإنكم ما تذكرون منكم فضلاً إلا كنتم له أهلاً، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا في هذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً، ولقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا [أيهما شئتم، وأخذ بيدي ويدي أبي عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قاله غيرها، وكان]^(١) والله لأن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي شيئاً عند الموت لا أجده الآن، فلما قضى كلامه قال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير، فكثرت اللغظ، وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، وبايعه المهاجرون ثم الأنصار، ونزونا على سعد بن عباد، فقال قائل منهم: قتلتم سعداً، فقلت: قتل الله سعداً، وقال عمر - رضوان الله عليه -: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم يكن لهم بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا،

(١) في النسخ بياض قدر سطر في الموضعين، وما بين معقوفين زيادة من «السيرة» ٢/ ٦٥٩، و«مسند» أحمد

فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً، فمن بايع أميراً عن غير مشورة من المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة للذي بايعه تغرة^(١) أن يقتلا.

والرجلان اللذان لقياهم: عويم بن ساعدة، ومعن بن معدي، والذي قال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب الحباب بن المنذر^(٢).

وقال أنس بن مالك: لما توفي رسول الله ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولي هذا الأمر سعد بن عباد، فأخرجوه، وهو مريض، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا معاشر الأنصار، إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً - ﷺ - لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن، فما آمن له إلا قليل، والله ما كان من آمن له يستطيعون أن يمنعوه ولا أن يدفعوا عنه ولا عن أنفسهم ضيماً حتى أراد الله بكم الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الإيمان بالله ورسوله، وأنتم أحق بهذا الأمر، وإن لم ترض قريش فمنهم أمير ومنا أمير، فقال سعد: هذا والله أول الوهن.

وبلغ أبا بكر وعمر الخبر فجاءا إلى السقيفة، وذكر بمعنى ما تقدم، قال: وخطب أبو بكر، فقال: نحن المهاجرون الأولون أول الناس إسلاماً، وأكرمهم إحساناً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأمسهم رحماً برسول الله - ﷺ - قدمنا الله عليكم فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وأنتم شركاؤنا في الفيء وأنصارنا على عدونا، فلا تنفسوا علينا ما منحنا الله به دونكم، ولا ننكر سابقتكم، ألا نحن الواسطة من القلادة وعثرة رسول الله ﷺ وأصله، وذكر كلاماً طويلاً.

فقال الحباب: دعوا هذا، منا أمير ومنكم أمير، فقال عمر: هيهات، لا يجتمع فحلان في شرك، ولا ترضى العرب أن تنافروا عليها وبينها حكم من غيركم، ونحن أولياؤه وعترته.

(١) أي: خوفاً.

(٢) أخرجه ابن هشام في «السيرة» ٢/٦٥٧ - ٦٥٨، وأحمد في «مسنده» (٣٩١) وقوله: «جذيلها المرجب: الجذيل: تصغير جذل، وهو العود الذي ينصب للإبل الجرب لتحتك به، أي: أنا ممن يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجرب بالاحتكاك بهذا العود، والعذيق: هو النخلة، والمرجب: يقال: رجبت النخلة إذا أسندتها إلى خشبة ذات شعبتين لكثرة حملها، أي: أنا الذي ينبغي الرجوع إلى قوله.

فقال الحُباب: يا معاشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجلوهم من بلادكم وتولّوه، فأنتم أحق به منهم، لأن ناساً منكم^(١) فأما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة، فقال له عمر: إذا يقتلك الله، فقال: بل إياك يقتل.

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير، فقال: يا معاشر الأنصار، لئن كنا أول من سبق إلى هذا الدين وجهاد المشركين فما قصدنا إلا رضى الله ورسوله، فلا ينبغي لنا أن نستطيل على الناس، ولا نطلب عرض الدنيا، وإن قريشاً أولى بهذا الأمر منا، فلا ننازعهم.

فقال له الحُباب: أنفست على ابن عمك، يعني سعد بن عبادة، فقال: لا والله، ولكنني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم، ثم قام أسيد بن حضير، فقال هو وبشير: يا أبا بكر مد يدك، فبسطها، فبايعاه، وتبايع الناس، فانكسر على سعد أمره، وكادوا يطؤون سعداً، فقال ناس من أصحابه: اتقوا سعداً لا تطؤوه، فقال عمر: اقتلوا سعداً قتله الله، ثم قام عمر على رأس سعد، وقال: لقد هممت أن أطأك حتى يندر عضوك، فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، وقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك جارحة، فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق الرفق فهو ههنا أبلغ، فقال سعد: أما والله لو كان لي قوة على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها [زئيراً يُجحرك وأصحابك] حتى ألحقك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، ثم عاد أبو بكر وعمر إلى مكانهما، وبعثا إلى سعد بن عبادة: بايع فقد بايع الناس، فقال للرسول: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب من دمائكم سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يداي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي، والله لو اجتمع لكم الجن والإنس لما بايعتكم، فلما عاد الرسول فأخبرهم بما قال، قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع، فقال بشير بن سعد: دعه فقد لج، وليس بمبايعكم حتى يقتل ويقتل معه قيس ولده وأهله ومن أطاعه من قومه، فاتركوه، فتركوه، فكان سعد لا يحضر معهم، ولا

(١) كذا في (أ، خ)؟! وفي الطبري ٣/ ٢٢٠: فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان.

يصلي في المسجد، ولا يسلم على من لقيه منهم، فلم يزل مجاناً لهم حتى خرج إلى الشام بعد وفاة أبي بكر رضوان الله عليه^(١).

وذكر الطبري أن سعداً بايع مكرهاً، وهو وهم^(٢).

ولما بويع أبو بكر رضوان الله عليه في السقيفة قال رجل من قريش كنيته أبو عمرو^(٣): [من الكامل]

شكراً لمن هو بالثناء حقيقٌ
من بعد ما دحضت بسعد نعلهُ
حفت به الأنصارُ عاصب رأسه
وأبو عبيدة والذين إليهم
بالحق إذ طلبوا الخلافة زلةً
إن الخلافة في قريشٍ ما لكم
الثفروق: قمع البسرة.

ذهب الحجاجُ وبويع الصديقُ
ورجى رجاءً دونَه العيوقُ
فأتاهم الصديقُ والفراروقُ
نفسُ المؤمل للصالح تتوقُ
لم يُخطِ مثل خطائهم مخلوقُ
فيها وربُّ محمدٍ ثفروقُ

وروى ابن سعد، عن ابن عباس أنه قال أرسل العباس إلى بني هاشم فجمعهم عنده، وكان علي عنده بمنزلة لم يكن أحد بها، فقال: يا ابن أخي إني قد رأيت رأياً لم أقطع به حتى أستشيرك فيه، قال: وما هو؟ قال: ندخل على رسول الله - ﷺ - فنسأله عن هذا الأمر، فإن كان فينا بعده لم نسلمه إلى أحد ما بقي فينا عين تطرف، وإن كان في غيرنا لم نطلبه أبداً، فقال له علي: يا عم، وهل هذا الأمر [إلا] إليك، وهل ينازعك فيه أحد؟ فقال له العباس: والله إني أظن أنه سيكون، فمد يدك حتى أبايعك، فهذا أمر لم يرد مثله، وسمع العباس التكبير في المسجد، ف قيل: ما هذا؟ ف قيل: بايع الناس أبا بكر، فقال العباس: هذا ما دعوتك إليه فأبيت علي^(٤).

وذكر ابن سعد: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي أبا عبيدة بن الجراح، فقال له:

(١) «تاريخ الطبري» ٢١٨/٣ - ٢٢٣ من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري.

(٢) «تاريخ الطبري» ٢٢٣/٢.

(٣) «تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) «الطبقات» ٢١٦/٢ - ٢١٧.

ابسط يدك لأبايعك فأنت أمين لهذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة: ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت، أتبايعني وفيكم الصديق^(١)؟

وقال الزهري: سألت سعيد بن المسيب، فقلت له: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قلت: فمتى بويع أبو بكر؟ فقال: في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم بغير إمام وليسوا في جماعة.

وذكر في كتاب «بيت العلوم» أنه قيل للعباس: بايع، فقال: لا أبايع إلا ابن أخي علياً.

وقال سلمان الفارسي: كردي بكردي، أي فعلتموها، فوجئ عنقه.

وقال المغيرة بن شعبة لعلي رضي الله عنه: اصعد المنبر لنبايعك، فإنك إن لم تصعد صعده غيرك، فقال علي: والله إنني لأستحيي من رسول الله ﷺ أن أصعد منبره ولم أدفنه احتراماً له^(٢).

وقال الشريف في «نهج البلاغة»: لما قضى رسول الله ﷺ وقال أبو سفيان بن حرب والعباس لعلي: هلم لنبايعك بالخلافة، فقال أمير المؤمنين: أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا من تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح، ماء آجن، ولقمة يغص بها أكلها، ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه، فإن أقل شيئاً يقولوا: حَرِصَ على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، ولقد اندمجت على مكنون علم لو بحت به لا اضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة^(٣).

قال المصنف رحمه الله: وقوله: إن أبا سفيان قال لعلي رضي الله عنه: أبايعك بالخلافة، فيه نظر، لأنهم اختلفوا في حضوره، فذكروا أن أبا سفيان قال لعلي: ما بال هذا الأمر

(١) «الطبقات» ١٦٦/٣ .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف في منازل الأشراف» (٣١٠) .

(٣) انظر نثر الدر ١/٢٧٧، ومنه أصلحت النص فهو في النسختين (أ، خ) غير واضح .

في أقل حي من قريش، والله إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً، فقال له علي رضي الله عنه: طال ما عادت الإسلام وأهله فلم يضره ذلك شيئاً، ولقد رُمّت هذا في حياة رسول الله ﷺ فلم يتم لك ذلك، وأتم الله نوره^(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ وأبو سفيان عامله على نجران ولم يكن بالمدينة^(٢).

وقال صاحب «العقد»: توفي رسول الله ﷺ وأبو سفيان في مسعاة، أخرجته فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف لقي رجلاً في طريقه مقبلاً من المدينة، فقال له: ما الخبر، أمات محمد؟ قال: نعم، قال: فمن قام بعده بالأمر؟ قال: أبو بكر، قال: فما فعل المستضعفان علي والعباس؟ قال: جالسان في بيت فاطمة، فقال: أما والله إن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما، ثم قال: إني لأرى غيرة لا يُطفئها إلا دم، فلما قدم المدينة جعل يطوف أسواقها وأزقتها، ويقول: [من الطويل]

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن علي
وبلغ عمر قوله فقال لأبي بكر: إن هذا قد قدم وهو فاعل شراً، وقد كان رسول الله ﷺ يستألفه^(٣) على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة، ففعل، فرضي أبو سفيان، وبايعه.

وذكر صاحب «العقد» أن علياً والعباس والزيير قعدوا في بيت فاطمة عليها السلام، فبعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال: إن أبوا قاتلهم، فأقبل عمر وفي يده قيس من نار ليضرم عليهم البيت، فخرجت إليه فاطمة، وقالت:

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٠٩، وأخرج عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٦٧)، والحاكم في «مستدرکه» ٣/٨٣ عن أبي الشعثاء الكندي، عن مرة الطيب قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى علي بن أبي طالب فقال: ما بال هذا الأمر في أقل قريش قلة، وأذلها ذلة - يعني أبا بكر - والله لئن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجالاً، فقال علي: لطال ما عادت الإسلام وأهله يا أبا سفيان فلم يضره شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً.

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٣/٤٦٠.

(٣) في (أ) و(خ): يبايعه، والمثبت من العقد ٤/٢٥٧.

ويحك يا ابن الخطاب جئت لتحرق بيتي؟ قال: نعم، أريد أن تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة، فخرج علي حتى دخل على أبي بكر فبايعه، فقال له أبو بكر: أكرهت إمارتي؟ قال: لا، ولكن آليت أن لا أرتدي بعد موت رسول الله ﷺ حتى أجمع القرآن، فعليه حبست نفسي^(١).

والصحيح: أن علياً رضوان الله عليه إنما بايع بعد مدة لما نذكر، والله أعلم.

وقال أنس: جلس عمر على منبر رسول الله ﷺ وذلك من الغد في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ فتشهد وأبو بكر صامت، ثم قال: أما بعد فإنني قلت لكم أمس مقالة، وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت تلك المقالة في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إلي رسول الله ﷺ، ولكن كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا، فإن يك قد مات فإن الله قد جعل لكم نوراً تهتدون به هدي محمد ﷺ فاعتصموا به تهتدوا، وإنما هدى الله به بما هدى الله به رسوله، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين، وإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا، فبايعوه، قال: وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة عند المنبر، قال أنس: فرأيت عمر يزعم أبا بكر إلى البيعة إزعاجاً^(٢).

ولم يبايع علي أبا بكر ﷺ إلا بعد ستة أشهر.

وقال المسعودي: لما جددت البيعة لأبي بكر يوم الثلاثاء على العامة خرج علي بن أبي طالب فقال: أيفتأت علينا في أمرنا ولم نستشر فيه؟ فقال أبو بكر: بلى، خشينا الفتنة، قال: ولم يبايع أبا بكر أحد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة ﷺ^(٣).

وذكر الطبري: أن علياً رضوان الله عليه كان في بيته، فقيل له: قد بايع الناس أبا بكر، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلأ كراهية أن يبطن عنها، فبايع أبا بكر، وجلس إليه، وبعث إلى بيته فأتي بثوبه، فتجلله^(٤). وهو وهم من الطبري.

قال المصنف رحمه الله: وقد ذكر ابن إسحاق قصة البيعة مطولاً، فاختصرته، قال: لما توفي رسول الله ﷺ قال الحباب بن المنذر: يامعاشر الأنصار، أمروا عليكم

(١) «العقد» ٢٥٩/٤ - ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢١٩).

(٣) «مروج الذهب» ١٨٣/٤.

(٤) «تاريخ الطبري» ٢٠٧/٣.

رجلاً منكم، فكره معن بن عدي وعويم بن ساعدة ما قال، ومضيا إلى أبي بكر، وأخبراه الخبر، وقالوا: هم في سقيفة بني ساعدة، وذكر مجيء أبي بكر وعمر إليهما، فلما سمع المغيرة بن شعبة قول عويم و معن، قال لأبي بكر وعمر: أيها الشيخان إن الناس إنما ينظرون إليكما وليس يرون لهذا الأمر أحداً غيركما، فليضرب أحدكما على يد صاحبه قبل أن يحدث ما يتفاقم له الأمر، فأخذ عمر بيد أبي بكر ليبياعه، فكره ذلك أبو بكر، ونظر إلى الناس، وأراد البيعة بمحضر من المهاجرين والأنصار، وقال لعمر: قم بنا إلى إخواننا الأنصار، فإنه كان من آخر عهد رسول الله ﷺ أن أوصانا بهم، فقام أبو بكر وعمر، وتبعهما المهاجرون، قال عمر: فانتبهنا إليهم وهم في سقيفة بني ساعدة قد عصبوا سعداً وهو يوعك، فذهبت لأتكلم، فقال أبو بكر: اسكت يا عمر حتى أتكلم، ثم قل ما أحببت، ثم خطب أبو بكر في السقيفة، فقال: الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونشهد به، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سراج الظلمة، ونبي الرحمة، بعثه الله بالحق نوراً وهدى للعالمين، وذكر خطبة طويلة، وقال: وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره، وقد سمعتم ذلك من رسول الله ﷺ، وإنه لا يحل أن يكون للمسلمين أميران لئلا يقع الاختلاف، وتتفرق الجماعات، وتترك السنة وتظهر البدعة، وأنا أدعوكم إلى أبي عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب، وذكر بمعنى ما تقدم، فقال عمر: ما ينبغي لأحد من المسلمين أن يكون فوقك، أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن كلها، واختياره لك في الصلاة دليل على أنك أحق بهذا الأمر، فقام خطيب الأنصار ثابت بن قيس بن شماس فقال: نعم أنتم أول من آمن به وصدقه، وأنتم أقرباؤه وقومه، وأفضل الناس حسباً ونسباً، لا يحسدكم والله على ما آتاكم الله، ولا خلق الله أحداً أحب إلينا وأكرم منكم، فلو جعلتم رجلاً منا ورجلاً منكم كان أشفق للقرشي إذا زاغ مخافة أن ينقض عليه الأنصاري، [وكان أشفق للأنصاري] إذا زاغ مخافة أن ينقض عليه القرشي، وقد كانت منا فيكم دماء، ولا نأمن الوالي منكم أن يميل على السيد منا فيقتله أو يصرفه.

فقام عمر، فخطب، وذكر خطبة طويلة، وفيها: وأن العرب لا ترضى بهذا، ولا تقرُّ به إلا لقريش، وأنا أنشد الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول: «الأمرء من قريش»

قالوا: بلى الآن ذكرنا، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ثم أخذ بيد أبي بكر، فبايعه، وبايع الناس، واجتمع أمر المسلمين، و صاروا يداً واحدة، ولم يغب عن تلك البيعة أحد ممن يُؤبّه له إلا علي بن أبي طالب، والزبير، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، فرجع الناس على ذلك يومهم، حتى إذا كان من الغد خرج أبو بكر، وذلك يوم الجمعة، فقال: اجمعوا لي المهاجرين والأنصار، فاجتمعوا، ثم أرسل إلى علي بن أبي طالب فأتاه والنفر الذين كانوا تخلفوا معه، فقال: ما خلفك يا علي عن أمر الناس؟ فقال: خلفني عظم المصيبة، ورأيتكم استغنيتم برأيكم، فاعتذر إليه أبو بكر لخوف الفتنة وتفاقم الحدثان، وإن كنت والله لها كارهاً وما شهدتها أحد أحب إلي أن يشهدا [منك]، ثم أشرف على الناس، وقال: أيها الناس، هذا علي بن أبي طالب، فلا بيعه لي في عنقه، وهو بالخيار من أمره، ألا وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من أبايعه، فلما سمع ذلك علي تحلل عنه ما كان قد دخله، فقال: أجل لا نرى لها غيرك، مد يدك، فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه^(١).

وهذا دليل على أن علياً بايع أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، ودل عليه أيضاً ما ذكره ابن سعد فإنه قال:

حدثنا وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن الحسن قال: قال علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ - نظرنا في أمرنا، فوجدنا رسول الله ﷺ - قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا بأمر رضىه رسول الله ﷺ - لدينا، فبايعنا أبا بكر^(٢).

ولما بلغ أبا قحافة بمكة وفاة رسول الله ﷺ قال أبو قحافة: من ولي بعده؟ قالوا: ابنك، قال: أرضيت بذلك بنو عبد شمس وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم، قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع^(٣).

وقيل: إن بيعة علي - رضوان الله عليه - أبا بكر رضوان الله عليه تأخرت إلى وفاة فاطمة عليها السلام.

(١) الاعتقاد والهداية للبيهقي ٣٥١.

(٢) «الطبقات» ٣/ ١٦٧.

(٣) «الطبقات» ٣/ ١٦٨.

الباب العاشر

في طلب آل رسول الله ﷺ الميراث

قالت عائشة رضوان الله عليها: جاء العباس وفاطمة أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ: أرضه من فذك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأنورث، ما تركنا صدقة». إنما يأكل آل محمد في هذا المال، وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يفعله، أو يصنعه إلا صنعته، إني أخشى إن تركت أمره أو شيئاً من أمره أن أزيغ. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

طريق آخر عن عائشة: أن فاطمة رضي الله عنها أرسلت إلى أبي بكر رضي الله عنه تسأله ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» فغضبت فاطمة، وهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرة حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها علي رضوان الله عليه ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها، قال: وكان لعلي حياة فاطمة من الناس وجه، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن بايعه تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر: [أن ائتنا] ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر: والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عسى أن يصنعوا بي، والله لا آتينهم، فانطلقوا، وانطلق أبو بكر، فدخل عليهم، فتشهد علي، وقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنكم استبددتم بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ أن لنا في هذا الأمر نصيباً، فلم يزل علي يذكر حتى بكى أبو بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم في هذه الأموال فإني لم آل منها عن الخبر، فقال علي: موعدهك للبيعة العشية، فلما صلى أبو بكر الظهر رقى على المنبر وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به، وتشهد علي فعظم حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته،

(١) البخاري (٤٠٣٤)، ومسلم (١٧٥٩) (٥٣).

وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ثم قام إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل الناس على علي، وقالوا: أصبت وأحسنت، وكان المسلمون إلى علي قريباً حين راجع الأمر بالمعروف^(١).

وقال رجل للزهري: لم يبايع علي أبا بكر ستة أشهر؟ فقال: لا والله ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي.

وقال مالك بن أوس بن الحدثان: أرسل إلي عمر، فجئته حين تعالى النهار، فوجدته جالساً في بيته على سرير مفضياً إلى رُمالة، متكئاً على وسادة من آدم، فقال لي: مالك، إنه قد دفن أهل أبيات من قومك، وقد أمرت لهم برضخ، فخذ فاقسمه بينهم، فقلت: لو أمرت بهذا غيري، قال: خذه يا مالك، فدخل يرفأ، فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وسعد؟ قال عمر: نعم، فأذن لهم، فدخلوا ثم جاء فقال: هل لك في علي وعباس؟ قال: نعم، فأذن لهما، فدخلوا، فلما استقر بهما المجلس قال العباس: يا أمير المؤمنين، [اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن، فقال القوم: أجل يا أمير المؤمنين] اقض بينهما وارحمهما، قال مالك بن أوس: فخيل إلي أنهما قد كانا قدّموهم لذلك، فقال عمر: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورثُ ما تركنا صدقةً؟» قالوا: نعم، ثم أقبل على العباس وعلي، فقال لهما مثل ذلك، قالوا: نعم، فقال عمر: إن الله تعالى كان خص رسوله بما لم يخص به غيره، فقال: ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الحشر: ٧] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]. قال: فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النضير، فوالله ما استأثر عليكم، ولا أخذها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ نفقته ونفقة عياله منه، ثم يجعل ما بقي أسوة مال الله، ثم نشدهم ونشد علي والعباس فقالوا: نعم، فلما ولي أبو بكر قال: أنا ولي رسول الله ﷺ فجئتما تطلبان أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال لكما أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث»، ثم توفي أبو بكر، وأنا ولي أبو بكر وولي رسول الله ﷺ فوليتهما حتى جئني وهذا، وأنتما جميع، وأمركما واحد، فقلتما: ادفعها إلينا، فقلت: إن شئتما دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ فأخذتماها

(١) أخرجه مسلم (١٧٥٩) (٥٢).

بذلك، كذلك هو؟ قالوا: نعم، ثم قال: جئتماني لأقضي بينكما، والله لا أقضي بينكما أبداً بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرداها إلي^(١).

قال البرقاني: فكانت بيد علي، ثم كانت بيد زيد بن الحسن، ثم بيد عبد الله بن الحسن، قال: نعم، ثم وليها بنو العباس^(٢).

فصل: وللبخاري عن عمرو بن الحارث الخزاعي قال: ما ترك رسول الله ﷺ درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة^(٣).

وسنذكر ما ترك بعد هذا.

قلت: ولا خلاف أن فاطمة طلبت ميراثها من أبي بكر رويناه في «الصحيحين» وأنها هجرته حتى ماتت.

وقال ابن سعد بإسناده عن أبي صالح، عن أم هانئ: أن فاطمة عليها السلام قالت لأبي بكر رضوان الله عليه: يا أبا بكر، من يرثك إذا مت؟ قال: ولدي وأهلي، قالت: فما بالك ورثت أبي دوننا؟ فقال: يا بنت رسول الله ما ورث أبوك مالاً ولا ذهباً، ولا فضة، ولا أرضاً، ولا غلاماً، قالت: فسهم الله الذي جعله لنا وصافيتنا التي بيدك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما هي طعمة أطعمنيها الله، فإذا متُّ عادت إلى المسلمين»، فهجرت فاطمة أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت^(٤).

وقال هشام بن محمد: لما مُنعت فاطمة ميراثها دخلت على أبي بكر وقد لاثت خمارها على رأسها، ثم حمدت الله وأثنت عليه، ووصفت رسول الله ﷺ بأوصاف، فكان مما قالت: كان كلما فغرت فاغرة من المشركين، أو نجم قرن من الشيطان وطئ روقه بأخمصه، وأحمد لهبه بسيفه، وكسر قرنه بعزيمته، حتى إذا اختار له الله دار أنبيائه، ومقر أصفياه؛ أطلعت الدنيا رأسها إليكم فوجدتكم لها مستحيين، ولغرورها ملاحظين، هذا والعهد قريب، والأمد غير بعيد، والجراح لم تندمل، فأني تكونون كذا وكتاب الله بين أظهركم، ثم قالت: يا أبا بكر، أترث أباك ولا أترث أبيه، دونكها

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) (٤٩)، وما بين معكوفين منه .

(٢) انظر «أخبار المدينة» لابن شبة (٥٧٢).

(٣) صحيح البخاري (٢٧٣٩)، وما بين معكوفين من (ك).

(٤) «الطبقات» ٢/٢٧٣ - ٢٧٤ .

مرحولة مزمومة، فنعم الحاكم الله، والموعد القيامة ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] ثم جاءت إلى قبر رسول الله ﷺ فبكت عنده طويلاً، ثم قالت هذه الأبيات: [من البسيط]

قد كان بعدك أنباءً وهنْبَةٌ لو كنتَ شاهداً لم تعظم النُّوبُ
إنا فقدناك فقد الأرض وإبْلِها واغتيلَ أهلُك لما اغتالك التُّربُ
وقد رُزئنا بما لم يُرزهِ أحدٌ من البريَّة لا عجمٌ ولا عربٌ^(١)

قال [ابن إسحاق]: حدثني صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة عن عائشة قالت: [أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها من أبيها، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورثُ ما تَرَكَنا صَدَقَةٌ» فإن اتهمتني فسلي المسلمون يخبرونك ذلك.

قال: وقد كان أزواج النبي ﷺ بعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله ﷺ فكنت أنا الذي رددتهن عن ذلك، أرسلت إليهن وقلت لهن: أما سمعتن رسول الله ﷺ يقول: «لا نُورثُ ما تَرَكَنا صَدَقَةٌ» فنزعن عن ذلك^(٢).

[قال ابن إسحاق: ثم أقامت فاطمة على ذلك تطلب حقها من أبي بكر حتى قبضت بعد ستة أشهر.

وقال ابن إسحاق: فحدثني القاسم بن حكيم قال: سمعت [علي بن الحسين يقول: جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وهو على المنبر، فقالت: يا أبا بكر أفي كتاب الله أن ترثك ابنتك ولا أرث أبي؟ فاستعبر أبو بكر باكياً، ثم قال: بآبائي أبوك وبآبائي أنت، ثم نزل، فكتب لها بفدك، ودخل عليه عمر، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبه لفاطمة ميراثها من أبيها، قال: فماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب، فشقه.



(١) انظر التذكرة الحمدونية (٦٢٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٧١٧) (٣٧١٨)، وأخرجه البخاري (٣٠٩٢)، ومسلم (١٧٥٨) من طريق إبراهيم بن سعد، عن صالح، به. قوله: عن الزهري؛ ليس في النسخ، استدركناه من المصادر.

الباب الحادي عشر

في قضاء دينه ﷺ

[قال ابن سعد بإسناده، عن زيد بن أسلم وعمر بن عبد الله مولى غفرة قالا:] لما قبض رسول الله ﷺ جاء أبا بكر مال من البحرين، فقال: من كانت له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ فليأتني، فجاءه جابر بن عبد الله الأنصاري، فقال: إن رسول الله ﷺ وعدني إذا جاءه مال من البحرين أن يعطيني كذا وكذا، وأشار بكفيه، فقال أبو بكر: خذ، فأخذ فعده فإذا هو خمس مئة دينار أو درهم، ثم فرق الباقي على من كان وَعَدَهُم رسول الله ﷺ (١).

[وقال ابن سعد بإسناده] عن جابر بن عبد الله قال: قضى علي بن أبي طالب كل دين كان على رسول الله - ﷺ - ووفى بعداته، وكان مناديه ينادي في الموسم كل عام يوم النحر بمنى: ألا من كانت له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ أو دين فليأتني حتى أوفيه، ثم كان الحسن يفعل ذلك، ثم الحسين، قال جابر: فما كان يأتي أحد بحق أو بباطل إلا أعطوه، ثم انقطع ذلك بعد الحسين (٢).

وقد ثبت في «الصحیح»: أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على أصع من شعير (٣).



(١) «الطبقات» ٢/٢٧٦، وأخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) «الطبقات» ٢/٢٧٧.

(٣) البخاري (٢٠٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الباب الثاني عشر

في ذكر أزواجه ﷺ وﷺ

وهن أربعة أقسام:

[قسم دخل بهن، وقسم عقد عليهن، وقسم خطبهن ولم يحملن إليه، والقسم الرابع من عرضن عليه فأباهن].

القسم الأول: فيمن دخل بهن، فأولهن:

خديجة بنت خويلد ﷺ - وقد ذكرناها - سنة عشر من النبوة، ثم سودة بنت زمعة ﷺ وقد ذكرنا طرفاً من أخبارها، وسنذكرها في سنة أربع وخمسين، ثم عائشة ﷺ، ثم حفصة بنت عمر ﷺ [وسنذكرها في سنة خمس وأربعين]، ثم زينب بنت خزيمة ﷺ [وقد ذكرناها في السنة الرابعة من الهجرة]، ثم زينب بنت جحش ﷺ [وسنذكرها في سنة عشرين]، ثم أم حبيبة ﷺ [وسنذكرها في سنة أربع وأربعين]، ثم أم سلمة ﷺ [وسنذكرها في سنة اثنتين وستين]، ثم جويرية ﷺ [وسنذكرها في سنة خمسين]، ثم صفية ﷺ [وسنذكرها في سنة خمسين]، ثم ميمونة ﷺ [وسنذكرها في سنة إحدى وستين].

فهؤلاء أحد عشر امرأة [أولهن خديجة وآخرهن ميمونة]، توفي منهن في حال حياته ﷺ اثنتان: خديجة وزينب بنت خزيمة، وتوفي عن تسع، منهن خمس قرشيات: عائشة من بني تيم، وحفصة من بني عدي، وأم حبيبة من بني عبد شمس، وسودة من بني عامر، وأم سلمة من بني مخزوم.

وثلاث من سائر القبائل: ميمونة هلالية، وزينب بنت جحش أسدية، وجويرية مُصطلقية، وصفية من بني هارون ﷺ [لا قرشية ولا عربية، بل] إسرائيلية.

[وذكر جدي في «التلقيح»: ريحانة، وأنه تزوجها^(١)، وفيها خلاف نذكره في سراريه].

القسم الثاني: من عقد عليهن، وهن خمس عشرة:

الكلابية، وقد ذكرناها في سنة ثمان من الهجرة، والجَوْنِيَّة [واختلفوا فيها: فقال البلاذري، عن الكلبي] اسمها أسماء بنت النعمان بن الأسود بن الحارث بن آكل المُرَّار^(٢)، وقال [البخاري]: أميمة بنت شراحيل، وقال ابن قتيبة: أميمة بنت النعمان ابنة الجَوْن، ويقال: ابنة النعمان بن أبي الجون الكندية^(٣)، وقالت عائشة: هذه هي التي استعادت منه، [قال هشام فيما رواه عنه البلاذري]: كانت من أجمل النساء، وأمهرها رسول الله ﷺ اثنتي عشرة أوقية ونشأ، فقالت لها بعض نسائه: أنت بنت ملك، وإن استعذت منه حظيت عنده، فلما دخلت عليه ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذتِ بِمَعَاذٍ» وصرف وجهه عنها، وقال: «ارجعي إلى أهلك» فقيل: يا رسول الله خدعت وهي حدثت [أو حديثة]، فلم يراجعها، فتزوجها المهاجر ابن أمية المخزومي، ثم قيس بن هبيرة المرادي، فأراد عمر أن يعاقبها، فقيل له: إن رسول الله ﷺ لم يدخل بها، ولم يقسم لها، ولم يضرب عليها الحجاب، فأمسك^(٤).

وقد أخرج حديثها أبو أسيد الساعدي:

قال أحمد بإسناده، عن حمزة بن أبي أسيد، عن أبيه وعباس بن سهل عن أبيه قال: مر بنا رسول الله ﷺ وأصحاب له، فخرجنا حتى انطلقنا إلى حائط يقال له: الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين، فجلسنا بينهما، فقال رسول الله ﷺ: «اجلسوا» فدخل هو والجَوْنِيَّة وقد أتت بها فعزلت في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل ومعها داية لها، فلما دخل عليها رسول الله ﷺ قال لها: «هبي لي نفسك» فقالت: وهل تهب الملكة

(١) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٢٥.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٦.

(٣) «المعارف» ص ١٤٠.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٦.

نفسها للسوقة، ثم قالت: إني أعوذ بالله منك، فقال لها: «عُدَّتِ بمعاذٍ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أسيد، اكسُها رازقية وألحقها بأهلها». انفراد بإخراجه البخاري^(١).

و «السوقة» عند العرب: من ليس بملك، والعامّة تخص بهذا الاسم من لازم السوق، والعرب لا تعرف هذا، لأن الملك يسوقهم فينقادون إليه. وقال الجوهري: «الرازقية»: ثياب كتان^(٢).

وفي رواية عن أبي أسيد قال: بعثني رسول الله ﷺ فأتيته بالجونية، فأنزلها في أطم بني ساعدة، فلما جاءها رسول الله ﷺ أقعى، ثم أهوى إليها ليقبلها فقالت: أعوذ بالله، فأنحرف عنها ووثب، فخرج وأمرني بردها إلى قومها، فلما طلعت عليهم قالوا: إنك لغير مباركة، جعلتينا في العرب شهرة، فأقامت في بيتها لا يطعم فيها طامع ولا يراها إلا ذو رحم محرم حتى توفيت أيام عثمان بن عفان عند أهلها^(٣).

وكان يقال: إنه تزوجها في ربيع الأول سنة تسع من الهجرة، وأنها هي التي أمرتها عائشة أن تستعيز منه.

وقال سهل بن سعد: وذكر لرسول الله ﷺ امرأة من العرب فأمر أبا أسيد الساعدي أن يرسل إليها، فأرسل إليها، فقدمت، فنزلت في أطم بني ساعدة، فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءها، فدخل عليها، فإذا امرأة منكسة رأسها، فلما كلمها رسول الله ﷺ قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «قد أعدتُك مني»، فقالوا لها: أتدرين من هذا؟ قالت: لا، قالوا: رسول الله ﷺ جاء ليخطبك، قالت: أنا كنت أشقى من ذلك، فأقبل النبي ﷺ يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، وقال: «يا سهلُ اسقنا» فأخرجت لهم هذا القدح، فسقيتهم به. قال أبو حازم: وأخرج لنا سهل ذلك القدح، فشربنا منه، ثم استوهبه منه عمر بن عبد العزيز، فوهبه له سهل^(٤).

وقال قتادة: كانت تبكي، وتقول: أنا الشقية.

(١) أحمد في «مسنده» (١٦٠٦١)، والبخاري (٥٢٥٧).

(٢) «الصحاح»: (رزق).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١٠/١٤١.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٠٠٧).

قُتيلة بنت قيس [أخت الأشعث بن قيس الكندي]، وقيل: اسمها عمرة [ذكرها هشام والبلاذري^(١) وجدي في «التلقيح» فقال:] ولما ردَّ رسول الله - ﷺ - الجونية قال له الأشعث بن قيس: ألا أزوجك أختي قتيلة؟ قال: «بلى» فانصرف إلى حضرموت، فجهزها، فبينا هي في الطريق توفي رسول الله ﷺ فبعث الأشعث فردها من الطريق، ولما ارتد أخوها ارتدت معه، فلما أسلم أسلمت معه، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، فوجد أبو بكر رضوان الله عليه من ذلك وجداً شديداً، فقال له عمر رضوان الله عليه: إنها ليست من أزواجه، ما رآها، ولا دخل بها، ولا حجبها، ولقد برأه الله منها بالردة، وكان عروة بن الزبير ينكر أن يكون رسول الله ﷺ تزوجها^(٢).

سبا^(٣) [ويقال: سنا - بنون -] بنت أسماء، ماتت قبل أن يدخل بها، وقيل: هي الكلابية التي تقدّم ذكرها.

أم شريك^(٤) [واسمها غزّية، وقيل: هي غزيلة.

وقد نسبها البلاذري: غزية بنت داود بن عوف من ولد عامر بن لؤي، قال:] وهي التي وهبت نفسها لرسول الله ﷺ وكانت قبله عند أبي العكر، واسمه سلم بن سمي بن الحارث الأزدي، وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها ولم يردّها^(٥).

[وقال الطبري: تزوجها الرسول ﷺ بعد زوج كان لها قبله، وكان لها من الزوج ابن يقال له: شريك، فكنت به]، فلما دخل بها رسول الله ﷺ وجدها مسنةً فطلقها^(٦).

وقال عكرمة: التي وهبت نفسها خولة بنت حكيم فلم يقبلها فأرجأ أمرها، فتزوجها عثمان بن مظعون.

[وقال جدي في «التلقيح»: كانت أم شريك قبل رسول الله ﷺ عند أبي بكر بن أبي

(١) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٦.

(٢) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٢٦.

(٣) انظر «الطبقات» ١٠/١٤٤، والإصابة «٤/٣٢٤»، و ٣٣٥.

(٤) «الطبقات» ١٠/١٤٨، و«الإصابة» ٤/٣٧٢.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/٥٠٨.

(٦) «تاريخ الطبري» ٣/١٦٨.

سلمة، فطلقها رسول الله ﷺ ولم يدخل بها، قال: وقيل: إن التي وهبت له نفسها خولة بنت حكيم^(١).

وكانت أم شريك من الصالحات المهاجرات، ذكرها أبو نعيم الأصفهاني قال: ودخل بها رسول الله ﷺ.

قال أبو نعيم بإسناده، عن ابن عباس قال: وقع في قلب أم شريك الإسلام وهي بمكة، فأسلمت، وكانت تحت أبي العكر الدوسي، فجعلت تدخل على نساء قريش سرّاً، فتدعوهنّ إلى الإسلام، وترغبهنّ فيه حتى ظهر أمرها، فأخذها أهل مكة، وقالوا: لولا قومك لفعلنا بك وصنعنا، ولكن سنردك إليهم، فحملوها على بعير ليس تحتها شيء، قالت: وتركوني ثلاثاً لم يطعموني شيئاً، ولم يسقوني، وكانوا إذا نزلوا منزلاً أو ثقوني في الشمس واستظلّوا هم، فيينا هم قد نزلوا منزلاً وأنا موثقة في الشمس إذا برّدت شيء على صدري، فتناولته، وشربت حتى رويت، ثم صببته على جسدي، فلما استيقظوا إذا هم بأثر الماء على جسدي وثيابي، ورأوني حسنة الهيئة، قالوا: تحيلت فأخذت سقاءنا فشربت منه؟ فقلت: لا والله، ولكنه كان من أمري كذا وكذا، فقالوا: لئن كنت صادقةً لدينك خيرٌ من ديننا، ثم نظروا إلى أسقيتهم وإذا بها على حالها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك، ثم أقبلت إلى المدينة، فوهبت نفسها لرسول الله ﷺ من غير مهر، فدخل بها من غير مهر^(٢).

قال المصنف رحمه الله^(٣): وعامة العلماء على أنه لم يدخل بها.

روت أم شريك الحديث عن رسول الله ﷺ، وأخرج عنها في «الصحیح»^(٤).

خولة بنت الهذيل بن هبيرة بن قبيصة، تزوجها رسول الله ﷺ فماتت قبل أن تصل إليه^(٥).

(١) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٢٦.

(٢) انظر «المنتظم» ٢٣٧/٥.

(٣) في (ك): قلت.

(٤) لها حديثان فيهما، أحدهما: أن رسول الله ﷺ أمرها بقتل الأوزاع. أخرجه البخاري (٣٣٠٧)، ومسلم (٢٢٣٧). والآخر أخرجه مسلم (٢٩٤٥) أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليفرن الناس من الدجال في

الجبال»، قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل».

(٥) «الطبقات» ١٥٤/١٠، و«الإصابة» ٢٩٣/٤.

شَرَّافُ بنت خليفة كلبيةٌ، تزوجها فماتت قبل أن تصل إليه^(١).

ليلى بنتُ الخَطِيمِ بن عدي بن عمر الخزرجي، [تزوجها وكانت غيوراً فاستقالته، فأقالها.

وقال هشام ابن الكلبي]: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مولي ظهره الشمس، فضربت على منكبه، فقال: «من هذه؟» فقالت: أنا ابنةُ مُباري الرياح، أنا ليلى بنت الخَطِيمِ، جئت أعرضُ عليك نفسي فتزوجني، فقال: «قد فعلتُ»، فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوجني رسول الله - ﷺ - فقالوا: بئس ما صنعت، أنت امرأةٌ غَيْرَى، ورسول الله ﷺ صاحب نسوة، استقبله، فرجعت، فاستقالته، فأقالها^(٢).

وقال البلاذري: فحطَّأت على منكبه، فقال: «مَنْ هذا أَكَله أَسودُّ، أو الأَسودُّ؟» فلما رجعت إلى قومها دخلت بعض الحيطان فأكلها أسود^(٣).

عَمْرَة بنت معاوية، كندية، وقيل: هي أخت الأشعث بن قيس، وقيل: هي غيرها، ماتت قبل أن تصل إليه^(٤).

ابنة جندب، جندعية، وأبوها ضمرة، وقيل: لم يعقد عليها^(٥).

الغِفَّارية [واختلفوا فيها: فقال الكلبي]: هي السنا، تزوجها رسول الله ﷺ فرأى بكشحها بياضاً، فقال: «الحقي بأهلك»، وقيل: اسمها غزية.

وقال هشام: هي التي عَوَّذت حين دخلت عليه، واتفق موت ابنه إبراهيم عليه السلام فقالت: لو كان نبياً ما مات ولده وأعز الخلق عليه، فطلقها.

هند بنت يزيد من القرطاء، وهي قبيلة، لم يدخل بها^(٦).

العالية بنت ظبيان، كلابية، وقيل: عامرية.

(١) «الطبقات» ١٥٤/١٠، و«الإصابة» ٣٤٠/٤.

(٢) انظر «الطبقات» ١٤٥/١٠، و«تاريخ الطبري» ١٦٨/٣، و«البدية والنهاية» ٣٠١/٥.

(٣) «أنساب الأشراف» ٥٤٩/١ - ٥٥٠.

(٤) «الإصابة» ٣٦٧/٤.

(٥) «الطبقات» ١٤٤/١٠.

(٦) «أنساب الأشراف» ٥٤٦/١، و«الإصابة» ٤٢٧/٤.

[قال هشام:] كان رسول الله - ﷺ - إذا خرج اطلعت إلى المسجد، فأخبره أزواجه، فطلقها^(١). وقيل: إنه دخل بها. (فتزوجت ابن عم لها، ودخل بها)^(٢)، [وقيل: إن ذلك كان قبل تحريم نكاحهن على الناس، وقال هشام: ما دخل بها]، وذكر البلاذري امرأة أخرى يقال لها: حمرة بحاء مهملة، ويقال لها: البرصاء^(٣).

القسم الثالث: في من خطبهن رسول الله ﷺ ولم يحملن إليه:

وهن ثمان:

أم هانئ بنت أبي طالب، خطبها، فقالت: إني امرأة مصيبة، ووالله لقد كنت أحبك في الجاهلية، فكيف في الإسلام؟ ولي أولاد صغار، وأخاف أن يؤذوك، فعذرها ودعا لها^(٤).

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ خطب أم هانئ بنت أبي طالب [أخت علي ﷺ]. فقالت: يا رسول الله إني قد كبرت ولي عيال، فقال رسول الله - ﷺ - : «خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه علي ولد في صغره، وأرعاه علي زوج في ذات يده» قال أبو هريرة: ولم تترك مريم بنت عمران بعيداً. متفق عليه^(٥).

ضباعة بنت عامر بن قُرْط بن سَلْمَة، من بني عامر بن صعصعة، وكانت عند أبي هُوذَة الحنفي^(٦)، فهلك، فورثت منه مالاً، فتزوجها عبد الله بن جُدعان التيمي، فلم تلد له، فسألته طلاقها، فطلقها، فتزوجها هشام بن المغيرة فولدت له سلمة بن هشام، وكان من خيار المسلمين، وكانت موصوفة بالجمال، فخطبها رسول الله ﷺ إلى ابنها

(١) «أنساب الأشراف» ٥٤٥/١، وانظر الاختلاف في اسمها، وهل دخل بها أم لا في «الطبقات» ١٣٦/١٠ و«الإصابة» ٣٥٩/٤.

(٢) ما بين قوسين زيادة من «أنساب الأشراف» وانظر «الإصابة».

(٣) «أنساب الأشراف» ٥٥١/١، وذكرها ابن حجر في «الإصابة» ٢٦٠/٤ في حرف الجيم.

(٤) «الطبقات» ١٤٦/١٠.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٣٤)، ومسلم (٢٥٢٧) (٢٠١).

(٦) هكذا في النسخ: عند أبي هُوذَة و«أنساب الأشراف»، وفي جميع المصادر هو: هُوذَة بن علي الحنفي، انظر «المنتظم» ٢٩٠/٣.

سَلَمَة، فقال: حتى أستأمرها، فاستأمرها، فقالت: أفي رسول الله ﷺ تستأمرني؟
زوجها، وبلغ رسول الله ﷺ أنها مسنة، فرجع ابنها إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فسكت،
ولم يجبه^(١).

وقيل: إنها هي التي طلبت ثوباً تستتر وتطوف بالبيت فلم تجده فقالت^(٢): [من
الرجز]

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه وما بدا منه فلا أحلُّه
صفيَّة بنت بشَّامة بن نضلة العنبري، أخت الأعرور العنبري، قال ابن عباس: كان
رسول الله ﷺ قد سبها، فخطبها، وخيرها، فقال: «إن شئتِ أنا وإن شئتِ زوجكِ»
فقالت: زوجي، فأرسلها، فلعتها بنو تميم^(٣).

جَمرة بنت الحارث بن عوف المري [وقيل: حمرة]، خطبها ﷺ إلى أبيها، ولم
يكن بها شيء، فقال أبوها: إن بها سوءاً، أي: برصاً، فرجع أبوها، فوجدها قد
برصت، وقال ابن قتيبة: وهي أم شبيب بن البرصاء، والحارث^(٤) بن عوف، هو
صاحب بني عبس وذيان.

[وحكى البلاذري عن المدائني أنها يقال لها: البرصاء، ولم يكن بها برص، وإنما
كانت أدماء، فسميت برصاء على القلب]^(٥).

سودة قرشية، كانت مصيبة، خطبها رسول الله ﷺ فقالت: أكره أن يضغوا صبيتي
عنده، فدعا لها^(٦).

وثلاث نسوة لم تذكر أسماءهن:

إحداهن كلبية، قال هشام: بعث إليها رسول الله ﷺ عائشة لتنظر إليها، فلما عادت

(١) «الطبقات» ١٠/١٤٨، و«أنساب الأشراف» ١/٥٥٠.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٥٥٠.

(٣) «الطبقات» ١٠/١٤٨.

(٤) في (أ) و (خ): «والخزل»، والحارث بن عوف هو صاحب الجمالة بين هذين الحين. «المعارف» ص ١٤٠.

(٥) «أنساب الأشراف» ١/٥٥١.

(٦) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٢٧، وفيه: يضغوا صبيتي عند رأسك، قوله: يضغوا؛ أي: يصيحوا.

قال لها: «ما رأيت»؟ قالت: ما رأيت طائلاً، فقال: «لقد رأيت بخدّها خالاً اقشعرت له كلُّ شعرة منك» فقالت: ما دونك ستر^(١).

والثانية من العرب خطبها، فقالت: حتى أستأمر أبويّ، فشاورتها، فأذنا لها، فلقيت رسول الله - ﷺ - فقال لها: «قد التحفنا لحافاً غيرك»^(٢).

القسم الرابع: من عرضن عليه ﷺ فأباهن:

وهن ثلاث:

درة بنت أم سلمة، [قال هشام: قالت أم حبيبة: يا رسول الله، بلغنا أنك تخطب درة، فقال: «لو لم تكن أمها عندي لما حلت لي، أرضعتني وأباها ثوية مولاة بني هاشم»^(٣).

قال أحمد بإسناده عن [زينب بنت أبي سلمة: أن أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ أخبرتها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، انكح أختي ابنة أبي سفيان، فزعمت أن رسول الله ﷺ قال لها: «أوتحبين ذلك؟» قالت: نعم [لست لك بمخلية، وأحب إليّ من شاركني في خير أختي، قالت: فقال لي: «إن ذلك لا يحلّ لي» فقلت: يا رسول الله، إنا لتحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة فقال: «أبنت أبي سلمة؟!» قالت: نعم [قال: «وايم الله إنها لو لم تكن ربيتي في حجري ما حلت لي، إنها بنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأباها ثوية، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»، أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

وقد اختلفوا في عدد أزواج رسول الله ﷺ:

فقال الطبري: تزوج خمس عشرة امرأة، دخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة^(٥).

(١) «أنساب الأشراف» ١/٥٥٠ - ٥٥١.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٥٥١. ولم يذكر المصنف الثالثة.

(٣) «أنساب الأشراف» ١/٥٥١.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤١٢)، والبخاري (٥١٠٦)، ومسلم (١٤٤٩).

(٥) «تاريخ الطبري» ٣/١٦١.

وقال محمد بن كعب القرظي: تزوج ثلاث عشرة امرأة^(١).

وقال علي بن الحسين: خمس عشرة، وقد ذكرنا جملتهن نيفاً وثلاثين امرأة. [ذكر بعضهن هشام بن محمد، والبعض البلاذري، والمدائني، والواقدي، وجدي في «التلقيح» وشيخنا الموفق في «الأنساب»، فما ذكره الطبري وغيره بالنسبة]^(٢).

فصل في سراري رسول الله ﷺ:

[حكى أبو عبيدة وغيره قالوا:] كان له أربع سراري يطوئن بملك اليمين:

مارية [القبطية، وريحانة، وريحة القرظية، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش]^(٣).

فأما مارية [بنت شمعون القبطية، وهي أم إبراهيم ﷺ بعث إليه بها صاحب الإسكندرية] وأختها سيرين وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فهي أم ولده عبد الرحمن، وقد ذكرنا هذا]، توفيت سنة ست عشرة^(٤).

وأما رِيحانة [فحكى جدي في «التلقيح» عن ابن سعد أنه قال: هي ريحانة] بنت زيد ابن عمرو بن خُنافة.

[قال: وقال الكلبي: هي ريحانة بنت شمعون بن زيد] كانت عند رجل من بني قريظة يقال له: الحكم، فسبها رسول الله ﷺ [فأعتقها وتزوج بها في سنة ست من الهجرة، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفنها في البقيع.

قال: وقال الواقدي: ماتت سنة ست عشرة من الهجرة وصلى عليها عمر، قال: وقد سمعت من يقول: إنه كان يطؤها بملك اليمين، ولم يعتقها^(٥). هذا صورة ما ذكره جدي في «التلقيح».

قلت: وقد اختلفوا فيها: فقال البلاذري: اصطفها رسول الله ﷺ لما فتح قريظة]

(١) «الطبقات» ٢٠٥/١٠.

(٢) ما بين معكوفين من (ك)، وانظر تلقيح فهوم أهل الأثر ٢٨، والتبيين ٧١.

(٣) انظر «المستدرک» للحاكم ٤٥/٤.

(٤) «الطبقات» ٢٠١/١٠، و«الإصابة» ٤٠٤/٤.

(٥) «تلقىح فهوم أهل الأثر» ص ٢٣، وانظر طبقات ابن سعد ١٢٥/١٠.

فعرض عليها الإسلام فأبت إلا اليهودية، فعزلها عنه، ثم أسلمت بعد ذلك، فعرض عليها أن يتزوجها، فأبت، وقالت: أراني في ملكك، فهو أروح لي ولك، فكان يطؤها بحكم الملك.

[وكانت تحت رجل يقال له: عبد الحكم، وهو ابن عمها من قريظة، وقيل أبو الحكم، وكان لها مكرماً فأبت أن تتزوج بعده^(١).

وقال أبو معشر: اسمها ريحة، تدعى القرظية.

وقال البلاذري أيضاً: عن محمد الأعرابي قال: سمعت أزهر السمان يحدث عن

ابن عون] عن ابن سيرين قال: لقي رجل ريحانة في الموسم فقال لها: إن الله لم يرضَ أن يجعلك أمّاً للمؤمنين، فقالت: وأنت لم يرضك الله لي ابناً^(٢).

[وهذا يدل على أنها لم تكن من أزواجه.

وحكى ابن سعد عن الواقدي، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري قال: كانت ريحانة

قرظية ملكها رسول الله ﷺ ثم أعتقها وتزوجها، ثم طلقها، فقالت: لا يراني أحد بعد رسول الله ﷺ^(٣).

قلت: والأول أصح، ولو كانت من أزواجه لقسم لها وحجبها، إلى غير ذلك، ولم

ينقل والله أعلم^(٤).



(١) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٣.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/٥٤٣.

(٣) «الطبقات» ١٠/١٢٧.

(٤) ما بين معكوفين من (ك)، وأما الجارية التي وهبتها له زينب بنت جحش، وهي أنه ﷺ هجر زينب في حجة الوداع لما قال لها: أفقري أختك صفية جملًا، فقالت: أنا أفقر يهوديتك، فغضب النبي ﷺ حين سمع ذلك منها، فهجرها شهراً ثم رضي عنها ودخل عليها فوهبت هذه الجارية، والحديث أخرجه أحمد في «مسنده» مطولاً (٢٦٨٦٦)، وسمى ابن حجر في «الإصابة» ٤/٤٢٠ هذه الجارية: نفيسة.

الباب الثالث عشر

في ذكر خدمه ومواليه ﷺ

[قال علماء السير:] قد خدمه ﷺ جماعة، منهم:

أنس بن مالك، وكان خصيصاً به، خدمه عشر سنين حضراً وسفراً.

وكان ابن مسعود صاحب نعليه، إذا قام ألبسه إياهما، وإذا خلعهما جعلهما في

ذراعيه، حتى يقوم.

وخدمه أسماء وهند ابنا حارثة الأسلميان، وربيعة بن كعب، وأبو السمح، واسمه

إياد.

[وقال ابن عبد البر: ضل فلا يدرى أين مات، وقيل: إنه مولى رسول الله ﷺ] (١).

وكان عقبة بن عامر الجهني يقود بغلته وناقته في السفر.

وكان الأسلع يرحل له ناقته، وهو الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجي، وقيل اسم

الأسلع: ميمون بن سناد، وذكره جدي في «التلقيح» فقال: الأسلع بن شريك بن

الحارث التميمي (٢).

والأسلع الذي روى حديث التيمم، قال: أجنبت ليلة فقال لي رسول الله ﷺ: «يا

أسلع، قم فارحل ناقتي» فقلت: يا رسول الله، أصابني جنابة، فأمره بالتيمم، فضرب

ضربتين ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين (٣).

[وأما هند وأسماء ابنا حارثة الأسلميان، فكانا يخدمان رسول الله ﷺ يلازمان

ثيابه، وأسماء هو الذي بعثه رسول الله ﷺ فقال: «من كان أكل يوم عاشوراء...»

(١) «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٩٩/٤، وانظر «الإصابة» ٩٥/٤.

(٢) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ١١٨.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٧٥)، وفي الأوسط (٥٤١)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٦٢/١

وقال: فيه الربيع بن بدر، وقد أجمعوا على ضعفه.

الحديث^(١). وقيل: بعث معه هند بن حارثة وكنيته أبو محمد، وهو وأخوه هند من أهل الصفة.

قال ابن سعد عن الواقدي: مات أسماء بالبصرة في سنة ست وستين وهو ابن ثمانين سنة.

قال ابن سعد: وغير الواقدي يقول: مات بالبصرة في أيام زياد في خلافة معاوية بن أبي سفيان^(٢).

وقال ابن عبد البر: شهد هند بن حارثة بيعة الرضوان مع أخوة له سبعة، وهم: أسماء، وفراس، وذؤيب، وفضالة، وسلمة، ومالك، وحمران، ولم يشهدا أخوة في عددهم غيرهم، ومات هند بالمدينة في أيام معاوية^(٣).

وقد خدم رسول الله ﷺ بكبير، ويقال: بكر [بن الشُّدَاخ الليثي وكان غلاماً، فلما احتلم جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله قد كنت أدخل على نسائك وأهلك وأنا غلام، وقد بلغت مبلغ الرجال، فدعا له رسول الله ﷺ^(٤).

وهو الذي قتل اليهودي، روى ابن منده، عن عبد الملك بن يعلى قال: خدم بكبير ابن شُدَاخ رسول الله ﷺ فلما كان في زمن عمر بن الخطاب وجدوا يهودياً مقتولاً، فصعد المنبر، وقال: أذكّر الله رجلاً كان عنده علمٌ من هذا الأمر إلا أعلمني، فقام بكبير بن شُدَاخ، فقال: أنا قتلته، فقال عمر: الله أكبر بؤت بدمه وإلا هات المخرج، فقال: خرج فلان غازياً، ووكلني بأهله، فجئت إلى بابه، فوجدت هذا اليهودي في منزله وهو يقول^(٥): [من الوافر]

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٤)، ومسلم (١١٣٥) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث رجلاً ينادي في الناس يوم عاشوراء: «إن من أكل فليتم أو فليصم، ومن لم يأكل فلا يأكل».

وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٦٢) عن هند بن أسماء قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي من أسلم فقال: «مر قومك فليصوموا هذا اليوم عاشوراء، فمن وجدته منهم قد أكل في أول يومه، فليصم آخره».

(٢) «الطبقات» ٥/٢٢٧.

(٣) «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٣/٥٩٩ - ٦٠٠.

(٤) انظر «البداية والنهاية» ٥/٣٣٣، و«الإصابة» ١/١٦٣ - ١٦٤.

(٥) «البداية والنهاية» ٥/٣٣٣.

وأشعثَ غرَّه الإسلامُ مني خلوتُ بعِرسه ليل التمامِ
أبيتُ على ترائبها ويُمسي على شدِّ الأعنة والحزامِ
[كأنَّ مجامعَ الرِّبَلاتِ منها فئامٌ ينهضون إلى فئامِ
الربلاتِ باطن الفخذ، قال: فصدق عمر قوله وأبطل دم اليهودي بدعاء النبي ﷺ
لبكير بن شدَّاخ وخدمته له].

وخدمه سعد مولى أبي بكر رضوان الله عليه فقال لأبي بكر: أعتقه، فقال: ما لنا
خادم غيره، [قال: أذاك الرجال أي: السبي] فأعتقه.
[قال ابن عبد البر: روى سعد مولى أبي بكر عن الحسن البصري] ويقال: اسمه
سعيد ويُعد في أهل البصرة^(١).
فأما موالیه ﷺ:

فأحمر وكنيته أبو عسيب [وفي الصحابة من اسمه أحمر خمسة، منهم هذا]^(٢).
أسلم وكنيته أبو رافع^(٣)، وكان عبداً للعباس بن عبد المطلب، فوهبه لرسول الله
ﷺ، فلما أسلم العباس، بشر رسول الله ﷺ بإسلامه، فأعتقه، [وقد كان أسلم بمكة
مع العباس] وشهد الخندق^(٤) [وهو الذي بعثه رسول الله ﷺ مع رجلٍ من الأنصار
يخطب ميمونة بنت الحارث]^(٥).

قال ابن سعد: وهو الذي بعثه رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة من المدينة إلى مكة
ليحمل عيال رسول الله ﷺ إلى المدينة عند الهجرة^(٦).

[قال ابن سعد: وهو الذي ضربه أبو لهب بالعمود بمكة لما جاء خبر بدر]، وهو الذي

(١) «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٤٨/٢، وفيه: أن الحسن البصري هو من روى عن سعد، وانظر
«الإصابة» ٣٩/٢.

(٢) «الطبقات» ٥٩/٩، و«الإصابة» ١٣٣/٤.

(٣) «الطبقات» ٦٧/٤، و«الإصابة» ٦٧/٤.

(٤) «الطبقات» ١٣٠/١٠.

(٥) «الطبقات» ٦٨/٤.

(٦) «أنساب الأشراف» ٥٦٧/١.

بشر رسول الله ﷺ بولادة إبراهيم ابنه ﷺ. ويقال: هو الذي عمل منبر رسول الله (١) ﷺ. [وذكره ابن عبد البر فقال: شهد أسلم أحداً والخندق وما بعدها] وزوجه رسول الله ﷺ مولاته سلمى [وشهدت خبير، وولدت له عبيد الله بن أبي رافع (٢). قال: وكان أبو رافع من فضلاء الناس إلا أنه كان فيه عي شديد.

[رأته امرأته في المنام بعد موته، فقال لها: لي على فلان الصيرفي مائتي دينار، فلما انتبهت جاءت إلى الصيرفي فأخبرته، فقال: والله ما علمته قط، فدخلت المسجد فرأت أشياخاً من آل أبي رافع كلهم مقبول القول، فأخبرتهم، فقالوا: ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة، قدمه إلى الحاكم لنشهد لك عليه، وبلغ الصيرفي فجاء إليهم فقال: أصلحوا بيني وبينها على مئة دينار صلحاً عن مئتي دينار ادعاها عليّ أبو رافع في النوم، وإنما قد أبرأتني، فربما ترى أبا رافع في النوم مرة أخرى، ففكر القوم فاستيقظوا من غفلتهم وقالوا للمرأة: قبح الله ما جئت به ولم يحصل لها شيء. واختلّفوا في اسمه على أقوال:

أحدها: أسلم وهو المشهور. والثاني: هُرْمَز. والثالث: إبراهيم. والرابع: ثابت. والخامس: يزيد.

وقال ابن عبد البر: توفي بعد مقتل عثمان بن عفان بيسير في سنة ست وثلاثين، وفي الصحابة ستة كل واحد اسمه أسلم أحدهم هذا، وفي اسمه خلاف كما ذكرنا (٣).

أسامة بن زيد رضي الله عنه وسنذكره في سنة ستين [في آخر أيام معاوية].

أنسة، وكنيته أبو مسروح [وقيل: أبو مسرح] من مولدي السراة، [واختلفوا فيه: فحكى ابن سعد عن الواقدي]: أنه قتل يوم بدر شهيداً (٤). وقيل: إنه من الفرس، [وكانت أمه حبشية وأبوه فارسياً، واسم أبيه كردويه.

(١) «أنساب الأشراف» ٥٦٧/١.

(٢) «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٨٥ - ٨٧.

(٣) «الاستيعاب» ٨٧/١، وفيه قبل قتل عثمان، ولم يذكر السنة.

(٤) «الطبقات» ٤٦/٣.

وروى عن الواقدي أنه قال: الثبت عندنا [أنه شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في خلافة أبي بكر رضوان الله عليه^(١)].

[وقيل: إنه] كان يستأذن للناس على رسول الله ﷺ [وليس في الصحابة من اسمه أنسة غيره، وليس له رواية].

أيمن بن أم أيمن الحبشي، له رؤية ورواية. وأبوه عبيد الخزرجي تزوج أم أيمن بمكة ثم فارقتها، فزوجها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بعد أن أعتقها، [وقد ذكرنا أن أيمن قد قتل بحنين شهيداً].

ثوبان، [واختلفوا في اسم أبيه، فقيل: ابن بجدد، وقال ابن يونس: بجدد، وقيل: جحدر^(٢)] وكنيته أبو عبد الله، اشتراه رسول الله ﷺ [وأعتقه. قال ابن يونس: وهو من أهل اليمن، وقيل: من السراة ولم يزل مع رسول الله ﷺ] حتى قبض.

[وذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة^(٣). وقال هشام بن محمد] وكان يحب رسول الله ﷺ لا يصبر عنه. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

[وقال أبو سعيد بن يونس]: شهد ثوبان فتح مصر، واختط بها داراً، [وكذا حكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن ابن منده أنه قال: لثوبان بمصر دار وبالرملة أخرى^(٤)].

واختلفوا في وفاته [فقيل: إنه توفي بمصر سنة أربع وأربعين، وقال ابن سعد: نزل بحمص ومات بها في سنة أربع وخمسين^(٥). ومنزله بحمص [عند] حمام جابر، وله بها عقب، وقيل: إنه لم يعقب، [وكانت وفاته في أيام عبد الله بن قُرظ]، وكان نزل دمشق، ثم نزل الرملة، ثم عاد إلى حمص.

(١) «الطبقات» ٤٦/٣.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ١١/١٦٦.

(٣) «الطبقات» ٩٨/٥.

(٤) «تاريخ دمشق» ١١/١٧٢.

(٥) طبقات ابن سعد ٩٨/٥ و ٩٠٤/٩.

[وروى عن رسول الله ﷺ نيفاً وثلاثين حديثاً، أخرج له مسلم عشر أحاديث، ولم يخرج له البخاري شيئاً، وهو الذي روى حديث الحوض، وسنذكره في آخر السيرة.

ومن مسانيد ما أخرجه أحمد في «مسنده»، فقال بإسناده، عن سليمان المنبهي عن ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخر عهده بإنسانٍ فاطمة، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة، قال: فقدم من غزاةٍ فأتاها، فإذا بمسحٍ على بابها ورأى على الحسن والحسين قلوبين من فضة، فرجع ولم يدخل عليها، فهتكت فاطمة السُّتر ونزعت القلوبين فقطعتهما ظناً أنه لم يدخل عليها لأجل ذلك، فبكى الصبيان، فقسمت القلوبين بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذه رسول الله ﷺ منهما فقال: «يا ثوبان، اذهب بهذا إلى بني فلان - أهل بيت في المدينة - واشترِ لفاطمة قلادةً من عَصَبٍ وسوارين من عاج، فإن هؤلاء أهل بيتي، ولا أحبُّ أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(١).

«العصب»: ثوب، أي يفتل ثم يغسل ثم يصبغ ثم يحاك^(٢). وقال الجوهري:

«العصب» ضربٌ من برود اليمن^(٣).

قلت: ولا معنى أن تكون القلادة من البرود، وإنما قد روي: «واشتر لفاطمة قلادة من جزع ظفار» وهو أولى.

وأما «العاج» فقال الأصمعي: هو خشب الذبل. وقال الجوهري: العاج عظم الفيل^(٤).

وفي هذا الحديث دليلٌ على طهارة عظم الميتة.

وفي الصحابة من اسمه ثوبان ثلاثة أحدهم هذا.

أفلق^(٥)، ذكره ابن البرقي، وقال: له حديث، وهو الذي يقال له: مولى أم سلمة، وليس في الصحابة من اسمه أفلق إلا هو وآخر، يقال له: أفلق أخو أبي

(١) أحمد في «مسنده» (٢٢٣٦٣).

(٢) انظر «فتح الباري» ٤٩١/٩.

(٣) «الصحاح» (عصب).

(٤) «الصحاح»: (عوج).

(٥) «الإصابة» ٥٧/١ - ٥٨.

القعيس، وكنيته أبو الجعد، ولهما رؤية وليس لهما رواية].
 حنين^(١)، كان لرسول الله ﷺ، فوهبه العباس، فأعتقه [وليس في الصحابة من
 اسمه حنين غيره، وليس له رواية].

وخدمه جماعة منهم من سميت ومنهم ما سميت مخافة التطويل].
 ذكوان، وقيل: اسمه مهران، وقيل: طهمان، وقيل: ميمون، وقيل: كيسان،
 وقيل: باذام.

رافع بن عبد الله.

رويفع، غير رافع.

رباح، كنيته أبو أيمن، كان يأذن للناس على رسول الله ﷺ ثم جعله على لقاحه
 مكان يسار لما قتل^(٢).

زيد بن حارثة رضي عنه.

زيد بن بؤلا^(٣).

زيد بن المنذر من بني قريظة، كان مكاتباً، فابتاعه رسول الله ﷺ فأعتقه^(٤).

زيد أبو يسار^(٥)، من رواياته: قال بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ:
 سمعت أبي يحدث عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قال: أستغفر الله الذي
 لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف»^(٦).

سابق^(٧)، وليس في الصحابة من اسمه سابق غيره.

(١) «الإصابة» ٣٦٢/١.

(٢) «أنساب الأشراف» ٥٧٥/١، و«الإصابة» ٥٠٢/١.

(٣) «الإصابة» ٥٦١/١.

(٤) ويكنى أبو لبابة، «أنساب الأشراف» ٧٣/١، و«الإصابة» ١٦٨/٤.

(٥) «الطبقات» ٩٩/٥، و«الإصابة» ٥٦١/١ وهو زيد بن بؤلا كما في «الإصابة».

(٦) أخرجه أبو داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧).

(٧) هو وهم كما قال الحافظ في «الإصابة» ١١٩/٢ - ١٢٠: وإنما جاء الحديث عن سابق بن ناجية عن خادم

رسول الله ﷺ، وانظر الحديث في «مسند» أحمد والاختلاف عليه (١٨٩٦٧)، و«الإصابة» ٩٣/٤.

سالم^(١)، مولد، شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وتوفي أول يوم ولي عمر الخلافة.

سعيد بن لبيد بن سلمان الفارسي، نذكره في سنة اثنتين وثلاثين.

سليم^(٢) أبو كبشة الدوسي، من مؤلدي أرض دوس، ابتاعه رسول الله ﷺ فأعتقه، فشهد معه بدرأً والمشاهد كلها.

شُقْران^(٣)، وقيل: اسمه الصالح بن عدي، وقيل: أوس، وقيل: هُرْمَز، وشُقْران لقب له، وكان حبشياً، ورثه رسول الله ﷺ عن أمه وأبيه، وقيل: كان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه لرسول الله - ﷺ - فأعتقه، وقيل: أخذه من عبد الرحمن باليمن، وقيل: هو من سبي الفرس.

وهو من الطبقة الأولى من المهاجرين، شهد بدرأً، وكان على الأسرى، ولم يسهم له رسول الله ﷺ بل أجزاء كل رجل له أسير فحصل له أكبر ما حصل من المغنم، وله عقب بالبصرة والمدينة.

واستعمله رسول الله ﷺ على ما وجد في رحال أهل المريسيع من المتاع، والسلاح، والنعم، والشاء، والذرية، فسأل رسول الله ﷺ أهل المريسيع: «كيف وجدتم شُقْران؟» فقالوا: أشبع بطوننا، وشد وثاقنا^(٤).

وهو الذي نزل في قبر رسول الله ﷺ، وطرح القטיפه فيه.

ومات في خلافة عمر رضوان الله عليه، فبعث ابنه عبد الرحمن إلى أبي موسى الأشعري، وكتب إليه: قد بعثت إليك عبد الرحمن ابن الرجل الصالح شُقْران، فاعرف له مكان أبيه من رسول الله ﷺ.

ضُميرة بن أبي ضُميرة^(٥)، وصل إلى رسول الله ﷺ، فأعتقه، وخيَّره بين المقام

(١) وهو أبو كبشة الآتي انظر «الطبقات» ٤٦/٣، و«الإصابة» ١٦٥/٤.

(٢) تقدم باسم سالم وانظر التعليق السابق.

(٣) «الطبقات» ٤٧/٣، و«أنساب الأشراف» ١/٥٦٨ - ٥٦٩ و«الإصابة» ١٥٣/٢.

(٤) «أنساب الأشراف» ١/٥٦٩.

(٥) «الطبقات» ١٠٣/٥، و«أنساب الأشراف» ١/٥٧٤، و«الإصابة» ٢١٤/٢.

عنده، وبين اللحاق بأهله، فاختر أن يقيم معه.

ثم كتب له رسول الله ﷺ كتاباً يتضمن الوصية به وبأهل بيته، قال حسين بن عبد الله ابن أبي ضميرة: كتب لنا رسول الله ﷺ كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، إنهم كانوا أهل بيت من العرب، وكانوا ممّا أفاء الله على رسوله، فأعتقهم، وإن رسول الله ﷺ خير أبا ضميرة أن يلحق بقومه، أو يكون معه، فاختر المقام عند رسول الله ﷺ فمن لقيه أو أحداً من أهله من المسلمين، فلا يتعرض لهم إلا بخير، وليستوص بهم خيراً»، وكتب أبي بن كعب، فخرج أبو ضميرة في طائفة من قومه فخرج عليهم قطاع الطريق، فأخذوا ما معهم، فأخرجوا الكتاب، فقرأوا ما فيه، فردوا عليهم ما أخذوا منهم^(١).

ووفد حسين بن عبد الله بن أبي ضميرة على المهدي فأراه الكتاب، فقبله، ووضع على عينيه، وأعطى حسيناً ثلاث مئة دينار^(٢).

عبيد بن أبي أسلم^(٣)، روى عن النبي - ﷺ - حديثاً.

فضالة اليماني^(٤) نزل الشام، بن أبي معجمه^(٥).

ذكره ابن ماكولا.

كركرة^(٦)، وقيل: هو الذي كان على ثقل رسول الله ﷺ فمات، فقال رسول الله -

ﷺ -: «هو في النار» فنظروا وإذا به قد غلّ عباءة^(٧).

كيسان، وقيل: هو سفينة.

مأبورا^(٨)، وهو الذي أهداه المقوقس مع مارية، وكان خصياً.

(١) «الطبقات» ١٠٤/٥.

(٢) «الطبقات» ١٠٤/٥.

(٣) «الطبقات» ٩٩/٥.

(٤) انظر أنساب الأشراف ١/ ٥٧٠، و«الإصابة» ٣/ ٢٠٨، وتاريخ دمشق ٤١/ ٥٨ (مجمع اللغة).

(٥) هكذا رسمت في النسخ ولم نهتد لها.

(٦) «أنساب الأشراف» ١/ ٥٧٥، و«الإصابة» ٣/ ٢٩٣.

(٧) أخرجه البخاري (٣٠٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٨) «الإصابة» ٣/ ٣٣٤. وضبطه الحافظ بغير ألف في آخره.

محمد^(١)، كان مجوسياً، فسمع بذكر رسول الله - ﷺ - فخرج ومعه تجارة من مرو حتى قدم المدينة، فأسلم على يدي رسول الله ﷺ وسماه محمداً، ثم رجع إلى منزله بمرو مسلماً، وداره قبالة المسجد الجامع.

مدغم^(٢) أسود، أهداه له رفاة الجذامي، وكان يسافر مع رسول الله ﷺ، ويرحل له فجاءه سهم عائر فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله - ﷺ -: «كَلَّا والذي نفسي بيده، إِنَّ الشَّمْلَةَ التي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الغَنَائِمِ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ ناراً»^(٣).

مهران، من مولدي الأعراب، ولقبه: سفينة [واختلفوا في اسمه على أقوال: أحدها: هذا المشهور، قاله إبراهيم الحربي. الثاني: رومان، قاله الهيثم بن عدي. والثالث: كيسان، والرابع: طهمان. والخامس: عبس. والسادس: رباح. والسابع: أحمر. والثامن: سبيه بن مارقية، ذكره الطبري قال: وهو من الفرس^(٤). والأول أصح، نص عليه إبراهيم الحربي]، وكنيته أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو البختري.

وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من المهاجرين وقال: اشترته أم سلمة، وأعتقته على أن يخدم رسول الله - ﷺ - ما عاش، فقال: لو لم تشتري علي لخدمته، فخدمه عشر سنين^(٥).

[وقال ابن سعد بإسناده عن سعيد بن جُمهان قال: سألت مهران: لم سميت سفينة؟ فقال: خرج رسول الله ﷺ في غزوة، فثقل عليهم متاعهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ابْسُطْ كِسَاءَكَ» فبسطته فحولوا عليه أمتعته ثم حملوه على ظهري، فقال لي رسول الله ﷺ: «احْمِلْ فما أنت إلا سفينة» ثم حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة فما ثقل علي^(٦).

(١) «الإصابة» ٣/ ٣٨٥.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/ ٥٧٤، و«الإصابة» ٣/ ٣٩٤.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «تاريخ الطبري» ٣/ ١٧١.

(٥) «الطبقات» ٥/ ١٠٠.

(٦) «الطبقات» ٥/ ١٠٠.

وحكى عنه ابن سعد أيضاً قال: ركبْتُ البحر، فانكسرت بنا السفينة، فتعلقتُ منها بشيءٍ، فخرجت إلى الجزيرة، فإذا بالأسدِ، فقلت له: يا أبا الحارثِ، أنا سفينةُ مولى رسول الله ﷺ، قال: فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه يدلني على الطريق، فلما خرجت إلى الطريق همهم، فظننت أنه يودعني وانصرف^(١).

وليس في الصحابة من اسمه مهران غيره، ولا من يلقب بسفينة سواه، وقد روى عن رسول الله ﷺ الحديث، قال الهيثم: روى عنه أربعة عشر حديثاً.

قلت: وقد أخرج له أحمد ستة أحاديث].

نافع^(٢)، من مولدي السَّراة، روى عن رسول الله ﷺ الحديث.

نبيه^(٣)، اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه.

نُفيع، وهو أبو بكرة، نذكره في سنة إحدى وخمسين.

واقد^(٤)، ويقال له: أبو واقد.

وَرْدان^(٥)، مات في حياة رسول الله ﷺ.

هشام^(٦)، يروي عن النبي ﷺ الحديث.

يسار^(٧)، كان عبداً نوبياً، دُفع لرسول الله ﷺ في بعض غزواته فأعتقه، وقيل: كان

حبشياً لعامر اليهودي، وهو الذي قتله العرنيون، وقيل: هما اثنان.



(١) «الطبقات» ١٠١/٥.

(٢) انظر «الإصابة» ٥٤٧/٣.

(٣) انظر «الإصابة» ٥٥٢/٣.

(٤) انظر «الإصابة» ٦٢٨/٣.

(٥) «الإصابة» ٦٣٣/٣.

(٦) «أنساب الأشراف» ٥٧٥/١، و«الإصابة» ٦٠٦/٣.

(٧) ذكره ابن حجر في «الإصابة» ٥٦١/١ في زيد بن بولا، وسبق ذكره عند المصنف، وانظر «أنساب الأشراف» ٥٦٩/١.

ذكر من عرف منهم بكنيته :

أبو الحمراء، واسمه هلال بن الحارث، شهد بدرًا وأحدًا، ونزل حمص، وله بها عقب، وروى عن رسول الله ﷺ الحديث^(١).

أبو رافع^(٢)، كان لأبي أحيحة سعيد بن العاص، فورثه بنوه، فأعتق ثلاثة منهم، وقتلوا يوم بدر، أعتقه رسول الله ﷺ فكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺ.

أبو السَّمْح^(٣)، واسمه سعد.

أبو مُؤَيْبَةَ، من مولدي السَّراة، من مُزينة، اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه، وهو الذي خرج معه إلى البقيع لما استغفر لأهله، وهو من الطبقة الثالثة من المهاجرين، شهد المريسي مع رسول الله ﷺ وكان يقود جمل عائشة رضوان الله عليها، وكان عبداً صالحاً^(٤).

وقال محمد بن حبيب الهاشمي في المحبر: من موالي رسول الله ﷺ:

أبو لُبَابَةَ، وأبو هند، وأبو لَقِيْط، وأبو أُثَيْلَةَ وكلهم أعتقه رسول الله ﷺ، وأبو هند كان يحجم رسول الله ﷺ وكان مولى لفروة بن عمرو البياضي، فوهب بنو بياضة ولاءه لرسول الله ﷺ، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا بدرًا^(٥).

وأبو سلمى راعي رسول الله ﷺ وقيل: أبو سلامة، واسمه حريث^(٦).

وأبو صفية، كان من المهاجرين^(٧).

وأبو عَسِيْب، له صحبة ورواية^(٨).

وأبو كَبْشَةَ^(٩).

(١) انظر «الإصابة» ٤٦/٤ .

(٢) انظر «تاريخ دمشق» ٢٦٢/٤، و«الإصابة» ٦٧/٤ .

(٣) انظر «تاريخ دمشق» ٣٢٣/٤، و«الإصابة» ٩٥/٤ .

(٤) «الطبقات» ١٠١/٥، و«أنساب الأشراف» ٥٧٤/١، و«الإصابة» ١٨٨/٤ .

(٥) «المحبر» ص ١٢٨، وانظر «الطبقات» ٤٠٣/٤، و«الإصابة» ٢١١/٤ .

(٦) «الطبقات» ١٨٠/٨، و«الإصابة» ٩٤/٤ .

(٧) «تاريخ دمشق» ٢٩٢/٤، و«الإصابة» ١٠٩/٤ .

(٨) «الطبقات» ٥٩/٩، و«الإصابة» ١٣٣/٤ .

(٩) «الطبقات» ٤٦/٣ .

وأبو ريحانة^(١)، واسمه شمعون بن زيد بن خنافة القرظي، أنصاري حليف لهم، وكانت ابنته ريحانة سرية رسول الله ﷺ، له صحبة وسماع، وكان من فضلاء الزاهدين في الدنيا، نزل الشام، وشهد فتح دمشق، واتخذها داراً، ثم سكن بيت المقدس، ويقال: إنه سكن مصر، وحرس رسول الله ﷺ في بعض غزواته، وكان يقصّ، ودعا له رسول الله ﷺ.

ومن ولده محمد بن حكيم بن أبي ريحانة، كان من كتاب الدمشقيين، وهو أول من طوى الطومار وكتب فيه مدرجاً مقلوباً^(٢).

وقال رسول الله ﷺ لأبي ريحانة: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(٣).

قال ابن عساكر: كان أبو ريحانة مرابطاً بميافارقين، فاشترى رسناً من بعض أهلها بفلوس، ثم سافر إلى الشام فلم يذكر الثمن حتى وصل إلى الرستن، وبين الرستن وحمص اثنا عشر ميلاً، فقال لغلامه: أعطيت لصاحب الرسن الفلوس؟ قال: لا، فنزل عن دابته، فدفعها إلى غلامه، وأوصى أصحابه، ثم انصرف إلى صاحب الرسن، ثم عاد إلى الشام^(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: ركب أبو ريحانة البحر، وكان معه إبرةٌ يخيط بها، فسقطت في البحر، فقال: عزمتُ عليك يا ربّ إلا رددت عليّ إبرتي، فظهرت على الماء حتى أخذها^(٥).

واشتدّ عليهم البحر فقال له: إنما أنت عبد، أسكن بإذن الله، فسكن حتى صار كالزيت^(٦).



(١) «تاريخ دمشق» ٢٣/١٩٣، و«الإصابة» ٢/١٥٦.

(٢) «تاريخ دمشق» ٢٣/١٩٨.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٢٧)، وابن عساكر في «تاريخه» ٢٣/٢٠١، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/٢٥٠ وقال رواه الطبراني في «الكبير» من رواية شيخه إبراهيم بن محمد بن عرق بن الحمصي قال الذهبي: غير معتمد.

(٤) «تاريخ دمشق» ٢٣/٢٠٣.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٣/٢٠٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٢٣/٢٠٤.

ذكر مولات رسول الله ﷺ:

[قال جدي رحمه الله في «التلقيح»: أم أيمن، واسمها بركة، وأميمة، وخضرة، ورضوى، وريحانة، وسلمى، ومارية، وميمونة بنت سعد، وميمونة بنت أبي عسيب، وأم ضميرة، وأم عياش وقيل: هي مولاة ابنته رقية^(١).] قلت: وقد اختلف أرباب السير فيهن، فقالوا: مارية وريحانة وربيحة هؤلاء الثلاثة كن لفراشه، ثم قالوا: وفي أسامي الصحابيات مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، ومارية أخرى أمة رسول الله ﷺ، قال: وبعضهم يجعلهم واحداً.

قلت: [وأما سلمى^(٢)] [فقال الواقدي] فهي التي زوجها رسول الله ﷺ أبا رافع، فولدت له عبد الله، وقيل: رافعاً، وكانت لصفية بنت عبد المطلب فوهبتها لرسول الله ﷺ، وكانت قابلة أولاد فاطمة عليها السلام، وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وهي التي ساعدت علياً رضوان الله عليه في غسل فاطمة سلام الله عليها.

[قلت: روت الحديث عن رسول الله ﷺ، فأخرج أحمد حديثاً واحداً فقال بإسناده، عن أيوب بن حسن بن علي بن أبي رافع، عن جدته سلمى خادمة رسول الله ﷺ قالت: ما سمعت أحداً قط يشكو إلى رسول الله ﷺ وجعاً في رأسه إلا قال له «احتجم» ولا وجعاً في رجله إلا قال: «اخضبهما بالحناء»^(٣).

قالت: وكنت أخدمه، فما كانت تصيبه قرحة ولا نكبة إلا أمرني أن أضع عليها الحناء^(٤).

وذكر ابن عبد البر ميمونة أخرى^(٥)، وذكر غيره ميمونة بنت أبي عنبسة^(٦)، وذكر رضوى أخرى.

(١) «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) «الطبقات» ٢١٦/١٠، و«الإصابة» ٣٣٣/٤.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦١٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٥٤)، وابن ماجه (٣٥٠٢).

(٥) «الاستيعاب» بهامش «الإصابة» ٤٠٩/٤.

(٦) وذكرها هو أيضاً ٤٠٨/٤.

الباب الرابع عشر

في ذكر مراكبه ومنائحه ونوقه

[قال الهيثم]: كان له ﷺ تسعة أفراس.

[وحكى ابن سعد عن الواقدي قال:] وأول فرسٍ ملكه السَّكْب، ابتاعه بالمدينة من رجل من بني فزارة بعشر أواق فضة [وكان اسمه عند بائعه: الضرس فسماه رسول الله: السكب]، وأول غزاة غزا عليه أحد^(١). وكان أشقر أغر محجلاً، وهو أول فرس سابق عليه فسبق، ففرح المسلمون [ويقال: إنه سابق بفرس اسمه سبحة]^(٢).

والثاني: المرتجز، وهو الذي اشتراه رسول الله ﷺ من أعرابي من بني مرة، وشهد له خزيمة بن ثابت^(٣).

والثالث: لِرَاز، أهداه له المَقوقس.

والرابع: الظَّرِب، أهداه له الربيعة بن البراء، وقيل: فروة بن عمرو الجُدامي عامل البلقاء لقيصر.

والخامس: اللُّخَيْف، أهداه له سعد بن البراء.

والسادس: الورد، أهداه له تميم الداري، فأعطاه عمر بن الخطاب فحمل عليه في سبيل الله، ثم وجده يُباع بعد ذلك فأخذه^(٤).

والسابع: اليَعسوب^(٥).

والثامن: المرواح، أهداه له وفد الرَّهاويين^(٦).

(١) «الطبقات» ٤٢١/١.

(٢) «الطبقات» ٤٢١/١.

(٣) «الطبقات» ٤٢٢/١.

(٤) «انظر» «الطبقات» ٤٢٢/١.

(٥) «تاريخ الطبري» ١٧٤/٣.

(٦) «الطبقات» ٢٩٧/١.

والتاسع: سبحة.

[قال هشام:] وكانت له بغلتان شهابوتان أحدهما دُلْدُل، أهداها له المَقْوِيس صاحب الإسكندرية [قال ابن سعد عن الواقدي:] أول بغلة ركبت في الإسلام دُلْدُل، وبقيت إلى أيام معاوية فنفتت بِنْبُع^(١).

والأخرى: فضة، أهداها له فروة بن عمرو الجُدَامِي، فوهبها لأبي بكر رضوان الله عليه.

وكان له حمار يقال له: يعفور، وقيل: عُفِير، أهداه له المَقْوِيس مع دلدل فنفق منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع^(٢).

وقيل: إن فروة بن عمرو الجُدَامِي أهدى له يعفور، وأما عُفِير فأهداه له المَقْوِيس. [وقيل: إنهما اسمان لحمار واحد، وقد أردف معاذ بن جبل على حمار يقال له: عفِير.

وقد ذكر جدي في «الموضوعات» حديثاً في أسماء مراكب رسول الله ﷺ، فقال بإسناده، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ سيف محلّي، قائمته من فضة، ونعله من فضة، وفيه حلق من فضة، وكان يسمى: ذا الفقار، وكان له فرس يسمى: القرقر^(٣) وآخر يقال له: المرتجز، وفرس أدهم يقال له: السكب، وسرج يسمى: الداج، وكانت له بغلة تسمى: الدلدل، وناقة يقال لها: القصواء.

وقد أجمع على هذه الأفراس عامة العلماء، كالواقدي وهشام وابن سعد وغيرهم. قلت: وقد أخرج جدي في «الموضوعات» حديثاً في الحمار فقال بإسناده، عن محمد بن يزيد أبي جعفر مولى بني هاشم، حكى أن رسول الله ﷺ كان له حمار أسود أخذه من خبير، وأن النبي ﷺ سأله ما اسمك؟ فقال الحمار: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حماراً كلهم لم يركبه إلا نبي، ولم يبق من نسل جدي إلا أنا،

(١) «الطبقات» ١/٤٢٢ - ٤٢٣.

(٢) «الطبقات» ١/٤٢٣.

(٣) في الموضوعات (٥٥٥): وكان له محجن يسمى القرقر.

ولا من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقع أن غيرك يركبني. وأن رسول الله قال له: سميتك يعفوراً، وكان النبي ﷺ يركبه لحاجته، فإذا نزل عنه بعث به إلى باب الرجل فيقرعه برأسه فيخرج صاحب الدار فيومئ إليه برأسه: أجب رسول الله ﷺ، فلما مات رسول الله ﷺ جاء الحمار إلى بئر فتردى فيها فهلك حزناً على رسول الله ﷺ.

ثم قال: والمتهم بوضعه محمد بن يزيد فإنه ساقط الرواية^(١).

وأما لقاحه ﷺ فكان له عشرون لقحة بالغابة، وهي التي أغار عليها عيينة بن حصن الفزاري، وهي التي كان يعيش بها أزواجه وأهله، كان يراح منها كل ليلة بقربتين عظيمتين من لبن، ومنها: الحنّاء، والسمرء، والعريس، والسعدية، والبغوم، واليسيرة والدّبّاء^(٢). فهذه السبع كانت غزاراً.

وكان له من النوق العضباء، ابتاعها من أبي بكر رضوان الله عليه بأربع مئة درهم لما هاجر إلى المدينة^(٣).

[قال الواقدي:] كان له ﷺ مئة شاة، منها منائح سبعة: عجوة، وزمزم، وسُقيا، وبركة، وورسة، وإطلال، وإطراف، وكانت أم أيمن ترعاهن^(٤).



(١) «الموضوعات» ٢٦/٢ - ٢٧ عقب (٥٥٥).

(٢) «الطبقات» ٤٢٥/١.

(٣) «انظر» «الطبقات» ٤٢٤/١.

(٤) «الطبقات» ٤٢٦/١.

الباب الخامس عشر

في ذكر لباسه وخاتمه وآنيته ﷺ

[قال ابن سعد بإسناده عن] البراء بن عازب قال: ما رأيت أحداً أحسن من النبي ﷺ في حلة حمراء. [أخرجه في «الصحيحين»^(١).

وقد أخرج أحمد بمعناه فقال بإسناده قال: سمعت أبا إسحاق يقول: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ رجلاً مربعاً بعيداً ما بين المنكبين، عظيم الجملة، شعره إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ. متفق عليه^(٢).
وفي رواية: له شعر يضرب منكبيه^(٣).

وقال [أحمد بإسناده عن] قتادة: قلت لأنس: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قال: الحبرة. [متفق عليه^(٤).

قال الجوهري: الحبرة بُرْدُ يمانٍ، والجمع حِبْرَاتٌ وَحِبْرٌ^(٥).
وقالت أم سلمة رضي الله عنها: ربما صبغ رسول الله ﷺ قميصه ورداءه وإزاره وعمامته بالزعفران والورس والعنبر^(٦). [قيل: والعنبر هو الزعفران عندهم.

وروى ابن سعد عن [أبي رمثة] قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليه ثوبان أخضران^(٧).

[وروى ابن سعد عن] أنس قال: كان قميص رسول الله ﷺ قطناً، قصير الكمين إلى الرسغ^(٨).

(١) «الطبقات» ٣٨٧/١، والبخاري (٥٨٤٨)، ومسلم (٢٣٣٧) (٩٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٤٧٣)، والبخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٥٥٨).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣٧٧)، والبخاري (٥٨١٢)، ومسلم (٢٠٧٩).

(٥) «الصحاح» (حبر)، وما بين معكوفات من (ك).

(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣٨٨/١.

(٧) «الطبقات» ٣٨٩/١، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٧١١١).

(٨) «الطبقات» ٣٩٤/١.

وكان طول ردائه أربعة أذرع في ذراعين^(١).

وقال عمر^(٢) : رأيت على رسول الله ﷺ جبة ضيقة الكمين^(٣).

وكان أحب اللباس إليه البياض.

[فصل في حديث الخاتم:

قال أحمد بإسناده عن [ابن عمر قال : اتَّخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب، وكان يجعل فصّه مما يلي كفه، فاتَّخذه الناس، فرمى به، واتَّخذ خاتماً من ورق^(٤).

[وقال أحمد بإسناده عن [ابن عمر قال : اتَّخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ورق، فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر من بعده، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان، نقشه : «محمد رسول الله». [الطريقان في «الصحيحين»^(٥).

وفي حديث عائشة : كان يتختم في يمينه ثم يحوله إلى يساره^(٦).

قال أحمد بإسناده عن [عقبة بن عامر الجهني قال : أهدي إلى رسول الله ﷺ فَرُوجُ حرير، فلبسه، ثم صلّى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً عنيفاً كالكاره له، ثم قال : «لا ينبغي هذا للمتقين». [أخرجاه في «الصحيحين»^(٧).

وفي رواية : «ليس هذا لباس المتقين»^(٨).

و«الفروج» : القباء المفرج من خلفه.]

وقال محمد بن علي بن الحسين عليه السلام : ترك رسول الله ﷺ عشرة أثواب حبرة،

(١) «الطبقات» ١/ ٣٩٤ عن عروة بن الزبير.

(٢) في النسخ : «ابن عمر»، والمثبت من المصادر.

(٣) «الطبقات» ١/ ٣٩٥، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٣).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٧٧)، والبخاري (٥٨٦٥)، ومسلم (٢٠٩١).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٣٤)، والبخاري (٥٨٧٣)، ومسلم (٢٠٩١) (٥٤).

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٥/ ٢٣٧.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٣٤٣)، والبخاري (٥٨٠١)، ومسلم (٢٠٧٥).

(٨) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٧/ (٧٥٨).

وإزاراً عمانياً و ثوبين صحاريين وقميصاً صحارياً، وقميصاً سحولياً، وجبة يمانية، وملحفة مورّسة، وخميصة وكساء أبيض، وثلاث قلانس لاطية صغاراً.

وقال هشام: كان له بردان أخضران يصلي فيهما الجُمع والأعياد، وكساء أسود، وبرد أحمر يلبسه في الجمعة والعيدين، وكان له مِنتقة^(١) من أديم فيها سُيور، وحلق فضة وإبريسم، وحصيرة، وعباء يبسطها طاقين، وبنام عليها، وخفان أسودان أهداهما له النجاشي، كان يمسح عليهما، وكانت له فروة مدبوغة، وخمرة يصلي عليها - وهي السجادة - ونعلان لهما قبالاتان، فكان يصلي فيهما، وكانت له ربة فيها مشط من عاج، ومرآة ومكحلة، ومقراض، ومسواك، وكانت الربة لا تفارقه سفرأ وحضراً، وكان يكتحل بالإثمد وهو صائم، وكان له قدح مضبب بالفضة.

وأخرج البخاري، عن عاصم الأحول قال: رأيت عند أنس بن مالك قدحاً من نُضار قد انصدع وقد سلسله بفضة، قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ بهذا القدح كذا وكذا مرة. قال ابن سيرين: وكان فيه حلقة من حديد، فأراد أنس أن يغيرها بحلقة ذهب أو فضة، فقال له أبو طلحة: لا تغير شيئاً صنعه رسول الله ﷺ فتركه^(٢).

[وقال الواقدي:] وكان له ﷺ تور من حجارة، وطست من نحاس، وقدح من زجاج، وقصعة [وقدح] من عيدان يبول فيه في الليل.

فإن قيل: فقد رويت في ميراثه ﷺ أنه ما ترك ديناراً ولا درهماً، ولا شاة ولا بعيراً ولا شيئاً؟

قلنا: قد روى عروة، عن عائشة أنها سُئلت عن ذلك فقالت: فرق رسول الله ﷺ ذلك كله قبل موته.

وروى الهيثم عن أشياخه أنهم قالوا: ما ترك رسول الله ﷺ شيئاً مما يسأل الإنسان عنه، وإنما ترك ما يلبس ويُمتَهَن^(٣).

(١) كذا في (أ، خ)، وفي (ك): منيفة، ولم أتبينها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣٨).

(٣) رسمت في النسخ: يمتن، ولعل المثبت هو الصواب.

وقد ضعف الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله ما روي عن محمد بن علي بن الحسين، وهو أيضاً منقطع لأنه لم يرفعه.

وذكر المدائني أن العباس خاصم علياً إلى أبي بكر رضوان الله عليه في ميراث رسول الله ﷺ فقال: العم أولى بالميراث أو ابن العم؟ فقال أبو بكر: العم، قال: فما بال درع رسول الله ﷺ وبغلته دُلْدُل، وسيفه ذو الفقار عند علي، فقال أبو بكر رضوان الله عليه: هذا شيء وجدته في يده فأكره أن أنتزعه منه، فسكت العباس.

قال المصنف^(١) رحمه الله: وهذا محمول على أن رسول الله ﷺ وهب ذلك لعلي قبل موته، وخفي ذلك عن العباس، وإلا فكيف يظن بعلي أن في يده ما لا يستحقه؟! .



الباب السادس عشر

في آلات حربه ﷺ

قدم رسول الله ﷺ المدينة ومعه سيف ورثه من أبيه يقال له: العَضْب، شهد به بدرًا، وأصاب ﷺ من بني قينقاع ثلاثة أسياف: سيفاً قَلْعِيًّا، وسيفاً يدعى بَتَّارًا، وسيفاً يدعى الحَتْف، والمِخْذَمُ ورسوب أصابهما من الفُلْس - اسم صنم^(١) - بعث رسول الله ﷺ علياً رضوان الله عليه فوجد الصنم مقلداً بهذين السيفين، أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وكانا للحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد نذر إن ظفر ببعض أعدائه أهداهما إلى الصنم، وفيهما يقول علقمة بن عبدة التميمي^(٢): [من الطويل]

مُظَاهِرُ سِرْبَالِي حديدٍ عليهما عقيلاً سِيوفٍ مِخْذَمٌ وَرَسوبٌ
وذو الفقار تنقله يوم بدر من ابن الحجاج، وكانت قبيعته وقائمه ونعله وحلقه من فضة^(٣). وهو الذي رأى رسول الله ﷺ فيه الرؤيا ليلة أحد^(٤). ولم يزل عنده حتى وهبه لعلي رضوان الله عليه قبل موته، ثم انتقل إلى محمد بن الحنفية، ثم إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين، وكان له سيوف أخرى.

وأصاب ﷺ من بني قينقاع ثلاث قسي، اسمها الرُّوحَاء، وقوس من شَوْحَط تُدعى البيضاء، وقوس من نبع تُدعى الصفراء^(٥)، وقوس يقال لها: الكتوم، رمى عنها يوم أحد فأخذها قتادة بن النعمان، وكانت من نبع^(٦).

وكان له جعبة يقال لها: الكافور، وسهام يقال لها: المفضلة.

وأصاب ﷺ من سلاح بني قينقاع درعين يقال لأحدهما: السُّغْدِيَّة، والأخرى فضة^(٧).

(١) انظر «الطبقات» ٤١٧/١ - ٤١٨.

(٢) «الأصنام» ص ١٥.

(٣) انظر «الطبقات» ٤١٨/١.

(٤) حيث قال ﷺ: «رأيتُ في سيفي ذي الفقار فلأ» انظر مسند أحمد (٢٤٤٥) و«الطبقات» ٤١٨/١.

(٥) «الطبقات» ٤٢١/١، و«تاريخ الطبري» ١٧٧/٣.

(٦) «تاريخ دمشق» ٢١٨/٤.

(٧) «الطبقات» ٤١٩/١.

وكان له درع يقال لها: ذات الفضول، وهي التي ظاهر بها يوم أحد^(١).

قال ابن الكلبي: وكانت له درع يقال لها: ذات الوشاح، والخریق، والبتراء، وأحد هذه الدروع الدرع التي لبسها داود عليه السلام لما قتل جالوت، وكانت عند بني قينقاع يتوارثونها لأنهم يدعون أنها من قبيل داود، وهي التي رهنها عند اليهودي على أصع من شعير، وتوفي عليه السلام وهي مرهونة.

وكان له تُرس يقال له: الزلوق، وفيه تمثال كبش، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله مكانه، فأصبح يوماً وقد محي^(٢).

وكان له صلى الله عليه وآله مغفر يقال له: اليسوع^(٣)، وهو الذي دخل يوم فتح مكة وهو على رأسه.

وكان له صلى الله عليه وآله آخر هُشم على رأسه يوم أحد مع البيضة، ودخلت حلقتاه في وجنتيه.

وكان له صلى الله عليه وآله مَحَجَن قدر الذراع يمشي وهو بيده ويعلقه بين يديه على راحلته، وهو الذي طاف بالبيت وهو بيده يستلم به الأركان^(٤).

وكانت له صلى الله عليه وآله مِخْصَرَة تسمى العرجون، وهي كالقضيب يستعملها الأشراف للتشاغل بها في أيديهم، ويحكون بها ما بعد من البدن^(٥) عن اليد.

وأهدى له النجاشي عَنزَة - وهي حربة صغيرة - كانت تحمل بين يديه في الأعياد، وإذا صلى في الصحراء جعلها سترة^(٦)، وكانت تحمل بين يدي الخلفاء في الأعياد، وبقيت إلى زمن المتوكل جعفر^(٧)، وقيل: هي مدفونة بسرّ من رأى^(٨).

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١٧٧/٣ - ١٧٨.

(٢) «الطبقات» ٤٢٠/١، و«تاريخ الطبري» ١٧٨/٣، وانظر «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣٨.

(٣) هكذا ورد في (أ) و (خ)، وفي «أنساب الأشراف» ٦١٤/١ كان له مغفر يقال له: ذو السيوب.

(٤) انظر «التراتب الإدارية» ٨٢/١، و«سمط النجوم العوالي» ٢٤/٢.

(٥) انظر «سمط النجوم العوالي» ٢٤/٢.

(٦) انظر «الطبقات» ٢١٧/٣، و«أنساب الأشراف» ٦١٤/١ - ٦١٥.

(٧) انظر «المنتظم» ٣٢٢/١١، و«الكامل» ١٢٩/٦.

(٨) «أنساب الأشراف» ٦١٥/١.

الباب السابع عشر

في عدد غزواته وسراياه ﷺ

غزا رسول الله ﷺ سبعاً وعشرين غزاة، قاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأحد، والمريسيع، والخذق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف^(١).

وروي: أنه ﷺ قاتل في بني النضير ووادي القرى مُنصرفه من خيبر، وفي الغابة^(٢).

وقال الطبري: جميع غزواته ست وعشرون بنفسه، وبعضهم يقول: سبع وعشرون، فمن قال: ست وعشرون، جعل غزاة خيبر ووادي القرى غزاةً واحدةً^(٣).

وقال البراء بن عازب: غزا رسول الله ﷺ خمس عشرة غزاةً^(٤).

وقال بريدة: سبع عشرة، قاتل في ثمان^(٥).

وقال زيد بن أرقم: تسع عشرة غزاةً^(٦).

وقال جابر: إحدى وعشرين^(٧).

وقال سعيد بن المسيّب: ثمان عشرة، وقال أيضاً مرةً أخرى: أربعاً وعشرين غزاةً^(٨).

والأصح القول الأول، وما نقل عن بريدة، والبراء، وجابر، وغيرهم فمحمول على أنهم لم يحضروا مع رسول الله ﷺ إلا فيما ذكروا، ولم يبلغوا سوى ذلك.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١٥٢/٣.

(٢) «تاريخ الطبري» ١٥٤/٣.

(٣) «تاريخ الطبري» ١٥٢/٣.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٥٥٩)، وأخرجه البخاري (٤٤٧٢) بلفظ: غزوت مع النبي ﷺ خمس عشرة.

(٥) أخرجه مسلم (١٨١٤)، وعنده: تسع عشرة.

(٦) أخرجه البخاري (٣٩٤٩)، ومسلم (١٨١٢) (١٤٤).

(٧) أخرجه مسلم (١٨١٣).

(٨) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٦٥٩).

وقال الواقدي : كانت سراياه ﷺ ستاً وخمسين سريةً فيما أجمع لنا عليه.
 وقال ابن إسحاق : إنها كانت خمساً وثلاثين سريةً ما بين بعثٍ وسريةٍ^(١).
 وقال بُريدة : أربعاً وعشرين سريةً^(٢).
 والأصحُّ أنها كانت ستاً وخمسين.



(١) «تاريخ الطبري» ٣/ ١٥٤ ، وفي «السيرة» ٢/ ٦٠٩ : ثمانياً وثلاثين .

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي ٥/ ٤٥٩ .

الباب الثامن عشر

في ذكر كُتَّابه للوحي وغيره ﷺ

كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي بمكة أبو بكر، وعمر، وعثمان رضوان الله عليهم، ثم لما هاجر إلى المدينة كتب له عثمان رضوان الله عليه^(١).

وقيل: أول من كتب للنبي ﷺ الوحي بالمدينة عند الهجرة أبي بن كعب، وهو أول من كتب في آخر الكتاب: وكتب فلان^(٢)، ثم داوم زيد على الكتابة، ثم كتب له عامر ابن فهيرة، وثابت بن قيس بن شماس، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وحنظلة بن الربيع بن صيفي أبو ربعي من بني تميم، ويعرف بحنظلة الكاتب، له صحبة ورواية، صحب خالد بن الوليد في حروب العراق كلها، وهو أخو^(٣) أكثم بن صيفي، ولما وقعت الفتنة، اعتزلها، وخرج إلى قرقيسيا هو وجريء البجلي وعدي بن حاتم، وتوفي في أيام معاوية بن أبي سفيان.

قال حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأينا عين، فأتيت أهلي وولدي، فضحكوا، ولعبت، وذكرنا الذي كنا فيه، فخرجت، فلقيت أبا بكر: فقلت له: نافق حنظلة، فقال: إنا لنفعله، ثم أتيت رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: «يا حنظلة، لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو في طرقتكم، يا حنظلة ساعة وساعة». انفراد بإخراجه مسلم^(٤).

وذكر شيخنا موفق الدين رحمة الله عليه في «الأنساب»^(٥): أن الكاتب لعهد إذا عاهد، ولصلحه إذا صالح علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(١) انظر «البداية والنهاية» ٣٤٦/٥.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١٧٣/٣، و«الوفاي بالوفيات» ١٢٢/٦، و«الإصابة» ١٩/١.

(٣) هكذا جاء في (أ) و (خ)، و الصواب أنه ابن أخي أكثم. انظر «الإصابة» ٣٥٩/١.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

(٥) التبيين ٩٤.

وكتب له محمد بن مَسْلَمَة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، والمغيرة بن شعبة، وجُهيم بن الصلت، ومُعَيْب بن أبي فاطمة، وكتب له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وارتدَّ عن الإسلام، ولحق بمَكَّة، فأباح ﷺ دمه، ثم أسلم بعد ذلك، وكتب له معاوية بعد الفتح، وكان الزبير يكتب أموال الصدقة، وحذيفة بن اليمان يكتب خَرَصَ (١) النخل، والمغيرة بن شعبة يكتب كُتَبَ المعاملات والمدائيات، وزيد بن أرقم يكتب جواب كتب الملوك، وكتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه كتاب الحديدية، وكتاب أهل نجران، وكتب له ﷺ خالد بن سعيد بن العاص كتاباً لأهل وج.

وذكر ابن عباس: أنه كان له كاتب يقال له: سجل، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] (٢)، وكتب له عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث بن وهب الزهري، وكان قد أسلم عام الفتح وكان يجيب عن كتب الملوك، وكان إذا كتب كتاباً إلى بعض الملوك لا يقرؤه بل يجبه حفظاً لأمانة رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يدعو له، وقال يوماً: «اللهم وفقه» (٣) وكان عمر بن الخطاب حاضراً، فبقي ذلك في قلب عمر، فلما ولي، ولأه بيت المال لأمانته، وكذا عثمان وفرض له ثلاث مئة درهم، فردها، وقال: كنت أعملُ لله فلا آخذ عليه أجراً، وكان عمر يثني عليه، وقيل: إن الذي أعطاه ثلاث مئة درهم عمر، وكتب عبد الله هذا لأبي بكر وعمر، واستعمله على بيت المال عثمان، ثم استعفاه، فأعفاه، وكتب له عبد الله ابن زيد صاحب الأذان، وجهيم بن الصلت، والعلاء بن عقبة وغيرهم.



(١) الخَرَصُ: حَزْرُ ما على النخل من الرطب تمراً. الصحاح: خرص.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٣٢/٤.

(٣) أخرجه الحاكم ٣/٣٧٨ ولفظه: أتى النبي ﷺ كتاب رجل فقال لعبد الله بن الأرقم: «أجب عني» فكتب جوابه، ثم قرأه عليه فقال: «أصبت وأحسنت، اللهم وفقه». وانظر طبقات ابن سعد ٦/٧٣.

الباب التاسع عشر

في ذكر مؤذنيه ﷺ

كان عبد الله بن زيد الأنصاري سبب الأذان، وكان المداوم عليه سفيراً وحضراً.
 وكان عبد الله بن أم مكتوم أعمى لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت، قال رسول الله
 ﷺ: «إِنَّ بِلَا لَأُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ»^(١).
 وأذن له ﷺ أبو محذورة بمكة.



(١) أخرجه البخاري (٦١٧)، ومسلم (١٠٩٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهو مروى عن عائشة رضي الله عنها في «الصحيحين» أيضاً: البخاري (١٩١٨)، ومسلم (١٠٩٢) (٣٨).

الباب العشرون

في ذكر عماله وحرسه ونحوه

توفي ﷺ وعامله على مكة: عتاب بن أسيد، وعلى البحرين: العلاء بن الحضرمي، وعلى عمان: جيفر وعبد ابنا الجُلندى، وغلب على الطائف عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان على مخاليف الجند وصنعاء: عمرو بن أمية المخزومي، وعلى مخاليف زبيد وأعمالها: خالد بن سعيد بن العاص، وعلى حرسه: أبو سفيان بن حرب^(١)، وكان معاذ وأبو موسى على قضاء اليمن.

وحرسه جماعة، منهم: سعد بن معاذ يوم بدر لما قام في العريش، وحرسه سعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، وسعد بن معاذ، ليلة أحد، وحرسه علي، والزبير، وسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ليالي الخندق، وحرسه أبو أيوب الأنصاري بخير ليلة بني بصفية، وحرسه بلال المؤذن بوادي القرى ليلة التعريس، في آخرين، وما زال يُحرس حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فترك الحرس، وكان يضرب الأعناق بين يديه ﷺ علي، والزبير، ومحمد بن مسلمة، والمقداد بن الأسود، وعاصم ابن أبي الأفلح، وكان قيس بن سعد بن عبادة بين يديه بمنزلة الشرط من الأمير.



(١) في أنساب الأشراف ١/ ٦٢٠ أن أبا سفيان كان عامل رسول الله ﷺ على نجران .

الباب الحادي والعشرون

فيمن كان يشبهه ﷺ

وكان يشبهه ﷺ جماعة، منهم: جعفر بن أبي طالب، والحسن بن علي، وقثم بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، والسائب بن عبيد، ومسلم بن مُعْتَب، وكابس^(١) بن ربيعة بن مالك البياضي البصري، من بني سامة بن لؤي، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ في خلقه وخلقِهِ، فكان أنس بن مالك إذا رآه عانقه، وبكى، وقال: من أراد أن ينظر إلى رسول الله ﷺ فليُنظر إلى هذا، وبلغ معاوية بن أبي سفيان خبره، فاستقدمه، فلما دخل عليه قام واعتنقه، وقبل ما بين عينيه، وأقطعته مالا وأرضاً، فرد المال وقبل الأرض^(٢).



(١) في (أ) و (خ): «أنس» والمثبت من «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٥٩ و«تاريخ دمشق» ٣/٥٠.

(٢) «تاريخ دمشق» ٤/٥٠.

الباب الثاني والعشرون

في ذكر حَجِّهِ وَعَمْرَتِهِ ﷺ

لم يحج في الإسلام إلا مرةً واحدةً، وهي حَجَّةُ الْوُدَاعِ، وأما في الجاهلية فقد كان يقف مع المشركين على عاداتهم، وكذا بعد النبوة حتى هاجر، واعتمر أربع عمر.

قال قتادة: سألت أنس بن مالك، قلت: كم حجَّ رسول الله ﷺ؟ فقال: حَجَّةٌ واحدةً، واعتمر أربع عمر: عمرته زمنَ الحديبية، وعمرته في ذي القعدة قضاء عن الحديبية، وعمرته عن الجعرانة في ذي القعدة حيث قسم غنائم حُنين، وعمرته مع حجته. أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

قال المصنف رحمه الله: عمرة الحديبية لا تحسب لأنه ما دخل مكة، فكان حكمه حكم المحصر.

والأصحُّ أنه اعتمر ثلاث عمر.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر: عمرة في رجب، وقد أنكرت عليه عائشة رضي الله عنها وقالت: ما اعتمر إلا ثلاث عمر^(٢).

قال عروة بن الزبير: كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة، وأنا لنسمعها تستنُّ بالسواك، قلت: أبا عبد الرحمن، اعتمر النبي ﷺ في رجب؟ قال: نعم، قلت: يا أمّته، ما تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: ما يقول؟ قلت: يقول: إنَّ رسولَ الله ﷺ اعتمر في رجب، فقالت: يغفر الله له، ما اعتمر رسولُ الله ﷺ في رجب، قال: وابن عمر يسمع، فما قال: لا، ولا نعم، سكت. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وفي رواية: أنها قالت: ولعمري، ما اعتمر رسول الله ﷺ إلا وهو معه، وشاهده.

(١) البخاري (١٧٧٨)، ومسلم (١٢٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٩١٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٥ - ١٧٧٦)، ومسلم (١٢٥٥).

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عليه عن مُحَرَّش بن عبد الله الكعبي الخزاعي، أنَّ
النبي ﷺ خرج ليلاً من الجعرانة معتمراً، فدخل مكة، ففضى عمرته، ثم عاد إلى
الجعرانة ليلاً، أو من ليلته، حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن
سرف، حتى جاء مع طريق المدينة، قال: فلذلك خفيت عمرته على الناس^(١).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥١٣).

الباب الثالث والعشرون

في ذكر صفته ﷺ

قال أنس بن مالكٍ ينعت رسول الله ﷺ: كان رُبْعَةً من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، رَجَلٌ الشعر، ليس بالسَّبِيطِ، ولا بالجَعْدِ القَطِطِ، بُعث على رأسٍ أربعين، أقام بمكة عشراً، وبالمدينة عشراً، وتوفي على رأسِ ستين، ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. متفق عليه^(١).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ ضَخْمَ القدمين، حَسَنَ الوجه [لم أر بعده مثله]^(٢).

وفي رواية عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان النبي ﷺ شَيْنَ القدمين والكَفَّين^(٣).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: [مامسستُ حَريراً ولا ديباجاً ألينَ من كَفِّه، ولا شَمِمت مسكاً ولا عَنبراً ولا عَرُفاً أطيّب من ريحه ﷺ]^(٤).

وعن أم سليم أن النبي ﷺ كان يأتيها، فيقبل في بيتها، فتبسط له نطعاً، وكان كثير العرق، فتجمع عرقه، فتجعله في الطيب والقوارير، قالت: وكان يصلي على [الخمرة^(٥)، وهي] سجادة صغيرة تُنسج من الخوص.

وقيل للبراء: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مثلَ السيف؟ فقال: لا، بل مثلَ القمرِ^(٦).

وقال أبو سعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرِها،

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٧)، ومسلم (٢٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٠٨) وفيه: عن أنس أو عن رجل عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠) (٨٢)، ولم نقف على السياق الذي ذكره المصنف ولعله من تصرف النساخ، وما بين معقوفين زيادة من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣٢)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (٢٧١١٧)، وما بين معقوفين زيادة ضرورية لتوضيح السياق.

(٦) أخرجه البخاري (٣٥٥٢).

كان إذا كره شيئاً، عرفناه في وجهه^(١).

قال الزهري: معناه إذا كره شيئاً لم يواجهه به صاحبه، بل يكتمه فيؤثر في وجهه.

ذكر صفته ﷺ في التوراة:

قال [ابن سعد بإسناده عن] سهل مولى عثيمة، وكان رجلاً يهودياً قد قرأ التوراة قال: أخذت يوماً توراة عمي، فإذا ورقة ملصقة، ففتقتها، وإذا فيها سطور: محمد رسول الله، لا طويل، ولا قصير، أبيض بض، بين كتفيه خاتم النبوة، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحلب الشاة، ويلبس القميص المرقوع، وهو من ضئضئ إسماعيل، واسمه أحمد، فقال لي عمي: ما تقرأ؟ قال: قلت: صفة محمد، قال: إنه لم يجئ بعد، ونهاني عن القراءة^(٢).

وقال وهب بن منبه: في التوراة: يا ابن عمران، إني باعث في آخر الزمان نبياً أمياً، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ومملكه بالشام والعراق، حبيب، محبب، ليس بغليظ، ولا قوال بالفحش والخنا [أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم]^(٣).

وقال كعب الأحبار: وفي التوراة: يا ابن عمران، إني قد اخترت من عبادي نبياً كريماً اسمه أحمد، منحته الأخلاق الكريمة، وجعلت عليه الوقار والسكينة، التقوى لباسه، والبر شعاره، والحلم دثاره، والحكمة منطقه، والصدق سجيته، والعدل شيمته، والحق شريعته، والوفاء طريقته، والعفو ملته، والقرآن خلقه، والهدى دليله، والجود والرحمة والبر طبيعته، أهدي به من الضلالة، وأجمع به من الفرقة، وأعلم به من الجهالة، وأؤلف به بعد الشتات، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فطوبى لهم، ثم طوبى لهم، فعند ذلك قال موسى ﷺ: يا رب اجعلني من أمة محمد ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) «الطبقات» ٣١٢/١، وفيه: أنه كان نصرانياً، وأنه كان يقرأ الإنجيل.

(٣) انظر «المنتظم» ٢٥٨/٢، و«البداية والنهاية» ٨١/٢.

فصل في شيبه ﷺ:

قال ثابت البناني: سألت أنساً: هل شمت رسول الله ﷺ؟ قال: لقد قبض الله رسوله ﷺ وما فضحه بالشيب، ما كان في رأسه ولحيته يوم مات ثلاثون شعرة بيضاء، فقيل: أفضيحة هو؟ قال: أما أنتم فتعدونه فضيحة، وأما نحن فكنا نعدّه زيناً^(١).

وقال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ قد شَمِطَ مَقْدَمَ رَأْسِهِ وَلِحِيَّتِهِ، فَإِذَا ادَّهَنَ وَمَشَطَهُ لَمْ يَتَيَّنْ، وَإِذَا شَعِثَ رَأْسُهُ تَبَيَّنَ، وَكَانَ كَثِيرَ شَعْرِ اللَّحْيَةِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: كَانَ وَجْهُهُ مِثْلُ السِّيفِ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ مِثْلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا، قَالَ: وَرَأَيْتُ الْخَاتَمَ عِنْدَ كَتْفَيْهِ مِثْلَ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ، يُشْبِهُ جَسَدَهُ^(٢).

وقال عثمان بن عبد الله بن موهب: دخلنا على أم سلمة، فأخرجت إلينا شعراً من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً بالحناء والكتم^(٣).

وقال الإمام أحمد رحمة الله عليه: ما روي عن أنس أنه قال: لم يخضب رسول الله ﷺ، قد شهد غير واحد على رسول الله ﷺ أنه خضب، وليس من شهد بمنزلة من لم يشهد.

وقال سفيان والزهري: ما خضب رسول الله ﷺ وإنما احمرَّ شعره من كثرة الطيب، وإنما خضب أصحابه بالحناء والكتم.

وأما الخضاب بالسواد فحرام، ولو كان مباحاً لخضب به الصحابة.

وقال أبو جحيفة: قيل: يا رسول الله، أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبتني هودٌ وأخواتها»^(٤).

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، أي: على أمر ربك والدعاء إليه، فما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشد ولا أشق عليه

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٤٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤٤) (١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٥٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي في «المشائل» (٤٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨٨٠)، والطبراني في «الكبير» ٢٢/ (٣١٨).

منها ، ولذلك قال له أصحابه : لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : «شَيَّبْتَنِي هُوْدٌ» وأشار إلى هذه الآية^(١).

وقال ابن عباس : كان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يُسدِّلون ، وكان رسول الله ﷺ يُعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به ، فسَدَّل ناصيته ، ثم فرق بعد. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وقالت أم هانئ : قدم رسول الله ﷺ مكة مرة ، وله أربع غدائر^(٣).

وقال أنس : كان شعر رسول الله ﷺ بين أذنيه وعاتقه^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يحفي شاربه ، وكان ابن عمر يفعل ذلك^(٥).

وقال السائب بن يزيد : ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن ابن أختي وَجَعٌ ، فمَسَحَ رأسي ، ودعا لي بالبركة ، ثم توضأ ، فشربت من وضوئه ، ثم قمْتُ خلف ظهره ، فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زُرِّ الحَجَلَة^(٦).



(١) تفسير الثعلبي ٥ / ١٥٠.

(٢) البخاري (٣٩٤٤) ، ومسلم (٢٣٣٦) .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٨٩٠) ، وأبو داود (٤١٩١) ، والترمذي (١٧٨١) ، وابن ماجه (٣٦٣١) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٠٥) ، ومسلم (٢٣٣٨) .

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣٨٦ / ١ .

(٦) أخرجه البخاري (١٩٠) ، ومسلم (٢٣٤٥) .

الباب الرابع والعشرون

في ذكر محبته للطيب وحجامة ﷺ

قال ثمامة بن عبد الله: إن أنساً كان يردُّ الطيبَ، وزعم أنس أن رسول الله ﷺ كان لا يردُّ الطيبَ^(١).

وكان رسول الله ﷺ يُعرف بريح الطيبِ إذا أقبلَ^(٢). وكان طيبه المسك والعنبر. وقالت عائشة رضوان الله عليها: طيبتُ رسولَ الله ﷺ لإحرامه حينَ أحرمَ، وإِحلاله حينَ أحلَّ^(٣).

وكان وَيِصُّ الطيبِ يَبْدُو في مفارقه^(٤).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجعل الكافور على العود، ثم يستجمر به، ويقول: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع^(٥).

وعن أنس، أن النبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٦).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ يَحْتَجِمُ ثَلَاثًا، وَاحِدَةً عَلَى كَاهِلِهِ، وَثَنَيْنِ عَلَى الْأَخْدَعَيْنِ^(٧).

وقال معقل بن يسار: قال النبي ﷺ: «الْحِجَامَةُ يَوْمَ الثَّلَاثِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٣٥٦)، والترمذي (٢٧٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٨٥٨)، وابن سعد ١/٣٤٣.

(٣) أخرجه البخاري (١٧٥٤)، ومسلم (١١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧١)، ومسلم (١١٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى وَبِصِّ الطِّيبِ فِي مَفْرَقِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُحْرَمٌ.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٣٤٤.

(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٣٤٢، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٨٧).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠٠١)، وأبو داود (٣٨٦٠)، وابن ماجه (٣٤٨٣).

دواءُ السَّنَةِ»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجَم، وأعطى الحجَّامَ أجره. متفق عليه^(٢).

وأخرج الإمام رحمة الله عليه، عن رافع بن خديج، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «أفطرَ الحاجِمُ والمَحْجُومُ»^(٣).

فصل في اطلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنورة:

حدَّثنا جدي رحمه الله بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: اطلَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالنورة، فلما فرغ منها قال: «يا معاشِرَ المُسْلِمِينَ، عليكم بالنورة، فإنها طيبةٌ وظهورٌ، وإنَّ الله يُذهِبُ بها عنكم أوساخكم وأشعاركم»^(٤). وقالت أم سلمة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اطلَى ولي عانته بيده^(٥).

[وقد روى أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أولُ مَنْ دخلَ الحمامَ وصُنعت له النورةُ سليمانُ عليه السلام» وقد ذكرناه].

وقد كان جماعة من الصحابة يتنورون: الحسن بن علي، وأنس، وأبو الدرداء رضي الله عنه، وكان جماعة منهم يحلقون الشعر، ولا يتنورون، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم.

وروى [أنس]: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتنور، فإذا كثُر شعره حلَّقه^(٦).

وقال الأطباء: منفعة النورة أن تبرز ما تحت الجلد من الأوساخ وخصوصاً في

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٤٩٩/٢٠، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩٣/٥ وقال: وفيه زيد بن أبي الحواري العمي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٠٣)، ومسلم (١٢٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٨٢٨).

(٤) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٣٦٠/٢.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٧٥٢).

(٦) أخرجه البيهقي ١٥٢/١.

زمان الربيع، فإن قيل: فقد قال [ابن سعد، عن قتادة أنه قال: ما تنور رسول الله - ﷺ - ولا الخلفاء بعده^(١)] [فالجواب: أن] عائشة، وأم سلمة ﷺ أعرف بأحوال رسول الله ﷺ من قتادة، وقد روتا قولاً، وفعلاً، وإثباتاً، وفتادة نفى، والعمل على الإثبات.

وعن ابن عباس رضيه الله عن النبي ﷺ كان يكتحلُ بالإثمدِ كلَّ ليلةٍ قبل أن ينامَ، وكان يكتحلُ في كلِّ عينٍ ثلاثة أميالٍ^(٢).



(١) «الطبقات» ١/ ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٣٢٠).

الباب الخامس والعشرون

في هبته وصدقته ﷺ

أول وقف كان في الإسلام مال مُخْرِيق اليهودي الذي قُتل بأحد، وكان من أحبار اليهود، خرج فقاتل وهو على دينه، وقال قبل أن يُقتل لمحمد بن مسلمة، وسلامة بن وقش: إن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث يشاء، وكان أيسر بني قينقاع، وتصرف رسول الله - ﷺ - في ماله، وكان سبع حوائط: الأعراف، والصافية، والدلال، والميثب، وبرقة، وحسني، ومشربة أم إبراهيم، ولما حبس رسول الله - ﷺ - هذه الأماكن، حبس المسلمون بعد على أولادهم^(١).

وفي كل حائط من هذه الحوائط بئر ماء. وما كان النبي - ﷺ - يشرب منها، بل من آبار آخر من آبار المدينة، منها بئر بضاعة، وبئر أريس، وبئر رومة، وبئر غرس، وبئر جاسم، وبئر حساء واليسيرة، وبئر ذروان، وهي التي وجد فيها السحر^(٢)، وبئر مالك ابن النضر والد أنس بن مالك، وكل هذه الآبار شرب منها رسول الله ﷺ واغتسل وتفل فيها^(٣).



(١) انظر «الطبقات» ١/٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٦٨).

(٣) انظر «الطبقات» ١/٤٣٣.

الباب السادس والعشرون

فيما كان يعجبه من الطعام، وما كان يكرهه منه ﷺ

كان يعجبه الحلوى، والعسل، وقال عبد الله بن جعفر: رأيت النبي ﷺ يأكل القثاء بالرطب^(١). متفق عليه.

وقال محمد الفهمي، أنه سمع عبد الله بن جعفر يحدث عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: «أطيب اللحم لحم الظهر»^(٢).

وقال أنس: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ إلى طعام صنعته، فذهبت معه، فقرب إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير، ومرقاً فيه دباء وقديد، فرأيت رسول الله ﷺ يتبع الدباء من حول الصحن، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ^(٣).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: كان رسول الله ﷺ يحب الثريد^(٤).

وأما ما كان يكرهه فالثوم والبصل والكراث والضب.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل من هذه البقلة، فلا يقربن مسجداً، حتى يذهب ريحها» يعني الثوم^(٥).

وعن جابر، أن النبي ﷺ نهى زمن خبير عن البصل والكراث، فأكلهما قوم، وجأؤوا إلى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أنه عن هاتين الشجرتين المنتنيتين؟» قالوا: بلى يا رسول الله، ولكن أجهدنا الجوع، فقال رسول الله ﷺ: «من أكلهما فلا يحضر مسجداً، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١).

(٤) أخرجه ابن سعد ٣٣٨/١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (٥٦١).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٩).

وأُتِيَ رسولُ الله ﷺ بِقَدْرِ فِيهِ خَضِرَاوَاتٌ مِنْ بَقُولِ، فَوَجَدَ رِيحًا، فَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: «كُلْ فَإِنِّي أَنَا جِي مَنْ لَا تُنَاجِي»^(١).

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ عندَ ميمونةَ، وعندَه الفضلُ بنُ عباسٍ، وخالدُ بن الوليد، وامرأةٌ، فأُتِيَ بِخَوَانٍ عَلَيْهِ خُبْزٌ، وَلَحْمٌ ضَبٌّ، فلما ذهبَ رسولُ الله ﷺ لِيَأْكُلَ، قالت له ميمونةُ: يا رسولَ الله، إنه لحمٌ ضَبٌّ، فكفَّ يده، وقال: «إنه لحمٌ لم آكله، ولكن كُلُوا»، فأكلَ الفضلُ، وخالدٌ، والمرأةُ، وقالت ميمونةُ: لا آكلُ من طعامٍ لم يأكل منه رسولُ الله ﷺ^(٢).

وكان رسولُ الله ﷺ يأكلُ بثلاثِ أصابعٍ: الإبهامَ، والسبابةَ، والوسطى، ولا يمسحُ يده حتى يلعقها، يبدأ بالوسطى فيلعقها، ثم بالتي تلي الإبهامَ، ثم بالإبهامِ^(٣).

وقال جابر: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا، فَلَا يَمْسَحُ يَدَهُ فِي الْمَنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَهَا أَوْ يُلْعِقَهَا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِ الْبِرْكَتِ» انفرد بإخراجه مسلم^(٤).

وقال أنس: كان رسولُ الله ﷺ يتنفسُ في الإناءِ ثلاثًا، ويقول: «هذا أهنا، وأمرأ، وأبرأ» أخرجاه في «الصحيحين»^(٥).

ونهى رسولُ الله ﷺ أن يشربَ الرجلُ قائمًا^(٦)، وفي رواية: ثم شربَ قائمًا^(٧).



(١) أخرجه البخاري (٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٨٤).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣٢٨/١ من حديث كعب بن عجرة، وأخرجه مسلم (٢٠٣٢) مختصراً.

(٤) مسلم (٢٠٣١) (١٣٤)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٤٢٢١).

(٥) البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٢١٨٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٠٢٤) من حديث أنس.

(٧) أخرجه الضياء في «المختارة» (٢٦٣٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ شرب قائمًا، وأخرجه البخاري

(٥٦١٧)، ومسلم (٢٠٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: شرب النبي ﷺ قائمًا من زمزم.

الباب السابع والعشرون

في ذكر أخلاقه وتواضعه ﷺ

قال أنس: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ قطّ، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت، ولا عاب عليّ شيئاً قطّ^(١).

وما صافحه أحدٌ فنزع يده حتى يكون الرجلُ هو الذي ينزعها من يده، ولا صرف وجهه عنه حتى يكون الرجلُ هو الذي يصرف وجهه عنه^(٢).

وقال أنس: كنتُ أمشي مع رسولِ الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيّ غليظُ الحاشية، فأدرّكه أعرابيٌّ، فجبذه جبذةً شديدةً، حتى رأيتُ صفحةَ عنقِ رسولِ الله ﷺ وقد أثرت فيها حاشيةُ البردِ من شدّةِ جذبته، وقال: يا محمدُ، أعطني من مالِ الله الذي عندك، فالتفت إليه رسولُ الله ﷺ، وضحك، ثم أمر له بعطاءٍ. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وقال أنس: إن يهوديةً جعلت سماً في لحمٍ أتت به رسولَ الله ﷺ فأكل منه، وقال: «إنها جعلت فيه سماً»، قالوا: يا رسولَ الله، ألا تقتلها؟ قال: «لا»، قال: فجعلتُ أعرفُ ذلك في لهوات رسولِ الله ﷺ^(٤).

وقال أنس: لم يكن رسولُ الله ﷺ سبّاباً، ولا لعاناً، ولا فحاشاً، كان يقولُ لأحدنا عند المعيبة: «ما له، تربت جبينه؟»^(٥).

وللبخاري، عنه قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسولِ الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت^(٦).

(١) مسلم (٢٣٠٩)، وأحمد في «مسنده» (١١٩٧٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٣٢٥، والبيهقي ١٠/١٩٢.

(٣) البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٠)، وأحمد في «مسنده» (١٣٢٨٥).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

وللبخاري، عنه أيضاً، قال: كان رسولُ الله ﷺ عندَ بعضِ نساءِه، فأرسلت إليه إحدى أمّهاتِ المؤمنينَ بصحفةٍ فيها طعامٌ، فضربت التي رسولُ الله ﷺ في بيتها يدَ الخادِمِ، فوقعتِ الصحفةُ، فانكسرت، فجمع رسولُ الله ﷺ فلقَ الصحفةِ، ثم جعلَ يجمعُ الطعامَ الذي كانَ فيها، ويقول: «غارت أمُّكم، غارت أمُّكم»، ثم حبسَ الخادِمَ حتى أتى بصحفةٍ من عندِ الذي هو في بيتها، فدفعَ الصحفةَ الصحيحةَ إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورةَ في بيتِ التي كسرت عندها^(١).

وذكر الإمامُ أحمدُ رحمة الله عليه في «المسند» أن التي صنعتِ الطعامَ صفيئةً، والتي كسرت القصعةَ عائشةُ، وأن رسولَ الله ﷺ غضبَ عليها^(٢).

وقال أنس: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: أينَ أبي؟ فقال: «في النار»، فلما قفى الرجلُ - أي ولى - ورأى رسولَ الله ﷺ ما في وجهه، دَعاه، وقال: «إنَّ أبي وأباك في النار»^(٣).

ولمسلم، عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا صَلَّى الغدَاةَ، جاءَ خَدَمُ أهلِ المدينةِ [بأنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤتى بإناءٍ إلا غَمَسَ يده فيها، فربَّما جاؤوه في الغدَاةِ الباردةَ فيغمسُ يده فيها]^(٤).

وقال جابر بن عبد الله: مرضتُ، فجاء رسولُ الله ﷺ يعُودُني، وليسَ براكِبٍ بغلاً، ولا برِذوناً^(٥). يعني: ماشياً.

قال الأسودُ: قلتُ لعائشةَ: ما كان رسولُ الله ﷺ يصنعُ في أهله؟ فقالت: كان ﷺ في مهنةِ أهله، فإذا حضرتِ الصلاةَ خرجَ إلى الصلاةِ. انفرد بإخراجه البخاري^(٦)، والمهنة: الخدمة.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٥).

(٢) أحمد في «مسنده» (٢٦٣٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣).

(٤) مسلم (٢٣٢٤) وما بين معقوفين زيادة منه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٦٤)، وأحمد في «مسنده» (١٥٠١١).

(٦) أخرجه البخاري (٦٧٦).

وقال أبو عبد الله الجدلي: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صحاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح^(١).

وقالت الربيعة بنت معوذ: دخل علي رسول الله ﷺ غداة بُني علي، فجلس علي فراشي، وعندني جوئريات يضربن بالدف، ويندبن من قتل من آبائهن يوم بدر، فقالت إحداهن:

وفينا نبي يعلم الغيب في غد

فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تقولي كذا، وقولي ما كنت تقولين»^(٢).

وذكر الحسن البصري النبي ﷺ فقال: لا والله ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يُغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزاً، من أراد أن يلقي نبي الله لقيه، وكان يجلس على الأرض، ويوضع طعامه على الأرض، ويلبس الغليظ، ويردف على الحمار، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويجيب دعوى المملوك، ويلعق أصابعه^(٣).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ يسلم على الصبيان، ولا يدعو أحد من الناس إلا أجابه ويقول: «لو دُعيت إلى كراع لأجبت»^(٤).

وقال بريدة بن الحصيب: بينا رسول الله ﷺ بمنى إذ جاءه رجل معه حمار، فقال: يا رسول الله، اركب، وتأخر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «لا أنت أحق بصدر دابتك مني، إلا أن تجعله لي» قال: قد جعلته لك، فركب^(٥).

وقال جابر بن عبد الله: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٤١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٥٥)، والبيهقي ١٠١/١٠.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣١٧٧).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٩٩٢).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١)، وأحمد في «مسنده» (١٤٢٩٤).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد، ومعه أصحابه، إذ دخل أعرابي، فبال في المسجد، فقال أصحابه: مه، مه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه، ودعوه» ثم دعاه، فقال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر والخلاء، إنما هي للصلاة والذكر وقراءة القرآن» ثم دعا بدلو من ماء، فشنه عليه^(١).

وقال أنس: ما أكل رسول الله ﷺ متكئاً، ولا شرب قائماً.

وروي: أنه أكل مؤمياً متكئاً، فجاءه جبريل، فقال له: أتأكل أكل الجبابرة؟ فما أكل بعدها متكئاً^(٢).

وقال الزهري: بلغنا أنه أتى النبي ﷺ ملك، لم يأت قط، ومعه جبريل، فقال له الملك وجبريل: سألت الله يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً، أو تكون نبياً عبداً، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل [كالمستأمر له، فأشار] إليه أن تواضع، فقال: «بل عبداً نبياً»^(٣).

وقال الزهري: كان رسول الله ﷺ يقول: «أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»^(٤).

وعن أنس: أن يهودياً دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير، وإهالة سنيخة، فأجابه^(٥).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرها على قراريط لأهل مكة»^(٦).

وقال أبو سعيد الخدري: افتخر أهل الإبل والغنم عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»، ثم قال: «بعث الله موسى وهو يراعى الغنم على أهله، وبعثت أنا وأنا راعي غنم لأهلي بجياد»^(٧).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥).

(٢) انظر «الطبقات» ١/٣٢٧.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٣٢٧ - ٣٢٨ وما بين معكوفين منه.

(٤) انظر «الطبقات» ١/٣٢٨.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٢٠١).

(٦) أخرجه البخاري (٢٢٦٢).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٩١٨).

الباب الثامن والعشرون

في حياته، ومُداراته، وشفقته، وحلمه، وصفحته، ونحوه ﷺ

وعن أنس: أن النبي ﷺ رأى على رجلٍ صُفرةً، فكرهها، وقال: «لو أمرتُم هذا أن يغسل هذه الصُفرة»، فكان لا يكاد يواجهُ أحداً، إنَّما يكره في وجهه^(١).

وأخرج مسلم، عن جابر بن سُمرة، وقد سأله [سماك بن حرب]: كنت تُجالس رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، كان طويلاً الصمت، قليل الضحك، فكان أصحابه يذكرون عنده الشعر، وأشياء من أمورهم، فيضحكون، وربما تبسم^(٢).

وأما مُداراته، فقالت عائشة رضوان الله عليها: إن رجلاً استأذن على رسولِ الله ﷺ فقال: «اؤذنوا له، فبئس ابنُ العشيرة»، أو «فبئس أخو العشيرة»، فلما دخلَ عليه، ألان له القول، فلما خرج، قالت له عائشة: قلت له الذي قلت، ثم ألنت له القول، فقال: «يا عائشة، شرُّ الناس منزلةً عند الله يومَ القيامة من ودَّعه الناس - أو تركه الناس - اتقاءً فحشه» متفق عليه^(٣).

وأما شفقته ﷺ فقال أنس: إن النبي ﷺ قال: «إني لأدخُلُ في الصلاة وأنا أريدُ أن أُطيلها، فأسمعُ بكاءَ الصبيِّ فأتجاوزُ في صلاتي، مما أعلمُ من وجدِ أمه به». متفق عليه^(٤).

وأما حلمه وصفحته فقالت عائشة رضوان الله عليها: ما ضرب رسولُ الله ﷺ خادماً له قطُّ، ولا امرأةً قطُّ، ولا ضربَ بيده إلا أن يُجاهدَ في سبيلِ الله، وما نيلَ منه شيءٌ فانتقمَ من صاحبه إلا أن تُنتهكَ محارمُ الله، فينتقمَ لله عزَّ وجلَّ، وما عُرضَ عليه أمران أحدهما أيسرُ من الآخر إلا أخذَ بأيسرهما، إلا أن يكونَ مأثماً، فإن كانَ مأثماً كانَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٣٦٧).

(٢) صحيح مسلم (٦٧٠) وما بين معكوفين منه، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٨١٠) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٠)، ومسلم (٤٧٠).

أبعد الناس منه، أخرجاه^(١).

وقال الزهري: إن يهودياً كان يجدُ صفةَ النبي ﷺ في التوراة، فأسلفه ثلاثين ديناراً إلى أجلٍ معلوم، فلما بقي من الأجلِ يومٌ جاءه، فقال: يا محمد، أعطني حقي فإنكم يا بني عبدِ المطلبِ قومٌ مُطلُّ، فقال له عمرُ: يا خبيثُ، واللهِ لولا مكانُ رسولِ الله ﷺ لضربتُ عنقك، فنهاه رسولُ الله ﷺ وقال: «نحنُ إلى غيرِ هذا أحوجُّ، هلاً أمرتني بقضاءِ دينه أو أعتته على قضاءِ حقه» ثم قال له: «اذهب به إلى حديقةِ كذا وكذا فأعطه حقه وزده» قال اليهودي: فمضى بي عمرُ إلى الحديقةِ فأعطاني حقي، وزادني، ثم رجَعَ اليهوديُّ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: واللهِ ما حملني على ما قلتُ إلا أنني وجدتُ صفتك في التوراة، فاخترتُ الجميعَ إلا الحلمَ، وقد رأيتُ من حلمك ما سرّني، وأشهدُ أنك رسولُ الله، ونصفُ مالي في فقراءِ المسلمين، وأسلمَ أهلُ بيتِ ذلك اليهوديِّ، فقال رسولُ الله ﷺ لعمر: «إنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧) مختصراً، وهذا لفظ أحمد في «مسنده» (٢٤٠٣٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٣١٠ - ٣١١ دون قوله: «إن لصاحب الحق مقالاً»، وهو قطعة من حديث آخر أخرجه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسولُ الله ﷺ: «دعوه»، فإن لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «أعطوه سناً مثل سنه» قالوا: يا رسول الله، إلا أمثل من سنه، فقال: أعطوه، فإن من خيركم أحسنكم قضاءً.

الباب التاسع والعشرون

في مزاحه ومداعبته ﷺ

عن أنس أن النبي ﷺ كان يدخلُ على أم سليم، ولها ابن من أبي طلحة يكنى أبا عمير، فكان يُمازحه، فدخل عليه يوماً فرآه حزيناً، فقال: «مالي أرى أبا عمير حزيناً؟» قالوا: مات نُغيره الذي كان يلعبُ به، قال: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «أبا عمير، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»^(١).

وعن أنس أن رجلاً اسمه زاهر، كان يُهدي لرسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج، فقال رسول الله ﷺ: «إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضروه». وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه رسول الله ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، ولم يُبصره الرجل، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت، فعرف رسول الله ﷺ فجعل لا يألو أن ألصق ظهره بصدر رسول الله ﷺ وجعل رسول الله ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبد؟» فقال: يا رسول الله، إذن والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: «لكن عند الله لست كاسداً» أو قال: «ولكن أنت عند الله غال»^(٢).

[وقال أحمد بإسناده عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضوان الله عليها قالت: خرجتُ مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جاريةٌ لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدّموا» فتقدّموا، ثم قال لي: «تعالني حتى أسابقك» فسابقته، فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجتُ معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدّموا» فتقدّموا، ثم قال لي: «تعالني حتى أسابقك» فسابقته، فسبقني، فجعل يضحك، ويقول: «هذه بتلك»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، واللفظ لأحمد في «مسنده» (١٢٩٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٦٤٨).

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٦٢٧٧).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: دَخَلْتُ عَجُوزٌ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ» فَبَكَتْ، فَقَالَ لَهَا: «لَا بَأْسَ، إِنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ تَتَبَدَّلُ، وَتَعُودِينَ بَكَرًا» وَقَرَأَ: ﴿عُرْبًا أَرْبَابًا ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٧]، ففرحت المرأة^(١).

وقالت عائشة: قَالَ ﷺ يَوْمًا لَامْرَأَةٍ: «أَنْتِ الَّذِي فِي عَيْنِ زَوْجِكَ بِيَاضٍ؟» فَبَكَتْ، فَقَالَ لَهَا: «كُلُّ بَنِي آدَمَ فِي عَيْنِهِ بِيَاضٌ»^(٢).

وقال [أحمد بإسناده، عن] أنس: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ»^(٣).

[وقال أحمد بإسناده] عن أنس: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَحَمَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدٍ نَاقَةٍ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَصْنَعُ بَوْلِدِ نَاقَةٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النَّوْقُ»^(٤).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، فَقَالَ: «إِنِّي لَأَمْرَحُ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»^(٥).

وقال أبو سليمان الخطابي: كَانَتْ لَهُ مَهَابَةٌ، وَكَانَ يَتَبَسَّطُ لِلدَّعَابَةِ.

[حدَّثنا جدي رحمه الله بإسناده عن أبي صالح] عن أبي هريرة قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي جَارًا يُؤْذِينِي، [قال: «فَانْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ» فَفَعَلَ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: لِي جَارٌ يُؤْذِينِي]، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «اذْهَبْ، فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ» فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ الْعَنِهِ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ، فَبَلَغَ الرَّجُلُ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ فَوَاللَّهِ لَا أُوْذِيكَ^(٦).

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤١٩/١٠: وفيه مسعدة بن اليسع، وهو ضعيف.

(٢) ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (٨٥٢٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٦٤).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٨١٧).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٧٢٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٥١٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٢٠).

[وقد ذكر جدي بمعناه في كتاب «الأذكياء» قال: حدّثنا غير واحد عن أبي الفضل ابن ناصر بإسناده عن عاصم الأحول] عن الحسن قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ ومعه رجل قد قتل حميماً له، فقال له رسول الله ﷺ: «أتأخذُ الديةَ؟» قال: لا، قال: «أفتعفو؟» قال: لا، قال: «فأذهب به فاقتله»، فلما جاوزَه، [قال رسول الله ﷺ: «إن قتله] فهو مثله، فأخبر الرجل، فرجع الرجل، وتركه، فولى وهو يجر نسعه في عنقه. ولم يُرد رسول الله ﷺ أنه مثله في المأثم لأن الله قد أباح له القصاص^(١). [إنما أوهمه أنه مثله ليعفو، وهذا من أبلغ الفطن، لأن] معنى قوله: «إن قتله فهو مثله» يعني أنه يكون قاتلاً كما كان الذي وجب عليه القصاص قاتلاً، [فتوهم صاحب القصاص أنه مثله في الإثم، فخاف فعفى عنه.

فإن قيل: ففيه إبطال حق المقتصر من قاتل حميمه.

قلنا: يحتمل أن ذلك كان خاصاً بهذا الرجل، ويحتمل أن رسول الله وداه].



الباب الثلاثون

في ذكر جوده وإيثاره ﷺ

قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيُدارِسُه القرآنَ، وكان أجودَ بالخيرِ من الريحِ المرسلَةِ^(١).

ولمسلم، عن أنس قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يُسألُ شيئاً على الإسلامِ إلا أعطاه إياه، فأتاه رجلٌ فسأله، فأمرَ له بشاءٍ بين جبلين من شاء الصدقةَ، فرجعَ إلى قومه، وقال: يا قوم، أسلموا فإنَّ محمداً يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقرَ^(٢).

وقال أنس: أتى النبي ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه في المسجد» وكان أكثرُ مالٍ أتى به رسولُ الله ﷺ فخرج رسولُ الله ﷺ إلى الصلاة، ولم يلتفتِ إليه، فلما قضى صلاته جاء، فجلسَ إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني، فإني فاديتُ نفسي، وفاديتُ عقيلاً، فقال له: «خُذْ» فحشى في ثوبه، ثم ذهب يُقلُّه، فلم يستطع، فقال: يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه عليّ، قال: «لا فارعه أنت»، قال: لا، فنثر منه، ثم احتمله فألقاه على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسولُ الله ﷺ يُتبعه بصره حتى خفي علينا، عجباً من حرصه، فما قام رسولُ الله ﷺ وشمَّ منه درهم^(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي: أن امرأةً أتت رسولَ الله ﷺ بِبُرْدَةٍ منسوجةٍ، قال سهل: وهل تدرون ما البردة؟ قالوا: نعم، قال: هي الشِّمْلَةُ، فقالت: يا رسول الله، نسجت هذه بيدي، فجئتُ بها لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج علينا وإنها لإزاره فجسَّها فلان بن فلان، رجل سماه، فقال: ما أحسنَ هذه البردة، أكسنيها

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢١).

يا رسول الله، قال: «نعم» فلما دخل طواها، وأرسل بها إليه، فقال له القوم: والله ما أحسنت كُسيها رسول الله ﷺ وهو محتاج إليها، ثم سألته إياها وقد علمت أنه لم يرد سائلاً، فقال: إني والله ما سألته إياها لألبسها ولكن سألته إياها لتكون كفي يوم أموت، قال سهل: فكانت كفته يوم مات^(١).



الباب الحادي والثلاثون

في ذكر شجاعته ﷺ

قال علي عليه السلام: كنا إذا أحمرَّ البأسُ اتَّقينا برسولِ الله ﷺ^(٢). أي: إذا اشتدَّ القتالُ قدَّمناه في نحرِ العدوِّ.

وقد أشرنا إلى شيء من شجاعته في غزواته ﷺ.



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٨٢٥)، والبخاري (١٢٧٧)، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٤٧).

الباب الثاني والثلاثون

في ذكر عيشه وفقره وقصر أمله ونحو ذلك

[قال أحمد بإسناده عن] قتادة قال: كنا نأتي أنساً وخبّازه قائم، فقال لنا ذات يوم: كلوا فما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً بعينه، ولا أكل شاةً سميطاً قط^(١).
[«السميط»: المسموط عليه جلده، وهو من مأكول المترفين].

وروى البخاري: لم يأكل رسول الله ﷺ على خوانٍ قط، ولا في سُكْرَجَةٍ، ولا خُبز له خبز مرقق. [قال: فقال قتادة: فعلى ما كانوا يأكلون؟ قال: على السفر]^(٢).

وقال أنس: قد رهن رسول الله ﷺ درعاً له عند يهودي بالمدينة، وأخذ منه شعيراً لأهله. قال: ولقد سمعته ذات يوم يقول: «ما أمسى عند آل محمدٍ صاعٌ من برٍّ أو حبٍّ»، وإنَّ عنده تسعُ نَسوةٍ يومئذٍ. أنفرد بإخراجه البخاري^(٣).

وقال ابن عباس: قبض رسول الله ﷺ وإنَّ درعه مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعيرٍ أخذها رزقاً لأهله^(٤).

[وقال أحمد بإسناده] عن أنس: أن فاطمة ؓ ناوت رسول الله ﷺ كِسرةً من خُبزٍ شعيرٍ، فقال: «هذا أولُ طعامٍ أكله أبوك منذُ ثلاثةِ أيامٍ»^(٥).

[وأخرجه محمد بن سعد عن هشام بن عبد الملك، وفيه]: فقال رسول الله: «يا بنية، ما هذه الكسرة؟» فقالت: قرص خبزته. فلم تطب نفسي أن آكله، وذكره^(٦). وفيه قال أنس: وكان رسول الله ﷺ يشدُّ صُلبه بالحجر من الغرث^(٧). وما كان طعامهم إلاّ الأسودان الماء والتمر^(٨). [و«الغرث»: الجوع، فإن قيل: فلم سمي الماء والتمر أسودان؟

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٢٩٦) وهو في البخاري (٥٤٢١)، والسميط: المشوي، فعيل بمعنى مفعول. النهاية (سمط).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٦٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٠٩).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٢٢٣).

(٦) «الطبقات» ١/٣٤٤.

(٧) «الطبقات» ١/٣٤٤ من حديث أبي هريرة ؓ.

(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢٥٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

قلنا: هذه عادة العرب لما كان الغالب تغير الماء بالتمر إلى السواد، أضيف الماء إليه على الاستعارة].

وقال سِماك: سمعت النعمان بن بشير يقول: أَلَسْتُم في طعام وشرابٍ، لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجدُ من الدَّقْل ما يملأُ بطنه، انفراد بإخراجه مسلم^(١).

[وقال أحمد بإسناده عن سهل بن سعد أنه قيل له: هل رأى رسول الله ﷺ النقي قبل موته بعينه، يعني الحواري؟ فقال: ما رأى النقي حتى لقي الله، فقيل له: هل كان لكم مناخِلُ [على عهد رسول الله ﷺ، فقال: ما كان لنا مناخِلُ، فقيل] فكيف كنتم تصنعون بالشّعير؟ قال: ننْفُخه فيطيرُ ما طارَ منه. [انفراد بإخراجه البخاري^(٢). وفي رواية:] ويبقى ما بقي^(٣).

[وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً». أخرجاه في «الصحاحين»^(٤). وقال أبو هريرة: ما شبع نبي الله وأهله ثلاثاً تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا^(٥). ولقد خرج منها وما شبع من خبز الشعير^(٦).

[وقال مسلم^(٧): حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده] عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ أو ليلة فإذا هو بأبي بكرٍ وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع، فقال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قومًا»، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأتهم المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «وأين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعد ذلك فيه

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٧)، وما سلف بين معكوفات من (ك).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٨١٤)، والبخاري (٥٤١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٦٥٥).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧١٧٣)، والبخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٧٦).

(٦) أخرجه البخاري (٥٤١٤) من حديث أبي هريرة.

(٧) في (ك) وما بين معكوفين منها: محمد.

بُسْرٌ وَرُطْبٌ وَتَمْرٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذَا، وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ» فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ، وَشَرَبُوا مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا، وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ». انفراد بإخراجه مسلم^(١)، وهذا الأنصاري هو أبو الهيثم ابن التيهان. [و«العِدْقُ»: الكباسة من البسر والرطب].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ، فَوَجَدَ عَلِيَّ بَابَهَا سِتْرًا، فَلَمْ يَدْخُلْ، وَقَلَّمَا كَانَ يَدْخُلُ إِلَّا بَدَأَ بِهَا، فَجَاءَ عَلِيٌّ فَرَأَاهَا مُهْتَمَّةً، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَأَخْبَرَتْهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَأَخْبَرَهُ أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا أَنَّكَ جِئْتَهَا فَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالرَّقْمُ» فَذَهَبَ عَلِيٌّ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: قُلْ لَهُ: مَا يَأْمُرُنِي؟ فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «قُلْ لَهَا تُرْسِلُ بِهِ إِلَى بَنِي فَلَانٍ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتِ لَهْمٍ بِهِ حَاجَةٌ» فَأَرْسَلَتْهُ. انفراد بإخراجه البخاري^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمَتَابَعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عِشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ^(٣).

[وقال أحمد بإسناده عن] عَائِشَةَ رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهَا قَالَتْ: مَا شَبِعَ آلَ النَّبِيِّ ﷺ [مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ] يَوْمِينَ مَتَابَعِينَ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٤).

وفي رواية: مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ خُبْزِ بَرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ^(٥). الروايتان متفق عليهما^(٦).

وقالت عائشة رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهَا: بَعَثَ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلًا، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ قَطَعَ فَأَمْسَكْتُ، فَقَالَ الَّذِي تَحَدَّثَهُ: عَلِيٌّ غَيْرِ مُصْبِحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مُصْبِحٌ لَأْتَدَمْنَا بِهِ، إِنْ كَانَ لِيَأْتِي عَلِيَّ آلَ مُحَمَّدٍ رضي الله عنهم الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِرُونَ خُبْرًا

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٣)، وأحمد في «مسنده» (٤٧٢٧)، واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٠٣)، والترمذي (٢٣٦٠)، وابن ماجه (٣٣٤٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٧٠) (٢٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٦٦٥).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٥٥)، ومسلم (٢٩٧٠) (٢١)، وأحمد في «مسنده» (٢٤١٥١).

(٦) انظر «الجمع بين الصحيحين» (٣٢٤٩).

ولا يطبخون قدراً^(١).

[وقال أحمد بإسناده عن هشام بن عروة، عن أبيه] عن عائشة أنها قالت: يا ابن أختي كان شعر رسول الله ﷺ فوق الوفرة ودون الجمّة، وإيم الله، إن كان ليمر على آل محمد ﷺ الشهر لم يُوقد في بيت رسول الله ﷺ نارٌ إلا أن يكون اللّحم، وما هنا إلا الأسودان الماء والتمر، إلا أن حولنا أهل دورٍ من الأنصارِ جزاهم الله خيراً - في الحديث والقديم - فكلّ يوم يبعثون إلى رسول الله ﷺ بغزيرة شاتهم، فيتناول رسول الله ﷺ من ذلك اللّبن، ولقد توفّي رسول الله ﷺ وما في رفي من طعام يأكله ذو كبدٍ إلا قريباً من شطرٍ شعير، فأكلتُ منه حتى طال عليّ، فكلته ففني، فليتني لم أكله، وإيم الله إن ضجاع رسول الله ﷺ من آدم حشوه ليف. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وقالت: كان يمرُّ بنا الهلالُ والهلالُ فما يوقدُ في بيتنا نار^(٣).

قالت: ولما فتحت خبيرُ قلنا: الآن نشبُ من التمر^(٤).

وقال أنس: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على سريرٍ مُرملٍ بشريط، وتحت رأسه وسادةٌ من آدم حشوها ليف، ودخل عمر، فلم يرَ بين جنبه والشريط ثوباً، وقد أثر الشريط في جنب رسول الله ﷺ فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يُبكيك؟» قال: أنت أكرمُ على الله من كسرى وقيصرَ وهما يعيثان^(٥) في الدنيا وأنت بالمكان الذي أرى؟ فقال له: «يا عمر، ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال: بلى، قال: «فإنه كذلك».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وهو على حصير، وقد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال: «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ سار في يوم صائفٍ، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من نهارٍ، ثم راح وتركها»^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٨٢٥) وإسناده ضعيف .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٧٦٨)، وهو في البخاري (٦٤٥١)، ومسلم (٢٩٧٣) مختصراً .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٥٦١) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٤٢) .

(٥) في (أ، خ): لغنيان، وليس في (ك)، والمثبت من مسند أحمد (١٢٤١٧) .

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٤) .

وقال سِمَاكُ بن حَرْبٍ: سمعتُ النعمانَ بن بشيرٍ يخطبُ، قال: ذكر عمرُ بن الخطاب ما أصابَ الناسُ من الدُّنيا، فقال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَظُلُّ اليومَ يتلَوَّى لا يجد دَقْلًا يَمَلَأُ به بطنَهُ^(١).

وأما قصر أَمَلِهِ ﷺ فقال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَخرُجُ يهريقُ الماءَ، فيتمسَّحُ بالترابِ. فأقول: يا رسولَ الله، الماءُ منك قريبٌ، فيقول: «وما يُدريني، لعلِّي لا أبلُغُهُ»^(٢).

فصل في ذكر الصدقة وتحريمها عليه ﷺ:

قال عبد الملك بن المغيرة: قال رسولُ الله ﷺ: «يا بني عبد المطلبِ، إنَّ الصَّدقةَ أوساخُ الناسِ، فلا تأكلوها، وإنَّ اللهَ كرهَ لكم غُسالةَ أيدي الناسِ، وعَوْضَكُم عنها الخُمسَ»^(٣).

وقال أنس: إنَّ كانَ رسولُ الله ﷺ لَيصيبُ التَّمرةَ فيقول: «لولا أنَّي أخشى أن تكونَ من تمرِ الصدقةِ لأكلتها». أخرجاه^(٤).

وقال أبو هريرة: قال رسولُ الله ﷺ: «واللهُ إنِّي لأنقلِبُ إلى أهلي، فأجدُ التَّمرةَ ساقطةً على فراشي، أو في بيتي فأرفَعُها لأكلها، ثم أخشى أن تكونَ من تمرِ الصدقةِ فألقِيها». متفق عليه^(٥).

وقال أبو هريرة: أخذَ الحسنُ بن عليٍّ تمرَةً من تمرِ الصدقةِ، فجعلها في فيه، فقال النبيُّ ﷺ: «كخ كخ» ليطرحها، ثم قال: «أما شعرتَ أنَّنا لا نأكلُ الصَّدقةَ». متفق عليه^(٦).

وعن أبي هريرة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتى بطعامٍ سألَ عنه: «أهديةٌ هو أم صدقةٌ؟» فإن قالوا: هديةٌ، أكلَ منه، وإن قالوا: صدقةٌ، لم يأكل، وأمرَ أصحابه أن يأكلوا منه^(٧).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦١٤).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/٣٣٦.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٣١)، ومسلم (١٠٧١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (١٠٦٩).

(٧) أخرجه البخاري (٢٥٧٦)، ومسلم (١٠٧٧).

وقالت عائشة: أرسلت إلى نسيبة بشاة من الصدقة، فبعثت إلي من لحمها، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «هل عندكم شيء؟» قلت: لا، إلا ما أرسلت به نسيبة، فقال: «ها قد بلغت محلها» متفق عليه^(١).

قالت عائشة: وتصدق علي بريرة بلحم، فدخل رسول الله ﷺ فرأى القدر تفور على النار، فقال: «ما هذا؟» قلت: لحم تصدق به علي بريرة فأهدت إلينا منه، وأنت لا تأكل الصدقة، فقال: «هو لها صدقة، ولنا هديّة» فأكل منه. متفق عليه^(٢).

وتحرم الصدقة على أهل بيت النبي ﷺ وهم: آل علي، وآل عقیل، وآل جعفر، وآل العباس بن عبد المطلب ومواليهم.

وقال يزيد بن حيان التيمي: انطلقت أنا وحصين بن سبرة، وعمر بن مسلم إلى زيد ابن أرقم، فقال له حصين: يا زيد، لقد لقيت خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وصحبته، وصليت خلفه، وغزوت معه، فحدثنا يا زيد مما سمعت منه، فقال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بماء يدعى حُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر وعظ، وقال: «أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي، فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا به، واستمسكوا به» قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» قالها ثلاثاً، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ [قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته] من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقیل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم^(٣).



(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٩)، ومسلم (١٠٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٧٨)، ومسلم (١٠٧٥).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٢٦٥)، ومسلم (٢٤٠٨)، وما بين معكوفين منهما.

الباب الثالث والثلاثون

في حزنه وعبادته ﷺ

قالت عائشة رضوان الله عليها: ما رأيت رسول الله ﷺ مُستجمعاً ضاحكاً قط، إنما كان يتبسّم، وكان إذا رأى غيماً عُرف في وجهه الكراهية، فأقول له في ذلك فيقول: «وما الذي يؤمّني أن يكون فيه عذابٌ، قد عذب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا»^(١).

وكان إذا رأى مَخِيلَةً في السماءِ دخلَ، وخرجَ، وتغيّر لونه، فإذا أمطرت سُري عنه^(٢). وكان إذا عصفتِ الريح قال: «اللهم إني أسألك خيراً وخيراً ما فيها، وخيراً ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به»^(٣).

وقالت عائشة رضوان الله عليها: رخص رسول الله ﷺ في أمر فتنّزه عنه أناسٌ، فبلغه فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «ما بال قومٍ يرغّبون عمّا رخص لي فيه؟ فوالله لآنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشيةً»^(٤).

وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم بما يُطيقون قالوا: لَسنا كَهَيْتِكَ يا رسولَ الله؟ إنَّ الله قد غفرَ لك ما تقدّم من ذنبِكَ وما تأخّر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «أنا أتقاكم وأعلمكم بالله»^(٥).

وقال عبد الله بن الشَّخِير: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ولصدره أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البُكاءِ^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٣٦٩)، والبخاري (٤٨٢٨)، و(٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩) (١٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٣٤٢)، والبخاري (٣٢٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩) (١٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١٨٠)، والبخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٣١٩)، والبخاري (٢٠).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤).

وقال الأغرُّ المُرَني: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بَثُّ عِنْدَ خَالَتِي مِيمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ فَاضْجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طَوْلِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ بِيَدِهِ عَنِ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنْ مَعْلَقٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ فَأَحْسَنَ الْوَضُوءَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى، فَقَمَتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقَمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى فَفَتَّلَهَا، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، وَاضْطَجَعَ حَتَّى جَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ، ثُمَّ دَعَا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَأَعْظَمْ لِي نُورًا»^(٢).

وقال حُميد: سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْنَاهُ، وَمَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ نَائِمًا إِلَّا رَأَيْنَاهُ، وَكَانَ يَصُومُ الشَّهْرَ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ مِنْهُ شَيْئًا^(٣).

وقال أبو وائل: قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرٍ سَوْءٍ، قُلْنَا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ بِأَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعَهُ^(٤).

وقال حذيفة: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِئَةِ، قَالَ: ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يَصَلِّيُ بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ فِيهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مَتْرُسَلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٨٤٨)، ومسلم (٢٧٠٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٦٧)، والبخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣) (١٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٠١٢)، والبخاري (١١٤١).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٤٦)، والبخاري (١١٣٥)، ومسلم (٧٧٣).

سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا سُؤَالٌ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوَ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ^(١).

وقال إبراهيم بن علقمة: سُئِلَتْ عَائِشَةُ: أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْصُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ قَالَتْ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيْكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُطِيقُ^(٢)؟

وقال عبد الله بن شقيق: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ التَّطَوُّعِ، فَقَالَتْ: كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا فِي بَيْتِي، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ العَصْرَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي المَغْرِبَ، وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَكَانَ يُصَلِّي بِهِمُ العِشَاءَ، وَيَدْخُلُ بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، وَكَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ تِسْعَ رَكَعَاتٍ مِنْهُنَّ الوَتْرُ، وَكَانَ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، فَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ رَكَعَ وَسَجَدَ، وَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَاعِدٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَكَانَ إِذَا طَلَعَ الفَجْرُ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الفَجْرِ. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٣).

وقالت عائشة - رضوان الله عليها - : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فأقول: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٤).

وقال أبي بن كعب: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإذا سلم قال: «سُبْحَانَ المَلِكِ القدوس» ثلاث مرات^(٥).

وقال غضيف بن الحارث: قلت لعائشة: أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوتِرُ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ أَمْ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٣٦٧)، ومسلم (٧٧٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٢٨٢)، والبخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣).

(٣) مسلم (٧٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٠١٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١١٤١)، وأبو داود (١٤٢٣)، وابن ماجه (١١٧١).

في آخره؟ فقالت: ربّما أوترَ في أوله، وربّما أوترَ في آخره، فقلتُ: الحمدُ لله الذي جعلَ في الأمرِ سعةً^(١).

وقالت عائشةُ رضوان الله عليها: لم يكن رسولُ الله ﷺ على شيءٍ من النوافلِ أشدَّ تعاهداً منه على ركعتي الفجرِ^(٢).

وقالت: ما تركَ رسولُ الله ﷺ ركعتينَ بعدَ العصرِ عندي قطُّ^(٣).

قال الزهري: كان مخصوصاً بذلك.

وقالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا قامَ يُصلي من الليلِ افتتحَ الصلاةَ بركعتينِ خفيفتين^(٤).

فصل في قيام رمضان:

قال زيدُ بن ثابت: إنَّ النبي ﷺ اتخذَ حُجرةً في المسجدِ من حصيرٍ فصلَّى فيها ليالٍ حتى اجتمعَ إليه ناسٌ، ثم فقدوا صوته، فظنُّوا أنه قد نامَ، فجعلَ بعضهم يتنحَّحُ ليخرجَ إليهم. فقال: «ما زال بكم الذي رأيت من صنعكم حتى خشيتُ أن يُكْتَبَ عليكم، ولو كُتِبَ عليكم ما قُمتُم به، فصلُّوا في بُيوتكم، فإنَّ أفضلَ صلاةٍ المرءِ في بيتهِ إلا المكتوبةً». أخرجاه في «الصحيحين»^(٥).

وقالت عائشةُ رضوان الله عليها: صلَّى رسولُ الله ﷺ ليلةً في المسجدِ في شهرِ رمضانَ ومعه أناسٌ، ثم صلَّى الثانيةَ فاجتمعَ تلكَ الليلةَ أكثرُ من الأولى، فلما كان في الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ امتلأَ المسجدُ حتى اغتصَّ بأهله، فلم يخرجَ إليهم رسولُ الله ﷺ فجعلَ الناسُ يُنادونه: الصلاة، فلم يخرجَ إليهم، فلما أصبحَ قال له عمرُ بن الخطاب: يا رسولَ الله، ما زال الناسُ ينتظرونكَ البارحةَ، فقال: «أما إنَّه لم يخفَ عليَّ أمرهم،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٢٠٢)، وأبو داود (٢٢٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١٦٧)، والبخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤) (٩٤).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٦٤٥)، والبخاري (٥٩١)، ومسلم (٨٣٥) (٢٩٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٠١٧)، ومسلم (٧٦٧).

(٥) أخرجه البخاري (٧٢٩٠)، ومسلم (٧٨١). وأحمد في «مسنده» (٢١٥٨٢).

ولكنني خشيتُ أن تُكْتَبَ عليهم». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقال أبي بن كعب: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يعتكفُ العشرَ الأواخرَ من رمضانَ، فسافرَ سنةً فلم يَعْتَكِفْ، فلما كانَ في العامِ المقبلِ اعتكفَ عشرينَ يوماً^(٢).

فصل في ذكر قراءته:

عن جابر بن سَمُرَةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يقرأُ في الفجرِ بِ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ونحوها^(٣).

وكانَ يقرأُ في الظهرِ ﴿وَأْتِلْ إِذَا يَغْشَى﴾^(٤)، وفي العصرِ نحو ذلك، وفي الفجرِ أطولَ من ذلك^(٤).

وفي رواية: وكانَ يقرأُ في الجمعةِ بقاف وبسورةِ الجمعةِ والمنافقين^(٥).

وأخرج مسلم عن أبي واقدِ الليثي: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضوانَ الله عليه سألَه بما كانَ يقرأُ رسولُ الله ﷺ في العيدِ؟ فقال: بـ ﴿ق﴾ و﴿أَقْرَبَتْ﴾^(٦).

وقال ابن عباس: كانَ رسولُ الله ﷺ يقرأُ في صلاةِ الصبحِ يومَ الجمعةِ ﴿الْم تَنْزِيلُ﴾ و﴿هَلْ أَتَى﴾، وفي الجمعةِ بسورةِ الجمعةِ وإذا جاءك المنافقون^(٧).

فصل في صيامه ﷺ:

قال أسامةُ بن زيدٍ رضي الله عنه: كانَ رسولُ الله ﷺ يصومُ الأيامَ يَسِرُّدُ حتى يقال: لا يفطرُ، ويُفطرُ الأيامَ حتى لا يكادُ يصومُ، إلا يومين من الجمعةِ، ولم يكن يصومُ من شهرٍ من الشهورِ ما يصومه من شعبانَ، فقلت: يا رسولَ الله، إنَّك تصومُ لا تكادُ تُفطرُ،

(١) أخرجه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١) (١٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٣٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٢٧٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٩٧١)، ومسلم (٤٥٨).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٩٦٣)، ومسلم (٤٥٩) من حديث جابر بن سمرَةَ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٦٠) ومسلم (٨٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٦) مسلم (٨٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٦)، وفيه أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد.

(٧) تقدم قريباً.

وتُفطر حتى لا تكادُ تصومُ، إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صُمتهما، قال: «أيَّ يومين؟» قلت: يومَ الاثنينِ ويومَ الخميسِ. قال: «ذانِكَ يومان تُعرضُ فيهما الأعمالُ على ربِّ العالمينَ، فأحبُّ أن يُرفعَ عملي وأنا صائمٌ». أخرجه الإمامُ أحمدُ رحمة الله عليه في «المسند»^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان يصومُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيامٍ من غرّة كلِّ شهرٍ، وقلما كان يُفطرُ يومَ الجمعةِ^(٢).

وقد ثبتَ أنه صلى الله عليه وسلم كان يصومُ الأيامَ البيضَ، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر^(٣).

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصوم يومَ عاشوراءَ قبل أن يُفترضَ صيامُ رمضانَ^(٤).



(١) أحمد في «مسنده» (٢١٧٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨٦٠)، وأبو داود (٢٤٥٠)، وابن ماجه (١٧٢٥).

(٣) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٣١٦) عن قتادة بن ملحان قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بصيام أيام البيض، ويقول: «هن كصيام الدهر».

وأخرج أحمد (٢٥٤٢٢) عن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم الأيام المعلومه من الشهر؟ فقالت: نعم.

(٤) أخرجه قريباً من هذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٦٢٩٢)، ومسلم (١١٢٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان، فلما افترض رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عاشوراء يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه».

وأخرجه عن ابن مسعود البخاري (٤٥٠٣)، ومسلم (١١٢٧) عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخل الأشعث ابن قيس على عبد الله وهو يتغدى، فقال: يا أبا محمد، ادن إلى الغداء، فقال: أوليس اليوم يوم عاشوراء؟ قال: وهل تدري ما يوم عاشوراء؟ قال: وما هو؟ قال: إنما هو يوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه قبل أن ينزل شهر رمضان، فلما نزل شهر رمضان ترك.

الباب الرابع والثلاثون

في فضله ﷺ على الأنبياء، ونحو ذلك

قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ مِن قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيْتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضِعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ» قال أبو هريرة: فقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تتشثلونها. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَتُرْبَتُهَا لَنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ». انفرد بإخراجه مسلم^(٤).

ولمسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، وأحمد في «مسنده» (١٤٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣) (٦)، وتتشثلونها: تستخرجونها. النهاية: نثّل.

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧).

(٥) أخرجه مسلم (١٩٦)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٩٧١).

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»^(١).

وفي «أفراد مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال: فعضب، وقال: «أمتهم كون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء ويخبروكم بحق فيكذبونه أو باطل فيصدقونه، والذي نفسي بيده لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا أتباعي»^(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي عنه: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيائي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير». انفراد بإخراجه مسلم^(٤).

وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثلي رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إنني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأذلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصباحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق». أخرجاه في «الصحيحين»^(٥).

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات ما

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، وقال هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٩٧٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٦)، التهوك، كالتهور: وهو الوقوع في الأمر بغير روية.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤)، وأحمد في «مسنده» (٣٧٧٩).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

مثلُه آمنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتِيتهُ وَحياً أَوْحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابِعاً يومَ القيامةِ». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وقال أبو هريرة: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلِي [ومثل الناس] كمثلِ رجلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً، فلَمَّا أَضَاءت ما حَوْلَها، جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي يَقَعْنَ في النارِ يَقَعْنَ فيها، وجَعَلَ يَحْجُزُهِنَّ وَيَغْلِبُهِنَّ فَيَقْتَحِمُنَ فيها قال: فَذَلِكُمْ مَثَلِي ومَثَلُكُمْ، أنا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عن النارِ هَلُمَّ عن النارِ فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ فيها». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وعن جابر قال: كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يَمْشُونَ أمامَه إذا خَرَجَ، وَيَدْعُونَ ظَهْرَه للملائكةِ^(٣).

قال عبد الله بن هشام: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذٌ بيدِ عمرَ بن الخطابِ فقال له: يا رسولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إِلَّا نَفْسِي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا والذي نَفْسِي بيده حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليكَ من نَفْسِكَ» فقال له عمر: فَإِنَّه الآنَ، والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من نَفْسِي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «الآنَ يا عُمَرُ». انفراد بإخراجه البخاري^(٤).

وفي الحديث دليلٌ على جوازِ تَكْلِيفِ ما لا يُطاقُ، لأنه إنما يُكَلِّفُ الحَبُّ الذي يَدْخُلُ تحتَ الطاقَةِ، أمَّا الحَبُّ الطَّبِيعِيُّ فليسَ إِلَّا الإنسانَ.

وفي المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ على أَحَدِكُمْ زمانٌ لأن يَرانِي أَحَبُّ إليه من أن يكونَ له مثلُ أهلهِ وماله»^(٥).

وقال عبد الله بن شقيق: قال رجل: يا رسولَ اللهِ، متى كنتَ نبياً؟ فقال له الناس: مَهْ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوهُ، كنتَ نبياً وأدمُ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ، أو بينَ الماءِ والطِّينِ، حينَ أُخِذَ مِنِّي الميثاقُ، وإنَّ آدمَ لَمَنجَدُلٌ في طينَتِهِ»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٨٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) (١٦)، وأحمد (٨١١٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٢٣٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٥٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٨٩)، ومسلم (٢٣٦٤)، وأحمد (٩٧٩٤).

(٦) لم نقف على هذه الرواية التي ذكرها المصنف، لعلها مجموعة من عدة أحاديث كما سنيناها:

وفي رواية: «أنا عبدُ الله، وخاتمُ النبيين، ودعوةُ إبراهيمَ حينَ قال: ﴿وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وبشَّرَ بي عيسى» و«كنتُ أولَ الناسِ في الخلقِ وآخرهم في البعثِ»^(١).

وقال أنسٌ: رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلاقُ يحلقُه وقد أطافَ به أصحابُه ما يُريدون أن يَقَعَ شعرُه إلا في يدِ رجلٍ. انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

وفي «الصحيحين» عن أبي جحيفة قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو بالأبطحِ في قبَّةٍ له، فخرجَ بلالٌ بفضلٍ وضوئه، فرأيتُ الناسَ يبتدرون ذلك الوضوءَ، فمَن أصابَ منه شيئاً مسحَ به وجهه، ومَن لم يُصب منه أخذَ من بللٍ يدِ صاحبه، وخرجَ رسولُ الله ﷺ فقامَ الناسُ فجعلوا يأخذونَ يدهَ يمسحونَ بها وجوههم، فأخذتُ يدهَ فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبردُ من الثلجِ وأطيبُ من المسكِ^(٣).

وقال أنسٌ: ما كان شخصٌ أحبَّ إليهم من رسولِ الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك. أخرجه الإمام أحمد رحمة الله عليه في «المسند»^(٤).

= أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (١٦٦٢٣) عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: قلت: يا رسول الله، متى جعلت نبياً، قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» ١/١٢٣ عن مطرف بن عبد الله بن الشخير: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ متى كنت نبياً؟ قال: «بين الروح والطين من آدم».

وأخرج أيضاً ١/١٢٣ عن عامر قال رجل للنبي ﷺ: متى استنبئت؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق».

وأخرج أحمد (١٧١٥٠) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته...».

(١) جمع المصنف رحمه الله بين روايتين: الأولى: أخرجها أحمد (١٧١٥١) عن العرباض رضي الله عنه، والثانية: أخرجها ابن سعد في «الطبقات» ١/١٢٤ من حديث قتادة وتمام في «فوائده» (١٠٠٣) من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق...».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٥)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٦)، ومسلم (٥٠٣) وأحمد في «مسنده» (١٨٧٦٢)، ولم يذكرها وضع يد النبي ﷺ على وجه أبي جحيفة، وذكر الزيادة أحمد في «مسنده» (١٨٧٦٧).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٣٤٥).

وفي «الصحيحين»: عن أنس قال: رمى رسول الله ﷺ الجمرة الأولى، ثم نحرَ البدنَ والحجَّامُ جالسٌ، ثم حلقَ أحدَ شِقِّيهِ الأيمنَ، فقسَمَهُ بينَ الناسِ فأخذُوهُ، وحلَقَ الآخرَ فأعطاه أبا طلحةَ^(١).

وفي «المسند» عن أنس قال: ناوَلَنِي رسولُ الله ﷺ شِقَّ رأسِهِ الأيمنَ، وقال: «اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى أُمَّ سُلَيْمٍ» فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ مَا خَصَّهَا بِهِ تَنَافَسُوا فِي الشَّقِّ الأخرِ، هَذَا يَأْخُذُ الشَّيْءَ، وَهَذَا يَأْخُذُ الشَّيْءَ^(٢).



(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥) (٣٢٦)، والبخاري (١٧١) ولفظه: «أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره» وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٩٠٥)، وأحمد في «المسند» (١٢٠٩٢).
 (٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٦٨٥).

الباب الخامس والثلاثون

في طرفٍ من معجزاته ﷺ

وهي ثلاثة أقسام:

قسمٌ خارج عن ذاته، وقسمٌ في ذاته، وقسمٌ في صفاته.

فأما ما هو خارجٌ عن ذاته، فكانشقاق القمر، وتسليم الحجر عليه، ونبع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام اليسير، وحنين الجذع إليه، وتسبيح الحصى في يديه، وشهادة الشاة المضلّية أنّها مسمومة، وتظليل الغمام إياه قبل مبعثه، إلى غير ذلك.

قال أنس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يُريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر شقّتين حتى رأوا حراء بينهما، فقالت قريش: سحركم ابنُ أبي كُبْشة، سلوا السفار، فسألوهم فقالوا: نعم قدرأيناه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(١) [القمر: ١].

وعن جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «إني لأعرفُ حجراً بمكة كان يُسَلِّمُ عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» انفرد بإخراجه مسلم^(٢).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدّثنا يحيى، عن عوف، حدّثنا أبو رجاء، عن عمران بن الحُصَيْن قال: كنّا في سفر مع النبي ﷺ فسرّينا حتى إذا كنّا في آخر الليل وقَعْنَا وَقَعَةً ليس عند المسافرٍ أحلى منها، قال: فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس، وكان أول من استيقظ فلانٌ ثم فلانٌ، يُسميهم أبو رجاء، ونسيهم عوف، ثم عمرُ بن الخطاب، وكان رسولُ الله ﷺ إذا نام لم نُوقظه حتى يكون هو الذي يستيقظ، لأننا لا ندري ما يحدثُ له في نومه، فلما استيقظ عمرٌ ورأى ما أصابَ الناسَ وكان رجلاً أجوفاً^(٣)

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطيالسي في «المسند» (٢٩٥)، والشاشي في «مسنده» (٤٠٤)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٤٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أما حديث أنس فأخرجه البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢)، وأحمد في «مسنده» (١٣١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٨٢٨).

(٣) «أجوف»: يخرج صوته من جوفه بقوة.

جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ لصوته رسول الله ﷺ فشكى إليه الناس ما أصابهم، فقال: «لا ضير، ارتحلوا» فارتحلوا فسار غير بعيد، ثم نزل، فدعى بالوضوء، فتوضأ، ونادى بالصلاة فصلّى بالناس، فلما انقفل من صلاته إذا برجل معتزل لم يصل مع القوم، فقال: «ما منعك أن تصلي؟» فقال: «أصابني جنابة ولا ماء»، فقال رسول الله ﷺ: «عليك بالصعيد، فإنه كافيك» ثم سار رسول الله ﷺ فاشتكى إليه الناس العطش، فنزل، فدعى فلاناً كان يسميه أبو رجاء ونسبه عوف، ودعى علياً رضوان الله عليه وقال: «أذهباً فابغياً لنا الماء» فانطلقا فلقياً امرأة بين مزادتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوف^(١)، قالا لها: انطلقي إذن، فقالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ قالت: هذا الذي يُقال له: الصابى؟ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي إذاً، فجاءا بها إلى رسول الله ﷺ فحدثاه الحديث، فاستنزلهما عن بعيرها، ودعا رسول الله ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي^(٢)، ونودي في الناس أن اسقوا واستقوا، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذلك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، فقال: «أذهب فأفرغه عليك»، قال: وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها، قال: وإيم الله لقد أقلع عنها، وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتداء فيها، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لها طعاماً» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً كثيراً وجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، فقال لها رسول الله ﷺ: «تعلمين والله ما رزئناك^(٣) من مائك شيئاً، ولكن الله هو سقانا» قال: فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟ فقالت: العجب، لقيني رجلاً، فذهب بي إلى هذا الذي يقال له: الصابى، ففعل بي وبمائي كذا وكذا، الذي كان، فوالله إنه لأسحر من بين هذه وهذه، وأشارت بأصبعيها الوسطى والسبابة ترفعها إلى السماء -

(١) «خلوف»: جمع خالف: يقال لمن غاب.

(٢) «العزالي»: هو مخرج الماء من المزادة.

(٣) «رزئناك»: نقصناك.

تعني السماء والأرض - وإنه لرسولُ الله حقًا، فكان المسلمون يُغيرون بعدُ على ما حولها من المشركين، ولا يُصيبون الصَّرمَ^(١) الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى هؤلاء القوم يدعونكم إلا عمداً فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها ودخلوا في الإسلام. أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وعن أنس: أن نبيَّ الله ﷺ كان بالزَّوراءِ، فأُتِيَ بإناءٍ فيه ماءٌ لا يَغْمُرُ أصابعه، فأمر أصحابه أن يتوضَّؤوا، ووضع كفَّه في الإناءِ أو في الماءِ فجعلَ الماءُ ينبعُ من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضَّأ القومُ، قال: فقلنا لأنس: كم كُنتم؟ قال: كنا ثلاث مئة. أخرجاه في «الصحيحين»^(٣).

وفي المتفق عليه مثل هذه الواقعة جرت في الحديبية، ورواه جابر بن عبد الله، وفيه: فوضع رسولُ الله ﷺ يده في الرِّكوةِ، فجعلَ الماءُ يفورُ من بين أصابعه كأمثالِ العيونِ، قال: فشربنا، وتوضَّأنا، قال سالم: فقلنا لجابر: كم كُنتم؟ قال: كنا خمسَ عشرة مئة، ولو كنا مئة ألفٍ لكفانا^(٤).

وقال الإمام أحمد رحمة الله عليه: حدَّثنا الوليدُ بن القاسم، حدَّثنا إسرائيلُ، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعودٍ قال: سمعَ عبدَ الله يحدث قال: كنا أصحابَ محمدٍ ﷺ نعدُّ الآياتِ بركةً، وأنتم تعدُّونها تخويفاً، بينا نحنُ مع رسولِ الله ﷺ وليسَ معنا ماءٌ، فقال: «اطلبوا من معه ماءً» ففعلنا، فأُتِيَ بماءٍ، فصبَّه في إناءٍ، ثم وضع كفَّه فيه، فجعلَ الماءُ يخرجُ من بين أصابعه، ثم قال: «حيَّ على الطَّهورِ المباركِ والبركةِ من الله تعالى» فملاَّتْ بطني منه، فاستقى الناسُ. قال عبد الله: وكنا نسمعُ تسييحَ الطعامِ وهو يؤكلُ. انفرد بإخراجه البخاري^(٥).

وقال عبد الله ﷺ: كنا مع النبيِّ ﷺ في سفر فلم يجدوا ماءً، فأُتِيَ بتورٍ من ماءٍ، فوضع النبيُّ ﷺ يده فيه، وفرَّجَ بين أصابعه [فرايتُ الماءَ] يتفجَّرُ من بينها، فقال: «حيَّ

(١) «الصرم»: أبيات مجتمعة من الناس.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٨٩٨)، والبخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٢)، ومسلم (٢٢٧٩) (٧)، وأحمد في «مسنده» (١٢٧٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦) (٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٥٢٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٤٣٩٣).

على الوضوء والبركة من الله» قال سالم بن أبي الجعد: قلت لجابر بن عبد الله: كم كان الناس يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وخمسة مئة^(١).

وقال سلمة بن الأكوع: خفت أزواد الناس، وأملقوا، فأتوا رسول الله ﷺ فاستأذنوا في نحر إبلهم، فأذن لهم، فلقيهم عمر، فأخبروه، فقال: ما بقاؤكم بعد إبلكم، فدخل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بقاؤهم بعد نحر إبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «ناد في الناس يأتون بفضل أزوادهم» فدعا، وبرك عليها، ثم دعا بأوعيتهم فاخشي الناس حتى فرغوا، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». أخرجه الإمام أحمد رحمه الله عليه في «المسند» وانفرد بإخراجه البخاري^(٢).

وروى إياس عن أبيه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاولدنا، وبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتناولت لأحزره كم هو فإذا هو كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مئة، فأكلنا حتى شبعنا، وحشونا جربنا، فقال نبي الله: «هل من وضوء؟» فجاء رجل بإداوة فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقه أربع عشرة مئة. انفرد بإخراج هذا الطريق مسلم^(٣)، والدغفقة الصب الشديد.

وأما حنين الجذع فقد ذكرناه عند عمل المنبر. وتظليل الغمام له ﷺ في حديث بحيرى، وخروجه إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة رضوان الله عليها ونحو ذلك، وقد فرقنا معجزاته ﷺ في أثناء سيرته، كماخباره أن الأرضة أكلت الصحيفة التي كتبتها قريش بينهم وبين بني هاشم، وكقوله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» متفق عليه^(٤)، وقوله

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٨٤)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، ولم نقف على حديث سلمة في «المسند».

(٣) أخرجه مسلم (١٧٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١٨)، ومسلم (٢٩١٨)، وأحمد في «مسنده» (٧١٨٤) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

ﷺ في يوم بدرٍ: «هذا مَصْرَعُ فلانٍ وفلانٍ» فما أخطأتِ تلك المصارع^(١).
 وإخباره ﷺ بما يكون بعده من المغيبات، وهو الصادقُ المصدوقُ، فصلى الله عليه
 ما مطرت سُحُبٌ، وخطرت بُرُوقٌ، وجَدَّتْ براكبها في فسيح مَذاهبها نُوقٌ.
 وأما القسم الثاني: وهو في ذاته، كالنور الذي كان ينتقلُ في ظهرِ آبائه من الأنبياءِ
 والرؤساءِ والأشرافِ حتى وصلَ إلى أبيه عبد الله، وما ظهر من حسنه وجماله مما ذكرنا
 في صفته وأحواله.

وأما القسم الثالث: وهو في صفاته، فكصدقه الدائم، فلم ينطق بباطلٍ قط، ولا
 ارتكبَ قبيحاً قبل النبوة ولا بعدها مما يشينُ ويحطُّ من القدرِ، بل عصمه الله تعالى من
 جميع ذلك، وكان ﷺ شجاعاً، جواداً، مقداماً، فصيحاً، عادلاً، راحماً، رؤوفاً
 بالمساكين، حسن الخلق، حليماً، حياً، إلى غير ذلك من الأخلاقِ الرضية والصفاتِ
 المرضية، ومعجزاته ﷺ كثيرة، وآياته ظاهرة غزيرة، ومن أكبرها القرآنُ الكريم الباقي
 على مرورِ الزمانِ وتقلبِ الحداثِ لا يفنى ولا يبيدُ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.



(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩)، وأحمد في «مسنده» (١٣٢٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

الباب السادس والثلاثون

في ذكر فصاحته ﷺ

كان رسول الله ﷺ أفصح العالم لساناً، وأرجحهم بياناً، يتكلم بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وينطق بلسان الحكمة، لم يسقط منه كلمة ولا بادت له حجة، أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق في السابقين، كلام معصوم من الزلل والتوى، وما ينطق عن الهوى.

قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «أنا أفصح من نطق بالضاد»^(١).

وقد روينا عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَاخْتَصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَاراً»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: قلت: يا رسول الله، ما بالك أفصحنا؟ فقال: «لأن العربية كلام إسماعيل عليه السلام كانت قد دُرِسَتْ، فأتاني جبريل عليه السلام فعلمني إياها»^(٣).
قوله^(٤) ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغارُ وغيره الله أن يأتي الرجل ما حرم الله عليه»^(٥).

ولمسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ بمعناه، ومن أجل ذلك أنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(٦).

قوله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ» قال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، فَمِثُّهُ جَاهِلِيٌّ، وَمَنْ قَاتَلَ

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ٣١/١: لا أصل له.

(٢) أورده الترمذي في «نوادر الأصول» ١٣٠/٢.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) من هنا إلى قوله: الباب السابع والثلاثون؛ ليس في (أ، خ) وهو زيادة من نسخة (ك).

(٥) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١) من حديث أبي هريرة عليه السلام.

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٦٠) ولفظه: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله لذلك مدح نفسه».

تحت راية عَمِيَّة، يَغْضَبُ لِعَصَبَتِهِ، أو يَنْصُرُ عَصَبَتَهُ فُقُتِلَ، فقتلته جاهليةً، وَمَنْ خَرَجَ على أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وفاجِرَها، لا يَتَحاشَى لمؤمنِها، ولا يَفِي لذي عَهْدِها، فليس منِّي، ولستُ منه». انفراد بإخراجه مسلم^(١).

معنى عَمِيَّة أي: الأمر لا يستبان جهته. قال الجوهري: وعمي عليه الأمر: التبس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [القصص: ٦٦] قال: وقولهم: ما أعماه، إنما يُراد به قلبه؛ لأنَّ ذلك ينسب إليه الكثير الضلال، ولا يقال في عمى العيون: ما أعماه، ورجل أعمى القلب أي: جاهلٌ، وامرأة عَمِيَّة عن الصواب^(٢).

قوله ﷺ: «من غشنا فليس منا» قال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ في السوقِ على صُبْرَةٍ طعامٍ فأدخلَ يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «يا صاحبَ الطعام، ما هذا؟» فقال: يا رسولَ الله أصابته السماء، فقال: «أفلا جعلته فوقه حتى يراه الناس؟» ثم قال «من غشنا فليس منا». انفراد بإخراجه مسلم^(٣).

وروي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى رسوله أن أدخل يدك في الطعام^(٤).

وقال سفيان بن عيينة: إنَّما نهى عن الغشِّ لأنَّه من أخلاقِ اليهودِ.

وقوله: «ليس منا» أي: مثلنا، ولا أخلاقه مثل أخلاقنا.

وقال ابن قتيبة: معنى «فليس منا» إشارة إلى الأنبياء ﷺ فإنهم منزهون عنه وكذا أمثالهم من العلماء.

قوله ﷺ: «نعم الإدامُ الخلُّ» قال أحمد بإسناده عن جابر بن عبد الله أن رسولَ الله ﷺ سألَ أهله الإدامَ، فقالوا: ما عندنا إلا خلٌّ، فدعا به وجعل يأكلُ منه ويقول: «نعم الإدامُ الخلُّ». انفراد بإخراجه مسلم. وفي رواية «المسند»: «ما أفقر بيتٌ فيه الخلُّ» وأخرجه الترمذي^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٠٦١)، ومسلم (١٨٤٨).

(٢) «الصحاح»: (عمي).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣٩٦)، ومسلم (١٠٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٢٩٢).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٨٠٧)، ومسلم (٢٠٥٢)، وأخرجه الترمذي (١٨٤١) من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

وفي الخل فوائدٌ منها : أنه يجمعُ الصفراءَ، ويهضمُ الطعامَ، ويقوي المعدةَ.

وفيه من الفقه : لو حلف لا يأتدُم فأكلَ خبزاً بخلٌ حنث.

قوله ﷺ : «إذا وزنت فأرجح» قال أبو داود بإسناده عن سماك بن حرب قال : حدثني سويد بن قيس قال : جلبتُ أنا ومخرقة - وقيل : مخرمة العبدى - بزاً من هجر فأتينا به مكة، فجاءنا رسولُ الله ﷺ يمشي فساومنا سراويلَ فبعناه، وثمَّ رجلٌ يزن بالأجر، فقال له رسولُ الله ﷺ : «زن وأرجح»^(١).

وأهلُ العلم يستحبون الرجحان في الوزن، وذكر بعض أهل النقل أن النبي ﷺ رآه يزن ناقصاً فقال : «زن راجحاً»، ويحتمل أنه أجاز الرجحان، وقد كان ﷺ يفعل ذلك إذا اشترى أو استقرض، ويحتمل أنه على وجه التهديد للوازن.

قلت : وقوله : فساومنا سراويلَ، وهم من الرواة، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا يعرفون السراويلات، وإنما هو زبيُّ الأعاجم، وقيل : إن أول من لبس السراويلَ عثمان، وقد روي أن النبي ﷺ ساومهما في رداءٍ وهو الظاهر.

قوله ﷺ : «إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً عَسَلَهُ» قيل : وما عَسَلَهُ؟ قال : «يفتحُ له عملاً صالحاً قبلَ موته، ثم يقبضه عليه»^(٢).

قوله ﷺ : «إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ من كسبه».

قال الترمذي بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : قالت : قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ أطيبَ ما أكلتُم من كسبِكُم، وإنَّ أولادَكُم من كسبِكُم» قال الترمذي : هذا حديث حسن. وفي الباب عن جابر بن عبد الله وابن عمرو، والعملُ عليه عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، قالوا : إنَّ يدَ الوالدِ مبسوطةٌ في مالِ ولده يأخذ ما شاء، وقال بعضهم : لا يأخذ من ماله إلا عند الحاجة إليه، هذا كلام الترمذي^(٣).

قلت : ولا خلاف أن نفقة الوالد تجب على الولد إذا كان موسراً، واختلفوا هل يجوز للأب أن يتزوج بجارية ابنه؟ قال أبو حنيفة : يجوز وقال الشافعي وأحمد : لا يجوز، واحتجوا بهذا الحديث.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣٦)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٠٩٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٨٤) من حديث أبي عتبة الخولاني رضي الله عنه.

(٣) سنن الترمذي (١٣٥٨)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٢٩٦).

وإذا كان الولد كسب الوالد فقد ثبت له حق في مال الابن، ألا ترى أن الأب إذا وطئ جارية الابن وهو عالم بالتحريم لا يحل، فقد تزوج بأمة له فيها حق فلا يجوز، ولأبي حنيفة أنها غير مملوكة الأب فيجوز نكاحها كالأجنبية، ولهذا يملك الابن إعتاقها ووطأها وبيعها وهبتها، والجمع بين الملكين لشخصين في مجال واحد في زمان واحد محال، وأما الحديث فالمراد به الأخذ من مال الابن عند الحاجة، فإن الأب يملك ذلك، ولهذا سقط الجلد عنه في وطء أمة ولده؛ لأننا نقلنا الملك إليه قبيل الوطء لما عرف في مسألة الاستيلاد، وتمامه في «الخلافيات».

قوله ﷺ: «خير المال مهرة مأمورة أو سكة مأبورة». ذكره القضاعي.

قال أحمد بإسناده عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ»^(١) وذكره.

قال الجوهري: المهر ولد الفرس، والجمع أمهار ومهارة، والأنثى مهرة والجمع مَهَر ومَهَرَات^(٢)، والمأمورة، الكثيرة النتاج، والسكة: المصطفة من النخل، قال الجوهري: ومنه قولهم خير المال مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة أي: ملقحة، قال: وكان الأصمعي يقول: السكة هاهنا الحديد التي يُحْرَثُ بها، ومأبورة مُصلحة، قال: ومعنى هذا الكلام: خير المال نتاج أو زرع^(٣).

قوله ﷺ: «تزوجوا الولود الودود».

قال أبو داود بإسناده عن معاوية بن قرة، عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات جمال وحسب، وإنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: «لا»، ثم أتاه ثانياً وثالثاً فقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود»، فإني مكاثر بكم الأمم^(٤). وفي رواية: «يوم القيامة»^(٥).

(١) القضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٥٠)، وأحمد في «مسنده» (١٥٨٤٥).

(٢) «الصحاح»: (مهر).

(٣) «الصحاح»: (سكك).

(٤) أبو داود (٢٠٥٠).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٥٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالبلاء، وينهى عن =

وأخرج عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بخير نساءكم من أهل الجنة؟» قالوا: بلى، قال: «الودودُ الودودُ العودُ على زوجها، التي إذا أذيت أخذت بيد زوجها وقالت: والله لا أطعمُ حتى ترضى»^(١).

وقد بينا فضل النكاح على العبادة فيما تقدم.

قوله ﷺ: «أفضلُ الجهادِ كلمةٌ حقٌّ عند سلطانٍ جائرٍ».

قال الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ من أعظمِ الجهادِ كلمةٌ عدلٍ عند سلطانٍ جائرٍ»^(٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي أمامة.

قال: إنما كان ذلك أفضل الجهاد، لأن من جاهد العدو وكان متردداً بين الخوف والرجاء لا يدري أيغلب أم يُغلب، والمجاهد للسلطان الجائر مقهورٌ في يده، لأنه متى أمره بمعروف ونهاه عن منكر فقد عرض نفسه للتلف، قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: حدثت بهذا الحديث إبراهيم بن طهمان، فقال: اكتبه لي، فكتبته، فانصرف إلى خراسان، فدخل على أبي مسلم، فنهاه، وأمره، وذكر له هذا الحديث، فقال له أبو مسلم: قد قبلنا قولك فهل لك أن تجلس في بيتك؟ فقال: لا، وذكر الحديث، فقال له ثانياً: هل لك أن تجلس في بيتك؟ فقال: لا، وذكر له الحديث، فأمر بقتله، فاخصم فيه ثلاثة، فقال إبراهيم: لا تختصموا كلكم شريكاً، فضربه رجلٌ فلم يجد الضرب، فبقي حلقومه معلقاً فرموه في بئر، فكانوا يسمعون أنيه ثلاثة أيام.

قوله ﷺ: «خيرُ الصدقةِ ما كان على ظهر غنى».

قال أبو داود بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذا برجل جاء بمثل بيضة ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه في معدنٍ فخذها، فهي صدقةٌ ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله، ثم أتاه من قبل رُكنه الأيمن، فقال مثل

= التبتل نياً شديداً، ويقول: تزوجوا الولود....».

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩١٣٩).

(٢) الترمذي (٢١٧٤)، وأخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١).

ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قِبَلِ رُكْنِهِ الْأَيْسَرِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَحَذَفَهُ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ، فَلَوْ أَصَابَتْهُ لِأَوْجَعْتَهُ، أَوْ عَقَرْتَهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي أَحَدُكُمْ بِمَا مَلَكَ فَيَقُولُ هَذِهِ صَدَقَةٌ، ثُمَّ يَقَعْدُ فَيَسْتَكْفُ النَّاسَ» أَوْ «يَقَعْدُ يَسْتَكْفُ النَّاسَ! خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى»^(١)، وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة: «وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ»^(٢).

قوله ﷺ: «ارْحَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

قال الترمذي بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ» قال: وهذا حديث حسن صحيح^(٣).

قلت: وهذا هو الحديث المسند الذي سمعته من شيخنا افتخار الدين أبي هاشم عبد المطلب الهاشمي، وهو أول حديث سمعته منه، قال شيخنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب وذلك بمدينة حلب في شوال سنة ثلاث وست مئة بالمدرسة النورية، قال بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ».

قال: وفي الباب عن أبي هريرة بإسناده قال: أبصر الأقرع بن حابس النبي ﷺ يُقْبَلُ حَسَنًا، فَقَالَ: لِي عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ قَطُّ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ». أخرجاه في «الصحيحين»^(٤).

وروي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ جُزْءًا وَاحِدًا، مِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَا حُمُ الْخَلْقِ، حَتَّى

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٧)، وهو في البخاري (١٤٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩١١)، والبخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

تَرَفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تَصِيْبَهُ»^(١).

وأخرج البخاري بمعناه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وفي آخره: «لَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ النَّارَ»^(٢).

ولمسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لِللَّهِ مِئَةُ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ فِيهَا يَتَرَاحِمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَأَخْرَسَعَةً وَتَسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ»^(٣).

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ»^(٤).

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَا تُنَزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»^(٥).

قوله ﷺ: «إِذَا اسْتَشَاظَ السُّلْطَانُ، تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ»^(٦) وهذا مثل قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ»^(٧) ثم قال أبو عبيد: معناه أن الإنسان متى غضب تمكن إبليس منه، وشاظ يشيط: إذا احترق، وإنما خص السلطان لأن غضبه يعم.

قوله ﷺ: «الْقُضَاءُ ثَلَاثَةٌ» قال أبو داود بإسناده عن أبي هاشم، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «الْقُضَاءُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٢) (١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٧٠٢).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٩٨٤) من حديث عطية السعدي.

(٧) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٤٠٨/٦، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

في النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ»^(١).

وقد فسره أبو عبيد فقال: الذي هو في الجنة هو الذي أكره على القضاء فقضى بالحق والعلم، وأما الذي في النار فرجلٌ كان عالماً بالقضاء ثم جار في الحكم، ورجل جاهل نصّب نفسه للقضاء وليس بأهل للعلم، فقضى فحاف، فأحلّ ما حرم الله من الفروج والدماء والأموال فهو في النار.

قوله عليه السلام: «مَنْ جُعِلَ قَاضِيًا فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ»^(٢) وقد فسره أبو عبيد فقال: إن الذبح الذي يحصل به إزهاق الروح وخلاص المذبوح من طول الألم وشدة العذاب إنما يكون بالسكين، فإذا ذبح بغير سكين كان حتفًا وتعذيبًا.

وروى أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَكِلَإَ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أُجْبِرَ عَلَيْهِ نَزَلَ عَلَيْهِ مَلَكَ يُسَدِّدُهُ»^(٣).

حديث آخر في القضاء: روت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالْقَاضِيِ الْعَادِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّى مَعَهُ أَنْ لَا يَكُونَ قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ قَطُّ»^(٤).

قوله عليه السلام: «لَا رَقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حَمَةٍ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ»^(٥) ورخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة، والحمة الحيات والعقارب وما أشبهها من ذوات السموم، وتسمى إبرة العقرب حمة لأنها تجري مجرى السم، وحمة العقرب بالتخفيف: سمها، والهَاءُ عوض، قال: وَالنَّمْلَةُ بِالْفَتْحِ قَرُوحٌ فِي الْجَنْبِ وَبَثُورٌ صَغَارٌ مَعَ وَرْمٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَتَقَرَّحُ فَتَسْعَى وَتَسْعَى، وَتَسْمِيهَا الْأُدْبَاءُ الذَّبَابُ، وَالنَّمْلَةُ أَيْضًا عَيْبٌ فِي حَافِرِ الْفَرَسِ، فَأَمَّا النَّمْلَةُ بِالضَّمِّ فَهِيَ النَّمِيمَةُ، وَكَانَ ﷺ يَرْقِي أَصْحَابَهُ وَيَقُولُ: «بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ وَاللَّهُ يَشْفِيكَ»^(٦).

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، وأخرجه الترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧١٤٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣٠٢).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٠٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، وأحمد في «مسنده» (١٩٩٠٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٧٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروي عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فعرضَ لإنسانٍ منهم في عقله، أو لدغ، فقالوا لأصحاب رسول الله ﷺ: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، فرَّقه رجل منهم بفاتحة الكتاب فبرئ، فأعطي قطعاً من الغنم، فأبى أن يقبلَ حتى أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك وقال: والذي بعثك بالحق ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب فبرئ، فضحك النبي ﷺ وقال: «وما يُدريك أنها رقية؟» ثم قال: «خُذُوا واضربُوا لي بِسَهِمٍ متفق عليه^(١).

وفي بعض ألفاظ «الصحيح»: فقال رجل: ما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطع من الغنم^(٢).

ولمسلم: عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رُقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن شركاً»^(٣).

قوله ﷺ: «حُبُّك للشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ».

قال أبو داود بإسناده عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: وذكره^(٤). ورواه أبو بكر الخرائطي في «اعتلال القلوب» عن أبي بُردة الأسلمي رَفَعَهُ بهذا اللفظ، ذكره الخرائطي في: باب ما يستحب من الاقتصاد في الحب، وما يكره من الإفراط فيه، فإنَّ الحَبَّ يُعْمِي عن طريق التوبة، ويصمُّ عن استماع الحق^(٥).

قوله ﷺ: «تَدَاوَوْا».

قال الترمذي بإسناده عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعرابُ: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ فقال: «نعم يا عباد الله، تداووا، فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، أو

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٣٠).

(٥) «اعتلال القلوب» ١٧٥.

دواءً، إلا داءً واحداً» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال «الهرم»^(١).

وقد اشتمل هذا الحديث على فوائد:

منها: أن الطبَّ تعليم أم قياس؟ اختلف الأوائل فيه، فقالت الصابئة: إن شيث بن آدم أول من أظهره، وأنه ورثه عن أبيه آدم، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] يدل عليه، وقال بعضهم: إن الهند استخرجته، وقال بقراط وجماعة من الأوائل: هو إلهام من الله عز وجل، وقال بعضهم: بل حصل بالتجربة، والظاهر أن أصله من تعليم الله ووحيه وبعضه من إلهامه، ثم أضاف الناس إليه التجارب والقياس.

وقال أبو سليمان الخطابي: الطب قسمان:

قسم يسمونه: القياسي، وهو طب اليونانيين؛ بقراط وجالينوس ومن سلك طريقهما، وهو مذهب عامة الأطباء.

والقسم الآخر: طب التجارب، وهو مذهب الهند وكثير من العرب، وهؤلاء يستعملون القياس ولا يعتبرون الأصول، وإنما يعتمدون مجرد الامتحان والتجربة في آحاد الأعيان، ويحتجون بأن لبعض الطباع خاصية ليست لغيرها، وللعادات تأثيراً في الطباع، وفي الأهوية والبلدان اختلاف كثير يتغير باختلافهما بعض الأحكام، والقياس يستمر على وصف مَطَّرَد لا يختلف.

ومنها: بيان فضيلة علم الطب وموافقته للشرع والعقل، لا خلاف أن الآدمي أفضل المخلوقات وأشرف الموجودات، وأن الله سبحانه شرفه بالعقل وأدواته، وبه توجه إليه الخطاب حتى عرف الصانع بمصنوعاته، وأن جسده كالمركب، ومن الواجب حراسته لبقاء الراكب ليقطع ما قدَّر له من المسافة في ببداء الدنيا، ومن المعلوم أن البدن مركَّب من أمزجة مختلفة وأضداد متباينة، وقوامه بتعديل مزاجه، ومتى اعتدل حصلت له الصحة والعافية، وحصول العافية إنما يكون بشيئين: باعتدال البدن، وبما يصدر من الصحة عنه، والثاني: بإخراج الفضول المؤذية منه، وإذا ثبت هذا فالصحة والعافية من

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٤٥٤).

أبلغ النعم، والغفلة عن شكرها من جملة النقم فما وجه من أفقه الطب للشرع. وقد ورد الشرع بأشياء تنافي الطب منها قوله ﷺ: «الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء»^(١) والماء من أضر الأشياء على المحموم، لأن الاغتسال به يحقن الحرارة في باطن بدنه فيقع الهلاك في نظائر كثيرة، قلنا: قوله ﷺ «ابردوها بالماء» لا يطرد في جميع البلاد، فإن البلدان الباردة لا يصلح فيها ذلك، وإنما هو خطاب لأهل الحجاز ومن بلادهم حارة، وهذا الجواب عما يرد في هذا الباب.

ومنها: اختلاف العلماء هل التداوي أفضل أم تركه؟ ذهب قوم إلى أن التداوي أفضل لمن توكل على الله، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وبحديث عمران بن الحصين قال أحمد: حدثنا يزيد بن هشام، عن الحسن، عن عمران بن الحصين، أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، الذين لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» قال: فقام عكاشة فقال: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» فقام آخر فقال: أنا كذلك، فقال رسول الله ﷺ: «سبقك بها عكاشة». انفراد بإخراجه مسلم^(٢).

وقيل: لأبي بكر ﷺ ألا تتداوي؟ في مرضه فقال: الطبيب أمرضني. وقد كان جماعة من السلف على هذا المذهب.

وقال قوم: التداوي أفضل لقوله ﷺ: «تداؤوا» والأمر للوجوب، وعامة السلف تداؤوا، وقد كان ﷺ يتداوى على ما ذكرناه. قوله ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

أنبأنا جدِّي رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات» ذكره جدِّي في كتاب «بر الوالدين»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٢)، ومسلم (٢٢١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٩١٣)، ومسلم (٢١٨).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» ٥٦٨/٣، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٩).

إنما قدمت الأم في البر لمكان الشفقة والحضانة ومشقة الحمل والطلق والرضاع والتربية ونحوها.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الناس أحقُّ مني بحُسن الصُّحبة؟ فقال: «أمُّك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(١). ورواه أحمد عن يزيد ابن هارون، عن بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، من أبرُّ؟ قال: «أمُّك» قلت: ثم من؟ قال: «أباك»^(٢).

قوله ﷺ: «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ».

قال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، وذكره^(٣)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عمران بن الحصين.

أشار ﷺ إلى أن المرأة عورة، وأن التبرج عليها حرام، وظهور الطيب نوع من ذلك.

ولمسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بِخُورًا فَلَا تَشْهَدَنَّ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ». وفي رواية: «إِذَا جَاءَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ، فَلَا تَمَسَّ طِيبًا»^(٤).

وفي «الصحيحين» عن أنس عن النبي ﷺ أنه نهى أن يتزعفر الرجل^(٥).

قوله ﷺ: «المجالسُ بالأماناتِ» عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ التَّفَّتْ، فَهِيَ أَمَانَةٌ» قال: هذا حديث حسن^(٦).

قال أبو عبيد: فيه إشارة إلى أن القوم يجتمعون فيتحدثون ويستغرقون في الحديث، فمن أفشى منهم سرًّا فهو خائن، وقد توهم قوم أن هذا الحديث ثم.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٨٧)، وأخرجه أبو داود (٢١٧٤)، والنسائي في «الكبرى» (٩٤٠٨)، وفي «المجتبى»

(٥١١٧)، وتامه: «طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه»

(٤) أخرجه مسلم (٤٤٤).

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٤٦)، ومسلم (٢١٠١).

(٦) أخرجه الترمذي (١٩٥٩)، وأبو داود (٤٨٦٨).

قوله ﷺ: «ليس الغنى بكثرة العَرَضِ، وإنما الغنى غنى النفس». قال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، وذكره^(١). وقال: حديث حسن صحيح.

أشار ﷺ إلى شرف النفس والقناعة باليسير.

قوله ﷺ: «إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة» قال أحمد بإسناده عن عيسى بن طلحة، قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول^(٢)، وذكره.

واختلفوا في معناه، فقال الخطابي: معناه الدنو والقرب، وقال محمد بن زياد الأعرابي: معناه هم أكثر الناس أعمالاً يوم القيامة، يقال: لفلان عنق خير، أي: عمل كثير، وقال قوم: إنما هو من طول الأعناق، لأن الناس يعرقون يوم القيامة حتى يصل العرق إلى آذانهم، وقال أبو عبيد: يكونوا رؤساء يومئذ، والعرب تصف السادات بالأعناق وطولها، فيحتمل أن معنى الحديث: أنهم أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ينتظرون ما أعد الله لهم من الثواب.

قوله ﷺ: «من بدا جفا» قال أحمد بإسناده عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب الملوك افتتن، وما ازداد عبداً من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بُعداً»^(٣).

وقال: يغلب من سكن البادية غلظ طبعه وصار جافياً، وبعد عن الطباع الكريمة ومكارم الأخلاق، وأما اتباع الصيد فلأن فيه ترك الجمعة والجماعات، والاشتغال عن مجالس الذكر والعبادات، فيصده ذلك عن أفعال الخيرات، وقيل معناه: من اتبع صيد الدنيا غفل عن صيد الآخرة.

قوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد» قال الترمذي بإسناده عن عبد الرحمن بن عمرو بن سهل، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل [عن النبي ﷺ]، فذكره^(٤)، وقال

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٨٦١)، وهو عند مسلم (٣٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٨٣٦).

(٤) أخرجه الترمذي (١٤١٨).

أحمد] بإسناده عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(١). قال الترمذي: حديث صحيح.

قوله ﷺ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا». قال الترمذي بإسناده عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وقال أحمد بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن عليّ بن أبي طالب قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أبيع غلامين أخوين فبعتهما وفرقت بينهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ قال: «أَدْرِكُهُمَا فَارْتَجِعْهُمَا، وَلَا تَبِعْهُمَا إِلَّا جَمِيعًا»^(٣).

وأخرج أبو داود بمعناه فقال: فرّق عليّ بين جارية وولدها، فنهاه رسول الله ﷺ وردّ البيع، وقال: «لَا تُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا»^(٤).

وقد كرهه بعض أهل العلم من الصحابة ورخص فيه بعضهم، والكراهة أصح إلا أن البيع جائز.

وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنا في البحر وعلينا عبد الله بن قيس الفزاري ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فمرّ بصاحب المقاسم وقد قسم السبي، فإذا بامرأة تبكي فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: فرّق بينها وبين ولدها، قال: فأخذ بيد ولدها حتى وضعه في حجرها، فانطلق صاحب المقاسم إلى عبد الله بن قيس فأخبره، فأرسل إلى أبي أيوب يقول: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥).

وقال بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٥٢)، والترمذي (١٤٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٨٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٩٦).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٩٩).

لرجلٍ أن يفرِّقَ بين اثنينٍ إلا بإذنهما»^(١).

قلت: وقد أشارَ محمدَ رحمه الله تعالى إلى هذا في «الأصل» فقال: ومَنْ ملكَ مملوكين صغيرين أحدهما أكبر من الآخر لم يفرق بينهما.

وفي حديث أبي هريرة قال: رأى رسولُ الله ﷺ امرأةً والهةً من السَّبي فقال: «ما شأنها؟» فقيل: بيعَ ولدها، فقال: «رُدُّوه، لا تَجْمَعُوا عليهما السَّبي والتَّفريقَ». لأن ذلك يؤدي إلى الإضرار بهما، وكذا الصغير يتضرر بمفارقة الكبير، لأنه يقوم به، ولو كانا كبيرين فلا بأس بالتفريق بينهما، لأنهما لا يتضرران بذلك.

قوله ﷺ: «مَطْلُ الغنيِّ ظلمٌ»^(٢).

قوله ﷺ: «ما نَقَصَ مالٌ من صدقةٍ» قال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما نَقَصَ مالٌ من صدقةٍ»^(٣). وفي رواية: «ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زادَ عبدٌ بعفوٍ إلا عِزًّا، وما تواضَعَ أحدٌ إلا رَفَعَهُ اللهُ»^(٤).

وقد أشار أبو الدرداء إلى هذا فقال: لنا داران دار دنيا ودار أخرى، فإذا تصدق إنسان فقد نقلت من دار إلى دار، فما ينقص ماله.

قوله ﷺ: «ما مثلي ومثلُ الدنيا، إلا كراكبٍ مالٍ إلى ظلِّ شجرةٍ في يومٍ حارٍّ، ثم راحَ وترَكها». قال الترمذي بإسناده عن ابن مسعود قال: نامَ رسولُ الله ﷺ على حصيرٍ فقامَ وقد أثرَ في جنبه فقلنا: يا رسولَ الله، لو اتَّخذنا لك [وطاء] فقال: «ما مثلي» وذكر الحديث^(٥).

قوله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لصديقٍ أن يَكُونَ لَعَانًا»^(٦). قال الترمذي بإسناده عن ابن عمر

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) بهذا اللفظ، وأحمد في «مسنده» (١٨٠٣١) من حديث أبي كبشة الأنماري وهو قطعة من حديث طويل.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٢٩)، وهو عند مسلم (٢٥٨٨).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧٠٩).

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون المؤمن لعاناً»^(١).

فإن قيل: فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لعن جماعةً.

فأخرج مسلم عن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من لعن والدَيْه،

لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من أوى مُحدثاً، لعن الله من غير منار الأرض»^(٢).

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ الواشماتِ

والمستوشماتِ، والمتنمصاتِ، والمتفلجاتِ للحسنِ المغيراتِ خلقَ الله. فبلغ ذلك أمّ

يعقوبِ الأَسدية وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك كذا وكذا؟

وذكرته، فقال ابن مسعود: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت

المرأة: لقد قرأت ما بين لוחي المصحف فما وجدته؟ فقال: لو كنتِ قرأتيه لوجدتيه، قال

الله تعالى: ﴿وَمَا آءَانِكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣) [الحشر: ٧]

وأخرج الترمذي في الباب أحاديث عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

فالجواب: أن لعنَ النبي ﷺ لمن ذكرنا لا يكون كلعنٍ غيره، فإنَّ اللعنة من غيره قد

تكون عبثاً أو لغرضٍ، ومنصب النبوة مُنزه عن هذا، فلا يلعن إلا من كُتب عليه اللعنة،

ومن لم يكن أهلاً للعن فلعن النبي ﷺ يكون قرينةً وكفارةً على ما ورد به الحديث^(٤).

والوشم بشين معجمة: غرزُ الكفِّ والذراع بالإبرة، ثم يحشا بالكحلِ،

والمستوشمة: التي يفعل بها ذاك.

والنامصة: التي تنتف الشعر، والمتنمصة التي يفعل بها ذاك.

قوله ﷺ: «لا يفلح قومٌ ولّوا عليهم امرأةً» قد ذكرناه لَمَّا مات كسرى، أشار ﷺ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيا مؤمن آذيته أو سببته أو جلده، فاجعله له كفارة وقرينة تقربه بها إليك يوم القيامة».

إلى أن المرأة ناقصة العقل والدين، ولا رأي لها، ولهذا لا تصلح أن تكون إماماً ولا حاكماً ونحوه.

وقد أخرج الترمذي عن أبي بكرة نُفيع مولى رسول الله ﷺ قال: عَصَمَنِي اللهُ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا هَلَكَ كَسْرَى قَالَ: «مَنْ اسْتَخْلَفُوا؟» قالوا: ابنته، فقال ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» قال أبو بكرة: فلما قدمت عائشة البصرة ذكرت قول رسول الله ﷺ فعَصَمَنِي اللهُ بِهِ (١).

قال الترمذي: هذا حديث صحيح (٢).

قوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٣). قال أحمد بإسناده عن عمران ابن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا طاعة في معصية الله» (٤).

وقال الترمذي بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية الله، فإن أمر بها فلا سمع ولا طاعة» (٥). قوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي» أو: «قوي».

قال أحمد بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكره (٦). قال: وجه هذا الحديث عند بعض أهل العلم على المسألة (٧).

والمِرَّة: القوة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٦].

وقد أخرج الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ أَوْ كُدُوحٌ أَوْ خُدُوشٌ» قلت: وما

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٢)، وأخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٢) جاء في نسخة كوبريللي: قال أبو داود. اهـ. والحديث لم يخرج أبو داود ولعل المثلث هو المراد.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٨/ (٣٨١) من حديث عمران بن الحصين ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٨٢٤).

(٥) أخرجه الترمذي (١٣٠٧).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٩٠٨).

(٧) ذكره الترمذي بعد الحديث (٦٥٢).

يُغْنِيهِ؟ قَالَ: «خَمْسُونَ دِرْهَمًا»^(١).

قوله ﷺ: «العِدَّةُ دَيْنٌ»^(٢). عن أبي جُحَيْفَةَ قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ لَنَا بِثَلَاثَةِ عَشْرَ قَلُوصًا، فَذَهَبْنَا نَقْبِضُهَا فَأَتَانَا مَوْتُهُ فَلَمْ يُعْطُونَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَدِمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ فَلْيَجِئْ، قَالَ: فَقَمْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَمَرَ لِي بِهَا. قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٣).

وقد ذكرنا أن علياً ﷺ أنجزَ عِدَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قوله ﷺ: «الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ»^(٤) ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ، هذا من كلام معاوية بن أبي سفيان. قيل له: ما بلغ من حزمك؟ فقال: الحزم سوء الظن، وما وثقتُ بأحد قط، قال الأزهري في كتاب «تهذيب اللغة»: الحزم: الحذر من الناس. وقال الجوهري: الحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة^(٥).

قوله ﷺ: «الدِّينُ شَيْنٌ»^(٦) والذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ قَضَاءَهَا وَأَدَاءَهَا، أَذَاهَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا، أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(٧) ومعنى الدين شين: يعني في الدنيا بالمطالبة والحبس واستدلال المديون، وفي الآخرة بالمؤاخذه، وفي حديث أنس: «صاحبُ الدِّينِ مَأْسُورٌ فِي قَبْرِهِ يَشْكُو إِلَى اللَّهِ الْوَحْدَةَ»^(٨).

قوله: «الْخَمْرُ جَمَاعُ الْإِثْمِ»^(٩) غريب.

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٥١٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٢٦).

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٤).

(٥) «الصحاح»: (حزم).

(٦) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣١).

(٧) أخرجه البخاري (٢٣٨٧).

(٨) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٩٣) من حديث البراء بن عازب، ولم نقف عليه من حديث أنس.

(٩) أخرجه الدارقطني في «السنن» ٢٤٧/٤ من حديث زيد بن خالد.

قوله ﷺ: «النِّياحةُ من عَمَلِ الجاهلية»^(١) هذا اللفظ غريب، وقد وردَ في معناه أخبارٌ:

منها: روى ابنُ مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعَا بدَعوى الجاهلية». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وروى أبو داود بمعناه، عن أم عطية قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن النِّياحةِ^(٣).

وأخرج أحمد في «المسند» بمعناه فقال: حدَّثنا وكيع، عن هشام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أنس قال: أخذ رسولُ الله ﷺ على النساءِ حينَ بايَعهنَّ: أن لا يُنْحَنَ، فقلنا: يا رسولَ الله، إن نساءً أسعدننا في الجاهلية أفُسِعدُن؟ فقال النبي ﷺ: «لا إسعادَ في الإسلامِ، ولا شِغارَ، ولا عَقْرَ، ولا جَلَبَ، ولا جَنبَ، ومَنْ انْتَهَبَ فليسَ مِنَّا»^(٤).

الإسعاد: أن تُسعد المرأةُ المرأةَ في مُصيبتها، والشِغار: أن يزوّج الرجلُ ابنته على أن يزوّجه أخته أو قريبةً له، والعَقْرُ: الذبحُ عند قبورِ الموتى، والجَلَبُ: الصياحُ على الفرسِ في السباقِ، والجَنبُ: أن يجنبَ فرساً فإذا أعت فرسه التي سبق عليها انتقل إلى تلك.

وقال الجوهري: التناوح: التقابلُ، ومنه النوايحُ، لأن بعضهن يقابل بعضاً، ونساءُ نوايح ونوح وأنواح، والاسم واحد وهي النياحة^(٥).

قوله: «الأمانةُ غِنَى»^(٦).

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٧٥٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولفظه: «ثلاث من عمل أهل الجاهلية، لا يتركنهن أهل الإسلام، النياحة، والاستسقاء بالأنواء، وكذا» قلت لسعيد: وما هو؟ قال: دعوى الجاهلية: يا آل فلان، يا آل فلان.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٢٧).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠٣٢) لكن بغير هذا الإسناد.

(٥) «الصحاح»: (نوح).

(٦) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٦) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله ﷺ: «النَّدْمُ توبَةٌ»^(١) سئل الحسن البصري عن التوبة النصوح، فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود أبداً.
وقيل: التوبة: الإقلاع، والندم على ما فات، وقال الجوهري: التوبة الرجوع من الذنب^(٢).

قوله ﷺ: «أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ».

قال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(٣).

قوله ﷺ: «دَفْنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ»^(٤).

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسأل شيئاً، فلم تجد عندي غيرَ تمرٍ واحدةٍ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم خرجت، ودخل رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كَنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ». وقد أخرجه الترمذي^(٥).

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان في سفر فنعيت إليه ابنته، فنزل فصلى ركعتين وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر ساقه الله إلينا، وقد فعلنا ما أمرنا الله، ثم قرأ ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٣]^(٦).

وكان يقال: تقديم الحرم من أعظم النعم.

قوله ﷺ: «الْحَسْبُ الْمَالُ».

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥٦٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «الصحاح»: (توب).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢٦٤)، وأبو داود (٣٥٣٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٠٣٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: لما عزي رسول الله ﷺ بابنته رقية امرأة عثمان بن عفان قال: «الحمد لله، دفن...»، قال ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٧٩): هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٩)، وأخرجه البخاري (١٤١٨)، والترمذي (١٩١٥).

(٦) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٩١) و (٧٢٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (١٣٠٤) و (١٧٩٠).

روى سَمُرَةُ بن جُنْدَب عن رسولِ الله ﷺ: «الحَسْبُ المَالُ، وَالكَرَمُ التَّقْوَى»^(١).
ومن حديثِ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَرَمُ المَرءِ دِينُهُ، وَمَرُوءَتُهُ عَقْلُهُ،
وَحَسْبُهُ خُلُقُهُ»^(٢).

وقال وكيع: الحَسْبُ المَالُ، أَلَا تَرَى من كَانَ ذَا مَالٍ عَظَّمَهُ النّاسُ؟
وقال الجوهري: الحَسْبُ مَا يَعُدُّه الإِنسَانُ من مَفَاخِرِ آبَائِهِ، قَالَ وَيُقَالُ: حَسْبُهُ دِينُهُ
وَمَالُهُ^(٣).

قوله ﷺ: «كَرَمُ الكِتَابِ خَتْمُهُ»^(٤).

قد ذكرنا أن النبي ﷺ لَمَّا أَرَادَ أن يُكَاتِبَ المَلُوكَ قِيلَ لَهُ: إِنْهُمْ لَا يَقْرَؤُونَ إِلَّا كِتَابًا
مَخْتُومًا، فَاتَّخَذَ الخَاتِمَ، وَأَمَّا هَذَا اللفظ فيقال: إِنْهُ من كَلَامِ ابنِ عَبَّاسٍ أَخَذَهُ من قول
الأوائل: كُلُّ كِتَابٍ غَيْرِ مَخْتُومٍ فَهُوَ أَقْلَفٌ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَمْ كِتَابَهُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالمَكْتُوبِ
إِلَيْهِ، وَمَنْ هَاهُنَا أَخَذَ ابنُ المَقْفَعِ فَقَالَ: الختم حتم.

قوله ﷺ: «مُدَارَاةُ النّاسِ صِدْقَةٌ».

حدّثنا عبد العزيز بن محمود البزاز بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله
ﷺ: «مُدَارَاةُ النّاسِ صِدْقَةٌ»^(٥) وقال الأزهري: المَدَارَاةُ: الاحتمال بحسن الخلق
والعفو واللين والتفضل على المسيء بالإحسان، وأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه،
وقال الجوهري: المَدَارَاةُ هِيَ المَدَاجَاةُ والمَلَايِنَةُ^(٦).

قوله ﷺ: «السَّمَاخُ رَبَاحٌ».

أَخْرَجَهُ ابنُ قَتِيْبَةَ فِي كِتَابِ «غَرِيبِ الحَدِيثِ»^(٧)، وَقَدْ قَرَأْتُ الكِتَابَ المَذْكُورَ عَلَيَّ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٢٠١٠٢).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٨٧٧٤).

(٣) «الصَّحاحُ»: (حَسْبُ).

(٤) أَخْرَجَهُ القُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٣٩) مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ ؓ، وَفِيهِ السَّدِيُّ الصَّغِيرُ وَالكَلْبِيُّ،
أَتَمَّهَا بِالوَضْعِ وَالكُذْبِ.

(٥) أَخْرَجَهُ ابنُ حَبَّانٍ فِي «صَحِيحِهِ» (٤٧١).

(٦) «الصَّحاحُ»: (دِرَا) وَ(دَجَا).

(٧) لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ، وَأَخْرَجَهُ القُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٢٣).

الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن المقدسي ويعرف بالبهاء النابلسي في سنة اثنتين وعشرين وست مئة بقاسيون في الجامع المظفري، قال: حدّثنا أبو الحسين عبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف، عن عمه عبد الرحمن بن أحمد ابن يوسف، عن إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، عن أبي عمر محمد بن العباس بن حيويه الخزاز، عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن السكري، عن أبي محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري قال: مرَّ النبي ﷺ برجلٍ يبيع شيئاً، فقال له: «عليك بالسَّومِ أولَ السُّوقِ، فإنَّ السَّمَّاحَ رَبَّاحٌ، أو الرِّبَّاحُ مع السَّمَّاحِ» والسَّمَّاحَةُ الجودُ، وسمح به، أي: جاد، والرباحُ: الربحُ، وتجارةٌ مربحةٌ ورابحةٌ يربح فيها. وقال الجوهري: ورباح في قول الشاعر:

هذا مقامٌ قَدَمي رِبَاحِ

اسم ساقٍ، قال: والرباحُ أيضاً دُويبة كالسَّنورِ، والرباح: أيضاً بلدٌ يجلبُ منه الكافورُ، والرِّبَّاح بالضم والتشديد: الذكرُ من القروِدِ^(١).

ومعنى الحديث: المساهلة في البيع والمسامحة ولا يشدد، فإن المسامحة من أعظم الأرباح، وقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ سمحَ البيعِ سمحَ الشراءِ سمحَ القضاءِ»^(٢).
قوله ﷺ: «الولدُ مَبخلةٌ مجبنةٌ»^(٣).

قوله ﷺ: «الهمُّ نصفُ الهرمِ»^(٤) غريب. قال الجوهري: الهمُّ الحزن، والجمع الهموم، والهرم: كبر السن.

وقال الخطابي: أشار ﷺ في الحديث إلى دفع الهم عن نفسه، لا يفيد مع جريان المقدور، والهم عقوبةٌ، وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها: من همَّ عوقب بهمّه. وقيل: الهم كل الهرم.

(١) «الصحاح»: (ربح).

(٢) أخرجه الترمذي (١٣١٩).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٥٦٢) من حديث يعلى العامري رضي الله عنه.

(٤) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٠١٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

قوله ﷺ: «البذاء من الجفاء».

قال الترمذي بإسناده عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعِيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق»^(١). وقيل: البذاء طول اللسان والرمي بالفواحش والبهتان، والعِيُّ قلة الكلام.

قوله ﷺ: «الصُّبْحَةُ تمنع الرُّزْقَ».

قال عبد الله بإسناده عن عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصُّبْحَةُ تمنع الرُّزْقَ»^(٢) أي: ينام حتى يصبح، وقال غيره: هي نومة الغداة قبل ارتفاع النهار بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس، ولأنه وقت الذكر وطلب الرزق، فإذا نام في تلك الساعة فاته حظه منه.

قوله ﷺ: «العمائمُ تيجانُ العربِ»^(٣) غريب.

وأخرج أبو داود بمعناه فقال: حَدَّثَنَا قتيبة بن سعيد الثقفي بإسناده، عن رُكَّانَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس»^(٤) وركانة هذا صارَعَ رسولَ الله ﷺ فصرعه رسولُ الله ﷺ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يلبسُ العمامةَ، وذكرنا أنه دخلَ يومَ فتحِ مكة وعلى رأسه عمامةٌ سوداءُ قد أرخى طرفها بين كتفيه، واسم هذه العمامة السَّحاب، قال هشام: ووهبها لعليّ ﷺ، فقال الناس: ما أحسنَ علياً في السحاب، ومن هنا قالت الشيعة: علي في السحاب.

قوله ﷺ: «الجمعةُ حجُّ المساكين»^(٥) وذلك لأن الأغنياء لا يقدرُونَ على الحج إلا بإنفاق الأموال والمشقات، والفقراء ليست لهم أموال ولا قوة، فيتعوضون بالجمعة عن الحج.

(١) الترمذي (٢٠٢٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٣٠).

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (١٧٨٤).

(٥) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٧٨).

قوله ﷺ: «المسجدُ بيتُ كلِّ تقيٍّ»^(١) ومعناه صحيح، لأنه ما بُني إلا لذكر الله والصلاة والتسبيح، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فبنيت للتقوى ضرورة.

قوله: «الكَرَمُ التَّقْوَى»^(٢) وأما من حيث المعنى فلأن العبد إذا اتقى الله فقد تكرم على نفسه وجاد لها فصانها عن عذاب النار.

قوله ﷺ: «القاصُّ ينتظرُ المقتَ، والمستمعُ ينتظرُ الرحمةَ»^(٣).

قوله ﷺ: «الصَّدَقَةُ تمنعُ ميتةَ السُّوءِ» روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»^(٤).

وأخرج جدي في «التبصرة» عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيَدْرَأُ بِالصَّدَقَةِ سَبْعِينَ مِيتَةً مِنَ السُّوءِ»^(٥).

وفي الباب أخبار وأثار في دفع البلاء عن المصدق.

قوله ﷺ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أبلغُ من عَمَلِهِ»^(٦) وقد ذكرنا قول النبي ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً ماقطعتم وادياً، إلا وقد سبَّوكم إليه». واختلفوا في معناه على قولين:

أحدهما: أن المؤمن ينوي أشياء من أبواب البر، كالصلاة والصيام والصدقة ونحوه، ولعله يعجز عن إضاهاها فتكون نيته أبلغ من عمله.

وقال الحسن البصري: إنما خُلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بنياتهم.

وقال عكرمة: انهدمت قنطرةً بالمدينة فعزم عثمان على إصلاحها، فسبقه إليها يهودي فأصلحها، فشق على عثمان، فقال له رسول الله ﷺ: «لا بأسَ عليك، نيةٌ

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٠٢٩)، والبخاري في «مسنده» (٢٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٦١٤٠) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه تمام في «فوائده» (١٧١٧) من حديث سمرة بن جندب.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٦٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣١١).

(٤) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣٠٩).

(٥) «التبصرة» ٢/٢٥٦.

(٦) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٤٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعف البيهقي إسناده، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٥٠: لا يصح.

المؤمنِ أبلغ من عمله، ونية الكافر شرٌّ من عمله».

وقيل معناه: أن عمله بنية خير من عمله بلا نية.

قوله ﷺ: «الشتاء ربيع المؤمن: قصر نهاره فصامه، وطال ليله فقامه»^(١).

وقال الخطابي: إنما خص الربيع لأنه أحد الفصول، ويكثر فيه الخصب، ويعتدل الزمان، ويرق الهواء، ويصفو الماء، ولهذا سمت العرب الرجل الجواد: ربيع اليتامى، لقيامه مقام الخصب في أيام الربيع.

قوله ﷺ: «الناس كأسنان المشط».

حدثنا جدي رحمه الله بإسناده، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس سواء كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية، والمرء كثير بأخيه يرفده ويكسوه ويحمّله، ولا خير في محبة من لا يرى لك مثل ما ترى له»^(٢).

وقد تكلم عليه أبو عبيد فقال: معنى كأسنان المشط: أنهم مستوون في الأحكام، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والتقوى، ومعنى يتفاضلون بالعافية، أي: من الذنوب، وما زال السلف ينهون عن التكثير من الإخوان حتى قال الفضيل: أنكر من تعرف، ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

وقال علي ﷺ: [من الطويل]

ولا بينه ودٌ ولا متعارفٌ
ولا سرّني إلا الذي لست أعرفُ

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا
فما ساءني إلا الذين عرفتهم

وقال ابن الرومي: [من الوافر]

فلا تستكثرن من الصحابِ
يكون من الطعام أو الشرابِ

عدوك من صديقك مُستفادٌ
فإنّ الداء أكثر ما تراه

قوله ﷺ: «البلاء موكل بالمنطق»^(٣) ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ وإنما هو من

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في «السنن» ٢٩٧/٤، وأحمد في «مسنده» (١١٧١٦) مختصراً من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) «الموضوعات» ٢٧٣/٢، وابن حبان في «المجروحين» ١٩٨/١، وابن عدي في «الكامل» ٢٤٨/٣.

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٢٧) من حديث حذيفة مرفوعاً.

كلام أبي بكر رضي الله عنه وقد ذكرناه في صدر السيرة.

وقال أبو القاسم البابي^(١) الوراق في «شرح الشهاب»: «وتمام قوله: «البلاء موكل بالمنطق: فلو أن رجلاً عيّر رجلاً برضاع كلبة لرضعها»^(٢).

قوله ﷺ: «زكاة البدن الصوم» أخرجه أبو نعيم الأصفهاني بإسناده، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم»^(٣) ومعناه صحيح، لأن قوله: لكل شيء زكاة، ظاهر، وذلك لأن الزكاة تطهر المال فكذا الجسد، لأن زكاة البصر غضه، وزكاة السمع صيانه عن الغيبة، وزكاة اللسان حفظه وإمساكه عن الفحش والخنا، وزكاة الوجه السجود، وزكاة القدمين طول القيام والسعي فيما يرضي الله تعالى، وزكاة اليدين كفهما عما لا يليق ورفعهما بالدعاء، وزكاة القلب تطهيره عما سوى الله تعالى، وزكاة البدن الصيام عن المأكول والمشروب وعن الدنيا من طلب الدنيا وغير ذلك، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «من صام رمضان وأتبعه بستة أيام من شوال، فكأنما صام الدهر»^(٤)؟ وذلك لأن عظام البدن ثلاث مئة وستون عظماً، والجسد يشتمل عليها كلها، فصيام ثلاثين يوماً بعشرة أشهر وستة أيام بشهرين.

قوله ﷺ: «الصيام في الشتاء الغنيمه الباردة» قد ذكر محمد بن الأنباري فقال: كل محبوب عند العرب بارد، والغنيمه الباردة: هي التي يصل إليها الرجل من غير تعب ولا عناء، لأن الغنائم إنما يتوصل إليها بالحروب والمشقة، فإذا حصلت بغير مشقة كانت غنيمه باردة، ومعنى الحديث حصول الثواب من غير مشقة^(٥).

قوله ﷺ: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن» قال أحمد بن حنبل بإسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد

(١) في كشف الظنون ١٠٦٧: العابي.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» ٢٧٩/٣ من حديث ابن مسعود، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/٢٧٦، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٣) «الحلية» ١٣٦/٧، وأخرجه ابن ماجه (١٧٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة»: هذا إسناد ضعيف.

(٤) أخرجه مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٥٩)، والترمذي (٧٩٧) من حديث عامر بن مسعود رضي الله عنه.

الأئمة، واغفر للمؤذنين»^(١). فالضمان في كلام العرب: الرعاية والمحافظة على الشيء، ومنه قولهم للمسافر: في حفظ الله وضمانه، والإمام يحفظ للقوم صلاتهم، فيضمن عن الساهي سهوه ويتحمل القراءة عنهم ونحو ذلك، وأما المؤذن فإنه أمين على المواقيت، وربما أشرف وقت الأذان على حريم الناس عند دورانه في المنارة، وقيل: إن الخطاب لإمام ومؤذن لا يأخذان على الإمامة والأذان أجراً، لأنهما متبرعان فيكونان أقرب إلى الإخلاص، فيضمن الإمام قبول الصلاة، ويؤتمن المؤذن على مايؤذنه على الوجه المشروع من غير نقص.

قوله عليه السلام: «أهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة» حدّثنا جدي رحمه الله بإسناده عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة»^(٢).

قوله عليه السلام: «السلطان ظلُّ الله في الأرض يأوي إليه كلُّ ملهوف»^(٣). واختلفوا فيه فقال قوم: هذا مثلٌ لأن الظل راحة يستريح إليه كل متعوب، وكذا السلطان يأوي إليه كل مظلوم، ومنه قول تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إِذَا سَأَلُوا فَاسْتَجِبَ﴾ [الواقعة: ٣٠] أي: راحة دائمة، ومنه ظل الشجرة.

وقال آخرون: الظل عام، وكذا السلطان عام، وقال سهل بن عبد الله: الظل لا يدوم، وكذا السلطان لا يدوم. وقال سهل: أظهر الله آثار الهيبة في الأرض على أربعة أشياء: على الكعبة بهاءه، وعلى القرآن هيئته، وعلى القلوب نوره، وعلى السلطان ظله، قال: وإنما يكون السلطان في ظلِّ الله إذا كان عادلاً صالحاً جواداً متواضعاً، أما إذا كان ظالماً فاجراً جباناً بخيلاً قاسياً متجبراً متكبراً، فإنه يكون سموماً وعذاباً لا ظلاً.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧١٦٩).

(٢) «العلل المتناهية» (٨٣٥).

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٠٤). من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٦/٥: فيه سعيد بن سنان أبو مهدي، وهو متروك.

قال أحمد بإسناده عن أبي بكرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أكرمَ سلطانَ الله في الأرض، أكرمه الله يومَ القيامةِ، ومَنْ أهانَ سلطانَ الله في الدنيا، أهانَه الله يومَ القيامةِ»^(١).

وقيل للحسن البصري: ألا تقاتل الحجاج؟ فقال: الحجاج نقمة وسخط وعذاب من الله، والعذاب لا يقاتل بالسيف بل بالدعاء.

قوله ﷺ: «التاجرُ ينتظرُ الرزقَ، والمُحتكرُ ينتظرُ اللعنةَ» ذكر في كتاب «الموضوعات» طرفاً منه فقال: فيه عن العبادلة، وعن ابن عمر وحده، وعن أبي هريرة، وأنس، قال:

وأما حديث العبادلة - وهم عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر [وعبد الله بن عباس] وعبد الله بن الزبير - قالوا: قال رسول الله ﷺ: «القاصُّ ينتظرُ المقتَ والمستمعُ ينتظرُ الرحمةَ، والتاجرُ ينتظرُ الرزقَ، والمحتكرُ ينتظرُ اللعنةَ، والنائحةُ ومَنْ حولها من امرأةٍ مستمعةٍ عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين».

وأما حديث ابن عمر، فله طريقان، في طريق عن النبي ﷺ قال: «مَنْ احتكرَ طعاماً أربعين ليلةً فقد برئ من الله وبرئ الله منه»، والطريق الثاني: «[مَنْ احتكرَ] طعاماً برئ الله منه».

وأما حديثُ أبي هريرة: فقال عن رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الحَكَارُونَ وقتلَةُ النفسِ في جهنَّمَ في درجةٍ واحدةٍ».

وأما حديث أنس: عن رسول الله ﷺ: «مَنْ حَبَسَ طعاماً أربعين ليلةً، ثم أخرجَه فطحنَه وخبزَه وتصدَّقَ به، لم يقبل الله منه شيئاً».

ثم قال جدي: هذه الأحاديث كلها لا تصح، وقد ضعفه^(٢).

وقد وُقِّت الاحتكار بأربعين ليلةً.

قال [أحمد] بإسناده عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «مَنْ احتكرَ طعاماً أربعين ليلةً،

(١) أحمد في «مسنده» (٢٠٤٣٣).

(٢) «الموضوعات» ١٥١/٢ - ١٥٢ وما بين معكوفات منه، وقد تكلم ابن الجوزي على كل حديث وطرقه، فلعل مختصر المرأة حذف كل هذا وبقيت هذه الكلمة التي ندت عنه.

فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله منه، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرأً جائعاً، فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»^(١).

وقال أحمد بإسناده عن فروخ مولى عثمان: أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منثوراً فقال: ما هذا الطعام؟ قالوا: طعام جلب إلينا، فقال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين، فإنه قد احتكر قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما فدعاهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بالجذام» فقال فروخ: يا أمير المؤمنين، أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في احتكار طعام أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى ونبيع بأموالنا. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً.

وهذا الحديث أخرجه أحمد في مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢).

قوله ﷺ: «من صمت نجا»^(٣).

قوله ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله» روى أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي اللغوي بإسناده عن عابس بن ربيعة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أيها الناس تواضعوا فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر خفضه»^(٤).

قوله ﷺ: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار»^(٥).

قوله ﷺ: «سافروا تغنموا، و صوموا تصحوا»^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠).

(٢) أحمد في «مسنده» (١٣٥).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٨١)، والترمذي (٢٥٠١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٥٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة»: حديث ضعيف، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» ٣٤/٢.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٧٩/٣ وقال: رجاله ثقات.

واختلفوا في معناه على قولين :

أحدهما : أن معنى السفر الظاهر سفر الدنيا ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس : ٢٢] وفيه مشاهدة آثار الأنبياء والعلماء ، والربح في التجارة وعجائب الدنيا ، والإسفار عن أخلاق الرجال بين كريم يسخو ولئيم يشح .

والثاني : أن المراد به السفر الباطن ، وقد أشارت إليه رابعة قالت : سافروا بقلوبكم إلى عالم الملكوت لترجعوا بأخبار الغيب والشهادة ، وعلى هذا الصوم ، فإنه من حيث الظاهر يصحح البدن ، وفي الباطن صوموا بقلوبكم عن الدنيا تصحوا عما سوى الآخرة .

قوله ﷺ : «زُرْ غَبًّا تَزِدُّ حُبًّا» .

أخرجه جدي في «الواهية» عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة ، فتبعته فالتفت إليّ وقال : «يا أبا هريرة ، زُرْ غَبًّا تَزِدُّ حُبًّا»^(١) .

قال أبو القاسم الوراق في شرح «الشهاب» : لما قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة ذلك ، قالت عائشة : يا أبا هريرة ، أكثرت من زورك فملكك ، ودمت في ذاك فاستقلك ، لو كنت ممن يزور غباً أثر في قلبه محلك ، فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة ، والله ما مللناهُ ولا قللناهُ ، ولكن أدبناهُ» .

قوله ﷺ : «اطلبوا الخيرَ عندَ حسانِ الوجوه»^(٢) .

قوله ﷺ : «تخيروا لنطفكم»^(٣) قيل : إنه موقوف على علي ﷺ ، وفيه : «فإن العرق دسّاس»^(٤) .

(١) «العلل المتناهية» (١٢٣٧) ، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٦٢٩) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٧٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨) .

(٤) لم نقف عليه من حديث علي ، وأخرج ابن عدي في «الكامل» ١٧٨/٦ ، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٣٨) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٠٠٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يوصي رجلاً : «يا فلان ، أقلّ من الدّين تعش حرّاً ، وأقلّ من الذنوب يهن عليك الموت ، وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دسّاس» .

قال أبو عبيدة: معناه: لا تجعلوا نطفكم إلا في محل طاهر، ولا خلاف في كراهية ابن العاهر، وقال أبو سليمان: معنى «العرق دساس» لثلا يدب الزنا في عروقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ فقضى بفساد الأصل على فساد الفرع.

قوله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»^(١) غريب، ومعناه أنه لا يتعرض لما يعجز عنه فيكون له سبباً لهوانه، قال الشاعر: [من الطويل]

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وحقك لا تكرم على أحد بعدي
ولهذا البيت حكاية نذكرها فيما بعد.

قوله: «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك»^(٢).

أصل الشوص الغسل وكذا الموص، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يشوص فاه بالسواك^(٣). وشوص السواك الشظية التي تكون بين الأسنان لا ينتفع بها، أشار ﷺ إلى القناعة باليسير.

قوله ﷺ: «التمسوا الجار قبل الدار»^(٤) غريب.

وفيه حث على مجاورة الجار الحسن، والهرب من الجار السوء.

قوله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام، إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه».

أخرجه جدي في «الواهية»، وقال أحمد بن حنبل: لا يصح هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وهو كذب^(٥).

قلت: وكيف يكون هذا الحديث كذباً وقد أخرجنا في «الصحیحین» عن أنس،

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٢٥٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ من حديث عائشة، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٢٤٥)، ومسلم (٢٥٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٣٧٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٠٩).

(٥) العلل المتناهية» (١٢٥٢)، وأما كلام الإمام أحمد فإنكاره على قوله: «إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه» انظر «البدر المنير» ٤٧٢/٩.

وقال أحمد بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَبَاغَضُوا، ولا تَبَاغُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تَقَاطَعُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحلُّ للمسلم أن يهْجُرَ أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ» متفق عليه^(١).

وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري وأبي هريرة وعائشة، وأحاديثهم أخرجها أبو داود والترمذي^(٢)، وإنما الزيادة في الحديث وهي قوله: «إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه» هذه الزيادة ليست في «الصحيحين» فيحتمل إنهم أشاروا إليها، وقد كان ينبغي لجدي أن يتبين الصحيح من السقيم، وقد فعلوا هذا في أحاديث منها:

قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ» أخرج مسلم^(٣) هذا اللفظ عن ابن مسعود، ثم قال في «الواهية»: هذا الحديث لا يصح، روت عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَمَرَّ بِبِرْكَةٍ فِيهَا مَاءٌ، فَاطَّلَعَ فِيهِ فَسَوَى مِنْ لِحِيَّتِهِ وَرَأْسِهِ، فَقَلَّتْ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ»^(٤) فقول عائشة «نظرَ في بركة» هو الذي تكلّموا فيه، وباقي الحديث في الصحيح.

وقال أبو داود: إذا كانت الهجرة لله فليس من قوله: «لا يحلُّ للرجل أن يهْجُرَ أخاه فوق ثلاث» قد رأى عمر بن عبد العزيز رجلاً فغطى وجهه^(٥).

قوله: «لا يدخلُ الجنةَ رجلٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَائِقِهِ»^(٦) واختلفوا في البوائق، فقال الجوهري: هي غشمه وظلمه، وقال الكسائي: غوائله وشره^(٧). وقيل: مكائده وشدائده.

قوله: «لا تُكُونُوا مُتَمَاوِتِينَ»^(٨) هذا من كلام عمر رضي الله عنه، رأى رجلاً يتخاشع، فضربه بالدرّة وقال: ارفع رأسك فإن التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩)، وأحد (١٢٠٧٣).

(٢) سنن أبي داود (٤٩١١ - ٤٩١٤)، وسنن الترمذي بعد (١٩٣٥).

(٣) في صحيحه (٩١).

(٤) «العلل المتناهية» (١١٤٤).

(٥) ذكره عقب (٤٩١٦).

(٦) أخرجه مسلم (٤٦).

(٧) «الصحاح»: (بوق).

(٨) أخرجه القضاعي (٩٤٠) مرسلًا عن مكحول.

وقد روى عروة بن الزبير عن عائشة أنها نظرت إلى بعض القراء وهو يكاد يموت تخشعاً فقالت: بورك لكل سهل طلق مضحك، وأبعد الله كل عبوس، يلقاك بوجه مكفهر يمن عليك بعمله، فلا كثر الله في المسلمين أمثالهم.

قوله: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَسُ»^(١) فَإِنْ قِيلَ: فالقلب جسم والقرآن ليس بجسم، فالجواب: إنما أشار إلى الترغيب في قراءة يس، وصار كما روي عن النبي ﷺ قال: «سَنَامُ الْقُرْآنِ الْبَقْرَةُ»^(٢).

قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ بِقَتْلِ حَيَّةٍ»^(٣).

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ فِي أَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً»^(٤).

وقد ذكرنا في سيرة سليمان ﷺ أن ملك [الموت] قبض روح صديقه عند مطلع عين الشمس.

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْفَادَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، سَلَبَ ذَوِي الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ»^(٥) غريب، وقيل: هو موقوف على ابن عباس، ويروى أنه من كلام الحسن البصري، فإنه كان يقول: ما ابتلى الله قوماً بفتنة إلا وسلبهم عقولهم، فإذا رفع الفتنة عنهم، ردَّ عليهم عقولهم، ليرفعوا قبيح ما كانوا عليه.

قوله: «لَوْ عَلِمَتِ الْبَهَائِمُ مِثْلَ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْمَوْتِ مَا أَكَلْتُمْ سَمِينًا قَطُّ»^(٦) غريب.

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٣٥) من حديث أنس ﷺ، وفيه هارون أبو محمد، قال الترمذي: شيخ مجهول، وقال الذهبي (٨٦٦٦): أنا أتهمه بما رواه القضاعي في شهابه، وساق هذا الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٣٠٠) من حديث معقل بن يسار ﷺ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١٩٩/٦، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨٠) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وفيه عمر بن حفص العبدي متروك .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٣٩) من حديث أبي عزة ﷺ .

(٥) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٠٨) من حديث ابن عمر ﷺ، وفيه محمد بن سعيد المؤدب، قال الذهبي في الميزان (٧٦٦٥): لا أعرفه وأتى بخبر منكر، ثم ساق له هذا الحديث.

(٦) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٧٣) من حديث أم صبية الجهنية ﷺ، وفيه عبد الله بن سلمة ضعفه الدارقطني وغيره. قاله المناوي في فيض القدير ٣١٥/٥ .

وقد أخرجه البخاري في أفراده، عن أبي هريرة: «لو عَلِمْتُمْ ما أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قليلاً وبكىُّم كثيراً»^(١).

وقال أبو عبيد: البهائم لا تعلم بالموت ولو علمت ما حملت لحماً، وأنتم تعلمون وتحملون فأنتم أشد غفلة من البهائم وهي أعذر منكم.

قوله: «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِ سَبْتِهَا وَخَمِيسِهَا» هذا المعنى فيه ثلاثة أحاديث: أحدها: «بورك لأمتي في بُكُورِها»، والحديث الثاني: «في كل اثنين وخميس»، والثالث: «في بكور يوم السبت».

فأما الأول: فأخرجه جدي بإسناده إلى عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِها»^(٢).

وأما الحديث الثاني: فأخرجه أبو محمد بن عدي عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: «اطلُّبُوا الحَوَائِجَ أَوْ العِلْمَ كُلَّ اثنينٍ وخميسٍ»^(٣).

وأما الثالث: فأخرجه الدارقطني عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ بَكَرَ يَوْمَ السَّبْتِ فِي طَلَبِ حَاجَةٍ فَأَنَا ضَامِنٌ لِقَضَائِهَا»^(٤).

قلت: والحديث وإن كان ضعيفاً غير أن السلف كانوا يستعينون بالبكور على قضاء حوائجهم، ومن بورك له في شيء فليلزمه، حتى قد صارت الأخبار بمنزلة التواتر، ولن يجمع الله العالم على ضلالة، ومن أمثالهم: بَكَرَ بُكُورَ الغراب.

وقد أخرج أحمد في «المسند» بإسناده أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِها» وكان إذا بعث جيشاً بعثه أول النهار^(٥).



(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٥).

(٢) «العلل المتناهية» (٥٠٣).

(٣) «الكامل» ١/ ٣٦٤، و«العلل المتناهية» (٥٠٢).

(٤) «العلل المتناهية» (٥٣٦).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤٤٣) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه.

الباب السابع والثلاثون

في ذكر صلاتنا عليه ﷺ

[وقال أحمد بإسناده] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا» أخرجه مسلم^(١).

[وقال أحمد: قرأت على عبد الرحمن بإسناده] عن أبي حميد الساعدي قال: قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» أخرجه^(٢).

وقال [أحمد بإسناده عن أبي مسعود] عقبه بن عمرو الأنصاري قال: أقبل رجلٌ حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقال: يا رسول الله، أمّا السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ [وعلى آل إبراهيم] إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ»^(٣).

[وفي رواية: فكيف نصلي عليك في صلاتنا؟ وذكره. انفراد بإخراجه مسلم^(٤).
وقوله ﷺ: «لَا تَجْفُونِي» قالوا: وكيف نجفوك؟ قال: «أَذْكَرُ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ»^(٥).

فصل في ذكر رد روحه إليه ﷺ:

قال أحمد بإسناده [عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٢٨٧)، ومسلم (٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٠٠)، والبخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧١).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٠٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٥).

(٥) لم نقف عليه.

إِلَّا رَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرَدَّ عَلَيْهِ»^(١).

[حديث آخر في الصلاة عليه قال أحمد بإسناده عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس، و يقال: [ابن أبي أوسٍ الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنَ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قالوا: يا رسولَ الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أُرِمْتَ؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكَلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢). ومعنى أُرِمْتَ أي: بليت [والرمة: العظام البالية]. وقال [الترمذي بإسناده، عن عبد الله] ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ صَلَاةً عَلَيَّ»^(٣).

[وقال أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَلَائِكَةٌ سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»^(٤).



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٨١٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦١٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨٤).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٦٦).

الباب الثامن والثلاثون

في ذكر حوضه وشفاعته ﷺ

[أما الحوض فقد اختلفت الروايات فيه:]

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليُرفَعَنَّ إليَّ رجالٌ منكم، حتى إذا أهويتُ لأناولهم اختلجوا دوني، فأقولُ: يا ربِّ، أصحابي، فيقال: إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدَكَ». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ، وريحه أطيبُ من ریح المسك، وكيزانه مثل نجوم السماء، مَنْ شربَ منه شربةً لا يظمأ بعدها أبداً»^(٢).

[وفي المتفق عليه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن أمامكم حوضاً بين جرباء وأذرح» قال نافع: وهما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام^(٣)].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لأذودنَّ رجلاً عن حوضي كما تُذادُ الغريبةُ من الإبلِ عن الحوضِ، وليردنَّ على الحوضِ رهطٌ فيحلون عنه، فأقول: يا ربِّ، أصحابي، فيقول: إنَّكَ لا علمَ لك بما أحدثوا بعدَكَ، إنَّهم ارتدُّوا على أعقابهم القهقري»^(٤) [وكان أبو هريرة يقول: فيجلون - بالجيم - وفيه يقول: «هلم، فأقول إلى أين؟ فيقول: إلى النار، فإنهم ارتدوا بعدَكَ، فلا يخلص منهم إلا مثل هملِ النعم»^(٥)].

ومعنى: «أذودن»: أطرذن، و«يحلون» أي: يمنعون، كما يقال للإبل: حلُّ حلٍّ إذا

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٥)، ومسلم (٢٣٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٨٧).

منعت، وأراد أبو هريرة بقوله: يجلون - بجيم - الرجوع إلى خلف، وقيل: هو من الجلاء وهو الطرد، و«الهمل»: التي لا راعي لها.

وفي «الصحيحين» عن سهل بن سعد بمعناه، وفيه: «ليردَّن عليَّ الحوضَ أقوامٌ أعرِفُهُم وَيَعْرِفُونِي، ثم يحال بيني وبينهم» وذكر بمعنى ما تقدم: «فأقول: بُعداً وسُحْقاً سحْقاً لمن بدَّل بعدي»^(١).

وقوله: «سحْقاً»: دعاء عليهم، أي: أسحقتهم الله.

وللبخاري، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ قَدَرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءِ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»^(٢).

ولمسلم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ما آنية حوضك؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنَّها أكثرُ من عددِ نجومِ السماءِ في الليلةِ الْمُصْحِيَّةِ، آنيةُ أهلِ الجنةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، عَرْضُهُ مِثْلُ طَوْلِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ الْبَلْقَاءِ إِلَى أَيْلَةَ»^(٣).

وقوله: «آخر ما عليه» أي: أبداً. ومعنى «تشخب» أي: تسكب، و«عمان» بالتشديد مكان بالبلقاء يقال: كانت مدينة البلقاء، وعامة العلماء على تشديد عمان إلا الخطابي فإنه قال: هي مخففة، أشار إلى عمان التي عند البحرين. والأول أصح.

ولمسلم عن جابر بن سمرة بمعناه، وفيه: «وإن بُعد ما بين طرفيه كصنعاء وأيلة، كأن الأباريق فيه مثل النجوم»^(٤).

ولمسلم عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَبُعُفْرٍ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرَبُ بِعَصَائِي حَتَّى يَرْفُضَ عَلَيْهِمْ» فسئل عن عرضه فقال: «مِنْ مَقَامِي هَذَا إِلَى عَمَّانَ، يَغْتُ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمْدَانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، وما بين معكوفين من (ك).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٠٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٠١) ويغت: يدفق.

[وقد أخرج أحمد عن ثوبان بمعناه، فقال ابن عفان بإسناده عن ثوبان وذكره، وقال: بعث عمر بن عبد العزيز إلى ثوبان ليسأله عن الحوض، فقدم عليه فسأله، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبَلْقَاءِ، وَذَكَرَ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ مَائِهِ وَأَنْبِيئِهِ، وَقَالَ: «أَوَّلُ النَّاسِ وَرُوداً عَلَيْهِ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: «الشُّعْثُ الْغُبَرُ، أَوْ الشُّعْثُ رُؤُوساً الدُّنْسُ ثِيَاباً، الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِمَاتِ، وَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ».

فقال عمر بن عبد العزيز: لقد نكحت المتنعمات، وفتحت لي أبواب السُّدَدِ إلا أن يرحمني الله، لا جرم والله لأدعن رأسي حتى يشعث، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ^(١).

وفي الباب عن ابن عباس وأنس وحذيفة وأم سلمة وعائشة وغيرهم.

وحديث حذيفة أخرجه مسلم، وفيه: فقلنا: يا رسول الله، أتعرفنا؟ قال: «نعم، إنكم تردون عليّ الحوض غراً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ»^(٢). وقد جاءت في الشفاعة أخبار منها حديث أنس مختصراً].

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَأَنْتَ أَبُو الْخَلْقِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكَ، وَيَذَكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحِي مِنْهَا، وَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ بَنُوْحُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ نَبِيِّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَذَكُرُونَ لَهُ مَا ذَكَرُوا لِآدَمَ، فَيَقُولُ لَهُمْ كَمَا قَالَ آدَمُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ: وَلَكِنْ أَتُوا إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكَ، وَلَكِنْ أَتُوا مُحَمَّدًا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَيَأْتُونَ إِلَيَّ، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ، فَاسْتَأْذِنُ عَلَى

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨).

رَبِّي، فَيُؤَذِّنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدِ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ يُلْهِمَنِيهَا اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَخِرُّ لِرَبِّي سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، وَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمَنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيُحَدِّثُ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَي وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ، وَأَقُولُ: يَا رَبُّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالُ لِي: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأُخْرِجَهُ مِنْهَا».

قال معبد: فخرجنا من عند أنس، فدخلنا على الحسن وهو مستخفٍ في دار أبي خليفة، فسلمنا عليه، وقلنا: يا أبا سعيد جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فحدثنا بحديث الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه الحديث، فقال: لقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ أم كره أن يحدثكم به، فتكلموا، ولقد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع، أي: شاب مجتمع، فقلنا: حدثنا، فقال: «ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ ساجداً، وأقول: يا ربِّ إيدن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقال: ليس لك ذلك، ولكن وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي؛ لأخرجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ دعا بها لأُمَّته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعتي لأُمَّتي يومَ القيامةِ»^(٢).
ولمسلم، عنه: «ولم يُصدِّق نبيٌّ ما صدِّقتُ، وإنَّ من الأنبياء نبيًّا ما صدَّقه من أُمَّته إلا رجلاً واحداً»^(٣).

وللبخاري، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «إنَّ الناسَ يصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًّا، كلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَيَّ، فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ»^(٤).
[و«الجثا»: الجماعات، الواحدة جثوة، والمقام المحمود: الشفاعة].

وقال ابن عباس: يوضع لرسول الله ﷺ منبر فيرتقيه، ويثني على الله ثناءً لم تسمع

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٥٣)، والبخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، وما بين معكوفين من (ك)

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (٢٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧١٨).

الخلائق بمثله، فيشفعه في أمته^(١).

[وفي «الصحيحين» وأخرجه أحمد في «المسند» بإسناده] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون إلى آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فأنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم آدم: إني عصيتُ ربِّي، وقد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبَ قبله مثله ولا يغضبُ بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ أمره، نفسي نفسي، لستُ بصاحبِ ذاك، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون إلى نوح، فيقولون: يا نوح، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتونه، فيقولون له: أنت نبيُّ الله وخليئه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ، فذكرها، وقال: نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى، فيأتونه، فيقولون: أنت رسولُ الله وكليمه، فضلك برسالتِهِ وبكلامِهِ على الناس، فيقول لهم: إني قتلْتُ نفساً لم أؤمر بقتلها، اذهبوا إلى عيسى، فيأتونه، فيقولون: أنت روحُ الله وكلمته، فإردُّ عليهم ولم يذكر ذنباً: اذهبوا إلى محمد، فيأتون إليَّ، فيقولون: يا رسولَ الله، أنت خاتمُ الأنبياء، وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، فأنطلقُ إلى تحتِ العرشِ فأقعُ ساجداً لربِّي». وذكر بمعنى حديث أنس، وفيه: «إنَّ كلَّ نبيٍّ يقولُ: إن ربِّي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبَ قبله ولا يغضبُ بعده مثله»^(٢).

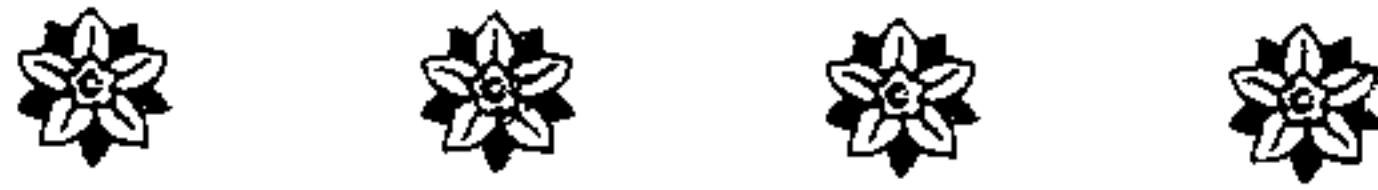
وفي رواية: «فيقولُ آدمُ: وهل أخرجكم من الجنةِ إلا خطيئةُ أبيكم، اذهبوا إلى ابني خليلِ الله، فيذهبون إليه فيقولون: إنما كنتُ خليلاً من وراء [وراء، أي من وراء] حجاب»^(٣).

(١) لم نقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٩٦٢٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قرأ - أو تلا - قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٦]. وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]. فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «أُمَّتِي أُمَّتِي» وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريلُ اذهب إلى محمدٍ - وربُّكَ أعلمُ - فسَلُهُ ما يُبْكِيكَ؟ فأتاه جبريلُ، فسأله، فأخبره رسولُ الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريلُ، اذهب إلى محمدٍ فقلْ له: إنا سنرضيك في أُمَّتِكَ ولا نسوؤُكَ. انفراد بإخراجه مسلم^(١).



(١) أخرجه مسلم (٢٠٢).

الباب التاسع والثلاثون

في كونه ﷺ آخر المرسلين وخاتم النبيين

[أما قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» فقد تقدم في فضائله، وأن الله أخذ ميثاق الأنبياء على تصديقه.

وأما كونه آخر المرسلين، فلأن الختم إنما يكون على عنوان الكتاب، فتمم الله به مكارم الأخلاق والأسباب، وليكون شهيداً على الأمم للأنبياء بما جاؤوا به من الأنبياء.

قال أحمد بإسناده [عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمَّته، قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال: والوسط العدل، فيدعون، فيشهدون له بالبلاغ، قال: ثم أشهد عليكم» انفراد بإخراجه البخاري^(١).

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدعى قَوْمُهُ فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، [فيدعى محمد وأُمَّته] فيقال لهم: هَلْ بَلَّغْتَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: وَمَا عَلَّمْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيٌّ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرَّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣]. أخرجه الإمام أحمد في «المسند»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٢٨٣)، والبخاري (٤٤٨٧).

(٢) أحمد في «مسنده» (١١٥٥٨).

[وقد ذكر الثعلبي في «تفسيره»^(١) بمعناه في تأويل قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال السدي: فيشهد محمد ﷺ للأنبياء بالبلاغ، فذلك قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُوْلَاءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وكذا تقول في أمته: إنها جعلت آخر الأمم لهذا المعنى].

وقال كعب الأحمار: إنما جعلت هذه الأمة آخر الأمم لتطلع على قبائح الأمم ولا يطلعون على فضائحتها، فإنني قد وجدت في بعض كتب الله المنزلة: أن الله خلق لكل واحد من هذه الأمة تمثالاً تحت العرش، فكلما ركع وسجد ركع ذلك التمثال وسجد فتراه الملائكة، فإذا زلَّ ابن آدم زلةً ألقى الله على ذلك التمثال سترًا لئلا تشاهده الملائكة، فذلك قولهم في الدعاء: يا مَنْ ينشر الجميلَ ويستر القبيحَ.



الباب الأربعون

في ذكر أصحابه وفضلهم ﷺ

[وفيه فصول:

حدثنا أحمد بإسناده] عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

وفي المتفق عليه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»^(٢).

[ولمسلم عن أبي هريرة بمعناه، وذكر فيه ثلاثة قرون^(٣).

والقرن مئة سنة، وقيل: مئة وعشرون سنة. قال الجوهري: القرن ثمانون سنة. قال: ويقال: ثلاثون سنة^(٤)، والأول أصح.

والمراد بالشهادة: شهادة الزور، لأنه قال في [حديث عمران بن الحصين المتفق عليه قال: فلا أدري أذكر بعد قرنين أو ثلاثة. وفيه: «ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويحلفون ولا يستحلفون، ويظهر فيهم السمن»^(٥)، يعني من كثرة المطاعم.

وفي المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٠٧٩)، والبخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٣٤).

(٤) «الصحاح»: (قرن).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

زمانٌ يغزو فيه فِئامٌ من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يَغزُو فِئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»^(١).

[فصل في عدد الصحابة ﷺ]:

اعلم أن أصحاب رسول الله ﷺ خلق كثير تتعذر الإحاطة بعددهم، فروى أبو عبد الله الحاكم، عن أبي زرعة الرازي أنه سئل عن هذا فقال: قُبض رسول الله ﷺ عن مئة وستة وعشرين ألفاً ممن روى عنه وسمع منه ورآه، قيل له: فأين كان هؤلاء؟ فقال: أهل مكة والمدينة وما بينهما وما حولهما من الأعراب ومن شهد معه حجة الوداع والغزوات والسرايا وتبوكاً وغيرها.

وروى الخطيب أبو بكر بإسناده عن أبي زرعة أيضاً أنه سئل عن ذلك، فقال: ومن يضبط هذا؟ شهد معه حجة الوداع أربعون ألفاً، وتبوكاً سبعون ألفاً، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان معه يوم الفتح عشرة آلاف وخرج من المدينة إلى غزاة تبوك في ثلاثين ألفاً^(٢).

فصل في عدد الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ:

قد ذكرنا في صدر الكتاب عن أحمد بن حنبل أنه قال: جمعت «المسند» من ألف ألف حديث، وروى عنه ابنه عبد الله أنه قال: صح من الحديث سبع مئة ألف وكسر، وقال: كان أبو زرعة الرازي يحفظ ست مئة ألف حديث.

وذكرنا عن البخاري أنه قال: صنفت كتابي «الصحيح» في ست عشرة سنة، خرجته من ست مئة ألف حديث.

وقال مسلم: جمعت كتابي من سبع مئة ألف حديث.

فالحاصل أن حصر الأحاديث على التحقيق غير ممكن، وإنما الذي يظهر ما في

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (٢٥٣٢).

(٢) انظر «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ١٠٢ - ١٠٣.

السنن المأثورة الأخبار المشهورة كـ «مسند» أحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والدارقطني وابن ماجه وغيرهم.

وروي أنه قيل لأحمد بن حنبل: كم يكفي الرجل من الحديث حتى يفتي، مئة ألف حديث؟ قال: لا، قيل: فمئتي ألف؟ قال: لا، قيل: فثلاث مئة ألف؟ قال: لا، قيل: فأربع مئة ألف؟ قال: لا، قيل: فخمس مئة ألف؟ قال: أرجو^(١).

ذكر الصحابة الذين تفرقوا بعد وفاة رسول الله ﷺ ونزلوا البلدان

ذكر جدي رحمه الله في «التلقيح» وقال: روى عبد الله بن بريدة الأسلمي، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا أَرْضٍ مَاتَ بِهَا رَجُلٌ [٢] مِنْ أَصْحَابِي فَهُوَ قَائِدُهُمْ وَنُورُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».



(١) انظر «تلقيح فهوم أهل الأثر» ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) من قوله: فصل في عدد الصحابة... إلى هنا، ليس في (أ، خ)، أثبتناه من (ك)، وانظر تاريخ البخاري الكبير ١٤١/٢، والاستيعاب (٢١٩)، ولم نقف عليه في التلقيح.

الفهرس

٥ السنة السابعة من الهجرة
٥ غزاة خيبر
١١ من استشهد بخيبر
١٦ قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة
١٧ قدوم أبي هريرة إلى خيبر
١٨ غزوة وادي القرى
١٩ نزول آية التيمم
٢٠ قصة الحجاج بن علاط السلمي
٢١ قدوم أم حبيبة من الحبشة
٢٣ قدوم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس
٢٤ سرية عمر إلى هوازن
٢٤ سرية أبي بكر إلى نجد
٢٥ سرية بشير بن سعد إلى بني مرة
٢٥ سرية أسامة بن زيد إلى الحرقات
٢٥ سرية غالب الليثي إلى الميفعة
٢٦ سرية بشير بن سعد إلى الجناح
٢٦ عمرة القضاء
٣٥ السنة الثامنة من الهجرة
٣٥ إسلام عمرو بن العاص ورفيقه
٣٨ سرية غالب الليثي إلى بني الملوحة
٣٨ سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح
٣٩ سرية سعد بن زيد إلى مناة بالمشلل
٣٩ غزوة مؤتة
٤٣ من استشهد في مؤتة
٥٨ سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل

٥٩	سرية الخبط
٦١	سرية أبي قتادة إلى بطن إضم
٦٢	صنع المنبر لرسول الله ﷺ
٦٤	غزوة الفتح
٧١	مسير رسول الله ﷺ إلى مكة
٨٣	حديث مفتاح الكعبة
٨٦	صعود بلال على ظهر الكعبة
٨٧	من أباح رسول الله ﷺ دمه
٩٤	مبايعة النساء
٩٦	إسلام أبي قحافة
٩٦	إسلام عتبة ومعتب ابني أبي لهب
٩٧	ما استسلف رسول الله ﷺ من المال
٩٧	تجديد أنصاب الحرم
٩٩	فصل في المتعة
١٠١	هدم سواع صنم هذيل
١٠٢	مسير خالد إلى بني جذيمة
١٠٤	من شهد الفتح
١٠٤	غزوة حنين
١١٦	من استشهد من المسلمين في حنين
١١٧	من قتل من الكفار
١٢٠	غزوة الطائف
١٢٦	رجوعه ﷺ إلى الجعرانة
١٢٦	ما فرق من السبي
١٢٧	وفد هوازن
١٢٩	ما أعطى المؤلفه قلوبهم
١٣١	معاينة الأنصار للرسول ﷺ
١٣٢	إسلام مالك بن عوف النصري
١٣٣	في المؤلفه قلوبهم

- ١٣٦ رجوعه ﷺ من الجعرانة إلى المدينة
- ١٣٧ طلاق سودة بنت زمعة
- ١٣٧ غلاء السعري في المدينة
- ١٣٧ قدوم عروة بن مسعود من الطائف على رسول الله ﷺ
- ١٣٧ ولادة إبراهيم بن رسول الله ﷺ
- ١٤١ السنة التاسعة من الهجرة
- ١٤١ قدوم وفد بني أسد
- ١٤١ إرسال المصدقين إلى العرب
- ١٤٢ قدوم وفد تميم
- ١٤٥ سرية قطبة بن عامر إلى الخثعم
- ١٤٥ سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب
- ١٤٦ قدوم وفد عبد قيس
- ١٤٧ سرية علقمة المدلجي إلى جدة
- ١٤٧ سرية علي إلى الفلس
- ١٤٨ قدوم وفد تجيب
- ١٤٩ قدوم عدي بن حاتم
- ١٥١ قدوم وائلة بن الأسقع
- ١٥٥ حديث مسجد الضرار
- ١٥٧ قصة الثلاثة الذين خلفوا
- ١٦٣ وفد الطائف
- ١٦٥ كتاب ملوك حمير وهمدان إلى رسول الله ﷺ بإسلامهما
- ١٦٦ وفد فزارة
- ١٦٦ وفد همدان
- ١٦٧ وفد الدارين
- ١٧٢ كتابه ﷺ إلى سمعان الكلابي
- ١٧٣ وفد بني البكاء
- ١٧٣ وفد بني عقيل
- ١٧٣ قصة ثعلبة بن حاطب

- ١٧٥ رجم ماعز والغامدية
- ١٧٧ الملاعنة بين رجل وامرأة
- ١٧٨ إسلام كعب بن زهير
- ١٧٩ إيلاؤه ﷺ من نسائه
- ١٨٣ حج أبي بكر بالناس
- ١٨٥ وفاة النجاشي
- ١٩٤ السنة العاشرة من الهجرة
- ١٩٤ وفد الأزد
- ١٩٤ وفد هلال بن عامر
- ١٩٥ وفد الرهاويين
- ١٩٥ وفد بني عامر بن صعصعة
- ١٩٦ وفد كندة
- ١٩٧ وفد زيد
- ١٩٧ وفد عبد القيس
- ١٩٧ وفد بني حنيفة
- ١٩٩ وفد طيء
- ٢٠٢ وفد شيبان
- ٢٠٢ وفد بجيلة
- ٢٠٣ وفد العنس
- ٢٠٣ وفد سعد العشيرة
- ٢٠٤ وفد جهينة
- ٢٠٤ وفد كلب
- ٢٠٤ وفد جرّم
- ٢٠٥ وفد النخع
- ٢٠٥ وفد حضرموت
- ٢٠٧ سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب
- ٢٠٨ كتاب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ
- ٢٠٨ كتابه ﷺ إلى جبلة بن الأيهم

- ٢٠٩ إرسال جرير البجلي إلى ذي الكلاع
- ٢٠٩ إسلام فروة الجذامي
- ٢١٠ حجة الوداع
- ٢٢٦ السنة الحادية عشرة
- ٢٢٦ تجهيز أسامة بن زيد إلى الشام
- ٢٢٨ أبواب مرضه ﷺ
- ٢٢٨ الباب الأول بداية المرض
- ٢٣٠ صلاة أبي بكر بالناس
- ٢٣٨ الباب الثاني وصيته لأصحابه
- ٢٤١ الباب الثالث فيما أعتق وما تصدق به
- ٢٤٢ الباب الرابع في وفاته وكتابه قبل مماته
- ٢٤٧ الباب الخامس ما جرى بعد وفاته
- ٢٤٨ الباب السادس في غسله وأكفانه
- ٢٥٧ الباب السابع في مبلغ عمره
- ٢٥٨ الباب الثامن ما رثي به من الأشعار
- ٢٦٣ الباب التاسع حديث السقيفة
- ٢٧٣ الباب العاشر في طلب آل رسول الله ﷺ الميراث
- ٢٧٧ الباب الحادي عشر في قضاء دينه ﷺ
- ٢٧٨ الباب الثاني عشر في أزواجه ﷺ
- ٢٨٩ الباب الثالث عشر في خدمه ومواليه
- ٣٠٣ الباب الرابع عشر في مراكبه
- ٣٠٦ الباب الخامس عشر في لباسه وخاتمه وأنيته
- ٣١٠ الباب السادس عشر في آلات حربه
- ٣١٢ الباب السابع عشر في عدد غزواته وسراياه
- ٣١٤ الباب الثامن عشر في كتاب الوحي
- ٣١٦ الباب التاسع عشر في مؤذنيه
- ٣١٧ الباب العشرون في عماله وحرسه
- ٣١٨ الباب الحادي والعشرون من كان يشبهه

٣١٩ الباب الثاني والعشرون في حجه وعمرته
٣٢١ الباب الثالث والعشرون في صفته <small>ﷺ</small>
٣٢٥ الباب الرابع والعشرون في محبته للطيب وحجامة
٣٢٨ الباب الخامس والعشرون في هبته وصدقته
٣٢٩ الباب السادس والعشرون ما كان يعجبه من الطعام وما يكرهه
٣٣١ الباب السابع والعشرون في أخلاقه وتواضعه
٣٣٥ الباب الثامن والعشرون في حياته ومداراته وشفقته وحلمه
٣٣٧ الباب التاسع والعشرون في مزاحه ومداعبته
٣٤٠ الباب الثلاثون في جوده وإيثاره
٣٤١ الباب الحادي والثلاثون في شجاعته
٣٤٢ الباب الثاني والثلاثون في عيشه وفقره وقصر أمله
٣٤٨ الباب الثالث والثلاثون في حزنه وعبادته
٣٥٤ الباب الرابع والثلاثون في فضله على الأنبياء
٣٥٩ الباب الخامس والثلاثون في معجزاته
٣٦٤ الباب السادس والثلاثون في فصاحته
٣٩٨ الباب السابع والثلاثون في صلاتنا عليه <small>ﷺ</small>
٤٠٠ الباب الثامن والثلاثون في حوضه وشفاعته
٤٠٦ الباب التاسع والثلاثون في أنه آخر المرسلين
٤٠٨ الباب الأربعون في أصحابه وفضلهم
٤١١ الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم